ما وراء الطبيعة

المجموعة الرابعة

التحويل الى حر الكتروني

التجميع في مجلد واحد







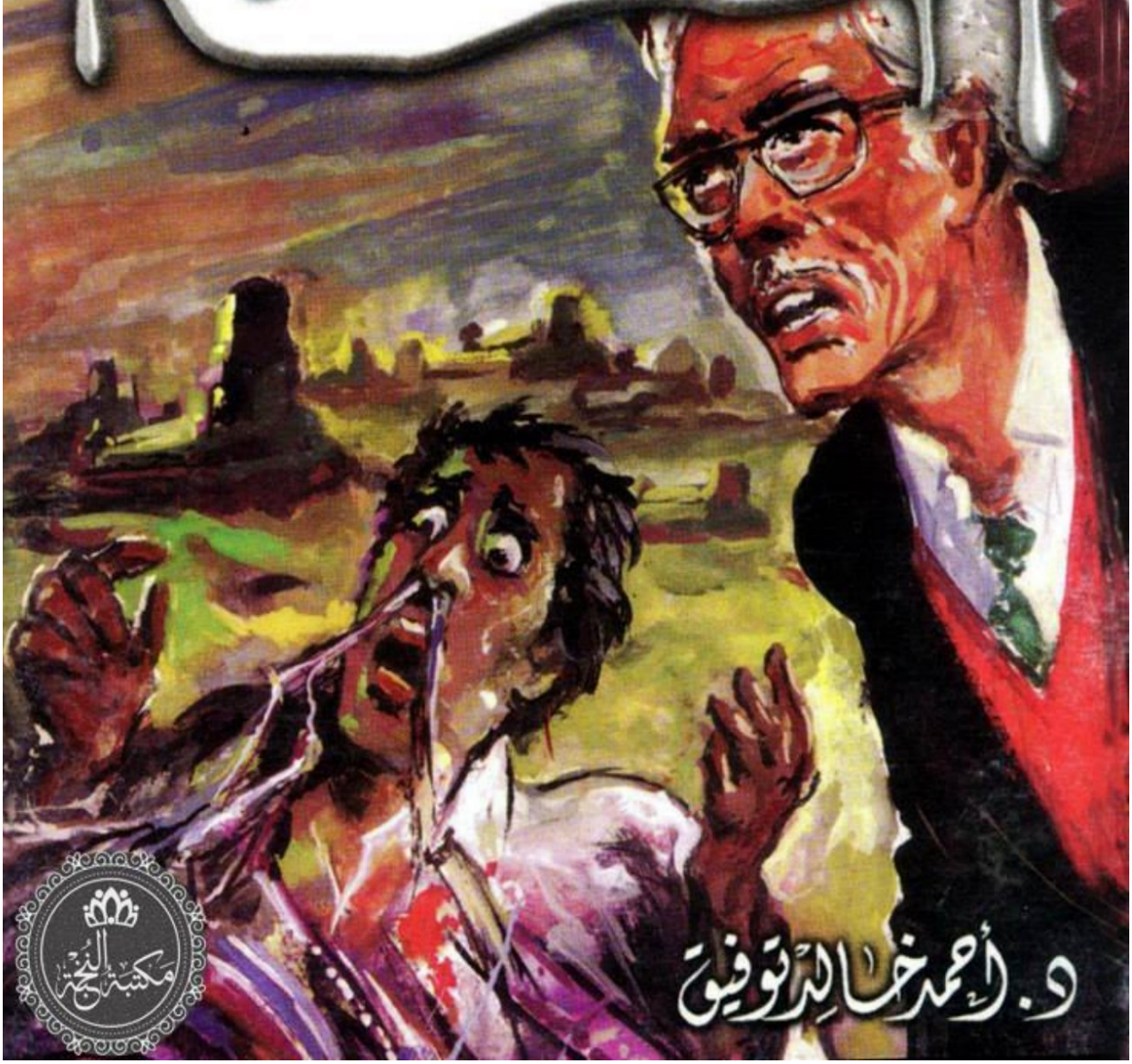
الأعداد من (61) الى (80)

روايات مصرية للجيب

61

ما وراء الطبيعة

أسطورة الشيء



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة النخبة

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



مقدمة

أحيانًا حينما ينتصر المساء، ويصمت الصاخبون، ويعزف الليل لحنه العتيد الذي لا يسمعه سواي، أجلس وحيدًا في الشرفة.. وأقول لنفسي: لم تكن حياتك سيئة إلى الحد الذي تتظاهر به..

لقد عشت خبرات ورأيت بلادًا عاش سواك وماتوا دون أن يعرفوها أو يحلموا بها..

إن حياتك تكفي سبعين شخصًا، فلماذا تشعر هذه الغصة في حلقك؟

السبب - بلا مواربة - هو أنني أخاف القبر أخاف الظلمات والبرد والوحدة.. لكن القبر لم يعد بعيدًا على الإطلاق إن هي إلا خطوة واحدة؛ وأعرف ما عرفه الملايين ممن سبقوني، وعليَّ أن أتعايش - أو أتماوت - مع هذه الحقيقة..

السبب الثاني - بلا مواربة أيضًا - أنني تمنيت دومًا لو ذقت حياة الآخرين.. أفرح لما يفرحون به وأحزن لما يحزنون له.. لكني كنت دومًا الاستثناء الذي يثبت القاعدة.. لم أتحمل ما يتحملون في أي يوم من حياتي.. هم الذين يتزوجون وينجبون ويملئون الدنيا صخبًا ويعزون بعضهم ثم يموتون..

لقد خلقت لعالم خاص بي.. ولم يؤنس وحشتي وتفردي إلا بعض أصدقاء ودودين.. فقط هم غريبو الأطوار نوعًا.. منهم من ينام ليلة في تابوت، ومن يعوي عندما يكتمل القمر، ومن يسيل كالماء لينساب من تحت الأبواب، ومن يتآكل حيًّا..

أعرفهم واحدًا واحدًا.. كما يعرف الأب الفخور أبناءه..

حسن..

كفانا استطرادًا.. أعتقد أنني لن أشعر بتحسن ما لم أحك قصة أخرى..

هل حكيت لكم أسطورة الشيء؟ لا؟ غريب هذا.. إنها جيدة وأعتقد أنها ستروق لكم..

الطقس يبرد باستمرار.. لم أعد أرحب بالبرد كما كنت أفعل في الماضي..

هناك سبب آخر مهم هو هذا الخط الأحمر الباهت في الأفق.. ربما لا ترونه لكن عيني المدربة - برغم وهنها - تراه جيدًا، وأنا أعرف أفضل من سواي معنى هذا الخط الباهت.. ربما أحكي لكم قصته يومًا ما، لكن يكفي في الوقت الحالي أن أقول إن الدخول من الشرفة سياسة حكيمة..

والآن - لحظة حتى أغلق باب الشرفة - نسمع قصة الشيء..

مرعبة؟ لا أدري.. أنا متأكد من أنها شنيعة، لكن الفوارق بين الرعب والشناعة والهول والتوجس والتقزز كبيرة جدًّا.. وبرغم هذا يخلط الجميع بين هذه المعاني..

دعونا نصغ.. كفانا كلامًا عن القصة ولنسمع القصة نفسها..

☆ ☆ ☆

1 - مقدمة لابد منها لفهم القصة..

صوت من البادية:

- «إنّه ما زال يتحرك..»

صوت في الظلام:

- «هات فأسك وعاونني..»

صوت من البادية:

- «هلموا! إنّه لن يقهرنا جميعًا..»

☆ ☆ ☆

لأسباب يطول شرحها، وجد (بكر الشناوي) نفسه يركض في هذا الممر الطويل بين الأشجار..

إنّه الليل.. لك أن تتوقع هذا.. إنّه القفر.. هذا مؤكد.. صوت الرجال آت من الخلف.. وهم بدورهم يحاولون ألا يحدثوا صخبًا، لكن مهما كتم عشرة رجال أصواتهم فإن الضوضاء آتية لا ريب..

كان يركض.. محاولًا ألا ينظر إلى الوراء..

صف الأشجار يتدافع يمينًا ويسارًا قادمًا من عالم خرافي لا تنفد أشجاره.. والعشب الندي تحت قدميه يحدث صوتًا غريبًا.. أنت تعرف ملمس ورائحة العشب الندي في ليل الصيف..

القمر مكتمل.. هذه هي القاعدة.. حين تكون مطاردًا - بفتح الراء - يسطع القمر كأنما هو يضيء خشبة مسرح، بينما لو كنت مطاردًا – بكسر الراء - يتوارى القمر خلف السحب أو ينسى أنه موجود أصلًا..

الألم يزحف ببطء من وراء عظمة القص، ليشع في الكتف اليسرى والذراع اليسرى.. والسبب معروف.. إن (بكر) في الخامسة والأربعين.. السن التي تكف فيها الشرايين التاجية عن أداء عملها كما يجب لقد سدت مجراها آلاف الكيلوجرامات من الدهن والتبغ والهموم وليالي الإحباط..

السبب الثاني هو أن الدم في عروقه لم يعد كافيًا.. أنت ترى معي الدم الذي يحتشد على القميص.. لقد صار مبتلًا يلتصق بصدره، لكنه لم يلحظ ذلك بعد.. كل المصابين بجرح خطير لا يلاحظون ذلك على الأرجح..

لقد بدأ يشعر بذلك الشعور العجيب.. رأسه أخف من اللازم، وثمّة ثقل في أفكاره.. الساقان اللينتان العصيتان على السيطرة..

هذا الطريق.. (عفاف).. سندات.. أشجار.. الرجال.. مخرج.. قادمون.. من هم القادمون؟ لقد نسى.. لكن.. و(عفاف) أيضًا.. ما دخل (عفاف) في الموضوع؟ لا يذكر.. لكنه يواصل الركض..

وخطر له خاطر مريع..

هل أنا أموت؟

استبعد الفكرة.. لقد قال له أبوه يومًا ما إن المحتضر يرى حياته كلها كشريط سينمائي لحظة الاحتضار، وهو لم ير شيئًا يبدأ العرض بعد.. كما قال له أبوه إن..

ماذا قال؟ ما دخل أبيه في الأمر؟

فقط هناك بقعة سوداء في مركز الإبصار، وهناك أطراف صفراء باهتة..

البقعة تكبر..

عرق بارد على جبينه.. على الأقل يشعر بهذا..

هل أنا أموت؟

لا.. على الأرجح لا.. لكن الاحتمال الأسوأ أن تفقد وعيك، وهذا لا يختلف عن الموت كثيرًا..

ألن تنتهي هذه الأشجار؟ كل أشجار مصر والوطن العربي.. كل أشجار إفريقيا والأمريكتين.. أشجار سهول (التايجا) وغابات (الألب).. أشجار الهند والسند.. كلها تراصت في هذا الدرب الذي لا نهاية له..

صوت الرجال يدنو أكثر..

عشرة رجال يطاردون رجلًا جريحًا على وشك فقدان الوعي..

لا يزيد الأمر على لعبة أطفال.. مسألة وقت كما يقولون..

وهنا خطرت في ذهنه الملبد بالغيوم فكرة واحدة.. من الحمق أن تظل في هذا الطريق للأبد.. لتكن لك براعة الثعلب ولترزق حسن تصرفه..

ثمّة فرجة بين الأشجار.. لِمَ لا؟

☆ ☆ ☆

هنا يجب أن أقول إن (بكر) لم يلحظ شيئًا مهمًا..

لماذا لم يلحق به الرجل وقد رأوه؟ لماذا توقفوا حيث هم؟

لماذا تبادلوا النظرات وتصلبوا في أماكنهم؟

أشياء كهذه تحدد مصيرك فيما بعد، لكنك لا تفطن لها في الوقت المناسب.. للإنصاف لنقل إنّه لم يكن يملك أية قدرة على أن يفطن لها في الوقت المناسب..

لو كان (بكر) بكامل وعيه لتساءل..

لربما شعر بالقلق..

لربما أصابه التوتر.. لربما طار قلبه شعاعًا لو رأى ما حدث بعد هذا..

لقد فر الرجال في الاتجاه المعاكس، وهم لا ينظرون إلى الوراء..

أشياء كهذه تثير الرعب لو فكرت فيها، لكن (بكر) - لحسن حظه - لم يكن محتفظًا بكامل وعيه..

☆ ☆ ☆

اندفع بين شجرتين إلى جانب الطريق..

هنا لم تعد هناك أرض تحت قدميه..

كان هناك منحدرًا وعرًا.. وانزلقت قدمه.. ومع القدم سقط جسده.. تدحرج عدة مرات، وكما هي العادة مزقت الأشواك وجهه وراحتيه.. لا بد أنّ هناك الكثير من الوحل، ونباتات عجيبة مزقها، على كل حال لم يعد من داع لمعرفة اسمها..

وفي النهاية تكوم على أرض صلبة.. وراح صدره يعلو ويهبط..

دامت الإغماءة ثلاث دقائق، لكنه شعر كأنها دهر..

فقط أفاق للحظات، وكانت هذه اللحظات كافية كي يتبين أين هو..

المقابر الساكنة ترقد ناعسة في ضوء القمر عشرات الشواهد تنتثر هنا وهناك كلمات بخط ساذج بالطبشور على كل شاهد على بعد أمتار قبر صنع شاهده من طين اللبن، وقد كتب عليه بتلك اليد الطفولية: كل نفس ذائقة الموت - قبر المرحوم (عبد السلام أحمد شرشيرة) - توفي يوم 10 شوال 1382 هجرية.. لا يعرف الاسم لكنه يبدو مناسبًا للمتوف بشدة.. هناك أسماء وصور خلقت كي يموت أصحابها، حتى لتشعر بأنهم لم يعيشوا يومًا واحدًا..

هنا قبر.. هناك قبر.. عشرات المقابر تمتد على مرمى البصر..

لكن لو كان (بكر) واعيًا لما يدور حوله، لألقى سؤالًا مهمًا: لماذا تركت المساحة التي سقط فيها خالية من المقابر؟ بالأحرى لم يكن فيها إلا قبر واحد..

كان هناك كلب من كلاب المقابر.. كلها أسود مشعث كئيب هو خليط من ذئب تعس وضبع.. هذا الكلب يجوب المكان في عجلة باحثًا عن فريسة ما.. فجأة يتوقف.. يرى المساحة الخالية التي سقط فيها (بكر).. يتصلب ينتصب الشعر على جسده، يزوم في غضب - أم في رعب؟ - ثم يتراجع وهو لا يبعد عينيه الناريتين..

(بكر) لم ير هذا الكلب، ولو رآه لارتجف رعبًا.. لا من الكلب بل من رعب الكلب..

لقد رفع (بكر) رأسه.. وعرف أين هو.. لكن المقابر في هذه المرّة لم توح بالموت، بل أوحت له بالنجاة.. إنّه بعيد عن مطارديه.. سوف يستجمع قواه.. فقط يريد دقائق أخرى من الـ...

من السبات حيث هو..

☆ ☆ ☆

الدماء كانت تسيل بلا توقف..

لو ترك وشأنه حيث هو لغاضت الحياة من عروقه خلال ساعتين..

كانت الطعنة نافذة، وقد هتكت الرئة اليسرى.. لكن (بكر) لا يعرف هذا لحسن حظه..

الدماء بدأت تتجمع على التربة.. بدأت تتخلل طبقات التربة..

ثم راحت قطرات من السائل الدافئ تصل إلى الأعماق..

إلى الشيء الراقد في القبر..

من بين كل المواضع في القرية، ثمّة أحمق لم يختر سوى هذا المكان كي يفقد الوعي فيه.. ومن بين كل النشاطات الفسيولوجية لم يجد نشاطًا أفضل من النزف..

يمكننا الآن أن نرى بعين الخيال كيف بدأ ذلك الشيء يتحرك.. لقد شعر بالمذاق المميز الصدئ قليلًا.. عرفه على الفور بعد كل هذه الأعوام.. بدأ يفور.. يرتج..

الآن هناك أشياء تشبه الأهداب تخرج منه.. تتسلل بين ثنيات التربة.. لا أعرف الكثير عن ميكانيكا التربة، لكن هناك نوعًا من الخلخلة يتم بقوّة..

تشق الأهداب طريقها إلى السطح..

لقد شعر بقرب الجسد..

الآن لم تعد قوة على الأرض قادرة على إنقاذ هذا النائم الذي لا يعرف ما يحل به..

هي ذي الأهداب استطالت حتى صارت أقرب إلى ممسات الإخطبوط.. إنها تتسلل.. تتحسس الجسد الراقد فوق القبر تشعر به.. تمتص قطرات الدم التي تبلل التربة، ثم تتحسس الوجه.. إنها تفتش عن هدف محدد.. فتحتا الأنف.. أين هما؟

هاهي ذي الأهداب قد وجدت طريقها إلى الأنف.. إنها تخترقه..

لو رأيت المشهد فلن تفهمه.. فقط سيخيل إليك أن طاقتي أنف الرجل فاقد الوعي يخرج منهما سائل هلامي غريب.. الحقيقة أننا نتحدث عن الدخول لا الخروج..

الآن لا بد أن الأهداب اخترقت العظام الشبيهة بالمصفاة ethnoid التي تفصل الأنف عن قاع المخ.. ما الذي يجري هناك؟ لا أحد يعرف..

ليس بيدنا أن نفعل شيئًا.. إن الرجل لن يسمع صراخنا.. لهذا نتراجع بالكاميرا - على طريقة (هتشكوك Hitchcock) الشهيرة - إلى الوراء.. إلى الوراء..

إلى مكان آمن بعيدًا عن هذا كله..

ولننتظر.

☆ ☆ ☆

2 - مقدمة لابد منها لفهم القصة..

صوت من الظلام:

- «إنّه يتحرك من جديد.. أي شيطان هذا؟»

صوت مبحوح:

- «فلنحاول مرّة أخرى.. لن نفقد إلا حياتنا..»

صوت من البادية:

- «قد نفقد ما هو أكثر..»

☆ ☆ ☆

(بكر) يبدأ يومًا جديدًا..

حينما يدق جرس المنبه، وحينما ينقطع خيط الحلم بمقص الرقيب، وحينما يخترق الرنين خلايا مخك لينفض خلية خلية، عندها تتمنى لو أنك تحلم.. لكنّها الحقيقة..

يبقى في الفراش بضع دقائق.. تدخل زوجته لتكرر من جديد:

- «(بكر)! أنت طلبت ألا أتركك نائمًا..»

لأنهّا تعرف أنه يغلق المنبه أكثر من خمس مرات، بعد ما يعيد ضبطه في كلّ مرّة.. لهذا تتحول مواعيد الثامنة صباحًا إلى العاشرة..

لماذا يبدو صوتها أخنف غريبًا في هذه الساعة من الصباح؟ لقد قاطعت حلمًا ثانيًا..

ينهض.. يتربع في الفراش يتأمل أصابع قدميه، ثم يترنح نحو الحمام..

نفس الوجه يرمقه في المرآة.. ذات الوجه ولم يستجد شيء.. إنّه في الخامسة والأربعين، لكن وجهه من الطراز الذي لا يشيخ أبدًا.. ما زالت تلك النظرة الصبيانية العابثة قليلًا من عينين راغبتين في المرح.. صحيح أن مقدمة شعره تتراجع للخلف أكثر فأكثر، وأن أثر العام الماضي

ترك علامات لا تخطئها العين، لكن وجهه في النهاية هو وجهه.. سوف تندهش لو قيل لك إنِّه في هذه السن..

الزوجة تتأهب للخروج.. تحمل حذاءيها لتلبسهما على الباب كما اعتادت..

تقف على باب الحمام، وتقول له متعجلة:

- «سأعود في الثانية لو وجدت مواصلات.. لا تنس (دينا) في المدرسة.. سلام..»

وتتساءل في سرها: ما الذي يرغم إنسانًا على الاستيقاظ في ساعة مبكرة كهذه إذا لم يكن مرتبطًا بعمل؟ لو كان الأمر بيدها لظلت في الفراش حتى منتصف النهار، لكن من المجنون الذي يزعم أنه فهم (بكر)؟

يسمع باب الشقة ينفتح ثم يغلق..

هو الآن وحده..

روتين الحياة المعتاد منذ عام.. منذ طرد من عمله أو تركه.. منذ أقيل أو استقال.. لا يهم. هذه ألفاظ نختارها كي لا يبدو موقفنا محرجًا أمام الآخرين.. كل ما يعرفه هو أن الأوضاع تبدلت من حينها.. أكثر الوقت هو في البيت وهي في العمل.. وقف أمام المرآة ونزع منامته..

الجرح ما زال على صدره.. ندبة قبيحة لا يُمكنك أن تتأملها مستريحًا، ليست طويلة لكنّها بالتأكيد غائرة.. وهو لا يعرف لماذا ولا كيف شفيت..

ربما في جسده قدرات يجهل عنها كل شيء عنها.. إنِّه يسمع عن نجمة البحر التي يبتر لها طرف فتستكمله، وعن السحلية التي تستنبت ذيلًا جديدًا.. فهل لديه نوع من هذه القدرات الكامنة؟

☆ ☆ ☆

الظلام والبرد.. رباه! كل هذا الظلام، كل هذا البرد!

كيف جئت هنا؟ ماذا أتى بي؟ ماذا حدث؟

ثم أدرك أنه وسط المقابر، ومن جديد رأى شاهد القبر في ضوء القمر، وعليه الكتابة بخط طفولي (عبد السلام أحمد شرشيرة) - توفي يوم 10 شوال 1382 هجرية.. استعاد الشعور القديم حين يرى ذات اللقطة في حفلة الفيلم التالية.. لقد جئت في هذا الجزء..

الآن وقد عرف أين هو، راح يتحسس قميصه.. دماء! دماء رطبة.. أنا جريح! كيف لم أفطن لهذا؟

لكن الجرح لا ينزف.. لا يوجد جرح على الإطلاق تحت القميص، فهل هذا الدم دمه أم لا؟

المقابر! الآن صار على استعداد لأن يشعر بالخوف.. كان الخوف من الموتى ترفًا لا يملكه منذ ساعات، لكنه الآن من حقه.. أن يجد المرء نفسه وحيدًا في المقابر ليلًا.. ليس هذا أجمل شعور في العالم..

نهض وحاول أن يدور حول الساحة المرعبة..

يبتعد.. ينظر إلى الأفق..

هذا اللون الأرجواني هناك.. ليس هذا هو الشفق القطبي Aurora لسبب بسيط هو أننا لسنا في (النرويج).. هذا هو الشرق، والنهار آت لا ريب فيه..

يبدو أن معاناته قد انتهت..

فيما بعد سوف يلقي أسئلة وسوف يعرف السبب في مجيئه هنا وما جرى له، أمّا الآن فعليه أن ينعم بالمسير في النور ودفء الشمس، وقد كاد ينساهما..

☆ ☆ ☆

على مائدة الطعام جلس يتناول إفطاره..

إنه ذلك النهم غير المفهوم.. يأكل كأنما هذه آخر أكلة في حياته.. ولسبب مالم يزدد في الوزن قط.. زوجته لاحظت هذا أكثر من مرة، وفسرت الأمر في سرها بأنه اضطراب عاطفي لرجل يلعب دور العاطل برغم إرادته..

وكانت زوجته (عفاف) نموذجًا فريدًا من نوعه.. المرأة التي تشعر طيلة الوقت بأن هناك خدعة ما.. الآخرون يحاولون خداعها.. كل الباعة لصوص وكل طارقى الباب نصابون.. وكل الأفلام مشينة وكل المسلسلات تافهة، وكل الكتب لا تقول شيئًا.. كل الزوجات الأخريات سافلات وكل الأزواج خائنون.. كل أصدقائه أوغاد وكل صديقاتها ثرثارات.. الخلاصة أنها وصلت إلى السلام بشكل تام مع كل غوامض الكون.. كل شيء أسوأ ما يمكن أو تكمن وراءه خدعة ما..

وكانت عبارتها الخالدة هي:

- «لم يعد الناس كما كانوا..»

لا تعرف أبدًا متى كان الناس (كما كانوا).. فلابد أنها كانت تعيش في العصر الباليوزي Paleozoic، حين كان الناس على خلق ولا يخدعون أحدًا.. لسبب بسيط هو أنه لم يكن هناك ناس في ذلك العصر..

لهذا - حينما لاحظت نهمه الشديد للطعام - ظلت تنظر له في شك باحثة عن خدعة ما.. قالت في ريبة:

- «أراهن على أنك...»

وبحثت عن تهمة معينة تلصقها به فلم تجد.. هل النهم في الطعام تهمة يعاقب عليها القانون؟ هكذا فضلت الصمت ثم قررت أن الأمر لا يتعدى اضطرابًا نفسيًا ما..

أمّا هو فلم يكن يعرف جوابًا لهذا لكن الطعام أضاف الحياته لذة بريئة لا شك فيها.. قصة حب انعقدت بينه وكل طبق فول وكل بيضة مسلوقة وكل قطعة لحم يجدها أمامه.. صحيح أن نوعية الطعام - بعد عام من البطالة - سوف تتدنى.. لكن كان لديه في المصرف رصيد لا بأس به، وقد صمم على ألا تتجاوز مصاريف البيت مائة جنيه شهريًا بأي ثمن، وهو مبلغ جسيم بمقاييس تلك الأيام.. معنى هذا أن أمامه وقتًا لا بأس به قبل أن تنفد مدخراته وهي لحظة يحاول عدم التفكير فيها..

لقد قسم في ذهنه ما لديه في المصرف إلى حزم تتكون كل حزمة من مائة جنيه، ورسمها على شكل خطوط على جدار الشرفة.. في نهاية كل شهر كان يدخل الشرفة ويشطب أحد الخطوط.. محاولًا ألا يعد الخطوط الباقية..

هكذا فتح الجريدة، وراح يجري بعينيه على العناوين بينما هو لا يكف عن تقليب طبق الفول باللقمة التي بين أصابعه، «كل الجرائد ما بها شيء جديد».. قالها (نزار قباني) وهو قول صادق فعلًا..

من أين جاء بالمال؟ لا يذكر ولا يعرف.. لم يكن ثريًا ولم يدخر مليمًا من راتبه في شركة التأمين حين كان يعمل بها.. لكنه فطن فجأة إلى أن لديه حسابًا في المصرف وأنه الشيء الوحيد الذي يجعله لا يعيش عالة على زوجته.. ما زالت قطع اللحم وأرغفة الخبز على المائدة من جيبه هو.. بينما راتبها لا يكفي إلا مواصلاتها..

من العسير أن تبدأ كل شيء من الصفر في سن الخامسة والأربعين، لكنّها الحقيقة..

ولت حماسة الشباب وقوة الشباب.. ولم تأت حكمة الكهولة ولا استقرارها المادي..

رباه! إنّه في مأزق..

☆ ☆ ☆

لماذا لم يجد عملًا طيلة هذه الفترة؟

الأمر يندرج تحت مقولتين شهيرتين:

الأولى هي بيت شعر عبقري شرح فيه شاعر عربي قبيح الوجه السبب الذي جعله يحجم عن الزواج حتى تقدم به السن (فأما الحسان فيأبيننني.. وأما القباح فأأبى أنا).. شركات التأمين القوية حسنة السمعة لا تقبل به، وشركات التأمين الحقيرة ذات السمعة الملوثة لا يقبل هو بها بعد هذا العمر..

المقولة الثانية قالها (جروشو ماركس Groucho Marx) الممثل الكوميدي الأمريكي الشهير: أنا أرفض الانضمام لجمعية تقبل مثلي عضوًا فيها!

هو ليس بارعًا وليس حسن السمعة إلى هذا الحد وطرده من الشركة لا يخلو من اتهامات مسيئة لشرفه المالي.. شركة التأمين التي تقبله مع هذه السمعة - لا توجد أسرار في عالم شركات التأمين - لن تكون أبدًا شركة راقية أو محترمة أو ناجحة.. وهو يأبى أن يعمل في شركة غير راقية أو محترمة أو ناجحة!

الخلاصة: سيبقى كما هو حتى إشعار آخر..

بحذر جرب بعض النشاطات في العام الماضي: تجارة الماشية.. تجارة (الشنطة) التي كانت رائجة في السبعينات.. مشروع صغير للشطائر.. وفي النهاية تعلم الدرس غالبًا: هذه نشاطات لايمكن تعلمها متأخرًا، ولا توجد مدارس تلقنها.. إنها كالشعر والموسيقا.. إما أن تولد تاجرًا وإلا لن تكونه أبدًا..

الخلاصة: سيبقى كما هو حتى إشعار آخر..

في هذه اللحظة شعر - وهو يلوك لقمة جافة بعض الشيء - بألم عابر.. مد يده إلى فمه وتحسس.. يقول الإنجليز: السماء لا تمطر أبدًا بل تصب السيول.. ويقول العرب: المصائب لا تأتي فرادى.. لقد فقد سنًا مهمّة من أسنانه..

فتح كفه وراح ينظر إلى السن الدامية.. وتذكر الطقوس التي كانت أمّه تمارسها في طفولته في ظروف مماثلة، و(يا شمس يا شموسة.. خدي سنة الـ...).. وما بعد (الـ...) هذه كان يتوقف على مزاج أمّه.. أحيانًا كان هو (الحمار) وأحيانًا (الثور) وأحيانًا (الجاموسة)..

لسبب ما شعر بحنين طفولي دفعه إلى أن ينهض ويتجه إلى الحمام.. الصيدلية العتيقة التي تحولت إلى أي شيء لا علاقة له بالدواء.. مخزن كرار يحوي خيوطًا ودبابيس وجوارب قديمة وأنابيب معجون أسنان فارغة.. فتح علبة فارغة وأسقط فيها السن، وتأمل وجهه في المرآة وابتسم..

☆ ☆ ☆

3 - مقدمة لابد منها لفهم القصة..

يجب أن نكون عادلين..

قد يحلو لبعضكم أن يعتقد أن (بكر) كان يعرف الحقيقة من وقت طويل، لكن الحقيقة هي أنه لم يتبين الأمر إلا بعد شهر وبعد ما فقد سنًا أخرى..

إن فقد سنين في شهر واحد أمر غريب، وقد أخلد للنوم في تلك الليلة وهو يفكر في الأمر..

إنّه يقف هناك وحيدًا.. هناك تابوت مفتوح، وهناك من يقول له أن يرقد فيه.. من يقول؟ لا يعرف لكنه يفهم الأمر جيدًا.. يتمدد في التابوت لكنه يشعر خوفًا.. هناك جراحة غريبة تُجرى على جسده.. جراحة في تابوت؟ لا يعرف السبب.. يبدو أنّ هذا يجعل الأمور أسهل في حالة فشلها.. لن يكون هناك نقل إلى المشرحة وإجراءات معقدة.. (سعد زغلول) بشاربه الشهير وطربوشه يقف هناك ويقول شيئًا عن الجراحات الفاشلة.. (ماوتسي تونج) يوافق في ضيق.. وعن بعد تتحرك السفينة (المحروسة) حاملة الملك (فاروق) إلى منفاه، فلا يعترض (بشارة واكيم) على شيء.. هذا غريب..

يخرجون شيئًا غريبًا من بطنه.. شيئًا ينبض.. يتشعب.. إنه يصرخ، يحاول أن يمنعهم لكنهم يغلقون التابوت.. ويفهم أن الجراحة فشلت وأنه مات.. الظلام يسود المكان..

ثم.. صحا غارقًا في العرق.. بعض الوقت حتى فهم إنّه هنا وأنّ هذا كابوس.. لم يكن خبيرًا في تفسير الأحلام، لكنه عرف على الفور أن الكابوس يفصح عن شيئين: رعب التحلل الجسدي.. لقد نام وهو يفكر في أسنانه المفقودة ورعب السرطان.. هذا الذي أخرجوه من جسده لا يمكن أن يرمز لشيءٍ إلا للسرطان..

- «هل أنت بخير؟»

قالتها الزوجة بصوت ناعس دون أن تستدير في رقدتها ودون أن ترفع رأسها عن الوسادة، فقال لا لاهثًا:

- «كابوس..»

- «نصحتك ألا تأكل لحم الضأن في العشاء.. هل سمعت من قبل عن رجل عاقل يأكل الضأن في العشاء أو أي وقت؟»

الحقيقة أن العشاء التقليدي المكون من الجبن أو البيض لم يعد يكفي إشباع جوعه.. إن احتياجاته الغذائية تتزايد بلا توقف.. وفي هذه الليلة بحث عن شيء مناسب في الثلاجة فوجد بقايا الغداء.. صينية من البطاطس مع الحم الضأن..لقد استمتع بوقته، لكنه يدفع الثمن غاليًا كأية لذة في الحياة..

نهض من الفراش شاعرًا بذلك الشعور الممض.. مثانة مليئة وعطش قاتل وعرق يتخلل كل شيء..

- «إلى أين؟»

- «الحمام.. المطبخ.. ربما الشرفة..»

دخل الحمام فتخلص من العذاب الوقتي، ثم اتجه إلى الحوض يغسل وجهه وهو يتأمله في المرآة..

هنا خطر له أن يفتح الصيدلية فيلقي نظرة على السنتين.. لقد ألقى السن الأخيرة دون أن ينظر داخل العلبة، وقد خطر له أن ينظر إلى هذه الأجزاء التي فقدها للأبد..

غريب هذا..

إن السن القديمة التي فقدها أثناء الإفطار لم تعد سنًا..

إنها أقرب إلى جسم زغبي بحجم إصبع اليد.. بمزيد من التدقيق أدرك أن السن موجودة، لكنها كبرت في الحجم، وبرزت منها شعيرات رقيقة شفافة في كل اتجاه كأنها تحولت إلى فرشاة..

لم يفهم.. شعر باشمئزاز ودهشة، ثم قال لنفسه:

«فطريات.. لا بد أنّ بعض الفطريات نمت عليها..»

لكنه كان يعرف ما هو أفضل..

الفطريات لا تجعل السن تنمو.. ثم من سمع عن سن أصيبت بفطريات؟

خطر له أن يتخلص منها، ثم فضل أن يتركها ويعود للنوم..

هذه المرّة لم يزره (ماوتسي تونج) أو الملك (فاروق)..

كان نومًا هادئًا حتى دوى صوت المنبه..

☆ ☆ ☆

لماذا يحرص على الاستيقاظ مبكرًا؟

لا يعرف.. هي عادة قديمة منذ كان يذهب للعمل صباحًا، واليوم ظلت نفس العادة معه، لكنه كان يحبّ شيئًا آخر.. أن يتلذذ بتلك الساعات التي يبقى فيها وحده في البيت.. (دينا) في المدرسة و(عفاف) في العمل.. البيت كله ملكه الخاص.. يصغ للمذياع.. يرقد في الصالة.. يفتح جهاز التلفزيون.. يقرأ الجريدة.. يكلم نفسه بصوت عالٍ، لا أحد يلومه أو يتهمه بالخبال..

وفي الواحدة بعد الظهر يخرج ليأتي بالطفلة من المدرسة..

إن يومه الحقيقي يبدأ بعد نوم العصر.. هنا فقط يخرج ليزور صديقًا أو اثنين.. يبحث عن عمل جديد.. ثم يعود للبيت في العاشرة مساء ليتناول العشاء ويشاهد التلفزيون بعض الوقت، بينما تصر زوجته على أن (التلفزيون لم يعد كما كان) كأن (مصر) تعرف التلفزيون من القرن الثامن عشر..

هكذا بدأ يومه كالعادة بالإفطار..

شعر بذلك الألم الممض فدخل الحمام.. كان من محترفي تمرير حصوات الكلى Stone passers ويعرف جيدًا تلك الأعراض، حين تجد حصوة صغيرة طريقها إلى المثانة توطئة لأن تغادر جسده.. كان يعرف هذه الأعراض وقد توقعها منذ أسبوع.. إنها تلك اللذة التي تعقب الألم أو الألم الذي تعرف أن بعده لذة.. لذة الخلاص..

هكذا تناول الحصوة المتكلسة... كانت في حجم حبة الفول شديدة الخشونة.. النشوة الحقيقية تأتي من تصوّر أنّ هذا الشيء المريع كان في جسدك وقد خرج منه..

يعرف بقية القصة.. سوف يعاني بعض الآلام في التبول وربما ترتفع حرارته قليلًا في المساء.. حتى علاج هذا يعرفه.. بعض الأسبرين وأقراص السلفا.. وسوف ينتهي الأمر سريعًا..

حمل الحصوة إلى الصيدلية ووضعها في العلبة التي تحتوي على بقاياه.. إنها العاشرة في حياته..

وهو إنجاز بالنسبة لرجل في الخامسة والأربعين من العمر..

ولكن..

لحظة من فضلك!

السن الأخرى التي فقدها أمس قد أصابتها ذات الأعراض واكتست بذات الزغب!

ماذا يحدث هنا؟

شاعر بدوار، لا بد أنه مصاب بمرض عضال لا يعرف كنهه.. لا يوجد تفسير آخر.. السرطان.. لقد حلم به.. لا شك في هذا.. فلابد أن عقله الباطن يعرف عن جسده ما هو أكثر..

☆ ☆ ☆

مر شهر آخر..

لقد وجد (بكر) عملًا كمحاسب في شركة يملكها أحد أصدقائه.. ليس هذا بالعمل الممتع أو المجزي.. ليس بالعمل الذي تنتظره عامًا كاملًا، لكنه كان بحاجة إلى أن يبتعد عن ذاته بعض الوقت.. الوحدة والهواجس كلها تعذبه، فما أن ينغلق عليه باب الشقة وحده، حتى يصحو ذلك الغول الذي يلتهم أعصابه..

أشياء كثيرة تغيرت في ذلك الشهر.. عرف أشياء كثيرة لكن علامات الاستفهام تزايدت.. كتب (الميتافيزيقا Metaphysics) تخبرك بأشياء كثيرة، عن العلامات التي يجدونها على القبور وآثار الأقدام القادمة من الفضاء وجلسات تحضير الأرواح، ولكن ما الذي تخرج به في النهاية؟ لا شيء.. المزيد من الأسئلة.. «هناك أمور غريبة تحدث».. هذا هو كل شيء..

لقد عرف (بكر) الكثير لكنه لم يعرف شيئًا على الإطلاق، ولم يظفر بتفسير مريح..

فقط قال له الأطباء - الذين لم يروا كل شيء - إن جسده سليم.. لا أحد يضمن له ألا يُصاب بالسرطان غدًا، لكنه الآن.. في هذه اللحظة بعينها.. خالٍ من أي سرطان في جسده..

كان يخشى أن يتسلق إلى تلك (الصندرة) الصغيرة فوق الحمام.. والسبب هو أنه نقل إليها محتويات الصيدلية حين صار السر غير قابل للكتمان أكثر من هذا.. لكنه اليوم تجاسر وتسلق إلى هناك..

ورأى..

هكذا قرر أن الوقت قد حان كي ينقل هذه الأشياء بعيدًا.. والحل سهل نوعًا.. إن جاره القديم قد انتقل ليعيش في مدينة (نصر)، وهو يرغب في أن يبيع شقته.. هناك سماسرة كثيرون يعرفون المكان، لهذا ترك معه مفتاح الشقة كي يفتحها لمن يريد رؤيتها في أي وقت، وهو ما لم يكن يحدث كثيرًا.. هذه مسألة ثقة نمت بين الجارين مع الوقت، وإن كانت (عفاف) تؤمن أن في الأمر مكيدة ما.. لا أحد في هذا الزمن يترك مفتاح شقته مع جاره.. وقد حاول إقناعها بأنه لو كانت هناك مكيدة ما، فهو - (بكر) - الجدير بها.. يمكنه أن يستولى على الشقة إذا شاء.. إن جاره أسلمة عنقه ببساطة.. لكن الزوجة كانت متأكدة من أن زوجها أحمق وجارها وغد والسماسرة نصابون.. وأن لعبة قذرة تدور هنالك..

- «أنت تتصرف مع كل الناس بحسن نية، ولن تلبث أن تدفع الثمن غاليًا..»

ثم تمصمص بشفتيها متصعبة وتقول:

- «أمي قالت لي إنك تبدو أحمق، ولم أصدقها ألا رحمها الله.. لا بد أنها تنظر إلينا الآن ساخرة..»

كان الوقت قد فات لإفهام هذه المرأة أن الناس لديهم مشاغل أخرى غير خداعها..

المهم أن أوان الاستفادة من هذه الشقة قد حان، لذا انتهز فرصة ذهابها للعمل، وفتح باب الشقة ونقل إليها كل تلك الأشياء الرهيبة في (الصندرة)..

كان يعرف أن أوان التصرف وحيدًا قد فات.. أوان الاستعانة بالأصدقاء قد فات..

يجب أن يجد من يفهم هذه الأمور.. يجد شخصًا يصغي.. ولا يسخر.. وربما يساعد..

كان هذا حين جلس جوار المذياع ذات ليلة فسمع حلقة من برنامج (بعد منتصف الليل)..

اسم ضيف الحلقة الدائم هو (رفعت).. (رفعت إسماعيل).. إنه طبيب ذو خبرة بعالم ما وراء الطبيعة، وهو بهذا يجمع بين الطب والميتافيزيقا.. وهما وجهان لمشكلة (بكر) الحالية..

على هامش جريدة وجدها أمامه دون أرقام الهاتف..

ترى ماذا يملكه العجوز (رفعت إسماعيل) كي يقدمه؟

☆ ☆ ☆

4 - مقدمة لابد منها لفهم القصة..

بدأ دوري في القصة في نهار ربيعي كئيب.. أنتم تعرفون تأثير الربيع على أعصابي، وتعرفون أنني كنت أقضي الوقت الذي يتبادل فيه العشاق الغزل، في وضع قطرتي العين والأنف.. لأن كل حبوب اللقاح في الجو تحيل جهاز المناعي إلى مستشفى مجانين..

كنت في المستشفى وقد فرغت من جولة العنابر إياها وجلست أحاول أن أسدد القطارة إلى عيني.. ربما لهذا يتزوج الناس كي يجدوا شخصًا آخر يضع لهم قطرة العين.. أستعين بطبيب شاب؟ لا أدري.. ما زلت أجد أن علاقة الرئيس بالمرءوس ستكون غريبة نوعًا لو تضمنت وضع القطرة في العين..

سمعت دقات على الباب.. ثم دخل (بكر).. لقد وصفته من قبل فلن أزيد على ما قلت إلا أنه يبدو في أسوأ حال ممكن..

- «د. (رفعت)؟؟ كنت قد اتصلت بك أمس..»

هكذا وجدت فرصة سانحة.. أكره تحطيم حدود الكلفة إلى هذا الحد، لكني فشلت في اقتناص عيني مفتوحة، وكنت على استعداد لأي شيء.. لهذا طلبت منه أن يضع لي قطرتين في كل عين..

كما تتوقع لم يدر ما يقول أو يفعل.. كان محرجًا بشدة وراحت يده ترتجف، حتى كاد يفقأ عيني.. أخيرًا نجح وسال السائل البارد يغمر كرتي عيني وتسلل إلى أنفي أخرجت منديلي ورحت أتمخط بحرية واستمتاع..

في النهاية أدركت أنني وضعت على جهازه العصبي ما لا يطيق فدعوته إلى الجلوس..

قال لي في حرص وهو يتحاشى عيني:

- «لا أعرف إن كان بوسعك أن تساعدني، لكن الكتمان في حد ذاته مرهق.. لعل الكلام نصف العلاج كما يقولون..»

قلت له وأنا أتفحصه بعناية:

- «من هذه الناحية كن مطمئنًا.. إنني أذنان تمشيان على قدمين..»

هكذا راح يحكي لي قصته وهو يحك أرنبة أنفه..

كان الجزء الذي بدأ به هو منذ عاد إلى داره.. أي أنه لم يحك لي شيئًا عن قصة فقدان الوعي في المقابر.. وهكذا بدا لي ما يعانيه كأنما جاء من سماء صافية..

كان في حالة رعب ولا ألومه كثيرًا.. كما قلت على لسان المخرج الكندي (كرونبرج Kronenberg) - الذي يطلقون عليه (ملك الرعب البيولوجي) - فإن رعب التحلل الجسدي هو أشنع أنواع الرعب على الإطلاق.. رعب أن تتبدل أجسادنا التي عرفناها جيدًا وتذوب.. من بين كل الأمراض يتمتع (الجذام Leprosy) بسمعة سيئة لأنّه يعني تساقط الأطراف والأنف.. رعب التحلل الجسدي يطاردنا طيلة الوقت في صورة الشيخوخة..

هذا الرجل يفقد أجزاء من جسده.. وهذه الأجزاء تتصرف بشكل غريب حقًّا لا ألومه على شيء..

كنت قد بدأت أتحمس.. وأنا من النادر أن أتحمس الشيء..

هكذا وضعت أوراقي في درج المكتب، وأعلنت أنني راغب بحق في أن نذهب لنحقق في الموضوع.. لم يكن على استعداد لهذا الحماس المفاجئ، لكني كنت مصرًّا كالخرتيت..

وسرعان ما كنا نتّجه إلى بيته..

☆ ☆ ☆

على باب شقته توقف.. وكنت أنا أمارس واجب اللهاث المعتاد بانتظار العثور على مقعد..

هه قال لي وهو يدخل:

- «لحظة واحدة.. سأعود حالًا..»

توارى بضع دقائق، وأنا أحاول جاهدًا استجماع أنفاسي.. ثم عاد لي حاملًا مفتاحًا مشهورًا في يده وقال وهو يتجاوزني:

- «ليس هنا.. أنت تعرف ذلك.. سيبدو الأمر مريبًا لو...»

لم أفهم شيئًا لكنه اتجه إلى الشقة المقابلة وأولج فيها مفتاحًا ثم آخر.. عدة أقفال تنفتح، ثم فتح الباب..

الرائحة المميزة للشقق المغلقة من فترة طويلة تطالعني ورأيته قد دخل فدخلت خلفه..

على قدر ما تبين لي كانت الشقة خالية تمامًا، ماعدا أريكة عتيقة ملقاة في ركن الصالة وبضعة صناديق ورقية يبدو أنّ بعض محتويات الشقة تم تكديسها فيها.. هناك ورق حائط عتيق يعود لفترة

ازدهار فن (البوب Pop).. كل شيء في الحياة كان مشجرًا زاهي الألوان في تلك الفترة.. القمصان وورق الحائط والسجاجيد..

مشيت وراءه فإذا لخطواتي صدى غير محبب الإطلاق.. سعلت فكان لسعالي صدىً كريه..

قال وهو يشير إلى ممر جانبي ضيق:

- «إنّه الحمام.. أنت تعرف أن..»

طيلة الوقت يفترض أني أعرف أن.. كما أنه لا يكمل أية جملة حتى نهايتها..

مشيت وراءه إلى الحمام.. ونظرت إلى حيث وقف أمام المغطس، وأشار إلى شيء في داخله..

هنا تصلب الشعر الباقي على جانبي رأسي..

☆ ☆ ☆

كانت هناك عدة أشياء في المغطس الجاف..

بعض هذه الأشياء كان بحجم رأسك - لو كنت فتاة دقيقة الحجم - وبعضها بحجم البطيخة المكتنزة.. الشيء الذي يميزها جميعًا هو أنها بشعة المنظر.. يوجد مركز أبيض يمكن أن تراه بشيء من العسر وسط زغب كثيف يحيط به.. لو شئت أن تصوّر المنظر بدقة فاترك برتقالة تتعفن بضعة أيام، ولسوف تجد الزغب يحيط بها..

أهداب دقيقة.. أهداب دقيقة تخرج من كل صوب وفي كل اتجاه.. أهداب يغلب عليها اللون الرمادي، لكنك تتبين بسهولة ظلال اللون الأزرق أو الأخضر..

قال (بكر) وهو يشير إلى شيء داخل فمه:

- «سوف تعد أربع أسنان سقطت في فترة وجيزة.. أمّا هذا فحصوة الكلى..»

لم أدر.. هل أتجاسر فألمس هذه الأشياء أم أنني أجازف بالتقاط عدوى ما.. عدوى؟ لا أعرف عدوى تسبب شيئًا كهذا، ولم أسمع عنها.. لكن هناك مرة أولى دائمًا.. ربما أكون أول أحمق يلمس هذه البكتيريا الجديدة التي ستصفها كتب الطب بالتفصيل بعد عشرين عامًا..

قلت له وأنا أحك رأسي:

- «حقًّا لا أعرف كنه هذا.. إنّه غريب.. ولأنه غريب هو مفزع..»

- «ليس هذا كل شيء..»

ومد يده إلى جوار المغطس.. كانت هناك عصا مكنسة ملقاة على الأرض.. قبض عليها ومد يده بحذر إلى داخل المغطس.. المنظر الذي ذكرني بحارس حديقة الحيوان حين يدسّ شريحة من اللحم بعصاه في فم أسد غضوب..

هنا.. تحركت الأهداب!

تحركت بقوّة بحركة متموجة تذكرني بحركة أقدام الأخطبوط..

صحت وأنا أتراجع للوراء:

- «هذا كائن حي!!»

قال في غيظ:

- «لم آت بك إلى هنا لتصف لي ما أراه.. طلبت رأيك لا وصف ما تراه بأسلوبك البليغ..»

قلت في غيظ مماثل:

- «لا تتوقع مني أن أنظر إلى المشهد بلامبالاة، ثم أقول: (آه.. أوه.. هذه حالة سرباسيا واضحة.. لقد رأيتها عشرين مرة من قبل..).. إن هذا الذي أراه لم يمرّ بي قط.. لابد من فترة أستجمع بها خواطري..»

مد العصا وعابث جسمًا آخر، فانتفض..

هذه - على قدر علمي - أغرب حديقة حيوان على وجه الأرض..

أضاف وهو يعيد العصا لمكانها:

- «الطريف هنا هو أنها تنمو باستمرار.. قارن بين حجم السن وحجم هذا الشيء.. الأمر يتعلق بمتوالية هندسية لا عددية»

كنت أنا على وشك الإصابة بنزف مخي.. كل هذا عجيب، لكن من الواضح أنه أخذ أكثر من وقته ليحلل الموقف، هو يعرف طباع هذا الشيء جيدًا..

همس وهو يتراجع عن المغطس.. للمرة الأولى أستطيع أن أعد أسنانه الناقصة:

- «هل ثمّة مثل معين في ذهنك عدا حالة (السربسيا) هذه؟»

فكرت حينا، ثم قلت:

- «الأمر شبيه إلى حدٍ ما بأخذ نسيج من جسد حي واستزراعه.. هناك خط نسيجي Cell Line شهير اسمه HELA.. عبارة عن سرطان عنق الرحم لامرأة تدعى (هيلين لين)، ماتت منذ عشرات السنين.. مازالت خلاياها حية وقد تكاثرت، وهي موجودة في مختبرات عديدة من العالم..

يمكن القول إن هذه الخلايا خلدت بينما صاحبتها هيكل عظمي في القبر الآن.. هذا هو المثال الوحيد الذي يحضرني..»

ثم أردفت وأنا آخذ شهيقًا عميقًا:

- «لكن الفارق واضح.. نحن لا نتكلم هنا عن خلايا.. نحن نتكلم عن أسنان وحصوة أوكسالات.. باختصار هي أجسام ميتة بالفعل لا يمكن أن تتكاثر..»

هزّ رأسه وضحك.. ذلك الضحك الذي يوحي بأن الصدر صندوق ملىء ببلى الأطفال.. إنّه مدخن كما هو واضح، كما أنّ حالته العقليّة ليست على ما يرام.. إنّه على حافة الهستيريا..

قال لي وهو يخرج من الحمام:

- «أنا أصلًا محاسب ولا أفهم هذه الأمور الطبية جيدًا لكنني أستخلص من كلامك إن ما أمر به عجيب..»

- «هل ما زلت تشك في الأمر؟»

وجثوت جوار المغطس، وأخرجت من جيبي منديلًا ورقيًا صغيرًا، بحثت عن مطواتي ففتحتها.. ورحت أزيل بعض هذا الزغب الرهيب لأضعه في المنديل..

قال (بكر) الواقف على الباب:

- «لم أعرف أن أطباء أمراض الدم يحملون مطواة..»

- «المتحمسون منهم يفعلون.. سآخذ هذه العينة لفحصها مجهريًا.. هذه هي الخطوة الأولى..»

كانت الأهداب الرهيبة تتلوى في المنديل الورقي.. فشعرت بتقزز.. أخرجت كيسًا صغيرًا من البلاستيك ودسست المنديل الملفوف فيه، فسمعت (بكر) يقول طبعًا:

- «وهل أطباء أمراض الدم المتحمسون يحملون كيسًا من البلاستيك كذلك؟»

- «فقط الذين كانوا ينوون ابتياع خبز في طريق العودة لدارهم.. والآن هلا خرجنا من هنا؟»

وهكذا غادرنا الشقة الرهيبة، ووقفت أراقبه أثناء غلق البابين مفكرًا..

في هذه اللحظة سمعنا صوت خطوات على الدرج..

برز رأس.. ثم وجه.. امرأة في الأربعين من عمرها أدمنت اتساع العينين رعبًا وشكًّا، حتى صار هذا جزء من مظهرها العام.. كانت تحمل بعض الخضراوات وقد بدا أنها خاضت موقعة لا بأس بها في وسائل المواصلات..

- «تعالي يا (عفاف).. الدكتور (رفعت) صديق عزيز..»

هزت رأسها في فتور، ونظرت لزوجها مرتابة:

- «لم تذهب للعمل اليوم.. قلت إنك ذاهب..»

- «طلبت الانصراف مبكرًا..»

راحت تنقل عينيها بين وجهينا باحثة عن مكيدة ما.. ثمّة لعبة قذرة هنا.. قلبها يحثها بهذا، لكنّها لم تستطع أن تبتكر شيئًا، لهذا فتحت باب شقتها ودخلت.. دعاني (بكر) إلى الدخول فلبيت.. من المفيد أن ألقي نظرة على حياته..

دخلت الزوجة المطبخ، وسمعتها تتشاجر بصوت عالٍ.. لا ليس بسببي ولكن لأنهّا تشك في أن البائعة تطفف في الميزان.. وسمعتها تطلب من زوجها إحضار الميزان كي تعيد وزن هذه الطماطم..

- «هؤلاء اللصوص.. يكفي أن يغمض المرء عينيه لحظة حتى يجد نفسه متسولًا..»

كانت شقّة عادية جدًّا ضيقة.. من الشقق التي نسميها (مساكن شعبيّة).. الأثاث لا يوحي بثراء ولا فقر.. لكن جوًا عامًا من الكآبة يخيم على كل شيء.. حياتهم غير بهيجة على الإطلاق ولا أعرف السبب.. كما فهمت منه فزوجته لا تعرف شيئًا عن الموضوع..

بعد ثانيتين عاد (بكر) حاملًا تفاحتين، وراح يلتهمهما أمامي في نهم غير عادي.. لا أعرف سبب هذا الجوع.. لكنه ذكرني بمرضى السكر حين ينقص السكر في دمهم عندها يلتهمون أي شيء سكري بهذه اللهفة..

زجاجة المياه الغازية التعسة إياها.. والأسوأ أن الزوجة غادرت المطبخ كي تجلس على الأريكة ترمقني في شك هي تتوقع مصيبة وأنا أبدو كواحدة.. لهذا لم ألمها كثيرًا..

قال (بكر) متظاهرًا بالمرح والظرف:

- «اتفقنا يا دكتور؟ ستبلغني برأيك.. هه؟ أم أمر عليك بعد يومين؟»

قالت الزوجة في شك:

- «رأيه في ماذا؟ هل أنت مريض؟»

- «بل هو يبحث عن شقّة، وقد جاء ليرى شقّة جارنا..»

نظرت لي مرتابة.. لا يبدو على مظهري أنني من الطراز الذي يبحث عن شقّة.. لا أعرف كيف يبدون لكنني لست منهم بالتأكيد.. إن ذهنها يمتلئ بالأسئلة.. أعرف هذا الطراز من النساء جيدًا..

عادت تسأل زوجها:

- «هل أحضرت (دينا) من المدرسة؟»

هنا فقط لم يعد يتحمل أكثر.. صاح في غضب:

- «وهل أحضرتها وأخفيتها أو خنقتها؟ طبعًا ما دمت لم تريها فأنا لم أحضرها بعد..»

وأردف قائلًا لي:

- «سوف أخرج معك.. إنني أشعر بتوتر عصبي شديد..»

☆ ☆ ☆

5 - مقدمة لابد منها لفهم القصة..

فيما بعد عرفت هذا الجزء من القصة..

الحقيقة أنني في هذه القصة بالذات، اتصرف كمن دخل الفيلم السينمائي في منتصفه.. لم أعرف كيف بدأ كل شيء.. فاتني الكثير من العلاقات والمقدمات.. لهذا عرفت الإجابة متأخرًا جدًّا..

عندما جاء المساء ذهب (بكر) للقاء أصدقائه كالعادة.. هناك ناد صغير للمحاسبين.. لا ليس نقابة ولكنّها كافيتريا استولوا عليها لحسابهم وصار كل من يجلس عليها محاسبًا.. حتى إن الغريب الذي يجلس فيها يعامل معاملة سيئة جدًّا، بل يقابل بنظرات الشك..

المهم أنه تذكر أنه لم يحلق شعر رأسه منذ شهر ونصف، وقد كان يحرص على أن يقلل مرات الحلاقة ضغطًا للنفقات كل عاداته المكلفة قللها تحسبًا لانتهاء مدخراته.. صحيح أنه يوجد عملًا لكنه غير مجزٍ وغير مستقر.. حتى الكافيتريا كان يرتادها بانتظام؛ لأن هناك غالبًا بين رفاقه من يدعوه إلى كوب شاي أو أكثر، ومن يدعوه إلى حجر دخان..

قرر أن يتجه إلى الحلاق.. بضع دقائق قبل الموعد لن تضر أحدًا..

بدأ العجوز يثرثر.. إن كل حلاق يفهم سياسة الدولة خيرًا من أي سياسي محترم ولديه حلول اقتصادية لم يتوصل لها صندوق النقد الدولي بعد، كما أنه ناقد سينمائي وزير نساء وخبير في الانشطار النووي لو لزم الأمر..

قال العجوز وهو يفتح المقص ويغلقه في الهواء كأنما هو يستدعي الشياطين:

- «صدقني.. إن النظرية التي توصلت إليها بعد تفكير طويل.. هذا الكلام الذي أقوله لن تجده في كتب ولن يصارحك به أحد.. صدقني ما توصلت إليه أن إسرائيل تضمر لنا شرًا..»

لم يعلق (بكر).. مع الحلاق لا تعلق ولكن أصغ باستسلام وأردف العجوز وهو يسن الموسى الحادة على حزام من الجلد:

- «ثم خذ عندك (بن جوريون) على سبيل المثال هذا الرجل يكفي أن تنظر له في عينيه كي تعرف.. إنّه ينوي بك شرًا.. إن الأمر.. معذرة!»

كان الألم في مؤخرة عنق (بكر) كافيًا ليعرف أنه جرح.. وهذا أنساه بالطبع أن الحلاق لم يقابل (بن جوريون) لأن الأخير مات من زمن بعيد لحسن حظنا..

راح الحلاق يعتذر راح يسكب بعض الكولونيا على عنق (بكر).. الأمر الذي يشبه صب حمض كبريتيك على جرح مفتوح.. إلا أنه نظر لـ (بكر) في المرأة في حيرة، وقال:

- «لقد التأم! لا أعرف كيف! إن المعجزات تحدث دائمًا لكن البشر لا يعون..»

- «هل تعني أنّ هذا الجرح التأم لمجرد أنك صببت عليه بعض هذا الحمض؟»

- «هذا هو ما أراه.. لكنني شخت يا أستاذ (بكر) ولم تعد عيناي كما كانتا.. دعنا نكمل كلامنا.. أقول لك إن (بن جوريون) هذا خبيث.. حينما قابل (جمال عبد الناصر) العام الماضي قال له: أنا أريد هدم بلاد العرب..»

- «(بن جوريون) قابل (جمال عبد الناصر) العام الماضي؟؟!!»

- «نعم.. نعم.. ابن خالتي كان موجودًا في اللقاء.. إنه.... ولكن..»

ومن جديد تصلب الحلاق وراح يحملق في مؤخرة عنق (بكر).. ثم قال في دهشة:

- «ما هذا؟»

- «جرح جديد؟»

التقط الحلاق مرآة مستديرة صغيرة وثبتها عند مؤخرة عنق (بكر) بحيث تعكس صورة مؤخرة رأسه، وقال:

- «هذه الأهداب الزرقاء.. ليست شعرًا.. إنها تخرج من تحت فروة الرأس.. لقد كان شعرك يخفيها لأنهّا رقيقة وعددها قليل.. لكنني الآن أراها بوضوح..»

ارتجف (بكر) في مقعده.. وشعر بقلبه يخفق تحت المنشفة المتسخة على صدره إنِّه لا يرى شيئًا في المرآة لكن يمكنه أن يتخيل..

مد الحلاق الموسى وبحذر عالج شيئًا في مؤخرة الرأس.. ثم مد كفه المفتوحة لـ (بكر) وقال:

- «أهداب كهذه..»

لم يحتج (بكر) إلى إطالة النظر؟؟ إنها هي.. ذات الأهداب اللعينة التي كانت تخرج من أسنانه والحصوة.. إنها حية تتحرك حركة كسولًا كديدان الأرض.. زرقاء شفافة رقيقة جدًّا..

قال الحلاق وهو يتخلص منها في القمامة مشمئزًا:

- «لا أعرف ما هي لكن لا بد أن ترى طبيب أمراض جلدية.. سيكتب لك أقراصًا تزيلها فورًا..»

- «سأفعل..»

قالها وتنهد.. لو كان حل المشكلة بهذه البساطة لكانت الحياة باسمة أكثر من اللازم..

☆ ☆ ☆

أمّا أنا فكنت في هذه الآونة جالس مع صديق من قسم الأنسجة..

لم يكن سوانا في المختبر.. بل الكلية ذاتها.. المكان الوحيد المضاء في هذه الساعة، مما أضفى رهبة معينة على لحظات الاكتشاف هذه:

- «ليس هذا نسيجا حيًّا أعرفه..»

- «لكنه يتكون من شيء ما.. أليس كذلك؟»

فكر قليلًا ثم تفحص العينات التي أعدها تحت المجهر، وقال دون أن يبعد عينه عن العدسة:

- «لو أردت رأيي.. يبدو الأمر كمدمج خلوي Syncytium.. مجموعة من النقاط تسبح في بحيرة من السيتوبلازم.. Cytoplasm.. لكن لا توجد أية محاولة لتكوين جدران خلوية.. وهذه النقاط لا تصلح لتكون أنوية..»

جلست على مقعد غير مريح، يناسب حالتي العقليّة وسألته:

- «ألم ترَ شيئًا كهذا من قبل؟»

- «يبدو كأهداب الحيوانات وحيدة الخلية Ciliates لكني لم أرها قط بهذا الطول وهذا الحجم..»

عوى كلب في مكان ما من بعيد.. فجاوبته الكلاب المحبوسة في أقفاصها في قسم (الفسيولوجيا).. تأثير ليس محببًا للنفس كما ترى..

قلت له في كياسة:

- «هل تقبل أن تقدم لي المزيد من الخدمات؟ أريد أن تجرب كافة الأصباغ على هذه الشرائح.. يجب أن أعرف كنه هذا الشيء.. ما هي احتمالات أن يكون فطرًا؟»

قال باسمًا:

- «هذا هو الشيء الوحيد الذي أثق به.. ليس هذا فطرًا ولا عفنًا..»

- «أنت تعرف جيدًا ما ليس هذا الشيء!»

- «هذا مفهوم في حد ذاته.. أنت تعرف ما قاله (توماس أديسون Edison) المخترع الأمريكي العظيم: (أنا لم أفشل في مائة تجربة.. بل اكتشفت مائة طريقة لا تعمل)! من المفيد أن تعرف (ما ليس) كما يفيدك أن تعرف ما (هو)..»

- «سأفكر بهذه الطريقة المتفائلة..»

راح ينظر تحت المجهر قليلًا، ثم قال:

- «بيني وبينك يبدو أننا وجدنا شيئًا جديدًا.. إننا وجدنا كائنًا لم يوجد قط.. أو بمعنى أدق لم يصفه أحد قبلنا.. إنني أرى عشرات الأوراق العلمية تنتظرنا..»

ضحكت حتى بدأت أسعل وسألته:

- «هل تقترح اسمًا؟؟ إن لك الشرف في هذا..»

قال ببساطة:

- «الفيروس Virus بدوره كائن غامض لا تفهم كيف يعمل.. بروتين وحمض نووي كلاهما ميت.. لكن ما إن يندمجا حتى تبعث الحياة في هذا الكائن ويتكاثر ويقتل.. فيروس باللاتينية معناها (سم).. سنطلق اسمًا معدلًا على هذه الأشياء.. (البيروسات)..»

ابتسمت وقد تذكرت أساليب الغش التجاري التي تتبع مع العلامات التجارية الشهيرة.. أجهزة إلكترونية تنتج في اليابان، فيتم إنتاجها في (ماليزيا) مع إدخال تعديل بسيط جدًّا على الاسم.. بعد أعوام توفي (بروس لي Bruce Lee) النجم الشهير فظهرت عشرات الأفلام لممثل اسمه (بروس لاي) على أساس إن الحمقى لن يلاحظوا الفارق..

فيروس وبيروس.. لا بأس.. دعاية لا بأس بها..

نهضت متثائبًا وسألت صديقي - واسمه (حسين) بالمناسبة - عما إذا كان يرغب في الانصراف معي، فقال إنِّه متحمس لما وجدناه ولسوف يقضي بعض الوقت هنا..

على إنني في طريق خروجي من الكلية رحت أفكر بعمق..

الممر المظلم الطويل بين الأشجار الذي يعجّ بالطلبة والصخب صباحًا، هو الآن ممر يصلح لفيلم رعب.. الإضاءة الخافتة لا تزيد الأمر جمالًا.. لكن الرعب الحقيقي كان يأتي من أفكاري..

كنت قد شاهدت فيلم (غزو خاطفي الأجساد Invasion Of body Snatchers) أشهر أفلام رعب الاستحواذ في عصري، ورأيت كيف يستولي (الناس الخيوط) على البشر في قرية، حتى يصير كل أهل القرية مجرد أغلفة تحوي هؤلاء.. كان (الناس الخيوط) قادمين من الفضاء الخارجي في نيزك كالعادة، فهل الأمر يتعلق بشيء كهذا؟

ولو كان كذلك فكيف سأعرف؟

توقفت جوار شجرة وقد خطرت لي فكرة معينة..

كيف بدأ كل شيء؟

(بكر) قال إن هذا حدث فجأة، وأنا - ببساطة - لا أصدق حرفًا.. لا أدري السبب لكني أعرف الحقيقة المبتورة حين أسمع واحدة كان يتحاشى عيني، ويحك أنفه طيلة الوقت.. قد لا يعني هذا شيئًا، لكن خبراء الإيماءات يقولون إن هذا دليل قوى على الكذب.. (الأدرينالين) يتعالى في الدم فتنقبض الأوعية الدموية، ويشعر الرجل بحاجة عصبية لحك طرف الألف.. لاحظتها كثيرًا ووجدت أنها تصدق في أغلب الحالات..

(بكر) لا يعرف كيف بدأت القصة، لكنه بالتأكيد يعرف أين بدأت..

لأزورنه غدًا، ولأعرفن التفاصيل منه..

☆ ☆ ☆

6 - مقدمة لابد منها لفهم القصة..

صوت غليظ:

- «لقد تمكنا منه يا رجال.. لا تتركوه يفر..»

صوت متحشرج:

- «لا يلمسنه أحدكم.. لقد رأيتم ما حدث..»

صوت من البادية:

- «أهيلوا التراب.. الكثير منه..»

☆ ☆ ☆

كان د. (حسين) غارقًا في دراسة هذه الخيوط الغريبة تحت المجهر..

كان قد أحضر قفصًا صغيرًا به فأر أبيض.. كان ينوي أن يضع بعض هذه الخيوط مع الفأر ويراقب ما حدث ويبدو أن الفأر شعر بالهلع لأنّه راح يتسلق القضبان في حالة هستيرية..

بيروسات.. لا بأس بالاسم.. مازال مذاقه غريبًا لكن سرعان ما يعتاده اللسان.. يشبه الأمر قطعة اللادن الصلبة الجافة التي تمضغها عدة مرات، حتى تتحول إلى عجينة لينة محببة المذاق..

كان الآن متأكدًا من شيء واحد.. هذه الخيوط تكبر بلا انقطاع.. كانت مجرد راسب في قاع أنبوب الاختبار، ثم صارت تملؤها حتى الثلث..

كان دقيقًا.. (تكبر) ولا (تتكاثر) لأنّه لا يعرف كيف يصف هذه الظاهرة التي يراها..

شعر بحاجة ماسة إلى قدح من القهوة فاتجه إلى ركن المختبر.. هناك يحتفظ ببراد شاي صغير و(كنكة) صالحة لإعداد القهوة.. وفتح كيسًا من البلاستيك به السكر والبن، وسرعان ما اشتعل مصباح (بنزن Bunsen) برائحته المميزة.. إن القهوة تقتبس دومًا جزءًا من رائحة اللهب الذي تعد عليه، لهذا الشاي تناسبه (السبرتاية) بينما القهوة يناسبها مصباح (بنزن)..

انتهي من إعداد القهوة، فصبها في كوب صغير وجلس يرشف السائل الساخن عطر الرائحة.. شاعرًا به يغسل أعصابه عصبًا.. عصبًا.. إن تفكيره يصفو، وذهنه يزداد حدة..

الآن فرغ من القهوة فغسل القدح وأعاده لموضعه، ثم عاد إلى المجهر الذي..

ما هذا؟!!

كان المشهد الذي رآه يفوق كل وصف.. لقد كبرت تلك الخيوط حتى أفعمت أنبوب الاختبار.. ثم زحفت خارجه.. والآن صارت المنضدة كلها مغطاة بالخيوط القذرة.. بل إن بعضها كان يتدلى من فوق المنضدة نحو الأرض وبعضها كان يزحف متسلقًا المجهر.. أمّا الفأر فكان ميتًا على ظهره وقد أحاطت به تلك الخيوط المريعة..

كف عقله عن التفكير.. لقد استغرق إعداد القهوة وشربها عشر دقائق، لكنّها كانت كافية كي يتكاثر هذا الشيء إلى هذا الحد..

- «بسم الرحمن الرحيم!»

هتف مبسملًا مستعيذًا بالله من هذا الشيء الذي بدأ يعتقد أنه شيطاني..

انتابه ذعر جنوني.. فكر أولًا في الخروج من هنا، ثم قرر أن عليه التخلص بنفسه من هذا الشيء.. كانت هناك زجاجة من الكحول المطلَق، لذا أمسك بها وراح يبعثر منها فوق هذه الشبكة المعقدة..

لا يعرف إن كان هذا فعالًا أم لا.. لكنه قدر أنّ هذه العملية ستقتل الكائن على الأرجح..

ثم إنّه أحضر رفشًا ودلوًا من البلاستيك ونقل ما استطاع من هذه الخيوط إلى الدلو دون أن يلمسها.. الفرن.. الفرن الصغير الكهربي الموضوع في نهاية القاعة.. نقل محتوى الدلو إليه وأغلق الباب.. ثم قام بتشغيله..

لا يعرف إن كان هذا عملًا أخرق أم لا.. سيلومه (رفعت) كثيرًا لكن لا حل أمامه.. إنّه مذعور بحق..

بعد قليل كرر العملية مع ما تبقى من خيوط وجثة الفأر.. وتأكد من أن الأثر الوحيد لهذه الأشياء موجوده في الشرائح التي أعدها ظهرًا..

لكنه لم يستطع فهم شيء بعينه.. لماذا حدث هذا التكاثر السريع فجأة، بينما ظل الشيء خاملًا طيلة اليوم؟ هل هذا الشيء يتكاثر ليلًا؟ أم يتكاثر حين يشم رائحة القهوة؟ أم؟

☆ ☆ ☆

يصحو الحلاق عادة في الخامسة صباحًا.. إنّه ككل شيخ فقد تمامًا القدرة على النوم إلى ساعة متأخرة.. إنّه يعاني ظاهرة الاستيقاظ قبل الموعد Premature Awaker لكنه بالطبع لا يجد ما

يفعله بعد أن يصلي الفجر في مسجد قريب.. ثم يعرج على بائع الفول الشيخ مثله الذي يأتي مبكرًا فيملأ طبقًا ويضع بعض الأرغفة الساخنة السمراء تحت إبطه ويعود لداره.. في العاشرة صباحًا يتجه إلى صالون الحلاقة العتيق.. لم يعد هناك صبية يساعدونه فقد قل عدد زبائنه ولم يعد يستطيع الإنفاق على واحد..

اليوم وجد ظاهرة غريبة بعض الشيء..

هناك قطة.. قطة ميتة راقدة على جنبها أمام باب المحل بالضبط.. شعر باشمئزاز مع كثير من التطير.. ليس هذا أفضل مشهد يبدأ به المرء يومه، لكنه على كل حال حاول إبعادها..

هنا لاحظ إن هذه الجثة غريبة المنظر.. ما سر هذه الخيوط الزرقاء التي تخرج من أنف وفم القطة؟

كان واهن الذاكرة ضعيف البصر بطبعه، لهذا تذكر للحظة أنه رأى شيئًا مماثلًا.. لكن متى وأين؟ ومضة التمعت في عقله وفي عينيه اللتين اعتمت عدستاهما.. ثم خبت الومضة سريعًا.. لقد نسى كل شيء من جديد.. لقد رأى الكثير من الموت في حياته، فما الجديد في أن تموت قطة؟

التقط ورقة جريدة لف بها الجثة، وحملها إلى مقلب القمامة المجاور وتخلص منها..

لكنه لم يستطع أن ينسى ذلك الشعور الممض بالنفور والتطير منها..

- «يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم..»

قالها وبدأ يفتح الأقفال ليرتفع ستار الصالون الحديدي..

☆ ☆ ☆

في العاشرة صباحًا - وهو نفس الوقت الذي فتح فيه الحلاق متجره - دخل (بكر) إلى مكتبي بالكلية..

كان د. (حسين) هناك يضع قطرة العين في عيني.. رفع عينه إلى زائري في تساؤل فقلت له وأنا أرمش:

- «هذا الأستاذ (بكر).. لقد حكيت لك عنه..»

هنا تحفز (حسين) وراح يرمق القادم في اهتمام كأنه جاء من المريخ..

كان (حسين) قد حكى لي كل شيء.. ولم أر فيه جديدًا هناك خيوط - أو بيروسات - تنمو بسرعة.. ما الجديد؟ لقد أحضرت له الخيوط وقلت له إنها تنمو بسرعة.. وبدأ هو العمل على أنها

تنمو بسرعة.. واليوم جاءني في هستيريا ليخبرني إن الخيوط تنمو بسرعة! أكره الذين ينسون قواعد اللعبة في منتصفها..

بالنسبة لي لا توجد مشكلة، فإن مورد هذه الخيوط موجود ومتاح.. فلا مشكلة في كونه أحرق بعضها لكنه - على كل حال - طرح سؤالًا مهمًا: لماذا لا تفعل هذا طيلة الوقت؟ لماذا لم تنم إلا في تلك اللحظة..

جلس (بكر) في توتر.. كنت قد اتصلت به في عمله طالبًا أن يوافيني على وجه السرعة.. لا بأس.. إنّه ملكي الآن.. يلعب على أرضي وبقواعدي.. لهذا أخرجت منديلي أفرغ ما سال من قطرة العين في أنفي، وسألته في حسم:

- «هل حكيت لي الحقيقة عن بدء هذا المرض؟»

- «هل هو مرض؟»

- «تلك الظاهرة.. هل حكيت لي الحقيقة؟»

حك أنفه ليخفف الأدرينالين قليلًا، وقال:

- «نعم.. بالفعل.. هي الحقيقة الكاملة..»

نظرت إلى د. (حسين) ووجهت له الكلام (وهي طريقة يجيدها المحققون):

- «من حين لآخر يظهر من يعتقد أنه يستطيع خداعي.. لكنه مخطئ.. هل ترى هذا معي؟ ودعني أؤكد لك أنني عاجز تمامًا عن إسداء أي عون لمن لا يعطيني الحقيقة كاملة..»

ودارت محادثة طويلة بيني ود. (حسين) عن كيف أن الناس مخادعون.. يكتمون الحقائق، ثم يطالبونك باتخاذ قرار.. وحكيت له عن مرضى جاءوا بقيء وعرق غزير وحدقات ضيقة يطلبون العون.. وفي النهاية - وبعد جهد جهيد - تستنتج أنهم بالتأكيد تعاطوا أو تعرضوا لسم ما من السموم الفوسفورية العضوية Organophosphorous.. هنا فقط يتكلمون.. يصارحونك بأنهم شربوا زجاجة (بوليس النجدة) من ساعة.. فلماذا التزمتم الصمت؟ لماذا تريدون تعذيبي أيها الحمقى؟

قال د. (حسين) الذي التقط الخيط بسهولة:

- «الحق إن الناس أشرار فعلًا.. إنهم يخدعونك دون فائدة مرجوة لهم.. بل يفعلون هذا على سبيل الرياضة..»

ظللنا نحو خمس دقائق في عملية غسيل المخ هذه ودون أن نوجه كلمة واحدة للضيف.. في النهاية نظرت إليه فوجدته شاحبًا كئيبًا.. لو كان قد قتل رجلًا فلسوف يعترف الآن..

تنحنح وقال لي:

- «(حسن).. الحقيقة أن الموضوع بدأ في زمن محدد ومكان محدد.. أو هذا ما أعتقده..»

وراح يحكي لي، وفي هذه المرّة لم يحك أنفه..

☆ ☆ ☆

لم يكن لدى (بكر) الكثير..

لم يكن يعرف شيئًا عن كيف بدأ الموضوع، لكنه يربط بينه وبين فقدانه الوعي قرب ذلك القبر في قرية معينة لن أذكر اسمها كي لا يقاضيني أهلها.. لا توجد علامات قاطعة تقول إن القصة بدأت مع هذه الحادثة، أولى العلامات ظهرت بعد شهر أو أكثر.. لكنه..

- «المرء يعرف نفسه جيدًا.. ذلك الشعور بأنك لم تعد قط كما كنت بعد تلك الحادثة.. هناك بصمة معينة لروحك.. وأنت تعرف دون سواك متى تغيرت هذه البصمة..»

فيما بعد تذكرت هذا التعبير حين حكى أحد أصدقائي ممن يتعاملون مع الكمبيوتر، كيف أن برامج مكافحة الفيروسات تحتفظ ببصمة للكمبيوتر، تعرف بها متى تسلل فيروس ما.. إن تغيير البصمة يعني حدوث شيء.. لا يهم ما هو.. لكن شيئًا قد استجد.. شيئًا ليس على ما يرام..

سألت (بكر) وأنا أقلب كوب الشاي الذي طلبته:

- «هنا السؤال الكبير.. ماذا كنت تفعل في تلك القرية؟ هل أسرتك من هناك؟»

حك أنفه من جديد، وقال وهو ينظر إلى كوب الشاي:

- «لا.. أنا من المنوفية أصلًا.. لكن قصة القرية هذه موضوع شخصي.. المهم وما يُمكنك أن تستخلصه هو أنني فقدت وعيي في مكان معين، وبعده لم أعد كما كنت..»

ساد صمت ثقيل.. في النهاية رفعت كوب الشاي إلى فمي وجرعت جرعة نهمة، وسألته:

- «هل يمكن أن تقودنا إلى هناك؟»

نقل عينيه بيني و(حسين)، ثم قال:

- «أعتقد هذا..»

نظرت متسائلًا إلى (حسين) فقال هذا وهو يبتسم بحرج:

- «لا.. أعتذر عن عدم قبولي هذه المهمة.. أنا مشغول جدًّا، والقرية بعيدة بحق.. هذه الرحلة قد تستغرق يومًا..»

- «لا ألومك.. ليس كل الناس يملكون طنًا من الوقت مثلي؟..».

كقاعدة: كل الناس مشغولون لا يجدون وقتًا للتنفس حينما أسمعهم يتكلمون أحسبني الشخص التافه الوحيد في هذا العالم.. كلهم عظيمو الأهميّة بينما أنا بالفعل أملك طنًّا من الوقت.. أتذكر عبارة (أنيس منصور) الرائعة: «إن الوقت من ذهب.. وأنا لدي الكثير جدًّا من الوقت، لكن ليس عندي ذهب..»

هكذا تم ترتيب موعد الحملة المنتظرة.. سنذهب أنا و(بكر) إلى تلك القرية البائسة التي لا أعرف علاقته بها.. سأرى المكان الذي فقد وعيه فيه وأحاول استنتاج شيء..

☆ ☆ ☆

فيما بعد عرفت التالي..

لسبب ما لم يستطع (بكر) أن يظل نائمًا في تلك الليلة..

كان قلقًا يتقلب كأنما ينام على فراش (النابغة الذبياني) الشهير.. وفي الثالثة صباحًا نهض.. ثمّة شيء يدعوه إلى أن يخرج من الدار.. يذهب إلى الشقة المجاورة.. يتفقد (أطفاله) هناك!

لم يكن الخطر موجودًا في الشقة المجاورة.. كان موجودًا في شقته هو؛ لأن الزوجة سوف تصحو من نومها بلا شك.. عندها كيف يُمكنك أن تجد عذرًا تقنع به هذه الزوجة المتشككة؟؟

سوف تجحظ عيناها حتى توشك على الخروج من المحجرين، وسوف ترتجف وتكرر السؤال عن السبب في خروجه في هذه الساعة.. ربما اضطر لخنقها كي تهدأ قليلًا..

لكن النداء كان أقوى منه. هكذا أخذ المفتاح من المزهرية، وبرفق فتح الباب، ولم يغلقه منعًا للضوضاء، اجتاز الممر إلى الشقة المجاورة.. أولج المفتاح في الباب..

أعاد القوابس إلى لوحة الكهرباء لأنّه ينتزعها دائمًا طلبًا للأمان

(هذا الصوت؟.....)

دخل إلى الحمام وفتح الضوء..

(الصوت يعلو..)

هنا تصلب في مكانه وقد أوشك قلبه على أن يتوقف..

لقد كبرت هذه الأشياء. كبرت إلى حد مروع.. بعضها صار بحجم كلب صغير.. وبعضها صار بحجم وطول ذراعك لو كنت رياضيًا.. أمّا الأسوأ فهو أنها المرّة الأولى التي بدأت ملامحها تتخذ

شكلًا حيًّا واضحًا.. هناك عين حمراء أو عينان.. إنها ترمقك.. من المؤكد أنها ترمقك... بعض الأهداب تحور ليصير شبيهًا بالمخلب.. بعضها يبدو كأقدام الأخطبوط.. ثمّة صوت حاد غريب ينبعث من المغطس.. أمّا عن الرائحة فحدث ولا حرج..

هناك أحد هذه الأشياء يزحف فوق الجدار.. لقد خرج من المغطس، ويزحف إلى الجدار المقابل ليتسلق الملاط الأملس.. هذا يعني أن لديه ما يشبه الممصات..

فجأة خطر له أن ينظر لأعلى فقط.. وكان ما توقعه.. فوق رأسه بالضبط يتدلى من السقف أحد هذه الأشياء المريعة.. وقد تدلى منه ممس طويل يحاول الوصول إليه..

انطلقت منه صرخة سرعان ما كتمها..

لا يجب أن تصحو الزوجة على صرخته هي التي لم تصح على صوت فتح الباب أغلق باب الحمام وقلبه يتواثب، حتى اضطر إلى غلق فمه بإحكام.. لن يندهش لو خرج قلبه من فمه ليقفز على البلاط كضفدع.. كل شيء ممكن..

وفجأة خطر له خاطر بهيج..

هذا كابوس.. لا أكثر ولا أقل كان نائمًا ثم صحا من النوم ودخل الشقة.. التفسير الوحيد هو أنه لم يصح بعد.. إنّه ما زال في الفراش يحلم..

هكذا - راضيًا عن هذا الخاطر - أغلق باب جاره وعاد إلى شقته.. فقط ليجد امرأته واقفة في الصالة وقد تحولت إلى تمثال مجسد للرعب والشك.. (ميدوسا) بشعرها المنكوش المخيف جاحظة العينين.. تقف في ضوء الصالة الخافت وتطلب منه تفسيرًا.. أحيانًا يصيب الرعب الناس إلى درجة مبالغ فيها، تصيبنا بالرعب نحن أنفسنا..

لكن المشكلة هنا هي أنه بدأ يفهم.. لم يكن هذا كابوسًا.. كان واقعًا.. واقعًا كئيبًا..

- «(بكر)!! ماذا حدث؟ لماذا غادرت الدار في هذه الساعة؟»

☆ ☆ ☆

7 - مقدمة لابد منها لفهم القصة..

لم أكن فخورًا بسيارتي الجديدة إلى هذا الحد..

إنها كما لاحظتم مستعملة، وليست في أفضل حال ممكن، وقد كنت مولعًا بسيارتي القديمة.. وصارت بيننا لغة تفاهم تشبه ما ينشأ بين زوجين عاشا معًا عشرين عامًا..

لقد فشلت تمامًا في جعل (بكر) يتكلم.. إنّه كئيب شاحب الوجه صموت.. ولم أكن وقتها أعرف سبب هذا التبدل.. كان من قبل متماسكًا إلى حدٍ ما، ولا أعتقد أن شيئًا جديدًا قد حدث..

سألته بينما العربة تخرج من القاهرة:

- «بيدو أنك صرت تتخلف عن عملك كثيرًا هذه الأيام..»

قال دون أن ينظر لي:

- «فليذهب العمل إلى الجحيم فأنا لا أحبه.. إن لم يقيلوني سأستقيل..»

ثم عاد إلى الصمت..

الواقع أنني حين أتذكر الأمر أجد أنّ هذا الرجل كان في غاية التماسك.. حين ترى هذه الكائنات البشعة التي رآها، وهو يعرف أنها خرجت من ذاته، فمن الطبيعي أن تنهار تمامًا.. الحقيقة أن (بكر) كان أكثر وعورة وعمقًا مما تصورت، كان أشبه ببئر يخفي أسرارًا عديدة.. أو - كما يحلو للإنجليز القول - هو جبل جليدي Iceberg لا نرى إلا قمته..

طالت الرحلة.. طالت..

أنا بطبعي أمقت القيادة لفترة طويلة.. وقد كان المشوار شاقًّا بحق..

في النهاية ظهرت القرية..

كنا نسأل كل من يقابلنا عن مكان المقابر.. إن (بكر) يعرف القرية لكنه ليس خبيرًا بها، وهو لا يعرف كيف نتّجه إلى المقابر.. وقد ساعدنا هذا على إضفاء سبب لقدومنا.. السبب مهم جدًّا في الريف، لأن كل القرية - بلا مبالغة - تخرج لمراقبتك في شك.. الكل يشعر بحق إلهي في التدخل فيما لا يعنيه.. فجأة صارت للإنسان مهمّة واحدة في الحياة هي معرفة ماذا تريد.. لم يعد أحد يأكل أو يشرب أو يعمل ولم تعد هناك هموم أو مشاكل ما عداك.. عشرات يدنون من نافذة السيارة ليسألونك:

- «من تريد هنا يا أستاذ؟»

فأقول راسمًا ابتسامة على وجهي:

- «قبر جماعة (شرشيرة).. إنهم أقاربنا من بعيد..»

هذا لأن اسم (عبد السلام شرشيرة) هو الاسم الوحيد الذي يحتفظ به (بكر) في ذاكرته.. هو فقد الوعي وكان يرى شاهد ذلك القبر.. هذا من ناحية يجعلنا نعرف الموضع، ومن ناحية أخرى يجعلنا غير غريبين عن القرية..

يفكر المتطوع مليًّا ويعبث تحت اللبدة التي يرتديها، ويتساءل:

- «(عبد السلام شرشيرة)؟»

ثم يفرد ذراعه ويشير إلى اتجاه ما.. أو يمسك بصبي متسخ شرس من قفاه ويصفعه ويأمره:

- «خذهم يا ولد إلى تربة (شرشيرة)..»

ويثب الصبي إلى المقعد الخلفي للسيارة ليرشدنا.. لكن هذا لا يشبع النفوس هنا.. فلا تلبث أن تقابل من يدسّ رأسه في النافذة ويسألك:

- «من تريد هنا يا أستاذ؟»

هكذا يمرّ الوقت والسيارة تتسلق تلالًا وتهبط وديانًا.. كل ياي ومسمار فيها يئن، وأنت تحاول ألا تدهم عنزة عابثة أو دجاجة ضالة، أو طفلًا يزحف.. لأن معنى هذا أن تلقى حتفك بالفئوس خلال ثلاثين ثانية..

كنت أنا قد وصلت إلى استنتاج مهم بعد عشرات الوجوه التي أرشدتنا لوجهتنا: لا أحد يعرف (بكر) في هذه القرية، فما معني أنه كان منهمكًا بأمور شخصيّة فيها؟ لماذا جاءها أصلًا؟

لن يجيب عن هذه النقطة لو سألته.. لكنه سيفرغ أحشاءه فيما بعد.. أعرف أنه سينهار ويفعلها..

في النهاية ترى منظر المقابر البهيج يمتد أمام عينيك..

ويهتف الصبي من المقعد الخلفي:

- «تعال يا أستاذ.. سأريكما التربة..»

جذبت فرملة اليد التي لا تعمل، وترجلنا.. مشينا بعض الوقت خلف الصبي.. كانت هناك مجموعة من الأشجار ما هو أقرب إلى ممر ضيق طويل.. و..

سمعت أنة فنظرت لمصدرها.. كان (بكر) يتأمل الأشجار وقد تقلصت شفتاه.. وخطر لي: هذا الرجل يتذكر شيئًا ما.. أنا متأكد من هذا.. لقد كان هنا لكنه نسى..

هناك فرجة بين الأشجار اجتازها الصبي برشاقة ووقفنا نحن كأبلهين..

الحقيقة أن الفرجة ضيقة جدًّا خلفها منحدر واضح.. هذا يعني أنه بعد ما تتمزق ثيابك بين الشجرتين، سوف تنحدر في التراب أو الطين مسافة لا بأس بها..

صحت في الغلام:

- «ألا توجد طريقة أسهل؟ مستحيل أن يمارس كل من يزور القبر هذه الألعاب البهلوانية..»

- «لكن هذه أقصر وأسرع.. هلمّ يا أستاذ!»

توكلت على الله، ونظرت إلى (بكر) لكنه كان يعيش أسوأ حالاته.. ماذا يخفيه عني بالضبط؟ وهكذا قررت أن أبدأ أنا.. لا بد - بالنسبة للياقتي البدنية - من شخص ينتظر خلفي ليجرني من عنقي لو انحشرت أو تعثرت..

بصعوبة مررت بين الفرجة وبصعوبة أكثر نجحت في ألا أطير عبر المنحدر.. وفي النهاية وجدت أنني أقف وسط المقابر بالضبط وقد صارت بذلتي قصيرة الأكمام رماديّة من فرط الغبار..

بعد قليل لحق بي (بكر) وهو يلهث..

وقف ينظر حوله في حيرة، ثم سأل الغلام مرتابًا:

- «هل هناك فتحة أخرى تقود لهنا؟»

قال الغلام وهو يلوك ثمرة (جميز) لا أدري من أين ظفر بها:

«هناك فتحة أخرى هنالك يا أستاذ.. لكننا لا ندخل منها.. بسم الله الرحمن الرحيم..»

سألته خارج الموضوع كعادتي:

- «ما هذا الذي تأكله؟»

- «جميز» - قالها وهو يضع واحدة في يدي - «إن هناك شجرة جميز هنا.. هل تأكل يا أستاذ؟»

- «شكرًا.. أفضل أن أغسلها أولًا..»

شد شعره في جنون كأنه (توسكانيني) وقد سمع عازفًا يعزف لحنًا نشازًا.. وصاح:

- «لا يا أستاذ.. هذه الشجرة تتغذى من المقابر.. ويجب ألا تغسلها كي لا تزول حلاوة طعمها!!»

كان هذا كافيًا كي أعيد له الثمرة، وأسأله وأنا أبتلع ريقي عن مكان القبر، فقال وهو يشير إلى شاهد:

- «هناك.. (عبد السلام شرشيرة)..»

سأله (بكر) وهو يشير إلى قبر آخر جوار الأشجار:

- «وهذا؟»

- «أعوذ بالله يا أستاذ.. لا تتكلم عنه ولا تدن منه بسم الله الرحمن الرحيم.. لا أحد في القرية يقترب منه..»

- «ولماذا؟»

- «لا تسأل يا أستاذ.. اللّهم احفظنا»

وتفل في صدر جلبابه المتسخ..

مددت يدي ودسست في يد الغلام قطعتي عملة، فانطلق يركض مبتعدًا.. واستدرت إلى (بكر) الذي لم يرفع عينيه عن القبر وقلت:

- «هو لا يعرف.. هذه هي القصة دائمًا.. هذا القبر (تابو Taboo) توارثته الأجيال واكتسب مهابة لا حد لها، لكن لو سألت نصف رجال القرية لما عرف أحدهم السبب..»

ابتلع (بكر) ريقه، وقال:

- «لقد فقدت وعيي فوق هذا القبر بالذات..»

ثم نظر إلى السماء وهمس:

- «هل لاحظت شيئًا آخر؟»

- «لا.. ماذا تعنيه؟»

- «السماء تعجّ بالطيور.. فلماذا لم يحلق طائر واحد فوق هذا القبر؟ المكان يعجّ بالذباب.. هل ترى ذبابة واحدة فوق هذا القبر؟»

☆ ☆ ☆

على ضوء الغروب الأرجواني، صب لنا الشيخ (عارف) بعض الشاي في كوبين مبتلين، وناول كلًّا منا واحدًا..

ثم إنّه سحب بضعة أنفاس قوية من (الجوزة) التي يحتضنها في حب كأنها قيثار.. وقال:

- «كل هذا الكلام أقاويل يا أستاذ.. لا أحد يعرف الحقيقة لكن لا أحد يجرؤ..»

كان الشيخ (عارف) هو اللحاد الذي وجدنا الغرفة التي يقيم فيها عند مدخل المقبرة.. كان عجوزًا طيبًا له أسنان ذهبية، وبال رائق كف عن الاهتمام بأي شيء..

كان جالسًا على باب الغرفة الطينية، والجوزة على حجره، بينما النار تشتعل في حفرة بها بعض جذوع الخشب المتفحمة، وقد أراح على حافة الحفرة فوق حجرين براد شاي كان أزرق.. إنه الآن أسود لكن رائحته عطرة للغاية.

سألته وأنا أرشف الشاي في شغف:

- «شف ف ف! لكنك متأكد من أن شيئًا مخيفًا دُفن هنا..»

- «لا أعرف أي شيء عن هذا يا أستاذ.. هذا كلام قاله أبي. وسمعه من أبيه.. يقولون إنّه كان ماردًا من الجن أو عفريتًا المهم أن الرجال حاصروه وقتلوه ودفنوه هنا.. لا بد أنّ هذا كان من مائة سنة على الأقل.. المهم أننا وجدنا آباءنا يقولون لنا إن هذا القبر محرم علينا.. أنا ربيت ولدي على ذلك وأعتقد أنه سيربي ابنه عليه.. بيني وبينك.. لا أعتقد أنّ هناك شيئًا في القبر أصلًا..»

في نفاد صبر قال (بكر):

- «نحن نريد معرفة محتوى هذا القبر.. ما العمل؟»

راح الرجل يسحب نفسًا عميقًا من الجوزة.. قرقرة في قرقرة في قرقرة.. في النهاية أخرج من صدره العجوز سحابة يمكن أن تغطي قرص الشمس، وقال:

- «صل على رسول الله يا أستاذ..»

- «عليه الصلاة والسلام

- «أنا لن أساعدك.. لو عرف أهل القرية بشيء كهذا لطارت أعناقنا، لكني في الوقت نفسه لا أعتقد أن في هذا القبر شيئًا، أي أننا لا ننتهك حرمة ميت.. لهذا يمكنني أن أقودك إلى من يساعدك مقابل مال.. وطبعًا لا بد من الانتظار حتى يحل الظلام.»

تبادلنا النظرات، ثم صاح (بكر) في حماس:

- «أي مبلغ يطلبه..»

ابتسم العجوز طويلًا، ثم نهض مترنحًا وتوارى خلف الغرفة.. هنا هتفت في (بكر):

- «هذه جريمة.. جريمة في نظر القانون وأهل القرية، على أنني أفضل بالطبع أن يقبض علينا على أن يعرف الأهالي.. لقد عرفنا أنّ هناك شيئًا.. فدعنا نرحل بالله عليك..»

- «ليس قبل أن أفهم.. يسهل عليك الكلام لأنك لست من يفقد أجزاءه وتتحول إلى مسوخ.. أمّا أنا..»

- «ليست مسوخًا بل هي (بيروسات)..»

- «ماذا تقول؟»

- «لا عليك.. أفكر بصوت مسموع لا أكثر..»

بعد قليل ارتجت الأرض.. لا لم يكن هذا الأخ (جودزيلا Godzilla) وقد قرر أن يزور مصر، وليته كان.. كان رجلًا يشبه باب حجرتك في كل شيء.. الحجم والملامح والعينين.. جاء وراء الشيخ (عارف) وهو ينظر لنا بريبة..

- «إن (سعد) سيساعدكما.. لكن لا تنسيا عرقه..»

أدركت على الفور أن (سعد) نابش قبور محترف.. كلهم يحمل ذات السمات وله ذات البنية، فقد عرفت الكثيرين منهم بحكم مهنتي.. يبدو أن لهم نقابة ما تشترط هذا المظهر.. فقط يتظاهر الرجلان بالبراءة بينما هما فعلا الشيء ذاته عشرات المرّات.. إن التظاهر بالبراءة والخوف مجرد طريقة لرفع السعر.. وبالنسبة لهؤلاء القوم يكون الخوف من الأشباح والمسوخ نوعًا من الميوعة.. على كلٍّ أنا أفضل هذا.. سيكون الأمر مأمونًا مع محترف..

لكن قطعت عليّ أفكاري رؤية النظرة في عيني (بكر)..

النظرة في عيني (سعد) كذلك لم تكن مريحة.. لقد فوجئ الرجلان ببعضهما هنا، ومن الجلي أن (بكر) عرف (سعد).. هذا واضح.. لكن متى وأين؟

لم أحاول أن أسأل..

دامت الجلسة ساعة أو ساعتين، حتى صار الظلام دامسًا من بعيد ترى أضواء القرية المتناثرة.. طبعًا ليست في كثافة أضواء المدينة، وهي أضواء ستبقى ثلاث ساعات أخرى ثم يسود الظلام..

قلت لـ (بكر) وأنا أشرب كوبًا آخر من الشاي:

- «نسيت أن أقول لك إنني أسوأ سائق في الليل.. لو لم يات النهار وأنت في قاع ترعة فاعتبر أنك محظوظ»

- «لست قلقًا..»

قالها في شرود:

- «هناك ألف سبب للموت قبل هذا الموعد»

ولم أعرف كم كان صادقًا في هذه الكلمة إلا فيما بعد..

بعد قليل نظر لنا الشيخ (عارف) وقال وهو يثبت حجرًا على الجوزة:

- «هيا يا رجال.. لا تطيلوا بقاءكم، أنت أردت نظرة يا أستاذ فاظفر بها سريعًا..»

وخرجنا في الظلام إلى المقبرة الممتدة أمامنا.. إلا أغنية من كلمات (عبد الرحمن الأبنودي)، لتكتمل الملحمة عن مطاريد الجبل.. كان (سعد) هذا يتقدمنا وفي يده كلوب وفي اليد الأخرى رفش.. أتبعه أنا ثم (بكر) يحمل رفشًا آخر..

أخيرًا نقف عند القبر المشئوم..

يضع (سعد) الكلوب على الأرض..

يشمر عن ذراعيه ويبدأ العمل..

☆ ☆ ☆

8 - مقدمة لابد منها لفهم القصة..

صوت من البرية:

- «لقد انتهينا منه!»

صوت في الظلام:

- «لا.. إنما هو قد سُجن.. ولسوف يتحرر..»

صوت غاضب:

- «لن يتحرر ونحن أحياء..»

☆ ☆ ☆

يجب هنا أن أذكر عدة أشياء..

أولًا.. كانت هناك قطرات دم جافة على كل شيء.. لم أفهم سببها.. لكن القارئ يذكر طبعًا.. إنّه الدم الذي سال من (بكر) حين سقط هناك..

ثانيًا.. كان التراب مخلخلًا بشدة.. خطر لي أنّ هناك فئران أو حشرات ما، لكن كما قلت آنفًا كان هذا القبر خارجًا من نطاق الإمكانيات البيولوجية.. باختصار كانت الحيوانات والحشرات أذكى من أن تقترب منه، وغريزة الحيوان لا تخطئ.. هذا هو ما يسبب الذعر والتوجس كلما انتفض القط، أو راح الكلب يعوي بلا سبب..

ثالثًا.. بدا لنا أن القبر خالٍ فعلًا.. كانت هناك أحجار.. لكن لا أثر لأية بقايا عضوية أو عظام..

خطر لي أن القبر لم يكن خاويًا من قبل.. وخطر لي كذلك خاطر مرعب.. إن القبر خاوٍ لأن الشيء الذي كان فيه موجود في (بكر) الآن.. هل لديك تفسير آخر؟

كنت - كما نتوقع - في أسوأ حال، لأن كل الغبار المتصاعد حرّك الحساسية لديَّ.. صار أنفي يسيل وعيناي تدمعان.. ولم تكن القطرات معي..

توقف (سعد) عن العمل وجفف عرقه، ثم قال لي بصوته الغليظ:

- «اذهب يا أستاذ إلى الشيخ (عارف) وقل له أن يعطيك حبلًا..»

يا سلام؟ ولماذا أنا؟ لماذا ليس أنت أو (بكر)؟

هذا أيضًا نفس ما رآه (بكر).. فقد صاح في هستيريا:

- «ولماذا لا أذهب أنا؟»

قال (سعد) في غلظة وعيناه تفصحان عن الشر:

- «أنا منهمك في الحفر وأنت تساعدني.. هذا الرجل أضعف واحد فينا.. فليعمل قليلًا..»

كان هذا مهينًا لكرامتي.. لكن كلامه منطقي.. لا جدوى لي إلا كجندي مراسلة أو صبي بقال.. فلأفعل كما قال..

أخرجت قداحتي ورحت أتحسس طريقي عائدًا عبر المقبرة إلى غرفة اللحاد إياها..

لحسن الحظ لم تكن المسافة طويلة لأن الرحلة لم تكن بهيجة كما لكم أن تتصوروا..

لكن الرجل لم يكن هناك.. كانت الغرفة مفتوحة لكنه لم يكن فيها..

صحت بصوت عالٍ:

- «يا شيخ (عارف)!»

تردد الصدى.. (رف.. رف.. رف..)

كذا خفضت صوتي قليلًا وعاودت النداء..

هذا هو السبب في أنني لم أسمع الصرخة أو سمعتها لكني لم أتبينها وسط الصدى..

صوت حشرجة.. ثم صمت رهيب يغمر المكان من جديد..

ها ها عدت أتحسس طريقي عائدًا..

وهناك أرى بقعة الضوء المخيفة التي يسببها الكلوب.. الرهبة والروعة وجهان لعملة واحدة.. هناك رسام هولندي تخصص في هذا النوع من الإضاءة لكنني لا أذكر اسمه.. هل (فيرمير Vermeer)؟ نعم.. هو.. هو..

لكن.. أين ذهب (سعد)؟ ما أراه هو (بكر) يقف وحده ويرفع الكلوب ناظرًا إلى داخل القبر..

دنوت منه وقد أحرقت القداحة أناملي، وقلت:

- «أين الرجل؟»

كان يرتجف كورقة، لكنه هزّ رأسه في ادعاء اللامبالاة وقال:

- «لا بد أنه يقضي حاجته في مكان ما..»

- «لم أجد اللحاد..»

- «دعك من هذا.. ولنلق نظرة بنفسنا..»

لاحظت أنه مرهق وأنه يعرق بشدة.. كما لاحظت أن ثيابه لم تعد مهندمة.. القميص غادر السروال والبنطال مغبر.. لكننا ننبش قبرًا على كل حال، فلا أعتقد أن الأناقة شيء مهم..

دنوت مع (بكر) من القبر المفتوح وقرينا الكلوب أكثر..

قال لي وهو يلهث بلا انقطاع:

- «أنا أشك في هذه الصخور.. هل رأيت قبرًا محشوًا بالصخور من قبل؟»

- «وهل لديك مانع؟»

- «لا..»

قالها وهو يهوي بالرفش على أحد هذه الصخور فيشطره نصفين..

☆ ☆ ☆

لقد انفتح الجحيم ليصب حممه على رءوسنا..

أين أنت يا (هوميروس Homer) لتصف لنا هذا المشهد؟ أين (أبو العلاء المعري) لينظم لزومياته؟

إن تلك الصخور كانت حية.. كانت بيروسات مكتملة النمو لكن الغبار يكسوها.. الآن يمكننا أن نفهم كيف تبدو هذه الأشياء.. لا يمكن أن تصفها بدقة مهما حاولت.. إنها متغيرة الأشكال.. لكن لها أكثر من ذراع مخلبية تخرج من هذا الموضع، ثم تغيب في الجسد لتخرج من موضع آخر.. بسرعة مذهلة.. حركة بروتوبلازمية صاعقة تذكرك بالأميبا amoeba تحت المجهر مع فارق السرعة والحجم.. إن لها عيونًا شريرة حمراء ترمقك في جشع.. إنها مغطاة بتلك الأهداب الطويلة.. لكنّها تستعملها بشكل أو بآخر كل ثانية..

إنها تركض وتزحف وتتسلق..

صرخت وأنا أتراجع للوراء:

- «لا تدعها تفر!»

صاح (بكر) وهو يثب بدوره:

- «اضرب! اضرب!»

ورحنا ننهال على هذه الأشياء بالرفشين..

كان قتلها صعبًا.. الأسوأ أنك لا تعرف إن كان هذا قتلًا أم لا.. ربما هي تتفتت لتعود.. كتلة بروتوبلازمية لن يحدث إلا أن تنقسم إلى نصفين..

كانت عملية مرهقة واستغرقت وقتًا طويلًا..

بعضها كان يحاول انتزاع الرفش منك، وبعضها كان يمد مخلبه نحو سروالك.. في النهاية تراجعت وجلست على الأرض ووضعت القرص إياه تحت لساني لأنني لم أعد أتحمل أكثر..

(بكر) يواصل العمل وهو يلهث.. يبدو أن قلبه في حالة ممتازة..

قال وهو يلهث ويسترد أنفاسه:

- «لو رأيت هذا المشهد في فيلم مرعب لاتهمت المخرج بالمبالغة، وغادرت القاعة ساخطًا..»

قلت له وأنا ألهث بدوري:

- «الفيلم الذي أعيشه أنا لا مخرج منه إلا إلى الأبدية..»

ثم خطرت لي فكرة.. النار.. دائمًا ما تبرهن على أنها الحليف القوي لي في تلك العوالم الرهيبة.. هذه الأجسام لاتموت كما يبدو.. أحدها مقلوب الآن يرمقني بعينين حمراوين في حدة، ومن الواضح أنه سينهض في أية لحظة..

- «أشعل القداحة!»

هكذا تناولت الكلوب وأطفأته.. ثم بحثت عن صمامه ورحت أسكب الكيروسين فوق هذه الأشياء..

صاح (بكر) في رعب:

- «هذا خطأ.. القرية كلها سترى اللهب وسيأتون جميعًا!»

- «لهذا الجزء الثاني من الخُطة هو أن نهرع إلى السيارة.. بمجرد أن تشتعل النار..»

وأشعلت القداحة..

- «استعد.. واحد.. اثنان.. ثلا..»

ولامست السائل المتناثر على الأرض باللهب.. مزية الكيروسين هي أنه يعطيك فرصة.. لا ينفجر فجأة كالبنزين.. إنّه ذلك الخيط الذي يزحف على الأرض.. ثم ينتشر..

ورأيت هياج هذه المخلوقات كأنها فئران في سفينة محترقة، أو الصراصير في فرن اشتعل فجأة بعد أعوام من النسيان..

استدرت نحو (بكر) وصحت:

- «هلمّ.. السيارة!».

لكنني لم أجده.. لم يكن واقفًا جواري على الإطلاق..

ما معنى هذا؟ هل هذا واحد آخر قد عض التراب كما يقول الإنجليز؟

بحثت وبحثت.. النار ترتفع.. السماء بدأت تضيء بذلك الوهج البرتقالي.. لا بد أن القرية كلها تراه الآن.. لابد أنهم يغادرون ديارهم.. كل منهم يضع الجلباب فوق السروال ذي التكة ويخرج من الدار..

لا بد من أن أرحل.. إن شتّى المتاعب تنتظرني لو بقيت هنا..

رحت أمشي مسرعًا بين شواهد القبور.. الإضاءة تسمح لي بأن أعرف أين أنا..

القبر الذي صرت أسعد كلما رأيته كأنه صديق قديم: قبر المرحوم (عبد السلام أحمد شرشيرة) - توفي يوم 10 شوال 1382 هجرية.. هذه هي الفرجة بين الأشجار..

تسلقت المنحدر وقد بدأ قلبي يخفق كطبل.. إن النيتروجلسرين يؤدي عمله حتى هذه اللحظة لكن من يضمن لي أن...؟؟

أجتاز الفرجة الضيقة..

هذه هي سيارتي واقفة كالشبح في الظلام حيث تركتها.. ثمة كلب أسود يجلس على (الكبود) ويرمقني في شك.. لم أبال به ودخلتها وأغلقت الباب.. شعرت ببعض الراحة وأنا أشم رائحتها المميزة وأشعر بدفئها.. برغم علمي التام أنني لن أستطيع أن أشغل المحرك.. لماذا؟ لأن القصة دائمًا هكذا.. ألسنا في قصة مرعبة؟

كرو كرو كرو!

ألم أقل لكم؟ الكلب أصيب بالهلع فجرى مبتعدًا..

أنظر للسماء فأرى الوهج البرتقالي من خلف حزام الأشجار.. لا بد أن الخبر ينتقل الآن..

كرو كرو كرو!

- «يجب أن (تكارك)!» قالها لي الأسطى (خميس) الميكانيكي يومًا ما.. ولم أفهم هذا الفعل العجيب.. كارك مكاركة فهو مكارك.. لكن الأمر يستحق المحاولة.. فلأكارك..

- «لا تبالغ حتى لا تشرق السيارة..»

قالها لي الأسطى (عرفة) يومًا ما.. ولم أفهم كيف تشرق العربة، لكن النصيحة جديرة باتباعها.. لو شرقت السيارة الآن لكانت كارثة..

كرو كرو كرو.. فروووووووم!

الحمد لله! شكرًا لكل الأسطوات الذين خربوا بيتي ونهبوني لكنهم منحوني علمهم..

لا وقت للانتظار.. فلأتحرك.. السيارة جامدة كالصخر باردة كقلب حبيبتك.. لكن يجب أن تلين..

وانطلقت أعبّر هذه المساحات الوعرة.. كنت قد قدرت طريقًا أسهل لا يمرّ بالقرية.. لاتنس أن المدافن تكون خارج القرية.. لا ضرورة لعبور طرقاتها إذن كما فعلنا لحظة مجيئنا.. لقد صرت أكثر حكمة..

لم أتنفس الصعداء إلا حين رأيت معالم الطريق الزراعي..

هل تخليت عن (بكر)؟

لا.. لم أفعل.. هو من تخلى عني.. والسبب لا أعرفه...

لم يكن الموقف ليصير أفضل لو انتظرت حتى يحاصرنا أهل القرية..

أنا الآن أحتاج إلى قدر غير عادي من الحظ كي لا ألقى حتفي على الطريق.. النوم يداعب جفني مع إرهاق وتوتر عصبي شديدين...

طبعًا تعرفون أنني لم أمت ما دمت أمامكم الآن أستكمل قصتي.....

☆ ☆ ☆

9 - مقدمة لابد منها لفهم القصة..

وحيدًا في الشرفة في السادسة صباحًا أرمق الشارع الخالي، وأتحسس كوب الشاي في نهم..

لا صوت إلا حياة بطيئة بدأت تدب.. لم يكن هناك باعة جائلون في شارعنا، وليتهم كانوا.. لا شيء يشعرك بالبكور مثل هؤلاء القوم الطيبين يخرجون مع الفجر، وكلهم إيمان بعدالة توزيع الأرزاق وأن من خلقهم لن ينساهم..

يختلف هذا النهار الباسم عن ليلتي الشنيعة..

بالتأكيد يختلف...

كنت قد كوَّنت فكرة لا بأس بها عن الموقف.. لسبب لا أعرفه نزف (بكر) دمه فوق هذا القبر في تلك القرية.. هذا القبر كان يحوي بقايا كائن شنيع عاش في القرية منذ مائة عام أو أكثر، فأيقظه الدم وتغلغل بشكل ما في جسد (بكر).. وما حدث لـ (بكر) إلا وسيلة من وسائل التكاثر كأي فطر أو نبات.. يبدو أن أسنان (بكر) صارت بذورًا تنمو بدورها لتخرج منها كائنات أخرى..

ولكن أين (بكر) من كل هذا؟

هنا دق جرس الهاتف فاتجهت متوجسًا.. مكالمات السادسة صباحًا لا تعني إلا الموت أو الموت أو الموت..

- «آلو؟»

هنا جاء صوت مرتعش يسأل في ريبة:

- «د. (رفعت).. هل (بكر) عندك؟»

إنها الزوجة إذن، و(بكر) لم يعد كما توقعت.. لا بد أنها وجدت رقم هاتفي في دفتر الأرقام..

قلت لها في كياسة:

- «لا يا سيدتي.. لا بد أنه مع أصدقائه..»

عادت تسألني بالشك المميز لها:

- «لم يقض قط ليلة خارج البيت إلا حين ذهب لتلك القرية.. هل أنت متأكد من أنّه ليس عندك؟»

قلت في شيء من الغيظ:

- «لو أردت تفتيشي فأنا تحت أمرك..»

هذه كارثة أخرى.. أنا الوحيد الذي يعرف مكانه الأخير فلو طالت غيبته لكان عليَّ أن أبلغ الشرطة.. وعندها سيضحكون كثيرًا وهم يسمعون قصتي عن نبش القبر وحرق محتوياته للخلاص من البيروسات..

هكذا وضعت السماعة مهمومًا وبدأت تحضير الإفطار.. لديَّ طبق فول في الثلاجة يعود إلى العصر الأشوري.. لا يوجد سمن؟ إذن هو الزيت.. لا يوجد؟ إذن فليمت (قيصر)..

رنين الهاتف من جديد

- «د. (رفعت)! إن الدخان يأتي من الشقة المجاورة!»

صحت في حيرة:

- «دخان؟ هل أنت متأكدة؟»

- «كنت أكلمك وأنا أشم رائحة شياط.. ثم خرجت لأتشمم فوجدت الدخان يخرج من تحت الباب.. إن البناية تحترق!»

كنت متأكدًا من أنّ هذه المرأة تملك أفضل أنف في التاريخ.. هذا ما يناسب طبيعتها المتشككة..

- «إذن أطلبي المطافئ حالًا!»

- «لا أعرف كيف.. أرجو أن تفعل هذا أنت!! إن أعصابي.....»

قلت لها قبل أن أغلق السماعة:

- «سآتي حالًا.. فقط أطمئنك إلى أنّ هذا الدخان يعني أن زوجك بخير!!»

ووضعت السماعة.. لسبب ما اعتبرت هذه المرأة أنني وكيل زوجها.. فلن أستبعد أن تطلب مني إصلاح صنبور المطبخ أو تبديل أنبوب البوتاجاز.. لا ألومها على كل حال.. وطلبت المطافئ.. أعطيتهم العنوان من الذاكرة..

وفي الطريق إلى داره، كنت أفكر.. لقد تمكّن من الفرار والعودة.. لا أعرف كيف لكنه فعلها.. ومن المفهوم أنه عاد إلى شقّة جاره ليتخلص من المزيد من هذه البيروسات.. لا بد أنها صارت مريعة بعد تلك الفترة.. كان قد وجد أن النار حل ناجح، فلجأ إليه..

عندما وصلت البناية وجدت عربة المطافئ هنالك، وقد احتشد عدد لا بأس به ممن لا عمل لهم.. يأتون من لا مكان ويتفرقون في الأثير بعد هذا..

صعدت في الدرج لأجد المشهد المعتاد.. الماء يغرق الدرج والزحام والدخان..

باب الشقة مهشّم.. ومن الداخل يتصاعد الدخان.. لكن الجزء الدرامي من الموضع قد انتهى كما توقعت..

الكل منهمك فلم يهتم بي أحد وأنا أشق طريقي وسط الفضوليين إلى الحمام.. هناك كانت أكثف سحابة ممكنة وعلى الأرض تكومت أجسام متفحمة لا تعرف كنهها..

كل ما توقعته تم حرفيًا..

الآن حان وقت الرحيل قبل أية أسئلة فضولية.. أسئلة من الشرطة أو من الزوجة..

على الأقل أنا مطمئن إلى أنها بخير...

☆ ☆ ☆

في العاشرة مساء جاءني هاتف منه..

صحت في الهاتف وأنا أجفف عرقي:

- «أين ذهبت يا أحمق أمس؟ لم أستطع الانتظار حتى يطير عنقي بأول فأس.. لقد تواريت أنت في أسوأ لحظة ممكنة..»

قال بصوت بارد لا حياة فيه:

- «لقد تذكرت كل شيء.. وأعتقد أنك تصرفت بشكل صائب.. لكني لا أطلبك كي أطمئن عليك.. أنا أريد لقاءك حالًا..»

كنت لم أتناول غذائي بعد.. إن الغداء بعد العاشرة مساء عادة محببة أمارسها أحيانًا.. لهذا حاولت التملص منه لكنه كان مصرًّا.. إذن أين نلتقي يا سيدي؟

حدد لي مكانًا عجيبًا بحق.. في حي (...) القريب من داره.. هناك شارع يدعى (...) في نهايته يوجد مصنع ثلج مهجور لكن بابه الخلفي مفتوح.. يمكن أن نلتقي هناك بعد ساعة!

قلت له في غيظ:

- «هل ستحضر البضاعة معك؟»

- «أية بضاعة؟»

- «الأمر يبدو كما لو كنت ستسلمني حقيبة مخدرات..»

لم يضحك.. لقد صار عصبيًا في الفترة الأخيرة.. فقط قال لي:

- «لا تقلق.. لسبب معين لا أرغب في أن يراني أحد ثق بي.. وتعال في الموعد..»

هكذا وضعت السماعة شاردًا..

طبعًا كان بوسعي ألا أذهب، لكني لسبب ما قدَّرت أنه اللقاء الأخير بيننا.. وعلى الأرجح هو اللقاء الذي سيفسر لي كل شيء.. من أنا كي أرفض؟ منذ قضيت ليلتى جوار تابوت الكونت (دراكيولا) كي أعرف، وحتّى هذه اللحظة كانت الرغبة في اكتساب خبرة جديدة هي الشيطان الذي يحركني..

ثم من قال إنّه سيؤذيني؟

إنه رجل مصدوم واهن. أضف لهذا أن تلك اللقاءات في المصانع المهجورة لا يحدث فيها شيء إلا في السينما.. لقد أفسدت الأفلام عقلي دون شك..

وهكذا وجدت نفسي أركب سيارتي وأتجه إلى العنوان المذكور..

كنت قد حملت كشافًا لأنني قدرت أن الظلام سيكون دامسًا..

بالفعل كانت المنطقة رهيبة.. ظلام دامس.. مجارٍ طافحة تلعب بالنسبة لنا نفس الدور المخيف الذي تلعبه المستنقعات في القصص الغربية.. كلاب ضالة تنبح..

لهذا حرصت على أن أقف بسيارتي بالضبط أمام باب المصنع الخلفي كي لا ألوث حذائي، أو يعقرني كلب ما..

ترجلت.. ودلفت من الباب الذي يصلح بالفعل لأحد أفلام المافيا المصنع عبارة عن ساحة واسعة مظلمة أمامي.. في هذه الأماكن يتم القتل في أفلام المافيا وتوضع الضحيّة في الثلج.. لن ألبث أن أرى (جاك الأعور) أو (مارشيللو الأخنف) حاملًا بندقيته ليخبرني أن الأسرة غاضبة..

لكن لم يحدث شيء من هذا..

كانت هناك (بيارات) عديدة في الأرض.. طبعًا.. مصنع الثلج يجب أن يكون على اتصال مباشر بما تحت الأرض أو شبكة المجاري... فلأكن أكثر حذرًا..

مشيت بضع خطوات ثم توقفت...

توقفت لأنني لم أرغب في أن أدوس الجثة طبعًا..

☆ ☆ ☆

كان رجلًا في الخمسين من عمره، تبدو عليه أمارات النعمة والثراء قبل أن يكف عن ذلك.. وكانت عيناه شاخصتين تنظران للسقف في رعب.. لكني عجزت عن تبين أية جروح في هذا الجسد.. ليس هذا سهلًا وسط هذا الظلام..

هل رأيته من قبل؟ إن الموت يشوه الوجوه لكني متأكد من أنني لا أعرفه..

هذا هو الكمين إذن.. سوف يضاء المكان، ويصيح ضابط ما: استسلم يا (برعي).. المكان محاصر من كل جهة.. لماذا قتلته؟

للمرة الثالثة كنت مخطئًا.. فلم يحدث شيء من هذا..

فقط سمعت صوت (بكر) يتكلم..

رفعت عيني فوجدته واقفًا مستندًا إلى عمود خشبي.. وقد دسّ يديه في جيبه وكان يتكلم هو يحلم..

- «(شكري أبو زيد).. مدير لإحدى شركات التأمين سيئة السمعة.. وهو بالمناسبة رئيسي السابق..»

ثم اتجه نحوي قليلًا فأجفلت.. قال:

- «لا تخف.. أنت لست عدوًا لي.. سأحكى لك القصة من البداية..»

هتفت في انتصار:

- «كنت على حق.. لقد كنت تخفي عنى الحقائق!»

- «أية حقائق؟ لم أكن أذكر أي شيء عن هذه القصة حتى البارحة.. ولكن لا تقاطعني..»

☆ ☆ ☆

لأسباب يطول شرحها يشعر المرء في سن معينة بأنه لم يعش حياته وأنه بحاجة إلى مال وفير كي يعيش.. كنت أنا محاسبًا في شركة التأمين، وكان (شكري) هو المدير.. ولأسباب يطول شرحها أيضًا التقت ميولنا في وقت واحد.. أنا ضعيف الشخصية يصعب أن أقاوم إغراءً حقيقيًا.. لقد انحرفت.. لم يكن بوسعه أن يعمل وحده، وكنت أنا أكفأ منه وأبرع، هكذا استطعنا تلفيق الكثير من حسابات العملاء.. تحايلنا على الدفع للمستحقين.. تلاعبت في كل شيء وقع تحت يدي.. وبدأت أضع يدي على مال.. مال حقيقي لا يفترسه البقال والجزار والكواء.. وعرفت قدماي الطريق إلى المصرف..

لكن الفساد له رائحة تشبه رائحة المجاري التي تغمر هذا الشارع.. سرعان ما بدأ التلاعب في الدفاتر يفصح عن وجهه.. هنا قرر (شكري) أن يلعب اللعبة الشهيرة.. إلقاء بعض الجثث للكلاب..

تم فصلي بقسوة من الشركة، وبدا واضحًا أن الأمور ستتطور.. سيدخل البوليس في اللعبة.. هكذا في سن الخامسة والأربعين وجدتني بلا عمل، مهددًا بالسجن في أية لحظة.. لم أكن أخشى السجن لكني كنت أخشى لحظة أن تعرف تلك المخبولة - زوجتي - الحقيقة.. هي التي تشك في صورتها في المرآة.. سوف تجن حتمًا.. والطفلة التي لن تجد عريسًا بعد عشر سنوات!

لم أكن قد غادرت الشركة خالي الوفاض.. فأنا أحمق لكني لست معتوهًا.. كانت معي أوراق مهمّة.. أوراق تثبت أن (شكري) متورط بالكامل في هذه القصة.. وهكذا قررت أن ألعب اللعبة كاملة.. اتصلت به وقلت له إنني لن أذهب إلى السجن وحدي.. إن لي عامًا لا أفعل شيئًا سوى البطالة، وأنا مهدد طيلة الوقت بالسجن.. هذه لعبة لاثنين.. وعليه أن يفعل المستحيل لإنقاذي..

هنا بدأ الجزء الساذج في القصة.. الجزء الذي يثبت لك كم أنا أحمق.. لقد طلب مني أن ألقاه في قريته لنتكلم بعيدًا عن العيون.. ووعدني بأن يقدم لي ما يرضيني.. سيفعل أي شيء عدا إعادتي للعمل فهذا لم يعد بوسعه الآن..

قالت زوجتي إنني أبالغ أحيانًا في الثقة بالناس.. لا.. ليست ثقة بالناس بل أبالغ في الثقة بنفسي.. وهكذا - بحماقة - ذهبت إلى داره الريفية وقضيت يومي هناك.. كان يحاول إقناعي بإعادة أية أوراق تهدده، لكني كنت متمسكًا بهذه الورقة الأخيرة..

كنت ساذجًا فلم ألحظ عدد الرجال الذي يتزايد في الفناء حيث جلسنا.. رجال يبدو عليهم الشر.. لم ألحظ النظرات الجانبية التي يصدر بها أوامر صامتة لكل منهم..

فيما بعد عرفت أنه استأجر بعض مثيري المتاعب.. مهمة هؤلاء بسيطة جدًّا.. إقناعي بإرشادهم إلى مكان الأوراق.. كلا.. ليس قتلي لأن هذا سيجلب الوبال على رأسه..

حينما تنبهت إلى الحقيقة وإلى أنني محاصر بالفعل، كان رد فعلي حيوانيًا.. وثبت وضربت أحد الرجال، ويبدو أن أحدهم فقد أعصابه فأغمد سكينًا في صدري.. لكني تحاملت على نفسي ورحت أركض فارًا منهم..

حتى أوصلني حظي العاثر إلى ذلك القبر المجهول.. وهنا كف الرجال عن مطاردتي.. لقد كانوا يعرفون..

لا بد أنني نزفت كثيرًا هناك.. ولا بد أنّ هذا أحيا ذلك الشيء العجيب الذي أشعر به في جسدي الآن..

أما ماحدث حين أفقت من إغماءتي فهو أنني نسيت تمامًا كل شيء عن (شكري) والمطاردة والرجال.. لم يكن هناك جرح في صدري.. كل شيء على ما يرام..

هكذا عدت من القرية فلم يلحظ أحد.. وجدت أن لدى حسابًا في المصرف فرحت أنفق منه..

أنت تعرف ما حدث بعد هذا لقد استعملني ذلك (الشيء) للتفريخ.. إلى أن جاء اليوم الذي جئنا فيه إلى القرية.. هنا بدأت الذكرى الغامضة تعبث في نفسي.. واكتمل كل شيء برؤية (سعد) هذا.. لقد كان من بين الرجال الذين استأجرهم (شكري)!

☆ ☆ ☆

10 - خاتمة (ولكن أين القصة ذاتها؟)

واصل (بكر) قصته:

حينما أرسلك (سعد) لتحضر حبلًا كان يريد الانفراد بي.. ويبدو أنه كان سينتهي مني - باعتباري شاهدًا خطرًا - ثم يأتي دورك، ورأيته يرفع الرفش وعيناه تتقدان نارًا..

هنا لم يعد جسدي ملكي.. لقد خرجت تلك الخيوط المخيفة من أنفي وعيني وفمي، ورأيت مشهدًا كابوسيًا تم فيه تمزيق ذلك الوغد إربًا في ثوان.. لقد تناثر كلحم مفروم في دائرة قطرها متران.. ثم عاد كل شيء إلى وضعه الطبيعي..

هنا رحت أحاول جاهدًا أن أستعيد روعي.. وأعتقد أنني نجحت في هذا.. وبحركات ميكانيكية رحت أهيل التراب فوق هذه البقايا..

لقد دافع الشيء عني لأنّه بهذا يدافع عن نفسه.. النسر يدافع عن العش الذي يربي فيه صغاره..

ثم جاءت لحظة حرق تلك الكائنات.. في هذه اللحظة شعرت بأنني لا أتحمل.. كل ذرة في كياني تنتفض.. كنت أنت مشغولًا فلم ترَ الخيوط تخرج من أنفي تتحسس هنا وهناك في جنون..

هكذا قررت الفرار.. تركتك وفررت..

تسأل كيف استطعت العودة من تلك القرية؟ بسيارتك طبعًا! لقد تطورت كثيرًا جدًّا.. صرت أتصرف ككتلة بروتوبلازم حقيقيّة.. لا أعرف كيف ولا متى وجدت نفسي ألتصق بقاع السيارة.. لكني فعلتها.. وعدت أنت غير عالم أنني أتعلق بسيارتك من أسفل...

في الصباح الباكر عدت لداري، وقررت أن أعدم تلك البيروسات الموجودة في المغطس.. كنت أمقت هذه الأشياء، وقد رغبت في أن أتخلص منها ثم أقتل نفسي.. لا أعرف حلًا آخر..

كانت عملية الحرق شنيعة، وقد راح ذلك الشيء في داخلي يتلوى بعنف.. وفي هذه اللحظة عرفت أنه امتلكني بالكامل.. لم أعد أرغب في التخلص منه بل أرغب في التخلص من نفسي ليحيا هو! إنني مجرد قشرة رقيقة تحميه من العالم الخارجي وسرعان ما سوف يمزق تلك القشرة ويتحرر..

لكني عقدت معه اتفاقًا صغيرًا.. أعطاني فرصة واحدة كي أنتقم ممن دمر حياتي، وكاد يفتك بي.. وقد وافق على أن ينتظر وأن يساعدني كذلك..

وهكذا اتصلت بـ (شكري) كما فعلت معك.. طلبت أن ألقاه هنا وحده إذا كان يريد تلك الأوراق.. طبعًا جاء لكنه كان مسلحًا وقد شهر سلاحه هذا من البداية.. وكان هناك رجل آخر يذكرك بالحرس الشخصيين، لكنني لم أبال بالرجلين.. هجمت.. اخترقت طلقة صدري وأخرى رأسي.. لكنهم لا يعرفون أن الشيء يعرف كيف يعالج أي جرح في لحظة حدوثه.. سرعان ما التأمت جروحي، وكان قضائي على الرجلين يشبه ما حدث مع (سعد) ليلة أمس وإن كان الشيء قد ترك الجثث سليمة هذه المرّة..

الآن أنا أشعر براحة.. وقد تهيأت لأن ينتهي دوري..

☆ ☆ ☆

كانت القصة معقدة بالفعل.. فيما بعد سأحاول استيعابها وفهمها.. لدى أسئلة كثيرة لكن أهمها هو:

- «هل تعني أن داخلك.. ما يملؤك من الداخل الآن هو الشيء؟»

- «نعم.. كل خلية وكل تجويف من جسدي..»

- «وتلك البيروسات التي تتساقط منه طيلة الوقت؟ هل ستنمو لتصير مثله؟»

- «نعم.. ما بقي منها حيًّا ولم يحترق.. إن أكثر ما يلهب حماس هذه الكائنات ويجعلها تنمو بسرعة يُمكنك رؤيتها هو شعورها بالرعب البشري التوتر البشري.. الخوف.. القلق.. الشك.. لا أدري إن كان تحليلي دقيقًا أم لا، لكني أعتقد أن الرعب الذي شعرت به لحظة المطاردة في تلك الليلة هو الشيء الذي جعل هذه البقايا تتحرك.. من يدري؟ لربما ناداني نداءً صامتًا كي أسقط في تلك البقعة بالذات!»

هنا بدا لي هذا منطقيًا.. الفأر المذعور الذي وضعه د. (حسين) جوار الخيوط في تلك الليلة.. فقط استدار ليصنع بعض القهوة ثم عاد ليجد أن الفأر مات، والمنضدة مغطاة بالخيوط.. جو بيت (بكر) مع تلك الزوجة القلقة المذعورة.. هل يوجد جو أكثر ملاءمة لنمو كائن ينمو بالخوف؟

صاح وهو ينظر إلى السقف:

- «انتهى الأمر! اعتن بأسرتي يا دكتور (رفعت)!!»

- «عم تتكلم أيها الأحمق؟»

كان الظلام شديدًا.. ضوء الكشاف لم يحسن الأمور كثيرًا.. لهذا لم أتبين تفاصيل ذلك المشهد الشنيع.. لكنني تخيلته في ذهني.. (بكر) يمزق القشرة الرقيقة والشيء يتحرر.. شرنقة آدمية

عملاقة تخرج منها فراشة مخيفة.. لن أطيل الوصف لأنني أمقت الرعب المعوي، لكن كيف تصف رجلًا يمزق جسده كي يتحرر كائن بروتوبلازمي مكسو بالأهداب، مالم تصف ذلك فعلًا؟

صحت فيه:

- «انتظر يا أحمق! إن الطب قد...»

- «فات الأوان..»

قالها ومزق آخر ما كان يرمز له كبشرى، وفي اللحظة التالية رأيت الشيء للمرة الأولى كاملًا.. يصعب أن أصفه لأنّه أقرب إلى كتلة هلامية عملاقة بارتفاع قامة الإنسان، ومغطاة بالكامل بتلك الأهداب.. إنّه أقرب إلى واحد عملاق من تلك البيروسات التي كنا نقتلها عند المقبرة..

وقبل أن أفهم ما يحدث كان قد انساب بنعومة لا تصدق.. إلى أين؟

إلى تلك (البيارات) المنتشرة في الأرضية.. لقد غاب في شبكة المجاري ببساطة..

لم أصدق أنّ هذا حيث إلا بعد ربع ساعة ظللت فيها واقفًا أرمق المشهد بغباء، وحين ثبت إلى رشدي عرفت للمرة الأولى أنني وحدي.. وأنّ هناك الكثير من الظلام وجثتين...

يجب أن أرحل من هنا حالًا..

☆ ☆ ☆

قالت الزوجة وهي تقدم لي قدح القهوة:

- «سيجدونه.. لا أعرف كيف لكني أشعر أنه حي..»

كنت أنا أملك الإجابة الكاملة.. لكني بالطبع لن أستطيع الكلام.. هل أخبرها أن زوجها كان قشرة، وأن جوهره الحقيقي موجود الآن في شبكة المجاري؟

طبعًا لا مجال لهذا هنا.. دعها تعش في وهم الزوجة المخلصة التي اختفى زوجها لكنه سيعود..

ومن قال إنّه لن يعود؟ الشيء موجود تحت هذه المدينة.. ويوم يحدث انسداد في شبكة المجاري، فلربما يكون هو أول ما يجده عامل غافل.. هل يخرج يومًا ما من مغطس منزلي؟

كل هذه أسئلة تثير الذعر.. لكن لا جدوى منها..

لقد كان الشيء موجودًا من دهر، ولا يوجد ما يمنع أن يظل كذلك..

قالت لي الزوجة وهي تحك شعرها:

- «أحيانًا أشعر أن الرعب سيطير صوابي.. القلق..»

- «هل تتعاطين الأقراص المهدئة التي كتبتها لك بانتظام؟»

- «نعم.. نعم..»

سمعت صوت طفلة في الصالة، فصاحت الأم تناديها أن (سلمي على عمو)..

كانت هذه (دينا).. الأب كان وسيمًا والأم - برغم القلق الذي شوه ملامحها - لا تخلو من جمال ذابل، لهذا كانت الطفلة ذات الثامنة دمية حقيقيّة..

دخلت (دينا) حاملة قصة أطفال للتلوين، وقلمًا فارغًا.. ونظرت لي بحذر، ثم همست بصوت مسموع لأمها أن.. وش.. وش.. وش...

صاحت الأم في عصبية:

- «الهمس عيب.. تكلمي بصوت عالٍ..»

- «أريد قلمًا آخر.. هذا قد نفد..»

- «ليكن.. سأبحث لك عن واحد..»

ثم وضعت يدها على كتف الطفلة وأشارت إلى أذنها وقالت:

- «أعتقد أنها مصابة بعدوى في أذنيها.. هل تفهم في أمراض الأذن يا دكتور؟»

وضعت القدح وابتسمت.. يصعب على من يجلس مع طبيب ألا يبحث عن أي شيء في جسده أو جسد طفله ليسأل عنه..

- «في الحقيقة لا.. لكن بوسعي أن ألقي نظرة..»

دنت مني (دينا) ووقفت.. كانت مذعورة متشككة هذا طبيعي لأن العصاب ينتقل كأي مرض معد آخر..

أبعدت خصلات الشعر الأحمر الناعمة ودققت النظر..

من ثقب كل أذن رأيت تلك الخيوط الزرقاء الشفافة قصيرة جدًّا لكنّها موجودة..

وارتجفت..

لقد انتقل الشيء إلى أشياء عديدة، وأشخاص عديدين لكنني نسيت تمامًا أن لـ (بكر) زوجة وابنة.. فمن أحق بالتقاط هذه الخيوط المريعة منهما؟ هذه ضربة تحت الحزام لكنّها برغم هذا عادلة.. حين تنسى النمر الواقف خلفك فهذا لا يعني أنه غير موجود.. هذا خطؤك أنت لا خطأ النمر..

غادرت الشقة لا أعرف أين الباب، ولا كيف كانت القدم تنثني أثناء المشي..

ماذا أفعل؟ ماذا أقول؟

هل أنصح بإعدام الطفلة والأم؟ عسير أن أشرح لهما القصة كاملة.. عسير أن أشرح لأي مخلوق..

سأطلب رأي أحد أطباء الأنف والأذن وأدعو الله أن أكون أحمق.. وأن تكون هذه مجرد عدوى فطرية..

لقد ازداد عبء ما أحمله على كاهلى من أسرار حتى صرت مرهقًا فعلًا...

كانت لي قصة أخرى مع الشيء أو بقايا الشيء.. ربما أحكيها لو طال بي الأجل، لكني - بالنسبة للحظة الحاضرة - أعتقد أننا اكتفينا من الخيوط والبيروسات.. فلنتوقف هنا.. أرجوكم أن نتوقف هنا..

كان صندوق (بندورا) ينتظرني..

من يفتح صندوق (بندورا) يدفع الثمن غاليًا.. لكن كل الدلائل تقول إن هناك من فتحه..

ولكن هذه قصة أخرى...

د. رفعت اسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

مقـدمة

1 - مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

2 - مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

3 - مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

4 - مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

5 - مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

6 - مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

7 - مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

8 - مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

9 - مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

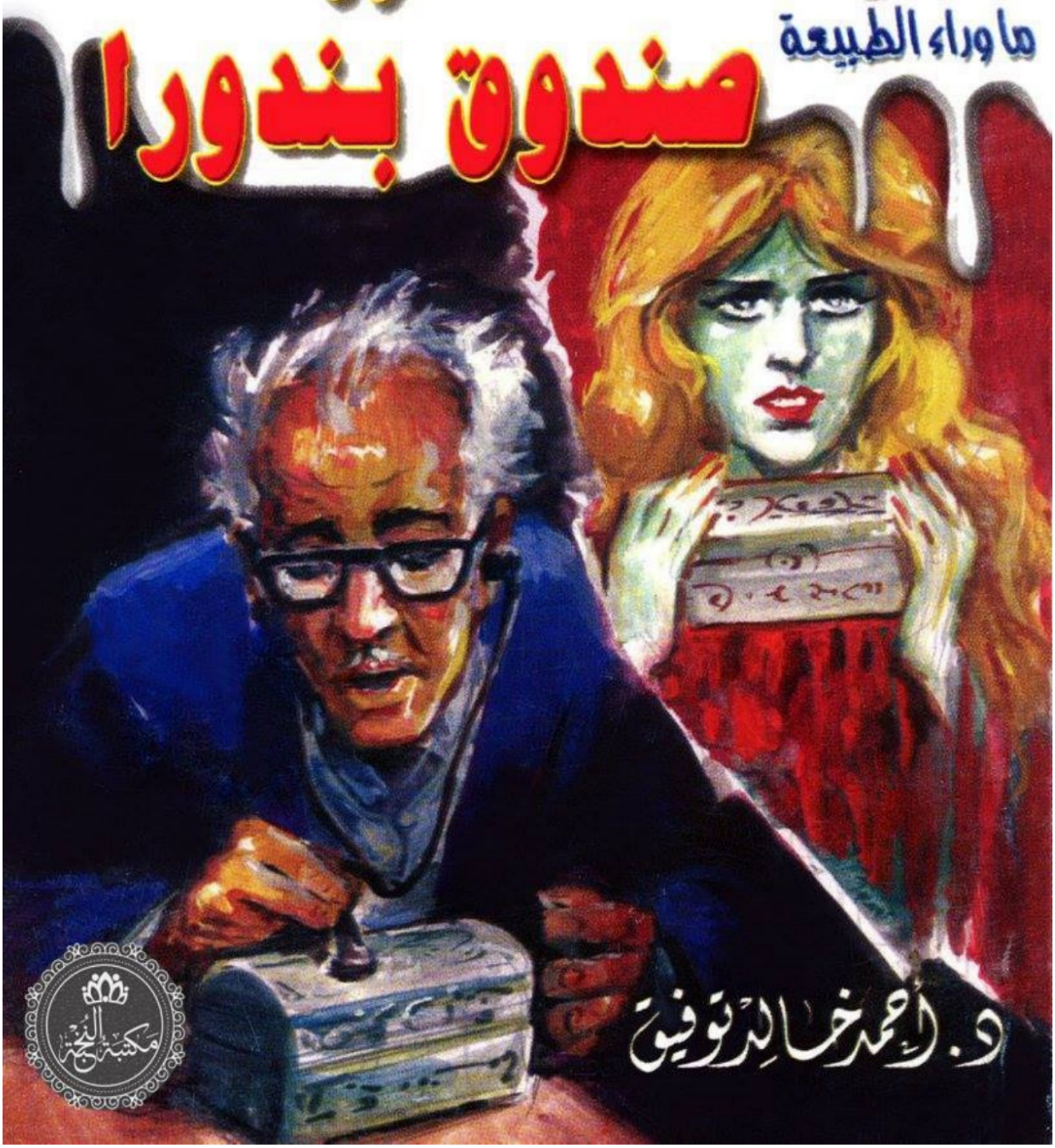
10 - خاتمة (ولكن أين القصة ذاتها؟)

روايات مصرية للجيب

62

ما وراء الطبيعة

أسطورة صندوق بندورا



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة النجمة

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



مقـدمة

لا أذكر إن كنت حكيت لكم قصة (صندوق بندورا) هذه أم لا..

المشكلة هي أنني حكيت الكثير فعلًا،، حتى صرت لا أذكر أي شيء حكيته.. يبدو أنّ هناك قصصًا ضاعت للأبد.. ونسيت أنني نسيتها.. كما أنّ هناك قصصًا مازلت أعتقد للمرة الألف أنني لم أحكها بعد..

لحظة حتى أراجع مفكرتي.. قصص المسوخ.. أعتقد أنني كلمتكم عن (الشيء)؟ جميل.. قصص القدرات الخارقة.. قصص الطلاسم المغلقة.. لا.. لم أحك قصة (بندورا).. إنها مناسبة، ولتكونن هي قصتنا اليوم..

كم الساعة الآن؟ الثامنة مساء.. جميل.. هذا يناسب قصص الرعب التي لم تخلق لتُسمع أو تُقرأ إلا ليلًا.. هناك من يرغبون في العودة إلى ديارهم في وقت معقول.. هذا طلب مفهوم خاصة بالنسبة للآنسات الصغيرات.. سأحاول أن أكون مختصرًا وأن أنهي القصة قبل العاشرة مساء..

هل من شروط أخرى؟

نعم.. أعرف أن صوتي خفيض.. إنها أسباب صحية لا دخل لي فيها، لكني سأحاول أن أجعل صوتي مسموعًا، ولتقتربوا قليلا لتجعلوا مهمتي أسهل.. يمكن تضييق هذه الدائرة أكثر من هذا..

ساعدوني أنتم أيضًا بتقليل الهمسات الجانبية.. لاتصدقون ما أقول؟ ليكن.. كيف أبرهن على أنني صادق؟ لا توجد طريقة على ما أعتقد، لكن دعونا لا نأخذ الأمر على طريقة محققي الشرطة أو محاكم التفتيش.. هل حدث هذا أم لم يحدث؟ هل تشرق الشمس من الشرق أم الغرب؟

ليست الحقيقة هي كل مانريد.. بل الخيال وربما الاستمتاع.. دع خيالك يقم بالمهمة، وتخل عن تحفظاتك المسبقة..

هل من شيء آخر لم نقله؟

نعم.. صوت الخطوات خارج الغرفة شيء معتاد ولا يجب أن يقلقكم.. المخضرمون منكم ألفوه ولم يعودوا يتساءلون.. اعتبروه نوعًا من الموسيقا التصويرية التي تلعب دور الخلفيّة لكلامي..

ولكن.. إنها الثامنة والربع.. إننا نضيع الوقت الثمين في كلام لا طائل من ورائه.

تعالوا نبدأ حالًا..

كانت قصتي مع صندوق (بندورا) كما يلي...

☆ ☆ ☆

1 - بلدة ما..

لم يكن الأمر صعبًا..

ليس صعبًا على الإطلاق..

في القرون الغابرة، كان عليك أن ترى النظرة في عيني خصمك.. ربما تحوي الرعب، وهذا بالتأكيد يجعل الأمر أصعب.. ربما يتوسل إليك وهذا يجعل الأمور أصعب فأصعب.. كان عليك أن تلتحم به جسديًا.. كان عليك أن ترفع النصل عاليًا وتهوي به، عالمًا ما سيحدث بالضبط.. تعداد البشر قل واحدًا.. هناك شرايين وأوردة وأعصاب لن تؤدي عملها للأبد..

رباه! الحقيقة أن الحروب الشجاعة هي التي مضى عهدها.. أمّا اليوم فقد صارت الأمور أسهل..

طيار في مقعده المريح فوق السحاب يرى الأرض كخارطة لا أكثر.. يضغط الزر وينتهي الأمر ويعود.. لا وقت للتفكير في شيء.. كل ما يهمه أن يكون دقيقًا وألا يخطئ الهدف.. كأنه يلعب لعبة فيديو ما..

حتى مع مستوى أقل من التقنية - كما هو الحال الآن - يظل الأمر سهلًا..

كل ما عليه هو أن يجذب السلك إلى نهايته.. يخفي العبوة في موضع ما تحت البناية.. يتوارى بعيدًا..

☆ ☆ ☆

إنّه العام 1976.. لقد خرج العالم من مرحلة صراعات عنيفة.. التقارب بين الولايات المتحدة والصين.. انتهت ثورة الشباب لأن حرب فيتنام انتهت.. (نيكسون Nixon) قد ترك البيت الأبيض من عامين بعد فضيحة (ووترجيت Watergate).. الصراع العربي الإسرائيلي - كما حسبوا وقتها - يقترب من نهايته..

لكن هذه البلدة اليونانية الهادئة لا تعرف شيئًا عما يدور خارجها.. إنها عبارة عن بركة ماء لا يحدث شيء على سطحها.. وما يحدث لا يدوم.. هل نذكر اسمها؟ لا داعي لذلك حتى لا نتحمل بعلم لا ينفع.. كفانا أنه بعد ساعات لن يكون لها وجود على الخارطة..

أحيانًا يجلس القوم في الحانة يتبادلون النميمة.. ربما يتحدثون عن الزوجات، وكل الزوجات شريرات مخبولات في نظر هؤلاء القوم.. ربما يناقشون السياسة لكن آراءهم في السياسة حمقاء ساذجة.. ترى هل من الحكمة أن تعود اليونان ثانية إلى حلف الناتو Nato؟ ترى هل كان الحكم العسكري بقيادة (جيزيكيس Gizikis) أفضل مما يجري الآن مع حكومة (كرامنليس Karamanlis) المدنية؟

ما رأيك في إجابة هذه الأسئلة؟ لا تعرف؟ قل أي رأي ولسوف يكن أكثر عمقًا وواقعية من آراء هؤلاء القوم..

يقول أحدهم وهو يمد كأسه للساقي:

- «الحكم العسكري يمتاز بالحزم.. وهذا هو ما تحتاجه الشخصية اليونانية. الحزم.. الوالي العثماني العجوز كان يعرف كيف يعامل هؤلاء.. دع هامش ديمقراطية لليوناني ولسوف يمزقك في أية فرصة..»

في هذه اللحظة كان (ميخائيل مندوريس) منهمكًا في بيته.

كان يحشو الخراطيش المصنوعة من الورق المقوى لبندقية الصيد الخاصّة به.. لماذا يفعل ذلك؟ ليقتل طبعًا.. ظننت هذا مفهومًا.. يقتل من؟ لا أعرف طبعًا.. ظننت هذا مفهومًا.. هو كذلك لا يعرف.. كان هناك وجه واحد كريه يتوارى خلف الضباب ولا يمكن تبين ملامحه.. لكنه مقيت كالوباء..

هذا الوجه يجب أن يموت. يجب أن تطلق النار على زحام الناس.. لا يهم من يموت ومن يحيا.. المهم أن ذلك الوجه الشرير سوف يزول من على الأرض..

أين يوجد أكبر عدد من الرجال في هذه الليلة؟ في الحانة طبعًا.. يشاهدون إحدى المباريات على الشاشة الصغيرة ويثرثرون..

غدًا قداس الأحد، ولسوف يكون هناك عدد أكبر بالإضافة للنساء والأطفال.. لكنه لا يجرؤ بالطبع على تدنيس الكنيسة بالدم.. سيفعلها هنا والآن..

☆ ☆ ☆

ترتجف (تابيثا) من فرط الحمى..

وللمرة الثانية يعد د. (فلسيليادس) النبض.. إنّه بطيء وهذا يضع الحمى ضمن مجموعة محدودة جدًّا من الأسباب، لكن الفتاة لا تستجيب لأي علاج..

دنت الأم منه ووضعت المنشفة على جبين الطفلة، وهمست:

- «أتراه التيفويد Typhoid يا دكتور؟»

أحنقه هذا.. كأنه لم يفكر في تلك الحمى ألف مرة، ويحقن الطفلة بجرعات عدة (إمبريقية) من الكلورامفنيكول Chloramphenicol.. وتذكر ساخرًا ولادة أجراها منذ أعوام، كانت تلميذة تمريض مراهقة تقف جواره.. إذ برز الرأس هتفت الأم المنهكة: ولد أم بنت يا دكتور؟

قال وهو يواصل التوليد:

- «لا أعرف بعد..»

هنا قالت طالبة التمريض في حماس:

- «لو سمحت لي أن ألقي نظرة لأخبرتك.. فأنا أعرف هذه الأمور!»

هكذا تتوقع الأم بهذه العبارة أن تدق جرسًا في ذاكرته.. عندها يصرخ: التيفويد.! كيف لم أفكر في هذا؟ إنني لأحمق حقًّا! ثم يملأ المحقن ويفرغه في وريد الفتاة فتشفى..

قال للأم وهو يعد نبض الطفلة من جديد:

- «في الحقيقة لا أعرف.. أعتقد أن السلطات الصحية يجب أن تأتي..»

ومالم يقله لها هو أن حالة الطفلة هي الرابعة من نوعها هذه الليلة بالذات.. إن الأمر يتخذ صورة وبائية لا شك فيها.. هذه هي اللحظة التي يطوي فيها خيامه ويرحل كما يقول الأعرابي، ويترك المهمة لمن هو أقدر..

☆ ☆ ☆

تشاجرت مع (بالاماس) بعنف هذه الليلة..

لم يكن الأمر يستأهل كل هذا الصراخ الجنوني، لكنّها فعلتها.. ولكل فعل رد فعل مساو له في المقدار مضاد في الاتجاه.. وقد كان زوجها عنيفًا مثلها وألعن..

لماذا تشاجرت؟ طبعًا لا تعرف.. ربما كان القمر المكتمل هو السبب..

المهم أن البيت صار كتلة من اللهب.. الكراهية تسربت إلى كل ركن فيه وكل شق..

كان هذا حين شعرت بتلك الوعكة في هذه الليلة بالذات.. تشعر بارتفاع في حرارتها.. وقد قامت بجهد بسيط في التنظيف ففوجئت بأن حبيبات العرق نبتت فوق كل موضع من جسدها.. إنها لا تتحمل ملمس الثياب على جلدها، وحين دنت من شاشة التلفزيون شعرت بأن الكهرباء الإستاتيكية تلسع جلدها بألف دبوس..

كان (بالاماس) يريد العشاء..

كالعادة يأتي عصبيًا بسبب ضيق الرزق.. وهو يريد العشاء حالًا..

صاحت في جنون:

- «اخرس قليلًا! أنا أسمعك!»

كان هذا خطأ قاتلًا، لأن (بالاماس) نموذج ممتاز للإنسان غير المتحضر.. لا بد أن جده القريب كان يجر جدته من شعرها في كهف ما.. وقد فوجئت به - خلال ربع ثانية - يقف أمامها والشر يشع من عينيه:

- «ماذا قلت؟»

بدا لها مبتذلًا بحق.. سخيفًا بحق.. كيف يسمح إنسان لنفسه بأن يطيل سالفيه إلى هذه الدرجة ويعتبر نفسه وسيمًا؟ ثم هو يحاول أن يبدو قويًا.. وطريقته هذه صبيانية خالية من الأصالة، كأنه يقلد بطل فيلم أعجب به..

قالت في تحد:

- «قلت لك أن تخرس قليلًا.. لو كان الصراخ موهبة، لكان الحمار أعظم الموهوبين!»

خلع حزامه كما يفعلون في مصارعات الأزقة، ولفه حول قبضته، وعاد يكرر:

- «هلمي.. ماذا قلت؟»

هذه المرّة كانت مستعدة لأن تمضي إلى نهاية الشوط.. قالت في مزيد من التحدي:

- «أنت سمعتنى مرّتين.. لم أسمع عن حمار أصم، لكنك حققت هذا!»

عاد يكرر السؤال:

- «ماذا قلت؟ دعيني أسمع!»

صرخت بأعلى صوت في حنجرتها:

- «اخرس!!!»

☆ ☆ ☆

كان الأطفال يلعبون في حديقة المدرسة..

لقد خيم الظلام على القرية، لكنهم كانوا يأتون هنا ليلًا كي يلعبوا ليلة الأحد.. خاصة والمصباح الوحيد الموجود في غرفة السيد (ساماراكيس) المدير يجعل إضاءة المكان مناسبة.. خافتة لكن كل شيء واضح.. أضف لهذا أن القمر مكتمل هذه الليلة بالذات..

يبدو أن (فاسيليوس) قد هجم على المرمى، في اللحظة التي استعد له (إلياس) ابن العاشرة كي يمنعه.. كانت النفوس متوترة والحماس جارفًا.. وهنا اندفعت قدمه في حذائها الثقيل لتركل ساق حارس المرمى..

سقط هذا على الأرض يئن بينما انطلقت الكرة كالقذيفة في الهدف.. لم تكن هناك شباك لكنّها اهتزت برغم هذا في أذهان الكل ووثب (فاسيليوس) في الهواء مهللًا..

لكن (أنطونيس) - الذي اهتزت شباك فريقه - صاح في غضب:

- «أنت ضربت حارس المرمى عمدًا قبل أن تصوب الكرة!»

- «لم يحدث.. أنت أعمى!»

- «وأنت كذاب!»

وهنا نهض حارس المرمى (إلياس) وهو يثب على ساق واحدة:

- «هذا ليس هدفًا صحيحًا»

- «بل صحيح!»

- «ليس!»

- «صحيح!»

وسرعان ما التهبت النفوس، فانقض (فاسيليوس) على (إلياس).. هب (أنطونيس) يساعد حارس مرماه، وسرعان ما تحول الملعب إلى كتلة متلاحمة من أجساد الأطفال الذين يتبادلون الركلات والعض والصراخ..

ومن النافذة ظهر وجه السيد (ساماراكيس).. طبعًا هو عكس النور فلا ترى إلا السلويت الخاص به..

كان حازمًا، لكنه كان يفضل أن يترك الصبية يمرحون خارج ساعات الدراسة.. إلا أنّ ما رآه من النافذة كان يفوق الوصف.. خاصة والصراخ يمزق أعصابه، وهو لم يتحمل الصراخ في حياته.. كان يؤمن أن كرة القدم مجرد تنكر لأحط الغرائز السادية البشريّة.. فقط كانوا يهللون منذ ألفي عام بينما الأسود تلتهم المسيحيين في الأرينا Arena.. الآن يهللون بلا أسود.. لكن النتيجة واحدة..

صاح بأعلى صوته حتى أوشك الوريدان على جانبي رأسه على الانفجار:

- «توقفووااااااااا! آمركم بهذا!!»

لكن أحدًا لم يبال به أو يسمعه..

عاد يصرخ وقد ازداد جنونًا:

- «قلت لكم توقفوا يا حمقى!»

لكن الأطفال لم يبالوا به قط.. ولم يكن (ساماراكيس) ممن يطيقون أن يستخف أحد..

☆ ☆ ☆

في التاسعة مساء انفجر كل شيء..

(مندوريس) اقتحم الحانة وسط العيون المذهولة غير الفاهمة، وراح يُطلق النار جزافًا فيسقط من يسقط.. لم يعد أحد يتكلم عن الحكم الملكي ولا الحكومة العسكرية.. لقد تحول كل شيء إلى صرخة عالية مندهشة..

وفي الوقت ذاته تبادل (بالاماس) وزوجته الطعنات.. يبدو أنها صارت قوية كالثيران البرية بعدما جلدها بالحزام.. وسقط اثنان خارج الباب المفتوح كأن انفجارًا أطاح بهما، وقد خشي الجيران أن يلمسوهما لمدّة عشر دقائق كاملة..

بينما أفرغ (ساماراكيس) خزينة مسدّسه في الطلبة الذين يلعبون في فناء المدرسة..

هبت ريح عاتية من الغرب.. لكنّها قابلت ما أثار شهيتها.. هناك حريق حريق في دار أو دارين.. إنها أيام توزيع البريد الجميلة قد عادت! كثير من المرح هنا! وسرعان ما كانت الريح تنقل جذوتها إلى أكثر من بيت..

في الوقت نفسه ماتت الصغيرة (تابيثا) وقد اشتدت بها الحمى..

أما ذروة السيمفونية فكانت عندما أغلق ذلك المعتوه الدائرة الكهربية.. و...

بووووووم!! دوى الانفجار الرهيب في الحانة وبناية البلدية والنادي النسائي.. واهتزت البلدة كلها من الرعب أكثر منها بسبب الانفجار ذاته...

وهوت بقايا الانفجار أرضًا فتلقفتها النيران القادمة من الغرب...

وفي السماء لم يعد أحد يرى قرص القمر...

لقد غطى الدخان كل شيء..

فيما بعد كان هذا القمر المكتمل هو المتهم الرئيسي في القضية.. إن سلوك الإنسان العدواني الجنونى يتزايد مع القمر المكتمل.. وهذه حقيقة عرفها العلماء من زمن...

فيما بعد - وكما يحدث عندنا في مصر - قضت الصحف أيامًا عظيمة مع وصف الحدث وتحليله، وتكلم آلاف علماء النفس والجريمة عن تأثير التلفزيون على الشباب، وتأثير الشباب على التلفزيون، وتأثير عادة حك الأنف على الإرهاصات الأيديولوجية اللائكية لنظرية (لامبروزو Lombroso) خاصة مع المزيد من الديالكتيك والجشتلط..

في النهاية لم يفهم أحد شيئًا، ولم يعرف أحد شيئًا وصار بوسعنا أن نغلق هذا الملف

☆ ☆ ☆

2 - العائد..

كنت ساهرًا أشاهد فيلم (ليلة الموتى الأحياء) للمخرج المشاغب (جورج روميرو Romero).. ألم أخبركم؟ لقد ابتعت جهاز (فيديو) في وقت كانت فيه هذه الأجهزة نادرة في مصر، وهو جهاز عجيب يشبه التابوت في الحجم والشكل والأصوات المنبعثة منه ليلًا.. وكانت شرائط الفيديو وقتها من حجم كبير، حصلت عليها من الخارج مباشرة..

يقول النقاد السينمائيون إن هذا الفيلم يمثل بالحرف (كيف تلتهم أمريكا نفسها).. الموتى يغادرون قبورهم بلا سبب ليأكلوا الأحياء.. هذه فكرة الفيلم أمّا باقي الفيلم فهو قيامهم بهذا العمل.. جنون عام وفوضى ومذبحة دموية بلا آخر.. الناجي الوحيد يُقتل لأنّه بدا لفرق الإنقاذ كأنه زومبي آخر.. هذا الفيلم ما زال يعرض حتى القرن الواحد والعشرين في الولايات المتحدة، وأصارحكم القول إنّه أثار هلعي[1].. برغم انسجامي الواضح مع الرعب، فإن الرعب الذي أتحمله وربما أحبه هو رعب (الجو).. رعب التلميح بالشيء لا إظهاره..

ثم - لحظة من فضلك - ما الذي يعرفه هذا المخرج أو سواه عن هذه الأمور؟ هو لم يضع خمسين عامًا من عمره في هذا الهراء كما فعلت أنا..

كنت على كل حال في ذروة التوتر مع أحداث الفيلم، حين دق الجرس..

إنها الثالثة بعد منتصف الليل.. وبما أن (عزت) مسافر فالقادم مسخ.. معادلة بسيطة جدًّا أجراها عقلي المكدود، ثم لم ألبث أن عدت إلى صوابي شاعرًا بالخجل..

هرعت إلى الباب أسأل من الطارق وأنا أعرف أنه لن يجيب، لكنه أجاب...

إنّه (عزت).. غريب هذا..

كان (عزت) في اليونان من عشرة أيام.. يبدو أنّ هناك مهرجانًا ما يحمل اسمًا على غرار (البينالي العاشر للنحاتين المرضى عقليًا) قد دعاه فلبى.. وكان (عزت) يتمنى أن يتمكّن بشكل ما من البقاء في اليونان بعد المعرض للأبد.. إن عدد العرب هناك أكثر من اليونانيين، ويبدو أنه كان يبحث عن فرصة من التي يبحث عنها ألوف فلا يجدونها..

الجديد هنا أنه عاد، وأنه لم يطق صبرًا حتى الصباح كي يراني..

رحبت به بحرارة ودعوته للداخل.. أعترف أنني أحب هذا الفتى وأنه من القلائل الذين لا أتضايق لدى رؤيتهم في أية ساعة من اليوم..

جلس (عزت) وراح يحكي لي في مرح عن تلك الأيام هناك.. وهى قصص سئمتها أولًا لأنني رأيت اليونان مرارًا.. ثانيًا لأنها ذات القصص التي يحكيها كل مصري من الخارج.. لابد من قصة الكاميرا التي نسيها على مقعد الحافلة، وظلت هناك لم يمسسها أحد بعد تسع سنوات، وحتّى وجدها هو.. لا بد من قصة قشور الفستق التي كان يلقيها في الشارع، فوجد رجل الشرطة قد جمعها كلها في قبضته، وجاء خلفه ليشير في تهذيب إلى أقرب سلّة مهملات.. لا بد من صورة أو اثنتين مع شقراء اسمها - دائمًا - هو (لورا) التي بكت كثيرًا ساعة الرحيل.. طبعًا يتضح فيما بعد أنه لا يعرفها، وأنها كانت تعبر الشارع حين استوقفها وطلب أن تسمح له بهذه الصورة معها؛ ليراها الحمقى عندنا..

أحيانًا أحسب أن من يحكون هذه القصص لم يذهبوا لأي مكان، وإنما ألفوها وهم جالسون على المقهى في (شبرا)..

سألته عن انطباعاته عن الآثار اليونانية، فلم يبد متحمسًا.. قال لي إنّه أحضر بعض أشياء لكنّها ليست بذات الأهميّة..

- «تعني أنك اشتريت آثارًا إغريقية حقيقيّة كتذكار؟»

ضحك كثيرًا وهتف مصححًا:

- «بالطبع لا.. أتكلم عن التذكارات المزيفة.. مثل التماثيل التي تنتجها أية ورشة في الأقصر.. ألف قطعة في اليوم..»

ثم نظر إلى ساعته وهتف:

- «الرابعة صباحًا.. وقت مناسب جدًّا لزيارتي.. تعال إلى شقتي لترى ما جلبته.. ثمّة أشياء تهمك..»

☆ ☆ ☆

بالفعل أنا أحب زيارة الناس في الرابعة صباحًا..

كانت شقته في حال أسوأ من المعتاد طبعًا، فإن أحدًا لم يعن بها منذ سافر.. دعك من حالتها السيئة قبل سفره أصلًا.. وكانت حقائبه في كل صوب.. بعضها مفتوح وبعضها مغلق.. ثمّة لفافة جريدة مفتوحة بها بقايا شطائر فول وطعمية ابتاعها كعشاء أثناء عودته من المطار..

رقّ قلبي لحاله.. هذا قدر من يعيش وحيدًا.. فلا توجد أم عجوز تبكي بحرارة وتعد له أطايب الطعام لدى عودته، ولا زوجة تعنى بحقائبه وتفتش جيوبه بحثًا عن أشياء مريبة، ولا أطفال يملئون المكان صراخًا.. إنّه لشخص مسكين، إن...

ثم تذكرت أنّ هناك واحدًا آخر يعاني الظروف ذاتها، لكنه اعتاد ألا يرثي لنفسه.. أنا!..

راح يريني أشياء وأشياء مما جلبه.. كلها تفاهات على كل حال..

ثم راح يعرض عليَّ طنًّا من الصور الفوتوغرافية.. وتوقف أمام صورة له وهو واقف أمام البحر ينظر لعدسة الكاميرا في حزن وتأمل، وجواره فتاة يونانية شقراء.. وقال متأثرًا:

- «لقد ذرفت دمعًا حارًا عندما أخبرتها أنني لن أبقى في اليونان..»

قلت بلا مبالاة وأنا أنتقل لصورة أخرى:

- «إن (لورا) فتاة طيبة.. والآن ماذا عن...؟».

هتف في حيرة:

- «اسمها (إيفيتا).. ولكن لماذا استعملت هذا الاسم؟»

تجاهلت إلحاحه وواصلت تفقد الصور، وفي النهاية تثاءبت وأعلنت أن موعد نومي قد حان..

- «ليس قبل أن تأخذ هديتك..»

وطبعًا كنت أتوقع ما أحضره.. لم أكن مخطئًا على الإطلاق.. مجلة يونانية سياسية سميكة خالية من الصور تقريبًا، والأهم أنه لا يوجد فيها حرف بلغة أستطيع فهمها.. أبديت تأثري فأشرق وجهه في سرور:

- «أنا أفهمك تمامًا.. ثق بي في هذه النقطة..»

وهكذا أخذت المجلة شاكرًا ونهضت.. كانت مشكلتي دائمًا هي العثور على ورق جرائد جيد يتشرب الزيت الناتج عن قلي البطاطس دون أن يلوث البطاطس نفسها بالحبر.. لقد حلت مشكلتي أخيرًا..

قال وهو يودعني على الباب:

- «غدًا نذهب لها في الفندق..»

قلت في دهشة:

- «من؟»

- «(إيفيتا) طبعًا! ألم أقل لك إنها فضلت أن تأتي معي إلى مصر ما دمت لن أبقى معها في اليونان؟»

أصابني الذهول..

لقد اعتدت أن أكون على صواب في كلّ مرّة، حتى صار هذا لا يطاق.. يبدو أنني ألعب دور الأحمق الآن على سبيل التغيير...

☆ ☆ ☆

3 - إيفيـتا..

بالطبع يمكن أن أصف لك (إيفيتا) التي كنت أعتقد أنها (لورا).. لكن هذا تحصيل حاصل.. كل شخص يحمل في ذهنه تصورًا مثاليا للجمال خاصًا به وحده، وهناك أجانب يعلقون جوار سريرهم صورة (مارجريت تاتشر) المرعبة باعتبارها تمثل القدوة الأعلى للجمال..

الحقيقة أن (ايفيتا) هذه كانت نموذجًا للجمال الذي يقف على الأرض المشتركة بين البشر جميعًا.. هات فلاحًا من وراء نورجه ليراها.. سوف يصرخ في ذهول (يا بووي!) ويلقي بطاقيته على الأرض.. هات لوردًا من ريف (ويلز Wales) ولسوف يعجز عن الكلام، ويسقط رماد السيجار على سترته الفاخرة.. سوف يلوح متوحشو أستراليا البدائيون برماحهم ويقذفون البوميرانج Boomerang في الهواء، وسوف يشعل الصينيون شموعهم ويدقون الأجراس، بينما ينيخ الأعرابي ناقته وينظم قصيدة من الشعر (النبطي) تعبر عما يشعر به..

الحقيقة أن اسم (إيفيتا) ومعناه (حواء) لم يكن اعتباطًا.. لقد كان أبوها يعرف ما يفعله بالضبط حين ذهب لمكتب الصحة في (أثينا).. هذا لو كانت عندهم مكاتب صحة طبعًا..

أما السؤال المهم هنا فهو: ما الذي وجدته (فينوس) المعاصرة هذه في (عزت)؟ ليس السؤال وليد غيرة. أنتم تعرفونني بما يكفي.. بل هو وليد فضول لا يمكن فهمه.. من يدري؟ ربما كان (عزت) أكثر ظرفًا وموهبة من انطباعي العام عنه..

على كل حال - كما قلت - قابلناها في الفندق الذي قررت الإقامة به على حسابها كي لا تكلف (عزت) مليمًا.. كان التعرف سريعًا، لأن (عزت) كلمها عني كثيرًا.. وكانت تجيد الإنجليزية.. وفهمت أنها رسامة. هذا يفسر كيف التقيا على الأقل..

لم يقلها (عزت) لكني فهمت أن مشكلته هي العثور على سائق خصوصي.. وهو دور لا أرحب به طبعًا، لكني أقبل القيام به هذا اليوم فقط..

وهكذا رتبت لها برنامجًا يناسب جدًّا شخصًا يريد أن يرى القاهرة في يوم واحد.. متحف مصري.. قلعة.. نيل.. أهرام.. برج القاهرة.. ربما يتسع الوقت لخان الخليلي ليلًا..

طبعًا لم أستمتع بلحظة.. إن التعامل مع هذا الجمال الباهر مشكلة، فأنا أمقت لفت الأنظار.. تعرفون أنني أتمنى ألا أموت في الشارع فقط كي أتحاشي زحام الفضوليين.. أمّا والحال كذلك، فقد بدا لي أن مظاهرة تمشي وراءنا في كل مكان..

وأشفقت على (عزت).. لا أعرف إن كان يتمنى الزواج منها أم لا، لكن معرفة فتاة بهذا الجمال يحتاج إلى أن يكون المرء (ستيفن سيجل Seagull) على الأقل - لم يكن قد ظهر في ذلك الوقت - من أجل ألف مشاجرة ستنشب بسبب هذا الشاب الوقح أو ذاك.. ليس الأمر بهذه السهولة، ولربما كان من الأكثر راحة أن تمضي وقتك مع حيوان (ولفرين wolverine) مهذب أو أي دب قطبي يحترم نفسه..

وهكذا قررت التخلص منها - ومنه على الأرجح - في أول فرصة لا أبدو فيها وغدًا أو نذلًا..

عندما جاء المساء ودعناها، وعدنا إلى البناية التي يقطنها كلانا..

هذه المرّة دعاني إلى شقته، وأعد لنا بعض الشاي المقزز، ثم قال وهو ينتظر رأيي في توتر:

- «ما رأيك؟»

وأنا أعرف أن كلامي في أغلب الظروف لا يطاق.. لهذا قابلت سؤاله بسؤال آخر:

- «المهم رأيك أنت.. ما هي خططك؟»

بدا عليه الغباء وقال:

- «خطط؟ هل لا بد من خطط؟»

- «زواج مثلًا يا أحمق..»

فكر من جديد.. أحيانًا أشعر بأنه طفل.. يفاجأ بأشياء غريبة طيلة الوقت.. لكن الأمر ليس بهذه البساطة.. هو كذلك يتمنى أن يتزوج هذا الجمال لكنه يهابه..

لهذا قررت أن أرفع معنوياته:

- «نحن متفقان على أنك مخيف المنظر، متقدم في العمر.. يدرك كل من يراك أنك مصاب بمرض عضال.. دعك من أنك لا تستطيع الحياة من دون جرعات (الكورتيزون) هذه.. لكن لا بد أنّ هذه الفتاة قد وجدت فيك ما يروق لها.. أعترف أنني لا أملك عينيها ولا أرى فيك شيئًا خاصًا، لكن هذه مشكلتها على كل حال لا مشكلتك.. ولا أرى ما يمنع من أن تثق بنفسك برغم أنّ هذه الثقة لا أساس لها..»

كان هذا رقيقًا كما ترى، فأنا أكون فصيحًا معبرًا حتى أتعمد الكلام الرقيق.. وقد دمعت عيناه تأثرًا.. إلا أنه أضاف:

- «أريد أن أكون بقربها طيلة الوقت، لكني لا أملك الشجاعة الكافية كي أحتكرها.. أنت تعرف هذا الشعور..»

قلت في نفاد صبر:

- «هذا جميل.. فلماذا تركتها تأتي إلى مصر إذن؟»

- «إنها سائحة.. هذا من حقها.. ستنهي زيارتها لمصر ثم تعود.. لا مشاكل..»

بدا لي الأمر عجيبًا.. فجأة تقرر اللحاق به في مصر لتقوم بالسياحة.. ثم يتوقع - الأحمق - أن تلك الفترة لن تقوى عاطفته نحوها، ولن تجعله أكثر تشبثًا بها.. لقد كان الفراق عسيرًا حين كان في اليونان.. أمّا الآن في مصر فلسوف يكون مستحيلًا.. يصدّق عليه بيت الشعر الرقيق:

عجبت حين تركتها كيف لم أمت

وكيف انثنت بعد الوداع يدي معي..

على كل حال نجحت - بشيء من اللطف - في التملص منهما وعدت أمارس حياتي العادية.. لا أبالغ لو قلت إنني نسيت هذه القصة تمامًا فلم أعد أتذكرها إلا عندما أسمع المفتاح وهو يدور في الباب المقابل لشقتي.. لقد عاد (عزت)..

☆ ☆ ☆

على أن أشهر العسل لا تدوم.. لقد تسربت (إرادة النكد) إلى علاقتهما.. و(إرادة النكد) هذه هي الاختراع العبقري الذي أرغب إضافته باسمي إلى مؤلفات (فرويد Freud) الذي وصف إرادة الموت قبل هذا.. صديقان أو حبيبان راضيان عن الحياة يضحكان.. هنا يتذكر أحدهما ما فعله الآخر من عشرة أشهر.. أنا لا أريد أن ألعب دور (غراب البين)، لكن كيف سولت لنفسك أن تفعل هذا؟ مازلت عاجزًا عن الفهم.. فيرد الآخر في لا مبالاة.. ثم في حدة.. الأمر الذي لا يقنع الأول.. وهكذا.. وسرعان ما يتحول المشهد إلى مصارعة ديكة.. ولأسباب كهذه يقول المصريون بعد ضحك طويل: اللّهم اجعله خيرًا.. لأنّهم يكرهون أن يضحكوا دون إضفاء بعض النكد على الموضوع في النهاية..

كنت أقول إذن إن إرادة النكد لعبة قاسية بين (عزت) والفتاة اليونانية.. وقد أوصلتهما ذات مرة إلى القناطر الخيرية، فلاحظت أنهما لا يتكلمان تقريبًا.. كما لاحظت أن الفتاة قد اتخذت تعبيرًا من (الاشمئناط) مما ألفناه نحن وأنها تريد الشجار فلا يمنعها من قضم أذنها إلا أنها لا تستطيع أن تبلغها بأسنانها..

قلت لنفسي: أول الغيث قطرة.. حزنت من أجل (عزت)، لكني قدرت أنّ هذا قد يكون حلًا سعيدًا لوضع لا حل له.. شأنه شأن رجل تؤلمه ساقه ثم ذات يوم يفقدها في حادث! لقد ولت مشاكل الساق والساق نفسها!

ويبدو أن الأمور تصاعدت في الآونة التالية.. لكني لم أحاول التدخل.. لن أتدخل إلا لو طلب مني ذلك..

جاءني (عزت) ذات يوم في العاشرة مساء، وقال:

- «أعتقد أن الأمر انتهى عند هذا الحد..»

لم أندهش كثيرًا، لكني تظاهرت بذلك، وسألته:

- «هل يضايقك أن تتكلم؟»

راح يجوب الغرفة في عصبية كنمر حبيس، ثم أخرج لفافة الملح إياها من جيبة و(سف) بعضه.. وهي العادة التي تميز مرضى فشل الغدة فوق الكلوية كما قلت مرارًا، وهكذا صار أكثر قدرة على تحمل الانفعال العصبي والجسدي..

وقال بصوت مبحوح:

- «إنها شابة جميلة.. وهي تتوقع أن تجرني معها إلى ذات المنحنيات الوعرة التي لا تخيف الشباب بينما تخيفني أنا.. طفل شقي يرغب في تجريب أرجوحة خطرة.. وهو مصر على أن يجربها وأن يصحب معه أباه المصاب بارتفاع ضغط الدم وضيق شرايين القلب.. الأب لا يريد تجربة الأرجوحة.. وكذلك لا يريد أن يجرب ابنه هذه الأرجوحة الخطرة وحده..»

سألته وأنا ألوك ما بقي من عشاء في طبقي:

- «هل تعني أنها أخذتك إلى الملاهي؟»

- «أتحدث بلغة المجاز يا (رفعت).. هي تريد أن تجري في الشارع وأنا لا أجرؤ.. هي تريد أن تغطس تحت الماء وأنا لا أتحمل رؤيته.. هي تريد أن نذهب - بلا مال - لنرى العالم وأنا لا أعرف موضعًا أبعد من الإسكندرية ولا أنوي ذلك.. قس على هذا كل شيء.. والنتيجة أنني أصحو من النوم لأقول: لا.. حتى المساء..»

طبعًا هذه التفاصيل متوقعة جدًّا.. إن حالته فريدة.. هي خليط من حب كهل لفتاة صغيرة.. وحب شرقي لغربية.. وقد اعتدت أن أبحث عن التكافؤ في أي شيء في العالم.. لا تكافؤ.. آسف.. لا أتوقع أي نجاح..

سألته وأنا أحمل الطبق إلى المطبخ:

- «هل هناك شيء أفعله؟ أنا لا أملك حلولًا لكن لو طلبت شيئًا لفعلته بشكل آلي..»

قال في ضيق:

- «لا.. أنا أمارس نوعًا من (الفضفضة) لا أكثر..»

- «حسن.. أنت قلت إنها ستعود لبلادها وينتهي الأمر متى يأتي هذا الموعد السعيد؟»

- «لا أعرف.. لقد مددت فترة إقامتها.. لاحظ أنها لا تكلفني مالًا، إنها تتولى نفقاتها بنفسها..»

قلت له وأنا أملأ براد الشاي:

- «ليكن.. إذن حاول أن تبقى بعيدًا لفترة.. هكذا لن تحدث مشاكل جديدة إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا..»

وافق على مضض.. لم يكن بوسعه شيء..

ومرت ثلاثة أيام أخرى، ثم عرفت أن (إيفيتا) عائدة لبلادها..

فركت عيني في دهشة، وقد تذكرت القصة من جديد.. ألم تعد بعد؟ على كل حال لقد حان الوقت لهذا البائس (عزت) كي يكف عن الصراع النفسي قليلًا.. حان الوقت كي يستقر ويعود لصنع تلك الأشكال المخيفة التي يصنعها..

سوف يتعافى (عزت) سريعًا.. ربما أسرع مما أتوقع، وقد احترمته لهذا.. أحب القوم الذين لا يعتبرون مشاكلهم نهاية العالم، ويتوقعون أن يحدث كسوف شمسي أو جفاف أو أن يزحف التصحر إلى شمال إفريقيا، لمجرد أنهم يشعرون بإحباط عاطفي..

سوف يسهر كثيرًا جدًّا ويأكل من شطائر (الطعمية)، ويشرب أكوابًا عديدة من الشاي الساخن الثقيل.. ولسوف يُصاب بقرحة معدية فيعتقد أن الآلام التي يشعر بها هي (آلام الفؤاد وتباريح الهوى).. ثم لا يلبث أن يشفى من هذا كله فيشعر بالرضا عن الحياة..

لكنه سيكون على ما يرام.. حتمًا سيكون على ما يرام...

☆ ☆ ☆

حسن.. لم تكن هذه النهاية.. ولا حتى بداية النهاية كما كان يقول الخواجة (تشرشل Churchill) للبريطانيين الذين ظنوا أن الحرب العالمية الثانية انتهت في (العلمين)، فقرر أن يصيبهم ببعض الاكتئاب..

كانت نهاية البداية...

☆ ☆ ☆

4 - هدية متأخرة..

لا أنكر أنني تضايقت نوعًا لكونها سترحل دون كلمة شكر أو لفظة وداع.. من الطبيعي أن تتوقع أنك تركت في نفس الناس شيئًا أكبر من كونك مجرد سائق خصوصي.. لكني على كل حال قدرت أنها متضايقة، والظرف لا يسمح بالمزيد من المجاملات..

إلا إنها لم تنسني كما ظننت..

لقد جاءني (عزت) في السابعة مساء، وقال:

- «إنها عندي.. وهي تريد أن تودعك قبل أن ترحل»

لا أنكر أنني تأثرت لهذه اللمحة من الرقة.. وارتديت ثيابي مسرعًا ثم اتجهت إلى شقّة (عزت).. كان الباب مفتوحًا، وثمّة فوضى عامّة.. على قدر علمي هذه أول مرة ترى فيها الفتاة البائسة مخزن الخردة هذا، وقدرت أنها بعد ما رأته لن تفكر مرّة أخرى في الموضوع. من الصعب أن يتزوج المرء خرتيتًا حتى لو هام به حبًّا..

كل شيء يوحي باستعدادات الرحيل، لكن حقائبها لم تكن معها طبعًا.. كانت في سيارة تنتظر على باب البناية..

ترى علام اتفقا؟ يبدو من الجو العام للمشهد أنهما اتفقا على الفراق كصديقين متحضرين..

كانت تقف هناك في ذروة أناقتها وفتنتها.. وأشرق وجهها حين رأتني، فقلت لها بتهذيب:

- «فقط آمل أن تكوني قد أحببت مصر..»..

قالت في مرح:

- «بلاد رائعة.. إن العلاقة الغامضة التي تربط اليونان بمصر لا يمكن فهمها أو تفسيرها.. ليست أول من قال هذا.. الإسكندر الأكبر Alexander شعر بهذا من عدة قرون.. لا أعرف إن كنت رأيت اليونان يا د. (رفعت) من قبل، لكني أتمنى لو رددت لك المجاملة يومًا ما..»

كنت أحفظ اليونان حجرًا حجرًا.. لكن ذكرياتي هناك لم تكن باسمة إلى هذا الحد..

أشارت إلى حقيبة من البلاستيك موضوعة على منضدة، وقالت في مرح:

- «لما كنت أنت مهتمًا بالأسرار إلى هذا الحد، وقد كلمني (عزت) عنك كثيرًا، فإنني أحضرت لك هدية صغيرة..»

شعرت بحرج.. لا يبدو أنّ هذه الحقيبة تحوي بقية أعداد المجلة السياسية اليونانية إياها.. هذه هدية لها طول وعرض وارتفاع.. هدية تشغل حيزًا من الفراغ.. لهذا رحت أردد كلمات على غرار (أنا.. هم.. أمس.. لا..)..

قالت بلهجة عملية:

- «المشكلة هي أنني لا أعرف محتواها ولا أستطيع أن أقطع برأي..»

هدية لا تعرف محتواها؟ ما معنى هذا؟ لقد بدأ عهد المقالب الطفولية إذن..

مدت يدها في الحقيبة البلاستيكية، وأخرجت صندوقًا معدنيًا.. صندوقًا أعتقد أنه ثمين وأنه أثري.. هل تعرف تلك (البونبونيرة) السخيفة التي تجدها في صالون كل بيت مصري، والتي تمتلئ بالبونبون اللزج كرية المذاق؟ هلمّ.. لابد أنك تعرفها.. يوشك الأمر أن يصير نوعًا من مكملات طقوس الزواج، وكأن الزواج لا يصير شرعيًا إلا بعد شراء هذه التحفة القبيحة.. كان هذا الصندوق يماثلها في الحجم..

قالت لي وهي تضع الصندوق على المنضدة:

- «هذه جئت بها من اليونان..»..

سألتها في شغف:

- «هل هي أصلية؟»

- «لا أعرف..»

- «وأين وجدتها؟»

- «هذه قصة تطول..»

- «ولا تعرفين محتواها؟»

ضحكت في دلال وقالت وهي تربت على المعدن:

- «لا أعرف.. إن لها طريقة للفتح لا أعرفها.. هناك احتمالات لا بأس بها لما يمكن أن تجده بالداخل: مجوهرات.. ذهب.. يورانيوم 235... عقرب.. ورقة تقول لك: عليك واحد Gotcha.. أي شيء.. ربما لا تجد إلا الفراغ المخيف.. ربما تجد اللعنات أو سعادة البشريّة.. لا أدري.. المهم أن تتمكّن من فتحه»

بدا لي الموقف غريبًا.. لكني تذكرت مزادات مماثلة تقام في الخارج على تلك الصناديق التي لا يستطيع أحد فتحها.. ربما تجد صرصورًا أو جثة متعفنة أو حفنة من الماس هنا يتم بيع سلعة مهمّة وحيوية هي الفضول البشري...

هذا لون من المقامرة يشبه مايقوم به طفل يبتاع عدة أكياس من ذات الحلوى، بحثًا عن بطاقة تتيح له كسب دراجة.. هناك لون من القمار المستتر لا يبدو كذلك، وأنا أعتبره النوع الأخطر.. ومن يروج لهذا النوع من القمار لا يختلف كثيرًا عن ذلك الوغد رفيع الشارب الذي نراه في أفلامنا العربيّة، والذي يقف على المائدة الخضراء، ولا يكف عن ترديد: باردون يا إكسلنس..

على كل حال أنا لم أدفع مليمًا في هذه الهدية، لهذا سأقبلها..

قلت لها وأنا أحمل الصندوق:

- «هدية مقبولة. سأرى ما بوسعي أن أفعله..»

لكني قدرت أن الصندوق خال على الأرجح.. ليس ثقيلًا على الإطلاق ما عدا ثقل المعدن ذاته..

قالت في دلال وهي تمد لي أطراف أناملها:

- «شكرًا على كل شيء..»

ونظرت لساعتها وقالت لـ (عزت):

- «حان الوقت..»

هكذا أعلنت أنني سأعود لشقتي، وحملت غنيمتي التي لا أعرف كنهها وتركت العاشقين اللذين صارا صديقين، وأغلقت بابي..

بعد دقيقتين سمعت صوت سيارة تنطلق.. تسقط في المطب الشهير الذي صار من معالم شارعي، فهشم مساعدا أو اثنين كالعادة.. ثم تواصل طريقها نحو اليونان.. معذرة.. نحو المطار.

☆ ☆ ☆

في البدء وضعت الصندوق على المنضدة في صالة داري.. أنتم تعرفون تلك المجموعة المرعبة من تماثيل (الزولو Zulu) التي لا أجد الشجاعة كي ألقيها في القمامة.. لكنها تبث الرعب في قلب كل إنسان يراها حتى أنا نفسي.. ذات مرة تلقى الأديب العظيم (تشيكوف Chekhov) هدية مماثلة هي تمثال كلب مخيف بارتفاع الإنسان.. وكانت هذه الهدية تثير الهلع في نفسه كلما نسى وجودها لفترة، لكن قلبه لم يطاوعه قط على التخلص منها..

المهم أنني وضعت الصندوق هناك وجلست أتأمله في ضوء الصالة الأبيض..

لا أفهم أنواع المعادن، لكنه صنع من مادة ثقيلة.. وإن عاش حياة صاخبة كما يبدو لأن هناك نقوشًا زالت تمامًا مع الزمن، كما أنّ هناك كتابة يونانية لا يمكن استخلاص شيء منها، والكثير جدًّا من السحجات والانبعاجات كأنه تلقى ضربات لا بأس بها بمطرقة..

ولكن كيف يُفتح هذا الشيء؟

هناك ثقب مفتاح لكن المفتاح ليس معي.. إذن لا جدوى من المحاولات الغبية.. في الصباح سآخذه لمن يغتصبه اغتصابًا.. أعتقد أنّ هناك حدادًا مناسبًا في...

هذا الصوت؟

أصخت السمع فلم يحدث شيء.. خيل لي أن صوتًا يأتي من ناحية الصندوق، لكنك تعرف ألاعيب الصوت هذه.. حين تركز على شيء ويأتي صوت من الشارع، فتتخيل كأنه يأتي من الشيء ذاته..

هناك قطة تعوي في الشارع.. هذا كل شيء.. صوت (داوووووود) الجنائزي يتردد لكن لا أحد يلبي..

وهكذا نسيت كل شيء عن الصندوق، وعدت أمارس طقوس حياتي..

☆ ☆ ☆

عاد صوت الأنين والعواء يتكرر عند منتصف الليل..

هذه المرّة لم يكن في الصوت أي شيء من (داوود).. ولهذا قررت أن ألقي نظرة أقرب..

إنه من خارج الشقة..

فتحت الباب ووقفت أصغي..

هو آت من شقّة (عزت).. انتصب الشعر الباقي على جانبي رأسي.. هذا الصوت لا يوحي إلا بشيء مقبض رهيب..

هكذا جريت ودققت بابه.. ووقفت أحاول أن أستجمع دقات قلبي التي تبعثرت..

انفتح الباب فرأيته.. هذه المرّة فهمت كل شيء.. عندما يحزن (عزت) فإنّه لا يتأثر أو تدمع عيناه كباقي البشر، ولكنّه ينفجر في عواء مريع كاد يقتلني رعبًا.. عواء لا يستطيع ذئب أشهب أن يطلقه فوق قبر في صحراء (موهافي Mojave).. وهكذا دخلت ورحت أهدئ من روعه:

- «اخرس قليلًا.. يا لك من أحمق! أنت معتوه تمامًا.. كنت أعتقد أن عقلك تعدى خمس السنوات لكن.. ولكن.. لا أنكر أنها رائعة وأنك فقدت الكثير.. فقدت كل شيء في الواقع ولكن يجب أن..»

يبدو أنه تماسك فترة طويلة منذ عاد من المطار، ثم رأى الحقيقة فجأة.. إنّه وحيد منبوذ تنتظره أعوام طويلة من الوحدة.. لا شيء يؤنسه إلا تماثيله العجيبة وجاره غريب الأطوار.. هنا فقط انفجر..

قال من بين دموعه التي تسيل من كل فتحات وجهه:

- «كانت تحبني.. ألم تتبين هذا معي؟ لو أنني كنت أكثر مرونة أو ربما هي.. لربما لو ظللت في اليونان إلى الأبد.. هل ترى هذا معي؟ أنت صديق عزيز.. بالفعل أنت صديق عزيز وإنني لسعيد الحظ أن..»

كنت أعرف هذه الأعراض.. انفجار عاطفي.. عندها تختلط الأمور هو يحبّها بجنون.. أنا صديق عزيز.. الحياة رائعة. الناس طيبون.. ثم.. لا.. الحياة قاسية.. أريد أن أموت.. إلخ...

هكذا ظللت معه حتى غسل وجهه ووعد بأن يهدأ قليلًا.. سينام مبكرًا اليوم.. كلا.. لن يفكر في هذه الأمور.. لن يقتل نفسه برغم أن كل شيء متاح هنا..

هل أمضي الليلة هنا؟ ربما كان عليَّ أن أراقبه جيدًا فأنا لا أثق بالأشخاص المسرفين في عواطفهم.. إنهم يفعلون أي شيء في أي وقت..

لكنه أصر على أن أستريح في داري، وهكذا غادرته آسفًا.. إن السعادة معنى مراوغ لا يمكن الإمساك به قبل أن يقابلها كانت حياته أكثر سعادة وهدوءًا.. الآن رأي لمحة من العالم الذي كان يمكن أن يكون له لو لم يكن سيئ الحظ.. هذا جعل الحياة الهادئة السابقة وهما.. لن أكف عن تذكر كلمة (ألبير كامو Camus) عن مشكلة الحياة.. ليس كونها سيئة لا تطاق، بل إنّه كان من الممكن أن تكون أفضل بكثير وكان هذا بأيدينا..

لا أعرف السبب... لكني حين دخلت داري جلست لفترة لا بأس بها أتأمل الصندوق الغريب.. ثم إنني أحضرت قلمًا وورقة ورحت أحاول باستخدام مؤخرة القلم، نسخ بعض النقوش التي بقيت عليه. هذا عسير لأنّه لا توجد كلمة واحدة كاملة، لكني حاولت أن أكون أمينًا قدر الإمكان.

هذا الصوت...

ألصقت أذني بالصندوق.. للمرة الثانية أنا متأكد من أنّه صامت كالقبر.. لكن القبر يصدر أصواتًا في قصص الرعب كلها، وأنا اعتدت أن حياتي كلها قصة رعب طويلة..

اتجهت إلى غرفة النوم وأخرجت حقيبتي الطبية.. أخذت المسماع الحساس، ودسست طرفيه في أذني.. عدت إلى الصندوق وألصقت الغشاء المتذبذب Diaphragm بالصندوق ورحت أصغي...

كان هذا أغرب شعور خبرته في حياتي.. لا أستطيع أن أقسم على وجود صوت أمام أية محكمة في العالم، وبرغم هذا لا أستطيع أن أنفي الأمر بقلب سليم..

هذه درجة معينة من طول الموجة أو ترددها تجعل الصوت صاخبًا كالانفجار، وفي الوقت ذاته لا وجود له.. هل يوجد شيء كهذا إلا في الهلاوس؟ لو كان هنا كلب يحترم نفسه لعرف الحقيقة يقينًا، لكني لست كلبًا ولا أسمح لأحد بأن يتهمني بذلك..

لقد بدأت أشعر بأنني لا أحب هذا الصندوق كثيرًا...

لا أعرف ما فيه، لكني سأحاول التخلص منه في الصباح..

☆ ☆ ☆

5 - فلنفتح هذا الشيء..

إنه الصباح..

لا تحدثني عن الصندوق من فضلك، فعندي ألف مشكلة ليس بينها مكان للصناديق المغلقة التي تتركها فتيات باحثات عن التسلية..

على أنني لم أنس برغم كل شيء أن أطلب صديقًا قديمًا هو د. (رمزي).. أنتم تذكرونه بالتأكيد.. خبير المصريات المتحمس الذي يظهر كلما ظهرت مومياوات غاضبة.. لماذا هو بالذات؟ لأنّه الشخص الوحيد في ذهني الذي يملك خلفيّة عن اللغة اليونانية.. أنا أتكلمها إلى حدٍ ما، لكني لا أجيدها ولا أجيد قراءتها.. د. (رمزي) لم يطالب بتعلم اليونانية، لكنه شعر بأنها مفتاح مهم لعلم الآثار.. خاصة أن مصر عرفت اليونانيين لفترة طويلة جدًّا من تاريخها (كليوباترا) نفسها يونانية الأصل..

المهم أنني اتصلت به كما قلت، ووعدته في كسل بأن أريه الورقة التي نسختها، فسألني في خمول عن السبب، فقلت له في تراخ أنّ هناك شيئًا ما.. فقال لي لا.. لقد أنهينا المكالمة قبل أن نسقط على الأرض...

في البيت مررت على (عزت) كي أدفن جثته إذا كان قد مات، لكني وجدته حيًّا.. وقد جلس في حزن يلتهم طبقًا مليئًا بالفول والزيت - لاحظ أنه استيقظ من نومه حالًا - وجواره عدد من أرغفة الخبز واللفت المخلل.. يلتهم هذا كله في حزن مرهف شفاف..

شكرني على ما قمت به من أجله أمس، ثم سألني عن محتوى الصندوق، فقلت:

- «ليس بعد...»

قال باسمًا:

- «أعتقد أنها أعدت لك مقلبًا ما.. فهي تحب العبث ولها عقل ثعلب..»

ثم غلبه التأثر وقد تذكرها من جديد.. وهكذا راح يغرق أحزانه في المزيد من الفول والزيت..

لم تكن عندي مشاكل في الغداء لهذا اليوم، لأنني أحتفظ ببقايا وجبة أمس في الثلاجة.. فلن يبقى أمامي إلا الاستعداد وتسخين بعض الآنية..

وهكذا وجدت أن الوقت مبكرًا نسبيًا - الثالثة بعد الظهر - وأنا قد أنهيت جدول مسئولياتي لهذا اليوم.. قررت أن أدرس ذلك الصندوق قليلًا.. كنت قد أزمعت أن أجرب فتحه مع حداد.. لم لا

أفعل ذلك الآن؟

☆ ☆ ☆

لا أعرف فعلًا ما تنتجه ورشة الحاج (عبد القوي).. برغم معرفتي له منذ أعوام لا أفهم نوع النشاط البشري الذي يقوم به.. سوف تدخل الورشة لتجد سندانًا وكيرًا وعدة عمال اسودَّ كل شيء فيهم حتى بياض عيونهم.. الجدران لالون لها.. هناك ألف قطعة حديدية.. أقفال.. أجزاء من سيارات.. صواميل لا حصر لها.. جنازير.. الخلاصة أنه يُمكنك افتراض أنّ هذه ورشة مما ينتج المتفجرات التي كانوا يقتلون بها الإنجليز في أيام الاحتلال.. أو هي ورشة تنتج مستلزمات مواجهة التنين أو غزاة الفضاء.. ولن تندهش لو خرجت عربة قطار محملة بالفحم من أي ركن...

أما الحاج نفسه فرجل مسن قوي البنيان، له عين تلف سوادها من شظية حديد أصابتها يومًا ما.. فيما عدا هذا كل شيء فيه أسود حتى الأسنان، وهو جالس منذ ثلاثين عامًا على ذات المقعد يشرب نفس كوب الشاي ويدخن ذات (المعسل)، ويلقي نظرات خبيرة من حين لآخر على قطعة معدنية يجلبها له عامل شاب.. فيقول:

- «لا بأس يا (علي).. لكن أعطها (الرجلاش) الخاص بها..»

ولي ثلاثون عامًا أحاول فهم هذا (الرجلاش) دون جدوى لكن (علي) ينصرف ليعطيها إياه..

طلبي اليوم بسيط جدًّا:

- «أريد فتح هذا الصندوق يا حاج..»

أمسك بالصندوق بيده الغليظة العملاقة وتحسسه كأنه بطيخة، ثم قال:

- «يبدو ثمينًا يا دكتور.. خسارة.. لماذا لا تجرب صنع مفتاح له؟»

- «فات أوان ذلك..»

هكذا أعطى الصندوق لأحد الغلمان وأمره أن يفتحه بأقل قدر من الضرر، وكان واضحًا على وجه الغلام أنه غير قادر على هذه المهمة: عدم إحداث ضرر.. لقد حمل عددًا هائلًا من الأدوات الفولاذية الثقيلة، وثبت الصندوق بين شقي (ملزمة) عملاقة وراح يسدّد ضربات عنيفة إلى موضع القفل...

كلنج! بوم! كلنج! بوم!

ضوضاء تصم الأذنين فعلًا.. لكني قدرت أن الأمر سينتهي سريعًا.. نحن لا نقتحم خزينة مصرف على كل حال..

راح الحاج يعد رزمة لا بأس بها من أوراق النقد، ثم صاح دون أن ينظر:

- «هل انتهيت يا ولد؟»

- «لحظة يا أسطى.. لقد..»

الآن كان قد أولج (رزة) معدنية تحت الغطاء، وهي تسمح بفتح شقّ صغير جدًّا، لكن كان عليه أن يطرق عليها بقوّة حتى يستسلم الغطاء..

صاح الحاج (عبد القوي) وهو يضع النقود في جيبه بعصبية:

- «يا لك من غلام أحمق.. أنت لست رجلًا.. أنت فتاة تتظاهر بالرجولة.. إن...»

وانطلقت بعض شتائم مهينة للغاية تتعلق بالأب والأم.. أعتقد أنّ هذه من أصول التدريب على الخشونة هنا، لكني لم أتحملها.. ثم إن الرجل هادئ بطبعه أقرب إلى البرود، لهذا لم أفهم سر هذه العصبية المفاجئة..

صاح الغلام في وقاحة أجدها مبررة:

- «إياك أن تتلفظ بحرف عن أهلي يا...»

وهنا لحقت بكلماته سبة أكثر بذاءة.. حتى إنني وقفت في مكاني مندهشًا مما يحدث هنا.. كأن دلوًا من الماء المثلج هوى على رأسي.. وقرر الرئيس أن عليه اتخاذ إجراء. سريع.. هكذا تمت المعجزة.. للمرة الأولى في حياتي أرى الحاج ينهض.. وكانت نهضته أسطورية تذكرك بديناصورات (راي هاري هاوزن Ray Hary Haussen) ذات الحركة المتخشبة في الأفلام القديمة..

عيناه تتقدان نارًا.. اتجه إلى الغلام وصفعه ثلاث أو أربع صفعات على وجهه، وهو يردد بلا انقطاع:

- «هل ترد عليَّ أيها الـ...؟»

كان رد الغلام أكثر عنفًا، فقد تناول المطرقة التي كان يحملها وانقض بها على الرجل المسن، وهو يعوي كذئب جريح.. طبعًا لم يصل الموقف إلى هذه الدرجة لأن واحدًا من عمال الورشة اعترض طريقه بساقه فألقاه أرضًا، ثم انهال عليه بالركلات..

شاب مفتول العضلات ظهر من مكان آخر، وانقض على الثاني.. ويبدو أنه يمت بصلة قربى للغلام.. في الوقت الذي ثار فيه الحاج.. فالتقط كوب الشاي وطوح به فوق المتصارعين..

في لحظة تحولت الورشة الصبور الراضية برزقها إلى حلبة مصارعة.. ولم يعد أحد يعمل.. وفي الهواء تطايرت قطع الحديد باحثة عن وجه عاثر الحظ تفتك به.. ذكرني المشهد بمشاجرات

الحارة في أفلامنا العربيّة القديمة، حين ينهض الجميع فجأة بلاسبب ليحطموا المقاعد على رءوس بعضهم..

ومن مكان ما حدث ماس كهربائى، فاندلع شلال من الشرر يكاد يحرق ما حوله، وتنبه أحد العمال فركض ليغلق رافعة التيار الكهربائي..

صحت وأنا أتمسك بكتفي الحاج (عبد القوي)، وهو يتقدم ويجرني معه.. كأنني بالفعل أتعلق بديناصور جريح:

- «كفى يا حاج.. صل على رسول الله.. قل لصبيانك أن يتوقفوا قبل أن يقتل أحد!»

نظر لي بعينين تتقدان شررًا ثم أمسكني من كتف البذلة.. لم أتعود هذا الاعتداء على حدود نطاقي المغناطيسي، وقد أشعرني هذا بذعر لا حد له، لكنه قال من بين أسنانه:

- «ابتعد عن هنا.. إن هذه أمور لا تخصك.. هذه ورشتي وأحكمها كما أشاء..»

ثم اتجه إلى (الملزمة) وفك الصندوق المثبت فيها وانتزع الرزة وقال:

- «وخذ هذا الصندوق المنحوس معك..»

أمسكت بالصندوق بين يدي.. هنا وجدت أنه هدأ قليلًا - الحاج لا الصندوق - مسح بكفه الخشنة وجهة المبلل بالعرق وغمغم:

- «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أي جنون أصابنا؟!»

نظرت للوراء وأنا أبتعد، فوجدت أن كل رجال الورشات الأخرى قد جاءوا ليوقفوا القتال، وكان قد هدأ فعلًا حتى إنني لم أر داعيًا لاستدعاء الشرطة كما كنت أنوي.. من الواضح كذلك أنه لا توجد دماء.. لكن الجروح النفسية غائرة بلا شك، ولن تشفي بسهولة.. للحظة خرج مارد الكراهية من قمقمه، ومن الصعب أن تتظاهر بأنه عاد إليه..

لا ذنب لي فيما حدث، لكني ابتعدت في خجل حتى تواريت في سيارتي..

☆ ☆ ☆

كان الصندوق سليمًا وبحال جيدة..

لقد ازدادت السحجات عليه، لكنه سليم ومغلق.. ربما لو انتظرت أكثر لاستطعنا فتحه..

وقد رحت أقلبه بين يدي.. لا أعرف ما أفعل به حقًّا.. قلبي لا يطاوعني على التخلص منه في القمامة فلربما كان محتواه ثمينًا فعلًا..

نظرت في ساعتي.. إن الظلام يدنو بسرعة.. وقدرت أن بوسعي أن أمر على دار د. (رمزي) لاستشارته، لكنني أولًا أرغب في شراء بعض الأشياء التي يحتاج إليها البيت.. يمكن أن أتركها في السيارة وأنا أزور د. (رمزي)..

كان هناك شارع، مقفر به مكان لا بأس به للانتظار أمام بناية.. هناك أوقفت السيارة وترجلت، ووضعت الصندوق تحت المقعد.. ثم خرجت إلى الشارع الرئيسي حيث كانت تلك البقالة العملاقة.. لم تكن مصر قد عرفت اختراع (السوبر ماركت) بعد.. أشياء كثيرة تغيرت من حينها.. لو سألت ألف شاب عن معنى كلمة (بيتزا) أو (هامبورجر) أو (دونات) أو (تيك أوي Take away) لما عرف الإجابة أكثر من خمسة، وهؤلاء سافروا إلى الخارج أو لهم ثقافة غربية ما.. برغم هذا أعتقد أن ذلك كان أفضل..

كانت البقالة مزدحمة، وقد استغرقت وقتًا لا بأس به حتى شققت طريقي إلى البائع لأفكر في قائمة لا بأس بها، ثم كان أني قابلت اثنين أو ثلاثة من الأشخاص الذين لا تقابلهم إلا كل عامين.. وهكذا استغرق الأمر نحو ساعة إلا الربع.. وفي النهاية عدت للسيارة فقط كي أتذكر أنها مفتوحة..

بعد كل هذا الحرص نسيت الباب مفتوحًا كعادتي.. هكذا لم يحتج إلى أي نوع من العنف كي يفتح الباب ويلقي نظرة.. طبعًا لم يجد في عجلته شيئًا قابلًا للسرقة إلا الصندوق..

هكذا أدرت المحرك شاعرًا بحماقتي..

لقد حل عقلي الشارد المشكلة.. لن أرى الصندوق ثانية.. سوف يفتحه اللص وينتهي الأمر سواء فاز بماسة (كوهينور) أو مجرد صرصور حبيس..

لكني برغم كل شيء مررت على د. (رمزي)..

رحب بي في حرارة كعادته، واقتادني إلى غرفة مكتبه حيث كان منهكًا في قراءة بعض المراجع.. وجاءت زوجته (ماري) لترحب بي وسألتني عن نوع المومياء التي جئت من أجلها، فقلت باسمًا:

- «لا مومياء.. ما لم يحو الصندوق إصبع (كليوباترا) ذاتها..»

- «أي صندوق؟»

هكذا قدمت له الورقة التي تمكنت من نسخها.. بدل بعويناته عوينات القراءة، وراح يحاول مراجعة الحروف والرسوم ثم قال باسمًا:

- «في الحقيقة أنت لا تقدم لي الكثير.. هناك حرف واحد كل ثلاثة أحرف مفقودة.. والنقوش كذلك لا تدلّ على شيء.. ربما كان هذا الرجل منكوش الشعر ذو اللحية المجعدة (زيوس Zeus) وربما لم يكن.. هل هذا طائر عملاق؟ ربما.. وربما هي أول مكنسة كهربائية في التاريخ..»

ثم طوى الورقة وقال:

- «دعها معي بعض الوقت.. لكني أنصحك بأن تأتيني بالصندوق ذاته..»

- «أمّا هذا فلا.. لقد سُرق منذ نصف ساعة من سيارتي..»

بدا عليه الغيظ وقال:

- «شارد الذهن كالعادة أو سيئ الحظ.. ما علينا.. أعتقد أن القضية انتهت عند هذا الحد..»

☆ ☆ ☆

لا لم تنته عند هذا الحد...

لقد عاد لي الصندوق، وكانت لذلك قصة مثيرة..

☆ ☆ ☆

6 - وظللنا صامتين.. نفكر..

قال لي الضابط المناوب وأنا أوقع على الأوراق:

- «حظك رائع يا دكتور.. من النادر أن نضبط مسروقات بهذه السرعة..»

كنت قد عرجت على المخفر في طريق عودتي من زيارة د. (رمزي)، بناء على نصيحته لي.. هناك حررت محضرًا وأخبرتهم بصفات السيارة والصندوق وساعة السرقة.. وطبعًا لم أتوقع أن يحدث شيء.. لكني فعلت ما بوسعي..

إلا أنهم اتصلوا بي مساء اليوم التالي مباشرة، وأخبروني أنهم يعتقدون أنهم ظفروا بالصندوق..

وهأنذا في المخفر أرى الصندوق الذي حسبت أنه ضاع للأبد..

قال لي الضابط المناوب وهو يتحسس الصندوق:

- «اسمه (رجب)..»

- «من؟»

- «اللص طبعًا لا الصندوق.. وهو مجرد شيطان بائس.. لقد وجد الصندوق أمامه فخطفه، وهذا يدل على أنه من أسفل عينة اللصوص على الإطلاق.. اتجه به إلى بيت أحد رفاقه العاطلين، وهناك قضى الرجلان وقتًا سيئًا في محاولة فتح هذا الشيء بنصلي مطواتين.. يبدو أنهما أوشكا على النجاح حين لعب الشيطان برأسيهما - لو كان من الجائز أن تقول هذا عن لصين - فاشتبكا في مشادة حامية.. النتيجة أن (رجب) سدد لصاحبه طعنة في كتفه.. غير قاتلة طبعًا.. أمّا صاحبه فسدد له طعنة في بطنه.. ليست قاتلة برغم كل شيء.. وسمع الجيران الصراخ فأسرعوا إلى الشقة.. ثم استدعوا الشرطة.. هذا الصندوق سُرق من سيارة كانت واقفة في شارع (...).. فمن عساه صاحبه؟ من حسن الحظ أنك حررت هذا المحضر»

هنا دخل أحد رجال الشرطة الغرفة، فقرع الأرض بحذائه الثقيل وأدى التحية:

- «سيدي.. بخصوص المتهمين الأخرين..»

- «فيما بعد يا (سعد).. فيما بعد..»

ثم نظر لي الضابط باسمًا، وقال:

- «نفس الحادث..»

- «وهل هناك آخرون؟»

- «تشاجر الجيران حول ما يجب عمله.. هناك عدة إصابات.. الواقع أنّ هذا الصندوق قد آذى سارقه وجيرانه كما لو كان قنبلة موقوتة..»

ثم نظر لي في فضول بوجهه المتعب الذي لن يدهشه شيء:

- «ماذا بداخل الصندوق يا دكتور؟»

قلت في صدق:

- «لا أعرف يا سيدي.. لنقل إنّه ميراث ثقيل، لكني بالفعل لا أعرف كيف يمكن فتحه.. أعتقد أنه لابد من تحطيمه.. من الممكن أن يحوي لا شيء أو كل شيء..»

قال وهو يناولني الصندوق:

- «تفضل وكن حذرًا في التعامل معه..»

وهكذا عاد لي الصندوق بأسرع مما توقعت.

☆ ☆ ☆

على ضوء المصباح الخافت راح د. (رمزي) يتأمل الصندوق.. يديره في يده مرارًا..

بدا مبهورًا متلاحق الأنفاس، وإن لم يتكلم.. يلعب دور الطبيب الذي يفحصك وتتسع عيناه ويحمر وجهه.. ينظر في وجهك قلقًا.. ثم يواصل الفحص.. كل هذا دون أن ينطق حرفًا..

قلت له باسمًا:

- «خيرًا يا دكتور؟»

قال دون أن ينظر لي:

- «إنّه.. إنّه.. أصلي.. لا أعرف ما يحويه لكن خبرتي لا تخطئ.. هذا الصندوق أصيل وربما يشكل ثروة صغيرة.. كنت أتوقع دعابة سخيفة.. مجرد تقليد متقن.. لكني أعرف الشيء الحقيقي حين أراه..»

ثم راح يدقق النظر في النقوش والكتابة:

- «(ثيوس).. ثم لا أفهم.. (بن).. هذه كلمة (زيوس) واضحة.. لا أعرف يا (رفعت).. فعلًا لا أعرف..»

وراح يتحسس ثقب المفتاح بإصبعه الصغير.. ثم فتح درج مكتبه وأخرج مجموعة مفاتيح يفخر بها أي لص في العالم.. كدت أقول الدعابة السخيفة المستهلكة: فيم تعمل بعد الظهر بالضبط؟ ثم وجدت أنّ هذا لا يليق بي..

بدأ يجرب المفاتيح.. لكني كنت قد قدرت أنه لا جدوى.. لابد من مفتاح إغريقي أو (هلليني) له شكل معين.. هذا تحصيل حاصل..

عاد يفتح الدرج، وأخرج فتاحة خطابات مدببة ومطواة.. وبدأ يحاول دسّ المطواة تحت الغطاء..

هنا شعرت بأن مجال الرؤية ضيق فحسبت أنني أصبت بانفصال الشبكية أخيرًا (كنت أنتظره لكني لا أعرف متى يأتي).. إلا أنني وجدت أنها مدام (ماري) وقد وقفت ترقب المشهد في فضول وهي تحمل صينية الشاي..

قلت لها وأنا أرتجف رعبًا:

- «هلا تفضلت بوضع هذه الصينية؟ أخشى أن الحماس سيجعلها تسقط فوقي..»

مجرد دعابة لكنّها قالت في غلظة حقيقيّة:

- «كن مهذبًا.. أنا لا أسمح لك!»

كانت هذه أول مرة تكلمني فيها بهذه الطريقة، وقد تصلبت دهشة.. إنها تقبل من الدعابات ما هو أعنف.. هنا تدخل (رمزي) وهو منهمك في الفتح:

- «احترمي أنت نفسك.. لا تنسي سنك من فضلك!»

صاحت في ضيق وقد بدا التوحش في عينيها:

- «أنت منحط!»

- «وأنت بلهاء!»

هنا شعرت بغيظ عارم منهما.. غيظ لا يمكن وصفه..

شيء كالنار لا ترويه إلا الدماء، فصرخت وقد فقدت كل وقار لي:

- «اخرسا! كنت أحسبكما أكثر رقيًّا. أنتما تتشاجران كبائعتين متنمرتين في سوق الخضار!»

لوح د. (رمزي) بفتاحة الخطابات في حنق وصرخ:

- «احترم البيت الذي يستضيفك!»

- «أنا لا أرى بيتًا!»

ومن المؤكد أن الأمور كانت إلى تصاعد، لولا أن (ماري) أطلقت صرخة.. ثم حدث ما توقعته بالضبط.. بحيرة من الشاي الساخن فوق سروالي.. ثم هي ممدة على البساط تتحسس عنقها وتحشرج..

هنا فقط رقص الضوء الكهربائي كأنه موشك على الانطفاء، وللحظة حسبت الظلام سيعم.. وقلت لنفسي: المصائب لا تأتي فرادى.. لن نستطيع إنقاذها ونحن نتخبط في الظلام. لكن شدّة التيار استقرت من جديد..

كان الرعب قد أنساني آلام الحريق؛ لذا أسرعت إليها أتحسس نبضها.. كانت ترتجف بشدة لكنّها واعية، ولم تمت لكنّها كانت محمومة بشدة..

غريب هذا.. لم أر قط حمى ترتفع في ثانية واحدة على طريقة (الآن تراه / الآن لا تراه) الشهيرة لدى الحواة.. وكان (رمزي) قد هرع إليها مذعورًا.. فجثا جوارها وهو يردد (ماري) بلا انقطاع..

- «ماذا دهاها؟»

- «لا أعرف طبعًا.. لو كنت تحسب أنني (ابن سينا) فأنت مخطئ..»

وحملناها لنضعها في الفراش وهي ترتجف بلا انقطاع.. قال لي وهو يمسح العرق عن وجهه:

- «(رفعت).. أنا آسف.. لا أعرف السبب الذي...»

قلت له وأنا أتحسس معصمها:

- «فيما بعد.. أمّا الآن لو أردت أن تكون مفيدًا، فعليك أن تعد لي بعض الكمادات..»

هرع إلى المطبخ وسمعت صوت أكثر من كسرولة تسقط فوق أخرى، ثم صاح من هناك:

- «هل من شيء آخر؟»

- «نعم.. أي مخفض للحرارة لديك.. ليس الأسبيرين.. أي شيء سواه..»

فأنا لا أستعمل الأسبيرين مع أية حمى لا أعرف مصدرها..

- «(باراسيتامول Paracetamol).. هل يصلح؟»

- «ممتاز..»

الغريب أن حرارتها كانت تهبط.. إنها تتحسن ولا شك في هذا.. لكن بعض الباراسيتامول لن يؤذيها..

وهكذا جلسنا لمدّة نصف ساعة جوارها، نضع الكمادات..

جو من الصمت الحزين ساد المكان.. كأننا استهلكنا عواطفنا في كل هذا الصراخ.. وأخيرًا بدا أنها نامت في سلام فنهضنا عائدين إلى المكتب..

☆ ☆ ☆

قال لي د. (رمزي) وهو يضم راحتيه معًا:

- «حالة من الجنون الوقتي أصابتني.. أقسم أنني كنت سأغرس هذا النصل في عنقك أو عنقها بعد ثانية واحدة.»

قلت أنا بدوري:

- «وأنا كنت سأنتزع حنجرتك بأسناني..»

ثم فكرت قليلًا وأردفت:

- «لحظة.. وما سر هذه الحمى التي لم يسمع الطب بمثلها؟ هناك حميات تظهر فجأة.. لكن ليس خلال ثوان..»

- «وتشفى فجأة..»

ثم نظرت إلى الجدار خلفه.. ثمّة شيء ماغير موجود.. ماذا حدث؟

نظر إلى حيث أنظر ثم نظر للأرض، وقال في أسى:

- «صورة (إيزيس Isis) التي أعلقها خلف المكتب لقد سقطت وتهشمت.. لا بد أنّ هذا حدث عندما حملناها إلى الحجرة..»

- «ولماذا تسقط صورة في هذه اللحظة بالذات؟»

- «لا أدري.. لقد جن كل شيء.. حتى الحبال التي تحمل الصور..»

وظللنا صامتين نفكر...

☆ ☆ ☆

7 - هل تعرف ما أفكر فيه؟

في الثانية صباحًا خرجت إلى الصالة لأشرب..

كان الصندوق موضوعًا على المنضدة وحيدًا كأنه كابوس لقد صار له وجود ملموس معنوي في حياتي، وليس غريبًا أن د. (رمزي) أصر على ألا يبيت عنده..

جذبت مقعدًا وجلست أمامه في ضوء الصالة الخافت..

من جديد أسمع هذه الأصوات الغريبة.. لا شك في هذا..

ظللت نحو نصف ساعة في هذا الموضع، حتى إنني وثبت مترًا في الهواء حين دق جرس الهاتف.. هرعت أرفع السماعة قبل أن يخرق الصمت وأعصابي أكثر من هذا..

كان هذا صوت (رمزي)، وكان كافيًا كي أصاب بنوبة قلبية:

- «هل.. هل حدث مكروه؟»

استغرق وقتًا وهو يؤكد لي أنه - ويقسم بالله - لم يحدث شيء.. زوجته نائمة.. لكنّها نهضت وذهبت للحمام وتناولت العشاء.. كل شيء على ما يرام..

- «إذن ما الكارثة؟»

- «لا كارثة.. فقط أثرثر معك يا أخي.. ثمّة فكرة مجنونة خطرت لي بصدد هذا الصندوق.. هل تعرف ما أفكر فيه؟»

قلت له:

- «أعتقد أنني خمنت..»

ابتلع ريقه بصوت مسموع في السماعة، وقال:

- «صندوق (بندورا Pandora).. هذا هو ما خطر لك.. أليس كذلك؟»

☆ ☆ ☆

لقد تركت الأساطير الإغريقية أثرًا هائلًا على الفكر الإنساني عامّة لا يختلف في شيء عما تركته (ألف ليلة وليلة).. لكن تعبير (صندوق بندورا) قد حفر في الأذهان وفي عوالم الأدب إلى حد غير مسبوق، وصار يرمز للمشاكل النائمة التي يحسن تركها كذلك.. فقد يدفعك الفضول البشري البغيض إلى اقتحامها فتجلب على نفسك الأهوال..

قال د. (رمزي):

- «هذا يفسر اسم (زيوس) وصورته على الصندوق..»

تقول الأسطورة اليونانية إن (بروميثيوس Prometheus) وهو ابن (تيتان) الشهير، قد أسدي خدمة كبرى د (زيوس).. هناك مصادر تقول إنّه شفى (زيوس) من صداع مؤلم.. في الحقيقة لست مياة إلى أن (زيوس) كان تافهًا سهل الإرضاء إلى هذا الحد، وإلا لانضم أي طبيب على شيء من البراعة إلى قائمة الأبطال الإغريق..

وعلى طريقة مرضى الأرياف الذين يكافئون الطبيب لدى شفائهم ببطة أو أوزة، فإن (زيوس) قرر أن يمنح الأرض للأخ (بروميثيوس)..

- «وهذا يفسر أيضًا لفظة (ثوس) على الصندوق..»

ما زال (رمزي) يقاطعني مصرًّا على التفسير..

الآن وقد صار (بروميثيوس) مسئولًا عن الأرض، فإنّه قرر أن يعلم الإنسان أشياء كثيرة.. بل إن حماسه لهذا الإنسان جعله يخرق الكثير من قواعد (الأوليمب Olympus) الصارمة.. وراح زملاء (زيوس) يتهامسون:

- «هذا الفتى يبالغ.. إن اهتمامه بالبشر غير محمود..»

فيقول (زيوس) في تساهل:

- «دعوه.. دعوه.. لقد شفاني من الصداع.. إنّه ولد طيب.. ثم إن أباه من أسرة (التيتان) وهم قوم حسنو السمعة..»

لكن (بروميثيوس) يتجاوز كل الحدود.. كان هناك نوع واحد من المعرفة يهمه بشكل خاص أن يصل إلى البشر النار.. إن النار أعظم اكتشاف في التاريخ، وبفضلها استطاع الإنسان أن يجد الوقت والأمن والشبع والدفء الكافي للوصول إلى باقي ما عرفه..

النار موجودة في (الأوليمب).. وجوارها لافتة كبيرة تقول: بتعليمات خاصة من الحاكم العسكري، يمنع نقلها للبشر أو تعليمهم كيفيّة صنعها.. لا تنس أن آلهة الأساطير الإغريقية أنانيون بحق، يشعرون بأن الإنسان ينافسهم..

هكذا قرر (بروميثيوس) أن يسرق لأول مرة في حياته.. تسلل إلى الأوليمب وقبس من هذه النار، ثم نزل بها إلى الأرض، وهناك وضعها الناس في معبد كبير.. بالفعل كانت النار توضع في معبد خاص، ويحرم على أي مواطن أن يحتفظ بها في داره.. فقط يأخذ منها ما يريد، ليطهو ما يريد ثم يطفئها.. وكانت تشرف على اشتعالها عذراء بائسة.. بائسة لأن النار لو انطفأت كانت تدفع حياتها ثمن ذلك، ولا أعرف من أين كانوا يأتون بنار أخرى لحرقها لكنهم كانوا يفعلون ذلك!

هكذا تجاوز (بروميثيوس) كل الحدود.. وقرر مجلس إدارة (الأوليمب) أنه لا بد من عقابه بصرامة..

كان أكثر المتحمسين للعقاب (زيوس) طبعًا بمنطق الأب الذي بالغ في الثقة بابنه.. فلمّا خذله الابن كان عقابه شديدًا متوحشًا..

- «افعلوا به ماتريدون.. هو ليس ابني من الآن فصاعدًا!»

ثم أخذ (بروميثيوس) إلى (القوقاز) حيث تم ربطه بين جبلين.. وتم تكليف رخ عملاق بأن يهاجمه كل يوم ليأكل كبده، فإذا جاء الليل نما له كبد جديد.. هكذا دائرة مريعة من الألم تتجدد كل يوم، لم يقطعها إلا قدوم الأخ (هرقل Hercules) أثناء إحدى مهماته.. لقد رأى المنظر فسأل (بروميثيوس): يلزم خدمة ياكابتن؟ ثم قرر أن يتدخل وقتل الرخ.. وحرر (بروميثيوس) وتركه ليواصل مهمته..

عاد (بروميثيوس) للبشر فهل القوم فرحين، بينما كاد (زيوس) يموت بالفالج من الغيظ..

لابد من الانتقام.. لكن كيف؟

هنا خطرت له فكرة لا بأس بها.. كان البشر الموجودون على الأرض جميعًا من الرجال، مما يدل على أنه كان مجتمعًا سعيدًا فعلًا.. هكذا قرر أن يرسل لـ (بروميثيوس) هدية من نوع جديد.. المرأة..

تقول الأسطورة الوثنية أن (زيوس) كلف (فولكان Vulcan) بصنع الأنثى الأولى.. إن (فولكان) حداد ولا أعرف في الحقيقة دوره في صنع الأنثى، لكن بهذا ترمز الأسطورة إلى الطبيعة النارية للمرأة.. ثم تم استدعاء سادة (الأوليمب) الآخرين لتقديم هداياهم إلى هذه الأنثى الأولى.. قبّلتها (فينوس Venus) ومنحتها الجمال والحب.. أن تلهم الحب في الناس وتحبهم.. أمّا (مينرفا Menerva) فقد منحتها بعض الذكاء.. ثم ألهمتها (لاتونا Latuna) أن يكون لها قلب كلب.. ونفس لص.. وعقل ثعلب.. هذا هو ما تقوله الأسطورة، وهو لا يعجب جميعات حقوق المرأة كثيرًا.. لكن الأسطورة تناقش ذلك الموقف الرجولي العام من المرأة.. أنها نعمة ونقمة معًا، وأنها أجمل شيء حياتنا لكنّها كذلك معذبتنا الدائمة..

ماذا نطلق على هذه المخلوقة الحسناء؟ إنها مُنحت كل العطايا الممكنة لذا أطلقوا عليها (التي منحت كل شيء) أو (بان - دورا Pandora)...

تنزل (بندورا) إلى الأرض فتثير صخبًا.. إنها ملكة جمال العالم لسبب بسيط هو أنه لا يوجد سواها.. وبالطبع تلقي شباكها حول (برومثيوس) لكن الرجل الحكيم سليل (التيتان) والذي التهم الرخ كبده آلاف المرّات، لم يعد ذا مزاج رائق للنساء، ثم إنّه يشم رائحة خدعة في الأمر.. هكذا تجاهلها..

المخبول الذي هام بها حبًّا هو أخوه (إبيميثيوس Epimetheus).. يبدو أنه كان من ذلك الشباب الرقيع الذي يفقد وقاره أمام أول فتاة جميلة، وقد أصر على أن يتزوجها.. وشعر (برومثيوس) أن أخاه سيصاب بنوبة قلبيّة إن لم يلب طلبه فوافق على مضض.. وقد كان وعاش الأخ الرقيع أيامًا لا توصف من السعادة..

هنا جاء الجزء الثاني من الخدعة يوم أرسل (زيوس) مبعوثه (هرمز Hermes) وهو في الأساطير الإغريقية يلعب دور (الساعي).. كان يحمل هدية للزوجين السعيدين.. هذه الهدية هي صندوق مغلق..

كان (إبيميثوس) حكيمًا في هذه النقطة، فرفض فتح الصندوق.. لكن زوجته الحسناء راحت تلح عليه أن يفعل.. من يدري أية كنوز أو أفراح تختفي داخله؟ إن هناك أصواتًا تناديها من الداخل.. أصواتًا تعدها بالسعادة المطلقة.. لقد صارت حياتها جحيمًا وهي تجلس الليل والنهار جوار الصندوق تتخيل ما يحويه، وكان الفضول يخنقها كأية أنثى في الأساطير.. زوجة ذي اللحية الزرقاء التي جن جنونها لتعرف ما يوجد في الغرفة رقم مائة.. لقد ترك لها زوجها حرية التنقل بين تسع وتسعين غرفة، لكنّها لم تختر سوى الغرفة المائة..

في النهاية تنتهز فرصة غياب زوجها لتفتح الصندوق..

فجاة أظلم العالم، وخرجت أرواح شريرة من الصندوق.. أرواح يحمل كل منها اسمًا مخيفًا مثل (النفاق).. (المرض).. (الجوع).. (الفقر).. وراحت المسكينة تدور حول نفسها محاولة غلق الصندوق فلم تستطع.. لاحظ أن (بندورا) لم تكن شريرة لكنّها استجابت لطبيعتها الفضولية كامرأة.. في النهاية أغلقته بالفعل ولكن بعد أن حدثت الكارثة.. والجنّة الجميلة السعيدة تحولت إلى جحيم حقيقي هو الذي نعيش فيه الآن..

فلو لم تفتح (بندورا) الصندوق لكنا نعيش في جنة حقيقيّة حسب رأي الأساطير الإغريقية..

قال د. (رمزي):

- «الأمر واضح.. كان هذا مقلبًا من (زيوس).. والقصة كلها درس فلسفي رائع عن طبيعة المرأة الشغوف بالجديد، وعن عاقبة الفضول، وعن حدود العلم البشري.. كل شخص دنا من الحقيقة أكثر من اللازم نال عقابًا صارمًا.. (إيكاروس Icarus) اقترب من الشمس فذابت أجنحته الشمعية.. و(برومثيوس) سرق المعرفة - النار - فعذبه الرخ، وأرسلت (بندورا) وصندوقها إلى الأرض..»

قلت له:

- «كل هذا جميل.. ولكن ما دخل هذا بقصتنا؟»

☆ ☆ ☆

كانت هناك بضعة أسئلة، وقد ناقشتها مع د. (رمزي) ونحن جالسان في مكتبه نتأمل الصندوق.

قال لي:

- «لا توجد طريقة أخرى للتفكير.. كل شخص حاول فتح هذا الصندوق نشر وباء الجنون في المكان الذي حاول ذلك فيه.. أنت حكيت لي عن المجزرة التي حدثت في تلك الورشة.. لماذا تشاجر اللصان؟ ثم لماذا انتقلت العدوى للجيران؟ ماذا عن العصبية الشديدة التي أصابتنا أمس؟ لماذا ارتفعت حرارة (ماري) في ثوان؟ لماذا سقطت الصورة المعلقة في داري؟ هل يمكن تفسير هذه الظواهر إلا بأن الصندوق فعلًا يحوي الجنون والكوارث؟»

قلت له مفكرًا:

- «لحظة.. ليست هذه أول مواجهة بيني والأساطير الإغريقية.. لكن هناك قاعدة ثابتة.. لا تتكلم عن (زيوس) و(هيرا) ثم تبني على هذا استنتاجًا.. أنت تعرف كما أعرف أن (زيوس) لا وجود له.. فكيف يكون هذا صندوقه؟»

ابتسم وتحسس الصندوق، وقال:

- «الإجابة دائمًا كما يلي: إن (زيوس) محاولة لتفسير أسرار الكون.. لا وجود لـ (زيوس) لكن أسرار الكون باقية كما هي.. اعتقد الإغريق أن البرق هو السهام في جعبة (زيوس)، وأن الشمس هى شعلة في يد (أبوللو Apollo).. اليوم نؤمن أن الله خلق الظواهر الاستاتيكية والفيزيائية التي أدت لانبعاث الكهرباء التي هي البرق، وأن الشمس هي نجم مضيء ندور حوله.. لقد كففنا عن الاعتقاد بـ (آمون) و(زيوس) و(أبوللو) لكن البرق والشمس مازالا موجودين.. لم لا تكون قصة صندوق (بندورا) هذه مجرد محاولة لتفسير الظاهرة الغريبة التي تحيط بهذا الصندوق؟»

قلت في سعادة:

- «هذا صعب جدًّا.. لو كان هناك صندوق بهذه الصفات السمعنا عنه في كتب التاريخ لاكتب الأساطير.. كانت كتابات هيرودوت Herodotus) ستحوي التفاصيل الكاملة التي تريدها..»

قال بعناد:

- «ثمّة احتمال ثان.. هذا الصندوق مُحاكاة دقيقة لأسطورة..»

- «لا أفهم..»

أشار لي بإصبعه، وقال:

- «فكر.. أنت (برومثيوس) الذي عرف أكثر من اللازم، من ثم عوقب بأن أرسلت له تلك الفتاة الحسناء.. قلت ما اسمها؟»

- «إيفيتا..»

- «نعم.. ومعها الصندوق.. إن القصة تتكرر حرفيًا..»

قلت في ضيق:

- «لاحظ أن الفتاة لم تؤثر فيَّ.. أثرت في جاري (عزت)..»

- «كما حدث مع (برومثيوس).. الذي وقع في حب الفتاة هو أخوه (إبيميثيوس).. إن من أرسل لك هذا الصندوق يتمتع بحس درامي لا بأس به..»

فكرت في الأمر مليًّا ثم قلت:

- «ليكن.. ولكن من الذي أرسله لي؟ من الذي يلعب دور (زيوس)؟»

- «لا أعرف.. إن أعداءك كثيرون..»

- «وما الذي عرفت أكثر من اللازم؟ إنني أعرف أقل من اللازم في كل شيء..»

- «من يعتقد أنك تعرف أكثر من اللازم هو من أرسل الصندوق.. لو عرفت هذا عرفت ذاك»

دققت بكفي على الصندوق وعدت أسأل:

- «والغرض؟ هل هو أن أفتح الصندوق؟»

- «الغرض هو وضعك في ذات المأزق الميتافيزيقي.. نحن نعرف أن الدمار والهم غزا الأرض عندما فتحت (بندورا) الصندوق.. أنت لم تفتحه بعد..»

- «لكن هذا - حسب الأسطورة - يعني أن الصندوق خال.. إن ما كان فيه قد ملأ الأرض فعلًا..»

- «الأسطورة تقول إن (بندورا) أصيبت بالهلع حينما خرجت الكوارث من الصندوق.. هكذا أسرعت إلى غلقه.. إذن الأسطورة تقول إنّه مازال مليئًا.. وتجربتنا تقول إنّه مازال مليئًا.. رهان هذا الشخص هو أنك ستفتحه عندها يزداد العالم سوءًا»

قلت وأنا أنهض في عصبية:

- «هنا هو أحمق.. لا يهمني إن كانت القصة حقيقيّة أم لا، لكني لن أحاول فتحه.. أنا لا أملك ذرة فضول أنثوي في داخلي.. سأتخلص منه في مكان أمين..»

فكر قليلًا ثم قال:

- «ألا تشعر بأنها خسارة إلى حدٍ ما؟»

قلت وأنا ألف الصندوق في جريدة:

- «لقد رأيت جزءًا من أثره، وهذا يكفي.. لو كان يحوي سر الكون فلن أفتحه..»

قال وهو يعقد أصابعه في شكل رجاء:

- «فقط عدني بشيء واحد.. أريد أن تفتش في ذاكرتك جيدًا عن غاز يسبب هذه الأعراض..»

- «فكرت في ذلك كثيرًا.. ولكن لا.. لا توجد غازات تسبب الجنون على قدر علمي.. غاز (أوكسيد النيتروز Nitrous oxide) يسبب نوبات ضحك جنونية، وقد استعمل في التخدير لهذا الغرض.. لكنه لا يسبب الجنون الذي يجعلك تفتك بجارك أو زوجتك.. هذا الصندوق ليس مغلقًا على (غاز الجنون) لو خطر لك هذا..»

- «وغاز الأعصاب؟»

- «لا يسبب الجنون.. إنّه يثبط إنزيم الكولين إستريز Cholinestrase كما تفعل قائمة طويلة من السموم.. هو فقط يفعل هذا بسرعة وفعالية.. لو كان اسم (غاز الأعصاب) قد أثار شهيتك فأنت مخطئ..»

هزّ رأسه في غير اقتناع وتمنى لي حظًا سعيدًا...

☆ ☆ ☆

8 - مـأزق..

فتحت باب شقتي محدثًا الصخب المعتاد..

هنا انفتح باب شقّة (عزت).. كان بالمنامة فعرفت أنه ليس في طريقه للخروج، بل هو كان ينتظر سماع صوت مفتاحي..

قلت له في حرارة:

- «كيف حالك يا (عزت)؟»

هزّ رأسه ولم يتكلم.. فقط أشار إلى حلقه..

دنوت منه وتحسست عنقه، فوجدت بعض العقد اللمفاوية.. لا مشكلة.. كل الرجال الذين لا يطيلون لحيتهم عندهم عقد لمفاوية في العنق بسبب جروح الحلاقة التي قد لا تبدو للعين..

قلت له:

- «لا بأس.. سآتي لك بمضاد حيوي مناسب.. سوف تشفى بسرعة..»

قال مقاطعًا بصوت مبحوح كأنه أوزة ذبحت منذ دقيقة:

- «دعك من هذا فأنا أمقت الأدوية.. أنا أتعاطي ترسانة منها فلا أريد زيادة الطين بلة.. سأشفى تلقائيًا.. فقط أردت أن أعطيك هذا..»

كان في يده مظروف أنيق من الطراز المبطن، مما جعله يبدو سميكًا.. فنظرت له بعينين متسائلتين فقال:

- «هي أعطتني هذا المظروف واشترطت ألا أعطيه لك إلا بعد رحيلها بأسبوع..»

شعرت بالغيظ يحل محل عاطفة الشفقة وهتفت:

- «أنت ظللت تخفي عنى هذا أسبوعًا؟ يا لك من أحمق!»:

- «إنما هي الأمانة..»

هي.. هي.. المقلب الفاتن الذي جاءنا من اليونان.. وماذا تريد؟ سيكون شعوري رائعًا لو اتضح أن محتوى الرسالة هو (عليك واحد) أو شيء من هذا القبيل..

سألته في حرص:

- «ما أخبارها؟»

قال في حزن بصوته المبحوح العجيب:

- «لا أخبار.. لقد تلاشت من حياتي تمامًا..»

طبعًا يا أحمق.. لن أخبرك طبعًا أن قصة إعجابها بك هي - على الأرجح - مجرد خدعة لتصل لي أنا، وتترك الصندوق اللعين هدية..

المهم أنني شكرته واتجهت إلى شقتي..

هناك في الصالة ذات الضوء الخافت جلست أتأمل الصندوق، ثم مددت يدي إلى المظروف وفتحته.. كما قلت آنفًا كان محشوا ببطانة تجعل من الصعب معرفة ما فيه، لكن من السهل الآن أن تصطدم يدي بقضيب صغير مضلّع الزوايا من النحاس.. نحاس يبدو عليه القدم، وكل ما فيه يوحي بأنه مفتاح.. أي مفتاح؟ الصندوق طبعًا.. لقد قررت أن تتركني أجرب أسبوعًا، ثم تقدم لي المفتاح..

كان الخطاب مكتوبًا بالإنجليزية وبخط جميل حقًّا:

«عزيزي د. رفعت:

أحسبك الآن قد فهمت كل شيء وصرت قادرًا على اتخاذ قرار صحيح.. طبعًا أنا لا أنصحك بتاتًا بفتح الصندوق.. ثمّة قرية كاملة زالت من الوجود في اليونان بسبب أنّ هذا الصندوق فُتح لمدّة خمس دقائق.. لكن الموقف عسير وإنني لأرثي لك.. إن صديقك البائس (عزت) مريض جدًّا.. السم الذي حقنته له يسري في جسده ببطء شديد، ولسوف يقضي عليه خلال أيام.. لكني لست بهذه القسوة.. إن للسم ترياقًا، وهذا الترياق سهل الاستعمال فلا يحتاج إلا إلى تجرعه..

طبعًا لابد أن ذكاءك الحاد قد أرشدك الآن إلى أن الترياق في الصندوق.. لا توجد طريقة للوصول إليه إلا استعمال المفتاح والتنقيب داخله جيدًا.. تخلص من الصندوق يمت صديقك حالًا.. افتح الصندوق تحل الأهوال بالعالم.. الحقيقة إنني لا أتمنى أن أكون في موضعك في هذه اللحظة بالذات.»

(فينوس: نجمة النهار)

لم تكن الرسالة موقعة باسمها بل بهذا اللقب الغريب، لكنّها كانت بليغة جدًّا وكافية..

لن أتردد.. كل هذا الذي يُقال عن صندوق (بندورا) هراء لا أكثر.. هذه محاولة لتخويفي..

سأفتح الصندوق وليكن ما يكون..

هكذا تحسست المفتاح، ثم بيد راجفة أولجته في الفتحة.. من الغريب أنه استجاب بسهولة و.. شليك.. تحرك نظام زنبركي ما ليثب الغطاء مفتوحًا و...

☆ ☆ ☆

ما هذا الصداع؟ ما هذا الصداع؟

هل كل البراكين الخامدة على وجه الأرض قد قررت أن تنفجر في رأسي؟ أم أنني أصبت بنزف مخي؟

كنت مذعورًا خائفًا، وحين فتحت عيني رأيت أنني معلق.. نعم معلق من ذراعي كالنسر المحلق..

كنت هناك في الهواء على ارتفاع شاهق.. الأرض من بعيد مجرد بقعة تبدو أو تختفي بين السحب. نعم السحب فقد كنت فوق مستواها.. أرى ذلك المشهد المعتاد الذي تراه من نافذة الطائرة..

الهواء بارد.. بل هو متجمد.. وأنظر لأعلى فأجد أن الحبال التي تربطني قوية جدًّا طويلة جدًّا، وأنها تتدلى من قمتي جبلين.. بينما أنا معلق بينهما كدمية (ماريونيت) معدومة الحيلة..

أصرخ فتتردد الأصداء.. أصرخ فيجف حلقي من الهواء البارد..

ومن بعيد أرى ذلك الطائر الأحمر.. طائر أحمر؟

كان غريب المنظر أقرب إلى ديوك المصارعة شرسة المنظر.. لكنه ذو جناحين عملاقين.. وكان هو نفسه ضخمًا إلى حد مهول.. ليس نسرًا.. ليس عقابًا..

إنّه يقترب مني ويصرخ.. ذلك الصراخ الشبحي المخيف الذي تسمعه في السينما من حناجر هذه المخلوقات..

إنه يرفرف بالقرب مني، ثم يفتح منقاره الشبيه بالخنجرين..

هنا فهمت..

أنا الآن ألعب دور (برومثيوس) وهذا الرخ الشنيع يريد كبدي..

هذه إذن هلوسة.. لا.. ليست كذلك..

كل حواسي تعمل بكفاءة، وإحساسي متكامل بالزمان والمكان.. لقد انتقل جسدي بالكامل إلى بعد آخر..

بربك لست أنا.. أنت أخطأت الشخص.. (برومثيوس) بطل أسطوري هو جزء من هذا المكان وتلكم العوالم، أمّا أنا فرجل بسيط.. رجل أعظم بطولاته استبدال مصباح الحمام، من دون أن ينزلق تحته المقعد الصغير فيهوي ليدق عنقه..

ولكن إن المنقار يمزق كبدي فعلًا؟

لا جدال في هذا.. إن ذلك الطائر البشع يبتعد وفي فمه شيء أحمر.. لا أريد أن أنظر.. لا أشعر ألمًا، لكن ذلك الشعور بالبلل، والشعور بأن البلل يتحول إلى جليد..

لا.. أنا لا أريد...

وسمعت الأصوات تأمرني: أغلق الصندوق يا أحمق**!** أغلقه**!**

☆ ☆ ☆

من جديد أنا في الصالة غارقًا في العرق..

هذا البلل..

مددت يدي أتحسس أسفل صدري من الناحية اليمني فوجدت أن قميصي ممزّق، وأنّ هناك دمًا.. دمًا غزيرًا.. أصابني الهلع والغثيان فلابد أنني فقدت الوعي لدقائق...

وحين عرفت أنني حي أرزق.. لكن الدم كان في مكانه..

لم يحدث شيء يا أحمق. لا تخف.. الرخ لم يلتهم كبدك.. كانت تلك هلوسة بغرض الإنذار..

الصندوق مغلق.. فمن الواضح أنك لم تجد الوقت لتفعل أي شيء.. لقد شعرت بالكارثة فأغلقته..

والآن يوجد احتمالان: إما أن يكون صاحب الرسالة صادقًا بصدد الترياق.. وإما أن يكون كاذبًا وليس هناك من خطر يتهدد (عزت).. هو فقط يحاول وضعي في موقف عسير.. في جميع الأحوال فتح هذا الصندوق خطر.. لقد جربت هذا مرارًا..

- «أعتقد أنها أعدت لك مقلبًا ما.. فهي تحب العبث ولها عقل ثعلب..»

- «ثم ألهمتها (لاتونا) أن يكون لها قلب كلب.. ونفس لص.. وعقل ثعلب..»

من هي؟

هل هي هي حقًّا، أم أنها مجرد واجهة لقوى أخرى أكبر تعبث بي؟

لا أعرف متى قررت أن أنسى كل هذا وأنام.. بدلت القميص أولًا فوجدت خدوشًا قبيحة على بطني.. ليست الخدوش التي تحدثها مخالب رخ طبعًا، لكنّها غائرة في جدار البطن.. من يدري؟ ربما أحدثتها أنا في نفسي أثناء تلك الغيبوبة، وربما أحدثها شيء ما لا أعرف كنهه موجود في الصندوق.. المهم أن تأثيرها النفسي كان ساحقًا..

قمت بتطهيرها.. يعلم الله نوع الجراثيم التي تتوارى تحت أظفار الرخ.. يجب أن أفكر في ورقة علمية بهذا الصدد..

على الأقل أنا محتفظ بكبدي.. لهذه الليلة على الأقل..

☆ ☆ ☆

قال لي د. (ماهر) وهو يغلق مفتاح الضوء الكهربائي:

- «هل أنت متأهب؟»

قلت وأنا آخذ نفسًا عميقًا:

- «نعم..»

قام بتشغيل مصباح الأشعة تحت الحمراء، وقمنا بتثبيت العوينات.. في هذا الضوء الغريب نرى كل شيء أخضر زمرديًا مخيفًا..

لم يكن سوانا في مختبر الفيزياء. وهو مختبر خاص منعزل لا يدخله الطلبة، مخصص لأبحاث أعضاء التدريس هنا.. هكذا مددت يدي إلى المفتاح وأدرته بحرص في الثقب.. وهذه المرّة ضغطت على الغطاء بيدي كي لا يثب كما فعل معي أمس.. فقط سمحت له بأن يرتفع مسافة لا تتجاوز بضعة ملليمترات..

وساد صمت رهيب...

إنني الآن أراها.. د. (ماهر) أيضًا رآها..

سحابة الدخان المشع البراق تتسلل من الصندوق.. دخان مبهم كالذي ينبعث من لفافة تبغ منسية في يد شخص لاهٍ.. لكن الدخان يلتف.. يصنع أشكالًا قطنية غريبة.. يُمكنك أن تتبين وجهًا وملامح.. لكنّها لا كأية ملامح.. ملامح شيطانية هي كرسوم الغيلان في رسوم القرون الوسطى

هذا فم.. هذه أنياب بارزة.. هل ترى؟ هناك مخالب.. تتفرع مع الدخان.. ثم تتحول بدورها إلى وجه آخر.. بينما الأنياب تتحول إلى مخالب في ذراعي شبح آخر..

شهق د. (ماهر) رعبًا في الظلام، وهمس:

- «أغلقه.. أغلقه بالله عليك..»

لكنني ظللت كما كنت مبهور الأنفاس..

سحابة الدخان تزحف ببطء.. تقترب مني، لكنّها لا تفعل ذلك مباشرة، ولكنّها تدور لتصل إليَّ بطريق غير مباشر.. كأنها تريد أن ترقص رقصة الموت من حولي أولًا.. ورأيت وجهًا مريعًا يذكرك بوجوه القرع العسلى التي يصطنعها الأطفال الغربيون في عشية عيد القديسين Halloween..

كان يدنو مني...

لا أتوهم شيئًا.. إن صوتًا غريبًا عميقًا يصدر منه..

يقترب أكثر.. يقترب..

فجأة ينطلق صوت د. (ماهر) في الظلام:

- «أيها الغبي الأحمق! أنت مجرد خنزير.. يا لك من وغد! أنا لا أكره شيئًا في العالم سوى أمثالك ممن يتظاهرون بالعلم والذكاء، بينما هم يقودون أنفسهم والآخرين إلى كارثة! ولكن.. أيها الغبي الأحمق! أنت مجرد خنزير.. يا لك من وغد! هل تريد رأيي فيك؟ أنت وغد.. وغد.. وغد»

ثم سمعته ينهض:

- «أقسم بالله العظيم أنك لو لم تغلق الصندوق حالًا، لنهضت وهشمت كل قطعة خشب في هذا المقعد فوق رأسك الأصلع القبيح.. من يدري؟ لعلك تصير أجمل بعد هذه العملية!»

هنا فقط أحكمت غلق الغطاء، وأدرت المفتاح...

لا أدري كيف، لكن هذه الأشكال توارت على الفور.. لو كانت خواص المادة تعمل هنا لبقيت أجزاء منها في هواء الغرفة.. لقطعها غطاء الصندوق حين أغلقته.. لكن هذا لم يحدث..

ساد الصمت من جديد ثم قلت بصوت أجش:

- «أعد الضوء..»

هذه المرّة فتح د. (ماهر) الستائر فغمر الغرفة ضوء النهار الساطع يذكرك بأن هناك عالمًا بالخارج، وهو لم ينته بعد.. كان هناك طالب يثرثر مع فتاة في حديقة الكلية، وقد بدا واضحًا أنه

يهيم بها.. يعتقد أنه فهم كل شيء وخبر كل شيء وأن الجزء الضئيل من أسرار العالم الذي لا يعرفه، لا يستحق معرفته.. كيف لو رأى ما كان يحدث هنا من دقيقة؟

قال د. (ماهر) وهو يعود للجلوس شاحب الوجه:

- «أنا آسف.. لا أعرف سر العصبية التي استبدت بي.. لم أعنِ حرفًا مما قلت..»

قلت راسمًا ابتسامة:

- «أنت لم تقل شيئًا جديدًا.. لقد سمعت هذه الآراء عني مرارًا.. حتى بدأت أعتبرها حقائق لا إهانات»

بلل شفته السفلى بلسانه، وقال:

- «هذا الصندوق مرعب..»

- «أعرف أنه مرعب.. لا أحتاج إلى أستاذ فيزياء كي يخبرني بهذا.. لكن ما تفسيرك لمحتواه؟»

ضحك في عصبية وقال:

- «تفسير؟ كف عن المزاح.. لي نصيحة واحدة هي أن تتخلص منه في أقرب حفرة.. أو أن تبلغ هيئة الطاقة الذرية كي يدفنوه مع مخلفات المفاعلات.. هذا هو الضمان الوحيد..»

خطر لي للحظة أنّ هذا هو الحل الأمثل.. ليس التخلص من الصندوق لكن التعامل معه كأنه مشع.. من وراء زجاج سميك يمكن أن تفتحه وأن تبحث عن الترياق، ثم تغلقه.. كل هذا دون أن يتعرض له كائن بشري..

لكن من قال إن هذه الأساليب الماديّة (الفيزيائية) تصلح مع عالم لا مقاييس له؟ من قال إن هذه الكائنات لا تخترق الزجاج السميك أو الرصاص؟

شكرته وغادرت المكان شارد الذهن..

☆ ☆ ☆

9 - محاولة فاشلة..

عندما جاء المساء طرقت باب (عزت) لأطمئن..

فتح لي الباب، وعلى الفور أدركت أن الأمور ازدادت سوءًا..

كان وجهه منتفخًا بشدة، وقد زال صوته أو كاد.. وتورمت الغدد اللمفاوية في عنقه، كأنما هي صورة في مرجع طبي عن داء هودجكين Hodgkin وهو نوع من سرطان اللمف..

قلت له في رعب:

- «أنت في حال سيئة..»

هذه المرّة لم يجادل كثيرًا.. هزّ رأسه موافقًا.. وهذه المرّة أيضًا لم أتركه.. أصررت على أن آخذه في جولة طبية سريعة.. لابد من رأي طبيب أنف وأذن وحنجرة يقسم لي أنّ هذه ليست (دفتيريا).. لابد من صورة دم دقيقة أقرؤها بنفسي لأنني لا أثق بشخص آخر.. لابد من بعض فحوص مختبرية..

إن ليلة حافلة تنتظرني..

لكن النتيجة - بعد عناء - كانت مجموعة من علامات الاستفهام.. الكثير من هزات الرأس.. لا أحد يفهم الموجود، لكنه ليس خطيرًا على الأرجح..

وخطر لي أنني - ربما - الوحيد الذي يعرف الحقيقة كاملة..

لكن أية حقيقة هذه وكيف أستفيد منها؟

☆ ☆ ☆

في ظلام الليل قدت سيارتي في ذلك الطريق المنعزل..

لم يكن هناك أحد، ولم أر أضواء سيارات أخرى.. لا بأس.. إن الحظ حليفي حتى هذه اللحظة..

أخيرًا أنا خارج المدينة.. خارج العمران.. لو أردت الدقة أنا في مكان ما من طريق صحراوي، حيث يوجد ممر جانبي أعرفه جيدًا..

مشيت بسيارتي نحو ربع الساعة في تلك الطرقات المتعرجة الخطرة، وفي النهاية أوقفت السيارة وترجلت..

القمر يسطع جاعلًا الرؤية ممكنة.. ليست أروع رؤية في الكون، لكنّها ممكنة..

هناك ذلك المنحدر الوعر الذي تحف به نباتات الصبار.. هناك هاوية عمقها نحو ستة أمتار، لكن ليس العمق هو ما أريد.. ما أريده هو صعوبة أن يجتاز مخلوق كل هذه الأشواك ليصل إلى أسفل.. ما أريده هو مكان لا يصله بشر.. وحتى أنا لو أردت استرداد الصندوق فلن أستطيع..

نظرت حولي ثم أخرجت الصندوق من السيارة..

رفعته وتركته يهوي عبر المنحدر الوعر.. صوت الصبار يتمزق أو ينزع من مكانه، ثم توقفت الأصوات بعدما وجد الصندوق مستقرًا له..

حتى لو وجده أحدهم سوف يستغرق وقتًا طويلًا في محاولة فتحه لأن المفتاح سيظل معي..

قد تسألني: وماذا عن الترياق؟

لا أعرف.. لقد اتخذت قراري على كل حال.. إما أن موضوع الترياق خدعة، وأنا لن أجازف من أجل خدعة.. وإما أنه حقيقة وأنا لن أعرض الناس لهذا الخطر الشيطاني من أجل سلامة شخص واحد..

فليحم الله (عزت) وينقذه.. فأنا عاجز عن العثور على حل أرضي لهذه المشكلة..

كان هذا هو قراري العسير الذي وصلت إليه بعد ساعات من التفكير، منذ عدت بـ (عزت) من الجولة الطبية. لهذا لا يندهشن أحدكم لوعرف أن الساعة الآن الثالثة صباحًا...

استدرت عائدًا إلى السيارة.. الحصن الأمن الدافئ.. الحصن الذي يحمل دائمًا خطر أن يتعطل أو يفشل في الفرار بك..

وانطلقت عائدًا من حيث كنت..

لابد أنني قدت السيارة نحو ربع ساعة.. ولابد أنني بدأت أنعس حين لمحت هؤلاء الرجال واقفين على الطريق، وهم يشيرون لي بكشافات عدة..

قطاع طرق؟ ثم دنوت أكثر فعرفت أنهم على الأرجح رجال مباحث.. هذا كمين أعد في الساعة المتأخرة، ولا ألومهم لأن هذه المنطقة خطرة سيئة السمعة.. ولو لم يرتابوا في سيارة تمشي.. في الرابعة صباحًا، فبم يرتابون إذن؟ لو لم يرتابوا فإننا نعيش في (يوتوبيا) ذاتها حيث كل الناس صادقون شرفاء..

رأيت ضابطًا بثياب مدنية.. لا يمكن أن تحسبه شخصًا آخر.. وعددا من المخبرين يلبسون الزي الرسمي للمخبرين: المعطف الثقيل والطاقية والعصا.. فقط ينقصهم أن يعلقوا لافتة (مخبر) على

الصدور..

دنا مني أحد هؤلاء ونظر إلى السيارة جيدًا، ثم طلب مني الرخصتين.. تفحصهما بعناية ثم طلب مني أن أترجل..

إنه التوتر البوليسي الذي يجعلك تتصرف بعصبية لا داعي لها.. لكني قدرت أنهم يعرفون هذا بخبرتهم..

ألقى نظرة على السيارة ثم صاح مناديًا الضابط:

- «هذا الصندوق يا فندم!»

صندوق؟!

تصلبت في ذعر.. فرأيته يخرج من الباب الخلفي ذلك الصندوق اللعين.. إنِّه هنا! وراح الدم يصفر في أذني.

لقد عاد! لقد عاد!

هذه رسالة واضحة لي: لا تتخلص منه فإنّه يخصك! القرار العسير ينتظر وعليك أن تتخذه..

على أن منظري بالطبع لم يبد كشخص أثار هلعه أن الصندوق عاد.. بدا منظري صالحًا لتمثال اسمه (المشبوه).. أو لصورة في كتاب كتب تحتها (يكاد المريب أن يقول خذوني).. أو صورة في الجريدة لإرهابي سقط في قبضة الشرطة بصندوق المتفجرات، أو متآمر سقط بصندوق المنشورات، أو - في أحسن الظروف - مهرب مخدرات افتضح أمر بضاعته..

سألني الضابط في هدوء وهو يسلط كشافًا على الصندوق:

- «ماذا يحوي هذا الصندوق؟»

قلت وأنا أبتلع ريقي:

- «لا أعرف..»

نظر لي في حيرة، وأعترف أنه كان مهذبًا برغم كل شيء..

قال بنفس الهدوء:

- «افتحه..»

لم أرد.. فقط مددت يدي إلى جيبي فهتف أحد المخبرين:

- «بهدوء!»

لكن يدي خرجت حاملة المفتاح النحاسي الصغير وقلت:

- «هذا هو المفتاح لكني لا أنصح بفتحه..»

سألني الضابط وقد بدأ يتوتر:

- «ما الشيء الموجود في هذا الصندوق؟»

- «لا أعرف.. لكنه خطر.. هذا هو ما أملك قوله..»

نظر إلى أحد المخبرين وقال آمرًا وهو يشير للمفتاح في يدي:

- «افتحه يا (بسطويسي) ولكن بحذر..»

خطر لي أنه من الواجب - يومًا ما - أن أجرى دراسة ميدانية لمعرفة لماذا يحمل كل المخبرين اسم (بسطويسي).. طبعًا كانت فكرة عابرة لا مكان لها، وتدل على نوع من الخبال في تفكيري..

المهم أن الأخ (بسطويسي) مد يده وعالج المفتاح، فوثب الغطاء مفتوحًا.. قال لرئيسه وهو يتفقد الداخل بالكشاف:

- «إنّه فارغ يا سيدي..»

فارغ؟ ولكن؟

ثم أغلقه ووقف ينتظر التعليمات..

راح الضابط يسألني بضعة أسئلة روتينية عن السبب الذي جعلني أتواجد هنا في هذه الساعة، ما دمت لا أهرب المخدرات أو أدفن قتيلًا.. هذا في رأيه تصرف مريب، وكأن القتلة والمهربين هم الوحيدون الذي من حقّهم التام - وربما من واجبهم - التواجد هنا..

كنت أنا - كما تتوقعون - غارقًا في عالم كثيف من الأسئلة.. لساني يخترع المبررات لكني لا أعرف ما يقوله فعلًا.. دعه يتصرّف فهو يعرف كيف يعني بنفسه.. إنّه لسان عجوز بارع..

لماذا لم يجن الجميع؟ لماذا مر الأمر بهذه البساطة؟

هل انتهت شحنة الصندوق من الكوارث؟

في النهاية أعادوا لي الرخصتين.. وسمحوا لي بأن أنطلق..

قلت في نفسي: كان هذا قريبًا جدًّا.. كانت مذبحة ستقع وأكون مسئولًا عنها بشكل أو بآخر..

أم أن القصة كلها وهم في رأسي؟

☆ ☆ ☆

قال د. (رمزي) وهو يغلق الكتاب العملاق الذي كان يطالعه:

- «وهم؟ لا.. آسف.. لقد رأيت معك كل شيء..»

ثم أضاف وهو يعيد الكتاب إلى المكتبة:

- «لو فقدنا الثقة في حواسنا فماذا يبقى لنا؟»

قلت له في ضيق:

- «الحقيقة إنني لا أجد تفسيرًا..»

قال مفكرًا:

- «ثمّة احتمال لا بأس به أن تكون الشحنة قد فرغت.. أنت تقول إن الصندوق قد فتح من قبل وسبب كارثة في قرية يونانية.. ماذا يمنع من أن تكون التجارب المستمرة قد أفرغت شحنته؟»

- «بهذه البساطة؟»

ثم مددت يدي إلى جيبي وأخرجت تلك القصاصة التي أعطانيها (عزت).. ناولتها له، وقلت:

- «تأمل هذه وفكر.. هل لديك انطباعات معينة؟»

راح يقرأ بصوت مسموع:

- «أحسبك الآن قد فهمت.. نم نم.. لا أنصح.. نم نم.. نجمة النهار.. هل أنت متأكد من أنك لا تعرف واحدة بهذا الاسم؟»

قلت وأنا أمدد ساقي على مسند وجدته أمام مقعدي:

- «بالطبع لا.. المفروض أن كاتبة هذه الرسالة هي (إيفيتا) نفسها.. إن الفتيات يطلقن على أنفسهن أسماء شاعرية تشبه تصورهن لأنفسهن.. عرفت فتاة تلقب نفسها بـ (القلب المرهف) وفتاة تلقب نفسها بـ (آخر شيء محترم).. هذه الفتاة تعتبر نفسها (فينوس).. ولا أعتقد أنها مخطئة إلى هذا الحد..»

قال مفكرًا:

- «ليس الأمر بهذه البساطة.. هي ليست من هذا الطراز.. أعتقد أنّ هذا الاسم تم اختياره بعناية لتوصيل رسالة ما..»

هنا توقفت وقد بدا لي الأمر مألوفًا:

- «كوكب الزهرة (فينوس) يظهر في الصباح.. لذا يُطلق عليه اسم (نجمة النهار).. و...»

وارتجفت.. كل هذا يبدو مألوفًا أكثر من اللازم:

- «(نجمة النهار).. باللاتينية.. أي الغرور الذي يقود صاحبة للهلاك في الديانة المسيحية، من ثم صار المصطلح يعني الشيطان.. (لوسيفر Lucifer)»

لم يكن د. (رمزي) ملمًا بهذا الجزء من تاريخي الحافل، لذا تساءل في حيرة:

- «هل هذا مهم؟»

- «صديق قديم أرسل لي هذه الهدية وهذا المقلب ليرى كيف أتصرف..»

وتخيلت د. (لوسيفر) يستمتع بوقته تمامًا، ويردد مقولته الأبدية: إنني بهذا أسعد، وله قلبي يطرب..

سألني د. (رمزي) السؤال المهم هنا:

- «هل يفيدك هذا في معرفة ما ينبغي عمله؟»

قلت وأنا أقلب الاحتمالات في ذهني:

- «لا أظن.. لكنني عرفت على الأقل من يكمن وراء هذا كله.. إنِّه وغد.. وهو يعتقد أنني عرفت أكثر مما يجب بالنسبة لشخص فان.. لذا أرسل لي هذا الانتقام الفريد من نوعه.. وأنا أفهمه إلى حدٍ ما، وأعرف أنّ هناك حلًا للمعضلة.. طريقة تفكيره تحتم أن يكون هناك حلًا للمعضلة، لأنّه يعشق هذه الألعاب الصغيرة.. لكن الحل مراوغ مثله.. ربما يكون لفظيًا..»

قال في رضا كأن المشكلة انتهت:

- «جميل.. أرى أن تجلس في دارك وتعيد التفكير في القصة عدة مرات.. وأرى أن تترك لي الصندوق.. لا تخف.. أنا لن أفتحه..»

ثم فكر قليلًا واستدرك:

- «أو ربما أفتحه.. فأنا أعتقد بصدق أنه خال!»

☆ ☆ ☆

10 - وجدت الحل..

دق جرس الهاتف فركضت لأرد عليه.. تعثرت في البساط وبصعوبة تمكنت من التوازن، لهذا تمنيت لمصلحة المتكلم أن يكون الأمر مهمًا..

جاء صوت أنثى من الهاتف:

- «د. (رفعت)؟ أنا (ماري)..»

طبعًا هي (ماري) زوجة د. (رمزي).. وطبعًا هناك كارثة..

- «ماذا حدث؟»

- «(رمزي) في حالة هياج غير طبيعية.. لقد حطم كثيرًا من الأثاث، ثم اتجه إلى الجيران ليتشاجر معهم.. يبدو أنه تذكر فجأة أنهم تركوا كيس القمامة على بابنا منذ عامين.. أرجوك أن تأتي..»

هكذا ارتديت ثيابي سريعًا، وانطلقت في الشوارع قاصدًا بيت د. (رمزي)...

كان المشهد حين اقتربت كابوسًا، فالشارع مزدحم، وهناك سيارة إطفاء تقف.. بينما المياه أغرقت الشارع حتى الكاحلين.. وكان هناك رجال إطفاء يهرعون إلى الدرج، بينما سيارة إسعاف تحاول أن تجد مكانًا تتوقف فيه.. مئات المتسكعين يقفون هناك..

ثمة سيارة اصطدمت بعمود نور عبر الشارع، وقد تحولت مقدمتها إلى ورقة مجعدة تقريبًا..

هناك نسوة يقفن بثياب النوم ويصرخن ويلطمن الخدود، والدخان يتصاعد من كل مكان في البناية..

المزيد من المياه ترتفع، ورجل مطافئ يحمل (الباشبوري) يصرخ في زميله:

- «تهشمت المضخة.. ما هذا النحس؟»

في هذه اللحظة ركضت سيارة عبر الشارع بسرعة جنونية.. أحمق يعتقد أنه على الطريق السريع، أو أنه يقود نفاثة.. وهكذا لم يجد وقتًا ليتحاشى سيارة وقف صاحبها ليراقب المشهد عن كثب.. وعلى الفور انفجرت ملحمة ارتطام الحديد بالحديد...

اخترقت الزحام بقوّة.. تلقّيت أكثر من لكمة أو ضربة كوع في وجهي، لكني بلغت الدرج...

وهتف أحد رجال الإطفاء وهو يسد الطريق بيده:

- «لا يمكنك أن تصعد..»

هتفت بالرعب المناسب لإقناعه:

- «أنا أسكن هنا..»

كان المصعد معطلا طبعًا.. فيما بعد عرفت أن الحبال التي تتمسك به قد انقطعت.. لكنه كان خاليًا لحسن الحظ..

رحت أركض صاعدا الدرج شاعرًا بأن كل درجة هي الأخيرة، والدخان يتزايد...

لقد فتح الأحمق الصندوق.. فتحه.. واتضح أنه كان مخطئًا.. مازال الصندوق قادرًا على عمل الكثير..

البناية الراقية الأنيقة تحولت إلى مستشفى مجانين.. لكنى واصلت الصعود..

وعرفت أن الحريق شبّ بالطابق الثاني.. يبدو كهربائيًا.. هذا يبعد شقّة (رمزي) عن القصة، لكن لا أعرف كيف تمكّن وزوجته من مغادرة الشقة في الطابق الخامس.. هذا إن كانا غادراها...

واصلت الصعود.. وفي الطابق الخامس وجدت زحامًا مرعبًا، وحاولت أن أفهم ما يدور هناك لكن يدًا باردة وضعت على كتفي..

- «د. (رفعت).. نحن بخير..»

إنها مدام (ماري).. حمدًا لله.. صحيح أنّ هناك كدمة حديثة واضحة فوق حاجبها، وصحيح أن عينها اليسرى تورمت كالملاكمين.. لكن هذه أمور قابلة للإصلاح..

واصلت الكلام وهي ترتجف:

- «كان (رمزي) على وشك قتل الجيران أو كانوا هم على وشك قتله.. لولا شبّ الحريق.. لقد أنقذنا هذا الحريق لأنّه بدد جو العدوانية العام.. أرجو أن يكونوا قد سيطروا عليه..»

قلت لها وأنا أهرع إلى شقتها مفتوحة الباب:

- «أعتقد ذلك.. ما دمت أنا نفسي لم أحترق، فمن الواضح أنهم سيطروا عليه!»

- «وإلى أين أنت ذاهب؟»

- «الحمام طبعًا!»

كان لابد من حجة أبرر بها اقتحام شقتها بينما هي وزوجها بالخارج...

بالفعل رأيت الكثير من الأثاث المبعثر.. ويبدو أن شاشة التلفزيون قد تلقت ضربة محكمة بمطفأة التبغ.. دست على عشرات الأشياء الثمينة ...

هذا هو المكتب...

يجب أن أعمل بسرعة إنني...

هذا هو الصندوق.. إنّه مفتوح بالفعل.. صندوق (بندورا) مفتوح وأنا...

إنني ألبس ثيابًا إغريقية.. أرى نفسي أتسلل وسط معبد إغريقي هائل الحجم.. هناك تمثال ضخم لـ (زيوس).. هناك نار عملاقة موقدة في حفرة تحت قدمي التمثال. أنظر حولي.. أخرج من تحت ثيابي قطعة من المعدن.. أمسك بعصا معدنية، وأمد طرفها إلى النار.. أوه! إنها ساخنة.. طبعًا يا أحمق.. المعادن موصلة جيدة للحرارة.. ألم تتعلم هذا؟ لكن لا وقت يسمح بالألم..

لا بد من سرقة بعض هذه الزهور المشتعلة.. إن الأمر يستحق...

لا بد من...

كف يا (لوسيفر) عن هذه الألعاب السخيفة.. أنا لست (بروميثيوس) و(بروميثيوس) لم يكن له وجود..

أرى الصندوق المفتوح أمامي فأغلقه بعنف وغلظة وإحكام..

أخيرًا بعض السلام..

ثم ألتقط المفتاح فأديره في القفل.. أحمل الصندوق تحت إبطي وأغادر الشقة..

لا تسألني عن مصدر هذا الألم في كفي.. لقد أحرقني عمود ساخن في (الأوليمب) منذ دقائق.. ظننت هذا واضحًا.. تسألني كيف؟ لأن أوهام (لوسيفر) لها ملمس وطعم ولون ورائحة.. إنها تحرق وتخمش وتدمي..

في الخارج وقف حشد الناس.. لقد بدأ الهدوء يسود المكان كما توقعت..

- «أنت هناك! إلى إين تذهب بهذا الصندوق؟»

كان هذا أحد الواقفين وقد رآني أغادر شقّة (رمزي) بهذا الصندوق الذي يبدو ثمينًا.. طبعًا منظري مريب جدًّا..

- «دعوه.. دعوه.. فهو صديقي..»

كان هذا هو د. (رمزي) نفسه..

رأيته في امتنان يقف وسط الناس.. يبدو أنهم يتصافون أو يديرون مانسميه نحن (قعدة عرب).. كان مبعثر الثياب مغبر الوجه.. ويبدو أنه لم يضرب الجيران فقط بل ضربوه هم أيضًا..

ابتسم لي وقد فهم ما قمت به، فهززت رأسي بمعنى (لقد - فهمت - ما - حدث).. فهز رأسه بمعنى (خذه - معك - وكن - حذرًا).. نظرت له نظرة من طراز (أنت - معتوه).. فابتسم في إنهاك..

هكذا غادرت البناية، وقد أدركت أنني بالفعل قمت بالشيء المناسب.. كان المكان سيتحول سريعًا إلى جحيم (دانتي)..

وقدت سيارتي وأنا أتأمل الصندوق في غل..

المشكلة هي أنني لا أجد الوقت في أية مرة كي أفتشك بعناية.. لو كان هذا الترياق فيك فأنا لا أجد الوقت للبحث عنه لأن الهلاوس الملموسة تهاجمني..

ورحت أقود سيارتي في جنون وأنا غارق في أفكار سوداء..

فجأة خطر لي الجواب..

وكان معقولًا..

أعتقد أنني أعرف ما يجب عمله...

☆ ☆ ☆

لم يرد (عزت) على حين قرعت الباب...

واصلت الدق حتى استجاب أخيرًا.. أدركت من خطواته أن الأمر صار خطيرًا، وحين فتح لي الباب رأيت صورة فذة جديرة بكوابيسي..

قلت له وأنا أجره إلى الفراش:

- «يا لك من شيطان تعس! لم يعد من حقك أن تظل وحيدًا في دارك.. بأي ثمن.. سآخذك إلى المستشفى..»

راح يتكلم بصوت كالفحيح فلم أفهم شيئًا..

هكذا فتحت خزانة ثيابه وبحثت عن ثياب تصلح.. إن لديه أروع مجموعة من الكرات في خزانة ثيابه.. كرات هي قمصان، وكرات هي سراويل، وكرات صغيرة خبيثة الرائحة هي جوارب.. ويبدو أنه يختار كسرة من كل مجموعة صباح كل يوم.. لا أكثر ولا أقل..

هكذا انتقيت ثلاث كرات، ودسسته فيها، ثم أسندت ذراعه على كتفي ونزلنا في الدرج...

ساعدني بواب البناية مع أحد المارَّة، وإن أصابهما الذعر من كل هذا التشوه الذي ظهر على وجه (عزت) فقلت لهما في ثقة:

- «ليس معديًا! لا تخشيا شيئًا!»

ووضعناه في سيارتي، بينما البواب يضرب كفًّا بكف لقد كان الأستاذ (عزت) سليمًا كجرس من يومين.. ماذا حدث؟ إنها حياة العزوبة عليها اللعنة...

لم أعلق وانطلقت بالسيارة نحو المستشفى الذي أعمل به..

أصيب الأطباء بالهلع، خاصة هؤلاء الذي رأوه أول أمس.. لقد تبدل بصورة لا تصدق حتى صار يذكرك بالرجل الفيل إحدى أشهر حالات التشوه في تاريخ الطب...

وعلى كل حال لم يكن في جعبتي الكثير حاولوا إبقاء هذا البائس حيًّا.. لو انخفض ضغطه فارفعوه، ولو ارتفع فأخفضوه.. لو أصابته الحمى فقالوا حرارته، ولو انخفضت حرارته.. حسن.. حاولوا أن تدفئوه قليلًا...

وغادرت المستشفى شاعرًا بأن الوقت يضيق..

يضيق حتى صار عليَّ اتخاذ قرار سريع...

د. (لوسيفر) أيها الأحمق.. الأمر بيني وبينك فلماذا تعذب هذا البائس؟

لكن الإجابة كانت واضحة.. أنا أتعذب أكثر من أي شخص في هذه القصة.. بالفعل الانتقام موجه لي وليس لسواي، خاصة مع كوني أعرف ما ينبغي عمله تقريبًا..

☆ ☆ ☆

وحيدًا في الصحراء أوقفت سيارتي...

نظرت حولي في ستة الاتجاهات.. يمين.. يسار وراء.. خلف.. فوق.. تحت.. لا أحد يراني..

مددت يدي وأخرجت الصندوق ووضعته على كبود السيارة..

أخذت شهيقًا عميقًا ثم مددت يدي إلى المفتاح...

أولجته في القفل وأدرته...

من ثم وثب الغطاء مفتوحًا...

☆ ☆ ☆

وقفت أنتظر بعض الوقت..

أنتظر رحلتي الشنيعة إلى عالم الأساطير الإغريقية..

أتصور أن يظهر الرخ من جديد ليناوشني، ويتلذذ بالتهام كبدي..

أنتظر الجنون الذي سيزحف على أعصابي حتى أجن.. ربما أضرب رأسي في السيارة حتى ينفجر، أو أقودها نحو الهاوية.. سمعت عن مخابيل ينتحرون بابتلاع لسانهم فهل هذا وارد؟

الحقيقة أن (لوسيفر) قوي جدًّا.. قوي إلى درجة مفزعة.. لم لا؟ ألم ترَ كيف يرتجف منه سادة (جانب النجوم) ويطيعونه بلا مناقشة؟ فقط أنت تنسى ذلك أحيانًا.. تمزح معه أو تتكلم.. وللحظات تعتقد أنه في مستواك، وأنكما تلعبان لعبة شطرنج عقليّة لا أكثر..

من دقائق رأيت ما يستطيع هذا الوحش أن يفعله.. وعرفت أن الخصم العقلي الذي تتصوره، يملك قوة مريعة..

بالواقع ليس هناك من ينافس هذا الكائن في قوته.. لكني لست وحيدًا.. إن الله معي.. أعرف هذا وأؤمن به..

لقد مرّت دقيقة ولم يحدث شيء..

هكذا مددت يدي إلى الصندوق ورحت أبحث في داخله..

لقد كان خاويًا تمامًا!

لا توجد بطانة أو جيوب سرية.. مجرد صندوق خال..

ووقفت أنتظر...

بضع دقائق أخرى، ثم بدأت أشعر براحة تغمرني.. أمل خالص يتسرب إلى نفسي.. سوف أربح هذه المعركة.. أعرف هذا..

انتظرت حتى بدأ ذلك الشعور يثبت في نفسي ويستقر ثم أغلقت الصندوق..

☆ ☆ ☆

11 - خاتمة..

لم يكن ما قمت به ضربًا من السحر أو المقامرة التي نجحت..

لقد بنيت عدة استنتاجات واتضح أنها صائبة أو هذا ما أعتقده..

أولًا: قام الصندوق بتأثيره الشيطاني في كلّ مرّة فتح فيها.. ما عدا مرة واحدة، هي تلك الليلة التي استوقفني فيها كمين الشرطة.. فما معنى هذا؟ ثمّة احتمال أن اسم (بسطويسى) يعطل عمل الصندوق.. لكني أستبعد أن يكون (لوسيفر) نفسه قد سمع بهذا الاسم من قبل.. فكرت في الظلام.. في دخان التبغ.. لكن هذه جميعًا كانت عوامل موجودة في مرات سابقة أدى فيها الصندوق عمله..

فكرت في أن الصندوق لا يؤدي عمله إلا مع شخص أو شخصين على الأكثر.. لكن هذا ليس صحيحًا.. كان هناك زحام في الورشة بينما كان (رمزي) وحده.. أي أن عدد الأشخاص لا يلعب دورًا..

هنا خطر لي الأمر كوهج.. نوع من الإلهام.. لقد كان الصندوق يعمل دائمًا في الأماكن المغلقة.. بينما المرّة الوحيدة التي لم يعمل فيها كانت في العراء.. تقول الأسطورة إن (بندورا) فتحته في دارها.. لهذا فكرت في أن أفتح الصندوق وأفتشه في العراء..

كانت مقامرة لكنّها نجحت..

النقطة الثانية هي أن أهوال الصندوق تدفع كل إنسان إلى الإسراع بغلقه على الفور.. حدث هذا مع (بندورا) نفسها.. لكنها ارتكبت بهذا خطأ جسيمًا لها حبست روحًا أخيرة.. الأمل..

قررت أن أفتح الصندوق وأتركه حتى النهاية.. وقدرت أنه لو التزم (لوسيفر) حرفيًا بالأسطورة، فإنّه لن ينسى هذه الجزئية..

أعتقد أنّ هذا صحيح... لو كانت هناك آثارًا سلبية حلت بالعالم من الصندوق فقد أزالها الأمل..

أعتقد أن الصندوق خال الآن ومأمون..

لهذا حفرت حفرة عميقة في الصحراء، ثم دفنت ذلك الشيء الكابوس فيها، وأهلت عليه الرمال..

لو كان تقديري صحيحًا فأنا لن أجده ينتظرني في داري لدى العودة..

طبعًا قمت بتحديد مكان الحفرة.. لا أريد أن أكتشف فجأة أن الصندوق مازال مهمًا، بينما أكون قد فقدت أثره للأبد...

الآن... مازالت هناك مشكلة صغيرة..

(عزت)..

☆ ☆ ☆

كنت أعرف الآن أن موضوع الترياق صحيح..

ليس لأن د. (لوسيفر) صادق أمين، فهو وغد لا يتورع عن شيء، ولكن لأنّه يملك ولعًا بالدقة واللعب حسب القواعد.. كما قلت هو يستمتع بوقته لا أكثر ولا أقل، ولو كان تفكيره عمليًا (براجماتيًا) لفتك بي منذ عشرات الأعوام...

- «لأن الحمقى من أمثالك هم ما يجعل للحياة طعمًا.. إن (المانوية) تقول إن الشر ضروري للكون كالخير، ولولا الشرما وجد الخير.. إن الحياة لا تستقيم إلا بوجود مصاصي الدماء وقتلة مصاصي الدماء.. لهذا تركتك حيًّا لأن جولات كثيرة تنتظرنا معًا.. جولات أكثر امتاعًا من هذه!»

هو قالها لي ذات يوم في (هالماجيو)، وكان على حق..

إذن عليَّ أن أفترض أن الترياق موجود..

لكن أين هو؟

لا أذكر أن الصندوق فُتح مرة واحد بشكل كامل قبل وصول المفتاح.. المخبر فتحه لكن قال إنّه لا يحتوي شيئًا.. من يدري؟ ربما لم يهتم بأنبوب صغير ملقى في ركن، لو كان الترياق بهذا الشكل.. كان يبحث عن (طرب) الحشيش أو يد الجثة أو المنشورات.. فلماذا يهتم بأنبوب صغير؟

فيما بعد فتحه د. (رمزي)..

فماذا فعل؟ لو كان قد وجد شيئًا فقد نسي الأمر وسط الجنون الذي أصابه...

هكذا قدت سيارتي من جديد إلى بيت (رمزي)..

كانت الأمور قد هدأت قليلًا.. لم يعد هناك إلا الكثير من القذارة..

فتح لي الباب متوجسًا.. إنّه يمرّ بالمرحلة التي يمرّ بها كل من يعرفني.. حين يتبين بوضوح أنني شخص خطر وأن وجودي ذاته كارثة..

قلت له وأنا اقتحم شقته:

- «هل نظفت غرفة المكتب؟»

قال في ضيق وهو يغلق الروب الذي يرتديه:

- «كنا منهمكين في ذلك لولا...»

- «إذن أسرع..»

ودخلت المكتب معه.. ودون إنذار ركعت على ركبتي ورحت أفتش عن شيء على البساط.. موضع القدمين.. فتحت الدرج وبحثت فيه.. هتف مغتاظًا:

- «هل فقدت مليون جنيه هنا؟»

قلت في صبر وأنا أفتش تحت المقاعد:

- «أبحث عن الترياق.. ظننت هذا واضحًا..»

- «وهل تعتقد أنني كنت سأجده فلا أخبرك؟»

- «أنت كنت غارقًا في ألف مشاجرة مع الجيران.. من الممكن أن تنسى..»

قال وهو يهز يديه بإصرار:

- «مستحيل.. أنا أؤكد لك أن الصندوق كان خاليًا..»

رحت أواصل التفتيش بلا جدوى...

لقد أسقط في يدي.. فلا أعرف موضعًا آخر يمكن أن...

قلت له وأنا أتجه لباب الشقة:

- «لا أريد أن أكون فظًا، لكننا في الدقائق الأخيرة من حياة فتى لا ذنب له.. يجب أن أجد هذا الترياق..»

- «ومن قال إن هناك ترياق؟»

- «أنا متأكد من ذلك..»

☆ ☆ ☆

ومن جديد انطلقت بسيارتي...

هناك احتمالات عديدة.. هل اختلس المخبر الأنبوب لنفسه عسى أن يكون شيئًا ثمينًا؟

أعتقد أن عليّ أن أعود لداري أولًا كي أتحقق من... أنا لم آخذ شيئًا من الصندوق، لكن لابد من أن أعاود التحقق..

وفتحت باب شقتي ورحت أفتش هنا وهناك..

وبحثت فوق المنضدة وسط تماثيل (الزولو) وتحتها.. من يدري؟ ربما فعلت شيئًا وأنا في تلك الغيبوبة أتخيّل نفسي (برومثيوس) معلقًا بين جبلين..

ربما أخرجت الأنبوب وسقط من يدي..

ربما..

هنا خطرت لي فكرة أخرى..

هرعت إلى سلّة الغسيل في الحمام.. هناك ذلك القميص الذي تلوث بدمي في تلك اللحظات.. لقد وضعته هناك ولم ألمسه من لحظتها..

أخرجت القميص وتحسست جيبه عند الصدر.. لا أنابيب..

لقد فعلت ما بوسعي ولم يعد في جعبتي شيء آخر.. فقط يعلم الله إنني حاولت..

هنا شعرت بشيء في الجيب..

مددت يدي فشعرت بتلك اللفافة الصغيرة.. إنها قطعة من الكتان ملفوفة بعناية حول مسحوق..

هذه هي مشكلة التحيزات المسبقة والقولية الفكرية Archetype.. لقد وقع في وجداني ويقيني أن الترياق لا يوجد إلا في أنبوب اختبار أو زجاجة صغيرة.. هكذا علمتنا القصص.. فماذا عن لفافة بها مسحوق؟

لقد وجدتها وأنا أفتش ذلك الصندوق.. وبينما أنا في تلك الغيبوبة دسست اللفافة في جيبي.. أعتقد أنّ هذا كان مرسومًا.. موقف السخرية الذي يروق لـ د. (لوسيفر).. أنا غارق في التساؤل عما إذا كان عليّ أن أفتح الصندوق أم لا، بينما ما أريده من الصندوق موجود خارجه فعلًا..

وهكذا هرعت أغادر الشقة وأركب سيارتي من جديد نحو المستشفى..

☆ ☆ ☆

فرغت من جعل (عزت) يشرب آخر قطرة في الكوب الذي أذبت فيه ذلك المسحوق..

كان الأمر عسيرًا لأنّه كان يحتضر تقريبًا لكن شفتيه الجافتين راحتا تمتصان السائل كريه الرائحة.. لا بد أن مذاقه شنيع.. لكني أعتقد أنه هو الإنقاذ...

سألته وأنا أناول الكوب لممرضة تقف جواري:

- «هل تشعر بتحسن؟»

هزّ رأسه أن نعم، وأغمض عينيه ليستريح بعد كل هذا الجهد..

كنت أعرف أنه سيتحسن.. قواعد اللعبة تقول إنّه سيتحسن..

جلست منهكًا شاعرًا للمرة الأولى بالإنهاك بعد كل هذا الصراع.. إن من يمشي ألف ميل لا يشعر بالتعب إلا بعد إنهاء الرحلة..

ودنا طبيب شاب مني يسألني في فضول:

- «ما هذا الدواء الذي شربه؟»

قلت له في إنهاك:

- «هذا هو الترياق الذي كان في صندوق (بندورا).. هذا هو أسلوب د. (لوسيفر) في العمل.. أنت تفهمني أليس كذلك؟»

☆ ☆ ☆

أشعر بحاجة ماسة إلى الراحة..

أشعر بحاجة إلى إجازة طويلة أستعيد فيها ثبات أعصابي..

لكن كانت هناك قصة رهيبة تنتظرني..

كان عليّ أن ألقى المحركين.. وكان عليّ أن أواجه لغزًا غامضًا.. بمعنى آخر.. كان على أن أعود إلى روتين حياتي الممل..

ولكن هذه قصة أخرى

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

مقـــدمة

1 - بلدة ما..

2 - العائد..

3 - إيفيـــــتا..

4 - هدية متأخرة..

5 - فلنفتح هذا الشيء..

6 - وظللنا صامتين.. نفكر..

7 - هل تعرف ما أفكر فيه؟

8 - مـــــأزق..

9 - محاولة فاشلة..

10 - وجدت الحل..

11 - خـاتمـــة..

Notes

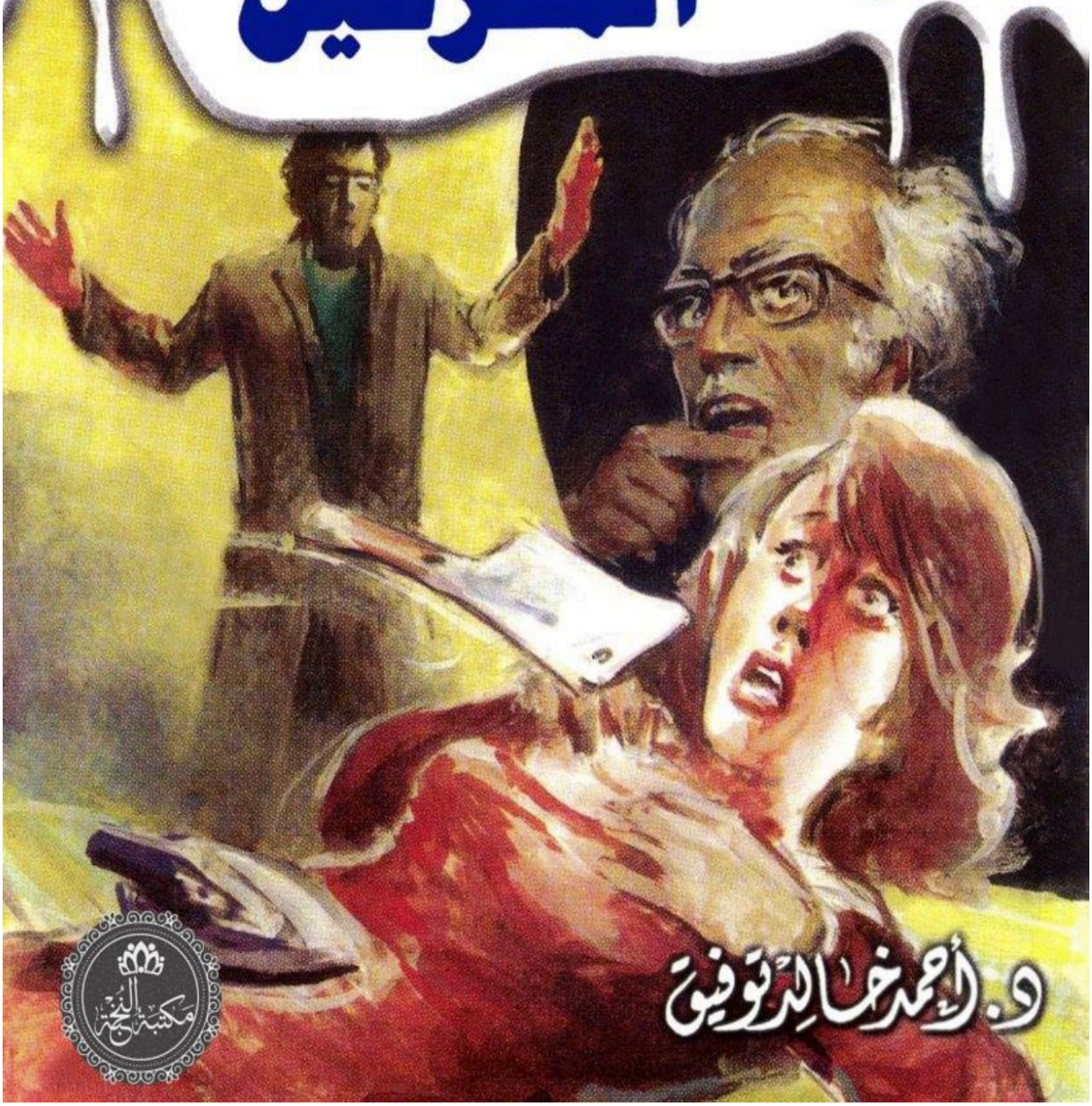
[1←] ليس هذا هو ذات الفيلم الملون الموجود الآن بنفس الاسم.. الفيلم الأصلي إنتاج 1968.. أبيض وأسود وكئيب جدًا..

روايات مصرية للجيب

63

ما وراء الطبيعة

أسطورة المحركين



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة النخبة

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



تيليكينيزيس: من اليونانية (تلي + كيزنس = حركة). الحركة الظاهرية للأجسام (بوساطة وسيط روحاني مثلاً) من دون تلامس أو أية وسيلة مادية أخرى.

قاموس وبستر الشامل - الطبعة السابعة

المقـدمة

اعتدت أن أتكلم كثيرًا في المقدمة، وواظبت على هذا طيلة حكاياتي السابقة..

واظبت كذلك على التغيير.. لأنك لن تجد من هو أكثر مني مللًا مهما حاولت..

لماذا لا نخرق هذه القاعدة التي صارت مملة، ونبدأ على الفور بلا أية مقدمات؟

هه؟ فلنبدأ الآن..

☆ ☆ ☆

تمهيـد

نعم عرفت الكثير عن التحريك عن بعد Telekinesis.. لقد تحدّثت عن أشياء كثيرة، لكني لم أتحدث عن القدرات النفسية الخارقة كثيرًا، ربما لأنني أنفر بطبعي من الكتب التي تملأ الأرصفة عند باعة الصحف عن (حوادث غريبة) و(القدرات العجيبة للإنسان).. إلخ.. حيث كلام لا ينتهي عن (نوستراداموس Nostradamus) والسيدة (مارجريت) التي شعرت بأنها تختنق بينما ابنها يغرق في الناحية الأخرى من العالم، وشبح الكونتيسة الذي يعبر الردهة كلما اكتمل القمر بدرًا.. هذه كتب مليئة بالأسئلة ولا تقدم أجوبة، ولا تظفر منها إلا بأن تغلق الكتاب وتقول: هناك أشياء غريبة فعلًا في هذا العالم.. يا سلاااااام!

من الغريب أن أقول أنا بالذات هذا الكلام، لكني التزمت معكم بأن أحكي قصصًا ولا أحكي ظواهر، وألا أحكي إلا ما رأيته بعيني وتفاعلت معه.. ولنفس السبب لم أتحدث عن الجان قط - ولن أتحدث - لأن خبرتي معهم ضئيلة، ولأني أخشى أن أتورط في خطأ ديني دون أن أعرف، فهم مذكورون بوضوح في القرآن الكريم..

نعم عرفت الكثير عن التحريك عن بعد.. رأيت تجارب له أمام عيني، وقابلت أشخاصًا مارسوه ومازالوا.. وقد تعلّمت أن هؤلاء الأشخاص لا يعلنون عن أنفسهم أبدًا حتى لا يخافهم الآخرون.. إنهم يفضلون إخفاء موهبة هائلة كهذه مقابل أن يندمجوا في عالم البشر ولا يتم اعتبارهم فلتات Freaks.. أمّا الذين يتفاخرون في كل صوب بموهبتهم ويعرضونها على المسارح وفي الملاهي الليلية هم على الأرجح مجرد حواة.. عرفت كذلك أن البعض لديهم هذه الموهبة لكنهم لا يعرفون.. يُقال إنها موجودة لدينا جميعًا لكن الحضارة غطتها بطلائها الأنيق.. لست ميالًا إلى هذه النظرية على كل حال؛ لأن معناها أن البدائيين هم مجموعة من محركي الأشياء عن بعد، ومشاهداتنا والتاريخ ذاته ينفي ذلك..

إن لفظة Telekinesis لا تعني بالضبط اللفظة الأشمل (التحريك النفسي Psychokinesis) بل هي جزء منها؛ لأن دراسات التحريك النفسي تشمل التحريك عن بعد ورفع الأجسام في الهواء والتواجد في مكانين، والعلاج الروحاني والتجسد..

إن التحريك عن بعد معجزة صغيرة، ولو امتلكناها لا متلكنا قوة لا تصدق.. أعتقد أن المحرك القوي سلاح سرّي خطر، ولأسباب كهذه غاصت الحكومة السوفييتية حتى الأذنين في هذه البحوث أيام الحرب الباردة..

لا أحد يعرف إلام وصلوا بالضبط.. السوفييت لديهم عادة التكتم للتكتم.. حتى إن هذه صارت هواية في حد ذاتها ولم يتسرب للغرب عام 1968 إلا فيلم قصير.. في هذا الفيلم تظهر ربة بيت

تدعى (نينا كولاجينا) من (لننجراد) تحرك أجسامًا صغيرة بمجرد التركيز.. تقطب ويبدو عليها التركيز الشديد.. تتقلص يداها في مزيج غريب من المعاناة والألم والنشوة؛ فيتحرك الكوب على حافة المنضدة..

حسن.. لقد حاول الأمريكيون كثيرًا جدًّا العثور على آثار خيوط في هذه الصور، لكنهم فشلوا.. فكروا في التحريك بإيقاف الكادر Stop motion animation فهم لم ينسوا الفيلم الفرنسي (بيت الأشباح) الذي رأوه في بدايات القرن، حيث كانت الأشياء تتحرك ذاتيًا، وأجهدوا أنفسهم بحثًا عن خيوط بلا جدوى.. اتضح فيما بعد أن الفرنسيين ابتكروا حيلة بسيطة هي تحريك الجسم حركة ملليمترية ثم التقاط الصورة.. تحريكه أكثر ثم التقاط صورة.. هكذا حينما يعرض الفيلم بسرعة عادية يبدو الجسم كأنما الحياة قد دبت فيه.. إنّه الظهور الأول لأسلوب التحريك بإيقاف الكادر..

على كل حال تأكد الخبراء من أن الفيلم أصلي، وبرز سؤال واحد: ماذا عرفه السوفييت أكثر من هذا؟

الشيء الوحيد الذي اتفق عليه الجميع أن من يعرف ويفعل أكثر من هذا لن يعلنه..

وفيما بعد درس العلماء ظاهرة البولترجايست Poltergeist أو الأشباح الصاخبة، وقد رأى اكثرهم أنها ظاهرة تحريك عن بعد لا إرادية.. أي أنّ هناك من يملك موهبة التحريك عن بعد لكنه لا يعرف هذا وهو يراقب في ذعر الأشياء التي تتحرك والمقاعد التي تطير، والأطباق التي تعلو في الهواء لتتهشم على الأرض، ولا يعرف أنه من يفعل هذا!

حسن.. لن أطيل عليكم..

ما سأفعله هو أن أخرس - وإنه لشيءٍ مغر - وأقدم لكم مجموعة من القصص التي تعاملت فيها مع - أو عرفت قصصًا عن - التحريك عن بعد..

وسوف أترك لكم التعليق بعد هذا..

☆ ☆ ☆

1

- «نعم.. هو يحبني.. أعرف هذا وأدركه.. إن المرأة لاتحتاج إلى إعلان في الجريدة الرسمية أو تنويه في التليفزيون.. هي فقط تسمع صوت الرجل وترى عينيه فتدرك أنه يهيم بها..»

قالت د. (هيام) هذا وهي تلمس إطار عويناتها من حين لآخر، على سبيل التخلص من توترها واضطرابها.. خجول جدًّا لكنّها واثقة من نفسها حقًّا.. لا يوجد تناقض بين الصفتين.. منذ زمن عرف علماء الاجتماع أن الشخص الخجول هو على الأرجح شخص عظيم التقدير لذاته إلى حد إعطائها أهميّة مبالغًا فيها..

استرخيت في مقعدي وأطبقت ذراعي على صدري..

هل هي جميلة؟ لا أعرف.. ليست لي عين الآخرين ولا ذوقهم.. ثم إنني أعتبر نفسي منذ زمن بعيد عالمًا يرمق الوجود تحت المجهر.. لم أعرف عالمًا يصف عصية تيفود بأنها أجمل من العصية الأخرى.. أعترف أنني لم أبلغ الدرجة المثلى من التجرد بعد، وما زلت أشهق من حين لآخر حين أصادف وجهًا جميلًا.. لكني أتحسن يومًا بعد يوم.. وبالنسبة لي كانت د. (هيام) عصية تيفود أخرى، لكنّها على الأقل عصية تمتاز برقة وملائكية لا شك فيهما..

قالت لها:

- «حسن.. (إيهاب) يحبك.. أنت لا.. ما المشكلة إذن؟ فليذهب الشيطان التعس إلى الجحيم.. أعتقد أنّ هذه أسعد لحظة في حياة أية فتاة حين تخبر ذلك البائس الذي يحبّها: أنت إنسان ممتاز وأنا أعتبرك أخًا.. في ظروف أخرى كان هذا الكلام يشرفني.. ستجد من هي أفضل مني.. إلخ... إلى آخر هذا الكلام المحفوظ الذي يبدو أنكن تتعلمنه في الرحم.. ثم تتظاهر بأنه يضايقها بينما هو قد منحها أسعد لحظة فخر في حياتها.. إذن ما المشكلة وما دوري هنا؟»

كنا جالسين في مكتبي، نشرب القهوة.. من الطريف أن (هيام) تحب القهوة مثلي بالضبط.. وكانت قد طلبت لقائي بصدد تلك المشكلة التي بدأت خيوطها تتضح لي في الأيام السابقة والتالية.. احتاجت (هيام) إلى دقائق حتى تشفي من مفعول كلماتي الصادمة.. لم تعتد أن يكلمها أحد بهذه الصراحة الدانية من الوقاحة، ثم إنني - بالنسبة لها - أنزع الغطاء عن أوهام جميلة فتبدو مجردة قبيحة.. لا طعم للحياة إن فقدت قناعها الأنيق هذا.. على كل حال أعتقد أنهم أخبروها عني.. لسان سليط وملل يمشي على قدمين.. لم يخدعوها ولم أخدعها..

قالت أخيرًا وقد تلوثت شفتاها بالبن الأسود الثقيل:

- «ربما لو حكيت لك القصة من بدايتها تتضح الأمور أكثر..»

☆ ☆ ☆

كانت الدكتورة (هيام) طبيبة تخدير في مستشفانا، لكن عملها بدأ يتركز على العناية المركزة أكثر فأكثر..

رقيقة هي.. جميلة كما يصفونها.. مهتمة بعملها حقًّا.. في الثامنة والعشرين هي.. غير مرتبطة وبلا قيود ذهبية حول خنصر أيمن أو أيسر.. هذا يجعلها فرصة سانحة لمن يرغب في الارتباط..

هكذا تعددت العروض.. لكنّها لم تبال بها، ربما لأنهّا لم تكن راغبة في الزواج على الأقل في هذه المرحلة.. لقد شغفت حبًّا بالعناية المركزة حتى لم يعد في قلبها موضع لشيء آخر.. كانت كأرض جافة ترتوي لأول مرة بالماء.. هكذا كانت تتعلم السيطرة على الكهارل Electrolytes والسباق الزمني المحموم ضدّ قرحة الفراش، والألغاز التي تتحكم في ضغط الدم ومقاومة عدوى التنفس.. كانت تتعلم الكثير كل يوم، لهذا - كلما ظهر أحدهم مسبلًا عينيه في هيام - كانت تشعر بأنه يعطلها.. لم تكن تحمل ضده ضغينة ما لكن العيون المسبَّلة والوعود بالسعادة هي آخر أشياء تهمها الآن.. لقد بدأ العالم الخارجي بمشاكله ومسراته وأحزانه شيئًا بعيدًا جدًّا ومبتذلًا.. هناك في الخارج حافلات وباعة وموظفون ومطلقات ولصوص وعرسان وبرامج تليفزيون وأغان جديدة.. لكنه - كل هذا - بعيد جدًّا عنها..

لقد أدمنت صوت جهاز التنفس الصناعي وسط السكون.. أدمنت رائحة الدواء.. ورائحة بودرة (التلك) المخلوطة بالعطر الرخيص الذي يدلكون به ظهور حالات الغيبوبة.. أدمنت صوت المرقاب الذي يسجل ضربات القلب.. الإضاءة الخضراء حين تظلم الغرفة تمامًا.. عملية نزع حذاءيها على باب العناية وارتداء الحذاء المطاطي أو الخف الأزرق إياه، كانت تشعرها بالفعل بأنها تدخل محرابًا مقدسًا هذا مكان غير ملوث ولا يحق له أن يتلوث بقبح العالم الخارجي.. إنّه قدس الأقداس.. وهي الكاهنة العذراء التي تعرف كل أسرار المكان..

كانت - بحكم خجلها - لا تجيد التعامل مع المرضى في الخارج.. أمّا هنا فقد كان المريض يأتيها في أمس حاجة إلى العناية.. غير قادر على إزعاجها لكنه يحتاج إليها بعنف.. وعندما يأتي المساء وتخلد الممرضات للنوم في مقاعدهن، كانت تجلس إلى المنضدة في ركن القاعة حيث الإضاءة الخافتة الوحيدة، وتطالع بعض المراجع الطبية، أو أشعار (ناجي) الرقيقة.. (ناجي) كان طبيبًا مثلها.. ومثلها فهم أن الطب والشعر شيء واحد..

هناك كانت (هيام) تنتمى وتوجد.. إنها هنا الملكة.. حينما لا يكون هناك من هو أكبر خبرة منها فالكل يسألها ويطلب رأيها.. وقد عقدت علاقة خاصة مع كل مريض بعضهم واع لكن حالته الصحية لا تسمح له بالنهوض وبعضهم في غيبوبة. تشعرها بالرهبة.. إنّه غائب في عالم آخر لا تعرف مقاييسه ولا ما يحدث فيه. فقط تقف تراقب وجهه الساكن شاعرة بأنه اجتاز البوابة.. إنّه يعرف ما لا نعرف وقد ازداد حكمة بما لا يقاس..

حياة د. (هيام) رتيبة خارج المستشفى، فأسرتها لم تعرف بالثراء.. أب وأم في أرذل العمر، وأخ في نهاية مراهقته.. لا توجد تفاصيل أخرى..

لهذا لا نعلن سرًا إذا قلنا إنها تتعمد البقاء في المستشفى أكثر من اللازم، وإنها تبحث لنفسها عن النوبتجيات بحثًا.. طبعًا هذا يسر زملاءها كثيرًا.. إنها متطوعة في أي وقت لأخذ أية نوبتجية يريد أي واحد التخلص منها.. ولولا المسئولية القانونية لفعلت هذا سرًا من دون أن يدون اسمها على الأوراق.. هي لا تريد المال ولا تعبأ به.. كل ما تريده هو أن تتواجد هنا والآن..

أحبتها الممرضات وقد عرفن أنهن - ربما للمرة الأولى - قابلن طبيبًا مخلصًا حقًّا.. وأحبها المرضي المحتفظون بوعيهم، وقد رأوها تصلح وضع المريض بنفسها أو تجلس خلفه لتسنده إلى صدرها ريثما تبدل الممرضة الملاءة المتسخة.. رأوها تفرغ كيس البول بنفسها دون تأفف لمجرد أنه لا يوجد قربها من يفعل هذا العمل..

كان الجميع يتمنى أن يجد في هذا كله شبهة ادعاء، لكنهم فشلوا.. وقد ترك هذا في نفوسهم إحساسًا بالإحباط يختلط بتقدير لا متناهٍ لهذا الملاك صغير الحجم..

كان هذا حين عرفت شخصًا نادرًا من الطراز الذي يمكن أن يغير حياة المرء بالكامل.. هذا الشخص النادر كان نحيلًا كدودة الأرض.. أصلع الرأس كأنها كرة عراف زجاجية ملساء.. كان هذا الشخص يدعى (رفعت إسماعيل)..

كلا.. لم تعرفه لتقع في هواه لا سمح الله، ولكنّها عرفته زميلًا في العمل.. وقد عرفت منه بعض أشياء مهمّة.. وعرفت اهتمامه غير الطبيعي، أو انغماسه المبالغ في عوالم ما وراء الطبيعة..

سألته ذات يوم عن مرضى الغيبوبة.. هل يعتقد أنهم يعيشون حلمًا طويلًا؟

قال في حيرة:

- «لا أدري..»

- «ومن الذي يدري؟»

- «بين البشر.. لا أدري..»

ثم حك رأسه الأصلع مفكرًا، وقال:

- «الأمر لغز كبير.. لكن هناك فرعًا كاملًا من العلوم الماورائية يدعى (تجربة الدنو من الموت NDE)، والذين عادوا منه يحكون قصصًا متشابهة إلى حد كبير.. ثمّة ما يدعو للاعتقاد بأن مرضى الغيبوبة العميقة أو موت الدماغ يمرون بحالة طويلة من NDE»

كانوا يطلبون رأيه أحيانًا في بعض الحالات، وقد لاحظت أنه لا يملك عجلة الأطباء ولهفتهم على الانتهاء.. كان يتصرّف كأنه يملك كل الوقت في العالم. يفرغ مما طلب منه يجلس متثاقلًا إلى

ذلك المقعد في ركن المكان، ويفكر لبضعة قرون.. ثم يقول كلمة.. ثم يتأمل بضعة قرون ويقول كلمة أخرى.. ثم ينهض متثاقلًا..

وقد سألته ذات مرة عن سبب هذا الهدوء فقال:

- «لا أعرف.. كل الناس مشغولون ما عداي.. أعتقد أني الشخص الوحيد غير المهم في هذا العالم.. تأملي سلوك الناس عند إشارات المرور.. تأملي كيف يقود الشباب سياراتهم كأنهم ذاهبون لتحرير القدس، ثم يتضح أنهم يريدون الإسراع إلى المقهى لتدخين (الشيشة)..»

كانت ترتاح إليه لكنّها تهابه.. وتحترمه لكنّها لا تحبه..

لكنها لم تعرف إلى أي حد سوف تحتاج إلى الاقتراب منه، بعد قصتها مع (إيهاب)..

أنتم تعرفون القصة كلها لهذا لن نتطرق إليها وسنبدأ على الفور بحكاية السيارة.. ماذا؟ لا تعرفون الكثير عن (إيهاب).. لا تعرفون أي شيء عن (إيهاب)؟ إذن أنتم متأخرون جدًّا.. لو أمسكت قطًا في المستشفى وضغطت على ذيله قليلًا لحكى لك قصة (إيهاب)..

تعالو إذن نحك القصة بسرعة..

☆ ☆ ☆

2

الظلام.. الطريق السريع.. الأمطار.. الأرض الزلقة..

أضواء مبهرة في الاتجاه العكسي.. أنت لا تصدق عينيك لكنّها الحقيقة.. هذا ما يحدث لك بالذات..

إن ما تراه الآن وأنت تمسك بالمقود في هلع، والضوء قد أحال الزجاج الأمامي إلى بقعة من العذاب المقيم.. ماتراه هو أن شاحنة مندفعة فقدت التحكم.. عبرت حاجز الطريق المعاكس وتتجه نحوك الآن بسرعة ضاعفتها سرعتك!

هناك سيارات على يمينك. خلفك.. لا تعرف إلى أين تقصد..

لو ضغط على الفرملة لتحولت إلى شهاب محلق في السماء..

كل هذا تراه وتستوعبه في عشر ثانية..

إن الرعب لا يخرج من القبور المفتوحة في كل الأحوال.. لا يمد يدًا مخلبية من وراء الباب.. هناك رعب حقيقي وهذا أسوأ ما فيه.. وأشنع الكوابيس طرًا هو ما تعرف أن المنبه لن يوقظك منه..

في اللحظة الأخيرة يتخذ عقلك الأمر.. هي الفرملة ولا يوجد حل آخر.. فليرحمنا الله.. يصدر الأمر لخلايا الحبل الشوكي فتتوقف مترددة وقد فغرت فاها.. مستحيل.. لا بد أنه جن.. لكنها تصدع بالأمر.. الإشارة العصبية تنتقل إلى العصب.. العصب ينقلها إلى العضلات.. تنظر العضلات لبعضها.. إنها تعرف أنها النهاية لكن ليس أمامها إلا الطاعة..

تتحرك العضلات لتدعس الفرملة، وفي اللحظة التالية يتم السيناريو كما توقعه الجميع..

السيارة تدور حول نفسها على الطريق الزلق.. تصدم سيارتين من السيارات القادمة من الخلف.. تسير على سقفها مسافة لا بأس بها.. ثم تنقلب مرة أخيرة لتهوى في الترعة على جانب الطريق..

الباب مغلق.. ما زلت قادرًا على أن تمد يدك وتحاول فتحه.. لكن..

ضغط الماء بالخارج يجعل أطنانًا تضغط على الباب لا يمكن تحريكه.. هنا يخطر لك أن تفتح الزجاج..

تدير المقبض.. بينما بدأ الوعي يتسرب.. يتسرب..

هل هي المرّة الأخيرة؟

ظلام..

ظلام..

ظلام..

☆ ☆ ☆

كانت الدكتورة (هيام) طبيبة تخدير في مستشفانا، لهذا كانت أول من استقبل المريض..

كانت الحالة سيئة.. ارتجاج ونقص الأكسجين لفترة طويلة إلى أن وصل الفلاحون وتعاونوا على إخراجه من تحت الماء.. كسور في أكثر من موضع.. إلخ..

اسمه (هشام عوني).. تقول البطاقة الشخصية إنّه مهندس زراعي.. وتقول إنّه من الإسكندرية وإنه غير متزوج.. وتقول إنّه في أول العقد الرابع من العمر..

وكان رأي الأطباء الأكثر خبرة واضحًا.. هذا موت دماغي لا شك فيه.. سنبقى تنفسه منتظمًا ونحاول ألا تقتله العدوى أو قروح الفراش، فيما عدا هذا نحن نعرف يقينًا أنه سيموت.. اليوم أو بعد أسبوع أو بعد شهر.. لا أحد يعرف.. كل طبيب لديه قصة عن مريض توقعوا موته بعد أسبوع، لكن طبيبه المعالج مات قبله بنوبة قلبيّة على حين شُفي المريض.. معجزات؟ إنها لا تحدث كثيرًا.. لكن كل طبيب يعرف قصة أو أكثر عن معجزة صغيرة حدثت في زمننا الذي انتهت فيه المعجزات.. مأساة؟ كل طبيب يعرف مآسي تتمزق لها القلوب.. لن يكون هذا آخر شاب واعد يفقد حياته بسبب سائق شاحنة اعتقد أن (الأفيون) يفيده في البقاء ساهرًا في أثناء القيادة..

هكذا مارست د. (هيام) عملها بدقة وبخطوات منهجية: قامت بأخذ فصيلة الدم.. تأكدت من انتظام جهاز التنفس أخذت القياسات الحيوية. بدأت في إعطاء العلاج.. ثم راحت تبكي قليلًا.. باختصار الروتين المعتاد الذي تعرفه الممرضات..

سرعان ما يذوب (هشام) ليصير إحدى حالات الغيبوبة العديدة هنا.. لن يعود له اسم سوى (مصاب السيارة التي انقلبت) أو (السرير رقم 5)..

خرجت (هيام) من العناية المركزة إلى البهو الخارجي ارتدت حذاءها ثم مشت في الممر.. هناك غرفة كتب عليها.. (الطبيب)، وهناك مقاعد متراصة للزوار.. ليست غرفة الطبيب غرفتها لأن مكانها هنالك داخل العناية المركزة.. لكنها كانت في حاجة إلى أن تجلس بعيدًا عن محرابها بعض الوقت.. سوف تجلس قليلًا شاردة، ثم تعود إلى الداخل.. هكذا تفعل دائمًا كلما جاءت حالة جديدة..

جلست في الغرفة وألقت نظرة إلى الخارج..

هناك على مقاعد الاستراحة كان ذلك الشاب الوسيم.. كان دامع العينين يعتصر منديلًا كبير الحجم، وينظر إلى السقف.. حيث تتراص مصابيح النيون الكئيبة في خط مستقيم ممل.. كم راحت تنظر لهذه المصابيح من قبل.. تعرف أن الثالث يحدث أزيزًا يصم الآذان والرابع لا يضيء إلا فيما ندر، والسابع تعيش فيه أسرة من العناكب..

نظر الشاب إليها لحظة ثم أدار وجهه.. يخفي دموعه على الأرجح..

ثم نهض..

يدنو منها.. فارع الطول يلبس معطفًا طويلًا ضدّ الأمطار.. هذا يجعله مهيبًا غريبًا.. تذكرت الرماة المحترفين في أفلام رعاة البقر التي كانت تراها في السينما مع أبيها.. المعطف مفتوح والمسدسان مكشوفان.. مستعد في أية لحظة للإطلاق..

حياها بلطف برغم الحزن في صوته، ثم قدم نفسه:

- «(إيهاب عوني).. رسام.»

لم تكن قد قابلت من قبل من يعمل بالرسم.. قابلت من يهواه لكن أن تكون هذه مهنة كالمهندس والمحامي.. هذا غريب..

ثم بإشارة ذات معنى أومأ إلى العناية المركزة، وقال:

- «أنت طبيبته.. أليس كذلك؟»

- «من هو؟»..

- «(هشام).. إنّه أخي..»

لم تربط بين الاسمين إلا بعد ثوان.. بالنسبة لها لم يعد (هشام) إلا (مصاب السيارة التي اتقلبت).. لذا قالت في حرج:

- «معذرة.. لم أعرف..»

- «إنّه أخي.. ليس لدى أمنا سوى ولدين.. أعتقد أنها فقدت الآخر»

- «لا تقل هذا.. إنّه حي يرزق..»

كانت هذه أصعب لحظة في مهنتها حين تشرح لأهل المريض، لماذا لا يفيق مريضهم.. لماذا لا ينهض ويغادر الفراش الآن؟ تشرح لهم معنى الوفاة الدماغية، ومعنى أن يظل المريض معلقًا بين الحياة والموت.. معنى الثبات.. ومعنى أن يتمنى أهله له الموت..

لكنّها شرحت له كل هذا وقد أصغى لها بانتباه.. وفي النهاية قال لها:

- «إذن هو بخير!»

كانت قد اعتادت هذا الغباء وضمته إلى حقائق الحياة.. هو لن يسمع منها إلا ما يريد سماعه..

في النهاية شكرها وعاد إلى المقعد وراح يرمق أضواء النيون من جديد..

وكان هذا هو اللقاء الأول.. لو كنا في فيلم عربي قديم من إخراج (هنري بركات) لسمعنا موسيقا حالمة، تنذر المشاهد بأن الحب ولد في هذه اللحظة، لكن (هيام) لم تسمع شيئًا.. كانت تسمع فقط صوت جهاز التنفس المنتظم..

أما هو فسمع الموسيقا..

وعرف على الفور أن عليه أن يحبّ هذه الطبيبة الساحرة..

الحقيقة أنه - كما سنعرف حالًا - سيفعل ذلك بشدة..

☆ ☆ ☆

3

كانت الدكتورة (هيام) طبيبة تخدير في مستشفانا، لهذا كانت موجودة في أغلب الأوقات.

تكررت اللقاءات وبدأ نوع من الألفة يولد.. قدرت في البداية أنه مهتم بها بسبب اهتمامه بأخيه الغائب عن عالمنا بالداخل.. لكنّها بدأت ترتاب..

قالت لي (هيام) وهي تجفف شفتيها من أثر البن:

- «كان يتكلم عن وجهي الجدير بالرسم.. بل إنّه راح يخط ملامحي في مفكرة معه..»

قلت لها وأنا أتثاءب:

- «لا أعرف ماهي المشكلة.. يسهل على الفتاة أن تتخلص من رجل يلاحقها، فماذا عنك وأنت مكلفة بالبقاء داخل حرم العناية المركزة؟ كيف كان يقابلك؟»

- «يسهل على الرجل كذلك أن يتحول إلى ذبابة لا يمكن التخلص منها.. لا يمكن أن أخرج إلى البهو في أية لحظة دون أن أراه.. عندها كان يلاحقني.. يسأل عن أخيه ثم يجلس معي في أي مكان أجلس فيه..»

- «ما زال التخلص منه سهلًا..»

- «لا أظن.. لا تنس أنني لم أعتد أن أكون حادة.. لم أزجر إنسانًا قط في حياتي ولا أجيد فن الخشونة..»

كنت أعرف أنّ هناك عاملًا آخر لا تعترف به.. أن الأمر يروق لها.. ربما هي لا تعرف هذا لكنّها - من دون أن تعلم - مسرورة بملاحقته لها.. هي لا تعرف ماذا تريد حقًّا..ربما تميل إليه لكنّها لا ترضى بالارتباط به..

- «وفيم كان يتكلم؟»

- «عن كل شيء.. عن حاجته إلى التحرر من قيود المادة عن تطلعه لعالم آخر بلا حدود..»

سألتها:

- «منذ متى عرفت أنه يملك موهبة التحريك عن بعد؟»

بدأت عروض الرجل الصامتة تفصح عن نفسها أكثر..

حتى جاء اليوم الذي جلست فيه إلى المنضدة.. وكان جالسًا أمامها حين تدحرج القلم بعيدًا عن موضعه فوق المنضدة.. كان في متناول يدها ثم لم يعد.. مدت يدها بلا مبالاة والتقطته..

في هذه اللحظة تدحرج القلم إلى موضع آخر..

كان هذا لا يصدّق.. كل جسم يبقى على حالته من حيث السكون أو الحركة في خط مستقيم بسرعة منتظمة مالم تؤثر فيه قوة تغير من حالته.. و(نيوتن Newton) لم يكن أحمق بالتأكيد..

- «بسم الله الرحمن الرحيم!»

ومدت يدها من جديد إلى القلم فقط ليثب إلى موضع آخر..

هنا وثبت خائفة.. وحانت منها نظرة إلى (إيهاب) فوجدت أنه ينظر إلى القلم في ثبات.. رآها فارتسمت ضحكة على وجهه.. رفع رأسه إلى السقف وانفجر في ضحكة انتصار هائلة..

هنا فقط أدركت أن له علاقة بما يحدث.. لا تعرف كيف لكنّها تعرف أنّ هذا يحدث..

نظرت له غير فاهمة وقالت كلمات على غرار:

- «أنت.. القلم.. كيف؟»

قال لها في هدوء:

- «نعم.. هذا هو سرى الصغير.. ولا أبوح به إلا لشخص أحمل له كل تقدير..»

ثم أشار بهدوء إلى مقعدها.. قطب جبينه وارتسمت علامات المعاناة عليه، وراحت يده ترتعش.. في اللحظة التالية تراجع المقعد للوراء قليلًا..

- «لو جلست لحكيت لك كل شيء..»

☆ ☆ ☆

كانت الدكتورة (هيام) طبيبة تخدير في مستشفانا، وقد قال لها (إيهاب):

- «لم أعرف أني أملك هذه الموهبة إلا في سن المراهقة.. كانت أمي تتحدّث عن العفاريت التي تتحرك في حجرة نومي ليلًا.. المقاعد تتحرك والألعاب تعيد ترتيب نفسها.. لم يخطر لي ببال أنّ هذا من فعلي أنا لكني حين كبرت بضع سنوات عرفت أنّ هذا في مقدوري.. إن القوى النفسية تبلغ ذروتها وأقوى طاقة لها في سن المراهقة.. ويبدو أن وحشًا كان يحاول التحرر من داخلي وأنا لا أعرف..»

قاطعت أنا (هيام) وهي تحكي وقلت لها:

- «يطلقون على هذه الظواهر اسم rappings»

هزت رأسها وواصلت سرد القصة..

قال لها (إيهاب):

- «لا أملك أي تفسير لهذا.. لا أعرف لماذا أنا بالذات على قدر علمي لم تمر أمي بأية تجربة غير طبيعية في الحمل.. إلا أنني أخفيت عنها هذا السر.. أخفيته عن أخي، ورحت أحاول استكشاف أبعاد هذه القدرات.. لم تكن خارقة.. هي لا تتجاوز تحريك قلم أو كوب أو تقليب صفحات كتاب.. لم أكن قادرًا على تحريك سيارة كما أرى في السينما لكن هذه الموهبة أثارت اهتمامي.. أولًا حاولت ألا يعرف أحد بالأمر لأني لا أريد أن أتحول إلى فقرة سيرك.. لا أريد أن يخافني الناس.. ثانيًا حاولت تنمية هذه الموهبة.. وقد بلغت الدرجة التي مكنتني من رفع مقعد عبر الغرفة..»

قاطعت (هيام) قائلًا:

- «هذا هو الـ Levitation.. أو رفع الأجسام في الهواء.. إنه جزء مهم من التحريك النفسي..»

قالت في شيء من الحرج:

- «د. (رفعت).. دعني أحك قصتي ثم تكلّم كما تريد..»

- «فقط أضع بعض النقاط على الحروف..»

وواصلت سرد قصتها..

إن هذا سهل.. الجزء الأول من القصة يحكي عن اكتسابه الموهبة.. الجزء الثاني هو الموهبة ذاتها..

الحقيقة أن الرجل لم يحاول قط أن يصنع شيئًا خلاقًا بهذه الموهبة لكنه كان فخورًا بها.. من الجميل أن تعرف أنك قادر على فعل شيء يعجز عنه الآخرون، وقد أفادته هذه الموهبة في مناسبات معدودة تافهة.. ذات مرة كان في الزحام لا يستطيع الانحناء، ووجد مبلغًا من المال على الأرض، وهكذا ارتفع المال ليدخل جيبه من دون أن يلاحظ أحد.. دعك من قدرته على التعامل من مقعده مع جهاز التليفزيون في عصر لم نعرف فيه جهاز التحكم عن بعد (ريموت كونترول).. وحين ذهب إلى فرنسا لدراسة الفن رأى نماذج عدة لهذه الموهبة، كما قابل نصابين كثيرين..

سألته (هيام) حيث جلست في مكتبها:

- «ولماذا تصارحني بشيء كهذا؟»

فكر قليلًا ثم قال:

- «لا أعرف.. ربما لأجعلك تملكين ما لا يملكه سواك ليس لديَّ كنز من المال لهذا أمنحك كنزي الوحيد: سري..»

وما لم يقله.. ما لن يقوله أي رجل في الحقيقة.. هو أنه يريد إبهارها..

لقد سئمت التظاهر بأنها لا تفهم.. كل كلمة يقولها هذا الرجل تصرخ: أنا أهيم بك..

لكنها لا تريد الاعتراف بهذا حتى لا يبرز السؤال: وماذا بعد؟

فجأة رأت القلم يرتفع في الهواء..

راحت شفتاها ترتجفان فهي لم ترَ شيئًا كهذا يحدث قط.. لم تصدق عينيها.

القلم يتجه إلى المفكرة المفتوحة، ثم يبدأ في الحركة.. إنه يرسم وجهها!

رفعت عينيها إلى (إيهاب) فرأته مقطبًا.. كل عضلة في وجهه ترقص رقصة صاخبة.. الأوردة في جبهته توشك على الانفجار.. يداه ترتجفان.. كأنه موسيقار في ذروة السيمفونية..

أخيرًا استرخي جسده فسقط القلم عاد مجرد قلم بريء ساكن..

- «أرجوك ألا تفعل هذا ثانية!»

قالتها وهي ترمق وجهها الذي ارتمى على المفكرة أمامها..

قال لها وهو يلهث ويجفف العرق على جبينه:

- «لماذا؟»

نظرت له وابتلعت ريقها.. ثم قالت:

- «لأن هذا.. لأن هذا يخيفني!»

☆ ☆ ☆

4

كانت الدكتورة (هيام) طبيبة تخدير في مستشفانا، لكنّها لم تستطع ابتلاع الفكرة..

لماذا تقتل هذه الحشرة الحمراء القشرية التي وجدتها على جدار غرفتك؟ من قال إنها مؤذية؟ هل آذتك؟ لا.. لكن قصة (البطة السوداء) تؤدي عملها في كل مكان.. الاختلاف.. نحن لا نقبل الاختلاف أو الغرابة.. ونطاق عدم القبول يتباين من قتل الحشرة الغريبة على جدار غرفتك، إلى ما يحدث لمشجع الأهلي الوحيد الجالس في مدرجات الزمالك، إلى تاريخ أوروبا الملطخ بدماء البروتستانت والكاثوليك..

لهذا لم تستطع (هيام) قبول ما رأته.. لقد عرض عليها الرجل موهبته لينال إعجابها، لكنّها أثارت ذعرها.. ولم تعد تنظر إليه إلا كشيء متفرد شاذ..

هنا يعرف القارئ أنها جاءت مكتبي وعرضت عليّ القصة طالبة رأيي..

كان رأيي واضحًا وينم - كالعادة - عن خبرة هائلة:

- «لا أعتقد أن التحريك عن بعد من الأمور التي تساعد على إنجاح الزواج.. وكذلك لا أعتقد أنّ هناك زيجة فشلت لأن الزوج يحرك الأشياء عن بعد.. إذن المقياس الوحيد لنا هو: هل تميلين إليه كرجل أم لا؟»

قالت وهي تتحسس عويناتها:

- «لا أميل.. لنقل إنني بدأت أخافه..»

- «إذن هو القول الفصل.. تخلصي منه ولكن من دون دماء.. قولي له: أنت إنسان ممتاز وأنا أعتبرك أخًا.. في ظروف أخرى كان هذا يشرفني.. ستجد من هي أفضل مني.. إلى آخر هذا الهراء.. أنا لن أعلمك ما يجري في دمكن جميعًا..»

نفذت كلامي حرفيًا.. وحين جاءها في المرّة التالية كانت خارج العناية المركزة.. ابتسم لها فقالت في رفق وكل ما تملك من كياسة:

- «أستاذ (إيهاب).. أنت إنسان محترم وموهوب.. لكن عندي رجاءً واحدًا.. هو رغبتي في ألا ننفرد ثانية.. أعتقد أنك تعطل عملي إلى حدٍ ما.. دعك من القيل والقال.. إن الممرضات يرينا هنا ولا يعرفن عما نتكلم.. أعني أنك تسبب لي الحرج.. بعضه لا كله.. أنت إنسان ممتاز وأنا أعتبرك أخًا.. في ظروف أخرى كان هذا يشرفني.. ستجد من هي أفضل مني..»

نظر لها غير مصدق واتسعت عيناه.. شكله يصير مخيفًا بالمناسبة في ظروف كهذه..

قالت في وهن:

- «إن ما بيننا هو أخوك.. شفاه الله.. لا أعرف متى ولا كيف يمكن أن أقول إنِّه شُفي.. لكني مسئولة عنه.. أمره يهمني فعلًا.. هذا هو كل شيء بيننا وفيما عدا هذا لا يوجد شيء.. ولو كنت تعتقد أنك قدمت عرضًا فإنني أرفضه..»

كانت تتوقع أن ينهض.. ينظر لها نظرة جريحة وتدوي موسيقا أفلام (عبد الحليم حافظ) ثم يستدير على عقبيه، ويبتعد دون كلمة واحدة.. لكن تصرفه كان غير حضاري بالمرة..

لقد وقف فعلًا.. اتسعت عيناه إلى آخر مدى ممكن..

ثم هتف بصوت لابد أنه أيقظ حالات الغيبوبة:

- «بعد كل ما قدمته لك تقولين هذا؟»

- «أستاذ (إيهاب).. أرجو أن تخفض صوتك قليلًا.. أنت لم تقدم لي شيئًا!»

- «لقد منحتك ثقتي الكاملة.. والآن...»

كنت أنا بالصدفة متجهًا إلى العناية المركزة، فسمعت ورأيت طرفًا من هذه المحادثة.. اتجهت إلى المكتب الصغير وتجاهلت الفتى الواقف وسألتها:

- «هل ثمّة شيء يا دكتورة؟»

نظرت لي وللرجل الواقف ثم قالت:

- «لا شيء يا دكتور (رفعت)..»

- «إذن أرجو أن تصحبيني إلى الداخل.. أريد أن أرى حالة (التجلط العام المنتشر) التي كلمتني عنها..»

نهضت وهي تتنفس الصعداء، وبخطى مذعورة أسرعت المشي نحو العناية المركزة ولم ينظر أحدنا للوراء..

هناك داخل العناية المركزة الهادئة خافتة الإضاءة، نزعت حذاعيها ولبست الحذاء القماشي الأزرق على حين وضعت أنا واقي الحذاء لأني لم أعد قادرًا على الانحناء.. وسألتني، وهي تحكم المعطف الأبيض على ثوبها:

- «هل رأيت؟»

- «هذا هو طبعًا..»

- «وما رأيك؟»

- «شخصية فميَّة.. لا تطيق أن يقف أحد في طريقها.. إنه (خاسر سيئ) كما يقول الإنجليز.. ولو كنت مكانك لأخذت حذري.. إنّه قادر على أن يسبب لك المتاعب. لن يكتفي بغناء (وعشق الروح مالوش آخر.. لكن عشق الجسد فاني)..»

بدا عليها القلق واصطحبتني إلى الداخل..

هنا - كأنما هي تنتظرنا - صاحت إحدى مشرفات التمريض:

- «دكتورة (هيام).. المريض في سرير (5).. تعالي بسرعة!»

جرت (هيام) إلى الفراش المذكور ولحقت بها.. تبًّا! إن الأرض مغطاة بمشمع الأرضيات وواقي الحذاء يجعلني أنزلق.. يمكن أن أحطم عنقي في أية لحظة..

وقفت جوارها إلى جانب فراش المريض، وقد قدرت من الملامح على الفور أنه المدعو (هشام).. هذا وجه يشبه (إيهاب) بالإضافة إلى أنه وجه شخص مر بحادث سيارة مروع..

كان يلهث.. صدره يعلو ويهبط حتى ذكرني بأحد المسلمين الأوائل الذين كان كفار قريش يضعون الجلاميد على صدورهم وهم مكبلون في الصحراء.. ونظرنا إلى الشاشة فرأينا توترًا عامًا.. كان لونه يدنو من الأزرق بسلاسة تامة كأنما هو الخلاء في ساعة الغروب..

قالت في ذعر:

- «سدة رئوية؟ لا أرى تفسيرًا آخر..»

دققت النظر وسط كل هذه الخراطيم.. ثم مددت يدي أتحسس جانب الفراش.. هناك أشياء لا تراها حتى العيون الخبيرة المذعورة، لكني لم أكن مذعورًا.. ربما لأنني مجرد ضيف خارج الأحداث..

قلت وقد فهمت ما هنالك:

- «لا هذا ولا ذاك.. إن خرطوم جهاز التنفس الصناعي مفكوك.. إليَّ ببعض الشريط اللاصق لأعيد تثبيته..»

وهكذا رحت أعيد تثبيت الوصلة الحيوية.. هذا الفتى كان موشكًا على الموت خنقًا.. وقد بدأ تنفسه يعود لرونقه الأصلي..

هتفت مشرفة التمريض:

- «ومن فعل هذا؟ أنا جوار فراشه منذ ربع ساعة ولم يلمسه أحد..»

تبادلت نظرة صامتة مع (هيام) ثم قلت للمشرفة المتحمسة:

- «فقط راقبيه بعناية.. أعتقد أنّ هذه الأحداث قد تتكرر..»

☆ ☆ ☆

وفي الرابعة صباحًا انفصل الخرطوم المثبت بالخط الوريدي.. هكذا راح الدم يتدفق من الخط الوريدي بلا توقف، ولولا أن (هيام) رأت قطرات الدم على الأرض لهلك الفتى كأن مصاص دماء قضى ليلته معه..

اتصلت بي (هيام) في داري وقالت في جزع:

- «حادث آخر.. ماذا يحدث هنا؟»..

قلت لها في برود:

- «هل تتهمين أحدًا؟»

- «لا أحد سواي.. لم يكن قرب فراشه سواي...»

- «إذن أنت تعرفين الإجابة..»

- «ماذا ترمي إليه؟»

قلت وأنا أتثاءب:

- «القصة واضحة.. أنت لا تهتمين إلا بأخيه.. إذن ليحرمنك هذا الاهتمام.. وليعذبنك بموت شخص تهتمين به كثيرًا.. إن هذه الحوادث تمت بالتحريك عن بعد.. وأنت تعرفين هذا جيدًا..»

قالت غير مصدقة:

- «يقتل أخاه ليغيظني؟ هذا كلام فارغ.. هناك تلك النكتة عن القروي الذي أراد تلفيق تهمة لابن عمّه فقتل ابنه هو.. أمّا أن يحدث هذا في الواقع...»

- «أولا هذه ليست نكتة ولكنّها حدثت فعلًا.. ثانيًا أنا بالفعل أشك في القوى العقليّة لـ (إيهاب) هذا.. إنّه مجنون يا صغيرتي.. لا أفهم كيف لا ترين هذا معي؟»

وفجأة سمعتها تصرخ..

وسمعت صوت ارتطام هائل بالأرض..

☆ ☆ ☆

5

حينما ذهبت في تلك الساعة إلى المستشفى، كانت عضلة ساقي ترتجف تلقائيًا.. فتحوا لي الباب مندهشين.. والحقيقة أني كنت في مزيج غريب من النعاس والتوتر.. والدهشة..

اتجهت إلى قسم العناية المركزة وقرعت الجرس عدة مرات.. طبعًا الكل نائم الآن حتى من لا يجب أن يكون نائمًا.. فتحت لي الباب ممرضة مرهقة تتثاءب طيلة الوقت وسألتني بعينيها عما أريد..

- «أين د. (هيام)؟»

أشارت بعينيها إلى الوراء، فسألتها:

- «هل هي بخير؟»

رفعت حاجبيها بما يدل على أنها لا تعرف.. ثم تثاءبت من جديد..

دخلت لأجد (هيام) قلقة كما ينبغي أن تكون.. كانوا قد وضعوها في فراش خال ولم تكن مصابة لكنّها في حالة صدمة ذعر شديدة.. أطراف باردة.. شعر منكوش.. أنف محمر من البكاء..

- «ماذا حدث؟»

قالت راجفة:

- «حمدًا لله أنك هنا يا دكتور...»

وأشارت إلى جهاز الهاتف الموضوع على منضدة قرب الفراش.. جهاز هاتف من الطراز ذي القرص، وقد كان هناك قفل صغير مثبت إلى القرص لمنع أحد من الاتصال بالخارج.. طبعًا لا بد أن المفتاح مع (هيام)..

المهم أنني رأيت جوار المنضدة جهازًا مهشمًا على الأرض.. يبدو أنه مرقاب.. قصة قصيرة بليغة جدًّا..

قالت لي وقد رأت اتجاه عيني:

- «لقد.. لقد.. طار.. رأيته متجهًا نحو رأسي وأنا أكلمك في الهاتف.. صرخت وتنحيت ولو لم أفعل لكانت أجزاء مخي على الأرض أيضًا..»

نظرت لها من جديد.. ثم سألتها بصوت مبحوح:

- «هذا الجهاز العملاق طار؟»

- «نعم.. أنا لا أستطيع حمله..»

- «تلقائيًا؟»

- «نعم..»

- «لكن هذا غير ممكن.. لا توجد قوة تحريك عن بعد بهذا الحجم.. أقوى محرك عن بعد يستطيع أن يزحزح القلم بضعة ملليمترات..»

- «هذا ما حدث...»

إذن ما نتعامل معه قوة كاسحة.. قوة شبيهة بالديناميت.. لعل هذا الـ (إيهاب) أقوى محرك عن بعد في التاريخ..

ولكن هل وصل به الحقد إلى هذا الحد؟ أن تهشّم رأس الفتاة التي تحبها بمجرد أن تبدي رفضًا؟ هذا الحماس الرومانسي يثير دهشتي.. حتى (دون جوان) لم يصل إلى هذا الحد.. لو كنت أملك هذه القوة في الماضي لما جرؤت كل الفتيات اللاتي رفضنني يومًا على ذلك..

قلت لها وأنا أساعدها على الجلوس:

- «هلمي.. لا يوجد مجال للبقاء هنا.. هل هناك طبيب آخر معك؟»

- «نعم.. نعم.. د. (عثمان).. إنّه..»

- «إذن هذا هو الوقت الذي يستحق فيه راتبه.. سأوصلك إلى دارك..»

وهكذا لم تجد حلًا آخر سوى أن تصدر بعض التعليمات للممرضات، ولم تنس طبعًا أن تمر على أطفالها الراقدين على أسرتهم.. سألتها وأنا واقف جوار الباب:

- «هل هذا الـ (هشام) حي؟ ألم ينغرس المقص في صدره بعد؟»

- «نعم.. يبدو أن الغمة قد زالت..»

كنت أتمنى لو أملك هذا التفاؤل لكني بطبعي لا أملك القدرة على توقع ما هو أفضل.. هكذا رافقتها إلى سيارتي الجديدة - جديدة من حيث فترة الاقتناء فقط - وأوصلتها إلى حيث طلبت..

في ساعات الفجر هذه حيث تبدو القاهرة صافية ناعسة هادئة، لا تصدق أنها سوف تتحول إلى خلية النحل هذه وأصخب مدن العالم بعد ساعات قليلة.. هذا التأثير يشعرني بالحزن.. الشجن هي الكلمة الأدق..

وقفت تحت دارها، فدعتني بلا جديّة إلى الصعود.. هززت رأسي في ملل.. ولم أعرف إن كانت نزلت فعلًا أم لا لأني انطلقت بسرعة البرق عائدًا إلى داري.. أريد أن أناااام.

هذه المرّة لن أحلم بأشياء تتطاير في الجو.. لن أحلم بأي شيء على الإطلاق

☆ ☆ ☆

حكت (هيام) فيما بعد كيف أنها نامت في دارها حتى الواحدة ظهرًا..

لم تتقلب.. وكانت تعرف أن زميلها سيتولى أمر اختفائها.. لهذا لم تشعر بقلق من أي نوع، وكانت هذه من اللحظات النادرة التي يصفو فيها ذهنها تمامًا الماضي تافه وانتهى والغد لا يعلمه سوى الله.. هي لحظة حاضرة طويلة مريحة.. تمط أصابع قدميها في الفراش إلى آخر امتداد لها كما تفعل قطة تتثاءب وتواصل النوم ثانية..

فقط في الحادية عشرة صباحًا أنهضتها أمها العجوز ودست في فمها شطيرة من الفول، وسكبت في فمها كوبًا من اللبن.. ثم واصلت النوم.. نوم له مذاق الفول واللبن..

عند الظهر اتجهت إلى المطبخ لتستعيد كيانها بقدح من القهوة.. ما زلت أجد حبها للقهوة عجيبًا فأنا - لسبب ما - أعتبر القهوة مشروبًا ذكوريًا.. المطبخ ضيق والموقد هو (بوتاجاز) صغير من الطراز الذي جعلته المصانع الحربية في كل بيت.. والكنكة تقرقر على النار.. والشاطور المعلق بجوار الحوض يطير في....

الهواء!!!

إنه يتجه نحوها! لم تفهم هذا إلا في الثانية الأخيرة.. وقد وثبت على الأرض بينما طار الشيء فوق رأسها.. وسمعته يرتطم بالنملية الخشبية العتيقة.. وحين فتحت عينيها غير مصدقة رأت نصله مغروسًا حتى نصفه في الخشب الهش...

نهضت راجفة، أوشكت على بدء نوبة هستيريا لولا أن دخلت أمها المطبخ في اللحظة ذاتها.. كانت تريد أن تملأ قلة الماء.. اتجهت نحو الحوض ثم هتفت:

- «(هيام).. لماذا غرست الشاطور في النملية؟»

هكذا اضطرت (هيام) لأن تعود لقواها العقليّة والعصبية، فقالت في جزع:

- «لا شيء.. لا أعرف لم فعلت هذا..»..

نظرت لها العجوز في شك بعينين رماديتين لا تريان إلا ما تريدان أن ترياه، وقالت:

- «خذى الحذر.. قلت ألف مرة ألا يلمس أحد هذا الشاطور.. طلبت من أبيك أن يتخلص منه لكنه يرفض..»

والحقيقة أنّ هذا السلاح القاتل كان يستعمل في الماضي لتقطيع لحم الخراف في عيد الأضحى.. لكن هذا الغرض انتهى منذ عشرة أعوام على الأقل، لأن الأسرة لم تعد قادرة على شراء الخراف..

- «ولا تنسي أن تغتسلي.. إن رائحة المستشفى.. هذه...»

كانت تعرف رأي أمها في رائحة المستشفى.. تشمها من ثيابها وشعرها وأنفها وكل شيء.. رائحة هي إلى أنف الأم أقرب لرائحة الموت أو - بلفظة أدق - رائحة العذاب البشري كله..

هكذا فرغت (هيام) من شرب قهوتها ثم اتجهت إلى الحمام، وقامت بتشغيل السخان الذي يعمل بالغاز استدارت لتحكم غلق الباب وهنا شعرت بأن هناك شيئًا على غير ما يرام.. رائحة الغاز قوية فعلًا..

نظرت للوراء فوجدت أن الشعلة مطفأة.. الغاز يتسرب بلا انقطاع لكنه لا يحترق.. هكذا استدارت إلى الباب لتفتحه.. لكنّها لم تجد المقبض.. نحن نعرف أن البيت قديم وأن كل مقابض الأبواب تخرج في يدك إذا حاولت انتزاعها.. لكن المقبض كان في يدها منذ ثانية واحدة وهي تحكم الغلق!

إنه هنا.. في مكان ما.. لكن أين؟ راحت تبحث عنه كالمجنونة بينما رائحة الغاز تزكم أنفها..

تحت المغطس.. جوار المرحاض؟ هنا؟ لا أثر له..

أصابها الذعر فراحت تدق الباب.. لحسن الحظ أنها بكامل ثيابها.. فقط لتنتظر أن يأتي أخوها ليحطم الباب..

«المية تروي العطشان... وتطفى نار الحران»

من المذياع اندلع صوت (عبد الوهاب) عاليًا.. لم تسمعه قط بهذا الارتفاع..

وبدأت تفهم.. هذا الصوت العالي مخصص لكتم صوت صرخاتها!

المحبس؟ المنظم؟ كلاهما لا يعمل.. كل شيء لا يعمل في هذا البيت منذ عشر سنوات..

«يا جمالها والحوض مليان.. وأنا عايم على وش المية!»

تسمع صوت أمها من بعيد تصيح:

- «اخفضي صوت المذياع يا (هيام).. هل جننت؟»

لكنّها لا تسمع الطرقات.. هذه خاصية في بيوت كثيرة.. تسمع الآخرين بينما هم لا يسمعونك..

ومن السخرية أن الأغنية عن الاستحمام.. هل مصادفة ام أن القاتل المجنون يضفي لمساته الساخرة على الموقف؟

رباه! إن وعيها يتسرب منها.. الحمام مغلق بإحكام..

«صدقني.. خد لك حمام!»..

هناك نافذة صغيرة فوق المرحاض يستحيل فتحها وزجاجها معتم أقرب إلى السواد... هل تصلح؟ ربما؟ لا يوجد حل آخر.. ثمّة شيء واحد لا تتصوره.. أن يجدوها بعد ربع ساعة جثة راقدة على البلاط المبتل.. كل شيء إلا هذا..

هكذا وثبت لتقف فوق المرحاض.. أمسكت بأداة تسليك الحوض التي تشبه الشفاط ووجهت العصا إلى الزجاج وضربت بعنف.. لم يحدث شيء.. وجهت ضربة أعنف فأعنف.. تبًّا إن الجهد يجعلها تشهق أكثر.. يجعل جسمها يمتص المزيد من هذا السم.. لو فقدت وعيها الآن فلن تفيق إلا في الناحية الأخرى..

تهشم الزجاج فراحت توسع الفتحة.. ومع التوسيع راح تيار من الهواء المنعش يتسرب إلى صدرها.. ما أثمن الهواء! يمكنها أن تبقى هنا للأبد!

نظرت للوراء من هذا الموضع.. إلى جوار حوض غسيل الوجه، فرأت المقبض يرقد متظاهرًا بالبراءة! ماكان يمكنها أن تراه في وضعها السابق..

هكذا وثبت إلى الأرض والتقطته، فتحت الباب، ووقفت تعب الهواء كالمجنونة..

و(عبد الوهاب) ما زال يحاول إقناعها بالاستحمام..

«صدقني.. خذ لك حمام!»

☆ ☆ ☆

6

كان تعليقي على هذه القصة حين سمعتها هو الذهول التام..

على قدر علمي لم أسمع بشيء كهذا من قبل.. أبسط الأشياء في الشخص الذي يحرك عن بعد هو أن يكون قادرًا على رؤية الجسم الذي يحركه.. لا بد من قدر هائل من التركيز.. لا بد من أن يتخيل أن الجسم المادي وجسمه هو متمازجان.. لم أسمع تحريك عن بعد يتم عن بعد لو سمحت لي بهذا التعبير..

وقد قمت بخدمة صغيرة للفتاة لا أقوم بها كثيرًا..

أجريت اتصالًا بالولايات المتحدة.. وهي خدمة عسيرة فعلًا ناحية المصاريف والوقت الضائع.. نحن لا نتحدث عن زمن العولمة الذي نعيش فيه وموضوع القرية الإعلامية.. نحن نتحدث عن زمن كان الاتصال فيه بوالدتك يستغرق وقتًا أطول مما لو (خطفت رجلك) وسافرت لها لتطمئن بنفسك..

على كل حال استطعت الاتصال بصديقي القديم (إيجور تاركوفسكي) الذي كان متمتعًا بالقوى النفسية قبل أن يتخلى عنها طواعية، ويتفرغ لدراستها..

تعرفون أنه يعمل في جامعة (دوك Duke) بالمختبر الذي أنشأه (جوزيف راين Joseph Rhine) أهم علماء الإدراك الخارق للحواس ESP في زمننا..

اهتم بما حكيته له على الهاتف برغم أنني قلت كل شيء في أربعين ثانية.. لا أتباهى لكن كل خبرة أقدمها للرجل تكون فريدة حقًّا.. هو لم يلق خبرة (إزاحة المشاعر) إلا مع التوءمين المصريتين اللتين اعتادت إحداهما إزاحة آلامها لتشعر بها الأخرى..

كان رأيه قاطعًا: هناك خدعة في الأمر.. الطبيبة كاذبة أو هناك من يخدعها.. إن قوة التحريك عن بعد لم تبلغ هذا المدى بعد.. لو كان هذا صحيحًا فإن إسقاط الطائرات ممكن، ولصار هذا الـ (إيهاب) سلاحًا سرًا فائق الخطر.. لكن - من الناحية الأخرى - لا يرى ما يمنع من إن يحرك (إيهاب) أشياء لا يراها.. هناك أمثلة تؤكد هذا ولا تنفيه..

هكذا وضعت السماعة، وقد ازدادت أفكاري بلبلة..

☆ ☆ ☆

عند الظهيرة كانت (هيام) تمشي في فناء المستشفى حين انزلقت إحدى السيارات حيث وقفت في الممر المائل واندفعت نحوها.. ولولا أن أحد العمال أزاح الطبيبة لهشمتها السيارة.. يؤكد صاحب السيارة أنه رفع فرملة اليد، وهذا منطقي.. وإلا كيف غادر السيارة في هذا الممر المنحدر أصلًا؟

ثمّة شيء ما خفض فرملة اليد، واندفعت السيارة مطيعة قوى الجاذبية التي هوت بالتفاحة فوق رأس (نيوتن) يومًا ما في الريف الإنجليزي..

قالت لي وهي تبكي:

- «د. (رفعت).. إنّه مصر.. افعل شيئًا أرجوك.. لقد تمت أربع محاولات ولا أتوقع أن أكون حسنة الحظ في المحاولة الخامسة..»

أنا أيضًا توقعت هذا..

وهكذا سألتها عن طريقة للاتصال بهذا الفتى (إيهاب).. لم تكن تملك أية وسيلة لكني تذكرت أنه أخو (هشام).. لا بد أنّ هناك بعض البيانات التي تركها في استقبال المستشفى..

تمكنت من الحصول على عنوانه، وانطلقت إلى هناك..

لا.. لم تكن لديَّ خطة محددة عما يجب عمله هل سأقول له: من فضلك لا تحرك الأشياء في وجه تلك الطبيبة فهذا يفزعها؟ طبعًا لا.. غير أنني قدرت أن الموقف سيوجد الطريقة..

كان يعيش وحده كما هو واضح.. بعيدًا عن بيت الأسرة... وقد طرقت بابه مرارًا بلا جدوى، حتى فتح بابه جار عجوز وسألني عمن أريد.. كان العنوان صحيحًا لكن (إيهاب) قد سافر إلى فرنسا منذ يومين.. هذا معتاد - كما قال الجار - لأنّه كثير الأسفار.. كانوا يعرفون هذا لأنّه كلفهم بدفع فواتير الكهرباء والماء وربما الهاتف لو تأخر..

يمكن أن أتخيّل الفنان المطعون في مشاعره، والذي لم يعد يطيق البقاء هنا لحظة واحدة.. لهذا حزم أمتعته ليسافر إلى (بلد النور) هناك سيجد الفرصة كاملة كي ينسى آلامه ومن الواضح أنّ هذا الفتى ليس معدمًا..

السؤال هو.. كيف فعلها؟

☆ ☆ ☆

- «سافر؟»

قالتها (هيام) وهي تهتز كورقة.. إذن متى وكيف؟ قلت لها:

- «لا أعرف.. إما أن موهبته عابرة للقارات، وإما أنّ هناك شبحًا يطاردك..»

كانت قد نجت لتوّها من مكواة ساخنة طارت قاصدة وجهها.. ولم تكن في أبهي حال من الناحية العقليّة..

- «إن هذا الذي أمر به لن يستمر.. لا يمكن أن يستمر.. سأفقد عقلي أو أفقد حياتي أيهما أسرع.. هذا الـ (إيهاب) هو الشيطان ذاته.. ليتني ما رأيته أو سمحت له بمحادثتي..»

نعم.. أعرف ما تعنيه.. إن ملاحقة شخص يحبك ولا تحبه أمر مزعج.. ربما يصير مخيفًا.. طبعًا أنا لم أجرب شيئًا كهذا ولن أجربه أبدًا نظرًا لظروفي الشكلية، لكني لن أنسى فيما بعد اسمه (اعزف ميستي من أجلي).. المعجبة التي تطارد المذيع الوسيم (كلينت إيستود Eastwood).. تتطور علاقته بها من المجاملة إلى البرود إلى النفور فالذعر حين بدأ يفهم أنها مجنونة وأنها قاتلة[1]..

دخلت معها إلى العناية المركزة وتفحصت (هشام) الأخ الذي لن يفيق من غيبوبته على ما يبدو، وسألتها:

- «هل تكررت محاولات قتله؟»

حكت شعرها كالقرد، وقالت:

- «لا.. بعد موضوع الخط الوريدي.. لا..»

- «هذا على الأقل يشير بإصبع الاتهام إلى (إيهاب).. لقد ابتعد فصار عاجزًا عن التأثير..»

- «إذن لماذا يحتفظ بقواه معي؟»

- «لا أعرف.. ربما كان هذا نوعًا جديدًا من التحريك عن بعد.. سنرى على كل حال..»

ثم جررتها من كمها كطفل قائلًا:

- «أنت موشكة على الإصابة بانهيار عصبي..»

- «موشكة؟!!!!»

- «أنت في انهيار عصبي.. وأرى أن تعودي لدارك وتتعاطى بعض المهدئات وتنامي..»

انفجرت في البكاء حتى نظرت الممرضات لنا في دهشة:

- «حتى هذا لا أقدر عليه.. كلما نمت خطر لي أنه قادر على أن يخنقني بالوسادة.. لست آمنة في أي مكان حتى غرفة نومي المغلقة.. تصوّر هذا!!»

لم أرد وجررتها من كمها إلى سيارتي..

كنت أشفق عليها.. لكني استنفدت ما أملك من حيل أو نصائح..

فليرحمها الله.. فلا يوجد كائن بشري يستطيع إنقاذها..

☆ ☆ ☆

كانت نائمة على ظهرها كعادتها.. إنّه أسلوب نوم المومياء الشهير، بل إنها تنام كمومياوات الملكات بذراع على الصدر وذراع إلى جانبها.. الملوك يعقدون كلا الذراعين على الصدر.. لا أعرف كيف لا تختنق في وضع كهذا بالإضافة إلى أن خبراء النوم يزعمون أنّ هذا الوضع يميز الشخصيات الواثقة المسيطرة.. (هيام) شخصيّة واثقة مسيطرة! حسن.. لست الحمار الوحيد في هذا العالم.. ولو كانت تعرف ما يقولون لاضطرت اضطرارًا إلى النوم على جانبها في وضع الجنين.. فهم يحتمون هذا..

حجابها الحاجز يتحرك بصعوبة.. كرتا عينيها تتحركان خلف الجفنين المغلقين.. إنّه طور النوم المتناقض Paradox حيث الأحلام في ذروتها.. العرق ينمو على موضع شاربها لو كان لها واحد.. إنها تئن..

هي تراه قادمًا في الظلام.. يقف وسط السحب والغيوم.. يرفع ذراعه فتتحرك سحب وتبتعد سحب..

يرفع الذراع الأخرى فتطير مكواة ساخنة نحوها لكنّها تتفاداها.. المكواة تهشّم رأس (رفعت إسماعيل) الأصلع.. من أين جاء هذا الأحمق؟ لا بد أنه مات..

- «أنت لي..»

يقولها بصوت واثق.. هادئ.. منوم..

- «تعالي إليَّ.. كوني معي.. كوني معي للأبد..»

القلم يكتب.. الشاطور يحلق في الهواء نحوها لكنه ينغرس في عنق (رفعت إسماعيل).. أما زال حيًّا؟

- «أنت لي..»

- «دعي الأعباء مع الأعضاء وحلقي مثلي..»

- «لن يأخذك آخر.. أنت لي!»

تصرخ بصوت مكتوم.. تقاوم.. تعتصر الوسادة.. صدرها يعلو ويهبط..

- «أنت لي..»

إنّه يخرج من وسط الغيوم.. الآن ترى وجهه..

لكنه ليس (إيهاب)! إن عينية مغمضتان وعليهما قطعتان من الشريط اللاصق.. هناك خرطوم يخرج من فمه.. أنبوب (رايل Ryle) يخرج من أنفه.. إن الخراطيم والأنابيب تتدلى منه في كل صوب.. يبدو كأخطبوط مريع..

إنه (هشام)!

- «أنت لي..»

العالم كله يتحول إلى جهاز تنفس تقف هي عليه.. بالون أسود يرتفع ويهبط فتنزلق قدماها من فوقه وتهوى تهوى تهوى...

تصرخ..

ثم تشعر بيد أمها المعروقة ذات الخشونة المحببة تتحسس خدها..

- «بسم الله الرحمن الرحيم.. انهضي يا (هيام).. كلا.. لا تقولي ما رأيت حتى لا يتحقق.. فقط اقرئي المعوذتين.. هل تريدين بعض الماء بالسكر؟»

☆ ☆ ☆

7

قلت لها:

- «الأمر واضح.. من زارك في المنام لم يكن (إيهاب) بل (هشام)..»

قالت في غيظ:

- «أنا قلت هذا لك.. ولكن ما معناه؟»

قلت في ذكاء:

- «لا أعرف.. لكني سأعرف..»

☆ ☆ ☆

قام د. (محمد إبراهيم) بتثبيت الأقطاب على رأس الفتى الغارق في الغيبوبة، وتأكد من أن كل شيء في موضعه.. ثم قام بتشغيل جهاز تخطيط المخ الكهربي EEG.. وهكذا راح الورق يتدفق..

لم أكن أفهم شيئًا طبعًا من هذه اللوحات السريالية التي يرسمها الجهاز.. لهذا وقفت عن بعد راسمًا على وجهي معالم البلاهة.. ووقفت (هيام) تراقب المشهد في توتر..

في النهاية قص د. (محمد) الورق وطواه ثم راح يتفحصه مستعملًا طرف القلم الجاف بتلك الطريقة التي تنم عن احتراف.. أنا أعرف جيدًا المحترف من الهاوي حين يتفحّص أحدهما تخطيط القلب أو المخ.. كما يُمكنك أن تعرف التاجر أو الصراف من طريقة عده للمال.. أمّا الهاوي فيعد المال كأنه أوراق لعب، وكأنه يبحث عن (الكومي)..

قال لي بعد ما فرغ من القراءة:

- «هناك نشاط مخي غير عادي.. هذا الرجل يفكر فعلًا.. أنا لم أر حالة غيبوبة كهذه من قبل»

سألته في حذر:

- «هل يذكرك هذا النمط بالنشاط الزائد للمخ لدى ذوي القوى النفسية الفائقة؟»

هزّ رأسه في ثقة:

- «نعم.. نعم.. وكنت أريد أن أسألك عن تاريخ هذا الفتى..»

ثم أشار إلى الممرضة كي تفك الجهاز.. ووعدته أن أمر عليه فيما بعد..

تبادلت النظر مع د. (هيام).. نظرت لي في رعب وعيناها تقولان في صمت:

- «ما يعني هذا كله؟»

قلت لها وأنا أنظر إلى الباب في حذر:

- «هل لك أن ترافقيني إلى مكان هادئ؟ أريد الابتعاد عن جو المستشفى..»

هزت رأسها في استسلام ورافقتني إلى الخارج..

كان هناك كافتيريا صغيرة قرب المستشفى، فدخلناها.. طلبت قدحين من القهوة السادة الثقيلة فنظر لي النادل برعب من المفترض أن أطلب القهوة لنفسي، وعصير برتقال أو ليمون لها، أمّا أن تشرب القهوة السادة الثقيلة كأحد (المعلمين) في (وكالة البلح) فهذا أمر لا يصادفه كثيرًا..

جاءت القهوة فجرعت (هيام) جرعة كبيرة ثم سألتني بعينيها قبل فمها:

- «وماذا؟»

قلت مفكرًا:

- «(هيام).. نحن لا نعرف أي شيء عن الغيبوبة.. لا نعرف أين يكون العقل الواعي في تلك اللحظات.. أين يوجد هذا العالم السحري ما بين اليقظة والموت؟ (هشام) الآن في هذا العالم ويلعب بقواعده..»

☆ ☆ ☆

إنّه غائب في عالم آخر لا تعرف مقاييسه ولا ما يحدث فيه.. فقط تقف تراقب وجهه الساكن شاعرة بأنه اجتاز البوابة.. إنه يعرف ما لا نعرف، وقد ازداد حكمة بما لا يقاس..

☆ ☆ ☆

- «سأبني نظريتي على افتراضين.. الافتراض الأول هو أن (هشام) يشعر برقتك معه ومعاملتك الحانية له.. ربما كان يسمعك وشعر بلمساتك.. لا أعرف بالضبط الطريقة التي يشعر بها مريض غيبوبة.. ما يهمني هو أنه وقع في حبك وهو في هذا العالم.. هذه أول قصة حب أعرفها

بين رجل في غيبوبة وطبيبته.. لكني لا أرى الأمر على أي ضوء آخر.. لقد وقع في حبك في ذات الوقت الذي شعر فيه أخوه بالشيء ذاته.. الافتراض الثاني هو أن الأخوين يملكان قوة التحريك عن بعد.. هذا مقبول باعتبار أنهما أخوان يملكان ذات الصفات الجينية والبيئية والنفسية..»

شرقت بالقهوة فراحت تسعل، فناولتها كوب الماء البارد لتهدأ قليلًا..

قلت وأنا أنظر حولي:

- «هل أكمل أم أنك مصرة على الوفاة هنا؟»

- «تفضل.. تفضل..»

- «في البداية عرضك (إيهاب) لبعض محاولاته الساذجة.. تحريك القلم أو المقعد.. أعتقد أنه لم يحاول قتل أخيه.. قواه لم تبلغ هذا المدى الساحق.. رأيي الخاص أن (هشام) حاول الانتحار ذاتيًا.. ثم ترك (إيهاب) كل هذا وسافر إلى فرنسا ليغرق أحزانه في شارع (الشانزليزيه).. هنا جاء دور موهبة (هشام) التي تضخمت جدًّا بفعل ما يمرّ به من ظروف فريدة.. لقد قرر (هشام) أن يحتفظ بك للأبد وأن يضمك إلى عالمه.. كيف؟ بقتلك.. بإدخالك في غيبوبة..»

تقلصت يداها على حافة المنضدة وكمشت الشرشف في توتر، فقلت:

- «نعم.. كل ما تمرين به يقوم به (هشام) في غيبوبته.. ومن عالمه الذي نجهل عنه كل شيء.. أعتقد أنه في ذلك العالم أكثر شفافية، ويمكنه أن يكون معك حيثما كنت هذا يفسر كيف لاحقتك الأشياء الطائرة في الحمام..»

قالت في رعب:

«حيثما كنت!»

- «حيثما كنت...»

سألتني وهي تحرك يديها بلا انقطاع على حافة المنضدة:

- «وإذا.. وإذا مت هل أكون معه؟ إنّه غير ميت..»

- «نحن لا نعرف ما يعرفه.. أعتقد أنه يهدف إلى إدخالك في حالة موت دماغي.. وبهذا تكونين معه في عالمه للأبد.. الحلم الأبدي للعاشق.. لسوف يكون دليلك في هذا العالم كما اقتادت (بياترس Beatrice) حبيبها الشاعر الإيطالي (دانتي Dante Alighieri) في العالم الآخر.. هذا يبدو رومانسيًا إلى حد البكاء!»

توحش وجهها وهتفت:

- «أنت تجده رومانسيًا وأنا أجده مروعًا.. ما هو الحل؟»

قلت شارد الذهن:

- «الحل هو إيقاف جهاز التنفس عندها يرحل نهائيًا عن عالمنا.. لكن هل تجسرين على هذا؟ هل أجسر على هذا؟ لا أحد يجسر.. إن تفسير الموقف عسير ولن يقبله أحد، ثم إن القتل الرحيم Euthanasia أمر يحرمه القانون، ولو فعلناه خلسة فلن يرحمنا ضميرنا ولن نجد ما نقوله في يوم مشهود..»

من دون كلمة نهضت، فأخرجت بعض أوراق العملة ووضعتها على المنضدة، ثم غادرنا المقهى..

كنت أفكر في موقفها العسير.. طبعًا القتل غير وارد لكني سأعاني كثيرًا يوم أسمع خبر وفاتها.. لماذا لا يكون هذا الأحمق مهذبًا ويقرر أن يموت؟ إنّه لن يعود لوعيه أبدًا..

كنت شارد الذهن.. حين سمعت المارَّة يصرخون:

- «احترسي!»

حسبت أنهم يكلمون امرأة تمشي خلفنا ثم نظرت لأعلى لأرى إشارة المرور التي فقدت توازنها وتمسكها بالأرض فراحت تهوي بلا تردد نحونا!

تراجعت للوراء وجذبتها من يدها.. وكانت هي أسرع منى فقد وثبت..

وفي الثانية التالية هوت الإشارة على سيارة فارغة لا أحد فيها.. طبعًا يمكن تخيل ما حدث للمعدن والزجاج.. يمكن تخيل الارتطام المعدني الصاخب المهول..

لو كنا في طريقها أو كان قائد السيارة فيها لكانت مأساة تتحدّث عنها الأساطير..

بعد ثلاثة أيام مات (هشام)..

سألتها عن سبب الوفاة فقالت وهي تتحاشى عيني:

- «كانت وفاة دماغية.. لم يبقه حيًّا إلا جهاز التنفس الصناعي.. كانت وفاته مسألة وقت..»

نظرت لها في حدة وعدت أسألها:

- «دون تدخل بشري؟»

للمرة الأولى التقت عينانا وقالت في تحد:

- «دون تدخل بشري.. هل تعتقد أنني كنت سأفعل هذا بدم بارد؟»

- «يمكن عمل هذه الأشياء من دون دم بارد.. يمكن أن ترتجف وتبكي وتتمخطي.. لكنك برغم هذا تفعلينه.. كل النساء اللاتي دسسن السم لأزواجهن ارتجفن وهن يعملن هذا..»

قالت، وهي تجمع حاجياتها:

- «د. (رفعت).. لقد انتهت القصة.. فلا تتهمني بما لم أفعله..»

ثم أضافت وهي تتجه للباب:

- «بالمناسبة.. لو كان الكابوس الذي رأيته مرسلًا منه فقد رأيت أنك مت مرّتين.. أعتقد أنك كنت في جدول أعماله.. ربما اعتبرك شاهدًا خطرًا.. يُمكنك أن تحتفل بنجاتك..»

- «والآن لم تعد الأشياء تتطاير نحوك؟»

- «كفت تمامًا..»

لن أعرف الحقيقة أبدًا.. من الناحية الموضوعية لا أتصور أن تفعلها فتاة ملائكية مثل (هيام).. فتاة تحولت إلى شمعة حية من أجل مرضاها.. لكن لو وضعنا في الاعتبار كل ما تعرضت له وكل هذا الضغط النفسي، نجد أنها تغيرت كثيرًا.. ثمّة بريق لا شك فيه من الشراسة في عينيها على الصعيد الآخر ليس أهون لدى الطبيب من فك وصلة جهاز التنفس.. لحظة وينتهي الأمر ثم يعيدها لمكانها..

كانت تبتعد.. هذه المرّة بلا أجسام متطايرة ولا سيارات تندفع نحوها..

للحظة وهي تبتعد في الممر التفتت إلى الوراء فالتقت عينانا..

خيل إليَّ أنني رأيت الحقيقة خلف زجاج العوينات..

كانت هذه هي القصة الأولى..

تجربة فريدة هي عن ظاهرة التحريك عن بعد التي يمارسها رجل في غيبوبة..

الآن ننتقل لوجه آخر من وجوه التحريك عن بعد نتكلم عن ظاهرة أكثر غرابة.. عن ساحر نصاب عن كاهن أخير وعجوز أصلع وأشياء لا رابط بينها..

تعالوا إذن نطالع هذه القصة..

☆ ☆ ☆

1

على الشاشة أنذرنا المذيع اللبق أن نأخذ حيطتنا..

لم أصدق ما يقول.. هذه دعاية رخيصة على كل حال..

كنت جالسًا أمام التليفزيون، وقد قمت بتربيع ساقي على الأريكة من تحتي.. إنِّه لعذاب حقيقي أن ترغم على الجلوس فوق هذه العظام البارزة لكن لا أجد طريقة أخرى.. وفوق الورق وضعت قطعة من الورق المقوى عليها أوراقي.. برنامج المؤتمر.. الورقة العلمية التي أزمع تقديمها.. جريدة (ديلي ميرور).. خطابات.. إلخ..

وكنت أقوم بما أقوم به، وعين على الورق بينما عين أخرى تتابع التليفزيون من حين لآخر، كالحرباء التي تحرك كل كرة عين في اتجاه مستقل.. فيما بعد سمعت أغنية ساخرة تقول (الله يكون في عون الحلوة بتذاكر قدام التليفزيون).. هذا يلخص الموقف بالضبط فيما عدا أني لست (حلوة) على الإطلاق..

كنت في (لندن) أحضر أعمال ذلك المؤتمر شديد الأهميّة عن أمراض الدم، وقد كان على أن أتكفل بنفقاتي بصدد الإقامة؛ لذا اخترت هذا الفندق المريح الرخيص عند أطراف المدينة.. إنّه عتيق جدًّا لكنه كما قلت مريح رخيص.. يمكن القول إنني صرت (شيخ حارة) في لندن وأعرفها شبرًا شبرًا.. غرفتي هنا نظيفة مريحة، وإن كانت تعطيك انطباعًا بأنها شهدت حريقًا في زمن بعيد.. ربما نسي دوق (ولنجتون) شمعته موقدة بعد نومه أو شيء من هذا القبيل.. طبعًا هذه تفاهات بالنسبة لمن أراد أن يسكن بالملاليم التي أملكها.. دعك من أنّ هذا الطابع العتيق جزء من سحر إنجلترا. رائحة الزمن هي ما تشمه في كل مكان..

لا أعرف سر هيامي بإنجلترا لكني أحبها حقًّا.. ربما هي ذكريات الماضي.. ربما لأن لها رائحة الحب الأول والأخير.. على الأقل أعرف أن (ماجي) في مكان ما هنا تتنفس ذات الهواء وتتكلم نفس اللغة..

لكن - لا بد من بعض الحظ العاثر - لم تكن هنا على الإطلاق.. كانت في اليابان تحضر مؤتمرًا فيزيائيًا ما.. لا تنس أنها أستاذ فيزياء.. تخيل أنّ هذه العزيزة الرقيقة أستاذ فيزياء.. تتحدّث ميكانيكا الكم وسرعة الضوء وكل هذه الألغاز التي لن أفهمها حتى أموت.. تتحدّث في كل هذا.. وتحبني.

الخلاصة أنها لم تكن هنا.. وقد جعل هذا مزاجي في غاية السوء.. أن آتي لإنجلترا فلا أراها.. هذا شيء يفوق تحملي.. دعك من أن المؤتمر كان شديد الأهميّة لكنه ممل.. يبدو أن كل شيء مهم في هذا العالم ممل..

على أن مسرة أخرى كانت تنتظرني هنا.. هذه من المرّات القليلة فيما تبقى من حياتي التي أقابل فيها (هن - تشو - كان).. نعم.. كاهن (النافاراي) الذي كان يعيش عندي في بيتي يومًا ما، والذي كبر وانفصل عني كأي طفل ربيته حتى كبر.. إنّه كما تعلم يعمل مع الصينيين.. ماذا يعمل؟ كل شيء في الواقع.. وهو في هذه الآونة موجود في لندن.. هذا يجعل غدي باسمًا لأني أحب هذا الفتى فعلًا.. بمجرد أن ينتهى كابوس المؤتمر في الرابعة عصرًا..

دق الباب فاتجهت لأفتحه متثاقلًا.. إن تحرير قدمي من هذا القيد يحتاج إلى عملية معقدة..

على الباب وقفت تلك الفتاة الرقيقة (سارة ماكميلان).. إنها صحفية أو رسامة أو طبية أو مهندسة أو ممثلة أو عالمة فلك.. كل ما أعرفه أنها جارتي وأنها لا تكف عن طلب أشياء.. يبدو أنها لم تجلب معها أي شيء إلى هذا الفندق.. هي من الطراز الذي نطلق عليه في مصر (طرزان)..

سألتني في رقة كالعادة:

- «هل أجد عندك ثقابا؟»

قلت لها وأنا أفتش في جيب روبي:

- «لن تجدي بسهولة ذلك الرجل الذي تسألينه عن ثقاب، فلا يسألك عن سبب احتياجك له وأنت في فندق.. صدقيني يا عزيزتي.. لو قابلت هذا الرجل فلا تتركيه.. إنّه كنز..»

نظرت لي وانفرجت شفتاها على عرض أسنانها النضيدة البيضاء وقالت:

- «سأضعك في القائمة..»

- «كلهم يتظاهرون بأنهم ليسوا فضوليين يا ملاكي لكنهم كذلك.. صدقيني.. يجب أن تحسني الاختيار»

طبعًا هي مهذبة لهذا لن تقول لي إنها تفضل إشعال النار في نفسها بهذا الثقاب على أن تصير زوجتي، لكن عينيها قالتا ما تريد.. وقالت عيناي: وهل تحسبين أنني من الحماقة بحيث أعرض هذا أصلًا؟

لذا أغلقت الباب وعدت لجلستي..

الخلاصة أنني كنت أتابع التليفزيون في غير اكتراث، حتى رأيت المذيع يزف لنا النبأ الذي انتظرناه طويلًا ولا أعرف متى:

- «سيداتي سادتي.. أرجو أن تحيوا (يوري جيلر)!»

أنا أعرف (جيلر Uri Geller).. لهذا وضعت القلم جانبًا ورحت أرمق الشاشة..

(جيلر) من الشخصيات المثيرة للجدل في عالم الإدراك الفائق للحواس ESP.. وحتّى نشأته غريبة مختلطة إنّه نصف مجري نصف نمساوي.. ولد في إسرائيل ويعيش في إنجلترا.. بالنسبة لي كان إسرائيليًا وهذا يكفي كي أحمل له شحنة من العدوانية لا بأس بها.. ثم عرفت أنه مولع بالظهور، ثرثار كصرصور الحقل فكرهته أكثر.. هذا الرجل لا ينتعش إلا حين تدور الكاميرات وتسطع الأضواء، والطريقة المثلى لقتله هي أن تتجاهله، فقط كي يخرج عليك بادعاء آخر..

يقول خبراء الإدراك الفائق للحواس إنّه مجرد نصاب، وإن ما يقوم به يمارسه الحواة في الملاهي الليلية دون أن يزعموا شيئًا إلا أنها خفة يد وبراعة.. هو يمارس الأفعال ذاتها ويزعم أنها موهبته الخاصّة..

لكن (جيلر) يجيد شيئًا آخر.. إنّه يعشق المحاكم ويقاضي كل من يشك في موهبته، وخاصّة الساحر الشهير (جيمس راندي) الذي اتهمه بأنه لا يملك شيئًا من هذه المواهب التي يزعمها لنفسه على الفور قاضاه (جيلر) لكنه لم يحصل على الملايين التي طالب بها.. آخر شيء يمكن أن تقنع به القاضي البريطاني الوقور تحت شعره المستعار، أنك تستطيع تحريك الأشياء عن بعد..

ولو قرأ (جيلر) هذه الكلمات التي أكتبها الآن لرفع قضية عليّ فورًا، لأنّه لا يقضي وقته في التأمل النفسي قدر ما يقضيه في مقاضاة خصومه..

على الشاشة ظهر (جيلر).. يسهل أن تمقته على الفور لكن حماسة الجمهور كانت غير عادية.. شاب وسيم هو؛ وربما لهذا السبب صار نجمًا إعلاميًا يتصدر أغلفة المجلات كلها.. لكنك ترى في عينيه نظرة النصاب.. لن تخطئها أبدًا.. إنّه نصاب سواء كان يصارح فتاة بحبه أو يحرك الأشياء عن بعد.. دعك من أنّه حريص في أكثر المناسبات على أن يضع الطاقية اليهودية على مؤخرة رأسه، وهذا أسلوب لا يفشل أبدًا للغزو الإعلامي في الغرب.. إنّه يهودي.. إذن هو على صواب دائمًا..

قال له المذيع:

- «(يوري).. أنت قلت إنك ستثني الملاعق أمامنا دون أن تلمسها.. هنا والآن.. وأمام عدسات الكاميرا.. فهل توافق؟»

قال الرجل بثقة:

- «نعم.. لهذا أتيت.. لكني أعرف أن المشاهدين في التليفزيون يراقبوننا الآن.. أطلب منهم شيئًا واحدًا هو أن يبعدوا أي جسم معدني عن الشاشات حتى لا يتأثر بقواي النفسية[2]..»

- «إلى هذه الدرجة؟»

قال (جيلر):

- «نحن لا نتكلم عن طاقة قابلة للتبديد.. نحن نتكلم عن طاقة مثل الليزر لا تتشتت.. ولسوف تصل عبر الأثير إلى المشاهدين كاملة غير منقوصة..»

تصاعدت شهقات الحماس.. على حين كرر المذيع:

- «للسادة المشاهدين في بيوتهم.. أكرر تحذيري.. أبعدوا كل ما هو معدني عن شاشة التليفزيون»

وسلطت عدسات الكاميرا على الملاعق، على حين وقف (جيلر) أمامها ومسح وجهه كأنه يغسل ملامحه.. ثم شهق بعمق..

قال المذيع:

- «إنّه يركز..»

- «ش ش ش! من فضلك.. لا تشتتني..»

ظلت عدسات الكاميرا مسلطة على الملاعق.. هذه موهبة مهمّة لي؛ لأن كل ملاعقى في شقتي بمصر مثنية.. أنا بحاجة إلى من يعيد الملاعق لحالتها الأولى لو وجد..

مر الوقت.. الرجل يتوتر ولا شيء يحدث..

فشل تام كما أرى...

يا له من موقف سخيف! رأيت في مصر برنامجًا التقى بنصاب مشعوذ، يزعم أنه يدهن كفه باللون الأسود من ثم تتحول إلى تلفزيون يُمكنك أن ترى كل شيء فيه.. وقد دهن الرجل يده بثقة، وهو لا يكف عن ترديد: لدينا هنا كل العلم.. لكن يا للخسارة!! لا نكف عن الحقد على بعضنا..

وراح ينادي (شمهورش) كي يجيبه.. فلمّا لم يرد راح يتوسل إليه: (شمهورش).. أنا في غزوة مع الحاكم.. أغثني.. (شمهورش)..

كان يستعمل هذه الألفاظ ذات الطابع الديني ليوحي بصدقه.. (غزوة مع الحاكم) لا تعني إلا إنّه (سقط في كبسة من كبسات شرطة مكافحة النصب).. لكنه يحاول إعطاء الأمر طابعًا مهيبًا يذكرنا بعلماء المسلمين الأوائل حين كانوا يحاكمون أمام (الحجاج بن يوسف) مثلًا.. طبعًا لم يستجب الأخ (شمهورش).. ربما كان هذا بسبب الحقد..

هنا أيضًا لم يأت (شمهورش) لنجدة أخينا (يوري جيلر).. حتى إنجلترا يغزوها الحقد..

ساد صمت رهيب ثم أعلن (جيلر):

- «آسف.. لا أستطيع ثني الملاعق.. إن موهبتي ليست التيار الكهربي تفتح وتغلق بمفتاح.. لا أشعر أنني على ما يرام..»

ضحكت كثيرًا.. المشكلة أنّ هذا الطراز لا يشعر بالخجل أو يحبط.. لسوف يخوض تجربة مماثلة غدًا.. الوقاحة وقلة الحياء هي موهبة هذا النمط البشري الوحيدة، ولو كنت مكانه لانشقت الأرض وابتلعتني..

هكذا نهضت واخترت قناة أخرى، وكانت تذيع مجموعة أغان لمطربة شقراء حسناء.. جميل هذا يساعدني على التركيز لأني لا أهتم بهذه الأمور على الإطلاق أو لم أعد أهتم.. هذه القناة تصلح كجهاز مذياع يبطن خلفيّة أفكاري..

وقضيت نحو ساعة أراجع الأوراق.. لا أريد أخطاء أو أسئلة محرجة غدًا.. سيكون عتاة العلماء في مؤتمر الغد ولا أريد أن أبدو أحمق..

أخيرًا تأهبت للنوم فنهضت وأنا أشعر أن ساقي ديناصور ينهض من رقدته التي بدأت في العصر (الباليوزي).. من العبقري الذي وصف هذا الشعور بـ (التنميل)؟

توجهت لمفتاح النور لأغلقه حين حانت منى لفتة إلى المنضدة المواجهة لجهاز التليفزيون...

ألم تكن هذه سلسلة مفاتيحي؟

ماذا دهاها كي تنثني على نفسها بهذا الشكل؟

☆ ☆ ☆

2

انتظرت حتى فرغ (هن - تشو - كان) من مكالمته الهاتفية، ثم خرج من الكابينة وأعاد وضع العوينات السوداء على وجهه.. بالنسبة للناس كان مجرد رجل أعمال صيني وسيم متأنق.. يصعب على من يراه أن يصدّق كيف قابلته يومًا ما، وكل قصته مع مذهب (النافاراي).. إلخ.. لقد اندمج بعالمنا.. ربما أكثر من اللازم..

قال لي بالعربية التي يجيدها:

- «هيا يا (ريفاااات)..»

مشيت جواره في ميدان (الطرف الأغر) أو (ترافلجار Trafalgar) - حسب اسمه ذي الأصل العربي - وسط كل هذا الحمام، وأنا أرمقه في استمتاع. شعور غريب فعلًا لا أستطيع وصفه إلا بأنه شعور أب فخور..

سألته وأنا ألقى بالحبّ لبعض الحمام العملاق الذي لا يخاف ولا يحترم أحدًا:

- «ماذا تفعل هنا؟»

قال بطريقته المقتضبة:

- «بعض التوعية الثقافية.. لقد صرت شيوعيًا ومهمتي أن أبشر بالشيوعية في هذا البلد الرأسمالي العتيد..»

كان يتهكم طبعًا.. فهو أصلًا لم يحبّ الصينيين ولم يندمج معهم.. إنهم بالنسبة له الأعداء الذين استولوا على التبت، لكنه مضطر للاندماج معهم ليعيش.. أي أن الشيوعية بالنسبة له (أكل عيش).. ومن الطريف هنا أن (ماركس) رشح إنجلترا لتكون بداية اندلاع الثورة الشيوعية، لأنها تمثل ذروة القمع الصناعي الرأسمالي للطبقة العاملة.. لم يتخيل قط أن تبدأ الشيوعية في بلد زراعي - وقتها - مثل روسيا..

قلت له إنني سأبتاع جريدة ثم أعود إليه، وبعدها نتّجه لأي مكان نتناول الغداء فيه..

وقف يداعب الحمام (لو كان هذا الحمام في مصر لتعلم الأدب) على حين اتجهت إلى بائعة صحف عجوز، وطلبت منها إحدى الصحف.. كنا نقف تحت بناية عتيقة لها ذلك الطابع البريطاني الكلاسيكي.. لا أعرف ماذا حدث بالضبط لكني - لسبب ما - نظرت لأعلى فرأيت أصيص نباتات عملاقًا يهوى من حالق.. من إحدى نوافذ الطابق الرابع.. وخلف النافذة عاملة تنظيف تصرخ في هلع..

كان متجهًا نحو رأسي مباشرة.. لابد أن عجلة الجاذبية وطاقة الوضع التي يحاول فقدانها ستجعلان من وزنه طنًا حين يضرب رأسي..

انتابتني تلك الحالة من الذعر وفقدان القدرة على التحديد هل أتجه يمينًا أم يسارًا أم للخلف؟ نفس المشهد العبقري الذي رأيته مرارًا في كارتون (توم وجيري).. الصخرة العملاقة تهوي فوق القط (توم) فيجرى ذات اليمين واليسار.. في النهاية يقرر أن يستسلم ويحفر لنفسه قبرًا، ويقف نامي اللحية يدخن سيجارًا بانتظار سقوط الجلمود فوقه.. أينما ذهبت سيكون هذا بالذات هو الموضع الخطأ..

سمعت الصرخات.. تلك اللحظات الحاسمة تجعل الزمن أبطأ.. يُمكنك أن تسمع كل شهقة وكل صرخة..

ثم لا شيء...

غبار كثير يتناثر...

أنظر لأعلى لأجد أن الأصيص يتفتت في الهواء قبل أن يصل إلى كأنما هو تلقى ضربة هائلة ببلطة..

الغبار يسقط فوق معطفي..

الناس يتصايحون، ورجل وقور أشيب يدنو مني ليربت على كتفي:

- «أنت سعيد الحظ يا سيدي لو كان لي أن أقول هذا..»

البائعة العجوز كذلك انتابتها حالة هستيرية، فقد كانت المرشح رقم 2 للوفاة بعدي.. وجميعنا يعرف أنه كلما اقتربت من القبر أكثر صارت الحياة أثمن..

أخيرًا جاءني (هن - تشو - كان) مهرولًا وراح ينفض الغبار عن كتفي ورأسي..

قال لي وهو يمسح وجهي بمنديله:

- «لن تكف عن عادة سوء الحظ يا (ريفاات).. كأنك تتقاضى مالًا على ذلك»

قلت وأنا أشهق:

- «أي سوء حظ؟ أنا لم أر شخصًا أسعد حظًا ما مني! لقد تفتت الأصيص قبل أن يلمس رأسي»

نظر حوله بحذر وقال بالعربية كي لا يفهمه أحد:

- «هن - تشو - كان) فعل هذا.. لم يكن بوسعي أن أستعمل أساليب التفادي وسط هذا الزحام!»

- «يا سلام! ومنذ متى تفعل الأشياء عن بعد؟»

قال وهو يعيد المنديل إلى جيبه:

- «أستعمل طاقة (الكاي).. إني أستعملها طيلة حياتي.. ألم أخبرك بها من قبل؟»

☆ ☆ ☆

عندما تغرب الشمس وتلطخ دماؤها ثوب المساء الأزرق، عندئذٍ يبدأ فجر (النافاراي)..

☆ ☆ ☆

كان الليل قد جاء ونحن نمشي قرب الـ (هايد بارك).. الظلام بدأ يجعل المكان مخيفًا..

قلت له وأنا أرتجف من البرد ومن الخوف:

- «(هن - تشو - كان).. هذا المكان مناسب كي يهاجمنا اللصوص ونتلقى علقة ساخنة، أرى أن نبحث عن موضع أكثر أمنًا..»

قال دون أن يبتسم:

- «هذا ما أتوق إليه.. أن يهاجمنا اللصوص لأشرح لك! لقد صار من الصعب هذه الأيام أن تجد شخصًا تضربه..»

- «ألن تمارس هذا البروتوكول المعتاد؟ (السارايانا) وكل هذه التحذيرات.. إلخ؟»

- «نعم.. أريد اليوم أن أريك مثالًا لطاقة (الكاي)..»

شرح لي (هن - تشو - كان) أن طاقة (الكاي) موجودة لدينا جميعًا.. الهندوس يطلقون عليها اسم (كونداليني Kundalini) وهي معروفة لدى الغرب جيدًا لأن اليوجا مألوفة بالنسبة للعالم الغربي.. إنها الطاقة اللولبية الملتفة حول نفسها، والتي لا يمكن وصفها.. فقط تحتشد في أسفل عمودنا الفقري.. ثم تتجه لأعلى عبر (التشاكراس chakras).. والتشاكراس - إن كنت لا تعرف - هي المراكز السبعة للطاقة الروحية في الجسم.. كيف يحدث هذا؟ التأمل اليوجي أحد الأساليب المحببة لذلك..

علمه الأخ (ميانج) في طفولته كيف يحصل على هذه الطاقة، وكيف يستعملها لتحريك الأشياء عن بعد.. لكن (الكاي) تعمل في أفضل صورة لها حين يكون هناك التحام قتالي.. عندها يمكنها أن تدافع عنك كأنها قبضتك..

سألته في حيرة:

- «لم أرك تستعملها قط..»

- «لأنهّا ليست من أساليبنا الأصيلة.. هي أقرب للصينيين واليابانيين منا.. لكني أملكها.. كلنا يملكها.. لنقل إنني أجيد استخراجها.. أنت تجيد الإنجليزية لكنك تستعملها فقط عند اللزوم، ثم تعود للعربية التي تريح لسانك وعقلك.. لنقل إن السارايانا هي لغتي الأم..»

هنا سمعت الصوت الذي كنت أتوقعه:

- «يبدو أن السيدين لديهما بعض المال مما يمكن الاستغناء عنه!»

يا للهجة (الكوكني cockney) الفظة! اللهجة العامية التي يصعب فهمها.. هم لا ينطقون الهاء أبدًا بالمناسبة بل يستبدلون بها الهمزة..

كانوا ثلاثة.. لم يكونوا مسلحين إلا بعصى غليظة قادرة على إحداث أذى كبير.. أحدهم كان يحمل مفتاحًا إنجليزيا عملاقًا.. كلهم كان يضع القلنسوات الصوفية، ويلبس السترات الجلدية، وقد حرصوا على أن يبدو منظرهم فظًا مخيفًا.. إنهم الطبقة المطحونة التي أفسدها الفقر وهم فخورون بذلك، وحريصون على أن نراهم كذلك..

قال (هن - تشو - كان) في لا مبالاة وهو ينظر إلى الجهة الأخرى:

- «أرجو أن تذهبوا للعب في مكان آخر يا شباب فلا وقت لدينا..»

ثم جذبني من ذراعي وابتعد عنهم..

طبعًا صاح أحدهم وهو يلحق بنا ملوحًا بعصاه:

- «أنا لا أتلقى دروسًا من خنزير أسيوي! هل عددت أسنانك يا أصفر؟»

لو كنت مع شخص آخر لفضلت أن نعطيه مامعنا وينتهي الأمر ثم نفر كالأرانب.. لكني كنت أعرف أنني أمشي مع الكاهن الأخير.. لقد رأيت هذا الموقف مرارًا.. إن هؤلاء الفتية قد صاروا تاريخًا كما يقول الأمريكان..

لكنه لم يقم بالطقوس الثلاثية التي تنذر خصمه باستعمال (السارايانا)، والتي نسيتها تمامًا.. هذه المرّة لم يفعل سوى أن كرر إنذاره مرّتين.. ثم وقف متصلبًا متباعد الساقين قليلًا على حين هجم حامل المفتاح الإنجليزي علينا..

وفي اللحظة التالية طار في الهواء ليسقط على الأرض وهو يعتصر معدته.. هجم الثاني فبدا كأنما هو في مباراة ملاكمة مع الرجل الخفي.. الضربة القاضية هشمت فيه من يد خفية..

هكذا وجد الثالث أنه لم يعد ثالثًا.. لقد صار هو الوحيد.. الأخير..

نظر لنا ولزميليه المكومين على الأرض ثم أطلق لساقيه العنان.. فقط ليتلقى ركلة خفية في مؤخرته أسقطته أرضًا..

وابتسمت وأنا أنظر لما صاروا إليه..

سيظل هذا اليوم محفورًا في ذاكرة هؤلاء الشباب باعتباره اليوم الذي قابلوا فيه الشيطان الأصفر.. لو كانوا في مصر لتحولوا إلى مجاذيب يجولون زائغي الأعين في الأزقة..

بالعربية الركيكة قال (هن - تشو - كان) الذي لم يبدل أسلوب وقفته:

- «أنا أضرب سيئ..»

قلت له وأنا أنظر إلى هذه المذبحة التي تمت دون لمس:

- «نعم.. نعم.. أفهم.. والآن تعال نجلس في مكان هادئ ونواصل كلامنا عن هذه الطاقة الغريبة..»

كانت لديَّ أسئلة كثيرة..

وقد اعتدت معه ألا أجد إجابات.. بالنسبة له هذه أشياء تعمل ولا تقال.. تحس ولا تشرح.. توجد فيك أو لا توجد لا تسأل كيف تفعل الشيء.. فقط افعله..

لكني منيت نفسي ببعض التغيير هذه المرّة على الأقل..

☆ ☆ ☆

3

سألته وأنا أرشف القهوة:

- «وهكذا وجدت المفاتيح مثنيّة.. هذا يدل على أنه نجح.. لكن لماذا كان فشله على الشاشة واضحًا؟ ولماذا اعترف هو نفسه بالفشل؟»

ثم أضفت باسمًا:

- «كل (لندن) تسخر اليوم من هذا النصاب باستثنائي..»

قال (هن - تشو - كان) وهو يبلل البسكويت بالشاي كعادته:

- «لا أستطيع إعطاء رأي قاطع فأنا لا أعرف المحترم (يوري جيلر)..»

- «هو ليس محترمًا.. إنّه إسرائيلي..»

- «ليكن.. لكن ما أستطيع قوله هو أن الطاقة لا تتجزأ.. إما أن تصيب الهدف أو لا تصيب.. هل سمعت عن حالات أخرى منتقاة تأثرت بفعل طاقته؟»

- «على قدر علمي.. لا..»..

☆ ☆ ☆

لم يكن ذلك المؤتمر المهم الذي عقد في اليابان عام 1984 قد عقد في ذاك الوقت.. لهذا كان العالم بالفعل يجهل كل شيء عن هذه الطاقة.

بالنسبة لنا لا تختلف هذه الطاقة عن قدرة التحريك عن بعد.. فأشهر تجربة رآها الفرنسيون لها هي قيام البروفسور (كيرو) بتحريك امرأة تنام على ظهرها مسافة سبعة أمتار على الأرض دون أن يلمسها.. على أن لها خاصية أخرى مهمّة هي تثبيتك إلى الأرض، وقد تحدى المدرب (تونج) الذي يزن 64 كيلوجرامًا بطل فرنسا في ألعاب القوى أن يحركه من مكانه، فلم يستطع.. كأن الرجل قد تم تثبيته بالخرسانة إلى الأرض..

عندما نتكلم عن طاقة (الكاي) فإننا نطرق باب الإبر الصينية Acupuncture.. ونكون قد اقتربنا جدًّا من سر الشبكة العجيبة التي تتحكم في الجسم البشري بقد اته وإحساسه بالألم.. لهذا

تلعب طاقة (كاي) دورًا مهمًا في الشفاء، ويعتقد الطب التقليدي الصيني أن أي مرض في العالم سببه خلل في هارمونية شبكة (كاي) هذه..

ولهذا - أيضًا - يعتمد الطب التقليدي الصيني على ترسانة كاملة من الأعشاب التي يطلقون عليها اسم (منشطات الكاي Qi tonics)..

طبعًا بالنسبة لي، لا أستطيع فهم هذ العلم.. لكني أقبل وجوده وأحترمه..

أحيانا أعتقد أن كل آسيوي هو أسطورة تمشي على قدمين، وأنه لو ترك وشأنه لطار في السماء أو راح يحفر في أعماق الأرض كالدودة..

☆ ☆ ☆

وهكذا دخل (هن - تشو - كان) غرفة الفندق معي..

راح يتشمم الهواء.. اتجه إلى النافذة فأزاح الستار وراح يرمق (لندن) الضبابية الكئيبة.. في (لندن) هناك لون واحد مطلق هو الرمادي..

ثم اتجه إلى شاشة التليفزيون.. طلب مني أن أفتحه هو لم يألف الاختراعات الحديثة كل الألفة مع أنني أعتقد أنه يستطيع بالتأمل أن يفتحه بلا أزرار.. سألني:

- «أنت كنت تجلس هنا؟»

وأشار إلى الأريكة فهززت رأسي موافقًا..

- «والمفاتيح كانت هنا؟»

- «نعم على المنضدة.. وأكون شاكرًا لو أعدتها لسيرتها الأولى، لأنهّا مهمّة بالنسبة لي..»

ابتسم ابتسامته التي هي نوع من القهقهة الصاخبة، وقال وهو يتفحصها:

- «يبدو أنك لم تفهمني يا (ريفالت).. أنا أملك طاقة (الكاي) وهي طاقة قتالية خاصة.. لكنّها لا تصلح بتاتًا لهذه الألعاب.. لا أستطيع ثني ملعقة أو فردها.. فكر في الأمر كطلقة مدفع تخرج من ذاتك في لحظة بعينها تدمر خصمًا أو تهشّم أصيص نباتات، لكنّها لا تستطيع عمل شيء بها.. أنت تطلب من النمر أن يحلق بجناحيه نحو القمر..»

نمر.. نمر.. كلما كلمتك عن شيء أقحمت نمرك هذا في الكلام.. لابد من نمر أو تنين أو أشجار سرو في الموضوع لتضفي عليه الطابع البوذي أو الكونفوشيوسي..

فكرت قليلًا ثم قلت:

- «والتفسير؟»

- «لا أعرف.. أعتقد أنّ علينا أن نقابل (جيلر) هذا..»

- «أقابل (جيلر)؟»

قلتها ورحت أفكر في الأمر بدقة.. لن يكون هذا سهلًا لأن الرجل يعاني حالة مزمنة من الشعور بالأهمية.. سيكون سعيدًا جدًّا حين يرفض طلبي لأنّه مشغول، لكني سأحاول.. إن التفسير لهذا الذي حدث يقلقني حقًّا..

تم اللقاء بعد أسبوع وكان مسليًا بحق..

أحد طرفي اللقاء نصاب.. صحيح أنه يتمتع بكاريزما لا شك فيها.. لكن بوسع أي طفل أن يدرك أنه مجرد حاو.. الطرف الآخر هو الحقيقة والصدق مجسدان.. إنّه الكاهن الأخير الذي لا يصرح بربع ما يعرفه.. الكاهن الأخير الذي رأيت منه عددًا لا يوصف من الظواهر الخارقة، لكنه لا يعتبرها أكثر من (نمط تربية) نشأ عليه.. هو صار قادرًا على ما يقوم به؛ لأنّه نشأ وسط كهنة (النافاراي) ولو مر أي شخص بهذه النشأة لصار الشيء ذاته.. هذا رأيه.

كنا جالسين في جناح الفندق الفاخر الذي يقيم به (جيلر)، وسكرتيرته الحسناء تقدم لنا العصير.. لم أعرف أن الوسطاء يعيشون في هذا الترف.. قال لنا وهو يرفع كأسه في الهواء:

- «معذرة.. لا مشروبات روحية.. فقط عصير البرتقال الذي يوصلك إلى الصفاء..»

قال له (هن - تشو - كان) إننا لا نشرب أية مشروبات روحية.. كنت قد تركت له ناصية الحديث؛ لأنني فعلًا غير راغب في الكلام مع الأخ (جيلر) هذا.. دعك من أنني لا أريد أن ينزلق لساني..

قال الكاهن الأخير:

- «صديقي شاهد تجربتك في التليفزيون و..»

مط (جيلر) شفتيه وقال بازدراء:

- «هؤلاء القوم لا يفهمون أن عالم القوى الخارقة لايأتي بضغطة زر.. لست حاويًا كي أقدم قواي متى أرادوا ذلك.. وأنت تعرف أنني لم أكتسب قواي بطريقة أرضيّة.. لقد كان لي اتصال في مراهقتي بكائنات فضائيّة!!»

- «كائنات فـ.. فضائيّة؟!!»

هنا انزلق لساني كما كنت أخشى، فقلت:

- «لكنك قبلت الظهور في البرنامج ولم يرغمك أحد..»

تجاهل كلامي باعتباري تافهًا وأحمق، وقال وهو يشير لشيء وراءه:

- «تأمل ما يتم بعيدًا عن الضغط الإعلامي..»

إذن لم تكن هذه الكومة المعدنية على المنضدة قطعة زينة.. إنها مجموعة من الملاعق انثنت حول نفسها وصارت عقدًا متداخلة يستحيل فكها.. لكن هذا لا يبرهن على شيء.. يمكنني أن أفعل هذا باستعمال يدي. فقط أعطني ربع ساعة وسأكرر لك هذا المشهد بدقة..

قال (هن - تشو - كان):

- «أنت يا سيدي قلت إن التجربة فشلت.. لكن صديقي رأى سلسلة من المفاتيح الخاصّة به تنثني أمام الشاشة حتى تلفت كلية..»

بدا عليه الاهتمام.. ونظر لي ثم سألني:

- «هل هي معك؟»

مددت يدي في جيبي وأخرجتها ووضعتها أمامه.. فراح يتأملها في انبهار..

قال لي:

- «هل توافق على الشهادة أمام الصحافة بأن هذا حدث؟»

قلت في غيظ:

- «أريد تفسيرًا أولًا..»

- «التفسير هو أن التجربة لم تفشل إلى هذا الحد وربما لم تكن أنت الوحيد..»

انتهت الجلسة فطلبنا إذنه بالرحيل.. أوصلنا على الباب وصافحنا، وقال لي:

- «فكر جيدًا.. إن بوسعي أن أجعل منك نجمًا إعلاميًا..»

- «سأفكر في هذا..»

وفي سيارة الأجرة التي عدنا بها كان (هن - تشو - كان) شارد الذهن غارقًا في التفكير.. فانتظرت حتى بدا أنه يخرج من لجة الأفكار، وسألته:

- «ما رأيك؟»

نظر لي وغمغم:

- «لا يبدو قادرًا على شيء.. إنِّه مدع..»

- «والمفاتيح التي انثنت؟ ما تفسير هذا؟»

قال في بساطة:

- «الجواب الوحيد هو أنك تملك قدرة التحريك عن بعد ولا تعرف هذا!»

☆ ☆ ☆

4

للمرة الرابعة قال لي البروفسور (ثورنوايلد):

- «ركز على هذه الملعقة في تفكيرك.. أعرف أنك لا تراها.. لكن تخيل أنها جزء منك.. تخيل أنك تراها مثنيّة..»

ثم همس بشيء إلى (هن - تشو - كان) كي يغادر المختبر معي..

كان هذا المختبر واحدًا من قاعات (جمعية البحوث الروحانية البريطانية) وهي بناية عتيقة تأسست عام 1882، وما زالت قائمة تعكف على دراسة الظواهر الفائقة للحس في كل مكان من العالم.. إن لفظة ESP نفسها هي من ابتكار هذه الجمعية..

كنت جالسًا في ظروف اختبار (جانتسفلد Ganzfeld) التي بدأ تطبيقها مؤخرًا.. إن (جانتسفلد) لفظة ألمانية معناها (الحقل الكامل).. ومعناها أنني أجلس في غرفة معزولة عن الصوت.. وعلى عيني علبتان تسمحان لي بفتح العينين دون أن أرى شيئًا.. وعلى أذني سدادتان..

المفترض أنّ هذه الظروف من الحرمان الحسي الكامل، تشحذ موهبتي - إن وجدت - إلى أقصى حد لها.. هنا يمكن أن تكون قراءة الأفكار أسهل، وهنا يستطيع من يملك قدرة التحريك عن بعد أن يعرف هذا..

ركزت كثيرًا جدًّا.. جدًّا..

ثم بدأت أشعر بنوع من البلل على ركبتي.. لا أعرف السبب لكن سروالي مبتل.. ربما كنت أتخيّل هذا..

هكذا واصلت التركيز.. وركزت.. وركزت..

ثم شعرت بمن يزيح غطاء العينين وينزع السماعات وسمعت د. (ثورنوايلد) يصيح في هلع:

- «لكن! إن أنفك ينزف..»

نظرت لسروالي فوجدته غارقًا بالدماء التي سالت من أنفي..

- «هاتوا لي ضمادات! بسرعة!»

وأرجع رأسي للوراء. لقد تسبب التركيز في ارتفاع ضغطي إلى أقصى حد حتى لم تعد تتحمله شرايين الرأس.. ولولا أن الدم اختار أنفي ليغادر جسدي منه، لفضل أن يغادره عن طريق المخ..

هذا من حسن حظي وإلا لكنت ميتًا أو مشلولًا..

كانوا مذعورين وقد رحت أشرح لهم في صبر أنّ هذا يحدث لي كثيرًا جدًّا.. لا أفهم كيف يعيش الناس من دون أن تنزف أنوفهم كل يوم..

قال لي د. (ثورنوايلد) وهو موشك على التوسل:

- «أرجوك أن تكف عن التأمل! أرجوك!»

وقال (هن - تشو - كان):

- «لم أر في حياتي شخصًا لا يملك ذرة من القدرات الفائقة للحواس مثل هذا الرجل.. لقد كاد القليل من التأمل يقتله!»

سألته وأنا أرجع رأسي للوراء:

- «إذن لم أثن المفاتيح بقدرتي الخارقة؟»

- «أنت غير قادر على ثني قصاصة ورق تمسك بها بين أناملك.. وأنصحك ألا تجرب أية تجربة نفسية إذا وددت أن تموت بكامل قواك العقليّة..»

على الأقل قدمت لي هذه التجارب الجواب الذي كنت أبحث عنه وأتمناه.. لا يوجد جزء في ذاتي لا أعرفه أو هذا ما أعتقده.. لكن يظل السؤال معلقًا: بفعل من وكيف ولماذا حدث ما حدث؟

من الذي ثنى المفاتيح؟

☆ ☆ ☆

- «أنا (سارة)!»

كانت تقف على باب غرفتي تطلب شيئًا آخر..

راحت تثرثر على الباب فقلت لها في أدب إنني أعاني ارتفاع ضغط مروعًا، وإنني أفضل لو خرست قليلًا.. هذا لو أنها سمحت طبعًا.. فقالت في حسرة:

- «حسبت أنك تستطيع مساعدتي في فتح حقيبتي الصغيرة.. لم أحتج لشيءٍ فيها من قبل، واليوم أردت فتحها فلم أستطع..»

وجدت الأمر سهلًا.. ليس بهذا التعقيد.. لهذا خرجت معها متجهًا إلى غرفتها..

هذا غريب! أنا أعرف أنها جارتي لكن لم يخطر ببالي قط أنها تعيش في الغرفة المجاورة لي..

وهكذا دخلت معها الغرفة الأنيقة، وكانت الحقيبة على الفراش فرحت أحاول معالجة قفلها.. طبعًا هذا مستحيل لأن أي قفل لم يستجب لي في حياتي.. هكذا طلبت منها أن تبحث عن شيء يصلح للدق..

راحت تفتش حتى وجدت سكينًا ومنفضة تبغ ثقيلة تصلح لتكون مطرقة.. هذا يفسر احتياجها المتكرر للثقاب.. أمسكت بالسكين وثبته على القفل ورفعت المنفضة و...

هنا لاحظت شيئًا غريبًا..

أمام الجدار المجاور لي والذي - إن لم تخدعني حاسة الاتجاه - يلاصق غرفتي منضدة صغيرة.. وعلى هذه المنضدة توجد ملعقة صغيرة ملتوية بالكامل حول نفسها..

نظرت إلى الناحية الأخرى لأجد أن التليفزيون قريب من هذا المكان..

التفت لها في دهشة، وهتفت:

- «إذن غرفتي مثل غرفتك!»

رفعت حاجبيها غير فاهمة بمعني: ماذا يعنيه ذلك الأحمق؟

قلت وأنا أبدأ عملية الدق:

- «الملاعق عندك قد انثنت.. هل كنت تتابعين ذلك العرض؟»

- «أي عرض؟»

- «ذلك النصاب (جيلر).. في التليفزيون..»

هتفت في حيرة:

- «لكنه فشل.. أعلن فشله.. كل لندن تتحدّث عن فشله المخجل أمام العدسات..»

- «وبرغم هذا انثنت الملاعق عندك.. هذا ما حدث عندي.. ويجب أن أقول إنني منذ ذلك الحين لا أجد تفسيرًا مقنعًا..»

قالت وهي تتابع عملية الدق التي أقوم بها:

- «كنت أحسب ملاعقي هي الوحيدة التي تأثرت.. لم يخطر لي أن أحدًا مر بتجربة مماثلة..»

هنا استجاب القفل أخيرًا فانفتح.. طبعًا لم أستكمل عملي لأن محتويات حقائب النساء مشينة دائمًا.. وهكذا نهضت والعرق يغمر وجهي، وقلت:

- «كما توقعت.. القفل قد انثنى لهذا لم تستطيعي فتحه هناك سر في غرفتينا.. سر لا يعلمه إلا الله.. هذا السر هو ما جعل قوى (جيلر) النفسية الفاشلة تنجح فيما فشلت فيه أمام الجمهور ذاته..»

- «جميل.. وما هو السر؟»

- «لا أعرف.. هل تعرفين لماذا؟ لأنّه سرًا.. لكني سأجده..»

وغادرت غرفتها قبل أن تقول أي شيء...

☆ ☆ ☆

حكيت لـ (هن - تشو - كان) هذه القصة حين زارني بعد قليل.. كان مهتما فعلًا وقد قطب جبينه، وهو يصغي لكل حرف.. ثم من دون إنذار نهض وبدأ يمارس بعض التمارين (النافاراي) التي يتخيل فيها أنه يواجه خصومًا وهميين.. لولا إلمامي بعاداته لاتهمته بقلة التهذيب، لكني أعرف أنّ هذا يمنحه المزيد من التركيز..

وقف في وضع متصلب وذراعاه يرسمان شيئًا يذكرك بالبجعة، ثم أصدر صريرًا من بين أسنانه ووجه بضع لكمات سمعتها تشق الهواء.. تقلص فم معدتي وأنا أتخيّل إحدى هذه الضربات تنغرس فيه..

قال وهو في وضع متصلب آخر:

- «هذه ظاهرة فريدة يا (ريفاات).. القوى النفسية تنتقل.. طاقة (كاي) تنتقل.. لكنّها تذهب إلى حيث أرسلتها أنت.. هي لا تنتقي، وليست هناك أهداف أسهل من سواها..»

ثم زحف على الأرض ليتفادى ركلة من ذلك الخصم الوهمي، وبينما هو على الأرض ارتفعت ساقه لتركل ذلك الخصم فصرخ وجرى.. من صرخ؟ الخصم الوهمي طبعًا.. ظننتك تتابعني!

رحت ألهث من مشاهدة التدريب.. هذا جهد عضلي يفوق احتمالي.. سألته لاهثًا:

- «والحل؟»

دار حول نفسه في الهواء بحركة بهلوانية تذكرني بحركات (النينجا) في أفلام (هونج كونج).. مع فارق بسيط هو أنه ليس مربوطًا بحبل من المشمع.. وقال حين ارتكز على قدميه:

- «في رأيي أنك لن تجد حلًا.. حاول نسيان الموضوع فأنت لم تفقد إلا بعض المفاتيح..»

- «هذا ما أفكر فيه..»

في هذه اللحظة سمعنا دقات على الباب..

قلت له وأنا أتجه لأرى من الطارق:

- «استعد وقارك.. سوف يكون من الغريب أن يراك القادم في هذا الوضع.. على كل حال أعتقد أنها إدارة الفندق تطالبنا بأن نلتزم الصمت وإلا فإن الشرطة سوف...»

على الباب كان هناك ذلك الشاب يرتدي الزي الرسمي للفندق.. يطلقون عليه اسم Porter وهو بالمعنى الحرفي (الشيال).. لكنه في الحقيقة دينامو الفندق الذي يعنى بكل شاردة وواردة فيه..

كان يحمل جهاز تلفزيون صغيرًا ويلهث..

قال لي وهو يناولني قصاصة ورق:

- «هذا هو التليفزيون يا سيدي.. فقط وقع لي هنا..»

كان هذا عرضًا شائقًا لكن لا أفهم سببه.. التليفزيون هنا يعمل بكفاءة تامة.. شرحت ذلك للفتى فراجع القصاصة واحمر وجهه خجلًا.. لا تنس أنها الواحدة بعد منتصف الليل..

قال لي وهو يتراجع إلى مدخل الباب بعد ما كان قد اقتحم الغرفة:

- «آسف.. إنها الغرفة المجاورة لك.. أعتذر عن الإزعاج.. لقد اختلط عليّ الأمر..»

سألته وقد بدأت أفكر في شيء ما:

- «الغرفة المجاورة؟ هل تعني مس (ماكميلان)؟»

راجع القصاصة ثم قال:

- «نعم.. نعم.. جهاز التليفزيون عندها معطل منذ جاءت الفندق.. لقد حاولنا إصلاحه اليوم صباحًا وفشلنا.. لهذا جلبنا لها هذا الجهاز البديل..»

ثم هزّ رأسه محييًّا وجذب المقبض ليغلق الباب في وجهي..

استدرت إلى (هن - تشو - كان) لأرى رد فعله.. فوجدته قد اتخذ وضعا غريبًا جديرًا بلاعبي اليوجا.. قلت له في قلق:

- «هل تسمع؟ منذ قدومها للفندق.. أي أنه لم يكن هناك جهاز تلفزيون في غرفتها حين قدم (جيلر) عرضه.. لهذا لم تبد على علم بموضوع البرنامج على الإطلاق، ولكني اقترحت بغباء والتقطت هي الخط بسرعة..»

قال وهو يأخذ شهيقًا عميقًا:

- «سمعت.. إنها تكذب.. بالتأكيد تكذب.. لكن لماذا تكذب؟»

☆ ☆ ☆

5

راح (هن - تشو - كان) يحرك ضوء المصباح في أرجاء الغرفة.. حتى هذه اللحظة لم نجد شيئًا..

سألني همسًا وهو يفتش تحت الفراش:

- «أين تلك الحقيبة الصغيرة التي عجزت عن فتحها؟»

- «لا أدري..»

كنا الآن في موقف عبقري يعطى حق اعتقالنا وربما إطلاق الرصاص علينا لأي رجل شرطة في العالم.. لقد تسللنا إلى غرفتها.. أقولها بكل خجل وحرج، لكنّها الحقيقة...

إن (هن - تشو - كان) يجيد الكثير من الأشياء.. وقد تعلم مؤخرًا طريقة الأبواب باستخدام دبوس شعر.. لا تنس أنه عمل مع المخابرات لفترة، وقد انتظرنا حتى رأيت الفتاة تغادر حجرتها.. بعد نصف ساعة يأتي عمال التنظيف ويأتي موعدي مع المؤتمر.. لابد من الانتهاء سريعًا..

كانت الغرفة مظلمة لأن الستائر السميكة كانت مسدلة، وكنا نتوقع عقبة كهذه لذا حمل (هن - تشو - كان) معه الكشاف.. لو أزاح الستائر فما أسهل أن يلاحظها أحد ربما الفتاة نفسها..

فقط كنا متأكدين من شيء واحد: ما تخفيه الفتاة لن يكون في مكان مكشوف.. لن يكون واضحًا أمام عمال النظافة.. والأمر الآخر هو أن الملعقة لم تعد هناك..

قال (هن - تشو - كان) وقد لاحظ ذلك:

- «هذا يدل على أنها تركتها عن إهمال حتى لاحظت أنت.. هكذا صححت خطأها وأخفتها..»

ثم تشمم الهواء في عمق.. وهمس:

- «الهواء يفوح برائحة لا أستطيع وصفها.. ربما القوي النفسية التي تسمونها ESP»

- «ماذا تعنيه؟»

قال همسًا وهو يواصل تفحص المكان:

- «الأمر واضح.. هذه الفتاة تملك قوى التحريك عن بعد.. أعتقد أنها كانت تجري تجربتها على شيء ما، في ذات الوقت الذي كان فيه ذلك النصاب يجرب حظه على الشاشة.. إن قواها النفسية

هي التي تسربت إلى غرفتك وجعلت مفاتيحك تنثني.. لاحظ أن المفاتيح كانت على المنضدة الملاصقة للجدار..»

نظرت لساعتي ثم أعلنت أن الوقت قد حان لننصرف.. من الواضح أننا لن نجد شيئًا لو كان هناك شيء منذ البداية..

☆ ☆ ☆

انتهيت من أعمال المؤتمر فعدت إلى غرفتي في المساء.. كنت قد اتفقت مع (هن - تشو - كان) على أن يلحق بي.. لقد صارت أيامي معدودة في هذا البلد، وأريد قضاء أكبر وقت ممكن مع هذا الفتى.. ربما لن نلتقي إلا بعد أعوام وربما لن نلتقي أبدًا..

فتحت الباب ودخلت في الظلام..

هنا أثار دهشتى أنّ هناك من يرقد في الفراش.. أضأت النور الكهربي فوجدت أنها تلك الفتاة (سارة).. ماذا أتى بها هنا؟ لا أظن أنها أخطأت الغرفة لأن غرفتي ذات طابع مميّز يسوده الإهمال..

كانت بكامل ثيابها حتى الحذاء، وقد نامت على ظهرها ووضعت الوسادة فوق وجهها.. يوحي مظهرها العام بأنها كانت تنتظرني حتى غلبها السأم فنامت.. لكن لماذا تنتظرني؟

هل هناك ما أوحي لها بأنني تسللت لحجرتها صباحًا؟

شعرت بقلق لأنني لم أعد أرتاح كثيرًا لهذه الفتاة.. رقيقة لطيفة لكن هذا صار يسبب لي رعبًا بالا (هتشكوك) تحدث عن الأشخاص الودودين أكثر من اللازم، ويبدو أنه كان على حق.. دعك من حقيقة أنها كذابة وأنها تملك قوى نفسية هائلة...

هكذا دنوت منها أكثر.. مددت يدي وأبعدت الوسادة التي تكتم أنفاسها..

هنا فقط أدركت أنني أخطأت..

لم يكن هذا وجهًا بشريًا.. إنّه وجه شخص هلك محترقًا لكنه - وهذا أسوأ ما في الأمر - مازال حيًّا...

كانت عيناها مفتوحتين تنظران لي.. ثم نهضت..

لم تنهض كما يفعل النائمون، لكنّها نهضت بطريقة ميكانيكية سريعة كما ينهض مصاصو الدماء من توابيتهم في السينما..

قالت وهي تمد يدها نحوي:

- «آسفة لأنني أزعجتك.. إن منظري ليس مريحًا.. لكني أعرف أنك تقدر هذه الأمور..»

تراجعت بظهري عاجزًا عن الكلام.. ذهول تام يغمرني حتى تحولت إلى طفل أبكم..

هذه الفتاة الرقيقة ليست كائنًا بشريًا. لم يكن كذلك في أية لحظة...

- «لقد انتظرتك كثيرًا، وفي النهاية قررت أن أخلد للنوم إلى أن تأتي وننتهي..»

- «ننتهي من أي شيء؟»

- «من قصتك!»

كانت تتقدم منى ببطء، وأدركت أنني لن أجد أبدًا الوقت الكافي لفتح الباب.. إنِّه خلفي ولو استدرت لوثبت على..

لكني شعرت بحركة من خلفي..

في اللحظة التالية انفتح الباب فقذفني للأمام..

وسمعت صوت (هن - تشو - كان) يهتف:

- «ابتعد يا (ريفالت)!»

رأيته يدخل الحجرة فيتخذ وضعًا قتاليًا ممتازًا.. كان يرتجف في عصبية لكنه متماسك، وشعرت براحة لأنني لم أعد وحدي.. لا أعرف ما يقدر على عمله لكنه أفضل مما سأفعله أنا..

قالت له وهي تتقدم نحوه فاتحة ذراعيها:

- «هلمّ.. أنت تعرف أنك لن تتغلب عليّ.. قوانين المادة لا تنطبق على..»

هنا رأيته يتصلب.. يتخذ ذلك الوضع الذي رأيته من قبل.. تركيز عالٍ جدًّا على وجهه.. كل الأوردة تنقر في عنقه وعلى جبهته.. العرق ينبت هنالك..

وفي اللحظة التالية طارت الفتاة إلى الوراء لتسقط فوق الفراش ثانية..

لقد وجه لها ضربة بطاقة (الكاي).. خمَّن أن القتال العادي لن يجدي.. لابد من قبضة غير مرئية تطيح بهذا الشيء بعيدًا..

نهضت من جديد وقد صار وجهها شيطانيًا أكثر مما كان، وفي هذه المرّة اشتعلت النار في كفيها.. كانت تلوح بهما كأنها فخور بمنظرهما الغريب، وعادت تقول:

- «لا تحاول يا فتى.. هذه الألعاب الصبيانية لا تجدي معي..»

ضربة أخرى غير مرئية أطاحت بها إلى الوراء..

هنا وجدت أنه لا أحد ينظر لي.. غادرت الغرفة مسرعًا..

الدرج والبهو.. موظف الاستقبال الذي يشاهد التليفزيون غير عابئ بشي؟..

ارتميت على (الكاونتر) وأنا ألهث.. لحسن الحظ أن علبة الأقراص في جيبي.. تناولت قرصًا تحت لساني.. وقلت في جزع:

- «هلموا لمساعدته! هلموا!»

نظر لي الفتى في دهشة.. واضح من منظري أنني لم آت كي أشكو انقطاع المياه في الحمام.. نهض وقرب أذنه مني ليسمع أفضل، فقلت:

- «هناك.. هناك مسخ في حجرتي.. إنّه يقاتله..»

وتحاملت كي لا أسقط أرضًا..

ظهر ساق مسن أشيب الشعر والحاجبين وراح يصغي لكلماتي.. أضفت وأنا آخذ نفسًا عميقًا:

- «إن كفيها مشتعلتان!»

نظر الساقي إلى الفتى الشاب.. وبدا عليهما أنهما فهما.. قال الكهل في هلع:

- «يا للسماء! إن لم تكن هذه (سارة)!»

- «لم أربط بين الاسمين..»

- «هل انثنت المعادن في الغرفتين؟»

قلت أنا وقد بدأت أستعيد أنفاسي:

- «نعم.. نعم.. في غرفتي وغرفتها.. ماذا يجري هنا؟»

لم يرد الرجلان لأنهما حملا أسطوانة إطفاء الحريق وهرعا إلى الطابق العلوي حيث حجرتي.. ولا أعرف متى ولا كيف لحق بهما آخرون حتى صرنا مظاهرة صغيرة تشق طريقها إلى هناك..

قبل أن نفتح الباب سمعنا صرخة شنيعة.. صرخة لا تنتمي لهذا العالم..

ثم دوى صوت الماء ينهمر..

قال الكهل:

- «لقد أدت لتشغيل جهاز الإطفاء..»

- «هذا لحسن حظنا..»

ومد أحدهم يده يفتح بابي أكثر.. كنت متأهبًا لأسوأ النتائج.. لكني وجدت الكاهن الأخير يقف حيث تركته.. كان في أسوأ حال والنار تشتعل في كتفيه وأجزاء عدة من سترته.. لكن الماء المنهمر من السقف كان قد بدأ يغمره.. أمّا على الفراش فقد كانت كتلة نيران لها مظهر بشرى تحاول أن تنهض..

لكن اللكمات مازالت تنهمر عليها من أعماق أعماقه.. من أسفل عموده الفقري تخرج (الكاي) أو (الكونداليني) لتوجه لها لكمات خفية لا يراها أحد..

كان كل شيء معدني في غرفتي قد تقوس.. لا بفعل الحرارة ولكن بفعل قوى خفية لا نراها..

ودوى الانفجار حين بلغت النار جهاز التليفزيون..

الزجاج المتناثر يضرب (هن - تشو - كان) في وجهه لكنه يتماسك.. الكيان المشتعل فوق الفراش ينهض ويلوّح مصدرًا صوتًا كصراخ العنقاء.. ثم يتلقى ضربة أخرى غير مرئية فيهوي...

الماء ينهمر والنيران تخوض معركتها الأخيرة...

هنا اندفع الكهل تحت المياه المتدفقة وفتح جهاز الإطفاء فاندفع السائل الرغوي يغمر ذلك الجسم الذي كان على الفراش..

لا بد أن المأساة دامت بضع دقائق.. إلا أنها بدت لنا عدة قرون..

وفي النهاية تناثر الكيان على الفراش وقد تحول إلى خليط من الماء والرغوة والرماد.. بينما تهاوى (هن - تشو - كان) على الأرض وقد احترقت دوائره الداخلية. لقد ذابت منصهراته تمامًا من فرط هذا الجهد..

☆ ☆ ☆

6

- «يا للسماء! أنت شجاع حقًّا يا سيدي..»

قالها الساقي الكهل وهو يجفف وجه (هن - تشو - كان).. وقد قدم له أحدهم كأسًا صغيرًا تشممه وهو في حالته تلك، فبدا عليه النفور وأبعده عن فمه:

- «لا.. كحوليات.. لا..»

قلت للساقي وأنا أتأمل ما صارت إليه الردهة.. سوف يحتاجون إلى شهر كي يعود للمكان رونقه القديم:

- «ما معنى هذا؟ يبدو لي أنكم تعرفون القصة تمامًا..»

قال في إنهاك:

- «ليس الجميع.. إنها تحدث كل عشرين عامًا لهذا لا يعرف الشباب الكثير عنها.. أنا نفسي أرى هذا للمرة الثانية في حياتي.. وفي كلّ مرّة ننسى الأمر حتى نفاجأ به من جديد إن منظرها يتغير.. أحيانًا هي مسنة وأحيانًا هي شابة.. المهم أن اسمها دائمًا هو (سارة)..»

قلت في خبث:

- «طبعًا (سارة) هذه احترقت في غرفتها بالفندق منذ مائة عام.. ولعلها انتحرت..»

نظر لي في دهشة وغمغم:

- «كيف عرفت..»

- «لأنني عبقري.. أكمل..»

كان الاستمتاع باديًا عليه. كل الكهول يجدون لذة لا تخفي في سرد هذه القصص التي لا يعرفها الشبان، وكلما بدا الانبهار على الوجوه كلما ازداد نشوة.. أردف:

- «منذ ذلك الحين تظهر (سارة) كل عشرين عامًا لتتخذ غرفة في الفندق.. غرفة مجاورة لتلك التي ماتت فيها، ثم تظهر لنزيل الغرفة.. وتتحول إلى شعلة حية.. تحرقه وتحرق الغرفة ثم تتوارى.. إنها ليلة معينة هي أسود ليلة تمر على الفندق ولحسن الحظ أنها لا تحدث كثيرًا..

«على أن (سارة) تتصرف كأي شبح يجيد عمله.. إنها تعطي إنذارًا قبل هذا بعدة أيام.. أولًا تنثني بعض الأجسام المعدنية في غرفتها والغرف المجاورة.. ثانيًا هي لا تكف عن طلب ماتشعل

به النار من جيرانها.. أعواد ثقاب شموع.. قداحات.. طبعًا لا يلاحظ أحد شيئًا ولا يربط بين الحادثين.. وسرعان ما تحدث المأساة..»

سألته في حيرة:

- «ولم تلاحظوا تلك الأجسام التي انثنت؟»

قال ببراءة:

- «طبعًا لم نلحظ شيئًا كهذا.. ولو لاحظناه لما ربط أحد بين الأمرين.. لا أحد يذكر هذه القصة أو يعاملها بجديّة مالم نضع مفكرة تذكر العاملين بعد عشرين عامًا بموعدها..»

نظرت إلى الكاهن الأخير المنهك وسألت:

- «هل تعتقد أنها رحلت؟»

قال الساقي الكهل:

- «هي لا ترحل.. سوف تنهض كالعنقاء من الرماد..»

بينما قال (هن - تشو - كان) من بين أسنانه:

- «أعتقد أنها تلاشت لقد تلقت كل طاقة (الكاي) المتوارية في داخلي..»

- «ولماذا حدث ثني المفاتيح في ذات اللحظة التي كان برنامج (جيلر) يقدم فيه على الشاشة؟»

قال (هن - تشو - كان) باسمًا:

- «أنت في غرفتك من وقت مبكر.. هل أنت متأكد من أنها انثنت لحظة البرنامج؟ ربما حدث هذا قبله أو بعده لكنك رأيتها وربطت بين الحادثين.. أعتقد أن مفاتيحك كانت مثنية منذ بدأت الأمسية..»

لا أذكر كم مرة أنقذ (هن - تشو - كان) حياتي فيها لكنه يفعل ذلك بلا توقف.. أعتقد أنني من المحظوظين القلائل الذين يحميهم أحد كهنة النافاراي..

على كل حال خرجت من هذه القصة بنتيجتين: الأولى هي أن طاقة (الكاي) قوة قاهرة لا بد أن أفهمها أكثر.. ثانيًا: (يوري جيلر) نصاب مهما بدا لنا العكس!

☆ ☆ ☆

خاتمة

كانت هذه هي القصة الثانية.. تحريك عن بعد اتضح أنه ليس كذلك..

لكننا لم ننته بعد من المحركين وقصصهم..

في الكتيب القادم لنا المزيد من اللقاءات معهم. لقد بحثت عن عنوان يناسب ذلك الكتيب فلم أجد إلا عنوانًا معقدًا سخيفًا ثقيلًا على اللسان.. غير معتاد.. متحذلقًا نوعا ما.. لا يخلو من الادعاء.. سمجًا.. مملًا.. كئيبًا.. غير موحٍ.. ركيكًا..

باختصار.. هو أفضل عنوان يناسب الكتيب القادم..

لنفترق الآن، وليكن لنا لقاء قريب مع (أسطورتهم)...

رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة

٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

المقـــدمة

تمهيـــــد

الوجه الأول: أنت لي

1

2

3

4

5

6

7

الوجه الثاني: كونداليني

1

2

3

4

5

6

خـاتمـــة

Notes

[1←] قدمته السينما المصرية في فيلم باسم (المجنونة)..

[2←]

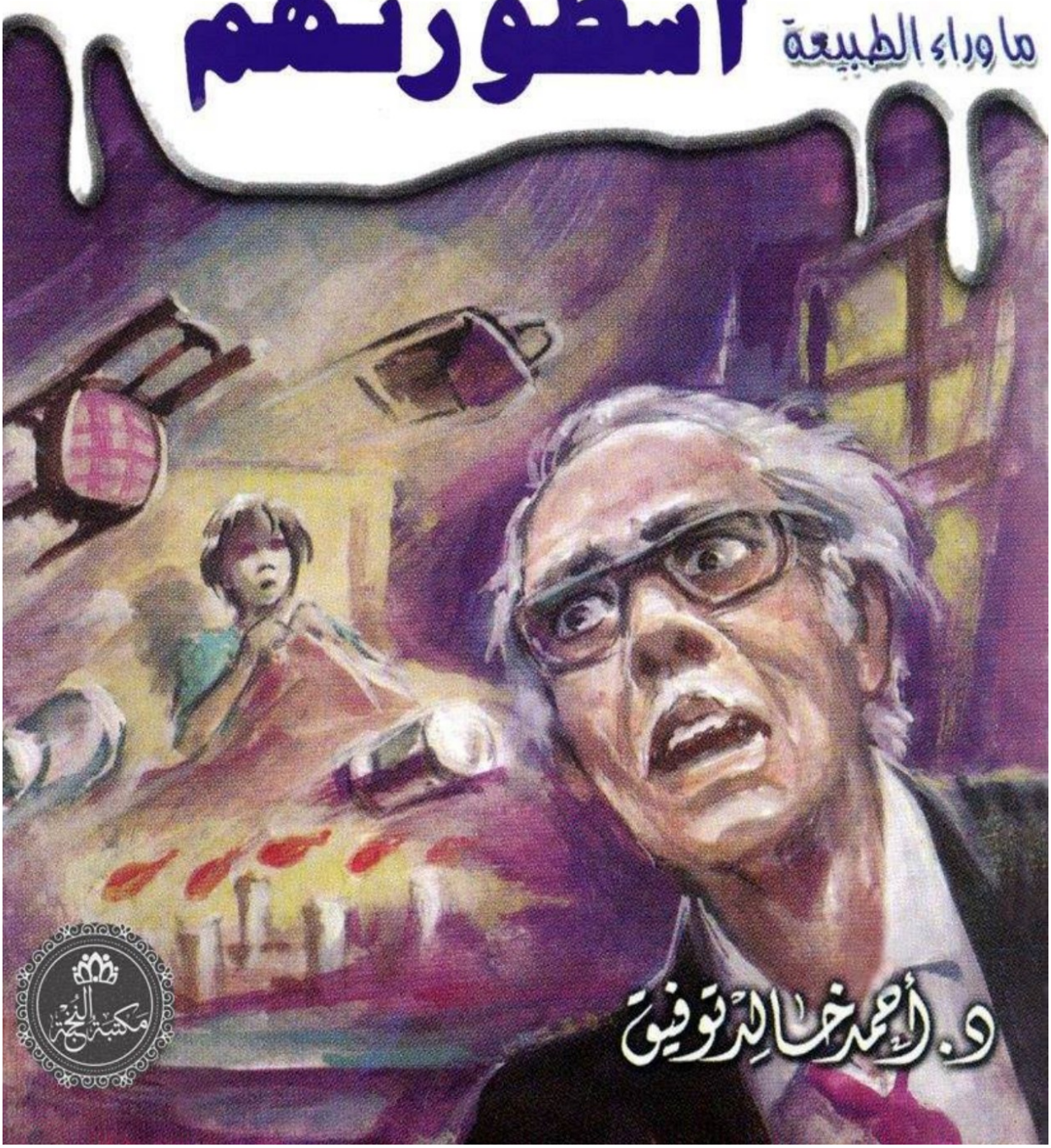
الموقف حدث فعلًا في أوائل السبعينات.. لـ (جيلر) بالمناسبة موقع إنترنت عملاق يعرض فيه مليون جنيه على من يرسل له فيلم فيديو يثنى فيه ملعقة..

روايات مصرية للجيب

64

ما وراء الطبيعة

أسطورتهم



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة النخبة

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



تيليكينيزيس: من اليونانية (تلي + كيزنس = حركة). الحركة الظاهرية للأجسام (بوساطة وسيط روحاني مثلاً) من دون تلامس أو أية وسيلة مادية أخرى.

قاموس وبستر الشامل - الطبعة السابعة

1

الشارع ده كنا ساكنين فيه زمان..

كل يوم يضيق زيادة عن ما كان..

أصبح الآن بعد ما كبرنا عليه..

زي بطن الأم مالناش فيه مكان..

أغنية قديمة لفريق المصريين

كلمات (صلاح جاهين)

☆ ☆ ☆

(فاتن) و(ممدوح) و(عاطف) يلعبون..

لقد انتهت أيام المدرسة، وهناك ذلك الشعور الساحر بأن الكون قرر أن يتجمل اليوم، وأن يعتذر عن فظاظته السابقة.. حقًّا لا توجد إمكانيات سخية للهو، لكن خيال الأطفال قادر على كل شيء.. هذه الصالة الكئيبة في بيت (ممدوح) والتي تغمرها الشمس الآتية من تلك النافذة ذات الزجاج المصنفر، لعبت مع الأطفال دور شاشة السينما التي شهدت كل شيء ممكن.. كم من يوم صارت فيه هذه الصالة بحرًا يعجّ بأسماك القرش، ثم تحولت بمعجزة ما إلى ميدان حرب تتناثر فيه أشلاء القتلى، ثم غدت بيتًا يلعبون فيه (عريس وعروس) حيث مائدة الطعام والأطباق وغرفة الضيوف، ثم صارت دغلًا تتوارى فيه الفهود خلف الأشجار..

كل شيء ممكن.. لا توجد قيود.. لا قواعد اللعبة..

فقط ينتهي كل شيء حينما تظهر القدمان الكبيرتان المتشققتان لأحد الكبار في خف أو حذاء أو حافيتين، وهو يجرهما جرًا إلى ساحة الحرب أو الدغل أو بيت العروسين، ليعلن أن على (فاتن) و(عاطف) أن يعودا لأن الغداء ينتظرهما..

تتوسل (فاتن) أن يتركوها بعض الوقت.. تريد أن تتناول غداءها هنا.. لكن صرامة أوامر الكبار لا تتزحزح.. دعك - بالطبع - من لحظات الخلاف بين أمها وأم (ممدوح)، حينما تقرر أم منهما أن جارتها ثرثارة كذوب مغرورة، وأن أمثالها يجب أن يجلدن بالسياط.. من ثم يصدر أمر حظر التجوال وتمر أيام عدة قبل أن تعود المياه لمجاريها..

رائحة صينية البطاطس داخل الفرن، وصوت الدجاج الذي يتشاجر على السطح، وتلك النملة العملاقة التي يطلقون عليها (حرامي الحلة) على مدخل الدار، ومذاق الفراولة (الشليك) في الطبق المعدني الذي جلبته لهم أم (ممدوح).. كل هذا العالم الثري من تفاصيل الحواس والذي أفلت منا نحن الكبار للأبد..

☆ ☆ ☆

الشارع ده أوله بساتين..

وآخره حيطة سد..

ليا فيه قصة غرام...

ما حكيتش عنها لأي حد..

من طرف واحد وكنت سعيد أوي..

بس حراس الشوارع حطوا للحدوتة حد...

☆ ☆ ☆

(فاتن) و(ممدوح) و(عاطف) يلعبون..

(عاطف) هو أصغرهم سنًا.. ونحن متفقون على أن الأطفال ساديون بطريقة مخيفة.. كل ما هو جميل أو رقيق يجب أن يعذب أو يحرق أو يدمّر أو يبدد.. ولما كان (عاطف) طفلًا بريئًا هشًا في الخامسة فإن أخته (فاتن) وصديقه (ممدوح) قررا أن يحيلا حياته إلى جحيم عن طريق المقالب والسخرية.. وكان هذا البائس لا يملك إلا أن يصرخ ويهرع إلى أم (ممدوح) في المطبخ ليشكو لها قسوة ابنها، أو يهرع إلى أمّه هو ليشكو لها قسوة (ممدوح) وأخته، فتكتفي المرأتان بأن تقول كل منهما وهي تكافح المخاط الذي يسيل من أنفها بفعل البصل:

- «لا تضايقا (عاطف) يا أولاد.. لو سمعت شكوى أخرى لمنعته من اللعب معكما!»

وهو عقاب فريد من نوعه لا يبدو أنه يؤذي أحدًا سوى (عاطف) لذا سرعان ما يقرر أن يصمت لدى المقلب التالي..

في هذا اليوم كانت (فاتن) في دارها تقرأ قصة مصورة لهما:

- «ونظر الساحر إلى المقعد.. وركز بصره بقوّة.. وهنا بدأ المقعد يرتفع.. ويرتفع.. ويرتفع..»

على صفحات المجلة كانت صورة جميلة بألوان مبهجة، الساحر ينظر إلى مقعد ويركز بصره بقوّة، فإذا بالمقعد يرتفع ويرتفع..

اتسعت عينا (عاطف) بذلك المزيج الذي لا تعرف إن كان رعبًا أم انبهارًا، والذي لا تعبر عنه إلا عينا طفل.. فقال (ممدوح):

- «هذا ليس خيالًا.. أبي يقول إنّه رأى هذا المشهد في أحد أندية الإسكندرية..»

قالت (فاتن) وهي تبتسم بخبث:

- «كل واحد منا له هذه القدرة.. هل هي لديك يا (عاطف)؟»

نظر لها (عاطف) حائرًا.. هو أو لا يفهم معنى كلمة (قدرة).. لكنه يخشى أن يسأل كي لا يسخرا منه.. هزّ رأسه أن نعم.. ما دام هذا الشيء لديهما فلابد أنه عنده..

نهضت (فاتن) مسرعة وهرعت تفتح باب الشقة، وقالت لـ (ممدوح):

- «لا تلحقا بي.. سأناديكما حين أكون مستعدة!»

لم يفهم (ممدوح) لكنه قرر أنها تعرف ما تفعله.. مع (فاتن) اترك نفسك تمامًا، فالفتاة ذكية واسعة الحيلة.. هكذا ظل مع (عاطف) يتظاهران بالقراءة..

- «تعاليا إلى السطح!»

هكذا جاء صوتها من نافذة المسقط..

لم ينتظر الصبيان حتى يفهما.. هرعا إلى باب الشقة وانسلا قبل أن تسمع الأم خطواتهما على الدرج..

السطح.. قطع القرميد الملقاة والمقاعد المهشمة وعش الدجاج التي تفوح منها رائحة الخبز المختمر.. رائحة ضوء الشمس (نعم لضوء الشمس في أنف الأطفال رائحة).. هوائي التلفزيون الصدئ وعالم سحري آخر يعشقونه جميعًا، لكن الكبار يضعون عليه ألف علامة تحذير.. لأن الأطفال لا يفعلون شيئًا سوى السقوط من أعلى أسطح البيوت، وهم يفعلون ذلك في ولع جنوني..

كانت (فاتن) تقف قرب السور.. وعلى السور المكون من قطع القرميد تراصت عدة علب طعام فارغة.. ربما كانت تحوي فولًا أو سلامون.. لا أحد يعرف أو يذكر...

كانت العلب ستًّا وكانت متراصة بتلك الطريقة التي يتدربون بها على التصويب في أفلام رعاة البقر...

قالت (فاتن) وهي تجلس على الأرض:

- «جرب يا (عاطف)..»

سألها وهو يشعر بالخجل من غباوته:

- «أجرب ماذا؟»

- «جرب أن تحركها بعقلك..»

بدت عليه الحيرة:

- «لكني لا أعرف كيف!»

غمزة عابرة نحو (ممدوح) شريكها في كل الجرائم، ثم قالت لأخيها الساذج:

- «كلنا يعرف كيف.. ركز تفكيرك وحرك العلبة.. هلمّ! يجب أن تتعلم هذا! هذا سهل!»

هكذا جلس الصغير بضمير نقى يحاول أن يفعل كما قالا ركز تفكيره أكثر وهو ينظر إلى العلب ركز وركز.. كل ما كان يبتغيه هو ألا ينال سخريتهما.. هذان الكبيران الناضجان يحركان الأشياء بعقليهما وهو لا.. هذه فضيحة...

ماذا تنتويه (فاتن)؟ كذا فكر (ممدوح).. ثم نظر إليها حيث جلست على الأرض.. هناك شيء في قبضتها اليمنى المطبقة.. دقق النظر أكثر ثم دنا ليقف جوارها..

نعم.. ذلك الخيط الرفيع الذي يخرج من قبضتها.. يتلوي كثعبان شفاف على الأرض، ثم يغير اتجاهه ليلتف حول مسمار في السور ويغيب خارجه.. يستطيع أن يراه بعين الخيال يتدلى في الخارج مسافة لا بأس بها، ثم يرتفع حول قاعدة إحدى العلب بحيث لا يراه أحدهم..

ابتسم وكتم ضحكته.. هذه هي (فاتن) الخبيثة التي يعرفها..

- «هلمّ يا (عاطف)! ركز يا (عاطف)!»..

وفي اللحظة التالية رآها (ممدوح) بطرف عينه تجذب الخيط.. وطارت العلبة لتسقط في الشارع..

أطلق (ممدوح) صرخة فرح وركض ليحتضن (عاطف):

- «فعلتها يا (عاطف)! فعلتها!!»

أمّا (عاطف) فكان يضحك ضحكة بلهاء عاجزًا عن تصديق ما فعله.. لكن ماتراه بعينيك لا يمكن أن يكون خطأ.. (فاتن) ظلت تنظر إلى العلب الثابتة وقد فتحت فمها كأنما هي تريد أن تقول شيئًا..

هتف (عاطف) وهو يتواثب على السطح:

- «أنا فعلتها! سأنزل لأخبر ماما!!»

وهو لم يكن واثقًا أي شيء فعله بالضبط.. هو رأى الانبهار في عين (ممدوح) فعرف أنه أنجز شيئًا عظيمًا..

وجرى إلى الدرج قبل أن يتمكّن أحد من منعه.. فالمفترض أنهم لم يفارقوا البيت قط..

بعد رحيله ساد الصمت ثم هتف (ممدوح) وهو يضرب على معصم (فاتن) فيصدر سوارها صوت (شخللة):

- «أنت بارعة حقًّا! لقد خدعناه!»

ظلت شاخصة البصر ترنو إلى العلب ثم قالت:

- «تلك العلبة التي أسقطها..»

- «ما بالها؟»

- «لم تكن ذات العلبة التي ربطتها أنا!!»

وفي يدها رأى الخيط المشدود..

أردفت بذات النظرة الساهمة:

- «طريقتي كانت فاشلة.. لقد جذبت الخيط فلم يسقط شيء!!»

☆ ☆ ☆

2

الشوارع حواديت..

حوداية الحب فيها..

وحوداية عفاريت

(واسمعي يا حلوة لما أضحكك)..

☆ ☆ ☆

(فاتن) و(ممدوح) و(عاطف) لم يعودوا كما كانوا..

بعبارة أدق تم استبعاد (ممدوح) من عالمهما لأن (فاتن) كبرت، ولأن (ممدوح) صار صوته خشنًا يذكرك بصرير حذائك على الباركيه.. نفس ما حدث لي في بيت خالي عندما لم يعد من حقي أن أعتبر (عبير) و(إلهام) صديقين طويلي الشعر.. وكنت أنا في ذلك الوقت غارقًا حتى الأذنين في حب (إلهام) - سيدة الأقمار السبعة - من بعيد بعدما انتهت قصتي مع (شيراز) بمفاجأة مخيفة.. حكيت لكم قصة البيت عام 1995 ولن أحكيها ثانية فلا تقلقوا..

كان بيتنا - بيت خالي - يقع في الشارع المجاور على بعد أمتار لو افترضنا أنك ستقفز فوق البيوت كالرجل الوطواط، أما مع قدرات البشر المحدودة فهو يقع على بعد سبع دقائق تصل فيها لنهاية الشارع ثم تدور عائدًا..

كنت أعرف (فاتن) وأخاها الأصغر (عاطف)، ولعبت مع (ممدوح) عدة مرات في الساحة الخالية في نهاية شارعهم.. وكان حذاؤه ثقيلًا وقدمه أثقل حتى تذكرك ركلته بركلات البغال..

بالطبع لم تصل صداقتنا إلى معرفة تفاصيل صغيرة كقصة مغامرة تحريك العلبة هذه.. لم أعرفها إلا بعد فترة طويلة..

لم أعرف أن (فاتن) قالت لـ (ممدوح):

- «لن نسمح لـ (عاطف) بأن يتفوق علينا بهذه الموهبة.. دعنا نقنعه بأنه لم يحرك شيئًا..»

نظر لها في رعب.. لم يتخيل أنها بهذه القسوة..

قالت في إصرار:

- «لن أسمح لهذا الصبي بأن يتباهي علينا.. اسمع.. لقد صعدنا هنا كي نسخر منه فلم يتغير شيء.. سننزل تحت ونسخر منه!»

نعم كانت بهذه القسوة فعلًا، ولعلها كانت تستخدم جينات أنثويّة انتقلت لها منذ زمن سحيق.. من عهد (سالومي Salome) التي رقصت حول رأس (يوحنا المعمدان John the Baptist) وشجرة الدر التي أعدمت زوجها بالقباقيب، (وسميراميس) التي جعلت زوجها يتنازل لها عن العرش ثم قطعت رأسه...

هكذا نزل الصبيان إلى الشقة ليلحقا بالصغير الذي كان واقفًا على باب المطبخ يريد أن يكلم أمّه.. وسرعان ما جذباه إلى الخارج وهما يوشكان على الانفجار ضحكًا...

قالت له (فاتن) ضاحكة:

- «يا لك من أحمق! لقد خدعناك تمامًا!!»

وفتحت يدها لتريه أنها تلف الحبل حول كفها...

نظر لها في غباء وقال:

- «أنا أسقطت العلبة من دون أن ألمسها!»

- «بل أنا التي فعلت هذا.. كنا نمازحك!!»

ونظر لها غير مصدق ونظر لـ (ممدوح) فرأى أنهما موشكان على فقدان الوعي من فرط الضحك.. كلا.. ليست الحياة بهذه القسوة ولا يجب أن تكون..

وفي غرفته المشتركة مع (فاتن) وقف مسلطًا عينيه على بعض اللعب وحاول أن... حاول أن حاول أن... يحركها... لا جدوى! وهذا شيء يعرفه كل المحركين طبعًا بدءًا بالنصاب (جيلر) الذي تحدثنا عنه سابقًا وانتهاء بالحقيقيين منهم.. هذه الموهبة غير متاحة بضغطة زر.. أحيانًا تخرج وأحيانًا لا.. إنها عنيدة كقط علّمته حركة بهلوانية ويرفض أن يؤديها إلا حينما يريد ذلك.. لكن بالنسبة للطفل الغرير كان الجواب واضحًا.. لقد خدعاه وما أكثر ما خدعاه؟

خيبة أمل عابرة ثم نسي كل هذا بذاكرة الأطفال التي لا تحتفظ بأي حدث أكثر من خمس دقائق، وسرعان ما انضم إليهما يبحث عن لعبة جديدة..

وقالت (فاتن) لـ (ممدوح):

- «الواقع أننا أحمقان.. مرة واحدة لا تكفي للحكم.. ربما - بعد كل شيء - هو لا يملك هذه الموهبة.. لقد أحسنَّا التصرف!»..

عرفت هذا كله فيما بعد....

☆ ☆ ☆

الشارع ده رحنا فيه المدرسة..

إللى باقي منه باقي..

وإللي موش باقي اتنسى..

كنسوه الكناسين بالمكنسة..

بدموع لحظة أسى..

أنا برضه كمان نسيت..

☆ ☆ ☆

في الصباح كنا نذهب إلى المدرسة.. الشارع العجوز الذي حفظ خطواتنا ألف مرة..

مهما كان رأيك في المدرسة فلاشيء يوحي بالسلام والاستقرار أكثر من منظر تلاميذ ذاهبين في الصباح إلى المدرسة.. لوحة اسمها (الغد)..

على هذه الناصية ينتظرنا (ممدوح).. بينما يكون (عماد) و(مدحت) معي.. (عماد) يمسك بيد (عبير) الصغيرة المشاكسة.. بعد قليل تظهر (فاتن) ببذلة الإعدادي الكحلية من بعيد.. لا تقول شيئًا لكنّها تطلق سراح (عاطف) أخاها الصغير ليجري لاحقًا بـ (ممدوح).. يستدير الأولاد مبتعدين بينما أتوقف لحظة متظاهرًا بأن رباط حذائي مفكوك.. الحقيقة أنني أنحني لأفكه وأربطه ثانية إلى أن تظهر (إلهام) قادمة من الشارع المجاور.. بشعرها القصير (آلا جارسون) الذي يترجمه العقاد ب(الغلامة) ويترجمه طه حسين بـ (المسترجلة).. نظرة عابرة تشعرني أن الكون بخير والأفلاك بحالتها ثم.. أستدير لألحق بالأولاد، بينما تتأبط (إلهام) ذراع (فاتن) وترحلان نحو عالمهما القصي البعيد.. مدرسة البنات حيث تجلس صانعات الأحلام معًا، بينما نحن هنا في مدرسة الأولاد نضرب بعضنا حتى الموت، ونتمرغ في الرمال، ونتبادل الشتائم طيلة الوقت..

في هذا الصباح أدركت أن (فاتن) ليست على ما يرام.. وجهها يبدو كبطن ضفدع تم وضعه فوق المقلاة.. هذه الفتاة لم تنم على الإطلاق.

لم أكن أعرف أنها على هذا الحال منذ شهر.. والسبب أن أخاها الصغير (عاطف) مازال يشاركها حجرتها.. و(عاطف) ينام مبكرًا بينما تظل هي ساهرة تراقب أشياء غريبة تحدث..

الدمى التي تدير رأسها حينما لا تنظر نحوها..

هل هذا شيء صحي؟

المقاعد التي تزحف على أرض الغرفة ببطء شديد لكن بما يكفي لإحداث صوت.. هل هذا أنسب الأجواء للنوم؟

وماذا عن الأقلام التي تتدحرج من على المكتب في الرابعة صباحًا؟

وماذا عن.....

الحقيقة أنها كانت تعيش أسود ليالي حياتها ومعها حق..

☆ ☆ ☆

3

الشارع ده شفتك وانتي ماشية فيه..

لابسة جينز وبلوزة وردي وعاملة ديل حصان وجيه...

اتجاهك في اتجاهي مشينا فيه..

والشارع ده ضباب وتيه..

بس لازم نستميت!

☆ ☆ ☆

بعد مرور بضع ليال قررت أن تخبر أمها..

الأم لم تصدق حرفًا بالطبع.. لكنّها قررت أن تدخل الغرفة عدة مرات في تلك الليلة، ولم تكن متأكدة مما إذا كانت (فاتن) نائمة أم لا، لكنّها كانت متأكدة من (عاطف).. وقد وقفت بعض الوقت تتشمم الهواء وتنظر للأشياء ثم غادرت الحجرة..

بعد ساعة أخرى شعرت بقلق فنهضت..

وعلى باب الحجرة سمعت ذلك الصرير المميز لشخص يمشي على الأرض الخشبية إنها (فاتن) بلا شك ذاهبة إلى الحمام.. انتظرت ثم فتحت الباب ودخلت.. الصغيران نائمان كما هما.. لكن...

من أين يأتي هذا الصوت بالضبط؟

كان المقعد الخشبي الذي تدرس عليه (فاتن) يمارس عملًا غريبًا بعض الشيء.. كان يتسكع! بكل استهتار ووقاحة المتسكعين يتواثب على رجل واحدة.. قليلة هي المقاعد قليلة الحياء لهذا تعتبر رؤية أحدها شيئًا مرعبًا...

طبعًا ما تراه الأم ليس سوى ظاهرة (بولترجايشت).. والتي يعتقد العلماء أنها نوع من التحريك عن بعد يتم لا إراديًا، لكن من أين لها بـ (رفعت إسماعيل) ليخبرها بهذا؟ إنّه الآن في داره مجرد مراهق تعس ينام حالما بعلقة من مدرس من الجغرافيا غدًا؛ لأنّه لم يرسم خارطة آسيا في الكراس..

هكذا أطلقت الأم صرخة لا بأس بها أبدًا وأضاعت الضوء..

وفي اللحظة التالية استقر المقعد في براءة على أرجله الأربع..

ونظرت الأم إلى الفراش لتصاب بالهلع من جديد..

كانت (فاتن) مستيقظة مفتوحة العينين، وقد جذبت الملاءة إلى ما أسفل عينيها بالضبط.. وقالت همسًا:

- «هل رأيت؟ هل تصدقين الآن؟»

ويظهر الأب كعادة الآباء.. جسمًا عملاقًا في منامة من الكستور المخطط بالطول، وشعرًا منفوشًا ووجهًا معكر المزاج.. جبلًا من المسئولية والحماية.. والغيظ!

- «هل جننت حتى تصرخي بهذا الشكل؟»

تكلمت الأنثيان في آن واحد:

- «المقعد يتحرك من دون أن يلمسه أحد!»

هرش الأب رأسه مرّتين ثم أعاد السؤال في تؤدة:

- «المقعد ماذا؟»

- «يتحرك!»

كان يعرف أن زوجته هستيرية لكن ليس إلى هذا الحد، أضف لهذا أن (فاتن) كانت ثابتة الجنان إلى حد مخيف إلى درجة أنها كانت تذكره بأمه هو شخصيًا..

هكذا طلب من الأم أن تتلو بعض آيات القرآن، وأن تبقي الضوء طيلة الليل.. وقدر أنّ هذا لم يحدث على الأرجح، وإن حدث فلن يتكرر..

لكن الأمر تكرر في الليالي التالية، واضطر الأب إلى تغيير غرفة الأطفال.. كلا لم تكن حالته الماديّة تسمح بترك البيت طبعًا.. على أن الأشياء المتحركة اقتفت أثر الطفلين إلى الغرفة الجديدة التي كانت مخصصة لاستقبال الضيوف.. ويبدو أنه جلب أكثر من شيخ تكلموا عن جني يكمن في الغرفة ويريد النيل من الأطفال.. لا بد أن الكثير من النمل الأحمر والهداهد اليتيمة قد لقت حتفها من أجل هذا، ولا بد أن أكثر من حجاب كتب بدم الغزال قد استعمل.. طبعًا بدون نتائج ثورية..

على كل حال انتهت المشكلة خلال عام.. ونسيها الجميع..

☆ ☆ ☆

لم أدخل طرفًا في القصة إلا في يوم 12 إبريل..

كان هذا عيد ميلاد (عاطف).. إن بلوغ الطفل تسعة أعوام لحدث بالغ الأهميّة حقًّا، وكما تقول أغنية الأطفال الأجنبية: «أنا لست حتى في الرابعة.. بل إنني أكبر من أربعة أعوام ونصف.. أنا في الخامسة من عمري!» هكذا كان (عاطف) يشعر بفخر بالغ باعتباره أول من حقق هذا الإنجاز في التاريخ..

كان أبوه واضحًا في أنه لن يسمح إلا لرفاقه في الصف بالحضور، لكنه أصر على أن يحضر الأولاد الأكبر (عماد) و(مدحت) و(رفعت) و(ممدوح).. إنّه يذهب معهم إلى المدرسة يوميًا ويحبهم.. دعك من فخر الأطفال بأنهم يعرفون من هو أكبر سنًا..

هكذا صارت تعليمات الأب أكثر وضوحًا.. (فاتن) لن تشارك في الحفل.. لو اقتصر الأمر على زملاء (عاطف) الأطفال فلا مشكلة... كان يخاف الفتيان خاصة المراهقين منهم.. هؤلاء الأوغاد بشواربهم غير النامية والحبوب في وجوههم وأصواتهم الشهوانيّة الخشنة.. إنهم شياطين يدارون ذيولهم في سراويلهم، ولو أغمضت عينك لحظة لسبَّل أحدهم عينيه وتظاهر بأنه يحبّ (فاتن)، وعندها يمتلئ درج الفتاة بالمراسلات العاطفيّة وترسب في الدراسة ثم تنحرف وتعاقر الخمر.. كان من الآباء الذين يعتبرون الابنة خطرًا داهمًا إلى أن تتزوج..

هكذا تم ترتيب الحفل.. سيكون حفلًا للذكور فقط..

وبدأنا الوصول. لم أكن من الطبقة التي تقيم أعياد ميلاد، ولم أكن قد حضرت الكثير منها، وقد أعطاني خالي بعض المال لأبتاع كرة صغيرة لـ (عاطف) حتى لا أدخل خالي الوفاض وسط أولاده.. كنت فقيرًا كالفقر نفسه لكني - أشهد - لم أشعر بذلك بشكل جدي قط بسبب خالي..

(عبير) انسحبت إلى الداخل لتلقى (فاتن) و(إلهام) والأم..

وتبادلت نظرة مع (ممدوح).. نحن نفهم بعضنا.. كلانا يوجد جزء من قلبه بالداخل.. (إلهام) بالنسبة لي و(فاتن) بالنسبة له..

وجاء وقت إشعال الشموع.. تسع شموع تنتظر أن نشعلها..

جاء والد (عاطف) بعلبة ثقاب.. ثم أشعل عودًا و...

أمام عيوننا المذهولة راحت الشعلة تنتقل من الشمعة الأولى.. إلى الثانية.. فالثالثة...

لم نقل شيئًا...

لم يستطع أحدنا أن يفتح فمه...

المشهد يفوق أية قدرة على الكلام...

لو شئت أن أقرب لك المشهد فتخيل رجلًا خفيًّا يمسك بعود ثقاب خفي ويشعل به شمعة تلو الأخرى...

وحين اشتعلت الشموع التسع شهق الجميع في رعب...

- «بسم الله الرحمن الرحيم!!»

- «هذا سحر!!»

هنا قال الأب بلهجة عملية، عرفت فيما بعد أنها الطريقة التي قرر بها أن يتحاشى الذعر وإفساد الحفل وربما الفضيحة كذلك:

- «هذه لعبة سحرية.. أنا وحدي أعرف سرها! ربما أعلمها لكم فيما بعد.. والآن هلا نفخت الشموع وأنهيت هذا السخف يا (عاطف)؟»

وبدا في عبارته الأخيرة نفاد صبر يوشك على أن يستحيل صراخًا...

ونفخ (عاطف) الشموع في حماس فساد الظلام.. هنا أضيئت الأنوار.. كل هذا جميل..

لكن من فعلها بينما نحن جميعًا هنا والنسوة في غرفة أخرى ليس فيها مفتاح النور؟

☆ ☆ ☆

4

الشارع ده أوله بساتين..

وآخره حيطة سد..

ليا فيه قصة غرام..

ما حكيتش عنها لأي حد..

من طرف واحد وكنت سعيد أوي..

بس حراس الشوارع حطوا للحدوتة حد...

☆ ☆ ☆

يكبر الجميع..

الشوارع تضيق وتكفّ عن الترحيب بنا لأننا صرنا أضخم مما تتسع له..

(رفعت) النحيل المرتبك ذو العوينات صار (رفعت) النحيل العصبي ذا العوينات.. البنات تزوجن.. الأولاد كبروا وتزوجوا.. (فاتن) تزوجت (ممدوح).. هذه من قصص الحب القليلة التي تنتهي بالزواج، وهي قصة حب دامت أعوامًا طويلة.. إن بيتهما عند الناصية التالية بالمناسبة..

أنا لم أتزوج (إلهام) طبعًا.. انتقلت للقاهرة ودرست الطب ثم سافرت إلى إنجلترا، ثم عرفت الحب الأخير في حياتي.. ولم أتزوجه أيضًا..

(عاطف) ما زال يعيش مع الأسرة، وكان حتّى وقتٍ قريب طالبًا في كلية الحقوق..

هل أحب (عاطف) (عبير) ابنة خالي؟ لا يا أخي.. إن لك استنتاجات غريبة! نحن نتحدث عن بشر لا عن قطع دومينو يتم رصها بإتقان.. هذه تناسب هذا وهذا يلائم هذه.. طبعًا لم يحدث هذا وأكون شاكرًا لو كففت عن الاستنتاجات العبقرية..

(عاطف) شاب مرح مليء بالحياة.. (عاطف) يذهب مع رفاقه إلى الإسكندرية.. (عاطف) يتوغل في البحر بعوامة.. (عاطف) لم يعد لدى حلول الليل...

كشافات.. نداء.. رجال يصرخون على الشط (عاطف).. كانت معه عوامة لكن الموج جرفها بعيدًا فلم يصل إليها..

سرادق عزاء.. قرآن يُتلى.. ندبة لن تنسى في قلب أم وأب فقدا صغيرهما.. سأوفر عليك هذه المشاهد القاسية.. أنت تعرف ما حدث وما قيل..

عرفت هذا فيما بعد..

لم أكن في مصر وقتها، ولم يهتم أحد بإبلاغي لدى عودتي.. هذه من اللحظات التي تشعر فيها بأن المسافة بين القاهرة والمنصورة أبعد من المسافة بين سيبيريا وألاسكا..

ثم كنت في المنصورة وعرفت بالخبر.. لم تكن علاقتي بالأسرة حميمة إلى هذا الحد؛ لذا تطوع (عماد) ابن خالي بأن يصحبني إلى هناك.. لا أذكر طبعًا عمري وقتها لكني كنت في سن النضج.. لم يكن ذلك الشيخ المخيف الذي يكلمكم الآن قد وجد بعد..

اجتزنا من جديد الشوارع التي كانت عالمي الحقيقي يومًا ما، والتي أحفظ كل حجر فيها وكل علامة طبشور على جدرانها.. من قال إن هذا الشارع جماد؟ إنِّه أكثر حياة مني أنا.. هذه الناصية التي كنا نقف عندها بانتظار التجمع للمدرسة.. هذه الناصية كنت أبتاع شطائر الطعمية منها.. هذا البائع العجوز مازال حيًّا؟ لم يكن يبصق بهذه الكثرة في تلك الأيام وإلا لما أدمنت شطائره..

لكن ما لم أستطع فهمه هو: لماذا كانت هذه الأماكن متسعة في الماضي ثم ضاقت؟

☆ ☆ ☆

الشارع ده كنا ساكنين فيه زمان..

كل يوم يضيق زيادة عن ما كان..

أصبح الآن بعد ما كبرنا عليه..

زي بطن الأم مالناش فيه مكان..

☆ ☆ ☆

كانت جلسة متحفظة طبعًا لم يتم ذكر حرف فيها عن الفقيد..

لكنه كان مخيّمًا على المكان، وكان الموقف مفهومًا.. عزاء بلا عزاء.. وعلى سبيل التسرية بدأ الكلام عن (فاتن) وزوجها الذي كان صديقي..

في النهاية قال لي الأب:

- «(فاتن) ليست على ما يرام.. لا أعرف إن كنت أثقل عليك يا دكتور لكن أرى أن تمر عليها.. إنها تعيش عند الناصية التالية.. كان هذا البيت ملك أهل (ممدوح) وقد حجزوا له شقّة فيه.. مر عليها واعتبر أنّ هذه ضمن تباريك الزواج.. فأنت لم تزرهما في بيتهما قط..»

كنت أشعر بغيظ لأن ظروفي لا تسمح.. أريد العودة مبكرًا إلى القاهرة ولا أطيق سماع حرف عن الإسهال الذي يحدث بعد التهام الجوافة، لكنه لا يحدث بعد التهام التين الشوكي..

لم أستطع التنصل وقد عرض (عماد) في كرم أن يرافقني إلى هناك..

هكذا أنهيت الجلسة وأعتقد أنني لو رأيت نفسي في المرآة لرأيت سحابة دخان أسود تخرج من رأسي كما القصص المصورة..

بعد خمس دقائق كنا نقرع باب (فاتن)....

كان (ممدوح) قد تلقى مكالمة من الأب على ما يبدو يخبره بقدومنا.. وقد خرج لنا وعانقني بحرارة لا أعتقد أن علاقتنا كانت تسمح بها.. ثم دعانا إلى الداخل..

شقّة ضيقة حارة.. إن عش الحب يبدو غريبًا بعض الشيء هذه الأيام.. وأدركت أنّ هناك الكثير من البونبون اللزج الذي يلتصق بأسنانك فتعجز عن فتح فمك.. ومياه غازية ساخنة و.. و....

لم يخيب الرجل ظني.. كل شيء كان كما توقعته وألعن، ثم ظهرت سيدة الدار لترحب بنا.. إنها (فاتن) التي فتنت (ممدوح) منذ كان طفلًا.. لم تتحول إلى فيل آدمي مثل (إلهام).. أعتقد أنها مازالت تحتفظ ببعض الجمال، لكنّها مسيطرة بشكل كاسح.. قليل من الرجال يمكن أن يتزوج (الفوهرر) ذاته لكن (ممدوح) فعل.. وطبعًا كانت تلبس الأسود لكن لفظة (موت) لم ترد في المحادثة...

- «يؤسفني أن أبي أصر على أن يتعبك..»

- «نعم..»

قلتها بلباقتي المعهودة.. وهنا قال الزوج وهو يأخذ (عماد) إلى الداخل:

- «سوف أخذ (عماد) معي لتتمكن هي من الكلام بحرية.. خذ راحتك.. إنها أختك..»

أختي؟ لو كانت هذه أختي لكنت في القبر منذ سنوات.. لكني كنت أمارس دور (جعلوه فانجعل) الشهير، أو كأنني الكاهن (سطيح بن ربيعة) الذي حكت عنه أساطير العرب.. لم يكن في جسمه عظام فكانوا يطوونه كما الثوب، ويحملونه من موضع لآخر.. ليست هذه أسطورة إلى هذا الحد..

قلت لها:

- «بخصوص الإسهال الذي يحدث بعد التهام الجوافة، لكنه لا يحدث بعد التهام التين الشوكي.. كنت أقول...»

- «عفوًا.. عم تتكلم؟»

- «لا شيء.. نوع من الكلام مع نفسي..»

جلست واضعة ساقًا على ساق وقالت شاردة:

- «ليست شكواي طبية.. الموضوع يا دكتور (رفعت) أنك تفهم هذه الأمور..»

- «أية أمور؟»

- «تلك الأمور.. الأشياء التي تتحرك وما إلى هذا.. (عماد) و(عبير) يحكيان عنك..»

آه... فهمت.. لم أكن صائد الأساطير المعروف وقتها لكن بعض الناس سمعوا عني.. ولا بد أنها سمعت ثرثرة (عماد) و(مدحت) بصددي...

قالت دون أن تنظر لي:

- «القصة التي لا تعرفها يا دكتور هي أن (عاطف) رحمه الله كان يملك موهبة.. هل تذكر النار التي طارت من شمعة لأخرى في يوم عيد ميلاده؟»

- «يصعب نسيان هذا.. والضوء الذي فتح من تلقاء نفسه..»

- «كان هو المسئول عن هذا.. ولكن لا بد أن أحكي لك كل شيء..»

☆ ☆ ☆

هكذا حكت لي القصة كلها.. أنت سمعتها لهذا لن أعيد سردها عليك.. أرجو فقط أن تمنحني بعض الوقت لأعرف ما تعرفه أنت.. هذه مشكلة دائمة.. الساعة الخامسة أنت لا تعرف القصة الساعة الخامسة والربع أنت تعرفها ولا تطيق أن يسمعها أحد أمامك لأنهّا صارت مملة!

في النهاية قالت:

- «ما رأيك؟»

قلت لها:

- «أعتقد أنك تعرفين رأيي.. هذه موهبة (تليكينيزيس) لا شك فيها إلا أنّ البائس عاش ومات دون أن يعرف أنها كانت عنده.. كانت تحاول الخروج باستمرار.. الأشياء التي كانت تتحرك في

الغرفة أثناء نومه مع صوت الدق rappings.. هذا نوع من التحريك عن بعد يتم من دون إرادتنا ويعتقد الناس دومًا أنه من فعل أشباح (بولترجايشت).. لكني أرجح أنها موهبته وقد أعلنت عن نفسها.. لكنك حرصت على خنقها..»

قالت وهي تنقل ساقًا بدل الأولى:

- «لقد بذلت كل جهدي كي أمنعه من إعلانها.. كانت تحدث بشكل غير إرادي وبلا ترتيب سابق منه.. بعد قصة العلب تلك تكرر الأمر مرّتين فكنت أقنعه أنها مصادفة.. في البداية كان هذا بدافع الغيرة ثم كبرت فصرت أمنعه حتى لا يصير شاذًّا وسط الناس.. وفي كلّ مرّة أجد له تفسيرًا علميًا.. أي تفسير ماعدا أنه يملك أية موهبة.. لقد خنقتها خنقًا وجعلته يشعر بأن من السخف أن يجرب..»

هذا طبيعي.. لا بد لهذه السيدة من رجل تقهره قهرًا سواء كان أخاها أو زوجها أو ابنها.. أو أنا لو طال الأمر..

قلت لها:

- «حسن.. لكن - اسمحي لي بهذا - المشكلة انتهت الآن.. لماذا تتذكرين هذا؟»

أخذت شهيقًا عميقًا.. هي من الناس الذين ينظرون للسقف وتبيض عيونهم حتى يتنهدون، وقالت:

- «منذ توفي وكل شيء يهتز من حولي.. كل شيء يتحرك.. أعتقد أنه قد عرف الحقيقة.. إنّه يريد الانتقام مني...»

- «هل تتحدثين عن أن شبح أخيك يطاردك؟»

قالت في صخر:

- «سمه شبحًا.. جنيًا.. قوى خفية.. عفريتًا أزرق.. المهم أنه يطاردني وأنني في طريقي إلى الجنون..»

☆ ☆ ☆

5

قالت لي وهي تضع صينية عليها قدح قهوة:

- «لقد خرج (ممدوح) و(عماد) لشراء سجائر لكنهما عائدان حالًا..»

لكنهما سيتأخران.. كنت أعرف أنهما سيتأخران.. الزوج يريد الفرار بعض الوقت من هذا الهراء..

في هذه اللحظة تحرك الكوب على حافة المنضدة..

تحرك حركة ملليمترية.. يمكن لطريقة التصوير المسماة Time lapse أن تلتقط حركات كهذه.. لكني رأيتها ورأتها هي كذلك فأشارت بلا كلام..

بعد دقيقة صمت بدا واضحًا أن الكوب صار عند طرف المنضدة.. مدت يدها وأعادته لمكانه..

قالت وعيناها متسعتان:

- «هل ترى؟ هذه رسالة من العالم الآخر.. أمس تحرك مقعد الزينة.. منذ أسبوع أغلق باب الحمام.. كل شيء أعرفه يتحرك.. وقد بدأ هذا بعد وفاته..»

كان الأمر محيّرًا.. حقًّا لا أعرف كيف أتصرف ولا بماذا أنصحها..

- «ماما! اللعبة فوق خزانة الثياب!»

استدرت لأرى مصدر هذا الصوت.. ما دام صوت طفل فهو طفل، وما دام يناديها (ماما) فهو ابنها.. إن استنتاجاتي عبقرية كما ترى..

قالت له في حزم:

- «تعال يا (منصور) سلم على عمك..»

(منصور)؟ اسم غريب لطفل.. ثم فطنت إلى الأمر فاستدرت أسألها:

- «هذا اسم أبيك..»

هزت رأسها في فخر.. مع امرأة مسيطرة كهذه لا بد أن يحمل الطفل الأول اسم أبيها لا اسم أبي زوجها، حتى إن كان الاسم كبيرًا.. يخيّل إلى أن أي (منصور) قابلته لم يكن طفلًا في صغره..

كان الصبي جميلًا نظيفًا وإن بدا بعض القمع في عينيه.. عينيه اللتين فيهما ذكاء لا شك فيه..

صافحني في شجاعة وبساطة فسألته ملاطفًا:

- «من وضع اللعبة فوق خزانتك؟»

ابتسم بمعنى أنه لا يعرف فقالت لي (فاتن) في عصبية:

- «هذه الحوادث صارت معتادة.. أشياء ناقصة تجدها في آخر موضع يخطر لك.. إن (منصور) مولع بالمقالب لكنه لا يقدر على وضع لعبة هناك..»

انعقدت صداقة سريعة بيني وبين الطفل، وهو شيء عجيب.. بل إنّه جذبني من يدي ليريني حجرته فنهضت معه بينما بخار الغيظ الأسود يخرج من أمّه.. ألقيت على الغرفة الصغيرة نظرة سريعة مجاملة ثم عدت لمكاني الذي ينبغي لي في الصالون..

احتضنت الطفل في حرارة.. وقلت لها:

- «سأخرج معه بعض الوقت.. سأبتاع له شيئًا من الشارع..»

بدا عليها الشك.. لا يبدو أنني من الطراز اللطيف مع الأطفال وهي حقيقة.. أنت تعرف تلك العداوة المزمنة بيني وبينهم.. لكني كنت بحاجة إلى الانفراد بالطفل بعض الوقت..

قالت في جفاء:

- «ليكن.. لا تضايق عمو يا (منصور)..»

وهي عبارة تسهل ترجمتها إلى: لو حدث لابني خدش لانتزعت عينيك من محجريهما!

هكذا أخذت الصبي اللطيف وغادرنا البيت..

☆ ☆ ☆

محملًا بالشيكولاتة والبسكويت في عصر ما قبل اختراع تلك الأكياس المليئة بأشياء مخيفة والتي يحملها كل الأطفال طيلة الوقت، هرع (منصور) ليرى أمّه ما ابتعته له..

قلت لها باسمًا متظاهرًا باللطف:

- «إنّه نفس البقال العجوز الذي يضع زيرًا كبيرًا جوار المحل.. ماذا كان اسمه؟»

- «(حسبو)..»

- «كل البقالين اسمهم (حسبو) على ما أظن.. لم أعرف أنه مازال حيًّا.. لقد كنا نبتاع منه (العسلية) أثناء عودتنا من المدرسة.. لا تتصوري كم سررت لرؤيته..»

انصرف (منصور) بكنزه الصغير بعدما تبادل معي نظرة ذات معنى.. فغمزت له بعيني..

قلت لها:

- «كنت أقول لك إن موضوع عودة الشبح هذه لا يروق لي.. ما النفع الذي يجنيه من العودة؟»

- «يريد أن يصيبني بالجنون.. وهو ما صرت على استعداد تام لفهمه..»

فجأة دوّت الصرخة المذعورة.....

ماماااااااااااااااااااه!!..

هرعت وهرعت وراءها إلى مصدر الصوت..

كنت أعرف أنه الصبي.. وكنت أعرف أنّ هذه حجرته لأنني رأيتها منذ دقائق..

وعلى باب الحجرة رأينا المشهد المخيف..

كان الصبي يقف على الفراش وهو يمسك بقابس كهربي يضعه في الثقب.. يبدو أنه كان يريد إضاءة مصباح هناك لكن من الواضح أن الأمور ليست على ما يرام لأنّه يصرخ وينتفض وعيناه تنظران للسقف.. لكنه برغم هذا لا يتخلى عن القابس...

صحت في هلع:

- «صدمة كهربية! لابد أن السلك عار!»

ركضت في حركة غريزية لتنتزعه من مكانه لكني جذبتها للوراء بعنف وصحت:

- «لا تلمسيه وإلا أصابتك الصدمة معه.. أريد ملاءة أو عصا خشبية كي.....»

حاولت التملص مني لكني منعتها.. في هذه اللحظات يتوقف تفكيرك تمامًا.. أين تجد عصا خشبية هنا؟ هناك ملاءة على الفراش لكن الذعر يمنعك من أن تراها...

- «اتركني. إنّه سيـ.....»

- «لا!»

وهنا رأيت المشهد الذي انتظرته..

لقد طار القابس من يد الصبي ثم هوى على الأرض..

وانتزعت معصمها من قبضتي ووثبت إلى الفراش..

وفي اللحظة التالية كان الصبي بين ذراعي أمّه التي راحت تبكي وتلثمه..

- «هل.. أنت بخير؟ لم لا تفحصه يا دكتور؟»

هنا فوجئت المرأة بأن الصبي يضحك.. يضحك.. وأشار لي وهتف:

- «لقد صدَّقت الخدعة يا عمو (رفعت)! ما رأيك في تمثيلي؟!»

☆ ☆ ☆

قبل أن يفتك الخف البلاستيكي الأحمر بالصبي ثم يأتي دوري طلبت منها أن تمهلني خمس دقائق أشرح فيها كل شيء.. هكذا كان (الحجاج بن يوسف الثقفي) يصغي لضحاياه قبل أن يقطع رقابهم..

- «القصة تقول إن أخاك كان يركب عوامة وإن الموج جرفها فلم يستطع استعادتها.. ألا تبدو هذه طريقة غريبة نوعًا لموت شخص يملك قدرة التحريك عن بعد؟»

قالت وهي تلقي بالخف على الأرض لتدس رجلها فيه:

- «بلى.. غريب.. كان بوسعه أن يجذب العوامة له لكن ما دخل هذا بـ...؟»

قلت وأنا أتنفس الصعداء:

- «كل حوادث التحريك عن بعد التي رأيتها مع أخيك تتضمن عاملًا مشتركًا واحدًا: أنت! هذا طبيعي لأنك تحكينها.. لكن أحدًا سواك لم يحك عن أخيك قصصًا مماثلة..»

- «لقد حرصت على إقناعه بأن يلتزم الصمت..»

- «هنا خطر ببالي أن أعقد امتحانًا صغيرًا لك.. لقد رأيت ذلك القابس في غرفة (منصور).. خرجت معه وقلت له إننا سنعد مقلبًا صغيرًا لأمه.. سنقنعها بأنه تلقى صدمة كهربية.. وقد راق له هذا لأن الأطفال يحبون إثارة فزع الكبار.. هذا معروف.. شرحت له ما سيفعله وكيف يمثل دوره.. وحين عدنا للدار لم يكن (ممدوح) و(عماد) هنا لحسن الحظ.. هكذا صار الأمر على عاتقك.. أن تنزعي القابس من يده دون أن تلمسيه وهذا أمر يبدو مستحيلًا.. لكنه حدث....»

ونظرت إلى الصبي الذي وقف شاحب الوجه يرتجف إن عقاب أمّه قادم ولا ريب بعد هذه المحادثة المتحضرة.. وسألته:

- «هل ألقيت بالقابس من يدك يا (منصور)؟»

قال في حيرة:

- «لا يا عمو.. كأن هناك من انتزعه من يدي!»

قلت لها وهي تنظر لي في ترقب:

- «الأمر واضح.. بالفعل كان هناك في أسرتك من يملك قوة التحريك عن بعد.. لكنه لم يكن (عاطف).. كان أنت! المشكلة أنك لم تعرفي هذا قط.. فوق السطح قمت بتحريك العلبة دون أن تعرفي أنه أنت.. في عيد الميلاد كنت تراقبين إطفاء الشموع من وراء الستار مع بقية النساء ثم لا شعوريًا حركت اللهب.. كنت تمضين الليل ساهرة خائفة من المقاعد التي تتحرك غير عالمة أنك من يفعل هذا.. واليوم قررت عقاب نفسك فراحت موهبتك تعلن عن نفسها بشكل مروع.. هكذا قررت أنا وقد شككت في الأمر كله أن أضعك أمام الاختبار الأقصى.. لو لم تتحرك موهبتك فابنك ميت لا محالة.. وحدث ما توقعته.. لقد انتزعت القابس من يد ابنك بالقوى العقليّة وحدها ولا شيء سواها..»

هتفت وهي تمسد على شعرها:

- «ولماذا لا يكون خاله هو الذي أنقذه؟»

- «لم نسمع عن أشباح تنقذ الأحياء من قبل.. وهو لم يستطع إنقاذ نفسه لحظة الموت فكيف ينقذ سواه؟ ثم لماذا ينقذه إذا كان غرضه هو الانتقام؟ القصة واضحة تمامًا.. وأعتقد أن الظواهر المحيطة بك ستهدأ قليلًا أو تزول، بعدما عرفت أنك لم تسلبي (عاطف) حقًّا كان له.. (عاطف) كان شخصًا عاديًا تمامًا.. أمّا أنت فعليك أن تتعلمي الحياة مع هذه الموهبة التي أعتقد أنها نعمة..»

- «وماذا كنت ستفعل لو خاب ظنك ولم يحدث شيء؟»

- «لا أعرف.. كان موقفي سيبدو غاية في السوء ولربما انشقت الأرض وابتلعتني.. لكنك بالتأكيد تفضلين هذا على أن يهلك ابنك بصدمة كهربية حقيقيّة..»

قالت وهي تجمع الأكواب في صينية:

- «هل أطلب منك خدمة؟»

- «نعم..»

- «لا تخبر (ممدوح) بحرف من هذا.. لا أريد أن ينظر لي باعتباري طفرة أو ظاهرة خوارقية!»

استرخيت في المقعد وقلت في تحد:

- «أعدك لو وعدتني بألا تعاقبي هذا الصبي الذكي بسببي!»

☆ ☆ ☆

الشوارع حواديت..

حوداية الحب فيها..

وحوداية عفاريت..

(واسمعي يا حلوة لما أضحكك)..

☆ ☆ ☆

كانت هذه هي القصة الثالثة لي مع المحركين.. كما رأينا هنا امرأة في العقد الثالث من العمر ولا تعرف أنها تملك موهبة التحريك عن بعد.. هذه القصة تحدث كثيرًا جدًّا بالمناسبة...

هذا وجه آخر من الظاهرة.. الظاهرة التي يُقال إنها عندنا جميعًا لكننا لا نعرف.. بعضنا أقدر من سواه على استخراجها.. لكني متأكد من شيء واحد: لو كان هناك شخص في العالم لا يملكها فهو أنا...

الآن أحكي لكم القصة الرابعة وأرجو أن تروق لكم.. ستجدون أنه لا دور لي فيها لكن صديقًا أمريكيًا حكاها لي...

الوجه الرابع: لك يا سيدتي؟

حلقة جديدة من برنامج (لك ياسيدتي) أقدمها أنا (رفعت إسماعيل) الذي لا يتمتع بجمال الطلعة ولا الصوت الساحر ولا اللباقة.. لا يتمتع بشيء في الواقع لكن دعينا نتناس هذا كي تستمر الحياة..

اليوم نقدم لك يا سيدتي طريقتنا المثالية لتتعلمي تحريك الأشياء عن بعد.. كما قلنا فإن التحريك عن بعد جزء مهم من (التحريك النفسي الذي يتضمن عدة أقسام منها الطفو والتواجد في مكانين والتجسد والعلاج الروحي..

طريقة سهلة هي ويمكن أن تجربيها في البيت، لكننا لا ننصح بأن تعلميها للأطفال لأنّهم كائنات غير مسئولة.. لا أحب أن أرى ما سيحدث لو جرب الصبي أن يرفع السكين ليغمدها في صدر أخته على سبيل اللّهو، أو أن يبعثر مجوهراتك - لو كنت ممن يملكن هذه الأشياء - من الشرفة..

والآن أرجو أن تكتبي المقادير التي نحتاج إليها.

1- حبل.

2- كوب.. أي كوب يصلح لكن ليكن غير قابل للكسر.

3- حلقة خشبية.

4- مقعد.

5- قطعة حجر.

6- شمعة.

7- بوصلة.

☆ ☆ ☆

لنفترض لمجرد الفرض أنك يا سيدتي معلمة أمريكية تدعى (إيما ثورنوايلد)، وأنك تعيشين في ولاية (أوهايو).. لنفترض أنك حسناء في الثلاثين من العمر وأنك على وشك الزواج من ذلك المحاسب الوسيم الذي يدعى (آلان ريكمان)...

الحياة باسمة.. كل شيء جميل.. إنهم يحبونك هنا ربما باستثناء الطلبة.. هناك طالبان يحبانك جدًّا لكن هذا لأنك جميلة وليس لأن ما تشرحينه جميل.. من قصص حب المراهقة الشهيرة ذلك الحب الحتمي نحو المدرسة أو المدرس، وهو حب صحي لو أمكن استغلاله كطاقة بناءة تزيد التحصيل..

لنفترض أن عندك سيارة صغيرة.. ولنفترض أنك تذهبين للتسوق في المدينة المجاورة.. لنفترض أنك لا تجيدين القيادة جدًّا...

الطريق خال تمامًا.. هكذا طرقكم الريفية حيث يمضي المرء ساعة قبل أن يواجه كائنًا بشريًا..

صوت موسيقا الروك ينبعث من جهاز الراديو.. أنت تحبين القيادة على موسيقا الروك.. إن هذا يضفي لمعالم الطريق تأثيرًا سينمائيًا كأنها تترات فيلم مثير...

ثم قال الرجل في مؤخرة القاعة: فليهجم الجميع..

وانقلب المكان إلى قاعة رقص محمومة...

منحنى ومنحنى آخر..

الحياة باسمة يا (إيما).. زواج وأطفال.. بيت مشمس وكلب أشعث.. باختصار كل ما يمثل حياة رائعة لشخص أمريكي..

منحني ومنحنى آخر..

والفتاة في الركن قالت لي: أريد أن أحذرك يا صبي..

هذا المكان سيتحول إلى قاعة رقص محمومة..

الحياة باسمة.. تعرفين هذا.. تدركينه...

وفجأة تم كل شيء بسرعة غادرة...

السيارة في المواجهة.. البوق.. كلاكما كان مندفعًا كالسهم..

دست على الفرملة فتحولت السيارة إلى طبق طائر، ودارت يدك بالمقود تحاولين الابتعاد عن الهول القادم.. ثم لم يعد هناك شيء..

كل شيء يجري بالسرعة البطيئة..

أنت تتدحرجين إلى جانب الطريق ويبدو أن الباب قد انفتح.. لم يكن حزام الأمان مربوطًا.. من يريد حزام أمان والحياة باسمة أصلًا؟

منحدر.. الصبار يخمش وجهك كمخالب ألف قط.. لكن لا ألم هنالك...

تتدحرجين.. تتدحرجين...

قاعة رقص محمومة..

قاعة رقص محمومة..

وفي النهاية أنت في أسفل المنحدر تتساءلين.. هل هذا هو الموت؟

لم يكن صعبًا.. لا يستحق كل ما كتب عنه في الأدب والشعر.. كنت تخافين الامتحان النهائي في المدرسة الثانوية، ثم فوجئت بأنه أبسط مما ظننت.. لم يكن الأمر يستأهل كل هذا الهلع.. من المبالغة أن تقول إنك شعرت بالخديعة لكن هذا ما حدث فعلًا.. كان يجب أن تتأملي.. كان يجب أن تعاني...

في النهاية تفتحين عينك لترى السماء.. إنها ذات السماء التي كنت ترينها من نافذة السيارة..

أنا لم أمت..

لكنك في وضع منبطح.. وجهك وسط الأعشاب ولا تستطيعين الحركة.. لا تستطيعين عمل أي شيء.. رائحة العشب في (مايو).. لكن هل هذا مايو فعلًا؟

ثم صوت...

صوت خطوات يقترب...

تسمعينها فوق العشب...

الآن ترين حذاءً برتقاليًا يقف جوار رأسك لكنك لا تقدرين على الالتفات أو إصدار صوت.. ثمّة صوت لاتعرفينه (أو هكذا يجعلك الطنين في أذنيك تحسبين) يقول:

- «لقد ماتت!»

- «نعم.. يا للكارثة!»

الآخر فتاة على الأرجح..

- «كانت مسرعة مثلنا..»

- «لكن الموتى على حق دائمًا.. سوف ندخل السجن..»

هنا ساد الصمت.. واضح أنهما يفكران..

قال صوت الفتاة:

- «اسمع.. لم يرنا أحد والسيارة سليمة.. فلنفر الآن قبل أن نندم لأننا لم نفعل..»

- «لكن.. هل نتركها هكذا؟»

- «لو لم يكن عندك مانع.. هذا وإلا السجن..»

ساد الصمت برهة.. ثم سمعت صوت الخطوات يبتعد..

لا.. عودوا من فضلكما.. لا تتركاني هنا.. أنا حية.. لن أشكوكما.. أنا خائفة.. أنا واهنة.. عودا من فضلكما..

ثم تسمعين صوت السيارة يبتعد.....

عندها تدفنين رأسك في العشب وتبكين...

☆ ☆ ☆

الآن أنت تعرفين أبعاد المشكلة يا سيدتي..

لم أنته بعد.. لنفترض الآن أنك ظللت في هذا الوضع بضع ساعات ثم سمعت من ينادي.. ورأيت الحذاءين الرسميين لرجل شرطة.. أحدهم يمد يده إليك فيقول الآخر:

- «دعها! انتظر الإسعاف.. هذا كسر في العمود الفقري بالتأكيد!»

كسر عمود فقري؟ من قال هذا؟

كسر عمود فقري؟ هذا لن يحدث لك بالذات...

ثم تسمعين يا سيدتي عربة الإسعاف، والرجال يهبطون المنحدر بصعوبة.. المحفة.. يضعونك عليها بطريقة فنية مع وضع دعامة بلاستيكية للعنق.. والسيارة تندفع عبر الطرقات بينما ممرضة تضع يدها على جبينك وتهمس:

- «تماسكي.. أنت بخير..»

ثم المستشفى.. تغيبين عن الوعي ثم تعودين إليه.. فقط ترين بشكل ضبابي أنك ترقدين على سرير وأن جهاز الأشعة يهبط من أعلى نحوك.. حجرة جراحة وقناع يثبت على وجهك.. غرفة معتمة الإضاءة..

قلت لنفسك:

- «هذا هراء.. سوف أتحرك!»

لكن الخطوط مقطوعة تمامًا.. لا يوجد أي اتصال كهربي بأية عضلة من عضلاتك.. تصدرين الأوامر ليدك.. لقدمك.. لكن لا استجابة....

تقولين لنفسك يا سيدتي إن هذا كابوس وسوف يزول في الصباح..

لكنه لا يزول..

وجه أبيك الملتاع ووجه أمك المذعور.. ثم يصل (آل) العزيز..

عيناه دامعتان.. ثم تغيب الرؤى.. أنت لم تعودي هنا....

لنفترض كذلك يا سيدتي أن رجال الشرطة سألوك كثيرًا عمن دهم سيارتك.. أنت لم تري شيئًا.. لا تستطيعين تذكر شيء.. كان هناك فتى وفتاة.. رجل وامرأة.. رجل وفتاة.. فتى وامرأة.. لكن لا معلومات أخرى من أي نوع..

لنفترض على سبيل المثال يا سيدتي أنك عرفت في الأيام التالية الحقيقة: أنت مشلولة تمامًا تحت العنق.. هذا ما يطلقون عليه (الشلل الرباعي) لكن جهازك التنفسي يعمل.. تتكلمين وتتنفسين وترين لكن فيما عدا هذا لا يوجد شيء ممكن.. هكذا أخبرك الأطباء بطريقتهم الباردة...

لنفترض أنك عرفت المقعد المتحرك.. لا تستطيعين تحريكه بإصبع واحد على الأزرار.. لابد في حياتك من الشخص الثاني.. تحتاجين إلى فترة طويلة حتى تقبلي الحقيقة..

كل ما كنت لم يعد هنالك.. كل ما سيكون لم يعد هنالك...

سوف تبكين كثيرًا يا صغيرة وأنت وحدك.. سوف ترفضين الحياة وتمتنعين عن الأكل طلبًا للموت.. ويغذونك بأنبوب (رايل) الداخل من الأنف لفترة، ثم تغلبك غريزة الحياة فتأكلين..

سوف تعيشين في دار أبيك.. أمّا (آلان) فلن يعود أبدًا لقد زارك بعد الحادث فقلت له في رفق وأنت على الفراش:

- «أنا أحلك من أي وعد.. هيا اذهب وعش حياتك..»

يقول لك متظاهرًا بالمرح:

- «لن تتخلصي مني بهذه البساطة.. أنا لزج كذبابة..»

وكانت هذه آخر مرة ترينه فيها.. وكنت تتوقعين أي شيء إلا هذا..

ثم ظهر (مايك وارن).. كان مصرًّا على أن يتزوجك إنّه مدرس في ذات المدرسة، وهو شاب مهذب حاول أن يتظاهر بالمرح هو الآخر..

لكنك تعرفين يا سيدتي.. تعرفين أنه يتظاهر.. ثم إنك تقبلين عواطفه هذه.. ربما هو كريم الشعور يحبك حقًّا.. لكن من أدراك؟ ربما هو يشفق عليك.. لقد قرأت رائعة (زفايج Zweig)

الشهيرة (حذار من الشفقة) وتعرفين كيف يقرر الرجال أن يصبحوا فرسانًا، ثم يندمون بعد هذا حين يعرفون الأبعاد الحقيقية لتضحيتهم.. الاحتمال الثالث - وهو الأقسى - أنه يريد أن يشعر بالنبل أمام ذاته.. وهو شعور طفولي سخيف..

هكذا ترفضين بإصرار.. بإلحاح.. تقولين له إنك رأس امرأة لا أكثر..

لكن الأحمق مصر كالذبابة فعلًا...

أمك تقول إن هذا هو السبيل الوحيد لتجد الراحة في قبرها.. تقولين لها إن أية ممرضة يمكن أن تمنحها هذه الراحة.. ممرضة بأجر تعيش معك أكثر الوقت.. لكن أمك تقول بحنكة:

- «ممرضة تحبك.. هذا هو العسير في الأمر..»

هكذا يتم الزواج..

كلا.. لم يكن (مايك) وغدًا كما نتمنى أن يكون.. لقد كان زوجًا مخلصًا.. تعسًا - وهذا مفهوم - لكنه مخلص يعاونك في ماذا؟ في كل شيء طبعًا فأنت لا تفعلين شيئًا.. لقد صار لك بيت جميل له حديقة وحمام سباحة صغير وكلب أشعث فماذا تريدين بعد هذا؟

ثم تقررين أن تعودي إلى التدريس..

يقول لك مدير المدرسة إن هذا مستحيل لكنك تصممين على التنفيذ.. ما دام لسانك يؤدي عمله فهذا كافٍ.. فقط تحتاجين إلى من يدفع المقعد ويكتب على لوح الكتابة.. هذا سهل...

هل فهمت الآن يا سيدتي الوضع بدقة؟

☆ ☆ ☆

دعينا الآن ندخل الصف معك.. ونرى كيف تلقين محاضرتك عن شعر (كيتس).. الطلبة يتابعون.. بعضهم تبدو عليه الشفقة والبعض مندهش والبعض مستمتع بهذا..

تقف (سارة) على لوحة الكتابة تدون ما تقولين.. بينما أنت تواجهين الطلبة.. هناك (ميريام) و(أجنس) و(فيليب) و(جيمي) و.....

تقولين للطلبة:

- «ما زلت بعد هذا الحادث محتفظة برأسي لم أفقده.. لهذا أتمنى ألا تنظروا لمقعدي وانظروا لرأسي..»

نهضت فتاة مرتبكة ذات عوينات وقالت:

- «من فعل بك هذا يا مسز (وارن)؟ قيل لنا إنّه تركك تحتضرين على الأرض..»[1]

قلت باسمة متظاهرة بأن هذا السؤال لا يضايقك:

- «لا أذكر.. هناك بقعة ممحية من ذاكرتي، لكني أستعيدها ببطء ولسوف أتذكر وجهيهما قريبًا جدًّا.. والآن دعونا نعد لموضوعنا..»

بعد انتهاء الدرس يحتشد الطلبة مغادرين القاعة، وتدفعك (سارة) إلى الخارج.. هناك تقولين لها:

- «أريد كوبًا من الماء.. إن حلقي جاف..»

(سارة) كما تعلمين طالبة رقيقة مهذبة لامعة.. لهذا لم تفكرى طويلًا عندما عرضت عليك أن تساعدك، برغم أنّ هذا يقيد حريتها ولا يقدم لها جديدًا...

تتركك (سارة) وتتجه إلى المبرد الموجود في الردهة لتملأ كوبًا من الماء..

الطلبة يتدافعون لأن مقعدك بالضبط عند قمة الدرج... وهم يصدرون صخبًا كأن حياتهم تتوقف على ذلك.. وفجأة.....

- «(سارة)!»

قلتها برعب مكتوم.. ثم:

- «(سارااااااااة)!!»

لأنك شعرت بالمقعد ينزلق ببطء ثم ينحدر فوق أولى درجات الدرج.. والآن يواصل الانحدار...

لا يمكن التمسك بشيء.. لو كانت يداك تطيعان لتمسكتا بالترابزين.. بيد أي واحد من الفتية هناك.. لو كانت قدماك تستجيبان لحولتهما إلى فرملة.. لكن لا شيء من هذا.. قانون الجاذبية يعمل كما خلقه الله.. كل مايترك ليهوي يسقط لأسفل...

لحظة من الهلع ثم توقف الانحدار لأنك شعرت بيد قوية تمسك بالمقعد وتمسك بكتفك في الآن ذاته.. ثم رفعت رأسك لتري (جيمي) بطل المدرسة في كرة القدم.. كرة القدم التي تصرون على تسميتها كذلك برغم أنه لا دخل للقدم فيها.. بالنسبة لنا نحن نعتبرها (رجبي Rugby) أو أي شيء آخر.. لهذا أبطال كرة القدم عندكم كالمصارعين عندنا..

قال وهو يبتسم بثقة:

- «لابد من أن أحدهم دفعك عن غير عمد يا مسز (وارن).. إنهم خنازير ها هنا..»

كنت أنت تستجمعين أنفاسك.. كان الموت قريبًا جدًّا.. السقوط من أعلى هذا الدرج معناه الموت بالنسبة لامرأة قعيدة.. لكن من يدري؟ ربما كان هذا أفضل لك..

وتأتي (سارة) خائفة مذعورة وكوب الماء في يدها، وتصيح:

- «آسفة يا مسز (وارن).. كان خطئي أن تركت المقعد في هذا الموضع الخطير..»

تشربين الماء وتقولين إنّه لا بأس....

لكنك كنت تفكرين.....

ما حدث لك لم يكن انزلاقًا.. لقد تم دفع المقعد مسافة لا بأس بها من الخلف.. بعيدًا عن مجال إبصارك.. أحدهم تعمد أن يدفع المقعد من فوق الدرج متظاهرًا بأنه احتك به.. لكن المسافة كانت أطول من أن تبرريها بالخطأ...

أحدهم يريد موتك فلماذا؟

كانت الفكرة تجوب ذهنك في الآونة الأخيرة بشدة..

الأصوات التي سمعتها لحظة الحادث.. ربما كانت أصوات شابين مراهقين.. وقد خطرت لك فكرة مجنونة هي أن هذين الشابين من طلبتك...

الآن بم شعر هذان وماذا قالا حين عرفا أنك سليمة، ولم تقضي نحبك؟

لقد قدَّرا أنك عرفت من هما، ولابد أن خبر نجاتك كان أسوأ خبر سمعاه....

ظلا ينتظران أن تتكلمي فلم يحدث.. إذن هناك ثلاثة احتمالات: إما إنك لم تتعرفيهما.. وإما أنك عرفت من هما لكنك مصابة بفقدان ذاكرة مؤقت (وهو يشفى دائمًا).. وإما أنك تعدين للانتقام بشكل مدروس صبور..

لابد أنهما قررا أن يتخذا الحل الأصوب.. لقد قتلاك مرة فلماذا لا يفعلان هذا ثانية؟

طبعًا كانت هذه خواطرك الخاصّة، فلربما لم يحدث هذا قط.. لكن يقينًا كان قد تكونت لديك فكرة بأن ما حدث اليوم كان محاولة قتل..

☆ ☆ ☆

- «لا أذكر.. هناك بقعة ممحية من ذاكرتي، لكني أستعيدها ببطء ولسوف أتذكر وجهيهما قريبًا جدًّا.. والآن دعونا نعد لموضوعنا..»

نصيحة: دققي فيما تقولين يا سيدتي ولا تستعملى الكلمات الخطأ.. لو كنت قاتلًا لقتلني الرعب.....

☆ ☆ ☆

الآن دعينا نصل إلى موضوع هذه الحلقة يا سيدتي.. لقد كانت لحظة سقوطك هي اللحظة التي جعلتك تدركين قبح العجز، وهكذا قررت أنك لن تبقى ساكنة دون أن تغيري واقعك.. كنت جالسة أمام التلفزيون تشاهدين ذلك البرنامج السخيف عن القدرات النفسية الخارقة، وعرفت أنّ هناك قومًا قادرين على تغيير الأشياء بعقولهم..

لنفرض أن مقدم الحلقة وهو من المهتمين بهذه الأمور يقول:

- «كل منا قادر على ذلك.. هناك تحت طبقة المدنية الرقيقة يوجد ذلك النصر الذاتي.. فقط لنخدش الصدأ فنجد ذلك المعدن البراق..»

تطلبين من زوجك أن يساعدك على خدش تلك الطبقة الصدئة فيوافق.. وهذا يضايقك لأنّه يوافق على كل ما تطلبين.. جزء مهم من إنسانيتنا أن تشعر بأننا قابلون للمعارضة.. هذا يمنحنا شعورًا بالنضج..

لنفترض الآن أن زوجك ابتاع لك بعض الكتب، وراح يقرؤها عليك وأنت جالسة على المقعد المتحرك.. «التحريك عن بعد..» - يقول زوجك وهو يقرأ - «هو حشد موجات الطاقة النفسية بكثافة غير عادية إلى درجة أنها قادرة على إحداث تغيير فيزيائي.. ومعنى هذا أن درجة غير عادية من التركيز مطلوبة هنا، وهذا يحتاج إلى سنوات من المران.. لكن لا تقل من البداية: لا أستطيع..»

- «الحيلة هنا..» - يقول زوجك «هي ألا (تجعل) الأشياء تتحرك.. بل أن (تدعها) تتحرك.. لا تشك في الأمر لأن الشك جدار يقف بينك وبين التحريك عن بعد يجب أن تتسلق الجدار لتعبر للجانب الآخر..»

والآن أقدم لك يا سيدتي هذه التمرينات السهلة.. يُمكنك تجربتها بنفسك فوق مقعدك المتحرك ولا تقلقي ما دام زوجك قريبًا...

أعرف أنك لن تستطيعي توفير ظروف (جانتسفلد Ganzfeld) أي الغرفة المعزولة عن المرئيات وعن المؤثرات الصوتية الخارجية.. لكن بوسعك أن تطلبي عمل التجارب في غرفة شبه مظلمة وأن يقف زوجك خلفك كي لا يشوش تركيزك..

الطريقة (1): تحريك اللهب:

سوف يحضر زوجك شمعة ويضعها أمامك.. عليك أن تنظري لقاعدة اللهب حتى لا تريه وإنما تدخلين حالة من التأمل والانصهار.. ومن فضلك يا سيدتي لا تنظري للهب نفسه.. لا أريد أن تحترق شبكيتك.. فكرى في اللهب كطرف خامس لك يُمكنك تحريكه كما تريدين.. راقبيه يستطيل وينكمش.. يهتز.. كرري هذا عشر دقائق...

الطريقة (2): التصور:

الآن فكرى يا سيدتي في الأشياء كما تريدين لها أن تكون.. احلمي بطائر في الحديقة.. فلتريه بوضوح.. أحلمي بأن المذياع المعطل يعمل بكفاءة... فإذا لم يحدث ما رأيته فاحلمي بأن السبب هو أن الأفضل واقع لا محالة..

الطريقة (3): بعد إجادة الطريقتين السابقتين:

الآن تخيلي يا سيدتي أنك تقبضين على كرة من الطاقة، وأنك تدفعينها بعقلك لتدفع بالونًا على الأرض..

الآن حان وقت التمرين الأهم:

ابدئي بشحن حواسك بالطاقة والتأمل.. خذي بضعة أنفاس وتصوري أنك تحتوين الكون كله في صدرك.. فليضع زوجك أمامك حجرًا.. أغمضي عينيك وتصوري أن طاقتك تمتزج بهذا الحجر.. حركي الحجر باستعمال عقلك فقط ولا شيء سواه.. حركيه نحوك إلى اليمين.. للأمام.. للخلف.. ثم افتحي عينيك وكرري هذا وأنت ترين ما يحدث..

جربي الأمر نفسه في الوقت المناسب مع قدح ثم مع مقعد..

الآن بعد فترة من التمرينات يمكن أن تجربي ثني الأجسام..

تأملي نصف ساعة يا سيدتي.. اجعلي زوجك يضع شوكة أو ملعقة بين أناملك المتراخية.. تنفسي بعمق.. فكرى في شيء واحد صاف.. فكرة واحدة تجلب لك عشرات الأفكار البهيجة.. تصوري أن ذرات الشوكة تختلط بذرات يدك تصوري الشوكة تتحول إلى سائل.. لو كنت تشعرين لشعرت بسخونة في الشوكة.. الآن اثنيها! اثنيها بعقلك فقط..

هل نجحت؟ جميل.. جميل

اختبار البوصلة:

مزية البوصلة هي أن إبرتها حرة الحركة تخضع لطاقة من القطبين فماذا عن طاقة من عقلك؟ ليضع زوجك البوصلة أمامك.. أغمضي عينيك وفكري في أن تحركيها.. لا تفكرى في تحريكها بل اشعري به.. لا تستعملي بوصلة ثمينة لأنهّا قد تتلف بعد هذا كلية..

هكذا تجربين يا سيدتي..

لسوف يدهشك كم وسرعة التقدم الذي تحرزينه.. ولسوف يقول زوجك إن هذا غريب.. تقول الكتب إن حالات نادرة تصل لهذه الخبرات في أسبوعين، بينما يقضى آخرون أعوامًا دون أن يصلوا لشيءٍ.. لكنك تعرفين السبب.. كل ذرة في جسدك تريد أن تحقق هذا.. لو كانت لديك هذه الطاقة فقد حان وقت خروجها.. الدولة التي يتم غزوها ولا تستعمل سلاحها السري هي دولة لا تملك هذا السلاح..

زوجك لم يكن يؤمن بهذه الأمور، لكنه لا يجد مايقال وهو يرى قرص الـ PSI يدور بقوّة عقلك.. يرى اللهب يهتز ويرى البوصلة تتحرك...

☆ ☆ ☆

لنفترض الآن يا سيدتي أنك في دارك وأنك تلاحظين الكثير من زيارات (سارة) لك.. (سارة) علاقتها بك هي المدرسة، فلماذا تبذل هذا الاهتمام؟

(سارة) لطيفة ودود لكن ألا ترين معي أنها تلاحقك؟ ربما أكثر من اللازم؟

فعلًا لا تترك لك فرصة للانفراد.. اليوم تأتي لك وأنت جالسة في غرفة الجلوس، وتحييك ثم تسألك عن زوجك..

تقولين:

- «لا أعرف.. أعتقد أنه سيعود بعد برهة..»

لا تعرفين لماذا يبدو عليها هذا الحماس.....

بعد قليل تسمعين من ينادي.. هذا الصوت مألوف.. تخرج (سارة) قليلًا ثم تعود ببطل كرة القدم (جيمي) الذي أنقذ عنقك من التهشم على الدرج.. ذلك العملاق الأخضر الذي توشك عضلاته على تفجير قميصه، والذي يمشي مباعدًا ذراعيه عن خصره لأنّه لا يستطيع إلصاقها به..

غريب هذا! إنّه لم يحاول أن يزورك من قبل قط.. هذا ليس ناديًا يا شباب..

يقول (جيمي) في تهذيب وهو يتأمل الغرفة:

- «أرجو أن تكوني بخير يا مسز (وارن).. كنت مارًّا بالدار ورأيت أن أطمئن..»

- «أنا بخير يا (جيمي).. وإن كنت أفضل أن....»

هنا تصيح (سارة) في حماس وهي تدفع مقعدك:

- «لنجلس جميعًا بجوار حمام السباحة.. سوف تنفضين الكسل عن عظامك!»

وقبل أن تتكلمي يكون الفتى والفتاة قد دفعا المقعد المتحرك إلى الحديقة التي يتوسطها حمام السباحة الصغير...

الآن أنت تفكرين في عمق.. ما سر كل هذا الحماس؟

فكري يا سيدتي.. أنصحك أن تفكري..

حينما سقطت من على الدرج أو كدت كانت (سارة) خلفك تجلب الماء.. لم تريها جيدًا.. من دفعك من الخلف وسط الزحام؟ (جيمي) أنقذك.. فلماذا؟ لأنّه من الخطأ أن يتم هذا هنا وبين كل هؤلاء..

فكري يا سيدتي.. أنصحك أن تفكري...

تنظرين لأسفل فتلاحظين أن (جيمي) يلبس حذاء برتقاليًا...

بعد حادث السيارة.. الفتاة كانت أميل للشر بينما الفتى كان مترددًا.. نفس ما حدث عندما كدت تسقطين.. الفتاة دفعتك والفتى أنقذك..

فكري يا سيدتي.. أنصحك أن تفكري...

هل هذه بارانويا؟

لماذا عرضت عليك (سارة) المساعدة؟؟؟

فكري يا سيدتي.. أنصحك أن تفكري...

لماذا تدفع (سارة) المقعد بهذا القرب نحو حمام السباحة؟ أنت على الحافة فعلًا.. مشلولة قعيدة وعلى الحافة.. دفعة أخرى وينتهي كل شيء..

ولكن كيف تنوي أن تفسر ما سيحدث؟ أنت غير قادرة على دفع المقعد.. الكل يعرف هذا.. لكن لم لا؟ المقعد كهربي وربما يحدث له خلل ما ترينها تبكي أمام رجال الشرطة.. لقد ذهبت لأحضر لها كوب ماء.. ثم عدت لأجد المقعد وسط حمام السباحة! لا أعرف كيف.. هذه المقاعد غير مأمونة على الإطلاق.. نزلت في الماء لكني وجدت أنها انتهت تمامًا..

ثم تنفجر في البكاء فيرق قلب الضابط ويربّت على كتفها...

الحذاء البرتقالي.. (سارة) و(جيمي) كانا في السيارة إذن.. هما تركاك حيث أنت ورحلا.. الحذاء البرتقالي.. ولما عدت للحياة صارت حياتهما سوداء كالحة.. الحذاء البرتقالي.. إنهما متأكدان من أنك لم تميزيهما، لكن من الوارد أن تتذكري في أية لحظة...

فكري يا سيدتي.. أنصحك أن تفكري..

(جيمي) بجوارك والحافة قريبة..

ماء رقراق بارد ينتظر ضحيته..

تغمضين عينك.. تأخذين شهيقًا عميقًا.. هذا لن يحدث لي....

ركزي يا سيدتي.. أنصحك أن تركزي...

المقعد يتحرك ببطء.. حركة بسيطة لم يلحظها (جيمي) وفجأة استجمعت إرادتك.. تحرك المقعد لليسار.. ثم اندفع بعنف ليوقع الفتى أرضًا وهو لا يفهم.. ثم المقعد ينقض عليه من الخلف ليوقعه في حمام السباحة..

ركزي يا سيدتي.. أنصحك أن تركزي...

يجب أن تتماسكي.. يجب ألا يسقط المقعد بدوره..

(جيمي) يرفع رأسه.. لا.. لن يحدث هذا.. تغمضين عينيك وترين رأسه تحت الماء.. لا تجعلي رأسه تحت الماء بل دعيه يبق تحت الماء.. هذا ممكن.. يصرخ ويبصق الماء ويتملص.. لكن قبضتك الخفية تعيده إلى هناك.. إنّه بحاجة إلى الهواء.. أريد الهواء!

ركزي يا سيدتي.. أنصحك أن تركزي...

الفتى يلهث يحاول رفع رأسه وأنت تتمسكين بالمقعد على الحافة بقوّة عقلك.. يرفع رأسه.. تنزلينها تحت الماء.. يرفع رأسه.. تنزلينها تحت الماء.. يرفع رأسه.. تنزلينها تحت الماء.. ذق أيها الوغد!

الفتاة تصرخ وتبتعد مولولة...

حركة الفتى تهمد ثم تتوقف.. الآن ترين أنه يرقد في الماء بلا حراك، وقد انتثر شعره سابحًا فوق المياه.. جثة عديمة النفع.. لقد انتهى..

هنا فقط بدأ مقعدك ينزلق إلى حمام السباحة..

لن يحدث هذا.. إن بوسعك أن ترفعي جسدك.. لم تجربي هذا قط يا سيدتي لكن متى تتوقعين أن تجربيه؟ ركزي إرادتك.. أنت ترين نفسك سابحة فوق مستوى الماء بينما المقعد ينزلق إلى الأعماق.. ترين هذا وهذا ما سوف يكون....

ركزي يا سيدتي.. أنصحك أن تركزي..

جسمك جسم لا يختلف عن أية ملعقة قمت بتحريكها من قبل.. سوف تنجحين..

يا له من شعور! مغمضة العينين تدركين أنك ترتفعين عن الأرض بضعة سنتيمترات، وأنك تنزلقين فوق وسادة من الحلم..

لقد فعلتها يجب أن تجدى الفتاة لابد من أن تجدى الفتاة..

أنت تسبحين بعيدًا عن الحوض.. تسبحين فوق الحديقة.. تستديرين حول مدخل الدار.. أنت تدخلين من الباب.. لا ترين هذا لأنك مغمضة العينين لكنك تدركين أنك فعلتها..

كما ترين يا سيدتي.. برنامجنا ناجح تمامًا وهذا يسرنا..

أخيرًا تنهار قواك فتتركين جسدك يهبط.. تفتحين عينيك على مدخل قاعة الجلوس.. من جديد صار جسدك لا يختلف في شيء عن ثيابك..

من داخل الغرفة سوف تسمعين صوت زوجك.. لقد عاد من الخارج! حمدًا لله! ولسوف يسرك هذا لأنّه سيعيدك إلى المقعد ويتولى أمر الجثة الطافية في حمام السباحة..

لكن صبرًا هناك من يتكلم معه..

هذا صوت (سارة) تقول:

- «أنت جننت حين علمتها التحريك عن بعد.. لقد رأيت ما فعلته الآن. لقد قتلته الآن.. قتلته أمام عيني..»

يقول لها زوجك يا سيدتي:

- «لا أعتقد أنها تملك هذه الدرجة من البراعة.. كانت بحاجة إلى هذه التدريبات النفسية وكان على أن أقدم لها ما تريد.. لا تنسى أنني تزوجتها خصيصًا كي أريح ضميري..»

سوف تقول (سارة):

- «اسمع يا (مايك).. برغم أنك مدرس وأنا طالبة، كانت بيننا قصة حب عميقة، لكنك تخليت عني بسبب هذا الحادث الأحمق.. تزوجتها لتكفر عن ذنبك وهذا يدل على شخصيّة ضعيفة بحق.. لكن الأمور صارت خطيرة الآن.. لقد هلك ذلك الفتى الذي لا ذنب له والذي جاء لمساعدتها ولسوف تكتشف هي قريبًا جدًّا أن سائق السيارة التي سببت عاهتها كان زوجها العزيز (مايك وارن) وأن الفتاة التي كانت معه هي أنا.. لقد حاولت أن أدفعها من فوق الدرج في المدرسة لكن ذلك الأحمق (جيمي) أنقذها بأعجوبة.. لكنه لن ينقذها هذه المرّة.. لقد مات غرقًا بيدها!»

ثم تتدارك فتقول مصححة:

- «بل مات غرقًا بعقلها.. وأنا متأكدة مما أقول!!»

كانت هذه هي القصة الرابعة لي مع المحركين.. هنا امرأة قررت أن تخدش ذاتها لتجد معدن (التحريك عن بعد البراق تحت صدأ الحياة اليومية، وكان ما دفعها لذلك حافزًا قويًا هو أنها لا تريد أن تبقى عاجزة.. إلا أنها أدركت في النهاية أن التحريك عن بعد لا يعطي بالضرورة ملكة الاستبصار أو قراءة الأفكار، ولربما تحاول تعلم هذا فيما بعد لو ظلت حية!

نهاية القصة مفتوحة طبعًا متروكة لخيالك، وأنا أحب النهايات المفتوحة لأنّها أكثر بلاغة.. وهذا يتسق مع حياتنا ذاتها حيث لا يجاب على كل الأسئلة..

الآن الوجه الخامس والأخير من قصص المحركين التي عرفتها أو تعاملت معها.. هذه قصة عن لص وجد أنه يملك هذه القدرة.. هذا شيء مفزع..

تعالوا نطالع القصة لنفهم أكثر..

1

قال لي (عادل) وهو يضع ساقًا على ساق:

- «بالفعل أريد رأيك.. هذا غريب.. أليس كذلك؟»

هنا دخل الجندي الواقف على الباب حاملًا صحفة عليها كوب ليمون وشطيرة.. كريمًا لم ينس (عادل) أنني لم آكل منذ الصباح..

قال لي وهو يشعل لفافة تبغ:

- «سوف نذهب لداري بعد ساعة.. إن (سهام) أعدت لنا وجبة طيبة، لذا أعتقد أنّ هذه الشطيرة.....»

لم أكن متحمسًا للذهاب لداره.. إن علاقتي بـ (سهام) زوجته ليست على ما يرام.. تعرفون موضوع أختها (هويدا) ثم ذلك السخيف الذي كان يشبهني.. و..

لكن مهما حدث فلا توجد قوة على الأرض تمنعني من زيارة (عادل) من وقت لآخر كلما جئت إلى الإسكندرية.. من ناحية؛ علاقتنا الروحية لا تنفصم بسهولة.. إنّه من الأشخاص القلائل في العالم الذين أطلق عليهم (أصدقائي) بقلب مستريح.. صداقة الصبا حيث تتلاقى روحان بلا أي سبب.. لا شبهة نفاق.. لا منفعة ماديّة.. ليس زميلي في العمل ولا رئيسي.. ليس قريبي فيفرض عليّ.. حتى الحب بين رجل وامرأة قد يدخل فيه عنصر الانجذاب الجسدي وهذا لا علاقة له بالروح.. أمّا صداقة الصبا فلا تحكمها أية قوانين سوى تآلف روحين.. ومهما باعدت بيننا السنون فأنا أعرف جيدًا أنه يحمل لي ما أحمله له، وأنه لن ينسي جولاتنا مع أصدقاء الصبا الآخرين على النيل وكورنيش الإسكندرية، وأبيات الشعر الرديء والمشاجرة على لفافة التبغ الأخيرة معي..

السبب الآخر الأقل أهميّة لتعلقي بـ (عادل) نفعي جدًّا وهو أنه من المفيد دومًا أن تعرف رجل شرطة عالي الرتبة.. هذا - أعترف - بالغ الأهميّة في مصر.. وفي رأيي أن كل أسرة وكل شلة أصدقاء يجب أن تضم بين أفرادها طبيبًا ومحاميًا ورجل شرطة..

مددت يدي إلى الشطيرة وقضمت قطعة..

كان (عادل) - الذي صار الآن عميدًا - ينظر إلى السقف ولفافة التبغ في يده كأنما هو يسترجع حشدًا من الذكريات.. قال بعد تفكير:

- «بالفعل أريد رأيك.. أنت تعرف رأيي الخاص في هذا الهراء الذي تتورط فيه منذ نعومة أظفارك.. تبدو لي خليطًا عجيبًا من عالم وطبيب ومغامر ومجنون ونصاب..»

قلت في برود:

- «شكرًا»

- «لا تتضايق مني.. لو لم أكن صريحًا معك فلا معنى لصداقتنا.. لكن في هذه القضية بالذات أعرف أن رأيك ذو جدوى.. الجرائم التي أنا بصددها غريبة حقًّا.. لكني وضعت يدي على المشتبه فيه وعلى ما سرقه.. فقط يجب أن أفهم كيف فعل ذلك.. وأن أضبطه متلبسًا..»

قلت له بفم ملئ بالجبن الرومي:

- «هل تعني أن لديك الجريمة ولديك المجرم ولديك المسروقات؟»

- «فقط لن تقبل أية محكمة كلامي... هذه هي المشكلة..»

☆ ☆ ☆

قال (عادل):

- «(شعبان البحيري).. صراف في الخمسين من العمر أعتقد أنك تعرف باقي القصة..»

قلت باسمًا:

- «صراف.. وأنا في مديرية الأمن.. هل هي سرقة أم سرقة وقتل؟»

انفجر في الضحك بطريقته المنفتحة التي تزلزل المكان زلزلة.. (عادل) كما عرفته دائمًا يفرح أو يسر فينفجر ضحكًا.. الاكتئاب عنده هو الانفجار في البكاء.. الغضب عنده هو الضرب..

قال وهو يلتقط أنفاسه:

- «ما زلت تفهمها (وهي طايرة).. نعم.. هناك سطو طبعًا.. لكن الرجل سليم وإن كان قد تأذى كثيرًا.. لك أن تتخيل صراف الجمعية الزراعية ذا الخمسين عامًا يحمل تلك الحقيبة العملاقة العتيقة.. نحن في الريف حيث كل واحد يعرف كل واحد والدار أمان كما يقولون.. لا يوجد لصوص في هذه البلدة..»

لا يوجد لصوص في هذه المدينة.. هذا بالصدفة عنوان قصة قصيرة شهيرة لـ (ماركيز Marquez).. وأواصل سماع (عادل) وهو يحكي:

- «يخرج الصراف من مقر عمله حاملًا الحقيبة الكبيرة التي ينقلها إلى المصرف الصغير في القرية.. غالبًا ما يفعل هذا وحده من دون أن يرافقه الخفير العجوز في الجمعية.. حتى لو رافقه فالخفير لا يرى أبعد من مترين، وبندقيته الحكومية لا تعمل على كل حال..

يمرّ (شعبان) بمجموعة من الرجال يبادلهم السلام مع دعوة إلى الشاي لكنه يشكرهم ويواصل طريقه.. الآن يختصر الطريق بأن يعبر هذا الحقل الواسع الذي يوصله إلى المصرف من الخلف.. هذا حقل ذرة تم تبويره فلا تتوقع أن أحدًا كان يتوارى فيه..

يمشي الصراف في الحقل مسافة لا بأس بها قبل أن يتلقى قالبًا من القرميد في جبهته.. هكذا سقط على الأرض.. وهكذا أخذت منه الحقيبة.. كان المكان منعزلًا تمامًا يسمح بأي شيء..

قبل أن تسأل عن الصراف دعني أؤكد لك أنه كان المشتبه فيه رقم واحد، وهذا منطقي.. وقد تم حصاره بعنف.. يمكن لك أن تضرب جبهتك بقالب قرميد إذا كان الثمن عشرين ألفًا من الجنيهات2.. المهم أننا ضـ..أ.. استجوبناه بدقة وعلى مدة عدة أيام وفي كلّ مرّة نصل للنتيجة المنطقية: هذا الرجل بريء كطفل..

قال الصراف إن أحدًا لم يكن في الحقل.. هذا منطقي.. لا يمكن لذبابة أن تختبئ في هذا الحقل.. هنا يأتي السؤال: من أين جاءت القذيفة.. لو مثلنا الحادث لوجدنا أنه ما من يد بشريّة تستطيع قذف الحجر كل هذه المسافة.. لو جئت ببطل الأولمبياد في رمي الجلة لما حقق هذه النتيجة..

هناك بيوت على مقربة من الحقل أغلبها تم هدمه جزئيًا لتعديه على أرض زراعية.. لا يوجد سكان فيها لكن من الوارد أن يتوارى أحدهم هناك.. هنا يتكرر السؤال: وماذا بعد؟ كيف تقذف قالبًا ثقيلًا كل هذه المسافة ليصيب هدفه؟ طبعا لا يمكن تصديق هذا؛ لذا كنا نعاود استجواب الصراف البائع الذي انهار تمامًا..»

تذكرت وهو يحدثني قصة مصورة فرنسية قرأتها من قبل - على قدر درايتي المحدودة بهذه اللغة - وتحكي عن شيء كهذا.. كان المجرم يصوب مدفعًا يقذف الحجارة على ضحاياه وهو يراقبهم بتلسكوب.. طبعًا يصعب وضع هذا في الاعتبار بالنسبة لقرية بدائية..

واصل (عادل) الكلام:

- «على كل حال قمنا بعمل تحريات لا بأس بها ثم انتهى الأمر عند طريق مغلق.. لا نستطيع التقدم بعد هذا.. ثم جاءت الجريمة التالية..»

☆ ☆ ☆

2

قال (عادل):

- «نحن الآن في الإسكندرية في محل الصائغ الخواجة (....) الموجود في شارع (....).. هناك رجل في الأربعين من عمره يبدو على قدر من التهذيب يدخل المحل ومعه سيدة حسناء نوعًا.. يهب البائع ليلبي رغبتهما فيطلب الرجل أن يريا بعض الخواتم..

الآن يبدأ مسلسل (هذا مناسب - هذا أجمل - لا هذا بلدي - ثمّة شيء ماينقص هذا).. وهو المسلسل الممل الذي اعتاده الصياغ..

في النهاية قال الخواجة الذي جلس أمام منضدته، والعدسة على عينه وهو يصلح سوارًا قديمًا: (فقس الدفش)..

ومعناها بلغة الصياغ طبعًا (تخلص من الزبون).. هذه لغة خاصة بعضها مشتق من العبرية تستخدم غالبًا للكلام بحيث لايفهم الزبون ما يُقال.. الزبون غير واعد لذا كلمة السر هي (فقس الدفش) أو (هات الجفت).. الأخيرة معناها (انس الأمر برمته)..

كانت هناك على المنضدة الآن ثورة حقيقيّة من الخواتم.. هنا أعلنت المرأة أنها لم تحب أي شيء.. وعبثًا حاول البائع إقناعهما بأن هناك أذواقًا أفضل بلا جدوى.. المرأة مصممة على الرحيل فجأة وكذا الرجل..

هذا الحماس المبالغ فيه للرحيل جعل البائع يراقبهما بحرص وعناية.. كلا.. لم تمتد أي يد لتدس خاتمًا في جيب أو حقيبة..

وفي النهاية بدأ يجمع الخواتم التي تناثرت على المنضدة الزجاجيّة ويعيدها لمواضعها في لوحة الإسفنج.. طبعًا ليجد أن أربعة خواتم ليست في مكانها..

هرع إلى الخارج فقط ليجد السيارة تبتعد براكبيها.. سيارة عتيقة في حال يسر الأعداء.. تمكّن من قراءة الأرقام على اللوحة، وعاد إلى المحل وهو يلطم خديه وسرعان ما اتصل الخواجة (صاحب المحل) بنا.. هذه من اللحظات المثالية التي نجد فيها خيطًا تحت أيدينا.. عندما نجد هذا الخيط ننطلق بأعنف وأسرع ما نستطيع.. قبضة القانون الصارمة تهوي فوق حشرات المجتمع لتهشمها.. لك أن تراهن إذن على أن المشتبه فيه كان في أيدينا خلال ساعتين من البلاغ..

لم تسفر التحقيقات مع صاحب السيارة عن شيء.. مهندس زراعي يدعى (محمود أبو ربيع).. لكنه لا يعمل حاليًا.. هو لا يعرف شيئًا عن هذه الاتهامات.. البائع مهمل فما ذنبي أنا؟ البائع سارق فما دخلي بالقصة؟

حدث الكثير من الضرر من هذه القصة، ولابد أن العامل تم فصله.. بالإضافة إلى أن الخواجة لم يستعد الخواتم باهظة الثمن، واضطررنا آسفين لإطلاق سراح المهندس لأننا لم نستطع قط اتهامه بالسرقة..

هذه هي القصة الثانية..

الآن تأتي القصة الثالثة...»

☆ ☆ ☆

قال (عادل):

- «القصة الثالثة أكثر غرابة.. هناك السيدة (عواطف).. إنها مديرة متقاعدة تعيش وحدها بعد وفاة زوجها وزواج أبنائها.. ليس لديها رفيق إلا خادمة عجوز مثلها.. الكل يعرف أنها ثرية وأن زوجها ترك لها ميراثًا لا بأس به أبدًا.. هي تعرف أنهم يعرفون وهكذا تحيل بيتها إلى قلعة.. هناك قفل محترم على الباب والنوافذ مدعمة بالحديد وهي لا تفتح الباب إلا بعد تدقيق واستجواب للطارق مع تفحصه من خلال (العين السحرية) الموجودة في الباب..

هي تعرف جيدًا أنها (حادث ينتظر أن يقع).. تفوح رائحة كريهة من الشقة فينتقل إليها المقدم (...) والنقيب (...) ثم يتم كسر الشقة ليجدوا جثتها مهشمة الرأس أو غارقة في المغطس، وقد اتضح أن دافع الجريمة هو السرقة، وقد أمر اللواء (....) بسرعة ضبط الجاني.. إلخ..

هي تعرف هذا كله وتتصرف على أساس محاولة منع الأقدار من تنفيذ هذا المخطط.. تتخيل دائمًا أنّ هناك قاتلًا.. تضع نفسها في مكانه.. كيف سيفكر وماذا سيفعل؟ لعبة شطرنج أبدية بينها وبين قاتلها المحتمل وهي لا تنوي أن تخسرها..

النتيجة: هذه المرأة تعرف فعلًا كيف تحمي نفسها.. أمّا الخادم العجوز فلا غبار عليها.. لو سرقت هذه المرأة يومًا فذلك لشراء كفن.. دعك من أنها بحاجة إلى من يعني بها هي نفسها.

الآن يصلنا بلاغ من المرأة.. هناك من تسلل إلى الشقة ليلًا وفاجأها والخادمة بضربتين على الرأس ففقدتا الوعي ثم سرق كل ما خف حمله وغلا ثمنه..

ننتقل للمعاينة فنجد أن الباب فتح بمفاتيحه الخاصّة.. لم يتم أي نوع من الاقتحام.. السارق قد دخل من الباب بينما المرأتان نائمتان ثم أفقدهما الوعي وسرق كل شيء ببساطة..

كيف دخل؟ لا يوجد عندي جواب.. من الصعب أن يفتح كل هذه الأقفال بمفتاح مستعار دعك من أن السيدة تترك المفتاح في القفل الرئيسي، مما يجعل إدخال أي مفتاح من الجهة الأخرى صعبًا..

اقتحام النوافذ؟ مستحيل.. قلت لك إنها مدعمة بالحديد..

هكذا أجرينا تحقيقاتنا.. كانت القصة توشك على أن تُضاف إلى سجل الجرائم الغامضة وضدّ مجهول.. لولا أننا رحنا نتتبع أقاربها.. جيرانها.. إلخ.. لعل أحدهم له سجل مهم..

من تتصور ساكن الشقة في الطابق العلوي؟

نعم.. أنت خمنت.. المهندس الزراعي (محمود أبو ربيع) ذاته! وقد رحنا نستجوبه بإلحاح.. إن المصادفات لا تتكرر بهذا الإفراط أبدًا.. استجوبناه وحصلنا على إذن من النيابة لتفتيش داره.. وقد راح يؤكد كالعادة أننا نقع في خطأ جسيم.. الأجمل أننا عرفنا أنه كان يشرف على أرض زراعية في إحدى القرى المجاورة للإسكندرية.. طبعًا أنت.. تعرف أنها تلك القرية التي سرق فيها الصراف.. بل كان فيها عندما وقعت السرقة وهو ما لم نعرفه بعد حادث الصائغ وإلا لفكرنا ألف مرة قبل أن نطلق سراحه..

لكن من العسير أن تتهم أحدًا بشيء وأنت لا تعرف كيف فعلها.. ثم أين ذهب ما سرقه؟ حسابه في المصرف متواضع.. بصماته غير موجودة على الإطلاق في شقّة العجوز.. هذا الجزء سهل لأن الكل يسرق بالقفازات اليوم.. إن هذه الأفلام السينمائية التي يعرضها التلفزيون.....

الآن أريد أن تعرف ما هو أكثر عن هذا المهندس..

إنه في الأربعين من عمره.. ليس له عمل ثابت.. مطلق حاليًا والمرأة التي دخلت معه محل الصائغ هي مشروع زواجه المقبل.. مهذب وعلى قدر من الثقافة والرقي..

ثم حك ذقنه مفكرًا وهو ينظر إلى السقف:

- «ماذا أيضًا؟ ماذا أيضًا؟ آه! ليس ثريًا على الإطلاق لكنه ليس معدمًا.. يعاني أزمات مالية طاحنة من حين لآخر.. ويدفع نفقة باهظة لزوجته السابقة.. لديه سيارة.. سيارة مهدمة خربة لكنّها تؤدي الغرض.. الناس يقولون إنّه لا غبار عليه وأن حظه النكد هو تفسير هذا كله.. أنت نكد الحظ يا (رفعت) لكن هذا لم يجعلك تظهر في كل جريمة سرقة تحدث في القاهرة.. أنا أعرف ومتيقن تمامًا من أن هذا الرجل هو المسئول عن هذه الجرائم..»

وضعت كوب الليمون على المنضدة وسألته:

- «ولكن كيف؟»

☆ ☆ ☆

3

قال (عادل):

- «تعال معي نراجع الأحداث.. صراف يمشي وحده في حقل.. لا أحد على مسافة مائة متر من كل الجهات.. فجأة ينطلق قالب قرميد ليضربه ويسرق.. هذه واحدة.. صائغ يعرض خواتمه على زبون لم يدسّ يده في جيبه قط وبرغم هذا تختفي الخواتم.. سيدة عجوز أغلقت الباب عليها من الداخل بالمفتاح، وبرغم هذا انفتح الباب بسهولة وسُرقت.. في كلّ مرّة يبرز وجه المهندس الوقور ويقول إنّه لا علاقة له بالموضوع.. ما معنى هذا؟»

قلت في تردد:

- «واضح أنك تحاول حملي على قول إن هذا الرجل ذو قدرة سحرية..»

ضحك كثيرًا حتى ارتجت المديرية عدة مرات، ثم قال:

- «ليس سحرًا.. لكن لابد من شيء ما.. هذا الكلام الفارغ الذي تعرفه أنت.. لو أمسكنا بالورقة والقلم لوجدنا إن هذه السرقات مستحيلة.. لكنّها حدثت..»

- «هل سمعت عن التحريك عن بعد؟»

لم يعلق.. فقط ظل ينظر لي باهتمام.. فأردفت:

- «هناك أشخاص يملكون هذه الموهبة.. لو تخيلنا أن صاحب هذه الموهبة يتوارى في إحدى البنايات المهدمة ويجعل قالب قرميد ملقى وسط الحقل يطير ليضرب الصراف في رأسه.. لو تخيلنا أن صاحب الموهبة يجعل الخواتم تتواثب إلى جيبه خلسة بينما يداه واضحتان أمام البائع.. لو تصورنا أنه يستخدم موهبته ليدير المفتاح في الأقفال من الخارج ثم ينفتح الباب فيدخل.. لو تصورنا هذا لوجدنا القصة قابلة للتفسير..»

قال في عدم تصديق:

- «هذا هراء.. فقرات حواة لا أكثر..»

هنا دخل أحد الجنود حاملًا مجموعة من الأوراق، فأخرج هذا قلمه وراح يمهرها بإمضائه وهو ينظر لي أكثر مما ينظر للأوراق..

قلت بكبرياء:

- «التحريك عن بعد، ظاهرة حقيقيّة ومعترف بها علميًّا.. لا يجب أن تسخر مما لا تعرفه لكن عندي اعتراضين على هذه النظرية..»

ناول الأوراق للجندي الذي أدى التحية وانصرف.. ثم سألني وهو يعيد القلم لجيبه:

- «ما هي؟»

- «أولًا لم أسمع عن شخص بلغ هذا الشأن وهذه القوة.. قوة تحريك تعبر حقلًا وتنجح في إدارة مفتاح في القفل وتجعل الخواتم تقفز.. هذه قوة مريعة لا تصدق..»

- «وثانيًا؟»

- «ثانيًا.. قوة التحريك تحتاج إلى جزء إيجابي من ذاتك يجب أن يكون العمل بناءً.. لم نسمع عن شخص استخدم قوة التحريك للسرقة.. أعتقد أنّ هذه القوى لا تعمل حينما تستعملها في عمل شرير..»

قال (عادل) باسمًا:

- «إن أغرب ما في القصة لم يأت بعد.. هل تعرف أن طردًا وصلنا هنا في المديرية الأسبوع الماضي.. وقد فتحناه؟ ماذا كان فيه؟ مبلغًا كبيرًا من المال هو بالضبط ما سُرق من الصراف والعجوز.. مع مجموعة من الخواتم والمجوهرات هي ما سرق من الصائغ والعجوز!»

- «ألحظة ندم هي؟»

- «هذا واضح.. ومع الطرد رسالة كتبت بخط (عفاريتي) غريب.. خط لم أر مثله قط يقول: أنا لست لصًا وإنما هي الحاجة.. وقد أنبني ضميري.. لذا أرجو أن تعيدوا هذه الأشياء لأصحابها وتسألوهم أن يسامحوني على أي ضرر..»

قلت في دهشة:

- «هذا غريب.. ما تمت إعادته ليس هينًا.. وماذا عن مرسل الطرد؟ أعتقد أنه لا بد من التوقيع في هذه الأمور..»

مط شفته السفلى بمعنى أنّ هذا لا قيمة له وقال:

- «مكاتب بريد كثيرة يمكن أن ترسل طردًا معتمدة على بياناتك دون إطلاع على البطاقة الشخصية.. هكذا كان اسم المرسل هو (إبراهيم إسكندر) من (محرم بك).. طبعًا هذا كلام فارغ لأننا لم نجد ذلك الشخص في العنوان المذكور أنت تعرف من أرسل الطرد.. كلنا نعرف على كل حال لم يستطع موظف البريد أن يتذكر وجه المرسل.. لقد عرضنا عليه صور أخينا (محمود أبو ربيع) فلم يستطع أن يؤكد أو ينفي..»

- «والخط؟»

- «ليس خطه طبعًا.. هل تحسبنا ننسى شيئًا كهذا؟»

قلت مفكرًا:

- «لو كان موضع التحريك عن بعد صحيحًا فمن السهل أن يحرك القلم بذهنه ليكتب ما يريد..»

قال لي وهو ينهض ليرتدي بذلته:

- «اسمع.. الحل الأمثل هو أن نذهب لنراه الآن!»

كدت أموت ارتباكًا..

ما هي جدوى إجراء كهذا؟ ولو كان هناك مبرر لدى (عادل) فما مبرري أنا وماصفتي لاقتحام حياة الرجل؟ دعك من أن المحركين - على الأرجح - ليس لونهم أخضر وأكثرهم بلا ذيول.. هل يتوقع مني (عادل) أن أنظر للرجل.. أفتح فمه.. أنظر في أذنه ثم أصيح: هذا من المحركين! اقبضوا عليه!!؟؟؟

حاولت الاعتذار لكن (عادل) قال باشمئزاز وضيق:

- «يا أخي تعال.. ماذا تنوي عمله في الإسكندرية إذن؟ على الأقل سنكون معًا.. أليس هذا ما تريد؟»

هكذا وجدت نفسي أقاد إلى بيت الرجل..

☆ ☆ ☆

(ستانلي)..

(عادل) يقفز على الدرجات قفزًا.. ثم يتوقف أمام باب حديدي لإحدى الشقق ويقول لي بصوته الجهوري:

- «هذا بيت صاحبتك.. السيدة (عواطف)..»

كنت أنا قد نسيت كل شيء عن الموضوع فسألته (عواطف من؟).. فقال في نفاد صبر:

- «العجوز التي سرقت شقتها.. لقد قامت بتثبيت هذا الباب الحديدي بعد الحادث.. يبدو أن اللص لم يسرق منها كل شيء..»

ثم واصل صعود الدرجات حتى بلغ شقّة أخرى فراح يدق الجرس بلا هوادة.. حتى تمنيت أن يتوقف..

انفتح الباب ليكشف عن وجه رجل وقور في الأربعين من عمره كما قلنا.. كان موشكًا على الصراخ حين فوجئ بـ (عادل) أمامه.. نظر له ونظر لي في رعب ثم قال:

- «سيادة العميد كنت أتمنى أن أرحب بك لكن هذا أكثر مما أتحمله..»

قال (عادل) وهو يتقدم إلى الداخل غير مبال بعدم الترحيب الواضح:

- «أنا لم آت بأية صفة رسمية.. أنا هنا بصفتي صديقًا.. ألا ترحب بأصدقائك؟ ألم نلتق في المديرية وشربنا الشاي معًا؟»

كان الرجل أصلع الرأس بادي التعاسة وقد أدركت أن (عادل) ضايقه بزياراته كثيرًا، وفي كلّ مرّة يزعم أن الصداقة هي السبب عسير أن تشعر براحة وأنت تتلقى زيارة من رجل الشرطة الذي يتهمك بالسرقة.. دعك من أن يكون هذا الرجل عميدًا..

هتف الرجل وهو يغلق الباب وراءنا:

- «قلت لسيادتك إنّه لا دخل لي بهذا كله.. أنا عاثر الحظ لا أكثر ولا أقل..»

جلس (عادل) في الصالون ووضع ساق على ساق وراح يفتش بعينيه في المكان، ثم سأل فجأة:

- «من أين تعرف (إبراهيم إسكندر)؟»

نظرت إلى وجه الرجل فلم يبد عليه أي اختلاج.. قال في صدق:

- «لم أسمع هذا الاسم قط..»

- «ليكن.. هل تنوي تقديم شاي لنا أم ننصرف؟»

طبعا كان يتمنى لو كان له الخيار، لكنه فضل أن يدخل إلى المطبخ ليعد لنا بعض الشاي.. وجلت بنظري في المكان بحثًا عن شيء غريب.. لا يوجد.. لكن حياة الرجل هي بالضبط كما وصفها (عادل).. ليس ثريًا وليس فقيرًا..

ما إن غاب الرجل حتى سألني (عادل) بطريقته العدوانية الهجومية:

- «ما رأيك؟»:

قلت في نفاد صبر:

- «لو جمعت (فرويد) و(يانج) و(أدلر) معًا وطلبت منهم أن يعطوك انطباعًا عن هذا الرجل بعد ثلاث دقائق من لقائه؛ لما نبسوا ببنت شفة..»

ثم خطرت لي فكرة.. دنوت من (عادل) وهمست بها في أذنه فوافق عليها.. بكثير من الشك وافق عليها..

عاد الرجل حاملًا الشاي ليجدني مع (عادل) ننظر إلى صورة فوتوغرافية صغيرة أحملها أنا.. وكنا نتهامس وننظر إليه وإليها خلسة، فلمّا صار أمامنا وضعت الصورة مقلوبة على المنضدة في شيء من الارتباك.. قال (عادل) بهمس مسموع:

- «فيما بعد.. فيما بعد.. هذا يفسر كل شيء..»

ومد يده إلى كوب الشاي الخاص به ورشف منه في نهم.. ثم سأل المهندس:

- «ألم تعد إلى قرية (النجفية) بعد؟»

واضح أنّ هذه هي القرية التي سرق فيها الصراف.. قال المهندس في نفاد صبر يوحي بأنه يفهم إيحاء السؤال:

- «نعم.. لم أعد.. لقد انتهى عملي هناك مع صاحب الأرض..»

- «ومما تصرف الآن؟»

- «مستورة والحمد لله..»

كانت عيناه لا تفارقان الصورة المقلوبة وإن كان يحاول مقاومة هذا.. قال لي (عادل) وهو ينهض حاملًا كوب الشاي في يده:

- «هل تعرف (ستانلي) جيدًا؟ إن هذه النافذة تعطيك رؤية ممتازة..»

وقفت أنظر معه إلى الجهة التي يقصدها.. ثم استدرنا فجأة نحو الرجل الذي لم يفارق مقعده..

كما توقعت تمامًا..

الصورة قد انقلبت ليصير وجهها لأعلى!

☆ ☆ ☆

4

حين انتهينا من تأمل المشهد من النافذة عدنا لنجلس في مقعدينا.. وكانت الصورة قد عادت كما تركتها.. مقلوبة لا تعرف ما فيها..

وضع (عادل) كوب الشاي الفارغ على الصينية، بينما تناولت أنا الصورة المقلوبة وعرضتها على المهندس:

- «هذا ابن أختي (رئيفة).. أحتفظ بصورته دائمًا لقد صار طالب طب ويرغب في أن يكون مثلي..»

قال بلا حرارة:

- «ربنا يخلي..»

واتجهنا نحو الباب والرجل يتبعنا..

وفجأة - وبلا أي داع واضح أو إنذار - فقد (عادل) كل البرود الذي تعامل به منذ البداية.. انقض على الرجل ليقبض على سترته ويقربه من وجهه بشراسة جمدت الدم في عروقي..

قال من بين أسنانه والرجل ينظر له عاجزًا عن الكلام:

- «والآن اسمعني أيها اللص.. أنا أعرف أنك فعلتها وأنت يجب تعرف أنني أعرف أنك فعلتها.. ربما أرجعت المسروقات وربما استيقظ ضميرك لكن هذا لا ينفي أن عليك دينًا للدولة لا بد من تأديته.. هناك اعتداءات وأشخاص لا ذنب لهم جُرحوا وضُربوا ورُوعوا.. لا بد من أن تدفع ثمن هذا ولسوف تدفعه.. والآن اسمعني أيها اللص.. لا تنس أنني ألاحقك.. لن تغيب عيني عنك حتى لو مات أحدنا عندما تصحو من النوم وتقابل بائع الصحف أن تعرف أنه من رجالي.. عندما يصطدم بك راكب في حافلة عليك أن تعرف أنني أرسلته.. جارك في السينما من رجالي.. زوجتك المقبلة لو تزوجت ستكون مرشدة تتقاضى راتبًا من مكتبي.. لو فتحت نافذتك فلتعلم أن خبر ذلك قد وصلني وأنا في المديرية.. سأعرف كم رغيفًا التهمت في العشاء وكم مرة دخلت الحمام عندما تصاب بالإسهال.. لن ينقذك مني إلا أن تموت.. لو كنت مكانك لمت.. هذا حل سعيد للجميع.. لكن إلى أن يحدث هذا فلتتذكر أنني أراقبك.. أنني أتحرش بك.. ويوما ما سترتكب خطأ فادحًا عندها ستجدني بانتظارك ولسوف أبرهن أمام المحكمة على أنك فعلتها.. لا أحد يستطيع خداعي أبدًا!»

قال الرجل بضع كلمات لم يتبينها هو نفسه.. فقال (عادل):

- «دعك من هذا السخف.. وحتّى ذلك الحين سأزورك دائمًا.. سأكون معك في كل مكان.. إما أن تعترف أو ترتكب ذلك الخطأ أو تجنَّ أو تنتحر.. كلها حلول تروق لي فعلًا!»

وبصوت كفحيح الأفعى قال:

- «لقد انتهى أمرك! أنت صرت تاريخًا!»

لاحظت في استمتاع أنه يستعمل تعبيرًا إنجليزيًا هو You're history الذي لن يفهمه الرجل غالبًا.. بل سيفهمه.. سيفهمه حتمًا وهو يرى نظرة (عادل) المتوحشة..

ثم أطلق سراحه وقال وهو ينظر له نظرة نارية:

- «هيا بنا يا دكتور!»

☆ ☆ ☆

في سيارة (عادل) سألني:

- «هل تعتبرني قسوت عليه؟»

قلت له وأنا أرمق معالم الطريق:

- «لقد نجح الاختبار الصغير الذي عقدته له.. كانت صورة غير ذات أهميّة، لكن تمثيليتنا جعلته يوشك على الإصابة بالخبال لو لم يعرف محتوى تلك الصورة.. هكذا فقد حذره وحركها! أنت رأيت معي أنه لم يغادر مقعده.. برغم هذا انقلبت الصورة مرّتين.. لقد أراد أن يُلقي نظرة عابرة على هذا الشيء الذي نتهامس بصدده، ولعله فكر في أن أحدًا التقط له صورة تدينه..»

- «أنا رأيت هذا.. أكره تصديقه لكنه حقيقي..»

قلت في كياسة:

- «أنا رأيت أحداثًا شبيهة من قبل.. كل هذا حقيقي.. لكن كيف تقنع أي وكيل نيابة أو أى قاض في محكمة بذلك؟ حتى لو حرّك الرجل شيئًا أمامهما فلن يتخذاه دليل إدانة..»

- «هذا ما أفكر فيه.. أنت لم تقدم لي الكثير في الواقع.. كنت أعرف أن الرجل فعلها.. بتحريك أو من دونه هو فعلها ولا نقاش في هذا.. كنت أعرف (ماذا حدث) و(لماذا حدث).. أنت فسرت (كيف حدث)..»

ابتسمت وقد تذكرت ما كان أساتذتنا يقولونه عن اختبار دارسي الطب.. طالب البكالوريوس يجب أن يعرف (ماذا حدث) وكفاه هذا.. طالب الماجستير يجب أن يعرف (كيف حدث) وكفاه

هذا.. أمّا طالب الدكتوراه فلا أقل من أن يعرف (لماذا حدث)!

أما الأغرب والأكثر طرافة فهو أن (عادل) بطبيعته العملية نافذة الصبر لم يعط ثانية واحدة للدهشة.. فليحرك الرجل الأشياء بعقله أو بلعابه لا يهم.. هذه تفاصيل سخيفة.. المهم هو أن تقبض عليه.. ليس في نفسه متسع لذرة واحدة من الفضول أو التساؤل الميتافيزيقي إنما هو يريد أوراقًا وأدلة وأحرازا!

ساد الصمت بيننا.. ثم قلت:

- «لقد أعاد ما سرقه.. لماذا لا تتناسى الأمر؟»

ضغط على نفير السيارة في عصبية.. لا أعتقد أن شيئًا كان يسد الطريق أمامه إنما هي طريقة للصراخ المحتج، وقال:

- «لقد اعتدى على أناس أبرياء.. وضلل الشرطة.. إن جريمته لا تُمحى بإعادة ما سرق.. لسنا في مصلحة الضرائب هنا لنتكلم عن (التصالح)..»

وساد الصمت بينما هو يوشك على ارتكاب عدة جرائم قتل بسرعته هذه..

ثم قال لي:

- «اسمع.. إلى أين أنت ذاهب الآن؟ سنتناول الغداء معًا..»

- «قلت لك إنني لا أرغب في..»

- «أنا أرغب في أن تصمت.. ستأكل عندي بلا مناقشة وكفانا أننا تأخرنا ساعتين على موعد الطعام..»

☆ ☆ ☆

لم تكن (سهام) فاترة جدًّا، وتمنيت أن تكون قد نسيت ما حدث من ذلك الوقح الذي يشبهني من يدري؟ ربما لم يفسد كل شيء كما توقعت..

كان (عادل) يلتهم الطعام التهامًا ويبدو أن شهيته تكون في أحسن حالاتها عندما يكون عصبيًا.. كان يقول بفم مليء بالمكرونة:

- «سترى! سيجد ظهره للجدار في النهاية.. ما من جهاز عصبي يتحمل كل هذا الضغط.. هيه؟ لماذا لا تأكل هذا (الهباب)؟»

فرحت أعبث بشوكتي في هذا (الهباب) وأنا أفكر.. يمكنه أن يجعل حياته جحيمًا وهو على ذلك قادر، لكن ماذا بعد؟

قلت له:

- «لماذا لا تجدون له تهمة أخرى؟ أنت تذكر كيف أنهم لم يستطيعوا إثبات تورط (كابوني Capone) في كل جرائم القتل والتهريب والابتزاز التي مارسها، من ثم وجد له (إليوت نس) تهمة تافهة بعض الشيء هي التهرب من الضرائب.. بفضل هذا قضى (كابوني) أهم أعوام حياته في السجن وزال خطره..»

قال وهو يفسخ بطة عملاقة على المائدة تفسيخًا، ثم يُلقي بنصفها تقريبًا في طبقي:

- «كُل.. كُل.. أقول إن هذا صعب لأن الرجل لا يرتكب أخطاء تقريبًا.. إنِّه مواطن مسالم.. ويصعب أن تجد طرفًا تمسك به معه.. إنِّه كالكرة التي يستحيل أن تمسك بها..»

ثم غرس الشوكة في نصف البطة الآخر وقال:

- «اسمع.. ستأتي معي إلى المديرية هذه الليلة ولسوف نرسل في استدعائه.. أريد أن تستجوبه أنت في مكتبي. أريد أن تصارحه بأننا نعرف تلك القدرة التي يملكها..»

قلت محتجًا:

- «لكن لابد أن أعود إلى القاهرة اليوم و..»

هتف في حنق وهو يصب بعض الماء في كوب:

- «لا تذكر أعذارًا فهي غير مقبولة.. سوف أقضي على هذا الثعبان اليوم!!»

هكذا رحت أواصل الأكل وأنا أفكر في طريقة الفرار من هذا الإعصار الذي يبدو أنه اعتقلني أنا بدلًا من اللص..

☆ ☆ ☆

5

مديرية الأمن وقدح القهوة الثالث..

كنت جالسًا في مكتب (عادل) أشعر بالحرج والملل، بينما هو قد أرسل المخبرين ليحضروا (محمود) إلى هنا.. وقد حضرت عشرات المقابلات وسمعت مئات المكالمات الهاتفية.. ومن حين لآخر يدخل ضابط شاب لينظر لي نظرة تساؤل قبل أن يؤدي التحية لرئيسه..

ويدخل الجندي المسئول عن الباب ويؤدي التحية فيقول (عادل) دون أن ينظر له:

- «قدح من القهوة للدكتور وكوب عصير لـ (أشرف)..»

فأقول أنا في وهن:

- «حقًّا أنا لا أرغب في...»

- «ستشرب! أنا قلت إنك ستشرب!»

- «إذن فلماذا لا تشرب أنت أيضًا؟»

فيهتف في حيرة غير مصدق:

- «أشرب أربعة أقداح من القهوة؟ هل جننت؟ كيف تتحمل معدتي كل هذا؟!»

أما (أشرف) ابن (عادل) الوحيد فهو اليوم في سن المراهقة، وهو فتى وسيم شديد التهذيب.. لا أعرف لماذا اصطحبه (عادل) هنا لكن من الواضح أنه يفعل ذلك كثيرًا.. من الواضح أنه يعوده على جو الشرطة ليكون يومًا مثله.. وعلى كل حال بدا أن (أشرف) مستمتع بوقته حقًّا، وكان يحفظ المخبرين والجنود واحدًا واحدًا..

بعد قليل دخل الجندي ليخبرنا أن (محمود) على الباب..

أمر (عادل) بإدخاله.. وواصل كتابة أوراقه ليظهر عدم اهتمامه بالقادم..

كان الانهيار العصبي باديًا على وجه المهندس حين دخل الغرفة.. مستسلمًا واهنًا منهكًا لدرجة أنه لا يستطيع الكلام..

قال (عادل) دون أن ينظر له:

- «إجلس يا بشمهندس.. صديقي د. (رفعت) لديه ما يقوله لك»

قال الرجل محتجًا:

- «سيدي.. ألم يحن بعد الوقت الذي ترحمونني فيه؟»

قال (عادل) بطريقة المودة الزائفة تلك:

- «من قال إننا نضايقك؟ نحن نحب أن نراك لهذا سنستدعيك كل يوم في أي وقت لتجلس معنا هنا ونشرب الشاي.. هيا يا د. (رفعت).. كلمه..»

كان الموقف محرجًا.. لقد جلس الرجل جواري يصغي لي وأنا أقدم له نظريتي المخبولة عن اللص الذي يحرك الأشياء عن بعد.. قلت إن لدى دليلًا واضحًا هو الصورة التي انقلبت.. وطلبت منه أن يريح ضميره ويعترف.. اللص الذي يعيد المسروقات هو شخص راغب في إنقاذ روحه.. عليه أن يكمل هذا الإنقاذ باعتراف كامل..

كان يصغي لي في إنهاك وتعب.. لا بد أن الدجاجة لا تبدو بهذا المنظر وهي تنتظر الذبح.. في النهاية قال لي:

- «سيدي.. أنتم تريدون خراب بيتي وهدم مستقبلي وتشويه سمعتي لمجرد فكرة واهمة عن التحريك عن بعد لا يوجد شيء كهذا ولو وجد فأنا لا أتمتع به.. هلا سمحتم لي بأن أرحل؟»

قال (عادل) كعادته دون أن ينظر له:

- «ليس بهذه السرعة.. ستنتظر بالخارج حتى يساعدك هذا على التذكر..»

واستدعى الجندي وأمره بأن يظل الأستاذ جالسًا بالخارج في الردهة حتى يطلبه ثانية:

- «وهات له شايًا.. إنِّه يحبّ الشاي!»

كنت أشعر بارتباك لا مثيل له.. لو كان هذا المهندس بريئًا وكان انقلاب الصورة مجرد وهم مر بنا، فمعنى هذا أننا نبذل ضغطًا عصبيًا هائلًا على رجل بريء..

لكن (عادل) لم يكن يملك أية شكوك.. وهكذا غادر المهندس الغرفة..

ساد الصمت من جديد وأدركت أن (عادل) لن يفتح الموضوع ثانية لأن هذا صار مملًا.. فقط جلست أنتظر اللحظة التي يفرج فيها عني لأرحل..

☆ ☆ ☆

بعد قليل دق الباب ودخل ملازم شاب ليقول:

- «سيدي.. إن (أبو شليب) معي.. هل ترغب في أن تقابله أم ننهي نحن الموضوع؟»

رفع (عادل) عينيه متسائلًا، ثم تذكر فقال في لهفة:

- «لا.. لا.. طبعًا أريد أن أوجه له كلمتين..»

هكذا انفتح الباب ليدخل ثلاثة جنود يحيطون بدب أشهب لا.. ليس دبًّا.. إنّه رجل على سبيل الترف التصنيفي.. فقط لإرضاء الأخ (لينيوس Linnaeus) وسواه ممن صنفوا المملكة الحيوانية.. فيما عدا هذا هو دب.. بحجم دب.. بملامح دب.. بشعر دب.. بعضلات دب.. ثمّة ندبة جرح على خده تمتد من أسفل العين حتى الذقن.. له عين تالفة غطتها سحابة بيضاء.. تلك الأساور الحديدية السوداء التي يحبّها البلطجية.. لا أعرف ما فعله هذا الرجل لكنه مذنب.. بالتأكيد مذنب.. يكفي وكيل النيابة أن يضعه في القفص وهو يزأر ويقول للقاضي: سيدي.. يكفي أن تتأملوا وجه هذا الرجل لتحكموا عليه بالإعدام..

كانت الأصفاد في يديه لكن الجنود كانوا متوترين فعلًا.. وكان يقلب وجهه في الغرفة في وقاحة وجشع.. وقعت عيناه عليّ فشعرت بنظرته تلتصق بخدي كأنها بصقة.. هذا أول إنسان أعرفه يجب أن تستحم بعد أن ينظر إليك..

ثم نظر إلى (أشرف) الذي جلس في مقعد قريب يراقبه في توتر.. يبدو أن الفتى لم يحبّ المنظر فقال إنّه سيخرج قليلًا.. واضح أنه يعرف كل ركن في هذه المديرية..

قال (عادل) باسمًا وهو يشير للسجين:

- «(رفعت).. لك الشرف أن تلقى (أبو شليب).. سفاح الأطفال الشهير.. لقد خنق طفلة في السادسة لأن أمها كانت من الحمق بحيث تضع في أذنيها ومعصميها ذهبًا يكفي هذا الوغد كي يبتاع عدة كيلوجرامات من الحشيش..»

بصوت يشبه منظره قال الدب المكبل بالأصفاد:

- «لم أفعل شيئًا من هذا.. لماذا تضيعون وقتكم مع الشرفاء ولا تبحثون عن الفاعل الحقيقي؟»

- «إذن أنت مواطن شريف.. جميل.. جميل..»

ثم لوح (عادل) بالقلم في وجه الرجل وقال:

- «كل شيء ثابت ضدك وسوف تعترف.. حتمًا ستعترف.. ولسوف تشنق.. لهذا أنا أمارس مهنتي.. كي يختفي أمثالك من عالمنا..»

قال السفاح بطريقته الفظة المتحدية:

- «يا فتاح يا عليم.. لماذا لا تجدون الفاعل الحقيقي؟»

قال (عادل) في اشمئزاز:

- «خذوه واعرفوا منه كل شيء.. من لحظة ولادته..»

هكذا غادر الرجل الغرفة ومعهم زالت تلك الرائحة الكريهة التي كانت تنطلق من أنفاس الرجل وعرقه..

قال (عادل) باسمًا:

- «قد لا تحب عملنا لكن لا تنكر أنه مثير.. لابد أن هنا العلاج الأمثل لمللك التقليدي!»

قلت وأنا أجفف عرقي:

- «مثير أكثر من اللازم لو أردت رأيي.. لا أحب أبدًا أن ألقى هذا الرجل خارج المديرية حرًا وبلا أصفاد..»

- «هذا يشعرك بالإنجاز.. قبل أن تذهب لعملك كان هذا الوغد حرًا يفعل ما يشاء.. بعد انصرافك من عملك لم يعد هناك.. لقد زال.. إن هذه....»

هنا سمعنا الصراخ قادمًا من الردهة.....

☆ ☆ ☆

كان المشهد مثيرًا بالخارج..

وقد سبقني (عادل) بوثبتين إلى هناك على حين تبعته بقدمين لا تصمدان..

كان هناك زحام لكنه يترك مسافة معقولة من مركز الدائرة.. ومركز الدائرة كان (أبو شليب) نفسه.. لكنه لم يكن وحده.. كان يمسك بـ (بأشرف) ابن (عادل) وقد لف سلسلة الكلابش حول صدره.. بينما يده الحرة تضع نصلًا حادًا على عنق الفتى..

وسمعت أحد الضباط الواقفين يقول في رعب:

- «لقد غافل حراسه وبسرعة البرق أخرج هذا (البستك) الذي كان يخفيه في خده، ثم انقض على الفتى..»

وهتف آخر في عدم تصديق:

- «ألم يفتشوا خده؟ تبًّا للإهمال!»

طبعًا يمكنه أن يدخل أنامله في فمه حتى لو كانت يده مكبلتين بالأصفاد..

ضابط شاب متحمس أخرج مسدّسه وصوبه نحو رأس الرجل، لكن يد (عادل) الحازمة وضعت على يده وقال:

- «لا تفعل! إن رأس (أشرف) قريب جدًّا.. وقد تتقلص يد الرجل على النصل..»

وتقدم في تظاهر بالثقة نحو الدب الذي يقيد الفتى.. كان مرتبكًا لكنه يحاول ألا يظهر ذلك، وقد أدرك أن الكل قرر أن يترك له وحده اتخاذ القرار.. ليس هناك سواه كي يقول ويفعل.. ليس هذا من حق واحد آخر..

قال وهو يمد يده نحو (أبو شليب):

- «اتركه يا (أبو شليب) أنت أعقل من هذا..»

أعقل؟ طبعًا لا لأن الرجل تراجع بظهره ليصير ملاصقًا للجدار، تحت لوحة شعار وزارة الداخلية، وراح يردد في هستيريا:

- «ربنا يخلي البيه الصغير يا باشا.. ربنا يخلي البيه الصغير يا باشا.. ربنا يخلي البيه الصغير يا باشا..»

ثم انفجر ضاحكًا.. لماذا لا ينظف هؤلاء السفاحون أسنانهم جيدًا؟

الفتى يبكي وهذا يحطم الأعصاب فعلًا..

سأل (عادل) الدب وهو يتقدم أكثر:

- «كلمني.. ماذا تريد؟»

- «أريد أن أخرج من هنا.. سوف آخذ (البيه الصغير) معي.. وحين أكون في مكان آمن سأطلق سراحه!»

ضابط آخر أخرج مسدّسه لكن (أبو شليب) هتف:

- «آه! لا تطلق الرصاص عليّ.. قد أسقط فيجرح هذا النصل رقبة (البيه الصغير).. لا تنس أننا جميعًا تهمنا سلامة (البيه الصغير)!»

☆ ☆ ☆

- «قد لا تحب عملنا لكن لا تنكر أنه مثير.. لابد أن هنا العلاج الأمثل لمللك التقليدي!»

قلت وأنا أجفف عرقي:

- «مثير أكثر من اللازم لو أردت رأيي.. لا أحب أبدًا أن ألقى هذا الرجل خارج المديرية حرًا وبلا أصفاد..»

☆ ☆ ☆

يا له من موقف!

أنا أعرف مواقف الرهائن هذه Hostage situations وهي تنتهى دومًا في الأفلام الأجنبية بأن يُطلق المجرم سراح الضحيّة لأنّه تعب.. لكن هل يشاهد (أبو شليب) أفلامًا أجنبيّة؟

إنه يائس ومجنون، ومن الواضح انه سيفعل أي شيء.. ربما يقتل الفتى فعلًا ثم يموت راضيًا سعيدًا..

هنا حانت مني التفاته إلى اليسار.. رأيت رجلًا نسيت وجوده..

المهندس (محمود) يقف جوار الحائط وقد نسى الجميع أنه موجود.. كان يراقب المشهد بعينين متسعتين.. ثم رأيته يضغط على شفتيه.. الأوردة تبرز في جبهته وتوشك على الانفجار.. وجهه أحمر تمامًا..

هل أتخيّل أم أنّ هذا الرجل.....؟

إما أنه يفعلها وإما أنه يموت بنوبة قلبيّة الآن..

كان (عادل) الآن يقف بقربي فجذبته من كمه ليرى المشهد الرهيب..

كان المهندس يركز ويركز.. قلبه يوشك على التوقف أو هذا ما بدا لنا..

في اللحظة التالية رأيت الشيء يتحرك.. تلك اللوحة العملاقة التي تحمل نسر وزارة الداخلية والمعلقة فوق رأس (أبو شليب).. رأيتها تتحرر من حبالها.. ترتفع في الهواء.. تجتاز ممرًا غير ممكن فيزيائيًا كأن الرجل الخفي يحملها..

ثم ارتفعت قليلًا لتكتسب طاقة الوضع اللازمة، ثم هوت فوق رأس الرجل بأقصى قوة.. وهو مشهد له دلالته.. نسر الوزارة يهشم رأس السفاح..

صرخ الرجل.. آي! ونظر لأعلى ليرى من هذا الذي ضربه.. هنا هوت اللوحة على رأسه بعنف أكثر وفي هذه المرّة تراجع للوراء وترنح رأسه.. يحتاج هذا الرجل إلى أكثر من ضربتين ليفقد وعيه.. ربما لو صدمه قطار مسرع لأصيب بصداع..

وأمام عيني المذهولتين رأيت النصل يقفز من يده ليسقط على الأرض..

كانت هذه هي الإشارة كي يتحرر (أشرف)، وهي الإشارة ذاتها التي كان ينتظرها كل هؤلاء كي ينقضوا على الرجل.. في ثوان لم أعد أراه من كل الأجساد التي تكأكأت فوقه.. وتطايرت اللكمات في الهواء.. سوف يتحول إلى هامبورجر خلال نصف دقيقة لكني لا أتعاطف معه على الإطلاق..

(عادل) يحتضن ابنه وكلاهما يبكي.. رجل الشرطة الصارم يبكي ويلثم شعر ابنه غير مصدق..

ثم رفع الأب وجهه المبلل بالدمع وقد صار صدر قميصه كله مبتلًا.. رفع وجهه نحو المهندس الزراعي الذي تقدم منه في بطء..

للحظة ساد صمت ثقيل ولم يقل أحدهما شيئًا..

قال المهندس وهو يمد يديه لـ (عادل):

- «أعتقد أنك تلقّيت الإجابة على أسئلتك يا سيدي العميد سوف أكرر التجربة في المحكمة لتصدقك إذا أردت..»

ثم شهق في إنهاك وقال:

- «حان الوقت كي تنتهي لعبة القط والفأر هذه.. لقد تعبت.. أنا تحت تصرفك يا سيدي..»

نظر له (عادل) ثم نظر لـ (أشرف) ثم لي..

ثم التفت إلى أحد جنود الحراسة في الردهة وقال بعصبية:

- «ماذا يفعل هذا الأخ هنا؟ أنا لا أعرفه.. حسبت أن عملك هو أن تمنع العابرين من الوقوف أمام مكتبي!»

والتفت إلى أحد الضباط الشبان وقال:

- «أرسل مع هذا الرجل - الذي لم أره من قبل - سائقًا يوصله إلى بيته..»

واستدار مبتعدًا وتبعته أنا و(أشرف) عبر الردهة الطويلة..

☆ ☆ ☆

خاتمة

كانت هذه هي خبراتي الأساسية مع المحركين..

صحيح أنني احتككت بهم أكثر من مرة، لكن هذه هي الخبرات الأهم على كل حال وكما قلت كثيرًا من قبل: هؤلاء لا يعلنون عن أنفسهم وليسوا استعراضيين بالمرة، لا أعرف إن كنت أنت منهم أم لا.. ثمّة احتمال لا بأس به أن تكون منهم لكنك تجهل هذا.. ثمّة احتمال أن يكون صديقك منهم لكنه ينكر هذا.. أعرف شيئًا واحدًا يقينًا: أنا لست منهم..

هل راقت لك هذه المجموعة من القصص؟ أرجوا هذا.. ربما أكررها فيما بعد وربما لا أفعل.. هناك من يفضلون القصة الطويلة الدسمة وهناك من يفضلون الومضات السريعة القصيرة.. أنا أملك حبًّا أصيلًا للقصص القصيرة خاصة إذا ما جمع بينها خيط وهو أسلوب (البورتامنتو) الذي كلمتكم عنه من قبل، لكن هناك كثيرين قد لا يحبونه..

يبدو أنّ هذا الصيف لن يحوي الكثير من الرعب، لأن لنا لقاءات أخرى مع القدرات النفسية الخارقة أو الظواهر غير القابلة للتفسير..

سوف نتحدث عن العلامات الدامية.. وهي ظاهرة يعرفها كل من تعامل مع عالم ما وراء الطبيعة أو سمع عنها.. كلا.. ليست الـ Stigmata التي هي ظاهرة دينيّة معروفة في الغرب.. سوف نتحدث عن العلامات الدامية التي.....

ولكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

الوجه الثالث: الشوارع حواديت...

1

2

3

4

5

الوجه الرابع: لك يا سيدتي؟

الوجه الخامس: تحت تصرفك

1

2

3

4

5

خاتمـــة

٢٠٠٤/٦٦٦٦

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورتهم

نعم .. المزيد من القصص
عن ظاهرة التحريك عن بعد ..
سوف نعرف المزيد عنهم .. هل هم قريبون
منا إلى هذا الحد ؟ .. أم هم كيانات أسطورية
متخفية وبعيدة جداً ؟ .. هل حقاً نملك جميعاً
تلك الموهبة ؟ .. هل هم أشخاص مثلنا عرفوا
كيف يفجرون ينبوعهم الخاص ؟ ..
الأسئلة كثيرة منهكة ، وبعضها بلا إجابة على
الإطلاق ، لهذا نتحدث اليوم عن
(أسطورتهم) ..



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم :
أسطورة العلامات الدامية

الثمن في
ومايعادله بالدولار
في سائر الدول العربية والعالم

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٦٨٢٧٠٠٢

مطابع

Notes

[1←] لاحظ أنها تزوجت.. لم يعد اسمها (ثورنوايلد) بل هي تحمل لقب زوجها..

[2←]
لاحظ أننا نتحدث عن زمن قديم.. حاليًا لم يعد أحد يسرق مبالغ كهذه!

روايات مصرية للجيب

65

أسطورة العلامات الدامية

ما وراء الطبيعة



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة النخبة

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



المقدمة

يعرف عدد من الأصدقاء أنّ هذا ليس كتيب (العلامات الدامية) في صورته الأولى.. لقد تم حذفه وأعيدت كتابته بالكامل، ولهذا قصة يطول شرحها.. لا أعرف إن كان هذا هو القرار الأصوب.. ربما كان الكتيب أفضل حالًا في صورته السابقة، لكن أوان اتخاذ قرارات كهذه قد تأخر للغاية..

هي تجربة ربما تستمر وربما تتوقف، لكني شعرت بالحاجة إلى دماء جديدة تحقن في السلسلة.. وهذه الدماء ليست سوى زيادة سرطانية في عدد الصفحات وربما الأفكار، مع تقليل عدد الإصدارات السنوية.. قال أجدادنا إن العدد في الليمون، وأنا لم أتباه يومًا بأنني مزارع ليمون نشط..

دعونا نتجاهل هذه المقدمة إذن تلك التي لا دور لها إلا أن تثب بالمؤلف إلى المقدمة بلا داع ولنتكلم عن حكاية اليوم التي اجتمعنا لها.. يقول (ستيفن كنج Stephen King): «من الخير أن يتوارى المؤلف تمامًا فلا يعود له وجود بعد الصفحة الأولى..».. على أن الأمر يختلف.. بصددنا نوعًا لأن هناك مؤلفًا لا داعي للكلام عنه وبطلًا حقيقيًا يتكلم بضمير الشخص الأول هو العجوز الثرثار (رفعت إسماعيل).. وهذا العجوز لا يمكن أن يتوارى..

كما تعرفون أنا (رفعت إسماعيل) ذاته.. أستاذ أمراض الدم المتقاعد.. يقول المهتمون بهذا الفرع الشائق من الطب إنني جيد.. لكن غالبية من سمعوا اسمي عرفوني طاردًا للأشباح أو مطاردًا لها. هناك من يحسبني بارعًا أنتمي لعالم (راين) و(دي) وغيرهما، وهناك من يحسبني نصابًا ينتمي لعالم (يوري جيلر) وسواه.. فقط أقول إنني لم أطلب مليمًا لقاء ما أعرفه، ولم أقدمه على مسرح، ولم أطلب الإعجاب أو التصديق.. من يعرفني جيدًا يعرف أن جل ما أطلبه هو أن أترك وشأني.. لكن هذا من المستحيلات في عالمنا..

الآن حان وقت الكلام.. وأنا بحق أحب الكلام.. إنّه دليل لا شك فيه على أنني ما زلت حيًّا..

قصتي اليوم تحكي عن ظاهرة غريبة بعض الشيء.. ظاهرة تلك الكهوف في الهند حيث..

لحظة.. سأراجع غلاف هذا الكتيب.. عم كنت أنوي الحديث؟ العلامات الدامية؟ أنا وعدت بالحديث عن العلامات الدامية؟ أليس هذا غريبًا بعض الشيء؟ ألم ينصحني أحدكم بالعكس؟

ليكن.. ظاهرة العلامات الدامية.. إنها في النهاية قصة كأية قصة أخرى..

هل سمعت عنها؟ لا؟ إذن دعنا نبدأ في الحال بلا مقاطعة..

تمهيد

منذ العام ١٩٦٠ لم يستيقظ عم (جلال) لصلاة الفجر.. وهذا لسبب بسيط جدًّا هو أنه لم ينم قط قبلها..

في ذلك الشارع الضيق الصغير كان الضوء الوحيد ينبعث من بقالته، وكان هو المكان الوحيد في العالم بالنسبة لسكان الشارع على الأقل الذي تستطيع أن تبتاع منه علبة سردين أو شاي أو تبغ بعد الثانية صباحًا..

إنه مكان دافئ آمن يشبه الفنار للسفن الضالة.. هناك سوف تقترب لتجده جالسًا وسط المحل بين البضائع.. موقد الكيروسين بدفئة الجميل وصوته العذب في ليالي الشتاء. والبطانية على كتفيه وصوت (أم كلثوم) ينبعث من ذلك المذياع العتيق المربوط بالحبال..

سوف تقف عنده متلذذًا بذلك الشعور: ظهرك يرتجف من الصقيع ووجهك ينعم بالدفء.. شعور يبعث فيك القشعريرة مع رغبة عارمة في أن تدخل لتنام بالداخل، لكن هذا مستحيل لأن المحل ضيق جدًّا.. وقد رتب هو كل شيء بحيث لا يضطر إلى النهوض أبدًا..

لكن بقالة عم (جلال) من المواضع النادرة في العالم التي تجعلك تشعر بأن الحياة تستحق أن نحياها.. وقد قالت زوجة من ساكنات الشارع:

- «لو صحوت يومًا فوجدت أنّ هذا الرجل مات، لشعرت بأن العالم قد انهار..»

الرجل نفسه عجوز باسم لم يترك مرضًا في كتب الطب إلا اتخذه لنفسه كما يقتني هواة النفائس مقتنياتهم، وإلى حد ما كنت تشعر بأنه يفخر بأمراضه هذه.. إنّه يحدثك باعتزاز عن النقرس ويحدثك بفخر عن الروماتزم ويحدثك بكبرياء عن داء السكري.. ولو كان ذا ثقافة طبية لاتخذ مرضًا غريب الاسم مثل (التهاب الحيزوب) أو (الانسكاب البلوري) ليضمه لمجموعته..

هكذا يظل الرجل في متجره وحيدًا لا تعرف فيما يفكر ولا أية ذكريات يجترها، ثم يتعالى صوت الأذان من زاوية قريبة فينهض.. معجزة أن تراه ينهض كأنك ترى أحد ديناصورات (راي هاري هاوزن Haussen) المتخشبة في أفلامه القديمة.. حتى توشك أن تبكي تأثرًا لرؤية هذه المعجزة..

إنه يغلق المتجر.. يمشي إلى المسجد وهو يردد الأدعية بصوت خفيض.. يؤدي الصلاة ثم ينصرف إلى داره.. إنّه يعيش بلا ولد مع زوجة عجوز مثله في شقّة ضيقة بذات الشارع..

هكذا لن تراه ثانية إلا بعد صلاة الظهر..

أعترف أنني كنت أهيم حبًّا بهذا المتجر وهذا الرجل.. بالنسبة لوطواط حقيقي مثلي كنت بحاجة إلى شخص مثله.. وهكذا كنت أحيانًا أستقل سيارتي وسط شوارع المدينة المظلمة الغافية حتى أصل إلى هذا الشارع.. وهناك أتوقف عنده وأبتاع شيئًا أو شيئين لا حاجة لي بهما، وأتبادل معه كلمات عن (أم كلثوم) وعن البرد وعن داء السكري لابد من أن يسألني عن دواء ما لشيءٍ ما، فأكتبه له على قصاصة ورق وأنا أعرف يقينًا أنه لن يبتاع هذا الدواء وأن القصاصة ستضيع خلال خمس دقائق..

أرمق بشفقة وجهه العجوز الطيب المريض، ويخطر لي أن هذا الرجل كان طفلًا يومًا ما وكانت له أم تعلمه المشي وتبدل ثيابه.. كان شيئًا نضرًا عزيزًا. أما اليوم فموته حدث مؤسف لا أكثر. سوف ننساه بعد دقائق..

أحيانًا كنا نتبادل السعال لا أكثر، وأعترف أن هذه كانت من أعمق المحادثات التي سمعتها في حياتي..

أحيانا كنت أقف صامتًا لأصغي في تهيب لصوت موقد الكيروسين الذي أعتقد أنه يجب أن يضم إلى السيمفونيات العالمية.. وأداري أسئلة عديدة.. من أين يبتاعون هذا الاختراع الساحر؟ كيف يشعلونه؟ من أين يبتاعون الكيروسين وأنا لم أر بائع كيروسين في شارعنا منذ ٨٦ سنة؟

ثم أنصرف وأنا أتنهد.. نعم.. أعترف أنني أحب هذا الرجل بجنون..

☆ ☆ ☆

في ذلك اليوم نهض الرجل كعادته ليقصد المسجد..

أغلق المتجر.. وبدأ زحفه البطيء المتثاقل إلى الزاوية في نهاية الشارع.. هناك منعطف بعدها يصل.. والطقس بارد يجعله يلتف أكثر بذلك المعطف الصوفي العتيق ويحكم التلفيعة أكثر حول عنقه.. إنّه يتوضأ في المتجر دومًا بماء قام بتدفئته لأنّه لن ينزع هذه البطانية أبدًا إلا في داره..

لنا الآن أن نتصور الشارع الضيق الصموت.. هناك كلب ضال أو كلبان يلتهمان شيئًا في لفافة تخلص منها أحد الجيران.. ثم يعوي قط في مكان ما وقد أصابه الهلع فتنطلق الكلاب كالبرق خلفه..

إضاءة عامود النور الخافتة.. المتاجر والمطعم التي تعجّ بالصخب صباحًا وهي الآن غافية كالبشر تمامًا..

جو يثير الخيال لكن من قال إن عم (جلال) يملك أي قدر من الخيال؟ مناخ يبعث التوجس.. لكن من قال إن الرجل يخشى شيئًا؟ من يرد شيئًا من رجل عجوز مثله فليفعل.. لو قتلوه لاختصروا عذاب الشيخوخة.. ولو سرقوه فلا يعني هذا أكثر من ضياع جهد يومين..

هكذا يواصل مسيرته التي تستغرق عدة قرون نحو المنعطف..

ولكن.. ما هذا الصوت؟ هل هي بومة؟

إج ج ج ت ت ت وو وو ش ش ش ش ش ش!!

لا.. ليست بومة.. إنّه أقرب إلى صوت شخص يئن.. لكن من الذي يصدر صوتًا كهذا عندما يئن؟

!ج ج ج ت ت ت وو وو ش ش ش ش ش ش!!

إن الصوت يأتي من مدخل تلك البناية العتيقة التي تحرس زاوية الشارع.. بناية من طابقين نخرين لا يميزها شيء.. لكن الصوت يخرج منها بالذات..

هكذا اقترب أكثر ونظر عبر المدخل بعينين لا تريان..

وهتف بصوته الواهن:

- «يا أهل الله!»

لا أحد يرد..

عبث في جيب المعطف حتى وجد علبة الثقاب.. يحملها معه دائمًا برغم أنه لا يدخن.. لأنّه يشعل سجائر الزبائن الذين يقفون يثرثرون معه.. شليك! اشتعل العود..

وعلى الضوء المتراقص مد عنقه يتفحّص المدخل.. سلحفاة عجوز تطل من درقتها في شك..

وعلى الفور أدرك أنه يرى ذلك الجسد الراقد على الأرضية.. جسد بشرى تحيط به بركة صغيرة من الدماء.. ودنا أكثر وقلبه يتواثب بين ضلوعه فرأى المشهد بشكل أوضح لكنه لم يتبين شيئًا ذا بال عندما نخاف لا نبصر التفاصيل.. فقط نأخذ انطباعًا عامًا..

ونظر إلى الجدار فوجد أن الدم قد تناثر عليه..

وفي ضوء اللهب الراقص استطاع أن يقرأ كلمة كتبت بالدم وبوضوح شديد:

عباس

عند هذه اللحظة كان قلبه قد تحمل الكثير جدًّا.. إنّه ذلك الألم المعاصر الذي يجتاح عظمة القص ويتسلل إلى كتفه اليسرى سقط العود من يده..

واستند إلى الجدار شاعرًا بالخطر..

قلبه الذي تحمله خمسة وستين عامًا يوشك على أن يعلن الإضراب..

فتح فمه وأطلق بصوته الواهن أعلى أنين استطاع أن يصدره..

الجزء الأول:
العلامات الدامية

وهذا القاتل - ككل القتلة المتسلسلين في الواقع - يحبّ أن يترك شيئًا يدل على خططه أو يدل عليه.. نحن لم نعتد هذا الطراز من القتلة في مصر، لكنهم في الخارج يعرفون هذه الأساليب جيدًا.. لديهم مثلًا (زودياك) الذي كان يرسل بطاقات لرجال الشرطة وما إلى ذلك.. يقولون إنها تتجاوز رغبة التفاخر الطفولي.. إنها رغبة ماسوشية في عقاب الذات ورغبة في أن يُضبط.. أي أنه يقدم بنفسه للشرطة الخيط الذي يقود إليه.

- ١ -

تقول (فاتن):

- «بابا يعمل فلا تضايقاه..»

وتقول (فاتن):

- «بابا عبقري.. هذا هو كل شيء»

تقول (فاتن):

- «بابا من العلماء الذين تسمعان عنهم..»

تقول هذا كله لـ (رامي) و(نهى)، فتتسع عينا الطفلين في رهبة ويقرران ألا يضايقا أباهما أبدًا.. طبعًا يبران بهذا القسم ربع ساعة أو أقل.. ثم ينتصر شيطان الطفولة ويعودان للصخب.. كان هذا يذكرها بمدمن المخدرات الذي يقسم على التوبة، فقط إلى أن ينخفض مفعول المخدر في دمه..

كانت (فاتن) تقول هذا لأنهّا تؤمن أن على الأطفال أن يفخروا بأبيهم، وكانت تضفي على وجهها كل أمارات الصدق والتهيب، حتى يقتنع الطفلان..

لكنّها حينما كانت تنفرد بنفسها كانت تدرك أنها بالغت قليلًا.. هي بالفعل لا تستطيع الاعتقاد بأن ما يقوم به (زكي) بهذه الأهميّة..

كان يستيقظ من نوم العصر في السادسة مساء، ويقف لحظة أمام باب غرفة النوم يحك شعره المجعد الذي انتشر حول رأسه نصف الأصلع، ثم يتثاءب كأفراس النهر.. ويتجه إلى الحمام.. بعد دقائق يجلس في الصالة يرمق المكان بعينين لا تريان وعلامات النعاس تبدو على كل شيء فيه.. ثم يقول لها بلهجة متعبة آمرة:

- «القهوة يا (فاتن)..»

فتهرع إلى المطبخ لتعد له القهوة السادة التي يحبّها تعود له بالقدح فيرتشف منه في وقار وتؤدة، ثم يضعه جانبًا ويقول عبارته الشهيرة:

- «شكرًا يا ستي»

ثم ينهض متثاقلًا إلى غرفة المكتب.. بعدها ينغلق الباب وتمر الساعات تلو الساعات دون أن يخرج.. وفي العاشرة مساء تدق الباب لتضع أمامه صحفة عليها بعض شطائر الجبن، يلتهمها

حيث جلس على الأرض في الغرفة وحوله تتناثر أوراق عتيقة جدًّا.. سبب جلوسه على الأرض هو أنه لا مكان لهذا كله على المكتب..

يلتهم الشطائر ثم يطلب القهوة من جديد ويسأل عن الأطفال.. لقد نام الصغيران طبعًا..

تجلس في الصالة تتابع التلفزيون بعض الوقت وتحاول أن تقنع نفسها بأنها سعيدة.. وعند منتصف الليل تدخل فراشها وتنام..

فقط تشعر به في الثانية صباحًا يندس تحت الملاءات وهو يلهث بردًا وإرهاقًا.. وبعد قليل يتعالى صوت شخيره..

ليس شخيرًا فقط.. أحيانًا تسمعه يتكلم أثناء نومه لكنّها لا تفهم على الإطلاق ما يقوله.. أصوات مختلطة كزئير الدببة الغافية في بياتها الشتوي لكنّها تبعث في نفسها رعدة ما.. تقول لنفسها: صاحب هذه الأصوات ليس نقي الضمير.. لا يمكن أن يكون نقي الضمير.. ثمّة شيء يثقل كاهله..

وفي السادسة صباحًا تنهض.. تعد الطفلين للمدرسة وتعد له الإفطار والقهوة.. يرتدي بذلته ويحمل حقيبة الأوراق وينطلق إلى العمل..

إنّه أستاذ بالجامعة.. أستاذ تاريخ على وجه التحديد.. لا تعرف أية تفاصيل أخرى، لكنّها تقنع نفسها بأنه عبقري وأنه يقوم بأشياء مهمّة جدًّا تجعلها لا تراه على الإطلاق.. ولا تعرفه على الإطلاق..

كانت تحب بيتها بحق.. لهذا كانت على استعداد لقبول الكثير، لكنّها كانت تتمنى أن تشعر بأنها تملك شيئًا في عالمه.. شيئًا واحدًا فقط.. والأدهى أنها لم تكمل تعليمها لهذا لم تستطع قط أن تفهم شيئًا على الإطلاق من عالمه.. إنها أشياء مهمّة وكفى..

وقد صارحت أمها بهذا ذات يوم فقالت لها:

- «أنت مدللة.. هكذا شأن النساء.. يقضي الزوج جل يومه خارج البيت فتملأ الدنيا صراخًا.. يقضي جل يومه في البيت فتشكو وتبكي.. احمدي الله على أنك تعرفين أين زوجك.. وتعرفين ما يفكر فيه بالضبط.. لو لم يهتم بتلك الأوراق لاهتم بالنساء الأخريات..»

لكنّها لم ترَ فارقًا كبيرًا.. وخطر لها أن زوجها لو اهتم بالنساء الأخريات لبدا لها على الأقل بشريًا لا يفتقر للإحساس.. ذات مرة سمعت في المذياع قصة راقت لها عن (الفارابي) - أم هو (الجاحظ)؟ - الذي سكبت حماته محبرته.. فلمّا سألها عن السبب قالت له: هذه المحبرة أشد خطرًا على ابنتي من ألف ضرة..

سمعت هذه القصة فلم تستطع إلا أن تنبهر بحكمة هذه المرأة ودقتها في التعبير..

☆ ☆ ☆

لعل القصة بدأت الثلاثاء الأول من الشهر..

إنّه اليوم الذي يسافر فيه إلى قريته كل شهر.. هي تعرف هذا لأنّه يصادف يوم إجازته.. وقد قررت في ذلك اليوم أن الوقت قد حان لتنظيف الغرفة كما كانت تفعل دومًا كل شهر.. مرة كل شهر.. هذا هو أعلى معدل يمكن أن يسمح به..

دخلت غرفة المكتب وراحت تزيل الغبار عن الأرفف والمكتب العتيق.. ثم بدأت تجمع الأوراق المتناثرة، وخطر لها أنّ هذه الأوراق عتيقة حقًّا.. حاولت أن تقرأ الموجود لكنه كان بحروف لاتينية يمكنها أن تقرأها لكنّها لا تفهمها لكن هناك الكثير من الرسوم التخطيطية.. ثمّة دوائر مقسمة تخرج منها أسهم ونجوم وأشياء لا يمكن فهمها..

الشيء الغريب هو أنّ هذه الأوراق متسخة.. هناك من سكب عليها قدحًا من الشيكولاتة الساخنة يومًا ما، والدليل هذه البقع البنية الواسعة التي لا تمنع القراءة لكنّها لا تجعلها سهلة..

جمعت الأوراق قدر استطاعتها ووضعتها على المكتب ثمّة شيء وقع على الأرض فانحنت تلتقطه..

آه! هنا شيء مهم..

صورة بحجم هذا الكتيب.. صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود لفتاة.. هذه الصورة كانت بين الأوراق. و(فاتن) على قدر من الحصافة لتعرف أنّ هذه فتاة حقيقيّة.. ليست مجرد موديل تم انتزاع صورتها من مجلة..

هكذا جلست (فاتن) إلى المكتب وهي تشعر بأن رأسها يوشك على الانفجار.. فتاة جميلة هي.. شقراء.. على الأرجح هي أجنبيّة.. وها هي ذي تنظر إلى الكاميرا في نظرة متحدية قليلًا كأنها تتوعد المصور بالويل، ومن خلفها يبدو جبل تغطى سفحه الأشجار وكوخ ريفي أوروبي الطابع.. نعم.. لا شك في أنها فتاة أجنبيّة..

قلبت الصورة فوجدت كتابة بحروف لاتينية ما، وبذلك الخط المائل المتشابك الأنيق مستحيل القراءة الذي يوقع به الغربيون.. كانت على الأقل تعرف كلمة Love وقد أجهدت عينيها بحثًا عنها فلم تجدها لحسن الحظ.. لكن من أدراها أنّ هذه القملة إنجليزية؟ ربما كانت فرنسية أو ألمانية؟

ألمانية!!

زوجها كان في تلك البعثة إلى (النمسا) منذ عامين.. هي لا تعرف أين توجد النمسا لكنّها في ذهنها تختلط بألمانيا بشكل ما.. الأمور واضحة إذن.. هذه الفتاة قد عرفها حينما كان في النمسا.. ولم يذكر عنها حرفًا.. أمّا لماذا يحتفظ المرء بصورة بهذا الحجم لفتاة لا تعنيه في شيء فأمر لا يعلمه إلا الله..

راحت تنظر إلى صورة الفتاة مدققة، وفي كل لحظة تشعر بأنها تعرفها أكثر فأكثر..

وفي النهاية أعادت كل شيء إلى مكانه وغادرت الغرفة.. وكان ذهنها يعمل في حماس.. وقررت أن تسأله عنها عندما يعود.. الهجوم المباشر خير وسيلة لأن هذا سيفقده القدرة على التأليف.. سوف يرتبك ثم يقول كل شيء..

نظرت لصورته المعلقة في الصالة وقالت بصوت خافت:

- «ما الذي رأته فيك؟ صدقني.. لن تجد امرأة أخرى في العالم تراك جميلًا سواي.. لن تجد امرأة تقبل طباعك الغريبة المملة سواي.. أنا لا أعرف عنها حرفًا لكني أعرف أنها غير صادقة.. أية امرأة تزعم أنها معجبة بك هي كاذبة.. كاذبة يا صاحبي!»

وفتحت جهاز التلفزيون وراحت تتابع فيلمًا عربيًا يحكي عن الخيانة الزوجية.. كان هذا يناسب أفكارها بشدة..

- ٢ -

(عادل) ومديرية الأمن في الإسكندرية..

أنا بطبعي من الطراز العصبي مرهف الحس، الذي لا يشعر براحة في هذا الجو.. ولو رأيت وجهي في أي قسم شرطة لحسبت أنني جئت لأعترف بقتل ستة أو سبعة أطفال أبرياء.. لكن مديرية أمن الإسكندرية تعنى بالنسبة لي جزءًا مهمًا من ذاتي: (عادل) صديق الصبا الذي صار عميدًا الآن، والذي أفضل لقاءه بعيدًا عن البيت لأسباب يعرفها قارئ هذه السلسلة جيدًا..

حتى وأنت في نهاية الممر تسمع صوته الصاخب يتشاجر أو يمزح أو يهمس.. فهو من هؤلاء الأشخاص الذين يهز همسهم المكان.. تسمع صوته من وراء البارافان فتقول لجندي الحراسة المتشكك على الباب إنك ترغب في لقائه..

عندما تدخل تحمل ما سيحدث لك.. كل هذا الصراخ و(أهلاااااااان) التي تستمر لربع ساعة ثم تحمل كل الضربات واللكمات على كتفيك، وكل القسم المغلظ على أنه لن يتركك...

- «أنت رهن الاعتقال! نياهاااااهاهاه!»..

يقولها وهو يقرع الجرس ليطلب لك القهوة...

بعد كل هذا الاستقبال المرعب تجلس وتصارحه بأنك جئت لأنك تشعر بفراغ روحي رهيب.. أنت بحاجة إلى أن ترى خيطًا مجرد خيط يذكرك بكيانك القديم..

يسألك عن أحوالك وتسأله عن أحواله وأحوال (أشرف) ابنه.. وتشعر بذلك المذاق الأليم اللذيذ لذكريات الماضي..

بعد ربع ساعة من الكلام قال وهو يحك رأسه:

- «بالمناسبة.. سعيد لأنك جئت الآن.. أردت أن أسألك عن شيء ما..»

ثم مد يده يعبث في الدرج وأخرج مظروفًا أصفر حكومي الطابع كئيبًا.. وقال:

- «استشارة..»

سألته باسمًا:

- «هل تسأل الصديق أم الطبيب أم خبير الميتافيزيقا؟»

قال في عصبية:

- «لا يهمني إن كنت أسأل الشيطان ذاته.. المهم أنني أطلب رأيك..»

ثم ناولني مجموعة من الصور الفوتوغرافية كبيرة الحجم.. وعقد أصابعه تحت ذقنه ينتظر رأيي..

رأيت في الصور جثة رجل.. طريقة التصوير والزوايا المتعددة توحي بأنها صور التقطها خبراء المختبر الجنائي في مكان حادث ما.. لم أستطع تحديد كيفيّة موت الرجل لأن بقعة سوداء كبيرة كانت تحتل موضع صدره. سوداء تعنى حمراء طبعًا لأن الصور بالأبيض والأسود..

عامة كانت ملامح الرجل أقرب إلى الرقي.. وثيابه توحي بأنه من الطبقة الوسطى أو أعلى قليلًا.. وعلى الأرض كانت بقعة من الدم.. بقعة غريبة الشكل فعلًا..

على أنني فهمت الأمر أكثر في لقطات مقربة.. إن كلمة قد كتبت بهذه البقعة وبوضوح شديد:

(زكي)..

كان هذا كل شيء..

أعدت له الصور ورفعت حاجبي بمعنى التساؤل.. لكنه سألني بدوره وهو يشعل لفافة تبغ:

- «رأيك؟»

قلت وأنا أفكر بحثًا عن مقلب ما أعده لي:

- «لو كان القاتل يدعى (زكي) لكانت القصة واضحة..»

نفث سحابة كثيفة من الدخان في هواء الغرفة وسألني:

- «والاحتمالات الأخرى؟»

- «من الممكن أن يكون القتيل ذاته هو (زكي)..»

ابتسم وقال في تهكم:

- «لا.. اسمه ((يوسف).. أبو الحسن).. وهو مدرس بكلية الآداب جامعة (....)»

قلت وأنا أعيد التفكير:

- «إذن الاحتمال الوحيد هو أنّ هذا اسم القاتل كما كتبه القتيل.. إن هذا المشهد خالد في الألغاز البوليسية.. وغالبًا ما يتضح أن البوليس يقرأ الاسم بشكل خطأ.. حرف M يتضح أنه حرف W.. وبعد ما يكونون قد أرهقوا (مارتن) البائس طيلة القصة، يتضح أن (ونستون) هو القاتل..»

أعاد لي الصور وقال:

- «ألا يوجد ما يعارض هذه الفكرة؟»

تأملت الصور في عناية فلم أر ما يمنع.. قلت له بصراحة أنه (قد غلب حماري).. فقال:

- «لم تكن أنامل القتيل ملوثة بالدم.. راحتاه واضحتان في الصور.. لو كتب اسم قاتله لوجدت الدم على أنامله.. ثم لاحظ الخط كذلك..»

وأشار بسن قلمه إلى الصورة التي تظهر الكلمة وقال:

- «خط جميل جدًّا.. لا أتخيّل أن شخصًا يلفظ أنفاسه الأخيرة سيراعي قواعد الخط ويكتب الاسم بهذا الوضوح.. دعك من أن وضع الجثة يجعل من المستحيل أن يعتدل ليكتب الكلمة في هذا الموضع بالذات.»

قلت في غيظ:

- «يا سلام! يا أخي زحف حتى كتبها ثم انقلب على ظهره ومات.. إن المحتضرين يبدلون وضعهم أحيانًا..»

كان قد فكر في كل شيء وهذا طبيعي.. ما يثير غيظي هو أنه يتوقع أن أصل لمدى التقدم في الاستنتاج الذي بلغه هو نفسه وهو خطأ يكرره البشر كثيرًا. تجهد نفسك أيامًا في قضية ما ثم تتبادل الرأي مع شخص يسمع عنها لأول مرة، فيثير ذهولك بغبائه وبطء تفكيره.. كل اقتراحاته قديمة غير مبتكرة.. وهذا نموذج آخر لظلم الإنسان وافتقاره للعدل..

قال في ثقة:

- «ما كان ليقدر على تبديل وضعه لأنّه مات على الفور.. لم توجد فترة احتضار كافية..»

- «والسبب؟»

اتسعت عيناه في دهشة وقال:

- «كيف تسأل عن هذا وأنت طبيب؟ لقد انتزع قلبه من صدره! حسبتك لاحظت هذا!»

☆ ☆ ☆

قلت له ونحن نتناول الغداء في ذلك المطعم على الكورنيش:

- «لم أر جريمة بهذه البشاعة.. لحسن الحظ أنني لم أرها رأي العين.. أشياء كهذه تسمع عنها في قصص الحروب الهمجية القديمة فقط..»

هز رأسه موافقًا وأردف:

- «ولا أنا وحياتك.. الأمر يوحي بالكراهية.. الكثير منها.. ليس التمثيل بالجثث بهذه الطريقة من سمات الشخصية المصرية عمومًا.. حتى القتلة والسفاحين يتحركون تحت سقف لا يجسرون على تجاوزه.. لهذا شعرت أن في الأمر ما يتجاوز القواعد المعروفة لنا ورأيت أن أسألك..»

ثم نظر إلى طريق الكورنيش خارج واجهة المطعم البانورامية وسألني:

- «إذن أنت ترى معي أن المقتول لم يفعلها.. فماذا عن القاتل؟»

قلت في ثقة:

- «أنت لم تترك مخرجًا آخر.. لقد فعلها القاتل..»

وتذكرت جريمة مقتل (شارون تيت Sharon Tate) ممثلة (هوليوود) الحسناء.. كانت جريمة ساخنة في ذلك العصر.. القصة غريبة وأقرب إلى مسرح العبث.. هناك مخبول يدعى (مانسون Manson) الذي اشتهر باسم زعيم (الهيبيز) قام مع أتباعه بمهاجمة بيت الممثلة وكانت مذبحة لها وضيوفها وابنها الذي كانت تحمله في بطنها بعد، وقد نجا زوجها المخرج العالمي (رومان بولانسكي Polanski) من المذبحة بمعجزة، لكنه تحول إلى عبقري مخبول بعدها.. لقد وجد البوليس المذبحة ووجد كلمات مكتوبة بالدم على جدران البيت (الخنازير.. الخنازير).. فيما بعد اتضح أن الأخ (مانسون) كان يملك نظرية عبقرية.. سوف يرتكب المذبحة فيلصق رجال الشرطة التهمة بالزنوج.. يثور الزنوج ويقضون على البيض.. هكذا يصير الطريق مفتوحًا أمامه للسيطرة على أمريكا فالعالم! لا تعجب فعقار الهلوسة LSD قادر على هذا وأكثر..

أفقت على صوت (عادل) يسألني:

- «حسن.. وماذا يجنيه القاتل من كتابة اسم (زكي)؟»

فكرت في رد مستفز يثير غيظه فلم أجد أفضل من التالي:

- «التفسير الوحيد هو أن القاتل يدعى (زكي)!»

- «أنت عبقري!»

- «لقد كان فخورًا بما قام به لذا وقع على عمله باسمه.. كل فنان أصيل يشعر بهذه الرغبة بمجرد أن ينتهي من لوحته الفنية!»

راح ينظر لي طويلًا ولم يعلق.

أعتقد أن الفكرة برغم كل شيء بدأت تروق له..

- ٣ -

عندما تدخل مقر الجريدة سوف يثير ذهولك الجو العام الموحي بالفقر والبؤس..

أنت تسمع عن تلك الجريدة من آن لآخر وترى أعدادها في كل مكان.. بالطبع أنت لا تتوقع أن يكون مقرها شبيهًا بمبنى الأهرام أو الأخبار، لكنك كذلك لا تتوقع أن يكون تلك الشقة البائسة بالطابق الثالث من تلك البناية المتداعية..

سوف تجتاز المدخل محاولًا ألا تتعثر بصندوقي القمامة هذين، ومحاولًا ألا يظفر هذا القط بطرف سروالك.. ترى تلك الأسهم على الجدار وهي الشيء الوحيد الذي يقنعك بأنك لست أحمق..

تصعد طابقين.. رائحة العفن تتزايد.. الطابق الثالث وهذه اللافتة على الباب..

ثمة سكرتيرة شاحبة تدس قدميها في خفين منزليين، وأمامها رغيفان تعلوهما ثلاثة أو أربعة أقراص من الطعمية.. ثمّة كيس بلاستيكي صغير به المخللات اللازمة.. والفتاة تتضور جوعًا.. من الصباح هي تتضور جوعا لهذا لا ترحب بك على الإطلاق.. إنها تنتظر اللحظة التي يكف فيها الزوار عن التوافد لتفتك بالرغيفين.. ثم تتبعهما بكوب من الشاي الأسود، وبعدها تكتشف أن الحياة رائعة وأنّ هذا أفضل العوالم الممكنة..

أمامها يجلس عم (فهيم) الفراش المسن.. إنّه دائمًا يشعر بالملل وينتهز أية فرصة ليغفو.. وهو الآخر بانتظار رحيلك بفارغ الصبر..

هل تشم هذا المزيج الغريب من رائحة حبر الآلة الكاتبة والشاي على (السبرتاية) والعطن المتصاعد من دورة المياه؟ نعم.. ليست هي (النيويورك تايمز) لكنّها صحيفة على كل حال، ولها قراؤها الذين هم مثلك لا يتصورون أن يكون هذا هو المكان.. بالمناسبة لا تجازف أبدًا بدخول دورة المياه.. لا تسأل عن السبب لكن حمقى كثيرين فعلوها وهم الآن في المصحات يعالجون من الصدمة النفسية..

صوت آلة كاتبة في مكان ما.. وصوت من يضحك بصوت عالٍ.. وصوت مذياع مفتوح..

تسأل عن الأستاذ (فايز).. لماذا تسأل عنه؟ لأنّه هو الشخص الذي يهمك هنا وهو صحفي شاب متحمس.. يعتقد أنه جاء العالم ليغير كل ما فيه من فساد، وليوقف كل شخص عند حده أخيرًا..

الأستاذ (فايز) ليس هنا.. إنّه في مكان ما.. هو لم يظهر منذ ثلاثة أيام لكن هذا معتاد هنا وفي هذه المهنة..

(فايز) في الرابعة والعشرين.. غير متزوج.. غير حليق الذقن.. غير مهندم.. أعتقد أنه لا ينال إلا بضعة ملاليم، ولكنّه من الطراز المتفائل.. ليست له أسرة في القاهرة لكنه يقيم في (لوكاندة) ما من لوكاندات الحسين.. لهذا لا يستعمل إلا قميصًا واحدًا وجوربًا واحدًا وحذاءً واحدًا.. وهو ظريف حاضر الدعابة لا يتورع عن استعمال لفظة غزل عابرة من حين لآخر لهذا هو أكثر شخص هنا يروق للسكرتيرة الشاحبة..

في الفترة الأخيرة كان (فايز) متحمسًا.. أعني أكثر من اللازم.. يبدو أنه وضع يده على موضوع مهم.. وكان مشغولًا أكثر الوقت..

ثم قام بمعجزة لم يرها أحد من قبل.. لقد أغلق درج مكتبه وابتاع (رزة) وقفلًا وبصبر قام بتثبيتهما.. كان الدرج مفتوحًا طيلة الوقت كقلب صديق.. لا ترى فيه إلا علبة تبغ فارغة مهشمة وجريدة عمرها عامان.. لكنه اليوم حرص على إغلاق الدرج.. وقد قال له زميله (سامح):

- «يبدو أنك كونت ثروة أخيرًا.. لقد صار لديك ما تخفيه..»

قال (فايز) في ثقة:

- «محسوبك ليس لديه ما يخفيه إلا الأفكار الأصيلة..»

ولم يكن (سامح) يقوم بعمل ذي بال منذ فترة.. لم تكن لديه أفكار ولم يكلفه أحد بشيء.. لهذا راح يمارس العمل الوحيد الذي يجيده حقًّا: شراء الإعلانات.. كان يحمل كارنيه الصحيفة ويخرج منذ الصباح الباكر ليدور على الشركات والمحلات يعرض بضاعته..

أحيانًا يعود بحمل ثمين وفي الغالب لا يعود بشيء على الإطلاق..

لهذا كان الفضول يعتصره ليعرف ما يدور بذهن (فايز)..

كان يعرف أنهما متشابهان في الظروف والموهبة والوضع المادي.. ومعنى هذا أن أحدهما يصلح بديلًا للآخر.. وفي الفترة الأخيرة بدا سكرتير التحرير غير راض عن العمالة الزائدة في الجريدة.. فلو جرى ترجيح الكفتين لن يحتاج المرء إلى عراف كي يحدد اسم من يتم الاستغناء عنه..

لو لم يحقق شيئًا غير التهام الشطائر وشرب الشاي في هذا الشهر فمن الوارد أن يجد نفسه في الشارع قريبًا.. وهو شيء يقلقه برغم أنه لم يتقاض نقودًا حقيقيّة منذ شهرين.. على الأقل كان له مكان يذهب إليه في الصباح ويعود منه منهكًا في المساء..

منذ عدة أيام لم يعد (فايز) وهذا شيء يحدث كثيرًا.. لكنه يعود في كلّ مرّة مثقلًا بالأخبار أو التحقيقات الجديدة.. وعندها يعود اسمه للظهور في الجريدة وربما صورته أيضًا..

وجاءت اللحظة المناسبة ذلك اليوم.. لقد خلت الغرفة التي تضم خمسة أو ستة من الصحفيين الجو الخامل بعد الغداء.. دعك من أن ثلاثة منهم يصلون جماعة في الممر الخارجي و(سامح) لم

يكن من المصلين، لهذا انتظر حتى سمع صوت التكبير وعرف أن الممر مسدود الآن.. لا أحد يستطيع مغادرة الغرفة أو الدخول لها..

هكذا تناول دبوس الشعر النسائي من جيبه.. قليل من الناس من يعرف كيف يفتح قفلًا بدبوس شعر أنثوي لكنه يعرف هذا ويعرف أشياء كثيرة أخرى.. لن يؤنبه ضميره لأنّه هكذا يعتقد سيكتفي بإلقاء نظرة فضولية..

«الله أكبر»

بسرعة يدسّ الدبوس في القفل الذي يغلق الدرج.. وراح يعبث هنا وهناك..

«سمع الله لمن حمده»

صوت (كليك) المميز لقد استجاب القفل الصغير.. إن (فايز) أحمق إذا حسب أنّ هذا القفل يحمي أسراره حقًّا..

«الله أكبر»

انفتح الدرج أخيرًا.. الآن يرى بوضوح أنّ هناك مجموعة من الصحف المطوية.. لا وقت للبحث فيها.. ماذا يوجد تحتها؟ يوجد مظروف كبير.. فلنر ما به..

«الله أكبر»

المظروف به أوراق كثيرة.. أوراق عتيقة في الواقع..

حوالي مائة ورقة يبدو أنه تم نسخها زنكوغرافيًا (لم يكن تصوير المستندات شائعا وقتها).. ولكن هذه الكتابة؟ إنِّه يعرف هذه الحروف.. إنها العبرية ولا شك في هذا.. ولكن ما معنى هذا؟

كانت البلاد في حالة حرب.. وللحروف العبرية ذات الإيحاء المقبض المقزز الذي تثيره فيك أرجل العنكبوت المشعرة.. (فايز) لا يجيد العبرية وعمله لا يتعلق بها بأي شكل كان.. فما معنى أن تجد أوراقًا عبرية في درجه المغلق؟

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»

لا وقت للمزيد من الاستنتاجات.. سوف يصلون في أي وقت.. لكن يجب أن تحتفظ بهامش عريض من الشك هناك جواسيس في هذا العالم.. والجاسوس قد يكون أخاك أو جارك..

أو صديقك في العمل!

أغلق الدرج بسرعة ويده ترتجف وضغط القفل ليغلقه..

«السلام عليكم ورحمة الله»

ما الذي يقوم به (فايز) بالضبط؟

- ٤ -

عندما تأتي الثالثة صباحًا لا يعود بوسعك الاستيقاظ أكثر من هذا..

كان (بسيوني) يعرف هذا عن نفسه ويقبله كحقيقة لا مفر منها..

صحيح أنه يبدأ السهرة بإشعال (الراكية) وإعداد الشاي، وصحيح أنه يفرغ ثلاثة أو أربعة أكواب من الشاي الأسود الثقيل في جوفه ويفتح المذياع، ثم يخرج (الجوزة) ويدخن حجرين على الأقل.. إلا أنه يعرف ذلك الخدر اللذيذ المتسلل إلى جفنيه.. ثم يصير وزن الجفن عدة أطنان..

الحقيقة أنه لم يكن متفرغًا لهذه المهنة، وكان يقضي الوقت صباحًا في حقله.. لهذا كانت قدرته على السهر تتلاشى تمامًا عندما تمر ساعتان بعد منتصف الليل..

على أنه لم يكن يقلق كثيرًا.. إنّه لم يصادف طيلة عمله خفيرًا في (شونة) الغلال هذه لصًا واحدًا.. عشرة أعوام ولم ير لصًا واحدًا، حتى أنه كون نظريته الخاصّة عن العالم: العالم مكان آمن تمامًا والحوادث لا تقع أبدًا..

إن (بسيوني) في الخمسين من عمره، ولكنّه يبدو في الستين.. وله عبارة واحدة لا يكف عن ترديدها: نحن نشقى في هذه المهنة وحان الوقت كي نستريح..

الخطر الوحيد المحتمل هو تلك الكلاب المسعورة التي تحوم حول (الشونة) ليلًا ومن عيونها يتصاعد الشرر.. لكنه كان يكتفي بقذفها بحجر أو حجرين.. دعك من الجان طبعًا فهذا شيء متوقّع ومقبول.. عندما يمرّ به هؤلاء الناس طوال القامة ذوو العيون المشقوقة طوليًا، وأقدامهم ذات الحوافر تدق الأرض دقًّا، كان يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.. وكان هذا يكفي لرحيلهم غالبًا.. بعض القطط لم تكن مريحة جدًّا وكان يعرف أنها أرواح متنكرة، لكن كان يصلح معها ذات أسلوب التعامل مع الجان..

هكذا كان يمضي الساعات ملتفًا بمعطفه الصوفي الثقيل، والتلفيعة تحيط بعنقه لتعزله عن العالم عزة.. وكان يعبث في النار بطرف عصا ويصغي لصوت الاحتراق.. ثم في الثالثة صباحًا يغيب عن الوعي تمامًا.. فقط ليصحو مع ضوء الشمس الدافئ المطمئن يخبره أن ليلة أخرى قد مرّت..

هكذا يعد لنفسه كوبًا أخيرًا من الشاي وينتظر حتى يصل الرجال، وتضج الشونة بالحركة.. ثم يمشي الهوينى عائدًا إلى داره حيث تكون (أم محمود) قد أعدت له الإفطار.. سوف يظفر بساعتين أخريين من النوم ثم ينهض ليعني بحقله..

الليلة يضنيه البرد.. إن عظامه لم تعد تتحمله على الإطلاق، وهي ذي مناشير الروماتزم (المراتزم كما يسميه) تعمل عملها في عظامه.. لهذا أحكم الغطاء من حوله ومد ساقيه نحو النار..

إن (الكلسون) الصوفي لم يعد يؤدي عمله جيدًا..

يسمع الآن صوت ذلك الكلب يعوي في مكان ما فيجاوبه كلب آخر يعوي من موضع آخر.. في الليل يكون عواء هذه الوحوش مروعًا كأنها أسود تتصارع..

ثم ظهر ذلك الكلب الأسود الضخم يجري وسط الشونة.. يقترب منه وهو يزوم.. مد يده والتقط حجرًا وأحكم التصويب ثم قذفه على الكلب وأطلق سبة بذيئة..

لم يمس الحجر الكلب لكنه أطلق ساقيه للريح مبتعدًا..

ثم بدأ (بسيوني) يفهم سبب حماس الكلب.. الكلب لم يكن يهاجمه بل كان يركض خلف رجل يركض.. هذه هي غريزة الكلاب الدائمة.. هذا الرجل يركض داخل الشونة وبالطبع يغلفه الظلام فلا تعرف ما يطارده بالضبط..

لقد داعب النوم عيني (بسيوني) لحظة فلم ير هذا الرجل يدخل..

نهض ومد يده يحمل البندقية العتيقة التي لا يعرف إن كانت تعمل أم لا.. وراح يجد الأثر نحو ذلك الرجل الذي دار حول المخزن..

أراد أن يصرخ بشيء مما يقول الخفراء على غرار (مين هناك) أو شيء من هذا القبيل، لكن النوم كان يغلبه أولًا، ثم إنّه لم يعتد هذه المواقف.. لهذا فضل أن يتم المطاردة في صمت..

شقّ طريقه بين زكائب الغلال.. وهو يحاول ألا يتعثر.. قلبه يتواثب بين ضلوعه من فرط الإثارة..

أخيرًا دنا من المخزن.. إن بابه في الجهة الأخرى لهذا رجح أن الرجل دخله.. ستكون هذه مشكلة لأن الزكائب الكثيرة بالداخل سوف تجعل الاختفاء سهلًا.. سوف ينتظره الرجل حتى يبتعد عن الباب ثم يخرج منه.. دعك من الظلام بالداخل.. لن تقدر على رؤية يدك..

لهذا وقف جوار الباب لحظة وهو يلهث ويفكر فيما يجب عمله..

إ ج ج ج ت ت ت وو وو ش ش ش ش ش ش!!

ما هذا الصوت العجيب؟ رجل يصرخ؟ وهل من يصرخ يستعمل أي حرف غير الألف والهاء؟ الحق أن الصوت جمد الدم في عروقه..

والآن وجد الصوت فصرخ بأعلى صوته:

- «من بالداخل؟»

لا رد.. فقط تردد الصوت ثانية:

إ ج ج ج ت ت ت وو وو ش ش ش ش ش ش!!

هكذا توغل أكثر داخل المخزن وهو يشعر بأنه عجوز مريض، وأن قلبه مرهق للغاية.. كان في جيبه عود ثقاب فأشعله واقترب من مصدر الصوت أكثر..

هناك دماء..

هناك رجل راقد على الأرض.. رجل يرتدي ثيابًا غربية.. (أفندي) كما يحلو له أن يصفه.. جوار الرجل كانت بركة من الدم الطازج.. واستطاع أن يرى كلمة خطت على الأرض الترابية.. سوف تتشربها الرمال سريعًا.. إنِّه يقرأ.. ليس ببراعة لكنه يفهم المطلوب على كل حال.. هكذا قرب الثقاب من الأرضية فقرأ التالي:

(يوسف)..

نظر إلى وجه الرجل في ضوء اللهب فاستطاع أن يرى أنه فارق الحياة.. لقد رأى موتى كثيرين ولم يعد يجد صعوبة في معرفة الموت حينما يراه.. لم يتبين مصدر الجرح بسبب الإضاءة الخافتة لكنه يشعر بأن صدر الرجل عبارة عن بركة دم كبيرة.. ولكن من فعلها؟ لقد كان من رآه يجرى وحده.. فلو كان من يجري هو القاتل فمتى دخل القتيل؟ ولو كان من يجري هو القتيل فأين القاتل؟

انتابه الذعر عندما انطفأ العود.. فأشعل آخر بسرعة وركض إلى باب الشونة.. لا يعرف ما الذي جعله يفعل هذا لكنه صوب البندقية في الهواء وضغط على زنادها..

بوم!!

دوّت الطلقة في السكون، فارتجف لها هو نفسه الوحش الذي نام أعوامًا لم يزل حيًّا.. ولم يتصوّر قط أن صوته عالٍ إلى هذا الحد..

تعالى صوت نباح.. هذا كل شيء..

سوف يترك الشونة الآن ويركض باحثًا عن عون. لابد من إبلاغ المأمور.. لكنه الآن يحتاج أولًا إلى أن (يضبط دماغه) بحجر من المعسل ليهدأ.. هكذا جلس أمام النار وراح يعد الجوزة على عجل.. هذا آخر شيء تصور أن يفعله.. لكنه فعله..

الحقيقة أن (بسيوني) يتمتع بأعصاب قوية لو أردت رأيي..

- ٥ -

عند منتصف الليل بدأت (فاتن) تشعر بالقلق..

لم يعد (زكي) من القرية بعد، وهو سائق حذر ولا يحبّ أبدًا أن يعود في الظلام.. باختصار هو لا يرى جيدًا في الظلام.. وهي تذكر يوم رأته يقود السيارة بثقة نحو ترعة على جانب الطريق.. الظلام دامس واللون الأسود يغلف كل شيء.. وهو يدير المقود إلى اليمين حاسبًا هذه الظلمة امتدادًا للطريق.. استغرقت ثانيتين حتى فهمت أنه سيفعلها فصرخت بأعلى صوتها:

- «هذا.. ليس.. احترس.. إنها ترعة!»

لحسن الحظ أحدثت كلماتها رد فعل فأعاد المقود إلى اليسار في اللحظة الأخيرة، ولو لم يفعل لغابت السيارة بهما وبالأولاد النائمين في الماء..

من لحظتها عرف وعرفت أنه لا يرى جيدًا في الظلام.. نوع من (العشى الليلي) ربما.. لكنه تذكر الدرس جيدًا وصار من ألد أعداء القيادة الليلية..

لماذا تأخر حتى هذا الوقت؟ لماذا لم يتصل بها؟

لقد نسيت كل الأسئلة التي كانت ستوجهها له.. كل الاتهامات ذابت.. لم يعد هنالك إلا قلق عميق أصيل.. وحش القلق الجالس في صدرها فوق الحجاب الحاجز يمسك بقلبها ويمضغه في تلذذ..

ظلت تجوب الشقة في قلق.. تفتح التلفزيون ثم تغلقه.. تتسلى ببذور اللب قبل أن تلقيها في القمامة.. تفتح المذياع ثم تغلقه.. دخلت غرفة نوم الأطفال لتتأمل الصغيرين النائمين.. لا تراهما ملاكين إلا عندما ينامان.. فيما عدا هذا هما شيطانان رجيمان، وقد خطر لها وهي تتأمل وجهيهما أنه من المستحيل أن يحدث شيء لـ (زكي).. ما كانا لينامان بهذا السلام.. ولكن.. فجأة بدأت تشعر بالقلق يمزقها.. بل هي متأكدة من أن مكروهًا دهاه..

اتجهت إلى المرآة وراحت تتأمل وجهها المرهق في حقد.. وغمغمت:

- «هل فهمت يا حمقاء؟ إن الله يعاقبك على إساءة الظن بالرجل.. سوف تحرمين منه ما دام لا يروق لك!»

وشعرت برغبة في البكاء.. وفي ذاتها يقين تام بأن هذا حدث وهي لا تعرف ما هذا الذي حدث بسبب دخولها غرفته والتفتيش في أوراقه..

لو استطاعت أن تطير.. أن تعبر الأجواء حتى تصل للقرية لتطمئن عليه.. ثم استبد بها الغل قالت لنفسها: لو كان سليمًا بعد هذا كله، وسبب بقائه هو أن الوقت طال به، فلم يعد راغبًا في القيادة ليلًا.. لو اتضح هذا فلسوف تنسفه نسفًا.. سيتمنى لو كان قد مات..

تفتح التلفزيون فترى ممثلة مسنة تمسك بمنديل وتتكلم عن (المرحوم زوجها) باكية.. فيجن جنونها وتغلق التلفزيون.. من أين يأتون بهذه البرامج المقززة؟ إن التلفزيون يزداد تفاهة هذه الأيام..

خرجت إلى الشرفة في الليل البارد وراحت تراقب السابلة والظلام وأضواء الشارع.. سوف ترى السيارة في أية لحظة تتوقف أمام البيت ويخرج منها (زكي).. ثم يفتح الحقيبة الخلفيّة ليخرج السلة التي تحوي البط والأرز المعمر والفطير الساخن.. هذه هي التقاليد.. لابد أن تحمله زوجة أخيه كل هذه الأشياء..

لكن السيارة لم تظهر.. وبدأ القلق يغمرها أكثر فأكثر.. كيف يكون حالها عندما يؤذن الفجر؟؟ سوف تسمعه وهي تضع الكسرولة على رأسها حتمًا.. لأنهّا ستكون قد جنت..

في النهاية اتجهت إلى الهاتف.. طلبت أخا زوجها المقيم بالقاهرة.. (شوكت)..

جاء صوته المنزعج من الطرف الآخر.. ثم يصرخ في طفل أن يخفض صوت التلفزيون..

- «(زكي) لم يعد من القرية حتى الآن يا (شوكت)..»

قال في بساطة:

- «حجة الغائب معه.. لا تقلقي.. لعله أراد المبيت عند عمي (عبد الواحد)..»

- «لم يفعلها قط.. ولو فكر أن يفعلها لاتصل بي..»

المشكلة هي أنّ هناك جهاز هاتف واحدًا فقط في القرية كلها.. لهذا فالاتصال بها (عملية).. فعلًا عملية كبرى.. لا تنس أننا نتكلم عن أوائل السبعينات..

بعد نصف ساعة اتصل أخوه فردت في لهفة:

- «هيه؟ هل وجدته؟»

وفي اللحظة ذاتها كان هو يسأل:

- «هيه؟ ألم يعد بعد؟»..

هكذا خاب أملها من جديد وتوترت أكثر.. قال لها وهو يحاول أن يبدو هادئًا:

- «الحقيقة أنني حائر.. عمي (عبد الواحد) يقول إنّه فارقه في الرابعة عصرًا.. هذا يعني أنه في الطريق..»

- «طريق؟ القرية على بعد ساعة إلا الربع لو كانت سيارتك حطامًا..»

- «إن الرجال يعرجون على أصدقائهم أو يجلسون في المقهى.. هذه أشياء تحدث..»

- «إلا زوجي.. أنت تعرف أنه يفارق البيت كأنه يفارق روحه، ويعود إليه في أسرع وقت ممكن.. ليس هذا لجاذبيتي الشديدة ولكن بسبب ارتباطه الشديد بغرفة مكتبة وأوراقه.. إن أية دقيقة يمضيها بعيدًا عن مكتبة هي دقيقة ضاعت من عمره..»

فكر قليلًا وسب أحد الأطفال الذين يأبون النوم.. ثم قال لها:

- «في الحقيقة أريد أن أريحك لكني قلق مثلك.. لا يوجد ما نفعله الليلة.. مستحيل أن أذهب للقرية للبحث عنه الصباح رباح والنهار له عينان..»

قالت بصوت متهدج:

- «لكني سأجن لو انتظرت حتى الصباح..»

- «لا أعرف ما أقول لك.. لربما طرق الباب الآن..»

شعرت بالأمل ينتعش في صدرها كأنما كلماته سحرية ستجعل زوجها يطرق الباب فعلًا.. ووضعت السماعة في رضا..

لم تعرف أنها نامت.. لم تعرف أنها غابت عن الوعي وهي جالسة في الصالة..

في المنام رأت أنها في غرفة النوم.. كان الفراش محتلًا لكن ليس بجسد زوجها.. كان هناك كائن مخيف عملاق كائن أسود اللون يبدو أقرب إلى تمساح كبير يرقد وقد تغطى بالأغطية.. وكان طويلًا إلى حد أن ذيله كان يتدلى على الأرض.. تذكر أنها وقفت إلى جواره ومن الغريب أنها لم تكن خائفة.. فقط كانت تشعر بالحرج لأنهّا تريد أن تنام ولا تعرف كيف تخبره بكياسة بأن ينهض ليوسع لها مكانًا..

دنت منه أكثر فوجدت لرعبها أن عينيه غير مغلقتين عينا التمساح الكبيرتان الزجاجيتان تنظران لها.. هنا فقط قررت أن الوقت غير مناسب لهذا الطلب وقررت أن تفر من الغرفة.. في هذه اللحظة دوى صوت جرس الباب فشعرت بالتوتر والقلق.. لا تعرف معنى ذلك لكنّها كانت تريد الفرار بسرعة من صوت الجرس ومن الكيان المخيف الراقد..

هنا فتحت عينيها فأدركت أن الفجر قد تسلل للمكان.. أين زوجها؟ لم يعد بعد..

وأدركت كذلك أن جرس الباب يدق بلا انقطاع.. إنها أحلام المنبه التي تدخل فيها المؤثرات الخارجية عالم الحلم.. بل يتم تلفيق الحلم بالكامل ليناسب هذه المؤثرات..

نهضت فترنحت لفترة لأن ضغط دمها انخفض بسبب الوقفة المفاجئة ثم ثابت إلى رشدها..

ركضت إلى الباب تفتحه وقد أنساها النعاس واجب الحذر، فلم تسأل من.. ورأت أن الردهة مظلمة تمامًا فامتدت يدها في عصبية إلى مفتاح النور..

وفى الضوء الخافت استطاعت أن ترى أن القادمين ضابطا شرطة..

وكان يبدو عليهما الارتباك..

- ٦ -

أنا أيضًا جربت صوت جرس الباب بعد منتصف الليل..

خبرتي وخبرة أي إنسان مع هذه الأجراس سوداء غالبًا.. لهذا يجب أن أقول إنني جريت إلى الباب وقلبي يتواثب في ضلوعي.. لم أكن نائمًا لحسن الحظ.. مستحيل أن أكون نائمًا في الثانية صباحًا.. هذا شيء لا أفهمه عن الناس.. إنهم ينامون ليلًا ويستيقظون صباحًا.. أنا أسهر ليلًا وأعمل نهارًا وأنام عصرًا..

أضأت النور على المدخل، وقدرت أنني سأفتح الباب لأجد ثلاثة من رجال الأمن ينظرون لي نظرة بوليسية خالصة، ثم يقول لي أحدهم إنِّه العقيد (أيمن حمدي) وإن معهم إذنًا بالتفتيش.. ثم يدخل أحدهم إلى غرفة مكتبي ليخرج الميكروفيلم أو المنشورات التي لا أعرف أنها عندي، ثم ينظر لي في حزم ويقول: نريدك عندنا يا دكتور بعض الوقت..

فتحت الباب وأنا أرتجف لهذا الخاطر.. فوجدت ثلاثة من رجال الأمن ينظرون لي نظرة بوليسية خالصة، ثم قال لي أحدهم إنِّه العقيد (أيمن حمدي) وأضاف:

- «نريدك عندنا يا دكتور بعض الوقت!!»

جف حلقي وتراجعت خطوة.. إنها النهاية إذن.. سأدفع ثمن كل جرائمي.. لكن ما الذي فعلته بالضبط؟

قال أحدهم باسمًا:

- «لا داعي للقلق.. إنها استشارة لا أكثر..»

استشارة في هذه الساعة؟

قال آخر وهو يخرج لفافة تبغ من علبتها:

- «الأمر جد مهم.. وقد اتصل العميد (عادل) من الإسكندرية وأصر على أن تكون معنا..»

هكذا فهمت.. إن (عادل) مصر على توريطي.. لكن في أي شيء بالضبط؟ لابد أن الأمر يتعلق بهذه القصة.. قصة الحروف التي تكتب جوار جثث الموتى، والتي أرجح أن القاتل هو كاتبها..

هكذا تأهبت للذهاب معهم ثم تذكرت أنني عاري القدمين وما زلت بمنامتي.. هكذا طلبت منهم أن يتفضلوا إلى أن أبدل ثيابي..

وارتديت ثيابي كما اتفق وأنا أفكر في مبرر هذه الاستشارة الليلية.. كل شيء يمكن أن يتم في الصباح.. دعك من أن تكون هذه وسيلة لاعتقالي فعلًا.. وهذا يعيدني إلى حالة البارانويا البوليسية السابقة.. سوف يقبضون عليّ لأنني طفل شقي أضع إصبعي في أنفي وأجذب ذيل القط..

خرجت معهم إلى هواء الليل البارد.. الحي النائم الغافل فلا شيء يجذب الانتباه إلا تلك السيارة المدنية السوداء الواقفة أمام باب البناية.. فتح لي أحدهم الباب الخلفي فجلست.. وسرعان ما انطلقت السيارة.. ذلك الطريق الذي عرفته مرارًا من قبل.. إنهم متجهون إلى مديرية الأمن..

☆ ☆ ☆

كان دخان التبغ يعمي الأبصار في غرفة اللواء (طلعت).. وهناك عدة أقداح من القهوة وجو عام من الانفلات يوحي بأن جلسة طويلة تمت في هذا المكان..

قال لي اللواء وهو يتثاءب:

- «إذن ليس لديك ما تضيفه يا دكتور»

قلت في خجل:

- «إذا كان العميد (عادل) يعتقد أن لديَّ ما أضيفه فهذا شأنه.. لكني لم أزعم ذات يوم أنني خبير جريمة.. وفيما أرى فإن هذه الجرائم مجرد جرائم.. أي أنها لا تندرج تحت أية خانة خوارقية.. لكن لو أردت رأيي فهذا قتل طقسي Ritual يوحي بالانتماء لجماعة دينيّة ما.. إن انتزاع القلب بالتأكيد نوع من الطقوس..»

قال وهو يطفئ لفافة تبغه ويسعل:

- «دخنت كثيرًا جدًّا.. كح كح..! جماعة دينيّة ما؟ ليست مصر خليطًا من الأديان يا دكتور.. ليس لدينا إلا المسلمون والمسيحيون وجماعات نادرة مسالمة كالبهائيين لم يعد هناك يهود.. ليس لدينا يزيديون أو قراءون أو عبدة شمس أو عبدة (آمون)..»

- «لا أتكلم عن جماعة دينيّة معينة.. أتكلم عن جماعة تعتقد أنها تخدم الدين بذلك.. باختصار أتحدث عن مخابيل»

فكر قليلًا ثم نهض إلى مجموعة الصور المعلقة على الجدار.. صور التقطها خبراء الطب الشرعي وتظهر تلك المجموعة من الجثث.. وكنت قد حفظتها من فرط ما عرضوها عليّ..

قال كأنما هو يكلم نفسه بصوت عالٍ:

- «مخابيل.. نعم.. لا أحد ينتزع قلب ضحيته إلا إذا كان مخبولًا.. وفي كلّ مرّة يكتب كلمة جوارها.. أنت تؤمن أن القاتل هو من كتب هذا..»

قلت في ضيق:

- «هذا واضح.. لا يمكن أن يتصادف أن كل ضحية تقرر كتابة اسم قاتلها في كلّ مرّة.. ثم إن وضوح الحروف واتجاه الكتابة يوحي بيد مختلفة صافية المزاج.. دعك من أن أنامل الضحايا كلها غير ملوثة بالدم..»

كان هذا ما قاله لي (عادل) وقد تبنيته بشدة إلى درجة أنه صار رأيي الخاص.. وسوف أحطم أنف من يجادل فيه..

عاد يكرر ما قلت شارد الذهن:

- «هـ م م.. غير ملوثة بالدم..»

قلت:

- «أي أن أيًا من القتلى لم يكتب..»

تثاءب وقال في شرود:

- «هـ م م.. لم يكتب..»

قلت لنفسي إن النعاس قد غلبه على الأرجح ما دام يكرر كل حرف قلته.. على كل حال لا أتوقع من البشر أن يكونوا مثلي في ذروة نشاطهم العقلي في الرابعة صباحًا.. لكن الأمر خطير.. جد خطير.. عندما يقرر لواء أن يسهر ليلته في مديرية الأمن فلابد أن الأمر خطير.

قال وهو يخط أشياء على ورقة:

- «حسن.. دعنا نرتب الأمور.. لدينا سلسلة من حوادث القتل يجمع بينها أنها تتم بانتزاع القلب من الصدر.. وأنّ هناك كلمة بالدم جوار القتيل.. أول الضحايا وجدناه في زقاق.. إن اسمه (مصطفى أبو زينة).. باحث في التاريخ في جامعة (..).. الاسم الذي وجدناه جواره هو (عباس).. ثمّة جثة أخرى وجدناها بقربه.. جثة بقال عجوز يدعى (جلال).. يقول التشريح إن البقال توفي بنوبة قلبيّة.. يبدو أنه لم يتحمل الصدمة.. وهذا يجعلنا قادرين على استبعاده من القصة مؤقتًا..»

تذكرت وجه عم (جلال) الطيب.. هذا الرجل بالذات كان يستحق ميتة أخرى.. لم أخبر أحدًا بأنني كنت أعرفه لكن موته سبب لي غصة لا بأس بها..

واللواء يواصل السرد:

- «ثاني الضحايا وجدناه في الإسكندرية.. اسمه ((يوسف).. أبو الحسن).. مدرس شاب في كلية الآداب.. الاسم الذي وجدوه بجواره هو (زكي)..

«ثالث الضحايا وجدوه في قرية قرب القاهرة.. ثمّة شونة حبوب هناك، وقد رآه الخفير يركض ليتوارى في المخزن فلمّا لحق به وجده ميتًا برغم أنه ينفى بشدة أن يكون قد رأى من يلحق به.. القتيل يدعى (زكي عبد الرازق).. أستاذ بكلية الآداب قسم تاريخ.. الاسم الذي وجدناه بجواره هو ((يوسف)..)..

«ما الذي نستنتجه من هذا؟»

قلت وأنا أتثاءب:

- «إنها دائرة.. كل قتيل تجد بجواره اسم القتيل القادم.. هذا هو أسلوب (الكونت دي مونت كريستو).. وعلى الأرجح يتعلق الأمر بالانتقام..»

قال في ضيق:

- «كما قلت لك قد درسنا هذا الاقتراح مرارًا.. لقد قتل (زكي) بعد ((يوسف)..).. وبرغم هذا وجدنا الاسم بجواره.. ثم إننا لم نلق أي قتيل اسمه (عباس).. لاحظ أن أول اسم قرأناه كان (عباس)..»

قلت:

- «لهذا قلت (دائرة).. لا يجب أن تقرأ اسم قتيل (قادم).. يكفي أن تقرأ اسم قتيل (آخر).. سوف تنغلق الدائرة بشكل ما..»

ثم عقدت أناملي وقلت مفكرًا:

- «ثم هناك ذلك الطابع الأكاديمي المميز للضحايا.. كلهم يدرس أو يبحث.. اثنان لهما علاقة بكلية الآداب والثالث باحث.. هناك كذلك ذلك التخصص في التاريخ.. لو كنت مكانكم لبحثت بعناية عن شخص يدرس التاريخ في الجامعة واسمه (عباس).. أعتقد أنه الضحيّة القادمة بلا تردد..»

نظر إلى أحد معاونيه فبادله ابتسامة من طراز (هؤلاء الهواة يضحكونني) وقال:

- «هل تحسبنا لم نفعل؟ هناك اثنان نتابعهما بعناية.. وفي رأينا أنهما في خطر داهم.. أحدهما على الأقل..»

قلت وأنا أتساءل في سري عن مدى ما بلغته استنتاجاته:

- «هكذا يمكن القول إن هناك قاتلًا متسلسلًا.. وهذا القاتل يحمل كل الأسباب التي تجعله يرغب في قتل مدرسي التاريخ..»

قال ضاحكًا:

- «لا ألومه كثيرًا على كل حال..»

- «وهذا القاتل ككل القتلة المتسلسلين في الواقع يحبّ أن يترك شيئًا يدل على خططه أو يدل عليه.. نحن لم نعتد هذا الطراز من القتلة في مصر، لكنهم في الخارج يعرفون هذه الأساليب جيدًا.. لديهم مثلًا (زودياك) Zodiac الذي كان يرسل بطاقات لرجال الشرطة وما إلى ذلك.. يقولون إنها تتجاوز رغبة التفاخر الطفولي.. إنها رغبة ماسوشية في عقاب الذات، ورغبة في أن يُضبط.. أي أنه يقدم بنفسه للشرطة الخيط الذي يقود إليه. لاحظ أننا نتكلم عن نصف مجنون..»

- «ومن هذا القاتل؟ هل هو تلميذ يمقت التاريخ؟ أم هو مدرس جغرافيا؟»

- «أعتقد أن المراقبة اللصيقة لهذين (العباسين) سوف تقود إلى القاتل..»

فكر قليلًا ثم نظر إلى ساعته وهتف:

- «ياه! لقد أطلنا عليك يا دكتور.. آسف على إزعاجك لكني قلق فعلًا.. لم نعتد مقابلة هذا الطراز من الجرائم في مصر، وبأي ثمن لا أريد أن أسمع عن الجريمة الرابعة..»

ثم نظر إلى مساعده وقال:

- «اعمل على أن يوصلوا الدكتور إلى بيته»

وكانت لهجته تقول بوضوح (شكرًا على لا شيء).. ولم أستطع أن ألومه.. لكن من قال لهم إن علمي ينفع هنا؟ إن خبراتي مع المومياوات والمسوخ لا تسمح لي أبدًا بالتعامل مع قاتل حقيقي.. كأن ابنك مريض فتأتي له بأفضل مهندس إلكترونيات في العالم.. وتندهش بعدها لأن هذا المهندس العبقري لا يستطيع علاج طفل..

وفي السيارة التي شقت شوارع القاهرة في ضوء الفجر الوردي الشاحب، خطر لي أن الأمر مقلق بحق.. إن ارتفاع أسعار الكهرباء سوف.. ماذا أقول؟ ما علاقة هذا بالموضوع؟ آه! إنني أخرف لا أكثر.. فقدت قدرتي على التفكير السليم لأن موعد نومي قد جاء..

وعلى باب البناية شكرت السائق وصعدت إلى شقتي..

سأنام.. سأنام.. سأنام.

ثم أنام...

- ٧ -

لم تكن كبائن الهاتف العامة منتشرة في ذلك الوقت كما نراها اليوم..

لذا كانت الطريقة الوحيدة لإجراء مكالمة غير معروفة المصدر هو أن تتصل من عند البقال أو السنترال.. السنترال خطر لأن هناك من يسترقون السمع على مكالمتك.

لهذا فكر في البقال.. وكان البقال الذي اختاره في ذلك الشارع الذي يعجّ بورش الميكانيكا رجلًا عجوزًا غير فضولي شبه مكفوف شبه أصم.. هكذا لن يسند ذقنه إلى قبضته ويظل يتابع كل حرف تقوله.. ذات مرة كلم فتاة يحبّها عند بقال من هؤلاء الفضوليين، وقد ظل البقال يتابع كل كلمة بتمثيل التنهد ونظرات الهيام.. ولا مانع من (هأو) بعد كل مقطع..

البقال الذي اختاره كذلك يضع الهاتف بالداخل.. هكذا لا تجد خلفك طابورًا ممن ينتظرون دورهم ويسترقون السمع على سبيل التسلية..

فضولي جدًّا! من أهم صفات الشعب المصري أنه فضولي بشكل لا يصدّق!

هكذا شاعرًا بأنه (يهوذا) فعلًا طلب (سامح) الهاتف ودخل المحل.. ثم نظر حوله وطلب الرقم الذي حفظه عن ظهر قلب.. جاءه الصوت المهذب المنذر بالويل فقال بصوت راجف:

- «لديَّ بلاغ عن قضية تجسس.. أحسبها كذلك..»

ساد الصمت للحظة ثم عاد الصوت المهذب:

- «لحظة واحدة..»

كان يستطيع الآن أن يرى بعين الخيال أجهزة التتبع تعمل.. أجهزة التسجيل تعمل.. الرجال الأشداء ينحدرون على الأعمدة الزلقة كما يفعل رجال المطافئ مسرعين نحو سياراتهم.. (طبعًا هذه فكرة طفولية لكنه لم يستطع إبعادها).. يرى سيارة (الوسائل المساعدة) تنطلق وذلك القرص على ظهرها يدور في جشع بحثًا عن مصدر مائة كاميرا وجهاز تنصت تزرع في غرفته باللوكاندة في هذه اللحظة بالذات قبل أن يفتح فمه.. يرى الوزير شخصيًا يصدر تعليماته، واللواءات الأشداء ذوي النظارات السوداء يجتمعون بالساعات في قاعات واسعة مكيفة.. والغرض أن يعتقلوه هو.. (سامح).. والتهمة: الإبلاغ عن جاسوس يتضح أنه ليس كذلك؟

أبعد عن ذهنه هذه الخواطر العصابية العصبية وركز على المكالمة..

بعد قليل جاء صوت أكثر عمقًا وتهذيبًا يسأل من هو فقال:

- «أنا مواطن صالح..»

- «ومن أين تتكلم أيها المواطن الصالح؟»

كان هذا تضييع وقت متعمدًا.. بالتأكيد هم يعرفون أين هو أو على وشك معرفة ذلك.. لهذا قال دون أن يبالي بالرد:

- «هناك صحفي يدعى (فايز قطب).. صحفي في جريدة (الأحداث الأسبوعية).. إن درجه مليء بالمنشورات العبرية وخرائط ورموز.. وهو متغيب منذ أسبوع أو أكثر عن العمل..»

ساد الصمت.. ثم قال الصوت الوقور:

- «إنّه صحفي كما تقول.. ربما كان هذا يتعلق بعمله..»

قال وهو يتنهد كي لا يفقد الوعي:

- «عمله لا علاقة له البتة باللغة العبرية..»

عاد الصوت يقول في مرح مهذب:

- «ليكن يا سيدي.. لكن ألا تريد أن تشرفنا بمعرفة اسمك؟»

- «قلت إنني مواطن صالح.»

- «إذن لم لا تمر علينا كي نحتسي القهوة معًا وتحكي لنا بالتفصيل؟»

قال بصوت مخنوق:

- «لا.. شكرًا!»

ووضع السماعة واستدار ليدفع ثمن المكالمة ويفر..

فقط ليجد أمامه أربعة رجال أصغرهم وأرقهم في حجم باب الغرفة التي تجلس فيها الآن، والشرر يقدح من عيونهم بينما البقال العجوز شبه الكفيف يشير له متهمًا وهو يرتجف:

- «إنّه هو.. كان يتلفت حوله ويتكلم همسًا في الهاتف، ويقول شيئًا عن التجسس.. إنّه جاسوس!»

أدرك (سامح) أن هؤلاء هم الميكانيكية الذين ناداهم العجوز لنجدته.. ويبدو أن حماسهم الوطني ملتهب..

قال أحدهم:

- «الجاسوس الوغد!»

وقال آخر:

- «فليُضرب بالأحذية!»

- «بل نسلمه لرجال الأمن..»

- «بعد أن يُضرب بالأحذية!»

صاح (سامح) وهو يتراجع للوراء بصوت أراده حازمًا فخرج كالبكاء:

- «أنا لست جاسوسًا.. أنا أبلغ عن جاسوس!»

- «هأو!»

كان هذا هو درسه الأول عن سلوك الجموع الذي لا منطق له، والذي وصفه (شوقي بك) بـ (ياله من ببغاء.. عقله في أذنيه).. لا فارق بين الجاسوس ومن يتكلم عن الجاسوسية.. المهم أنه كان يتكلم همسًا المهم أنه مريب.. المهم أنه يجب أن يضرب بالأحذية!

وقال له أحد الواقفين وهو يلوح بمفتاح إنجليزي مرعب:

- «ربما كنت صادقًا لكنك ستبقى هنا إلى أن يتأكد رجال الأمن من قصتك!»

قال آخر وهو يلوح بـ (كوريك) عملاق:

- «وحتّى يصل هؤلاء.. سنذيقه الويل..»

- «نعم.. سيتمنى لو لم يولد!»

- «نعم.. نعم.. فليُضرب بالأحذية!»

كما ترون ليس الرعب الوحيد في العالم هو رعب مصاصي الدماء..

- ٨ -

كان د. (عباس فوزي) قلقًا بحق..

عندما يستجوبك رجال الشرطة ثم يقولون لك في كياسة إنهم يعتقدون إنك الضحيّة التالية، لا تشعر باطمئنان كبير.. سوف تموت ميتة شنيعة لكن لا تقلق.. هناك من سينتزع قلبك من بين الضلوع لكن لا تخف.. سوف يكتب بدمك اسم ضحيته التالية.. لكن لا تهتم بهذا.. نحن نراقبك..

فقط لا تبتعد عنا.. لا تدعنا نفقد أثرك.. لا تسافر إلا إذا أخبرتنا..

لم يكن يعرف إلا أنّ د. (زكي عبد الرازق) أستاذ التاريخ الذي أشرف على رسالته يومًا قد مات.. مات قتيلًا بطريقة بشعة.. وقد قال له رجال الشرطة إنهم يتوقعون بشكل كبير أن يكون هو الضحيّة التالية وأن يموت بذات الطريقة..

صاروا يصطحبونه بسيارتهم من وإلى داره هناك مخبر يقف أمام باب بيته ومخبر يجلس على مقعد خارج غرفة المدرسين بالكلية.. لكن إلى متى؟ سوف يملون وسوف يتركونه وحيدًا وعندها.. ..

كان (عباس فوزي) في الخامسة والثلاثين بدينًا ذا عينين خضراوين مذعورتين، وشعاره في الحياة هو: لقد خرجوا ليظفروا بي.. من هم؟ الجميع.. كل شخص وكل شيء.. ولهذا كانت وفاته واردة حقًّا من فرط الهلع عندما عرف ما عرف..

لم يكن متزوجًا لأنّه يهاب النساء.. وقد أدرك أنه سيفقد قلبه الذي لم يستعمله قط..

سأل رجال الشرطة إن كان بوسعه اقتناء مسدس لكنهم هزوا رءوسهم أن لا..

هكذا كان يقضي أسود ساعات حياته في العمل، وأسود منها في البيت.. حتى بدأ يتمنى أن ينتهي القاتل من عمله سريعًا ليريحه من هذا الجو (الكافكاوي)..

قالت له (سوسن) زميلته في العمل:

- «كل هذا الجو البوليسي يثير قلقي..»

ثم شرد ذهنها وقالت:

- «هل تعتقد أنه يمكن أن يقتحم المكان حاملًا بندقية آلية ليفرغها في كل الموجودين في غرفة المدرسين؟»

نظر لها وابتسم.. هي فقط تريد أن تطمئن على حياتها لو كان القتل سيتم بطريقة محددة فبها ورحبت، أمّا أن تتعرض هي للخطر كذلك فأمر يثير الرعب..

النظارة الأنيقة فرنسية الطابع ذات الزجاج الشفاف، والشعر القصير على طريقة (إنوك إيميه Anouk Aimee) بطلة (رجل وامرأة) معشوقة الشباب في هذا العصر.. والشفتان المصبوغتان بالأحمر، مع تلك اللمسة الراقية الأنيقة.. إنها بالضبط الأنثى التي تمنى لو فاز بها يومًا.. لكنه لم يجرؤ قط على الكلام معها، ومن الواضح أنه لن يفعل.. كان إحساسها بحسنها مبالغًا فيه من الطراز الذي جعلها موسوسة تشعر بأن الرجال لا يفعلون أي شيء إلا ليلفتوا نظرها.. الأمر الذي يذكر (عباس) بأبيات الساخر الأعظم (بيرم التونسي) عن أنثى مماثلة تمشي في الشارع فـ....

إن كـحّ واحد تقـول قصده يشاغلنـــي

وإن تـفّ راخـر تقـول عـاوز يقابلنـــي

وإن بصّ راجـل تقـول مالك حتـاكـلنـي

أمّا إللي يضحك ده يبقي ف هواها قتيل

قال لها في صبر:

- «أحب أن أطمئنك أن أساليب القاتل دقيقة جدًّا ولا تترك مجالًا للخطأ.. ثم أذكرك بأن هذا الموضوع سرّي تمامًا.. لا أحد يعرفه أو هذا هو المفترض.. يقولون إنّه كمين..»

- «أتمنى أن أرى ذلك الأحمق الذي سيقع في كمين كهذا، بينما (بسطويسي) يجلس كالديدبان على باب الغرفة..»

- «الحمقى كثيرون.. على فكرة اسمه (حسن) لا (بسطويسي)»

- «كل المخبرين اسمهم (بسطويسي) وكل رجال الأمن اسمهم (بسيوني).. هذه قواعد صارمة لا تخرق إلا على سبيل الاستثناء الذي يؤكد القاعدة»

ابتسم. ثم بدأ يشعر بذلك الحافز الذي يقاومه منذ خمس سنوات.. الآن صار في حالة من التهور العاطفي والنفسي ربما دفعته إلى الجنون..

قال لها وهو يزن كلماته:

- «ثمّة شيء يجب أن أخبرك به..»

قالت وهي تخط شيئًا في ورقة:

- «يتعلق بـ؟».

- «بنا.. كنت أريد القول إن..»

قالت في ضيق:

- «أنا لا أبالي بهذه الأمور.. دعنا نتكلم عما هو أهم.. هل جلبت لي ذلك المرجع الذي..»

هنا توقفت ونظرت إلى الباب فنظر إلى حيث نظرت..

ذلك الرجل الضخم يطل برأسه من الباب ثم يتوارى.. لمحة واحدة لم تطل لكنّها أثارت توتره..

نظرت له متسائلة فبادلها النظر..

نهض واتجه إلى الباب فلم يجد (بسطويسي) الذي هو (حسن) على مقعده كما هي العادة المقعد خال فلابد أنه ذهب يبحث عن (تعميرة) في أقرب مقهى.. لقد شعر بالملل..

قال لها وقد شحب وجهه:

- «لقد رحل..»

- «وهذا الذي أطل من الباب؟؟ هو ليس من أعضاء هيئة التدريس..»

- «وليس طالبًا.. إنّه أكبر وأكثر شراسة من أي طالب..»

بدأ يعرق وبدأ يشعر بأن ساقيه تتخليان عنه.. هكذا اتجه إلى الباب فسألته متوترة:

- «إلى أين؟»

- «سأبحث عن (بسطوي.. أ.. (حسن).. لابد أنه قريب.. يجب أن نعرف من هذا المتسلل..»

- «لكن هذا خطر.. ربما كان هذا هو ما يريده بالضبط»

- «لا أعتقد.. إن الكلية مزدحمة والوقت نهار.. من الأفضل أن أتواجد وسط الزحام»

ولم يشغل باله بصددها لأنهّا على الأرجح ستعرف كيف تتصرف، وهذا تطبيق حي لمقولة شاعر العامية العبقري (يموت حبيبي ولا استهواش)..

ومشى مسرعًا في الممر بين الطلبة المتزاحمين.. في نهاية الممر يوجد باب المصعد.. سوف يستقله إلى الطابق السفلي ويبحث عن المخبر.. إن لم يجده سيعود إلى داره..

إنه يشعر بقلق لأن وجه ذلك الرجل الضخم الذي أطل من الباب لا يفارق خياله..

انفتح باب المصعد فخطا إلى الداخل وفي اللحظة الأخيرة خطا أحدهم إلى الداخل معه..

إنّه يعرف هذا الوجه..

ذات الوجه الأسمر والجسد الضخم.. ذات الملامح الغليظة والنظرة المرعبة المثبتة على وجهه بالذات..

إنه هو.. وقد كانت لعبة محكمة حقًّا.. لا يمكن أن تنفرد بأحد في هذه البناية إلا في دورة المياه أو المصعد.. والمصاعد يمكن إيقافها بين طابقين في أي وقت تريد..

الآن ينغلق الباب وهو يقف.. كطفل أمام هذا العملاق الفارع..

في يد العملاق حقيبة رثة تطل منها أشياء مرعبة.. وثياب العملاق ممزقة متسخة تنم عن حياة خشنة لا شك فيها..

فتح فمه ليصرخ فلم يخرج صوت..

هنا مد العملاق يده الغليظة نحوه دون أن ينطق..

هكذا تكور (عباس) على نفسه على الأرض في وضع جنيني وراح يبكي كالأطفال..

☆ ☆ ☆

وعندما انفتح باب المصعد والتف العابرون ينظرون ما هناك، كان (عباس) على الأرض يعوي بصوت يمزق نياط القلوب، بينما الكهربائي يضرب كفًّا بكف..

- «أقسم بالله إنني لم ألمسه.. قالوا لي إن كشاف غرفة المدرسين بالطابق الثالث لا يعمل.. وجدت أنّ هناك من يجلس فيها فقررت تأجيل الأمر، ونزلت لأصلح شيئًا آخر في البناية ذاتها.. فجأة وجدته معي في المصعد يركع على الأرض ويبكي كالأطفال.. أقسم بالله إنني لم أنطق بحرف..»

لم يفهم الواقفون شيئًا.. لكن الكهربائي ظل يردد وهو يضرب كفًّا بكف:

- «يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم.. لا أعرف من أين تتهاوى هذه المصائب فوق رأسنا!!»

مع الكثير من (حتودونا في داهية الله يخرب بيوتكو) وأعتذر للتعبير لكني أحاول نقل ما قاله حرفيًا..

في هذه اللحظة عاد (بسطويسي) الذي هو (حسن) بعد ما دخن حجرين.. وجد هذا الزحام حول مدخل المصعد فقرر ألا يضيع وقته بالانتظار.. إنها ثلاثة طوابق يمكن أن يصعدها وثبًا.. إن هؤلاء القوم المترفين الأثرياء يملكون الكثير من الفراغ والبال الرائق، وعندهم متسع من الوقت يسمح لهم بالتجمهر حول أبواب المصاعد.. أمّا هو فعليه مسئولية أمنية ثقيلة يجب أن يقوم بها..

- ٩ -

قابلت (فايز) في مكتب بالكلية..

لا أذكر اليوم طبعًا.. لا أذكر الساعة.. لا أذكر الظروف.. فقط أذكر أن (فايز) هذا كان في منتصف العشرينات من العمر، غير حليق الذقن.. مبعثر الثياب كأنه في حالة نزول أبدي من الحافلة المزدحمة.. وأعتقد أنه لا يظفر بالكثير من المال من عمله لأن حذاءه بحاجة إلى حذاء..

لو تغاضينا عن هذا وهو بالفعل تافه فأنا أعتقد أنه شاب ظريف ذكي.. ولسوف يحقق نجاحًا عظيمًا ما لم يتم تحطيمه كالعادة.. إن عدد هؤلاء الشباب المؤهلين للنجاح يثير ذهولي.. لو تركوا وشأنهم لامتلا العالم بالناجحين.. وكما تعمل جهات ما على منع تكاثر ضفادع العلجوم في أنهار استراليا كي لا تقتل التماسيح، تعمل جهة ما على حفظ التوازن الطبيعي البيولوجي كي لا تموت التماسيح الحقيقية في العالم على يد هؤلاء الموهوبين الأذكياء..

صافحني وقال:

- «أنا (فايز قطب).. صحفي بجريدة (الأحداث الأسبوعية)..»

- «(رفعت إسماعيل).. أستاذ أمراض الدم بكلية طب (....)..»

ضحك في حرج وقال:

- «لابد أن يكون أحد الطرفين غنيًا عن التعريف، ما دام الطرف الآخر جاء للقائه..»

قلت في خبث وأنا أشير له إلى مقعد ليجلس عليه:

- «بالعكس.. أردت أن أذكرك بأني طبيب أولًا.. بعض الناس ينسى هذا.. كلهم في الواقع..»

كنت قد أدركت أنه جاء لـ (رفعت) الآخر.. (رفعت) الذي يجيد الحديث عن تعويذات الكهنة القدامى، وطقوس فتح التوابيت، وطرق قتل مصاص الدماء.. هناك من يحسبني متخصصًا أتقاضى راتبي من الدولة مقابل هذه الخبرة.. أحب أن يتذكروا أنني طبيب من حين لآخر.. طبيب لا بأس به..

قال في حياء:

- «في الحقيقة أنني جئت فعلًا من أجل د. (رفعت) الآخر..»

تنهدت في غيظ وقلت:

- «خمنت هذا ما دام عنقك لا تحيط به العقد اللمفاوية وما دام أنفك لا ينزف.. وما دمت متورد الوجه.. أنت لا تنال تغذية جيدة لكنك سليم كالجرس.. ما هي مشكلتك يا بني؟»

- «خطر لي إنك الشخص الوحيد المثقف الذي يمكن أن أجد عنده إجابة.. دعك من حقيقة أنك لا تكسب مليمًا من هذه الأمور وهذا يدعو للثقة وحقيقة أن عندك شجاعة الاعتراف بأنك لا تعرف..»

حقًّا.. النقطة الأخيرة هي الأهم.. لو أنك سألت بائع جرائد أو سباك عن (القينعور) لأخبرك به بلا تردد برغم أنه لا أنت ولا هو ولا أنا يعرف أي شيء عنه..

ثم إنّه فكر قليلًا وبدا أنه يجد عسرًا في البدء.. لهذا سهلت عليه الأمر ونهضت لأغلق الباب.. هذا يعطيه فرصة لترتيب أفكاره..

جريدة (الأحداث الأسبوعية)؟ لابد أنني قرأت عددًا أو اثنين.. إنها من تلك الجرائد التي لا تعرف هدفها بالضبط.. أحيانًا هي سياسية، وأحيانًا هي فكاهية تذكرك بـ (البعكوكة)، وأحيانًا هي مخصصة لمشاكل المرأة وكيف أن الرجال أوغاد، وأحيانًا تتخصص في فضائح الفنانات الملفقة غالبًا.. الخلاصة إنها جريدة ممتازة إذا كان الهدف من الجرائد هو تشرب الزيت المتخلف من قلي البطاطس حبرها ثابت بطريقة تثير الإعجاب وهو ما كانت تفتقر له صحف أكثر شهرة وأهمية..

عدت لمقعدي وجلست.. فقال لي بطريقة أكثر تصميمًا:

- «الحقيقة أنني أردت استشارتك.. بصدد كتاب معين.. هل تعرف كيف وأين أجد نسخة من كتاب (إينوخ Enoch)؟»

فكرت في الاسم قليلًا ثم تذكرت أين سمعته من قبل..

قلت له وأنا أفتح درجي:

- «أعتقد أنك لن تجده في مصر أبدًا يا بني.. هناك نسخة شهيرة ترجمها (دي Dee).. لكن ما الذي يقودك إلى هذه المتاهات العبرانية؟»

لم يرد وابتسم، وإن سرّه على ما يبدو أنني لم أفتح فمي في بلاهة لدى سماع الاسم..

قال لي:

- «أعتقد أنك كذلك تعرف من يدعي بـ (ناتان غزة)؟»

عدت أكرر في إصرار:

- «طبعًا.. قلت لك إن هذه متاهات عبرانية لن تخرج منها أبدًا.. أعتقد أنك مهتم بسحر الكابالا اليهودي kabala.. هذا سحر اختص به حاخامات اليهود أنفسهم ومن الصعب أن تتعلمه أو تجد

من يعلمه لك.. كتاب (إينوخ) نفسه عبارة عن شفرة معقدة جدًّا.. حتى لو وجدت ترجمة (دي) فلن تستفيد منها شيئًا..»

قال في تهذيب:

- «أنا أكتب مقالًا مهمًا عن هذا النوع من السحر، وقد راسلت الكثيرين خارج مصر لكن كما قلت أنت لا أحد يتبرع بهذه الأشياء..»

قلت له محذرًا وأنا أغلق الدرج:

- «خذ الحذر.. نحن في حالة حرب مع إسرائيل.. لا تبعثر الغبار حول نفسك لأن اهتمامك العبراني هذا قد يُلقي حولك ظلال الشك.. إن تهمة التجسس ليست بعيدة عن أحد..»

- «الفارق واضح بين من يدرس للعلم ومن يدرس للتخابر..»

- «أتمنى أن أرى كيف ستشرح هذا لرجال أمن الدولة عندما يرون لديك أوراقًا امتلأت بالخرائط والرموز وقد كتبت بالعبرية.. ويعرفون أنك تراسل البروفسور (ديفيد فلان) أو (حاييم علان) بالخارج.. حدثهم وقتها عن سحر (الكابالا).. نعم.. فهم رجال مرهقون يتوقون إلى بعض المرح..»

قال في حزم وهو يضغط على عضلات فكيه:

- «سأتذكر هذا.. شكرًا.. لكن أرجو أن تقدم لي العون..»

فتحت الدرج ثانية.. في المرّة الأولى فتحته على سبيل تزجية الوقت والملل.. هذه المرّة أفتحه لأخرج قصاصة ورق كتبت عليها بعض الحروف اللاتينية..

- «هذا عنوان نصاب يهودي يعيش في الولايات المتحدة.. يدّعي أنه ساحر وأحيانًا أوشك على تصديقه، لكنه يعرف أشياء كثيرة.. على الأقل يعرف أين يوجد كتابك هذا.. لا أرى ما يمنع من مراسلته لأنّه مجنون شهرة، ويصبو لأن ينال أي نوع من التقدير بأي شكل.. لاحظ أن مراسلة الولايات المتحدة لن تبعث حولك أبخرة الشك..»

أخذ القصاصة ونظر فيها وغمغم:

- «(سام م. كولبي).. (نيويورك)؟ شكرًا سيدي.. سأعرف كيف أفيد من هذه المعلومات..»

ثم نهض.. وفكر حينًا توطئة لأن يقول:

- «هل تسمح لي بالتردد عليك لمزيد من الاستشارات؟»

- «أي وقت..»

لم يكن هذا ودًّا زائدًا فأنا ما زلت عدو العلاقات البشريّة.. لكني شعرت بعطف عليه.. حينما يسكن هذا العقل الذكي الطموح ذلك الواقع الفقير المحبط، يكون الفتى جديرًا بالرعاية وربما بعض الحنو الأبوي.. يجب أن يوجد إنسان ما يصغي إليه وهو يبكي، ويفسر له لماذا فشل بينما هو جدير بالنجاح، ويشرح له لماذا كان العالم بهذه القسوة..

☆ ☆ ☆

لم أر الفتى إلا بعد أسبوعين واستغرقت عامين حتى أتذكر من هو..

قال لي وعيناه تلمعان:

- «الأمور تتحرك بسرعة..»

- «هل وجدت كتابك؟»

- «في الحقيقة لم أعد بحاجة إليه.. لقد تجاوزته منذ زمن..»

ثم نظر حوله وقال بحذر:

- «في الحقيقة لم يعد هذا المكان مناسبًا للكلام.. لم تعد الجريدة مناسبة.. أنا لا أتردد عليها منذ فترة لا بأس بها.. لا أعرف مكانًا آمنًا يمكن الكلام فيه..»

- «هذا من سوء حظك..»

قال وهو يواصل البحث بعينيه عن جواسيس:

- «هل لي أن أطمع في خدمة ما؟»

- «هذا يتوقف على الخدمة..»

- «أريد أن أقابلك في مكان خارج المستشفى.. بعيدًا عن الناس.. يجب أن أطلعك على ما وصلت إليه..»

فكرت في ملل.. الحق إنني لا أرغب بتاتًا في معرفة ما يعرفه.. لقد قابلت مليون شخص وصلوا إلى حل سر الكون وإلى ابتكار مذاهب فلسفية جديدة.. أحد هؤلاء كان يدعو لدين جديد قبل أن يدخل مستشفى المجانين الآن.. نعم.. لا أرغب البتة في سماع المزيد.. ..

لكنه كان مصرًّا كالكابوس.. هكذا لم أجد ما أفعله أو أقوله..

قال لي:

- «لن أتعبك معي هناك مدرسة تحت الإنشاء بقرب هذا المكان.. البناية خالية منذ فترة ولا توجد بوابة.. سوف نلتقي هناك..»

قلت لنفسي إن هذا الفتى مخبول فعلًا..

وسألته في غيظ:

- «ألا ترى أن نلتقي في المقابر؟ سيضفي هذا بهجة لا شك فيها..»

قال بحرج:

- «يؤسفني بشدة أن أطلب هذا منك.. لكن صدقني لدى أسباب قوية جدًّا سوف تعرفها عندما نلتقي..»

- «ولماذا لا تختار أية كافتيريا؟»

- «الأسباب تتضح فيما بعد كما قلت..»

حككت ذقني مفكرًا.. ثم فتحت الدرج وأغلقته على سبيل العصبية.. وسألته:

- «متى تريد أن نلتقي؟»

- «إن كان هذا غدًا لغدوت لك شاكرًا..»

مددت يدي إلى المفكرة الصغيرة لأعرف مواعيدي فقط لأجد أنني أضعتها.. منذ اقتنيت مفكرة المواعيد هذه لم أجدها في أية مرة بحثت فيها عنها.. لقد ضاعت نحو مائة مرة حتى الآن..

قلت له:

- «لا بأس.. ليكن هذا عند الظهر.. أرجو ألا يكون الليل شرطًا عندك..»

قال ضاحكًا:

- «أمّا هذا فلا.. الأمر متروك لكم..»

وهكذا افترقنا.. وقدرت أنني أخطأت عندما كنت ودودًا.. هكذا سأحتاج إلى قدر زائد من العنف وقلة الذوق لأتخلص منه.. وهو ما كان يمكن تجنبه بقدر قليل منهما في البداية..

إلى الغد إذن..

☆ ☆ ☆

عند الموعد توجهت إلى تلك المدرسة القريبة من المستشفى..

إنها مدرسة تحت الإنشاء منذ نعومة أظفاري.. لسبب ما يعملون فيها إلى الأبد جدران من القرميد الأحمر.. بقايا مواد بناء ورمال.. ربما قط أو قطان أصيبا بصدمة عصبية عندما رأيًا بشريًا هنا.. يبدو أن البعض كان يستعمل هذا المكان كدورة مياه، لكن هذا منذ سنوات الحسن الحظ.. ثم لا شيء..

أنت سخيف يا (رفعت).. سخيف فعلًا.. هذا المكان لا يزيد على مقلب أو..

أو فخ؟!

لكن أي فخ؟؟ ولماذا؟ إلا لو افترضنا أن الفتى مخبول - وهذا وارد - أو يسخر مني - وهو احتمال ضعيف - لا يبدو لي مولعًا بالسخرية من الشيوخ..

مشيت وسط المكان الخالي. لقد رأيت ومشيت في أماكن أسوأ.. دعك من أننا عند الظهيرة ونور الشمس يبدد كل خوف أو قلق من الصعب أن أتصور كارثة تحدث لي هنا..

أين الفتى؟

نظرت لساعتي.. لقد مرّت عشر دقائق.. معالم المقلب تتضح لي.. سوف أنتظر خمس دقائق أخرى ثم أرحل.. لا توجد دروس مجانية لكني على الأقل لم أضرب أو أهان أو أدفع مالًا.. وهذا شيء نادر هذه الأيام..

صوت الأنين هذا..

أنا موقن أنّ هناك صوت أنين.. ولكن من أين؟

مشيت ببطء نحو ذلك الجدار الذي يشبه بناية غير مسقوفة.. إن الصوت آت من هنا..

مشيت بحذر.. متوقعًا أن أجد نفسي أمام كلب جريح غاضب.. لكن الفضول قتل القط في كل مكان وزمان..

ما هذا؟ في البدء خيل إلى أنني أرى كومة من الثياب ألقاها أحدهم وهذا شيء وارد هنا ثم دنوت أكثر فعرفت أنها ليست كومة ثياب.. أنا أعرف هذا القميص الذي لا يتبدل وهذا الحذاء الأوحد..

إنه (فايز).. هو بالذات..

وبنظرة طبيب قدرت أن الأمر قد انتهى.. هذا الفتى الواعد المليء بالحيوية.. لكن ما أثار هلعي بحق هو سبب الوفاة.. لقد انتزع قلبه!

وقفت مذعورًا.. أين النيتروجلسرين؟ أين؟

لقد تكلمت كثيرًا في هذا الموضوع.. ناقشته ورأيت صوره.. لكن لم أتصور أن أراه رأي العين ثم ما دخل هذا الفتى.. هذا الصبي الذكي بالقصة؟

«لم نعتد مقابلة هذا الطراز من الجرائم في مصر، وبأي ثمن لا أريد أن أسمع عن الجريمة الرابعة..»

بدأ النيتروجلسرين يعمل وتصاعد الدم يخفق في رأسي.. شعرت بدوار شديد.. يجب أن أضيف الأسبيرين إلى علاجي، وإلا فإن جلطة الدماغ ستنضم إلى قائمة أسباب وفاتي التي أجمعها كهواة الطوابع..

دنوت من الجثة أكثر..

لو كان الأمر صحيحًا لوجدت كلمة بالدم إلى جوار الجثة.. لكن.. اسم (فايز) لم يكتب من قبل مطلقًا فما معنى هذا؟

لا توجد كلمات.. فقط بركة دم..

وارتجفت واستندت بظهري إلى الجدار.. لم تكتب كلمات.. معنى هذا أنها لم تكتب بعد**!!**

ومعنى هذا أن القاتل هنا.. لم يجد الوقت الكافي ليرحل**!**

أين هو؟ كيف أقاومه؟ ما قدرتي على مقاومة قاتل يستطيع انتزاع قلب إنسان من صدره؟ ربما لو تظاهرت بفقدان الوعي.. تلك الحيلة القديمة تنجح دائمًا معي..

أين هو؟

وفجأة وقعت عيناي على الجدار..

الآن عرفت من كتب تلك الكلمات جوار جثث القتلى..

بخط واضح رأيت الدم يجري في اتجاه مستحيل فيزيائيًا ليكتب بوضوح تام:

(فتحي)..

إن أحدًا لم يكتب تلك الكلمات..

الكلمات هي التي كتبت نفسها**!**

الجزء الثاني:

كتاب الأسماء

مخطوطات؟ إن العالم يعجّ بها.. هناك مخطوطات في كل مكان.. حتى الشيخ (عطوة) نصاب قريتك الذي يزعم قدرته على فك العمل يملك مخطوطات.. لو أنّ رجلًا وجدها بعد مائتي عام لملأ المنشورات العلمية صخبًا عن اكتشافه المهول..

- ١ -

قال (عادل):

- «لعل الجرائم ستستمر.. لعل القتيل القادم يدعي (فتحي) وسوف تجد بجواره اسم (عباس)..»

قلت له في غيظ:

- «هل رأيت؟ اسم (عباس) ذكر من قبل.. هكذا لا يستقيم منطق الجرائم.. لقد لاحظنا أن الترتيب دقيق تقريبًا.. كل قتيل ينذر بالاسم القادم.. باستثناء الأول.. ولو قرأت اسم (مصطفى) جوار جثة الفتى لكان هذا أقرب إلى المنطق.. هذا يغلق الدائرة كما يقول كتاب السيناريو»..

أشعل لفافة تبغ وقال:

- «أو لو كان قتيل أمس يدعى (عباس).. لاستقامت الأمور»

من جديد وبالقلم (الفلوماستر) الغليظ الذي أحمله رسمت على الخزانة المعدنية جدول القتلى:

القتيل	ما كتبه الدم
مصطفى	عباس
يوسف	زكي
زكي	يوسف
فايز	فتحي

قال لي في ضيق:

- «هيه! هذه القذارة لن تزول من على الخزانة المعدنية.. أنت تتلف أثاث الحكومة..»

قلت شارد الذهن وأنا أتأمل الجدول:

- «جرب استعمال قطنة مبتلة بالكحول.. دعنا من هذا وقل لي.. هناك اسمان كتبهما الدم ولم يقتلا.. (عباس) و(فتحي)..»

قال:

- «هذا ما أقصده.. سوف يقتلان قريبًا.. وعندها تستريح أنت نفسيًا..»

ثم أضاف وهو يمد يده ليتناول قدح القهوة الذي كاد يبرد:

- «الحقيقة أن عقلك لم يعد على ما يرام.. أنت موشك على الخبال.. أعني أن خبالك ازداد عما كان»

- «لا أعتقد هذا.. سوف أعرف يوم أجن.. إنني أراهن على هذا.. حتى اللحظة لا يوجد جزء يعمل بكفاءة في جسدي إلا كليتي وعقلي وربما بعض العقد اللمفاوية هنا وهناك..»

- «وكلامك عن الدم الذي يكتب بنفسه!»

جلست إلى الأريكة الجلدية.. الحقيقة أنني لا أصدق إنني رأيت ما رأيت.. والمشكلة أنه لا يوجد شهود.. دعني أحك هذه القصة في أي مكان، ولسوف تكتشف أن قميص الأكمام ليس بعيدًا عن أي منا..

قلت في صبر:

- «(عادل).. لا يوجد شهود.. لا أستطيع إثبات كلامي.. لكن الدم هو الذي كتب هذه العلامات بنفسه.. أقسم بالله العظيم أنّ هذا حدث..»

أشار لعقله ولفافة التبغ تتدلى من فمه وقال:

- «صادق.. أعرف هذا.. لكن هناك فارقًا بين ما رأيته بعينيك وما حدث فعلًا.. أنت تعرف ما أعنيه.. المجنون الذي كانت البعوضة تخبره بأنه (نابليون) ليس كاذبًا.. لقد سمعها فعلًا.. المشكلة هي: هل فعلت البعوضة ذلك؟»

قلت وأنا أتناول قهوتي:

- «لكن هناك شواهد تاريخية على هذه الظاهرة..»

نظر لي مندهشًا.. ورفع حاجبيه طالبًا معرفة ما هو أكثر.. فقلت:

- «إن ظاهرة الـ Haemography معروفة ومدونة.. لكن لم يكتب عنها الكثير.. ثمّة أشخاص يكتب دمهم كلمات عندما يموتون..»

حاول نطق الاسم:

- «هيمو هيمو..»

- «هيموجرافي.. باليونانية (هايما) معناها دم.. (جرافين) معناها كتابة.. الكتابة بالدم.. لكن الكلمات لا تكتب على الجدار جوارهم أو على الأرض.. يُقال إنك لو مسحت جروحهم فإن الدم على المنشفة يتجمع في كلمة ذات معنى أو شكل مفهوم..»

- «وماذا يكتب الدم؟»

- «هذا يخضع لتفسير من يقرؤه.. هناك قصة مرعبة شهيرة عن أشخاص كان دمهم بعد موتهم يكتب GODISNOWHERE وهي كلمة خبيثة.. يمكن قراءتها كما يلي GOD IS NOWHERE أو GOD IS NOW HERE حسب القصة تحدد طريقة قراءتك للجملة موقفك الإيماني.. ضعيفو الإيمان يقرءونها بالطريقة الأولى.. راسخو الإيمان يقرءونها بالطريقة الثانية..»

قال ضاحكًا:

- «آه! مثل تلك الأشكال التي يعرضونها عليك في الاختبارات النفسية.. بقعة حبر يراها البعض مزهرية ويراها البعض وجهين متقاربين ويراها البعض راقصة باليه.. وهذا يحدد للطبيب ما إذا كنت تحمل في نفسيتك لصًا أو سفاحًا أو مجرد وغد آخر..»

- «لقد فهمت وجهة نظري..»

عقد يديه تحت ذقنه وسألني في حزم:

- «وبأية طريقة تقرأ تلك الأسماء التي كتبتها دماء الموتى؟»

- «لا أعرف.. فقط أعرف أنه لا يوجد شيء سهل أو واضح في الحياة.. من السهل أن تبدو الأمور واضحة منطقية (غائية) في القصص.. لكن في الحياة يصير الغموض اسم اللعبة..»

ومسحت بمنديلي الخزانة ثم نظرت له.. فعلًا هذا اللون ثابت.. إنِّه باق للأبد..

قال لي في غيظ:

- «هل ترى؟ لن يزول هذا..»

- «يُمكنك أن تدهن الخزانة بلون آخر.. هذا اللون الرمادي الحكومي كئيب على كل حال..»

سألني (عادل) من جديد:

- «ما الذي يجمع بين هؤلاء الذين ماتوا؟»

قلت له:

- «سألوني في القاهرة في مديرية الأمن عن هذا.. خطر لنا إن العامل الذي يجمع هؤلاء هو نوع من التخصص الأكاديمي.. أكثرهم له علاقة بدراسة التاريخ.. المكان الجغرافي لا علاقة له.. الحالة الاجتماعية والسن لا علاقة لهما.. لهذا راقبوا كل (عباس) تنطبق عليه هذه الشروط.. من الواضح أن هؤلاء بخير حال.. نلاحظ هنا الوجه الجديد.. ذلك الصحفي الشاب المتحمس الذي لم يعد كذلك، نجد أنه ليس أكاديميًا لكنه مهتم بشدة بذلك الكتاب اللعين (إينوخ)، وهو يريد أن يعرف شيئًا عن (ناتان غزة) و.. من جديد تتكرر نغمة الاهتمام بالتاريخ.. إذن نحن أمام قاتل تسلسلي يقتل المهتمين بالتاريخ!»

قال (عادل) باسمًا وهو يبحث في درجه عن شيء:

- «بالمناسبة.. قبل مقتل الفتى بأيام اتصل أحد أصدقائه في العمل بأمن الدولة.. كان يشك في أن (فايز) يمارس نشاطًا تجسسيًا ما لأنّه وجد في درجه أوراقًا عليها كتابة عبرية..»

أدهشني الخبر.. لم أتوقع أنني بارع إلى هذا الحد.. لقد أنذرت الفتى من سوء الفهم.. قلت:

- «هذا يتسق مع ما قاله لي.. إنّه بالفعل مهتم بالسحر العبري أو هذا ما فهمته.. وأين هذا الصديق؟»

ضحك (عادل) كثيرًا.. ثم قال:

- «للأسف سمعه بعض الميكانيكية المتحمسين وحسبوه جاسوسًا.. كان يتكلم عن جاسوس فاعتبروا هذا دليلًا على أنه هو نفسه جاسوس.. لقد حولوه إلى عجين.. إنّه بخير الآن لكن هذا جعلنا نعرف من هو وكان يرغب في أن تكون المكالمة من مجهول..»

فكرت في الأمر قليلًا ثم سألته:

- «والأوراق؟»

- «لقد تم فحصها.. يقول رجال المباحث إنها لا تمت بصلة للتجسس.. إنها تمت للسحر الأسود والهراء المماثل.. إنها في مديرية الأمن بالقاهرة الآن ويمكن أن أرتب لك الحصول عليها..»

- «سأكون لك شاكرًا..»

وغادرت مديرية الأمن.. سأتناول غدائي في مطعم سمك شهير هنا في الإسكندرية ثم أعود للقاهرة.. الحقيقة أن علاقتي بالقضية انتهت.. لقد أقحمت فيها إقحامًا لكن من الحكمة أن أقر عندما تسنح لي الفرصة.. (عادل) لن يطلبني على الأرجح وكذلك اللواء (طلعت)..

أنا حر.. حر تمامًا..

- ٢ -

الآن ننتقل إلى أحداث وقعت منذ عامين بعيدًا عن مصر..

كيف عرفتها؟ هذه تفاصيل سوف أحكيها فيما بعد، لكن يجب أن أخبرك أن د. (زكي) كان يحتفظ بمذكرات دقيقة عن كل شيء.. إنّه رجل دقيق فعلًا حتى أنه كان يضع علامات صغيرة في أسفل كل صفحة، عرفت فيما بعد أنها مرات دخول الحمام..

نحن الآن في النمسا.. للدقة نقول إننا في (سالزبوج Salzburg) المدينة النمساوية التي تقع في الغرب..

إن النمسا عبارة عن حلم بصري وسمعي جميل لا يمكن وصفه، ولا تعبر عنه إلا موسيقا (شتراوس Strauss).. دعك من أن (سالزبورج) هي البلد الذي أنجب العبقري (موتسارت Mozart).. معني (سالزبورج) هو (قلعة الملح).. لأن الملح كان ذا أهميّة اقتصادية قصوى لهذا البلد.. نتحدث عن الماضي طبعًا..

هذا الذي يلبس معطفًا وقبعة وجه مألوف لنا.. إنّه د. (زكي عبد الرازق) أستاذ التاريخ الذي قابلناه من قبل.. لقد مات في تلك الشونة كما نعرف، لكننا هنا نلقاه منذ عامين في واحدة من أزهى فترات حياته وأكثرها خصوبة.. يبدو نمساويًا أكثر من النمساويين كما ترى لأنّه اندمج فعلًا في هذا العالم..

الفتاة الشقراء التي تتعلق بذراعه ليست زوجته كما تلاحظون.. إنها (جابي) صديقته.. بالنسبة لي هي أقرب إلى سحلية تم سلخها أو صورة سلبية لامرأة جميلة.. لكنه يراها جميلة وهذه مشكلته على كل حال..

لماذا هو هنا؟ مهمّة علمية طبعًا.. إن راتب رهبان العلم هؤلاء لا يسمح بالسياحة.. وكان قد حصل على درجة الدكتوراه من إنجلترا في ظروف كئيبة، لهذا يمكن القول إنّه لم ير أوروبا قط..

عرف (جابي) لأنهّا شقيقة أحد زملائه النمساويين، وكانت مطلقة شابة لطيفة المعشر تطوعت لأن تكون مرشدته في هذا البلد الساحر، وبفضلها صار يتكلم الألمانية كأهلها.. هنا تحدث العقدة الشهيرة التي عبر عنها (يحيى حقي) في (قنديل أم هاشم) حيث لم يعد الرجل يرى في العالم إلا نمسا كبيرة.. هنا التحضر والرقي والجمال والعلم.. اختلط حب البلد بحب الفتاة فلم يعد يعرف هل يحبّ النمسا لأنهّا بلدها أم يحبّها لأنهّا نمساوية.. أنا مررت بتجربة مشابهة في أسكتلندا لكني احتفظت لحسن الحظ بفلاح الشرقية الموجود تحت جلدي.. أجسر على القول إنني أحببت (ماجي) برغم أنها أسكتلندية.. لاحظ هذا.. (برغم) وليس (لأن)..

كانا الآن يمشيان جوار نهر (سالتساخ) حيث تطل عليهما تلكم القلعة الرهيبة.. يُمكنك أن تكون مصورًا بارعًا بسهولة هنا.. وجه الكاميرا إلى أي شيء واضغط الزر تحصل على كارت بوستال يمكن أن تبيعه..

لكن د. (زكي) كان قلقًا.. فالمهمة التي جاء من أجلها لم تنجز كلها.. ثمّة جزء أكاديمي خاص بدراسة تاريخ آل (هابسبورج Habsburg) وقد انتهى، أمّا الجزء الآخر فمهمة كلفه بها أستاذه البريطاني (تشارلز هاتون).. إن (هاتون) لن يستطيع القدوم هنا لهذا كلف صاحبنا بهذه المهمة.. والرجل على كل حال في السبعين.. ومن الواضح أنه لن يرى العام الجديد..

لقد اتصل به ليلة السفر في مصر وقال له:

- «على الأقل سأموت مستريحًا.. أنا أثق بك يا (زكي)..»

ثم ابتلع ريقه بصوت مسموع عبر الخط الهاتفي وقال:

- «الرجل يدعى (ماتيو).. (ماتيو درنشر).. وهو يعرف كل شيء.. سوف يساعدك ويخبرك بما ينبغي عمله، ولا تنس أنه يهودي.. أعتقد أنّ هذا لن يؤثر عليك..»

قال (زكي) العبارة التي قالها مرارًا:

- «إلى أن يقرر أن يكون صهيونيًا..»

- «لا أعرف هذا.. على كل حال سوف يصدع رأسك بالكلام عن المحرقة وتاريخ أجداده وأمه التي هلكت في المعتقلات.. لكنه مفيد وسوف يقودك إلى كل ما تريد وداعًا»

وكان (زكي) الآن قلقًا لأن (درنشر) هذا لم يظهر إنِّه يعرف الفندق بالتأكيد ويستطيع الاتصال به في أي وقت.. لهذا لا شيء في وسعه.. المشكلة هي أنه بقي يومان على موعد العودة لمصر.. لقد انتهت المهمة العلمية..

السبب الثاني لقلقه هو أنه أدرك أنه لم يعد ينتمي بأي شكل إلى (فاتن) أم العيال.. بصعوبة كان يتذكرها.. ولسبب ما لم يكن يستعيدها إلا وهي جالسة على الأرض تلف أصابع (المحشي).. محشي الكرنب الذي يترك رائحة سلق كريهة في البيت، مع تخمة تدوم حتى المساء.. بشعرها المنكوش جالسة على جريدة فرشتها في الصالة أمام المطبخ.. البصل يجعل أنفها يسيل فتمسحه من حين الآخر في كمها وقد صارت عيناها بلون الطماطم.. وعيناها على التلفزيون في نهم لتعرف ما إذا كان (أحمد رمزي) سيعود إلى (لبنى عبد العزيز) أم لا..

يحدثها عن دراسته فتتكلم عن الطماطم.. يحدثها عن الشعر اللاتيني فتحدثه عن أم (وفاء) التي تحقد عليها، وتلتمس لها الأخطاء.. هذه امرأة لا تعرف (فيرجيل) ولا يهمها أن تعرف أي شيء عن (فردريك الثاني) ولا ترتجف لدى سماع المذبحة التي قضت على آل (رومانوف)..

صحيح أنها زوجة باسلة.. صحيح أنها تحفظ بيته وترعى أطفاله.. صحيح أنه لم يأكل إلا الأفضل ولم يلبس إلا الأفضل.. صحيح أنها تدبر مصاريف البيت سواء كان معه جنيه أو ألف.. لكنه لا يستطيع أن يبعد عن ذهنه وجه (جابي) القسيم.. عيناها الذكيتان.. لو أنّ لأوروبا وجهًا لكانت هي (جابي).. والأجمل أنها لا تبدي على الإطلاق أنها متضايقة من سنه المتقدمة أو قبحه.. تحدثه عن (شتراوس) فتحمله إلى آفاق بعيدة، وتتكلم عن (نيتشه) فيشعر بأنه جالس معه، ثم تأخذه إلى الكونشير لتسبح روحه مع (باخ).. عندها لا يستطيع أن يزعم أن محشي الكرنب أفضل..

لقد أخطأ الطريق.. لو جاء هنا منذ عشرة أعوام لكانت (جابي) تدعى (فراو عبد الرازق)، ولكانت (فاتن) متزوجة من رجل يعشق محشي الكرنب..

يعرف ما سيحدث حينما يعود لمصر.. لقد انتهت (فاتن) من حياته تمامًا ولن تعود.. سوف يغلق باب مكتبه عليه ويدرس ويكتب ويدرس ويكتب إلى أن يموت.. لن يتبادل معها إلا عشر كلمات على الأرجح بقية حياته.. لن يطلقها لأن هذه خطوة تحتاج إلى شجاعة كاسحة وهي لم ترتكب ذنبًا يبرر هذا.. ذنبها الوحيد أن (جابي) أجمل وأروع وأذكى وأرشق وألطف وأسرع دعابة وأكثر أناقة.. وأنها نمساوية..

الأسوأ هنا أن مصر كلها لم تعد في ذهنه.. عمّه (عبد الواحد).. القرية.. أخواه (شوكت) و(جودت).. الأرض.. الجامعة.. د. (غسان).. شارع العباسية.. كل هذه ذكريات بعيدة جدًّا فلو كان يؤمن بمذهب التناسخ لحسب أنها أمور مرّت به في حياته السابقة على كوكب الأرض.. تلك الحياة التي كوفي عليها بأن بدأ حياة جديدة هنا..

كانت أزمة ضمير.. لهذا لم يكن سعيدًا على الإطلاق..

☆ ☆ ☆

ظهر (درنشر) عصر اليوم قبل الأخير، بينما (زكي) ينعم بنوم القيلولة الذي يستيقظ منه في السادسة.. لهذا نزل إلى لوبي الفندق متعكر المزاج..

كان (درنشر) يلبس معطفًا رثا وله ملامح يهودية واضحة.. ثمّة تعبير من الشعور بالذنب على ملامحه كأنه ارتكب جرما في حقك وجاء يعترف..

- «لقد اتصل بي البروفسور (هاتون).. أنا تحت تصرفك..»

وتصافحا.. سأله (زكي):

- «البروفسور يعتقد أنه موجود في قلعة (مونشبيرج)..»

هزّ الرجل رأسه ضاحكًا وقال:

- «هذه القلعة تطل على نهر (سالتساخ) وكانت مركزًا تجاريًا للرومان يدعى (يوفافوم).. إنها مزار سياحي ولا يمكن أن يترك أحدهم شيئًا كهذا فيها..»

ثم هزّ رأسه ونظر حوله بحذر وقال:

- «مكاننا هو منطقة (أوشر هورن).. هناك كهف.. هذا مكان يسمح بإخفاء الأشياء»

- «متى نذهب؟»

- «الآن.. إن معي سيارة»

كان هذا آخر ما يتوقعه (زكي) الذي إن لم ينم عصرًا تزلزل كيانه بالكامل.. لماذا لا ينتظر الرجل ليلًا خاصة أنه تأخر بما يكفي؟.. ثم قدر أن السبب واضح.. الرجل لا يريد أي نوع من التخطيط.. يريد عشوائية كاملة حتى لا يكون مراقبًا..

هكذا غادر الفندق كانت هناك سيارة عتيقة صغيرة تقف في ساحة الانتظار.. فركبها متوجسًا إلى جوار (درنشر) هذا..

وتنطلق السيارة عبر البلدة الجميلة متجهة إلى (أوشر هورن)..

في الواقع لم يكن (زكي) مهتمًا بالأمر على الإطلاق، لكنه تكليف من أستاذه.. وهذا التكليف لا يمكن أن يمرّ دون توتر.. إن (تشارلز هوتون) رجل دقيق مهذب، وإلى حد ما هو مدين له للأبد لأنّه أجاز أطروحته بعد ما حسب أنه سيموت دون أن يحصل عليها.. ثم إن (زكي) كان مصابًا بعقدة (الخواجة) لهذا لم يتحمل أن يتوسل له هذا الأستاذ الإنجليزي الوقور طالبًا العون.. كان هذا أقوى منه..

أخيرًا كان الطريق خاليًا فقال (درنشر) وهو يخرج منديلًا من تابلوه السيارة:

- «لا تؤاخذني.. لكن المرحلة التالية ستظل سرًا.. يجب أن أعصب عينيك»

صاح (زكي) بعصبية:

- «كله إلا هذا!»

قال اليهودي في إصرار:

- «إما هذا أو نعود.. إنني أجازف بعنقي ولا أنوي أن أتخلى عنه على سبيل المجاملة..»

قال بصدق:

- «لكني لا أعرف الاتجاهات هنا.. ثق إن تعصيب عيني لن يحدث فارقًا.. لن أستطيع العودة حتى لو أردت هذا..»

قال الرجل في خبث:

- «ربما أنعش بعضهم ذاكرتك.. سوف تتذكر نفقًا هنا وعلامة طرق هناك.. يجب أن أفعل»

ترك الرجل يعصب عينيه.. وشعر بأنه أحمق.. كيف تثق بأحد لدرجة أن يقتادك إلى مكان لم تزره من قبل وتسمح له بأن يعصب عينيك؟ إنّه الآن معدوم الحيلة فعلًا فلم يبق إلا أن تخترق الرصاصة جمجمته. وندم على أنه لم يترك اسم (درنشر) عند موظف استقبال الفندق..

السيارة تواصل رحلتها لابد أن الطريق كله مهجور وإلا لاستوقفت الشرطة هذه السيارة التي يركبها رجل معصوب العينين..

- «هنا.. لكن لا تنزع العصابة»

قالها (درنشر) وهو يوقف السيارة.. ثم فتح الباب وساعد (زكي) على الترجل.. وجره من يده كطفل عبر صخور وعرة نوعًا حتى أنه كاد يتعثر مرارًا.. لابد أنه مشي نحو خمس دقائق، ثم شعر به يدفع رأسه لأسفل.. يبدو أنّ هناك درجات سلم.. سلم صعب ذي زاوية حرجة.. ومرت لحظات قبل أن ينزع اليهودي عصابته..

توقع (زكي) أن يعمي نور الشمس عينيه، لكنه فوجئ بأنه في مكان مظلم تمامًا لا تنيره إلا بعض المشاعل وعرف مصدر اللهب عندما رأى عود الثقاب في يد الرجل..

اللهب الذي يُلقي ظلًالًا شيطانية على ملامح الرجل، وهو تأثير معروف.. لقد استطال حاجباه وصار أنفه أفطس.. لو كان طفلًا لصرخ وفر من هنا، لكنه أكثر نضجًا من هذا..

إنّه الكهف!

رفع عينيه لأعلى.. وفي الضوء الخافت المتراقص استطاع أن يرى أن الرجل صادق.. إن الجدار الذي أمامه كله يحمل ذلك الرمز الاستعماري الرهيب.. صليب (سواستيكا swastika)..

الصليب النازي المعقوف..

- ٣ -

في أيامه الأخيرة عرف ((يوسف).. أبو الحسن) أن نهايته قريبة..

هذا ما تخبرنا به تلك المذكرات التي كتبها وأعطاها صديقًا له طالبًا ألا يفتحها إلا في حالة اختفائه.. لقد عرف الصديق بخبر الوفاة لكنه ظل يحاول ألا يتورط في هذه القصة، وفي النهاية قام بفتح المظروف فتسليم الأوراق إلى مديرية الأمن في الإسكندرية لتقع في يد (عادل)، وبالتالي تنتهي نسخة منها عندي أنا..

على أنني وجدت تلك المذكرات في وقت متأخر جدًّا بحيث لم تساعدني قط على فهم ما يحدث.. ولو وجدتها في يدي منذ البداية لتجنبت الكثير من العناء والضحايا.. إلا أنني سأسمح لنفسي بحجب بعض الحقائق عن القارئ وإلا كان على أن أنهي القصة هنا والآن، لأن المذكرات تفسر كل شيء.. هذا سلوك عادل فيما أرى لأنّه يضع القارئ في ذات حيرة موقفي في تلك الفترة، وقراءة أية رواية أو سماع أية قصة في العالم تتضمن موافقة غير مكتوبة من القارئ / المستمع على أن يقبل احتكار الراوي لضخ الحقائق.. بالطبع يعرف الراوي ما سيحدث لـ (آنا كارنينا) ومن قتل الأب (كارامازوف) وما سر المستند الذي سرقه (أرسين لوبين)، لكنه سيقدم هذه المعلومات في وقتها.. إنها الحقيقة.. لكنّها ليست كل الحقيقة.

☆ ☆ ☆

كان ((يوسف).. أبو الحسن) مدرسًا للتاريخ في كلية الآداب، وهو شاب مهذب شديد الذكاء.. كان ذكاؤه أكثر من اللازم في الواقع.. متزوج وله طفلة رقيقة تدعى (ريهام).. هذه مأساة أكثر من هلكوا في هذه القصة، لأنّهم جميعًا متزوجون وآباء باستثناء ذلك الفتى (فايز)..

في الفترة الأخيرة كان ((يوسف)..) منهمكًا في دراسة تستغرق الكثير من الوقت والجهد.. وكان قد عاد من (بريطانيا) منذ عام واحد.. يبدو أنه وضع أولى خطواته على الطريق هناك، وإن كان أحد لم يعرف ما يفكر فيه.. كان من تلك الشخصيات الكتوم التي يمكن أن تدبر جريمة قتل أو تخطط للحرب العالمية الثالثة دون أن يختلج لها جفن..

على أنه بدأ يحقق تقدمًا واضحًا في بحوثه، وبدأ يدرك أنه وجد وريدًا ثريًا.. هذه هي اللحظة التي تبدأ فيها الدجاجة الصياح لأن البيضة تؤلمها..

ولهذه الأسباب عرض ما توصل إليه على أستاذه الدكتور (مختار).. لماذا اختاره بالذات؟ لا يعرف.. فجأة شعر بأنه يثق بهذا الرجل.. على كل حال لو فتشت بعناية لما وجدت شخصًا أصلح لهذه المهمة منه..

كان د. (مختار أبو مندور) راهب علم من الذين تعجّ بهم هذه القصة.. لكنه يختلف عن رهبان العلم الحقيقيين في أنه ثري متزوج.. كان يملك ثروة لا بأس بها وفيلا فاخرة وسيارة تدير الأعناق.. لا أحد يعرف من أين جاءته هذه الثروة وهو لا يملك إلا راتبه، لكن أكثر الناس كانوا يعتقدون أن ملامحه تنم عن أصل أرستقراطي لا بأس به.. ربما هو الميراث.. بل لابد أنه الميراث لأن أسرته ثرية..

وكان لطيف المعشر حاضر الدعابة من الطراز الذي تعرض عليه مشكلتك فتشعر أنها صارت مشكلته.. وقد قابله (يوسف).. في ذلك النادي الراقي الذي يتناول غداءه فيه، فأصر أولًا على أن يطلب غداء لـ (يوسف).. سر هذا كثيرًا وإن أخفي سروره وراء الكبرياء، وراح يجاهد.. كي يستعمل الشوكة والسكين بشكل لائق أمام هذا الرجل الذي لا يكف عن مراقبة طريقة أكله خلسة..

كانت النقطة الأساسية هي أن الرجلين لم يشتركا في أي عمل علمي من قبل.. وبالتالي لا توجد أرضيّة مشتركة بينهما، لكن (يوسف) كان قد سمع عن عقل (مختار) الراجح وقدراته العقليّة النقدية.. إنّه قادر على تفنيد أي هراء في ثوان..

هكذا طرح مشكلته وهو يجاهد المكرونة التي تأبى الالتفاف حول الشوكة..

قال د. (مختار) وهو يسترخي في مقعده:

- «ما عرفته مهم وطريف يا (يوسف).. لكنك تبدأ على أرضيّة مهتزة.. شخصيّة غير محترمة بدأت هذا الخيط.. فما الذي تتوقع أن تصل إليه؟»

قال (يوسف):

- «إن المخطوطات معي..»

هز الرجل رأسه ضاحكًا وجرع جرعة من كأس العصير وقال:

- «مخطوطات؟ إن العالم يعجّ بها.. هناك مخطوطات في كل مكان.. حتى الشيخ (عطوة) نصاب قريتك الذي يزعم قدرته على فك العمل يملك مخطوطات.. لو أنّ رجلًا وجدها بعد مائتي عام لملأ المنشورات العلمية صخبًا عن اكتشافه المهول..»

ثم أشار إلى رأسه وأردف:

- «يجب أن يمرّ كل شيء على هذه المصفاة.. فما يبقى فيها يمكن البدء منه.. يجب أن تتمتع بعقلية جدلية وأن تناقش وتطرح الأسئلة.. يجب أن تفترض أنك مخدوع وتحاول إثبات العكس.. هذا هو (الفرض الباطل Null Hypothesis) الذي قاد العالم إلى التقدم..»

هنا وصلت المكان امرأة على قدر من الجمال.. لها شعر أسود قصير وتخفي عينيها خلف نظارة سوداء. رفع (يوسف).. حاجبين متسائلين فقال (مختار) وهو يجذب لها مقعدًا لتجلس:

- «المدام.. (علياء)»

هزت رأسها محيية، ولم تقل أي شيء.. فراح (يوسف).. يختلس لهما النظرات من حين لآخر.. يبدو مظهرهما معًا كأنما هما لقطة من أحد الأفلام الغربية.. النادي.. البازين.. المدام.. طبقة أخرى تمامًا تختلف عن الطبقات التي اعتادها في الجامعة.. وقال لنفسه: إن وراءهما سرًا.. والأهم أنهما لا يبدوان سعيدين..

جلست المرأة تدق بأناملها بعصبية على المنضدة، ثم جاء النادل فراح (مختار) يثرثر معه ويتفحّص القائمة.. هنا رفع (يوسف).. عينيه نحوها فأدرك لرعبه أنها تنظر له من وراء النظارة..

نظر إلى يدها فوجد أنها تمسك قلمًا وتخط به على قطعة من الورق الرقمين التاليين:

06

وراحت تعيد حفر الخط على الرقمين مرارًا وتكرارًا.. وفي إلحاح.. ثم مزقت الورقة وألقت بها في منفضة التبغ بشيء من العصبية..

أنهى (يوسف).. الغداء فنهض شاكرًا.. قال له (مختار) وهو يلوح بيده:

- «يُمكنك أن تمر على مكتبي لنفحص تلك الأوراق معًا.. أنا موجود غدًا.»

- «إن شاء الله»

☆ ☆ ☆

بعد ما انتهى الدرس (السكشن) فرغ من الإجابة عن أسئلة الطلبة، وقرر أن يتجه إلى مكتب الدكتور (مختار).. إن الدكتور (مختار) من أقطاب القسم؛ لهذا مكتبه على قدر من الفخامة، وله حمام نظيف ملحق به..

دخل الغرفة فلم يجد الدكتور، لكنه سمع صوت الماء ينساب في الحمام.. جلس على مقعد جلدي وراح يتأمل الشهادات المعلقة على الجدران، وصور د. (مختار) مع أشخاص مهمين جدًّا.. إنِّه لا يعرف شكل (هيرودوت Herodotus) أبي التاريخ لكنه لن يندهش لو كانت له صورة يصافح د. (مختار)..

نظر إلى الحمام الذي كان بابه مواربًا.. استطاع أن يرى جزءًا من كتف الدكتور (مختار) أمام مرآة الحمام.. رجل يشذب شاربه فلا يوجد شيء غريب.. كانت الرؤية صعبة غير أكيدة، لكن خيل

إليه أنه يرى مشهدًا غير ممكن.. في المرآة.. الدكتور (مختار) يخرج لسانًا طويلًا كلسان السحلية يلعق به كرتي عينيه! ثم يمد يده ليجمش أنفه والأنسجة المحيطة به ليمطها ثم يضغطها كأنها عجين يعيد تشكيله!

عند هذا الحد كانت ساقا (يوسف).. أسرع من تفكيره ومن خوفه.. حتى (الأدرينالين) لم يصل لأي جزء من جسده بعد، لكن ساقيه تصرفتا على مسئوليتهما.. وسرعان ما كان يجد السير في الممر..

أخيرًا توقف جوار الكافتيريا فدخل يطلب من العامل كوب ماء..

ومع الجرعات الباردة راح يستعيد كل هذا الذي رآه.. مستحيل.. هي هلاوس بصرية.. لا أكثر.. لكن منذ متى تأتي هذه الهلاوس البصرية؟ كان دومًا لا يفهم كيف يخرف إنسان أو يهذي أو يفقد الوعي..

لا جدال في أنه رأى ما رآه..

المشهد الكابوسي يتخذ موضعه على رفوف كوابيسه ولسوف يطارده إلى الأبد، أمّا الآن فهو يمرّ بحالة تشبه حالة الدجاجة المذبوحة التي تمشي وتلتقط الحب غير مدركة الحقيقة أنها تموت..

وفجأة توقف..

أخرج قلمه وكانت هناك جريدة صغيرة على الرف.. اقتطع من هامشها قصاصة وكتب عليها:

06

الزوجة كتبت هذا وظلت تعيد كتابته مرارًا.. لكنه كان يراها من ناحيته هو.. كان يرى ما تكتبه مقلوبًا.. فلو قلب القصاصة لوجد أن المكتوب هو:

90

وهذا لا يعني شيئًا.. لكن لماذا تفترض أنها كانت تكتب رقمًا؟ إن في الإنجليزية أحرفًا تتشابه مع الأرقام، ولسوف يعرف هذا أي برنامج OCR (قارئ بصري للحروف) بعد أعوام.. خاصة مشكلة B/8 ومشكلة g/9 ومشكلة S/5 ومشكلة O/0[1].

إذن ما كانت الزوجة تكتبه بهذا الإلحاح هو:

go

كانت تنصحه بالرحيل.. وكانت تنصحه بهذا بينما زوجها مشغول مع النادل..

ولكن لماذا؟ ما الذي كانت تعرفه؟ وبعبارة أدق: ما الذي لا يجب أن يعرفه زوجها؟

والسؤال الأهم هو: هل رآه؟ مستحيل ألا يكون قد رأى انعكاسه في المرآة..

هذه لم تكن غفلة.. لقد كان يرسل له رسالة واضحة.. نعم أنا كما حسبتني وأكثر..

كان ((يوسف)..) يعرف الآن أبعاد المشكلة أكثر من أي واحد آخر..

إنه هالك لا محالة..

- ٤ -

عبثًا حاولت أن أنسى القصة..

عبثًا حاولت لكنّها ظلت تكرر نفسها بإلحاح على عقلي الباطن.. لا أعرف ما الغريب في هذا.. إنها قصة بشعة لكن قل لي أي شيء بشع لم أره في حياتي؟ ليس الأمر خارقًا للعادة.. وليس ذا مكانة خاصة في متحف ذكرياتي.. لهذا استبد بي العجب حينما نمت في شقتي، فرأيت ذلك الجدول الذي رسمته على خزانة (عادل) واضحًا جليًا أمام عيني..

لا توجد علاقة واضحة.. حقًّا لا توجد علاقة واضحة.. الاسم المكتوب بالدم ليس دائمًا اسم الضحيّة التالية..

(عباس)..

(زكي)..

(يوسف)..

(فتحي)..

ثم القتلى:

(مصطفى)..

(يوسف)..

(زكي)..

(فايز)..

(عباس)، (زكي)، (يوسف)، (فتحي)

(مصطفى)، (يوسف)، (زكي)، (فايز)

وفجأة هبط على الحل من ذات المكان الذي يهبط منه إلهام الشعراء.. من ذات المكان الذي جاءت منه لـ (إلياس هاو Howe) فكرة أن يثقب طرف إبرة آلة الخياطة.. يقولون إنّه نام وفكرة تلقيم الخيط تؤرقه، ثم رأي فيما يرى النائم أن مجموعة من أكلة لحوم البشر تحيط به، وكانت رءوس رماحهم مثقوبة.. هكذا نهض من النوم صارخًا.. وجدتها!

أنا كذلك وجدتها!

الحروف الأولى من الأسماء التي تركتها الدماء على الأرض.. وبالترتيب هي:

ع ز ي ف

(عزيف)!

☆ ☆ ☆

الآن صار النوم مستحيلًا.. أولًا: بسبب الحماس.. ثانيًا: بسبب الرعب.. الحق أعترف أن انقباضًا شديدًا غمر صدري عندما سمعت هذا الاسم المشئوم..

أضأت الأنوار كلها.. ثم دسست في جهاز الكاسيت شريطًا عليه تسجيل قرآني.. أريد أن أسمع كلمات الله تتردد في هذا البيت الكئيب.. رباه! لكم أنا وحيد تعس!

لو كانت هناك زوجة ثرثارة لا تكف عن لومي وتفتيش جيوبي لما شعرت بهذا الذعر كله. إن الملل والانزعاج أفضل من الرعب على الأقل..

في الصالة جلست أفكر في معنى هذا كله..

قد أكون واهمًا.. قد أكون أحمق وليتني كذلك فعلًا لكن هذا الترتيب متعمد.. أقسم أنه كذلك.. (العزيف).. الأمر يتعلق به وقد شممت هذه الرائحة المشئومة عندما تكلّم (فايز) عن الكتاب المشئوم الآخر (إينوخ).. وعن (ناتان غزة)..

العزيف.. لغويًا هو صوت الحشرات في الصحراء ليلًا والذي كان العرب يحسبونه صوت الجن..

شاعر عربي قيل إنّه مجنون.. وقيل إن اسمه (عبد الله الحظرد).. على الأقل هذا هو الاسم الذي قاله (لافكرافت Lovecraft) مرارًا في قصصه.. إلا أنّ الغربيين الذين يعرفون العربيّة لاحظوا ما لاحظناه نحن.. ليس هذا الاسم ذا رنين عربي على الإطلاق.. لهذا وضعوا احتمال أن يكون الاسم الأصلي (عبد الله ظهر الدين) أو (عبد العزى الراهب بن عاد).. الاسم الأخير غير منطقي هو الآخر لأنّه لا يمكن أن يوجد بعد الإسلام من يدعى (عبد العُزَّى)..

إنه العام ٧٠٠م.. الشاعر (الحظرد) يولد في (صنعاء).. وقيل عنه الكثير على لسان المؤرخين وعلى لسان (لافكرافت).. لهذا يمكن أن نقول باطمئنان إنّه عاصر عصر الأمويين، وسافر كثيرًا إلى خرائب (بابل) وأجاد عدة لغات.. وزعم أنه يعرف موقع بقايا (إرم ذات العماد) التي ذكرها القرآن الكريم[2].

هناك نبع مهم لأفكار (الحظرد) هو أساطير مدينة (هارانيان).. وهي من بلدان الشمال.. أي أن أهلها أقرب إلى الفايكنج والكلت.. استقر عدد من هؤلاء في بغداد مكونين مجتمعًا منغلقًا لم يدخل الإسلام، وهم من أطلق عليهم اسم (الصابئة).. إلا أنه استطاع أن يندمج بهم وقد أعطوه ثقتهم وحكوا له الكثير.. ويبدو أن حكاياتهم قد جعلته يفكر كثيرًا.. يفكر أكثر من اللازم..

لهذا سوف نرى في أعماله طابعًا واضحًا يدل على ثقافة (شماليّة) واسعة..

ثم استقر في دمشق ليكتب ذلك الكتاب المخيف (العزيف).. يقولون إن هذا هو ما قام به (نوسترادموس) بالعكس (نوستراداموس) درس السحر ليعرف أسرار الغد، بينما (الحظرد) درس السحر ليعرف أسرار الماضي..

في العام ٧٣٨م (١٢٠هـ) يرتحل (الحظرد) إلى الربع الخالي في الجزيرة العربيّة ليحيا وحيدًا.. هذا مكان يناسب أساطير العرب جدًّا.. الفلاة والقفر والجن.. بالنسبة لنا معشر العرب يجب أن نتذكر أن (عاد) هم قوم سيدنا (هود عليه السلام)، وكانوا يعيشون بالأحقاف بين (حضرموت) والشحر وعُمان قرب الربع الخالي بشبه الجزيرة العربيّة.. ومنهم جاء نسل ملوك (جرهم) الذين قيل إنهم من العماليق..

ثم يحكي الشهود أنهم رأوا (الحظرد) من بعيد وهو يتصارع مع كائن مخيف غير أرضي.. وأن نهايته كانت شنيعة..

زعم (لافكرافت) إن (الحظرد) كان يعبد آلهة وثنية تدعى (كتولو Cthulu) و(يوج سوثوث Yog Sothoth).. طبعًا لا أبتلع هذا الجزء على الإطلاق، لأن هذه الأسماء (لافكرافتية) جدًّا ولا يسيغها العقل العربي أو يستطيع اختراعها..

عندما يبتكر العقل العربي أسماء فهي تأتي من ثقافته وخلفياته، ونفس الشيء ينطبق على العقل الغربي.. حتى على مستوى النطق نفسه.. أشعر برغم أنّ هذا غير صحيح - كأن هناك فمًا عربيًا تشريحه يناسب النطق بأسماء مثل (امرؤ القيس) و(بنو قينقاع)، بينما تشريح الفم الغربي خلق لينطق (Exquisite) و(Deleterious).. طبعًا قد يجرب الغربي نطق أسماء عربية والعكس.. لكن النتيجة في الحالين لا تخدع أحدًا.. ولقد سمعت كوريًا ينطق اسم (هتشكوك) فلم تتبين أذني في نطقه أي حرف شين أو كاف.. السبب أنّ هذا فم كوري يحركه عقل كوري..

أين ذهب نص الكتاب الرهيب؟ لا أعرف.. لا أحد يعرف على الأرجح.. لقد تبخر (العزيف) تمامًا.. وقد حاول الحاكم (إدريس شاه) أن يجده في كل المكتبات العربيّة والهنديّة فلم يوفق.. إلا أننا نعرف أن رجلًا يدعى (تيودور فيليتاس) ترجمه إلى اليونانية في كتاب من تسعمائة صفحة.. وهو الكتاب الذي سيأمر البابا جريجوري التاسع عام ١٢٣٢ بمنع تداوله وإحراق نسخه..

لما انتهى (فيليتاس) من الترجمة، بحث عن اسم يناسب العقل واللسان الغربيين كما قلنا من قبل فاختار ذلك الاسم الذي صار مألوفًا لنا..

(نيكرونوميكون Necronomicon)..

ومعناه (كتاب أسماء الموتى)..

- ٥ -

وبرغم أنّ هذا لا يمثل له ذكرى خاصة، وجد د. (زكي) رهبة في النظر إلى شعار النازية هذا..

بالنسبة للعرب لا يمثل الصليب المعقوف ذكرى مريرة ما، وربما كان يمثل للبعض حلم الخلاص من الاستعمار الإنجليزي في فترة ما.. هو نفسه كان في العقد الثالث من عمره في ذلك الزمن، وكان ضمن الشباب الذين خرجوا يهتفون في الشوارع: «تقدم يا (روميل)»

لكن حينما تجد هذا العنوان الاستعماري القوي على جدران كهف.. فلابد أن تشعر برهبة..

قال (درنشر) وهو يرفع المشعل عاليًا:

- «لا يعرف هذا الموضع إلا ثلاثة أو أربعة في هذا البلد..»

ثم تقدم إلى الأمام فاضطر (زكي) إلى أن يتبعه وهو يتساءل أي مخبول هو..

كان الشعار على جدار عتيق، وفي قلب الجدار باب فما إن فتح اليهودي الباب حتى هبت روائح العطن.. واستطاع (زكي) أن يدرك أنّ هذا ممر طويل ضيق.. له سقف منخفض.. مكان كابوسي فعلًا فكيف بالظلام؟

قال (درنشر) وعلى شفتيه ابتسامة وقحة لا تعرف سببها:

- «كانوا يعذبون بعض اليهود في هذه الأقبية..»

كان (زكي) يتوقع هذا على كل حال.. لن يكف الرجل عن الكلام عن المحرقة إلى الأبد.. يذكر أحد الدبلوماسيين الأمريكيين أنه عرض على (بيجين) رئيس الوزراء الإسرائيلي لعب الشطرنج، فقال هذا في مرارة: لم ألعبها منذ هلك أبي في معتقل (أوشفيتز).. كان يحبّها.. ثم اعتقله النازيون و...

وراح يحكى فاصلًا مرعبًا عما فعله النازيون بأبيه.. هنا مرّت زوجة (بيجين) برقعة الشطرنج فرأت زوجها يجلس مع الدبلوماسي الأمريكي فهتفت في مرح: «شطرنج كالعادة! إن زوجي لا يكف عن لعب هذه اللعبة ليلًا نهارًا!!»

هكذا راح (درنشر) يحكى لـ (زكي) حكايات مرعبة عما كان يتم في هذه القبو منذ ثلاثين عامًا.. دعك من صوته الهامس الشبيه بالفحيح والضوء الخافت ورائحة العطن.. الحق إنها تجربة مريرة فعلًا..

سأله (زكي) ليقطع سياق خواطره:

- «هل الأوراق كاملة؟»

قال (درنشر):

- «لا.. أعتقد أنك تعرف هذا من البروفسور (هاتون).. هذا هو الجزء الذي تمكّن النازيون من سرقته من المتحف البريطاني.. إن (كراولي) كان ثرثارًا.. أنت تعرف أنه كان عضوًا في الجمعيات الماسونية.. وقد انزلق لسانه أمام أحد الأعضاء الألمان.. هكذا انتقل الخبر إلى الوغد الأكبر.. (أدولف هتلر) شخصيًا.. وقد كان شديد الإيمان بالخرافات شديد التطير.. بعد قليل تمت سرقة بارعة جدًّا للمتحف البريطاني.. سرقة محكمة تنم عن تخطيط لا يقوم به إلا جهاز مخابرات.. ما الذي سرق من المتحف؟ سرق كتالوج المتحف وسرقت ترجمة (دي) لهذا الكتاب.. أعني بعض فصولها لأنهّا لم تكن كاملة.. من فعل هذا؟»

ثم نظر الرجل إلى القبو أمامه وقال:

- «من وقتها انتشرت إشاعات تقول إن الكتاب مخبأ في مقر قيادة نازي في مكان ما من (أوشر هورن) في (سالزبورج).. لكن أين؟ أين؟»

وضحك كثيرًا ثم التمعت عيناه وقال:

- «محسوبك يعرف إن لليهود أبحاثهم.. وقد تمكنا من العثور على هذا المقر المختبئ في الكهف.. لقد مات سرّه مع النازيين وصار نسيًا منسيًا.. كل من له علاقة بهذا المكان قتل أو انتحر أو فر إلى أمريكا الجنوبيّة. لكننا معشر اليهود نعرف كيف نستفيد مما نعرفه.. والبروفسور (هاتون) يعرف هذا جيدًا.. لذا اتصل بي ونجح في إقناعي بالتخلي عن هذا الكتاب..»

سأله (زكي) وهو يغالب تقززه:

- «ولماذا لم تأخذ الكتاب لنفسك؟»

- «من يله بالنار يحترق بها هذه لعبة خطرة جدًّا تحتاج إلى أشخاص من وزن (دي) و(كراولي) للتعامل مع هذه القوة الشيطانية المرعبة.. لكني رجل بسيط لا يرغب إلا في الثراء، ولربما كان الخلاص من هذا السر أفضل لسلامتي الشخصية.. أعتقد أن البروفسور (هاتون) يدفع جيدًا..»

مد (زكي) يده إلى جيبه وتحسس الشيك.. لن يعطيه الرجل إلا بعد التسلم.. طبعًا من الوارد أن يحتفظ الرجل بالشيك والكتاب ولن يلومه أحد.. لو قتل (زكي) الآن فلا مشكلة.. لن يفتضح أمره أبدًا..

لكن (زكي) دعا الله ألا تكون الأمور بهذه الخطورة. بالنسبة له لا يزيد الكتاب على مخطوطة أخرى من عشرات المخطوطات.. ولو كان يعرف هذا التاريخ الأسود لتردد مرارًا.. مخابرات نازية وكهف و.. و.. لعبة مرعبة حقًّا..

الآن كان (درنشر) يتقدم وسط الممر.. ثم فتح باب إحدى الغرف الجانبية ودخل..

مشى (زكي) وراءه في ضوء المشعل.. وأدرك أنها كانت غرفة مكتب يومًا ما.. شعر بأنه يتعثر فتوازن بسرعة.. وفي اللحظة التالية كان يحدّق في جمجمة تضحك ضحكة الموت الماجنة في وجهه.. أطلق صرخة وتراجع..

- «هذا (فريتز) البدين!»

قالها (درنشر) ضاحكًا وهو يخفض المشعل لينير تلك الجثة.. جثة عليها أسمال يبدو أنها كانت ثيابًا عسكرية رمادية يومًا ما.. جوار يد الهيكل العظمي مسدس.. والثقب في الجمجمة يحكي قصة بليغة جدًّا..

- «(فريتز) البدين كان مؤمنًا بالفوهرر لذا فضل البقاء هنا عندما سمع خبر موته.. فجر رأسه بمسدّسه كما فعل الفوهرر نفسه.. إنّه ليس الوحيد فلا تخف»

ثم رفع المشعل وواصل التقدم.. بالفعل أدرك (زكي) أنّ هناك أكثر من هيكل عظمي على الأرض..

كانت هناك صورة قوطية الطابع على الجدار تصوّر معركة ما من معارك القرون الوسطى..

اتجه نحوها (درنشر) ورفع المشعل.. اقترب من صورة فارس يضع قدمه على صخرة وينفخ بوقا.. وضع كفه على البوق.. هنا دوي صوت صرير.. وببطء انفتحت كوة في الجدار..

سأله (زكي) السؤال الوحيد المنطقي:

- «لو تصورنا أنك وجدت هذا المخبأ.. فكيف عرفت هذا كله؟»

- «هيء هيء.. نحن اليهود لنا وسائلنا.. هيء هي؟..»

- «وهذه الآلية تعمل بذات الدقة منذ ثلاثين عامًا؟»

- «أنت تتعامل مع ألمان.. دعك من أنني آتي هنا كل شهر لأتأكد من أن كنزي بخير..»

ثم مد يده حتى الكوع داخل الكوة، وحينما خرجت كان في يده مجلد عتيق الشكل.. ناوله لـ (زكي) ثم أغلق الكوة في حذر..

أمسك (زكي) الأوراق وراح يفرها.. كانت مكتوبة بالإنجليزية لكنّها مليئة بالرموز..

رفع عينه فوجد (درنشر) ينظر له بخبث، ثم يخرج من جيبه كيسًا بلاستيكيًا ويناوله إياه:

- «أنصحك أن تضعه في هذا الكيس..»

- «لن أمزقه.. إنني أتعامل معه بالحذر..»

- «هذا لمصلحتك.. لن تسعد حينما أخبرك أنّ هذه الأوراق مجلدة بجلد الموتى! جلد يهودي مدبوغ!»

ارتجف (زكي) ولا شعوريًا أسقط الكتاب في الكيس وهو يحلم بأن يبتر كفيه.. منذ اللحظة الأولى شعر بأن ملمس المجلد غير مريح.. لكن موضوع جلد اليهود هذا على الأرجح نوع من المبالغات اليهودية المعتادة..

قال (درنشر) ضاحكًا:

- «كان هذا طقسًا أرادوا به أن يمنحوا الكتاب قوة.. كلما كان الأمر شريرًا أكثر.. أنت تعرف هذه الأمور.. والآن الشيك لو سمحت..»

أخرج (زكي) الشيك من جيبه وناوله للرجل، ثم أمسك الكيس في حذر مغالبًا شعور التقزز..

حينما رفع عينه كان يحدّق في نصل خنجر عملاق يلتصق بعنقه..

نظر في رعب للرجل.. فقال له هذا الأخير:

- «هل يوجد سبب واحد لجعلك تخرج من هنا؟ الشيك معي والكتاب مهم جدًّا بل بالغ الأهميّة.. كانت حماقة منك أن تأتي غير مسلح..»

ثم قال بخبث وهو يشير إلى الأرضية:

- «هل حقًّا تعتقد أن كل هذه الهياكل العظمية هياكل ضباط نازيين؟ ألم تلحظ أن بعضهم يلبس ثيابًا مدنية.. بل حديثة كذلك؟!»

- ٦ -

وأنا ما زلت ساهرًا أفكر..

إن نور الفجر قد بدأ يتسرب عبر الستائر وهذا أفضل ما زلت أشعر بأنني لن أموت إلا ليلًا.. سواء كانت ميتة طبيعية أو غير طبيعية..

ما زلت أحاول أن أربط قصة هؤلاء الذين ماتوا بقصة (العزيف)..

لقد أخرج الأسبان العرب من الأندلس، وكان أن بقيت مجموعة من السكان ذوي الأصل العربي الذين أطلق عليهم اسم (المور Moor) كان هؤلاء الآن موضع اضطهاد وتعذيب محاكم التفتيش.. ويبدو أن التعذيب جعل بعضهم يتكلم.. وما قاله كان مثيرًا أثار شغف الراهب الدومينيكاني (أولاس فيرمياس)، من ثم حصل بشكل ما على كتاب (نيكرونوميكون) وترجمه إلى اللاتينية.. في هذا الجو بالذات جو محاكم التفتيش كان عمله انتحارًا.. سرعان ما تسرب الخبر وحوكم الرجل واتهم بالهرطقة وأحرق.. يُقال إن نسخة من هذا الكتاب محفوظة في مكتبة الفاتيكان وما أكثر الأسرار الغامضة المتوارية في هذه المكتبة..

بعد هذا يظهر اسم (يعقوب أليتزر) وهو (نكرومانسر) محترف هكذا عيني عينك قيل إن الكتاب معه..

الآن تنتقل القصة إلى جو عبري صرف..

لقد ترجم الكتاب إلى العبرية عام ١٦٦٤، وصار اسمه (سيفر هاشاري حاداث) أي (كتاب بوابة المعرفة).. وهنا يدخل المسرح (ناتان غزة Nathan of Gazza).. ساحر يهودي ولد في القدس ودرس التلمود والكاباالاه.. ثم وقع الكتاب الرهيب في يده فوجد أنه يحدثه عن أمور تهمه شخصيًا..

بعد هذا يظهر اسم (دي) الساحر الشهير الذي ترجم الكتاب إلى الإنجليزية.. ثم نثب وثبة واسعة جدًّا لنلقى من يدعى (أليستر كراولي Aleister Crowley).. وهو أشهر من نار على علم لمن يهتمون بهذه الأمور..

☆ ☆ ☆

هل هو نصاب؟

هل هو خبير في (ما وراء الطبيعة)؟

هل هو كما يعتبره البعض في الغرب التجسيد الحقيقي للشيطان؟ لاحظ إن اسمه الرسمي في كتابات الغرب هو (الوحش)..

بالنسبة لي أعتبره شخصًا مثيرًا للجدل، لكنه ساحر و(من نفث في عقدة فقد كفر).. دعك من أنّه شيطاني Satanic بلا تزويق؛ لهذا أكره سيرته ووجهه المخيف الذي يطالعك في كل صوره.. لسعداء الحظ الذين لم يروا صورته أقول إنّه نسخة مخيفة من (موسوليني).. أمّا من لم يروا (موسوليني) فلهم أقدم اعتذاري..!

(أليستر كراولي)..!

رمز السحر المعاصر بالنسبة للعقل الغربي.. ولد في إنجلترا عام ١٨٧٥، وارتحل إلى كل مكان في الأرض.. حرفيًا ارتاد كل مكان من أعمق الوديان إلى أعلى الجبال.. تعلم اليوجا في سيلان وتعلم سحر القبائل وتعلم من بدو الصحراء.. كتب مائة عنوان تقريبًا، وله مجموعة أوراق (تاروت Tarot) مهمّة متداولة حتى اليوم.. كما أنّ له مذهبًا شهيرًا اسمه (الثيليما Thelema) وكتابًا أشهر اسمه (كتاب القانون) يُقال إن أكثره مسروق من (العزيف).. ثم مات في الأول من ديسمبر عام ١٩٤٧ وتم حرق جثته مع تلاوة مقاطع من (كتاب القانون) كما أوصى بهذا، وقد أثار هذا غضب المتدينين..

ما يعنيني من حياة (كراولي) هو أنه قرأ ترجمة (دي) للكتاب.. هكذا قرر أن يتقمص بالكامل شخصيّة (الحظرد)، وارتحل إلى شمال أفريقيا فقط ليجوب الصحراء وحده.. ممارسًا ذات الخبرة التي عاشها (الحظرد)..

جاء عام ١٩١٨ ومعه كان موعده مع السحر الأنثوي..

يدهشني في تاريخ حياة هذا الرجل أنه كان مولعًا بالنساء برغم إن هؤلاء القوم الراغبين في السيطرة على الكون لا يبالون بالنساء على الأرجح.. يذكرني الأمر بماسورة البندقية التي لا تنطلق منها الرصاصة إلا إذا كانت بلا ثقوب تبدّد طاقة الانفجار، لهذا يغلب على هؤلاء الأشخاص ذوي الكاريزما أن يكون اهتمامهم مركزًا خالصًا لشيء واحد فقط، كأنهم أساتذة اليوجا أو فرسان النينجا القدامى أو الرهبان البوذيين، إلا أنّ الأمر لا ينطبق على (كراولي).. يبدو أنه كان قادرًا على الاهتمام بأشياء أخرى أيضًا.. ويبدو أنه كان يعتبر هذا جزءًا من (الشيطنة) المطلوبة للوصول إلى ما يريده..

كانت هناك امرأة حسناء تدعى (سونيا جرين).. وصفها في كتاباته بأنها (يهودية حسناء ممتلئة بالحيوية).. كانت مطلقة تعمل بتصميم الثياب والقبعات.. وقد عرفها (كراولي) وهام بها حبًّا لفترة قبل أن تتركه أو يتركها..

المهم أنها بعد ثلاثة أعوام وجدت لنفسها عريسًا كئيبًا وفنانًا غريب الأطوار يدعى (لافكرافت).. إنّه من أهم كتاب الرعب الأمريكيين.. بل أهمهم في العالم كله فلا يمكن مقارنته إلا بمواطنه

(إدجار آلان بو).. وفي العام ذاته ظهر اسم (الحظرد) لأول مرة في كتابات (لافكرافت)..

إذن كانت المرأة تسلي زوجها الأديب البائس قبل النوم بحواديت (أمنا الغولة) هذه.. ويمكننا أن نتبين بوضوح تام الخيط الذي يصل بين (كراولي) و(لافكرافت)..

فيما بعد زعم (لافكرافت) أنه كان يُطلق على نفسه في طفولته اسم (الحظرد).. أعتقد الآن أنني أجد صعوبة في تصديق هذه القصة، وأصدق أكثر أن (لافكرافت) لم يسمع عن (الحظرد) إلا عام ١٩٢١ عندما قابل الأخت (سونيا)..

☆ ☆ ☆

نور النهار يدخل كاملًا بلا نقصان من النافذة..

الآن أستطيع أن أنام.. سأتصل بهم في المستشفى أخبرهم أنني أصبت بالفالج أو سقطت من الشرفة، وأن عليهم ألا ينتظروني اليوم.. هكذا سأنعم بنوم عميق حتى الظهر..

يقودني هذا إلى الكلام عن كتاب (إينوخ) الذي تكلّم عنه الفتى (فايز) يرحمه الله..

هذا الكتاب ظهر إلى العالم مترجمًا على يد ساحر يدعى (دي).. هذا الرجل زعم أنه التقى بكيانات قديمة مخيفة عن طريق هذا الكتاب.. قال إنها كانت تستعمل شفرة غريبة، لكنه وجد حل هذه الشفرة في الـ (إينوخ) واستطاع أن يتصل بها، وقد استعمل سحرة كثيرون ذات الشفرة اللغويّة ووجدوها مريحة..

كان الفتى (فايز) يبحث عن كتاب (إينوخ).. معنى هذا أنه مهتم بما قاله (دي).. مهتم بالكيانات القديمة.. ثم سألني عن (ناتان غزة).. معنى هذا أنه في الطريق الذي يقود إلى كتاب (نيكرونوميكون).. لا أحد يسأل عن (ناتان غزة) إلا إذا كان يعرف التاريخ الكامل لهذا الكتاب..

لهذا أنذرت الفتى من عدم الدخول في هذه المتاهات العبرانية..

ما معنى هذا كله؟

١ - هناك جرائم بشعة..

٢ - هذه الجرائم تمس أشخاصًا لهم علاقة بدراسة التاريخ أو البحث فيه..

٣ - دم هؤلاء الأشخاص يكتب رسالة تحذيرية.. إنها الحروف الأولى من عبارة (عزيف)..

٤ - أحد هؤلاء الأشخاص كان يقينًا يبحث عن هذا الكتاب..

ولكن من جديد ما معنى هذا كله؟

حقا لا أعرف.. لا أستطيع ربط الأحداث ببعضها.. لكن القصة كلها تحوم حول هذا الكتاب الرهيب.. لقد ظهر أو هو موشك على الظهور..

لقد حان وقت النوم..

ثمة مزية مهمّة هنا هي أنني لا أحلم أبدًا عندما أنام في النهار.. هذا يعد بنوم مريح باسم.. وإلا وجدت الأخ (الحظرد) شخصيًا مع (كراولي) قادمين ليجلسا على صدري إلى أن أصحو من النوم..

حان وقت راحة العقل..

ربما أخبر (عادل) هاتفيًا بهذا الذي عرفته..

وربما لا..

- ٧ -

إنّه كمين مريع..

و(درنشر) يتقدم بالخنجر نحو (زكي).. المشعل في يد والخنجر في الأخرى، وهو يضحك في جنون.. ويأتي بحركات (تشريط) أو Slashing كما لا أجد وصفًا آخر.. ضربات هستيرية ترسم أقواسًا في الهواء.. لابد أن تصيب واحدة منها بطن (زكي)..

هكذا تراجع للوراء محاذرًا..

إن اليهودي مخبول فعلًا.. إنّه لا يكف عن الضحك كأنه يمزح.. كأنها دعابة لطيفة يغيظ بها صديقًا..

إذن لم تكن كل الهياكل العظمية تخص النازيين.. بعضها كان يخص حمقى آخرين أرادوا شراء الكتاب.. لو هلك هو (زكي) الآن فلن يجده أحد، ولن يستطيع البروفسور (هاتون) أن يثبت شيئًا.. فقط قبل أن يتبين اختفاؤه يتجه (درنشر) إلى المصرف ويصرف الشيك أو يكلّف أحدهم بذلك.

هجمة أخرى مريعة..

في هذه المرّة تراجع أكثر فسقط على الأرض..

آلمه ظهره من جراء السقطة، لكنه أدرك أنه تعثر في (فريتز) البدين.. النازي الذي كان أكثر نازية من (هتلر).. جوار يد (فريتز) المتحللة كان ذلك المسدس الذي بخع به نفسه يومًا ما منذ ثلاثين عامًا..

مسدس عتيق ألماني.. مسدس عتيق ألمـ..

وقبضت يده على المسدس.. ترى هل يعمل؟ هل ما زال صالحًا بعد هذه الأعوام؟ هل هو محشو.. لابد أنه كذلك.. هذا مسدس ضابط ألماني أثناء الحرب..

لم يكن قد أطلق أي سلاح ناري من قبل.. إنّه لم يلتحق بالجيش بسبب ضعف بصره.. لكن الضرورات تبيح المحظورات.. وهذا الوغد المجنون قادم نحوه وهو يُطلق الضحكات ولا يكف عن طعن الهواء، حتى أن الهواء راح ينزف بغزارة..

صوب نحو صدر الرجل.. ضغط على الزناد.. بدا له أنه لن يتحرك أبدًا.. ثم لان فجأة..

كان الصوت عاليًا إلى حد لا يصدّق.. لم يتصوّر قط أنه يحدث كل هذا الصخب.. لقد تساقط الغبار من سقف الحجرة وبدا أن الصدى لن يتوقف أبدًا.. إنها الطلقة الأولى التي تسمع هنا منذ

نسف (فريتز) رأسه منذ ثلاثين عامًا.

لكن الرجل كان قادمًا وهو لا يكف عن طعن الهواء.. هكذا وجه المسدس من جديد، وضغط على الزناد ثانية..

في هذه المرّة حدث شيء..

لقد طار الرجل في الهواء ليسقط على ظهره على بعد مترين.. وهمدت حركته تمامًا.. المشعل الوهاج بجواره على الأرض..

نهض (زكي) واتجه نحو الرجل الراقد.. لم يرد أن يجازف، لذا أطلق طلقة أخرى في الموضع ذاته..

فكر في أن يسترد الشيك لكنه لم يجسر على لمس الرجل.. كان ملوثًا بالموت وأية لمسة يمكن أن تنقل لك العدوى.. هذه من قوانين (التابو Taboo) الشهيرة..

هكذا غادر الغرفة الرهيبة.. مشى في الممر حتى خرج من الباب إياه.. هناك درجات تقود لأعلى.. ثم فتحة صغيرة في السقف يُمكنك أن تخرج منها لتجد أنك في ممر آخر.. تنظر لقدميك فلا ترى الفتحة التي خرجت منها لأنهّا مغطاة بذات نوع الصخور التي على الأرضية..

الآن يرى ممرًا آخر قاده إلى خارج الكهف.. واستطاع أن يفهم سبب سرية المكان.. إنِّه موصد ببوابة حديدية عليها إنذار من البلدية لأن هذا الكهف خطر وممنوع دخوله.. طبعًا هم لا يعرفون أنّ هناك مقرًا كاملًا للنازيين تحت أقدامهم.. لم يحاول غلق البوابة التي ثبت عليها جنزير حديدي ثقيل، لأنّه خشي أن يضطر إلى العودة لسبب ما...

لكنه لن يعود لأي سبب..

هذه منطقة أقرب إلى سفح جبل تحيط به الأشجار الكثيفة.. السيارة العتيقة واقفة هناك، ويبدو أنها قطعت طريقًا متعرجًا مرهقًا غير ممهد.. قلبه يتواثب كطبل في صدره.. المفاتيح! ماذا عن المفاتيح! لن يعود لتفتيش جيوب الجثة.. أبدًا..

نظر داخل السيارة فرأى المفاتيح معلقة.. حمدًا لله! كان (درنشر) مطمئنًا تمامًا إلى أن المنطقة قفر..

كان يلبس القفازين عند قدومه، لذا أعاد لبسهما وأدار المحرك.. كان عسير التشغيل.. طبعًا.. لابد من هذا.. السيارات لا تعمل أبدًا عندما يكون الغرض منها هو الهرب.. سوف تظل عنيدة إلى أن يأتي أحدهم ويدخل رأسه من النافذة.. شبح الرجل؟ لا.. ليس بهذه السرعة..

حاول عدة مرات.. جرب أكثر الحيل التي يعرفها. في النهاية استجاب المحرك.. وتصاعد الهدير المحبب للنفس..

وانطلق (زكي) بالسيارة.. تجربة طريفة هي.. أن تقود سيارة رجل قتلته في منطقة لا تعرفها في (سالزبورج) وفي جيبك كتاب شيطاني مجلد بجلد الموتى!

أي كابوس هذا!

يمشي بالسيارة فوق الآثار التي رآها من قبل.. في النهاية يرى طريقًا ممهدًا..

هكذا راح يمشي على غير هدى.. يقرأ أسماء على لافتات تتحدّث عن قرى لا يعرف عنها أي شيء..

في النهاية رأى ما كان يبحث عنه.. الفلاح النمساوي العجوز ذا الشارب الكث الذي ينقل تبنًا إلى عربة صغيرة تقف إلى جوار الطريق.. هكذا سأل الرجل عن الطريق فأرشده.. وقد ضل طريقه عدة مرات حتى أنه تعجب من عبقرية الرجل الذي استطاع المشي في هذه المتاهة (الكريتانية)..

قاد السيارة حتى اقترب من المدينة نوعًا ثم وجد مجموعة من الأشجار فقادها إلى هناك وتركها..

ثم عاد راجلًا.. وكان معنى هذا أن يمشي ساعة..

كان يعرف أن الشرطة ستجد السيارة.. لكنهم لن يجدوا الرجل.. لن يجدوا بصمات..

عامّة لا يوجد أي شيء يربطه بـ (درنشر) إلا أن يكون الرجل ثرثارًا أخبر زوجته أو أصدقاءه بوجهته قبل التحرك.. أو أن يكون موظفو الفندق قد تذكروا وجه الرجل جيدًا.. هذا صعب لأنّهم مشغولون جدًّا دعك من أن أحدًا لن يسألهم..

الأهم هو أن مهمته العلمية قد انتهت.. سوف يكون في مصر بعد يومين..

وللمرة الأولى بدأ يشعر بالحنين لمصر.. لقريته.. لأصدقائه..

لقد شفاه كتاب (نيكرونوميكون) من عقدة الخواجة للأبد.. وهذا يعني أن الكتاب قدرات خارقة برغم كل شيء..

☆ ☆ ☆

- «لا أعرف السبب لكنك تغيرت..»

قالتها (جابي) وهما يقفان على ضفة نهر (سالتساخ) متقاربي الرأسين.. لكنه لم يرتبك.. من الطبيعي أن يتغير وقد حانت ساعة الفراق.. إنّه نوع من (انتحال العاطفة) كما يضع الممثلون

القطرة ليجيدوا في مشاهد البكاء، أو كما يجلس المرء حزينًا مهمومًا في سرادق العزاء لأن فريق الأهلي خسر الكأس في مباراته الأخيرة..

قال لها:

- «عندما يفارق المرء أجمل وأرق فتاة عرفها لا تتوقعي أن يرقص طربًا»

تعانقت أناملهما وأدرك أنها تحبه حقًّا.. ما لم تكن تنتحل العاطفة بدورها..

قال لها بصوت رخيم:

- «أنت في وجداني دائمًا.. لا أعرف إن كنت سأحصل على الطلاق أم لا لكني سأحاول جاهدًا..»

- «خذ وقتك.. من يدري؟ ربما أزور مصر هذا العام!»

أراد أن يصرخ (كله إلا هذا) ثم ابتلع لسانه.. لو جاءت لكانت فضيحة..

لكنه يحبّها بالفعل.. وسوف يتزوجها في أقرب فرصة.. لكنه لن يقيم معها في مصر.. لا يريد أن يراها بلا خلفيّة من القصور القديمة والغابات وموسيقا (موتسارت).. لا يتصوّر أن تكون خلفيّة صورتها هي (باب اللوق) أو (العتبة). سيقيم معها في (النمسـ...).. النمسا! لقد صارت ملطخة للأبد بهذه الذكرى الرهيبة.. لن يقدر على الحياة هنا أبدًا.. والأسوأ أنه يشعر بأن الشرطة تلاحقه.. سوف تحيط به ألف سيارة في أية لحظة ويخرج رجال الشرطة المخيفون الذين لم يتخلصوا بعد من طقوس (الجستابو)..

ربما بلد ثالث؟ لا يعرف..

المهم مؤقتًا يجب أن يرى مصر وقريته.. بعدها يعرف ما يجب عمله

☆ ☆ ☆

جلس في السنترال يحاول طلب الرقم للمرة الألف..

كان قد أصيب باكتئاب مزمن، ولم يعد يطيق أي شيء حتى أنه تساءل عما إذا كان أحسن صنعًا برحلة النمسا هذه.. كان يتشاجر مئات المرّات يوميًا.. ويصيبه الذهول من كم الزحام والبيروقراطية وصعوبة عمل أي شيء.. حتى ركوب سيارة أجرة عمل معقد يحتاج إلى تخطيط وحظ حسن..

لكنه كان يريد إتمام هذه المكالمة..

لابد أن يعرف من (هاتون) ما يجب عمله بهذا الكتاب الرهيب الذي يحتل حقيبة من حقائبه.. هذه الحقيبة صارت رمزًا في حد ذاتها.. نوعًا من (التابو).. ثم زحف (التابو) ليشمل غرفة المكتب ذاتها.. وسوف يزحف ليحتل الشقة كلها..

يجب الخلاص من هذا الكتاب اللعين بأي ثمن.. كتاب مليء بالسحر الأسود، تم تجليده بجلد الموتى، وقد اقتضى الحصول عليه أن يرتكب جريمة قتل!

إنّه الشؤم ذاته لو كان للشؤم وزن.. ولولا احترامه لأستاذه لتخلص من هذا الكتاب في المرحاض مع شد السيفون، ثم سكب زجاجة كاملة من حمض (الكاربوليك) للتطهير..

- «الأخ الذي يريد الاتصال بإنجلترا! كابينة ٣»

دوى صوت الموظف عبر مكبر الصوت.. فهرع إلى الكابينة.. كانت هذه هي طريقة الاتصال بالخارج أو بمحافظة أخرى في تلك الأيام.. أغلق الباب الزجاجي عليه وانتظر حتى جاء صوت الجرس ثم سمع صوتًا بريطانيًا وقورًا يسأل عما هنالك.. ..

- «البروفسور (هاتون) من فضلك»

قال الصوت بلهجة أكسفوردية عظيمة جدًّا لا تخرج إلا من فم تشريحه بريطاني:

- «أخشى يا سيدي أن سيدي البروفسور قد توفي منذ أسبوعين.. أخشى أنها نوبة قلبيّة لو كان لي أن أقول هذا.. أنا رئيس الخدم.. هل يرغب سيدي في الحديث إلى أرملة سيدي.. مسز (هاتون)؟!»

- ٨ -

هكذا جلست وسط عشرات الأوراق..

لقد جاءتني تلك الأوراق التي وجدوها في درج الصحفي الشاب (فايز).. تلك الأوراق التي حسب (سامح) أنها خرائط سرية لأدق المواقع الأمنية في مصر.. في الحقيقة كانت أول نظرة تطلعك على كنهها.. إن النجمة الخماسية (بنتاجرام) واضحة كالشمس في أول صفحتين. دعك من عشرات الأشكال التوضيحية والتخطيطات التي تعطي الأوراق نكهة (عفاريتية) مقبضة..

طبعًا كان النص بالعبرية.. لا شك أنها ترجمة الأخ (ناتان غزة) كما هي.. منذ القرن السابع عشر.. إذن هذا الكتاب بين يدي هو (سيفر هاشاري حاداث) ذاته..

لست شغوفًا على الإطلاق بقراءة المكتوب أو فهمه.. ولو حاولت أن أفهم شيئًا على الأرجح.. لكن الملحوظة المهمة هي أن النص ليس كاملًا.. آخر صفحة توحي بذلك..

إذن أين الباقي؟ يسهل افتراض أن الباقي في درج الصحفي، لكني لا أعتقد هذا.. أعتقد أن ما وصله كان ناقصًا.. ولعله كان يبحث عن كتاب (دي) (إينوخ) بحثًا عن معلومات تقوده إلى الباقي أو إلى فهم الموجود هنا.

السؤال المهم التالي هو: من أين حصل الصحفي على هذه الأوراق؟ يصعب افتراض أنه سافر إلى (غزة) ونحن في ذروة الحرب بيننا وإسرائيل.. لم تكن اتفاقات فك الارتباط قد بدأت بعد..

هكذا فتحت خزانة الثياب ووضعت فيها هذه الأوراق..

☆ ☆ ☆

قال (عادل) في حرج:

- «نعرف أننا ضيفان ثقيلان يا سيدتي.. لكني أكرر أنّ هذا التعاون معنا قد ينقذ كثيرين..»

قالت مدام (فاتن) وهي تضع القهوة على المنضدة الرخامية:

- «لا مشكلة يا سيدي.. أعرف أن (زكي) كان سيرحب بكما لو....»

وانفجرت في البكاء مما جعلنا نبدو كوغدين جاءا يضايقان هذه الأرملة الباسلة..

كان (عادل) قد جاء القاهرة وعرف مني تفاصيل القصة التي استنتجتها حتى ذلك الحين.. كان الحل الذي توصل إليه هو فحص أوراق (زكي) هذا.. ليكن.. لكن كيف أذهب إلى تلك الأرملة لأقول لها إنني أشك في أن زوجها لديه نسخة من كتاب شيطاني، فتسمح لي بالدخول للعبث في مكتبه.. لكن مع (عادل) لا توجد مشاكل.. لقد اتصل بها ضابط كبير في مديرية أمن القاهرة وأوصاها بنا.. لقد وافقت على أن نفتش بشكل ودي دون إذن من النيابة.. هكذا تجدنا الآن جالسين في صالونها لا نعرف ما نقول..

كنت قد قدرت نوعية هذه المرأة من اللحظة الأولى.. ربة البيت الفاضلة لعلها قريبة (زكي) التي لا تعرف شيئًا في الحياة سوى بيتها.. طراز المرأة التي تساعد زوجها في بسالة إلى أن يرقى أعلى السلم الاجتماعي، فقط ليركلها من عل ويتزوج فتاة تناسب مستواه الاجتماعي الجديد.. طبعًا يتضح أنّ هذا خطأ عمره، وتتمكّن الفتاة من جعله يلعق التراب.. وهي عدالة شعرية لا بأس بها..

هي ترتق جواربه.. بالتأكيد ترتق جواربه.. لابد أنها ركعت على ركبتيها أمامه صبيحة يوم مناقشة رسالة الدكتوراه كي تلمع حذاءه مرة أخيرة.. لأنّه لو لمع حذاءه بنفسه لتكسر قماش السروال..

الآن قد ذهب سيدها.. لهذا هي في حالة انعدام توازن تام.. كبالون انقطع حبله.. ولو لم يكن هناك أخ أو أب يحل محل (زكي) فإنها ضائعة لا محالة..

فرغ (عادل) من ارتشاف القهوة، فقال لها:

- «هل لنا أن نرى الغرفة؟»

نهضت واقتادتنا عبر شقّة بسيطة لكنّها آية في النظافة إلى غرفة مكتب مرتبة بعناية.. حقًّا كانت غرفة تناسب أستاذًا جامعيًا بكل تلك الكتب القيمة في كل مكان.. على الجدار صورته التي تقول إنّه لم يكن يشبه (أبوللو) كثيرًا.. ربما هو يشبهني إلى حدٍ ما..

على المكتب كانت أوراق كثيرة، لكن مجموعة منها بالذات كانت متماثلة الحجم والشكل.. فهي أقرب إلى كتاب لم يطبع بعد.. تفحصت الأوراق فوجدت أنها مكتوبة بالإنجليزية.. هذه المرّة لا يوجد شك في الأمر.. إنها أوراق من كتاب سحر قديم.. نوعية الأوراق التي كانوا يحرقونك في القرون الوسطى لو وجدوها عندك..

كانت الأوراق متسخة كأن كوبًا من الكاكاو انسكب فوقها، ويبدو أنها عوملت بقسوة شديدة.. لكني أدركت أنها نسخة زنكوغرافية من كتاب.. الهوامش تدلّ على وجود خياطة.. إذن هو كان يستعمل هذه النسخة للدراسة أمّا الكتاب الحقيقي فغير موجود..

سقطت صورة على الأرض.. صورة امرأة على ما يبدو.. فانحنت الزوجة تأخذها..

أشار (عادل) إلى الأدراج في المكتب وقال:

- «هذه الأدراج..»

- «ليس المفتاح معي.»

قال لها في شيء من الخبث:

- «أقترح أن تجدي نجارًا يهشم هذه الأدراج.. من أدرانا أنها لا تحوي مالًا أو وصية ما؟»

قالت في نفاد صبر:

- «سأفعل هذا.. لكن فيما بعد.. لست رائقة المزاج الآن..»

وجدت على الدرج ملفًا من البلاستيك، وعلى غلافه قرأت بالإنجليزية (دراسة مصطفى أبي زينة).. عرضت الغلاف على (عادل) في صمت هذا هو فيما أعرف أول دليل على وجود علاقة بين أربعة القتلى.. ونظرت للزوجة متسائلًا فقالت في ضيق:

- «أي شيء.. خذا أي شيء تريدان.. كنت سأمنح هذه الأوراق للجامعة على كل حال..»

وتحسست رأسها كناية عن أننا أصبناها بالصداع..

هكذا قررنا أنّ علينا الرحيل الآن.. شكرناها وإن كنت أعرف أننا سنعود حتمًا لنرى محتويات ذلك الدرج..

☆ ☆ ☆

جلست خلف مقود السيارة وجلس (عادل) جواري..

وقبل أن يتكلم رحت أقلب أوراق الملف.. ثم هززت رأسي..

سألني (عادل):

- «هل من شيء مهم؟»

قلت في شيء من التهكم:

- «استنتاجات بشأن العشرين شيطانًا!»

- «هل تمزح؟»

- «أقسم بالله أنّ هذا هو المكتوب.. فلتر بنفسك..»

- «وماذا كتب تحت هذا العنوان العجيب؟»

رحت أقرأ بصوت عالٍ:

- «Fjjjj fytjgj 8ojklll gkjg lhh khkhou889j uxvyuioymklmm»

قال في غيظ:

- «هل تسخر مني؟»

- «لا سمح الله.. هذا هو المكتوب حرفيًا.. أعتقد أننا بصدد نوع من الشفرة مفتاحها لا يعرفه إلا القتيلان!»

لكن الملف لم يكن مشفرًا كله.. أعتقد أنه شفر فقط الأجزاء الخطيرة..

قال لي (عادل) وهو ينظر في ساعته:

- «لا وقت لديَّ لهذه الأمور لأن عندي مواعيد مهمّة.. أعتقد أنني سأتركك مع هذا الهراء الذي يروق لك.. هل يُمكنك أن توصلني إلى (الهرم)؟»

هززت رأسي.. وإن كان يصعب القول إنني رددت عليه كان ذهني يفكر في ألف شيء..

وحينما وصل (عادل) إلى وجهته قال لي شيئًا مثل:

- «ا.. أ.. أوما. يكعل صل.. بيك..»

هززت رأسي موافقًا وإن كنت لم أميز شيئًا مما قال.. وانطلقت بسيارتي.. ثم قررت بعد قليل وأنا أسمع صوت الصدى في ذهني أنه قال على الأرجح (اقرأ ثم كون رأيك على مهل.. وسأتصل بك)..

في البيت رحت أتفحص الأوراق التي وجدناها لدى الدكتور (زكي) يرحمه الله.. كان ترقيمها ينتهي عند رقم معين مع عبارة لم تستكمل بعد.. هذه الأوراق ناقصة لا شك في هذا.. أتوقع هذا لأن العثور على ترجمة (دي) لكتاب (نيكرونوميكون) ليس سهلًا..

ثم خطر لي خاطر.. اتجهت إلى خزانة الثياب وأخذت الأوراق التي كانت لدى الصحفي (فايز) رحمه الله، ورحت أراجع أرقام الصفحات.. فهمت! إن الجزأين يكملان بعضهما وإن كان أحدهما بالعبرية والآخر بالإنجليزية.. من الواضح أن (دي) استعمل أسلوب الترجمة صفحة بصفحة.. لكن النص ليس كاملًا.. النص الإنجليزي سوف يكتمل بجزء آخر..

أعددت لنفسي بعض الشيكولاتة الساخنة ورحت أطالع هذه الأوراق الرهيبة.. لم أفهم شيئًا على الإطلاق ولعله حظي الحسن.. إن الكتاب معقد بحق..

هكذا وضعت الجزأين في خزانتي وجلست أفكر في معنى هذا هناك محاولة جاهدة لاسترجاع كتاب لم يجده أحد من قبل باستثناء أسماء مريبة مثل (ناتان غزة) و(دي) و(كراولي).. وهذه

المحاولة تتم في مصر بالذات..

عليّ أن أفترض كذلك أن الرجلين الآخرين (يوسف).. و(مصطفى) لديهما جزءان آخران من الكتاب.. لكن هل هذا ينهي الأمر؟

كان على أن أتأكد لذا انتظرت حتى اتصل بي (عادل) بعد ساعتين.. قلت له:

- «اسمع.. ((يوسف).. أبو الحسن) و(مصطفى أبو زينة).. أريد من يفتش أوراقهما.. أعتقد أن لديهما أجزاء من هذا الكتاب..»

قال مفكرًا:

- «هذا صعب.. لكنه ليس مستحيلًا.. سأحاول ترتيب هذا...»

ثم أضاف:

- «لكننا نريد نتائج.. لو لاحظت لوجدت أن مديرتي أمن القاهرة والإسكندرية تتعاونان.. هذا يدلك على أهميّة الموضوع.. فلا تنته بي إلى أن القاتل عفريت أو شبح من فضلك!»

- «سأحاول لكني لا أضمن النتائج.. بالمناسبة أنا أدعوك إلى الغداء معي ما دمت في القاهرة..»

انفجر يضحك بضع دقائق ثم قال

- «إلام تدعوني أيها البائس؟ ما دام الموضوع خاليًا من لمسة الأنثى فمن الخير لك ألا تحاول.. لا أريد أن أصوم وأفطر على طهي الأخ (رفعت إسماعيل).. لا أريد أن أموت بسرطان المعدة بهذه السرعة..»

قلت في كبرياء:

- «بالعكس.. أنا أطهو مكرونة ممتازة..»

قال ضاحكًا:

- «لا تشغل بالك بي رب طبق كشري من أية عربة تقف في أي زقاق خير عندي من مكرونتك هذه..»

- «ستموت مسموما بإذن الله..»

- «على الأقل لن أموت منتحرًا..»

وضعت السماعة.. وبدأت إعداد المكرونة القاتلة التي سآكلها أنا فقط..

- ٩ -

منذ عامين ونصف.

حدث هذا منذ عامين ونصف بالضبط..

في لوبي أحد فنادق وسط القاهرة جلس البروفسور (تشارلز هاتون) مسترخيًا واثقًا من نفسه.. إنّه أستاذ الأجيال واسمه يكفي لإنجاح أي مؤتمر.. وقبول أية ورقة علمية في أية مجلة..

بالنسبة للجالسين من حوله كان الأمر يختلف.. كانوا متوترين يجلسون على أطراف مقاعدهم.. وهم يمدون آذانهم كي لا تفوتهم كلمة من الرجل العظيم.. مع هذا الطراز من العلماء تشعر أن تقديرك لذاتك يتوقف على تقديره لك.. فلو أبدى عدم اكتراث بك أو لم يبال، تشعر بأنك لست كما حسبت نفسك.. من يدري؟ لربما أنت غبي أو أحمق أو عديم التأثير.. أليس هذا ممكنًا؟

على الأقل كان أكثر الموجودين راحة نفسية هو د. (زكي عبد الرازق).. فالرجل أستاذه وعلاقته به حميمة منذ كان يدرس في إنجلترا.. لهذا كان أقرب الجالسين له، وكان يكلمه بشيء من التبسط.. بل جرؤ أكثر من مرة على وضع ساق على ساق، والغربيون عامّة لا يرون في هذا التصرف وقاحة، لكننا نراه كذلك طبعًا..

(هاتون) نفسه كان شيخًا مهدمًا خفيض الصوت، له عينان رماديتان لا تثبتان على وجهك أبدًا.. لكنه بالغ الأناقة.. وفيه لمسة من بناة الإمبراطورية الذين انقرضوا في إنجلترا أو كادوا.. عندما انقرض شاي الساعة الخامسة ليحل محله الهامبورجر، وانقرضت مدافع الأسطول لتحل محلها حاملات طائرات الأسطول السادس.. حتى ثقافة (أجاثا كريستي) و(هولمز) انقرضت ليحل محلها (سوبرمان) و(ميكي ماوس)..

الثلاثة الجالسون هم مع حفظ الألقاب ((يوسف).. أبو الحسن) و(مصطفى أبو زينة).. دارسا تاريخ أكاديميان الأول جاء من الإسكندرية خصيصًا لهذا اللقاء.. الثالث هو (فايز قطب).. صحفي شاب صغير السن جدًّا..

أما من حدد هذه الأسماء فهو د. (زكي) نفسه.. كان (هاتون) قد طلب اثنين من الدارسين للتاريخ اللذين يسافران كثيرًا إلى أوروبا وصحفيًا شابًا.. كان يريده شابًا كي يضمن إخلاصه واستبساله في البحث.، وأن يكون غير ذي أهواء شخصيّة وغير متزوج.. وكان (زكي) قد عرف كلًّا من هؤلاء الثلاثة في ظروف مختلفة.. لهذا اتصل بهم ليجمعهم في هذا اللقاء. أهم ما في الموضوع هو أنه يعرفهم معرفة سطحية.. لا يريد أشخاصًا يقابلهم كل يوم.. لهذا لم يكلّف أيًا من رفاقه في القسم..

أما اللفتة التي أثارت دهشة الجميع باستثناء د. (زكي) فهي أن (هاتون) لم يبدأ الكلام إلا بعد أن تفحص باطن معصم كل واحد منهم.. كان هذا غريبًا وقد قبلوه في ارتباك.. وصمموا على مناقشة الأمر بعد انصرافهم، أمّا الآن فإن سن الرجل وهيبته تسمحان له بأن يفعل أي شيء دون توبيخ..

قال (هاتون) بصوته الخفيض:

- «ليس لديَّ إلا جزء واحد من هذا الشيء.. كل ما لديَّ هو معلومات مؤكدة عن مكان كل جزء»

بالطبع كان الكلام واضحًا وإن احتاج الصحفي الشاب إلى ترجمة سريعة هامسة في أذنه لأنّه لا يجيد الإنجليزية جدًّا أردف الأستاذ البريطاني العجوز:

- «إن الأمر جد خطير.. أنا موقن أن الوقت قد حان.. لهذا أطالبكم بالتعامل مع الأمر بجديّة..»

ثم نظر إلى (زكي) وقال:

- «أعرف أن مهمتك العلمية قريبة.. سوف ترحل إلى (سالزبورج).. سوف أخبرك بالطريقة التي تحصل بها على الأوراق.. إن اليهود هناك يعرفون مكانها أو هذا.. ما أعتقده..»

ثم نظر إلى ((يوسف)..) الباحث السكندري الذكي وقال:

- «أعرف أنك ستكون في إنجلترا قريبًا.. هناك سنلتقي وأعطيك الجزء الذي عندي، وهو باللاتينية. ما كنت لأجازف بالسفر به»

هزّ الفتى رأسه في رهبة..

ثم نظر العجوز إلى (مصطفى) وقال:

- «أمّا أنت فإنك ستسافر إلى إيطاليا لتحصل على جزء من ترجمة (تيودور فيليتاس).. إنها باليونانية.. سوف أخبرك كيف تقابل الرجل الذي يملك نسخة منها»

ثم نظر إلى (فايز) وابتسم فتوتر هذا الأخير..

قال العجوز بينما (زكي) يترجم للفتى ما يُقال:

- «أمّا أنت أيها الشاب فمهمتك صعبة نوعًا وسوف أخبرك بها على انفراد..»

ساد الصمت ثم سأل (يوسف).. بكياسة:

- «بروفسور.. لماذا لم يقم بهذه المهمة شخص آخر؟ لماذا لم تكلف تلاميذ بريطانيين لك بهذا؟»

قال (هاتون) بطريقته الواهنة:

- «إن (الحظرد) عربي.. وقد راهنت على أن الكتاب لن يفهمه حق الفهم إلا قارئ عربي.. يجب أن نتفق على أنّ هناك جزءًا في عقولنا له جنسيّة.. مهما قرأ الغربي تراجم القرآن فلن يفهمها كما يفهمها العربي مالم يصر جزء من عقل الغربي عربيًا.. ومهما بلغت إجادتك للإنجليزية فلن تفهم (شكسبير) كما يفهمه العقل البريطاني.. هذا هو رهاني الخاص.. أنتم أقدر منا معشر الغربيين على فهم ما أراد (الحظرد) أن يقوله..»

ثم أردف وهو يتناول كوب العصير الذي أمامه:

- «إن الوقت ضيق.. لم يعد لديَّ وقت ولا قوة ذهنية يسمحان لي بهذه الأبحاث المعقدة، لهذا ألقي بالمسئولية على عواتقكم..»

ثم طلب من الفتى أن يجلس بجواره، فنهض هذا متهيبًا.. أدنى أذنه من فمه وراح يهمس له..

قال (زكي) منبهًا:

- «لا أعتقد أنه سيفهم ما تطلبه يا سيدي..»

- «ليس عندما أتحدث ببطء ووضوح.. إن هذا الفتى أكثركم ذكاء.. هذا واضح على وجهه..»

ثم راح يهمس في أذن الفتى بما يريده منه.. مستعينًا بورقة راح يخط فيها أشياء.. ومع كلماته راح اللون يفارق وجه الفتى حتى صار بلون هذه الورقة لو كانت الطباعة من نوع جيد

☆ ☆ ☆

عندما غادروا الفندق بعد ساعة وقفوا جميعًا في ميدان التحرير عاجزين عن اتخاذ قرار..

في النهاية قطع (مصطفى) جو الصمت قائلًا بلا كياسة:

- «هذا الرجل مجنون!»

ثم رأى النظرة المنذرة في عيني د. (زكي) فتحفظ قليلًا.. لكن (زكي) قال في برود:

- «أنت تقول هذا برغم أنك باحث وتعرف قيمة الرجل.. لو قال هذا شاب طائش مثل (فايز) لقبلته..»

قال (فايز) في حدة:

- «أنا لست طائشًا..»

قال د. (زكي) بلهجة من لا يريد فتح جبهتين في آن واحد:

- «لم أقصد الطيش.. أقصد أنك لم تحصل على دراسة أكاديمية، وليست لديك أدوات البحث التاريخي مثلنا.. هذا الرجل كمبيوتر بشري ويعرف ما يقول. أعتقد أن آخر جزء ستدب إليه الشيخوخة في جسده هو عقله.. هذا العقل لن يخرف أبدًا.. إما أن يعمل أو يتوقف.. لا يوجد حل وسط..»

قال (يوسف).. وهو يركل حجرًا صغيرًا على الأرض:

- «وموضوع فحص معصمنا.. بدا لي هذا غريبًا..»

قال (زكي) في حماس كعادته كلما تكلّم عن الغربيين:

- «إن لديه أسبابًا قوية عرفتها منه.. سوف تعرفون هذا وأكثر فيما بعد.. إن هؤلاء الغربيين لا يمزحون بلا مناسبة ولا يلقون الكلام على عواهنه.. لهذا هم يحكمون العالم..»

وفكر قليلًا ثم قال:

- «هذا الرجل جلس طويلًا مع (كراولي).. وسمع منه الكثير.. نحن نعرف أن (كراولي) هو أقرب البشر المعاصرين لهذا الكتاب، وقيل إنّه كان يملك ترجمة (دي) كاملة.. لا أحد يعرف.. لكني أردت أن أقول إن معلومات البروفسور دقيقة على الأرجح..»

قال (مصطفى) وهو يتحاشى عيني (زكي):

- «بصراحة.. هل منكم من ينوى الاستمرار في هذا الموضوع؟»

قال الفتى (فايز) في حرج:

- «لا أعتقد.. إن ما كلفني به صعب جدًّا.. يوشك أن يكون مستحيلًا».

قال (يوسف):

- «أمّا أنا فلن أفعل شيئًا حتى أسافر في تلك البعثة.. على كل مهمتي سهلة نسبيًا..».

كان الأمر يبدو لهم سخيفًا جدًّا.. وهميًا جدًّا.. وقد قرر أكثرهم أنه ينوي الانسحاب بلا اعتذار.. أمّا عن (زكي) نفسه فإنّه صدق أو لا تصدق كان آخر من يهتم بهذا الموضوع.. فقط كان يعرف شيئًا واحدًا: إنّه مخلص للرجل إلى أقصى حد وسوف يفعل كل ما يطلبه منه.. لهذا سينفذ المهمة بدقة.. لكن عليه أن يقنع هؤلاء كذلك لأنّه من أتى بهم.. بالتالي هم مسئوليته.

فيما بعد سوف ينسى الجميع الأمر..

لن يتذكروه إلا يوم يعود (زكي) من (سالزبورج) بالكتاب الرهيب.. يوم يعرف أن أستاذه البريطاني قد مات عندها سيعرف أن المهمة صارت على عاتقه هو.. سوف يتصل بالآخرين

ويخبرهم بما عرفه، من ثم تتحرك القصة من جديد.. (يوسف).. سوف يذهب إلى إنجلترا.. لن يقابل البروفسور طبعًا لأنّه مات، لكنه سيقابل أرملته.. ولسوف تعطيه أوراقًا كتبت باللاتينية..

(مصطفى) سوف يذهب إلى إيطاليا حسب تعليمات الرجل المكتوبة، ليأخذ الجزء المترجم إلى اليونانية من الكتاب..

(فايز) سيقوم بتلك المهمة الرهيبة التي لم أعرف تفاصيلها في ذلك الوقت لأنّه لم يترك أية مذكرات (لهذا أتركها لخيالك الآن).. مهمّة تحتاج إلى شاب باسل غير ذي أهواء شخصيّة وغير متزوج.. وصحفي.. مهمّة هدفها الظفر بترجمة (ناتان غزة).. أي كتاب (سيفر هاشاري حاداث) شخصيًا..

هكذا صار لدى كل منهم جزء من الكتاب..

ترى ما الذي عرفوه؟ ما الذي وصلوا إليه؟

هذا هو ما أريد معرفته بشدة..

- ١٠ -

بعد أسبوعين صار عندي ملفان آخران.. واحد كتب باللاتينية والآخر كتب باليونانية..

وقد بدأت أدرك أنني كنت محقًا.. بالفعل أرقام الصفحات تكمل بعضها.. ويا له من شعور رهيب عندما تدرك أنك تحدق في ترجمة (تيودور فيليتاس) أو ترجمة (فيرمياس).. قرون عديدة مضت على هذه الأوراق وتم تناقلها من يد ليد خلسة.. هي الآن في يدك أنت بالذات..

لكن ما الذي نخرج به من هذا الكتاب بفرض أنه صحيح؟

ثم خطر لي خاطر آخر رهيب..

هؤلاء ماتوا بتلك الطريقة البشعة لأن كلا منهم كان يحتفظ بجزء من الكتاب.. لا أعرف من قتلهم ولا الغرض.. لاحظ أننا لم نسمع عن ميتة مماثلة لكل من امتلكوا الكتاب في التاريخ.. وإلا لكان (دي) أو (كراولي) أجدر مني بهذه النهاية.. ربما كانت لعنة الكتاب تصيب الأبرياء فقط.. أي الأشخاص غير الملعونين أصلًا.

إذن ماذا عن مصير من يمتلك الكتاب بالكامل؟

وشعرت بما بقي من شعر رأسي ينتصب..

نعم.. لو صح توقعي فأنا المرشح الأقوى الآن لهذا..

ربع كتاب كان كافيًا لانتزاع القلب من الضلوع فماذا عن الكتاب كاملًا؟

هنا دق جرس الهاتف فوثبت مترين في الهواء، ونسى قلبي أن يدق عدة ضربات.. ثم نهضت فرفعت السماعة ليصلني صوت (عادل) يقول:

- «لقد فتحت الزوجة درج زوجها»

- «أية زوجة؟»

- «(فاتن)..»

- «زوجة من؟»

- «زوجة د. (زكي).. يا أبله.. هل أصبت بتخلف عقلي؟»

- «أصبت بماذا؟»

هنا انفجر فهو لم يعد يتحمل أو كما يقول العرب لم يعد في قوس الصبر منزع.. وقال في غيظ:

- «أنت قد جننت تمامًا.. على كل حال وجدنا مذكرات الدكتور.. وهي مهمّة بحق.. سوف تصلك نسخة منها حالًا.. لقد اتصلت بهم في مديرية أمن القاهرة.. أرجو أن تقرأها وتخبرني برأيك..»

- «أخبرك بماذا؟»

لكنه وضع السماعة كي يتجنب سماع أكثر..

بعد ساعة دق جرس الباب فاتجهت لأفتحه. كان هذا هو مساعد الشرطة (شوقي) الذي تحول عمله إلى إحضار الملفات لي.. شكرته فوقف يلهث طالبًا كوبًا من الماء، وفكر للحظة في أن يُصاب بنوبة قلبيّة ويموت على بابي ثم عدل عن هذا التصرف غير المهذب، وحياتي وانصرف..

وفي الداخل جلست وتفحصت المذكرات.. إنها تقع في حوالي مائتي ورقة تحكى بدقة وبخط نضيد أكثر ما يحدث للرجل، على أن أهم ما وجدته كانت ذكريات رحلته إلى النمسا.. هذا الجزء ألقى الكثير من الضوء على القصة.. هذا نموذج من أربعة يحكي كيف حصل أحدهم على الجزء الخاص به من الكتاب.. لقد تورط الرجل في القصة بعد موت أستاذه البريطاني.. لم يستطع التخلص من الأوراق ثم.. وجد أنها تضم أشياء مهمّة فعلًا.. هكذا اندمج في القصة إلى درجة أنه لم يكن يفارق غرفة مكتبه أبدًا.. لا يوجد دليل في المذكرات على كونه كان على اتصال بالثلاثة الآخرين في أيامه الأخيرة.. يبدو أن كل واحد منهم راح يبحث بشكل منفرد.. لكنهم لم يلتقوا قط لتبادل الخبرات..

ترى هل عرف كل واحد منهم أن الباقين هلكوا؟ لا أعرف.. إن الأخبار لم تذع في الجرائد..

(إن الجيران يمشون بطريقة عجيبة هذه الأيام.. إن أصوات خطواتهم تبدو كأنها آتية من غرفة النوم.. منذ أسبوع سمعت أحدهم يمشي فوق رأسي فبدا لي كأنما يتدرب على الوثب فوق مؤخرته..)

كان النعاس قد تسرب لعيني فقررت أن أنام بعض الوقت ثم أعاود التفكير أو أتجاهله..

هنا دق جرس الهاتف بإلحاح شديد..

اتجهت نحوه متثاقلًا ورفعت السماعة..

كان المتحدث يتكلم الإنجليزية.. إنجليزية أمريكية واضحة.. وعرفت الصوت على الفور:

- «د. (رفعت).. أنا (سام كولبي)!!»

(سام كولبي)؟ الساحر النصاب النيويوركي واليهودي مريض البروستاتا الأبدي.. لكن هذا الجرس ليس طويلًا كأجراس المكالمات الدولية.. إن..

عاد صوته يصيح:

- «أنا هنا في المطار.. مطار القاهرة! اتصلت بك قبل سفري لكنك لم ترد!»

(بالفعل هؤلاء الجيران قد تجاوزوا الحدود..)

قلت في غباء وبلا شبهة ترحاب واحدة:

- «ماذا أتى بك هنا؟»

قال في عصبية:

- «لا وقت للشرح.. فقط أريد منك أن تغادر البيت حالًا! لا تدخل غرفة نومك بأي ثمن!!»

عدت أسأل بذات الغباء:

- «لماذا؟ ما الذي؟»

- «أترك البيت حالًا.. ابق وسط الناس..! إنّه ينتظرك في غرفة النوم الآن!»

الجزء الثالث:
عشرون شيطانًا

إنهم يعيشون بيننا لكنهم لم يتكاثروا.. الأمر هين بالنسبة لهم.. يندمجون بنا ولا يشيخون.. ثم عندما يبدأ من حولهم في التساؤل يختفون.. ثم يظهرون في مكان آخر باسم آخر ويبدءون حياة جديدة.. لاحظ أن كثيرين - ومنهم (كراولي) نفسه - اعتقدوا هذا..

- ١ -

اليوم قررت (علياء) أن تقتل زوجها..

لا تقلق.. هذه هي المرّة العاشرة التي تعتزم فيها شيئًا كهذا.. أمّا في خيالها فقد قتلته فعلًا ألف مرة..

فتحت الدرج وأخرجت المسدس الأنيق الصغير وحشته بالرصاص.. ثم راحت تنظر إليه في توجس كأنه ثعبان.. بعد دقيقة أغلقت الدرج وهمست من بين أسنانها:

- «It's awful (هذا لا يطاق)»

ثم وقفت في الشرفة المطلة على البحر، وأخذت شهيقًا عميقًا لتهدأ.. نوبة الهستيريا قادمة لذا راحت تتنفس بسرعة أنفاسًا قصيرة خاطفة

☆ ☆ ☆

متى قررت أن الوقت قد حان للخلاص منه؟

إنها من أسرة أرستقراطية لو لاحظت هذا، وليس القتل بالسلوك شديد التهذيب بالنسبة لهذه الأسرة.. على الأقل ليس موضة العام.. لكن أحيانًا ما تصير الأمور لا تطاق بالمعنى الحرفي للكلمة..

«It's awful»

منذ عشرة أعوام تزوجت د. (مختار).. الأستاذ الجامعي المرموق.. إنِّه وسيم نوعًا وعلى قدر لا بأس به من الرقي.. الناس مولعة به ويقولون إنِّه ابن بلد وظريف.. وتراه هي Cool.. هذا هو ما وصفته به لأبيها..

لماذا لم يتزوج من قبل، ولماذا يبدأ التجربة في سن الأربعين؟ قال إن الحياة والدراسة لم يتركا له الوقت ولا البال الرائق لأمور كهذه.. ثم..

- «في لحظة يدرك المرء أنه إن لم يتزوج الآن سيكون وحيدًا للأبد..»

شهقت في رعب:

- «Oh! c'est trop! (إن هذا لكثير)!»

وكانوا يتحدثون عن أسرته الراقية الثرية.. نعم.. لابد أنه ثري.. كيف بربك يملك هذا كله من راتب الجامعة؟ من الواضح أنه ورث مبلغًا محترمًا.. هي أيضًا تأخرت كثيرًا في الزواج حتى صارت على مشارف الثلاثين، لأنها كانت تعتقد أن الرجال صراصير تحوم حول ثروة أبيها.. أخيرا وجدت الرجل المناسب.. وتم الزواج وسافرا إلى الخارج في شهر عسل قصير..

هكذا صارت حياتهما مزدحمة جدًّا.. يوصلها للنادي صباحًا ثم يذهب لعمله في الكلية، ويعود عند الظهيرة ليتناولا الغداء في النادي أو مطعم ما، ثم يعود بها إلى البيت.. ويقضي فترة العصر في مكتبه، ثم يخرجان مساء أو يزورهما الأصدقاء..

هل لاحظت شيئًا غير معتاد عليه في ذلك الوقت؟

لا تعتقد.. المشكلة أنه كان مكتملًا.. مكتملًا بطريقة تثير الريبة.. دائمًا هو متأنق.. دائمًا هو لامع.. دائمًا هو حاضر الدعابة.. دائمًا هو جاهز للكلام المنطقي.. وهذا شيء يثير الغيظ لكنّها تحملته..

آه.. تذكرت.. هناك تلك الوحمة في معصمه.. إنها موجودة بالضبط في باطن المعصم على ارتفاع 3 سنتيمترات من المفصل.. رأتها مرارًا.. لكنه يخجل منها بشكل خاص لهذا يحرص على ارتداء قمصان طويلة الكمين، حتى مناماته لها كمان طويلان، وهي لا تذكر أنها رأته بالثياب الداخلية قط.. حتى حينما ينزل إلى البحر يحرص على وضع شيء يشبه السوار حول معصمه.. (علياء) هستيرية لكنّها لا تعرف هذا عن نفسها.. لهذا هي متأكدة أن شكل الوحمة يتغير كلما رأتها.. تارة تشعر أنها دائرة سوداء، وتارة تراها أقرب إلى شعار تجاري فلا ينقصها إلا رمز ®.. وتارة هي ثعبان يلتهم ذيله أو نجم خماسي.. ربما سداسي..

لكنها في كلّ مرّة كانت ترى تلك الوحمة ربع ثانية ثم يغطيها زوجها في حرج، لهذا كان احتمال أنها تخرف واردًا.. لم تكن تهتم كثيرًا لولا أنّ هذه الوحمة بدت لها سوقية و(بلدي) إلى حد كبير.. وقد اقترحت عليه أن يجد جراح تجميل بارعًا يزيلها فابتسم ولم يقل شيئًا..

ولم يزلها..

هذا كل ما نغص حياتها في بداية الزواج..

لم ينغص عليهما شيء آخر إلا معرفتهما أنها لن تنجب..

كانت هناك مشكلة ما في المبيضين.. أم هو الرحم؟ لا تفهم بالضبط، لكن الطبيب قال إنّه من الصعب أن تنجب.. من المستحيل في الواقع لأن لديها مشكلة غاية في التعقيد..

- «Oh no Merciful God ! (أم لا. يا إلهي الرحيم)»

وقد ضايق هذا (مختار) كثيرًا.. لكنه لم يتحدث عن الزواج ثانية ولم يتحدث عن الطلاق..

كل هذه ليست بالأسباب التي تدفعها إلى التدبير لقتله كما ترى، خاصة أن القتل كما قلنا ليس موضة العام..

☆ ☆ ☆

ربما فكرت في قتله أول مرة عندما حدثت قصة كلبها..

كلبها البكيني الحبوب (سنوبي) كان هو الشيء الأهم الذي جاء معها من بيت أبيها.. كان شيئًا لطيفًا صغيرًا لا يكف عن النباح في وجه الغرباء، فإذا اقتربوا سقط مغشيًا عليه من الرعب..

منذ اللحظة الأولى لم يكن ثمّة ود مفقود بين الاثنين الزوج والكلب.. بدا أنّ هناك مثلث حب يجمع الثلاثة وأن الذكرين يغاران من بعضهما.. وكان ظهور زوجها في أي مكان يكفي كي يتوارى الكلب تحت أقرب أريكة وربما بلل نفسه من الرعب.. أتحدث عن الكلب لا الزوج طبعًا..

- «لا أفهم كيف تحبين هذا الشيء البشع..»

هكذا كان زوجها يقول كلما رأى الكلب.. وكانت هي تكتفي بنظرة باردة قاسية لائمة ثم تحتضن الحيوان الخائف الراجف إلى صدرها وهي لا تكف عن ترديد:

- «Tant pis mon petit.»

وذات مرة وجد (مختار) الكلب يرتجف جوار أريكة في طريقه، فلم يتردد في أن ركله ركلة لا بأس بها أبدًا أطاحت به مترين في الهواء..

ثم جاء اليوم الذي اختفى فيه الكلب تمامًا.. بحثت عنه في كل مكان بلا جدوى.. وقيل إنّه سَرق أو فر.. طبعًا كان هذا مستحيلًا لأن (سنوبي) لن يفر.. إنها تعرفه أفضل من ذاتها.. ربما لا نعرف الكثير عنا.. ربما نكتشف أشياء عن ذواتنا لم نكن نعرفها، لكن لا يوجد أي سلوك غير مبرر لدى (سنوبي).. أمّا عن احتمال سرقته فنحن لسنا في باريس.. لا أحد يبالي بالكلاب هنا إلا لجرها من أعناقها بحبل في الطرقات دعك من أنها لا تتركه وحده أبدًا..

طبعًا أمكنها أن تفهم القصة حينما وجد البستاني تلك العظام الصغيرة في حوض الزهور بعد ستة أشهر من الاختفاء.. لم تستطع أن تلقي نظرة على الجثة لكن البستاني قال إن الجمجمة مهشمة تمامًا..

طبعًا لم تستطع إلقاء اللوم على زوجها، لأنهّا لا تتخيل الأستاذ الجامعي الوقور يهوي على رأس كلب ببلطة.. لكن يظل السؤال هو: من فعلها؟

☆ ☆ ☆

السؤال الثاني المهم هو ألبوم الصور الذي لديه، والذي عرضه عليها أكثر من مرة..

ألبوم غريب هو لا يضم صورة أم أو أخ.. فقط صور أصدقاء وصور أجداد.. الطريف هو أن كل أجداده منذ اختراع الكاميرا لهم ذات الوجه.. فقط تتغير الثياب حسب الظروف.. طربوش.. ثياب الأربعينات.. نفس الوجه لا يشيخ ولا يتبدل.. هل صفاته الوراثية بهذه القوة؟

بالمناسبة لماذا لا يشيخ زوجها؟ حتى بالنسبة لها وهي في الأربعين فقط هناك أكثر من تجعيدة وأكثر من شعرة بيضاء لأن السنين لا تمر من دون أثر.. أمّا هو وهو في الخمسين من العمر فمن المفترض أن تبدو التغيرات أكثر..

لماذا يصر على أن ينام وحيدًا ولا يسمح لها أبدًا بأن تراه أثناء نومه؟ هناك غرفة اتخذها لنفسه في البيت وعندما يحين موعد نومه - وهو لا يأتي أبدًا إلا بعد نومها هي - يدخل الغرفة ويغلقها على نفسه من الداخل.. غالبًا ما تصحو بعده لتجده منتعشًا متفتحًا يجلس إلى مائدة الإفطار..

ثم هي تعرف أنه من أسرة أرستقراطية لكن من هم بالضبط؟ لم يزرهما أحد قط ولم يتصل بهما أحد.. وهو الذي تقدم للزواج منها وحده.. كل الناس يقولون إن أسرة (أبو مندور) ثرية جدًّا.. لكن أي شيء يربط بينه وبين تلك الأسرة سوى الاسم؟ اسم (أبو مندور) شائع فمن قال بالضبط أنه من تلك الأسرة؟

ذات قابلت في النادي فتاة جميلة وإن كانت تضع المساحيق بطريقة (بلدي) بعض الشيء اسمها (غادة أبو مندور).. وقد تطرق بينهما الحديث فعرفت أنها من تلك الأسرة الثرية.. سألتها عن زوجها.. هنا تقلص وجه الفتاة شأن من يتذكر.. وقالت:

- «(مختار أبو مندور)؟ أستاذ جامعي؟ Pardon حقًّا لا أتذكر هذا الاسم.. إن أسرتنا تضم رجال الأعمال وكبار التجار ولواءات الجيش والشرطة والمستشارين.. بل إن عندنا ممثلًا أو اثنين.. لكن لا أعرف أي شخص من السلك الجامعي.. ربما.. You never can tell»

كما ترى لم تزدها هذه المحادثة إلا قلقًا.. يحبّ المرء أن يتعامل مع شخص له طول وعرض وارتفاع وجذور.. أن تكون لزوجها أم تتشاجر معها وخالة تتضايق كلما جاءت سيرتها.. لكنّها تشعر في كل يوم أن زوجها نبت شيطاني..

شيطاني.. هذه هي الكلمة!

هنا تأتي المغامرة التي لابد منها، والتي يُطلق عليها القصصيون والسينمائيون اسم (المشهد الإجباري)..

لقد قررت أن تلقى عليه نظرة أثناء نومه..

أمر عجيب أن يكون هذا مطمح زوجة بعد عشر سنين من الزواج، لكن الحقيقة هي أنها لم تتمكّن قط من ذلك، وقد بدا لها الأمر غريبًا..

الغرفة تغلق بالمزلاج من الداخل لكن هناك شرفة.. شرفة مشتركة مع غرفتها هي، التي كان يجب أن تكون غرفتهما.. والشرفة تغلق بشيش. طبعًا هذا يسهل الأمور.. كل لص يعرف أن اقتحام الشيش سهل من الخارج إذا كانت عندك أداة يمكن أن تنساب في الشق ثم ترفع بها اللسان لأعلى..

كانت تعاني الفراغ وكان عندها كل الوقت لتحسين طريقتها.. تتأكد من أن لديها جسمًا يصلح.. تضع بعض الزيت على اللسان كي لا يحدث صريرًا.. ثم تختار ليلة مقمرة حتى تتأكد من أن الغرفة ستكون مضاءة..

لو وجدها في غرفته ليلًا فلا مشكلة.. لا جريمة.. لكنّها لا تحب أن تجد نفسها في هذا الموقف.. تشعر بأن اختلاق الأعذار أمر لا يتسق مع الكبرياء..

وجاء اليوم الموعود عادا من الخارج.. كعادته لاذ بالصم بمجرد دخول البيت.. إن ظرفه ولطفه يشبهان الحذاء الذي ينزعه على عتبة البيت فلا يسمح له بالدخول.. إنّه للشارع فقط..

أعدت لهما الخادم العشاء فجلسا يأكلان في صمت..

بالمناسبة.. لم تعرف قط من يحبّ اللحوم بهذا القدر.. عشر سنوات معه وبرغم هذا لم تلحظ إلا الآن أنه لا يكاد يتذوق الخضر أو النشويات أو الحلوى.. كانت تعلل هذا برغبته في ألا يزيد وزنه.. لكن لماذا يحرص على عدم التهام الخضر؟ لو شئنا الدقة لقلنا إنّه نباتي لكن بالعكس حيواني إذا كان هناك مصطلح كهذا..

بعد العشاء أعلنت أنها تريد أن تنام، فقال لها إنّه سيعمل بعض الوقت..

هكذا دخلت غرفتها وراحت تعد الدقائق إلى أن تهدأ الشقة.. الأنوار تنطفئ.. جو الصمت يعم المكان.. ثم تسمع صوت باب شرفة غرفته ينغلق.. تنتظر في الفراش متوترة نصف ساعة على الأقل..

الآن تنهض تتجه إلى باب الشرفة وتفتحها في حذر..

نور القمر الفضي الوقور الأنيق يغمر الشرفة.. النباتات المتسلقة تبدو كأنها أشخاص يتلصصون بانتظار من يدخل.. وقد دخلت.. ..

تمشي في بطء وحذر، ثم تقف خارج شرفة غرفته..

أخرجت الأداة الملتوية التي أعدتها في صبر.. ثم دستها بحذر عبر شقّ الشيش.. هوب.. حركة لأعلى بخفة.. لقد أجرت البروفة عشر مرات من قبل..

اللسان يرتفع.. يرتفع..

تدفع إلى الأمام ليسقط اللسان خارج مجراه..

أزاحت الباب بحذر.. تبًّا.. لقد قامت بتزييت اللسان لكنّها نسيت أن تزيت المفاصل.. إن الباب يحدث صريرًا.. صرييييييييييرًا!

كان خافتًا جدًّا لكنّها شعرت كأنها ستجد الإسكندرية كلها تتساءل عما هنالك..

أخيرًا انفتح الباب أكثر.. إنها ترى الغرفة في وضوح تام.. ظلها يمتد أمامها طويلًا مخيفًا وهذا يدل على أنها خططت جيدًا.. النور يدخل الحجرة بالكامل.. سوف ترى..

زوجها في الفراش..

تدنو أكثر فأكثر..

الآن تراه بوضوح تام في ضوء القمر المعدني البارد القاسي..

في هذه اللحظة سقطت الأداة المعدنية من يدها..

كادت تصرخ لكنّها لحسن حظها وضعت يدها على فمها في اللحظة الأخيرة..

الآن فقط فهمت كل شيء..

هذا الرجل يجب أن يموت..

هذا الشيء يجب أن يموت!

يجب...

- ٢ -

قال (كولبي):

- «كنت أتوقع ألا أجدك في دارك.. كان هذا ليطمئنني.. لكن الكابوس الحقيقي أن تكون موجودًا وتتجاهل الهاتف أو موجودًا وأنا قد تأخرت كثيرًا..»

كنا جالسين في كافتيريا صغيرة نرشف القهوة.. (كولبي) لا يشربها لأنهّا تسبب إدرارًا للبول.. في الواقع هو لم يعد يشرب أي شيء على الإطلاق..

نظر حوله في نهم.. فناديت النادل وسألته عن مكان الحمام هنا، ثم أشرت لـ (كولبي) إلى الاتجاه فقال في شيء من حرج:

- «معذرة.. أنت تعرف مشكلة البروستاتا.. إنني..»

- «أعرف.. أعرف.. فقط أسرع..»

هكذا توارى ورحت أنا أحملق في سطح القهوة الرقراق في القدح..

☆ ☆ ☆

لم أنتظر كثيرًا عندما اتصل بي..

كنت أعرف أنّ هناك شيئًا غير طبيعي يحدث في غرفة النوم.. الضوضاء غير معقولة.. وكان عندي من الأسباب ما يجعلني أتوقع كارثة..

لهذا لم أضيع الوقت في التساؤل، ولم أهرع إلى غرفة النوم لأرى ما هنالك..

أنا لا أؤمن بقدرات خاصة لدى (كولبي)، لكني لا آخذ ما يقول باستخفاف كبير.. إنّه لا يكتب الشعر لكنه يقضي حياته مع الشعراء.. إنّه لا يستطيع أن يقلي بيضة لكنه يحفظ كل وصفات الطهي في العالم.. ليس وسيطًا لكنه يعرف ألف وسيط.. وفي كل هذا يزعم أنه شاعر/ طاه / وسيط بارع..

لهذا لم أضيع الوقت كما قلت وفتحت باب الشقة، وسرعان ما كنت على الدرج.. لحسن الحظ أنني كنت أرتدي ثيابًا تصلح للخروج وليس منامة.. إن ثيابي كانت كلها في غرفة النوم!

كانت فرصة موتي متاحة في اللحظات التي نزلت فيها لأن السلم كان خاليًا، لكني في النهاية وجدت نفسي في الشارع. ليس مزدحمًا لكنه ليس مقفرًا.. وسرعان ما وجدت نفسي وسط زحام القاهرة الباعث للطمأنينة.. حتى لو أراد هذا الشيء أن يتبعني فلن يستطيع اختراق هذا الزحام.. حتى الأشباح لا تستطيع أن تفعل ذلك..

كان قلبي الآن يخفق بعنف، واحتجت إلى وقت لا بأس به كي أستعيد روعي.. دخلت إحدى الصيدليات وابتعت علبة نترات بما وجدت في جيبي من مال، وجلست على مقعد هناك، ودسست قرصًا تحت لساني بينما الصيدلي يرمقني في دهشة.. ثم طلبت كوب ماء..

هكذا صار من الممكن أن أعيش بضع دقائق أخرى..

ماذا أتى بـ (كولبي) وما دوره هنا؟ ماذا أتى به كل هذه المسافة ودون إنذار؟ ليست الولايات المتحدة هي (الدلجمون) لو كنت تفهم قصدي..

ثم كيف أجده؟ لا شيء يربطنا إلا رقم هاتف بيتي لاحظ أن الهاتف المحمول لم يخترع بعد..

بعد تفكير طويل وجدت أن الحل الوحيد هو أن أعود إلى البيت.. لن أكون وحدي هذه المرّة ولسوف أراهن على أنّ هذا الشيء لن يهاجمني حتى لو كان معي واحد فقط.. أنا أعتقد أن (كولبي) سيعاود الاتصال لمعرفة ما حدث لا يوجد لديه سبيل آخر..

من هذا البائس الذي سأرغمه على قضاء الليل معي؟

(عزت) طبعًا.. هل لديك اقتراح آخر؟

هكذا عدت إلى البناية.. كانت المجازفة كبيرة لأنني قد أقابل هذا الشيء على الدرج.. لكني رحت أردد آية الكرسي محاولًا أن أحتفظ برباطة جأشي.. لحسن الحظ كان البواب نازلًا من السطح الذي استولى عليه بوضع اليد ليقيم مشاريع غامضة.. هكذا رحت أتبادل معه حديثًا سخيفًا عن (الأشياء التي كانت كذلك ثم لم تعد كذلك) وأنا أقرع باب (عزت) بإصرار..

أخيرا فتح الفتى الباب فرآني.. ولابد أن قلبه سقط في قدميه لأنّه يعرف ملامح وجهي ويعرف الطريقة التي أدق بها الباب عندما..

قلت له في برود:

- «هلمّ ستمضي الليل عندي..»

- «هل لي أن أعرف السبب؟»

قلت وأنا أتجه لفتح بابي:

- «هذا موضوع يطول.. لكنك تعرف نوعية مشاكلي..»

كان قد تعلم أن الاستسلام هو خير سياسة معي.. هكذا أغلق شقته واتجه معي وهو لم يبدل منامته بعد، فجلس في الصالة.. تركته هناك واختلست نظرة داخل غرفة النوم.. لا يوجد شيء مريب.. خزانة الثياب مغلقة وكنت أتوقع أن يتم تفتيشها بعناية..

جلست معه في الصالة أحدثه عن (الأشياء التي كانت كذلك ثم لم تعد كذلك).. وهو يهز رأسه في اتعاظ ونعاس.. لسان حاله يقول: يا سلام.. فعلًا.. كل الأشياء كانت كذلك ثم لم تعد كذلك..

فجأة دق جرس الهاتف فهرعت أرد..

حدث ما توقعته..

جاء صوت (كولبي) يسأل:

- «إذن أنت قد عدت.. أرجو ألا يكون شيء مخيف قد حدث..»

- «لم يحدث شيء.. لكن من أين تتكلم؟»

- «ما زلت في المطار.. تحرك ولا تخف لأن الخطر زال..»

ووصف لي مكانه بعناية.. هكذا ارتديت ثيابًا مناسبة أكثر واتجهت إلى الباب أمام نظرات (عزت) المرتابة المرتاعة.. قلت له بفتور وأنا أغادر الشقة:

- «معذرة.. ثمّة موعد مهم.. لن أستطيع البقاء معك استمتع بوقتك.. سلام..»

إن بعض الناس يفتقرون إلى اللياقة بشكل ملحوظ.. ما الذي يبقيه في شقتي وهو يرى أنني مشغول؟

☆ ☆ ☆

يعود (كولبي) من الحمام هو غارق في الماء كعادته.. لا يمكن أن يدخل الحمام من دون أن ينفجر صنبور الماء في وجهه..

جلس في المقعد المجاور لي.. ثم عبث في جيوبه حتى أخرج ثلاث صفحات مجعدة متسخة وناولها لي.. سألته في عدم فهم:

- «ما هذا؟»

قال باسمًا بوجهه الطفولي الشبيه بوجوه دمى الأطفال:

- «باقي الكتاب! إن الكتاب الذي معك ليس كاملًا!»

نظرت للصفحات فوجدت أنها مكتوبة بالعبرية.. لكن لها ذات الطابع (العفاريتي) المميز لكل ما وجدته من ذلك الكتاب.. واضح أنها آخر ثلاث صفحات لأنني لم أقابل أية فجوات في تتابع الأرقام من قبل..

نظرت له في حيرة فقال:

- «عندما يصير الكتاب كاملًا تصير أنت في أمان.. لا أحد يهاجم من يملك النسخة الكاملة..»

- «وهذا يعني؟»

- «يعني ما فهمته..»

نظرت له من جديد وكدت أدس الأوراق في جيبي، لكنه انتزعها منى وأعادها لجيبه بابتسامة من طراز (ليس بهذه السهولة).. دنوت منه أكثر وسألته:

- «ماذا أتى بك هنا؟»

عبث في جيوب معطفه.. كالعادة أخرج عشرات المفاتيح والأوراق وأرجل الأرانب وحدوات الحصان.. قلت من قبل إن (الدهولة) لو صار لها اسم لكان (سام كولبي).. إنِّه من القلائل الذين أشعر أمامهم بأنني وسيم جدًّا أنيق جدًّا مرتب جدًّا واثق جدًّا..

في النهاية وجد ما يبحث عنه.. خطاب عليه طابع مصري كتب عليه اسمه وعنوانه..

- «أنت أخبرت هذا الفتى بعنواني كي يتصل بي..»

- «تتحدّث عن (فايز).. (فايز قطب)..»..

- «نعم.. نعم.. الصحفي..»

- «الصحفي الذي مات..»

بدا كأنما هو لم يسمع الخبر بعد، لكنه لم يندهش كثيرًا.. قال لي وهو يعيد محتويات جيوبه إلى مكانها بلا نظام:

- «لن أندهش من هذا.. إن من يلعب بالنار لابد أن يتوقع أن يحترق بها.. قليل هم الذين اهتموا بما اهتم به وقليل من عاش منهم ليحكي..»

- «ماذا قال لك بالضبط؟»

نظر (كولبي) حوله في حذر، ثم قال:

- «قال الفتى إن عنده جزءًا من كتاب (نيكرونوميكون).. وإنه بحاجة إلى من يفسره له لأنّه كُتب بالعبرية.. سألني كذلك عن نسخة كتاب (إينوخ) ترجمة (دي).. كان يريد معرفة تفاصيل عن

العشرين شيطانًا.. أنت تعرف هذه الأمور»

- «لا.. أنا لا أعرف هذه الأمور..»

- «ستعرفها حتمًا لكن لمصلحتك الخاصّة لا تحاول استباق شيء.. طبعًا لم أرد على خطاب الفتى.. لا أحد يجيب عن أسئلة من هذا النوع.. إن كتاب (إينوخ) موجود ويستعمله سحرة كثيرون، لكنه ليس من الأشياء التي ترسلها بالبريد لفتي متحمس هذا كما تعرف...»

ثم تقلص وجهه.. فحسبته أصيب بنوبة قلبيّة.. لكنه هب واقفًا:

- «معذرة.. الحمام.. إنها البروستاتا كما تعلم..»

تنهدت في ضيق.. من أين يأتي الرجل بكل هذه السوائل هو الذي لم يشرب كوب ماء منذ قابلته؟

بعد عشر دقائق عاد غارقًا في الماء.. لقد جف لتوه ثم عاد يبتل ثانية..

جلس وأردف:

- «عم كنت أتكلم؟ عن البروستاتا..»

- «بل عن كتاب (إينوخ)..»

حك شعرة عدة مرات وقال:

- «آه.. الكتاب.. لقد فهمت من خطاب الفتى أن كتاب (نيكرونوميكون) يجرى تجميعه في مصر تحت إشراف أستاذ تاريخ.. فجأة ولسبب لا أعرفه صار كل سحرة (نيويورك) على علم بهذا.. إن امتلاك هذا الكتاب حلم كل منهم.. وأنا لا أختلف عنهم في هذا.... هكذا قررت أن آتي إلى مصر وأحاول الحصول على الكتاب كاملًا.. إنّه مشروع عمري بلا زيادة ولا نقصان.. وفي ليلة السفر استدعاني (موسفاديم) العظيم.. إنّه أمريكي أسود من الخبراء في مهنتنا وله أتباع عديدون في القبو الذي يعيش فيه في (بروكلين).. وأعطاني هذه القلادة»

ومد يده في جيبه وأخرج قلادة عتيقة.. لا أعتقد أنها ثمينة لكن يتدلى منها حجر أملس غريب الشكل..

أردف (كولبي):

- «قال لي (موسفاديم): إن الكتاب الآن صار شبه كامل.. وهو بحوزة طبيب كهل نحيل أصلع يعيش وحده وأعرفه جيدًا.. قال لي إن هذا الكهل لا يعرف مدى الخطر الذي يتعرض له.. قال لي إن على أن أتصل به وأحذره.. هذه القلادة تتوهج عندما يتحرك أحد الشياطين العشرين للقتل.. أعطاني هذه الصفحات وقال إنها تكمل الكتاب وإن الكتاب إذا اكتمل يعطى صاحبه نوعًا من الحصانة، إن الشياطين التي تلاحقك لن تجرؤ وقتها على ذلك»

- «يا سلام! لم أعرف أن سحرة نيويورك مهتمون بصحتي إلى هذا الحد..»

- «بل هي المنفعة.. يخشون من أن تهلك فيهلك سر الكتاب معك.. لا أحد يعرف أين تضعه»

- «منطقي.. أصدق تلك التفسيرات التي تضع البراجماتية pragmatism في حسبانها..»

- «طبعًا لم أجد صعوبة في معرفة من هو ذلك الكهل الأصلع النحيل، خاصة أن الفتى راسلني عن طريقك.. وعندما هبطت الطائرة، وأنهيت إجراءات الحقائب، نظرت إلى القلادة فوجدتها تتوهج بلا انقطاع.. عندها عرفت أن الخطر يتحرش بك، في هذه اللحظة.. اتصلت بك وطلبت منك ألا تبقى وحيدًا..»

- «ومن أخبرك أن الخطر في غرفة نومي؟»

ابتسم في خجل وقال وهو يجفف عرقه:

- «كان هذا مجرد تخمين لا أكثر..»

ابتسمت بدوري.. الآن القصة منطقية نوعًا.. من جديد ملت عليه أسأله:

- «ولماذا لا تترك لي الأوراق التي تكمل الكتاب؟»

قال ضاحكًا:

- «إنها صفقة.. لديك كتاب ناقص لا يهمك في شيء ويجلب على رأسك أخطارًا لا حصر لها.. لهذا أريده أنا.. لو تركت لك الأوراق الناقصة لأمكنك أن تحتفظ به للأبد وهذا ما لا أريده..»

ثم قال بلهجة أقرب إلى التوسل:

- «بالفعل هذا الكتاب لا يمثل لك شيئًا بينما هو لنا مفتاح الكون ذاته.. أرجوك أن تعطيني إياه!»

نظرت له قليلًا.. ورحت أفكر فيما يجب أن أقول.. ثم قلت بصوت مخنوق:

- «بالفعل لا أريده على الإطلاق.. إنّه كابوس..»

- «هذا ما أحاول إقناعك به..»

وبدت لي الصفقة عادلة.. سلامتي وراحة بالي مقابل كتاب خطر لا أرى له نفقًا..

لن أفكر مرّتين...

- ٣ -

جاءني عم (شوقي) مساعد الشرطة بمجموعة من الأوراق.. كالعادة.. وفكر فيما إذا كان عليه أن يموت على بابي، ثم عدل عن هذا.. أرجو أن يستمر تهذيبه إلى الأبد..

كانت الأوراق في مظروف.. وقد أغلق المظروف على طريقة أحراز الشرطة الشهيرة، وبداخله وجدت ورقة بخط (عادل) تقول:

الدكتور (رفعت):

هذه الأوراق تخص الدكتور ((يوسف).. أبو الحسن) رحمه الله.. لقد ترك هذا المظروف لدى صديق له على أن يفتح في حالة اختفائه. يبدو أن الصديق تردد فترة طويلة ثم استجمع شجاعته وقرأ الخطاب.. وكان أول ما فيه هو طلب أن يبلغ الشرطة بمحتوى الأوراق. سوف تجد في الأوراق أشياء تهمك كثيرًا ويهمني أكثر رأيك فيها. للعلم واتخاذ اللازم..

عميد (عادل توفيق)

اندهشت لصيغة الخطاب الرسمية ثم إنهائه بعبارة باردة تقريرية مثل (للعلم واتخاذ اللازم)، لكني قدرت أنها طبيعة الحذر.. ربما فُتح المظروف لسبب ما، فلا يجب أن يبدو العميد (عادل توفيق) أقل من عميد في أية لحظة.

على أنني على مدى الساعتين التاليتين قضيت أغرب ربما أسود ساعات حياتي وأنا أقرأ قصة (يوسف).. مع كتاب (نيكرونوميكون) وأستاذه غريب الأطوار (مختار).. غريب الأطوار؟ هذا أقل شيء تصف به شخصًا يلعق عينيه بلسانه.. وبدأت القصة تتضح أكثر..

إن القصة متعددة الرواة Polyphonic وهو أسلوب أتبعه كثيرًا تعطيك وجهات نظر مختلفة.. العميان الذين يتحسسون فيلًا فيقول الأول: الفيل خرطوم طويل، ويقول الثاني: الفيل مروحة، ويقول ثالث: الفيل أربعة أعمدة.. فقط حينما تحشد رواياتهم تدرك أنك ترى فيلا أمامك.. وقد ساعدت هذه المذكرات مع مذكرات د. (زكي) مع معلوماتي عن القصة.. مع ما يعرفه (كولبي).. على جعلي أكون صورة شبه كاملة للحدث...

على أن الأحداث انتهت بالنسبة لي.. لم تعد ثمّة قوة دفع أخرى.. أربعة كُلِّفوا بمهمة رهيبة ودفعوا حياتهم ثمنًا لها، ومن الواضح أن حوادث القتل انتهت عند هذا الحد (كولبي) سيأخذ كتابه الرهيب ويعود السلام إلى الربوع وتغرد العصافير و.. ..

تغرد؟

لا.. إنها تصدر شخيرًا.. تغط في نومها..

لو كان (كولبي) يعاني شيئًا بالإضافة إلى البروستاتا فهي اللحمية.. إنِّه يصدر صوتًا يذكرك بأتوبيس الأرياف الذي لم يدخل ورشة الصيانة منذ عشرين عامًا..

الأهم أنّ هذا الرجل لا يفعل شيئًا إلا النوم.. إنّه ينام كطفل رضيع.. لم أر ساحرًا بهذا الكسل في حياتي.. أعتقد أنه امتهن السحر لأنّه يتيح له ألا يفعل شيئًا على الإطلاق.. نسيت أن أقول إنّه يقضي أكثر وقت يقظته في الحمام لأنهّا البروستاتا كما تعلمون، حتى صار دخولي الحمام معجزة.. دعك من أنّه يأكل كالتماسيح الصغيرة حتى قدرت أن خراب بيتي قريب..

نعم (كولبي) هنا.. ألم أخبرك بهذا؟

هذا منطقي.. هو لا يريد التخلي عن الصفحات التي معه وأنا لا أريد أن أبقى وحيدًا مع الكتاب فينتزع قلبي من الضلوع.. صفقة هي نوع من التكافل الحيوي symbiosis كذلك الطائر الذي ينزع الحشرات عن جلد الخرتيت ويحميه الخرتيت من الأعداء..

نعم.. (كولبي) خرتيت.. هذا حق.. لكن لا يوجد حل آخر..

هناك حل هو أن أعطيه الكتاب وأضعه في أول طائرة، لكن (عادل) حينما عرف مغامرتي الصغيرة لم يسمح لي بذلك.. قال لي إنني سأغير رأيي بالتأكيد بعد ما أقرأ مذكرات (يوسف)..

قال لي في غيظ على الهاتف:

- «نحن لا نمزح هنا.. هناك جرائم قتل وقاتل لم يضبط قط.. أنت تحدثني عن كتاب وهراء مماثل.. إذن دع هذا الخبير ينتظر معنا إلى أن نفهم كل شيء.. لا تقل لي إن الكتاب أنهى مهمته وساد السلام.. هذا كلام فارغ لن أضعه في أي تقرير..»

هكذا قررت أن أستبقى هذا (الخبير) إلى أن أعرف ما في مذكرات (يوسف).. هذا..

أخيرًا نجحت في إيقاظ (كولبي) فجلس في الفراش فراشي يحك بطنه، لابسًا منامته المزركشة التي لو رأيتها على طفل في الثالثة من عمره لاتهمته بالابتذال.. ثم سألني:

- «هل من شيء يؤكل؟»

قلت في عصبية:

- «ثمّة شيء يُسمع.. هذه المذكرات..»

وجلست أمامه أحكي له ترجمة أمينة لما قرأت في مذكرات الباحث الشاب.. راح يصغي وتعبيرات وجهه الطفولي تزداد غباء.. ذهب إلى الحمام مرّتين لأنهّا البروستاتا كما تعلمون، ثم عاد يصغي بانتباه..

في النهاية قال لي:

- «الأمر واضح.. لقد استشار الفتى الشخص الخطأ.. إن أستاذه كان واحدًا من العشرين شيطانًا.. إنها صدفة غريبة لو أردت أن تعتقد هذا، لكني أميل إلى الظن أن الفتى وجد نفسه مدفوعًا لهذا.. لقد وجهه كتاب النيكرونوميكون إلى ما يبحث عنه»

وقفت ورحت أجوب الغرفة في عصبية، وسألته:

- «معذرة على غبائي.. لكني سمعت موضوع العشرين شيطانًا هذا ألف مرة تقريبًا.. ولا علم لي بهم.. فهلا كنت أكثر تحديدًا؟»

ابتلع ريقه وقال:

- «بلى.. أنت تستحق أن تعرف..»

☆ ☆ ☆

قال (كولبي):

- «من المفاهيم الأساسية في كتاب (إينوخ Enoch) أنّ هناك عشرين شيطانًا جاءوا الأرض، وتزوجوا من بنات البشر فأنجبوا ذرية مخيفة.. أفراد الذرية كانوا متقدمين علميًا وقد صنعوا اسلحة متقدمة متقنة ومجوهرات عجيبة كما أنهم كانوا يشربون الدم كعادة محببة.. من الغريب أنّ هذه القصة موجودة كذلك في التلمود ذاته، وأنت تعرف أهميّة هذا الكتاب بالنسبة لليهود..»

قلت له في حيرة:

- «وما دخل (نيكرونوميكون) بهذا؟ أنت تتكلم عن كتاب آخر»

قال باسمًا:

- «من المفاهيم السائدة في كتاب (نيكرونوميكون) ذلك الكلام عن الكيانات القديمة Old ones.. إنها كيانات أكبر من البشر.. وراء البشر.. لقد اعتقد (الحظرد) أن أجناسنا أخرى غير الإنسان ورثت معه هذه الأرض، وأن ما يعرفه الإنسان عرفه من كائنات مما وراء هذا العالم. وآمن - وكان دقيقًا في هذا- بأن النجوم شموس أخرى حولها كواكب أخرى. وزعم أنه اتصل بالكيانات القديمة The old ones عن طريق السحر.. وكان يرى أن هؤلاء سيسيطرون على الأرض في النهاية محولين العالم الذي نعرفه إلى خراب.. زعم أنه تعلم هذا من أطلال (بابل) و(إرم).. إن..»

وتقلص وجهه ألمًا.. إنها البروستاتا كما تعلمون.. ثم..

- «إن النكرونوميكون كتاب تاريخ يحكي عن الكيانات القديمة أكثر منه دليلًا للسحرة المبتدئين كما يظن البعض. وهذا هو ما يجعل الكتاب مخيفًا.. فهو لا يعتقد بأننا ملوك الكون وأن الكون في خدمتنا، بل هو يتحدث عن كون معاد فيه قوى عاتية، بينما نحن مجرد غبار معدوم الحيلة وما يبقينا أحياء هو أننا أتفه من اللازم»..

«كانت هذه هي نقطة لقاء (نيكرونوميكون) والتلمود و(إينوخ) والكابالا.. وهذا هو ما جعل (ناتان غزة) يدرس (العزيف) بعمق.. تعتقد هذه الكتب أن الله خلق عدة عوالم قبل هذه تحللت كلها بسبب شر الكيانات القديمة.. في العبرية كلمة هي (دن) ومعناها (الحكم على الأشياء).. إن الكون نفسه أعظم نموذج للدن.. ثم يأتي مفهوم الكليبوث.. الكليبوث باختصار هو قشرة الشر الموجودة في العالم.. إنها قشرة لا أكثر لكن خطايا البشر تستطيع أن تملأها.. وهنا يمارس الدن تأثيرًا سلبيًا لأنّه يفرق بين البشر وبعضهم.. وللكليبوث سبعة ملوك يمثلون العوالم السبعة السابقة المدمرة.. و...»

إنها البروستاتا كما تعلمون.. ثم..

- «ظهر كتاب (إينوخ) إلى العالم مترجمًا على يد (دي)، الذي زعم أنه التقى بتلك الكيانات القديمة عن طريق هذا الكتاب.. قال إنها كانت تستعمل شفرة غريبة، لكنه وجد حل هذه الشفرة في الـ (إينوخ) واستطاع أن يتصل بها، وقد استعمل سحرة كثيرون ذات الشفرة اللغويّة ووجدوها مريحة»..

- «الآن يُمكنك أن تفهم الكلام الذي قاله لك ذلك الصحفي الذي نسيت اسمه.. لقد آمن البروفسور البريطاني بأن العشرين شيطانًا موجودون بيننا، وأن النهاية قريبة لأن هؤلاء ينتمون إلى الكيانات القديمة.. هذا هو ما انطلق أربعة الباحثين يبحثون عنه.. ثم انتقلت المسئولية لتقع على عاتق ذلك الأستاذ.. هل كان اسمه (زكي)؟؟ نعم.. ثمة واحد من هؤلاء قام بدراسة معقدة عن الموضوع.. تلك الدراسة المشفرة التي لم نستطع قراءتها..»

قلت محتجًا وأنا اشعر بأن رأسي ينفجر:

- «لحظة.. أنت قلت إن العشرين شيطانًا تزوجوا بنات البشر.. أي أنهم سلالة كاملة الآن..»

- «واضح مما توصل إليه أصدقاؤك هؤلاء أنّ هذا لم يحدث.. إنهم يعيشون بيننا لكنهم لم يتكاثروا.. الأمر هين بالنسبة لهم.. يندمجون بنا ولا يشيخون.. ثم عندما يبدأ من حولهم في التساؤل يختفون.. ثم يظهرون في مكان آخر باسم آخر ويبدءون حياة جديدة.. لاحظ أن كثيرين منهم (كراولي) نفسه اعتقدوا هذا..»

- «كل هذا جميل.. ولكن من هم؟»

مط شفته السفلى وقال:

- «لا أعرف.. ربما عرف هؤلاء القوم وربما لم يعرفوا.. ربما كانت أسماؤهم موجودة في تلك الأوراق المشفرة.. قد يكون أحدهم محاسبًا في (وول ستريت).. قد يكون أحدهم عضوًا في مجلس وزراء (تايوان).. قد يكون أحدهم ملياردیرًا سويسريًا.. المهم أنهم بالتأكيد أثرياء.. أن تعيش كل هذا الزمن معناه أن تكون ثريًا.. لابد أنهم واسعو النفوذ.. لابد أنهم لا يجدون على حقيقتهم المفزعة.. لا نعرف.. لكننا نعرف يقينًا أن أستاذ التاريخ الذي استشاره صاحبك كان منهم.. هذا هو طرف الخيط..»

- «وموضوع الوحمة هذا؟ لماذا تتبدل؟»

- «أغلب الظن أنها طريقة للتمويه.. لابد من وحمة.. هذه علامتهم وربما مصدر اعتزازهم القومي.. لكن كيف تبدو؟ احتمالات لا حصر لها.. في كل يوم لها مظهر آخر..»

سألته:

- «ولماذا مات أربعة الباحثين؟ ولماذا كتب دمهم كلمات؟»

قال ببسمته الطفولية التي تثير غيظي:

- «ماتوا لأنّهم يعرفون أكثر من اللازم.. بعبارة أدق: لأن الشياطين حسبوهم يعرفون أكثر من اللازم، وهذا هو السبب الذي جعل من اقتنوا أجزاء من الكتاب قديمًا لا يتعرضون لما تعرض له هؤلاء.. ألم ترَ أفلام العصابات المدعوة Film Noir إياها؟»

يقصد أفلام الجريمة القاتمة القديمة، حيث لا تعرف إن كان المخبر أم المجرم أكثر إجرامًا، وحيث الكل (يعرفون اكثر من اللازم)..

- «ولماذا كتب دمهم هذه الكلمات؟.. لماذا أشار إلى (العزيف)؟»

حك رأسه في حيرة وقال:

- «لا أعرف.. أعتقد أنه تأثير كتاب (نيكرونوميكون) نفسه.. إن الكتاب ينتقم لأصحابه.. يبلغ العالم أنه هو السبب..»

قلت في غيظ:

- «يا سلام! أنا لم ألق كتبًا واشية كثيرة من قبل، لكن هذا الكتاب يصلح مخبرًا للشرطة.. ولماذا لم يكتب الكلمة مرة واحدة ويريحنا؟؟ كان بوسعه أن يكتب تقريرًا كاملًا.. إنه ثرثار بما يكفي.»

- «ليست هذه الطريقة التي تتحرك بها الأمور في عالمنا ولا عالم الميتافيزيقا.. لابد من الألغاز.. لابد من التلميح.. فكر في الأمر كالحلم.. يستطيع الحلم أن يقول لك بصراحة: أنا أخشى أبي وأخجل من بدانتي.. لكن هذا لا يحدث.. بل ترى لغة رمزية شديدة التعقيد.. أعتقد أن عالم الميتافيزيقا يطبق نفس معايير الحلم..»

كنت أنا أفكر في عمق..

للمرة الأولى أسمع كلامًا مهمًا من هذا النصاب متضخم البروستاتا.. بالفعل هو لا يستطيع قلي بيضة لكنه يحفظ كل أساليب الطهي..

القصة عجيبة.. ولا أصدق حرفًا.. خاصة مع كل تلك المصادر اليهودية.

لكن لا أرى ما يمنع من مقابلة ذلك الدكتور (مختار أبو مندور)..

- ٤ -

- «هل من المتوقع أن يأتي زوجك الآن؟»

- «Mais non.. إنِّه في الكلية.. ومن هناك سيسافر إلى القاهرة ليبيت هناك»

- «وهل يضايقك أن تحدثينا بصراحة؟»

- «عن أي شيء؟»

كنا جالسين في النادي الراقي إياه.. أنا و(عادل) والسيدة (علياء).. انطباعي عنها؟ لا شيء.. إنها متقدمة في العمر لكني لا أعتقد أنها كانت جميلة جدًّا منذ أعوام.. إنه التعالي.. إنها الأرستقراطية حين ترسم تجاعيدها على الوجه وزاويتي الفم فتمحو ما كان فيه من جمال.. وكانت تداري عينيها وراء نظارة سوداء أنيقة.. لكني خمنت أن هاتين العينين تبكيان بإفراط وتسهران كثيرًا..

تم التعارف بسهولة.. إن (عادل) من رواد هذا النادي. لكنه الآن ليس هنا بصفته الشخصية بل بصفته الرسمية.. وكان قد استبعد تمامًا البدء بالزوج.. هذا هو الحمق بعينه.. قال لي إنِّه يعتقد أنها مغلوبة على أمرها.. مذكرات (يوسف).. تخبرنا بهذا.. إنها في صفنا بشكل ما..

كان متأنقًا أناقته المعهودة، مهيبًا نافذًا إلى ما يريد فلم تجرؤ المرأة على الاعتراض.. لو قمت أنا بهذه المحاولة لتلقيت لكمة في أنفي..

قال (عادل) بطريقته المقتحمة الجريئة:

- «ثمّة أشياء بصدد.. إحم.. إن زميلي د. (رفعت) لديه ما يقوله!»

هكذا صارت الكرة في ملعبي..

رحت أرمق الصخب من حولي.. حوض الأزهار.. السقاة يروحون ويجيئون.. أطفال يلهون.. حسناء تركض لتخبر (ميمي) بشيء ما.. ثم قلت:

- «ثمّة شيء يتعلق بزوجك.. د. (مختار).. هل توافقين على هذا؟»

رفعت حاجبيها فوق إطار النظارة بمعنى (استمر).. فأردفت:

- «وهذا الشيء لا يريحك..»

ظلت تنظر لي دون أي تعبير.. فواصلت الكلام:

- «إنّه غريب الأطوار.. ربما مخيف كذلك.. هل ترين هذا؟»

هذه المرّة تقلص وجهها في بشاعة وارتفع قوسا حاجبيها في غضب ارستقراطي محموم، وقالت:

- «It's awful! How dare you ? (هذا لا يطاق.. كيف تجرؤ؟)»

ثم نهضت في عصبية، وبعصبية أكثر تناولت حقيبتها وهتفت:

- «Je suis dégoûté!!»

لا أجيد الفرنسية، لكنك لا تجد صعوبة في فهم شخص يتكلم في اشمئزاز.. إنّه على الأرجح مشمئز..

هكذا ظللنا أنا و(عادل) جالسين نتبادل النظرات بينما وقفت هي..

فجأة تصلبت، ثم جذبت مقعدها وجلست ثانية.. هذه المرّة أخرجت منديلها وراحت تبكي كصنبور تالف..

ثم تمخطت في سخاء وقالت:

- «My hubby.. إنّه شنيع.. شنيع!!»

☆ ☆ ☆

قالت (علياء) بعد ما حكت لنا القصة كلها، تلك التي سمعتها أنت:

- «عندما دخلت الغرفة.. لم يكن المشهد قابلًا للوصف رباه !It was such a nightmare.. أي مسخ كان يرقد في الغرفة المجاورة لي كل هذه السنين؟»

قال (عادل) في إصرار خشن نوعًا:

- «هلا وصفته لنا؟»

- «لا أستطيع.. لابد أن تراه لتصدق.. كتلة عفنة من اللزوجة. شيء يذكرك بالأميبا لكنه شرير في الوقت ذاته.. يتدلى حول أطراف الفراش حتى تشعر أن قطرات تتساقط منه على السجادة.. في هذه اللحظة نهض!»

وثبت أنا و(عادل) في اللحظة ذاتها كأننا نحن من نهض لا الزوج..

قالت وهي تنزع نظارتها لتحسن تجفيف الدموع:

- «نعم.. لقد سقطت من يدي الأداة التي كنت أحملها وسمعها.. في هذه اللحظة كنت قد تحولت إلى كيان متهالك بلا إرادة كالعجين..Totally helpless.. سقطت أرضًا بينما هو ينهض.. كان يضحك كأنه كان يتوقع.. كنت أبكي و...»

وتهانفت من جديد، وتوقف نادل في فضول ليلقي نظرة على ما يحدث.. ثم قدر أن الأمر لا يستأهل التدخل.. لسنا وغدين نضايق هذه السيدة..

قالت وقد أعادت نظارتها:

- «قال لي إنِّه كان ينتظر هذه اللحظة.. وظل يردد هذه العبارة مرارًا.. قال إنني لن أستطيع عمل شيء.. إنني تحت رحمته تمامًا.. أنا مجرد زي تنكري يبدو به بشرًا أمام الناس.. وفي اللحظة المناسبة عندما يتساءل الناس عن سبب عدم تقدمه في العمر سيختفي.. بعدها يظهر في مكان آخر باسم آخر ويتقدم بأوراق مزورة طالبًا عملًا جديدًا، ويتزوج امرأة أخرى.. هكذا كان الأمر منذ قرون.. إن الأمر كما حسبت.. صورة جده وصورة أبيه ليستا إلا صورته هو نفسه..»

قلت وأنا أتصور الموقف:

- «لحسن حظه إذن أنك لم تنجبي»

ضحكت في مرارة وقالت:

- «لم يتزوج لينجب قط.. ليست الأبوة ضمن مشاريعه فهي تتضمن نوعًا من التخلي عن الذات أو منح جزء منها، وهي فكرة غير واردة بالنسبة له.. لقد فتح لي مكتبه وعرض على مخبارًا مليئًا بمادة حافظة.. الشيء الذي كان في السائل هو مبيضا امرأة!»

- «فوش ش ش ش ش!»

هذه كانت من (عادل) الذي اختار هذه اللحظة بالذات ليشرب الليمون.. ونظر لها في ذهول، بينما سألتها أنا:

- «و.. و.. الجراحة التي...»

قالت بتحد:

- «لا جراحة.. لم أشعر بشيء على الإطلاق ولم أعرف بحدوثه.. لقد حدث هذا بعد الزواج مباشرة.. إنِّه قادر على هذا وأكثر.. ولهذا لم يستطع الطبيب تفسير سر عدم إنجابي.. لقد اعتقد أن انقطاع الدورة له أسباب هرمونية..»

كنا في عصر ما قبل الموجات الصوتية لهذا كان اكتشاف شيء كهذا عسيرًا.. واختلالات الهرمونات واردة على كل حال.. لاحظ أنه ما من ندوب توحي بجراحة..

سألها (عادل) وهو يجفف عرقه:

- «ولكن.. كان بوسعه ألا ينجب منك ما دام لا يريد ذلك.. لا يجب أن يجرى لك هذه الجراحة الشنيعة»

قالت وهي تنظر إلى بعيد:

- «هو لا يتصرّف بهذا المنطق.. ما يعنيه هو أن يسبب الأذى والضرر للآخرين.. ما دام يستطيع إنهاء وجودي كامرأة فلماذا لا يفعل هذا؟ ? Why not for God's sake»

عدت أسألها وأنا أرتجف.

- «وكيف سارت حياتكما بعد هذا؟»

- «لقد هددني بأنني لن أستطيع الفرار منه.. على أن أستمر في أداء دوري الاجتماعي معه وإلا.. هو قادر على تنفيذ هذا التهديد.. سوف يجدني في أي مكان.. وقد كنت خائفة.. لذا فعلت كل ما طلب مني..»

سألها (عادل):

- «لكنك حاولت أن تحذري الناس منه كلما استطعت..»

هزت رأسها وقالت:

- «نعم.. لقد جاءه باحث شاب متحمس يعمل معه في ذات الكلية، واسمه (يوسف).. يعرض عليه دراسة يقوم بها حول كتاب قديم.. قال له إنِّه وثلاثة من رفاقه على شفا الكشف عن شياطين تحيا بيننا ولا تبدو مختلفة.. جن جنون زوجي.. لماذا يسأله الفتى هو بالذات؟ كان متأكدًا من أن الفتى يعرف سرّه وقد حاول أن ينصب له كمينًا.. عرفت هذا بالطبع لأني سجينته وهو يتكلم بصوت عالٍ عن كل شيء.. لهذا انتهزت فرصة انفرادي بالفتى وكتبت له كلمة تحذيرية أحسبه لم يعمل بها.. لقد عرفت أنه مات ميتة شنيعة..»

- «هذا ما حدث فعلًا»

ساد الصمت للحظة.. وعرفت ما سيقوله (عادل)..

- «الآن متى يُمكنك أن تتيحي لنا دخول غرفة مكتب زوجك؟!»

- ٥ -

- «لن آتي معكما!»

قالها (عادل) في ثبات وهو يغلق باب شقته..

قلت محتجًا:

- «لكننا بحاجة إليك.. أنت تعرف هذا..»

- «أعرف هذا.. مشكلتي أنني أعرف هذا.. أعرف انكما من دوني ستكونان دجاجتين عجوزين حمقاوين.. لكني لا أستطيع أن أرافقك.. لابد من أن أحصل على إذن رسمي بهذا من جهة قضائية، وأنت تعرف أنّ هذا مستحيل اعتمادًا على قصة خياليّة كهذه.. وهذا يعني أن عليك أن تتصرف على مسئوليتك.. المفترض أنني لا أعرف شيئًا عن مغامرتك الحمقاء هذه.. ولو حدثت مشاكل فأنا لا أعرف أي شيء عن الموضوع»

فيما بعد رأيت حلقات (المهمة: المستحيل) التلفزيونية، حيث كانت كل حلقة تبدأ بعبارة (لو تم القبض على أحدكم فلسوف ننكر أية علاقة لنا به).. هذا هو العمل السري الحق..

هكذا اصطحبني (عادل) إلى الفندق المطل على الكورنيش، فاستقللت المصعد إلى غرفة (كولبي)..

كان نائمًا كالعادة.. يجب أن أذكر أنه صار يترك صفحات الكتاب الناقصة في حقيبتي مع الكتاب ذاته.. فقد فهم أنني زاهد في اقتنائه كل الزهد، وهو مؤمن أن الكتاب المكتمل هو الطريقة الوحيدة لحمايتي..

رحت أحكي له ملخص ما حدث..

- «إن الليلة هي فرصتنا الأفضل.. الأخ (مختار) يبيت في القاهرة.. الفيلا كلها لنا.. لو فاتت الفرصة فلا نعرف متى تسنح من جديد..»

- «إذن سنتسلل كلصين؟»..

- «ليس بالضبط.. إن الزوجة نفسها هي التي ستفتح لنا وستخبرنا بكل التفاصيل..»

راح يفكر وبدا أن الفكرة تروق له..

قلت له باسمًا:

- «لو لم تأت لأرغمتك على ذلك.. هذه المهمة تحتاج إليك..»

قال وهو يبدل ثيابه:

- «أعتقد أنه من الحكمة أن نحمل الكتاب معنا.. ربما كان هذا الشيء الذي سيحمينا»

- «وربما كان الشيء الذي تم استدراجنا من أجله»

وهكذا انطلقنا نحو بيت الرجل.. الرجل الذي يبدو كذلك لكنه لا ينتمي للبشر حسب ما يقوله (دي) و(كراولي) وربما (كولبي) كذلك..

فتحت لنا الباب بنفسها.. لم تتخلص بعد من نظارتها السوداء، وإن عقصت شعرها وارتدت تايورًا أنيقًا فبدت على قدر من الجمال.. وسمحت لنا بالدخول وهي لا تكف عن النظر إلى (كولبي) في ارتياب.. إن منظره غريب في أي مكان وزمان..

قلت لها باسمًا:

- «هذا هو (سام كولبي)..»

هزّ رأسه لها في رقة مضحكة.. كان يحمل حقيبته على ظهره فبدا أقرب إلى تلميذ مدرسة خجول يقدمونه إلى (طانط صافيناز)..

كان هذا كافيًا على ما يبدو لأنهّا لم تسأل عن شيء آخر.. كأنه من الطبيعي جدًّا أن تصطحب معك نصابًا يهوديًا أمريكيًا حينما تزور الناس في بيوتهم..

أطلقت شهقة وأطلق (كولبي) صفارة برغمه عندما دخلنا الفيلا.. أنا لست طفلًا.. لقد رأيت الكثير وليس إبهاري سهلًا.. لكني لم أر هذا القدر من الفخامة والثراء والرقي.. كأن نظراتك ذاتها يمكن أن تخدش كل هذه التحف.. رواق طويل تحف به التحف.. ثمّة (كونسول) عملاق.. أكثر من (أنتريه) وصالون.. طنافس تثير الحسد في نفس (هارون الرشيد) ذاته.. بيانو أسود مهيب الشكل لابد أنه كان يخص الخواجة (هاندل) أو (ليست).. وعلى الجدار لوحات تأثيرية لن أندهش لو قيل لي إنها حقيقيّة. هناك طابق علوي.. طبعًا..

قال (كولبي) في سذاجة:

- «أساتذة الجامعة عندكم يكسبون جيدًا..»

قلت في غيظ:

- «كلهم! أنا الفاشل الوحيد.. ولاحظ لسانك لأن السيدة تجيد الإنجليزية»

قالت لنا متجاهلة هذه التعليقات:

- «لا يوجد خدم.. كلهم في إجازة.. هذا يعطينا حرية أكثر..»

ثم تقدمتنا بسرعة إلى الدرج.. فلابد أن غرفة المكتب في الطابق الثاني.. ومن جديد مشينا في ممر بيشي بالثراء.. قدماك تغوصان في السجاد كأنه الرمال المتحركة.. رائحة عطرة تفوح في الجو.. عندما يكون عمرك عدة قرون فأنت لا تعاني الفاقة.. لو ادخرت قرشًا كل يوم لصرت في ثراء (قارون)..

سألها (كولبي) عن الحمام لأنهّا مشكلة بروستاتا فازدادت دهشتها.. إلا أنها أشارت إلى باب جانبي عن يمين الممر، فمشى إليه وتوارى بضع دقائق عاد بعدها وقد بلل صنبور الماء نصفه العلوي كله.. الأمر الذي لم يزدها ثقة به..

اتجهت إلى باب عملاق ففتحته بمفتاح أخرجته من صدرها..

كانت قاعة طويلة ذات إضاءة مريحة خافتة.. هناك مكتبة جدارية وثمّة بعض تماثيل برونزية لفتيات إغريقيات يفعلن أشياء ما.. لا يُمكنك أبدًا فهم ما تفعله هذه التماثيل.. هناك مكتب أنيق صغير أعتقد أنه من طراز (شيبنديل).. هكذا يقولون في القصص.. وثمّة أباجورة صغيرة على شكل أفعى تلتف حول شجرة.. الخلاصة أنه طراز المكاتب التي يتجسسون على محتوياتها في أفلام الجاسوسية..

راح (كولبي) يتفحّص رفوف الكتب في الضوء الخافت، يطالع العناوين الإنجليزية، ثم قال بخيبة أمل:

- «مجرد كتب تاريخ..»

قلت في ضيق:

- «لا تتوقع أن يضع على الرف كتابًا مثل (مذكرات شيطان) أو (الطرق العشر لامتصاص الدماء).. إنِّه أستاذ تاريخ لذا لابد أنه يملك كتب تاريخ..»

كان هناك صف كامل من المجلدات السود التي يبدو أنها الرسائل التي أشرف عليها.. هذا رجل قد أعطى الكثير للعلم حتى لو لم يتعمد هذا.. لكني ما زلت مندهشًا من قدرته على انتحال هذا الدور.. كيف خدع كل هؤلاء الطلبة الذين جلسوا بين يديه؟

مدت (علياء) يدها في صدرها وأخرجت سلسلة في طرفها مفتاح، وبيد راجفة عصبية عالجت قفل المكتب فانفتح.. ثم نظرت لنا نظرة تقول (هو لكما)..

جلست إلى المكتب ووقف (كولبي) ورائي..

ورحت أعبث في الدرج محاولًا عدم تغيير شيء من معالمه..

قالت (علياء) بصوت كالفحيح:

- «لا تحاول.. إنِّه يضع خيوطًا رفيعة في كل مكان وكل شيء.. لا يُمكنك أن تخدعه أبدًا..»

نظرت لها في توتر.. وأعدت النظر إلى الدرج.. ثم سألتها:

- «إذن ما جدوى السرية؟»

قالت وهي تتنفس بصعوبة:

- «لا جدوى فقط آمل أن تجدا ما يخلصني منه أو يضعفه.. فيما عدا هذا أنا ميتة..»

بعد برهة صمت عدت أتأمل الدرج مدققًا.. بالفعل كان الوغد قد نثر عشرات الخيوط الرفيعة كأنها خيوط عنكبوت فوق كل شيء.. من المستحيل فعلًا أن تتحاشى تمزيق أي خيط، لكني أتساءل عما يفعله هو ليعيد الأمور سيرتها الأولى..

هكذا قررت أن أتعامل بتهور أكثر من منطق من ليس لديه ما يخسره.. ومددت يدي إلى دفتر صغير ورحت أتفحصه.. كان مليئًا بأرقام الهاتف والعناوين.. بعضها في مصر وبعضها في الخارج.. قررت أن أدسه في جيبي لأطلب من (عادل) أن يجد شيئًا مهمًا فيه.. إن كفاءة رجال الشرطة تتلخص في قدرتهم العددية ومثابرتهم الصبور.. فقط رجال الشرطة يستطيعون أن يعرفوا كل شيء عن كل اسم في هذا الدفتر خلال أسبوع، بينما أحتاج أنا إلى عام كامل لهذا..

كانت هناك مجموعة صور فوتوغرافية لأشخاص بعض الصور عتيق وبعضها حديث..

أمّا الجائزة الكبرى فكانت تلك المخطوطات التي تم وضعها في كيس بلاستيكي صغير.. إنها عتيقة جدًّا وأصلية.. وكتبت بحروف لا يمكن أن تعرف كنهها.. ليست العبرية ولا السريانية ولا أية لغة أعرف منظرها.. لغة (عفاريتي).. هذا هو الوصف الأدق..

وعرفت أنّ هذا المخطوط مهم.. ربما يفهم (كولبي) شيئًا منه فيما بعد.. وربما يمكن تدميره لنحرم ذلك الشيء من شيء ما مهم.. لا أعرف.. المهم أن يكون معك لا مع (مختار)..

أغلقت الدرج وسألت الزوجة:

- «هل من مكان آخر تشكين فيه؟»

قال (كولبي) الذي لم يفهم السؤال الأخير:

- «الثلاجة! لابد من رؤية الثلاجة!».

- «طلب غريب بعض الشيء..»

بذكاء قال:

- «رأس الاستحواذ يكون موضوعًا في الثلاجة دائمًا!»

قلت في لا مبالاة:

- «لا تنس أن البيت يعجّ بالخدم والزوجة نفسها.. هذا الذي تقوله يحدث حينما يكون الشخص ذئبًا متوحدًا مثلي..»

قالت الزوجة التي كانت تتابع المحادثة بالإنجليزية:

- «بالفعل لا يوجد شيء من هذا.. لا أعتقد أنّ هناك أماكن أخرى يمكن أن تكون صومعته الخاصّة.. غرفة النوم ليس فيها إلا الفراش وخزانة الثياب.. وأنا متأكدة من أنّه لا شيء يريب بصددهما..»

هكذا وضعت كل الكنوز في الحقيبة التي يحملها (كولبي).. وأشرت له أن الوقت حان لنرحل..

لكنه ابتسم.. اتجه إلى خزانة الكتب الجدارية، وقال لي:

- «ساعدني على إزاحتها! لابد من أن نرى ما خلفها!»

قلت له في ارتباك:

- «كف عن الجنون.. لا يستطيع الرجل أن يزيحها لأي سبب في..»

لكنه راح يدفعها بذراعيه وردفيه واحتقنت عروقه واحمر وجهه.. هكذا اتجهت إليه ورحت أساعده على قدر ما تسمح صحتي..

قالت مدام (علياء):

- «That's nuts.. لا يوجد شيء هنا..»

لكن المكتبة بدأت تنزاح ببطء بطريقة الخلخلة المعروفة.. هوب هوب! هوب هوب! دفعة صغيرة تلو دفعة صغيرة.. هكذا قررت أن تستسلم وبدأت تنزاح جانبًا فوق البساط الذي قلل احتكاكها بالأرض..

هنا فقط أدركت أن (كولبي) مفيد جدًّا..

وراء المكتبة كان ذلك النفق الذي يبلغ ارتفاعه قامة طفل في العاشرة. فتحة في الجدار تقود إلى ممر مظلم. لكن إضاءة زرقاء تأتي من مكان ما تضيء جوانبه.. لا أريد أن أبدو هستيرية لكن هذا النفق بدا كأنما هو يقود إلى الجحيم ذاته.. من يجسر على الدخول؟ من؟ ليس أنا..

صحت في بلاهة:

- «هذا لا يصدّق.. وإلام يقود هذا الممر؟»

نحن في الطابق الثاني.. والبيت منعزل لا يحيط به شيء.. إذن..

قالت الزوجة بدورها وهي ترتجف:

- «لكن جدار غرفة المكتب لا يقود لشيءٍ.. لا يوجد إلا الخارج في الجهة الأخرى!»

قلت وأنا ألهث وأجفف عرقي:

- «ربما هو جدار مزدوج.. غرفة سرية ما.. هذه الأشياء ورادة..»

بدا عليها عدم التصديق، فقال (كولبي):

- «لا هذا ولا ذاك.. هذا نفق بين الأبعاد.. إنّه الممر الذي يتصل به (مختار) بالكيانات القديمة.. وهذا لا يخضع للجغرافيا المعهودة.. تدخل منه فتخرج في مجرة أخرى ربما.. في زمن آخر ربما.. كنت أعرف أننا سنجده..»

ثم وقف عند مدخل النفق، ومن حقيبته أخرج أشياء تشبه الأوتاد - لكنّها فضية اللون وراح يثبتها بمطرقة صغيرة على الجدران، ثم أخرج قنينة صغيرة بها سائل أحمر قان راح ينشر محتواها على المدخل.. بعدها أخرج كتيبًا راح يقرأ منه أشياء لم أفهمها.. لكن أحسها..

هل كان الضوء الأزرق يتراقص مع كلماته؟ لست متأكدًا..

فقط رحت أتوقع أن تخرج من النفق يد مخلبية عملاقة تمسك به وتجره إلى الداخل.. لم يحدث هذا لحسن حظه..

في النهاية توقف عن الكلام.. وقال بصوت هامس:

- «أعتقد أنني أغلقت هذا الممر.. لن يستطيع العودة منه...»

- «ألا تحتاج إلى بعض الخرسانة والقرميد كذلك؟»

قال دون أن يضحك:

- «لا.. الأمر ليس ماديًا إلى هذا الحد.. إن قوته مريعة ولن يعوقه شيء كهذا.. لن يعوقه إلا رمز..»

في هذه اللحظة تصلب ثلاثتنا..

لقد سمعنا صوت باب يفتح ثم يغلق بالطابق السفلي!

- ٦ -

- «لقد عاد!»

قالتها الزوجة وهي تنتفض كورقة.. فانتفضنا بدورنا..

- «قلت إنّه سيبيت ليلته هناك!»

- «قلت.. وقال.. واضح أن الظروف تغيرت..»

تساءل (كولبي) وهو شاحب الوجه:

- «ماذا نفعل؟»

- «أولًا نعيد المكتبة إلى مكانها ثم نفكر.. هل يُمكنك أن تغادري الدار معنا يا مدام (علياء)؟»

تقلص وجهها المذعور وقالت:

- «سيكون هذا صعبًا.. سيثير ريبته..»

- «ليس من مصلحتك أن تبقي معه.. قلت إنّه سيعرف كل شيء..»

- «(علياااااء)!!»

هذه كانت من الطابق السفلي.. لقد عاد الزوج فعلًا وهو يبحث عن زوجته الحبيبة التي حرمها من الإنجاب.. هكذا لم نجد وقتًا لعمل أي شيء.. خرجنا من المكتب ومشينا في الرواق مسرعين..

وفجأة وجدناه أمامنا!

☆ ☆ ☆

كان وسيمًا راقيًا متأنقًا مهذبًا..

هذا هو ما رأيته بلا أدنى مبالغة.. شخص ظريف له طابع أولاد البلد الودودين.. هل قابلت يونانيًا ممن عاشوا في مصر طيلة حياتهم وأتقنوا العربيّة؟ له ذات الطابع المحبب الذي يجعلك تشعر بأنه صديقك على الفور.. من السهل أن يثق (يوسف).. به..

المشكلة الآن أنه ضبطنا متلبسين.. لو قابلنا على الباب لكان التفسير ممكنًا..

كان ينظر لنا بوجه مشرق مرحب، فصاحت الزوجة على الفور:

- «د. (مختار).. زوجي.. د. (رفعت).. مستر (كولبي).. جميل أن تلتقوا هنا.. جميل جدًّا. أنا. أنا مسرورة..»

لكن لهجتها كانت تقول بوضوح: أنا لم أفتح درج مكتبك وأكشف لهم أسرارك.. لو حسبت هذا فأنت مخطئ..

ابتسم ابتسامة رقيقة وقال:

- «هل لي أن أتشرف بمعرفتهم فعلًا؟ إن الأسماء لا تكفي يا عزيزتي..»

قالت بتلك اللهجة المتسارعة:

- «الدكتور (رفعت) طبيب نفساني.. لقد دعوته لأحدثه عن حالات الاكتئاب. الاكتئاب.. التي.... أنت تفهم. قال لي إن رؤية بيتي ستساعده على....»

- «فهمت..»

ثم قال وهو يشير إلى غرفة المكتب:

- «لو سمحتما لي.. فأنا أيضًا لدي أسئلة مهمّة.. نحن لن نترك فرصة كهذه دون أن نغتنمها.. أنت تعرف ما إن يدرك الناس إنك طبيب حتى يبحث كل واحد منهم في جسده عن علة ما.. هذا نوع من (الاستخسار) لو سمحت لي بالتعبير.. هلا أعددت لنا الغداء يا (علياء).. أنا لن أترك ضيفي يرحلان على سغب.. أين الخدم يا (علياء)؟»

ونظر لي وغمز بعينه وقال ضاحكًا:

- «كما يقول الشاعر العربي القديم:

سألونا عن قراه.. فاختصرنا في الجواب

كان فيه كل شيء.. باردًا إلا الشراب!»

طبعًا (القرى) بكسر القاف هو ما يقدم للضيف من طعام أو شراب.. إن الرجل مثقف كذلك.. لكني لن أندهش لو كان قد سمع هذين البيتين من فم الشاعر (الزوزني) نفسه.

قالت (علياء) البائسة وهي تحاول تفادي عينيه:

- «أعطيت.. أعطيتهم إجازة..»

- «آه.. أخشى أن إعداد الطعام سيكون مسئوليتك.. والآن أرجو أن تسبقاني إلى المكتب..»

كنت أعرف أنّ هذا سخف. لو كان هو من الشياطين العشرين فهو يعرف بالتأكيد دوري في القصة.. إنّه يقودنا لفخ ما.. لكن كيف تتخلص منه؟

هكذا عدت إلى غرفة المكتب مع (كولبي) وجلسنا على مقعدين هناك بانتظاره.. المكتبة! لم نعدها إلى مكانها! لكن لا وقت لهذا الآن..

فجأة رأيت (كولبي) ينظر إلى شيء في يده.. ثم نظر الى وعيناه تتوهجان:

- «القلادة! قلادة (موسفاديم) تتوهج! أحد الشياطين يتحرك للقتل!»

أحد الشياطين؟ لديَّ شعور غريب بأنني أعرف من هو..

هكذا نهض مسرعًا وأنا معه..

أين نذهب؟

فجأة رأيت ذلك النفق فصحت في (كولبي) أن يتبعني.. لا يوجد مخرج آخر في الحجرة كلها غير الباب وهذه الفتحة.. لو كان حمارًا - وأنا أثق بهذا - فقد انتهى أمرنا!

هكذا عبرنا مدخل النفق ووقفنا متصلبين نرمق غرفة المكتب الخالية.. لحظات قبل أن ينفتح الباب ويدخل الدكتور (مختار).. لقد انتهى عصر المجاملات الرقيقة والأقنعة.. وبدأ عصر الرعب..

لقد صار طوله ثلاثة أو أربعة أمتار.. وانتفش الشعر الثائر على جانبي رأسه كالمذؤوبين.. عيناه بلون الدم والدم يسيل من شدقيه.. ليست له يدان وذراعان بالمعنى المفهوم لكنّها كتل بروتوبلازمية أميبية تسيل وتزحف في كل اتجاه وبسرعة لا تصدق.. الدخان كبريتي الرائحة يتصاعد من جسده..

رباه! أنا الذي زرت جانب النجوم وحسبت أني رأيت كل شيء!

من بين شفتيه يدوي صخب هو أقرب إلى حروف:

إ ج ج ج ت ت ت وو وو ش ش ش ش ش ش!!

لكن هذا ليس كل شيء.. كان يصرخ وهو يجر (علياء) من شعرها كأنها دمية:

- «تكلمت يا امرأة!!»

ورأيت السيدة (علياء) تجر على الأرض جرًّا وهي تصرخ وتتوسل:

- «لم أنذر أحدًا! لقد جاءا إلى الكمين كما اتفقنا..! لا أجسر على عصيان أوامرك! صدقني!»

فهمت الآن سر عودته المفاجئة.. كانت طعمًا لنا لكنّها كانت مرغمة على ذلك كما هو واضح.. لا ألومها كثيرًا بعد ما رأيت حقيقة هذا الرجل..

تخلص منها بطريقة بسيطة هي أنه قذفها قذفًا لتضرب الجدار بظهرها ثم تهوي على الأرض وهي تئن. أعتقد أنها ماتت أو تحطم ظهرها.. فلا أحد يتحمل ضربة كهذه..

لكننا كنا في أسوأ حال بدورنا فلم نجد الوقت الكافي للنواح والتمرغ على الأرض باكين..

إنّه ينظر لنا ثم يضحك.. أقذر وأسود وأبشع ضحكة رأيتها في حياتي.. من أين جاء هذا المسخ؟ لم أرَ هذا القدر من الشر من قبل برغم خبراتي غير المتواضعة..

يلعق عينيه بلسانه.. لسان أزرق يتفرع إلى ما يشبه أقدام العنكبوت.. ثم يقول:

- «الآن حان وقت المزاح أيها الصبيان!!»

ثم ينقض علينا والدم يتناثر من حوله.. دخان الكبريت.. القطرات اللزجة.. كل شيء..

إنه قادم..

قادم..

قادم..

أغمضت عيني وارتجف (كولبي) كالورقة.. وراح يهمس:

- «الحمام..! الحمام!!»

على أنني أدركت من منظر ساقيه أنه بلل نفسه فعلًا.. لم يعد بحاجة إلى الحمام إلا ليستحم.

«..أعرف أنكما من دوني ستكونان دجاجتين عجوزين حمقاوين..» قالها (عادل) وكان محقًا لكني أتمنى أن أرى ما كان سيفعله لو كان معنا..

في اللحظة التالية رأيت ذلك المسخ يتراجع وقد صارت غضبته لا تصدق..

همس (كولبي) بصوت كالفحيح:

- «لقد نجحت في غلق الفتحة..! نجحت!»

فتحت عيني ونظرت.. لولا تلك القلادة لتأخرنا أكثر من اللازم ولأنفرد بنا المسخ في الغرفة.. ولولا هذا الباب غير المرئي الذي شيّده (كولبي) لما فصل بيننا والمسخ شيء..

ووقفنا نراقبه يحوم حول الفتحة وهو يزأر.. يحطم المكتب.. يسقط الكتب من فوق الأرفف..

صحت من حيث وقفت.

- «يا دكتور (مختار)!»

بدا لي هذا اللقب مُضحكًا الآن.. لكني واصلت الكلام:

- «لو كنت تفعل هذا كله باعتبار أنني أعرف التسعة عشر شيطانًا فأنت مخطئ.. أنا لا أعرف سواك.. الذين ماتوا جميعًا لم يعرفوا سواك..»

لم يتكلم وواصل الدوران في الغرفة..

قلت لـ (كولبي) وأنا أمسك بيدي يده الباردة الراجفة:

- «أعتقد أنه لن يتركنا نخرج من هذا الجانب.. يجب أن.. يجب أن نجتاز النفق!»

- ٧ -

أنت تجتاز هذه الثغرة بين عالمين..

تمشي في عالم لم يجتزه سواك من قبل لم يجتزه إلا تلك المسوخ.. ربما اجتازه (كراولي).. ربما اجتازه (دي).. لا شك في أن (الحظرد) اجتازه.. لكن (الحظرد) مات.. وأية ميتة!!

تمشي مع (كولبي) محاذرًا أن تتعثر في الأرض.. إنها مزيج غريب من اليابسة والماء.. مزيج من النار والرماد.. مزيج من الحقيقة والوهم..

الهواء مزيج من السماء والأرض.. يُمكنك أن تري نفسك مقلوبًا هناك.. ومن حين لآخر يشق السماء مذنب ليس سوى وطواط ملتهب يصطدم بشيء ما فيتناثر الشرر..

إننا ندنو من قلب الشر.. قلب الكوابيس..

☆ ☆ ☆

«إن النكرونوميكون كتاب تاريخ يحكي عن الكيانات القديمة أكثر منه دليلًا للسحرة المبتدئين كما يظن البعض. وهذا هو ما يجعل الكتاب مخيفًا.. فهو لا يعتقد بأننا ملوك الكون وأن الكون في خدمتنا، بل هو يتحدث عن كون معاد فيه قوى عاتية، بينما نحن مجرد غبار معدوم الحيلة وما يبقينا أحياء هو أننا أتفه من اللازم..»

☆ ☆ ☆

هنا يصطدم الجبابرة.. جبل يقاتل جبلًا.. شلال يصارع شلالًا.. محيط يضطرم في محيط..

وتنظر إلى السماء فترى (رفعت) الطفل يركض في شوارع المنصورة.. أرى وفاة أبي.. أنا أجلس في عزاء أمي.. عجلات الطائرة تلمس الأرض البريطانية.. سير (أرشيبالد ماكيلوب) يقدم لي تلك الشقراء الرقيقة الناحلة ويقول باسمًا: «ابنتي.. (ماجي)..».. المريضة تموت وأنا غارق في العرق.. (لوسيفر) يضحك ويقول: «أنا بك أسعد ولك قلبي يطرب..» و«مندهش أنت للقاء من لا ترتقب لقاءه أيها الفاني»

يرفع وحش (لوخ نس) رأسه من البحيرة.. النداهة تنادي.. (هويدا) تتظاهر بالحنان.. رجل (بكين) يحطم عربة القطار.. (هن تشو كان) يتراجع للوراء ويهتف: «جوانغ سارايانا!».. مومياء الفرعون تنهض.. الشيء يتمدد.. صندوق (بندورا) أمامي فهل أفتحه؟ العزيف.. العزيف.. (رونيل السوداء) قد صارت زوجتي.. لماذا تلقي عظام الطيور تحت نافذتها؟

لوس دوس سولادوس إيخيبسيوس إستين إن لاس روناس! لوس دوس سولادوس إيخيبسيوس إستين إن لاس روناس! لوس دوس سولادوس إيخيبسيوس إستين إن لاس روناس!

لا تطلب الإسعاف.. لا تطلب الإسعاف.. لا تطلب الإسعاف وإلا ستندم!

لا تطلب الإسعاف.. لا تطلب الإسعاف.. لا تطلب الإسعاف وإلا ستندم!

العساس يخرج من بين الرمال ليفتك بي.. ثم ترتسم الضحكة على وجه (فلاد الوالاشي).. فامفيري.. فامفيري.. مكالمة أخرى بعد منتصف الليل مع (شريف السعدني)..

في الواجهة الأولى ثمّة يد بشريّة.. يد مبتورة عند المعصم محفوظة في سائل (الفورمالين).. هذا جميل وربما هو من المناظر المبهجة بالنسبة لطبيب مثلي.. لكن ما يثير الحيرة. وربما الرعب. هو تلك الأظفار الطويلة الشبيهة بالمخالب التي تخرج منها.. وعلى الزجاج كانت صورة رجل وقور يبتسم.. هل هذه يده؟ إذن لماذا يبتسم؟

أجثو على ركبتي وأصرخ:

- «أنا تعبت.. لا أريد المزيد.. سأموت هنا والآن..»

الأيدي ذات المخالب تمتد من تحت الأرض وسط بخار الكبريت لتمسك بي.. يا لها من حفاوة! لم يأخذني أحد بالأحضان من قبل..

سأموت هنا والآن.. ولتكونن ميتة جميلة.. إنها السبات ذاته..

فقط أشعر بـ (كولبي) يصرخ في أذني:

- «(رفعت)! لا تستسلم! سوف يفوزون بك! لا تترك نفسك..! يجب ان نخرج من هنا!!»

فجأة أرى العالم من حولي يتحرك.. ومن معالم هذا العالم أرى خمسة كيانات فارعة الطول.. تحيط بـ (كولبي).. لا أتبين حدود هذه الأشياء.. إنها أقرب إلى خدعة بصرية ما.. لا أفهم.. إنها تذوب في الخلفيّة ثم تظهر. كأنها انعكاسات على سطح ماء.. لا أتبين أي شيء منها ولا أحب..

لكني أواصل الصراخ:

- «هيا!.. خذوني! أنا قد خسرت كل شيء.. ليس لي ولد ولا زوجة.. مفعم بالأمراض والندوب النفسية.. ولن أظفر بحبيبتي أبدًا.. كل ما ظفرت به هو كوابيس لن أضيف شيئًا لو خرجت من عالمكم حيًّا لأن هذا سيكون مجرد كابوس آخر أحكيه للناس.. لا أكثر!»

(كولبي) يتكلم بلغة لا أفهمها.. إنّه يمسك بكتاب ضخم في يده ويفتح صفحاته.. ..

الأيدي ذات المخالب تعتصرني.. تريد أن تجعل الحياة تنز مني كالليمونة..

(كولبي) يتكلم وسط أصوات زئير يتعالى..

(كولبي) مذعور لكنه يتماسك..

الزئير يحدث عواصف تطير ثيابه وتبعثر شعره لكنه يتكلم..

السماء تحمر ثم تزرق ثم تخضر..

(كولبي) يساعدني على النهوض وأمامنا أرى العالم الخارجي كما تراه من طائرة.. أرى شارعنا.. أرى الإسكندرية.. أرى الفيلا.. أرى الحديقة.. أرى غرفة المكتب.. إنها خالية..

هناك كتب مبعثرة في كل مكان وجثة الزوجة على الأرض..

فجأة يشد (كولبي) يدي بحزم.. ..

إننا نعبر.. نخرج من الفتحة التي دخلناها..

فجأة أجد نفسي على أرض غرفة المكتب والأرض تعلو وتهبط بي..

أنظر إلى حيث جئت فلا أرى شيئًا.. المكتبة منزاحة حيث هي، لكن لم تعد هناك أية فتحات خلفها.. الجدار مصمت سليم..

و(كولبي) جواري يزحف على ركبتيه وهو يئن..

أنظر إلى جواري فأرى جثة الزوجة ملقاة جوار الجدار حيث تركناها..

لقد سال الدم من رأسها.. والدم الذي يسيل ينساب على الأرض.. ثم يحتشد على شكل كلمة واضحة:

لم يعد..

- ٨ -

بعد ما استعدت توازني في غرفة الفندق، أخذت حمامًا دافئًا ثم سألت (كولبي):

- «ماذا حدث بالضبط؟»

كان أسوأ حالًا مني.. لم يتوقع أن يدخل إلى ذلك العالم الرهيب.. لكنه استطاع أن يصمد على الأقل بينما تهاويت أنا..

قال وهو يجفف شعره:

- «فعلت ما فعله (دي).. تكلمت مع الكيانات القديمة بتلك الشفرة!»

- «ماذا؟ أية شفرة؟»

- «كتاب (إينوخ)....! إنّه معي في حقيبتي!»

ثم ربت على الحقيبة في فخر وقال:

- «قالوا إنهم غير قادرين على إيذائنا ما دمنا نملك كتاب (نيكرونوميكون) كاملًا.. إن (مختار) أو هذا الذي يشبه (مختار) كان أحمق.. لقد أنسته فكرة افتضاح أمره هذه القاعدة البسيطة، وحاول خرق القوانين.. وعندما قابلت هذه الكيانات تكلمت معهم.. أخبرتهم أنه لا جدوى من إيذائنا وأننا لا نريد إلا أن نترك وشأننا.. وأخبرتهم أننا لا نعرف عنهم شيئًا.. هكذا قرروا أن يصدقوني.. تمت الصفقة وسمحوا لنا بالخروج..»

- «وهذا الذي اعتبرناه (مختار)؟»

- «اختفى.. إنّه الآن في مكان آخر يبحث عن عمل ويحمل اسمًا جديدًا.. لهذا كتبت لنا الكلمات (لم يعد).. لقد رحل.. لم يعد وجوده هنا مأمونًا برغم أنه خطط للبقاء عشر سنوات أخرى..»

دق جرس الهاتف في غرفة الفندق فرفعت السماعة.. كان هذا (عادل) يصيح في غيظ:

- «أتركك تعاين البيت فتحيله خرابًا؟ الزوجة ماتت والزوج اختفى.. وجثة خامسة سطرت دماؤها كلمات!»

قلت في كبرياء:

- «لو كان أدائي يضايقك فعليك أن تجد خبيرًا غيري.. لقد فعلت ما بوسعي..»

ثم أضفت:

- «لكنّها الجثة الأخيرة.. أنا متأكد من ذلك.. لقد انتهت القصة.. أعرف أنّ هذا لن يقنع أية محكمة لكننا عرفنا على الأقل من قتل ولماذا قتل..»

تنهد في ضيق وضع السماعة.. كان طن من العمل بانتظاره الآن..

☆ ☆ ☆

سوف يرحل (كولبي) غدًا..

ما زلت مصرًّا على أنه نصاب.. وعلى أنه أحمق.. لكن وجوده في هذه القصة أفادني كثيرًا.. لا أنكر هذا.. أعتقد أنني سأتوقف عن مضغ اللادن نصف دقيقة كلما تذكرته بعد سفره..

كان يحزم حقائبه في شقتي بالقاهرة، وقد تناثرت أشياؤه على الفراش.. فجلبت له كيسًا بلاستيكيًا امتلأ بالورق وقلت له:

- «لقد استحققت هذا الكتاب.. أنا لا أريده.. لا أحد يريده.. لكني أعتقد أنه سيفيدك حتمًا»

قال ضاحكًا وهو يضع الكيس بين طيات ثيابه:

- «جميل.. جميل.. هذا هو هدف رحلتي.. الآن أنا أقوى ساحر في العالم كله.. أنا أملك النيكرونوميكون كاملًا.. لو احتفظت به لصرت الأقوى، ولو بعته لصرت الأغنى!»

- «أتمنى أن يغير شيء من حظك العاثر هذا..»

ثم جمعت أوراقي التي في خزانة الثياب.. اتجهت إلى المطبخ وبدأت أحرق مذكرات ((يوسف)..) ومذكرات (زكي).. فأنا لا أحب أن أرى شيئًا يذكرني بهذه القصة.. الدخان يتصاعد وأنا أقف إلى حوض غسيل الأطباق.. الأوراق تتجعد ثم تسود ثم تصير رمادًا..

فجأة وجدت (كولبي) وراء ظهري يُلقي نظرة، ثم سمعته يهتف:

- «ما هذا؟»

كان ينظر إلى ذلك الملف الخاص بالمدعو (مصطفى أبو زينة).. الملف الذي كتب عليه (استنتاجات بشأن العشرين شيطانًا).. مد يده وانتزعه وراح يحملق فيه.. لم يفهم المكتوب بالعربية لكنه راح يطالع أول سطر:

- «Fjjjj fytjgj 8ojklll gkjg lhh khkhou889j uxvyuioymklmm»

ثم هتف بانبهار:

- «هذه شفرة.. شفرة (إينوخ).. لماذا لم تجعلني أرى هذا الملف من قبل؟»

- «لم أعرف أنك تهتم بهذا..»

قال مفكرًا:

- «معنى هذا أن رجلين على الأقل كانا يعرفان شفرة (إينوخ).. وكانا يستعملانها كلغة خاصة طلبًا للسرية..»

ثم راح يتأمل الأوراق وهتف في انبهار:

- «هذه الأوراق لا تحوي أسماء لكنّها تحوي قواعد أساسية للبحث عن العشرين شيطانًا.. إن هذا لا يصدّق! لقد بلغ هذا الباحث ذروة الدقة والتجرد.. يمكن بسهولة لأية هيئة أن تبحث بعناية طبقًا لهذه القواعد فتجدهم.. إنِّه يشرح كيف تجدهم.. أين تجدهم.. العلامات المميزة لهم.. وهو يضيّق دائرة البحث إلى أقصى حد»

قلت له في نفاد صبر:

- «هل تريد هذا الملف أم أحرقه؟».

- «بل أريده برغم أنه خطر.. من الواضح أن كل من اقتناه هلك..»

- «لقد ظل معي فترة طويلة جدًّا..»

- «لقد حماك كتاب (نيكرونوميكون).. لكن نهايتك كانت قريبة..»

وعدنا إلى حجرة النوم ليواصل تفقد حاجياته..

كانت القلادة ملقاة على الفراش.. وحانت منى نظرة لها فوجدتها تتوهج..

«القلادة! قلادة (موسفاديم) تتوهج! أحد الشياطين يتحرك للقتل!»

(كولبي) منحن على حقائبه يتفحّص الملف.. ساعده ظاهر لعيني هناك وشم واضح عند المعصم.. ربما وحمة.. لا أتبين الرسم من هذه المسافة.. هل كانت هناك وحمة هنا من قبل؟ لا أذكر.. بل لا أعتقد..

«تارة تشعر أنها دائرة سوداء، وتارة تراها أقرب إلى شعار تجاري فلا ينقصها إلا رمز ®.. وتارة هي ثعبان يلتهم ذيله أو نجم خماسي.. ربما سداسي..»

ثم السؤال: لماذا لم يدخل (كولبي) الحمام مرة واحدة منذ عودتنا من الإسكندرية؟ هل شفيت البروستاتا فجأة؟

مفاوضات مع الكيانات القديمة.. فهل هذا الساحر التعس يملك هذه البراعة؟ ومنذ متى يجيد شفرة (إينوخ)؟

الجواب الوحيد هو أنّ هذا ليس (كولبي).. إنّه واحد منهم عاد معي من النفق.. ومهمته أن يعرف ما أعرفه بالضبط.. عليه أن يجد أي أثر يفيد في البحث عن العشرين شيطانًا.. وقد وجده الآن وانتهى دوري في القصة..

اتجهت إلى المطبخ وتناولت أكبر سكين عندي وعدت به إلى غرفة النوم.. إن ظهره لي.. ترى هل؟

ليس قتل هذه الأشياء سهلًا.. لكن ربما لو أخذته على حين غرة؟ وبم أبرر قتله أمام رجال الشرطة؟

هنا دق جرس الباب فأجفلت..

التفت لي فداريت ما أحمله تحت ثيابي وبصوت متحشرج قلت:

- «أحدهم على الباب..»

قال وهو يعود لما كان يقوم به:

- «فلتر من..»

اتجهت إلى الباب وفتحته فوجدت مساعد الشرطة (شوقي) الذي يحضر لي الأوراق.. لم أسر من قبل كما سررت برؤية وجهه البريء الصبوح..

قلت له في لهفة وهو يلتقط أنفاسه:

- «تعال.. لابد من أن تجلس قليلًا.. لن أتركك هذه المرّة..»

دخل مرتبكًا وهو لا يفهم سر هذه الحفاوة فأجلسته.. أنا متأكد من أن (كولبي) لن يهجم وأنا لست وحدي.. لكن لا. من قال هذا؟ في حالتي كاد القتل يحدث في بيت (مختار) وقد كنا ثلاثة.. ما سبب صوت الطرقات هذا؟ ماذا يدقه ذلك المسخ في غرفة نومي؟

- «أهلًا وسهلًا..»

- «أهلًا بك..»

- «مرحبًا»

- «مرحبًا بك»

- «لقد شرفت داري..»

- «الشرف لي..»..

وهو مرتبك لا يفهم سبب هذا كله.. أتراني جننت؟

هنا سمعت (كولبي) يناديني من غرفة النوم بصوت

- «أ..(رفعت)!»

ماذا يريد؟ هل يريد الانفراد بي؟

اتجهت في حذر إلى الغرفة فرأيته يشير لي كي أدخل.. نظرت للوراء في تردد ثم قدرت أنه لن يفعل شيئًا الآن.. إنه يريد أن يكذب.. أعتقد هذا..

دخلت الغرفة لأرى ما هنالك فوجدت نارًا تشتعل في ركن الغرفة.. أوراق متناثرة في كل مكان كلها تحترق.. ماذا فعلت أيها المخبول؟ ستحرق الغرفة ونحن فيها..

إنّه يقف جوار الباب وينثر قطرات من ذلك السائل الأحمر على الأرض.. نظرت للباب ففوجئت بأنه دق وتدين فضيين.. ثم أخرج كتابه إياه وراح يتلو كلمات معينة..

ما هذا؟ هل استبدت به روح التمثيل - جنون المسرح - إلى هذا الحد؟ ما معنى أن يسجن نفسه في الغرفة؟ أم أنّ هذا كان تمثيلًا هنا وهناك؟ أم؟

صحت في جنون:

- «لابد أنك فقدت صوابك! لماذا تحرق الأوراق في غرفة نومي؟!»

قال بصوت كالفحيح:

- «إن القلادة تتوهج..! رأيت هذا الآن»

قلت متظاهرًا بالبراءة:

- «وما في ذلك؟»

قال وهو يجذبني إلى الوراء:

- «لقد سمعوني.. يبدو أنهم لم يعرفوا أنّ هذا الملف الخطر موجود.. وقد قرروا إرسال من يدمرنا.. وقبل أي شيء أحرقوا الكتاب.. أحرقوا (النيكرونوميكون) حتى يكون بوسعهم تدميرنا بلا مشاكل مع قوانينهم! ثم..»

ونظرت للوراء لأرى الهول ذاته..

لقد تحول عم (شوقي) إلى شيء مخيف لا يمكن وصفه.. شيء يختلف تمامًا عن (مختار).. ليس لهذه الكيانات شكل واحد فيما يبدو..

لقد كان (كولبي) صادقًا.. كان الخطر خارج الغرفة لا داخلها..

إ ج ج ج ت ت ت وو وو ش ش ش ش ش ش!!

قلت همسًا وأنا لا أبعد عيني عن الباب:

- «ما سر هذه الوحمة على معصمك؟»

- «هذا وشم.. الساحر المحترم لابد أن يستعمل الوشم..»

- «ولماذا شفيت من دخول الحمام؟»

- «لم أشف.. لكني لن أعلن في الراديو عن كلّ مرّة أحتاج فيها إلى التبول.. هل هذا وقت هذه الأسئلة السخيفة؟»

إن ذلك الكائن يعوي ثم ينقض على الغرفة..

إ ج ج ج ت ت ت وو وو ش ش ش ش ش ش!!

فجأة يبدو كأنه اصطدم بجدار زجاجي صلب.. يتراجع ويهجم من جديد..

لكنه لا يمل ولا يكل..

زئيره يصم الآذان.. إنّه لن يكتفي باقتلاع قلوبنا بل سيقتلع أكبادنا.

إ ج ج ج ت ت ت وو وو ش ش ش ش ش ش!!

صرخ (كولبي) بكلمات بلغة لا أعرفها وأخرج من جيبه عود ثقاب..

نظرت بطرف عيني لأراه يحرق الملف الذي كان على الفراش.. ملف العشرين شيطانًا..

صرخت وألقيت بالأوراق المشتعلة على الأرض ورحت أبعدها عن الفراش..

وفجأة ساد الصمت..

نظرت إلى (كولبي) ونظر هو لي..

وفي حذر اتجهنا إلى الباب فوجدنا الشقة خالية تمامًا..

لا شيء سوى رائحة الرماد.. لا شيء سوى الفوضى..

غرفة النوم عبارة عن مسرح عمليات تناثرت فيه أوراق محترقة صار من المستحيل قراءتها..

وهمس (كولبي) وهو يلهث:

- «لا أعرف السبب لكن أعتقد أنهم قرروا أن الخطر قد زال.. لقد اقتنعوا بما قلته لهم.. لا أحد سيعرف محتوى ذلك الملف..»

قلت وأنا أسمع الزئير في أذني:

- «أرجو هذا..»

☆ ☆ ☆

حقًّا أرجو هذا..

لقد سافر (كولبي) وبرحيله بدأت أشعر بالذعر.. فهو الشخص الوحيد الذي أعرفه ويعرف ما يفعله في هذا الموضوع.. من الغريب أن أجد (كولبي) ذا نفع لأول مرة في حياتي لكنه حدث..

ترك لي القلادة.. فعلقتها جوار فراشي.. إنها مفيدة وإن قال لي:

- «ليس معني توهجها أنك هدف القتل.. ربما تحرك أحدهم في الصين أو ألمانيا ليقتل شخصًا سواك.. على الأقل سيكون عندك وقت كاف لاتخاذ قرارك الخاص..»

قلت له وأنا أتنهد:

- «أعتقد أنهم لن يرتكبوا أعمال عنف إلى أن يقرروا أن الوقت قد حان.. معنى هذا أن توهجها يشير إليَّ بشكل خاص..»

ثم أضفت باسمًا:

- «بعد كل هذا الجهد أنت تعود من دون كتابك اللعين»

قال في مرارة:

- «إلى حدٍ ما أشعر أنّ هذا الكتاب أنقذ حياتنا أكثر من مرة.. لكني لن أكف عن البحث.. سأجده وعندها..»

ما لم أقله له هو أنّ هذا الكتاب كامل تقريبًا لدى رجال الأمن.. صحيح أن أجزاءه متفرقة لكنه كامل ويمكن جمعه بشيء من الجهد..

لكن من يريد ذلك؟ حقًّا من يريد ذلك؟

هناك كذلك تلك المخطوطات التي وجدتها في مكتب (مختار).. يمكن أن أعرضها على (عادل).. ربما تحوي معلومات عن باقي الشياطين.. لكن.. لا.. لن أجازف بهذا.. أنا لا أعرف شيئًا عنهم ولن أجازف بتبديل هذه الصورة.. هذه المخطوطات سوف تُحرق اليوم بالذات..

☆ ☆ ☆

إن النكرونوميكون كتاب تاريخ يحكي عن الكيانات القديمة أكثر منه دليلًا للسحرة المبتدئين كما يظن البعض. وهذا هو ما يجعل الكتاب مخيفًا.. فهو لا يعتقد بأننا ملوك الكون وأن الكون في خدمتنا، بل هو يتحدث عن كون معاد فيه قوى عاتية، بينما نحن مجرد غبار معدوم الحيلة وما يبقينا أحياء هو أننا أتفه من اللازم..

☆ ☆ ☆

كان الرجال الذين لم يعودوا كذلك بانتظاري.. ولم تكن هناك فرصة لالتقاط الأنفاس..

ولكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

المقـدمة

تمهيـد

الجزء الأول: العلامات الدامية

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

- ٤ -

- ٥ -

- ٦ -

- ٧ -

- ٨ -

- ٩ -

الجزء الثاني: كتاب الأسماء

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

- ٤ -

- ٥ -

- ٦ -

- ٧ -

- ٨ -

- ٩ -

- ١٠ -

الجزء الثالث: عشرون شيطانًا

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

- ٤ -

- ٥ -

- ٦ -

- ٧ -

Notes

[1←] يستعمل خبراء الكمبيوتر الغربيون تعبير (خطأ B8) كناية عن غباء أجهزة المسح الضوئي..

[2←]
سورة الفجر - الآية السابعة.

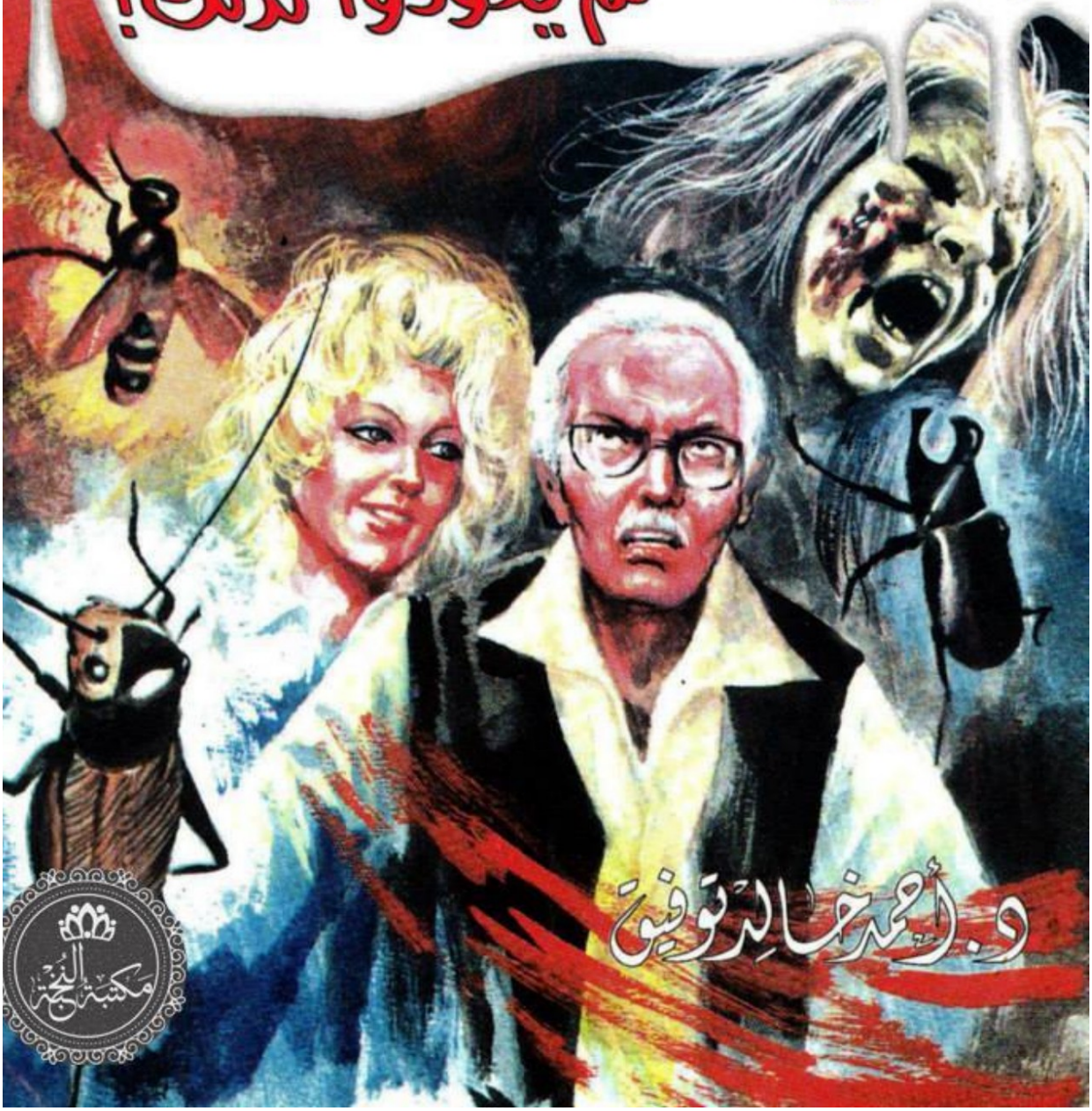
روايات مصرية للجيب



66

أسطورة الرجال الذين لم يعودوا كذلك!

ما وراء الطبيعة



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة النخبة

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



يصعب على المرء أن يقدم للمرة الأولى قصة للقراء لا يرسمها الفنان الأستاذ (إسماعيل دياب) ولا يشرف على تنسيقها الأستاذ (صبحى عبود) ـ عم (صبحى) كما ينادونه فى المؤسسة ـ خاصة أنها المرة الأولى منذ وضعت قدمى هنا، لكن هذه سنة الحياة ولسوف تستمر أردنا أم لم نرد .. ليرحم الله الفقيدين العزيزين ويرحمنا يوم يقول الرسام الجديد : يحز فى نفسى أن أرسم غلاف قصة لم يكتبها فلان أو فلان ...

المقدمة

مرحبًا بكم..

أنغام (شوبرت) تنبعث من جهاز الكاسيت العملاق.. قدح من الشيكولاتة الساخنة.. هدوء تام هذه الليلة كأن الصاخبين قد ماتوا كما تمنيت.. لا سعال.. لا صداع.. رائحة عطرة تنبعث من عود بخور رفيع تنقل لك أجواء المعابد البوذية في (التبت).. الرائحة تمتزج بأنغام (شوبرت) صانعة مزيجًا شميًّا - سمعيًّا فريدًا.. أي إنك قد تصغي لرائحة البخور أو تشم الموسيقا..

جهاز الهاتف قد قرر أن يخرس.. ربما استجاب الله لدعائي وتلف هذا الجهاز الوقح أخيرًا.. أتذكر ذلك المفكر المصري الكبير - د. (أحمد أمين) إن لم تخني الذاكرة - الذي قالوا له إن هناك اختراعًا جديدًا اسمه الهاتف، وهذا الاختراع يتيح لمن يريده أن يخاطبه إذا دق له الجرس.. فرفض تركيب هذا الاختراع رفضًا باتًّا وقال: «إذن ما الفارق بيني وبين خادمي؟ كلانا يريده الناس فيقرعون له جرسًا!!»

هذه الكلمات تلخص رأيي في هذا الاختراع برغم مرور ما يقرب من ثمانين عامًا عليها..

يبدو أن البعوض كذلك قد قرر أن يخلد لراحة مستحقة.. مفاصلي بخير.. الجيران كفوا عن قتل بعضهم وإلقاء الجثث فوق سقفي..

هدوء.. صمت.. موسيقا.. رائحة بخور.. سلام نفسي.. راحة بال.. صحة جسدية..

الخلاصة أنها أمسية لا تطاق!

سأجن لو استمر الأمر على هذا الحال!

لهذا أقرر أن أفسد هذا كله وأحكي لكم قصة جديدة من قصصي..

الرجال الذين لم يعودوا كذلك.. إنهم في كل مكان للأسف في هذه الأيام.. كل الرجال لم يعودوا كذلك؛ إلى درجة أن الأسطورة الحقيقية هي أن تحكي عن رجال ظلوا كذلك..

لكن ليس المجاز ما أعنيه.. أنا أتحدث حرفيًا عن رجال لم يعودوا كذلك..

ربما يبدو الأمر غامضًا.. لكنك تعرف أنني سأفسر كل شيء.. بعد بضع صفحات يصير الأمر واضحًا.. ربما مملًا كذلك..

سأحكي القصة لكن أرجو أن تخبروني إذا ما كنت قد حكيتها من قبل.. لقد تكلمت كثيرًا جدًّا حتى لم أعد أذكر إن كنت قلت ما قلته أم لا..

القصة تدور حول شيء كهذا..

مقدمة

عزيزي رفعت:

سررت كثيرًا لتلقي ذلك الخطاب منك.. من الطريف أن يتلقى المرء خطابات ممن هم مثلك من حين لآخر.. دعك من السبب الأهم الذي يجعلني أرتاح لمراسلتك، وهو أنك اتبعت تعليماتي حرفيًا فلم تذكر اسمي.. إنك تعرف أن الناس تقع في هذا الخطأ من حين لآخر.. ويكون رد فعلي على هذا حاسمًا.. أنا لا أريد أحدًا ولسوف يسعدني كثيرًا التخلص من وجه جديد..

من ناحية أخرى أنت استعملت المزيج الذي وصفته لك بدقة.. ومن الواضح أن ضغط دمك مرتفع فعلًا.. كثافة الدم في الحبر الذي كتبت به توحي لي بذلك..

الأمور تسير على ما يرام.. أعرف أنك قادم إلى الولايات المتحدة في الفترة القادمة.. بالذات إلى (فينكس Phoenix) أعرف أنك ستمضي هناك يومًا أو اثنين ثم تتجه إلى (تيمب Tempe).. لا بد أنك تقصد جامعة (أريزونا) هناك.. في الحقيقة لم أسمع أنّ هناك كلية طب، لكنك أدرى بهذا.. تعرف أن عليك أن ترتحل بعدها إلى (دلوير)[1] قرب (مورينسي Morenci).. هذا موعد بلا أعذار.. موعد يشبه الموت وعليك أن تلبيه أردت أم لم ترد..

يبدو لي جدولك الزمني حافلًا ومزدحمًا أكثر من اللازم، لكنه كذلك شائق.. ألا ترى هذا معي؟

على كل حال يجب أن نتفق على شيء مهم.. أنا لن أتصل بك قبل اللقاء وعليك ألا تحاول تحت أية ظروف الاتصال بي بأية وسيلة عدا الخطابات لعل كلامي واضح ولا يمكن فهمه بطريقة أخرى..

أرجو أن أسمع منك أخبارًا أفضل في الفترة القادمة، لكن خذ الحذر..

أعرف أنّ هناك أمورًا مقلقة في (الأريزونا) هذه الأيام.. ويبدو أنك محق بصدد هذا المغناطيس الذي يجذبك جذبًا نحو المشاكل..

سوف أحاول مساعدتك، لكن لا أعد بالكثير.. ما دمت قادمًا إلى (أريزونا) موطن رعاة البقر فلأقُل لك ما يقوله هؤلاء في الأفلام: على الرجل أن يقوم بما يجب على الرجل أن يقوم به!

شكرًا سلفًا..

بإخلاص:

أنت تعرف من...

☆ ☆ ☆

عزيزتي:

لن أنسى التعليمات.. لا أسماء.. طريقة كتابة الخطاب هي هي..

من الممتع أن يعرف المرء من هي مثلك.. وهو حب مستحيل على كل حال.. كل حب في حياتي كان مستحيلًا بشكل أو بآخر.. حتى الإنجليزية التي أحبها وتحبني منذ عدة عقود لا أستطيع الارتباط بها لأنهّا تصر على أن (الابتعاد يحفظ لكل منا صورته الجميلة عن الآخر).. وهو منطق لا بأس به لكني أريدها فما الحل؟

هي مصممة على أن أظل أشيخ وأهرم وأتحول إلى مومياء حية قبل أن أتحول إلى مومياء ميتة.. كل هذا حتى لا تفسد صورتي الجميلة عندها! أي منطق هذا؟!!

نعم. معلوماتك دقيقة وهي أدق من معلوماتي كما هو واضح! لم أكن أعرف أنني ذاهب إلى (مورينسي) لكن عرفت هذه الحقيقة مؤخرًا.. حتى تساءلت (هل أنا ذاهب إلى مورينسي لأنك تريدين هذا، أم إنك تريدينني لأنني ذاهب إلى مورينسي؟)..

(على الرجل أن يقوم بما يجب على الرجل أن يقوم به).. من قائل هذه العبارة؟ (جون واين) بطل أفلام رعاة البقر ورمز أمريكا؟ تبدو كأنها خرجت من لسانه.. إنها بسيطة جدًّا لكنّها بليغة.. كلنا ينسى ذلك..

حسن.. أنت تعرفين حياتي.. الكثير من الوحدة.. الكثير من الخوف.. الكثير من الذكريات الأليمة.. الكثير من الإحباطات.. الحياة بين كتب الظواهر الغريبة أو بين الكتب الطبية.. أمراض الكهولة أجمعها في حماس كأنها طوابع.. أعد وجباتي لنفسي وعلى الأرجح أصاب بالاشمئزاز وألقيها في القمامة..

لست سعيدًا على الإطلاق، لكني لست تعسًا.. لم أوت جهازًا عصبيًا يسمح لي بتحمل الصخب ولا البشر.. لا أتحمل أن يزورني أستاذ (عبد الباسط) مع زوجته البدينة وأطفاله الستة.. هو يخلع حذاءه ليتسلى بمداعبة أصابع قدميه باعتزاز كأنه اكتشف فجأة أن له قدمًا، ويوضح لي كم أنه مظلوم ولا ينال ما يستحق في العمل، وكيف أن درجته المالية تسمح له بأن يكون وكيل وزارة.. لكن هذا هو حالنا دومًا.. من يحرق نفسه في العمل لا يظفر بشيء ومن ينافق يظفر بكل شيء.. ثم يحمر وجهه ويبدأ في قذف اللعاب من فمه في وجهي.. والأطفال يتسلون بتمزيق كل كتاب أحبه، وكل مزهرية أعتز بها، إلى أن يبول أصغرهم على السجادة لتحمله أمّه إلى حوض المطبخ - دائمًا

المطبخ - لتغسل مؤخرته فوق أطباقي.. ثم تعود لتثرثر مع زوجتي عن الطريقة المثلى للاحتفاظ بمذاق الصلصة.. لا بد من قطرة زيت على السطح.. هذا واضح..

وفي النهاية يعتذر لي أستاذ (عبد الباسط) عن البقاء لساعة متأخرة.. الحقيقة أنه يجب أن يعتذر عن تواجده مبكرًا في داري.. وينصرف تاركًا إياي ألملم جراحي كأنني فرنسا تحاول لم جراحها بعد الغزو النازي..

حقًّا لا أطيق البشر.. للدقة أنا وهم قطبان.. سالب وسالب.. شمالي وشمالي..

شكرًا على اهتمامك.. لكن أتمنى ألا تبخلي عليّ بخطاب من آن لآخر.. صحيح أن ساعدي ما زال يؤلمني من تجربة الكتابة المتكررة.. هذا الإكسير لا يجعل الدم يتجمد أبدًا.. لكني بحاجة لك لأن كلماتك هي الحكمة مقطرة..

أتوقع منك ما هو أكثر من التلميحات.. أتوقع تفصيلات أكثر..

بإخلاص

رفعت إسماعيل

☆ ☆ ☆

عزيزي رفعت:

في الحقيقة ليس من حقي أن أتكلم أكثر من اللازم.. أنت تعرف جيدًا أنه ليس من حقنا تقديم معلومات سخية، لكني أرجح أنك ستموت وحيدًا.. لن تتزوج أبدًا.. أعتقد أنك قبلت هذه الحقيقة وهي ليست بالمرعبة إذا ما فكرت في الأمر برويّة.. من يملكون نفاد صبرك وعصبيتك وتاريخك المخيف لا يحق لهم أن يعذبوا شخصًا آخر..

دعك من أن عدم الزواج قد يمنحك تفردًا خاصًا كالرهبان وفرسان (النينجا).. قالوا قديمًا إن هؤلاء الفرسان يفقدون أي تميُّز لهم متى تزوجوا، وأعتقد أن هذا ينطبق عليك..

نأتي إلى الموضوع التالي.. هذه النصائح قد تكون مفيدة لك هناك وقد لا تكون لكن أرجو أن تتذكرها:

- لا تثق في أية أصوات غريبة تسمعها ليلًا.. لا تفترض أنها طبيعية..

- مقولة (يحدث للآخرين فقط) انتهى عهدها.. ربما كان من الأفضل أن تتبنى مقولة (يحدث لي دون سواي)..

- لا تثق في الصداقات القديمة أكثر من اللازم.

- لا تقع في حب جديد..

- الرائحة الكريهة موجودة هناك لسبب مهم.. لا تنس هذا..

- لا تثق في زوجة يموت زوجها ليلة الزفاف..

- عداواتك القديمة قد تطفو على السطح.. تذكر أين أنت ومن أنت..

هذا كل ما بوسعي أن أقدمه لك..

أتمنى لك حظًا سعيدًا.. لكني أؤمن بالحتمية.. أنت بطل أسطورة إغريقية سمع مصيره كاملًا من العرافين ومن الجوقة، لكنه ماض إلى نهايته بعناد وتحد.. ولو كان النصح يجدي مع أمثالك لما حدثت أول مغامرة لك..

شكرًا سلفًا..

بإخلاص:

أنت تعرف من...

☆ ☆ ☆

عزيزتي:

طبعًا هذه الكلمات تغريني فعلًا بالتأجيل، لكن العجلة قد دارت.. تذاكر حجزت ومخططات طبعت ومراسلات تمت.. ربما لو أخبرتني قبل هذا بعدة أشهر.. ثم إنك بانتظاري في النهاية..

على كل حال أعدك أن أكون حذرًا وألا أتدخل في شيء لا يخصني.. سأكون ولدًا طيبًا.. سوف أكتب لك ثانية، لكن يجب أن أصارحك بأن هذا الورق المدبوغ لا يناسبني.. أحتاج إلى ارتداء قفاز عند الكتابة لأني أكره ملمسه.. ثم رائحة الحرق عند إرساله! الخطاب الوحيد الذي يجب أن يُحرق كي يصل لصاحبه! دعك من أن ذراعي يؤلمني كثيرًا..

أمّا عن خطاباتك فتصلني بالطريقة المعتادة.. وجدت خطابك الأخير تحت الوسادة.. أعتقد أنّ هذه الطريقة ستكون هي ميثاقنا الدائم..

فقط أرجو أن تتذكري هذا العجوز الأصلع الذي كتب عليه أن يواجه الكوارث حيثما ذهب..

إن السفر قد تحدد بعد غد.. رحلة طويلة مرهقة هي.. دعك من مقتي الشديد للولايات المتحدة التي لم أعتبرها أرض الأحلام قط.. لكنّها مهمّة فعلًا.. يمكن للمرء أن يكرهها لكن من المستحيل أن يتجاهلها..

شكرًا على كل شيء..

بإخلاص:

رفعت اسماعيل

الجزء الأول:
العالم

«بعض الذباب يفضل أن يبيض على جثث في أماكن مغلقة.. لو وجدنا جثة في العراء وعليها بيض هذا الذباب فإن هذا دليل لا يدحض على أن الجثة نقلت للخارج.. والعكس صحيح.. هناك من يقتل رجلًا في الغابة ثم ينقل الجثة إلى بيت مغلق.. هذه أشياء لا تخدع عالم الحشرات العدلي..»

☆ ☆ ☆

- 1 -

والآن أقدم لكم الدكتور (جوزيف شوارتز)..

من بين هؤلاء الواقفين في مسرح الجريمة، يمكن القول أنت لن تبحث كثيرًا عن الرجل.. قامة فارعة.. وسيم كممثلي السينما.. قاطع قوي الشخصية. باختصار هو ذلك الرجل الذي يحتبس الكلام في أي مجلس لدى دخوله، وتتوقف النساء عن التنفس للحظة.. إنّه يختلف في كل شيء عن صورة العالم في أذهاننا.. هذا عالم وسيم منظم أنيق وهو ما يبدو نوعًا من الخيال العلمي لكنه حقيقي..

رجل لا يمكن أن تقتحمه العين.. هناك إذ يقف وسط رجال الشرطة ينظر إلى جثة الفتى الراقدة على الأسفلت المبتل..

إن المطر ينهمر بشكل خفيف في هذه الأمسية، وهذا يضفي لمسة درامية لا بأس بها على المشهد.. هناك رجلا شرطة من ذوي الكروش.. أكبرهما في حجم البطن هو المأمور ذاته، وهذا يشبه تقاليد القبائل الإفريقية التي تنتخب لزعامتها صاحب الكرش الأكبر..

والآن دعني أقدم لك الجثة بكل فخر..

هذا الفتى هو (جيمي شاريتون).. وهو شاب أمريكي عادي جدًّا لا يميزه شيء خاص.. نحيل أخرق.. لم تملأ رأسه قط إلا فكرة (المرح مع الشباب).. طالب في المدرسة الثانوية ولا يذكر أحد أنه عاداه من قبل، فلماذا يقرر أحد أن يقتله الآن بالذات؟

يقف المأمور (روي بيكر) وهو يدسّ أصبعين في حزام سراويله الجينز، وقد ميل القبعة على عينيه في (ألاطة).. والكرش العملاق يتدلى أمامه مبينًا بوضوح أنه رجل فظ لا يخجل أولًا.. ثانيًا هو يريد التظاهر بأنه محترف.. لهذا رسم على وجهه ابتسامة واثقة بينما تدلى السيجار الرفيع من جانب فيه في استهتار..

ينظر له د. (شوارتز) نظرة جانبية عابرة..

الفظاظة.. عدوه اللدود.. السوقية.. الابتذال..

كان يرى دومًا صور قتلى حروب المافيا في المجلات القديمة.. جثة غارقة في الدماء السوداء على الأرض (لأن الصور بالأبيض والأسود أو لعله الأصفر والبني) وكان يتساءل دومًا عن رجال الشرطة الواقفين في نوع من الفخر، وقد وضعوا أيديهم في خصورهم وهم يضحكون في اعتزاز بالنفس كأن هذه ثمرة إنتاجهم.. كان يرى في هذا مزيجًا من الفظاظة والتفاخر الطفولي: نحن لا نخاف نحن شجعان حقًّا.. هذا هو عملنا اليومي أيها السذج الحمقى..

في (فينكس) كان بطبعه يمقت رجال الشرطة، لكن عمله كان يحتم أن يختلط بهم كثيرًا جدًّا.. وكان الطرفان من النضج بحيث فهما العلاقة جيدًا.. هم يكرهونه باعتباره العالم المتحذلق المتعالي، وهو يمقتهم باعتبارهم الدببة البدينة الفظة..

بما أننا في بلدة صغيرة، لم يكن هناك ذلك الشريط الأصفر المعتاد ليمنع المارَّة من الدنو.. ولا ذلك الخط الأبيض الشبحي حول الجثة.. هذه أشياء يقوم بها رجال المدن الكبرى الأثرياء المدللون.. إنها تبدو جميلة في التليفزيون..

والتفت المأمور إلى (شوارتز) وقال له بشيء من الاشمئزاز:

- «هلمّ.. عملك يا (دوك)..»

بلهجة من يقول: سنرى هذا السيرك..

أخرج (شوارتز) محتويات حقيبته، ثم ثبت العوينات على أنفه واقترب أكثر من المشهد.. طبيعة عمله جعلته يرى الكثير من الجثث.. لكنه لم يحبّ كثيرًا هذا الجزء..

دنا أكثر وركع على ركبتيه جوار الفتى..

هنا تذكر شيئًا مُضحكًا.. حتى هذه اللحظة لم يعرف كيف مات.. لا توجد علامات ظاهرة من أي نوع..

رفع عينًا متسائلة وسأل المأمور:

- «كيف مات؟»

- «هذا هو ما نحاول معرفته.. إن لي سبعة عشر عامًا كمأمور لكني لم أر شيئًا كهذا قط.. لكنك تستطيع مساعدتنا على ما أظن.. أنت طبيب شرعي..»

بكبرياء قال (شوارتز):

- «خبير في علم الحشرات العدلي.. لا أمارس أي شيء يتعلق بالتشريح أو تحليل السموم.. أنا عالم حشرات أكثر مني طبيبًا..»

قالها وقد بدأ يدرك المأزق الذي وقع فيه.. إن الرائحة كريهة فعلًا.. وشعر كأنها تتسلل إلى داخله لتلوثه.. هذا هراء لكنه يندرج تحت بند (تابو Taboo) الموت المعروف.. التعامل مع الموت كعدوى..

أخرج المأمور من جيبه أنبوبًا صغيرًا.. ومد يده يمسح تحت أنف العالم.. يبدو أنّ هذا نوع من الدهانات نفاذة الرائحة المخصصة لعلاج الآلام المزمنة.. رائحة الأعشاب الأسيوية تغطي على كل شيء.. وقد شعر بامتنان لهذه اللمسة..

جلس جوار الجثة وراح يتفحّص الأنسجة..

لا يوجد تمزق.. لكن هناك أجزاء تعرت من الجلد كأنه نوع من التحلل.. وتحت نسيج الجلد كانت تلك اليرقات.. واضحة جدًّا.. لون الكريم المميز وأجساد ملساء بلا أقدام... من المعتاد بالنسبة للجثث السليمة أن تحتشد هذه حول فتحات الجسم.. أمّا في الجثث التي امتلأت بالجراح فتفضل أن تكون فيها بطبيعة الحال..

مد الجفت والتقط بعضها ودسه في زجاجة صغيرة يحملها..

سمع أحدهم يتأفف.. وهو شيء اعتاده على كل حال.. لن يفهم رجال الشرطة هؤلاء أبدًا.. جثث متعفنة لا بأس.. لكن أن توجد فيها ديدان فهذه كارثة بالنسبة لهم..

قال المأمور:

- «ما رأيك؟»

غمغم (شوارتز) وهو يعاود فحص الجثة:

- «ذبابة الفرس Blow fly.. رتبة ثنائية الأجنحة إنها تلك الذبابة الزرقاء اللامعة التي تحيل حياتك جحيمًا.. يرقاتها تظهر دومًا في الأنسجة المتعفنة..»

- «وهل هذه أنسجة متعفنة؟»

نظر إلى المأمور في غباء.. هذا الرجل يمزح أو هو غبي جدًّا..

قال في برود:

- «لو كان أنفك لم يدرك هذه الحقيقة فأنت في مشكلة..»

في صبر قال المأمور:

- «أكرر لك.. من المستحيل أن تكون هذه جثة متعفنة.. أمس لم تكن هناك أية جثث هنا.. دعك من أن لدينا شهودًا يمكن أن يؤكدوا أن الفتى كان حيًّا..»

- «الجثث تنقل من مكان لآخر..»

- «كل الأدلّة التي لدينا تقول إنّه قتل هنا.. في هذه البقعة بالذات.. وذبابتك هذه لن تكون أدق من معلوماتي.. لاحظ أن لي سبعة عشر عامًا كمأمور..»

- «بدأت أشك في هذا..»

في صبر ابتلع المأمور ريقه، ثم ألقى في فمه بقطعة من اللادن وقال:

- «ليكن.. اعتبر أنك تكلّم حمارًا..»

- «لن يرهقني هذا!»

ابتلع المأمور الإهانة مع اللادن وريقه، وقال:

- «ليكن.. هل في كتابك ما يفسر أن تهاجم هذه اليرقات جثة حديثة الوفاة؟»

- «مستحيل.. يسهل القول إن معلوماتكم خطأ.. لكن الحقائق العلمية لا تتبدل..»

ثم راح يفتش عن مزيد من تلك الحشرات..

في النهاية وجد ضآلته هذه المرّة نحن نتحدث عن الخنافس..

فتح زجاجة أخرى وراح يدسّ فيها بعضًا من تلك الحشرات.. وهو يتكلم بصوت عالٍ:

- «هذه يرقات مختلفة تمامًا.. ثلاثة أزواج من الأرجل.. إنها يرقات خنافس..»

نظر المأمور إلى الواقفين حوله وقال في غيظ:

- «يبدو أنك تنعم بوقتك هنا.. إن الحماس العلمي يحركك بينما نحن نغلي..»

ثم نزع قبعته، وقال وهو يجفف عرقه:

- «لو كنت قد فرغت فإنني أدعوك إلى الشراب.. نريد الكلام عن هذا الموضوع بالتفصيل..»

☆ ☆ ☆

هناك حانات كثيرة في (دلوير).. يبدو أنها التسلية الوحيدة بالنسبة لعمال المناجم هؤلاء.. إنها حياة فظة قاسية لهذا بدا دكتور (شوارتز) أنيقًا مرفهًا لدرجة تثير الغيظ..

طلب المأمور قدحين من الشراب، ثم قال:

- «معذرة.. أنت رجل شريف تحب الصراحة؛ لذا سأكلمك بصراحة.. بالنسبة لنا أنت نوع من الحواة.. ولو لم يرسلك رؤسائي في (فينكس) للتحقيق لما فكرت في سماع رأيك البتة..»

قال (شوارتز) باسمًا:

- «هذا يريح جميع الأطراف.. بالنسبة لي أنتم رجال شرطة محدودو الخبرة والتجربة..»

- «نحن متفاهمان.. القوة الغاشمة حينما تختلف مع العقل الراجح.. لكننا نحاول أن نصنع فريقًا..»

جاءت الساقية العجفاء - التي ناداها المأمور بـ (مولي) - بالشراب.. قالت للمأمور شيئًا عن عدم قانونية احتساء الشرب في وقت العمل، فأطلق سبة بذيئة.. وأردف:

- «أنا القانون هنا.. هل فهمت؟»

نظرت الفتاة بنوع من الإجلال والرهبة إلى العالم الأنيق ثم انصرفت..

التفت المأمور إلى العالم، وقال:

- «هل لي أن أفهم شيئًا عن علم الحشرات العدلي هذا؟»

قال (شوارتز) وهو ينظر في أرجاء الحانة:

- «علم الحشرات العدلي Forensic Entomology هو ذلك العلم الذي يحاول استخدام الحشرات في التحقيقات الجنائية.. يمكن القول إن تطبيقه بدأ عمليًا في (أسكتلندا) عام ١٩٣٥ على يد الطبيب البريطاني (ميرنس Mearns) الذي حدد الوقت الدقيق لمقتل امرأة وجدت جثتها المتحللة.. عامّة نحن نعمل في ثلاثة جوانب: الطب الشرعي ذاته.. والمدني.. وتلوث المواد المحفوظة.. ناحية الطب الشرعي تتعلق بتعفن الجثث وأنواع الحشرات التي يمكن أن تجدها.. الناحية المدنية تتعلق بعضات الحشرات التي يمكن أن نحسبها إصابات.. أمّا عن تلوث المواد المحفوظة فنحن شهود خطرون بالنسبة لقضايا عدم صلاحية الأغذية..

«بالنسبة للجمهور فإن أكثر أجزاء عملنا إثارة هو المتعلق بفحص الجثث.. نستخدم ما نعرفه عن تحولات النمو ووزن اليرقات.. وهذا يحتاج إلى دقة في التعامل لو وضعنا اليرقات في محلول حافظ لانكمشت وتغير لونها وأعطتنا مؤشرات خاطئة... يجب أن نضعها في ماء مغلي لمدّة عشر ثوان قبل أن نغمسها في الإيثانول.. وباستعمال حسابات معقدة تضع درجة حرارة الجو في الاعتبار نستطيع أن نحدد بدقة وقت الوفاة.. هناك أخطاء نعرفها جيدًا.. مثلًا الجثة التي تحتوي الكوكايين في أنسجتها تعجل من نمو اليرقات.. الجثة التي دهنت بالمراهم أو المشحمات تعطل نمو اليرقات.. بعض الذباب يفضل أن يبيض على جثث في أماكن مغلقة.. لو وجدنا جثة في العراء وعليها بيض هذا الذباب فإن هذا دليل لا يدحض على أن الجثة نقلت للخارج.. والعكس صحيح.. هناك من يقتل رجلًا في الغابة ثم ينقل الجثة إلى بيت مغلق.. هذه أشياء لا تخدع عالم الحشرات العدلي.. تجميد الجثث يفتضح معنا بسهولة لأننا لا نجد بيضًا ولا يرقات.. من المريب ألا تجد حشرة في جثة مضى على وفاتها أسبوع وتركت في العراء.. هذا يعني أنها كانت في مكان مغلق.. حتى تم اكتشافها.. الحشرات التي تمتص الدم تقدم لنا عينات ممتازة صالحة لتحليلها بتقنيات حمض DNA هكذا نعرف من امتصت دماءه بالضبط.. دعك من قدرتنا على تحليل السموم في اليرقات لمعرفة أيها كان في جسم الضحيّة.. إن اليرقات تمدنا بعينات السم في وقت يكون فيه من المستحيل أن نجد بعضها في أنسجة المريض..»

قال المأمور في خيبة أمل:

- «وهذا كل شيء؟»

- «ليس تمامًا.. إن كل حالة تحدٍّ في حد ذاتها.. هناك آباء يعاقبون أطفالهم بلدغات الزنابير.. تضحك! هناك قصص موثقة ودقيقة جدًّا عن آباء فعلوا أشياء كهذه على سبيل الحماس التربوي.. نحن نثبت هذا لنعاقب هؤلاء الوحوش..»

كان المأمور يبتسم لكنّها ابتسامة ذات مذاق خاص جدًّا.. هو بالذات كان يعرف أكثر ممن سواه أنّ هناك آباء ساديين مجانين.. والسبب بسيط.. أنه واحد منهم..

يواصل العالم الكلام:

- «.. هناك مرضى في دور المسنين والمصحات يهملون حتى تتعفن جروحهم.. نحن نثبت هذا.. ماذا عن حوادث السيارات الناجمة عن دخول نحلة إلى السيارة؟ نحلة معك وأنت تقود! وهوب! تنزلق السيارة لتتدحرج إلى جانب الطريق ولا يفهم أحد سبب الجنون الذي أصابك قبل وفاتك.. نحن قادرون على إثبات ذلك.. دعك من قدرتنا على تحديد المناطق التي مشت فيها السيارة.. إن الحشرات التي التصقت بالزجاج والراديا‌تور تدلنا على مسارات محددة.. بعض الحشرات تخبرنا بدقة بالمكان الذي زرع فيه الحشيش الذي تم ضبطه»

ونظر إلى المأمور فوجد هذه النظرة الغبية.. هذا الرجل لا يفهم شيئًا على الإطلاق.. إنّه الخبز يُلقى للكلاب من جديد..

قال المأمور بعد فترة صمت:

- «يبدو لي أنك محترف حقًّا يا (دوك)... هل حصلت على شهادات في هذا؟»

هزّ العالم رأسه بمعنى أن معه عشرات منها.. دعك من درجة دكتوراه في علم الحشرات وأخرى في الطب الشرعي.. اسم (شوارتز) يتكرر بإلحاح كلما جاءت سيرة الحشرات الطبية هذه..

أردف المأمور وقد جرع جرعة فصار له شارب أبيض رغوي:

- «أنت تعرف لماذا أرسلوك.. لدينا اليوم ثلاث حالات لعينة.. كلها امتلأت بالحشرات برغم أنه من المستحيل عمليًا أن تكون الجثث قد تعفنت..»

قال العالم:

- «لديَّ فكرة عن الموضوع.. ولهذا تقرر أن أقيم في البلدة عدة أيام.. يجب فهم سبب هذه الظاهرة..»

من جديد حك المأمور شعره، وقال مهمومًا:

- «هناك مشاكل كثيرة في الجوار؛ لذا أطلب منك أن تبقي عينيك مفتوحتين..»

- «هل من تفاصيل؟»

- «لا.. لن أقول شيئًا.. فقط كن حذرًا من الغرباء..»

هنا تعالى من منضدة قريبة صوت يصرخ:

- «ولكني أكرر لك أنّ هذا الشراب ساخن!»

ودوى صوت الساقية العجفاء يحتج..

- «أنا جلبته لك منذ نصف ساعة.. ليس هذا ذنبي!»

هنا أعاد المأمور قبعته لرأسه ونظر لمصدر الجلبة..

كان هذا رجلًا أشقر متين البنيان، يبدو كبطل من أبطال أفلام الغرب.. لكنه كان متعكر المزاج عصبيًا.. واضح أنه صادق ومن طراز صريح جدًّا.. كان المأمور يفهم الرجال بنظرة واحدة وقد أدرك على الفور أنه أمام رجل يمكن أن ترتاح إليه لكنه صمم على أداء دوره المزعج كاملًا.. إن الساقية تنظر له مستنجدة..

اتجه إلى المنضدة وهو يهز كرشة العملاق في ثقة هذه أمور يفهمها جيدًا ويستمتع بها. إنها بالتأكيد أفضل من الكلام عن اليرقات في الجثث المتعفنة..

- «وهل من مشكلة يا سيد؟»

قال الرجل الأشقر:

- «أنت سمعت مشكلتي..»

قال المأمور:

- «نحن نعيش حياة من التفاهم هنا، ولا أحب الصراخ في الحانات.. إن لي سبعة عشر عامًا كمأمور في هذه البلدة اللعينة..»

كان الرجل الجديد يفهم الموقف.. رجال الشرطة المحليون هؤلاء لن ينفذوا القانون أبدًا على أهال بلدتهم.. الغريب مخطئ ومجرم دائمًا..

قال المأمور وهو يستند إلى المنضدة:

- «هل معك أوراق؟ نحن لا نرحب بالغرباء في هذه البلدة خاصة هذه الأيام..»

ذات العبارة تقال منذ أيام رعاة البقر حتى اليوم ويبدو أنهم لن يتخلوا عنها أبدًا.. لكن الغريب أخرج أوراقه وألقاها أمام المأمور على المنضدة..

- «اسمك (هاري شيلدون)، خبير حاسبات، من (فلوريدا)! وماذا أتى بك هنا؟»

قال الغريب في فتور:

- «هذا شأني.. إنّه موعد مع صديق.. وهو آت خلال يومين..»

ألقى المأمور الأوراق على المنضدة، وقال:

- «ليكن.. حاول ألا تثير المتاعب ولسوف تجد أن البلدة مريحة.. حاول أن تحدث شغبًا ولسوف تجدني خصمًا مزعجًا..»

نظر له الرجل بامتعاض..

هنا تدخل د. (شوارتز) في الحديث غير مدعو.. وجه كلامه للرجل الأشقر:

- «أنت غريب مثلي.. لكن أين تقيم؟»

- «في ذلك الموتيل الحقير.. فوق محطة البنزين..»

- «مصادفة عجيبة.. أنا أقيم هناك كذلك..»

قال المأمور وهو يعود لمقعده:

- «عند (سكروج).. لا غرابة في هذا.. هذا هو المكان الوحيد الصالح للإقامة في بلدة عمال المناجم هذه، وهو مخصص على كل حال لمن يمرون بسياراتهم فيضطرون لقضاء ليلة واحدة.. وهل تعرف سبب قدوم صديقك هذا؟»

قال الأشقر:

- «إنّه ليس أمريكيًّا.. إنّه طبيب مصري يزور جامعة (أريزونا) الآن.. إنّه في (تيمب) لكنه آت.. لا أعرف سبب قدومه إلى هذا الوكر، لكننا اعتدنا على أن نلتقي كلما جاء إلى الولايات..»

- «مصري في (دلوير)؟ هذا عجيب.. إن الغرائب لن تنتهي في هذا العالم.. لم أسمع قط أنّ هذه البلدة صارت مزارًا سياحيًّا..»

- «إذن أنت تسمع الآن..»

عاد المأمور إلى المنضدة التي كان جالسًا إليها، وأفرغ ما تبقى من شراب في جوفه مرة واحدة، ثم قال للعالم:

- «أنت وجدت رفيقًا.. ربما اثنين.. أريدك أن تفتح عينيك جيدًا.. هذه أيام شريرة.. أؤكد لك ذلك»

☆ ☆ ☆

- 2 -

- «مأمورهم ثقيل الظل..»

- «يحبّ أن يتظاهر بأنه قوى الشكيمة.. هذه عقدة مزمنة عند رجال الشرطة الريفيين»

ثم ابتسم العالم بخبث وأردف:

- «أنت تعرف أننا جميعًا كنا في طفولتنا نود أن نصبح رجال شرطة لنحمل المسدس ونضع الشارة.. حسن.. لكننا نضجنا وبدأنا نرى العالم بشكل مختلف.. فقط المأمور رجل لم ينضج واحتفظ بانبهاره الطفولي القديم بالمسدس والشارة!»

منذ البداية صار واضحًا أن خبير الكمبيوتر وعالم الحشرات قد تفاهما.. إنهما غريبان مثقفان في هذه البلدة الخشنة نوعًا.. والطيور على أشكالها تقع..

وقد التقيا على مائدة الغداء في ذلك الموتيل المتواضع الذي يطل على محطة البنزين.. في الطابق السفلي حانة (كافتيريا صغيرة).. كل مكان هنا فيه حانة.. وهناك متجر صغير يبيع مشروبات غازية وحفاضات وحلوى.. تلك الأشياء التي لا بد أن يتذكر راكب السيارة أنها ليست معه أثناء رحلته الطويلة.. ثم تجد درجًا يقودك إلى ممر.. في أول الممر مكتب استقبال ينام عليه شاب من أصل مكسيكي.. لا عمل له إلا أن ينظر لك في كآبة ويناولك مفتاح غرفتك..

الفتاة التي تبيع الحلوى بالمتجر هي نفسها خادمة الغرف والساقية هنا لو كان شيء كهذا موجودًا.. إنها حسناء نوعًا اسمها (باتريشيا).. لها طريقة لا مبالية ملول ساحرة في حد ذاتها.. إنها باردة جدًّا تعطيك الانطباع بأنها قد تجز رقبتك بالمقص لو دفع لها أحدهم ربع دولار.. من الغريب أن لهذا طابعًا جذّابًا فريدًا..

صاحب الموتيل والمحطة نفسه عجوز متهالك بدين اسمه (جيفري).. لكنهم يطلقون عليه (سكروج) بسبب بخله.. إن اسم (سكروج) يتكرر في الثقافة الغربية مقترنًا بالبخل من أيام (ديكنز Dickens) حتى أيام (ديزني)..

- «المأمور يحب التظاهر بشدة البأس.. إنها وساوس الجبروت التقليدية».

- «وموضوع السبعة عشر عامًا.. يحبّ التظاهر بأنه مخضرم كذلك»

هذا ما يقوله (شوارتز) وهو يدخن لفافة تبغ أخرى، بعدما انتهى من شرح حقائق علم الحشرات العدلي لـ (هاري شلدون) الذي لم يفهم شيئًا هو الآخر.. لكنه فعلها برقي وذكاء.. هناك نوع من عدم الفهم الذكي ليس شعاره (أنا غبي ولن أفهم حرفًا) بل شعاره (لنترك هذه الأمور للمختصين)..

- «وصاحبك هذا.. المصري.. قلت لي ما عمله؟»

- «طبيب بشري.. لا أذكر تخصصه الحقيقة.. أعتقد أنه يعمل في تخصص أمراض الدم.. إنّه رجل ذو حيثية علمية، وصديق عزيز.. لكنه كذلك من الذين يؤمنون بعوالم ما وراء الطبيعة.. يبدو أنه رأى الكثير جدًّا.. أنا بنفسي واجهت معه بعض المشاكل..»

- «جميل.. لكن ماذا يفعل هنا؟»

- «لم يعط تفسيرات.. قال إنّه مضطر للقدوم هنا على كل حال صداقتنا تسمح بذلك.. إنني أثق فيه»

قال (شوارتز) وهو يشعل لفافة تبغ أخرى:

- «على كل حال.. أعتقد أن إقامتنا هنا ستكون مملة.. لا غنى لأحدنا عن الآخر.. إن هذه البلدة تبدو معزلًا جمعوا فيه كل الحمقى ومتصلبي الرأي.. ولو لم ألقك فلا بد أنني كنت سأفقد عقلي من السأم.. لكن مصادقة خبير كمبيوتر رأى العالم تختلف بالتأكيد عن مصادقة عامل مناجم لم ير العالم إلا من تحت الأرض..»

ابتسم (هاري) لهذه المجاملة..

لم يكوّن انطباعًا بعد عن البلدة، لكنه قدر أنها كئيبة على الأرجح..

☆ ☆ ☆

هناك منجم نحاس كبير في (سان مانويل) قرب (توكسون).. لكن (ديلوير)! من يهتم بـ (ديلوير)؟ لولا أنها تقع قرب (مورينسي) وفيها أكبر مناجم النحاس في ولاية أريزونا لما سمع أحد عنها شيئًا..

مجرد بلدة صغيرة هي بين النهر المالح وحدود المكسيك.. إنها تقع على أطراف الولايات المتحدة في تلك المناطق الجبلية الوعرة الجنوبيّة.. تلك المناطق التي كانت شمال المكسيك يومًا فصارت جنوب الولايات المتحدة؛ فالولايات المتحدة كانت دومًا مولعة بالتمدد.. وفي كلّ مرّة كانت حرب تدور بينها وبين المكسيك تنتهي بأن تقضم قضمة أخرى من تلك الدولة الأضعف.. هكذا نجد أن الولايات المتحدة ضمت لها الأريزونا عام 1848.. وقد شهدت الولاية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر محاولات انفصال جادة قام بها المواطنون الأصليون، لكنّها فشلت جميعًا طبعًا..

على كل حال سوف تجد أن المكسيك انتقمت انتقامًا بسيطًا هو أن كل شيء هنا له طابع مكسيكي.. أعلى جالية في الولاية هي الهسبانيون.. هذا بصرف النظر عن حقيقة أن الولاية تضم أعلى تجمع من الهنود الأصليين (النافاهو Navajo[2]).. الأسماء الإسبانية في كل صوب أكثر

الديانات انتشارًا هي الرومانية الكاثوليكية وهذا شيء غريب في الولايات المتحدة البروتستانتية في أغلبها.. ولو رأيت الصحراء في لحظة بعينها ورأيت صبار (الشولا Cholla) لحسبت أنك في المكسيك.. بعض الوجوه تشعرك بأنك هناك.. باختصار: هذه الولاية بالذات تشعرك بأنها لا تنتمي إلى أمريكا بحال..

برغم أن منجم النحاس في هذه البلدة قد نفد تقريبًا، فإنّه ما زال سخيًا بإنتاجه.. لا يمكن فهم هذا التناقض إلا إذا عرفنا أن منجم النحاس في (يوتاه Utah) اعتبر منتهيًا منذ قرن.. ثم بعد سنوات اكتشف أصحابه أن ما زال به ١٢ ألف طن من النحاس! السبب هو أن النحاس في المناجم المنسية يلتحم بالكبريت مكونًا كبريتات النحاس لكن هناك أنواعًا من البكتريا تهوى الكبريت، وتنقض على كبريتات النحاس لتأخذ غذاءها وتحرر النحاس.. عملية فصل بيولوجية بارعة تقوم بها البكتريا لتعيد الحياة إلى المناجم التي حسبها البشر قد انتهت تمامًا كان البشر يتركون في المنجم نحو ٢٠٪ من خاماته لأنّه لا يمكن استخراجها، فجاءت البكتريا لتعيد لهم هذه النسبة.. في المكسيك جربوا البكتريا مع كومة نفايات مناجم لا قيمة لها، فظفروا خلال شهر واحد بـ ٦٥٠ طنا من النحاس! فقط يضخ العمال في المنجم الماء الغني بالجراثيم ثم يقومون بشفطه بعد أربعة أيام ليجدوا النحاس وقد انفصل..

على كل حال سأريحك اليوم ولن أتمادى أكثر.. لن أخصص أربع صفحات لإعطائك خلفيّة جغرافية تاريخية عن المنطقة.. ربما في سياق القصة نعرف ما هو أكثر عن (أريزونا).. هذه الولاية المحظوظة.. محظوظة! طبعًا.. إنها الولاية المختارة لتحدث فيها وقائع قصتنا الليلة..

.....

الآن تعال معي إلى الشارع المظلم لنسترق السمع إلى ما يقوله هؤلاء المراهقون..

الشاب الذي يملأ النمش وجهه هو (بيلي)... يبدو لي وسيمًا له ملامح مريحة، لكن ما أعرفه عن المجتمع الأمريكي هو أنّ هذا الفتى منبوذ اجتماعيًا.. نمش وعوينات وجسد هزيل.. هذا المسكين يعاني أقسى معاملة ممكنة ولا شك في هذا..

الفتى الآخر قوي البنية مقتحم.. فلا بد أنه يُلقي حظًا أحسن في هذا المجتمع العدواني بطبعه.. اسم الفتى القوي (هارلسون).. هناك فتى ثالث لا مذاق له أعتقد أن اسمه (جويل).. هناك فتاة لا تروق لي، لكن من يهتم بآرائي في هذه الحياة؟! بالنسبة لهم هي نموذج صارخ للجمال الأمريكي..

إنهم يقفون هنالك قرب محطة البنزين يتهامسون..

يقول الفتى قوي البنية:

- «الأمر واضح أنا طلبت من (جيمي) ألا يلحق بهم.. لكنه فعل»

قال الفتى النحيل:

- «أنت وضعت الأمر في صورة التحدي.. ولم يخلق بعد المراهق الذي يرفض تحديًا..»

- «أنا لست مراهقًا..»

- «هذه أهم علامات المراهقة.. الإصرار الغبي على أنت لست كذلك..»

تقول الفتاة وهي تضع يديها في خصرها:

- «دعكما من هذا الهراء.. ثلاث حالات لأشخاص ركلوا الصندوق (هذا تعبير عامي محلي يعني الموت).. يقولون إن الشيطان قد حل بـ (ديلوير).. إنهم يتعفنون وهم أحياء.. نحن كنا مع (جيمي شاريتون) قبل هذا بيوم واحد... من المستحيل أن يكون قد مات وتعفنت جثته بهذه السرعة..»

- «يقولون إن هناك رجلًا مهما جاء من (فينكس) لهذا الغرض..»

- «هل هو طارد أرواح شريرة؟»

- «لا.. يجمع حشرات وأشياء من هذا الهراء..»

- «لا بد أنّ هذا مثير..»

قالتها بطريقة ملول لا توحي على الإطلاق بأية إثارة في الموضوع.. الحقيقة أن المراهقين في أمريكا يمرون بحالة ملل مزمنة فلا يقدر أي شيء على تحريك مشاعرهم.. Bore.. هذه هي الكلمة السحرية.. كل شيء كذلك المدرسة.. الفيلم.. الحفل.. الأسرة.. حتى حبيبها إن لم يكن وقحًا بما يكفي تعتبره مملًا.. هذا جيل رأى كل شيء في التليفزيون وجرب كل شيء.. في النهاية صار من المستحيل أن تثير اهتمامه..

قال الفتى النحيل (بيلي):

- «كما قلت لكم.. لقد أراد أن يقترب ليرى.. لكنه احترق.. من الحكمة ألا تخبر أحدًا على الإطلاق بهذا الموضوع.. إن الإغراء سيكون شديدًا..»

قالت الفتاة في عصبية:

- «هل تفترض أننا الوحيدون الذين يعرفون السر؟»

- «بالتأكيد..»

وابتلع ريقه ونظر حوله.. الظلام الممتد إلى ما لا نهاية فقط بقعة الضوء المخيفة التي تمثل محطة البنزين.. لو لم تكن هنالك لبدا المشهد مطمئنًا أكثر..

وأردف:

- «لا أحد يعلم السر سوانا.. هناك من يعرفه وانضم لهم.. وهناك من يعرفه وهلك.. من مصلحتنا ألا نخبر أحدًا أولًا.. ومن مصلحتنا أن نتمسك بعدم الاقتراب أكثر..»

داعبت الفتاة شعرها الطويل المتهدل على خصرها وقالت:

- «إذن!»

- «نعود لبيوتنا وننسى هذه اللعبة.. لقد تسلينا بعض الوقت لكن هناك لحظة ما..»

تبادل الفتى قوي البنية نظرة مع الفتاة وشاعت بسمة خبيثة ساخرة بعض الشيء في العيون.. لم يفت (بيلي) أن يلاحظها.. هما لا يباليان بشيء من هذا الهراء.. سيتصرفان على مسئوليتهما لأنهما أشجع ولأنهما يعتبرانه جبانًا كالدجاجة، ولأنهما يبحثان عن المرح.. ولأنهما يشعران بالملل.. الفتى القوى الوسيم والحسناء معًا في الليل بينما لا مكان للضعفاء المصابين بالنمش..

لو لم تكن قد لاحظت بعد أن الفتى (بيلي) يهيم بالفتاة فأنت في مشكلة.. اسمها (ساندرا).. وهي تمثل له عذابًا مقيمًا لا ينتهي.. أحيانًا يتمنى لو ماتت لتعود حياته لهدوئها السابق. دعك من أنها لا ترضى أن تجعله يقنط.. إنها تبقيه دائمًا على مسافة دانية منها لتثير خيال العشاق المهمين الحقيقيين مثل (هارلسون) و(ستيف جيلمور)..

كان قد رأى الكثير من أفلام الرعب في التليفزيون وعرف أن هذين - (هارلسون) و(ساندرا) - مناسبان دائمًا لتبدأ أحداث الفيلم المرعبة بهما.. سوف يمزقهما المسخ تمزيقًا أثناء لقائهما في الدغل لكن هل هناك مسخًا حقًّا في (مورينسي)؟

الآن فقط يتمنى ذلك..

☆ ☆ ☆

لم يأت (جوزيف شوارتز) من الفضاء الخارجي.. وعلى الأرجح لم يخرج من باطن الأرض..

كان عالمًا بارعًا.. لكنه زوج فاشل.. هذا نمط شائع أكثر من اللازم، ولكنّها الحقيقة.. لا يعرف السبب في فشل زيجته.. هل فشلت لأنّه كرس حياته كلها من أجل العمل أم هو كرس حياته للعمل لأن زيجته فاشلة؟!

بهذا المنطق الأخير فهو مدين لزوجته لأنهّا استطاعت أن تصنع منه رجلًا مرموقًا.. الكلاب المسعورة قد تجعل منك بطلًا في العدو.. ويبدو أنّ هذا هو الحال معه.

إنّه يفشل فيدرس بإصرار أكثر.. يفشل فينكب على العمل.. يفشل فيسهر بحثًا في المراجع.. ولأنه منكب على العمل ولأنه ينقب في المراجع تفشل زيجته أكثر..

وفي النهاية يدرك أن علاقته بزوجته قد صارت متشابكة معقدة كأنما ألف حبل قد التف حولها.. يحتاج الأمر لعدة أعوام حتى ينجح في فك كل هذه العقد..

في كلّ مرّة يحاول أن يفك عقدة أو عقدتين وهي قد تحاول هذا، لكنهما كانا يدركان أنهما قضيا بضع ساعات في عقدة واحدة.. وأن عشرات العقد تكونت في هذه الأثناء.. لأن الاعتذار قد يسبب المزيد من سوء الفهم!!

وهكذا أدرك وأدركت أنّ هناك طريقة واحدة لفك العقد بشكل جذري: القطع.

الآن تم الطلاق.. وصار هذا الرجل الوسيم حرًا لكنه لا يرغب البتة في أن يبدأ علاقة جديدة أو يتزوج ثانية لقد أضناه فهم هذا الكائن المعقد: الأنثى.. واعترف لنفسه بالعجز.. إن الذباب آكل اللحم والخنافس كائنات بشعة لكنّها مفهومة واضحة..

تأمل وجهه في المرآة المعلقة في الحمام..

إنه وسيم فعلًا.. هو يدرك هذا وسيم وناجح.. لكنه فشل في الشيء الذي استطاع أبوه أن ينجح فيه..

تنهد وجلس إلى المنضدة الصغيرة وأعد المجهر وزجاجات العينات.. لقد غمس اليرقات في ماء مغلي، ثم وضعها في الإيثانول.. هذا مهم كي لا تنكمش أو يتغير لونها كما قلنا.. هكذا أخرج العينات.. بحث عن مصدر للكهرباء فأولج القابس فيه، ثم مد يده يلتقط اليرقة الأولى.. يرقة ذبابة الفرس..

وضعها تحت المجهر وراح يتأملها ثم راح يدون قياساتها في مفكرة صغيرة يحملها.. جواره على المنضدة ترمومتر ومقياس للرطوبة.. وبالاستعانة بجداول خاصة يمكنه قياس عمر هذه اليرقة.

والآن تكلمي يا حلوتي.. قولي كل شيء عن أسرارك..

كان يكلم اليرقة.. ويبدو أنها استجابت له بعد قليل..

☆ ☆ ☆

(جوتيريز) تشاجر مع زوجته..

هذا يحدث كثيرًا على كل حال.. ماذا تنتظر من رجل فقير عاجز يمرّ بكل هذه المشاكل؟ عندما تتشاجر في العمل تطرد.. عندما تتشاجر في الشارع تضرب عندما تتشاجر مع المأمور يسجنك.. هكذا لا يعود للمرء من موضع يتشاجر فيه إلا بيته.. مع زوجته الحبيبة..

إنّه يعيش في وكر قذر.. أقذر مكان يمكن أن تتصوره.. وهذا في حد ذاته كفيل بأن يجعل الحياة تشبه الجحيم.. لا.. إنها الجحيم بعينه..

ليس في الأمر جديد إذن.. إنها حياة الفقراء في كل مكان وزمان، لكن في الدول الغربية تُضاف لعنة الكحول إلى هذا كله.. وهكذا تضيف إلى النار المشتعلة أساسًا جرعة لا بأس بها من ذلك السائل اللعين سريع الالتهاب.. هكذا يفقد الرجال التحكم في أنفسهم.. هكذا يضربون زوجاتهم وأطفالهم.. هكذا يصرخون ويركلون ويسبون ويلعنون، ثم يغلبهم الإنهاك فيرتمون على الفراش حتى اليوم التالي..

هل سمعت الشتائم؟ من حسن حظك أنها بالإسبانية (جوتيريز) كما يوحي الاسم مكسيكي الأصل.. إن أسرته هنا منذ زمن سحيق.. يعمل في المنجم.. ولا يكسب ما يكفي لإطعام كل هذه الأفواه.. لهذا ينفق كل ما يكسبه على الشراب لأن المعركة خاسرة على كل حال..

لقد تشاجر مع (ماريا) وأوسعها ضربًا.. لها أسنان قوية يمكن أن تتلقى عدة ضربات فلا تتهشم.. لها شعر أسود جميل طويل يمكنه أن يجرها منه على سبيل التحية لرجال الكهف..

كانت جميلة يومًا ما لكن الفقر والعذاب جعلاها أقرب إلى وحش آدمي يتلصص من بين الأحراش عليك.. هذا وجه مناسب جدًّا لتوجيه اللكمات.. ربما يتمسك الطفل بسراويلك في رعب عندها يُمكنك أن توجه له ركلة..

كل هذا الصراخ والسباب ثم تكتشف أن الدار خانقة لا تطاق..

تخرج إلى العراء.. الظلام.. النجوم.. من بعيد تتشح الجبال بالسواد.. وهذا الجو الذي يطلقون عليه (الصيف الهندي).. الجو الذي يعرفه الأمريكان جيدًا.. وهو كذلك في عرفهم رمز لكل شيء يصير هادئًا قرب نهايته..

ترتمي على الأرض ووجهك نحو السماء.. الزجاجة الفارغة تنزلق من بين أناملك.. تنظر للسماء وتضحك.. تغني بصوت عالٍ كي لا تسمع صوت المرأة والطفل الباكيين داخل الكوخ..

أنت فقير يا (جوتيريز) لكنك يوم تموت لن تذهب للجنة فأنت رجل فظ سكير.. لو دخلت أنت الجنّة فهي متاحة لأي شخص آخر.. كلا يا صاحبي.. إن الجحيم ينتظرك.. لا شك في هذا..

تغيب عن الوعي.. ثم تفتح عينيك لترى ذات الليل البهيم والنجوم وتلك الأضواء من بعيد..

(بانج! بانج!)

غريب صوت الطبول هذا..

تسمعه في كل ليلة منذ شهر لكنت لا تعرف كنهه.. من الغريب أنه يأتي من موضع ما في وعيك.. كان هنالك دومًا كخلفية لليالي السابقة.. لكنت الآن تتساءل عن مصدره..

تحلم من جديد...

العرق.. النفق المصعد يهبط بك ومعك رفاقك.. المنجم العجوز الذي لم يبق فيه الكثير.. الرطوبة والإضاءة المتراقصة من المصابيح المعلقة.. أنت تنزلق نحو الجحيم..

ثم...

هذا الشعور الغريب.. هذا الوهن..

أنت لا تحلم.. بالفعل أنت تشعر بوهن.. لكنت لا تعرف السبب..

تمد يدك تتحسس عنقك دون أن تفتح عينيك.. هذا الألم الحارق في الرقبة.. أنت راقد على ظهرك خارج الكوخ مغمض العينين، لكنك تشعر بما يحدث..

شيء ما يلصق فمه بعنقك ويمتص الدماء!

(بانج! بانج!)

هذا هراء.. لا يوجد شيء كهذا..

لكنك تشعر به وتعرف أنه حقيقي.. تفتح عينيك لترى الليل البهيم والظلام والجبال من بعيد.. لكن شيئًا ما يحجب تلك الجبال..

إنّه الظل.. هناك من يجثم فوقك ويشرب الدم في نهم..

وأنت تزداد ضعفًا.. الضعف مع الدوار الذي سببه الكحول لك.. أضف لهذا شيئًا لا يمكن تفسيره.. كأن هذا الشيء قد حقنك بمادة مخدرة تجعلك عاجزًا عن الصراخ..

السائل الأحمر يتسرب إلى ذلك الشيء..

لا تستطيع الصراخ.. فقط يخطر لك خاطر مضحك هو أن دمك سوف يسمم هذا الأحمق بالتأكيد.. هذا مضحك..

تصور أن..

فيم كنت تفكر؟ لقد نسيت..

لم يعد هناك من واقع.. الحياة كلها قطعة من زجاج شفاف أسود..

والظلام يتزايد ومعه يتلاشى إدراكك لكينونتك.. جربت هذا الشعور مرارًا لكنّها المرّة الأخيرة كما هو واضح..

كما..

هو..

واضح...

☆ ☆ ☆

- 3 -

القس أيضًا يشعر بقلق..

الأب (ميلروي) الذي سئم قلة المترددين على كنيسته بدأ يشعر بشيء مقلق هذه الأيام.. كان ينتمي لجماعة المعمدانيين؛ لذا كان عليه أن يواجه حقيقة أن حظ كنيسته ضعيف في هذه الولاية.. وقد اعتاد أن يقف في شرفة بيته المطلة على الحديقة ويدندن لنفسه بصوت خفيض أغنية قديمة من أغاني البيتلز:

«هؤلاء الناس الوحيدون.. من أين يأتون؟ وأين ينتمون؟

(إليانور رجبي).. تجمع الأرز في الكنيسة حيث كان الزفاف..

تقف في النافذة..

تلبس وجهها الذي تحتفظ به في جرة جوار الباب..

الأب (ماكنزي) يكتب كلمات موعظة لن يسمعها أحد أبدًا.. فلا أحد يدنو منه..

أنظر اليه وهو يرتق جواريه في الليل حيث لا أحد هناك..

(إليانور رجبي) ماتت في الكنيسة ودفنت ومعها دفن اسمها..

الأب (ماكنزي) ينفض الغبار عن يديه وهو يفارق قبرها..

فلم يتم خلاص أحد..

هؤلاء الناس الوحيدون.. من أين يأتون؟ وأين ينتمون؟»

كان يشعر بأنه الأب (ماكنزي) ذاته.. ولطالما جلس بالفعل يرتق جواربه في الليل (حيث لا أحد هناك)..

كان يحبّ مراقبة الطيور؛ ولذا أعد لها أكثر من موضع للشرب في حديقته.. ثم تعلم أن يتوارى وراء ستائر النافذة ويراقبها بالمنظار المقرب.. لعل هذه تسليته الوحيدة.. لكنه في الفترة الأخيرة لاحظ أنها تقل بشكل مستمر.. دعك من المرّة التي وجد فيها طائرًا ممزقًا في حديقته بالذات..

إنها القطط.. ربما.

لكن هذا لم يمنعه من الدهشة؛ لأن القطط لا تقص ضحاياها إلى نصفين كأنما تفعل هذا بمقص حاد..

ثم بدأ يجد جثث القطط ذاتها..

قطط ممزقة إلى نصفين في فناء حديقته.. لا أحد يفعل هذا بكامل قواه العقليّة.. لكن هناك احتمالًا آخر.. إنّه يعرف أساليب الشيطانيين Satanics.. جثث القطط كانت دومًا من الوصفات المفضلة لدى هؤلاء.. جثث القطط المعلقة المسلوخة..

هل يعني هذا أنّ هناك من يمارس شيئًا كهذا في بلدته بالذات؟! هذا مخيف..

لم يبد مندهشًا إن هذه الفكرة تشعره بالاختناق..

لقد حمل أسئلته وشكوكه إلى المأمور.. لكن هذا الأخير يبدو أنه تلقى بعض الشكاوى وبالنسبة له بدا القس متأخرًا جدًّا وآخر من يعلم..

سأله الأب (ميلروي) في رعب:

- «هل تعتقد ما أعتقده؟»:

قال المأمور بطريقته الفظة:

- «لا أعرف يقينًا ما تعتقده أنت.. لكني أعرف شيئًا واحدًا.. ثمّة شيء قذر يجري في هذه البلدة.. هناك جثث.. جثث خالية من الدم أو بدأت في التدويد.. هناك كلام عن شباب يمارسون أشياء غريبة.. إن لي سبعة عشر عامًا كمأمور لكني لم أر شيئًا كهذا قط..»

ثم وضع يده على كتف القس، وقال في مرح:

- «لو كنت تؤمن بالمواجهة النهائية مع الشيطان أيها الأب فلتهنأ بالًا.. يبدو أنك ستعيش لتراها!!»

لكن الأب لم يشعر بأدنى رغبة في الضحك لدى سماع هذه الكلمات.. ثمّة شعور ما يراوده بالنهاية.. النهاية التي يشعر بها الجالسون في السينما فيجمعون حاجياتهم ويرتفع دوي مقاعدهم.. النهاية التي تجعل التلاميذ يتململون في نهاية الحصة قبل أن يسمعوا الجرس..

القصة تدنو من نهايتها.. لكن أية قصة؟

لا يستطيع أن يخمن..

☆ ☆ ☆

بالنسبة للأستاذ (رتشاردسون) كان هذا الجو الذي يطلقون عليه (الصيف الهندي) هو أجمل ما مر به في حياته..

(الصيف الهندي).. عندما تدنو الأمور من نهايتها تصير ألطف وأخف.. وهذا هو ما يعنونه بهذا المصطلح..

إنّه معلم البلدة.. وهو يؤمن بأن التدريس أهم مهنة في العالم.. هذا صحيح، لو كان يتعامل مع أرض أكثر خصوبة ولو قليلًا... لكنه يتعامل مع أرض جدبة قاحلة هي تلك المجموعة من الصبية أبناء عمال المناجم.. لا يمكن أن تنبت بذرة في هذا الوسط القاحل.. مستقبلهم غير محدد وعلى الأرجح لن يكون أحدهم شيئًا إلا ما كانه أبوه.. يصير عامل مناجم هو الآخر..

فتية شديدو الفظاظة وقحون لا يهتمون بشيء.. ولم تكن علاقته بهم طيبة.. كان صغير الحجم واهن الصوت وبالتأكيد لم يكن أفضل من يستطيع السيطرة على هذه الوحوش.. لذا لجأ إلى الحيلة البسيطة المعروفة: جعل منهم أصدقاءه.. كان يمازحهم ويتبسط معهم.. واتخذ من أشرسهم وأقواهم صديقًا حميمًا له..

هكذا على الأقل أمن شرهم، لكنه كان عاجزًا عن تعليمهم أي شيء..

منذ أسبوع أبدى امتعاضه لأن رائحة كريهة تدخل الفصل من النافذة، فقال له أحدهم ضاحكًا:

- «هذه الرائحة خير من رائحتنا على الأقل، ربما كان من الأفضل أن تعتاد هذه!»

ولم يكن كلامه بعيدًا عن الحقيقة..

كان هناك طلبة واعدون نوعًا مثل (بيلي).. فتى ذكي من الطراز المغضوب عليه في الصف.. (هارلسون) نموذج للبلطجي قوي البنية الذي يروق للفتيات ويمكنك الظفر بحمايته؛ لذا لا تحاول أن تستفزه.. (جيمي شاريتون) كان خنزيرًا وغدًا.. أحيانًا يجيد الموت انتقاء ضحاياه.. أحيانًا يعمل الموت مثل العصفور الذي يلتقط حبوب القمح من بين الأعشاب.. وأحيانًا يلتقط الديدان والآفات الضارة.. على الأقل بالنسبة للفتى المذكور عاملة الموت كآفة ضارة وتخلص منه..

في الصباح كان مقعد الفتى خاويًا، ودخل أحدهم من الباب ليصيح:

- «لقد وجدوا جثة (جيمي شاريتون) ليلة أمس.. لقد مات! الشرطة كانت هناك!»

كان أغلب الطلبة يعرف ما حدث.. بكت فتاتان.. لكن الأستاذ لم يكن قد سمع شيئًا عن هذا.. إن البلدة صغيرة لكنه كان أميل إلى العزلة.. ولم يكن يسهر حيث توجد الأخبار..

- «مات! كيف؟»

- «لم يعرفوا بعد.. لا توجد جروح في جسده..»

شعر برجفة تغمر جسده.. أمس فقط كان الفتى يجلس هنا ويمزح مزاحًا وقحًا.. كان ملء السمع والبصر.. كان موجودًا جدًّا لو شئت الدقة.. في كلّ مرّة يتكرر فيها هذا الموقف نشعر بالرهبة كأنها المرّة الأولى..

وكان قد كون نظرية بسيطة عن سبب وفاة الفتى.. هناك مخدرات في هذه البلدة.. وكل مراهق أمريكي قد جربها في وقت ما.. الجرعات الزائدة تفسر كل شيء..

حياة لا تطاق حرب مستمرة في عالم من البلطجية والمدمنين، وكل هذا بلا ثمن ما..

لكن عندما يعود لداره كانت حياته تختلف كلية ويؤمن بأنه محظوظ؛ لأن (كلاريسا) كانت هناك.. امرأته الرقيقة الحسناء التي تراه أهم رجل في العالم..

(كلاريسا) ذات الشعر الأسود والعينين الواسعتين والضحكة المشرقة والرائحة العطرة.. إنها تعمل في المتجر الصغير الموجود في الشارع الرئيس، لكنّها تعود للبيت قبله دائمًا..

(كلاريسا) الحنون.. مشكلتها أنها تريد أن تكون أمًّا.. هذا النوع من النساء هو كتلة من الأمومة المجمدة التي تنتظر الفرصة لتسبغ حنانها على طفل وهو يرغب في إرجاء الإنجاب بعض الوقت، فهو في الخامسة والثلاثين.. ما زال أمامه بعض الوقت ليستمتع بحياته قبل أن يفكر في تعقيد حياته بطفل يعوي ليلًا.. لكنه يعرف حاجتها الملحة.. إنها أم.. حتى لو لم تنجب ستظل أمًّا.. حتى لو فقدت رحمها ستظل أمًّا..

قالت له وهي تعد العشاء:

- «البلدة تمر بظروف غريبة.. (جيمي شاريتون) مات.. ثم عامل مناجم يدعى (جوتيريز).. أسمع هذه الأخبار في المتجر لأن الكل يثرثر..»

ثم أضافت وهي تتخذ مكانها على المنضدة:

- «هناك غريب حسن المظهر.. غريبان حسنا المظهر يبدو أن أحدهما عالم مهم من (فينكس)..»

قال في امتعاض وهو ينقل البطاطس الممهوكة لطبقه:

- «نحن لا نحتاج إلى علماء.. نحتاج إلى رجال شرطة حقيقيين.. بدلًا من هذا الخنزير البدين الذي يتظاهر بفهم كل شيء..»

- «ليس رجلًا سيئًا لهذا الحد.. يبدو لي محترفًا..»

- «نعم.. محترف في التظاهر بالاحتراف.. لكن أكبر خبرة مرّت به لا تزيد على مطاردة الصبية الذين هشموا زجاج المتجر بالحجارة..»

ثم فكر في جشع، وقال:

- «سوف يكون من الممتع لو استمر وباء القتل هذا حتى أفرغ من باقي طلاب الصف..»

- «ومن قال إنِّه قُتل؟»

نظر لها وابتسم..

- «هل تعتقدين أن كل هؤلاء ماتوا بالصدفة؟!»

وقال لنفسه: من السهل أن يزل لسان القاتل أمام المحققين.. هذا الخطأ الشهير: أنا لم أقتل (جاك) أيها المفتش.. ومن قال لك إنِّه قُتل؟ إذن أنت القاتل..

لو كانت تمتحنه فقد وقع في الفخ..

(بانج! بانج!)

من أين يأتي صوت الطبول العجيب هذا؟!

☆ ☆ ☆

- 4 -

في الليل عند الجسر القديم.

يمكنك أن تتخيل المشهد بسهولة، لكن عليك أن تضيف إليه كميات هائلة من الظلام والأضواء الخافتة.. أو هناك المنجم.. إنّه من معالم البلدة كما نعرف.. المدخل الرئيس له الذي يقود إلى المصعد.. هناك النهر الجاف الذي تحول إلى أخدود عميق.. يبدو أنه كان يصب في الماضي في نهر (جيلا) الذي يصب بدوره في نهر (كولورادو Colorado)، وهناك الجسر الذي يصل بين ضفة ذلك النهر ومدخل المنجم..

خلف المنجم يوجد عدد من القباب المظلمة التي تبدو كعماليق نيام.. إنها أكواخ هنود (النافاهو) وأكثرها مهجور..

هناك تلك المساحة الشاسعة التي تقع أمام المنجم.. وهي تذكرك بأجواء الغرب القديمة.. يسهل أن ترى عربة قديمة ورجالًا يصفون الماء عبر الغرابيل بحثًا عن الذهب يسهل أن ترى الهنود الحمر ومعركة بالمسدسات..

هذا مشهد يمكن تخيّله.. لكنت لن تراه بالتأكيد.. في هذا الليل البهيم يُمكنك فقط أن ترى أول الرجال وهو يقترب.. إن الصبار في كل مكان لهذا يسهل عليك في البداية أن تخلط بين الرجل وأحد هذه النباتات.. صبار (الساجوارو Saguaro) العملاق لا يصعب عليك أن تتخيله رجلًا يقف وذراعاه إلى جانبيه..

هناك مشعل عملاق يتوهج حيث غرس في الأرض وسط الساحة الخالية.. هو مصدر الظلال الغامضة التي أثارت هلعك..

الرجل يقترب من المشعل ويقف..

ومن بعيد يقترب الرجل الآخر.. المشكلة مع هذه الظلال أنت لا تتبين أي وجه من الوجوه.. فقط ترى القامات وتدرك أنها فارعة قوية..

من بعيد يقترب رجال آخرون لكن فيهم شيئًا يحيرني.. هل تراه؟ رأس هذا الرجل لا تبدو متناسبة مع حجم جسده.. إنها كبيرة جدًّا أو لعل رقصة الظلال هي ما يوحي لي بذلك..

ثمة فتيات يقتربن.. دائرة تتكون حول المشعل المتراقص ثم دائرة أخرى تشترك معها في المركز...

إنهم يرفعون أيديهم إلى جوانب الأجساد.. إن أصابعهم تتلامس..

لا بد أن عددهم لا يقل عن أربعين.. والمفزع في الأمر أن كلمة واحدة لم يتم تبادلها منذ ساعة.. هؤلاء قوم يعرفون جيدًا ما يفعلون وفعلوه مرارًا..

بدا بعد قليل أن أحدًا لن يأتي.. لذا ساد الصمت برهة.. فقط ظلت الأيدي متلامسة.. ثم فجأة..

انفجر الجمع في أغرب رقصة يمكن تصورها.. إنها تبدأ بطيئة ويصاحبها إيقاع خافت أقرب إلى (بانج! بانج!).. ليست طبلة بالضبط بل هي أقرب إلى صوت قرعات على علبة معدنية..

الرءوس تتمايل.. نوع من (الأيوفوريا) يغمر الجميع.. ثم يتسارع الإيقاع ببطء..

الآن تنفتح الدائرة الخارجية ببطء فتلحق بها الدائرة الداخلية.. ثم تنغلق الدائرة الداخلية ويبقى الفراغ بين الدائرتين واسعًا.. يسمح بأن تنفصل فتاة وتركض ركضًا بين الدائرتين..

لو سمحت لنفسي بتقريب المشهد لقلت إنّه يشبه لعبة (الديب السحراوي) التي كنا نلعبها في المدرسة.. لا ينقصها إلا أن تلقي الفتاة بمنديل وراء أحد الجالسين وتعود لموضعها قبل أن يلحق بها..

لكن هذا لا يحدث لحسن الحظ وإلا بدا الأمر سخيفًا.. فقط هي تتم الدورة ثم تعود لمكانها وتخرج فتاة أخرى..

☆ ☆ ☆

وهناك عند فتحة المنجم المغلقة في هذه الساعة يُمكنك أن تتخذ موضعًا بانوراميًا ممتازًا يشبه موضع (نابليون) في موقعة (أوسترليتز).. يمكن أن تراقب ما يحدث من عل وأنت نائم على بطنك تحاول ألا تتحرك أو ترفع رأسك فيراه أحدهم..

- «هل ما زالت معك بعض الحلوى؟»

- «أخفض صوتك..»

- «الطقس بارد.. أنا بحاجة إلى السكر..»

- «هاك.. ولكن حاول ألا تقضم بصوت عالٍ..»

- «هل تعرفين أحدهم؟».

من الصعب في بلدة يبلغ تعدادها أربعمائة شخص ألا تعرف الجميع.. في مصر لا ننظر بجديّة إلى تعداد سكان يقل عن ثلاثين ألفًا، لكن المساحات شاسعة بالفعل في الولايات المتحدة.. وهناك بلاد كاملة لا يتجاوز عدد سكانها أفراد دفعتك في الكلية.

لكن (ساندرا) بالفعل لم تستطع تحديد أي اسم.. إنّه الظلام.. إنها المسافة..

عطر (ساندرا) يفعم رئتيه.. أربعون شخصًا في بلدة تعدادها أربعمائة.. احتمال واحد في العشرة أن يكون أحد هؤلاء الواقفين زميلها في المدرسة.. ربما هم جميعًا.. لكنها لا تستطيع أن تحدد..

كان (هارلسون) يرتجف من البرد فعلًا..

قالت له وهي تمسك بيده:

- «يا لك من مسكين.. هلمّ أمسك يدي.. إنها دافئة»

ضايقه هذا كثيرًا.. المفترض أن يمنحها هو الدفء والاطمئنان لكن العكس ما حدث..

كانا قد فعلا ما توقعه (بيلي) بالضبط بلا زيادة ولا نقصان.. عندما تفرق الباقون تسللا إلى ذات الموضع ليريا ذات السر الذي رأياه منذ أيام في تلك الليلة.. عندما تعاهد الأصدقاء على الصمت..

إن المشهد الرهيب قادم الآن..

يعرفان هذا لأنهما رأياه في تلك الليلة.. وهو سبب المشكلة..

(جيمي) كان مندفعًا أحمق، وقد قال إنّه لم يخف لدى رؤية المشهد.. تحداه (هارلسون) علانية.. قال له إنّه لن يجسر على أن يعود في ليلة أخرى ليرى ذات الشيء..

كانت هذه هي نقطة اللاعودة.. أن تتحدى مراهقًا معناه أنت تأمره بالشيء الذي تتحداه به.. وقد أعلن (جيمي) في ثقة أنه سيعود ليري أفضل..

كانت المناقشات الحامية قد دارت بينهم حول حقيقة هذا المشهد..

- «كان (مانسون Manson) زعيم الهيبيز يصطحب أتباعه إلى واد مقفر.. حيث يسلبهم عقلهم بالمخدرات ويقنعهم بأنه المسيح..»

- «نحن لم نر شخصًا يلتفون حوله..»

- «لكننا - بالله عليك - ندرك يقينًا أن ما رأيناه كان طقوسًا دينيّة..»

- «ولماذا؟»

- «لأن الناس لا يتصرفون بهذه الكيفية في سبيل المرح.. هذا ليس حفلًا خلويًا لو فهمت ما أعنيه»

كانوا يعرفون أنّ هذا حقيقي.. التجمع الليلي والرقصة والغموض.. كل هذا يوحي بجماعة دينيّة سرية ما.. هذا هو أقرب تفسير لما حدث.. لكن من هم؟ أعبدة شيطان؟!

- «عبدة الشيطان يعلقون صليبًا مقلوبًا ويرسمون نجمة خماسية..»

- «هذا ما تراه في السينما يا أحمق.. لا يوجد دليل واحد على أنّ هذا يحدث فعلًا..»

ثم جاء السؤال الأكبر:

- «هل نبلغ الكبار؟»

وساد الصمت.. كان من الواضح أنهم لن يفعلوا ذلك إن هذا أو قد يجلب عليهم المتاعب.. ثانيًا هم لا يعرفون حقًّا ما يحدث وقد يسببون الأذى للبعض.. دعك من حقيقة أنهم قد يجدون هذا مسليًا وقد ينضمون له يومًا ما!

☆ ☆ ☆

Bore.. هذه هي الكلمة السحرية.. كل شيء كذلك.. المدرسة.. الفيلم.. الحفل.. الأسرة..

☆ ☆ ☆

لكن (جيمي) فعلها..

من المؤكد أنه فعلها.. وفي اليوم التالي كانت تلك الجثة الراقدة تحت المطر الخفيف.. لم يقل أحد كيف قتل إن كان قد قتل.. لكن الفتية عرفوا أنه على الأرجح مات لأنّه عرف أكثر من اللازم..

وبرغم هذا.. ربما من أجل هذا عادوا..

لقد اكتسب المكان أهميّة خاصة.. صار مثيرًا إلى درجة يصعب أن تقاومها.. وهو ذات السبب الذي يدفعنا دفعًا إلى إلقاء نظرة على وجه جثة.. هذه النظرة لا نريدها ربما تثير اشمئزازنا أو تطاردنا للأبد.. لكننا عاجزون عن منع نفسنا من ذلك..

(هارلسون) هو الفتى القوي الذي لا يخاف شيئًا يصحب فتاته إلى ذات الموضع في الوقت الذي يصل فيه أول القادمين.. لذات السبب يحبّ الأمريكيون سينما السيارات Drive in تلك الدور لا تعرض إلا أفلام الوحوش من الدرجة العاشرة، وهذا يتيح للفتى أن يصطحب فتاته ويظهر لها كم هو قوي بارع.. طبعًا هي غير خائفة فعلًا بل تدعي ذلك، وهو لا يواجه خطرًا حقيقيًا لكنه يتظاهر بذلك.. إلا أن سينما السيارات لا وجود لها في بلدة منسية كهذه..

هو يشعر الآن بقلق حقيقي.. ربما هو البرد ربما هو ذلك الإدراك لأن ما يحدث أكبر من دعابة.. إنّه شيء شيطاني غامض يجتاح البلدة.. لا يعرف كنهه لكنه قوي جدًّا..

قال لها:

- «فلنعد..»

قالت في رفق:

- «بالعكس.. أرى أن أروع ما في الموضوع يحدث الآن..»

لم يكن هناك شيء رائع.. ربما يحدث المشهد الرهيب بعد قليل لكنه فجأة يشعر بأنه واهن جدًّا متعب جدًّا.. لم يعترف بأنه خائف إنما أقنع نفسه أن أباه سيحطم أنفه لو تأخر أكثر من هذا.. وكان أبوه من هذا الطراز فعلًا..

- «الآن نرحل..»

- «بل هي البداية.. لن أنتظر الفيلم ساعتين ثم أفارق دار السينما عندما يبدأ..»

صمت.. وأحس بيدها تعتصر يده.. ثم دنت منه أكثر.. شعرها يلامس وجهه.. عطرها المنوم.. يا لهذا الجو! إنهم يطلقون عليه الصيف الهندي هنا.. عندما تصير الأشياء أجمل قرب نهايتها..

أغمض عينيه.. إنها الأنوثة الخالدة تظلله من شمس الواقع الحارقة.. ربما ليس من العار أن تلتمس الأمن لدى فتاة، ففي البداية كنت تلتمس الأمن من امرأة.. وكانت هي.. كل شيء لك.. تمنحك الأمن والغذاء والدفء وتبدل كافولتك المتسخة..

وهنا حدث شيء غريب..

أدرك أن (ساندرا) تثبته على الأرض بقوّة كأنها أحد المصارعين..

وأدرك في تلك اللحظة الفاصلة بين النعاس واليقظة.. بين الحياة والموت.. بين الغفلة والفهم التام المرعب..

أدرك أنها تغرس أسنانها في حنجرته..

وتقضم...

☆ ☆ ☆

- 5 -

جاء الاستدعاء الثاني لـ (شوارتز) بينما كان عائدًا مع (هاري شيلدون) للموتيل بعد جولة صباحية..

كانت محطة البنزين تبدو مريبة لأن سيارة شرطة كانت تقف هناك، وجوار السيارة كان يقف نائب مأمور من الطراز المألوف في الأفلام الأمريكية.. يبدو أنهم يصنعونهم بالدستة هناك.. متأنق يضع نظارة سوداء تلعب دور المرآة.. محدود الذكاء ومتراخ..

كان يثرثر مع الحسناء (باتريشيا) التي غادرت المتجر ووقفت معه.. وعندما رأى (شوارتز) واقفًا ناداه، وأشار بتراخ إلى اتجاه ما:

- «يريدونك..»

- «من الذين يريدونني؟»

بصق اللادن الذي كان يلوكه، وقال:

- «المأمور طبعًا.. من سواه؟!»

نظر (شوارتز) إلى (هاري) مستغيثًا فهم هذا الأخير بأن يرافقه إلى السيارة، لكن النائب قال ساخرًا:

- «هذه ليست نزهة في الخلاء لو كنت تفهم ما أعنيه.. لا يُمكنك أن تدعو أصدقاءك..»

أدرك (هاري) أن الفتى معه حق، دعك من أن بداية علاقته بالمأمور لا توحي بخير، ولن يتحمس هذا لقدومه أو يرقص طربًا لذا أعلن أنه يفضل البقاء..

كان باب السيارة مفتوحًا فألقي (شوارتز) جسده فيه وتساءل:

- «هل أحضر أدواتي معي؟»

قال الفتى وهو يركب بدوره خلف عجلة القيادة:

- «لم يحدد شيئًا.. هات كل شيء..»

لكن (شوارتز) كان يعرف أن استدعاءه على الأرجح بسبب جريمة جديدة.. جريمة من الطراز الذي تمتلئ فيه الجثث بالديدان بلا تفسير واضح.. وقدر أنه لا داعي لإحضار حقيبته.. سوف تصلح أية زجاجة نظيفة مؤقتًا..

وتنطلق السيارة عبر شوارع البلدة التي بدأت تعجّ بالعمال..

عندما رأى المشهد من بعيد أدرك أنه محق أكثر من اللازم هناك ذلك الزحام من الفضوليين الذي استطاع المأمور ببراعة أن يبقيه بعيدًا فلا يرى أي شيء هناك المأمور يقف وقد بدا عليه الفخر كالعادة باعتباره أنجز عملًا رائعًا..

هناك الجثة الراقدة على الأرض.. جثة شاب على الأرجح.. سراويل جينز وحذاء رياضي..

من هذا المكان لا يستطيع تبين أية تفاصيل دقيقة ربما باستثناء أنه لا يوجد للجثة رأس ولا صدر..

☆ ☆ ☆

وكان (هاري) يقف في الممر يرمق البلدة من النافذة المطلة على محطة البنزين من هنا يرى الطريق العام والصحراء من بعيد.. الصبار في كل مكان يضفي على المشهد طابعًا فريدًا.. والجبال في الأفق.. ربما هي تغرس جذورها في الحدود المكسيكية.. من هنا يأتي المتسللون ومن هنا يفر المجرمون.. الوحشة هي طابع المشهد خاصة مع الهواء الساخن الذي يجعل الموجودات تتموج..

بلدة كئيبة فعلًا، وقد بلغت روحه الحلقوم..

(بانج بانج)..

غريب صوت الطبول هذا..

لو شئنا الدقة لقلنا إنّه ليس صوت طبول.. الطبول تقول: (بوم بوم!)... أمّا هذه فهي (بانج بانج).. أقرب إلى صوت معدني كالذي يُمكنك أن تحدثه بالدق علي علبة معدنية..

لكن من يهتم بهذه الأمور في بلدة مصدر رزقها هو المناجم؟!

لم يكن يعرف شيئًا عن أعمال المناجم.. أو هو يعرف قشرة عن الموضوع.. لا بد أن في الموضوع خوذات وعربات تجذبها الحبال وديناميت و...

وطرقات على علب معدنية..

سمع صوتًا من خلفه فالتفت..

رأى باب حجرته مفتوحًا والساقية الحسناء (باتريشيا) التي تعمل كذلك بائعة وخادمة غرف تخرج حاملة المكنسة ودلوًا.. إنّه موعد التنظيف ويبدو أنها اختلست بعض الوقت لتصعد وتنهي

عملها.. وكان يعرف أن ما قامت به في الغرفة هو التالي: شدت ملاءة الفراش من جديد، ثم كومت الأتربة تحت طرف البساط.. هذا هو كل شيء..

لكنه لم ينكر أنها بارعة الجمال.. تبدو مهيبة فاخرة وهي تقف بقامتها الفارعة وتغلق الباب..

رأته واقفًا عند نهاية الممر فقالت في مرح:

- «هاي»

ثم عاد وجهها لبروده المعتاد..

قال لنفسه إنها من الطراز كليل الحس.. وربما تتمتع بسايكوباثية Psychopath كذلك.. يمكنها أن تقتل طفلًا دون أن تهتز.. ومن الغريب كما قلنا أنّ هذا يعطيها فتنة خاصة.. سحرًا لا يمكن فهم مصدره..

وهنا نتذكر شيئًا عن (هاري).. إنّه من النوع الذي ينجذب للجميلات بسرعة، وإنه لا يعتبر هذا خيانة لزوجته.. ما دام لم يقع في الحب فهو لا يعتبرها خيانة.

قال لها وهو يعقد ذراعيه على صدره لأنّه لا يعرف أين يضعهما:

- «كلما رأيت فتاة جميلة مثلك تقوم بهذه الأعمال...»

ولم يكمل عبارته كأنما يريد كتابة مأساة إغريقية تصف لوعته لهذا الحدث المفجع..

نظرت له مفكرة للحظة، ثم قالت:

- «هـ م م م»

وعادت تفتح باب الغرفة المجاورة الخاصّة بـ (شوارتز)..

عاد (هاري) يقول وهو يعرف أنه سيتلقى العديد من الصفعات المعنوية:

- «من هن مثلك ملكات في (فلوريدا)..»

نظرت له للحظة.. وفكرت.. ثم قالت:

- «حقًّا؟»

وضحكت تلك الضحكة التي تعمل بطريقة (الكل أو لا شيء).. فجأة هي تضيء وجهها كله وفجأة لا يعود لها أي وجود.. لا توجد منطقة وسطى.. كأنها توصل القابس لتشغل الضحكة ثم تفصله وتعود لتجهمها..

قال لها وهو يتقدم في بساطة:

- «ما رأيك لو دعوتك إلى العشاء؟ هل ثمّة ارتباط معين؟»

فكرت قليلًا ثم قالت:

- «لا.. لكن ليس بوسعي أن أفعل ذلك هنا.. العجوز لن يرحب..»

- «أتحدث عن مكان أكثر رقيًّا.. لا أقصدك بهذا الكلام.. لكن.. أنت تعرفين ما أعنيه.. لا يجب أن يكون هذا المكان ممتازًا لمجرد أنه تحت إشرافك..»

كانت تفهم ما يريد بلا جهد.. يريد أن يقول لها: «لنجد مكانًا أنظف وأرقى من هذا الوكر القذر الذي تقومين بتنظيفه..» لذا قالت بطريقتها الباردة:

- «عند (جاكسون).. هناك عشاء جيد وموسيقا لكن لا تتشاجر مع الصبية المحليين..»

وكانت هذه نقطة مهمّة.. بالتأكيد هي تتلقى مئات العروض من شباب البلدة فإما إنها تقبلها جميعًا، وإما إنها ترفض.. بالتالي لن يسر هؤلاء شيء أكثر من المشاجرة مع فتى المدينة الثري الوسيم الذي ظفر بـ (باتي).. ما دام ثريًا وسيمًا فهو على الأرجح جبان رقيع..

كان هذا يسره.. كان يحبّ المشاجرات.. وهو موفق فيها دومًا.. اللحظة التي يهشم فيها عنق واحد من ذوي الرقاب الحمر Red neck هؤلاء.. من الممتع أن تقابل رجلًا يعتقد أنه قوي ومن الأمتع أن تثبت له العكس.. المشكلة الوحيدة هي أن المأمور لا يحبه، ولسوف يكون عقابه صارمًا.. لن يسأل عن البادئ.. لا بد أنه (هاري)..

على كل حال جاءت (باتريشيا) في الوقت المناسب لتجعل الحياة أهنأ.. لن يكون الملل ضمن مشاكله هنا إلى أن يصل ذلك الأحمق (رفعت إسماعيل).. فتاة كهذه ستجعل حياته صراعًا دائمًا وتحفزًا وقلقًا.. وهو المطلوب...

لكنه ما زال لا يفهم سبب حماس (رفعت) لزيارة هذه البلدة.. لقد اعتاد أغرب الأمور من صاحبه لكن هذا يفوقها جميعًا.. هذه البلدة لم ولن تكون أبدًا مقصدا للسياح.. هناك من يحبون الجبال لكن من قال إنك يمكن أن تستمتع بها هنا؟! شوارع ضيقة كئيبة تحيط بالمنجم.. وحياة تبدأ بالمنجم وتنتهي به.. حفر.. تنقيب.. شحن.. تفريغ.. نقل.. ثم يعود الرجال مرهقين ليضربوا نساءهم وينام‍وا كالقتلى..

هناك حوادث غريبة، لكنّها بالتأكيد لم تصل لعلم (رفعت).. عرف هذا الأخير بما يكفي كي يفهم أنه لا يبحث عن المتاعب أبدًا.. إنِّه يفضل تجنبها لكنّها تلاحقه بحماس غير طبيعي، ولو سمع (رفعت) عن حوادث القتل هذه لفضل قضاء العطلة في موضع آخر..

☆ ☆ ☆

دعك من للمرة الثانية دق المقبض على الباب..

- «أنا آت..»

واتجه الأب (ميلروي) إلى الباب وهو يجفف يديه في منشفة فقد كان يغسل الأطباق..

«هؤلاء الناس الوحيدون.. من أين يأتون؟ وأين ينتمون؟»

فتح الباب فوجد أمامه (كلاريسا).. تلك الزوجة الحسناء لمدرس البلدة (رتشاردسون).. كانت سيدة لطيفة وكان يشعر براحة معها..

- «معذرة على قدومي من غير موعد..»

- «كل الأوقات مناسبة يا بنيتي..»

وأوسع لها الطريق لتدلف إلى الداخل..

منذ اللحظة الأولى فهم أنّ هناك جوًا من الارتباك غير مفهوم. ثمّة شيء ثقيل يجثم على أنفاسها..

جلست في البهو على أريكة هناك، ووقف أمامها مستمرا في تجفيف كفيه:

- «هل ترغبين في بعض عصير الليمون؟ لدى بعضه»

- «لو سمحت»

اتجه إلى الثلاجة فصب بعض الشراب الصافي البارد في كوب وعاد إليها.. راحت تشرب وهي تنظر له مستكشفة من فوق حافة الكوب العليا.. ثم قالت:

- «أرغب في أن أعترف بشيء..»

حك رأسه وابتسم:

- «لا أفعل هذا يا بنيتي.. لكني أؤمن أن على الناس أن يعترفوا بخطاياهم لبعضهم.. ربما كان الاعتراف ليريحك أكثر»

راحت تفكر قليلًا باحثة عن كلمات مناسبة.. نهض ليجذب الستار على النافذة لأنّه خمن أنها تفضل ألا يظهر وجهها وهي تتكلم..

قال لها وهو يجلس بعيدًا:

- «يُمكنك أن تتكلمي.. أنا منصت..»

قالت بصوت هادئ وهي تنظر قدر استطاعتها في كوب الليمون الذي فرغ واكتسى بالبخار:

- «أنا.. لم أرتكب خطيئة معينة..»

- «ليس بوسعك أن تزعمي ذلك ليس بوسعك حتى أن تتذكري عدد الخطايا التي ارتكبتها اليوم..»

أربكها منطقه، فقالت:

- «لم أرتكب ما يمكن أن تضعه في قائمة الخطايا القوية لكن أفكاري شريرة ولا شك في هذا.. إنني لم أعد أعرف نفسي..»

- «أنا منصت..»

- «أحيانًا أشعر أن بداخلي يتصارع ألف شيطان.. هناك جحيم موقد في أعماقي.. وأفكاري أبعد ما تكون عن الخير.. غير أنني أسيطر على نفسي سيطرة كاملة.. هذه الحرب تدور بداخلي لكني أبقي السطح هادئًا ويراني الناس ملاكًا..»

قال في رويّة:

- «القديسون يفعلون في أحلامهم ما يفعله الأشرار في صحوهم..»

- «هذا لا يقنعني.. أعتقد أن الشخص الخير يجب أن يكون نقيًّا من الداخل والخارج.. لو جئت للمحل عندي وابتعت قطعة زبد، ثم عدت لدارك فوجدت أنها محشوة بالصابون من الداخل لعدت لي وتشاجرت معي.. لن يقنعك منطقي وقتها.. لن يقنعك أنني بعتك قطعة زبد من الخارج»

- «مقاييس البشر في فهم الأشياء تختلف عن مقاييس الرب»

- «لكن الزبد هو الزبد.. يجب أن يكون أبيض من الداخل والخارج..»

- «فلننس الزبد قليلًا ونتكلم عنك..»

عادت تتكلم بصوت رتيب وهي تحاول ألا تنظر إليه:

- «في البدء كان ذلك النداء الذي أسمعه ليلًا.. ثم...»

☆ ☆ ☆

«هؤلاء الناس الوحيدون.. من أين يأتون؟ وأين ينتمون؟»

☆ ☆ ☆

الآن كان (شوارتز) قد تمالك نفسه نوعًا..

فرغ من دسّ العينات في كوب زجاجي أحضروه له، ثم سدَّه بغشاء مشمع ورباط مطاطي.. فعل هذا كله في سيارة الإسعاف حتى لا يعرف الفضوليون.. كان المشهد مروعًا لا يصدّق.. لقد رأى الكثير من الجثث لكن هذا المشهد يشعره بأنه في ساحة حرب..

قال للمأمور وهو يجفف عرقه:

- «لا تقل لي إن القتل وقع هنا..»

ابتسم المأمور وضغط على اللفافة أكثر، وقال:

- «لا.. لا يوجد ما يدل على ذلك هذه الجثة نُقلت من حيث كانت.. ما رأيك في الرائحة؟»

قال العالم:

- «بصرف النظر عن الرائحة الكريهة بحق، فإن هذه اليرقات تامة النضج.. لقد توفي هذا الفتى منذ فترة»

قال المأمور بخبث:

- «يدعى (هارلسون).. إنّه فتوة المراهقين هنا وأنا أؤكد لك إنّه كان سليمًا كجرس أمس..»

- «لا أفهم! ككل مرة لا أفهم»

أضاف المأمور وهو يحك شعره الأشيب الطويل:

- «ثم هناك الرائحة.. هل حقًّا تجدها رائحة تعفن؟»

هنا توقف (شوارتز)..

الحق أن شيئًا كهذا كان يخامره من وقت لآخر.. إن الروائح الكريهة تتشابه لكنّها ليست ذات الشيء.. كان يشعر منذ البداية أنّ هذه الرائحة كريهة لكنّها ليست بالضبط رائحة الجثث المتعفنة.. لو قال هذا لاتهم بالتحذلق والسخف.. مثل الهستيريين الذين يصرّون على أنّ هناك أنواعًا من الظلام..

أما وقد قالها المأمور الذي لا يملك أدنى قدر من الهستيريا فقد شعر بأنه تلقى الإذن ليشعر بهذا..

قال (شوارتز):

- «ماذا تحاول أن تقوله؟»

- «لا أقول أي شيء.. فقط أعلن أنني عاجز عن عمل شيء.. إن لي سبعة عشر عامًا كمأمور لكني لم أر شيئًا كهذا.. إن التمادي في الخطأ خطأ أفدح.. لقد فقدنا عدة أشخاص وحتّى اللحظة لم أتلق تقرير (فينكس).. هناك أسباب وفاة واضحة أحيانًا مثل هذا الفتى الذي تم قص ثلثه العلوي.. وعامل المناجم المكسيكي الذي امتص أحدهم الدم من عنقه»

هتف (شوارتز) في هلع:

- «عم تتكلم؟ أنت لا تخبرني بكل شيء..»

- «ليس من عملي أن أبلغ سموكم بكل ما نفعله.. أنت هنا للتحقيق في الجثث المحشوة بالحشرات.. فيما عدا هذا لا شأن لك..»

وفي عجالة حكى له تفاصيل ما حدث أو ما تبين له فيما بعد استطعت تجميع القصة وإعادة تشكيلها كما يفعل رجال الحفريات..

قال (شوارتز):

- «نحن في مأزق مخيف..»

- «أنا أرى هذا.. لهذا اتصلت بـ (فينكس) طالبًا محققين.. ربما أحتاج لبعض القوات كذلك.. إن البلدة تفلت مني ولا أستطيع حماية كل مراهق أحمق وكل ذي عنق أحمر..»

ثم بصق على الأرض جوار حذاء (شوارتز)، وقال:

- «يكفي أن تعرف الصحافة بالأمر.. ولسوف أفقد وظيفتي وكل شيء.. تبًّا.. هذه البلدة ظلت هادئة لعدة قرون.. سبعة عشر عامًا لم يحدث فيها شيء.. أفظع شيء حدث أن أحدهم سرق الكشاف المعلق على مكتب البريد.. الآن تنهمر الصواعق على رأسي..»

لم يكن (شوارتز) يصغي..

كان عقله يعمل بلا انقطاع..

يرقات في جثث لم يمض على وفاتها وقت كاف..

يرقات ناضجة..

معنى هذا أنّ هذه اليرقات وضعت في هؤلاء قبل موتهم.. وضعت فيهم وهم أحياء..

نحن نتحدث عن ظاهرة التدويد..

الجزء الثاني:
الطبيب

«كل شيء يتغير.. البلدة سوف تركل الصندوق قريبًا.. أشعر بهذا.. (لوسيفر) العجوز قد جاء يتقاضى حقوقه.. فلألعن إن لم يحدث هذا..»

☆ ☆ ☆

- 1 -

أنا مطلوب حيًّا أو ميتًا..

لهذا يجب أن أرحل يا صغيرتي..

ترى من سيتلو الصلاة على روحي؟

ومن سيبكي عليّ..

حينما أتدلى من المشنقة؟

☆ ☆ ☆

كان هذا هو الموقف عندما وصلت إلى (دلوير)..

منظري غريب بالفعل وأنا أنزل من الحافلة قرب محطة البنزين حاملًا حقيبتي.. من بعيد يتوهج الأفق في حرارة الشمس والهواء يتراقص بتلك الطريقة التي تشعرك بالظمأ.. هناك موسيقا ريفية أمريكية تنبعث من مكان ما، فتشعر أن عجوزًا ملتحيًا يجلس على سياج مزرعة يرقب الخيول ويعزف..

يبدو المشهد كأنها لقطة من أحد أفلام رعاة البقر، فلا ينقصني إلا أن أرى رجلًا ضخمًا ينتظرني في آخر الشارع ويتحسس مسدّسه قائلًا: «اسحب!».. لكن لو كان هذا فيلم رعاة بقر فأنسب دور لي هو دور حانوتي البلدة أو حصان عجوز مريض..

(هاري) بانتظاري.. ذلك الصديق العزيز الذي ذاق معي قدرًا لا بأس به من (البهدلة).. بشكل ما أشعر أنه (عزت) آخر.. (عزت) أقوى وأصح بدنًا.. لكن المبدأ واحد..

بعد الكثير من الترحاب على الطريقة الأمريكية والـ (واو) والـ (ييه)، قال لي كالعادة:

- «أنت تزداد شيخوخة وقبحًا..»

وهي التحية التي يلقاني بها كل شخص على وجه الأرض لا أعرف متى كنت وسيمًا شابًا أزرق العينين.. لكن لا بد أنّ هذا حدث ما داموا يملكون فكرة عن الأفضل الذي كنته..

ثمّة علامتان لفتت انتباهي منذ وطأت قدمي أرض هذه البلدة:

أولًا: كل الناس هنا أصحاء أقوياء يوشك الدم على الانفجار من خدودهم.. هذه علامة دائمة أراها في الغرب الأمريكي سواء في زياراتي أو في كل فيلم أراه..

ثانيًا: رائحة البلدة كريهة فعلًا.. ليست رائحة الموت أو التحلل العضوي.. لكنّها رائحة لعينة ما.. هل هذه رائحة مناجم النحاس؟؟؟

ومشينا إلى الموتيل الذي يقع فوق محطة البنزين، حيث كان قد حجز لي غرفة..

في المدخل قابلت ذلك العالم الأمريكي مهيب المنظر (شوارتز) والذي لا بد أنت عرفته الآن بما يكفي.. علم الحشرات العدلي علم مهم لكني لا أعرف عنه شيئًا وقد بدا لي غريبًا أن يوجد هذا التخصص في هذه البلدة بالذات لن أندهش إذن لو اتضح أن هنا خبيرًا في وقود الصواريخ أو نظرية الهيوليات..

راح يرمقني متفحصًا وهو يشد على يدي.. نظرة أعرفها جيدًا.. كأنه يقول: كل هذه الضوضاء من أجل هذا؟ ثم قال:

- «حدثني (هاري) عنك كثيرًا.. يقول إنك شخص جدير بالمعرفة..»

- «على سبيل الفضول العلمي طبعًا.. لن أنسى أنك مختص بالحشرات الطبية..»..

لم يضحك.. أعتقد أن الدعابة لا تنتقل بسهولة في هذا المكان..

قال لي (هاري):

- «أنت اخترت أسوأ وقت ممكن للقدوم هنا.. أو ربما الوقت سيئ لأنك جئت..»

كنت أتوقع هذا..

(هل أنا ذاهب إلى مورينسي لأنك تريدين هذا، أم إنك تريدينني لأنني ذاهب إلى مورينسي؟)..

إنها تلك الأمور المتداخلة حيث لا تعرف إن كنت سببًا أم نتيجة.. هناك قصة طريفة أتذكرها الآن عن الشاعر (أحمد شوقي).. يوم ولادته جاء شيخ معروف إلى أبيه وقال له مهمومًا: «ابنك سيكتب بيت شعر سيئًا يمتدح الخمر قائلًا:

رمضان ولّى هاتها يا ساق

مشتاقة تسعى إلى مشتاق»

كبر (أحمد شوقي) وذات يوم حكى له الكبار هذه القصة ضاحكين.. من الغريب أن بيت الشعر راق له وقرر أن يستكمل القصيدة! هنا نجد سؤالًا محيّرًا: هل تنبأ الشيخ فعلًا ببيت الشعر الذي سيقوله (شوقي) أم إنه في الحقيقة هو الذي ألهم (شوقي) بهذه القصيدة؟ الخلاصة أن القصيدة قيلت بالفعل وقائلها هو (شوقي)!

قال (هاري) وهو ينادي الساقية الحسناء التي عرفت أن اسمها (باتريشيا):

- «(باتي).. أريد بعض الليمون لصديقي هذا.. أمّا أنا ود. (شوارتز) فسوف نتناول مشروبنا المعتاد..»

ضحكت الفتاة ضحكة غريبة من الطراز الذي يظهر فجأة ثم يختفي.. مما يدلك على أنها لا تعبأ باللطف على الإطلاق لكنّها تفتعله افتعالًا... على أنني قدرت أنها تميل لـ (هاري) نوعًا..

فلمّا انصرفت قلت له همسًا:

- «يبدو أنك لم تضيع وقتك.. (هاري) الوسيم يؤدي واجبه المنزلي»

قال في ثقة:

- «أنت تعرف الملل في هذه البقاع..»

عدت أسأله بعد انصراف الفتاة:

- «الآن أريد أن أعرف.. أي نوع من المشاكل يحدث هنا؟»

هكذا حكى لي باختصار شديد ما حدث وما عرفتموه أنتم.. اسمحوا لي بدقيقة للإصغاء.. في كلّ مرّة آتي متأخرًا لأجد أن الجميع يعرف ما أجهله أنا..

ثم إن (شوارتز) تدخل بدوره ليحكي وجهة نظره وما قاله له المأمور..

هكذا بدا لي المشهد كئيبًا يعجّ بعلامات استفهام..

أولًا: هناك جرائم قتل.. بعضها لم يعرف سببه بعد وبعضها واضح كالشمس. يجب أن أكون حمارًا كي أتساءل عن سبب موت ذلك الفتى الذي اختفى رأسه وأعلى صدره. على الأقل في جريمة واحدة هناك ما يوحي بمص الدماء بشدة..

ثانيًا: في ثلاث حالات على الأقل هناك ظهور مريب لليرقات في الجثة التي لم تجد الوقت الكافي لتتعفن.. (شوارتز) يتحدث عن ظاهرة التدويد..

ثالثًا: ثمّة كلام عام مبهم عن جماعة غامضة هنا تمارس ما يوشك على أن يكون طقوسًا دينيّة، لكن أحدًا لا يعرف من هم ولا أين يجتمعون.. هذه ثرثرة تتنقل بين المراهقين.. يدعم هذا كلام القس (ميلروي) عن جثث قطط يبدو أنها قد سلخت..

قلت بعدما انتهى هذا العرض الشائق:

- «الأمر واضح ولا يحتاج إلى حاسب آلي.. إن هذه الجماعات الشيطانية توجد من حين لآخر.. القتل هنا قتل طقسي ritualistic.. ربما يتضمن مص الدم كذلك.. سوف يمارسون عملهم بعض الوقت، ثم تقبض عليهم الشرطة..»

ابتسم (شوارتز)، وقال في هدوء:

- «لا يوجد تفسير آخر.. لكن ماذا عن اليرقات؟»

حقًّا.. هناك يرقات.. هذا يثير الغيظ.. كلما تمكنت من تركيب أجزاء اللغز وقف جزء معين في الطريق وفي حلقك.. وهو موقف معتاد في الطب على كل حال.. الصورة تتفق مع مرض التيفود لكن ماذا عن الزيادة المرعبة في كريات الدم البيض؟ ربما لو حدث ثقب في الأمعاء يكون التفسير...

- «التدويد..»

قالها (شوارتز) في ثقة..

التدويد Myaisis هو من المشاهد الدرامية المخيفة بالنسبة لدورات حياة الذباب.. أنت تعرف تلك الذبابة الزرقاء اللامعة وتلك التي ترتسم رقعة الشطرنج على بطنها.. هذان نوعان من الذباب العملاق الذي يدخل حجرتك ويصطدم بالزجاج والجدران كأنك بصدد وطواط لا ذبابة.. حسن.. إن لها كرامة مثل زميلاتها ومن حقها أن تحظى بأسماء لاتينية معقدة، لكني لن أذكرها هنا.. لهذه الأنواع من الذباب عادة كريهة هي أن تبيض على أنسجة حية.. تخرج اليرقات الشبيهة بالديدان من البيض وتزحف تحت الجلد أو تتخذ موضعًا مريحًا في الجروح لتنمو.. بعضها يبيض على فتحات الجسم.. هناك حالات تدويد تجد فيها اليرقات في الجهاز الهضمي أو المثانة؛ لأنها ببساطة وضعت بيضها على فتحة البول.. إنها فكرة مرعبة تحمل كل مخاوف التحلل العضوي التي هي أساس الرعب.. لو كان الرعب هو خوفنا من التفكك العضوي وما قد يحل بأجسادنا، فإن هذه الفكرة جديرة بجائزة الأوسكار.. لكنها حقيقة علمية كأية حقيقة أخرى.

ما يريد (شوارتز) قوله هو: لقد وضع الذباب بيضه على أجساد أحياء ثم ماتوا فحسبناه جاء بعد موتهم..

- «والسبب؟»

- «لا أعرف»

وساد صمت رهيب.. كل واحد يفكر في معنى هذا.. ولماذا لم يتكرر في كل حالة؟ بل لماذا يتكرر؟ إن التدويد يحدث في ظروف خاصة جدًّا ومحدودة جدًّا..

قال (هاري) بعدما فرغ من إنهاء شرابه:

- «ما أراه هو أنّ علينا أن نرحل.. لو كان هناك عمل ما ينتظرك يا (رفعت) فتنته منه بسرعة..»

قال (شوارتز):

- «أنا لا أملك هذا الترف.. إنني مكلف بمهمة رسمية.. على كل حال أعتقد أن البلدة ستعج بالغرباء قريبًا.. المأمور مصر على الاستعانة بهم في (فينكس)..»

- «ما هذا؟ رجل الأمن العتيد يتنازل ويقبل العون أخيرًا؟»

- «هذا واضح.. إن الموضوع أكبر منه..»

- «عندما تتحدّث عن القط...»

ونظرت لأرى القط المذكور، فرأيت المأمور يدخل الحانة أو الكافتيريا لا أعرف بالضبط..

من اللحظة الأولى عرفت أنه مغرور مزعج.. ليس غبيًّا وبالتأكيد له نظرة ثاقبة للأمور لكن التفاهم معه مستحيل..

دخل المكان وهو يجفف عرقه.. كرشة العملاق يهتز أمامه فلو كان لي كرش كهذا لحرصت على أن أبقي قميصي خارج السراويل لا داخله.. لكنه كما يبدو يفخر به.. من خلفه نائبه أو ما يطلقون عليه Deputy.. شاب متبختر مائع نوعًا.. هذا نمط معروف هو الآخر.. علاقته بعمل الشرطة هو أنه يجعله وسيمًا أنيقًا يروق للفتيات، لكنه أول من يفر في لحظة الخطر..

- «نريد شرابًا باردًا يا (باتي)..»

ثم مشى نحو منضدتنا في تؤدة.. وقف جوارها ولمس قبعته على سبيل التحية التي هي أقرب للسباب.. وقال وهو يرمقني من فوق لتحت:

- «هذا هو المصري المولع بالسياحة؟»

قال (هاري) في برود:

- «البروفسور (إسماعيل) طبيب مصري مرموق..»

لم أكن مرموقًا لكني ابتلعتها لأني صرت أعرف خلفيات الرجلين..

قال المأمور وهو يصلح من وضع قبعته:

- «قل لصاحبك لو كان لا يفهم الإنجليزية إننا في أوقات خطرة.. على الرجل أن يقوم بما يجب على الرجل أن يقوم به!»

ضحكت في سري إذ سمعت هذه الجملة بالذات..

ثم إنّه اتجه إلى منضدة مجاورة فجلس.. ولحق به مساعده..

قال لي (هاري):

- «تجاهله.. إنّه يتظاهر بشدة البأس لكنه أول من سيبلل سراويله لو قابل خطرًا حقيقيًا..»

ابتسم (شوارتز) في إنهاك، وقال:

- «لو قابل خطرًا حقيقيًا؟ إنك متفائل يا صاحبي! لا أعرف لماذا أعتقد أننا تجاوزنا هذه النقطة من زمن!!»

☆ ☆ ☆

- 2 -

فيما بعد عرفت هذا الجزء..

لقد اتجه (هاري) إلى ذلك المكان الذي اتفق عليه مع الساقية الحسناء (باتريشيا).. (عند جاكسون).. هكذا يطلقون عليه.. مكان راق وموسيقا كما قالت..

كنت أنا قد نمت كموميا‌ء (حتب حرس) لأنني كنت مرهقًا من عناء اليوم، وقد أراحه هذا من تقديم الأعذار كي يتخلص مني...

دخل المكان بينما صوت مطرب ريفي ينبعث من مكان ما:

«أنا مطلوب حيًّا أو ميتًا..

لهذا يجب أن أرحل يا صغيرتي..

ترى من سيتلو الصلاة على روحي؟

من سيبكي عليّ..

حينما أتدلى من المشنقة؟»

الصوت الرنان الحارق أشعل ذكرياته.. صحيح أنّ هناك مشانق في الموضوع لكن يجب أن تكون أمريكيًا لتفهم سحر الهائم على وجهه أو الـ drifter.. ذلك الغريب الذي يقضي كل يوم في بلد ومع فتاة أخرى.. ولا أحد يعرف من هو حقًّا.. ربما كان هاربًا من العدالة وهذا يضفي عليه المزيد من السحر.. حتى لو كان سفاحًا فهو يصير بطلًا بالنسبة للأمريكيين.. هذه نقاط في تكوينهم يصعب أن نفهمها.. ثم تأتي ذروة الرومانسية في اللحظة التي يتدلى فيها مشنوقًا..

المكان مظلم كالقبر.. رجال يجلسون إلى البار يشربون ويمزحون بالجينز والقبعات.. بينما يشق هو طريقه وسطهم.. يتخذ موضعًا هناك..

عند مدخل القاعة يراها.. قادمة في الإضاءة الخافتة التي لا تترك منها إلا السلويت.. شعرها يهتز مع خطواتها.. فارعة ممشوقة كأنها جواد بري..

تدنو منه فيحييها.. تهز رأسها وتبتسم تلك الابتسامة الخاطفة..

- «أنت تخلصت من (سكروج) العجوز»

- «ليس هذا صعبًا..»

تقولها وتجلس فيطلب لها شرابًا.. الموسيقا تتعالى ثم تظهر فتاة طويلة الشعر مجعدته تلبس الجينز، وتمسك بجيتار عملاق.. وعلى دقات مرحة مع التصفيق تغني:

«(جوني).. أمسك بالقوس واعزف كمانك جيدًا..

إن الجحيم قد تفجر في (جورجيا) والشيطان يوزّع أوراق اللعب..

فلو فزت لربحت هذا الكمان الجميل المصنوع من الذهب..

ولو خسرت لظفر الشيطان بروحك!..»

وينهض الشباب ليرقصوا على النغمات.. ظلام في ظلام لكنك من آن لآخر تري وميض سيجارة أو أسنانًا تلمع.. الفتاة تضرب الأرض بكعب واحد مع الإيقاع، وتقدم أحدهم يضع لها برميلًا لتصعد إليه بينما هي تواصل عزف الكمان.. ومن مكان ما برز راعي بقر معاصر يصاحب الإيقاع بدقات بالملعقة والشوكة..

سأل (هاري) فتاته وهو يرفع صوته كي يجتاز صخب الموسيقا:

- «هل ولدت هنا؟»

- «وأموت هنا.. إن أمي تقيم قرب المنجم.. لكني أبيت أحيانًا في الموتيل..»

- «الصبي يشرب اللبن مع أمه!»

جاءت هذه من المنضدة المجاورة، وقد قدر (هاري) أن قائل هذه العبارة لا يتكلم عن صبي يشرب اللبن مع أمّه على الأرجح إنّه هناك من يسخر منه.. لكنه تظاهر بأنه لم يسمع..

سألها:

- «هل أروق لك؟»

نظرت له في برود وقسوة، وقالت:

- «رأيت من هم أفضل..»

ثم أردفت مفكرة:

- «أنت مسن جدًّا بالنسبة لي..»

تلقى الضربة التي يتلقاها للمرة الأولى في حياته.. لقد اتهموه بالخرق والاندفاع والغباء لكن لم يتهمه أحد بالشيخوخة قط.. ابتلع العبارة، وقال:

- «إذن لماذا تخرجين معي؟»

قالت في برود وقسوة:

- «ربما لأن ظروفك الماديّة أفضل.. من الممكن أن تعطي فتاة مثلي نزهة مشبعة.. إنك لست من الشباب الذين يدعونني إلى شطيرة من الهامبرجر ثم يتوقعون أن أهيم بهم حبًّا.. معهم أجد الحب ومعك أجد المال!»

كانت قاطعة كالسيف حادة.. لكنه كما قلنا كان مولعًا بطريقتها هذه.. البرود الجذاب.. القسوة الساحرة..

أشعل لفافة تبغ عندما سمع من يقول في الظلام:

- «لا.. لا.. ليس أمام ماما أيها الصبي الجميل!»

نظر لها في حدة ثم نظر إلى الوراء فسمعها تقول:

- «لا تندفع.. تذكر ما قلته لك.. أنت لم تسمع شيئًا»

لكن هل ينطبق هذا الكلام على (هاري) كتلة العصبية والاندفاع التي تم صبها في صورة رجل.. الترجمة الدقيقة لتعبير (طبيعة نارية)! إنّه يحبّ المشاجرات ولن يترك فرصة كهذه تمر.. لقد نهض كالمجنون ليراهم.. مجموعة من الشباب ذوي الأعناق الحمر يجلسون على البار وهم ينظرون له بتحد ووقاحة.. كانوا أربعة فقط.. هذا يجعلهم في خطر حقيقي..

قال وهو يشير إلى صدره في تحد:

- «هل تكلمني أنا؟»

قال أضخمهم جثة - الذي لبس قميصًا (كاروهات) - وهو يبصق كناية عن الاستهتار:

- «لنفترض ذلك.. فماذا تنوي عمله؟ ما هي حركتك؟»

- «هل تكلمني أنا؟»

كما كان (دي نيرو) يفعل في فيلم (سائق التاكسي).. ذلك الأداء العصبي التصاعدي المميز.. وسرعان ما وثب في الهواء ليدفن رأسه في صدر الفتى.. ثم اعتصر عنقه بين يديه..

صرخ البعض وساد هرج ومرج.. بينما سقط ذو العنق الأحمر من على مقعده وهو يسب ويلعن.. في هذه اللحظة انقض عليه الفتية الآخرون بالركل واللكمات..

معركة قصيرة هي.. كنت أتمنى أن أقول إن (هاري) قهرهم لكن الكثرة تغلب الشجاعة، دعك من أن تتمتع الكثرة بهذا الحجم الضخم والعضلات المتفجرة.. كانت مذبحة أو أوشكت أن تكون كذلك.. خاصة بعدما تهشمت بعض الزجاجات لتتحول إلى خناجر..

هنا فقط دوى الصوت الحازم:

- «توقفوا!!»

تصلب الجميع ليروا كرش المأمور المميز وهو يشق طريقه بين الزحام.. لم يتجه إلا نحو الرجل الراقد على الأرض والدم ينزف من حاجبه.. (هاري).. أمسك به من ياقة قميصه وأنهضه..

- «أنت يا رجل (فلوريدا)! قلت لك إنني لا أريد مشاكل في مدينتي.. إن لي سبعة عشر عامًا كمأمور في هذه البلدة وأعرف أمثالك جيدًا..»

قال (هاري) وهو يحاول النهوض والدم يغمر وجهه:

- «تكلّم عن المشاكل وأعوام خبرتك مع هذه الثيران.. إنهم تحرشوا بي هذه البلدة هي المكان الذي جمعوا فيه كل بلطجية البلاد..»

- «اخرس!»

قالها أحدهم وهو يوجه ركلة لصدر (هاري) مما جعله يصرخ ألمًا.. لكن المأمور لم يوجه له أي لوم.. فقط ظل يكلم (هاري) كأنما هذا الموقف لم يحدث:

- «سوف تأتي معي بكل تهذيب لا أريد مشاكل أخرى..»

إنها فرصته إذن.. هو يتوق لهذا منذ التقيا أول مرة.. نهض (هاري) مترنحًا.. ونظر نظرة ينبعث منها الشرر إلى الفتية.. كان الدم يسيل من أنف أحدهم لكن هذا كل شيء.. وأتى أحدهم بحركة بذيئة بيده عالمًا أن (هاري) لن يستطيع الرد..

قالت (باتريشيا) بطريقتها العملية وهي تغلق حقيبتها وتدسها تحت إبطها:

- «فعلًا أنا آسفة.. لكني مضطرة للانصراف الآن فقد تأخرت!»

قال أحد الفتية باسمًا:

- «لا داعي لإفساد سهرتك.. نحن في الخدمة يا (باتي)!»

لم ينتظر (هاري) ليعرف ما حدث لأن المأمور جذبه جذبًا إلى الخارج.. ولا يعرف كيف ولا متى وجد نفسه داخل السيارة التي تدور كشافاتها وتعوي سرينتها يشق الطريق وسط الواقفين خارج الملهى.. بدا المشهد كأنما تم اعتقال (هتلر) نفسه..

قال له المأمور وهو يسب المتلكئين حول السيارة:

- «ليلة في الحجز بعدها تشعر بتحسن..»

قال (هاري) في لا مبالاة وهو ينظر خارج زجاج النافذة ويضغط بمنديله على حاجبه:

- «ليلة في الحجز لأن هؤلاء الأوغاد ضايقوني؟ ألا ترى أن العدالة لها طرق غريبة في هذه البلدة؟!»

- «اخرس يا رجل (فلوريدا).. لن أنتظر قدوم أمثالك ليعلموني مهنتي.. ليس بعد سبعة عشر عامًا»

هكذا قرر (هاري) أن يخرس.. وقدر أن ليلة في الحجز سوف تهدئه فعلًا..

سوف يدفعون الثمن.. (هاري شيلدون) لا يترك نفسه مدينًا لأحد.. وسوف يكتبون إيصالات التسلم بالدم..

☆ ☆ ☆

ترى من سيتلو الصلاة على روحي؟!

من سيبكي عليَّ..

حينما أتدلى من المشنقة؟!

☆ ☆ ☆

الحر قائظ..

لو قال لي أحد إنني سأختنق لهذه الدرجة في الولايات المتحدة لاتهمته بالجنون.. إن العقل الشرقي يتصوّر أن كل ما هو خارج إفريقيا وشبه الجزيرة العربيّة مناطق باردة إلى درجة الموت تجمدًا..

خرجت من غرفتي ووقفت في النافذة التي في الممر أحاول أن أجد بعض الهواء.. لا جدوى.. دعك من أنّ هذه الرائحة الكريهة لا تختفي.. أنت تعتادها فتنساها لكن بضع دقائق في أي مكان نقي الهواء تجعلك لا تطيق شمها من جديد..

وهؤلاء المجانين يطلقون على هذا الجو (الصيف الهندي) باعتباره معتدلًا.. أي اعتدال هذا؟!!

نظرت لباب غرفة (هاري) فقدرت أنه نائم على الأرجح.. إنها الثانية صباحًا.. على أن أسلي نفسي بنفسي..

ارتديت أخف قميص عندي.. أي إنِّه ذلك القميص الرمادي الصوفي طويل الكمين.. وفتحت زرًا واحدًا تحت عنقي.. سوف تسمحون لي بهذا التحرر الكسائي طبعًا فلن تقبلوا أن أظل بالبذلة وربطة العنق حتى أموت مسلوقًا..

هبطت في الدرج شاعرًا بالخجل من منظري المنحل وفي ضوء المساء كانت محطة البنزين غافية.. ظلام دامس ما عدا بعض أضواء إعلانات الكولا وسهمًا يشير إلى مضخة البنزين..

من بعيد أرى هذه البقاع الوهاجة.. إنها الحشرات حاملة المشاعل بلا ريب.. إنها خنافس لكن منظرها يشبه الديدان الطائرة.. هذا الخطأ وقع فيه (دريك) القبطان والقرصان الشهير، عندما رآها في جزر الهند الغربية فكتب عن (الديدان المتوهجة الطائرة في الجو)..

مشيت وسط المحطة بمعالمها الساكنة كأنها ديناصورات نائمة.. المتجر الصغير مغلق ومظلم لكن هناك آلة مياه غازية بالخارج.. هكذا دسست فيها عملة معدنية منبهرًا بهذه التكنولوجيا التي كانت بعيدة جدًّا عنا في السبعينيات.. بعد قليل كنت أعتصر في يدي علبة باردة مثلجة وألصق بها خدي في حنان..

من بعيد أسمع صوت نطاط الحقل.. هل هناك حقول هنا؟ المهم أنها حشرة ليلية ما لا تكف عن الصياح..

- «تقول (كاتي فعلتها) يا صبي!»

أجفلت ونظرت إلى الوراء فوجدت ذلك العجوز الذي يطلقون عليه (سكروج).. نموذج البخل الذي يقترب مما نسمعه في الأساطير حتى استحق هذا الاسم..

لم أكن قد قابلته لكني عرفت أنه هو..

رجل عجوز مكتنز بشع الخلقة.. ربما (مقرف) كذلك يبدو أنه يعاني حالة بهاق متقدمة.. يبدو كذلك أنه يستشفى من إصابة فالج جعلته لا يحرك نصفه الأيسر تقريبًا.. كان جالسًا على مقعد وقد أراح قدميه الموضوعتين في خفين على إفريز مرتفع أمامه.. وكان يمسك بعلبة كولا هو الآخر وينظر لي في ثبات من تحت حاجبين كثيفين..

وجد أنه مطالب بتفسير فأردف بصوت لزج ثقيل:

- «هذا الحفار يحدث صوتًا بأجنحته.. والصوت يشبه عبارة Cathy did (كاتي فعلتها).. لهذا نطلق على هذه الحشرة اسم (كاتي ديد) كلما كان حرارة الجو أعلى أمكنك سماع ما فعلته (كاتي)!»

أمعنت الإنصات للصوت.. فعلًا.. لم يخطر لي هذا ببال لكنه تشبيه دقيق:

كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد..

لكن ماذا فعلت (كاتي)؟ يبدو أن الرقابة حذفت هذا الجزء.. هذا نموذج آخر للفوارق بين ثقافات الشعوب.. لم يحسم بعد الخلاف حول ما إذا كان الخروف يقول (ماء) عندنا أم (باء) عندهم.. بومتهم تتساءل (من؟ Who)، بينما عندنا تعوي القطة منادية (داوود) والكروان يردد (الملك لك لك)..

قال العجوز:

- «البعض يقوم بعد النغمات خلال ١٥ ثانية.. هلمّ.. جرب هذا..»

نظرت له في غباء ثم رحت أنظر لساعتي المضيئة واحد.. اثنان.. ثلاثة..

- «أربعة..»

- «أضف لهذا الرقم أربعين تحصل على حرارة الجو!»

إذن حرارة الجو ٤٤ مئوية؟ سبحان الله..

- «هذه الحشرات حساسة للحرارة فعلًا.. سوف تجد أنها تخرس عندما تقل حرارة الجو عن 15.. إن الطبيعة - كتاب مفتوح يا صبي..»

صبي! لم يُطلق على أحد هذا اللفظ منذ كنت في العاشرة.. برغم كل شيء أسعدني أنّ هناك من يكبرني سنًا إلى هذا الحد ربما كان القميص الرقيع الذي أرتديه هو السبب..

راح يحكي لي الكثير عن الصحراء وعادات الحشرات حتى فتنت فعلًا.. بصوته الثقيل (المشلول) يحكي لي حتى بدأت أسترجع الدرس القديم: يُمكنك أن تحب أي إنسان مهما كان شكله إذا دنوت من روحه.. هذا الرجل ليس سيئًا.. معظم الناس طيبون..

إلى أن تقترب من مصالحهم بشكل خطر!!

سألني عن موطني وعن سبب قدومي فحكيت له ما تيسر.. قال لي:

- «حر لعين.. كنا نعيش الصيف الهندي لكن الطقس انقلب فجأة.. في سني يصير الحر عذابًا مقيمًا.. البرد كذلك باختصار أنت لا تطيق أي تغير في حرارة الجو يا صبي..»

ثم فكر قليلًا وأضاف:

- «كل شيء يتغير.. البلدة سوف تركل الصندوق قريبًا.. أشعر بهذا.. (لوسيفر) العجوز قد جاء يتقاضى حقوقه.. فلألعن إن لم يحدث هذا..»

كنت أعرف تعبيرات الغرب هذه أو بعضها.. يركل الصندوق أو يشتري المزرعة معناها الموت. يبعثر الفول معناها أنه عصبي.. بينما يواصل الرجل الكلام:

- «يقولون إنني أبخل وغد يمكن أن تجده على الحدود الجنوبيّة.. ربما هم محقون.. لكن في سني هذه يصعب أن تجد صديقًا غير المال يا صبي.. إنّه لا يكذب عليك ولا يسرقك ولا يتخلى عنك.. ولولا المال الذي أملكه لألقوني في الصحراء لكلاب البرية.. هذه المحطة والموتيل هما ما خرجت به من مشوار حياتي.. وأنا مصمم على ألا أفقدهما إلى أن يلقوا بي في القبر..»

ثم سألني في لهفة:

- «هل معك سجائر؟»

- «لا.. ولو كان معي فلن أعطيك..»

- «هذا الطبيب اللعين يصر على أن أمتنع عنها.. عرضت عليه مالًا مقابل أن يسمح لي بالتدخين لكنه رفض.. وبعد هذا يقولون إن (سكروج) العجوز أبخل وغد في الولايات..»

ثم نظر إلى الأفق الشبحي المغلف بالظلام، وقال:

- «في يوم من الأيام كان هذا هو الغرب الحقيقي حيث الرجال رجال حقًّا.. يؤمنون بمقولة واحدة..»

قلت مقاطعًا:

- «على الرجل أن يقوم بما يجب على الرجل أن يقوم به!»

نظر لي لوهلة في ذهول وقال:

- «يا للشيطان.. لست غبيًّا كما تبدو يا صبي.. من أخبرك بهذا؟»

☆ ☆ ☆

(جوني).. أمسك بالقوس واعزف كمانك جيدًا..

إن الجحيم قد تفجر في (جورجيا) والشيطان يوزّع أوراق اللعب..

فلو فزت لربحت هذا الكمان الجميل المصنوع من الذهب..

ولو خسرت لظفر الشيطان بروحك!

☆ ☆ ☆

صحوت من النوم متعكر المزاج.. أي إنني صحوت بحالتي الطبيعية..

لكني لم أحب جو الغرفة عندما صحوت.. حارة جدًّا رطبة جدًّا.. فالشمس تدخلها بحرية تامة عبر الستائر والنافذة مفتوحة.. جو عام من اللزوجة والتعاسة.. دعك من كثرة الذباب وهو ذباب صحراوي شرس..

الرائحة الكريهة الغامضة تتسرب من النافذة.. وهذا لم يجعل الحياة أروع..

وقفت أحك رأسي ربع ساعة على الأقل ثم اتجهت إلى الحمام الصغير الملحق بالغرفة..

نظرت لوجهي في المرآة.. ثمّة شيء غير طبيعي.. وضعت عويناتي ودققت النظر.. نعم.. هذا هو السبب شفتي السفلى مجروحة دامية.. لو شئت الدقة فهذه عضة.. عضة تلقاها اللحم الطري وكادت تنتزع منه جزءًا.. الغريب أنني لم أشعر بأي ألم..

في البدء شممت تلك الرائحة العطرة الساحرة، ثم شعرت بحركة في الغرفة فخرجت.. وجدت تلك الفتاة (باتريشيا).. الفتاة باردة الطباع إياها.. كان تحمل مكنسة وتقوم بعملها بحماس بأن تكوم الغبار تحت البساط..

شعرت بحرج لأنني كنت أقف بالفانلة الداخلية وسراويل المنامة.. وأدهشني أنها لم تقرع الباب.. ثم وجدت إنِّه لا داعي للحرج لأنهّا لم تلحظ وجودي أصلًا.. فلو وقفت في طريق مكنستها لأخفتني تحت البساط أنا الآخر..

التقطت حاجياتي المكومة على الفراش فألقتها إلقاء في خزانة الثياب ثم شدت الملاءة.. وجهها لم يتغير لحظة..

قلت لها في حرج:

- «معذرة يا آنسة.. ا.. صباح الخير..»

- «صباح..»

قالتها دون أن تنظر لي.. فقلت في حرج أكثر وأنا أشير لشفتي:

- «هذه.. وجدت هذه..»

نظرت لي في برود.. كأنها تحاول استبعاد كل ما لا يمت لموضوع السؤال.. أي إنها وضعت على جسمي ووجهي ملاءة سوداء فلم تبق إلا شفتي.. ثم قالت بذات البرود:

- «هذه قبلات.. هي قبلتك وأنت نائم!»

عمن تتحدّث؟ معجبة خفية؟ هل بلغ بها الوله بي هذا الحد؟ أعترف أنني أملك ثغرًا جميلًا أنا فخور به.. شفتين رقيقتين هما الشيء الوحيد الجميل في وجهي لكن إلى هذا الحد؟!

رأت الغباء على وجهي فقالت:

- «بقة القبلات طبعًا..! إنها تعيش هنا.. كلنا جرب هذا»

وأشارت إلى شفتها فرأيت ندبة خافتة هناك..

- «هي نوع من البق تتسلل حيث يرقد النائمون وتعضهم في شفتهم.. يبدو أنها تفرز مخدرًا ما لأن أحدًا لا يلاحظ هذا إلا في الصباح!!»

مثل الوطاويط مصاصة الدماء التي تخدر الجلد فلا يشعر الضحيّة بأنه يثقب وأن الدم يؤخذ منه.. هكذا قلت لنفسي.. واقشعررت للفكرة..

- «هل.. هل تسبب مرضًا ما؟»

- «أنت أدرى يا (دوك)»

استجمعت ما أذكره من طب المناطق الحارة، وقلت:

- «بالفعل أعرف بقة (ترياتوما Triatoma) التي تعض النائمين في شفاههم وتنقل لهم مرض (شاجاس Chagas) اللعين الذي أودى بحياة العالم الشهير (داروين Darwin).. لكن معلوماتي أنها موجودة في أمريكا الجنوبيّة والوسطى فقط.. لعل بقتنا هذه بقة حمقاء أو متسللة تطلب الهجرة..»

هذه الفتاة تعامل الناس كمجانين إلى أن يثبت العكس وجدتني أقول أشياء غريبة على غرار (تراتوما) و(داروين) و(شاجاس).. إلخ.. فمارست أسلوبها المعتاد.. ظلت تصغي إليّ متظاهرة بأن كلامي الفارغ مهم جدًّا، ثم لم تعلق ونسيت الأمر برمته..

أضافت وهي تتجه للباب:

- «صديقك.. ذلك الأشقر..»

- «هل مات؟»

ضحكت في ربع ثانية ثم عادت لبرودها، وقالت:

- «سوف يتمنى ذلك.. لقد تشاجر في الملهى وقبض عليه المأمور.. إن (بيكر) العجوز كان ينتظر هذه الفرصة منذ رأى وجهه!!»

وغادرت الغرفة..

بقة القبلات أعجبت بي!

هذا يدعو للفخر..

☆ ☆ ☆

- 3 -

أدور حول السجن راسمًا خططًا جهنمية..

هناك نافذة عليها قضبان.. وهي منخفضة.. لن يحتاج الأمر إلا إلى جواد قوى وأنشوطة.. وخطاف أربطه بالقضبان ثم أركض فتنتزع النافذة.. يخرج المأمور ليطلق على الرصاص لكني أرديه قتيلًا ثم أفر وخلفي على الفرس (هاري).. أنا الآن (ديسبيرادو Desperado) يفر إلى الحدود المكسيكية فصلي من أجلى يا أماه.. صلين من أجلى يا كل حسناوات أريزونا..

ترى من سيتلو الصلاة على روحي؟!

من سيبكي عليّ..

حينما أتدلى من المشنقة؟

كنت أفكر في المشكلة الوحيدة التي تعوق تنفيذ هذه الخُطة ألا وهي العثور على حبل، عندما وجدت أني أقف أمام (هاري)!! هو بعينه لكنه مرهق مجعد الثياب متورم العينين.. دعك من الدم الجاف على حاجبه!!

- «هل.. هل تركك؟»

- «طبعًا.. كان يريد تأديبي في الحجز ليلة على سبيل التهذيب.. وقد انقضت..»

- «جئت لأخرجك أو أدفع كفالة أو..»

- «لم يستأهل الأمر هذا كله.. لم أطلق الرصاص على مدرسة أطفال.. بالمناسبة ماذا أصاب شفتيك؟»

- «دعك من جمال مظهري ولنعد بك للموتيل، لأنك تبدو على وشك الموت..»

لم تكن سيارته هنا لأنّه تركها أمس أمام ذلك الملهى.. لذا مشينا في شوارع المدينة التي تحرقها الشمس.. قال لي وهو يحك ثيابه:

- «يبدو أن البراغيث ممنوعة في هذه البلدة.. لهذا يلقون بها في ذات الزنزانة التي كنت فيها»

- «قالت لي (باتريشيا) إن عقابًا أفظع من البراغيث ينتظرك..»

- «لم تكذب كثيرًا..»

وراح يحكي لي...

☆ ☆ ☆

- «تعلّمت كيف أدس أقراص المنوم لزوجي.. وحينما ينتظم تنفسه كنت أغادر البيت.. أهرع في الظلام إلى ذلك المكان الذي اعتدنا أن نلتقي فيه..»

صب لها القس بعض الشاي ثم عاد لمقعده..

إنها تواصل الاعترافات المذهلة.. وهو يشعر بالهلع يومًا بعد يوم.. لكنه لا يعرف كيف يتدخل.. هذه أسرار خصوصية لا يحق له أن يخبر بها طرفًا ثالثًا.. لو جاءك (نيرون) وأخبرك أنه ينوي إحراق (روما) غدًا فهل تفشي السر؟ قانون الاعتراف يقول: لا..

كانت (كلاريسا) الزوجة الحسناء تواصل الكلام وهي تمسك بقدح الشاي.. الرجفة في يدها جعلت القدح يحدث رنينًا منتظمًا.. وقالت:

- «لم يحدث شيء.. أعنى أنه لم يحدث شيء مما قد يخطر لك ببال.. كنا نرقص في دائرتين.. رقصة خاصة لم يعلمها لي أحد لكني وجدت نفسي أجيدها.. نرقص.. نرقص حتى يغلبنا التعب..»

ظل صامتًا ثم قال السؤال الذي كان يضنيه:

- «لا شيء من تلك الأشياء المشينة؟ أنت تفهمين قصدي..»

- «لا.. أعرف أنك تتحدّث عن طقوس الخصوبة وما شابه.. لا.. فقط الرقص.. ثم كان هو يظهر..»

كان قد سمع هذا الجزء من قبل.. لذا أشار لها بيده كي تتجاوزه.. فقالت:

- «هكذا استمر الحال عدة أيام.. حتى بدا الأمر يتخذ طابعًا مثيرًا أكثر.. أنت تعرف حالة الغيبوبة والذهول التي يسببها الرقص المتواصل.. لهذا بدا مع الوقت أننا منومون مغناطيسيًا وأن بوسعنا عمل أي شيء.. وهكذا بدأ الجزء المرعب من الأمر وهو السبب الذي دفعني للقدوم هنا.. لقد جئتك كي...»

- «كي ماذا؟»

☆ ☆ ☆

- «كي أنام.. كنت منهكًا.. ورحت أتفقد الزنزانة الصغيرة التي ألقى بي فيها الرجل..»

كنت أمشي مع (هاري) تحت ضوء الشمس الحارق وهو يواصل حكايته.. لا صوت سوى أزيز الذباب.. الشوارع خالية تمامًا.. فقط يُمكنك أن تسمع صوت الطبول المعدنية إياه.. من حين لآخر تمر بنا سيارة لا نرى قائدها...

ثم أردف:

- «كان هناك في الركن لوح خشبي طويل معلق للجدار في وضع أفقي.. وخطر لي أنّ هذا على الأرجح فراش.. اتجهت نحوه في الضوء الخافت المنبعث من مصباح واحد وعبثت بيدي كي أنسقه.. هنا فوجئت بأنه رجل نائم! رجل نائم على لوح حقيقي.. رجل نحيل جدًّا وقد ساعد لون ثيابه مع تغطيته لوجهه مع الوضع الغريب الذي اتخذه للنوم، في إقناعي بأنه لوح خشب.. طبعًا أصابني الهلع فتراجعت للوراء.. نهض هو من الفراش.. كان أكثر من رأيت في حياتي نحولًا، حتى إنّه كان بوسعه الفرار بين القضبان لو أراد.. له وجه متعب فاقد الحماس.. قال لي:

- «لا تخف من (سام) أيها الغريب.. إن لي هنا فترة لا بأس بها حتى نسيت أنّ هناك بشرًا بالخارج.. على كل حال أعداء (بيكر) العجوز هم أصدقائي..»

جلست جواره على ذلك اللوح الحقيقي.. هنا وجدت لهلعي أنّ هناك شيئًا راقدًا على الأرض، وقد ساهمت الإضاءة الخافتة في ألا أتبينه..

ركعت على ركبتي أتفحصه فوجدت أنه جسد بشري.. جسد متكوم كخرقة ثياب عند قدمي بالضبط.. مددت يدي وهززته فشعرت كأنما أهز كومة ثياب بالفعل.. وأخيرًا انقلب على ظهره فرأيت الوجه الميت الشاحب.. تحسست عنقه فأقسم أنني لم أستشعر نبضًا..

نظرت لجاري في هلع، وقلت:

- «جارك في الزنزانة ميت!»

قال بلا مبالاة:

- «آه! هذه الأشياء تحدث..»

- «ولا تبالي؟»

- «آه.. حقًّا..»

رحت أحاول تقليب الجثة الملقاة عند قدمي.. يجب أن أنادي المأمور.. ما نوعية هذا الحجز الذي يترك الجثث فيه حتى تتعفن؟!

في اللحظة التالية فتح هذا الراقد عينيه وجلس.. لم يفعل هذا ليخيفني ولم يكن يمزح.. فقط جلس كأنه كان يمارس عملًا طبيعيًا معتادًا، وقال:

- «آه.. نعم.. أعداء (بيكر) العجوز هم أعداؤنا!!»

ثم ساد الصمت.. كانت هذه هي الطامة الكبرى.. تخيل ليلة مع هذين العجيبين ولم نتبادل أية كلمات أخرى، غير أنني لم أنم..

في الصباح فتح المأمور الباب الحديدي حاملًا صحفة عليها قهوة وبعض الخبز الجاف، وأشار لي باشمئزاز قائلًا:

☆ ☆ ☆

- «لا تأكلوا أكثر من حاجتكم!»

عند هذا الحد كان القس قد بلغ نهاية تحمل جهازه العصبي.. أوع! وأفرغ معدته في عنف..

ثم نهض وهو يجفف شفتيه وهتف:

- «أنا آسف.. فعلًا آسف!!»

عاد إلى الداخل وأحضر مكنسة وممسحة بينما (كلاريسا) جالسة لا تتحرك ولم يبد أنها اهتمت بتاتًا بكونه أفرغ معدته أمامها.. راح ينظف وهو يرتجف..

وفي النهاية عاد ليجلس وشرب جرعة ماء، وقال:

- «إن معدتي تقلصت..»

ثم هتف في هلع وقد استعاد المشهد:

- «هل هذا هو ما كان يحدث كل ليلة؟»

- «ثلاث ليال متوالية حتى قررت أن آتي وأخبرك بهذا كله»

- «هل تعرفين ما تقولين؟ إن هذا أخطر اعتراف سمعته في حياتي..»

- «لكنه سيظل سرًا.. أنت وعدت بذلك»

- «هذا الذي يحدث مناف للطبيعة.. إن هذا الشيء يأمركم بخرق كل قواعد البشريّة المتعارف عليها حتى بين قبائل (البوشمان).. وهل شاركت في هذا النشاط؟»

- «للأسف نعم..»

- «وراق لك الأمر؟»

- «لم يكن سيئًا على الإطلاق..»

- «وماذا عن هذا الشخص المختار؟»

- «كان ينهض في النهاية وهو يبتسم.. كان بخير لم يؤذه ما حدث على الإطلاق..»

- «وكان هو ذات الشخص كل ليلة؟»

- «كلا.. كان يتبدل.. وفي الليلة الثانية شاركنا مختار الليلة الأولى ذات الطقوس مع شخص آخر»

فكر القس قليلًا.. وراح يجفف صدره المبتل ثم قال:

- «إذن هي لعبة دوارة كالكراسي الموسيقية.. لا بد أن يأتي عليك الدور يومًا؟»

قالت في هدوء دون أن يبدو على وجهها أي انفعال:

- «لا.. الشخص المختار هو من تلك المجموعة ذات البطون الكبيرة.. أعتقد أنّ هناك أشخاصًا تم إعدادهم لهذا»

إن الأمر سيئ.. فكر القس.. إنّه أسوأ من أي شيء قرأ أو سمع عنه في ألعن طقوس عبادة الشيطان في التاريخ.. الغريب أنه صار الآن يتمنى أن يكون الأمر متعلقًا بعابدي الشيطان.. على الأقل يمكن مجابهة هؤلاء وأساليبهم معروفة..

قال لها:

- «حسن.. هل عدت لهذه اللقاءات بعد مجيئك لي؟»

☆ ☆ ☆

- «لا..».

قالها (هاري) وهو يفتح باب غرفته في الموتيل.. وأردف:

- «لا.. لم يقدم لي إفطارًا.. قال إنّه مخصص للأخوين (كالاهان).. إذن هذان كانا أخوين.. قال وهو يناولني حاجياتي إنهما فتيان طيبان لكنهما يملكان ميولًا صبيانية مثلي.. أحدهما يهوى التظاهر بالموت لعدة ساعات حتى إن أكثر من مواطن مذعور اتصل بالمأمور ليخبره برؤية جثته.. الآخر يستغل جسده الرفيع في التواري ويفزع الناس عندما يتحرك.. إنهما صبيان مزعجان وفي السجن خير علاج لهما.. لكنهما يعانيان حالة مزمنة من العودة للسجن كلما خرجا منه.. يبدو أنهما يسليانه على كل حال.. أنت تعرف هذه العلاقة التي تنشأ بين السجين والسجان مع الوقت..»

ثم أضاف (هاري):

- «وفي اللحظة التي خرجت فيها إلى الشمس وجدتك أمامي..»

- «لم أعرف أنك مسجون إلا صباح اليوم..»

- «لكن ماذا أصاب شفتك؟»

- «بقة خطر لها أن شفتي جميلة.. هذا نوع من الإطراء..»

- «وهل هذا خطير؟ أعني هل يمكن أن تكون حقنتك بالسم؟»

- «لا أعتقد.. لكن هناك مرضًا مرعبًا ينتقل بهذه الطريقة.. سوف أرى..»

ثم توقف (هاري) وهو ينظر إلى الفراش الذي لم يمس ليلة أمس في غرفته، وسألني:

- «بالمناسبة.. هل رأيت (باتريشيا) اليوم؟»

☆ ☆ ☆

- «نعم.. مرة أو اثنتين..»

استشاط القس غضبًا.. لم يكن ممن يغضبون بسهولة لكن الأمر استفزه، فقال لها:

- «أنا لا أتعالى على الخطيئة.. إن الإنسان واهن بطبعه.. لكني لا أبتلع أن يعترف المرء بإثم وهو مستمر عليه مخلص له..»

للمرة الأولى بدا انفعال على وجهها فرفعت عينين دامعتين له، وقالت:

- «أنت لن تفهم يا أبت. إن الأمر أقوى مني.. يسهل أن تتصور الأمور بسيطة وأنت جالس هنا.. وعندما تكون هناك تجد أنه من المستحيل أن تفلت.. كما يبذل مدمنو المخدرات الوعود أمام الناصحين، فإذا انفردوا بأنفسهم وجدوا أن الأمر عسير حقًّا..»

لكنه كان يفهم أنّ هناك سببًا آخر.. لقد رأى خطاة كثيرين ويعرف أن ما يدفعهم للاستمرار في الإثم هو ذلك الشعور الغامر بأنهم تلوثوا فعلًا.. الثوب الأبيض صار أسود ولم يعد من الممكن غسله.. إنهم يفقدون احترامهم وتقديرهم لذواتهم من ثم لا يرون بأسًا من التمادي..

كان يعرف أن الخطوة الأولى هي إعادة ثقة هؤلاء بأنفسهم وبأن الله سوف يغفر لهم إذا هم تابوا فعلًا..

لكنه - للمرة الأولى - يشعر بأنه غير بارع.. إنّه واهن عاجز عن مساعدتها أو اتخاذ قرار..

ما قالته له كان مفزعًا.. وهو يدعم ذلك الشعور بقرب النهاية الذي يمضه منذ البداية..

«لو كنت تؤمن بالمواجهة النهائية مع الشيطان أيها الأب فلتهنأ بالًا.. يبدو أنك ستعيش لتراها!!».. قالها له المأمور يومًا ويبدو أنه كان على حق فعلًا..

المشكلة هي أن جنود الخير مرتبكون متفرقون عديمو الخبرة بكيفية مواجهة موقف كهذا.. دعك من أن بعضهم مثل المأمور لا يبدون جنود خير على الإطلاق..

قال لها بصوت مبحوح:

- «للمرة الأخيرة أطلب منك هذا الطلب.. لا تذهبي هناك أبدًا.. لو ذهبت الليلة أو أية ليلة فاعلمي أن بابي مغلق من دونك..»

☆ ☆ ☆

«الأب (ماكنزي) ينفض الغبار عن يديه وهو يفارق قبرها..

فلم يتم خلاص أحد..

هؤلاء الناس الوحيدون.. من أين يأتون؟ وأين ينتمون؟»

☆ ☆ ☆

- «هي التي أخبرتني بأنك سجين»

ابتسم (هاري) وتحسس الجرح على جبهته، وقال:

- «فتاة عملية جدًّا.. ما إن نشبت المشاجرة حتى انصرفت دون أن تنتظر لتعرف ما حل بي..»

- «هكذا تفكيركم عامّة معشر الأمريكيين.. أو هذا ما أعتقده.. لعل سبب ارتباطي بك هو أنك أمريكي يحمل قلبًا مصريًا.. ولكن دعني أحذرك من التورط مع هذه الفتاة إنها في رأيي تملك ذات رقة وحنان سمكة القرش..»

- «وهذا سر سحرها..»

ثم تأمل وجهه في المرآة المعلقة على الحوض، وقال:

- «أنت (ميزوجين misogynic) حقيقي.. تتوقع دائمًا أن المرأة كائن (آخر) غامض.. خطر داهم..»

- «وأكون على حق.. من المؤسف أنني أكون على حق..»

فعلًا من المؤسف أنني أكون على حق..

☆ ☆ ☆

- 4 -

كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد

☆ ☆ ☆

هل هي أنت؟

كنت جالسًا في الكافتيريا مع دخول المساء أتناول طعام العشاء عندما رأيتها.. (هاري) لم يكن هنا ولا (شوارتز).. كان هناك رجل أو اثنان من الذين مروا بالبلدة عابرين فقرروا تناول طعامهم تلك الفتاة (باتريشيا) تثرثر معهما وهي تدس يدها في جيب المريولة الذي تضع فـ....

عندما رأيتها..

دخلت الكافتيريا.. رقيقة كالحلم شفافة كأحزان المساء..

هل هي أنت؟ أعرف أنك قادمة للقاء اتفقنا عليه لكني لم أتصور أن يحدث علنًا وفي مكان عام.. ثم نظرت إلى العلامات الخمس فلم أجد أيًا منها.. كلا.. لست أنت ولكم يحزنني هذا..

الفتاة ترتدي ثوبًا صيفيًا خفيفًا يجعلها أكثر شفافية ولها ذلك الأنف العظمى البارز نوعًا الذي لا أرى جمالًا في أي وجه ما لم أره.. النحول.. العينان الساحرتان.. الأصابع الطويلة النحيلة والمعصم الذي ترى كل وريد فيه.. دعك من الإرهاق العام.. إن الحر يقتلها برغم أن المساء قد جاء..

مرت بجواري فشممت أقوى رائحة عطر شممتها في حياتي.. عندما يخرج العطر من دائرة العطر إلى دائرة المخدرات.. ما اسم هذا الشيء؟

الحق أنني رحت أقطع الحساء بالسكين وأشرب الخبز.. وفي سرى شعرت بذهول لأنني ما زلت حيًا إلى هذا الحد فجأة ينزعني أحدهم من وراء المجهر الذي أراقب به الحياة ليضعني تحته.. أتحول من مراقب للجراثيم إلى جرثومة سعيدة..

كانت تمشي بين المناضد.. ثم نظرت لي في حيرة.. تتساءل لماذا أنظر لها بهذا الاهتمام..

جلست إلى منضدة بجوار النافذة.. منضدة عليها أباجورة ساطعة تؤذي العين لكن بدا أنها لا تبالي بها أزاحت الستار لترمق الليل في الخارج في نهم.. اتجهت لها الساقية فرسمت لها بيدها

شكل قدح قهوة.. وتكورت أناملها لترسم الدخان الخارج منه..

ثم نظرت لي من جديد..

نهضت بلا تفكير واتجهت إلى منضدتها..

رفعت نحوي عينين متسائلتين، فقلت وأنا ألوم نفسي على هذا التهور:

- «معذرة.. أعرف أن طلبي غريب.. هل تعرفين د. (رفعت إسماعيل)؟».

نظرت لي في غباء.. فأردفت:

- «هل سمعت عنه؟»

- «لا..»

- «إذن هل تمانعين في أن تعرفيه؟»

نظرت لي وبدأت تفهم وأشرق وجهها نوعًا.. فقلت في كياسة:

- «لنكن عمليين.. أنا لن أترك هذه الفرصة تفلت أبدًا لأنني قد لا أقابلك ثانية.. ربما كان في شخصي ما يثير اهتمامك.. لندع المظهر جانبًا لكني أنصحك أن تجربي وفي النهاية لن تخسري شيئًا..»

قالت في دهشة:

- «ما هذا الذي تقوله؟»

- «أقول إنني أضعت من الفرص في حياتي ما يكفي لجعلي أعرف الفرصة التالية الموشكة على الضياع.. إنّه ذلك الشعور بأنك جئت هنا بالذات لسبب قدري معين.. لا أتحدث عن هيامي بك فأنا لم أرك إلا منذ ثلاث دقائق.. أتحدث عن حاجتي إلى معرفتك أكثر..»

قالت وهي تضحك:

- «بالله عليك اجلس.. لا يحتاج الأمر إلى خطبة إغريقية..»

وهكذا جلست.. وكان أول ما فعلت هو أن أطفأت الأباجورة قبل أن أصاب بالعمى..

بدأت تسألني عن نفسي فأجبت بأمانة..

جاءت الفتاة (باتريشيا) بالقهوة، ونظرت لي بخبث.. ثم وقفت تصغي السمع في صفاقة.. فنظرت لها قائلًا:

- «هل تريدين شيئًا؟»

- «هل أضيف الحساب على الفاتورة يا دوك؟»

- «العشاء! طبعًا.. أنت تفعلين هذا دومًا..»

- «بل أتحدث عن القهوة.. قهوة الآنسة!»

هذا نوع من الإحراج المتعمد فقلت لها في غلظة أن تفعل فلمّا انصرفت سألت الفتاة عن حياتها.. من هي؟ من أين جاءت؟ لا بد أن زهرة نرجس تنهدت في مكان ما فخرجت هي من بين بتلاتها.. ربما جاءت من حيث تجسر النسور وحيث يحلم النمل الأخضر.. من حيث تتوارى الأقمار.. كان (جحا) يعتقد أن الأقمار القديمة يتم تكسيرها ليصنعوا منها الأهلة.. لا بد أنها جاءت من بقايا الأقمار هذه..

قالت بصوت لا يمكن وصفه:

- «في الحقيقة لي حياة لا أريد الكلام عنها.. لنقل إنني أحاول أن ألقي بها وراء ظهري.. لنقل إنني من (المولودين من جديد).. دعنا لا نتحدث عن هذا..»

- «واسمك.. هل لديك واحد؟»

- «أفضل أن تناديني (ماي)..»

- «ليكن.. أي شيء..»

نظرت حولها لتتأكد من أن أحدًا لا ينظر، ثم قالت:

- «لعلك تساءلت عن السبب الذي جعلني أقبل عرضك بالتعارف..»

هززت رأسي في عدم فهم.. حسبت أن السبب أنني كنت رائعًا أو على الأقل مقنعًا..

قالت باسمة:

- «الحكاية هي أنني أبحث عن عريس.. وأنت تبدو صالحًا.. هل تقبل الزواج مني؟»

نظرت لها في غباء.. (رفعت) العجوز لا يقابل إلا المخابيل هذه عادته.. إن كنت ريحًا فقد صادفت إعصارًا.. أنا الذي حسبت تصرفي مجنونًا بما يكفي، قوبلت بما هو أكثر جنونًا..

قلت لها وقد توترت:

- «ماذا تعنين؟ أنا لم ألقك إلا منذ ربع ساعة..»

- «هذا كاف.. أنت تعتقد أنه من واجبك أن تعرفني أكثر.. وقد اقتنعت..»

قلت لها في حزم وقد صعد الدم إلى رأسي:

- «أنت تعبثين بي.. أنا آسف.. كالعادة يعتقد المرء أن الرأس الجميل يحوي عقلًا أجمل، لكن هذا خطأ في كل مرة..»

عادت تقول بإصرار:

- «لا مزاح في الأمر.. من فضلك.. أنا جادة تمامًا.. سوف يزوجنا قس القرية ونمضي شهر العسل في هذا الموتيل..»

قلت لها وأنا أنهض:

- «آسف.. دعك من أنني أجنبي وهناك إجراءات معقدة للزواج.. لكني أرى الأمر كله مزحة..»

وتركتها جالسة حيث هي وجلست بعيدًا أحاول ألا أنظر باتجاهها.. (باتريشيا) اللعينة رفعت الأطباق التي كنت آكل منها وهي مليئة.. ليس عليّ أن أتحمل جراح الكرامة والقلب فقط، ولكن يجب أن أتحمل الجوع كذلك..

☆ ☆ ☆

كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد..

☆ ☆ ☆

مرّت بي (باتريشيا) فقالت دون أن تنظر لي شيئًا لم أتبينه.. لا صعوبة على كل حال في استنتاجه.. لا بد أنّ هذه النسخة الأمريكية من تعبيرنا نحن المصريين (يا ميت خسارة على اللي حب ولا طالش).. إنها تسخر مني..

مرت دقيقة.. ثم رفعت رأسي على صوت يقول:

- «لكني متزوج!!»

نظرت في دهشة إلى مصدر الصوت فأصبت بالهلع.. كانت الفتاة الرقيقة تقف أمام الرجلين اللذين كانا يتناولان الطعام وهي تحاول إقناعهما بشيء.. وقد بدت عليهما الدهشة.. التفتت إلى الرجل الثاني وكررت عرضها فهتف في مزيج من الغلظة والمزاح:

- «لا أحد يتزوج بهذه الطريقة!»

هذه الفتاة مجنونة فعلًا.. لم تكن تمزح.. لقد فقدت كل إعجاب بها ليتحول الأمر إلى مزيج من الشفقة والرعب منذ دقائق كنت أخطب ودها والآن أتجنبها كأنها مصابة بالجذام.. دعك من شعوري بالشفقة لأنهّا تنزف كرامتها الأنثوية، بذات الطريقة التي يفزعك فيها مشهد رجل ينزف دمه على قارعة الطريق.. لا يجب أن تمر فتاة بتجربة كهذه.. رباه! لا يجب أن تتعرض فتاة لتجربة كهذه.. الرجال يتحملون أكثر وجلدهم ثخين بما يكفي.. أمّا هذه..

هنا دخل (هاري) المكان وهو يصفر.. ومن خلفه جاء (شوارتز) بقامته الفارعة المهيبة..

- «هاي (باتي)..»

قالها للساقية فردت ببرودها المعتاد:

- «هناك فتاة ترغب في الزواج.. لو كنت تفكر في الأمر فلا تتردد..»

نظر إلى (ماي) الواقفة ثم نظر لي في عدم فهم.. في هذه اللحظة رأيت الفتاة تأتي من حيث كانت، وتقف أمام (شوارتز)، لتقول في أدب:

- «سيدي.. هل أنت متزوج؟»

- «مطلق يا بنيتي.. لكن هل من سبب يدعوك لهذا السؤال؟»

- «هل ترغب في أن تتزوجني الآن؟»

نظر لي ولها ولـ (هاري) في حيرة، فقال (هاري):

- «هذا الرجل يدعى (رفعت إسماعيل).. وهو مصيبة تتحرك على قدمين.. حيثما وجد تجد الغرائب والفظائع عندما تكون معه لا تندهش من أن تقابل فتاة تعرض الزواج على أي شخص يقبل..»

كنت في سري أشعر بأن الفتاة ليست مجنونة على الإطلاق.. ثمّة سر مهم وراء هذا الطلب.. هناك فيلم عربي قديم من بطولة (ماجدة) كان عليها فيه أن تظفر بعريس خلال أربع وعشرين ساعة وإلا فقدت حقها في الإرث.. احتمال وارد لكنه خيالي جدًّا.. الاحتمال الثاني هو أنّ هذه candid camera وهناك من يصورنا خفية ليضحك المشاهدون.. احتمال ضعيف لأن أحدًا لا يبالي ببلدة كهذه.

تجاهل (شوارتز) الفتاة الواقفة على بعد متر منه، وقال:

- «حكى لي (هاري) عن العضة التي تلقيتها في شفتك.. أنا أيضًا تلقّيت واحدة عندما جئت هنا.. هل تعتقد أننا في خطر؟»

قلت في بساطة:

- «أنت عالم الحشرات الطبية.. المفترض أن تخبرنا أنت..»

- «وأنت طبيب.. يبدو أن الموضوع موزع بيننا فلن يجيب أحد..»

هنا رأيت الفتاة تفارقنا فتعود إلى المنضدة التي كانت تجلس إليها، فتزيح قدح القهوة.. أبعدت الستار قليلًا عن النافذة وراحت تنظر بانبهار غير مبرر إلى أضواء محطة البنزين بالخارج.. ثم أسندت رأسها إلى ساعديها ونامت على المنضدة..

قال (شوارتز):

- «هذا أفضل.. سوف تفيق بحالة أفضل.. بيني وبينك أعتقد أنها تلقت صدمة عاطفيّة ما.. ربما تخلى عنها حبيبها وظلت تهيم على وجهها حتى جاءت هنا..»

بدا لي الأمر معقولًا..

عاد (شوارتز) يواصل الكلام:

- «مر (هاري) بليلة عجيبة في الحجز مع هذين الأخوين (كالاهان).. مجرد صبيين مزعجين غريب الأطوار.. إن هذه البلدة غريبة.. كل ما فيها لا يريح.. متى تزمعان الرحيل؟»

لم أكن أملك إجابة.. عليَّ أن أنتظرها حتى تأتي.. لو كانت هي تلك الفتاة لانتهت مشكلتي.. لكن عليّ أن أنتظر..

«هذا موعد بلا أعذار.. موعد يشبه الموت وعليك أن تلبيه أردت أم لم ترد..» هذا ما قالته لي.. وأنا أعرف من دون سواي أنّ هذا صحيح..

قلت وأنا أحدق في أفق لا أراه:

- «هناك أعمال يجب أن أقوم بها..»

قال (شوارتز):

- «هؤلاء الرجال من (فينكس) آتون غدًا.. سوف تبدو البلدة كساحة حرب..»

في هذه اللحظة دوّت شهقة..

نظر الجميع إلى مصدرها.. كانت (باتريشيا) تقف جوار تلك الفتاة (ماي).. وقد سقطت الصحفة التي كانت تحملها..

الفتاة ما زالت غافية على المنضدة، لكننا الآن نفهم سبب الصرخة..

(باتريشيا) تقول في هلع:

- «الفتاة!! لقد ماتت!!»

☆ ☆ ☆

- 5 -

- «هل تأتي معي؟»

كانت (ساندرا) تقف هناك في ظلام الشارع والهواء يعبث بخصلات شعرها.. و(بيلي) كان هناك أيضًا..

- «هل تأتي معي؟»

هذا هو العرض.. خذه أو اتركه.. أنت تعرف أنت تريد هذا.. لكن مشهد جثة (هارلسون) لا يفارقك..

قال لها:

- «أنا أطالب بأن نبتعد.. إن ما يحدث شرير.. شرير بحق.. وقد فقدنا (جيمي) و(هارلسون)..»

قالت في صبر وهي تضغط على كلماتها:

- «(هارلسون) تصرف بحماقة.. لا أعرف كيف تصرف ولا كيف ضبطوه لكن هذا لن يحدث معنا..»

- «ما زلت مترددًا..»

قالت وهي تستدير مبتعدة:

- «كما تشاء.. أنا ذاهبة بنفسي.. يجب أن أعرف ما أصاب (هارلسون).. من قتله؟»

- «سنجد جثتك في الصباح..»

- «سوف يروق لي هذا.. على الأقل سأعود شبحًا لأؤرق منامك للأبد..»

ولم يتكلم بينما هي تتوارى في ظلال الشارع.. كان يعرف أنه تصرف بجبن.. لكنه يعرف كذلك أن الأبطال المندفعين يلقون حتفهم سريعًا.. المقابر تعجّ بجثث الذين قرروا أن يبدوا أشجع..

الحقيقة أن حياته بعد وفاة (هارلسون) تحولت إلى جحيم.. كابوس مستمر.. الأسوأ أنه كان يعاني المركب الفرويدي المعروف.. عندما يموت شخص نمقته فإن هذا يجعلنا نشعر بأننا مسئولون عن موته ويقتلنا تأنيب الضمير..

(الجثة كانت بلا رأس ولا عنق ولا كتفين).

هذا هو الفتى الذي كان مليئًا بالحيوية ووساوس الفحولة ماذا حدث له؟ من فعل هذا؟

يبدو أن المأمور يتخبط بلا هدى.. هذه طريقة قتل أقرب لأساليب الوحوش.. لو كان هناك نمر طليق في البلدة لأمكن فهم الأمر..

لكن (بيلي) كما قلنا كان يحبّ (ساندرا) وقد شعر بعد قليل بأنه نذل.. هي ذي حبيبتك تمضي في الليل وحدها إلى أخطر بقعة على ظهر الأرض.. فماذا ستقول وماذا ستفعل عندما يجدون جثتها غدًا؟ عندما ينظر لك ذلك القاضي الصامت - في مرآتك - الذي لا يرتشي ولا يقبل الأعذار، فماذا عساك تقول؟

هكذا وجد نفسه يمشي في ذات الاتجاه الذي مشت فيه.

إنها تتجه إلى الجسر القديم قرب المنجم.. هذا هو مكان الاجتماعات المعتاد.. لكنّها سبقته.. إذن عليه أن يجتاز طريقًا مختصرًا..

كانت (مخالب الشيطان) هي تلك الأخاديد الصغيرة التي كانوا يلعبون فيها في طفولتهم. اسم شاعري جدًا يصف تلك المجاري المائية الجافة التي تتشعب حتى تصل إلى المنجم.. وهي ليست طريقًا سهلًا لكنه يختصر الوقت..

(بونج بونج).. صوت القرعات المعدني هذا..

إن الليلة مقمرة، لهذا بوسعه أن يجرب اجتيازها..

سوف يلحق بها هناك في ذات لحظة وصولها.. ولسوف يراقب معها الطقوس لدقائق ثم يقنعها بالعودة معه..

☆ ☆ ☆

من بين عينيه المغمضتين شعر بها تتحرك بحذر في الغرفة..

تتحرك بخفة.. ترتدي ثيابها ثم تنتعل الحذاء الخفيف ومن حين لآخر ترميه بنظرة عابرة لتتأكد من نومه..

كان الأستاذ (رتشاردسون) الآن يرى المشهد الذي فاته حوالي عشر مرات من قبل، والسبب هو جرعة المنوم التي تدسها في شرابه كل ليلة.. لكنه الليلة قد بدأ يشك في الأمر.. هذا النوم العميق كل ليلة هو الذي لم يكن ممن يجيدون النوم قط، ثم الأقراص التي ما انفكت تنقص في الزجاجة في الحمام.. عملية حسابية بسيطة دلته على الحقيقة.. (كلاريسا) تخدره كل ليلة ولكن ما السبب؟

هذه تحركات من هو مزمع على الخروج.. ولكن لأين؟

هكذا ظل يحبس انفعالاته ويتنفس بعمق وهدوء..

إلى أن سمع الباب يفتح..

عندها وثب من الفراش وجلس يفكر.. من العسير أن يلحق بها على الأرجح.. إنها أخف منه وتتحرك برشاقة.. من الجلي أنه لن يجدها في الظلام.. سينتظر هنا حتى تعود.. ولسوف يطلب منها تفسيرًا..

(كلاريسا)؟ الرقيقة الحسناء؟

كان يجب أن يتوقع هذا.. لم يكن حظه حسنًا قط لهذه الدرجة من قبل.. كان هذا أجمل من أن يكون حقيقة..

☆ ☆ ☆

فرغ المأمور من فحص الجثة..

ثم جفف عرقه ودار ليجلس على أول منضدة قابلها إنّه في موقف عسير لكنه لن يعترف بهذا أبدًا..

قال وهو ينظر إلى الشرشف كأن أحداثًا مهمّة تدور عليه:

- «ماذا شربت يا (باتي)؟»

قالت الساقية التي تمالكت نفسها أخيرًا:

- «قهوة..»

- «وهل بدر منها شيء غريب؟»

قال أحد الرجلين اللذين كانا في المكان واللذين رأيا كل شيء:

- «شيء غريب؟ لم أر قط فتاة أغرب أطوارًا من هذه..»

قال (شوارتز) في هدوء:

- «لقد عرضت الزواج على كل رجل في هذه الكافتيريا خلال خمس دقائق!»

نظر المأمور للجثة التي ظلت في وضعها السابق على المنضدة.. وإن كانت عيناها مفتوحتين تحدقان في لا شيء.. الجمال النائم.. هذا ما جال بذهني وقتها.. أو (الموت يليق بها) وهو عنوان فيلم أمريكي سمعته بعد هذه الأحداث بأعوام.. هذا جمال خلق ليموت.. ومع الموت يصير في أفضل حالاته..

قال بصوت متعب:

- «(ستيف).. هلا فتشت حقيبتها؟»

اتجه الفتى المتبختر يعبث في حقيبة الفتاة ثم غمغم:

- «لا أوراق.. لا رخصة قيادة..»

كنا نعرف هذا لأن البحث خارج الكافتيريا لم يجد أية سيارة لا نعرف صاحبها.. هذه الفتاة جاءت من مكان ما راجلة..

- «علبة أقراص استهلكت منها الربع..»

ألقيت نظرة على المكتوب على العلبة.. إسبيرين فوار..

قال المأمور في رضا وقد ضرب المنضدة بقبضته:

- «هذا يوضح الأمور! الفتاة مرّت هنا في سيارة شاب تعرفه.. تشاجرت معه.. هكذا دخلت هنا وراحت تتصرف بطريقة حمقاء.. ثم ابتلعت جرعة عالية من الإسبيرين وماتت..»

لم يرق لي الأمر.. فتدخلت:

- «الإسبيرين لا يقتل فجأة.. ثم إننا لم نرها تبتلع أي شيء.. دعك من أن جرعة الإسبيرين القاتلة عالية جدًّا تقترب من قرص لكل كيلوجرام.. أي إنّه كان عليها أن تبتلع نحو خمسين قرصًا.. بهذا كنت ستجد العلبة فارغة..»

ثم تذكرت أنهم يفكرون بالرطل هنا فقلت:

- «هذا لو كان وزنها حوالي ١١٠ أرطال.. يبدو أنّ هذا معقول..»

نظر لي في كراهية.. إنّه يكره من يعترض على كلامه.. دعك من أنّ هذا يتعب عقله لأن عليه البحث عن جواب آخر..

قال في ضيق:

- «هذه الوفاة المفاجئة لم تحدث بسبب الشيخوخة..»

- «هناك سموم قليلة جدًّا تسبب الموت بهذه السرعة لو أخذت بالفم.. لا أعتقد أن الفتاة كان تحشو ضرسًا بالسيانيد لتكسره عند القبض عليها كما يحدث في قصص الجاسوسية.. في هذه الحالة يمكنها أن تموت فجأة لكنك كنت ستشم رائحة اللوز المر..»

- «إذن كيف ماتت؟»

ببرود قلت:

- «لا أحد يعرف.. فقط يستطيع التشريح أن يخبرك..»

ساد الصمت كأنه فيلم سينمائي اجتمع فيه عباقرة المونتاج ليعطوا تأثير التوتر.. دقات أنامل المأمور على المنضدة.. خطوات مساعده.. وجه الجثة.. العرق على وجه المأمور.. عينا (باتريشيا).. قبضة (هاري).. صوت (بانج بانج) القادم من لا مكان.. دقات الساعة.. (Eisenstein) المخرج السوفييتي العظيم خبير المونتاج ما كان ليحلم بتقطيع أقوى من هذا..

فجأة قطع السياق أن صاح المأمور في عصبية:

- «ما صوت الدق هذا؟»

لو كنا في مصر لاقترحت أنهم يصنعون (الكفتة)، لكني اكتفيت بأن قلت:

- «سيدي.. هذا الصوت مستمر منذ جئت أنا هنا.. يصعب أن أصدق أنك لم تسمعه إلا الآن..»

قال (شوارتز):

- «بل منذ جئت أنا..»

لكني كنت أعرف أن أشياء كهذه تحدث.. عندما يستمر الصوت طيلة الوقت وبلا انقطاع فإن وعيك يتجاهله.. نحن لا نشعر بدقات الساعة المعلقة على الجدار إلا عندما تتوقف عندها نشعر بحيرة وارتباك ونتساءل عن كنه الصوت الذي صمت.. هل كان هناك صوت؟ ماذا كان؟ ولماذا صمت؟

نظر المأمور لمساعده متسائلًا فقال هذا بلهجة من أدى عمله جيدًا:

- «لم نعرف مصدرها.. تأتي من مكان ما في الجبل..»

هزّ المأمور رأسه كأنما يفسر هذا كل شيء.. ثم نهض متعبًا وقال للمساعد:

- «تأكدوا من نقل هذه إلى بيت الجنازات.. سوف يفحصها رجال (فينكس) بأنفسهم..»

ثم دسّ يديه في جيبه وبصق على الأرض وغمغم

- «ماذا يحدث في هذه البلدة؟ بحق السماء ماذا يحدث هنا؟»

☆ ☆ ☆

- 6 -

لم تكن الأخاديد التي يطلقون عليها مخالب الشيطان كما عرفها..

كان (بيلي) يجتازها بسهولة كما اعتاد لكنه تعثر عندما توغل فيها أكثر.. وأدرك أنها مسدودة..

راح يتحسسها بأنامله.. بالفعل.. هناك جدران تسد أكثر هذه الأخاديد.. جدران بارتفاع قامة الرجل العادي.. بناء شديد التعقيد يمتد لعدة أمتار..

راح يحاول أن يقتحم هذه الجدران.. إنها هشة.. أقرب في ملمسها إلى الورق المقوى.. ورق رمادي تم بناؤه بشكل معقد.. هناك غرفة تقود إلى أخرى.. وأخرى تقود إلى أخرى..

ما هذا الشيء بالضبط؟ من الذي يضيع وقته في بناء بيوت من ورق مقوى في هذا المكان؟

أصابه الذعر.. إنها الكلوستروفوبيا التي تشعر بها وأنت تزيح جدارًا لتجد خلفه آخر.. راح يمزق ما استطاع تمزيقه.. لا بد أنه احتاج إلى عشر دقائق حتى يخرج من هذه.. الممرات المتشابكة المعقدة.. وبالطبع تم هذا بطريقة التمزيق.. فلو اعتمد على الزحف في هذه المتاهة لظل هناك إلى يوم يبعثون..

في النهاية وجد نفسه خارج أحد هذه الجدران الورقية.. وكان يركع على ركبتيه في قاع الأخدود..

في اللحظة التالية صرخ هلعًا إذا تمسك به أحدهم من الخلف..

سقط على الأرض فشعر بالجسد يسقط فوقه..

التقط حجرًا وتأهب كي يضرب هذا المعتدى، لكنه رأى البذلة السوداء والياقة البيضاء.. وسمع صوتًا مميزًا يقول:

- «أنت (بيلي).. ماذا تفعل هنا؟»

إنّه القس..

لكنه كان في حال هستيرية جعلته لا يثق بأي إنسان على الإطلاق.. لقد وثب وثبتين حتى خرج من الأخدود.. وأثار دهشته أنه الآن يرى مدى امتداد وتعقيد تلك الشبكة من الحجرات الورقية.. لها تنسيق مسدس لا بأس به لكنه ليس ذلك الشكل المميز لأعشاش النحل.. إنّه بالتأكيد أقل إتقانًا..

قال القس وهو في قاع الأخدود:

- «لا تخف يا (بيلي)... لا تخف أنا سقطت هنا مثلك..»

صاح الفتى في عصبية:

- «وماذا جاء بك هنا؟»

- «ربما كان على أن أسألك السؤال ذاته..»

ساد الصمت هنيهة ثم أردف القس وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى:

- «أنا أعرفك وأثق بك.. سأجرب أن أثق بك ثانية.. دعني أخمن.. أنت هنا للغرض ذاته..»

صمت (بيلي) وقد أدرك أنهما متفاهمان..

قال القس:

- «جئت لتلقي نظرة.. هه؟»

قال (بيلي) وهو يستجمع أنفاسه:

- «نعم.. نحن نعرف سرهم منذ زمن.. أعتقد أن (جيمي) و(هارلسون) هلكا لأنهما عرفا أكثر من اللازم.. (ساندرا) صممت على أن تذهب وحدها.. أحاول اللحاق بها قبل أن..»

قال القس وهو يمد له يده كي ينزل إلى الأخدود ثانية:

- «أعرف هذا الطريق المختصر منذ طفولتي.. إنني أرتاب بهذه الطقوس.. لا أستطيع أن أعطى تفاصيل.. لكن الطريقة الوحيدة للاطمئنان هي أن أرى بنفسي.. لا أستطيع إبلاغ المأمور بشيء لأن ما عرفته عرفته تحت الاعتراف..»

- «إن المأمور أغبى من أن يصدّق على كل حال..»

فجأة صمت القس ولمعت عويناته في ضوء القمر فبدا منظرها مخيفًا..

فتح (بيلي) فاه ليتكلم لكن القس وضع أصبعه على شفته..

تشومب.. تشومب!

الصوت آت من هناك.. من الناحية الأخرى لهذا الأخدود..

وفي صمت وخفة زحف القس زحفًا ومن خلفه (بيلي).. كانا يقتربان من مصدر الصوت..

على الناحية الأخرى كان هناك جذع شجرة عتيق متعفن يرقد في ضوء القمر كأنه أفعى أسطورية عملاقة.. وفوق الجذع كان يرقد رجل شعرا بأنهما يعرفانه جيدًا..

(توم لين).. إنّه من عمال المنجم.. رجل قصير القامة أصلع متين البنيان..

يرقد فوق الجذع وقد احتضنه بكلتا يديه.. أمّا الغريب فهو أنه يقضم الخشب بلا توقف وبنشاط غير مسبوق.. تشومب تشومب!!

كان يأكل بلا كلل.. بدا منظره في ضوء القمر كأنما هو آت من كابوس.. لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًا.. دقائق مرّت على هذا المشهد ثم إنّه نهض مترنحًا..

وراح يبصق ما مضغه على الأرض.. يُمكنك أن تري أنها عجينة بيضاء متجانسة.. عجينة سخية لا تصدق أبدًا أنها كانت في فمه..

أما عن القس والفتي فإنني أترك لخيالك تصوّر ما شعرا به وقتها.. صرخة أوشكت أن تصدر من الفتى فكتم القس فمه بيده..

ليس هذا وقت الصراخ.. بالله عليك ليس هذا وقت الصراخ..

ينهض (توم لين) من حيث كان.. يقف في ضوء القمر.. يبدو أنه يتثاءب..

وفجأة يهجم!

لقد رآنا!!!

كيف رآهما؟ لا أعرف.. المهم أنه وثب إلى حيث كانا في الأخدود.. وبسرعة البرق رأياه ينقض عليهما.. قال القس شيئًا. وفي اللحظة التالية الرجل بجواره.. وسرعان ما توارى وسط الأخاديد المظلمة..

هتف (بيلي) وهو يثب خارج الأخدود:

- «فلنفر يا سيدي.. لقد هرب.. يبدو أنه كان مذعورًا أكثر منا!!»

قال القس شيئًا.. وأشار لعنقه..

نظر (بيلي) إلى الرجل.. وبرغم ضوء القمر الذي يجعل كل شيء مزرقًا فإنّه أدرك أن القس أزرق اللون.. كان يشير لعنقه وقد بدا عليه ذعر لا يصدّق.. لسانه برز من فمه.. وعيناه اتسعتا خلف زجاج النظارة.. ثم هوى على الأرض..

كان هناك ثقب صغير في عنقه..

وأدرك (بيلي) أن الأمر انتهى..

انتهى بسرعة البرق..

☆ ☆ ☆

(إليانور رجبي) ماتت في الكنيسة ودفنت ومعها دفن اسمها..

الأب (ماكنزي) ينفض الغبار عن يديه وهو يفارق قبرها..

فلم يتم خلاص أحد..

☆ ☆ ☆

قال (رتشاردسون) لزوجته:

- «أريد تفسيرًا..»

كانت الآن تقف أمام باب الدار في ضوء المصباح.. مبعثرة الشعر وثمّة هالات سود تحت عينيها.. كان آخر وجه تتمنى أن تقابله هو وجه زوجها بالذات.. واضح أنه لم يبتلع المخدر ولم يبتلع الحيلة..

دخلت من دون أن تنطق فمشى وراءها واستوقفها في عصبية:

- «أين كنت؟»

- «هذا شأني الخاص..»

- «ليست هذه هي الإجابة الصحيحة..»

لكنّها اتجهت إلى غرفة النوم لتبدل ثيابها وأغلقت الباب في وجهه.. دق بعنف أكثر وهتف:

- «أنت لا تتكلمين..»

- «لأني لا أسمع الكلام الصاخب..»

- «نحن لا نتحدث عن محاولة دكتاتورية للسيطرة على حياتك.. نحن نتحدث عن تخديري كل ليلة.. يمكن أن أثبت هذا بتحليل الدم.. هذه تهمة فيدرالية وليست مجرد خلاف في وجهات النظر بين زوجين..»

مع صوت حفيف الثياب جاء صوتها من وراء الباب يقول في عصبية:

- «إن الطلاق خير تسوية..»

ماذا يحدث؟ منذ متى ترد بهذه الحدة، ومنذ متى تطلب الطلاق؟ هناك آخر بلا شك.. دعك من أنها لم تغلق الباب في وجهه قط..

في جنون مد يده ليدير المقبض.. ثم دفع الباب بكتفه ليدخل.. وفي نيته أن يبدأ النقاش بأن يوسعها ضربًا.. بعد هذا يمكن الكلام بنوع من العقلانية..

انفتح الباب..

فصرخت وتراجعت للوراء..

لكن صرخته كانت أعلى لأن ما رآه كان مخيفًا..

☆ ☆ ☆

العجوز (سكروج) يجلس في الخلاء كعادته الليلية..

كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد

ثرثارة جدًّا هذه الحشرات.. لا تكف عن النميمة بخصوص في هذه السن..

كنت أنا واقفًا أرمق كل شيء من عل.. تلك النافذة التي في نهاية الممر والتي صارت مكاني المختار.. بعد قليل أنام لكن من يضمن لي ألا تزورني بقة القبلات ثانية؟ الفكرة ذاتها تفعمني رعبًا..

أسمع الحوار خافتًا من بعيد..

الفتاة التي يدعونها (باتي) وأصر على أن أدعوها (باتريشيا) تمشي في تؤدة.. لقد أغلقت المتجر ويبدو أنها ستعود لدارها.. تتجه نحوه وتناوله المفتاح..

عندما تحتاج المحطة إلى عمل ليلي فإن المكسيكي ينزل ليساعد..

أسمع عبارات من بعيد تحملها الريح إلى أذني:

- «لم أتقاض أجري هذا الأسبوع..»

- «لا يوجد مال.. إن الأحوال سيئة.. دعك من هذه الفتاة التي ماتت.. سوف تنحدر الأعمال إلى الحضيض..»

قالت في تحد:

- «لكن هناك الغرباء المقيمين في الفندق.. دعك من أن عدد السيارات كان هائلًا هذا الأسبوع.. لقد باع المتجر بعض الدمى كذلك..»

البدين لم يبدل من جلسته.. فقط قال دون أن ينظر لها:

- «ليتك تعرفين أي ثقوب تسدها هذه البنسات في الحفرة الهائلة التي أجلس عليها.. ثم إن الغرباء هنا لمصلحتك أنت!»

في عصبية وتنمر هتفت:

- «ماذا تعني؟»

قال بلهجة واضحة:

- «هذا الأشقر الوسيم القادم من (فلوريدا) وعالم الحشرات.. هل تحسبين أنني غافل عنك؟ أنت تنعمين بوقتك ثم تطالبين بالأجر!»

لا أعرف تعبيرات وجهها لكن لا بد أنها مخيفة.. فقط سمعتها تقول:

- «لو سمعتك تتكلم بهذه اللهجة ثانية فلسوف تختصر الساعات الباقية من عمرك!»

لا بد أنه شعر ببعض الفزع.. لأن لهجته صارت أهدأ:

- «ليس معي مال.. يجب أن تفهمي هذا..»

- «وماذا ستفعل بكل ما تكنزه؟ إنِّه لن يذهب معك إلى القبر..»

- «ربما أفكر في شيء كهذا كما كان الفراعنة يفعلون والآن أرجو أن ترحلي لأن وجودك يفسد تأملي..»

نظرت له طويلًا.. أعتقد أنها فعلت هذا.. ثم عادت إلى الموتيل بخطوات ثابتة..

هذه فتاة خطرة لكن لا أعتقد أنها من الطراز الذي يقتل... إن القتل عند الانفعال يحتاج إلى شخص حار الدماء.. بالنسبة لـ (هاري) أوشك أن أرى صورته في صفحة الحوادث في أية جريدة وهو يضع لافتة الرقم على صدره، لكن هذه لا.. سوف تنصب مكيدة باردة قاسية..

لماذا لا تعطيها حقها يا أخي؟؟ ماذا ستفعل بكل هذا المال؟ عندما تشيخ فلا ترى الجمال ولا تسمعه ولا تلمسه ولا تمشي فيه فما جدوى المال؟

أغلقت النافذة وعدت إلى غرفتي.. تأكدت من أن النوافذ مغلقة.. لا أعرف حجم بقة القبلات هذه لكني أرجح أنها ضخمة..

جلست أكتب خطابًا من تلك الخطابات حكيت فيه ما حدث.. ثم اتجهت إلى حوض الحمام وأحرقته حرقًا.. ووقفت أرمق الدخان خبيث الرائحة.. متى تظهرين لأرحل من هنا؟

مددت يدي تحت الوسادة فوجدت خطابًا من تلك الخطابات التي أتلقاها بانتظام:

«ادخل المنجم!»

كلمة واحدة لا أعرف لم تشير.. لماذا أدخل المنجم؟

كنت أفكر في هذا عندما غصت تحت الغطاء وغبت في نعاس عميق

☆ ☆ ☆

فقط لأسمع الصراخ في الثالثة صباحًا..

كان قادمًا من الطابق السفلي..

خرجت فلم أجد أحدًا في الممر.. نزلت إلى الطابق الأسفل حيث الكافتيريا / المطعم / الحانة.. فوجدت هناك زحامًا يوحي بكارثة..

(شوارتز) هناك والمأمور و(هاري) و(باتريشيا) والموظف المكسيكي الصموت.. كانوا هناك يتكلمون جميعًا بصوت عالٍ.. وفي الوسط رأيت ذلك الفتى النحيل ذا العوينات والنمش..

للمرة الأولى كان هذا لقائي مع (بيلي)..

- «أنا متأكد! لقد تركته هناك!»

وسمعت كلمة القس عدة مرات..

كان دوري في الموضوع هو أن أخبرتهم أن الفتى يوشك على الإصابة بانهيار عصبي، فليصبروا عليه بعض الوقت أمقت هذا الحماس مع المصابين بهزة عصبية كأنهم يعقدون مؤتمرًا صحفيًا.. حتى توقعت أن يقول الفتى: لا تعليق لا مزيد من الأسئلة من فضلكم..

فليجلس أولًا ثم يتكلم.. صعدت لغرفتي وبحثت عن بعض الأقراص المهدئة ثم عدت له وطلبت منه أن يبتلعها..

كان يحكي قصة عجيبة عن القس الذي هاجمه شخص ما فقتله يبدو أنّ هذا حدث في منطقة يطلقون عليها (مخالب الشيطان)... من هنا سمعت القصة كلها من وجهة نظر (بيلي)..

إن هذه القصة جزء آخر من مسلسل الرعب الذي يجتاح هذه البلدة والذي لا يوجد منطق واحد يفسره..

لكننا فهمنا عدة أشياء:

أولًا: القس كان يعرف أكثر منا جميعًا.. لقد سبق الفتى بخطوة..

ثانيًا: الشيء الشرير الذي يحدث يبدأ من تجمع هؤلاء الأشخاص غريب الأطوار قرب المنجم..

قال المأمور وهو يتحسس مسدّسه:

- «الأمر واضح.. سوف أذهب إلى هناك وأنسف هؤلاء الأوغاد.. لقد أعياني البحث عن مكان تجمعهم لكن يبدو أنني آخر من يعلم.. إن لي سبعة عشر عامًا كمأمور لكني آخر من يعلم..»

قال (شوارتز) وهو يدسّ يديه في جيبه:

- «تريد رأيي؟ إن هؤلاء الرجال من (فينكس) قادمون غدًا.. أنت تحتاج لتعزيزات لأن المشكلة أكبر مما نتصوره.. عليك الليلة أن تحاول استرداد جثة القس.. لا تحاول التورط فيما هو أكثر..»

لسان العقل يتكلم.. فليصمت البلهاء.. ويجب أن أعترف أننا كنا جميعًا بلهاء باستثناء (شوارتز)..

بدا على المأمور أنه اقتنع.. هذه ضربة لا شك فيها لكبريائه أن يقتنع برأي أحد لكن يبدو أنه لا مناص من ذلك..

نهض وأشار لمساعده كي يلحق به.. ثم نظر إلى الفتى.. فرفعت يدي منذرًا.. لا.. لن أسمح له بصفتي الطبيب الوحيد هنا.. لن يأخذه معه للبحث عن جثة القس..

هكذا قرر أن يصدع بالأمر واتجه إلى الباب..

وبعد قليل سمعنا السيارة تبتعد..

قلت للفتاة (باتريشيا):

- «من الواضح أن صاحب الموتيل لا يتدخل كثيرًا..»

ضحكت تلك الضحكة المشرقة المفتعلة التي تزول خلال ثانية، وقالت:

- «آه.. نعم.. ها ها.. إنِّه مسن جدًّا ويترك لي كل شيء ما عدا المال..»

وتذكرت الموقف الذي كان منذ ساعتين تقريبًا..

وتذكرت العجوز جالسًا وحده يصغي لما فعلته (كاتي)..

لا أعرف لماذا قررت أن أخرج إلى الخلاء.. مشيت ببطء ومعي مشى (هاري).. ومن بعيد نرى ضوء سيارة المأمور إذ تبتعد في الطريق..

لا صوت إلا صوت النطاط الذي يعتبر نفسه ترمومترًا يخبرك بدرجة الحرارة.. مع الـ (بونج بانج) والرائحة الكريهة التي تعاودك كلما خرجت..

هنا جوار مضخة البترول كان يجلس العجوز.. لكني أرى الآن أن مقعده مقلوب..

دنوت أكثر.. وعلى ضوء القمر استطعت أن أرى تلك العلامات..

آثار جر واضحة على التراب.. جر.. ومقاومة.. ثمّة جسم ثقيل لا شك في هذا.. والآثار تتجه بعيدًا لتعبر الطريق وهكذا اختفت تمامًا..

على الأرض علبة كولا سقطت من يد حاملها وهي مليئة لأن محتواها انسكب على الأرض..

نظرت لـ (هاري) فنظر لي نظرة غامضة..

ما معنى هذا؟

☆ ☆ ☆

- 7 -

هذه هذا هو الجزء الممتع في الموضوع..

كأن هذه الأشياء تروق للمأمور بلا شك.. البحث على ضوء الكشاف في منطقة الأخاديد.. يبدو له هذا عمل شرطة فعلًا.. كان مساعده الأبله قد ذهب لمكان آخر والمأمور يضع يده على مقبض مسدّسه ويمسح الحفر المتجاورة بالكشاف..

سبعة عشر عامًا من الخبرة.. لا شك في هذا الأعوام لها مقابل.. إنّه يعرف ما يفعله.. لا يحتاج لهؤلاء الأوغاد من (فينكس).. أولئك المرفهين الذين أدمنوا الجلوس على مؤخراتهم السمينة في الغرف المكيفة.. يموتون بالكوليسترول والسمنة.. لكن إلى أن يموتوا يتسلون على واحد مثله.. شرطي ريفي في بلدة على حدود المكسيك.. لا بد أنه حمار أو أحمق..

كان يلهث الآن من الجهد.. والعرق يبلل حاجبيه..

لسعة الزنبور؟ ذلك العالم قال إنهم يعرفون لسعة الزنبور.. بعض الآباء يفعلون هذا.. هو يعرف أفضل من أي واحد آخر لأنّه فعلها مع ابنه مرارًا.. ذات مرة دسّ لزوجته سحلية حية في قميصها وراح يضحك بينما هي تتلوى وتصرخ.. إنّه يعرف أفضل الطرق لفرض إرادته.. بعض الرجال يلوم أسرته.. البعض يضرب.. لكنه يعرف أفضل الطرق للسيطرة..

تقول امرأته إنّه سادي مريض.. ربما.. كان يسمع أن رجال الشرطة الفظين في عملهم يكونون وديعين كالحملان في بيوتهم.. لكنه استثناء.. لقد اعتاد أن يحمل العنف معه للبيت فإذا لم يجد ما يكفيه في العمل بحث عنه بين أفراد أسرته..

لماذا لا يحق له بعض العنف؟ القليل منه ليحتفظ بسلامه النفسي؟ مهنة كهذه وراتب جدير بالفئران.. والعمر يمضي بلا أمل في الأفق.. فلماذا يلومونه على بعض العنف الصحي؟

أخيرًا يرى هذه الأشياء..

إن الفتى الأحمق لم يكن أحمق..

بالفعل هذه بيوت من الورق المقوى تبدو كمسدسات تم إلصاقها ببعضها.. من فعل هذا ولأي غرض؟

يواصل البحث.. لا بد أن جثة القس قريبة جدًّا.. سوف يجدها..

انحنى أكثر ليتفحص أحد الأخاديد عن كثب..

ولا يدري ما حدث.. ولا كيف شعر بتلك الوخزة القوية تخترق فخذه..

أطلق سبة وركع على ركبته هناك من يقف بجواره الآن..

مد يده ليمسك بالمسدس.. سبعة عشر عامًا من الخبرة.. لكنه وجد يده تهتز.. ذلك التنميل الغريب يسري فيها اللعنة... إنِّه عاجز بالفعل عن تحريك أي طرف.. إنه..

وبدأ اللعاب يسيل من فمه الذي عجز عن غلقه..

لكني واع.. أنا واع.. لم أفقد وعيي.. أنا واع..

☆ ☆ ☆

وقفنا مذهولين ننظر إلى تلك المساحة الشاسعة الممتدة أمامنا..

لقد قادتنا محاولتنا لاقتفاء الأثر إلى عبور الطريق وهناك وسط الجبال وجدنا آثار الجر من جديد.. كان اقتفاؤها عسيرًا في الظلام لكننا استخدمنا الكشافات..

طبعًا تركنا (باتريشيا) والفتى (بيلي) في الموتيل.. أنا لا أثق بها وأعتقد أنها مسئولة عن اختفاء العجوز. آخر مرة شوهد فيها كانت تتشاجر معه..

«إنها باردة جدًّا تعطيك الانطباع بأنها قد تجز رقبتك بالمقص لو دفع لها أحدهم ربع دولار..»

كنا الآن نولي وجهنا شطر الحدود المكسيكية.. سلسلة الجبال الوعرة سوف تبدأ بعد عدة أميال.. لكننا الآن نرى منخفضًا غير عميق نسلط الكشافات عليه فنرى..

نرى تلك المسدسات الشمعية العملاقة المتراصة..

خلايا نحل.. لا شك في هذا..

ونظرت للوراء إلى (شوارتز) فنظر لي بذات النظرة..

(بانج بانج)..

صوت الدق يتعالى..

الرائحة الكريهة تتزايد..

كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد

(كاتي) فعلت ماذا؟ يبدو أن حرارة الجو تؤدي عمل الرقابة من جديد..

شمع.. شمع.. شمع..

وفجأة بدأت أفهم..

(شوارتز) هو الآخر فهم..

☆ ☆ ☆

لا يذكر المأمور إلا أنه كان غارقًا في الماء.. ثمّة بركة ماء سقط فيها..

عاجزًا عن الحركة لكنه مذعور.. لا يستطيع الكلام أو الصراخ..

هناك شيء قوي ينتزعه من الماء.. يجره بعيدًا بلا رفق إلى الخارج، ثم يشعر بأنه ينحدر من فوق مرتفع.. يسقط كأنما هو صخرة ألقيت من أعلى.. إنّه الآن راقد في قاع أخدود عميق.. يرى السماء بنجومها من فوقه.. منذ متى كان القمر بهذا السطوع؟

ثمة شيء يسقط فوق صدره..

شيء يشبه البيضة.. لكنّها لينة..

ما هذا؟

هنا بدأ يرى ذلك الشيء العملاق - في وضع السلويت لأنّه كان عكس ضوء القمر - يتقدم نحوه نازلًا الأخدود.. الآن يفهم..

لكن الفهم جاء متأخرًا جدًّا..

☆ ☆ ☆

قال لي (شوارتز) وهو يرتجف، محاولًا التصويب على لفافة التبغ في فمه:

- «القصة واضحة يا د. (إسماعيل)..»

- «بدأت أرى هذا معك..»

قال (هاري) في غيظ:

- «أنتما عبقريان.. فهل يوجد مكان لبطيئي الفهم مثلي؟»

قال (شوارتز) وهو ينظر إلى البلدة الغافية في الظلام:

- «سكان هذه البلدة يتحوّلون إلى حشرات!»

☆ ☆ ☆

الجزء الثالث:
الكينونة

١- لا تثق في أية أصوات غريبة تسمعها ليلًا.. لا تفترض أنها طبيعية..

٢- مقولة (يحدث للآخرين فقط) انتهى عهدها.. ربما كان من الأفضل أن تتبنى مقولة (يحدث لي دون سواي)..

٣- لا تثق في الصداقات القديمة أكثر من اللازم.

٤- لا تقع في حب جديد..

٥- الرائحة الكريهة موجودة هناك لسبب مهم.. لا تنس هذا..

٦- لا تثق في زوجة يموت زوجها ليلة الزفاف..

٧- عداواتك القديمة قد تطفو على السطح.. تذكر أين أنت ومن أنت..

- 1 -

يقول (شوارتز):

- «لا تنظر للحشرات بتعالٍ أبدًا يرى العلماء أنها وجدت على الأرض منذ ٢٥٠ مليون سنة.. هناك ٧٠٠ ألف نوع منها حتى اليوم.. ويعتقد العلماء أن أنواعها ستبلغ عشرة ملايين فقط لو تقدمت طرقنا في البحث أكثر.. لقد وجدوا الصراصير داخل المفاعلات النوويّة وفي القطب الشمالي وداخل الصمامات الإلكترونية.. هذه الكائنات قوية جدًّا وقد جاءت لتبقى..»

☆ ☆ ☆

يقول (شوارتز):

- «لا تنظر للحشرات بتعالٍ أبدًا.. إنها كائنات معدة بدقة إلهية مذهلة لحياة شديدة القسوة.. ويبدو أنها ستعيش بعد أن يفنينا وباء أو حرب نوويّة.. لقد جابت الديناصورات الأرض بضخامتها المروعة ثم اندثرت وجاءت الثدييات.. لكن الحشرات ظلت كما هي.. بارعة جدًّا.. خارقة القوة.. متكيفة بشكل مذهل لبيئتها..»

☆ ☆ ☆

قال (هاري) في عصبية وهو يبدو موشكًا على تحطيم رؤوسنا لسبب لا أعرفه:

- «أنتما مجنونان تمامًا.. عندما يحدث قتل عليك أن تبحث عن قاتل.. لا أن تعطى آلاف التفسيرات الطفولية.. رجلان ناضجان مثلكما!»

بدا كأحد أبطال أفلام الخمسينيات أكثر من أي وقت آخر.. الشعر الأشقر والذقن المشقوقة والصدر العريض والانفعال الزائد.. لكن الوضع فريد هنا.. بطل الفيلم لا يفهم شيئًا..

نظرت إلى الوراء لأتأكد من أن الفتى و(باتريشيا) لم يقتفيا أثرنا.. أنا لا أثق في الفتاة.. بل لا أثق في أحد على الإطلاق.. لكني على الأقل أرجح أن هذين اللذين يقفان معي مضمونان لفترة أخرى..

لم أر ورائي إلا الليل.. الطريق السريع الخالي.. أضواء محطة البنزين الغافية.. تلك الحشرات المضيئة..

قال (شوارتز) وهو يلهث انفعالًا:

- «لو فكرت في الأمر بلا تعصب لفهمت.. لا أعني أنهم صاروا حشرات كاملة لكنهم بالتأكيد قطعوا شوطًا لا بأس به.. بيوت من شمع وبيوت من ورق.. ماذا عن تلك الرائحة الكريهة المسيطرة على البلدة؟ الآن أتذكر مصدرها.. هناك بق يصدر رائحة مماثلة لحماية نفسه.. ماذا عن نطاط الحقل الذي لا يهمد طيلة الليل؟ وماذا عن كل الأضواء التي تراها في الأفق؟ حاملات المشاعل أو الذباب المضيء..»

قلت أنا بدوري:

- «ودقات الطبول المعدنية.. أعتقد أن نوعًا من الخنافس يحدث هذا الصوت..»

تدخل (شوارتز) مصححًا:

- «بق.. بق (السيكادا).. يطلقون عليه اسم (قارع الطبول) لأنّه يحرك ذلك الغشاء المستدير تحت أجنحته فيحدث ذلك الصوت المعدني.. هناك ولايات في الجنوب تضطر لإغلاق المدارس في مواسم معينة بسبب ارتفاع صوت هذه الدقات..»

تدخل (هاري) قائلًا:

- «هل ترى؟ نحن في الجنوب فعلًا.. هل هناك ما هو جنوبي أكثر من (أريزونا)؟ ما نتحدث عنه هو ظاهرة ولاية تعجّ بالحشرات.. لا يجب أن يدهشنا هذا.. هناك مواضع في إفريقيا جعلها النمل محرمة على البشر لكن هذا لا يعني أن الناس يتحوّلون لنمل!»

قلت وأنا أتحسس شفتي:

- «بق القبلات الذي يتسلل لي؟...»

عاد (هاري) يقول في إصرار:

- «هذا لا يدل على شيء الحشرات تلدغ في كل حين...»

قال (شوارتز) وهو يشعل لفافة تبغ:

- «وماذا عن الجثث التي يتعرض أصحابها للتدويد وهم أحياء.. وماذا عن أسباب الوفاة؟ وماذا عن الجثة التي تم امتصاص الدم من عنقها؟»

- «حقًا؟ ماذا عنها؟»

ضحك ونظر لي ثم أردف:

- «البعوض يفعل ذلك.. تخيل بعوضة بحجمك.. هناك البق والبراغيث أيضًا..»

- «ليس لديك دليل على أي شيء من هذا الهراء..»

- «سأعطيك الدليل.. الجثة التي تم التهام الرأس والعنق فيها.. نحن لم نر أسلوب قتل بهذه الشناعة من قبل.. إنها جثة ذكر.. هذا الفتى (هارلسون) كان في لقاء عاطفي مع فتاة لطيفة.. هذا هو ما أرجحه.. والآن وسط اللقاء تدير الفتاة الرقيقة رأسها لتلتهم رأس الفتى Praying Mantis تلك الحشرة المفترسة التي حسب الناس أنها تقف على قائمتيها الخلفيتين وتضم كفيها لأنهّا تصلي.. أنثى هذا النوع تلتهم الذكر بعد التزاوج.. أو تنتزع غدة معينة مسئولة عن الشعور بالألم. هكذا يمضي البائس إلى مصيره بلا ندم.. ثم تواصل التهامه بدءًا بالرأس على سبيل التغذية.. هذه الحشرة تلتهم كل ما يتحرك أمامها في بعض بلدان الشرق الأقصى يربطونها بحبل للفراش كما يفعلون مع الكلاب، لتحمي النائم من هجوم أية حشرة أثناء النوم! إن هذا الجزء قد يفسر لنا مقتل الطيور والقطط ..»

وتأمل وجه (هاري) المذعور وأردف في استمتاع:

- «إنها الحشرة الوحيدة القادرة على أن تبصر ما وراء كتفها.. وأن تمسح وجهها بيديها كالقط.. وتأكل من يدك كالكلب.. وتشرب الماء كالخيول!»

ارتجفت للفكرة.. ثمّة شيء رهيب في هذا..

قلت أنا مفكرًا:

- «وتلك الفتاة الرقيقة التي جاءت تبحث عن عريس قالت إنها مولودة اليوم فقط.. ثم تدخل الكافتيريا لتجلس جوار أكبر ضوء فيها.. اسمها (ماي).. الآن أفكر في شيء ما..»

قال (شوارتز):

- «اسمها (مايو).. ذبابة (مايو)... الذبابة التي لا تعيش أكثر من يوم واحد من شهر مايو.. تبحث عن الأضواء ثم تتزاوج.. وعندما يأتي المساء تموت في صمت.. يوم واحد فقط هو كل حياتها.. لم يستطع أحد أن يفهم هذا.. وقد هلكت الفتاة أمام عيوننا بعدما انتهت حياتها هباء.. التشريح لن يجد أي شيء يمت للسموم في دمها.. لن يجدوا سببًا للوفاة فقط ماتت لأن أجلها انتهى من أين جاءت؟ لن نعرف أبدًا..»

هنا صاح (هاري) بانتصار:

- «نحن في الخريف يا عزيزي.. هذا يهدم فرضيتك بالكامل»

- «لا تنس أننا في الصيف الهندي.. وهو جو حار مخادع يأتي أحيانًا في نهاية الخريف.. لقد رأينا بيض دود القز يفقس في هذا الجو برغم إنّه لا يفقس إلا ربيعًا.. أنا أعرف من خبرتي أنّ بعض ذباب مايو يظهر في هذا الوقت»

ثم تذكر شيئًا فأضاف:

- «ثمّة شيء لاحظته تلك الفتاة.. يبدو أنها سمة عامّة في نساء البلدة هذه الأيام.. أنهن جذابات جدًّا.. إن لهن رائحة عطرية قوية.. الرجال يتصرفون معهن ببلاهة كأنهم تلاميذ مراهقون.. ألا يذكرنا هذا بالفيرمونات pheromone؟ إناث الحشرات تفرز هذه الرائحة التي تجذب الذكور.. ولكم من مصيدة أعدها العلماء لذكور حشرة معينة عن طريق إطلاق هذه الرائحة.. في إفريقيا تعد هذه من وسائل مكافحة ذبابة (تسي تسي) المعروفة»

هنا فقط فهمت.. ذلك الانجذاب المفاجئ الذي شعرت به نحو الفتاة (ماي) عندما دخلت الكافتيريا.. لم أكن أبله.. كنت تحت تأثير كيميائي شديد الكفاءة.. ثمّة حقيقتان هنا: الحقيقة الأولى هي أنك يجب أن تقترب من عالم الحشرات أكثر لتفهم دقة وإعجاز الخلق، وبلاهة من يحسبون هذا تم بالصدفة.. الحقيقة الثانية هي إننا في مأزق مبالغ التعقيد.. هذا العالم الغريب ينهال فوق رؤوسنا..

وألقى بقايا لفافة التبغ ونظر إلى الصحراء الخالية حيث يتناثر الظلام بالتساوي مع صبار (الساجوارو) المخيف.. تشعر بأن جيشًا كاملًا من المكسيكيين يقترب منك في الأفق..

ثم نظر لـ (هاري) وقال باسمًا في خبث:

- «أنت كنت أقرب ما يكون لتجربة من طراز آخر لكن لها طابعًا حشريًا واضحًا.. هل تتذكر؟»

قال (هاري):

- «أنا؟ بالطبع لا..»

- «في الحجز الذي قضيت فيه ليلتك.. رأيت ذلك الفتى النحيل الذي يشبه تمامًا الفراش الذي ينام عليه.. وأخاه الذي بدا لك ميتًا إلى حد لا يصدّق.. هذه أساليب (العصي الرحالة) التي تهوى التظاهر بالموت أو تتظاهر بأنها عصا لا يمكن أن تميزها عما حولها.. مجرد طريقة تماه بيئية معروفة..»

كان يشعر بإثارة بالغة.. صحيح أنّ هذا يعني كارثة لا قبل لنا بها، لكنه كان مصممًا على الاستمتاع باللحظة الحالية حتى إن كانت الأخيرة..

تدخلت بدوري في الحديث شاعرًا بأن الحقائق كلها تتداعي كاشفة عن وجهها الحقيقي:

- «البيوت الورقية التي حكى لنا عنها (بيلي) حيث قابل القس.. لا أعرف إن كنت ترى رأيي لكن هذا يذكرني بالزنابير!»

هزّ (شوارتز) رأسه موافقًا

- «الزنابير الاجتماعية نعم.. بالمناسبة: من هو مخترع الورق؟»

كان (هاري) قد تعود هذه الأسئلة.. الأسئلة التي لا بد أن إجابتها غير ما تتوقع.. عندما يسألك أحدهم هل الطن أثقل أم الطنان تشعر بتردد وتتوجس من خدعة ما.. لا بد أن الطن أثقل.. لذا قال في ضيق:

- «لا تقل لي إنها الزنابير..»

- «هذا صحيح.. القصة الصينية تقول إن مخترع الورق (تساي لون Ts'ai Lun) استلهم اختراعه من الدبور أصفر الرأس الذي يمضغ الخشب ليصنع منه عجينة.. هذه العجينة يُشكل منها بيوتًا من ورق تشبه بيوت النحل لكنّها أقل دقة.. هذا يفسر لك المشهد المخيف الذي كان آخر ما رآه القس.. (توم لين) تحول إلى دبور آدمي يمضغ الخشب ويصنع منه الورق.. بعض هذه البيوت يبلغ درجة مذهلة من الإتقان.. ثمّة نوع يدعي (غليون الهولندي) يبلغ حجمه قياسات مخيفة..»

- «وهذا الدبور الآدمي انقض على القس؟»

- «كيف مات القس؟ مات وهو يتحسس عنقه.. لقد تورمت حنجرته وانسدت الدبور لا يستقر قبل أن يلدغ كما تفعل النحلة، لكنه يمرق جوارك بسرعة البرق ويسدد لك لدغة محكمة بزبانه.. لهذا لم يره الفتى ولا القس (توم لين) يفعل شيئًا.. يشبه الأمر قاذفة صاروخية تمر.. بجوارك وبعد أن تبتعد في الأفق تكتشف أنك تنزف وأن صاروخًا أصابك بإحكام..»

هنا قررت أن أسال بدوري:

- «ما معنى جر جسد العجوز (سكروج)؟»

قال (شوارتز):

- «لا نعرف ما الذي جره.. لكن هذا سلوك شائع لدى الحشرات.. لا بد أنها أخذته إلى عشها لتأكله على مهل..»

ارتجف (هاري) وارتجفت للفكرة.. لو كان هذا قد حدث فإنّه من المحزن أن أتذكر العجوز جالسًا في الليل يصغي لما فعلته (كاتي) ويقول: «في سني هذه يصعب أن تجد صديقًا غير المال يا صبي إنّه لا يكذب عليك ولا يسرقك ولا يتخلى عنك.. ولولا المال الذي أملكه لألقوني في الصحراء للكلاب البرية..»

سألت سؤالًا آخر:

- «رأينا كل شيء ممكن.. لكن ماذا عن العناكب؟ سوف يكون من المخيف أن تكون هناك عناكب بشريّة لكن لماذا لم نلق أحدها حتى الآن؟»

ابتسم (شوارتز) وقال في غموض:

- «هل تعرف السبب؟ يدهشني أن يقع طبيب في الخطأ الشائع ذاته..»

- «أي خطأ؟»

- «العناكب ليست حشرات.. العناكب ذات ثماني أرجل.. بينما لا تكون الحشرة حشرة إلا إذا كان لها ست أرجل، وانقسم جسدها بوضوح إلى صدر وبطن ورأس.. واضح أن الأمر الذي يحدث هنا يتعلق بالحشرات ولا شيء سواها»

مشينا في ظلام الليل على غير هدى عاجزين عن العودة إلى الموتيل.. غير راغبين فيه.. كنا راغبين في الفرار.. فلماذا لا نفعل هذا الآن؟

قال (هاري) وقد بدأ يبتلع هذا الكلام العجيب:

- «لكن.. لا توجد تحولات مظهرية واضحة.. هل تعتقد أنّ هذا الدبور البشري كان يطير وله زبان يتدلى من مؤخرته؟»

- «نحن لم نره بوضوح.. لكنني على الأقل رأيت الفتاة (ماي).. بالتأكيد لم تكن تشبه الذبابة.. إما أن التحول جزئي وإما أنّ هذه مرحلة أولى ولسوف يكتمل الأمر قريبًا..»

قلت في قلق:

- «هل تعتقد أنه من الممكن أن نرى أمامنا هؤلاء الرجال - الزنابير يحلقون في الهواء؟»

- «أنا لا أعتقد أي شيء.. ما يحدث هنا غير مسبوق.. نحن نتعلم بالطريقة الصعبة.. نتعلم أثناء وقوع الأحداث لا قبلها.. لو رأيت رجالًا زنابير يطيرون ويلدغون فمعنى هذا أنّ هناك رجالًا زنابير يطيرون ويلدغون.. لا توجد طريقة أخرى»

ونظرنا إلى السماء المظلمة التي تلبدت بالغيوم..

وشعرنا بهلع.. يمكن بالفعل أن نتصور الآن أن تمتلئ هذه السماء بالزنابير الآدمية.. يبدو عسير التصديق لكن أي شيء يمكن تصديقه في هذا الذي يحدث؟

إن الخطر داهم.. بالفعل تحمل الساعات التالية احتمالات كابوسية..

هنا قال (هاري) أهم سؤال في الأمسية كلها:

- «عرفنا ما يحدث لكن لماذا يحدث؟ ما تفسيره؟»

نعم.. السؤال الأول دائمًا يكون ماذا؟ السؤال الثاني هو كيف؟ السؤال الثالث هو لماذا؟

☆ ☆ ☆

- 2 -

دخلنا بيت القس عندما أشرقت الشمس..

لم يعد المأمور حتى الصباح ولم يعرف أحد عنه شيئًا لكني استبعدت أن يموت.. هو أذكى من ذلك.. دعك من أنّه ظل مأمورًا سبعة عشر عامًا..

لقد حكى لي (بيلي) والفتاة الكثير عن المأمور وساديته التي امتدت لكل شيء حتى أسرته.. لا أعرف ما حدث له، لكني بشكل ما أشعر بأنه يستحقه..

كان (شوارتز) هو الذي اقترح أن ندخل بيت القس وأن نفعل هذا بأنفسنا.. إن المأمور لن يسمح بذلك طبعًا بسبب موقعه الرسمي، ولما كان القس غالبًا يعرف كل شيء فإن بيته قد يحوي دليلًا ما..

قال (شوارتز) وهو يدور حول البيت المغلق:

- «أنا أحلم بمذكرات.. هذا عسير لأن القساوسة لا يكتبون ما يسمعون من اعترافات، لكني آمل في أن يكون ما سمعه مخيفًا.. مخيفًا إلى الحد الذي دفعه ليدونه»

كان الاحتمال واهيًا لكننا قررنا أن نستكشف على كل حال..

لم نكن نعرف البيت فتطوع (بيلي) بأن يرافقنا إلى هناك.. ومن الخارج بدا لنا المكان صموتًا أكثر من اللازم.. الحديقة مهملة وإن كانت بها عدة أحواض لسقاء الطيور، ويبدو أنه كان مولعًا بها حقًّا..

هناك بيت.. بالنسبة لي كمصري يبدو أي بيت ذي حديقة فاخرًا، لكن من الواضح أنه متواضع جدًّا بالنسبة للمعايير الأمريكية..

قال (بيلي):

- «إنّه يترك الباب الخلفي مفتوحًا.. كل البلدة تعرف أنه لا يملك شيئًا لذا هو لا يخاف السرقة..»

وارتجف صوته.. لقد تذكره الآن.. لم يكن يميل له في حياته لكن تجربة الليل جمعت بينهما بشكل ما، ثم جاءت الوفاة المفاجئة.. الوفاة التي كان يمكن أن تكون من نصيبه لو أنّ الهجمة أصابته هو..

فتح (هاري) الباب.. وبحذر دخل.. ومشينا وراءه في البيت الذي مات صاحبه.. مات ولا نعرف هل نسترد جثته - أم لا.. في أسوأ كوابيسه لم يتصوّر أن يموت بلدغة زنبور آدمي..

راح كل منا يتفقد حجرة.. لا يوجد شيء سوى مجموعات كبيرة من الكتب.. ثمّة نظارة مقربة كان يراقب بها الطيور هناك عشاء لم يتناوله ويبدو أنه قرر أن يبقيه إلى حين العودة من جولته الاستكشافية.. تفاصيل صغيرة تجعل في حلقك غصة لو كنت تفهم ما أعنيه..

فجأة صاح الفتى بلهجة منتصرة:

- «أنا في غرفة النوم.. أعتقد أنّ هذا شيء..»

وخرجنا إلى البهو لنجده ممسكًا بمفكرة صغيرة أمساك (شوارتز) بها باعتباره صار قائد مجموعتنا من دون انتخاب.. قلب الصفحات من آخرها ثم توقف عند مقطع بعينه وتلاه بصوت عالٍ:

- «سوف أذهب لأرى بنفسي ما قالته لي (كلاريسا)..»

ما الذي قالته له (كلاريسا)؟ ومن هي أصلًا؟

قال (بيلي) وهو يصلح من وضع عويناته:

- «زوجة مدرس البلدة.. امرأة بارعة الحسن مهذبة تعمل في متجر..»

قال (شوارتز) وهو يجوب بين الصفحات:

- «وقد جاءت تقدم له اعترافًا.. الاعتراف الوحيد الذي دونه القس.. لقد كنت على حق.. يبدو أنها الشخص الوحيد الذي قرر أن يتكلم في البلدة كلها..»

ثم راح يقلب الصفحات وبدا عليه الاهتمام..

قال بصوت عالٍ مرتجف قليلًا:

- «هنا وصف للحفلات كما جاء على لسان المرأة.. هذا مفيد جدًّا.. ثمّة تفاصيل مريعة هنا لكن لا وقت لقراءة كل شيء.. ثم.. اسمعوا هذا الجزء: في المرّات التي كانت (كلاريسا) ترفع ذراعها فيها لينحسر الكم الطويل عنها، كنت أدرك أن شيئًا ليس على ما يرام.. هناك شعيرات معقدة تحيط بالذراع.. أجزاء خشنة وأجزاء ملساء.. لو شئت الدقة لقلت إن هناك أمشاطًا تبرز من ذراعها!»

رحنا نتصور المشهد فلم نفلح.. يكفي أنه مرعب..

قال (شوارتز):

- «ألم تفهموا بعد؟ أمشاط.. توجد حشرة تملك ترسانة كاملة التجهيز حول أقدامها.. سلال وفرشاة وقطاعات ورماح تخترق الشمع.. إنها النحلة! شغالة النحل.. لا توجد صعوبة في تصوّر

ما انتهت إليه تلك المرأة..»

وتبادلنا النظرات..

قال (بيلي):

- «إن بيتها قريب من هنا.. هل ترون أن نذهب هناك لنطمئن؟»

لم يكن هناك ما يمنع.. خاصة أننا وجدنا ضآلتنا.. هذه المفكرة يجب أن تطالع بعناية..

على أن (شوارتز) فتح الصفحة الأولى ثم غمغم:

- «القس دوَّن هنا كلمات أغنية (إليانور رجبي).. أغنية البيتلز الشهيرة.. ما معنى هذا؟ لماذا هذه الأغنية بالذات؟»

كنت أنظر إلى جوانب المسكن المقفر، والذي لن يعرف بعد اليوم إلا التراب والعناكب والظلام.. وفي سرّي سمعت الأغنية القديمة تتردد:

«(إليانور رجبي) ماتت في الكنيسة ودفنت ومعها دفن اسمها..

الأب (ماكنزي) ينفض الغبار عن يديه وهو يفارق قبرها..

فلم يتم خلاص أحد..

هؤلاء الناس الوحيدون.. من أين يأتون؟ وأين ينتمون؟»

☆ ☆ ☆

دققنا الباب عدة مرات فلم يرد أحد..

شعرت بامتنان لعادة الأمريكيين في عدم إغلاق الباب الخلفي، فهي تسمح لك بالدخول في أي وقت.. عامّة لا أفهم كيف يشعرون بالأمان في هذه البيوت المليئة بالثغرات لكن هذا ساعدنا على كل حال، ودخلنا البيت..

كان (بيلي) يشعر برهبة لأنّه يقتحم بيت معلمه.. الحق أنه كان من الطلبة القلائل المحترمين في هذه البلدة كما فهمت.. لكن كل شيء يوشك على أن يتلاشى..

- «مستر (رتشاردسون)!»

لا أحد يرد.. وكور (هاري) قبضته متحفزًا.. في أية لحظة يمكن أن تبرز لنا نحلة آدمية عملاقة.. هذا هو ما يمكن فهمه من تلك المذكرات لو كانت دقيقة، وهي كذلك لا شيء فيها

يعارض ما قاله الفتى ولا ما رأيناه حتى اللحظة..

- «مستر (رتشاردسون)!»

بحثنا في كل صوب.. فلم تبق إلا غرفة النوم..

قال (شوارتز) وهو يناولني سكينًا:

- «أبق هذه في يدك.. لقد أتيت باثنتين من المطبخ.. نحن لا نعرف ما قد نجده..»

وفي حذر وجل مشينا نحو الغرفة الوحيدة التي لم نستكشفها بعد..

وفجأة تصلبنا..

قال (شوارتز) وهو يمشي بضع خطوات حذرة للأمام:

- «الأمر واضح.. لقد دخل عليها وقد نزعت الثياب التي كانت تخفي حقيقتها.. لا بد أنها حاولت منعه من الفرار»

على الأرض كان المستر (رتشاردسون) جثة هامدة.. وجهه مزرق تمامًا ونظرة هلع في عينيه.. تصلب عام في أطرافه.. وفي قلبه انغرس ذلك الزبان العملاق.. بحجم خرطوم الري..

لكن المثير في الأمر هو تلك الجثة التي هي خليط غريب من امرأة ونحلة.. على بعد مترين من الجثة الأولى، وقد اكتست بالشعر تمامًا.. الأطراف مغطاة بتلك الأدوات المعقدة كما وصفها (شوارتز).. أمشاط.. فرش.. سلال لجمع حبات اللقاح.. مخالب للتمسك بالسطوح الخشنة.. إلخ.. ويبدو أن الزبان كان يخرج من أسفل ظهرها.. العينان مفتوحتان لكنهما عبارة عن مجموعة من العيون المركبة المتراصة..

وكأية نحلة شغالة حقيقيّة تحترم نفسها غرست الزبان في قلبه، لكنّها تركت معه جزءًا من أحشائها.. لقد مات الاثنان في اللحظة ذاتها..

كان المشهد غريبًا.. غريبًا إلى درجة أنه ليس مفزعًا.. لا بد من خبرات معينة في ذهنك تستدعيها للشعور بالفزع، أمّا هذا المشهد فقد تفوق على كل شيء..

بلل (هاري) شفتيه بلسانه، وقال:

- «معنى هذا.. أن التحول موروفولوجي كامل..»

- «هذا صحيح..»

وانحنى (شوارتز) يتفحّص الجثة الأكثر غرابة: النحلة.. وقال في قلق:

- «ما يضايقني هو أنها تبدو أقرب للنحلة منها للأنثى.. ما كان القس ليفتح لها باب بيته وهي بهذا الشكل..»

- «وماذا في ذلك؟»

قلت أنا وقد فهمت ما يريد قوله:

- «معنى هذا أن التحول كان سريعًا جدًّا.. لقد ظلت فترة لا بأس بها بمظهر طبيعي أو ربما كانت تخفي تلك الشعيرات بساعدها.. لكن فجأة صارت بهذا الشكل.. لا بد أن الأمر تم خلال ساعة أو ساعتين..»

قال (شوارتز) وهو يهز رأسه:

- «هذا مقلق.. أكثر من شخص سيتحولون في الساعات القادمة..»

المصيدة تنغلق علينا ببطء..

ترى أين وكيف سنكون غدًا؟

☆ ☆ ☆

- 3 -

«جوني.. أمسك بالقوس واعزف كمانك جيدًا..

إن الجحيم قد تفجر في (جورجيا) والشيطان يوزّع أوراق اللعب..

فلو فزت لربحت هذا الكمان الجميل المصنوع من الذهب..

ولو خسرت لظفر الشيطان بروحك!»

☆ ☆ ☆

من تبقوا من أهل البلدة كانوا يقفون في الشارع الرئيس بينما تلك السيارات تندفع مبعثرة الرمال والغبار.. سيارات فاخرة من (فينكس).. إنّه فريق الشرطة الذي اتصل به المأمور منذ أيام..

حوالي أربع سيارات.. ثم سيارة كبيرة نوعًا تشبه سيارات (البوكس) عندنا.. وسرعان ما توقفت السيارات جميعًا أمام مكتب المأمور.. وترجل منها الركاب.. فيما بعد رأيت فيلم (رجال في ثياب سود) فخطر لي أنّ هذا.. مظهرهم بالضبط.. النظارات سود.. الثياب سود وأنيقة جدًّا.. بعض الرجال له مظهر كلب الحراسة الشرس اليقظ.. يُمكنك أن تسمع أفكارهم: هذا الوكر الحقير ماذا يمكن أن يحدث فيه؟ رجال الشرطة الريفيون هؤلاء لا يفقهون شيئًا.. دع هؤلاء القرويين يروا قوة التمدين..

بدا من منظرهم أنهم مندهشون لأن أحدًا لم يلقهم..

ومن السيارة التي تشبه (البوكس) نزل رجال في ثياب سود بدورهم، لكنهم مدججون بالسلاح ويضعون كاسكيتات على رءوسهم.. يبدو أنّ هذه قوات (السوات SWAT) ذائعة الصيت.. كانوا حوالي عشرين رجلًا وقد وقفوا عاجزين عن معرفة ما عليهم عمله.. ينظرون حولهم.. يتبادلون الكلام الهامس.. أحدهم راح يتظاهر بإطلاق النار على صبيين شقيين هؤلاء القوم مدربون على إطلاق النار ثم التفاهم.. وهذا الوضع المرتبك لا يروق لهم...

أكبر الرجال وأهمهم شأنًا كما هو واضح يقف حائرًا ويضع يديه في خصره.. ثم ينظر متسائلًا..

دنا منه أحد الفضوليين الواقفين ونزع قبعته الرثة وقال له:

- «معذرة يا سيدي.. المأمور مختف منذ البارحة وكذا مساعده..»

- «إذن من المسئول الأمني في هذه البلدة؟»

- «لا أحد..»

- «غريب!»

وتبادل النظرات مع من حوله.

- «لهذا لم يرد على الهاتف..»

هنا كنت أنا و(شوارتز) و(هاري) قد دنونا من الرجل.. كان (شوارتز) أدرانا بالشرطة.. دعك من مظهره الموحي بالاحترام والثقة.. أنا أبدو كالجرادة و(هاري) يبدو مشاغبًا..

قال (شوارتز) وهو يمد يده لمصافحة الرجل:

- «د. (جوزيف شوارتز).. خبير منتدب في علم الحشرات العدلي.. إن إدارتكم أرسلتني هنا»

ظل الرجل ينظر له متسائلًا من وراء زجاج نظارته الأسود..

قال (شوارتز):

- «المأمور اختفى.. لكن بوسعي أن أعطيك تقريرًا كاملًا عن الأحداث الغريبة التي وقعت في هذه البلدة.. لو أردت رأيي لقلت إنها أحداث استثنائية.. هل معكم أحد من الـ FBI؟»..

- «لا.. نحن رجال شرطة فقط..»

- «إذن ستكون مهمتي أسهل..»

فكر الرجل قليلًا ونظر لمن حوله، وقال:

- «هل رائحة البلدة كريهة هكذا دومًا؟»

- «سوف تعتاد هذا.. وتعتاد الأضواء الليلية وصوت الطبول المعدنية.. وصوت نطاط الحقل.. صدقني»

أشار الرجل إلى مكتب المأمور فأزاح (شوارتز) الباب ودخل ودخلنا خلفه..

كان الأخوان (كالاهان) اياهما في الحجز يتسليان بلعب دور (العصي الرحالة) عندما رأيانا.. لم يتكلما بل ظلا ينظران لنا في فضول من وراء القضبان..

استدار (شوارتز) ليقول لـ (هاري) همسًا:

- «آسف لوقاحتي.. لكن هذين لم يأكلا شيئًا منذ البارحة.. هل بوسعك أن تبتاع لهما بعض البسكويت من أي متجر؟ هذه هي مشكلة السجناء إذا مات السجان..»

- «وهل السجان قد مات؟»

- «أعتقد هذا..»

وهناك في المكتب الذي كتب على بابه (المأمور) اجتمع (شوارتز) بالرجال المتأنقين الذين كان عددهم عشرة.. وبدأ (شوارتز) يحكي القصة منذ بدايتها..

☆ ☆ ☆

- «(ساندرا)!!»

كان هذه من (بيلي) وهو يرى الفتاة قادمة من نهاية الشارع.. سليمة بحق سليمة جدًّا.. وثب قلبه في صدره.. لم يتصوّر أنه سيراها حية مرّة أخرى..

دنت منه ونظرت له في ثبات، ثم قالت:

- «هو ذا الفتى الشجاع قد عاد..»

قال في ضيق:

- «لقد لحقت بك لكن كانت لي مغامرة قاسية في (مخالب الشيطان).. إن البلد ذاهبة إلى الجحيم فعلًا..»

- «لن أستغرب هذا..»

- «لقد هلك القس.. الأب (ميلروي).. كان هذا أمام عيني..»

اتسعت عيناها الصافيتان.. ووضعت يدها على كفه.. وهمست:

- «يا للبائس الصغير!»

كانت دمعتان متحجرتين بالفعل خلف عويناته.. وأدرك أنه لو تكلّم لانفجر باكيًا وكانت فضيحة.. قالت هي:

- «أنا ذهبت وراقبت ما يحدث هناك.. يبدو لي أن الساعة قد حانت إنهم قد تلقوا أوامر التفرق في البلدة.»

- «وهل مارسوا ذات الطقوس؟»

- «ذاتها..»

ساد الصمت قليلًا، ثم قال:

- «كانت ليلة دامية.. القس مات.. المأمور ونائبه مختفيان وكذلك (سكروج) العجوز صاحب الموتيل الأستاذ (ريتشاردسون) وزوجته ماتا..»

هتفت في ذهول:

- «يا للهول! (كلاريسا)!!»

- «نعم.. تلك الحسناء الرقيقة.. لقد صارت نحلة آدمية وقتلت زوجها.. يقولون إن هناك بشرًا يتحوّلون إلى حشرات.. وهناك رجال من (فينكس) جاءوا للتحقيق»

قالت بلهجة تقريرية:

- «الليلة سأعود.. أنت حر في اللحاق بي أو تركي ربما يقبل (جويل) أن يصحبني.. لكني أعرف يقينًا أن الكابوس بدأ من موضع ما قرب أكواخ (النافاهو Navajo) القديمة التي بنيت قرب المنجم.. سوف أذهب هناك»

- «ولماذا لا تخبرين رجال الشرطة؟ هل يجب أن تلعبي دور الفتاة الحمقاء في أفلام الرعب؟ تلك التي تموت لأنهّا (أرادت ذلك)؟»

قالت وهي تتحسس خصلات شعرها:

- «ليس لديَّ ما أحكيه إلا الشكوك.. لا بد من أن أتأكد..»

كان (بيلي) يعرف هذه الأكواخ المتناثرة قرب المنجم.. إن هنود (النافاهو) والـ (هوبي) هما أكبر تجمع للهنود في الولايات المتحدة كلها.. منذ زمن سحيق كانوا يعيشون في كندا ثم هاجروا للجنوب ليستقروا فيما نعرفه اليوم باسم (أريزونا).. اختلطوا بهنود آخرين مزارعين اسمهم (بويبلو Pueblo) فتعلموا منهم فنون الزراعة.. يعيشون في أكواخ من طين يمارسون فيها النسيج.. أكواخ لها خاصية مميزة هي أنها مفتوحة نحو الشرق.. هذه هي الطريقة التي يحيون بها الشمس ولهم مجتمعهم الخاص البعيد عن عادات الأمريكيين والمكسيكيين.. لهم كذلك لغتهم الخاصّة التي كان الأمريكيون يستعملونها أثناء الحرب العالمية الثانية كنوع من الشفرة التي يستحيل فهمها على اليابانيين..

لكن.. الليل والظلام والمغامرة.. ويد (ساندرا) ترتجف في يده.. لو لم تقع في حبّه بعد مغامرة كهذه فلن يحدث هذا أبدًا.. الجبناء لا يظفرون بأي شيء ويموتون متحسرين..

فكر قليلًا، ثم قال لها:

- «ليكن لكن متى؟»

- «التاسعة مساء.. نتحرك من جوار (جاكسون).. لا تنس كشافك»

نعم الكشاف.. ولسوف يتزود باحتياطات أكثر..

☆ ☆ ☆

لما انتهى (شوارتز) من عرض القصة كان واضحًا دقيقًا مقنعًا إلى درجة أن كبير القادمين من (فينكس) - ويدعى المفوض (مكالستر) - قال في حماس:

- «كل ما تقوله كلام فارغ!»

كانت هذه هي النهاية.. لا يوجد ما يضاف إلى القصة قلت وأنا أتوقع أن يقول لي أحدهم إنِّه لا شأن لي بهذا:

- «هل فحصت الجثث التي أرسلوها لكم؟»

- «لدينا تقارير الطب الشرعي.. ولا أرى أنها تدعم حرفًا مما يقول هذا الرجل..»

- «هناك جثة اختفى رأسها وعنقها وأعلى صدرها.. هل لديك تفسير لهذا؟ ما لم توجد سمكة قرش في شوارع البلدة.. دعك من أنّ هناك امرأة ميتة هي مزيج من نحلة وامرأة.. أؤكد لك أن منظرها ليس محببًا»

- «ليس لدى تفسير لكن هناك حلًا منطقيًا في مكان ما بدلًا من هذا الهراء عن الحشرات.. بعض الجثث التي وجدوها سليمة تحوي سمًا في الدم.. وهذا السم يمكن للقاتل حقنه في الجسد.. إنِّه...»

وفتح ورقة كانت أمامه ليتذكر الاسم ثم قال:

- «حمض الفورميك..»

تبادلت و(شوارتز) النظر.. حمض الفورميك الذي يترجمه البيولوجيون العرب بحمض (النمليك)! السم الذي تحقن به النملة ضحاياها! عندما تكون عندك نملة بحجم الإنسان فإن سمها يمكن أن يقتل إنسانًا بسهولة تامة..

قال (شوارتز) باسمًا:

- «هل ترى؟ لم نر قاتلًا يستعمل حمض الفورميك من قبل.. لكن.. نملة عملاقة.. ألم تفكر في هذا؟»

وأشعل لفافة تبغ فهتف (مكالستر):

- «أنا لا أسمح بالتدخين.. لقد صار هذا المكتب مكتبي من اللحظة.. وأمن هذه البلدة هو مسئوليتي الخاصّة..»

لم يطفئ (شوارتز) لفافة تبغه وإنما نهض، وقال في ثبات:

- «حسن.. أرجو أن تنعم بوقتك هنا.. لكن أنصحك بأن ترسل رجالك للبحث في منطقة (مخالب الشيطان) قبل فوات الأوان.. ربما استطعتم إنقاذ المأمور أو العودة بجثته..»

- «شكرًا على نصائحك.. والآن لو سمحتم لي.. فنحن مشغولون..»

غادرت المكان أنا وصديقاي الأمريكيان..

وفي الخارج كان زحام السيارات.. بينما رجال الأمن المسلحون لا يعرفون ما يجب عمله.. لم يرسم لهم أحدهم خطة من أي نوع.. بعضهم راح يتسلى بالعبث في أنفه.. وبعضهم أشعل لفافة تبغ بعيدًا عن عيني قائده، والمبتكرون منهم راحوا يبصقون على الأرض ثم يغطون البصقة بالغبار.. لعبة مسلية كنت أمارسها في المدرسة الابتدائية.. لقد جاءوا للقتل ولا يعرفون سبب هذه الربكة..

قلت لـ (هاري):

- «يبدو أننا سنشتاق أيام المأمور الباسمة.. أرى أنه كان رجلًا رقيقًا ذكيًا..»

قال (شوارتز) وهو يلوك لفافة التبغ:

- «مركبات نقص من الطرفين.. ضلالات.. المأمور كان مصابًا بوساوس الفحولة والقوة.. هؤلاء مصابون بوساوس الذكاء والاحتراف المهني.. إنهم لا يقبلون أن يستمعوا لأحد ولهذا سوف يفشلون..»

- «وبعد هذا؟»

- «إن قبضة الدولة أقوى من كل هذا السخف سوف تأتي وحدات من الجيش وتسيطر على كل شيء حتى لو أحرقوا البلدة كلها بالنابالم.. لكننا على الأرجح سنكون قد هلكنا..»

أخبار باسمة بحق.. سوف تنتهي المشكلة لكننا سنموت في جميع الحالات.. بشكل ما أحسد من هلكوا.. على الأقل هم يعرفون يقينًا أنهم لن يموتوا!

صوت الدقات يتعالى (بانج بانج).. والرائحة الكريهة لم تتحسن..

وذلك الهاجس يعاودني: المنجم.. المنجم..

قلت له وأنا أنظر تجاه الموتيل الذي نراه عن بعد:

- «سوف نتناول الغداء ثم نتّجه إلى منطقة ذلك المنجم أعتقد أن بوسعنا أن نعرف شيئًا..»

- «هذه مخاطرة مع ما نعرفه وما رأيناه..»

- «ستكون المخاطرة محدودة نوعًا في النهار..»

- «ولماذا المنجم بالذات؟»

طبعًا لا أقدر على التفسير.. لذا قلت:

- «لأن الجميع كانوا يلتقون هناك»

وهكذا اتجهنا إلى الكافتيريا التي فقدت صاحبها أمس ونادى (هاري) (باتريشيا) ليطلب غداءً طيبًا ولم ينس أن يُلقي عليها كلمة غزل عابرة قابلتها ببرود مهني.. تشد شفتيها حتى تصيرا رفيعتين تمامًا على سبيل الابتسامة مما يذكرني بالضحكة الصفراء لدى مرضى الكزاز (التيتانوس).. ثم تنصرف وتعود حاملة تلك الصحفة بما عليها..

قلت لها وأنا أنقل ما تحمله إلى المنضدة:

- «ما هو مصير المحطة والموتيل والكافتيريا يا (باتريشيا)؟ من سيدفع لك راتبك؟»

نظرت لي في سماجة بما معناه أنّ هذا ليس من شأني ثم دست القلم خلف أذنها، وقالت:

- «لا أحد.. لكني سأدير كل شيء إلى أن يظهر العجوز أو أحد ورثته.. لاحظ أنني كنت أفعل كل شيء وحدي.. ثم إن العجوز لم يكن يعطيني مالًا على الإطلاق.. لن يتغير إيقاع حياتي كثيرًا..»

لما انصرفت وتأكدت من أنها ليست هنا، قلت للرجلين:

- «طبعًا يجب أن نتفق على أن ما يُقال هنا سر.. بالذات بالنسبة لهذه الفتاة.. لاحظ أنها آخر من تكلّم مع (سكروج) قبل اختفائه..»

ثم نظرت إلى (هاري) محذرًا:

- «أنت بالذات.. كف عن قاعدة (جميلة إذن هي بريئة)..»

قال في ضيق:

- «قاعدتي هي (جميلة إذن هي تصلح)!»

انتهينا من الغداء، فقلنا بصوت عالٍ إننا سنقوم بجولة في البلدة.. تعرفون تلك الطريقة الساذجة في الأفلام العربيّة القديمة.. يمكن لأي مغفل أن يعرف أننا نكذب.. فقط تمنيت ألا يكون فيلم إسماعيل يس الذي يقول فيه (فتشني فتش) قد عرض في الولايات المتحدة..

غادرنا الموتيل.. ركبنا سيارة (هاري) التي راحت تقطع شوارع المدينة متجهة إلى منطقة المنجم..

سألت (شوارتز) عن أعمال التنقيب عن النحاس هنا لا أشعر أنّ هناك نشاطًا كبيرًا.. كنت أحسب البلدان التي توجد فيها مناجم أكثر صخبًا.. قال وهو ينظر خارج النافذة:

- «هذا المنجم قد انتهى منذ زمن.. لكنهم يستعينون بالبكتريا لفصل نحاسه.. يعتقدون أنّ هذا قد يعطيهم عشرة آلاف طن أخرى.. لهذا يبدو عملهم هنا أقرب إلى عمل البيولوجيين.. إن سادة هذا الموضوع هم العلماء السوفييت الذين أنشئوا محطة لفصل النحاس بيولوجيًا في جبال الأورال.. ومن ثم انتشر الأمر في الولايات المتحدة وفي كل مناجم العالم»

بدا لي الأمر غريبًا.. ما دخل البكتريا باستخلاص النحاس؟ كانت هذه أول مرة أسمع فيها شيئًا كهذا..

قال (شوارتز) وقد أدهشه جهلي:

- «كنت أحسب هذه الأمور بديهية بالنسبة لك كطبيب..»

قلت في غيظ:

- «حقًّا.. إن التعدين جزء مهم من دراسة الطب عندنا في مصر.. لكني لم أهتم به..».

قال (هاري) وهو مصر على إغاظتي:

- «هذه معلومات عامّة.. حتى أنا خبير الحاسبات الآلية أعرف هذا..»

- «ليكن.. اعتبرا أنكما تصحبان حمارًا ربما أكون جاهلًا لكني أملك مزية أتفوق بها على الجميع.. أنا جائع للعلم طيلة الوقت.. وأمتصه كبعوضة جائعة.. ولهذا أعتبر نفسي رائعًا..»

لم يحبّ الرجلان لفظة (بعوضة) وبدا أنني لم أوفق تمامًا في استعمالها.. إلا أن (شوارتز) تقبل هذا وواصل الكلام:

- «العملية اسمها الترشيح الحيوي bioleaching في الواقع ليست بكتريا بالضبط.. لو شئت الدقة لقلت إنها archaea (أركيا).. إنهم يبحثون عن بكتريا تتحمل الحرارة العالية أو سمية الفلزات ذاتها.. مثلًا قد يجدون أنواعًا منها في منجم فحم في أستراليا أو بركان في إيطاليا.. البكتريا التي يستعملونها هنا تتحمل درجات حرارة تصل إلى ٧٠ مئوية.. يجلبونها من بركان إيطالي لذا يطلقون عليها Acidianus infernos.. اسم موح بالجحيم كما ترى..»

قال (هاري) وهو يتابع الطريق:

- «حماس علمي جميل.. كنت أعرف أنني أذهب إلى الجحيم مع مخبولين.. لكني توقعت أن خبالهما من النوع الحميد..»

بالفعل كان محقًا.. لذا آثرت الصمت.. ليس أفضل وقت تناقش فيه تقنيات استخراج النحاس هو الوقت الذي يتحول فيه البشر إلى خنافس..

ومن بعيد بدا لنا الجسر الذي يصل إلى المنجم..

☆ ☆ ☆

- 4 -

بين الأخاديد التي يطلقون عليها مخالب الشيطان مشى رجال الشرطة..

الحق إنهم بدءوا يشعرون بشيء غير مريح.. هذه الشبكة المعقدة من البيوت الورقية والشمعية والطينية مشهد سريالي رسمه (دالي) بجهد جهيد.. لو كنت هناك لأخبرتهم أن المخرج الإسباني السريالي المجنون (لوي بونويل) كان يعشق الحشرات ويقحمها في كل أفلامه.. (كافكا Kafka) قدم أسوأ نموذج للتحول الحشري عندما جعل بطل روايته (المسخ) يتحول إلى شيء أقرب للصرصور عملاق.. باختصار.. لا يمكن تقديم كابوس من دون حشرات.. هذا يفوق القدرة البشريّة..

في المقدمة كان ذلك الرجل الذي نسيت اسمه.. هل كان (ماكالستر)؟ والمسدس في يده.. الرجال كانوا متوترين لكنهم كانوا محترفين.. لذا اتخذوا أوضاعًا مدروسة وهم يمسحون المنطقة.. فلو تحرك فأر لتحول إلى بخار خلال ربع ثانية..

من حين لآخر يسقط أحدهم في أخدود فيسب ويلعن ويعاونه الرجال على النهوض.. إنهم يبحثون عن المأمور الذي ذهب يبحث عن جثة القس..

قرب حفرة بعينها وقف أحد الرجال وصاح ينادي (مكالستر):

- «هلا اقتربت أيها المفوض؟»

أسرع (مكالستر) يلحق به وهو يتوقع أن يرى جثة شاخصة البصر في قاع حفرة من هذه.. لكن ما رآه كان لا يصدّق.. سوف يزور المشهد كوابيسه للأبد لو عاش..

كان هذا هو المأمور بالتأكيد.. قميصه والشارة تقول هذا، لكن عينيه تنظران لأعلى.. إنّه حي.. فوق صدره بقايا بيض عملاق ممزّق كأن طيورًا قد فقست منه.. لكن لم تكن هناك طيور.. كان هناك كائنات عملاقة هي مزيج شنيع من يرقات وأطفال.. وكانت تلتهمه حيًّا!

لم يكن يتحرك.. فقط قالت عيناه المذعورتان كل شيء.. أنقذوني!

ما لم يعلمه هؤلاء هو مدى السخرية الكامنة في هذا المشهد القاسي.. لعله شيء مقصود.. المأمور قضى سبعة عشر عامًا في الخدمة.. والزنبور يهوى اصطياد (السيكادا) التي يطلقون عليها اسم (جرادة السبعة عشر عامًا).. السبب أن بقة (السيكادا) تقضي سبعة عشر عامًا تنمو فيها تحت سطح الماء ثم تخرج للسطح لتعيش أربعة أشهر فقط.. الليلة قد ظفر الزنبور بهذه الجرادة العملاقة.. وهو ذا قد خدرها ليشلها عن الحركة وألقى بها في حفرة ثم وضع بيضه فوقها.. والغرض هو أن تجد اليرقات التي تفقس ما تأكله..

من قال إن عالم الحشرات ليس شديد القسوة؟ إن الجرادة البائسة تظل حية بينما تتغذى عليها تلك اليرقات البشعة..

سبعة عشر عامًا أيها المأمور.. ما كان يجب أن تثرثر بهذا كثيرًا..

حالة هستيريا انتابت (مكالستر)، فصرخ في رجاله:

- «اقتلوا هذه المخلوقات القذرة!!»

نظروا له في حيرة.. لا يمكن التصويب من دون قتل الـ...

- «آمركم بإطلاق النار! إنّه لن ينجو مما أصابه فلتريحوه!!»

وانطلقت البنادق الآلية تمزق كل ما كان في الحفرة..

☆ ☆ ☆

تاتاتاتاك!!!

كنا فوق الجسر عند المدخل تقريبًا عندما سمعنا هذه الطاقات انتفضنا جميعًا.. لكننا قدرنا أن الفرقة إياها تتفقد المنطقة.. وما داموا فعلوا هذا فلسوف يقابلون أشياء كثيرة تستأهل إطلاق النار..

قال (شوارتز):

- «برغم كل شيء أشعر بالاطمئنان لأن هؤلاء هنا.. إنهم مسلحون ومحترفون»

قلت وأنا أنظر إلى الأفق:

- «لا أشاركك الرأي.. إنهم حمقى وهذا مقلق.. ثم إنهم قد يتحوّلون بدورهم! تخيل قوة من رجال (السوات) تحلّق حاملة أسلحتها وتلسع كالزنابير! سيكون هذا فيلم رعب رائعًا!»

قال (هاري) مصححًا:

- «ليسوا من (السوات).. إنهم رجال شرطة مسلحون مدربون هذا كل شيء..»

كان مدخل المنجم واسعًا للغاية كأنه فم الموت الفاغر.. وعندما دخلنا استطعنا أن نرى تلك الصفوف المعلقة من المصابيح الواهنة الكئيبة تتدلى من سلك واحد عند السقف وكانت مضاءة برغم أنه لا أحد هنالك.. كانت هناك عربات صغيرة تقف عند بداية خط حديدي عربات صدئة لا يبدو أنها تستعمل كثيرًا.. هناك فؤوس ومعدات حفر وبضع خوذات معلقة.. بعضها من الطراز الذي يثبت فيه مصباح..

هنالك مصعد.. مصعد حقيقي مثبت لجدار صخري.. له باب من القضبان الحديدية..

لا يوجد كائن بشري هنا..

الحر خانق والرطوبة عالية بحق..

الألم يتزايد في صدري مع اضطراب الخفقات الذي يجعلني أسعل..

توقفت على المدخل واستندت إلى الجدار، وقلت في حزم:

- «أنا لن أنزل.. لن أتحرك خطوة.. هذا أقوى مني..»

قال (هاري) في غيظ:

- «أنت أحمق كالعادة.. لا تنس أنك من أتى بنا هنا..»

نظر لي (شوارتز) مدققًا، ثم قال:

- «هل تعتقد أن سبب ما تشعر به هو رهاب الأماكن المغلقة (كلوستروفوبيا)؟ أم إن قلبك مريض ولا يتحمل نقص الأكسجين؟.. أم إنك - ببساطة - جبان؟»

قلت وأنا أسعل متحسسًا صدري:

- «كل هذا معًا! من يرد النزول فليفعل.. لكن اتركاني هنا..»

هزّ (شوارتز) رأسه.. بدا واضحًا أنني لا أمزح..

راح ينظر حوله ووقعت عيناه على جهاز عملاق للتهوية وصهريج كبير تخرج منه مجموعة من الخراطيم الغليظة تتلوى أرضًا وتتجه إلى أعماق المنجم.. لا يمكن أبدًا أن تعرف أين توجد نهاياتها..

التقط خوذة ذات كشاف، وأضاء هذا الأخير، ثم قال وهو يصوب النور إلى تلك الأشياء:

- «هل ترى هذا؟ هذا المحلول يحوي البكتريا التي حكيت لك عنها.. إنهم يغرقون المنجم به ثم يتركونه يتفاعل.. بعد هذا يشفطون السائل وينزل الرجال للبحث عن النحاس الذي فصلته البكتريا..»

- «قلت إنها ليست بكتريا..»

- «بالفعل.. اسمها (أركيا).. لكن دعنا من هذا.. من الغريب أنه لا يوجد أحد على الإطلاق هنا..»

- «لست حزينًا على هذا..»

نظر لـ (هاري) متسائلًا.. هل تتوغل معي؟

كان هذا الأخير مستعدًا لخوض أية متاعب في أي مكان في أية لحظة؛ لذا كوّر قبضته موافقًا.. وفي هدوء اتجه الرجلان إلى المصعد الحديدي واعتمر كل منهما خوذة من تلك المزودة بكشاف..

صحت في رعب:

- «هل هذا الشيء مأمون؟»

- «سنعرف حالًا!»

وسرعان ما أغلق الباب الذي يذكرك بقضبان السجن وضغط على الزر.. ارتج المكان كله وتساقط الغبار من السقف.. مصعد من العصر (الباليوزي) كما هو واضح.. ثم بدأ يهبط وهو لا يكف عن الارتجاج لأسفل كل شيء يوحي بعدم الثبات فلو عرضوا عليَّ مليون دولار مقابل ركوب هذا المصعد له.. لفكرت قليلًا قبل أن أوافق..

سرعان ما توارى المصعد ووجدت أنني أحدق في بئر عميقة تفصلني عنها بوابة من القضبان..

أخيرًا أنا وحدي..

☆ ☆ ☆

أحب الوحدة بحق لكن ليس هنا.. ليس هنا..

ونظرت لساعتي.. إنها السادسة مساء..

ترى ماذا يحدث في الخارج الآن؟

☆ ☆ ☆

بعد ثلاث ساعات تقريبًا دوّت الطلقات من جديد..

☆ ☆ ☆

تاتاتاتاك!!!

أجفل (بيلي) والفتاة حينما دوّت هذه الطلقات..

نظر لها فوجدها مذعورة فعلًا...

كان يتوقع سماع طلقات منذ رأى هؤلاء القوم في البلدة.. من الواضح أنهم في منطقة الأخاديد.. هذا واضح من اتجاه الصوت وإن لم يعد واثقًا لأن الصدى يفعل أمورًا عجيبة..

قال لها:

- «لا تخافي.. إنهم يمشطون مخالب الشيطان.. يقصونها لو أردت الدقة!!»

كان تنظر للسماء.. وتضم كفيها معًا أمامها.. خطر له أنها تصلي.. ولكن.. لا.. هذا المنظر يبدو مألوفًا.. رآه من قبل ولكن أين؟

يمشيان بين الأكواخ الطينية التي كان أولئك (النافاهو) يعيشون فيها.. كلها خال.. كان يعرف هذا لأنّه جاء هنا مرارًا مع رفاقه.. لكنّها تمشي في ثقة كأنها تعرف ما تريد..

من بين الأكواخ رأى ذلك الكوخ الذي يبدو بحال أفضل.. باب الكوخ جهة الشرق كما هي العادة.. دنا منه متوجسًا ليرى ذلك الرجل الهندي يجلس في وضع الاحتباء أمامه وقد أشعل بعض الأعشاب وراح يغني بصوت خافت وجواره كيس خيشي مزركش..

في الثلاثين من عمره.. يلبس الجينز وحذاء رياضيًا لكنه هندي بلا شك.. هذه الملامح لا يمكن أن تخطئها العين.. إن البلدة تعجّ بهم وتعجّ بالمكسيكيين، لكنه لم يتصوّر أن يجد أحدهم في هذا الكوخ، كأن مائة عام قد اختفت بضغطة زر..

وقف والفتاة أمام الرجل بعض الوقت.. ويبدو أنه أحسّ بهما، فقال دون أن يرفع عينه:

- «(كاشينا).. عند الـ (هوبي) اسمها (كاشينا)..»

ومد يده في الكيس ليخرج دمية ملونة زاهية.. ثم دمية أخرى.. وهو يقول:

- «(بولي سيو).. الفراشة.. (بولي مانا) الفتاة الفراشة.. (بولي تاكا).. الرجل الفراشة.. يعتقد الهوبي أن الله خلق الأطفال، ثم أراد أن يسليهم وينسيهم قسوة الشيخوخة التي هم مقبلون عليها لا محالة. هكذا جمع لهم كل ألوان المروج والطبيعة الزاهية في الفراشة.. ومنحها القدرة على الغناء بأجمل الأصوات.. شعرت البلابل بالغيرة ودعت الله كي يحرم الفراشة واحدة من هذه المزايا.. هكذا صارت الفراشة ساكنة لا تتكلم وإن احتفظت بألوانها..»

نظر الفتى إلى الفتاة.. ما معنى هذا الكلام؟

عاد الرجل يقول بصوته الهندي الجاف:

- «عندنا نحن النافاهو أسطورة عن إله اسمه (بيجوشيدي Begochidi) يشبه الفراشة وكان يقود شعبًا من الفراش.. سافر بعيدًا.. وحينما عاد وجد أن شعبه ارتكب المعاصي ومارس الزنا، لهذا لعنهم.. وأصابهم بالجنون.. ومنذ ذلك.. الحين جُنَّ كل الفراش.. إنِّه يندفع نحو النار لينتحر.. ألم تسأل نفسك عن السبب؟ لأن (بيجوشيدي) غاضب..»

ركع (بيلي) أمام الرجل وراح ينظر له من وراء الدخان المتصاعد من النار..

قال له بصوت مبحوح:

- «هل تعرف حقيقة ما يجري؟»

- «(بيجوشيدي) غاضب..»

واضح أنه في حال نفسية غير طبيعية.. إنِّه مذهول تمامًا ويبدو أن الشعور بقرب النهاية جعله يتذكر أساطير الجدود..

أخيرًا رفع الهندي عينيه عن اللهب، وقال وهو ينظر للإثنين:

- «خذ الحذر.. ابتعد عن المرأة.. لأن شعبه انغمس في الخطيئة لعنهم (بيجوشيدي).. الفراشة صارت خرساء.. الفراشة صارت خرساء..»

قالت الفتاة وهي تمسك بيد (بيلي):

- «أعتقد أنه مجنون.. لقد مس الخوف عقله فأحرق أي تعقل..»

- «أنا أيضًا أعتقد هذا..»

وابتعد الشابان بين الأكواخ المهجورة، بينما صوت الهندي يلاحقهما وهو يترنم بلغته الغامضة ثم بالإنجليزية:

- «(بولي سيو).. الفراشة.. (بولي مانا).. الفتاة الفراشة.. (بولي تاكا).. الرجل الفراشة.. (بيجوشيدي) غاضب..»

أخيرًا صارا يمشيان وسط مساحة خالية..

إن (بيلي) يفكر.. ما جدوى هذه الرحلة بين الأكواخ إذن؟ واضح أنها لم تتوقع وجود هذا الهندي فماذا كانت تريد؟

هل الهندي يعرف شيئًا؟ الثقافة الأمريكية التقليدية تفترض حكمة غير طبيعية لدى هؤلاء القوم.. إنهم صموتون لأنّهم يعرفون كل شيء.. فهل كلمات الهندي تدلّ على الجنون أم على حكمة بالغة؟

توقفت (ساندرا) في الظلام، وقالت:

- «(بيلي).. أنا خائفة..»

رائحتها تسحره بشكل ما..

(كانت تنظر للسماء.. وتضم كفيها معًا أمامها.. خطر له أنها تصلي.. ولكن.. لا.. هذا المنظر يبدو مألوفًا.. رآه من قبل ولكن أين؟)

قالت وهي تدنو منه:

- «أريد أن أشعر بقربك.. إن هذا يمنحني الأمان أكثر..»

هل هو يحلم؟ اللحظة التي حلم بها دهورًا تتحقّق الآن.. ربما تصوّر أن يمسك القمر ويقضم منه قطعة أو يلعب البيزبول ببرج إيفل.. لكنه لم يتصوّر قط أن..

تدنو منه.. تمسك بيده.. يجلسان على الأرض في الظلام.. يغمض عينه.. إنها قريبة جدًّا.. قريبة جدًّا.. فلتحملني يا بساط الأحلام لأعلى.. لأعلى.. إنني خفيف الوزن.. إنني أحلق..

ثم أدرك أنّ هناك شيئًا خطأ.. إنها قوية جدًّا.. أقوى بالتأكيد من قدرات فتاة مراهقة نحيلة.. إنها تثبته على الأرض كأن عملاقًا يدوس عليه بقدمه.. لم يدرك هذا إلا حينما حاول أن يتملص.. قبل هذا بثانية كان مستسلمًا فكانت رقيقة هشة..

وفي اللحظة التالية أدرك أن (ساندرا) غريبة المنظر جدًّا.. إنها تنظر للسماء وتفتح فمها.. إن رأسها يتلوى في اتجاهات غريبة.. (هارلسون) لم يكن وحيدًا عندما مات.. لم يكن وحيدًا عندما انتزع أحدهم عنقه ورأسه وأعلى صدره.. (ساندرا) كانت هناك..

وهي الآن معه..

«إنها الحشرة الوحيدة القادرة على أن تبصر ما وراء كتفها.. وأن تمسح وجهها بيديها كالقط.. وتأكل من يدك كالكلب.. وتشرب الماء كالخيول!»

كانت يده تعبث في جيبه..

بسرعة.. قبل أن..

وخرجت يده بالمسدس الثقيل المرعب الذي كان ضمن حاجيات أبيه.. المسدس الذي أحضره معه على سبيل الاحتياط..

صوبه بيد واحدة إلى الرأس المخيف الذي يتلوى فوقه والذي يتجه إلى عنقه.. يده ترتجف.. لا وقت لهذا..

ضغط الزناد... و...

بوم!!

☆ ☆ ☆

- 5 -

الصوت يتعالى أكثر فأكثر..

كان هناك صوت طلقات جاء من الخارج.. ربما من جهة المستنقعات.. هذه هي المرّة الثانية.. ثلاث ساعات تفصل بين المرتين.. يبدو أنّ هناك حربًا تدور بالخارج في هذه اللحظة..

ثم بعد قليل سمعت طلقة واحدة من مسدس..

هناك الكثير من المرح ينتظرنا بالخارج.. حفل حقيقي يشبه أفراح الأرياف.. لن أندهش لو كانت الأفراس ترقص.. أفراس النبي.. تضم أكفها وتنظر للسماء وتلتهم حناجرنا..

كنت أنا في غاية القلق، وقد قمت بجولة أو اثنتين في المنطقة التي أنتظر فيها.. قلت لنفسي إنّه إذا كان (هاري) و(شوارتز) قررا الاستكشاف الرأسي فلأقم أنا بالاستكشاف الأفقي..

هكذا أخذت خوذة مضيئة وبحثت حتى عرفت كيف أشغلها، ثم رحت أجول في المنطقة محاذرًا.. مشيت وراء أحد تلك الخراطيم العملاقة.. وبعد قليل من الزحف المتعثر والاصطدام بصخور والسقوط فوق صخور وجدت تلك الكومة من الصخور..

وقفت ألهث مسرورًا باكتشافي العظيم.. كومة صخور وسط الصخور! أنا عبقري حقًّا..

لكن هذه الكومة كانت تبدو لي عظيمة الشأن.. كومة صخور ذات شخصيّة واضحة.. ترتفع إلى السقف وبدا واضحًا أنها وضعت هنا لغرض عبقري..

تلك الرائحة!! مع الاعتذار للأديب (صنع الله إبراهيم)..

رفعت صخرة من تلك يبلغ حجمها حجم رأسي وألقيت بها بعيدًا.. كانت مبتلة.. وعلى ضوء الكشاف الواهن استطعت أن أدرك أنها كان تداري يد جثة..

كنت دومًا أرى أن الجثث مملة.. في أفلام الرعب يضعون الكثير منها كي يضمنوا أن يرتجف المشاهد.. وكنت أشعر أنّ هذه محاولات طفولية رخيصة، دعك من أنني طبيب رأى الكثير من الموت.. لكن هذه اليد بالذات أفزعتني لأنها كانت متحورة لشيءٍ آخر.. هناك شعيرات وممصات.. إنها يد تنتمي لهم.. لهم لا عليهم..

أزحت صخرة أخرى فوجدت قدمًا لا تنتمي لهذه اليد.. هناك جثتان على الأقل..

ما معنى هذا؟؟ هناك من مات منهم وهذا قبرهم.. ليس الأمر عجيبًا بالنسبة لمن يعرف أي شيء عن الحشرات.. فهي تتكاثر بإفراط وتموت بإفراط.. ولو تركت ذبابتين وشأنهما لتغطت الأرض

بطبقة سمكها متران من ذريتهما.. دعك من أن الحشرات تأكل بعضها طيلة الوقت..

لكن ليس بهذه السرعة..

هل الوباء ينزاح؟ هل بدأ الكابوس وانتهى بذات السرعة؟ لا أصدق هذا..

فجأة بدأ المنجم يرتج..

☆ ☆ ☆

ارتفع المصعد..

وتنهدت الصعداء.. لقد انتظرت كثيرًا جدًّا حتى قدرت أنهما لن يعودا أبدًا وقررت أن أعود وحدي للبلدة.. لكن ماذا سأفعله هناك؟ من أطلب عونه وكيف؟ ثلاث ساعات في هذا المكان ليست بالفترة القصيرة جدًّا.. حتى تخيلت أن لي لحية بيضاء تتدلى على الأرض..

في ضوء المصابيح الخافت رأيت الآلية المعقدة العتيقة للمصعد تلهث منذرة بالسقوط.. ثم بدأ القفص الحديدي يظهر لعيني.. لو كان هذا فيلم رعب رديء لرأيت في المصعد شيئًا آخر لا يمت لصديقي بصلة..

لكني أخيرًا رأيت الرجلين.. كانا مرهقين متربين مبتلين.. لكنهما على الأقل لا ينزفان لحسن الحظ.. وعلى الأرجح لم يتحولا إلى صرصورين..

وفتح (شوارتز) الباب ثم ارتمى على الأرض.. ومن خلفه جاء (هاري).. وسقط الرجلان على ظهريهما يلهثان ويسعلان..

قلت في دهشة:

- «ثلاث أو أربع ساعات.. حسبت أمركما قد انتهى!»

سعل (هاري) وبصق ثانية، وقال:

- «تقريبًا! إن ما يجري في أعماق المنجم لشيءٍ مريع.. شيء أكبر من توقعاتنا.. لا حل لهذه البلدة إلا قصفها بالقنابل من الجو!»

☆ ☆ ☆

الطلقات من جديد..

نطفئ الخوذات ونزحف إلى خارج المنجم لننظر من عل إلى ما يجرى.. نحن الآن فوق الجسر.. من تحتنا نرى تلك المساحة الخالية التي تذكرك بأفلام الغرب الأمريكي مدثرة بالظلام لكن ضوء القمر ما زال كافيًا..

كان رجال (فينكس) هناك.. وكانوا في مأزق حقيقي..

أرى الآن أنهم هناك في الساحة.. بعضهم على الأرض والبعض يتوارى خلف الصبار أو خلف الصخور.. أشباح مذعورة في الظلام..

هناك أشياء تهاجمهم.. أشياء تمشي في ثقة وتركض هنا وهناك.. تبدو تارة كرجال وتبدو تارة أخرى كحيوانات زاحفة.. برغم صعوبة الرؤية يسهل أن ترى أنّ بعض هؤلاء الرجال لهم رءوس عملاقة رءوس بحجم الصخرة بلا أية مبالغة.. وهم يقومون بالجزء الأكبر من الهجوم.. ينقض بعضهم على الرجال فلا تعرف ما يدور.. عملية التحام جسدي كاملة لكنّها تنتهي بجثة لا تعرف حدودها الخارجية.. جثة الرجل طبعًا..

بعض الرجال يحاول أن يُطلق الرصاص من بنادقه بالفعل يتساقط عدد لا بأس به من المهاجمين بكسر الجيم، لكنهم لا يقنطون.. مهما سقط منهم يواصلون الهجوم كما يفعل الـ...

كما يفعل النمل!!!

إن تلك الأشياء المهاجمة تزحف.. والآن صارت الصورة تمثل مئات منها تتقدم لتكتسح كل شيء..

عشرون رجلًا مسلحًا من (فينكس). أضف لهذا عشرة مفوضين.. لكن هذا كله تحول إلى مذبحة.. يشبه الأمر ما يتبقى من مستعمرة نمل وطأتها بحذائك.. فقط انعكست الآية هنا..

صوت القضمات يصيبك بالغثيان.. تشومب.. تشومب!

تشومب.. تشومب!

تشومب.. تشومب!

لا أظن أن أحدهم تمكّن من عمل شيء.. إن الكثرة تغلب الشجاعة.. ولربما استطاع الرجل قبل موته أن يقتل عشرة منها لكن ما جدوى ذلك؟

همس (شوارتز) وهو يرتجف:

- «جيش من النمل المحارب! هذا واضح!»

ثم أردف:

- «بالإضافة لحمض الفورميك، هناك تأثير الفكوك العملاقة.. لو صارت النملة المحاربة بحجم الإنسان لصار رأسها بحجم جوال البطاطس، وصارت المسافة بين فكيها ستة أقدام (مائة وثمانين سنتيمترًا)!»

وارتجفت.. معنى هذا أنها قادرة على قضم إنسان إلى شطرين..

هذا هو ما يحدث فعلًا وإن كنا لا نراه بوضوح..

هذا هو سر الطلقات إذن.. كانت بدايات الغيث ثم انهمر السيل..

قال (شوارتز):

- «عندما يزحف النمل المحارب في إفريقيا يبلغ طول الطابور ميلًا.. يترك السكان أكواخهم ويفرون إلى أقرب حاجز مائي.. وعندما يعودون للأكواخ يجدونها وقد تم تنظيفها بالمعنى الحرفي للكلمة..»

كانت هناك أشياء لا أميزها تحوم في الهواء.. إن الظلام دامس.. لكنّها تنقض وترتفع من جديد.. ولانقضاضها أزيز مميّز.. أزيز مألوف تسمعه أنت الآن لو كنت تقرأ هذا الكتيب في ليلة صيف حارة.. شتان ما بين أزيز وأزيز لكن المبدأ واحد!

تساءلت في رعب عن كنه هذا قال (هاري) وهو يزحف متراجعًا:

- «بعوض على الأرجح!! هذا الجيش لا يفتقر للقوات الجوية! أرى أنّ علينا أن نفر من هنا فقد صرنا هدفًا سهلًا!»

- «فلنعد إلى المنجم..»

- «لا!! كل شيء إلا المنجم وسوف نخبرك بالسبب!!»

☆ ☆ ☆

- 6 -

«جوني.. أمسك بالقوس واعزف كمانك جيدًا..

إن الجحيم قد تفجر في (جورجيا) والشيطان يوزّع أوراق اللعب..

فلو فزت لربحت هذا الكمان الجميل المصنوع من الذهب..

ولو خسرت لظفر الشيطان بروحك!»..

☆ ☆ ☆

شعور ممض بقرب النهاية..

نعم.. على الأرجح هي النهاية.. سنموت جميعًا لا شك في هذا.. فقط كنت أتمنى ميتة أكثر وقارًا.. لن يفخر أبناء أخي عندما يحكون كيف أن عمهم قتلته نملة..

نمشي وسط الأخاديد.. نتعثر وننهض.. ليس بوسع قلبي تحمل أكثر من هذا.. لو لم تأكلني السراعيف لالتهمتني اليعاسيب أو الدعاسيق.. ظريفة مملكة الحشرات هذه.. أسماء جميلة جدًّا..

الظلام دامس بحق برغم وجود القمر.. هذه الأخاديد مليئة بالظلال الخادعة.. يبدو أننا نسينا أن ننزع الخوذات.. هل نضيئها؟ هذا قرار خطر لأن كل الحشرات تعشق النور وتجده ببراعة غير عادية..

المشكلة هي أنّ هذه الأخاديد متاهة حقيقيّة.. سوف نضل الطريق.. لا شك في هذا..

فجأة اصطدمنا بشيء في الظلام.. وحدث التحام سريع.. لا أعرف هل ضربناه فأوقعناه أرضًا أم العكس المهم أننا وجدنا أننا على الأرض نمسك بقدميه وهو يركل كالثور البري..

كان هذا هو (بيلي).. الفتى المراهق ذي العوينات والنمش.. لقد فقد كل شيء لكنه احتفظ بالنمش.. فقد عويناته وعقله على الأرجح..

- «اتركوني! لن أتكلم!!»

ثم بدأ يصرخ.. أكره الأغبياء الذين يسمحون لهستيريتهم بأن تؤذي الآخرين.. هذا أسوأ وقت ممكن للصراخ.. سوف تجلب علينا كل هذه المسوخ يا أحمق..

هكذا توكلت على الله وسددت له صفعة آذت كفي كثيرًا..

نظر لي بذهول للحظة ثم انفجر في البكاء كطفل..

- «هلمّ.. نحن مثلك بشريون.. وضائعون.. وفي مأزق بالغ السوء!!»

بدأ يهدأ نوعًا.. ثم استطاع أخيرًا أن يحكي لنا كل شيء.. (ساندرا) كان تريد قضم رأسه.. المأمور مات.. وجده في خندق وقد اخترقته الطلقات لكن من حوله يرقات ميتة.. هناك هندي مجنون.. الاجتماعات الليلية.. المشهد المرعب الذي رآه هو و(ساندرا) و(هارلسون) و(جيمي).. الرجال الذين يعلقونهم من أقدامهم ويتجه كل واحد من تلك الجماعة ليمتص شيئًا من بطونهم عبر ثقب صغير..

صحت في هلع:

- «ماذا؟ هل جننت؟»

ثم وجدت أن كل شيء ممكن الآن.. هذا كابوس.. ولا منطق للكوابيس..

قال (شوارتز) في هدوء بلهجة من لم يندهش من هذا:

- «(كلاريسا) قالت هذا للقس.. إنّه موجود في مفكرته..»

ورأى الاشمئزاز على وجوهنا، فقال:

- «بالنسبة للبشر هذا سلوك بشع.. بالنسبة للنمل هذا طبيعي جدًّا.. بعض أنواع الشغالة تختزن الرحيق في بطونها وتتحول إلى براميل حية.. تعلق نفسها طيلة الوقت في سقف العش، بينما تمر كل الشغالات الأخرى لتأخذ منها جرعة.. وعندما تفرغ يملئونها ثانية..»

قال (هاري):

- «أي إنها تحول نفسها إلى ماكينة مشروبات..»

- «بالضبط.. لاحظ أنني أتكلم عن النمل ولم أخلط بينه والنحل..»

قال الفتى الذي فقد صوابه من الذعر:

- «رحت أجري خائفًا وتواريت بين أغصان شجرة.. ورحت أنظر من بينها بحثًا عن خطر قريب.. هنا فوجئت بهذه الأغصان تتحرك.. كان هذا رجلًا شديد النحول اندس.. بين الأغصان بحيث صار من المستحيل أن تميزه إلا إذا تحرك.. أوشكت على الصراخ فانطلق سائل حارق على وجهي.. لولا العوينات لأصابني بالعمى.. لكني رحت أجرى وأصرخ وتخلصت من العوينات الملوثة.. فذلك السائل بدأ يسيل على وجهي ويحرقه.. أصابني الذعر لأنني لم أعد أرى تقريبًا وكان هذا حينما اصطدمت بكم..»

عدنا ننظر إلى خبير الحشرات.. فقال في ملل:

- «هذا نوع من العصي الرحالة.. لكن هذه الحشرة موجودة في الأريزونا من قبل هذا الكابوس.. اسمها (فرسة السمك).. إنها تدافع عن نفسها بإطلاق هذا السائل في عيون الطيور»

تشومب.. تشومب!

سمعنا الصوت المميز الذي اعتدناه.. صوت القضم..

تشومب.. تشومب!

تشومب.. تشومب!

تشومب.. تشومب!

قال (هاري) وهو ينهض:

- «الرجال النمل.. إنهم قريبون.. يجب أن نفر..»

قال (شوارتز):

- «أين؟ إنهم يصلون لكل شيء.. سوف يجدوننا في أي مكان..»

تشومب.. تشومب!

تشومب.. تشومب!

قلت أنا في غيظ:

- «أنت قلت بنفسك أن الأهالي يهربون خلف مجرى مائي.. سوف نفترض أنّ هذه الحشرات تتصرف حرفيًا كالحشرات الأصلية.. يجب أن نجد ماء!»

☆ ☆ ☆

أين أنت؟ أين أنت؟

ليس من العدل أن تتخلي عني بعدما طلبت اللقاء في أسوأ بقاع الأرض..

☆ ☆ ☆

ومشينا وسط المياه..

مياه باردة تصل لخصرك.. لكنّها ليست أبرد من جثتك على كل حال..

يبدو أنّ هذا النهير واحد من تلك الأخاديد التي جفت فصارت مخالب الشيطان لكن هذا النهير الراكد سوف يجري إلى أن يصب في نهر (جيلا) الذي يصب بدوره في (كولورادو).. أعتقد أنه بالفعل يصلح حاجزًا يبعد النمل عنا..

السكون والهدوء.. لا شيء إلا هذه الأغصان الطافية وقد خطر لي أنّ هذا هو المقلب المعتاد.. وسألت الفتى:

- «هل أنت متأكد من أنّ هذه ليست تماسيح؟ لم أعد أثق بجذوع الأشجار الطافية هذه»

- «لا توجد تماسيح في ولايتنا يا سيدي..»

قالها باشمئزاز كأنه أهين..

السكون وضوء القمر والماء البارد.. كل هذا يغريك بالنوم لكن هيهات..

سألت (شوارتز) بصوت هامس كي لا أتلف هذا السكون:

- «الآن يمكن أن أفهم ما رأيتم في ذلك المنجم..»

قال وهو يتنهد:

- «هي قصة طويلة..»

☆ ☆ ☆

قال (شوارتز):

- «لقد نزلنا بالمصعد عدة طوابق.. لكننا لم نجد ما يدل على وجود عمل بالمنجم.. أنا متأكد من أنّه ليس مهجورًا.. لسبب ما تم إخلاؤه.. في النهاية استقر المصعد عند آخر مدى له.. الهواء ثقيل مسمم.. لكن هناك جهاز تهوية يؤدي عمله نوعًا..

«كان المكان خاليًا لكننا شعرنا بأن هناك وجودًا ما هكذا مشينا بحذر.. مشينا بضع دقائق حتى وجدنا أنفسنا في مكان متسع.. عندها حبسنا أنفاسنا وأطفأنا الكشافات، لأن كل هؤلاء القوم كانوا هناك.. الرجال والنساء الذين كانوا يلتقون أمام المنجم هم الآن تحت الأرض بخمسين مترًا.. كانت هناك نار مشتعلة ولا أعرف كيف لم يختنقوا.. لم أعرف أنه من الممكن إشعال النار في المناجم، لكنهم كانوا يقفون حولها وينشدون متشابكي الأيدي.. كلمات الأغنية بالإسبانية.. عندها بدأت أفهم..

«في الوسط كان يقف من هو أشبه بكاهن.. تحيط به الحشرات الطائرة. الكثير من الذباب رجل فارع القامة يلبس الأسود مع غطاء رأس لا تراه إلا لدى (الأزتك Aztec)..»

ارتجفت وقد شعرت بأن هذا كله مألوف لي..

أسود..

أزتك..

ذباب..

ملك الذباب.. (ري دي موسكاس)... لقد شهدت عودته لعالمنا.. المكسيك يقع على مرمى حجر من هنا.. (أريزونا) مكسيكية أكثر منها أمريكية.. هل هذه مصادفة؟

لكن القصة مترابطة نوعًا الآن.. ما يحدث هنا هو لعنة.. ومن يمكن أن يجلب اللعنة؟

عاد (شوارتز) يقول:

- «إن كل ما يجري هنا هو إعداد ليرقة..»

- «يرقة؟».

- «نعم.. يرقة.. يرقة يبلغ حجمها حجم الحافلة إنها هناك في مركز الدائرة وقد رأيناها.. حاليًا هي لا تفعل أي شيء لكنهم يغذونها ويرعونها وينتظرون تحورها ليخرج منها..»

- «من؟ إبليس؟»

- «بل (خوتشيكويتزال Xochiquetzal).. آلهة الحشرات عند الأزتك!»

قلت في اشمئزاز:

- «لن نعود لهذا الهراء الوثني..»

قال في صبر:

- «نعم.. أنا أتفق معك.. (خوتشيكويتزال) لا وجود لها.. لكننا أمام حقائق ماديّة هي وجود يرقة عملاقة في مرحلة تحول.. ووجود رجال لم يعودوا كذلك.. هذا لا يبرهن عن وجود آلهة حشرات.. لكنه بلا شك يدل على أننا في مأزق مخيف غير معتاد.»

ساد الصمت.. لا شيء في الهواء.. حتى صوت الطبول الذي لم تمر دقيقة من دون أن نسمعه قد صمت..

قلت له:

- «ليكن.. هذا هو السبب الذي تحول من أجله المنجم إلى خراب..»

- «أعتقد أن العدوى بدأت بعمال المنجم.. لكن دعني أحكي منذ البداية..»

نظرت إلى حالنا المزري.. ستكون هذه أول محاضرة أسمعها وأنا نصف غائص في الماء.. لكن تفضل يا سيدي.. أطربنا..

قال العالم:

- «لقد كانت الحشرات تفتن البشر منذ قديم الزمن خاصة فكرة التحول.. إنها ترمز للخلود في كل الثقافات القديمة.. أنت مصري وتعرف أهميّة الجعران scarab لدى المصريين القدماء.. كانوا يرون هذه الخنفسة تتحور وتغير شكلها.. ثم كانوا يرونها تدحرج كتلة من الفضلات نحو الشرق مما جعلهم يعتقدون أنها هي التي تقود (رع) أي قرص الشمس.. ثم لاحظوا أن اليرقات تظهر حول المومياوات بكثرة.. بعد هذا يطير الذباب مبتعدًا قبل أن تدفن المومياء.. لهذا ربطوا بين الذباب والروح.. ولهذا كانوا يضعون حليًا تشبه الذباب في القبور وحول عنق المومياء كأنها وسيلة لتسهل عودة روحه له.. في ثقافة قدماء المصريين كان النطاط يرمز إلى الجنود والنحل يرمز إلى الدلتا..

«الصينيون كانوا مفتونين بالسيكادا أو جرادة السبعة عشر عامًا.. يرونها رمزًا حقيقيًا للتجدد.. إن خروجها للحياة يشبه الخروج من القبر.. وقد نقلوا هذا الافتتان للهندوس..

«إن كل الحضارات القديمة قد اهتمت بالحشرات.. تذكر الرجال العقارب في ثقافة البابليين.. عند قبائل البوشمان يعتبرون فرس النبي إلهًا اسمه (كاجن)..

«في التوراة تجد أن ثلاثة من أوبئة مصر القديمة كانت من الحشرات.. لست ملمًّا بالقرآن لكن أعتقد أن الحشرات لها أهميّة خاصة فيه..»

لم أعلق حتى لا أقاطعه.. لكن الحشرات ذكرت في القرآن الكريم مرارًا.. النمل.. النحل.. الذباب.. بل إنها وجدت طريقها إلى أسماء السور.. الذباب ذُكر كتحد للكفار.. النحل ذكر كمعجزة دائمة.. هناك أكثر من قصة قرآنية عن النمل..

واصل (شوارتز) الكلام:

- «أنت طبيب.. فهل تعرف من أين جاءت لفظة Medicine؟»

- «ليست لديَّ أدنى فكرة»

- «جاءت من لفظة Mead.. وهو مشروب ذو خواص علاجية يستخلص من عسل النحل.. الهنود الحمر كانوا يعتقدون أن الفراش يجلب الأحلام.. بالذات قبائل القدم السوداء كانوا يعتقدون هذا.. وكانوا يرسمون الفراش على خيامهم على شكل يذكرنا بصليب مالطة.. لكن رأيي الخاص أنه ما من حضارة اهتمت بالحشرات للدرجة التي اهتم بها الأزتك ومن بعدهم المكسيكيون.. إله

الأزتك الأكثر أهميّة بالنسبة لهم (كويتزالكوتل Quetzalcoatl) يدخل العالم على شكل يرقة ومنها يخرج على شكل دودة أو أفعى.. لم يكن يحمل الزهور إلا الأزتك من ذوي المكانة العالية.. وفي حضارتهم كان من سوء الأدب أن تشم باقة الزهور من أعلاها إنما يجب أن تشمها من جانبها.. السبب هو أن النحل والفراش أرواح.. وهي تفضل أن تشم قمة باقة الزهور..

«حتى اليوم يعتقد المكسيكيون أن النحل يولد من الجثث.. وهو خلط بين النحل وذبابة الفرس على كل حال.. والآن لاحظ أنّ هذه الولاية شبه مكسيكية من ناحية الثقافة على الأقل.. منذ جاءها (ماركوس دي نيزا Marcos de Niza) وهو أول أوروبي يطأها بقدمه في القرن السادس عشر.. لقد جاءها من ناحية المكسيك»

ساد الصمت.. ثم عدت أسأله:

- «لماذا تحكي هذا كله؟»

- «لأقول إن القصة جاءت عبر الحدود من المكسيك.. هذا الرجل الغريب الذي رأيناه في أعماق المنجم جاء ينشر سحره في البلدة كلها.. وجمع حوله جماعة من الناس همهم أن يوفروا البيئة الصالحة لتلك اليرقة التي يعتقدون أنها (خوتشيكويتزال).. وفي الوقت ذاته استطاع بسحره الذي تعلمه من أجيال من الأزتك أن يحيل أهل البلدة الذين حضروا طقوسه إلى أطلس حقيقي لعلم الحشرات.. سوف تجد كل شيء هنا.. الذباب.. الخنافس.. الدبابير.. النحل.. النمل.. العصي الرحالة.. ذبابة مايو.. أي شيء.. عندما ينهض الأخ (خوتشيكويتزال) سيجد أن الحشرات سيطرت على العالم وأن الزمن زمنه»

هنا تساءل (هاري):

- «لماذا لم نلق عناكب؟»

كان هذا أسوأ ما يُقال.. ألعن شيء في العالم هو السؤال الغبي الذي تمت الإجابة عليه من قبل.. بالذات في الفصل الأول من الجزء الثالث.. لهذا لم يكلّف أحدنا نفسه عناء الرد..

الآن جاء السؤال المهم بحق:

- «ماذا نفعل؟»:

في هذه اللحظة همس (هاري) مذعورًا:

- «هل أرى ما أراه أم إنها البارانويا؟»

نظرنا إلى حيث أشار فلم نر شيئًا..

لا.. بل هناك شيء.. تلك الأغصان التي تطفو على السطح.. إنها تتحرك.. إن شيئًا يخرج منها ويحاول أن يحرر جناحيه.. لو دققت النظر لأدركت أنّ هذه الأشياء هي أقرب لبشر كانوا تحت

الماء فلا يبرز منهم إلا جزء بسيط..

إنها حوريات بعوض!!

☆ ☆ ☆

- 7 -

عشرات من هذه الأشياء تضرب الماء محدثة دوامة ثم تتحرر وتحلق في الظلام فوق رؤوسنا..

البعوض قد وضع بيضه في هذا الماء الراكد.. وفقس البيض لتبدأ دورة الحياة الرهيبة.. الآن يخرج الصغار محلقين جائعين يفتشون عن أول وجبة من الدماء!..

كنت على حق عندما فكرت في التماسيح التي تبدو كجذوع أشجار.. وإن كان الأمر يختلف هنا..

دورات الحياة تتم هنا بسرعة فائقة.. والمشهد كابوس حقيقي.. في الأساطير الإغريقية كان (الهاربي Harpy).. تلك المخلوقات التي تبدو كبشر لكنّها مجنحة.. أنا لا أرى المشهد جيدًا لكن هذا هو الإيحاء العام له..

إنها ترتفع.. ومعها توشك قلوبنا على الإفلات..

كدنا نخرج من الماء، لكن (شوارتز) قال في حزم:

- «ابقوا حيث أنتم! حاولوا أن تبقوا أكثر جزء من الأجساد تحت الماء.. إنها تبحث عن الرائحة البشريّة والحرارة..»

كان هذا منطقيًا.. وركعت على ركبتي في الماء الضحل بحيث لم يبق منى فوقه إلا رأسي.. وكذا فعل الآخرون.. وبعد قليل بدأت تلك الأسراب تبتعد..

- «الآن نخرج..»

وببطء رحنا نتقدم إلى الضفة متوقعين كارثة أخرى فقط من حين لآخر تدوي طلقة تعنى بلا شك أن أحد رجال (فينكس) يدافع عن نفسه..

على الضفة جلسنا منهكين.. لولا هذا الصيف الهندي لأصبت بالتهاب رئوي..

عدت أكرر سؤالي وأنا أبصق وأسعل:

- «ماذا نفعل الآن؟»:

قال (هاري) وهو يجفف شعره المبتل الذي غطى وجهه:

- «الأمور ستتحسن بلا شك سوف يعرفون في (فينكس) ولسوف تصل قوات الجيش.. هذه المرّة سوف يكون تدخلهم حاسمًا.. بالفعل لا أستبعد أن يقوموا باستخدام الطيران لدك البلدة..»

ثم أضاف باسمًا:

- «أو ربما استعملوا المبيدات الحشرية!»

قال (شوارتز):

- «هذا سيحدث لا محالة. لكن حتى ذلك الحين سوف ينتهي أمرنا.. دعك من أنهم لن يفرقوا بيننا والآخرين..»

وشعرت بقشعريرة.. في فيلم (ليلة الموتى الأحياء) - تحفة (روميرو Romero) الكلاسيكية - ظل رجل واحد حيًّا بعدما رآه من أهوال، إلا أنه في الصباح كان مرهقًا متربًا مشعثًا.. وسرعان ما أطلق عليه رجال الإنقاذ النار لأن منظره لم يختلف عن منظر الزومبي..

«الحل في المنجم..»

راحت الإجابة تتردد في ذهني..

إذن نحن نضيع وقتنا هنا..

«الحل في المنجم..

«لماذا مات من مات؟

«فكر كثيرًا..

«على باب الجحيم تجد المطهر..»

هذه هي الإجابة.. إنها ترسلها لي.. قالت إنها لن تساعدني.. لكنّها قادرة على التلميح..

قلت لهم بثقة:

- «سوف نعود للمنجم.. إن الحل هناك..»

قال (هاري) في شك:

- «لا أعرف من أين تأتي بهذا التفاؤل يا صاحبي؟ المنجم صار بالكامل محتلًا بتلك الكائنات.. وهناك تلك اليرقة القذرة.. إن العودة هناك خطر داهم..»

- «أنا مُصِر.. لو أردت ألا تتبعني فهذا شأنك..»

ونهضت في إصرار.. هكذا نهض الجميع معي.. لا أحد يشتهي الوحدة الآن.. فرصة نجاة الرجل الوحيد معدومة في عالم يعجّ بالبعوض والصراصير والذباب والزنابير والنحل والخنافس القاتلة..

☆ ☆ ☆

كانت تقف على باب المنجم.. مسربلة بالظلام.. على بعد أمتار منها أسفل الجسر بقايا المذبحة التي قام بها النمل، ولا بد أنه مشغول بنقل كل هذا الطعام إلى عشه..

لم نتبين وجهها أولًا.. وتحفزنا.. ثم دنونا أكثر فوجدنا أنها (باتريشيا).. ساقية الكافتيريا الحسناء..

- «(باتي)!!»

قالها (هاري) وهو يركض نحوها..

صحت وأنا أشده بعيدًا:

- «ما زلت أحمق.. خذ الحذر.. أولًا كيف عرفت أننا هنا؟ ثانيًا كيف جاءت؟»

صرخ (بيلي) في رعب:

- «كل النساء خطرات يا سيدي.. إنهن يتحولن إلى سراعيف!»

في برود ظلت تصغي إلى ما نقول، ثم قالت:

- «هل انتهيتم؟ هل لي أن أتكلم؟»

- «تكلمي.. لكن لتكن أعذارك مقنعة..»

قالت وهي تجيل نظرها في وجوهنا:

- «منذ البداية عرفت أنكم ذاهبون إلى المنجم.. كل هذا الهراء الصبياني الذي قمتم به لم يخدعني سمعت أكثر كلامكم وسمعت ما يقول الناس.. هذا يجعل الأمور واضحة.. ثانيًا لم أستطع البقاء وحدي في الموتيل إلى أن يتسلل شيء عملاق يلتهمني.. إن البلدة قد تحولت إلى جحيم.. كنت بحاجة إلى صحبة أشخاص لم يتغيروا.. وهكذا خاطرت بهذه الرحلة المرعبة إلى هنا.. ليس الأمر صعبًا إلى هذا الحد والدليل أنكم بدوركم ما زلتم أحياء..»

رحت أتأملها.. تبدو لي طبيعية فعلًا.. جميلة باردة سمجة..

ربما كان صادقة.. من يدري؟

همست في أذن الفتى (بيلي):

- «أنت تملك مسدسًا.. راقبها.. لو رأيت ما يريب فلتطلق الرصاص حالًا وبلا مناقشة»

هز رأسه في توتر.. وابتلع ريقه.. لكني كنت أعرف أنه سيفعل.. انفلات أعصابه سيجعله يُطلق النار بلا تردد.. المهم ألا يفعل ذلك لأنهّا هرشت أنفها مثلًا..

في ظلام المنجم وإضاءته الخافتة وقفنا.. كنت أفكر..

واتجهت في تؤدة إلى كومة الصخور التي رأيتها من قبل ومددت يدي أحرر تلك الذراع التي وجدتها.. الذراع المتحورة التي كانت تخص حشرة من تلك..

«الحل في المنجم..»

«لماذا مات من مات؟»

هتف (هاري) في رعب:

- «هل هناك مقبرة هنا؟»

- «مقبرة نعم.. لكنّها تخص هؤلاء المتحولين..»

- «ولماذا ماتوا؟»

- «هذا هو السؤال الذي تستحق إجابته ملايين الدولارات..»

ثم فكرت من جديد.. رحت أداعب صلعتي بعدما نزعت الخوذة.. لكني لا أجد شعرًا أفركه للأسف.. كان هذا كفيلًا بأن ينشط التفكير.. «على باب الجحيم تجد المطهر..» ما معنى هذا؟

قالت (باتريشيا) وهي تمسك بتلك الذراع الميتة:

- «ربما انتشر بينهم مرض ما؟»

ثم نظرت إلى (شوارتز)، وقالت:

- «هل تلك البكتريا المستعملة في التعدين تفتك بهم؟»

هنا فقط وجدت الحل! البكتريا تدعي (أسيديانوس إنفرنوس).. المقطع الأخير معناه (الجحيم) باللاتينية.. وهو ذاته جحيم (دانتي) الشهير.. «على باب الجحيم تجد المطهر..»

البكتريا هي الحل فعلًا.. هذه المخلوقات التي هلكت تلوثت بالبكتريا فلم تتحملها.. من الواضح أنّ هذه البكتريا قاتلة بالنسبة لها بينما لا تؤثر في البشر على الإطلاق.. ولهذا فإن مجتمعهم ويرقتهم في قاع المنجم بعيدان بالتأكيد عن أي أثر لهذه الكائنات الدقيقة، والدليل أن الخراطيم لا تغذي هذا الجزء على الإطلاق..

☆ ☆ ☆

«راح ينظر حوله ووقعت عيناه على صهريج كبير تخرج منه مجموعة من الخراطيم الغليظة تتلوى أرضًا وتتجه إلى أعماق المنجم.. لا يمكن أبدًا أن تعرف أين توجد نهاياتها..»

التقط خوذة ذات كشاف، وأضاء هذا الأخير، ثم قال وهو يصوب النور إلى هذه الأشياء:

- «هل ترى هذا؟ هذا المحلول يحوي البكتريا التي حكيت لك عنها.. إنهم يغرقون المنجم به ثم يتركونه يتفاعل.. بعد هذا يشفطون السائل وينزل الرجال للبحث عن النحاس الذي فصلته البكتريا..»

☆ ☆ ☆

صحت في الرجلين اللذين يقفان معي:

- «هلما! سوف نوجه هذه الخراطيم لتملأ المكان الذي يحتله المصعد.. إنها معدة لتتدفق في موضع آخر.. لكننا سنغير هذا ولسوف نفتح هذه الخزانات!»

قال (شوارتز) في استخفاف:

- «هل ستغرق المنجم بالماء؟ هذا لن يؤثر فيهم.. إن الحشرات أقدر الكائنات على التكيف.. هل حاولت مرة أن تغرق صرصورًا في بالوعة الحمام؟ هل سكبت بعض الماء على نملة ورأيت كيف تتحرر وتجف بعد دقائق؟»

قلت وأنا أتجه إلى الخراطيم:

- «لا أتكلم عن الماء.. أتكلم عن الجراثيم السابحة فيه.. هلما!»

- «ليس لديك دليل..»

- «لدي أكثر من دليل.. لكن لا تضيعا الوقت في الشرح..»

وببطء بدأت الخراطيم العملاقة تتدلى في بئر المصعد كأفاع في الفراغ.. وحاولنا مرارًا حتى استطعنا تشغيل المضخات فتدفق الماء بعنف يهز المنجم هزًا.. خمسة خراطيم تعمل بكل طاقتها لتفرغ الصهريج العملاق شعرت بأن كل شيء يوشك على أن ينهار فوق رؤوسنا لذا وجدت أن الرحيل أفضل..

المنجم كله يهتز..

حان وقت الرحيل فورًا..

وإلا غرقنا وهذا أول الخطرين.. أو خرجت تلك المخلوقات لتفتك بنا.. وهذا ثانيهما..

☆ ☆ ☆

كان نجاح الخُطة باهرًا.. ولم نعرف هذا إلا في ضوء النهار..

في البداية رأينا مستوى الماء يرتفع.. ثم بدأ يسيل من مدخل المنجم.. يتدفق من فوق الجسر إلى الأرض..

لم يخرج أي شيء حي من الفتحة.. إما إنهم غرقوا وهذا عسير وإما أن تأثير هذه البكتريا فعال حقًّا.. فقط أنا أعرف يقينًا أن اليرقة هلكت حيث هي.. لم تكن قادرة على الحركة أو المراوغة.. كانت بطة عملاقة جالسة لا أكثر..

وفي ضوء الصباح مشينا.. عبرنا منطقة الأخاديد فأثار ذهولنا كل ما رأيناه من مشاهد الموت..

على جانبي الحفر يرقد الرجال الزنابير يتحسسون أعناقهم وهم يحاولون النهوض من جديد.. ومن حين لآخر يهوي رجل بعوضة ليسقط على بعد أمتار منا.. جثث الرجال النمل ملقاة هنا وهناك..

تساءل (هاري) وهو يتفحّص جثة مخيفة لامرأة نحلة راقدة إلى جانب الطريق:

- «ما سبب انتقال العدوى لهم بهذه السرعة؟ هم لم يمسوا ذلك الماء»

قلت شارد الذهن:

- «ثمّة احتمال أن التلوث كان عامًا.. ومن الممكن أنّ هذه البكتريا تنتقل بالهواء كذلك.. يبدو أنها صارت في كل ملليمتر من هواء البلدة.. الاحتمال الثاني هو أن صلتهم بذلك الساحر في المنجم انتهت.. لا بد أنه هلك من ثم هلكوا هم أيضًا..»

عند الظهيرة سيكون كل كائن حشري في هذه البلدة قد هلك..

الخنافس تزحف في وهن مبتعدة.. بينما فتاة فراشة تقف فوق صخرة وترتجف ثم تسقط..

قال (شوارتز):

- «برغم أنّ هذا يعني الخلاص فإنني لا أحب ما أراه.. كل واحد من هؤلاء كان بشريًا مثلي ومثلك»

قلت في اقتناع:

- «معك تمامًا.. والأسوأ أنّ هناك جيلًا جديدًا نشأ ويلقي حتفه الآن..»

قال (هاري) وهو يضع يده على كتف (باتريشيا):

- «لا بد لصنع الحلوى من كسر البيض..»

ناديته من طرف خفي فابتعدت به بضع خطوات عن الباقين، وقلت له:

- «(هاري).. لا أريد أن أكون كغراب البين.. لكني أنصحك بأن تترك هذه الفتاة هنا والآن.. إنها ليست كما تعتقد..»

قال في غيظ:

- «إما إنك عدت إلى البارانويا، وإما إنك تغار..»

- «لا هذا ولا ذاك.. فقط أنا أنصحك بالابتعاد عنها.. وأنا أعرف جيدًا ما أتكلم عنه.. لن أعطي تفاصيل أكثر..»

كاد يتكلم في انفعال عندما دوى صوت ميكانيكي عالٍ يصم الآذان..

بحثت عن مصدر الصوت فلم أجد..

رفعت رأسي للسماء فرأيت طائرتين مروحيتين تقتربان..

وكان عليهما شعار (شرطة ولاية أريزونا)..

☆ ☆ ☆

قلت لـ (باتريشيا) قبل أن أرحل:

- «برغم رأيي السلبي السابق فيك فإن عليَّ أن أشكرك.. فلولاك ما كنا هنا.. وإنني لأعتذر..»

نظرت لي نظرة طويلة مدققة.. ولم تقل شيئًا..

فقط ابتسمت ابتسامة سريعة مقتضبة من طراز (الآن تراه - الآن لا تراه) ثم ابتعدت في ثبات..

هنا فقط خطر لي أنني كنت مغفلًا..

لكن الوقت قد فات لأعلن هذا...

☆ ☆ ☆

خاتمة

عزيزتي:

من جديد لن أذكر أسماء.. الآن أعرف أن الساقية الحسناء (باتريشيا) مجرد صورة من صورك.. يجب أن أعترف أن الخدعة كانت كاملة ولم أشك فيك لحظة، بل كنت أقرب إلى الارتياب فيك.. لقد وضعتك منذ البداية في معسكر المشتبه فيهم.. ولم أفطن إلى أنك أعطيتني تلميحًا صحيحًا هو الذي قادنا إلى إبادة تلك الأشياء.. ولهذا جئت إلى المنجم وحدك.. لأن اللقاء يجب أن يتم..

إذن كنت أنت منذ البداية.. أنت (الكينونة) ذاتها.. كنت معي تساعدينني لكني لم أفهم إلا الآن.. فقط رأيت فيك برودًا وسماجة نفراني منك..

على أنّ هذا نموذج للغباء البشري المعتاد؛ فنحن لا نفصل بين الاستلطاف الشخصي والشك.. من لا نحبهم هم على الأرجح أوغاد وقحون وربما أشرار.. وأنا لم أحب (باتريشيا) قط..

كانت تلك لعنة حقيقيّة وكابوسًا يصعب وصفه.. لكنه انتهى.. لم يجد رجال الشرطة الذين جاءوا بالمئات من (فينكس) عملًا يقومون به.. فمن تحوروا ماتوا.. ومن بقوا أحياء تواروا في ديارهم مذعورين..

من المؤسف أنّ هذه البكتريا السحرية تذيب أحشاء تلك الكائنات، مما جعل عملية التشريح عسيرة جدًّا.. دعك من أن عملية نزح المنجم سوف تستغرق وقتًا.. سوف يجدون الكثير من النحاس وهذا قد يعوضهم عن مشاق استخراج الجثث..

كنت آمل أن توضحي لي ما إذا كان (راي دي موسكاس) هذا قد نجا... لو كان كذلك فلسوف يعود وينشر المزيد من الرعب.. إنّه من أكثر من قابلت من خصوم عنادًا..

السؤال الثاني هو سبب إصرارك على لقائنا هناك.. هل كان ينبغي أن أقوم أنا بهذا العمل؟ كان بوسعك أن تلمحي لأحد السكان ليقوم بما قمت به أنا..

إن ذراعي اليسرى قد التأمت تمامًا.. وهذا يعطيني الفرصة لاستعمالها في مراسلات قادمة.. فقط أرجو ألا تنسيني

بإخلاص:

رفعت إسماعيل

☆ ☆ ☆

عزيزي رفعت:

كان يجب أن تكون هناك.. هذا هو العدل بعينه.. أنت من جلب هذا الكابوس للعالم يوم أحرقت المومياء، وعليك أن تكون موجودًا في كلّ مرّة يعود فيها.. يجب أن تنهي خطره بيديك..

لهذا طلبت منك بإلحاح أن نلتقي.. ولو لم تأت لكان انتقامي رهيبًا..

أرسلت لك بعض التلميحات هناك مثل دخول المنجم وموضوع المطهر والجحيم.. إلخ.. لم أستطع أن أصرح بما هو أكثر واستعملت طريقة التلميح.. لكنك استطعت حل اللغز أو استطاعته تلك الفتاة (باتريشيا)..

لن أخبرك بنجاة أو هلاك (راي دي موسكاس) لأن هذا ليس من حقي.. فقط لو عاد لعالمكم فلسوف أخبرك لحظتها.. كما تعرف: (على الرجل أن يقوم بما على الرجل أن يقوم به)!

ضحكت كثيرًا عندما قرأت رأيك في (باتريشيا).. فعلًا هي باردة مريبة لكنّها بريئة وعلى قدر مخيف من الذكاء.. أنت تعرف الآن أنه لم يكن لها دور في اختفاء (سكروج) وإنما اختطفه النمل العملاق..

لكن يجب أن تعرف أيها العزيز أن (باتريشيا) لم يكن لها وجود قط قبل هذا.. عندما أوجد في مكان فإنني أخلق لنفسي تاريخًا حتى إن الناس يشعرون بأنهم يعرفونني من دهور.. فجأة صار كل واحد في البلدة يعرف الساقية (باتريشيا) ونشأتها وطباعها.. كلهم يذكرونها تلعب وهي طفلة وكلهم أحبها في مراهقته برغم أنها لم توجد قط قبل شهرين!

لو بحثت بدقة عن العلامات الخمس في (باتريشيا) لوجدتها، لكني لن أذكرها طبعًا.. أنت تعرفها..

من السهل بالنسبة لي أن أخدع البشر، فأنا أعرف الكثير من الأشياء.. علم الحشرات العدلي هذا مجرد جزء ضئيل مما أعرف، ومن السهل أن أتكلم فيه بضع ساعات أمام مختص فيه..

سوف نلتقي من جديد.. ربما.. هناك أشياء وأشياء يجب أن تعرفها عني وعن ذلك الكون الغامض على الجانب الآخر من المحيط.. لكن - كما تقول - هذه قصة أخرى.

بإخلاص:

أنت تعرف من...

المصادر:

فرديناند لين: دنيا الحشرات، كل شيء عن... (٦) الطبعة الثامنة دار المعارف ١٩٩٢
عفيفي محمود: الحشرات والإنسان، المكتبة الثقافية ١٣٩
عبد المحسن صالح: زوجات مفترسات، كتاب الهلال: ٢٣٤
عدد كبير من مواقع الإنترنت التي وجدت أن نشرها يحتاج إلى صفحة كاملة.
س. فينتسكي: الفلزات ترجمة د. عيسى مسوح دار مير ١٩٨٤.
World Book Looks at Insects and spiders. World Book Inc. A Scott Fetzer company. U.S.A, 1996

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

المقـدمة

مقـــدمة

الجزء الأول: العـالم

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

الجزء الثاني: الطبيـب

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

- 6 -

- 7 -

الجزء الثالث: الكينـونـة

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

- 6 -

- 7 -

خـاتمة

المصادر:

Notes

[1←] اسم البلدة وهمي.. لكن (مورينسي) حقيقيّة..

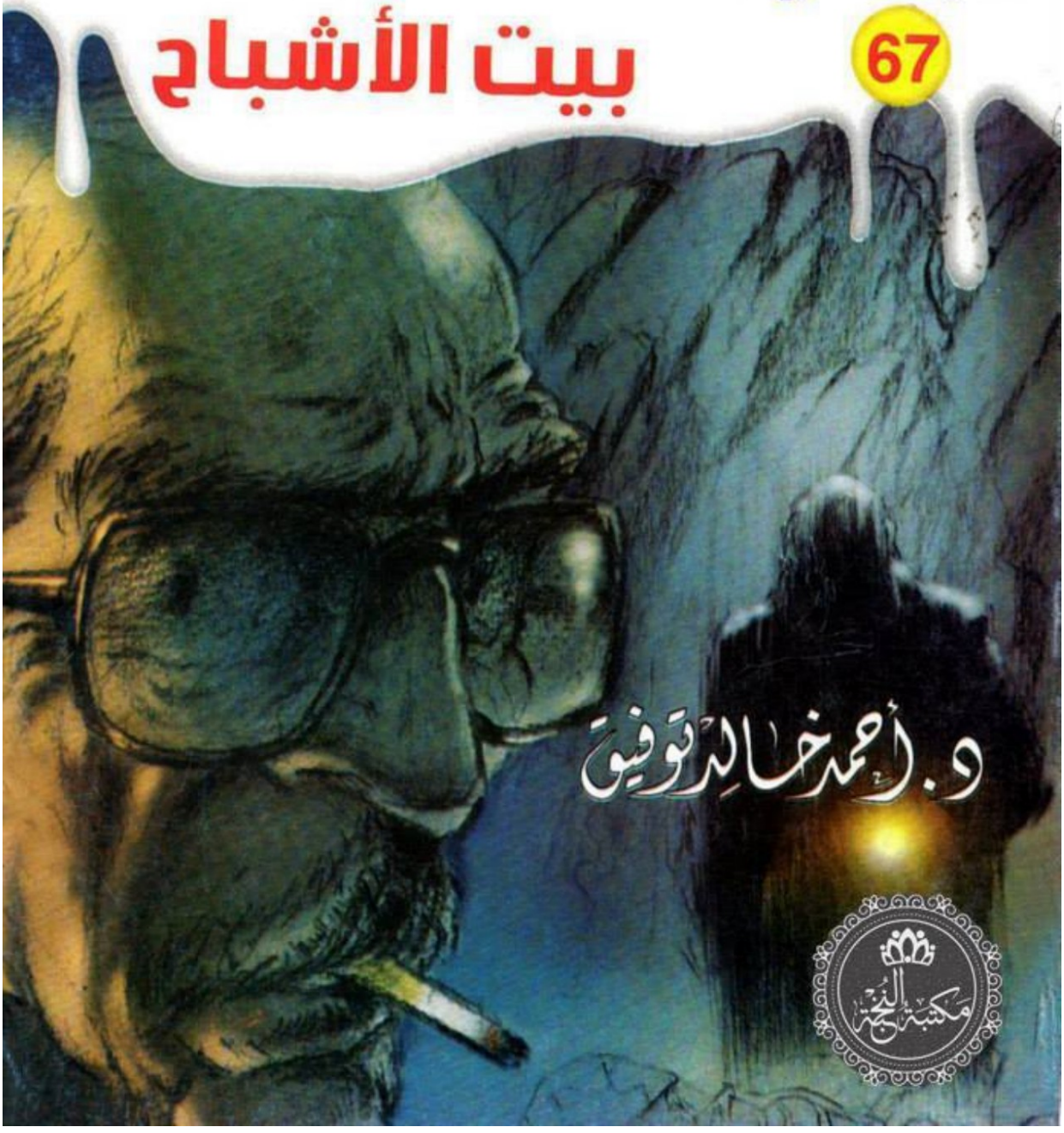
[2←]
نعم.. الاسم ينطق هكذا.. (نافاهو) لا (نافاجو).

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

67

أسطورة بيت الأشباح



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة النخبة

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



المقـدمة

لـ (نجيب السمدوني) مزية مهمّة هي أنه ممل..

المملون في كل مكان من حولنا، والعثور على واحد ليس بأسهل من نظرة إلى مرآة الحمام أو فتح النافذة والنظر إلى الشارع، لكن (نجيب) ممل إلى درجة مثيرة.. إلى درجة شائقة متجددة..

هناك قصة حكاها (مارك توين) عندما ألقى خطابًا على جمهور متشكك في أمريكا، فألقي دعابة سخيفة.. وظل الناس يرمقونه في بلادة.. من ثم كرر الدعاية ثانية بنفس الكلمات.. من جديد ظلوا يرمقونه بلا أي تعبير على الإطلاق.. كرر الدعاية السخيفة للمرة الثالثة والعرق يتقصد منه، فبدأت الضحكات تتعالى، وفجأة انفجر الجالسون في الضحك وتنفس الصعداء.. لقد قهرهم بغبائه وملله.. والغربيون يقولون: هذا سيئ لدرجة أنه ممتع..

هكذا قضيت ألعن ليلة في حياتي مع (نجيب السمدوني). يتحفني فيها بآرائه في الحياة.. تلك الكليشيهات التي فقدت معناها من كثرة التكرار، على غرار (الحياة كفاح).. (الصديق وقت الضيق).. (الطمع يقل ما جمع).. (كل لبيب بالإشارة يفهم).. (النفوس صارت شريرة).. وفي النهاية بدأت أشعر بأنني لا أكرهه إلى هذا الحد.. الرجل الذي يصر على أن يكون مملًا لهذه الدرجة ليس كريهًا أبدًا..

فلمَّا انصرفت عائدًا لداري كنت راضيًا عن الحياة، أشعر بتجدد الدم في عروقي وبدأت أؤمن فعلًا أن (الحياة كفاح) وأن (الصديق وقت الضيق) وأن (الطمع يقل ما جمع) وأن (كل لبيب بالإشارة يفهم).. دعك من أن (النفوس صارت شريرة) فعلًا..

الآن أجلس في داري، وأصمم على أن أمارس دوري في جعل الحياة جحيمًا.. إن الغباء معدٍ كما تعرفون..

ما رأيكم في قصة جديدة؟

لن تكون قصة عن كتاب منسي يحاول بعض العلماء جمعه، ولا عن قرية أمريكية يتحول أهلها إلى حشرات، ولا عن أشياء تتحرك أو أشخاص يقدرون على ذلك.. لن أتحدث عن رقم مشئوم ولا ملك ذباب ولا مومياء لها حارس عصبي المزاج.. لقد بدأ تأثير (نجيب السمدوني) السحري عليّ..

اليوم أتحدث عن موضوع مبتكر تمامًا لم يسبقني أحد في الكلام عنه..

أتحدث عن بيت أشباح!

تمهيـد

تعشق (رانية) شيئًا ما..

حقًّا لا أدري ما هو.. أبوها لا يدري ما هو.. أمها لا تدري ما هو.. (رانية) لا تدري ما هو..

إنها تهيم به حبًّا وكثيرًا ما تدمع عيناها وهي تفكر: لكم أتمنى لو صار لي.. لكن ما هو هذا الذي سيصير لها؟ من جديد أكرر: أنا لا أدري ما هو.. أبوها لا يدري ما هو أمها لا تدري ما هو.. (رانية) لا تدري ما هو..

إنّه ذلك المزيج الغامض من رائحة السوسن.. رائحة مزيل العرق في ثياب الشتاء الماضي.. تلك القطة الغنوج في حديقة الجيران.. سحابة عابرة في السماء.. صوت ذلك الطائر قرب الغروب.. لا تعرف إن كان الكروان أم لا لكنّها تدعو الله أن يكون كذلك..

العجيب أنه لا أثر للرجال في هذا العشق.. ربما باستثناء أغنية هنا أو هناك لـ (عبد الحليم حافظ) أو (هاني شاكر).. الشاب الأسمر الوسيم الذي ظهر لأول مرة في ذلك العام واستطاع صوته أن يجد التردد المناسب لأوتار روحها..

إن (رانية) تحلم.. لكنّها لا تعرف بأي شيء تحلم..

(رانية) تبكي.. لكنّها لا تعرف علام تبكي..

تعتقد أنها مخبولة أحيانًا، ثم تعيد التفكير فتدرك أنها شاعرة.. تمسك بالقلم.. تنظر إلى زينة الربيع بالخارج وتقرر أن تكتب قصيدة جميلة جدًّا.. تحشد كلمات (العبير) و(النسيم) و(الفراش) و(الشجن) و(الهمس) كلها في صفحة واحدة حتى تشعر أن الصفحة توشك على الاختناق من الرقة، ثم تعيد قراءة ما كتبت فيبدو لها أقرب إلى الهذيان.. بل هو هذيان...

تمزق الورقة وتضحك..

أنت مراهقة يا فتاة.. هذا كل شيء.. رأسك أضيق مما يعتمل فيه من أفكار، وقلبك أصغر مما يموج فيه من عواطف.. هذه النشوة كثيرة جدًّا على جسدك الهزيل..

تقرر أنها لن تكون شاعرة.. سوف تصير مهندسة وسوف تصمم ناطحات سحاب يلتقط لها السياح الصور مع الكثير من الـ (واو والأوه والجاش)، ثم تقرر أنها ستكون طبيبة وسوف تسافر إلى مجاهل أفريقيا لتعنى بالمرضى الراقدين يرتجفون من الحمى في أكواخ من قش، ولسوف يلثم المرضى ظلها عندما تمر جوارهم كما حكى لها د. (رفعت) صديق أبيها عن (فلورانس نايتنجيل

Nightingale).. سيدة المصباح في حرب القرم.. لا.. هي لن تتحمل بكاء الأطفال والدم.. سترحل إلى (فلورانسا) لتتعلم الرسم...

ثم يأتي المساء فتقرر أنها ستكتفي بالعمل مع الفدائيين في فلسطين.. سوف تنضم لهم وتجاهد.. ثم تموت جوار جدار وهي تلفظ اسم (فلسطين) بصوت راجف..

هنا يغلبها التأثر والحزن على وفاتها المبكرة شابة جميلة رقيقة ينتثر شعرها الأسود على تراب الوطن.. فتبكي.. تمضغ الملاءة كي تكتم أنَّاتها.. ولا تنسى قبل أن تنام أن تصير عالمة مثل مدام (كوري) وتكتشف أن الجدول الدوري كلام فارغ.. كل هذا خطأ.. مدرس الكيمياء يقف أمامها كاسف البال نادمًا يعتذر عن كل الساعات التي عذبها فيها من أجل جدول خطأ.. مديرة المدرسة تصافحها وتعلن أن المدرسة تشرف بأن تكون مدرسة (رانية) عالمة الكيمياء الحائزة على جائزة (نوبل) لهذا العام...

نومها يأتي بلا أحلام على الإطلاق.. والسبب واضح.. إنها تخرج كل المخزون في عقلها الباطن وهي متيقظة، هكذا عندما تنام لا يوجد أي شيء ليخرج..

☆ ☆ ☆

(رانية) مريضة..

المرء يحتاج لوقت طويل كي يعرف أن المرض مرض.. عندما يكتئب المراهق أو يصمت أو يبكي دون سبب فأنت تقول إن السبب هو أنه مراهق..

لكن عندما يطول الأمر.. عندما تغزو تلك الهالات السود أسفل عينيها.. عندما يشحب جلدها ويرق.. عندما تمضي الليل ساهرة متكورة في ركن الفراش في وضع جنيني، وهي ترمق العالم من فوق حافة الملاءة، وعندما تغفو بضع لحظات ثم تصحو صارخة.. عندما يضيء (مختار) وزوجته النور ليجداها ترتجف كورقة، بينما أخوها الصغير غارق في النوم كالحجر.. طراز الأطفال الذين لو انتهى العالم فلن يصحوا أبدًا..

عندما يحدث هذا كله يبدأ (مختار) في التفكير.. بعد التفكير يأتي التأمل.. بعد التأمل يأتي الاستنتاج.. بعد الاستنتاج يأتي اليقين.. (رانية) مريضة!

احتاج المرور بهذه السلسلة المعقدة بضعة أشهر.. وفي النهاية أحتاج لبضعة أشهر أخري كي يقرر أنها بحاجة إلى مساعدة.. ثم بضعة أشهر كي يقرر أن له صديقًا طبيبًا هو أنا.. لا أدري متى سيقرر أنها بحاجة لطبيب نفسي.. ربما توصل لهذا القرار العبقري قبل أن تموت بالشيخوخة..

هكذا وجدت نفسي في تلك الليلة أجلس معها في صالون بيتهم..

يجب أن أقول إنهم أثرياء.. (مختار نجيب) محام من الرجال الذين لم يضيعوا مالهم في الهراء والسفر للخارج لمقابلة المسوخ على أرضها.. إنّه يكسب كثيرًا ويحافظ على ما يكسبه.. كنت أود أن أصفه بالبخل لكن البخيل لا يبتاع فيلا بهذه الفخامة..

لكن.. أنت تعرف (مختار) يا أخي! هل نسيت؟ ذلك المحامي الشرقاوي الصاخب الذي أرسلت (نجلاء) لتعمل عنده؟ هل نسيت (نجلاء)؟ التوأم التي.. ليكن أنا آسف.. انس الموضوع واعتبر أنك تقابله لأول مرة..

الفيلا تقع في شارع هادئ من شوارع المعادي.. في أية لحظة تشعر بأنك سترى المغامرين الخمسة يتقدمهم (تختخ) على دراجاتهم بينما كلبهم يركض ملاحقًا.. هناك حدائق صمت.. بوابون نوبيون.. لا شيء يحدث على الإطلاق..

الفيلا كانت ملكًا لشيخ عاش فيها وحيدًا ولم يتزوج قط.. كان من أعيان ما قبل الثورة ثم جاء التأميم ليسلبه الكثير، لكنه احتفظ بمال يكفيه كي يقضي باقي أيامه في سعة، ويقال إنّه كان غريب الأطوار وإن أحدًا لا يعرف عنه الكثير.. فقط بعد ما مات ظهر وريث كان يقيم بالخارج من مكان ما وباع الفيلا لـ (مختار).. الحقيقة أنه قصده كمحام ليعرف ما له وما عليه فاقتنص (مختار) هذه الفرصة وأقنعه بأن يبتاعها منه. كان السعر رخيصًا نسبيًا بالنسبة لفيلا بهذه المواصفات، والوريث على كل حال كان راغبًا في التخلص من كل شيء ليعود إلى الخارج.. هكذا سقطت الثمرة ناضجة في يد (مختار) الأريب.. فلم يمض أسبوع حتى كان قد نقل كل منقولاته من بيته القديم في (إمبابة)، وبالطبع احتاجت الفيلا إلى إضافات لا بأس بها..

كل الفيلات تتشابه على كل حال.. تشق طريقك عبر ممر مرصوف بالحجارة بين صفين من الأشجار، وأحواض مليئة بزهرة (الدالكونيا) التي لا وجود لها لكني أسمي بها كل أزهار لا أعرف كنهها.. هناك أرجوحة معلقة فلا تنس أنّ هناك طفلًا في الدار.. دعك من أنها تمنح أحلام الرومانسية لـ (رانية) حين تتأرجح عليها وتتخيل أنها سندريلا.. هناك عامود نور أو اثنان على شكل فانوس عملاق.. هناك منضدة من اللدائن تناثرت فوقها بضع مجلات أطفال، وقد تم وضع قطعة حجر عليها كي لا تقذفها الرياح.. حول المنضدة بضعة مقاعد.. لكن هناك حمام سباحة صغيرة من الطراز الذي يغرق فيه أطفال الأسرة ويموتون، أو تطفو فوقه جثة امرأة متعفنة لتطبق على كاحلك.. تعرفون هذه الحمامات طبعًا دعك من الكلب المسعور المفترس المتوحش بشع الخلقة سيئ الطباع الذي ربطوه إلى حبل يتحرك على حبل آخر معلق بالعرض، بحيث لا يستطيع البائس إلا الجري في خط طولي أبدي.. فإذا حاول أن يتحرك في خط عرضي شنق نفسه أو تعثر وسقط للوراء.

هذا الكلب ابتاعه (مختار) من كلية الشرطة، وهو فخور به جدًّا.. كانت لي قصص ممتازة مع هذا الكلب خاصة في المرّة التي رحت أغيظه فيها ثم اتضح أنه غير مربوط لأي شيء على الإطلاق..

لكن هذا ليس مجال الذكريات العامة طبعًا..

لنصغ إلى (رانيا) الصغيرة الجالسة في منامة حريريّة وقد تربعت على مقعد الصالون..

- «ما المشكلة يا (رانية)؟»

هزت رأسها سلبًا.. ورفعت رأسي فوجدت (مختار) واقفًا كالديدبان من وراء الستار كأنه لا يريد أن يفوت حرفًا مما يُقال.. كأن الأحمق يظنها لن تصاب بالهلع بهذه الطريقة.. أنا نفسي نسيت من أنا وهو يرمقني بهذه النظرة النارية.. أشرت له من طرف خفي أن يبتعد ثم عدت أسألها..

- «ما المشكلة يا (رانية)؟»

- «لا مشكلة..»

عدت أسألها.. ماذا بوسعي أن أفعل بعد هذا كله؟

قلت لها وأنا أقاوم رغبتي في أن أمسكها من قدميها وأطوح بها لأهشم رأسها في الجدار:

- «اسمعي يا (رانية).. أنا لم آت هنا للتسلية عليك.. كلنا يعتقد أنّ هناك مشكلة ومشكلة خطيرة.. والمشاكل الخطيرة تشبه تلك النظرة القديمة للطاعون: ما لم تنقليه لشخص آخر فسوف يقتلك.. هكذا كانوا ينظرون إلى الطاعون في القرون الوسطى..»

كان في رأسي ألف سؤال، لكني كنت أقدر أن (رامي) هو السبب في النهاية.. من (رامي)؟ هناك واحد دائمًا.. ابن الجيران أو زميل المدرسة لو كانت مشتركة.. هذا الفتى الرقيع الذي يقضي وقته في كتابة الخطابات المعطرة ويقذفها إلى الشرفة، والنتيجة هي أن أهله وأهلها يحترقون وينفقون المال، بينما الوغدان الصغيران غائبان في عوالم الرومانسية و(قالت كحلت الجفون بالوسن)..

(رامي) هو السبب وسوف أنسفه نسفًا، فقط لو انتهت مقاومتها وأخبرتني أنّ هذا هو التفسير فعلًا..

قلت لها:

- «سأسأل السؤال للمرة الأخيرة بعد هذا سأرحل.. لن يكون بوسعي مساعدتك ثانية.. صدقيني أنا لا أعرض صداقتي على أحد ولا أرحب بمعرفة شخص جديد، لهذا عرضي ثمين لن تعرفي قيمته إلا حينما يخبرك أبوك من هو (رفعت إسماعيل).. (رفعت إسماعيل) آخر الذئاب المتوحدة.. (رفعت) الذي لو كان في عصور الجاهلية لعاش في واد مع الغيلان والجان، ولرأته القوافل من بعيد يمشي حاملًا هراوة ثقيلة مدثرًا بفراء أسد..»

صمتت قليلًا تحاول استيعاب ما قلت، ويبدو أن الصورة راقت لها لأن شبح ابتسامة تلاعب على ثغرها..

كانت سمراء نحيلة جديدة هشة جدًّا، فلو أخبرني أحدهم أنها ستموت بعد دقائق لوافقته على الفور.. لكن بسمتها جعلت المكان يضيء بالمعنى الحرفي للكلمة..

قالت لي:

- «هناك أشياء..»

- «ومنذ متى لم يكن ذلك؟ هناك (نيفين) الفتاة السمجة المدللة لدى المعلمة والتي تتسلى عليك وتتحرش بك..»..

- «لا توجد (نيفين) عندنا في الصف..»

- «غريب.. هناك (نيفين) أو (سحر) دائمًا.. لكن.. هناك تلك المشاكل المتعلقة بـ (رامي).. إن (رامي) ليس جادًا.. ربما يبدو كذلك.. لكن أي مراهق يعرف كيف يبدو صادقًا عندما يرفع حاجبيه ويسبل عينيه و...»

صاحت وهي تضرب كفًّا بكف:

- «د. (رفعت).. لا أفهم أي حرف عما تتكلم عنه من (رامي)؟ ومن (نيفين)؟»

قلت لها في دهشة:

- «إذن ما سبب مشاكلك؟»

قالت وهي تأخذ نفسًا عميقًا:

- «هناك أشباح في هذه الفيلا!»

☆ ☆ ☆

الجزء الأول:
هواجس مراهقة

- «تحريك الأثاث والدق وهز الفراش.. هذه هي أفعال الأشباح الصاخبة.. ومن الغريب أنّ هناك كلامًا عن هذه الأمور في المخطوطات الفرعونية.. يقولون إن هناك ظاهرة تدعى (ظاهرة الغضب المسجل) حيث يسبب موت شخص في ظروف صاخبة عنيفة تجمعًا هائلًا للطاقة في مكان ما.. ويتكرر تفجر هذه الطاقة كأنك تعيد تدوير شريط التسجيل عدة مرات.. يتكرر إلى أن تنتهي هذه الطاقة فتزول الظاهرة..»

- ١ -

تعال يا (مختار) واجلس.. في الحقيقة أنا أقدر قلقك بسبب هذه الطريقة الدرامية التي طلبتك بها، لكني كنت حريصًا على ألا أفقد ثقة (رانية) التي أحاطتني بها.. لقد كففت عن أكون (عمو) لأصير صديقها، لهذا من الخسارة أن أبدد هذا..

لأسباب كهذه غادرت البيت من دون أن أتبادل كلمة معك، ثم اتصلت بك عندما وصلت إلى منزلي كي أستدعيك.. أريد أن نتكلم على انفراد وهمسًا.. أرجوك أن يكون همسًا.. أنا لا أطيق الصراخ وأنت تفترض أن كل الناس مصابون بالصمم والعته..

☆ ☆ ☆

(رانية) في فترة مراهقة..

أسمعك تتساءل عن أي شيء جديد جئت به.. أريد أن أقول إن مشكلتها الحالية تنبع من هذا العالم المضطرب الذي تسببه المراهقة في النفس.. في الغرب يعتقدون أنّ هذه هي السن المثلى للاستحواذ.. بينما يرى كثيرون إنها السن التي تظهر فيها القدرات الخارقة.. حسن.. في هذه السن يمكن أن ترى الفتاة رؤى..

لا أعرف من أين تعلّمت (رانية) هذه اللعبة التي يمارسها أطفال الغرب، لكن ربما قرأت عنها.. إن التليفزيون يعرض كل شيء هذه الأيام..

إن (ماري) ملكة إنجلترا الرهيبة هي التي بدأت كل شيء.. هذه الملكة كانت شرسة قاسية وقد اشتهر عصرها بالمذابح الدينية.. لم تنجب هذه المرأة لحسن حظ التسامح الديني.. أجهضت عدة مرات، ويبدو أنّ هذا ساعد في اشتعال طبعها الشيطاني.

في النهاية ماتت كمفاجأة سارة للشعب الإنجليزي، لكن الأطفال خلدوها بعبارة (ماري الدموية).. وكانت اللعبة الشهيرة تقضي بأن يقف الطفل أمام مرآة في الظلام وينادي اسمها ثلاث مرات.. أحيانًا كانوا يزيدون اللعبة إثارة بأن يقول:

- «يا (ماري الدموية).. أنا قتلت أطفالك!»

طبعًا تحمل هذه العبارة الكثير من الاستفزاز للمرأة التي لم تستطع أن تحتفظ بحمل ولحد.. المفترض حسب الأسطورة أن يراها الطفل واقفة وراءه في المرآة!.. فيما بعد سوف يقتبس كاتب

الرعب (كليف باركر Clive Barker) ذات الفكرة ليقدم فيلم رعب شهيرًا اسمه (رجل الحلوى Candy man) الذي لا ينبغي أن تنادي اسمه ثلاث مرات أمام المرآة لأنّه يأتي دائمًا..

حسن.. (رانية) لم تفعل هذا بالضبط..

لقد نفذت الجزء الآخر من اللعبة التي بالتأكيد أخبرها بها أصدقاؤها..

في هذه الطريقة تقف في الظلام عند أسفل الدرج وتحمل في يدها اليمنى مرآة وفى اليسرى شمعة.. ثم تتراجع صاعدة الدرج بظهرها وهي تنظر في المرآة.. طبعًا هذه طريقة مثلى لكي تقع ويدق عنقها.. فإن لم يدق فعلى الأقل لا بد أن تحدث حريقًا مروعًا.. فإن نجت من هذا صارت تستحق أن ترى ما ستراه...

في لحظة بعينها ترى في المرآة وجه عريس المستقبل؟ زوجها القادم يقف خلفها وينعكس وجهه في المرآة..

هذه أساليب لم يتعامل معها أحد بجديّة قط.. إنها ألعاب أطفال في النهاية..

لكن (رانية) جربت هذا.. غالبًا على سبيل الفضول وربما مدفوعة بكلام البنات المعتاد عن فارس الأحلام الذي سيأتي يومًا ما على حصان أبيض..

فكرة مرعبة لا تمارسها إلا فتاة غارقة في الرومانسية مثل ابنتك.. لم أكف قط عن اعتبار الرومانسية والرعب وجهين لذات العملة، ولست الأحمق الوحيد أليس الرعب القوطي ضربًا من الأدب الرومانسي؟ ألم يكن أعظم كاتب رعب - إدجار آلان بو - شاعرًا بالغ الرقة؟

بالنسبة لغير الرومانسيين من أمثالنا يبدو هذا مزيجًا من الخبال والشجاعة الزائدة...

ما فعلته هو أنها انتظرت حتى نامت الأسرة كلها.. ثم هبطت إلى الطابق الأسفل للفيلا..

كانت الردهة مظلمة، لذا اتجهت إلى أسفل الدرج وأشعلت شمعة بيد راجفة.. لا بد أن عود الثقاب انطفأ عدة مرات فأشعلته من جديد، ثم أدارت ظهرها للدرج وبدأت تصعد.. تصعد.. عينها على المرآة الصغيرة التي تشبه الصولجان والتي كتب على إطارها:

(ما من أحد كامل Nobody's perfect)

لا بد أن المشهد كان مرعبًا.. بقعة من النور تتحرك الأعلى وظلالها تتراقص عملاقة على السقف والجدران.. والمرآة لا تعكس إلا الظلام الرهيب خلفها، ووجهها الذي جعلته إضاءة الشمعة القادمة من أسفل مخيفًا..

تصعد.. تصعد..

إنها تقترب من أعلى الدرج محاذرة من أن تسقط..

فجأة رأت وجهًا في المرآة...

لم يكن وجهًا جميلًا على الإطلاق.. في ضوء الشمعة المتراقصة يمكن أن نتصور ما شعرت به..

كان وجهًا مشوهًا منتفخًا امتلأ ببقع زرق وخضر (أو هذا ما قالته لأن ضوء الشمعة زيَّف الألوان كلها).. كأنه وجه جثة متعفنة غطتها الفطريات.. بالتأكيد لم يكن أجمل عريس تحلم به فتاة شابة..

أجفلت وأطلقت صرخة..

ثم نظرت إلى الخلف فلم ترَ أحدًا..

بصعوبة استطاعت ألا تسقط لتهشم عنقها، وسرعان ما كانت تركض متواثبة فوق الدرجات..

انطفأت الشمعة فمن حسن حظها أنّ هناك إضاءة خافتة من الطابق الثاني حيث تغفو الأسرة..

اندفعت لحجرة نومها ووثبت في الفراش المجاور لأخيها.. أخيها الذي لو انشقت الأرض لتلفظ كل شياطين سقر فلن يصحو.. وللمرة الأولى شعرت بأنها سعيدة لنومه الثقيل هذا.. شيء من عالم الواقع.. شيء طبيعي يبعدها عما رأت..

سرعان ما كانت تحت الأغطية ترتجف..

لا داعي لأن أحكي لك عن عشرات التفاصيل الصغيرة التي لا يمكن أن ينساها أي مخرج رعب يجيد عمله.. نظرات الدمى الوقحة الموضوعة على المكتب أمامها.. صرير الباب.. الشيء الذي يتحرك في المرآة.. بقعة النور على وجه أخيها التي توحي بأنه ينظر لها في ثبات مع أن عينيه مغمضتان.. هذا كلام مكرر يوشك أن يصير مملًا..

الخلاصة أنها كانت أسود ليلة في حياتها..

لكن ضوء النهار يغسل هذه القاذورات..

لقد انتهى الكابوس، لكنّها كانت تعرف يقينًا أنها لن تجرب هذا ثانية..

تمارضت في الصباح فلم تذهب للمدرسة، والسبب هو أنها لم تتم لحظة واحدة طيلة الليل.. وقضت اليوم تتذكر التجربة التي عاشتها ليلًا..

هذا هو الجزء الأول من القصة..

نعم يا (مختار).. القصة لم تنته عند هذا الحد وإلا لكانت الحياة رائعة..

فقط اصبر قليلًا وكف عن الصراخ من فضلك..

☆ ☆ ☆

- ٢ -

كان (مختار) من الذين لا يشعرون بأنهم في مكان مريح إلا إذا نزعوا أحذيتهم وتربعوا على مقاعدهم في وضع أقرب إلى وضع اللوتس الخاص ببوذا، وقد قال لي في عصبية وهو يشعل لفافة تبغ:

- «حسن هذه هواجس مراهقة كما تعرف.. لا بد أن الظلام وضوء الشمعة يثيران الخيال.. لو مررت أنا نفسي بهذه التجربة لرأيت وجه مأمور الضرائب في المرآة أو ما هو أسوأ..»

قلت وأنا أفتح التليفزيون في الصالة:

- «بعد هذا حدث أن رأت هذا الوجه مرّتين في مرآتها.. كان يقف وراءها ويضحك تلك الضحكة المنذرة بالويل.. ثم بدأت الأشياء تتحرك في غرفتها»

- «أشياء؟»

- «نعم.. الدمي تدخل تحت الفراش.. المقعد يغير مكانه الأقلام تسقط إلى الأرض.. أصوات الطرقات في الغرفة ليلًا تلك التي يطلقون عليها rappings.. السيناريو المعتاد..»

اتسعت عيناه ونفث الدخان كثيفًا من منخريه، وهز رأسه بمعنى: أكمل..

قلت وأنا أغلق التليفزيون من جديد لأن البرامج مملة:

- «هذه القصص كثيرة جدًّا ومدونة في أكثر من مكان فيما مضى قيل إنها تأثير الأشباح الصاخبة (بولترجايشت poltergeist) ثم قرر العلماء بعد ملاحظة دقيقة أنها قوى تحريك عن بعد لا إرادية[1] RSPK.. الفتاة ترى الأشياء تتحرك لكنّها لا تعرف أنها من يفعل هذا.. لو قرأت هذه القصص لخيل إليك أن كل فتاة مراهقة تتحرك الأشياء في غرفتها..»

- «وما المانع أن تكون هذه حالة (رانية)؟»

- «كل أولئك المراهقات لم يرين وجهًا مخيفًا في المرايا.. إن وضع ابنتك فريد جدًّا ولك أن تشعر بالفخر..»

استرخى في مقعده ومد يده يفك ربطة عنقه، ثم سألني:

- «ما هذا الشبح الصاخب الذي تتكلم عنه؟»

حككت صلعتي الملساء وقلت له:

- «تحريك الأثاث والدق وهز الفراش.. هذه هي أفعال الأشباح الصاخبة.. ومن الغريب أنّ هناك كلامًا عن هذه الأمور في المخطوطات الفرعونية.. يقولون إن هناك ظاهرة تدعى (الغضب المسجل) حيث يسبب موت شخص في ظروف صاخبة عنيفة تجمعًا هائلًا للطاقة في مكان ما.. ويتكرر تفجر هذه الطاقة كأنك تعيد تدوير شريط التسجيل عدة مرات.. يتكرر إلى أن تنتهي هذه الطاقة فتزول الظاهرة..»

رفع يده محتجًا وهتف:

- «لكن هذا كلام عائم لا رأس له ولا ذيل.. بكم أبيع هذه الكلمات ومن أي مصرف أستبدلها؟»

قلت في خجل:

- «هذا حق.. وهذه مشكلة علم (الباراسيكولوجي) العتيدة برغم كل الجهود الصادقة لـ (جوزيف بانكس راين Rhine) ومن معه.. لا يُمكنك الإمساك بحقائق..»

- «وماذا أفعل أنا مع (رانية)؟ لا تقل لي أن أنتظر حتى تنتهي هذه الطاقة..»

قلت وأنا اتجه إلى المطبخ لإعداد بعض الشاي:

- «ابنتك ترى أشباحًا.. خذها إلى طبيب نفسي يسعد الجميع..»

☆ ☆ ☆

ولم أكن أمينا تمامًا في سرد القصة لـ (مختار)..

الفتاة رأت وجهًا مشوها أقرب إلى وجه ميت.. وقواعد اللعبة الغريبة هي أن الفتاة ترى وجه زوجها القادم في المرآة.. فإن لم تره ورأت وجهًا ميتًا أو رأت الشكل المصطلح عليه للموت (جمجمة - عباءة - منجل.) فإن هذا يدل على أنها لن تظفر بزوج..

بصراحة أكبر: ستموت قبل أن تتزوج..

☆ ☆ ☆

بعد زيارة د. (محمد إبراهيم) لم يبد أن الأمور تتحسن هو لم يقل شيئًا بل اكتفي بأن يخط على ورقة بعض المهدئات ومضادات الاكتئاب.. سألته عما تعانيه بالضبط فقال شيئًا ما أقرب إلى:

- «مممننننمممممهمممم»

وهو مرض جديد بالنسبة لي، لكني بما أعرفه عن الأطباء أدرك أنه يفكر في ذات اللحظة، فهو لم يقرر شيئًا بعد، عندها تسأله أنت فيكتفي بأن يزوم كأنه أسد يرى قطعة لحم.. في النهاية قال لي بصوت واضح:

- «(ملانخوليا).. وساوس الكثير من هذه الأشياء..»

- «وهذا الشبح الذي رأته؟»

- «(ملانخوليا).. وساوس الكثير من هذه الأشياء..»

الفتاة قلقة متوترة وهي لا تكف عن إخباري بأن كل شيء يتحرك..

قلت لها وأنا أضغط على أعصابي:

- «(رانية).. لا أريد أن أقسو عليك لكن ألا ترين نوعًا من الغرابة في كونك الوحيدة التي ترى هذه الأشياء؟ لو كانت هذه ظاهرة لتكلمنا في الأمر..»

كنا جالسين في حديقة الفيلا والشمس تغمر كل شيء.. تذيب فكرة الأشباح والمخاوف نفسها.. الآن أشعر بأن هذا كله سخف وبعيد جدًّا.. والكلب يغفو قريبًا منا بعد ما يأس من قطع رقبتي.. إنّه لا يستطيع النيل مني لسوء حظه لكني لا أريد التفكير فيما سيفعله لو تحرر من قيده مرّة أخرى..

قلت له (رانية) وأنا أشير لهذا الأحمق النائم:

- «صدقيني إن لي خبرة لا بأس بها في هذه الأمور هذه الحيوانات تملك حواسًا لا نملكها، وترى وتسمع ما لا نراه ولا نسمعه.. لو كان هناك شيء مريب واحد في هذه الفيلا لكان يقف منتصبًا، وقد انتفش الشعر حول رقبته، ولزام بصوت مفزع.. عرفت امرأة لم تكن تنام ليلًا إلا عندما تتأكد من أن القط نائم جوارها في سلام.. كان هذا يعنى لها أن الليلة ستمر على خير..»

رفعت عينيها ونظرت في أمل إلى الكلب النائم.. كيف لم يخطر لها هذا من قبل؟ وبدأت نظرة اطمئنان تستقر على ملامحها..

هنا - كأنه يريد أن يغيظني - رفع الوغد رأسه وانتصب ثم انتفش الشعر حول عنقه وبدأ يزوم..

☆ ☆ ☆

- ٣ -

كان المقعد البلاستيكي يتحرك..

أعرف هذا وأثق به.. لم أبلغ بعد درجة أن تخدعني حواسي.. أنا واثق مما أقول..

المقعد البلاستيكي الذي لا يجلس عليه أحد يتحرك بخطوات بطيئة دقيقة فوق أرضيّة الحديقة المكسوة بالملاط.. نظرت إلى (رانية) فوجدتها لا تنظر إلى المقعد على الإطلاق.. كانت عيناها على الكلب المتوتر الذي وقف في وضع قتالي ممتاز وهو يزوم مهددًا.. خائفًا..

تحرك المقعد بضعة سنتيمترات ثم توقف..

نظرت من جديد إلى (رانية) فرأيتها تنظر لي وهي تبتسم ابتسامة تشف خافتة.. هل رأيت أيها الأحمق؟

قلت وأنا أنهض:

- «لقد تحرك المقعد!!»

قالت دون أن تبدل من وضعها:

- «قل لي منذ متى كفت المقاعد عن الحركة في هذا البيت؟»

- «إنّه حدث تافه، لكنه أول شيء يتم أمام شهود على قدر علمي..»

قالت في برود:

- «لا أبالي بالشهود.. أنا لا أخرف وأعرف هذا جيد..»

قلت في عصبية وأنا أمسك بالمقعد الذي كان يتحرك كأنما أخشى أن يكون مربوطًا بخيط ما:

- «هذا ليس فعل أشباح.. إنها طاقة (سايكوكينيزيس).. أنت تحركين هذه الأشياء عن بعد دون أن تدركي هذا..»

- «ليت هذا صحيح..»

نظرت إلى الكلب فوجدته قد أقعى على الأرض وهو يصدر نباحًا من ذلك الطراز الخفيض الرفيع الذي يفتت الأفئدة.. فقالت (رانية):

- «كنت تتكلم عن الكلب الذي لا ينتفش الشعر حول عنقه ولا يزوم بشكل مفزع..»

كانت تغيظني.. لذا ضغطت على أعصابي وقلت:

- «هذا لا يعني أنه رأى شبحًا.. أي كلب في العالم يرى مقعدًا يتحرك من تلقاء نفسه لا بد أن يزوم ويهتاج..»

ثم جلست جوارها وقلت:

- «(رانية).. أنا لا أعني أنني لم أر أشياء غريبة.. أحسب أنني رأيت كل شيء مفزع أو مريب في العالم ولعل هذه نعمة أو نقمة، لكني في حالتك هذه لا أشعر أن ما رأيناه كاف ما زلت أضع الوساوس في المرتبة الأولى.»

- «والمقاعد التي تتحرك؟ هل هي وساوس»

أصابني الغيظ.. بالفعل هي محقة... قلت وأنا أنظر إلى المقعد:

- «إذن سأضع التحريك عن بعد في المرتبة الأولى.. ثم أضع الوساوس في المرتبة الثانية.. أمّا الأشباح سأضعها في آخر القائمة.»

نظرت لي بعينيها الساحرتين وسألتني:

- «هل رأيت بيوتًا مسكونة من قبل؟»

- «رأيت الكثير منها.. وزرت مسكن القس (بورلي) Borley Rectory في إنجلترا.. ذلك البيت الذي يقولون إنّه أكثر البيوت سكنى بالأشباح في العالم وفي التاريخ.. عامّة تكون القصة متكررة.. خطوات في الليل.. ضحكات.. أبواب تفتح وتغلق.. كلام يُقال في الردهات.. دقات من الجدران.. في النهاية يتضح أنّ هناك جثة مدفونة في جدار ما.. يُقال إن الروح تظل قلقة إلى أن يؤخذ بثأرها أو تدفن الجثة بشكل لائق بعدها تهدأ الأمور..»

- «ولماذا لا تفترض أنّ هذه الفيلا مسكونة؟»

صحت وقد صعد الدم إلى رأسي:

- «لأن الشاهد الوحيد هو أنت.. وأنت مراهقة حمقاء امتلأ رأسك بالخيالات.. لو رأى أبوك شيئًا كهذا لصار الأمر مفروغًا منه»

- «أنت رأيت المقعد معي..»

- «ربما أنا عجوز مخرف.. كارثة الكوارث أن يجتمع شيخ مخرف واهن الحواس ومراهقة خياليّة ويتكلما عن مقعد يتحرك..»

ثم نظرت في ساعتي وقلت لها إنني راحل.. فلتقرئ أباها السلام..

- «إلى أين؟»

تذكرت بيت شعر (حافظ إبراهيم) الشهير:

ثقلت عليك مئونتي

إني أراها واهية

فابشر فإني ذاهب

متوجه في داهية

الذي كتبه لعمه القاسي وهو يهرب من بيته في مراهقته..

بليغ جدًا يا شاعر النيل.. هذا البيت يصف حالي بدقة بالغة.. لكني قلت لها:

- «كما هي العادة.. سوف أحتسي القهوة في كافتيريا ما، ثم أعود لداري.. وعلى الأرجح لن أمر عليك لمدّة أسبوع، لكن عديني بأن تواظبي على علاج د. (محمد إبراهيم)..»

- «أمي تتأكد من ذلك..»

هنا ظهرت الأم.. المرأة الريفية الباسلة التي شقت الطريق وراء زوجها حتى بلغ هذه المكانة.. رحلة العمر أضافت لها بدانة توشك أن تسبب لها نوعًا من الإعاقة فهي تمشي بصعوبة وتجلس بصعوبة وتلهث طيلة الوقت محمرة الوجه.. هذه هي متلازمة (بيكويك) التي يعرفها أطباء الأمراض الصدرية والتي تنسب إلى بطل قصة (ديكنز) الشهيرة (أوراق بكويك).. لكنك لن تخبر امرأة انها تشبه مستر (بكويك) طبعًا حتى لو لم تكن قد سمعت عنه..

سألتني وهي تحمل صحفة عليها كوب به مياه غازية:

- «خيرًا يا دكتور؟ هييه؟ كيف حال (روني)؟»

(روني)؟ لا أعتقد أنّ هذا اسم الكلب.. إذن هو اسم تدليل الفتاة..

أفرغت الكوب في جوفي ثم قلت وأنا أنصرف:

- «بخير.. بخير.. ما دامت لا ترى المقاعد البلاستيكية تتحرك فهي بخير..»

☆ ☆ ☆

- ٤ -

في ذلك العام كان (سليمان الخولي) قد بلغ نهاية مخزونه من الصبر والتحمل..

تراه الآن يجلس في تلك الكافتيريا ينظر بعين زائغة لا ترى شيئًا إلى العالم من حوله.. يمرّ به النادل يسأله عما إذا كان يرغب في شرب شيء آخر، فيهز رأسه ويقول كلمات لا معنى لها يستنتج منها النادل أنه يعني (قهوة).. ما دام هناك هاء وواو فلا بد أن يقصد القهوة لأن الهواء لا يقدم في الكافتيريا..

أغنية جميلة يحبّها تتسرب في الجو، لكنه لا يعي حرفًا ولا يفهم أنها هي..

(سليمان) يرمق الشارع في ذهول عبر الزجاج.. الناس يمشون حاملين وجوههم ذاهبين هنا وهناك.. كل منهم لديه فرصة ما فلماذا لم يبق له شيء؟

وينظر إلى المنضدة.. حيث تستقر الدبلة المربوطة بخيط فوق الشرشف.. ينظر حوله ثم يمد يده ويطبق عليها.. لا بد أنها تحمل رائحتها.. لا بد أنها ما زالت ساخنة..

ينظر عبر الزجاج وقد بدأ الليل يحل فيرى منظرًا مركبًا من الظلمة بالخارج وأضواء الداخل.. ذلك المزيج العجيب من النافذة والمرآة معًا يرى وجهة النحيل الهضيم وشاربه الرفيع وعويناته وشعره العالي المنكوش الذي كان يذكر من يراه بالعبقري (علي مصطفى مشرفة).. (مشرفة) الذي اعترف (أينشتاين) نفسه بأنه واحد من الخمسة الذين فهموا نظرية النسبية فعلًا..

مزج غريب في زجاج النافذة لسلويت وجهه على صورة الشارع.. يتذكر الآن أنهم كانوا يقومون بالمزج في أفلام السينما القديمة بوساطة هذه الطريقة البسيطة توفيرًا لنفقات المختبر.. وجهه ينطبع على الحياة.. على الآخرين..

☆ ☆ ☆

(ريما) كانت هنا وقد رحلت..

هذه المرّة لم تكن على استعداد لسماع أعذار عن الشقة التي يوشك على الظفر بها عن وظيفة الجامعة التي سيفوز بها عن.. وعن..

كانت صارمة عملية قاسية جدًّا.. لقد أخبرته أخته يومًا ما عن أساليب البنات في التخلص من خطيب لم يعد يهمهن.. الرسالة البليغة التي تتمثل في دبلة معلقة كالعقد في العنق لحظة اللقاء..

يراها فيعرف أنه لم يعد هناك..

جلست (ريما) لتقول إنها جاءت فقط كي تترك له الدبلة.. تنزعها عن عنقها وتضعها على المنضدة.. أنت لا تكف عن بذل الوعود.. لا تكف عن النجاح في الخيال.. الآن أعرف أين أنا وأين أنت وأعرف أنني لن أستمر..

وتبتسم في قسوة..

ما أسعدهن حين يجلسن في مقاعد الحكام يرفضن هذا ويقبلن هذا.. هذا خجول نوعًا.. هذا يحترم أمّه أكثر من اللازم.. هذا ينظر أحيانًا إلى اليسار.. قرأت في مجلة (حواء) أنّ هذا دليل على ضعف الشخصية.. هذا يفرك أنفه كثيرًا مما يعني أنه كذوب.. ارفضي.. ارفضي.. ارفضي.. ما أسعدك يا ملكة الملكات..

يسألها عما تشربه..

- «شكرًا.. منذ عرفتك وأنا أشرب!»

ثم تضحك في مرارة وتنهض..

- «بعد إذنك!»

ثم تتجه نحو باب الكافتيريا الدوار رشيقة كغزال.. غزال نزع الدبلة عن إصبعه..

وتجلس أنت تحدق في كوب الليمون الفارغ، وتشعر بأنك ضعيف جدًّا.. كالسكارى لن تستطيع العودة إلى دارك.. لا بد من أن يوصلك أحد..

إنها تمر أمام زجاج الواجهة مبتعدة وصورتك تتطبع عليها..

ما لا تعرفه هو أنك أحببتها فعلًا.. أنك استمددت أمل كل لحظة قادمة منها هي..

وما لا تعرفه هو أنك فشلت في الالتحاق بالجامعة برغم تفوقك.. وظيفة المعيد الوحيدة حصل عليها ابن الدكتور (فلان).. وما لا تعرفه هو أنك علَّقت حياتك كلها على لحظة دخول الجامعة لتكون أستاذًا في الفيزياء..

ما لا تعرفه هو أنك لم تتخيل يومًا أن تكون مدرس فيزياء في مدرسة ثانويّة.. قد يبدو هذا رائعًا للبعض لكنك كنت تحلم على نطاق واسع، ولا ترى صورة لـ (أينشتاين) أو (فيرمي) أو (راذرفورد) إلا وشعرت بأنهم يشبهونك وأنك قادم من ذات العالم..

ما لا تعرفه هو أنك فقير مفلس وأنك لا تعرف كيف سيكون الغد.. هنا وحيدًا في المدينة القاسية الملطخة بالأصباغ وأمك في القرية تنتظر نجاحك..

لن تعود من دون نجاح.. لن تعود..

القهوة توضع أمامك فترشف منها رشفة.. سادة بلا سكر لكنك لا تملك القوة كي تنادي النادل وتلومه.. لا قوة.. لا ثقة بالنفس..

ربما كان السكر ليس من حقك.. فقط الناجحين يضعون السكر في قهوتهم..

وأنت كنت ناجا يومًا ما..

كنت أذكى طالب في الصف، وكان المدرسون يشهقون بمجرد أن تفتح فمك.. هل تذكر كيف حسبت شحنة الإلكترون قبل أن تقرأ الدرس؟ هل تذكر كيف خرج المدرس من المختبر فقمت بتحضير الهيدروجين معتمدًا على معلوماتك العامة باستعمال الخارصين والحمض؟ وعندما لم يصدّق أصحابك أنّ هذا هو الهيدروجين طلبت من (طاهر أبو زينة) أن يشعل عود ثقاب ويقربه من فوهة أنبوب الاختبار؟ الهيدروجين يشتعل بانفجار.. وهكذا.. بوم!!!!

حتى عندما عوقبت وبينما الدم ينزف من جروح وجهك كان الجميع يدرك أنك عبقري وأن لك شأنًا عظيمًا..

ماذا حدث؟؟

لماذا توقف مسار حياتك فجأة ثم راح يتقهقر؟

لكن ما لا يعرفونه هو أنك اتخذت قرارك منذ زمن وأنت تحمل في جيبك الحل لكنك كنت بانتظار اللحظة المناسبة.. عندما تدرك ألا أمل هنالك..

الآن هناك مخرج سري من هذا العالم القاسي، وهذا المخرج يشبه قلاع القرون الوسطى التي كانت تزود بباب سرّي كي يفر منه الحاكم إذا توترت الأمور واشتد الحصار..

تمد يدك في جيبك وتنظر حولك..

علبة دواء السكر التي لم تعد تتخلى عنها وتحملها معك في كل مكان.. تفرغ الأقراص في قبضتك ثم تقذف بها إلى فمك وتبتلع كوب ماء..

هكذا.. لا شيء.. لا ألم..

هذه ميتة تختلف كثيرًا عن الوثب المرعب في النيل أو من فوق البرج.. تختلف عن المجانين الذين يشعلون النار في أنفسهم والمخابيل الذين يقطعون شرايين أيديهم..

غيبوبة سريعة ثم ينتهي كل شيء.. ربما يبدأ الأمر بدوار وعرق وربما تشنجات لكنّها سوف تنتهي حالًا..

فقط يجب أن تنعزل الآن سريعًا وإلا حاولوا إنقاذك..

هكذا تنهض مسرعًا وتتجه إلى دورة المياه.. فيما بعد سوف يبحثون عنك سوف يحطمون الباب لكن القصة ستكون منتهية بالنسبة لك..

تتجه إلى الحمام.. تدخل إلى واحد نظيف تفوح منه رائحة حمض الكربوليك.. تجلس بكامل ثيابك على المقعد وتسند رأسك إلى قبضتك وتحاول أن تنام بانتظار لحظة البدء.. أن يصل العقار إلى دمك..

لحظة.. لحظة.. لحظة..

فجأة تسمع صوت ضربة.. باب ينفتح.. ثم تفاجأ بمن يقتحم الحمام الذي تجلس فيه.. هناك من ركل الباب بقوّة ليفتحه..

يد تمسك بك وتجرك جرًّا إلى الخارج..

تسمع ذلك الصوت يقول:

- «هلمّ! أفرغ معدتك حالًا!»

كوب مليء بالماء المالح يصب في فمك صبًّا ثم أحدهم يغرس إصبعه في حلقك لتفرغ معدتك.. تفرغها فوق الحوض.. مذاق الملح والحمض.. أنت تكره هذا.. تكرهه.. تحاول المقاومة لكنهم كثيرون..

- «هلموا! هل جاء الإسعاف؟»

ثم:

- «هلموا! أين الفتى الذي ذهب إلى الصيدلية؟»

ثم هناك من يُلقي بك على الأرض.. إبرة تغرس في ذراعك.. زجاجة بلاستيكية معلقة يتم إفراغ ما بها إلى عروقك وأنت ما زلت على أرض الحمام تنظر للسقف وتحاول فهم ما يحدث..

- «لقد أعطيته زجاجتي دكستروز عالي التركيز، لكن مستوى السكر في دمه سيهبط ثانية.. يجب أن يأتي الإسعاف حالًا..»

ثم تشعر أنك وُضعت على محفّة..

تسمع ذلك الصوت يقول:

- «كان يجلس بقربي ورأيته يبتلع تلك الأقراص جرعة واحدة.. عندما نهض إلى الحمام وجدت هذه العلبة فارغة وملقاة على المنضدة.. هذا علاج لا يمكن تجاوز قرصين أو ثلاثة منه.. دعك من أنّه كان يتصرّف بطريقة غير طبيعية منذ جلس..»

ثم تسمع من يتكلم في وقار قائلًا

- «من حسن حظه أنك كنت هنا يا دكتور.. قلت لي ما اسمك؟»

الصوت الذي سمعته حتى أصبت بالملل يقول:

- «اسمي (رفعت).. (رفعت إسماعيل)..»

☆ ☆ ☆

- ٥ -

هكذا عرفت (سليمان الخولي)، وهكذا تكونت تلك الصداقة الغريبة بيننا..

صداقة بين شاب حديث التخرج يشبه (علي مصطفي مشرفة) وعجوز عصبي.. صداقة بين منتحر والطبيب الذي أنقذه.. لقد كنت في ذلك اليوم أجلس إلى منضدة مجاورة أرمق ذلك المشهد الذي أدركت على الفور أنه نهاية قصة حب. ظللت أرمق الفتى الجالس وحده على سبيل الشفقة والفضول.. إلى أن رأيته يتخذ هذا القرار الدرامي المخيف، وقد نهض ليدخل الحمام فأدركت على الفور ما فعله.. كنت أعرف أنه لا (يبلف) كما تفعل الفتيات الهستيريات عندما يبتلعن ثلاثة أقراص من الأسبيرين ويملأن الدنيا صراخًا.. أولًا لأن أحدًا لم يره وهو يقوم بما قام به، وثانيًا لأن من يحمل هذه الملامح لا يمزح..

نجا الفتى، والفضل لله أولًا ثم لعبد الله الذي كان جالسًا يراقب الموقف.. يقول الأطباء النفسيون إن الانتحار هو نوع من الجنون المؤقت، وقد أدهشني أن يحل جنون مؤقت بهذا الفتى شديد الذكاء..

اعتدت أن أزوره في المستشفى عندما كان فيها، ثم التقينا في مقهى جوار بيته عدة مرات، وأجريت له نوعًا من غسيل المخ.. قلت له إن الشباب هبة في حد ذاتها لديه الغد كله ليتزوج ملكة جمال العالم ويفوز بجائزة نوبل ويتسلق جبل (إفرست).. ربما يصير رئيس (كوستاريكا) أو سفيرنا إلى (عطارد).. كل شيء ممكن بينما لم يعد شيء ممكنًا لمن في مثل سني، حيث صار المستقبل ذاته ماضيًا.. نصيحتي لك أي بني هي carpe diem كما يقولون باللاتينية..

ينظر لي في عدم فهم فأقول:

- «أي: اقتنص مباهج اللحظة.. لا تفكر في الغد»

الحقيقة أنه كان عاثر الحظ فعلًا وقد تلقى صفعات في كل مكان تقريبًا.. لكن إصلاح كل شيء ما زال ممكنًا.. لو انتحر كل شاب خسر فرصة العمل في الجامعة، وتخلت عنه خطيبته، وحاصره الفقر، لما بقي في العالم أحد..

سألته بعد خروجه من المستشفى عن نوعية دراسته فقال:

- «الفيزياء.. لي اهتمام خاص بالكهرباء..»

- «تدرس الجول والإرج والفولت وهذه الأمور؟»

نظر لي كأنما يخشى أن أكون مازحًا ثم انفجر في الضحك، وقال:

- «نعم.. لكني مهتم بأمور أعقد من هذا.. كأنني أسألك عما إذا كنت تدرس العضلات والجهاز الدوري في كلية الطب!»

- «وأين تعمل؟»

تنهد طويلًا ثم قال:

- «في الوقت الحالي أعمل في داري وبشكل مستقل.. إن لي أبحاثي الخاصّة منذ دخلت الكلية.. لكني كنت أتمنى أن أجد إمكانيات جامعة تحت يدي.. أن أسافر للدراسة بالخارج على نفقة الدولة..»

قلت في دهشة:

- «أي أنك تمارس البحث العلمي (من منازلهم)»

- «هو كذلك..»

ثم مال نحوي وضيق عينيه في خطورة وقال:

- «هل تسمع عن عالم ما وراء الطبيعة؟»

نظرت له للحظة ثم قلت في جديّة:

- «لا.. لا أعرف أي شيء عن هذه الأمور..»

ضحك كثيرًا من جهلي المطبق وقال:

- «لا يمكن أن تتصور أبعاد هذا العالم المليء بالأسئلة إنِّه عالم مذهل مثير.. ألم تسمع عن القدرات الخارقة والأشباح وكل هذه الأمور؟»

هززت رأسي في إصرار وقلت:

- «لا أعرف شيئًا عن هذا صدقني.. أسمع عنه وأراه في السينما لكني لم أجربه وأعتقد أنه مثير للفزع!»

- «لا تعرف شيئًا؟»

- «البتة..»

قال وهو مستمتع بجهلي:

- «كانت تجاربي تدور حول دراسة هذه الظواهر بشكل فيزيائي.. أحاول أن أضع قوانين محددة لهذه الأشياء.. لم أصل لشيءٍ لكني كنت أمل أن أطور أساليبي أكثر..»

- «وهل تعتقد أنّ هناك جامعة تقبل أن تمارس فيها هذه التجارب؟ هذا كلام لا رأس له ولا ذيل ولا يمكن أن تقبل به جهة علمية محترمة..»

- «أعتقد أنهم قد يرحبون به في الخارج.. أمّا هنا فلا..»

ثم هتف في حماس:

- «لو زرت بيتي لعرضت عليك بعض الأمور المثيرة..»

استخدام الكهرباء في دراسة علم الماورائيات؟ هذا هو الجنون بعينه.. شبه العلم الذي أرهقونا وعذبونا به على طريقة (سرعة الصوت هي ثلث كيلومتر في الثانية.. وهذا يثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن الغيلان وجدت في القاهرة منذ ٣٠٠ عام).. هذا يعطي المستمع ثقة بالكلام برغم أنه لا علاقة بين المقدمات والنتائج.. فقط يفترض لا شعوريًا أنه كلام محترم مادام يقول (سرعة الصوت) وما إلى ذلك.. تكلّم عن الكهرباء وفرق الجهد والتردد ثم تكلّم عن (أبو رجل مسلوخة) ولسوف يبتلع غير المدققين الخدعة.. وسوف تكتب أكثر من جريدة أن العلم الحديث أثبت وجود (أبو رجل مسلوخة)..

على كل حال يذكرني هذا بجو أبحاث (جوزيف بانكس راين) و(إيجور تاركوفسكي).. لكن (راين) هو الاسم الذي حاول جاهدًا أن يمنح احترامًا لهذه العلوم ونجح إلى حد كبير..

هكذا تنصلت من زيارة الفتى.. لا أريد أن أشغل عقلي بهذا الهراء.. لو كان بارعًا فليوفقه الله ولو كان نصابًا فهذه مشكلته..

لم أعد أقابله بذات الإفراط لكني احتفظت به قريبًا أولًا هو ذكي فعلًا.. ثانيًا هو شديد الحساسية صادق.. ثالثًا.. من يدري؟ ربما أحتاج إليه يومًا ما....

والحقيقة أنني كنت صادقًا في حدسي..

لقد كان ذلك اليوم قريبًا جدًّا...

كان هناك ذلك الفتى بأبحاثه الغامضة واكتئابه.. وكانت هناك (رانية) برؤاها المخيفة واضطرابها.. خطان متوازيان ما كنت أعتقد أنهما يلتقيان أبدًا.. هذا ما تعلمناه في الرياضيات.. لكن يبدو أن الرياضيات علم يتطور باستمرار..

لقد التقى الخطان بالفعل وكان هذا قراري أنا.. لكننا سنعرف المزيد فيما بعد.. ليس الآن..

☆ ☆ ☆

- ٦ -

في هذا الوقت تقريبًا حدث ما حدث لـ (رانية)..

لا بد أنه كان مساء سبت.. كانت الأسرة تجلس أمام جهاز التليفزيون وهي في غرفتها تعد الدروس للغد.. لقد عاد (مختار) من الخارج منذ ساعة فهي إذن من تلك الأمسيات الهادئة المعدودة التي تبدأ مبكرًا، والتي يمارس فيها (مختار) الجو الأسري.. بينما اعتادوا أن يعود للبيت في ساعة متأخرة جدًّا ليأكل كأفراس النهر ويتشاجر كالخراتيت ثم ينام كالصخرة..

سمع الأبوان صرخة عالية من غرفتها مع صوت شيء يرتطم بالأرض..

هرع الجميع إلى الطابق الثاني من الفيلا.. (مختار) يثب الدرجات بينما الأم تحاول أن تنقل كل هذه الشحوم الأعلى.. والطفل راح يتعثر في مؤخرة الركب لأنّه كان خائفًا بطبيعة الحال..

اقتحم (مختار) الغرفة فوجد (رانية) ملقاة على الأرض فاقدة الوعي.. جوارها على المكتب حقيبة مفتوحة وعلى الأرض تناثرت كتب الكيمياء والاستاتيكا والفرنسية.. قصة موجزة جدًّا.. كانت تعد الحقيبة للمدرسة غدًا عندما حدث هذا..

بينما أطلقت الأم الكثير من الصرخات و(بنتي) و... و... كان (مختار) عمليًا جدًّا.. اتجه إلى الهاتف ليطلب أول أحمق متاح..

- «(رفعت).. تعال حالًا»

- «هل هناك كارثة ما؟ إنني لم أتناول عشائي بعد..»

- «قلت لك تعال حالًا..»

- «هل من تلميح ما؟»

- «(روني) فاقدة الوعي..»

- «(روني)؟ ومن هي (روني)؟»

- «(رانية) يا أحمق.. (رانية) ابنتي!»

- «مالها؟»

فوضع السماعة لأن أعصابه لم تتحمل أكثر.. لو كنت أمامه لانتزع رأسي بأسنانه..

يجب أن أعترف منذ البداية أنني لم أكن متحمسًا.. أن يجروني من داري لحالة فقدان وعي لا بد أنها ستنتهي خلال ثوان.. الجسم البشري قد أعده الله ليعالج نفسه، والسقوط أرضًا هو الطريقة المثلى لعودة الدم إلى الدماغ، أمّا الناس العباقرة فيحاولون جاهدين منع هذا إذ يجلسون فاقد الوعي وربما يرغمونه على الوقوف كذلك.. دعك من أن الفتاة من الطراز الواهن (النور استاني Neurasthenic) إياه.. في الغرب يطلقون عليهن اسم pretzel ladies أو ما يشبه قولنا (البنت البسكويتة).. فلو لم تكن تفقد الوعي ثلاث مرات يوميًا لكنت مجنونًا.. تفقد الوعي عندما تجوع.. تفقده عندما ينبح الكلب.. تفقده عندما تنفعل.. تفقده عندما لا تجد شيئًا آخر تفعله..

دعك من (متلازمة الجيب السباتي) حيث يفقد الناس وعيهم لأي شيء يتعلق بالعنق.. غلق أزرار الياقة.. حلاقة الذقن.. أي شيء.. هؤلاء ليسوا مرضي لكنهم - فقط - أكثر حساسية من الآخرين..

لكني لم أستطع التملص.. هكذا لحقت بهم...

لكني عندما وصلت للفيلا وفتح لي (مختار) الباب رأيت وجهه قلقًا.. أدركت أن الأمر مقلق فعلًا.. المفترض أن تكون قد أفاقت وتجلس الآن تشرح لهم كيف لم تشعر بشيء لحظات..

كانوا قد حملوها إلى الفراش ووضعت أمها الكثير من الأغطية فوقها باعتبار كل داء في العالم سببه البرد كما تعلمون.. فحصت الفتاة فوجدت نبضها على ما يرام وتنفسها منتظمًا وأطرافها دافئة.. هي ليست في صدمة إذن.. الحدقتان تستجيبان للضوء ولا تمارس عيناها تلك العادة البذيئة التي تمارسها عيون الدمى عندما تتابعك مهما كان وضع الرأس وتدل على كارثة أكيدة.. فقط كان جبينها متورمًا من إثر السقطة..

حاولت أن أوقظها عن طريق تنبيه بعض المراكز العصبية لكن لا استجابة.. رفعت يدها فوق وجهها ثم تركتها تسقط فهوت إلى جوارها لا على وجهها.

درت بعيني في الغرفة فرأيت المكتب حيث كانت تعد حقيبتها.. كانت هناك مرآة كبيرة معلقة فوقه.. هناك مرآة أخرى على خزانة الثياب.. ترى.. هل...؟

رفعت رأسي وأخذت شهيقًا عميقًا ونظرت إلى الأبوين القلقين وقلت:

- «الأمر ليس بهذه البساطة.. لا بد من مستشفى..»

صاح في عصبية:

- «لم؟ اطلب أي شيء وسنقوم به هنا..»

- «لا تكن طفلًا.. لا بد من قياس سكر الدم ووظائف الكلى لا بد من بعض فحوص الأشعة.. لا بد من رأي مختص بالأمراض العصبية.. لست (سوبرمان) يا صاحبي..»

ثم أضفت وأنا أتفحص حدقتيها:

- «تبدو سليمة تمامًا.. لكن أؤكد لك أنّ هذه ليست حالة إغماء عادية»

هزّ كتفيه ثم اتجه إلى الهاتف..

☆ ☆ ☆

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي كنا قد فعلنا كل شيء ممكن.. كان رأى أكثر من طبيب أنّ هذه (غيبوبة هستيرية) لا يوجد لها أي سبب عضوي..

الفتاة سليمة وجهازها العصبي يعمل كأفضل ما يكون.. هي نائمة لكن أحدًا لا يستطيع جعلها تصحو.. اختبار رفع اليد المميز للغيبوبة الهستيريّة واضح تمامًا.. مريض الهستيريا لا يحبّ أن يؤذي نفسه.. كما أنّ رسم المخ الكهربي لم يظهر شيئًا ذا بال..

قلت في غيظ:

- «إذن هي في غيبوبة.. نائمة ولا تصحو معناه غيبوبة..»

فعادوا يقولون في صبر:

- «ونحن لم نقل غير هذا.. لكنّها غيبوبة هستيرية»

بعد يومين كانوا غارقين في التفكير في حلول.. وفكر أحدهم في صدمة كهربية لمخ الفتاة الأمر الذي لم يرق لي كثيرًا.. أعتقد أنه كان يتكلم من منطلق الغيظ لا منطلق الحكمة الطبية..

فقط أنقذ الفتاة أن مر أحد الأساتذة الكبار شائبي الشعر الذين راح (مختار) يمطرها بهم وفحصها.. ثم قال لـ (مختار) في تؤدة:

- «سوف تفيق من هذه الغيبوبة عاجلًا أم آجلًا.. فقط عليك أن تصبر وألا تعذبها محاولًا جعلها تفيق.. إن مريض الهستيريا يضغط على أعصاب من حوله فعلًا وبعضهم يتلقى ضربًا مبرحًا.. يجب أن تتأكدوا من تغذيتها وجعلها تتقلب في الفراش... أرى أن بقاءها هنا سيكون مشكلة عليكم دعك من النفقات الباهظة، لهذا أقترح أن تأخذها للبيت وتجد لها ممرضة تقوم بهذا كله..»

كانت (عواطف) ممرضة لا بأس بكفاءتها.. إنها أرملة في العقد الرابع من العمر نشطة وقد تقاعدت منذ فترة لكنّها قبلت أن تقوم بهذه المهمة لقاء راتب، ومن أجلي فقط...

هكذا وجدنا أنفسنا في موقف سيئ لكنه مستقر.. (رانية) في الفراش وذلك الأنبوب يخرج من أنفها حيث تحقن فيه (عواطف) اللبن والعصائر كل ساعتين، وأخوها لم يعد يقيم في الغرفة التي تفوح منها رائحة بودرة (التلك) الممزوجة برائحة الكولونيا.. الخليط الضروري لمنع قرح الفراش.. تلك الرائحة التي لا أشمها إلا وشعرت بالتقزز لو أنّ للغيبوبة رائحة فتلك رائحتها..

جوار الفراش هناك جهاز كاسيت لا يكف عن إذاعة شرائط القرآن للشيخ (الطبلاوي) و(عبد الباسط)، وقد تكفلت (عواطف) بتبديل الشريط كلما انتهى بشريط آخر.. والحق يُقال إنها فكرة طيبة لأنني كنت قد بدأت أشعر بجو مشئوم كئيب في هذه الفيلا.. أعتقد أنه ذلك الشعور الخفي الذي لا أعرف كنهه والذي يشعرني بوجود (شيء ما)..

الأم تقضي جوارها أكثر الأوقات.. تهمس لها بصوت خافت تلك القصص التي تحبها.. تعبث في شعرها، أو تفتح كفها وتلصقه بشفتيها لعدة ساعات هذا خطأ فادح بالنسبة لمريض الهستيريا لأنّه يجعله يتمادى حتى وإن لم يدرك هذا.. الفتاة تجد نفسها قد تحولت من (الزفتة) إلى (حبيبة ماما) وهذا مغر جدًّا.. نصحت الأم بأن خير علاج للفتاة - ولمريض الهستيريا عامّة - هو التجاهل التام.. لكنّها لم تكن مستعدة لسماع أية نصيحة مني باعتباري صورة أخرى لغربان البين..

كان أبواها في حال سيئة، لكني كنت في حال أسوأ.. لم أبتلع قط فكرة أنّ هذه الزهرة اليانعة تحولت إلى نبات راقد في فراش.. لو كان هناك مرض واضح.. لو كان هناك التهاب مخ أو نزف أو فشل في عضو مهم لقبلت هذه قواعد اللعبة وعلينا أن نلعب بها.. لكن جسد الفتاة سليم تمامًا وجهازها العصبي ممتاز.. هذا يثير الغيظ....

كما قلت لـ (عزت) في تلك الليلة وأنا أجلس معه في شقته التي هي مزيج من مرسم ومقلب قمامة:

- «تخيل أن رجلي شرطة قبضا عليك واحتجزاك في زنزانة.. يقولان لك إنك لم تفعل شيئًا.. لا مخالفات على سيارتك وصحيفة سوابقك ناصعة البياض.. التقارير الأمنية عنك ممتازة، لكننا برغم هذا سوف نحتجزك.. سوف تصرخ.. تهز القضبان.. تتشاجر.. تضرب رأسك في الجدار لا جدوى.. سوف تمضي حياتك في الزنزانة ولن يزورك أي محام ولن تحاكم.. هذا هو وضع تلك البائسة..»

قال (عزت) وهو يعجن قطعة من الصلصال لا أعرف إلام ترمز:

- «لكن ذلك الأستاذ الكبير يقول إن الزنزانة ستفتح يومًا ما..»

- «متى؟ هذه هي المشكلة.. لو أفاقت بعد ثلاثين عامًا فإنني أفضّل لها أن تموت الآن.. شبابها يمضي وهي لا تعرف ذلك..»

- «أي شباب يمضي؟ قلت إن لها أسبوعين.. أيام في هذه الغيبوبة لا أكثر.»

- «لكنهما مرا كدهر على أبويها.. ولا ألومهما على ذلك..»

قال (عزت) في حذر وهو يُلقي بقطعة الصلصال في القمامة:

- «لا أريد أن أفتح شهيتك.. لكن القصة غريبة.. تبدو لي أقرب إلى تلك الأمور التي تهتم بها.. ألم تحاول قط الربط بين ما يحدث وبين تلك الرؤى التي كانت تشكو منها؟»

فكرت في الأمر للمرة الأولى على ضوء جديد وبدا لي شيء من الصواب فيما قاله..

☆ ☆ ☆

- ٧ -

قال (مختار) وهو يحك رأسه:

- «أنت جننت تمامًا.. هذا لا شك فيه..»

- «قل لي أي شيء ليس مجنونًا فيما نمر به»

- «سوف تقع وتهشم عنقك.. وبعدها سيكون على أن أفسر كل شيء لرجال الشرطة..»

- «أنت محام فلن تكون هناك مشاكل»

كنت أقف جوار الدرج في داره ممسكًا بشمعة وفي اليد الأخرى تلك المرأة المستديرة التي تقول لي (ما من أحد كامل).. كأن من صنعها أختار العبارة خصيصًا لي...

كانت خطتي هي أن أكرر تجربة (ماري الدموية) كما فعلتها (رانية) مرّة أخرى وبالحرف الواحد.. فقط على (مختار) أن يظلم المكان ويختفي.. أريد أن أمارس التجربة وحدي.. أريد أن أعرف ما إذا كان شيء سيظهر لي فعلًا أم لا..

قال (مختار) في سخرية مكتومة:

- «الفتاة ترى في المرآة وجه عريسها القادم، فهل تبحث أنت كذلك عنه؟ هل أنت قلق بصدد فارس أحلامك؟»

قلت مبتلعًا سخريته:

- «لو كان هناك شيء يظهر في المرآة فأنا أريد أن أراه.. سمه عريسي القادم أو الجانب المظلم من نفسي أو الجان الأزرق.. فقط أريد أن أرى..»

هكذا نفذ ما قلت.. أطفأ الأنوار كلها وتركني أقف عند أسفل الدرج ثم صعد إلى الطابق الثاني مع أسرته مستهديًا بكشاف يدوي صغير.. وقال قبل أن يغيب عن عيني من فوق (الترابزين):

- «عندما تموت احرص على أن يبدو الأمر كحادث واضح أمام رجال المختبر الجنائي.. لا أريد أن أتهم بأنني دفعتك من فوق الدرج..»

- «سأحرص على هذا.. هل ترغب في أن اكتب لك (مخالصة)؟»

- «ليس إلى هذا الحد.. سلام..»

وأخيرًا تواروا ووجدت أنني أقف في الظلام....

☆ ☆ ☆

آه يا (يانج Jung).. أيها العبقري!

ما أدق ما قلته عن اللاشعور الجمعي ومخاوف الماضي المتراكمة فينا! هأنذا الشيخ المسن ذو الخبرة.. الذي رأى أشياء يفوق عددها الحصر.. هأنذا أقف في الظلام شاعرًا بخوف عاصف.. كل مخاوف الظلمة التي عرفها الإنسان تحتشد فيَّ في هذه اللحظة برغم أن لدي كل ما يدفعني للظن بأن (رانية) واهمة.. هناك ظفر خدش طبقة الحكمة السطحية في عقلي فبرزت مخاوف الماضي الكامنة في عقلي الباطن..

لعله ضوء الشمعة هذا الضوء اللعين المتراقص إنِّه يُلقي ألف ظل وألف احتمال..

وفي المرآة أرى وجهي وقد كسته تلك الظلال القادمة من أسفل مما منحه سمتًا شيطانيًا.. أقدم حيلة عرفها مديرو الإضاءة في أفلام الرعب حتى لم يعد هناك شرير في الأفلام القديمة إلا وله إضاءته الخاصّة القادمة من أسفل..

الآن أتراجع ببطء وعيني لا تفارق المرأة..

أتراجع.. أتراجع..

أصعد أول درجة.. ثم الثانية..

أشعر بمزيج فريد من السخف والجنون والرعب..

أصعد درجة ثم أخرى.. درجة ثم أخرى..

بحذر شديد أرمق المرآة.. وأختلس نظرة لقدمي..

لقد صعدت نحو عشر درجات.. لا شيء في المرآة إلا نصف وجهي.. لا أحد ورائي إلا الظلام..

نظرة أخرى لقدمي.. ثم...

ما هذا!

من الذي يقف خلفي؟

الآن أراه بوضوح.. لم تكن الفتاة هستيرية ولا مخبولة بالفعل هو وجه متآكل يكسوه العفن وينظر لي عبر المرأة كأنه يقف وراء كتفي.. بشكل ما أشعر أنه مألوف.. وبرغم الظلال وضوء الشمعة المتراقص هناك فجوة لا شك فيها في موضع العين..

وقفت في موضعي وقلبي يخفق.. يثب.. ينتفض تلوت المعوذتين بسرعة وأخذت نفسًا عميقًا..

وبصوت مبحوح سألته:

- «من أنت؟»

تحركت شفتاه المهترئتان وراح يردد بصوت خفيض مبحوح كلمات لم أفهمها.. ثم بدأت أدرك ما يقول:

- «فتش في بيت الأشباح.. وسوف تهديك الأرقام..»

- «فتش في بيت الأشباح.. سوف تهديك الأرقام..»

وفجأة تراجعت للخلف أكثر وقد خرج مركز ثقلي عن قاعدة جسدي.. كنت في وضع حرج من الناحية الديناميكية، لذا لم تجد قدمي ما تستند إليه..

سقطت ثلاث درجات.. ثم توقفت فلم أنحدر إلى أسفل أكثر لحسن حظي، لكني أطلقت صرخة.. ثم أدركت أن كاحلي قد التوى.. وإلا ما تفسير كل هذا الألم الذي اجتاحه؟

ألم حارق آخر في يدي فأدركت أن الشمعة قد سقطت وأنها الآن تحاول أن تجد حياة جديدة على الدرجات الخشبية.. هكذا أطفأتها في لهفة بنفخة جعلتني أسعل...

يا له من موقف!...

أنا عاجز عن الحركة بينما ذلك الشيء أعلى الدرجات وعلى الأرجح يهبط نحوي الآن..

ظلام دامس أولي.. ظلام بكر..

إنني....

ثم أدركت أن الشيء لم يكن آتيًا.. وإلا فمن أين يجد كشافًا كهربيًا؟ كان القادم هو (مختار) وقد سمع صرختي والضوضاء..

وعلى ضوء الكشاف وجدني على الدرجات أمسك بكاحلي وأئن..

صاح في غيظ:

- «يا لك من أحمق.. توقعت هذا! كأن ليس لدينا ما يكفي من مصائب!»

قلت وأنا أضغط على أعصابي:

- «هناك شيء لعين في هذا البيت.. لقد تأكدت من هذا.. كما تأكدت من أن خلاص ابنتك يتوقف عليه.. هناك أشباح هنا وسوف نجدها!!»

☆ ☆ ☆

- ٨ -

كانت ليلة سوداء بالنسبة لـ (مختار) لأنّه اضطر أن يحملني بسيارته إلى المستشفى حيث قاموا بلف رباط ضاغط حول كاحلي.. الحمد لله أنهم لم يستخدموا الجبس.. تخيل شخصًا بعصبيتي يرغم على وضع قدمه في هذا السجن..

في اليوم التالي كنت قد ابتعت عكازًا فصار منظري رائعًا.. لم يبق إلا أن أترك لحيتي بلا حلاقة ثلاثة أيام، وأحمل كيسًا قماشيًا به بعض الخبز وثمرات الطماطم وأتسول..

لكن هذا لم يفت من عضدي عندما جئت إلى (مختار) عصرًا وقلت له:

- «القصة واضحة.. هناك شيء في هذه الفيلا.. لن أقول لفظة أشباح.. فقط ما زلت أرغب في معرفة تاريخها كاملًا..»

عبث في شاربه كعادته عندما يحاول السيطرة على مشكلة ما.. إنّه يظهر للمشكلة مدى حزمه ورجولته من ثم تخجل وترحل.. وقال في ضيق وهو يقدم لي كوبًا من الشاي:

- «لا أعرف أي شيء سوى ما عرفته.. مالك الفيلا السابق هو (كامل البدراوي) من أعيان ما قبل الثورة.. كل الناس تعرف أنه كان يعيش على مدخراته.. نموذج الرجل العجوز المتوحد الذي لم يكن أحد يزوره.. عنده حمام سباحة ولم يره أحد جالسًا أمامه فضلًا عن السباحة فيه.. فقط يعيش في الفيلا مع طاه عجوز وهناك امرأة تأتي من حين لآخر كي تقوم بالتنظيف وتبتاع الأشياء من السوق.. الثري العجوز لا يفعل شيئًا إلا أن يجول على قدميه متريضًا ساعة في اليوم.. كالعادة يأتي الطاهي ذات صباح من زيارة أهله ليجد أن (كامل) لا يصحو من النوم.. لقد مات أثناء نومه لكن أحدًا لا يندهش عندما يموت رجل في الثمانين لو أردت رأيي.. هكذا انتهت قصة الرجل وقد قام نحوه الطاهي بكل شيء.. أنت تعرف هذه العلاقة الحميمة بين الخادم ومخدومه عندما يعيشان معًا أكثر من ثلاثين عامًا.. لقد صارا أخوين.. هكذا غاب (البدراوي) في مقابر أسرته وترك الطاهي الفيلا ليعود لقريته.. بعد أشهر يظهر (هاني البدراوي) قريب المتوفي قادمًا من كندا ولا هدف لديه إلا بيع الفيلا.. لم يكن يحمل أي نوع من الحنين للاحتفاظ بدار قريبه.. إنّه عجول يريد إنهاء الإجراءات بسرعة ويريد أي سعر.. هكذا قصد مكتبي ليأخذ رأيي فكانت صفقة لا بأس بها.. سر نجاحي في الحياة هو أنني أعرف الفرصة عندما تدق بابي بينما أمثالك لا يفعلون إلا تغطية رءوسهم والشكوى من الضوضاء.. لماذا لا تبيعني الفيلا يا أخ (هاني)؟ سوف أريحك من الإجراءات وأدفع لك الثمن فورًا.. هكذا وافق..»

قلت مفكرًا:

- «معلومات غير كافية.. غير كافية على الإطلاق..»

- «لو كنت أعرف أنك ستهتم بالموضوع لطلبت تاريخًا موثقًا في عدة مجلدات..»

قلت له وأنا أرشف الشاي:

- «سوف نقوم بتفتيش المكان جيدًا.. لا بد أنّ هناك علية.. لا بد أنّ هناك قبوًا.. أتوقع أنه ترك شيئًا ما يدل عليه.. لقد قال هذا المسخ الذي رأيته: فتش في بيت الأشباح.. سوف تهديك الأرقام.. هذا يعني شيئين: أولًا هذا بيت أشباح فعلًا.. ثانيًا هناك أرقام وهذه الأرقام سوف تقودنا إلى شيء مهم..»

- «كما تحب.. لكن لا تضعني في مشاكل أخرى معك..»

ثم فكرت بعض الوقت وقلت:

- «هل لديك فكرة عن هذه الأرقام التي يتكلم عنها الشيء؟»

هزّ رأسه أن لا.. هو على كل حال لا يصدّق أني سمعت شيئًا على الإطلاق.. فوضعت كوب الشاي وقلت وأنا أنهض متوكئًا على العكاز:

- «فلنر.. هيا بنا..»

☆ ☆ ☆

وقفت أنظر إلى القبو المغبر على ضوء الكشاف هناك مصباح كهربي لكنه محترق.. أكوام من كتب ونسيج عناكب وخرق قماش وأجهزة عتيقة لا تعرف إن كانت أجزاء من طوربيد أم آلات كاتبة عتيقة.. لا بد أن تنغمس في الغبار كي تعرف.. هناك جراموفون قديم ومرآة مهشمة وصورة عملاقة لها طابع ألوان (السيبيا) على الجدار لـ (فاطمة رشدي) ممثلة السينما الحسناء التي كانوا يسمونها (صديقة الطلبة) لأن صورتها كانت في غرفة كل طالب..

هناك مقعد متحرك فقد عجلاته وأكوام من زجاجات الزيت الفارغة.. لسبب ما كان هذا العجوز مولعًا بزيت التموين..

كانت هناك صورة عتيقة في إطار تمثل رجلًا مطربشًا يشبه كل الرجال في الماضي عندما كانوا يقولون (سعيدة مبارك) و(طقس في غاية البداعة).. يبدو أنه لم يكن للرجال شكل آخر.. الاعتداد بالنفس والشارب اللامع المعتنى به والطربوش وربطة العنق السميكة شبه المفكوكة تنثني فوقها ياقتا القميص، وكأنه سي (عبده الحامولي) يوشك على غناء طقطوقة جديدة.. تحت الصورة وضعت وراء الزجاج ورقة تحمل هذه الأبيات بخط ديواني رائع الجمال:

تمضي الحيـــاة وكلنـــا فـي دربهـــا

ونـغيب عنها.. والخـطـى لا تنـدثـرْ

مــن قبلنـــا يمشي الألـى جاءوا بنـــا

مــن بعـــدنـــا يفنى مــلايين البـــشـرْ

فاســمع صـرير الريح تبكـي حولنـــا

واسمع صدى الأشباح تعوي في سقرْ

تلـك المـروج الخضر مـا كانت لنـــا

إلا كمـا الريحـــان يمتلـــك الســـحَـرْ

قرأت الأبيات بصوت عالٍ.. ثم قلت لـ (مختار):

- «من كتب هذا الشعر الرديء؟»

- «كيف لي أن أعرف؟ ربما كان (البدراوي) الكبير لا بد أنّ هذه صورته»

ثم غمغم بالأبيات في عدم فهم وقال:

- «سحقًا له.. لا أفهم ما يريد قوله..»

- «ربما لركاكة التعبير.. يريد القول إنّه سيترك الحياة كما تركها من سبقوه.. إن مباهج الحياة ليست من حقه إلا لو كان من حق الريحان أن يطالب بامتلاك السحر..»

- «وما علاقة الريحان بالسحر؟»

- «كان بحاجة لراء ساكنة تختم البيت بعد الفتحة لا بد من سحر أو قمر إذن..»

فيما بعد قرأت سخرية الشاعر العظيم سليط اللسان (أحمد فؤاد نجم) من الشعراء المتصنعين الذين يكتبون أغاني على غرار «لاجل العيال.. ولاجل الآمال.. ولاجل أي حاجة آخرها (آل)..»!! هذا أدق تعبير عن تلك الأبيات..

وتركنا اللوحة التي يرمقنا صاحبها في شك ومقت لا جدال فيهما....

سألت (مختار) وأنا أجوب ببطاريتي وسط هذه التفاصيل:

- «هل غيرت شيئًا في هذا المكان؟ هل تخلصت من شيء؟»

- «لا.. لم أر نفعًا للقبو ووجدت أن تنظيفه سيكلفني كثيرًا، لذا أغلقته.. قررت أن أنسى أنه موجود..»

رحت أعبث هنا وهناك وأنا أمد العكاز لأنزع هذه الخرقة أو تلك.. لو وجدنا خمس جثث كان مالك البيت يلتهم أجزاء منها كل خميس لما دهشت..

عنكبوت فاخر المنظر يركض مبتعدًا بينما أنا أمد يدي لكومة الكتب المصفرة التي تحولت أطرافها لآذان كلاب.. أول كتاب خرج في يدي كان له غلاف جلدي سميك.. فتحته وأنا أسعل من الغبار الثقيل الذي ملأ رئتي وقرأت العنوان الإنجليزي:

Cabala

أي سحر (الكابالا) أو (القبالة) اليهودي المعتمد على الأرقام، والذي ابتكره الحاخامات كطريقة عبادة في البداية ثم صار معناه السحر الأسود ولا شيء سواه..

الكتاب الثاني كان يحمل اسم Malleus Maleficarum وهو اسم لاتيني مخيف، لولا أنك تذكر أن معناه (مطرقة الساحرات).. الكتاب الرهيب الذي كتبه راهبا الدومنيكان (كريمر) و(سبرنجر)..

الكتاب الثالث كان له عنوان مرعب هو الآخر.. الجزء الثالث من (شمس المعارف الكبرى) لـ (ابن البوني).. أشهر كتاب للسحر الأسود في تاريخ العربيّة.. في بعض الدول يمكن أن تتهم بالكفر لمجرد اقتناء هذا الكتاب...

كان هذا كافيًا..

استدرت إلى (مختار) الذي وقف لا يفهم معنى هذه العناوين ولا سر الرعب البادي على وجهي.. قلت له بنبرة أثارت قلقه:

- «من جديد تتكرر وتصدق النصيحة الشهيرة: اسأل السمسار لماذا يبيع العقار بهذا السعر الرخيص؟»

- «ماذا تعني؟»

- «الأمر واضح.. أنت اشتريت فيلا كان يسكنها رجل غريب الأطوار.. بعبارة أدق كان يسكنها ساحر!»

☆ ☆ ☆

الجزء الثاني:
مقدمات ونتائج

- «هذه الأرض أعرفها ورأيتها مرارًا قبل البناء.. فما الشيء الذي وجده العمال تحتها حتى قرروا أن يخفوه مع إبقاء إمكانية الوصول إليه متاحة؟ إنني أسائل نفسي..»

- ١ -

(من مجموعة خطابات وجدوها في وقت متأخر جدًّا):

القاهرة في ١٨ نوفمبر ١٩٥٩:

أخي (رامز):

أكتب إليك لأن ملامحك لا تفارق مخيلتي، وقد ذكرني هذا البرد القارس بك في عاصمة النور تجاهد كي تجري الدماء في عروقك، فلعلك استرجعت يومًا من أيام مصر والعزبة وجولتنا في حقول القطن تحت شمس الشتاء العذبة، ورحلاتنا لصيد البط في الفيوم.. لشد ما أحببت هذا البلد ولشد ما أساء معاملتي.. لكني لن أطيل الكلام على كل حال لأن بعض الخطابات يفتح، وخلافاتي مع حكومة العسكر كثيرة فلا داعي لأن نزيد الطين بلة..

انتقلت منذ بداية الشهر الحالي إلى الفيلا التي فرغوا من بنائها، وهي نسخة من الرسم الذي صممته للمهندس وأحسبها جميلة جدًّا. طلبت من (سلامة) الطاهي الوفي الذي صار رفيق عمري أن يجد من يحسن زرع الحديقة، كما طلبت أن يجد لنا امرأة تعني بنظافة المكان. إن (سلامة) يعرف ويجيد كل شيء، وإنني أجد الحياة مستحيلة من دونه. أنا الذي لم أتعامل مع بائع أو حرفي قط..

جلبت معي إلى الفيلا الكثير من الأشياء المهمة والتي تعني لنا الكثير. حتى الصور المعلقة في غرفتي جلبتها وحتى الجراموفون القديم وتلك الكتب التي كنت أحتفظ بها لأقرأها في شيخوختي. كنت أتوق لقراءة (فولتير) و(راسين).. كنت أتمنى أن أطالع كتاب (الأغاني).. كنت أتمنى أن أجوّد لغتي الإنجليزية التي التهمتها اللغة الفرنسية، حتى ضبطت نفسي أكثر من مرة أحلم وأفكّر بالفرنسية!

كنت أحلم بأن أقرض الكثير من الشعر لأتقنه.. إنني أكتب شعرًا يبدو للناس جيدًا لكني أتذوق الشعر جيدًا وأدرك أنه سيئ هزيل. أعرف أنّ هذه التصرفات أقرب إلى تمهيد للموت، وأن من يتصرّف بهذه الطريقة يستعجل نهايته، لكني أستشعر النهاية قريبة وأفكّر كم كانت الحياة جميلة يومًا، فلو أعطيت أي شيء لعدت إلى ذلك الزمن القديم حينما كنا نمضي إجازة الشتاء في (سان موريتز) والصيف في (نيس)، وحينما كانت الحسان يحطن بي فلا تتبين أين أنا، حينما كنا نُدعى إلى السراي لحفل هنا أو هناك، أو نذهب لحفل (أم كلثوم) حيث رجال الدولة جميعًا موجودون.

لكني أحمد الله على أنهم تركوا لي ما يكفي كي أقضي بقية أيامي في هذه الفيلا.. مكان هادئ مريح يصلح كي يتأمل المرء فيه.

سأكتب لك أي (رامز) ولا أطلب ردًا.. فقط زر مباهج (باريس) من أجلى وذكرها بي..

كامل

☆ ☆ ☆

القاهرة في ٢٨ نوفمبر ١٩٥٩:

أخي (رامز):

اكتشاف مثير للغاية وجدته وأنا أتفقد القبو.. أنت تعرف أن المكان جديد وقد نقلت له كل حاجياتي إلا بضعة أشياء لم أرد التخلص منها ولم أرد كذلك أن أزحم بها حياتي الجديدة.. بينما أنا أضع حاجياتي مع (سلامة) وجدت صندوقًا من ورق امتلأ بالكتب وهو ما بدا لي غريبًا في هذا المكان حديث البناء حديث لا يوجد شيء على الإطلاق.. فقط بعض أجولة الأسمنت الفارغة وبعض البلاط الذي لم يثبت مع رائحة إسمنت قوية.. كان هذا المكان يستخدم مخزنًا لعمال البناء.. لا أكثر.. مددت يدي أحاول رفع الصندوق من موضعه فوجدته ملتصقًا بالأرضية حتى اضطرت لتمزيق قاعه..

على الأرض انتثرت كتب.. كتب عجيبة قديمة بشدة.. قرأت عناوين مثل Malleus Maleficarum وCabala وSecret Doctrine.. هناك كتب مصفرة من التي يبتاعها هواة كتب التراث.. وهناك خرائط عليها رسوم معقدة تظهر الأبراج أو منازل النجوم.

لا أعرف معنى هذا لكنّها بالتأكيد مكتبة شخص مهتم بالسحر أو مشعوذ أو عراف.. لقد نقلت هذه الكتب لأضمها لمكتبتي، وقضيت الليل أطالع النصوص العربيّة، لكني لم أستطع قراءة اللغة التي كتبت بها الكتب الباقية.. بعضها بالإنجليزية وهي عندي هزيلة، وبعضها بلغة أعتقد أنها اللاتينية..

قضيت مع هذه الكتب عدة أيام.. كنت ألتهم طعامي ثم أختلي بنفسي في مكتبي وأقرأ.. ومع الوقت صار لدى يقين تام بأن هذه الكتب تنتمي لساحر أو مشعوذ.. لماذا تركها هنا؟ لعله كان يريد أن يداريها، والفيلا ظلت مكانًا عامًا مشاعًا لفترة طويلة لا يحرسها إلا خفير غاف.. يمكن لأي كائن أن يتوارى فيها ويخفى ما يريد.

استعنت بقواميس اللغة الإنجليزية لأقرأ ما كتب بهذه اللغة، أمّا اللاتينية فأنت تعرفها وتعرف أن تعلمها عسير لكني وجدت هدفًا لحياتي وقد بددت هذه الكتب غيوم الوحدة التي خنقتني.. لا أعرف إن كانت قراءة هذه الكتب عملًا آثمًا لكني أقرؤها لمجرد التسلية وليست لديَّ نية للتجربة. أعتقد أن القراءة عن المجرمين لا تجعلك منهم.

هكذا تمضي أيامي بين التهام وجبات وقراءة ونوم.. لا أخرج إلا ساعة في كل يوم حتى لا تخنق الظلال والأضواء بصيرتي.

كيف الحال عندك؟ أرجو أن تكون بخير. سلامي لأولادك (هاني) و(فكري) و(سارة) وأدعو الله أن يكونوا لم ينسوا العربيّة بعد.

كامل

☆ ☆ ☆

القاهرة في ٣ يناير ١٩٦٠:

أخي (رامز):

كنت أفحص القبو عندما قررت أن أنزع تلك البقايا الملتصقة بالأرض والتي نسيت أمرها.. أنت تعرف أنني لا أستعمل القبو أبدًا لهذا نسيت أمر هذه الكتب التي وجدتها هناك منذ شهرين لكني نزلت إلى القبو وحدي وأضأت النور ورحت أزيح كل هذا الركام الذي جئت به.. هنا وجدت بقايا الصندوق الذي وجدت فيه الكتب.. حاولت أن أنتزعه فلم أستطع وأثار هذا دهشتي. عندما دققت النظر بدأت أفهم أن الصندوق كان محشورًا في فتحة في أرضيّة القبو.. فتحة تبدو كأنها صنعت لتصريف المجاري وأنت تعرف أن العمال يسدون هذه الفتحات كي لا يسقط فيها شيء.

قضيت بعض الوقت أحاول تنظيف البقايا المحشورة، واضطررت إلى إحضار بعض الماء لأذيب بقايا الصندوق الورقية هذه.. لدهشتي وجدت أن الماء تسرب لأسفل. كما كانوا يسكبون دلاء الماء في السجون لاستكشاف الأنفاق السرية التي صنعها المساجين.. هناك تجويف تحت هذا القبور، وأعتقد أنه مخصص لتصريف المجاري أو (الترنشات) على الأرجح.

لكني واصلت الكشف عن الفتحة.. لقد كانت مكونة من قضبان حديدية متشابكة تتوسطها فتحة كبيرة نوعًا تسمح بحشر الصندوق كنوع من التمويه.

الإضاءة غير كافية لذا صعدت لأحضر كشافًا وبحثت عن (سلامة) ليساعدني فوجدته نائمًا في الحجرة الصغيرة المجاورة للمطبخ، فلم أرد أن أزعجه.

كانت القضبان الحديدية تشبه فتحة تهوية لذلك العالم السفلي، وخطر لي أن المنظر يشبه أي شيء في العالم ما عدا المجاري.. المجاري لا تبدو هكذا..

ومددت يدي أتحسس القضبان.. كل شيء كان جديدًا خاليًا من الصدأ.. لذا أمكنني بسهولة أن أزيح الغطاء، وعلى ضوء الكشاف رأيت تلك البئر وعلى الجدار سلم معدني للنزول.

الموضوع كبير إذن..

هناك قصة ما غريبة وراء هذه الدرجات....

كنت مغامرًا جريئًا في شبابي، ولياقتي ما زالت تسمح لي بالكثير، لذا قررت أن مغامرة كبرى جاءتني في بيتي فمن الحمق ألا أخوضها. هذه الأرض أعرفها ورأيتها مرارًا قبل البناء.. فما الشيء الذي وجده العمال تحتها حتى قرروا أن يخفوه مع إبقاء إمكانية الوصول إليه متاحة؟

إنني أسائل نفسي.

☆ ☆ ☆

- ٢ -

قلت لـ (مختار) ونحن غارقان في الغبار في العلية وسط أشياء لا تعرف إن كانت ثيابًا أم أحذية أم جثثًا متحللة أم غبارًا اختلط بنسيج العنكبوت حتى صار أقرب إلى فئران صغيرة:

- «لماذا لا تبيع هذا البيت وينتهي الأمر؟»

راح يسعل حتى أوشك على انتزاع رئتيه من مكانها.. وتمخط في منديله وبصق ثم قال:

- «لن أتخلى عن فيلا بهذه المواصفات لمجرد أنني وجدت كتاب (الكباب) هذا في قبوها..»

- «الكابالا..»

- «دعك من أنني لا أجد أي رابط بين حالة (رانية) وهذا الذي يحدث..»

بين الغبار والأشياء الغامضة كانت زوجة (مختار) تفتش وتنفض وقد تغلبت حاسة سيدة البيت على أي فضول عندها فلتجد هنا جثث رجال (الإسكندر الأكبر) أو مومياء (فلاد) أو حفرية إنسان (نياندرثال).. لتجد أي شيء.. المهم أنّ هذا المكان يجب أن ينظف.. نشيطات كالبراغيث ولديهن الكثير من هرمون (الثيروكسين) هاته النسوة، ولهذا يريننا معشر الرجال قطيعًا من الخنازير الكسول..

قالت وقد سمعت محادثتنا:

- «لم يصب (روني) إلا العين.. إنّه الحسد.. هذه الفيلا اللعينة جلبت لنا الحسد معها..»

طبعًا أنا أؤمن بالحسد.. لكن هذه السيدة الفاضلة تصر على أن العين هي سبب أي شيء يحدث في العالم، وكأن الحرب العالمية الثانية نشبت لأن هناك من حسد (تشيكوسلوفاكيا) على جمالها..

ثم أضافت وهي تضرب خفين وجدتهما ببعضهما محدثة عاصفة ترابية مرعبة:

- «قولا ما تريدان أمّا أنا سأتصرف.. إن (فتحية) صديقتي أخبرتني بشيخ بارع في هذه الأمور..»

عندما تتحدّث عن شيخ لا تتحدّث عن شيخ بالمعنى الذي نفهمه نحن.. بل تتحدّث عن النسخة العربيّة من (طارد الأرواح الشريرة)...

قلت في تحفظ:

- «لا أدري يا سيدتي.. إن النصابين وسط هؤلاء كثير جدًّا..»

- «(فتحية) قالت إنِّه ليس نصابًا وأنا أثق بـ (فتحية)..»

وفجأة توقفت وأخرجت وسط الركام شيئًا يبدو كأنه صورة موضوعة في إطار.. وقالت في حيرة:

- «ما هذا؟»

قلت في ذكاء:

- «هذا؟ يبدو أنها صورة موضوعًا في إطار..»

لكنا رفعنا الصورة في الضوء فوجدنا أنها خارطة.. تصميم هندسي متقن يظهر الفيلا من منظور (عين الطائر) الشهير.. واضح أنه من عمل مهندس معماري مع كل هذه الدقة وتسمية المناور باسم (سماوي) وما إلى ذلك من لمسات.. الورق مصفر جدًّا فلا بد أن من وضع هذه الصورة في إطار وراء زجاج هو (البدراوي) نفسه.. كانت هناك أرقام على كل جزء من التصميم.. ١.... ١٣.. ١٨.. إلخ.. لا أعرف فنون الرسم الهندسي فلربما كان هذا الاستخدام شائعًا، لكن ما أثار دهشتي هو أنّ هناك أكثر من رقم في كل غرفة..

قلت لـ (مختار) وأنا أناوله هذه اللوحة:

- «سوف يسعد المشتري الجديد عندما يجد أنّ هذه معك.. من المستحيل في مصر أن تجد الرسوم الهندسية لأية بناية تجاوز عمرها عشرين عامًا..»

- «لن أبيع!!»

قالها في عناد وهو يسعل من جديد.. ثم أعلن أنه اكتفي من الغبار.. لو أنه استنشق بذرة لأنبتت في رئته، وهو تشبيه مضحك لكنه ليس بعيدًا عن الحقيقة تمامًا كما يعرف أطباء الأمراض الصدرية..

هكذا نزلنا مع ما في ذلك من صعوبة بالنسبة لشخص يتحرك بعكاز مثلي.

☆ ☆ ☆

تمضي الحيـــاة وكلنـــا فـي دربهـــا

ونـغيب عنها.. والخـطـى لا تنـدثـرْ

مــن قبلنـــا يمشي الألـى جاءوا بنـــا

مــن بعـــدنـــا يفنى مــلايين البـــشرْ

فاسـمع صـرير الريح تبكـي حولنـا

واسمع صدى الأشباح تعوي في سقرْ

تلـك المـروج الخضر مـا كانت لنـا

إلا كمـا الريحـان يمتلـك السـحَـرْ

☆ ☆ ☆

الآن أقدم لك الشيخ (أبو ياسين)..

منذ اللحظة الأولى عرفت أنه لن يخيب ظني.. لم يكن يلبس أسمالًا كالمجانين ويحمل مبخرة لكنه كان يلبس ثيابًا عصرية.. تلك البدلة الصيفية طويلة الكمين التي يكون لونها زيتيًّا دائمًا.. فقط رأيت تلك النظرة في عينيه فأدركت أنه كاذب.. شممت هذا العطر الثقيل الزيتي فعرفت أنه نصاب..

راح يتأمل الفيلا في جشع.. وراحت عيناه تسرحان هنا وهناك.. حتى الزوجة البدينة لم يرحمها بنظراته الكريهة.. وأدركت أنه يحاول تقييم ما يمكن أخذه من كل هذا الثراء..

ثم جلس جوار فراش (رانية) وطلب أن يشعلوا بعض البخور.. قلت له في برود:

- «ليس من مصلحتها أن نزيد مستوى ثاني أكسيد الكربون في دمها..»

نظر لي بعينية المجنونتين وقال:

- «هل الأخ طبيب؟»

قلت في كبرياء:

- «لا.. لكني أفهم في هذه الأمور..»

قال في مزيج من وقاحة وسخرية:

- «إذن لو سمحت.. إن عندي واجبنا تجاه هذه الصبية..»

كان قد خمن أنني طبيب كما هو واضح، لكن هذا زاده تعاليًا.. لقد فشل الأطباء بعلمهم في عمل شيء.. وطلبوني أنا.. إذن فليتنحوا ويفسحوا المجال للعلم الحقيقي..

وضع يده طويلة الأظفار على قنطرة أنف (رانية) وضغط وتمتم بأشياء أنا واثق من أنها ليست قرآنًا.. كان صوت القرآن منبعثًا كالعادة من الكاسيت جوار الفراش فقلت بلهجة من يريد أن يتعلم:

- «أعتقد أن سماع سورة (الغاشية) يفيدها..»

هزّ رأسه في حكمة وقال:

- «نعم.. نعم.. هذا تصرف حكيم»

طبعًا كان الكاسيت يذيع سورة (مريم).. لا يمكن أن تخلط بين السورتين لو كان لديك أدنى علم بالقرآن الكريم.. ولا يوجد طفل في الصف الثالث الابتدائي لا يحفظ سورة (الغاشية)..

على أنني قلت لنفسي: ليكن.. ربما كان منهمكًا بالحالة فلم يلحظ هذا الشرك الصغير.. فلننتظر قليلًا..

أخرج منديله المحلاوي العملاق الذي يصلح خيمة، ومسح به عرقه.. ما هذا الذي سقط منه؟

أعاد المنديل لجيبه وراح يتأمل وجه (رانية) وقد بدت على وجهه حكمة القرون.. لا بد أنّ هذه النظرة لم تظهر إلا على وجه (ابن سينا) وهو يفحص مريضًا بالتيفوس أو (إنريكو فيرمي) وهو يحسب قوة الانفجار النووي التجريبي في (لوس ألاموس)..

(مختار) وزوجته يقفان متوترين خائفين وراءنا بانتظار (كلمة العلم)..

بعد هنيهة قال الرجل وهو موشك على البكاء:

- «هذه البائسة.. لقد اختطفها ملك الجان وهو يريدها زوجة له.. لن يتركها أبدًا.. لا حول ولا قوة إلا بالله»

انفجرت الزوجة في البكاء، فقلت في غيظ:

- «ملك الجان هذا مولع بكل الفتيات المصابات بالهستيريا.. ذوقه غريب جدًّا»

لم يبال بي وصاح بصوت جهوري:

- «آمرك يا (قعقاع) أن تترك هذه الصبية.. هي ليست لك.. ماذا تقول؟ تشتم؟ حسن.. آمرك بسلطة سيدنا (سليمان) عليه السلام أن ترحل.. ارحل!... ارحل!»

دقائق من الصراخ المجنون الذي جعلنا نثب مترين في الهواء، ثم بدا عليه الإنهاك وأطرق مسندًا رأسه إلى راحته.. وبعد دقائق أخرى هتف:

- «فليخرج الجميع.. (القعقاع) لن يتكلم إلا عندما أكون وحدي..»

قال (مختار) وهو يقود زوجته نحو الباب:

- «هلمّ يا (رفعت).. دعه ينفرد بـ (القعقاع)..»

صعد الدم إلى رأسي.. آخر شيء يمكن أن أفعله هو أن أترك هذا الوغد بلا رقابة في غرفة يمكن أن يسرق أي شيء فيها، ومع ابنتي فاقدة الوعي.. نعم.. (رانية) بمثابة ابنتي.. يدهشني المبلغ الذي يمكن أن تبلغه حماقة الناس..

قلت في برود:

- «يمكنه أن يكلم (القعقاع) في وجودنا.. لا أعتقد أن ملك الجان خجول لهذا الحد..»

نظر لي الرجل تلك النظرة الكارهة وقال:

- «هل الأخ عالم غيبيات؟»

- «لا..»

- «إذن مالك بعملنا؟ هذه أمور قد تؤذيك يا حبيبي من يتعامل مع أمور لا يفهم عنها شيئًا يلق أسوأ مصير.. مصير.. مصير.. إير.. إير..»

وراح يهز رأسه يمنة ويسرة وينفخ شدقيه على طريقة (إسماعيل يس)، إلا أنه حين توقف كنت أدس تحت أنفه الشيء الذي سقط منه على الأرض..

نظر لي أغبي نظرة في العالم فاستدرت إلى (مختار) ودسست الشيء في يده.

- «هذا الشيء الملفوف بالسيلوفان والذي يضعه العالم العظيم في جيبه هو (فص أفيون)!»

كان الرجل مذهولًا لكنه تعود ألا يفاجأ.. لذا قال في برود:

- «هل الأخ ضابط مخدرات؟»

- «لا..»

- «إذن من عيَّنك لتفتش في جيوب الناس ونواياهم وضمائرهم؟»

ومد يده في لهفة ليأخذ هذا الشيء الذي يمسك به (مختار)، لكني صحت فيه:

- «الآن اعتقد أنك ستسمح لي بالشيء الذي كنت أتوق له.. قد أموت بعد دقيقة لكني سأموت راضيًا باعتباري حققت حلم حياتي!»

وأمسكت بالرجل من كم سترته ودفعته دفعًا أو جذبته جذبًا - لا أدري بالضبط - نحو الباب وأنا أتوكأ على عكازي كواحد من قراصنة الكاريبي.. كان قويًا لكن المفاجأة جعلته واهنًا هشًا.. قلت له وأنا أشير للممرضة كي تتخلص منه:

- «عندما تمارس هذا السخف مع أبوين ملتاعين على ابنتهما، فأنت تستحق أن تكون حطب جهنم!!»

عندما عدت إلى الزوجة كانت تنظر لي في ذعر باعتباري اقترفت إلحادًا خارقًا.. لم يجسر أحد على طرد الشيخ (أبو ياسين) من قبل فضلًا عن لمسه.. باستثناء لثم يديه طبعًا.. وقد أبدت رأيها في أن (الأفيون) لم يكن أفيونًا بل هو على الأرجح مادة مهمّة لطرد الجان.. دعك من أنها تؤمن يقينًا أنني انتهيت وسوف أتحول إلى غبار كوني خلال ثوان.

- «عندها أكون قد استرحت من الغباء والأغبياء.. سيكون هذا رائعًا..»

- «لكن فتحية..»

- «دعك من (فتحية).. لو كانت ترغب في أن تتزوجه هو أو (القعقاع) فلتفعل..»

عقد (مختار) ذراعيه على صدره وقال مفكرًا:

- «لكننا لم نصل لشيء.. هذا الرجل على الأقل كان يمنحنا بعض الأمل..»

هذه هي المشكلة فعلًا وقد عبر عنها بدقة تامة.. الأمل الخادع الزائف أم اليأس الحقيقي الصادق؟

أنا أعرف جيدًا ما لا يصلح لـ (رانية) لكن لا فكرة عندي عما يصلح لها..

لا بد من حل ما في مكان ما..

☆ ☆ ☆

- ٣ -

(من مجموعة خطابات وجدوها في وقت متأخر جدًّا):

القاهرة في ٣ يناير ١٩٦٠:

أخي (رامز):

بدأت أهبط تلك الدرجات.. ومع كل درجة كنت أتردد أكثر لأن الظلام صار دامسًا لولا الكشاف الذي أطبق عليه في فمي.. كان له مذاق مثير للغثيان حتى تمنيت لو أن عندي خوذة تضيء كالتي يلبسها عمال المناجم..

لكن الأمر لم يطل فهأنذا أقف في قاع البئر.. أمامي ممر طويل مظلم.. إذن أنا في مكان ما مجهول تحت الفيلا التي أعيش فيها، وهو مكان لا يمت بصلة للمجاري أو الصرف الصحي.. نفق سرّي ربما لا يعرف أمره سواي.. هناك فتحة جانبية تقود لهذا البئر لكنّها ضيقة ولا أعرف إلام تقود..

كان هذا غريبًا، لكني تماسكت وقررت أن أجوب هذا النفق حتى نهايته. أنت تعرف تلك القصور الغامضة التي تعيش الثعابين في قبوها، لهذا لم أكن متفائلًا كثيرًا بالمشي في هذا النفق.. لكني مشيت.. بقعة ضوء تتحرك للأمام والظلام ينفتح أمامها وينغلق من خلفها.

أعتقد أنني مشيت نحو عشر دقائق حتى بدأت أفكر في العودة، لكني وجدت أن المكان يتسع أكثر فأكثر..

نظرت للسقف فوجدت جذور نباتات تمتد من أعلى كمخالب.. أنا تحت الأرض بالمعنى الحرفي للكلمة.. ربما أنا أسفل مجموعة أشجار وإن كنت عاجزًا عن تحديد مكاني لأن هذا يحتاج إلى بوصلة وخارطة..

في وجهي وجدت بوابة من قضبان تساعد على إضفاء صورة الجب على المكان، فمددت يدي وأزحتها.. هذه المرّة انفتحت بصرير وصعوبة بالغين..

وقفت في ذلك المكان المتسع أنظر حولي..

لا أفهم أين أنا.. أقرب شيء للمكان هو كهف ضخم لكن سقفه لم يكن مليئًا بالهوابط، بل كان عبارة عن جذور نباتات ملتفة غليظة..

ثم سمعت صوتهم..

بالأحرى شعرت ببرد شديد ينبعث منهم..

بالأحرى رأيتهم..

ومنذ هذه اللحظة عرفت أن حياتي لن تظل أبدًا كما كانت وأنني لن أعود نفسي..

كانوا هناك.. لا يُمكنك أن تعرف عددهم أبدًا لأنّهم يذوبون ويكثرون وينقصون في اللحظة ذاتها.. كيف يبدون؟ هذا سؤال عسير.. في لحظة هم بشر مثلنا وفي لحظة شياطين وفي لحظة هم ألسنة من لهب..

وقفت حيث أنا أرتجف عاجزًا عن الكلام أو التراجع أو قول شيء.. سقط الكشاف من يدي فالتصقت بالجدار ورحت أردد آيات قرآنية وقد أدركت أنني وقعت في الشرك..

(«بشري بيننا»)

سمعت هذه العبارة لكنّها لم تدو ولم يقلها أحد.. أعتقد أنها فكرة غرست نفسها في عقلي.. وفي هذه اللحظة فهمت أنهم مضيئون في حد ذاتهم، ولون ضوئهم أخضر..

شعرت بهم يلتفون حولي.. وسمعت من يفكر قائلًا:

(«إنّه حليف»)

حليف؟ كيف يكون ذلك؟

وشعرت بتلك الأطراف الباردة التي لا تعرف إن كانت موجودة أم لا تقودني معها..

كان هناك عرش كبير من نار.. نار ملتهبة يتطاير منها الشرر لكنّها اتخذت شكل مقعد شامخ.. نعم مقعد.. فوقه يجلس كائن أضخم من كل هذه الكائنات.. ومن جديد لا شكل له.. لكن له ملامح آدمية تتغير من ثانية أخرى..

فكرة تدوي من أحدهم:

(«بشري بيننا يا (أفسيس)»)

لمحت عينيه الرهيبتين تتجهان نحوي، ثم سمعت أفكاره:

(«إنّه حليف.. فدعوه»)

هل تعتقد أنني أهذي يا (رامز)؟ لا ألومك كثيرًا.. لقد تقدمت في السن ولو حكى لي أحدهم هذا الكلام لاتهمته بالخرف، لكني آمل أن تصدقني.. لم أفقد حواسي بعد وقد رأيت وسمعت وشممت، فإن كانت الأوهام بهذه الدقة والقوة فما هي الحقيقة إذن؟ ماذا يبرهن على أننا موجودون وأحياء؟

قال لي (أفسيس) أو بالأحرى فكر:

(«أنت في مملكتنا.. لا تجهد عقلك بمعرفة كنهنا ربما يدعونا بعضكم شياطين وربما يعتبروننا تجسدات وربما نحن شيء لا اسم له.. فقط فاعلم أنك في مملكتنا وقد قبلناك بيننا لأننا بحاجة إلى أرضي يكون عونًا لنا..»)

فتحت فمي لأتكلم فتطاير الشرر منه صانعًا ما يشبه إصبعًا محذرًا وقال:

(«حذار! لا أحد يجادل في كلمات (أفسيس).. إنها هي القانون!»)

صاح أحدهم:

(«كلمات (أفسيس) هي القانون»)

سأكمل لك القصة في خطابي التالي يا (رامز) لأن أصابعي ترتجف ورأسي يتأرجح.

كامل

☆ ☆ ☆

القاهرة في ١٠ يناير ١٩٦٠:

أخي (رامز):

صاح أحدهم:

(«نحن بحاجة إلى أطفال رضع! فليجلب لنا الأطفال!»)

وصاح آخر:

(«ونحن بحاجة إلى دم عذارى.. فليجلب لنا الدماء!»)

كنت في حالة لا توصف من الرعب.. وأعتقد أنني فقدت وعيي بضع ثوان لأني أفقت وأنا على الأرض.. ومددت يدي فاصطدمت بشيء صلب.. كانت هذه عظمة زند متحللة.. مددت يدي أبعد فاصطدمت بجمجمة آدمية مغروسة في الغبار..

كانت هناك بقايا قماش ممزقة وقطع من عظام يد.. رفعت عيني لأعلى ونظرت إلى السقف.. الآن أفهم.. أنا في قبر! هؤلاء القوم يعيشون في قبر تحت الأرض.. هذا بيتهم..

نهضت لأرى ذلك المدعو (أفسيس) ينظر لي في ثبات له عين حمراء تتضخم وتصغر من حين لآخر..

قال لي:

(«من المفيد أن تكون حليفنا.. سوف نعلمك أشياء لا حصر لها، وسوف تملك قوة لم تحلم بها، لكن عليك أن تتذكر العهد.. لن تلفظ حرفًا عنا لمخلوق سواك.. إن انتقامنا يمتد لعدة أجيال، ولسوف تلحق لعنتنا بأحفاد أحفاد جدودك ما دمت لا تملك ابنًا»)

وفجأة شعرت بمخلب ينغرس في لحم ساعدي وبدأ الدم يسيل على الأرض.. وفوق الغبار رأيت الدم يرسم كلمات.. كلمات بلغة لا أعرفها لكني فهمت أنّ هذا هو العهد...

وفجأة بدأت تلك الأطياف ترقص وتتواثب من حولي.. وخيل لي أنني أسمع دقات طبول لا تتوقف.. إنهم يحتفلون بي كما فهمت..

(«سوف تعود لدارك الأرضية، لكننا ننتظرك مساء السبت.. وسوف نطلب منك أشياء ونمنحك أشياء فامتثل..»)

وشعرت بأن الدائرة تنفتح من حولي، ثم وجدت الكشاف في يدي فعدت مترنحًا أغادر هذا المكان الرهيب إلى النفق ثم البئر ثم الدرجات..

وعندما وجدت أنني في قبو داري تمددت على الأرض ورحت أنشج.. أنشج من التوتر والانفعال والرعب وفرحة النجاة.

ثم فارقت الوعي....

☆ ☆ ☆

- ٤ -

(من مجموعة خطابات وجدوها في وقت متأخر جدًّا):

القاهرة في ٢٠ يناير ١٩٦٠:

أخي (رامز):

اندمجت حياتي مع تلك الكائنات وصار يومي رهيبًا بحق.. أمضي الوقت في داري في قراءة تلك الكتب المخيفة في غرفة مكتبي، فإذا جاء موعدي الأسبوعي انتظرت حتى ينام (سلامة) ثم نزلت إلى القبو لأبدأ تلك الرحلة تحت الأرض..

من أين جاءوا؟ من الذي وضع هذه الفتحة التي سدتها كتب السحر في القبو؟ هذه أسئلة لا تلقى إجابة عنها لأنّهم لا يجيبون عندما يُسألون.. لكني قدرت أن العمال الذين شيدوا الفيلا لا يعرفون شيئًا عن هذا النفق على الأرجح من صنع الفتحة واحد من هذه الكائنات.. والأكثر رجحانًا أنه بشري جعلوه خادمًا لهم كما حدث معي.. بنى الفتحة ووضع عليها ذلك الغطاء ذا القضبان، ثم سدها بتلك الكتب ليخفى أمرها..

كنت أفكر فيك يا (رامز).. أفكر في (هاني) و(فكري) و(سارة) وأفكّر في أختي (جمانة) وابنتها (رويدا).. أنت في باريس وهي في لندن.. لم أحب أحدًا في حياتي كما أحبتكم وقد كنت أرتجف خوفًا عليكم.. آخر ما أتمناه أن تهبط كارثة عليكم وأنتم لا تعرفون الذنب الذي اقترفتموه..

(«إن انتقامنا يمتد لعدة أجيال، ولسوف تلحق لعنتنا بأحفاد أحفاد جدودك ما دمت لا تملك ابنًا»)

هذا ما قالوه.. من قال إن الرجل الذي لم يتزوج ولم ينجب حر؟ كنت أحسب هذا وأخالني الرجل الوحيد الحر في هذا العالم.. لكني نسيت الحقيقة.. أنتم موجودون وتقيدونني بشدة.. الآن وقد رأيت ما رأيته أعرف يقينًا أنهم قادرون على أن يؤذوا صبيًا في باريس أو صبية في لندن.. الأمر يتجاوز حدود المادة والمسافات..

ليس بوسعي إلا أن أقبل وأنفذ ما يطلبون مني فلا فكاك..

من الغريب أنني صرت قادرًا على قراءة اللاتينية وفهمها.. لم أدرس حرفًا من تلك اللغة لكني فجأة صرت أفهمها وهو تغيير طرأ على من تعامل مع تلك الكائنات.

ما كان يحدث في تلك المقبرة الرهيبة تحت أقدام الأحياء أمر لا أستطيع وصفه أو الكلام عنه..

حفلات صاخبة لا تنتهي.. وطقوس شديدة التعقيد.. أعتقد أنّ هذه الطقوس كانت وقود هذه الكائنات وطعامها الحقيقي.. ولم تكن لديهم قوى ماديّة واضحة.. أي أنهم غير قادرين على اجتلاب شيء من العالم الخارجي إلا بمعونة خادم..

مثلي...!

طبعًا لم يكن سني ولا قدراتي مما يسمح لي بأن ألعب دور خادم د. (فرانكنشتاين) الأحدب أو (ليبوريللو) خادم (دون خوان) الدنيء.. لكنهم كانوا يطلبون طلبات معقولة أو ممكنة.. وقد توصلت لحيلة ممتازة تعطيني حرية الحركة..

لقد بدأت أدس بعض المنوم لـ (سلامة)..

كان يأكل طعامه بعد ما أفرغ أنا، لذا رحت أتسلل إلى المطبخ لأسكب أقراصًا منومة في بقايا الطعام التي أعرف أنه سيأكلها بمجرد أن يخلي المائدة.. هكذا يغفو كقطعة حجر، من ثم أدخل غرفته وأنتقي بعضًا من ثيابه.. الجلباب والشال الذي يلف على الرأس.. ثم أغادر الفيلا للقيام بالحصول على ما يريدون..

والسبب هو أن الجميع يعرفني ويعرف متى أغادر الفيلا للتريض.. من شأن خروجي المتكرر أن يثير أسئلة الفضوليين بينما لم يكن أحد يبالي بخروج (سلامة) أو عودته..

كنت أشتري لهم أشياء غريبة.. يطلبون أشياء معينة لا تجدها إلا عند العطار أو في المجزر.. وكنت أنزل لهم بما حملت فأقف ذاهلًا أرمقهم وهم يلتفون حول ما حملت ثم يتقاسمونه.. بينما (أفسيس) زعيمهم يصيح بصوته الفكري الغريب:

(«تذكر عهد الدم أيها الأرضي!»)

إن الأفكار بضاعتهم وحياتهم فلا أحسبهم بحاجة إلا كلمات أؤكد بها أني لم ولن أتكلم..

سأتركك الآن وسوف أحكي بقية القصة في خطاب آخر.

كامل

☆ ☆ ☆

القاهرة في ١٠ يونيو ١٩٦٥:

أخي (رامز):

لم أكتب لك منذ زمن.. لكنك لا تكتب لي على الإطلاق حتى صرت أتساءل إن كانت هذه الخطابات تصلك أصلًا أو تبالي بها..

مياه كثيرة جرت تحت الجسور في هذه الأعوام (كما يقول الغربيون). هناك اعترافات أخجل من مجرد التفكير فيها.. لقد قمت لهذه الكائنات بخدمات عديدة ليس أقلها تعبئة عشرات الزجاجات بالدم من (السلخانة).. جعلت (سلامة) يجمع لي كل زجاجة يجدها وأقنعته أنني غريب الأطوار ممن يجمعون أشياء غريبة..

الحق أن ملامحي وطباعي تبدلت فعلًا.. لم أعد أنا.. أعترف أن تلك النظرة الغريبة السوداء صارت لا تفارق وجهي.. (سلامة) تقدم في العمر ولا يلاحظ أشياء كهذه.

ذات يوم طلب مني («أفسيس») امرأة شابة.. أتوقع طلبًا كهذا.. لا توجد طقوس شيطانية من دون دم امرأة شابة.. إن طقوس (القداس الأسود Black mass) صارت شيئًا أعرفه جيدًا.. لكن كيف أتحايل على هذا الأمر؟ يبدو أن شبح خادم (فرانكنشتاين) الأحدب يطاردني بعنف..

قضيت أسبوعًا في كوابيس لا تنقطع.. ألعن مأزق وجدت فيه نفسي.. فكرت مرارًا في الانتحار لكن العبارة المخيفة ظلت تطاردني:

(«إن انتقامنا يمتد لعدة أجيال، ولسوف تلحق لعنتنا بأحفاد أحفاد جدودك ما دمت لا تملك ابنا»)

لاحظ (سلامة) أنني صرت أكثر قلقًا وحاول بإخلاصه المعهود أن يعرف السبب، لكني لم أتكلم طبعًا، وفي النهاية فوجئ بأنني أطلب منه أن يأخذ إجازة ويزور قريته..

ظللت وحدي في البيت أفكر.. لقد جاء يوم السبت وعلى أن أنزل لأقول لهؤلاء: - «لم أحضر معي ما أردتم.. فلتفعلوا ما تريدون»

كنت جالسًا في مكتبي ظهر ذلك اليوم، عندما دق الباب..

- «هل تسمح لي بتنظيف المكتب يا (كامل) بك؟»

كان هذا صوت (محاسن).. المرأة الريفية التي تنظف البيت هنا وتبتاع بعض الأشياء من السوق.. هي ليست شابة تمامًا.. لكنّها تصلح بالتأكيد..

وقفت على باب الحجرة وتركتها ترتب الأوراق على مكتبي، وسألتها من دون أن أنظر إلى الخلف:

- «هل أنت متزوجة يا (محاسن)؟»

- «توفي منذ أعوام..»

- «وأولادك؟»

- «لم أنجب..»

لم أتبادل معها الحوار قط.. لهذا شعرت بدهشة لكني واصلت الأسئلة:

- «أين تعيشين؟»

عزبة قريبة هي.. وكانت المرأة قد قررت أن ترثي لنفسها فراحت تحكي لي كيف أن أحدًا لا يشعر بوجودها ولا أحد يبالي إن كانت قد راحت أو جاءت.. كنت أزداد سرورًا وهي تحكى لي هذا كله.. أعتقد أنها بدأت تشعر بدهشة ما، ولعل تلك الخواطر عن الأثرياء المسنين غريبي الأطوار الذين يتزوجون خادماتهم قد داعبت مخيلتها..

قلت لها دون أن أنظر للخلف:

- «هناك مهمّة صعبة لكني سوف أدفع لك جيدًا.. فقط تعالى لأريك ما أريد..»

- «على عيني..»

وهكذا ذهبنا إلى القبو ففتحت تلك الفتحة في القاع على ضوء كشاف.. رأيتها تنظر لي في حيرة ورعب فقلت:

- «هذا ممر سرّي لا يعرفه إلا من أثق فيه.. لي غرفة سرية هنا لكني أرغب في أن تنظفيها لي.. لاحظي أنني لا أطلع أحدًا على سر كهذا..»

ونزلت على الدرجات دون أن أنظر لأعلى حتى لا تخونني نظراتي.. ما إن نزلت حتى رأيتها تنزل لاحقة بي..

- «المكان مخيف يا بك..»

- «لهذا هو سرّي..»

ومشيت معها في الممر الطويل.. كنت أرتجف خوفًا وانفعالًا.. كنت أكره نفسي بعنف لكني لم أر بديلًا آخر.. وصلنا إلى الباب ذي القضبان الذي يسد نهاية الممر ففتحته وطلبت منها أن تدخل.. نظرت لي نظرة أخيرة هي مزيج من الخوف والترقب.. لكنّها قدرت أنني رجل موثوق به دعك من أنها أقوى وأعفى مني.. يمكنها أن تحطم عنقي بكفها لو أرادت..

اجتازت المدخل وفي اللحظة التالية سمعت صوت الجنزير.. الجنزير الذي ابتعته لأغلق به هذه البوابة.. أمسكت بالقضبان كأنها سجين في قبو وصاحت:

- «افتح يا (كامل) بك..»

لكني كنت أجد السير مبتعدًا عائدًا من حيث أتيت..

- «افتح!! يا (كامل) بك!»

على ضوء الكشاف أصل لنهاية النفق فقاع البئر وأتسلق..

- «افتح يا (كامل) بك.. آه ه ه ه!»

الآن أعتقد أنها رأتهم.. لا بد أنها اعتقدت أنها تهلوس.. سوف تحتاج لوقت أطول من اللازم كي تستوعب منظر (أفسيس) الرهيب.. سوف تستغرق وقتًا أطول من اللازم كي تدرك أنها سجينة وحدها تحت الأرض مع هذه الكائنات..

لقد أتممت مهمتي.. فقط يجب أن أعود وأبتلع أقراصًا مهدئة لأنسى هذا كله..

لقد قمت بمهمة عسيرة. مهمّة قذرة.. وفي تاريخ حياتي سوف يظل هذا التاريخ مهما باعتباره علامة أساسية في طريق الانحدار لأسفل الذي بدأته منذ وقعت ذلك العهد..

أسمع صراخها.. هذه المرّة كانت صرخات استغاثة لم تكن تناديني..

لا بد أنهم يحملونها إلى المذبح الحجري الذي يتوسط المكان..

رحت أتسلق مسرعًا..

فلما صرت في القبو فعلت الشيء الذي صار عادة مزمنة عندي..

سقطت فاقد الوعي....

☆ ☆ ☆

- ٥ -

لم أكن موجودًا عندما اندلعت صرخات (عواطف) الممرضة التي تعنى بـ (رانية) في غيبوبتها..

عندما سمع الأبوان هذا كان أول ما خطر لهما شيء واحد.. الأم شعرت بألم في صدرها واختلت ضربات قلبها، فخارت قواها وعادت تتهاوى على مقعدها، والابن وقف في حيرة بلهاء عاجزًا عن الكلام.. بينما راح (مختار) يبرهن عن لياقته بأن راح يثب فوق الدرجات صاعدًا بعد ثانية كان على باب غرفة النوم وهو يتوقع الأسوأ...

ما رآه لم يكن ما خاف أن يراه، لكنه كان سيئًا بما يكفي..

لقد كانت الملاءة مكومة في ركن الحجرة بينما كل أبواب خزانة الثياب مفتوحة وقد فرغ ما فيها.. ألعن فوضى رآها في حياته وقد وقف لحظة يستوعب الأمر..

ركض إلى الفراش وتحسس عنق ابنته وتأكد من أن تنفسها منتظم كأنها نائمة، ثم نظر إلى (عواطف) التي التصقت بالحائط وهي لا تكف عن الصراخ والعواء..

- «هل جننت؟ لماذا أفرغت كل هذه الثياب؟»

صاحت كأنها صفارة إنذار بريطانية في الحرب العالمية الثانية:

- «لم أفعل شيئًاا!!»

- «هل تمزحين؟ من أخرج كل هذا؟»

صاحت وهي تنكمش في ركن:

- «هذه المشكلة! أنا لم أفعل هذا! فجأة انفتحت خزانة الثياب ووثب كل شيء منهاااااااااااااااااا!»

طبعًا هما ساذجان.. لم يريا كل ما رأيت في حياتي.. بالنسبة لهما هذه نهاية العالم، بينما رأيت أنا فصيلة كاملة من أشباح النازيين، وتعقبتني مومياوات، ورأيت الكثير من التحريك عن بعد وحراس الكهوف وعبرت الكثير من الفجوات إلى عوالم أخرى، ونزلت ضيفًا في جانب النجوم.. باختصار لا أعتقد أنني قابل للدهشة.. بل صار ما يدهشني هو ألا تثب الثياب من الخزانة في وجهك..

فيما بعد لحقت الأم بهما وهي تمسك صدرها في حرص كأنها تخشى أن يثب قلبها منه.. عرفت أن الفتاة سليمة إذن فليكن أي شيء بعد هذا..

على كل حال كان من الواضح أن الممرضة صادقة.. إنها متزنة جدًّا ولن تقوم ببعثرة الثياب ثم تبدأ في الصراخ باعتبار هذه فكرتها عن التسلية..

قالت الأم وهي تلطم خديها:

- «هناك (بسم الله الرحمن الرحيم) في هذه الفيلا.. كنت أعرف هذا..»

ثم صاحت في (مختار) البائس:

- «لو سمعت كلامي وتركت الشيخ (أبو ياسين) يكمل عمله.. لو سمعت كلامي وبعنا هذه الفيلا (المدعوقة) لأول عابر سبيل.. أقسم بالله أنني مستعدة لبيعها لمن يدفع عشرين جنيهًا.. لا.. لن أفعل ذلك.. سأمنحها هدية لأي متسول يمرّ من هنا..»

تغلب عليه طبع التاجر البارع فقال:

- «لو قلت هذا لما وجدت مشتريًا.. حتى العشرين جنيهًا لن تجدي من يدفعها.. الطريقة الوحيدة لبيع شيء لا تريدينه هي أن تحدد سعرًا غاليًا يفوق قيمته بمراحل.. عندها سوف ينهال عليك المشترون.. لكني لا أفكر في البيع..»

- «متى تفعل؟ بعد أن تضيع ابنتك؟»

- «لو كان بيع الفيلا سيجعلها تفيق لفعلت هذا حالًا..»

ونظر إلى الساعة.. إنها العاشرة مساء..

وقت مناسب جدًّا لاستدعائي.. لماذا لا أتعب إذا كان هذا ممكنًا؟ هذه مسألة مبدأ كما تعرف.. هكذا اتجه إلى الهاتف ليطلبني..

☆ ☆ ☆

- «يا (ماري الدموية).. أنا قتلت أطفالك!»

☆ ☆ ☆

هذه المرّة لم أكن وحدي..

كان معي شاب رقيق أؤمن بذكائه وله ذات ملامح (علي مصطفى مشرفة) كما تراه في الصور.. (سليمان الخولي)..

استغرق (مختار) وقتًا طويلًا كي يفهم من هذا الشاب.. إنه فيزيائي.. هذا كاف جدًّا كما يبدو لأن أصطحبه لبيوت الفتيات المصابات بغيبوبة.. لم يكن لديه وقت لفهم هذا الهراء، والحقيقة أن (مختار) لم يعتبرني إنسانًا متزنًا في أية لحظة من حياته.. ربما اعتبرني طبيبًا بارعًا لأنني أنقذت ابنه من مرض عضال، لكن من ناحية التعامل الإنساني لم يكن ليأتمنني على علبة ثقاب.. كان يؤمن بأنني لا أفهم شيئًا عن الحياة وأنني إذا اشتريت خسرت وإذا بعت بددت.. إن معلوماتي عن العقود وإجراءات التقاضي تشبه معلومات طفل.. إنني لم أتزوج لهذا يبقى نصف الحياة مستغلقًا على فهمي. ولم أنجب فلا يمكن أن أفهم قيمة الأبناء..

ولأسباب كهذه اعتبر (مختار) أن صديق المخبول مخبول آخر أو ربما معتوه..

قلت له وأنا أربت على رجل (سليمان):

- «لقد اتصلت بـ (سليمان) كي يقابلني قبل أن آتي لك..»

قال (مختار) في ثبات:

- «فهمت.. هذه خدمة لن أنساها.. أنت تعرف كم أن حاجتنا ماسة للفيزيائيين هنا..»

تجاهلت سخريته، وسألته عن أحوال مكتب المحاماة فقلب كفه في إيماءة معروفة معناها (لم تعد لي علاقة به) ثم أضاف:

- «لا وقت عندي ولا أمتلك البال الرائق للانتظام.. إن كل شيء يعني به المحامون المتدربون عندي وأستاذ (هويدي).. من فضل الله أنه شديد البراعة..»

ساد الصمت.. ثم جاءت الزوجة حاملة صحفة عليها الشاي وبعض البسكويت.. فتعالى صوت الرشف والقضم.. وفي النهاية قلت بفم مليء بالبسكويت:

- «ألاحظ أن أية مصيبة تحدث هنا تحدث ليلة السبت..»

تبادلوا النظرات.. بالفعل لم يلحظوا هذا من قبل..

أردفت:

- «لقد أردت أن نكون معًا بينما أشرح ما يدور بذهني نحن نعرف يقينًا أنّ هناك شيئًا غير معتاد يحدث هنا سمه الأشباح أو القوى النفسية.. ليكن.. هل هنا من لا يربط بين غيبوبة (رانية) وهذا الذي يدور مؤخرًا؟»

ساد صمت عميق.. حتى الفتى الذي حكيت له القصة في الطريق ظل صامتًا..

واصلت الكلام:

- «ما يعطي القصة طابعًا خارق للطبيعة هو ما يلي:

أولًا: قصة المرأة والوجه الذي ظهر فيها.. أنا رأيت وجهًا كما قلت لكم، ولا أعتبر نفسي هستيريًا لكن الأمر متروك لكم.. فمن المحال أن يعترف الهستيري بأنه كذلك..

ثانيًا: الأشياء التي تتحرك.. واضح أن (رانية) رأت الكثير، وأنا رأيت مقعدًا يزحف وحده، والليلة تقول الممرضة إنها رأت ثيابًا تطير..

ثالثًا: كتب السحر التي وجدناها في القبو..

رابعًا: غيبوبة (رانية) التي لا يوجد تفسير واضح لها..

خامسًا: رسالة الوجه الذي قال لي أن أفتش في بيت الأشباح.. طبعًا من الواضح أنه يتكلم عن هذا البيت بالذات..

علينا أن نتناقش لنثبت أن كل هذا هراء.. وكما يقولون في اللاتينية: Reductio ad absurdum.. أي: (البرهنة على سخف هذه الفرضية)»

قال لي (مختار) وهو يرشف الشاي:

- «هل رأيت أشباحًا في حياتك يا د. (رفعت)؟»

قلت في كياسة:

- «لنقل إني رأيت ظواهر كثيرة لا تفسير لها.. لكن لننس ما رأيته أنا مؤقتًا لأن حياتي سلسلة طويلة من هذه الأمور.. سأترك الكلام لـ (سليمان)»

☆ ☆ ☆

- ٦ -

- «فتش في بيت الأشباح.. وسوف تهديك الأرقام..»

- «فتش في بيت الأشباح.. سوف تهديك الأرقام..»

☆ ☆ ☆

ساد الصمت من جديد ثم بدأ (سليمان) يتكلم.. كان من الواضح أنه مرتبك وأنه لم يعتد الخطابة في مجاميع.. لكنه وضع الطبق والفنجان على ركبته وبدأ يتكلم مستعملًا يديه معًا.. هذا شأن الخجولين عندما يشعرون أن الكلمات لا تطيعهم فيساعدونها بالأيدي:

- «الأشباح لغز مستمر من ألغاز ما وراء الطبيعة.. هل هي موجودة؟ هل من رأوها رأوها حقًّا؟ ثمّة مشكلة خطيرة هي أن أكثر الناس لا ترى الأشباح إلا (بالورب).. وبركن العين.. لا أحد يستطيع النظر إلى الشبح مباشرة، وهذا جعل العلماء يتذكرون موضوع العصب البصري والبقعة العمياء.. ربما كانت هذه جميعًا أوهامًا بصرية.. لا توجد قواعد ثابتة تعرفك بظهور الشبح.. هناك من يشعرون ببرد عندما يتواجد شبح في الغرفة وهناك من يشعرون بـ (شيء ما).. من جديد تبرز مشكلة علمية أخرى هي أن موجات الصوت الأقل من ٢٠ ميجاهرتز ترددًا هي (تحت صوتية infrasound).. معنى هذا أننا لا نسمعها لكنّها تشعرنا بوجود (شيء ما) في الحجرة معنا.. إذن يقدر العلماء على تفسير رؤية الأشباح والإحساس بها.. هناك تفسير علمي آخر هو ظاهرة الموجات الكهرومغناطيسية التي تسبب الهلاوس لسكان البيت.. كل القصور المسكونة تحتها صخور متآكلة ومياه.. الاحتكاك يولد موجات كهرومغناطيسية قادرة على إحداث خلل مؤقت في العقول..

«باختصار ينقسم الناس بصدد الأشباح إلى من يؤمنون بأنها فعلًا أشباح.. بينما يؤمن متدينون كثيرون بأن الأشباح لا وجود لها وإنما هي شياطين.. والفريق الثالث يؤمن بأنه لا وجود لها إنما هي ظواهر فيزيائية قابلة للتفسير»

قال (مختار):

- «حدثنا (رفعت) عن الأشباح الصاخبة أو الـ (البورتر زايط)..»

قال الفتى في أدب:

- «لا بد أنك تعني (البولترجايشت)..»

- «أي شيء.. لم أفهم بعد معنى هذا الشيء.. هل هو تحريك عن بعد أم هو شبح فعلًا؟»

قال (سليمان) وقد بدأ يهدأ نوعًا:

- «هناك من يؤمن أن الأشباح بقايا من القوى النفسية لمن ماتوا.. من يمت يترك أظافره وعظامه وبنفس المنطق يترك قواه النفسية في مكان الموت.. الموت بعنف يُطلق الكثير من القوى النفسية في المكان.. وهذه القوى تعبر عن نفسها بتحريك الأثاث والدق وهز الفراش.. هذه هي ظاهرة (الغضب المسجل) حيث يموت شخص في حادث فيترك تجمعًا هائلًا للطاقة في مكان ما.. ويتكرر تفجر هذه الطاقة كأنك تعيد تدوير شريط التسجيل عدة مرات.. طبعًا علماء كثيرون يقولون إن القصة لا تتجاوز قوى تحريك نفسي لا تعرف الضحيّة أنها تملكها..»

نظر لي (مختار) نظرة من طراز (نفس - ما - قلته - أنت).. فهززت رأسي كي نسمع بقية القصة..

قلت مكملًا كلام الفتى:

- «في كل الحضارات هناك كلام عن الأشباح. وفي كل الحضارات هناك تفسيرات عدة لوجودها.. مثلًا في الصين قالوا إن الأشباح هي أرواح حرمت من حقها في التناسخ.. أنتم تعرفون أن تناسخ الأرواح فكرة دينيّة قوية هناك، وهم يؤمنون أن أرواح الغرقى التي حرمت من التناسخ تهاجم الناس لمنعهم من ممارسة التناسخ وبالتالي تسلبهم هذا الحق لنفسها.. هذا ما يطلقون عليه (شبح كبش الفداء).. هناك معلومات تفصيلية عن الأشباح في كتاب (جارودا بورانا Garuda Purana) الهندوسي.. أما عجلة الحياة البوذية (سامسارا Samsara) فتناقش مفهوم الشبح الجائع للوجود..»

نظر لي (مختار) في عدم فهم فقلت:

- «الشبح الجائع للوجود.. أي إنّه لم يشبع من العالم لهذا يفضل أن يبقى فيه.. وفي العقائد القديمة في العالم الغربي كانوا يعتقدون أن الأشباح تأتي من (لمبو) Limbo وهو مكان بين الجنّة والنار..»

سألني (مختار):

- «ومم تتكون الأشباح؟ هل هي هالات نور؟»

- «لا أحد يعرف.. أحيانًا تبدو الأشباح شفافة بلا كيان مادي، وهناك قصص عن أناس لمسوا الأشباح أو تعاملوا معها ماديًا.. كل ما يجمعون عليه هو مصطلح (جبلة خارجية Ectoplasm) وهي المادة الخام التي تتكون منها الأشباح وتترك أجزاء منها عند ظهورها.. سائل لزج يتجمد على الثياب ويتصلب بعدها»

قالت الزوجة وقد فهمت:

- «شيء كالمخاط الذي ينزل من الأنف.. هه؟»

نظرت لها في دهشة.. هذا هو ما يطلقون عليه (صمت دهرًا ونطق كفرًا).. مساهمتها الوحيدة في الحديث هي الكلام عن المخاط الذي ينزل من الأنوف..

قلت في ضيق:

- «كالنشاء لو أردنا الدقة.. نعود لكلامنا.. عامّة تولع الأشباح بالإقامة في الأماكن التي عاشت فيها في حياتها، وبذات الثياب التي اعتادت ارتداءها في حياتها.. هناك امرأة صحت من النوم في (شاتو دو برانجان) في سويسرا لترى رجلًا يجلس إلى المكتب يكتب.. كان يلبس روبًا طويلًا رسمت عليه أزهار.. وكلما نظرت له مباشرة اختفى.. فيما بعد حكت القصة لزوجها الذي سأل السكان القدامى.. اتضح أنها رأت (فولتير Voltaire) الكاتب الفرنسي العظيم الذي كان يكتب في هذه الحجرة في حياته.

«هناك أماكن تعجّ بالأشباح منها مسكن القس (بورلي) Borley Rectory في إنجلترا - وقد شرفت بزيارته - وهناك برج (لندن) حيث شبح (آن بولن) مقطوع الرأس.. وشبح (بيكيت).. وشبح الملك إدوارد الخامس وشبح (جين جراي) وشبح الرحالة سير (والتر رالي).. زحام أشباح يشبه أية حافلة عندنا.. ويبدو أنهم يظهرون ويخيفون بعضهم..

«ليست كل الأشباح بشرًا.. هناك أشباح حيوانات وأشباح بيوت وأشباح قطارات..»

سألني (مختار) الذي راح يفكر في وسيلة للحصول على مال من هذا الذي أقوله:

- «هل هناك أشباح أغرب؟»

- «الكلام كثير عن القرين أو الدوبلجانجر Doppleganger - واضح طبعًا أن المصطلح ألماني - وهو شبح مخيف لو فكرت في الأمر.. أن تقابل نفسك.. أنا مررت بهذه التجربة مرارًا لكن لأسباب مختلفة، إلا أن مقابلة (دوبلجانجر) حقيقي تعني أنك - لا سمح الله - ستموت قريبًا جدًّا..

«شبح آخر هو النذير أو Wraith ومعناه أنك تقابل شبحًا يجمد الدم في عروقك، ثم تكتشف أن صاحبه حي وفي مكان آخر بعيد.. على الأرجح يعني هذا أن صاحبه سيموت قريبًا..»

ساد صمت طويل.. وفي النهاية قالت الزوجة:

- «فلنغير هذه السيرة (المهببة).. إن الدم قد تجمد في عروقي..»

قلت لها:

- «لا ألومك.. لكننا اليوم نحاول إثبات إن كانت هناك أشباح في هذه الفيلا أم لا.. ولهذا طلبت (سليمان) كي يرى ما يمكن عمله.. هذه المرّة لن نعتمد على الشيخ (ياسين) وأمثاله، ولكن سنعتمد على علم الفيزياء.. الفيزياء ولا شيء سواها..»

☆ ☆ ☆

«يا (ماري الدموية).. أنا قتلت أطفالك!»

☆ ☆ ☆

- ٧ -

(من مجموعة خطابات وجدوها في وقت متأخر جدًّا)

القاهرة في ١٨ فبراير ١٩٦٩:

أخي (رامز):

لم يكن هذا أسوأ ما مر بي.. لقد مرّت أعوام عديدة.. توشك عشرة أعوام أن تمر على اللحظة التي نزلت فيها إلى ذلك القبر الرهيب.. ومنذ تلك اللحظة ارتكبت كما لا يمكن حصره من الآثام ورأيت أهوالًا لا حصر لها مع هذه الكائنات..

لكني في الوقت ذاته لم أجن شيئًا ولم أزدد قوة.. لقد مُنحت القدرة على معرفة اللاتينية لكن هذا كان يصب في مصلحتهم الشخصية في النهاية.. فيما عدا هذا أنا أتقدم في العمر وأزداد وهنًا..

لقد ضحيت بـ (محاسن) البائسة من أجلهم، وقد جاء رجل شرطة يتحرى عنها.. لكن الأمر لم يتجاوز هذا الحد فهي كما قالت وحيدة في العالم بلا زوج ولا ولد ولا أحد يسأل عنها.. وقد قال لي رجل الشرطة في النهاية بلهجته الريفية، وهو يعبث بشاربه في ذكاء بوليسي خطر:

- «يُقال إنها هربت إلى (دلبشان)»

أين (دلبشان)؟ ولماذا (دلبشان)؟ ولماذا يهرب الناس لها؟ ومم تهرب هذه المرأة؟ أسئلة لا أعرف إجابتها ولم أهتم بتوجيهها لأنني أعرف أن كل هذا هراء.. أنا الوحيد الذي يعرف أين ذهبت..

بعد هذا قمت بشيء مماثل مع عامل ممن يبيعون جهدهم لمن يدفع.. واحد من عشرات يحملون (غلقًا) وفأسًا ويبحثون عن أحد يستأجرهم...طلبت منه أن ينزل إلى البئر لأن هناك عملًا مهمًا.. لا لم أستطع أن أسلمهم (سلامة).. هذا الوفي لا يستحق نهاية كهذه هذه..

هذه اعترافات مروعة يا (رامز).. لم يعد أخوك كما كان.. لكني يجب أن أخبر بها أحدًا وإلا جننت.. ويبدو لي أنه لا أحد يقرأ هذه الخطابات البتة.. لا أنت ولا الجهات التي كنت أعتقد أنها تراقب بريدي..

(وإلا جننت)؟ كم أنّ هذه العبارة شديدة التفاؤل مجنون فعلًا يا أخي..

لقد كنت معهم ورأيت الكثير مما يفعلون.. يُمكنك الآن أن تفهم لماذا يقيمون في قبر! عندما ينفتح هذا القبر من الجهة الأخرى وتنزل فيه جثة طازجة! أنا كنت هناك ورأيتهم يمزقون الأكفان

ويلتفون حول الجسد.. سمعت عواءهم ورأيت جنونهم..

هذه هي المعاناة البشريّة الوحيدة التي لا يجدي معها الفرار الأفقي ولا الرأسي.. لو فررت منهم خارج البلاد أو قطعت شراييني لأفر منهم تحت الأرض فلا جدوى.. سوف يجدونكم أنتم..

أنا البائس الذي يضحي بكل شيء من أجل أقاربه!!

دعك من أنني لم أعد راغبًا البتة في أن أذهب تحت الأرض.. فأنا أعرف ما سيحدث لي هناك! ربما كان هذا القبر هو قبر أسرتنا بالذات!

على أنني رغبت في شيء واحد يعوض لي تلك الحياة الكريهة التي أحياها..

لقد دنوت من عرش النار الذي يجلس عليه (أفسيس) وقلت له بصوت راجف:

- «أنا أرغب في الشباب.. لو استعدت شبابي لخدمتكم بشكل أفضل..»

كنت أتوقع أن يمزقني لأني تجاسرت.. الحقيقة أني لم أعد حيًّا على كل حال ولم يعد يفصلني عن فكرة الموت إلا تغيير تشريحي بسيط لا يستحق الذكر..

قال بصوته الفكري لمن حوله:

(- «البشري يرغب في الشباب.. فهل يناله؟»)

تعالت الأصوات:

(- «لا أحد ينال الخلود.. لا أحد..»)

قلت وقد ارتعش صوتي خوفًا:

- «لا أرغب في الخلود.. بل أنا زاهد فيه كل الزهد لكن بالتأكيد أحلم بأن أرفع ساقي إلى ذات المستوى الذي كنت أرفعها إليه منذ ثلاثين عامًا بدلًا من أجرها جرًّا.. أن أفرغ مثانتي من دون أن أبلل أرض الحمام بسبب بروستاتا الشيخوخة.. أن أرى ما كنت أراه منذ ثلاثين عامًا.. أن أنام من دون أن أبتلع نصف دستة من الأدوية.. أن آكل ما كنت آكله دون أن تطبق معدتي على روحي.. أنت وعدتني بالقوة وأنا لم أنلها برغم أني أخلصت لكم عشر سنوات..»

فجأة شعرت بأنني أرتفع نحوه كان هناك من يجذبني من عنقي.. وللمرة الأولى صرت على بعد سنتيمترات من هذا الوجه الذي يتغير في كل ثانية لشيءٍ مفزع آخر.. لم تكن خبرة طيبة على الإطلاق..

قال (أفسيس) بصوت كالفحيح يتردد في مخي:

(- «كنا نكذب عليك أيها الأرضي.. نحن نكذب بلا انقطاع..»)..

قلت في لحظات الأخيرة فيما حسبت:

- «لكن شابًا قويًا سوف يسدي لكم من الخدمات أضعاف ما يسديه عجوز فان..»

أطلق سراحي وشعرت به يفكر...

ومن ركن المقبرة رأيت تلك القنينة الصغيرة ترتفع.. تسبح في الهواء حتى صارت عند شفتي، ثم انفتحت وعلى شفتي سالت قطرات من سائل له مذاق الصدأ..

ثم انغلقت القنينة وحلقت مبتعدة..

(- «هذا يمنحك بعض القوة أيها الأرضي..»)

لم أشعر بشيء.. وقلت لنفسي إن هذا وهم.. دعك من الاشمئزاز من عصير الشياطين هذا.. لكني عندما عدت لأتسلق درجات السلم، شعرت بنشاط غير مسبوق.. لا ألم في الصدر ولا ضيق في التنفس..

ثم دخلت الحمام لأتفحص ما حل بي ففوجئت بالوجه الذي طالعني في المرآة.. هذا وجه لم أره منذ سنوات.. هناك شعرات سود ظهرت من جديد.. هذه القامة المنتصبة التي حلت محل القامة المحنية السابقة..

إنني رائع!

إكسير الشباب! لقد قدم لي إكسير الشباب..

هؤلاء يعرفون ما يفعلون فعلًا.. يعرفون الكثير..

☆ ☆ ☆

- ٨ -

(من مجموعة خطابات وجدوها في وقت متأخر جدًّا):

القاهرة في ٣٠ مارس ١٩٦٩:

أخي (رامز):

لم يدم هذا التأثير الساحر كثيرًا..

- «لا أرغب في الخلود.. بل أنا زاهد فيه كل الزهد لكني بالتأكيد أحلم بأن أرفع ساقي إلى ذات المستوى الذي كنت أرفعها إليه منذ ثلاثين عامًا بدلًا من أجرها جرًّا.. أن أفرغ مثانتي من دون أن أبلل أرض الحمام بسبب بروستاتا الشيخوخة.. أن أرى ما كنت أراه منذ ثلاثين عامًا.. أن أنام من دون أن أبتلع نصف دستة من الأدوية.. أن آكل ما كنت آكله دون أن تطبق معدتي على روحي»..

لأيام مارست ذلك الشعور الرائع. لقد تخلصت من آلام الشيخوخة واستعدت الكثير من شبابي.. لقد كنت مريبًا حتى أنني حمدت الله على أن (سلامة) صار واهن البصر لا يرى تقريبًا وإلا لسأل أسئلة.. أسئلة كثيرة جدًّا...

على أنني بعد أسبوع بدأت أدرك أن المفعول مؤقت وأنني أعود إلى هيئتي الأولى..

وفي تلك الفترة راحت فكرة إكسير الشباب هذا تؤرق فكري طيلة اليوم..

لقد وجدت الحل.. شعرت بمذاقه على شفتي ثم غاب عني..

من الغريب أنني في تلك الأيام رحت أتذكر شبابي.. التزلج على الثلوج في (سان موريتز).. (سيرافين) ضحكت وكومت الثلج وقذفت به في وجهي ثم انطلقت كالرصاصة تنزلق فوق المنحدر، وأنا لم أتأخر.. نظفت وجهي ثم انطلقت أسابقها وسقطنا فوق الثلوج الهشة فنهضت وراحت تسبني بالفرنسية وهي تنفض شعرها الذي له لون سنابل القمح:

- «Tu es totalement fou. Tu es un sac de la saleté»

كيف تكون هناك شتائم في هذه اللغة الرقيقة؟ هذه لغة لا تصلح إلا لإنشاد الشعر..

(باريس) والمشي في الحيّ اللاتيني حيث يجلس الفنانون على الأرض يرسمون بالطبشور.. كنت من أوائل من تخلصوا من الطربوش لكن ملامحي الشرقية كانت ظاهرة للعيان...

سباقي معك على ظهري جوادين جامحين وسط الحقول بينما أطفال الفلاحين ينظرون لنا في دهشة.. كأننا بطلان إغريقيان من الأساطير هما مزيج من الجمال والقوة..

كل هذه المباهج ضاعت للأبد.. أضاعها العسكر أولًا وأضاعتها السنون ثانية..

عرفت أن (هاني) ابنك سيذهب إلى كندا.. سيقيم هناك للأبد.. لا تحاول منعه وتذكر أن عنده هبة الشباب وهذا شيء فقدناه للأبد.. أنت لا تستطيع عمل هذا وأنا لا أجسر على ذلك..

تؤرقني فكرة الشباب الذي امتلكته أسبوعًا ثم ضاع..

أعترف بهذا..

كامل

☆ ☆ ☆

القاهرة في ١١ إبريل ١٩٧١:

أخي (رامز):

أكتب لك هذا الخطاب بمجرد عودتي من الاحتفال الرهيب الذي يقام كل سبت.. لقد فعلت شيئًا رهيبًا لا أدري كيف جرؤت عليه...

لقد سرقت تلك القنينة التي أرقت نومي منذ ذقت قطرات منها..

لقد كنت معهم في القبر وكانوا يقيمون احتفالاتهم الصاخبة، لكن السبب هذه المرّة هو أنّ هناك جثة جديدة دخلت القبر من فتحته الأرضية..

كنت أعرف هذه الأعراض.. لقد حدثت فوضى عامّة ثم احتشدوا جميعًا حول الجسد كأنهم ذئاب تلتهم فريسة.. من حين لآخر تراهم بالفعل ذئابًا ثم تراهم أقرب إلى صورة الغيلان في الكتب القديمة، ثم ترى مجموعة من المسوخ تبدو كالموت على أوراق لعب (التاروت).. المهم أنهم محتشدون وانهم يأكلون بلا انقطاع..

لم يكن أحد ينظر لي..

هنا فقط قرت أن الأمر يستحق المخاطرة.. كانت تلك القنينة توضع على نتوء صخري في ركن المكان فاتجهت لأقف جوارها، ثم مددت يدي فدسستها في جيبي وأنا لا أفارقهم بعيني..

إنها مخاطرة.. يجب أن أفترض أنهم سيقرءون أفكاري.. سيعرفون..

لكن هذا لم يحدث لسبب لا أعرفه.. فقط دنا مني (أفسيس) واللحم يتساقط من فمه، وقال لي بصوته الفكري:

(«ألن تتذوق معنا هذه الوجبة أيها الأرضي؟»)

قلت وأنا أخفض بصري:

- «نعم.. كل شيء إلا هذا.. أرجو أن تسمحوا لي بالرحيل لأن هذا المشهد يسبب لي الدوار..»

كانوا يعرفون أنني أفقد وعيي بسهولة تامة كلما مارسوا شيئًا من عاداتهم..

قال وهو يدور من حولي ويرمقني بعينين من نار:

(«في المرّة القادمة هات لنا نبيذًا.. الكثير منه..»)

الحقيقة أنهم مولعون بالخمور.. وهي حقيقة لم أكن أعرفها عن الشياطين من قبل..

هززت رأسي أن نعم وتراجعت للخلف كعادتي.. هنا عاد يقول لي:

(«تذكر عهد الدم أيها الأرضي! لن تخبر عنا مخلوقًا حتى لو كان ضميرك!»)

- «سأتذكر ذلك..»

ورحت أركض مبتعدًا عبر الممر.. وصعدت الدرجات إلى البئر..

وفي القبو فطنت إلى ما قمت به.. لن أنجو بفعلتي.. هذه شياطين تشرب الدم وتأكل الموتى فكيف تتخيل يا أحمق أنك تستطيع خداعها وسرقتها؟

صعدت إلى غرفتي ووقفت أتأمل وجهي في المرآة..

أمّا وقد سقطت الفأس على الرأس فلا أقل من أن أستغل الفرصة التي سنحت لي.. لن أكون كمن يقتل من أجل المال ثم يُلقي بما سرقه في القمامة..

ثم قررت شيئًا أفضل.. جرعة من هذا الإكسير وأعيد القنينة لهم.. ربما لن يلاحظوا.. ربما.. فقط لا بد من جرعة..

هكذا مددت يدي وحاولت نزع الغطاء.. إنِّه أقرب إلى سدادة زجاجية محشورة بعنف في العنق..

لا جدوى.. إنِّه ملتصق تمامًا.. حاولت عدة مرات فلم أستطع.. بينما هي حلقت في الهواء مفتوحة لتسكب نفسها على شفتي عندما كان (أفسيس) هو صاحب الأمر..

جربت ساعة كاملة حتى أنني أسخنت بعض الماء ووضعت العنق في البخار.. لا جدوى..

طبعًا ليس واردًا أن أحطم عنق القنينة.. لا أجرؤ على هذا..

هكذا وجدت نفسي في مأزق حقيقي.. سرقت القنينة ولا أستطيع فتحها..

ماذا أفعل؟

كامل

☆ ☆ ☆

- ٩ -

كان اسم الرجل (تسلا).. (نيكولا تسلا Nikola Tesla)..

عالم عظيم هو.. عالم مرموق محترم، لكن آلاف النصابين استغلوا تجاربه بعد هذا، حتى صار اسمه مقترنًا بالأكاذيب.. وفي أواخر أيامه لم يكن الجيران يعرفون عنه إلا أنه (واحد من هؤلاء العلماء المجانين)..

لكنهم لا يعرفون أنه الرجل الذي أتعب (إديسون Edison) وسبق (ماركوني Marconi) إلى اكتشاف الراديو، لكن فضل هذا الاختراع ذهب إلى العالم الإيطالي..

كانت حياة الرجل سلسلة غريبة من العبقرية والجنون والنحس الخارق للعادة. وبعد موته - كالعادة - عرفوا قيمته الحقيقية.. وقالوا إنّه (الرجل الذي صنع القرن العشرين)..

☆ ☆ ☆

كرواتي المولد.. رأى النور عام ١٨٥٦..

منذ طفولته اهتم بالكهرباء وتلك القوة العاتية الموجودة في البرق.. وفي الوقت ذاته اهتم بقراءة رواية (فاوست).. الرجل الذي باع روحه للشيطان مقابل الحكمة.. هل لهذا معني ما؟ هل تفسر هذه القصة فلسفة حياته؟

في العام ١٨٨٤ هاجر إلى الولايات المتحدة ليبدأ حياته الحقيقية كواحد من أهم علماء الكهرباء في التاريخ..

كان (إديسون) العالم الأمريكي العظيم - أبو المصباح الكهربي - يعرف العباقرة عندما يراهم، وقد أدرك أنّ هذا الكرواتي النحيل العصبي يحوي بذور العبقرية.. ضمه إلى مختبره وساعده كي يدرس التيار المتردد الذي يحلم بأن يجد الإمكانيات لدراسته..

على أن العالم الأمريكي العظيم لم يكن بذات العظمة من الناحية الأخلاقية.. هذه أشياء نندهش عندما نسمعها عن (باستير) و(ديزني) وسواهم.. وهذا ينبع من اعتقادنا الراسخ أن العلم أو الفن والأخلاق لا ينفصلون.. لقد كان (إديسون) مصاص دماء اعتصر من الشاب الموهوب عشرات الاختراعات ثم لم يمول المشروع الوحيد الذي كان يحلم به..

هكذا يترك الشاب الغاضب شركة (إديسون) ويمارس أبحاثه كيفما تمكّن من تمويلها.. درس التيار المتردد والكهرومغناطيسية.. وفي أحد المعارض العلمية عرض (بيضة كولومبوس) وهي بيضة نحاسية يجعلها التيار الكهرومغناطيسي تقف على طرفها.. طبعًا هذا الاسم نسبة للتحدي الشهير الذي واجه (كولومبوس) في البلاط عندما طلب منه الملك أن يوقف البيضة على طرفها المستدق..

قبل أن يكتشف (رونتجن Roentgen) أشعة إكس اكتشفها (تسلا)..

قبل أن يكتشف (ماركوني) موجات الراديو اكتشفها (تسلا).. وجن جنونه عندما نُسب الاختراع لـ (ماركوني) ونال هذا الأخير جائزة (نوبل)..

عندما تمسك بجهاز التحكم عن بعد (ريموت كونترول) فاعلم أنه واحد من اختراعات (تسلا) التي لم تظهر بشكل تجاري إلا في الستينات..

قبل أن يكرس العلماء وقتهم لالتقاط الإشارات الغريبة القادمة من الفضاء الخارجي، وقبل أن يولد (كارل ساجان) استطاع (تسلا) التقاط موجات غامضة من جهاز استشعار بناه في (كولورادو) وقال إنّه يعتقد أن مصدرها كائنات فضائيّة..

كان (تسلا) يؤمن أن التيار المتردد هو الطريقة المثلى لتوزيع الكهرباء، بينما رأى (إديسون) أن التيار المباشر هو الحل.. وهكذا عرفت أمريكا ما عرف بحرب الكهرباء بين عالمين عظيمين..

أما حلم (تسلا) الأعظم فهو أن تملأ الكهرباء الهواء حولنا وأن يحصل عليها الناس من دون أسلاك.. أن تكون الكهرباء كالهواء تحصل عليها في أي مكان متى أردت..

من أجل هذا الغرض قام أولًا باختراع برق صناعي رآه الناس يضرب السماء على ارتفاع ١٥٠ قدمًا (خمسة وأربعين مترًا) وقوته ملايين الفولتات..

ثم بدأ إنشاء الحقل الكهربي العام (واردنكلايف Wardenclyffe) الذي يحلم به في (شورهام) بـ (لونج آيلاند).. وهو مشروع لم يكتمل لكن البرج ما زال موجودًا حتى اليوم..

كان مصابًا بعدة وساوس ومن ضمنها أنه كان مهتمًا بالرقم ٣.. لا يدخل بيته إلا بعد أن يدور حوله ثلاث مرات ويغسل يده بثلاث قطع صابون.. إلخ.. وهذا جسَّد فكرة الجنون لدى من كانوا يجهلون عبقريته..

من ضمن ما حلم به نوع من أشعة الموت التي يمكن تسليطها على الأعداء.. ثم مات في نيويورك أثناء الحرب العالمية الثانية... ترى لماذا كان أول ما قام به رجال (مكتب الاستخبارات الفيدرالي FBI) بعد وفاة الرجل هو الاستيلاء على كل أوراقه وتصميماته؟ لماذا ظل بعض هذه الوثائق متواريًا حتى اليوم؟ ما معنى هذا؟

على كل حال قد مات (تسلا) لكن العلماء حقًّا عرفوا قدره.. وما زالت فوهة (تسلا) على القمر تحمل اسمه كتكريم أخير له لم يعرف به على كل حال..

وفي كل مكان فكر علماء الباراسيكولوجي في تجاربه..

وبدت لهم ذات قيمة ما..

☆ ☆ ☆

- «يا (ماري الدموية).. أنا قتلت أطفالك!»

☆ ☆ ☆

عندما توقفت السيارة البيك أب أمام الفيلا وراح حمالان ينقلان ما فيها إلى الداخل، شعرت بذهول.. فلم أتصور أن الأمور بهذا التعقيد..

كان (سليمان) يركض هنا وهناك وهو يوشك على الموت رعبًا..

- «أنت! لا تحمل هذا الجهاز بهذه الطريقة.. أنت احترس وإلا تعثرت.. هذه الأجهزة حساسة وليست أكياس علف..»

لكن الأمر مر بسلام، وسرعان ما تكومت هذه الحمولة الغريبة في اللوبي..

هرع الفتى لينقد السيارة أجرها.. وناول بعض البقشيش للحمالين على سبيل (دخانهم).. ولم يرق لهم بطبيعة الحال.. كانوا يتوقعون حلوانًا مجزيًا من أصحاب فيلا بهذه الفخامة..

عاد الفتى يجفف عرقه بينما راح (مختار) يتأمل الأجهزة العديدة.. وقال وهو يداعب شاربه:

- «هل تنوي أن تنقل محطة توليد السد العالي هنا؟»

- «ليتني أستطيع!»

كانت الأجهزة معقدة وكثيرة، لكن طابع التصميم المنزلي يغلب عليها.. معظم هذه الأجهزة الرأسية المنتصبة تم تركيبه على شماعات. شماعات غرف النوم الرأسية وقد بدا واضحًا أنه ابتاعها من محلات الأثاث المستعمل لأن حالتها كانت تثير الشفقة.. هناك أسلاك معقدة ملتفة حول بعضها والكثير من شرائط لصق الكهرباء، من الواضح أن الأسلاك مجموعة من بقايا مختلفة كلما وجد سلكًا ربطه في الجزء الذي لديه كما يفعل البخلاء الذين يجمعون قطع الخيط.. هناك أكثر من

(فولتامتر) تم تثبيته إلى بعض الأجزاء، أمّا الشبكة العملاقة التي تخرج من هذا الحامل الرأسي فمن الواضح أنها أسلاك من التي يثبتونها على بيوت الدجاج، لكنه لحمها ببعض لتبدو كأنها شبكة رادار.. كان كل شيء مثبتًا (بأستك) مطاطي من الذي يستخدم في الثياب الداخلية.. إحم.. جزء منها بالتحديد..

قال (مختار) وهو يتأمل هذه التعقيدات:

- «هذا سيرك..»

- «ربما.. لكنه سيرك يعمل وليست ألعاب حواة..»

قلت للفتى وأنا أفتح أحد الصناديق:

- «لقد كلفك هذا ثروة..»

- «ليس كما تعتقد.. أنا مفلس أصلًا.. أطالع الكثير من مجلات الهوايات وأعرف كيف أصنع أشياء كثيرة بأقل تكلفة أو بلا تكلفة.. جهاز المذياع الذي أستعمله في بيتي صنعته بنفسي.. عندي عداد (جايجر) من تصميمي لم يكلفني إلا عشرة جنيهات..»

وأصدر تعليماته لنا بأن نساعده.. هذا الجهاز هنا ذلك الجهاز هناك.. لو سمحت مد هذا السلك.. نعم.. خذه معك إلى أعلى الدرج.. وأنت يا أستاذ (مختار).. أريد أن تضع هذا في غرفة نوم (رانية)..

تعثرت الزوجة في أحد الأسلاك فسقط جهاز على الأرض وتهشم.. لكن الفتى لم يبال وأخرج مفكًا وبنسة صغيرين وراح يعيد تركيبه في دقائق..

مررت بجواره فسمعته يهمس كأنه يكلم نفسه لكن الكلام كان لي:

- «شكرًا د. (رفعت)..»

رفعت حاجبي متسائلًا فقال دون أن ينظر لي:

- «لم أحسبني قط سأعود لممارسة الحياة بهذا الحماس.. عندما التقينا كنت ضائعًا وكنت قادرًا على ابتلاع علبة من السم دون أن يرجف لي جفن.. اليوم أنا مندمج بالكامل في هذا وأشعر بأن لي نفعًا.. كنت بحاجة إلى من يثق بي.. واحد فقط يثق بي كي أثق بنفسي.. أنت فعلت ذلك..»

لم أرد وتركته.. لأني لو وقفت لحظة واحدة لانفجرت في البكاء كالأطفال مع ضرب الأرض بقبضتي وركلها.. ما لا يعرفه هو أنني وثقت به فاستعاد ثقته بنفسه.. وهذا - تصوّر - جعلني أثق بنفسي!.. دائرة بالغة التعقيد من المنح والأخذ لا تتمتع بها إلا عواطف محدودة من التي تسري في اتجاهين مثل الحنان والثقة.. عندما تحنو الأم على رضيعها الهش الضعيف فإنّه يعطيها الكثير جدًّا..

أكثر مما يأخذه منها..

وسط هذه الخواطر تدخل (مختار) في عصبية:

- «هل تعتقد أنني سأتركه يمارس ألعاب العفاريت هذه هنا؟»

قلت وأنا أبعده عن المشهد:

- «ليس لديك الخيار يا (مختار).. أنا أثق بهذا الفتى وأعتقد أن عليك أن تثق به.. لن تخسر شيئًا.. لاحظ أننا قررنا أن نجري التجربة مساء السبت - أي اليوم - الآن كل ما حدث هنا من أحداث وقع في هذا اليوم.. لو كانت هنا أشباح فالسبت يومها..»

عندما انتهى (سليمان) من كل شيء بدا البيت كأن غزوًا فضائيًا قد استولى عليه.. أبراج مراقبة في كل مكان وأسلاك وعدادات وكشافات صغيرة مربوطة إلى أسلاك تتراقص كأنها عيون كائنات فضائيّة.. هناك شبكة معدنية في كل غرفة تقريبًا..

قلت له:

- «والآن أرجو أن تشرح لنا ما تنوي عمله..»

جفف عرقه وأعاد المنديل إلى جيبه وقال:

- «(تسلا)..»

عاد (مختار) يسأله:

- «تسلم؟ تسلم من أي شيء؟»

قال الفتى:

- «أتكلم عن (تسلا) المخترع الكرواتي العظيم.. لقد صنع برج (واردنكلايف) لينشر الكهرباء في الجو.. أراد أن يمد الناس الأسلاك فيأخذوا الكهرباء من الهواء مباشرة.. فيما بعد فكر العلماء في قياس الموجات الكهرومغناطيسية في هواء البيوت المسكونة.. إن موجات (تسلا) هذه تنشط الظواهر الخارقة.. ولسوف نسجل أي تغير في الموجات.. أي نشاط كهرومغناطيسي غير معتاد.. لن يفلت منا شيء.. في النهاية يمكنني أن أقول لك ما إذا كانت هناك طاقة نفسية في هذه الفيلا أم لا..»

قلت وأنا أعتقد أنني سمعت هذا الكلام من قبل:

- «هل لديك تجارب تشهد بصدق هذا المعتقد..»

قال في توتر:

- «لقد جربت على الحيوانات كثيرًا.. عندما يموت الفأر وهو يتألم تنبعث منه طاقة لا شك فيها.. وهذه الطاقة تظل في المكان فترة لا بأس بها.. ربما عدة أيام.. بعد هذا صرت قادرًا على العثور على جثته لأن أجهزتي تشعر بها..»

قلت لـ (مختار):

- «هل تفهم شيئًا من هذا الكلام؟»

قال في غيظ:

- «وهل تفهم أنت؟ لا تقل إنني الحمار الوحيد هنا..»

ابتلعت التعليق الذي أردت قوله وأضفت:

- «لا أفهم إلا شيئًا واحدًا.. القصة الدائمة هي أنّ هناك شخصًا مدفونًا تحت الفيلا أو في جدارها.. ترى هل هناك شيء كهذا؟ ولو كان كذلك فأين هو؟ أعتقد أن تجربة (تسلا) هذه سوف تقودنا لشيءٍ ما..»

فيما بعد - في الثمانينات - قرأت عن تأثير (هتشنسون Hutchison effect) الذي يستخدم نفس تجارب (تسلا)..

اكتشف (هتشنسون) أن التيار قادر على رفع أجسام عن الأرض، وتغيير صفات البلورات، ودمج الخشب بالحديد وتهشيم المعادن.. إلخ..

ثمة لغز مخيف يحيط بتيار (تسلا) المتردد هذا.. الحق أن كل ما يحيط بالرجل غامض مثير..

لكن (مختار) كان مهتمًّا بنقطة أخرى:

- «الكهرباء.. كم يستهلك هذا الشيء من الكهرباء؟ أعتقد أنك ستأخذ الكهرباء من عندي»

شرقاوي بخيل؟ هذا كائن أسطوري نادر مثله مثل اليهودي السخي أو الإيطالي الذي لا يجيد الغزل.. (مختار) هو الشرقاوي الوحيد البخيل على ظهر البسيطة على قدر علمي.. كان هناك واحد آخر لكنه مات منذ أعوام.. وسط كل هذا يقلق على فاتورة الكهرباء!

قال (سليمان) وهو يلحم سلكين بشريط لاصق:

- «لا أعتقد أننا سنستهلك الكثير.. ثم إننا سنطفئ جميع الأنوار ونفصل أي جهاز كهربي.. لا أريد موجات دخيلة..»

- «وكيف ترى؟»

- «على ضوء الشموع.. والآن هل نبدأ؟»

صاح (مختار) ينادي زوجته.. لا نريد أن يبقى أحد وحده.. هناك تلك البائسة الغارقة في غيبوبة.. لن يحدث لها شيء إن شاء الله..

ابتلعت قرصًا من دواء الضغط وقرصًا من موسع الشرايين التاجية حتى أتحمل ما قد نراه..

أشعلوا الشموع.. احبسوا الأنفاس..

فلتوصل التيار الكهربي يا (سليمان)....

☆ ☆ ☆

- ١٠ -

(من مجموعة خطابات وجدوها في وقت متأخر جدًّا.. الخط مختلف تمامًا ويشبه خط الأطفال):

القاهرة في ٢٥ أغسطس ١٩٧٨:

أخي (رامز):

لم أكتب لك منذ فترة طويلة، وأنت لا تسأل عني على الإطلاق.. كنت أتوقع خطابًا واحدًا.. أنا أكتب لك منذ عشرين عامًا بلا استجابة ويبدو أنكم قررتم أنه لا وجود لي، أو أن خطاباتي أقنعتك بأنني مجنون من الخير أن تنساه.. فقط (جمانة) اتصلت بي ثلاث مرات في عشر سنوات..

أعتقد أنك لا تعرف أنني أصبت بجلطة مخية منذ أعوام.. نعم.. كنت أتناول الطعام عندما جاء (سلامة) يتوكأ على عصاه ويسألني عما إذا كنت أريد شيئًا فكان ردي هو (ممففبب ممف)..

وعندما دنا ليفهم وجد أنني أنظر له في ذعر.. لقد صار نصفي الأيمن عاجزًا عن الحركة تمامًا.. والتوى ركن فمي.. كنت مكومًا إلى جانب المقعد ككيس غسيل وهي حالة مزرية لم أتوقعها ولم أرها في كوابيسي.

هرع الباسل يجلب لي الطبيب.. ودخلت المستشفى بضعة أيام، وفي النهاية عرفت أنها جلطة مخية.. خرجت من المستشفى على مقعد متحرك إلا أن هناك ممرضة انضمت لأهل البيت تقوم بمتابعة علاجي وإجراء العلاج الطبيعي لي. هناك محام يقوم بالإجراءات المالية لي، و(سلامة) يعني بالبيت كأنه أخي..

لقد تحسنت كثيرًا فلا تقلق (إن كنت تقلق عليّ)، وقد استغنيت عن المقعد المتحرك منذ عام.. يمكنني أن أستعمل العكاز وأن أصعد وأهبط.. يمكنني النزول إلى القبو.. ببطء شديد لكنني على الأقل لست بحاجة لأحد. يمكنني أن أكتب.. صحيح أنه ليس ذات الخط الجميل السابق لكنه مقروء.

هناك مشكلة واحدة لكنّها ضخمة بالفعل.. منذ أصبت بالجلطة لا أستطيع أن أزور هؤلاء القوم في المقبرة. حتى بعد ما استعدت حركتي نوعًا ما زلت في حالة لا تسمح لي البتة بأن أهبط درجات مثبتة إلى جدار بئر، وأمشي في نفق مظلم ثم أعود..

تلك مشكلة.. لكن الأخطر منها هو أنني لا أستطيع إعادة ما سرقته..

لقد باغتني المرض قبل أن أعيد القنينة إلى أصحابها.. طبعًا عهد الدم يمنعني من إطلاع واحد آخر على السر.. واحد يقوم بإرجاع القنينة بدلًا مني.. لقد كان عهد الدم واضحًا في أن السر سيبقي

داخلي، لكنه لم يتكلم عن إعادة المسروقات.. إذن الأولوية للصمت.. لا أريد أن أغطي حماقة بحماقة أخرى..

لماذا تركوني كل هذه الأعوام؟ لا أعرف.. بالطبع هم لا يعرفون الزمن كما نعرفه.. ربما كانت القرون عندهم مثل دقائقنا أو ثوانينا..

هم الآن غاضبون لأنني اختفيت ولم أعد أنزل لهم.. غاضبون لأنني سرقت القنينة.. لا أعتقد أن اختفاءها لم يلحظه أحد بعد كل هذه الأعوام..

الآن صار الوضع كما يلي: رجل عجوز معوق تطارده غضبة كائنات لا قبل له بها.. لا قبل للبشريّة بها.. وانتقام هذه المخلوقات آت حتمًا.. وهو يتجاوز المسافات والأزمنة.. ويحل بالأهل الأبرياء بسهولة تامة وبلا تأنيب ضمير..

أعتقد أنهم قادرون على المجيء إليّ.. قادرون على استرداد القنينة، لكنهم يفضلون أن ينتظروا.. أن يثيروا الذعر في نفسي..

لا أعرف متى تأتى اللحظة.. لكنّها آتية.. أعرف هذا يقينًا كما أعرف أن اسمي (كامل)..

كامل

☆ ☆ ☆

القاهرة في ١ سبتمبر ١٩٧٨:

أخي (رامز):

قمت بما كان يجب أن أقوم به.. طلبت من (سلامة) أن يتصرّف ويأتي ببعض العمال ليصبوا الأسمنت في قاع القبو.. كلام كثير عن الرطوبة والمياه الجوفية والفئران التي تتسلل.. إلخ.. أي كلام يقنع هؤلاء الفضوليين بأن ينفذوا دون أسئلة.. قمت قبل قدومهم بإخفاء فتحة البئر الفتحة التي تغطيها القضبان - بالورق المقوى ثم داريتها بالغبار.. وهكذا لم يلحظها أحد وقد قاموا بالصب وتجمدت الطبقة.. هذه الفتحة قد توارت للأبد ما لم أجلب أنا من يعيد فتحها....

بعد هذا قمت بإعادة كل ما كنت أخزنه في القبو إليه الزجاجات الفارغة التي كنت أملؤها دمًا.. المقعد المتحرك الذي استغنيت عنه.. ثيابي القديمة.. حتى صور مراهقتي.. هل تذكر كم كنت أعشق (فاطمة رشدي)؟ لن يلاحظ أحد شيئًا على الإطلاق..

لا أعني بهذا أنني صرت آمنًا.. لكن السر صار كذلك.. لن يجد الفتحة شخص آخر من بعدي..

بقيت مشكلة القنينة التي تحوي سر الشباب والتي عجزت عن فتحها طيلة هذه الأعوام.. لا تطلب مني أن أفتحها عنوة.. صحيح أنّ هذا هو الوقت المناسب وأنني لن أجد مناسبة خيرًا من هذه الشرب ما بها، لكني لا أجرؤ.. هذه القنينة هي أملي الأخير في ألا يمتد الانتقام لأسرتي وأحفادكم.. يجب أن تعود إلى حيث كانت...

سوف أخفيها في موضع من الفيلا.. لن أصرح بهذا.. وسوف أترك رسالة مبهمة لمن يأتون بعدي، أحدهم سوف يفهم وينفذ، لكن لن يستطيع أحد أن يتهمني بإفشاء السر.. ستكون طريقة بارعة خادعة.. ومن يجدها ويفهمها يستحق أن يعرف..

الآن أتركك في رعاية الله..

فقط تذكر أخاك الذي تورط في هذه القصة الرهيبة، والذي لم يستحق قط أن يكون حليفًا للشياطين لكنه صار كذلك.. صار شيئًا أقرب للشخصيات التي تقرأ عنها في الأدب العالمي.. خادم (دراكيولا).. (ليبوريللو).. خادم (فرانكنشتاين) الأحدب الذي يسرق المقابر له..

ادع لي بالرحمة..

فأنا أعرف أنّ هذا آخر خطاب أكتبه لك.....

كامل

☆ ☆ ☆

الجزء الثالث:
أسطورة بيت الأشباح

- «هؤلاء لا يريد أن تصل الرسالة إلا لمن يعرف هذه الأمور.. باختصار كان ينتظر ساحرًا أو شخصًا يفهم في السحر.. السؤال الحقيقي هو: لماذا يريد منا أن نصل للقنينة وفتحة القبو؟ ما هي الرسالة؟ لن نعرف إلا بالنزول إلى هناك..»

- ١ -

لم يكن الشعور محببًا..

لا أعرف كيف أصفه لكنه يبعث الغثيان في النفس شعور بأن معدتك ليست على ما يرام وأن أذنيك لا تعملان جيدًا وأنك مريض تعس.. عندما جربت جهاز الرنين المغناطيسي MRI بعد هذا بأعوام شعرت بشيء مماثل، وإن كان معظم المرضى لا يشعرون بالشيء ذاته.. ربما كانت أذناي حساستين وربما كانت روحي نفسها كذلك..

بدا التقزز على وجهي ونظرت إلى (سليمان) الذي تلمع عيناه في ضوء الشموع، فقال:

- «نحن في مجال كهرومغناطيسي عالٍ.. لا بد من أن يؤثر هذا على أجهزة جسمك..»

كان الموقف كريهًا.. ظلام دامس وبضعة شموع تجعل الجو حارًا لا يطاق، مع شعور الغثيان الغريب.. ورأيت أن (مختار) وزوجته ليسا على ما يرام مثلي..

كان الطفل والممرضة قد غادرا البيت.. لا أحد يريد أن يمرا بما سنمر به.. لا أعرف ما سنمر به لكنه لا يناسب الأطفال حتمًا..

ومن الظلام راحت أضواء خضر تتوهج.. المصابيح التي نثرها (سليمان) في كل مكان تنبض.. لا أعرف معنى هذا..

قلت وأنا أجفف عرقي وأشهق كي لا أسقط فاقد الوعي:

- «ما معنى.. هذه الأضواء؟»

- «لا شيء.. فقط تقول إن المجال الكهرومغناطيسي محكم..»

ثم أمسك ورقة وراح يخط عليها أرقامًا..

- «لا يوجد شيء مريب هنا.. تعال نبحث في الغرف..»

غرفة (رانية).. سلبي.. لا يوجد أي شيء غريب.. إنها راقدة في الفراش كما هي وجوارها شمعة على الكومود.. مصباح أخضر يتوهج ليلقي ظلالًا على وجهها لكن المشهد يوحي بالسلام..

أتبعه وأنا أتوكأ على العكاز وأحمل شمعة كأنني أحد قراصنة الكاريبي فلا بد أن صوت الضربات وهي ترتطم بالخشب يثير الرعب في قلوب الأشباح...

المطبخ.. لا شيء..

اللوبي.. لا شيء..

غرفة مكتب (مختار).. لا شيء..

غرفة نوم الطفل.. لا شيء...

القبو.. لا شيء....

غريب.. مع أنه مكان موح فعلًا.. دعك من أننا وجدنا الكتب المشئومة فيه.

العلية..

هنا نظرت له وقد أدركت أنّ هناك شيئًا ما..

هذه هي الغرفة الأولى التي لا يتوهج فيها النور الأخضر.. بدلًا من هذا يتوهج مصباح أحمر يبعث ظلالًا شيطانية على كل شيء...

قلت له همسًا:

- «هل هذا يعني....؟»

- «ش ش ش ش!»

قالها في حزم، ثم أخرج من حقيبته عدادًا صغيرًا له مجس في أعلاه، وراح يمرره على الجدران كما يفعل خبير الإشعاع الذي يبحث عن فضلات نوويّة.. أرى أن المؤشر يتحرك في نشاط وجشع ثم قال:

- «هناك شيء هنا.. لقد شعر به.. إن الطاقة الكهرومغناطيسية قوية»

وتوقف جوار جدار.. دق عليه بيده مرّتين فسمعت صوت الى (بونك بونك) المميز لوجود تجويف.. نظر لي نظرة ذات معنى وابتسم ورسم دائرة على هذا الجزء الأجوف..

ثم إننا نزلنا لنتفقد باقي أجزاء المنزل.. لم ينس الحديقة ولم ينس بئر السلم ولا غرفة نوم (مختار).. وفي النهاية اتجه إلى أجهزته ليوقفها..

لقد انتهى ذلك الشعور المقيت.. أخيرًا عدنا نتنفس ونشعر كالبشر..

انتهى تأثير موجات (تسلا) الذي سيطلقون عليه اسم (تأثير هتشنسون) بعد أعوام..

ساد الصمت.. لم يقطعه إلا (مختار) يقول في عصبية:

- «لو أننا أصبنا بالسرطان من جراء هذا الشيء اللعين فأنت المسئول.. سوف أرفع عليك عددًا من القضايا تضطر معه لبيع سروالك الداخلي»

قال (سليمان) من دون أن يرد على الاتهام:

- «هل لديك شيء يصلح للدق؟ هناك جدار أريد هدم جزء منه في العلية!»

- «هل جننت؟»

قلت وقد بدأت أعصابي تتوتر فعلًا:

- «(مختار).. لو لم يكن لديك عمل إلا إطلاق التهديد واللوم فإننا سنكون سعيدين لو سمحت لنا بالانصراف هذا الفتى يقول الكلام الوحيد المعقول في هذه القصة، فإما أن تصغي أو لا تضيع وقته»

لان الرجل قليلًا فغاب بضع دقائق، ثم عاد حاملًا مطرقة كبيرة أقرب إلى (قادوم) ومعها مفك عملاق يصلح لتحويله إلى إزميل.. كان يحتفظ بهذه الأشياء ليشعر بأنه بارع لا يستطيع الحرفيون خداعه، وكان يصر على أن يتصيد أول حرفي يقابله ليلفظ أمامه أسماء مثل (المنجفرة) و(المانيجا) و(الرداخ) و(الباتير) كي لا يحسبه الحرفي أفنديًا سهل الخداع..

صعدنا إلى العلية فراح الفتى يسدّد الضربات إلى ذلك الجزء الهش من الجدار الذي يقول (بونك بونك).. أعرف هذا الجزء من أفلام الرعب وأخشاه كثيرًا.. سرعان ما نترك المكان كالبلهاء فيخرج شيء ما من هذه الفتحة.. شيء كان حبيسًا من ألف عام.. راح الملاط يتهاوى وأدركنا أنّ هناك لوحًا صغيرًا من الخشب وضع على التجويف قبل أن يقوم أحدهم بتسوية المكان بالمحارة..

إذ انتزعنا الأسمنت الجاف وبقايا الخشب مد الفتى يده يتحسس ما هنالك.. كان متحمسًا فلم أجد الوقت لأنذره.. يا أحمق.. لا تضع يدك في فتحة لا تعرف ما بها أبدًا..

لكنه لم يتلق اللدغة القاتلة أو تنغرس في إصبعه الإبرة السامة، وبالتأكيد لم تقبض مومياء (خاريس) على ساعده.. فقط بدا عليه الظفر ثم أخرج يده وفيها كانت قنينة صغيرة مسدودة بسدادة من زجاج.. وكانت تحوي سائلًا أحمر غريب الشكل..

صاح (مختار) في لهفة:

- «دم! لا بد أنه سبب هذه اللعنة!»

قلت وأنا أمسك بالقنينة:

- «لا.. ليس دمًا وإلا لتجلط أو تعفن.. إنّه إكسير ما.. وما زلت لا أفهم القصة.. كنا نبحث عن جثة يجول شبحها هنا فوجدنا قنينة صغيرة.. ما معنى هذا؟»

☆ ☆ ☆

- ٢ -

لا أعرف السبب لكننا عجزنا عن فتح تلك القنينة.. خطر لي أن أنشر عنقها بمبرد كما نفعل بأمبولات الحقن ثم عدلت عن هذا.. كيف أعرف أن ما بداخلها ليس بكتريا الطاعون أو فيروس الجدري؟ أعرف أنّ هذا كلام غير علمي، فالميكروبات لا تحفظ بهذه الطريقة، لكن المنطق يقول إنّه من الخطأ أن تفتح زجاجة لا تعرف محتواها لمجرد أنّ هذا يروق لك.. دعك من أن أكثر العلماء يرجحون أن لعنة الفراعنة تسببها جراثيم متحوصلة Spores ظلت في المومياوات حية أربعة آلاف سنة..

- «لن نفتحها.. لكننا سنحاول الفهم..»

قلتها ونحن نجلس في مكتب (مختار) والزوجة توزع علينا أكواب الشاي كالعادة.. ثم إنني أخذت قرصًا من علبة دواء الضغط وابتلعته مع الماء، فقد حان موعده..

قال (مختار) وهو يمسك بالقنينة ليراها عبر النور:

- «لو كان كلامك صادقًا فهذه القنينة هي مصدر كل مشاكل البيت.. إنها البطارية التي تحرك الأشياء.. إذن المنطق يقضي بالتخلص منها في الصحراء..»

- «لا أعتقد هذا..»

ثم فكرت قليلًا وأضفت:

- «لا أعرف من كلمني على الدرج، لكنه أمرني بالتفتيش في بيت الأشباح.. لقد فعلنا هذا فوجدنا هذه القنينة..»

بدا الاعتراض على (سليمان) لكنه انتظر في أدب حتى فرغت من كلامي وقال:

- «ليس بيت أشباح.. أنا متأكد من أنّه لا توجد أشباح.. بل هذا هو المكان الوحيد في العالم الذي يُمكنك أن تقسم على أنه خالٍ من الأشباح.. إن أجهزتي عالية الحساسية.. الشيء الوحيد الذي يحوي قوى نفسية هو هذه القنينة، ونحن نعرف أنها ليست شبح قنينة.»

قال (مختار) بطريقته المقتحمة:

- «إذن من الذي يحرك الأشياء وينظر في المرايا؟ خالتي؟»

كنت أنا أفكر في عمق ثم قلت:

- «من الأشياء التي لفتت نظري منذ البداية هدوء الكلب لا شيء يثير أعصابه وجنونه سواي.. وقد تعلّمت أن الحيوانات شديدة الحساسية لهذه الظواهر فوق الطبيعية.. لا بد أن صمته يعني شيئًا ما.. ثم هناك الجزء التالي من نصيحة الوجه أو أمره - لا أدري - وهو يقضي بأن الأرقام سوف تهديني.. هذا الجزء لا أفهمه ولم يتحقق»

قال (سليمان):

- «أية أرقام؟.. هل يقرع هذا جرسًا عندكم؟»

- «لا يقرع أية أجراس إلا إذا.....»

ورحت أفكر في عمق من جديد.. يوشك مخي أن ينفجر وتسيل الدماء من أذني.. هناك أرقام في مكان ما.. هذا الموقف مألوف..

وفجأة تذكرت...

قلت له (مختار):

- «تصميم الفيلا.. اللوحة التي وجدناها في العلية.. هل هي عندك؟»

قال وهو ينهض ليفتش في مجموعة من الأوراق وضعها على مكتبة قريبة:

- «عندي طبعًا.. إنها مهمّة لبيع البيت وهو ما يبدو أنني سأفعله بسبب تلك المخبولة.. أعني المدام.. لم تعد تطيق هذه الفيلا لحظة.. تراها الشؤم بعينه.. واضح أنني سأبيع لكن بشروطي.. يجب أن أحقق بعض الربح.. فقط الحمقى يبيعون بسرعة وبلا تدقيق.. و.. ها هي ذي..»

ومن تحت الأوراق أخرج الصورة ذات الإطار..

ناولها لي فوضعتها أمام (سليمان) وقلت:

- «كما ترى.. هناك أرقام على هذا الرسم..»

قال في حيرة:

- «هذه الأرقام لا معنى لها.. إنها لا تفيد المهندس الذي يصمم الفيلا.. بل هي مفيدة لصاحبها ولغرض محدد في ذهنه..»

- «تلك هي المشكلة.. لم أر أرقامًا هنا إلا في هذه اللوحة..»

مد يده وبحرص أزال خلفيّة اللوحة فصاح (مختار) محذرًا، لكن الفتى نزع الخلفيّة بشكل جزئي متوقعًا أن يجد شيئًا وراءها.. هذا لم يخطر ببالي لكنه على كل حال لم يجد شيئًا في هدوء وبلا تعليق مد يده إلى بكرة شريط لاصق شفاف على مكتب (مختار) ومزق جزءًا أصلح به ما أتلفه..

قلت له ضاحكًا:

- «لو صدق هذا لحلت المشكلة في ثوان.. رسالة من صاحب الفيلا السابق تخبرنا أنّ هناك قتيلًا في المكان الفلاني وأن علينا استخراجه والصلاة عليه ودفنه.. وهكذا يعم السرور وتحل المشاكل ويتزوج البطل البطلة!»

انتفض (مختار) لسماع هذا التعليق، فطنت إلى ما فيه من قلة ذوق.. البطلة حتى اللحظة هي (رانية).. الأميرة النائمة بانتظار قبلة من البطل.. من البطل؟ ليس أنا وليس (مختار) وليس أنت.. ورفعت عيني إلى (سليمان) ونظرت له في ارتباك..

إنّه فعلًا من عالمها.. كلاهما شفاف حزين مرهف غريب في العالم.. لكن من قال إنها قد تعجبه؟ إنّه لم يرها قط.. دعك من أن (مختار) لن يقبل أبدًا بعريس مفلس لابنته حتى لو كان (تسلا) نفسه.. لا بد أنه يدخر في ذهنه عدة لواءات ومستشارين ورجال أعمال لهم أبناء ذكور، وهو يحلم بزيجة سياسية مثمرة تزيد كومة المال المشتركة وتمنحه المزيد من النفوذ الذي يجنبه السجن بإذن الله.. والحقيقة الأفظع هي أن (مختار) لن يقبل أبدًا بعريس جاءه عن طريق (رفعت إسماعيل).. إن العرسان الذين يأتي بهم المخابيل مخابيل مثلهم أو - على أفضل تقدير - حمقى..

لم يدر (سليمان) بما يدور في ذهني لأنّه كان يفكر:

- «رأيي الخاص هو عدم التخلص من هذه القنينة إلى أن نعرف ما هي.. وأقترح أن نحاول الاتصال بورثة (كامل البدراوي) وخادمه العجوز.. سوف نعرف منهم كل شيء عن هذه الفيلا»

قال (مختار):

- «الخادم من الغربية.. قرية اسمها (خارصيت) هناك.. أما (هاني البدراوي) ففي (مونتريال).. كندا.. ربما أمكن أن نتصل به..»

قلت في حماس:

- «لا أدري لماذا نضيع وقتنا في هذا؟ يا أخي بع الفيلا وانته...»

صاح (مختار) وقد احمر وجهه:

- «عندي فتاة شابة مصابة بغيبوبة لا يعلم إلا الله سببها يجب أن أعرف.. أنتما قلتما لي إن لهذا علاقة بهذه الفيلا اللعينة.. إذن على أن أعرف كل شيء.. أقسم بالله لو كانت (روني) سليمة لما حركت إصبعًا في هذا الموضوع..»

وفجأة رأيتهما ينظران لي في قلق..

☆ ☆ ☆

- ٣ -

ماذا هنالك؟ الفتى ينهض ويجلب لي كوب ماء و(مختار) يفتح المروحة ويضعها جواري ويقول لي:

- «آسف إذا كنت قد استفززتك.. استرخ..»

ماذا يحدث؟ هل جن الجميع؟

قلت في دهشة:

- «أنا بخير.. ماذا دهاكما؟»

رأيت (سليمان) ينظر لي ثم يتجاسر فيخفف ربطة عنقي ويفتح زرين، ثم قال:

- «لا أعرف السبب لكنك شاحب تمامًا والعرق ينهمر على جبينك..»

- «هذا كلام فارغ.. أنا خبير بالنوبات القلبيّة.. لا أشعر بأي شيء..»

ونهضت لأبرهن لهما على أنني بخير، لكني شعرت بأن ساقي تتخليان عني ورأسي يدور.. هذا الإحساس بأن روحي تتسرب مني.. ماذا يحدث؟ هل أصبت بداء السكري ضمن قائمة أمراضي؟ هكذا استرخيت على المقعد وسمحت للفتي بأن يرش وجهي ببعض الماء..

قال (مختار) وهو يسب ويلعن:

- «لا تمت هنا في بيتي.. أرجوك..»

- «سأحاول.. لكن أؤكد لك أنني بخير..»

وهنا تذكرت.. كم أنا أحمق..! لقد ابتلعت دواء الضغط مرّتين.. مرة قبل التجربة ومرة بعدها وهو الخطأ الأكثر شيوعًا لدى مرضى الضغط.. لا أعتقد أنّ هذا سيقتلني لكنه مزعج بما يكفي.. هذه حالة انخفاض حاد في ضغط الدم.. ربما لو تناولت بعض السوائل والمخللات لا بأس بقهوة مركزة.. لا أعتقد أنني بحاجة إلى محاليل أو هايدروكورتيزون..

هكذا وضعت الزوجة المذعورة أمامي طبعًا مليئًا باللفت المخلل الذي تجيد صنعه مع قدح من قهوة مركزة، بينما رقدت على الأريكة لأبقي رأسي منخفضًا..

قال (مختار) وهو يدسّ كمية هائلة من اللفت في فمي:

- «كُل.. كُل!»

قلت وأنا أوشك على الاختناق لأنني لا أستطيع الابتلاع وأنا راقد:

- «توقف! ليس إلى هذا الحد.. لقد حدث هذا الخطأ معي مرّتين من قبل ولم أمت»

- «إذن لماذا لا تكون أكثر حذرًا؟ ألا تجد شيئًا أفضل لتفعله غير أن تموت في بيوت الآخرين وتفضحهم؟»

بدأت اشعر بتحسن فنهضت معلنًا أن وقت الرحيل قد حان، لكن الزوجة أقسمت أغلظ القسم أنني سأبيت ليلتي هنا.. لن يطمئنوا على إذا قدت السيارة أو عدت لداري لأنام وحيدًا..

- «لكن على أن أوصل (سليما.....»

صاح (سليمان) في أريحية أنه لن يقبل ذلك.. سوف يتصرّف؛ فنحن في المعادي ولسنا في مجاهل أفريقيا أو غابات التايجا.. ونهض على الفور طالبًا الإذن في الانصراف سوف يأتي غدًا بسيارة لينقل كل مخلفاته التي جلبها اليوم..

قلت له وأنا راقد ألتهم اللفت:

- «لماذا لا تتركها بعض الوقت؟ أعتقد أننا قد نحتاج لدورة ثانية..»

صاح (مختار):

- «مستحيل.. لقد تحول البيت إلى ستوديو تلفزيوني.. مئات الأسلاك والمصابيح.. لو كان هناك شبح هنا فأنا أتوق لرؤيته يتحرك وسط كل هذا دون أن يكسر رجله..»

هكذا انصرف الفتى على وعد بالتفكير، وبرغم أنني تحسنت فعلًا مع الوقت فقد أصر (مختار) على أن أبيت كان كالعاصفة فلم أستطع الاعتراض...

☆ ☆ ☆

هذا هو التفسير إذن لكونك تراني راقدًا في هذه الحجرة بالطابق الأرضي من الفيلا ألبس منامة من منامات (مختار) التي أسبح فيها سباحة.. أحتاج لربع ساعة كي أعرف أين ذراعي، ثم ربع ساعة حتى أعرف من أين تخرج.. هذه المنامة بها ٥٦ فتحة تصلح كل منها كمًّا.. ثم أجد أنني نسيت ما كنت أريد عمله بهذه الذراع.

لم أحب المكان وكنت أشتهى فراشي.. لكني قدرت أنها ليلة ستمر سريعًا.. إنها الثالثة صباحًا بالفعل فلم يبق إلا أن أتحمل أربع ساعات أخرى..

كان الطلب الوحيد الذي طلبته هو أن آخذ تصميم الفيلا معي في غرفتي.. أريد أن أسهر عليه لأنني أعتمد على الإلهام الذي يأتي في ساعة مبكرة من الفجر.. سأفهم كل شيء فجأة..

لقد أرغمتني الزوجة على التهام طن من المخللات وجالونات من القهوة السوداء.. هذه الأسرة تتصرف بطريقة (الكل أو لا شيء).. إما أن أموت بهبوط الضغط أو أموت بارتفاعه.. وقد بدأت قرحة معدتي تصحو متسائلة عن ذلك المخبول الذي يضع فوقها كل هذا اللفت المخلل في هذه الساعة.. الألم الحارق يبدأ في فم معدتي.. قرحتي تضرب كفًّا بكف تشكو حالها إذ اضطرت لتحمل نزوات مجنون مثلي.. حتى الضباع لا تأكل المخللات في ساعة كهذه..

بسبب الألم الشديد جلست متربعًا في الفراش في الظلام.. ورحت أفكر....

هناك شيء ما شديد الوضوح في هذه القصة لكني لا أعرفه..

الإجابة قريبة جدًّا.. كأنني في امتحان شفوي أتمنى أن يلفظ لي الممتحن أول حرف كي أنطلق..

لكن.. أين هذا الممتحن؟

☆ ☆ ☆

- ٤ -

- «فتش في بيت الأشباح.. وسوف تهديك الأرقام..»

- «فتش في بيت الأشباح.. سوف تهديك الأرقام..»

☆ ☆ ☆

من صاحب الوجه الذي رأيته في المرآة؟ كنت أتمنى أن أتهم نفسي بالهستيريا لكن الفتاة رأت نفس الوجه ووصفته بدقة..

كيف تهديني الأرقام؟ هل يمكن أن أتتبعها على اللوحة مثل تلك الألغاز التي تملأ المجلات؟ تتبع الأرقام بقلمك لتعرف الشكل الذي رسمه الرسام.. أعتقد أن الأشباح ليست رائقة المزاج لهذا الحد، ولن تهديني اشتراك عام كامل في مجلة (بسبس) مع نشر صورتي..

ما محتوى هذه القنينة؟

أضأت المصباح جوار الفراش.. وعدت أنظر إلى اللوحة.. ثم مددت يدي أنتزع خلفيتها من الناحية الأخرى.. أي أنني فعلت ما فعله (سليمان) تقريبًا لكن من الجهة التي لم يحاول نزعها..

بالفعل هناك شيء..

خرجت يدي بورقة مطوية ففتحتها وقلبي يرتجف بين الضلوع.

وجدت فيها أبيات شعر مألوفة تقول:

تمضي الحيـــاة وكلنـــا فـي دربهـــا

ونـغيب عنها.. والخـطـى لا تنـدثـرْ

مــن قبلنـــا يمشي الألـى جاءوا بنـــا

مــن بعـــدنـــا يفنى مــلايين البـــشـرْ

فاســمع صـرير الريح تبكـي حولنـــا

واسمع صدى الأشباح تعوي في سقرْ

تلـك المـروج الخضر مـا كانت لنـــا

إلا كمـا الريحــان يمتلــك الســـحَـرْ

نفس الأبيات السخيفة.. هذا الرجل كان يصر على أنه عبقري وأنّ هذه درة يجب أن نضعها في كل مكان..

ثم توقفت وقد هبط عليّ الجواب فجأة.. هذه رسالة.. رسالة واضحة جدًّا..

بيت الأشباح لم يكن بيتًا تسكنه الأشباح، بل كان بيتًا في قصيدة!

بعبارة أخرى.. بيت الأشباح هو بيت الشعر الذي يتكلم عن الأشباح!

☆ ☆ ☆

فاســمع صـرير الريح تبكـي حولنــا

واسمع صدى الأشباح تعوي في سقرْ

لا أرى شيئًا غريبًا هنا.. والكلام لا يوحي بشيء.. لا يمكن قراءته بالمقلوب، ولا يمتلئ بكلمات غامضة موحية مثل (بئر الحياة) و(ثمانون عامًا) فتعرف أن الكنز على بعد ثمانين خطوة من البئر..

رحت أحرك الورقة على أمل أن يتضح الحل فجأة كما حدث مع بطل (رحلة إلى مركز الأرض).. لقد حرّك الورقة التي كتبت بحروف رونية Runic فإذا به يدرك أنها تقرأ بالمقلوب.. وهكذا عرف سر (يوكول سنيفل) الذي يقوده إلى مركز الأرض، كما فعل الرحالة الأيسلندي..

لكن لا.. هذه الحيلة لا تجدي هنا..

ثم خطرت لي فكرة مجنونة..

- «سوف تهديك الأرقام»

هذا ما قاله لي.. ماذا يعني؟

هناك نوع مهم من فنون العرافين اسمه حساب الأرقام.. إنّه جزء مهم من (الكابالا).. لاحظ أنّ هناك كتب (كابالا) هنا، ومعنى هذا أن مالك الفيلا كان يعرف هذا النوع من الحساب..

بما أن الحروف العربيّة تقابل الحروف العبرية، يمكننا أن نقسم الأبجدية كما يلي:

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ
ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع
غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و
ي								

الشطر الأول من بيت الشعر يقول:

فاسمع صرير الريح تبكي حولنا

وبتحويلها نحصل على: ٢ + ١ + ٣ + ٦ + ٩ + ٥ + ١ + ١ + ١ + ١ + ٥ + ١ + ١ + ٦ + ٣ + ٢ + ٤ + ١ + ٦ + ٩ + ٥ + ٧ + ١ = ٨١

لكن يجب الحصول على رقم مفرد.. لذا بـ يجب جمع رقمي الناتج فنحصل على ٩..

الشطر الثاني يقول:

واسمع صدى الأشباح تعوي في سقرْ

بتحويلها نحصل على: ٩ + ١ + ٣ + ٦ + ٩ + ٥ + ٨ + ١ + ١ + ٥ + ١ + ٤ + ٢ + ١ + ٦ + ٣ + ٩ + ٩ + ١ + ٢ + ١ + ٣ + ٣ + ١ = ٩٤

بجمع خانتي الناتج نحصل على ١٣.. هذه يجب جمعها من جديد لنحصل على ٤..

إذن الشطر الأول قيمته العددية ٩ وهو - حسب مفهوم الأرقام التقليدي - رقم التوازن العقلي والذكاء.. الشطر الثاني قيمته ٤ وهو رقم يدل على قوة التحمل والعناد والاكتئاب حسب (الكابالا) هناك رقم لكل شخص وهذا الرقم يحفظ في تعويذة، وله أهميّة خاصة بالنسبة لهذا الشخص.. معظم الدجالين والمشعوذين يستعملون هذا الأسلوب، لكن أهم من درسوه ساحر يدعى (أجريبا Agrippa).. الحقيقة أن تخبط هذه الطريقة واضح، لأن رقم (رفعت) يختلف عن رقم (رفعت إسماعيل) مع أنهما نفس الشخص، فأي الرقمين نأخذه مأخذ الجد؟

لكن هذا ليس ما أبحث عنه.. أنا أبحث عن شفرة لا عن نوع من السحر..

رفعت اللوحة في لهفة ووضعتها على الفراش..

أين رقم ٩؟ هو ذا! إنّه في العلية.. هناك عدة أرقام لكن رقم ٩ بالذات رسم على الجدار الذي قام (سليمان) بحفره منذ ساعات!

راح قلبي يتواثب في صدري.. إذن أنا أتحرك في الاتجاه الصحيح.. بيت الشعر قادني إلى الفتحة في الجدار ولو فطنت لهذا لما احتجت إلى كل هذه الحيل الكهربية..

لكن أين رقم ٤؟

رحت أنقب بإصبعي وفي النهاية توقفت عند القبو؟ بالذات في نقطة على الأرض جوار جداره....

القبو هو المكان الآخر الذي يجب البحث فيه.. كنت أشعر بهذا منذ البداية لكن ألعاب (تسلا) الكهربية لم تنذرني بذلك..

نظرت إلى الساعة.. إنها الرابعة صباحًا.. لا أستطيع الانتظار حتى تشرق الشمس ثم أنني لن أجازف بالظهور كأحمق أمام (مختار) وزوجته لو كنت واهمًا.. السبب الأهم هو أن القرحة تؤلمني.. لا أريد أن أقضي الساعات منفردًا مع هذا الألم..

لم لا أنزل إلى هناك وأجرب بنفسي؟

هناك احتمال لا بأس به أن يكون مغلقًا.. لا بد من غلق القبو كي لا تتسرب الحشرات والفئران.. أنا لا أملك قبوًا لكني أعتقد أن الأمر كذلك..

على كل حال لماذا لا أرتدي ثيابي وأجرب؟

☆ ☆ ☆

- ٥ -

كانت الفيلا خالية مظلمة.. فقط تلك الأضواء الخافتة الساهرة..

عند نهاية الممر خطر لي أن ما أفعله لا يخلو من قلة تهذيب.. ليس من حقي أن أجول في هذه الفيلا من دون إذن أصحابها ولو شعر بي (مختار) لجن جنونه أو شك في أمري..

لكن هذا كان أقوى مني.. أولًا القبو قريب جدًّا مني.. إن (مختار) وأسرته في الطابق الثاني ولن أزعجهم ثانيًا كنت بالفعل أجن شوقًا لرؤية القبو.. أين هذا المكان الذي فاتنا أن نفحصه والذي تتحدّث عنه القصيدة؟ لن أنتظر حتى الصباح لأعرف إن كنت أخرف أم لا.. ثالثًا من حقي أن أقضي حاجتي في الليل، ومن حقي أن أتوضأ لأن صلاة الفجر دانية.. وأنا لا أعرف مكان الحمامات في هذا الطابق.. إذن من حقي التام أن أستكشف المكان..

لن يكون هناك ضوء لكن الأمر سهل.. الشموع هي أكثر شيء يمكن أن تجده هذه الليلة.. شموع (سليمان) في كل مكان.. انتقيت واحدة منها وأشعلتها.. لاحظ أنني كنت أمشي متوكئًا على العكاز واللوحة تحت إبطي مما جعل حركتي مقيدة فعلًا.. لكني لم أرد أن أضطر للعودة إلى غرفتي لأعرف تفصيلًا ما من اللوحة..

نزلت الدرجات التي تقود إلى القبو وبعد لحظات كنت هناك.. إن الباب مفتوح لا كما توقعت أشق طريقي وسط المخلفات العديدة.. أزيح المقعد المتحرك.. أنظر إلى الأرضية على ضوء الشمعة..

خاب أملي لأن الأرضية كانت عبارة عن طبقة من الأسمنت يبدو أنها صبت مؤخرًا.. لا شيء.. الفتحة التي كنت أحلم بأن أجدها والتي تطابق رقم ٤ على اللوحة لا وجود لها أو هي تحت الأسمنت..

من الممكن أن تجلب عمالًا يحفرون الأرض بالفؤوس لكن (مختار) لن يتحمس لهذا الحد..

(هذا المكان كريه فعلًا.. لا أعرف السبب لكنه يحمل طاقة مقيتة)..

عدت أتفحص اللوحة في ضوء الشمعة..

رأيت خطًا باهتًا واضح أنه رسم باليد.. بقلم رصاص باهت حال لونه.. هذا الخط يتجه من الخارج.. من جزء في الحديقة يحمل رقم ٣٣ إلى البقعة المحددة برقم ٤.. ويبدو كأنه يمرّ تحتها..

هذا احتمال غريب واه لكن يمكن التفكير فيه.. لو أردت أن تفهم الأمر بصورة أفضل فلتفترض أنّ هناك ممرًا رأسيًا يبدأ من البقعة رقم ٤ ويقود لأسفل.. في الوقت ذاته هناك ممر منحدر يبدأ من

موضع معين في الحديقة هو ٣٣ ويتقاطع مع الممر الرأسي.. حرف Y مشوه غريب الشكل..

إذن يمكنني أن أذهب إلى حديقة الفيلا.. يمكنني بشيء من الجهد بلوغ ذات الموضع من دون أن أحتاج إلى حفر القبو..

والكلب؟

لا أعتقد أنه سيصحو لأنّه في الناحية الأخرى من الحديقة مقيدًا إلى ذلك الحبل الجرار.. بشيء من الحظ لن يملأ الدنيا نباحًا..

وضعت اللوحة تحت إبطي والشمعة في يدي واستندت إلى العكاز.

وببطء رحت أصعد في الدرج.. إن هي إلا نظرة واحدة أطمئن بعدها..

اتجهت إلى باب الفيلا فتحه وأخرج إلى الحديقة.. لكن.. وجدته موصدًا..

(مختار) لم ينس قبل النوم أن يحكم إقفال الباب من الداخل بعدة مفاتيح، وبالطبع ليست المفاتيح في أقفالها..

انتهت القصة عند هذا الحد.. لم يعد بوسعي أن أخرج من الفيلا قبل أن يصحو (مختار)..

على كل حال أعتقد أنها كانت مغامرة خياليّة لا يقدر عجوز التوى كاحله - ويحمل شمعة ولوحة - على القيام بها.. استكشاف قاع جب في الظلام الدامس.. دعك من احتمال أن أنزلق فيدق عنقي أو ألوي كاحلي السليم، ومن احتمال أن يصحو الكلب فيوقظ الحيّ بأكمله..

وجدت الحمام فقمت بما كنت أدعي أنني أريد القيام به كان هذا نوعًا من إخلاء الضمير أمام نفسي.. لا يقولن أحد بعد الآن أني كنت أتسلل بغرض الاستكشاف..

وسرعان ما عدت لغرفتي، بينما ظلام الليل لم يعد أسود.. صار رماديًا..

(الصباح رباح) كما يقولون..

فقط فليصمت هذا الألم في معدتي لحظة..

☆ ☆ ☆

- «يا (ماري الدموية).. أنا قتلت أطفالك!»

☆ ☆ ☆

كان اليوم التالي مزدحمًا.. في البداية أرسل (سليمان) سيارة تسترد أجهزته المعقدة، ثم جلست مع (مختار) أشرح له ما توصلت إليه..

قال في غيظ:

- «طريقة غاية في التعقيد.. لو كان يريد أن يوصل رسالة لجعلها واضحة.. كم من الناس يعرفون طريقة الأرقام هذه؟»

قلت في كبرياء:

- «هو لا يريد أن تصل إلا لمن يعرف هذه الأمور.. باختصار كان ينتظر ساحرًا أو شخصًا يفهم في السحر.. السؤال الحقيقي هو: لماذا يريد منا أن نصل للقنينة وفتحة القبو؟ ما هي الرسالة؟ لن نعرف إلا بالنزول إلى هناك..»

- «أمّا هذا فلا.. لن أدمر القبو كما دمرت العلية..»

عدت أسأله:

- «ما زلنا نبحث عن الإجابة وأرى أنه يجب أن نتصل بقريب (كامل البدراوي) المقيم في كندا.. هل لديك رقم هاتفه؟»

- «لا.. لكن عندي عنوانه.. ربما لو استعملنا البريد السريع أمكننا أن نتلقى ردًا سريعًا..»

هكذا جلسنا نكتب صيغة الرسالة.. كان خط (مختار) أفضل لذا تولى هو الكتابة بينما توليت الإملاء.. سألته في البداية عما إذا كان الفتى يجيد العربيّة، فقال إنّه يتكلمها كأحد المستشرقين لكنه يقرؤها جيدًا.. هكذا رحت أملي عليه:

«الأستاذ الكريم / هاني البدراوي:

«تحية طيبة وبعد..

«في الحقيقة أجد صعوبة في شرح المشكلة التي نواجهها هنا، لكن لنقل إن حياة ابنتي الوحيدة تتوقف على إجابتك بصدق.. نحن نعتقد أنّ هناك سرًا رهيبًا يختفي وراء فيلا عمك بالمعادي، ونرغب بشدة في معرفة أية تفاصيل غابت عنا من قبل، لأن أي تحرك لنا سوف يستند إلى معلوماتك..

«هناك أسئلة مهمّة.. مثلًا لماذا يخفى عمك قنينة صغيرة في العلية؟ لماذا قام بصب الخرسانة في القبو؟ هل بنيت الفيلا فوق شيء آخر مثل مقبرة أو شيء مماثل؟ هل سمعت شيئًا عنها وأنت في الخارج؟

«ما هي ظروف وفاة عمك؟

«مع جزيل الشكر..

«مختار نجيب المحامي»

وتأكدنا من إرسال الخطاب بالبريد السريع.. فقط فلنأمل أن يكون الفتى مهذبًا ويهتم بنا..

الآن حان الوقت كي أعود لداري وأعني بحياتي قليلًا.. أشعر أني في هذه المشكلة منذ قرون.. لكني طلبت من (مختار) عنوان الخادم العجوز (سلامة) الذي أعتقد أنه ما زال حيًّا.. من يعرف أسرار (كامل) أكثر من الطاهي العجوز الذي ظل معه أكثر من ربع قرن؟

- «هذا سهل.. إنّه في (خارصيت).. غربية..»

- «جميل.. أين في (خارصيت)؟»

- «كيف لي أن أعرف؟ اذهب إلى هناك واسأل..»

وهو حل لم يبد لي مقنعًا..

بعد أسبوع وصل طرد مكتنز من كندا.. كان يحوي رسالة مقتضبة ورزمة من الخطابات..

وانفتحت أبواب الجحيم علينا..

☆ ☆ ☆

- ٦ -

كان الخطاب المقتضب من الفتى نفسه، وهو من الطراز الودود المحب للبشر كما هو واضح.

«مختار نجيب:

«لا أعرف الكثير عن الفيلا سوى هذه الخطابات. والدي كان يعتقد أن عمي قد جن وأن علينا أن نقطع علاقتنا به. فقط أوصاني بأن أعود لمصر لأبيع الفيلا بأسرع ما يمكن لأنّه يتشاوم منها. يمكنك الاحتفاظ بالخطابات فهي لا تهمنا في شيء، وأرجو عدم الاتصال بي ثانية لأنني لن أفيدك.

«مهندس: هاني البدراوي»

جن جنون (مختار) من لهجة الخطاب.. هي لا تحوي أية عبارة سب، لكنّها في حد ذاتها سبة.. دعك من حذف أي لقب قبل اسمه كأنه..

- «كأنني ألعب معه في الحارة..»

فتحت المظروف الكبير فوجدت كيسًا من البلاستيك يحوي مجموعة كبيرة من الخطابات كتبها (كامل البدراوي) لأخيه.. واضح أنه كان يمارس نوعًا من العزف المنفرد أو المونولوج المطول، لأن لهجة الخطابات لا توحي بأي تفاعل.. لم يكن هناك من يرد عليه على الإطلاق.. فرع الأسرة المقيم وحده في مصر والذي بدأ يهذي..

يهذي؟ كنت أملك من الخبرة ما يقول لي بوضوح إن هذه الخطابات صادقة.. أعرف أنها صادقة..

هكذا قضينا الساعات نطالع هذه الخطابات.. جو عام من الشؤم والانقباض خيم علينا.. وكان (مختار) يكتفي كل بضع دقائق بأن يصيح:

- «غير معقول..»

فأكتفي بأن أقول:

- «بل هو معقول جدًّا..»

في النهاية هتف (مختار) وهو يلهث ويريح ظهره إلى مقعد المكتب لينظر في السقف:

- «يا للهول!! ما هذا الكابوس الذي اشتريته!»

- «فقط كي لا تزهو عليّ ببراعتك في اقتناص الصفقات.. أنت أيضًا تشرب مقالب لا بأس بها»

ثم بدأت أرتب أفكاري كعادتي:

أولًا: هذا البيت بُني فوق ممر يقود إلى مقبرة اتخذتها تلك الكائنات الحياة.. وعلى الأرجح هناك خادم سابق لها هو الذي بنى هذه الممرات.. أعتقد أن الخرسانة التي صبها (كامل) هي السبب في أن موجات (تسلا) لم تشعر بشيء غريب في القبو..

ثانيًا: علاقة معقدة مشئومة تكونت بين (كامل) وتلك الكائنات..

ثالثًا: هو قارف خطأ مريعًا حينما سرق تلك القنينة وعجز عن إرجاعها..

رابعًا: كانت طريقته في تصحيح الخطأ هي ترك هذه الشفرة لمن يأتون بعده، وقدر أن أحدهم سيقدر على حلّها وهو بالتالي يستحق المعرفة..

خامسًا: يبدو أن الطاقة النفسية لـ (كامل) - ولن أقول شبحه - قلقة وموجودة في هذه الفيلا وهذا يفسر الوجه المشوه الذي رأيته و(رانية) والذي أعطاني معلومات قيمة.. لا بد أنه وجه (كامل) بعد ما تعفن..

سادسًا: بالتالي نحن نعرف يقينًا أن (كامل) يريد من يرجع القنينة لتلك الكائنات.. يعتقد أنّ هذا سيزيح الانتقام عن أهله..

سابعًا: يمكن القول إن ما حدث لـ (رانية) هو نتيجة لتأثير الطاقة النفسية لـ (كامل).. الفتاة حساسة ولم تتحمل هذا الشعور الممض، ولعل الغيبوبة الهستيريّة التي طالت نوع من الفرار من واقع مخيف.. هذا يميز التفاعل الهستيري عامّة في نفس هشة.. ويعني على الأرجح أن إرجاع القنينة سيجعل (رانية) تفيق لأنّه سيزيح عنها ضغطًا نفسيًا هائلًا..

ثامنًا: لن نعرف أبدًا سبب تحرك الأشياء هنا.. أنا أقدر أنها طاقة التحريك عن بعد لدى (رانية) التي تحررت بسبب هذا الضغط النفسي المخيف، بينما قد يرى آخرون أنها نموذج لظاهرة (بولترجايشت)..

كان هذا هو ملخص الموقف.. لا أعرف السبب لكني أشعر براحة بالغة عندما أفعل هذا وعندما تتحول أفكاري المضطربة الذائبة إلى نقاط على الورق.. في أيام الدراسة كنت أضع جداول محكمة جدًّا على الورق تتيح لي مراجعة المنهج عدة مرات، ثم أشعر بالراحة وأنني لست في مأزق كما أتصور.. هكذا احتفل أسبوعين وبعدهما أكتشف أنني في مأزق جديد، ويكون عليّ وضع جدول آخر!

قلت لـ (مختار) وأنا أرتجف:

- «تصوّر أنني في تلك الليلة السوداء كنت سأنزل إلى القبو وحدي! هذه شجاعة الجهل!»

قال في دهشة:

- «أنت كنت ستنزل القبو وحدك؟»

- «هذه قصة طويلة.. لم ينقذني إلا أنك أغلقت باب الفيلا بإحكام من الداخل..»

ثم ساد صمت عميق قلت وأنا أنظر في عيني (مختار):

- «الآن علينا أن نتحرك على ثلاثة محاور.. المحور الأول هو أخذ المدام وابنك و(رانية) إلى بيتك القديم في (إمبابة).. ثمة احتمال لا بأس به أن يخف الضغط النفسي على (رانية) فتفيق.. لو أن الموضوع يتعلق بطاقة نفسية، فهي محدودة بالمكان ويمكن الابتعاد عنها»

فكر قليلًا وراح يداعب قلمًا زنبركيًا بضع دقائق.. تك تتك تك.. ثم قال:

- «الشقة هناك خراب تنعق فيه البوم ومن الصعب أن أفرشها من جديد.. يمكن أن أخذ الفتاة لتقيم عند خالتها وماذا عن المحور الثاني يا أخ (روميل)؟»

- «المحور الثاني هو أن نجد الطاهي.. أعتقد أن عنده معلومات لا بأس بها.. مثلًا كيف مات (كامل)؟ لماذا نرى صورته والعفن يغطيها؟»

- «هذا سهل.. والمحور الثالث؟»

ابتلعت ريقي وقلت:

- «المحور الثالث هو أن نُرجع هذه القنينة إلى أصحابها!»

☆ ☆ ☆

- ٧ -

كل هذا جميل..

لكن هل تتطوع أنت يا عزيزي (رفعت) لهذه المهمة؟!!!!

يا سلام.. ولماذا لا تتطوع أنت؟ لاحظ أن كاحلك سليم والأمر يتعلق بسلامة ابنتك..

إن الخطابات أمامنا وكلمات الرجل لا تقبل اللبس.. تخيل أن تنزل لهم وأنت تتوقع ما قد تجده.. إن هذا يحتاج لأعصاب غير عادية، دعك من أنها مخاطرة لا شك فيها

☆ ☆ ☆

لم تكن رحلتنا إلى (خارصيت) سهلة.. انطلقنا إلى طنطا بسيارة (مختار) ومنها إلى تلك القرية الكبيرة الأقرب إلى مركز..

إلا أننا وصلنا عند الظهيرة.. وقد سألنا عددًا لا بأس به من الأشخاص عن المدعو (سلامة عزب).. هذه من الخصائص المهمة للتغيرات الديموجرافية في القرية المصرية في الماضي كان يكفي أن تسأل أي طفل يلعب كي يأخذك هناك أمّا قرية اليوم فلم يعد أحد يعرف الآخر.. هي كالمدينة أو أسوأ.. هذا أتعبنا كثيرًا جدًّا وفي كلّ مرّة نحكي القصة كاملة.. أعني أننا نبحث عن (سلامة) الذي كان طاهيًا لدى أحد الأعيان السابقين ويدعى (كامل البدراوي)..

فقط بقال شاب ينقل صناديق الورق المقوى المليئة بعلب التبغ تذكر أنّ هناك (سلامة عزب).. كل أسرة (عزب) تسكن في هذا الشارع جوار عامود النور..

كان هذا بيتًا من الطوب الأحمر يدلك على أن أحد أبنائه سافر للعراق في فترة ثرائه.. وكان هناك باب خشبي عملاق دققناه فخرج لنا صبي مذعور.. ثم امرأة مذعورة.. ثم شاب قلق نادى رجلًا متوترًا..

في النهاية اقتادونا إلى غرفة صالون من الطراز الذي ترتفع فيه الأرائك مترين عن الأرض، حتى لتجد أنك تكافح كي لا تسقط على رقبتك.. كانت هناك سبرتاية وعدة شاي جاهزة، وسرعان ما راح الرجل يعد الشاي لنا وهو يحاول فهم ما نريد.. بينما من خارج الغرفة نسمع الأطفال يتصايحون وينادون:

- «سيدي (بكسر السين).. رجلان من مصر يريدانك»

أخيرًا دخل (سلامة) الغرفة..

لم أر في حياتي شيخًا بلغ منه الكبر هذا المبلغ.. كنت أسمع عن أرذل العمر لكني لم أتصوره من قبل.. جلده يشبه ورقة قام إنسان بمضغها ثم بصقها.. كان شبه كفيف يتحسس طريقه بعصا غليظة وقد ألقى علينا السلام ثم تربع على الأرض المغطاة بالحصير.. ورأيت تلك التجاعيد المحيطة بفمه والتي تشبه الأكياس (المدككة).. علامة لا تخفى على الربو المزمن..

- «يقولون إنكم تبحثون عني..»

قال (مختار) في كياسة المحامي الخبير:

- «كنا قلقين عليك وأسعدنا أن نعرف أنك بخير والحمد لله..»

- «نحمدوه..»

ثم ساد صمت ثقيل قطعه بأن صاح ينادي الرجل الذي اتضح أنه ابنه البكر:

- «هات سيجارة يا (زكريا)..»

وهي معجزة أخرى.. أعتقد أنه لو جذب نفسًا واحدًا من الدخان لمات أمامنا.. لكن (زكريا) أخرج لفافة تبغ ووضعها بين شفتيه، ودسها في لهب السبرتاية ثم ناولها لأبيه.. فسحب منها نفسًا نهمًا طويلًا وألقى بالرماد على الحصيرة..

قال (مختار) بنفس الكياسة:

- «هناك رجل من الأعيان كنت تعمل عنده.. اسمه (كامل البدراوي).. أنا الذي ابتعت الفيلا الخاصّة به من ابن أخيه (هاني).. نحن لم نلتق لكني سمعت عنك الكثير.. هناك أسئلة عدة أريد سؤالها..»

بدا على الرجل أنه يفكر.. كنت ترى نحت وجهه يطل من بين خيوط دخان السيجارة كأنه طوطم هندي أشعلت تحته النيران.. ثم قال دون أن ينظر لنا:

- «(كامل البدراوي)؟ هل قلت إن اسمه (كامل البدراوي)؟ لا أعرفه..»

قلت وأنا أشعر بأنني سأجن غيظًا:

- «كنت طاهيًا لديه وقد ظللت مخلصًا له أربعين عامًا أو أكثر.. هو استقر في الفيلا عام ١٩٥٩.. وكنت أنت معه من قبلها.. لا بد أن علاقتكما تجاوزت أربعين عامًا.. وأنت من أشرف على دفنه..»

قال من جديد بذلك الوجه المغلق:

- «لا أعرفه..»

تبادلنا النظرات.. إما أنّ هذا خرف الشيخوخة أو هو قرر أن ينسى هذه الحقبة من حياته.. هكذا نهضنا في كثير من الحرج ووضعنا أكواب الشاي على الصينية، وقال (مختار):

- «إذن اسمح لنا بالرحيل.. فلا بد أنّ هناك سوء فهم.»

☆ ☆ ☆

- ٨ -

قال (زكريا) الابن الذي بدا أقرب للتفاهم:

- «سوف نتناول الغداء معًا.. أنتما قطعتما مشوارًا طويلًا..»

- «شكرًا.. لقد انتهت مهمتنا..»

واتجهنا للباب لنركب السيارة التي جلس فوقها نحو ٣٦٥٩٦٨٥٣ طفلًا.. فصاح بهم (زكريا) والتقط قالب طوب يهدد بقذفه عليهم، من ثم تفرقوا في كل صوب في ثوان.. ثم قال لنا همسًا وهو ينظر إلى الخلف:

- «معذرة.. إنّه أرذل العمر كما تعرفان.. لكن تلك الفترة سيئة بالنسبة له..»

قال (مختار) وهو يضع نظارته الشمسية التي تعطيه سمت رجل المخابرات الخطير:

- «أعتقد أنه لا يريد الكلام.. هو لم ينس شيئًا..»

قال (زكريا) بطريقته الودود الميالة للاعتذار، وبنوع من الهمس المحرج:

- «إنّه مرهق.. أحيانًا يحكى لنا هلاوس عن عفاريت كانت تعيش تحت الفيلا.. يقول إن سيده (كامل) تعفن في ليلة واحدة وإن الطبيب لم يصدّق أنّ هذا كله تم في ليلة.. أحيانا يقول إنّه كان خادمًا لتلك العفاريت وإنه كان يخدر سيده لينزل لها ويلبي طلباتها.. ويقول إن السخرية الكبرى هي إن سيده عندما مات دفن معها! طبعًا نحن نسمع هذا الكلام بأذن ونخرجه من أذن.. هذه سن لا نلوم صاحبها على ما يقول.. فقط أردت أن أعتذر لكما.. ليس أبى فظًا.. فقط هي السن..»

قال (مختار) وهو يبتلع عواطفه:

- «فلترنا نحن في هذه السن لو عشنا.. سنكون كالأطفال الصغار..»

سألت (زكريا) في فضول:

- «هل كان يقول أشياء أخرى عن هذه العفاريت؟»

قال باستمتاع يجمع بين السخرية والشعور بالأهمية:

- «الكثير.. لم يكن يتكلم إلا عنها حتى نصحته أن يتوقف حتى لا تسوء سمعتنا هنا.. مثلًا كان يقول إنّه كان يقابلها وهو يمشي للخلف.. ويقول إنّه لم يكن يرفع عينيه نحوها قط، وبهذا كان يضمن ألا تفتك به..»

ثم حك رأسه وقال:

- «إنِّه يبكي كثيرًا جدًّا.. يقول إنِّه ارتكب من الآثام ما يعجز الخيال عن تصوره، لذا يطلب منا أن ندعو له بالرحمة..»

- «فليرحمنا الله جميعًا..»

وانطلقنا بالسيارة وأنا أحبس أنفاسي بينما (مختار) يدور بها للخلف، و(زكريا) يقف بانتظار رحيلنا وعيناه لا تفارقاننا..

لم أستطع الكلام حتى رأيت معالم الطريق السريع من جديد.. لم أتكلم إلا عند (بركة السبع) أو بعدها.. لم أتحمل أكثر فانفجرت:

- «هل فهمت ما قاله هذا الفتى؟ القصة تتخذ منحنيات لم نتصورها!»

قال (مختار) في برود وهو يراقب الطريق:

- «لن نأخذ كلام هذا العجوز بجديّة.. يا لك من حمار!»

مذهولًا نظرت لأفهم لماذا يسبني فاتضح أنه يشتم سائق سيارة نصف نقل كادت تصطدم بنا من الخلف.. وأخرج رأسه يصيح في الرجل الذي سبقنا الآن:

- «لقد أخذت رقمك! وحياتك سوف أريك من أنا!»

لا وقت لهذه الألعاب يا (مختار).. فيما بعد يُمكنك أن تستعرض نفوذك وبراعتك في الشجار.. الآن دعني أتكلم بلا مقاطعة:

- «أنا بالعكس أعتقد تمامًا أن كلام العجوز حقيقي. يمكننا أن نرتب الأحداث كما يلي.. هذا العجوز كان على علم بهذه الكائنات.. ربما منذ اللحظات التي اشترى فيها (كامل) الأرض وبدأ البناء.. أعتقد أنه كذلك كان يعرف القبر الذي تعيش فيه.. هل هو الذي بنى تلك الفتحة في القبو؟ لست متأكدًا.. لا شك أنه كان دائم التردد على العمال وكوَّن صداقة معهم ولربما استطاع ترتيب صنع هذه الفتحة معهم.. لعله قال إن هذا يسهل نزح المياه أو أي شيء من هذا القبيل.. وعاش العجوز مع سيده في البيت.. السيد وجد المقبرة وتعامل مع الكائنات، وقد حسب، أنه يخدع خادمه، بينما الخادم كان يخدع سيده. أعتقد أن كليهما كان يستعمل أقراص المنوم لينوم الآخر كان موعد (كامل) هو مساء السبت بينما موعد الخادم كان يومًا آخر.. ثم تورط (كامل) في موضوع سرقة القنينة والجلطة.. إلخ.. لا شك أن (سلامة) وجد وقتًا لا بأس به كي يفعل أي شيء يريد في تلك الآونة.. ثم توفي (كامل).. ولو صدقنا القصة لقلنا إنِّه تعفن في ليلة واحدة؛ وهي من علامات الاتصال بالشيطان الشهيرة حسب كتب القرون الوسطى..»

- «وماذا لو لم نصدقها؟»

- «عندها يكون (سلامة) قتل سيده بأمر من تلك الكائنات! في جميع الظروف كان (سلامة) هو المسئول عن دفن سيده الذي لا أقارب له في مصر.. هنا تولى دفنه في المقبرة المشئومة بالذات.. كانت هذه أوامر الكائنات.. لا بد أنهم كانوا يريدون الجثة للتنكيل بها..»

- «كيف يمكنه عمل هذا بينما مقابر الأسرة معروفة؟»

قلت وأنا أجفف عرقي:

- «أنت تتحدّث عن رجل امتلك كل المفاتيح وصارت له كل الصلاحيات.. يمكنه أن يزعم أن الفقيد أوصاه بدفنه في هذه المقبرة بالذات.. يمكنه أن يزعم أن ابن خال عمة الفقيد مدفون هنا، وهما لم يفترقا في طفولتهما ولا يجب أن يفترقا بعد الموت.. أنتم تعرفون أن الفقيد كان يحبّ ابن خال عمته بجنون..»

قال وهو يحك ذقنه في حركة عصبية:

- «لحظة.. أنت تعرف أن (كامل) سد فتحة القبو بالخرسانة.. كيف يتمكّن (سلامة) من النزول؟»

- «من جديد الأمر سهل.. هو يعرف كل شيء عن الممر البديل الذي يبدأ في الحديقة.. الممر الذي كدت أنزل فيه بحماقة.. دعك من أنّه يعرف المقبرة ويمكنه التسلل لها»

ظل يقود وهو متصلب الوجه.. ثم غمغم

- «رباه!»

- «فعلًا.. القصة شنيعة.. لكن أعتقد أن (سلامة) قد تاب بعدها.. قرر أن يتحرر من هذه الكائنات بعد ما رآه حل بسيده.. بالتأكيد لم يتمن أن تتعفن جثته في ليلة واحدة، أو أن يُدفن مع ذات الكائنات الشنيعة.. لهذا تأكد من بيع الفيلا ورحل إلى قريته حيث تحول إلى مريض وسواس قهري.. لا تتملكه إلا فكرة تلك الكائنات والأيام الشنيعة التي عاشها معها.. إن الذعر أفقده كتمانه فراح يتكلم ويتكلم والنتيجة أنه لا أحد يصدّق حرفًا.. تثير رعبه ذكرى تلك الكائنات، ويثير هلعه ما ينتظره من عقاب الله بعد الموت.. إنّه إنسان مسكين.. مسكين..»

وفي صمت ورهبة واصلنا رحلة العودة.

☆ ☆ ☆

- ٩ -

قال (سليمان الخولي):

- «سأنزل أنا!»

كان جالسًا في لوبي الفيلا وقد وضع قدح الشاي على ركبته كعادته عندما يستعمل يديه للكلام.. بدا لي كأن (علي مصطفى مشرفة) عند (مختار) يشرب الشاي..

حككت صنعتي كأنما أنا أستجلب الأفكار، وقلت في هدوء:

- «يا بني.. أنت لا تعرف عن أي شيء تتكلم..»

قال (مختار) وقد اتسعت عيناه:

- «دعه يا (رفعت).. هو ليس طفلًا.. يمكنه أن يحدد خياراته..»

صحت في (مختار) وقد فقدت أعصابي:

- «كف عن لعب دور التاجر الأريب لحظة واحدة! هذا الفتى يتحرك من منطلق حماس الشباب، مع الكثير من الرغبة في الاستشهاد.. إنّه ليس مسئولًا عن أقواله»

قال (سليمان) في ثبات:

- «هذا هو بيت القصيد.. الاستشهاد.. أنت رأيتني يا د. (رفعت) ورأيت كيف ابتلعت علبة من دواء السكر دون أن يرف لي جفن.. لم تكن حياتي تساوي شيئًا وقتها، وبدا لي أن فقدها لا يختلف عن فقد ربع جنيه.. اليوم أنا أعرف قيمة حياتي جيدًا وسوف أضحي بها في المكان الصحيح..»

- «أنت مجنون..»

- «وأنت مصاب بعقدة أبوة نحوي..»

هذا صحيح.. لقد أصاب كبد الحقيقة.. يبدو أنني في السن التي أشتهي فيها أن يكون لي ابن في سنه.. ابن لامع مثله.. هذه هي اللحظة التي أنذرني بقدومها كل الذين نصحوني بالزواج منذ عشرين عامًا.. ستندم بعد فوات الأوان.. ستكون بحاجة لابن يصادقك ثم يغمض عينيك ويواريك القبر عندما تموت بإذن الله.. كنت أقول لهم إن أولاد الحلال كثير.. بالتأكيد لن يلقوا بجثتي في أقرب مصرف..

لست نادمًا ولا ألوم أحدًا على أي شيء.. فقط أنا أحب هذا الفتى..

صاح (مختار) وهو يثب من مكانه:

- «كفى يا (رفعت).. هذا الفتى متحمس وسوف ينجح أهنئك يا بني»

وانقض على الفتى فطار القدح في الهواء ليستقر على السجادة وسروال الفتى..

قلت في غيظ:

«لقد بدأ المرح فعلًا..»

☆ ☆ ☆

كنا الآن نقف في الحديقة.. يبدو أنني كنت متفائلًا بصدد ذلك الكلب الذي اعتقدت أنه لن يشعر بي في تلك الليلة السوداء.. لقد شعر بي فراح ينبح ويتملص وينزلق على الحبل الذي يسمح له بالحركة في خط واحد.. لو خرجت في تلك الليلة لفضحني..

كنا الآن في الثامنة مساء السبت.. لماذا السبت؟ لأن كل شيء حدث هنا حدث في مساء السبت.. كانت تلك هي ليلة اللقاء بين (كامل) و(أفسيس) ومن معه.. أعتقد أنّ هناك سرًا في ليلة السبت يهم هؤلاء.. على كل حال، السبت مهم في طقوس السحر في كل مكان..

يقف (سليمان) ممسكًا الكشاف وفي يده القنينة.. هناك في الحديقة جوار جدار الفيلا عند النقطة التي رأيناها على الخارطة.. البقعة رقم ٣٣..

عندما أزحنا العشب قليلًا رأيت تلك الفتحة.. فتحة تذكرني بنوافذ هؤلاء الذين يسكنون تحت الأرض.. يُمكنك أن تلقى نظرة لو نمت على بطنك وألصقت وجهك بالأرض..

أزحنا العشب أكثر فرأينا أنها مغلقة بقضبان.. في كل مكان تجد هذه القضبان التي تبعث التشاؤم والرهبة.. كأنك تحبس ووحوشًا بالداخل..

والآن عليك أن تدخل لها!

مد (سليمان) يده لينزع القضبان فاستجابت بسهولة.. ثغر الفتحة القبيحة فاغر ينتظر من يثب فيه.. وبالداخل الظلام دامس.. كما توقعنا..

قلت دون أن أنتظر تعليقًا:

- «في الخارج يجدون الكثير من الثعابين في هذه الأنفاق..»

صاح (مختار) في عصبية:

- «يا أخي لا توتره! الرجل رابط الجأش متماسك وأنت تدس السم في كل كلمة!»

قلت لـ (سليمان) وأنا أربت على كتفه:

- «سوف تتبع النصائح الأولية التي سمعناها.. بمجرد أن تجد نفسك في البئر سوف تتحرك بظهرك.. تمشي للخلف.. لا ترفع عينك أبدًا ولا ترَ أي شيء.. هذا يذكرني بـ (أورفيوس Orpheus) في الأساطير الإغريقية عندما عبر إلى (هيدز Hades) كي يسترد زوجته الميتة، وافق (بلوتو) لكنه اشترط عليه ألا يلتفت للخلف أبدًا.. كانت غلطته عندما دنا من عالم الأحياء أنه التفت للخلف كي يتأكد من أن زوجته معه.. هكذا فقدها للأبد.. فقط أترك القنينة في القبر ثم عد من حيث جئت.. إن كانت هذه النصائح قد أجدت مع (سلامة) فلسوف تجدي معك..»

شعرت به وقد بدأ يتوتر.. العرق ينمو على جبينه.. يُمكنك أن تظل شجاعًا حتى هذه اللحظة عندما تدرك أنك ستنزل إلى قبر وحدك كي تقابل شياطين.. هنا فقط تتساءل: هل تسرعت؟

قلت وأنا أتراجع للخلف:

- «تذكر أنك ستعبر ممرًا لم يقطعه أحد منذ زمن أعتقد أن (سلامة) فقط عبره قبل أن يغادر الفيلا.. كن حذرًا.. اتل ما تحفظه من الآيات القرآنية»

هذا طبيعي..

هز رأسه ثم ركع على ركبتيه.. وبسهولة حشر جسده النحيل في الفتحة.. وبعد ثوان كان قد توارى.. ابتلعته النقطة ٣٣..

☆ ☆ ☆

- «يا (ماري الدموية).. أنا قتلت أطفالك!»

☆ ☆ ☆

تمضي الحيـــاة وكلنـــا فـي دربهـــا

ونـغيب عنها.. والخـطـى لا تنـدثـرْ

مــن قبلنـــا يمشي الألـى جاءوا بنـــا

مــن بعـــدنـــا يفنى مــلايين البـــشرْ

☆ ☆ ☆

نصف ساعة قد مرّت ونحن نقف في الظلام.

عواء الكلب.. ليت هذا الوغد يخرس قليلًا.. هذا الـ.. هذا الكلب.. كيف تسبه وهو بالفعل كلب؟

إنه يوتر أعصابي.. بالفعل يوترها.. لا أعرف لماذا ينبح؟ هل من أجلي أم من أجل ما يحدث بالداخل؟ من أجل شيء لا نعرفه؟ ولو كان كلبًا حقيقيًا كتلك الكلاب المحترمة في السينما أعفانا من هذه المهمة.. كان بوسعه أن يحمل القنينة بنفسه داخل النفق ويتركها..

قال (مختار):

- «وبعد؟»

- «وبعد ماذا؟»

- «تأخر الولد..»

كنت أخشى أن يقول هذا، فهذا يجعل الأمر رسميًا بينما لو لم يقلها لأقنعت نفسي أنني هستيري متوتر.. الآن نحن في مأزق.. إما أن يدخل واحد آخر ونجازف بأن نتسرب الواحد تلو الآخر في هذا الثقب، أو نطلب عونًا.. لا أدري..

رحت أروح وأجيء في قلق..

لو صدقنا خطابات (كامل) وأنها لم تكن هلاوس مجنون، لكان الفتى الآن يواجه أشنع مشاهد يمكن تخيلها.. أرجو أن يتذكر نصيحتي ولا ينظر لشيءٍ.. هذا يحفظ عليه سلامه العقلي على الأقل..

فجأة هتف (مختار) وكان لهتافه طابع النصر..

وعند قدمي رأيت يدي (سليمان) تبرزان.. ثم وجهه.. كان قذرًا للغاية.. يتصبب عرقًا.. لكنه كان سليمًا.. ممتقع الوجه.. لكنه حي..

جذبناه ليخرج ثم جررناه بعيدًا عن الفتحة..

جلس على العشب يلتقط أنفاسه ويلهث.. وكان في حال غير طبيعية.. يركل ويتلوى ويلهث بلا انقطاع حتى حسبت بعقله الظنون.. رفعت الكم عن ساعده وتحسست نبضه.. لا يبدو أنّ هناك ما يقلق.. لديه الكثير من الأدرينالين لا أكثر..

في النهاية سأله (مختار) وقد بدأ يهدأ:

- «هل تركت القنينة؟»

هزّ رأسه أن نعم..

- «وهل رأيت شيئًا؟»

هزّ رأسه أن لا.. ثم تكلّم بصوت مبحوح:

- «شعرت بوجود شيء أو أشياء لكني لم أرفع رأسي قط رائحة غريبة هي مزيج من اللحم العفن والكبريت.. كنت أخشى أن أضل طريقي أخشى الا أعود.. لكن لم يحدث شيء.. أسوأ ما حدث لي هو الرعب.. كان الموقف مخيفًا بحق..»

لا ألومه على ذلك..

لقد انتهينا وأرجعنا القنينة التي سرقها (كامل) يومًا ما.. فهل انتهت المشكلة؟

هل تفيق (رانية) من غيبوبتها؟

☆ ☆ ☆

جرس الهاتف في اللوبي لا يكف عن الرنين..

اتجه (مختار) ورفع السماعة.. أصغى لبعض الوقت ثم قال:

- «لا.. كنا في الحديقة.. نعم.. نعم.. ماذا؟ سآتي حالًا!!»

ثم هتف بنا من قبل أن يضع السماعة:

- «(رانية) فتحت عينيها وتكلمت!.. (رانية) أفاقت من الغيبوبة!!»

☆ ☆ ☆

- ١٠ -

كانت المفاجأة مذهلة.. كنت أتوقع شيئًا كهذا لكن ليس بهذه السرعة.. كما قلت أعتقد أنني سيئ الطالع ولا شيء يحدث معي بسهولة أبدًا، دعك من أنني لا أعتقد أن الحياة (بابا نويل) مهمته أن يأتي بالهدايا لنا.. للدقة هي ليست خطرًا داهمًا على طريقة (كافكا Kafka) و(أبو العلاء المعري)، لكنّها كذلك ليست (بابا نويل)..

كان الأمر بالنسبة لي واضحًا تمامًا.. وقد أبديت شكوكي على الفور:

- «يجب أنها نستوثق من أنها لم تتغير وأنها ليست في قبضة استحواذ ما..»

صاح (مختار) في حنق:

- «لو أنك تكف لحظة واحدة عن لعب دور غراب البين، فلربما وجدت أن الحياة تستحق..»

هكذا اندسسنا في سيارته وانطلقنا نحو (حدائق الزيتون) حيث تقيم خالة الفتاة..

برغم المشوار الساخن لم نتبادل كلمة واحدة طيلة الطريق..

هذا البيت عتيق يوحي بالألفة.. أعترف أن فيلا المعادي تلك لا تريحني، وقد قلت لنفسي إن سبب هذا هو عدم التعود، لكني بالفعل شعرت براحة في ذلك الجو الحميم.. لقد صارت الفيلا كائنًا مشئومًا كئيبًا.. يبدو أنني سأقتنع في النهاية بمنطق أفلام (توجو مزراحي) القديمة حينما يثري الفقير ثم يكتشف أن حياة الفقر كانت أجمل وفي النهاية يعود لبيته القديم!.. هذا هو منطق أفلام عصر الباشوات الذي يقول إن الثراء سيئ وقبيح، ومن الأفضل أن نتجنبه ونتركه للباشوات.. دعهم يتعذبوا ويتألموا في ثرائهم ولننعم نحن بالفول والطعمية!.. الغريب أنني لم أعد أجد هذا المنطق سخيفًا في هذه اللحظة بالذات.. الأثرياء يعيشون في بيوت تسكن تحتها الشياطين فلا تحسدوهم يا سادة!

نسيت أن أقول إننا جلبنا (سليمان) معنا.. بشكل ما هو صار من الأسرة.. ولم يجرؤ أحد على طرده بدعوى أن (هذه أمور عائلية).. دعك من أنني أنا نفسي لست من الأسرة، والمنطق الذي يسمح بطرده يسمح بطردي!!

كان مذهولًا صموتًا ولا ألومه.. أعتقد أنه جاء معنا لأنّه أوهن من أن يعترض..

وفي الداخل كان المنظر حميمًا فعلًا.. الجارات ملتفات والأم أشرق وجهها لدرجة أنها لم تشتم الطفل منذ ربع ساعة كاملة..

في الفراش تجلس (رانية) كملكة متوجة.. شاحبة هزيلة لكنّها بخير.. وكانت تبتسم بتلك الطريقة الواهنة الفخور التي تبتسم بها الأم التي ولدت توءمين منذ نصف ساعة.. فقط لم يكن التوءمان معها في الفراش.. طبعًا شعرها مبعثر وآثار الشريط اللاصق على قنطرة أنفها لكن حمامًا دافئًا سيزيل كل شيء. وكما يقولون في العامية: «ما دام العود موجود.. اللحم يجود» المهم أن تكون هي نفسها حية.

فيما بعد.. فيما بعد يمكنني التأكد من أن دمها ليس أخضر وأن عينيها لا تلمعان في الظلام أو أنها لا تميل للحم النيئ.. هذه أشياء يمكن معرفتها فيما بعد.. ليس الآن..

انتحيت بالممرضة وسألتها عما حدث بالضبط، فقالت وعيناها دامعتان تأثرًا:

- «لا شيء.. فجأة سعلت ثم مدت يدها تنتزع أنبوب (رايل) من أنفها فساعدتها.. وإذا بها تجلس.. بكت لدقائق على كتفي ثم أفاقت تمامًا..»

ثم تمخطت مما دلني على أنها متأثرة فعلًا..

نظرت إلى الفتى (سليمان).. لو كان هذا صحيحًا فإن هناك شخصًا واحدًا له الفضل بعد الله تعالى.. وهذا الشخص مهمل الآن لا يشعر به أحد..

كان الحفل العائلي صاخبًا.. ألف (طانط) وألف (عمو) من الذين يأتون من تحت الأرض وعرفت أن الأمر جد خطير عندما تزايد غاز ثاني أكسيد الكربون عدوي اللدود.. عندما أموت لن يتركوني وشأني.. سيحضرون ثلاثة من هؤلاء القوم يدفنونهم فوقي..

وأخيرًا جاء (مختار) يقتاد امرأة بدينة تضحك حتى أوشكت أذناها أن تتمزقا وقال لي:

- «مفاجأة يا (رفعت)! خمن من جاء ليرى (رانية)؟»

هززت رأسي في بلاهة فقال:

- «مدام (محفوظة)!! (محفوظة الفقي)! كنت أعرف أنك ستفرح!»

طبعًا من الواضح أنني أعرفها وكنت أتلوى في الوديان المقفرة وأعوي مناديًا اسمها.. يجب أن أفر.. يجب..

قلت لـ (سليمان) الذي يقف كالأبله في ركن:

- «أعتقد أنّ هذه القصة قد انتهت على خير.. تعال نفر من هنا قبل أن يعرفني على مدام (ليلى الدلجموني)..»

قال (سليمان) من دون أن يبتسم:

- «وحياتك موجودة! هناك واحدة بهذا الاسم فعلًا..»

- «إذن تعال نخرج للهواء الطلق..»

وفي الشارع المظلم مشينا.. طبعًا لا مجال لكي نطلب من (مختار) أن يرجعنا لذا كان علينا أن نجد طريقة للعودة إلى (المعادي) حيث تركت سيارتي.. كيف؟ تذكر أنّ هذا عصر ما قبل مترو الأنفاق..

مشينا صامتين وكل منا يضع خطة العودة على طريقته، وفجأة سمعنا سيارة قادمة من الخلف وارتمى ظلانا على الأرض طويلين مخيفين.. ثم سمعت صوت (مختار) يصيح:

- «سأوصلكما يا (رفعت).. لم أنسكما!»

ممتنين ركبنا معه، وانطلق بالسيارة وهو يتحدث في حرارة عن الحل الموفق وعن هذه الليلة التي لن ينساها ما عاش تحدث كذلك عن فضل (سليمان) عليه.. كان يحسبه مجرد أحمق آخر مثل.. مثل.. ثم ابتلع كلامه وواصل القيادة في صمت وبسرعة جنونية..

قلت له:

- «على كل حال يمكننا أن نقول بلا خوف إن الفيلا خالية من الأشباح.. هذا هو Reductio ad absurdum كما قلت لك من قبل..»

قال في غباء:

- «عم تتحدّث؟ لا أذكر هذا المصطلح..»

قال (سليمان) وهو ينظر خارج النافذة إلى معالم الطريق:

- «Reductio ad absurdum.. أي البرهنة على غباء الفرضيات السابقة..»

قال (مختار) وهو يمط شفته في استهتار:

- «لا أبالي بهذه الرطانة.. ما يهمني أن البنت بخير ولسوف أتخلص من الفيلا مسكونة أم لا.. لقد اقتنعت»

مررنا بمحل عاديات وتحف صغير راق فأوقف السيارة عنده، وهتف:

- «سأشتري لك هدية على ذوقي..»

حاول الفتى أن يتملص لكن (مختار) كان مصرًّا كالخرتيت.. لا وقت لهذا الكلام.. نريد العودة إلى ديارنا بالله عليك لكنه أصر على هذا..

قلت للفتى باسمًا:

- «لا تحاول مع الأستاذ (مختار).. إلا لو كان بوسعك أن تقاوم الفيضانات والأعاصير.. دعك من أنّه نصر عظيم أن تنجح في جعله يخرج مالًا من حافظته..»

ودخلنا المحل.. لم يكن الفتى مهتمًا بأي شيء من هذه الأشياء.. لا يريد مزهرية أو مروحة صينية أو جرة يونانية أو مطفأة تبغ أو تمثالًا من عاج.. لقد بدأ الليلة بالنزول إلى قبر به شياطين، واستكملها بمدام (ليلى الدلجموني).. ثم أنهاها بالوقوع في قبضة (مختار)..

وقفت أشاهد المعروضات.. كانت هناك لافتة كبيرة كتب عليها:

Caveat emptor

الحقيقة أنها عبارة جديدة على.. هل هي بالإيطالية؟ سألت بائعة شاحبة هناك عن معناها فهزت كتفيها وقالت:

- «لا أعرف.. الخواجة صاحب المحل علقها..»

هنا قال (سليمان) وقد سمع محادثتنا حيث وقف في ركن المحل:

- «إنها باللاتينية.. معناها أن الشراء في النهاية مسئولية المشتري.. حرفيًا معناها (فليحترس المشتري)..»

في النهاية عاد (مختار) وهو يسب ويلعن وطلب منا أن نلحق به:

- «هؤلاء لصوص.. كان الأكرم لهم أن يخرجوا على الناس شاهرين السيوف بدلًا من عرض مطفأة تبغ بـ ٣٥٠ جنيهًا..»

تبادلت والفتى نظرة ذات معنى وعدنا للسيارة..

أخيرًا وصلنا إلى الفيلا.. كان (سليمان) قلقًا يرغب في العودة لداره بسرعة، لهذا ودعت (مختار).. ولاحظت في خبث أنه خائف من المبيت في الفيلا وحده.. هذا يسعدني بالطبع ويعطيني بهجة سادية وحشية.. قلت له بلهجة عابرة وأنا أنصرف مع الفتى:

- «عندما تسمع خطوات على الدرج ليلًا فلا تغادر غرفتك.. إن هذه الكائنات لن تتوقف أمام الجدران.. أريد أن تكون حذرًا وأن تتذكر أي هول يقبع تحت الفيلا..»

قال لي في حقد:

- «سأتذكر..»

- «هذا جميل.. إن القبور تعجّ بالذين لم يتذكروا.. أقترح كذلك ألا تنظر في أية مرآة وأنت وحدك.. ذات مرة عرفت امرأة كانت....»

- «كفى!!»

قلت قبل أن أرحل غير مأسوف عليّ:

- «سوف أتصل بك هاتفيًا.. ثمّة أمور يجب أن نتكلم عنها باستفاضة..»

☆ ☆ ☆

- ١١ -

مساء السبت التالي..

لقد أمضى (مختار) أسبوعًا رهيبًا بين المبيت في الفيلا أو عند أخيه.. لكن (رانية) تتحسن باستمرار..

أجلس مع (مختار) في لوبي الفيلا.. ضوء الأباجورة هو الضوء الوحيد في الغرفة، والنافذة مفتوحة.. هو مغتاظ مني يريد نسف رأسي وأنا أحاول إقناعه بالعكس..

- «أنت مغفل يا (رفعت).. المشكلة أنك تعتقد أن التشاؤم يجعلك تبدو أكثر ذكاء!»

قلت له في صبر:

- «أؤكد لك أنني على حق هذه الأشياء لا تفوتني بعد كل هذه التجارب.. الفتى لم يدرس اللاتينية في حياته.. أنا متأكد من هذا.. دعك من أنّه لم يفهم جملًا لاتينية بسيطة جاءت على لساني في بداية معرفتي به.. الأسبوع الماضي عاد من القبر وهو يعرف اللاتينية بشكل لا بأس به.. هل يذكرك هذا بواحد آخر؟ واحد وجد نفسه يجيد اللاتينية فجأة؟ يقولون إن عليك أن تشك في أي شخص يجيد اللاتينية باستثناء القس الكاثوليكي.. إن اللاتينية مهمّة لقراءة كتب السحر كما تعلم»

صاح في عصبية وهو يضرب الأريكة بقبضته:

- «وهل هذا كاف؟»

- «والجرح في ساعده؟ لقد كشفت عن ساعده لدى عودته لأقيس له النبض فوجدت ذلك الجرح.. هذا الفتى قابل الكائنات وأخذت منه عهد الدم بالضبط كما حدث مع (كامل).. وهو خادمها الآن.. ثم ماذا عن الكلب؟»

الكلب الذي مات مسمومًا منذ ثلاثة أيام.. لم يعرف (مختار) هذا إلا في الصباح عندما خرج للحديقة فوجد البائس ميتًا وجواره تناثرت قطع من اللحم المفروم.. (مختار) اعتقد أنّ هذا لص.. لكني كنت أملك احتمالات أخرى.. هناك شخص عرف كم أن الكلب مزعج.. وكم أن الكلب سيعوق نزوله من النقطة ٣٣...

- «ليس لديك دليل على أنه فعل هذا..»

- «سوف يأتيك الدليل حالًا..»

ونظرت إلى ساعتي.. أعتقد أن الوقت قد حان.. ثلاثة أكواب شاي وقدحان من القهوة.. وعشر شعرات انتزعها (مختار) من شاربه.. لا بد أنّ هذا الوقت كاف..

فجأة دوى صوت جرس الإنذار...

إن (عزام) الكهربائي قد أدى عمله ببراعة.. لقد أقسم لي بالطلاق - كعادته في كل شيء - أن الجرس يدق بمجرد أن يحاول أحدهم فتح الباب الحديدي.. يبدو أن جسد المتسلل يغلق دائرة ما، من ثم يدق الجرس..

ليس عملًا رديئًا بالنسبة لساعتين لا أكثر..

صحت في (مختار) أن يركض ليلحق بالمتسلل فأنا لن أستطيع مع حالة قلبي وصدري وكاحلي. هكذا اندفع إلى الخارج بثلاث وثبات.. بعد ثوان سمعت صوت عراك وسمعت رجلًا يصرخ.. ثم جسدًا يسقط على الأرض..

كنت قد وصلت إلى الحديقة.. لأرى ثلاثة أجساد في الظلام.. ثلاثة؟ الأول كان (مختار).. الثاني كان الفتى النحيل.. الثالث كان شيئًا مقيدًا لا يتحرك..

دنوت أكثر وأشعلت قداحتي لأرى..

رأيت (مختار) يرقد فوق (سليمان) في وضع تثبيت الكتفين الشهير، وهذا الأخير يئن محاولًا الفرار.. طبعًا كان (مختار) أقوى وأكثر غضبًا لذا كانت نتيجة الصراع محسومة.. الجسد الثالث كان لفتاة مراهقة في الثالثة عشرة من عمرها.. مقيدة القدمين والساقين ومكممة.. لماذا اختارها مراهقة؟ طبعًا ليكون وزنها خفيفًا..

لقد اختطفها (سليمان) وحملها حملًا إلى الحديقة، ويبدو أنه كان ينوي النزول بها إلى البئر فالمقبرة.. لا بد أن (أفسيس) قد اشتاق دماء العذارى بعد كل هذه الأعوام.. بالطبع لم يكن (سليمان) راغبًا في خطف فتاة تحطم سلسلة ظهره أو تسبب موته بالذبحة الصدرية..

قلت وأنا أقف فوق مشهد المصارعة المحبب هذا:

- «اسمع يا (سليمان).. أنت تعرف أنني أحبك لا ترغمنا على إيذائك.. فلندخل إلى الفيلا ونتكلم رجلًا لرجل..»

قاوم للحظة ثم هدأ وبدأ يبكي.. يبكي بكاء يمزق نياط القلب كأنه كلب جريح.. لقد فقد السيطرة على عضلاته لذا أخلى (مختار) سبيله..

أخرجت قداحتي وأحرقت الحبال التي تقيد الفتاة ثم انتزعت الشريط اللاصق عن فمها.. نهضت وهي مذهولة مذعورة لا تصدق ما يحدث.. فقلت لها:

- «أنت لا تعرفين أي شيء على الإطلاق عن هذه القصة.. هل تعرفين هذا الفتى؟»

نظرت لنا وهزت رأسها في ذعر، فقلت:

- «يُمكنك أن ترحلي فلن يضايقك أحد.. لكن أريد أن تتذكري أن أية كلمة ستكون خطرًا داهمًا عليك.. هذا الفتى يتصل بالشياطين وهي قادرة على الانتقام منك في أية لحظة.. أقسم بالله العظيم أنني لا أخدعك!»

ثم أشرت نحو باب الحديقة وصحت:

- «هيا!!!»

لم تكذب خبرًا وانطلقت تركض نحو الباب، وسرعان ما ابتلعها الظلام.. لا أدري إن كانت ستتكلم أم لا، لكن أحسبني كنت مقنعًا مرعبًا بما يكفي.. إنها طفلة والأطفال لا يتكلمون إذا استبد بهم الخوف.. يجب ألا تتكلم وإلا وقع (مختار) في مأزق لأنهّا تعرف عنوانه بالتأكيد..

سألت (سليمان) الباكي:

- «من أين جئت بها؟»

قال وهو يتمخط:

- «ففففت! من الشارع الخلفي.. لم يكن هناك أحد في الشارع ويبدو أنها كانت تزور صديقة لها، وكنت أحمل في جيبي الحبل والشريط اللاصق بحثًا عن ضحية.. ضربتها على مؤخرة عنقها حتى فقدت الوعي ثم قيدتها وحملتها إلى هنا..»

- «لقد صرت رشيق الحركة.. تحولت إلى رجل عصابات يجيد اللاتينية في أسبوع واحد.. لقد جاء دور واحد آخر كي يزور المقبرة ليلة السبت حاملًا التصبيرة لـ (أفسيس)..»

قال وهو يداري وجهه في كمه:

- «أنت لا تفهم هول ما رأيت! يُمكنك أن تجلس هنا وتتكلم عن الشجاعة والتماسك وقوة الإرادة، بينما الوضع تحت.. ليتني ما نزلت.. ليتني ما نزلت! إنهم يستطيعون الحصول على ما يريدون عندما يريدون.. سوف ينتقمون من أسرتي وأولاد أولادي إن لم ألب عهد الدم!»

والمشكلة هي أنني لم أستطع أن أتهمه بالحمق...

☆ ☆ ☆

- ١٢ -

أمضينا الليل ساهرين..

لم يحك لنا (سليمان) أي شيء.. ظل صامتًا.. لم يضف أية تفاصيل إلى ما قاله لنا.. فقط عرفنا أن أسلوب (أورفيوس) هذا فاشل تمامًا.. لقد كانوا بحاجة لخادم جديد وقد وجدوا واحدًا...

أثار قلقي صمته هذا.. وفيما بعد عرفت أنني كنت محقًا..

كنا قد رتبنا كل شيء.. أكثر المسئولية يقع على (مختار).. لم يعد هناك مجال للمزاح.. إن هذه الكائنات قوية جدًّا.. أعتقد أن الحل الوحيد هو هدم المقبرة التي تتخذها مسكنًا لها.. هذا لن يقضي عليها لكنه سيبعثر شملها، ولسوف تضطر إلى العثور على ملجأ آخر..

قلت لـ (مختار):

- «لدينا خيط مهم.. هو أن (كامل البدراوي) دفن في ذلك القبر.. سوف نعرف المكان من (سلامة) الطاهي أو من أي واحد يكون قد حضر الجنازة من باب الثواب نحن نعرف أن المقبرة مهجورة.. أي أنها لا تستعمل للدفن وليس هناك من يحتج على هدمها.. آخر من دفن فيها (كامل) ولن يسأل أحد عن رفاته»

- «مذكرات (كامل) تؤكد وجود آخرين..»

- «أعتقد أنهم لم يدفنوا بشكل رسمي.. ربما دفنهم خدم آخرون.. والآن أنت تزعم أنك صاحب نفوذ.. نريد أن تستعمل نفوذك لهدم هذه المقبرة المهجورة التي لا يعرف أحد من دفن فيها.. نريد تسويتها بالأرض..»

حك رأسه وغمغم:

- «هذا عسير..»

- «هو عسير لكن يجب أن يتم..»

ثم أضفت في تحفظ:

- «الحل الثاني هو عمل هذا بشكل غير قانوني.. أي أن ترسل من يتسللون لهدم المقبرة في ظلام الليل.. أرجو أن نستنفد الحلول القانونية أولًا.. أنا أعرف أنك قادر على ذلك يا (مختار).. فأنت محام وتعرف الدهاليز القانونية، كما أنك خبرت الحياة جيدًا..»

نظر لي (سليمان) بعينية القلقتين وتساءل:

- «هل هدم بيت الكائنات يحميني منها؟ أم أنّ هذا سيشعل جنونها؟»

قلت في صبر:

- «لا أضمن شيئًا يا بني.. فقط لا أرى حلًا آخر..»

كانت هذه هي الإجابة الخطأ.. لقد أطرق برأسه وحسبته يستشعر القلق، لكنه في الحقيقة كان يستشعر اليأس.. فاتني أن ألمح ذلك التعبير على وجهه.. تعبير الفأر في مصيدة.. تعبير المحكوم عليه الواقف أمام جدار بينما دقات الطبول تدنو من نهايتها..

ساد الصمت..

بعد قليل أعلن (مختار) أنه سيفعل ما بوسعه ليجد المقبرة.. وما بوسعه كي يهدمها.. وهكذا افترقنا..

قلت لـ (سليمان) قبل أن أتركه:

- «أنت عبقري وقوي الإرادة.. أعرف أنك ستنتصر لن تسمح لهذه الكائنات بأن تلوث روحك.. عد لدارك وفكر في كلماتي.. أعدك أنها لن تكون موجودة ليلة السبت القادمة.. أتحدث عن الكائنات لا عن كلماتي طبعًا»

وقتها لم أكن أعرف أن (سليمان) قرر أنّ هذا هو السبت الأخير له، ولم يكن يصغي لحرف مما قلت..

لقد عاد ذلك الفتى اليائس القديم الذي ابتلع أقراص علاج السكر في الكافتيريا.. عاد ليظهر في الصورة.. عاد بقوّة.. كان عليّ أن أستنتج هذا وأن أمضى كل دقيقة مع (سليمان). لقد تصرفت بحماقة كالعادة وافترضت أنه سينتصر لمجرد أنه شديد الذكاء.. من جديد أكتشف أن العبقرية لا تدلّ على الاستقرار النفسي.. على الأرجح تدلّ على العكس..

أعتقد أن الباب السحري الذي يقوده إلى الفرار لم ينغلق قط.. نحن حسبناه انغلق، لكنه ظل مواربًا ينتظر الفرصة..

وقد وجدها....

☆ ☆ ☆

- «هذا الفتى يتحرك من منطلق حماس الشباب، مع الكثير من الرغبة في الاستشهاد.. إنِّه ليس مسئولًا عن أقواله»

☆ ☆ ☆

كنت جالسًا مع (مختار) في ذلك اليوم نتساءل عن سبب اختفاء (سليمان).. لماذا لم يعد ليقابلنا.. الحق أنني لم أعد أثق به ولم أعد مرتاحًا لاطلاعه على خططنا.. لقد صار خادمهم وأعطاهم عهده.. ولعل الذعر أقوى تأثيرًا في النفس من دواعي الصداقة.. لكني قدرت أنه سيعود كما كان إذا زالت الكائنات...

على الأقل نعرف أنه لم يعد للمقبرة.. المقبرة التي لم يعد لها مدخل إلا من الحديقة.. وهذا سوف يُطلق عدة أجراس..

فجأة صرخ (مختار) وهو ينظر من النافذة:

- «ما هذا؟».

نهضت لأنظر معه فرأيت منظرًا عجيبًا..

كان هناك دخان أخضر عجيب يخرج من الحديقة.. بالتحديد في النقطة ٣٣.. دخان له شكل متغير غير مستقر.. تارة هو دخان، وتارة تخدع عينك فتحسبها أجسادا تصطرع.. ثم تتبدل الرؤى فترى دوامة متسارعة.. وفجأة بدأ جرس الإنذار يدق.. يدق بلا انقطاع..

وفجأة سمعنا الدفقات.. رأينا مياه حمام السباحة تغور ثم ترتفع.. تغور ثم ترتفع.. وبدا كأن للماء مخالب تمتد ثلاثة أمتار في الهواء ثم تعود لتسكن.. ثم تتخذ شكل الدخان أو البركان.. ومن جديد ينبعث الدخان الأخضر من سطح المياه.. إنّه ينتشر كالوباء فوق عشب الحديقة..

الأرض ترتج تحت أقدامنا في ضربات متوالية.. ضربة.. ضربة.. ضربة..

هتف (مختار) من جديد:

- «ماذا يحدث؟»

قلت وأنا أتماسك:

- «إنهم يغادرون.. لقد تم الأمر!»

قال هامسًا:

- «نعم.. لا بد أن المقبرة تهدم في هذه اللحظة بالذات! إنهم يخرجون من المنافذ الأخرى..»

ووقفنا محاولين التماسك.. إما أن ينتهي كل شيء بالنسبة لهم أو ينتهي بالنسبة لنا..

رائحة الكبريت هذه.. رائحة الكبريت!

البيت الذي ظلت فيه تلك الكائنات نحو مائة عام قد سوي بالأرض.. لا بد أن (بلدوزر) ثقيلًا يتوغل الآن في تلك البقعة الرهيبة.. لا بد أن عشرة عمال يحفرون بمعاولهم هناك.. لا بد أن أكياس الخرسانة تصب الآن..

همس (مختار) من بين شفتيه وهو يراقب الدخان الذي يتخذ شكل وحوش متصارعة أو شكل غيلان أو شكل غابة خضراء أو شكل.. شكل دخان:

- «برغم هذا سوف أتخلص من هذه الفيلا..»

- «نصحتك كثيرًا أن تفعل..»

- «أنا خائف..»

- «لن تخاف أبدًا كما أخاف أنا.. اتل آية الكرسي وفكر في (رانية) والآخرين..»

ومرت دقائق من التوتر.. كان شعور التقزز الذي انتابني بلا سبب يتلاشى تدريجيًا...

بعدها همست وأنا خائر القوى:

- «أعتقد أن الأمور تهدأ.. إنهم قد رحلوا فعلًا..»

- «إلى أين؟»

- «إلى حيث تذهب الشياطين التي أزيل مسكنها من على وجه البسيطة..»

☆ ☆ ☆

سوف يصل عمال نقل الأثاث صباحًا..

في ليلة المغادرة أصرت (رانية) على أن تمضي ليلتها الأخيرة في الفيلا.. كانت تريد أن تودع عهد الرعب.. وكان (مختار) قد أرغمني على المبيت في الفيلا معهم لأنّه يخشى أن يحدث شيء هذه الليلة بالذات..

لم أعرف أنها في الواحدة صباحًا - وقد نام الجميع - قامت بأغرب شيء يمكن تخيّله بعد هذه الأحداث.. لقد جلبت المرآة والشمعة وانتظرت حتى أظلمت الأنوار، ثم نزلت لأسفل الدرج ومن جديد جربت لعبة (ماري الدموية) التي تريها وجه عريس المستقبل..

كانت تريد أن تتأكد من أن الوجه الذي رأته في المرآة قد اختفى حقًّا..

في الثانية صباحًا دقت باب غرفتي فنهضت لأفتح..

وجدتها تلبس قميص النوم وتمسك بالشمعة والمرآة.. رسالة واضحة عما كانت تقوم به.. صحت في جزع:

- «أنت مخبولة فعلًا.. لو أنّ الغيبوبة عاودتك بسبب هذا الضغط النفسي المتعمد على عقلك.. ماذا تحاولين إثباته؟»

لم ترمش عيناها وإنما قالت كأنها منومة مغناطيسيًا:

- «لم يكن الوجه الذي رأيته وجه شبح.. كان بالفعل وجه عريس المستقبل! إنّه وجه (سليمان)!»

وارتجفت..

لهذا بدا لي الوجه مألوفًا في تلك الليلة.. هات وجه (سليمان) وانزع عنه العوينات وأغمض إحدى عينيه.. ثم اجعله ينتفخ بالعفن..

هذا هو الوجه الذي رأيته أنا نفسي..

لم يكن وجه (كامل).. بل وجه (سليمان)! عريس المستقبل كما قالت..

أعتقد أنني أعرف مكان (سليمان) الآن..

عرفت هذا ساعتها ثم قرأت الصحف بعد يومين.. وجه الغريق الذي نشروا صورته كان ذات الوجه الذي رأيته في المرآة.. ظاهرة التصبن تحدث في بشرة الجثة أشياء مماثلة..

لماذا فعلها؟ لماذا اختار هذه الطريقة بالذات هو الذي كان لا يفهم كيف ينتحر إنسان غرقًا...؟

ثم ما معنى هذا كله؟

لماذا قدم لي الوجه في المرآة حل لغز الأرقام؟ هل كان هذا وجه سليمان بعدما عرف السر؟ سليمان وقتها لم يكن يعرف أي شيء عن القصة، ولم يكن قد قابل الأسرة..

هل قدمت لنا المرآة وجهًا آتيًا من المستقبل يخبرنا بما عرفه فيما بعد؟ أم كان (سليمان) شبحًا منذ البداية؟ هل وَجد حقًّا؟ أم هو مجرد هذيان؟

لن أعرف الإجابة أبدًا..

إنني أشعر بإرهاق، وقد اختلطت الأمور في ذهني..

سوف أحتاج إلى وقت طويل حتى أشفى من جراح فقدي لهذا الشاب..

سوف أحتاج لوقت طويل كي أنام من دون كوابيس أرى فيها (أفسيس) وقد قرر أن يلاحقني..

سوف أحتاج لوقت طويل حتى أتعلم أن أمر أمام هذه الفيلا التي لم تجد مشتريًا بعد من دون أن أرتجف..

سوف أحتاج لوقت طويل حتى أنسى...

لكن (سالم) و(سلمى) كانا يحملان لي قصة رهيبة أخرى.. يحكيان لي عن أرض الظلام التي وجدا نفسيهما فيها..

لكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

المصادر:

أحمد الشنتناوي: فنون السحر. اقرأ. ١٧٤. دار المعارف بمصر. ١٩٥٧
د. عبد الرحمن نور الدين: العلم والسحر. دار الهلال. ١٩٩٠
د. جمال عبد الناصر: أقنعة الرعب. المكتبة الثقافية. ٤٦٦. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩١
عدد من مواقع الإنترنت.

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

المقـــدمة

تمهيـــد

الجزء الأول: هواجس مراهقة

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

- ٤ -

- ٥ -

- ٦ -

- ٧ -

- ٨ -

الجزء الثاني: مقدمات ونتائج

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

- ٤ -

- ٥ -

- ٦ -

- ٧ -

- ٨ -

- ٩ -

- ١٠ -

الجزء الثالث: أسطورة بيت الأشباح

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

- ٤ -

- ٥ -

- ٦ -

- ٧ -

- ٨ -

- ٩ -

- ١٠ -

- ١١ -

- ١٢ -

المصادر:

Notes

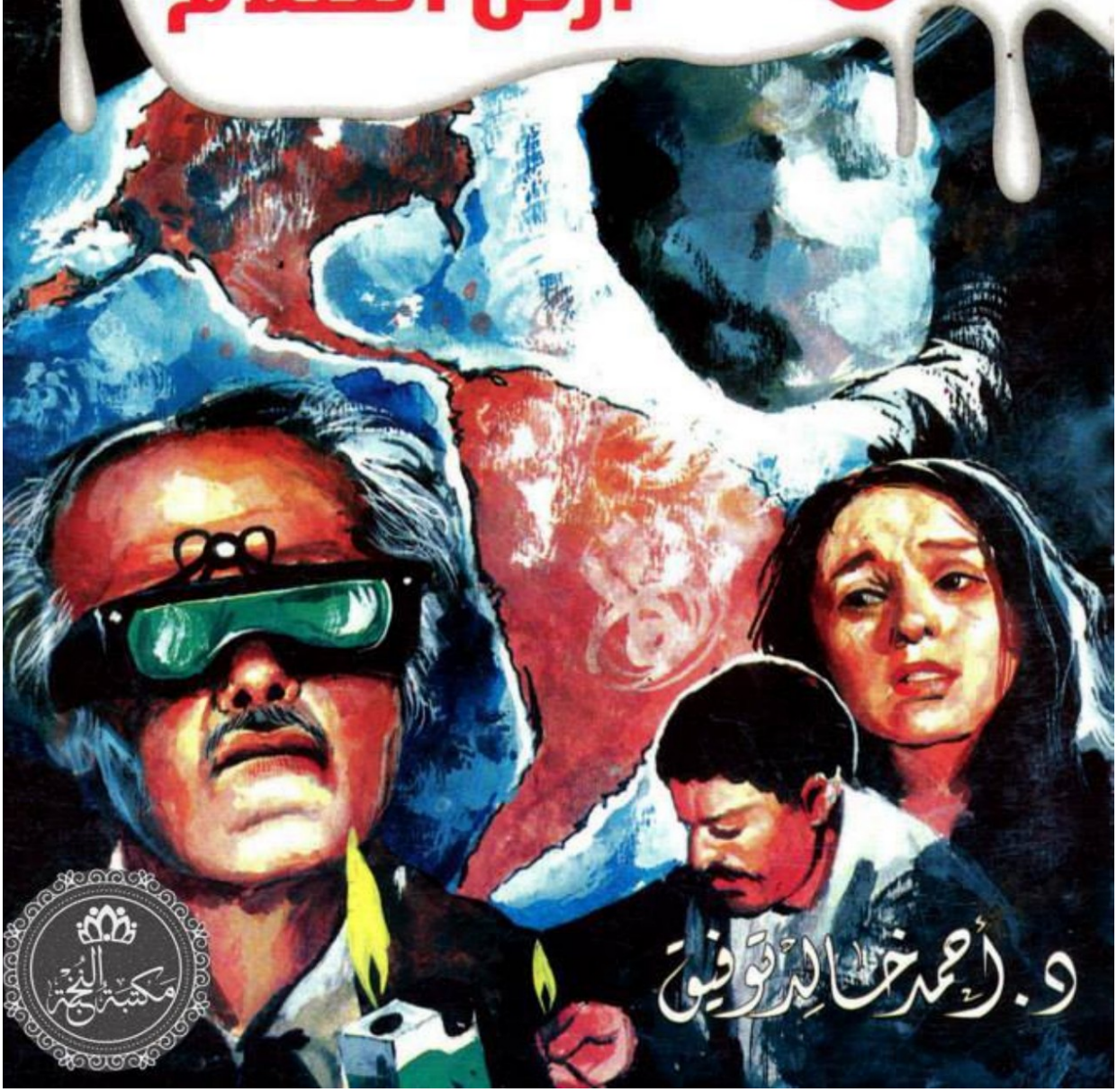
[1←] (Recurrent Spontaneous Psychokinesis.. (RSPK أي التحريك النفسي المتكرر التلقائي

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

68

أسطورة أرض الظلام



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة النجمة

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



المقدمة

كما تعرفون، هذه هي آخر قصة عندي من قصص الأخ (سالم) و(سلمى) الذين جاءا من أرض أخرى تشبه أرضنا في كل شيء وتزوجا..

معًا قرأنا (أرض أخرى) و(أرض المغول) و(أرض العظايا).. وهي رحلات عجيبة في عالم بلا فراعنة.. وعالم سيطر فيه المغول على كل شيء.. وعالم انقرض فيه العرب تقريبًا؛ لأنّهم لم يتطوروا.. بالترتيب..

اليوم أحكي لكم قصة أرض الظلام كما قصها (سالم) في أوراقه..

هل من قصص أخرى؟ لا أعتقد.. إن (سالم) لم يظهر قط منذ ذلك الحين ولا أحسبه سيفعل.. إنها القصة الأخيرة فعلًا، وأرجو أن تستحق ذلك..

بالنسبة لي أنا بخير كما تعلمون.. مشاكل بسيطة جدًّا تذكرني بالنكتة القديمة عن العجوز الذي يقول لأقاربه: أنا بخير لا ينقصني إلا الصحة والسعادة والمال!

مشاكل مع عدسة العين وضغط الدم والربو والمثانة والرئتين والشرايين التاجية وشرايين المخ.. هذه مشاكل معتادة على كل حال ولا تثير قلقي..

من حين لآخر أقوم بجولة بسيطة في شارعنا.. لكن هذا صار مخاطرة مع كل تلك الحفر التي لا تردم أبدًا.. هناك دومًا ماسورة مجار ما أو كابل كهرباء أو ماسورة ماء.. هناك دومًا شيء يتم إصلاحه أو استبداله، وهذا يعني أن تحطيم عنقي وارد في أية لحظة..

معنى المخاطرة بركوب السيارة أنني سأظل سجينًا فيها في الزحام عدة ساعات.. أمّا سيارات الأجرة فسائقوها يعانون حالة مزمنة من السادية والاحتقار لمن يمشون على أقدامهم.. لقد ابتاعوا هذه السيارات من أجل متعتهم الخاصّة وللنزهة، ومن الوقاحة أن تشير لهم كأنهم سيارات أجرة..

هكذا أقرر أن أعود لداري من جديد..

ابن البواب يبتاع لي ما أريد من الخضر، أمّا البقالة فأطلبه ما أريد بالهاتف.. أم (شخص ما) التي تقوم بتنظيف الشقة تطهو لي من حين لآخر، لكنّها تنسى شعر رأسها في الحساء أحيانًا..

لا أفعل شيئًا ذا قيمة إلى أن تأتوا لي كي تسمعوا قصصي..

هنا فقط أستعيد مرحي وحيويتي، وأتلقى وعدًا بساعات من الاستمتاع..

سأعد بعض الشيكولاتة الساخنة وآتي لأجلس معكم..

هكذا.. الآن نبدأ الكلام عن أرض الظلام، وهي كما اعتدتم قصة لا دور لي فيها إلا بعض التصحيح اللغوي والتدخل في النهاية برأي سخيف لا يفيد..

هيا بنا..

☆ ☆ ☆

تمهيد

ها نحن ذا نرتاد الأبعاد والمسافات..

ثقوب سود ومجرات.. سديم خلف سديم..

متشابكى اليدين يرقص الفضاء من حولنا رقصته التي حيرت الشعراء والحالمين وعلماء الفيزياء..

ظلام في ظلام.. وظلام يلد نورًا.. ونور يستحيل ظلامًا..

نحن طاقة.. لم يعد لنا وجود مادي، وبرغم هذا أعتصر يدك فكيف؟

أنت لي وأنا لك.. قوليها!

أنا لك وأنت لي.. هل رضيت؟

لقد صرنا كيانًا واحدًا.. امتزجت ذراتنا.. وهذا الكيان تلاشى فلو لم نستعد ماديتنا قط فلربما كان هذا أفضل.. تمنت (أفروديت) أن تصير و(هرمز) كيانًا واحدًا.. وقد كان لها ما أرادت.. لقد جاء ذلك الكائن المدعو (هرمافرودايت Hermaphrodite).. لكنه كان مسخًا.. كان يجمع صفات الذكورة والأنوثة معًا..

لكن كائننا نحن سيكون أجمل.. أعرف هذا..

لقد فررنا من عالم العظايا.. (جمشيد) و(ستارسكي) و(إسماعيل خان).. كل هذا العالم المتشابك المعقد قد فررنا منه بضغطة زر لنبدأ من جديد!

نبدأ من جديد!

الحلم الذي راودني منذ نعومة أظفاري.. أن أبدأ كل شيء من جديد..

كل الأخطاء والعثرات وزلات اللسان.. كلها لم يعد لها وجود..

هناك في موضع ما عالم أفضل وأروع من الذي تركناه، وإننا لواجدوه..

هل ترين؟ هذه هي (الكواركات).. أقزام خضر.. ثقوب سود.. كوكبة الدجاجة.. كوكبة القنطورس..

ثم ثغرة هائلة في الزمان والمكان.. ثغرة (زمكانية) إن شئت الدقة..

سوف نعبرها..

لا تخف.. لا تخافي..

أنت معي؟ أنا معك..

فلتزأر العاصفة إذن..

إننا نقترب يا صغيرتي..

هل تشعر به؟ هل تحسه؟

لا أدري عن أي شيء تتكلمين يا صغيرتي لكن ما دمت تشعرين به فأنا مثلك..

وبالفعل أشعر به..

إنه يقترب..

ميلاد عصر جديد..

فقط أغمضي عينيك ولسوف نرى..

سوف نرى..

☆ ☆ ☆

الجـزء الأول
أرض الظـلام

أفكر أننا في ممر الجرذان..
حيث فقد الموتى عظامهم..
أية ضوضاء هذه ؟
إنها الريح تحت الباب..
« وما هذه الضوضاء الآن؟ ماذا تفعل الريح؟ »
لا شيء .. نعم لا شيء ..
« ألا ترى شيئًا؟ ألا ترى شيئًا؟
ألا تذكر شيئا؟ »
بلى أذكر.
هاتان لؤلؤتان..
كانتا من قبل عينيه..
« أحي أنت أم لست حيًّا؟ أليس في جمجمتك شيء؟»

من قصيدة الأرض الخراب لـ (ت. س. إليوت)
ترجمة د. (لويس عوض)

1 - هناك خطأ ما..

عندما تم التجسد كان ما رأيناه محبطًا كالعادة..

لم يكن محبطًا.. بل كان مريعًا..

كانت هناك غابة كثيفة من السراخس، ومستنقع كرية الرائحة..

السماء مدلهمة مشبعة بلون أحمر منذر بالويل.؟

ثم راح شيء يحلق حولنا.. نظرت بدقة فتبينت أنها حشرة أقرب إلى اليعاسيب.. لكنّها ضخمة جدًّا بحجم قط مكتنز..

قالت (سلمى) واسعة الثقافة:

- «هذه (ويتا).. الحشرة التي تميز (نيوزيلندا) في عالمي.. لكنها ليست بهذا الحجم..»

تراجعنا مبتعدين عن هذا الكابوس الطائر.. فقط لنتورط أكثر في المستنقع..

فجأة دوى الزئير فارتجت قلوبنا بفعل الرعب وفعل تأثير (الدولبي) القوي.. ومن جهة أخرى جاء زئير أعلى..

وكأنما نحن في كابوس رأينا ذلك الوحش يرفع رأسه من بين الأشجار وهو يزأر.. ذات المشاهد التي رأيناها في فيلم (حديقة العصر الجوراسي Jurassic park) لكنّها حقيقيّة جدًّا هذه المرّة..

الأرض ترتج..

إذن هذه هي (أرض العظايا) بالمعنى الحرفي للكلمة..

إن هذا الوحش هو (العظاية الطاغية) أو (تيرانوسورس ركس) أمّا الوحش الآخر الذي يواجهه من الجهة الأخرى للمستنقع فهو: (ستيجوساورس).. ليس آكل لحم إن لم تخني الذاكرة لكنه يدوس كأي شيء ثقيل آخر..

هنا رأينا تلك الوحوش الشيطانية الأصغر حجمًا تتواثب من جانبي الأشجار.. الطيور المفترسة السريعة (فيلوسيرابتور)..

قالت (سلمى):

- «هل جئنا هنا كي نرى فيلم (حديقة العصر الجوراسي) على الطبيعة؟»

- «لابد أنّ هذا عالم لم تنقرض فيه الديناصورات..»

- «أعتقد أن الرحيل صار واجبًا.. هذا عالم لن يعلمنا أي شيء ولسوف يتم التهامنا خلال دقائق..»

قلت في شيء من السخرية وأنا أمسك بيدها:

- «هل تغيرت؟ كنت أعرف امرأة تصر على أن تجرب كل عالم تراه حتى لو كان مليئًا بمرضى الطاعون..»

- «لابد من بشر أولًا.. هذه نقطة البداية..»

كانت تضغط على أزرار الجهاز:

- «199- ب - ثم..»

صحت في جنون وأنا أرى أحد هذه الوحوش السريعة الشرسة يثب علينا من أعلى كأنه شيطان:

«ماذا تفعلين بالله عليك؟ ربع ساعة كي؟»

- «صبرًا.. إن..»

في هذه اللحظة ارتطم ذيل السحلية المخيفة بنا فطرنا في مياه المستنقع.. صحت في رعب:

- «لا تدعي الجهاز يبتل! لا يمكن أن نبقى هنا للأبد!»

رفعت يدها لأعلى فوق مستوى الماء وراحت تضغط على الزر:

- «18. 18...»

صرخت في هلع:

- «انتظريني! أنا لم أمسك بيدك بعد!»

لا أريد أن ترحل وحدها لأجد أنني وحدي في هذا العالم.. معاناة شنيعة لمدّة خمس دقائق إلى أن يهضمني أحد هذه الكائنات لأسهم في عملية التطور.. لن أعيش أكثر من هذا بأي حال.. كيف استطاعت الثدييات صغيرة الحجم أن تنجو من عالم كهذا؟ إنها لمعجزة فعلًا..

تمسكت بساعدها بينما هي تضغط زر الإدخال..

في اللحظة التي وثب فيها ذات الوحش الذي أسقطنا في الماء.. وثب علينا وكان قادمًا بسرعة وحماس..

يقترب.. يقترب..

ثم تلاشى المستنقع من حولنا..

وكانت هذه أقصر فترة نقضيها في أي عالم منذ بدأنا الرحلة..

☆ ☆ ☆

كان العالم (199 - ب - 18) قاتمًا كما هي العادة.

لم يكن المنظر بهيجًا عندما تم التجسد..

بالواقع لم يكن هناك منظر على الإطلاق..

لقد كان كل شيء أسود.. لا يوجد ضوء من أي نوع..

قدَّرت أنّ هناك خطأ ما.. وأن التجربة صارت إلى فشل..

قلت بصوت مبحوح:

- «(سلمى).. أنا أصبت بالعمى!»

قالت بذات الصوت:

- «لا.. نحن في مكان مظلم.. هذا واضح..»..

سرني هذا، فلو أنها قالت إنها ترى بوضوح لمتُّ هلعًا.. لكن هذا لم يحل المشكلة.. من الوارد دومًا أن يكون الانتقال قد أعمانا معًا..

مددت يدي أتحسس العالم من حولي.. يجب أن ألمس شيئًا يجب أن تصطدم بدي بشيء.. مستحيل ألا يكون هناك سوى ظلمة تليها ظلمة..

فجأة سمعت ذلك الصوت الخشن يصيح:

- «من أنتما؟؟؟؟ (نصار)! (نصار)!!»

ثم سمعت صوت رجل يتكلم بلهجة ريفية قليلًا:

- «أوامرك يا (محسن) باشا..»

- «من هذان؟ وكيف مرَّا؟ ألم تسمع صوت الخطوات؟»

بدا لي الأمر مألوفًا.. لكن هذا الظلام الدامس..

صوت (نصار) يقول:

- «معذرة يا باشا..»

تكلمت (سلمى) باعتبارها الأكبر سنًا والأسرع بديهة:

- «نهارك حليب يا سيدي..»

- «ماذا تقولين؟»

- «أعني صباح الخير..»

- «هل أنت مخبولة؟»

قلت أنا وقد بدا لي الأمر مألوفًا إلى درجة تثير الغيظ:

- «معذرة.. كنا نبحث عن موظف هنا و...»

- «ليس هنا.. والآن أخرجا!»

سمعت صوت (نصار) يهتف:

- «هذا الجهاز في يد المرأة ياسيدي.. لا أعرف ما هو..»

- «هاته! والآن مع السلامة!»

هكذا شعرت بيد غليظة تقتادني في الظلام.. لم أدر ما يحدث ولم أقدر على الاعتراض.. ثم شعرت بأنني أجتاز بابًا.. وسمعت صوت (سلمى) يهمس في إرهاق:

- «هل تفهم أي شيء؟»

قلت لها:

- «غرفة رئيس المباحث! هل نسيت؟ بدأنا استعمال هذا الجهاز اللعين للهرب من مكتب رئيس المباحث في كوكبي لقد حاصرنا بالأسئلة ففررنا من مكتبه.. ما حدث بعد ذلك هو أننا نجد نفسينا في غرفة رئيس مباحث كل كوكب نبلغه..»

- «يا سلام! ولماذا لم يحدث هذا في أرض العظايا ولا أرض المغول؟ ذات مرة وجدنا أننا في الصحراء ومرة أخرى وجدنا أننا في نيويورك!»

- «أعتقد أنّ هذا يتعلق بدوران الكوكب حول محوره أو شيء من هذا القبيل.. هذا الكوكب يدور بذات سرعة الأرض - أرضي أنا - أو هذا هو التفسير الوحيد الذي يخطر لي الآن..»

قلت لها، وأنا أتحسس الطريق:

- «لكن لا أفهم.. لماذا لا أرى؟ لماذا لا يعلقون هم ويتصرفون كأنهم يرون كل شيء؟»

قالت في قلق:

- «ثمّة احتمال لا بأس به أننا أصبنا بالعمى فعلًا!»

كدت أجن هلعًا.. كنت أعرف أنّ هذه التجارب الشيطانية القائمة على الارتحال عبر الأبعاد لابد أن يكون لها أثر قاتل.. تذكر فيلم (الذبابة) لـ (كرونبرج Cronenberg) حينما امتزجت جزيئات الرجل مع جزيئات الذبابة ليكونا كائنًا واحدًا جميلًا يقيء على الطعام قبل أن يأكله..

- «وماذا نفعل؟ هل نطلب العون؟»

- «انتظر قليلًا.. يجب أن نجد تفسيرًا..»

كنا الآن نتحسس طريقينا عبر ممرات قسم الشرطة.. يدها في يدي ويدي الأخرى على الجدار.. لا بد أنّ هناك دائرة منهم تحيط بنا الآن كأنهم يشاهدون فقرة في السيرك..

اصطدمت بيد شخص مفرودة فتراجعت على الفور..

هنا خطر لي خاطر رهيب..

إنه يتحسس طريقه مثلي بالضبط.. وإلا فما السبب الذي يدعو المرء إلى فرد كفه أمامه؟ ما معنى هذا؟ هل نحن في كوكب كفيف؟ الشبيه الكوني بوادي العميان في قصة (هـ. ج. ويلز) الشهيرة؟ إذن لماذا أصبنا نحن بالعدوى ذاتها؟ كان يجب أن نتمتع ببصرنا وبالتالي نصير ملوكًا؟

همست لها وأنا أتوقع أنّ هناك من ينصت بإمعان:

- «أعتقد أنهم لا يرون مثلنا!»

- «يا لها من فكرة! تذكرني بنكتة الزوجة الأمريكية التي تنصح زوجها بأن يكف عن احتساء الخمر لأنّه صار مهزوزًا! إن الكفيف يفترض أن العالم أصيب بكارثة جعلته مظلمًا.. هناك حل أسهل هو أننا فعلًا كفيفان كخفاشين..»

- «والسبب؟»

- «لا أعرف..»

كنا نتكلم ونحن نواصل تحسس طريقينا.. سوف نحتاج إلى دهر حتى نخرج من هنا.. لماذا لا يساعدنا واحد من هؤلاء؟

صحت بصوت عالٍ:

- «من فضلك ساعدنا.. نحن لا نرى..»

لحظات ثم شعرت بيد قوية تطبق على معصمي مع صوت يقول:

- «لماذا؟ هل هناك مشكلة في السمع؟»

- «لم نكتسب بعد هذه الحدة السمعية.. إنها تأتي مع الوقت..»

- «إلى أين ترغبان الذهاب؟»

- «نريد الخروج من هنا..»

لم يتكلم هذا الشهم، لكنه شرع يجذبني وراءه وأنا أجذب (سلمى).. أشعر بأننا نمشي في ممر طويل مزدحم خانق الرائحة مزدحم بالأنفاس والعرق.. ثم نهبط درجات مهدمة خربة.. ثم ممر آخر.. أعرف هذه الرائحة (الحكومية) التي هي مزيج من الأثاث القديم والعرق والبنايات الخربة وأكوام الملفات والفئران ورائحة دورة مياه لم يتم إصلاحها منذ قرون..

فجأة شممت رائحة الهواء الطلق.. إننا في الخارج فعلًا..

السواد في كل مكان من حولي.. أشعر بأنني أختنق.. أريد ضوءًا.. ضوءًا واحدًا..

قلت له (سلمى):

- «نحن في ورطة.. والألعن أننا لا نملك الجهاز.. إنّه مع هذا الضابط.. ربما نعود ونتوسل إليه أو نقنعه بحيلة ما، لكن لا بد أولًا من أن نرى..»

- «لا تأمل في هذا..»

ثم فكرت قليلًا، وأضافت:

- «ربما كان علينا أن نجد مستشفى أو عيادة طبيب.. لابد أنّ هناك تفسيرًا لما أصابنا..»

رحنا نتحسس طريقنا بعض الوقت مستندين إلى جدار رطب مهدم.. هذا ليس عدلًا.. لابد من فترة راحة ما بين العالمين.. لم أكن قط ممن يسافرون إلى بلد جديد فيضعون حقائبهم ثم يصيحون: هيا بنا نقم بجولة!

كلا.. لابد من أن أستريح قليلًا وأستجمع ذاتي.. لابد من فترة تصفو فيها أفكاري وأعرف من أنا.. لا تطالبني بأن آتي من أرض العظايا لأجد نفسي فورًا في هذا العالم أتحسس طريقي في الشوارع..

وهنا لاحظت شيئًا..

ملت على (سلمى) هامسًا:

- «ألم تلحظي أننا لم نسمع أي محرك سيارة؟ لم نسمع أي بوق؟ هذا غير معتاد في القاهرة ما لم تكن هذه قاهرة لم تعرف السيارة بعد!»

☆ ☆ ☆

2 - فحص عيون..

نتحسس طريقنا في الشارع..

سألت أحد المارَّة عن أقرب مستشفى، فلم يتطوع بان يقتادنا.. لم يعرض أي شيء.. فقط قال لي في لهجة عملية:

- «هناك واحدة على بعد خمسين مترًا.. ثم يمين.. يسار في يمين..»

معلومات قيمة فعلًا..

كان الأمل معدومًا في أن نجد من يحل مشكلتنا هناك هل تصارح طبيب العيون بأنك كنت في تجربة انتقال عن بعد، وأن جزيئاتك تبخرت ثم تجمعت في مكان ما؟ وأن السبب في فقدان البصر على الأرجح خطا في استعادة الشبكية؟ طبعًا مستحيل..

الأمل الوحيد الحقيقي بالنسبة لي هو أن يكون هذا عمي مؤقتًا.. ربما تعرّضنا لإضاءة زائدة أو أشعة كونيّة ما أدت لهذا العمى المؤقت.. اعتدت في طفولتي أن أنام عندما أكتشف خللًا ما في جسدي، وكنت أفيق لأجده قد اختفى على الأرجح.. ليت هذا صحيح..

- «المستشفى هنا! المستشفى هنا!»

يدوي الصوت عبر مكبرات الصوت..

شيء غريب! لو كنت أرى لتبادلت النظر مع (سلمى).. لم أسمع قط عن مستشفى يتم النداء عليه في مكبر الصوت كأنها طماطم في سوق.. غريب هذا الحماس..

لكن برغم هذا شعرت بامتنان شديد لصاحب هذه الفكرة.. بهذه الطريقة يمكننا أن ندنو.. لقد فقدنا أشياء كثيرة ليس من بينها حاسة تحديد اتجاه الصوت..

- «المستشفى هنا! المستشفى هنا!»

هناك إفريز عالٍ.. من الوارد جدًّا أن ننزل من عليه لتطيرنا سيارة مسرعة برغم أنني لا أسمع صوت أي محرك.. لهذا طلبت من أحد المارَّة أن يساعدنا على الاقتراب من الصوت..

قال في دهشة:

- «يبدو أن سمعكما ليس على ما يرام..»

- «نخشى السيارات المندفعة..»

قال في سخرية:

- «ليت الأمر كذلك..»

نقترب من الصوت أكثر فأكثر، حتى صار من الممكن أن تسمع صوت المتكلم من دون مكبر الصوت.. ثمّة حقيقة فيزيائية لا أذكر تفسيرها تقضي بأن من يسمعون صوت المطرب خارجًا من المذياع يسمعونه أسرع ممن هم في ذات القاعة معه أعتقد أن الأمر يتعلق بسرعة الموجات الكهرومغناطيسية وسرعة الصوت.. على كل حال نحن نسمع صوت المتكلم بالميكروفون فيخيل لنا أن صدى صوته يسبقه..

قلت لمن أتوهم أنه أمامي:

- «هل هذا هو مدخل المستشفى؟»

قال دون أن يبعد مكبر الصوت عن فمه:

- «نعم.. الاستقبال في نهاية الممر..»

- «هل تعرف أين قسم أمراض العين؟»

- «لا يوجد عندنا.. إن أمراض العين جزء من قسم الجراحة العامة!»

هكذا دخلنا إلى ذلك الممر الطويل.. وفي نهايته كما بدا لنا سمعنا صوت ممرضة تسألنا عما نريد.. كانت تلوك قطعة من اللادن وترمقنا في استمتاع.. صوتها يدل على أنها ترمقنا في استمتاع..

- «نحن مصابان بالعمى..»

عادت تسألنا بلهجة روتينية:

- «آلام في العين؟ أورام؟»

- «لا نعرف.. فقط نريد أن يتم فحصنا..»

كنت أسمع صوت طبيبة شابة تملي تشخيصها في مكان ما:

- «كساح.. كساح.. هذه الحالة كذلك كساح.. التهاب رئوي...»

ثم جاء صوت الممرضة الأولى:

- «هنا حالتان يا د. (هالة).. يريدان من يفحصهما..»

شممت رائحة عطرية نفاذة.. يد باردة لكن من الواضح أنها يد أنثى تتحسس وجهي.. تتسلق ملامحي ببطء حتى وصلت إلى عيني.. إنها تضغط.. تغرس أظافرها في كرة عيني والجفنين.. ثم

تضغط بقوّة على المحجر بظفر الإبهام.. هذا مؤلم!

صحت محتجًا:

- «هذا مؤلم!»

لكنّها لم تعلق.. ويبدو أنها تركتني لتتولى ذات الأمر مع (سلمى).. سمعت (سلمى) تصيح في ألم.. ثم سمعتها تقول:

- «لا مشاكل.. إنها تلك المشكلة المعتادة لمن يأبى التصديق.. أعطيهما بعض المسكنات..»

صحت في غيظ:

- «هل هذا فحص عيون؟ لسنا بصدد تحسس بطيخة إن كانت ناضجة أم لا.. أقول لك إننا فقدنا البصر..»

- «وأنا أقول لك إنكما بخير.. أنت لن تعلمني مهنتي..»

وسرعان ما توارت.. أعني أن صوتها تلاشى..

قالت (سلمى) وقد تسارع تنفسها كأنها موشكة على الإصابة بالهستيريا:

- «هذا لا يطاق.. نحن في مأزق حقيقي.. مكفوفان في عالم غريب لا يبالي بنا.. وهم مخابيل كذلك.. العالم الذي يفحص العين عن طريق تحسسها كأنها كبد أو طحال هو عالم مخبول..»

قلت لها:

- «لاحظي أننا لم نعرف بعد نقطة الاختلاف عن عالمنا هل لأن هذا العالم بلا سيارات؟ هل لأنّهم مخابيل؟ هل؟»

كنت قد كونت استنتاجًا رهيبًا لكني لم أصرح به لأحد حتى لنفسي..

☆ ☆ ☆

3 - جائعان...

من جديد نتحسس طريقنا في الشارع..

الآن أشعر بهذا التقلص المألوف في معدتي.. إنني جائع! لابد أن (سلمى) تشعر بالشيء ذاته.. آخر وجبة تناولناها كانت في الصحراء مع (جمشيد) في بعد آخر حول شمس أخرى فترة أطول من اللازم..

سألتها في قلق:

- «هل تعتقدين أننا في الليل أم النهار؟»

- «أعتقد أننا في الليل لم أشعر بأشعة الشمس الحارقة قط.. في الواقع الطقس بارد فعلًا..»

نعم.. البرد الإحساس الرئيس منذ جئنا هنا..

- «والآن أنا جائع فماذا نأكل وكيف؟»

قالت وصوتها يبتسم:

- «أنت تعرف أنني أخفى بعض أوراق العملة معي في كل مكان نقصده.. لديَّ عملات مصرية وعملات من كوكبي وعملات من أرض المغول.. سوف نجرب..»

- «طبعًا سوف نصطدم ببائع يقول لنا إن هذه عملات مزيفة لا وجود لها..»

- «كما يحدث في كل كوكب نقصده.. لكن دعنا نجرب..»

كنا الآن نشم رائحة طعام.. رائحة كبد محمرة أو لحم مشوي لا يهم.. لقد صرنا جائعين إلى حد أن تمييز الرائحة صار عسيرًا.. هذه رائحة طعام وكفى.. أي إننا - بلا فخر - تحولنا إلى ضبعين جائعين.

وكأي ضبعين يحترمان نفسيهما، مشينا وراء الرائحة.. فلم يبق إلا أن نبصبص بذيلينا..

الرائحة تتزايد.. تتزايد..

الآن هي أشد ما يكون.. هناك مروحة موجهة نحونا لا تكف عن ضخ هذه الرائحة الشهية.. الواقع أنها أقوى من اللازم حتى إننا وجدنا أننا غارقان في الدخان.. سعلنا.. سعلنا حتى كدنا نبصق رئتينا..

سمعت صوت من يقول بلهجة فظة:

- «كم شطيرة؟»

- «أربعًا..»

- «خمسة جنيهات..»..

على الأقل هم هنا يتكلمون بلغة الجنيه.. وسعر خمسة جنيهات لأربع شطائر ليس بالسعر السيئ.. ربما كان هذا الكوكب يشبهنا في هذه النقطة على الأقل..

ومددت يدي المتعثرة بورقة مالية كبيرة الحجم.. استغرق البائع وقتًا أطول من اللازم حتى جذبها من يدي.. ثم سمعته يقول في دهشة:

- «مائة جنيه؟ ألا تجد معك بعض الفكة؟»

- «نعم.. ليس معي غيرها..»

ثم ملت على (سلمى) لأهمس:

- «هل كنت تحتفظين بمائة جنيه معك بين الأبعاد؟»

- «لا أعتقد أنه كان معي هذا المبلغ.. إنها تنويعات من العملات بين عشرة جنيهات وخمسة وجنيه..»

- «إذن كيف اعتقد أنها مائة جنيه؟»

- «الاختلافات بين الكوكبين.. لعلهم يطلقون على عشرة الجنيهات اسم (مائة جنيه) هنا..»

رائحة الطعام قوية جدًّا جدًّا.. أقوى رائحة شممتها في حياتي..

شعرت في يدي بالرجل يدسّ العملات الورقية.. أوراق طوي بعضها بالطول وبعضها بالعرض وبعضها مثنى على طريقة (أذن الكلب Dog ear) الشهيرة..

- «معك خمسة وتسعون جنيهًا..»

ثم شعرت في يدي بلفافة ساخنة واضح أنها دسمة.. ثقل مطمئن يعدك بساعات من الشبع..

ابتعدت مع (سلمى) إلى أن اصطدمنا بجدار. هكذا جلسنا جواره في بساطة كالمتسولين، وفتحت اللفافة.. ناولتها شطيرتين ساخنتين وتحسست شطيرتي.. إن بها مزيجًا غريبًا من قطع اللحم.. لحم خشن ولحم ناعم.. لحم زلق ولحم قاس..

هتفت (سلمى) في دهشة:

- «ما هذا؟»

- «أعتقد أنه لحم رأس.. في هذه الحالة تكون الشطيرة خليطًا من لحوم عدة..»

في تقزز هتفت:

- «أنا لا آكل هذه الأشياء!»

- «سوف تحبينها.. أنا أحبها وبالتالي أعرف أنك ستحبينها.. تذكري أننا لا نملك ترف التقزز.. فقط أرجو ألا يكون هذا الكوكب من أكلة لحم البشر..»

- «الله يقرفك!»

قضمت قضمة كبيرة، ثم قلت بفم مليء:

- «هل رأيت كيف يصنف النقود عن طريق ثني أوراقها؟ في فيلم (المتهور daredevil) الذي كان سلسلة (كوميكس) أمريكية ناجحة، كان البطل كفيفًا؛ لذا كان يطوى العملات بهذه الطريقة ليعرفها بمجرد اللمس.. هكذا كان يميز المائة دولار من العشرة دولارات.. إلخ.. نفس الشيء يكرره الرجل هنا.. هل تعرفين لماذا أعتقد أننا أعطيناه مائة جنيه؟ لأن الورقة كانت مفرودة.. هذه هي علامة المائة جنيه..»

- «ماذا تعني؟»

- «أعني ما فهمته.. هذا البائع كفيف!»

- «ولكن..»:

قلت في استمتاع:

- «ليس هذا فحسب.. أكره أن أكون عبقريًا طيلة الوقت، لكنّها الحقيقة.. كل شيء يدل على أنّ هذا الكوكب يعجّ بالمكفوفين!»

☆ ☆ ☆

4 - أرض العميان..

في الساعة التالية رحنا نناقش أبعاد هذا الاستنتاج الرهيب..

كانت القصة واضحة بالنسبة لي تمامًا..

- «لماذا يمشى الناس وهم يمدون أيديهم أمامهم؟ لماذا لا يتطوع أحد لمساعدة اثنين مكفوفين إذا كان الجميع مبصرين؟ لماذا تنادي المستشفى معلنة عن نفسها؟ لأن أحدًا لا يمكنه معرفة موضعها من غير صوت وهذا هو التدبير الوحيد الممكن ليعرف الجميع أين هي.. كيف يمكن فحص العيون في مجتمع من المكفوفين؟ لا مفر من تحسس العين بالأنامل.. بل ما أهميّة هذا الفحص أصلًا؟»

قالت (سلمى) بصوت يدل على الذهول:

- «لهذا لم ينظر أحد بجديّة لكلامنا عن العمى.. هنا تنحصر أمراض العيون في الأورام والألم.. كل من قلنا له إننا لا نرى قال إننا مستجدان أو مصابان بالصمم.. لابد أن سمع هؤلاء القوم بلغ درجة عالية جدًّا تتيح لهم الحركة بحرية..»

قلت وأنا أسترجع شريط مغامرتنا:

- «بائع الشطائر لا سبيل ليعرف الناس مكانه إلا الرائحة.. لهذا غرقنا في سحابة من الدخان ورائحة الطعام لأنّه يعتمد على المراوح التي تنشر الرائحة..»

- «ولهذا لا توجد سيارات.. كيف توجد سيارات أو طائرات في عالم لا يرى؟ هذه الأشياء لا توجد إلا في السينما.. (آل باتشينو) يقود سيارته مسرعًا وهو كفيف، و(عادل إمام) يفعل الشيء ذاته بطائرة!»

- «وطريقة الأوراق المالية المطوية التي تتيح تعرفها..»

- «كل شيء واضح..»

- «لا.. ليس واضحًا.. ربما كان هذا عالمًا من العميان لكن كيف تفسر أننا أصبنا بالعدوى؟»

كان هذا هو السؤال المهم حقًّا.. السؤال الذي يساوي ملايين الجنيهات.. الأعور في بلاد العميان يصير ملكًا.. فلماذا لا نبصر نحن؟

- «هناك احتمال وجود فيروس يسبب هذه الحالة..»

- «لا توجد فيروسات تعمل بهذه السرعة.. لاحظ أننا وصلنا هنا ونحن لا نرى..»

حقًّا كان الأمر أقرب إلى لغز كبير..

إننا في عالم لا يرى.. عالم يعتمد على الصوت والرائحة واللمس.. ومن الواضح أن هؤلاء القوم بلغوا مكانة متقدمة فعلًا في هذا الصدد.. من الواضح أن الحياة مستمرة بلا مشاكل..

لكن ما زال اللغز قائمًا..

☆ ☆ ☆

قال لنا عابر السبيل وهو يضغط على يدي:

- «من هنا.. فندق صغير لكنه نظيف.. سوف تكلفكم الليلة خمسين جنيهًا..»

- «لا بأس..»

وشكرته بحرارة.. ثم جذبت (سلمى) ومضينا نشق طريقنا في الاتجاه الذي أطلقني نحوه.. أتعثر وأنهض.. في عالم العميان هذا كان من المفترض أن تكون شوارع القاهرة أكثر نعومة وأفضل رصفًا.. لكن الحفر والمطبات المعتادة.. كما هي..

أمد يدي أمامي فأجد مدخلًا..

أمشي متعثّرًا.. في نهاية الممر أصطدم بمنضدة.. لابد أنّ هذا موظف الاستقبال..

طبعًا كنت قد ثنيت جنيهًا إلى نصفين متساويين.. هكذا ارتفعت قيمته بمعجزة ما لتصير خمسين جنيهًا.. هذا غش لا شك فيه، لكننا مضطران أولًا، ثانيًا أنا أغش كائنات فضائيّة في مجرات أخرى! لا يمكن أن يكون الحافز الأخلاقي ملتهبًا لهذا الحد؟

قال لي الموظف ذو الصوت الغليظ:

- «لديَّ غرفة تناسبكما.. إنها مريحة ورائحتها طيبة..»

طبعًا.. في عالم كهذا لا يكون للجمال معنى.. الراحة والرائحة هما الأهم..

- «لكني أريد توقيعك!»

ما معنى هذا؟ ماذا يمكن أن يفعل بالتوقيع؟

فهمت الأمر عندما شعرت به يمسك برأسي.. يلصق بأذني شيئًا لزجًا باردًا.. ثم يقول:

- «شكرًا!»

إنّه قد أخذ طبعة من صوان أذني على الصلصال.. طريقة لا بأس بها.. طبعًا لا لزوم للبصمات هنا؛ لذا أخذ طبعة مجسمة من أذني وبالتالي يمكنه أن يتحسسها متى أراد ليعرف إن كنت أنا..

الظلام.. الغرفة باردة بشدة.. أعرف من صوت الصدى أنها ثلاثة أمتار في أربعة..

تمشي (سلمى) في الظلام إلى أن تلمس الباب فتغلقه.. نفسك.. فلو كان أحدهم متواريًا في الغرفة فقد حبسناه لا تتعبي معنا!

تقول وهي تلهث:

- «أين الفراش؟ سأموت إن لم أنم بضع ساعات..»

قلت وأنا أخفف من ثيابي:

- «سيكون نومًا شنيعًا.. كيف يكون نوم لا تفيقين منه لتري النور؟ ظلام في ظلام في ظلام.. أن ينام المرء ويصحو فيجد الظلام ما زال مطبقًا على الكون هذا كابوس..»

قالت وهي تتنهد بصوت عالٍ:

- «سوف نصحو من نومنا لنجد أن الظلام ما زال مستمرًا هذا شنيع فعلًا لكننا سنعتاده..»

وتحسست المكان حتى وجدت الفراش فرقدت عليه الحمد لله أن البرد شديد.. لو أضيف الحر لهذا لاختنقت فعلًا..

(سلمى) ترقد على الفراش جواري فيئن من ثقلها..

تقول هامسة:

- «لا أصدق أننا فقدنا نعمة البصر بهذه البساطة..»

- «أنا كذلك.. يخيّل لي أننا سننام ونصحو لنجد أننا في ضوء النهار..»

- «ليت الأمر كذلك»

- «كانت تذكرة المغادرة معنا، لكن ذلك الضابط انتزعها..»

- «سوف نستردها.. سوف نذهب إليه غدًا ونتوسل إليه.. سأقول له إن الجهاز مخصص لتنظيم ضربات القلب وإنني سأموت لو لم أسترده.. ذات الحيلة القديمة..»

هنا دوى صوت يقول في الظلام:

- «هذا كل شيء يا سيدي! هل ترغب في بعض التبغ لتمضغه؟»

وثبنا مترين في الهواء.. وحينما استعدت روعي صحت:

- «من.. من أنت؟»

جاء الصوت في الظلام:

- «أنا خادم الغرف يا سيدي.. كنت أنظف دورة المياه الملحقة!!»

كما توقعت من قبل.. يمكن أن يكون هناك ستة معنا في الغرفة ونحن لا نعرف!

صحت في غلظة:

- «لا أريد أي شيء. والآن انصرف!»

ونهضت أتحسس طريقي نحو الباب ومددت يدي أفتح المزلاج.. وبعد ثوان شعرت بذلك الجسد يعبر الفرجة خارجًا.. هذه المرّة لم أغلق الباب إلا بعدما تأكدت من أنّه لا يوجد آخرون.. ربما أجد الجيش الصيني في الشرفة هذه المرّة..

عدت للفراش وتمددت عليه.. كانت (سلمى) تهتز من الضحك حتى تقطعت أنفاسها.. فقلت مغضبًا:

- «لا أرى ما يضحك في هذا كله.. نحن من دون بصر هشان تمامًا.. شديدًا الضعف.. إنّه العري الحقيقي وليس عري فقدان الثياب.. لأسباب تتعلق بالهشاشة لم يأكل (طه حسين) أمام أحد في حياته قط، ولم يغادر (أبو العلاء المعري) داره...»

قالت وهي تكتم ضحكاتها:

- «هل لاحظت ما قال؟ هنا يمضغون التبغ!»

- «وما في ذلك؟ كان لي جد يمضغ التبغ طيلة الوقت.. كل البحارة يفعلون ذلك.. لا أعني أن جدي كان بحارًا..»

- «لماذا لم نشم دخان لفافة تبغ منذ جئنا؟»

- «لأن هذا الكوكب يمضغ أهله التبغ.. هلا كففت عن التذاكي ونمت؟ إنني مرهق بحق..»

وكنت أتمنى أن أطفئ النور كطقس لا تنتهي الليلة من دونه لكن لا نور هنالك.. هذا يجعل الفارق بين الصحو والنوم باهتًا غير واضح..

لكن للإرهاق قوانينه على كل حال..

فقط وأنا أغادر عالم الأحياء إلى عالم الموت الأصغر سمعت (سلمى) تهمس مفكرة:

- «لا رائحة تبغ في أي مكان..»

☆ ☆ ☆

5 - في الشرفة...

صباح أسود..

هكذا يمكن تلخيص الموقف..

تفتح عينيك على ما أغمضتهما عليه.. واللون الأسود الكريه في كل مكان..

كانت (هيلين كيلر Keller) الكاتبة الأمريكية الصماء البكماء العمياء تقول - بعدما تعلّمت النطق - إن أهم الحواس هي السمع.. السبب أننا في الظلام نصاب بالهلع لو لم نسمع صوتًا مألوفًا..

الآن أفهم هذه الكلمات..

لو لم أسمع (سلمى) بجواري تقول (نهارك حليب) لجننت..

كيف عرفنا أنّ هذا نهار؟ لا يوجد أي دليل.. فقط هي الساعة البيولوجية فينا تخبرنا بذلك وهي ساعة لا يمكن أن تثق بها على كل حال بعد كل هذا السفر.. جرب السفر إلى أستراليا ثم تكلّم عن دقة هذه الساعة.. إن ما يدعى (تأخير النفاثات Jet lag) يجعلك عاجزًا عن تقدير الوقت الصحيح تمامًا، فما بالك برحلة بين المجرات؟

فجأة سمعنا ذلك الدوي، وارتجت الحجرة عدة مرات..

☆ ☆ ☆

صاحت في ذعر:

- «ما هذا؟»

قلت وأنا أثب من الفراش:

- «أعتقد أنها الحرب.. هذا العالم يجتاز حربًا..»

- «حرب بين عميان؟ سيكون هذا مسليًا..»

وهرعنا ملهوفين نتحسس طريقنا إلى ما شعرت بأنه الشرفة.. نعم هي شرفة.. هناك شيش ومزلاج مددت يدي أفتحهما.. وقلت لها في توتر:

- «بعض الشرفات يكون لا وجود لها. لا تخطي إلى الداخل فنحن لا نعرف أي شيء على الإطلاق..»

هنا دوي الانفجار من جديد.. شعور كان الحجارة ترتطم ببعضها في أجواز السماء.. يمكن القول إنّه رعد وإن كنت غير واثق..

وقفنا معًا.. نشعر بالهواء البارد يضرب وجهينا.. لا نرى أي شيء آخر..

نرفع رأسينا نحو ما اعتدنا أنه السماء..

فجأة رأيته..

ذلك اللسان الأبيض البراق يشق السماء السوداء.. يتحرك كأنه مخلب عملاق متجهًا إلى الأرض وفي هذه المرّة رأيت القاهرة.. القاهرة تتوهج في ضوء البرق.. الضوء الأزرق البارد المعقم يرسم ظلالًا طويلة على كل شيء.. مع ذلك التأثير (الستروبوسكوبي stroboscopic) المعروف.. عندما يتوهج الضوء لفترة قصيرة تبدو الأجسام المتحركة ساكنة..

هذه هي القاهرة كما عرفتها وكما تراها من قمة (المقطم).. البنايات.. المآذن.. الشوارع.. كل شيء كما هو..

كنا نقف في شرفة عادية جدًّا تطل على شارع مزدحم..

ومن جديد ساد الظلام..

قلت لها همسًا:

- «إنّه البرق فعلًا..»

- «وهل نحن في النهار أم الليل؟»

- «لا أعرف..»

هنا جاء الدوي والارتطام.. البرق ثم الرعد كما تعلّمنا منذ عرفنا كيف ننطق الكلمتين عد المسافة بين البرق والرعد التعرف إن كانت العاصفة قادمة أم تبتعد.. لو ازداد العد في كلّ مرّة فالعاصفة تبتعد..

من جديد هوى لسان آخر من ذات الموضع ليضرب ذات البقعة السابقة..

هذا غير معقول! هذا خطأ.. البرق لا يضرب ذات المكان مرّتين أبدًا.. هذه قاعدة أخرى تعلمناها في صغرنا..

حتى على أرضنا تغير العالم كثيرًا جدًّا.. كنا نرى البرق ونسمع الرعد ونرى قوس القزح في طفولتنا كثيرًا.. أعتقد أنني لم أر هذه الظواهر منذ ثلاثين عامًا.. أعتقد أن الشباب لم يروا هذه الأشياء قط.. وماذا عن الهداهد؟ الهداهد الجميلة التي كنت أراها فوق الأشجار في طريقي للمدرسة؟

لم تعد الطبيعة طبيعة كما كانت..

لكن هذا البرق غريب الأطوار.. لقد رأيت بقعة من النار تتوهج في آخر بقعة نزل فيها.. هذا حريق.. البرق الذي ينزل في الموضع ذاته مرّتين قادر على أن يحرق.. هذا منطقي..

لكن النار خبت سريعًا.. لا أعرف السبب لكني رأيتها تزول..

ومن جديد ساد الظلام..

همست (سلمى) في انفعال:

- «لا أفهم ما رأيناه لكن هناك شيئًا واحدًا فائق الأهميّة.. نحن لسنا مكفوفين!»

فطنت للحقيقة فنظرت لها في الظلام.. لا أراها ولا تراني لكنّها تعرف يقينًا أنني أنظر لها..

قلت في ذهول:

- «هذا حقيقي.. وهذا معناه..»

- «معناه أنّ هذا عالم مبصر.. لكنه عالم بلا ضوء!»

☆ ☆ ☆

6 - قبس ضوء..

أعتقد أننا كنا الآن في لوبي الفندق.. لا أعرف بالضبط فقط هو مكان صاخب.. أرجو ألا يكون غرفتنا وقد دخلها 76 واحدًا.

قلت لـ (سلمى) ونحن نتحسس طريقنا في الظلام:

- «لابد من شخص يجيب عن أسئلتنا.. إن الأسئلة كثيرة بحق..».

- «لا تعتمد على هذا.. من تسأله سيعتبرنا مجنونين لا أكثر.. أن تسأل هنا عن الظلام كمن يسأل في عالمنا عن معنى كلمة (شمس)..»

ثم فكرت قليلًا وأضافت

- «هل تعرف رأيي؟ أعتقد أنّ هذا الكوكب لا يعرف النار كذلك.. تذكر ما قاله خادم الغرفة عن مضغ التبغ.. لماذا؟ لأنهم لا يعرفون كيف يُدخن..»

- «احتمال واه.. الشطائر التي أكلناها كانت ساخنة.. لو كنت تعرفين طريقة غير النار لتسخين الطعام فإنني أرجو أن تخبريني بها..»

- «كذلك لا كهرباء..»

ثم أضافت وقد تذكرت نقطة جديدة:

- «لا شمس.. لهذا كان دور الطبيبة في المستشفى يقتصر على فحص حالات الكساح.. لابد أن كل هؤلاء الأطفال الذين لم يروا الشمس قط قد تحولت عظامهم إلى مكرونة مسلوقة دعك من أن عالمًا بلا نور هو عالم غير محتاج إلى طب العيون أصلًا.. فقط عندما تصاب العين بالسرطان يغدو الطب ضرورة.. لهذا تم ضم أمراض العيون إلى تخصص الجراحة العامة..»

كانت الاحتمالات تزداد قوة.. القصة تغدو منطقية..

لكن كيف؟ متى فقد هؤلاء النور؟ هل من فجر التاريخ أم أنّ هذا حدث مؤخرًا؟ هل هم متكيفون على الرؤية بشكل لا أعرفه؟ ربما تبدل شيء في عيونهم وهذا يعني أن ملايين السنين مرّت بهم في هذا الحال..

لا أرى حلًا سوى أن نبحث عن قسم الشرطة ونحاول الحصول على جهازنا..

هذا العالم لا يطاق.. لا يطاق إلى درجة أنه مخيف..

مددت يدي أعبث في جيبي شاردًا. هنا اصطدمت أناملي بشيء ما..

☆ ☆ ☆

كنت مع (جمشيد) في ذلك الكهف الصحراوي.. أردت أن أسخن طعامي، فقال وهو يدسّ في يدي شيئًا:

- «استعمل هذه.. لقد سرقنا بعضها منهم..»

كانت قداحة بلاستيكية صغيرة امتلأت حتى نصفها.. لكنّها كانت مصدرًا عزيزًا للنار في هذا العالم.. أشعلت بها الموقد ثم أعدتها له فقال باسمًا:

- «احتفظ بها.. نحن نسرق الكثير منها من جثث الجنود الغربيين الهالكين..»

☆ ☆ ☆

الآن كانت القداحة بين أناملي..

معي قداحة يا (سلمى).. لشد ما أعتبرها كشفًا ثمينًا في عالم الظلام هذا.. أريد أن أشعلها.. أريد أن أرى اللهب لحظة واحدة..

أريد أن أتفحص هذه الوجوه لأرى من هي.. أعرف كيف يبدو هذا اللوبي وما هي أبعاده.. أريد لحظة واحدة ثم يعود الظلام..

أريد أن أتأكد من أنني لست كفيفا حقًّا.. ربما كان وهج ذلك البرق قويًا إلى درجة أن المكفوف يراه.. لا أذكر أين قرأت قصة كهذه، لكن يُقال إن ضوء بركان (فيزوف) كان من القوة بحيث بلغ شبكية العميان.. أعرف أنّ هذا هراء، لكن لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير فيه..

مددت يدي إلى القداحة وداعبت الترس.. شليك.. شليك!

في اللحظة التالية توهج الضوء، ومن جديد تكررت الظاهرة الستروبوسكوبية إياها.. بدا لي كأن كل من رأيتهم تحولوا إلى تماثيل..

(سلمى) تنظر للنور في لهفة.. موظف الاستقبال يقف أمامه رجلان.. امرأة تجلس على أريكة وترضع طفلًا.. ثلاثة رجال يشربون الشاي.. الكل ينظر للهب في ذهول..

كان أهم ما لاحظته في هذه الومضة السريعة أنّ هناك حالة عامّة من اضطراب الثياب وعدم الهندمة.. الرجال منكوشو الشعر طويلو الذقون، والمرأة ترضع الطفل بطريقة خالية من اللياقة في مكان عام.. لوبي الفندق قذر جدًّا ولا يمكن أن تري مثله في لوكاندات (الحسين) التي تتقاضى جنيهين في الليلة..

كل هذا منطقي.. عالم لا يبصر هو عالم لا يهتم البتة بمظهره.. أعتقد أنه عالم يهتم برائحته أكثر..

طبقًا كانت قدرة القداحة على الإضاءة محدودة.. دائرة ضيقة جدًّا من الوجوه.. لا أرى أبعد منها..

الملاحظة الثانية هي أن النور المهم فعلًا..

أنا نفسي شعرت بألم بالغ عندما لامس الضوء شبكيتي..

ومن جديد ساد الظلام..

هنا فقط بدأ الجحيم..

سمعت من يصرخ:

- «اقبضوا عليهما!»

- «متمردان!»

- «كافران!»

- «لقد لوَّثا الظلام!»

☆ ☆ ☆

7 - الجريمة..

كافران؟ متمردان؟ لوثا الظلام؟

لم أعرف أنني ارتكبت كل هذه الجرائم بالجملة، لكن أسماء التهم تدلّ على أن الأمر لن يقتصر على السجن.. منذ فجر التاريخ ومصير الزنادقة هو قطع الرقبة أو الحرق.. مصير المتمردين لا يختلف كثيرًا ولات حين مناص.. لا.. لن يكون هناك حرق ما دامت لا نار هنالك!

كنت قد أدركت في هذه اللمحة السريعة مكان المدخل.. هكذا مددت يدي أعتصر ساعد (سلمى) وجريت في ذلك الاتجاه.. كان هذا هو الوقت الذي شعرت فيه بمن يعتصرني بين ذراعيه في قوة.. لقد فررت إلى ذراعيه مباشرة كأنني أعشقه منذ دهور!

هكذا رفعت ركبتي وضربته في أسفل بطنه، فسمعت الهواء يخرج من فمه.. في اللحظة المناسبة بالضبط لأن أحدهم أمسك بساعدي بقوّة.. كل القوم هنا يمسكون بساعدك بطريقة تذكرك بالكلابات..

لم يكن هناك وقت للمزاح؛ لذا ضربته بجبهتي في جبهته أعنف ضربة ممكنة جعلت مخي يرتج حيث سبح في بحيرة السائل النخاع الشوكي.. لكن ككل ضربات (الروسية) هذه يتضرر المضروب أكثر من الضارب ولا أجد تفسيرًا فوريًا لهذه الظاهرة..

- «أغلقوا الباب! إنهما يحاولان الهرب!»

كنت أخشى هذا..

لكننا نتحرك بسرعة وأشم رائحة الهواء النقي.. إننا على الباب.. إننا اجتزناه فعلًا..

في هذه اللحظة انغلق الباب وراءنا! لقد أغلقوه ليحبسونا بالداخل وهذه هي مزية التعامل مع عميان..

هبطت و(سلمى) بضع درجات. بصعوبة أنقذت عنقي من أن يتحطم إذ تعثرت.. وفي النهاية وجدنا أننا في الشارع..

همست لها:

- «لن يطول الوقت.. سيخرجون للبحث عنا، وهم وأسرع.. يجب أن ننتظر جوار جدار ونكف عن الكلام..»

- «والرائحة؟ رائحتنا..»

كانت رائحة طعام تهب علينا من مطعم ما، وقدرت أنها قوية بما يكفي كي لا يشمنا أحد.. بعد كل شيء هم بشر وليسوا كلابًا بوليسية.. ما لم يكن الفص الشمي في مخهم قد صار في حجم قبضة يدي..

هكذا جلسنا جوار جدار وضممتها على سبيل تقليل مساحة جسدينا ورحنا ننتظر..

بالفعل نسمع صوت الخطوات..

هناك من يصيح:

- «إنهما ليسا بالداخل..»

واحد يسأل في غلظة:

- «ماذا فعلًا؟»

- «معهما نار وقد جرعوا على إشعالها! لقد لوثا الظلام!»

- «فلنخل مسئوليتنا.. يجب أن تبلغ الكهنة!»

كانت هذه الكلمات غريبة عندما تقال بالعربية وبلهجة قاهرية.. لا يتلفظ بها أحد رجال الإزتك أو راهب بوذي.. هناك كهنة في الموضوع..

- «إن المسئولية خطيرة..»

- «لذا يجب أن يتولى الأمر من هم أكثر حكمة..»

- «ربما كانت الكلاب قادرة على العثور عليهما.. إن رائحتهما تملأ الغرفة..»

- «معك حق..»

يا للكارثة!

هناك كلاب بوليسية ورائحتنا تملأ الغرفة! ما الذي فعلناه بالضبط؟

عندما ابتعدت الأصوات أشرت لـ (سلمي) كي ننهض ونبتعد.. يجب أن نبتعد قدر الإمكان ثم نجد طريقة للفرار من تلك الكلاب الموعودة..

نشم رائحة الطعام.. رائحة لحم محمر أو مشوي.. صحيح كيف يحصلون عليه من دون نار؟

وقفنا أمام دخان طيب الرائحة كالذي شممناه أمس.. بالفعل تحول الأمر إلى سحابة كثيفة تحيط بنا.. صوت أشخاص يروحون ويجيئون في الظلام..

همست (سلمى):

- «ألا يأكلون إلا اللحوم؟ أين يمكن للمرء أن يأكل بعض الفول؟»

قلت لها:

- «لاحظ أنّ هذا كوكب بلا نور.. أي إنّه لا نباتات هنا.. لابد أنهم يعتمدون على البروتين الحيواني اعتمادًا كاملًا..»

- «وماذا تأكله الحيوانات؟»

حقًّا كان هذا سؤالًا غامضًا.. من دون نباتات لن تدوم الحياة إلا بضعة أشهر إلى أن يتم التهام الثروة الحيوانية الباقية.. بعدها.. لا طعام.. خطر لي خاطر مخيف استعذت بالله منه.. هذا العالم لا يأكل أهله بعضهم البعض.. لا يمكن أن تكون الأمور بهذا السوء..

وما معنى أننا لوثنا الظلام؟ من الواضح أنهم يعتبرون الظلام كيانًا مقدسًا.. من هم هؤلاء الكهنة؟ الحقيقة أن كل دقيقة لنا هنا تشعرني بأن هذا الكوكب غير رحب على الإطلاق..

قلت لها:

- «بيني وبينك.. لقد بدأت أعتقد بما كان يقوله الفلاسفة إن عالمنا هو أفضل العوالم المحتملة.. لقد رأينا أرضًا انقرض فيها العرب وأرضا سيطر عليها المغول وها هي ذي أرض بلا شمس.. من الواضح أننا كنا في جنة أرضيّة ولم ندرك هذا..»

قالت كالحالمة:

- «صبرًا.. هناك عالم رائع في مكان ما المشكلة هي أن أخطاءنا لا تصحح.. لا نستطيع العودة العالمي أو عالمك.. أنت تعرف أن الجهاز لا يكرر ذات العالم مرّتين.. الباب الذي نتركه صار محرمًا علينا..»

ثم أردفت:

- «المشكلة هي أنّ هذا العالم مقضي عليه بالهلاك.. عالم بلا شمس هو عالم منته.. لكن إلى أي حد؟ هل تأقلم هؤلاء القوم وكيف؟»

قلت في قلق:

- «هل تعتقدين حقًّا أنه عالم بلا شمس؟ إذن لكان الجليد يكسو كل شيء.. كنا سنكون أقرب إلى كوكب (بلوتو).. مجرد صحراء جليدية بلا حياة.. بينما نحن لا نعاني إلا بعض البرد الذي يذكرني بالأيام الباردة في شهر (طوبة) في عالمي.. ليست هذه هي فكرتي عن انعدام الشمس.. قد يكون هذا عالمنا بلا نور لكنه بالتأكيد ليس عالمًا بلا شمس..»

الحقيقة أن الألغاز تزداد كثافة.. في مكان ما توجد الإجابة لكن أين؟ وما هي؟

☆ ☆ ☆

8 - الكلاب..

كان بائع الصحف ينادي بصوت عالٍ على بضاعته:

- «اقرأ الأخبار.. آخر تصريحات القومندان.. إعدام خمسة من النورانيين!»

في عالمي هناك مدارس صوفية تحمل ذات الاسم، كما أنّ هناك منظمة سرية شريرة ذات طابع يهودي هي (النورانية)، يُقال إن إبليس شخصًا يرأسها، وهي موضوع مفضل لكتب المؤامرات على غرار (الإمبراطورية الخفية) و(أحجار على رقعة الشطرنج).. إلخ.. لكن لا أعتقد أن لها علاقة بما يتكلم عنه هذا الرجل..

لكن ما معنى أنه يطالب الناس بالقراءة؟

دنوت من مصدر الصوت.. ومددت يدي أتحسس بالفعل كانت هناك صحف، لكن ورقها سميك أقرب إلى الورق المقوى، وكانت على الورق صفوف من ثقوب وبروزات تحسسها أناملي.. من الواضح أن لغة (برايل Braille) هي طريقة الكتابة السائدة هنا، ومعنى هذا أن عدد قارئي الصحف أقل بكثير من عالمنا..

معنى هذا كذلك أننا سنكون أميين في هذا العالم..

من هو القومندان؟ وماذا يفعل؟

قالت لي (سلمى) وقد فهمت بذكائها الحاد ما وجدت:

- «طريقة (برايل).. أليس كذلك؟»

- «بلى.. لا توجد طريقة أخرى.. أعتقد أنّ هناك خدمات إذاعية كذلك..»

كنت أدرك حقيقة أنّ هناك جوًا بوليسيًا مرهقًا في هذا الكوكب الناس غير ودودين على الإطلاق وهذا يزيد من تعقيد عملية الفهم.. ليس بوسعك أن تدنو من أحدهم لتسأله عن القومندان وهذه النورانية..

فجأة سمعنا البائع يتكلم ومن الواضح أنه يكلمنا نحن:

- «اسمعا.. لو كنتما المقصودين فلتفرَّا حالًا!»..

سألته في رعب:

- «المقصودان بماذا؟»

قال نافد الصبر:

- «لا داعي للتذاكي.. أنتما تعرفان ما أتكلم عنه.. إن سيارة الشرطة قادمة.. أسمعها بوضوح.. لن تكون لديكما أية فرصة للنجاة!»

سيارة شرطة؟

قالت (سلمى) وهي تجرني من ذراعي:

- «هذا معقول.. الشرطة اختصت نفسها بمزية الرؤية هذا يجعل المطاردين معدومي الحيلة تمامًا.. لابد أنهم يستعملون الأشعة تحت الحمراء أو شيئًا من هذا القبيل، وبالتالي يتمكنون من القيادة في شوارع المدينة.. دعنا نفر من هنا!»

قال بائع الصحف:

- «هذا هو العقل بعينه.. الشرطة تستعمل طريقة التصوير الحراري للرؤية.. لاحظا أن الكلاب قادمة كذلك!»

قلت في جزع:

- «وماذا نعمل بصدد هذا؟»

- «هذه مشكلتكما.. لكن لو كنت مكانك لبدلت ثيابي بثياب قديمة كريهة الرائحة!»

وشعرت بشيء يلامس يدي.. إنها ثياب قديمة متسخة.. لا أعرف لماذا يحتفظ بها، لكن هذا الرجل خدوم فعلًا.. من الصعب أن تلقى من يقدم لك خدمات في هذا العالم.. الجميع خشن فظ أو - على الأقل - بارد لا مبال..

الآن أسمع صوت السرينة.. بالفعل هناك سيارة شرطة قادمة.. والسبب الذي جعله يسمعها ولم نسمعها نحن هو أن حواس هؤلاء القوم صارت مرهفة مشحونة كالسكين.. هاتان أذنا قط..

يمكنني الآن أن أسمع نباح الكلاب..

سوف يستغرقون دقائق إلى أن يصلوا إلى الفندق فتصعد الكلاب إلى غرفتنا لتنهل من رائحتنا ثم تنطلق في الشوارع..

صحت في (سلمى):

- «انزعي ثيابك مثلي!»

وبدأت أتجرد من الثياب فيما عدا ما هو ضروري منها.. ولم بال بمكان ترك ثيابي. لقد صارت لعنة يجب التخفف منها سريعًا..

صاحت محتجة:

- «منذ متى أتجرد من ثيابي في الشارع؟»

- «منذ صرنا في عالم لا يرى أي شيء.. أنت في أمان أنك في غرفة موصدة.. إن الثياب الجديدة ليس الغرض منها ستر جسدك بل ستر رائحتك!»

وبدلنا ثيابنا بما استطعنا من تلك الثياب العتيقة كريهة الرائحة.. لابد أن صاحب هذه الثياب السابق كان يعمل في المجاري.. لكن الأمان أهم من النظافة حاليًا.. يسهل العثور علينا لو كانت هذه الكلاب مدربة على البحث عن أخبث رائحة الكون..

قالت (سلمى) في اشمئزاز:

- «ماذا عن الحشرات؟»

- «أعتقد أنّ هناك الكثير منها.. الشمس لا تؤدي دورها كمطهر في هذا العالم!»

- «يا للكارثة!»

سوف نجري.. لا أدري أين لكننا سنبتعد والسلام..

ماهي تهمتنا؟ إشعال قداحة طبعًا! وإنها لأغرب تهمة سمعتها في حياتي.. في (رومانيا) قديمًا كان يمكن أن تسجن لأنك أشعلت لفافتي تبغ بذات عود الثقاب، والسبب هو أن الشركات التي تحتكر الثقاب كانت تريد الحفاظ على مكاسبها، لكن يظل هذا أقل غرابة من جريمة إشعال القداحة هذه..

أين نذهب؟

إن الأمر معقد بما يكفي لو كنت مبصرًا.. فماذا عنك كفيفًا؟

هنا سمعت بائع الصحف الشهم يصيح:

- «لحظة.. نسيتما شيئًا مهمًا..»

وشعرت بالماء يسيل ليغرق ثيابي.. ويبدو أن (سلمى) تلقت بللًا مماثلًا لأنهّا شهقت.. إن الطقس بارد بما يكفي..

ثم فهمت.. ما دام رجال الشرطة يستعملون المجسات الحرارية للرؤية فمن المفيد أن تكون باردًا كالموتى..

قلت للرجل همسًا:

- «ألف شكر.. أنت رجل شهم..»

المشكلة هي أنك لا تعرف كم واحدًا يحيط بك حقًّا.. ربما كان هناك عشرة من حولنا في هذه اللحظة..

هكذا انطلقنا نركض.. لا أدري أين لكننا نركض والسلام..

وسمعنا من بعيد صوت كلاب تنبح.. لقد صدقت النبوءات حرفيًا..

كلاب عمياء طبعًا لكن منذ متى تحتاج الكلاب إلى رؤية واضحة؟

☆ ☆ ☆

9 - المتحف..

نركض في الشارع غير واثقين أصلًا من أنّه شارع..

لكنك تشم رائحة الطعام في المطاعم، وتسمع النداء عبر مكبرات الصوت يدل الناس على مواضع المستشفيات والهيئات الحكومية.. جو غريب فعلًا..

- «هيئة التأمين! هيئة التأمين! المعاشات! المعاشات! حجز تذاكر الطيران! فندق.. فندق!»

كنا نجري بلا توقف، وإن هتفت (سلمى) بأنفاس متقطعة:

- «تذاكر طيران في عالم لا يرى؟»

قلت وأنا ألهث:

- «أعتقد أن الأمر يعتمد على الكمبيوتر الملاحي إلى حد كبير.. لابد أنهم يقومون بضبط الإحداثيات ويتركون الأمر للملاح الآلي..»

لم أمقت في حياتي شيئًا مثل الكلام أثناء المشي أو الركض.. أشعر وقتها بأنني موشك على الإصابة بنوبة قلبيّة..

- «المتحف المصري! تعالوا لتتحسسوا كنوز الفراعنة!»

حتى هذا يتم تحسسه!

معنى هذا أننا في ميدان تحرير قاهرة هذا الكوكب.. للمرة الأولى نعرف أين نحن..

عبرنا الشارع دون قلق.. فلا توجد أية مركبة.. لا أصوات ولا ضوضاء..

فجأة فكرنا في الشيء ذاته معًا.. زيارة للمتحف المصري في هذه الظروف.. على الأقل لن تدخل الكلاب وراءنا.. لن يكون هذا أغرب مكان للاختباء.. لقد فررنا ذات مرة من المغول إلى السينما، واتضح أنها ألعن مكان يمكن تصوره..

لا أعرف كيف ولا متى وجدنا أننا نمشي في ممر طويل وأنّ هناك من يمرر أجهزة كشف معادن على جسدينا..

سمعت صوتًا يتأفف:

- «ما هذا؟ ألا تستحم؟»

صحيح.. يبدو الأمر غريبًا بعض الشيء أن يهتم شخص لا يلبس إلا هذه الأسمال المتسخة بزيارة المتحف المصري، لكني تجاهلت ما قاله.. ودفعت ثمن التذكرتين حسب القواعد الجديدة.. الحقيقة أننا نمارس الغش بلا انقطاع.. أعتقد أنني صرفت ثلاثة جنيهات لا أكثر وجدت طريقها إلى الإنفاق على أنها ثلاثمائة جنيه.. طيلة الوقت أتقاضي باقي مالى بالأوراق المطوية فمن أدراني أنها كذلك؟

كيف لا يخدع الناس بهذه الطريقة؟

هناك احتمالان.. احتمال أن الجميع في الهواء سواء لذا لا يوجد احتمال للغش.. الكل يتعاطف مع بعضه والأمانة جزء مهم من كيانك.. الاحتمال الثاني هو وجود نوع من (توازن الغش).. أنت تغش الناس وهم يغشونك.. هكذا تبقى الثروة موزعة بنسب ثابتة.. في الغرب القديم كان الفارس يترك حصانه في الحانة ويختار حصانًا أكثر لياقة، وكان هناك من يأخذ حصانه.. هكذا يبقى توازن الخيول ثابتًا..

الآن نجتاز مدخل المتحف المصري.. للمرة الأولى نراه من دون ضوء..

صوت مرشدة حسناء.. كيف عرفت أنها حسناء؟ لا يوجد تفسير آخر.. نفس ما أوقع (طه حسين) في غرام (مي)، برغم أن الصوت يخدع كثيرًا.. لكن الأذن تعشق قبل العين أحيانًا..

المرشدة الحسناء تقول لنا:

- «لو مددتم أيديكم إلى اليمين لشعرتم بملامح تمثال (أمنوفيس الرابع).. الوجه الطويل الحزين.. هذه هي الملامح التي تمثل فترة العمارنة.. إن الاسم الذي نعرفه لهذا الفرعون هو.. (أخناتون)..»

هذه التماثيل كانت معروضة بعيدًا عن أعين المشاهدين.. لكنها الآن قد وضعت على الأرض لتكون متاحة لمن يريد أن يتحسسها..

أتلمس ملامح الوجه فتصطدم يد بيد أخرى لا أعرف إن كانت يد (سلمى) أم لا.. فقط أسمع من تقول وهي تسحب يدها:

- «انتشولدجن زي..»

سائحة ألمانية كما هو واضح.. جاءت من بلدها لا لترى آثارنا لكن لتتحسسها..

بحثت بيدي حتى لمست يد (سلمى).. يسهل أن أجدها بفضل رائحتها الكريهة.. نحن بحاجة إلى حمام لكن متى وأين؟ وهل نكون في أمان وقتها؟

- «هنا تجدون تمثالًا يظهر الجسد شبه الأنثوي لهذا الفرعون، حتى اعتقد العلماء أنه مصاب باختلال هرموني ما...»

أمسك بيد (سلمى) ونقف في ركن المكان.. الصوت يضعف ويضعف.. الخطوات تبتعد.. واضح أن المجموعة تبتعد عنا..

قالت لي في الظلام:

- «لا أستطيع تخيل قاعة العرض هذه.. كيف وضعوا هذه التماثيل العملاقة هنا في متناول اللمس؟ إنني أذكر قاعة العمارنة هذه وأعرف موضع كل تمثال فيها..»

- «وأنا كذلك..»

همست في إغراء:

- «ما رأيك في مرة واحدة.. تشعل القداحة لربع ثانية لنرى المكان ثم تنتهي كأن شيئًا لم يكن؟»

همست في رعب:

- «لقد فعلتها مرة واحدة وها نحن ذان ندفع الثمن بلا توقف..»

- «من الواضح أنه لا أحد هنا..»

- «وكاميرات المراقبة؟»

- «هل تمزح؟ كاميرات مراقبة في بلد عميان؟ أعتقد أنهم يكتفون بأجهزة تنصت مرهفة..»

هنا فعلت التصرف الوحيد المنطقي.. رفعت صوتي عاليًا:

- «لو سمحت يا آنسة!»

لا رد.. فعدت أكرر الأمر:

- «لو سمحت يا آنسة!»

سألتني (سلمى):

«هل جننت؟»..

- «لا. فقط أتيقن من أنّه لا أحد معنا فعلًا..»

ثم مددت يدي إلى القداحة ورفعتها عاليًا.. بالفعل أتحرق شوقًا لرؤية الضوء.. زميل العمل القديم الذي لم أعد أراه..

تشاك! انبثقت الشعلة.. باعثة نشوة لا توصف فينا.. نشوة ربما لم يشعر بها إلا القدامى حينما تمكنوا لأول مرة من اقتناص هذه الزهرة الحارقة المراوغة..

لكن ما رأيته كان غريبًا..

☆ ☆ ☆

10 - الضوئي..

لم أر تماثيل (أخناتون) و(نفرتيتي) كما توقعت..

لقد كانت هذه التماثيل التي كنا نتحسسها عبارة عن كتل تم صبها بالأسمنت وتم طلاؤها بمادة براقة ما.. لقد تم الصب بعناية لتعطى ذات الانطباع.. هناك تجاويف وحفر حيث تحسسنا بحثًا عن وجه.. هناك التفاف حيث قيل لنا إنّه جسد (أخناتون) ذو الطابع الأنثوي.. هناك ما يشبه النقوش..

لقد كانت خدعة كبرى.. وهذه السائحة الألمانية جاءت من بلادها كي تتحسس كتلًا أسمنتية!

تذكرت قصة العميان الأشهر، عن العميان الذين تحسسوا فيلًا فقال أحدهم إن الفيل يشبه المروحة، وقال آخر إن الفيل خرطوم لين، وقال واحد إن الفيل أربعة أعمدة غلاظ.. كل واحد كان يصف ما لمسته يداه.. بينما المبصر يرى كل شيء ويدرك أن كل هذه أجزاء من فيل..

لكن من فعل هذا؟ هل سرقت هذه الآثار؟ هل إدارة المتحف تعرف؟ هل أرادت أن تحمي الآثار الثمينة بهذه الطريقة؟ المهم أن السائح أو الزائر يلمس بأنامله ما وصفته المرشدة.

لم يكن الوقت كافيًا لمزيد من الفهم..

هذا الضوء يفضحنا ويكشف أمرنا..

لقد استغرق الأمر جزءًا من دقيقة، لكن كان هذا كافيًا.. وقد عرفنا كذلك أن القاعة خالية كما تمنيت..

خالية؟ ليس تمامًا..

كان ذلك الرجل يقف هناك في ركن القاعة جوار المدخل وقد وضع يده أمام وجهه ليتقي الضوء..

عندما خفض يده أدركت أنه يضع عوينات غريبة الشكل على رأسه تجعله أقرب لصورة لرأس النملة كما تراها بالمجهر الإلكتروني.. ليست عوينات بل هي أقرب إلى عدسات النظارات التي تطل على العالم خارج رأسه على الجانبين.. وهي تتصل بمجموعة معقدة من الأسلاك ومثبتة بخوذة إلى رأسه.. صورة قديمة رأيتها مرارًا في اللقطات الإخبارية من مواقع الحروب..

جهاز رؤية ليلية..

عندما عاد الظلام كنت أفكر.. هل غياب الشمس يسمح بوجود الأشعة تحت الحمراء؟ لا أعتقد. إذن من أين تستمد هذه العدسات الشعاع الذي تري به؟

لقد رأى كل شيء لا جدال في هذا..

هنا يأتي السؤال الأهم: من هو؟

هل كان يراقبنا منذ البداية؟

ارتجفت وسمعت (سلمى) تشهق في رعب..

هنا جاء صوت الرجل عاليًا في الظلام يقول:

- «أرى أن المتحف راق لكما.. لكن أرى أن ننصرف لتناول الغداء يا (كامل)..»

كدت أحتج بأن اسمي ليس (كامل)، لكن (سلمى) اعتصرت ذراعي بقوّة.. الرجل لا يكلمنا ولكن يكلم أجهزة التنصت الحساسة التي توقعنا وجودها..

إنه يرسل رسالة لطرف آخر يصيخ السمع..

وسمعته يهمس قرب أذني:

- «لا تكن غبيًّا! اتبعني في هدوء!»

وفي الظلام شعرت بيده تمسك بمعصمي.. ومشينا وراءه بلا مقاومة.. مشينا في رواق طويل والأفكار تصطرع في ذهنينا..

أخيرًا شممنا رائحة الهواء البارد.. نحن في الخارج فعلًا..

سمعته يهمس:

- «أنتما في ورطة مخيفة..»

- «منذ متى لم نكن؟»

- «أنصحكما بأن تبقيا معي.. لا أمل لكما في النجاة غير هذا..»

- «من أنت؟»

قال بنبرة عملية:

- «هذه قصة تطول فقط يجب أن تنجوا أولًا.. بعد هذا نتكلم.. إنني أراقبكما منذ فترة لا بأس بها.. فرصتكما في النجاة واهية جدًّا لأن الشرطة تملك وسائل رؤية ليلية، بينما أنتما لا تملكانها.. تصوّر فرصة كفيف في النجاة بين مبصرين هذا هو وضعكما..»

- «لكن المجسات الحرارية والكلاب.....»

قال مقاطعًا:

- «ليس هذا كل شيء.. لاحظا أنني ألبس جهازًا لا يعتمد على هذه التقنيات.. لقد حصلت عليه بالوراثـ... من رجل شرطة اضطررت لضربه.. عندما تصير المبصر الوحيد وسط العميان تعرف أشياء مروعة بحق.. وهذه المعرفة باهظة الثمن إنها تساوي حياتك نفسها..»

كنا نمشي معه كطفلين وهو يقتادنا عبر طرقات لا نهاية لها..

بعد نصف ساعة شعرنا بأننا في مكان مغلق..

سمعنا الباب يوصد.. ثم قال لنا وهو يلهث:

- «مرحبًا بكما في بيت ضوئي من الضوئيين أو النورانيين في تعبير آخر!»

☆ ☆ ☆

الجـزء الثانـي
ذكـرى الأضواء

هنا لا توجد مياه وإنما يوجد صخر فقط..
صخر ولا مياه و الطريق الرملي ..
الطريق المتعرج في الأعالي بين الجبال ..
وهي جبال من صخر بلا ماء..
ولو كانت هناك مياه لتوقفنا وشربنا..
بين الصخور التوقف محال والفكر محال.
والعرق جاف والأقدام تغوص في الرمال..
ليت بين الصخور مياهًا!
ولكن جبل ميت به غار كفم نخر أسنانه السوس..
أسنانه التي لا تستطيع أن تبصق..
هنا لا سبيل إلى وقوف أو رقاد أو جلوس..
حتى الصمت لا وجود له في الجبال..
وإنما فيها رعد مجدب بلا أمطار..
حتى الوحدة لا وجود لها في الجبال..
وإنما فيها وجوه حمر كئيبة تهزأ أو تكشر ..

من قصيدة الأرض الخراب لـ (ت. س. إليوت)
ترجمة د. (لويس عوض)

1 - الكارثة..

في سن العشرين كان (سليم أنيس) مجرد شاب آخر..

لقد أوشك على إنهاء دراسته في كلية العلوم.. قسم الجيولوجيا، وهي دراسة لم يكن موفقًا فيها تمامًا.. لقد تعثر عدة مرات لكنه كان يتحرك إلى الأمام برغم كل شيء..

لم يعلق شيء من الدراسة في ذهنه سوى د. (مصطفى) أستاذه الذي كان أقرب الأحياء إلى صفات العالم بالنسبة له كان قصير القامة أشيب الشعر ومن الغريب أن قصر قامته كان يعطيه هيبة خاصة.. المفترض أن طول القامة هو الذي يوحي بأشياء كهذه..

كان د. (مصطفى) مولعًا بالجيولوجيا بحق، ولسبب ما أحب (سليم) الذي لم يكن بالتأكيد أفضل طالب عنده.. إنها تلك الكيمياء بين الأرواح التي لا يمكن فهمها.. وفي هذا العصر السعيد كانت الدفعة صغيرة جدًّا يسهل أن تتذكر اسم كل واحد من طلبتها، دعك من أن قسم الجيولوجيا لم يكن محببًا إلى هذا الحد لدى الطلبة، وبالتالي كانت الدفعة صغيرة. ما لم تكن محظوظًا وتعمل في البترول، أو تكن عبقريًا وتعمل في الجامعة، فإن مصيرك مبهم نوعًا..

كانت أسرة (سليم أنيس) أسرة عادية متوسطة من الأسر التي يعود فيها الأب ليتناول الغداء وينام بعد الظهر، بينما تعد الأم (المحشي) الذي ستأكله الأسرة غدًا لتوفر الوقت.. ترصه بدقة في تلك الحلة التي ستضعها في الثلاجة حتى الغد.. الأخت المراهقة التي بدأت تكتشف أن مسحة لون أزرق على الجفنين تجعلها أجمل بشرط ألا يراها الأب حتى لا يفتك بها.. الأخ الأصغر الذي يرى أن أجمل شيء في العالم هو (الضرب)..

هناك حبيبة كالعادة.. تلك الفتاة الرقيقة ذات الغمازتين هناك صديق.. هناك جيران..

حياة كاملة مثل حياتي وحياتك..

فقط كانت هناك صفتان تميزان (سليم).. ربما ثلاث صفات..

ولعه بالقطط الصغيرة وهو مزاج بدا مستغربًا بالنسبة لشاب كامل الرجولة.. فقد بدا هذا لمن يعرفه كأنه علامة أنثويّة ما.. كان يحبّ أغاني (فيروز) ويحب النوم لساعة متأخرة ويحب قراءة الصحف في الحمام.. دعك من أنّه يعاني قرحة معدية مزمنة، ويبتسم بزاوية فمه اليسرى.. لا بأس.. هذه عيوب يمكن التعود عليها مع الوقت..

لم يكن (سليم) مهتما بشيء على الإطلاق.. هناك (فاتن) صديقة الكلية وهذه كانت تمثل جزءًا مهمًا من عالمه، لكنه كان يعرف أنه سيفقدها في أول فرصة ممكنة.. لن يجد الشجاعة أبدًا ليقابل

أباها وهو لا يملك دخلًا ولا مدخرات..

من جهة السياسة كان هذا الكوكب شبيهًا بأرضنا في كل شيء.. هناك إسرائيل وهناك أمريكا وهناك اتحاد سوفييتي لم يعد كذلك.. نفس مشاكل العرب وإحباطاتهم.. أوروبا تشبه تلك التي لدينا تمامًا..

أنهى (سليم) فترة التجنيد الإجباري بعد التخرج، ثم راح ينظر إلى المستقبل في قلق وتوتر.

كان بحاجة إلى وقفة (تعبوية) يقرر فيها كيف يتحرك سيناريو المستقبل..

هنا سقط النيزك..

☆ ☆ ☆

لا يذكر عن تلك الفترة إلا الهستيريا العامة..

كانت الأنباء تصل بلا انقطاع عن النيزك الذي يقترب من الأرض بسرعة جهنمية.. تلك كانت أجواء نهاية العالم فعلًا الناس يصرخون ويبكون..

التوتر العام.. القلق.. الشفاه المرتجفة..

في الشارع تسمع أصوات القرآن يتلى في المساجد، وأصوات أجراس الكنائس تدق بلا انقطاع.. لقد كثر الحديث عن (نهاية العالم)..

سامح كل واحد أعداءه، واعترف من ارتكب ذنبًا بخطئه..

أما (فاتن) فقد اتصلت بـ (سليم) تخبره أنها تحبه.. لقد قاومت كثيرًا حتى لا تعترف بهذا لكن الزمن صار شحيحًا والنهاية قادمة..

- «هل تتزوجني؟»

- «بالتأكيد..»

هذه ظاهرة أخرى من ظواهر نهاية العالم هذه.. لقد تزوج عشاق كثيرون جدًّا كي يقابلوا النهاية معًا.. ولم يكن الأهل المجهدون قادرين على الرفض..

ومن جديد تكرر ذات السيناريو الذي عرفناه على أرضنا كلما تنبأ أحد بدنو نهاية العالم.. باع كثير من أصحاب الأملاك ما يملكون بثمن بخس، وهي مخاطرة دفع الكثيرون ثمنها غاليًا فيما سبق عندما مر الموعد ولم ينته العالم، من ثم أمضوا باقي حياتهم في التسول..

في عالمنا حدث شيء مماثل عندما جاء العام الميلادي 1000 الذي تنبأ الكثيرون بأنه النهاية.. احتشد الناس في كاتدرائية كبرى بالفاتيكان يبكون بانتظار ساعة انتصاف الليل، وعندما جاء الوقت المرهوب توقفت الساعة العملاقة المعلقة هناك (لأسباب مجهولة) من ثم سقط كثيرون موتى بعد أن توقف قلبهم رعبًا!

هناك من الناس من انقطع للعبادة، وهناك من انقطع للهو باعتبار هذه فرصته الأخيرة للفساد.. قليلون انتحروا لأنّهم فضلوا الحلول السريعة على الانتظار..

كان الناس - في مصر على الأقل - يلتفون حول أجهزة التلفزيون والمذياع قلقين يتابعون المسيرة الإغريقية الكريهة لذلك النيزك الذي يقترب من الأرض بلا هوادة، والذي قيل إن محيطه قريب من محيط المحيط الهادي.. أي إن حجمه يماثل حجم القمر..

يبكي الناس ويتعانقون في الشوارع.. والمدينون يسقطون ديونهم..

أما في دار (فاتن) فقد أقيم حفل صغير حزين على عجلة.. هناك جلس (سليم) وأهله مع أهل الفتاة.. وتتعالى الهمسات:

- «إنهما متحابان بحق!»

- «البائسان! ما كنا لنجرؤ على الرفض..»

- «لو كنا في ظروف أخرى لركلت ابنكم في مؤخرته وطردته.. هل يحسب هذا الأحمق أن ابنتنا بلا ثمن؟ كيف يجسر على أن يحبّها وهو لا يملك شروى نقير؟»

- «لو كنا في ظروف أخرى لقلت إن ابنتكم ليست العروس التي أحلم بها لابني..»

- «لكننا لا نملك الشجاعة الكافية لتحطيم قلبين شابين..»

- «مما يحطم قلبنا نحن أنهما لن يريا أطفالهما أبدًا..»

كان الأمر قاسيًا.. في أرضنا كانوا يزوجون الجنود السوفييت الشبان الذاهبين إلى الجبهة للقاء النازيين.. وهذا يعني أن حياة الجندي الشاب الزوجية لن تدوم سوى ليلة واحدة بعدها يرحل إلى الجبهة حيث سيلقى حتفه غالبًا.. أي إن عروسه كانت أرملة مع وقف التنفيذ.. في هذه الأعراس السريعة كان الشاعر (إيفتوشنكو) الطفل يرقص مقابل ثمرة بطاطس يعود بها لأمه!

هكذا وجد (سليم) نفسه متزوجًا من حبيبة الدراسة.. ظروف غريبة كان سيغبط نفسه عليها لو لم يكن محكومًا عليه بالإعدام.. وفى سرّه تمنى لو أنّ الكارثة لم تحدث.. عندها سيخرج مظفرًا وقد نال حبيبة قلبه، وليس أهلها بقادرين على الاعتراض..

طبعا أقام في شقّة جديدة.. لقد صارت الشقق بسعر علب التبغ بعدما باعها أصحابها بأي ثمن.. البعض تصدق بثمن ما يملكه والبعض راح يلهو به.. ما قيمة المال بعد الآن؟ فقط الذين احتفظوا

بأعصابهم قوية ثابتة راحوا يكنزون الذهب والفضة على أمل أن تنجو الأرض، وعندها سيكونون أغنى الأغنياء ولسوف ينقلب السلم الاجتماعي بالكامل..

هذه هي الظروف التي بدأت فيها المأساة..

☆ ☆ ☆

2 - الارتطام..

أمل عابر لاح في الأفق عندما قررت (ناسا) - عندهم واحدة أيضًا - أن ترسل صاروخًا هيدروجينيًا إلى قلب النيزك ليقوم بتفجيره وهو في الفضاء قبل أن يلمس الأرض.. على الأقل يغير مساره..

هذا سيناريو تمت مناقشته من قبل كثيرًا.. وهو حل يبدو لا بأس به..

حبس العالم أنفاسه يوم انطلاق الصاروخ، بينما العدسات تنقل المشهد الخرافي.. وللمرة الأولى تعالت في العالم العربي أدعية غريبة مثل (فلينصر الله أمريكا).. لقد كانت هذه من اللحظات القليلة التي تدافع فيها أمريكا عن العالم كله، وإن كانت تدافع عن نفسها أولا طبعًا..

لشد ما تغدو الحياة أجمل عندما تقترب من النهاية..

لم أذق في حياتي ألذ من آخر كوب الشاي أو بقايا كأس العصير..

الكل ينظر للسماء ويبتهل بينما الصاروخ الجبار يحلق نحو النيزك..

وتم الارتطام والانفجار فعلًا.. وانتظر الناس أخبارًا طيبة لكن هذا لم يحدث..

لقد تحمل النيزك الصدمة والانفجار الهيدروجيني المروع، ثم واصل طريقه إلى الأرض.. ذات المسار وذات السرعة..

هكذا أعلنت (ناسا) أن العملية (ماتادور) قد فشلت.. طبعًا (ماتادور Matador) معناها (مصارع الثيران) ومغزى المصطلح واضح.. كان على المصارع الأمريكي أن يوقف هجمة الثور الفضائي.. لكنه فشل.. وظهر الرئيس الأمريكي على شاشات التلفزيون ليقول إنّه (يشعر بقلق).. والرئيس الأمريكي عادة إما أن تتحسن الأمور فيشعر بـ (تفاؤل مشوب بالحذر) أو تسوء فيشعر بـ (قلق)..

هذه المرّة لم يبك أحد..

لقد استسلم الناس لقدرهم في سكون وهدوء..

وخرجت الصحف اليومية تحمل عبارة (العدد الأخير)، وكانت مجانية، لكنّها لم تجد من يقرؤها على كل حال..

وعندما لم تبق إلا ساعات قبّل الآباء أطفالهم وسامح الحاقدون أعداءهم، وصارت الزوجات لطيفات في ظروف مجهولة..

فتحت السجون أبوابها لتسمح للمعتقلين بأن يواجهوا الموت أحرارًا، واكتظت دور العبادة..
هناك من ابتلعوا الكثير من الأقراص المنوّمة كي لا يكونوا في وعيهم عندما يحدث الشيء..
وفي الساعة الثامنة من مساء الاثنين الحزين تم الارتطام..

☆ ☆ ☆

هذه هي النهاية..
يا صديقتي الجميلة..
هذه هي النهاية..
يا صديقتي الوحيدة..
نهاية خططنا المحكمة..
نهاية كل شيء قائم..
النهاية..
لا أمان ولا مفاجآت..
لن أرى عينيك مرّة أخرى أبدًا..
هل تتخيلين ما سيكون
بلا مدى ولا قيود؟
نبحث في لهفة عن يد غريب تساعدنا
في أرض يائسة..

أغنية قديمة لجيمي موريسون

☆ ☆ ☆

لعدة ساعات ظل الجميع يتحسسون أجسادهم بحثًا عن إصابات.. لا شيء..

المؤكد هو أن شيئًا ما ليس على ما يرام. لقد تغير لون السماء وانقطع إرسال المذياع والتلفزيون.. تحولت هذه إلى قطع من البلاستيك..

على كل حال خرج الناس في المساء إلى شوارع القاهرة يتبادلون التهاني.. لقد مر الأمر على خير.. هكذا تذكر من باعوا أملاكهم برخص التراب أنهم كانوا حمقى.. قررت الزوجات أن يعدن للتنغيص على الأزواج.. عادت الضغائن لقلوب من تخلوا عنها..

أفاق هؤلاء الذين تعاطوا الأقراص المنوّمة حاسبين أنهم ماتوا.. لكن كان كل شيء كما هو..

مرّت الساعات حتى الصباح في سلام واحتفالات.. إن هؤلاء الذين أرادوا أن ينهوا وجودهم على الأرض في اللّهو استمروا فيما كانوا يقومون به، والذين لم يريدوا ذلك قرروا الاحتفال بالنجاة..

وفي دارهما هتف (سليم) وهو يحتضن (فاتن):

- «لقد نجونا! وخرجنا مظفرين! تزوجنا وصار لنا بيت ولم نمت!»

- «نحن محظوظان!!»

قليل من الشباب في مثل ظروفه من أتيحت له الفرصة بهذه البساطة.. خلال ثلاثة أيام وجد نفسه يجلس بالمنامة في داره مع زوجته الحسناء التي كانت زميلته في الدراسة، وغريبة عنه تمامًا منذ ثلاثة أسابيع. هل جاء هذا النيزك خصيصًا من الفضاء الخارجي كي يجعله سعيدًا؟ يا للكرم الكوني!

لكن الناس بدءوا يقلقون عندما أشرقت شمس الصباح..

لم تكن هناك شمس في الواقع والجو كان غائمًا كأيام الشتاء يُمكنك أن ترى النور لكنه قادم من خلال الغيوم الكثيفة التي تكاثرت في السماء..

وفي الحادية عشرة هطلت أمطار كثيفة.. تفاعل الناس لأن هذا يعني أنها ستغسل السماء غسلًا، لكن بدا أنه ما من شيء قادر على أن يعيد للسماء زرقتها..

عادت الطائرات القادمة من العالم الغربي حاملة الأخبار..

لقد كانت رحلتها مفزعة من دون اتصال لاسلكي.. وقد تلفت بعض أجهزة الكمبيوتر، لهذا كان من حسن الحظ أنه لم تهو سوى ثلاث طائرات فحسب..

وكانت الطائرات العائدة تحكي أشياء مفزعة..

النيزك سقط فعلًا.. لكنه سقط على الأمريكتين.. لقد اختار أن يستقر في المحيط الهادي باعتباره المكان الوحيد المناسب له. كما يضع الطفل قطع اللعب البلاستيكية في الثقوب المناسبة لها حجمًا..

النتيجة هي فيضانات هائلة اجتاحت المحيطين الهادي والأطلنطي.. تغيرات مناخية قاسية.. سحب كثيفة من الغبار تتصاعد إلى عنان السماء لتحجب الشمس..

أوروبا سليمة. أفريقيا سليمة. آسيا تضررت فقط ناحية السواحل كما هي العادة..

لقد نجونا ونالت أمريكا جزاءها الشعري.. هذا هو كل شيء..

كان الناس يتنفسون الصعداء..

من الواضح أنهم لم يفهموا بعد الأبعاد الحقيقية للكارثة..

وإن سيناريو K - T قد عاد يتحقق حرفيًا..

☆ ☆ ☆

3 - الموت الأعظم..

بالنسبة للحمقى الذين لا يفقهون شيئًا في علم الفلك والجيولوجيا - ومنهم كاتب هذه السطور - انتهت الكارثة على خير.. خلال أيام تصفو السماء ويتهيأ الناس للحياة في عالم بلا أمريكا هذه مشكلة لكنّها ليست خطيرة جدًّا لأن الناس سيتعلمون الاعتماد على أوروبا.. دعك من أن الصين قوة لا يستهان بها..

إسرائيل تحولت إلى قط محاصر شرس ينزوي جوار جدار وقد أدركت أن أيامها معدودة.. من دون ولايات متحدة تجد إسرائيل نفسها عارية تمامًا، لكن أوان دفع الثمن لم يحن بعد..

بالنسبة لعالم مثل د. (مصطفى) كان يرتجف هلعًا.. لقد توقع السيناريو القادم وعرف حرفيًا ما سيحدث..

إن نهاية الحياة كما نعرفها قادمة، لكن ليس بالشكل الذي تخيّله الناس..

سيكون موتًا بطيئًا مريعًا قاسيًا..

☆ ☆ ☆

عندما جلس د. (مصطفى) مع تلميذه (سليم) كانت لديه أسئلة ومخاوف عديدة، جعلت الدم يتجمد في عروق الفتى..

لماذا انقرضت الديناصورات منذ ملايين السنين؟

هذه الكائنات العملاقة برهنت عن كفاءة عالية في التكيف وقد سادت الأرض 165 مليونًا من الأعوام. ثم زالت فجأة في ظروف غامضة منذ 65 مليونًا من الأعوام..

ماذا حدث وقتها؟ ما هو السر الرهيب الذي جعلها تزول؟ هل هذا السبب قابل للتكرار؟ بمعنى أدق: هل يمكن أن يجدنا الخلق الجديد مجرد حفريات غامضة بعد ملايين السنين؟

هناك نظريات عدة يعرف رجل الشارع أكثرها.. منها نظرية غباء الديناصورات ونظرية الوباء ونظرية اصطدام النيزك النظرية الأخيرة هي الأشهر طبعًا وتقضي بأن الديناصورات كانت تتمتع بصحة ممتازة عندما هوى نيزك عملاق من الفضاء، وهذا النيزك بعث سحابة كثيفة من الغبار في الجو وبالتالي انتهى ضوء الشمس وبادت الحياة..

هناك فجوة مناسبة جدًّا لهذه النظرية في شبه جزيرة (يوكاتان Yucatan) بالمكسيك.. فجوة تدعى (تشيكسولوب Chicxulub) ساعات الإيريديوم تؤكد أنّ هذا النيزك ضرب الأرض في ذات وقت انقراض الديناصور هي نظرية K - T extinction التي ابتكرها علماء في جامعة (كاليفورنيا) عام 1980 عندنا.. ومعناها (انقراض الديناصورات في الفترة بين العصرين الكريتاسي والثلاثي Cretaceous Tertiary border)، وهذا هو ما يطلقون عليه (الموت الأعظم).. وهو اهتمام علمي بدا غريبًا لبعض العلماء الذين اهتموا بكيف عاشت الديناصورات لا كيف ماتت..

في الحقيقة كانت هناك حادثة موت أعظم سبقت هذه، هي موت ثلاثية الفصوص Trilobites.. ففي فترة من الفترات أبيدت الحياة على كوكب الأرض تقريبًا، لكن الكائنات التي بادت كانت صغيرة قليلة الأهميّة وأقرب إلى الصراصير، فلم تلق الاهتمام الكافي الذي ظفرت به كائنات عملاقة مهيبة مثل الديناصورات..

منذ هذه اللحظة صارت ثقافة (النيزك - الذي - يمحو - الحياة - على - الأرض) شعبيّة جدًّا.. لاحظ أن كل فيلم ديناصور أو رجال بدائيين ينتهي بانفجار بركان أو حريق وفوضى عامّة.. هكذا يُمحى كل شيء..

لابد أن كارثة كهذه أدت إلى أمطار حمضية وظلام شامل، وهو ما يشبه الشتاء النووي، أضف لهذا كثافة غير معتادة في نسبة الإيريديوم في التربة في عدة مواضع، مما يرجح أن أجزاء النيزك لم تترك مكانًا إلا وسقطت فيه.. لكن هذه النظرية لم تفسر سبب بقاء النباتات والثدييات حية.. كيف تحملت هذه الكارثة التي لم تتحملها الديناصورات العملاقة؟

ثمة نظرية أخرى تتحدّث عن انفجارات بركانية متعاقبة أدت إلى امتلاء السماء بسحب سود مما أدى لشلل الحياة..

باختصار انقسم العلماء إلى intrinsic gradualists وهم من يؤمنون بكارثة على غرار البراكين جاءت من الأرض وأحدثت أثرها بالتدريج.. وextrinsic catastrophists الذين يؤمنون بمصيبة جاءت من الفضاء الخارجي وأحدثت التغيرات بسرعة..

كان د. (مصطفى) من الفريق الأخير، وإن كان بعيدًا جدًّا عن القضية وعن الدخول في أي جدل بصددها..

لم يكن يعرف أنه سيختبر هذه النظريات عن كثب.. ومن مسافة قريبة جدًّا..

☆ ☆ ☆

تم الاصطدام كما قلنا..

كان د. (مصطفى) يعرف ما قاله العلماء الأمريكيون عن هذا السيناريو.. العلماء الذين لم يعد لهم وجود على الأرجح..

لو أن الاصطدام تم في المحيط، فمعنى هذا موجات هائلة على السواحل.. سوف يتناثر الماء في الجو وتغرق قارات بأكملها أمّا لو تم الاصطدام على اليابسة فلسوف تحدث زلازل كثيرة تبدأ حرائق غابات في المركز نتيجة حرارة الصدمة، ثم ينطلق الفتات في الفضاء ويبدأ تفاعل من الصخور التي تطير ثم تسقط من جديد.. البعض يبقى معلقًا في الجو ويحجب نور الشمس.. وهكذا تصير الشمس معتمة أكثر من القمر لسنوات.. تموت النباتات.. ربما تموت الحياة كذلك..

كان د. (مصطفى) يمشي في الشوارع التي يخيم عليها الظلام.. وينظر إلى الناس المليئين بالبِشر لأن الاختبار القاسي قد انتهى، ويقول لنفسه:

- «ترى هل من مصلحتي أن أعلم ما أعلمه؟ في بعض الأحيان يكون الجهل أفضل..»

لقد بدأت الزلازل.. وتهاوت بعض النيازك.. بعض البنايات القديمة قد تصدعت..

لكن مصر كانت بعيدة فعلًا عن مركز التصادم؛ لذا لم يبد أن شيئًا تغير ما عدا الظلام وبعض الزلازل محدودة الخطر..

كانت سيناريوهات نهاية العالم كما نعرفه مألوفة لـ د. (مصطفى).. يطلقون عليها لفظ التدليل (تيوتواوكي TEOTWAWKI) وهو الحروف الأولى من عبارة:

(The end of the world as we know it)

يلخص العلماء الأمر كله بصراع بين قصيدتين.. القصيدة الأولى للشاعر (فروست Frost) يقول فيها:

«البعض يزعم أن العالم سينتهي بالنار..

البعض يزعم أنه سينتهي بالثلوج..

من تجاربي مع الشهوات..

أضم صوتي لمن يتحدثون عن النار..»

القصيدة الثانية للشاعر (ت. س. إليوت Eliot) الذي يقول:

- «هكذا ينتهي العالم.. ليس بالانفجارات بل بالأنين..»

ترى من الشاعر الأكثر شفافية؟ علماء الغرب أعلنوا فوز (ت. س. إليوت) بكأس الشفافية والقدرة على التنبؤ.. إن نهاية الكون هي التفتت والاحتضار البطيء إلى أن يتلاشى.. هكذا يعتقدون طبعًا..

الكون يتمدد بلا انقطاع منذ الانفجار الأول Big Bang وهو شيء لاحظه (أينشتاين).. لاحظ كذلك أن سرعة الأجزاء البعيدة منه لا تبطئ لكن تتزايد.. هذا شيء غريب.. معنى هذا أنّ هناك مادة غريبة بين الأجسام الكونية أطلق عليه اسم (ضدّ الجاذبية).. ذلك الاسم الذي عدل عنه فيما بعد واعتبره غلطة عمره.. الحقيقة أنه لو تمسك بهذا المفهوم لنال جائزة نوبل ثانية، لأن علماء الغرب لم يعد لهم هم إلا دراسة هذه المادة الغامضة المضادة للجاذبية التي تجعل تمدد الكون يزداد سرعة كلما تقدم الزمن.. الكون يتمدد ويتباعد إلى أن يصير لا شيء تقريبًا كما يرى علماء الغرب.. لكن فهم هذه الأمور مستحيل على كل حال من دون معادلات، ومن دون أن تكون فيزيائيًا..

يقول عالم الفلك الأمريكي (مايكل تيرنر): «لو كنت تعتقد أن الكون معقد وعسير الفهم، فعليك أن تبتلع بعض أقراص الصداع لأن الأمور سوف تزداد سوءًا..»

لكن هذه لم تكن نهاية الكون كما نعرفه.. كانت فقط نهاية حياة البشر على الأرض كما نعرفها..

لقد بدأ السيناريو K - T فعلًا..

نفس السيناريو الذي أدى لانقراض الديناصورات منذ ملايين السنين قد بدأ يعمل.. فقط هو موت بطيء قاس.. يرد شديد لكنه غير كاف لقتل الحياة على وجه الأرض.. ظلام دامس.. صارت الشمس حلمًا عسيرًا..

لكن أشنع ما في الأمر لم يأت بعد..

☆ ☆ ☆

4 - حياة الظلام..

حدثت هذه الأحداث في الثمانينات..

الآن صارت الأمور أكثر وضوحًا وعرف الناس ماعرفه د. مصطفى منذ عشرين عامًا ونيف..

لقد صار الظلام قاعدة.. لم يعد هناك بصيص نور عابث متسلل يجد طريقه لعيونهم كما كان في أيام الكارثة الأولى.. بل صار ظلاما كثيفًا حقيقيًا كالذي تراه - أو لا تراه - إذا أغمضت عينيك الآن..

لم يعد هناك صباح.. لا نهار.. لا شمس..

الكل يعرف أن الشمس العزيزة لم تول ولم تتخل عن مهمتها أو تمارس الإنتروبي entropy كما توقع علماء الفيزياء، لكنّها كمحبوبة تناديك في لهفة، لكن تفصلك عنها أستار كثيفة..

من حين لآخر تدوي عواصف رعدية مرعبة. ويهوى البرق ليحرق شيئًا.. عندها فقط كان الناس يتذكرون ما هو البصر.. لكن كان يتم إطفاء هذه النيران خلال ثوان لأسباب سنعرفها حالًا..

هكذا انتهت من اللغة كلمات مثل (صباح الخير) و(نهارك سعيد).. في البدء كان من يستعملها يجلب لنفسه السخرية، وبعدها صار من يستعملها يجلب لنفسه اللوم..

هناك أشياء لم يعد لها معنى.. ما معنى أن اللبن أبيض؟ ما معنى أن البحر أزرق؟ ما معنى أن فلانًا أصفر من الحقد أو أحمر من الغيظ؟ هذه ثقافة لم يعد فيها مكان للون..

في البداية كانت السيطرة المطلقة في هذا المجتمع للعميان.. لقد كانوا كذلك منذ البداية ولم يخسروا شيئًا.. كانوا يستطيعون تدبير أمورهم واستمر الحال كذلك.. وكان من الممكن لو أنك تملك القدرة على الإبصار أن ترى رجلًا كفيفًا يقتاد مبصرًا في الظلام.. هناك فيلم شهير لأودري هيبورن اسمه (انتظر حتى يحل الظلام).. في هذا الفيلم هي امرأة كفيفة تواجه غزوًا من القتلة لدارها.. إنها ضعيفة هشة كعصفور صغير، لكنّها تقرر أن تقطع النور عن البيت ليسود الظلام.. بهذا فقد المهاجمين تفوقهم وصاروا دمى عاجزة في قبضتها.. إنها تعرف كيف تجد طريقها.. تعرف كيف تجد السكين.. تعرف كيف تهجم في الظلام وتقتل..

هذا هو ما حدث بالضبط في بداية أيام أرض الظلام..

مع الوقت تعلم الناس كيف يمشون عن طريق تحسس طريقهم، وبالتالي كان لابد للسيارات أن تنقرض.. لا يمكن أن تقود سيارة في ظلام دامس حتى لو أردت.. انقرض الطيران وعادت رقعة

العالم ضيقة محدودة.. كل بلد منغلق على نفسه يطبع صحفه بطريقة (برايل).. وظهرت ثقافة جديدة هي ثقافة العمى..

هناك معارض الفن التشكيلي لكنك تدخلها كي تلمس اللوحات، وتبدي إعجابك بامتزاج الخشونة بالنعومة.. مثلًا قال أحد النقاد عن معرض الفنان (نادر وهبة):

- «الخطوط الحادة البارزة القاطعة توحي بالحتمية، بينما المنحنيات الناعمة توحي بانكسار الروح.. الخشونة سمة عامّة في كل اللوحات.. صنعها الفنان عن طريق تمزيق ورق الصنفرة ولصقه على مسار البشريّة.. إنّه يقول بوضوح إن الرحلة لم تنته بعد...»

كان هناك ازدهار في الفنون السمعية.. تراجع الكتاب والتلفزيون كثيرًا جدًّا لتتقدم التمثيلية الإذاعية والأغنية..

تعلم الناس كيف يتعاملون بالنقود البارزة، لكنهم وجدوا أنها مكلفة فعلًا، لذا عادوا للأوراق المالية القديمة مع اتفاق عام على ثنيها بطرق تدلّ على قيمتها. لم يكن من مصلحة أحد أن يغش لأن هذا يعني أنّ هناك من سيغشه غدًا..

هذا هو توازن الحقيقة.. لا تغش الناس كي لا يغشوك..

كل هذا متوقّع.. وعلى كل حال قنع الناس بالنور في بيوتهم يشاهدون الأفلام القديمة التي تظهر أيامًا كانت الشمس فيها تغمر المروج، وقد اقتنى الأثرياء مصابيح شمسية تعطى ذات دفء ووهج ونفع ضوء الشمس لتنير بيوتهم..

أمّا ما لم يتوقعه الناس فهو أن تزحف الظلمة إلى بيوتهم ذاتها..

☆ ☆ ☆

لسبب ما بدأت الطاقة تفني في الكوكب كله..

لقد حار العلماء في فهم هذه الظاهرة، وقالوا إن السبب هو أن الطاقة في جميع صورها تأتي من الطاقة الحرارية للشمس والنجوم.. لا توجد مصادر طاقة أخرى في الكون.. من دون شمس تفقد الأرض ما اختزنته من طاقة حركية وضوئية وصوتية وكهربية Entropy.. هناك نظريات عدة حاولت تفسير ما حدث لكن المهم في الموضوع هو أن الطاقة بدأت تتلاشى..

كان أول ما لاحظه الناس هو أن الأضواء خبت في ديارهم.. ثم انطفأت تمامًا..

خرجوا للشوارع مذعورين ليكتشفوا أن أعمدة النور لم تعد تعمل..

لم تعد هناك كهرباء..

بعد هذا اكتشف كل من يملك محركًا أو سيارة عتيقة أنها لا تدور..

حتى النار ذاتها لم تعد قادرة على تسخين شيء ولم تعد تبعث نورًا حولها.. ولا يعرف الناس متى ولا كيف اختفت القداحات وأعواد الثقاب.. لم تعد هذه الأشياء تباع لأنهّا لم تعد ذات قيمة..

هكذا كان العالم ينزلق بسرعة إلى فجوة مظلمة.. ظلام لا يمكن معه أن تضيء عود ثقاب أو مصباح كيروسين..

كانت النباتات تموت..

وتحولت مساحات هائلة من الأراضي الزراعية إلى صحراء..

بدءوا يأكلون الحيوانات وهم مذعورون من اليوم الذي ينتهي فيه هذا.. وكانت الحيوانات بدورها تموت بسرعة مذهلة لأنهّا لم تعد تأكل النباتات..

إلا أنّ العلماء اليابانيين توصلوا إلى تخليق نوع من الأعلاف تأكله الحيوانات.. وبدأ تصدير هذا المنتج إلى كل بقاع الأرض.. هكذا استطاع البشر إنقاذ الثروة الحيوانية قبل أن تنقرض تمامًا، وهذا يعني انقراضهم هم أيضًا.. الديناصورات لم تكن تملك عقولًا ولم تكن عندها هندسة وراثية أمّا البشر فأحسن حظًا..

لقد صار طعام الإنسان يتكون من اللحوم واللحوم واللحوم.. عالم مصاب بالإمساك وبالطبع نقص في الألياف مما يجعل الطريق لسرطان القولون ممهدًا..

أمّا عن التسخين فالفضل يعود للعلماء الألمان الذين تمكنوا من تطوير نوع من البكتريا التي تعيش في الظلام، وتقدر على إنتاج تفاعل حراري يصلح لطهي وجبة.. ربما يكفي للتدفئة كذلك نال العالم الألماني الذي طور هذه البكتريا جائزة نوبل في الفيزياء، وقد تقدم ليأخذها وسط الظلام.. يحرك عصاه كي لا يتعثر على المنصة.. فقط ليصطدم بملك السويد الذي يفتش عنه إلى أن يجد يده فيدس فيها الجائزة..

قال له ملك السويد:

- «متى تنتجون بكتريا قادرة على توليد الضوء؟»

قال العالم في انفعال:

- «قريبًا يا مولاي.. قريبًا جدًّا.. سوف تعود البشريّة للإبصار.. أعد بهذا..»

صحيح أنهم وجدوا جثة هذا العالم ملقاة في غابة مظلمة قريبة من داره في (لندرهوف) بعد عودته من السويد بأسبوع.. وجدها رجل يتحسس طريقه نحو داره واستغرق رجال الشرطة وقتًا طويلًا حتى يعرفوا من القتيل.. إن الطرق البصرية كلها لا تصلح.. لكن أحدًا لم يربط بين كلماته الأخيرة وما حدث له.. إن انتقال الأخبار عاد سيئًا كما كان، وهذا أدى إلى بطء غير معتاد في

التعامل مع الحقائق والاستنباط والاستقراء.. حينما عرف الناس أنّ هذا العالم قد مات كانوا قد نسوا تمامًا ما قدمه للبشريّة، وقيل إنها عملية سطو مسلح..

على كل حال كان الناس مستمرين في عملية التأقلم، وكما عرفنا صارت المستشفيات تنادي زبائنها بمكبرات صوت بدائية.. والمطاعم تقوم بالتهوية على أطعمتها ليشمها الناس.. يتساءل سائل كيف تعمل محركات المراوح إذن؟ الإجابة أن الزنبرك عاد ليسترد أمجاده القديمة.. مروحة تعمل بـ (الزمبلك) صارت تساوي أكثر من عشر مراوح كهربية.. لقد كان الناس يعيشون قبل عصر الكهرباء والسيارة وها هم أولاء قد عادوا لذلك. مع فارق مهم هو أنهم يجربون الحياة بلا نار..

تطور الطب السريري ليواكب العصر.. بعبارة أخرى انتهى دور البصر في الموضوع واعتمد الكل على التحسس والسمع والدق.. بالطبع انتهى دور أجهزة الأشعة تمامًا.. فرع كامل مثل طب العيون لم تعد له أهميّة وتم ضمه إلى الجراحة العامة نفس الشيء حدث مع طب الأمراض الجلدية.. في عالم لا يبصر لا يهم أن يمتلئ جلدك بالقروح أو البثور.. لقد انتهت لفظة (قبح) تمامًا.. فقط تطلب عون الطبيب لو شعرت بحكة أو التهاب أو ألم..

الأمراض المعدية ازدهرت بشكل غير مسبوق.. هذا عالم لا يعرف التأثير المطهر لأشعة الشمس.. كل شيء يفسد ويتعفن ويتخمر.. لهذا سادت الرائحة الكريهة بقاعًا كثيرة من البلاد دعك من أن انعدام الرؤية جعل المرء أقل حرصًا في عاداته الصحية.. تذكر قصة الشاعر الماجن اللعين (بشار بن برد) الذي كان أعمى، ولم يتحرج من أن يتبول أمام ضيوفه وهو يكمل كلامه معهم.. عندما لاموه على ذلك قال لهم: أنتم مبصرون وأنا أعمى.. لهذا أولى بكم أن تغمضوا أعينكم ولا تنظروا، أمّا أنا فلا حرج عليّ..

دعك بالطبع من أن غسيل الوجه وحلاقة شعر الرأس صارت أفعالًا نادرة..

وفي فترة من الفترات كان الشاب يذهب لبيت الفتاة مع أهله هنا فقط يسمح له بأن يتحسس ملامح عروس المستقبل هذه.. وكانت الفتاة بعد هذا تدور على نساء أسرته ليتأكدن من أنها جميلة متناسقة الملامح..

هذا الإجراء كان مشينًا وغير إنساني بالطبع، لذا شاعت موضة الصور المجسمة.. صورة بارزة للوجه أقرب إلى تمثال.. يمكن أن يتحسسها العريس ليعرف إن كان أنف الفتاة الكبير قادرًا على أن يملأ حياته بالسعادة أم لا..

وببطء تسربت الصور المجسمة إلى كل شيء.. صارت وسيلة تعامل حكومية معروفة.. أمّا التوقيع فقد حلت محله بصمة الأذن..

لقد ولد جيل كامل لم ير الضوء في حياته.. جيل من أطفال الظلام.. لكن أغلب هؤلاء كان يموت بأمراض نقص الشمس أو تتشوه عظامه بالكساح..

كان ابن (سليم) من هذا الطراز.. لقد أدرك (سليم) أن ساقي الصغير تحولتا إلى قوسين كهذين ( ).. لكنه سعيد الحظ لأنّه رزق بابن على الأقل في هذه الظروف الصحية المريعة..

اليوم صار الصبي في العشرين.. وصار (سليم) الشاب في الأربعين.. لم تعد (فاتن) كما كانت.. لكن هذه أشياء يمكن أن تعرفها باللمس.. هذه التجاعيد على وجهها. الجلد الذي فقد نضارته.. لأنّه لن يرى الشيب أبدًا..

لن يرى وجه ابنه أبدًا..

هذه أشياء تعذب أولئك الذين عاصروا النور. وهم يحكون عنه لأولادهم فلا يفهم هؤلاء شيئًا.. يحسبونه كلام عجائز لا أكثر..

☆ ☆ ☆

5 - القومندان..

يحكى (سليم) لابنه بعد العشاء الذي تكون من لحم ولحم ولحم:

- «كنا نصحو من النوم لنرى الشمس.. جسمًا شديد الوهج عملاقًا حارًا يبرز من الشرق..»

يسأله الفتى:

- «ما معنى وهاج؟»

- «أي إنِه.. أي إنِه يبعث نورًا قويًا..»

فيبتسم الفتى ويخجل من أن يسأل عن معنى النور.. فيقول في أدب:

- **«هه هه!»**

يواصل الأب الكلام:

- «عندها كان القمر يتلاشى ومعه النجوم.. كأنه يتواري خجلًا من كل هذا البهاء...»

فيسأله الفتى في الظلام:

- «القمر؟ تعنى ذلك الجسم الذي انفصل عن الأرض يومًا ما؟ أعتقد أن النجوم هي تلك الشموس الصغيرة التي..»

- «بالضبط.. النجوم كانت جميلة.. لم يكن هناك شيء أجمل منها.. في قريتي كنت أرقد في الحقل على ظهري أصغي لصوت الحشرات الليلية ونقيق الضفادع في الجدول.. وأنظر للسماء فأتخيلها فلاحة حسناء عملاقة نثرت الترتر على ثوبها..»

- «ما معنى حسناء؟»

- «أي متسقة الملامح عندما تمرر يدك على جانب فمها لا تصطدم بشيء.. لا تجد تلك الحفر التي تجدها على جانبي فم أمك.. لا تحيط بعينيها تلك الأخاديد.. هذه هي الحسناء كنا نتكلم؟»

يقول الفتى في ملل:

- «عن معنى فلاحة حسناء تشبه النجوم التي..»

- «نعم.. نعم.. ثم يدنو الليل من نهايته.. تقترب الشمس من الأفق الشرقي.. عندها يصطبغ الأفق بلون الدم مخلوط بلمسة قرمزية وردية بنفسجية..»

- «ما معنى هذا كله؟ وما هو لون الدم؟»

- «إنّه أحمر..»

هكذا كان حوار الطرشان يستمر عدة ساعات.. وذلك الشعور الممض الذي يعذب (سليم) بأنه ممل ومخبول في نظر ابنه.. يتذكر جده عندما كان يحدثه عن الخمسة القروش التي ابتاع بها بيضًا ورطلي لحم وزيتًا وخبزًا ثم تنزه بما بقي.. نفس الشعور..

هكذا كان يفضل الصمت..

☆ ☆ ☆

في تلك الأعوام طرأت تغيرات كبرى على العالم..

لا يعرف أحد متى صارت حقيقة واقعة لكنّها كانت تدريجية جدًّا.. مثلما ترقب أنت الغروب في عالمنا فترى الشمس ساطعة ثم تتداخل بعض الظلال والألوان لا يهم.. ما زال الضوء موجودًا.. تزداد الظلال كثافة ويصطبغ الأفق باللون القرمزي. لا تدري متى ولا كيف وصلت لهذه النتيجة.. لكنك صرت في الليل فعلًا وهاك كوكب الزهرة يضيء وحيدًا فوق البنايات في خط الأفق.. متى صار النهار ليلًا؟ لا تستطيع أن تمسك بلحظة فاصلة..

متى سمع الناس عن القومندان؟

لا يدرون..

متى امتلكت الشرطة تلك الأجهزة التي تتيح لها الرؤية؟ متى صارت لهم سياراتهم؟

لا أحد يذكر..

فقط يحمل الناس ذكرى مبهمة عن الرجل الذي لم يره أحد والذي اتخذ مقره فوق قمة جبل (إفرست).. في أعلى موضع من العالم يمكن لهذا الرجل أن يرى ضوء الشمس لأنّه يعلو طبقة سحب الغبار التي تغلف العالم..

من هذا الرجل؟ من أين جاء؟ لا أحد يعرف.. يقولون إنّه راهب من رهبان التبت.. لكنه قوي جدًّا تسانده عصابة قيل إنها من الجنرالات السابقين المنشقين على جيوش الصين والاتحاد السوفييتي سابقًا..

هذا الرجل جاء حرفيًا ليحكم العالم.. من مقره الشبيه بمقرات أشرار أفلام (جيمس بوند) في السينما يمكنه أن يراقب كل ما يمكنه أن يقصف بصواريخه أية دولة متمردة..

لكن النقطة الأهم هنا هي أنه يرى بينما الناس جميعًا لا يرون.. إنِّه فوق مستوى الظلام، بالتالي هو قوي جدًّا كأي مبصر يسيطر على مجموعة من العميان..

ماذا يريد هذا الرجل؟

المنشور الذي كتب بلغة (برايل) والذي رددته مكبرات الصوت في كل مكان يقول:

«القومندان يحكم العالم وليس بوسع أحد أن يقاومه.. القومندان لا يطالبك بشيء ولا يرغمك على التخلي عن وطنك أو دينك.. المسلمون سيظلون مسلمين.. المسيحيون سيظلون مسيحيين.. اليهود يبقون يهودًا.. وكذا يبقى البوذيون والكونفوشوسيون والهندوس.. فقط يطلب القومندان أن تقدموا له نسبة من دخلكم مقابل حمايتكم..»

«القومندان يرى.. لهذا يقدر على حمايتكم كما أنه يقدر على إيذائكم.. إن القومندان دان من الشمس؛ لهذا لديه موارد الطاقة ولدية النباتات التي استزرعها على قمة الجبل..»

«الظلام مقدس. لهذا يجب أن تعيشوا فيه أبدًا.. النور دنس يلوث الظلام لهذا يحرم عليكم البحث عنه.. لا أحد يشعل نارًا لا أحد يبحث عنها.. إن النار حق أصيل للكاهن وليس من حق سواه..»

«إن من يجرؤ على استعمال النار أو البحث عنها يرتكب إثمًا يقترب مما يسميه أتباع الديانات بالكفر.. جزاء استعمال النار بأي شكل هو الموت.. العذاب ثم الموت..»

«القومندان لا يطلب منكم التخلي عن ديانتكم أو معتقداتكم أو كرامتكم.. كل ما يطلبه هو أن تتخلوا عن كبريائكم.. وجزء بسيط من مالكم..»

كان الذعر الذي سببه هذا المنشور يفوق قدرتي على التعبير، لكن الناس لا يذكرون فعلًا متى رأوه لأول مرة.. كما قلت سابقًا كان كل ما يتعلق بهذا القومندان يتم بشكل تدريجي..

كان الناس لا يرون.. كانوا في حالة وهن وهشاشة شديدة، وهكذا خضعوا بلا مناقشة لهذا الكلام.. في البدء شعروا أن الرجل يستدرجهم إلى نوعٍ من العبادة، وتأهبوا للثورة، ثم رأوا بأنفسهم أنه لا يطلب شيئًا سوى المال والنفوذ..

هكذا خضعوا له..

أرغموا أنفسهم على الحياة في ذلك العالم المغلق المظلم الذي اختاره لهم.. هذا الوضع الذي يُطلق عليه الغربيون اسم brain in a vat أو (المخ في وعاء زجاجي).. حياة كاملة مزيفة تعيش فيها راضيًا منعزلًا عن العالم الخارجي الحقيقي..

في الوقت ذاته تقريبًا بدأت ظاهرة دوريات الشرطة.. لقد صارت الشرطة في كل البلدان خاضعة لهذا القومندان.. وقد لاحظ الناس أن سيارات هؤلاء تعمل برغم مشكلة الطاقة العامة.. معنى هذا أنهم طوروا تقنية خاصة بهم.. قيل إنها الخلايا البيولوجية..

هنا تذكر الناس - بعضهم على الأقل - العالم الألماني الذي وجد قتيلًا.. كان هذا العالم يحلم بأن يولد الضوء بطريقة بيولوجية.. يمكن لذوي الخيال الخصب أن يتصوروا أنه قتل لهذا الغرض بالذات.. لمنعه من القضاء على الظلمة وهي السلاح الأقوى في يد القومندان. دعك من أن تجاربه على الأرجح هي التي جعلت هذه المحركات تعمل.. لابد أنّ هناك من سرق أبحاثه ونفذها وقتله كي لا يقدم أكثر..

النقطة الثانية هي أن هؤلاء يبصرون. وكم من شابين وقفا يتهامسان فقط ليشعرا بأيدي رجال الشرطة الغليظة على كتفيهما.. متى جاء هؤلاء وكيف؟ لا يوجد سوى احتمال واحد هو أن رجال الشرطة منتشرون بشكل لا يمكن تخيّله، وأنّهم يرون لا يمكن سوى لإنسان يرى أن يقوم بهذه العمليات.. وفيما بعد عرفوا أنّ هناك أجهزة إبصار خاصة يضعها رجال الشرطة.. إنها قريبة جدًّا من أجهزة الرؤية الليلية التي نعرفها نحن، لكنّها ذات مرشحين.. مرشح يقيس الحرارة المنبعثة من الأجساد ومرشح يقيس الأشعة الكونية الشحيحة التي تصل للأرض ومن هاتين الصورتين تتكون صورة عالية الدقة كأنك تراها في شمس الصباح..

هكذا تتحرك الشرطة في كل مكان وسط أناس لا يرون شيئًا هذه قوة مروعة.. نفس القوة التي ينعم بها أي جيش يملك معدات الرؤية الليلية.. تصوّر ما يقدر عليه جندي مكافحة الشعب الذي يلبس قناعًا مضادًا للغازات وسط متظاهرين يحرق الغاز المسيل للدموع عيونهم.. إن قوته لمطلقة.. إنّه يرى..

كان الناس في كل العالم لا يعرفون أنّ هناك نهبًا يجرى لهم.. في مصر مثلًا لم يكن أحد يعرف أن المتحف المصري صار خاويًا وإن سرت إشاعات كهذه.. في فرنسا لم تعد هناك لوحة واحدة في اللوفر.. ما يتحسسه الزوار والسياح هو هياكل مزيفة..

أين ذهبت هذه الثروات؟ على الأرجح هي هناك في جبال الهيملايا.. إن القومندان قد قرر أن يحبّ الفنون بالإضافة إلى نفوذه..

لكن أحدًا لا يتكلم عن هذه الأمور، لأنّه قد يفاجأ بأن جاره ليس وحده.. يمكن أن تتكلم ربع ساعة ثم تكتشف أنّ هناك عشرة رجال شرطة في الغرفة معك..

وقال الحكماء:

- «ما الذي يهم في بعض التماثيل؟ إن العالم يتجه نحو النهاية بسرعة جهنمية.. فلماذا تهتم بأمور كهذه؟»

☆ ☆ ☆

6 - الضوئيون..

د. (مصطفى) كان هو من بدأ الشرارة في مصر على الأقل..

العجوز الواهن الآن.. لم يعد هو ذلك الرجل الممتلئ قوة وحيوية وعلمًا.. احتفظ بعلمه وقوته النفسية وفقد كل شيء آخر..

لقد بدأ الأمر بلقاء مع (سليم).. الظلام يجعلك عاجزًا عن معرفة هل أنت وحدك أم أنّ هناك خمسين شرطيا يحيطون بك، لكنه طلب من (سليم) أن يأتي له في داره هذه الليلة.. لماذا؟

- «عندما نلتقي ستعرف..»

☆ ☆ ☆

في التاسعة مساء دخل (سليم) إلى بيت أستاذه العجوز..

لا معني بالطبع لليل ولا النهار في ذلك العالم، لكن الحاجة إلى تقسيم اليوم إلى ساعات قديمة جدًّا لدى الإنسان، وقد شاعت الساعات الناطقة بينهم، كما أنّ هناك ساعات تعتمد على أن يتحسسها المرء بأنامله ليعرف موضع العقارب.. كلها تعمل بالزنبرك طبعًا..

في الظلام جلس (سليم).. ظلام دامس طبعًا، لكن هناك درجة ما من التكيف البصري يعرفها من يبقون في الظلام لفترة طويلة.. عندها ترى أجسامًا رماديّة كأنها الأشباح..

وقد شعر بمن يقترب منه ثم شعر في كفه بعلبة من العصير.. إنه د. (مصطفى).. فكيف يتحرك بهذه البساطة في الظلام ولا يتعثر؟

- «ما رأيك في هذا كله؟»

- «رأيي في أي شيء؟»

- «في الظلام الذي كتب علينا أن نواجهه..»

- «هو قدرنا..»

قال الأستاذ العجوز وهو يجلس جواره:

- «نعم.. لكن لا نقبل أن يأتي أحدهم ليعيش فوق الغيوم وينعم وحده بالنور والنار وهو بشري مثلنا.. من أعطاه هذا الحق؟»

قال (سليم) في بساطة:

- «حق القوة.. هو استطاع هذا ففعله..»

قال د. (مصطفى) في إنهاك:

- «أنا لن أعيش أكثر.. أعرف أن أيامي هنا معدودة وأن إحدى قدمي في القبر بالفعل، لكني أكره أن أرى البشر يتعذبون قبل رحيل.. هذه ليست حياة.. يجب أن تصير النار والكهرباء من حق الجميع..»

في دهشة قال (سليم):

- «أنت تعرف تلك الظاهرة المحيرة التي لم يجد العلماء لها تفسيرًا.. النار لم تعد ذات قيمة.. تلاشي وهجها وما تبعثه من دفء.. حتى لو تجاسر أحد على استخدام النار اليوم فلن يجني منها إلا الموت..»

- «ما لدينا من معلومات يقول إن هذا القومندان اختص نفسه بتقنيات حديثة.. عنده نار حقيقيّة تدفئ وتحرق.. لديه طرق لتوليد الكهرباء الفاعلة.. لقد اختص نفسه بكل ما يجعل الحياة ثمينة بينما نحن هنا نتخبط في الظلام.. تقتلنا الأوبئة ويولد أطفالنا مصابين بالكساح.. لو كانت عندنا كهرباء لنجحنا في تعريض الأطفال لشمس صناعية.. سوف تضاء الشوارع فلا يمشي الناس متخبطين يتحسسون الجدران..»

قال (سليم) نافد الصبر:

- «ليكن.. هذا ظلم.. ولكن ماذا يمكن عمله؟»

- «نحن قلة.. لكننا نعرف كيف نجد بعضنا..»

في هذا الكوكب كانت هناك ثورة يوليو كذلك، وقد توقع (سليم) أن يكلمه (مصطفى) عن تنظيم اسمه الضباط الأحرار كما رأي في عشرات الأفلام السينمائية.. الجو كله يوحي بذلك الرجل يحاول ضمه إلى تنظيم سرّي يحارب ذلك اللص الذي يدعو نفسه بالقومندان..

قال د. (مصطفى):

- «نحن نطلق على أنفسنا اسم: (الضوئيين).. هؤلاء الذين يؤمنون بحق الجميع في الضوء.. الضوء ليس حرامًا أو جريمة فيما عدا أنه يضعف من سيطرة ذلك الطاغية.. هناك ضوئيون في اليابان وفي ألمانيا وإيطاليا والسودان وتنزانيا والهند.. في كل مكان من الأرض.. مهمتنا الحالية

هي أن نجد بعضنا.. بعد هذا ستأتي اللحظة التي ننتزع فيها حقنا في الحياة.. لقد استلبنا النيزك ضوء الشمس.. فلن نترك ذلك القومندان يسلبنا شيئًا آخر..»

قال (سليم) في حيرة:

- «ولماذا فكرت في بالذات؟»

- «لأنك صادق القلب.. أعرف أنك صادق القلب.. صحيح أنك جاهل لكن الغباء لم يجعل المرء شريرًا قط..»

هل هي مجاملة أم سباب؟

- «شكرًا..»

هنا سمع (سليم) صوت الحركة الخافتة فتوتر، ثم قدر أنّ هذا حيوان يتسلل في ركن بالدار.. لكن د. (مصطفى) صاح وهو ينتفض:

- «إنّه هنا! لقد تسلل أحد (البصاصين) هنا ليسمع ما نقول! لو غادر الدار لانتهى أمرنا!»

ولم يدر (سليم) إلا وجهاز ثقيل يوضع على رأسه.. كأنها خوذة تتصل بأسلاك.. وسمع الأستاذ يقول:

- «أنا لن أستطيع مواجهته! هلمّ استعمل هذا المنظار وابحث عنه!»

للمرة الأولى منذ أعوام لا حصر لها يرى (سليم)..

كانت الصورة واضحة نقية، وإن اكتسبت صبغة خضراء مرعبة.. إنّه يرى.. بالفعل يرى الشقة ويرى وجه أستاذه العجوز الذي لم يره منذ أعوام.. الأستاذ الذي صار كفيفًا تمامًا الآن.. يرى المنضدة الصغيرة وفوقها علبة العصير..

رباه! ما أثمن الضوء! وما أروع التفاصيل التي نسيناها في الظلام!

إذن كان هذا الجهاز على رأس الأستاذ عندما قابله، ولهذا كان العجوز يتحرك بحرية كاملة وسلاسة..

- «هلمّ! لا تقض الليل كله هنا!»

نهض (سليم) وهو يشعر بأن ما يحمله على رأسه يزن أطنانًا..

خرج إلى مدخل الشقة فرأى البصاص يحاول الفرار..

كان رجلًا نحيل القامة في الأربعين من العمر يضع على رأسه جهازًا مماثلًا، ويحاول في رفق أن يفتح باب الشقة ليغادرها من دون جلبة.. يبدو أنه أدرك أن أمره انكشف.. كانت قوته تكمن في

جلوسه مع كفيفين.. ثم أدرك أن أحدهما مبصر وأن ما اكتشفه خطير سيسيل له لعاب رجال الشرطة.

للمرة الأولى يتحرك (سليم) بسرعة منذ أعوام.

للمرة الأولى يسترجع أيام صباه.. لقد جعله الذعر ينفض أعوامًا من السكون..

لقد وثب من فوق الأريكة.. وسرعان ما هوى على البصاص ليسقطه أرضًا..

كانت هناك طريقة واحدة سهلة للقتال.. لقد انتزع المنظار من فوق رأس الرجل..

وفي اللحظة التالية صار البصاص عاجزًا عن رؤية أي شيء.. لقد سقط على الأرض وراح يتحسس الجدران محاولًا النهوض فالفرار.. الآن صار هذا مستحيلًا..

لقد وجه له (سليم) أعنف ركلة ممكنة في ذقنه، ثم تلاها بركلة أعنف في وجهه.. أمّا نهاية المعزوفة فكانت أن وثب في الهواء ثم هبط بقدميه معًا على ضلوع البصاص..

كانت هذه هي النهاية.. وسرعان ما تكوم الرجل بلا حراك.. من فمه يخرج سائل أخضر.. على الأرجح هو دم ما لم يكن كائنًا فضائيًا.. وشعر (سليم) بآلام قرحته تستيقظ.. القرحة التي لا تتركه في حاله أبدًا..

سمع صوت د. (مصطفى) يتحسس طريقه نحوه..

مد يده يساعده على الوصول إليه، فقال الأستاذ العجوز:

- «أعتقد أنهم سمعوا دعوتي لك في داري فأرسلوا من استبق موعد اجتماعنا كي يعرف عما نتكلم بالضبط.. يمكن أن يدخل معك ولا ندرك ذلك.. ربما كانوا يراقبونك أو يراقبونني.. لا أحد يعرف.. كل إنسان مهدد في هذا الزمن.. المهم أنك قد تورطت في القصة حتى أذنيك ولم يعد من داع لسؤالك عما إذا كنت تريد الانضمام لنا!..»

بالفعل أدرك (سليم) في هذه اللحظة بالذات أنه تورط بشدة..

لقد صار من (الضوئيين)..

أراد أو لم يرد!

☆ ☆ ☆

7 - الضوئي الجديد..

عندما تملك قدرة الإبصار يكون بوسعك أن تتخلص من جثة بسهولة..

قام (سليم) باختلاس النظر خارج الدار فلم ير إلا المكفوفين العاديين يتحسسون طريقهم.. كل واحد منهم تنير عيناه بذلك البريق الأحمر المخيف المميز للرؤية الليلية..

قام بأول إجراء مهم وهو أن أفرغ معدته.. لابد من أن تخرس الام القرحة أولًا، ودس في فمه بعض أقراص المضغ التي لها طعم النعناع.. هكذا بدأ يشعر بالراحة..

جر ضحيته التي لفظت أنفاسها الأخيرة خارج دار د. (مصطفى)..ثم مشى بها بضعة أمتار إلى أن بلغ النيل.. قام بملء جيبي الفقيد بالحجارة ثم دفعه دفعًا إلى أن سقط في المياه العميقة رماديّة اللون..

طش ش ش!

التفت الكثيرون عندما سمعوا صوت الارتطام بالماء.. لكنهم كانوا عاجزين بالطبع عن فهم مصدر الصوت.. هكذا واصلوا طريقهم..

في عالم من المكفوفين سوف يستغرق الأمر دهرًا إلى أن يجدوا الجثة، ودهرًا إلى أن يعرفوا صاحبها، ودهرًا إلى أن يشكوا في الدكتور (مصطفى).. في هذا الوقت ستكون الأسماك قد قامت باللازم..

من الغريب أنه قام بأول عملية قتل في حياته، هو الذي لم يؤذ ذبابة من قبل.. لكنه لم يمعن التفكير في الأمر، لأنّه غرق في عالم ثري بكل التفاصيل البصرية التي حرم منها.. هكذا نسي الحقيقة: إنّه لن يعود أبدًا كما كان..

عندما عاد إلى د. (مصطفى) كان رأسه يزدحم بالأسئلة..

لكنه كان يعرف شيئًا واحدًا يقينًا: هو لن يعود إلى العمى.. لقد وقع في غرام البصر، حيث كل شيء واضح ومكتمل ومنطقي..

وتمنى لو يأخذ النظارات ليراها ابنه ليعرف معنى النور.. الوغد لا يصدّق أنّ هناك شيئًا مثل البصر والألوان.. حان الوقت كي يعرف..

لكن د. (مصطفى) سأله على الفور:

- «هل تخلصت من نظارات الرؤية الخاصّة به؟»

قال في ضيق:

- «لا طبعًا.. سوف أحتفظ بها...»

- «لا.. إنها نظارات حديثة.. هل ترى فيها قطعة نحاسية تشبه هوائي المذياع تخرج من العدسة اليمنى؟»

تفحص النظارة ثم غمغم:

- «نعم..»

- «إذن هي كما توقعت.. هذا الطراز الحديث مضاد للفقد.. إنِّه يرسل إشارة رائحة بمكانه يتلقاها رجال الشرطة وتعرفها كلابهم، وهي تقنية هدفها ألا تفقد نظارة واحدة.. معنى هذا أنّ هذه النظارة ستخبر رجال الشرطة بمكاننا..»

قال (سليم) مغتاظًا:

- «برغم هذا أنت تملك واحدة.. تلك التي ألبسها الآن..»

- «النظارة التي معي من الطراز العتيق حينما لم تكن هذه الإشارات قد عرفت بعد.. تخلص من النظارة يا ولدي حتى لا تندم.. وثق أنني أعرف ما أقول..»

هكذا لم يعد أمامه سوى أن يخرج في حذر ليلقى بالنظارة الثمينة في مياه النيل..

وحينما عاد من جديد لاهثًا قال له أستاذه العجوز:

- «أعدك أننا سنجد لك نظارة جديدة.. وحتّى يأتي ذلك الحين احتفظ بنظارتي.. أنا قد استمتعت بالبصر فترة طويلة جدًّا من حياتي منذ سرقت هذه النظارة.. لكن تذكر.. لا تتفاخر بها ولا تتباه بما اكتسبته من قوة على الآخرين.. لا تلعب دور (سوبرمان) لأن هؤلاء قادرون على العثور عليك وتدميرك...»

كان الأمر أشبه بشعلة الثورة التي يتناقلها جيل من جيل.. فقط الشعلة في حالتنا هذه مجرد نظارة رؤية ليلية..

يبدو الأمر عجيبًا، لكن ما الشيء الذي ظل كما هو في هذا العالم؟

☆ ☆ ☆

هكذا صار (سليم) من الضوئيين.. الحقيقة أنه لم يعرف ما المطلوب منه ولا مستقبل هذه الحركة.. فقط كان يخفي النظارة في داره، وأحيانًا يأخذها في جولات ليلية حذرة.. لو رآه أحد

يلبسها لكان الثمن هو جريمة قتل أخرى.. قتله أو قتل من رآه..

وفي هذه المرّات القليلة عرف أن تغيرات هائلة قد طرأت على البلاد لكن أحدًا لم يرها..

لقد سرقت تماثيل فرعونية مهمّة جدًّا ووضعت مكانها هياكل تقنع من يتحسس.. متحف (محمد محمود خليل) بلا لوحة واحدة لكن هناك سطوحًا خشنة توحي لك بأن هذه لوحات.. بعض الناس لا يتقاضون راتبًا ولكن يتقاضون أوراقًا بيضاء تم طيها بشكل يوحي بأنها مئات الجنيهات..

وعند بعض الجزارين وجد كلابًا مسلوخة كاملة، لكن لا أحد يعرف هذا سوى الجزار نفسه.. هناك بعض الأثرياء يملكون تلك النظارات الخاصّة التي تتيح لهم نعمة البصر، لكنهم ينكرون هذا طيلة الوقت.. وقد أتاحت لهم هذه المزية سبقًا هائلًا على الفقراء.. دعك من شبابهم الأثرياء الذين يتسللون بهذه النظارات إلى غرف الفتيات المكفوفات أو أماكن استبدال الثياب..

الحقيقة أنه كاد يفضح نفسه أكثر من مرة، لأنّه حسب أن من يلبس هذه النظارات هو بالضرورة ضوئي مثله.. ثم أدرك أن الضوئيين لا يمشون في الشوارع علانية بنظاراتهم.. دعك من أن نظاراتهم عتيقة الطراز دائمًا لا يمكن اقتفاء أثرها.. ثمّة صفة مهمّة أيضًا وتستحق أن نذكرها هنا: إنهم متأنقون يعنون بثيابهم وشعرهم.. كل الناس لا تعرف كيف تبدو من الخارج لكن هؤلاء يعرفون..

وقد جازف ذات مرة وقدم نفسه لواحد من هؤلاء..

الرجل الذي قدم نفسه له كان يقف جوار قضيب السكة الحديدية.. السكة الحديدية التي لم تعرف قطارات منذ دهور.. كان الرجل نحيلًا فارع الطول في الخمسين من عمره.. متأنقًا مصفف الشعر نظيفًا.. وكان يعد الفلنكات التي تمت سرقتها أو انتزعت من مكانها..

دنا منه (سليم) فأجفل الرجل..

بدا مظهرهما ككائنين فضائيين يتلاقيان بهذه الخوذات الغريبة التي تجعل رأسيهما أقرب إلى رءوس النمل..

قال له مهدئًا من روعه:

- «لا تقلق.. أنا مثلك.. لست منهم.. أنا منكم..»

نظر له الرجل في تردد ثم قال:

- «مرحبًا بك.. أنا صرت ضوئيًا منذ عام..»

- «وأنا منذ عامين..»

- «أنا محام..»

- «وأنا جيولوجي.. طبعًا لا عمل لي.. أحيانًا أكسب رزقي إذ أراقب اللحوم عن طريق شمها وتحسسها..»

وصمتا بعض الوقت وظلا يتبادلان النظرات ثم تبادلا العناوين وافترقا..

محادثة بليغة جدًّا..

كان هذا أعمق تفاعل مع الضوئيين مر به (سليم).. وقد ملأه رضا..

يومًا ما سوف نلتقي.. يومًا ما سوف نعرف ما ينبغي عمله..

إنه الآن يعرف عشرة ضوئيين على الأقل..

☆ ☆ ☆

8 - سر ثقيل..

على فراش الموت قال له د. (مصطفى):

- «لا أتوقع أن تستمر الحياة على كوكب الأرض كثيرًا من بعدي.. لا يمكن لكوكب أن يعيش من دون نور شمس لأن الحياة العضوية سوف تذبل مع الوقت.. صحيح أن السيناريو أبطأ مما توقعت لكن هذا لا يغير شيئًا.. الكوكب مقضي عليه بالهلاك..»

أمسك (سليم) يد أستاذه في الظلام وهمس بصوت مبحوح:

- «ألا تتوقع أن تنقشع هذه السحابة مع الوقت؟»

- «ربما.. لكن انقراض البشريّة سيكون أسرع..»

ثم سعل بعض الوقت قبل أن يقول:

- «سوف تكون أعوامًا معدودة لكني أتمنى أن تقضوها في كرامة.. لهذا لابد من أن تتصل بالآخرين..»

ابتسم (سليم) ابتسامة لم يرها الآخر لأنهما كانا معًا في الظلام، وقال:

- «لكن ما الجدوى؟ في عصر بلا طائرات لا يمكن التفكير في مجرد الوصول إلى الهيملايا..»

- «هناك طائرتان في العالم اليوم.. أنت لا تعرف هذا لكنّها الحقيقة. يجب أن تمسك ببداية الخيط.. وهناك ما هو أهم..»

ثم قرب أذنه من أذن تلميذه وهمس له بالسر..

السر الذي يمكن أن يغير كل شيء..

☆ ☆ ☆

مر عامان على وفاة الأستاذ..

(سليم) في العقد الخامس من عمره.. لقد صار أكثر شعره أبيض وإن لم ير أحد هذا.. فقط يعرف الناس من خشونة صوته وإنهاكه صورة عامّة عن سنه..

(سليم) مثقل بسر رهيب..

(سليم) يعرف كل الضوئيين، ويتابع أخبار إعدام بعضهم في الصحف المنشورة بحروف (برايل).. يعرف أنهم ليسوا حمقى.. ليسوا أقل ذكاء منه.. لقد سقطوا في يد الشرطة ليس لأنّهم أغبياء مهملون وإنما لأن أجلهم حان.. لا شيء يحميه ولا شيء يمنع من أن يكون هو القادم..

لكن الأمور تتساوى في ذهنه..

لقد تحمل بمهمة شاقة، وعليه أن ينفذها..

هكذا كان يقضي الوقت يجوب الشوارع.. أحيانًا يحمل النظارات وأحيانًا لا يحملها..

فقط هو يراقب كل شيء ويحاول معرفة من يمكن أن يكون من الضوئيين مثله.. كانت هناك منشورات بحروف (برايل) وقعت في يده ذات مرة.. المنشورات تدعو الشباب إلى أن يكونوا من الضوئيين.. أن يكون لهم الحق في استعمال العينين.. لم يعرف قط من طبع هذه الأشياء، لكنه تحمس لدى رؤيتها.. أعني لدى تحسسها..

كان يجوب شوارع العاصمة عندما حملته قدماه إلى ميدان التحرير في ذلك اليوم.. كان هذا من الأيام القليلة التي جرؤ فيها على وضع النظارة كل هذه المسافة..

فجأة أدرك أنّ هناك حركة غير عادية..

الكلاب قد خرجت.. إنها تنبح باستمرار، وهو يعرف هذا الطراز من العمليات الأمنية.. السيارات تندفع في الشوارع.. السيارات والكلاب لا تخرج إلا لدى وجود جريمة شنعاء تتعلق بالنار أو النور.. هذه هي الأسباب الأهم التي تدفع هذه القوى للتحرك. هكذا أخفى النظارة في عصبية تحت طيات ثيابه.. من الوارد جدًّا أن يراه رجال الشرطة الآن.. سوف يطلقون الرصاص ثم يتفاهمون..

سمع أنّ هناك اثنين أشعلا النار وارتكبا جريمة تلويث الظلام في أحد الفنادق..

وعندما تجاسر على وضع النظارة من جديد رأى هذين الشابين المتماثلين اللذين يلبسان الأسمال ويتحسسان طريقهما، ويبدو أنهما سمعا نداء المتحف المصري فقررا أن يتواريا فيه..

هكذا دخل المتحف مجازفًا متوقعًا في أية لحظة أن يراه أحد لابسي نظارات الرؤية الليلية..

رأى الشابين يقفان في قاعة العمارنة.. رأى الشاب يشعل القداحة. إنّه ساذج لا يدري بحق أية جريمة ارتكبها..

من الغريب أنّ هذه النار تختلف عن نار عالمه.. إنها نار قوية قادرة على أن تكشف أشياء، بينما نارهم - لو وجدت - واهنة ضعيفة لا تمنح الدفء ولا النور..

إنهما يتصرفان كأنهما لا ينتميان لهذا العالم..

بل هذا صحيح.. بالفعل هما لا ينتميان لهذا العالم..

وارتجف..

الآن فقط ولهب القداحة يضيء القاعة يتذكر ما قاله أستاذه:

- «أنا لا أؤمن بنبوءات العرافين وكل هذا الهراء، لكن هناك إشاعة قوية يتناقلها الضوئيون عن شابين.. ذكر وأنثى.. متشابهين كأنهما أخوان.. قادمين من عالم آخر.. يقولون إنهما سوف يقضيان على سلطة القومندان.. هذا كلام فارغ في رأيي.. لا أحد يقدر على تدمير القومندان سوى أبناء هذا العالم وهذه اللحظة..»

كان هذا قبل أن يصارحه بالسر الأكثر خطورة..

على كل حال كان الأمر قد انتهى الآن لأن الغريبين رأياه..

وأدرك أنه يجب أن يقدم لهما يد المساعدة قبل أن يضيعا..

سوف يأخذهما معه ويحميهما..

والأهم.. يجب أن يعرف من هما حقًّا ومن أين جاءا..

☆ ☆ ☆

الجـزء الثالث

القـومنـــدان

يا مدينة الوهم
تحت الضباب الأسمر .. ضباب فجر الشتاء..
على جسر لندن تدفق جمع غفير..
لكثرته نسيت أن الموت حصد جمعًا غفيرًا
وتسعدت آهات قصيرة كل حين طويل
وثبّت كل بصره أمام خطاه..
على الثل تدفق الجميع ثم هبط إلى شارعٍ الملك ويليام..
هناك رأيت رجلا أعرفه فاستوقفته صائحًا:
- « أي (ستنسون)!
يا من كنت معي على السفائن في ميلاي..
هل بدأت الخضرة تنبت من الجثة التي زرعتها في حديقتك العام الماضي؟
ألا فلتطرد الكلب بعيدًا عن جنباتها
وإلا نبش بأظفاره فأخرج الجثة من جديد..»

من قصيدة الأرض الخراب لـ (ت. س. إليوت)
ترجمة د. (لويس عوض)

1 - أسطورة..

يقول (سليم) كالحالم:

- «أرض الظلام! قرأت عنها في كتب الأساطير.. لقد جربت أن أقرأ مستعملًا هذه النظارات برغم أنها ترهق البصر.. بالتأكيد ليست الطريقة المثلى للقراءة، لكني وجدت بعض الكتب القديمة ورحت أتصفحها للمرة الأولى من دون طريقة (برايل).. ثمّة كاتب أمريكي أصيب بفقدان البصر من ثم راح يقرأ بطريقة (برايل)، ويقول إن المزية المهمة لهذه الطريقة هي أنك لا تحتاج لإخراج يدك الدافئة من تحت الغطاء لقلب الصفحة! هذه هي المزية الوحيدة فعلًا، وفيما عدا هذا أوشكت أن أرقص طربًا عندما رأيت الحروف المكتوبة.. ألا بورك في حرف اللام عندما يلتقي مع الألف في عناق ساحر كبجعة أسطورية.. ألا بورك في لفة الهاء السحرية.. ألا بورك في التقاء السين بالميم.. دعك من روعة حرف الـ z المتلوي المصمم على التوائه، وكيف تفتح الـ W ذراعيها للسماء بينما تفضل الى M أن تزحف على الأرض.. قضيت الكثير من الليالي أطالع الكتب.. وبينها وجدت أسطورة أرض يغمرها ظلام شامل.. أرض تقع في (جورجيا).. في غابات (أبخازيا)..

من هذه الأرض المظلمة تسمع أصوات الناس.. أناس لم يرهم أحد من قبل ولا يعرف كيف يبدون.. يُقال إنهم أحفاد ملك الفرس (سابور) الذي سجن أتباعه للأبد في هذه الأرض.. لقد ذهب إلى هذه البلاد كي يضطهد المسيحيين فدعوا الله كي ينتقم منه.. هكذا وجد أنه وأتباعه سجناء في ظلمة لا يمكن اختراقها..

ثم يصل الإسكندر الأكبر ويرغب في اختراق هذه الظلمات أثناء بحثه عن ينبوع الخلود.. لكنه يعجز عن اختراقها بينما ينجح خادمه (أندرياس) في اجتياز الظلمات، ويشرب من نبع الخلود..

هكذا عرف القدماء أرض الظلمات..

في الأساطير الإغريقية مملكة الظلمات هي مملكة الموتى (هيدز) التي يحكمها (بلوتو) الرهيب، وخادمه (شارون).. على الموتى كي يبلغوا هذه المملكة أن يعبروا نهر (ستيكس) الذي يصل بين عالم الأحياء وعالم الموتى..

هكذا عرف القدماء أرض الظلمات..»

☆ ☆ ☆

انتهى (سليم) من قصته التي حكاها في الظلام الدامس..

فما أن فرغ حتى مددت يدي إلى القداحة وأشعلتها..

شليك.. شليك!

على الفور عم النور المكان.. النور الذي صارت له قيمة عظمى بعد هذه القصة.. برغم أنه ليس النور الذي أصبو إليه.. إنه نور أصفر رقراق كثير الظلال..

الآن أرى وجهه وأدرك أنه رجل وقور في العقد الخامس من العمر.. أشيب الشعر.. وجهة مفعم بالتجاعيد لكن جسده يتمتع بقوّة لا بأس بها.. لكن ما أثار قلقي هو شيء آخر لم أستطع معرفة ما هو..

قال لي باسمًا بزاوية فمه:

- «لاحظ أن البصاصين في كل مكان.. وحساسية عيون البشر لا تصدق.. عيون جائعة إلى النور متعطشة له.. يمكن لهذه العيون أن تشم هذا الضوء الخافت عبر خصاص النافذة على بعد مائة متر..»

أطفأت القداحة بسرعة وقد تملكني الرعب. من جديد يسيطر الظلام على كل شيء وتتراجع المعرفة اليقينية، لتحل مكانها معرفة تخمينية تعتمد على الأصوات.. لا أثق في أنني عرفت شيئًا عن أي شخص ما لم أر عينيه..

سألته في الظلام الذي جعل تنفسي عسيرًا:

- «هل حقًّا تعتقد أن تلك النبوءة التي تحدّثت عن غريبين متشابهين حقيقيّة؟»

قال في الظلام الخاص به:

- «لا أعرف.. لم أعتد تصديق النبوءات قط.. لكني أؤمن بالقدر.. والقدر قد ساقكما لهذا العالم لغرض ما.. لا أعرف من أين جئتما لكني أشعر بأنكما لا تنتميان هنا..»

- «لكننا مجرد طفلين مذعورين لا نعرف أي شيء.. لا نعرف إلى أين نذهب ولا ماذا نفعل..»

- «كلنا ذات الشخص..»

ثم قال في هدوء:

- «منذ هذه اللحظة أنتما ضيفان عندي.. لا حاجة للإقامة في الفنادق ولا تحسس الطرقات ولا غش الأوراق المالية.. أنا مسئول عنكما.. لكني أقترح أن..»

وبدا في صوته بعض الحرج:

- «تبدلا هذه الثياب التي أفسدت جو داري..»

- «ليست ثيابنا.. لقد حصلنا عليها من بائع صحف..»

- «أعرف.. لقد كنت أراقبكما..»

هتفت (سلمى) في جزع:

- «تراقبنا ونحن نبدلها؟ لقد حسبت أن..»

لم يعلق.. وقد كنا نحسب أنه لا أحد يرانا..

فقط قال بلهجة عملية:

- «الاستحمام ثم تبديل الثياب.. بعد هذا نعرف ما ينبغي عمله...»

وتثاءب في قوة.. وقال:

- «لقد توغل الليل..»

- «هل ما زلت تستعمل لفظة ليل؟»

- «لم أكف عن استعمال لفظة (ليل) قط.. ما أحلم به هو أن أعود لاستعمال لفظة (نهار)..»

قالت (سلمى) بعد قليل:

- «لاحظنا عندما توهج النور أنك تبتسم بزاوية فمك اليسرى.. هل أنت مصاب بقرحة معدية؟»

ساد الصمت وبدا أنه يفكر فيما إذا كنا نمزح أو نسخر منه، ثم قال:

- «هل هناك علاقة طبية بين العرضين؟»

- «وتحب القطط الصغيرة وقراءة الصحف في الحمام.. عندما كانت القراءة ممكنة طبعًا؟»

- «نعم.. لكني لا أفهم ما الذي..»

قلت أنا:

- «الأمر واضح.. (سليم) هو أقرب اسم لـ (سالم) و(سلمى).. إن شرح الموضوع يطول لكني دعني أؤكد لك أننا أقرب إليك مما تتصور.. سوف نتفاهم جدًّا!»

☆ ☆ ☆

2 - فلنعدْ!

كنت في الحمام عندما سمعت الصرخة الأنثوية بالخارج..

لم تكن صرخة (سلمى) لكني على الأقل أعرف أنها صرخة أنثى تذبح أو تنتزع عيناها.. تحسست في الظلام حتى وجدت من الثياب ما يستر عورتي.. سقط باقي الثياب على الأرض فغرق في البلل. أطلقت سبة.. وهنا انزلقت في المغطس وأنقذت رأسي بمعجزة من أن يتهشم.. كانت أمي تقول إن الشياطين تحل بمن يجرؤ على الاستحمام في الظلام.. عامّة كانت تعتبر الحمام بقعة مخصصة للاستحواذ لا للنظافة.. تري ماذا تقول عن كوكب كامل يضطر أفراده إلى الاستحمام في الظلام؟ هذه هي (الدهولة) حقًّا واغفر لي هذا التعبير، لا شيء يعبر عن (الدهولة) إلا لفظ (دهولة)..

هرعت إلى الخارج أتحسس طريقي فاصطدمت بشخص أعتقد نه (سليم).. وسمعت صوته يقول:

- «لا تقلق.. لكن.. أليست القداحة معك؟»

مددت يدي وأشعلت القداحة للحظة..

على الأرض كانت سيدة في عقدها الخامس قد شاب شعرها وانتفش، وقد أراحت (سلمى) رأسها على فخذيها.. وكانت تأتي بحركات تذكرك بمرضى الصرع والزبد يخرج من شدقيها - وقد مزقت بأظفارها منبت عنقها.. كأنها في حالة هستيرية متقدمة.. تتنفس بسرعة وعمق منذرة بتحويل دمها إلى محلول قلوي..

فما إن رأت النور حتى بدت على وجهها ضحكة بلهاء كأنه طفل يرى الشيكولاتة للمرة الأولى في حياته..

قال (سليم):

- «اهدئي يا عزيزتي.. اهدئي يا فاتن.. كل شيء على ما يرام..»

همست في انبهار بصوت كأنه الفحيح:

- «ضوء!»

- «نعم.. أنت بخير.. والآن سيسود الظلام من جديد..»

بدأت تهدأ قليلًا وفهمت من تنفسها أنها نامت..

قال لي في الظلام:

- «فاتن.. زوجتي.. أولئك الذين عرفوا النور في شبابهم يصابون بنوبات جنون كهذه من حين لآخر لأنّهم يشعرون بأن الظلام يجثم على أنفاسهم ويخنقهم.. إنهم لا يصدقون.. أمّا من ولدوا بعد الظلام فلا يمرون بأعراض كهذه..»

قلت:

- «هذا طبيعي.. قارن بين آلام السيدة التي فقدت طفلها والسيدة التي لم تنجب قط.. الثانية لم تملك قط ما تخسره..»

وهكذا هدأت الأمور قليلًا.. أفهم تمامًا ما تشعر به هذه البائسة.. لولا القداحة في جيبي لجننت منذ زمن..

لا أعرف إن كان بوسعي أن أثق بـ (سليم) أم لا، لكني أرجح أنه فعلًا نسختنا الجينية هنا.. دعك من أن ما سكبه عندي من أسرار كفيل بأن يفتك به هو لن يجازف إلى هذا الحد.. لو وقعت في يد الشرطة لكانت هذه نهايته..

☆ ☆ ☆

في ثلاثة الأيام التالية عرفت الكثير عن هذا العالم.. الآن أفهم التفاصيل كلها.. كيف يأكلون ويشربون اعتمادهم التام على أجهزة المذياع التي تعمل بخلايا بيولوجية..

فهمت أن كل الحكومات تؤدي عملها كما كانت، لكنّها ملزمة بالولاء للقومندان الذي يعتبر القائد الأعظم.. إن ما يملكه من صواريخ نوويّة يجعل الطاعة واجبة له خاصة أنه يرى وهم لا يرون.. أجهزة الإبصار التي يملكها رجال الشرطة مرتبطة بإشارة إلكترونية يومية تجعلها تؤدي عملها.. هذا يجعله مسيطرًا عليهم ويمكنه أن يعيدهم لحالة العمى إذا شعر بأي تمرد.. مهمة الشرطة - بالإضافة لعملها التقليدي - هو ضبط جريمة التعامل مع النار أو النور، وتضاف للحكومات مهمّة تحصيل ضرائب عالية تسدد إلى القومندان.. أعتقد أنه يمتص جزءًا من ثروات كل بلدان العالم..

يظل التحليق محرمًا قرب مقره.. على كل حال انتهى الطيران من هذا العالم تمامًا.. عالم بلا طاقة.. عالم لا يبصر.. لا يمكن أن تكون له إرادة مستقلة..

يبدو الوضع يائسًا.. لكن - كأية ثورة - كانت الجذوة باقية تحت الرماد تنتظر لحظة النهوض.. لا أعرف كيف ولا متي لكنّها قادمة..

وقالت لي (سلمى):

- «أعتقد أننا لن نقدم شيئًا هنا.. لقد حان الوقت كي نرحل..»

- «أنت عبقرية.. قلت لك إنني عرفت فيما مضى فتاة تشبهني كانت تصمم على البقاء حتى اللحظة الأخيرة..»

- «لا أعتقد أننا سنفيد هؤلاء القوم.. إنني مستعدة لمواجهة كل شيء بشرط أن أراه.. هذا الظلام قد أرهقني وعذبني بحق..»

ثم بعد تفكير قالت:

- «لكن لا تصارح (سليم) بنيتنا.. إن عنده أملًا في أن ننقذ عالمه.. تلك النبوءة اللعينة.. لو أخبرناه بفرصتنا في الرحيل لبذل كل جهد ممكن كي يمنعنا..»

هكذا عندما سمعت صوت (سليم) في الظلام.. وكان يكلم ابنه، قلت بصوت عالٍ:

- «(سليم).. كان معنا جهاز طبي مهم عندما جئنا هنا لقد أخذه منا ضابط في قسم شرطة (....).. ونحن راغبان في استرداده..»

فكر حينًا ثم قال:

- «هم هم.. هل حقًّا ترغبان في استرداده؟ هذا غريب.. هل تعرفان اسم الضابط؟»

- «لا.. ولكنّه رئيس المباحث هناك و..»

☆ ☆ ☆

فجأة سمعت ذلك الصوت الخشن يصيح:

- «من أنتما؟؟؟؟ (نصار)! (نصار)!!»

ثم سمعت صوت رجل يكلم بلهجة ريفية قليلًا:

- «أوامرك يا (محسن) باشا..»

- «من هذان؟ وكيف مرا؟ ألم تسمع صوت الخطوات؟»

بدا لي الأمر مألوفًا.. لكن هذا الظلام الدامس..

☆ ☆ ☆

قلت بصوت عالٍ:

- «اسمه (محسن) بك أو باشا..»

- «هذا يسهل الأمور.. يمكن أن آخذكما هناك حيث تحاولان إقناعه.. أنتما تعرفان مواصفات الجهاز طبعًا..»

قالت (سلمى):

- «المشكلة أننا نخشى أن تكون أوصافنا عند الشرطة بعدما ارتكبنا جريمة النار..»

ضحك كثيرًا، وقال:

- «أوصاف؟ أنت متفائلة حقًّا.. الشرطة لا تعرف سوى أنكما اثنان.. لا أعتقد أنّ هذا كاف لاعتقالكما.. غدًا آخذكما إلى هناك.. لكن تذكرا ألا تأخذا القداحة معكما.. معنى هذا أن تموتا داخل القسم ذاته..»

☆ ☆ ☆

3 - الجهاز..

على باب قسم الشرطة وسط الذين يدفعوننا في كل اتجاه قال (سليم):

- «سوف أبقى هنا.. كونا لبقين سريعي البديهة..»

مضينا نتحسس طريقنا ونسأل كل من نصطدم به.. مكفوفان يسألان مجموعة من المكفوفين.. رحنا نشق الزحام نحو الغرفة التي بدأت منها المغامرة.. بدأت منها كل مغامرة في الواقع..

فجأة همست (سلمى):

- «كلاب!»

تصلبت وأصغيت بالفعل هناك كلاب قريبة,, كلاب تنبح متحفزة منذرة بالويل.. وشعرت بالتوتر يزحف على مؤخرة عنقي.. ماذا لو كانت هذه بعينها هي الكلاب التي..؟ ماذا لو كانت لم تنس رائحتنا بعد؟ إنها تنبح في غضب.. فلماذا تنبح في غضب؟ وتوقعت أن أجد تلك الأنياب تطبق على ساقي أو عنقي في أية لحظة..

تظاهرنا بأننا لا نخشى شيئًا.. كلاب تطبق على عنقك؟ هذه تفاهات!

وعلى الباب شعرت بمن يضع كفه في طريقي ليمنعني من الاستمرار..

قلت هامسًا:

- «(محسن) بك.. نريد لقاءه..»

جاء صوت (نصار) الحارس الواقف على الباب الذي صرت أحفظه وهو يتساءل:

- «والسبب؟»

- «إنّه احتفظ بجهاز طبي يخصنا.. كان هذا منذ أسبوع تقريبًا..»

- «انتظر لحظة..»

ماذا أنتظره بالضبط؟ وفجأة شعرت بقطعة صلصال باردة تلتصق بأذني..

لقد صار الأمر خطرًا.. إنني أترك بصماتي في كل صوب، ولو كانت لديهم بصمات الفندق فإن أمرنا قد انتهى فعلًا..

لم يكن عندي سوى حل واحد.. (سلمى) تعقص شعرها فلن توجد خصلات مزعجة.. مددت يدي متظاهرًا بالخرق لأنتزع قطعة الصلصال من يد (نصار)، ومن ثم حولتها إلى عجين..

تراجعت في الظلام خطوة لأجعل (سلمى) تقف في موضعي بالضبط.. بينما صاح (نصار) بلهجته الريفية المغتاظة:

- «هل أنت غبي؟ لا تمد يدك على القالب!»

- «معذرة.. أنت فاجأتني..»

ومرت ثانية أخرى.. لابد أنه ثبت قالبًا جديدًا على أذن (سلمى).. ثم سمعت صوته يصيح:

- «انتظرا هنا..»

ما أن توارى الصوت حتى سمعت (سلمى) تهتف في غيظ:

- «ما هذا الشيء المثير للاشمئزاز؟»..

- «صلصال طبعًا.. وكان هذا هو الحل الوحيد.. أن أستبدل ببصمات أذني بصمات أذنك.. ليست لديهم هذه الأخيرة.. لن أجازف بأن يخرج من يقول إنهم عرفوا سرنا.. من حسن الحظ أنك لم تملئي الدنيا صراخًا..»

جاء صوت (نصار) الخشن يقول:

- «ادخلا..»

نحن الآن في غرفة رئيس المباحث.. لا أرى شيئًا لكنّها باردة جدًّا ككل شيء هنا.. أسمع صوته يقول في غلظة:

- «ماذا تريدان؟»

عدت أحكي القصة الملفقة عن جهاز تنظيم الضربات الذي تعتمد عليه حياتي كلها.. وطلبت منه أن يعيده لي.. يبدو أنني حكيت هذه القصة ألف مرة حتى اليوم سمعت صوت مكتبه يفتح وسمعته يقول:

- «لم أعرف ما هو.. لا أحد يعرف.. لكن ما دمت بحاجة له سأعيده لك..»

هذه الحيلة لا تفشل على الأرجح.. لا أحد يرغب في أن يتسبب في موتي ما دام الجهاز غير مفيد وغير ضار.. لا أحد يرغب في مجازفة كهذه..

- «بالمناسبة.. لاحظت أن قالب أذنك صغير كآذان الفتيات هل أنت صغير الحجم؟»

هكذا فهمت أنه لا يلبس نظارات رؤية ليلية.. غريب أن يمارس ضابط المباحث عمله وهو عاجز عن تفحص المتهمين في شك أو إلقاء نظرات نارية على الناس..

قلت في تواضع مرح:

- «صغر الحجم وراثي في أسرتنا..»

وشعرت بالجهاز الثمين في يدي.. تذكرة العودة التي ضاعت منا واستردداها.. تذكرة العودة إلى عوالم مضيئة فيها نور وكتب وشمس..

صحت بلسان متهدج وأنا أقاوم الرقص طربًا:

- «شكرًا.. شكرًا على تفهمك..»

في ضيق (أمني) قال:

- «لا أريد أن أسمعكما هنا ثانية..»

هذا هو البديل العصري لعبارة (لا أريد أن أراكما هنا ثانية)..

وتحسسنا طريقنا إلى الخارج، واعتصرت يدها وهمست:

- «ما رأيك؟ هنا والآن؟»

قالت هامسة:

- «لابد لي من الرؤية.. لا أحفظ أماكن الأزرار.. فلننتظر حتى نعود إلى الدار..»

وعلى الباب مددت يدي وصحت:

- «(سليم)!»

فجاءني صوته:

- «أنا هنا.. سبع أم..؟»

- «سبع.. لكنه سبع بحاجة إلى قبس ضوء خفيف..»

☆ ☆ ☆

4 - القلعة..

انتهى الحفل في ساعة مبكرة من صباح الاثنين.

فرغت الراقصات الإيطاليات من أداء فقرتهن فهرعن وراء الكواليس.. على حين انتشر الخدم الهنود هنا وهناك يقودون الضيوف إلى حجراتهم..

كانت (باولا مارياتشي) الراقصة الإيطالية ذات العشرين ربيعًا تتوق إلى تدخين لفافة تبغ لأول مرة في حياتها؛ لذا اتجهت إلى الشرفة المفتوحة ووقفت ترمق العالم أمامها..

كان الفجر يقترب كما قلنا لكنّها لم تستطع رؤية نذره الأولى، لأن الإضاءة الشمسية الصناعية في الشرفة تجعل هذا مستحيلًا.. قيل لها إن هذه هي الطريقة الوحيدة كي لا تتجمد لأنهّا في أعلى بقعة من العالم.. كل القاعات تتمتع بتدفئة ممتازة، بينما الشرفات وساحات الرياضة تضاء بشمس صناعية هذه القلعة تستهلك وقودًا كان يكفي دولة صغيرة منذ بضعة أعوام..

قالوا لها إن التنفس صعب في الشرفة وإن عليها أن تضع قناع الأكسجين.. لكنّها لا تشعر بأن هناك مشكلة.. من العسير نوعًا أن تدخن بقناع أكسجين على وجهها..

أشعلت لفافة التبغ بالقداحة التي أعطاها إياها الجنرال (كريلوف) في بداية السهرة.. شعور مذهل هو أن تستطيع أن تصنع النار بأداة صغيرة كهذه.. كانت (باولا) في بلادها مدمنة تبغ، لكنّها تمضغه كما يفعل الجميع..

سمعت صوت أحدهم قادمًا، ولم تحتج إلى أن تلتفت لترى من منذ بداية الأمسية لم يتركها الجنرال (كريلوف) لحظة.. هذه هي مأساة المرأة الجميلة.. إنها لا تستطيع أن تظل وحدها لحظة واحدة..

الجنرال (كريلوف) لا يحمل سمات العسكريين.. إنِّه قصير القامة أصلع.. لابد أنه يعاني مركب الرجل صغير الحجم، لأنّه يتصنع خشونة معينة في صوته ويحاول أن يبدو عدوانيًا مقتحمًا..

في يديه كأسان من الفودكا، ومن الواضح أنه يريد أن تشرب معه..

- «هل تستمتعين بمطلع الفجر يا عزيزتي؟»

كان يتكلم الإنجليزية الرديئة وهي اللغة الرسمية للكلام في برج (بابل) هذا..هزت رأسها أن نعم وهي تتمنى لو أنه يتركها قليلًا..

ناولها كأسًا ثم رفع كأسه بحركة تمثيلية، وقال:

- «نخب أجمل عينين زارتا قلعة (القومندان)..»

وجرع كأسه مرة واحدة ثم طوحها وراء كتفه كعادة الروس لم تسمع من قبل من يقول إن عينيها جميلتان السبب هو أن أحدًا لم يرهما من قبل..

كانت هي ترمق المنظر من الشرفة.. شعور غريب بحق أن تجد نفسك فوق الغيوم.. الغيوم تبدو لها كأنها أرض يمكن أن تترجل وتمشي فوقها.. أرض فيها جبال وهضاب ووديان..

أما ما يدير الرأس بحق فهو أنها فوق مستوى الظلام ذاته..

قال الجنرال:

- «نعم.. أعرف ما تفكرين فيه.. نحن هنا فوق السحابة السوداء التي يغرق فيها البشر.. نحن فوق مستوى الظلام والليل الكثيف.. لا يفصلنا شيء عن ضوء الشمس.. لكننا ندفع ثمنًا غاليًا هو قلة الأكسجين والبرد القارس..»

دوى هدير محرك..

واستطاعت أن ترى الطائرة التي جاءت بها والفرقة تطير فوق الجبال مبتعدة..

سألته:

- «كيف يرى طريقه للهبوط؟»

- «تقصدين تحت مستوى السحابة السوداء؟ بالطبع يعتمد على أجهزة الرؤية في الظلام.. يستعمل وقودًا بيولوجيًا خاصًا لأن البترول لم تعد له قيمة..»

كانت ترمش بعينيها غير مصدقة..

للمرة الأولى منذ عشرين عامًا تعرف معنى البصر.. تستعمل هذين العضوين الموجودين تحت جبهتها.. وقد جعلها هذا تجن تمامًا.. راحت ترقص كالمخابيل أربع ساعات.. وكانت الراقصات اللاتي جئن هنا من قبل يتبادلن النظرات الضاحكة.. هذه أعراض الإبصار التي مرّت بهن جميعًا..

لقد كانت الضربة قوية.. فجأة استعملت عينيها وصارت تعرف معنى كلمة (نور).. فجأة هى فوق قمة العالم.. فجأة هي فوق الغمامة ذاتها.. فوق الظلام.. فجأة هي في قصر القومندان الذي تسمع عنه منذ جاءت إلى العالم..

كل هذا أفقدها صوابها فعلًا، فصارت على استعداد لعمل أي شيء كي يسمح لها بأن تبقى هنا..

سألت الجنرال دون أن تنظر له:

- «هل رأيت القومندان من قبل؟»

قال في ارتباك:

- «مرّتين لا أكثر.. ليس مولعًا بالظهور..»

- «كيف يبدو؟»

- «إنّه راهب من رهبان التبت.. يبدو مثل الدلاي لاما..»

طبقًا لم تكن قد رأت صورة الدلاي لاما.. لم ترَ أية صورة لأي شخص في حياتها..

- «لكنكم هنا منذ زمن..»

- «نحن قادته.. ونحن من يدير كل شيء ونبلغه بالتفاصيل..»..

فجأة حلقت طائرة أخرى فوق الرءوس.. وسرعان ما توارت وسط الغيوم السود..

سألته في دهشة:

- «ما سر هذا النشاط؟»

- «لا يوجد سبب معين.. فقط هناك نبوءة.. تعرفين أن هؤلاء القادة جميعًا يؤمنون بكلام المتنبئين منذ عهد (هتلر) حتى اليوم.. النبوءة التي وصل لها القومندان هي..»

وفكر قليلًا ثم أردف:

- «لا أدري لماذا أحكي لك كل هذا.. لكن لا ضرر منه على كل حال فجميع النبوءات هراء.. النبوءة تتحدّث عن شخصين متشابهين تمامًا أحدهما ذكر والآخر أنثى، وقد جاءا من عالم آخر.. هذان سوف يعيدان معنى النور لهذا الكوكب التعس.. عامّة يشعر القومندان بقلق من هذه النبوءة، ودوريات الأمن نشطة أكثر من أي وقت آخر. في الحقيقة لا أحب أن أرى رجلًا عظيمًا مثل القومندان يضيع وقته في هذا السخف..»

ثم أشار إلى الأفق وهتف:

- «الآن ترين اللمسات الأولى للفجر.. الشمس تظهر في الأفق الشرقي.. سوف يخيّل لك أنها تتحرك.. الحقيقة أن الأرض هي التي تتحرك.. سوف يحمر الأفق وترين مشهدًا لن تنسيه..»

يتكلم بفخر كأنه هو المسئول عن هذا المشهد الجليل..

كان قلبها يخفق وصدرها يعلو ويهبط..

قال لها الجنرال:

- «هناك كلمة تسمعينها لأول مرة.. نقولها في ظروف كهذه (صباح الخير)..»

نظرت له في عدم فهم فعاد يكرر الكلمة:

- «صباح الخير.. صباح جميل.. جود مورننج.. بونجور.. جوتن مورجن.. بونجورنو بلغتك.. داو بروي أوترا بلغتي.. هذا هو الصباح لذا تتمنين لأصدقائك أن يكون جميلًا..»..

أول صباح تراه في حياتها..

هذه لحظات أسطورية.. سوف تموت وهي لا تحمل من كنوز إلا هذه الذكريات..

تصوروا أن المسنين يزعمون أنّ هذا المشهد كان يوميًا! هي التي لا تفهم أصلًا معنى كلمة (مشهد).. يقولون إنّه كان مجانًا.. هبة مجانية من الخالق الأعظم.. كيف؟ لو أنّ المرء ذبح نفسه الآن فلن يكون ثمنًا كافيًا لمشهد كهذا..

انفجرت في البكاء..

قال الجنرال في وقار:

- «نعم.. نعم.. أعرف ما تشعرين به... هذا البهاء لنا وحدنا.. كان من حق الجميع فصار من حق الصفوة.. إننا سادة العالم بلا مبالغة.. ألا يدير هذا رأسك؟»

كان فيل أزرق كبير يطير في الهواء نحوها فتراجعت في ذعر.. ورأته يدخل كأسها ليذوب..

هتفت غير مصدقة:

- «الفيل الأزرق.. لقد..»

قال الجنرال:

- «آه.. هذه علامات نقص الأكسجين وقد أثرت على الدماغ أرى أنه من الأفضل أن ندخل الآن.. إن تركيز الأكسجين بالداخل عالٍ..»..

قررت بالفعل أن تدخل قبل أن ينزلق لسانها بفعل هلاوس نقص الأكسجين وتتكلم أكثر من اللازم..

لو عرف الجنرال أنها من الضوئيين وأنها تتجسس على القلعة، فلسوف يلوم نفسه ألف مرة على كل هذه الثرثرة الحمقاء.. كل الرجال يتحوّلون إلى بلهاء أمام فتاة جميلة لكنهم عندما يفيقون يتحوّلون إلى وحوش..

وهي لا ترغب في أن ترى الجنرال يتحول من أبله إلى وحش..

☆ ☆ ☆

5 - نشوة النيران..

سألني (سليم) وهو يقودني إلى داخل الشقة:

- «لماذا تحتاج إلى نور؟»

قلت بلهجة عارضة:

- «لا يمكن تشغيل الجهاز في الظلام.. هذه عملية دقيقة..»

- «سأحضر لك القداحة حالًا..»

مددت يدي أمسك بيد (سلمى).. سوف تكون ألعوبة قاسية مع (سليم) عندما نتلاشى أمام عينه. هو الذي علق علينا آمالًا كبرى، لكن لا يوجد حل آخر.. هذا العالم لا يغري إلا بالهرب..

بعد قليل سمعت صوته يصيح:

- «لا أجدها.. هل أخذتها؟»

- «بالطبع لا..»..

- «إذن هي سرقت!»

كنا على وشك تبادل الاتهامات واللوم عندما سمعنا صوت الصراخ من الخارج..

تحسسنا طريقنا إلى مصدر الضوضاء، وعندما شممنا رائحة الهواء الطلق لم يكن هناك من داع للمزيد من تحسس الطريق.. لقد كان هناك ضوء فعلًا.. ضوء خافت واهن متراقص لكنه كاف كي ترى..

وشهق (سليم) في رعب:

- «(فاتن)!»

☆ ☆ ☆

كانت تقف هناك وحولها زحام من الناس المذعورين الذين يحجبون أعينهم بأيديهم، بينما هي في مركز الدائرة كأنها حاو يقدم فقرة مثيرة.. كانت القداحة في يدها لكنّها كانت قد أشعلت شمعة

كبيرة عملاقة.. شمعة تمسكها في ذات اليد التي تمسك بها القداحة، بينما اليد الأخرى تمتد بصفحات من كتاب تشعلها من اللهب ثم تلقيها أرضًا..

يتراجعون في رعب غير مصدقين..

لو كانت النار جريمة فهم لم يروا سفاحًا بهذه اللامبالاة، ولو كانت النار كفرًا فهم لم يروا فاسقًا بهذه الجرأة..

بالطبع كان النور الذي تصنعه واهنًا صغيرًا لكنه الضوء الوحيد لذا بدا متضخمًا.. وسل عن هذا أي مخرج مسرح عرائس. إن طاقة النور التي لا تتجاوز حجم صفحة الجريدة تتحول في الظلام الدامس إلى مسرح كامل..

تشعل النار في الأوراق وتطوح بها في كل صوب في الشارع وهي تصيح:

- «هذا هو النور! تلك هي النار! هل ترون يا حمقى؟ هذا هو ما حرمتم منه! استمتعوا بها! انظروا لها! دعوها تحرقكم وتحرق غباءكم وتخبطكم وجبنكم! هل ترون كيف تبدون؟ هل ترون شارعكم ومدينتكم؟ كل ما عشتم تتحسسونه ولا تعرفون عنه إلا ما تتيحه حاسة اللمس.. واللمس خادع يا أغبياء! هلموا!»!

صرخ (سليم) وهو يغطي عينه:

- «(فاتن) يا بلهاء! كفي عن هذا!»

مددت يدي أمنعه من اللحاق بها وهتفت:

- «لا تكن غبيًّا!»

من جديد تشعل المزيد من الأوراق وتطوح بها..

- «هلموا يا حمقى.. متعوا أعينكم قبل أن تموتوا!»

كان علي أن أعرف هذا.. ليس من الحكمة أن تترك القداحة مع امرأة أصيبت بحالة هستيريا بسبب الظلام.. لقد رأت القداحة وتذكرت نشوة النور.. بعد هذا تركناها معها.. إن لم يكن هذا هو الغباء بعينه، فما اسمه؟

ومن بعيد سمعت صوت سرينة سيارات الشرطة..

ابتعدي يا حمقاء!

كان منظرها مثيرًا للشفقة بثياب البيت الرثة وشعرها المنكوش الذي لم تعن به منذ عقود.. وبدا واضحًا أنها مأساة إغريقية توشك أن تحدث..

صحت في (سليم):

- «فلنبتعد!»

لكن الكلام عليّ هين.. إنها زوجته.. حبيبته منذ أيام الدراسة برغم أنني أشك نوعًا في صدق هذه الحقيقة.. أو على الأقل أشك في أنه يحتفظ لها بالحبّ ذاته وهو يراها بهذا المنظر..

سمعنا صوت الكلاب.. وقبل أن نفهم ما يحدث كان كلبان عملاقان يثبان في الهواء وسط ضوء اللهب المتراقص..

صرخ الناس وتراجعوا.. الغريب أننا في الشارع لكن الإضاءة توحي بأننا في كهف.. لا تفهم ما يحدث بالضبط الكثير جدًّا من الظلال..

فقط أدركت أنّ هناك كلبين يجثمان عليها وأنها تقاوم وتصرخ..

ثم ظهر رجال الشرطة بنظاراتهم التي تشعرك بأنك ترى نملة عملاقة.. لن يقتلوها.. لابد من الاستجواب أو.. معها قداحة فمن أين جاءت بها؟ لن نؤذيك يا سيدتي.. فقط قولي لنا من زوجك؟ كيف نعتقل الغريبين المتشابهين اللذين ينزلان ضيفين عندك؟ إنهما الغريبان اللذان أضاءا القداحة في مدخل الفندق أليس كذلك؟ من أين جاءا؟ ما هذه النار القوية؟

كنت أجر (سليم) مبتعدين عن هذا المشهد.. لقد تحول إلى طفل مذعور كبير لا يعرف ما يجب عمله.. اعتقال زوجته يعني اعتقال ابنه.. هذا رجل فقد أسرته في بضع ثوان والسبب قداحة..

كان يردد بلا انقطاع:

- «اتركاني.. يجب أن أموت معها.. يجب أن أموت معها.. يجب أن أموت معها.. يجب أن أموت معها.. يجب أن أموت معها.. يجب أن أموت معها..»

قلت له وأنا أجره في الضوء الخافت القادم من المحرقة:

- «اسمع.. لم يعد لك مكان في هذا العالم.. يجب أن تثق بي.. سوف ترحل معنا..»

- «إلى أين؟»..

- «لا أعرف.. لكن إلى مكان ليس هنا..»

واعتصرت ساعد (سلمى) الأيسر وقلت لها:

- «يجب أن تحاولي.. استعملي هذا الضوء فلا يمكن الانتظار إلى أن تشرق الشمس..»

وباليد الأخرى اعتصرت كتف الزوج المنكوب..

قالت وهي تقرب عينها من الجهاز:

- «سأحاول.. (143- ج - 1).. ما رأيك؟»

قلت في غيظ بسبب غباء السؤال:

- «يبدو محببًا.. إن العوالم التي تبدأ بـ 143 تكون مبهجة.. هذه قاعدة..»

ضغطت الأزرار وهي تلهث..

سوف يندهش (سليم) من الرحلة القادمة، لكن في الوقت متسعًا لفهم كل شيء..

- «هيا!»

- «لكني فعلت ذلك!»

وعادت تضغط على زر الإدخال مرارًا.. لا شيء..

قلبت الجهاز وتفحصت البطاريات.. إنها في مكانها..

قال (سليم):

- «هل تستعملان هذه الأشياء؟ ألا تعرفان أنه لم يعد لها قيمة في عالمنا؟ ككل شيء تلاشت الطاقة منه، فرغت كل البطاريات خلال أيام.. أعتقد أن جهازكما هذا قضى فترة كافية ليفرغ كأي جهاز آخر!»

☆ ☆ ☆

6 - الضوئيون..

في الظلام مد (فيتوريو) يده يتحسس الشكل المصنوع من الصلصال..

هناك ممر هناك مرتفع هنا ومنخفض هناك.. هناك فجوة ضيق بين جبلين.. ثم توقفت أنامله عند مجموعة من البروزات التي صنعت من أعواد ثقاب متلاصقة، وقال:

- «من أين جئت بالثقاب؟»

- «أحب الاحتفاظ بهذه الطرائف..»

عاد يواصل التحسس ثم تساءل:

- «إلام يرمز هذا؟»

- «أعتقد أنه يرمز للصواريخ عابرة القارات..»

توقفت يده عند برج مرتفع.. وعاد يسأل:

- «هذا... ما هو؟»

مدت (باولا) يدها حيث أشار، وراحت تتحسس ثم قالت:

- «لا أعرف.. لكنه شديد الأهميّة.. هناك حراسة مكثفة من حوله..»

قال (فيتوريو) وهو يمضغ بعض التبغ كعادته:

- «على كل حال أنت أجدت استعمال عينيك يا (باولا).. نحن الآن نفهم كل مخارج ومداخل هذه القلعة.. إن الضوئيين سوف يسعدون بهذه الأنباء..»

قالت في رضا:

- «الخبر الأهم هو موضوع فرقة العمال التي سيتم نقلها إلى هناك.. إنهم بحاجة إلى أعداد أكبر من العمال.. وهؤلاء العمال سيكونون من عدة بلدان..»

- «وهذا يعني أننا سنكون هناك..»

لم تكن (باولا) قد رأت (فيتوريو) من قبل.. فهي لا تملك تلك النظارة السحرية، لكنّها تعتقد أنه وسيم فارع القامة.. لا تعرف بالضبط معنى كلمة (وسيم) وتعرف معنى (فارع) بالتقريب.. لكن كل شيء قد تغير في هذا العالم على كل حال، بحيث صارت للأذن قدرة هائلة على التمييز

وتكوين الشخصيات.. (الأذن تعشق قبل العين أحيانًا).. هذه الشطرة من الشعر العربي لم تسمعها لكنّها تعبر عما في ذهنها يقينًا..

بالطبع (الأذن تخدع قبل العين أحيانًا) أمر وارد.. هناك مكفوفون كثيرون تعلقوا بصوت فتاة، بينما هي لا تتمتع بأي جمال.. لكن العبرة هي عين الروح وما تراه..

لقد كان (فيتوريو) يعرف كل شيء ويفعل كل شيء.. ورث هذا كله عن أبيه الذي كان معارضًا قويًا وقتله الفاشيون.. وعندما ساد الظلام ظل (فيتوريو) مقاتلًا عنيدًا.. لا تعرف كل ما يعرفه لكنّها تعرف أنه همزة الوصل بين الضوئيين في أكثر من مكان.. برغم أن العالم صار شاسعًا مترامي الأطراف كما كان منذ ألف عام، فإن هؤلاء القوم وجدوا أساليب لتبادل المعلومات.. هناك الطريق البري وهناك أجهزة اللاسلكي الواهية التي تعمل ببطاريات بيولوجية، وهناك الحمام الزاجل.. سلالات الحمام الجديدة التي ولدت عمياء، لكنّها تعلّمت الاعتماد على حواسها.. في عالم كهذا تجد المخلوقات طرقًا غريبة.. النحل كان يضل طريقه لأنّه لا يستطيع رسم زاوية مع قرص الشمس كما كان يفعل للعودة إلى خليته.. ظهرت سلالات جديدة.. تعتمد على حواسها.. وعلى كل حال صار جني العسل عملًا محفوفًا بالمخاطرة فعلًا..

لم يكونا وحدهما.. فمعهما شاب يدعى (ستافرو) وشاب يدعى (ريكاردو) وفتاة تدعى (سيمونيتا).. الشابان يضعان النظارات الليلية طبعًا، فمن الوارد أن تكتشف أنك تتآمر في وجود عشرة رجال شرطة من حولك..

لم يكن (فيتوريو) يثق بالإيطاليين كثيرًا برغم أنه منهم كان يعتقد أنهم لا يتمتعون بالصلابة ولا يمكن الاعتماد عليهم.. (موسوليني) العجوز خذل (هتلر) مرارًا حتى آمن هذا الأخير أن الإيطاليين شعب خال من إرادة الحرب أصلًا.. يبدو أن الرومان لم يتركوا شيئًا من دمهم في عروق الأحفاد.. لو تمت هذه العملية فلابد من الاستعانة بشعب قوي الشكيمة.. وكان يثق بالألمان من بين شعوب أوروبا..

قال (ستافرو):

- «كل شيء يوحي لنا بقرب اللحظة.. هذه أكمل صورة مجسمة لقلعة الجبل.. الأخبار القادمة من الخارج تقول إن التوءمين ظهرا.. المتشابهان اللذان قيل إنهما سيحرران عالمنا..»..

قال (فيتوريو) في غيظ:

- «دعنا ننس هذا الهراء.. كل شعب من الشعوب ينتظر قدوم مخلص ما.. كانت هناك قصص مصورة تدعى (ماتريكس) كنت أقرؤها في صباي، وكانت تتحدّث عن عالم ينتظر قدوم (المختار) ليحرره من الآلات الحاكمة.. أرى أننا ندخل ذات الدائرة الآن..»

قال (ستافرو) بصوته الرفيع المميز:

- «يُقال إنهما ظهرا في مصر.. لا أرى ما يمنع من الاتصال بهما..»

قالت الفتاة:

- «حتى القومندان يؤمن بهذه القصة، وقد وصل لها بطريقة منفصلة عنا.. هذا يعطيها بعض المصداقية..»

قال (فيتوريو):

- «لا أعرف كيف يمكن إدخال اثنين من مصر في قصة كهذه.. لكن لا مانع من محاولة الاتصال بهما.. هل تعرفون السبب؟ السبب سيكولوجي قبل كل شيء.. إن كنت تؤمن بهذه الخرافة فلتعرف أن المنقذين معنا نحن بالذات..»

ثم هتف وهو يعيد تحسس المجسم:

- «هذا الجزء المبهم الذي يحرسونه بعناية.. أريد معرفة ما فيه.. كل نظام محكم له كعب أخيل (Achilles' heel).. نقطة ضعف مخفية تؤدي لانهيار كل شيء.. فهل هذا هو (كعب أخيلهم)؟»

قالت (باولا):

- «وكيف نعرف؟»

- «سنعرف عندما نعرف! والآن ليتحسس كل منكم هذا النموذج بعناية.. ليحفظه عن ظهر قلب.. بعد هذا سوف ندمره لأن وجوده معنا كاف لإعدامنا بلا محاكمة..»

وغمغم كأنما هو يذكر نفسه:

- «اثنان في مصر.. هم م م.. هذا مثير..»

☆ ☆ ☆

7 - سنكون هناك..

قال لي (سليم):

- «أنت لم تكن صريحًا معي منذ البداية.. ولو سألت لأجبتك.. لا يمكن لهذا الجهاز أن يعمل إلا لو وصلت إلى قلعة القومندان..»

قلت ضاحكًا في هستيريا:

- «جميل.. جميل.. ولماذا لا أجربه على كوكب (أورانوس)؟»

- «لا أعرف ما هو كوكب (أورانوس)..»

كلما نسيت نفسي تذكرت أنني على كوكب آخر.. وأنّ هذا الأخ كائن فضائي غريب! هم لا يعرفون كوكب (أورانوس) فلا مانع أن يكون اسمه عندهم (عباس) أو شيئًا من هذا القبيل قلت له:

- «أردت القول إن هذا شيء مستحيل.. معنى هذا أننا فعلًا غير قادرين على مغادرة عالمكم..»

قال في ضيق:

- «لا أصدق حتى اللحظة موضوع العوالم الموازية هذا.. لكني أعرف شيئًا واحدًا هو أن كل مصادر الطاقة لا تعمل إلا في قلعة القومندان لأنها فوق مستوى الظلام.. هناك الشمس والنار والكهرباء وطاقة الوضع وطاقة الحركة والطاقة الذرية.. كل شيء.. كل طاقة سمعت عنها في كتب الفيزياء تعمل بكامل قواها..»

قالت له (سلمى) في لهفة:

- «وكيف نصل هناك؟»

صحت بها:

- «هل جننت؟»

قالت ببرود:

- «بالعكس.. الجنون هو أن نبقى هنا في الظلام بلا أمل.. من الأفضل أن نموت ونحن نحاول..»

ثم سألته:

- «هل تعتقد أن بوسعك مساعدتنا؟»

قال بعد فترة صمت قدرت أنه يفكر أثناءها:

- «هذا يحتاج إلى الكثير من الاتصالات.. لكني سأرى ما يجب عمله..».

الحقيقة أنه كان في مأزق هو الآخر.. لقد صار عاجزًا عن العودة إلى داره.. الأجمل هو أننا جميعًا اضطررنا لاستبدال ثيابنا بثياب متسخة قذرة لأن الكلاب بالقطع صارت تحفظ رائحتنا.. كنا نعيش في الشارع أو نزحف إلى أن نبلغ بيت أحد الضوئيين ممن يعرفهم لنمضي بعض الوقت هناك كل هذا من دون النظارات طبعًا.. لقد ترك نظارته في بيته.. لا أخبار عن ابنه ولا زوجته..

الحق إنها كانت حياة مرهقة..

☆ ☆ ☆

قال الأستاذ (شوقي) بصوت عالٍ جهوري يميز مدرسي اللغة العربيّة:

- «ودار لها بالرقمتين كأنها

مراجيع وشم في نواشر معصم..»

ثم قال سائلا:

- «هل تعرفون معنى (مراجيع وشم)؟»

ارتفع صوت رقيق لطالب يدعى (عمرو).. هذا صوت (عمرو) ولا شك في هذا.. يقول:

- «الشاعر يشبه بقايا الدار بأثر الوشم في معصم المرأة..»

ارتفع صوت طالب آخر:

- «كيف يبدو يا أستاذ؟ هل هو شبيه بالعروق؟»

كانت هذه هي المشكلة.. هؤلاء لم يروا وشمًا أصلًا.. من السخف أن تكلمهم عن شيء لم يروه.. أن تكلمهم عن بقايا الديار ومشية الظباء والعيون اللواتي في طرفها حور وهم لم يروا النور قط.. لقد اتفق معهم على أن القدامى كانوا يتمتعون بشيء فريد هو أنهم يبصرون.. لم يكونوا يعتمدون على السمع لكن كانت عندهم حاسة فريدة من نوعها.. لم يفهم التلاميذ الأمر واعتبروه شبيهًا بمن يقول لك إن القبائل القديمة كانت تستعمل التخاطر الفكري.. مجرد انبهار مع مسحة حسد ثم ينسون الأمر تمامًا..

لكن مشكلته كانت هينة نوعًا.. التعامل مع اللغة سمعًا أمر سهل، والدليل أن مكفوفين كثيرين نبغوا في اللغة.. المشكلة الحقيقية كانت تواجه مدرسي الفيزياء والكيمياء والأحياء حيث البصر جزء لا يتجزأ من المعرفة..

هكذا كانت العلوم تنقرض بسرعة جهنمية على هذا الكوكب منذ ساد الظلام..

سمع الهديل فمشى نحو النافذة وهو يواصل الشرح:

- «فلمّا عرفت الدار قلت لربعها

ألا عم صباحًا أيها الربع وأسلم..»

قال أحد الصبية:

- «هناك حمامة على النافذة يا سيدي.. أعرف هذا الصوت..»

قال في ضيق:

- «حتى لو كانت طائرة فلا دخل لك بهذا..»..

ومد يده يتحسس حتى استطاع أن يتلمس ريش الحمامة استسلمت لأصابعه في حنان فمد يده يبحث عن الطوق حول ساقها وانتزع اللفافة.. كأنما شعرت الحمامة بامتنان لتحررها من هذا الثقل فردت جناحيها وحلقت أو هذا ما شعر به..

كانت اللفافة من الورق المقوى وقد امتلأت بالثقوب.. ثقوب تم رسمها بالإبرة وبرداءة.. في هذا العالم لم يعد هناك علم اسمه الخط، وإنما أنت تقيم رموز (برايل).. هل هي منسقة أم مبعثرة..

تحسس الثقوب.. كانت الرسالة قصيرة لكنّها واضحة:

- «التوءمان يجب أن يتواجدا في المطار في الثامنة صباح الأربعاء.. طائرة تحمل العمالة إلى القلعة..»

فرغ من تحسس الرسالة ثم مزقها إلى قطع صغيرة وهو يواصل كلامه:

- «سئمت تكاليف الحياة ومن يعش

ثمانين عامًا لا أبا لك يسأم..»

☆ ☆ ☆

كلم الأستاذ (شوقي) الدكتور (ميخائيل) في صيدليته كلم الدكتور (ميخائيل) المهندس (حلمي) في مكتب الإنشاءات الخاص به.. كلم المهندس (حلمي) الحاج (عبد السلام أبو يحيى) في داره.. كلم هذا الأخير (شريف) في المطعم.. كلم (شريف) (سليم) وهو يتناول الغداء عندهم..

كلمنا (سليم) عندما أختلى بنا..

هكذا اكتملت الدائرة..

لقد عرفنا ما يجب أن نقوم به..

غدًا هو بداية الحل أو نهايته..

☆ ☆ ☆

8 - المتسلّلون..

الظلام دامس في الطائرة.. هذا يزيد من شعورك بالكابوس الجاثم على صدرك.. أن تكون في الظلام على الأرض فهذا محتمل.. أن ترى الضوء وأنت في السماء فهذا معقول.. لكن أن تجد نفسك في الظلام على متن طائرة فهذا هو الكابوس بعينه لا ينقصك شيء كي تشعر بأنك ميت وأنّ هذا هو القبر..

العمال الجالسون في الظلام من جنسيات مختلفة.. منهم الصيني والياباني والألماني والمصري والتنزاني.. لهذا كان من حسن الحظ أن تسمع واحدًا يتكلم بذات لغتك..

الرحلة طويلة طويلة استغرقت عدة أيام لأن الطائرة هبطت في أكثر من مطار.. لا يعلم إلا الله كيف تعرف الطائرة طريقها في الظلام، لكن أجهزة القياس تؤدي كل شيء كما هو واضح.. وقود الطائرة هو الوقود الوحيد الذي أفلت من معضلة تلاشي الطاقة تلك.. إن أبحاث ذلك العالم الفقيد على الوقود البيولوجي هي مفتاح كل شيء يتحرك في هذا العالم..

كنت في شبه غيبوبة.. أنا جالس حيث أنا منذ أيام.. فقط يسمحون لنا بساعة من التريض بين مطار وآخر..

أعرف أن (سلمى) في الطائرة الأخرى ضمن فريق الراقصات شيء مهين لكنه الحل الوحيد، فلا يمكن لأحد أن يصل إلى قلعة القومندان سوى عامل أو راقصة.. إن هؤلاء السادة يعانون لذا هم بحاجة إلى ترفيه..

في الظلام أسمع صوت (فيتوريو) يتكلم مع جاره الإيطالي الذي أعتقد أنه (ستافرو).. لا أعرف الكثير لكن أعتقد أن (فيتوريو) هو مدبر العملية كلها.. وهو يتكلم بتلك الطريقة التي يتكلم بها الرجال الأشداء في أفلام السينما.. سوف يكون رجال القومندان حمقى لو اعتقدوا أنه مجرد عامل بسيط..

كان الأمر واضحًا بالنسبة لي.. سوف يقبضون علينا فور وصولنا ويرموننا بالرصاص.. فقط هناك احتمال ضئيل جدًّا أن يكونوا أغبياء.. عندها يجب أن أجد (سلمى) وأمسك بيدها بينما تقوم هي بتشغيل الجهاز..

بالنسبة لهؤلاء الثوار كان السيناريو مختلفًا.. هم يأملون أن أقودهم بذكائي وشجاعتي إلى طريقة تدمير عالم القومندان هذا..

سوف تكون مفاجأة سارة لهم!

☆ ☆ ☆

لقد استغرق الأمر عدة أيام حتى وجدونا وحتّى قال لنا (سليم) إن الضوئيين يريدون أن نكون معهم في القلعة..

كان هذا هو الحل الوحيد وقد جاء من سماء صافية..

بالطبع أصابني الهلع ونشطت فرحتي.. لست أنا أنسب شخص للتسلل للقلاع السرية لو كنت تفهم هذا، لكن (سلمى) العزيزة كانت مصرة على رأيها:

- «لا يوجد حل آخر.. إما موت بطيء أو موت سريع لكن معه احتمال نجاة..»

وهكذا جاء ذلك اليوم الذي وقفنا فيه في المطار بثياب أخذناها من (سليم).. هي تلبس كراقصة.. لا أعني أنها تلبس ثياب الرقص طبعًا، لكنّها تضع الكثير من المساحيق مع معطف جلدي طويل وطابع عام من البهرجة.. لا أحد سيرى المساحيق هنا لكنّها ذاهبة إلى حيث يرون..

بالنسبة لي ارتديت ثياب العمال البسيطة المتسخة..

لا أعرف أين كانت الطائرات، لكني في لحظة بعينها لم أعد مع (سلمى).. لقد لحقت بطائرتها، أمّا أنا فرحت أزحف عبر ممرات مظلمة ليتلقفني رجال أمن يتحسسون الأوراق التي أحملها والتي طبعت بطريقة (برايل).. أوراق مزيفة طبعًا أخذتها من (سليم).. لابد أنّ هناك علامة ما تميز التزييف.. علامة قاتلة وسوف يجدونها لكن هذا لم يحدث ولله الحمد.

أخيرًا وجدت نفسي داخل الطائرة أتحسس المكان بحثًا عن مقعد خال؛ لأنّه كان هناك الكثير من الجالسين.. سمعت كلامًا بالإنجليزية والفرنسية والسواحلية.. وعرفت أن هؤلاء موجودون منذ أيام هنا..

وفي النهاية استطعت الوصول إلى مقعد..

وسرعان ما غبت في نعاس عميق..

يمكن القول إن رحلتي كانت نعاسًا طويلًا مستمرًا.. تارة أصحو من النوم وتارة أغيب فيه، ومن حين لآخر يضع أحدهم شطيرة لحم في يدي فأقضمها..

توقفنا مرارًا ليضاف لنا آخرون.. آخر لغة سمعتها هي الصينية.. إننا نقترب من الهيملايا إذن..

☆ ☆ ☆

دوى الصوت يقول بالإنجليزية:

- «نحن نرتفع فوق مستوى الغيوم.. سوف نبدأ الملاحة اليدوية معتمدين على البصر..»

وفجأة حدثت المعجزة..

بدأ الظلام يقل.. فجأة تدرك أنه ليس ظلامًا متجانسًا.. تفهم السر.. لقد كان هذا الظلام المسطح عبارة عن سحب كثيفة سود.. والآن قد بدأت السحب تتباعد وتفترق ومن بينها تظهر السماء.. السماء الزرقاء التي خلقها الله!

النور يتسلل خافتًا لداخل الطائرة..

تصاعدت صيحات الانبهار والاستحسان.. وردد الجميع صلوات بأكثر من لغة تنتمي لأكثر من دين.. بكى أحدهم غير مصدق.. أعترف أن دمعة تسللت لعيني بدوري.. وهمست: سبحان الله!

فجأة صار النور هو كل شيء بالخارج ونسينا أننا كنا في ظلام دامس..

دار الطيار قليلًا في الجو، ثم قال في مكبر الصوت:

- «أرجو أن تنظروا من الجهة اليسرى..»

تدافعنا لنرى ما يريد أن نراه..

كانت هناك قمتا جبلين متقاربتان.. وخيل لنا أننا نرى شيئًا بين الجبلين..

عندما اقتربنا أكثر رأينا أنّ هذا رجل.. رجل يتدلي بين قمتي الجبلين مربوطًا بجنازير قوية إلى القمتين وقد تدلي في وضع النسر الفارد جناحيه Spreadeagled والغريب أنه كانت هناك شعلة نار قريبة منه معلقة على سارية عالية.. واضح أنها هنا لمنعه من التجمد..

هل ما زال حيًّا؟ لا أعرف..

قال الطيار بصوت بارد:

- «الاسم (دانييل أوهارا).. إيرلندي.. حاول سرقة بعض النار من قلعة القومندان لينزل بها إلى البشر في عالم الظلمات، لكن الحراس قبضوا عليه.. وها هو ذا يتلقي عقابه العادل.. إن الطيور الجارحة والعواصف سوف تمزقه إربًا..»

كان هذا درسًا قاسيًا لمن يريد أن يعتبر.. إن المشهد الشنيع لا يفارق ذهنك بسهولة..

رجل حاول أن يسرق النار فكان عقابه أن علق بين جبلين ليموت..

يبدو الأمر مألوفًا..

ثم تذكرت.. (بروميثيوس Prometheus) العملاق في الأساطير الإغريقية.. أراد أن يسرق النار من الأوليمب ليمنح أسرارها لبني البشر.. النتيجة هي أن (زيوس Zeus) عاقبه بهذا الشكل.. وفي كل يوم يأتي الرخ ليأكل كبده وفي الليل ينمو له كبد جديد.. رمزًا للعذاب الأزلي..

النار.. المعرفة.. (بروميثيوس) أنقذه (هرقل) فمن لهذا البائس بهرقل آخر؟

وارتجفت.. هذا القومندان يتصرّف مثل (زيوس) وكأن قلعته هي (الأوليمب).. إنّه يعتبر نفسه إلهًا بالفعل.. وقد اختار هذه الميتة للمتمرد لأنها راقت له.. وجدها شاعرية ذات مذاق أدبي ساحر..

فليرحمنا الله فنحن ذاهبون إلى قلعة مجنون.. والأسوأ أنه مجنون قوي جدًّا..

قطع عليّ أفكاري صوت الطيار يقول:

- «اربطوا الأحزمة..»

وبدأت الطائرة تنحدر.. إنها تحاول الوصول إلى الفجوة بين جبلين مغطيين بالثلج.. ثم هي تتجه إلى ممر.. ممر طائرات عجيب تم شقه بين سفح الجبلين..

متى صنع هذا الرجل هذا كله؟ وأية إمكانيات لديه؟

على كل حال لا يُمكنك أن تحكم العالم بتكاليف أقل من هذا..

عجلات الطائرة تلمس الممر..

وتندفع الطائرة في آخر خطوات رحلتها الرهيبة..

☆ ☆ ☆

9 - المتحف..

لم تكن هنالك شكوك..

منذ اللحظة الأولى التي ترجلنا فيها أدركنا أن ذلك البرج الذي نراه من بعيد محاطًا بالحراسة هو مركز الاهتمام والخطورة في هذا العالم المضيء

☆ ☆ ☆

توقفت يده عند برج مرتفع.. وعاد يسأل:

- «هذا... ما هو؟»

مدت (باولا) يدها حيث أشار، وراحت تتحسس ثم قالت:

- «لا أعرف.. لكنه شديد الأهميّة.. هناك حراسة مكثفة من حوله..»..

☆ ☆ ☆

لم نتبادل كلمات.. فقط لم نصدق أننا نمشي في النور.. نمشي وسط ممر طويل يعجّ بالحراس على الجانبين.. ثم نمشي وسط حدائق غناء تذكرك باللوحات التي كان يرسمها فنانو (إخوة ما قبل رافائيل).. كل شيء هناك.. النافورة والطاووس والحسناوات اللاتي يرقدن على العشب يطالعن كتبًا أو يركبن الأرجوحة ويبعثرن الأزهار.. لا ينقص المشهد إلا توقيع (جينسبورو) أو (كونستابل) في الركن..

إنهن بنات سادتنا طبعًا.. ولدن في الشمس والهواء وتمتعن بالحياة النباتية.. عرفن القراءة وربما التلفزيون أيضًا..

تذكرت حياة الآخرين في الظلام يتحسسون الطرقات وسط الرائحة العفنة.. تذكرت شطائر اللحم الكريه الذي لا تعرف ما هو..

لقد حدث الاستقطاب بشكل قاس جدًّا، وكما حلم به كتاب الخيال العلمي مرارًا.. سادة مترفون وعبيد معذبون.. الفارق هنا هو أن العبيد هم العالم كله.. والفارق أنّ هذا لم يحدث نتيجة تطور

داروينى طبيعي، بل هو لعبة قاسية أحدثها نيزك هاو..

ربما كان ما حدث للديناصورات أفضل..

كان الطقس باردًا بحق.. لكن السبب هو إننا على قمم الهيملايا.. ليس السبب أن الشمس لا وجود لها..

هذا يفسر لك المصابيح المتناثرة في الحدائق.. إنها تخلق جوًا صناعيًا من الدفء.. لن تبدو هاته الحسناوات قادمات من عالم (جينسبورو) لو أنّ كل واحدة منهن ترتدي (بول أوفر) بدلًا من تلك الغلالة الرقيقة..

صاح أحد العمال الأسبان القادمين معنا بعبارات غزل أعتقد أنها عبارات غزل.. لأن مرأى الحسناوات أفقده صوابه.. من المبهر أن ترى حسناء لكن الأكثر إبهارًا أن (ترى) أصلًا..

للأسف سمعه أحد الحراس وعلى الفور انهال عليه حارسان ضربًا بكعب البندقية مع الكثير من الركلات..

هكذا واصل الموكب مسيرته في صمت وأدب.

☆ ☆ ☆

هل ترى هذه البناية العملاقة؟ يمكن بسهولة أن تدرك أنها المتحف هنا.. من النوافذ الخفيضة المغطاة بالزجاج ترى خليطًا عجيبًا من لوحات عصر النهضة والآثار الأشورية والفرعونية.. هناك أجزاء تذكرك بمتحف اللوفر ذاته.. هناك رأس كبير (لأمنحتب الثالث) في المدخل وسط الأشجار..

هناك قوم من جنسيات مختلفة يبدو عليهم الرقي يحملون كاميرات التصوير.. منذ متى لم أر كاميرا تصوير؟ إنهم ينظرون لنا في مزيج من الدهشة والاستمتاع..

من الواضح أنّ هناك أرستقراطية كاملة قد تكونت من رجال القومندان وأسرهم وأصدقائهم هنا.. هؤلاء القوم الذين تربوا فوق الظلام وعرفوا معنى النور.. بالطبع استجلبوا لأنفسهم كل ما يجعل حياتهم هنا ممتعة.. حتى آثار الأمم الأخرى وكنوزها.. في هذا شيء من المنطق على كل حال.. إذ ماذا يفعل بهذه الكنوز قوم لا يبصرون؟

كنا نمر بهم.. كأننا جيش من العبيد لا نجرؤ على الالتفات ولا تبادل التعليقات..

وقلت لنفسي: هذا لن يدوم للأبد.. طبيعة الأمور أنّ هذا لن يدوم للأبد.. منذ خلق الله الأرض والماء لا يبقى أبدًا في مكان مرتفع وإنما يهبط لأسفل.. لقد بح صوت المعلمة في المدرسة

الإعدادية وهي تشرح لنا معنى (الأواني المستطرقة)..

هناك ثراء ووفرة ونور والأهم أنّ هذه الأشياء مسلوبة من العالم كله.. لابد من أن يهبط هذا كله إلى حيث الفقر والشح والظلام..

ولكن كيف؟

يبدو أنّ هذه الأمور على عاتقنا.. وكما يعتقد هؤلاء الإخوة فإنها على عاتقي أنا.. وهو دور لا أستطيع القيام به ولا أرغب.. دعك من أن مشهد (بروميثيوس) المعلق بين جبلين لا يفارق مخيلتي..

فقط يجب أن أجد (سلمى).. يجب أن أمسك بيدها ونضغط على أزرار الجهاز.

أعتقد أننا سوف نلتقي الليلة بشكل ما..

☆ ☆ ☆

10 - الخدعة..

لم أكن مولعًا بالعمل اليدوي.. كنت أعتبر نفسي رجل فكر، وهو رأي لم يقره الناشر قط.. كان يرى أنني أكتب كسباك أو حفار طرق..

هذه المرّة كنت أمارس عملي في التوصيلات الكهربية بيد أديب.. لا أملك أية براعة في هذه الأمور خاصة أننا نعمل في أنفاق شديدة التعقيد.. ولولا التعليمات الصادرة بالإنجليزية من (أسطى) هندي يعرف ما يجب عمله لحدثت كارثة.

أعتقد أنني تركت انطباعًا عامًا بأنني لا أفقه شيئًا في مهنة الكهرباء.. هذا ما كان ينقصني..

كانت الساعة تقترب من العاشرة مساء بعد يوم شاق طويل وكنت موشكًا على فقدان الوعي، عندما قال لي الأسطى الهندي:

- «هذا الكابل يقود لقاعة الاحتفالات.. أريد أن تتبعه وتتأكد من أنّه معزول بالكامل.. هل تستطيع عمل هذا على الأقل؟»

قاعة الاحتفالات؟ بالطبع..

مشيت وراء الكابل وأنا أسلط شعاع الكشاف عليه.. رأيته يتلوى خارجًا من النفق صاعدًا لأعلى فالتفت إلى رئيسي.. أشار إلي أن استمر..

ارتقيت درجات تم تدعيمها بالمعدن إلى ساحة مظلمة في الخارج.. أطفأت الكشاف..

ووقفت آخذ شهيقًا عميقًا.. للمرة الأولى أنا وحدي.. لا توجد حراسة من أي نوع هنا.. يصعب على أن أتصور أنني فوق قمم الهيملايا لكنّها الحقيقة فقط هي هيملايا تم جعلها صالحة للحياة بآلاف من أجهزة التدفئة المتناثرة في كل مكان..

من بعيد أرى تلك الأشباح الشامخة مرتسمة على خط الأفق..

إنها الأبراج..

نعم أبراج.. فقد عرفت في هذا اليوم أنّ هناك أكثر من برج.. وكلها تحظى بذات الحراسة المكثفة.. لكني بعيد عنها الآن..

فجأة بدأت الأرض تهتز تحت قدمي ونظرت إلى الأفق فرأيت أن قمم الأبراج تهتز بلا انقطاع.. ومنها يتصاعد ذلك المزيج الكثيف الأسود الذي لا أعرف ما هو..

كان يتصاعد إلى السماء من أكثر من قمة.. كأنها فوهات مصانع تضخ الدخان الأسود بلا انقطاع لعنان السماء.. للحظة تعالى الدخان ثم بدأ يهبط لأسفل..

وفي ذعر فطنت إلى أنني في ظلام دامس لا أرى قدمي ذاتها.. لا أرى يدي..

لكن هذه اللحظات القاسية لم تدم طويلًا لأن الدخان بدأ يتلاشى وينقشع..

ما معنى هذا الذي رأيته؟ هناك رسالة ما لكني لم أتلقها بعد..

لكن الأبراج كانت مستمرة في الضخ بلا توقف..

وسمعت تلك الخطوات من خلفي فأجفلت..

☆ ☆ ☆

نظرت خلفي فرأيت (فيتوريو) قادمًا يتعثر وسط الصخور..

هكذا عدت أنظر أمامي..

قال لي:

- «لقد تأخرت فأرسلني الريس لأسأل عنك..»

ثم نظر إلى الأبراج في الأفق وهمس:

- «ما هذا؟»

قلت له في شرود:

- «أعتقد أنني بدأت أفهم..»

كان الظلام يزداد كثافة من حولنا في هذه اللحظات..

أردفت:

- «منذ جئت إلى عالمكم وأنا أتساءل عن سبب عدم انقشاع هذه السحابة التي سببها النيزك.. إن سيناريو K - T يقضي بأن تزول الحياة عن الأرض سريعًا.. أمّا لو بقيت فإن هناك أملًا في أن يعود نور الشمس عندما تنقشع الغيوم.. لماذا ظل الظلام عشرين عامًا هنا؟ لأن هذا القومندان ورجاله مستمرون في تخليق السحابة السوداء.. هذه الأبراج تقوم بهذا الغرض لقد جعلهم الظلام سادة يسيطرون على الناس سيطرة مطلقة.. معنى عودة النور أن تزول سلطتهم ويستغني عنهم الآخرون..»

كانت عيناه تتسعان رعبًا وهو لا يصدّق.. أن يستغل البعض الكارثة فهذا شيء، وأن يخلق أحدهم كارثة فهذا شيء آخر..

قلت مواصلًا الكلام:

- «من الواضح أنّ هذا الغبار له كثافة معينة تسمح له بأن يهبط لأسفل.. تحت مستوى القومندان.. ويظل معلقًا في الهواء.. هكذا يبقى الناس في أرض الظلام كما هم.. خاضعين للسادة الذين يعيشون هنا.. هل رأيت الترف الذي يعيشون فيه؟ لن يتركوا أحدًا يسلبهم هذا..»

قال (فيتوريو) في شيء من الانبهار:

- «أنت عبقري..»

قلت لاهثًا من البرد:

- «لست عبقريًا.. فقط أنا أول من رأى هذا المشهد..»

ثم نظرت إلى الكابل الغليظ المتلوي على الأرض وغمغمت:

- «هذا الكابل يقود لقاعة الاحتفالات.. أريد أن أكون هناك الآن..»

☆ ☆ ☆

11 - الحفـل..

يتبادل الرجل مع صديقه عبارات المزاح وهما يمشيان في الحديقة.. لا أعرف بأية لغة يتكلمان، لكنهما لم يطيلا الكلام على كل حال لأن (فيتوريو) وثب من خلف الشجرة على أولهما فجندله أرضًا.. وقبل أن يصرخ الثاني كنت قد استجمعت ما في جسدي من توتر وغضب وهويت بمقبض الكشاف على وجه الثاني..

سقطا كحجرين لحسن الحظ.. وهكذا استطعنا أن نستبدل بثياب العمال ثيابهما.. كان من اخترته بدينًا لذا لم تكن ثيابه مريحة على الإطلاق وقد احتجت أن أمشي فاتحًا ساقي كي لا ينزلق البنطال..

مغامرة يائسة لأن رئيس العمال سوف يكتشف غيابنا، ولسوف يتذكر أنني مشيت وراء الكابل.. لو مشى وراء الكابل بدوره لوجد الضيفين المجردين من ثيابهما بسهولة..

لكني آمل في أن أفعل ما أريد قبل أن يفتضح أمري..

أخفيناهما خلف شجرتين، ثم مشينا متظاهرين بأعتي علامات السرور.. كأننا من أبناء هذا المكان المخضرمين.. دعوت الله ألا يكونوا يحفظون شكل بعضهم لكن (فيتوريو) قدر أن العدد كبير فلا يمكن ملاحظة اثنين..

كنا الآن في القاعة الرئيسة التي تقترب مساحتها من مساحة ميدان التحرير، فقط لو أنّ ميدان التحرير كان مضاء بالثريا العملاقة وامتلأ بالقوم فاخري المظهر في ثياب السهرة، وفرشت أرضه بسجاد سميك طري يذكرك بغابات الإستبس.. الخدم يركضون هنا وهناك، وهناك مسحة من إضاءة خافتة تسمح بألا نبدو مريبين..

همست له:

- «كل هذا الضوء والصخب بينما نحن نتحسس طريقنا في الظلمات.. لم يكن هناك عدل لكننا لم نتصور هذا..»

قال:

- «لقد كانت خطوة التسلل ضروريّة..»

كنت أبحث بعيني عن (سلمى).. لو وجدت (سلمى) لانتهت متاعبي.. سوف ألحق بها ونضغط الأزرار ونفر.. دع (فيتوريو) والضوئيين يتدبرون أمرهم فهم قاب قوسين أو أدنى من ذلك..

سألته ونحن نمشي وسط الزحام:

- «لماذا لم تخططوا لاغتيال القومندان؟ أنا لا أعرف أين هو لكن المشروع مغر..»

ابتسم كأنما يسمع طفلًا يتكلم. كان هناك ساقٍ يمرّ بقربه فمد يده ينتزع كوب عصير من على الصينية، وقال:

- «ألم تفهم بعد؟».

- «نعم. لم أفهم..»

قال وهو يفرغ الكوب في جوفه:

- «لا يوجد قومندان!»

كدت أصرخ من الانفعال، ثم استجمعت أعصابي وسألته:

- «ماذا تعني؟»

- «القومندان هو كل هؤلاء.. تلك الزمرة الحاكمة.. الجنرالات والعلماء القادمون من روسيا والصين وبعض الدول الأوروبية.. لقد قرروا أن يصنعوا لأنفسهم مجتمعًا مسيطرًا خاصًا.. ولما كانت الشعوب ميالة إلى الفكرة المجرّدة، ولدت صورة القومندان الذي كان راهبًا آتيًا من التبت.. في الحقيقة لا وجود له.. لا وجود له على الإطلاق.. القومندان فكرة تربط هؤلاء لا أكثر..»

- «والكلام عن النبوءة، وكل ما يُقال عن إجادته السحر إلخ..»

- «كل هذا هراء يؤمن به الجميع حتى أعواننا من الضوئيين ما لديَّ من معلومات يؤكد أن القرارات تصدر جماعية لكنهم يضعون عليها اسم (القومندان)..»

فجأة دوى صوت الموسيقا..

نظرت إلى المسرح العملاق الذي تقطعه أشعة الليزر من حين لآخر.. الدخان يتصاعد كأنه حفل زفاف ابنة خالتي.. مجموعة من الراقصات الغربيات يؤدين نوعًا من الباليه الإيقاعي وسط استحسان الجماهير..

- «هناك على اليمين.. هذه (باولا) فتاتنا..»

(باولا) راقصة تجيد عملها..

فقط هناك على اليسار راقصة بلهاء بطيئة الحركة لا تجيد أداء دورها.. تتخبط وتتعثر وتوشك على أن توقع الصف بأكمله..

كان من السهل أن أعرف (سلمى) من مسافة كهذه..

رحت أشق الزحام نحوها.. سوف أدنو من المسرح وسوف تراني.. سوف تتلاقى أناملنا.. ثم أضغط الأرقام السحرية.. أي شيء.. أية تركيبة.. المهم أن نرحل..

أشق الزحام.. ثمّة رجل عسكري يجري اتصالًا أمر بجواره فأسمعه يتكلم بالإنجليزية.. أسمع جملة مما يقول:

- «الراقصة الثالثة على اليسار.. أريد معلومات كاملة عنها هذه لا تعرف شيئًا عن الرقص!»

هكذا أركض بسرعة نحوها.. أقف تحت المسرح وألوح بيدي..

إنها لا تراني.. البلهاء.. إنها تنظر لقدميها خائفة من أن تتعثر.

ارفعي عينيك قليلًا.. انظري لي.. لو كنت جوارك الآن لحطمت رأسك..

في اللحظة التالية سمعت ضوضاء من خلفي..

أرى ضابطين يشقان الصفوف نحونا.. أحدهما يشير لها والآخر يشير لي!

وسمعت من يقول بالإنجليزية:

- «وهذا.. ليس منا على الإطلاق.. ألم تفهموا بعد يا حمقى؟ إنهما متشابهان! إنهما توءمان!!»

☆ ☆ ☆

12 - الرحيـل..

دوى الصراخ من كل مكان وسمعت من يصيح:

- «الكمبيوتر قال إن نسبة التماثل بين ملامحهما 97%! أنتم تعرفون أنه يدرس ملامح كل من يدخل هنا من ذكور وإناث!»

وقال آخر:

- «كيف يصلان لهذا المدى ولم يلحظ أحد إلا الآن؟ سوف تطير رءوس كثيرة مهملة!»

حديث غاضب بالروسية.. بالألمانية.. بالصينية.. بالفرنسية..

لم أنظر خلفي..

وثبت إلى المسرح في اللحظة التي سمعت فيها طلقة رصاص تمر جوار رأسي.. ثم صاح أحدهم:

- «لا تقتلوهما! يجب أن يظلا حيين للاستجواب! لا مفر لهما من القاعة..»

وكنت الآن على المسرح أحاول النهوض بينما (سلمى) تركض نحوي صارخة:

- «ماذا فعلت يا أحمق؟»

الفتيات يصرخن والمسرح يخلو بسرعة جنونية..

تشبثت بساقها وباليد الأخرى رحت أضغط على أزرار الجهاز (221 - ب - 1)..

- «امنعوه! إنِّه يحاول تفجير عبوة ناسفة بالريموت!»

وطلقة أخرى تخطئ هدفها.. هذه آخر طلقة تفعل ذلك.. لن يظلوا حمقى للأبد..

هيا.. مفتاح الإدخال..

وسرعان ما تلاشت قاعة الاحتفال من حولنا..

☆ ☆ ☆

عندما تم التجسد من جديد وجدت أننا نقف في..

في قاعة واسعة تذكرك بتلك القاعات الصناعية في أفلام (جيمس بوند).. هناك ما يشبه المولد العملاق.. هناك سقف عالٍ جدًّا فيه طاقة نرى منها السماء.. هناك سلم معدني يتلوى قادمًا من أسفل.. هناك غرف جانبية عليها علامات إنذار التلوث النووي وخطر الموت.. هناك مصعد عملي جدًّا يناسب المناجم والمصانع..

الإضاءة خافتة زرقاء معقمة جدًّا..

هناك باب كتب عليه بالإنجليزية (التحكم - ممنوع الدخول لغير الفنيين من رتبة ألفا) وقد كررت العبارة بلغات أخرى هي الروسية والصينية - قد تكون اليابانية - والألمانية..

أين نحن؟

كانت هناك شاشات متناثرة.. شاشات تومض وتنطفئ بلا توقف..

كدت أتكلم لكن (سلمى) ضغطت على ساعدي وأشارت الشاشة من الشاشات..

رأيت على الشاشة وجهي ووجه (سلمى) كما بدونا عند النزول من الطائرة على الأرجح.. صور ثابتة تم التقاطها لنا ونحن لا نعلم..

ودوي صوت المعلق يقول:

- «هاربان.. يجب البحث عنهما في القلعة كلها..»

ودوت صفارة إنذار متقطعة مقلقة من الطراز الذي يجعل أعصابك تتآكل..

قلت لها:

- «ما معنى هذا؟ نحن لم نرحل.. ما زال الموقف كما هو وهم يبحثون عنا..»

كانت صامتة تتأمل المفاتيح، وقد قطبت جبينها ثم قالت:

- «هل تلف الجهاز؟ لا..»

ثم تذكرت شيئًا فأضافت:

- «أنت من اختار الأرقام.. بالتأكيد أنت اخترت رقمًا استعملناه من قبل..»

- «لا أذكر.. لكن لنفترض أنّ هذا حدث..»

- «د. (محمود بكر) مخترع ناقل الجزيئات حذرني من الضغط على نفس الرقم مرّتين، لأنّه لا يؤدي للانتقال إلى عالم آخر.. فقط هو ينقلك إلى موضع آخر من ذات العالم.. أعتقد أنّ هذا ما فعلته أنت.. لم نغادر الكوكب لكننا انتقلنا بضعة أمتار فيه.. غرفة تحكم و..»

ثم شهقت في انبهار:

- «هل تعرف ما أفكر فيه؟ نحن في داخل أحد الأبراج الكبرى..»

قلت لها:

- «بالمناسبة.. لا أعتقد أنك تعرفين ما أعرفه.. هذه الأبراج هي..»

- «هي التي تبقي سكان الأرض في ظلام.. لقد استنتجت هذا.. كنا في الخارج عندما رأيناها تعمل..»

- «إذن دعينا نرحل بالله عليك.. أعيدي اختيار أرقام أخرى..»

قالت في شرود:

- «نعم.. سنفعل ذلك.. لكن أرى أننا في وضع يتيح لنا مساعدة هؤلاء القوم.. ما كنا لنصل داخل أحد هذه الأبراج بسهولة.. نحن الآن بالداخل.. ما رأيك في عملية تخريب؟»

- «هل هي كافية؟»

- «لا.. لكن قسطًا من نور الشمس قد يتسرب لأهل الأرض.. ومعه قسط من الحقيقة..»

وقبل أن أعترض مدت يدها تفتح ذلك الباب الذي كتب عليه (التحكم - ممنوع الدخول لغير الفنيين من رتبة ألفا).

كانت الغرفة خالية تمامًا فيما عدا بعض الشاشات المضيئة وعدد من الروافع والأزرار.. إما أنهم يبحثون عنا وإما أن التحكم آلي تمامًا هنا..

- «وإما أنهم واثقون من أن أحدًا لن يدخل هذه المنشأة..»

قالت لي:

- «تقول إنك أخرق.. هيا برهن لنا عن ذلك!»

هكذا انطلقنا نعبث في الروافع.. لم نبق رافعة في وضعها السابق.. لم نترك زرا إلا ضغطناه.. لم نجد محولًا كهربائيًا إلا حطمناه. انتزعنا كل سلك وقابس.. الشاشات هشمناها.. بدأ الظلام يسود المكان..

جهاز إنذار يدوي من مكان ما..

فجأة انغلق باب الحجرة علينا.. إنّه يعمل بشكل أوتوماتيكي إذا حدث تخريب، ومن مكان ما دوى صوت آلي رتيب:

- «فشل عام في النظام.. توقف لآليات الإظلام.. فشل عام في النظام.. توقف لآليات الإظلام..»

كان هناك من يصيح في الخارج.. صوت طلقات.. كلمات عصبية تقال..

لقد عادوا.. لا أعرف ما أحدثناه من ضرر لكنه كبير يا (سلمى).. إنهم قد فقدوا أعصابهم..

قالت وهي تمسك بيدي:

- «الظلام يعم.. من الحكمة أن نرحل الآن..»

وضغطت الأزرار وهي تمسك بيدي..

في اللحظة التي بدا أنّ هناك من يقتحم الباب..

لكننا كنا قد ذبنا في عالم اللانهائيات..

☆ ☆ ☆

كنت جالسًا إلى مكتبي أدون المغامرة الأخيرة عندما جاءت (سلمى) وفي يدها ورقة والجهاز ناقل الجزيئات. وانتظرت حتى فرغت من السطر الذي أكتبه، ثم قالت:

- «كنت أشك في شيء ما.. لهذا قمت بتفريغ شريحة ذاكرة الجهاز التي تحتفظ بالأرقام التي طلبناها..»

ثم راحت تراجع الأرقام وهي تشطب على الورقة بقلم رصاص:

- «هذه هي أول عملية انتقال فررنا بها من قسم الشرطة.. هنا العملية التي فررنا بها من أرض بلا فراعنة.. وهذه.. كنا في أرض المغول.. ثم فررنا.. هنا فرارنا من أرض العظايا.. أما هذا الرقم فيمثل فرارنا من الديناصورات.. فرارنا من الحفل في أرض الظلام.. ثم فرارنا من البرج..»

ثم وضعت القلم بين شفتيها، وقالت:

- «لم يتكرر أي رقم!»

صحت في دهشة:

- «يا سلام! ولماذا لم نغادر كوكب الظلام عندما ضغطت أنا أزرار الجهاز؟»

قالت في خبث:

- «غادرناه فعلًا! الحقيقة أننا كنا في كوكب آخر يقوم الطغاة فيه بحكم باقي البشر من قلعة فوق جبال الهيملايا!»

- «عم تتحدثين؟»

- «هذه هي الحقيقة! الكوكب الذي دمرنا أجهزة الإظلام فيه هو كوكب آخر يمرّ بذات الظروف! وقد تجسدنا على بعد أمتار بدلًا من أن نتجسد في الحفل!»

صحت في ذهول وأنا أضرب المنضدة بيدي:

- «هذا يعني أننا لم نقدم أية خدمة لـ (فيتوريو) و(سليم) والآخرين..»

قالت باسمة:

- «على الأقل هم يعرفون أين يوجهون ضربتهم عندما يقررون الضرب.. عندما تزول الغمامة ويصل نور الشمس إلى الأرض سيثور الناس ضد من استلبوهم حقّهم في النور..»

ثم أضافت في خبث:

- «ولا تنس أننا قدمنا هذه الخدمة لكوكب آخر في مجرة أخرى!»

رحت أنظر لها في حيرة.. إن الصداع يغزو رأسي بحق..

- «لو كنت تعتقد أن الكون معقد وعسير الفهم، فعليك أن تبتلع بعض أقراص الصداع لأن الأمور سوف تزداد سوءًا..»

قالها عالم الفلك الأمريكي (مايكل تيرنر)، ويبدو أنه لا يعرف كم هو محق ودقيق..

لا نعرف متى سنجرؤ على ضغط الأزرار من جديد.. حتى هذه اللحظة استعملنا الجهاز كوسيلة فرار من وضع خطير وبما أننا في حالة استقرار حالية، وبما أنه لا يمكن طلب ذات الرقم مرّتين، فإنني أعتقد أننا لن نخاطر بترك هذا العالم المستقر.. وأعتقد أن فترة استقرارنا ستطول..

دعك من أن السفر بين العوالم الموازية قد يكون خطرًا بالنسبة لسيدة حامل!

☆ ☆ ☆

خاتمة

من جديد يعود د. (رفعت إسماعيل) ليودعكم...

أرجو أن تكون القصة قد راقت لكم..

عالم جديد من العوالم الكابوسية التي لم يكف الأخ (سالم) و(سلمى) عن ارتيادها، وفي كلّ مرّة أشعر أن عالمنا رائع الجمال..

كما قال في نهاية رسالته: لا نعرف متى سنجرؤ على ضغط الأزرار من جديد.. حتى هذه اللحظة استعملنا الجهاز كوسيلة فرار من وضع خطير، وبما أننا في حالة استقرار حالية، وبما أنه لا يمكن طلب ذات الرقم مرّتين، فإنني أعتقد أننا لن نخاطر بترك هذا العالم المستقر.. وأعتقد أن فترة استقرارنا ستطول..

هذا صحيح.. لم يجربا الجهاز للسياحة قط وإنما للهرب، أي إنهما استعملا مزايا الجهاز السلبية لا الإيجابية.. ألا تكون هنا بدلًا من أن تكون هناك..

الخبر الجديد الطريف هو أن مدام (سلمى) تنتظر حدثًا سعيدًا.. بالفعل أعتقد أنّ هذه المغامرة عنيفة بالنسبة لحامل.. ولربما يومًا ما تكون المغامرات ثلاثية..

عالم بلا شمس.. عالم من الظلام.. هذا عالم لا يناسبني حتمًا..

صبرًا.. لقد انقطع التيار الكهربي في هذه اللحظة بالذات.. لكننا نحتفظ بالأمل..

لربما تعود الكهرباء.. ربما تشرق الشمس مرّة أخرى.. ربما يكون هناك غد..

☆ ☆ ☆

في القصة القادمة أحكي لكم عن خبرتي مع نادي الغيلان.. إن الأندية تتعدّ.. ومجالات اهتماماتها تختلف.. لكن ما هي اهتمامات ناد للغيلان بالضبط؟! يُمكنك أن تتخيل!

ولكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ٦ ٦٠ ١

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

المقدمة

تمهيد

الجزء الأول: أرض الظلام

1 - هناك خطأ ما..

2 - فحص عيون..

3 - جائعان...

4 - أرض العميان..

5 - في الشرفة...

6 - قبس ضوء..

7 - الجريمة..

8 - الكلاب..

9 - المتحف..

10 - الضوئي..

الجزء الثاني: ذكرى الأضواء

1 - الكارثة..

2 - الارتطام..

3 - الموت الأعظم..

4 - حياة الظلام..

5 - القومندان..

6 - الضوئيون..

7 - الضوئي الجديد..

8 - سر ثقيل..

الجزء الثالث: القومنـدان

1 - أسطورة..

2 - فلنعـدْ!

3 - الجهـاز..

4 - القلعــة..

5 - نشوة النيران..

6 - الضوئيون..

7 - سنكون هنـــاك..

8 - المتسـلّلون..

9 - المتحـف..

10 - الخدعــة..

11 - الحفــل..

12 - الرحيـــل..

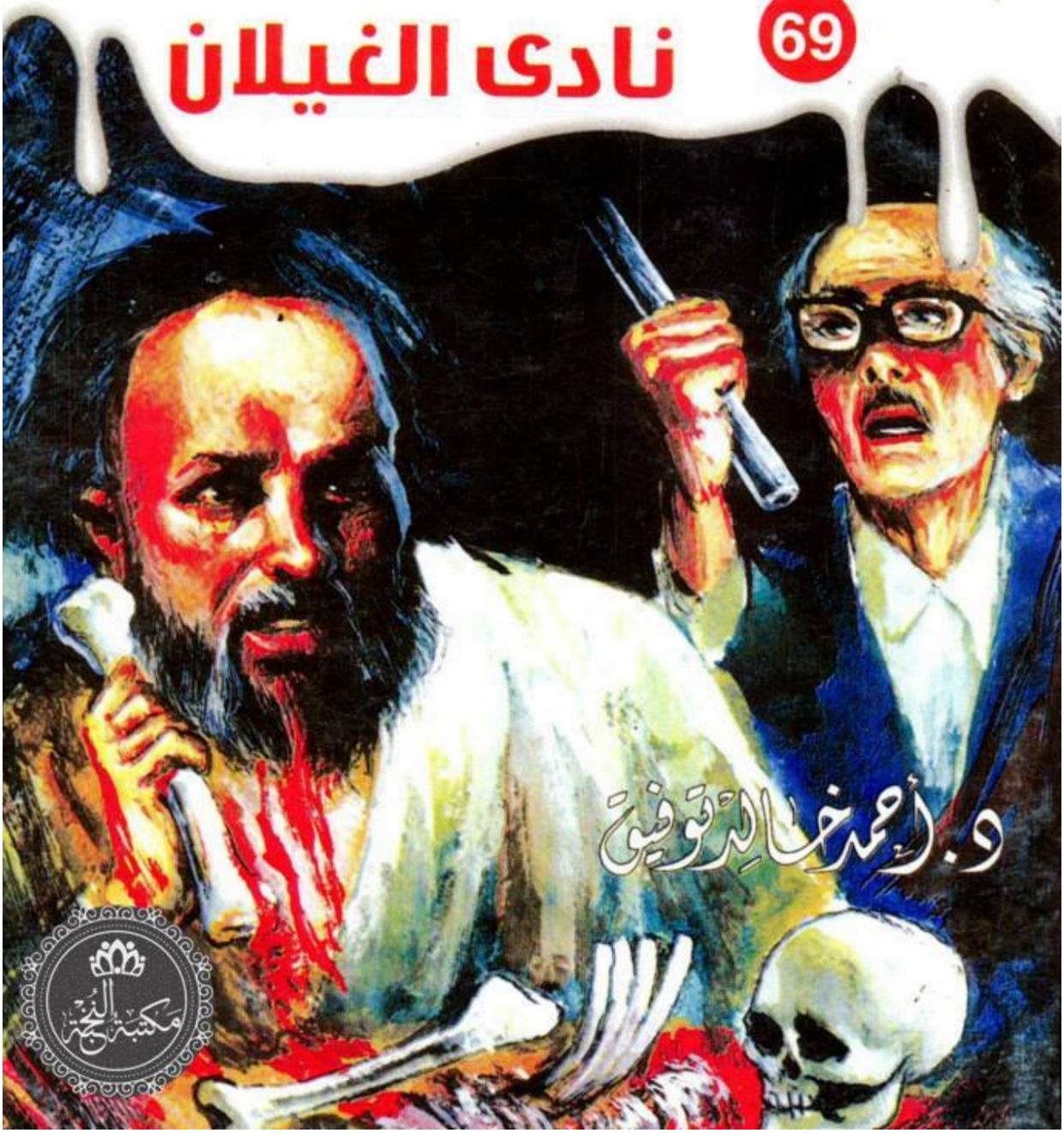
خاتمـــة

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

69

أسطورة نادى الغيلان



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة النخبة

مكتبة
Telegram Network
2021

- ﴿المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



المقدمة

من جديد هو ذا العجوز الثرثار (رفعت إسماعيل) الذي كان قدره أن يلقى أعجب مجموعة من أسرار ماوراء الطبيعة في عمر واحد، والذي يعتبره البعض مجرد عجوز مخبول آخر، ويعتبره البعض شخصيّة رائعة.. أعتقد أنني واحد من أعضاء هذه القائمة الأخيرة..

كنت أنوي اليوم أن أحكي لكم قصة رهيبة.. قصة غاية في التشويق والإمتاع، تجعلكم تحبسون أنفاسكم وترتجفون، وتثبون مترًا إذا سعل أحدهم في الصالة وهو ذاهب إلى الحمام.. كنت أنوي أن أحكي لكم تلك القصة التي ستخلد اسمى في عوالم الأدب، ويجلّدها الآباء كي يقرأها أبناؤهم توطئة لأن يقرؤها أحفادهم.. القصة التي سترددها الأجيال القادمة حول النيران ليلًا (إذا شبت الحرب النوويّة) أو حول جهاز التأين الرقمي (إذا لم يحدث شيء يعطل التقدم)..

كنت أنوي أن أحكي أروع قصة على الإطلاق.. لكني نسيتها للأسف..

لهذا أرجو أن تسامحوني وتكتفوا بهذه القصة..

لم لا؟ لا أعتقد أنها سيئة أبدًا.. ليست معجزة في عالم الأدب تغير كل شيء للأبد، لكنّها برغم ذلك قصة جيدة وأعتقد أنها ستروق للبعض، وربما تخيف أخرين..

فقط أرجو أن تعطي كل ذي حق حقه.. وحقي عليك هو أن تنتظر حتى يأتي الليل.. خفض الإضاءة.. انتظر حتى يسود السكون ويخرس ذلك البائع على ناصية الشارع والذي لا يعرف ما يبيعه إلا الله، وينتهي ذلك الأخ الذي يحكي نكتة بذيئة لصاحبه تحت نافذتك من نكتته.. انتظر حتى يفرغ من (هههعع) ومن السعال فالبصاق.. انتظر حتى يسكت هذا كله وابدأ القراءة..

قصتنا اليوم تدور حول ناد للغيلان.. حكيتها من قبل؟ بصراحة لا أعتقد هذا.. لابد أنكم تخلطون بينها وقصة أخرى..

متى وقعت هذه القصة؟ دعوني أراجع أوراقي.. يبدو أنها وقعت عام 1974.. السبعينات كانت أكثر فترات حياتي صخبًا وأكثرها ازدحامًا بالأحداث..

هناك قصص لا بأس بها وقعت بعد ذلك.. هناك قصة وقعت أمس بالذات.. لكني أجد كثافة غير عادية في أحداث السبعينات بالذات..

بالمناسبة أنا لا أحكي بترتيب منتظم.. لا يجب أن تكون هذه القصة قد وقعت بعد (بيت الأشباح).. ربما وقعت قبلها..

المهم أنّ هناك ناديًا للغيلان، وإنني موجود، وإنكم هنا.. ترمقونني بتلك العيون البريئة المتسعة.. بعض العيون شاخ أو أحاطت به التجاعيد من فرط الهموم.. هذا طبيعي.. إن ثلاثة عشر عامًا من السرد ليست بالأمر الهين..

والأن نبدأ قصة نادي الغيـ...

لحظة حتى ينتهي هذا الأخ الذي يحكي نكتة بذيئة تحت شرفتي من نكتته.. وينتهي من الـ (هههعع) ثم السعال من صدر يفعمه التبغ.. ثم البصقة التي لا مفر منها على الرصيف.. فقط أرجو ألا تركز الفتيات المهذبات مع النكتة؛ لأن ما يقوله شنيع فعلًا..

عندما ينتهي هذا كله سأبدأ السرد..

هههعع..!

كح.. كح!

تفوه!

لقد انتهى**!** هذا خبر طيب..

فلنبدأ الآن..

غـول: (غاله) الشـيء من باب قال و(اغتاله) إذا أخذه من حيث لم يدر. (الغُول) بالضم من السعالى والجمع (أغـوال) و(غيلان). وكل ما اغتـال الإنسـان فأهلكـه هـو (غـول). والغضب غول الحلم لإنه يغتاله ويذهب به.

مختـار الصحـاح 1926

غـول: الشخص الذي يجد سعادته فيما هو مثير للاشمئزاز أو مرضـي أو كريه -سارق قبور -روح شريرة أو شيطان في الفولكلور الإسلامي قيل إنه يسرق القبور ويلتهم الجثث. (من لفظة غيلة العربية: أي ينقض على الشـيء فجأة)

قاموس التراث الأمريكى
الطبعة الثالثة

الجزء الأول:

جمعية الباحثين عن الحقيقة

وضعت قبضتي تحت ذقني وعدت أسأله:

- «ماذا يدور في هذه الجلسات؟ هل تستحضرون أرواحًا أو ترقصون عراة حول نجمة خماسية على الأرض؟ ربما تستعملون دماء الأطفال الرضع كذلك؟»

نظر لي في غيظ، ثم قال:

- «بالطبع.. نفعل هذا وأكثر.. ما تتكلم عنه هو لعب أطفال..»

1

منعًا للخلط أو تداخل الأزمنة والأحداث، دعونا نبدأ بأن نثب وثبة زمنية ومكانية واسعة إلى لندن.. بالتحديد في الأعوام الأخيرة من القرن التاسع عشر.. فمتى انتهينا من هذه الوثبة، أعدكم بأن نبقى هنا والآن.. في مصر وفي زمننا الحاضر هذا..

نحن الآن في العام 1891.. مكتب في (فليت ستريت) يطل على حدائق (كوفنت)..

على الباب لافتة تقول: (كلايد آند سبنسر - خبيران قانونيان)..

على قدر علمي لم يكن البريطانيون في زمن الإمبراطورية هذا يمارسون أي نشاط سوى التدخين وتناول العشاء، ولا يذهبون لأي مكان إلا النادي ومكتب المحاماة..

وفي هذه القاعة التي ازدانت جدرانها الأربعة بالمكتبات المليئة بالمجلدات القانونية، وأمام المكتب العملاق الفارع، يجلس ورثة اللورد (إيمري) الأربعة.. ابنة شقيقته وربيبه وابنة أخيه..

خلف المكتب يجلس المستر (جيمس كلايد) المحامي المسن أشيب الشعر والسيجار في يده، يرمق هذه المجموعة الغريبة من البشر.. مجموعة مصدر غرابتها هي أن أفرادها طبيعيون جدًّا..

كان يعرف غرابة أطوار عميله اللورد (إيمري)، ويعرف أن الرجل كان مخيفًا بما يكفي كي يقطع كل من يعرفه علاقته به. إنه (الخروف الأسود) في الأسرة كما يقول البريطانيون..

اللورد (إيمري) جاب العالم لكنه اختار أماكن عجيبة لسياحته لقد زار (ترانسلفانيا) وزار (سيلم) في الولايات المتحدة، وعرف طباع أهل (نيو إنجلند) الشاذة التي أحسن وصفها (لافكرافت) فيما بعد، كما أنه زار مصر وعرف الكثير عن الفراعنة، قبل أن يزور التبت ليرى المعابد البوذية..

كان لورد (إيمري) واسع الثراء يعيش وحده في بيت ريفي منعزل، وقد كثرت الأقاويل حول هذا البيت، حتى أن الفلاحين كانوا يرسمون الصليب عندما يمرون قربه.. وكانت زيارات المستر (جيمس كلايد) لبيت عميله همًّا مقيمًا؛ لذا كان يفضل المراسلة بالخطابات مع هذا الرجل..

برغم هذا لم ير شيئًا غريبًا من اللورد.. قد يكون مجرد عجوز مولع بالعزلة لا أكثر..

على كل حال هو قد مات..

والآن جاء الورثة لسماع وصيته التي تركها لمحاميه.. الوصية التي تتكون من ورقة واحدة معها أربعة خطابات مغلقة ومختومة بالشمع الأحمر وخاتم اللورد..

قال المحامي وهو يمسك الورقة:

- «الآن وقد جئتم جميعًا يمكننا أن نطالع الوصية..»

مد شريكه (هنري سبنسر) الذي وقف خلفه عنقه ليقرأ معه بينما تعالى صوت المحامي الجهير:

- «أنتم أقاربي الوحيدون على قدر علمي، ولست فخورًا بكم ولستم فخورين بي.. لو شئتم الدقة لقلنا إنني أمقتكم جميعًا.. كلكم كنتم تتملصون مني، وتحاولون نفي أية علاقة لكم بالثري الريفي المجنون الذي هو أنا..»

هب الفتى (ويليام إيمري) ابن أخي اللورد مغضبًا، وتناول قبعته هاتفًا:

- «هذا غير مقبول! لم أقطع كل هذه المسافة لأهان!»

قال المحامي في برود:

- «الرجل قد مات يا بني ولم يعد مسئولًا عن أفعاله.. ليس بوسعه الاعتذار وليس بوسعك طلبه.. أرجو أن تجلس وتمسك أعصابك..»

جلس الفتى في تردد.. من ثم عاد صوت المحامي يتردد:

- «مشكلة الموتى هي أنهم غير قادرين على استكمال مشاريعهم الكبرى؛ لذا هم بحاجة إلى الأحياء.. ولولا هذه الحقيقة لكنت أسعد الناس بأن أوصي بكل مليم أملكه للكلاب في ضيعتي.. فهي احتفظت بإخلاصها لي إلى النهاية..

«سوف يتم تقسيم الإرث بينكم على الأسس التي يعرفها مستر (كلايد) ولكن هناك شرطًا مهمًا.. سوف يأخذ كل منكم خطابًا يحمل اسمه، ولسوف يكون عليه أن يعي ما به حرفيًا، ثم يحرق الخطاب وينفذ ما جاء به.. مستر (كلايد) لا يعرف محتوى الخطاب لذا لن يستطيع التيقن من تنفيذ أوامري، على أنني أعدكم بأن أنتقم من أي واحد فيكم لا ينفذها.. أنتم تعرفون أنني أعني ما أقول وإنني بحق أستحق السمعة السيئة التي أحاطت بي.. لهذا ستكون غضبتي عاتية لا تبقي ولا تذر، ولسوف يحل الخراب بمن يتلاعب بي.. هذا هو كل شيء..»

«قريبكم غير الفخور بكم

لورد ج. و. إيمري»

لما انتهى المحامي من تلاوة الوصية، هب الفتى (ويليام) من جديد صائحًا:

- «هذا العجوز استحق كل حرف قيل عنه.. هذه كلمات لا يكتبها إلا مجنون..»

أضاف أخوه:

- «هذه العبارة الأخيرة بالذات (لهذا ستكون غضبتي عاتية لا تبقي ولا تذر، ولسوف يحل الخراب بمن يتلاعب بي) تعكس تأثره بالتهديدات التي كان ينثرها الكهنة المصريون في المقابر

الفرعونية..»

من جديد قال المحامي في برود:

- «ليس من شأني أن أحكم على أخلاقه أو عقله.. إنّه الآن في يد من هو أحكم وأكثر رحمة بما لا يقاس.. مهمتي محددة هي أن أتلو عليكم الوصية ثم أسلم كلًا منكم خطابه الخاص..»

ثم مد يده وتناول أول خطاب، وقال:

- «مستر (ويليام إيمري).. لقد ترك لك بيته الريفي.. هذا الخطاب لك..»

قال الفتى في نفاد صبر:

- «سوف أبيع هذا البيت في أول فرصة..»

لم يعلق المحامي وتناول الخطاب الثاني:

- «آنسة (هوجزورث).. لقد ترك لك خالك مبلغًا من المال في المصرف، سوف أخبرك بتفاصيله على انفراد..»

ثم ناول الخطابين الآخرين لصاحبيهما مع بيان ما ورثاه..

ثم أضاف معلنًا إنهاء الجلسة:

- «هذا هو كل شيء.. ولا أريد أن أُلمِّح لشيءٍ، لكني لو كنت مكانكم لنفذت ما يطلبه الخطاب بالتفصيل، لأني أعرف اللورد (إيمري)، وأعرف أنه اتخذ كل ما يلزم كي يتأكد من أن وصيته ستنفذ..»

هكذا غادر الورثة المكتب، وكل منهم يتحرق شوقًا لقراءة خطابه على انفراد..

☆ ☆ ☆

كان الصحفي الشاب (جوزيف إيمري) في غرفة المكتب بشقته يتهيأ لتدخين بعض الأفيون (الذي لم يكن محرمًا في ذلك الوقت) عندما جاءه (ويليام) أخوه مندفعًا ممتقع الوجه..

لما رآه جالسًا قال له في عصبية:

- «أنت هنا تدخن الأفيون بينما أنا أرتجف رعبًا!»

قال (جوزيف) وهو يُطلق سحابة كثيفة:

- «ومن قال العكس؟ لماذا تحسبني أدخن الأفيون؟ أريد أن أغيب عن الوعي بعض الوقت حتى أنسى..»

قال (ويليام) في حماسة:

- «هل لي أن أفترض أنك وجدت في خطابك نفس الشيء؟»

- «نعم.. أعرف من وجهك أننا قرأنا الشيء ذاته..»

- «وهل تنوي تنفيذ هذا الهراء؟»

- «بالطبع لا..»

ثم نظر حوله كأن هناك من يتنصت عليه، وأردف:

- «اسمع.. لا شيء يربط حصولنا على الإرث بتنفيذ هذه الوصية.. سوف تنال المال في كل الظروف.. يمكننا أن نتجاهل ما يطلبه رجل مجنون..»

هكذا اتفقا..

☆ ☆ ☆

لهذا ستكون غضبتي عاتية لا تبقي ولا تذر، ولسوف يحل الخراب بمن يتلاعب بي..

☆ ☆ ☆

تقول الوثائق وتلك الصفحة من الـ (هيرالد) التي وجدتها إن (ويليام) وُجد ميتًا جوار النهر.. ضباب لندن اللعين الأزرق جعل العثور على الجثة عصيبًا، لكنهم وجدوه شاخص العينين بلا أثر لأي جرح في جسده.. الواقع أنه لم يوجد أي شيء يدل على الوفاة فيما عدا الوجه.. الوجه الذي يقول بوضوح تام إنّه رأى شيئًا شنيعًا.. لكن أي شيء شنيع يمكن أن يؤدي لتوقف قلب شاب قوي مليء بالفتوة؟

لابد أن (جوزيف) أخاه مر بظروف مماثلة..على كل حال قد وجدوه ميتًا في شقته، وأمامه النارجيلة التركية إياها.. كان شاخص العينين وقد تقلص وجهه في صرخة رعب.. الطبيب قال إن الأرجح هو أن جرعة عالية من الأفيون قتلته..

لا تتوقف القصة عند هذا الحد، فمن المؤكد أن الفتاة (هيلين هوجزورث) التي كان اللورد خالها، والتي كانت تصر على عدم ذكر اسم (إيمري) في نهاية اسمها، كانت تحمل عاطفة ما متبادلة مع ربيب اللورد، وهو شاب يدعى (آرثر)..

وقد قابلت (آرثر) بدورها، وسألته في ذعر:

- «هل خطابك يحوي أشياء مماثلة لما في خطابي؟»

هزّ رأسه.. من الغريب أن كل واحد كان يدرك يقينًا أن أربعة الخطابات متماثلة..

- «وماذا تنوي عمله؟»

قال وهو يحك شعره المجعّد:

- «الحقيقة أنني أعرف اللورد أكثر من أي واحد فيكم، وأعرف أن ما في الخطابات صحيح على الأرجح.. لكن هذا لا يعني أن أتورط في الأمر.. سوف أتجاهل الأمر وأحصل على حقي في الإرث..»

- «وكلامه عن الانتقام؟ لقد مات (ويليام) و(جوزيف) ابنا خالي.. لا أحد يعرف كيف..»

قال (آرثر) ضاحكًا:

- «لو كان بوسع خالك أن يؤذي لما طلب عوننا.. تذكري كلماته (مشكلة الموتى هي أنهم غير قادرين على استكمال مشاريعهم الكبرى؛ لذا هم بحاجة إلى الأحياء).. هذا يبرئ ساحته تمامًا..»

قالت وهي تريح رأسها على كتفه:

- «أتمنى أن أصدقك..»

☆ ☆ ☆

لهذا ستكون غضبتي عاتية لا تبقي ولا تذر، ولسوف يحل الخراب بمن يتلاعب بي..

☆ ☆ ☆

وبالفعل لم تصدقه. لم تصدقه قط..

(آرثر) لم يصح من نومه عند الظهر كعادته..

اضطر وصيفه إلى دخول الحجرة، فوجده على الفراش - ميتًا طبعًا - يحدّق شاخص البصر في السقف.. نظرة رعب عاتية في عينيه، وهي النظرة التي وصفها د. (دوجلاس) بأنها ذات النظرة التي رآها على وجهي الشقيقين (ويليام) و(جوزيف)..

هنا تتحرك الأحداث بسرعة..

لقد رفضت (هيلين) نصيبها في ميراث خالها، وكانت مذعورة تبدو أقرب إلى الجنون.. لا أحد يلومها بالطبع.. ولم يجد المحامي سبيلًا للخلاص من ورطة موت الورثة خلال ثلاثة أيام إلا أن يوقف هذه الثروة على فلاحي الضيعة..

وكلابها.. ..

أمّا (هيلين) فقد حزمت حاجياتها وركبت أول سفينة مغادرة البلاد إلى إحدى مستعمرات بريطانيا..

آخر ما قيل عنها في الوثائق هو إنها ذهبت إلى مصر..

☆ ☆ ☆

2

للمرة الثالثة هذا الأسبوع يدق جرس الهاتف..

من الضروري أن أجرى دراسة لمعرفة سبب تحول بيتي إلى سنترال (العباسية) فجأة..

كنت منحرف المزاج هذا الأسبوع، فقد توفي د. (محمد شاهين) في بدايته.. نوبة قلبيّة كالعادة، وبرغم أنّ هذا الرجل أتعبني بسذاجته فقد احتل مساحة لا بأس بها من حياتي وذكرياتي، دعك من أنّه كان طيب القلب فعلًا.. لا يملك ذرة واحدة من الخبث والادعاء، وهي صفة نادرة بحق..

قرب نهاية الأسبوع تشاجرت مع اكتشاف (محمد شاهين).. د. (كاميليا).. من الغريب أننا مجرد صديقين يحترمان بعضهما، لكننا نتشاجر بإفراط كأننا متزوجان منذ عشرين عامًا.. كانت قد قدمت لي مجلدًا كتبته هي يشبه الكومود في حجمه ووزنه ومحتوياته، وطلبت مني أن أقرأه.. طبعًا لم أقرأ حرفًا لأن (الفلسفة الماديّة وإرهاصاتها لدى كيركجارد) آخر موضوع يمكن أن يثير اهتمامي.. بعد أسبوع عرفت أنني لم أقرأ حرفًا فاتهمتني بالسطحية وادعاء الثقافة والتفاهة.. هكذا تشاجرنا وأعتقد أن علاقتنا قد فصمت للأبد لمدّة أسبوع كما يحدث في كلّ مرّة..

لا أستطيع ولا أريد الخلاص من (كاميليا)، لكني كذلك لا أريد أن أقترب منها بأكثر من مكالمة هاتفية أسبوعية..

ساخطًا اتجهت إلى الهاتف ورفعت السماعة، وأنا أتساءل عن ذلك السخيف الذي يعتقد أنه يقدم لي هدية لمجرد أنه هو..

الحقيقة أنه كان هدية فعلًا..

كان هذا هو صديقي العزيز القديم د. (سامي).. تلك الليلة في الإسكندرية وحلقة الرعب الأولى.. وذلك الحفل الرهيب المليء بغرباء الأطوار..

كان منتعشًا مرحًا كالمصيبة كما هي العادة، وراح يسألني عن كل شيء في حياتي.. أين ذهب الجميع؟ هل من كان حيًّا ما زال حيًّا؟ إلخ.. طبعًا من الواضح أن أحدًا لم يخطره بوفاة (محمد شاهين) صديقنا المشترك، فلن أكون الأول وأتلقى اللوم على عدم إبلاغه.. كان هناك نعي في الجريدة، لكن هل تتوقع أن يهتم د. (سامي) المتفائل بصفحة الوفيات؟

ثم:

- «ألا تنوي أن تمر علينا في الإسكندرية؟ العمر يمضي سريعًا ولم تعد ثمّة لقاءات كثيرة..»

قلت له في حرج:

- «أرجو ألا تدعوني لحفل من الطراز الذي يعجّ بالفراعنة العائدين..»

ضحك كثيرًا.. لسبب ما يجد هذا الرجل أن كل حرف أقوله دعابة طريفة.. وقال:

- «لا تقلق.. أمسية هادئة وعشاء من يد المدام.. لن يزيد الأمر على شكة إبرة.. صدقني..»

حاولت التملص لكنه كان مصرًّا كالعادة.. وراح يحبط كل عذر خائب اختلقته..

- «لاحظ أنني تخليت عن تلك الفيلا النحس.. حاليًا أقيم في بناية عامرة بالسكان في.. (وذكر العنوان الجديد)..»

هكذا اتفقنا على مساء الخميس كالعادة..

إسكندرية الشتاء مرّة أخرى.. (عادل) و(سهام) و(هويدا).. د. (سامي).. البنسيون.. أشعر أن غبار الزمن يتطاير ليعيد لي (رفعت) القديم.. (رفعت) الشاب الذي كان أكثر كآبة وتوجسًا مني الآن..

مزية شبابي هي أنه لا قيمة له.. يحن كل الناس لشبابهم باعتبارهم كانوا يتسلقون جبال الإنديز ويمرحون مع الحسناوات ويركبون سيارات الفيراري في ساحة (إنديانا بوليس).. بالنسبة لي لا يمثل الشباب أي شيء، لأني ببساطة لم أفعل أي شيء في شبابي سوى مصادقة الأشباح والمسوخ.. ولأسباب عدة صرت أعتقد أنّ هذه الكائنات تفهمني أكثر من البشر.. هكذا لست نادمًا أو حزينًا على شباب ولّى.. يجب أن تمتلك الشيء كي تشعر بفقده..

هكذا اتفقنا على مساء الخميس كالعادة..

وهكذا استعددت للقاء كما يجب.. حلاقة رأسي.. أعني حلاقة ما تبقى منه.. البذلة الكحلية التي لم تكف لحظة عن أن تجعلني فاتنًا.. ربطة العنق الجديدة التي ابتعتها من تنزانيا.. لم أعرف أن تنزانيا تبيع ربطات العنق لكني فعلت ذلك..

هكذا اتفقنا على مساء الخميس كالعادة..

وهكذا انطلقت بسيارتي أنهب الطرقات نهبًا وأطويها طيًا - كما يقول مدرس اللغة العربيّة - ألحق بموعدي مع صديق الماضي العزيز..

☆ ☆ ☆

في في فو فام..

☆ ☆ ☆

قال إنِّه يسكن بناية عامرة بالسكان، وقد صدق فعلًا..

كانت شقته في الطابق السادس من بناية مزدحمة بالفعل.. مصعد مدخل تحيط به نباتات الزينة كالعادة، ثم تدق الجرس فتفتح لك الباب خادمة أنيقة حسنة المظهر.. تدخل لتكتشف أن الزوجة فعلت هنا بالضبط ما كانت تفعله في الفيلا.. كل شيء أبيض.. الأثاث أسود حرص على الدقة اللونية يبلغ درجة الوسواس.. هنا عالم من الأبيض والأسود يشعرك بأنك غريب.. لو أنّ أحدنا نزف دمه على الأرض واتضح أنِّه أحمر، لاتهم بانعدام الحس الفني..

نباتات الزينة في كل مكان.. نباتات عفية حسنة التغذية فخور بنفسها.. جربت ذات مرة تربية نبات ظل نسيت اسمه، وقد نجحت في أن أبقيه حيًا ثلاث ساعات.. تحول إلى جثة عفنة رخوة تثير الرعب في القلوب.. لهذا أقدر من ينجحون في إبقاء هذه الكائنات المزعجة حية..

الجديد هو تلك اللوحات المتناثرة في كل ركن.. لوحات عملاقة للفنانين التأثيريين.. (رينوار) و(ديجا).. و(مانيه) و(مونيه).. وقد حرصت الزوجة على وضع الإضاءة جوار اللوحة بحيث تستعيد ظروف الإضاءة التي استعملها الفنان بالضبط.. هكذا تشعر أن اللوحة حية، وهي حيلة جربتها أنا كثيرًا من قبل.. جرب أن تضع شمعة أسفل لوحة (راقصة البالية) الشهيرة لـ (ديجا) وراقب النتيجة.. سوف تحتر.. أ.. سوف تجعل الإضاءة الراقصة تبدو حية على المسرح لأن إضاءة اللوحة آتية من أسفل..

بين اللوحات صورة فوتوغرافية عملاقة لم أرها من قبل تمثل د. (سامي) وهو يدخن الغليون.. الحق إنها كانت جميلة التقطها خبير، وقد استخدم الظلال ببراعة وموهبة، مما يختلف عن (إضاءة الأفراح) التي نراها في الصور الفوتوغرافية عادة.. دخان التبغ نفسه صار جزءًا مهمًا من مفردات الصورة..

هناك سماعات عملاقة في كل مكان.. سماعات ستريو تنبعث منها الموسيقا الكلاسية بلا انقطاع، وقد قال لي (سامي) فيما بعد إن موسيقا (باخ) هي المناسبة لتلك اللوحات التأثيرية.. الحوشيون على غرار (جوجان) و(فان جوخ) تناسبهم نغمات (فاجنر) أكثر.. ما شاء الله.. لم أعرف قط أنّ هناك موسيقا تليق أو لا تليق بلوحات معينة.. فإما أنني أجهل من دابة أو هو يبالغ نوعًا..

هناك جهاز لتعطير الجو يُطلق زخة كل عشر دقائق.. هذه هي مزية عدم الإنجاب الوحيدة.. لو كان هناك أطفال لما بقي حجر فوق حجر في هذا البيت..

الشرفة واسعة باردة.. يخيم عليها جو المساء، وفيها مائدة وبعض المقاعد.. جو من الظلام يريح النفس حقًّا..

هكذا جلسنا في الشرفة وأنا أتساءل: أين العشاء ومتى؟

بعد قليل بدأت أشعر أن البرد أكثر مما يحتمل.. هذا إفراط في الرومانسية سوف يجلب لي المصائب..

جاءت الزوجة - مدام (ثريا) - حاملة كؤوس العصير، ورحبت بي بحرارة.. وقالت لي إن الأستاذ (عزام) المحامي آت حالًا.. طبعًا أنا لا أعرف من هو الأستاذ (عزام) المحامي ولا أشتهي مقابلته، لكن عليَّ أن أتظاهر بأن هذا أروع خبر سمعته في حياتي..

- «إذن هو آت؟ رائع رائع! أشتاق مقابلة هذا الوغد العجوز!»

قال (سامي) في حيرة:

- «عجوز؟ إنِّه في الأربعين من عمره..»

- «عجوز في عقله.. في حكمته.. هذا ما أعنيه..»

راحا يسألانني عن كل شيء.. حتى توقعت أن يسألاني عن تطعيم الحصبة الذي تلقيته.. ثم قالت الزوجة ضاحكة:

- «هل حقًّا ما زلت تهتم بتلك الأمور المخيفة كعهدنا بك؟»

- «الأمور المخيفة هي التي تهتم بي..»

قال د. (سامي) وهو يشعل غليونًا:

- «هناك قصة غريبة بعض الشيء.. لا أعرف إن كنت تجد فيها شيئًا ذا قيمة، لكن لا بأس من طلب رأيك..»

ثم مد يده في جيب الروب، وبحث عن شيء.. ثم أخرج مظروفًا أسود أنيق الشكل وناوله لي.. ونفث سحابة دخان بمعنى (ما رأيك؟)..

في توجس تأملت المظروف فلم أر أي شيء.. أضاءت مدام (ثريا) نورًا خافتًا لأتمكن من القراءة:

«جمعية الباحثين عن الحقيقة..»

فتحت المظروف فوجدت بطاقة أنيقة فعلًا، كتب عليها:

«يتشرف المحاسب (عدنان شوقي) بدعوتكم لحضور حفل التعارف الخاص بجمعية الباحثين عن الحقيقة، وهي جمعية غير حكومية لا تهدف للربح، وتضم المهتمين بفهم أنفسهم أكثر، وقد اخترنا أفرادها بناء على ما توسمناه فيهم من مكانة

اجتماعية وثقافة عالية، وخلفيّة أكاديمية مرموقة. سوف يكون السيد (عدنان شوقي) موجودًا ومستعدًا للإجابة عن أسئلتكم.. وبعد هذا تجري انتخابات لمعرفة أعضاء الجمعية العموميّة وجدول أعمال العام الحالي، في حالة قبولكم الانضمام للجمعية..

يُرجى تشريفنا بالحضور الثلاثاء 8 نوفمبر في تمام الساعة الثامنة مساء...»

فرغت من قراءة البطاقة.. ونظرت في حيرة لـ (سامي) على حين أغلقت زوجته النور من جديد، فعدنا نسبح في الظلام..

قلت في شرود:

- «جمعية تضم المهتمين بفهم أنفسهم أكثر.. ما هذا الكلام الفارغ؟»

ضحك طويلًا كعادته كلما قلت شيئًا مهما كان جادًا، وقال:

- «حسبتك ستقدم لي إجابة..»

قلت في ضيق:

- «لا توجد إجابة إلا لديهم.. أعتقد أنهم نصابون وأنّهم سيطالبونك برسم المشاركة في الحفل.. هكذا يجمعون عدة مئات من الجنيهات ثم لا ضير عليهم بعدها إن عرف الكل أنهم نصابون..»

كان هذا قبل أن تظهر حيلة النصب الشهيرة الحالية: يسألك الفتى عن البلد الذي عاصمته القاهرة فتهتف في ذكاء وانتصار: مصر.. برافو.. أنت عبقري يا سيدي؛ ولذا ندعوك لحفلنا الكبير الثلاثاء القادم حيث تحصل على فيلا وسيارة وطائرة لأنك إنسان رائع.. فقط يجب أن تدفع عشرة جنيهات الآن لضمان الجديّة..

لم يكن النصب وقتها قد بلغ هذه الحدود؛ لذا بدا لنا الأمر غريبًا غير معتاد..

عدت أسأل د. (سامي):

- «كيف وصلتك هذه الدعوة؟»

- «بالبريد.. من الغريب أنهم أرسلوها إلى الفيلا التي كنت أسكنها، ولما كان مالكها يعرفني فقد سلمني هذا المغلف عندما قابلته..»

- «لابد أنهم حصلوا على العنوان من مصدر قديم..»

ورشفت رشفة من العصير، وعدت أسأل:

- «ولماذا أنت بالذات؟»

ضحك وتبادل نظرة مع زوجته:

- «ألم تقرأ الدعوة؟ (بناء على ما توسمناه فيهم من مكانة اجتماعية وثقافة عالية، وخلفيّة أكاديمية مرموقة).. هذا أنا.. الدعوة تتكلم عني أنا! ثم لو لم يضموا طبيبًا نفسيًا لجمعية مهمتها (أن يفهم المرء نفسه أكثر) فمن يضمون؟»

بدا لي الكلام معقولًا، لكن ذلك الموظف الذي لا يهدأ ولا يرتشي في ضميري راح يكرر ويكرر: هناك شيء ما خطأ.. صدقني!

قلت له أن يخرس.. ليس الوقت وقت شكوك.. وإنما هو وقت العشاء.

☆ ☆ ☆

3

اللقاء كان في العجمي..

هناك فيلا فاخرة تقع على أطراف الضاحية، يمكن من موضعها أن ترى البحر وتسمع أصوات الموج المتلاطم.. في الظلام يتحول الموج إلى وحوش سود تتصارع في جشع أيها يفتك بك..

هناك أوقف د. (سامي) سيارته وترجل ونزلت معه..

ثمة ست سيارات واقفة.. ليس العدد كبيرًا إلى هذا الحد، لكن من الوارد أنّ بعض من جاءوا لا يملكون سيارات..

كنت أنا مع د. (سامي) لأنّه طلب مني بإلحاح أن أكون معه..

الثلاثاء 8 نوفمبر في تمام الساعة الثامنة مساء.. لو حسبت أن د. (سامي) يمكن أن يتأخر دقيقة أو يبكر عن موعده دقيقة فأنت لا تعرفه على الإطلاق.. هذا الرجل هو بالضبط كل ما ليس أنا.. ليست مواعيدي هي الأسوأ لكنّها بالتأكيد ليست تلك المواعيد المبرمجة بالكمبيوتر التي يحافظ عليها.. هذا يجعل الأمر غير آدمي كأنك تتعامل مع حاسب آلي..

عدت أكرر، وأنا أرتجف من البرد برغم أنني ألبس البذلة الكحلية وأبدو فاتنًا:

- «أنا لم أتلق أية دعوة.. لا أحد يرحب بي..»

قال ضاحكًا وهو يغلق أبواب السيارة:

- «كف عن عقدة الاضطهاد هذه.. هم يتعاملون مع سكان الإسكندرية فقط ولم يعرفوا بك.. لكن إذا كانوا يبحثون عن شخص ذي مكانة اجتماعية وثقافة عالية، وخلفيّة أكاديمية مرموقة، من أجل أن يفهموا أنفسهم أكثر، فهم بالتأكيد سيرحبون بك.. أنت أشهر من نار على علم ولسوف تجد عشرين من هؤلاء يبرزون ليجذبوك إلى الداخل..»

دق جرس الباب..

ظهر لنا وجه رجل بارد متصلب الملامح، وفي تهذيب وقح - لو كان هناك شيء كهذا - قال:

- «الدعوة لو سمحت..»

أبرز له د. (سامي) دعوته فتفحصها في عناية.. خطر لي أنهم أغبياء لأن الدعوة لا تحتوي صورة.. ثم إن الرجل نظر لي متسائلًا:

- «والأستاذ؟»

صاح د. (سامي) في حماسة:

- «هذا هو د. (رفعت إسماعيل) أستاذ جامعي وخبير في عوالم الميتافيزيقا.. فقط قل لمن في الداخل إنِّه معي ولسوف يلومونك على إبقائه في الخارج..»

نظر لي الرجل في شك كأنه يتفحّص خروفًا لعيد الأضحى، ثم قال:

- «لحظة..»

وأغلق الباب ووقفنا في عصبية ننتظر..

دقائق عاد بعدها ليقول في تهذيب:

- «تفضل بالدخول يا دكتور..»

قالها لـ د. (سامي) أمّا أنا فنظر لي وهز رأسه بما معناه (أنت لا)..

كان الموقف سخيفًا محرجًا.. خاصة بعد (ولسوف تجد عشرين من هؤلاء يبرزون ليجذبوك إلى الداخل).. واضح أنني لست أشهر من نار على علم هنا..

هنا قال د. (سامي) في عصبية وهو يتأبط ذراعي:

- «كان عليَّ أن أفهم هذا.. لكن ليكن واضحًا أنني لا أقبل الانضمام لجمعية ترفض دخول صديقي..»

سرني غضبه، لكني وددت لو يتصرّف بطريقة عملية.. أنا لم أتلق دعوة فليس لي أن أغضب من عدم السماح لي بالدخول.. هذا تصرف أقرب إلى الطفولة.. دعك من أنني زاهد كل الزهد في حضور اجتماع لجمعية (تبحث عن الحقيقة).. منذ فجر التاريخ لا يعرف الإنسان طريقة للبحث عن الحقيقة إلا الطريقة السماويّة وهي الدين، أو الطريقة الأرضية وهي الفلسفة.. لا يبدو أنّ هذا اجتماع ديني، كما لا يبدو لي المحاسب (عدنان شوقي) فيلسوفًا متعمقًا.. معنى هذا أن ما يقدمونه بالداخل كلام فارغ، ولعله من حسن طالعي ألا يسمح لي بالدخول..

قلت لـ د. (سامي) وأنا أتراجع:

- «هذا عدل.. صدقني.. يجب أن تدخل وتفهم.. أمّا أنا فسأنتظر في السيارة.. سأدير الكاسيت وأنام..»

قذف لي المفاتيح وهو غارق في التفكير..

ثم إنِّه دخل من الباب، ونظر لي هذا البواب أو الحاجب أو الخادم نظرة تحد ثم أغلق الباب في وجهي..

عدت إلى السيارة حيث الدفء، ورحت أفتش في تابلوه السيارة حيث الشرائط عن شيء أسمعه غير (باخ) و(هاندل).. لا يوجد.. هكذا بحثت عن إذاعة أم كلثوم ورحت أصغي لها مغمض العينين ولابد أنني نمت بعمق..

☆ ☆ ☆

في في فو فام..

☆ ☆ ☆

بعد ساعتين - كما عرفت فيما بعد - عاد لي د. (سامي) وارتمى في العربة..

قال وهو يمسك برأسه:

- «لابد من علاج لهذا الصداع.. رأسي يوشك على الانفجار..»

قلت وأنا أتثاءب كفرس النهر:

- «الصداع أفضل من التجمد بردًا على كل حال.. لقد كانت فكرة حمقاء ندمت عليها بعد نصف ساعة..»

ونظرت إلى الخلف لأجد عددًا من الناس يركبون سياراتهم ويديرون المحركات فسألته:

- «ماذا حدث بالداخل؟»

قال بلهجة عملية وهو يدير المحرك بدوره:

- «لا شيء.. هناك كلام كثير عن اكتشاف مواهبنا والطاقة الذاتية.. إلخ.. كل واحد فينا يحوي بركانًا من القدرات يجب أن نفجره.. الكثير من هذا الـ Harangue..»

قال آخر كلمة (بلاغة خطابية) بالإنجليزية كعادته.. لابد من كلمة إنجليزية ما في كل جملة.. ثم أضاف:

- «قال لنا الرجل - أعني (عدنان شوقي) - إننا جميعًا أعضاء في الجمعية.. هناك اجتماع كل ثلاثاء، وهو يعتقد أننا سنقبل وسنتحمس.. من لم يرد فهو حر ومن أراد فمرحبا به.. كان يعرف أسماءنا ويداعبنا بلا انقطاع..»

- «إذن هذه كانت أقرب إلى جلسات العلاج الجماعي..»

- «لم تكن.. لكن من الواضح أنها ستكون كذلك.. هناك رجال ونساء.. ليس الكل أثرياء أو أكاديميين.. البعض من الطبقات الوسطى أو أقل.. والبعض لم يحصل إلا على الثانوية العامة.. هذا جعلني أتساءل عن المعايير التي جعلته يختارنا.. ليس المقياس هو الشهرة الأكاديمية ولا الثقافة إذن..»

- «ما تفسيره لهذه النقطة؟»

- «قال إنهم ليسوا أغبياء.. وهم يستخدمون مقاييس خاصة معقدة كالتي يستعملونها في الغرب، وبالتالي هو يعرف أن كل واحد من الموجودين متميز..»

كان المحرك قد سخن بما يكفي لذا أدار السيارة عائدًا.. وقال لي:

- «لقد أعد الرجل ما يشبه قاعة اجتماعات واسعة.. مائدة طويلة ومقاعد.. وقد انتخب مجلس إدارة يتكون من عشرة أفراد.. طبعًا لابد أنك خمنت أنني عضو فيه!».

نظرت له في دهشة:

- «قلت إن الأمر كله يدعو للسخرية!»

- «وغيرت رأيي.. إن لهذا الرجل سحرًا غريبًا وأعتقد أنه يعرف ما يتكلم عنه.. ثم لا تطالبني أنا الطبيب النفسي بألا أحضر تجربة كهذه.. هذا يعني عدم كفاءة..»

كنت أفكر في عمق.. مجلس إدارة من عشرة أفراد.. إذن لا يمكن أن يقل عدد الحضور عن خمسين.. لماذا وما هي الفكرة؟

كل هؤلاء جاءوا للبحث عن ذواتهم والحقيقة؟

- «وكم يبلغ ثمن العضوية في هذا الصرح العلمي غير المخصص للكسب؟ ألف جنيه سنويًا؟ أو لعل العضوية مجانية لكنهم يقبلون بعض الهبات...؟»

قال وهو يراقب الطريق المظلم:

- «ولا مليم! لم يطلبوا منا سوى الحضور والاندماج مع الآخرين هذه علامة صحية كما ترى..»

- «ربما يبدءون طلب الهبات بعد أن يصير المكان ضروريًا لكم كناد.. أنت تعرف أن الرجال يحبون أي مكان يفرون فيه من زوجاتهم، خاصة إذا قابلوا فيه فارين آخرين..»

قال ضاحكًا:

- «لا.. لا.. تعرف أنني لست من هذا الطراز.. دعك من أن رأيك ليس محايدًا.. لا تنكر هذا.. أنت تشعر بشعور الفتاة التي رآها عريس ولم ترق له.. هكذا كلما جاءت سيرته في الكلام قالت إنّه فاشل ومنحط وغير جدير بأن تفكر فيه أية فتاة..»

قلت صادقًا:

- «طردت من أماكن كثيرة في حياتي.. صدقني لم أعد أبالي بهذا..»

- «أشعر أحيانًا بأنك ما زلت تبالي..»

على كل حال سوف أفهم التفاصيل فيما بعد.. سوف أبيت عنده هذه الليلة لأن الوقت تأخر، وسوف يشرح لي كل شيء.. لا.. لن أسأله.. أنا غير مهتم أصلًا.. لا داعي لأن أصدع رأسي بثرثرة لا تنتهي، ومئات المصطلحات من شخص لا يكف عن التعليم لحظة.. أريد أن أسترخي قليلًا بعد كل هذا البرد، ومقعد السيارة الذي أحال ردفي إلى حجر..

سوف أناااااام؟!

☆ ☆ ☆

4

لا تذهب (غادة) لأي مكان من دون أختها (عزة).. هكذا تعلّمت منذ زمن..

(غادة) السمراء النحيلة المتوترة دومًا قد كونت نظريتها عن العالم منذ زمن، وهذه النظرية تقضي بأن العالم يعجّ بالذئاب أو القتلة أو الأوغاد أو خاطفي الحقائب.. لا يمكن لفتاة وحيدة نحيلة مثلها أن تواجهه..

من الغريب أن أي حادث مهم لم يقع لها في حياتها.. كانت حياة أسرية منتظمة هادئة، لكن كان من حظها أن أباها من طراز الآباء الذين تراهم في كتب الدراسة.. شارب غليظ.. جدار من الحماية والقوة.. يعرف كل شيء ويفعل كل شيء، والنتيجة هي أنها لا تعرف أي شيء على الإطلاق، ولا تثق في قدرتها على شراء كيلو من الطماطم من دون أن تخدع..

حتى الصف الثالث الإعدادي لم تكن تخرج إلا معه أو مع أخيها (محمد).. بعد هذا لم تكن تخرج إلا مع (عزة).. لابد أنها كانت تتعثر ألف مرة إذا اضطرت للخروج وحدها..

ربما كان لعدم ثقتها بنفسها دور مهم في جعل دراستها تتعثر دخلت معهد السكرتارية، وتخرجت فيه لتطرق الأبواب بحثًا عن عمل..

هي لم تتزوج بعد ولم تخطب، ولا تتوقع أنها ستثق يومًا في رجل غريب عنها.. رجل ليس أباها.. لهذا ظلت تدعو الله أن تتأخر هذه اللحظة إلى آخر وقت ممكن.. من الوارد أن تموت أو تنشب الحرب النوويّة قبل هذا اليوم.. لكنّها كانت أضعف من أن تعلن أنها راغبة في العنوسة.. كانت تعرف أن أباها سيطلب منها أن تتزوج ولسوف تفعل..

☆ ☆ ☆

من ناحية الشكل، ليست (غادة) منفّرة.. لها وجه مريح قسيم.. وعيناها الواسعتان المذعورتان دومًا تضفيان عليها طابعًا ساحرًا.. دعك من خفة حركتها.. تراها وهى تثب فوق الرصيف فتشعر بأن هذا غزال يمرح سعيدًا بحريته.. والحقيقة أنه غزال مذعور..

اليوم هو يوم مهم في حياة (غادة) لأن الشركة اتصلت بها..

مدير المستخدمين - وهو رجل عبوس له طابع أبوي مخيف - اتصل بالبيت وقال لها إن عليها أن تحضر مسوغات التعيين وست صور.. غدًا آخر موعد..

هلل الجميع طربًا في البيت واحتضنتها أمها ولثمتها..

لقد صارت (غادة) امرأة عاملة..

أقيم احتفال صغير على حسابها من مصروفها.. جاتوه ومياه غازية امتد الحفل حتى الثامنة مساء.. ثم..

- «هل لديك ست صور؟»

هنا فقط تذكرت أنها لا تملك إلا صورتين.. هذه هي السن التي لا تكف الفتيات فيها عن تبادل الصور، مع كتابة كلمات مضحكة على ظهرها تعكس اللوعة وشدة الهيام كأنها تكتبها لرجل أو كأن كاتبها رجل: «حبيبتي.. غرامك جعلني أسهر الليل مع الدموع.. اذكريني..».. وكلام فارغ من هذا القبيل..

النتيجة هي أنه لا توجد إلا صورتان في البيت..

- «وغدًا آخر يوم!»

هكذا هرعت تلبس ثيابها بسرعة البرق وأختها معها، وقد خيل لها أن مستقبلها قد ضاع بسبب شيء تافه كهذا.. بدأ أنفها يسيل وبدأت أمعاؤها تتقلص..

☆ ☆ ☆

كانت في سن التاسعة تجري في شارعها باكية.. كل من يراها يسألها عن سبب بكائها، فتقول:

- «جلاد كراسة طحيني! سوف تضربنى أبلة (عطيات) غدًا!»

الليل قد انسدل على الشارع، والمكتبات كلها. مغلقة لأنّه يوم أحد.. وبطنها تتقلص.. توشك على القيء من فرط الانفعال والتوتر.. مملكتي مقابل جلاد طحيني لكراس العلوم..

تبكي.. تركض.. تتعثر.. يسألها المارَّة عمن ضربها.. لم يضربني أحد بل أبكي لأني سأضرب غدًا!

وفي النهاية أرسل لها الله ملاكًا في صورة عم (محفوظ).. العجوز الأشيب المليء بالحكمة ينتظرها منذ خلق الكون هناك في تلك المكتبة على الناصية.. يمد يده في تؤدة.. يناولها الجلاد الطحيني في تؤدة.. لقد نسيت أن تحضر مالًا.. يضحك في وقار ويصرفها.. ادفعي لي غدًا..

تعود لدارها.. لقد نجت!! لقد نجت؟

وبرغم هذا لم تذهب للمدرسة في الغد! لقد أسقمها التوتر حتى صحت وحرارتها تسعة وثلاثون درجة مئوية.. وظلت ملازمة الفراش أسبوعًا؛ لأن جسدها الواهن لم يتحمل كل هذا الانفعال..

☆ ☆ ☆

جلاد طحيني! ست صور!

ليس الأمر بهذه المأساوية.. أي شخص آخر كان سيسلم الأوراق غدًا ويعد الموظف بأن يحضر الصور سريعًا، ويقدم له لفافة تبغ، ثم يتكلمان عن مباراة الجمعة القادمة بين الأهلى والزمالك، لكن أي شخص ليس (غادة).. هذه أعمال بطولية جديرة بالأساطير الفارسية بالنسبة لها..

تمر كالملهوفة على كل ستوديو.. يهز صاحبه كتفه في رفق ويقول إن هذا مستحيل.. مستحيل يا صغيرة أن تحصلي على صورة فورية في أوائل السبعينات.. بعد عشرين سنة سيكون هذا متاحًا للجميع.. ربما لو مشيت على الكورنيش لوجدت أحد هؤلاء المصورين الجوالين.. يلتقط لك صورة بكاميرا ذات منفاخ، ويحمضها في دلو الماء.. تأخذينها على الفور، لكنهم يعتمدون على الشمس، ونحن الآن في التاسعة مساء.. لو كنت أكثر حكمة يا صغيرة لجئت منذ ثلاثة أيام..

هذه الكلمة تجعلها تعض على شفتها السفلى حسرة.. لقد ضاع كل شيء!

جلاد طحيني! ست صور!

تركضان في الشارع.. (عزة) بلهاء مستعدة لتبني قضية أي شخص على الفور، وقد بدأ أنفها يسيل بدورها وبدت على وشك السقوط مريضة..

يعاكسهما بعض الشباب فلا تسمعان ما يُقال ولا تهتمان.. يوشك الترام على دهسهما فلا تباليان!

الآن عزة تبكي بلا انقطاع وهما تواصلان الركض..

فجأة تتوقف (غادة) وهي ترى الأضواء الساطعة لذلك الستوديو..

هل كان هنا من قبل؟ لا تذكر بالضبط؛ لأنهّا من النوع الذي لا يرفع رأسه أثناء المشي أبدًا..

(ستوديو هالة).. هذا هو ما كتب على اللافتة..

تنظر إلى (عزة).. ما الذي سنخسره؟ مجرد خيبة أمل أخرى على الأرجح.. لكن تعالي نجرب..

☆ ☆ ☆

5

في في فو فام..

☆ ☆ ☆

الرجل الواقف بالداخل وقور أشيب موح بالثقة.. يرفع عويناته على مقدمة رأسه، ويلبس صديريًا أسود يبدو من تحته قميص شمَّر أكمامه.. يقف هناك خلف (الكاونتر) ويرمقهما في فضول ويضع جانبًا الجريدة التي كان يطالعها..

قالت (غادة) في كلمات سريعة مختلطة:

- «صورة.. فورية.. لابد من أن أتسلمها الليلة.. عمل..»

لابد أنه فهم، لأنّه رفع حاجبيه طويلًا ثم نظر لساعته، وقال:

- «هذا صعب.. لكنه ليس عسيرًا..»

ثم نظر إلى (عزة) الباكية، وقال:

- «هذه أختك؟ هذا واضح..»

ثم نهض في بطء كأنه ديناصور عجوز، واتجه إلى غرفة جانبية عليها ستار أحمر أزاحه وأشار لـ (غادة) باسمًا:

نهضت (غادة) متوجسة لتجد أنها في غرفة صغيرة ملحقة، بها مرآة كبيرة ومنضدة عليها فرشاة شعر.. رأت وجهها في المرآة ممتقعًا مذعورًا منتفخ الأنف، لكنّها لم تبال.. ولهذا لم تعن بأن تحرك شعرة واحدة في رأسها، برغم أن الرجل وقف على باب الستوديو منتظرًا..

لما أدرك أنها لن تغير شيئًا؛ أشار لها كي تدخل وتجلس على مقعد في الستوديو الذي تفوح منه رائحة الخشب الطري والطلاء..

ستائر تهبط.. كشافات تضاء.. حتى تتوقع أن يصرخ مخرج ما (أكشن)..

ثم جاء بكاميرا ضخمة غريبة المنظر وضعها أمامها.. وانحنى خلفها..

قال لها وهو يضبط العدسة:

- «أنت أغبى شخص عرفته.. من النادر أن يجمع المرء بين القبح والغباء لكنك فعلت!»

قبح وغباء؟

هوت الكلمات عليها كصفعة.. ماذا جرى؟ هذا الرجل كان مثال التهذيب منذ دقائق. فماذا حدث له؟

تبادلت نظرة مع أختها (عزة) الواقفة جواره، ثم قالت:

- «أفندم؟»

- «أنت سمعت ما قلته.. أنت تثيرين اشمئزازي فعلًا.. لن يتزوجك أحد إلا بمعجزة!»

كل هذا وهو منهمك في ضبط العدسة، هنا فقدت أعصابها وصاحت:

- «كيف تجرؤ؟ لابد أنك مجنون!»

هنا سمعت صوت (كليك) المميز لالتقاط الصورة، ثم عاد الرجل يقول:

- «آسف.. أنا فعلًا آسف.. أفقد أعصابي بسهولة عندما أعمل.. هذه الكاميرا لا تناسبك على كل حال..»

وأزاح الكاميرا الضخمة جانبًا وجاء بكاميرا أخرى أصغر وأكثر أناقة ثبتها على الحامل، ومن جديد طلب منها أن تثبت.. هذه المرّة قال لها بابتسامة دافئة:

- «أريد أن تشرقي! كالشمس!»

نظرت له غير فاهمة فصاح بها في غضب تمثيلي لطيف:

- «بنت! ابتسمي!!»

برغمها تسللت ابتسامة إلى وجهها في اللحظة التي التقط فيها الصورة..

تنهد وقال لها ضاحكًا وهو ينزع شيئًا من ظهر الكاميرا:

- «هيا.. (استرح)! هكذا يقولون في الجيش.. ألم تدخلي الجيش قط؟»

ثم ضحك ضحكته الدافئة، وأشار لهما إلى الخارج قائلًا:

- «نصف ساعة لا أكثر..»

خرجت الفتاتان لتجلسا في المحل.. على الأقل هما تشعران باطمئنان أكثر لأنهما تريان الشارع.. هناك فرصة للهرب في أي وقت.. ولكن الرجل يبدو ظريفًا لا يبعث القلق في النفس..

وقالت (غادة) وهي تجفف عرقها:

- «غريب الأطوار لكنه ظريف..»

قالت (عزة) وهي تطوح ساقيها كعادة الفتيات صغيرات السن:

- «أنت لن تتزوجيه على كل حال.. تريدين ست صور لا أكثر ليكن ظريفًا أو ليكن الشيطان ذاته..»

راحت (غادة) تتأمل الصور المعلقة على الجدران.. الصور المعتادة لأطفال يخرجون ألسنتهم.. عريس وعروس يتبادلان الشرب من كأسين.. الفتى الذي رسم في عينيه نظرة حالمة وراح ينظر للأفق في شفافية متظاهر بالرومانسية.. رجل أشيب وقور يدخن الغليون وسط الظلال..

بعد قليل ظهر الرجل ممسكًا بمظروف كبير، وقال لـ (غادة) وهو يتناول قلمًا:

- «عنوانك من فضلك ورقم الهاتف..»

قالت في حيرة:

- «لم أسمع قط عن ستوديو تصوير يأخذ عناوين زبائنه..»

- «تسمعين الآن.. هناك الكثير من الخلط يحدث بسبب أن فلانًا يأخذ الصور الخاصّة بفلان.. لذا نحرص على هذا النظام..»

لم ترَ ضيرًا في هذا فأملته عنوانها في (ستانلي).. من ثم ناولها المظروف الكبير.. وقال باسمًا:

- «أرجو أن تروق لك..»

لم تكن لتبالي لو كانت الصور تمثل (إسماعيل يس).. المهم أن تكون في يدها ست صور عندما تذهب للشركة غدًا.. لكنّها فوجئت بالروعة الفنية.. لم تدرك قط أنها بهذا الجمال كأنها لوحة من لوحات الرافائليين.. الظلال موزعة بعناية.. وجهها هو النبل والرقة والشفافية..

أمّا الصورة العملاقة فكانت هدية من ستوديو (هالة).. لقد كبر لها صورة خاصة يبدو أنها التقطت أثناء انفعالها الغريب أنها كانت أجمل..

قال لما رأى دهشتها:

- «بعض الوجوه النسائية تكون أجمل عند الغضب.. هذه أشياء نعرفها نحن.. سامحيني..»

كانت ممتنة.. ممتنة بما يفوق الوصف.. وراحت يدها ترتجف حتى أنها أسقطت النقود أرضًا.. من الغريب أن المبلغ كان زهيدًا فعلًا..

- «فقط أخبري كل صديقاتك بأمر ستوديو (هالة).. نحن نحاول كسب الزبون الذي أضاعه الآخرون..»

ووقف على باب المحل يلوح لهما وهما تبتعدان..

تبتعدان غير مصدقتين أن المشكلة انتهت..

همست (غادة) بشيء ما لم تتبينه (عزة)، فسألتها عما تقول قالت (غادة):

- «عم (محفوظ).. لابد أن اسم هذا الرجل (محفوظ)!!»

☆ ☆ ☆

(غادة) لا تفهم شيئًا في فن التصوير.. وقد كان عليها أن تتساءل عن الطريقة السحرية التي حمض بها هذا الرجل الصور في نصف ساعة، والصورة العملاقة إياها.. على الأقل كانت ستجد الصور طرية مبتلة.. لكنّها لم تكن كذلك، وهي لم توجه أسئلة..

ليتك سألت يا (غادة).. لقد كان هذا هو الخطأ الأول..

☆ ☆ ☆

6

لا توجد سعادة في هذا العالم.. هذا واضح..

عندما طلبوا سكرتيرة أخطئوا استعمال الكلمات.. كان عليهم أن يطلبوا جارية، وأن يبحثوا عنها في سوق العبيد.. هناك تقف (غادة) مطرقة الرأس بينما النخاس يجرها من شعرها ويفتح فمها بالقوة ليرى مدير الشركة أسنانها، ويقول في حماسة:

- «هذه من بنات (الأكاسرة).. سمراء نحيلة لا تصلح للرقص ولا الغناء، لكنّها قوية عفية لا تتعب ولا تشكو يا مولاي الأمير..»

فيفكر مدير الشركة ويخرج زكيبة دينارات يناولها الرجل، ويجرها بحبل إلى الشركة..

إنها تعمل كالحمار بلا توقف.. والكل يصرخ فيها ويلومها..

هكذا كانت تقضي نهارها في العمل وليلها في البكاء.. وراحت تفكر جدًّا في أنه كان من الأفضل لو لم تجد مصورًا في تلك الليلة..

- «لو لم يرق لك الحال فهناك ألف واحدة تحلم بهذه الوظيفة..»

هي بحاجة للوظيفة، ليس للراتب الذي تبتلعه المواصلات، ولا لكي يراها العرسان.. بل كانت في حاجة إلى أن تشعر أن لها كيانًا، وأن لها عمل تذهب إليه ومشاكل تحلها، وأنّ هناك مكانًا في الأرض يمكن أن يخرب لو تغيبت.. هذه نقطة مهمّة..

كان هذا عندما ظهر (جمال)..

☆ ☆ ☆

في في فو فام..

☆ ☆ ☆

دخل الفتى الشركة يسأل عن شيء ما.. نوع من الكلام الفارغ الذي يشبه أعذار (قيس) الملفقة، ثم اتجه نحوها في ثبات، وقال:

- «آنسة (غادة عبد الوهاب)؟»

هزت رأسها في حياء، فقال:

- «أنا (جمال أبو غصيبة).. محام..»

وسيم جدًّا.. أنيق جدًّا.. متزن جدًّا.. واثق من نفسه جدًّا.. إنه باختصار شديد ليس من عالمها ولا سلالتها، كما تتعامل أنت مع وشق الاستبس جميل المنظر اعتبرته لا ينتمي للبشر ربما أقل أو أكبر؛ لذا عاملته بلا اكتراث..

هزت رأسها بمعنى أن ما يقوله مهم جدًّا، فقال:

- «هل لي بالجلوس؟»

فسمحت له في حرج، ولم يكن هناك أحد في المكتب معهما.. قال وهو يخرج علبة تبغ ويشعل لفافة:

- «تبدو مقدماتي غريبة، لكنك قد التقطت صورًا في ستوديو يدعى (هالة) منذ شهر.. أليس كذلك؟»

- «بلى..»

- «صاحب الستوديو صديق عزيز وقد رأيت عنده صورة عملاقة كبرها لك.. ما إن رأيت الصورة حتى نسيت كل شيء.. صار كل همي أن أرى صاحبة هذه الصورة.. وقد سمحت لنفسي بأن أعرف عنوانك المدون عنده.. وسمحت لنفسي بأن أعرف أنك تعملين في هذه الشركة..»

الآن كانت خمسة لترات الدم الموجودة في عروقها تحتشد في خديها.. يا رب.. لا تجعلهما ينفجران الآن وإلا غرق المكتب والملفات في الدم.. سيغضب المدير..

قالت بصوت مبحوح:

- «هذا.. هذا فضول غير محمود.. كان من واجب صاحب الستوديو ألا..»

قاطعها بحركة أنيقة من يده التي تحمل لفافة التبغ، وقال:

- «اللوم كله على صديق حشري مثلي.. لنقل إنني عرفت كل هذا من دون علم الأستاذ (محفوظ)..»

(محفوظ)؟ إذن هذا حقيقي! كل من أنقذوها في حياتها كان اسمهم (محفوظ)!

ثم أردف:

- «الآن جئت أعرض عليك عرضين.. العرض الأول هو أن تعرفيني أكثر، فلربما تقبلين ما سأعرضه عليك.. أنت تعرفين ما هو.. وهذا يقودنا للعرض الثاني: أن تعملي معي في مكتبي! أن تكوني سكرتيرة خاصة لي وبالراتب الذي تحددينه.. وأعتقد أنه بعد شهرين يمكن أن تعرفيني بما يكفي.. عندها سأقدم عرضي الأول: هل لي أن أقابل أباك؟»

كان كم المعلومات والحقائق مذهلًا حتى أنها لم تعد تعرف ما تقول ولا كيف تفكر..

وقد أراحها بأناقة من التفكير عندما لوح ببطاقة صغيرة في وجهها:

- «هنا رقم هاتفي وعنوان العمل.. يُمكنك التأكد من أن كل ما أقوله حقيقي.. أعرف أن راتبك هنا - عدم المؤاخذة - لكني أقدم لك فرصة حقيقيّة..»

فتحت فمها لتتكلم، فقال بنفس الابتسامة الرقيقة:

- «أعرف ما تفكرين فيه.. هذا الرجل يريد أن أعمل عنده لأنني جميلة.. هذا مريب.. لكني أؤكد لك أن الأمر ليس كذلك.. أنا أتكلم عن زواج فإن لم يكن فعن سكرتيرة بارعة أمينة.. صدقيني.. سأنتظر إجابة منك خلال أيام..»

ثم وقف وزرر سترته في أناقة، ودس لفافة التبغ في المطفأة المجاورة للجدار.. وهز رأسه وغادر المكان..

☆ ☆ ☆

نحن بشر..

وهذا العرض الذي قدمه - برغم غرابته - قد هزّها بحق أدار رأسها وأطار صوابها..

هذا الفتى الوسيم الأنيق الذي عرك الحياة معجب بها لهذا الحد.. هذا شيء لا يمكن أن يمرّ بلا تعليق..

ثم كان عقلها يقول لها: هذا عبث.. إنّه يلعب بك.. كل المخادعين يمارسون لعبة مدح المرأة بلا انقطاع.. هو أدرك أنك هشة نفسيًا وصوب ضربة صائبة إلى قلب هذه الهشاشة..

يريد أن تعملي عنده لأنك جميلة أو هو يراك كذا.. فهل من شكوك أخرى حول سوء نيته؟

لكنه تكلّم عن زواج..

أنت لا ترغبين في الزواج، لكن كم عامًا يجب أن تنتظري عريسنا كهذا؟ ليس الموضوع أنه وسيم أنيق.. الموضوع أنه ساحر.. وأن نظراته زرعت في أعماقك شيئًا ما..

هكذا ظلت أربعة أيام تبتلع سرها عاجزة عن اتخاذ قرار.. عاجزة عن مشاركة أحد فيه..

وفي النهاية وجدت نفسها - لم تفعل هي بل وجدت نفسها - تمسك بسماعة الهاتف وتتأمل البطاقة..

كانت بطاقة أنيقة لا تلمع لحسن الحظ.. كم تكره البطاقات اللامعة!

وكان المكتوب يقول:

جمال أبو غصيبة المحامي

المستشار القانوني لجمعية

«الباحثون عن الحقيقة»

رقم الهاتف .....

☆ ☆ ☆

7

قالت مدام (ثريا):

- «لكنك بالتأكيد قادر على فهم ما يحدث..»

لسبب ما تثق بي الزوجات فيما يتعلق بأزواجهن.. حدث هذا الموقف مرارًا، وفي الغالب تؤدي استشارتي إلى زيادة الموقف سوءًا.. كأنما كتب على أن أذكر الناس دومًا بأنني أقل حكمة مما أوحي به..

قلت لها ضاحكًا:

- «بالعكس.. هذه الأشياء من اختصاصه..»

قالت في حدة:

- «لكنه بالفعل لم يعد قادرًا على تقييم الأمور..»

كانت تتكلم همسًا لأن د. (سامي) كان في غرفة المكتب هكذا صار - كما تقول - في الأسابيع الأخيرة.. وقته موزع بين غرفة المكتب المغلقة أو الخروج للذهاب لتلك الجمعية الغامضة ليبحث عن الحقيقة..

- «لا توجد امرأة في الموضوع لو كان هذا قد جال بذهنك إن النساء يعرفن هذه الأشياء على الفور.. لا توجد مخدرات كذلك.. هذا التغير شيطاني..»

فكرت قليلًا، ثم قلت:

- «مدام (ثريا).. زوجك أشيب الشعر وقور يطلب الناس حكمته في كل وقت.. فلا تحدثيني من فضلك عن التغيرات التي أصابته بسبب أصدقاء السوء.. هذا كلام يُقال عن صبي في الخامسة عشرة.. لكن زوجك ناضج ومسئول عن نفسه بالكامل..»

قالت في غيظ أرستقراطي:

- «نفس الصفحة في نفس الكتاب على مكتبه.. هو لا يفعل أي شيء على الإطلاق سوى التحديق في الصفحة والشرود.. د.(رفعت).. لو كنت تحسب الأطباء النفسيين لا يمرضون في عقولهم فأنت مخطئ..»

ثم أضافت وهي تنهض:

- «سوف تقابله الآن ولسوف تخبرني ما إذا كنت أهذي أم لا..»

☆ ☆ ☆

عندما دخلت المكتب كان جالسًا خلفه يحدّق في صفحات ذلك المرجع العملاق.. وبالفعل أدركت أنه لا يرى أي شيء من الصفحة إنما هو يستخدمها كمرآة تعكس هواجسه الخاصّة وصراعه الداخلي.. كل البشر يفعلون الشيء ذاته عندما يحدقون طويلًا في النار أو البحر.. أي طالب ثانوي يعرف أن صفحة كتاب (الإستاتيكا) تصلح مرآة ممتازة كذلك..

- «كيف حالك يا (رفعت)؟»

جلست أمامه وقلت بارتباك إنني بخير ما دمت لم أمت بعد.. قال في شرود:

- «الموت؟ من أدراك أن الموت لا يجعلنا أفضل؟»

إذن الحالة سيئة فعلًا.. د. (سامي) آخر من يتكلم عن الموت باستحسان..

ظللت صامتًا بعض الوقت.. ثم قلت:

- «اسمع.. هناك شيء ما لا يريحنى فيك.. شيء يتعلق بتلك الجلسات الجماعية الباحثة عن الحقيقة.. أنت تتغير يا (سامي).. أنت تعرف أننا صديقان منذ دهور.. لن تخدعني..»

قال في عصبية:

- «أنت لم تكف عن التهيؤات لحظة يا (رفعت).. لا غبار على ذلك المكان، ولا غبار عليّ..»

- «الكل يجمع على أنك صرت عصبيًا، وأنك صرت تكره اللقاءات الاجتماعية.. باختصار صرت نسخة مني.. وبما أن الشخص لا يتحول إلى (رفعت إسماعيل) فجأة، فإن لي أن أفترض أنّ هناك كارثة ما..»

هنا دوّت الضربة..

حسبته قد صفعني، ثم أدركت أنه ضرب المكتب بكفه في غضب مجنون، وهو يصيح:

- «صمتًا!!»

تلك النظرة في عينيه.. أعرفها وأخشاها.. نظرة من فقد صوابه تمامًا أو هو موشك على ذلك..

د. (سامي) الراقي المنمق الذي يثير الغيظ في نفسي بكل هذا التهذيب، صار يصرخ ويضرب المكتب بيده.. يا له من تطور!

قلت في هدوء محاولًا أن أخفف أثر كل هذا الأدرينالين الذي يفعم الجو من حولنا:

- «هل يضايقك لو كلمتني أكثر عن تلك الاجتماعات؟ ماذا يحدث فيها؟»

مد يده في درج مكتبه وأخرج زجاجة صغيرة ما، ورفعها لفمه وجرع جرعة.. د. (سامي) يشرب الخمر؟ منذ متى وكيف؟ هذه هي تغيرات الشخصية المرعبة التي أهابها كالموت.. ذات مرة رأى صديقًا له أمام زجاجة خمر ففر من المكان كغزال مذعور، لأنّه لا يتصوّر أن يجلس في مكان واحد مع من يشرب هذا السائل اللعين.. حتى السجائر كان يعتبرها خمرًا من نوع آخر يُشرب عن طريق الأنف.. الآن هو يجرع من زجاجة ويمسح فمه بيده.. لم أر هذه التحولات العنيفة إلا لدى من جُن أو هو تحت الاستحواذ.. لكن لماذا؟

قال في شرود:

- «لا يوجد ما يُقال.. نحن نذهب هناك.. جمعية عادية مشهرة لدى الشئون الاجتماعية.. هناك مستشار قانوني هو (جمال أبو غصيبة).. هناك سكرتيرة هي (غادة).. هناك نائب رئيس الجمعية المحاسب (عدنان شوقي).. هناك الأعضاء.. مجلس الإدارة يتكون من عشرة..»

- «هل هناك أعضاء تعرفهم من قبل؟»

فكر حينًا، ثم قال:

- «لا.. هناك صاحب ستوديو تصوير يدعى (محفوظ) أعرفه من قبل، وهو عضو نشيط..»

- «هل هو صاحب تلك الصورة الرائعة المعلقة في الصالة لك؟»

- «نعم.. نعم.. ستوديو (هالة).. فنان حقيقي..»

وضعت قبضتي تحت ذقني، وعدت أسأله:

- «ماذا يدور في هذه الجلسات؟ هل تستحضرون أرواحًا أو ترقصون عراة حول نجمة خماسية على الأرض؟ ربما تستعملون دماء الأطفال الرضع كذلك؟»

نظر لي في غيظ، ثم قال:

- «بالطبع.. نفعل هذا وأكثر.. ما تتكلم عنه هو لعب أطفال..»

- «جميل.. وماذا تفعلون بالضبط بعيدًا عن هذه الأمور الطفولية؟»

- «نتأمل! فلسفة الموضوع كله هي أنك تملك قدرات لا تعرفها مخفية تحت غبار الحياة اليومية.. لديك مواهب لا تعرف كنهها.. ما يحاولون عمله هو جعلنا نجد هذه القدرات.. عن طريق الموسيقا الحالمة.. إضاءة تبدأ محمومة متقطعة ثم تهدأ.. هناك إكسير خاص نشربه يساعدنا على التأمل كذلك..»

جميل.. ما يتكلم عنه هو نوع من التنويم المغناطيسي الجماعي Mass hypnosis.. والمشروب يحوي مخدرًا بالتأكيد..

عدت أسأله:

- «لكنك لم تتكلم إلا عن محام ومحاسب ومصور.. فما هي الخبرة العظيمة لدى المحاسبين التي تتيح لهم مساعدتك على فهم نفسك؟»

- «ليس هو من يدير الجلسات.. هناك د. (عامر)..»

جميل.. هناك د. (عامر) إذن..

- «إنّه شخصيّة فريدة.. رأى العالم.. سافر إلى الصين والهند ودرس أساليب التأمل لدى المتصوفين ولدى رهبان التبت والهندوس.. هكذا كون فلسفته الخاصّة..»

- «عظيم.. وهل هذا الد. (عامر) أسود الثياب، له صوت عميق محبب ونظرات ثاقبة، ويستعمل بكثرة عبارة: أنا بكم أسعد ولكم قلبي يطرب؟!!»

- «لا أفهم ما تعنيه.. لكن الإجابة: لا..»

كنت بحاجة إلى الاطمئنان لهذه النقطة.. ليس الموضوع مقلبًا من (لوسيفر) على ما أظن..

- «وبعد هذا؟»

- «لا نذكر أي شيء.. هو قال إننا لن نذكر أي شيء في البدايات ثم بعد هذا نصير واعين تمامًا لما يحدث..»

- «ألا تجد غريبًا أن تسلم سياقك وأنت الطبيب النفسي المرموق لمن يلعبون هذه الألعاب النفسية السخيفة معك؟»

هنا ازداد حدة من جديد، وصاح:

- «عم تتكلم بالضبط..؟ أنا لا أسمح لك! أخرج من هنا حالًا!!»

واتجه إصبعه إلى الباب واحمرت عيناه..

- «اخرج!»

لقد طُردت مرات أكثر من اللازم في هذه القصة.. يبدو أنهم جميعًا يرون الكثير من أفلام (يوسف وهبي) القديمة، حتى ليوشك أحدهم أن يصرخ (اخرج عليك اللعنة!) ثم يسقط على الأرض وقد أصيب بنوبة قلبيّة..

على أنني اتجهت للباب فعلًا..

ومن دون أن أنظر للخلف ابتعدت..

قابلتني مدام ثريا عند الباب الخارجي، فهتفت:

- «ألم أقل لك؟ أرجو ألا يكون قد آذاك بكلماته! أرجوك ألا تتخلى عنه..»

قلت لها:

- «ومن قال إني أنوي أن أتخلى عنه؟ سوف أعود مرارًا..»

ووقفت في الصالة أنظر إلى تلك الصورة الفوتوغرافية العملاقة الرائعة..

(ستوديو هالة - ستانلي - الإسكندرية).. هذا هو مكان عمل (محفوظ) إذن..

☆ ☆ ☆

على أنني لم أعد إلى القاهرة بعد مغادرتي البيت..

لقد اتجهت بسيارتي إلى مكان أعرفه ويعرفني جيدًا..

مديرية الأمن..

☆ ☆ ☆

8

أطلق العميد (عادل) صديق صباي ضحكته المرعبة التي تهتز لها مديرية الأمن بأسرها، وسبب ضحكه هو أنني لم أقل دعابة.. هذا بدا له ظريفًا أكثر مما لو فعلت..

- «نيا هاهاها ها ه!!!! ما زلت ظريفًا أيها الحيوان!»

جندي الحراسة يدخل حاملًا صينية عليها قدح القهوة الرابع ويضعه أمامي فأعرف أنني سأشربه أردت أو لم أرد..

قال لي (عادل):

- «طبعًا هذه القصة مريبة بما يكفي.. من حسن الحظ أنك هنا.. لكن دعني أؤكد لك أنه لا غبار على هذه الجمعية.. هذا ما نعرفه على الأقل.. أوراقها قانونية سليمة.. لا توجد شكوك حول نشاط سياسي مريب..»

قلت في ضيق:

- «أنت لا تفكر إلا في النشاط السياسي.. هذا آخر ما يقلقني..»

لمعت عيناه في ذكاء، وقال:

- «لكن هذا أول ما يهمنا نحن.. ثانيًا: لا نجد شبهة ممارسة أعمال منافية للآداب.. ولا يبدو أن هؤلاء القوم يبشرون بدين جديد.. لا يوجد شيء.. الأعضاء الذين نعرفهم ليست لهم سوابق ولم يتقدم أحدهم بشكوى ما..»

ثم أضاف وهو يدون أشياء في ورقة أمامه:

- «من الصعب أن ندس من يتجسس عليهم لأنّهم يختارون زبائنهم بعناية.. من الصعب أن ندس أجهزة تنصت من دون إذن النيابة، والنيابة لن تجد ما يريب في هذه القصة.. لا يمكن أن نقول لهم إن د. (سامي) قد تغير حتى يتحمسوا ويسمحوا لنا بزرع الكاميرات والأجهزة.. على كل حال لم ينته الأمر بعد.. سوف أحاول ما أستطيع وأخبرك بما توصلت له..»

ثم عقد يديه تحت فكه، وقال:

- «لكن دعني أخبرك بحقيقة تطمئن إليها.. لا يمكن أن تستعمل المرحاض طويلًا من دون أن يدرك الآخرون ذلك..»

نظرت له في عدم فهم، فقال مفسرًا:

- «لابد من أصوات وروائح تشي بأنك استعملت المرحاض.. هكذا الجرائم الخفية.. سرعان ما تصير لها رائحة بعد قليل.. سوف يتكلم أحد الأعضاء أو ينشق عنهم.. معظم تجار المخدرات يسقطون في شراكنا بمجرد أن يتشاجر التاجر مع امرأته أو يفكر في أن يأتي له بضرة.. عندها تأتي المرأة لنا كي تخبرنا بكل شيء عن زوجها الحبيب.. لا يُمكنك أن تستعمل الحمام من دون أن..»

قلت مقاطعًا في اشمئزاز:

- «فهمت هذا المثل.. (الله يقرفك).. كان بوسعك أن تبتكر مثلًا له رائحة أفضل.. على غرار (لا يُمكنك أن تقطر العطور من دون أن يخمن الناس مهنتك)..»

قال في بساطة:

- «لكن مثلي أقوى ويلتصق بالذهن أكثر..»

كان (عادل) قد كون فلسفته الخاصّة بعد كل ما رآه في عمله، وهي فلسفة تتلخص في أن كل الناس أوغاد لا يروق لهم سوى الفاحش من القول والفعل.. يحبون من الروائح ألعنها، ومن الأغاني أصخبها، ومن النكات أقذرها وهم ينقسمون إلى مجرمين ومن يخشون أن يصيروا مجرمين وإن اشتهوا ذلك.. وإنه لولا رجال الأمن لاقتتلت هذه الذئاب ومزقت بعضها البعض فلا يبقى من المجتمع إلا بضعة أطراف مبتورة ملقاة في الصحراء.. أمّا عن الدين فهم جميعًا يتظاهرون بالورع لكنهم إذا خلوا إلى شياطينهم تحولوا إلى غيلان..

هكذا تركت المديرية متوقعًا أنني فعلت ما هو مطلوب مني..

لكني برغم هذا لم أرغب في العودة للقاهرة بسرعة.. كنت أقيم منذ أمس في البنسيون إياه.. على قدر علمي لا توجد صاحبة بنسيون إلا واسمها مدام (ليليان).. وقد شعرت بحاجة نفسية إلى أن أجول في المدينة الرقيقة الحزينة المبتلة قبل أن أعود إلى المدينة العجوز المتصابية الكئيبة الخانقة..

☆ ☆ ☆

ستوديو هالة..

هذا ما قالته اللافتة، وهذا ما جعلني أتوقف مفكرًا..

لعله القدر ولعله اللاوعي قد جعلا قدمي تتجهان إلى هنا بالذات..

مصور يدعى (محفوظ) وستوديو اسمه (هالة)..

وقفت أقدم ساقًا وأؤخر أخرى.. لا يبدو شديد الرقي.. مجرد ستوديو آخر تزدحم واجهته بصور العرسان يتظاهرون بالسعادة.. أطفال يخرجون ألسنتهم.. الفتى الذي رسم في عينيه نظرة حالمة وراح ينظر للأفق في شفافية متظاهرًا بالرومانسية. الفتاة التي قررت أن تبحث عن فرصة عمل في السينما أو عريس أيهما أقرب.. على الأرجح تفوز بالشيء الثاني وسرعان ما توضع صورتها مع العرسان المتظاهرين بالسعادة.. عدة إعلانات عن الأفلام الخام.. إلخ..

الرجل الواقف بالداخل وقور أشيب موح بالثقة.. يرفع عويناته على مقدمة رأسه، ويلبس صديريًا أسود يبدو من تحته قميص شمر أكمامه.. يقف هناك خلف (الكاونتر) ويرمقني في فضول ويضع جانبًا الجريدة التي كان يطالعها..

وقفت أمامه ولم أجسر على أن أسأله إن كان هو (محفوظ) أم لا، لكنه هو كما هو واضح..

- «مساء الخير.. صورة البطاقة الشخصية..»

رفع حاجبيه الوقورين في اهتمام.. ثم أشار إلى الداخل دون كلمة أخرى..

هناك غرفة صغيرة بها مرآة ومشط.. ظل يرمقني في فضول بعض الوقت، ثم قال:

- «متأكد من أنك مستعد؟»

- «نعم..»

- «متأكد؟ ربما ترغب في التأجيل لبعض الوقت؟»

العبارة المعتادة التي يحييني بها المصورون.. كأنني سأغيب ساعة ثم أعود بعد ما أجريت جراحتي تجميل وزرع شعر..

هكذا دخل إلى الستوديو وأضاء عدة كشافات.. هناك كشافات لا يبدو أنها تعكس ضوءًا أصلًا.. ثم جلب كاميرا غريبة الشكل وانحنى خلفها، ثم قال لي وهو يضبط البؤرة:

- «أنت غير مستعد على الإطلاق.. من الغريب أن ترى مدى استهتار الناس بالصور، مع أنها لحظة تجمد الزمن وتبقى معك ما حييت.. هناك أجيال لن تعرف عنك سوى هذه الصورة..»

ابتسمت في استخفاف، فقال:

- «هذا هو ما أعنية بالاستهتار.. ربما الغباء كذلك!»

صعد الدم إلى رأسي.. إهانة تأتي من حيث لا تتوقع ولا تعرف السبب.. هنا دوى صوت (كليك).. لقد التقط لي صورة دون أن يطلب مني أن أبتسم أو أي شيء.. قلت له في جنون:

- «هذا ليس شأنك.. حتى لو جئتك ملطّخًا بالطين فليس هذا من شأنك.. لكن الوقاحة والـ..»

قاطعني باسمًا وقد تغير أسلوبه على الفور:

- «معذرة.. لم أرد أن أضايقك.. فقط أنا أصير في حالة مغايرة لطبيعتي عندما أعمل..»

كدت أنهض لكنه أشار لي كي أظل حيث أنا..

- «سأجرب صورة أخرى بكاميرا ثانية..»

ومن جديد جلست.. هكذا راح يسدي لي النصائح بصدد الابتسام.. والتقط الصورة.. وهذه المرّة قال بابتسامة دافئة:

- «استرح!!»

قالها بلهجة الجيش وضحك.. ثم قال وهو ينزع كاسيت الفيلم من الكاميرا:

- «سوف تتسلمها غدًا.. وأرجو أن تروق لك..»

خرجت إلى المحل لأنقده ماله وآخذ إيصالًا.. لم تكن التجربة مفيدة لكني على الأقل ظفرت بصورة، وهذا شيء نادر لديَّ لأني لا أعرف أبدًا أين أحتفظ بصوري الفوتوغرافية.. كما أني أمقت عملية التصوير.. فيما بعد قرأت للساخر الكبير (أحمد رجب) كيف أنه في شبابه كان يشبه ممثلًا إيطاليًا شهيرًا بشدة؛ لذا كان يبتاع صور هذا الممثل من المكتبة ويستخدمها في الأوراق الرسمية على أنها صورته.. السبب أنها أرخص بمراحل من التقاط صور له! لو كانت لـ (إدجار آلان بو) صور 5×6 ذات طابع عصري ومع وضع عوينات، فربما فعلت الشيء ذاته..

أعترف أن شبهي به قوى.. ألم يحسبني (سام كولبي) تناسخًا لـ (بو) عندما قابلته أول مرة في (نيويورك)؟

قال المصور، وهو يناولني دفترًا وقلمًا:

- «العنوان ورقم الهاتف من فضلك..»

قلت في ارتياب:

- «هل لي أن أعرف السبب؟»

- «هناك الكثير من الخلط يحدث بسبب أن فلانًا يأخذ الصور الخاصّة بفلان.. لذا نحرص على هذا النظام..»

قالت ضاحكًا:

- «معك حق.. هناك فتيات كثيرات سوف يزعمن أن الصورة تخصهن، وهذا لكي يظفرن بصورة لي..»

لكن الدعابة لم ترق له ولم يضحك..

كنت أكتب اسمي وعنواني بالقاهرة عندما لاحظت أعلى الصفحة.. وجدت اسم د. (سامي) مع عنوانه.. هذه هي المرّة التي زار فيها الستوديو إذن..

هذا يدل على شيئين.. أولًا أن عمل الستوديو ليس رائجًا، ما دام د. (سامي) جاء منذ زمن وبرغم هذا لم تمتلئ الصفحة.. ثانيًا.. العنوان المذكور هو عنوان الفيلا.. العنوان القديم.. ربما كتبه د. (سامي) على سبيل التمويه أو سبيل السهو..

☆ ☆ ☆

- «*كيف وصلتك هذه الدعوة؟*»

- «*بالبريد.. من الغريب أنهم أرسلوها إلى الفيلا التي كنت أسكنها، ولما كان مالكها يعرفني فقد سلمني هذا المغلف عندما قابلته..*»

☆ ☆ ☆

على الباب ودعني الرجل قائلًا:

- «نحن نحاول كسب الزبون الذي أضاعه الآخرون.. لاتنس أن تخبر أصدقاءك عنا..»

لكني كنت شارد الذهن فلم أرد عليه..

ليس هذا الذي وجدته دليلًا على شيء..

ربما كتب د. (سامي) ذات العنوان في أكثر من جهة..

لكن حدسي يقول لي إن هذا العنوان هو الذي استعملوه لإرسال تلك الدعوة لجمعية الباحثين عن الحقيقة.. ضع (محفوظ) الذي هو عضو في الجمعية.. ضع الستوديو.. ضع الجمعية ذاتها.. ضع العنوان.. ضع كل هذا متجاورًا ولسوف تصل لاستنتاج منطقي..

من هنا بدأ كل شيء..

ومن هنا عرفوا عنوان د. (سامي)..

☆ ☆ ☆

9

ظللت أسبوعًا كاملًا في بيتي بالقاهرة أنتظر أن يتصلوا بي..

أن يدق جرس الهاتف ليقول لي أحدهم إنني رائع وإنهم يرغبون في انضمامي للجمعية.. أو تصلني دعوة بريدية لاجتماعهم القادم.

لم يحدث شيء من هذا.

الصور ما زالت لدى الستوديو.. وما عليّ هو أن أذهب لأخذها كأي عميل..

☆ ☆ ☆

هكذا انتظرت بفارغ الصبر حتى نهاية الأسبوع، وسافرت إلى الإسكندرية.. أريد الاطمئنان على (سامي) ومعرفة ما توصل له (عادل).. يمكن أن يتم هذا كله هاتفيًا، لكني فعلًا أتوق لرؤية تلك الصور..

اتجهت إلى ستوديو (هالة) فور وصولي..

كان مفتوحًا وبالداخل جلس ذلك الرجل الوقور الذي لا يكف عن مطالعة الجريدة.. لكنه كان في هذه المرّة يجلس خلف كوب كبير من الشاي، وأمامه يجلس رجل له طابع أجنبي متمصر.. واحد من هؤلاء الخواجات اليونانيين الذين يملئون الإسكندرية على الأرجح.. وعرفت من طرف المحادثة أنه الخواجة (بيزانوس)..

كانا يتكلمان عندما دخلت.. فنظر لي (محفوظ) في برود لكن في أدب، بينما راح الخواجة يرمقني بفضول غريب كأنما أنا نسيت ارتداء سراويلي.. بالفعل نظرت لأسفل لأتأكد من ذلك.. إنّه موجود..

أخرجت الإيصال بلا كلمة أخرى فنظر له (محفوظ)، ثم قال كأنما تذكرني فجأة:

- «ياه! تأخرت كثيرًا يا دكتور.. سأحضر لك الصور»

ودخل إلى الغرفة الداخلية..

في هذه اللحظة ظهر على الباب من يقول في لهفة:

- «هل السيارة (الفيات) الزرقاء بالخارج ملك أحدكم؟»

قال الخواجة بلهجة لم تخيب ظني فيه:

- «نعم.. ملكي.. هل من مشكلة ما؟»

- «لقد اصطدمت بها سيارة أجرة وفرت!»

سعل الخواجة ونهض مذعورًا.. فقط نادى (محفوظ) صائحًا:

- «هناك من ضرب سيارتي يا (محفوظ)!»

على الفور خرج (محفوظ) من الداخل متوترًا مرتبكًا.. وهرع الرجلان خارجين من المحل ليريا هذه المصيبة..

الآن أنا وحدي في المحل..

وحدي.. بالمعنى الحرفي للكلمة..

ثمّة مقولة خبيثة تقول: «لا تترك أي إغراء يمرّ بك فلربما لا يتكرر بعد ذلك أبدًا!».. وهي عبارة صالحة لإفساد المجتمع تمامًا، لكنّها تنطبق عليَّ في هذه اللحظة بدقة..

وحدي.. ولو انتظرت أكثر فلربما ضاعت الفرصة للأبد.. إما الآن أو لا للأبد..

من خارج المحل أسمع الشجار والصياح:

- «هل تمكّن أحد من أخذ رقم السيارة؟»

- «أعتقد أنني لمحت رقمي 7 و6 على اليمين..»

بلا ذرة تردد نهضت.. نظرت حولي..

هرعت إلى الغرفة الداخلية عالمًا أنّ هذا عمل خطير.. خطأ قاتل.. لو وجدت أحدًا بالداخل لكان موقفي في غاية الإحراج.. لن أستطيع أن أزعم أنني أبحث عن دورة المياه..

من الخارج أسمع الصياح:

- «لم يعد هناك ضمير في هذا العالم..»

أزيح الستار وأنساب إلى الداخل..

☆ ☆ ☆

في في فو فام..

☆ ☆ ☆

غرفة مضاءة بضوء أحمر خافت يصلح للتحميض.. لكن لا أعتقد أنّ هذا كان يجري قبل مجيئي.. هناك حوض محلول مظهر زجاجات كيماوية.. جهاز طبع.. مجموعات من الصور معلقة على حبل لتجف.. قصاصات من أفلام..

الصياح مستمر:

- «سليمة إن شاء الله.. احمد الله يا خواجة على أن الضرر اقتصر على هذا..»

- «كشاف وصاج.. لن يكون إصلاح هذا عسيرًا..»

أبحث حولي في لهفة.. وجدت مجموعة من الصور لوجوه أشخاص.. صور بالأبيض والأسود.. هناك صور ملونة موضوعة على المنضدة.. غريب هذا في ذلك العصر..

لسبب ما بدت لي الصور الملونة غريبة؛ لذا جمعت ما أمكن منها ودسسته في جيبي وألقيت نظرة أخرى على المكان.. فيما بعد سيكون هناك متسع من الوقت لأحلل ما قمت به، ولأحكم هل هو سرقة أم فضول حميد..

من الخارج أسمع من يقول:

- «فقط ادخل يا خواجة.. والصباح رباح..»

هنا دق جرس الإنذار في عقلي.. لقد صار الوقت ضيقًا فعلًا سوف يعودان ليرياني خارجًا من الغرفة..

يجب أن أسرع..

☆ ☆ ☆

في في فو فام..

☆ ☆ ☆

وثبت إلى الخارج، وسمعت الصوت يقترب أكثر من اللازم..

- «حيوانات! هؤلاء ليسوا سائقين.. بل حيوانات!»

لم يكن الوقت كافيًا للجلوس؛ لذا استندت إلى (الكاونتر).. وفي هذه اللحظة كان الانفعال والأدرينالين قد عملا عملهما معي.. اختلت ضربات قلبي ورأيت تلك البقعة السوداء تكبر وتكبر أمام عيني.. تحاملت كي لا أسقط.. أريد أن.. أقيء..

(رفعت).. اهدأ قليلًا.. لو سقطت لبرزت محتويات جيبك.. تماسك..

فقط شعرت بيد توضع على كتفي، وصوت (محفوظ) هذا يقول لي:

- «هل أنت بخير؟»

قلت والعرق البارد يحتشد على أرنبة أنفي:

- «بخير.. فقط أصابني ذعركم بالهلع.. قلبي ضعيف..»

- «إذن لماذا لا تجلس؟»

وشعرت بأن هناك من يجلسني ومن يقدم لي كوبًا من الماء.. ثم فتحت عيني لأرى الخواجة يقول:

- «لا تقلق.. لم يصب أحد.. لقد كانت ساعة نحس لا أكثر.. مقدمة السيارة تلفت تمامًا..»

وظهرت نظرة حاقدة في عينيه تقول بوضوح إنني أنا النحس..

نظر لي (محفوظ) نظرته الباسمة الدافئة الموحية باهتمام شخصي.. هذا الرجل يجيد مهنته ويجيد رسم تلك البسمة الصناعية التي تشعرك بأنه يهتم بك فعلًا.. ربما هو يعوي في الوديان المقفرة مترنمًا باسمك..

سألني:

- «هل أنت بخير الآن..»

- «نعم.. شكرًا لك..»

جاءني بمغلف كبير يحوي صوري ومعها صورة عملاقة متقنة.. صورة في حجم ولها ذات طابع صورة د. (سامي) المعلقة في داره، وقال لي:

- «نرجو أن تحب هذه الصور وأن نراك بكثرة..»

حملت المغلف شاكرًا وغادرت المحل..

في الخارج كان المارَّة يقفون حول السيارة التي تهشمت مقدمتها فعلًا.. حظ سيئ للجميع باستثنائي لأن الفرصة جاءتني على طبق من فضة..

دنوت من سيارتي فوجدت أن مقدمتها ليست أفضل حالًا.. لقد كانت تقف خلف سيارة الخواجة الزرقاء، وقد اصطدم التاكسي بسيارة الخواجة من ثم وثبت للخلف لتضرب سيارتي فقط هذه إصابة لم يهتم بها أحد ولم يلحظها..

لو لم تدر السيارة فلربما...

أدرت المحرك فانطلقت السيارة لحسن الحظ.. في ذات اللحظة رفعت عيني نحو المرأة في الصالون لأجد (محفوظ) يهرع لباب المحل ويشير إلى سيارتي في لهفة.. لسان حاله يقول: هذا هو؟ هذا هو من أخذ الصور من الغرفة الداخلية!

وربما لا..

ربما تذكر شيئًا يتعلق بالمال المدفوع.. ربما كان عليَّ أن أدفع مبلغًا إضافيًا.. ربما..

المهم الآن أن أهرع إلى البنسيون لأرى هذه الصور..

☆ ☆ ☆

نثرت الصور على الفراش في غرفتي ورحت أتأملها..

كلها صور لوجوه أشخاص متنوعين.. لكن هناك ألوانًا غريبة مستعملة في الصور جميعًا..مثلًا هذه هي صورة وجهي، وهي تظهر هالة خضراء تحيط به تمامًا.. كأني مشع من الداخل..

هناك صورة لفتاة نحيلة سمراء تحيط بها هالة من لون أحمر.. صورة لرجل هو مزيج من الأخضر والأزرق.. صورة وجه د. (سامي) وهالة حمراء تحيط به..

هكذا تتباين ألوان الصور وتتباين الوجوه..

ما معنى هذا؟

هنا دق الباب فأجفلت.. اتجهت لأفتحه ليطالعني الوجه الصبوح الجميل لمدام (ليليان)..

في الخمسين من عمرها لكني أراها ما زالت فاتنة بحق، ومن الغريب أنها تعني بي عناية خاصة كأنها تفكر في دور آخر لي غير النزيل.. طبعًا أنا لا أصلح حبيبًا لكن أصلح زوجًا.. هذا أحمق لم يتزوج بعد، ومن الواضح أنه معجب بي وإن كان يتظاهر بالعكس.. سألتني في لطف كعادتها، وبلهجتها الركيكة المحببة:

- «هل من شيء تريده يا (دوكتيور)؟»

هززت رأسي بمعنى أن ما أريده هو أن تظل بخير.. فقالت:

- «لدينا (ديوف) الليلة.. لماذا لا تلهاك بنا في غرفة الما إيشة؟»

- «حاضر.. سألحق بك ما أن أبدل ثيابي..»

وأغلقت الباب وعدت للفراش كي أتأمل الصور..

هنا بدأت ذكرى مجهولة تتوهج في عقلي.. كأنها لحن أغنية نسيته ثم عاد لك فجأة..

لم يكن اسم ستوديو (هالة) مصادفة أو لأنهّا ابنة صاحب الستوديو.. إن الأمر يتعلق بالهالات فعلًا.. نوع من التلميح الخبيث الذي يعرف صاحبه أن أحدًا لن يلاحظه..

هذه الطريقة في التصوير مألوفة..

هذا هو تصوير (كيرليان)!

☆ ☆ ☆

الجزء الثاني:

نادي الغيلان

«في في فو فام..
أشم دماء رجل إنجليزي..
سواء كان حيًّا أو ميتًا..
فلسوف أحمّص عظامه لأصنع خبزي!»

1

في يوم الجمعة بعد الصلاة يذهب (سمير النمر) إلى المقابر..

لابد من أن يقف عند قبر أبويه ويتلو الفاتحة وسورة (يس)، وهي عادة لم ينقطع عنها منذ عشرين عامًا بينما هو يدنو من الخمسين الآن.. يلتف حوله ذباب المقابر المتمثّل في سكانها من الصبية الذين يتسولون لمجرد أنهم هم وأنه هو.. هناك من يزعم أنه (مقرئ) ويجلس القرفصاء أمام القبر ليقرأ سورة واحدة قصيرة من القرآن.. سورة واحدة هي (الفتح) يقرؤها في كلّ مرّة ولا يغيرها أبدًا.. ويخطئ فيها عشر مرات..

لهذا يحاول (سمير) جهده أن يتخلص من هؤلاء..

والحقيقة أن (سمير) بعد كل هذه الأعوام صار يحفظ كل حجر في المقابر، وصار يعرف من جاء جديدًا، وماذا حل بتربة أسرة فلان..

ومع الوقت اكتسب ذلك الطابع المولع بالموت.. ما يُطلق عليه علماء النفس (تافيفيليا)، وهو الولع الشهواني بالمقابر وتفاصيل الدفن.. يتكلم عنها في استمتاع غريب، ويحكي عن (التربة التي ترد الروح) التي ابتناها للأسرة، وكيف طعّم مدخلها بالرخام وزرع الصبار في كل مكان.. هذا طبع فرعوني لا شك فيه باق فينا منذ عهود الأسرات.. (خوفو) لم يكن يتكلم عن شيء سوى القبر الفاخر الذي أعده لنفسه، غير عالم أنه لن يخدم أحدًا سوى مصلحة الآثار..

لا أحد يجرؤ على اتهام (سمير) بالتافيفيليا.. بالنسبة للناس هذا نوع من الورع الشديد لشخص يعتبر أن حياته مؤقتة سرعان ما تنتهي في القبر.. لكنك ترى لمعان عينيه والابتسامة الشاحبة المرتعشة على وجهه وهو يتكلم عن المقابر، فتقول لنفسك: هذا الرجل يتلذذ بالفكرة.. لكنك لا تجسر على قول هذا علنًا..

ونتيجة لهذا الولع كان (سمير) هو خبير الموت في الشارع والعمل والأسرة والبناية.. كلما مات الحاج (عبد السميع) أو الحاجة (صفاء) كالعادة، كان هو أول من ينادونه.. عندها يقف في زهو وهيبة وسط المكان ويخرس النسوة الباكيات، ثم يصيح كأنه جنرال:

- «صمتًا!»

ثم ينظر لمن حوله في خطورة، ويقول:

- «هل هناك من نادى الحانوتي؟»

وسرعان ما يعرف كل واحد مهمته.. فإذا تكلّم واحد صاح في عصبية:

- «صه...! لا أريد هذا الهرج.. سوف نصلي على الجثمان في (المرسي أبو العباس) وبعدها نتحرك للمدفن رأسًا..»

- «ولكن!»

- «صه!!»

ثم يخرج ورقة وقلمًا ويبدأ في كتابة النعي الذي سينشر في الجريدة غدًا، لو كانت الأسرة موسرة.. هو نفسه من يتفق مع المقرئين والصوان وكل شيء.. ثم يتحدث في استمتاع عن العظام وكيف أنها ستسعد بلقاء عظام قريبة لها هذه الليلة..

- «لابد من أن يدفن المرء جوار أقاربه.. هكذا تكون الليلة عرسًا من السرور!»

فيرتجف الناس وهم يتخيلون الجثث ترقص تحت الأرض طربًا.. هذا الخيال (اللافكرافتي) الرهيب يبدو له ممتعًا جدًّا..

في هذا اليوم ذهب (سمير النمر) إلى المقابر ووقف يتلو الفاتحة كعهده..

هنا لاحظ شيئًا غريبًا..

كانت هناك فتحة قرب الأرض في جدار المقبرة، وهي في المعتاد مسدودة بالأسمنت.. لكنه رأى أن لون الأسمنت اختلف كأنه شبه طري.. هناك الكثير من البلل ومسحوق على الأرض..

عندما دقق أكثر وجد قطعة ممزقة من قماش على بعد خطوات من المقبرة..

في خطوات حازمة اتجه إلى غرفة اللحاد.. غرفة اللحاد تقع على مدخل المقابر، ويجلس فيها عم (جابر) الجثة الحية يدخن.. الحشيش طيلة اليوم.. لا يفعل أي شيء آخر.. ولسبب ما يفضل اللحادون ألا يلبسوا سروايل.. لهذا تجد الرجل جالسًا بسراويله الداخلية كاشفًا عن ساقين نحيلتين يغطيهما شعر أبيض.. ولسبب آخر يشعر اللحادون بأن كل الكلام (قافيات) لذا يحاولون إنكار ذلك..

- «صباح الفل يا أستاذ سمير..»

سأله (سمير) غير مبال يرد الصباح:

- «هل هناك من دفن في تربة أسرتنا أمس؟»

هزّ الرجل رأسه وأطلق سحابة دخان كثيفة..

- «لا أحد (بلا قافية).. أطال الله عمركم..»

- «إذن تعال معي..»

وعاد الرجلان إلى المقبرة.. وكانت نظرة سريعة من اللحاد كافية ليعرف أن شيئًا ليس على ما يرام.. هناك من نبش المقبرة ثم سدها بأسمنت حديث..

ركل (سمير) قطعة القماش بطرف حذائه، وقال:

- «وهذه؟ هذه من كفن عمتي (فوقية).. أنا أذكر طبقاته جيدًا..»

برغم أن عمته ماتت منذ عشرة أعوام، فهو كان يعتبر الأكفان أعمال فنية لا يمكن نسيانها..

من أين تأتي هذه المصائب؟ قال اللحاد وهو يضرب أخماسًا في أسداس:

- «هناك (بلا قافية) من عبث في التربة.. هذا واضح.. لكن من؟ لا أحد يجسر على أن يفعل هذا وأنا ساهر أحر...»

- «أنت لا تفعل سوى أن تغيب عن الوعي مع كل هذا الحشيش لو أنهم سرقوا التربة ذاتها فلن تدري..»

- «لا تقل كلامًا غير معقول يا أستاذ (سمير).. أنا (بلا قافية) أعرف هذه التربة كظهر يدي..»

كان (سمير) غارقًا في التفكير..

قرار خطير هو أن يأمر بنبش التربة لمعرفة ما حدث لها.. لابد من أن يدعو لمجلس عائلي يجتمع فيه كبار الأسرة.. لابد (بلا قافية) من أن يأتي عم (حمزة) وكل مجموعة (الدلنجات).. لابد أن يكون القرار جماعيًّا لا يتحمل مسئوليته وحده..

☆ ☆ ☆

وفي أماكن أخرى من المقبرة - في ذات الأسبوع تقريبًا - تم اكتشاف أشياء مماثلة..

على أنّ هناك اثنين أو ثلاثة قرروا خرق (التابوو) المحيط بالمقابر.. هناك من ذهب إلى مديرية الأمن وقدم بلاغًا وطلب إثبات الواقعة..

☆ ☆ ☆

في في فو فام.. (بلا قافية)..

☆ ☆ ☆

2

في العام 1940 أجرى المخترع السوفييتي (سيمون كيرليان Kirlian) تجربة مثيرة، كان لها أن تلقى شهرة لا بأس بها..

لقد قام بالتقاط صور للهالات الحيوية المحيطة بالبشر أو ما يُطلق عليه الغربيون aura..

التجربة تقوم على التقاط صور للأشخاص في وجود حقل كهربي عالى التردد عالي الفولت منخفض الأمبير.. هكذا تظهر حول الأجسام هالات ملونة يُطلق عليها (الهالات الحيوية)..

في الحقيقة لم يكن (كيرليان) أول من جرب هذا الأسلوب..

قبله كانت هناك طريقة لتصوير الأجسام في حقل كهربي، وكان يُطلق على الطريقة اسم (التصوير الكهربي Electrography) وقد نشر العالم الروسي (ياكوف يوكدو) بعض هذه الصور عام 1908.. كما نشرها عالمان تشيكيان هما (برات) و(شليمر)..

يقول المعترضون على هذه الطريقة إنها لا تدلّ على شيء مجرد شحنات كهربية تغادر الجسد في ظروف بعينها.. بينما يرى آخرون أنها تظهر الطاقة النفسية في صورة فيزيائية.. وهناك من قال إنها تظهر الجسم الأثيري للأحياء..

في أول تجربة له قام (كيرليان) بتصوير يده.. وقد لاحظ خروج ضوء برتقالي من أطراف أنامله..

بعد هذا كرر التجارب بمعونة زوجته التي كانت تدرس علم الأحياء.. وقد تكررت النتائج..

هذه الظاهرة هي ما يدعي Corona discharge phenomenon أو (ظاهرة انبعاث الهالات).. هنا يبعث الجسم شررًا كهربيًّا عندما يوضع جوار قطب يولد حقلا كهربيًّا.. وهذا الشرر يمكن تصويره..

فما دخل هذا بقصتنا؟

☆ ☆ ☆

في الستينيات بدأ الاهتمام بتجارب (كيرليان)..

وفي العام 1966 اجتمع عدد من العلماء لتدارس الظاهرة. زعم العالم السوفييتي (فكتور أدامنكو) أن سبب الظاهرة هو (انبعاث بارد للإلكترونات).. وقد لاحظ أن الانبعاث يزداد قوة فوق 700 نقطة من الجسم البشري تتطابق مع مواضع الإبر الصينية بالضبط! هذا يعني أن الصينيين لم يصفوا هذه النقاط اعتباطًا كانوا يعرفون ما يفعلونه.. على أنني أعتقد أن أي علم زائف اليوم يحاول أن يجد له قريبًا بعيدًا عند الفراعنة أو الصينيين...

هذه الهالات تتغير حسب الحالة النفسية والفيزيائية.. مثلًا استطاع العلماء الأمريكيون في جامعة كاليفورنيا تصوير تغير الهالات في ورقة نبات عندما تدنو منها يد بشريّة.. بل إن قطع جزء منها يؤدى لنزف الهالة من الجزء المقطوع..

هذه النقطة التي يؤيدون بها الظاهرة قد تستخدم لدحضها كذلك.. لو كان ما تصوره الكاميرا حقلًا حيويًا فمن الواجب ألا ينبعث من أجسام ميتة.. والحقيقة أنه أمكن تصوير هالات حول الأجسام الميتة كافة..

عامة يتم استعمال ملف (تسلا Tesla) يتصل بصفيحة معدنية.. الاسم طبعًا نسبة للعالم الصربي العبقري (نيكولا تسلا) الذي قابلناه في أسطورة بيت الأشباح، وذلك لتوليد حقل كهربي عالى التردد عالي الفولت منخفض الأمبير.. هكذا تتكرر تلك الظاهرة التي يعرفها علماء الطبيعة، ويطلقون عليها (نار القديس إلمو).. ولمن نسوا هذه الظاهرة التي ذكرتها في مكان ما، أذكرهم بأنها ذلك الضوء الأزرق الغامض الذي يحيط بالأنوف والغلايين في شتاء البلاد الإسكندنافية وأماكن أخرى عدة..

طلبًا لتقليل الأثر الضار للعملية، وحتّى لا تتدخل الموجات المستخدمة في النتيجة، يستخدم العلماء اليوم جهازًا يدعي Crown TV يقوم بإرسال نبضات قصيرة جدًّا لا تتعدى 50 ملي ثانية.. وهم يصورون جزءًا صغيرًا في كلّ مرّة.. غالبًا طرف إصبع.. أو عشرة أصابع طلبًا للدقة..

حتى اليوم تستخدم الظاهرة في تشخيص السرطان (بلا نجاح كبير).. ولها تطبيقات لا تنتهي في العلم وشبه العلم.. وهناك من اختصوا بتفسير كل تغير لوني، ويزعمون أنهم يعرفون كل شيء عن الجسم بهذه الطريقة...

كما ترى كان تصوير (كيرليان) هدية السماء للمتكلمين عن الإيقاع الحيوي، والإسقاط النجمي، وكل هذه الأمور..

كل هذه أمور مألوفة تقرؤها في كل مكان، وهي من (شبه العلم) الذي يروق للناس من هواة (هل تعلم؟).. هل تعلم أن النبات يحبّ موسيقا (بيتهوفن)؟ هل تعلم أن ما في جسمك من حديد يكفي لصنع كذا مسمار..؟

(يوري جيلر) النصاب الإسرائيلي الذي يزعم ثنى المعادن بالفكر، كسب الكثير من سمعته عندما التقطت الكاميرا هالات غريبة المنظر تخرج من أطراف أنامله عندما يثنى المعادن.. طبعًا

لا أصدق حرفًا من هذا..

لكن تظل هناك حقيقة مؤكدة هي أنّ هناك هالات ملونة تنبعث من الأجسام الحية والميتة..

الحقيقة الثانية هي أن ستوديو (هالة) يصور زبائنه بهذه الطريقة.. وهذا هو سر الكاميرا الغريبة التي التقطوا بها الصورة الأولى.. وسر الكشافات التي لا تبعث ضوءًا.. إنّه مجرد مجال كهربي عالى التردد لينبعث الشرر منك..

لقد تم تصوير د. (سامي) وتصويري.. لا أعرف الآخرين الظاهرين في الصور، لكنهم - أصحاب الستوديو - قد وجدوا مأربهم في د. (سامي) بينما أنا لم أمثل سوى زبون لا يصلح لشيء آخر..

يمكن القول بلا خطأ كبير إنهم يبحثون عن تلك الهالة الحمراء حول المرء، فإذا وجدوها عرفوا أنه يصلح للانضمام لهم.. ربما كان الأمر أعقد من هذا لأن قراءة هالات (كيرليان) صعبة.. لابد أنهم يبحثون في عدة معايير ضوئية قبل الحكم..

هل هذا منطقي؟

بالتأكيد هو كذلك..

كلما فكرت في الأمر أكثر وجدت أنّ هناك سرًا مرعبًا يحيط بهؤلاء.. لا توجد جمعية (تبحث عن الحقيقة) تنتقي أعضاءها بتصوير (كيرليان)..

الأمر أعقد من هذا وأخطر

☆ ☆ ☆

3

دق الباب مرّتين فاتجهت لفتحه بعد ما داريت الصور المتناثرة على الفراش..

مدام (ليليان) من جديد تصر على أن ألقاهم في قاعة المعيشة - الما إيشة على حد قولها - لأن هناك الكثير من الضيوف.. طبعًا يمكن القول أن مزاجي كان في أسود حالاته، والعلاقات الاجتماعية هي آخر ما أفكر فيه.. لكني عاجز عن أن أقول لها لا..

هكذا بدلت ثيابي بسرعة وخرجت إلى قاعة المعيشة الرحبة التي تذكرك بأجواء (ميرامار)، حتى لتعتقد أنك ستجد (حسني علام) جالسًا في أية لحظة.. وتسمع (فريكيكو لا تلمني)..

كان النزلاء هناك يدخنون ويقرءون الصحف، وبعضهم يلعب الشطرنج أو الطاولة.. مكان نظيف مريح، لكني لا أعرف أحدًا باستثناء مدام (ليليان) نفسها لأنني لا أستقر هنا.. ربما بضعة أيام وربما هو يوم واحد لا أكثر..

كانت مدام (ليليان) جالسة هنالك.. ما زلت أراها رائعة الجمال كما قلت لك، ولكني أقول هذا وأصمت.. نصفي الآخر موجود هنالك في (إنفرنسشاير) ولا أنوي أن أغيره.. فلمّا رأتني هبت ضاحكة، وقالت بلهجتها الركيكة التي لن أكتبها كما هي من الآن منعًا للتعقيد:

- «د. (رفعت)! كنت بانتظارك..!»

كانت تجلس على مقعد خشبي صغير جوار أربعة رجال يحتلون الأرائك، وهم منهمكون في مراقبة رقعة شطرنج..

هناك رجل يبدو أجنبيًّا يضع الكاسكيت على رأسه، وقد أراح ذقنه على مقبض عصا من عاج، وراح يراقب الرقعة في استغراق ونهم.. وأمامه رجل أصلع الرأس عجوز إلى حد لا يصدّق.

قالت المدام:

- «يا سادة.. حيوا الدكتور (رفعت إسماعيل) خبير عالم ما وراء الطبيعة.. الرجل الذي أفنى حياته في دراسة الظواهر الغامضة.. والذي شرفت بأنني استضفته في كلّ مرّة جاء فيها إلى الإسكندرية..»

رفعوا العيون ليروا إن كنت أستحق أن يوقفوا المباراة من أجلي..

سمعتها تقدمهم لي:

- «مهندس (عامر).. أستاذ (داود).. الخواجة (بيزانوس) ابن خالتي.. الخواجة (ستافروس) من (بيريه) مسقط رأسي..»

في هذه اللحظة التقت عيناي مع الخواجة (بيزانوس).. الرجل اليوناني الذي كان في ستوديو التصوير اليوم، والذي تحطمت سيارته الزرقاء.. إنّه هو الذي كان يلبس الكاسكيت ويتوكأ على عصاه..

إذن هو هنا! بل هو ابن خالتها كذلك!!

كانت في عينيه نظرة غامضة هي مزيج من الدهشة والتوحش والغضب والرضا.. نظرة تقول بوضوح: «إذن هو أنت!!»

انتهى الأمر ولم تعد هناك حيل.. لا مجاملات.. هذا الرجل على علاقة حميمة بصاحب الستوديو (محفوظ)، وهو يعرف أن صورًا قد اختفت.. والمتهم الوحيد هو هذا الذي تركاه وحده في المحل لحظة التصادم..

جلست على مقعد خشبي، وأنا أراقب ما يجري في المباراة.. موقف محرج جدًّا.. أسمع مدام (ليليان) تكلمني فلا أعي حرفًا مما تقول...

واضح أيضًا أن المباراة انتهت بالنسبة للخواجة (بيزانوس) لأنّه لا يتابع ما ينقله على الإطلاق.. وبدأت التعليقات عن لعبه المثير للشفقة..

أخيرًا نهضت وقلت للمدام المندهشة إنني راغب في النوم لأني متعب.. حييت الجالسين بهزة رأس، فنظروا لي بدهشة.. ما كان لزوم ظهوره إذن؟ وأين عبقرية الأكوان التي بشرتنا بها (ليليان) لدى ظهور هذا النصب التذكاري الأصلع؟

كنت بحاجة إلى الفرار.. من العسير أن أفر من البنسيون في هذه الساعة، لكني لا يجب أن أبقى في هذا الموقف السخيف..

اليونانيون يجدون بعضهم في أي بلد كما يفعل الصعايدة عندنا.. لماذا لم يخطر لي هذا ببال؟

☆ ☆ ☆

نمت مبكرًا بعد أن أخبرت مدام (ليليان) إنني راحل في الصباح الباكر..

ولما كان اليوم حافلًا بالأحداث والإرهاق، فإن هذا أدى مفعولًا عكسيًا.. هناك درجة حرجة ما من الإرهاق تجعلك تنام كلوح الخشب، فإذا تجاوزتها استحال النوم..

رحت أتقلب بينما الظلام يعمل عمل شاشة السينما التي تدور عليها أحداث اليوم.. يا لها من كارثة! سوف أقود سيارتي صباحًا وأنا مخدر غير واعى الذهن، دعك من أنني سائق سيئ أيضًا.. بل أنا أسوأ سائق سيارة عرفته أو قابلته في حياتي إن مشهد جثتي النازفة والمغطاة بالصحف على جانب الطريق لا يفارق خيالي..

رحت أتأمل الظلام محاولًا أن أعقد معاهدة مع النوم..

هنا سمعت الصوت..

كليك... كلانك.. كليك..

هناك من يحاول فتح الغرفة بالمفتاح!

☆ ☆ ☆

في في فو فام..

☆ ☆ ☆

تصلبت جالسًا.. ورحت أنظر باتجاه الباب الموارب.. فعلًا هناك مفتاح.. لكني أغلق بابي بالمفتاح من الداخل في الأماكن الغريبة، وأترك المفتاح في الكالون.. هكذا من المستحيل أن يدخل القادم الغرفة بهذه الطريقة..

اثنان يتهامسان وهناك أنثى في الموضوع.. مدام (ليليان) طبعًا ما دام المتسلل يحمل مفتاح الغرفة..

ولكن من هو؟ ولماذا يتسلل؟

لا أعرف.. لكن السطو ليس الهدف بالتأكيد..

جعل اضطراب النوم ذهني صافيًا شفافًا، وهي مقولة غريبة لكنّها صادقة.. لقد بدا الأمر واضحًا كالشمس.. الخواجة (بيزانوس) على الباب مع قريبته.. لا شك في هذا..

مددت يدي فأضأت النور.. ثم أمسكت بالهاتف الموضوع جوار الفراش وأدرت رقمًا.. أي رقم.. وقلت بصوت عالٍ:

- «ألو.. الشرطة..؟ أنا د. (رفعت إسماعيل) المقيم في بنسيون مدام (ليليان).. وعنوانه هو (...).. هناك من يحاول اقتحام غرفتي الآن لقتلي أو سرقتي.. أرجو أن تأتوا.. حالًا!!»

على الفور توقف صوت العبث في الباب..

يبدو أن الحيلة انطلت عليهما أو عليهم.. لو كنت مكانهم لما خاطرت..

هكذا مر الليل..

وفي الصباح الباكر سمعت صوت نزلاء البنسيون الذين يذهبون للحمام أو يعودون منه.. هناك شهود على وجودي إذن..

ارتديت ثيابي واتجهت إلى سيارتي..

لم ألق المدام ولا أريد لقاءها.. بحثت عن مكان يقدم لي بعض القهوة المركزة، ثم بحثت عن ميكانيكى يصحو مبكرًا أكد لي أن السيارة لم تصب بخلل كبير في حادث أمس.. فقط صار منظرها مرعبًا لكنّها قادرة على قطع الرحلة إلى القاهرة، وخلال نصف ساعة كنت على الطريق السريع..

كنت في طريقي إلى بيتي..

☆ ☆ ☆

لولا سلامك سبق كلامك.. لأكلت لحمك قبل عظامك..

☆ ☆ ☆

كنت أحمل حقيبتي الخفيفة عندما أسرع بواب البناية ليساعدني..

عندما تكون الحقيبة ثقيلة فعلًا لا يظهر أبدًا.. أمّا الآن فهو يعرف أنها مهمّة سهلة سوف تنتهي بالبقشيش..

قال لي وهو يصعد الدرج:

- «حمدًا لله على السلامة يا دكتور.. لقد جاء قريبان لك ثلاث مرات أمس.. سألا عنك، لكني قلت لهما إنك في الإسكندرية.. لم أعرف موعد عودتك..»

قريبان؟

أخي وعمي مثلًا؟ عمي وابنه؟ ابن عمي وأخوه؟

قال البواب في مرح وهو يثب الدرجات وثبًا:

- «إنهما من مركز (كوم حمادة) مثلي.. سرني هذا كثيرًا.. دعوتهما لشرب الشاي وتكلمنا عنك كثيرًا!»

(كوم حمادة)؟ كل شخص على وجه الأرض يعرف أنني شرقاوي.. لكن البواب لا يعرف بالطبع.. قريبان لي من (كوم حمادة).. هذا جميل فعلًا.. كلنا أقارب بحكم نسبنا لآدم عليه السلام..

- «كيف يبدوان؟»:

توقف البواب على باب شقتي وراح يلهث.. ثم قال:

- «ضخمان.. قويان.. كلاهما يلبس نظارة سوداء.. ما شاء الله.. لكن لون بشرتهما غريب.. كأنه التراب..»

ما شاء الله.. صار البواب فنانًا تشكيليًّا يجيد ملاحظة ألوان البشرة.. كنت قد تعلّمت منذ زمن أن الناس في مصر لا تستعمل عيونها على الإطلاق، وأن أشياء بسيطة مثل العوينات والشارب تمر دون أن يلاحظها أحد.. تذكر قصة المرأة العجوز التي وصفها (توفيق الحكيم) في (يوميات نائب في الأرياف) وكيف وقف أمامها المتهمون بسرقتها في عرض قانوني، فراحت تفحصهم واحدًا بعد الآخر.. توطئة لأن تضرب وكيل النيابة الشاب - مساعد (توفيق الحكيم) - ضربة عاتية في صدره وتصيح: هو ده غريمي يا بيه!

لكن البواب كان يملك تفسيرًا

- «نحن - البحاروة - بيض البشرة.. من الغريب أن تجد هذا اللون عندنا...»

فتحت شقتي ودخلت.. وبدا لي أنه لم يعبث بها أحد..

أغلقت الباب خلفي ناسيًا البواب الذي بالتأكيد نزل الدرج وهو يسب ويلعن (أفندية آخر زمن)..

☆ ☆ ☆

- «العنوان ورقم الهاتف من فضلك..»

قلت في ارتياب:

- «هل لي أن أعرف السبب؟»

وهناك الكثير من الخلط يحدث بسبب أن فلانًا يأخذ الصور الخاصة بفلان.. لذا نحرص على هذا النظام..»

قلت ضاحكًا:

- «معك حق.. هناك فتيات كثيرات سوف يزعمن أن الصورة تخصهن، هذا لكي يظفرن بصورة لي..»

لكن الدعابة لم ترق له ولم يضحك..

☆ ☆ ☆

طبعًا عنواني عندهم.. ولو كنت أكثر ذكاء لكتبت لهم أي عنوان.. مرفق الصرف الصحي مثلًا..

يسهل افتراض أنّ هذه الزيارة جاءت من ذات الذين زاروني في حجرتي أمس.. رجلان غريبان يكذبان ويسألان عني بلهفة.. لا بد أنهم افترضوا أنني عدت للقاهرة في اليوم ذاته.. ولهذا فوجئ (بيزانوس) عندما رآني في البنسيون..

سوف يعودان..

هذا مؤكد..

السؤال المهم هو: لماذا؟ ما أهميّة هذه الجمعية؟ ما الذي يقومون به فعلًا؟

واضح أن قيمة هذه الصور التي معي عالية جدًّا.. أهم بكثير بما أتصور..

فقط أعرف أنني على الأرجح في خطر داهم.. لا أثق في أي شخص ضخم أسمر اللون يعرف عنوان بيتي، خاصة لو زعم أنه قريبي، والأدهى أن يزعم أنه من (كوم حمادة) وهو ليس كذلك..

مددت يدي لأستخدم الهاتف..

وطلبت رقمًا في الإسكندرية..

☆ ☆ ☆

4

نعم يا (عادل)..

الأمر كله مريب وخطير..

لا تقاطعني.. أعرف أنك عبقري وأنك تفهم كل شيء.. لكن أصغ لي قليلًا..

لدينا هذه الجمعية التي لا نعرف نشاطها فعلًا، لكن أعضاءها يتم اختيارهم عن طريق هذا التصوير (الكيريلياني).. هناك هالة معينة حول الأشخاص الصالحين.. عندنا اقتربت من الحقيقة قام بعضهم محاولة اقتحام حجرتي، وجاء من يسأل عني في بيتي..

ما هذه الحماسة؟

لماذا تتغير أخلاق من انضموا للجمعية؟

بيني وبينك الأمر لا يوحي بنشاط إجرامي ما.. يوحي بما هو خطر.. ألم تفكروا قط في أنّ هذه شبكة تجسس؟ وأن (عدنان) هذا مجرد ضابط تجنيد؟ ربما كان اسمه الحقيقي (رعنان) لا (عدنان).. وربما كان د. (عامر) هو (عامير)..

فقط الجواسيس يتصرفون بهذه الحماسة والعنف.. إنهم لم يتأخروا أكثر من بضع ساعات للبحث عن داري..

أنصحك يا (عادل) بأن تجد طريقة لتفتيش هذه الفيلا.. سوف تجد أشياء مثيرة وأنا واثق من هذا..

واضح أن المرحاض لم تنبعث منه أية روائح، ولربما لا يحدث هذا أبدًا لو انتظرنا صدق نظريتك..

☆ ☆ ☆

جاءني صوت (عادل) القلق عبر الهاتف يقول:

- «في الحقيقة يا (رفعت) أنا قلق مثلك لكن ما نعرفه لا يسمح بعمل تفتيش..»

ثم أضاف بعد هنيهة:

- «لا أرى ما يمنع من أن تأخذ إجازة عدة أيام وتسافر إلى قريتك أو تقيم في الإسكندرية في عنوان لا يعرفه أحد!»

إذن الأمر بهذه الخطورة؟ ما الذي تعرفه ولا أعرفه أنا؟

عاد (عادل) يقول:

- «لقد دسسنا عليهم مخبرًا.. قمنا بتزوير واحدة من تلك الدعوات وأمور معقدة أخرى.. في النهاية دخل لهم وحضر الاجتماع الأول على أنه مدعو.. لم يقم بالتسجيل أو التصوير لكنه تابع كل شيء، وكان تقريره الأول والأخير هو أنها مجرد اجتماعات للعلاج النفسي الجماعي ولا غبار عليها..»

هنا استوقفته سائلًا:

- «ولماذا هو آخر تقرير؟»

- «لأنّه اختفى! انقطع كل اتصال لنا به ولا نعرف أي شيء عنه..»

- «وهل لهذا علاقة بهم.»

- «أنت تعرف أن لهذا علاقة بهم.. لكن كيف تثبت؟!»

ثم أضاف في قلق وإرهاق:

- «نحن نتحرك في الظلام.. لا نعرف أي شيء.. يسهل أن تهدم القصة كلها لو أردت.. لكن دعني أؤكد لك إنّه ما دمنا لم نستطع حماية رجلنا، فمن الوارد أن يصيبك أذى ما.. لذا كن حذرًا وغادر دارك!»

كان هذا أكثر مما تتحمله أعصابي..

عندما يصير رجل الأمن المكلف بحمايتك أكثر قلقًا منك، فأنت تشعر بالعجز والرعب.. العجز الذي يجعل الفار المحاصر يتحول إلى دمية بين مخالب القط.. رأيت قطًا في طفولتي يعبث بفأر وأكاد أقسم أن الفأر كانت أمامه نحو عشر فرص للفرار لكنه لم يستغلها.. لم يرها..

هكذا جمعت حاجياتي.. جمعت ما يكفيني أسبوعًا.. تناولت وجبة خفيفة ونمت ثلاث ساعات كي لا يجمعوا أشلائي بالعدسة من على الطريق السريع..

أجريت بعض المكالمات الهاتفية كي لا يقلق عليّ أحد.. وأخبرتهم في الكلية أنني سأتغيب أسبوعًا، ثم أغلقت الشقة واتجهت إلى سيارتي..

سيكون هدفي هو الإسكندرية؛ لأنني أرغب في أن أكون على مقربة من د. (سامي) و(عادل)، لكن لابد أولًا من أن أمر على صديقي د. (مندور) أستاذ الفيزياء بكلية العلوم.. لدى عدد لا بأس به

من المعارف من أساتذة الجامعة، وهذا مفيد دائمًا.. لا تنس أن (ماجي) هي نفسها تدرس الفيزياء.. لكن من العسير أن أطلب منها ما سأطلبه هنا..

بعد ثلاث ساعات كنت أتجه إلى الإسكندرية..

هاربًا هذه المرّة من خطر داهم.. والأسوأ أنني لا أعرف ما هو!

☆ ☆ ☆

عند الليل تقريبًا كنت قد وجدت شقّة مناسبة.. لاحظ أننا لسنا في موسم الاصطياف..

فما أن اطمأننت إلى أن الشقة مريحة ونظيفة، حتى قمت بالجزء الشاق من العملية.. من حقيبتي أخرجت أدوات الحلاقة ووقفت أمام مرآة الحمام..

بيد ثابتة أزلت شاربي.. أبدو أصغر عشرة أعوام من دون هذه الفرشاة الشائبة التعسة فوق شفتي العليا.. ثم قمت بصباغة ما تبقى من شعري..

لو أن أحدًا رآني لحسبني مجرد عجوز متصاب آخر يرغب في مغازلة فتاة.. الحقيقة لا تبتعد عن هذا كثيرًا.. أنا أرغب في مغازلة مجموعة من الأوغاد..

الآن أضع العوينات القاتمة القديمة المستديرة التي لم أضعها منذ عشرين عامًا.. هناك صورة قديمة جدًّا لـ (طه حسين) لدى عودته من السوربون.. تبدو أقرب شيء للمظهر الذي طالعني من المرأة.. ربما كان حل العدسات الملتصقة أسهل وأكثر قدرة على تغيير شكل وجهي، لكنّها لم تكن شائعة أو سهلة المنال في هذا الوقت..

أنتقي (بول أوفر) أنيقًا لا ألبسه أبدًا.. وحرصت على أن ألبس تحته قميصين لأبدو أكثر بدانة..

في النهاية وضعت الكاسكيت على رأسي ليداري صلعتي..

بدوت غريبًا جدًّا في المرأة.. مبتذلًا بعض الشيء.. هذا صحيح.. لكني كذلك مختلف.. مختلف تمامًا..

تكلمت بتلك اللهجة الخنفاء التي اخترتها لنفسي:

- «مساء الخير.. أنا..»

ربما يصير الأمر أكثر اختلافًا لو تعمدت إخراج لساني في حروف السين والزاي والصاد.. إخراج اللسان مع الذال والثاء من قواعد النطق الصحيح على كل حال..

- «مثاء الخير يا (عثل).. أريد بعض الثور للبطاقة الشخثية..»

لا بأس.. أنت تفهم طبعًا أنني لا أجد حرف (صاد) عليه ثلاث نقاط لأعبر لك عن طريقة نطقي..

هكذا - راضيًا عن مظهري - نزلت إلى الشارع.. إنها مسخرة حقيقيّة، فلأحمد الله على أن أيًا من معارفي لا يراني..

استقللت ثيارة - أعني سيارة - أجرة طبعًا لأن سيارتي صارت من المشتبه فيهم..

وأخيرًا طلبت من السائق أن ينزلني هنا.. هذا هو الشارع الذي يوجد فيه ستوديو (هالة) اللعين..

مشيت بضع خطوات وسط الأضواء التي تخرق ظلام الليل ثم...

توقفت في ذهول..

لم يعد هناك ستوديو (هالة) في هذا المكان..

بالأحرى.. لم يكن هناك أي ستوديو على الإطلاق!

☆ ☆ ☆

5

كان يعرف أنهم أثرياء..

رأى السيارات التي تقف هناك ورأى القوم الذين يدخلون ويخرجون..

لم يكن لصًا.. كان يقف عند الحدود الدولية بين مملكة المتسولين وجمهورية اللصوص، وحتّى اللحظة يمكن اعتبار قدميه ما زالتا في مملكة المتسولين.. أحيانًا يسرق أشياء تافهة مثل رغيف خبز، أو كيس ملئ بالخضر تركته ربة بيت جوارها على الإفريز إلى أن تستوقف سيارة أجرة..

لكنه لم يعتبر نفسه لصًا قط.. إنّه جائع على الدوام.. يشعر ببرد على الدوام.. لو كان المطلوب هو أن يموت جوعًا فهو يعتذر بشدة عن هذا الشرف..

هكذا كان (علي فونية).. اسم غريب حقًّا.. لكنك في سن الستين لا تستطيع تذكر اسمك القديم أبدًا.. طيلة عمره يدعي (فونية) والسبب هو أنه قضى فترة طويلة من عمره لا يعرف ولا يجيد شيئًا سوى تصليح مواقد الكيروسين (بوابير الجاز بالعامية)..

فجأة كف الناس عن استعمال هذا الاختراع الساحر.. وبالتالي كف عن كسب المال.. صار الجوع يلازمه ليل نهار بعد ما أغلق المحل متسخ الجدران، وراح يهيم على وجهه.. زوجته طردته.. هكذا لم يعد يذكر أين كان يسكن ولا عدد أطفاله..

لم يكن (فونية) يملك أي نوع من الآراء في الحياة.. لم يكن يملك أي نوع من الحقد الطبقي أو السخط.. لقد صار يعتبر الرأي نوعًا من الترف..

كل ما يعرفه هو أنه جائع على الدوام.. بردان على الدوام وقد تحولت حياته إلى بحث طويل عن الطعام والمأوى، فلابد أن (كارل ماركس) كان سيرقص طربًا لو أسعده الحظ بلقاء الأخ (علي فونية)..

في هذه السن من حق الإنسان بعض الراحة وأن يعني به أحد، لكن (علي فونية) كف عن الرثاء لنفسه منذ زمن بعيد..

الجوع.. فقط الجوع.. حتى لم يعد يذكر إن كان هذا الألم له سبب أم أنه طريقة حياة..

☆ ☆ ☆

كان يعرف أنهم أثرياء..

في هذا النهار البارد يرى الفيلا من بعيد، فيخطر له أن يدور حولها بحثًا عن مصدر طعام أو مأوى..

لقد تسلل إلى هذا الشاطئ الراقي كعادته.. إنّه يظفر ببعض الطعام لأن الناس يضحون بأي شيء للتخلص منه..

كانت الفيلا موصدة الأبواب.. وكان يعرف أن أحدًا لا يتردد عليها إلا في المساء..

بدأ يدور حولها وقدماه تغوصان في الرمال، وفي يده الكيس البلاستيكي الذي يحوي (كنوزه) من الخرق وأعقاب السجائر التي يجمعها.. من بعيد يسمع هدير البحر والريح تخترق السترة العسكرية الممزقة التي لم يلبس سواها منذ عشرة أعوام..

هذا هو السور الحديدي..

نظر حوله ذات اليمين وذات اليسار فلمّا لم ير من يراقبه تسلق السور ليثب إلى الداخل. جهد عنيف بالنسبة لرجل في سنه، لكنه كف - كما قلنا - عن الرثاء للنفس..

كلاب! لو كانت هناك كلاب فقد ضاع..

لكن لم يصدر نباح من أي مكان.. لذا واصل مشيه وسط النباتات المتشابكة في الحديقة.. من الناحية الأخرى يوجد مدخل الفيلا الرئيس الذي يدخل منه الضيوف، وهو قد تعلم من التسول أن الفيلات المماثلة يكون مطبخها مطلًا على الحديقة الخلفيّة.. سوف يسرق شيئًا من المطبخ أو يتسول شيئًا حسب الظروف..

أحيانًا تكون هناك طاهية مذعورة شاحبة مثله، تناوله شيئًا يتبلغ به.. إنها تكره سادتها مثله.. يأخذ الطعام مسرورًا ثم يفر ليأكله في أقرب زقاق يجده..

كل الأبواب موصدة.. ربما لو طرق الباب.. لكن لا.. من يفتحون الأبواب هم غالبًا أكثر الخدم غرورًا وتحذلقًا.. ربما هم أسوأ من سادتهم..

راح يبحث عن مدخل.. يبحث..

فجأة وجد هذا الباب الصغير قرب مستوى الأرض.. باب من الطراز الذي يقودك لقبو.. إنّه مناسب جدًّا..

ركع على ركبتيه وأمعن النظر فلم ير شيئًا بالداخل.. رائحة كريهة جدًّا.. لم يكن ممن يبالون بالروائح لأن الاشمئزاز نوع آخر من الترف.. لكن هذه كانت كريهة بحق حتى تساءل عن مدى قذارة هؤلاء القوم..

على كل حال كوّر جسده وانزلق من الفتحة..

إنه الآن بالداخل وسط الظلام.. لا يوجد نور إلا البصيص الذي يأتي من الباب الصغير الموارب خلفه.. هذا قبو كما هو واضح..

زحف قليلًا في الظلام حتى وجد كومة من الخيش والعلب الورقية الفارغة.. إن المكان دافئ هادئ..

كانت هناك بقايا وجبة ملفوفة في جريدة..

ضحك وهز رأسه في الظلام.. إن الحظ الحسن لا يفارقه.. هذه الضحكة لم يضحكها رجل يظفر بجناح مجاني في الشيراتون..

كانت الوجبة تتكون من بقايا شطائر فول وفلافل.. صحيح أن الفول تحول لنوع من الأسمنت، والطماطم المصاحبة للفلافل قد حمضت تمامًا، لكنه قد ذاق من قبل ما هو أسوأ.. دعك من أن معدته صارت كمعدة القط الضال تهضم كل شيء، ولا يمكن أن يمرض من شيء أكله أبدًا..

هكذا - وقد زال بعض الجوع - استلقى على الخيش وتكور، وغطي نفسه ببعض الخرق.. سوف ينام.. إنِّه ينام عشر ساعات يوميًا لأن النوم ينسيه الجوع.. لاحظ زيادة معدلات النوم لدى الصائمين..

الظلام.. الدفء.. الهدوء..

ونام (علي فونية)..

نام.. وفي نومه رأى نفسه شابًا قويًا يقف في المحل، والناس يقفون طابورًا يحمل كل منهم موقد الكيروسين له ليصلحه.. لهفة.. نقود في الدرج..

- «عم علي.. البابور ده بينفس..»

- «عم علي.. الكباس تقيل..»

ألا فلتحل لعنة الله بمواقد البوتاجاز والمواقد الكهربية، وكل شيء جعل الناس ينسون موقد الكيروسين الجميل ذا الرائحة العطرة والصوت الشجي...

ألا فلتـ..

☆ ☆ ☆

صحا من نومه على يد رقيقة.. يد رقيقة لكنّها تهزه بعنف بالغ..

(هذا الصوت القادم من بعيد.. كأنها ضحكات)

فتح عينه واستغرق عدة أشهر كي يفهم أين هو ومن هو..

في ضوء مصباح كهربي خافت معلق في سقف القبو، يرى تلك الفتاة تنحني عليه وتهزه.. فتاة نحيلة سمراء لها وجه مريح لكنه مذعور..

(لا. ليست ضحكات.. هو يذكر أيام الجيش في الصحراء.. كأن هذه ضحكات الضباع!)

قالت له وهي مستمرة في هزه:

- «يا لك من تعس! من أين جئت؟ ألم تجد مكانًا سوى هذا؟»

نظر لها في غير فهم، فقالت:

- «تعال! من رابع المستحيلات أن أتمكن من إخراجك في هذه الساعة.. إنهم عائدون في أية لحظة!!..»

وجد أنها تجره من يده عبر القبو الرطب، حيث لا توجد إلا صناديق فارغة وزجاجات مهشمة.. ثم انتقت ركنًا غائصًا في الجدار.. وألقت به داخله إلقاء، وقالت له:

- «مهما حدث لا تتحرك!»

ووجد أنها تلقي فوقه بقطع من الخيش وصناديق ورق مقوى فارغة.. حتى تمكنت من إخفائه تمامًا عن العيون، والحقيقة إنِّه كان مذعورًا فلم يحاول فهم أي شيء..

فقط راح يرتجف..

أن الجوع يفقد الإنسان الكثير من آدميته.. ولهذا راح يتعامل مع الموقف كحيوان مذعور لا يهمه أن يسمع تفسيرًا.. المهم إنِّه مذعور لأن خطرًا داهمًا يحيط به..

ثم بدأ يسمع أصواتهم..

☆ ☆ ☆

6

في في فو فام..

أشم دماء رجل إنجليزي..

سواء كان حيًّا أو ميتًا، فلسوف أحمص عظامه لأصنع خبزي!

☆ ☆ ☆

شيء في هذه الأصوات جعل الدم يتجمد في عروقه.

كانت أقرب إلى زئير الوحوش لكنّها برغم هذا لم تتخل عن آدميتها.. هذا هو ما أثار رعبًا أكثر من أي شيء آخر..

يسمعهم يتزاحمون ويقدر أن عددهم نحو الخمسة..

- «أنا جائع..»

- «وأنا..»

صوت رجل وقور يبدو على قدر كبير من السلطة يقول:

- «أنتم لم تأتوا لي بشيء أمس.. لهذا يجب أن تتحملوا نتيجة التقصير..»

من جديد يتصاعد الزئير والاحتجاج:

- «لابد من شيء.. لابد من شي ء نأكله!»

ثم سمع أحدهم يتشمم الجو.. سنيف سنيف.. ثم يقول في لهجة انتصار:

- «هناك رائحة رجل هنا!»

تصاعدت الصيحات:

- «من؟.. من؟»

كان (علي فونية) يرتجف الآن كورقة.. ثم صوت الرجل المسيطر يقول:

- «كفوا عن السخف.. أنتم تعرفون أن تلك الفتاة (غادة) ما زالت منهم.. أنا أقرب لهم.. روائح البشر في كل مكان فلا تتظاهروا بالذكاء..»

تعالت أصوات الاحتجاج.. مع صوت (سنيف - سنيف!).. ثم صاح صائح:

- «لكني أشم الرائحة بقوّة! هلموا نفتش القبو جيدًا!»

وتعالت أصوات حركة عنيفة.. هناك من يرفع أشياء ويحرك أشياء.. هناك من يبحث.. وأيقن (علي فونية) أن حياته التعسة قد انتهت..

لكن الإنقاذ جاء من حيث لا يدري..

لقد سمع أحدهم يصيح:

- «لقد عاد (موهول).. مرحى!»

ومن جديد صوت الصخب.. هذه المرّة يتعالي صوت غريب صوت هو أقرب شيء إلى القضم.. صوت أشياء تمزق وعظام تطحن.. ما معنى هذا؟ ماذا يدور هنا؟ لم يكن (علي) قد صلى منذ دهور، لكنه راح يدعو الله أن يخرج من هذا المأزق بأي شكل..

هناك من يأكل في نهم.. هناك من يتنازع مع صاحبه على الطعام كما يحدث بين السباع في حديقة الحيوان صوت زئير..

- «ابتعد يا (موهول)!»

- «بل ابتعد أنت يا (موهول)!»

الغريب أنهم جميعًا يحملون الاسم ذاته.. فكيف يعرفون بعضهم؟ لابد أنهم يعتمدون على من يوجه له الكلام.. شيء من هذا القبيل.. فما جدوى الأسماء إذن؟

كانت أمام عينيه قطعة من الورق المقوى فأزاحها في رفق..

ثم تذكر أنّ هذه بالذات هي عينه التالفة؛ لذا حرّك وجهه ليراقب المشهد بعينه الأخرى ووسط غابة من ألياف الخيش..

ما استطاع أن يراه وسط الفجوة هو ظهر عملاق لرجل.. رجل ضخم يجلس القرفصاء على بعد مترين.. قميص الرجل ممزّق وطريقة التهامه للطعام أقرب للوحوش..

كان الرجل يأكل ثم يلتفت للخلف من فينة لأخرى ليرمق الفتحة.. يرمقها بنظرة ثابتة حتى ليقسم (علي) على أنه ينظر له بالذات.. ثم يعود الرجل لشأنه فيقنع (على) نفسه أن الرجل لم يره.. لا يوجد سبب يجعله يراه ويتظاهر بالعكس..

ثم فعلها الأحمق!

لقد نظر إلى الشيء الذي في يد هذا العملاق الجالس..

كانت هذه غلطة عمره.. ومن رحمة الله أنه أطلق أنينًا خافتًا لم يسمعه سواه ثم فقد الوعي..

☆ ☆ ☆

في في فو فام..

أشم دماء رجل إنجليزي..

سواء كان حيًّا أو ميتًا، فلسوف أحمص عظامه لأصنع خبزي!

☆ ☆ ☆

لا يدري إلا ونور النهار يتسلل بشكل ما داخل المكان.. ومن جديد أنامل الفتاة السمراء تدق على كتفه..

- «هيا يا أحمق! هل نمت؟ كيف نمت؟ كيف استطعت؟»

استطاع أن يربط بين هذه المنقذة الرقيقة واسم (غادة) الذي سمعه أمس.. الحقيقة أن كل تفاصيل ما حدث أمس حفرت في ذهنه للأبد..

راحت تصفع خده في غلظة كأنها تضرب حيوانًا..

- «هلمّ.. استيقظ! لا وقت للنوم!»

ثم هي تجره جرًّا إلى حيث كان الباب الصغير الذي دخل منه.. إنه ينظر للخلف ليرى القبو من خلفها لكنه لا يرى أي شيء بسبب الظلام.. ربما كان هذا كابوسًا؟

الفتاة تعينه على تسلق حافة الباب ليخرج وتردد بلا انقطاع:

- «هلمّ! اخرج! لا تعد هنا ثانية أبدًا!»

لم يكن بحاجة إلى أية تعليمات وهو يتواثب في خفة عبر الحديقة.. خفة لا تتناسب مع سنواته الستين.. وكان الفزع يستبد بعقله ويوشك على أن يوقف ضربات قلبه.. رعب أولي عجيب لم يشعر به من قبل..

يسمعها تصيح:

- «لا تحك ما رأيت فلن يصدقك أحد!!»

نور الشمس يغمر المكان ويبدد مخاوفه..

يصل إلى البوابة فيتسلقها.. ينزلق ويسقط.. لكنه يحاول من جديد.. ينجح هذه المرّة.. يعتلي السور.. ثم يهوي كل المسافة من أعلى السور إلى الشارع..

آي!!

عندما نظر إلى ساقه أدرك أنها لم تعد كما كانت..

لقد تهشمت.. ..

☆ ☆ ☆

7

من جديد نهضت مدام (ثريا) إلى الباب فأغلقته..

كانت قد انتهت كالعادة من سؤالى عن الكارثة التي حلت بشاربي ووجهي وشعري.. لابد أنها حسبتني جننت أنا الآخر..

سألتها في حيرة:

- «قلت إنِّه ليس موجودًا في البيت..»

وضعت إصبعها أمام شفتيها لتخفض الصوت، ثم قالت في خطورة:

- «يعود في أي وقت.. والغريب أنه يتحرك بلا صوت لا أعرف كيف أصف.. كيف أعبّر..»

وارتجفت شفتها السفلية، وقالت:

- «ثمّة شيء ما يخيفني في هذه الخفة التي صار يتحرك بها ثمّة شيء غير بشري.. شيء حيواني..»

هنا دخلت الخادمة المتأنقة الغرفة لتسألني عما أشربه، فطلبت قهوة.. في الفترة الأخيرة أفرطت في شرب القهوة حتى أن نزف المخ وسرطان البنكرياس يتسابقان أيهما يستحقني أكثر..

كادت الخادمة تنصرف لولا أن استوقفتها المدام:

- «سارة..»

- «A votre service madam»

- «قولي لـ د. (رفعت) ما يقوم به د. (سامي) في الآونة الأخيرة..»

نظرت لي (سارة) في برود غير متأكدة مما إذا كان يجب أن تتكلم.. ثم هزت رأسها، وقالت:

- «إنِّه لم يعد هو يا مدام..»

قالت مدام (ثريا) في عصبية:

- «نعم.. نعم.. أريد تفاصيل..»

فكرت (سارة) قليلًا، ثم قالت:

- «مثلًا كل هذا الصمت.. لقد فقد مرحه تمامًا.. لا يخرج إلا ويقول إنّه ذاهب لتلك الجمعية، ثم يعود فيغلق المكتب على نفسه..»

- «والخروج الليلي..»

- «أوه.. هذا يحدث ثلاث مرات أسبوعيًا.. يخرج في صمت وهدوء في الثالثة بعد منتصف الليل.. أنا من الطراز الذي لا ينام بسهولة؛ لذا أشعر بباب الشقة ينفتح وينغلق..»

طبعًا.. هي الآن شقّة ولو كان هذا في الفيلا القديمة، لأمكن أن يتسلل الجيش الروماني ليلًا دون أن يشعر به أحد..

سألتها مدام (ثريا):

- «وماذا عن موضوع الثلاجة؟»

- «أحيانًا أدخل المطبخ لأجده قد أخرج كيسًا يحوي بعض اللحم المجمد من الثلاجة، ووقف يتأمله.. يتأمله شارد الذهن كأنه بصدد خيار مصيري..»

قالت مدام (ثريا) في حماسة:

- «هذا يحدث مع رجل لم يكن مولعًا باللحوم قط في طعامه اعتاد أن يعتبر تطور الإنسان يتناسب مع الخلاص من هذه العادة بالنسبة له يعتبر النباتيون أرقى أنواع البشر.. لكن هذا انتهى.. إنه فعلًا صار شرهًا للحوم بشكل غير معتاد..»

ثم أضافت في تقزز:

- «يأكل اللحم في شراهة كأنه.. كأنه غول!»

سوف يفيد هذا الرجل أن يتغيب عن تلك الجمعية بعض الوقت، لكن كيف؟ يمكن دائمًا أن تحاول كسر قدمه، لكنّها طريقة عنيفة لا أوصى بها.. ربما احتاج الأمر إلى تكبيله.. لا أدري بالضبط..

أضافت مدام (ثريا) في غيظ لم أفهم سببه:

- «أكملي قصتك! قولى ما حكيته لي اليوم ونحن في المطبخ..»

قالت (سارة) وهي تسوى خصلات شعرها وتضحك في شيء من الميوعة:

- «يقول إنني حسناء! هئ هيء!..»

آه! إذن صار د. (سامي) الراقي من هؤلاء؟ لا مشكلة لأن الفتاة حسناء فعلًا، لكن لماذا يقول لها ذلك؟

قالت (سارة) مفسرة:

- «يريد أن أذهب لستوديو معين كي يلتقطوا لي بعض الصور.. هي هيء! يقول إنهم فنانون وإنه يعرف مخرجين كثيرين يمكن أن يكتشفوني..»

في حزم قالت مدام (ثريا):

- «هل رأيت ما وصلنا إليه؟ وأنت! كفى عن الميوعة ولا تتمايلي كالثعبان.. إن د. (رفعت) قد طلب قهوة ولم يطلب فقرة من الرقص الإيقاعي..»

استوقفتها بإشارة من يدي، وقلت:

- «لحظة.. ليس الأمر كما تعتقدين.. متى طلب منك هذا يا (سارة)؟»

- «أمس.. وقد أعطاني عنوان الستوديو في (سابا باشا)!!»

- «إذن أنا أريده حالًا!»

فلمّا انصرفت، مطت مدام (ثريا) شفتها السفلى في اشمئزاز وقالت:

- «الرجال!! هذه المراهقة المتأخرة لا تفسير لها.. زوجي يغازل الخادمة!»

قلت لها في كياسة وحذر:

- «على قدر علمي عدد لا بأس به من الرجال المتزوجين يغازلون الخادمات (لاحظي أنني غير متزوج وليست عندي خادمة كذلك).. أعتقد أنها بقايا نفسية لدى الرجل من عصور الجواري، لكن فيما يخص زوجك ثقي أنه لا غبار عليه.. لم يكن يريد منها إلا ما طلبه: أن تلتقط لنفسها صورًا في ستوديو معين.. هذا هو ما يهمه، وهو مستعد لأن يخدع أي شخص في العالم كي يتم هذا.. أعتقد أنه سيطلب الشيء ذاته منك قريبًا..»

- «وما الموجود في هذا الستوديو؟»

- «هذا هو السؤال الذي يساوي مليونًا من الجنيهات..»

جاءت القهوة بعد قليل ومعها قصاصة فيها عنوان الستوديو.. الستوديو الذي انتقل إلى (سابا باشا) بمعجزة ما..

قلت للمدام وأنا أشير للهاتف:

- «هل لي أن أجري مكالمة؟»

- «من فضلك أن تفعل..»

رفعت السماعة وطلبت رقم (عادل).. هو لا يعرف أنني في الإسكندرية، ولربما يحسبني في (كفر بدر) منذ زمن..

- «ألو.. (عادل).. نعم.. أنا في الإسكندرية.. هناك بعض المواضيع التي..»

هنا جاء صوته المتحمس يصيح:

- «لن تكون بأهمية مواضيعي.. هناك خيط مهم في القصة.. حاول أن تلحق بي في المستشفى الجامعي بعد ساعة.. ستكون هناك عربة شرطة واقفة عند المدخل الرئيس، وسوف يقودونك لمكاني..»

هكذا وضعت السماعة غير عالم ما ينتظرني..

☆ ☆ ☆

قال د. (خليفة) وهو ممتقع الوجه بسبب كل هذه الرتب المحيطة به:

- «لا يوجد ما يُقال.. إنهم يطلقون عليها (متلازمة ما بعد الصدمة)..»

ثم ابتلع ريقه.. كل هذه الضوضاء بسبب متسول مسن كسر ساقه؟

نظر (عادل) إلى الرجل الراقد في الفراش والذي عرفنا أن اسمه (علي فونية).. وقال:

- «إذن لا يمكن أن تثق فيما يقول؟»

قال د. (خليفة):

- «لا أستطيع تقديم إجابة.. ربما هو يقول الحقيقة غالبًا ما يقوله هو الذي سبب الصدمة..»

كان (عادل) قد فرغ من السخرية من مظهري، وأبدى كل الملاحظات السخيفة على شاربي وعويناتي وصبغة شعري.. لهذا بدا مستعدًا للتركيز فيما يسمع..

كانت ساق (علي فونية) في الجبس.. بينما ربطوه في الفراش كأنه مصلوب، والسبب هو منعه من الفرار.. لقد حاول ذلك عشر مرات منذ وجدوه يزحف على الأرض ويصرخ في مكان ما من العجمي، حتى حملوه إلى المستشفى الجامعي.. لقد شعر الأطباء بأن هناك شيئًا مريبًا في القصة.. أبلغوا الشرطة.. وبشكل ما انتفشت كرة الثلج حتى بلغت مسمع (عادل).. (عادل) الذي كان على استعداد لسماع أي خبر غريب عن فيلا في العجمي..

- «اسمه (علي فونية) فعلًا؟»

- «لا يعرف لنفسه اسمًا آخر.. إنها المهنة عندما تتحول إلى لقب.. هناك دائمًا (سيد فورمايكا) و(أسامة دوكو) و(حسن أسطر)..»

ثم إن (عادل) دنا من الرجل رث الثياب الذي تنم ملامحه عن سوء تغذية، وبصوت هادئ سأله:

- «ما هذا الذي كنت تقوله؟ كلام عن فيلا في العجمي تعيش فيها الوحوش؟»

هنا صرخ الرجل في هستيريا.. وراح يحاول التملص من قيوده:

- «إنهم ملاعين! ساعدوني! أنا رأيتهم ورأيت ما يفعلون! كسرت ساقي لكني زحفت نصف ساعة كي أبتعد عنهم.. هي قالت لي ذلك.. ساعدوني! أنا رأيتهم ورأيت ما يفعلون! كسرت ساقي لكني زحفت نصف ساعة كي أبتعد عنهم.. هي قالت لي ذلك.. ساعدوني..!»

هكذا تحول إلى أسطوانة مشروخة..

انحنيت عليه وحاولت تهدئته وسألته:

- «من هم؟»

نظر لي للحظة وشاعت ابتسامة دافئة على وجهه، حتى آمنت بتأثيري السحري.. وفجأة صرخ من جديد:

- «إنهم.. إنهم غيلان!!!»

ثم راح يبكي بكاء يقطع نياط القلب، فأمر الطبيب الممرضة أن تحقن الرجل ببعض (الديازيبام) وهو ما لم يرق لي في سنه هذه.. سوف يقضي يومين على الأقل في حالة Hang over عاجزًا عن فهم ما يدور حوله، واللعاب يسيل من شدقيه.. هكذا الشيوخ عندما يتعاطون المهدئات..

قال د. (خليفة) في لهجة لائمة:

- «هل لديك اقتراح أفضل قبل أن يجن؟»

- «بالواقع لا.. على الأقل أعطه نصف الجرعة..»

وعلى باب العنبر وقف (عادل) يفكر في عمق.. قلت له في عصبية:

- «إذا كنت لم تجد بعد المبررات الكافية لاستخراج إذن تفتيش؛ فإنني سأبدأ غدًا الاتجار بالمخدرات.. يبدو أن الأعمال غير القانونية والمريبة مسموح بها هنا..»

قال وهو يشعل لفافة تبغ برغم أننا لم نغادر العنبر تمامًا:

- «المشكلة هي: إلى أي حد يمكن استخلاص معلومات دقيقة من هذا المتسول شبه المجنون؟ وهل أنت واثق من أنها نفس الفيلا؟»

- «أنت تعرف كما أعرف أن كلامه دقيق.. ولها نفس الفيلا..»

ثم أضفت في حنق:

- «للمرة الثانية أسمع لفظة الغول هذه.. مدام ثريا تصف زوجها بأنه يأكل كالغيلان.. الرجل يتحدث عن غيلان.. إني لأتساءل.. هل هذه مجازات؟»

سألني (عادل):

- «ما معنى كلمة غول أصلًا؟ إنها كناية عن أي شخص متوحش لا أكثر..»

قلت:

- «في القاموس الغول هو الشخص الذي يجد سعادته فيما هو مثير للاشمئزاز أو مرضي أو كريه.. الغول هو سارق القبور ونابشها.. الغول هو روح شريرة أو شيطان يأكل الموتى..»

نظر لي في دهشة كأنما يسمع معلومة ما لأول مرة، وقال:

- «نبش القبور.. الغيلان.. ذكرتني.. هناك حاليًا وباء من نبش القبور وسرقة الجثث يجتاح الإسكندرية.. لدينا عدة بلاغات عن الموضوع.. لكن أعتقد أنه لا علاقة له بقصتنا هذه وإنما الشيء بالشيء يذكر..»

ثم نظر لساعته، وقال في حزم:

- «حان الوقت كي نطلب إذن النيابة.. سأوصلك لبيتك هنا ثم نبدأ الإجراءات.. و(ربنا يستر).. إما أن أنال ترقية أو أجد نفسي قد صرت أضحوكة الوزارة..»

ثم أضاف وقد تذكر شيئًا:

- «أعد تربية شاربك.. تبدو لي كمراهق أخرق في الخمسين من عمره.. مراهق أصلع مصاب بالربو وضيق الشرايين التاجية.. صدقني..»

☆ ☆ ☆

8

قلت لسائق سيارة الأجرة:

- «هنا لو سمحت..»

لم أعد قادرًا على استعمال السيارة.. هي مميزة جدًّا بشكلها، ثم إن مقدمتها المهشمة تزيل أية شكوك حول صاحبها..

مشيت بضع خطوات في (سابا باشا) وأنا أنظر إلى القصاصة التي كتبتها الخادمة لي.. بالفعل.. هذا هو (ستوديو هالة) يقف هناك كأن شيئًا لم يكن.. تذكرت قصة متجر العجائب لـ (هـ.ج. ويلز) عندما كان هناك متجر ألعاب سحرية في طريقه لبيته، يظهر أو لا يظهر حسب الظروف.. هنا ما هو أظرف: ستوديو يتحرك.. يمل المكان فيمشي في الإسكندرية باحثًا عن مكان آخر؟

السؤال هنا: هل يراه الجميع أم يراه فقط الباحث عن ستوديو؟ لو كان الجميع يرونه فما موقف مجلس المدينة والسجل التجاري والضرائب من هذا الستوديو الذي يظهر حيثما أراد؟ أم إنِّه يوجد ويوجد لنفسه ماضيًا وأوراقًا ووجودًا حكوميًا معترفًا به؟

إن (المتجر العجيب) له دور بارز في الأدب العالمي.. في قصة ستيفن كنج (أشياء مشتهاة) كان صاحب المحل يحقق أكثر رغباتك الداخلية غرابة وسرية، ولكن مقابل خدمة تسبب مشكلة ما.. السبب طبعًا أن صاحب المتجر كان هو الشيطان!

لكن هذا ليس متجرًا.. مجرد ستوديو تصوير يصور هالات (كيرليان)!

هذا مطمئن!

☆ ☆ ☆

عندما دخلت المحل كان (محفوظ) هناك، وكان يطالع جريدته الدائمة..

هذا هو الامتحان الأهم لشكلي.. هنا أصابني الرعب.. كل من رأوني اندهشوا لغرابة مظهري لكنهم عرفوني برغم كل شيء! إذن ربما كان هذا التنكر لا يخدع أحدًا..

على كل حال صار التراجع مستحيلًا..

رفع الرجل رأسه نحوي فأدركت أنني نجحت على الأرجح وافتعلت اللهجة التي تدربت عليها عدة ساعات:

- «أريد ثورة البطاقة الشخثية..»

أشار إلى غرفة التصوير بالداخل وطوى الجريدة..

هكذا بدأت الطقوس المعتادة.. الغرفة ذات المرآة.. ربما كانت هذه المرآة غير مسقية من الجانب الآخر وكان هناك من يراقبون العميل؟ ربما..

الكاميرا غريبة الشكل.. ثم الاستفزاز.. دائمًا الاستفزاز:

- «لا أعرف سبب ذلك، لكنك تبدو لي رقيعًا!»

لم أنفعل ولم أثر لأني فهمت أنّ هذا جزء من العملية.. يبدو أن هالات (كيرليان) المطلوبة لا تنبعث إلا لدى شخص غاضب لكن تظاهرت بالغضب:

- «لابد أنك مخبول كي تكلمني بهذه الطريقة!»

من جديد الاعتذار التقليدي (لأنّه لا يشعر بنفسه عندما يعمل) ثم الصورة الطبيعية بكاميرا حقيقيّة..

الانتظار في المحل حتى يعود لي.. ثم الموعد غدًا..

- «اسمك وعنوانك ورقم الهاتف لو سمحت..»

- «هل هناك سبب لذلك؟».

- «هناك الكثير من الخلط يحدث بسبب أن فلانًا يأخذ الصور الخاصّة بفلان.. لذا نحرص على هذا النظام..»

كنت قد استعددت لهذا الجزء.. الاسم هو (عزت المنياوي) طبعًا.. رقم الهاتف هو رقم شركة الكهرباء.. العنوان هو عنوان تلك البناية في الإسكندرية التي اتفقت مع بوابها على أن يتسلم أية خطابات تصل باسمي.. هو متشكك فظ لا يسمح للغرباء بالصعود ويشك في كل واحد.. هكذا لن يجد من يحضر الخطاب أو ساعي البريد مفرًا من ترك الخطاب معه.. طبعًا عقدت صفقة مع البواب على أن أدفع له راتبًا كل ثلاثة أيام مقابل هذه الخدمة.. لا أريد أن أحرق عنواني الجديد في الإسكندرية هذه المرّة.. لابد من مكان أستطيع العودة له أو الاختباء فيه متى أردت..

بالطبع كان (عادل) قادرًا على حل مشكلة كهذه بدلًا من الأساليب الملتوية، لكني لا أريد أن أزيد مشاكله تعقيدًا.. دعك من أنّه لم يبد أي اهتمام بموضوع الستوديو هذا.. شعر بأنها هلوسة من هلاوسي المعتادة لا أكثر..

قال لي الرجل:

- «أخبر أصدقاءك عن ستوديو (هالة).. نحن نحاول كسب الزبون الذي أضاعه الآخرون..»

وابتسم لي السيد (محفوظ) ابتسامة دافئة، بينما غادرت المكان وأنا أشعر بنظراته ثابتة على قذالي.. أدعو الله ألا أكون مميزًا لهذه الدرجة من الخلف..

لسبب ما يثير هذا الرجل في نفسي كل المخاوف الكامنة من الأشخاص الودودين أكثر من اللازم..

أعرف ما سيحدث.. سيحتفظ بهذه الابتسامة الدافئة بضع ثوان، ثم ينقلب تعبير وجهه فجأة ليبدو متوحشًا، ويهرع إلى الداخل ليقوم بشيء ما..

هذه هي القاعدة..

☆ ☆ ☆

9

عندما زرت (علي فونية) في المستشفى من جديد، لم يكن مقيدًا في الفراش.. كان في عنبر مزدحم من العنابر المجانية الفاخرة إياها.. فئران.. مواقد كيروسين.. سلال.. أطفال يقضون حاجتهم جوار الفراش.. حتى بائع العرقسوس كان موجودًا يقرع الصنجات مناديًا بضاعته. وكانت جوار (علي) على الفراش ورقة جريدة بها أصناف شتّى من الطعام.. فول.. فلافل.. محشو.. بقايا دجاج.. موز.. أرز مختلط بالفول؛ فأدركت أنه عاد يمارس عمله الأصلي بنشاط..

- «بسم الله..»

فهززت رأسي شاكرًا..

هكذا راح يحكي لي القصة بالتفصيل، وعرفت منه ما حكيته لك.. لقد حفرت القصة في وجدانه بالتفاصيل، لأنني لم أعتد هذه الدقة السردية لدى من هم في طبقته.. لكنه لم يقل قط ماذا كان هؤلاء في القبو يأكلون.. لقد فقد وعيه عند هذه اللحظة، أو لعله نوع من فقدان الذاكرة الهستيري الذي يمحو جزءًا بعينه من ذكرياتك.. جزءًا لا يجسر عقلك الواعي على تحمله.. المرأة ترى السيارة تدهم ابنها فتتذكر كل شيء قبل لحظة الدهم هذه، وتنسى المشهد نفسه الفتاة ترى خطيبها يجلس على النيل مع أختها يتهامسان وفي يد كل منهما وردة حمراء.. عندما تعود لدارها لا تذكر إلا أنها خرجت تمشي على النيل.. ماذا حدث بعد ذلك؟ لا تذكر..

ما الذي رآه حقًّا؟ يمكن أن أتخيّل.. أكره أن أتخيّل..

بشكل ما تتماثل هذه القصة مع القصص الشعبي الغربي، كما وصفه (كراب): البطل يأتي إلى مسكن الغول أثناء غيابه.. تقوم امرأة عطوف بإخفاء البطل وتكون أم المارد أو جدته أو مدبرة منزله أو أسيرة عنده.. فإذا عاد المارد إلى البيت كانت كلماته هي: «في في فو فام.. إنني أشم دماء رجل إنجليزي سواء كان حيًّا أو ميتًا، فلسوف أحمص عظامه لأصنع خبزي!»

هذه الكلمات خالدة لدرجة أنها من أغاني المهد Lullaby الشهيرة لدى أطفال الغرب!

يقال إن هذه الجزئية من القصة تعود لعصور التوحش عندما كانت ملكة الشم أقوى مما هي عليه لدى سكان المدن الحديثة.. من المثير دومًا أن يدخل المارد كهفه فيشم رائحة بشر.. هذا يضاعف لهفة الترقب والانتظار..

ما حدث لهذا الرجل هو تكرار حرفي للقصة.. وكل شيء يدل على أن الفتاة التي أنقذته هي ذاتها من تدعى (غادة).. هل هي ذات سكرتيرة الجمعية التي سمعت اسمها من د. (سامي)؟

على كل حال قد عرفت الكثير، لهذا شكرت الرجل وتركت له حفنة من الأوراق المالية على نفس الجريدة.. فقط آمل ألا يأكلها باعتبارها نوعًا من الطعام..

☆ ☆ ☆

فيما بعد عرفت من (عادل) قصته مع ذلك البيت..

لقد ذهب إلى هناك مع سيارتي شرطة معبأتين بالجنود.. وتقدم الموكب بسيارة المديرية وخلفها سيارة دورية.. كان يستعرض هيبة الدولة كي يثير الرعب في قلوب هؤلاء..

فتح له الخادم الباب ثم ظهر من عرفوا أنه (جمال أبو غصيبة) المستشار القانوني للجمعية ومعه (عدنان شوقي)..

(جمال) - كما وصفه - وسيم أنيق يصلح ممثل سينما، أمّا (عدنان) فرجل مهيب فارع الطول له عينان عميقتان قويتان..

طلب (جمال) إذن التفتيش وتفحصه بعناية ثم سمح لهم بالدخول..

الانطباع الذي حصل عليه (عادل) هو أنهم هادئون جدًّا، ويبدو أنهم كانوا يتوقعون هذه الزيارة.. في الداخل هناك فيلا عادية بها أجزاء مخصصة للسكنى (وماذا عن القبو؟).. لكن القسم الأكبر منها بيدو كأنك انتقلت لمصلحة حكومية.. سكرتارية.. ملفات.. (غادة) سكرتيرة تعني بهذا الكم الهائل من الأوراق التي تحتاج لها الشئون الاجتماعية.. (وماذا عن القبو؟).. محاضر جلسات.. جمعية عموميّة.. جدول أعمال.. إلخ.. المحاسب (عدنان) يتولى الجزء المالي من الموضوع، ويقول إنهم يتلقون بعض التبرعات (وماذا عن القبو؟)..

كل هذا الكلام الفارغ لم يهم (عادل) في شيء.. ما اهتم به هو قاعة الاجتماعات الواسعة.. هناك قابل د. (عامر).. له ذات الطابع المسيطر الموحي بالثقة.. رجل في الخمسين من العمر يبدو أنه رأى العالم فعلًا، ولديه شهادات من عدة جامعات أقلها (كامبردج)..

قال له د. (عامر) باسمًا:

- «مهمتنا هي اكتشاف القدرات التي لا يعرف أصحابها شيئًا عنها.. لو أنك بحثت في جيب البذلة جيدًا فلربما تجد مليون جنيه لكنك لا تعرف.. نحن نعينك على العثور على هذا المليون!»

قال له (عادل) ضاحكًا:

- «زوجتي تتولى هذه المهمة يوميًا وثق أنها لا تجد أي شيء ذي بال.. دعك من أنّه من المستحيل وضع مليون جنيه في جيب بذلة..»

- «فقط أقرب لك المثل.. ربما كنت تحمل في أعماقك قائدًا عسكريًّا محبطًا يرغب في التحرر.. أستاذ جراحة مخ وأعصاب.. ربما كنت داعية دينيًا عظيم الشأن ولا تعرف هذا.. ربما أنت موسيقار لم يجد من يصغي له..»

هنا قاطعت (عادل) صائحًا:

- «والقبو؟»

حكى لي (عادل) أن رجاله كانوا يفتشون الفيلا بحثًا عن أي شيء مريب.. لا يوجد.. (وماذا عن القبو؟).. القبو نفسه عبارة عن قبو.. لا أكثر ولا أقل.. صناديق فارغة.. زجاجات مهشمة.. ثياب عمرها قرون.. لا يوجد أي شيء مريب..

ثم أضاف وهو يتنهد:

- «لا غبار على هؤلاء القوم.. أغبياء ومخابيل ومغفلون صحيح أن القانون لا يحمي المغفلين لكنه كذلك لا يأمر باعتقالهم..»

- «يا سلام! وماذا عن مخبرك الذي اختفى؟»

- «لا أعرف.. لكننا سنجده أو نجد جثته.. لا علاقة لاختفائه بهؤلاء القوم..»

ثم أضاف وهو ينصرف:

- «لا تنس أن تطيل شاربك وتعيد شعرك لحالته.. تبدو مثل مومياء رمسيس الثاني لو لبست الكاسكيت..»

عندما فكرت في الأمر وجدت أن ما لديَّ قوي جدًّا لكنه لا يقنع أية جهة رسمية.. تغيرات في شخصيّة د. (سامي).. ستوديو يمارس تصوير (كيرليان) لانتقاء أعضاء الجمعية.. لص حاول التسلل لغرفتي في البنسيون.. رجلان سألا عني في القاهرة.. قصة غريبة من متسول عجوز..

في الواقع ليس لديَّ أي شيء ذي أهميّة..

(عادل) قد نفض يده من القصة.. وعليّ أن أتصرف وحدي..

☆ ☆ ☆

مررت على عم (عزت) البواب الذي تعهد بأن يتسلم مراسلاتي باعتباري من سكان تلك البناية..

كان جالسًا كالسباع أمام باب البناية وهو يصرخ مهددًا بعض الصبية الذين يلعبون الكرة.. مع رجل كهذا لن يستطيع الشيطان ذاته الدخول للتأكّد مما إذا كنت من سكان البناية أم لا.. لسبب ما يعتبر هذا الرجل نفسه يحرس قاعدة نوويّة..

فما أن رآني حتى التمعت أسنانه الذهبية في ذكاء، ومد يده في جيب الصديري تحت الجلباب ليخرج لي مغلفًا أعرف شكله جيدًا..

قال لي:

- «أصر الرجل على الصعود ليوصله لك، لكني أصررت على أنّ هذا مستحيل.. ها هو ذا..»

- «وكيف كان يبدو الرجل؟»

- «لم ألحظ هذا يا أستاذ (عزت)..»

- «أسمر اللون ضخم الجثة.. يلبس نظارة سوداء؟»

- «لا أعرف..»

هذا هو عهدي بعامة الناس.. أسئلة بسيطة كهذه وبرغم هذا لا يجيبون عنها.. كان الله في عون رجل الشرطة الذي يحقق في أية جريمة.. أذكر أنّ هناك جريمة قتل بشعة حدثت في الثمانينيات ونشرت الصحف صور مرتكبيها حسب وصف الشهود لرسام الشرطة.. كانوا مجموعة من الأجانب شقر الشعور متهدليها على الكتفين كأنهم فريق (بينك فلويد).. العيون ملونة.. أحدهم أعور خلاصة ما استنتجه البوليس - ومعهم حق - أنّ هناك مجموعة إرهابية أجنبيّة تسللت لمصر.. بعد القبض على القتلة رأينا صورهم فإذا هم سمر الوجوه كثو الشوارب.. لا أحد بينهم أعور.. شعرهم خشن مجعد قصير لأنّهم جاءوا من أعماق الصعيد طلبًا للثأر!

أخذت المغلف وفتحته فوجدت ما توقعته:

الأستاذ عزت المنياوي:

يتشرف المحاسب (عدنان شوقي) بدعوتكم للحضور إلى مقر جمعية الباحثين عن الحقيقة، وهي جمعية غير حكومية لا تهدف للربح، وتضم المهتمين بفهم أنفسهم أكثر، وقد اخترنا أفرادها بناء على ما توسمناه فيهم من مكانة اجتماعية وثقافة عالية، وخلفيّة أكاديمية مرموقة. وقد وجدنا أنّ هذه الصفات تنطبق عليكم بشدة..

سوف تجدون ما يهمكم لو شرفتمونا بالحضور إلى ..... الساعة الثامنة مساء في أي يوم..

ابتسمت في سرّي..

عبقري هو د. (مندور) فعلًا..

خلال ثلاث ساعات زودني بهذا الجهاز الذي أكد أنه يرسل طاقة إستاتيكية من حولي.. طاقة لا يراها الآخرون، لكنّها تظهر على الأفلام الفوتوغرافية الملونة على شكل هالة حمراء تحيط بي!

باختصار هو ملف (تسلا) صغير الحجم يوضع في الجيب، وقادر على جعلي أمر بامتحان تصوير (كيرليان) بنجاح تام!

فقط قال لي منذرًا:

- «لا تحاول زيادة الطاقة المنبعثة منه عن طريق العبث في القرص.. هذا قد يؤذي الآخرين ويؤذيك..»

أنا الآن عضو في جمعية الباحثين عن الحقيقة.

أو هل أقول (نادي الغيلان)؟

☆ ☆ ☆

الجزء الثالث:

آخر الأعضاء

كانت تزداد عصبية في البيت، وصارت شخصيّة أخرى أقرب إلى المشاكسة.. صارت قليلة الاستحمام، ولم تعد تعني بشعرها.. أطالت أظافرها حتى اعتاد أبوها أن يصفها في سخرية بأنها (أمنا الغولة).. لا تدري لماذا أحدث هذا الاسم ذعرًا غير مبرر في نفسها..

1

وفي الثامنة مساء الأربعاء اجتاز د. (رفعت) الباب..

وفي الثامنة مساء الأربعاء ولد د. (رفعت) من جديد..

لقد انتهى فصل من حياته ليبدأ آخر..

هكذا سيقول من يكتب قصة حياتي يومًا ما..

لقد فتح لي ذلك الخادم المتعجرف الباب فناولته الدعوة، حتى كدت أقذفها في وجهه قذفًا..

سمح لي بالدخول فدخلت للمرة الأولى إلى قدس الأقداس الذي ظل مصرًّا على طردي من قبل.. وجوه باسمة ضاحكة تقف في انتظاري..

رأيت ثلاثة أحدهم وسيم كممثلي السينما.. وأحدهم فارع الطول له عينان ثاقبتان.. وأحدهم يبدو كأنه رأى العالم.. يجب أن أكون حمارًا لكي لا أعرف أنهم (جمال) المحامي.. و(عدنان) المحاسب.. ود. (عامر) بالترتيب..

صافحتهم في ارتباك وتوتر.. يجب أن أكون متوترًا.. هذا لا شك فيه..

قال لي د. (عامر) في وقار وهو يهز يدي:

- «سرنا أنك قبلت الدعوة.. نحن نعرف أنك ستقبل..»

واقتادني إلى مكتب فاخر جانبي، وهناك كانت فتاة شقراء ذات عينين زرقاوين تكتب أشياء على الآلة الكاتبة.. نظرت لي وابتسمت.. إنني أقابل هنا كالفاتحين..

- «هذه (هيام) سكرتيرة الجمعية..»

تشرفنا يا آنسة (هيام).. ترى هل طردوا (غادة) وجاءوا بك أم أنك تعملين بعض الوقت لا أكثر؟

جلست، فقال (عدنان) في لهفة للسكرتيرة:

- «فلترى ماذا يشرب الأستاذ (عزت)..»

أي أستاذ (عزت)؟ لكني تذكرت من أنا وماذا أفعله هنا فثبت إلى رشدي.. على الكذوب أن يكون ذكورًا سوف أمر بألف لحظة ينادون فيها اسم (عزت) فلا أفطن له إلا متأخرًا:

قلت لها:

- «قهوة مضبوطة لو سمحت..»

وشعرت بندم.. القهوة مشروب فيه نضج وحكمة.. كان عليَّ أن أطلب مشروبًا رقيعًا يتناسب مع تنكري.. إن المياه الغازية أو عصير الفراولة كانتا اختيارًا أفضل..

قال (عدنان) وهو يجلس أمامي:

- «جمعية الباحثين عن الحقيقة هي جمعية مهمتها أن تساعك على اكتشاف ذاتك.. على معرفة طاقاتك الكامنة..»

هنا تدخل د. (عامر):

- «فلسفة الموضوع كله هي أنك تملك قدرات لا تعرفها مخفية تحت غبار الحياة اليومية.. لديك مواهب لا تعرف كنهها.. ما نحاول عمله هو جعلك تجد هذه القدرات.. مهمتنا هي اكتشاف الكنوز التي لا يعرف أصحابها شيئًا عنها.. لو أنك بحثت في جيب البذلة جيدًا فلربما تجد مليون جنيه لكنك لا تعرف.. نحن نعينك على العثور على هذا المليون!»

قلت ضاحكًا ذات التعليق الذي استعمله (عادل):

- «زوجتي تتولى هذه المهمة يومًا وثق أنها لا تجد أي شيء ذي بال..»

ضحك الرجل كأنها أذكى دعابة سمعها في حياته، وقال:

- «فقط أقرب لك المثل.. ربما كنت تحمل في أعماقك قائدًا عسكريًّا محبطًا يرغب في التحرر.. أستاذ جراحة مخ وأعصاب.. ربما كنت داعية دينيًا عظيم الشأن ولا تعرف هذا.. ربما أنت موسيقار لم يجد من يصغي له..»

قلت في غباء:

- «وما هو المطلوب مني؟»

- «لا شيء.. كل ما عليك هو أن تشرفنا بحضور اجتماعاتنا فإن سرك ما تسمع، فأنت منا، وإن لم يسرك فلا مشكلة..»

تساءلت في مزيد من الغباء:

- «هل الأمر يتعلق بتنظيم سرّي؟ لا أريد مشاكل مع الشرطة أو المباحث العامة..»

ضحك وتبادل النظرات مع المحامي، ثم قال:

- «لا شيء من هذا.. على كل حال يُمكنك أن تراجع أوراقنا.. نحن جمعية مشهرة في الشئون الاجتماعية وأوراقنا مراقبة بعناية..»

- «هل يسمح لي باصطحاب زوجتي؟»

قال في شيء من الحرج:

- «في الواقع لا.. الدعوة موجهة لك شخصيًا لأننا نثق في مواهبك.. مع احترامي للمدام نحن لا نعرف عنها أي شيء..»

هنا سمعت صوت (كليك).. الصوت المميز لغالق كاميرا..

نظرت إلى جواري فخيل لي أن الستار يتحرك كأن هناك من كان يقف خلفه..

إنهم أذكياء! لكني أكثر ذكاء.. كنت أتوقع أن يحاولوا التحقق من شخصيتي ومن الهالة التي أبعثها مرّة أخرى.. لهذا أعادوا تصويري خلسة، ولهذا كنت قد وضعت الجهاز في جيبي قبل أن آتي هنا.. من الصعب أن تستطيع نشل حافظة النشال!

قلت في عناد طفولي:

- «أنا لا أذهب لأي مكان من دون زوجتي الحبيبة..»

- «بعد انضمامك يمكن أن نرتب للمدام مقابلة شخصيّة.. اطمئن..»

قلت وأنا أحك شعري:

- «متى تبدأ هذه الجلسات؟»

قال د. (عامر):

- «لهذا حددنا لك موعد الثامنة مساء أي يوم.. من حسن حظك أنّ هناك جلسة تبدأ حالًا..»

☆ ☆ ☆

في في فو فام..

☆ ☆ ☆

كانت الجلسة على الأرض..

مجموعة من الأرائك الأرضية التي تشبه ما يستخدمه الخليجيون فيما يسموّنه (جلسة عربية)، وقد بدا لي الجو مألوفًا بشكل ما..

نباتات ظل تتناثر في كل مكان.. هناك رائحة عطرة مدوخة في الجو، والإضاءة خافتة بشكل يجعلك تتساءل عن سبب إصابتك بالعمى.. أدعو الله ألا يكون هذا الغاز مخدرا.. لكني أستبعد هذا ما دام د. (عامر) ومن معه لا يضعون أقنعة..

على الأرض كانت مجموعة من الناس.. رجال ونساء يجلسون في مجموعات.. لم أر قط مجموعة متباينة بهذا الشكل من قبل نسوة بلغن الخمسين وفتية في السابعة عشرة.. رجال يبدو أنهم من طبقة العمال، وفتيات واضح أنهن من أكثر طبقات الإسكندرية ثراء وترفًا.. شيء واحد يجمع بين هؤلاء هو الهالة الحمراء بالتأكيد..

هناك موسيقا حالمة تأتي من لا مكان.. أعتقد أن السماعات مخبأة في السقف المتحرك..

الخلاصة أن المنظر بدا لي بأتباع إحدى الديانات الغربية الغامضة في أمريكا.. لن أندهش لو ظهر (كورش) أو (لافي) أو (مانسون) نفسه ليأمرنا بقتل أنفسنا من أجل الخلود.. ربما تكرر مشهد طقوس الماء في رواية (غريب في أرض غريبة) الرواية الأشهر لـ (هاينلاين).. و(لتكن شربتك عميقة للأبد يا أخانا المائي)..

وقف د. (عامر) أمام الجالسين.. كان بالبذلة الأنيقة العادية ولا يلتف بملاءة أو يلبس ثيابًا تليق بـ (كبير الكهنة)..

قال للجالسين وهو يشير لي:

- «فلنرحب بضيفنا الجديد.. أستاذ (عزت المنياوي)..»

هنا ردّد الجميع بصوت واحد:

- «إنّه منا.. إنّه لنا..»

حييتهم بهزة رأس وأنا أتساءل عن معنى (إنّه لنا) هذه عندما يقول لك آكل لحوم البشر إنّه (سيراك على مائدة العشاء) فأنت لا تستطيع تقبل كلماته بالارتياح المطلوب..

كان هناك مكان فارغ ما بين فتاة حسناء من عينة (بابي) ورجل فظ يبدو كأنه مصارع متقاعد.. فجلست..

نظرت لي الفتاة وسألتني همسًا:

- «هل هي أول مرة لك؟»

- «نعم.. ما دمت لم تريني من قبل..»

- «هناك الكثير منا.. لسنا جميعًا موجودين هنا والآن..»

هنا قال الرجل الفظ شيئًا على غرار (اخرسا) لأن د. (عامر) عاد يتكلم:

- «لأن التجربة شاقة ومثيرة فإنني أقول لكم إنكم لن تتذكروا أي شيء عنها في البدايات.. بعد هذا يمكنكم تذكر كل شيء بوعي كامل..»

ذلك النور الوهاج من خلفه يتألق ثم يخبو.. يتألق ثم يخبو يتألق ثم يخبو..

لو كان عندي استعداد للصرع.. لو كانت تلك البقعة الكهربية في عقلي نشطة، لداهمتني النوبة الآن.. لا شيء مثل الضوء المتقطع لبدء نوبات الصرع.. كل هذا من أجل التنويم المغناطيسي الجماعي..

تمر فتاة حسناء كالحلم - أو ربما الإضاءة الخافتة جعلتها أجمل - حاملة زجاجة وأكوابًا ورقية.. وتصب مشروبًا للجالسين..

ملأت لي كوبًا وضحكت ضحكة مشرقة، ثم انصرفت..

رآني د. (عامر) بطرف عينه أطيل التحديق في الكوب، فقال:

- «نحن لا نوزع خمورًا.. فلا يخشين أحدكم أو تكن عنده تحفظات دينيّة.. إن هذا الإكسير يساعد على التأمل، وهو مكون من أعشاب طبيعية..»

هذا الرجل لا تفوته فائتة، وهي صفات المحاضر الجيد على كل حال..

لكني لن أشرب هذا الشيء..

هكذا انتظرت اللحظة المناسبة التي خفت فيها الضوء وسكبت الكوب في إصيص نبات الزينة الذي وجدته خلفي، ثم رفعت الكوب إلى شفتي متلمظًا..

فعلًا توقفت عينا د. (عامر) النفاذتان عليَّ ربع ثانية للتأكّد من أنني شربت.. ثم عاد يواصل كلامه:

- «كل واحد منكم يحمل نوازع دفينة.. أنت تنكرها لكننا نعرف أنها عندك.. هناك بركان داخلك ينتظر الخروج، ونحن سنساعد هذا البركان!»

ثم اتجه إلى فتي نحيل مذعور يجلس في مواجهتي، وسأله:

- «أنت.. ماذا تتوق إليه؟»

قال الفتى مرتبكًا:

- «أتوق إلى أن أكون مهندسًا و.»

- «تكلّم أيها الجبان! ليس هناك من سيحاسبك على ما ستقول!»

ثم نظر لنا في حدة، وهتف:

- «المشكلة هي الرقابة الصارمة التي تفرضونها على وجدانكم حتى وأنت وحدك لا تجسر على الاعتراف.. حتى وأنت هنا مدعو إلى أن تطلق سراح نزعاتك الكامنة لا تجسر على الاعتراف.. متى تعترف إذن؟ في ساعة الحساب؟»

قال الفتى:

- «وددت لو برعت في لعبة الشطرنـ..»

- «تكلّم!»

- «ربما كرة القدم..»

- «تكلّم أيها الرعديد!»

واعتصر الفتى من ياقة قميصه، وأمام عيني المذهولتين وجه له صفعتين، فصرخ الفتى:

- «أريد أن أكون وحشًا وأن أقتل كل من يسخر مني!»

- «أحسنت!»

وأطلق سراحه.. فتنفس الفتى الصعداء..

قال د. (عامر) وقد استعاد هدوءه بعد هذا الأداء المتصاعد (كريشندو):

- «أنت وحش.. سنعلمك أن تكون وحشًا.. ولسوف تفعل ما تريد..»

ثم أشار لرأسه، وقال:

- «كل منكم يخفى أسرارًا شنيعة هنا.. ونحن نساعدكم بالتدريج على إطلاق هذه الأسرار..»

ثم مشى نحوي وأشار لي في حدة (كأنه يقول إن أوان المجاملات والمزاح قد انتهى):

- «وأنت؟!»

لا أريد أن يجذب ياقتي ويصرخ في وجهي؛ لذا قلت بصوت مبحوح خائف:

- «أريد أن أكون مجرمًا مرعبًا يرتجف الناس لدى سماع اسمه! أريد أن أكون..»

ونظرت في عينيه وأنا أضغط على الكلمة الأخيرة:

- «أريد أن أكون غولًا!»

للحظة لمعت عينه، ثم قال ضاحكًا:

- «ستكون كما أردت.. الحقيقة أن اختباراتنا وتحرياتنا دلتنا على أنك تملك طاقات هائلة.. طاقات لم تتح لأحد من الجالسين هنا، وإنني لأرشحك كي تكون مساعد نائب رئيس مجلس إدارة الجمعية! بعبارة أخرى سوف نؤهلك لتكون النائب يومًا!»

قلت لنفسي: بارع هو د. (مندور).. لم يقتصد في الكهرباء الإستاتيكية المنبعثة مني، وهذا أقنع هؤلاء القوم أنني موهبة دفينة فعلًا.. واضح أنني أهم عضو في الجمعية الآن.. الجمعية التي لا أعرف هدفها بالضبط ولا المقصود منها. فقط أعرف شيئًا واحدًا..

أنا سأكون العضو الأخير..

☆ ☆ ☆

دامت الجلسة نحو ساعة..

لم يتغير الكثير.. وبدا لي أنها بالفعل نوع من العلاج النفسي الجماعي.. أنت تخرج من أعماقك أسود شيء كنت تخشي الاعتراف به حتى لنفسك.. هناك سمعت اعترافات لا أجرؤ على كتابتها على الورق.. لكن هذا مفيد قطعًا.. إنّه نوع من التطهير لا شك فيه..

إذن أين يوجد الخطأ؟

عادت الإضاءة تتحسن فبدأنا نرى بعضنا من جديد بوضوح هذه المرّة.. وأدركت أن الجلسة انتهت وأن موعدنا التالي هو يوم السبت..

نهضت متثاقل الأطراف.. كأن ردفي صار جزءًا من الأريكة..

هنا شعرت بمن يلمس كتفي في رفق، ويصيح:

- «أنت هنا يا (رفعت)؟ لم أتبين وجهك جيدًا بسبب الإضاءة!»

لماذا رسمت هذه الخُطة برمتها ونسيت وجود د. (سامي)؟!!

☆ ☆ ☆

2

كان - ذلك الأحمق - سعيدًا جدًّا، كما يفعل ممثلو الأفلام الدينية القديمة عندما يكتشف أحدهم إيمان الآخر، أو أفلام الثورة عندما يصارح الآخر صديقه: أنا من الضباط الأحرار يا (علاء)!

إنه يعرف تنكري ولم ينخدع لحظة..

قلت له همسًا وبسرعة:

- «اسمع.. اسمى هنا ليس (رفعت) بل (عزت).. الأستاذ (عزت).. هناك أسباب يطول شرحها! لا أريد أن يقترن اسمي بهذا الموضوع قبل أن أرتاح لهؤلاء..»

أعرف أنه سيفضحني في أول فرصة.. هذا لا شك فيه.. هو لم يعد منا بل صار منهم.. لم يعد رجلنا بل هو رجلهم..

قال ضاحكًا وقد استعاد طبيعته المرحة القديمة:

- «فهمت.. ما زلت متشككًا.. لكنك زرت الستوديو مثلي والتقطوا لك صورة وعرفوا موهبتك!»

إذن هذا الجزء صار معروفًا لهم جميعًا. لذا هززت رأسي وتظاهرت بأنني محرج أكثر مني خائفًا..

هنا ظهر د. (عامر) وقد أشرق وجهه، وقال:

- «أرى أنكما متعارفان.. جميل.. جميل! والآن هلا سمحت لي يا د. (سامي)؟ أريد الاختلاء بالأستاذ (عزت) قليلًا..»

ثم صاح في جموع أعضاء النادي الراحلين:

- «تذكروا يا شباب أنكم لن تتذكروا! فور عودتكم لبيوتكم ستكون ذكرى هذه الجلسة قد محيت، لكن لا تقلقوا.. سوف تلمسون تغيرًا ملحوظًا نحو الأفضل في سلوككم وحياتكم..»

لا بأس.. لقد تدخل مجيئه في إنقاذي.. ترى هل ينسى د. (سامي) أنه قابلني هنا؟

وشعرت به يقتادني من ذراعي إلى غرفة جانبية..

لم أدر ما يجب عمله كي أتظاهر بأنني تحت تأثير ذلك الشراب.. من الواضح أنه لا يخدر الحواس ولا يثقل اللسان.. الحل هو أن أشتري ولا أبيع.. سأكتفي بالإصغاء..

كانت غرفة مكتب أنيقة صغيرة الحجم.. ستائر حمراء من الطراز الذي يخفى المتلصصين، ومكتبة صغيرة بها بعض الكتب النفسية.. هناك تلفزيون صغير معلق وجهاز (هاي فاي) يصلح لتشغيل شرائط الكاسيت أو الأسطوانات..

هناك أريكة من جلد أسود، وهناك صورة عملاقة تمثل رجلًا أجنبيًا مخيف النظرات.. طابع الصورة الحبيبي وألوانها (بني أصفر)، وربطة عنق الرجل التي تحيط بالياقة بالكامل.. كل هذه كانت علامات على أن الصورة تمت للقرن التاسع عشر أو أوائل القرن العشرين..

هناك صورة أخرى لامرأة أجنبيّة لها ذات الطابع القديم.. وصورة لرجل عسكري مصري يقف على شاربيه صقران ويضع الطربوش.. لو كان أكثر بدانة لصلح أن يكون (عرابي)..

قال لي وهو يضع ذقنه على قبضته ويرمقني بنظرات ثاقبة:

- «هل أنت راض عن الوضع هنا؟»

قلت في فتور:

- «لا أدري..»

نهض وأشار إلى صورة الرجل العملاقة، وقال:

- «هذا هو لورد (إيمري).. توفي عام 1891..»

جميل جدًّا.. لكن لابد أنّ هناك من مات عام 1891 فليس الأمر بالخبر المهم إلى هذا الحد..

ثم أشار إلى صورة المرأة، وأردف:

- «(هيلين هوجزورث).. ابنة أخيه..»

قلت في ذكاء:

- «إذن هو عمها..»

- «بالضبط..»

ثم أشعل سيجارًا غليظًا وقال وهو يتأمل طرفه المشتعل:

- «أنت لا تعرف حقيقة الصور التي التقطناها لك.. لقد وجدنا أن هالة مريعة تحيط بك.. هالة لم نر مثيلًا لقوتها منذ زمن سحيق.. أنت تخفي تحت جلدك شيطانًا لكنك لا تعرف هذا.. ربما أنت أكثرنا شرًا.. لهذا استحققت أن آتي بك هنا لأشرح لك ما استغلق عليك، وأنا أعرف أنك ستنساه عندما تخرج، لكن لا شيء ينسى في العقل الباطن.. ستظل كلماتي هناك تحركك وتجعلك تعرف من أنت..

«كان اللورد (إيمري) وحشًا آدميًا مارس كل الرذائل لا يوجد وحل لم يتمرغ فيه ولا توجد عقيدة لم يخرقها، إلا أنه أدرك أن أجله قد دنا فقرر أن يعهد للأحياء باستكمال ما بدأه.. وكان أسلوبه هو التهديد.. يُقال إن روحه الغاضبة كانت تلاحق من لم ينفذ وصيته من الورثة.. لا أعرف حقًّا مدى صحة هذا على كل حال هناك ثلاثة من ورثته لقوا حتفهم في ظروف غامضة مريعة، بينما عاشت (هيلين).. عاشت وفرت إلى مصر..»

وأشار إلى صورة السيدة.. ثم واصل الكلام:

- «في مصر أقامت في الإسكندرية، وتزوجت من ضابط يدعي (منصور) وأنجبت أربعة أطفال.. أحدهم صار جدي وجد (عدنان) وجد (جمال)..»

كانت هذه معلومة جديدة فعلًا.. إذن فهؤلاء الثلاثة أقارب.. وجدتهم الكبرى هي ابنة أخي ذلك اللورد المجنون (إيمري).. ولكن ما معنى هذا كله؟ ما وصية لورد (إيمري) هذه؟

☆ ☆ ☆

في في فو فام..

☆ ☆ ☆

قال (عامر):

- «هناك بركان تحت جلد كل واحد من هؤلاء الذين يحضرون اجتماعاتنا.. ما أراده لورد (إيمري) هو أن يحرر كل إنسان بركانه الخاص.. من الغريب أن يعرف المرء أنّ هناك غولًا تحت جلده، لكننا نخبره بهذا ونساعده على تحرير هذا الغول..»

لم أجرؤ على أن أسأل السؤال المهم:

- «لماذا؟»

لكنه وفر على مئونة هذا السؤال عندما قال:

- «كل خطوة تقربنا للطبيعة أكثر هي خطوة صحية.. هذا مارآه جدي الأكبر.. مثلًا اعتقد جدي من دراساته المتعددة أن كل الأجناس البشريّة مارست (الكانيبالزم) - أكل لحم نفس النوع - في وقت من الأوقات..»

ارتجفت لسماع الكلمة.. كنت أتوقع شيئًا كهذا.. يعلم الله أنني توقعت شيئًا كهذا..

واصل د. (عامر) الكلام وقد اتخذ طابع المحاضر:

- «كانت فكرة جدي هي إقامة جمعية سرية لكل من يرغب في ممارسة هذا الطقس.. بعبارة أخرى: تكوين ناد للغيلان.. بالطبع لم يكن يملك الإمكانيات اللازمة لهذا.. أعني بالإمكانيات العلاقات الاجتماعية، فقد كان الكل يهابه ويكرهه، لهذا ألقى بهذه المهمة على عاتق الورثة، وطلب من كل واحد منهم أن يذهب لركن من أركان الإمبراطورية البريطانية، ويكون ناديه الخاص.. لم ينفذ أي واحد هذا الطلب، ما عدا جدّتي التي أفزعها موت الآخرين، وكانت مهمتها أن تنشئ هذا النادي في مصر.. جربت محاولات محدودة، وكانت نتيجة هذا أن مات زوجها الضابط المصري من الرعب عندما عرف ما تمارسه زوجته سرًا.. من ثم قررت أن تعدل عن هذه المهمة وتنقل الوصية لأولادها فشل هؤلاء كذلك، وظلت رغبة اللورد معلقة للأبد ينقلها جيل لآخر.. إلى أن جاء جيلنا ومعنا طريقتنا العلمية وأسلوبنا المنظم، وطريقة انتقاء هالات (كيرليان) التي طورتها أنا.. وهكذا ولد نادي الغيلان كما أراده جدي حقًّا..

«الكانيبالزم!»

«هذا الطقس القديم يداعب أكبر مخاوفنا النفسية الكامنة في مؤخرة وعينا: الخوف من أن نؤكل، لكن له بعض المتحمسين المخلصين، لدرجة أن مفكرًا مكسيكيًا اسمه (ريفيرا) كتب يقول: حينما تصل الحضارة إلى مستوى معين وتتحرر من كل التابوهات والخرافات الحالية، فلسوف يُسمح بالكانيبالزم بشكل قانوني!

«كلمة Cannibalism أي (أكل لحم الجنس ذاته) مشتقة من لفظة (كاريب) الأسبانية التي تصف قبائل (الأنتيل).. لقد مورس أكل لحم البشر عبر التاريخ في خمس حالات لا غير:

1 - أثناء المجاعات..

2 - في المدن المحاصرة..

3 - بسبب التعود.. إن بعض البدائيين كانوا يحبون مذاق هذا اللحم بالذات..

4 - كنوع من المبالغة السادية في إيذاء العدو.. أغلب حروب القبائل في أفريقيا شهدت حوادث (كانيبالزم) حتى في عصرنا هذا..

5 - وأحيانًا مورس كنوع من العلاج.. إن التهام عدوك ينقل لك قدراته كما يعتقدون.

«من الغريب أننا جميعًا نمت بصلة قربى لأجداد كانوا يمارسون هذا الطقس. بعض الجينات التي وجدها العلم في خلايانا لا تفسير لوجودها إلا حمايتنا من تبعات هذا النشاط المرعب.. لقد وجد الأثريون عظامًا بشريّة في أوعية طهي عمرها نصف مليون عام في الصين. من الأسماء

المهمة كذلك في تاريخ هذا الطقس قبائل (أناسازي) في أمريكا الشماليّة، والأزتك وجزر (فيجي).. ويقال إن كابتن (جيمس كوك) الذي قتله سكان (هاواي)، قد تم التهامه..

«لو راجعت كتابات د. (جمال حمدان) لوجدت أنّ هذا النشاط مورس في مصر في أوقات جفاف النيل، وكيف أن جثث اللصوص المشنوقين كانت تصير هياكل عظمية خلال الليل على الأقل انتهت معلومات لورد (إيمري) عن الموضوع عند هذا الحد لأنّه مات..

«يبدو لي أن أكثر قصص أكل لحوم البشر بعد ذلك مختلقة هناك إشاعات قيلت عن السوفييت أثناء حصار (لينجراد) في الحرب العالمية الثانية.. وهناك إشاعات قيلت عن الصينيين أثناء المجاعة والثورة الثقافية. ومن الواضح أنها جزء من الحرب الثقافية ضدّ الشيوعية. لكن هناك محاكمة شهيرة في أمريكا لبعض الجنود اليابانيين الذين التهموا طيارين أمريكيين أثناء الحرب، وقد أدين خمسة منهم وأعدموا فعلًا..

«هناك شواهد مؤكدة - وإن كانت نادرة - عن أكل لحم البشر في العصر الحديث. مثلًا قصة جماعة (دونر) الشهيرة عام 1846.. كانوا مجموعة تتكون من 87 من المهاجرين الأمريكيين سافروا للغرب نحو (كاليفورنيا)، لكن الجليد احتجزهم في (أوتاه).. مات أربعة وهكذا وجد الباقون أن عليهم التهام اللحم البشري في البداية أجروا قرعة لكنهم لم يجدوا الشجاعة لتنفيذ ما أملته هذه.. فكروا في أكل الأدلّة الهنود (هذا نموذج واضح لرقة المشاعر الغربية) لكن هؤلاء فضلوا الفرار وسط الثلوج.. هكذا اضطر البؤساء لأكل من ماتوا منهم.. بعضهم فضل الانتحار وبعضهم جن.. ولم ينج إلا نصفهم في يناير 1847..

«ثمّة تقارير دقيقة عن التهام الخمير الحمر الكمبوديون لأعدائهم في الستينيات، وقد تم إعدام بعض الجنود الذين مارسوا هذا العمل..

«هناك آكل لحم بشر مشهور في الولايات المتحدة اسمه (إد جين)، ومن عباءته خرج قاتل فيلم (سايكو)[1].. لاحظ أن أكل لحوم البشر لا يعتبر جريمة في الولايات المتحدة.. إن خيال المشرع لم يصل لهذه الدرجة.. المرّات التي حوكم فيها أكلة لحوم بشر، أعدموا بتهمة القتل لا أكل لحوم البشر..

«هناك كذلك الطالب الياباني (ساجاوا) الذي التهم صديقته الهولندية وهما يدرسان في (السوربون).. واستطاع أبوه الثري أن ينقذه لأنّه أثبت أنه مخبول.. اليوم هذا الطالب مؤلف شهير له مراجع مهمّة عن هذا الموضوع.

«منذ أعوام.. بالتحديد عام 1972.. سقطت طائرة تقل فريقًا رياضيًا من (أوروجواي) في جبال الأنديز.. واضطر الناجون لالتهام من ماتوا.. وقد تم إنقاذهم بعد شهرين.. هذه قصة شهيرة جدًّا كتبت عنها عدة كتب..»

انتهى الكلام وساد صمت رهيب..

في النهاية قال لي وهو يساعدني على النهوض:

- «يكفينا هذا اليوم.. سوف تنسى كل شيء، لكنك في المرّة القادمة سوف تعرف ما هو أكثر..»

☆ ☆ ☆

3

اعتادت (غادة) منظر تلك العربة السوداء (الفان) التي تصل للفيلا تحت جنح الظلام..

في الليالي التي تتأخر فيها، كانت تراها هناك في الساحة الخلفيّة.. مظلمة الأنوار مريبة.. وقبل ظهورها كان كثيرون يتفقدون المنطقة للتأكّد من أنّه لا يوجد أحد يراقب..

تُفتح العربة، ويتعاون عدة رجال على إخراج شيء ما.. يحملونه بسرعة إلى القبو، ثم لا تعرف ماذا حدث له..

لم تكن (غادة) تعرف الكثير في الواقع.. كانت سكرتيرة الجمعية، لكنّها لم تكن تتعامل إلا مع أوراق رسمية مملة.. الجمعية العموميّة.. مجلس الإدارة.. أمين الصندوق.. محضر الاجتماع.. إلخ..

لكنها بدأت تكون فكرة ما عما يدور في هذا المكان.. فكرة مبهمة غامضة لكنّها مفزعة.. فقط كانت تحاول جاهدة ألا تعرف الحقيقة.. ألا تصل أفكارها إلى الفهم التام..

أحيانا كانت تضطر إلى العودة في الليل.. وبالطبع لم تكن هناك مشكلة لأن سيارة (جمال أبو غصيبة) كانت توصلها.. يقودها سائق مسن صموت هو عم (مصطفى)..

لكنها كانت ترى تلك الكلاب الغريبة الضخمة تركض متواثبة عن بعد، وهي تطلق تلك الضحكة الغريبة المرجفة.. أغرب كلاب رأتها في حياتها.. هي شيء يقف بين الأسود والكلاب.. وكانت (غادة) تنظر لها عبر الزجاج المغلق البارد وترتجف لفكرة أن تضطر إلى المشي بينها.

قال لها السائق العجوز:

- «ضباع..»

ثم لم يزد كلمة واحدة.. ضباع في العجمي؟ من سمع عن هذا الهراء من قبل..؟

لكنها كانت قد اعتادت حدوث أمور غريبة منذ جاءت هنا..

☆ ☆ ☆

عندما عاد (جمال أبو غصيبة) للشركة التي كانت تعمل فيها، كانت قد اتخذت قرارها..

سألته عن عملها.. السكرتارية فقط ولا شيء آخر.. ثم قبلت العرض السخي.. راتب يفوق راتبها هنا خمس مرات، وشاب وسيم يزعم أنه معجب بها.. سيارة توصلها لدارها وتعود بها..

فقط في اليوم الأول ذهب أبوها معها، وقابل د. (عامر) و(عدنان).. وكانت جلسة ناجحة جدًّا.. اتضح أن لهم معارف مشتركين، وعرف الأب أن (جمال) سيسدي له خدمات جمة في قضية أرض البدرشين المتنازع عليها.. هناك صلة قرابة بعيدة مع (عامر).. هذا هو ما قالوه على كل حال..

في النهاية تم تبادل أرقام الهاتف مع الكثير من:

- «ابنتك هي ابنتي.. ثق في هذا..»

و...

- «سيماهم في وجوههم.. أنتم أولاد ناس.. لن أقلق عليها وهي مع جمعية محترمة مثل هذه..»

عندما عاد بها إلى الدار قال لها إن الفرصة لا تتكرر مرّتين..

قالت له في وهن إنها غير مستريحة.. لقد اعتادت أن تكون الحياة قاسية عليها.. عندما ترفق بها الحياة بهذا الشكل، فلابد أنّ هناك خدعة ما..

لكن الأب أصدر قراره النهائي بشكل لا رجعة فيه:

- «سوف تعملين في تلك الجمعية..»

هكذا كان.. يومًا ما سوف يصدر لها الأمر بأن تتزوج فلانا ولسوف تفعل.. ولسوف يأمرها بأن تنجب فتنجب.. وسوف يأمرها بأن ترضع أطفالها فترضعهم.. على الأرجح سيأمر زوجها كذلك لأن شخصيّة أبيها كاسحة..

كان العمل سهلًا مريحًا.. بالواقع بدأت تتساءل عن سبب حاجتهم إلى سكرتيرة أصلًا.. أمّا عن (جمال) المعجب فقد كان مهذبًا رقيقًا، لكنه كف عن أن يبدي إعجابه.. كان يعاملها بشكل رسمي تمامًا، حتى تساءلت إن كانت سمعت ما قاله بوضوح.. لقد خيل لها أنه طلب يدها في ذلك اليوم.. وقد شعرت بشيء من الإهانة لإنه لم يكرر العرض أو يحاول مغازلتها لتصده في غلظة.. هناك قصة شهيرة لـ (تشيكوف) يركب فيها الفتى الزحافة على الجليد مع الفتاة.. فإذا أسرعت الزحافة وتعالى صفير الهواء، همس الفتى في أذنها (أحبك!)..

تنزل الزحافة فتسأله الفتاة عما قاله، فينكر بشدة أنه فتح فمه أصلًا.. هذا تأثير الريح لا أكثر.. يجن جنون الفتاة وتصمم على إعادة المحاولة.. ومن جديد يتكرر الموقف و(أحبك!).. وهكذا..

لو أن رجلًا أراد أن يدفع امرأة للجنون فليتصرف بهذه الطريقة..

وفي النهاية فقدت التحكم في أعصابها وكبريائها، وسألته في حدة حينما لم يكن هناك أحد في المكتب:

- «ماذا عن العرض الذي قدمته لي في تلك الشركة؟»

كما توقعت سألها في تهذيب:

- «أي عرض؟»

- «عرض الزواج..»

هزّ رأسه كأنما تذكر شيئًا مهمًا.. ثم قال:

- «يا صغيرتي نحن اتفقنا على أن تجربيني شهرين.. لا تتخذي أي قرار قبل مرور الشهرين..»

ثم حياها وانصرف..

هنا بدأت تدرك الحقيقة.. على الأرجح هم كانوا بحاجة إلى سكرتيرة لا أكثر.. لم يكن موضوع الزوجة هذا سوى حيلة لإدارة رأسها..

لا مشكلة هنالك.. فالعمل مريح ومجز.. لكن السؤال المهم يبرز من جديد: من قال إنها أبرع سكرتيرة في العالم؟ كان بوسعهم أن يجدوا سكرتيرة عالية الكفاءة بنصف هذا الأجر..

ليس غرضهم غير أخلاقي.. لو كان الأمر كذلك لعرفت بعد كل هذا الوقت، وهي ليست (مارلين مونرو) على كل حال.. يمكنهم أن يجدوا من هي أجمل بمراحل بربع هذا الراتب..

(غادة) حائرة.. كل هذا الحظ الحسن يتعسها ولا يسعدها.. إنها عادة المرأة في التهام نفسها حتى الأذنين حتى إذا كانت سعيدة..

فقط لو استطاعت أن تفهم!

☆ ☆ ☆

حضرت (غادة) العديد من تلك الاجتماعات التي تدور في الفيلا..

شربت الإكسير مثلهم، ونسيت كما نسوا.. لكنّها ظلت بحكم عملها تملك تلك الحكمة الكئيبة لمن يعرف ما هو أكثر..

هناك أشياء رهيبة تدور في هذه الفيلا في ساعات الليل، عندما لا تكون هناك.. عندما يحملها عم (مصطفى) إلى دارها..

استنتجت هذا، وقد نزلت إلى القبو عدة مرات فلم تجد شيئًا غريبًا.. نفس الفوضى والأثاث القديم.. لكنّها بحاسة الأنثى عرفت أن ما يحدث يحدث هنا..

كانت تزداد عصبية في البيت، وصارت شخصيّة أخرى أقرب إلى المشاكسة.. صارت قليلة الاستحمام، ولم تعد تعني بشعرها.. أطالت أظافرها حتى اعتاد أبوها أن يصفها في سخرية بأنها (أمنًا الغولة).. لا تدري لماذا أحدث هذا الاسم ذعرًا غير مبرر في نفسها..

لماذا صارت تحب أكل اللحم..؟

ذات ليلة وجدت أنها قد فتحت الثلاجة، وراحت بالسكين تحاول تمزيق شريحة من اللحم المجمد.. بالواقع كانت (تنشرها) نشرًا ولا تقطعها لأنها لا تستطيع الانتظار حتى تذوب.. كانت عملية قاسية جمدت أظافرها وجعلت الدم يسيل على أناملها.. في النهاية نجحت في أن تستخرج شريحة صغيرة رفيعة مجمدة.. حملتها إلى الموقد وراحت تشويها.. طريقة غريبة للطهي لأن قطعة اللحم احترقت في طبقاتها السطحية وظلت نيئة في قلبها.. برغم هذا أكلتها.. وفي الصباح تساءل الجميع عن سبب هذا التصرف الأخرق، ولامها أبوها لأن الطبقة الوسطى تعتبر اللحم من التابوهات.. لا يجب المساس بنصيب الأسرة بأي شكل..

في مرّة أخرى كانت تلعب مع (عزة) أختها.. مالت (عزة) عليها مداعبة، هنا وجدت أن كتف الفتاة العاري أمام فمها.. لا تعرف السبب لكن رغبة عارمة دفعتها إلى أن تعض هذه الكتف بأعنف ما استطاعت، وكانت صرخة الفتاة كفيلة بإيقاظ الموتى..

- «أنت مجنونة! مجنونة تمامًا!!»

لكنّها لم تجد الأمر سيئًا لهذا الحد.. بالواقع أراح شيئًا ما في نفسها..

- «ماذا أصابك أيتها المخبولة كي تعضي أختك بهذا الغل؟»

هي نفسها لم تعرف سبب هذا.. صارت أميل إلى العزلة لا تتبادل كلمة مع أحد حتى يأتي موعد العمل صباحًا، وتسمع كلاكس السيارة تحت نافذتها..

كانت متأكدة من أنّ هناك من يتجسس على الجمعية.. لقد اكتشفت اختفاء عدة ملفات من ملفاتها ثم ظهورها بعد يومين بلا تفسير..

أخبرت (عدنان) بهذا لتثبت أنها دقيقة تلاحظ كل شيء، لكنه راح يفكر في الأمر بعمق.. ثم إنّه طلب من أعضاء الجمعية واحدًا تلو الآخر أن يقابله في مكتبه.. حتى هي وجدت نفسها جالسة على المقعد أمامه تجيب عن أسئلة تافهة لا علاقة لها بالموضوع.. وسمعت غالق كاميرا يفتح ويغلق

أثناء جلوسها.. كانت تدرك أن للتصوير دورًا ما في انتقاء أعضاء الجمعية.. كلهم مروا بخبرة التقاط صورة مع هذا السيد (محفوظ)..

على كل حال سمعت جلبة وصراخًا.. كان أحد الأعضاء الجدد يجتمع بـ (عدنان) في المكتب.. بعد هذا لم تسمع أي شيء ولم تعرف شيئًا..

فقط سألت (عدنان) عن هذا العضو وكان يدعى (أحمد جودت)..

وقال لها بلا مبالاة:

- «لقد ترك الجمعية.. يُمكنك شطب اسمه من الأعضاء..»

لسبب ما شعرت بأن هذا كان اختبار ولاء.. ومن الواضح أن (أحمد جودت) قد فشل فيه والحقيقة التي لم ترَ لها معنى ما، هي أن عددًا لا بأس به من أعضاء الجمعية كانوا يشطبون بشكل دوري..

ما معنى هذا؟

☆ ☆ ☆

4

كعادتها انتظرت حتى ساد الفيلا الهدوء قرب المساء، ثم نزلت إلى القبو بحثًا عن شيء مريب.. شيء يفسر لها ما يحدث..

أضاءت المصباح الكهربي الواهن ومشت بين المخلفات..

هنا لا توجد فئران.. على قدر علمها هو القبو الوحيد في العالم الخالي من الفئران.. هذا مريح لها كأنثى لكنه غريب كذلك..

هنا زجاجات فارغة.. كتب قديمة.. أثاث بال.. صناديق فارغة.. مصيدة فئران لا لزوم لها..

ثم وجدت ذلك النائم جوار الجدار..

نحن نعرف قصة (غادة) مع (علي فونية) وكيف دارته عن الأعين.. الحقيقة أنها لم تكن تعرف بالضبط ما تخشاه لكنّها تخشاه كثيرًا جدًّا..

هذا رجل بائس يجهل كل شيء.. ربما كانت أفضل خدمة تقدمها له هي أن تتركه يموت، لكنّها لم تكن تملك طبعًا القدرة على اتخاذ قرار كهذا..

في مكان ما من الفيلا تعرف أن اجتماعًا ينعقد.. هي حضرت هذه الاجتماعات كثيرة جدًّا وتعرف الطقوس.. لكنّها تعرف كذلك أن عليها الانصراف الآن..

هكذا دارت الرجل وتركته في رعاية الله، ثم لحقت بالسيارة الواقفة أمام الباب..

ليتها تعرف حقًّا ما يدور في القبو بعد رحيلها..

☆ ☆ ☆

في الصباح كان أول ما فعلته عندما تأكدت من أن أحدًا لا يراقبها أن نزلت إلى القبو..

كما رأينا ساعدته على الفرار و:

- «هيا يا أحمق! هل نمت؟ كيف نمت؟ كيف استطعت؟»

تعينه على تسلق حافة الباب ليخرج وتردد بلا انقطاع:

- «هلمّ! اخرج! لا تعد هنا ثانية أبدًا!»

لم يكن بحاجة إلى أية تعليمات وهو يتواثب في خفة عبر الحديقة.. خفة لا تتناسب مع سنواته الستين..

تصيح به من الفتحة:

- «لا تحك ما رأيت فلن يصدقك أحد!!»

ثم استدارت لترجع..

هنا اصطدم رأسها بصدر (جمال) المحامي الواقف وراءها!

☆ ☆ ☆

للمرة الأولى ترى هذا التعبير على وجه (جمال).. لم يكن هذا التعبير بشريًا.. لم يكن الرجل بشريًا على الإطلاق.. هذا هو التفسير الوحيد لكل هذا الشر المرتسم على وجهه.. لقد ارتفع حاجباه ليصيرا في مستوي خط شعره الأمامي.. ولا شك أنهما كانتا تشعان نورًا مخيفًا..

يضغط على أسنانه شديدة البياض كأنه وحش ما..

لكنه لم يفعل شيئًا.. لم يقل شيئًا..

فقط جرى خارج القبو، وهو يصيح:

- «(عصمت)! فتشوا الحديقة!»

هرعت إلى الخارج وهي تدرك أنها ارتكبت خطأ شنيعًا سوف تعاقب.. تعرف أنها سوف تعاقب.. فقط دعهم يكتفوا بطردي يا رب.. ربما بعض الصفعات وينتهي كل شيء..

لكنّها كانت تعرف أفضل.. هذه النظرة التي بدت في عيني (جمال) ليست نظرة رئيس يبغي فصل سكرتيرته أو حتى ضربها.. ليست كذلك أبدًا..

صعدت في الدرج قاصدة مكتبها.. جلست هناك عاجزة عن اتخاذ قرار.. ثم أمسكت بالهاتف وقررت أن تطلب أباها.. هو وحده سيعرف كيف ينقذها من هذا الـ..

ذلك الأصبع على زر قطع المكالمات..

رفعت وجهها في ذعر، لتجد أن (عامر) و(جمال) و(عدنان) يقفون أمامها.. كلهم ينظر لها ذات النظرة المهابة..

قال (عامر):

- «وجدناه.. يبدو أنه هشم ساقه أثناء الوثب.. لكن من الخطر أن نحمله إلى الفيلا.. المنطقة مليئة بالشهود الآن..»

قال (جمال) وهو يمسك بمعصمي (غادة):

- «دعه يحك كل شيء فلن يصدقه أحد.. حتى لو تم التفتيش فلن يجدوا شيئًا..»

كانوا يتكلمون كأنهم في اجتماع خاص.. لا أحد يعيرها أي اهتمام.. هذا أثار ذعرها أكثر..

شعرت بشيء بارد على معصميها فنظرت.. لقد ثبت (جمال) صفدًا معدنيًا هناك.. وشعرت به يدفعها دفعًا أمامه..

لم تتكلم.. فقط انفجرت في نشيج طويل يمزق نياط القلوب، لكن هؤلاء لم يبدوا أية علامة على أنها موجودة أو حية.. إنهم يتكلمون:

- «أحضر (هيام) لتكون سكرتيرتنا الجديدة..»..

- «نعم.. نعم.. (هيام) مناسبة.. وجميلة كذلك..»

- «يا لك من خنزير! لن تتغير أبدًا!»

ضحك.. كثير من المرح..

- «اجعل الخدم يتأكدون من عدم وجود شيء مريب لأن الشرطة ستكون هنا اليوم أو غدًا..»

كانت عصابة توضع على عينيها.. وكان الذعر قد جعلها لا تبدي أية حركة.. ربما لو خمشت وضربت وركلت لكان هذا مناسبًا.. لكن ما الجدوى؟

☆ ☆ ☆

أنت تشعر بالعجز والرعب.. العجز الذي يجعل الفأر المحاصر يتحول إلى دمية بين مخالب القط.. رأيت قطًا في طفولتي يعبث بفأر، وأكاد أقسم أن الفأر كانت أمامه نحو عشر فرص للفرار لكنه لم يستغلها.. لم يرها..

☆ ☆ ☆

ماذا حدث؟ وكيف؟

لقد مشوا بها قليلًا ثم شعرت بأنها تُحمل حملًا.. ثم تُنزل على الأرض.. ثم تحمل..

في النهاية هناك من ينزع عنها العصابة..

إنها في الظلام.. في مكان كرية الرائحة..

مكان لم تره من قبل.. هل هو قبو القبو؟

إنها في قفص ضخم كأقفاص الوحوش.. تمسك القضبان بيدها وتحاول أن تزيحها..

تنظر في الضوء الخافت إلى الأقفاص المجاورة فترى بشرًا بعضهم نائم وبعضهم ينظر لها.. شيء مرعب في هذه النظرة كأنها نظرة الوحوش..

تنظر إلى الجهة الأخرى من القاعة الواسعة فترى أقفاصًا أخرى أضخم وأكثر صلابة.. ما الذي يوجد في هذه الأقفاص؟ لا تتبين لكنّها تشعر أن لها هيئة البشر.. لكنّها ليست بشرًا.. هذا واضح.. هذا هو ما يثير الهلع.. أن ترى بشريًا ليس بشريًا كذلك..

هنا سمعت من القفص المجاور من يقول في وهن:

- «غيلان يا فتاة! هؤلاء غيلان!»

نظرت بطرف عينها ففوجئت بأن هذا هو (أحمد جودت).. العضو الذي رسب في امتحان التصوير على الأرجح..

قالت في ذهول:

- «ومن نحن؟ وماذا نصنع هنا؟»

قال بذات الوهن:

- «نحن طعام الغيلان.. لابد لهذه الكائنات أن تأكل.. ألا ترين هذا معي؟»

☆ ☆ ☆

5

كنت أنا في غرفة نومي بتلك الشقة الجديدة..

قد انتهيت من مكالمة مع (عادل) شرحت له فيها مخاوف، فكان ما قاله في النهاية هو:

- «ما الذي في وسعنا بعد التفتيش الدقيق؟ لا شيء في الواقع.. اعتقادي الخاص هو أنّ هذه مجرد جمعية بها أعضاء غريبو الأطوار.. إنهم يمارسون أي شيء قريب من اليوجا أو هذا الهراء لو فكرت دون تحيز يا (رفعت) لوجدت أنه لم يحدث أي شيء يعاقب عليه القانون على الإطلاق.. هناك فتى تلقى صفعتين، لكن من يضمن لك ألا يصفعك أحدهم في الشارع الآن؟ يمكنه أن يحرر محضرًا في القسم لو أراد لكن لا شيء سوى هذا..»

- «يا سلام! ومخبركم الذي اختفى؟»

- «أعتقد إنّه لا علاقة لاختفائه بما يحدث.. إن مهنتنا بطبيعتها خطرة.. على كل حال نحن نراقب المكان بعناية.. وسوف يرتكبون غلطة ما..»

كان هذا ما لديه ليساعدني.. في الوقت الحاضر على الأقل.. سيكون عليَّ أن أعني بنفسي في الفترة القادمة..

هنا تذكر شيئًا، فأضاف:

- «هناك خبر أعتقد أنه يهمك.. لا أدري دوره في القصة، لكن هناك فتاة اسمها (غادة عبد الوهاب) مختفية منذ أيام.. هذه الفتاة كانت تعمل سكرتيرة لدى الجمعية! يقول أهلها إنها ذهبت للعمل صباحًا ولم تعد.. يقولون في الجمعية إن الفتاة تضايقت بسبب ملحوظة وجهت لها، وغادرت مقر العمل غاضبة..»

صحت في جنون:

- «كل هذا وتعتقد أنها مصادفة؟»

في حزن قال:

- «ليس في يدي إلا التحريات.. لو اعتقدت أنني سأحرق هؤلاء القوم بالكهرباء إلى أن يعترفوا بأنهم سبب اختفائها والمخبر، فأنت مخطئ..»

☆ ☆ ☆

أمام كوب من الشاي أجلس وحدي أسترجع فكرة الغول في الوجدان الشعبي وفي الأساطير..

«لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك»

هكذا تحيي السيدة العجوز بطلنا عندما يقابلها في ذلك المكان القفر.. هكذا يدرك البطل أنه وقع في حبائل غول.. نفس الشيء يتكرر في الأدب الغربي مع.. «في في فو فام.. أشم رائحة رجل إنجليزي..» كما قلنا..

في سيرة (سيف بن ذي يزن) يحمل (عيروض) الخائن بطلنا (سيف بن ذي يزن) فيلقي به في وادي الغيلان.. ويلقي بحبيبته (شامة) في وادي اللودان (العمالقة).. إن حظ (شامة) أفضل نوعًا لأن هؤلاء العمالقة يحملون عقول أطفال.. وهم يحملونها إلى الملك لتخدمه لا أكثر..

المشاكل الحقيقية تبدأ مع سيف بن ذي يزن، الذي يفتح عينيه في الصباح ليجد أنه فوق شجرة، وأنّ هناك شخصًا غريب الحلقة يأتي نحوه.. هذا الشخص له أنف طويل كالمنقار وأنياب بارزة من شفتيه، وله اذنان كبيرتان تتدليان جوار رقبته..

لم يكن هذا الشخص لطيفًا كذلك لأنّه راح يهز الشجرة وهو يُطلق عواءً منكرًا.. تشبث (سيف) بالأغصان وقد تملكه الهلع.. يفاجأ بأن أسوأ كوابيسه تحقق لأن عشرة من هؤلاء التفوا حول الشجرة وراحوا يهزونها.. مهددين بأن يقتلعوها من موضعها.

هكذا عرف سيف أنه في وادي الغيلان فلا حول ولا قوة إلا بالله..

هنا تأتي النجدة في صورة سيدة عجوز.. دائمًا تلك العجوز المنقذة ذات الشعر الذي له لون اللبن.. كانت أوامرها صارمة حتى أن الغيلان تراجعت عن الشجرة..

- «انزل أيها الملك (سيف).. أنا كبيرة هذه الغيلان وعهد على أن أحميك منها..»

هكذا ينزل سيف في حذر من على الشجرة، فتقتاده المرأة إلى مغارة كبيرة وتقدم له الفاكهة وتحكى قصتها:

- «كان أبي يحكم بلدة الصخر الأسود بالعدل.. لكن أهل البلدة كانوا أهل سوء فثاروا عليه وكادوا يقتلونه، حتى فر منهم وجاء لهذا المكان..»

أمها على النقيض من زوجها النبيل كانت زوجة خائنة.. كانت لها علاقات معينة مع الوحوش في هذه الفيافي، من ثم جاء نسلها مسوخًا مخيفة.. هكذا كتب على هذا الوادي أن تعيش فيه سلالة من الغيلان إلى أن يأتي ملك يمني يدعى (سيف بن ذي يزن) ليهلكهم..

- «هكذا كتب الله على أن أنتظر مجيئك لأساعدك وأعينك عليهم لعله يغفر لي وينجيني من عذاب النار..»

هكذا نرى أن الأسطورة العربيّة جعلت ظهور الغيلان مقرونًا بتزاوج بين الإنسان والوحش..

على أن أكثر الأساطير العربيّة ازدحامًا بالغيلان هي (ألف ليلة وليلة)، خاصة مع السندباد..

في الحكاية الثالثة، يقع بحارة المركب في قبضة مسخ ضخم أسود طويل كأنه نخلة، وله عينان كشعلتي نار وأنياب كأنياب الخنازير البرية، وفمه كالبئر..

ينجو السندباد من الالتهام بسبب هزاله وقلة اللحم على عظامه، ولكن بعد فحص مدقق من الغول.. هذا تقريبًا ما يحدث مع (هانسل وجريتل).. أن النحافة منجية في الأساطير دومًا..

تكون الضحيّة الأولى هي الأكثر بدانة وضخامة.. وهذا الغول المتحضر لا يأكل اللحم نيئًا لكن يمرر سيخًا في الضحيّة من الحلق، ويقوم بشيها على النار بأسلوب (شيش كباب).. ثم ينام متخمًا ويتصاعد شخيره..

في الرحلة الرابعة للسندباد موقف مشابه عندما بلغوا جزيرة فقبض عليهم مجموعة من السكان البدائيين، وأحضروا لهم طعامًا.. الحقيقة أن السندباد يعاف هذا الطعام لكن أصحابه يأكلون منه.. هكذا يدخلون حالة من التخدير تجعلهم يأكلون كالتيوس بلا توقف.. دهنهم يتراكم وعقولهم تنطمس.. حتى يصير الواحد منهم خروفًا سمينًا يذبحونه ويأكلونه..

وصف (القزويني) قومًا لهم وجوه كلاب يعيشون في جزر قرب (زنجبار).. وهو شيء وصفه كل البحارة القدامى على كل حال.. كانت كل جزر الأرض تعجّ بوحوش غريبة حسب قصص البحارة..

الغيلان جميعًا سود البشرة في الأساطير العربيّة.. كلهم مجوس.. لابد أن البحارة العرب الذين ارتادوا تلك البحار السحيقة الغامضة رأوا القبائل آكلة لحوم البشر التي تعبد النار وأشياء غريبة أخرى.. ربما وقع البعض في قبضتهم ونجا.. هكذا عاد ليحكي هذه القصص المخيفة..

هنا يتدخل الغباء والتعصب العرقي ليلعب دوره المعتاد.. يقول (ألكسندر كراب) وهو مؤرخ غربي متعصب، يرى باختصار شديد أن العرب لم يكن لهم أي دور في أي شيء من أي نوع:

- «لا يجب أن نعود لعصر الجليد لنعرف من أين جاء القدامى بقصص أكل لحوم البشر.. ما كان على سكان البحر الأبيض المتوسط في أوروبا إلا عبور مضيق جبل طارق ليجدوا أنفسهم بين قبائل آكلة لحم بشر!!»

هذا يعني - حسب رأي الأخ (كراب) - أن الحضارة الإسلامية كانت تمارس أكل لحوم البشر بانتظام! وهو استنتاج مسل أكثر منه مستفزًا كما نرى..

أما المؤرخ (جرينباوم) فيري باختصار شديد أن الأساطير العربيّة مجرد استنساخ للثقافة اليونانية.. يرى أنّ بعض الأساطير مشتق من حكاية الإسكندر التي كتبها (كاليس).. ويرى أنّ هذه القصة مأخوذة من الإلياذة والمارد ذي العين الواحدة الذي قبض على (أوديسيوس) رفاقه..

غارقًا في هذه الأفكار عن الغيلان - وهي أفكار تثير كل مخاوف الطفولة - بدأت أفكر في الخطوة التالية..

أعرف أنني سأستمر.. لا أستطيع العودة إلى عنوان في القاهرة يحفظه هؤلاء.. لا أستطيع ممارسة حياة يعرفون كل شيء عنها.. لن أفتح باب شقتي بعد منتصف الليل لأجد الزميلين اللطيفين اللذين يزعمان أنهما من (كوم حمادة) وهما ليسا كذلك..

أعرف أنني سأستمر حتى ينتهي هذا الكابوس..

☆ ☆ ☆

6

كانت (غادة) في هذه الآونة قد عرفت الكثير من رفيق الأسر..

كان نادي الغيلان يقوم على جعل الناس يبحثون في ذواتهم عن الغول المختفي الذي دفنته الحضارة.. هناك من ينجحون في ذلك.. بعد قليل تبدأ تغيرات جسمانية لا شك فيها تطرأ عليهم.. أولى العلامات هي أنهم يشتهون اللحم ويكفون عن الاستحمام.. بعد هذا يبدأ شكلهم في التغير فعلًا.. كان القدماء يعتقدون أن التهام لحم الموتى يحول الناس إلى غيلان.. من الواضح أنهم كانوا بعيدي النظر فعلًا..

هذه هي اللحظة التي تستدعي وضعهم في الأقفاص كما توضع الوحوش..

ويطلق على كل واحد منهم اسم (موهول).. لا تعرف سبب اختيار الاسم لكنه موح..

أما من يفشلون في التحول إلى غيلان، فقد افترض النادي أنهم عرفوا أكثر مما يجب.. صحيح أنهم ينسون كل شيء، لكن لا أحد يضمن الذكريات.. لا أحد يضمن ألاعيب العقل الباطن.. المندسون على النادي يوضعون في هذه القائمة.. السكرتيرات الخائنات اللاتي يساعدن على فرار المتسللين يصلحن لهذه القائمة..

وهي (قائمة) فعلًا كما عرفت الآن..

هكذا يتم وضعهم في أقفاص الضحايا الأقفاص التي تلعب ذات الدور في قصص الأطفال.. يتم تغذيتهم وتسمينهم بانتظار اللحظة المناسبة..

اللحظة المناسبة تعني إطلاق سراحهم وإطلاق سراح الغيلان في ذات اللحظة وفي مكان مغلق.. القط والفأر ما في غرفة مغلقة.. لا تتوقع الكثير من المعجزات..

وبما أن التغذية غير مضمونة دائمًا، يمارس الغيلان عادة السطو على المقابر وهي من أقدم العادات المعروفة عن الغيلان..

الآن تفهم سر السيارة التي تأتي ليلًا محملة بأشياء..

والضباع؟

لا أحد يعرف.. لكن الأساطير تحكى عن أن الغول يتخذ شكل ضبع أحيانًا، ولا نعني بهذا أنّ هذا هو ما يحدث هنا..

ولكن من المستفيد من تحويل الناس إلى غيلان؟ حتى القتلة.. حتى تجار المخدرات.. حتى اللصوص يعملون من أجل هدف منطقي واضح.. الكسب المادي أو المعنوي.. طرق غير مشروعة لكنّها مبررة مفهومة.. لكن ما الفائدة التي تعود على أي طرف من هذا؟ ذات مرة شاهدت فيلمًا يقوم فيه (دراكيولا) بنشر باكتريا الطاعون في العالم، وقد بدا لها هذا المنطق سخيفًا.. لو مات كل البشر بالطاعون فمن أين يأتي بالدماء التي يمتصها؟

في الظلام يأتي ذلك الحارس الذي يشبه البشر لكنه ليس مثلهم تمامًا..

يحمل صحافًا ودلاء مليئة بالطعام.. طعام مغذٍ كله نشويات وسكريات ودهون.. ويفتح ثغرة في باب كل قفص ليلقى بالطعام منها..

(غادة) على الأقل كانت تعرف أن كل محاولات تسمينها قد فشلت.. لا شيء يجدي معها.. إن كانوا سينتظرون حتى تسمن فلسوف ينتظرون للأبد.. كانت أمها تطعمها أطنانًا من المفتقة ومربي (خرز البقر) كي تسمن بلا جدوى.. وقد كانت الأم تؤمن أن الفتاة السمراء النحيلة ليس لها مستقبل من أي نوع في مصر أو أي بلد عربي آخر.. المجد والسؤدد للفتاة البيضاء السمينة..

أمّا آخر ما عرفته (غادة) فهو أن (أحمد) هذا ليس سوى مخبر دسّه رجال الشرطة على الجمعية، لكن أمره افتضح سريعًا..

لم تخبره أنها - على الأرجح - هي سبب سقوطه في الشرك لأنهّا أبلغت عن اختفاء أوراق من مكتبها..

كانت في مأزق مخيف، لكنّها - وهذا هو الغريب - كانت ترتجف ذعرًا لا من الغيلان، بل من غضبة أبيها عندما تتأخر في العودة مساء، وعندما لا تبيت في دارها ليلًا.. سوف تبيت في قفص..

☆ ☆ ☆

سألني د. (عامر) وهو يشعل سيجارًا:

- «هل تشعر بتحسن يا أستاذ (عزت)؟»

قلت وأنا أتحسس رأسي:

- «ربما.. لكني صرت أكثر عصبية.. هناك تلك الرغبة العارمة في أكل اللحوم.. أكاد لا أطيق الانتظار حتى ينضج اللحم أحيانًا..»

كنت أسترجع تاريخ د. (سامي) وأتكلم بلسانه.. وقد بدا الرضا على وجه د. (عامر) كما رأيته خلف سحابة الدخان الكثيفة..

لسبب ما لم يتكلم د. (سامي) ولم يفضحني.. لا أعرف السبب.. هل لأنّه صدق قصتي أم لأنّه لم يصدقها لكن جزءًا منه ما زال يحمل لي المودة؟

قال (عامر) وهو يسحب من السيجار نفسًا عميقًا:

- «نحن فخورون بك.. نشعر بأنك أنجب تلميذ لدينا.. بعبارة أخرى ستكون كذلك..»

ثم جذبني في رفق من ساعدي، وقال:

- «ستبدأ الجلسة حالًا.. هيا بنا..»

هناك جلسنا ودارت تلك الساقية بالشراب المعتاد.. في كلّ مرّة أجد صعوبة في التخلص منه.. سوف يلاحظون ما أقوم به بالتأكيد ذات مرة، ولولا هذه الإضاءة الخافتة المتقطعة لما استطعت لعب هذه اللعبة أبدًا.. لو عرفت محتوي هذا الإكسير فلربما استطعت تناول ترياق مضاد Antidote له.. مثلًا لو كان من مشتقات البلادونا لتحسبت له ببعض البيلوكاربين.. لو كان من قلويدات الأفيون فلربما استعددت بحقنة من النالورفين.. مخدر لا يؤثر في الحدقتين ويسهل التنويم المغناطيسي الجماعي.. ما هو؟ لابد أن أستشير خبير سموم..

فقط أعرف أنني لن أظل أسكب هذا الشراب للأبد..

الموسيقا نشطة والجلسة مستمرة..

هناك تطور تدريجي ملحوظ في أداء د. (عامر).. هذه المرّة يطالبنا بما هو أكثر.. لماذا لا نجرب مذاق اللحم النيئ؟ لماذا لا نقلد أسلافنا؟

لما انتهت الجلسة أخيرًا، تهيأت للانصراف، لكنه طلب مني أن أنتظر..

بعد قليل شعرت بمن يضع عصابة على عيني..

- «لا تؤاخذني.. أعرف أنك ستنسى ما تراه لكننا لا نثق في ألاعيب العقل الباطن..»

شعور عارم بالذعر انتابني وأنا عاجز بهذا الشكل وسط هؤلاء هل عرفوا؟ هل هي لعبة ما؟؟

شعرت بمن يدفعني دفعًا للمشي في ممر غير ممهد.. ثم شعرت بأننا نهبط في درج.. بعد هذا شعرت بأن هناك من يحملونني فأطلقت صرخة رعب.. ومن جديد لامست قدماي أرضًا غير ممهدة.. ثم شعرت بأنني أرتفع من جديد..

قدرت أنهم على الأرجح يقومون بعدة دورات تضليلية كي أفقد حاسة الاتجاه تمامًا.. إنهم يدورون بي في مكان واحد..

ثم شعرت بأنني أحمل من جديد..

هذه المرّة وقفت على أرض صلبة لم أعهدها من قبل..

وشعرت بالعصابة تنزع عن عيني..

إضاءة زرقاء تغمر المكان.. أشعة فوق بنفسجية على الأرجح..

المكان أقرب لصرح حفر وسط الصخور.. ومن الواضح أننا تحت الأرض غالبًا.. لكن أين؟

أمامي في قلب الصرح كان مقعد شامخ يشبه العروش.. وعلى المقعد يجلس رجل غربي مسن له ملامح غير مريحة على الإطلاق يجلس في وضع ثابت غريب وقد ارتدى بدلة من طراز عتيق..

هذه مومياء محنطة..

وسمعت صوت (عدنان) يقول في تهيب ووجل:

- «هذا هو جدنا الأكبر.. اللورد (إيمري)!!!»

☆ ☆ ☆

7

عندما جاءت (هيلين هوجورث) إلى مصر لم تكن وحدها..

لقد نفذت الجزء الخاص بها في الوصية حرفيًا.. كان معها صندوق خشبي محكم الغلق على ظهر السفينة، وهذا الصندوق كان يضم مومياء اللورد (إيمري) التي تم حفظها بطريقة سرية أشرف عليها المحامي (جيمس كلايد)..

هذه المومياء هنا منذ جاءت إلى مصر حتى اليوم، لكن البلي بدأ يدب فيها؛ لذا قام الورثة باستعمال الأشعة فوق البنفسجية لضمان خلوها من البكتريا والفطريات..

وارتجفت لفكرة أنّ هذا الشيء ظل هنا في قبو الفيلا كل هذه السنين.. لا غرابة في أن الضابط المصري الشجاع (منصور) مات رعبًا عندما عرف عوالم زوجته الخفية..

قال د. (عامر):

- «من هنا نستمد إلهامنا وعزمنا..»

اللورد (إيمري) عجوز نحيل عصبي.. له حاجبان كثان بريطانيان جدًّا يوشكان على تغطية عينيه.. من تحتهما عينان رماديتان كاسرتان تشعان نارًا.. الفم قاس رفيع.. الأطراف نحيلة أقرب إلى المخالب..

هذا عجوز كريه لا يوحي بأية شفقة أو مودة..

وهنا تذكرت شيئًا.. أنا لم ألق قط رئيس مجلس إدارة الجمعية.. يمكن القول بلا خطأ كبير إن رئيس مجلس الإدارة هو هذه المومياء!

☆ ☆ ☆

قال لي (عادل) وهو يقرع الجرس:

- «يُمكنك الكلام معه بصراحة.. لكن ليس في مكتبي..»

دخل الشرطي ودق الأرض بكعبه، فأمره (عادل) أن يدخل (حنفي طفاشة)..

ظللت جالسًا أنتظر في عصبية ظهور هذا الرجل ذى الاسم العبقري.. تخيلت أنه متحور مثل (الرجال إكس) لتتحول يده إلى طفاشة.. ربما هو طفاشة آدمية عملاقة..

ثم رفعت رأسي لأرى الرجل حقًّا..

إن الأسماء تخدع أحيانًا..

كان هذا أصغر رجل قابلته في حياتي، وبرغم مظهره الوديع كانت له عينان شرستان شديدتا الذكاء.. أمّا ثيابه فتدل على أنه لا يحظى بسعة الرزق.. يداه مسودتان تشيان بعمل يدوي.. وقدرت أنه في الخامسة والأربعين من العمر..

لم يرفع (عادل) عينيه عن الأوراق.. واكتفي بأن يقول:

- «ما هذا الذي ارتكبته يا (حنفي)؟»

مد الرجل كفيه المسودين، وصاح في عدم تصديق:

- «لم أفعل شيئًا يا سيدي.. أنت تعرف أنني أعيش بما يرضي الله.. ومن اليد إلى الفم..»

مد (عادل) يده في الدرج وأخرج حفنة أوراق مالية وضعها على المكتب وقال للرجل:

- «نحن قبل سوانا نعرف هذا.. لو لم نعرفه لكانت كارثة.. خذ.. بارك الله لك!»

إذن لماذا يناور ويلعب بأعصاب الرجل؟ يبدو أنها عادة بوليسية لا أكثر..

ثم نظر لي، وقال:

- «(حنفي) كان لص منازل لا يستعصي عليه أي بيت في الإسكندرية.. أبرع (هجام) عرفته المدينة منذ عقود.. لكننا قبضنا عليه ودخل السجن.. بعدها تعهد بأن يستقيم وساعدته كثيرًا حتى صارت له ورشة مفاتيح.. صحيح أنها تدر رزقًا بسيطًا لكنه حلال.. أليس كذلك يا (حنفي)؟»

راح (حنفي) يدعو له ويلثم يديه.

قال (عادل) وهو يشعل لفافة تبغ:

- «د. (رفعت) قصدني في خدمة.. هذه الخدمة تحتاج إلى مواهبك.. عليك أن تنفذ ما يقول وتذكر أنك مدين لي بخدمة..»

نظر لي (حنفي) في عدم فهم..

قال (عادل) وهو يشعل لفافة تبغ:

- «صديقي د. (رفعت) سوف يأخذك إلى مقهى في الخارج حيث يشرح لك ما يريد.. فقط أنا لم أقل شيئًا ولم أطلب شيئًا ولا أريد إلا أن تتم المحادثة بعيدًا عني..»

لكن الرجل كان متوجسًا بحق.. هذه مقدمات غريبة فما نوع الخدمة يا ترى؟

قال له (عادل):

- «هلمّ.. في الخارج سوف تفهم كل شيء.. تذكر يا (حنفي).. أريد أن يرضى الدكتور عنك ويخبرني بهذا!»

ثم لوح بإصبعه منذرًا وكرر التحذير:

- «(حنفي)!!!»

مد الرجل يده المفتوحة إلى عنقه، وقال في صدق:

- «رقبتي..»

☆ ☆ ☆

لم تكن مهمتي سهلة حيث جلسنا على ذلك المقهى، وقد تراصت على المائدة الرخامية أقداح القهوة وأكواب الشاي وأعقاب التبغ..

قال لي للمرة الألف:

- «أنا تبت يا دكتور.. من الواضح أنكم لا تصدقون هذا..»..

قلت له:

- «ونحن نصدق هذا.. أنت مكلف بهذه المهمة من قبل الشرطة ذاتها.. أنا لا أستطيع القيام بها بحالتي الصحية السيئة وانعدام خبرتي.. سوف أفسد الأمر كله، لكني واثق من أنك تعرف كيف تتصرف..»

هنا سحب نفسًا عميقًا من لفافة التبغ التي في يده، وضيق عينيه، وسأل في حنكة:

- «كم؟»

أخيرًا! لقد زال الجدار الجليدي!

وعدته بمبلغ مجز قبل التنفيذ ومثله لو نفذ العملية..

- «عليك أن تبدأ في النهار.. لأنني أعتقد أن أحداثًا كثيرة تدور في هذه الفيلا ليلًا.. كل شيء يخبرني أن الفيلا تكون في أهدأ حالاتها صباحًا..»

وشرحت له كل شيء بالتفصيل.. ليس بوسعي أن أشارك في هذه المهمة إلا بالنصائح..

☆ ☆ ☆

8

يبدو أن الحارس قرر أنه سمن بما يكفي..

كانت (غادة) غافية في قفصها تعاني تقلصات أمعائها لو حسب هؤلاء الناس أنها ستقضي حاجتها في قفص مفتوح فهم مخطئون..

هنا رأت الحارس يدخل ويمشي بين الأقفاص.. يفتح قفصًا ما تسمع صوت الأقفال والجنازير.. هل هو قفصها؟

لا.. لم يكن كذلك.. كان قفص (أحمد) جارها.. ورأت الحارس يجر الرجل جرًّا في الظلام.. يجره إلى المسافة بين الأقفاص فيلقيه هناك، وكان الهلع قد استبد بالرجل فلم يعترض ولم يقاوم..

الحارس يتجه إلى الأقفاص المقابلة.. الغيلان بدأت تزأر وتعوي وتهز القضبان هزًّا.. يفتح الرجل الجنازير.. كلينج.. كلانج..

وتخرج الغيلان..

إنها تتواثب عبر المساحة الخالية.. لا ترى معالمها بدقة بسبب الظلام، لكنك تهابها وتخشاها.. والزئير يتعالى..

- «هلمّ يا موهول.. وأنت يا موهول.. ومعك موهول!»

- «أخيرًاااااااااااااااااا..»

أطلق أحمد صرخة أخيرة، ثم انقضت عليه تلك الأشباح العملاقة.. لم يعد ظاهرًا من جسده شيء، وتعالت أصوات القضم والمضغ والتمزيق..

(غادة) راحت تتشبث بالقضبان غير مصدقة أنها ترى ما تراه..

فقط راحت تنشج وتصرخ:

- «بابا! أغثني!»

وتصرخ.. وتصرخ.. ثم سقطت فاقدة الوعي..

☆ ☆ ☆

لكن بابا لم يأت للغوث..

كان المنقذ أغرب شخص يمكن أن تتخيله..

هو ذا (حنفي طفاشة) يراقب الفيلا وقد بدأت الغريزة القديمة تتحرك في نفسه.. عاد الهجام القديم يتحرك وتدب فيه الحياة..

لقد أدرك على الفور أن النهار هو أفضل أوقات الاقتحام فعلًا.. الليل مزدحم بنشاطات غريبة لا يقرها القانون، وربما هي على الأرجح رهيبة..

بعين خبيرة راح يراقب مخارج ومداخل الفيلا.. وقدر أن أفضل الأماكن للاقتحام هي تلك النوافذ المنخفضة التي تقود إلى القبو غالبًا..

كان عليه أن ينتظر حتى الصباح، وأن يعد للأمر عدته..

وفي الحادية عشرة صباحًا تلفت حوله، ثم تسلق السور وراح يركض كأنه جندي كوماندوز بين الأشجار.. الصمت بليغ يوحي بأنه لا يوجد شخص واحد حي في هذا المكان..

أخيرًا بلغ النافذة المختارة فأخرج ما يحمل من معدات، وعالج المزلاج حتى استطاع أن يزيحه لأعلى من الخارج.. ثم رفع النافذة.. وفي لحظة حشر جسده الصغير داخلها..

إنّه الآن داخل الفيلا فعلًا..

أشعل كشافه الصغير.. إنّه في قبو كما توقع.. هناك صناديق عتيقة من الورق المقوى.. هناك زجاجات.. هناك أثاث..

راح يستكشف المكان في تؤدة..

في نهاية القاعة هناك درج يقود لأعلى.. لكنه واثق من شيء واحد.. هناك طريقة خفية للخروج من هنا عن غير طريق الدرج.. بعبارة أخرى هناك قاعة سرية تتصل بهذه، ولهذا فشل رجال الشرطة في العثور على شيء..

الدكتور النحيل قال إنهم حملوه حملًا أكثر من مرة، وإنهم كانوا يمشون به في طريق غير ممهد.. هذا يشير إلى فتحة في الجدار تقود إلى ممر سرّي صخري..

راح يمسح الجدران في حذر.. يمرر يده عليها.. لا شيء..

هناك حبل يتدلى من السقف فيه خطاف هذه الأشياء معروفة في البيوت التي تعنى بذبح الخراف في البيت ذاته.. لكن ماذا لو جذبنا الخطاف؟ لا شيء..

راح يجرب أن يجر الخطاف ليرى المدى الذي يبلغه في أي اتجاه، وإن بدأ يشعر بعصبية لهذا الصمت.. ما بال هؤلاء القوم؟ هل هم موتى؟ أكثر البيوت عزلة لابد أن تسمع فيه صوتًا من آن لآخر..

ثم خيل له أنه سمع صرخة..

صرخة قادمة من وراء جدار.. الجدار الشرقي بالتحديد..

اتجه إلى هذا الجدار وقرع عليه عدة مرات، ثم عاد تفكيره إلى الخطاف.. لو جذبنا هذا الخطاف ليلمس الجدار فأية نقطة يلامس؟

هناك مسمار محوي مهمل مثبت هناك.. لكن الخطاف يلامس هذا المسمار ويمكن أن يلتف حوله.. فلنفرض أنها طريقة تبقى بابًا بعينه مفتوحًا أثناء الدخول منه.. شيء يشبه (شنكل) النافذة..

هكذا مد يده وراح يعبث في المسمار.. وجد أنه قابل للانتزاع أخرجه من موضعه..

جميل! هذا ثقب مفتاح! ليس هذا جدارًا إذن بل هو باب..

شاعت ابتسامة خبيثة على وجهه وهو يتفحّص الفتحة.. لن يجد المفتاح لكن منذ متى يستعصي ثقب مفتاح على (حنفي طفاشة)؟ إنّه لم يتعذب في السجن من أجل لا شيء..

هكذا راح يعبث في الثقب بأدواته الجراحية الدقيقة.. وهنا بمعجزة ميكانيكية ما فوجئ بأن الثقب يستجيب.. تحرك الجدار.. دفعه بكتفه فوجد أنه يدور كأنه باب عملاق فعلًا..

لكن لابد من تثبيت المسمار في موضعه وتثبيت الخطاف له.. واضح أنّ هذا ضروري كي لا يجد المرء نفسه سجينًا..

ونظر حوله في قلق..

المكان موجس مرعب.. وهو وحيد.. ترى كم من الوقت يجب أن يمرّ قبل أن يفاجئه أحدهم وهو يمارس هذا النشاط المريب؟

على كل حال وارب الباب العملاق ودخل..

بالفعل كانت هناك درجات حجرية تقود لأسفل.. هناك مصابيح كهربية خافتة تذكره بقلب الهرم الأكبر الذي دخله عندما كان متاحًا للناس جميعًا.. ثم هناك طريق حجري غير ممهد يمتد بضعة أمتار، بعدها تجد مدخلًا إلى اليمين يقود لقاعة صغيرة.. وهناك على اليسار مدخل مغلق بقضبان حديدية.. فقط يشم من ورائه رائحة كريهة فعلًا.. نفس رائحة قفص الأسود في حديقة الحيوان..

كلا.. هو غير راغب في تجربة هذا الاحتمال الآن..

كانت المطواة معه.. لم يتخل عنها منذ دخل السجن وغادره.. لذا فتحها بيد واحدة على طريقة المحترفين التي يجيدها، ومشى محاذرًا نحو القاعة الصغيرة على اليمين..

هناك إضاءة زرقاء تغمر المكان..

هكذا عرف أنه في المكان الصحيح..

دخل أكثر، فرأى أنها قاعة حجرية.. في صدرها يجد ما يشبه المحراب.. وفي قلب المحراب مقعد تجلس عليه جثة رجل (خواجة) بكامل ثيابه..

جثة مرعبة الشكل فعلًا.. لكنّها جثة.. بالضبط كما وصفها الطبيب..

في هذه الإضاءة الخافتة تبدو له حية بشكل ما.. حية ميتة معًا.. وهذا مفزع إلى درجة لا تصدق.. لهذا السبب تبعث فينا التماثيل الشمعية تلك الرجفة الباردة.. لأنهّا حية وميتة معًا..

لكنه يعرف ما يجب عمله ولماذا أتى هنا..

ومد يده يفك الحقيبة المعلقة تحت إبطه..

أخرج البلطة الصغيرة..

ورفعها..

☆ ☆ ☆

9

الآن جاء الجزء القذر من المهمة..

لقد انهال بالبلطة على المومياء يحطم ويمزق ويفتت.. وهو لا يكف عن ترديد آية الكرسي.. لقد كان لصًا لكنه متدين في أعماقه، وكان لا يطيق فكرة التمثيل بالجثث.. لكن الطبيب قال له إن هذا يخلص الناس من شر مستطير.. قال له إن بعض الناس اتخذ هذه المومياء صنمًا..

- «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..»

مومياء اللورد إيمري تتهاوى.. من الغريب أن ترى مدى الهشاشة التي كانت فيها بعد مئة عام من التحنيط، واللص التائب مستمر في عمله بحماس وهو يلهث والعرق يبلل ظهره..

ثم فرغ من هذا فأخرج (الجركن) المليء بالكيروسين وسكبه على البقايا..

أشعل عود ثقاب وقربه من الكيروسين وراقب اللهب الأخضر المزرق ينتشر في السائل طيب الرائحة..

هنا حدث شيء سوف يذكره في كوابيسه ما عاش..

لقد كان الرأس يصرخ.. يتلوى ويصرخ.. لم يكن هذا وهمًا.. لم تصنعه النيران..

الرأس الذي هشمه أجزاء، كان يعوي ألمًا على الأرض وهو يتلظى بالنار..

وهنا فقط انفتحت أبواب الجحيم، لأن الصراخ استدعي صراخًا مماثلًا من القاعة المجاورة، وبدا كأن ألف شيطان يعوي ألمًا..

ألعن جهاز إنذار يمكن تخيّله..

☆ ☆ ☆

جرى خارجًا من القاعة الصغيرة، وراح يركض في الممر قاصدًا الباب الحجري..

- «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!»

لكن أنفاسه المتلاحقة لا تسمح له بأن يلفظها بشكل صحيح..

كانت الضوضاء عامّة وأدرك أن الجميع قد استيقظ ليفهم ما هنالك..

خرج من الباب.. فأزاح الخطاف.. هنا وجد أن الباب عاد لوضعه السابق.. لقد انغلق فصار مجرد جدار بريء المنظر..

الصراخ يتعالى من وراء الجدار..

جرى إلى النافذة التي دخل منها فوثب وثبة واحدة ألقت به في الحديقة..

راح يركض بين الأشجار نحو السور.. هنا سمع من يصيح:

- «هذا هو! لا تدعوه يهرب!»

ورأى رجلًا وقورًا يبدو في عينيه توحش غريب يركض نحوه..

هنا تذكر أن البلطة ما زالت في يده..

لا يدري كيف طوحها ولا كيف هوت على رأس مهاجمه..

لقد جعله الخوف وحشًا..

دار حول نفسه متأهبًا لمهاجمة أي شخص آخر، فلم ير أحدًا..

وثب فوق السور، وسرعان ما كان يركض في الشارع.. توقع أن يسمع صرخة (حرامي) التقليدية التي تعقد الأمور وتجعل النخوة تتحرك في نفس كل من يلقاه.. لكن شيئًا من هذا لم يحدث..

☆ ☆ ☆

هذه كانت القصة كما حكاها لي على المقهى وهو يرتجف..

طلبت له حجرًا من (المعسل) وكوبًا من الشاي لكنه قال:

- «أفضل أن يكون الشاي بحليب مع بعض الشطائر.. عندما أخاف أشعر بالجوع..»

طلبت لهذا اللص الخائف ما أراد، وقررت أن أنهض لأتصل بـ (عادل).. لقد صار الأمر واضحًا بصدد القبو السري لهذه الفيلا.. أعرف يقينًا أن تفتيشه سيقدم بعض المفاجآت السارة..

- «هل تعرف كيف تعود لتلك القاعة؟»

- «عيب يا دكتور.. طبعًا..»

- «أي أنك ستقود رجال الشرطة لها؟»

- «بالتأكيد..»

فقط آمل ألا يغيروا كل شيء بسرعة.. لقد عرفوا أنّ هناك من وجد سر أسرارهم، ولسوف يتحركون بسرعة.. فقط أعتقد أنهم في حالة انعدام وزن.. هناك احتمال لا بأس به أن تكون اللعنة قد زالت بعد احتراق المومياء المشئومة..

نهضت بحثًا عن هاتف عمومي.. لم يكن هناك واحد في المقهى لذا خرجت إلى الناصية، وبالطبع كانت الهواتف في ذلك الوقت هواتف عملة لا تعمل بالبطاقات الذكية.. رحت أحاول طلب (عادل) في المديرية.. هنا..

فوجئت بهذين الرجلين الضخمين داكني البشرة يقفان جواري.. النظارات السوداء جعلتني أعرف من هما فعلًا.. في وقفتهما نوع من التحرش لم يرق لي..

وكنت أدرك حقيقتهما.. هذان غولان لم يتحولا بالكامل.. لم يصيرا مسخين، لكنهما كذلك لم يعودا بشريين.. هذه الطبقة تعمل ك (بودى جارد) أو حراسة خاصة على الأرجح.. ربما كان هذان هما رجلا (كوم حمادة) اللذان زاراني كـ (رفعت)..

قال لي أحدهما بصوت غليظ:

- «د. (رفعت).. يريدونك في الجمعية.. الآن!»

وضعت السماعة وقلت في ضيق:

- «ليس هذا أوان اجتماع.. ثم.. كيف وجدتماني؟»

- «نحن نجوب شوارع الإسكندرية منذ ساعات بحثًا عنك إنّه حظنا الحسن..»

لكني نظرت إلى يده فوجدت جهازًا غريبًا.. أشبه بقرص ساعة يخرج منه هوائي لا سلكي.. أعتقد أنهم يستعملون نوعًا من أجهزة اقتفاء الأثر.. أجهزة تفتش عن هالة (كيرليان) إياها وسط الجموع.. لا أصدق أنهما وجداني بالصدفة..

شاعرًا بأنني معتقل مشيت معهما إلى سيارة سوداء تقف على بعد خطوات. لا وقت لإبلاغ (حنفي) دعك من أنهم يعرفونه الآن ولو وجدوه لما تركوه..

جلست في المقعد الأمامي على حين جلس أحدهم في المقعد الخلفي كأنه يراقبني.. أشعر بأنني عضو مافيا تقتاده الأسرة إلى حيث تتخلص منه سرًا لأنّه خانها.. هل هذا صحيح؟

بعد قليل قال السائق دون أن ينظر لي:

- «لقد مات الأستاذ (عدنان)!»

توقعت هذا.. عندما قال (حنفي) إنّه هشم رأس رجل وقور فارع الطول لم أفكر مرّتين.. لو قال إنّه هشم رأس رجل يبدو أنه جاب العالم لقلت إنّه د. (عامر)..

لكني أبديت الذهول كما يجب..

- «لص.. تسلل للفيلا وحاول الأستاذ (عدنان) مقاومته لكنه هشم رأسه ببلطة..»

أبديت أسفي وذهولي.. آخ! لم يعد من أمان في هذا العالم! النفوس صارت شريرة هذه الأيام..

- «وهل أبلغتم الشرطة؟»

قال الجالس خلفي في ثبات:

- «لا وقت لهذا الهراء.. المشكلة هي أنه لابد من نائب جديد لرئيس مجلس الإدارة..»

- «وهل هذا وقته؟»

- «نعم هو وقته.. لا يمكن أن نستمر من دون نائب..»

إذن هم في مأزق.. لقد فقدوا لورد إيمري الرئيس ونائبه.. ترى هل يرشحون (عامر) أم (جمال)؟

قال الرجل الجالس خلفي:

- «د. (عامر) يرى أنك الأصلح لهذا المنصب! نحن ذاهبون لمقابلة رئيس مجلس الإدارة كي يصدر قرار تعيينك!!»

.....!

☆ ☆ ☆

10

كان الليل قد أرخى سدوله عندما أحاطت قوات الشرطة بالفيلا..

هناك الكثير من الكشافات وأضواء سيارات الدورية عديدة الألوان.. هناك أكثر من (بوكس) وأكثر من رتبة ضخمة.. هذه المرّة يبدو أن (عادل) جاء ليبقى..

وسط الزحام يقف أهم شخص هنا وهو (حنفي طفاشة) يرتجف ذعرًا.. إنّه الدليل الوحيد لهذه القوات، وهو لم يعتد قط أن يقف خلف مدفع الحكومة بل أمامه.. لذا راح يقاوم رغبته في الفرار..

الناس يتزاحمون في فضول خارج الفيلا آملين في أن تقع مذبحة.. فلا تنس أنّ هناك سيارتي إسعاف.. لم يبق إلا أن تحوم طائرتا هليوكوبتر لنجد أننا في فيلم أكشن أمريكي..

ماذا يحدث هنا؟

من عربات (البوكس) يقفز الجنود شاكي السلاح.. بينما اتخذ بعض القناصة مواضعهم كأنها حملة لاعتقال (خُط الصعيد) نفسه..

يفتح الخادم الباب مذهولًا لكل هذا الصخب فيندفع الجنود على الفور، ويخرج د. (عامر) وعلى وجهه مزيج من الرعب والغضب.. يرى (عادل) فيصيح:

- «أعتقد أيها العميد أننا أغلقنا هذا الباب نهائيًا..»

قال له (عادل) دون أن ينظر له:

- «قد جئنا نفتح عدة أبواب هذه المرّة!»

كان يريد أن يقول تعليقًا من تلك التعليقات الساخرة ذات المعنيين التي تقال في الأفلام البوليسية..

ودس تحت أنف (عامر) و(جمال) إذن التفتيش الجديد، ثم صاح بالرجال طالبًا أن يفتشوا الفيلا..

توتر (عامر) وهو يرى أن جل اهتمام الرجال كان النزول إلى القبو..

- «أرى أنك ترتكب خطأ قانونيًا جسيمًا..»

- «ربما.. عندي ما يدعوني للاعتقاد أننا سنجد أشياء مهمّة جدًّا..»

يصيح صائح من القبو:

- «هناك جثة مغطاة يا سيدي!»

ابتسم (عادل) في ثقة، وقال:

- «ترى هل كنتم تنوون تحنيط (عدنان) هو الآخر؟ أم كنتم ستطعمونه لحديقة الحيوان تلك؟»

☆ ☆ ☆

معصوب العينين أمشي في ممر غير ممهد..

من جديد يتكرر سيناريو حملي ثم إنزالي.. (شايليني شيل).. التعبير الشعري المعبر عن العجز الذي يليق بما أعيشه الآن..

خطر لي أنهم حمقى.. لو كانوا يرغبون في تعييني نائبًا فقد حان الوقت كي أعرف ما يعرفه النائب..

أخيرًا يزيحون العصابة عن عيني فأجد أمامي بابًا..

أجتاز الباب فأرى أنني في مكتب عملاق.. مكتب لا يمكن أن أكون قد رأيته أو رآه الأخ (حنفي) أمس.. لا يمكن أن يمرّ بلا تعليق..

مكتب قريب الشبه من مكتب الفوهرر في أفلام الحرب العالمية الثانية..

هنا يجلس رئيس مجلس الإدارة الذي حسبته لورد (إيمري) نفسه، وكنت مخطئًا كالعادة..

على الجدار لوحة عملاقة تمثل لوحة (مايكل أنجلو) على سقف كنيسة (ستسين).. يوم الدينونة.. تلامس الأصابع.. إلخ.. لكن..

وقعت عيني على موضع المسيح الشهير في الصورة..

لم يكن هذا هو المسيح.. هناك اختلاف وقد توقعته..

أمشي في حذر بينما يتصاعد الصوت الهادئ الوقور:

- «تعال يا أستاذ (عزت)..»

إنّه ذلك الرجل شديد الضخامة خلف المكتب.. الآن أتأكد يقينًا من أنّه ليس د. (لوسيفر).. د. (لوسيفر) لا يتخلى أبدًا عن لهجته الشرق أوروبية على سبيل العلامة المسجلة، دعك من أنني لم أسمعه قط يتكلم بالعربية على قدر ما أذكر..

الأهم هو أنني خمنت من هو..

أمام الرجل أباجورة، وهذه الأباجورة مسلطة لتعمي الضيف ولا تظهر المضيف.. مثلما يحدث في أفلام الجاسوسية الرديئة..

- «لأسباب مؤسفة اعتدى أحدهم على اللورد (إيمري).. مزق المومياء وأحرقها.. ثم قتل (عدنان).. سوف نجد هذا الكلب فيما بعد، لكن الآن نحن في حاجة ماسة لنائب رئيس جديد، وقد اقترح د. (عامر) اسمك على الفور.. يقول إنك أصلح واحد لهذا الدور..»

كنت أقول إن الرجل يبالغ ثم وجدت أنه لا مجال للتواضع السخيف على غرار (من يشهد للعروس؟) و(هئ هئ.. هؤلاء القوم يبالغون).. إلخ.. هؤلاء جادون وخطرون ومن الخير لي أن أكون جادًا مثلهم..

كنت أقترب أكثر..

ليتني أرى وجه هذا الرجل.. لكنه يلعب معي لعبة الظلال بلا عدل..

قال لي بذلك الصوت الهادئ الوقور:

- «لكن لديَّ تحفظات معينة على شخصك.. أنت تعرف أننا نحاول أن ننشر عقيدة معينة في هذا العالم.. العقيدة التي بدأها لورد (إيمري) وحاول جاهدًا أن يجد تلاميذ مخلصين له.. هذه رسالة مستمرة، لكننا تلقينا ضربة قاصمة بتدمير المومياء.. كانت هي الطوطم الذي يرمز لجماعتنا وكفاحنا.. الآن يقترحون عليَّ اسمك..

وأنا أقبل هذا وأفهمه.. لكن بعد أن تجيب عن عدة أسئلة وبلغ الأدرينالين مداه في عروقي ووضعت يدي في جيبي.

ترى ما نوع الأسئلة؟

- «السؤال الأول هو: لماذا لم تعد تنطق الحروف بتلك الطريقة المضحكة التي كنت تفتعلها في البداية؟

«السؤال الثاني هو: لماذا ناداك رجالي باسم د. (رفعت) وهم يقتادونك إلى هنا فلم تعترض؟

«السؤال الثالث هو: كيف كان لذلك اللص أن يجد مخبأ المومياء.. قدس الأقداس.. من دون أن يعاونه خائن ما؟

«السؤال الرابع هو: لماذا نسيت أن تصبغ شعرك كما اعتدت؟ إن الجذور واضحة أمام عيني وكلها شائبة..»

تراجعت إلى الخلف مذعورًا.. هذا كمين إذن.. الأسئلة كثيرة جدًّا ولا أتذكرها كي أبرئ نفسي.. لكني على الأقل تذكرت السؤال الأخير فقلت:

- «ومن قال إنني لا أصبغ شعري؟ إنني مجرد عجوز متصاب آخر..»

ثم تذكرت السؤال الثاني فقلت:

- «سمعتهم ينادونني (عزت).. إنها تلك الأسماء التي حول الأتراك تاءها المربوطة إلى تاء مفتوحة.. وحرف العين يخدع الأذن..»

قال الرئيس بذات الهدوء:

- «على كل حال كان (عامر) أحمق.. كلهم حمقى.. أنت سببت ضررًا بالغًا لهذا النادي لكن أخطاءنا قابلة للتصحيح وغدًا يبدأ نادي الغيلان في مكان آخر..»

ثم أزاح ضوء الأباجورة ليسقط على وجهه..

هنا عرفت من هو.. وقد توقعت ذلك عندما رأيت اللوحة..

أكره أن أكون على صواب طيلة الوقت..

لن أغادر هذا المكان أبدًا..

☆ ☆ ☆

11

أبراكساس Abraxas: لا أحد يعرف مصدر الكلمة وربما جاءت من سحر القبالة اليهودي. لكنّها كلمة بالغة الأهميّة في عالم السحر الأسود. الصورة المعتادة لهذا الشيطان هى جسد إنسان ورأس ديك مع قدمين أقرب للثعابين التي تنتهي بعقارب، ويحمل درعًا أو سوطًا. قيل إنّه شيطان. فيما مضى كان الكتاب المسيحيون يعتبرون الآلهة الوثنية مجرد شياطين خدعت البشر ليعبدوها.. ولهذا قيل إنّه من آلهة مصر القديمة الوثنية (لا صحة لهذه الفرضية).. وقد كتب عنه العالم النفسي (كارل يانج) في كتاب شهير، ووصفه بأنه ملك العالم السفلي، وبأنّه هو الشر الذي لا يمكن استيعابه بالعقل البشري.. ويقال إن لفظة (أبرا كادابرا) التي يستعملها السحرة مشتقة من اسم هذا الشيطان.

موسوعة الظلام..

☆ ☆ ☆

فقد المجند الريفي أعصابه عندما رأى الأقفاص ووراء قضبانها تلك الغيلان التي تزأر.. هكذا أجهش في البكاء الهستيري، وهو يفرغ خزانة مدفعة الرشاش فيها..

والتفت باقي الجنود إلى الصف الثاني من الأقفاص لولا أن صاح الضابط:

- «لا تطلق النار! هؤلاء بشر طبيعيون!»

كانت هذه (غادة) تصرخ، وقد ركعت على ركبتيها ممسكة بالقضبان عاجزة عن عمل شيء.. هذا عالم يجب أن تؤكل فيه أو تقتل رميًا بالرصاص ككلب..

كانت تصرخ:

- «لا تقتلونا.. نحن مثلكم..!»

كلينج كلانج!!

هذا كان صوت جنزير يفك عن قفص أو قفصين..

والتفت الجنود إلى مصدر الصوت فرأوا ذلك الحارس يتواثب بين الأقفاص ويعالج أقفالها بسرعة البرق.. وصرخ الضابط الشاب:

- «من هذا؟..»

رفع أحد الجنود بندقيته لكن الضابط لم يعد واثقًا من شيء هنا.. ربما تقتل بريئًا أو لا تفعل..

- «ارفعوا أيديكم!!»

قالها في عصبية عدة مرات.. لكن تلك الأشياء التي تحررت من أقفاصها لم تكن تفهم العربيّة أو تفهمها لكنّها غير مستعدة للطاعة..

هكذا وثبت المسوخ في الهواء لتجثم فوق صدور الجنود.. كانت ثقيلة جدًّا شرسة كالنمور الجريحة.. وتصاعد الصراخ المريع..

صرخ الضابط وهو يرى رجاله يمزقون إلى أشلاء:

- «بسم الله الرحمن الرحيم! هذا.. هذا كابوس.. يجب نسف هذا البيت.. يجب أن..»

ورفع جهاز اللاسلكي ليطلب مددًا..

في هذه اللحظة شعر بأنياب حادة تنغرس في عنقه.. أخرج مسدّسه وأطلق الرصاص لكن بلا هدف.. لا أحد يُطلق الرصاص بذراع مفرودة كي يقتل مسخًا يجثم على ظهره.. هذا رأيي الخاص على كل حال..

أما الجنود الآخرون فقد فقدوا أعصابهم تمامًا..

وانهمرت الطاقات..

☆ ☆ ☆

كنت أقف بين الجدار وبين السيد رئيس مجلس الإدارة الذي كشف عن شخصيته كما كشف عن شخصيتي.. باختصار كشف شخصيتينا معًا وصار اللعب مكشوفًا..

لقد صار صوته جديرًا به.. صوت دب تعلم الكلام حديثًا وهذا الدب تزوج من بئر..

قلت له وأنا أتراجع أكثر:

- «إذن.. الأمر ترتيب لظهورك.. السيطرة على الأرض هذا نوع من الطقوس..»

قال وهو يتقدم نحوي في تؤدة (لم أدرك مدى ضخامته إلا الآن):

- «لابد كي يحكم (أبراكساس) الأرض أن تكون جاهزة لاستقباله.. لابد من أن يسود الدم.. وأن تسيطر الغيلان.. لابد من أن تصير الأرض جحيمًا..»

كنت أضع يدي في جيبي وأواصل التراجع..

فجأة تصلب.. تراجع للخلف..

رأيته يترنح.. يحاول الدنو مني مرارًا ثم يفشل..

حظ حسن! لكن لا أدري إلى متى يستمر..

«هو ملك العالم السفلي، والشر الذي لا يمكن استيعابه بالعقل البشري..» هكذا وصفه عالم رصين هو (يانج).. بعبارة أخرى يمكن القول إنني أواجه الشيطان نفسه الآن.. رئيس مجلس إدارة نادي الغيلان هو الشيطان ذاته..

رحت أستعيذ بالله من الوسواس الخناس، وأنا أواصل الضغط على قرص الجهاز في جيبي..

لقد أنذرني مخترعه من استعمال الموجات العالية حتى لا أؤذي نفسي والآخرين.. الآن أراهن على هذه الموجات عالية التردد في أن تخيف هذا الشيء..

لقد صرت مغلفًا بطاقة استاتيكية عاتية.. الخواجة (تسلا) يثبت عبقريته للمرة الألف..

هنا سمعنا صوت طلقات الرصاص والصراخ.. ليس لدي سوى تفسير واحد لهذا الذي أسمعه..

فجأة رأيته ينظر لي نظرة نارية، ثم يصيح بصوت جهنمي:

- «سوف نلتقي ثانية أيها الفاني!!!»

وتعالى صوت طلقات الرصاص.. هناك عدد هائل من الرجال هنا..

رأيته يفتح بابًا جانبيًا فيخرج منه مسرعًا..

وفي اللحظة التالية رأيت خمسة رجال شرطة يقتحمون المكتب ويحيطون بي آمرين إياي أن أرفع يدي..

كانوا في حالة توتر عصبي مريعة، فلو حركت حاجبي لأفرغوا فيَّ طلقاتهم.. لكن هذا كان أجمل منظر رأيته في حياتي..

☆ ☆ ☆

وفي ضوء الكشافات بالخارج خرجت (غادة) باكية رافعة ذراعيها..

دوى صوت ترابيس المدافع موشكة على الانطلاق، لكنّها صرخت وهي تجثو على ركبتيها من فرط وهن ورعب:

- «أنا مثلكم! لا تطلقوا النار..»

هرع نحوها جنديان يحملان بطانية ولفَّاها فيها وأبعداها عن مدخل الفيلا.. وسرعان ما تكرر ظهور الضحايا واحدًا تلو الآخر كلهم كانوا يرتجفون من الصدمة العصبية لا البرد..

كانوا سبعة..

أمّا الثامن فكان أنا..

خرجت والكشافات تُعمي عيني.. فصاح (عادل) من مكان ما:

- «(رفعت)! تعال هنا يا أحمق..»

واحتضنني ولثم خدي قائلًا:

- «لم نتصور أنك هنا..»

- «أنا كذلك لم أعرف أنّ هناك مكتبًا في هذا التكوين السري.. رئيس مجلس الإدارة هو.. هو الشيطان ذاته!»

- «يا حلاوتك!»

قالها في سخرية، وربت على صلعتي..

- «اخرس وإلا وجدت نفسك في مستشفى الأمراض العقليّة هذه أشياء لا تقال في التقارير الرسمية..»

ثم أبعد يده في ذعر، وهتف:

- «أنت تلسع! تلسع كباب الثلاجة عندما يكون هناك تلامس أسلاك!»

ثم نظر لوجهي مذعورًا:

- «الدخان يتصاعد من حاجبيك وشعرك.. ماذا حدث لك؟»

قالت ضاحكًا:

- «لا شيء.. الكثير من الكهرباء الإستاتيكية.. لا تقلق لقد توقف الجهاز لأن ملف (تسلا) احترق.. لحسن الحظ لم يفعل هذا منذ عشر دقائق وإلا انتهى أمري!»

هنا سمعنا من يصرخ:

- «لا تطلقوا النار! أين بابا؟»

كانت تنشج بلا انقطاع.. وركعت على ركبتيها لأنهّا لم تعد قادرة على الوقوف..

صاح (عادل) في حيرة:

- «هذه هي (غادة).. السكرتيرة المفقودة.. لكنّها قد خرجت من قبل!»

في العادة نقول: (خرج ولم يعد).. لكننا اليوم بصدد (عاد ولم يخرج)..

قلت له:

- «أين ذهبت الأولى؟»

- «أخذها رجلان من رجالي إلى سيارة الإسعاف..»

- «جدهما.. وبسرعة..»

وهكذا هرع الرجال إلى سيارة الإسعاف.. لم يكن أحد هناك.. لا أثر للجنديين اللذين رافقا الفتاة.. ثم وجدهما الرجال خلف إحدى أشجار الحديقة وقد تمزقا تمامًا..

قلت لـ (عادل) في إنهاك:

- «الأمر واضح.. رئيس مجلس الإدارة غادر الفيلا بهذه الطريقة.. الفتاة الأولى كانت مزيفة..»

قال في غيظ:

- «تتحدّث عن الشيطان.. هل الشيطان بحاجة لحيل والتنكر بشكل فتاة ليفر؟»

- «يمكنه الفرار أو تمزيقنا وأكثر.. لكنه أراد أن يترك لنا توقيعه بهذه الدعابة البسيطة.. يثبت لنا أننا مجرد حمقى..»

وخرج ضابط شاب من الداخل ليؤدي التحية.. كان منهكًا وثيابه ملطخة بالدماء.. فقط قال وهو يحشو مسدّسه من جديد:

- «لقد أبدنا تلك المسوخ يا سيدي.. خسرنا رجالًا كثيرين..»

قال (عادل) وهو يضع ذراعه على كتف الشاب:

- «أحسنتم صنعًا.. سنعمل على ألا يعرف أحد بهذه الواقعة.. لا نريد تدمير حياة الناس بهذه القصص الرهيبة.. من الذي كان غولًا أو في طريقه ليصير كذلك؟ سوف نلقي بشك مريب على كل من كان عضوًا في الجمعية.. من أراد التهام من؟ سيكون تقريرنا النهائي عن عصابة مسلحة

اتخذت مقرًا لها في هذه الفيلا.. عصابة تخطف الأبرياء، وقد كلفنا الاشتباك معها الكثير من الضحايا.. تأكد من أن رجالك لن يحكوا تفاصيل ما رأوه..»

في هذا الوقت لم أكن أعرف أن (غادة) وجدت نفسها ملقاة في شارع خلفي.. وحيدة.. لا تذكر الكثير عن أي شيء..

هكذا أخطأنا مرّتين..

كانت (غادة) الحقيقية هي التي خرجت أولًا.. الثانية هي المزيفة..

لا تذكر ما حدث لها.. يبدو أن رئيس مجلس الإدارة مزّق الجنديين، ثم ألقاهما في شارع خلفي، وعاد ليخرج من المدخل على سبيل المداعبة لنا..

عرفنا هذا في اليوم التالي وعرفنا أننا كنا حمقى.. وكان استيعاب هذا عسيرًا..

لكني على كل حال أستبعد أننا كنا سنرى (أبراكساس) مكبّلًا بالأصفاد يطلب سيجارة من المخبر في عربة الترحيلات.. هذا يفوق تصوري للأمور..

☆ ☆ ☆

سوف تعود الحياة لمجاريها.. برغم كل من هلكوا..

سوف يعود د. (سامي) من فترة العلاج القصيرة في المصحة التي يديرها زميله..

سوف يسترد الضحايا حياتهم الطبيعية وينسون ما حدث.. مع الكثير من العلاج النفسي طبعًا.. إنهم لم يتحولوا إلى غيلان ولم يصيروا طعامًا للغيلان.. إنهم في نقطة العودة برغم كل شيء..

سوف يُدفن (عامر) و(جمال) اللذان هلكا أثناء تبادل الرصاص.. ومعهما (عدنان) طبعًا..

سوف يعود (حنفي طفاشة) لحياته الجديدة الشريفة..

من يدري؟ ربما تهدم الحكومة الفيلا بالكامل..

سوف يعود (أبراكساس) لمحاولة خلق البيئة المناسبة لظهوره على الأرض والسيطرة عليها.. في مكان ما هناك شخص ما يحاول إنشاء ناد ثان للغيلان.. أعتقد أن الكثيرين في الولايات المتحدة يهتمون بموضوع أكل لحوم البشر هذا، ولسوف يجد النادي أعضاءه بسهولة هناك..

تعرفون أنني على وشك الموت وأن أيامي على الأرض معدودة.. يومًا ما سيعود لي (أبراكساس) الرهيب بغية الانتقام، لكنه سوف يفاجأ بأنني قد توفيت منذ عامين، وأنني في جوار إله رحيم قادر على كل شيء..

سيكون هذا أكبر مقلب شربه (أبراكساس) في حياته الكابوسية اللعينة، وهنا فقط سوف أقول بملء فمي إنني هزمته..

☆ ☆ ☆

في القصة القادمة نعود لاسترجاع حلقات (بعد منتصف الليل)..

لدي شريط آخر لم تسمعوه من قبل، وأعتقد أنه سيروق لكم..

لكن هذه قصة أخرى..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

المصادر:

جمال عبد الناصر أقنعة الرعب. المكتبة الثقافية 466 الهيئة العامة للكتاب. 1991
فاروق خورشيد: أديب الأسطورة عند العرب. عالم المعرفة 2002,284
عدد من مواقع الإنترنت.

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

المقـدمـة

الجـزء الأول: جمعية الباحثين عن الحقيقة

1

2

3

4

5

6

7

8

9

الجزء الثاني: نادي الغيلان

1

2

3

4

5

6

7

8

9

الجزء الثالث: آخر الأعضاء

1

2

3

4

5

6

7

8

9
10
11
المصادر:

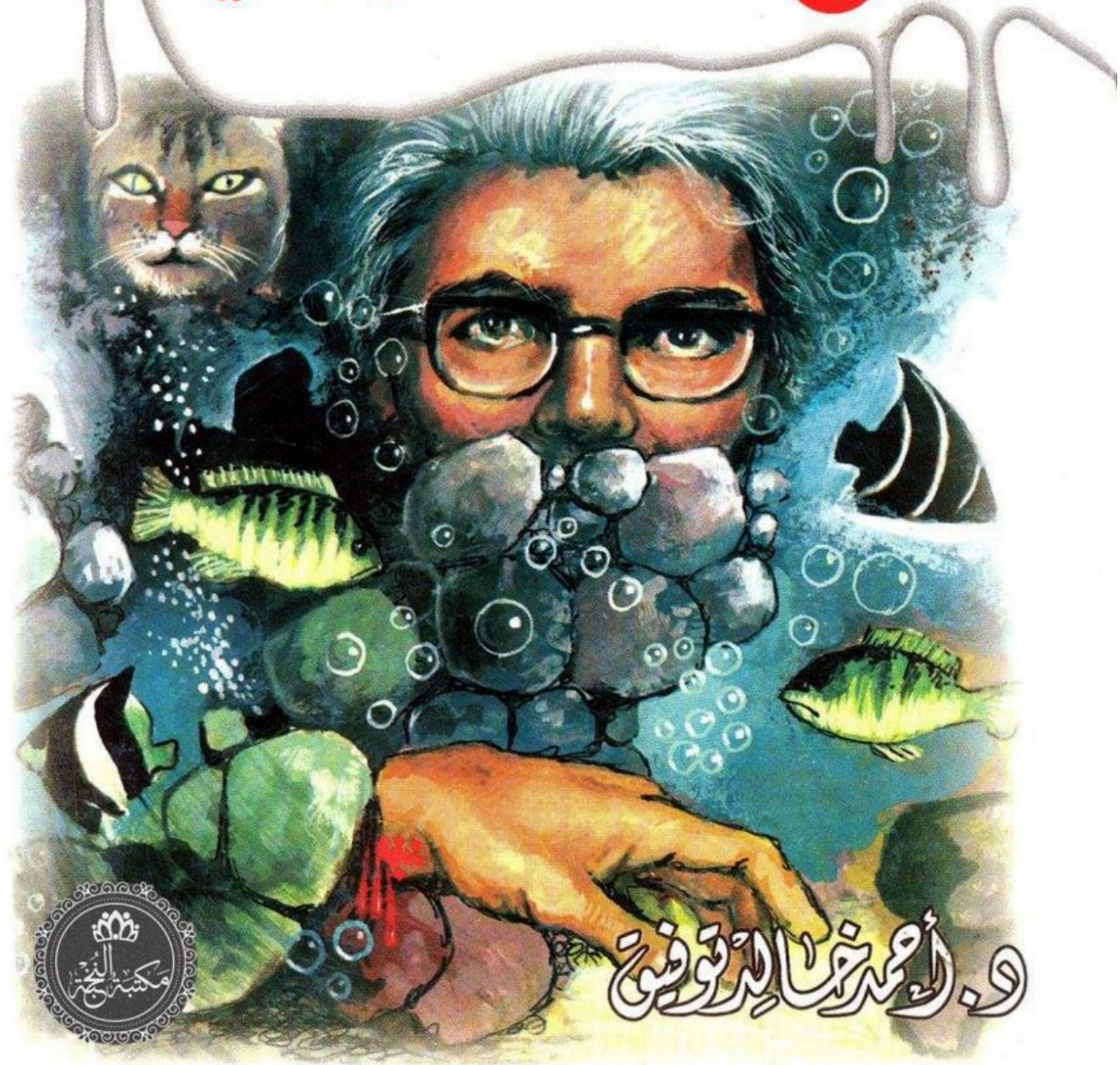
Notes

[1←] و(هانيبال لكتر) فيما بعد..

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

70 الحلقات المنسيّة



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة النخبة

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



المقدمة

هذه هي حلقة الرعب السابعة..

أنا العجوز (رفعت إسماعيل)، وهذه سلسلة ما وراء الطبيعة، وأنتم القراء.. جميل.. يمكننا أن نبدأ..

ماذا؟.. مقتضب أكثر من اللازم؟

غريب.. كنت أعتقد أن أسوأ صفحات الكتاب هي الصفحات التي أقف فيها لأتكلم قبل السماح لكم بدخول القصة.. رأيت في طفولتي مشعوذًا يقف على باب خيمة ملاه، وهو يعدنا نحن الأطفال بالمرأة الأفعى والفارس مقطوع الرأس وفتاة النار والكهرباء. كان يسد الطريق بجسده العملاق، وأعتقد أنه ظل يتكلم نصف ساعة.. كنا نتحرق شوقًا ونوشك على الجنون، لكنه لم يصمت قط.. في النهاية سمح لنا بالدخول.. كان لكلامه الطويل أثر مهم هو أننا لم نحب قط ما قدمه لنا ولم ننبهر به.. لم يقدم لنا طبعًا سوى الألعاب المعتادة السخيفة من عينة الحلقات المتداخلة وأوراق اللعب والكرات التي تخرج من فمه.. لكنه لو طار في الهواء وخرج الشرر من أذنيه وكمش أحدنا ليضعه في قبضته، لما انبهرنا كثيرًا.. لقد أشعل حماسنا إلى درجات غير مسبوقة؛ لذا بدا أنه ليس بوسعه إطفاء هذا الحماس..

مهما فعل.

لهذا أقول إنني لن أتكلم كثيرًا.. سوف نبدأ على الفور..

كنت قد قدمت في الكتيب الثلاثين عدة حلقات من البرنامج الإذاعي القديم (بعد منتصف الليل)، الذي كنت ضيفه الدائم عامي 1969 و1970.. أنتم تعرفونه الآن وتعرفون أن حلقاته اندثرت.. إنِّه كان يمثل للمستمع العربي في بداية السبعينات ما تمثله حلقات (منطقة الشفق Twilight Zone) و(مختارات رود سيرلنج Rod Serling) للمشاهد الغربي، وإن اختلف الأمر لأن حلقاتنا كانت تتعامل مع مكالمات المشاهدين الساخنة الحية وليست حلقات مكتوبة سلفًا يؤديها ممثلون محترفون.. أعترف أنها كانت فكرة سابقة لعصرها في ذلك الوقت قبل أن يبدأ عصر الفضائيات و(مداخلات المشاهدين).. إلخ.. بثلاثين عامًا والسبب هو ذلك الشاب النشط الشبيه بشلال أفكار وحماس لا يهدأ: (شريف السعدني)، دعك من أنها كانت شجاعة لا ننكرها من الإذاعة أن تسمح للمتصلين بالكلام على الهواء مباشرة مهما قالوا.. في هذا الزمن لم تكن لدينا تلك التقنية التي تؤخر صوت المتكلم بضع ثوان تسمح بقطع مكالمته - لو خرج عما هو مقبول - قبل أن يصل صوته للمستمعين ومن جديد كان على (شريف) أن يخوض حربًا إدارية مع المسئولين كي يقدم هذا العمل الثوري.

تعرفون أن الكثير من الشكاوى انهال على الإذاعة وقتها لأن البرنامج يخيف الصغار، وأنا لا أفهم من هو الصغير الذي يبقى متيقظًا يستمع للمذياع في الواحدة صباحًا؟.. لابد أنه غول صغير مفزع لا يقدر شيء على إخافته.. إنّه هو الذي يصنع الرعب ولا يتأثر به..

المهم أن نفسية الأطفال انتصرت وأوقف البرنامج، وقد فقدت الكثير من حلقاته للأسف.. أعرف يقينًا أن عندي سبعين حلقة منه، لكني لا أجدها مهما بحثت ومهما نقبت..

إلا إنني كنت أفتش في حاجياتي الأسبوع الماضي، حينما وجدت بكرة من شريط تسجيل.. جربتها على جهاز التسجيل العتيق ذي البكرتين الموجود في مكتبي فسمعت أصواتًا واضحة.. إنّه شريط قابل للاستماع إليه.. حلقات كاملة نسيتها تمامًا (من بعد منتصف الليل) لكنّها ما زالت عندي..

هكذا لم أنم ليلتها ولا لمدّة أسبوع كامل، وأنا ساهر في مكتبي أفرغ هذه التسجيلات على الورق، وفي النهاية ظفرت بعدة قصص لا بأس بها..

هذه إذن هي الحلقات المنسية من (بعد منتصف الليل)..

إن الجو مألوف لكم وأنتم تعرفون قواعد اللعبة.. هل فهمتم لماذا كنت مقتضبًا؟

تعالوا نبدأ إذن..

الصفحات التالية هي تفريغ لحلقات مختارة من البرنامج الإذاعي (بعد منتصف الليل)، الذي كان يذاع في الواحدة صباحًا أسبوعيًا ونال شعبية كبيرة في عامي 1969 و1970، ثم منعت الرقابة إذاعته بسبب تأثيره السلبي على نفسية الأطفال.

مقدمة البرنامج الثابتة:

صوت صرير باب ينفتح ببطء..

ثم صرخة امرأة..

بعدها تبدأ موسيقا فاخرة متوجسة

ويدوي صوت المذيع هادرًا بلهجة منذرة:

بعد منتصف الليل

عزيزي المستمع:

هل لديك خبرة معينة بعالم ما وراء الطبيعة؟.. هل هناك خطر معين يطاردك؟.. هل ترى أشياء لا يمكن تفسيرها؟.. لا تتردد ارفع سماعة الهاتف واطلبنا فورًا.. سنصغي إليك ونحاول حل مشكلتك وإزالة مخاوفك، مع ضيفنا الدكتور (رفعت إسماعيل)

عزيزي المستمع..

أنت لست وحدك..!

(تتعالى الموسيقا من جديد ويبدأ ذكر اسم الفنيين)

تقديم: شريف السعدني

الهندسة الإذاعية: أسامة نجم

إخراج: جلال القصاص

(أخيرًا تخفت الموسيقا وتبدأ الحلقة)..

بعد منتصف الليل

شريف:

أعزائي المستمعين.. من جديد نلتقي في الساعات الأولى من صباح الجمعة في برنامجكم (بعد منتصف الليل).. كما تعرفون أنتم تتصلون بنا لتحكوا مشاكلكم المتعلقة بعالم ما وراء الطبيعة.. ونحن نستمع ونقترح حلولًا، ومعنا دائمًا د. (رفعت إسماعيل) أستاذ أمراض الدم بكلية طب (.....)، والذي قضى حياته يواجه مشاكل من هذا النوع؛ لذا هو صاحب خبرة عظمى.. د. (رفعت).. هل يمكن أن تقدم نفسك للسادة المستمعين؟

رفعت:

هذا طلب غريب يا شريف.. ما داموا هنا فهم يعرفون من أنا، وإلا لما كانوا هنا.. ظننت هذا واضحًا.. على كل حال أنت قدمت اسمي ومهنتي واهتماماتي.. لم يعد هناك جدوى من إضافة شيء آخر..

شريف:

هناك دائمًا مرة أولى كما تعرف.. نحن بانتظار مكالمتكم الأولى لتقدم الوقود لآلة الرعب فلا تتوقف..

رفعت:

كلما سمعت هذه العبارة تذكرت عبارة (إلقاء بعض الجثث للكلاب)!.. إن لها نفس الرنين..

شريف (حرج واضح):

نعتذر للسادة المشاهدين، فهم على كل حال اعتادوا أسلوب د. رفعت الساخر من كل شيء.. إن له طريقة معينة في السخرية لا تدرك معها أنه يمزح.. هل اكتسبت طريقة السخرية هذه يا د. (رفعت) من تعاملك مع كل الرعب الذي مررت به في حياتك؟.. كأنك لو لم تسخر لجننت كما يقول لورد بيرون: أنا أضحك حتى لا أبكي؟

رفعت:

بل على العكس اكتسبتها من تعاملي مع البشر.. هناك مزية مهمّة لدى المسوخ هي أنك لا تشعر معها بالملل أبدًا.. لم ألق قط مومياء تكرر نفسها، أو مصاص دماء يقول نفس الآراء، أو مذءوبًا مصرًّا على نفس النكات التي يقولها ويكون أول من يضحك عليها.. كل شيء حدث من قبل.. كل كلام قيل من قبل لهذا أشعر بأن الناس ضعاف الذاكرة بشكل لا يصدق.. ولهذا لو لم أسخر لجننت.

شريف (في قلق):

تأخرت المكالمة الأولى فعلًا.. أعتقد أننا سنستمع إلى أغنية لـ (عبد الحليم حافظ) بانتظار المكالمة الأولى..

رفعت:

في كلّ مرّة يحدث هذا.. ننتظر وننتظر ثم تأتي المكالمة، لكني في الحقيقة لا أملك تفاؤلك.. أحيانًا أتخيّل الحلقة التي لا تصلنا فيها أية مكالمات فلا يحدث شيء سوى أن أثرثر معك لمدّة ساعة..

شريف:

لعل نشأتي في حي شعبي علمتني شيئًا من إيمان الحرفيين المطلَق بحتمية الرزق.. لا أحد ينام جائعًا.. الله يرزق الجميع، والطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا، إذن لن ينتهي البرنامج من دون مكالمات.. والآن تعالوا نستمع إلى الفنان (عبد الحليم حافظ).

(تبدأ الأغنية)..

(صوت رنين الهاتف)..

شريف:

يبدو أنّ هذه مكالمتنا الأولى.. آلو.. برنامج (بعد منتصف الليل).. تفضل..

صوت شاب:

هل د. (رفعت إسماعيل) هنا؟

شريف:

فعلًا.. هل لنا أن نعرف من أنت؟

الشاب:

أنا (ميدو)..

شريف:

هل هذا اسم مستعار أم اسم تدليل أم هو اسمك فعلًا؟

الشاب:

لا عليك.. هذه تفاصيل لا تهم.. أنا أمر بظروف نفسية خطيرة.. إن زوجتي تريد أن تأكلني..

شريف:

منذ متى؟.. وكيف عرفت هذا؟

الشاب:

أنذرني أحد رفاقي منها.. قال لي إنها تلتهم البشر وإنها تبيت النية لالتهامي..

شريف:

وكيف عرف صديقك هذا؟

رفعت (مفكرًا):

أعتقد أنه.. لا داعي أن....

الشاب:

عرف ذلك لأنها زوجته..!

شريف:

هل تقصد أن زوجتك متزوجة من رجلين؟.. هذه جريمة يعاقب عليها القانون.. إن..

رفعت:

(شريف).. دعك منه.. أعتقد كذلك أنك غير متزوج أصلًا أيها الشاب؟.. أعتقد أنك ساهر مع أربعة من رفاقك وقد قررتم التسلية...!

الشاب:

أنت مخطئ على طول الخط يا دكتور.. هل تعرف السبب؟

رفعت:

لا..

الشاب:

لأنني ساهر مع خمسة من رفاقي لا أربعة!.. هأو أو أو أو؟ (ضحك جماعي ماجن)..

(يضع السماعة)

رفعت:

توقعت هذا منذ البداية.. أشم رائحة التهريج عندما تلعب برأس الشباب.. تعرف ذلك الظريف الذي يشطب كلمة (عدم) من عبارة (نرجو عدم التدخين) في الحافلات، والذي يركب الدراجة ليصفع الناس على أقفيتهم.. إن التهريج له شيطان حقيقي.. هذا الذي يجعل خمسة شبان يتصلون

ليتسلوا على حسابنا وهذا يعطيك فكرة لا بأس بها عن إحساس الشعوب باحترام الذات.. إحساسها بالمسئولية والفارق بين الجد والهزل..

شريف:

لربما اعتقدوا أننا ما دمنا نتكلم عن الأشباح فنحن غير جادين..

رفعت:

كما يقولون: نحن نمزح هنا فلا داعي للتهريج!.. هذا صحيح ودقيق تمامًا.. حتى المرح له قواعده التي تفسد بالتظرف الزائد.. ثم إننا نحاول أن نكون علميين منطقيين، فلا مجال للمقالب الظريفة هنا.. ما علينا.. يبدو أننا سننتظر مكالمتك هذه من جديد..

(الأغنية من جديد)..

شريف:

يبدو أن الانتظار.. (رنين جرس الهاتف).. آلو؟

صوت رجل:

هالو.. هل د. (رفعت) معك؟

رفعت:

نعم.. نعم.. هل من مشكلة يا سيدي؟

الرجل:

اسمي (مسعد أبو الدهب).. ولدي مشكلة.. هل يمكنني الكلام؟

شريف:

تفضل.. نحن موجودون هنا من أجلك..

مسعد:

أعتقد أن زوجتي كانت تريد أن تأكلني..!

الحلقة الأولى

الزوجة تعرف أكثر

يحكيها (مسعد أبو الدهب)

كدت أدنو لأسألها عما هنالك، ثم أحجمت عن ذلك.. لقد كان المشهد مهيبًا رهيبًا لا يغري بأن تجرب حظك وتقترب.. في هذه اللحظة فقط عرفت أنني لا أعرف الكثير عن (شيرلي) زوجتي الأمريكية..

رفعت:

هذه مشكلة فريدة من نوعها.. ولسبب ما يتعلق بالحدس أعتقد أنك لا تمزح يا سيدي.. يبدو أن لدينا حشدًا من الرجال توشك زوجاتهم على التهامهم الليلة..

مسعد:

لا أفهم ما تقول فأنا لا أسمع البرنامج.. أنا أتكلم من مكتبي..

شريف:

يبدو لي صوتك وقورًا يا سيدي، فلو اتضح أنك تمزح....

رفعت:

لا أعتقد.. يا شريف.. ثق بي.. أعرف نبرة الصدق عندما أسمعها كما عرفت نبرة التهريج من قبل.. فقط لنسمع القصة من البداية يا أستاذ مسعد..

مسعد:

أنا مهندس في الخمسين من العمر.. قضيت شطرًا لا بأس به من حياتي في الولايات المتحدة وعدت مؤخرًا.. أصلًا أنا من المنوفية، وقد ادخر أهلي كل قرش كي يجعلوا مني مهندسًا، ثم تخرجت في الكلية وظفرت بتلك البعثة للحصول على الدكتوراه..

رفعت:

أنت تحكي قصة حياتي بشكل آخر..

مسعد:

في ذلك الوقت حدث الخلاف الشهير بين الرئيس عبد الناصر وحكومة الولايات المتحدة، وتم إلغاء كل البعثات التي تدرس في الولايات المتحدة، وتم تحويلها إلى الاتحاد السوفييتي يصعب أن تجد دكتوراه من الولايات المتحدة في تلك السنين، ولكني كنت قد تزوجت من فتاة أمريكية لذا تركتها في الولايات وعدت لمصر حيث قمت ببعثة الاتحاد السوفييتي.. بعد الحصول على الدكتوراه عدت إلى الولايات وعملت هناك..

رفعت:

كل هذا جميل.. لكنه لا يدل على أن زوجتك تريد التهامك لو أردت رأيي..

مسعد:

اصبر عليَّ قليلًا.. عرفت زوجتي ساقية في كافتيريا في كاليفورنيا.. كانت جميلة أو هكذا رأيتها، وعندما تكلمت معها وجدتها على استعداد لأن تعرف المزيد عن المصري الأسمر القادم من بلاد التماسيح حيث يركبون الأفيال.. أنت تعرف هذه الصورة الضبابية لدى الغربيين عن مصر.. جوار وعبيد سود وأفندية بالطرابيش.. هكذا وقعت في حبي وتزوجنا.. اسمها كان (شيرلي دونر) قبل أن تصير (شيرلي أبو الدهب) كما تنص العادات الأمريكية، وقد كانت مدرسة ثم تركت التدريس.. سرعان ما رزقت بطفلين (نانسي) و(محمود)، وبشكل ما شعرت بأنني غرست جذوري في ذلك البلد للأبد.. لديك طفلان يتكلمان الإنجليزية ولا يعرفان لهما وطنًا سوى تلك الأرض..

رفعت:

يبدو من كلامك أنها زوجة طيبة.. ليست من الطراز إياه..

مسعد:

لقد عرفت طباعي.. على كل حال استمرت حياتنا هادئة.. الآن طفلاي في سن المراهقة، وقد خطر لي أن الوقت قد حان لأن يمرّا بهذه المرحلة العسيرة في مصر.. أنت تفهمني.. لا أريد أن تطالبني الفتاة بالخروج مع صديقها، أو أن أجد الولد يدخن الماريجوانا مع رفاقه..

شريف (في قلق):

المشكلة يا سيدي.. المشكلة من فضلك.. ليس البرنامج أبديًّا..

مسعد:

اصبر قليلًا.. يا أخي أنت العربي نافد الصبر، بينما أنا القادم من بلاد العجلة الدائمة أطالبك بالتمهل..

شريف:

ربما أنت مصري أصيل.. والآن أرجو أن تدخل في الموضوع..

مسعد:

في سن الأربعين، بدأت زوجتي تمر بأعراض عصبية غريبة.. كانت تتشاجر بسهولة وتضرب الطفلين، ولم تعد تطيق أية كلمة أقولها..

رفعت:

هذه سن مبكرة بالنسبة لتغيرات سن الإياس الفسيولوجية.. سن الإياس هي سن انقطاع الدورة، وهنا تلعب الهرمونات ألعابًا شيطانية كما تعرف.. إن بعض النساء يتحولن إلى نمور مفترسة لأن فكرة فقدان الأنوثة تثير جنونهن.. دعك من أن فقدان هرمون الأستروجين كارثة..

مسعد:

ليس الأمر كذلك.. إنها من أسرة تحتفظ بأنوثتها طويلًا.. أقول إنها صارت عصبية، وصارت مولعة بأن تعض من يختلف معها!!

رفعت:

تعض؟!!

مسعد:

نعم. ربما تحسبني أمزح لكنّها الحقيقة.. كانت عندما تضايقها (نانسي) تمسك بمعصمها وتعضه.. عندما ضايقها (محمود) اعتصرت حلمة أذنه بين أنيابها حتى صرخ ألمًا.. دعك من أن شهيتها لأكل اللحوم تزايدت بحق.. كانت تتناول اللحم في الإفطار والغداء والعشاء.. أصابها هذا بإمساك مزمن عنيف.. رائحة أنفاسها تذكرني برائحة قفص الأسود في حديقة الحيوان..

رفعت:

هذا لا يدل على شيء.. إن اختيارنا لطعامنا يعتمد على حالتنا النفسية بشكل كبير.. دعك من أنني لا أعفيك من المسئولية إن الملل وفتور الحياة الزوجية بسبب طول المدة يشعران الزوجة بأنها شيء مهمل في البيت.. ماذا تفعل؟.. تخرج عصبيتها على شكل شراهة زائدة..

مسعد:

ربما.. لكن ليس إلى حد اختفاء القط!

رفعت:

هناك قط مختف كذلك؟

مسعد:

أنت تعتقد أنني مجنون.. لكني أؤكد لك أننا كنا في الولايات واختفى القط الجميل (بتسي).. بحثنا عنه طويلًا فلم نجده.. هل التهمته الفئران؟..

رفعت:

هناك ألف سبب لاختفاء قط سوى السبب الذي تحاول إقناعي به..

مسعد:

على كل حال كان هذا هو الوقت الذي ظهرت فيه (سامانتا).. كنا نستعد للسفر إلى مصر وقد اعتادت (شرلي) أن تغادر البيت للتسوق وإعداد الأشياء التي ستأخذها معها، وكنت وحدي في

الدار عندما دق جرس الباب.. فتحته فوجدت سيدة عجوزًا قالت الى إن اسمها (سامانتا بلامر).. كأن هذا مبرر كاف للسماح لها بالدخول.. قالت لي إنها خبيرة أنساب وإن ما لديها مهم جدًّا ولن يستغرق شيئًا من وقتي.. يجب أن تتكلم قبل أن تعود السيدة (أبو الدهب) من الخارج.. سمحت لها بالدخول.. كانت قصيرة القامة نحيلة جدًّا، في ثيابها شيء من الخبال.. خطر لي أنها أقرب إلى ساحرة عجوز أو وسيطة روحانية.. أغرب شيء أنه كانت لها ضفيرة طويلة بيضاء تصل إلى ردفيها.. لمسة طفولية جدًّا لا تناسب سنها..

على كل حال كان كلامها مختصرًا جدًّا.. قالت لي إنها تعتقد أن زوجتي من أسرة (دونر).. قلت لها إن هذا استنتاج عبقري اسم زوجتي كان (شيرلي دونر) فماذا تتوقع؟..

هنا أخرجت تلك الشمطاء لفافة تبغ أشعلتها وضحكت حتى غلبها السعال، ثم قالت: هذه حادثة شهيرة جدًّا في التاريخ الأمريكي.. في العام 1846 كانت الهجرة إلى الغرب في ذروتها.. ملايين الرواد انطلقوا بعرباتهم نحو الغرب وسط أراض معادية وبيئة قاسية وهنود صمموا على الدفاع عن أرضهم.. من بين هؤلاء كانت جماعة (دونر Donner) التي سافرت في قافلة تتكون من 87 مهاجرًا متجهين إلى كاليفورنيا.. كانت الطبيعة قاسية معهم وقد حاصرهم الجليد في يوتاه.. البرد والجوع والخوف.. مات أربعة منهم.. ثم وجد الباقون أن الطعام قد نفد وأن عليهم إذا أرادوا الحياة أن يلتهموا اللحم البشري.. في البداية أجروا قرعة لكنهم لم يجدوا الشجاعة لتنفيذ ما أملته هذه.. فكروا في أكل الأدلّة الهنود لكن هؤلاء فضلوا الفرار وسط الثلوج.. هكذا اضطر البؤساء لأكل من ماتوا منهم.. بعضهم فضل الانتحار وبعضهم جن.. ولم ينج إلا نصفهم في يناير 1847..

قلت لها: إنها لقصة رهيبة لكني لا أعرف علاقتها بي..

قالت: لقد نجا كثيرون من أسرة دونر.. من بين هؤلاء الشقيقتان الطفلتان (جورجيا) و(إليزا دونر).. لكن القصة الرهيبة اشتهرت في التاريخ الأمريكي ونسجت حولها أساطير عدة.. أنا مهتمة بهذا الموضوع ويمكنني أن أعرف بالضبط أين ذهب كل واحد من هؤلاء اليوم.. زوجتك الرقيقة واحدة من أحفاد (جورجيا دونر) التي تزوجت ابن عمها..

قلت لها في عصبية: وعلام يدل هذا؟.. البشر يتكاثرون ويتزاوجون وينتشرون في الأرض.. ربما كنت أنا من أحفاد دراكيولا أو يوليوس قيصر.. فهل يدل هذا على شيء؟

قالت لي إنها كلما بحثت عن واحد من أحفاد (دونر) وجدت أن شيئًا مريعًا أصابه في سن الأربعين.. أكثرهم يُصاب بانحراف نفسي ويدخل المصحة في هذه السن، وبعضهم ينتحر.. لكن هناك أكثر من حالة موثقة من حالات أكل لحم البشر.. هذه هي الحقيقة.. ثمّة ميل غير مفهوم لدى أحفاد دونر لأكل اللحم البشري.. هذا الميل يبدأ في سن الأربعين.. لا أحد يعرف سبب تحول هؤلاء إلى عشيرة من الغيلان ولا لماذا ورثت هذه الصفة، لكنّها الحقيقة..

رفعت:

لحظة.. أنت تعرف كما أعرف أن كلام تلك السيدة هراء.. (لامارك) قال إن الصفات المكتسبة تورث، لكن من قال إن التهام اللحم البشري لمدّة تقل عن عام صفة قابلة للتوريث؟.. هل دخلت هذه العادة التركيب الجيني لهؤلاء؟

مسعد:

أنا لست طبيبًا يا د. (رفعت) ولا أفهم حرفًا مما تقول.. فقط أنا أنقل لك بأمانة ما قيل لي وما رأيت..

شريف:

أرجو أن تكمل..

مسعد:

سألتني السيدة عما إذا كنت لاحظت تصرفات غير مفهومة لدى زوجتي، فقلت لها لا.. قالت إنها تأمل ألا أكون كاذبًا.. كنت عنيفًا غليظ الطبع معها، وأعتقد أنني كنت أقرب إلى طردها من داري.. من الصعب أن يتظاهر المرء بالرقة مع امرأة تقول له إن زوجته غول.. قالت لي وهي تهم بالانصراف: فقط أردت أن أنذرك.. عرفت أنك وزوجتك ذاهبان مع الأطفال إلى مصر.. هناك ستجد نفسك بعيدًا عن الولايات وعمن يعرفون ما يجب عمله.. أريد أن تكون حذرًا..

رفعت:

طبعًا انصرفت تاركة لك تذكارًا مهمًا: القلق..

مسعد:

سأكون مبالغًا لو قلت هذا.. ما قالته كان كلامًا عامًا لا أهميّة له ولا تفوح منه رائحة الصدق.. عادت زوجتي من الخارج بعد قليل فلم أخبرها بحرف عن هذه السامانتا.. فقط أثناء تناول العشاء رحت أوجه أسئلة حذرة عن أسرتها.. قالت لي إنها لا تعرف الكثير عن جدودها.. لقد جاءوا من الشرق في زمن الهجرة الكبرى، واستقروا في أرض كاليفورنيا الخصيبة بعد هذا تركنا الولايات وجئنا إلى مصر..

رفعت:

هل حدث شيء غريب؟

مسعد:

بعد زيارة أهلي في المنوفية ابتعت بيتًا هو أقرب إلى فيلا في الهرم، واستقررت فيه، كما اتخذت لنفسي مكتبًا قريبًا.. كانت هي منبهرة بمصر الفرعونية لا المعاصرة ككل الأجانب.. وقد

كونت عدة صداقات والتحق الطفلان بالمدارس هنا.. في البداية كان كل شيء على ما يرام والحياة هادئة، وبدا لي أننا نتأقلم بسرعة.. حتى كانت تلك الليلة..

كنا قد نمنا مبكرًا، وفي الثالثة صباحًا صحوت من النوم لأن مثانتي توشك على الانفجار.. نهضت فلم أجدها في الفراش جواري.. نهضت أبحث عنها في البيت كله لكن لا أثر لها.. ثم وجدتها.. كنت قد غادرت البيت من الباب الخلفي، ودرت حوله عبر مساحة خالية فيها رمال رطبة.. هكذا رأيتها من بعيد تقف قرب الباب الأمامي.. وجدتها تقف في الخارج في ضوء القمر كانت حافية القدمين متصلبة تنظر إلى القمر في ثبات.. كان ظهرها لي فرأيتها تتحسس رأسها كأن قنبلة توشك على الانفجار فيه، ثم جثت على ركبتيها وراحت تتلوى وهي تمسك بصدغيها.. كدت أدنو لأسألها عما هنالك، ثم أحجمت عن ذلك.. لقد كان المشهد مهيبًا رهيبًا لا يغري بأن تجرب حظك وتقترب.. في هذه اللحظة فقط عرفت أنني لا أعرف الكثير عن (شيرلي) زوجتي الأمريكية..

رأيتها تنهض وهي تتشنج.. كل عضلة في جسدها تتشنج ثمّة شيء غير بشري في هذا المشهد.. ذيل السحلية.. نعم.. ذيل السحلية المبتور.. هل رأيت كيف يتلوى؟..

ورأيتها تدخل إلى البيت.. هكذا مشيت وراءها خلسة فرأيتها تتجه إلى غرفة النوم.. فتحت فمي لأقول لها إنني هنا، لكني توقفت..

كانت الآن توليني ظهرها حيث وقفت داخل الغرفة عند رأس الفراش في الظلام، وهي تنظر إلى الغطاء المكوم الذي يفترض أنني نائم تحته.. رأيتها تفتح أصابعها وتغلقها كأنها المخالب ثم تنحني في حذر لتقبض على طرف الغطاء.. وهنا فقط عرفت أنها تزوم كالوحوش.. تزوم..

في لحظة انتزعت الغطاء بحركة درامية مفاجئة.. فلم يكن تحته شيء طبعًا.. أقسم أنها أصدرت زئيرًا يعبر عن خيبة الأمل..

استدارت لكني كنت قد توقعت هذا، فهرعت أركض عبر الردهة إلى غرفة الأطفال وقلبي يتواثب في فمي..

في الداخل كانت نانسي ومحمود نائمين.. كل واحد في فراشه يحتضن دميته المفضلة. لا تنس أنهما لم يجتازا عتبة الطفولة بعد ليصيرا مراهقين بالكامل.. لسبب لا أعرفه دخلت الغرفة وأغلقت الباب خلفي بالمزلاج..

وقفت في الظلام متلاحق الأنفاس أصغي للصوت في الخارج.. ثم سمعت اللهاث.. سمعت الفحيح.. رأيت مقبض الباب يتحرك في محاولة للفتح.. وسمعت صوتها تقول بالأمريكية: هيه.. افتحا أيها الطفلان!.. مامي هنا!.. لماذا أغلقتما الباب؟

نهض الصغيران ولم يفهما ما يحدث.. نظرا لي في رعب فاحتضنتهما..

ماذا أقول وماذا أفعل؟

بعد قليل توقفت القرعات.. وشعرت بأنها ابتعدت.. فتحت باب الحجرة في حذر وخرجت.. أين هي؟.. وجدتها نائمة تغط في الفراش وقد بدا كأنها مشت عدة أميال.. في الصباح لاحظ الأطفال أن قطنا اختفى.. القط الشيرازي الجميل الذي ابتعته من المعادي قد اختفى..

رفعت:

قط آخر كالعادة.. تلك الحيوانات البائسة التي تضحي بأنفسها من أجلنا.. يمكن القول إذن أنها أخمدت هذا الجوع الوحشي الحيواني الذي باغتها..

مسعد:

لا يمكن فهم الأمور على ضوء آخر.. ثمّة نداء سمعته وهي نائمة.. حاولت أن تقاوم.. خرجت إلى الهواء الطلق لكن الأمور ساءت.. الزوج الأحمق لم يكن في الفراش، إذن ماذا عن غرفة الأطفال؟

شريف:

وعلاقتك معها بعد تلك الليلة؟

مسعد:

لا يمكن القول إنها تغيرت.. في الصباح بدا لي الأمر سخيفًا شعرت بأنني كنت أهلوس لا أكثر، وقد سألتها عن سبب خروجها فأنكرت في صدق أنها غادرت فراشها أصلًا.. الأولاد سألوها أسئلة محرجة لكنّها أنكرت كل شيء.. في الواقع بدا لي أنني كنت أحلم.. فقط عندما يأتي الليل تعاودني تفاصيل المشهد، وأقول لنفسي إنني أنام وأولادي في بيت فيه امرأة من أسرة (دونر).. امرأة يبدو أنها تعاني حنينًا شديدًا لجدودها ومزاجهم في الأكل.. أحيانًا أشعر بذلك الشعور الغريب بأنها غريبة عني تمامًا. من جاء بها هنا تحت سقف بيتي؟

رفعت:

يطلقون على هذا الشعور بالاغتراب اسم Jamais vu.. يمكن القول إنك لا تنام على الإطلاق إذن..

مسعد:

نعم.. نعم.. أظل مفتوح العينين طيلة الليل وأنهض كل ربع ساعة لألقي نظرة على الأطفال النائمين.. أخفي مدية تحت الوسادة وأصمم على بيع نفسي بثمن باهظ.. اللعينة تنعم بحياتها وتنام في سلام.. لن تصحو إلا عندما يغلبني التعب.. وعندها....

رفعت:

هل فكرت في احتمالية أن تقوم بتخديركم؟

مسعد:

نعم.. لهذا لم أكن أتناول أي شيء من يدها قرب المساء لا أعتقد أنها ستخدرنا يومًا كاملًا على كل حال..

رفعت:

لاحظت أنك تستعمل الفعل الماضي على طول الخط.. هل تغيرت الظروف؟

مسعد:

إلى حد ما..

رفعت:

أين زوجتك الآن؟

مسعد:

في الحمام..

رفعت:

وأين الأطفال؟

مسعد:

عند عمتهم في المنوفية..

رفعت:

حسين.. أنت تتكلم من المكتب فكيف عرفت أن زوجتك في الحمام؟.. لا أعتقد أن العلاقة الروحية بينكما بهذه القوة.. إلا لو كانت قد أخبرتك هاتفيًا..

مسعد:

دعك من هذه التخمينات.. أردت أن أخبرك أنني وجدت الليلة مظروفًا يحوي بعض الأوراق التي قررت زوجتي أن تخفيها عني.. أنها مصابة بنوبات صرعية من نوع فريد.. يبدو أنه ما يطلقون عليه الصرع النفسي الحركي.. هناك تقرير من الولايات منها في حاجياتها..

رفعت:

هل يفسر هذا تلك التشنجات الغريبة والسلوك العجيب؟.. أعتقد هذا.. إن الصرع النفسي الحركي يمتاز بسلوكيات غريبة وفي الآن ذاته لا يسقط المريض على أرض ويتشنج كما يعرف

الناس عن الصرع..

مسعد:

ربما.. لكن الأوان قد فات لمعرفة هذا.. أنا كنت مرهقًا بعد سهر طال عدة أيام، والأطفال لم يكونوا في الدار.. نمت في حجرتنا بعض الوقت وكانت هي في المطبخ.. صحوت من نومي فجأة لأجدها تقف بجوار الفراش وهي تتشنج بتلك الطريقة الغريبة.. عيناها جاحظتان والزبد يسيل من شدقيها.. جن جنوني.. لم أعد أطيق هذه الحياة ولا أتحملها.. لقد انهار جهازي العصبي فعلًا هكذا مددت يدي تحت الوسادة وأخرجت المدية، ورحت أغمدها فيها مرارًا وأنا أصرخ: موتي أيتها الشيطانة..!.. موتي!.. لم أكن أنا من يصرخ ويطعن.. توتري هو الذي كان بفعل.. سقطت على الأرض جثة هامدة فجررتها إلى الحمام حيث المغطس.. بدلت ثيابي ثم جريت لأفتح الخزانة التي تحفظ فيها أوراقها الخاصّة.. أردت أن أعرف.. كان أول ما وجدته هو تلك التقارير.. زوجتي كانت مريضة جدًّا.. زوجتي لم تكن غولًا.. عندما دخلت غرفتي وانتزعت غطاء الفراش وعندما دقت على باب الصغيرين كانت تبحث عن عون بشري لا أكثر.. فقط تلك الـ (سامانتا) كهربت حياتي وملأتها ذعرًا..

شريف:

لكن هنالك قطان اختفيا.

مسعد:

كما قال د (رفعت): القطط تختفي لألف سبب غير أن يكون أحدهم قد التهمها..

رفعت (في ذهول):

هل تعني أنك؟.. تتكلم معنا بعد أن..؟

مسعد:

نعم.. أنا قاتل يا سيدي.. لقد انتهى كل شيء، لكني قررت أن أذهب لمكتبي لتناول آخر قدح قهوة له رائحة الحرية، سوف أتصل بالشرطة بعد انتهاء مكالمتي هذه لكني أردت أن أتصل بك أولًا..

شريف:

لماذا؟.. إن قصتك واضحة كالشمس الآن.. أليمة لكنّها واضحة.. ما الغامض فيها؟

مسعد:

ليست هذه القصة سبب اتصالي.. فقط أردت أن أسأل د. رفعت عن موضوع مطاردة أشباح القتلى لقاتليهم. هل هذا صحيح؟.. هذا هو سبب المكالمة!

رفعت:

أحيانًا يحدث هذا وأحيانًا لا يحدث.. هذه هي إجابتي وأرجو أن تكون مرضية لك**!**.. لكني سأقدم لك عزاءً بسيطًا.. على الأرجح يكون سبب الصرع النفسي الحركي شيئًا ما في الفص الصدغي للمخ.. أعتقد أن زوجتك تعاني ورمًا في هذا الموضع.. لو لم تكن قد ماتت لأعلن الورم عن نفسه، وكانت ستموت على الأرجح..

مسعد:

في هذا بعض العزاء لرجل فقد زوجته وأسرته ومستقبله في ليلة واحدة.. شكرًا لكما.. سوف أفرغ من لفافة التبغ هذه وأطلب الشرطة..

(يضع السماعة)..

شريف:

يا لها من مأساة..

رفعت:

هي امرأة فقدت حياتها لأن اسم أسرتها (دونر).. علي المرء ألا يتصرّف بشكل غريب عندما يكون من نسل أسرة تأكل لحوم البشر.. أرجو أن تكون الحلقة القادمة أكثر مرحًا..

الحلقة الثانية

تحـــــت !

يحكيها (كامـل)

لا أعـرف إن كـان هذا كله صـحيحًا أم أننـي أهذي.. القصة أنـهم أحياء وموجودون وعليك أن تتصرف يا دكتور (رفعت)..

شريف:

هذه حلقة أخرى من (بعد منتصف الليل).. قصصكم هي الوقود الذي يشغل آلة الرعب للأبد، وفي ظني أن المكالمة الأولى لن تتأخر كثيرًا..

رفعت:

كلما قلت هذه العبارة تأخرت المكالمة الموعودة.. أقترح أن تصمت..

شريف:

هل أنت فعلًا متشائم كما يقولون عنك يا د. (رفعت) وكما تحاول إقناعنا؟

رفعت:

هذه هي فلسفتي.. دائمًا أتوقع الأسوأ وفي كلّ مرّة يتضح أن توقعاتي كانت أسوأ من الحقيقة.. هذا جعل الحياة بالنسبة لي من المفاجآت السارة!.. المتفائلون في رأيي هم أكثر الناس إصابة بخيبة الأمل، بينما أنا أتوقع مثلًا أن يسقط علينا نيزك في هذه اللحظة.. لو لم يحدث هذا شعرت بأنني محظوظ وأن الحياة أجمل مما نظن!.. قرأت قصة حياة (ماجلان) فعرفت أنه كان يؤمن بأنه ولد في برج نحس.. هذا جعله شكاكًا أكثر من اللازم.. أي رحالة سواه كان التفاؤل سيدفعه إلى عدم الاستكشاف داخل اليابسة، لكن ماجلان بسبب شكه في حظه توغل أكثر من اللازم، ووجد مضيق ماجلان..

شريف:

أي أن التشاؤم نوع خاص جدًّا من التفاؤل..

رفعت:

لا أدري.. فقط هو طريقة تجعلني أرى الحياة جميلة!

(يدق جرس الهاتف)

رفعت:

هل ترى؟.. كنت أتوقع ألا يتصل أحد..

شريف:

نعم.. نعم.. المهم ألا تكون ربة بيت تطلب من البقال شايًا وكيلوجرامًا من السكر.. آلو.. مساء الخير..

سيدة:

مساء الخير.. من حسن الحظ أنكم لم تغلقوا بعد.. أنا لن أتعامل معكم ثانية..

شريف:

هذا غريب.. نحن لم نتعامل بعد يا سيدتي كي تقرري هذا القرار..

السيدة:

هل أنت (مصطفى)؟.. قلت لك إنني أريد أن تكون العكاوي بلدية.. وطلبت أن تكون الأقارع (بناتي) ولا تكون منفوخة.. عندما جلب لي الولد هذه الأصناف حسبت أنه أخطأ العنوان.. أعتقد أن المعلم (بيومي) قد انصرف الآن.. سوف تكون لي كلمتان معه صباحًا..

شريف:

في الحقيقة يا سيدتي نحن هنا في برنامج (بعد منتصف الليل) ولم نبع لك أي لحم أو أقارع.. أعتقد أنك أخطأت الرقم مع جزار الحيّ..

السيدة:

آه.. عدم المؤاخذة.. لكنك تفهم هذا الشعور بالغش.. لو لم أتصل في ذات الليلة لجننت ولما استطعت النوم لحظة.. لم يعد لدى الناس ضمير..

(تضع السماعة)

رفعت (يضحك في استمتاع):

هناك نقطة إيجابية في هذا الموقف..

شريف:

ما هي؟

رفعت:

إن المشاهدين متأكدون يقينًا من أن مكالمتنا أصلية وليست ملفقة.. هناك من اتهمنا بأنها مكالمات مكتوبة سلفًا يؤديها ممثلون..

شريف:

أنا حريص على ألا يتم أي نوع من ترشيح المكالمات قبل سماعها.. يمكن التخلص من هذه المضايقات بسهولة لو أنّ موظفًا أخذ منها بيانًا مختصرًا عن سبب المكالمة قبل تحويلها، لكني مصر على ألا يحدث هذا..

رفعت:

على كل حال العكاوي موضوع محبب للجميع.. لا أحد يتضايق من الكلام عن العكاوي لو أردت رأيي..

شريف (في ضجر):

بصراحة لا أعرف ما هي ولا يهمني أن أعرف.. أنا بانتظار المكالمة..

رفعت:

المذيع المحترف لا يعترف أبدًا بأنه يجهل العكاوي.. في الواقع المذيع المحترف لا يعترف أبدًا بأنه يجهل أي شيء.. العكاوي هي ذيل الذبيحة.. من الممتع دائمًا أن تعدها مع البطاطس في صينية تدخل الفرن.. غير أن الكوليسترول سوف..

(رنين الهاتف)

شريف:

آلو.. برنامج بعد منتصف الليل.. نحن بانتظار مشكلتك يا سيدي..

صوت شاب:

مساء الخير أو صباح الخير.. أنا (كامل)..

شريف:

على الأرجح هذا اسم مستعار.. لا يهم.. تفضل..

كامل:

لا أعرف إن كان هذا كله صحيحًا أم أنني أهذي.. القصة أنهم أحياء وموجودون وعليك أن تتصرف يا دكتور (رفعت)..

(يرتجف صوته منذرًا بالبكاء)..

رفعت:

أعرف هذه النغمة.. هل أنت متأكد من أنك لا تتعاطى علاجًا يا بني؟.. هل ثمّة طبيب نفسي يتابعك؟

كامل:

أنت مثل الآخرين.. تتكلم مثلهم.. من الواضح أنني أخطأت بالاتصال بك..

رفعت:

سامحني يا بني.. المرء يسمع الكثير من الهراء، لكن السمة العامة لهراء هذه الأيام هي نغمة (إنهم يلاحقونني).. يطلقون على هذا اسم (البارانويا).. لابد من وجود (إنهم) في الموضوع..

كامل:

على كل حال أنا فعلًا راغب في أن أتكلم حتى لو لم تصغ.. أنا الآن في كابينة سنترال عموميّة في مركز.. لا لن أقول.. العامل غاف على المكتب والكابينة مغلقة فلن يسمع أحد ما يُقال..

رفعت:

لكنك تتكلم عبر الراديو.. ولا تسألني عن رأيي في السر الذي يُقال ليسمعه كل من يملك جهاز مذياع..

كامل:

لا أحد يهوى برنامجك ممن أعرفهم.. ثم إن المركز فقير جدًّا.. لا أعتقد أنّ هناك أكثر من أربعة أجهزة مذياع ولا يوجد جهاز تلفزيون على ما أعتقد[1]..

رفعت:

حسن.. واضح أن مشكلتك ملحة.. هل لك أن تبدأ..

كامل:

قلت لك إنهم هنا.. في البدء كانت مجرد قصص وكنت أسخر منها.. ثم جاء (صالح) باحتمالاته وتحدياته.. من المصادفة أن يذاع برنامجك في هذا الوقت بالذات..

شريف:

(كامل).. نحن لا نفهم أي شيء..

كامل:

حسن.. أنا طالب آداب من قرية (....) التي تقع ضمن هذا المركز.. أدرس في القاهرة طبعًا.. (صالح) هو ابن عمي الذي عاش كل حياته في القاهرة.. إنّه شاب قوي الشخصية والجسد معًا.. ربما قوي العقل كذلك.. باختصار هو قادر على قيادة أية مجموعة يكون فيها..

لقد عاد (صالح) إلى القرية.. عاد ومعه عشرات القصص عن القاهرة ومغامراته هناك.. كنا نجتمع حوله قرب حقل الذرة ونسمع قصصه التي لا تنتهي.. كان خبيرًا في شيئين..

رفعت:

النساء والعفاريت!

كامل:

كيف تعرفت؟

رفعت:

القصة دومًا هكذا.. هناك قصة رائعة ليوسف إدريس تحكي عن شباب التفوا حول خبير منهم مثل هذا.. لكنه كان يحكي عن المنصورة.. وكلفهم هذا رحلة قاسية إلى المدينة التي لم ترحمهم..

كامل:

عندما كنا نعود إلى الدار كان يحتفظ لي بقسط خاص من القصص لأنني قريبه.. على المرتبة على الأرض كان ينام على ظهره محدقًا في الظلام ويحكي لي الكثير جدًّا.. أحيانًا يتسلل ضوء انفجر الشاحب ليغمرنا ونحن لم ننم بعد..

قال لي إن مقابر القرية ليست خالية ولا تمتلئ بالعظام النخرة كما أظن.. سألته عما يقصد.. فالتزم الصمت.. فقط قال إن كل شيء (تحت).. (تحت) هي الكلمة التي كان يصف بها عالمًا غامضًا تحت الأرض لا أعرف ما هو لكنه مخيف بما يكفي.

لم أفكر في الأمر جدّيًا إلى أن اختفي (عند الستار).. هذا طفل في السابعة من أطفال القرية.. في العادة يُعامل الأطفال هنا كالدجاج.. في الصباح تطعمهم الأمهات ثم تطلقهم.. يلعبون ويلتقطون رزقهم، ثم في المساء تقف كل أم بانتظار عودة دجاجها إلى العشة لتطعمه وتنيمه.. (عبد الستار) لم يعد في المساء وبحث الجميع عنه.. الأماكن المختارة للعثور على الجثث في الريف محدودة ومنها (المسقى) ووسط أعواد الذرة وتلك الوهدة خلف الجمعية الزراعية.. لم نجد جثثًا.. جاء من يحقق في الأمر من المركز، ولم يتبين شيء وتقرر حفظ القضية..

نحن قرية وادعة.. كلنا يعرف بعضه.. لا يمكن أن أجد من يصلح لخطف طفل أو قتله.. لكن ابن عمي كان يعرف..

رفعت:

طبعًا قال: إنهم هؤلاء الذين يقيمون (تحت)..

كامل:

بالطبع.. قال لي وعينه متسعتان: إنهم هم يا (ناجح).. أنا أعرف أنهم هم.. الصبي كان يلعب قرب المقابر فأخذوه..

قال لي إنهم عشيرة أو أسرة تعيش هناك منذ قرون ولها قوانينها الخاصّة.. يأكلون ما يجدون وهو كثير فإن لم يظفروا بطعام خرجوا يبحثون عن الأحياء.. منذ زمن لم يمت في القرية أحد،

لهذا يمكن أن نفهم لماذا اختفى الطفل.. لقد كانت المقابر خاوية لفترة وهذا جعلهم يجوعون..

لم أصدق حرفًا.. سخرت منه كثيرًا..

رفعت:

لحظة.. لماذا عرف ابن عمك ما عرف؟.. ما الذي ميزه عن عجائز القرية مثلًا؟

كامل:

هو سمع هذه القصة من عمي - رحمه الله -.. وقد صدقها تمامًا كان يرغب في أن يتخذ مدفنًا جديدًا لعمي، لكن عمي قال له إن عليه أن يعامله كأي واحد من أبناء القرية.. فليحدث له ما يحدث لهم..

رفعت:

مفهوم.. وماذا بعد ذلك؟

كامل:

أعتقد أنني تجاوزت بسخريتي الحد المعقول.. أعتقد أنني جرحت كبرياء ابن عمي.. أعتقد أن الأمر صار أقرب للكرامة لأنّه أصر على أن ينزل إلى المقابر بنفسه ليرى ما يحدث (تحت).. قال لي إنّه سيعود بالصبي أو جثته، ولسوف يخرسنا جميعًا.. حاولت أن أثنيه فقال لي في سخرية: أنت تخاف مع أنك تؤمن بأنه لا يوجد شيء.. كيف؟

رفعت:

الإجابة هي فوبيا الموت طبعًا.. كل ما يتصل بالموت رهيب غامض.. القبائل البدائيّة تحكم على من يلمس ميتًا بأنه تابو Taboo وقد يموت جوعًا لأنّه ممنوع من لمس الطعام. لو صح كلام (يانج Jung) فإننا في لاوعينا الجمعي نفكر كالقبائل البدائيّة تمامًا..

كامل:

سأكون شاكرًا لو ادخرت الفلسفة إلى وقت آخر.. ليس هذا وقتها

رفعت:

هي ليست فلسفة بل علم أجناس.. على كل حال سأصمت..

كامل:

كانت ليلة جمعة وقد أعد كشاف وحبلًا وخنجرًا.. ثم ودعني.. حتى اللحظة الأخيرة كنت أحسبه يمزح.. لن يفعلها.. لكنه انطلق نحو المقابر بينما بقيت أنا في الدار أرتجف.. وبالطبع مرّت الليلة

كلها ولم يعد. في الصباح جاءت زوجة عمي تسأل إن كان بات عندنا أم لا.. آخر ما سمعته عنه هو أنه شوهد متجهًا للمركز بعد منتصف الليل.. طبعًا أنت تعرف أنّ هذا كلام خاطئ على الأرجح.. هنا فقط بدأت أشعر بذعر حقيقي.. ماذا حدث؟.. ماذا رآه؟

ظللت صامتًا بضعة أيام بينما البحث جار عنه.. في النهاية لم أعد أتحمل.. أنا أصدق أصدقائه وقريبه.. أنا الوحيد الذي يعرف أين هو..

قلت لأقاربنا إنِّه (تحت).. فضحكوا وسخروا مني.. لم يكن أحد على استعداد لسماع ما أقول.. ولكن.. (**في رعب**).. لحظة..

(لحظات صمت)

شريف:

(كامل).. هل ما زلت معنا؟

رفعت:

اسمه (ناجح).. لقد تعثّر لسانه كما يحدث دائمًا.. في كل مكالمة ينسى المتصل اسمه المستعار في ثلثها الأخير.. لكن أين هو؟

كامل (يتنهد):

لا شيء.. خيل لي أنّ هناك من يسترق النظر لي عبر زجاج الكابينة.. لا يوجد أحد سوى الموظف النائم وأنا.. المنطقة مهجورة.. إنني متوتر جدًّا..

رفعت:

معك كل الحق.. لكن أكمل القصة..

كامل:

هكذا قررت أنا بدوري أن أنزل (تحت) لأرى ما يدور هناك..

شريف:

هذه شجاعة غير مسبوقة..

كامل:

الشجاعة الحقيقية كانت أن أبقى في داري وأتحمل تأنيب الضمير والقلق.. لا.. صدقني.. لقد اخترت أهون الخطرين كان هذا منذ ساعتين..

رفعت:

هل تعني أنك عائد من هناك لتوك؟

كامل:

نعم. ما زال تراب المقابر يلوث ثيابي وشعري.. لقد تزودت بكشاف وحبال وخنجر.. لا أعرف نفع هذه الأشياء لكني قدرت أن ابن عمي كان يعرف ما يفعل.. ثم غادرت الدار بعد ما نام الجميع متجهًا إلى المقابر.. كنت أعرف أنّ هناك مقبرة مفتوحة خالية فيها درجات تقود إلى حوش تحت الأرض.. هذا هو الموضع الذي كان (صالح) يتكلم عنه..

لا صوت سوى نباح الكلاب من بعيد.. عواء ذئب في مكان ما.. الظلام.. صراصير الحقل.. استكشفت موضع النزول ثم دسست جسدي وانزلقت إلى أسفل على ضوء الكشاف.. أخيرًا وجدت نفسي في ذلك الحوش..

كانت مقبرة حقيقيّة معدة للاستقبال لكنّها كانت خالية، وكان علي أن أزحف على قدمي ويدي كي أبحث فيها..

شريف:

بيني وبينك.. أنا متوتر أكثر منك.. لابد أنها تجربة مرعبة..

كامل:

نعم.. لو أنني سمعت صوتًا أو رأيت شيئًا يتحرك لتوقف قلبي ومت.. على أنني وجدت ممرًا ضيقًا يقود إلى قاعة مجاورة.. هكذا زحفت على يدي وركبتي إلى أن وصلت هناك واستكشفت المكان بالكشاف.. فئران كثيرة حمراء العيون كانت تحدق فيَّ غير وجلة.. رحت أقذفها بما وجدت من حجارة وشققت طريقي أكثر.. هنا رأيتهم!

رفعت:

ما الذي رأيت بالضبط؟

كامل:

رأيتهم!.. كانوا أحياء!.. كانوا يزحفون كالديدان.. كانوا يتسلقون الجدران الترابية.. يلبسون مثل البشر.. فقط ثيابهم في حالة زرية.. أطفأت الكشاف بسرعة حتى لا يروا وهجه لكنني أدركت أنّ هناك ضوءًا أحمر غامضًا يشبه الذي يحمض فيه المصورون الأفلام.. نفس الجو تقريبًا.. وعندما استدار أحدهم نحوي أدركت أنه لا وجه له!.. هناك فجوة كبيرة دامية تحتل موضع وجهه!

كنت قد اكتفيت من الرعب.. رحت أزحف خارجًا من هذه القاعة، وخرجت من المقبرة، لكني رأيتهم في الظلام يدورون حولها.. يبدو أنهم يخرجون من مخرج آخر.. كانوا يمشون مترنحين كالسكارى وأيديهم مفرودة.. كانوا يقصدونني..!.. لا شك في هذا.. لقد شعروا بي..

رفعت:

رحت تركض كالمجانين في الظلام وسط الكلاب المسعورة..

كامل:

الكلاب المسعورة تبدو شيئًا محببًا في ظروف كهذه.. هذه أشياء تعرفها وتعرف قواعد لعبها.. أشياء قبيحة تنتمي لعالمك وليست أشياء لا تفسير لها..

لقد كان (صالح) على حق، وأعتقد أنه لم يرزق حظي الحسن..

ركبت جرارًا إلى المركز حيث جهاز الهاتف.. هناك في قريتنا هاتف واحد موجود لديَّ العمدة، وهو معطل منذ فترة لا توجد طريقة للذهاب إلى المركز سوى على ظهر جرار.. ربما كنت أتخيّل لكني بالفعل شعرت كأنهم تبعوني إلى هناك..

لا أعرف من أكلم ولا من أسأل.. فقط تذكرت شيئًا عن برنامجك.. لقد كان صالح يحبه وقد أعطاني رقم الهاتف لأطلبك لو حدث شيء.. هكذا جئت إلى السنترال الوحيد بالمركز.. إن العامل نائم لم أستطع إيقاظه.. هكذا طلبتك بنفسي..

أنا الآن أطلبك سائلًا النصح.. ماذا أفعل؟

رفعت:

لماذا لا تعود للقرية و(الصباح رباح)؟

كامل:

من رابع المستحيلات أن أعود للقرية في الظلام على ظهر جرار. وأن أمشي وحدي وسط أزقة القرية المظلمة حتى أصل الداري.. يا أخي لم تعد أعصابي تسمح بذلك.. سأبيت في المركز.. ربما أبيت على الدكة الخشبية في هذا السنترال حتى الصباح.. السؤال هو: وماذا بعد ذلك؟

رفعت:

أعتقد أن عليك أن تكلّم كبار القرية.. لابد أنهم سمعوا شيئًا عن الموضوع...

كامل:

سوف يتهمونني بالجنون..

رفعت:

ستجن فعلًا لو قضيت حياتك تداري هذا السر..

كامل:

لحظة.. هناك من يتحرك في السنترال.. هو ليس العامل لكن.. لقد أزاح العامل بيده فسقط على الأرض بلا حراك العامل لم يكن نائمًا إذن.. إنّه ميت!.. ميت منذ دخلت إلى السنترال.. وهذا القادم.. إنّه..

(يصرخ):

إنه من دون وجه!!.. (رفعت)!.. إنّه منهم!.. لقد وجدوني!.. لابد أن (صالح) فعل نفس الشيء عندما لم يستطع أن يبقى في القرية لحظة أخرى.. حاول الاتصال بشخص يعرفه من نفس السنترال لكنهم قابلوه في الخارج.. لابد أنهم توقعوا ما سأفعله هذه المرّة، وربما كان أحدهم يتعلق بالجرار الذي جئت به..!

(صرخة طويلة أليمة.. صوت حشرجة.. الخط ينقطع):

شريف:

كامل أو ناجح.. ماذا حدث؟

رفعت:

ناجح..!

(صمت طويل):

شريف:

ما رأيك؟

رفعت:

إما أننا عشنا هواجس حالة بارانويا متقدمة، وإما أننا عشنا أحداث قصة من أفظع ما مررت به.. هؤلاء الذين يعيشون (تحت) قادرون على الحركة وعلى السفر إلى المركز.. قادرون على أن يحتفظوا بسرهم ويقتلوا من يعرفه..

شريف:

وإلى أي الرأيين تميل؟

رفعت:

لا أدري.. لكني لم أر مريض بارانويا متماسك المنطق إلى هذا الحد.. أعتقد أنه يمكن تضييق البحث نوعًا.. هناك قرية اختفى فيها طفل يدعى (عبد الستار) - لو كان الاسم صحيحًا - ثم شاب

ثم ابن عمّه طالب الآداب واسمه بالتأكيد (ناجح).. لو أمكن تحديد القرية لاستطعنا أن نفتش المقابر بحثًا عن شيء ما (تحت)..

شريف:

هذا يعني أنك تبنيت الرأي الثاني: هذا الذي سمعناه حقيقي..؟

رفعت:

ربما نعم.. ربما لا.. فقط أعرف شيئًا واحدًا: إنها لقصة مخيفة جديرة بأن تذاع في هذا البرنامج..

الحلقة الثالثة

مـــرب فاضـــل

يحكيها (مـرب فاضـل)

لا أعتقد أننا في سيبيريا، لكن النوّة كانت عنيفة جدًا وقد راحت البناية كلها تهتز من الرعد والريح، هكذا جلست في فراشي ورحت أشرب الحلبة الساخنة.. هنا لاحظت أن ضوءًا غريبًا يدخل من أسفل الباب.. أنا أغلقت كل الأنوار.. من أين جاء هذا الضوء؟

شريف:

كما اعتدنا يمكننا أن نناقش الحلقة السابقة إلى أن تأتينا المكالمة الأولى.. ما رأيك في قصة الأسبوع الماضي ياد. (رفعت)؟[2]

رفعت:

تلك الفتاة التي تعيش مع أخيها الصغير، وتزعم أنها عرفت أنه مات في حادث أليم منذ ثلاثة أعوام؟.. تقول إن أحدًا لم يعرف بالحادث سوى سجلات الشرطة، وأنها لم تعرف بحدوثه إلا بالصدفة.. هذا النوع من القصص صار مملًا، ولو عددت لك المرّات التي قابلت فيها فتاة تكتشف أن أخاها ميت لاحتجت إلى الليل كله..

شريف:

وماذا يحدث في كلّ مرّة؟

رفعت:

هذه من القصص التي تنتهي نهاية ضبابية. لا تعرف أبدًا ما حدث بعدها.. لا تجد دليلًا ملموسًا يريحك..

شريف (في غيظ):

كنت أحسب أن عندك إجابات قاطعة...

رفعت:

هذا عالم ما وراء الطبيعة يا صاحبي وليس فاتورة البقال سوف نموت دون أن نعرف.. سنموت ورأسنا يوشك على الانفجار من فرط علامات الاستفهام.. وعندما نعرف الحقيقة سيكون من المستحيل أن ننتفع بما عرفناه.. لقد رحل القطار وهأنتذا تقف على المحطة وحدك.. تتمنى اللحاق بمن عليه كي تخبرهم بما وجدت.. طبعًا هذا مستحيل.. حتى نفسك الأصلية تشعر بأنها على متن القطار.. لا يمكن أن تخبرها بما عرفت..

شريف:

هذا يثير الغيظ.. نحن بحاجة إلى من يعرف فعلًا

رفعت:

وهذا لا وجود له وعليك أن تقبل.. هناك بعث وحساب ويوم قيامة.. هذا ما نعرفه يقينًا لكن هل هناك أشباح مثلًا؟.. هل هناك تجسدات؟.. أحيانًا تكون الإجابة في رأيي يقينًا (نعم) وأحيانًا تكون (لا) والأغلب أن تكون (لا أدري)..

(جرس الهاتف)..

شريف:

آلو..

صوت رجل وقور:

برنامج بعد منتصف الليل؟

رفعت:

تفضل..

الرجل:

هل لابد من أذكر اسمي؟

شريف:

اسمك أو اسم مستعار المهم أن نجد من نكلمه..

الرجل:

ليكن.. أنا مرب فاضل**!**

رفعت:

هذا غريب.. لا أحد يُطلق على نفسه لقب مرب فاضل ما لم يُطلق واحد على نفسه اسم (رجل شفاف نقي النفس).. لكن تفضل أيها المربي الفاضل.. أعتقد أننا عرفنا مهنتك على كل حال.. لا يمكن أن تكون مهندسًا مثلًا..

الرجل:

أنا لست مهندسًا.. أنا مرب فاضل.

رفعت:

نعم.. نعم.. ولا يجيد المزاح كذلك.. تفضل..

الرجل:

أنا مرب فاضل كما قلت لك، وقد أمضيت حياتي كلها في تربية النشء.. أنا في الخامسة والخمسين من عمري.. لم أتزوج.. فقط قضيت حياتي معلمًا للجغرافيا ثم موجهًا للجغرافيا.. بعد هذا أنشأت مدرستي الخاصّة..

شريف:

هل هي في القاهرة؟

الرجل:

لا.. لقد ابتعت قطعة أرض عند أطراف مدينتي، وقد أنشأت فوقها مدرسة جميلة لا بأس بها أبدًا.. إنني أقبل الصف الابتدائي والإعدادي.. نتائج مبهرة جدًّا..

شريف:

لا تذكر اسم المدرسة من فضلك وإلا خربت الإدارة المالية بيتنا وطالبتنا بثمن هذا الإعلان غير المدفوع..

الرجل:

لن أذكره ولكن لأسباب تختلف نوعًا.. على فكرة بما أنني غير متزوج فأنا أقيم بالمدرسة، والناس في هذه المنطقة السكنية يعرفون معنى النور في الطابق الثاني حيث يوجد مكتبي الذي أكلمك منه الآن.. عندي هنا فراش وثلاجة.. لا تلفزيون لأنني أمقت تلك البرامج الرقيعة وعمة (راقية إبراهيم).. و...

رفعت:

لحظة من فضلك.. لا أفهم من هي عمة (راقية إبراهيم) وما دورها في الموضوع؟.. لا أذكر أي فيلم كانت فيه عمة لـ (راقية إبراهيم)..

الرجل:

أؤكد لك.. هناك أفلام مليئة بعمات (راقية إبراهيم).. لم أعد أرى هذا الهراء على كل حال.. عندي كل ما يلزم للإقامة.. أعيش على الطعام الجاهز الذي يأتي به الخفير (بركات) أو هو الطعام تطهوه لي امرأة من عاملات المدرسة في بيتها وتجلبه معها.. إن طهيها ليس سيئًا لو تغاضينا عن هواية ملء الطعام بشعر رأسها كأنها فهمت معنى (الشعرية) بشكل حرفي خاطئ..

رفعت:

نحن الآن في الصيف.. لم لا تبحث عن إجازة في مكان ما؟

الرجل:

ليس هناك مكان ما.. العالم ضيق جدًّا كسم الخيّاط في رأيي أنا أعيش هنا وغالبًا سأموت هنا.. أعرف كل جدار وكل طبقة طلاء، وكل جزء رطب نبت عليه الطحلب، وأعرف أسرار كل وصلة كهرباء متوارية..

رفعت:

ومتى بدأت المشكلة؟

الرجل:

من قال إن هناك مشكلة؟

رفعت:

لا أعتقد أنك تتصل لتحكي تاريخك التربوي.

الرجل:

بالطبع لا.. كنت أقيم في المدرسة كل ليلة مع الخفير (بركات). كان يفرش بطانية أمام باب المدرسة في هذا الحر، ويدخن الشيشة ويشرب الشاي.. طبعًا لا أختلط به لكن مودة عميقة صارت تجمعنا بعد كل هذه الأعوام.. اعتبرته أخي بشكل ما وإن كنت لا أصارحه بهذا، وقد قمت بالحج معه العام الماضي على حسابي!

رفعت:

تؤثر في فعلًا علاقات صديقي عمر من طبقتين مختلفتين هذه أمور تثير شهية أي مؤلف درامي له ذكاء صرصور.. الأكثر إيلامًا هو عندما يموت الأكثر ثراء منهما!

الرجل:

يا أخي (الملافظ سعد)!.. على كل حال أنا أمضي الليل في مكتبي، وأحيانًا كان يصعد لي هناك ومعه كوب شاي أسود.. ثم يعود للسهر عند الباب.. أعتقد أنه يدخن أشياء أخرى غير الجوزة لكني أتساهل على كل حال.. وهو كذلك يجمع سبع صنائع فهو يعرف بعض الشيء عن السباكة والكهرباء وتثبيت البلاط..

بدأت القصة في شهر مارس الماضي.. كان هناك خلاف بين صبيين في المدرسة.. غالبًا هو خلاف على فتاة.. لماذا يختلف الفتية إن لم يكن على فتاة؟

(أمجد) و(هاني) في الصف الثالث الإعدادي..

رفعت:

ألا تجد نضجًا هرمونيًا مبكرًا في أطفال مدرستك هؤلاء؟

الرجل:

لا أفهم ما ترمي إليه لكني أعرف شيئًا واحدًا.. الفتية أوغاد.. قد تختلف معي في هذه النقطة لكن جميع الفتية أوغاد.. أؤكد لك هذا..

رفعت:

نعم.. نعم. وأنت مرب فاضل تمقت عمة (راقية إبراهيم) عندما تظهر في أفلام..

الرجل:

نعم. نعم.. أعتقد أن الخلاف بين الصبيين كان عميقًا بحق، لم أتبين حجمه ولا أبعاده إلا عندما وقع (أمجد) من الطابق الثالث في بئر السلم.. صرخة مدوية طويلة ذات صدى، فهرعت خارج مكتبي لأجد الكثير من الصراخ والهستيريا ووجدت جثة (أمجد) وسط بركة صغيرة من الدماء.. وكان الطلبة في حالة جنون وذعر.. لقد سقط بينما هم يتدافعون في الطابق الثالث.. ليس الترابزين منخفضًا ولا هشًّا لكنه سقط.. مال فهوى الجزء الأثقل من جسده لأسفل..

نظرت لأعلى لأرى وجوه الطلبة تطل على من فوق.. الصف الثالث كان خارجًا للفسحة ويبدو أن عادة تدافع الأغنام لعبت دورًا، لكني رأيت وجه (هاني) من أسفل.. على وجهه ابتسامة شيطانية مروعة.. أنا متأكد من ذلك.. كان يضحك في تشف وارتياح..

رفعت:

ليس كل الناس ملائكة.. هناك أشرار يتشفون في الآخرين لكن هذا لا يعني أنهم قتلة..

الرجل:

ربما.. على كل حال قد اعتقدت ما اعتقدته أنت، وقضيت أيامًا سوداء في الإدارة أبرهن على أن المدرسة مأمونة، وأن الفتى لم يمت نتيجة إهمال.. الآباء لا يبعثون أبناءهم للموت في المدارس.. على كل حال أجريت تحقيقاتي الخاصّة وتأكدت من أن (هاني) لم يدفع صديقه.. هذا ما قاله الزملاء..

رفعت:

ولم تصدق حرفًا..

الرجل:

إلى حد ما.. نعم.. وظللت أشك في الأمر إلى أن جاءت ليلة مظلمة عاصفة من شهر أبريل.. لاحظ الخفير أن أضواء المختبر مضاءة.. هكذا صعد ليغلقها.. فعل ذلك وعاد ليستقر في غرفته

مدثرًا بالبطاطين.. لا أعتقد أننا في سيبيريا، لكن النوة كانت عنيفة جدًّا وقد راحت البناية كلها تهتز من الرعد والريح، هكذا جلست في فراشي ورحت أشرب الحلبة الساخنة.. هنا لاحظت أن ضوءًا غريبًا يدخل من أسفل الباب.. أنا أغلقت كل الأنوار.. من أين جاء هذا الضوء؟

فتحت الباب فوجدت أن الردهة كلها مضاءة.. لابد أن الخفير هو من فعل هذا.. في اللحظة التالية دوّت صرخة مريعة ولمحت جسدًا يهوي من حالق في بئر السلم.. يمرّ بي ثم يهوي.. لكن فترة عشر الثانية كانت كافية كي أعرف أنه هاني..

هرعت للطابق السفلي وناديت الخفير.. كان الفتى في ذات موضع هلاك صاحبه، وفي ذات الوضع.. فقط كان شعره معجونًا بالدم والماء وثيابه كلها مبللة..

من أتي به هنا؟.. لماذا جاء ليلًا؟.. كيف سقط؟

أهل الفتى قالوا إنّه خرج من البيت ركضًا تحت العاصفة ولا أحد يعرف لماذا فعل ذلك.. رجال الشرطة رأوا أن ضميره عذبه فقرر أن ينهي حياته بنفس طريقة وفاة صاحبه.. هذا الانتحار اعتراف كامل إذن.. طلبة المدرسة كلهم آمنوا أن أمجد عاد لينتقم وهو قد استدرج صاحبه إلى ذات المكان ليلًا..

رفعت:

أعتقد أن النظريتين مغريتان..

الرجل:

على كل حال آذاني هذا بشدة، ولا شك أن معدلات الالتحاق بالمدرسة في العام القادم سوف تتأثر كثيرًا..

رفعت:

أعتقد أن المشكلة انتهت عند هذا الحد..

الرجل:

لا.. لقد بدأت إجازة الصيف وبدأت أعيش وحدي.. تكررت ظاهرة الأضواء التي تشعل نفسها مرارًا.. ثم جاء اليوم الذي.. حدث هذا منذ ثلاثة أيام..

رفعت:

ماذا؟.. هل مات الخفير؟

الرجل:

نعم.. (بركات) قد مات.. كان قد قضى النهار يعمل في الطابق السفلي، قائمًا بلصق بعض البلاط المهشم من أثر سقطة الولدين.. إنه يقوم بهذه الأعمال من حين لآخر مقابل مال، ثم ترك حاجيات العمل من (غلق) وبقايا أسمنت وبلاط متبق عندما سمعت الصرخة رأيت أن جسده قد هوى في ذات الموضع ومن على نفس الارتفاع.. سقط وسط الأسمنت والبلاط المهشم.. هل عندك سبب لانتحار خفير مسن رب أسرة وقد قام بالحج منذ عام؟

رفعت:

لا.. حادث أو قتل.. لا يوجد تفسير آخر..

الرجل:

أعترف أنني تشاجرت معه.. أثرت غضبه بحق، وهددته بالطرد.. هذه أشياء لا تقال، لكنّها حدثت.. لا أعتقد أنه يمكن أن ينتحر لهذا.. لطالما تكرر هذا الموقف..

رفعت:

بيني وبينك.. أنا الآن أعتقد أنه لا توجد أشباح.. هناك طاقة نفسية شريرة كاسحة في المدرسة ذاتها.. لو فسرت الأشباح موت الصبيين فلا يمكن أن تفسر موت الرجل.. هذا يدل على أن شبح أمجد بريء!

الرجل:

طاقة نفسية؟.. وما مصدرها؟

رفعت:

في العادة تكتشف أنّ هذه المدرسة أقيمت على بقايا مقبرة.. ربما كانت أرضك هذه مقبرة منذ مائتي عام.. اللعنات من هذا الطراز تنبعث عندما ترتوي أرض المقبرة بالدم.. لقد نزف (أمجد) هناك أول مرة، وهكذا بدأ كل شيء..

الرجل (في قلق):

إحم.. ولماذا هاني؟.. ولماذا الخفير؟

رفعت:

أعتقد أن (هاني) كان يعاني عقدة ذنب هائلة.. لا أعرف إن كان تعمد الحادث أم لا، لكنه كان يتعذب.. وقد شعر الشيء الذي يخيم على المدرسة بهذا.. شعر بهشاشته النفسية وقرر أن يستدرجه في الليل أثناء العاصفة.. أما الخفير فأمره سهل..

الرجل:

ماذا تعني؟

رفعت:

لقد كان يقوم بترميم البلاط.. (أمجد) سقط في ذات الموضع وتسرب دمه عبر الشقوق.. معنى هذا أن البلاط غير محكم.. الأرضية تقود لشيءٍ ما، والكيان الذي يسيطر على المدرسة أو المدرسة نفسها لا يريدان اكتشاف هذا الشيء.. يمكن تخيل أن الخفير كان منهمكًا في العمل.. فجأة فقد صوابه.. ترك ما يقوم به وركض إلى الطابق الثالث ووثب..

الرجل:

هذا مقلق.. وماذا تعتقد أنه موجود تحت الأرض في البهو؟

رفعت:

لو أعرف لقلت لك.. أعتقد أن عليك أن تقوم بالاستكشاف صباحًا مع بعض العمال..

الرجل:

هل تريد رأيي؟..

رفعت:

لا.. لا أريد رأيك..

الرجل:

أنا مرب فاضل.. لن أجبن أمام خرافات العجائز هذه، وسأقدم القدوة للأجيال القادمة.. سوف أنزل وأرى ما هنالك بنفسي لقد أزال (بركات) - يرحمه الله - الكثير من البلاط فعلًا، فلن أحتاج إلا إلى بعض ضربات بالعتلة..

رفعت:

سيدي.. هذه بطولة لا داعي لها.. فكر في سنك ومركزك يستطيع رجلان أن يتما هذه المهمة في دقائق صباح الغد..

الرجل:

لا.. هذه مدرستي.. هذا بيتي.. سوف أنزل الآن ومعي الكشاف وأعرف سر هذه اللعنة، وأقول لك إنني لن أجد شيئًا..

شريف:

فعلًا يا سيدي هذا حماس لا داعي له.. دعك من أن الظلام دامس.. لو هويت وحطمت رقبتك فلن نعرف إن كان هذا بسبب المدرسة أم بسبب..

الرجل:

سوف أفعل.. وبعدها سوف أتصل بكما.. سلام..

(يضع السماعة)

رفعت:

هذا رجل شجاع آخر.. أعرف هذا النمط متصلب الشرايين الذي يؤمن أن الفتية أوغاد وأن الأفلام تعجّ بعمات (راقية إبراهيم).. إنّه لا يغير رأيه أبدًا.. لكننا لن نعرف ما حدث له لأن وقت البرنامج انتهى..

شريف:

ربما يتصل الأسبوع القادم..

رفعت:

لا أظن.. كل هذا التوتر والذعر والأدرينالين.. لو أنّ فارًا وثب على قدمه لمات.. أعتقد أن أسباب وفاته أكثر من أسباب نجاته.. ولو مات فلن نعرف لأن احتمال النوبة القلبيّة وارد.. رجل مسن وحيد في مدرسة مظلمة واسعة مات فيها ثلاثة ليست هذه هي الطريقة المثلى لقضاء أمسية صيفيّة..

شريف:

وكيف نعرف ما وجده؟

رفعت:

على الأرجح لن نعرف إلا لو اتصل بنا مرّة أخرى.. قلت لك إنّه لا إجابات.. هناك الكثير من الرعب والتوجس والحيرة.. لا تنكر هذا.. ماذا سيجده في الحفرة؟.. هذا سؤال يتسع لكل شيء.. كل شيء!

الحلقة الرابعة

نوبتجيـــة

يحكيها د. (مـراد)

لا تقل لي إنك مذعور.. لا تكن كالذي يرسم الوحـش ثم يموت خوفًا من الصورة.. أو الذي يلبس قناعًـا مرعبًا ثم يملأ الدنيا صراخًا عندما يرى وجهه في المرآة..

شريف:

ها نحن أولاء مع حلقة جديدة من (بعد منتصف الليل).. في الأسبوع الماضي استمعنا إلى السيدة التي وجدت رقعة فراء غريبة على ساقها.. الأشخاص العاديون سوف ينصحونها برؤية طبيب تجميل.. د. (رفعت إسماعيل) رأى أنّ هذه علامات التحول إلى الجانجريل Gangrel.. وهو موديل من موديلات مصاصي الدماء.. هذه أمور مسلية كما تلاحظون على كل حال نحن بانتظار حكاياتكم التي هي الوقود لآلة الرعب فلا تتوقف أبدًا..

رفعت:

تصور أنك أوصلتني بتكرار هذه العبارة إلى حالة من الاستسلام المطلَق فالاستمتاع.. ثمّة قصة يحكيها (مارك توين) عندما حكى للمجتمعين في قاعة من قاعات مدينته قصة سخيفة مملة.. عندما لم يضحك أحد حكى القصة ثانية والعرق يتفصد منه.. بدأت الضحكات ترتفع.. حكاها مرة ثالثة فانفجر الجميع يضحكون..!.. الإصرار على الملل يصير جذّابًا مع الوقت..

شريف:

لا أعتقد أنني مصر على الملل، فقط هي ديباجة احترافية لابد أن تقال لأنهّا علامة على البرنامج... هذه هي خصائص العمل الإعلامي..

رفعت:

وأنا لا أفهم الإعلام لذا لابد أن أصمت.. بيني وبينك صار موضوع التخصص يجعلنا عاجزين عن إبداء الرأي في أي شيء.. ترى لوحة فتشعر أن من رسمها فأر سقط في دلو طلاء، لكنك تفتح فمك فيقولون لك إن عليك أن تخرس لأنك غير دارس أكاديميًا.. تقرأ قصيدة تحكي عن الذبابة التي سقطت في طبق عسل، مما أدى إلى أن تصاب السلحفاة بسرطان المستقيم.. توشك على أن تقول إن هذا كلام فارغ فيقولون لك إنك غير مؤهل لتحليل النص.. الآن أتهمك بالتكرار فتقول إنني لست إعلاميًا..

شريف (في غيظ مكتوم):

المستمعون قد اعتادوا د. رفعت على كل حال، لهذا لن نعلق..

رفعت:

على كل حال نحن بانتظار وقودك هذا..

شريف:

نعم. نعم..

(رنين الهاتف)

آلو.. برنامج (بعد منتصف الليل).. تفضل..

صوت شاب:

مساء الخير.. أنا د. (مراد).. هذا ليس اسمي الحقيقي على فكرة.. هل د. رفعت هنا؟

رفعت:

بالتأكيد.. أتمنى أن أتلقى مكالمة واحدة من دون هذا السؤال هل سبق أن اتصل بي أحد وكنت في الحمام؟

مراد:

لا شيء.. هو مجرد تصرف تلقائي.. غريزي.. أنا طبيب مقيم في مستشفى (....) وأنا ساهر الآن في العيادة الخارجية لأنني نوبتجي.. لكن الجو هادئ فقررت أن أتصل بك..

رفعت:

أرجو ألا تكون التسلية هي السبب الوحيد..

مراد:

لا. هناك قصة تحتاج إلى رأيك.. على كل حال الجو هادئ تمامًا.. الممرضات نائمات في مكان ما، وهذا يعني أن عليّ أن أعمل وحدي لأن البحث عنهن يعني أن أدخل حجرة مظلمة، فأكتشف أنهن نائمات فيها ويملأن الدنيا صراخًا.. عندما تنام الممرضات فمن الأفضل أن تعتبر نفسك وحيدًا وتتصرف على هذا الأساس..

رفعت:

مفهوم.. مفهوم.. أنت الآن وحيد تمسك بالهاتف وتتسلى هل يمكن أن تبدأ السرد؟

مراد:

نحن هنا مجموعة من الأطباء المقيمين الشباب.. بيننا من هو يقظ الضمير يعرف واجبه حقًّا..

رفعت (نافد الصبر):

مثلك طبعًا..

مراد:

نعم.. وبيننا من هو مستهتر قاس.. د. (جودت) كان من هذا الطراز.. إنِّه وسيم لكنّها وسامة الشيطان.. ملامح قاسية باردة تدلّ على أنه يستمتع بآلام الآخرين.. ثري جدًّا ولا يحتاج لهذه المهنة؛ لذا هو يمقتها ويشمئز من المرضى المجانين..

رفعت:

أحيانا يدفعك الثراء للعناية بالطب أكثر.. (هالستد Halsted) الجراح العظيم كان ثريًا متأنقًا لدرجة أنه كان يكوي قمصانه في الخارج!.. وكان يؤمن أن الطبيب يجب أن يكون ثريًا من الأصل حتى لا يشغل وقته في الجري وراء المال.

مراد:

الآراء تختلف.. هناك من يرى أن الفقر يولد الرحمة في النفس. ما علينا.. لم يكن (جودت) شريرًا لأنّه ثري.. كان شريرًا لأنّه شرير.. وغد في كل شيء.. مع الفتيات هو وغد يتسلى.. فكم من فتاة حطم قلبها.. مع المرضى هو وغد يستمتع بسماع أنينهم ودعواتهم عليه..

لم يكن يتواجد في أية نوبتجية.. الأطباء الذين يهربون من النوبتجيات عندنا يفعلون هذا بداعي الفقر.. يحاولون جمع بعض المال في ذات الوقت.. لكنه كان يفر من النوبتجية ليقابل فتاة ما يخدعها طبعًا.. فإذا سألت عنه قالت الممرضات بارتباك إنِّه (في بنك الدم).. طيلة حياته في بنك الدم كأنه موظف هناك، والغريب أن الأحمق غير مبتكر.. حيلة بنك الدم هذه نسمعها منذ كنا في المهد وهو عاجز عن ابتكار عذر آخر..

ثم جاءت القصة إياها..

شريف:

جميل..

مراد:

لم أرها لكني سمعت القصة من المرضى والممرضات اللاتي شعرن بأن الصمت خطير هذه المرّة.. هذه المرأة التعسة تدعى (نجاة أبو مندور).. هذا هو الاسم الحقيقي الوحيد في هذه القصة، والسبب هو أني أريد أن يبقى اسمها إدانة دائمة للغباء والانحطاط والظلم البشري.. هي نموذج الفلاحة القادمة من أحراش الريف لتضيع في أحراش المدينة، يبدو أنها من الطراز الذي جاء العالم كي يتعذب ويهمل ويموت لقد طلقها زوجها وتخلى عنها أولادها وهي تعاني منذ عشر سنوات للحصول على معاش، ثم أصيبت بسرطان الدم وجاءت تطلب العلاج فأوقعها حظها الأسود في نوبتجية الدكتور (جودت) لتكتمل المأساة الإغريقية.. لم أر ما حدث لكني أتصوره.. لابد أنه كان يداعب شاربه الرفيع الأنيق.. ربما كان يُلقي بكلمات غزل على ممرضة ما.. لابد أنه لاحظ شحوب المرأة فطلب من الممرضة أن تنقل لها وحدة من الدم، ثم انصرف ليلبي أحد المواعيد

الغامضة التي لا يعرف إلا الله كنهها والتي تتم دومًا في المقطم.. بما أنه ذو اهتمامات شديدة بعلم الجيولوجيا وإما إنّه ما علينا..

لحظة يا حاجة.. أرجو أن تجلسي إلى أن أنهي هذه المكالمة. معذرة يا دكتور رفعت لكن هناك مريضة دخلت الاستقبال عندي الآن.. بالطبع وحدها بلا ممرضة ولا مرافق...

رفعت:

يمكنك أن تفحصها وتتصل بنا ثانية.. لا نريد أن نعطلك عن مريض بينما أنت ما زلت تتكلم عن انعدام ضمير صاحبك..

مراد:

لو قطعت المكالمة لفشلت في طلبكم ثانية.. على كل حال لا يبدو أنها في خطر داهم.. ثلاث دقائق فقط أحكي فيها قصتي..

أين كنا؟.. آه..

أعرف أن (نجاة) تمددت في الفراش لاهثة مستسلمة كأنما تعرف أنها تتلقى آخر شكة إبرة في حياتها.. لابد أن الممرضة قامت بتثبيت قناة وريدية غليظة في ذراع المريضة، ونجاة تتلقى الألم الحارق في ذراعها شاكرة.. فعلى الأقل لم يجلدوها بالسياط كما كانت تتوقع، وقد كانت هذه المرأة تعتبر أن المعاملة الممتازة هي ألا تُضرب بالأحذية أو تُجلد بالسياط.. علمتها الحياة ذلك.. كيس الدم الأحمر علق هناك جوار الفراش وبدأ سائل الحياة يتسرب إلى عروقها.. أعرف أن الممرضة انصرفت لتناول العشاء، وأن العنبر كان خاليًا إلا من مريضة غيبوبة لا تفقه شيئًا.. لابد أن (نجاة) حركت ذراعها ففكت الخرطوم البلاستيكي.. هكذا بدأ النزف من جهتين: الدم يسيل من الخرطوم المتدلي، ويسيل من القناة الوريدية المثبت في ذراع المريضة..

لابد أن المأساة استغرقت نصف ساعة.. لقد فرغت الممرضة من العشاء وعادت للعنبر لتجد بركة دم وقد فرغ الكيسان: الكيس البلاستيكي والكيس الحي.. وبالطبع كانت (نجاة) قد أسلمت الروح ففقر دمها لم يكن ليتحمل مزيدًا من النزف.. كانت قد فهمت ما يحدث وتلوت كثيرًا جدًّا وهي تحاول النهوض من الفراش.. تحاول انتزاع القناة الوريدية من ذراعها.. لابد أنها تألمت لأنّهم قالوا إن علامات الرعب والذعر ارتسمت على وجهها..

رفعت:

هذه كارثة.. تتكرر كثيرًا لكن هناك من ينقذ الموقف دومًا..

مراد:

لم يكن هذا الـ (من) موجودًا هنا.. أعرف أن تحقيقًا جرى، وأن (جودت) خرج من الموضوع كالشعرة من العجين.. الوغد المحظوظ.. في كلّ مرّة يخرج كالشعرة من العجين برغم أنه المسئول

الأول عما حدث.. أعرف أنه اتهم الممرضة بكل شيء وأن بيتها خرب على الأرجح.. أعرف أنه أحضر أوراقًا من كل جهة تثبت أنه كان في المستشفى وقت وفاتها.. أعرف أن خاله ذا النفوذ قابل مدير المستشفى وأمضيا ساعة ما بعدها خرج المدير راضيًا وهو يدسّ كارتًا في جيبه، ويبدو أن (جودت) تلقى عقابًا من طراز (إخص عليك) أو العقاب الأشد صرامة (أنا زعلان منك).. أعرف أن الموضوع انتهى وأن دم المرأة راح هدرًا.. أضاعه زوجها وأضاعه أولادها وأضاعه طبيبها..

هكذا اجتمعت مع صديقي المخلص د. (فوزي) ورحنا ننسج الخطط معًا.. سوف ننتقم.. لن يكون انتقامًا مريعًا لكنه ممتع برغم هذا..

اتفقنا مع عددٍ من الأطباء والممرضات على هذه الدعابة بدأ كل شيء عندما استقبلت الممرضات (جودت) قائلات إن واحدة من قريباته جاءت بعد منتصف الليل تسأل عنه وقالت إنها ستعود.. سألهن جودت عن اسمها فقلن بصوت واحد: (نجاة أبو مندور).. احتبس صوته في حلقه وسأل متحشرجًا كيف تبدو، فقلن إنها في العقد الخامس شاحبة جدًّا فقيرة جدًّا..

اعتبرها صدفة، لكنه شعر بقلق لا شك فيه.. وفي اليوم التالي قابل دكتور (فوزي) فإذا به يسأله عما إذا كانت له قريبة تدعى (نجاة) ولم يتذكر باقي الاسم لأنهّا ظلت تنتظره طويلًا ثم انصرفت على وعد أن تعود ليلًا.. قال له إنها غلبانة جدًّا وانه أعطاها بعض المال..

وعند العصر نزل من مسكن الأطباء فقابل زميلتنا (هند) التي أخبرته في براءة أن من تدعى (نجاة أبو مندور) كانت تنتظره امرأة فقيرة جدًّا شاحبة جدًّا في العقد الخامس من عمرها.. ثم سألته: مم تشكو هذه المرأة؟.. فلتقطع ذراعي إن لم تكن مصابة بسرطان دم.. لكن لا تقلق.. سوف تعود هذا المساء لأنهّا تريدك في أمر مهم..!

وهكذا أمضى ليلته خارج المستشفى، وحين عاد في الصباح كان منتفخ العينين أحمرهما منكوش الشعر يشبه العاشق الفاشل في الأفلام المصرية.. فقط لتقول له ممرضات الصباح وهن منهمكات في العمل إن امرأة تدعى (نجاة) ظلت تنتظره طيلة الليل على هذا المقعد، وفي الصباح انصرفت وقالت إنها ستعود حتمًا..

رفعت (ضاحكًا):

يا له من مقلب... برغم قسوته هو رائع.. ثمّة الكثير من العدالة الشعرية هنا..

مراد:

بعد أسبوع من هذه المواعيد الغامضة، دخل (جودت) في نوع من الانهيار العصبي.. صار متوترًا قلقًا يكفي أن تضع يدك على كتفه ليثب في الهواء مترًا.. ثم طلب إجازة من المدير لأن أعصابه لم تعد تتحمل العمل..

رفعت:

إذن هو في إجازة الآن..

مراد:

نعم.. لكن.. ما زالت تلك المريضة تأتي!.. صدق أو لا تصدق.. ما زالت بعض الممرضات ممن لا يعرفن القصة يقلن لي في الصباح مثلًا أنها جاءت وسألت عن د. (جودت)!

رفعت:

لا شيء في هذا.. إنها الدعابة حين تتراكب على دعابة.. اللاتي يعرفن السر قررن أن يشركن فيه من لا يعرفن.. من الصعب أن تقابل الشخص الكتوم في الشعب المصري..

مراد:

هناك أسباب لتوتري.. لحظة.. لا تقلقي يا حاجة.. سوف أنهى المكالمة حالًا.. هل أعطوك تذكرة؟.. جميل.. أرجو أن تنتظري قليلًا..

أنا قلق لسبب مهم يا د. رفعت.. هذه النوبتجية التي ماتت فيها المرأة هي نوبتجيتي أصلًا.. كانت هناك ظروف قهرية جعلتني أستبدل العمل مع (جودت).. كل شيء رسمي ومدون على الأوراق.. تقول إن هذه جريمة؟.. ربما هي كذلك من الناحية الأدبية لكنّها ليست كذلك رسميًا.. أعرف أنه من أكثر الأفعال حمقًا أن تترك النوبتجية لمستهتر مثل (جودت).. ربما كان من الأفضل أن تتركها بلا بديل على الإطلاق ولعل نتائج ذلك تكون أفضل!.. لكن من الناحية الإدارية لا مسئولية على الإطلاق..

فقط أخبرك بهذا لتفهم أن (جودت) لم يكن المخطئ الوحيد هنا.. هل فهمت ما أريد قوله؟.. أنا أيضًا لست نقي الضمير إلى هذا الحد..

رفعت:

لكن لا تقل لي إنك مذعور.. لا تكن كالذي يرسم الوحش ثم يموت خوفًا من الصورة.. أو الذي يلبس قناعًا مرعبًا ثم يملأ الدنيا صراخًا عندما يرى وجهه في المرآة..

مراد:

نعم.. نعم.. أفهم كلامك لكني قلق.. أشعر بأنني سأدفع الثمن بدوري.. كلامك يريحني من دون شك.. وعلى كل حال أنا مضطر لأن أتركك لأن هذه المريضة نافدة الصبر معذرة يا حاجة.. أعرف أنني تركتك وقتًا طويلًا لكن الموضوع مهم كما سمعت قلت لي ما اسمك يا حاجة؟.. لا أسمع؟.. (نجاة)؟.. (نجاة أبو مندور)؟.. لا أعرف لماذا أشعر أنني سمعت هذا الاسم من قبل سلام يا دكتور رفعت.. شكرًا لوقتك..

(يضع السماعة)

شريف:

مكالمة غريبة.. لا توجد مشكلة ما ورائية من أي نوع.. كأنه فقط كان يريد (الفضفضة)..

رفعت:

نعم.. نعم.. (في شرود).. هل سمعت اسم المريضة؟

شريف:

أية مريضة؟

رفعت:

تلك التي قطع مكالمته من أجلها.. يبدو اسمًا مألوفًا مشكلتي هي سرعة نسيان الأسماء..

شريف:

بصراحة لم أركز جيدًا.. لا عليك.. لقد انتهت هذه الحلقة وإننا لنعتذر للمستمعين على خلوها من أية قصة ما ورائية..

رفعت:

لا يمكن أن تتوقع قصة مخيفة في كل حلقة على كل حال. ربما يكون حظ الحلقة القادمة أوفر..

الحلقة الخامسة

على الإيقـــاع

تحكيها (فيفي الشوربجي)

بدأت أسمع الأغنية مرارًا، ثم صار الأمر يعذبني.. أصحو من النوم لأراه راقدًا على ظهره في ضوء الغرفة الخافت القادم أكثره من النافذة.. عيناه لا تنغلقان جيدًا أثناء النوم لذا تبدوان مفتوحتين لونهما أبيض مخيف.. أبيض شبه مضئ بسبب انعكاس النور.. ثم يصر على أسنانه كعادة العصبيين أثناء نومهم.. الصرير يحدث إيقاعًا يقول: (الموت.. الموت).. هكذا.. كيف تتوقع مني أن أنام؟..

شريف:

هذه حلقة جديدة من برنامج (بعد منتصف الليل) مضيفكم هو (شريف السعدني) ومعه ضيف البرنامج الدائم د. (رفعت إسماعيل).. نحن بانتظار مكالماتكم التي ستكون وقود آلة الرعب.. هذا البرنامج ليس الغرض منه إيجاد الحلول، قدر ما هو أن نجد الخيال..

د. (رفعت).. هناك عدد كبير من الشكاوى التي وصلت إلى الإذاعة تقول إن الأطفال يخافون كثيرًا لدى سماع البرنامج.. هناك من يرفضون النوم ومن يصابون بحالات تبول لا إرادي.. ما رأيك؟

رفعت:

أعترف أنّ هناك حلقات مفزعة مثل حلقة الرجل الذي تدب الحياة في فراشه ليلًا.. لكن من قال إن هذه الحلقات للأطفال؟.. لماذا قررنا أن نجعلها في الواحدة بعد منتصف الليل؟. كنا نأمل أن يكون الآباء ما زالوا يملكون بعض السيطرة على أطفالهم ويمكنهم إرغامهم على النوم في التاسعة.. لكن الحقيقة هي أن الأطفال صاروا كائنات مرعبة تتحدى الآباء وكل شيء.. هل يمكن أن تخيف الغول؟.. مستحيل.. إذن لا تقل لي إن أطفالك خافوا من هذه الحكايات.. بهذا المنطق يمكن للآباء أن يحتجوا على وجود مقابر لأن أطفالهم يحبون دخولها ليلًا ويصابون بالذعر..

شريف:

لا يبدو أنك تحمل مودة كبيرة للأطفال..

رفعت:

هذه هي المزية الوحيدة لعدم الزواج.. أنا أحب الأطفال في بداية العمر وهم أقرب لكائنات هشة ندية لعوب.. قطط صغيرة.. فإذا تحولوا إلى تلك الكائنات المرعبة ذات الأسنان الأماميّة الناقصة والميركيروكروم على الركب، فإنني أكرههم كالطاعون.. إنهم يمزقون كتبك ويبعثرون أوراقك ويكسرون أطباقك ويخدشون سيارتك ويقذفون الطوب على رأسك، فإذا حاولت الانتقام قال المجتمع: «إياك أن تلمس هؤلاء الملائكة الصغار أيها السادي المنحرف!».. إنهم يكذبون كالأبالسة، شرهون كالجراد ويتمتعون بسادية غير مسبوقة.. راقب ما يفعله أحدهم مع قط صغير ضعيف.. راقب ما يفعله إذا رأى حشرة غير مؤذية.. إنه يسحقها على سبيل الملل ولمجرد أنّ هذا بوسعه.. نعم.. لولا مركزي الاجتماعي لقمت بخنق أي طفل أراه..

شريف:

من حسن الحظ أنني لست طفلًا.. على كل حال سوف نستمع إلى أغنية للمطربة (فتكات حمدي) بانتظار المكالمة الأولى..

(رنين الجرس):

شريف:

يبدو أنه لا حظ لنا مع (فتكات حمدي) الليلة..

رفعت:

للأسف.. إنها مرعبة بما يكفي..

صوت امرأة:

مساء الخير..

رفعت:

صباح النور يا سيدتي.. إنِّه لخطأ جغرافي شائع على كل حال..

المرأة:

أنا (فيفي الشوربجي).. اسمي (فيفي) فعلًا وليس اسمًا مستعارًا أو تدليلًا.. زوجة وست بيت.. لا أعمل.. إن زوجي مهندس بترول ويسافر كثيرًا جدًّا، ونحن لم ننجب بعد.. لقد تأخرنا كثيرًا لكن الأطباء يقولون إن السبب هو أننا لم نتواجد معًا فترة كافية.. أنا في الثلاثين على فكرة.. وقد تخرجت في معهد الموسيقا العربيّة لكني لم أفعل شيئًا بما تعلمته هناك..

شريف:

مفهوم.. مفهوم المشكلة لو سمحت..

فيفي:

منذ طفولتي أسمع الإيقاعات خلف أي صوت متكرر وأجد أنني أربط بينها وأغنية ما.. مثلًا لا أركب سيارة إلا وأسمع المحرك يدندن لحن الفيشار الغربي الشهير الذي استعملناه في الأغنية العربيّة (طير وفرقع يا بو الشعر.. مثل حبة الفيشار)..

الحافلات تجعلني أسمع الإيقاع شبه الأسباني أغنية (جفنه علم الغزل).. صوت أجهزة التكييف يجعلني أستعيد مقدمة أغنية (سكن الليل) لفيروز.. ارتطام عربات القطار هو إيقاع أغنية (الملاحة) لشفيق جلال التي تحكي قصة (ريا وسكينة).. خطواتي وأنا أصعد الدرج تذكرني بإيقاعات (روك السجن) أغنية إلفيس بريسلي الشهيرة..

تدريجيًا أجد أنني أدندن هذا اللحن تلقائيًا مع صوت الإيقاع[3]..

رفعت:

هذا نوع من الوسواس القهري السمعي.. أعتقد أنه يدل على حاسة موسيقية لا بأس بها.. كل من يعرفون الموسيقار (عبد الوهاب) قالوا إنّه لا يكف عن الدندنة في سرّه، ويقر كالقطط طيلة الوقت..

فيفي:

لا أحسب عندي الموهبة على الإطلاق.. الأمر كما وصفته أنت: وسواس سمعي قهري..

شريف:

هل هناك مشكلة أخرى؟

فيفي:

لا أعتقد.. أظن أن د. رفعت قد أهداني التفسير الصحيح لما أعانيه.. شكرًا..

(تضع السماعة)

شريف:

كانت حلقة قصيرة جدًّا

رفعت:

والمشكلة سهلة إلى حد لا يصدّق..! أشعر بأنني عبقري..

شريف:

يبدو أنّ علينا أن ننتظر مكالمة أخرى..

(رنين الجرس):

صوت رجل:

مساء الخير.. برنامج (بعد منتصف الليل)؟

رفعت:

نعم يا سيدي.. هل لنا أن نتعرف؟

الرجل:

أنا مهندس (محمود الشوربجي).. زوج السيدة التي اتصلت منذ لحظات..

رفعت:

آه.. إذن أنتم تستعملون الطريقة الغربية في إطلاق اسم أسرة الزوج على الزوجة.. عندما كنت طفلًا كنت أعتبر أن الغربيين يتزوجون أخواتهم!

الرجل:

أنا أتكلم من السويس. لقد سمعت المحادثة على البرنامج وأردت أن أتصل لأوضح الأمور.. زوجتي جنت أو كادت، وهذا الداء الذي أصابها جعلها تعتقد أن كل شيء في العالم يغني.. نحن موشكان على الطلاق لأنهّا لم تعد تفعل أي شيء سوى الإنصات لإيقاع الأشياء.. كنت أنام في الفراش فأصحو فجأة لأسمعها تدندن متابعة صوت شخيري أو دقات الساعة.. هذه حياة لا تطاق..

لو كان على امرئ أن يجد حلًا فهو أنا وليس هي..

رفعت:

ألم تفكر في طلب رأي طبيب نفسي؟

الرجل:

بالطبع نعم.. لم أطلب.. الطبقة الوسطى تعتبر العلاج النفسي اعترافًا بالجنون.. هي تأبى ذلك بقوّة وعنف.. هي لم تترك لي حلًا سوى الطلاق..

رفعت:

هل للأمر علاقة بعدم الإنجاب؟

الرجل:

ربما.. لكن الفحوص الطبية تقول إننا سليمان.. على كل حال لا توجد مشكلة في زوجة تدندن ليلًا.. لكن هناك مشكلة في زوجة تحتفظ بخنجر تحت الوسادة أثناء النوم.. لقد صحت مذعورة ذات ليلة وألقت بالوسادة على الأرض ففوجئت بأن خنجرًا سقط لينغرس في الأرض الخشبية.. خنجر طويل له مقبض مزخرف.. وهالتني حقيقة أنني أنام جوار زوجة مسلحة بخنجر طيلة الليل.. في رأيك من الذي أعدت له الخنجر؟.. من الشخص الوحيد الموجود معها؟

رفعت:

البعض تسيطر عليه فكرة تسلل لص للدار.. البعض يحتفظ بسلاح يرهب به الموت لو جاءه ليلًا.. هكذا كان يفعل لورد بيرون الشاعر البريطاني غريب الأطوار.. كان يحتفظ تحت الوسادة بمسدس محشو ليس لقتل اللصوص طبعًا!

الرجل:

أنت قلتها.. شاعر غريب الأطوار.. من يفعلون هذا مجانين وليس من السهل أن تلتمس لهم العذر..

رفعت:

المهم.. ماذا قالت لي عندما اكتشفت هذا؟

الرجل:

لم تقل أي شيء.. فضلت الصمت برغم صراخي في وجهها وبرغم أنني كدت أفتك بها فعلًا.. إن عملي هنا في السويس رحمة.. يمنحني مزايا الطلاق بلا طلاق.. لقد قللت من إجازاتي جدًّا على فكرة.. لم أعد أرى القاهرة إلا لمامًا..

رفعت:

على كل حال نحن ما زلنا نتحرك في جمهورية المرض النفسي.. لم ندخل بعد إلى مملكة الميتافيزيقا.. إذن ليس هذا ضمن اختصاص البرنامج..

الرجل:

هي اتصلت بكم.. لذا اتصلت بكم.. هذا هو السبب.. على كل حال سوف أعود إلى القاهرة وأطلقها.. لم يعد هناك حل آخر.. لقد فضحتني بالاسم على الهواء.. لا شك أن كل إنسان يعرف مشكلتنا الآن.. سلام..

(يضع السماعة)

رفعت:

لو سمحت لنفسي بأن أعلق، لقلت إنِّه هو الذي قال كل شيء.. هي لم تتكلم سوى عن سماع الإيقاعات بينما حكى هو كل دقائق حياتهما..

شريف:

مهما كان الأمر فمشكلتهما ليس مكانها هنا.. لقد أخطأ كلاهما طلب رقم برنامج (رسالة)..

(جرس الهاتف):

شريف:

آلو.. برنامج (بعد منتصف الليل)..

فيفي:

أنا من اتصلت منذ دقائق.. (فيفي الشوربجي).. التي تسمع الإيقاعات..

شريف:

آه!.. بأية معجزة تمكنت من الوصول لنا ثانية؟

فيفي:

سمعت هذه المكالمة العجيبة من زوجي.. يجب أن أرد..

شريف:

سيدتي.. لسنا في محكمة أحوال شخصيّة هنا.. لا نريد أن نضيع وقت البرنامج في كلمة منك وكلمة منه..

فيفي:

كلا.. الحقيقة أنني كنت على وشك استكمال قصتي وجبنت في المكالمة الأولى، لكني لا أرى ما يمنع بعد ما قاله على الهواء..

شريف:

إن كان هناك جديد فنحن مستعدون للإصغاء..

فيفي:

حسن.. إنني.. **(صوت ضوضاء من بعيد)**.. الجيران يدقون شيئًا في شقتهم في هذه الساعة المتأخرة.. صوت الضوضاء هو بالضبط إيقاع أغنية (كعب الغزال) لمحمد رشدي..

ما علينا.. في البدء لاحظت صوت التنفس لزوجي أكثر من مرة، ثم لاحظت صوت شخيره.. إنّه نفس إيقاع أغنية تقول (حاخد روحك.. حاخد روحك)..

رفعت:

على قدر علمي لا توجد أغنية بهذا الاسم.. لو كان هناك من غناها فهو مجنون..

فيفي:

لا توجد.. لكنني أسمعها موقعة كاملة التلحين.. فقط شخيره يمنحها الإيقاع اللازم..

بدأت أسمع هذه الأغنية مرارًا، ثم صار الأمر يعذبني.. أصحو من النوم لأراه راقدًا على ظهره في ضوء الغرفة الخافت القادم أكثره من النافذة.. عيناه لا تنغلقان جيدًا أثناء النوم لذا تبدوان مفتوحتين لونهما أبيض مخيف.. أبيض شبه مضيء بسبب انعكاس النور.. ثم يصر على أسنانه كعادة العصبيين أثناء نومهم.. الصرير يحدث إيقاعًا يقول: (الموت.. الموت).. هكذا.. كيف تتوقع مني أن أنام؟.. إنني أوشك على الانهيار العصبي عندما يكون في البيت..

لسبب يتعلق بالشعور بالأمان ابتعت هذا الخنجر وأخفيته عنه.. فقط عندما يكون تحت الوسادة وأقبض بيدي عليه أشعر بأنني قادرة على النوم..

رفعت:

لكنك تعرفين أنّ هذا كله وهم؟

فيفي:

أعرف أنه على الأرجح وهم..

رفعت:

جميل... الفارق الشهير بين الوساوس والضلالات الذي نجده في أي كتاب للطب النفسي.. الوساوس يقاتل المريض كي يتخلص منها، بينما الضلالات يقاتل المريض كي يحتفظ بها.. الأولى تعبر عن اضطراب نفسي.. الثانية تعبر عن جنون مطبق إذن أنت ما زلت في مرحلة الاضطراب النفسي.. لم تعبري إلى الجانب الآخر بعد..!

فيفي:

على كل حال لا يهمني أن أعرف حالتي النفسية قدر ما يهمني أن أعرف حالة زوجي..

رفعت:

لا أفهم هذا الجزء..

فيفي:

منذ نعومة أظافره وزوجي شبه مخطوب لابنة عمته.. أنت تعرف كيف تبرم العائلات هذه الصفقات للأطفال في صغرهم.. (مي) ابنة عمته وهي.. هي..

رفعت:

نعم.. نعم.. حدأة ملطخة بالأصباغ لكنّها تفتن الرجال لأنّهم أطفال بلهاء يحبون الألوان الزاهية..

فيفي:

بالضبط.. أنت واسع الخبرة كما هو واضح.. طبعًا ظل هذا العهد قائمًا حتى تخرج في كلية الهندسة، وصار عريسًا مرموقًا.. راتبه مرتفع بالمناسبة وشكله يشبه ممثلي السينما. هنا قرر أن يتحرر من عهده وأن يقع في حب تلك الفتاة النحيلة خريجة معهد الموسيقا العربيّة..

رفعت:

وهو ما لم يرق للأسرتين طبعًا..

فيفي:

طبعًا.. لابد أنهم استمطروا عليّ الكثير من اللعنات.. وفي حفل الزفاف حضروا على مضض وأقسم أن عمته كانت دامعة العينين وهي تبارك لي.. حضرت (مي) الزفاف وكانت لها ابتسامة مسمومة كريهة.. بعدها لم تعد الحياة كما كانت.. هل تؤمن بالأعمال؟

رفعت:

أؤمن بالسحر.. نعم.. وأؤمن أنّ بعض الناس يمارسون هذه الأشياء، لكن هل ما يمارسونه فعال؟

فيفي:

على كل حال لابد من شخص يفسر لي سبب عدم إنجابي ولا ذلك الحاجز الغريب بيني وبين زوجي.. لقد صرنا على حافة الطلاق فعلًا بلا سبب من أي نوع.. أعتقد أن الطريق ممهد كي يتم الطلاق ويسقط هو كثمرة ناضجة في كف الآنسة (مي) هذه.. أ.. معذرة للخروج عن الموضوع لكن هل تسمع هذا الصوت الخفيض المنتظم؟.. له ذات إيقاع أغنية (بقرة حاحا).. هل تعرفها؟.. أغنية الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم..

شريف (في ارتباك):

فلنعد للموضوع يا فيفي من فضلك[4]..

فيفي:

من حين لآخر أفتح باب الشقة لأجد تلك العلبة الصغيرة المليئة بشيء قذر لا أدري ما هو.. أحيانًا هناك بقعة من الماء مسكوبة بطريقة ترغمني على أن أخطو فوقها عندما أغادر الدار زوجي قال لي في لحظة صفاء إن عمته من هذا الطراز وتؤمن بهذه الأمور.. إنها من طراز (أشتاتا أشتوت) إياه..

الأخطر أنني منذ أيام وجدت في غرفة نومي التي أكلمك منها الآن.. بل تحت وسادتي قطعة قماش ملفوفة على شيء ما.. تخلصت منها من دون أن أفتحها..

رفعت:

لا شيء يخيف في هذا.. غالبًا هي عظام موتى مع تراب من المقابر، وبعض التعاويذ مكتوبة بطريقة معينة.. هناك الكثير من سحر الأرقام كذلك..

فيفي:

حقًّا؟.. أنت تملؤني سرورًا واطمئنانًا.. تراب مقابر؟.. خشيت أن يكون الأمر مخيفًا... على كل حال كان زوجي في البيت وقتها وأعتقد بشدة أنه هو من وضع هذه اللفافة..

رفعت:

هذا مقلق.. ليس لأنني أعتقد أن ما يقمن به فعال، ولكن لأنّه من المخيف أن يعرف المرء أنّ هناك من يكرهه إلى هذا الحد.. إلى درجة الكفر.. نعم.. ما يقمن به كفر سواء كان فعالًا أم لا..

فيفي:

حتى عندما أكون وحدي أقضي الوقت شاعرة بذعر جهنمي من هذا الذي يحدث.. يدق قلبي بسرعة فأميز نغمة أغنية (اجري اجري) لعبد الوهاب.. ويطير النوم من عيني.. علي فكرة أنا أكلمك ولحن (بقرة حاحا) لا يفارق سمعي..

رفعت:

هل أنت مقيمة وحدك فعلًا؟

فيفي:

طيلة الليل.. نعم.. أحيانًا أسافر إلى الزقازيق حيث يقيم أهلي، لكني أعود هنا دائمًا لأن بيتنا ضيق ولا مكان لي فيه.. لكن هناك امرأة مسنة تدعى (أم عصام) تأتي لتساعدني في البيت وتخفف من وحدتي.. لكنّها تنصرف في التاسعة مساء اليوم بالذات انصرفت متعجلة حتى أنها لم تخبرني بانصرافها..

رفعت:

من الذي جاء بها لتعمل عندك؟...

فيفي:

زوجي طبعًا.. لم تسأل؟

رفعت:

ومن أين يأتي الرجل بامرأة عجوز تساعد في البيت إن لم يكن عن طريق أمّه؟

فيفي:

أمه توفاها الله بعد زواجنا مباشرة..

رفعت:

إذن.. عمته هي من قدمها له؟

فيفي:

ربما.. احتمال وارد..

رفعت:

ألم يخطر لك أنّ هذه العجوز هي من يضع تلك الأعمال السحرية على وسادتك؟.. يصعب عليّ أن أتصور زوجك المهندس المثقف يفعل هذا..

فيفي:

هل تعتقد هذا؟.. بصراحة لم يخطر لي ببال. إنها عجوز طيبة فعلًا..

رفعت:

احتمال وارد وقوي.. فخذي الحذر أو تخلصي منها.. إن لم تلعب دور القاتل فلسوف تلعب دور الجاسوس.. لا شك أن أخبارك كلها تتسرب إلى عمته الشمطاء..

شريف:

توخ الحذر يا دكتور.. نحن نتعامل مع أسماء حقيقيّة الآن..

فيفي:

لقد حكيت لك كل شيء.. أرجو أن تخبرني برأيك.. هل زوجي فعلًا تحت تأثير عمل سحري؟.. على فكرة لحن (بقرة حاحا) لا يفارق مسمعي.. هذا غريب..

رفعت:

بيني وبينك.. أنا سمعت تلك الأغنية من قبل.. إنها عمل عبقري لأحمد فؤاد نجم.. واللحن الذي.... (حاحا)؟.. متأكدة من ذلك؟.. ليست أغنية (أنا الميلامين جامد ومتين)؟

فيفي:

أنا لا أمزح.. هذا ما أسمعه.. سأصمت قليلًا وحاول أن تركز..

رفعت:

لا داعي.. من المستحيل أن يصل هذا الصوت الخافت عبر أسلاك الهاتف.. فقط أريد منك أن تنزلي بحذر من فوق الفراش.. بحذر شديد.. هاتي كشافًا وألقي نظرة تحت الفراش.. هلمّ!

شريف:

ما معنى هذا؟

رفعت:

اصبر قليلًا.. لم تختر من كل أغاني الكون إلا هذه الأغنية لماذا؟

فيفي:

د. رفعت..

رفعت:

ماذا؟

فيفي:

هل سمعت؟.. هناك.. هناك ثعبان ضخم تحت الفراش أعتقد أنه كوبرا!.. عندما رآني أصدر فحيحًا غاضبًا مروعًا..

(تبكي وتشهق)..

رفعت:

هذا ما توقعته.. إن أذنيك حساستان لدرجة لا تصدق.. الفحيح الخافت للكوبرا المصرية بدا قريبًا جدًّا في أذنيك من إيقاع (بقرة حاحا) التي يتردد فيها فحيح حرف الحاء في إلحاح مريب.. الآن سوف تضعين السماعة في هدوء، وتغلقين باب الحجرة وتطلبين الجيران أو الشرطة..

فيفي:

حاضر.. حاضر..

رفعت:

ولا تثقي أبدًا في أم (عصام) هذه..

فيفي:

نعم.. نعم.. هي من فعل هذا.. فهمت هذا الآن..

(تضع السماعة)

شريف:

ما معنى هذا؟

رفعت:

معناه أن تلك العجوز الطيبة التي أرسلتها العمّة قد دست كوبرا مصرية تحت فراش الزوجة البريئة.. لابد أنها أحضرتها في جوال وفتحته تحت الفراش ثم فرت.. عندما يسود الظلام والهدوء سوف يخرج الثعبان باحثًا عن الجسد الوحيد الدافئ في الحجرة كلها.. طريقة قتل غريبة لكنّها تناسب من امتلأ عقله بالأعمال السفلية وهذا الهراء، وبالطبع سوف تحضر العجوز رفاعيًا في الصباح الباكر ليتخلص من الثعبان.. هكذا لا تجد الشرطة ما يريب ولسوف يعتبرون الحادث نوبة قلبيّة في سن مبكرة أو شيئًا من هذا القبيل..

شريف:

هذا صعب التصديق..

رفعت:

سوف تصدق لو رأيت كوبرا تحت فراشك.. إن الزوجة ذات موهبة سمعية لا شك فيها، ولولا هذه الموهبة لهلكت لا أعرف إن كان الزوج يتكلم في نومه أم هي أوهام سمعية سببتها حالتها النفسية، لكن النتيجة واحدة..

شريف:

لعل الزوج يسمعنا في السويس الآن.. حان الوقت كي تعرف زوجتك حقًّا، والأهم أن تعرف عمتك حقًّا..

رفعت:

بل حان الوقت كي يعرف نفسه أولًا..

الحلقة السادسة

حكاية بيسة

تحكيها (بيسة)

لن أسمح لها بذلك.. أنا أخافها وأهابها.. تصور الفتاة الباردة الصموت التي تعاملك كأنك تمثال طيلة الوقت، وفجأة يشرق وجهها وتتأبط ذراعك وتقول: هيا بنا نتناول الغداء عندك اليوم.. مستحيل أن أقبل هذا ولا استسيغه.

شريف:

نحن ما زلنا بانتظار المكالمة الأولى لحلقة الليلة.. حتى يحين هذا الوقت يطيب لي أن أسأل الدكتور رفعت عن رأيه في موضوع الحلقة السابقة.. تلك الفتاة التي تشعر أنّ هناك كائنًا ما تحت فروة رأسها.. كلما أزاحت الخصلات وجدت جزءًا منه..

رفعت:

بصراحة.. نحن نقف عند البوابة السحرية بين عالم الخوارق والخبال الصريح.. من السهل أن تجتاز البوابة لتجد أننا نتحدث مع مجانين.. لن نتأخر كثيرًا حتى نقابل الرجل الذي تتحرر قدمه لتجول في البيت ليلًا..

شريف:

لكن هذا حدث فعلًا.. تلقينا مكالمة مماثلة.. هل نسيت؟

رفعت:

لابد من الترشيح.. لابد من ذلك (الفلتر) الذي وضعه الله في أذهاننا.. أنت تعرف مشايخ الطرق في مصر، وكيف أن كل واحد منهم يزعم مريدوه أنه يمشي على الماء ويلحق بمواعيده طيرانًا.. هل تعتبر هذه قدرات ميتافيزيقية أم هلاوس؟.. هناك ظواهر غريبة لا تفسير لها وما أكثرها.. قابلت من يقرأ الأفكار ومن يحرك عن بعد.. لكن حتى مع هذه الغرابة هناك منطق ما يجعلك تقبل القصة أو ترفضها..

شريف:

على كل حال، نحن بانتظار المكالمة الأولى.. سنرى إن كانت غريبة أم لا.. هل غرابتها من النوع القابل للابتلاع أم لا..

(رنين الهاتف)

شريف:

آلو.. هل لنا أن نتعرف؟

فتاة:

هل (تغريد) موجودة؟

شريف:

لا.. واضح أنها مكالمة خاطئة أخرى.. شكرًا..

الفتاة:

لا تتعجل بهذا الشكل.. يبدو لي صوتك ظريفًا.. هل لنا أن نتعارف؟...

شريف:

أنا لست (تغريد).. هذه معلومات كافية على ما أظن شكرًا.

الفتاة:

ومن قال إن هناك (تغريد) أصلًا؟.. أنا أشعر بفراغ في منزلي ولا أجد ما أعمله؛ لذا أطلب أي رقم.. هل تحب أن تعرفني.. إنني جميلة كأجمل أحلامك.. رقيقة كأرق خواطرك لطيفة كألطف دعابة سمعتها..

شريف:

نحن هنا على الهواء في برنامج (بعد منتصف الليل).. مهمتنا سماع القصص الخوارقية الغريبة.. القصص المرعبة أو التي لا تصدق.. أعتقد أنّ هذا الهدف يختلف عن تسلية الفتيات الوحيدات..

رفعت:

شيطان التسلية المعتاد.. عندما أسمع عن سفاح، أعتقد أحيانًا أنه كان يشعر بملل وأراد التسلية..

الفتاة:

أنتما اثنان إذن.. صوت صاحبك يشي بأنه ناضج كبير السن..

رفعت:

أنا كبير السن لكني غير ناضج.. أرجو أن تضعي السماعة يا آنسة.. نحن هنا نعمل فعلًا.. قد يبدو عملًا عجيبًا لكنه عمل نتقاضى عنه أجرًا..

الفتاة:

ليكن.. أنتما تريدان سماع قصص مخيفة؟.. سأحكي لكما عن (سوسو) زميلتي.. أنا أدعى (بيسة) على فكرة..

رفعت:

بيسة وسوسو.. طبعًا تتحدثين عن (سوسن) و(بثينة).. عندما تطلق الفتيات على أنفسهن هذه الأسماء تشعر بأنهن يبحثن عن المشاكل وأنهن متعبات فعلًا..

بيسة:

أنا طالبة في كلية ما.. هي طالبة في ذات الكلية.. كلانا التحق بالدراسة منذ ستة أشهر.. أي أننا مستجدتان..

لم تكن لنا علاقة ببعض.. هي طالبة شابة ملائكية نوعًا أو تبدو كذلك.. تحضر المحاضرات بانتظام وأميل إلى الصمت والتأمل.. لكن عينيها تتكلمان.. عيناها لا تكفان عن ملاحقة الناس ومتابعة كل شيء.. أمقت طراز الناس الذين لا يكفون عن اختلاس النظر إليك وأنت منهمك..

ثم لاحظنا ما هو أغرب.. إنها لا تكف عن تفحص حاجياتنا عندما تنسى دفترك على المكتب لدقائق تجدها تقلب فيه في فضول ونهم..

لما كانت الجامعة موقعًا أمنيًا مهمًا، فقد رجحت الطالبات أنها تعمل مع الأمن.. هذا دور شائع وغالبًا ما يجذب صاحبه الأنظار لنفسه لأنّه أحمق.. هكذا بدأن يخشينها ويتجنبنها، وعندما كان أحد زملائنا في الجامعة يوزّع مجلة طبعها هو تنتقد بعض المواقف الحكومية، نصحناه أن يخفيها عن (سوسو)..

لكن الأمور كانت أعقد من هذا..

رفعت:

إذن موضوع تغريد هذا لم يكن مجرد دعابة أنثويّة.. أو هي دعابة أنثويّة قائمة على إقناعنا بأنك تداعبيننا مداعبة أنثويّة ثم يتضح أنها ليست دعابة أنثويّة.. عندك قصة طويلة ومتشعبة لا يمكن أن تكوني قد تذكرت القصة فجأة..

بيسة:

لا يهم.. أسمع فحسب..

كانت (سوسو) غريبة الأطوار فعلًا.. مثلًا كانت تتكلم مع أية فتاة فتمد يدها لتكشف عن معصمها بلا سبب واضح.. ليس هذا كل شيء..

كنا في المختبر ذات مرة نلتف حول واحد من (البنشات) أنا وبوسي وفافي وماهي. كلنا كنا نعمل على تجربة كهربية واحدة.. ثم لحقت سوسو بنا لتقف جوارنا.

رفعت:

أنت في كلية عملية إذن..

بيسة:

نعم.. كان على (بوسي) و(فافي) أن تقوما بتركيب الأسلاك العارية بأيديهما، ولهذا كنا قد انتزعنا القابس بانتظار توصيل الدائرة.. كانت الفتاتان منهمكتين غارقتين في المزاح وفجأة صرختا كأن الشيطان مسهما..

اكتشفنا أنهما ترتجفان.. ونظرت بسرعة إلى القابس فوجدته قد أعيد لمكانه!.. لقد تم توصيل الكهرباء في الدائرة بينما الفتاتان تعملان.. ومن فعل هذا؟.. (سوسو) طبعًا.. جريت وانتزعت القابس، ولم تكن الفتاتان قد تضررتا بقوّة فيما عدا الصدمة العصبية.. التففنا حول تلك المجنونة نلومها على هذا العمل الأخرق، فقالت في خجل إنها أرادت أن تساعد بأي شكل.. وخطر لها أن وضع القابس في مكانه سوف يساعدنا بشكل ما..

هذا كان أغبى عمل رأيته في حياتي..

في مرّة أخرى كنا في مختبر الكيمياء.. كان المعيد قد شرح لنا ما يجب القيام به بصدد التجربة وانصرف.. هكذا عكفت كل واحدة منا على الأملاح والأحماض تجرى التجربة بنفسها.. كانت (سوسو) واقفة تتفحص أنبوب الاختبار في اهتمام..

فجأة تصاعدت رائحة غاز (ثاني أكسيد الكبريت Sulphur Dioxicle) المهيجة للأغشية المخاطية والعينين.. تصاعدت بكثافة غير عادية فرحنا نسعل ورحنا نتلمس الطريق للخروج.. نظرت إلى الخلفي فرأيت أن سوسو هذه هي مصدر الرائحة.. لقد استعملت ما هو موجود في المختبر لتصنع هذا الغاز السام.. كانت تمسك بأنبوب الاختبار وتنظر لنا في ثبات.. كنا نتدافع نحو الباب لكن الخروج كان مستحيلًا بسبب المجنون الذي صمم الباب بحيث ينفتح إلى الداخل.. في العالم المتحضر تصمم هذه الأبواب بحيث تفتح للخارج، لكن ما حدث هنا هو أننا كنا نزيد من إحكام غلق الباب بأجسادنا..

هنا فقط هوي أحد الفتية على زجاج النافذة الموصدة بمقعد من المقاعد فهشمه، وبدأ الأكسجين يتسرب إلى الداخل..

كانت هناك حالات إغماء بسبب هذا الغاز اللعين.. لكننا نجونا..

وحينما جاء المعيد مذعورًا أخبرناه أن تلك الحمقاء قامت بتحضير غاز سام في مكان مغلق..

كانت تبكي، وقالت دامعة العينين إنها لا تفقه شيئًا في الكيمياء.. لقد صبت حمض الكبريتيك على أول ملح صادفته وكانت النتيجة كارثية..

أمام دموعها ووجهها الرقيق لم يجد المعيد إلا أن يذكرنا بخطورة ما نقوم به.. على المرء أن يعرف ماذا يفعل بالضبط قبل أن يفعله..

رفعت:

من الواضح أنك لا تصدقين البتة أنها فعلت ذلك عن جهل.

بيسة:

لا أصدق أي حرف تقوله.. هذه الفتاة تتصرف عن عمد ورغبة قوية في الإيذاء. لكنك ترى وجهها الملائكي فتتأكد من أنك تهذي..

رفعت:

على كل حال.. نحن لم نبتعد عن المشاكل النفسية كثيرًا.. إن الشخصيات السيكوباتية موجودة في كل مكان..

بيسة:

لم تستطع أية فتاة أن تتقرب منها.. دومًا هي تحافظ على حاجز بينها والفتيات الأخريات.. لم تزرها واحدة في بيتها برغم أنها زارت الكثيرات.. لا نعرف أي شيء عن أسرتها ولا أهلها..

شريف:

على الأقل قد زارتك أنت..

بيسة:

لقد طلبت مني هذا يومًا وهي تتأبط ذراعي وتلقي نظرة فاحصة على معصمي.. لكني رفضت بقوّة.. لن أسمح لها بذلك.. أنا أخافها وأهابها.. تصوّر الفتاة الباردة الصموت التي تعاملك كأنك تمثال طيلة الوقت، وفجأة يشرق وجهها وتتأبط ذراعك وتقول: هيا بنا نتناول الغداء عندك اليوم.. مستحيل أن أقبل هذا ولا أستسيغه..

وأنا اجتماعية جدًّا ولّى صديقات كثيرات؛ لذا أشعر أن أمثال هذه كائن غريب مريب..

على كل حال من ضمن صفاتي أنني فضولية كقط؛ لذا راحت أفكاري تتركز على خزانتها في الكلية.. الخزانة التي يسلمونها لنا في بداية العام.. إنها موجودة في بهو طويل في الطابق السفلي من الكلية..

كانت قد نسيت مفاتيحها على المنضدة ونحن في المختبر، هكذا سرقت المفاتيح.. وجدت أنها منهمكة في تجربة فيزيائية معقدة فتسللت خارجة..

جريت إلى البهو.. بحثت عن خزانتها وهي تحمل رقم 313 جربت مفتاحين أو ثلاثة حتى وجدتها.. انفتح الباب المعدني الصغير، فلم تكن محتويات الخزانة غريبة.. معطف قديم.. كتب دراسية ثم.. مجموعة فاخرة جدًّا من الخناجر الطويلة المدببة.. حوالي ستة منها..

لماذا تحتفظ الأنسة اللطيفة بشيء كهذا في خزانتها؟

هنا سمعت صوت خطوات قادمة فوثب قلبي إلى فمي، وهرعت أغلق الخزانة وجريت إلى خزانتي ورحت أتظاهر بأنني أبحث فيها.

كانت هي بالفعل!

كانت هي وقد أحسنت صنعًا عندما تواريت في الوقت المناسب لكنّها اتجهت في ثقة إلى خزانتها وفتحتها!....

رفعت:

حسبت المفاتيح معك!

بيسة:

نعم هي معي.. كنت أفكر في طريقة إرجاعها..

شريف:

وما المشكلة في أن تكون مع سوسن نسخة احتياطية؟

رفعت:

نعم. هذا وارد، لكن يجب أن يندهش المرء أولًا.. يقلب الدنيا بحثًا عن مفاتيحه.. يسأل الجميع.. ثم بعد وقت طويل يتذكر أن معه مفاتيح احتياطية، لكن هذه الفتاة تصرفت كأنها تعرف كل ما حدث..

بيسة:

هذا أثار رعبي.. ما أثار رعبي أيضًا أنها التفتت لي.. لا شك في أن الذنب كان مرسومًا على وجهي.. ضحكت ضحكة شيطانية وقالت بطريقة عارضة: «كيف حالك يا (بيسة)؟.. بعض الناس يحبون أن يضعوا خيوطًا شفافة تحيط بحاجياتهم كي يعرفوا إن كان أحد عبث بها!»

سألتها في رعب عما تقصده فلم تقل شيئًا.. فقط قالت: «هو مجرد خاطر».. ثم أغلقت خزانتها ورحلت..

د. (رفعت).. أنا أخاف هذه الفتاة كالموت..

رفعت:

معك حق.. هي كذلك.. لكني ما زلت أميل إلى أنها شخصيّة سايكوباتية تجد لذتها في إيذاء الآخرين.. لا أكثر ولا أقل..

بيسة:

إنها تعرف الكثير عنى الآن..

رفعت:

لست ميالًا إلى أنها ستغمد هذه الخناجر في جسدك.... كل ما عليك هو أن تتجاهليها.. كفي عن الفضول المؤذي ودعي الخلق للخالق..

بيسة:

هذا كل شيء.. هل لي أن أطمئن؟

رفعت:

أعتقد ذلك.. تجاهل بعض المرضى النفسيين أكثر نفعًا..

بيسة:

شكرًا يا دكتور رفعت.. سوف أفكر في هذا.. لكن لو وجدتم جثتي ممزقة بالخناجر يومًا ما فعليكم أن تتذكروا هذه المكالمة..

رفعت:

أعدك بهذا..

(تضع السماعة)

شريف:

مشكلة سهلة نسبيًا..

رفعت:

ليس إلى هذا الحد.. هناك علامات استفهام كثيرة تحيط بهذه القصة، ويبدو أن النهاية لم تكتب بعد..

الحلقة السابعة

حكاية سوسو

تحكيها (سوسن)

هكذا صارت شكوكي منحصرة في فتاة واحدة..
فتاة واحدة تعرف كل شيء وتتظاهر بالبراءة..
فتاة واحدة تدعو الفتيات إلى أماكن غريبة من أجل التغيير والمرح.. طبعًا سوف تتضمن هذه الأماكن المقابر قريبًا جدًا..

شريف:

من جديد أيها المستمعون الكرام مع حلقة جديدة من (بعد منتصف الليل).. نحن في انتظار مكالمتكم الأولى التي ستكون وقودًا يشغل آلة الرعب..

رفعت:

فلا تتوقف أبدًا.. أرجو ممن يريد التكرار أن يكون دقيقًا..

شريف:

كالعادة نستمع إلى الأغاني وننتظر المكالمة الأولى.. مع الفنان (محمد رشدي) وأغنية (كعب الغزال)..

رفعت:

هذا يذكرني بالمستمعة التي كانت تسمع إيقاع أغنية (كعب الغزال) عندما يدق جيرانها شيئًا..

شريف:

لم أعد أذكر.. إن الحلقات تتداخل في ذهني.. فقط كلها ممتع.. استمتعنا فيها وأمتعنا.. واستفدنا وحاولنا أن نفيد..

رفعت:

ولم ننجح..

شريف (يضحك في عصبية):

السخرية.. دائمًا السخرية..

(تبدأ الأغنية)

(رنين الهاتف)

شريف:

ألو.. يبدو أن المكالمة سريعة اليوم.. من المتكلم؟

صوت فتاة:

أنا.. أنا (سوسن)..

شريف:

مرحبًا يا سوسن.. عساك تعرفين أنّ هذا برنامج بعد منتصف الليل الذي يناقش التجارب الغريبة للمستمعين..

سوسن:

بالطبع.. أنا لست غبية..

شريف:

لا أتهم من لا يعرف هذا بالغباء، لكننا نتلقى مكالمة على الأقل من هذا النوع في كل حلقة.. البعض يحسب أننا البقال والبعض يحسبنا السجل المدني.. وهكذا..

سوسن:

نعم.. نعم..

شريف:

سوف أكون مسرورًا لو عرفت أنّ هذا اسمك الحقيقي..

سوسن:

نعم ولا.. على كل حال أنا معروفة باسم (سوسو) بين صديقاتي..

رفعت:

سوسو.. الحلقة السابقة كانت مع من تدعي بيسة.. مصادفة عجيبة..

سوسن:

ليست مصادفة.. أنا هي (سوسو) ذاتها التي حكت عنها (بيسة).. وقد سمعت الحلقة؛ لذا قررت أن أكون هنا هذا الأسبوع..

رفعت:

هي مصادفة كذلك..

سوسن:

على كل حال أنت تعرف أنني لم أكن في الكلية منذ أشهر.. هذا صحيح.. لكني أتيت للكلية بعد (بيسة) مباشرة.. قبل هذه الستة الأشهر لم أكن في كلية أخرى. لم أكن في مصر.. لو أردت الدقة: لم أكن في مكان تعرفه..

رفعت:

هل بدأنا هذه النغمة إذن؟

سوسن:

من الخطأ الجسيم أن أقدم لك هذا الاعتراف المجاني، خاصة على جهاز الراديو.. لكني مضطرة لأن (بيسة) هذه أقوى مني أقوى منا جميعًا.. يجب أن يحترس الناس..

رفعت:

هل من مزيد من الإيضاح؟.. ما سر قوتها؟.. هل هي قريبة وزير ما؟

سوسن:

لا.. يجب أن أقول لك إن رئيسي استدعاني.. يمكن أن تعتبرني عميلة في جهاز سرّي.. هذا أقرب شيء ممكن لفهمكم.. رئيسي في عالمنا الذي لا تعرفون عنه أي شيء، قال لي إن أحد الشياطين من أبناء (بعلزبول) موجود في مصر.. بالتحديد في مدينتكم بالتحديد في هذه الكلية التي صرت فيها..

رفعت:

عم تتحدثين بالضبط؟

سوسن:

الأمر كما سمعته وفهمته.. هناك شيطان قد تحرر وهو طليق اليدين في عالمكم، وقد تنكر في شكل طالبة جامعية. لهذا كان على أن ألحق به.. هذه مهمتي في الحياة.. قال لي رئيسي إن هذا الشيطان تخفي في شكل فتاة، وهو يحمل علامة الوحش 666 على معصمه غالبًا، وهو من الكبريت لذا يتحمل أبخرة الكبريت، ولا تقتله النيران.. فقط عليّ أن أفتش بحذر.. إن تغيير الشكل أمر غاية في السهولة عليّ وعليه.. هكذا هبطت على مدينتكم العجوز.. وعلى الفور صرت فتاة اسمها (سوسن).. فجأة صارت كل أوراق الكلية تحمل معلومات عن تاريخ التحاقي وشهاداتي السابقة..

الآن صار عليّ أن أندمج في الحياة الجامعية وأن أراقب بعناية..

رفعت:

عزيزتي.. لقد بدأنا طور الهلاوس..

سوسن:

اسمع ولا تعلق.. فقط الحمقى لا ينتظرون نهاية القصة قبل أن يعلقوا عليها..

لقد حصرت دائرة شكوكي في الفتيات، ورحت أراقبهن في حذر.. أراقبهن كالصقر.. بعضهن كانت له تصرفات غريبة.. لهذا رحت أحاول أن أتبين الحقيقة أكثر.. ولهذا رحت أفتش أوراقهن.. كنت أبحث في معصم واحدة منهن عن علامة الوحش.. إن علامة الوحش خالدة ولا تتبدل أو تختفي مهما أتقن التنكر.. هكذا استطعت أن أضيق دائرة البحث لتنحصر في سبع فتيات.. كلهن في ذات الدفعة التي أدرس فيها.. ذات القطاع الدراسي (السكشن)..

هؤلاء الفتيات كانت أكمامهن طويلة دومًا.. فشلت تمامًا في رؤية سواعدهن.. اثنتان كانتا تضمدان معصميهما هما (فافي) و(بيسة)..

قررت أن أجرب الكهرباء كما حكت لك (بيسة).. تظاهرت بالغباء ومررت الكهرباء في أجساد مجموعة من الفتيات في مختبر الفيزياء.. جرعة غير قاتلة لكنّها مؤلمة بحق.. ما لم تقله لك (بيسة) هو أنها كانت بين الفتيات اللاتي تلقين الصدمة، والوحيدة التي لم يحدث لها شيء..

جربت أن أركب غاز ثاني أكسيد الكبريت في المختبر، والنتيجة كانت صاعقة.. معظم الموجودين كادوا يختنقون لكن واحدة فقط بقيت هادئة تفتح عينيها عن آخرهما وتراقب ما يحدث.. إنها بيسة طبعًا..

أين بيتها؟.. من أسرتها؟.. لا أحد من الفتيات يعرف وهي بالطبع لم تخبرك بذلك.. عندما طلبت أن أزور أسرتها رفضت في عصبية..

هكذا صارت شكوكي منحصرة في فتاة واحدة..

فتاة واحدة تعرف كل شيء وتتظاهر بالبراءة..

فتاة واحدة تدعو الفتيات إلى أماكن غريبة من أجل التغيير والمرح.. طبعًا سوف تتضمن هذه الأماكن المقابر قريبًا جدًّا..

عرفت أنّ هذه الفتاة فتشت خزانتي بعد ما سرقت مفاتيحي بالطبع نحن لا نحتاج للمفاتيح لفتح أي شيء.. أي مفتاح يصلح لكنّها وجدت الخناجر التي خصصتها لقتلها.. سرقتها مني.. لم تقل لك إنها سرقتها لكنّها فعلت..

رفعت:

صبرًا يا بنيتي.. رأفة بأعصابي.. هل تحاولين إقناعي بأنك لست بشريّة؟

سوسن:

ولا هي..

رفعت:

وتريدين أن أصدق هذا؟

سوسن:

يجدر بك أن تفعل بسرعة.. إن ثمن الخطأ باهظ جدًّا لن يتحمل عالمك ولا مجتمعك دفعه..

رفعت:

وماذا تنوين عمله؟

سوسن:

لقد فشلت في مهمتي.. لن أستطيع تدميرها من دون الخناجر كل ما أستطيع عمله هو إنذار العالم من خطرها..

سوف أرحل وأعتقد أنني سأعاقب.. لكني على الأقل حاولت..

رفعت:

هل تعتقدين أنها ستحاول قتلك؟

سوسن:

يمكنها ذلك ما دامت الخناجر معها.. لكن....

صوت امرأة:

لا تقاومي يا صغيرة!

(صوت جلبة وصراخ) لا.. دعوني.. لا!!

رفعت:

(سوسن).. هل أنت معي؟.. (سوسن)..

صوت امرأة:

(سوسن) لم تعد هنا يا دكتور رفعت..

رفعت:

ماذا؟. ماذا حدث لها؟. من أنت؟

المرأة:

لا شيء.. أنا د. (صافيناز الخولي) استشارية الأمراض النفسية في هذه المصحة.. آسفة جدًّا لأن سوسن تمكنت من الإفلات والاتصال بك من غرفة المدير.. لكننا بحثنا عنها ووجدناها ممسكة

بالهاتف وهي منكمشة جوار المكتب سنحقنها بمهدئ وسوف تنام حالًا..

رفعت:

هذا يعني أن..؟

المرأة:

نعم.. (سوسن) مريضة بارانويا تقليدية.. تعتقد أنها مرسلة من عالم آخر ومهمتها القضاء على شيطان تسلل إلى عالمكم.. كل هذا سخف طبعًا.. أكرر اعتذاري..

رفعت:

توقعت هذا على كل حال من كلماتها الأولى.. لكن شد ماهي مقنعة!

المرأة:

المرضى العقليون يشعون طاقة نفسية تقنع.. هذا معروف والآن أكرر اعتذاري.. سلام..

(تضع السماعة)..

رفعت:

هكذا تصير الحياة منطقية..

شريف:

للمرة الأولى لا أشعر براحتك هذه..

رفعت:

لماذا؟

شريف:

لقد بحثوا عنها في المستشفى فوجدوها تختبئ ممسكة بالهاتف جوار مكتب المدير.. من ثم أمسكوا بها وقيدوها.. متى ذكر اسم (رفعت إسماعيل) وكيف عرفت الطبيبة أنك من يتكلم على الطرف الآخر؟

رفعت:

ربما كانت الطبيبة تصغي للراديو عندما فوجئت بمريضتها تحكي القصة..

شريف:

ربما.. لكن ماذا عن صوت الطبيبة؟.. أليس شبيهًا للغاية بصوت سمعناه الأسبوع الماضي؟

رفعت:

هل تثق بذاكرتك لهذا الحد؟

شريف:

لا تنس أنني مذيع.. أي أنني رجل يعيش بأذنيه.. المذيع الذي ينسى الأصوات لا يستحق مهنته.. رأيي الخاص أن القصة الثانية حقيقيّة وأن (سوسن) سقطت في يد (بيسة) هذه ولسوف تتخلص منها، لكنّها أرادت أولًا أن تقنعنا أن كل ما قيل هذيان مجانين لذا تكلمت بلسان الطبيبة.

رفعت:

حكاية (سوسن) ضدّ حكاية (بيسة).. فمن من الفتاتين نصدق؟.. قصة (بيسة) أقرب إلى المنطق، لكن قصة (سوسن) أقرب إلى ما نشعره في قلبينا الآن.. أعتقد أنّ علينا أن نحاول معرفة مصدر هذه المكالمة بالاستعانة بالشرطة.. لو كانت من مصحة عقليّة في (بيسة) على حق.. أمّا لو لم تكن فنحن في مشكلة.. مشكلة كبيرة بالفعل!

الحلقة الثامنة

الأخ السابع

يحكيها (مجهول الاسم)

ومن قال إن الانتقام عاطفة راقية؟.. على قدر علمي كل الحيوانات تنتقم، وقد قرأت ذات مرة قصة فيل حديقة الحيوان الذي ظل يختزن الحقد ضد حارسه عدة أشهر إلى أن أتيحت له فرصة سحقه..

شريف:

هنا برنامج (بعد منتصف الليل).. نحن في انتظار مكالمة الليلة.. أرجو أن تكون الحلقات السابقة قد راقت لكم.. في الحلقة الأخيرة سمعنا قصة المستمع الذي يذيع جهاز التلفزيون الخاص به برامج لم تبثها أية محطة.. قصة غريبة ومرعبة، لكننا ما زلنا نأمل فيما هو أفضل..

رفعت:

القصة الأفضل لم تحك بعد على كل حال.. نحن ننتظرها منذ بدأ البرنامج في البث..

شريف:

نعم.. هذا يجعل الحياة محتملة.. وكما يقول (ناظم حكمت): إن أجمل الأطفال من لم يولد بعد، وأجمل البحار ما لم يوجد بعد، وأجمل ما قلته لك يا حبيبتي لم أقله بعد.. مصيبة أن يعرف المرء يقينًا أنه سمع أفضل شيء ممكن..

رفعت:

على كل حال هذا أفضل من أن تتوقع أن الأسوأ لم يأت بعد كلما حسبت أنك بلغت القاع اتضح أنه ما زال بعيدًا..

(رنين الهاتف)

شريف:

آلو؟

صوت رجل:

مساء الخير.. برنامج (بعد منتصف الليل)؟

شريف:

نعم يا سيدي.. حتمًا..

الرجل:

أنا (عبد السلام البسطاوي) من (منية شننتنا عياش).. الواقع أنه لا توجد قصص مرعبة في حياتي، لكني أكتب شعرًا جيدًا هل لي أن أقول شيئًا؟..

بعد منتصف الليل.. تعود لي ذكراك

بعد منتصف الليل.. أستعيد هواك

عندما كنا نحب بعضنا.. وكانت الـ..

شريف (مذعورًا):

سيدي.. سيدي.. ليس هذا مجال الشعر.. للبرنامج غرض محدد..

الرجل:

وكانت الطيور تغرد باسمنا..

وكنت أحبك كثيرًا.. وكنت تحبينني أنا..

ثم جاء البعاد.. وطفح بي الكيل

عندما استعدت ذكراك.. بعد منتصف الليل..

شريف:

أستاذ (عبد الرحمن).. أرجوك أن تنتظر قليلًا..

الرجل:

بعد منتصف الليل.. حيث رفعت اسماعيل

يحل مشاكلنا.. بصبره الجميل

وشريف السعدني.. يا أعظم مذيع

تقدم لنا الرعب الغني.. والخيال السريع

(يقطعون الخط)

رفعت:

كان هذا رأيي دومًا.. عندما يتحمس الشاعر ويبدأ في إنشاد قصيدة فلا طريقة لمنعه إلا وضع الديناميت في فمه..

شريف:

إنه متحمس..

رفعت:

أخطر الناس طرًا هم المتحمسون.. سوف ينتهي العالم يومًا على يد واحد متحمس.. على كل حال الأخ (عبد الرحمن) هو أول من يكتب شعر الرعب في التاريخ.. هناك محاولات ساذجة لإدجار آلان بو، لكن (عبد الرحمن) تفوق على نفسه.. لم أشعر بمثل هذا الذعر من قبل.. الذعر من أن يستكمل قصيدته..

(رنين الهاتف)

شريف:

هل من شاعر آخر؟.. آلو؟

صوت رجل:

لن أذكر اسمي لو سمحت.. أنا أتكلم من هاتف عمومي لو خطر لكم أن تتابعوا الاتصال..

رفعت:

بداية قوية..

الرجل:

أنا قتلت (عباس).. هذا صحيح.. لكنه استحق ذلك..

شريف:

بداية أقوى.. لكن لنا طبعًا أن نفترض أن اسم (عباس) مستعار..

الرجل:

طبعًا.. ما معنى أن أخفى اسمي وأذكر اسم من قتلته؟.. إن (عباس) صديقي وهو الابن السابع من أسرة كبيرة في قريته.. أبوه أنجب ذكورًا فحسب، وكلهم أكبر من عباس لهذا أتوقع أن يكون انتقامهم مريعًا.. ليس البوليس هو ما أخشاه.. هؤلاء لن ينتظروا البوليس ليأتي بحقهم..

رفعت:

هلا شرحت لنا؟

الرجل:

عباس كان مدللًا فاسدًا.. إنّه الصورة الأولية للكذب.. ما إن تخرجنا في الكلية حتى جاء لي واقترح أن نبدأ مشروعنا الخاص بانتظار التعيين.. قال لي إن الوظيفة الحكومية لن تحل أو تقدم أي ربط.. قال لي إن بوسعنا أن نقيم مشروعًا لبيع المواد الغذائية بسعر الجملة.. هذا مشروع

مرعب لكنه كان قد رسم كل شيء، ويبدو أن دراسته الجامعية في كلية التجارة جعلته يعرف كل هذه التفاصيل..

لقد استدنت وحصلت على كل قرش يمكن أن أحصل عليه، كما تشاجرت مع أسرتي إلى أن أقنعتهم بأن يبيعوا قطعة من الأرض تخصنا.. كل هذا المال وضعته في يد عباس كي نبدأ..

ابتعنا بعض الثلاجات الأفقية المناسبة للحوم.. استأجرنا المكان ثم توارى عباس تمامًا..

بحثت عنه في كل مكان.. في قريته.. في المقاهي. لدى أصدقائه.. لا أثر له..

أخيرًا وجدته لدى صديق من أصدقائه.. كانا يمضيان ليلة ماجنة واعترف لي وهو لا يفقه ما يقول إنّه أنفق مالي كله.. لا يعرف فيما أنفقه لكنه لا يملك مليمًا منه..

قال لي ضاحكًا: تجارة مواد غذائية هل تحسبها لعبة؟.. السوق مليء بأباطرة قادرين على تمزيق طفلين مثلنا..

سألته عما أفعله وقد أخذ هو كل مليم في عالمي، فقال ضاحكًا: الله يعوض عليك..

هذه كانت الإجابة، وهذا يضعك في الحالة النفسية التي صرت فيها..

لقد أمضيت يومين أجوب المقاهي شاردًا.. لا أستطيع العودة إلى أسرتي ولا أستطيع أن أنام.. شربت ألف لفافة تبغ وألف قدح قهوة..

رفعت:

الأحمق وماله يفترقان سريعًا.. يؤسفني قول هذا لكنه دقيق..

الرجل:

نعم.. كنت أحمق.. لكني لست سهل الهضم.. هكذا يصير الناس مجرمين.. هكذا رحت أبحث عن عباس من جديد.. قلت له إنني بحاجة إليه لبيع تلك الثلاجات التي ابتعناها..

رفعت:

أوشك أن أقرأ قصة ما حدث في صفحة الحوادث..

الرجل:

بالضبط.. لقد جاء وهو يأمل في سرقة جديدة يظفر بها.. أنت تعرف باقي القصة.. أغلقت المحل وطلبت منه أن يفتح الثلاجة ليرى إن كانت تعمل أم تالفة.. لما انحني هويت على رأسه بثقل حديدي.. هوى كالزكيبة على الأرض.. تحسست نبضه فأدركت أنه ميت.. بالتأكيد ميت.. لكني برغم هذا حملته ووضعته في إحدى الثلاجات وقمت بتشغيلها، ثم أغلقتها بالمفتاح بإحكام.. أنت تعرف تلك الثلاجات الشبيهة بالتوابيت..

عندما أغلقت النور وغادرت المحل كنت أشعر براحة عظمى..

رفعت:

هذه حماقة كبرى.. هل كنت تعتقد أنك ستنجو بفعلتك؟؟ الجرائم غير المحسوبة من هذا الطراز تدلّ على سيطرة ما تحت قشرة المخ.. أي أنك كنت حيوانًا..

الرجل:

نعم.. ومن قال إن الانتقام عاطفة راقية؟.. على قدر علمي كل الحيوانات تنتقم، وقد قرأت ذات مرة قصة فيل حديقة الحيوان الذي ظل يختزن الحقد ضدّ حارسه عدة أشهر إلى أن أتيحت له فرصة سحقه..

رفعت:

أكمل..

الرجل:

قضيت يومين بين منازل أصدقائي ثم عدت إلى المحل..

فتحت الثلاجة لأرى الجثة.. كانت حيث تركتها تمامًا في ذات الوضع، لكن إحدى الساقين مفتوحة عن آخرها لتستقر قدمها في ركن الثلاجة أو التابوت.. كان هذا غريبًا.. طبعًا كان أول شيء خطر لي هو أنه كان حيًّا في المرّة الأولى وأنا جاهل..

على كل حال أعدته لوضعه السابق وأغلقت الثلاجة وفارقت المكان.. كانت خطتي هي أن أتركه عدة أيام ثم أرتب سيارة أنقله بها إلى حيث أدفنه في الصحراء.. عندما يتأكد اختفاؤه سيكون عليّ مواجهة أسئلة الشرطة.. لكن يمكن تحمل هذه ما دمت أدرك يقينًا أنني لم أترك خلفي أثرًا..

رفعت:

طبعًا عندما عدت وجدت ساقه في ذات الوضع..

الرجل:

نعم.. وجن جنوني.. أنا متأكد من أنّه مات.. لو لم يكن قد مات من الضربة فمن البرد والجوع والظمأ.. هكذا أغلقت الثلاجة بإحكام من جديد وغادرت المحل بعد ما أحكمت غلقه وقررت أن أتغيب أسبوعًا..

عدت بعد أسبوع لفتح الثلاجة.. وماذا تتوقع أنني وجدته؟..

رفعت:

الساق في ذات الوضع؟

الرجل:

لا ساق.. لا جثة..!!.. الثلاجة خالية يا دكتور.. خالية تمامًا!.. المحل مغلق كما تركته والثلاجة مغلقة كما تركتها برغم هذا اختفت الجثة!

فررت إلى قريتي وقضيت أسبوعًا لعينًا.. كنت محمومًا بلا مرض معين..

والحقيقة أن مخاوفي تحققت لكن ليس فيما يتعلق بي، وليت هذا حدث لي أنا.. لقد وجدوا أخي ميتًا في الحقل.. كان يعمل هناك في ساعة متأخرة عندما غربت الشمس.. لا يعرفون كيف ولا لماذا مات، لكن من غسل جثته قال إنها كانت خالية من الدماء!.. الفلاحون فسروا الأمر بأنه رأى ما يخيف..

أنا كنت هناك وقت الدفن ورأيت ثقبًا في عنقه.. ثقبًا صغيرًا لم يلحظه طبيب الوحدة الصحية، لكني لاحظته..

شريف:

آها!.. هذه النغمة تبدو مألوفة.. لا تقل لي إن صاحبك تحول إلى مصاص دماء من فضلك..

رفعت:

لا أرى أي شيء سخيف فيما قال بفرض أنه صادق.. بفرض أنه غير مخبول.. عباس صديقك هو الابن السابع في أسرة من الذكور.. الحقيقة أن وضعه ممتاز كي يكون مصاص دماء.. قالوا في الغرب إنّه يسهل عليك معرفة مصاص الدماء؛ لأنّه يكون الطفل السابع لأخوة من نفس الجنس.. أمّا عن موضوع الساق.. فلو افترضنا أن الثلاجة تحولت إلى تابوت لقلنا إن هذه علامة أكيدة على مصاصي الدماء.. عندما يموت الرجل وتفتح قبره تجد قدمه موضوعًا في ركن التابوت.. هكذا يعرفون أنه سيصير مصاص دماء ويغادر قبره، وهكذا يقطعون رقبته ويحشون فمه بالثوم..

شريف:

د. رفعت.. هذا كلام مفزع فعلًا، لكنه غريب عن ثقافتنا تمامًا..

رفعت:

كل شعب في العالم لديه قصص مصاصي الدماء الخاصّة به.. صحيح أن الأسطورة بدأت في أوروبا الشرقية لكنّها موجودة في العالم كله.. إن أهم أساطير مص الدم موجودة عند السلافيين لفظة Vampire ذات أصل سلافي.. تذكر أن دراكيولا روماني.. هناك انقسام كنسي مهم حدث عام 1054 عندما اعتنق الصرب والروس والبلغاريون العقيدة الأرثوذكسية، بينما اعتنق التشيك

والبولنديون الكاثوليكية. كانت هناك مشكلة الجثث التي لا تتعفن في التربة.. هذه الجثث اعتبرها الكاثوليك جثث قديسين بينما لأسباب واضحة اعتبرها الأرثوذكس جثث مصاصي دماء..

الجانجريل GANGREL كما قلنا نوع من مصاصي الدماء يفضلون الأماكن المقفرة، ولهم قدرة فائقة على تغيير الشكل إلى ذئب أو وطواط.. إنهم يحبون معاشرة الحيوانات الضارية لأن هذا يناسب طبيعتهم أكثر. مع الوقت ينمو لهم شيء حيواني مثل عين القطة أو الفراء أو أذن الوطواط..

في الهند يؤمنون أن البطيخ الذي يترك في البيت حتى يفسد يبدأ في الحركة ويتحول لكائن يمتص الدم!.. الهند عامرة بأساطير مصاصي الدماء.. هناك الـ (بوتا) الذي يجوب الليل ويهاجم الأحياء كالغول.. بعض تلك المخلوقات لها جمجمة قابلة للنزع لشرب الدم فيها.. إلا أن أشهر مصاص دماء هو (كالي) ذات الأربعة الأذرع والتي تلبس حول عنقها جماجم الموتى ولها أنياب حادة.. يُقال إنها بهذا تهزم الإله (راكتابيجا) الذي كان يعيد التجسد من قطرة دم واحدة.. لهذا تحرص على ألا تترك أية قطرة دم.. هناك الأساسابونسام في غانا وهو مصاص دماء يتوارى بين الأشجار ويهاجم العابرين... الداشنافار في أرمنيا الذي يمتص الدماء من أقدام المسافرين ليلًا.. في ألبانيا (اللوجات).. في أستراليا (يارا ما يها هو).. في بلغاريا (أوبور).... في الصين (شيانج شيه).. يخرج من جثة منتحر ويبدو بشريًا لكنك تعرفه عندما لا يتمكّن من عبور الماء.. الفرايكولاكاس في اليونان الذي يأتي لدارك ويناديك بالاسم طالبًا الدخول..

خذ عندك الوحوش حمر العيون خضر الشعور في الصين وخذ (لاميا) اليونانية التي هي امرأة وأفعي معًا، والثعالب مصاصة الدم التي تمشي في مواكب عندما يكتمل القمر في اليابان، والرأس الزاحف (بينانجالانج) في ماليزيا.

شريف:

لا أعرف كيف تذكر كل هذه الأسماء من الذاكرة؟

رفعت:

لو عشت حياتي لعرفت ما أعرفه..

شريف:

هل يعني هذا وجود مصاصي دماء أم يعني أن الإنسان يخرف في كل مكان وزمان؟

رفعت:

يعني أنّ هناك شيئًا ما..

الرجل:

هذا عرض شائق يا د. رفعت.. لكنك لم تشرح لي ما يريده مني..

رفعت:

سؤال غريب.. الانتقام طبعًا..

الرجل:

وماذا أفعل؟

رفعت:

من دون مصاصي دماء في القصة، سوف أنصحك بأن تسلم نفسك للشرطة كأي قاتل.. ربما كان السجن أكثر أمنًا.. لا توجد جثة على كل حال وسوف يتعب رجال الشرطة كثيرًا جدًّا..

الرجل:

على كل حال أنت أنرت لي طريقي بحق.. ثمّة نقطة أخيرة.. أرجو أن تكلّم صاحبي هذا..

رفعت:

صاحبك؟.. عم تتكلم؟

صوت ثان:

مساء الخير يا دكتور.. أنا عباس!

رفعت:

ماذا؟.. عباس من؟

عباس:

عباس الذي مات ودفن في ثلاجة.. الحقيقة أنني كنت ساهرًا مع صديقي وقررنا أن نتصل بك.. يقولون إن عندي موهبة في كتابة قصص الرعب، وقد خطر لي أن أجرب.. كتبت سيناريو صغيرًا قام بأدائه صديقي الذي اتصل بك.. إن صوته مقنع وواضح النبرات.. أردنا معرفة تأثير هذه القصة عليك وعلى مستمعيك..!

رفعت:

هل هذه محاولة للتظرف؟

عباس:

بل هي عرض لعمل أدبي مع طلب رأيك.. أعتقد أننا كنا مقنعين.. لقد نجحنا في إقناعكم وهذا يعني أنني أديب موهوب! والأجمل أنك التقطت طُعم الأخ السابع والساق..

شريف:

كنت تضيع وقتنا إذن..

عباس:

لم نتعمد شيئًا.. أنتم تريدون قصة ممتعة مخيفة ونحن فعلنا ذلك. نعتذر لو كنا قد سببنا أي إزعاج لكما..

(يضع السماعة)

شريف:

برغم كل شيء، هذا مقلب ممتاز..

رفعت:

نعم.. أشعر بغيظ لا حد له وأتمنى أن يتشاجرا الليلة فيهشم صاحبه رأسه.. لو أنه فعل ذلك ووجد ساق عباس في ركن الصندوق غدًا فليعلم أننا لن نساعده في حل هذه المعضلة!

الحلقة التاسعة

محمـــووود!

تحكيها (مدام فاتن)

كان القط يقف الآن في ركن الصالة ينظر لي تلك النظرة الوقحة المزعجة ولا يبدو أنه ينوي أن يطرف بجفنيه.. لا عجب أن اعتبره الفراعنة إلهًا واعتبره المحدثون شيطانًا....

شريف:

هذه حلقة جديدة من برنامجكم (بعد منتصف الليل).. البرنامج الذي تبقون ساهرين بانتظاره حتى الساعة الأولى من صباح الجمعة.. معكم (شريف السعدني) وضيفنا الدائم د. (رفعت إسماعيل). أستاذ أمراض الدم.. لهذا أسأله: لماذا أمراض الدم؟

رفعت:

أنت تحاول تزجية الوقت طبعًا حتى تأتي أول مكالمة.. ليكن لقد جربت فروع الطب عامّة كطالب ثم كخريج شاب.. لم أكن مولعًا بالجراحة ففكرت في فرع من فروع الطب الباطني، وقد بدا لي الإنسان لغزًا وقواعد اللعبة تتغير في كل دقيقة.. لا يوجد شيء ثابت أو مؤكد.. لو رأيت مائة مريض بالتيفود لرأيت مائة شكل مختلف.. مريض الذئبة الحمراء قد يتساقط شعره وقد تتلف كليته سيان.. الكلية قد تتلف على مدى أيام أو أعوام.. قد يعاني مريض الصدفية من مجرد بقعة خشنة صغيرة على ساعده وقد يتحول لشيءٍ مريع شبيه بالسحلية.. كل شيء وارد وكل شيء مستبعد.. فقط في أمراض الدم وجدت قواعد شبه ثابتة، ووجدت أن التفكير المنطقي يمكن أن يقودك إلى الصواب..

شريف:

إذن لا علاقة لمصاصي الدماء بالأمر..

رفعت:

عندما اخترت تخصصي لم أكن قد قابلت الكثير من القصص المخيفة.. فقط اخترت الفرع الذي تقلد فيه الطبيعة الكتب وتلتزم بها.. ثم سافرت إلى أسكتلندا ونلت الدكتوراه، وبدأت حياتي واهتماماتي تتشكل..

شريف:

هل أحببت أسكتلندا؟

رفعت:

كان هناك جو عام من المودة والصفاء جعلني أحب البلاد فعلًا.. البروفسور (ماكيلوب) عاملني كابن له، وإن كان حازمًا أقرب إلى الشدة أحيانًا.. انطباعي عن البريطانيين سلبي غالبًا، لكن أسكتلندا تختلف.

شريف:

ألم تفكر في الاستقرار هناك؟

رفعت:

الغرض ليس استمتاعي بالحياة.. لقد أرسلتني الدولة إلى هناك على نفقتها كي أغترف ما أستطيع من علم وأعود به.. أعود به إلى (حميدة) و(باتعة) وعم (شعبان) وعم (بسيوني) العجوز الذي يعمل في الحقل، ويشعر أنه شاحب وأنفاسه متقطعة وأنه لم يعد على ما يرام.. هذا هو فهمي للأمور.. للدقة أكثر: أنا ذهبت هناك لأدرس على نفقة عم (بسيوني) وأمثاله. لو كان الغرض هو إمتاعي لكنت هناك الآن متزوجًا من ابنة البروفسور، ولكنت آتي في إجازة الصيف كل خمسة أعوام مع ابني (جيمي) و(سارة)، لأحدثهما عن الأهرام وعظمة الفراعنة بينما هما غير مكترثين..

شريف:

أنت اخترت مصر إذن..

رفعت:

بعبارة أدق: اخترت ما أحبه في مصر.. هناك أشياء عديدة لا أحبها لكني أحاول أن أنساها.. مع أول انقطاع للتيار الكهربي أو المياه، أو أول مشاجرة مع موظف في السجل المدني، ومع أول طوبة أتلقاها في جبيني وأنا أقود سيارتي على الطريق السريع، ومع أول برنامج تلفزيوني أبله، أقول لنفسي: لماذا عدت؟.. لكني أتذكر عم (بسيوني) العجوز الطيب الذي يشرب الشاي الأسود بالنعناع في الحقل ليلًا، فأهدأ..

شريف:

هذا جميل.. لكننا ما زلنا في انتظار أول مكالمة..

رفعت:

لماذا؟.. أنا مستمتع جدًّا.. أتكلم في الموضوع الوحيد الذي يروق لي فعلًا وهو أنا.. للمرة الأولى أتمنى أن تتأخر هذه المكالمة.. ككل إنسان أتمنى أن تصدر جريدة مخصصة للكلام عن آرائي في الحياة، وعلى صفحتها الأولى أخبار عن استيقاظي من النوم وخروجي من الحمام. إلخ.. أنا مندهش لماذا يضيع الناس وقتهم في الكلام عن المال والفلسفة والسياسة ولا يكرسون حياتهم للكلام عني أنا..

(رنين الهاتف)

شريف:

للأسف يبدو أننا سنتكلم في أمور مملة لا تهمك من جديد..

رفعت:

هذا مؤس..

شريف:

ألو.. برنامج (بعد منتصف الليل).. تفضل..

صوت امرأة:

صباح الخير

شريف:

هل لنا أن نتعرف بك؟

المرأة:

لنتظاهر بأن اسمي (فاتن).. ربما تقولون كلامًا محفوظًا تبرهنون به على أنني مخطئة، لكني أعرف ما أتكلم عنه.. هذا هو خطأ الرجال الدائم عندما يرون امرأة رقيقة هشة مثلي فيفترضون أن عقلها كذلك رقيق هش..

رفعت:

نعم.. لكن تذكري من فضلك أن الهستيريا داء أنثوي لأن (هوستيرا Hustera) باليونانية معناها (الرحم)..

المرأة:

توقعت هذا لكن صدقوني بالله عليكم.. لقد توفي زوجي (محمود) منذ ثلاثة أشهر..

رفعت:

تعازينا الحرَّى..

المرأة:

ربما أبدو قاسية، لكن (محمود) - رحمه الله - لم يكن أفضل ولا أرق زوج في العالم.. كان يعرف كيف يجعلني تعسة.. كان يعرف كيف يجعلني أبكي وحدي في الفراش.. والنفاق كل النفاق أن أزعم أن وفاته لم تطلق سراحي.. منذ طفولتي كانوا يعتبرونني نسمة تنكرت في شكل إنسان، وكان أبي يتساءل كيف استطاع الفول والطعمية أن يصنعا تحفة فنية مثلي بينما لا يصنعان لدى الناس الآخرين إلا كروشًا متدلية وغازات بطن.. لم أكن أقرأ إلا الشعر ولا أنسج إلا الكانافاه.. لم أكن أنام إلا على وسادة محلاة بالدانتيلا.. كنت حلمًا..

رفعت:

سوف نفترض أنّ هذا صحيح، برغم أن تجربتي مع النساء تخبرني أنهن جميعًا يحملن هذا الانطباع الذاتي عن أنفسهن.. (صورة الذات Self image) عندهن قد تعوزها الدقة..

المرأة:

صدق أو لا تصدق فهذا شأنك.. على كل حال كبرت وصرت مطمع العرسان في المنطقة، وجاء زوجي (محمود) الذي قرر لسبب ما أن عليه أن يكافئني على رقتي بأن يجعلني زوجته.. وتحولت حياتي إلى جحيم.. إنِّه فظ.. بخيل كالبراغيث.. لم يحبّ في حياته سوى اللعب في أصابع قدميه ومشاهدة مباريات كرة القدم وقد كان أهلاويًا بعنف.. فإذا تناول العشاء تجشأ ونام.. دعك طبعًا من البصق على السيراميك فهذه هواية محببة له..

على كل حال هو قد توفي ولن يستطيع أن يجلس هنا معنا ليدفع هذه الاتهامات عن نفسه.. لبست الأسود الذي ناسب لون بشرتي بشدة فصرت أكثر بياضًا.. أنا لست قاسية.. ما أريد قوله هو أنه كان يملك قطًا.. تزوجته وهذا القط معه وقد جاء به لبيتنا ضمن جهازه..

رفعت:

آه... لا يمكن أن توجد قصة رعب من دون قط.. هذا شيء مقدس فيما يبدو.. كنت أنتظر لحظة ظهوره.. القطط عنصر جوهري في قصص الرعب كلها، فلا عجب أن صنع (إدجار آلان بو) شهرته من قصة القط الأسود. لكن ألا ترين غريبًا أن يهتم رجل هذه صفاته بالقطط؟.. العناية بالحيوانات تشي بقدر من الإنسانية لا بأس به، والاستثناء الذي يحضرني الآن هو (إميلي برونتي) مؤلفة (مرتفعات وذرنج) القصة الحساسة الأليمة.. كان لديها كلب عملاق مرعب تربيه كي تخرج فيه توترها العصبي واضطراب روحها.. كانت تسدد اللكمات لأنفه حتى يسيل منه الدم!

المرأة:

هذا قياس خاطئ.. أعتقد أن الكثير من الناس يربون الحيوانات كمصدر لإخراج ساديتهم المريضة بمن فيهم مؤلفتك هذه.. نعم أنا لا أعرف كيف أحب زوجي قطًا لكن هذه هي الحقيقة، ولعل الطيور على أشكالها تقع.. فالقط كان يناسبه بالفعل.. قط سيامي قبيح جدًّا على وجهه نظرة شهوانيّة مزعجة وله عينان ثابتتان وقحتان..

مات زوجي فقررت أن أحتفظ بالقط على سبيل الذكرى.. لكن هذا الوغد لم يترك لي فرصة كي أحبه.. كان يجول بين الغرف في توتر مجنون.. ثمّة نوع من النمور رأيته في حديقة الحيوان لا يكف عن الدوران حول نفسه في القفص وقد تذكرت هذا المشهد على الفور..

بدأ يموء وفى البداية لم أفهم ما يقول، ثم ميزت أذناي حروف الكلمة التي لا شك فيها:

- «محمووووود!.. محموووووود!»

كل القطط تقول (داووووود).. لكن يُمكنك بوضوح أن تميز حرفي الميم والحاء في نداء هذا القط..

رفعت:

من الواضح أنّ هذا خداع سمعي.. على كل حال القطط تصدر فعلًا حرفي الحاء والميم وأحيانًا العين والنون والدال..

المرأة:

منذ أسبوع فتحت التلفزيون فوجدت مباراة للأهلي.. وقبل أن أغلق الجهاز وجدت القط يثب إلى الأريكة ليشاهد المباراة في اهتمام جنوني.. وأصدر عواءً مريعًا مع فحيح ثعباني في وجهي عندما كدت أمد يدي لمفتاح الغلق.. كل القطط تعرف كيف تصير مرعبة متى أرادت..

هناك أشياء غريبة.. القط يحبّ أن يجلس على الأريكة ويلعق أصابع قدميه.. لم تكن هذه عادته فيما سبق..

ومن حين لآخر يردد:

- «محمووووود!... محمووووود!»

صرت أرتجف كلما رأيته.. وصرت أغلق باب غرفة نومي عليّ ليلًا، لكنه يواصل خدش الباب وهو يكرر هذا النداء المُلح المعذب..

رفعت:

كل هذا منطقي.. القط صار هو المعادل الموضوعي لزوجك مسألة نفسية معروفة..

المرأة:

لم تنته القصة بعد.. ذات ليلة كنت نائمة والباب موصد، ثم صحوت من النوم على شيء يلعق وجهي وشفتي.. فتحت عيني لأجد هذا المخلوق جاثمًا على صدري.. كيف دخل؟.. لابد أنه وثب على مقبض الباب ففتحه.. جريت وراءه بالمكنسة فكان يتوارى في مكان ما، ثم يظهر عندما تكون هناك مباراة للأهلي أو ليسرق قبلة مني أثناء نومي..

تكلمت مع أخي (ثروت) فجاء بتلك الحقيبة، وبصعوبة بالغة دسّ القط فيها، وقد كلفه هذا جروحًا لا حصر لها في يديه وساعديه، ثم حمله بسيارته إلى الصحراء وتركه هناك.. بعد يومين وقفت على باب الشقة أثرثر مع جارة لي عندما فوجئت بقط سيامي أهلاوي يندفع كالبرق من جوار قدمي ليتوارى داخل الشقة.. لقد عاد!!.. كنت أسمع قصصًا كهذه لكني لم أصدقها..

قمت بتركيب مزلاج لغرفة النوم، لكن كان على أن أتحمل خدش هذا الشيء للباب طيلة الليل..

الآن يمكنني تلخيص الموقف: إن روح زوجي الشريرة لم ترد مغادرة البيت بهذه السهولة لذا تقمصت هذا القط لتعيش من خلاله معي.. يصعب تخيل هذا لكن لا أري الوقائع على ضوء آخر..

نقدت البواب بعض جنيهات فجاء مع ولده وقد بدا كأبي زيد الهلال وهو يحمل تلك الشومة وابنه يحمل أخرى.. وقال لي:

- «معذرة يا هانم.. أرجو أن تغلقي الباب عليك لأنك لن تتحملي ما سترين..»

كنت موافقة.. فقط قلت له:

- «لا تحطم أي شيء في الشقة.. أرجوك..»

أشار لعينيه بمعنى أنه تحت أمري، ثم تواريت في الغرفة وأنا أسمع صراخ الرجل وابنه وعواء القط.. سوف يحطمان رأسه بلا شك.. إن الرفق بالحيوان شيء لا يعرفه هذا الرجل الذي يتسلى بإغراق القطط الوليدة بعد وضعها في كيس قماشي..

ضرب.. صراخ.. ضرب.. أشياء تقع.. ثم دق الباب ففتحته لأجد الرجل منهكًا يقول لي:

- «إنّه سريع الحركة يا مدام.. أي شيطان هذا؟»

ثم انصرف خائب الأمل وإن وعد بأن يحضر بعض السم لإنهاء العملية بالطريقة السهلة..

سم!.... كيف لم أفكر في هذا؟

كان القط يقف الآن في ركن الصالة ينظر لي تلك النظرة الوقحة المزعجة ولا يبدو أنه ينوي أن يطرف بجفنيه.. لا عجب أن اعتبره الفراعنة إلها واعتبره المحدثون شيطانًا....

قلت له:

- «سامحني يا (محمود).. أنا أعرف أنك تعرف أنني أعرف أنك (محمود) ولست القط.. من فضلك اترك هذا البيت.. إن هذا ليس طبيعيًا.. إنّه يخيفني..»

لكنه لم يتحرك.. ظل في البيت يأكل ويتابع مباريات الأهلي..

ثم جاءت ساعة الصفر.. لقد نمت الليلة مبكرًا لكني صحوت بعد نصف ساعة لأجده يلعق وجهي بذات الطريقة.. لكن الجديد في الأمر هو أنني أعرف جيدًا أنني أغلقت الباب بالمزلاج.. لقد انتهت المجاملات ولم تعد هناك أقنعة.. لا مزيد من التظاهر بأنه قط رقيق.. إنّه يعترف بوضوح بأنه كائن شيطاني

- «محمووووود!.. محمووووود!»

اتجهت إلى المطبخ.. قمت بسلق سمكة صغيرة له.. ثم قمت بهرسها.. فتحت زجاجة السم ونظرت خلفي لأتأكد من أنّه لا يراني، ثم أضفت منه كمية وافرة إلى طعامه.. لا أريد أن يتعذب

لكني كذلك لا أريد أن ينجو.. من المحزن لمن كانت في رقتي أن تقوم بتسميم قط، لكن هذا هو الخيار الوحيد أمامي قبل أن أنتحر.. هكذا خرجت إلى الصالة مصدرة الكثير من (البسبسة) ووضعت الطبق الصغير على باب الشقة..

هو الآن قد أكل.. منذ ساعتين.. ترى كم الوقت يلزمه حتى يموت؟.. ليست لديَّ خبرة بالموضوع في الحيوانات..

رفعت:

هذا يعني أنه لم يمت بعد.. القصة ما زالت طازجة..

المرأة:

نعم.. هل عندك فكرة؟.. لماذا يأبى قط أن يموت بالسم؟..

رفعت:

لا أعتقد أنه راسبوتين.. هل السم ما زال صالحًا؟.. بعض السموم تتلف بالتخزين..

المرأة:

لا أعتقد أنّ هذا هو التفسير..

رفعت:

هناك سؤال مهم هنا: لماذا تحتفظ امرأة رقيقة مدللة مثلك بزجاجة سم؟.. لماذا تشعرين بهذا التوتر الذي يذكرني بتأنيب الضمير؟.. لماذا قلت: «ليست لديَّ خبرة بالموضوع في الحيوانات..»؟.. هل لديك خبرة في غير الحيوانات؟

المرأة:

(صمت طويل)

رفعت:

هل تنوين الإجابة؟.. لا أحد يعرف اسمك ولن نتمكن من متابعة المكالمة لأن كل تجاربنا السابقة فشلت كما تعرفين.. لابد أن تستعد مباحث التليفونات مسبقًا..

المرأة:

حسن.. إن اختلاف الجرعات مشكلة.. مثلًا استغرق الأمر ساعة مع (محمود) كي يموت بهذا السم الذي دسسته له في الكفتة، فهل تعتقد أن قط (محمود) يمكن أن يستغرق الفترة ذاتها؟!!

رفعت:

الإجابة هي: لا أعرف.. ما لم يكن القط غير طبيعي فعلًا..

(المرأة تضع السماعة على الفور)

شريف:

لقد قطعت المكالمة..

رفعت:

بالطبع.. بدأ الأمر كشك ثم بدأ يتراكم حتى صار يقينًا.. على كل حال أعتقد أن القط لن يموت بسهولة.. القط الذي يأكل كمية وافرة من السم ويظل حيًّا ساعتين هو قط غير طبيعي.. بالتأكيد ليس طبيعيًا!

الحلقة العاشرة

في غرفة نومي

تحكيها (هانم الخلفاوي)

الرعب المقترن بخزانة الثياب شهير جدًا لدى أية حضارة لديها خزانة ثياب.. إنها تمثل بابًا خلفه عالم مظلم مبهم، ويقود إلى قلعتنا الخاصة التي نشعر فيها بالأمن: غرفة نومنا.. لاحظ أنك ستنام وتصير هشًّا معدوم الحيلة، فماذا عساه يخرج من تلك الخزانة؟

شريف:

هذه حلقة أخرى من (بعد منتصف الليل).. د. رفعت إسماعيل هنا وهو متأهب ومتشوق للرد على مكالماتكم..

رفعت:

متأهب لكن غير متشوق لو شئت الدقة.. لا يمكن أن تصف المحكوم عليه بالإعدام الذي ينتظر أن تنفتح (الطبلية) تحت قدميه بأنه متشوق.. هو فقط متأهب جدًّا..

شريف:

سمعنا في الحلقة السابقة قصة الطالبة التي تنظر لها خزانة الثياب كلما أدارت ظهرها.. تقول إن هذا الشعور قوي لدرجة أنها لم تعد تبدل ثيابها في غرفة النوم.. هل تعتقد أنّ هذا ضرب من الهستيريا؟

رفعت:

الهستيريا تفوح من كل حرف في هذا الكلام.. قلت لها هذا في الحلقة السابقة.. على كل حال، الرعب المقترن بخزانة الثياب شهير جدًّا لدى أية حضارة لديها خزانة ثياب.. إنها تمثل بابًا خلفه عالم مظلم مبهم، ويقود إلى قلعتنا الخاصّة التي نشعر فيها بالأمن: غرفة نومنا.. لاحظ أنك ستنام وتصير هشًا معدوم الحيلة، فماذا عساه يخرج من تلك الخزانة؟ الأطفال في الغرب يتحدثون عن رجل الخزانة ويعرفونه جيدًا.. على كل حال الشعور بالمراقبة أمر جوهري في العصاب..

شريف:

على كل حال نحن بانتظار المكالمة الأولى، وكلنا أمل في أن تكون شائقة.. ربما نستمع لأغنية في هذا الوقت..

(رنين الهاتف)

شريف:

أو ربما لا..

صوت امرأة:

مساء الخير.. أنا (هانم الخلفاوي).. ربة بيت..

شريف:

مرحبًا بك..

هانم:

سمعت برنامجكم.. الحلقة السابقة.. أنا مقيمة في (الجيزة).. والغريب أن المشكلة واحدة..

شريف:

هلا أوضحت من فضلك؟

هانم:

كنت قد فتحت خزانة الثياب لوضع الثياب الشتوية.. أنت تعرف أن أية ربة بيت تنهي موسم الشتاء بغسل الثياب الشتوية وطيها، ثم تفتح خزانة الثياب لوضعها بعد أن تدس بين طياتها حبيبات (النفتالين) منعًا للعثة..

رفعت:

للأسف لم أجرب هذا لأنني كنت بلا أسرة تقريبًا..

هانم:

ألا تفعل المدام الشيء ذاته؟

رفعت:

ليست لي مدام.. لا أدري هل هذا خبر محزن أم مفرح، لكنّها الحقيقة.. بعض الرجال يعتبرونني عبقريًا والنساء يعتبرنني مجنونًا أو مريضًا.. هذا موضوع يطول شرحه.. المهم أنّ هذه من طقوس البيت المصري.. هل لديك أبناء؟

هانم:

نعم.. لديَّ (مروة) في الصف الثاني الثانوي، و(ريهام) في الإعدادية، و(سامي) في الصف الخامس الابتدائي.. زوجي موظف..

شريف:

جميل.. لكن دعينا نواصل لو سمحت..

هانم:

إن خزانة الثياب من طراز عتيق.. ضخمة جدًّا.. بها قسم علوي يصلح لوضع حقائب السفر والبطاطين والثياب التي لا تناسب الموسم، وقسم سفلي للثياب المستعملة.. كنت أقف على أطراف أصابعي فوق الفراش وأنا أضع هذه الثياب.. ثم..

رفعت:

يبدو وضعًا عسيرًا.. على كل حال أكملي قصتك..

هانم:

كما قلت لك رحت أضع الثياب في الركن العلوي.. هنا خيل لي أن شيئًا يتحرك هناك. معنى هذا شيء واحد كما تعلم: فأر.. وأنا لست من الطراز الهستيري الذي يملأ الشارع صراخًا لدى رؤية فأر.. أنا ربة بيت (جدعة) لذا أحضرت المكنسة ورحت أفتش بها هناك.. لا شيء.. هذا مؤكد..

أنهيت مهمتي وتأهبت للانصراف.. لكن ذلك الشعور ظل يضايقني.. هناك من ينظر لي عبر باب خزانة الثياب.. هناك من يراقبني..

جربت عدة مرات أن أنظر إلى الخلف فجأة، لكني كنت دائمًا أرى الباب موصدًاكما تركته.. شعرت بأنني مخبولة لا أكثر..

كنت وحدي في الدار في ذلك اليوم؛ لذا ذهبت إلى المطبخ أعد الطعام لكتيبة الجياع التي ستصل بعد قليل..

عدت إلى غرفة النوم فوجدت أن باب خزانة الثياب موارب**!**.. أنا أعرف يقينًا أنني أغلقته

رفعت:

قمت طبعًا بحملة تفتيش أخرى..

هانم:

نعم.. فتحت الخزانة وبحثت في كل ركن.. لا شيء.. أغلقت الخزانة بإحكام وواصلت عملي في البيت، لكني عندما عدت إلى غرفة النوم وجدت الباب مواربًا..

رفعت:

لكن هذا لا يدل على شيء.. أبواب خزانات الثياب تنفتح لأسباب عدة.. النجارون ليسوا عباقرة أو معصومين..

هانم:

على كل حال هناك مرآة تجميل في الناحية الأخرى من الغرفة جلست أمامها متظاهرة بأنني أمشط شعري، بينما عيني لا تفارق خلفيّة المشهد التي تظهر خزانة الثياب بوضوح تام..

ماذا تتوقع؟.. رأيت الباب ينفتح ببطء.. في البداية انفتح القسم العلوي، ثم بدأ القسم السفلى ينفتح..

التفت إلى الخلف بسرعة وبحركة درامية، فانغلق البابان كأن شيئًا لم يكن..

لو أردت الدقة لقلت إنني شعرت بأن هناك عينين تتوهجان في ظلام الخزانة، لكني بالطبع لا أستطيع أن أؤكد ذلك..

رفعت:

ولم تخبري زوجك طبعًا..

هانم:

ماذا أقول؟.. إن تهمة الجنون تلاحق النساء أينما ذهبن أنا فتهت الخزانة وعرفت أنها خالية.. ماذا يمكن أن أضيفه لو اعتبرني زوجي مجنونة.. لا شيء.. لقد ابتلعت ما رأيت ابتلاعًا وكتمته.. فقط جلست في الغرفة طويلًا أقرأ القرآن.. كنت أعرف يقينًا أن الأمر لا يتعلق بمفصلات تالفة أو وضع مائل للخزانة.. هذا لم يحدث من قبل طيلة سني زواجي، فلماذا يحدث الآن؟

رفعت:

لابد من بداية لكل شيء.. لكن يبدو أن الأمر لم يتكرر؟

هانم:

عم تتحدّث؟.. عندما جاء الليل رقد زوجي وغاب في نوم عميق.. إنّه دائمًا مرهق شقيان كأنني أقضي يومي في اللعب مع القطط الصغيرة.. تعالى شخيره ومع الشخير شعرت بذلك الشعور الممض بأننا لسنا وحدنا.. كانت خزانة الثياب تقع إلى ناحيته من الفراش والمرآة إلى ناحيتي.. الظلام يعم الحجرة لكن هناك قبسًا خافتًا من الصالة.. مصباح واهن كالعادة..

رفعت:

تلك (السهرية) اللعينة.. المصباح الخافت الذي يصر الناس على إيقاده في الصالة ويجعل الدماء تجف في عروقك.. أنا أعتقد أن الظلام المطلَق المسطح أكثر بعثًا على الاطمئنان..

هانم:

في هذا الضوء الخافت الأصفر كنت أرى انعكاس خزانة الثياب في المرآة وأنا راقدة على جنبي مفتوحة العينين وظهري لزوجي بين النوم واليقظة رأيت الباب ينفتح في بطء..

هكذا وثبت جالسة ونظرت إلى خزانة الثياب خلف ظهر زوجي النائم فرأيتها مغلقة.

رفعت:

هذا أسلوب روايات الرعب البريطاني.. الرعب خارج مجال الرؤية.. الرعب الذي لا يحدث أمامك بشكل واضح أبدًا..

هانم:

لهذا تعتقد في كل لحظة أنك تخرف.. على كل حال عدت إلى النوم على جانبي وأنا أنظر إلى المرأة في ثبات.. لو كان هناك شيء فسوف أظل ساكنة حتى أراه.. في الضوء الخافت الذي لا يظهر شيئًا تقريبًا بدا لي أنني أرى فتاة تخرج من الخزانة فتاة مدثرة في الظلام.. تنظر لزوجي ولي.. تقف جوار الفراش للحظات، ثم تتراجع بظهرها لتغيب في الخزانة من جديد..

كان قلبي يوشك على أن يثب من فمي، لكنك بالتأكيد لاحظت أنني قوية الأعصاب؛ لذا فقد أضأت الغرفة فتململ زوجي ومضغ شيئًا ما.. ركضت إلى خزانة الثياب وفتحتها.. لم أجد شيئًا سوى الثياب المعلقة إياها.. أزحتها جانبًا ورحت أفتش.. لا.. لم يكن هناك ظهر متحرك للخزانة ولا باب سرّي..

وكان تقديري للموقف أنني جننت أو أنّ هناك (بسم الله الرحمن الرحيم)..

رفعت:

بطبيعة الحال ملت للرأي الثاني..

هانم:

بالطبع.. يحتاج المرء إلى جهد كبير حتى يشك في قواه العقليّة، وقد احتفظت بصمتي على كل حال، إلى أن حدث بعد ثلاثة أيام أنني ظللت أعمل بعد ما نام الجميع.. كان زوجي قد أحضر طنا من السمك البلطي الذي لا يمكن حفظه في الثلاجة من دون تنظيف.. انتهيت من عملي في الثانية بعد منتصف الليل.. دخلت غرفة النوم لأنام عندما وجدت الخزانة مفتوحة.. لم أوقد النور ومشيت نحوها حثيثا..

رفعت قدمي وخطوت إلى الداخل.. وقفت بين الثياب المعلقة هنا أدركت لشدة ذعري أنه لا يوجد ظهر للخزانة.. يمكنني أن أدخل بلا نهاية..

تقدمت وأنا أتحسس طريقي إلى الداخل مدركة مدى غرابة وسخف موقفي.. لكن العالم الذي عبرت إليه كان مظلمًا تمامًا.. لا أرى أي شيء. فقط تعثرت في شيء طري على الأرض فأوشكت على السقوط.. إنّه جسد.. صرخت.. هنا سمعت صرخة مماثلة عالية وانغرست مخالب في وجهي..

لا أعرف كيف تمكنت من العودة إلى داخل خزانة الثياب وخرجت منها متلاحقة الأنفاس..

ما رأيك يا د. رفعت؟.. أنا لن أستطيع المبيت في الشقة يومًا واحدًا بعد اليوم..

شريف:

نفس قصة الأسبوع السابق تقريبًا.. هل نحن نعاني وباء خزانات الثياب المفتوحة؟

رفعت:

القصة السابقة كانت من الجيزة كذلك.. أليس كذلك؟

شريف:

بلى.. وما معنى هذا؟

رفعت:

قبل أن تكملي.. هل أنت واثقة من أن (مروة) ابنتك ليست هي الطالبة التي اتصلت بنا الأسبوع الماضي؟

هانم:

نعم؟.. فتاة الأسبوع الماضي كان اسمها (غادة)..

رفعت:

الأسماء لا تدلّ على شيء.. كل من اتصل بنا كان له اسم مستعار.. أتكلم عن الصوت..

هانم:

بيني وبينك.. لا أعتقد.. ربما لو سألتها.. أنا كنت جوار المذياع ولم تكن أمامي وقتها.. ربما كانت في غرفة الجلوس تتصل بكم؟.. من الوارد أن تغير نبرات صوتها..

رفعت:

تلك الفتاة كانت تشكو من شعورها بأن الخزانة تراقبها.. في ذات ليلة شعرت بأن هناك بابًا مفتوحًا عبرت منه إلى عالم مظلم فجأة شعرت بأن شبح امرأة يوشك على الانقضاض عليها ففرت.. في مرّة أخرى فوجئت بامرأة تخرج من خزانة الثياب وتصرخ.. فصرخت بدورها وغرست أظافرها في وجهها..

هل لي أن أعرف إن كانت ابنتك اعتادت النوم على الأرض؟

هانم:

نعم.. الفراش مخصص لـ (ريهام) و(سامي).. (مروة) تفضل النوم على الأرض، إلى أن ننتهي من تخصيص غرفة لـ (سامي)..

رفعت:

وخزانة الثياب في غرفة الأطفال تستند على نفس الجدار..

هانم:

لا.. هناك خزانة لكنّها لا تستند إلى الجدار ذاته..

رفعت:

يمكن القول بسهولة إنك كنت في الظلام.. لم تعرفي أنّ هذه غرفة أبنائك.. وأن من خطوت فوقها على الأرض هي (مروة).. (مروة) بدورها تعاني رعبًا هائلًا من خزانة الثياب.. لا تعرف أن المرأة التي خرجت من خزانة ثيابها في الظلام هي أمها..

شريف:

رفعت.. هي أنكرت أن يكون الجدار مفتوحًا في ظهر خزانة الثياب..

رفعت:

من تحدث عن فتحة؟.. الأمر يتعلق بفجوة مكانية تتحدى القوانين الفيزيائية.. خزانة الثياب هي بوابة هذه الفجوة.. والفجوة تنقلك من خزانة الأم إلى خزانة الأبناء.. مروة كانت تشعر أن الخزانة تراقبها.. نفس الشيء مع الأم..

شريف:

كلام صعب التصديق.. وما سبب هذه الظاهرة لو صح كلامك؟

رفعت:

شيء أضيف إلى خزانة الثياب مؤخرًا.. شيء استجد هل أنت واثقة من أن الثياب الشتوية لم تكن تحتوي تعويذة ما؟

هانم:

بالطبع لا.. لكن انتظر.. من السهل أن نتأكد من نظريتك إن مروة لم تنم بعد.. مروة.. هل اتصلت ببرنامج إذاعي الأسبوع الماضي؟.. خذي السماعة وكلمي عمك د. رفعت..

مروة:

آلو؟.. من؟

رفعت:

برنامج (بعد منتصف الليل) يا مروة لو كان هذا اسمك الحقيقي.. هل كنت أنت ضيفة الحلقة السابقة؟

مروة:

لا أفهم شيئًا.. لم أعرف أنّ هناك برنامجًا بهذا الاسم، وبالتأكيد لم أتصل.. هل لي أن أفهم؟

شريف:

شكرًا يا مروة.. سوف تفسر لك الوالدة كل شيء. أرجو أن تعطيها السماعة..

مروة:

إنها ليست هنا.. لقد هرعت مسرعة إلى غرفة النوم، كأنها سمعت صوتًا ما من هناك.. سوف أناديها لك..

شريف:

هكذا تنتفي نظرية الفجوة هذه.. بيني وبينك هي نظرية غريبة..

رفعت:

ما زلت أعتقد أنها فجوة تقود إلى مكان ما.. ربما عالم ما.. فقط هي لا تقود لغرفة نوم الأولاد..

شريف:

ولماذا انفتحت؟

رفعت:

من خبرتي مع (جانب النجوم) أعرف أنّ هناك فجوات تظل مغلقة إلى أن يقرر شيطان ما أن يوسعها ويخترقها إلى عالمنا.. لا أعني أنها فجوة تقود لجانب النجوم، لكنّها شيء شبيه..

شريف:

والأدهى أن تكون هناك أكثر من فجوة في الجيزة بالذات.. إن كلام الطالبة في الحلقة السابقة لا يفارق مخيلتي..

مروة:

د. رفعت!.. أمي ليست في غرفة النوم.. ليست في البيت كله!.. فقط خزانة الثياب مفتوحة وبداخلها أحد خفيها!.. لم أجد الخف الآخر.. ما معنى هذا الذي يحدث؟.. بالله عليك قل لي!.. د. رفعت.. لماذا لا تتكلم؟!!!

الحلقة الحادية عشرة

أكـــواريـــوم

يحكيها (ســامـح)

فقط حوض الأسماك المضيء كالعادة والأسماك تنظر لي في حيرة.. لقد رأت كل شيء.. تعرف كل شيء لكنها لا تعرف كيف تشرح لي..

شريف:

هذا برنامجكم (بعد منتصف الليل).. اليوم نحتفل بالحلقة الخمسين من البرنامج.. خمسون حلقة قدمنا فيها عشرات القصص المرعبة.. فبعض الحلقات كان يضم مكالمتين أو ثلاثة..

رفعت:

وبعض الحلقات لم يحدث فيه شيء على الإطلاق.. فقط مكالمات خاطئة ومعاكسات.

شريف:

على الأقل هذا يدل على الأصالة.. لو كان البرنامج مرتبًا من قبل لكان في دقة الساعة.. على كل حال نحن في انتظار أول مكالمة للحلقة الخمسين، وقصتك ستكون هي وقود آلة الرعب حتى لا تتوقف أبدًا..

(رنين الهاتف)

شريف:

آلو.. برنامج بعد منتصف الليل..

صوت طفل:

أنا (سامح)..

شريف:

يبدو أنّ هذا واحد من الصغار الذين لا ينامون ويشكوننا بلا انقطاع لأننا مرعبون.. هل معك واحد كبير يا صغيري العزيز؟

سامح:

لا.. كلهم ناموا..

رفعت:

في العادة عندما يتصل طفل، يكون السبب تافهًا إلى درجة أن تصاب بنزف مخي، أو مرعبًا إلى درجة تجعل قلبك يتوقف!

شريف:

هذا صحيح فعلًا.. لم نتلق مكالمة من طفل إلا وتندرج تحت واحدة من هاتين القائمتين.. ذروة التفاهة أو ذروة الرعب ربما هناك قائمة ثالثة هي قائمة الكذب.. الأطفال يحبون الكذب جدًّا وكذبهم مقنع دائمًا لأنّه يأتي من حيث لا نتوقعه.. كم سنك يا صغيري؟

سامح:

أنا في التاسعة..

شريف:

جميل.. جميل.. الصف الثالث الابتدائي ما لم يكن متخلفًا عقليًا.. هل تعرف ما هو هذا البرنامج يا سامح؟

سامح:

نعم.. لا تعاملني كطفل من فضلك.. أكره طريقة (برافو) و(هل أنت مجد في المدرسة؟) هذه.. هذا البرنامج يناقش القضايا المخيفة بالمشاركة مع د. (رفعت إسماعيل).. أنا أعرف ما أفعله.. صدقني.. تأكد من أنك لن تلقى طفلًا في ذكائي وثبات أعصابي مهما حاولت..

شريف:

هذا واضح.. آسف يا عم سامح.. قل لي ما يضايقك..

سامح:

لقد نجحت في الامتحان وكانت أمنيتي حوض أسماك زينة صحيح أن عندي كلبًا لكنه لم يعد يسليني.. وعدني أبي بالحوض وابتعته معه منذ ثلاثة أيام.. حوض كبير جميل به عدة أسماك رائعة.. الفانتيل وسمكة السيف والموسى وسمكة القط.. كان هناك مقاتل سيامي لكنه مات في نفس اليوم..

شريف:

هذا محزن..

سامح:

صرت أقضي أكثر وقتي أمام هذا الحوض.. أنا أكلمك وهو أمامي الآن.. أحب هذه الإضاءة الخافتة عندما تكون الغرفة مظلمة.. ألوان السمك جميلة فعلًا..

رفعت:

لكن هذا ليس مرعبًا على قدر علمي..

سامح:

أمي تكره السمك وتقول إنِّه كائن مقزز.. تقول إن للحوض رائحة كريهة أفسدت جو البيت

رفعت:

كل الأمهات لهن رأي سلبي في أي شيء يحبه الأطفال الشيكولاتة تتلف أسنانك.. البلل بالماء يسبب لك الالتهاب الرئوي.. لعب الكرة يتلف الثياب.. القطط الصغيرة تجلب الأمراض باختصار: كل ما يحبه الأطفال مؤذ كريه.. والعكس صحيح طبعًا..

شريف:

فعلًا.. أعتقد أنها رغبة خفية في التدخل في كل شيء لا تقبل الأم أن يمارس الطفل حياة هي ليست فيها..

رفعت:

مع الرغبة في الشعور بالأهمية.. ذلك الشعور اللذيذ بأن الحياة ستفسد والشهب ستهوي لتحرق المدن الآمنة لو لم نكن موجودين.. عرفت مديرين يتغيبون عن العمل لبضعة أيام، ثم يستشيطون غيظًا عندما يكتشفون أن كل شيء كان يسير بدقة الساعة في غيابهم.. هذا يثير جنونهم..

شريف:

نعم.. لا يرضيهم إلا أن يعودوا ليجدوا أن الخراب عم كل شيء..

رفعت:

كذلك الآباء.. معظم الأمهات يشعرن بضيق خفي لو سافرن وعدن فوجدن أن أبناءهن بخير.. هن لا يقلن هذا صراحة، لكنك ترى لمسة خيبة أمل على وجوههن كأن..

سامح:

هل الحلقة مخصصة لسماع كلامكما؟.. إذن لماذا تكلفان الناس مالًا وجهدًا؟

رفعت:

هذا صحيح.. معك حق.. كنا نتكلم عن حوض السمك..

سامح:

نعم.. نعم.. حوض السمك الذي أقف أمامه الآن.. يوم ابتعناه نام الجميع، لكني نهضت من غرفة نومي ليلًا لأقف أمامه في الظلام.. مع الوقت شعرت بأنني داخله فعلًا، وشرعت أسبح مع الأسماك وأناور معها.. هناك قلعة. هناك سفينة قراصنة غارقة..

رفعت:

كل هذا جميل..

سامح:

ليس تمامًا.. كانت هناك تلك السمكة من طراز (سمكة القط) التي تعابث الحصى في قاع الحوض.. يبدو أنها تهوى الحفر هكذا بدأت طبقات الحصى تنزاح جانبًا ورأيت.. رأيت ذلك الإصبع البشري ذا الظفر المسود..

شريف:

ماذا؟.. أنت رأيت إصبعًا؟

سامح:

نعم.. ليس إصبعًا بل ما يبدو أنها يد كاملة مدفونة تحت طبقات الحصى.. لقد أحضرت شبكة السمك ورحت أحاول كشف الحصى أكثر.. نعم هي يد مبتورة.. لا شك في هذا.. صحيح أنها منتفخة أتلفها الماء لكن لا شك في طبيعتها.. هناك خاتم صدئ حول الإصبع. إنها لامعة ملساء تشعر بأنها لزجة..

رفعت:

ظاهرة اسمها التصبن الرمي.. يتحول الجسم إلى ما يشبه الصابونة الزلقة.. هذا يحدث للأجسام التي تغمر تحت مياه باردة..

شريف:

أنتما مجنونان.. طفل يجد يدًا مبتورة في حوض السمك فيصف المشهد بدقة، وعجوز لا يهتم سوى بالتفسير العلمي للموضوع!

رفعت:

أعتقد أن وقت الصراخ انتهى وحان وقت الفهم.. أمقت الناس الذين يجدون كفًا في حوض السمك، فيضيعون الوقت في الهستيريا..

سامح:

نعم.. نعم.. لقد بكيت كثيرًا وارتجفت..

رفعت:

لا ألومك، لكن لا تقل لي إنك لم تخبر الكبار.. هذا يفوق طبائع الأمور..

سامح:

قلت لأبي لكنه لم يصدّق، وقد مد شبكة السمك وراح يعبث في الحصى بعض الوقت فلم يجد شيئًا غريبًا.. أنا متأكد من أنّه بحث في ذات الموضع.. ثم قال لي إنّه من الخطأ بعثرة حصى الحوض وإن الفرصة قادمة بعد أشهر عندما نقوم بتغيير الماء.. أمّا الآن فلا مجال للهلاوس..

أمي لم تصدق طبعًا.. نسيت أن أخبرك أنني واسع الخيال وأؤلف قصصًا كثيرة.. لهذا لم يصدقني أحد..

شريف:

أرجو ألا تكون هذه القصة من ضمن أعمالك الإبداعية!

سامح:

لا.. لكني لا أستطيع أن أثبت كلامي.. إما أن تصدقني أو لا..

رفعت:

واضح أنك رأيت هذه الكف مرّة أخرى..

سامح:

نعم.. بعد يوم رأيتها وكانت في موضع مختلف تمامًا.. هل تعتقد أنها تمشي؟

رفعت:

لا.. لا أعتقد.. الشيء الميت يظل كذلك لو أردت رأيي لكن دعنا نرتب أفكارنا.. هل أنت متأكد من أنّ هذه اليد ليست ضمن زينة الحوض؟.. ربما هي شكل تجريدي عجيب للزينة، أو هي شعبة مرجانية غريبة الشكل..

سامح:

لو لم أعرف شكل اليد البشريّة فأنا أبله.

شريف:

إذن.. لو لم تكن كذابًا تتسلى علينا، فالقصة هي أن من باع لكم الحصى وهو طبعًا بائع أسماك الزينة وضع هذه اليد دون أن يدري.. فهل يعرف صاحب اليد؟

سامح:

إنه مجرد متجر صغير.. يبدو أن صاحبه صديق أبي.. اسمه (صالح) ولا يبدو من هذا النوع.

رفعت:

لا أعرف كيف يبدو الذين من هذا النوع، لكن يحتاج التصبن الرمي من ثلاثة أسابيع إلى ستة أشهر.. هذه اليد في الماء منذ وتلك الفترة، وهذا ينفي أنها كانت ضمن حصى الحوض.. هذه اليد كانت مغمورة في الماء منذ زمن..

شريف:

والتفسير؟

رفعت:

لا تفسير عندي الآن.. لكن هذه من مزايا التصبن الرمي.. كل شيء يظل سليمًا يمكن فحصه.. لربما استطاع رجال الشرطة معرفة الكثير عن صاحب اليد.. كل أصابع الاتهام تشير إلى صاحب متجر السمك.. هذه اليد كانت عنده مغمورة بالماء وقد قرر التخلص منها..

سامح:

المشكلة هي أنني لا أجد اليد أمامي الآن.. لحظة حتى أقلب أكثر.. أقلب.. أقلب.. لقد صار الحوض كأن عاصفة رملية هبت عليه.. لكن.. بالفعل لا أجدها..

رفعت:

ابحث في القلعة أو السفينة الغارقة.. أنت تعرف أن قاع تلك الأحواض يكون مزدحمًا..

سامح:

لا.. نحن لا نفتش عن حصوة.. لا يوجد شيء..

رفعت:

هذا جميل.. على الأقل أنت تخلصت من المشكلة.. لا أعتقد أن الأطفال يصابون بهستيريا لكنك طفل غير عادي..

شريف:

هل عندك خبرة بشيء مشابه؟

رفعت:

لم أجرب كثيرًا التعامل مع الأيدي المبتورة، فقط لي قصة واحدة منذ عامين مع يد قاتل ممسوس اسمه (بيزارو).. كان هذا المجنون إيطاليًا مولعًا بخنق الناس، ويبدو أنه كان مصابًا بلعنة

من لعنات القرون الوسطى تلك. وخلال صراع بيننا بترت يده اليمنى وألقيتها في النهر، وكانت النتيجة هي أن الرجل عاد بشريًا ولم يخف امتنانه لي من أجل تحرير إرادته، بينما اليد جاءت في حقائبي إلى مصر وراحت تطاردني مثبتة أن لها إرادة خاصة بها.. كانت تنوي الانتقام مني في يوم ثلاثاء، وهو يماثل اليوم الذي وقعت فيه الواقعة.. وكانت تعرف عنوان البيت.. يا لها من ذكريات جميلة!

شريف:

قصة مفزعة.. وكيف تخلصت منها؟

رفعت:

شيء يشبه ما يقومون به للتخلص من القط.. أغريتها بدخول صندوق، ثم قمت بإلقائها في مياه البحر في الإسكندرية..

شريف:

هل تعرف ما أفكر فيه؟..

رفعت:

نعم.. تفكر في أنني أكذب..

شريف:

لا.. أفكر في إمكانية أن تكون هذه اليد تحررت.. عاشت في قاع البحر أو على الشاطئ، ومضت تزحف بين الرمال وجدت طريقها إلى صندوق رجل يجمع المحار والقواقع من على الشط من أجل أحواض سمك الزينة.. في المتجر تمكنت من دخول هذا الحوض بينما صاحبه يعده للمشتري الجديد المشتري الذي هو أبو (سامح).. توارت هناك بين طبقات الحصى تنتظر..

رفعت:

فكرة رهيبة لكنّها عسيرة التصديق..

شريف:

هذا هو الحل الوحيد.. لا أتصور أن يقوم رجل بإعداد حوض سمك من دون أن يلاحظ يدًا وسط الحصى.. كما قال (سامح): اليد ليست حصوة.. لا يمكن ألا تراها. أعتقد أنه سيكون غريبًا أن توجد يدان حيتان في مصر في الوقت ذاته.. نحن نتكلم عن ذات اليد غالبًا..

سامح:

د. رفعت!. لقد وجدتها!.. إنها في ركن الحوض عند طرفه العلوي.. تحاول التسلق والخروج لكن الزجاج زلق لهذا تسقط في كلّ مرّة..

رفعت:

سوف تتمكّن من الخروج.. لو كانت هي يد (بيزارو) فعلًا فسوف تتمكّن من الخروج.. (سامح).. لا أجد حلًا سوى أن تخبر أباك بكل شيء.. تضعان هذه اليد في صندوق محكم وتتخلصان منها في مكان جاف يستحيل أن تجد البلل فيه.. من الواضح أنها تنتعش كلما وجدت الماء.. لم أكن أعرف هذا عندما ألقيتها في النهر، ولا عندما تخلصت منها في البحر. الآن يبدو الحل منطقيًا واضحًا.. خذ الحذر!.. إنها أقوى مما تظن، وهي قادرة على خنقك أو تمزيق وجهك في أية لحظة إنها تثب كالعناكب!

سامح:

لا وقت لهذا.. لقد خرجت فعلًا!.. أزاحت الغطاء وانسلت من تحته.. مبللة يسيل منها الماء وتزحف على المنضدة..! د. رفعت!.. ماذا أعمل؟

رفعت:

اجر!.. أغلق عليها الحجرة واجر بسرعة!..

سامح:

إن سلك الـ.. سلك الهاتف طويل.. سوف..

(صوت نباح):

إن كلبي (روي) قد شعر بها.. إنّه شرس جدًّا وها هو ذا يهاجمها.. إنّه في حالة غير طبيعية.. يبدو أنها أثارت هلعه..

رفعت:

لا بأس.. قد يكون هذا هو الحل.. لكن لا تنتظر.. اخرج وكلمني من غرفة أخرى!

(صوت نباح يستمر ثم ينقطع)

سامح:

لقد أغلقت الباب.. لحسن الحظ أن أحدًا في الشقة لم يسمع كل هذا الصخب.. نومهم ثقيل جدًّا وباب الغرفة مغلق.. لقد توقف النباح.. أعتقد أنه مزقها إربًا..

شريف:

لا بأس بإلقاء نظرة لكن كن حذرًا.. لتر إن كان (بوي) هذا قد..

رفعت:

روي.. اسمه (روي).. لا يوجد كلب ذكر إلا واسمه (روي)، ولا توجد كلبة إلا واسمها (توسكا).. هذا هو القانون..

شريف:

هلم!.. انظر ماذا حدث..

سامح:

المكان هادئ و... ولكن.. أين (روي)؟.. د. رفعت!.. إنه راقد في ركن الغرفة المظلم!.. لقد تحطم عنقه!.. لقد مات!

رفعت:

ماذا؟.. وأين اليد؟

سامح (يبكي بكاء طفل صغير):

لا أثر لها!.. لا أثر لها يا د. رفعت.. فقط حوض الأسماك المضيء كالعادة والأسماك تنظر لي في حيرة.. لقد رأت كل شيء.. تعرف كل شيء لكنّها لا تعرف كيف تشرح لي.. هه؟.. لقد انغلق باب الغرفة عليَّ!!!.. من أغلقه؟.. د. رفعت.. أنا خائف.. خائف!

الحلقة الثانية عشرة

زنزانة خريولسن

يحكيها (نيازي إبراهيم)

كلامي اليوم عن باب.. هذا الباب الذي أتحدث عنه لم يكن في مصر.. لم يكن في مكان تعرفه.. الباب الذي أتحدث عنه لم يكن بابًا خشبيًا أو حديديًا، بل كان أقرب إلى جدار سميك يُهدم ولا يُفتح.. لكن الناس هناك كانوا يسمونه بابًا..

شريف:

صباح الخير.. كما تعرفون هذا برنامجكم (بعد منتصف الليل).. نحن بانتظار مكالماتكم التي تحكي لنا عن خبراتكم المروعة..

رفعت:

إن مكالماتكم هي وقود آلة الرعب التي نريد لها ألا تتوقف أبدًا..

(رنين الهاتف)

رفعت:

هذا حظ حسن أكثر من اللازم..

شريف:

آلو.. مساء الخير يا سيدي..

صوت رجل:

أنا (نيازي إبراهيم).. أدرس التاريخ في كلية آداب (....)

رفعت:

مرحبا بك..

نيازي:

أنا مثلك يا د. رفعت درست في إنجلترا.. في (ويلز) بالذات كانت لي خبرة غير مألوفة مع عوالم ما وراء الطبيعة، وهي خبرة مخيفة بحق لدرجة أنني أجد صعوبة في بدء النوم منذ ذلك الحين..

رفعت:

جميل.. جميل هذا ما نريده.

نيازي:

كلامي اليوم عن باب.. هذا الباب الذي أتحدث عنه لم يكن في مصر.. لم يكن في مكان تعرفه.. الباب الذي أتحدث عنه لم يكن بابًا خشبيًا أو حديديًا، بل كان أقرب إلى جدار سميك يهدم ولا يفتح.. لكن الناس هناك كانوا يسمّونه بابًا..

كان هذا في كهف قرب قرية في (ويلز)..

كان الناس يمرون جوار الكهف، ويتحدثون عن (خريولسن) الحبيس هناك.. عن الساحرة التي أنجبته.. والتي أعدمتها محاكم التفتيش هناك.. وكيف دفنوها فيما يعرف بزنزانة (خريولسن)..

رفعت:

أشعر أن القصة مألوفة.. (خريولسن)؟.. هل أنت متأكد؟

نيازي:

بالطبع لا يوجد عندهم حرف خاء، لكن النطق العربي ينطق حرفي KH تلقائيًا بهذه الطريقة..

رفعت:

المشكلة أنني كنت هناك!

نيازي:

هذا عجيب.. أنت من دون غيرك يا دكتور؟.. وفتحت الجدار؟

رفعت:

نعم.. ورأيت ما وراءه.

نيازي:

إذن توافقني على أنّ هذه أشنع خبرة واجهتها في كل حياتك.. أحمد الله على أنني سأموت فتموت هذه الذكرى معي.. رأيت كل شيء؟.. حتى الـ...؟

رفعت:

لا تقل من فضلك.. دعنا نصغ إلى باقي قصتك لنرى إن كانت تختلف عن خبرتي، لكن لا تصف أي شيء.. فقط أعط انطباعًا عامًا.. أكرر: هذا خطر جدًّا..

نيازي:

عندما احترقت الساحرة أنذرت الناس بأن ولدها (خريولسن) سيعود بعد أعوام حين يفتح الزنزانة رجل أجنبي.. وما لم ينسه أحد هو أن المصائب لم تفارق القرية لحظة طيلة عمرها المديد..

وبعد أعوام جاء مغامر إلى الكهف.. كان هذا بريطانيًا يدعى د. (هنري لستر).. فتنته الأسطورة وصمم على أن يجد رجلًا أجنبيًّا يفتح تلكم الزنزانة..

كانت فكرته أن يناول الضيف المطرقة، ثم يطلب منه أن يفتح الجدار بنفسه لأنّه ضيفهم..

طبعًا ما كان الضيف الأحمق ليعلم أنه أول دم أجنبي يدخل الكهف منذ سبعة أجيال.. حقًّا لم أتصور أنني كنت هذا الضيف.. إن معلوماتي تقول إن.....

رفعت:

نعم.. نعم.. من يتكلم يدفع الثمن..

نيازي:

دعك من هذا الهراء.. إنني..

(صوت ارتطام بالأرض ثم صوت فحيح وحشرجة. ثم صمت)

شريف:

د. نيازي.. هل أنت معنا؟

رفعت:

لا تتعب نفسك.. لو كان صادقًا بصدد هذه الزنزانة فمن المستحيل أن يكون معنا.. الشيء الوحيد الذي أنقذني كل هذه الأعوام هو أنني لم أجد الفرصة لاستكمال تلك القصة اللعينة قط..

شريف:

هذا يعني أن الحلقة انتهت..

رفعت:

بالضبط..

شريف:

وسوف نسمع غدًا عن وفاة مدرس بكلية الآداب بنوبة قلبيّة؟

رفعت:

على الأرجح لو لم يكن الخط قد انقطع فحسب.. لا يمكن أن تلوم الرجل على أنه مات وأفسد عليك الحلقة..

شريف:

وهل تنوي أن تحكي لنا ما رأيته هناك؟

رفعت:

في آخر لحظة في حياتي وعندما أوقن بالموت سأفعل.. ليس قبل ذلك.. صدقني..

الحلقة الثالثة عشرة

مـــو هبتـــي

تحكيها (رانية محمود)

حاولت إقناعهم فلم يقتنعوا.. ثم وجدت أن هذا يعطيني مزية لا شك فيها ومن الخسارة أن أفسدها بأن أخبر بها الجميع.. هذا سلاح سري فلأبقه في جيبي..

شريف:

هذه حلقة جديدة من برنامجكم (بعد منتصف الليل).. وصلتنا مكالمات عديدة الأسبوع الماضي تطالب بتقديم موعد البرنامج قليلًا؛ لأن هذا الموعد يتوافق مع نوم الكثيرين.. في الحقيقة لو قدمنا البرنامج قبل منتصف الليل، لما صار اسمه (بعد منتصف الليل).. نحن هنا نبحث عن الليل.. عن السكون.. عن صوت المذياع الهادئ الذي تسمعه وحدك فتشعر بأنه يكلمك أنت ..

رفعت:

الرعب كائن ليلي عندما تسمع قصة مرعبة ظهرًا تبدو لك سخيفة.. (لافكرافت) نفسه قالها.. أعتقد أن سادة الرعب القوطي مثل (ستوكر) و(والبول) ما كانوا ليحققوا نجاحهم في عصر الكهرباء. تصوّر سماع قصة (دراكيولا مصاص الدماء) جوار المدفأة ليلًا والعواصف تزأر بالخارج.. لابد أنها منحت رجفة ممتازة للكثيرين..

شريف:

يقولون لنا كذلك إن نسبة الذين يلقون حتفهم أثناء المكالمات صارت عالية.. أربعة موتى كل شهر.. هذا كثير..

رفعت:

هذا شيء مهم في هذه المكالمات.. الضحيّة يكلمك وأنت عاجز عن مساعدته أو عمل شيء.. وأنت تدرك أن ما يحدث له يحدث في الوقت الحقيقي.. في هذه اللحظة بالذات.. هذا شيء مخيف..

(رنين الهاتف)

شريف:

أعتقد أنّ هذه مكالمتنا.. آلو..

صوت فتاة:

مساء الخير.. أنا رانية محمود تخرجت في كلية التجارة.. أبي نحات شهير لكني لن أذكر اسمه..

رفعت:

مرحبًا يا رانية..

رانية:

أعتقد أنك تؤمن بالقدرات الخارقة.. أنا أملك قدرة خارقة لم أسمع عن شخص امتلكها من قبل.. لم أسمع عنها أصلًا..

رفعت:

وما هي؟

رانية:

أنا أرى الهالات الحيوية المحيطة بالناس.. قرأت عن تصوير (كيريليان) وعرفت أن الناس تنبعث منهم أشياء كهذه، لكني أراها بعين المجرّدة.. كنت في الثالثة عشرة من عمري عندما رأيت هذا.. في البدء أصابني الهلع، ثم عرفت معنى ما أراه..

رفعت:

كيف ترين هذه الهالات؟

رانية:

كيف تبدو الهالات؟.. تبدو كهالات... فقط لونها يتغير حسب مزاج الشخص عندما تكون زرقاء أعرف أنه هادئ.. المزاج المتعكر يجعل لونها قرمزيًا أو أحمر.. المرض يجعل لونها أصفر أو أخضر.. مثلًا قابلت صديقة لي كانت في أحسن رونق لها، وكانت مرحة متأنقة.. لكني رأيت تلك الهالة بلون أخضر لذا سألتها عما إذا كانت مريضة.. قالت لي إنها تشعر بتوعك شديد وإن برازها مدمم، لكنّها صممت على أن تبدو بحالة طيبة..

عندما مرضت جدّتي قال جميع الأطباء إنها ستشفى من النوبة القلبيّة، لكني دخلت العناية المركزة لأراها فوجدت بقايا هالة خضراء تشحب ببطء حولها. خرجت وقلت لأمي إن جدّتي لن تعيش، وقد لامتني واغتاظت مني، لكن جدّتي لم تعش حتى المساء..

رفعت:

لا شك أنها موهبة مفيدة بشدة، لكنّها ككل المواهب التي تزيد من حساسية المرء تجعل الحياة صعبة. ذو السمع المرهف أكثر من البشر العاديين يجن بعد فترة.. الصمم يسبب البارانويا على فكرة.. الأصم يعتقد أن كل الناس يسخرون منه أو يتآمرون ضده هذا يدلك على أن الله أعطانا القدر الكافي الصحيح من الحواس.. زيادة الحواس تقود للجنون.. نقصها متعب..

رانية:

هذا صحيح.. من العسير أن تعيش وسط هذا المهرجان من الألوان.. الأسوأ هو تلك الحساسية التي تجعلني أميز الكاذبين بسهولة، وهذا يزيد الأمر خطورة.. لن تصدق كون قابلية الانخداع نعمة حتى تعيش ما عشته أنا..

رفعت:

هل يعرف ذووك بهذه الموهبة؟

رانية:

حاولت إقناعهم فلم يقتنعوا.. أبي فنان متفتح الذهن، لكنه ليس على استعداد لقبول كلام كهذا.. ثم وجدت أنّ هذا يعطيني مزية لا شك فيها ومن الخسارة أن أفسدها بأن أخبر بها الجميع.. هذا سلاح سرى فلأبقه في جيبي..

كان هذا إلى أن ظهر (عصام) في كليتنا..

رفعت:

اسمه يوحى بقصة حب..

رانية:

ولا حتى قصة مدينتين.. هو مجرد شاب صموت غريب الأطوار ظهر في الكلية في السنة الأخيرة.. لسبب ما قرر أنني فاتنة وبدأ يحاول التعرف بي..

هو ليس منفرًا لكني في الحقيقة عجزت تمامًا عن رؤية أية هالة تخرج منه..

هذا غريب، لكني تعودت على أن أناسًا كثيرين لا تخرج منهم الهالات في كل الأوقات.. هناك الناس المرحون الصريحون وهؤلاء يبدون كالألعاب النارية.. هالاتهم لا تتوقف لحظة..

إلا أن (عصام) لم يبعث أية هالة في أي وقت، وهذا جعلني أنفر منه.. ذات مرة كان جالسًا في الحديقة مع فتاة أعرفها، وكانا يتكلمان همسًا.. لم أسمع حرفًا فرحت أتابع هالة الفتاة كانت غاضبة لأن الهالة كانت حمراء جدًّا.. هنا من عصام يده وأمسك بيد الفتاة.. أمسكها برغم إرادتها..

في اللحظة التالية بدا أن الفتاة مرهقة فعلًا.. ترنح رأسها وأغمضت عينيها.. كل هذا معتاد ويمكن أن يمرّ مر الكرام، لولا أن هالتها انطفأت.. فجأة لم تعد حولها هالة..!

أصابني هذا بالذعر ورحت أراقب المشهد.. رأيت الفتاة تمسك برأسها وتصمت.. نهض وابتاع لها بعض العصير فشربته وعندما عادت تتكلم كانت قد هدأت.. وبدأت هالة زرقاء تنبعث منها..

رأيت موقفًا مماثلًا عندما احتكت سيارته - وهو يملك سيارة على فكرة - بسيارة أجرة عند باب الكلية.. كان سائق الأجرة سليط اللسان عالي الصوت وقد نزل من سيارته وراح يُطلق السباب.. دفع (عصام) في صدره مرّتين هنا احتد (عصام) وأمسك بمعصم الرجل..

رأيت الرجل يترنح ويتهاوى على ركبتيه.. لحظة ثم هزّ رأسه كأنما يفيق من كابوس مريع.. لا داعي لأن أقول إن هالته انطفأت للحظات..

أخيرًا ركب الرجل سيارته وابتعد، وعلى وجهه نظرة غبية كأنه كان في الحمام عندما فتح أحدهم الباب عليه..

أمّا القصة الأغرب فهي موضوع أستاذ الكلية الذي عاقب (عصام) على كلامه في المحاضرة، وعده بأنه سيرسب هذا العام في مادته..

بالنسبة للناس العاديين، يعتبر هذا موقفًا معتادًا، لكن (عصام) انتظر الأستاذ بعد المحاضرة ولحق به وراح يتكلم، ثم مد يده يمسك بمعصم الرجل.. كان هذا خرقًا صارخًا لقواعد حدود الجسد.. لا أحد يمسك بالأستاذ من معصمه. توقعت أن الأمور ستسوء، لكني رأيت الأستاذ يترنح، ثم يستند على سيارة وجدها بجواره.. انطفأت هالته.. لما استعاد روعه تملص من عصام وابتعد كأنه يرى ثعبانًا..

وجدته يقف أمام (كشك) في شارع الكلية ويلتهم ثلاث قطع من الشيكولاتة وزجاجتي عصير.. هذه سمة مهمّة للذين يلمسون عصام.. إنهم يصيرون جوعى بتوحش..

بعد هذا دخل الأستاذ المستشفى في تلك الليلة.. كان مصابًا بإعياء غريب.. زرناه نحن تلاميذه فلاحظت أنه لا هالة حوله على الإطلاق.. فقط يخرج منه خيط أخضر أو خيطان من حين الآخر.. وعرفت أنها النهاية..

بعد هذا بثلاثة أيام توفي إلى رحمة الله..

لقد انتهى العام الدراسي وتخرجنا، لكني أعرف يقينًا أن (عصام) هذا ليس كائنًا بشريًا عاديًا.. ما رأيك؟

رفعت:

قصة غريبة هي، لكني سمعت مثلها من قبل.. ما تتكلمين عنه هو مصاص دماء نفسي**!**

شريف:

هل هناك شيء كهذا؟

رفعت:

نعم.. مصاص الدماء النفسي لا يمتص دمك ولكن يمتص حيويتك وطاقتك النفسية، ويتركك مجوفًا خاويًا.. تشعر بالحيرة والضياع والجوع.. ومن الملاحظ طبعًا أن أعماله تمر بلا ملاحظة ولا إدانة، والأهم أن الخبراء يؤكدون أنهم كثيرون من حولنا. لكن (رانية) بموهبتها رأته متلبسًا بالجريمة..

شريف:

وما هو الحل؟

رفعت:

لا يوجد حل.. لا يُمكنك أن تذهب وتقتله وتقول لرجال الشرطة إنك قتلته لأنّه مصاص دماء نفسي.. لا يوجد حل سوى تجنبه..

شريف:

ومن أين جاء؟

رفعت:

لا أحد يعرف.. على الأرجح هو يبيت ليلته في المقابر كأي مصاص دماء يحترم نفسه.. لا يمكن أن تكون له أسرة..

رانية:

هذه معلومات غريبة، لكني على كل حال لا أحتاج إلى نصيحة كي أتجنبه.. الغريب أنه تقدم لي مؤخرًا!

رفعت:

هذا عجيب..

رانية:

نعم.. جاء بيتنا وطلب يدي.. أبي يفكر في الأمر كما قال لكني طلبت منه ألا يقابله ثانية ولا يصافحه بأي ثمن..

رفعت:

جميل. جميل.. أعتقد أنك أحسنت صنعًا.. هل من شيء تضيفينه؟

رانية:

لا.. شكرًا.. لقد أكسبت القصة معنى جديدًا.. سوف أفكر في الأمر..

(تضع السماعة)

شريف:

موضوع غريب، لكن الحلقة قصيرة جدًّا به رغم هذا..

رفعت:

لا يمكن أن تطالبها بأن تموت في نهاية الحلقة كي تكون الأحداث مشبعة..

(رنين الهاتف)

شريف:

آلو

صوت رجل:

برنامج بعد منتصف الليل؟.. أنا (عصام)!.. (عصام) الذي كانت تلك الآنسة (رانية) تتكلم عنه.. لقد سمعت جلسة النميمة الممتعة هذه..

رفعت:

إذن أنت مصاص الدماء النفسي إياه؟

عصام:

ليس اسمي (عصام) طبعًا.. إن كلامك دقيق بالفعل.. لا يهم أن تعرف من أين جئت ولا متى كانت بدايتي.. فقط هي قد فضحتني على مسامع الجميع.. دعك من رأيها السلبي في شخصي، وليكونن انتقامي مروعًا ما لم تسمح هي لي بتفسير موقفي!

(يضع السماعة)

رفعت:

هذا جميل.. إنّه مجنون كذلك.. بيني وبينك من مصلحته أن يتخلص منها.. من يملك سرًا كهذا يهمه أن يتخلص ممن يملك موهبة كهذه..

شريف:

وماذا تفعل؟

رفعت:

تأخذ الحذر طبعًا.. لا يوجد الكثير مما يمكن عمله..

(رنين الهاتف)

شريف:

هذه الحلقة ناجحة أكثر من اللازم.. آلو..

رانية:

ألو.. هل سمعت يا د. رفعت؟.. لقد عرف نفسه على الفور ماذا أفعل؟.. أنا وحدي هنا في البيت لأن الجميع سافروا..

رفعت:

يا لك من حمقاء!.. لماذا لا تفتحين باب الشقة لتسهيل الأمور عليه؟.. أشياء كهذه لا تعلن في المذياع..

رانية:

أنا أخاطبه عبر برنامجكم وأقول له: أنا أدعوك يا عصام. أدعوك لأن نجلس ونتفاهم وتفسر موقفك.. أنا أعتذر لك بشدة..

رفعت:

أنت أغبى من عرفت، وهذا يدل على أن الذكاء والقدرات الخارقة ليسوا مرتبطين..

رانية:

د. رفعت.. هناك من يعبث في باب الشقة.. هذا حقيقي أقسم بالله..

رفعت:

ما هو عنوانك؟.. سوف نبلغ الشرطة حالًا..

رانية:

رقم 8 شارع الزهور.. الطابق السادس..

رفعت:

جميل جدًّا.. هناك عشرات المدن وفي كل مدينة عشرة من شارع الزهور هذا.. أنت دقيقة جدًّا..

رانية:

إن الباب ينفتح.. إنّه يمشي في الصالة..

رفعت:

هذا لأنك دعوته يا حمقاء.. قلت له (أنا أدعوك) مرّتين.. مصاص الدماء لا يهاجم إلا من يدعوه، وقد وجد الباب مفتوحًا.. قولي لي.. من أين تتكلمين؟

رانية:

من غرفة الصالون.. الهاتف هنا..

رفعت:

هل توجد أمامك تلك (البونبونيرة) القبيحة التي تجدينها في كل صالون مصري؟

رانية:

نعم..

رفعت:

اجمعي في قبضتك كل ما تجدين من بونبون وعندما يظهر انثريه على الأرض..

شريف:

ما معنى هذا؟

رفعت:

لو كان هذا مصاص دماء فعلًا، فهم مصابون بوسواس قهري يجعلهم يتوقفون ليجمعوا أي شيء على الأرض.. كانوا ينصحون من يمشون في مناطق موبوءة بمصاصي الدماء أن يملئوا جيوبهم بحبيبات الفول.. عندما يظهر الوغد بعثر الفول على الأرض.. هذا يشغله مؤقتًا..

رانية:

هذا هو!..

رفعت:

انثري البونبون ثم اركضي نحو الباب..!

(ضوضاء - صراخ)..

رفعت:

رانية..!.. ماذا حدث؟

(صرخة مريعة ثم صمت)..

رفعت:

رانية!

رانية:

أخيرًا.. لقد تم كل شيء..!

رفعت:

ما الذي تم؟

رانية:

عندما انحنى يجمع البونبون وثبت من خلف ظهره.. جريت إلى ورشة عمل أبي وأحضرت الإزميل الثقيل.. عدت إلى الصالون لأجد هذا الفتى منهمكًا فيما يجمعه.. هويت على ظهره بين لوحي الكتف بالإزميل!

رفعت:

يا حمقاء!.. هل جننت؟

رانية:

أنت قلت إنّه مصاص دماء وأنا فعلت ما يجب عمله!

رفعت:

ما زال احتمال أنه مجنون أو أنك مجنونة قائمًا!.. قلت لك إنّه من المستحيل أن نقتل شخصًا ونقول للشرطة إنّه مصاص دماء نفسي!.. أنت مخبولة!.. أنا قلتها من قبل..

رانية:

أنا فعلت ذلك وأشعر براحة.... أنظر لأناملي فأرى الهالة الزرقاء الهادئة.. لقد فعلت الشيء الصحيح.. هذا الرجل اقتحم البيت والباب موصد.. انشغل بجمع البونبون.. كل من لمسه مرض.. هل ما زال عندك شك؟

رفعت:

نحن لا نقتل الناس لأسباب كهذه..

رانية:

لكن الناس تموت لأسباب كهذه.. والآن يا د. رفعت أنا مضطرة لتركك.. الجثة التي أغرقت الغرفة كلها بالدماء.. الإزميل.. الباب المفتوح.. استدعاء الشرطة.. علي طن من الأعمال قبل أن يعود والداي من الخارج!.. شكرًا لك وشكرًا للبرنامج..

(تضع السماعة)

رفعت:

لقد صار هذا البرنامج خطيرًا..

شريف:

حتى لو كانت القصة صحيحة مائة بالمائة فكيف تقنع بها أية محكمة؟

رفعت:

على كل حال هناك محاولة اقتحام شقّة على فتاة وحيدة.. هناك تهديد واضح سمعناه في الهاتف.. كانت حالة دفاع عن النفس لا شك فيها وأعتقد أنها ستنجو بما فعلته.. المهم ألا يكون هذا الفتى مجرد بريء أحمق آخر..

الخاتمة

هذه آخر مجموعة عندي من حلقات (بعد منتصف الليل) ولا أعتقد أنني سأجد المزيد لأنني لا أعيش في قبو بل في شقّة يصعب أن تتوارى فيها أشياء كثيرة.. لقد استنفذت ثلاث عشرة حلقة بمعجزة ما..

جولة هي بين عدة قصص تتراوح بين مصاصي الدماء وأحواض السمك التي تحوي أطرافًا مبتورة، والذين يخرجون من تحت القبور، وخزانات الثياب الوقحة، والقطط الأهلاوية الثرثارة.. بعض القصص كان مقلبًا وبعضها كان حقيقيًا.. بعض القصص انتهي نهاية مفتوحة مما يروق لي ويستفزكم، وبعضها انتهي نهاية موصدة.. بعض القصص ينتمي فعلًا لعالم ما وراء الطبيعة، وبعضها ينتمي لعالم الواقع المفزع.. أرجو أن تكون هذه الحكايات قد راقت لكم وأن تكونوا قد وجدتم فيها بعض التسلية..

كانت لي قصة مع شريف السعدني ربما أحكيها لكم فيما بعد، لكن لا علاقة لها بالبرنامج..

هذه آخر مجموعة من (بعد منتصف الليل) وعلى الأرجح هي آخر حلقة رعب كذلك.. لقد أحببت حلقات الرعب كثيرًا لأنها تخرق الجو الروتيني العام للأحداث، لكن كل شيء يجب أن ينتهي يومًا ما..

والآن أترككم لإجازة الصيف التي فات منها وقت لا بأس به.. لا أعرف الكثير عن نظم التعليم الحديثة هذه، لكن ما سمعته هو أن أول دقيقة من العام الدراسي التالي تبدأ بعد انتهاء آخر امتحان في العام الدراسي الحالي!

لا أعرف إن كان هذا سيجعل منكم عباقرة أم مجانين، فأنا لست خبيرًا تربويًا.. أنا مجرد شيخ مسن يحكي قصصًا مخيفة..

لنا لقاء - إن شاء الله - في الكتيب القادم، وأرجو أن يكون ممتعًا أو مسليًا أو على الأقل غير ممل.

إن (أسطورة الظلال) كما تعرفون هي قصة أخرى!..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم *الإيداع*: ٦ ٦٠ ١

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

المقـــدمـة

الخـاتمـة

Notes

[1←]
لا تنس الزمن الذي تدور فيه الأحداث.

[2←]
آمل ألا ينسى القارئ أننا لا نراعي الدقة في ترتيب الحلقات..

[3←] فكرة وسواس الإيقاعات مستوحاة من إحدى قصص مختارات هتشكوك، لكن لا علاقة بتاتًا بين أحداث هذه القصة والقصة الأصلية..

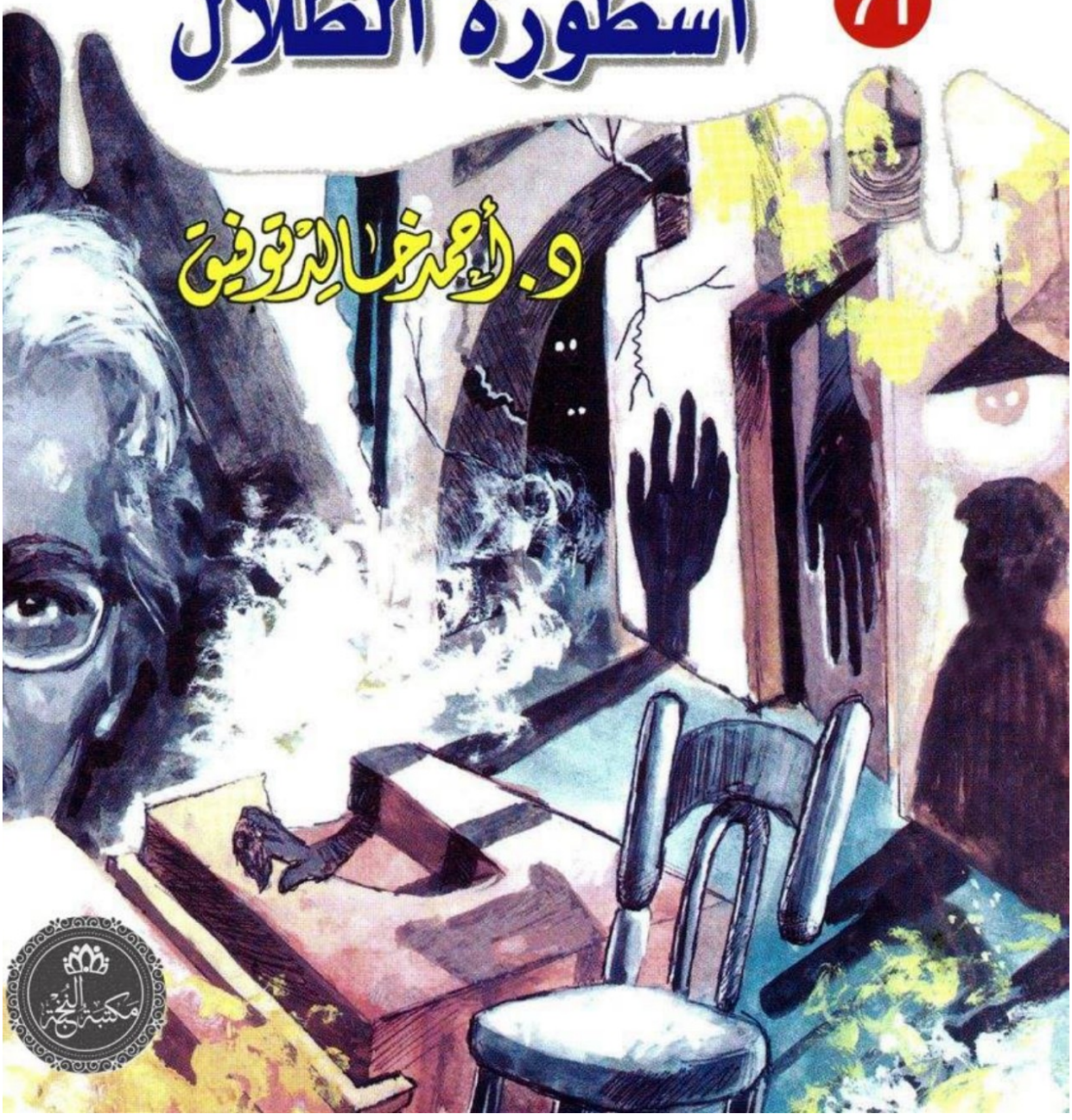
[4←] في هذا الوقت لم تكن هذه الأغنية معروفة إلا لقلة من اليساريين. ومن الواضح أن الكلام عنها محرج للمذيع الشاب باعتباره كلامًا في السياسة..

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

71

أسطورة الظلال



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة النخبة

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



71

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة الظلال

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايـــات تحبس الأنفـــاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصـرى مائة فى المـائة
لا تشوبه شبه الترجمة أو الاقتباس
أو النقـل عن أية قصص أوربية .

●

إشراف
الأستاذ / حمـدى مصـطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر سواء النشر الورقى أو الإلكترونى ، وكل اقتبـاس أو تقليـد أو إعـادة طبـع أو نشـر ورقـى أو إلكـترونى . دون الحصـول على تصريح كتابى مـن الناشر يعـرض المرتكـب للمسـاءلة القـانونيـة .

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ـ المطابع 8 ، 10 شارع المنطقة الصناعية بالعباسية ـ منافذ البيع 10 ، 16 شارع كامل صدقى الفجالة ـ 4 شارع الإسحاقى : بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة ـ القاهرة ت : 6823792 ـ 5908455 ـ 2586197 ، فاكس : 202/2596650 ج.م.ع ـ
الإسكندرية 4 شارع بدوى / محرم بك ـ ت : 03/4970840 ـ 03/4970850

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط
الغمـــوض والرعـــب والإثارة

71

•

أسـطورة الظـــلال

بقلم: د. أحمد خـالد توفيق

الغـــلاف بريشـــة: أ. أحمـــد شـــوقي

المؤسسة
العربيـــة الحديثـــة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

المقـدمة

طبعًا أنا د. رفعت إسماعيل.. هذه سلسلة (ماوراء الطبيعة) وأنتم القراء..

هكذا يمكن أن نقول إننا قمنا بعملية ضبط المصطلحات، وعرفنا من هو من، وعرفنا دوره بالضبط..

كنت في المرّة الأخيرة قد حدثتكم عن ناد يضم لعضويته الغيلان، أو يضم - بعبارة أدق - من يتوسم فيهم القدرة على أن يكونوا من الغيلان.. لاحظ أننا لا نضع حلقات الرعب في سياق السلسلة الأصلي؛ لأنّه لا ترتيب زمنيًا لها.

هكذا يمكنني أن أحدثكم عن... عن... لا.. لا داعي للكلام عن (الثقوبات)؛ فهي قصة مرعبة وغير مناسبة عامّة. جميل أن تضع رقابة خاصة على ذكرياتك فلا يخرج منها إلا ما تراه مناسبًا..

ماذا عن (كيريالا)؟.. لا.. موضوع غير مناسب البتة، وأعتقد أنني لن أحكيه أبدًا... لا أحد يحبّ العيون المفقوءة على كل حال.. هذه عادة بشريّة منذ أيام (أوديب)..

أسطورة الظلال! كيف لم أحكها بعد؟!

إنها مسلية وبها قدر لا بأس به من الرعب. أعتقد أنها تناسب الجميع، خاصة الأطفال.. كما أنها تحتوي موعظة أخلاقية بسيطة، هي ألا تثق في الأشخاص الذين لا ظلال لهم. هي نصيحة قديمة قدم الرعب نفسه، لكننا ننساها دومًا..

الأسوأ ممن لا ظل لهم أولئك الذين يتصرّف ظلهم بشكل منفصل.. يبدو أن السينما التعبيرية الألمانية قتلت هذا الموضوع بحثًا في أوائل القرن العشرين والأفلام الصامتة الكابوسية الباردة. إن من شاهدوا فيلم (نوسفيراتو) ظلوا ينظرون إلى الظلال أكثر مما نظروا إلى الأجسام الحية.

هناك قصة لـ (هانز كريستيان أندرسن) عن الرجل الذي قرر ظله أن يتمرد ويعيش حياته الخاصّة، وصار رجل أعمال ناجحًا!.. وهناك قصة شهيرة لفتحي غانم الروائي العظيم عن رجل فقد ظله، لكن الظل كان مجازًا طبعًا.. لكننا اليوم نتحدث عن قصة مختلفة بعض الشيء..

(إدجار آلان بو) تحدث عن الظلال المخيفة التي يبعثها الغراب، وعن نظرته الشريرة.

لا يُمكنك أن تعد الأعمال الأدبية التي تتحدّث عن الظل..

تفسير ذلك سهل على كل حال..

تصوّر أنك وأنت تطالع هذه السطور رأيت فوق صفحة الكتاب ظل شخص.. ظل يد مخلبية ترتجف في جشع وتدنو منك من الخلف..

للحظة يفلت قلبك ضربتين.. ينتصب شعر رأسك..

تلقي بالكتاب جانبًا وتثب ناظرًا إلى الخلف..

لا شيء..

مرحبًا بك يا صديقي في مدرسة الرعب البريطانية..

مرحبًا بك في عالم الظلال وقوم الظلال وأساطير الظلال..

مرحبًا بك في صالون الدكتور (رفعت إسماعيل)..

✶ ✶ ✶

تقوم (سالي) بتنظيف الشقة بالمكنسة الكهربية.. الضجيج يصم أذنيها، لكنّها تحاول أن تتابع ما يدور على شاشة التلفزيون.

هناك أشياء مهمّة كثيرة على الشاشة: سيدة في الخمسين تتكلم مع رجل في الثلاثين، وهما جالسان في الاستوديو. كل هذا مشوق فعلًا كما ترى.. إنها الإثارة في صورة برنامج.. الأهم أن السيدة متحمسة ولا تعطى الرجل فرصة للكلام، وكان هذا الموقف يروق لسالي كثيرًا؛ لأنها تشرع في تخيل ما يقولان، وتقوم بتركيبه على خيالها الخاص..

مثلًا هي تشاجرت مع زوجها بسبب فواتير ثيابها الجديدة؛ لذا راحت تتخيل أن السيدة تقول للرجل:

- «أنت رجل بخيل.. سالي ترهق نفسها وتعني بالبيت.. ليس كثيرًا على البائسة أن تختار ثيابًا تروق لها..»

والرجل يقول في عصبية:

- «هناك فارق بين أن تأخذ آخر سنت عندي، وأن تأخذ آخر سنت ليس عندي.. أسمح لها بتبذير الموجود فعلًا، لكن لا أسمح لها بتبذير ما ليس معي، ولسوف يحاصرني بالديون..»

ظلت تتابع هذه المحادثة الخياليّة وهي تنظف السجادة في عصبية.. تصورت أن السجادة زوجها، وراحت تنظفها بعنف أكثر، حتى كادت تهشّم اليد..

سالي أم أمريكية من الطراز الذي ينتج بالآلاف هناك.. يطلقون عليه اسم (أم كرة القدم Soccer mom)، وهي الأم متوسطة التعليم والذكاء، التي تحترم كل القيم الأمريكية، وتثق بأن الأمريكان أروع شعب في العالم، وهي حريصة على صحة أولادها التعساء؛ لهذا تأخذهم إلى كل أنواع الدورات التدريبية؛ بحيث لا تسمح لهم بلحظة حرية واحدة.. تأخذهم إلى دورات سباحة وبيزبول وكونج فو وكرة قدم.. تفعل هذا وهي تقود سيارة عتيقة صغيرة الحجم.. تقودها بطريقة مرعبة؛ بحيث تصير خطرًا داهمًا على الطرقات. كل أمريكي يعرف أن أمهات كرة القدم لا يوقفن سياراتهن إلا ويحطمن مقدمة السيارة التي خلفهن ومؤخرة السيارة التي أمامهن..

لكن هذه الأم تتابع أولادها جيدًا وهذه مزية مهمّة في هذا المجتمع.. كما أنهن يعرفن كيف يحتفظن بأزواجهن في مجتمع تسود فيه ظاهرة الوالد الواحد.. أب فقط أو أم فقط..

انتهت من تنظيف قاعة الجلوس، فأغلقت جهاز التلفزيون.

الآن حان وقت تنظيف غرفة (ريكي)..

إنه في المدرسة.. ريكي الآن في الرابعة عشرة من عمره، وهو مراهق.. مراهق أمريكي، بما يعنيه هذا من هول ورعب..

لقد صار وقحًا صموتًا.. كل كلامه تَحَدٍّ، وكل نظراته عدوانية.. رأيه الخاص أن أباه وأمه هما أغبى شخصين في العالم، والوحيدان اللذان لا يفهمانه..

طبعًا لم يعد يفكر إلا في الفتيات. (ريتا) صديقته في المدرسة، وهي فاتنة على الطريقة الأمريكية.. أي إنها (ساخنة)، باعتبار الأمريكان لا يقولون: (جميلة) أبدًا..

الولد لا يفكر إلا في ريتا.. طقوس المراهقة الأمريكية من المواعدة والدعوة للرقص في حفل المدرسة السنوي، والذهاب لفيلم..

هذه أشياء لم تبتلعها (سالي) ولم ترتح لها. تمنت لو كان بوسعها أن تفعل مثل آباء الزمن القديم، فتحطم رأس الفتى وتحبسه في حجرته. لكن الزمن أقوى منها.. المجتمع الأمريكي يجرها إلى حيث لا تريد، وإلى حيث تصير مثل أي أم أمريكية أخرى..

لا تعرف كم سيمر من وقت قبل أن يقدم له صديقه أول سيجارة محشوة بالماريجوانا أو أول قرص مخدرات.. سوف يتعاطى ابنها الأحمق هذه الأشياء؛ لأنّه يريد أن يتحداها، ويريد أن يشعر بأنه كبير ناضج..

هو كذلك معتوه؛ لهذا سيقع سريعًا في هوة الإدمان.. ليس معتوهًا فحسب، بل هو مجنون.. سيأخذ جرعة زائدة ويموت..

كل العلامات في حجرته تدلّ على المصير الأسود الذي ينتظره.. على الجدار هناك أكثر من صورة لـ (راكيل ويلش) ملكة السبعينات، في ثياب صممت خصيصًا لتثير جنون الأم. هناك سماعات عملاقة بحجم طفل، وبالطبع تتصل بجهاز كاسيت ياباني الصنع، تراصت جواره شرائط (روك آند رول). على الجدار صورة عملاقة لـ (مانسون) ملك الهيبيز الذي ينتظر الحكم عليه بالإعدام، وعدة ملصقات لفرقة مجنونة اسمها (رولنج ستونز) لا تعرف عنها سوى أن أفرادها يعتقلون في كل الجمارك بتهمة تحريز مخدرات.

تذكرت طفلها صغيرًا متوردًا أشقر لا يكف عن الضحك، وهو يلعب مع أرنب صغير أبيض.. فدمعت عيناها..

كان ملكها بالكامل، وكان يحبّها حقًّا..

لماذا يكبر هؤلاء الأوغاد؟!.. لماذا؟!

راحت تنظف الغرفة غارقة في خواطرها.. بالطبع لم تنس تفتيش الأدراج بحثًا عن السيجارة المحشوة / المحقن / لفافة السيلوفان.. لا تفري كيف بيدو المخدر، لكنّها ستعرفه عندما تراه..

لا يوجد شيء.. المكان نظيف.. لكنه لن يظل كذلك للأبد..

ثم رأت على منضدته صورة كبيرة ذات إطار هناك صورة لتلك الخنفسة (ريتا).. طبعًا وهي تنظر لها في تحد محاولة إغاظتها.. نعم يا مسز (جراي).. أنت ربيته وحافظت على صحته كي آخذه أنا منك وأعلمه كيف يكرهك.. شكرًا على لا شيء.. نيا نيا نيا ه!!

ثم تخرج لها لسانها..!

هناك صورة أخرى ذات إطار، ولها حامل يجعلها تنتصب عمودية. إنها صورة لريكي مع رفاق مدرسته يقفون في حقل اللعب البيزبول.. ريكي يقف في الوسط فخورًا والمضرب على كتفه والكاسكيت على رأسه مقلوبًا، وقد بدا عليه الفخر..

لم ترَ هذه الصورة من قبل.. على الأرجح التقطت أول من أمس لأنّه كان يلبس هذا القميص يومها. هذا ملعب المدرسة فلابد أنهم طبعوا الصورة وثبتوا لها إطارًا في يوم واحد.

صورة جميلة.. لكن من التقطها أحمق؛ لأن الشمس خلف الصبية لا أمامهم، وهي على اليسار قليلًا؛ مما جعل وجوههم مظلمة، قد ارتمت ظلالهم إلى اليمين. أي مغفل يعرف أنه لابد أن تكون الشمس في وجهك ما لم يكن الظل مطلوبًا لغرض درامي ما..

نظرت إلى الظلال على العشب، وشعرت بأن شيئًا ما ليس على ما يرام.. ثمّة شيء ناقص، لكنّها لا تعرف ما هو..

فتحت درج ريكي، وأخرجت العدسة العملاقة، وألصقتها بعينها، وراحت تتفحص العشب عند أقدام الصبية..

بالفعل.. هناك ظل لكل صبي في الصورة.. ما عدا ابنها!

✶ ✶ ✶

ظلت تنتظر عودة ريكي من المدرسة، وهي تعد الطعام في المطبخ؛ لأنّه يعود عصبيًّا متلهفًا على العشاء..

زوجها يعود في السابعة مساء، فتتناول عشاءها معه..

خطرت ببالها الصورة، لكنّها لم تعلق أهميّة على ما وجدته. منذ متى كانت خبيرة تصوير؟!.. لم يخطر ببالها قط التأكد من ظلال الناس في الصور، فلربما كانت تختفي في صور كثيرة.. إن ألعاب الضوء لا تنتهي.. لقد رأت السراب وكيف يبدو في صحراء أريزونا.. وكانت مستعدة لأن تقسم إن هذا جدول ماء يترقرق.. لولا أن زوجها أكد لها أنه سراب..

وفي بعض الأمسيات الصيفية يبدو القمر المكتمل قريبًا، لدرجة أنها لو قذفت حجرًا لأصابته وأسقطته..

نعم.. الضوء مخادع كبير مثل ريكي..

عندما دق جرس الهاتف رفعت السماعة وأصغت.. بدأ وجهها يتلون...

في البداية كانت ضحكة، ثم تحولت إلى ثغر مفتوح، ثم تقلص مريع على جانبي الفم..

سيدتي.. المستشفى.. نريدك حالًا.. ريكي جراي هو ابنك أليس كذلك؟

تسقط السماعة من يدها.. ترفعها من جديد لتطلب زوجها في عمله. لم تسل دمعة من عينيها، ولم يتغير صوتها؛ فقد كانت لا تصدق..

- «نورمان.. المستشفى.. يقولون: إن ريكي سقط في المدرسة بلا سبب!.. يقولون: إن حالته خطيرة.. يجب أن أذهب فورًا.. هل تصدق هذا الكلام الفارغ؟.. هل تصدقه؟.. ها ها ها ها!..»

وراحت تضحك بلا توقف.. وتضحك..

صوت زوجها المعدني المذعور يتكلم.. لكنّها لا تسمع..

هي تضحك.. تضحك..

✶ ✶ ✶

- 1 -

لم تكن حياتنا سعيدة على الإطلاق..

عندما أبتعد عن الرقعة أدرك هذه الحقيقة، والتي كنا لا نلاحظها عندما كنا نمارس تلك الحياة فعلًا. أنت منهمك في الذهاب للمدرسة.. في الاتصال بأصدقائك.. في ترتيب طريقة للاستمتاع بوقتك.. هذه الأمور تدور لكنك لا تهتم بها كثيرًا..

أبي مهندس في العقد الخامس من العمر، من النوع العصبي الذي ينفجر بسهولة.. قيل لي: إن هذا النوع يتمتع بصحة طيبة؛ لأن انفجاراته تخرج على الفور.. لكن أبي كان مريضًا وكان يتعاطى أدوية كثيرة..

أمي كانت من طراز آخر تمامًا.. إنها شديدة البرود والهدوء الداخلي. لم أرها يومًا منفعلة أو ترتجف غضبًا. كانت معلمة أصلًا.. لكنّها تقاعدت لأن أبي طلب منها ذلك..

- «لا أحتمل أن أتصورك في الحافلة يحتك بك هذا وذاك..»

- «يُمكنك أن توصلني بالسيارة..»

كانت عندنا سيارة وقتها، لكن كان أبي يقول:

- «لا أحتمل أن أراك في العمل يكلمك هذا وذاك..»

لكنّها لم تشعر قط بأنه يحبّها.. لم تكن هذه غيرة، ولكنّها حاسة امتلاك مبالغ فيها. مثلما يحرص المرء على إخفاء بقايا طعامه في الثلاجة.. هو لا يغار على الطعام، لكنه يشعر بغريزة امتلاك قوية.

لم يكن أبي يحبّها.. أنا أعرف هذا يقينًا..

على الأرجح لم تكن هي كذلك تحبه. غير أني - أشهد - رأيت منهما حرصًا بالغًا على تربيتي أنا و(منى) أختي، وعلى ألا نشعر بأي شيء من الزلازل المستمرة في هذا البيت..

كانا يتشاجران وتسمع أبي يصرخ بأعلى صوته.. تفتح باب الغرفة فتجدهما صامتين يبتسمان.. تتساءل:

- «هل هناك مشكلة؟..»

فيردد أبي كالببغاء:

- «هل هناك مشكلة؟..»

- «سمعتكما تتصايحان..»

- «تلك التمثيلية في التلفزيون.. كل الممثلين يصيحون اليوم، ويحسبون هذه براعة تمثيل. أليس كذلك يا هالة؟..»

تقول أمي ساهمة وهي تنظر إلى شاشة التلفزيون:

- «بلى.. بلى. يتصايحون.. كلهم كذلك..»

تغلق الباب وأنت تقول لنفسك: إنهما يكذبان...

لن ينفصلا على كل حال.. أنت تعرف هذا جيدًا... ليسا من هذا الطراز، فهما مهتمان بالأطفال.. هما من نمط الذين ينفصلون بالطلاق في سن الثمانين؛ لأنّهم لا يطيقون الحياة معًا يومًا واحدًا بعد رحيل الأطفال..

لو أنني وأختي (منى) هلكنا اليوم أو تركنا البيت، فلن يظلا معًا خمس دقائق أخرى..

الآن.. اسمح لي أن أقدم لك نفسي.. (رامي عطية).. طالب في السنة النهائية بكلية العلوم. أختي في الصف الثاني الثانوي..

من ناحية الشكل أنا لست منفرًا.. لست أوسم من رأيت، لكن وجهي مريح، فيه رجولة وصدق. من الناحية الماديّة لسنا فقراء، لكننا لسنا أثرياء. نحن نشبه الكثيرين من المصريين الآخرين الذين يطلقون عليهم (الطبقة الوسطى).. نأكل اللحم أكثر أيام الأسبوع، وثيابنا معقولة، وشقتنا مريحة.. لكننا سننكشف تمامًا لو مرض أحدنا، أو انهارت البناية وصار علينا أن نجد بناية أخرى..

لأسباب كهذه؛ لم تكن لي علاقات عاطفيّة في الكلية. أولًا أنا لم أعد أؤمن بالزيجات الناجحة.. كم تبلغ نسبة المقامرة في أن تأتي بشخصين ناضجين وتضعهما في بيت واحد وتتوقع أن ينسجما؟.. هذا الاحتمال عالٍ جدًّا لو كان أحدهما كلبًا أو سمكة زينة أو دجاجة، لكن بالنسبة إلى البشر، الاحتمال واهٍ جدًّا.. آسف..

ثانيًا: كنت أعرف أن أمامي طريقًا طويلًا إلى أن تكون عندي شقتي وإمكانات الزواج، خاصة أن أبي لم يدخر مليمًا...

ذات ليلة جلست أختي في الشرفة، ترمق الشارع وأمامها كوب شاي على السور..

وقفت جوارها.. إننا نسكن في بيت جميل واسع عزيز في الدقي.. بيت من البيوت التي تسمح لك بأن تجلس في شرفة وتكون عاليًا، ترمق الزحام والناس من بعيد... بيت خلق طبعًا كي يشتريه أحدهم ويدفع لنا (خلو رجل) ثم يهدمه ليبني مكانه برجًا قبيحًا..

كانت أختي شاردة الذهن تمامًا؛ فاحتاجت إلى ربع ساعة حتى تدرك أنني هناك..

(منى) أيضًا ليست (سعاد حسني)، لكن وجهها مريح، من الطراز الذي تحب أن تنظر إليه.. وقد قالت لي وهي تنهي كوب الشاي:

- «عندما أكبر لا أريد أن أتزوج!..»

- «أنا مثلك.. لكن الأمر لن يكون سهلًا معك.. سوف يشخط فيك أبي ويزوجك خلال عامين.. بينما أنا رجل.. سيكون من حقي أن أنشغل بتكوين نفسي ربما حتى سن الأربعين..»

ثم تذكرت فسألتها:

- «ما السبب فيما تقولين؟..»

- «أعتقد أنه من الصعب أن يشعر المتزوجان بالسعادة..»

كانت تفكر فيما أفكر فيه بالضبط، فقلت:

- «ربما هناك بيوت أخرى ينعم فيها الآباء بالسعادة..»

- «لا أعتقد.. هم جميعًا يمثلون.. كل الناس تعتقد أن أبي وأمي عصفوران في عش...»

ثم أضافت وهي تنهض:

- «أعتقد أن حياة المرء وحيدًا لا بأس بها... في هذه البناية رجلان يعيشان وحيدين، وهما سعيدان حقًّا..»

- «يقول الأستاذ زكريا: إنهما مخبولان.. لا ينامان الليل، وغريبا الأطوار..»

- «ربما هو الحقد على راحة بالهما.. إن الفنان الأسمر النحيل مريض.. مريض جدًّا لو أردت رأيي.. هذا يفسر غرابته.. أمّا الطبيب النحيل الأصلع فلا يكاد يستقر في مصر..»

- «الفنان اسمه (عزت) وقد عاد من الخارج مؤخرًا.. الطبيب اسمه (رفعت).. هناك إشاعات عن رفعت هذا.. يُقال: إنه خبير روحاني أو شيء من هذا القبيل...»

- «صديقتي تقول: إنّه عالم محترم في الماورائيات.. يدرسها ولا يمارسها..»

- «الفارق بين من يدرس هذه الأمور ومن يمارسها واهٍ في مصر على كل حال.. كلهم (مخاوي) بالنسبة للمصري ممسوس بشكل أو آخر..»

- «إن الخلط بين أستاذ العقاقير الذي يدرس المخدرات، وبين تاجر المخدرات نفسه، خطأ فادح..»

- «الأسوأ أن يكون أستاذ العقاقير هذا غير متزوج!!..»

✶ ✶ ✶

- 2 -

توفيت أمي كما تعلم يوم شمّ النسيم بالضبط..

هذا يوم يصعب أن ينساه المرء..

لقد بدأ اليوم في ساعة مبكرة، عندما أيقظنا أبي وراح يعد البصل والفسيخ، وكل هذه الطقوس التي يحرص عليها..

كنت قد ضقت ذرعًا بهذه النزهات التي لا داعي لها، وشعرت بأنني لم أعد طفلًا يشتهي أن يركب دراجته وسط الحقول أو يصطاد السمك، لكن أبي كان حريصًا على هذه العادة بشكل شبه ديني؛ مما يدل على أن جيناته الفرعونية أقوى مني..

لو أراد أن يسعدني بحق، فليتركني أنعم بالنوم حتى الظهر هذا يوم إجازة.. لا كلية ولا محاضرات ولا مواصلات..

هكذا تحركنا في تلك الساعة المبكرة وسط زحام هؤلاء الذين لا يريدون أن ينعموا بالنوم.. دعك من أنني و(منى) كنا نعرف يقينًا أننا لا نعيش في أسرة سعيدة ولهذا بدا لنا هذا نوعًا سخيفًا مملًا من التظاهر بالسعادة. عندما تكون سعيدًا لا يضيرك أن تقضي عيد ميلادك في مقبرة أو خراب ينعق فيه البوم.

ركبنا سيارة استأجرها أبي إلى القناطر، حيث كان زحام مرعب من هؤلاء الذين يتظاهرن بأنهم سعداء، وهم ليسوا كذلك..

التقطت للأسرة بعض الصور..

مباراة بكرة المضرب بين أبي ومنى... إلخ.. كل تلك الطقوس السنوية. إن لدى درجًا مليئًا بالصور لأبي وهو يلعب كرة المضرب مع منى.. لديَّ صور لها وقد تعلّمت المشي لتوها.. صور بالضفيرة، وصور لها في سن المراهقة.. فما جدوى المزيد منها؟!

ثم افترشنا العشب وبدأت طقوس أكل الفسيخ.. اللحظة التي يعتبرها أبي أهم لحظات اليوم، وأنا بطبعي لست مولعًا بهذا السمك كريه الرائحة.. التهام الجثث المتعفنة ليس مما يروق لي، ومن الغريب أنهم يعتبرون هذا دليلًا على شذوذ طباعي..

مر بنا ذلك الرجل الأصلع الخمسيني البدين.. حسن المظهر برغم هذا..

نظر لنا في دهشة فلم أر شيئًا غريبًا.. أبي يقابل عينات من هذا الرجل طوال الوقت، ولو لم نكن نعرفه فهو يعرفنا.. أحيانًا أعتقد أنه يعرف أناسًا يشبهوننا ونحن نعرف رجلًا أصلع يشبهه..

لكن عينيه اتسعتا وهتف عندما رآنا:

- «حقًّا هو عالم صغير!..»

وصافح معصميهما وهما منهمكان في الأكل، بطريقة المصارعة التي ترغمهما على عدم النهوض.. برغم أن مجيئه أحدث بالطبع حالة غير عادية من الارتباك..

- «تفضل..»

- «سبقتكما..»

ثم نظر لي ومنى في اهتمام، وقال:

- «هذان هما الذرية إذن.. لقد كبرا..»

ولاحظت أن أبي لا يبدو ودودًا على الإطلاق.. إنها تلك العلامات المنذرة بقرب الانفجار.. الوريد في جبهته ينبض كما هي العادة ولونه يحمر ببطء شديد. قالت أمي تفسر الموقف:

- «د. (مصطفى).. قريبي...»

قال الرجل مفسرًا المزيد:

- «كنت في الخارج لفترة طويلة.. من الغريب أن يلتقي الأقارب في القناطر.. لكن يبدو أنّ هذا هو ما يحدث هنا..»

ووقف للحظة ينظر إلينا وإلى أبي، ولكن أبي ظل منهمكًا فيما يأكل.. وقضم قضمة شرسة من البصلة التي يحملها، وراح يزدردها؛ من ثم بدأ الرجل يشعر أخيرًا أنه أنهى مهمته وأن انصرافه صار واجبًا..

- «تشرفنا.. سوف نلتقي ثانية..»

وهز رأسه من جديد، وابتعد وهو يركض تقريبًا.. لم يكن أكثر اللقاءات مع الأقارب حرارة، وقد شعرنا بشكل ما أنّ هناك خلاف قديمًا بين هذا الرجل وأبي.. كل رجل يحمل عدة خلافات مع أهل زوجته على كل حال، ما لم يكن ملاكًا وهم ملائكة..

المهم أن اليوم انتهى بمعجزة ما، وسرعان ما كانت السيارة تعود بنا إلى البيت.. أعرف باقي السيناريو.. سوف ننام كالموتى بقية اليوم، ومن حين لآخر يصحو أحدنا ليشكو من (النار المشتعلة بداخله)، ويجرع بعض المياه الغازية، ثم يحاول النوم من جديد.. أنا لم أكن قد تذوقت الفسيخ،

لكني التهمت كمية من البيض الملون تكفي لجعلي أستمتع بنصيب وافر من تلك البراكين التي تنفجر وتفيض في معدتك..

أذكر أنني صحوت عصرًا لأسمع صوت مشادة من غرفة أبوي.. كانا يتصايحان كالعادة.. أبي بطريقته العصبية التي توشك على تفجير شرايين رأسه، وأمي بطريقتها الهادئة.

سمعت مقاطع مثل:

- «لماذا يظهر الآن؟!»

- «هذا ليس ذنبي..»

- «وهو وقح كذلك..»

- «لم يفعل شيئًا سوى أن حيانا..»

كنت أعرف أنني لو قرعت بابهما لوجدتهما في أسعد حال كالعادة؛ لهذا وضعت الوسادة على رأسي وحاولت أن أعود للنوم..

لابد أن الكارثة حدثت في الثامنة مساء..

كنت ومنى جالسين نشاهد التلفزيون بينما والدانا ما زالا نائمين. سمعنا ضجة غير عادية من غرفتهما. هذه المرّة لم تكن هناك مشاجرة، بل هناك من يجرى.. يسقط أشياء..

جرينا إلى هناك لنجد أن أمي قد توفيت...

استعادة هذه اللحظات قاسية جدًّا؛ لذا لن أطيل الوصف؛ فهو غير ممتع بحال.

لقد توفيت أثناء النوم، وأصيب أبي بهلع مجنون جعله لا يعرف ما يقوم به.. راح يركض للباب ثم يعود.. يرفع سماعة الهاتف ثم يضعها..

هتفت منى كالملسوعة:

- «هناك ذلك الطبيب.. ذلك الطبيب..»

عرفت على الفور ما تقصده، وجريت على الدرج كالمجنون، ورحت أقرع بابه مرارًا...

أخيرًا انفتح الباب وظهر لي.. بالمنامة.. انتثر الشعر الباقي على جانبي رأسه.. نحيلًا كعود الخُلة، وكان يحلق ذقنه كما هو واضح من الصابون الذي غطى نصف وجهه. لكنه بدا لي وقتها رائع الجمال..

قلت له:

- «م.. مم.. ف.. ف.. ا.. ب.. ك. ك..»

يبدو أنني كنت بليغًا جدًّا؛ لأنّه هرع يحضر جهاز الضغط والسماعة، ولحق بي بالمنامة والخفين...

عندما دخلنا الشقة كان يلهث ويكافح من أجل الهواء، حتى أدركت أنه بحاجة إلى طبيب هو الآخر.. إن لياقته معدومة أو هو يموت الآن..

في غرفة النوم، التي تحولت إلى زنزانة مبطنة في مصحة أمراض عقليّة، تأمل الجثة الراقدة على الفراش، والتي كنت أتوقع أن يخرج عصا الساحر ليحركها ويعيدها للحياة.. أليس طبيبًا؟

قاس الضغط مرّتين وأصغى للقلب.. ثم تساءل عما حدث بالضبط..

قال أبي وهو يرتجف:

- «لم تصح من النوم.. هذا كل شيء..»

- «هل من شيء أكلته أو شربته؟..»

- «الفسيخ.. الكثير منه.. قبل هذا كانت في خير حال..»

فكر بعمق للحظة...

فيما بعد قال لي:

- «هناك نوع من التسمم ينتج من الفسيخ والمعلبات الفاسدة، ويدعى (البوتبولزم Botulism)، ولو ترجمناه للعربية لكان معناه (السجقية).. لكنه لا يقتل بهذه السرعة ولا يبدو كهذا..»

لكنه بالطبع لم يجد وقتًا ليقول هذا كله.. لقد حك رأسه الأصلع وقال:

- «لا أجد علامات تدلّ على نوبة قلبيّة.. ولكن أوان البحث عنها قد فات على كل حال..»

وبحث في جيب منامته عن شيء.. علبة ما.. أخرجها وأخذ منها قرصًا.. هذا الرجل سيموت الآن وسوف يترك لنا جثتين.. ليته يرحل بسرعة!...

لم يجد الكثير مما يعمله؛ لأنهّا كانت قد توفيت فعلًا.. فقط كانت مشكلته كيف يخبرنا بهذا ببطء....

كما قلت: لن أطيل عليك.. فقط أقول: إنني تلقّيت أول ضربة قاسية في حياتي، وتعلمت تلك الألعاب الخبيثة التي تلعبها الأيام من حين لآخر... الموت المفاجئ!.. حدثني أنا عن الموت المفاجئ!...

عرفت وقتها أن الحياة في بيت يتشاجر فيه الأبوان كثيرًا، خير من بيت لا يوجد فيه سوى أب واحد..

وعرفت أن بيتنا سيكون هادئًا جدًّا.. هادئًا أكثر من اللازم...

✶ ✶ ✶

- 3 -

في الأيام الكئيبة التي تلت ذلك، جاءت عمتي لتقيم عندنا..

عمتي غير متزوجة، وفي الخمسين من عمرها، وقد بدا للجميع أنّ هذا هو الحل المعقول.. سوف تعنى بنا ونعني بها.. تفعل الأشياء التي لا تستطيع عملها سوى امرأة، ونقدم لها نحن أسرة تصير فردًا فيها.. بالطبع كانت إقامتها معنا مستحيلة عندما كانت أمي حية..

كانت عمتي رقيقة لطيفة الحاشية، تختلف كثيرًا عن أبي، وإن كانت طيبة مثله.. أبي طيب القلب لكنه عصبي فعلًا، وهذا ما لم يفهمه كثيرون.

ولم تفهمه (منى) أختي..

في الحقيقة كانت (منى) تزداد عصبية، وازدادت صمتًا وغموضًا..

لاحظت هذا وقلت لنفسي: إن فقدان الأم في فترة المراهقة ليس تجربة هينة على الإطلاق.. كانت منى قد صارت شخصيّة سمجة بحق..

صارت صموتًا.. عندما يكلمها أحد لا تبدي أي انفعال تصغي ولا تعلق.

أما عندما يكلمها أبي فهي لا تبدي على الإطلاق أية علامة على أنها تسمعه.. وقد أصدر لها أمرًا ذات مرة فلم يبد أنها سمعت حرفًا..

رأيت وجهه يحتقن، والوريد إياه ينتفخ، فهرعت أنفذ ما طلبه، رحمة به وبها..

قل لها دعابة.. أية دعابة.. احك عن أظرف شيء رأيته أو سمعته في حياتك.. سوف تنظر إليك وعلى شفتيها شبح ابتسامة، ثم تغمغم:

- «أم م م...»

وهكذا تدرك أنك وغد سمج وتكره نفسك للأبد..

أمّا الأغرب فهو أنها تغلق غرفتها بإحكام ليلًا.. لم تكن معتادة هذا.. وقد قلت لنفسي: إنها قد كبرت وصارت الخصوصية من حقها، لكن لماذا قررت أن تكبر فجأة خلال شهرين؟!

فيما مضى كانت غرفتها مغلقة الباب لكن من دون مزلاج، وكنت أقرع الباب عدة مرات قبل أن أتلقى الإذن بالدخول.. أمي فقط كانت الوحيدة المسموح لها بفتح الباب بلا استئذان. وكانت أمي تؤمن بأن باب غرفة المراهق يجب ألا يغلق من الداخل أبدًا كانت تتوقع أن تدخل ذات يوم لتجد

(منى) تضع الهاتف على أذنها وتكلم حبيبها في دلال، كما تفعل (ماجدة) في الأفلام العربيّة القديمة.. أمّا أنا، فبالطبع ستدخل لتجدني أنزع المحقن المليء بالهيروين من ذراعي.. لهذا كان عنصر المفاجأة ضروريًا.. هذا سلاح لا يجب التخلي عنه..

الأغرب هنا أن (منى) تتحفظ مع عمتي ذاتها، فلا تسمح لها بلمسها أو دخول حجرتها أبدًا..

أمّا عن أبي فلم يكن على ما يرام بدوره..

بدأت النوبة الأولى في ليلة من شهر مايو..

كنا في غرفتينا، وكان هو أمام التلفزيون، وفجأة سمعته يصرخ بقوّة..

هرعت إلى غرفة الجلوس متوقعًا كارثة.. لحسن الحظ لم أجد جثّة، لكنه كان واقفًا في وسط الغرفة.. العرق يحتشد على جبينه، وعيناه متسعتان، وهو ينظر حوله..

- «ماذا هنالك؟!..»

- «هناك من جاء من خلف المقعد واقترب مني.. من ناحية اليمين.. عندما شعرت به استدرت وصرخت فلم أجده...»

غريب هذا هكذا انطلقت أبحث في أرجاء الغرفة وخلف المقاعد.. لا شيء..

قمت بالبحث خلف الستائر.. لا شيء..

لا يمكن أن يغادر الشيء عن طريق الصالة؛ لأن أختي كانت هناك في هذه اللحظة..

قلت له وأنا أربت على كتفه:

- «لا يوجد شيء.. فلتطمئن..»

انتزع يدي من على كتفه في غلظة، وقال:

- «هل تعني أنني أخرف؟!..»

- «بل أعنى أنه لا يوجد أحد...»

لماذا لا يقبل الناس فكرة الهلاوس؟.. يعتبرونها إهانة.. من الممكن أن تحتفظ بصفاء عقلك وذكائك، لكن حواسك تخدعك.. هذه ليست إهانة..

عاد أبي يكرر في عصبية:

- «أنا لا أهذي.. هذا الشيء جاء من اليمين.. رأيته بوضوح تام..»

- «هل بدا كإنسان؟..»

- «ربما..»

قمت بإعادة التفتيش؛ من أجل إرضائه لا أكثر، ثم هززت رأسي..

- «هذه الخدعة البصرية تحدث كثيرًا لمن يلبسون العوينات ويشاهدون التلفزيون في الظلمة.. يرون ظلًا تتحرك على ركن العين..»

نظر لي وابتسم في شفقة لسبب لم أفهمه..

بالفعل.. أنا عبقري.. أبي لا يلبس عويناته، والغرفة مضاءة كأفضل ما يكون!

✶ ✶ ✶

- 4 -

النوبة الثانية حدثت بعد أسبوع، عندما أخلد إلى النوم..

منذ توفيت أمي كف أبي عن النوم في غرفتهما المشتركة، وهي مسألة نفسية أفهمها طبعًا.. قمنا بإعادة ترتيب الغرفة واتخذتها عمتي غرفة لها، بينما أخذ أبي غرفة صغيرة في نهاية الممر جوار المطبخ. هناك ستار كثيف يفصل الممر عن الصالة.. وللغرفة مزية أخرى هي قربها من الحمام، وهو شيء محبب لمن يشكو تضخم البروستاتا..

دوى صراخ أبي.. طبعًا كان لابد من لحظة يخترق فيها جدار نومي؛ من ثم نهضت وقلبي يتواثب، وجريت إلى الصالة.. فقط لتظلم الدنيا لربع ثانية بسبب نهوضي المفاجئ..

اصطدمت بالستار فمزقته.. ثم اندفعت نحو الردهة..

هناك كان أبي يجلس على حافة الفراش يلهث في جشع. العرق يغمر جبينه بالكامل..

وعندما استطاع الكلام كانت عمتي و(منى) قد لحقتا بنا.. قال لي:

- «هذه المرّة كان يقف أمامي... عينان حمراوان تمامًا تنظران إليَّ!.. يبدو كإنسان.. لكنه ليس كذلك.. كتلة سواد هائلة.. رأيته.. رأيته..»

- «وهل كانت الغرفة مظلمة؟..»

قال دون حذر:

- «أنا أبقيها مضاءة..»

وهذا اعتراف منه بأنه يخاف النوم في الظلمة... لا ألومه.. لا ألومه.. من كان بلا خطيئة فليرجمه بحجر، ومن كان شجاعًا منكم فليمر بما مر به..

عمتي قدمت له الماء المثلج بالسكر، وأصرت على أن يفرغ مثانته في الحمام.. هو يكرر في عصبية أنه لا يريد، وهي مصرة كالجحيم لأن هذه هي الطريقة المثلى للقضاء على (الخضة). عمتي لا تعرف أنّ هذه بالفعل هي الطريقة المثلى لإعادة تشغيل الجهاز العصبي (الجار سبمثاوي)؛ من ثم يخف عمل الجهاز السمبثاوي.. أي يقل أثر التوتر والرعب على جسده.

كنت أنا أفتش كل شيء كالعادة.. أفتح خزانة الثياب.. أفتش تحت الفراش.. دخلت المطبخ وبحثت..

بالطبع لا يملك اللصوص قدرات خارقة للعادة، ولا يتبخرون إنهم مثلنا.. يخرجون من الأبواب والنوافذ، ويحدثون صوت خطوات. هم فقط يفعلون هذا أسرع منا..

في طفولتي كنت أسمع لفظة (حرامي) فأتخيل كيانًا مرعبًا غامضًا.. وعندما سمعت أن جارتنا (أمسكت بحرامي في المسقط)، تخيلت ذلك الكائن المخيف أسود مشعرًا كأنه فأر كبير، وقد ربطته جارتنا بالسلاسل، وبالطبع رفضت أن ألقي نظرة عليه.. كنت أعرف أنه سيحطم السلاسل ويمزق الجميع ويهرب..

لم أجد شيئًا.. على أبي أن يقتنع بأنه يرى أوهامًا..

عاد من الحمام، وللمرة الأولى نظر إليَّ طويلًا، ثم قال بصوت خفيض خائف خجول:

- «هل يضايقك أن تنام معي؟!..»

بدا لي هذا غريبًا.. أنا الذي كان من حقه أن يطلب شيئًا كهذا في طفولتي..

لكني لم أستطع الرفض؛ لذا ذهبت لحجرتي وحملت وسادتي.. ولا داعي للغطاء طبعًا لأن الطقس حار..

في الممر قابلت (منى) التي نظرت إليَّ طويلًا، ثم ابتسمت في توحش وهمست:

- «دعه يتعذب قليلًا!..»

✶ ✶ ✶

لم أستطع فهم ما أرادت قوله، لكني على كل حال افترشت الأرض وتوسلت لأبي كي يغلق النور... لو كنت سأنام على الأرض بقية الليل فليسمح لي بمتعة الظلام على الأقل..

ساد الظلام فسمعته يقرأ المعوذتين وآية الكرسي، ثم قال لي:

- «لم تجد شيئًا بالتأكيد؟..»

- «لا يوجد شيء يا أبي سواي..»

- «هذا البيت مسكون أو إنني بدأت أجن..»

- «أنت مرهق فقط يا أبي.. هذا كل شيء..»

ثمّة شيء يحطم الأعصاب في ضعفه هذا.. أبي عصبي.. لايسامح الضعف البشري ولا يقبل الزلات من أي نوع.. فليبق كذلك!.. أما هذا الوهن فيلتهم روحي ويشعرني بقنوط شديد. عندما

يصدر الأسد أنينًا خافتًا كقط جريح.. فهذا يمزق قلبك فعلًا....

الأسد يجب أن يزأر.. يزأر بقوّة وشراسة..

الأسد يجب أن يفترسنا!!

بدأت أغوص في حالة اللا يقظة اللا نوم إياها، ويبدو أنني رأيت حلمًا قصيرًا أو حلمين من تلك الأحلام القصيرة التي تسبق العرض الرئيس.. تلك الأحلام التي تشبه الجريدة السينمائية وأفلام ميكي ماوس.. سوف يبدأ الفيلم الكبير حالًا، ولسوف يكون فيلمًا ممتعًا أواجه أنا فيه عصابات قطاع الطرق في الصحراء، ثم أفوز بحب (ميرفت أمين).. السبب هو أنني رأيتها في فيلم منذ يوم وبدت لي فاتـ...

- «رامي..»

- «هه؟..»

انتهت العروض القصيرة.. وعدت أدرك أنني على الأرض وأبي على الفراش على بعد متر.. كان يقول:

- «لو كان هذا الظل يمثل أمك رحمها الله.. ألا يجب أن يشبهها؟..»

- «بلى.. هذا ما أعتقده..»

ساد الصمت.. ومن جديد أدركت أنه يقول لنفسه: إنِّه لا يمثلها.. إذن.. فليطمئن...

ومن جديد بدأت العروض القصيرة المرحة قبل الفيلم الكبير.. و... أوف!!!

لم أدر متى ولا كيف انغرست قدمه الغليظة الحافية في بطني؛ فأطلقت صرخة الاحتضار، وسمعته يقول في الظلام:

- «آسف.. لم أرك!.. فقط أردت أن أشرب!!..»

قلت وأنا أبحث في جدار بطني عن أحشاء خرجت:

- «لماذا لم تقل لي بالله عليك؟!.. لماذا لم تطلب هذا مني بوضوح؟..»

✶ ✶ ✶

- 5 -

في الصباح كانت كل عظمة في جسدي مهشمة، لكن جدار بطني كان موشكًا على التمزق.. برغم هذا وجدت من القوة ما يسمح لي بأن اسأل (منى) ونحن نتناول طعام الإفطار على الواقف في المطبخ كعادتنا:

- «ما كل هذه السادية؟.. لقد قلت أمس: إن الرجل يستحق، أو شيئًا من هذا القبيل.. ما الذي فعله بالضبط؟..»

كانت تلوك لقمة من الخبز بالجبن.. تلوكها في شيء من التوحش والعصبية. فلمّا سمعت ما قلت نظرت إليَّ ولم تعلق..

عدت أقول في إلحاح:

- «ليس ذنبه أنه تشاجر معها يوم وفاتها.. هذه مسألة أعمار لا يعرفها إلا الله..»

هنا نظرت إلى بعينين ناريتين.. (منى) لها عينان فاتحتا اللون تصيران ذهبيتين في الشمس، وعندما كنت أغضبها في طفولتي، بأن أكسر لها لعبة أو أمزق صورة تحبها، كانت تنظر إليَّ تلك النظرة التي تذكرني بالنمر الغاضب، وقالت:

- «أنت تعرف جيدًا..»..

- «أعرف أي شيء؟..»

- «لقد عاد الإحساس بالذنب يطارده.. عندما ينجو القاتل من الشرطة فإن ضميره يستمر في المطاردة!..»

قلت في غباء، وقد بدأ الطعام يتساقط من جانبي فمي:

- «هل جننت؟!..»

- «أنت المجنون لو لم تكن قد فهمت.. هذا الرجل قتل أمي!..»

✶ ✶ ✶

كان الأمر يفوق تصوري..

يفوق أية مشاكل عائلية تكون قد خطرت لك..

هكذا اضطررت إلى أن آخذها خارج البيت تمامًا.. أخذتها إلى مكان هادئ بعيد عن الأعين، وعدت أسألها عن هذا الهراء الذي قالته.

قالت لي في عصبية:

- «أنت تعرف.. هذا الدكتور (مصطفى) الذي قابلناه في القناطر.. كل شيء يقول إنِّه كان معجبًا بأمي أو تقدم لها فعلًا.. لم يتحمل أبي فكرة ظهوره المفاجئ هناك، وأنت تعرف أنه صار شديد العصبية..»

- «أنت مجنونة!..»

- «ربما.. وعندما عدنا إلى الدار دارت مشادة قوية بين أبي وأمي.. كنا نائمين كالمومياوات، بينما احتدم الموقف فحدث شيء ما.. ربما كتم أنفاسها بالوسادة.. ربما دفع رأسها فارتطم بحاجز الفراش ربما أي شيء... ما أعرفه هو أن امرأة سليمة الجسد ماتت فجأة..»

- «لا تعني كل مشاجرة أن....»

- «وربما لم يمسها، لكن المشاجرة أحرقت جهازها العصبي وأرهقت قلبها.. وها هو ذا الدليل.. إن شبحها يطارده وينغص حياته.. إنِّه عاجز عن الحياة بشكل طبيعي.. أنا قرأت قصة (ماكبث) في المدرسة، ورأيت كيف أن شبح الملك العجوز ظل يطارد قاتليه..»

قلت وأنا أبلل شفتي بلساني:

- «منى.. لقد كان هناك طبيب.. بل طبيبان.. لم يريا ما يريب....»

- «الطبيب الأول أستاذ كبير.. ما دام لم ير شيئًا مريبًا فقد افترض الثاني أنه لا داعي للتدقيق.. ونحن لم نتهم أحدًا.. لو كان رفعت هذا أحمق....»

- «من الصعب أن تخنقي أحدًا من دون آثار.. هذه أشياء يعرفها الأطباء..»

- «لا أعتقد أنه كان يملك الوقت الكافي للتدقيق..»

فكرت حينًا ثم قلت لها:

- «أنت مصابة بالبارانويا..»

- «وما هي؟..»

فلا تنس أنها طالبة في الثانوي.. تحتاج إلى الكثير جدًّا حتى تصير حكيمة عارفة بكل شيء مثلي، أنا الذي أكبرها بأربعة أعوام.. قلت لها:

- «جنون الاضطهاد.. الشك في الآخرين..»

- «ربما.. لكنك تحتاج إلى ما هو أكثر من الكلمات كي تقنعني ببراءة أبي..»

- «وماذا تنوين عمله؟..»

- «لا شيء.. ليس في يدي شيء ولا أستطيع عمل شيء، لكن ثق بأنني سأتزوج أول من يطلب يدي؛ لأفر من هذا البيت.. وحتى يأتي ذلك الحين لن أسمح لأبي بأن يلمس يدي.. إنني أتوقع أن يجيء دوري في الخنق..»

كان كلامها عاصفة اقتلعت الكثير من سلامي النفسي..

لكني بالطبع لم أصدق حرفًا مما تقول.. ولست مستعدًا للشك في ذلك الأرمل التعس الذي هو أبي، خاصة وأنا تحت سقف بيته، أكل وأشرب وألبس من ماله..

إن فكرة الأب غالبة مقدسة.. الأب معنى عملاق رهيب، ولا يمكن أن نسمح له بأن يتلوث بهذا الهراء الصبياني..

نظرت إليها في عينيها وقلت:

- «اسمعي.. أنت تحبينني.. أليس كذلك؟..»

بدت الرقة في عينيها لأول مرة، وقالت:

- «بلى..»

- «نحن أول أخوين عرفتهما يحبان بعضهما فعلًا.. كل أخ وأخت أعرفهما بينهما ما صنع الحداد.. يبدو أنّ هناك لعنة اسمها (لعنة الأخت الصغرى) حيث تكون دائمًا سمجة مزعجة واشية.. والأدهى أن الأبوين يصدقان ما تقول بلا مناقشة..»

- «لكننا نختلف.. أنا أختلف..»

- «إذن أريد أن تقابلي معي د. (رفعت) جارنا، وتحكي له كل هذا الهراء الذي قلته..»

- «وما جدوى ذلك؟..»

- «إما أن يصدقك، وهذا يعني ثورة تجتاح حياتنا، ولن يعود شيء كما كان.. وإما أن يثبت لك أنك حمقاء، وهذا يريحك ويريحني.. أن تكون أختي معتوهة لأفضل بمراحل من أن يكون أبي قاتلًا...»

- «صدقني أنا أدعو الله أن أكون معتوهة..»

- «جميل جدًّا.. سأعتبر هذه موافقة على لقاء هذا الطبيب النحيل..»

✶ ✶ ✶

- 6 -

عندما فتح د. (رفعت) الباب، بدا على وجهه تعبير من الرعب وعدم التصديق، حتى إنني تساءلت عما إذا كنا قد جئنا وهو يقوم بإعداد القنبلة الحارقة الثالثة، أو تعبئة الكيلوجرام الرابع من الهيروين، أو طباعة المليون الثاني من العملة المزيفة نفس التعبير الذي يبدو على وجوه الجواسيس في السينما، عندما يفتحون الباب ليجدوا ضباط المخابرات واقفين..

فيما بعد.. عرفت أنه ليس ودودًا على الإطلاق، ويمقت الزوار من أعماق قلبه. كل الأوقات عنده غير مناسبة.. كل من يطرق بابه هو آخر شخص يتمنى أن يراه في تلك اللحظة...

كان يرتدي ذات المنامة التي زارنا بها من قبل، ويبدو أنه كان منهمكًا في الطهي.. لا أعرف نوع الطعام الذي يطهونه في الثامنة مساء، لكنه كان يفعلها..

نظر إليَّ ونظر إلى (منى) متسائلًا؛ فطلبت منه أن يسمح لنا ببضع دقائق من وقته.. كان يشعر بأنه خدع.. لقد انتهت علاقته بنا منذ غادر مجلس العزاء الذي حضره مجاملًا.. فماذا نريد بعد هذا؟.. وقد نظر إلى متسائلًا بما معناه (هل هو أبوك هذه المرّة؟) فابتسمت بمعنى أنه لا داعي للقلق..

هكذا دخلنا إلى صالة واسعة قليلة الأثاث.. ليست متسخة تعسة الحال كما يجدر بالعزاب، لكنّها كذلك لا تنم إطلاقًا عن يد امرأة هذا رجل يحبّ النظافة، لكنه لا يجيد التنظيف..

هناك تماثيل مخيفة على (البوفيه)، يبدو أنها أفريقية، وهناك بعض حزم الثوم معلقة فوق النوافذ.. كل الناس تعلق الثوم في الشرفة، لكنه يعلقه داخن البيت.. هناك صور فوتوغرافية يستحيل تبين ما فيها، وهناك لفظة (سينوى) مكتوبة بالعربية بحروف كبيرة على باب غرفة أعتقد أنها غرفة نوم..

آيات قرآنية معلقة بكثافة غير عادية، تشعرك بأنها معلقة لمنح نوع من الاطمئنان النفسي وسط هذا الجو الغريب...

صوت أم كلثوم يدوي من جهاز كاسيت موضوع هناك عند مدخل المطبخ..

ربما يكون مجنونًا وربما لا، لكن الأكيد أنه غريب الأطوار..

جلسنا على مقاعد (أنتريه) عتيق.. بينما ذهب إلى الداخل وعاد بعد لحظة بزجاجتي مياه غازية. طبعًا لم يحضر فتاحة ونسي هذا تمامًا.. هكذا أمسكنا بالزجاجتين غير عالمين ما يجب عمله..

قلت له على سبيل المرح:

- «يبدو أنك كنت تعد الطعام للغد..»

- «بل هو لليوم.. أصحو متأخرًا جدًّا كعادتي؛ لذا يُمكنك أن تعتبر هذه هي الظهيرة عندي..»

- «تستعمل الكثير من الثوم..»

قلتها مستكشفًا؛ لعله يشرح لي شيئًا عن سبب تعليق الثوم بالداخل، فقال وهو يجلس:

- «هذا لا شيء.. إنهم يأتون من النوافذ وهم مصممون هذه الأيام على.... لا عليك.. بالمناسبة. أي يوم هذا؟..»

- «الثلاثاء..»

ضرب صلعته وقد تذكر، وهتف:

- «الثلاثاء.. يد (بيزارو)!.. لقد نسيت تمامًا.. أرجو أن تنتهيا من الكلام بسرعة؛ لأنني سألتهم طعامي وأغادر البيت حتى الصباح.. أنت تفهم هذه الأمور...»

كنت أنظر إلى (منى) فأراها لا تبعد عينيها لحظة عن الرجل، فلمّا بلغت المحادثة هذا الموضع بدا عليها عدم الارتياح تمامًا وكأنها على وشك أن تفر أو تصيح: «فلنذهب!.. هذا الرجل مخبول تمامًا.. كما قالوا وألعن!..»

لكني تكلمت قبل أن تفر، وقلت لأورطها:

- «منى.. تحمل بعض الشكوك، ودعني أطلب منك يا د. رفعت، وأنا أعرف أنك رجل شريف، أن يبقى ما نقوله هنا سرًا..»

ابتسم ابتسامة لطيفة وقال:

- «أنت تجرب الكبار طبعًا.. دائمًا يعدونك بشرفهم أن ما تقول سيظل سرًا، ثم يخبرون به الجميع.. أليس كذلك؟... تحكي الموضوع لأمك فتجدها أخبرت أباك.. تحكيه لأبيك فتجده أخبر معلمك.. دائمًا هم ينقضون العهد؛ لأنّهم يعتقدون أنهم يملكون مبررات قوية وحكمة عالية.. والأدهى أنهم لا يكفون عن وعظك عن قيمة العهد وأهمية كتمان السر..»

هنا تعالت ضحكة عالية من منى.. لقد راقت لها هذه الملاحظة.. هنا قال د. (رفعت):

- «نعم.. دعني أصارحك بأن الكبار من أسوأ المدعين الذين يمكن أن تقابلهم، ولا يقلل من هذا حقيقة أنني منهم.. لكنني أعدك بأن أكون شريفًا فعلًا كما ترى فيّ..»

هكذا.. بعد هذه الملاحظة، إنحل لسان الفتاة قليلًا، وبدأت تحكي..

✶ ✶ ✶

لما انتهت (منى) من كلامها وضع د. (رفعت) ساقًا نحيلة على ساق أكثر نحولًا.. هذه المنامة توشك إلى التحول إلى سروال قصير (شورت) عندما يجلس.. وقال:

- «بصراحة يا منى.. لا أرى أي بصيص من الحقيقة في هذا الذي تقولين.. الموت خنقًا يترك علامات لا شك فيها، والأطباء الشرعيون يجدون علامات مهمّة مثل الكدمات حول الفم وما إلى ذلك.. من الصعب أن تكتمي نفس إنسان بالوسادة من دون أن يترك أثرًا.. دعك من أن حدسي يقول لي إن أباك كان في حالة عسيرة فعلًا.. حالة من فقد زوجته وليست حالة من يخشى افتضاح أمره...»

نظرت إليه منتظرة تعليقه النهائي، فقال:

- «أنت واهمة على ما أعتقد...»

قالت في تحد:

- «والكوابيس التي تطارده طوال الوقت؟.. كل هذه الظلال؟»

ابتسم ابتسامة جعلت وجهه يمتلئ بالتجاعيد ويبدو محببًا نوعًا، وقال:

- «الموت ليس بالضبط تجربة سهلة أو لطيفة.. أن يصحو المرء ليجد جثة في الفراش جواره، فهذه تجربة تغير من شخصيته وعقله.. إن رؤية الظلال ليست أسوأ ما يمكن أن يحدث.. ورأيي الخاص أن أباك البائس يعاني ضغوطًا عصبية هائلة، فلا تضيفي إليها ابنة متشككة..»

ثم نظر إلى ساعته وهتف في ذعر:

- «موعد بيزارو!.. أنا آسف.. لكني مضطر إلى الرحيل لا يمكن أن أقضي الليلة هنا..»

ونهض من دون كلمة أخرى، وكأنه يتوقع أن نبقى حيث نحن فالبيت بيتنا..

تبادلت مع (منى) نظرة طويلة..

كلام الرجل غريب، لكنه منطقي..

وهكذا أشرت لها كي ننهض.. وألقيت تحيتي عليه بصوت عالٍ، فرد من داخل غرفة النوم حيث كان يبدل ثيابه بالتأكيد...

رائحة الشياط هذه.. لا أعرف كيف شممناها بعد ما غادرنا البيت ولم نشمها ونحن بالداخل...

كدت أقرع الجرس من جديد.. لكن سمعت صوت الرجل يصيح في سخط.. واضح أنه وجد الطعام المحترق..

لم يتناول طعامه.. ومن الواضح أنه لن يفعل..

✶ ✶ ✶

- 7 -

يبدو أن (منى) قد هدأت قليلًا بعد هذا اللقاء..

لم تتكلم عنه.. لكنّها صارت أكثر أهتمامًا بأبي، وقد قدمت له كوب ماء فنظر إليها بذهول؛ لأنّه لم يعتد هذه العناية الخارقة منذ وفاة أمي..

من الواضح أن حياتنا ستستقر ثانية، ونرجع أسرة تتظاهر عادة كما كنا..

من الواضح.. لكن هذا لم يحدث، ولهذا قصة أحكيها لك الآن...

كنت مارًّا أمام غرفة (منى) عندما سمعتها تناديني.. لم تكن استغاثة ولا مناداة تودد، إنما هي طريقة المناداة التي يستعملها من يراقب حيوانًا غريبًا ويكره أن يزعجه فيكف عما يفعله..

كانت واقفة هنالك.. ما بين المكتب الذي تناثرت عليه كتب الكيمياء ومذكرات الدروس، وبين الجدار.. بعبارة أخرى تقف بين ضوء الأباجورة والجدار..

لهذا ارتسم ظلها على الجدار عملاقًا..

كانت تشير إليه في حذر.. وقالت لي:

- «تعال!..»

دنوت منها، فأشارت إلى الظل وقالت:

- «هذا لا يشبهني!..»

ابتسمت في مرح باعتبار هذه لعبة جديدة.. لكنّها قالت في جديّة:

- «هل ترى خصلة الشعر العالية في قمة الرأس هذه؟.. أنا قد قصصتها في الحمام منذ ساعة.. لاحظ أن الشفتين أكثر بروزًا..»

لم أنظر إلى الظل، وقلت لها في رفق:

- «منى.. كفي عن هذا.. إن الفارق بين الوساوس والجنون قد يكون شعرة.. صدقيني..»

- «فقط.. انظر..»

نظرت إلى الظل فلم أر أي شيء مهم.. مجرد ظل.. دفعتها جانبًا فتحرك الظل معها.. دخلت معها دائرة الضوء فرأيت ظلي يرتسم على الجدار..

رحت أحرك أناملي بحركات مضحكة وأنا أراقب الظل، وقلت:

- «هل ترين؟.. أعترف أنه أبرع مني، لكنه ظل... يُمكنك أن تستريحي لو أطفأت هذا المصباح ونمت.. إنّه منتصف الليل فعلًا أعرف أن الامتحانات قريبة.. لكن من الممكن أن تصحى مبكرًا..»

قالت وهي تعود لدائرة الظل:

- «أنا متأكدة من أنّه يراقبني، وأنني عندما أدرت ظهري له راح يتحرك حركة مستقلة، ولربما كان يسخر مني..»

هنا فاض بي الكيل، فصحت في عصبية:

- «كفي عن هذا وإلا أخبرت أبي!.. أبي لن يصغي لك، بل سيجرك جرًّا إلى الطبيب النفسي!..»

- «هل تراني مجنونة فعلًا؟..»

- «أنت في الطريق بسرعة تحسدين عليها..»

هنا فقط فقدت تماسكها وتهانفت.. جلست مستندة إلى المكتب وراحت تنشج في حرارة.. غطت وجهها بشعرها وهتفت:

- «نعم.. لا أدري ما حل بي.. أنا جننت فعلًا.. لن أستطيع أن أدخل الامتحان هذا العام!..»

هذا ما كان ينقصنا!

دنوت منها لأضع يدي على كتفها، عندما خُيِّل لي للحظة شيء غريب..

الظل على الجدار لم يكن يبكي...!

أغمضت عيني وفتحتها فرأيت الموجودات كما عرفتها وعادت قوانين الفيزياء تحكم.. من الواضح أن أعصابنا جميعًا مرهقة فعلًا...

أغلقت الأباجورة اللعينة، ووقفت جوارها على الضوء الخافت القادم من الصالة، ووضعت يدي على شعرها الذي يهتز بالبكاء...

مسكينة هذه الطفلة.. مسكينة!..

لو كنت أخًا جديرًا باسمه لفعلت شيئًا ما... لكن ما هو بالضبط؟... ما كان بوسعي فعلته؛ وهو أن طلبت رأي (رفعت إسماعيل)... بهذا لم يعد في متناول يدي سوى كلمات المواساة، وأن أقنع (منى) بأنها لو رسبت في الامتحان لتألمت أمي كثير الألم..

✶ ✶ ✶

لم تكن الليلة كأية ليلة..

عندما اتجهت إلى غرفتي لأنام بعد ما تكلمت كثيرًا جدًّا، رأيت على جدار الممر ظل عمتي وهي تتحرك في الصالة.. كان شاحبًا باهتًا لأن الضوء منتشر غير حاد..

قلت بصوت عالٍ:

- «مساء الخير يا عمتو.. هل تريدين شيئًا؟..»

لم ترد.. أبرزت رأسي من الممر وصحت:

- «مساء الخير...»

هنا فوجئت بأن الصالة خالية.. لا يوجد فيها مخلوق. فقط المصباح (النيون) مضاء، وعلى المنضدة كانت الجريدة وبقايا نسيج صوفي مع إبر الحياكة. بقايا سهرة كانت هنا...

بالفعل لم تكن عمتي في الصالة. كانت في غرفة نومها.. ومن الواضح أنها فيها منذ زمن!

أبي أيضًا دخل غرفته ونام منذ زمن.

إذن.. ما مصدر هذا الظل الذي رأيته؟!

شعرت بالشعر ينتصب على ساعدي.. بالفعل نحن موشكون على الجنون. الظلال يمكن أن تسبب جنونك فعلًا، وقد قرأت ذات مرة قصة اسمها (الغرفة الحمراء) لكاتب لا أذكر اسمه[1]، تحكي عن بطل القصة الذي قرر أن يبيت في غرفة مسكونة، مات فيها كثيرون من قبل.. وأشعل عشرات الشموع كي تنير كل ركن من الغرفة. كاد يجن كلما انطفأت شمعة وزحف الظلام على ركن من أركان الغرفة.. ظل يصرخ ويصرخ حتى غاب عن الوعي. وف الصباح أعلن أن الغرفة مسكونة فعلًا.. مسكونة بالخوف.. مسكونة بالخيالات والذعر...

هكذا أغلقت الأنوار ودخلت غرفتي.. وأعتقد أنني سهرت أكثر من اللازم، أقرأ.. فقط كي لا أضطر إلى غلق النور مبكرًا!

على أنني صحوت في الصباح لأجد أن أبي قد لحق بأمي...

✶ ✶ ✶

- 8 -

عندما انتهت الأيام التالية، بدا واضحًا أن (منى) لن تدخل الامتحان هذا العام (وكذلك أنا)، وأن عمتي ستقيم معنا للأبد..

لقد توفي أبي أثناء النوم، في ظروف لا تختلف كثيرًا عن وفاة أمي...

لقد صرنا يتيمين بالمعنى الحرفي للكلمة، ولفترة لم يكن البيت يخلو من الأقارب.. بعضهم رأيناه للمرة الأولى.. مثلًا تكتشف فجأة أن لك أقارب في السنبلاوين، وأن فرعًا من الأسرة أقام في الإسكندرية منذ زمن... إلخ.. هناك عم (بدوي) الذي يتحدث في حماس ويتناثر لعابه في وجهك، وهو يؤكد أنه ابن عم المرحوم لكنه بمثابة أخيه.

بعد قليل يعود كل واحد لحياته ويخلو البيت، وأدرك المسئولية الرهيبة الملقاة على عاتقي، وأحمد الله على أنه ليست لي ثلاث أو أربع أخوات..

من الغريب أنّ هذه اللحظات لم تكن بالقسوة التي زارت أسوأ كوابيسي من قبل. أعنى أن ما عشته هو أسوأ شيء في العالم على قدر علمي، لكنني تحملته، بينما لم أتحمل مثلًا كلمة غليظة قالها لي معلم أو صديق..

قال لي د. (رفعت):

- «هذا طبيعي.. المصيبة الكبيرة تأتي بصبر كبير معها.. عرفت فتيات تبكي الواحدة منهن عدة أيام لأن والدها وجه لها كلمة عنيفة، بينما الفتاة ذاتها لم تهتز لها عضلة واحدة عندما عرفت أنها مصابة بسرطان الدم..»

- «لا تريد القول بأننا ندخر الدموع للتوافه؟..»

- «لا أعني هذا ولو عنيته لكنت مجنونًا.. أعني أن اللوعة والهستيريا والصراخ تتعلق بأمور لا تستحق غالبًا.. يعرف الجراحون أن مريض الانسداد المعوي أو تهتك الطحال الذي يشكو ألمًا مروعًا حقيقيًا يظل ساكنًا ينظر إليك ويفضل عدم الكلام كي لا يحرك جدار بطنه، بينما الصراخ وعض الوسائد والركل والتلوي قد يكون معناها أن الألم فيه قدر لا بأس به من الهستيريا..»

كما هو واضح، صار د. (رفعت) يزورنا كثيرًا جدًّا..

هو رجل غير ودود.. يمقت الاجتماعيات حقًّا، لهذا أعرف التضحية التي اضطر إلى أن يقدمها كي يخفف عنا..

كان يأتي يوميًا تقريبًا بعد استيقاظه من نوم العصر، وكان أحيانًا يجلب لنا بعض المأكولات ويزعم أنه جاء ليشرب القهوة عندنا لأن نوع البن الخاص بنا يروق له. طبعًا هذا كان يضايقني؛ فلسنا في ضائقة مالية، ثم قررت أن أسمح له بعمل ما يريد؛ لأني خمنت أن العجوز يشعر بأننا ولداه..

أعتقد أننا كنا نشكل عقدة ذنب معينة على كاهله، ولعله كان يشعر طوال الوقت بأن عليه أن يكون حنونًا، وهذا بالنسبة إليه مستحيل..

رجل طيب هو.. هذا واضح.. برغم عصبيته الشديدة، وسرعة مله، وشكله الغريب الذي يخيف الأطفال..

كانت (منى) جالسة في ركن قاعة الجلوس تنظر إلى الأرض كعادتها.. إن عقدة الذنب تجاه أبي لا تفارقها، و(رفعت) يذكرها بهذا بقوّة..

كانت تمسك في يدها مجموعة من الصور، فسألها رفعت متلطفًا عن محتواها..

لم ترد، فقلت أنا:

- «إنها صور ذلك اليوم الكريه.. شمّ النسيم.. النزهة الخلوية التي قمنا بها في القناطر. لم أحمض الفيلم إلا منذ أسبوع لأنني وجدته في الكاميرا..»

بدا القلق على رفعت وقال:

- «جميل أن تحتفظ بها، لكني لا أجد تفقدها طوال الوقت صحيًا.. ليس الآن..»

ثم وضع قدح القهوة، ومد يده يطلب الصور:

- «هل تسمح لي؟..»

ناولته الصور، فراح يتأملها حائرًا فيما ينبغي أن يقول.. لو قال: إنها صور رائعة، لانفجرنا باكين، ولو قال: إنها رديئة، فهو قليل الأدب.. ولو ظل صامتًا فهو جلف....

هكذا راح يتفحّص الصور الشمسية وهو يصدر أصواتًا محايدة مثل:

- «نم نم.. نم نم.. م.. مم... نم نم..»

ثم رأيته يتوقف أمام صورة من الصور.. يدقق فيها.. ثم يعيد النظر في باقي الصور..

بدل عوينات القراءة وتأمل الصور، وقال:

- «هناك شيء غريب.. هلا نظرت إلى هذه الصورة معي..»

نظرت إلى الصورة.. اذكرها جيدًا.. إنها تظهرنا نحن الأربعة، وكنا قد طلبنا من عابر سبيل أن يلتقطها لنا ونحن نقف حفاة الأقدام على العشب ومن خلفنا جدول صغير. كنا نضحك متظاهرين بالمرح. أمّا سبب ضحكي فهو تعليق قالته (منى) همسًا عن أن الرجل سيفر بالكاميرا ويتركنا واقفين كالبلهاء.

قال (رفعت) وهو يدقق في الصورة جيدًا:

- «الأحمق الذي التقط الصورة التقطها عكس الشمس.. لهذا لا تظهر الوجوه جيدًا... لكن ظلكم يرتمي أمامكم بوضوح الآن قل لي يا بني، فأنا لم اعد أثق بعيني البتة.. هل حقًّا لا يوجد أي ظل أمام والدتك رحمها الله؟..»

✶ ✶ ✶

- 9 -

كلما أعدنا فحص الصورة والصور التالية التي تكررت فيها ذات ظروف الإضاءة، أدركنا أن كلام د. (رفعت) حقيقي..

لا يوجد ظل من أي نوع أمام والدتي ولا خلفها أيضًا، في الصور التي كانت الشمس أمامها ومائلة...

غطيت عيني في صبر وقلت:

- «د. (رفعت).. منذ بدأت هذه القصة وأنا أسمع كلامًا غريبًا عن الظلال.. أبي يرى ظلالًا.. (منى) تتحدّث عن ظل لا يشبهها.. أنا أرى ظل عمتي من دون أن تكون عمتي هناك.. والآن تأتي أنت لتقول لي إنّه لا يوجد ظل لأمي.. إن الموضوع قد فاق المعقول، ولا أرى كيف يمكن أن يفيدنا هذا..»

قالت منى في رفق:

- «صبرًا يا رامي.. لم يقل د. (رفعت) إلا ما رآه.. فهل كنت تطالبه بأن يظل صامتًا؟..»

- «نعم.. إن ملاحظة ظلال أمي ليست طريقة ممتازة لتقديم العزاء لنا..»

هنا نزع د. (رفعت) نظارته وصوب نحوي عينين متعبتين مرهقتين، نفاذتين برغم هذا، وقال:

- «ربما كان عليَّ أن أنهض غاضبًا، لكني لن أفعل.. دعني أتكلم بصراحة.. لقد توفي والداك بطريقة غير مفهومة في فترة قصيرة جدًّا.. وعلينا أن نفهم السبب.. يجب أن نبحث عن كل شيء، وإلا فمن يضمن لي ألا يتكرر الأمر قريبًا جدًّا؟!!..»

ارتجفت للفكرة، فقال وهو يرفع قدح القهوة لشفتيه من جديد:

- «لو كنت تعتقد أنّ هذه مصادفة فأنت أحمق.. الأمر تجاوز المصادفة منذ زمن..»

قلت متحفزًا:

- «كم من مرة سمعنا فيها عن رجل توفي بعد موت زوجته مباشرة.. عن زوجة مرضت وماتت بعد وفاة ابنها.. دعك من أن أبي كان يعاني دستة من الأمراض.. الوفاة هنا مفهومة ومبررة، ما لم تكن تتهمني بالقتل طبعًا..»

قال د. رفعت في عصبية:

- «من تحدث عن مصادفات الموت هنا يا بني؟.. أنا أتحدث عن مصادفات كل هذا الكلام عن الظلال... أنت تعرف ذلك النحات (عزت) الذي يسكن في الشقة المقابلة لي. أنا أمضي الليل معه غالبًا عندما لا أجد شيئًا أفعله، وعندما لا يكون في الإسكندرية.. لقد تكلّم عن ظلال غريبة الأطوار في مرسمه. يقسم إنها تتحرك وإن لها سلوكًا غامضًا..»

ثم اتسعت عيناه أكثر وقال:

- «بواب البناية.. إنّه نائم أغلب الوقت، ولا يلاحظ أي شيء على الإطلاق، فلو أن الجيش البروسي دخل البناية فلن يلاحظ.. لكنه مصر على أنه رأى ظل إنسان يقف في بئر السلم كأنه ينتظر، وقد ذهب ليتبين من هو فوجد أنه لا يوجد ظل ولا يوجد إنسان.. قص عليَّ هذه القصة منذ يومين وجعلني أفكر مليًّا.. لقد بدأت أعتقد أن أباك لم يكن يتخيل الظلال التي يراها.. هذا الرجل قد رأى ظلال الموت تزحف نحوه ببطء.. تتربص به.. فلا شك عندي في أنه توفي بنوبة قلبيّة.. صحا من نومه ليجد نفسه وحيدًا وثمّة ظل يزحف على الجدار المقابل له. نظر إلى باب الغرفة مصدر الضوء الوحيد فلم ير أحدًا.. هنا.. هنا بدأ قلبه يخفق بسرعة غير عادية.. الضربات غير منتظمة.. الـ...»

كان يتحدث في حماسة وانفعال وقد احتقن وجهه، وفجأة رأيته يتحسس صدره ويرتمي بظهره على الأريكة.. والذعر في عينيه..

الأحمق!.. لقد أجاد تمثيل النوبات القلبيّة لدرجة أنه أصيب بواحدة..

صاحت منى:

- «افعل شيئًا.. إنّه سيموت!.. الكل يموت في هذا البيت اللعين!..»

راح يلهث طلبًا للهواء، فنظرت إليه فاتحًا يدي في غباء.. ماذا أفعل؟!

راح يسعل بلا توقف، ومد يده إلى جيبه فأخرج زجاجة من الأقراص، لكنه طبعًا عاجز عن فتحها.. كل هذه الأدوية اللعينة يتم تثبيت غطاؤها بحيث تحتاج إلى بلدوزر لفتحه..

هكذا تناولتها منه وفتحتها ودسست في يده قرصين. وضع أحدهما تحت لسانه وارتمى للخلف وقد احتشد العرق على جبينه..

مرّت لحظات خيل لي فيها أنه مات فعلًا.. وفجأة فتح عينه وواصل الكلام كأنه لم يحدث شيء:

- «هل فهمت؟.. لقد قتل الذعر أباك.. وعلينا أن نعرف ما الذي أصابه بهذا الذعر..»

قالت منى وهي تتناول كوب الماء المثلج:

- «في الوقت الحالي هناك شخص آخر سيموت ذعرًا..»

قال في شيء من الفخر:

- «النوبات القلبيّة أسلوب حياة بالنسبة إليَّ، حتى إنني لا أفهم شعور الناس الذين لا يصابون بنوبات قلبيّة.. والآن عندي سؤال لا أتوقع إجابة عنه.. هل فقد أبوكم ظله في الأيام الأخيرة؟»

قالت منى في حزم:

- «لا!»

- «متأكدة؟»

- «نعم.. كان يمرّ أمام غرفتي ليلة الوفاة، ورأيت ظله بوضوح على الجدار..»

قلت أنا في عصبية:

- «ألاحظ أنك تخلط يا د. رفعت بين اختفاء الظلال، والظلال الغريبة التي تجول وتثير الرعب..»

قال في شيء من التوتر:

- «إن لديَّ نظرية، لكني لا أستطيع شرحها؛ لأنهّا مخبولة بحق.. والآن يا بني هل فهمت؟»

قلت عاجزًا عن التفكير بشكل صحيح:

- «وما المطلوب مني بالضبط؟».

- «لا شيء!.. فقط أبق عينيك مفتوحتين.. لا تثق بالظلال أكثر من اللازم.. عليك أن تعرف أنك لا تعيش في ذات البيت الذي تعرفه.. بل تعيش في....»

وجفف عرق جبهته وغمغم بلهجة جمدت الدم في عروقي:

- «بيت الظلال الحائرة!..»

✶ ✶ ✶

- 1 -

منذ الطفولة ارتبطت حياتي بالظلال بشكل غير معقول..

كنت أنظر دائمًا إلى الجدران.. أتأمل ما يرسمه الناس عليها بظلالهم، من لوحات رائعة تتغير كل لحظة، ولا فضل لهم فيها أرى وجوههم وقد ارتسمت عليها بطريقة السيلويت silhouette الشهيرة.. عندها كنت أراهم أجمل. قليل من يعرف أن طريقة السلويت مشتقة من اسم (سلويت) وزير مالية فرنسا الذي هاله ما ينفقه الناس من مال للحصول على لوحات تمثلهم بريشة كبار الرسامين.. هكذا طلب منهم أن يستخدموا هذه الطريقة لأنهّا أقل تكلفة.. الواقع أنها أجمل كذلك..

كنت أتأمل الظلال وأقول لنفسي: هذه الشعرة هنا، وذاك اللغد هناك.. هذا الأنف المعقوف هنا، وتلك الذقن هناك...

الظلال!.. كلمني أنا عن الظلال..

عندما يقترب الغروب ويستطيل ظل كل إنسان ليتخذ شكلًا سرياليًا غريبًا ممتدًا نحو الشرق.. عندها يتحول العالم إلى أرض يسكنها العماليق الذين يبلغ طول الواحد منهم طول مئذنة..

ثم الليل!.. مصباح في نهاية الشارع يبعث ضوءه الشاحب.. ويمشي الناس فيمتد ظلهم نحوك مريعًا طويلًا مخيفًا، كأنه موشك على تمزيقك..

الظلال!.. حدثني أنا عن الظلال..

إنها الحلم الذي منحه الله لنا.. قوانين الفيزياء عندما تقرر أن تبهرك وتريك أنها جميلة مثل باقي القوانين.. ربما أكثر فتنة...

لا أعرف متى بدأت أصنع ظلالي الخاصّة، وقبل أن أسمع عن فن اسمه (خيال الظل) كنت قد صنعت عشرات الأشكال بأناملي..

جمهوري الوحيد كان إخوتي الصغار، عندما كنت أعلق ملاءة على فتحة باب به فرجة تسمح لي بأن أقف فيها ومعي مصباح ساطع... أحرك أناملى فترى على الملاءة البيضاء كلبًا ينبح أو قطة مذعورة..

وعندما دخلت الكلية لم أرغب في أية كلية من تلك التي يرغبون فيها. أردت أن أكون قريبًا من عالم الظلال.. هكذا درست في معهد السينما.. لكني لم أعمل قط..

تخرجت في المعهد، ومعي شهادتي، ومعي قلب (مادلين) الفاتنة زميلتي هناك. لكن كان بون هائل يفصل بيني والزواج منها كنت بحاجة إلى وظيفة ثابتة، وإلى دفعة مالية أولى..

كان معي صديق مخلص يدعى (سمير)، وقد كان حالمًا مثلي، يصبو إلى أفق لا نراه.. لهذا قررنا أن نحقق حلمنا بأي شكل..

استطعت أن أعمل في وزارة الثقافة، وقد وجدت نفسي في مكتب به موظفون يأكلون الفول بالزيت الحار ويحتفظ كل منهم بليمونة في جيب بذلته؛ لذا صممت على أن أفر من هناك.. واستطعت بجهد جهيد أن أنشئ مسرحًا صغيرًا لخيال الظل يتبع وزارة الثقافة ماليًا، حيث بدأت بعض العروض الناجحة. ثم تعاقد معي أحد مخرجي برامج الأطفال التلفزيونية على تقديم فقرة ثابتة يوميًا.

هكذا وجدت نفسي بحق.. لم أجنِ مالًا، لكني وجدت النافذة التي أتنفس منها، ومن بين أناملي خرجت حكايات كاملة.. الشاطر حسن وست الحسن والجمال.. التنين النائم.. الأسد و(أندروكليس)... إلخ...

أعتقد أنني كنت بارعًا بحق، وكنت، باستعمال أناملي وبعض إضافات بسيطة جدًّا مثل منديل أو قطعة معدنية لها شكل التاج، قادرًا على أن أرسم ظل أية شخصيّة في العالم..

لقد اشتهرت، والتقت بي أكثر من مذيعة تلفزيونية، كما جاء كثيرون ليروا ما أقدمه..

وجاء اليوم الذي صرت فيه قادرًا على الزواج من حبيبة قلبي لن نكون أثرياء، لكننا قادران على أن نخدع نفسينا. ما زلنا صغيري السن، والغد يحمل الكثير..

هكذا تمت الخطبة..

✶ ✶ ✶

من ضمن من عرفت في الوسط الفني، كان ذلك الرجل النحيل داكن اللون جدًّا، والذي تشعر بأنه مريض في المراحل النهائية لمرض عضال..

كان نحاتًا قاهريًا يدعى (عزت)، وهو مصر على أن يعتبر نفسه اسكندرانيًا.. قال لي إنني بارع حقًّا وإنه يتأمل أناملي بلا توقف ليفهم كيف استطاعت خلق هذه العوالم الساحرة..

كانت ملامحه مميزة جدًّا؛ لذا ابتسمت وأضأت مصباحًا ووضعت أناملي أمامة؛ وعلى الفور ارتسمت على الجدار صورة كاريكاتورية له بأنفه الكبير.. صرخ انبهارًا، وتمنى لو أنه استطاع أن يأخذ هذا الظل معه..

- «أتمنى لو كنت فنان سلويت لأبقي هذه الظلال على الورق للأبد..»

كان عزت رجلًا بسيطًا طيب القلب.. لا أعرف مرضه ولم أسأل، لكن أهميته بالنسبة لي تكمن في أنه من قدمني لرفعت إسماعيل أو العكس...

يعود سبب هذا إلى ذلك اليوم الذي دخلت فيه الاستوديو وبدأت أعد العدة للعرض الذي سأقدمه في برنامج الأطفال..

تأكدت من سلامة الكشاف، بينما المذيعة تقرأ خطابات الأطفال التي وصلتها..

تأكدت من أن الملاءة نظيفة ومشدودة، ثم وضعت يدي أمام المصباح، في الوقت الذي راح أحد المصورين يضبط عدسة الكاميرا على الجهة الأخرى التي سيظهر عليها الظل...

هنا شعرت بدهشة..

لا يوجد شيء..

يداي لا تلقيان ظلًا على الملاءة!

✶ ✶ ✶

- 2 -

جربت مرة ومرّتين بلا جدوى..

ماذا حدث وكيف؟!...

شعرت بأنني موشك على الموت، وقد دوى صوت المصور يسألني عما هنالك. لماذا لا أعرض يدي على الملاءة كما طلب..؟

العرق يتصبب غزيرًا من جبهتي، ولكني لم أستطع أن أفسر.. أصابني الذعر بشدة، ونهضت مسرعًا خارجًا من الاستوديو وسط نظراتهم المندهشة..

لحق بي أحدهم على الباب واقتادنى للخارج بعيدًا عن الضوضاء، وسألني:

- «ما بك؟..»

قلت وأنا أجفف عرقي:

- «لا أعرف.. لست على ما يرام.. لا أعتقد أنني قادر على أداء هذه الفقرة..»

ورحت أجري خارجًا من (ماسبيرو) والناس تنظر إلى في دهشة..

كنت أجري في طريق الكورنيش.. شمس العصر ساطعة، لكني لم أجسر لحظة واحدة على النظر إلى قدميَّ لأتبين ما إن كان لي ظل أم لا.

✶ ✶ ✶

في البيت أغلقت الباب على نفسي..

أخرجت المصباح العملاق الذي أستعمله منذ صباي في البروفات.. أضأته وأخذت نفسًا عميقًا.. (هاني) يا صاحبي.. هذه الأشياء لا تحدث... اطمئن.. أنت تخرف أو أنت مجنون.. لا يوجد حل آخر...

ربما هو كابوس تصحو منه الآن..

وضعت يدي بين المصباح والجدار.. وهذه المرّة كنت أكثر هدوءًا..

بالفعل لا يوجد ظل.. لا شك في هذا..

يمكن بلا فخر أن أقول: إني (الرجل الذي فقد ظله).. ولكن كيف؟!

تشاءمت من الأمر.. ربما كانت هذه من علامات الشفافية الزائدة؟.. ربما أنا أقترب من الموت؟.. يقولون: إن الذين يدنون من الموت يصيرون شفافين أكثر من اللازم، ويرون ما لا يراه الآخرون.. ربما أنا صرت شفافًا بالمعنى الحرفي للكلمة؟

أطفأت معظم الأضواء بحيث لا أرى ظلالًا، ثم جلست ألتهم غدائي شارد الذهن لا أعي ما آكله.

هل هو مرض؟.. لو كان مرضًا فلم أسمع عنه من قبل..

المشكلة هي أن علاقتي بالظل قوية.. هو حياتي ومصدر رزقي، فلا شك أن غيري من الناس كانوا يحتاجون إلى عدة أيام حتى يلاحظوا..

ظلى الحبيب.. عُد لي..

نظرت إلى ساعتي.. إن موعدي مع (مادلين) قد حان.. إنني دعوتها إلى السينما..

مزاجي متعكر ولا يسمح لي، لكني مضطر.. ربما كنت بحاجة إلى التغيير.. أنا مرهق وسوف تنقذني السينما.. سوف أصحو لأجد أنني كنت أهلوس..

هكذا هرعت أبدل ثيابي..

قرعت باب (مادلين) ففتحت لي أمها الباب..

أمها سيدة مصرية عادية جدًّا، تؤمن بأن الخطبة طالت وأنه لم يعد مستحبًا أن يراني الناس صاعدًا نازلًا من الدار..

- «ألن تنشط يا (هاني) وتأتي بالشقة؟..»

كنت عصبي المزاج، لكني تكلفت اللطف:

- «بالتأكيد.. هناك شقّة مناسبة سوف أراها الأسبوع القادم.. أعتقد أنها هي...»

- «في كل أسبوع ترى شقّة مناسبة. هذا يتكرر منذ عام..»

- «الشقق التي تروق لي لا أقدر على دفع ثمنها، والشقق التي أقدر على دفع ثمنها لا تروق لي..»

- «أنت صرت ناجحًا وتحقق كسبًا لا بأس به.. لم يعد للانتظار مبرر..»

تذكرت الآن أني على ما يبدو فقدت طريقة كسب رزقي كالجراح الشهير الذي أصابه العمى، أو بُترت يده اليمنى..

لو دام هذا الكابوس فلا أمل في الزواج..

عطرة كالزهرة، أنيقة كقطة شيرازية، ظهرت (مادلين) وقد تأهبت للخروج معي. حييت حماتي القادمة بسرعة وعصبية؛ حتى لا يطول الكلام.. وسرعان ما كنا في الشارع..

✶ ✶ ✶

سينما (ديانا) تقع على بعد نصف محطة من بيتها؛ لذا فضلنا المشي..

كان الفيلم قد بدأ فعلًا...

ونظر إلينا (البلاسير) نظرة تجمع بين السخرية واللؤم والتهذيب.. يتوقع طبعًا أننا لم نأت للسينما كي نشاهد الفيلم.. معظم هؤلاء القوم يملكون طباع القوادين، فهم ييسرون الخلوة لمن يرغب، مقابل مال.. أنا لم أطلب، ولست من هذا الطراز لكن عبارة (أي خدمة) مع الابتسامة الخبيثة تحمل معنى الإهانة.. الويل لك لو لم تدفع...

دسست في يده جنيهًا فاقتادنا إلى خلفيّة الصالة.. تحت كابينة العرض بالضبط.. موضع غريب جدًّا، اضطررنا معه إلى المرور أمام شعاع آلة العرض القادم من تلك النافذة في الكابينة، برغم أن الفتى طلب منا أن ننحني. لكن أي انحناء؟!.. كان عليه أن يطالبنا بالزحف..

ونظرت بسرعة بطرف عيني إلى الشاشة.. للحظة ملأ سلويت (مادلين) الشاشة، فتعالى الصفير مع السباب من الصالة، ثم لا شيء... لم يكن هناك ظلان!.. ظل واحد فقط.. لحسن الحظ أنها لم تلحظ هذا...

جلسنا.. بينما أطفأ (البلاسير) كشافه واستدار مبتعدًا..

فعلًا مكان عجيب.. يصلح للذبح أكثر منه صالحًا للغزل.. لن أندهش لو التف ثعبان (بوا عاصرة) على قدمي، وابتلعني الآن..

شعاع العرض يتحرك فوق رأسينا، ونحن جالسان نلهث ونحاول استيعاب المكان..

وعلى الشاشة (سعاد حسني) تغني (يا واد يا تقيل).. الأغنية التي اجتاحت المجتمع المصري مؤخرًا.. قالت لي (مادلين):

- «هناك ممثل شاب جديد قادم من أمريكا.. اسمه.. اسمه (حسين فهمي).. صديقاتي حكين لي عنه. يقلن: إنّه وسيم لدرجة لا تصدق..»

- «لا أعتقد أنّ هناك من هو أكثر وسامة مني..»

فجأة هتفت (مادلين):

- «أين هذا؟..»

لم أفهم.. لكن سمعت الصفير مع الشتائم.. كل الصالة تصرخ وتصفر وتضرب الأرض بأقدامها..

رفعت عيني نحو الشاشة فرأيت أنّ هناك شخصًا أحمق سمجًا يقف أمام الشعاع، حتى غطى الكادر كله تقريبًا.. أنا لا أرى الشخص، لكن أرى ظله..

لكن.. أين هو فعلًا؟!.. أنا أرى الشعاع بوضوح، منذ خروجه حتى سقوطه على الشاشة..

لا يوجد أحد!

ونظرت إلى الظل المرتسم على الشاشة، فعرفت على الفور، وأنا خبير الظلال، ظل من هو.. هذا الشعر الثائر، والعوينات، وياقة السترة المرفوعة لتغطي قذاله كأنها عباءة مصاص دماء...

هذا الظل هو - ببساطة شديدة - ظلي أنا!

✶ ✶ ✶

- 3 -

دعوت الله أن يتحرك هذا الشيء بسرعة..

الصالة هائجة ثائرة، والكل يضرب الأرض بقدميه، ومن الواضح أنهم سيمزقون هذا الظل لو رأوه.. الكل ينظر إلى الخلف فلا يرى شيئًا.. شتائم من طراز خاص لا يخرج للسطح إلا في مناسبات نادرة..

والظل مصر على استفزاز الجميع.. واقف بلا حراك ويداه في جيبيه..

همست (مادلين):

- «من هذا؟.. وأين يقف بالضبط؟..»

- «لا أعرف.. ربما هو داخل كابينة العرض...»

وهو كلام سخيف طبعًا؛ لأن العدسة تبرز خارج شباك العرض.. أي إنها لا تترك مسافة تسمح باندساس شخص..

مرت لحظات ثقيلة كأنها الدهر، ثم مر ذلك الثقيل مبتعدًا...

تنهدت في ارتياح كأن الذنب ذنبي..

ثم تذكرت في هلع أنني رأيت ظلي على الشاشة، لكنه لم يكن ظلي.. ليست له علاقة بي.. إنّه شخصيّة منفصلة تمامًا...

ما معنى هذا؟.. وكيف حدث؟

لم أصارح (مادلين) بشيء من هذا.. لكننا استكملنا الفيلم وأنا لا أطيق لحظة واحدة منه.. أريد العودة لداري لأفكر على مهل...

ولما انتهى الفيلم شعرت بأنني شخت بضعة أعوام..

عند باب بيتها طلبت مني الصعود، فاعتذرت لأن الوقت تأخر.. سألتني:

- «لماذا لم تظهر في برنامج الأطفال ظهرًا؟.. نسيت أن أسألك؟..»

- «كنت متوعكًا.. جميل أنك لاحظت..»

- «أنا لا أفوت حلقة واحدة..»

وتركتني داخلة البناية العتيقة، ووجدت نفسي وحدي من جديد...

إنها العاشرة مساء.. لن أقدر على النوم أو الأكل مالم أعرف ما حل بي. حالتي النفسية لا تسمح سوى بالوثب من الشرفة لو تركت وحدي...

هكذا اتجهت إلى هاتف عمومي، وطلبت رقم (عزت).. ذلك النحات المريض الذي تعرفت به منذ عام.. كان قد عاد من الخارج، بعد زيارة استغرقت شهرًا للولايات المتحدة، وقد جلب لي هدية تثير الغيظ.. لكن هذا ليس موضوعنا على كل حال..

- «كيف حالك يا (عزت)؟.. أين تسكن؟..»

- «في الدقي.. لا يعني هذا أنني لا أرحب بزيارتك، ولكن لماذا تسأل؟..»

- «ما اسم ذلك الطبيب الذي حكيت لي عنه من قبل؟.. أصلع، نحيل، أعزب، غريب الأطوار، يهتم بالماورائيات..»

- «رفعت إسماعيل.. لماذا تسأل؟..»

- «هذه قصة طويلة.. فقط أريد أن ترتب لي لقاء معه.. أعتقد أنه في داره الآن.. إنِّه غريب الأطوار، يكره البشر ويحب الليل.. فلا شك أنه في البيت!..»

- «غريب هذا، من الصعب أن....»

هنا فقدت أعصابي؛ فصحت بصوت جعل كل الشارع ينظر إليَّ:

- «أريد أن أقابله الآن، وإلا قتلت نفسي، وكتبت أنك المسئول مسئولية كاملة عن انتحاري!..»

بدا على صوته الارتباك.. إن الصراخ في الوجه من أعلى درجات التبسط ورفع الكلفة، وعلاقتنا لا تسمح بالتبسط.. ليس إلى هذا الحد..

قال بصوت مبحوح فاتر قليلًا:

- «نعم.. أعتقد أنه في داره.. كم من الوقت يلزمك لتصلني؟.. إن العنوان هو...»

دونت العنوان في ورقة، وأسرعت أبحث عن سيارة أجرة...

عندما وصلت تلك البناية في الحيّ الهادي بالدقي، قابلني عزت على الباب، فقال لي وهو ينظر حوله في توتر:

- «لاحظ أنه غريب الأطوار نوعًا.. لا تبد دهشة..»

- «لا يمكن أن يكون هناك من هو أغرب مني..»

وصعدت على الدرج مع عزت.. هناك بلغنا ذلك الطابق الذي يعيش فيه، فاتجه إلى باب شقّة ودق الجرس، فانفتح الباب، لأجد أمامي رجلًا أصلع شديد النحول، لا يضع كسرولة على رأسه..

- «تفضل.. لقد أعطاني (عزت) فكرة عنك..»

ونظرت إلى عزت في إشارة جانبية، ففهم على الفور.. طلب منا الإذن وعاد لشقته، وإن وعدته بأن أمر عليه. لا أحب زيارة العزاب على كل حال، لكني مضطر.. دائمًا تكون شققهم قذرة متسخة، ولا يقدمون شيئًا ذا بال.. فإذا أكلت عندهم فهي شطائر الطعمية إياها.. وإذا شربت فهو الشاي كريه المذاق..

هكذا جلست..

وهكذا رحت أحكي لرفعت إسماعيل قصتي مع الظلال أو قصتي مع الظلال التي لم تعد هنالك.. حكيت له بالتفصيل الممل، حتى موضوع السينما والشعاع و(يا واد يا تقيل)..

ظل يصغي في اهتمام، ثم قال لي:

- «الغريب أنّ هذه ليست المرّة الأولى.. وإنها لصدفة عجيبة حقًّا..»

ثم دخل غرفة ما، وعاد بكشاف وضعه أمامي، وطلب مني أن أقف بينه والجدار.. نهضت وفعلت ذلك شاعرًا بذلك الشعور الكريه الذي تشعر به عندما يرغمك الطبيب على التعري لينكشف مرضك واضحًا للمرة الأولى.. قبل هذا كنت أقنع نفسي أن الأمر ليس خطيرًا..

الآن أنت ترى الحجم الكامل لمشكلتك..

لا يمكن أن تقنع نفسك بأنك واهم..

الأسوأ أن ترى عيني الطبيب المذعورتين هكذا تدرك أنك انتهيت!

✶ ✶ ✶

- 4 -

قال لي رفعت وهو يجلس على تلك الأريكة:

- «عامّة لم ألق حالة كهذه من قبل.. خبراتي متشعبة بما لا يمكن أن تتصوره، لكن هذه الظاهرة عجيبة.. هناك قصص في الأدب العالمي عن أشخاص فقدوا ظلهم.. هناك قصة شهيرة جدًّا لهانس كريستيان أندرسن عن رجل تخلى عنه ظله، وصار الظل رجل أعمال ناجحًا.. لكنه بعد أعوام عديدة شعر بالحزن لأنّه ليس له ظل!.. هكذا حاول أن يجرى صفقة مع الرجل بأن يصير هو ظله.. ظل الظل!.. إنها قصة عجيبة[2]..»

قلت في حزن:

- «أعرفها.. لا تنس أني أعمل في برامج الأطفال، وأقرأ الكثير من القصص العالمية..»

- «ليست قصة أطفال أبدًا.. إنها مخيفة كابوسية.. هناك فيلم ألماني شهير يعود لعصر السينما الصامتة.. هذا رجل تخلي عن ظله مقابل أن يفوز بحب فتاة معينة.. النتيجة أنه فاز بحبها.. لكنه فقده بسرعة؛ لأنهّا أصيبت بالذعر عندما مشت جواره في الشارع ووجدت أنه من دون ظل اعتقدت أنه الشيطان ذاته، وفرت منه.. اسم هذا الفيلم (الظل المفقود)...»

قلت في غيظ:

- «د. رفعت.. أنا سعيد جدًّا بهذه الجلسة التثقيفية، لكني لم أت هنا كي أسمع محاضرة عن الظل في الأدب العالمي.. هل يُمكنك أن تساعدني؟..»

قال على الفور:

- «بالطبع لا.. فقط يمكنني أن أقول لك: إنك لست الوحيد هناك سيدة أعرفها فقدت ظلها.. المشكلة أنه تحرر وبدأ يقتل على ما أعتقد!..»

- «هذا جنون!..»

- «والظلال المفقودة ليست جنونًا؟!..»

ثم هدأ قليلًا وعاد يسألني:

- «هل يُمكنك أن تؤكد أنه لا علاقة لك بالسحر الأسود، أو شيء لا أعرفه مثل ارتياد المقابر.. ربما سرقة قطعة أثرية فرعونية ما؟..»

- «بالطبع لا.. ما أعرفه هو أنني فقدت عملي على الأرجح.. لو فقد أي إنسان آخر ظله فلا مشكلة بالنسبة إليه.. مشكلة جمالية بسيطة، بينما أنا أفقد مصدر رزقي الوحيد.. لماذا أنا بالذات؟!..»

- «مثلما يفقد الموسيقار سمعه أو الجراح يده.. هذه أشياء تحدث برغم قسوتها.. ولكن أظن أن بوسعك تطوير أدائك.. ماذا عن استعمال دمى الظل على طريقة (صقلية)؟..»

المهم أنني عرفت بوضوح أنه ليس لديه ما يقدمه لي..

عندما غادرت داره وجدت أنني أحمق عندما أبديت كل هذه الهستيريا مع (عزت)، كأن رفعت يملك عصا سحرية يعيد إلى ظلي بها..

هو فقط محق في نقطة واحدة، هي أن على أن أستعين بالعصي والدمى... يجب أن أتأقلم مع فقداني للظل..

✶ ✶ ✶

أنا الآن في داري، أكتب هذه الكلمات في كراس مذكراتي..

لقد أعدت البحث عن ظلال فلم أجد.. لهذا تعمدت أن أخفض الإضاءة وأغلق أكثر الأنوار؛ لأن هذه الأضواء الخافتة تبعث في نفسي الرعب...

لن أنهزم.. سوف أغير من طريقة أدائي.. وهكذا أستمر في كسب رزقي إلى أن أفهم فعلًا ما حل بي...

شربت كوبًا من الشاي، وجلست أتأمل صورة مادلين الموضوعة على مكتبي.

رقيقة، شفافة، نبيلة.. لا يمكن أن أفقدها أبدًا..

لكن لو عرفت الحقيقة، فهل تخاف مني كما حكى لي هذا المدعو (رفعت)؟

هل تعتبرني ممسوسًا أو الشيطان ذاته؟

لن تلاحظ.. سوف تحتاج إلى وقت طويل جدًّا قبل أن تلاحظ.. الناس لا تنظر إلى ظلها إلا مرة كل عام.

يا له من يوم طويل مرهق..!

لا أصدق أن موضوع اختفاء الظل هذا حدث ظهرًا.. كأنه حدث منذ قرون..

السينما.. الظل أمام الشاشة.. رفعت إسماعيل.. كل هذا كثير جدًّا بالنسبة ليوم واحد..

أنا مرهق فعلًا..

لكن....

الأمر يتجاوز حد الإرهاق العادي..

أنا بالفعل عاجز عن النهوض، وأشعر كأن وزن هذا القلم أطنان..

هذا الثقل في صدري وخلف عظمة القص... لو صدقت ما أقرؤه لقلت إنّه نوبة قلبيّة.. لكن هذا مستحيل في سني على ما أعتقد.. أنا لم أدخن لفافة تبغ قط..

لكن.. الإرهاق..

أريد.. أن.. أغمض.. عيني.. وأستريح..

شيء يخبرني بأنني لو فعلت فلن أفتحهما ثانية.. يجب أن أقاوم..

لكني بالفعل أرغب في ذلك..

أريده..

أريـ....

✶ ✶ ✶

- 1 -

الناس يفقدون ظلالهم..

ثمّة أدلة تخبرني أنّ هذه الظلال لا تختفي فحسب، بل هي تجول وتثير الهلع في القلوب..

عرفت نبأ وفاة (هاني) فنان الظلال هذا بعدها بيومين.. لقد كان عندي وعاد لداره التي يعيش فيها وحده.. جلس يدوّن تجربته تلك، بما في ذلك اللقاء معي، ويقول الطبيب الشرعي: إنه أصيب بنوبة قلبيّة وهو جالس...

طبعًا لم يصدّق رجال الشرطة حرفًا من هذا الجنون الذي كتبه في مذكراته، لكنهم طلبوني ليسمعوا رأيي، ما دام اسمي في الأوراق..

كانوا يريدون التأكد من نقطة واحدة؛ هي كونه انتحر أم لا..

قال العقيد الذي يحقق في القضية، وهو يتصفح أوراق ملف أمامه:

- «الانتحار نوع من الجنون الوقتي.. وصاحبنا قد جن كما هو واضح.. تصرفاته أدنى إلى الانتحار، خاصة مع كتابة مذكرة، وما إلى ذلك.. مشكلتنا كانت تبين وجود مادة سامة ما في غسيل المعدة.. لم يجد الطب الشرعي ما يدل على هذا، لكنه وجد علامات احتشاء ممتد.. ما معنى احتشاء؟..»

قلت في كياسة:

- «هذا هو ألعن ما يمكن أن تحدثه الذبحة الصدرية.. جزء كبير من عضلة القلب قد مات..»

- «وهذا يعني أن الوفاة طبيعية..»

هززت رأسي..

إن الموت المفاجئ ليس نادرًا.. نحن نراه كثيرًا جدًّا، والشباب يموتون كثيرًا هذه الأيام، لكن ظروف الوفاة غريبة وتلقي علامات استفهام عديدة.. لماذا يموت المرء في اليوم الذي يفقد ظله فيه؟

قبل هذا، هناك قصة تلك الأم التي فقدت ظلها يوم شمّ النسيم أو قبله، ثم عادت للبيت لتموت بلا سبب واضح...

بعد هذا مات الأب بنوبة قلبيّة، لكنه لم يفقد ظله ..

بشيء من الخيال يمكن أن نقول: إن من يفقد ظله يفقد حياته.. كأن شيئًا مهمًا قد انتزع منه.. خلاصة وجوده ذاتها. ثم يجول هذا الظل حرًا ينشر الذعر.. البواب رأى هذه الظلال.. عزت رآها.. الفتاة منى رأتها.. الفتى رامي رأى طرفًا منها.. هاني رأى ظلًا يشبهه لكنه حر تمامًا على شاشة السينما... وهنا يمكن أن نفهم كيف يموت رجل يصحو من نومه ليجد ظل بلا صاحب جوار فراشه.. أنا شخصيًا كنت سأفعل هذا..

كل هذا غريب..

لم أسمع عن شيء مماثل من قبل.. والأهم هو السؤال: لماذا الآن؟... لماذا هذان؟.. الأم وفنان الظل؟

ما الذي يجمع بينهما؟

✶ ✶ ✶

عدت لشقتي العامرة بي وحدي، في الثامنة مساء، فدخلت المطبخ ووضعت على الموقد إناء به ماء. سوف أعد بعض المكرونة، وهي وجبة ممتازة تصلح لتحل محل ثلاث وجبات لاحظ أنني لن آكل شيئًا حتى هذا الموعد غدًا. من الثلاجة أخرجت شريحتين من اللحم المسلوق المجمد.. أنا أسلق اللحم على شكل شرائح وأجمده بهذه الصورة، بحيث أضع شريحة أو اثنتين مع الوجبة التي أطهوها.. هذا يوفر الكثير من الوقت تسألني عن كيفيّة الحصول على الحساء إذن.. وما شأني أنا بهذا الكلام الفارغ؟!.. دع الحساء للمترفين..

دخلت غرفتي، فبدأت أنزع ثيابي وأنا أفكر في هذه القصة..

هنا رأيت من يتحرك في الممر خارج الغرفة!

توقفت عن الحركة ونظرت مدققًا.. بالفعل.. هناك ظل يمشي في الممر.. معنى هذا أن صاحب الظل يقف على باب المطبخ الآن..!

لص.. في هذا الوقت؟! وماذا يريد؟! وكيف دخل؟!

لكني متأكد من شيء واحد.. هناك شخص ما فعلًا؛ لأنني لست من الهستيريين الذين يتخيلون أشياء..

لحسن الحظ أن الهاتف جوار الفراش.. هكذا اتجهت نحوه بحذر، وعيناي لا تفارقان الباب.. طلبت الشرطة، وانتظرت دهرًا حتى رد الصوت الملول..

قلت له همسًا:

- «أنا د. (رفعت إسماعيل).. أعتقد أنّ هناك لصًا في بيتي عنواني هو....»

أخذ البيانات ووعد بأن يرسل لي من يتبين الأمر.. طبعًا سوف يستغرق الأمر ساعة، وعندها ستتلخص مهمتهم في معرفة سبب الوفاة...

وضعت السماعة وأطالت برأسي في حذر من باب الغرفة..

لا أحد..

أرى المطبخ بوضوح وأعرف أنه لا أحد فيه.. يبدو أن المتسلل في غرفة المكتب الآن.. من المستحيل أن يقطع عليَّ الطريق إلى المطبخ إذن..

هكذا جريت إلى المطبخ.. لم يكن هناك صوت سوى الماء الذي يغلي بجنون داخل الإناء... أمسكت بالإناء من المقبضين.. وانتظرت..

لو أطل هذا الشخص عليَّ الآن فلسوف يكون أول شيء أفعله هو قذف محتويات الإناء من الماء الساخن في وجهه.. أذكر أنني فعلت هذا ذات مرة مع شبح عائد، ويبدو أنها طريقة فعالة..

ابتسمت لهول المفاجأة التي سيراها هذا القادم.. بل إن جزءًا ساديًا في ذاتي راح يتمنى أن يطل عليَّ الآن، فهو انتقام جميل، من الخسارة ألا يتم..

هكذا وقفت في المطبخ.. يداي تمسكان بالإناء، ووجهي نحو الباب.. لن أنتظر كثيرًا...

سوف يقترب الآن..

أتصور كيف يبدو بالجرح على خده، والسوار حول معصمه، وضخامته.. اسمه (زينهم) أو (سنقر).. مسجل خطر بالتأكيد.. سطو مسلح أكثر من مرة.. لابد أنه يحمل مطواة.. لابد أن عينيه حمراوان وله سن ناقصة.. لابد أنه...

إنه هنا!

أرى ظله يرتسم أمامي جوار فرجة باب المطبخ... ظل عملاق يرتسم ظلى جواره صغيرًا واهنًا...

معنى هذا أنه يقف خلفي..!

ولكن كيف؟!.. لا توجد مخابئ في المطبخ، ولا شرفة يتوارى فيها ويخرج منها.. من أين جاء؟!

استدرت للخلف بسرعة، وبلا تفكير قذفت الماء المغلي نحو مصدر الظل....

بالطبع لم يكن هناك أحد!

✶ ✶ ✶

- 2 -

أغرق الماء المغلي كل شيء.. وتصاعد البخار في كل صوب..

بل إن بعضه تسرب إلى أصابع قدميّ في الخفين.. فشهقت..

سال على الجدران وعلى الثلاجة والمنضدة الصغيرة..

لكن لم يكن (زينهم) هناك..

ألقيت بالإناء على الأرض؛ لأن الحرارة أحرقت أناملي واستدرت لأرى أين ذهب الظل..

كان ما زال هنالك واقفًا..!

هو ليس ظلي.. إنّه ظل شخص ضخم.. شخص ضخم جدًّا لكن تبين ملامحه عسير لأنّه أقرب إلى كتلة من الظلام.. يمكنني بشيء من الخيال أن أقول إن عينيه حمراوان كجمرتين..

لقد وجدوني إذن!

اتجهت إلى الباب وأنا أجر قدمي.. لكنه ظل واقفًا جواره..

لا شك في الأمر.. هذا ظل حر.. ظل بلا صاحب.. ظل يتحرك بإرادته الخاصّة..

شيء مرعب.. لكنه ليس بالغريب عليّ.. قوم الظلال شأنهم معروف في الأساطير والظواهر (الفورتية Fortean).. لكن ما لا أعرفه فعلًا هو الظلال التي تترك أصحابها..

المشكلة الأخرى هي أن (الكينونة) أخبرتني بكارثة قادمة، وأنا أعرف كوارثها.. كل إنذار ترسله لي صادق تمامًا لكنه غامض.. أن ترى حريقًا في بيت صاحبك فتتصل به لتقول: «كن حذرًا..» ولا تقدم أية تفاصيل....

الكوارث التي تنذرني بقدومها لا تمس شخصي غالبًا، بل تمس الجميع.. إنّه رعب من الطراز الاجتياحي أو (رعب هرمجدون) كما يسموّنه في الغرب.. رعب يهدد الحياة ذاتها لكني عاجز عن الاستيضاح منها..

أعرف ما سوف يحدث..

غالبًا هذا الظل خرج للقنص، أو إثارة ذعري حتى الموت.. ولكني لن أترك له فرصة..

هكذا اتجهت إلى الهاتف وبحثت في الدليل عن رقم معين...

✶ ✶ ✶

فرغ (عطية) الكهربائي من تركيب آخر مصباح (فلورسنت) ونزل عن السلم الخشبي وهو يضرب كفًّا بكف..

- «والله يا دكتور ما كنت أفعل هذا لواحد آخر.. لا يمكن أن تقنعني بتركيب كل هذه المصابيح في الحادية عشرة مساء، والأمر لا يتعلق بالطوارئ... النهار له عينان..»

ثم نظر إلى ما قام به.. وقال في دهشة:

- «خمسة مصابيح فلورسنت في قاعة ضيقة كهذه!.. قلت: إنك تبالغ!..»

أمّا أنا فابتسمت ورحت أنظر إلى الفوضى التي سببها.. كل هذه الأسلاك والغبار الناجم عن استعمال المثقاب، وقطع لاصق الكهرباء.. ثم رفعت يدي ورحت أفتش عن ظل.. أي ظل على أي جدار.. لكن الإضاءة كانت ساطعة إلى درجة لا توصف وفي كل الاتجاهات.. لا يوجد ركن واحد يمكن أن يتوارى... كأنني أقيم حفل زفاف في هذه القاعة..

نقدت الرجل ماله شاكرًا.. فحمل سلمه واتجه للباب وهو يقول كلامًا لا أسمعه طبعًا..

سوف أبيت ليلتي في هذه القاعة، حيث لا ظلال تتسلى عليّ.. ربما أقيم هنا دومًا إلى أن أفهم ما يحدث هنا..

عندما فتحت الباب وجدت رجال الشرطة!

- «قيل لنا: إن هناك لصًّا في هذه البناية.. هل أنت د. (رفعت إسماعيل)؟..»

نظرت إلى ساعتي.. توقعت هذا..

سيكون تفسير الأمر عسيرًا.. أنا اتصلت يا سيدي لأن هناك ظلًا بلا صاحب في شقتي!.. لا يمكن أن أقول هذا.. يجب أن أكذب.. أكذب كثيرًا جدًّا..

بعد انصراف الجميع، جلست في تلك القاعة ساطعة الإضاءة.. لقد نسيت كل شيء عن العشاء الذي أعددته، لكني كنت فخورًا بعبقريتي.. ما دمت عاجزًا عن فهم ما يحدث، فلأقض على الظلال، إما عن طريق إضاءة ساطعة وإما عن طريق الظلام.. طبعًا الظلام لا ينفي وجود الظلال متوارية، بينما الإضاءة الساطعة تبددها تمامًا..

لتكون معيشتي أكثر الوقت في هذه الغرفة، وربما نومي كذلك..

مر الوقت.. فتحت جهاز التلفزيون ورحت أتابع.. جلست.. اعتدلت.. نقلت ساقي.. نهضت.. جلست...

بعد قليل فطنت إلى أنني أتوتر أكثر فأكثر.

هذه الإضاءة تحطم الأعصاب فعلًا، دعك من أن الله خلق جهازنا العصبي كي ينام ليلًا.. كي يجد الضوء الخافت أو الظلام حوله ليلًا.. أية محاولة لخرق ناموس الطبيعة البيولوجية هذا لابد أن تقود إلى اضطراب نفسي.. ربما إلى الجنون..

ليس بهذه السرعة طبعًا.. سوف أتوتر ثلاثة أو أربعة أيام ثم أبدأ الكلام عن مؤامرة المخابرات المركزية لقتلي لأنني أملك أسرار القنبلة الهيدروجينية، ثم تأتي مرحلة الكسرولة على الرأس.. القصة دومًا هكذا..

الضوء الساطع المنبعث من خمسة مصابيح فلورسنت جديدة يشعرك بأنك لا تسترخي، وإنما أنت في ستوديو 3 في التلفزيون المصري..

للمرة الأولى بدأت أفطن إلى أنها كانت فكرة غبية، وأن الكهربائي بعيد النظر حقًّا..

هكذا نهضت وأغلقت مصباحين..

ثم توكلت على الله وأغلقت اثنين آخرين..

هكذا لم يبق سوي مصباح واحد يبعث ظلًا لا بأس به.. ربما أموت.. لكني سأموت بكامل قواي العقليّة...

لكن الوضع لن يستمر بهذه الطريقة.. لابد من حل ما..

هنا خطر ببالي اسم نسيته منذ زمن..

الدكتور (عماد بدوي)..

✶ ✶ ✶

- 3 -

كان د. (عماد) أستاذًا لعلم الفيزياء، وقد حصل على الدكتوراه من إنجلترا، في ذات الأعوام التي كنت أدرس فيها..

يبدو أن الجو في الجزر البريطانية في ذلك الوقت كان مسمومًا؛ لأن كل من حصل على الدرجة وقتها تميز بعد ذلك بشيء من غرابة الأطوار أو الخبال، في رأي الآخرين..

هناك رفعت إسماعيل الذي يعتبره الكثيرون مجنونًا من طراز خاص راق، وهناك د. (عماد بدوي) الذي عاد إلى مصر وانهمك في أبحاث غريبة جدًّا لم يطلبها أحد منه، ولم يدر أحد إلام تقود..

كان رجلًا لا يعمل إلا بإيحاء من حدسه ومزاجه المتقلب لهذا قد يكون موضوع المحاضرة عن المغناطيسية، فيتكلم عن لعنة الفراعنة والألغاز التي تحيط بالمقابر الفرعونية القديمة..

كان لابد أن تتسرب أخبار كهذه عن طريق الطلبة لعميد الكلية.. هذا رجل يشرح منهجه الخاص الذي لا علاقة له بالمنهج الذي يجب أن يلم به الطالب..

لم يكن د. (عماد) من الطراز الذي يقتنع أو يصغي، وكان جادًا بشدة؛ لذا أعتقد أنه تشاجر مع العميد عدة مرات..

هو في الخامسة والخمسين من عمره الآن، له مظهر لايوحي بالعلماء على الإطلاق، إنما هو مقاول يجيد عمله.. اللون الأسمر، والبدانة، والشارب الكث العريض حتى ليوشك على لمس حلمتي أذنيه.. بذلة مفتوحة لم تمر على الكواء منذ زمن، وتحتها قميص طار منه زر أو اثنان، وكرش عملاق رجراج يحبسه في حزام جلدي مهترئ اشتراه من إنجلترا منذ عقدين تقريبًا والغريب أن طابع الثياب الرثة هذا لم يعطه طابع راهب العلم مثل أينشتاين مثلًا، ولكنّه أعطاه المزيد من طابع المقاول الذي يكسب كثيرًا جدًّا لكن لا وقت له للعناية بمظهره..

كان - باختصار - درسًا يعلمك التحرر من القوالب المحفوظة في ذهنك.. العالم الأصلع الملتحي موجود فقط في أفلام الخيال العلمي..

على كل حال، كان لابد أن يطرد من الجامعة يومًا ما، والسبب كان قضية شبه أخلاقية أتيح لي أن أرى طرفًا منها، ولن أحكيها لك.. على الأقل الآن.. كلا.. لا يذهبن مخك بعيدًا، وإنما يتعلق الأمر بتجارب غير إنسانية لا يمكن لأحد أن يوافق عليها..

✶ ✶ ✶

ذهبت إلى بيته ظهر اليوم التالي؛ لأنني أعرف أنه يتأخر في الاستيقاظ..

يقيم الرجل في الزمالك، في شقّة فاخرة ابتاعها لدى عودته من البعثة، وقد تزوج مرّتين وطلق مرّتين؛ لأنّه ما من أنثى تتحمل عصبيته وحِدَّته.. ومن حسن الحظ أنه لم ينجب.. وإلا كان على أطفاله تحمل الكثير..

الحقيقة أنني لا أعرف من أين ينفق بالضبط.. ولعله يعتمد على ميراث ضخم...

فتح لي الباب، وكان ما زال يلبس منامته وهو موشك على الشجار، فلمّا رآني ضحك وشدني إلى الداخل وهو يسبني بلا سبب واضح..

كان يملك أسبابًا كافية كي يحنق عليَّ، لكنه كان يملك أسبابًا أقوى كي يحترمني.. أنا لم أتكلم، ولعل هذه غلطة عمري.. لكنه يعرف أنني لم أتكلم.. بالنسبة إليه من يتكلم حقير واش، بينما بالنسبة إليَّ من يتكلم هو شخص أكثر حزمًا وأشجع مني..

لعل هذا من حظي الحسن، لأنّه ما كان ليسمح لي بدخول بيته في ظروف أخرى..

كانت الشقة الواسعة مرتبة بعناية؛ مما دلني على أنّ هناك من ينظفها له. وكانت مغلقة بعناية وإحكام، بحيث يصعب أن تصدق أننا في وقت الظهر. وكانت هناك شرفة واسعة مسقوفة.. بها مجموعة من أقفاص العصافير ونباتات الظل.. وهناك سلحفاة مملة ثقيلة الظل تزحف في مكان ما..

برغم كل شيء، يحيا هذا الرجل حياة جميلة..

- «هل تزوجت يا رفعت؟.. لا؟.. هذا أفضل.. خذني أنا كنموذج الرجل الذي تزوج أكثر من اللازم، وفي النهاية أعيش مثلك..»

وراح يسألني عن كل شيء وعن (ماجي) التي كان يعرفها طبعًا.. إن (ماجي) فيزيائية مثله كذلك، وهذا جعله يعرفها جيدًا..

نهض ليحضر لي شيئًا أشربه..

رحت أنظر إلى الجدران البيضاء الأنيقة من حولي، ولاحظت أنه لا يعلق أية لوحات أو قطع ديكور.. إنّه عملي دومًا؛ فلا شك أنه يعتبر الفنون كلامًا فارغًا..

هنا رأيت الظل!

يرتسم أمامي على الجدار في وضوح.. إنّه ظل عملاق مهيب يحمل شيئًا ما في يده.. لكن الأسوأ أنه يصغر في كل لحظة ويزداد تحديدًا...

يصغر.. يصغر..

تحفزت ووقفت في مكاني لا أعرف إن كنت أنادي (عماد) مستغيثًا أم أفر من هنا أم....

هنا فوجئت بعماد يقف جواري وهو يحمل صحفة عليها زجاجة مياه غازية..

- «ما بك؟.. تفضل!..»

نظرت إليه ونظرت إلى الظل فوجدت ظلين.. الظل الثاني ظل رجل نحيل أصلع يتناول زجاجة مياه غازية شاكرًا. لقد كان ما رأيت هو ظل عماد القادم من المطبخ المضاء..

عندما تصير الظلال عدوًا لك فأنت في طريقك للجنون بالتأكيد؛ لأن الظلال في كل مكان...

لحسن الحظ أنه لم يلحظ حماقتي.. جلس وراح يعبث بشاربه بعض الوقت..

في النهاية بدأ يسألني عن سبب قدومي، فقلت له:

- «الظلال..»

حك ذقنه نصف النامية في اهتمام وقال:

- «الظلال.. فهمت.. موضوع مهم فعلًا... لكن ماذا في الظلال؟..»

- «إنها تلاحق الناس... يبدو أنها تقتلهم كذلك.. لو اعتقدت أنني جننت فأنت مخطئ على الأرجح..»

- «أنا لا أعتقد أنك جننت.. أنا مؤمن بأنك مجنون فعلًا يا رفعت.. لن يحدث ما هو أسوأ..»

شرحت له القصة بالتفاصيل الدقيقة، وقد ظل يستمع لي في اهتمام..

في النهاية، وقد أدرك أنني أنهيت ما عندي، قال:

- «أنت تتحدّث عن قوم الظلال.. تعرف أنني مهتم بهذا الموضوع..»

- «لهذا جئتك...»

وضع ساقًا على ساق وأشعل لفافة تبغ كريهة الرائحة، ثم راح يحكي عن قوم الظلال..

لكني وجدت الوقت الكافي كي أتذكر...

✶ ✶ ✶

- 4 -

كان المطر ينهمر مدرارًا في تلك الليلة منذ عشرين عامًا.. أعرف أننا لسنا في (سيبريا) وأن جو مصر جاف على الأرجح، لكن المطر كان ينهمر مدرارًا ومعه يشق البرق السماء.. الحق أنها كانت ليلة جديرة بالرعب القوطي..

قلت لنفسي، وأنا أوقف السيارة بينما المطر يغرق الزجاج:

- «لقد أعدت الطبيعة المسرح واعتنت به.. لا ينقصنا إلا أحداث درامية مروعة.. أحداث مرعبة تتناسب مع هذا الجو..»

وفتحت الباب.. طبعًا هذا خطأ قاتل في العواصف الرعدية؛ لأن أفضل سياسة هي أن تبقى في السيارة كما أنت إلى أن تنتهي العاصفة، لكني قررت أن القوطية لن يصل حماسها إلى درجة إلقائي ميتًا بصدمة كهربية...

كانت عيادة (صفوت) الجراحية تقع في الطابق الأرضي، بينما يسكن هو في الطابق العلوي. أمام البيت حقل يمتد لمرمي البصر، وقد جعلت الأمطار كل شيء موحلًا رطيبًا، لهذا كان عليّ أن أدور حول السيارة بحذر شديد..

أخيرًا وضعت قدمي على مدخل البناية المبنية بالطوب الأحمر، فدخلت..

أرى لافتة تقول (صفوت عبد الغني - جراحة عامّة). الباب مغلق طبعًا؛ لأنّه ما من مجنون يمكن أن يأتي في وقت كهذا..

دققت الباب عدة مرات فانفتح وظهر لي وجه (عماد)... كما قلت، كان هذا منذ أعوام طويلة، لهذا كان أكثر صبا ووسامة.. لم يكن له شارب المقاولين المرعب هذا، ولم يكن طلاقه الأول قد وقع؛ لهذا كانت ثيابه تحمل لمسة عناية الأنثى لا لمسة الصرف الصحي.

- «لابد أن العاصفة جعلت وصولك متعبًا.. تعال بسرعة..»

في الداخل كان زميلنا المشترك (صفوت)... (صفوت) رجل صغير الحجم، حليق الوجه، أقرب في كل شيء إلى طفل صغير هياب..

كان واقفًا في وسط العيادة الخالية، وقد بدا عليه التوتر صافحني وقال:

- «لا أعرف لماذا طلبك (عماد) في هذا الجو الكريه، لكن مرحبًا بك.. سأعد لك الشاي حالًا..»

نعم!.. الشاي!.. لا شيء كالشاي للتدفئة وإزالة الإرهاق..

جلست على مقاعد الانتظار أرتجف..

كانت المرّة الأولى التي أزور فيها صفوت في عيادته الريفية.. هنا كان يجري الجراحات، وكانت هناك ثلاث غرف مخصصة لما بعد الجراحة.. هذا تنسيق شائع في الريف..

لم يكن هناك أحد على الإطلاق. ولما جاء الشاي الساخن رحت أرشفه في تلذذ.. لاحظت أن الرجلين متوتران بحق.. ثم غاب (صفوت) داخل إحدى الغرف للحظة..

عاد بعد دقيقة ليقول:

- «اقتربنا جدًّا..»

لم أفهم ما يتحدث عنه، لكن (عماد) قال لي في كياسة:

- «أعتقد أن عليك أن تفرغ من الشاي بسرعة..»

لم أكن أفهم سبب استدعائي على الإطلاق؛ لذا نهضت متجهًا إلى حيث أشار لي..

كانت غرفة بها فراش من تلك الغرف التي يقضي فيها المرضى أيام ما بعد الجراحة.. فراش طبي.. لا أثاث تقريبًا.. على الفراش رقد رجل مسن يبدو واضحًا من ملامحه أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة.. يحدّق فينا بعينين جاحظتين مذعورتين لا تريان.. ثمّة زجاجة محلول بجواره، فرغت فتدلت بلا حيلة.

قال (صفوت) بصوته المبحوح:

- «انسداد معوي متقدم.. لم يكن هناك ما يمكن عمله.. إنّه يُحتضَر الآن..»

شعرت بغيظ لأنّه يقول هذه الدقائق أمام المريض.. المريض الذي أعرف يقينًا أنه يسمع ما نقول، وإن لم يبد عليه شيء، حيث وقف على الحافة بين عالمنا وعالم آخر...

- «وأقاربه؟..»

- «لا أقارب له.. إنّه غريب عن بلدتنا، ومن جاءوا به تركوه هنا.. بعد وفاته سوف نبلغ الشرطة عن ناقص الأهلية هذا..»

ونظرت إلى أرجل الفراش، فبدأت أفهم..

واقشعر جلدي..

تحت كل رجل من أرجل الفراش كان هناك جهاز زنبركي غريب يذكرك بالميزان.. وقد اتصلت أربعة الأجهزة بمؤشر رقمي على بعد خطوات.. كانت هناك كاميرا وجهاز تسجيل.. ولكن أين الـ...؟

بحثت عنه فوجدته.. خيمة من المشمع الشفاف كأنها من خيام الهنود الحمر، تصلح لوضعها فوق الفراش، بحيث تغطى المريض تمامًا... هذا هو بديل الناقوس الزجاجي...

كان صفوت وعماد يتعاونان الآن على وضع المشمع على الفراش، بحيث يغطى المريض تمامًا.. فصحت في رعب:

- «ماكدوجال!..»

قال عماد والعرق ينهمر منه بسبب الجهد:

- «أنت تعرف الكثير.. ألم أقل لك إننا على حق في استدعائه يا صفوت؟..»

ثم التقط بعض الصور للميزان الرقمي، وفتح جهاز التسجيل وقال:

- «الساعة 11 مساء.. لقد بدأنا. الوزن ثابت..»

✶ ✶ ✶

كانت تجربة الجراح الأمريكي ماكدوجال في بداية القرن العشرين هي التي تركت في الذهن الغربي فكرة أن الروح وزنها 21 جرامًا..

كان ماكدوجال جراحًا محترمًا من ماساتشوستس في أوائل القرن العشرين، حاول أن يخضع الدين للعلم.. وقد آمن بأن الروح تحتل حيزًا من الفراغ، دعك من أنها خفيفة جدًّا.. لهذا تطفو بعد الموت. قام عام 1907 بإجراء تجربته الرهيبة التي ذكرت الناس بجو قصص د. فرانكنشتاين، حيث قام بوزن ستة محتضرين عن طريق وضعهم على أسرة متصلة بميزان حساس. ولاحظ فارق الوزن قبل وبعد الموت، الذي افترض أنه وزن الروح، وقد خيل له أنه 21 جرامًا. أربعة كانوا مرضي درن، وواحد كان يموت من مضاعفات السكر، وواحد بسبب مجهول. مزية الموت بالدرن هي أنها ميتة هادئة.. المريض لا يتحرك تقريبًا.. الميتة بطيئة؛ لذا يكون الأطباء منتظرين للموت قبل ساعات من حدوثه، وهذا يساعد في التسجيل..

أجرى تجارب مماثلة على الكلاب، لكنه لم يلحظ أي اختلاف في الوزن عليها. هكذا افترض أن الروح لها وزن وأن الكلاب لاروح لها.

لا تعتبر هذه التجارب ذات قيمة علمية ما؛ لأنّها غير قابلة التفسير والتكرار. لكنّها استقرت في الوعي الجماهيري الغربي. إن العينة صغيرة جدًّا ولا تسمح باستخلاص نتائج إحصائية.. لكنك لا تستطيع أن تزن ألف محتضر لتأتي بأرقام دقيقة.. هذه تجارب مخالفة للقانون والعرف؛ لهذا يجريها من يجريها بنفس عجلة وندرة وارتباك الجريمة..

رأى بعض الأطباء أن العرق الذي يتبخر من الجلد هو السبب، مع ما يصاحبه من ارتفاع درجة حرارة الدم، بينما الكلاب لا تعرق لأنهّا تلهث. هذا هو فقدان العرق غير المحسوس insensible perspiration الذي لم يضعه ماكدوجال في الحسبان قال ماكدوجال في بحثه إنِّه راعي هذه النقطة وقدر معدل التبخر بجزء من ستين من الأوقية في الدقيقة، بينما المريض فقد ثلاثة أرباع أوقية في ثلاث ثوان. حتى إفراغ المثانة غير وارد لأن البول أو البراز بقي على الفراش محتفظًا بوزنه.

توفي ماكدوجال عام 1920، ومن الواضح أنه لم يملك روحًا علمية تجعله يطلب ممن حوله أن يزنوا جسده أثناء الاحتضار.

لم يترك الرجل علامة مهمّة في العلم، لكنه ترك علامات على الثقافة الشعبيّة في الغرب. إن الروح معن يتحدى الصفات والمقاييس الفيزيائية، وإلا لأمكن أن نقول يومًا ما إن الكبرياء طولها كذا وعرضها كذا، وإن الشجاعة وزنها كذا. دعك من اللاإنسانية الواضحة في هذه التجارب؛ حيث يتحول إنسان محتضر إلى فأر تجارب.

✶ ✶ ✶

الآن وقد وقفت أمام هذا المشهد الرهيب، استعدت كل هذه الذكريات..

وفهمت لماذا طلبوني..

فهمت كذلك لماذا اختاروا هذا الوقت العجيب وسط هذه العاصفة.. الحقيقة أن الوقت هو الذي اختارهم.. لقد كانوا ينتظرون لحظة الاحتضار على أحر من الجمر، فلمّا جاءت هرعوا يعدون كل شيء..

تجربة قاسية خائبة، والأدهى أنها أجريت فعلًا منذ نحو سبعين عامًا.. فما جدوى تكرارها؟..

ما الذي يحاولون أن يجدوه؟.. وما الذي يتوقعون أن يثبتوه؟

الأغرب أن (عماد) المادي الذي لا يؤمن بشيء، يجري تجاربه على فرضية أن الروح لها وزن!.. على الأقل (ماكدوجال) كان متدينًا إلى درجة التعصب، وقد حاول أن يفرض إيمانه على المنطق العلمي.. لكن كيف يجري تجارب على الروح من لا يؤمن بها؟

سمعته يقول:

- «لقد بدأ الوزن ينقص.. دون القياس بدقة مع الساعة.. رفعت هلا ساعدتني؟... لماذا لا ترد؟..»

هنا نظر إليَّ عماد نظرة لم أنسها حتى اليوم، وقد رأى توتري واشمئزازي فقال:

- «أنت رجل علم يا رفعت.. عليك أن تكون كذلك.. دعك من أنّه لا يشعر بشيء..»

قلت من بين أسناني:

- «ومن أدراك؟!.. وهل تحب أن تحتضر أنت - بإذن الله - فيحيط بك الأوغاد الفضوليون ليأخذوا مقاييسك؟.. فلتساعده على نطق الشهادتين لو كان مسلمًا، أو تأت له بقس لو كان مسيحيًا لكن لا تضعه على ميزان كأنه كيلو من اللحم..»

كنت قد سمعت كلامًا متناثرًا عن (عماد)، لكني لم أصدق هذا الكلام بلغ مسمع كثيرين في كليته على كل حال، وهذا هو ما قصدته بالأعمال غير الأخلاقية.. إهانة البشر ووزن المحتضرين أسوأ ألف مرة من أي شيء آخر قد يكون خطر لك.. ما القيمة الفيزيائية العظمى التي سيحصل عليها بعمل كهذا؟!

هكذا اندفعت مغادرًا المكان..

اندفعت أركض تحت المطر المنهمر نحو سيارتي.. هناك وقفت جوارها ورفعت وجهي للسماء تاركًا الماء يغرق وجهي وعويناتي ويتسرب تحت ياقتي إلى ما تحت الجلد تقريبًا.. أريد أي شيء قادم من السماء ليغسل ما أشعر به..

لم يلحق بي أحد، فانطلقت بالسيارة مبتعدًا..

بالطبع كان صفوت يعتقد يقينًا أنني سأبلغ الشرطة ولسوف يخرب بيته، ولعل هذا كان أفضل شيء يمكن أن يحدث لهما. النفس البشريّة مقدسة ولا يمكن العبث بها.. لكني بصراحة لم أستطع تحمل فتح أبواب الجحيم التي ستنفتح فوق رأس هذين الإثنين..

العجوز كان يحتضر فعلًا.. هما لم يقتلاه..

لتأت الكارثة من شخص آخر سواي... أمّا أنا فخير ما أفعله هو أن أصمت وأبتعد نهائيًا عن هذا المجنون (عماد)..

وهذا ما كان.. ومن رحمة الله أن الانتقام السماوي جاء وتم فصله من الجامعة. ومنذ ذلك الحين لم أسمع عنه إلا أخبارًا متفرقة، وقابلته مرات محدودة.. أعتقد أنه ممتن لي لأنني لم أملأ الدنيا صراخًا في تلك الليلة.. كان يتوقع وشاية بسرعة ولم تحدث...

سمعت عن تجاربه الغريبة واهتماماته الأغرب فلم أندهش..

لكني اليوم أعود له طالبًا رأيه..

✶ ✶ ✶

- 5 -

عن قوم الظلال يحكي د. (عماد) فيقول:

- «منذ زمن بعيد يتكلم الناس في الغرب عن الظلال التي تراها بركن عينك.. هذه الظلال لا تمثل أشخاصًا بالضبط، لكنّها كائنات حية مستقلة حرة الحركة، وقد استطاع البعض أن يروا لها عيونًا حمراء.. عامّة يقترن ظهور هذه الكائنات أو الظواهر برعب شديد وتوجس لدى من يراها. كل الشهود قالوا ذلك..

يقولون إن هذه الكائنات تتوارى في الظلام وتمتزج بالظلمة، فلا تقدر على رؤيتها. أمّا محاولات رؤيتها صباحًا فتكلل بالفشل غالبًا.. أنت ترى الظل للحظة ثم يختفي بسرعة البرق..»

قلت له:

- «أنا رأيت تلك العين الحمراء بالتأكيد..»

لم يعلق وواصل الكلام:

- «تفسيرات كثيرة قيلت حول هذه الظاهرة، بعضها ما ورائي ماذا لو كانت هذه أشباحًا؟.. هنا فارق مهم؛ لأن الأشباح كما يحكى من رآها لها شكل بشري، وربما تلبس ثيابًا.. بينما قوم الظلال ظلال غير محددة الشكل.. من المستحيل أن تصف الشكل بالتفصيل أو تقول: «هذا شبح عمي أو هذا شبح زوج خالة زوجتي..» لكن هناك شكل رآه الكثيرون وهو منتشر جدًّا لدى من شاهدوا هذه الظواهر، وقد اصطلحت المصادر (الفورتية) على تسميته (رجل القبعة)..

هناك من قال: إنها شياطين، وهناك من تحدث عن الإسقاط النجمي.. أنت تسمع عن الإسقاط النجمي Astral projection عندما تكون لدى بعض الأشخاص القدرة على أن يغادر وعيهم أجسادهم ليُحَلِّقوا في فضاء الغرفة.. ماذا لو كانت هذه الظلال هي ظلال أشخاص يمرون بالتجربة؟.. هناك من يحلق في غرفتك بالذات وأنت رأيته لحظة التحليق..

نفس المنطق يحكم فكرة (مسافري الزمن).. من الممكن أن يتوصل الناس في المستقبل إلى ابتكار آلة الزمن. معنى هذا أن عالمنا يعجّ بهؤلاء الذين جاءوا من الغد ليروا عالمنا.. من الوارد جدًّا أن واحدًا من هؤلاء يراقبنا الآن.. وقد يكون من الممكن أن نراه للحظة كظل عابر..»

نظرت حولي وشعرت برعب..

أنا أؤمن أننا لسنا وحدنا في هذا العالم، وأنّ هناك موجودات لا نقدّر على رؤيتها كما أننا لا نرى الموجات تحت الحمراء وفوق البنفسجية، ولا نسمع الموجات الصوتية عالية التردد.. إذن

هناك عالم كامل يفوق حواسنا.. برغم هذا تفزعني هذه الفكرة. أن تتصور أن الغرفة التي تجلس فيها الآن مزدحمة كحافلة في القاهرة وقت الذروة.. هناك قصة شهيرة لـ (لافكرافت) عن عالم ابتكر جهازًا يقوي الحواس؛ بحيث يصير بوسعك أن ترى ذلك العالم الخفي، والنتيجة أن الرجل جن فورًا..

لقد قابلت هؤلاء السياح القادمين من الغد من قبل، لكن لا أعتقد أن المكان يعجّ بهم، ولا أنهم دفعوا تذاكر غالية ويجلسون صفوف الآن يتسلون بمناقشتي مع د. (عماد) وهم يلتهمون الفيشار..

واصل د. (عماد) الكلام:

- «هناك نظريات عن أبعاد موازية لنا.. هناك سكان في هذه الأبعاد، ومن حين لآخر يطل أحدهم برأسه من بعده فيصير مرئيًا لنا.. أي إن هذه الغرفة تتسع لأسرة أخرى لا ترانا ولا نراها نحن نتكلم ونتناقش وهم يتكلمون ويتناقشون، وكلانا لا يرى الآخر ولا يعرف بوجوده.. لكن قد يثقب هذا البعد في لحظة فترى هؤلاء للحظة..»

قلت له في كياسة:

- «معظم هذه النظريات أعرفها بالطبع، لكن ألا ترى أنها تقود إلى الجنون بكفاءة تامة؟..»

- «لهذا يحسن ألا تتسرب هذه النظريات للجميع.. إنها نظريات الخاصّة فقط..»

ثم فكر حينًا، وقال وهو يتحسس شاربه العملاق:

- «هناك من يتكلم عن زيارات سكان الكواكب الأخرى.. ربما هم قوم لهم مظهر الظلال.. من يدري؟..»

قلت له:

- «لكن الأمر بهذا الشكل يفسح الكثير جدًّا للخبال والبارانويا.. المصحات العقليّة تعجّ بالمؤمنين بهذه النظريات..»..

ابتسم في ثقة وقال:

- «طبعًا.. هناك تفسير الباريدوليا Pareidolia.. كل صور تقع على أطراف مجال البصر.. كل ما يقع خارج البقعة المركزية الحساسة للعين.. هذه أشياء تعرف العين أنها موجودة لكنّها لا تميزها جيدًا.. فماذا يفعل المخ؟.. يكمل الصورة من خياله ويتصور أنها وجوه بشر...

هناك تفسيرات أخرى كثيرة؛ منها اضطراب الحالة النفسية.. باختصار: الهلاوس.. هناك الحالات الوسط بين النوم واليقظة هؤلاء الذين يحلمون بأعين مفتوحة.. شخص يمشي ويبدو أمام الناس يقظًا، لكنه في الحقيقة نائم تمامًا.. هكذا يرى بين النوم واليقظة وجوهًا تتبدى في الظلمة وتزول.. يصحو ليحكي عن (الظلال التي تتربص به)..»

قلت، وقد بدا لي الكلام مألوفًا:

- «المخدرات لها دور عظيم في هذا..»

قال ضاحكًا:

- «كلنا نعرف أن الثملين في الغرب يرون أفيالًا وردية لا أعرف لماذا لا يرى الثملون في مجتمعنا ذات الشيء.. لكن هذا يدل على أن كل هلوسة تنبع من خلفيتك ووجدانك الجمعي. أنت طبيب يا د. رفعت وتعرف أن كل المنشطات السمبثاوية قد تجعلك ترى قوم الظلال.. في مصر يتعاطون الإفدرين أو حقن الماكستون فورت الذي هو اسم التدليل لمادة (الأمفيتامين Amphetamine) وكلاهما منشط سمبثاوي قوي.. وكلاهما له ذات التأثير قريبًا..»

انتهى من كلامه، فراح يعبث في شاربه منتظرًا رأيي، فقلت:

- «كل هذا جميل.. خلاصة ما تقول: أنه من الطبيعي جدًّا أن يلاحقني ظل.. لكن هذه الظلال تقتل على قدر علمي..»

- «لم يتكلم أحد عن أن قوم الظلال يقتلون.. إنهم يثيرون الرعب فقط.. لا أكثر.. هذا جديد عليَّ..»

- «دعك من أن ظلًا يلاحقني.. أنا واثق من هذا.. جربت أن أعيش في ضوء ساطع لكني لم أتحمل أكثر من نصف ساعة هذا هو الطريق للجنون.. ربما أنا على حق، وربما أنا مخبول أو مدمن أفدرين.. لكني لا أريد فهم الظلال التي تلاحقك قدر ما أريد فهم الظلال التي تتخلى عنك..»

نظر إليَّ فرأيت في عينيه تلك النظرة..

النظرة التي لم أرها منذ عشرين عامًا...

✶ ✶ ✶

- 6 -

هل أنت جائع؟.. نعم.. لم أتناول الغداء بعد..

ها نحن ذان جالسان في ذلك المطعم الفاخر بالزمالك، وبرغم تناقض مظهره مع... ربما تناقض مظهرانا نحن الاثنين مع المكان، لكن الكل كان يعرفه، وكان يحيي هذا وذاك في مرح..

طلب كمية هائلة من الطعام تناسب حجم شاربه.. وكان يتكلم في حرارة وقوة. ثم أخرج من جيبه زجاجة صغيرة فيها مشروب كحولي، وصب بعضه لنفسه في كأس صغيرة لأن المكان لا يقدم الخمور، وعرض عليَّ بعضه فهززت رأسي أن لا.. كنت أعرف أنه يشرب الكحوليات منذ كنا في إنجلترا..

قال لي وهو يعرق بغزارة من نهم الأكل:

- «أنت لا تشرب الخمر، وتصلي، وتصوم، كعهدي بك.. أنت مثالي كأبطال القصص، ولا تنوي أن تتغير..»

قلت في فتور:

- «لم أر بطل قصة أصلع نحيلًا مريضًا من قبل، ومعظم الناس مثلي، لكن لا أحد يزعم أنهم أبطال..»

- «إذن أنا البطل.. أنا ألعب دور العالم الشرير المجنون في رواية قوطية.. هل تذكر تلك الليلة؟.. عيادة (صفوت)؟..»

- «ومن يستطيع أن ينسى؟..»

قال وهو يعيد الزجاجة لجيبه:

- «أنا أجريت التجربة عشرات المرّات.. لن تصدق هذا، لكني جربت كثيرًا جدًّا.. ونتائج ما عرفته في ذهني، غير قابلة للنشر.. ما من مجلة عالمية أو محلّيّة تنشر أبحاثًا كهذه.. ما توصلت له هو أن الوزن يقل فعلًا لدى الوفاة، ولا يمكن تفسير هذا بالبخر لن أقول مثل مكدوجال إن هذا وزن الروح؛ فهذا كلام صادم غريب، لكني مصر على أنّ هناك شيئًا ما نفقده عندما نموت... لا أعرف ما هو.. هذا الشيء يملأ أجسادنا.. أحيانًا يزيد حجمه على حجم أجسادنا؛ من ثم يبرز للخارج على شكل هالة.....»

انحشرت المكرونة في فمي حتى اضطررت أن أشرب كوبًا من الماء لأبتلعها..

هذا الرجل يتكلم عن (بالوظة) لا عن روح. (بالوظة) تحاول أن تضعها في كيس فلا تنحشر كلها وإنما يبقى بعضها بالخارج..

لم أكن أعرف وقتها أن من يدعي (دونالد كاربنتر) سوف يكرس حياته عام 1998 لدراسة هذه الظاهرة.. هل جن الجميع؟!

قلت له في غيظ:

- «تريد القول بأن الروح (تبظ)!..»

- «لم أتحدث عن الروح لحظة.. أتحدث عن طاقة غامضة في أجسادنا.. هذه الطاقة قد تتخذ شكل ظل..»

- «لكن الظل الفيزيائي معروف ومفهوم.. مكان لا يصله النور فيكشف عن حدود أجسادنا..»

- «لسبب ما أعتقد أن بوسع تلك الطاقة أن تتخذ شكل ظل ثم يصير بوسعها الحركة، وتصير لها حياة مستقلة..»

- «يا سلام!.. والظل الفيزيائي المعروف؟..»

- «أعتقد أن فقدان هذه الطاقة يؤدي إلى نوعٍ من الشفافية فيختفي الظل.. لاحظ أننا لا نتحدث بلغة فيزيائية، بل بلغة أقرب للفلسفة..»

غرست الشوكة في قطعة من الإسكالوب كأنه علم الولايات المتحدة الذي غرسه أرمسترونج على سطح القمر، وعقدت أناملي تحت ذقني وسألت:

- «إذن حسب كلامك يمكن ترتيب الأحداث.. هناك أشخاص فقدوا هذه الطاقة أو هذه المادة في ظروف غامضة.. هكذا لم يعودوا يتركون ظلًا.. وبما أن خروج هذه الطاقة أو المادة يقترن بالموت، فإنهم ماتوا على الفور.. تحررت هذه الطاقة أو المادة وراحت تجوب المنطقة.. من حين لآخر يراها البعض فيجنون أو تتوقف قلوبهم ذعرًا.. هل هذا ما تقول؟..»

جرع ما في كأسه مرة واحدة، وشهق كأنه يشرب حمض الكبريتيك، وقال:

- «نعم.. لا أستطيع أن أؤكد كلامي أو أبرهن عليه حاليًا لكني أعتقد أنه صحيح....»

ثم مد يده، يعبث بإصبع واحد في جيب سترته المبقعة أصلًا، حتى أخرج ورقة مطوية.. فتحها بإصبعين كي لا تتلوث، ثم راح يقرأ:

- «ثمّة قصص مماثلة في أمريكا وإنجلترا وفرنسا.. أساطير عن أشخاص فقدوا ظلهم ثم ماتوا في اليوم ذاته.. هذه القصص طبعًا لا تنشر في صحف محترمة، وإنما في المجلات المهتمة بالظواهر الفورتية على غرار (الفضائيون خطفوني وأجروا عليَّ جراحة ثم أعادوني).. طبعًا

معظم هذه المقالات يكتبها مجانين. لا توجد تقارير عن أشخاص قتلتهم ظلال، لكن تذكر أننا لا نرى سوى جثة رجل مات بسكتة قلبيّة.. ربما كانت الظلال هي المسئولة..»

- «هل تعني أننا في عصر الظلال المتحررة؟..»

- «ربما هو عصر الناس الذين يلاحظون الظلال المتحررة.. لسبب ما أشعر بأن من كانوا قبلنا حمقى لا يلاحظون أي شيء تأمل صورة جدك بشاربه المنتصب والطربوش على رأسه والاعتداد الشديد بنفسه.. هل تتصور أنّ هذا الرجل يمكن أن يلاحظ اختفاء ظله؟..»

ثم ابتلع ما في طبقه وقال:

- «لديَّ طريقة لاختبار هذه الفرضية.. سوف نجربها معًا..»

✶ ✶ ✶

- 7 -

في الحقيقة لا أستطيع القول بأنني موافق على هذا المنطق.. هناك قضيتان أو مقدمتان منطقيتان:

القضية الأولى: فقدان هذه الطاقة يؤدي إلى نوعٍ من الشفافية؛ مما يجعلك بلا ظل.

القضية الثانية: فقدان هذه الطاقة يقترن بالموت.

هي معادلة بسيطة من الدرجة الأولى.. الاستنتاج المنطقي هو أن الموت يجعل الناس بلا ظل..

لكن مشاهدات كل يوم تقول العكس...

لكني حائر.. لقد رأيت ظلًا يطاردني.. لا شك في هذا.. بلا صاحب.. دعك من أنني رأيت فعلًا أناسًا بلا ظل.. هذا يجعلني مستعدًا لتجربة ما يتكلم به هذا الرجل..

الرجل يحاول أن يربط بين الظل والوعي، أو الروح التي لا يريد أن ينطق باسمها.. هذا غير صحيح طبعًا.. ما من عمود نور يحترم نفسه إلا وله ظل.. ما من تمثال في ميدان إلا وله ظل.. الظل ظاهرة ماديّة تمامًا لا يمكن تفسيرها على أي ضوء آخر.

✶ ✶ ✶

في الثالثة بعد منتصف الليل شعرت بظمأ شديد..

لا تتوقع أنني كنت نائمًا؛ فأنت تعرفني وتعرف أنّ هذه الساعة تمثل الظهيرة بالنسبة إليَّ؛ لهذا كنت في مكتبي أنهي بعض الأوراق العلمية، ثم نهضت قاصدًا المطبخ..

ملأت كوبًا بالماء البارد، وكانت هناك بعض شرائح اللحم المحمر باقية من الغداء، فدسست واحدة في فمي على سبيل الشراهة، برغم أن النقرس انضم إلى قائمة أمراضي التي تحتاج إلى مجلد ضخم.

عدت إلى المكتب المضاء.. المكان الوحيد المضاء في الشقة كلها..

هنا رأيت الظل..

كان ممتدًا على الجدار الشرقي بين مكتبتين.. عملاقًا يبلغ السقف تقريبًا، وهو يشبه ما رأيته من قبل.. شكل مبهم غير محدد.. تعرف بسهولة أنه ظل إنسان، لكن من الصعب أن تعرف من هو.. هناك جمرتان تتوهجان في موضع العينين تأثير يشبه النقاط الحمراء التي ترسلها مؤشرات الليزر المستعملة في المحاضرات..

لقد دخل المكتب بينما أنا في المطبخ..

هذه الظلال تتصرف كالفئران أو الأبارص..

في حذر ودون حركات زائدة، مددت يدي في جيبي وضغطت على الزر..

دوى صوت جرس ثم انغلقت الدائرة...

وفي اللحظة التالية ظهر (عماد) جواري وهو يحك جسده فوق المنامة.. كان شعره منكوشًا ووجهه مرهقًا، لكنه راض عما يدور..

لقد كان نائمًا في الغرفة الأخرى حسب اتفاقنا.. لا أعرف متى يظهر هذا الظل؛ لذا عرض عليَّ أن يبيت عندي بضعة أيام..

كانت زيارته مزعجة ووجوده ثقيلًا.. شاربه يثير غيظي كلما رأيته، كما أنه يأكل كالخنازير، لكنه منحني صحبة آدمية أو (كان من العسير أن أتزوج لمجرد ألا أصير وحدي) ثم أعد كل شيء للحظة ظهور هذا الظل..

كان الظل يحاول الفرار الآن..

اتجه نحو الباب فانثنى بزاوية قائمة على جدارين كعادة الظلال، لكنه توقف أمام الباب عاجزًا عن اجتيازه..

عماد قد وضع كشافات الأشعة تحت الحمراء فوق كل باب بالشقة. يعتقد أنها قادرة على حبس تلك الطاقة؛ فلا تقدر على اختراقها..

عندما أضغط على الزر في جيبي يدق الجرس.. ينهض هو حيثما كان ويغلق المحولات.. من ثم تضاء الكشافات في كل الشقة.. ضوء لا نراه لكن من الواضح أنه فعال جدًّا..

النتيجة هي أنّ هذا الظل صار حبيسًا الآن في نطاق من الأشعة تحت الحمراء، وهو بهذا يتصرّف كفأر فعلًا.. فأر وجدناه في المطبخ فأغلقنا عليه المصيدة..

يا له من مشهد جدير بالكوابيس!

الظل يقاوم بجنون.. يستطيل.. ذراعاه تتلمسان الجدران.. يدنو من باب الشرفة، لكنه لا يرى الكشاف المعلق هناك إنّه كشاف معلق فوق باب الشرفة، يجعل المرور عبره مستحيلًا وحتّى هذه الظلال لا تقدر على عبور الجدران..

يعود الظل وينتفض..

نحن في موقف قوة بلا شك.. لا أعرف نهايته لكنه ممتع...

قال لي (عماد) وهو يعبر فرجة الباب:

- «تعال معي..»

هل تعني أننا سنصير في غرفة واحدة مع هذا الشيء الحبيس؟

عندما استطاع خالي أن يحبس فأرًا في المطبخ قرر أن يدخل ليقتله بنفسه.. ما إن دخل حتى تسلق الفأر على ثيابه وقضم أرنبة أنفه، ثم تسلل داخل ثيابه!.. لا تحبس نفسك مع القط الحبيس أبدًا.. إنها نهايتك..

برغم هذا دخل عماد وهو يهز كرشه في ثقة وخيلاء.. جلس خلف المكتب وراح ينظر إلى الظل المرتسم على السقف..

قال بصوت جهوري:

- «هل تسمعني؟.. هل تقرأ أفكاري؟..»

بالطبع لا تعليق..

قال عماد:

- «سوف تحرك رأسك بمعنى (نعم) ولا تحركها بمعنى (لا) فهمت؟..»

اهتزّ الرأس..

قال عماد:

- «هل أنت ظل تلك الأم المقيمة في الطابق العلوي.. التي توفيت في شمّ النسيم؟..»

اهتزّ الرأس..

- «لماذا توفيت المرأة؟..» ثم تذكر وحك ذقنه.. «لا. لا تصلح إلا الأسئلة ذات (نعم ولا).. هل أنت قتلتها؟..»

لم يرد الظل...

- «لنقل: إن هذه (لا).. هل ماتت لأنك غادرتها؟..»

هزّ الظل رأسه...

- «هل أنتم كثيرون؟..»

هزّ الظل رأسه من جديد..

- «هل تريدون بنا شرًا؟..»

اهتزّ الرأس من جديد، فشعرت بالدم يتجمد في عروقي..

✶ ✶ ✶

- 8 -

صحت في جنون:

- «عماد.. كف عن السخف.. لو كنت تعتقد أنك تدير محادثة مع ظل فأنت مخطئ.. هذه الاهتزازات ألعاب ضوء لا أكثر..»

- «ضوء لا يتلاعب إلا عندما تسأله؟!.. ضوء عبقري هو!..»

ثم رفع صوته قائلًا

- «أين الآخرون؟..»

كدت أقول له إنّه ينسى أن الإجابات (نعم لا) فقط، لكني وجدت أن الظل يرسم شيئًا ما.. رفع ذراعيه على شكل ضلعي مثلث وجعل كفيه للسقف ثم أنزلهما.. إنّه يستطيل بلا شك..

لا أفهم المراد.. نظرت إلى (عماد) متسائلًا، فهز رأسه في عدم فهم..

لا أعرف متى ولا كيف وجدت أنه يقف خلفي بثيابه الداخلية، وهو يواصل ارتداء ثياب الخروج الرثة. بينما ذلك الظل يتحرك في بطء على جدار آخر، وقد انكمش ليصير في حجم الرجل.. شعور غريب كأننا نراقب ثعبانًا حبيسًا..

سألته في رعب:

- «هل ستذهب؟!..»

قال وهو يربط رباط عنقه على طريقة المشنقة كعادته:

- «سوف أجلب بعض الأجهزة من داري.. هناك الكثير من التجارب التي أريد إجراءها على هذا الشيء..»

في هذه اللحظة دوى صوت ارتطام؛ فنظرنا مذعورين..

لقد طار كتاب كان موضوعًا على المكتب ليسقط على الأرض هذا الشيء يملك طاقة تحريك إذن، وليس مجرد ظهورapparition لا شك في أن غضبه أو ذعره مهمان لبلوغ هذه النقطة التي تسمح له بالتحريك.. ظل يسقط كتابًا!

أطلق (عماد) سبة بذيئة وهمس:

- «هذا يغير الكثير..»

- «هل تعتقد أنه قادر على أن يغلق الكشافات؟..»

- «لا.. هذه عملية معقدة بما يكفي.. على كل حال أنا لن أتأخر..»

وسرعان ما كان يغادر الغرفة فلحقت به.. كانت كل أجزاء منامته مبعثرة في الصالة.. منامة مكونة من 7 أجزاء.. ولا أدري كيف أية منامة أعرفها تتكون من جزأين، لكن هذا الرجل عبقري فعلًا..

أخذ مفاتيح سيارته وغادر الشقة وهو ينصحني بالحذر، كأنني يمكن ألا أفعل..

وسرعان ما وجدت نفسي في شقّة واحدة مع... مع ظل حبيس..

ليس شبحًا... لكنه شيء غريب لا أعرف أي حرف عنه..

حاولت أن أنسى.. لا يوجد تلفزيون في هذه الساعة (الرابعة صباحًا في السبعينات).. وبالطبع لا يمكن أن أحصل على كتاب؛ لأن الكتب كلها في غرفة المكتب..... معنى هذا أن عليَّ أن أجلس هنا وأقضم أظفاري حتى أصل لعظام الكف.. ولكني سمعت صوت شعائر صلاة الفجر تتسرب من مسجد قريب؛ فشعرت براحة نفسية..

هنا انقطع التيار الكهربي عن الشقة!!

✶ ✶ ✶

عزت!

عزت!

لو أنك أعطيت هذه المعلومات إلى جهاز كمبيوتر وطلبت رأيه، فإنّه سيبحث عن المضاعف المشترك بين هذه القصص..

سيقول لك: إن عزت موجود في كل قصة..

(عزت) هو جار تلك السيدة التي توفيت يوم شمّ النسيم (وأنا كذلك لو أردت الدقة!).

(عزت) هو صديق فنان الظلال.. عندما زارني ذلك الفنان كان يعاني فقدان الظل فعلًا، فلا يُمكنك أن تتهمني بهذه النقطة!

عزت

عزت له دور في هذه القصص جميعًا، وليس بوسعي معرفة حجم هذا الدور، لكني أعرف يقينًا أنه تم من دون علمه.. لقد تصرف بحماقة في شيء ما، وهكذا سبب ما حدث..

يجب أن أتذكر هذه النقطة فلا أنساها..

✶ ✶ ✶

انقطع التيار الكهربي.....

لقد وضعت كل شيء في الحسبان ما عدا هذا الجزء..

لا تنس أن انقطاع التيار الكهربي وارد ويحدث كثيرًا جدًّا..

لا يُمكنك أن تتم تجربة فيزيائية ما، من دون أن تفسد في آخر خطوة..

لقد انقطع التيار الكهربي، وزالت أسوار السجن التي تحيط بهذا الشيء.. إنِّه الآن حر..!

أنا في الظلام لا أعرف أين هو ولا ما ينتويه، لكني أعرف يقينًا أنه هنا وأنه غادر محبسه..

نهضت أترنح باحثًا عن مخرج.. لا أرى أي شيء اصطدمت بشيء على الأرض فأصابني الذعر، ثم أدركت أنه خف ذلك الأحمق الذي نزع ثيابه في كل مكان تقريبًا..

إنه هنا.. أتكلم عن الظل...

إنه موجود من خلفي.. من أمامي.. على اليمين.. على اليسار.. فوقي.. تحتي... إنِّه ست جهاتي كما يقول العرب..

إنِّه غارق وسط الظلام، كما تغيب سحلية خضراء وسط الأحراش، أو تغيب سمكة زرقاء في مياه البحر.. إنِّه يقف خلفي.. ربما أمامي..

إنِّه يرى ذعري..

له عينان متقدتان كجمرتين، لكنه لا يستعملهما الآن؛ طلبًا للتخفي...

إنِّه هنا...

سوف أجن...

بالتأكيد سوف أجن ما لم يعد التيار الكهربي...

صبرًا يا رفعت.. لقد أذن الفجر ولسوف يغمر النور الباهت الأبيض المكان بعد قليل.. فقط تماسك...

فجأة عم الضوء المكان..

الضوء الجديد شديد السطوع، كأنه كان يحتاج فترة الراحة تلك..

هكذا التقطت أنفاسي.. وهرعت إلى غرفة المكتب لأجد ما توقعته.. لقد رحل طبعًا..

فتشت الشقة بعناية فلم أجد له أثرًا.. في كلّ مرّة كنت أصطدم بظلي.. لا بأس.. على الأقل أنا لم أفقد ظلى بعد..

رن جرس الهاتف فوثبت مترًا في الهواء، ثم جريت كي أخرسه قبل أن يتوقف قلبي نهائيًا..

كما توقعت كان هذا صوت (عماد).. لقد وصل إلى شقته إذن..

- «عماد.. لقد انقطع التيار الكهربي و...»

هنا صرخ صرخة طويلة ثقبت مسمعي.. وهتف:

- «اسمعني!.. لا تضيع الوقت... أنا كنت أحمق..! لا علاقة لهذه الظلال بالأرواح ولا بتلك الطاقة.. كل هذا خطأ!.. إنها كائنات ذات حياة منفصلة تمامًا.. وهي محتشدة في مكان اسمه (دلتا).. لا أعرف المزيد..»

- «وأين أنت؟.. في البيت؟..»

عاد يصرخ:

- «اخرس!.. لا تضيع الوقت!.. هذه الكائنات ليست مسالمة ولا تكتفي بالظهور.. إنها تعرف كيف تقتل.. كيف تعتصر قلبك حتى يتوقف!.. هذه الظلال ملعونة ولا يوجد سبيل للقضاء عليها.. سوف تقضي على عالمكم وتفني وجودكم ذاته.. تذكر هذا.. تذكره يا رفعاااااات!..»

ابتعد الصوت عن السماعة كثيرًا...

ودوت صرخته الطويلة المفزعة..

لا أحد يصرخ بهذا الشكل إلا لو كان ينوي أن يموت بعدها..

ليس من حقه....

بالفعل سمعت صوت الارتطام، ولم يعد هناك من يكلمني على الجانب الآخر..

- 1 -

«لو أمرت القمر لهبط، ولو أردت أن أوقف النهار لتمهل الليل فوق رأسي.. لو أردت أن أبحر في البحر فلا حاجة بي إلى قارب.. ولو أردت أن أحلق فلا وزن لي..»

✶ ✶ ✶

للمرة الأولى أزور الولايات المتحدة، وكنت مدعوًا بالطبع إلى مؤتمر للفنانين التشكيليين.. أي إنني ذهبت على حساب وزارة الثقافة المصرية..

كنت متأهبًا لأن أصرخ وأشهق وأنبهر لدى نزولي من الطائرة، لكن البلاد بدت لي مخيبة للأمل نوعًا.. حديثة جدًّا.. باردة جدًّا.. تجارية جدًّا.. ليس لها ذات الطابع القديم المحبب لأوروبا مثلًا ليست غريبة في كل شيء كاليابان التي زرتها منذ خمسة أعوام.. في الولايات المتحدة إما أن تتسوق وإما أن ترتاد البارات، وهذا ليس شأني، وإما أن تجد البلاد مملة تلفظك بشكل ما..

كنت أقيم في (سياتل) على بعد خطوات من دار المؤتمر، فكنت أقضي أكثر يومي هناك ثم أجوب المدينة ليلًا..

تعرفت فنانة تشكيلية أمريكية من المدينة نفسها، تدعي (روزالين جيرث)، وقبل أن يذهب بك الخيال بعيدًا أقول لك: إنها أقرب إلى رجل امتلأ وجهه بالتجاعيد، ولها شعر ثائر في كل اتجاه، وتدخن كأنها دبابة محترقة.. لم أر أحدًا يدخن بهذا الشكل سوى (رفعت إسماعيل)، وإن كان هو أكثر رقة وأنوثة منها..

هي من طراز الفنان الأمريكي متوسط الموهبة والنجاح.. مطلقة.. ضائعة تمامًا.. ذات ثقافة ماركسية متخبطة؛ لأنها لم تقرأ كتابًا واحدًا لنهايته.. تتعاطى المخدرات، ومصابة بصداع مزمن، ولسوف تنتحر يومًا ما بالتأكيد..

روزالين مالت إليّ كثيرًا، ولا أجرؤ على قول: إنها أحبتني لكن ربما كان شكلي المريض عنصر جاذبية بالنسبة لها..

إنجليزيتي سيئة جدًّا.. أعرف هذا، وقد سخر مني رفعت مرارًا بسببها.. هذا الوغد يتكلم الإنجليزية كأحد أبنائها، وكان يقول لي: لا تتعب نفسك، وتكلم العربيّة.. فهي أدنى إلى فهم الغربيين من إنجليزيتك هذه. لكنّها - إنجليزيتي - مفهومة لهم على كل حال، دعك من أنني لاحظت أن الغربيين يجعلون كلامهم أبطأ وأسهل تلقائيًا عندما يكلمون من هو مثلي..

أعتقد أن (روزالين) كانت خير صديق لي في فترة المؤتمر، وكانت من ماساتشوستس، من أسرة متدينة، لكنّها تركت عالمها الحميم، وراحت تجوب أمريكا بحثًا عن المتاعب..

كم من مرة راحت تسألني عن ديانتي وشعائرها.. قالت لي إنها مهتمة بالأديان المقارنة..

حكيت لها عن صديقي غريب الأطوار رفعت.. لو أنها قابلت هذا الرجل لتزوجته على الفور، فهو يعرف كل ما من شأنه أن يجعل الحياة مثيرة معها...

إنها تفتقر إلى الهدف.. لا يوجد غذاء روحي حقيقي؛ لهذا تبحث عن أي وهم روحي.. سراب روحي...

أعتقد أنّ هذا شأن أمريكيين كثيرين.. المرء هناك إما أن يكون بروتستانتيًا شديد التعصب وإما بلا دين على الإطلاق ويختلق لنفسه دينًا...

كان هذا عندما كنت معها في ذلك المرسم الخاص بها..

إنها ترسم لوحات شنيعة غريبة.. أسلوب متقلب يقلد (مونش Munch) نوعًا في لوحة (الصرخة)، لكن من دون أصالة.. أنت تعرف لوحة الصرخة، التي تجعلك توشك على سماعها.. يُقال: إن هذه اللوحة تحرك شيئًا في نفسية كل من يراها..

كانت تحاول تقليدها، كما قلت لك.. ولم تكن موفقة جدًّا..

كانت هناك لوحة مشوهة غريبة، اكتشفت أنها تمثل وجهي!.. لقد قررت أن ترسمني إذن...

كانت تستعمل طريقة غريبة للرسم، فهي تضع أرضيّة لونية، وتنتظر حتى تجف، ثم تدهنها بطبقة سميكة من اللون الأسود، ثم تبدأ الكشط بسكين..

هكذا يبدو الرسم كأنه اسكتش سريع، لكنه مرسوم بقلم يتغير لونه في كل لحظة.. وهذا يعطي تأثيرًا مبهرًا للحظة الأولى، قبل أن تكتشف أن الأمر لا يستحق..

سألتني وهي تنفث دخان سيجارة:

- «ما رأيك؟..»

- «وهل يمكن وصف العبقرية بكلمات؟!»

أنا لا أريد أن أخسرها لهذا.. بعض الكذب الأبيض لن يضر أحدًا..

قالت في خبث:

- «أنت تكذب أيها الخنزير!..»

- «ربما أنا خنزير، لكني لا أكذب»

نفثت المزيد من دخان السيجارة..لا.. لن أقول لها إنني أحبها أبدًا، برغم أنني أعرف أنها تتوقع مني هذا.. هذه لن تدخل نطاق المجاملات، بل هي في نطاق الكذب الصريح الذي يشبه الانتحار..

إن أيام المؤتمر سوف تنتهي.. عندها سيكون عليَّ أن أفر من هذه المجنونة..

كيف تفر بعد ما تصارحها بحبك؟.. خاصة وأنت لا تميل إليها على الإطلاق؟!

مدت يدها وراحت تكشط المزيد من اللون الأسود عن لوحتي إياها...

لاحظت أن المدية شكلها غريب جدًّا، وأن مقبضها أسود لامع هذه مدية مخصصة لغرض آخر لا أعرفه بالضبط..

سألتها:

- «ما نوعية هذه المدية؟..»

قالت ولفافة التبغ في فمها، ومن دون أن تنظر إليَّ:

- «أثامي athame[3]..»

أثامي!.. هكذا صارت الأمور مفهومة..

عدت أسألها:

- «أثامي؟.. هل لهذا معنى ما؟»

قالت دون أن تنظر إليّ:

- «هي مدية طقسية تستخدم في عدة أغراض.. الساحرات يستعملنها لتوجيه الطاقة نحو هدف ما.. يستعملنها لرسم الدوائر السحرية.. يستعملنها لطقوس الزواج وافتتاح مراسم السحر.. يستعملنها كي تدلهن على الجنوب..»

ساحرات؟!

كيف فاتني أن ملامح (روزالين) هذه هي ملامح ساحرة فعلًا؟!

✶ ✶ ✶

- 2 -

قالت لي: إن المقبض أسود؛ لأنّه يختزن الطاقة النفسية هي تستخدمها في الرسم كي تبعث في الرسوم شيئًا خاصًا..

- «لا يمكن إهداء الأثامي لأن التقاليد تقول: إنها (تقطع) العلاقات..»

- «إذن كيف حصلت عليها؟»

- «اشتريتها..»

سألتها عن علاقتها بالسحر، فقالت:

- «أنا من كهنة الويكا Wicca.. هل تعرف ما هي؟»

- «لا أعرف..»

تنهدت وأشعلت لفافة تبغ أخرى، وقالت وهي تستند إلى ركبتها، وقد وضعت قدمها على مقعد عالٍ:

- «هذه محاولة لإعادة الأديان الوثنية القديمة وممارسات السحر التي قضت عليها المسيحية. لقد بدأت في إنجلترا على يد من يدعى (جاردنر)، وقد شرح طقوسها في كتاب يدعي (مهنة السحر اليوم).. كان هذا عام 1954 أي منذ عشرين عامًا تقريبًا.. إن الكهانة لها درجات عدة وتمر بعدة اختبارات.. الدرجة الثالثة تمنحك لقب (كاهن أعلى).. هذه لم أبلغها بعد.. يوجد نحو 134 ألفًا من ممارسي هذه العقيدة في الولايات المتحدة وحدها..»

نظرت إليها في حيرة..

على قدر علمي لم ألق ساحرة في حياتي.. لو كان رفعت الأحمق هنا!

الأظرف أنها كاهنة كذلك.. ومن تعبدين يا آنسة (روزالين) ما دمت لا تؤمنين بدين سماوي؟

قالت:

- «لما كان هذا النوع من السحر قد نشأ في إنجلترا، فهو يعبد آلهة إنجلترا القدامى.. غالبًا يلخصهم في إله وإلهة.. على كل حال هناك عقيدة أخلاقية أساسية هنا هي...»

ونظرت إليَّ في سخرية، ولمعت عيناها وقالت:

- «(إن كان لا يؤذي فأنت حر في عمله).. هناك 161 قانونًا وضعها (جاردنر)، لكنّها تتلخص في هذه المقولة..»

ثم قالت لي وهي تنظر في عيني:

- «غدًا يكتمل القمر.. هناك ثمانية أعياد لنا تدور مع عجلة العام. العيد الذي نعقده غدًا يدعى (إسبات).. وسوف أكون هناك طبعًا.. هل ترغب في أن تجرب؟..»

قلت في توجس:

- «أجرب ماذا؟!»

- «ترى هذه الخبرة الجديدة.. لو راق لك الأمر يُمكنك أن تنضم إلينا.. لكن هذا يحتاج إلى عام قبل أن يتم تنصيبك!»

لو كنت هنا يا رفعت العجوز، لتحمست على سبيل التجربة.

لكنك لست هنا، والحقيقة أن الفضول حركني بشدة لمعرفة ما يقوم به هؤلاء.. طبعًا لا مجال للكلام عن التنصيب والانضمام إليهم، لكني أريد أن أرى هذه التجربة الغريبة: احتفال وثني للساحرات في القرن العشرين.. أنا رأيت فيلم (الرجل الخيرزان)، وبدا لي كل هذا غريبًا جدًّا.. غريبًا ومثيرًا..

لهذا قبلت..

✶ ✶ ✶

كانت رحلة شاقة بالسيارة إلى تلك البقعة الخالية، لكني عرفت أن طقوس الويكا لم تعد سرًا، بل الكل يعرف أن ساحرات الويكا يجتمعن هناك.. لقد مر زمن طويل على الحقبة التي كانوا يحرقون فيها هؤلاء. هناك سيارات شرطة تنظم المرور، وهناك لافتات ومتاجر تبيع التذكارات، وهناك مهرجان عام، وبعض السياح الفضوليين.. باختصار لم يبق إلا بعض المجاذيب ليتحول المشهد إلى أي مولد عندنا في مصر. في أمريكا يمكن لأي واحد أن يعتقد بأي شيء.. فقط بشرط ألا يحدث ضجيجًا أو يعرقل المرور..

كان القمر الساطع يغمر المكان بضوئه البارد الرهيب..

وخطر لي أن الطقوس مهمّة جدًّا لهذه الأمور.. الطقوس تجعل الأمر يبدو ضخمًا مهمًا حقيقيًا.. لو انتزعت كل هذه الطقوس لأدركت أن هؤلاء مجموعة من المخابيل يسلون وقتهم..

كانت (روزالين) تلبس ثوبًا أبيض طويلًا، زادها قبحًا، وحمدت الله على أنهم لا يتجردون من الثياب لهذه الطقوس، كما كان يحدث من قبل لو حدث هذا لوجدت نفسي أختنق بين مشاعر الحرج والاشمئزاز، خاصة وأن الموجودات كن قبيحات جدًّا.. كما تعرف هناك في ذهننا صورتان جاهزتان للساحرات: الساحرة الشمطاء ذات المكنسة والدمل على أنفها، والساحرة الغامضة الفاتنة سوداء الثياب والشعر والعينين، والتي تجعل الرجال بلهاء. كل الموجودات كن من الطراز الأول على كل حال..

تقدمت نحو الأخريات وحينهن بعبارات من طراز:

- «التحية للأخت (إليانور)..»

- «التحية للأخت (روزالين)..»

هناك دائرة واسعة من نحو 13 ساحرة.. وعرفت أنّ هذا هو العدد المفضّل للجماعة، فإذا زاد العهد عن ذلك تكونت جماعة جديدة. يقفن بحيث ترفع الواحدة يديها لأعلى وتوجه الكفين للسماء، لتبدو كلها على شكل حرف Y.. هكذا يعتقدن أن إلهة القمر تقف..

(جاردنر) هو الذي اخترع هذه الديانة بالكامل، وإن زعم أنه أعاد إحياء التقاليد الوثنية التي قضت عليها المسيحية.. عندما قرأت عن الويكا فيما بعد عرفت أنه لفق الكثير جدًّا من خياله الخاص..

هناك تعويذة قديمة لهن تقول:

- «لو أمرت القمر لهبط، ولو أردت أن أوقف النهار لتمهل الليل فوق رأسي.. لو أردت أن أبحر في البحر فلا حاجة بي إلى قارب.. ولو أردت أن أحلق فلا وزن لي..»

هذه ثقة زائدة بالنفس.. يبدو أن الواحدة منهن تعتقد أنها سوبرمان.. أين ذهبت هذه المواهب العظمى إذن بينما (روزالين) فنانة متوسطة المستوى مكتئبة تتعاطى المخدرات؟!

لماذا لم تقدها هذه المواهب إلى السلام النفسي؟!...

هكذا وقفن يرددن كلامًا لا أفهمه.. ربما كان بالإنجليزية لكنّها إنجليزية سريعة جدًّا لا أستطيع متابعتها قطعًا...

هذا يبدأ مثيرًا، ثم يصير مملًا بعد ربع ساعة. للأسف لن يبدأن في ذبح بعضهن على سبيل كسر الملل.. لو حدث هذا لاستمتعت كثيرًا..

فيما بعد، قالت لي (روزالين) إن عليَّ لو كنت متحمسًا أن أقضي عامًا ويومًا في حضور الاجتماعات وفي دراسة (فكر) الجماعة، قبل أن يسمح لي بأن أكون واحدًا من الويكا...

(نحو 134 ألفًا من ممارسي هذه العقيدة في الولايات المتحدة وحدها).. لقد جن الجميع..

عندما عادت لي بعد ساعة كان رأسي مزدحمًا بالأسئلة وخاصّة ما يتعلق بكتاب الظلال..

✶ ✶ ✶

- 3 -

كان هذا الكتاب موضوعًا في مكان خاص في دارها.. هناك ما يشبه (الكونسول) على منضدة.. وحوله الشموع والستائر.. الشموع مهمّة جدًّا وحولها كلام كثير، لدى هؤلاء القوم، دعك من أهميّة الخنجر ذي المقبض الأسود الذي عرفت أن اسمه (أثامي). هذا المكان شيء قريب جدًّا من المحراب..

أثار هذا فضولي بشدة، وخشيت أن ألمسه حتى لا يتضح أن من يلمس كتاب الظلال هذا دنس يستحق الموت، أو شيء من هذا الهراء. وقد سألتها عنه في اليوم التالي فأخبرتني أنه كتاب تعاويذ خاص بهم..

- «لكن الكتاب ليس ثابتًا.. في الواقع لديَّ كل ساحرة كتاب الظلال الخاص بها، ويحوي ما يناسبها هي..»

- «هل هو يماثل كتاب (تحوت) و(نيكرونوميكون) وما إلى ذلك؟»

- «قلت لك: إنّه ليس ثابتًا.. إنّه ككتاب الطهي لدى جدتي.. تحفظ فيه الوصفات التي جربتها هي.. الأصل كتبه (جاردنر) عن السنسكريتية، لكنه سمح للجميع بالتعديل والإضافة.. لكن الحذف ممنوع.. لهذا هناك آلاف النسخ منه»

ثم قالت في انتصار:

- «في عهد الحرية هذا، صار بوسع الساحرة أن تدون تعويذاتها.. في الماضي كانت هذه التعليمات تنقل من فم لفم؛ لأن العثور عليها يعني الحرق..»

سألتها:

- «ولماذا أطلقتم عليه اسم (كتاب الظلال)؟»

- «العقيدة السنسكريتية كانت تعتمد بشدة على طول الظل الذي يسقط منك.. هذه أمور معقدة يصعب شرحها..»

- «هل تنوون طباعته؟.. سوف يبيع كثيرًا جدًّا!»

قالت في حزم وهي تهز شعرها المنكوش:

- «لا.. كتاب الظلال لا ينسخ أبدًا، وإنما يتم نقله كلمة كلمة هذه هي تعليمات (جاردنر)...»

سمعت من قبل عن كثير من هذه النصوص التي يحرم نسخها كأنه لابد أن تتحطم يدك في محاولة النسخ كي تثبت أنك مخلص..

لابد أن عملية الإعداد لمدّة سنة تلك، تتضمن نسخ مئات الصفحات..

✶ ✶ ✶

كانت تضع مفتاح دارها تحت (مشاية) أمام الباب، كما علمتني..

تتعامل بثقة كأنه لا يوجد لصوص هنا...

لما قرعت الباب عدة مرات لم أجدها.. هكذا فتحت ودخلت، وكنت أعرف أنّ هذا لن يثير غضبها.. هي سمحت لي بذلك أكثر من مرة..

فتحت جهاز التلفزيون وجلست أمامه. لقد انتهت فترة المؤتمر وسيكون عليّ أن أعد حاجياتي للرحيل غدًا.. الحقيقة أنني بدأت أحب هذه البلاد، لكن هذا جاء متأخرًا جدًّا وأنا على وشك الرحيل. يعلم الله وحده متى أعود ثانية..

نهضت ووقفت أمام ذلك المحراب.. ورحت أتأمل الشموع والخنجر..

رحت أقلب صفحات ذلك الكتاب الغريب، والحقيقة أنني كنت أقاوم رغبة شديدة في أن أسرقه.. هذا شيء سيروق لرفعت، أو سيتظاهر بأنه لا يثير اهتمامه لكنه سيروق له، لكني بالطبع لن أخون الأمانة حتى مع ساحرة.. خاصة أنها تعلق أهميّة بالغة على هذا الشيء..

في الصفحة الأولى وجدت رسمًا زخرفيًا جميلًا جدًّا.. قطعة من الفن الرفيع، وإن كان له طابع كتب القرون الوسطى المخيف.. لابد أن كتاب (مطرقة الساحرات) يشبه هذا. هناك عبارة تقول:

B tjohmf mjof gspn uif CPPL PG TIBEPXT Uipv tibu dpqz opu, mftu uif TIBEPXT tibu efbsu uif mjwjoh, spbn uif fbsui mjlf uif voefbd, uhbu jt uif ljohepn pg TIBEPXT. ofbs Ejbob uifz tibmu cf

وهي كلمات بليغة جدًّا كما ترى، خاصة مع الخط القوطي الذي يحتاج إلى ربع ساعة لقراءته..

ثم إطار كأنه إطار مرآة يحيط بها، بينما تمسك بأطراف الإطار شياطين صغيرة ضاحكة، وعلى الأرض يقف كائن يشبه (بان) إله المراعي عند الإغريق الذي صار فيما بعد رمزًا

للشيطان، وهو ينظر إلى اللوح المعلق في رضا.. بينما تحلّق في السماء سحب وأرواح هائمة معذبة..

هذا رسم باليد؟!.. مستحيل.. لا أصدق.. لا يمكن تصوّر قدر الجهد المبذول في شيء كهذا.. ونظرت حولي.. لا أحد يراني...

أخرجت الكاميرا التي أحتفظ بها في حقيبتي، وهي تسمح بالتقاط صور ممتازة قريبة.. لقد جربتها بنفسي مع أعمال فنية كثيرة، خاصة أنه ليس عليَّ أن أقلق من انعكاس الفلاش لأنّه لا يوجد زجاج هنا، وقد قمت بضبط العدسة والتقطت عدة صور لتلك اللوحة، ثم قلبت بضع صفحات من الكتاب والتقطت صورها.. التقطت كذلك عدة صور للمحراب.. هذه خبرة يجب ألا أنساها..

أعدت كل شيء لمكانه، وجلست أمام التلفزيون أتابع العرض..

ما هذا الذي أسمعه من غرفة النوم؟!

✶ ✶ ✶

- 4 -

صوت الأنين هذا..

هرعت إلى غرفة النوم الموارية وفتحت الباب..

على الفراش وجدت شيئًا هائلًا مثل (كينج كونج)، واستغرقت لحظات حتى أفهم أنه (روزالين) راقدة تئن.. لم أدر من قبل كم هي ضخمة مرعبة.. إذن هي كانت في الشقة منذ دققت الباب مرارًا.. فلماذا لم تفتح؟

باقي القصة كان واضحًا.. هناك زجاجة بها مشروب أصفر، ويسكي على الأرجح، وهناك زجاجة (كلورال هيدرات) برائحته المميزة.. المنوم الذي كنت أتعاطاه أحيانًا..

أنا لا أملك خبرة طبية، لكني أعرف أن تعاطي الكحول مع الكلورال هو وسيلة انتحار لا تفشل، ولا أعني بهذا أنها انتحرت، لكنه خطأ شائع في الغرب.. غالبًا لا يفيقون من هذه الغيبوبة..

بالفعل كانت تصدر شخيرًا طويلًا، وأدركت من لونها أنها لا تتنفس جيدًا..

كنت في حالة سيئة أنا نفسي؛ فأنا لا أتحمل أي نوع من الانفعال، وغدتي فوق الكلوية لا تعمل كما يجب.. من دون هرمون الكورتيزون الذي تفرزه لن أتحمل كل هذا الانفعال..

هرعت إلى حقيبتي التي تحوي طبعًا صيدلية صغيرة، وملأت المحقن بالكورتيزون، وحقنت نفسي أولًا..

ثم هرعت إلى جهاز الهاتف وطلبت 911... هذه هي معلوماتي عن الولايات المتحدة..

ليس انتحارًا.. أعرف هذا يقينًا..

إنّه خواء روحي دفعها إلى أن تغرق نفسها في الخمر والمهدئات وهو ما يدلك على أنّ هذه الويكا لا تساعد أتباعها كثيرًا على «لو أمرت القمر لهبط، ولو أردت أن أوقف النهار لتمهل الليل فوق رأسي لو أردت أن أبحر في البحر فلا حاجة بي إلى قارب.. ولو أردت أن أحلق فلا وزن لي..» إنها لا تمنحهم القدرة على الحياة ذاتها..

جاءت سيارة الإسعاف، وركبت معهم وأنا لا أعرف ما سأفعله بعد ذلك. روزالين كانت هي دليلي الوحيد في تلك البلاد.. حتى العودة من المستشفى تبدو عسيرة من دونها..

ظللت ساهرًا هناك بينما هم يحاولون جاهدين إعادتها إلى الحياة..

في النهاية، في ساعات الصباح الأولى ظهرلى د. (سام) وهو رجل متأنق حريص على أن يبدو رائعًا، وقد صافحنى حيث جلست في الاستراحة، وقال لي:

- «أوه ييه.. لو لم تكن أنت هناك لفقدناها.. سوف تنجو..»

قلت وأنا أشعر بأنني غير متزن بسبب السهر:

- «لولا صوت أنينها لبقيت أشاهد التلفزيون، وهي تموت على بعد خطوات مني..»

- «أوه ييه.. لكني أرجو أن تؤكد لي أنّ هذا لم يكن انتحارًا..»

قلت له مرتبكًا:

- «معلوماتي أنّ هذا ليس انتحارًا، لكن ربما كنت مخطئًا..»

نظر إليَّ لحظة في (ألاطة) ولسان حاله يقول: أيها الكذاب الخسيس!.. ثم رأى أنّ هذا ليس من شأنه.. فقال:

- «أوه ييه... إنها قد أفاقت.. يُمكنك أن تراها، ولكن لفترة وجيزة..»

هكذا دخلت غرفة العناية المركزة، حيث كانت (روزالين) راقدة وهناك ألف خرطوم يخرج منها حتى صارت كالأخطبوط..

دنوت منها في حذر..

لم يكن قناع الأكسجين على وجهها، ويبدو أنها عادت تتنفس بانتظام..

في هذه اللحظة لم تبد لي قبيحة على الإطلاق.. أشفقت عليها كثيرًا.. الساحرة الكئيبة الفاشلة.. هذا عنوان غير مطروق..

قلت لها:

- «أعتقد أنك لم تفعلي هذا عمدًا..»

بللت شفتيها بلسانها وقالت:

- «لم أفعله عمدًا.. لكنه كذلك لم يكن خطأ!..»

- «هذا لغز إذن!..»

- «هو كذلك.. شعرت بقوّة تدفعني إلى أن آخذ جرعة من الكلورال ثم أشرب.. لا أعرف السبب.. فعلت هذا وأنا أعرف أنه قاتل..»

- «إذن هو التعمد..»

- «بل هو ليس كذلك.. إنِّه لغز.. كأن قوىً أقوى منى أصدرت عليَّ حكم الإعدام.. كما حدث مع سقراط..»

فكرت حينًا ثم قلت:

- «أعتقد أن قصة الويكا هذه سوف تقودك إلى الجنون حتمًا..»

مدت يدها القوية المعروقة تتلمس يدي، ثم قالت:

- «إنِّه الصباح.. أعتقد أن موعد سفرك قد حان..»

- «هذا أسوأ وقت أتركك فيه..»

- «أنت قمت بما ينبغي عليك.. سوف أجتاز هذه المحنة.. لا تقلق..»

ودعتها في حرارة برغم كل شيء..

أشعر بأنني لن أراها ثانية أبدًا.. لن أسمع عنها ثانية.. على الأرجح لن تعيش طويلًا.. لكن لم يعد في الوقت متسع.. يجب أن أحزم حقائبي وأتأهب للذهاب إلى المطار.. معنى هذا أن وقتي ضيق فعلًا...

وعندما اتجهت إلى باب الغرفة سمعتها تقول بصوت مسموع:

- «احترس من الظلال!»

لم أفهم معنى هذه العبارة ولا دخلها في الموقف...

على الأرجح لم يستعد جهازها العصبي تماسكه بعد...

✶ ✶ ✶

- 5 -

مصر من جديد..

تلك هي المشكلة.. أنت تعجب بالخارج لكنك لا تطيق الابتعاد عن هذا البلد. لابد أن من يهاجرون يملكون نفسية لا أفهمها.. إما أن مصر كانت قاسية عليهم أكثر من اللازم وإما أنهم قساة أكثر من اللازم.. لا أعرف..

ذكريات كثيرة أحملها معي، وحشد من الصور.. طبعًا كان أول ما قمت به هو أن طبعت ما التقطته من صور لأغيظ به الناس..

وذهبت إلى رفعت إسماعيل العجوز، فوجدته لم يمت كالعادة.. وقد أمضينا ساعات لا بأس بها.. إنّه يمقت الولايات المتحدة مثلي، لكنه احتفظ بهذا المقت بينما تخليت أنا عنه..

حكيت له عن ساحرة الويكا، لكني لم أدخل في تفاصيل؛ لأن الذكرى باتت أليمة بالنسبة إليَّ.. منظرها وهي راقدة في العناية المركزة لا يريحني جدًّا.. فقط حكيت له أنني صادقت ساحرة ويكا، فقال إنّه لا يعرف الكثير عن هذا المذهب.. جماعات السحر الوثني تملأ أوروبا على كل حال.. فلن يضيف الأمريكان شيئًا إلا التقليد.. هم - كما قال - يقلدون الشامانية والصوفية والسحرة، ويلبسون الجلباب والشيلوار، ويأكلون الكباب والسوشي.. باختصار: هم يقلدون كل الشعوب بلا أصالة..

قال لي:

- «فكرة أمريكا أصلًا هي أخذ أفضل كل شيء من كل بلد آخر.. أفضل شيء أو أطرف شيء.. ثم تذويب هذا كله في بوتقة واحدة كبيرة.. الأمريكي عندما يشرب الساكي أو يأكل التورتيا Tortilla أو يلبس الجلباب يعتقد أنه صار يابانيًا أو مكسيكيًا أو عربيًا أكثر من هؤلاء القوم أنفسهم. هذا يضايقني ولا يشعرني براحة..»

لكنه قال إنّه يملك مدية الأثامي تلك.. أهدها إليه نصاب يهودي في الولايات المتحدة، وهو لا يذكر أين هي ولا أين وضعها.. لم يعرف قط أن لها أية أهميّة.

احتجت إلى أسبوع حتى أستعيد توازني.. ثم رحت أستعيد ذكرياتي مع الصور. طبعًا وجدت تلك الصور التي التقطتها لمقدمة كتاب الظلال بنقوشه العجيبة. وجدتها جميلة جدًّا، فأهديت واحدة منها لصديق لي يدعى (هاني فهمي)، وهو يدير مسرحًا لخيال الظل، وله اهتمامات فنية واضحة..

سألني في شغف عن محتوى هذه الصورة، فقلت:

- «مقدمة كتاب سحر وثني..»

- «أعوذ بالله!..»

- «بصرف النظر عن محتواه، لا تنكر أن الصورة جميلة متقنة، والأهم أنها مرسومة باليد.. كل نسخة من هذا الكتاب منسوخة باليد.»

وضع الصورة في جيبه وهز رأسه..

هذه هدية عجيبة لا يستسيغها كثيرًا، خاصة وهو خاطب، وفي ضائقة مالية يمرّ بها كل من يقدم على الزواج.. ليس ممن يتذوقون أن أذهب إلى أمريكا وأعود له بصورة فوتوغرافية كأنه كان يتوقع أن أعود له بغرفة نوم أو أدوات مطبخ..

ذكروني أن أهدي صورة لرفعت إسماعيل.. فربما يفهم شيئًا من تلك النقوش..

✶ ✶ ✶

حدثت في عالمي القريب أحداث مؤسفة..

لقد توفيت جارة لنا لديها ابنان؛ أحدهما طالب جامعة، وله أخت طالبة في الصف الثاني الثانوي. وبعد فترة وجيزة توفي الأب نفسه.. إنها مأساة حقيقيّة..

يبدو أن رفعت إسماعيل يتردد كثيرًا على هذين اليتيمين، مدفوعًا بمزيج من الشفقة والمسئولية.. هذا دور لا يناسبه، ولا تملك إلا أن تضحك في سرك عندما تتخيل هذا الخفاش العجوز سيئ الطباع وهو يتظاهر بالحنان..

لم تكن هذه نهاية مصائبي..

لقد فقدت (هاني).. فنان الظلال هذا الذي حكيت لك عنه..

كان ملهوفًا.. يرغب في أن يتصل برفعت إسماعيل. لا أعرف السبب، لكني رتبت لهما لقاء معًا، ثم ابتعدت عن الأحداث لأني خمنت أنه يريد أن يكون وحده مع صديقي غريب الأطوار..

من الغريب أن نحس رفعت يعمل بشكل فعال؛ لأن الرجل عاد لداره ومات بنوبة قلبيّة. هو صغير السن، ويصعب أن نجد تفسيرًا واضحًا لموته..

تلقّيت خطابًا من روزالين، وهي بصحة طيبة.. مؤقتًا أعرف أنها ستموت ذات يوم؛ بجرعة زائدة من المخدرات.. اعتدت أن أشم رائحة انتحار (ربما عن دون وعي) في موضوعات الجرعات الزائدة هذه..

أشياء غريبة تحدث.. يبدو أنني أصبت بالخبال بعد تجربتي مع الويكا تلك..

أحيانًا أرى ظلالًا تتحرك في مرسمي ليلًا.. وعندما أدخل أرى ذات الظلال، لكن بلا شخص يبعثها.. كأنها ظلال حرة لو أردت رأيي..

إن أعصابي مرهقة كما هو واضح..

عندما أعود إلى الولايات المتحدة في المرّة القادمة، عليَّ ألا أزور أي اجتماع للويكا..

هذه أشياء لا تناسبني، لكنّها خلقت لرفعت إسماعيل..

سوف يحضر هذه الاجتماعات ويجلب معه - دون أن يعرف - لعنة ما، تحل بهذا البلد المسالم.. هكذا تسير الأمور دائمًا..

أنا بحاجة إلى أيام في الإسكندرية..

يجب أن أرتب هذا في أقرب فرصة..

✶ ✶ ✶

- 1 -

«إنها كائنات ذات حياة منفصلة تمامًا.. وهي محتشدة في مكان اسمه (دلتا).. لا أعرف المزيد..»

✶ ✶ ✶

هذه آخر كلمات (عماد بدوي)..

لا أعرف مكانًا اسمه (دلتا)...

لا أعرف سوى دلتا النيل ذاتها... هناك ألف شركة باسم (الدلتا).. لكن ماذا تفيد الظلال من شركة بهذا الاسم؟!

كنت أفكر في هذا وأنا أنظر إلى جثته التي سقطت على الأرض.. نصف جسده كان فوق مقعد من الخيرزان في شرفة داره المسقوفة، والنصف الآخر كان يتدلى بلا حراك بين نباتات الظل.. السلحفاة تزحف بعيدًا سمجة كعهدي بها..

من فمه ما زالت الرغوة البيضاء تتساقط، ونظرة الرعب في عينيه..

السماعة تتدلى من الهاتف.. ذلك المشهد الختامي الذي يخبرك أننا في فيلم رعب.. سأحتاج إلى وقت طويل حتى أجد فيلم رعب لا تتدلى فيه سماعة الهاتف..

قال الضابط وهو يتأمل المشهد:

- «لست طبيبًا لكنّها نوبة قلبيّة بلا شك.. هل لديك رأي مخالف يا دكتور؟»

هززت رأسي أن لا.. أي طفل يمكنه أن يدرك أنها نوبة قلبيّة لكن ما الذي سببها؟.. أي ذعر شعر به عماد فجعله يهرع إلى الشرفة ثم يتعثر فيسقط؟

أعتقد أنه كان يريد فتح الشرفة.. كان يريد بعض الهواء.. ربما كان يأمل أن يسبق الموت إلى ضوء الفجر..

كان لابد أن أطلب الشرطة؛ لأن الشقة مغلقة على الرجل وهو لا يفتح الباب...

ما أغرب حياتي!.. لا أذكر كم ألف مرة وجدت فيها جثة ووقفت أرد على أسئلة الشرطة.. فلو كانوا يحتفظون بسجلات دقيقة لاتهموني بأنني سفاح..

كنت أعرف جزءًا من القصة..

لقد حاصرته الظلال في شقته، وأفزعته لدرجة الموت، أو ربما اعتصرت قلبه فعلًا..

بالتأكيد هذا هو ما حدث..

اتصل بي وأخبرني.. أخبرني بماذا؟.. لا قيمة لما قاله تقريبًا لكنه ترك السماعة وجرى للشرفة، ثم سقط وصرخ تلك الصرخة التي سمعتها..

هو قال: إن الظلال موجودة في مكان يدعى دلتا.. أنا رأيت ذلك الظل في الشقة (وجدت أن الظل يرسم شيئًا ما.. رفع ذراعيه على شكل ضلعي مثلث، وجعل كفيه للسقف، ثم أنزلهما.. إنه يستطيل بلا شك..)

الظل لم يتكلم مع (عماد)، لكنه رسم له تلك العلامة.. والعلامة معناها دلتا.. عندما سأل عماد الظل عن مكان الآخرين رسم علامة دلتا...

عندما غادرت الشقة كنت أغلق فاصلًا آخر من حياتي.

إنه ستار آخر يسدل فوق ذكرى من ذكرياتي، ووجه لن أراه ثانية أبدًا..

لم أكن أهيم حبًّا بعماد، لكنك بالتأكيد لا تريد أن يموت كل من لا تحمل لهم حبًّا..

ترى كم نقص وزنه لحظة الوفاة؟!.. هل فهم السر؟!.. أين ذهبت تلك الطاقة التي تحدث عنها؟!

هو الآن يعرف..

بالتأكيد يعرف..

تلك الحكمة الكاملة التي نظفر بها بعد فوات الأوان، وعندما لا نستطيع الاستفادة من هذا الذي عرفناه..

✶ ✶ ✶

كنا الآن في العاشرة صباحًا والشمس تغمر الكون، فيصعب عليك أن تصدق أنّ هذه الكوابيس حدثت ليلًا..

عرجت بسيارتي على مطعم، فابتعت بعض شطائر الفول والطعمية.. هذا يضفي الكثير من الأمل على الحياة. فقط سوف ألتهم هذا الإفطار وأشرب كوبًا من الشاي، ثم أنام عدة أعوام.. لن أستطيع الذهاب للعمل اليوم..

لقد اتصلت ببعض أرقام الهاتف التي وجدتها في شقّة عماد، وقد حضر بعض أقاربه.. سوف يقومون باللازم..

عدت لشقتي وأعددت كوب الشاي، بعد ما جمعت ثياب عماد المتناثرة، شاعرًا بالحسرة..

هنا دق جرس الباب..

شخص سمج آخر على ما يبدو.. لو أخبروني أن عليَّ أن أذهب إلى قريتي الآن لأن هناك من يحاول الاستيلاء على الفدان بوضع اليد و... فلسوف....

الشخص السمج كان (عزت)، وكان منتعشًا كالمصيبة.. قال لي:

- «قدرت أنك لم تنم بعد.. هل تفطر؟»

- «سمه عشاء.. لا أعرف بالضبط.. هي ليلة مع ظلال تتحرك وصديق يموت وتعقيدات من هذا النوع. هل تتناول شطيرة من الفول معي؟»

قال في كبرياء ساخرة:

- «معدتي لم تعد تتحمله.. لقد اعتادت الهامبرجر كما تعرف لن أعطلك كثيرًا على كل حال..»

- «إن الأخبار الطيبة تنهمر عليَّ..»

ناولني صورة فوتوغرافية أخرجها من جيبه، وقال:

- «هذه صورة من مقدمة كتاب الظلال.. لعلها تروق لك!..»

انحشرت اللقمة في حلقي، حتى اضطررت إلى ابتلاع المزيد من الماء.. ثم سألته بصوت مختنق:

- «كتاب ماذا؟!»

- «كتاب الظلال.. إنّه كتاب سحر الويكا.. حسبتك تعرفه..»

قرأت عن (الويكا) وعرفت أنهم يستعملون كتابًا اسمه (كتاب المرايا)، لكن (كتاب الظلال) هذا غريب عليَّ.. وهكذا بدأت بعض الصور تتداعى في ذهني قلت له وقد طار النوم من عيني:

- «تعال واجلس واحك لي..»

- «أحكي عن أي شيء؟»

- «السؤال هو الإجابة!.. سوف تحكي لي عن أي شيء يخطر ببالك.. تخيل أنها جلسة نفسية تمارس التداعي الحر.. خذ.. اشرب هذا الشاي وسأعد لنفسي كوبًا آخر.. هلمّ.. يا لك من أحمق!.. ألن تكف عن هذه النظرة البلهاء وتغلق فاك قبل أن يدخله الذباب؟!»

✶ ✶ ✶

- 2 -

«لو أمرت القمر لهبط، ولو أردت أن أوقف النهار لتمهل الليل فوق رأسي.. لو أردت أن أبحر في البحر فلا حاجة لي إلى قارب.. ولو أردت أن أحلِّق فلا وزن لي..»

✶ ✶ ✶

ظل (عزت) يتكلم حتى الظهيرة..

كنت أسمعه وأنا أعيد تأمل الصورة الفوتوغرافية مرارًا.. وفي كل لحظة أوقن أن القصة تبدأ من هنا..

(جاردنر) أنذر أتباعه بأن ينقلوا الكتاب ولا ينسخوه.. ما قام به عزت فعلًا هو أنه التقط عدة صور للكتاب.. هذا نوع من النسخ بلا شك..

أنا أؤمن أن هؤلاء مجموعة من المخابيل، لكني كذلك أؤمن بوجود السحر الأسود.. أي إنني أقبل جانب السحر في القصة، وأرفض الجانب الديني المتعلق بآلهتهم تلك.. كما قلت، هناك حقبة في تاريخ البشريّة يعرفها كل أنثروبولوجي؛ هي حقبة (السحر كدين).. إن الويكا تمت لهذه الحقبة بالذات، وما فعله جاردنر هو إعادة إحيائها.. ومن الممكن أنّ هناك جزءًا لا بأس به من السحر الفعال ظل وسط هذا النصب.

(عزت) أعطى نسخة من الصورة لذلك الفنان الذي نسيت اسمه.. لكن ماذا عن الأم؟.. ما دورها في القصة؟.. على الأرجح هي تلقت نصيبها من لعنة عامّة أصابت البناية كلها..

هنا يبرز سؤال: لماذا لم يصب عزت؟.. المنطقي أنه أجدر الناس بالإصابة بهذه اللعنة...

الجواب كما أعتقده: لأن تلك الساحرة الأمريكية المجنونة مالت إليه.. مست اللعنة من حوله، لكنه ظل حيًّا؛ ولهذا أنا مرشح بشدة لأتلقى عقابي..

لكن كيف أبرهن على كلامي؟

عدت أتأمل تلك الصورة، وأقرأ المكتوب عليها:

B tjohmf mjof gspn uif CPPL PG TIBEPXT Uipv tibu

dpqz opu, mftu uif TIBEPXT tibu efbsu uif mjwjoh, spbn uif fbsui mjlf uif voefbd, uhbu jt uif ljohepn pg TIBEPXT. ofbs Ejbob uifz tibmu cf

في ذكاء قال عزت:

- «هذا نوع من الشفرة..»

يا لك من عبقري!.. لو لم تكن موجودًا لهلكنا جميعًا!..

أمسكت ورقة وقلمًا وقررت أن أجرب طريقة (إدجار آلان بو) في الحشرة الذهبية.. لا أحد يستعمل هذه الأساليب الآن.. لكن لنفترض أن (جاردنر) كان أحمق..

حرف t شائع جدًّا في اللغة الإنجليزية.. يليه حرف a.. ما هو الحرف الأكثر شيوعًا في تلك الشفرة؟..

تكرر حرف u 17 مرة..

تكرر حرف b 15 مرة..

الطريقة التي اتبعها يعرفها خبراء الشفرة باسم (الهجمة الأنتروبية entropic attack).. لو افترضنا أن كل حرف u يشير إلى حرف t، وكل حرف b يشير إلى a، فإن بوسعي القول: إن كل تكرار الثلاثية uif معناه كلمة the..

وفجأة جاءني الحل كالصاعقة، فصحت:

- «يا لي من أحمق!..»

قال عزت باسمًا:

- «جميل أن يصل المرء لحقيقته في النهاية!..»

قلت دون أن أكترث به:

- «الشفرة تافهة جدًّا.. هذا الجاردنر لم يكن ذا ذكاء خلاق فقط هو استبدل بكل حرف الحرف التالي له في الأبجدية.. هكذا تحولت a إلى b وc إلى d.. ومن حسن حظه أن كلماته لا تحوي حرف z.. فأنا شغوف بمعرفة كيف كان سيتصرف وقتها..

ثم أمسكت بالقلم:

- «هل تحفظ ترتيب الأبجدية؟»

- «لا.. لم أراجعها منذ كنت في الصف الأول الإعدادي..»

- «نفس الشيء معي.. الترتيب يختلط خاصة في الجزء المظلم بعد حرف P.. سوف أحضر القاموس لنتذكر الترتيب الصحيح..»

ورحت أقرأ حرفًا حرفًا وأخطه - بعد التصحيح - على الورق...

وهكذا ولدت الرسالة الجديدة:

A single line from the Book of Shadows thou shalt copy not, lest the shadows shalt depart the living, roam the earth like the undead, that is the kingdom of shadow. .Near Diana they shalt be

قال عزت:

- «ما هذه اللغة؟.. وما موضوع Shalt هذا؟..»

- «الرجل نصاب، لذا يحاول تقليد الإنجليزية القديمة كأنه مخطوط.. thou بدلًا من You.. وshalt بدلًا من will. دعك من الكلام المقلوب ونفي الفعل مباشرة على غرارcopy not..»

- «وما هو المكتوب إذن؟»

ترجمت بصوت عالٍ:

- «أنت لن تنسخ سطرًا واحدًا من كتاب الظلال، وإلا هجرت الظلال الأحياء وجابت الأرض كالموتى الأحياء.. تلكم هي مملكة الظلال.. قرب ديانا سيكونون..»

بدا عليه الرعب.. واضح أن التهديد قد نفذ حرفيًا..

- «ولماذا يلجأ أحد إلى كتابة تحذير بالشفرة؟!.. المفترض في التحذير أن يفهمه الجميع..»

- «هذا التحذير موجه لجماعة الويكا فقط.. لا يفترض بالأغيار أن يقرءوه أصلًا..»

ثم عدت أسأل:

- «ديانا.. أرتميس.. ربة القمر عند الإغريق، والتي كانت ربة الصيد ثم غيروا تخصصها.. ما دورها في القصة؟..»

- «لا تنس أن احتفال الويكا كان عند اكتمال القمر.. كن يقلدنها فيقفن بهذه الطريقة..»

ووقف ورفع يديه لأعلى ووجه الكفين للسماء ليبدو كله على شكل حرف Y..

هنا تذكرت هذا المشهد..

الظل الذي استجوبناه لم يكن يرسم لنا علامة دلتا، وإنما كان يشير إلى ديانا..

(قرب ديانا سيكونون).. (الآخرون عند ديانا)...

الدائرة تضيق.. لكن أين أجد ديانا هذه؟

✶ ✶ ✶

- 3 -

على الشاشة راحت (سعاد حسني) تغني (يا واد يا تقيل).

عندما يقرر (صلاح جاهين) أن يكتب كلمات مرحة فإنّه يفعل هذا بشدة.

كل قاعة السينما من الشباب تقريبًا، وقد وقفوا في طوابير لعدة ساعات للظفر بمقعد.. أنا و(عزت) المسنان الوحيدان الكئيبان هنا..

لقد كان فيلم (خللي بالك من زوزو) ظاهرة وقتها، وظل يعرض لفترة طويلة جدًّا.. يصعب اليوم أن أفهم السبب، لكنه فيما يبدو شيئًا ما عند الشباب المصري وقتها، دعك من جمال بطلته ووسامة بطله..

(عزت) نائم هذا هو الصديق المناسب لي فعلًا..

كنت أراهن على هذه النقطة: (هانى فهمي) كان مع خطيبته في سينما تعرض هذا الفيلم، عندما اكتشف أن ظله حر يقف أمام الشاشة ويحجب الصورة.. هكذا حكى لي.. بما أنّ هذا الفيلم ثابت للأبد في دور العرض، فقد أعدت استعراض الدور التي تعرضه.. وكانت دهشتي عظيمة عندما وجدت أنّ هناك دار عرض اسمها (ديانا).. الآن أتذكر أنّ هذه بالفعل دار العرض التي دخلها الفتى ليلتها والقريبة من بيت خطيبته..

أين يمكن أن تحتشد الظلال؟.. هل من مكان أنسب من مملكة الظلال نفسها؟.. هل يوجد أفضل من دار سينما؟..

وماذا عن دار سينما اسمها (ديانا)؟.. ألا يحقق هذا حرفيًا عبارة (قرب ديانا سيكونون)؟..

لم يكن عزت مقتنعًا، لكني أصررت على أن نذهب للسينما.. ندخل الحفلة الأخيرة وننتظر..

ونظرت إلى ساعتي.

أعتقد أن الفيلم اقترب من نهايته.

هززت (عزت) لأوقظه وقلت له: إننا لو فقدنا أثر بعض سنلتقي عند باب قاعة العرض هذه في الثانية صباحًا.. نهضت في صمت أتحسس موضع قدمي في الظلام، متجهًا إلى الحمام..

كانت دورة المياه خالية، وفي ذلك الزمن كانت تفتقر إلى أية عناية أو نظافة..

دخلت واحدة من الدورات المغلقة، وفرشت منديلين ورقيين على القاعدة، وجلست..

في جيبي كشاف وأشياء أخرى.. وطبعًا معي الصورة...

بعد دقائق سمعت من يمشي بالخارج.. يسعل.. يفتح باب دورة مياه مجاورة ثم يغلقها عليه..

أعتقد أنّ هذا عزت. لكني سأنتظر ولن أكلمه الآن..

هكذا بدأ الانتظار، وهو نوع حقيقي من التعذيب البرومثيوسي.. تعذيب على مستوى الجلسة المرهقة والظلام والملل والرائحة لكن لا أجد حلًا آخر.. لا أعرف مكانًا آخر يمكن أن نتوارى فيه سوى هذا..

أخيرًا أسمع جلبة الناس..

أسمع خطوات عالية وصفيرًا..

لقد انتهى الحفل الأخير كما هو واضح..

ونظرت إلى ساعتي.. إنها الواحدة إلا الربع..

بعد ساعة وربع نغادر هذا المكان.. وبعد ساعة وربع يتضح أنني أحمق كالعادة.. وأتلقى اللوم!

✶ ✶ ✶

فتحت الباب وخرجت..

بعد لحظات كنت أقف مع (عزت) في رواق مظلم خارج دورة المياه..

قال لي وهو يضع منديلًا على أنفه:

- «تبًّا لك..... لو كنت مخطئًا فإنني...»

- «صه..... ما أردت إلا الخير، ولست مسئولًا عن نظافة دورات المياه كما تعلم..»

أعتقد أن العاملين قد رحلوا جميعًا.. لا أعتقد أنهم ينظفون الدار بعد انتهاء الحفلات، إنما سيتم هذا صباحًا، وعلى الأرجح قام المحاسب بجمع الحصيلة وأغلق خزانته أو درجه، وقام عامل العرض بلف بكرة الفيلم وأغلق مقصورته..

لقد تحولت دار السينما إلى مدينة أشباح..

يجب أن تعرف أن دور السينما في ذلك الزمن كانت في حالة سيئة فعلًا، قبل أن تبدأ موضة سينما المول و(الملتيبلكس) الحالية. لهذا كانت السينما صالحة جدًّا كي تكون مسكونة بالأشباح ليلًا..

كنا في حالة بالغة من الإرهاق بسبب الانتظار الطويل الذي جعل الأدرينالين يتدفق في عروقنا بشدة.. بعد هذا يزول الأدرينالين، فتشعر كأن الحياة ذاتها فارقت جسدك.. لا توجد عضلة واحدة قادرة على التماسك..

قال لي (عزت) وهو يلهث:

- «هل من خطة ما؟»

- «لا توجد خطة.. سنقوم بجولة تفتيشية.. لو قابلنا الظلال فلسوف أحرق هذه الصورة الفوتوغرافية برهانًا على حسن النية..»

نظر إليَّ في الظلام.. أعتقد أنني أعرف ما يفكر فيه..

مشينا في الرواق وشعرنا بهواء بارد يتسلل لنا..

للمرة الأولى أرى مدخل السينما بالأفيشات واللوحات المعلقة وقد ألصقت عليها الصور، وشبّاك التذاكر المغلق. أرى هذا كله من الداخل.. ووحدي..

كان هذا هو باب السينما.. شبكة حديدية ثقيلة تم إسدالها، لكننا نرى الشارع من خلفها.. الشارع المظلم، حيث بدأت قطرات ماء تتساقط، وثمّة كلب ضال يلتهم شيئًا جوار عمود نور..

مشهد كئيب لكنه أجمل مما نحن فيه. نحن غير قادرين على الخروج.. لقد أغلقت دار السينما علينا حتى الصباح....

على ضوء الكشاف صعدنا الدرج.. وعيناي تتلمسان الجدران...

كانت الكافتيريا أمامنا في الطابق الأول هناك ضوء خافت ينبعث من ثلاجة مشروبات تهدر بصوت كئيب، بينما الكافتيريا نفسها خالية تمامًا.. خزانة زجاجية كان يوضع فيها الفيشار، وأرفف كانت عليها الحلوى والشطائر وأدوات الشاي هناك سخان ماء عملاق، وهناك آلة عمل فيشار... ثمّة ثلاث أنابيب عملاقة من غاز البوتان..

فأر ركض جاريًا ليغيب في شقّ في الجدار قرب الأرض.. عامة ليست الفئران من المناظر الجميلة، لكنه أشعرنا بشيء غير قليل من الألفة.. هذا كائن حي من مخلوقات الله.. كائن طبيعي يجري ويأكل ويشرب ويموت...

لا يوجد شيء هنا...

فجأة هتف عزت:

- «هناك!..»

ونظرت بسرعة فأدركت أنني كنت على حق..

✶ ✶ ✶

- 4 -

رأيت هذا الظل يتحرك على الجدار جوار الثلاجة..

كان ظل إنسان يفتح ذراعيه عن آخرهما، ثم انحدر نحو الجدار المقابل، فاستطال ليبلغ السقف.. ورأيت بقعتيه الحمراوين اللتين هما عيناه...

نظرت في اتجاه مصدر الضوء فلم أجد أي جسم مادي..

لقد كان هذا ظلًا حرًا...

تراجع عزت لحظة... ثم رأيته يمسك برأسه ويترنح..

(عزت).. ماذا بك؟!.. هل أصبت بنوبة (أديسون) التي أخشاها؟!

لكنه كان يغمض عينيه. وفجأة همس:

- «روزالين تتصل بي بالتخاطر.. أنا متأكد من هذا.. إنها تعرف ما أفعله.. تقول لي: إنِّه لا جدوى.. إننا في خطر داهم.. يجب أن نفر..»

- «فات أوان هذا..»

- «تقول لي: إن الظلال تتكاثر.. تتغذى بالموت والذعر والاحتضار.. ذعرنا يجعلها أقوى..»

ونظرت إلى السقف حيث كان هذا الظل يطل علينا من أعلى... ثم راح يتحرك مبتعدًا داخلًا ممرًا جانبيًا..

هرعت ألحق به..

كان هناك باب خشبي ذو مفصلات زنبركية كأبواب الحانات أزحته جانبًا فوجدت أننا نقف وسط عشرات المقاعد الخشبية..

هذا - كما يبدو - مدخل من مداخل الدرجة الثالثة..

على الأرض عشرات الأكياس وقشر اللب وأعقاب السجائر والزجاجات الفارغة.. علامات جمهور الدرجة الثالثة (الترسو)..

لكن من أين يأتي الضوء؟

هناك مصباحان خافتان يرسمان كلمة Emergency exit ومع الظلام الدامس بدت إضاءتهما قوية جدًّا...

مشيت أكثر.. ومن خلفي عزت..

نحن هنا نرى الشاشة عن قرب.. الشاشة التي كانت سعاد حسني تغني عليها وترقص منذ ساعات، لكنّها الآن صارت بيضاء..

ليست بيضاء تمامًا.. هناك عشرات الظلال تتراقص عليها رقصة مجنونة..

إنهم مخابيل فعلًا.. هذه الرقصة لا يمكن فهمها ولا تقود لغرض ما..

ثم أدركت أنهم غاضبون..

لقد دخلنا مملكتهم عندما بدأ الحفل..

ظلال.. ظلال..

ظلال.. ظلال..

كم من بشري مات وهو يمسك بقلبه كي يولد ظل من هذه الظلال؟!

ومر ظل من فوقنا فانحنينا.. وهي حركة لا معنى لها لأنّه شيء يستحيل أن تتحاشاه.. لكنه ارتمى على جدار مقابل وتكسر فوق المقاعد الخشبية...

صحت بأعلى صوتي فتردد الصدى في القاعة كلها:

- «أنا لم آت هنا إلا لأثبت حسن نيتي.. هذه الصورة تم استنساخها بطريق الخطأ.. هل تفهمون هذا؟»

ومددت يدي في جيبي ولوحت بالصورة الفوتوغرافية.. ثم أخرجت القداحة وأشعلتها وقربتها من الصورة.. بدأت تحترق تذوب.. تحترق.. تذوب.. حتى شعرت بلسعة النار على أناملي..

كانت الظلال متصلبة ترمقني..

حتى تلاشت الصورة..

في اللحظة التالية شعرت بألم شديد في قلبي... أنا عاجز عن التنفس.. ما هذا الذي يحدث؟

صرخ (عزت) في رعب:

- «رفعت!.. انظر إلى الظلال!»

ونظرت إلى الظلال على الجدار المجاور لي فرأيت ظلي وأنا أمسك بصدري.. في الوقت ذاته يحيط بظلي ظلان عملاقان يمد أحدهما يده في صدري..

لكن...

ظلي يتحرك بشكل منفصل عني.. إنِّه يقاوم، لكنهما يجرانه يبتعد عني وقد صارت له حياة خاصة..!

فهمت..

إن الصورة كانت تحميني طوال هذا الوقت، وعندما أحرقتها لم يعد لديهم ما يمنع من انتزاع ظلي وانتزاع حياتي ذاتها.. ظلي ينضم لهم، وعما قريب يتحرك على هذه الجدران، بينما أسقط أنا جثة خالية من الحياة..!

نوبة قلبيّة..

من سيجدون الجثة صباحًا لن يجدوا إلا كهلًا أصيب بنوبة قلبيّة..

ولكن....

✶ ✶ ✶

- 5 -

بآخر ما تبقى في صدري من حياة، مددت يدي إلى جيبي.. أخرجت الشيء..

ونظرت إلى ظلي على الجدار، فوجدت المدية في يده..

رفعت المدية وهويت بها.. بمعنى آخر: جعلت ظلي يهوي بظل المدية على الظلال التي تحيط به...

رأيت الظلين يبتعدان.. يتخليان عن الظل الذي كانا ينتزعانه من مكانه..

أحد الظلين تهاوي ساقطًا، والآخر فر مذعورًا...

وعندما رفعت يدي وجدت أن الظل رفع يده معي.. لقد صار لي من جديد.. إنِّه ظلي مرّة أخرى.. ومن جديد عاد قلبي ينبض، والدم يسري في أوصالي..

هتف (عزت) المذعور:

- «ماذا حدث؟!»

- «قلت لك: إن لدى تلك المدية.. (الأثامي).. أنت تعرف أنها تحمل طاقة نفسية في مقبضها الأسود.. وقد خطر لي أنها قادرة على الدفاع عني؛ لأنهّا تنتمي إلى الويكا.. إن ظل المدية يطعن الظل بنفس المنطق الذي تطعن به المدية نفسها شخصًا حيًّا..»

- «هل تعني أن بوسعنا قتل الظلال بهذه الطريقة؟»

نظرت إلى أعلى..

ظل يتحرك على الشاشة..

ظل يركض على الأرض...

ظل يتلوى بين المقاعد..

ظل يلتف من حولنا..

ظل على الباب..

ظل يصعد الدرجات..

ظل بين مقعدين..

ظل ينتفض على الشاشة..

ظل يركض على الجدار الشرقي..

ظل يملأ السقف..

ظل ينحدر من أعلى..

ظل يركض بين أقدامنا..

ظل يتلوى بين المقاعد..

ظل يلتف من حولنا..

ظل فوقي..

ظل على الأرض..

ظل يصعد الدرجات..

ظل بين مقعدين..

ظل ينتفض على الشاشة..

ظل يركض على الجدار الغربي..

ظلال.. ظلال.. المئات منها..

لن تجدي هذه الطريقة أبدًا..

✶ ✶ ✶

الظلام التام أو الضوء الساطع..

لا سبيل للقضاء عليها إلا الظلام التام أو الضوء الساطع..

الظلام لا يجدي لأنهّا تتوارى فيه.. إذن هو الضوء الساطع..

- «اتبعني يا عزت..»

ورحت أصعد الدرجات لاهثًا.. أخيرًا وصلت لتلك البوابة بين الصالة والدرجة الثالثة، فعبرتها.. كانت موصدة طبعًا فتسلقتها، وهذا لم يكن صعبًا؛ لأنهّا بارتفاع طفل..

- «رفعت.. إنهم يترصدون بك!!..»

نظرت إلى الجدار فوجدت ثلاثة ظلال تهاجم ظلي.. رقصت رقصة القتال وجعلت ظلي يوجه إليها ثلاث طعنات قاتلة.. ثم واصلت تقدمي..

مشيت بين مقاعد الصالة لاهثًا.. أصعد درجات أخرى نحو البلكون..

هناك باب في نهاية البلكون.. أعبره وأصعد المزيد من الدرجات..

- «لا تتأخر عني يا عزت..»

هنا مقصورة العرض.. وهي مغلقة بقفل طبعًا..

لكن هناك محولات النور كلها في صندوق جداري.. لا أعرف ما هو صحيح وما هو كفيل بصعقي، لكني على كل حال مددت يدي إلى أول رافعة وجذبتها لأعلى فأحدثت صوتًا..

تراك!

رأيت قطاعًا من الأنوار الجانبية يضيء...

تراك!

المزيد من الأنوار يسطع..

سوف أقضي عليها.. سوف أحيل صالة السينما إلى جحيم من النور ليست فيه بقعة ظل واحدة..

لكن ماذا بعد ذلك؟

لا أدري..

✶ ✶ ✶

- 6 -

انتشر النور ليغمر قاعة السينما كلها..

لكن لم يكن ساطعًا بما يكفي، ولم يغط كل شيء.. هكذا ظلت هناك أماكن عديدة سخية بالظلال.. والأدهى أن الظلال كانت تخرج للصالة وترجع بلا توقف.. لابد أن ردهات السينما تمتلئ بها.

وزحف ظل نحوي ليعتصر قلبي، فطعنته بالمدية...

انثني حول نفسه واستطال حتى مس سقف السينما، ثم تهاوى...

إنهم يغتذون بالرعب والذعر..

إنهم ينمون بلا توقف..

قلت لـ (عزت):

- «لا جدوى.. لن نستطيع القضاء عليها.. سوف ينهكوننا إلى أن نموت.. يجب أن نخرج..»

- «وماذا عن حرق المكان؟»

- «النار لن تفعل شيئًا.. سينتقلون إلى مكان آخر.. إنها ظلال...»

- «ولكن كيف نفر؟».

كنت أفكر في الدرجة الثالثة.. دائمًا ما يكون هناك باب يقود إلى زقاق خلفي، وهذا الباب غالبًا من الخشب غير المدعم بالحديد..

هكذا عدت أنزل السلم الطبقي مارًّا بالبلكون فالصالة فالترسو.. أنتقل من علية القوم إلى الطبقة المتوسطة فالفقراء....

ورحت أفتش عن باب، بينما الظلال ترقص تلك الرقصة المجنونة من فوقي..

هناك الباب الذي دخلنا منه.. وهناك باب جانبي آخر عليه قُفل..

طلبت من (عزت) أن يساعدني؛ فقلبي واهن ولا أقدر على تحطيم هذا القفل..

التقط مقعدًا خشبيًا وراح يحاول بقدم خشبية أن يهشمه ضربة.. وأخرى.. فأخرى..

في النهاية هوى القفل محطمًا... وانفتح الباب..

أزحته بقدمي فرأيت الزقاق المظلم القذر الذي كنت أحلم به صوت نباح الكلاب من بعيد يعيدك للحياة..

هنا خطرت لي فكرة..

- «من جديد أفكر في الأمر.. أعتقد أن فكرة حرق المكان قد تصلح..»

- «الظلال لن تجد مشكلة.. أنت قلتها..»

- «لا أتحدث عن الظلال.. أتحدث عن إرغام البلدية على هدم هذه السينما، أو انهيار سقفها... في الأساطير الإغريقية كانت ديانا أو أرتميس ابنة زيوس وليتو وأخت أبوللو.. كانت هناك لعنة من لعنات (هيرا) قضت بأن الطفلين لن يولدا إلا في موضع لم تره الشمس قط.. هكذا قامت ليتو بتعويم أرض من قاع المحيط ليولد عليها طفلاها..»

قال في غيظ وهو نافد الصبر:

- «الخلاصة.. ماذا تريد قوله؟»

- «أريد أن تغمر الشمس هذا المكان.. لو كان هؤلاء يريدون ديانا فإن الشمس تقضي على ديانا.. سنحيل هذه السينما إلى خراب.. فإما أن يهدموها، وإما أن يتهاوى السقف وتدخل الشمس مع ساعات الصباح القادمة..»

ثم قلت لاهثًا، وأنا أستند إلى الباب وأناوله القداحة:

- «لم تعد بي قوة تسمح بالعودة.. دعك من أنك منيع كما أرى بوضوح.. سوف تعود إلى الكافتيريا وهناك تجد ثلاث أسطوانات عملاقة من غاز البوتان.. سوف تفتحها جميعًا ثم تتراجع وتشعل النار بالقداحة في أي شيء قريب قابل للاشتعال بعشر بعض الأوراق المحترقة في الصالة.. عندما تلحق بي هنا سيكون الغاز قد بلغ اللهب..»

نظر إليَّ في قلق، ثم تناول القداحة واندفع يركض عبر الصالة..

انتظرته في قلق على الباب الموارب، وعيناي لا تفارقان ظلي الذي ارتمى على أرض الشارع..

إنّه ملكي.. ما زال تحت سيطرتي..

✶ ✶ ✶

لقد أنذرتني الكينونة منذ زمن..

قالت لي إن عليَّ ألا أثق بالظلال..

قالت لي إن العالم كما نعرفه في خطر عظيم..

معنى كلامها أنني فشلت.. على الأرجح، لن أتمكن من عمل شيء..

قد أقضي على الظلال مؤقتًا.. لكن الاحتمال الأكبر أنها ستفر وستجد لنفسها موضعًا آخر (قريبًا من ديانا)...

لربما احتجنا إلى طلب معونة من فتاة الويكا تلك..

لربما منحتني الكينونة حلًا..

لا أعرف.. فقط أدرك يقينًا أن الأمر أكبر مني وأن ما سنحصل عليه هو فترة هدنة لا أكثر..

لقد حكى لي (عماد) قبل وفاته عن حوادث مماثلة في أمريكا وإنجلترا.. معنى هذا أن القصة تكررت.. هناك من نسخ كتاب الظلال فلحق به انتقام الظلال..

في كل مكان من العالم تحتشد الظلال الغاضبة لتعتصر قلوب ضحاياها..

إنهم ينشرون الذعر والهلع..

وينمون.....

ينمون...

✶ ✶ ✶

جاء (عزت) راكضًا لاهثًا وهو يحمل رزمة من أوراق كراريس المدارس وجدها في مكان ما، وراح يشعل أعدادًا منها ويبعثرها فوق المقاعد. بعض المقاعد كان من الخشب الجاف وقد بدأ يشتعل فعلًا..

قلت له:

- «هيا بنا..»

وغادرنا السينما من باب الدرجة الثالثة. فقط نظرت إلى الخلف لأرى ظلالًا طويلة تمتد من الباب عبر أرض الشارع نحونا.. كأنها تحاول الظفر بنا..

كنت ألوح بالمدية كالمخبول ونحن نبتعد بسرعة.

سيارتي تقف هناك أمام مدخل السينما الرئيس.. باردة هامدة.. لكنها تمنحك الأمان والثقة..

ركبنا وأدرت المحرك..

فرو فرو فرو... بوم!

لم يكن هذا المحرك الذي انفجر، ولكن الصوت من دار السينما الفارغة التي انفجرت فيها ثلاث أسطوانات من غاز البيوتان..

فليكن الضرر بليغًا.. يا رب.. فليكن الضرر بليغًا!..

السماء تتلون بلون رمادي؛ لأن الفجر قد اقترب، لكني كذلك أرى سحابة الدخان الكثيفة..

فلنفر إذن..

✶ ✶ ✶

قال لي (عزت) وهو ينظر عبر النافذة الخلفيّة:

- «هل قضينا على هذه الظلال؟»

قلت دون أن أنظر إلى الخلف:

- «بالطبع لا.. هذا مجرد قرار إزالة.. نوع من المياه التي يرشها صاحب المقهى لمنع الأطفال من اللّهو أمام مقهاه لكنهم سيتجمعون من جديد ويواصلون اللعب..»

- «والنهاية؟»

- «لا أعرف.. سوف تتكاثر هذه الأشياء للأبد... أعتقد بلا مبالغة أنها نهاية الحياة كما نعرفها...سيكون عليك أن تتصل بروزالين هذه طالبًا النصح.. ربما كانت تملك الإجابة..

وربما لا....»

✶ ✶ ✶

ربما هو زمن مقتطع ليس لنا، وربما لحقت هذه الظلال في داري الليلة بالذات، لكن الوقت كان كافيًا لأن أعيش فترة أخرى.. فترة تكفي كي أمر بأسطورة الطوطم...

لكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

المقـــدمـة

تمهيد

الجـزء الأول: بيت الظلال الحائرة.. يحكيه رامي عطية

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

- 6 -

- 7 -

- 8 -

- 9 -

الجـزء الثاني: عندما فقدت موهبتي.. يحكيه هاني فهمي

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

الجـزء الثالث: قـــوم الظـــلال.. يحكيه رفعت إسماعيل

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

- 6 -

- 7 -

- 8 -

الجـزء الرابع: كتاب الظلال.. يحكيه عـــزت

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

الجـزء الخامس: حيث تنتظر الظلال.. يحكيه رفعت إسماعيل

- 1 -

- 2 -

- 3 -
- 4 -
- 5 -
- 6 -

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والإثارة



د. أحمد خالد توفيق

أسطورة الظلال

أسطورة الظلال ! . كيف لم أحكها بعد ؟ .. أعتقد أنها تناسب الجميع خاصة الأطفال ، كما أنها تحتوى موعظة أخلاقية بسيطة هى ألا تثق فى الأشخاص الذين لا ظلال لهم . هى نصيحة قديمة قدم الرعب نفسه ، لكننا ننساها دوما .. الأسوأ ممن لا ظل لهم أولئك الذين يتصرف ظلهم بشكل منفصل .. يبدو أن السينما التعبيرية الألمانية قتلت هذا الموضوع بحثا فى أوائل القرن العشرين والأفلام الصامتة الكابوسية الباردة .

مرحبا بك فى عالم الظلال وقوم الظلال وأساطير الظلال ..

مرحبا بك فى صالون الدكتور (رفعت إسماعيل) ...

العدد القادم

أسطورة الطوطم

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

مطابع أطلس الدولية

الثمن ف
وما يعادلـ
فى سائر الدول العربية والعالم

Notes

[1←]
هـ. ج. ويلز.

[2←]
قدمناها في (روايات عالمية للجيب) - الكتيب رقم 55

[3←]
هكذا تنطق فعلًا..

روايات مصرية للجيب

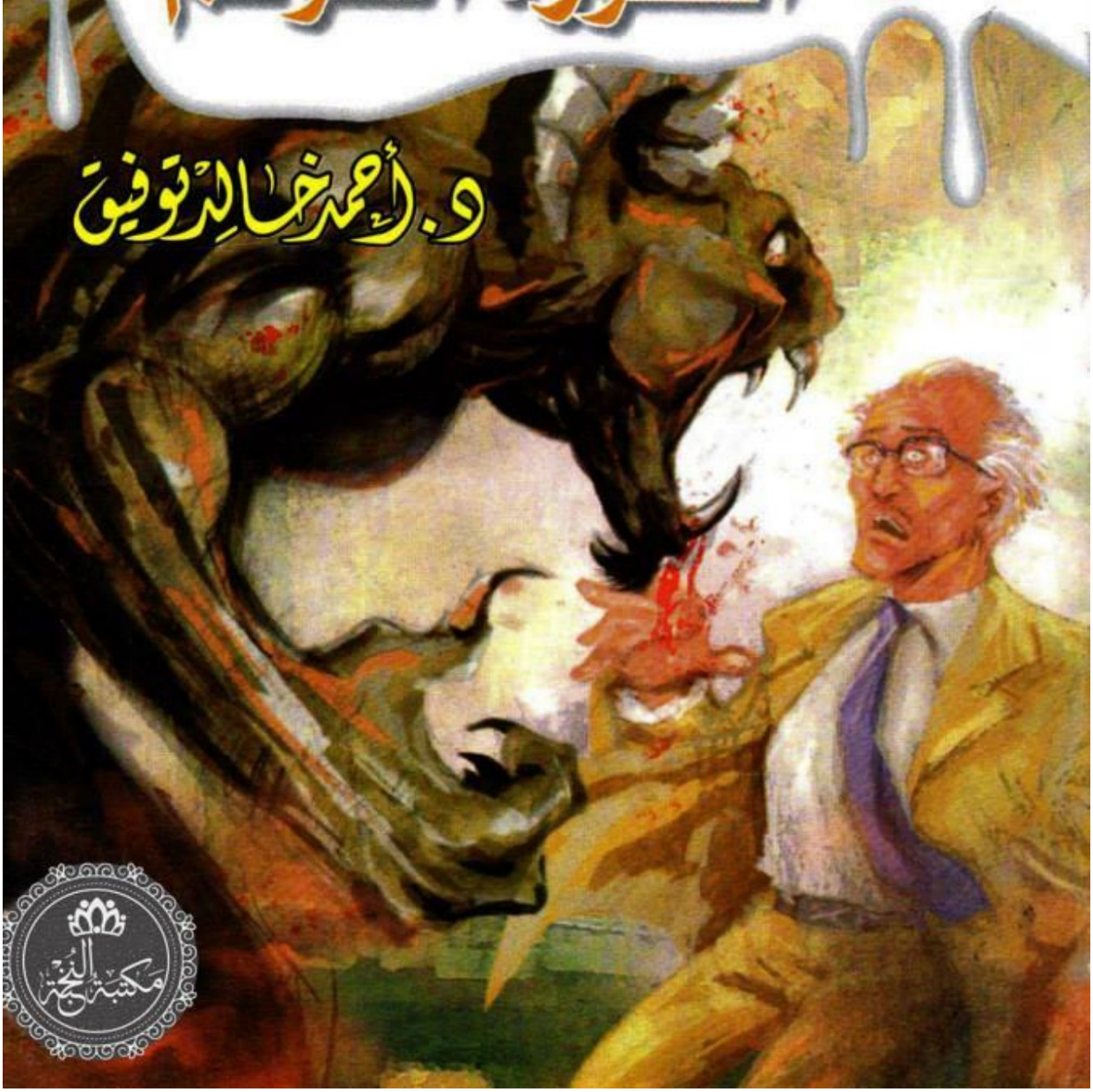


ما وراء الطبيعة

72

أسطورة الطُّوطَم

د. أحمد خالد توفيق



مكتبة النخبة

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



72

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة الطُّوطم

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط
الغمـــوض والرعـــب والإثارة

72

•

أسـطورة الطُّوطم

بقلم: د. أحمد خـالد توفيق

الغـلاف بريشـة: أ. أيمـن القـاضي

المؤسسة
العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

المقدمة

يبدو أن وقتًا لا بأس به قد مر منذ حكينا قصة الظلال.. إن هذه الغرفة خالية منذ زمن، وقد بدأ البرد يتسرب لها.. البرد وذلك الشيء الذي لا يمكن وصفه، والذي يميز الأماكن المهجورة منذ زمن..

الأماكن لها شخصيّة ولها لغة خاصة.. هذه أشياء نشعر بها لكن لا نتعمق فيها.. من يتعمق أكثر من اللازم في هذه الأمور يصر شاعرًا أو يجن..

نعم.. الغرفة خالية وإن كانت لها لغة خاصة بها.. غرفة ثرثارة لو أردنا الدقة، والأكثر سوءًا هو أنني لا أحب صوت الغرف.. إنّه مزعج مكتوم رتيب يثير الغيظ..

لهذا قررت أن أحطم هذا الصمت المشوب بهمس الغرف، وأحكي لكم قصة جديدة..

- «لم لا تحكي لهم قصة التابوت الذي.....؟»

من قال هذا؟.. غالبًا هي الغرفة.. لا يا سيدتي الكريمة لن تكون هناك توابيت اليوم على ما أعتقد فقد حكينا عنها الكثير..

- «وماذا عن مصاص الدماء الذي.....؟»

لا.. لن يكون هناك مصاصو دماء.. حكينا عنهم الكثير..

- «هناك مذءوب في مدرسة البنات.. فتاة تتحول لذئب عندما..»

تتحول لذئب عندما يدق الجرس.. أذكر هذه القصة لكن أحدًا لن يصدّق أنني لم أستوحها من فيلم (كنت مذءوبًا مراهقًا).. ثم إن المذءوبين الذين يتحوّلون صاروا أكثر من اللازم.. فكري في شيء آخر يا سيدتي الكريمة..

كانت هناك قصة جيدة مع الكاهن الأخير (هن تشو كان)، لكن هناك تفاصيل لا أذكرها، ويجب أن أعيد البحث في أوراقي الأوراق التي لا أذكر أين وضعتها طبعًا... يبدو أنني مضطر لتأجيل هذه القصة اليوم..

لحظة..

قصة الطوطم لم أحكها بعد، ويبدو أنني وعدت بهذا.. إنها جيدة وستروق لواحد أو اثنين منكم، مما يجعلها مغامرة مضمونة النجاح..

هناك طوطم.. لو كنت قد تذكرت كتاب فرويد الشهير (الطوطم والتابوو Totem and Taboo) فلا يوجد (تابوو) هنا.. دعك من أنّه كتاب معقد فعلًا ولابد من قراءته عدة مرات.. ما نحن بصدده أقل تعقيدًا بمراحل..

نعم.. الليلة سأحكي قصة الطوطم..

أولًا سوف أعد لنفسي بعض الشاي.. أريد أن أسهر لأنهّا ستكون قصة طويلة..

ثانيًا يجب أن أبتلع أقراص علاج الضغط - الربو - تضخم البروستاتا - قرحة المعدة - ارتفاع ضغط العين... إلخ..

ثالثًا سوف أغلق الغرفة للتأكّد من عدم حدوث مفاجآت غير سارة.. لا أحتاج لخيال كي أرى مشهد المتسلل الليلي إلى شقتي ليجد عجوزًا وحيدًا جالسًا أمام مكتبه وظهره للباب.. الأباجورة مضاءة كبقعة وحيدة في الظلام.. إغراء لا يمكن أن يقاومه.. إنه يقترب ويقترب.. ثم...

لا داعي لهذا.. سوف أغلق الباب فأريح وأستريح...

كل شيء جاهز..

هل أحضرتم آذانكم معكم؟.. جميل.. جميل...

فلنبدأ..

طوطم Totem: حيوان أو نبات أو شيء طبيعي يلعب بين بعض القبائل دور الرمز للقبيلة أو العشيرة، وأحيانًا يُقدَّس باعتباره المؤسس أو الجد الأكبر أو الحامي.

- مجموعة اجتماعية ترتبط بهذا الشيء.
- رمز مقدس أو شعار.

[قاموس التراث الأمريكي]

- 1 -

العام 1890...

بالنسبة لـ (جيريمياه إلوود) لم تكن قبيلة (أوجيبوا) الهنديّة تمثل أكثر من بائع للجلود...

إنهم قوم شديدو المراس ولا يسهل التفاهم معهم، دعك من أنهم استطاعوا قهر كل القبائل الهنديّة الأخرى في المنطقة.. إنهم من استطاع أن يسحق (السيوكس Sioux) وهذا ليس سهلًا.. هكذا غادر السيوكس منطقة أعالي المسيسبي.

في ذلك العصر - منذ مائة عام ونيف - كانت ولاية (نورث داكوتا) تعجّ بالهنود الحمر، قبل أن ينخفض عددهم ليمثلوا 5% فقط من هنود الولايات المتحدة..

كان يركب النهر في قاربة المدبب الذي يطلقون عليه اسم canoe، ويجدف عبر المياه الثائرة وهو يدندن لنفسه، حتى يبلغ جزيرة السلحفاة..

إن (جريمياه) نموذج ممتاز للرجل الأبيض الذي غزا هذه الأصقاع (عندما كان الرجال رجالًا). هناك ينزل إلى الشط.. ولم يكن يحاول أن يتوغل كثيرًا.. فقط ينصب خيمته ثم يشعل النار..

ينتظر..

ذات مرة جاء دب أشهب عملاق يركض ففر (جيريمياه) إلى الأشجار وتسلقها، وراح في حسرة يراقب الدب وهو يمزق الخيمة إلى أشلاء وهو يزأر. لابد أن الأمر استغرق ساعة قبل أن يمل الدب هذه اللعبة ويرحل.

لكن في الأحوال العادية لا يحدث شيء.. إنّه يشعل النار ويسخن طعامه المكون كالعادة من الفاصوليا والقهوة، ثم يعلق المرآة على شجرة ويحلق لحيته بالموسى..

هناك فرصة 90% أنه سيراهم قادمين منعكسين في المرآة في هذه اللحظة بالذات. دائمًا يأتون في هذه اللحظة لسبب لا يفهمه.. يرى خيولهم تتقدم في صف واحد.. يستدير وهو يجفف الصابون عن ذقنه ويتقدم في حذر..

إنهم خمسة من هنود (أوجيبوا) الأشداء مكفهري الوجوه.. لا يُمكنك أن تشعل عود ثقاب في أرض الهنود من دون أن تجدهم حولك بعد دقيقة.

يقف أمام الرجال ثابتًا لبضع دقائق، ثم يرفع يده اليمنى محييًا..

هو يعرف الأول.. إنّه (الثور الغاضب).. رجل صموت قوي البنيان يبدو عالي المكانة عندهم لأن الآخرين يطيعونه. لكن (جيريمياه) لا يجسر على الدنو من أرضهم.. لا أحد يجسر على الدنو من أرض من هزموا السيوكس.. فقط تتم الصفقات هنا يتجه إلى القارب ويخرج ما جاء به من زجاجات خمر ومن تبغ ممتاز.. ثم يعود بهذه الأشياء ليلقى بها أمام حوافر خيول الهنود، هنا يترجل أحد الرجال ليلقي بحزمة من الجلود على الأرض.. هكذا تتم الصفقة والمقايضة.. يرفع (الثور الغاضب) يده مودعًا دون أن يبدو أي نوع من الود على وجهه، وتستدير الخيول مبتعدة، ويعرف (جيريمياه) أن الهدنة انتهت وأن عليه أن يحمل الجلود ويرحل بأسرع ما يمكن..

هكذا يمضي إيقاع حياته وهو يكرر هذا العمل مرة كل شهر تقريبًا..

إن أرباح الجلود ممتازة بالتأكيد..

لكن (جيريمياه) لم يكن ليمارس هذه التجارة ما لم يكن قد تلقى الشعلة من تاجر سابق يعرفه الهنود جيدًا..

كان (سام مكماهون) العجوز هو من علمه هذه المهنة (سام) العجوز السكير منتفخ البطن الذي لا يستطيع تصويب زجاجة الخمر إلى شفتيه، قال له:

- «سترى يا بني.. هؤلاء الهنود قوم شديدو الكبرياء عظيمو البأس.. لا تصدق ما يقوله هؤلاء الحمقى القادمون من المدينة، فهم لا يعرفون شيئًا عن الهنود..»

ويجرع العجوز جرعة أخرى من الزجاجة ويقول:

- «بحق الشيطان فكر أنك تتعامل مع أسد الجبال.. يجب أن تظل ثابتًا ولا تبدي الخوف، وتنظر في عينيه طيلة الوقت لا أحد يمزح مع الأسد... لو عاملت هؤلاء القوم كما تعامل الأسد لظفرت برضاهم واحترامهم، لكنك لن تظفر بثقتهم أبدًا...»

وأخذه معه في رحلته الأولى لتبادل الجلود.

كان (جيريمياه) وقتها شابًا وسيمًا مرتبًا له شعر طويل جميل يغطى كتفيه، وكانت ثيابه نظيفة، لكن (سام العجوز) علمه. أن يلبس ويتصرّف كتجار الفراء..

- «لا تحسبهم سيبشون لك ويهشون.. هم لا يعرفون كيف يبتسمون أصلًا لأن جلودهم متصلبة قاسية بفعل الريح والشمس.. فقط تذكر أنهم يحترمونك ما داموا لم يقتلوك!»

تمت الصفقة كما هي العادة، فعلمه (سام) أن يرحل فور الانتهاء لأنه لا أحد يبقى في أرض (أوجيبوا) ثانية واحدة بعد انتهاء الصفقة..

كان (سام) برغم كل شيء صديقًا مخلصًا وقد علم الفتى الكثير وأدرك (جيريمياه) أنه سيكون عليه يومًا ما أن يعلم شابًا من بعده كي ينقل له هذه الأمانة..

قال له (سام) وهو يمسح فمه بكمه:

- «هؤلاء القوم يعرفون أشياء كثيرة.. صدقني يا بني.. إن لقبيلتهم سبعة فروع.. كان القوم يرونها في أرض الفجر حيث كانت نشأتهم. أحد الفروع السبعة كان قويًا جدًّا لدرجة أنه كان يقتل الناس الذين يأتون ليروه، وهكذا لم تبق سوى ستة فروع ترمز للقبيلة.. منها رأس الثور وصانع الأصداء (الكرى) والبطة والدب والوعل.. السابع الذي رحل كان طائر الرعد. كانت النبوءة تقضي بأنه على القبيلة أن ترحل للغرب، وإلا انقرضت بفعل الرجل الأبيض القادم من أوروبا. بدأت الهجرة للغرب عبر مناطق مميزة منها كوبيك وجوار شلالات نياجرا.. وقرب متشيجان. هكذا صار الأوجيبوا يملكون معظم متشيجان ومنيسوتا ووسكونسين وجبال السلحفاة في داكوتا.. أنت تعرف أنهم تحالفوا لفترة مع الفرنسيين ومع البريطانيين..»

سأله الفتى:

- «ماذا تعنى بالفروع؟»

- «يعتقدون أنهم جاءوا من ستة حيوانات.. هذه الحيوانات ترمز لأصلهم وترمز لكل أفراد القبيلة.. إنها الجد وهي في الوقت ذاته كل واحد منهم.. لن تفهم..»

ثم رسم بإصبعه عمودًا تذكاريًا وهميًا:

- «لديهم هذا الشيء الخشبي الذي نحتت عليه وجوه عديدة.. يطلقون عليه اسم (دودم).. إنّه مقدس بالنسبة لهم وهناك يعقدون اجتماعاتهم المعروفة باسم (باوا واوا) كلما اكتمل القمر.. ثم يرقصون ويقيمون بعض الطقوس الغامضة.. بعضها مخيف صدقني.. لكن الرجل الأبيض لا يستطيع أن يقترب.. إنهم لا يثقون بالرجل الأبيض.. إنهم يحيون بعضهم قائلين: آنيين أودودمايان؟.. يعني (ما هو الدودم الخاص بك؟).. هذا لأن الدودم هو كل شيء وهو ما يمثل كل واحد منهم أمام الآخرين وأمام نفسه.. الدودم الذي يمثل الدب كبير جدًّا لدرجة أنهم يستعملون أجزاء منه فقط كالرأس أو الضلوع..»

ثم بصق في النار، وقال:

- «أريدك أن تعرف لكن لا تحاول أن تروي ظمأ فضولك.. إنك تخاطر بحياتك إن فعلت..»

- 2 -

إنّه الشتاء..

لقد مات (سام) منذ عامين بسبب فشل الكبد.. اصفرت عيناه وراح يقيء دمًا، لكنه أصر على أن يعالج نفسه بالمزيد من الخمر.. هذا عجل بنهايته على كل حال...

الآن صار (جيريمياه) وحيدًا يمارس كل ما مارسه صديقه القديم: يعبر بالقارب إلى أرض (الأوجيبوا) ليجري صفقة تبادل الجلود ثم يعود.. الكل يحسده لأنّه ليس بوسع كل واحد أن يتعامل مع هؤلاء القوم، لكن تركة العجوز (سام) كانت باقية..

ما زال (الأوجيبوا) يعيشون في جماعات تمارس الصيد وصيد السمك وزراعة الذرة.. يعيشون في (وجوام) وهي أكواخ مدببة من أعلى تميز جماعاتهم..

كان يعرف أن الزمن يتغير، وأن الجيش الأمريكي سوف يظهر في لحظة ما لينقلهم إلى مكان آخر، ولن تكون هناك جلود بعد اليوم.. لقد حاولت الحكومة الأمريكية نقلهم إلى منيسوتا غرب المسيسبي وقد ارتكبت مذابح كثيرة لهذا الغرض.. كان الهدف يرمي إلى عزلهم في (كانتونات) منفصلة كي ينعم البيض بأرضهم لكن هؤلاء القوم قاوموا بشدة حتى عجزت الحكومة الأمريكية عن التخلص منهم..

ظل لفترة طويلة يمارس هذه التجارة معهم... كان يبيع الجلود بعد هذا، ثم كان يتوجّه إلى (بسمارك) كي ينفق ما كسب في الحانات ويقضي أيامًا من الصخب لا تنتهي، حتى تفرغ جيوبه فيعود لهم.. وبرغم أنه مارس أنواعًا عدة من الرذيلة فإنّه لم يذق الخمر ثانية، لأن صورة (سام العجوز) وهو يقيء دمًا كانت تطارده باستمرار..

الحياة منتظمة هادئة، فهل تعرف السبب الذي جعله يقرر أن يفسد هذا كله؟

✶ ✶ ✶

الفضول قتل القط..

لكن (جيريمياه) يؤمن أن كل شيء محدد سلفًا حتى لحظات ضعفنا... لقد شاء القدر أن يختار يوم اكتمال القمر بالذات كي يقوم بعملية تبادل الجلود..

وعندما جاء الهنود وألقوا له بالبضاعة، وعندما ابتعدوا وأطفأ النار وتأهب للرحيل، خطر له أنه يسمع شيئًا..

بالفعل كان صوت دقات الطبول قادمًا من بعيد، وهو إيقاع منتظم يحرك كل عضلة في جسدك.. نوع من الرغبة المحمومة في الجنون تتصاعد لرأسك..

بوم.. ببوم.. بوم...

بوم.. ببوم.. بوم...

يتخيل النار المشتعلة العالية والصنم المنتصب والهنود يرقصون حوله بطريقة مبهرة تمارس نوعًا من التنويم المغناطيسي على وعيك..

إن الشمس سوف تغرب قريبًا.. هذه الدقات هي إنذار باقتراب (الباوا واوا).. لكن الأمور ستبلغ ذروتها عندما يكتمل القمر...

لا يعرف متى جر القارب ليخفيه تحت مجموعة من الأشجار، ثم بدأ ينسل بين الأشجار في الاتجاه الذي لم يمش فيه من قبل قط... الاتجاه الذي يرحل الهنود نحوه بعد إجراء الصفقات.. لهذا إثارة بالغة تشبه أن تتبع الشمس الغاربة حتى الأفق الغربي وتواصل رحلتك لتعرف أين تغفو ليلًا..

كان قلبه يدق مع الطبول..

سوف يرى ويعرف.. وسوف يعود بذكرى مهمّة وحكاية مثيرة..

(برومثيوس) في رحلة السطو على النار.... (إيكاروس) يحلق نحو الشمس بأجنحة من شمع.. هو لا يعرف هذين البطلين لكنه يشعر بما شعرا به...

بعض هذه الطقوس مخيف.. قالها (سام) فما معنى هذا؟.. الهنود لا يمارسون التضحيات البشريّة ولا يذبحون الأسرى، فما المخيف في الطقوس إذن؟

يمشي والفضول يملأ قلبه...

بوم.. ببوم.. بوم...

بوم.. ببوم.. بوم...

مشى كثيرًا جدًّا لأن القوم كانوا يتحركون على الخيول، أمّا هو فليس معه جواد ولو كان معه لما جرؤ على أن يستعمله.. هؤلاء الهنود يشمون الجياد ويرون أثر حوافرها وسط مئات الآثار الأخرى..

أخيرا رأى جبالًا صغيرة بارتفاع قامة الرجل العادي، على كل جبل عمود من الخشب نحت عليه وجه حيوان ما.. هذا ليس غريبًا لأنّه يعرف أن هؤلاء القوم يدفنون الميت تحت كومة تراب، ويضعون على الكومة (بيت الأرواح).. أي إنهم لا يكتبون اسمه بل يضعون عمودًا خشبيًا يرمز للحيوان الذي ينتمي له... هو إذن في المقابر..

مشى ومشى مسترشدًا بتعالي دقات الطبول...

أخيرا صار الصوت عاليًا جدًّا وهو يزحف على بطنه ليطل على واد فسيح يُريك نظرة بانورامية لقرية (الأوجيبوا)..

بالفعل هناك ذلك (الدودم) الذي يبلغ ارتفاعه قامة رجلين.. هناك الخيام المدببة، وهناك أطفال يلعبون عراة، وهناك نار بدأت تشتعل منذرة بقدوم الليل...

يرى قارعي الطبول يواصلون إيقاعهم الذي يشعل النفوس...

يرى رجالًا يبدو أنهم مهمون يجلسون حول النار.. منهم ذلك الرجل (الثور الغاضب) الذي يتعامل معه. كانت زجاجات الخمر قد خرجت.. الزجاجات التي جاء هو بها، وقد بدا غريبًا له أن يرى الويسكي في أيدي هؤلاء.. يمررون زجاجة بينهم ويجرعون بعض الجرعات، بينما تمر عليهم النساء حاملات جرارًا بها شيء ما..

الرجل الذي يلبس قناعًا يشبه الدب هو الساحر بلا شك، وهو يمسك بلفافة من قلف الشجر يقرأ ما فيها بصوت عالٍ..

اللفافات الدينية السرية التي تحدث عنها الصيادون!..

سر الأسرار.. لا أحد يعرف محتواها سوى الساحر نفسه...

الليل يقترب.. القمر سوف يبزغ بعد قليل....

يجب أن يرى.....

✶ ✶ ✶

في البداية حسب أن التركيز والظلام يخدعانه...

ثم أدرك أنه يرى ما رآه وأنه غير واهم..

إن ذلك المشهد الذي اختلط فيه الظلام بضوء القمر الفضي باللهب المتراقص لن ينسي ثانية أبدًا.. يكفي أن تعرف أنه عض كمه بعنف كي لا يصرخ، وحتى سال الدم بغزارة من ساعده..

من السهل أن تجن أو تفقد روعك عندما ترى شيئًا كهذا....

حاول أن يصمد بعض الوقت ليفهم ما يحدث لكنه لم يستطع..

كان هذا أقوى منه..

وفي اللحظة التالية كان يركض وسط الأشجار مبتعدًا.. هل ستكون رحلته في النهر آمنة في هذا الظلام؟.. لا يهم أن يبتعد عن هذه الجزيرة اللعينة..

عندما تتعامل مع رجل عدة أعوام ثم تكتشف فجأة أنه الشيطان...

لقد نجا بمعجزة من سنوات التعامل هذه.. (سام) لم يكن يعرف هذه التفاصيل وإلا لبحث عن مصدر رزق آخر غير الجلود..

يركض هاربًا في الظلام مهتديًا بضوء القمر.. من بعيد تدق الطبول..

بوم.. ببوم.. بوم...

بوم.. ببوم.. بوم...

إنه الآن في منطقة المقابر.. فجأة يصطدم بشيء أو شخص ما..

يسقط معه على الأرض ويرفع عينه ليدرك أنها امرأة هنديّة مذعورة بدورها..

قبل أن يتكلم كانت قد فتحت فمها كبئر وأطلقت صرخة حادة.. صرخة طويلة.. صرخة تصم الآذان...

لابد أن حناجر هؤلاء القوم ليست كحناجرنا....

وسمع الطبول تكف عن الدق، ثم سمع صراخ هؤلاء القوم وهم يهرعون لنجدتها..

هناك رجل أبيض دنس طقوسنا الدينية.. قبيلة (الأوجيبوا) كلها ضدّ هذا الأبيض الذي تجرأ وعرف كل شيء..

نهض وراح يركض كالمجنون..

صوت الصراخ من خلفه.. صوت حوافر الخيول.. صوت الرجال..

ثم صوت الكلاب؟

عندما يطاردك الهنود بخيولهم وكلابهم وأنت على صهوة جواد فإن فرصة نجاتك معدومة، فماذا عن فرصة نجاتك وأنت تجري على قدميك؟

ينظر للخلف ثم يقرر أن يستمر... من ينظروا للخلف وهم يركضون يتعثروا...

لا يعرف كيف ولا متى وصل إلى الشاطئ ولا كيف جر قاربه إلى النهر في الظلام، ولا كيف راح يجدف كالمجنون وهو يتوقع الرمح الذي سيخترق قلبه في أية لحظة..

فقط نظر للخلف مرة فلم ير أحدًا عندها فقط استطاع أن يسترخي قليلًا وأدرك أنه لم يتنفس تقريبًا منذ صرخت تلك المرأة حتى الآن.. لا.. منذ رأى ما رأى في ذلك (الباوا واوا) حتى الآن...

بعد أن استعاد أنفاسه عاد يجدف بسرعة، لأن الخطر لم يبتعد كثيرًا.. من الممكن أن يرى قواربهم وعليها مشاعلهم تلاحقه في أية لحظة...

كان القمر يسمح له برؤية طريقه، وإن لم تكن الرحلة هينة لأن النهر ليس وديعًا جدًّا...

لقد نجا (جيريمياه) بالطبع وإلا لما عرفنا هذه القصة، لكن أيام بيع الجلود انتهت.. لقد ذبح الدجاجة التي تبيض ذهبًا والسبب فضول أحمق...

سوف يعيش ويموت دون أن يجسر على الاقتراب من جزيرة السلحفاة.. حتى إن رأى هنديًا يبتاع شيئًا في المدينة كان يفر منه فراره من الأسد، لأن فكرة أن يلاحقوه للانتقام لا تفارق مخيلته.. طعنة في الظلام وجثة لا يعرف أحد قاتلها.. ما أسهل هذا..

هم على الأرجح عرفوا من هو.. لابد أن أحد كشافتهم رأى القارب الصغير وهو يبتعد في البحيرة.. ربما وصفته المرأة للمحاربين...

بعد أعوام عرفت حانات المدينة (جيريمياه) سكيرًا مفلسًا يتردد عليها محاولًا إقناع أي شخص بأن يبتاع له كأسًا من الخمر، وكان يحكي حكايات غريبة عن الأوجيبوا لم يصدقها أحد، وكان يحكي عن (الدودم) - الذي لم يعرفوا ما هو - بلا توقف، وفي النهاية مات وقد تلف كبده...

✶ ✶ ✶

اليوم نجحت حكومة الولايات المتحدة في القضاء تقريبًا على (الأوجيبوا)، لكن من بقوا منهم أحياء موجودون في جبال السلحفاة في شمال (نورث داكوتا).. وهي جبال تعجّ بالبحيرات ومناجم المنجنيز. هناك محمية السلحفاة التي يعيش فيها الهنود وهناك بحيرة (متيجوش) التي تقع بين أمريكا وكندا حيث يحتشدون ويمارسون صيد الأسماك....

من الغريب أن القلاقل استمرت حتى زمن قريب نسبيًا، خاصة في مدينة (الركبة المجروحة) بساوث داكوتا حيث دفن زعيم السيوكس (الجواد المجنون) منذ عام 1877. في ذات المدينة وقعت مذبحة عام 1890 على يد رجال جيش الولايات المتحدة. ثم وقعت مذبحة أخرى عام 1973 حيث حاصر جيش الولايات المتحدة المدينة إثر انتفاضة من الهنود فيها، وتم تبادل إطلاق النار..

هذه القاعدة التي وجدتها حكومة الولايات المتحدة مفيدة مع الهنود... اقتلهم بلا رحمة.. اقتلهم كالدجاج... حاصر من يبقى حيًّا منهم... بعد قليل سوف يستسلمون ويكتفون ببيع التذكارات للسياح، والظهور في الأفلام السينمائية ليرقصوا حول النار وهم يغنون.. لن يبقى من الحضارة الهنديّة سوى بعض الأشياء الطريفة الموحية بالغموض والسحر لأن هذا يثير الخيال الغربي، مثلما لا يجب أن يبقى من الحضارة العربيّة سوى الأهرام والجمال وبعض لمحات ألف ليلة وليلة..

فقط حاول فيلم واحد أن يعيد بعض الاعتبار للهنود، وكان هو فيلم (يرقص مع الذئاب) الذي صور في نفس المكان تقريبًا: (ساوث داكوتا) قرب الحدود الكندية، وكانت قبيلة (السيوكس) هي محور قصته...

لقد انتهت قبيلة (الأوجيبوا) تقريبًا لكنّها ظلت تحمل لطوطمها ذات الإخلاص...

وكانت تلك هي المشكلة...

- 1 -

لا أذكر بصراحة كيف قابلت (راسم أبو سيف)..

ربما عرفته عن طريق د. (رمزي حبيب) خبير المصريات، لكني لا أستطيع أن أقسم على هذا لو طلبت مني. على كل حال يمكنني أن أتخيّل ما دار في المحادثة بلا جهد:

- «(راسم أبو سيف)؟.. اسم غريب جدًّا!»

لابد أنني قلت هذا وابتسمت.. فقال محدثي:

- «لا أجده بهذه الغرابة..»

فلابد أنني قلت وأنا أحك صلعتي:

- «لا أدري.. لو كان (محمد أبو سيف) أو (عادل أبو سيف) أو (راسم شاهين) لبدا معقولًا، لكنه بهذه الطريقة يبدو ملفقًا.. كأنه اسم بطل قصة لا وجود له في الواقع..»

قال لي بعصبية:

- «هذا ما تراه أنت.. إذا كنت تفضل أن نلغي هذا الرجل من الوجود لأن اسمه لا يروق لك فلتقل هذا بوضوح..»

- «لو كان هذا ممكنًا لكانت الحياة رائعة.. لكنني سأقبل وجوده بقلب سمح.. أنت تعرف أنني أتميز بالسماحة..»

على كل حال كان لقاؤنا في أحد فنادق القاهرة المطلة على النيل. لم يكن اسمه هو الغريب فقط بل هو نفسه كان غريب المنظر.. أنت تعرف أن الناس ينظرون لي في دهشة عندما يروننني، لكنهم في هذه المرّة لم يلحظوا وجودي أصلًا ولا أعني بهذا أن الرجل كان قبيحًا.. كان فقط غريب المنظر فعلًا. وكان يتحدث عربية رديئة جدًّا..

إنّه في الخامسة والثلاثين، أسمر اللون له ملامح صلبة وجلد مشدود، وهو فارع القامة قوي البنية بشكل ملحوظ، غير متأنق لكنّها تلك (البهدلة) التي تميز الغربيين ولا تصدمك كثيرًا.. في عقولنا نترجم هذه (البهدلة) لا شعوريًا إلى (بساطة) بينما نكون قاسين جدًّا مع أبناء وطننا..

كانت قبضته قوية جدًّا وهو يصافحني ويدعوني للجلوس، ثم قدم لي امرأة أمريكية جدًّا.. شعر أشقر وبشرة حمراء كسرطان البحر المسلوق ونحول مبالغ فيه لماذا يبدو الأجانب أجانب جدًّا عندنا في مصر، بينما لا تجدهم بنفس الغرابة في بلادهم؟

- «(فيكي).. زوجتي..»

- «هاي..»

- «هاي..»

كان يتكلم بتلك الطريقة التي تضع لفظة أجنبيّة كل ثلاث كلمات عربية، وهنا تذكرت ما قاله لي محدثي.. إن (راسم) ابن لأب مصري وأم أمريكية.. هذا صحيح، لكنه لم يأت لمصر قط ولم يستخدم اللغة العربيّة في حياته...

- «نورث داكوتا.. أنا قضيت حياتي في نورث داكوتا.. أي إنني كنت أقرب لكندا مني إلى الولايات..»

لو تأملت هذه الولاية على الخارطة لوجدت أنها مستطيل تحده من الشرق ولاية منيسوتا ومن الغرب ولاية مونتانا ومن الجنوب ساوث داكوتا طبعًا بينما تشترك في الحدود مع كندا لا أعتقد أنّ هذه الولاية تتميز بشيء خاص على كل حال.. إنها باهتة الشخصية أو هذا ما أعتقده..

كان (راسم) قد قرر أن يستقر في مصر.. لا أعرف السبب بالضبط لكنه قال إنّه (مل الولايات).. لسبب ما شعرت في كلامه أنه يمقت الولايات المتحدة ويرغب في أن ينسى حياته فيها.. لم يحمل معه سوى ذكرى واحدة منها هي زوجته، وفيما عدا ذلك يبدو أنه قرر أن يبدأ من جديد.. لا أجد صعوبة في فهم هذا لأنني أمقت الولايات المتحدة بدوري بينما أميل إلى أوروبا أكثر. وكان ثريًا لدرجة لا تصدق لهذا بحث عن نشاط مناسب يمكن أن يقوم به هنا، وقد اتفق على عدة مشاريع.. كان هذا صعبًا.. خاصة أننا كنا في عصر ما قبل الانفتاح، حيث لا يُمكنك أن تتذكر قراءة تعبير (مستثمر أجنبي) في أية جريدة من قبل لكنه استطاع كما يبدو أن يحقق بعض الصفقات الجيدة..

قلت له وأنا أنظر إلى حمام السباحة خارج النافذة التي يجلس جوارها:

- «كل هذا جميل، لكني لا أفقه حرفًا في هذه الأمور.. ليس لدى أي شيء أقدمه لك ولا أعرف لماذا طلبت مقابلتي..»

قال بطريقته الصعبة التي تشعرك بأنه يعاني سوء هضم مزمنًا:

- «مُتحف.. مُتحف أهلي.. أريد إنشاء واحد..»

هذا غريب.. مُتحف؟.. وما موضوعه بالذات؟

قال وهو يشعل لفافة تبغ:

- «الأنثروبولوجي.. آثار الحضارات القديمة.. الأديان القديمة لدى الشعوب..»

- «وهل تعتقد أنّ هذا مشروع ناجح؟»

- «ليس المال كل شيء.. فقط أريد أن أقدم خدمة ثقافية لقومي الذين هم قومك..»

تساءلت في غباء:

- «وما هو دوري في هذا كله؟...»

- «أريد أن تشرف على الموضوع.. تكون.. أ... Curator.. تكون...»

- «أمين متحف.....»

- «نعم.. نعم.. أمين متحف.. قيل لي إن لديك خبرة كبيرة بالأساطير والعقائد القديمة... هذا مهم... رجل مثقف مثلك ويعرف الكثير.. يمكن أن أعهد له بالمتحف بلا قلق...»

- «وهل تعتقد أنني سأحمل رفشًا وأذهب للبحث عن آثار تناسبك؟»

لم يفهم الدعابة، وقال ملوحًا بلفافة التبغ:

- «لا.. لا... لدي مجموعة خاصة ممتازة.. ستكون نواة للمتحف... إنها قادمة من الولايات وسوف تكون هنا خلال أسبوع.. ما أريده هو من يشرف على الموضوع علميًا لأنني لا أملك الخبرة الكافية ولا التفرغ ولا حتى اللغة العربيّة التي لا أملك زمامها.. عليك كذلك أن تتولى الموضوع إداريًا..»

رحت أتخيّل راجفًا كل هذه التعقيدات.. تصاريح وزارة الثقافة شراء أرض أو تخصيصها.. لقاءات مع مسئولين.. تعيين طاقم عاملين وأمن وهيكل إداري كامل.. الضرائب.. دفاتر المحاسبة.. دفاتر عهدة وجرد الممتلكات.. سكرتارية.. مناقصات.. مقاولون..

لقد اختار آخر واحد على كوكب الأرض يصلح لهذا الغرض..

قلت له وقد بدأ الموقف يروق لي:

- «ما كنت أتصور شخصًا أقل مناسبة مني لهذه المهنة..»

- «لماذا؟.. يُمكنك القيام بذلك..»

- «أنا من يحدد إن كنت أستطيع أم لا.. ولتحمد الله على أنك قابلت رجلًا يعرف قدراته ولا يدعي شيئًا... تسعة من كل عشرة أشخاص تقابلهم يعتقدون أنهم عباقرة وقد خلقوا قادة.. ربما لو طلبت من أحدهم قيادة غواصة ذرية لوافق على الفور.. من حسن حظك أنني العاشر، والعاشر يقول لك: جد شخصًا غيري..»

نظر لزوجته في حيرة.. لا أعتقد أنها فهمت حرفًا من المحادثة لكنّها فهمت من الإيماءات أنني أرفض..

قال لي (راسم) وهو يدفن بقايا لفافة تبغه في رمال المطفأة الرأسية الموضوعة جواره:

- «فقط لو عرفت كم سأدفع لك..»

- «تدفع لي من أجل الفشل؟.. ثق أنني لا أصلح وتصرف على هذا الأساس..»

كان لحوحًا لكني كنت ثابتًا كطود، وقد راح يعرض على الحجج والإغراءات، لكن لم يبد لي أي منها مقلقًا، دعك من الغباء الواضح في هذا الكلام.. رجل واجه لعنة قديمة أو لعنتين ومصاص دماء أو مصاصين.. هذا لا يكفي لجعله صالحًا للإشراف على متحف...

في النهاية انتهت الجلسة وكانت طريقتي في الفرار هي أن أقنعته بأنني سأبحث عن شخص يصلح.. وأعتقد أننا افترقنا صديقين..

فيما بعد اتصلت بالشخص الوحيد الذي أعرف أنه قد يساعدني وهو د. (رمزي حبيب) وحكيت له عن مشروع هذا الفتى المتأمرك فضحك كثيرًا، وقال:

- «سوف يرى العجب.. دعه يتعلم درسًا أو اثنين عن البيروقراطية المصرية..»

- «وهل تقبل أن تساعده أو تجد له من يساعده؟»

بالطبع قال لي الحجة المعتادة: سوف يبحث عن شخص يصلح.. إنها طريقة فرار لا تفشل أبدًا.

على كل حال قمت بما وعدت به، ولن يؤنبني ضميري بعد اليوم..

- 2 -

بعد عام دوى جرس الهاتف في شقتي العامرة بالأشباح فرفعت السماعة في غيظ كعادتي كلما قرر أحدهم استعمال هذا الاختراع المقيت..

- «د. (رفعت).. أنا (راسم أبو سيف)..»

بدا لي الاسم غريبًا ملفقًا، لكني لم أستطع تذكر متى سمعته أول مرة..

- «(راسم) من؟»

- «(أبو سيف).. لا أعتقد أنك نسيت موضوع المتحف..»

- «في الواقع هذا ما حدث وإنني لآسف..»

بعد لحظات من التذكر وانتشال هذه الذكرى من تحت محيطات الأحداث اليومية، وجه لي دعوة مهذبة لزيارة المتحف الذي أقامه في فيلا بضواحي الجيزة، وقد أصابتني الدهشة لأنّه فعل ما أراد فعلًا.. ولأنه فعله بسرعة.. فترة عام فترة قصيرة جدًّا هنا...

بالطبع في هذه الدعوة رسالة مستترة معناها (لا تحسب أنني ضعت من دون عونك).. لا أنكر أنني معجب بهذا الفتى. لكنني لن أسمح لهذا الإعجاب لأن يدفعني إلى أن أخجل من نفسي وأموت قهرًا..

هكذا وضعت السماعة وقد قررت أن أرى هذا المتحف..

✶ ✶ ✶

عندما أوقفت السيارة أمام الفيلا المذكورة، رحت لبضع دقائق أتأمل المنظر، لا يبدو الأمر كان هناك متحفا هنا.. فعلًا هي فيلا عادية جدًّا.. ليست قصرًا مثل قصر (محمد محمود خليل) باعتبار هذا هو المتحف الوحيد الذي أعرفه ويعرض مجموعة خاصة.

هناك لافتة كتب عليها (متحف راسم للآثار الإنسانية). لا يبدو عنوانًا مشجعًا للزيارة.. ثم إن مكان المتحف غريب وناء جدًّا.. لا أتصور أن تنظم مدرسة رحلة إلى هذا المكان لتلاميذها مثلًا..

العلامة الأولى على أنّ هذا متحف هو كشك صغير جوار البوابة به حارس عجوز قال إن عليَّ أن أدفع ثمن تذكرة.. كانت التذكرة رخيصة الثمن فلم أجد داعيًا للتهليل والصياح بأن مدير المتحف

هو من دعاني..

أخذت الوريقة الصغيرة ودسستها في جيبي ثم مشيت عبر ممر طويل نحو باب زجاجي مغلق.. أزحته فوجدت مكتبًا صغيرًا تجلس خلفه سكرتيرة حسناء، قالت لي في ترحاب:

- «مرحبًا بك.. هل هي زيارتك الأولى؟»

- «نعم..»

وكنت قد قررت أن أرى المتحف بنفسي لأكون نظرتي الخاصّة، قبل أن أقابل (راسم).. أريد أن أكون وحدي..

لكن (وحدي) كانت حلمًا مستحيلًا مع هذه الآنسة المتحمسة التي تلعب كما يبدو دورًا هو خليط من السكرتيرة والمرشدة السياحية والصديقة والمضيفة.. كانت تتواثب كالقرد في كل مكان وهي تشير إلى شيء تلو الآخر وتقول كلامًا كثيرًا بصراحة لم أفهم حرفًا..

لم يكن هناك زوار تقريبًا.. كلا.. هناك فتى وفتاة يقفان متشابكي الأيدي أمام واجهة زجاجية وقد تلامس رأساهما، وأدركت أن الأنثروبولوجي هو آخر شيء يهتمان به.. لقد جاءا هنا لأنّه لا يوجد مكان آخر يبعدهما عن أعين الفضوليين ورجال الشرطة وأقارب الفتاة وباعة السميط اللحوحين الذين يجيدون الابتزاز.. عرفت حبيبين يلتقيان دومًا في متحف السكة الحديد كأنهما مولعان جدًّا بالقاطرات البخارية..

كانت هناك مومياء كاملة خلف واجهة زجاجية.. مومياء من مومياوات حضارة المايا أو الأزتك التي تجلس القرفصاء ممسكة بجانبى رأسها لأنهّا تشكو الصداع.. أعرف هواية هذه المومياوات اللعينة في أن تثب في وجهك في أية لحظة..

هناك آنية صينية من عهد أسرة (منج) كما يبدو.. وهناك سجادة بريطانية عليها لوحة تمثل معركة بين السكسون والنورمان رسمت بتلك الطريقة البيزنطية الساذجة.. كل شيء في مستوي واحد والبعيد أكبر حجمًا من القريب...

هناك مجموعات من رسوم إيرانية.. هناك تماثيل بدائية جدًّا أعتقد أنها لحضارة من بولينيزيا.. هناك أسد صغير طفل محنط.. ويبدو أنه هلك منذ زمن سحيق لأن حالة النموذج كانت شنيعة..

لم تكن هناك آثار فرعونية على الإطلاق.. بالطبع.. لا يمكنه أن يحصل عليها من الحكومة المصرية، ولو جاء بشيء من مجموعه لصودر.. نحن نعرف أن معظم الآثار الفرعونية سرقه البريطانيون والفرنسيون والألمان منذ قرن أو قرنين، لكن من الوقاحة أن يحاول أحدهم عرض هذه الأشياء في البلد الذي سرقت منه..

هناك أسد آشوري ملتح.. وهناك بيض من رخام عليه نقوش دقيقة رائعة أعتقد أنه ياباني..

هناك طوطم كبير الحجم من الخشب ارتفاعه كارتفاع رجلين عليه ستة وجوه حيوانية.. هذا الطراز لا ينتمي لأفريقيا بل هو غالبًا يخص حضارات الهنود الحمر.. أذكر صورة شهيرة جدًّا تمثل جنديًا من حرس الحدود الكندي يقف ناظرًا لطوطم عملاق كهذا..

هناك خوذة رومانية بحالة جيدة جدًّا.. وكذلك هناك خوذة شديدة التعقيد تغطى الوجه فيها شبكة حديدية مع شعارات نبالة أوروبية الطابع.. واضح طبعًا أنها خوذة من عصر الحروب الصليبية..

هناك جوار كل نموذج بطاقة كتبت عليها معلومات غزيرة بخط لا يمكن قراءته.. وبالعربية والإنجليزية والفرنسية...

هناك رجل أمن.. لا.. ليس أثرًا من جزر الأوقيانوسية إنّه رجل أمن حقيقي بقميص سماوي وسروال أزرق يقف بيراقبني في فضول كأننى السيرك القومي.. وقد أدركت من منظره أنه مستمتع جدًّا بهذا الحصار الذي أمر به، دعك من أن رائحة التبغ تفوح منه بقوّة.. هو إذن يمارس عادة رجال الأمن في التدخين في الحمام.. ربما استفدت أكثر لو تبادلت معه بعض الكلمات..

لكن الفتاة لا ترحمك.. فهي لا تكف عن الكلام والشرح إنها مصممة على أن تستحق راتبها حتى آخر مليم...

في النهاية أطلقت سراحي، فسألتها عن (راسم).. أشارت لي إلى مكتب جانبي عليه لافتة تقول (المدير) فاتجهت إليه وقرعت الباب..

كان المكتب ضيقًا لكنه فاخر، وقد علقت على جدرانه قطع فنية يمكن أن تعتبرها امتدادًا للمتحف ذاته.. هناك عدة شاشات صغيرة مما يدل على وجود كاميرات مراقبة في الخارج..

رحب بي في شيء من الحرارة.. لم يكن قد تغير علي الإطلاق.. سألني عن رأيي في المتحف فأبديت الحماس، لكني في الحقيقة كنت أشعر بنوع من خيبة الأمل.. هناك أشياء طيبة لكنّها ليست بالكم الذي يمكن أن نقيم عليه متحفًا ناجحًا.. الرسالة التي تربط هذه الأشياء غير واضحة..

قلت له:

- «تريد القول إن هناك أناسًا وجدوا في الماضي السحيق وصنعوا أشياء..»

هذه العبارة التي اعتبرها مديحًا هي بالضبط موضع انتقادي.. من المفترض أن أي متحف يمارس درجة من التخصص التاريخي أو الجغرافي.. لكنني وجدت هنا خليطًا من كل شيء.. معرض عاديات يعرض أشياء قديمة جدًّا، ولربما لو بحثت جيدًا لوجدت فونوغراف جدي أو مكحلة جدّتي..

لكنه كان يبحث عن المديح.. يريد شخصًا يقول له إنّه رائع، وقد فعلت ذلك بطريقة بارعة جدًّا:

- «رائع..»

-«شكرًا..»

ثم راح يحكي لي قصة طويلة عن الطريقة التي ظفر بها بكل عينة من هذه المجموعة.. الحق أنه كان ثريًا وقد صرف الكثير فعلًا.. لقد سافر إلى بلدان عديدة، أمّا الطوطم فهو من مسقط رأسه.. إن قبائل (أوجيبوا Ojibwa) الهنديّة كانت تعيش في (نورث داكوتا) على الحدود الكندية، وهي من القبائل التي اشتهرت بممارسة عقيدة الطوطم.. بل إن لفظة (طوطم) لا تذكر من دون ذكر اسم هذه القبائل... لقد حصل عليه من هناك..

كنت أعرف شيئًا أو شيئين عن عقيدة الطوطم، التي يعتقد علماء الأنثروبولوجي أنها مورست لدى كل قبيلة بدائية على الأرض، انقرضت؟.. ليس إلى هذا الحد... عندما يتخذ فريق كرة قدم أو كرة سلّة من حيوان شعارًا له، وهو ما يحدث كثيرًا في الغرب، فهو يمارس عقيدة الطوطم لا شعوريًا.. فلتفرح أيها الخواجة (يونج) في قبرك.. كل يوم يبرهن على أنك عبقري..

بعض الآثار مسروقة طبعًا.. هو ابتاعها من سارقيها، لكن أحدًا لن يفتش عنها هنا في مصر.. إن مومياوات المايا لا تباع في السوق بالتأكيد..

سألته في حذر:

- «لكنك لا تتوقع ربحًا من هذه الفكرة كما قلت منذ عام..»

- «لا.. أذكر ما قلته لك وقتها، لكنه لن يخرج عن كون حساب المكسب والخسارة ليس كل شيء في العالم.. لقد منحت وطني الأصلي كنزًا ثقافيًا كالذي منحه له (محمد محمود خليل)، ويومًا ما سيذكر لي الناس هذا..»

ليكن.. ما دام سعيدًا فليفعل.. المهم أن يبقى بعيدًا عني..

لكنه قال لي وهو يدسّ في يدي حزمة من المطويات الخاصّة بالمتحف:

- «هل لديك تذكارات ترغب في عرضها هنا؟.. تذكارات تمت لعالمك الخوارقي وثقافات الأساطير؟»

لا أذكر أن عندي تذكارات ملموسة، دعك من أنّه لن يرحب بيد (بيزارو) لو أحضرتها له.. لو أنّ لي اتصالًا بالمتحف الأسود الذي زرته من قبل لجلبت له تذكارات لن يصدقها ما لم يرها.. لقد وجدت كذلك ذراع مومياء وصفحات من كتاب نيكرونوميكون وصندوق بندورا وإصبع مذءوب وقلادة زوج (ليليث).. إلخ لكنني لم أحرص على الاحتفاظ بشيء من هذه الأشياء الرهيبة..

- «هل تقبل أن أتصل بك لو جد جديد أو احتجنا لشيءٍ؟»

قلت في سماحة:

- «لا حاجة لك أن تطلبها.. أنا معك منذ اللحظة الأولى..»

كان هذا كله كلامًا في كلام، لأنني قررت أن تكون هذه آخر مرة يرى فيها وجهي الكالح.. هذه هي نهاية القصة..

قررت هذا ولم أعرف أنها بدايتها كنت ساذجًا ساذجًا كالعادة..

- 1 -

لم يكن اسمه (بسيوني)..

هذه نقطة خطيرة جدًّا ويمكن أن تؤدي إلى الفشل.. عندما تتوجه لمقابلة عمل يطلب حارسًا خاصًا أو رجل أمن وأنت لا تدعى (بسيوني) فأنت تجازف بالفشل.. قلت مائة مرة من قبل إن المخبرين لابد أن يكون اسمهم (بسطويسي) ورجال الأمن يكون اسمهم (بسيوني)، ومن يخرق هذا يعامل بلا رحمة..

لكن (عامر شحاتة) لم يكن يملك ترف الاختيار؛ لأنّه في هذا الوقت بالذات كان قد فقد عمله في وزارة الداخلية بسبب الإصابة، وكانت زوجته حاملًا في شهرها التاسع..

(عامر شحاتة) فلاح المنوفية الأسمر قوي البنية ذو الشارب الغليظ (الحكومي) هو رجل طيب فعلًا.. في قريته يحبونه كثيرًا وقد عرف الناس عنه أنه مهذب متدين ولا يريد سوى أن (يأكل عيش)..

لهذا عندما قال له عم (صلاح) البقال إن هناك من يطلب رجال أمن في الجريدة، أدرك أن الله لن يتخلى عنه في هذه الورطة..

كان العمل يتعلق بمتحف في الجيزة، والإعلان يطلب رجال أمن من ذوي الخبرة، أو بلغة الإعلان الركيكة (رجال أمن ذات خبرة).. وعد براتب مجز.. هذا يبدو جيدًا..

في الصباح ارتدى البذلة الوحيدة التي لديه وحلق ذقنه بعناية، وعندما تأمل نفسه في المرآة وجد أنه يبدو مهرجًا كعادته كلما تأنق. لكنه أمل أن تكون هذه العضلات البارزة في صدره وذراعيه.. العضلات التي توشك على أن تفجر البذلة قادرة على أن تنسي القوم مظهره المضحك. طلب من (أمينة) أن تدعو له، وانطلق في رحلته الشاقة صبيحة ذلك اليوم من أجل المقابلة الشخصية لا يشعر براحة في هذه الثياب دعك من رائحة الفازلين الذي دهن به شعره.. لكنه سيتحمل....

ابتاع من (سيد) بعض شطائر الفول والطعمية التهمها بسرعة وهو ينتظر الحافلة، قبل أن يبدأ رحلته المرعبة إلى الجيزة.. لهذا كانت الحموضة تضايقه فعلًا عندما ذهب لهذا اللقاء..

كان ما أسعده عندما وصل هناك هو أنه لم يجد سوى آخرين.. وقد أدرك على الفور أن العمل لن يكون شاقًا والمهنة مريحة.. تصوّر أن يعينوك لحراسة برج القاهرة ويعطوك راتبًا مجزيًا. على الأرجح لن تتعب على الإطلاق..

عندما استدعوه لمقابلة المدير، وجد أمامه شابًا أسمر لا يجيد العربيّة تقريبًا برغم أنه مصري كما هو واضح، وينادونه باسم (راسم). جواره كانت سكرتيرة حسناء ورجل مصري يبدو أنه

يلعب دور المترجم.. كان هناك جو عام من العجلة ونفاد الصبر، ومن الواضح أن القرار سيتخذ بسرعة.. إنهم لم يهتموا كثيرًا بتفحصه أو ملاحظة العرج في مشيته عندما دخل...

أمام الرجل المصري كانت هناك بعض الأوراق.. الأوراق التي سلمها للسكرتيرة الأخرى خارج الغرفة، وقد وقف أمامهم مستسلمًا فوجه له (راسم) بضعة أسئلة:

- «هل تقبل ورديات ليلية؟.. نحو ثلاث منها كل أسبوع؟»

الحموضة ورائحة الفازلين.. تبًّا!.. ما كان يجب أن... قال (عامر) على الفور:

- «أنا محترف يا سيدي.. لا أختار الزمن ولا المكان الذي أعمل فيه..»

- «هل تفهم أنّ هذه المعروضات باهظة الثمن؟.. أنت لن تعمل على حمايتها من السرقة فقط بل حمايتها من التلف كذلك..»

- «أفهم هذا يا سيدي..»

- «هل محل إقامتك يسمح لك بالتواجد في السابعة صباحًا يوميًا؟»

- «رتبت هذا يا سيدي لو ظفرت بالوظيفة..»

همسات من السكرتيرة ونظرة عابرة إلى ساقه.. فهم على الفور أنها تعترض على عاهته، لكن (راسم) هزّ رأسه في استهانة، وقال بعربيته الرديئة بصوت مسموع:

- «عمله هو التواجد والملاحظة.. لا تريد من يطارد اللصوص أو يتسلق الأسطح..»

شعر بامتنان لهذه الملحوظة.. بالفعل يمكنه عمل كل شيء ما عدا مطاردة اللصوص..

تبادل الثلاثة النظرات ثم هزّ المصري رأسه معلنًا انتهاء المقابلة، وطلب منه أن ينتظر بالخارج..

رائحة الفازلين!!

على الباب قابل رجلًا ممن كانا معه يدخل... هذا رجل أمن آخر.. يعرفون بعضهم بسهولة.. فيما بعد سيعرف أن اسمه (منصور الفقي) وأنه من البحيرة.. إنّه رجل في منتصف العمر له كرش كبير وجسد مترهل، لكنه ذلك الترهل القوي الذي يميز المصارعين..

جلس في الخارج وبعد دقائق ظهرت السكرتيرة..

كانت تتعامل بنفاد صبر كأنها تعتقد أنه بدأ مهام عمله فعلًا..

انتقت ملفًا وضعت فيه أوراقه، وطلبت بعض أوراق أخرى ثم أشارت إلى كومة من القمصان الزرق والسراويل في ركن المكان وطلبت منه أن ينتقي قياسًا يناسبه..

بهذه السهولة؟..

- «هل تريدون مسوغات تعيين؟»

قالت ضاحكة:

- «لا.. نحن لسنا في الحكومة هنا.. هذا متحف خاص.. فكر في نفسك كحارس خصوصي لا أكثر.. طبعًا لن تحمل سلاحًا.. سوف تعتمد على حصافتك وقوة شخصيتك..»

وأخبرته بمهامه بالتفصيل.. كان الراتب مجزيًا على الأقل بالنسبة له.. الحموضة تتزايد برغم هذا..

بعد قليل ظهر ذلك الرجل (منصور) وقد بدا عليه الرضا.. وبعد قليل ظهر الفتى الثالث الذي سنعرف أن اسمه (رضا أبو جازية)، ومن جديد عادت السكرتيرة تخبرهم بما قالته من قبل.. إذن جاء ثلاثة وظفر بالعمل ثلاثة... لا يوجد راسبون اليوم...

وأخرجت جدولًا سبق أن طبعته فوزعت عليه الأسماء حسب النوبتجيات.. أسوأ ما في الأمر هو أنها جعلتهم يوقعون على قائمة بالمعروضات تثبت أنهم تسلموها بحالة طيبة.. حرصوا جميعًا على أن يغيروا من توقيعهم وهم يوقعون على هذه الورقة اللعينة.. فيما بعد لو ادلهمت الأمور سوف يقسم كل منهم مستشهدًا بزميليه أنه لم يوقع على شيء..

السكرتيرة لم تشك على كل حال:

- «مستر (راسم) إنسان راق مهذب ولكنّه كالغربيين لا يرحم الإهمال ولا الاستخفاف بالعمل..»

ثم نهضت واقتادتهم لتريهم أجزاء المتحف وما فيه من قطع فنية.

هناك عدة كاميرات مراقبة، لكن الشاشات في غرفة (راسم) طبعًا.. فيما بعد سيتم تعيين مراقب للشاشات منهم، ويتم تخصيص غرفة خاصة له.. لكن ليس الآن..

لم يكن (عامر) طفلًا.. كان رجلًا واسع الخبرة، وقد قدر على الفور أنّ هذا المشروع لن يدوم طويلًا.. إنّه إلى فشل وزوال سريعين.. هؤلاء غير محترفين على الإطلاق، وبالتأكيد لن يحقق مشروع كهذا أي عائد مالي.. سوف يفشلون ويغلقون أبواب المتحف، لكنهم على الأقل يعطونه فترة هو في أمس الحاجة إليها إلى أن يجد عملًا حقيقيًا..

كان اسم السكرتيرة (ليلى).. في الخامسة والعشرين من العمر.. فتاة جميلة حقًّا لكنّها حازمة، ومن الواضح أنها ستكون رئيسهم الفعلي هنا.. هي قررت هذا وهم قبلوه من اللحظة الأولى..

يجب أن أقول كذلك إنهم خمنوا أنها تهيم برئيسها حبًّا.. هذه أشياء لا يمكن تفسيرها لكن حاسة رجل الأمن المخضرم تجعله يشعر بأشياء أو يشمها ولا يستطيع أن يعلل السبب...

كانت هذه هي بداية (عامر) مع (متحف راسم للآثار الإنسانية).

- 2 -

لقد أنجبت أمينة.. الصبي (محمد عامر) بصحة طيبة وقد كان سبوعه أمس..

الحياة تمضي منتظمة والراتب منتظم كل أسبوع على الطريقة الأمريكية - والعمل سهل فعلًا.. سهل لدرجة أنه ممل.. لا شيء يحدث على الإطلاق، وهذه مشكلة حقيقيّة.. يقولون إن الذكاء المحدود لا يشعر بالملل وهم في هذا مخطئون.. إن الذكاء المحدود يعني أنك لا تستطيع تزجية الوقت بالقراءة أو التفكير في فلسفة الكون..

من حين لآخر يتسلل (عامر) إلى الحمام ليدخن لفافة تبغ ثم يعود..

أحيانًا يتسلى بمراقبة الزوار عندما يأتون.. مثلًا هناك ذلك العجوز النحيل الأصلع الذي راح يطوف بالمعروضات في ملل حقيقي، و(ليلى) تتواثب حوله تشرح له كل شيء.. من الواضح أنه غير مهتم لهذه الدرجة.. في النهاية اتضح أنه على علاقة وثيقة بالمدير.. لقد دخل مكتبه مباشرة وأمضى معه وقتًا لا بأس به..

هناك ذلك الرجل مريب الشكل الذي دخل ذات مرة وراح يتفحّص كل شيء، ثم فتح الشرفة التي تطل على الحديقة ودخل فيها.. عندما هرع (عامر) ليلحق به وجده يستند على السور وينظر لأعلى كأنه يدرس طوبوغرافية المكان..

هذه الحركات مريبة، وتشبه مايقوم به (الهجامة) عندما يخططون لسرقة بيت.. تفحص كل شيء والاهتمام بالمنافذ والمواسير.. إن لم يكن هذا لصًّا فاللصوص لا وجود لهم..

هكذا هرع (عامر) يستعيد الرجل:

- «ممنوع يا أستاذ..»

لم يكن هناك من جرم اقترف.. الفضول وقاحة لكنه ليس جريمة، وقد قال الرجل إنّه لم يأت بشيء يحرمه القانون.. لم يجد (عامر) سوى أن يقول من جديد:

- «ممنوع يا أستاذ..»

ونظر نظرة نارية للرجل تقول بوضوح: أيها اللص القذر.. تريد أن تدرس المكان لتعود هنا ليلًا وتغتصب بابًا ما وتخرب بيتنا!.. هذه الأمور لن تخدعني.. أنت لم ترتكب جريمة وأنا لا أستطيع القبض عليك لمجرد الفضول.. لكننا نفهم بعضنا جيدًا....

كانت نظراته نارية مفعمة بالاتهام حتى إن الرجل عاد للداخل سريعًا، وراح يتظاهر بالاهتمام العلمي بالمعروضات.. لكنه كلما تلفت يمينًا أو يسارًا وجد (عامر) يرمقه كالصقر..

هكذا بعد دقائق اتجه للباب مغادرًا..

راح (عامر) في ذهنه يرتب أوصاف الرجل، فهو يعرف أنه سيلقاه ثانية.. جسد ضئيل.. أسمر.. عينان مذعورتان خائفتان.. شعر مجعد.. شارب رفيع كأنه خط بقلم على حافة شفته العليا.. ثياب غير مهندمة.. فأر!... هذا هو أدق وصف ممكن!.. يُمكنك أن تتذكر فأرًا وسوف يكون الوصف سهلًا... هذا آخر شخص يمكن أن يهتم بالآثار لكنه بالتأكيد يمكن أن يهتم بسرقتها...

داعب (عامر) شاربه في ثقة.. هذه من اللحظات النادرة التي تشعره بأنه يفعل شيئًا مهمًا ويكسر ملل الحياة..

أحيانًا كان يقابل عشاقًا...

مثلًا ذلك الفتى وفتاته اللذان يأتيان بغزارة غير متوقعة.. كلاهما صغير السن يصعب أن يهتم بهذه الأشياء، لكنه كان يراقبهما بعناية وهما يجوبان المعروضات... مثلًا يتوقفان أمام ذلك الأسد الصغير المحنط ويتهامسان لمدّة ربع ساعة.. يسهل أن تعرف أنهما لا ينظران للأسد على الإطلاق.. إنهما غارقان.. في عالمهما الخاص، فليست مشاهدة المعروضات إلا حلًا للانفراد هكذا يمران أمام كل قطعة لا تستحق فيقفان دقائق عديدة..

كانا لغزًا حقيقيًا.. هل حقًّا لم يجدا مكانًا؟ هل حقًّا لم يجدا مكانًا للقاء سوى هذا المتحف؟.. هل امتلأ الكورنيش وامتلأت حديقتا الأورمان والحيوان؟... لكنهما كانا يدفعان التذكرة، ولم يتماديا قط إذن هو لا يستطيع أن يقول أو يفعل شيئًا....

أخيرًا كان يجد لنفسه مقعدًا ويجلس.. وينظر لساعته في جشع متمنيًا أن تقصر الساعات أكثر...

غدا سيكون ساهرًا.. هذه نوبتجية قاسية فعلًا خاصة مع الوحدة، لكنه سينام بمجرد أن يطمئن إلى أن الأمور هادئة..

لا شيء مثل النوم يطوي الساعات سريعًا..

✶ ✶ ✶

في الحادية عشرة يقوم بجولته في المتحف.. يهتم بتفقد النوافذ وباب الشرفة.. هناك ستار حديدي على هذه المنافذ لكنه يستوثق من أنها مغلقة. يمرّ على كل ركن ويتفحصه بضوء الكشاف.. ثم يفتح باب الحمام ويتأكد من أنّه لا يوجد أحد.. حيلة الانتظار في الحمام حتى يرحل الجميع قديمة جدًّا لكنّها تتكرر بإصرار غريب، وكل لص يعتقد أنه عبقري مبتدع..

إنه لا يبالي بهذه المعروضات ويمكن القول بلا مبالغة إنّه لم يلق عليها نظرة متفحصة قط.. فقط كانت المومياء الجالسة القرفصاء تثير الرعب في نفسه، ولهذا كان يتحاشى التدقيق فيها، لكنه كان متدينًا لذا كان يقرأ المعوذتين كلما مر بها.. وإن وجد عسرًا في تخيل أن صاحب هذه المومياء الشبيهة بالخشب (جثة) كالتي يراها في مدافن قريته..

كان يتفحّص المعروضات بسرعة، ثم يتجه إلى مكتب السكرتيرة المفتوح فيجلس خلفه.. يشعل السبرتاية ليعد لنفسه بعض الشاي ويفتح المذياع على أية محطة تذيع أغاني (محمد رشدي) بالصدفة، ويتخفف من ثيابه نوعًا ويلتهم اللقمة التي أعدتها له أمينة..

بعد هذا سيناااام.. ينام لساعة مبكرة من الصباح حتى يسرع بالنهوض وإزالة آثار السهرة، فلا يجب أن تشعر السكرتيرة بأنه يستخدم مكتبها كغرفة نوم.. دعك من بقايا السسبرتاية ورائحتها..

هكذا وقد فرغ من كل شيء أطفأ الأنوار كلها ونام كعادته..

عندما نام (عامر) حلم بأشياء غريبة جدًّا، والأغرب هو أنه غير قادر على تذكرها.. فقط رأى صارية طويلة جدًّا وهناك نسر يحوم حولها.. هناك ذئب يعوي.. ليس ذئبا بالضبط.. هو حيوان لا يعرف ما هو..

ثم فتح عينه...

فتح عينه في الوقت المناسب بالضبط.. الساعة البيولوجية الحقيقة في أجسادنا والتي لم يسمع عنها (عامر) قط لكنّها تعمل بدقة...

هناك من يتحرك في قاعة العرض....

إن الظلام بالخارج ليس دامسًا.. هناك مصباح خافت يبعث بعض الظلال وهذه الظلال قد تكسرت للحظة..

كان قد عاش هذه اللحظة في خياله مرارًا وعرف بالتقريب كيف سيتصرف.. إنّه لا يملك سلاحًا ناريًا لكن معه تلك العتلة الحديدية التي لا يسهر إلا بها وقد وضعها جواره. ذراعه القوية التي تربت على الفأس في قريته مع العتلة سوف تكون لهما قوة المدافع...

أحدهم تسلل.. لا تحتاج لعبقرية كي تعرف أنه ذلك الرجل الفأر..

فيما بعد يُمكنك أن تعرف كيف دخل وكيف فتح ذلك الباب الحديدي.. فيما بعد سوف يتكلم كثيرًا جدًّا أمام وكيل النيابة، لكنه سيكون مضمدًا في كل موضع من جسده هذا قسم..

نهض في خفة وحذر واتجه للباب..

وقف وسط قاعة العرض في حذر يتأمل المعروضات الصامتة خلف الزجاج.. لقد رأت كل شيء فليتها تتكلم... في مكان ما يوجد متسلل.. وهو حقيقي وليس من ضمن هلاوس الحلم...

لكن أين؟

مشى بين المعروضات..

الأسد الحجري الأشوري ينظر له وهو يزأر منذ أيام (أشور بانيبال) حتى اليوم... المزهرية الصينية... المومياء التي تسد أذنيها...

من جديد تحرك الظل في مكان ما...

المشكلة أنه لا يتحرك أمامه أبدًا إنما عند طرف عينه فقط، فلا يستطيع أن يحدد المكان بدقة..

هل يطلب الشرطة بالهاتف؟... لا.. هذا سيكون مخجلًا خاصة لو اتضح أن الفأر هو الفاعل.. سيسخر منه الجميع...

مشى في حذر أكثر، وهو يحبس أنفاسه..

ماذا لو كان هذا المتسلل يحمل سلاحًا ناريًا؟.. ماذا لو كانوا أكثر من واحد؟.. العتلة في يده وهو يعرف أنه مستعد لتحطيم خمسة رجال أشداء بشرط ألا يكون معهم سلاح ناري.. سيكون هذا عبثًا قذرًا بقواعد اللعبة..

إنّه يرى الظل على الأرض..

هذا الشيء يقف بين المصباح الواهن والممر...

بالتحديد قرب ذلك العمود المخيف الذي نقشت عليه حيوانات يسموّنه (الطوطم) وهو عاجز عن نطق هذه الكلمة دون أن يحولها إلى (طماطم) في كلّ مرّة...

الشيء يقف هناك...

لماذا قال (الشيء) ولم يقل (اللص)؟

السبب كان في لا وعيه وقد بدأ الآن يخرج للسطح..

هذا الظل الطويل على الأرض ظل رجل بلا شك.. لكن إذا كان رجلًا فعلًا فلماذا يوجد على كتفيه رأس دب؟!

كلما نظر للظل أكثر أيقن أنه يرى شيئًا لم يره من قبل..

في اللحظة التالية فقد رباطة جأشه فانطلق يعرج نحو غرفة السكرتيرة.. سوف يطلب الشرطة وليسخروا منه كما يشاءون..

إن الأمر جد خطير..

فلترد يا حضرة الصول..

..122

يا أخي رد.. إن الأمر خطير..

..122

قالوا إن الرءوس التي أطارتها المقصلة في الثورة الفرنسية كانت تتابع الجمهور بعينيها لثوان بعد ما تطير.. هذه فكرة مرعبة بحق، ولكنّها التفسير الوحيد لما حدث بعد هذا، لأن آخر شي راه (عامر) هو قدماه وبلاط الأرضية.. ثم أدرك أن رأسه على الأرض منفصلًا عن جسده، وأنّ هذا الشيء معه في الغرفة..

وأن.....

- 1 -

- «قليل البخت يلقى العظم في الكرشة..»

برغم هذه العبارة التي يرددها دومًا لم يكن (سعيد الشناوي) يعتقد أنه قليل البخت عندما فكر في سرقة هذا المتحف..

كان قد كون نظريته الخاصّة منذ زمن: هؤلاء حمقى..

لم يكن مهتمًا بالمتاحف في حياته إلا لغرض واحد، ولقد زار هذا المتحف الجديد فأيقن أن من أنشئوه لا يفقهون شيئًا عن تأمين المتاحف.. لا يعرفون حرفًا عن الأمن..

زاره مرّتين أو ثلاث مرات، وتفقد كل ركن فيه وعرف مواضع الضعف، فلو كان ذا ثقافة لقال إنّه وجد (كعب أخيل) الخاص بهذا المتحف، لكنه بالطبع لا يعرف من هو (أخيل) أصلًا..

لا يذكر متى ولا كيف وجد نفسه لصًا (هجامًا) يسطو على البيوت. فقط يعرف أنه لم يهتم بالدراسة قط وكان شخصيّة لا تبالي بالخير أو الشر أو رأي الآخرين فيها.. لو أنه صار خبيرًا تربويًا لاتهم سببًا واحدًا هو (رفاق السوء) وهو دون سواه يعرف أنّ هذا صحيح في 99% من حالات الإجرام..

هناك من سيقدم لك السيجارة الأولى.. هناك من سيقدم لك السيجارة المحشوة الأولى.. هناك من سينفق في بذخ ويسخر منك لأنك لا تملك سوى مصروفك.. هناك من سيصحبك إلى أول ملهى ليلى.. هناك من يورطك في أول لعبة قمار.. هناك من سيتحداك لو كنت رجلًا أن تأتي معهم هذه الليلة.. وهكذا....

لن تعرف متى ولا كيف، لكنك ستجد نفسك واقفًا تتلقى صفعة على قفاك من حين لآخر، بينما الصول (زينهم) يغمس أطراف أناملك في السناج من أجل أخذ البصمات.. وفي السجن تبدأ الدورة التي لا نهاية لها..

- «قليل البخت يلقى العظم في الكرشة..»

هكذا كان يردد دومًا وهو يمشي في فناء السجن لم يعد (سعيد) يهتم بأشياء كهذه أو يذكرها. فقط هو يعرف أنه يبدو كفأر مثير للاحتقار ولا يمكن أن يكسب احترامًا في أي مجتمع إلا بماله.. هذه العقدة كانت تحرك حياته منذ البداية..

المتحف هو مكان يعجّ بالتحف التي خف وزنها وغلا ثمنها وهو يعرف كيف يبيع أشياء كهذه.. إن سوارًا قديمًا يساوي ألف جهاز كاسيت من التي يدور بها على تجار المسروقات متوسلًا..

هكذا زار هذا المتحف ودرسه بعناية..

حارس واحد فقط؟... هناك كاميرات لكن لا توجد أية علامة على أنّ هناك من يراقبها..

في الزيارة الرابعة كاد يكشف نفسه فعلًا.. كان المتحف شبه خال إلا من فتاة حسناء تشرح لعجوز نحيل أصلع غير مهتم. لماذا لم تشرح لك أنت؟.. لأنك تبدو كفأر.. هذه هي الإجابة يا صاحبي..

هناك شاب وفتاة يتنقلان بين الواجهات ويتهامسان ومن الواضح أنهما لا يشعران بشيء مما يدور في العالم حولهما. لقد رآهما من قبل.. كان بطبعه يمقت الحب ويسخر منه وقد خطر له أن يتسلى عليهما وأن يتلذذ بإهانة الفتى أمام فتاته، لكن هذا ليس وقته طبعًا.. لقد جاء لأشياء أكثر أهميّة..

دخل إلى الشرفة المفتوحة، ونظر لأسفل.. هناك شجرة في الحديقة يمكن أن يتسلقها ويدخل إلى الشرفة، لكن هل يوجد طابق ثان لهذا المتحف؟.. من أدراه أنه لا يوجد مخزن يحوي أثمن القطع؟

هكذا أسند ظهره إلى سور الشرفة ورفع رأسه لينظر لأعلى، عندما سمع من يصيح به:

- «ممنوع يا أستاذ!»

بصراحة أجفل لأنّه لم يتوقع هذا أصلًا...

إنّه يعرف هذا الحارس.. أسمر قوي البنية يقظ ملعون مصاب في قدمه، وأخطر الحراس طرًا هم الذين يشكون إصابة ما..

- «هل دخول الشرفة ممنوع في عرفكم؟»

لم يجد الحارس ما يقول سوى تكرار:

- «ممنوع يا أستاذ..»

هكذا غادر الشرفة، وعاد إلى الداخل وراح يتظاهر بأنه يتأمل التحف في انبهار، لكنه من حين لأخر يستدير ليلقي نظرة من خلف كتفه ليجد رجل الأمن يرمقه في شك.. لقد سقطت جذوة الشك فوق خشب وعيه الجاف ولن تنطفئ أبدًا..

هكذا اتجه إلى الباب وهو يلعن الظروف، متظاهرًا بأنه غير متعجل للذهاب بتاتًا.. ربما هزّ ردفيه على سبيل اللامبالاة كذلك... لكنه على كل حال رأى ما يكفي...

- «قليل البخت يلقى العظم في الكرشة..»

قالها لنفسه وبصق...

سوف يجرب حظه بعد يومين، والسبب هو أن المتحف مغلق يوم الجمعة.. ستكون ليلة الخميس كاملة له من دون مفاجات أو من يأتي مبكرًا جدًّا ليفتح الأبواب..

- 2 -

لم تنجح الخُطة في ذلك اليوم..

كان قد قصد المتحف صباح الخميس ليقوم بزيارة أخيرة لعل بعض التغيرات قد طرأت.. لكنه وجد آخر شيء يتمنى أن يراه: سيارتي شرطة تقفان أمام المتحف وسيارة إسعاف وهناك جو عام من الصخب..

هناك جسد ملفوف ينقل لسيارة الإسعاف يتعاون مسعفان على حمله، بينما يقف ضابط على كتفيه عدد لا بأس به من النجوم والنسور يضع يديه في خصره ويتبادل حديثًا ما مع مدير المتحف، أمّا عن داخل المكان فهو سيرك حقيقي يعجّ برجال الشرطة والمخبرين.

ماذا حدث؟.. هل هناك من سبقه إلى السرقة؟

كاد يتراجع ثم اتجه إلى الحارس الجالس في كشك التذاكر يسأله عما حدث، فقال هذا في غموض:

- «المتحف مغلق..»

- «أعرف هذا لكن لأي سبب..؟»

لم يرد الرجل أن يتكلم.. فقط كرر في غموض مستمتعًا بجو الخطورة المحيط به:

- «المتحف مغلق اليوم.. يُمكنك أن تأتي يوم السبت..»

هذا كاف على كل حال.. وهو لا يحبّ أن يقف هنا كثيرًا فلربما تذكر أحد الواقفين ملامح وجهه.. لو كانت جريمة قد وقعت هنا أمس، فآخر شيء يتمناه أن يعرفه أحد هؤلاء السادة. سوف يتهمونه بها قبل أن يرتد له طرفه..

- «قليل البخت يلقى العظم في الكرشة..»

هكذا ابتعد وقرر أن يجرب حظه يوم السبت...

وهو ما كان فعلًا.. لقد عادت الحياة لرتابتها المعروفة، وبدا أن المعروضات كلها سليمة لم تُمس.. هي غالبًا محاولة سرقة لم تتم.. والجسد المغطى؟.. غالبًا اعتدوا على أحد الحراس لكن من؟

✶ ✶ ✶

كعب أخيل..

في هذه الحالة كان كعب أخيل هو تلك النافذة الصغيرة في الطابق الأرضي التي يطل منها الحمام على الحديقة. كل شيء هنا مدعم بأبواب حديدية وقضبان.. هذه ليست مشكلة لكنّها تستغرق وقتًا، بينما هذه النافذة منسية تمامًا.. الأحمق الذي قام بتأمين مداخل المتحف افترض أنها نافذة بلا أهميّة ما دامت صغيرة لهذا الحد..

عالج الخشب المهترئ بالعتلة التي يحملها فسرعان ما انفتحت النافذة كاشفة عن مرحاض وحوض. نظر حوله يتأكد من أن أحدًا لا يراه ثم حشر جسده النحيل عبر النافذة، وسرعان ما كان يضع قدميه على المرحاض وينزل.. ولم ينس أن يغلقها خلفه.. كان يلبس قفازين طبعًا لأن الشرطة تحفظ بصماته جيدًا...

دورة مياه نظيفة تفوح منها رائحة المطهرات وتشي بندرة زوار المتحف وحداثة إنشائه. إنها مغلقة بدورها من الخارج لكن من قال إن هناك أخشابًا تصمد أمام العتلة التي يحملها؟

سرعان ما اغتصب القفل وخرج إلى القسم الخلفي من المتحف الذي صار يعرفه عن ظهر قلب..

هناك حارس ليلي في مكان ما.. يجب أن يعرف أين هو ويسدد له ضربة قوية على مؤخرة رأسه.. ضربة تكفي لفقدان الوعي لا الموت لأنّه لا يريد التورط أكثر..

كان الظلام دامسًا طبعًا، لهذا أخرج الكشاف الرفيع الذي يحمله في هذه العمليات.. يُطلق شعاعًا محددًا كأنه بالليزر لا يجلب أنظار الفضوليين..

نظر إلى الكاميرات المعلقة في عدة أماكن.. على الأرجح هي لا تعمل ولا أحد يراقبها دعك من هذا الظلام الدامس، لكنه سيفتش جيدًا للتأكّد من أنّه ليس هناك من يسجل هذه اللحظات..

هو يعرف ما يريد..

أولًا هناك عملات قديمة.. الكثير منها.. سوف يملأ جيوبه بها، هذه الأشياء غالية الثمن دومًا.. ربما يلف السجادة المعلقة على الحائط.. هناك هذا البيض الحجري المنقوش... ربما يأخذ الخوذة البرونزية.. هناك بعض الحلي الذهبية كذلك..

طبعًا ذلك العمود الخشبي كبير جدًّا.. غالبًا لن يكون باهظ الثمن كذلك..

ولكن أين الحارس؟.. بالتأكيد هناك واحد وهو يرجو ألا يكون ذلك المتشكك الذي ظل يراقبه في ارتياب. يمشي بين المعروضات في الردهة الطويلة.. سوف تنتهي مشاكله بمجرد الخلاص من الحارس لأنّه قد يكون مزعجًا...

بالفعل كان هناك.. مكتب السكرتيرة.. إنّه مفتوح والرجل بالداخل نائمًا على المكتب.. غالبًا هو الحارس الآخر البدين وليس المتشكك. هذا سوف يسهل الأمور.. رأسه على المكتب وصوت شخيره عالٍ.. سوف يهوى على رأسه بضربة واحدة ليواصل النوم ساعات أكثر ثم ينهي كل شيء.. في الصباح سوف تأتي سيارات الشرطة من جديد...

اقترب من المكتب ورفع العتلة..

كاد يهوي بها... عندما سمع ذلك الشيء يتحرك خلفه..

أجفل واستدار..

هناك في قاعة المعروضات يمشي ذلك الشيء طويل القامة.. هو يراه في الظلام فلا يتبين ملامحه لكنه لم يحبّ ما رأه كثيرًا ثمّة شيء خطأ..

عندما دقق النظر أكثر أدرك أنه يرى شيئًا مروعًا...

فلتذهب السرقة إلى الجحيم.. لابد له من أن يفر من هنا.. هذا المكان مسكون أو يعجّ بالشياطين..

هكذا ترك الحارس النائم ووثب إلى الخارج وراح يركض في القاعة قاصدًا الحمام الذي جاء منه..

اصطدم بواجهة عرض فتهشم جزء من زجاجها، وأدرك أنه على الأرجح جرح وجهه بشدة، لكنه لم يبال.. الجرحى يمكن أن ينعموا بالحياة لكن الموتى لا ينتظرهم سوى القبر الرهيب المظلم..

من الغريب أن الحارس لم يسمع صوت تهشّم الزجاج هذا..

كان يركض وقلبه يوشك على أن يقفز من فمه، وعندما رأى الشيء يسد عليه الطريق رفع العتلة وشب على أطراف أصابعه ووجه ضربة قوية جدًّا لهذا الرأس.. تأرجح الشيء لكنه لم يسقط ولم يتراجع..

- «من أنت؟»

وأطلق سيلًا من السباب امتزج بالبكاء والدم الذي يملأ فمه الآن.. ثم هوى بضربة أخرى قوية على الرأس المخيف...

- «ما أنت؟...»

وشعر بما كان يخشاه.. تلك اليد تمسك بساقيه وترفعه بينما اليد الأخرى تمسك برأسه.. إنّه يرتفع للهواء.. عاليًا جدًّا جدًّا.. هذا الشيء قوى بشكل لا يصدّق....

إنّه يمد ذراعيه لأعلى وهو يحمله فوق مستوى رأسه كأنه مصارع ينوي أن يلقى خصمه فوق الحبال...

أطلق صرخة ذعر وقد فهم ما يحدث..

فهم ما سيحدث..

إن الشيء يضغط عليه بقوّة بحيث يتقوس ظهره في اتجاه مستحيل.. هو معلق في الهواء وظهره ينضغط وينضغط بقوّة لا يمكن وصفها هذا الشيء يفترض أنه عود من قصب السكر يحاول ثنيه على نفسه...

قال لنفسه وهو يرى العالم من وضع أفقي:

- «حتى لو حطم ظهرك ستعيش مشلولًا.. لن تموت!..»

الحق أنه كان يحتفظ بنفسية الفئران التي تعتبر الحياة بأية صورة كانت مكسبًا لا بأس به..

هوى بالعتلة مرة أخيرة على الرأس لكنه كان قد صار فوق مستواه، دعك من أن وهنًا غريبًا منعه من أن يضرب بقوّة...

- «قليل البخت يلقى العظم في الكرشة..»

قالها لنفسه للمرة الأخيرة قبل أن يسمع صوت التهشم ...

- 1 -

لن أتخلص من هذا الرجل أبدًا...

كنت قد أزمعت ألا أسمع ثانية عن (راسم)، وكنت صادقًا في العهد الذي قطعته لنفسي، لهذا لم أتوقع قط أنّ هذه المكالمة الهاتفية المزعجة تخصه..

ترررررررررررن!

تتقافز الأكواب ويرتج الأثاث ويتحطم زجاج النوافذ، بينما أركض أنا بوجه غطاه صابون الحلاقة نحو ذلك الجهاز الكريه وغرضى أن أخرسه بأي شكل..

- «ألو؟»

- «د. (رفعت).. أنا (راسم أبو سيف).»

كالعادة بدا لي الاسم غريبًا ملفقًا، لكني لم أستطع تذكر متى سمعته أول مرة..

- «(راسم) من؟»

- «(أبو سيف).. لا أعتقد أنك نسيت موضوع المتحف..»

في النهاية تذكرت.. هذا الرجل مستمر للأبد كالبعوض..

- «هل يضايقك أن تشرفنا بعض الوقت في المتحف؟»

- «الحقيقة هي أنني مشغول.. ثم إن مشوارك هذا...»

قال بلهجة لا تقبل الاعتذار وفيها خطورة واضحة:

- «أرجوك.. الأمر مهم فعلًا.. أنا بانتظارك في أي وقت اليوم..»

وضعت السماعة الملوثة بالصابون ورحت أمسحها بمنديلي وأنا أفكر.. ما دورى في هذه القصة وأنا قد اعتذرت مرارًا عن أن يكون لي دور فيها؟

لابد أن أرى.....

✶ ✶ ✶

السكرتيرة الحسناء التي عرفت أن اسمها (ليلى) كانت بانتظاري هناك، وقد عرفت وجهي على الفور فلم تضيع وقتي في شرح المعروضات كالعادة.. هذا دور لن تقوم به للأبد لو ازدحم المتحف. إنها فقط متحمسة في البداية وستتعب سريعًا..

تقدمتني نحو مكتب المدير بين واجهات العرض..

هناك واجهة محطمة ولكنهم قاموا بتنظيف الزجاج. إذن الأمر يتعلق بمحاولة سطو على الأرجح. استطعت أن أرى ذلك الفتى والفتاة اللذين لا يجدان مكانًا للقاء سوى هذا المتحف العجيب، وكانا يقفان أمام مومياء المايا تلك يتهامسان. لو كنت رائق الباب لقلت في حكمة: صاحب هذه المومياء كان مثلهما يومًا، وكان يعشق ويحلم بحبيبته.. اليوم هو مومياء يقف أمامها العشاق ناسين أنهم سيكونون مثله يومًا..

وارتجفت لما تخيلتهما موضوعين في واجهتين وقد جلسا القرفصاء، ووضع كل واحد قبضتيه على أذنيه.. الحمد لله أننا لا نمارس التحنيط حاليًا. من حق الميت أن يعود للتراب بدلًا من أن يصير تسلية للمتفرجين..

مكتب (راسم).. تدق السكرتيرة الزجاج مرّتين ثم تفتح الباب..

(راسم) ينهض لاستقبالي.. أكاد أقسم أنه شاخ قليلًا... وجه مرهق متعب وكتفان أميل للانحناء. يبدو أن إدارة المتاحف مرهقة فعلًا.. أو هو أدرك أن اللعبة أكبر منه..

جلس على مقعد (أنتريه) ليكون بجواري ووضع ساقًا على ساق بتلك الطريقة الأمريكية التي تغيظني، حيث تجد حذاء من يكلمك في وجهك، لكنهم لا يعتبرونها قلة ذوق..

قال لي:

- «كيف الحال؟»

- «كما ترى.. أعتقد أنني الأجدر بالسؤال..»..

ابتسم ابتسامة باهتة، وهنا دخلت السكرتيرة لتقف معنا في الغرفة باعتبارها أحد أطراف المحادثة.. توقعت في تلذذ أن يقول لي إنّه في ورطة ماديّة وإنه لا يكسب شيئًا، وإنه يرغب في العثور على مشتر للمتحف كما هو.. عندها سأقول له في برود:

- «حساب المكسب والخسارة ليس كل شيء في العالم.. هل تذكر من قال هذا يومًا ما؟»

مد يده للسكرتيرة دون أن ينظر لها فوضعت في يده مظروفًا ناوله لي.. مددت يدي داخل المظروف لأجد صورة فوتوغرافية.. صورًا بالأبيض والأسود لم أتبين ما بها إلا عندما دققت أكثر..

اعتدلت في جلستي بما يناسب ما رأيت..

المشهد الأول يمثل رجلًا يلبس قفازين في يده، وقد انثنى ظهره إلى الخلف بطريقة لا يمكن أن تجدها في كائن حي.. الذين قتلتهم الشياطين في القرون الوسطى كانت أعناقهم تلتوي للخلف، لكن هذا المشهد فريد..

هناك لقطة أقرب لوجهة المذعور، وقد بدا على جبينه جرح قطعي....

رفعت رأسي في دهشة فقال لي أن أواصل المشاهدة..

الصورة الثالثة كانت تظهر جسدًا.. نعم هو جسد بالمعني الحرفي للكلمة لأنّه لا يوجد رأس.. الصورة الرابعة تظهر الرأس ممزقًا ينظر لي نظرة خاوية. لكن.. أنا أذكر هذا الوجه.. هذا رجل أمن يعمل في المتحف.. أنا رأيته في زيارتي الأولى أسمر قوي البنية بادي اليقظة...

قال (راسم) وهو يمسح وجهه:

- «الجثة التي يبدو أن أحدهم حاول أن يثنيها نصفين ليدخلها من تحت الباب، هي جثة عرف رجال الشرطة صاحبها.. (سعيد الشناوي).. لص منازل. أو ما يسمونه.. هـ.. هـ..»

- «هجام..»

هذه كانت من السكرتيرة طبعًا..

- «نعم.. نعم.. هجام.. تسلل إلى المتحف ليلًا من نافذة الحمام.. لا نعرف ما حدث.. فقط الحارس الليلي (منصور الفقي) اعترف بأنه كان نائمًا وأنه استيقظ ليجد هذه الجثة جوار باب الحمام.. يبدو أنه كان يحاول الفرار عندما هوجم بهذه الطريقة..»

قلت في استنكار:

- «هوجم؟.. لو كان المهاجم (كينج كونج) لما أحدث كل هذا الأثر..»

لم يعلق لكن السكرتيرة تدخلت في الكلام.. متضايق أنا من أهميتها الزائدة وتدخلها في كل شيء، لكني أعتقد أن (راسم) يسمح بهذا لأسباب لا تتعلق كلها بضعف لغته العربيّة.. إنها تلعب دور الشريك الكامل في المتحف.. ثم إنها متحمسة له أكثر من اللازم.. حماسها يتجاوز الاهتمام المهني إلى آفاق أرحب..

قالت وهي تشير لباقي الصور:

- «الثاني مقطوع الرأس هو رجل الأمن (عامر).. لقد وجدناه صباحًا منذ يومين بهذه الصورة ولا نعرف على الإطلاق ما حدث ولا من كان يطارده.. فقط كانت سماعة الهاتف مرفوعة وهو على الأرض في مكتبي.. لابد أنه رأى شيئًا فحاول طلب الشرطة لكنه لم يستكمل هذا..»

قلت وأنا أتفحص الصورة:

- «هذه المرّة يبدو كأننا بصدد ديناصور..»

- «لست بعيدًا عن الحقيقة.. يقولون إن عنقه قضم من موضعه.. لا يوجد أثر آلة حادة كسكين أو مدية..»

- «وتلك الدائرة التلفزيونية باهظة الثمن.. ألم تلتقط صور ما يحدث؟»

- «لابد من وجود من يراقب الشاشات وهو ما لا يحدث، دعاك من أننا لا نسجل أحداث الليل.. لقد قمنا بتركيب الدائرة على أمل أن نفيد منها عندما تتحسن الأمور، لكن لا نفع منها في الوقت الحالي..»

تنهدت وأعدت لها الصور الرهيبة، وسألت (راسم) لأتجاهلها:

- «والشرطة؟.. ما رأى رجالها؟»

قال (راسم) وكأنه أفاق من نوم طويل:

- «دهشة.. حيرة.. لا أكثر ولا أقل.. لا توجد أية علامات على من فعل هذا.. هناك من تسلل ليلًا وقتل الحارس مرة، ثم قتل اللص مرة مشكورًا لكننا لا نعرف من هو ولا كيف دخل.. لاحظ أن من يحدث كل هذا الأثر ليس رجلًا عاديًا.. إنّه سفاح مخبول وبالإضافة لهذا يملك قوى هائلة..»

سفاح مخبول يملك قوى هائلة...

أحتاج لوقت كي أستوعب هذا..

- 2 -

لهذا طلبني (راسم)..

لقد قال لنفسه: ما دام هذا العجوز المخبول لا يصلح للإشراف على المتحف، فليرنا بعضًا من خبراته التي يتكلمون عنها..

السؤال الأول هو: من فعلها؟... من الممكن أن تلقي علامات الاستفهام على ذلك الحارس الآخر (منصور).. ربما هو فتك باللص وفتك بزميله الذي رفض أن يقرضه لفافة تبغ، لكن تبقى حقيقة أنك لا تستطيع أن ترتكب جريمة بهذا العنف مهما حاولت.. حتى لو اجتمع ثلاثة رجال ففعل هذا صعب ويحتاج لقوة بدنية هائلة..

السؤال الثاني: لو فعلها بشري فلماذا يقتل بهذا العنف المبالغ فيه؟

كلما فكرت في الأمر بدا لي ذا طابع خوارقي لا شك فيه..

قوة القتل وعنفه لا توحيان بيد ولا نفس بشريّة.. بالفعل كنت دقيقًا عندما تحدّثت عمن قتلتهم الشياطين في كتب سحر القرون الوسطى.. ربما شممت رائحة الكبريت لو كان أنفي أصغر سنًا.. يوحي الأمر بأن هناك حارسًا لا ينتمي لعالمنا يسهر على هذه المعروضات.. حارسًا يشبه ذلك المكلف بحراسة المقابر الفرعونية عندنا، لكن لماذا يقتل الحارس حارسًا مثله؟.. بالنسبة له هو زميل عمل حتى لو لم يكن من نفس العالم.. المفترض أن يتبادلا هزة رأس على سبيل المجاملة ويجلسا لشرب الشاي..

على كل حال كان (راسم) واضحًا: هو لا يريد شوشرة.. لا يريد أن يذيع هذا الخبر..

كنت أعتقد العكس... دع الناس يعرفوا أنّ هناك جرائم قتل شنيعة وقعت في هذا المتحف ليلًا ولسوف يزدحم المتحف ولا تجد موضعًا لقدم.. هذه طبائع الأمور..

لكن (راسم) كان مصرًّا على أن الجثث المهشمة لا تليق بمتحف محترم..

لقد جاء رجال الشرطة وفحصوا كل شيء، ولسبب ما غفلت الصحافة عن هاتين الجريمتين.. لا مزيد من الضوضاء من فضلك..

رحت أجوب المتحف وعيناي تتفحصان كل شيء التقت عيناي بذلك الحارس الثالث (رضا) على ما أذكر، فهز رأسه محييًا وقد فهم أنني شخص مهم ما دمت قضيت في مكتب المدير كل هذا الوقت...

لو تركت لنفسي سعة التفكير لقلت إن الواجهة المحطمة هي مفتاح حل اللغز.. لماذا تحطمت؟...

ماذا يوجد خلفها؟.. مومياء المايا الجالسة. إن لي قصصًا مرعبة مع حضارة المايا ليست أسوأها قصتي مع ملك الذباب (ري دي موسكاس) ورجال قرية أريزونا الذين تحولوا إلى حشرات في ظروف غامضة... هناك قصص أخرى لم أحكها، لكن لديَّ ما يدعو للاعتقاد بأن الاحتفاظ بمومياء من هذه الحضارة أمر خطير فعلًا...

لكن ما دام الزجاج مهشمًا فكيف غادرت المومياء مكانها؟... لابد من فتحة تسمح بذلك والزجاج المحطم لا يسمح إلا بمرور كرة قدم صغيرة. دعك من أنها مومياء نحيلة واهنة يمكن أن تتفكك لو خضت معها صراعًا جديًّا.. ثم...

ما هذا الكلام الفارغ؟

هأنذا أقف أمام تلك المومياء أحاول أن أثبت لماذا لم تفعل ذلك!.. لابد أنني جننت!

بالطبع يمكن استبعاد عمود الطوطم.. هذا مجرد نصب تذكاري. كذلك يمكن استبعاد الآنية والسجاجيد.. هذه أشياء لا تقدر على تمزيق عنق إنسان..

أسد محنط؟.. هناك علامات استفهام تدور هنا.. العنق انتزع بأنياب حادة.. لكن كيف؟..

الخوذة؟.. لم أسمع عن خوذة شرسة إلا في قصة (قلعة أوترانتو) لـ (والبول Walpol)..

✶ ✶ ✶

كنت في مأزق حقيقي..

لا يمكن تصوّر أن إنسانًا أو مجموعة بشر قاموا بهذه الأعمال..

في الآن ذاته لا يجب أن نقبل مقولة إن شيئًا شريرًا خارقًا للطبيعة يعيث فسادًا في المتحف ليلًا..

لن أندهش لو كان ذلك صحيحًا.. لقد رأيت ما هو أسوأ.. المشكلة أنك لا تصل لاستنتاجات كهذه قبل أن تفرغ من باقي الاحتمالات..

قلت لـ (راسم) بعد ما فرغت من استعراض أفكاري أمامه:

- «طبعًا هناك حل واحد، وهو أجهزة الكاميرا المتناثرة في المتحف.. حان الوقت كي تنتفع بثمنها.. يجب أن تشغلها، وأن يكون هناك من يراقب الشاشات ليلًا..»

- «ولكن من؟»

- «هذه مشكلتك.. ليس أنا بالتأكيد.. أنت ثري ويمكنك أن تجد من يقبل السهر محدقًا في هذه الشاشات من مكتبك..»

سألتني السكرتيرة في نوع من التحدي:

- «ومن قال إن هذه الأحداث ستتكرر؟.. من قال إنها ستصير عادة؟»

قلت في سماجة:

- «لا أحد يضمن أي شيء قد لا يحدث شيء للأبد وقد يحدث هذه الليلة.. ما أعرفه هو أنكم قلقون.. معنى هذا أن احتمال التكرار قائم، ولهذا عليكم أن تدرسوا الاحتمال جيدًا..»

ثم رسمت على وجهي ملامح الخبير:

- «على قدر علمي، فإن فترة شهر كافية جدًّا للحكم على أية ظاهرة.. إما أن تحدث أو لا تحدث أبدًا.. لدينا حادثتا قتل بينهما أربعة أيام.. لو لم تقل لي إن رجال الشرطة غير مهتمين بالأمر وإن هناك من يراقب المتحف بعناية، لاتهمتك بالمبالغة أو اتهمتهم بالتقصير..»

فكر (راسم) قليلًا ثم نظر للسكرتيرة، وقال:

- «ليكن.. هل يُمكنك أن تخبري (مأمون)؟»

قالت وهي تراجع بعض الأوراق:

- «مشغول.. يمكن أن نطلب (عاصم).. إنّه سيحب هذا العمل الليلي..»

قلت لهما وأنا أنهض:

- «لو سجلت الكاميرا شيئًا فلسوف يكون رهيبًا.. إما أن نرى كيانًا شيطانيًا يتحرر من مكمنه.. ربما تنهض تلك المومياء وتجول في المتحف وهي تعوي كالذئاب، وإما أن نرى ما هو أفظع.. نرى مجموعة من القتلة يمزقون إنسانًا مثلهم... فقط لنبق على اتصال..»

ثم تذكرت شيئًا آخر أكثر أهميّة:

- «بالمناسبة.. أرجو أن تدعم النوافذ بقضبان حديدية.. لانريد من يتسلل عبر الحمام كما المرّة السابقة..»

نظر للسكرتيرة فقالت بسرعة:

- «اطمئن.. قمنا بذلك فعلًا... لا توجد طريقة لاقتحام هذا المتحف إلا من الداخل..»

هذا يجعل الأمور أكثر إحكامًا..

المهم أن نعرف ما سيراه الأخ (عاصم) الذي يحبّ العمل الليلي...

لو حدث شيء فلسوف يكون مخيفًا...

- 1 -

لم تكن (فاتن) تحب (سليم) على الإطلاق..

لقد عملت كثيرًا بعد حصولها على الدبلوم، وعرفت كيف تفهم صاحب العمل منذ النظرة الأولى.. كثير منهم يعتبر الفتاة العاملة لديه في المحل (ما ملكت أيمانكم) على الفور، ويبدأ في محاولة الإيقاع بها.. هو لا يصدّق أنها تعمل عنده وتتقاضى راتبها منه وبرغم هذا لا تقبل توده وتقربه منها.. هذا يثير جنونه...

كان (سليم) من هذا الطراز.. فهمته منذ اللحظة الأولى، لكنه كان يقدم لها عملًا وهي بحاجة لعمل بشدة...

كان متزوجًا وفي الأربعين من عمره، وكان بدينًا له لغد عملاق وعينان مجنونتان تطلقان شررًا.. ولئن كان يعتبر نفسه جذّابًا فهذا شأنه، لكن لا تفرض عليّ رأيك من فضلك.. الأمر يشبه الرجل قبيح الصوت الذي يغني في الحمام هذا شأنه.. إلى أن يقرر الصعود إلى المسرح وأن يمسك بالميكروفون..

كانت تتحاشي (سليم) وتتظاهر بأنها لا تفهم، وكان هو يزداد غلظة.. لهذا قررت أن أيامها في هذا العمل محدودة، وهذا جعلها أكثر تحفظًا وخشونة معه..

كان عملها يتلخص في أن تقف في متجر البقالة الصغير هذا وتجلب للناس ما يريدون. ثم تتجه إلى (سليم) الجالس كالسلطان خلف (الكاونتر) لتخبره بما أخذه الزبون وهو يجري عملية الجمع، ثم يأخذ المال من الزبون ويعيد له الباقي قائلًا:

- «شرفت..»

ما كان ليقولها لو لم تكن تعني ما قد يأتي في فترة قادمة..

في هذه الفترة ظهر (عمر)...

كان شابًا نحيلًا مفعمًا بالأحلام والآمال.. طلب زجاجة من الكولا المثلجة وتحسسها ليتأكد من أنها مثلجة فعلًا ثم ابتسم..

إن الإنسان غريب فعلًا.. حركة تافهة كهذه بلا معني بدت لها فاتنة ساحرة، ولسبب ما وقعت في حبّه...

أخبرها أنه يعمل بائعًا في متجر كهربائي قريب. إنّه حاصل على الدبلوم مثلها ولم يظفر بعمل.. كان هذا هو العمل الوحيد أمامه..

- «هل من شيء آخر يا أستاذ؟»

قالها (سليم) الذي بدأ يشعر بأن جاريته تفكر في اتجاه مختلف، فأجفل الفتى وهرع يدفع ثمن ما شربه..

عرفت عندها أنها لن تكون زيارته الأخيرة..

منذ ذلك اليوم، صار الفتى مَعلَمًا يوميًّا دائمًا من معالم المتجر.. تنتظره عندما يأتي.. ينتقي زجاجة المياه الغازية. يتحسسها ليتأكد من أنها باردة ثم يبتسم ويشرب ويدفع الثمن بعد ما يتبادل معها ثلاث أو أربع جمل..

بعد أسبوع صار يبتاع أشياء عديدة لزوم غدائه، وهذا كي يطيل فترة الحوار معها...

أدركت أنها تحبه.. كما أدركت من قبل أنها تكره (سليم) للغاية..

هكذا كانت المحادثات تدور بينهما بأسلوب البرقيات.. في يوم من الأيام مثلًا:

- «لا أحب عملي.. إنّه ممل، لكنه لم يعد كذلك.. هل تعرفين السبب؟»

ثم بعد يومين:

- «السبب هو أنك هنا.. أنا وحيد بلا أصدقاء ولا إخوة.. لكني صرت محظوظًا..»

ثم بعد يوم:

- «وأنت؟.. هل لك إخوة؟»

بعد ثلاثة أيام ترد:

- «لي أخوان أصغر سنًا.. هناك أخت في المدرسة الابتدائية.. أبي...»

ثم بعد يومين تقول:

- «أبي توفي منذ خمسة أعوام..»

بعد يومين يقول لها:

- «هذا محزن.. أفهم.. لهذا صرت أنت رجل الأسرة المكلف بعنايتها.. هل أمك بخير؟»

بعد أربعة أيام تقول:

- «نعم.. هي بخير لكن الكفاح أرهقها..»

في النهاية بعد أسبوع قال لها:

- «لابد أن ألقاك بعيدًا عن هنا، حيث لا يوجد غراب يراقبنا..»

بعد يومين قالت له:

- «هذا صعب.. ربما عند الظهيرة لأنني أذهب لشراء غداء لي...»

ثم بعد يوم:

- «إلى أين؟.. ليس حديقة الحيوان أو الهرم لأن هذا معناه ضياع اليوم..»

بعد أربعة أيام قال لها:

- «أعتقد أنني أعرف مكانًا مناسبًا..»

المكان المناسب الذي اختاره كان متحفًا جديدًا قريبًا من هنا... مكان هادئ جميل وحديقة غناء أنيقة، وأشخاص لا يتدخلون فيما لا يعنيهم..

باختصار اختارا أن يلتقيا في (متحف راسم للدراسات الإنسانية).

- 2 -

هذا هو ما استطعت أن أنسجه مما عرفت عن القصة فيما بعد..

هناك الكثير من التفاصيل عن علاقة هذين وحبهما الوليد، لكنني لست مهتمًا بتحويل هذه القصة إلى رواية عاطفيّة حزينة.. فقط أحاول أن أضعك في الجو وأخبرك بخلفيات هاتين الشخصيتين، كما يقول (سومرست موم) إنّه يمقت الرواية البوليسية التي تبدأ بجثة.. لابد أن تعطيه بعض الوقت كي يعرف هذه الجثة جيدًا قبل أن تصير كذلك ويتألف معها.

لهذا يمكن أن أقول على الفور إن الشابين اعتادا على اللقاء في المتحف الجديد.. تذكرة ليست باهظة الثمن، ومكان جميل يمضيان هناك نحو نصف ساعة من الكلام الهامس ثم يرحلان..

فقط في المرّة الأولى درسا المعروضات جيدًا.. وجدت الفتاة فرصتها كي تشهق في رعب عندما رأت المومياء، ووجد هو فرصته كي يبدى شجاعته كأنه يلتهم عشر مومياوات يوميًا قبل الإفطار.. في سلوكه صبيانية واضحة ولسان حاله يقول: دعي هذا الأبله يضايقك ولسوف أمزقه إربًا.. مومياوات؟.. نحن لا نبالي بهذا الهراء!

كذلك وجدت فرصتها في إبداء إعجابها بمومياء الأسد الصغير قالت أشياء على غرار (يا ختي قمينة) وما إلى هذا بينما ابتسم هو في استخفاف.. الرجال حقًّا لا يهتمون بالأسود الصغيرة..

انتهى شغفهما بالمتحف بعد نصف ساعة، وحاولت السكرتيرة أن تشرح لها تاريخ هذه القطع لكنّها أدركت أنهما لا يباليان بشيء هنا..

صار وجهاهما مألوفين وصار من يقطع التذاكر يبتسم في فهم عندما يراهما. يدخلان المتحف ويجولان بين واجهات العرض وهما يتهامسان بلا توقف.. لابد أنهما رسما خطة المستقبل كاملة.. لابد أنهما وصلا إلى الطفل الرابع أو الخامس....

عرفا الحراس الثلاثة وعرفا الزوار المنتظمين هنا..

هناك حارس تفوح منه رائحة التبغ اسمه (عامر) ويتمتع بيقظة غير عادية، وقد كان هناك رجل ضئيل الجسد مريب الشكل يتردد بانتظام على المتحف مثلهما.. لهذا استلفت نظر الحارس، وذات مرة لحق به في الشرفة ليعيده إلى الداخل في حزم.. الحق أن منظر الرجل لم يكن بريئًا على الإطلاق..

عندما يدخلان هما الشرفة ليتكلما وهما يرمقان الحديقة الغناء، لم يكن الحارس يضايقهما... فقط كان يمرّ ليلقي نظرة عابرة من حين لآخر ثم يواصل مسيرته..

المدينة تعادي الحب وتعتبره صرصورًا يجب أن يسحق بالحذاء، لكن ليس في (متحف راسم للدراسات الإنسانية). ربما يُمكنك التفكير في الأمر على أنهما أثر آخر من آثار البشريّة لهذا تركهما المسئولون عن المتحف.. الحب عادة بشريّة قديمة توشك على أن تنقرض مثلما انقرضت تلك الحضارة التي صنعت هذا العمود الخشبي المخيف، ويومًا ما بعد ألف سنة سيقف السياح ينظرون لهما ويلتقطون الصور بينما يقول المرشد: «هذان حبيبان.. منذ ألف سنة سادت عادة غريبة هي أن يلتقي فردان من جنسين مختلفين ويتهامسان وينظران للشمس الغاربة والقمر، وربما يسمعان الأغاني كذلك!.. لم يستطع علماؤنا معرفة سبب هذه العادة الغريبة ولا الهدف منها، لكن يعتقد أنها كانت مقدمة طقوسية لتكوين ما يعرف بالأسرة..» تدوي شهقات الانبهار ويلتقط السياح سيلًا من الصور..

سألته (فاتن) ذات مرة بطريقة لا مبالية:

- «ما هذا العمود الحجري الطويل؟»

نظر له وللمرة الأولى يبدو أنه لاحظه.. على طريقة الذكر الذي يجب أن يملك إجابة عن كل شيء قال لها:

- «ربما هي سارية علم..»

ثم اقترب ليقرأ المكتوب على البطاقة الصغيرة:

- «طوطم.. من آثار قبيلة (أوجيبوا) الهنديّة على الحدود الأمريكية الكندية. ويعد مثالًا ممتازًا لعقيدة الطوطم التي مارستها كل الشعوب البدائيّة في حقبة ما..»

قال في سخرية:

- «طوطم.. اسمه طوطم!.. ربما كانوا يضعونه في حقول الطماطم..»

لم تبد مهتمة بالأمر ولا الضحك للدعابة.. لقد وجهت السؤال ولم تسمع الإجابة كما نفعل جميعًا..

كانا يتكلمان بينما مر جوارهما رجل عجوز أصلع الرأس نحيل بشكل لا يصدّق، وكان نافد الصبر يصغي للسكرتيرة التي تحدثه بلا توقف عن كل قطعة.. من الواضح أنه يتعّجل الانتهاء..

قالت (فاتن) في شيء من القسوة:

- «هذا الرجل يصلح للعرض هنا.. يبدو أثرًا لا شك فيه!»

قال الفتى:

- «هو كذلك مُهم كما يبدو.. انظري!.. إنّه يتجه لمكتب المدير مباشرة.. على كل حال لقد حان وقت الانصراف.. يجب أن نعود قبل أن يسألوا عن مكاننا..»

ثم قال في نفاد صبر:

- «لقد سئمت هذا المكان.. ماذا عن الذهاب للسينما؟.. هناك فيلم هندي ممتاز..»

في هذا العصر كانت الأفلام الهنديّة هي ذروة ما يعرض في دور السينما، وكانت فرصة ممتازة للتطهر.. ثلاث ساعات من المطاردات والغناء والرقص ثم يكتشف الابن أن أمّه ما زالت حية ويعود لها وينفجر الكل في البكاء.. كلما بكيت أكثر كان الفيلم أفضل.. تجربة ممتازة لهؤلاء الذين يملكون بالونًا هائلًا من الأحزان يحتاج إلى لمسة كي ينفجر..

قالت له في رعب:

- «مستحيل.. ثلاث ساعات كاملة!.. هل جننت!...»

- «وهل سنبقى في هذا المتحف إلى الأبد؟»

- «لا يوجد حل آخر..»

✶ ✶ ✶

على أنهما فشلا في زيارة المتحف في المرّة التالية برغم أنهما جاءا مبكرين هذه المرّة، لأنّه كان مغلقًا وكانت هناك سيارات شرطة وضباط وعربة إسعاف يبدو أنّ هناك سطوًا قد حدث في الليل، وقال لهما الحارس الذي يقطع التذاكر إن بوسعهما المجيء يوم السبت..

في المرّات التالية لاحظا أن ذلك الحارس (عامر) لم يعد هناك، وقد سألا أحد الحراس عنه فقال في تأثر

- «تعيش أنت!»

كان خبرًا قاسيًا وبرغم أنهما لم يتعاملا معه بما يكفي، فقد كان رجلًا مهذبًا.. حاولا تذكر وجهه الصارم الطيب الأسمر، لكن صور المتوفين تبهت على الورق وفي الذاكرة... الحارس بدا غير راغب على الإطلاق في ذكر تفاصيل أخرى...

هكذا التقيا في يوم آخر.. من الغريب أنهما وجدا سيارة إسعاف تغادر المتحف.. هل هذا متحف أم مستشفى؟..

ثمة أشياء غريبة تحدث..

✶ ✶ ✶

سأكون مختصرًا.....

بما أننا نعرف أنني توجهت لزيارة الفتاة في المستشفى بعد هذا بثلاثة أيام، فإنني سأعفيك من شرح القصة بلساني.. هي أقدر على الشرح وأكفأ..

كنت قد فرغت من فحص جثة الفتى مع الطبيب الشرعي في المشرحة، وكان رأيه أن ما حدث جنون.. لا يمكن أن يكون أحدهم قد طعن الفتى بمثقاب في مخه وعينيه بهذه القوة وهذه الشراسة، لكن باقي الجروح توحي بأن المهاجم استعمل خنجرًا مدببًا..

لم أكن متأهبًا لرؤية ما رأيت، وقد بحثت في ذهني عن ذكرى تماثل هذه بشاعة، لكنني لم أستطع برغم أنني رأيت 78654463 جثة في حياتي إن لم أكن قد نسيت، بعضها..

لاحظ الرجل أنني غير متزن وأنني أتنفس بصعوبة فقال وهو يغسل يديه:

- «نعم.. مهنة. قذرة هي لكنك تعتادها فتحبها.. واضح أنك لا ترى الكثير من الموتى..»

- «بالعكس.... أرى الكثير من الموتى، لهذا أندهش جدًّا عندما أرى جثة كهذه..»

ثم كررت سؤالي:

- «إذن أنت، لا تعتقد أن إنسانًا فعل هذا؟»

قال في استنكار:

- «ومن يفعلها إن لم يكن إنسانًا؟... فقط هو شخص قوي.. قوى لدرجة لا تصدق.. هل لك في بعض الشاي؟»

سألني وهو يصب الشاي في كوب زجاجي متسخ كبير، فهززت رأسي نافيًا.. أحيانًا أستشعر في سلوكه هذا نوعًا من الاستعراض الصبياني، كما كنا نمسك بالضفادع ونقبلها في قريتي كي نخيف الفتيات، وليرين كم نحن أشداء..

هكذا اتجهت للمستشفى، وطلبت رؤية الفتاة..

بالطبع كانت هناك حراسة على العنبر، وقد خصصوا لها غرفة صغيرة لتسهل مراقبتها..

كانت معصوبة العينين طبعًا بعد ما أصاب عينيها من أذى..

دنوت من الفراش في حذر، وأدركت من تنفسها الهادئ أنها تحت تأثير مهدئ ما.. سألتها في لطف إن كانت قادرة على الكلام.. لقد حاول وكيل النيابة معها من قبل وفشل...

- «(فاتن).. أليس هذا اسمك؟.. هل يُمكنك أن تفيديني بشيء؟... شيء واحد؟»

وانتظرت ردها..

يبدو أنني ارتكبت خطأ فاحشًا لأنهّا نهضت فجأة كما ينهض مصاص الدماء الذي يغرسون وتدًا في صدره في أفلام (هامر) القديمة، وأنشبت مخالبها في سترتي وصرخت:

- «أبو قردان!!.. لقد كان ما هاجمنا هو أبو قردان.. جسد إنسان عملاق وعلى كتفيه رأس أبي قردان!!»

- 1 -

كان يجيد الإصغاء حقًّا...

أعترف أنني أحب رجل الشرطة الذي يجيد الإصغاء، وقد كان المقدم (محمد خيري) من هذا الطراز.. إنّه رجل قوي البنية مريح الملامح، ولسبب ما لا أذكر أنني رأيته في غير الثياب المدنية.. لكنك تعرف على الفور إنّه رجل شرطة من نظراته ومن طريقته الآمرة نوعًا.. عندما يعبر الطريق فإنّه لا ينظر أبدًا لرؤية إن كانت هناك سيارات قادمة، بل يعبر في ثبات وتؤدة تاركًا مهمّة تحاشيه على عاتق السائقين المساكين الذين تعوي فرامل سياراتهم في اللحظة الأخيرة..

قال لي ذات مرة:

- «لا شيء يخيف السائق مثل عابر الطريق الذي لا ينظر له أصلًا.. هذا يرغمه على التوقف..»

قلت له ضاغطًا على أعصابي:

- «لماذا لا تنتظر حتى تصير الإشارة أو وضع الطريق مناسبين للمشاة..؟»

- «معنى هذا أنك لن تعبر أبدًا.. أنت في القاهرة يا صاحبي..»

كانت هذه الجملة مفتاح شخصيته.. احتفظ بثبات أعصابك لترغمهم هم على الانهيار.. وعلى ضوئها يمكن فهم كل ما قام به في هذه القصة..

متزوج هو ولديه طفلان، لكنه يمقت الحديث عن بيته.. هذا هو أقصى ما يمكن أن تأخذه منه..

قابلته في مكتب (راسم) بعد يومين من لقاء الفتاة في المستشفى، وقد طلب مني (راسم) أن أكون موجودًا.. إن المقدم (خيري) هو المسئول عن التحقيق في هذه القضية...

بشكل ما أدرك (راسم) أنه يتعامل مع لغز من ألغاز ما وراء الطبيعة، وقد قرر أنه لابد من وجودي في كل خطوة يتخذها.. كان متضايقًا بحق لأن المتحف يحتاج إلى وجوده الدائم الآن، بينما يمثل المتحف جزءًا بسيطًا من أعماله في مصر، وكان يأمل في أن يدير نفسه بنفسه.. ربما كان يأمل أن تتولى السكرتيرة (ليلى) الأمور كلها على حين يتفرغ هو لأشياء أهم..

سألني المقدم (خيري) عن زيارتي للفتاة في المستشفي وما حدث.. والأهم ما هو انطباعي...؟

قلت له وأنا أتذكر ما قيل:

- «الفتاة اسمها (فاتن).. بائعة في محل بقالة..»

- «تأكد أننا نعرف هذا..»

قالها في نفاد صبر.. فأردفت:

- «الفتى بائع في محل.. إنهما من ثقافة متقاربة وظروف اجتماعية متشابهة.. أعتقد كما هو واضح أنهما متحابان منذ زمن أنا رأيتهما في المتحف قبل هذا، ودعني أؤكد لك أنهما لا يباليان بالمعروضات على الإطلاق.. إن هو إلا مكان للقاء..»

قال (راسم) في ضيق لملحوظتي هذه:

- «تعنى أنهما جاهلان..»

- «بل أعني أنهما عاشقان.. لو كنت متضايقًا لكونهما لا يباليان بآنية أسرة (منج) فهذا شأنك.. لكن أؤكد لك أنهما لا يباليان بآنية أسرة (منج)..»

ثم واصلت قصتي متجاهلًا الابتسامة الخفيفة التي ارتسمت على وجه الضابط:

- «لا أعرف كيف تم هذا، لكنهما التقيا في المتحف بعد ساعات العمل.. ربما طمعًا في مزيد من الخلوة ولم يفتهما إدراك أن نظام الأمن هنا هش جدًّا هش كقشرة بيضة دجاجة مصابة بالكساح..»

نظر الضابط إلى راسم في عدم فهم، فهز هذا رأسه مؤيدًا، وقال:

- «على الأرجح كانا في مكان ما من المتحف ولم يجدهما الحراس.. لا أعرف التفاصيل، لكن من الواضح أن الثغرات الأمنية كثيرة هنا.. فيما بعد يمكننا فهم الموضوع من الفتاة بشكل أفضل لكنّها تأبي الكلام حاليًا..»

قال الضابط:

- «هناك دومًا حيلة الحمام التي يلجأ لها اللصوص في المتاجر الكبرى.. عندما تقترب ساعة إغلاق المتجر يدخل الحمام وينتظر فيه.. ثمّة احتمال لا بأس به ألا يفتش أحد الحمام.. بعدها يتم إخلاء المتجر الكبير عندئذٍ يخرج اللص ليجد نفسه وحده.. يمكنه أن يسرق ما يريد ويتوارى في الحمام ثانية حتى ساعات الصباح، ثم يخرج من المتجر عند فتح الأبواب ومعه ما سرقه..»

احمرت أذناي وقد تذكرت أنني فعلت شيئًا مماثلًا في دار سينما من قبل.. لكنني لم أكن أبغي السرقة وإنما مواجهة بعض الظلال الحية ذات الإرادة المستقلة..

هز الضابط رأسه كي أكمل القصة، فواصلت:

- «لا يعنيني كيف دخلا.. المهم في الموضوع هو أن الفتى والفتاة تواجدا في المتحف في التاسعة مساء.. لم يرهما الحارس الليلي (رضا) والسبب هو أنه كان جالسًا أمام الشاشات مع

(عاصم) الذي يحبّ أن يعمل ليلًا... كانا يشربان الشاي ويثرثران بينما الفتى والفتاة يمشيان بين المعروضات..»

بدا عليه نفاد الصبر وأوشك أن يتكلم فقلت على الفور:

- «أعرف.. تريد أن تقول إن الحارس و(عاصم) رأياهما.. هذا لم يحدث!»

- «إذن كان الرجلان في حالة غيبوبة تامة..»

- «بالعكس.. كانا يراقبان الشاشات بعناية.. تذكر أننا في التاسعة مساء ولما يلعب النعاس بالرؤوس بعد.. هناك خمس شاشات.. لو تحرك شيء على واحدة منها فمن السهل أن يسترعي هذا انتباهك.. الرجلان يؤكدان أنهما لم يريا أي شيء..

«في العاشرة سمع الرجلان صراخ الفتاة ولم يريا أي شيء على الشاشة، فهرعا إلى صالة العرض قرب موضع الطوطم.. لم يصدقا ما رأيا على الأرض.. لقد تهشّم رأس الفتى تمامًا كأن مثقابًا حادًا قد غرس في عدة مواضع منه.. بينما الفتاة كانت تصرخ بلا انقطاع وقد تعرضت عيناها لإصابتين مباشرتين.. انفجار في كرتي العين، والأطباء ينتظرون نتيجة محاولة الإنقاذ التي قاموا بها لعينها اليسرى، لكن الاحتمال الأكبر هو أنها لن ترى ثانية.. لقد دفعا ثمنًا باهضًا لهذه المغامرة كما ترى..»..

أشعل المقدم لفافة تبغ، ونفث سحابة دخان كثيفة، ثم قال في شرود:

- «ماذا قالته لك الفتاة بالضبط؟»

قلت في تؤدة:

- «لم تقل شيئًا تقريبًا.. لا تذكر أي شيء سوى أنهما كانا في المتحف عندما وثب أمامهما عملاق فارع الطول له رأس (أبو قردان).. وقد أمسك بالفتى وأنشب منقاره الطويل في رأسه عدة مرات فهشم جمجمته وفقأ عينيه، وكانت هي تصرخ وحاولت الفرار، لكنه أمسك بمعصمها وقرب رأسها منه بالقوة وغرس منقاره العملاق في محجريها.. صرخت وفقدت الوعي لتجد أنها في المستشفى..»

ظل ينظر لي لبضع دقائق كأنني مخبول، فقلت على الفور:

- «لم أعتد أن أغير كلام الشهود ليلائم رجال الشرطة.. لاحظ أنني أقول ما قالته الفتاة وليس ما حدث..»

- «وما هذا الذي حدث؟»

- «لا أحد يعرف.. عندما رأى الرجلان المشهد لم يكن هناك مخلوق قرب الشابين.. لم يكن هناك مخلوق في المتحف كله..»

ظل صامتًا لفترة.. ثم قال:

- «هذا هو بالفعل ما عرفناه..»

أثارت هذه العبارة غيظي.. كان يصغي لكل ما قلت وهو يعرفه مسبقًا.. هذه سمة أخرى من سماته: لا يظهر أبدًا أنه يعرف وإنما يفضل سماع القصة بلسانك لعله يجد تناقضات أو فكرة لم تخطر بباله...

- «وماذا يُمكنك أن تستنتج؟»

قلت في لا مبالاة:

- «رأيي أن الاستنتاجات مهمتكم لا مهمتي، لكن يُمكنك أن تبدأ بالنظرية السهلة. أن تكون الفتاة هي الفاعل ثم فقأت عينيها للتمويه على طريقة أوديب المحببة.. أو أن يكون الحارسان كذابين ولربما هما الفاعلان.. أو.....

قال ضاحكًا:

- «(أو) هذه هي الأقل سخفًا.. هي ما أريده.. إن أول احتمالين هراء حقيقي فماذا عن الثالث؟»

قلت في حكمة وذكاء واضحين:

- «الاحتمال الثالث هو أنّ هناك مسخًا شيطانيًا يحرس هذا المتحف ليلًا!»

- 2 -

سأحاول أن أكون واضحًا يا سيدي الضابط..

لا نعرف حقيقة ما هاجم الشابين إلا من كلمات الفتاة، ويجب أن نقبل حقيقة أنه شيء لا يظهر على شاشة المراقبة.. ربما تسبب في أن الكاميرات لم ترَ أي شيء حتى الشابين نفسيهما..

لو قبلنا كلمات الفتاة وهي على الأرجح صادقة فنحن نعرف أنّ هناك شيئًا مخيفًا له رأس (أبو قردان) يهاجم المتسللين ليلًا.. هناك شيء مخيف هاجم حارسًا ليليًّا من قبل، وقد انتزع عنقه بالمعني الكامل للكلمة.. أمّا نلك اللص المنحوس فقد ثنى ظهره إلى نصفين..

طرق القتل متباينة وغريبة، لكنّها جميعًا توحي بقوّة لا تتاح لبشري..

عندما حاولت أن أتحقق من تواريخ الوفيات لم أجد أي شيء يربطها.. لا تحدث في ليالي اكتمال القمر أو خسوفه أو أيام السبت مثلًا.. أعتقد أنها جرائم عشوائية تحدث فقط عندما توجد فريسة ليلًا، كما أنّ غرض هذا القاتل ليس حراسة المتحف وإلا لما قتل أفضل الحراس هنا، وكذلك لا يقتل بعشوائية وإلا لمات باقي الحراس الليليين ...

هناك أسباب معينة لا نعرفها نحن تجعل هذا القاتل يرتكب جرائمه.. لكننا على يقين من أن الظروف المثلي هي الليل والوحدة..

بما أن الدائرة التلفزيونية لم تفدنا، فإنني أقترح تواجد قوة بوليسية صغيرة حسنة التسليح، وهذه القوة تسهر في صالة العرض لفترة..

هذا هو الحل الوحيد الذي.....

الحارس (منصور) و(رضا) يريدان شيئًا منك يا أستاذ (راسم)...

✶ ✶ ✶

بكرشه الضخم (الرياضي) تقدم منصور في تردد نحو (راسم) ومن خلفه الفتى (رضا).. ثم نظر للضابط وأدى التحية تلقائيًا مما يدل على أنه رجل أمن سابق فعلًا.. لقد خمن مهنة الضابط ذي الثياب المدنية على الفور..

قال في تهذيب وهو يخفض بصره:

- «أستاذ (راسم).. نحن ندرك الآن أنّ هناك شيئًا مخيفًا في المتحف.. ثلاث جرائم قتل شنيعة والفاعل مجهول.. بصراحة نحن لسنا على استعداد لأن يسهر الواحد منا وحده في هذا المكان.. كل شيء يدل على أنه لن يستطيع حماية نفسه.. المرحوم (عامر) كان قوي البنية لكنه لم يستطع عمل شيء..»

في نفاد صبر قال (راسم):

- «المطلوب؟»

- «نحن نستأذنك في أن نستقيل..»

كما توقعت بالضبط.. هذه هي اللحظة التي يستقيل فيها العاملون لأنّهم لا يأمنون على أنفسهم.. وقد قال (راسم) في عصبية:

- «هل جننت؟.. أنت تعرف أن راتبك ممتاز.. ربما يمكن أن نناقش الزيادة..»

في إصرار قال (منصور) دون أن يرفع عينه:

- «للأسف يا سيدي.. نحن اتخذنا القرار آسفين.. إن العاطل المفلس تظل أمامه فرصة أن يجد عملًا بشرط أن يظل حيًّا.. الموتى تنتهى فرصتهم في البحث عن عمل.. دعك من أنني أرغب في أن أموت قطعة واحدة.. الأعمار بيد الله طبعًا وكله مكتوب، لكن لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة..»

نظر (راسم) بوجهه الأسمر الصلب إلى (رضا) وسأله بحزم:

- «وأنت؟»

- «أنا شرحه، يا سيدي.. هذا يحز في نفسي.. لكن.....»

- «كفى.. فهمت..»

وضغط الجرس طالبًا السكرتيرة المتحمسة (ليلى) ليطلب منها أن تتأكد من أن الحارسين نالا مستحقاتهما وقاما بتسليم الـ... الـ...

- «العهدة..»

- «نعم.. نعم.. العهدة...»

هذا الرجل (خواجة) فعلًا... سوف يجن لو سمع عن (الإستيفا) و(المخالصة) ودفتر 118 وكشف العائلة.. إلخ...

لما انصرفا نظر لي شاعرًا بالمهانة بالتأكيد وقلب يده بمعنى أنه لا يعرف ما يقول، فعليه أن يجد رجال أمن آخرين بسرعة، وأن يحل تلك المشكلة..

سألني:

- «لو افترضنا جدلًا أننا نقبل نظرية المسخ الخارق للطبيعة فهل لديك مصدر ما؟»

قلت على الفور:

- «شكوكي تدور حول مومياء المايا تلك.. هذه المومياوات سيئة السمعة دائمًا.. ربما كانت تتحور ليلًا.. إن أسلوب تغيير الشكل Shape shifting معروف..»

كان المقدم ينظر لي في ثبات وقد بدا مستمتعًا بهذا كله، فلمّا انتهيت قال وهو يضرب كفا بكف:

- «عشت حتى رأيت من يتكلم عن مومياء تجول في المتحف ليلًا وتقتل الناس.. هل تعي حقًّا مدى سخف ما تتكلم عنه؟»

قلت في ضيق:

- «وهل تعي حقًّا غرابة ما نحن فيه؟»

ثم أضفت بلهجة من قرر أن يكون هو القائد:

- «أعتقد أنّ علينا أن نؤجل موضوع الحراسة الليلية بضعة أيام.. سوف نترك المتحف بلا مخلوق فيه ليلًا.. يمكنكم حراسته من الداخل والخارج.. أريد أن يشعر هذا الشيء بحريته كاملة سوف نستعمل الطرق القديمة..»

- «وما هي الطرق القديمة؟»

- «يا له من سؤال!... الدقيق على الأرض طبعًا!... سوف نضع طبقة من دقيق حول المعروضات كلها قبل إخلاء المتحف، وفي الصباح سوف نبحث عن آثار الأقدام.. ما دامت الكاميرات لم ترَ شيئًا فمن الوارد أنّ هذا الشيء يمارس خدعة بصرية ما، لكن لابد أن له كيانًا ماديًا يترك أثرًا.. ما يقدر على انتزاع الأعناق لابد أن له كيانًا ماديًا..»

- «جميل.. برغم سذاجة الفكرة أجدها جيدة.. لكن من أدراك أن سبب تحرر هذا الشيء ليس هو وجود بشر؟... ربما لو لم يوجد بشر في المعرض فلن يتحرر؟..»

قلت وأنا أنهض:

- «أرى أنك بدأت تتكلم عن (الشيء) وهذا يروق لي.. لا يوجد ضمان من أي نوع ولا أعرف ما سيحدث بعد دقيقة.. دعنا نجرب لأن الفشل في حد ذاته اكتشاف جديد.. وكما كان يقول إديسون: أنا لم أفشل مئة مرة.. بل جربت مئة طريقة لا تعمل!!»

- 1 -

منذ اللحظة الأولى عرفت (ليلى) أن (راسم) صيد ثمين في يدها..

كان له وجه صلب صارم وهو قوي البنية يبدو خاليًا من العاطفة، لكنّها أدركت أنّ هذه قشرة يحيط بها نفسه.. إنّه يتصرّف بشيء من السذاجة والطفولة التي تميز من جاءوا من كوكب آخر، وأحيانًا تميز الغربيين الذين تراهم في مصر..

كانت ليلى في الرابعة والعشرين وقد اعتادت بعد تخرجها من معهد السكرتارية أن يصفها الناس بأنها بارعة الجمال. إما أن يقولوا هذا أو تنحبس أنفاسهم أو يتصرفوا بذلك الارتباك الأحمق المميز للرجل أمام فتاة حسناء.. يوقع أشياء ويعرق ويقول كلامًا أحمق لا يعنيه..

عرفت هذا جيدًا وأدركت أنّ هذا كنزها الوحيد وعليها ألا تفرط فيه إلا عندما تلوح الفرصة المناسبة..

جاءت الفرصة مع ذلك الإعلان في الجريدة يطلب سكرتيرة لرجل أعمال، وقد ذهبت يومها لتجد مجموعة من الدجاجات البلهاوات يرغبن في الفوز بهذه الوظيفة..

كانت تعرف أنه سيختارها هي.. في النهاية هو رجل وهي أنثى ساحرة. قرأت يومًا عن رجل الأعمال الأمريكي الذي تقدمت له ثلاث سكرتيرات.. الأولى تكتب ببراعة على الآلة الكاتبة.. الثانية حاصلة على الدكتوراه في إدارة الأعمال.. الثالثة كانت تشرف وحدها على شركة أعمال كبرى. بعد اللقاء سألوه عن أية سكرتيرة اختارها فقال ببساطة: الشقراء!

هذه القصة تنطبق على كل أصحاب الأعمال، وقد دخلت الاختبار لتجد مشكلة صغيرة.. زوجته معه وهي امرأة أمريكية تبدو كأنما احترقت في فرن.. هذا خصم سهل جدًّا وسوف تسحقها ببساطة.. كانت تعرف الأجانب جيدًا بحكم عملها، وتعرف أن المرأة الأمريكية بالذات لا تستطيع الاحتفاظ بفأر ناهيك عن الاحتفاظ بزوج.. خاليات من الأنوثة غبيات تافهات..

لكن المشكلة في هذه المقابلات هي أن الزوجة تدلي برأيها، ورأيها غالبًا ضدّ (ليلى). في هذا النوع من المقابلات تختار الزوجة لزوجها سكرتيرة مسنة تحلّق ذقنها كل صباح.. لو احتج الزوج لصاحت فيه:

- «هل تريد سكرتيرة ذات كفاءة أم تبحث عن موديل؟.. لو كنت تريد الأخيرة فلا تتعبني معك ولتكن واضحًا..»

هكذا يوافق الزوج مرغمًا على الشاويش (عطية) ذي الكفاءة هذا..

لكن الأمر في حالتنا هذه كان أفضل لأن الزوجة لم تتدخل قط..

ظلت تصغي فقط بلا تعبير على وجهها، وقد بدت لليلى كئيبة جدًّا مملة جدًّا.. ليست لديها فرصة على الإطلاق..

بالفعل فازت (ليلى) بالوظيفة وخرجت من الغرفة لتنظر للفتيات الجالسات، وقالت ما معناه:

- «انتهى الأمر يا بنات.. فازت من هي أفضل..»

عرفت أن عملها الأساسي ينحصر في ذلك المتحف الذي ينوي (راسم) أن يقيمه، وكانت تتمنى أن تكون معه فيما هو أهم.. البورصة والأسهم والعقارات.. إلخ... لكنه كان مهتمًا بالموضوع بما يكفي لتهتم..

قام معها بجولة في المتحف وشرح لها تفاصيل كل قطعة وتاريخها وهي تدون ما يقول، فعرفت أن عملها في البداية سيكون مزيجًا من سكرتيرة ومرشدة، كانت استعراضية بطبعها لذا راق لها أن تتقمص أكثر من دور في الحياة..

- «لا نتوقع الكثير من العمل في البداية، لهذا يُمكنك القيام بهذا إلى أن أجد مرشدًا مؤهلًا يقوم بالعملية..»

قالت ضاحكة:

- «سوف تحتاج إلى جيش من المرشدين.. سترى..»

كانت تمد حبائلها حوله ببطء وتشعره بأنه لا يستطيع أن يستغني عنها.. في الحقيقة كان كذلك فعلًا فهو يجهل كل شيء عن المجتمع المصري.. كان يتصرّف بسذاجة (كانديد) بطل قصة (فولتير) الشهيرة، ولم يكن يعرف إلا أقل القليل عن القوانين وتقاليد المجتمع المصري ومعاملاته.. لهذا كان العاملون بالمتحف يطلقون عليه (الخواجة) برغم ملامحه المصرية ولغته العربيّة.. (الخواجة) في العامية المصرية قد تعني كذلك جهلك بقواعد اللعبة...

من ينشر إعلانات الصحف؟.. من يتفاهم مع سائقي عربة النقل عندما ينزلون حمولتهم؟.. من يساوم المقاول الذي جلب عمال المحارة؟.. من يتفقد عمل السباك؟.. كلهم يحاولون سرقته أو خداعه ولو لم تكن هي هنا لضاع تمامًا.. هذه هي الحقيقة وليس رأيها في نفسها..

بعد استقالة رجلي الأمن الباقيين كان عليها أن تدبر رجال أمن آخرين بسرعة، وقد فعلت هذا بكفاءة وسرعة..

مع الوقت صارت (ليلى) مهمّة جدًّا وشبه شريك كامل له في المتحف.. وصار من حقها أن تفتح باب مكتبه لتحضر أي اجتماع له مهما كان سريًّا.. أخذته إلى أماكن شعبيّة يستحيل أن يراها وحده.. علّمته أكل الفول والفلافل وصحبته ذات مرة إلى محل كشري، وقد شعر بسعادة مجنونة

لقيامه بهذه المغامرات المجنونة برغم أن الشطة أصابته بإسهال شديد، وفي النهاية صارت تختار له ألوان ربطات عنقه لأنّه كأي أمريكي مصاب بعمى ألوان تام فيما يتعلق بثيابه..

كان ينظر لها في امتنان، ويقول:

- «أنت بارعة جدًّا..Self managed ومهمّة لي جدًّا.. أ.. وجميلة!»

لم تكن تعلق على الجزء الأخير متظاهرة بأنه أحرجها.. لكنها كانت سعيدة جدًّا..

أمها العجوز في بيتهما المتواضع تشعر بشيء ما، وتقول لها في حذر:

- «هذا رجل متزوج يا (ليلى).. خذي الحذر..»

تقول ليلى في براءة:

- «أنا لا أطلب شيئًا يا أمي..، هو من سيطلب.. أنا لم أؤذ زوجته لكني لا أضمن ألا يؤذيها..!»

كانت تعرف هدفها جيدًا، وهذا الهدف لا يمكن أن يتحقق مع الشباب الذين يماثلونها سنًا.. هؤلاء مفلسون أوغاد لا يملك الواحد منهم سوى حبّه وقميصًا واحدًا مثقوبًا يفوح العرق من تحت إبطيه.. للحصول على رجل ناضج ثري يجب البحث بين المتزوجين، وخاصّة من يملكون بعض الوسامة بينهم..

نعم.. لابد من الوسامة، فهي لا تريد تاجر أخشاب ثريًا متضخم البطن يبصق على الأرض كل ثلاث دقائق، ويُطلق السباب كل خمس دقائق..

الفتاة لا تقابل مليونيرًا وسيمًا طيعًا كطفل بين يديها كل يوم... اليوم هناك (راسم)..

إن الغد باسم.. باسم لدرجة أنه مخيف..

- 2 -

بدأت المشاكل مع وفاة الحارس الذي نسيت اسمه، ثم ذلك اللص الأحمق، وازدادت الأمور سوءًا بوفاة وجرح هذين الشابين...

كان هناك ضابط شرطة برتبة مقدم اسمه (محمد خيري) يتولى التحقيق في هذه الوفيات، وهو موجود حاليًا بشكل شبه دائم.. كان وسيمًا فعلًا وخطر لها أنه عريس مناسب.. متزوج؟ هذه ليست مشكلة. كالعادة لكنّها مشغولة مع الأحمق (راسم) ولا تريد أن تحارب على جبهتين.

في البدء مع الوفاة الأولى كان الاهتمام فاترًا ثم ازداد سخونة وفي النهاية اشتعل وانفجر. هناك أغرب رجل يمكن للمرأة أن تتخيله وهو ذلك العجوز النحيل الذي جاء ذات يوم وراحت تشرح له معالم المتحف، لولا أن اكتشفت أنه صديق (راسم) وأنه يرغب في مقابلته..

لسبب ما يثق (راسم) في هذا العجوز غير الموحي بالكفاءة.. اسمه (رفعت إسماعيل) وهو طبيب لكنه هنا يأتي هنا بصفته يفهم في الأمور الخوارقية..

خوارقية؟...

هي لا تملك تفسيرًا لما حدث، لكنّها بالفعل ميالة إلى أنه خارج نطاق المنطق العلمي. هي قد رأت أشياء وعلامات معينة جعلتها لا ترتاح البتة لهذه المعروضات.. ثمّة شيء ما خطأ..

1- لماذا يجد عامل النظافة الفئران الميتة في الصباح تتناثر حول واجهات العرض؟

2- لماذا غيرت مومياء المايا تلك وضعها؟.. حركة طفيفة جدًّا لا تدركها سوى أنثى، لكن لا شك فيها.

3- هل هناك من أدار الطوطم حول محوره؟.. لماذا صار وجه الدب هو المواجه للقاعة؟

4- (عاصم) رأى شيئًا ما على الشاشات لكنه يخاف أن يتكلم إنّه يكذب.. لكن لماذا يكذب؟

5- هناك من يدخل غرفتها ليلًا.. هناك آثار واضحة.. في البدء افترضت أنه الحارس الليلي.. هذا منطقي.. هناك مكان يمكن النوم فيه وإعداد الشاي، لكن كيف يفتح الباب بعد ما قامت بتغيير القفل؟

المشكلة أنها حاولت مناقشة مخاوفها مع (راسم) لكنه سخر بشدة من هذا المنطق.. قال لها بطريقته الثقيلة عسيرة الكلام:

- «لن نكرر ما يفكر فيه د. (رفعت).. هو يؤمن بهذا وقد بدأ يقنع الضابط برأيه، لكنني ميال إلى أنّ هناك تفسيرًا ماديًا سوف نعرفه عما قريب..»

ثم نظر في ساعته، وسألها ضاحكًا

- «موعد الغداء.. هل لديك ارتباطات معينة أو Date؟... يمكننا أن نتناوله معًا في المطعم المعتاد.. سوف أبتاع لك غداء..»

ضحكت في سرها وهي تستوعب غرابة كلماته.. ما زال يفكر بعقلية الغرب: هل لديك Date؟.. حيث الفتاة مدعوة مع شاب دومًا في أي وقت، و(سأبتاع لك غداء) وهي طريقة كلام لا نستعملها في مصر ونشعر أنها لا تخلو من قلة الذوق..

كانت تفهمه لذا قالت على الفور:

- «أوكي..»

✶ ✶ ✶

عندما أغلق المتحف أبوابه في ذلك اليوم بعد ما زاره ستة أشخاص لا أكثر كما هي العادة كان (راسم) و(رفعت) والضابط هناك.. وكانت هي هناك..

في كثير من الاستمتاع راحت تراقبهم وهم ينفذون تلك الفكرة السخيفة.. الفكرة التي عرفت أنها صدرت عن (رفعت إسماعيل).. طبعًا هذا متوقّع.. من لهم رأس غريب أفكارهم أغرب..

لقد جاءوا بجوال من دقيق، وراحوا ينثرون طبقة رقيقة حول كل نوافذ العرض والمعروضات ذاتها، وعندما انتهى الأمر بدا كأن نصف قاعة العرض قد تعرض لغبار بركاني..

بدت لها الفكرة مضحكة وتذكرها بشيء ما من تراث (ألف ليلة وليلة).. شيء من قصص (علي بابا) أو شيء مماثل..

هل هؤلاء القوم يتوقعون أن المعروضات تصحو لي فعلًا؟.. وبرغم هذا يعتقدون أنهم عقلاء محترمون؟

قال الضابط وهو يراقب المنظر:

- «جميل جدًّا.. سوف يقوم (عاصم) بفتح الباب صباحًا ولا يسمح بدخول أي مخلوق أو إزالة أي أثر من على الأرض إلا بعد ما يتفحّص الغبار جيدًا.. لو وجد شيئًا غريبًا فليتصل بي..»

قال د. (رفعت) محذرًا:

- «لاحظوا أنني لا أتوقع حدوث شيء.. سوف نكرر هذا المشهد أكثر من مرة..»

هزّ (راسم) رأسه في رهبة، ثم انصرف الجميع..

راق لها الأمر كثيرًا، ولم تندهش عندما عرفت في اليوم التالي أن الدقيق ظل كما هو لم يمس.. كذلك في اليوم التالي والثالث.. فقط كان عامل النظافة يزيل هذا كله وهو يضرب بكف كفًّا...

يقول عامل النظافة:

- «حرام.. والله حرام.. في قريتي لا يجدون دقيقًا ممتازًا كهذا..»

قالت لـ (راسم) وهي تناوله بعض الأوراق:

- «كمية ما يبدده هذا الرجل من دقيق تصلح لتشغيل عدة مخابز.. لماذا لا يستعمل مسحوق (التالك) أو الجبس؟»

قال ببراءته المعهودة:

- «جبس؟.. لا أعرف ما هو..»

على أن الأمور اختلفت صبيحة اليوم الرابع..

عرفت هذا عندما دخلت المتحف صباحًا ووجدت المقدم واقفًا مع (عاصم) و(راسم) وهما يلتقطان بعض الصور للأرضية، وكان هناك جو عام من التوتر والدهشة....

بعد دقائق ظهر (رفعت) وقد بدا من وجهة المتعكر وذقنه غير الحليقة أنه لم يعتد الاستيقاظ في ساعة مبكرة كهذه.. لقد استدعوه ولعل سيارة شرطة جلبته من داره في هذه الساعة مما جعل الجيران يتساءلون..

لكنه عندما رأى المشهد تصلب وبدا أن الإرهاق فارقه..

سمعته يقول:

- «أكره أن أكون محقًا طيلة الوقت.. لقد صار هذا مملًا!»

- 1 -

لابد أننا وقفنا بلا حراك نصف ساعة..

لابد أنهم شعروا بالقشعريرة مثلي، وتكورت جذور الشعر على سواعدهم لتستحيل جلد إوزة..

لابد أن معالم الغباء ارتسمت على ملامحنا..

ابتلع المقدم (خيري) ريقه وتأكد من أنّه التقط صورة أخيرة، ثم قال لي وهو يتأبط ذراعي:

- «فلنتكلم في موضع آخر..»

صاح ذلك المدعو (عاصم) الذي يحبّ العمل ليلًا:

- «هل يقوم عامل النظافة بإزالة هذه الآثار؟»

قال بلهجة آمرة دون أن ينظر للخلف:

- «لا.. ولا تسمح لأحد بزيارة المتحف إلى أن أطلب أنا ذلك..»

وهكذا جلسنا في غرفة (راسم)، وجاء (راسم) بنفسه ليلقي بجسده على الأريكة منهكًا وبعد ثوان ظهرت السكرتيرة الحسناء كما توقعت.. لا يمكن أن يوجد (راسم) في مكان لمدّة ثلاث ثوان من دون أن تظهر هي، ومهما كانت المحادثة خصوصية أو حميمة.. لو علقت على ذلك لقالت إن هذا من صميم عملها على السكرتيرة أن تعرف كل شيء..

الشيء الذي رأيناه فوق الدقيق المنثور على الأرضية.. الأكثر الذي حدث في ساعة من الليل ولم يره أحد، كان آثار أقدام واضحة تشبه أقدام الذئب أو الكلب.. لكن لا يمكن أن نتحدث عن كلب تسلل للمتحف ليلًا لأن هذه الآثار عملاقة فعلًا... لو أنك طويت الجريدة إلى نصفين لأمكنك أن تدرك طول القدم وأبعادها...

كما توقعت قالت السكرتيرة في ثقة:

- «كلب تسلل للمتحف ليلًا.. ربما هناك نافذة مفتوحة..»

قلت في غيظ:

- «لو كان هناك كلب بهذا الحجم لعجز عن الدخول من أية فتحة..»

يمكنك بما أنك تعرفني جيدًا أن تخمن أنني كنت أفكر في المذءوبين.. عندما نتكلم عن ذئب عملاق يمشي على قدمين فقط فلا توجد احتمالات كثيرة.. لكن المذءوبين يمثلون عالمًا آخر ولا

ينتمون لثقافتنا.. يمكن أن تفكر فيهم في غابات أوروبا المظلمة.. في قلاع رومانيا المهجورة.. لابد من شتاء وجليد ومشاعل.. هنا في مصر يبدو الأمر بعيدًا سخيفًا..

الغريب في آثار الأقدام تلك أنها بدأت من حيث لا يُمكنك أن تخمن.. إن صاحبها دار حول نفسه مرارًا بحيث صارت معرفة البداية والنهاية مستحيلة، وكأنها ولدت من ذاتها.. لكنّها كانت تدور بكثافة حول موضع معين هو الطوطم... ومن الغريب أنّ هناك بقعة خالية من الدقيق تمامًا خلف الطوطم..

نعم.. الطوطم الأمريكي الذي يبلغ ارتفاعه قامتين والذي يقف كئيبًا في ركن المكان.. طوطم (أوجيبوا) إياه.. هذا الطوطم كان موضع اهتمام صاحب الآثار ويبدو أنه دار حوله كثيرًا..

الفكرة المرعبة التي بدأت تولد في لا وعيي هي أن صاحب القدمين لم يأت من الخارج ليدور حول الطوطم..

لقد ولد من الطوطم ذاته!

✶ ✶ ✶

قال المقدم (خيري) في نفاد صبر:

- «نحن نعرف الآن أنّ هناك من يدخل.. لا أصدق حرفًا بصدد آثار أقدام الذئب هذه لكن هناك من يدخل.. هذه هي الحقيقة الوحيدة المهمة، وأعتقد أنّ علينا مراقبة قاعة العرض مباشرة في الليلة القادمة ما دام هذا الشيء لا يظهر على الشاشات..»

قال (راسم) وهو يقلب كفه بطريقته المعتادة:

- «وكيف تضمن أنّ هذا الشيء سيتحرك؟.. ربما تقضي أشهرًا عدة تنتظر..»

- «هكذا يكون أكثر عملنا.. ننتظر أشهرًا عدة ونتقاضى راتبنا عن هذا..»

كنت أفكر مليًّا..

الأمر يبدو مألوفًا بشكل ما..

لم أفكر في هذا من قبل، لكن لدينا جرائم توحي بأن من قام بها أبو قردان... ثم وحش عملاق قادر على قضم عنق إنسان.. ثم وحش قوي قادر على أن يهشم عظام إنسان.. ثم وحش يترك آثار قدمي ذئب عملاق على الأرض...

أين تجتمع هذه الصور؟

نحن لا نتكلم عن أبي قردان طبعًا بل نتكلم عن (الكركي).. لا تتصور أن ثقافة الفتاة (فاتن) تسمح بالتفرقة بين الأنواع.. بالنسبة لها ليس الوعل سوى (خروف) وليس الكركي سوى (أبو قردان).

نحن إذن نتكلم عن ثور وكركي ودب ووعل.. باختصار: وجوه الحيوانات المحفورة على الطوطم الخشبي...

كان من الحمق أن أشتبه في مومياء المايا الرقيقة المهذبة..

لقد كانت الإجابة في الطوطم منذ البداية..

ونظرت إلى (راسم) وقلت بلهجة من أفاق من غيبوبة طويلة:

- «ما الذي تعرفه عن هذا الطوطم المعروض في متحفك؟»

- 2 -

قال (راسم):

- «الأثر الوحيد الذي جاء من ثقافتي التي نشأت عليها في (نورث داكوتا) كان هذا الطوطم.. كما قلت سابقًا هو يرمز لفروع قبيلة (أوجيبوا) الهنديّة التي أرغمها الجيش الأمريكي على الإقامة في جبال السلحفاة، وقد وقف هذا الطوطم وسط قريتهم..

مع مرور الوقت لم تعد لهذه الأشياء القيمة التي كانت عليها في الماضي بالنسبة لهم، وقد نجحت في شراء هذا الطوطم من أحد زعماء القرية، وكان الأمر سهلًا.. توقعت مشكلة ما، لكنهم وافقوا على الفور، وبدا لي أنهم عرفوا قيمة الدولار الحقيقية بالمقارنة بعمود من خشب..»

قلت في ضيق:

- «هذا العمود الخشبي له ذات القيمة الرمزية للعَلَم.. إنّه يرمز لحضارتهم وثقافتهم.. ليس كل شيء قابلًا للقياس بالمال.. تذكر أن ثمن أي علم لن يتجاوز حفنة جنيهات، لكن الناس تموت من أجله في الحروب..»

قال المقدم وهو يشعل لفافة تبغ:

- «أنا لا أعرف أصلًا معنى كلمة طوطم.. هلا شرح لي أحدكم ما تعنيه؟»

✶ ✶ ✶

يصعب أن نلخص مفهوم الطوطم في هذه العجالة، وقد أفنى الكثير من علماء الأنثروبولوجي حياتهم في فهمه..

أول من أدخل لفظة (طوطم) إلى الإنجليزية هو الرحالة (لونج) عام 1791 في كتابه (رحلات مترجم هندي).. ثم سيطرت اللفظة على قواميس الأنثروبولوجي خلال القرن التاسع عشر.... دعك من أن الفيلسوف (دوركايم Durkheim) قد درس الموضوع بعناية وكتب عنه كثيرًا، فلا يذكر الطوطم من دون ذكر اسمه..

إن اللفظة توحي بمعنى (القرابة) في اشتقاقها من لفظة (دودم) التي يستعملها أفراد قبيلة (أوجيبوا)..

الطوطم حيوان أو جماد أو نبات يمثل مجموعة من البشر يتراوح هذا التمثيل بين اعتقادهم بأنهم من نسله واعتقادهم أنهم قتلوه.

لو كنت تعتقد أننا ابتعدنا عن فكرة الطوطم لهذا الحد، فلتفكر في فرق كرة السلة أو القدم الأمريكية التي تتخذ حيوانًا صغيرًا رمزًا لها.. عرف العرب قبل الإسلام الطوطميّة.. تذكر أن كل قبيلة كان لها صنم خاص بها على شكل حيوان غالبًا. سوف تلاحظ أن آلهة مصر القديمة هي غالبًا مزج بين حيوان وبشر.. وهو ما يرمز إلى طبيعتها وطبيعتنا المركبة. إنك تجد آثار الطوطميّة بوضوح في الكلام عن التمساح (سبك) والقطة (باستت)...

إن الإنسان ميال بطبعه إلى محاولة فهم الطبيعة شديدة التعقيد من حوله، بأن يجري تصنيفات سهلة لها.. وقد افترض بعض العلماء أن الطوطم يتم اختياره بناء على تشابه العشيرة مع الحيوان.. افترض بعض العلماء الآخرين أن الطوطم يتم اختياره على نمط حيوان يروق مزاجه للعشيرة..

افترض فرويد أن تجمعات الإنسان الأولى كانت تتكون من ذكر (ألفا) يحيط به الحريم.. ولما كان هذا الوضع يزري بذكور القبيلة الأصغر سنًا فإنهم قرروا ذات ليلة أن يقتلوا الذكر ألفا أباهم الذي يخافونه ويحترمونه ويحبونه بالقدر ذاته. من هنا نشأت عقدة أوديب وذلك الإحساس بالذنب الذي يحمله البشر.. بل إنّه افترض أن فكرة (الخطيئة الأولى) في المسيحية نشأت من هنا..

الطوطمية تحرم قتل الحيوان الذي يرمز للأب وتحرم أكل لحمه.. لكن هذا الحيوان يرمز للقرابة وأصل كل أفراد القبيلة.. إن الأب قد يكون هو الطوطم.. هو الحيوان الذي قتله أفراد العشيرة يومًا ما ثم اكتشفوا أنه أبوهم..

إنها لفكرة صعبة شديدة التعقيد، لكن لابد من فهمها لكل من أراد فهم نفسية الإنسان البدائي...

✶ ✶ ✶

كان الأمر غامضًا لكنه كذلك واضح..

هناك تناقض كبير في الجملة السابقة لكنّها الحقيقة..

ربما لا نصدق حرفًا عن موضوع الطوطم الذي يصحو ليلًا هذا، لكن لا أرى ما يمنع من التخلص منه..

قال (راسم) محتدًا وقد نهض في عصبية:

- «هل تمزح؟.. هذا الشيء ثمين جدًّا، وقد ازدادت قيمته بفعل ما بذلت في الحصول عليه من جهد..»

قلت في برود:

- «لكن علامات استفهام كثيرة تحيط به.. هناك عادة بشريّة قديمة أن تحرق كل ما لا تفهمه ولا أرى ما يمنع من أن نطبق هذه القاعدة هنا!»

هذا الشيء ملعون يا صاحبي.. ملعون وكل الدلائل تشير لهذا.. يعلم الله وحده أية طقوس كانت تمارس حوله، وما الذي يعرفه رجال القبيلة عنه.. لكننا لن ننتظر ضحية أخرى..

ونظرت للمقدم متسائلًا هل لديه أية اعتراضات؟

أشعل لفافة تبغ كعادته وراح ينظر لنا واحدًا تلو الآخر بعينيه اليقظتين، ثم قال بصوت خافت:

- «لا أستطيع أن أبدي رأيًا طبيعتي كطبيعة العالم والقاضي تحتاج إلى دليل مادي قوى قبل أن تصدق كلامًا كهذا.. لهذا أترك لكما حرية التصرف... ليس لي رأي في هذا الموضوع، فالطوطم ملك للأستاذ (عاصم) وهو حر أن يفعل به ما يشاء ما دام لن يتسبب في حريق أو يؤذي أحدًا..»

- «هذا يعني أنك لا تتحفظ على حرق الطوطم؟»

- «ولا أتحفظ على تركه.. فقط لنأمل أن تكون هذه النهاية فعلًا...»

قلت لـ (عاصم) والسكرتيرة الحشرية:

- «الأمر كله يتوقف عليك.. لو كنت موافقًا فعليك أن تحضر كمية من الكيروسين وسيارة نصف نقل، ونقوم غدًا بأخذ هذا الشيء إلى الصحراء حيث نشعل فيه النار وننتظر حتى يتفحم طبعًا لن نفعل هذا هنا منعًا لتدخل الفضوليين.. يُمكنك أن ترفض، لكن لا أوصى بهذا لأن معناه أن عليك أن تتصرف وحدك من الآن فصاعدًا..»

ونهضت مغادرًا المتحف، عالمًا أنه سيتصل بي ليلًا على الأرجح..

- 1 -

جاء الشتاء من جديد، واكتست السهول بتلك الطبقة البيضاء السميكة..

السماء مكفهرة مظلمة، فلا يوجد أبيض إلا تلك الندف الثلجية المتطايرة في كل صوب، والتي تجد طريقها دومًا إلى الفراء الذي ترتديه وإلى حاجبيك.. هكذا يتحول العالم من حولك إلى أشخاص ذوي حواجب شائبة..

تتناثر الخيام التي اكتست بالثلج، بينما يتصاعد الدخان من قمم بعضها..

إنه لمشهد رهيب.. ثمّة لمسة من الحزن الشاجي في هذا المشهد الذي يرمز إلى انهيار حضارة كاملة.. تشيخ.. تلفظ أنفاسها الأخيرة مع الشتاء..

ربما في الربيع كان المشهد يختلف.. ربما كانوا يرقصون في المرج، ويلوح المحاربون الأشداء برماحهم.. لكن خريف الفصول يشبه خريف الشعوب..

ثم يأتي الشتاء..

✶ ✶ ✶

الجالس أمام النار يدخن الغليون الطويل المحشو بأجود أنواع التبغ هو (ثلاثة وعول).. يُمكنك أن تميز وجهه المتعب المرهق والتجاعيد المرسومة على كل بقعة من وجهة الهندي الصارم.. إن الشمس قد دبغت جلدهم بالمعنى الحرفي للكلمة لهذا لا يبدو عليه أي تعبير وهو ينفث الدخان في صمت..

من حوله يجلس شباب القرية يحتسون الحساء الساخن..

لم يعد هناك لحم.. لم تعد هناك حبوب.. لم تعد هناك ذرة.. التبغ يوشك على الانتهاء... الرجل الأبيض وعدهم بالتموين قريبًا لكن الشتاء قد بدأ ولم يصل أي شيء وهم يتجمدون حتى التهام الجذور لم يعد ممكنًا لأن الثلج يغطى كل شيء..

يصمت الشباب لأن (ثلاثة وعول) من جيل لا يتكلم إلا عندما يكون هناك ما يُقال ويكون بالغ الأهميّة..

بعد صمت طال أخرج سحابة دخان، وقال بصوت خفيض:

- «الرجل الأبيض يخدع (الأوجيبوا)..»

لم يعلق أحد.. انتظروا ما سيقول بعد هذا...

إن الكل يعرف هذه الحقيقة على كل حال، لكنهم يخشون أن يلفظها (ثلاثة وعول) بنفسه لأن هذا يجعلها مؤكدة وهذا يثير الرعب في النفوس..

قال بعد فترة أخرى:

- «هو وضعنا هنا ووعدنا بالطعام، لكنه يتركنا نموت ببطء كما حدث للسيوكس.. إن الرجل الأبيض لا يريد الأرض فقط بل يريد الأرض خاوية..»

هنا طلب أحد الشباب الكلمة.. كان فارع القامة قوي البنيان لبشرته لون الخشب..

- «لو سمح لي (ثلاثة وعول) بالكلام.. يمكننا أن نخرج من هنا ونستولي على الطعام بأنفسنا.. هناك مزارع ثرية قريبة وفيها قطعان من الماشية وزكائب من الغلال..»

قال (ثلاثة وعول):

- «نحن نعرف ما يفعله (ذوو السترة الزرقاء).. إنهم يذبحون.. لديهم البنادق والمدافع وفي كل صدام لنا معهم يتساقط المئات منا..»

هنا هب شاب آخر، وصاح:

- «إما أن نموت ونحن نقاتلهم أو نموت هنا من الجوع..»

كانت النفوس تغلي.. من الصعب أن تتعقل وأنت ترى أطفالك جوعى..

راحت الآراء الغاضبة تتوالى، وكلها تدعو إلى الثورة.. نعم هي ثورة مقضي عليها بالفشل لكن الهندي الأحمر يعرف كيف يموت وهو يقاتل..

في النهاية رفع (ثلاثة وعول) يده كي يصمتوا وقال:

- «غدًا يذهب محاربونا للاستيلاء على حقنا من المؤن من أقرب مزرعة.. سوف يقودهم ابني (الجواد الأرقط).. لقد قال (ثلاثة وعول) كلمته..»

ساد البشر وهدأت النفوس بينما أعاد حشو غليونه وعاد ينفث الدخان بوجه قدَّ من حجر..

✶ ✶ ✶

الطبول تدق كما في الأيام الخوالي، والساحر الذي صار عجوزًا متهالكًا يسقى كل واحد من المحاربين الذين طلوا وجوههم بالأصباغ جرعات من شراب يزيدهم شجاعة..

وعندما ساد الظلام انطلقت الخيول تبعثر الجليد في كل صوب، ومن جديد تصايح الرجال صيحات الهنود الحمر المخيفة التي تجمد الدم في قلب الرجل الأبيض...

جلس الرجال الباقون حول النار، والنساء رحن يحاولن تدفئة الأطفال بأية طريقة كي يناموا.. ربما تكن يدارين قلقهن بهذه الطريقة..

على أن الغارة لم تتأخر كثيرًا، وسرعان ما دوّت صرخات الحماس.. وعبر الأفق الجليدي رأوا جوادًا.. اثنين.. عشرين جوادًا.. لقد عاد المحاربون جميعًا.. تصاعدت صيحات التهليل والأفراح.. عادوا وهم يحملون الكثير من الأشياء.. أكياس لحم مقدد وغلال وأكياس دقيق وتبغ..

المحاربون راضون عن أنفسهم.. يعرفون أنهم اضطروا للقتل وإشعال النار في المزرعة، لكن عليك أولًا أن تعرف من بدأ قتل الطرف الآخر.. هم راضون لأنّهم حموا قبيلتهم من الاندثار.. راضون لأن النساء والأطفال هنا في أمان، بينما هم قاموا بما يجب القيام به..

سادت المعسكر المعزول فرحة غامرة، وسرعان ما أولمت وليمة على اللحم المقدد.. لا شيء يعدل اللحم الطازج لكن الحصول عليه صعب.. لابد من غزوة على مزرعة بها قطعان يمكن اقتيادها هنا، لكن المعدة الفارغة لا تختار...

استمر الحفل حتى ساعات الفجر الأولى.. وللمرة الأولى شعروا بدفء لم يشعروا به منذ قرون..

أغمض (ثلاثة ونعول) عينيه وتمنى في سرّه ألا يحدث ما سيحدث مساء غد...

- 2 -

عندما سقطت الطلقة الأولى فوق الخيام، لم يكن هناك وقت للدهشة..

لقد تناثرت الشظايا والنار والجليد ومعها طار الرجال في الفضاء.. من الغريب أن ترى اللهب يشتعل في الجليد، لكن هذا حدث...

صوت الانفجار كان عاليًا حتى إن أحدًا لم يسمع صوت (البروجي) وهو يعلن بدء الهجوم..

كان (ثلاثة وعول) يتوقع أن يكون الهجوم بطريقة رجل لرجل.. لكن لم يتصوّر أنهم سيبدءون بإطلاق المدافع..

هوت الطلقة الثانية فوق خيمة أخرى فاشتعلت، عندها صرخ ابن الزعيم وهو يلوح بهراوته:

- «فلتتراجع النساء والأطفال وليتبعني المحاربون..»

تم تنفيذ الأمر بلا نظام.. وفي هذه اللحظة ظهر الجنود الزرق.. لم يكونوا يلبسون الأزرق بل هم وضعوا على ستراتهم أغطية بيضاء ليسهل التمويه..

الخيول تصهل.. تقف على قائميها الخلفيين..

الثلج يتناثر..

الطلقات تصفر..

شاب هندي يمتطي حصانه بلا سرج ويثب فوق الجنود ليسقط أربعة منهم.. يستل خنجره ويولجه في اثنين قبل أن يفرغ فيه الثالث رصاص بندقيته..

بلطة تطير جوار واحد من الجنود الزرق، ثم تستقر في حنجرة واحد يقف خلفه..

تهوي قذيفة جوار الطوطم.. الطوطم الذي تحمله القبيلة معها حيثما ذهبت.. تتمسك النار بقاعدته، لكن الساحر يركض ليطفئ النيران...

يقف (ثلاثة وعول) يرقب المشهد صامتًا.. لا يوجد أي تعبير على وجهه..

مشى حتى وقف جوار ساحر القبيلة، وقال له:

- «حان الوقت.. دع الشيء يتحرر.. هذه كلمة (ثلاثة وعول)..»

ينظر له الساحر في رعب.. من الخطر أن تخرج الشيطان من محبسه حتى لو كان ليقتل عدوك.. قد يستدير عليك أنت، لكن (ثلاثة وعول) قال في حزم:

- «الرجل الأبيض يوشك على إبادة (الأوجيبوا).. حان الوقت..»

في هذه اللحظة يندفع ابن الزعيم على جواده وهو يُطلق صرخات متوحشة، ويهشم بهراوته عدة رءوس.. إنّه يخترق صفوف السترات الزرقاء ويمزقهم ببسالة غير عادية...

هنا يتخذ عدد من الرماة أوضاع التصويب ويسددون بنادقهم نحو هذا الثائر..

تنطلق سبع بنادق في لحظة واحدة نحو الفتى فينظر للسماء، ثم يهوى ليتناثر الجليد...

هناك كولونيل أو قائد ملتح يلوح بسيف ويتقدم الصفوف وهو يحمل علم الولايات المتحدة، ولا يكف عن ترديد:

- «هجووووووووم!»

لم يكن (ثلاثة وعول) يفهم كلام الوجوه الشاحبة، لكنه أدرك أنه يأمرهم بالهجوم...

كان الغضب والغيظ يتخذان طريقهما إلى رأسه، لكن ملامحه كالعادة لا تشي بأي شيء.. هذه أرضنا.. هذه محاصيلنا وطعامنا.. الرجل الأبيض يريد أن نموت في صمت ولا نحتج يريد أن نشاهد الأطفال يموتون فلا نتكلم ولا نغضب..

لا يعرف متى تلقى الطلقة لكنه شعر بأن الحياة تتخلى عنه.. سقط على ركبتيه، ولم يشعر بأي رعب أو حزن.. لقد مات ابنه منذ لحظات ولحق بالأجداد، فلم يعد يبالي بالموت أو للدقة صار يرحب به بشدة..

فوق الثلج سقط...

يبدو لمن يراه أنه راكع يتأمل...

إنّه يرى المذبحة بعين خابية.. يرى قومه يبادون.. يعرف أن من سيبقى حيًّا منهم سوف يقاد كالأغنام إلى سجن آخر أصغر..

لن يأخذوا الدودم معهم هذه المرّة.. غالبًا سوف يحرقه ذوو السترات الزرقاء وهم يضحكون..

وفجأة رأى في غبشة ظلمات النهاية... رأى.....

✶ ✶ ✶

كان المشهد لا يصدّق..

من يدري؟.. ربما لم يحدث شيء فعلًا وربما هي سكرات الموت؟.. إن الثلج في كل صوب والريح تعوي والظلام دامس والدخان كثيف.. دعك من لهب النيران ورائحة البارود دعك من البقعة السوداء التي تتسع في مركز الشبكية.. هذا يجعل ما تراه عرضة لشكوك كثيرة جدًّا..

من بين ألسنة اللهب وسحب الدخان يرى هذا الشيء العملاق يتقدم..

لم يكن بشريًا.. له رأس غريب عملاق. (هل رأس ثور؟)..

كان قويًا جدًّا رآه يتقدم وسط الطلقات ورآه يمسك بحناجر السترات الزرقاء ليرفعهم في الهواء، ثم يقذفهم إلى مسافات بعيدة وهم يصرخون..

لم يكن وحده.. من بين الدخان هناك شيء مريع آخر ينقض عليهم...

الطلقات تدوي من كل صوب...

الجنرال على حصانه يصرخ وهو يشق الدخان بسيفه:

- «هجووووم!!»

لكن شيئًا انتزعه من فوق السرج.. ورآه (ثلاثة وعول) صرخ بينما ذراعان قويتان تحملانه في الهواء في وضع أفقي عاليًا عاليًا.. ثم تهشمان جسده كما يفعل المرء بقشرة بيضة...

والصراخ!

كانوا يصرخون كأنهم يذبحون...

هناك أكثر من شبح يجوب المكان.. يبعثر الثلوج.. يفتت كل من يعترض طريقه من ذوي البشرة الشاحبة...

اجتمع الدخان مع عكارة النهاية مع الدموع كي تصير الرؤية شبه مستحيلة على (ثلاثة وعول)، لكنه كان راضيًا.. راضيًا حتى اللحظة التي تخلت فيها قواه عنه فسقط على وجهه فوق الثلوج..

✶ ✶ ✶

هذه من الحوادث التي لم يدونها الجيش الأمريكي قط، ولم يتكلم عنها أحد بعد هذا.. فقط تم تأبين القتلى باعتبارهم (قتلو أثناء المواجهات مع ثورة هنود أوجيبوا). صحيح أن جراحي الجيش أبدوا دهشتهم من حالة الجثث الشاذة ومن الإصابات التي لا تصدق، لكن الحرب هي الحرب.. لا أحد يقف ليتساءل عن سبب كون جروح حرب أبشع من جروح حرب أخرى..

هناك كولونيل قد مات في ظروف غامضة، وهناك عشر قتلى منهم من فقئت عينه ومنهم من انفصل رأسه ومنهم من ثني جسده إلى نصفين، لكن علم الولايات المتحدة ظل سليمًا.. هناك من أنقذه من فوق الثلوج وقد غطاه الدم ...

عندما تحدث بعض الجنود عن (مسوخ عملاقة تحارب مع الهنود) أخرسهم القادة عن ترديد هذا الهراء.. وسط الظلام والثلج يصعب أن تأخذ هذه الشهادة بجديّة...

بقي بعض الهنود أكثرهم نساء وأطفال، وهؤلاء تم اقتيادهم إلى جبال السلحفاة حيث مات أكثرهم أثناء الرحلة الشاقة فوق الثلوج. أما الطوطم فقد تركوه حيث هو ليزوره السياح فيما بعد.

سوف تنسى الولايات المتحدة هذه القصة، لكن الهنود لن ينسوها.. سوف يرددونها كإحدى أساطيرهم الخالدة، وبعد مائة عام لن يعرف أحد إن كانت حكاية فلكلورية أم حقيقة..

بعد مائة عام سوف تتردد قصص مماثلة في بلد بعيد جدًّا يدعى مصر...

- 1 -

كان العشاء شهيًا.. لقد أرسل لي أهلي في القرية تلك المنحة المقدسة التي تتكون من (الرقاق) والبطة الأبدية، مع بعض الفطير.. من جاء من (كفر بدر) لم يجدني في البيت فترك لي كل شيء عند البواب، والبواب لص لهذا لن أندهش لو تضمنت الهدية بقرة حية أو خروفا سمينًا.. لن أعرف أبدًا..

المهم أنني وقد صرت وحدي في داري قمت بتقسيم الطعام بحيث يكفيني ثلاثة أيام، وأعددت لنفسي عشاء ممتازًا..

قمت بإنهاء طقوس المساء كلها، ثم تأهبت للنوم.. أنا مرهق اليوم وبحاجة لدخول الفراش مبكرًا.. الثالثة بعد منتصف الليل موعد مناسب ويدل على أنني بدأت الاهتمام بصحتي..

هناك كتاب عن (تاريخ زراعة الأرز في جزر الملايو) وهو كتاب ممتع فعلًا، فقط لو استطعت إنهاء الصفحة السادسة منه دون أن يغلبني النوم. جلست في الفراش ورحت أطالع بذهن مشتت حتى غلبني النعاس...

إنني هناك..

الصحراء مترامية حارقة.. الشمس عندما تصير أكثر من: قرص بعدة ألوان والأفق يترجرج بفعل الهواء الساخن، وهذا الشيء يحلق في السماء.. إنّه نسر.. نسر..

صوت عواء يتردد فيجاوبه عواء آخر كأنه الصدى هو ذا ذلك الشيء يدنو مني.. إنّه ذئب.. لا ليس ذئبًا بالضبط بل هو ذئب البراري Coyote.. هذا حلم أمريكي الطابع جدًّا إذن.. الكايوتي لو كنت من الجنوب والكايوت لو كنت من الشمال..

حلم أمريكي الطابع جدًّا.. وليد كلامي مع (راسم) وأحداث النهار.. وحشة.. انقباض.. إن..

تررررررن!

صحوت من نومي مذعورًا وقد أفلت قلبي ضربتين..

لابد أنّ هذا الجرس هو هاتف (راسم).. لابد أنه لم يضبط ساعته منذ قدومه إلى مصر، ولهذا يفترض أنها العاشرة صباحًا وهي كذلك في الولايات المتحدة فعلًا...

ركضت في الصالة نحو الهاتف وأنا ألعن الغباء، ورفعت السماعة.. هنا سمعت من يقول لي إن الحاجة (عفاف) مريضة جدًّا.. من هي الحاجة (عفاف)؟..

- «المريضة التي رأيتها في المستشفى منذ شهر.. إنها في حالة سيئة..»

حاولت التنصل:

- «يمكن أن أراها في المستشفى في العاشـ...»

- «بل هو الآن وإلا فهي ميتة.. سوف آتي لاصطحابك بسيارتي خلال نصف ساعة..»

هو يعرف بيتي كذلك.. لا مجال للفرار طبعًا.. هكذا بدأت أبدل ثيابي شاعرًا بأنني مظلوم.. مظلوم إلى حد لا يصدّق...

طبعًا كانت السيارة تنتظر أمام باب البناية، ليتضح لي أن الحاجة (عفاف) تعيش في (بابو غينيا الجديدة) تقريبًا.. رحلة طويلة جدًّا عبر شوارع القاهرة الخالية المظلمة..

في النهاية هأنذا أقف جوار فراشها وحولي ستة أفراد مذعورين.. ما المشكلة يا حاجة؟

- «آلام في عيني اليسرى..»

لاحظ أن مشكلتها القديمة كانت فقر الدم، وهذا يعني أنني مسئول عنها للأبد في أي مرض يصيبها.. دعك من أنني لا أعرف الطريقة العبقرية التي تقتل بها آلام العين اليسرى. كظمت غيظي، ولعلني أجد في هذه المواقف نوعًا من الدعابة يدفعنى إلى أن أمضى في لعب الدور حتى النهاية..

كان هناك (دمل) صغير في الجفن هو سبب هذا كله، وهو الذي جعل الساعة تقترب من السادسة صباحًا وأنا لم أدخل فراشي بعد..

هكذا أوصيتهم بطلب رأي طبيب عيون مع عمل كمادات دافئة حتى تلك اللحظة، وانصرفت مع الرجل الذي جاء بي هنا، والذي ظل قلقًا يسأل إن كانت هناك خطورة معينة على الحياة...

- «هناك خطر لكن على حياتي أنا.. في المرّة القادمة عندما تكسر مشط قدمها فلا تطلب رأي الطبيب الذي عالجها من فقر الدم من فضلك..»

عدت لداري مغتاظًا.. ففتحت الباب عازمًا على أن أنام حتى الظهيرة على سبيل الانتقام..

كان ضوء الصباح يغمر الشقة الآن..

وفي ضوء الصباح المذكور رأيت.....

✶ ✶ ✶

لم يعد هناك حجر فوق حجر في الشقة..

ماذا حدث؟

لقد تجمع البساط الموجود في الصالة في كومة واحدة وهذه الكومة صارت فوق الثلاجة... بينما تكومت المقاعد في كومة واحدة.. مائدة الطعام مقلوبة..

الجدران تشقق ملاطها وتغطت بطبقة من مادة لزجة كريهة..

هناك دم كذلك.. بقع دم لكن ما مصدرها؟..

قدرت أن ذلك الشيء الذي ضرب الجدران بهذه القوة قد أدمى نفسه..

باب غرفة المكتب انتزع من مكانه..

فراشي صار أكثره فوق خزانة الثياب بينما تهشمت المصابيح في كل مكان.. الكومود تحطم إلى أشلاء بينما التلفزيون على الأرض والدخان ينبعث منه الوسائد تمزقت وتناثر ما فيها من قطن كأنها عاصفة جليدية...

ما كل هذا العنف؟

باب الشرفة قد انتزع من مكانه.. على الأرجح استعمل للدخول والخروج..

زجاج مهشّم في كل مكان...

المطبخ صار تاريخًا سحيقًا حتى تذكرت القصة الصينية القديمة عن الثور الذي دخل متجر الخزف...

ثور في متجر خزف؟

توقفت عند هذه الفكرة طويلًا وبدت لي معقولة.. كأن ثورا كان طليقًا في شقتي يدمّر ويقلب ويركل ويدوس...

كنت أرتجف بقوّة.. قلبي ذاته يرتجف من الانفعال..

كيف لم يسمع الجيران هذا كله؟.. على الأرجح هم سمعوه وافترضوا أنه جزء من حياتي اليومية المعتادة.. تذكرون مشاجرات الكاهن الأخير مع خصومه في هذه الشقة طبعًا..

شيء كان هنا..

شيء مريع كان هنا..

شيء مريع يمقتني بجنون كان هنا.....

شيء مريع يمقتني بجنون وكان يبغى تمزيقي كان هنا...

ولكن...

هل رحل حقًّا؟

- 2 -

الشيء الذي يتحرك في الحمام ليس من مقتنياتي حتمًا.. ليست عندي مقتنيات تتحرك...

بحثت بالفعل في كل مكان ولم أجرب الحمام.. هذا الشيء هناك وينتظر...

أسمع صوته.. أرى ظله يبرز من فرجة الباب لأن ضوء النهار تسلل من النافذة ذات الزجاج المصنفر...

هناك علبة مسحوق سقطت على الأرض.. صوت قطعة الصابون هذا الشيء يبحث في حماس..

ربما أمكنني أن أنسحب في هدوء. أغادر الشقة وأتركه يفعل ما يفعل.. ينتزع المرحاض من مكانه ويهشم المغطس ويثنى (الدوش) إلى كرة معدنية..

هذا الشيء لا يتفاهم ولا يتحرش ولا ينتهز الفرصة.. إنّه جامح كإعصار..

ربما أمكنني أن.....

✶ ✶ ✶

أنت مجنون يا رفعت..

هل تتوقع أن الشيء الذي فعل هذا كله ينحدر إلى درجة اللّهو بقطعة صابون؟.. أنت قلتها.. هو لا يتفاهم ولا يتحرش.. إنّه جامح كثور في متجر خزف صيني..

هكذا دنوت من الحمام أكثر متوقعًا نهايتي.. لحظة مؤلمة عابرة أعرف بعدها أنني كنت أحمق، ثم ينتهي كل شيء لأنني سأجد رأسي على بعد ثلاثة أمتار من عنقي..

نظرت عبر فرجة الباب في توجس..

إنّه هناك فعلًا..

فأر ضخم يقف على رف الحلاقة ويتسلي بمضغ قطعة من الصابون تركتها هناك.. هذه هي تصرفات الفأر فعلًا لا تصرفات ذلك الشيء الذي اقتحم الشقة أمس...

دخول هذا الفأر مفهوم لأن هذه الأشياء تعبث في الشرفة ليلًا، وكان من الطبيعي أن يتسلل أحدها عندما لم يعد هناك باب شرفة..

برغم قذارة الموقف عامّة فإنني شعرت بحب شديد لأخي في الوجود هذا، كائن حي طبيعي يتكاثر ويأكل ويموت ولا ذنب له في كونه شرهًا قذرًا مكروهًا..

دعه ينعم بوقته ولأعد للصالة لأحاول ترتيب أفكاري..

كيف يمكن إعداد كوب شاي في هذه الشقة التي اجتاحها إعصار؟

هذا الشيء جاء من أجلي.. لو لم أذهب للحاجة عفاف من أجل آلام عينها لدخل عليّ وأنا نائم، وهذا يعني أن الحاجة عفاف أنقذت حياتي دون أن تدري، وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم..

يمكن بلا خطأ كبير أن نفترض أنه ذات الشيء الذي مزّق الحارس واللص والعاشقين في المتحف.. إنّه الشيء المتعلق بالطوطم الذي رأينا آثار أقدامه على الدقيق..

ولما كنت أنا صاحب فكرة حرق الطوطم، ولأنني كنت أنتظر مكالمة (راسم) للتنفيذ فإن من السهل أن نفترض أنه يلاحقني ليمنعني من ذلك أو يلاحقني لينتقم..

هذه على قدر علمي أول هجمة تتم خارج المتحف..

لقد أغضبت هذا المسخ عديد الأشكال.. والمشكلة هي أنني لا أضمن التواجد في أي مكان وحدي بعد اليوم..

هجماته كانت دومًا ليلية لكن هل هذه قاعدة آمن لها؟..

هجماته كانت على أشخاص منفردين لكن هل هذه قاعدة ثابتة؟

✶ ✶ ✶

اتجهت إلى الهاتف وطلبت (راسم).. عليه أن يصحو مبكرًا ويدفع الثمن ما دام أيقظني أمس من.... ماذا أقول؟.. لقد نسيت أنه لم يكن هو... لكن ليصح برغم ذلك..

لم يرد في البداية فأعدت طلبه بعد نصف ساعة..

سمعت صوته المرهق يتساءل عمن يتكلم فقلت في حزم:

- «أنا رفعت إسماعيل هذا الشيء خاصتك كان عندي ودمر شقتي.. نعم.. لم ألقه وجهًا لوجه لكن شقتي تبدو كما لو أنّ إعصارًا اجتاحها... لا أعرف خطتنا التالية لكنّها حتمًا تتضمن حرق هذا الطوطم اليوم..»

- «لكن...»

- «يسهل عليك أن تقول ذلك.. يسهل أن تتحدّث عن التراث الثقافي الذي لا يقدر بثمن، أمّا أنا فأتحدث عن عنقي.. كان من السهل أن تقرأ خبر وفاتي في صفحة الحوادث، وتصير لدى المقدم أربع وفيات..»

الحق أن الموت ذاته لا يثير هلعي لهذه الدرجة، لولا ما ينتظرني بعده أولًا، ولولا مقدماته ثانيًا على رأي الأديب (يوسف السباعي).. لا أحب أن أجد نفسي ممزقًا على الأرض وحيًّا برغم هذا.. أتمنى أن أموت سريعًا فلا يحدث هذا.. أن أجد نفسي بين ذراعين قويتين توشكان على تحطيم ظهري لكنهما لا تفعلان، والأسوأ أن يتم تحطيم ظهري فعلًا لكني أظل حيًّا..

نعم.. فليأت الموت ولكنّه موت سريع من طراز (فتح قفل).. الآن أنت حي ترزق لديك أحلام ومخاوف وهموم.. الآن أنت جثة..

صمت الرجل طويلًا ثم قال:

- «حسن... كنت على وشك الاتصال بك على كل حال.. سوف ترتب (ليلى) كل شيء.. سوف نحرق الطوطم في الصحراء.. لو أردت يُمكنك الحضور للمتحف في الواحدة بعد الظهر..»

وضعت السماعة مفكرًا..

لم يقاوم وإن هذا لغريب..

توقعت أن يتهمني بالهستيريا والخرف لكن من الواضح أن لديه من الأسباب ما يدعوه للتصديق...

الآن يجب أن أجد حلًا للكارثة التي أنا فيها، فقد صارت شقتي أقرب إلى موقع تفجير نووي.. الأرض (صفر) كما يقول الغربيون..

لو بدأت لأمكنني عمل شيء لكن من أين أبدأ؟

- 1 -

عندما لحقت بـ (راسم) في المتحف كانت (ليلى) قد أعدت كل شيء.. إنها ذات كفاءة بلا شك..

هناك سيارة نصف نقل محملة بعدة (جراكن) من الكيروسين وهناك عمال يحملون ذلك الطوطم اللعين ليضعوه في السيارة ويربطوه بالحبال..

قال لي (راسم) وهو يدير محرك سيارته:

- «يُمكنك أن تركب معي.. سوف يأتي معنا (عاصم)..»

(عاصم) الذي يحبّ العمل ليلًا.. الرجل الأسطورة الذي تجده دائمًا في كل مشكلة.. (عاصم) سيفعل كذا.. (عاصم) يمكنه أن يفعل كذا.. نادوا (عاصم)..

اعتماد هؤلاء القوم عليه يوحي بمزيج فريد من (عنترة) و(أينشتاين) و(جيمس بوند)..

لم يكن شيء من هذا ينطبق على منظره، فهو نحيل تعس المنظر له عينان خضراوان معذبتان وشارب كث مضحك يبدو كأنه فرشاة يثبتها في مكانها فوق شفته العليا.. لو ضحك لسقطت من موضعها..

هكذا ركب جوار سائق السيارة وانطلق الموكب العجيب نحو الصحراء..

هناك في بقعة خالية أنزل العاملان الطوطم.. كم هو جميل ومتقن الصنع.. فعلًا من الخسارة أن نفقده لكن أحداث هذه القصة تشير بأصابع اتهام قوية نحوه.. أغرقاه بالكيروسين ثم أشعل (عاصم) عود ثقاب وقربه من الخشب..

فلاااااام!

اللهب ينتشر في الخشب العتيق الذي نحته رجال (أوجيبوا) يومًا ما.. يرتفع للسماء...

توقعت أن يتحول الدخان إلى شيطان يغطي السماء وينقض علينا وهو يزأر.. توقعت أن تتحرر الوحوش الخشبية وتهاجمنا لتمزقنا توقعت أن أسمع صرخة احتضار مريعة ترتج لها الصحراء..

حسن.. لم يحدث شيء من هذا..

مجرد خشب يتفحم..

حتى إن أحد العمال أخرج لفافة تبغ وأشعلها من النار المتعالية مما أعطى هذا الحدث الدرامي طابعًا يوميًا سخيفًا ومهينًا..

مجرد خشب يتفحم..

فلمّا انتهينا نظرت لـ (راسم).. كانت دموع الغيظ في عينيه لأنّه يدرك أهميّة ما بدده، فقلت له مواسيًا:

- «على قدر علمي لن يحدث شيء ثانية..»

الآن صار الطوطم أسطوانة من فحم.. أسطوانة غبية يتصاعد منها الدخان ترقد فوق رمال الصحراء..

نظر لنا العمال متسائلين، فقلت لهم وأنا أتجه إلى السيارة:

- «هيا..»

✶ ✶ ✶

مرحبًا بكم يا سادة في متحف (راسم للدراسات الإنسانية)..

كل شيء صار على ما يرام وعادت الحياة إلى وتيرتها السابقة، برغم أن علامات استفهام كثيرة ما زالت معلقة.. يشبه الأمر أن تسمع أصواتًا غريبة من صندوق فتحرقه دون أن تكلف نفسك بفتحه.. هكذا تفنى الأصوات ويفني سرها..

صحيح أن ذكرى من هلكوا لا تفارق خيال من حضروا تلك الوفيات، وصحيح أنّ هناك موضعًا لا بأس به من المتحف صار خاليًا.. هناك يُمكنك أن ترى دائرة على الأرض حيث كان ينتصب عامود خشبي عملاق اسمه (الدودم) بلغة (أوجيبوا)..

قد يسأل أحد الزوار القلائل السكرتيرة عن الشيء الذي كان هنا.. الشيء الذي يحمل اسم (طوطم) كما تقول البطاقة، فتقول ضاحكة:

- «لم يكن أثرًا أصليًا.. نحن نتخلص من أي أثر غير أصلي..»

وسرعان ما تفر إلى قطعة أخرى من المعروضات..

مرحبًا بكم يا سادة في متحف (راسم للدراسات الإنسانية)..

سوف تجد أن كاميرات المراقبة مصوبة على كل شيء هنا، لكن الشاشات لم تعد في غرفة المدير، بل تم نقلها إلى غرفة صغيرة في نهاية قاعة العرض. هناك يجلس (عاصم) الذي يحبّ أن يعمل ليلًا والذي يطلقون عليه (مساعد المتحف)..

عرفته (ليلى) السكرتيرة أول مرة عندما كانت بحاجة إلى مقاول يشرف على العمال هنا، ثم اكتشفت أنه يفعل كل شيء يحجز تذاكر الطيران.. يصور الأوراق.. يصلح الصنابير التالفة يثبت ما تريد تعليقه بعد عمل فتحات بالمثقاب.. وأخيرًا عرفت أنه يجيد إحراق الطواطم الخشبية في الصحراء..

يجلس عاصم وحيدًا في الحجرة أمام الشاشات، وقد وضع قدمًا على المكتب وراح يشرب الكولا الباردة.. راتب لا بأس به ومكان مستقل مكيف.. هذه مهنة لا ينوي التخلي عنها بسهولة..

ما كان عاصم ليلاحظ الأمر لو لم تكن تلك الحسناء قد دخلت المتحف..

فتاة ممتلئة من الطراز الذي يروق له، وكانت تلبس عوينات وهو مجنون بالفتيات ذوات العوينات، هكذا اعتدل في جلسته وراح يتأملها على الشاشة في حنان.. في لحظات كهذه يتذكر أنه غير متزوج. إن الفتاة تسحره مع أن رائحتها كريهة نوعًا و...

رائحتها؟

ثم فطن إلى أنّ هذه رائحة جواربه لأنّه يضع قدمه على المكتب.. لقد لعب عقله الباطن اللعبة الشهيرة عندما ربط بين الصورة على الشاشة والرائحة الموجودة فعلًا.. رأى ذات مرة فيلمًا بطولة (فيرنا ليزي) وكانت الفتاة جواره في السينما تضع عطرًامعينًا.. هكذا ظل يعتقد لا شعوريًا أنّ هذه رائحة (فيرنا ليزي). أنزل قدمه في شيء من الخجل وراح يراقب الفتاة..

السكرتيرة تخلي المعرض وتقود الفتاة للباب وهي تضحك ضحكتها المفتعلة.. إنّه موعد الانصراف والفتاة تبدو واضحة على الشاشة الأولى التي تظهر مدخل ومخرج المتحف...

هنا حدث شيء غريب..

لقد اختفت الفتاة والسكرتيرة من على الشاشة فجأة!

- 2 -

مرحبًا بكم يا سادة في متحف (راسم للدراسات الإنسانية)..

إن (عاصم) لم يستطع فهم ما حدث.. لقد صار المتحف خاليًا فجأة مع ظلام شبة دامس على الشاشات كلها. مستحيل أن يحدث هذا كله بسرعة البرق..

خرج إلى صالة العرض حافيًا ليلقي نظرة.. بالفعل كان المكان قد صار خاليًا لكن الإضاءة لا تتناسب مع الصورة التي يراها..

هذه الصور التي يتلقاها على الشاشات خادعة إذن..

كان يشعر بذهول، لكنه كان بارعًا كما قلنا ولم يكن ليترك شيئًا كهذا من دون أن يفهم..

كوّر قطعة من الورق وألقاها على الأرض أمام الكاميرا التي تواجه مدخل المتحف، ثم هرع لغرفة المراقبة.. فعلًا لا يوجد شيء على الشاشة....

اتجه للمخزن فأحضر السلم المعدني، وحمله إلى ما تحت تلك الكاميرا، وتسلقه ليلقي نظرة وهو يحمل المفك والبنسة..

ثمّة خطأ هنا.. السلك المتصل بالكاميرا يتصل بسلك آخر لا يعرف مصدره. هو واثق من أنّه لا يغذي الكاميرا بالكهرباء ولا يأخذ منها الصور.. هكذا مد يده في ثبات وقطع هذا السلك..

هل حدث تغيير ما؟

هرع إلى غرفة المراقبة ونظر إلى الشاشة..

الآن يرى أشياء كثيرة.. يرى قطعة الورق المكورة ويرى السلم!.. لقد زالت الغشاوة عن الكاميرا فعادت تبصر!

إنه الآن يفهم..

«ويجب أن نقبل حقيقة أنه شيء لا يظهر على شاشة المراقبة.. ربما تسبب في أن الكاميرات لم ترَ أي شيء حتى الشابين نفسيهما..»

«لم يرهما الحارس الليلي (رضا) والسبب هو أنه كان جالسًا أمام الشاشات مع (عاصم) الذي يجب أن يعمل لي.. كانا يشربان الشاي ويثرثران بينما الفتى والفتاة يمشيان بين المعروضات..»

لهذا لا يرى أحد شيئًا..

هناك دائرة دخيلة تجعل الكاميرات لا تسجل سوى صورة ثابتة للمتحف في إضاءة ليلية.. هذه الدائرة تبدأ العمل عند إغلاق أبواب المتحف ليلًا.. هكذا يسهر من يسهر يراقب الشاشات فلا يرى إلا صالة عرض خالية خافتة الإضاءة.. فقط لو ثبت عينه على الشاشة كما حدث الليلة للاحظ هذه النقلة المفاجئة في إضاءة الصورة وفي اختفاء من كانوا فيها مثل هذه الوثبة لاحظها منذ مائة عام تقريبًا الخواجة الفرنسي (ميليه) رائد فن الخدع السينمائية، عندما كان يصور الشارع ثم تعطلت آلة التصوير عندما أصلح العطل وعاود التصوير لاحظ عند العرض أن الرجال صاروا نساء فجأة والسيارات صارت حافلات.. إلخ... هكذا وجد طريقة مثلى لتغيير الموجودات على الشاشة، وولد فن من فنون الخدع السينمائية..

كان (عاصم) قد رأى شيئًا غريبًا على الشاشات من قبل، لكنه افترض أنه مجنون أو أن السهر أرهق عينيه، وكانت إجابته على كل من يسأله أنه لم ير شيئًا غريبًا.. لكنه كان بالطبع يكذب...

من وضع هذه الدائرة؟..

هذه معلومات مهمّة يجب أن يعرفها (راسم)..

هرع إلى جهاز الهاتف ورفع السماعة ثم توقف..

من الصعب أن تكون هذه الدائرة هنا من دون علم (راسم).. لكن لماذا؟

ثمة شيء يحدثه بألا يطلب (راسم) بالذات..

بحث عن الرقم الآخر الذي احتفظ به، وطلب (رفعت إسماعيل). من الممكن أن يطلب المقدم (خيري) لكنه لا يريد أن يقحم رجال الشرطة في هذا الأمر ثم يتضح أنه واهم.. (رفعت) يبدو ملمًّا بالقصة ولا خطر منه لو تضايق..

رددت على الهاتف بينما البواب مع أم (شخص ما) التي تتولى تنظيف شقتي يفرغان من آخر لمسات نظافة الشقة بعد ما أصابها. سوف أحتاج إلى كهربائي وسباك ونقاش.. ربما أحتاج إلى شقّة أخرى..

فوجئت بأن هذا هو (عاصم) الذي يحبّ أن يعمل ليلًا، وفوجئت أكثر عندما عرفت أنه مذعور..

أمّا ما حكاه لي فكان أغرب وأغرب... لابد أن يعرف المقدم (خيري) هذه المعلومات الجديدة.. ما هاجم الضحايا لم يكن خفيًّا بل كان مخفيًّا.. فمن أخفاه ولماذا؟

طلبت منه أن يحتفظ بما قاله سرًا ووعدته أن أمر عليه صباحًا لأنني مشغول..

✶ ✶ ✶

ما حدث بعد هذا أقوله مستندًا إلى خيالي، لكن لا يمكن أن يكون قد وقع بطريقة أخرى..

أعرف أنه جلس يراقب الشاشة وهو لا يصدّق هذا الكشف الجديد..

كان الحارس الليلي غير موجود لكنه سيأتي بعد قليل.. سوف يمضي الأمسية معه وهذا يخفف من توتره قليلًا..

أعرف أنه ظل طويلًا هناك ولربما أعد لنفسه بعض الشاي وهو لا يرفع عينه عن الشاشة، ولربما داعب شاربه المضحك عدة مرات وهو يتأملها بعينيه الخضراوين..

أعرف أنه كان شارد الذهن، ثم وقعت عيناه على شيء يتحرك..

دقق النظر أكثر فلم يصدّق ما يراه...

هناك عند باب المتحف الرئيس..

شيء يتحرك.. يدخل نطاق الشاشة الثانية، من ثم اختفى تمامًا.. إن (عاصم) لم يقطع الأسلاك عن جميع الكاميرات لكن فعلها مع كاميرا واحدة فقط..

كان هذا خطأ..

النتيجة هي أنّ هذا الشيء يتحرك وهو لا يعرف مكانه.. لا يعرف إن كان يقترب أم يبتعد.

رفع سماعة الهاتف وطلب المقدم (خيري).. لا يوجد خط..

طلب الشرطة...

..122

ارفع السماعة يا حضرة الصول..

..122

هلم.. أنا لا أعرف أين هذا الشيء..

لا يعرف (عاصم) أنّ هذا السيناريو حدث بالضبط من قبل مع رجل اسمه (عامر)..

- «آلو.. أنا مساعد متحف (راسم للآثار الإنسانية)... لا.. ليس متحف الآثار الإسلامية.. إنسانية.. إنّه في الجيزة.. لابد أن عندكم ملفًا كاملًا عنه يا أخي.. اسمع هناك خطر.. خطر داهم يدنو مني هنا.. اسمي (عاصم).. إنّه داخل المتحف لكن لا أعرف أين هو بالضبط.. صدقني لا أعرف ما هو.. إنّه...»

رأى الظل يرتسم على الجدار وسمع ضحكة انتصار وحشية مدوية..

استدار للخلف ولم يدرك من قبل مدى ضخامة هذا الشيء..

صرخ.. وصرخ...

هذا ما فعله بالتأكيد وما سمعه رجل الشرطة عبر الهاتف قبل أن تمتد تلك اليد المخلبية وتنتزع قلبه.. قلب (عاصم) لا رجل الشرطة طبعًا....

مرحبا بكم يا سادة في متحف (راسم للآثار الإنسانية)..

- 1 -

لم أنتظر حتى تكتمل التحقيقات، وركبت سيارتي مبتعدًا وأنا أشعر بأنني موشك على الاختناق..

كدت أدهم ولدًا على دراجة لأنني كنت شارد الذهن أتصرف بعصبية غريبة.. ثم أوشكت على أن أدخل بمقدمة السيارة في حافلة تتحرك أمامي.. الحق إنني كنت مزيجًا فريدًا من الحنق والغيظ والدهشة والغباء..

أخيرًا توقفت إلى يمين الطريق، وترجلت من السيارة واستندت على الكبود مفكرًا. أنا بحاجة لاستجماع أفكاري قبل أن أجد نفسي في المشرحة بعد حادث مروع..

هكذا يمكن القول إن الطوطم ليس هو ما يولد هذه الأحداث.. لم تولد تلك المسوخ منه. أنا تعاملت مع النار كثيرًا وأعرف أنها غالبًا تزيل كل شيء، فلا تتوقع أن الطوطم ما زال قادرًا على أن يقتل ذلك الشاب التعس الذي يحبّ العمل ليلًا..

لقد اتصل عاصم بي.. كان بوسعي أن أفعل شيئًا.. ربما...

لقد انتزع هذا الشيء قلبه.. فجوة هائلة بين الضلوع ولا يوجد قلب.. هذا يعني أن ذات الشيء ذي القوة الخارقة فعل ذلك. المقدم قال لنا إن هناك مكالمة غامضة سمعها رجال شرطة النجدة.. عندما تحركوا وعندما وجدوا المتحف أخيرًا، كان الحارس الليلي الجديد هناك في حالة يرثى لها من الانهيار العصبي، لأنّه عاد من شراء العشاء ليجد (عاصم) في هذه الحالة..

يبدو أنهم اتصلوا براسم فلم يجدوه، فانتظروا حتى رد عليهم وسرعان ما جاء وهو في حالة من الجنون.. لقد افترض الجميع أن الكابوس انتهى في الصحراء.. هذا لعب لا يخلو من الغش..

كنت أفكر....

موضوع الدوائر التلفزيونية التي تعطي صورة زائفة.. ما معناها؟.. من وضعها؟... ما مصلحته؟

أسئلة لا جواب عنها حاليًا هذا الفتى (عاصم) كان عبقريًا فعلًا، ولو لم يلحظ هذا لما لاحظه أحد..

الساعة الآن العاشرة صباحًا.. هناك الكثير من المهام على عاتق (راسم) ولا يمكن أن يعود لداره الآن...

بحثت في جيوبي حتى أخرجت بطاقة صغيرة.. بطاقة دون عليها عنوان مسكن عاصم في الهرم..

ركبت سيارتي وأخذت شهيقًا عميقًا.. سيكون على أن أكون مقنعًا وهذا عسير لكنني سأحاول...

✶ ✶ ✶

كانت فيلا من طابقين حديثة البناء.. هذا هو البيت الذي انتقل إليه بعد قضاء أشهر في أحد فنادق القاهرة الفاخرة.. فيلا فاخرة لكنك تعرف هذا الطراز من المباني التي لا ينتهي العمل فيها أبدًا.. هناك أكوام من الرمل والزلط وخرطوم مياه وقرميد في أية لحظة، بحيث أنك لا تستطيع في أية لحظة أن ترى مشهدًا نظيفًا مريحًا للعين... هذا يذكرني بالقاهرة.. في أية لحظة هناك أشياء تهدم وأشياء تبنى فلا تأتي أبدًا لحظة الاكتمال.. لحظة أن تنظر وتشعر براحة...

هناك كلب فاخر المنظر يرمقني في شك، وبواب أسمر يلبس قميصًا وسروالًا يهرع ليفتح لي جنزير البوابة ويمسك بالكلب إلى أن أمر...

تفتح لي الباب خادمة حسنة الهندام على قدر من الرقي، فأسألها عن السيدة (أبو سيف).. (فكتوريا أبو سيف)... (فيكي)..

- «قولي لها إن اسمي د. (رفعت إسماعيل).. صديق زوجها..»

- «المدام نائمة الآن.. ليس بوسعي أن....»

- «دعيه يا فاتيما..»

ورفعت رأسي لدى سماع هذا الصوت الذي ينطق العربيّة بلهجة أجنبيّة تمامًا.. لم أر المدام إلا مرة واحدة منذ عام ونيف لكني لم أنسها قط لسبب واحد هو أننا لا ننسى مقابلة سرطان بحر مسلوق بهذا الحجم أبدًا..

كانت واقفة خلف الخادمة بثياب كاملة تدلّ على أن موضوع النوم كذبة.. فقط كانت تتنصت لتعرف من القادم..

هكذا أفسحت (فاتيما) (فاطمة) طبعًا الباب لي لأدخل وهي ترمقني بكراهية. كأنها تقول لي: سأسامحك هذه المرّة من أجل السيدة، لكن لو رأيتك في ظروف أخرى لأحرقتك بالنار..

مدت السيدة يدًا عظمية حذرة تصافحني، ثم دعتني إلى لوبي صغير، هناك كان بار عليه زجاجة فيها (هباب ما) وبعض الكؤوس، ومقعد عالٍ مما يستخدم في البارات، فجلست واضعة ساقًا على ساق وفي يدها كأس مليئة، ومدت يدها تستكمل لفافة تبغ كانت تدخنها..

أفي هذه الساعة؟.. معلوماتي أن من يبدأ احتساء الخمور منهم في العاشرة صباحًا هو شخص في مشكلة إدمان شنيعة. هذه السيدة تبدو كأنها تمثل دور العصابية مدمنة الكحول في فيلم أمريكي..

ربما هي اليزابيث تايلور في (من يخاف فرجينيا وولف؟).. لابد أنها تتعاطى الأقراص المهدئة كذلك، وسوف تنتحر يومًا ما بجرعة زائدة.. هذه أمور تأتي معًا كعبوة متكاملة..

رفعت كأسها متسائلة إن كنت أريد فهززت رأسي أن لا..

قالت وهي تمتص الكأس:

- «د. (إسماعيل).. أنا أذكرك منذ ذلك اللقاء.. زوجي يذكر اسمك كثيرًا...»

- «أرجو ألا يكون هذا في صيغة الذم..»

- «أوه نو.. نو.. إن (راسم) يحبّ الأذكياء وأنا لست منهم...»

وملأت كأسها ثانية وقالت بلهجة شاردة:

- «سكرتيرته (ليلى) ذكية.. أنت ذكي.. أمّه الهنديّة ذكية..»

هنا بدأت أتصلب..

هذه المرأة مدمنة خمر، ويبدو أن تعبير (حلت الخمر عقدة لسانه) دقيق جدًّا..

إنها ستقول أشياء مهمّة.. أشياء كثيرة جدًّا.....

- 2 -

قالت (فيكي أبو سيف) بلكنتها الملتوية، وخصلات شعرها الأحمر المعجون بالعرق والتعاسة تغطي عينها:

- «أبو (راسم) يدعى (محمود أبو سيف).. مهاجر مصري جاء إلى الولايات بحثًا عن فرص.. في هذه الوقت كانت الولايات عطشى بحاجة إلى المهاجرين وكانت الفرص كثيرة. كما يحدث معكم معشر العرب كثيرًا، تكون هناك طاقات هائلة تنتظر الانفجار في الغربة، والكل يعرف كيف يعمل العربي بلا راحة ولا لحظة تعب في الغربة حتى ليثير دهشة الغربيين وذهولهم، بينما لا يفعل في بلاده شيئًا سوى الجلوس على المقهى وتدخين النارجيلة. وقد نجح الرجل في أن يفتتح سلسلة مطاعم ذات طابع شرقي في (نورث داكوتا) وصار ثريًا.. هنا قابل (أماليا جيسون) وهي سكرتيرة سمراء رقيقة يبدو أنها ذكرته ببنات بلده مصر، وقد وقع في حبها وتزوجا فعلًا.. يبدو أنّ هذه الأسرة مولعة بالزواج من السكرتيرات!...

«السبب الذي جعل ملامح (أماليا) تذكره بالمصريات هو أنها تنتمي لأصل هندي.. قبيلة (أوجيبوا) التي كانت تتخذ هذه الولاية موطنا لها صارت أقلية تتركز في جبال السلحفاة، وعند الحدود الكندية.. كانت (أماليا) تنحدر من هذه القبيلة وكانت لها عادات غريبة في المأكل والمشرب.. على فكرة لم تكن مسيحية ولم تعتنق الإسلام.. يبدو أنها ظلت حتى النهاية تمارس ديانات هؤلاء القوم الوثنية. يُقال إنها كانت عالية المكانة بين قومها لأنهّا تنحدر من نسل زعيم مهم، ويقال إنها تحتفظ بلفافات غريبة وأعشاب أغرب، وإنها تنشد بتلك الطريقة الهنديّة في ليال قمرية بعينها.. لكن المؤكد أن (محمود أبو سيف) لم يهتم بهذه الأمور كثيرًا ولعله وجدها مسلية..

«توفي (محمود) في حادث سيارة بينما ابنه (راسم) في الخامسة من عمره، وهكذا وقعت مسئولية التربية على الأم.. ومنذ ذلك الحين عاشت وابنها في بيت فاخر تحيط به البراري، ولم يعتادا الظهور ولم يزورا بسمارك قط.. أعتقد أنها كانت تستعمل معه العربيّة أحيانًا كي لا ينساها لهذا يتكلم (راسم) عربية رديئة جدًّا لكنه لم يفقدها.. لاحظ أن امه تعلمت العربيّة من أبيه..

«راسم ورث براعة أبيه في الأعمال، وصار ذلك الشاب الرياضي الوسيم الذي تراه..

«عرفني في أحد أندية البولنج، وسرعان ما وقعت في غرامه وباقي القصة معروف على كل حال.. لم ننجب ولعل هذا خير قرار اتخذته الأقدار بصددنا..

«صار لنا بيتنا الجميل ولم تضايقنا أمّه كثيرًا.. كانت ميالة إلى الصمت ومراقبة الأمور.. ولم يجد جديد إلا منذ عامين عندما توفيت الأم بالسرطان...

«بمجرد انتهاء إجراءات الدفن والعزاء أعلن (راسم) أنه قد سئم الولايات.. قال إنِّه صار يكره ذلك البلد بشدة ولم يعد يربطه به سواي، وطلب مني أن أهاجر معه إلى مصر..

«بصراحة لا أفهم سبب هذا التغير المفاجئ فهو كان من عشاق الولايات قبل وفاة أمّه.. كان ممتنًا لأمريكا وكان يردد: فقط في هذا البلد يمكن لمهاجر فقير أن يصير مليونيرًا وصاحب مؤسسات.. لقد أعطاني هذا البلد الكثير.. إلخ... فجأة صار هذا بلدا كريهًا مصاصًا للدماء، وسرعان ما رتب كل شيء وسوى أعماله هناك.. لم يكن لديَّ سبب يدعوني للبقاء في الولايات لذا جئت معه إلى مصر..

«فقط قبل السفر تأكد من شحن عدد من القطع الأثرية بعضها كان في مجموعته وبعضها حصل عليه.. قال إنِّه يزمع أن يقيم متحفًا في مصر..»

الآن صرت أعرف القصة كلها تقريبًا.. هذه المرأة كنز حقيقي..

فرغت الزجاجة فصبت لنفسها كأسًا من زجاجة أخرى وأشعلت لفافة تبغ.. لم أنصحها بالتوقف لأنني في حاجة إلى ثرثرتها..

- «إذن (راسم) ذو أصل مصري هندي أحمر؟»

- «هو كذلك.. إنِّه هندي من ناحية الأم..»

فكرت قليلًا ثم سألتها:

- «هل كانت له علاقة بأي من هنود (أوجيبوا) هؤلاء؟»

- «فقط بعد وفاة أمّه كان بعض ذوي العرق الهندي يزورونا وهم قوم صموتون متجهمون كالعادة.. لكني لا أعرف سبب زيارتهم.. فيما بعد قال (راسم) إنهم ينهون مفاوضات بيع الطوطم.. إنِّه يخصهم وهو قطعة أثرية مهمّة..»

✶ ✶ ✶

لم تكن هناك أشياء غريبة أكثر من اللازم في الأيام السابقة للسفر، حتى جاءت تلك الليلة.. كانت قد ذهبت لزيارة صديقاتها ولعب (البينجو) وهي لعبة سخيفة تعجب الأمريكيات جدًّا وكان من المقرر أن تعود في ساعة متأخرة، لكنّها شعرت بذلك الحافز الذي دفعها إلى العودة مبكرًا..

رأت البيت من بعيد فارتجفت رعبًا..

هناك مشاعل في الحديقة!.. أوقفت سيارتها على جانب الطريق ودنت بحذر أكثر واسترقت النظر من بعيد.. من وراء شجرة عند أول الطريق..

هناك عدد من الرجال. يلبسون ثيابًا عصرية لكن ملامحهم تشي بأنهم من الهنود.. الشعور الطويلة والوجوه المتصلبة هناك في مركز الدائرة يقف (راسم).. (راسم) زوجها بالذات.. صحيح أنه يبدو أطول وأكثر إثارة للرهبة في ضوء المشاعل المتراقص لكنه زوجها..

لا يبدو سعيدًا بما يفعل.. يبدو مرتبكًا.. غير واثق من نفسه..

الرجال ينشدون شيئًا بصوت خفيض ثم يجثون على ركبهم بالواقع هم يسجدون بالكامل ممرغين رءوسهم في التراب من أجل من؟.. من أجل زوجها!

هل السبب هو مكانة والدته بينهم؟...

هل انتقل له ميراث تقديس ما؟

إنه يبدو غير سعيد على الإطلاق.. الأمير الذي لا يريد العرش لكنه مرغم عليه بعد وفاة أبيه..

باختصار: كان الموقف غريبًا رهيبًا...

كان هذا كافيًا لها.. ركبت سيارتها وانطلقت عائدة إلى صديقاتها..

لم تطلب تفسيرًا ولن تطلب. لكن هذا المشهد بالتأكيد لا يفارق خيالها حتى اليوم.. ولعلها تحتسي الخمر محاولة أن تنسى كل هذه الاضطرابات..

كنت أصغي محاولًا الفهم..

في النهاية وجدت أنني أطلت استجوابها فنهضت شاكرًا لها تعاونها معي..

شكرتني بشدة على ما قدمته لها.. قدمته لها؟.. أنا لم أقدم لها أي شيء.. هي ظلت تتكلم منذ جئت حتى هذه اللحظة... لكن الخمر جعلت الأمور تختلط عليها أو هي كانت في حاجة لمن يصغي.. أحيانًا نقدم خدمة عظيمة للآخرين بأن نصغي لهم فحسب..

لا أعرف...

قالت لي وهي توصلني إلى الباب:

- «عدني يا د. (إسماعيل) أن تخبرني..»

- «طبعًا.. لكن مهمتي ستكون أسهل لو أخبرتني بأي شيء أخبرك..»

- «لو سمعت أو عرفت أنه تزوج هذه السكرتيرة فعليك أن تخبرني.. في الولايات يمكنني أن أزج به في السجن لو فعلها، لكن الأمور تختلف في مصر.. أنا أعرف أنه يقابلها كثيرًا.. كم من ليلة خرج فيها وأنا نائمة ولم يخبرني بشيء... لكنه كان يأخذ مفاتيح المتحف من درج (الكونسول).. أنا أعرف هذا..»

واقفة على الباب لا تقوى على أن تظل واقفة من دون أن تستند إلى الجدار، والكأس في يدها، وشعرها يغطي وجهها بالكامل.. رائحة الخمر والتبغ تفوحان منها... ثملة في الثانية عشرة ظهرًا...

هذه المرأة قد انتهت أو كادت..

لا أحسب زوجها سيجمع بينها وزوجة أخرى.. على الأرجح سيتخلص منها أولًا..

- 1 -

حاملة بعض التقارير والأوراق التي تنتظر توقيعه اقتحمت (ليلى) مكتب (راسم) كعادتها..

لم تجده.. إن هذا غريب.. لقد دخل أمامها ولا يوجد باب ثان..

أصابها الذعر ودارت حول المكتب بسرعة، لتجده في أغرب وضع ممكن.. كان يجلس منكمشًا على نفسه تحت المكتب وكأنه طفل مذعور.. الأهم أنه كان يبكي..

بالفعل طفل مذعور.. يقولون إن الرجل لا يتحمل دموع المرأة لأنّه يضعف على الفور، والحقيقة أنّ هذا القول ينطبق على المعسكر الآخر.. داخل كل امرأة أم لا تطيق أن ترى طفلًا يبكي، فماذا عن رجل بالغ؟.. احتضنته مهدئة في مزيج من الحنان والقلق.. لو كان قد جن فهذا أسوأ وقت ممكن..

- «مستر (راسم).. ماذا حدث؟»

راح يرتجف كأن مسًّا كهربيًّا أصابه، ثم فجأة ثاب لرشده..

نظر لها بعينين تقطران دمًا وتشعان شررًا، وصاح:

- «ماذا تفعلين هنا؟.. أية وقاحة؟»

وتملص من ذراعيها لتجد أنها جالسة على الأرض عند قدميه، وهو يكلمها بفظاظة.. ضخمًا مرعبًا عندما تراه من منظور عين النملة هذا.. تكاد تشعر أن حذاءه البراق الأنيق هو الذي يتكلم..

قال لها بغضبة رهيبة (وهي ترى غضبته لأول مرة):

- «آنسة (ليلى).. هناك شيء يدعي الخصوصية.. ليس من اللائق أن تقتحمي المكتب بلا استئذان في كلّ مرّة..»

للمرة الأولى يناديها بآنسة...

كان عقلها يعمل بسرعة.. هذا الرجل مصاب بمرض عضال ربما هو مرض عقلي كذلك.. لقد اقتحمت خلوته في أسوأ لحظة ممكنة وهو غير مستعد أن يغفر هذا..

نهضت وسوت ثيابها.. كلا.. هي لم تهزم.. لن تهزم..

قالت بصوت رفيق حنون:

- «(راسم).. أنت تعرف أنني أهتم بأمرك كثيرًا.. هذا يفوق اهتمام سكرتيرة برئيسها.. الكل يعرف هذا..»

نظر لها بوجهه الأسمر الجاف في عدم فهم، فقالت:

- «ليست علاقات العمل كل شيء.. أحيانًا تبحث الفتاة عن رجلها فتكتشف أنها تأخرت بعض الوقت وأنه متزوج.. فماذا تفعل؟»..

كانت رائعة الجمال وهي تقول هذه الكلمات، فلو كان رجلًا آخر في ظروف أخرى لضعف، لكن (راسم) لم يكن رجلًا آخر في ظروف أخرى..

للمرة الأولى تقلص وجهه وقال في غيظ:

- «هل سمعتك تناديني بـ (راسم)؟»

- «وهل سمعتك تناديني بآنسة (ليلى)؟..»

- «أناديك كما أريد.. هل تعرفين السبب؟»

قال وهو يشير نحو الباب في حزم:

- «لأنني صاحب العمل ويمكنني طردك في أي وقت وليس بوسعك عمل شيء.. والآن أكون شاكرًا لو خرجت من هنا وكففت عن ترديد هذا الهراء..»

حملت الأوراق واتجهت للباب، عالمة أن لديها رصيدًا هائلًا من الذهول والحزن عليها أن تلتهمه وحدها في مكتبها.. هناك طن من الكرامة الجريحة سوف تضمدها لساعات طويلة.. لكن ليس الآن.. ليس هنا.. هي لم تعتد الفشل ولا تقبله لأنّها من طراز (الخاسر السيء) لكن لا وقت لهذا الآن..

- «لحظة..»

استدارت آملة أن يعتذر لها أو يقول شيئًا لطيفًا، لكنه قال:

- «اتركي هذه الأوراق.. ألم تجلبيها للتوقيع؟»

- «بلى يا مستر (راسم)..»

- «إذن؟....»

غادرت المكتب متظاهرة بأنها لم تتلق إهانة ما، وعادت إلى مكتبها..

كانت على يقين من شيء واحد.. لقد دخلت عليه في أقل الأوقات الملائمة له.. لماذا؟.. بالطبع لا يقبل أي إنسان أن يراه الآخرون يبكي تحت مكتب، لكن غضبته التي لم تعتدها من قبل تبدو رد

فعل مبالغًا فيه..

كلا.. هي لم تفشل..

من المستحيل أن تفشل بعد كل هذا الإعداد..

- 2 -

تجلس في غرفتها على الفراش تتأمل صورة لها مع (راسم) يوم افتتاح المتحف. يضحك من قلبه وقد أمسك يدها بحركة طبيعية تلقائية وكان يتكلم.. كان يقول لـ (عاصم) الذي التقط الصورة:

- «هذه لا أستطيع ولا أجرؤ على العمل يومًا واحدًا من دون مساعدتها..»

ماتت هذه الكلمات كما مات (عاصم) البارع صديقها العزيز لقد تعرض الرجل (راسم) لضغط عصبي كفيل بهدم جبل ومن المنطقي أن يتبدل ويصير عصبيًا.. لكن ما ذنبها هي؟

هناك لغز يحيط بـ (راسم) ويحيط بالقصة كلها..

هنا دق جرس الهاتف فهرعت ترد...

- «هالو..»

كان المتكلم هو (راسم) وقد شعرت بوجيب في قلبها عندما سمعت صوته المميز، وصعوبة نطقه اللغة العربيّة:

- «أنت ساهرة؟»

- «ماذا تظن؟.. تحت أمرك يا مستر..»

قالتها بلهجة السكرتيرة الجاهزة لطباعة المذكرات والتقارير في أي وقت..

عرفت ما سوف يقول.. وانتظرته وقلبها يخفق لكنّها لم تظهر أي شيء:

- «أنا كنت فظًا معك صباح اليوم.. تعرفين أنني أمر بضغوط نفسية هائلة. هذه الوفيات توشك على تدمير المشروع تمامًا تعرفين كذلك أنك مهمّة لي.. أنت indispensable..»

قالت بسرعة وفي حزم مفتعل:

- «أوكي. أوكي.. آسفة.. أنا قد تجاوزت حدودي..»

قال كما توقعت تمامًا:

- «أنا مصر على جعل الاعتذار عمليًا.. كم الساعة الآن؟.. التاسعة مساء.. ما رأيك في العشاء معي في ذلك المطعم الذي ذهبنا له من قبل في الهرم؟.. لقد راق لك بشكل خاص..»

فكرت حينًا ثم قالت في تردد مفتعل:

- «موافقة.. ليكن...»

- «إذن نلتقي في المتحف بعد ساعة sharp..»

ووضع السماعة..

لماذا يجب أن تذهب للمتحف أولًا؟.. هناك طرق أخرى لتقصير المسافة..

على كل حال يجب أن تسرع لأنهّا ستتبرج بالكامل وهي عملية شديدة التعقيد، ثم سوف تبحث عن ثياب أنيقة مناسبة وليس لديها الكثير.. طلاء أظفار.. غسيل وجه.. شعر.. تبًّا!... لماذا كانت حياة النساء معقدة بهذا الشكل؟

كانت تركض في الصالة مسرعة نحو الحمام والمنشفة على كتفها، وسألتها أمها في دهشة:

- «هل تخرجين؟»

- «نعم..»

- «ليس من عادتك أن تخرجي في ساعة كهذه إلا فيما ندر..»

- «هذه من تلك الساعات النادرة..»

- «أنت ذاهبة للقاء هذا (الخواجة) المتزوج..»

- «طبعًا...»

- «وما من سبيل لمنعك أو سماع نصيحتي؟»

- «لا سبيل..»

وقبل أن تواصل الأم الكلام كانت قد توارت في الحمام وأغلقت الباب خلفها..

لديها من المشاكل ما يكفي من دون حاجة للتبكيت واللوم وسيل المواعظ المعتاد. هي لن تطلب منه شيئًا هو من سيطلب.. لن تؤذي زوجته لكنّها لا تضمن ألا يؤذي هو زوجته..

«هل أنا حارس أخي؟».. لا تعرف هذه العبارة ولا قائلها لكنّها تنطبق بالكامل على موقفها..

✶ ✶ ✶

مرحبًا بكم يا سادة في متحف (راسم للدراسات الإنسانية)..

توقفت سيارة الأجرة أمام المتحف فترجلت ليلى ونقدت السائق أجره..

كانت سيارة (راسم) واقفة هناك بالفعل بما يعني أنه سبقها..

في هذا الظلام يبدو المتحف بحديقته السوداء المظلمة كأنه كابوس أو لقطة من فيلم رعب.. ظلام وسواد ما عدا إضاءة خافتة تتسرب من النوافذ الزجاجيّة.. دعك من كل ما حدث في هذا المكان، مما يجعل دخوله لي غير محبب على الإطلاق.. لابد أن الحارس الليلي غير موجود ما دام (راسم) طلب لقاءها هنا.. إن الحراس الجدد موشكون على الاستقالة بدورهم وقد صاروا يتغيبون عن السهر عمدًا..

قطعت الممر الذي يتوسط الحديقة وهي تلهث انفعالًا، ثم وقفت أمام الباب الرئيس الموصد وبحثت عن المفاتيح في حقيبتها.. تبًّا!.. لقد نسيتها في البيت..

هكذا راحت تدق على الباب الحديدي عدة مرات وتنادي:

- «مستر (راسم).. مستر (راسم)!»

لا يرد والظلام دامس مخيف.. لن تقف هنا للأبد..

أين يمكن أن يكون سوى في مكتبه؟.. مكتبه يطل على الحديقة. هكذا راحت تجد السير وسط الأرض الموحلة قليلًا وقد ضايقتها فكرة أن حذاءها انتهى.. لابد أن تنظفه جيدًا بمنديل ورقي شبه مبتل، وبرغم هذا لن تكون النتيجة مرضية خاصة حيث هي ذاهبة..

أخيرًا بلغت النافذة التي تطل على المكتب والتي تدعمها شبكة حديدية، لكنّها تظهر ما بالحجرة. رفعت يدها لتدق على الزجاج سوف يسمعها بالتأكيد..

لكنّها توقفت..

ترى ما بداخل المكتب في الضوء الخافت.. ترى ما يتحرك بالداخل..

كانت أعصابها قوية جدًّا لذا لم تصرخ أو تفقد الوعي.. فقط تساءلت: ماذا لو كانت المفاتيح معها ودخلت؟..

عليها أن تنسحب ببطء.. ببطء...

يجب أن تخرج إلى الشارع..

هكذا عادت تجد السير في الوحل والظلام، وخطر لها أنها لو هوجمت هنا لكانت نهايتها لأن الوحل يوشك أن يصير صمغًا..

أخيرًا خرجت من الحديقة، فعبرت الشارع مسرعة..

سيارة أجرة مارة فأشارت لها بلهفة حتى أنها كادت تلقي بنفسها تحت العجلات. لو لم يسمح لها بالركوب فعليه أن يدهمها وينقل أشلاءها للمشرحة..

تذكرت أفلام (ماجدة) و(فاتن حمامة) القديمة عندما كانت البطلة البريئة تذهب للقاء حبيبها.. ثم تكتشف في اللحظة الأخيرة أنه ذئب وتفر.. هذا تقريبًا ما حدث الليلة لكنه حدث حرفيًا!!

ارتمت في المقعد جوار السائق لأنهّا لم تجد الشجاعة كي تجلس في المقعد الخلفي.. بينما السيارة تعاود التحرك، ذكرت له عنوان دارها، وألقت نظرة أخيرة على بناية المتحف المظلمة الجاثمة في الظلام كالكابوس.. وتخيلت ما يدور بين هذه الجدران...

وداعًا متحف راسم للآثار الإنسانية.. هذه آخر مرة أراك فيها...

- 1 -

أشعل المقدم (محمد خيري) لفافة تبغ أخرى، ثم وضع ساقًا على ساق وكرر سؤاله من جديد:

- «الناس لا ترحل هكذا من دون سبب.. لقد قيل لي إنك اختفيت دون أن تقولي لمه.. هذا أثار ريبتي خاصة مع كل هذا الظلام الذي يحيط بالقضية كلها.. لهذا بحثت عن عنوانك وجئتك لأفهم..»

نظرت (ليلى) للفافة التبغ المشتعلة. هي لا تطيق التبغ.. لا تطيق الاستجواب.. وطبعًا لا تطيقني..

لابد أنني بدوت كغراب البين وأنا جالس صامتًا أرمقها في ثبات.. تلك العوينات الجديدة السميكة تجعل عيني تبدو كعيني بومة.. أنا شخصيًا انزعج من نظراتي في المرأة ولا أشعر براحة..

كررت (ليلى) إجابتها السابقة:

- «هذا شأن خاص..»

قال المقدم بطريقته الثابتة الهادئة:

- «دعيني أذكر الاحتمالات.. وجدت عملًا أفضل وهذا صعب أو خطيبك يصر على أن تتركي العمل، أو أن صاحب العمل أهانك أو ضايقك.. أو أن لديك ظروفًا بيتية ترغمك على عدم العمل..»

ابتسمت في برود، وقالت:

- «لا شيء من هذا..»

رشف رشفة من كوب الشاي الذي أحضرته له، وقال:

- «هذا مؤسف.. كنت أمل أن تعطيني بعض الضوء.. لكني سأساعدك قليلًا.. أنا لم أترك المتحف دون رقابة، وقد أوصلك أحد رجالي منذ أيام عند خروجك من المتحف.. يقول إنك كنت تجرين وإن حذاءك كان موحلًا حتى إنّه أتلف دواسات السيارة، وإنك كنت في حالة ذعر غير عادية.. المثير في الأمر أن الساعة كانت العاشرة مساء...!.. هل ينعش هذا ذاكرتك؟»

من جديد هو يعرف الكثير جدًّا لكنه يفضل سماع ما يقوله الطرف الآخر.. قالت في ذهول:

- «إذن سائق التاكسي لم يكن....»

- «لم يكن سائق تاكسي... هذا واضح.. إنّه من رجالي الذين يقومون بدوريات منتظمة حول المتحف طيلة الليل..»

ساد صمت طويل ثم أطرقت الفتاة للأرض وقالت بصوت مبحوح:

- «سأحكي لك كل شيء..»

✶ ✶ ✶

لما انتهت من قصتها الطويلة ظل المقدم ينظر لي في ثبات كأنه يراقب تعبيرات وجهي.. يريد معرفة ما يدور بذهني، فلمّا انتهت قال لها:

- «لم توضحى بعد ماذا رأيت في الغرفة بالضبط؟..»

- «كان شيئًا مريعًا.. شيئًا عملاقًا لكن ليس له شكل ثابت أحيانًا كان يبدو ك (راسم) لكنه ليس هو في الوقت ذاته.. لا أدري هل تفهم هذه النقطة؟..»

- «لا..»

- «إذن لن أستطيع تقريبها أكثر من ذلك..»

عاد يسألها وهو يشعل لفافة تبغ جديدة:

- «لماذا لم تحكي هذا لأحد؟.. لماذا لم تحكيه لنا؟»

قالت وهي تنكش شعرها:

- «من يصدّق هذا الكلام؟.. سوف يقولون إنني مجنونة لا أكثر.. هذه أشياء لا تقال.. الفارق بين المجنون والعاقل هو أن الأول يصر على أن يخبر الناس بأفكاره العجيبة، بينما الثاني يصمت..»

كلمة ذكية فعلًا.. لا أنكر أنها فتاة ذكية قوية الأعصاب..

هنا قررت أن أتدخل وسألتها:

- «بصراحة.. هل هذا أول لقاء ليلي لك مع (راسم) في المتحف؟»

نظرت لي في حدة، وقالت من أنفها:

- «ماذا تحسبني؟.. بالطبع هو أول لقاء وكانت له ظروف خاصة جدًّا.. فيما عدا هذا التقينا كثيرًا جدًّا في أماكن عامّة. مطاعم.. كافتيريات. دور سينما.. مركب نيلي..»

نظرت للمقدم وقلت بلهجة انتصار:

- «زوجته تصر على أنه يخرج ليلًا ويأخذ مفاتيح المتحف من الكونسول.. اعتقدت أنه يقابل السكرتيرة لكن الأخيرة تنكر هذا وأنا أعرف أنها صادقة.. بعد كل حادث يتصلون فلا يظفرون به إلا بعد فترة طويلة.. الدائرة التي تخدع مراقب الشاشات.. من يستطيع وضعها دون أن يثير الشكوك سوى صاحب المتحف نفسه؟»

قال لي المقدم:

- «ماذا تريد قوله؟»

- «أريد القول إن (راسم) هو ما نبحث عنه.. لم يكن الطوطم الذي حرقناه هو المسئول عن تلك الوفيات.. (راسم) هو المسئول.. بعبارة أخرى: (راسم) هو طوطم القبيلة!!!»

- 2 -

في السيارة - سيارته - ونحن عائدان، كان المقدم عصبيًا جدًّا للمرة الأولى أراه غاضبًا وقد فقد هدوءه الأسطوري.. كان يضرب (التابلوه) بقبضته مرددًا:

- «أنت تريد أن تثير جنوني... قلنا إن هذا الطوطم حيوان أو جماد أو نبات.. ما معنى أن يصير رجلًا؟.. لقد بدأت هذه القصة تضغط على أعصابي فعلًا.. أنتم مجموعة من المجانين..»

قلت له وأنا أحاول أن أرتب أفكاري بدوري:

- «فكر معي.. حديثي مع الزوجة أضاء لي الكثير من الدهاليز المظلمة.. لقد عاش (راسم) حياة عادية بسيطة مع أمّه الهنديّة التي هي فرد مهم جدًّا عند قبيلة (أوجيبوا).. لما ماتت فوجئ بأن هناك ميراثًا ثقيلًا على عاتقه.. هناك أفراد من القبيلة يأتون له كل يوم مؤدين طقوسًا أقرب للعبادة.. يطالبونه بما لا يقدر عليه. هكذا اكتشف فجأة أنه لا يستطيع البقاء يومًا آخر في الولايات المتحدة وعاد مع زوجته إلى مصر التي لم يرها قط..

«هنا نلاحظ أنه أحضر معه طوطم القبيلة والرغبة في أن يبني متحفًا.. أراهن على أنه لا يعرف السبب.. ثمّة حافز قوي في دمه دفعه لذلك..

«لقد أبيدت، القبيلة أو كادت.. لم يعد الطوطم قابلًا لأن يبقى ذلك العمود الخشبي الذي يرمز للدب والكركي والوعل والبطة و... و... لقد قرر سحرة القبيلة أن يتجسد هذا في شخص.. كانوا يعرفون أن الطوطم يحوي حياة خاصة مرعبة، وهذه الحياة كانت تتحرر في أوقات معينة أو حسب طقوس معينة.. لقد دافع عن القبيلة عدة مرات حسب أساطيرهم، لكن الوقت قد حان كي ينقلوا هذه القوة المرعبة التي ترمز لقبيلتهم إلى شخص.. هذا الشخص كان رجلًا، ثم ابنته التي تدعي (أماليا)، ثم جاء من نسلها ذكر يدعى (راسم).. هذا الرجل يمثل الحيوانات التي جاءت منها القبيلة.. يمثل الأب والأصل وسوف يبقى كذلك إلى أن ينجب.. هذه خبرة أنثروبولوجية فريدة، فللمرة الأولى على قدر علمي يلعب إنسان حي دور الطوطم.. طوطم حي!... هذا شيء يفوق الخيال...

«(راسم) حاول الفرار من قدره، لكنه لم يستطع الفرار من نفسه، ونفسه جاءت معه إلى مصر.. في أيام بعينها كانت تلك القوة المرعبة تتحرر معلنة عن نفسها وبرغم إرادته.. أعتقد أن الهجوم كان عشوائيًا في كلّ مرّة.. حارس.. لص... عاشقان..

«ثم جاء الخطر الحقيقي من عجوز أصلع مصر على حرق الطوطم.. أنا.. لقد اقتربت من الحقيقة جدًّا، وكان على ذلك المسخ أن يقتلني وللمرة الأولى بعيدًا عن المتحف.. لاحظ أن (راسم) يعرف عنوان بيتي جيدًا، وأعتقد أنني نجوت بمعجزة ما.. لكن (راسم) لا يسيطر على ذلك الكيان

المروع، أولًا يعرف متى يهجم ومتى يتراجع.. لهذا لم يهاجمني ثانية. هوجم (عاصم) الذي اكتشف أنّ هناك من عبث في الشاشات وأخبرني بهذا...

«من عبث في الشاشات؟.. (راسم) طبعًا.. وضع بمساعدة مختص دائرة لا تعمل إلا في الليل، ومهمتها أن تخفي دخوله إلى المتحف ليلًا وتحوله.. كان يدخل ويبحث عن الضحيّة في تلك الليالي لأن الظمأ إلى الدم يثير جنونه، وأعتقد أنه كان سيفتك بالحارس الليلي لو لم يلق اللص في مرة والعاشقين في مرّة أخرى..

«لابد أنه كان يستعد للفتك بالسكرتيرة في تلك الليلة لولا أن ذكاءها جعلها تفر هاربة..»

كان يصغي لي بمزيج من التعب والملل والدهشة والسخرية في النهاية قال لي:

- «قصة ممتازة.. لكنّها لا تصلح للقبض على برغوث لو كنت تفهم هذا.. سوف يكون عليّ أن أشرح في الأوراق كيف أن قبيلتك هذه قد قررت أن يصير طوطمها إنسانًا!!»

سألته في عصبية:

- «لكن هل تصدق ما أقول؟»

- «بالطبع لا..»

- «تعتقد أنني مجنون وأحمق ومضلل؟»

- «طبعًا..»

- «هذا ما توقعته وهو ليس جديدًا.. منذ قابلت أول قصة خوارقية في حياتي وأنا متهم بالأشياء ذاتها وقد سئمت الدفاع عن نفسي.. فليعتقد من يريد ما يريد...»

راح يفكر بعض الوقت بينما الشوارع تتوالى أمامنا ثم قال:

- «معنى كلامك أن الخطر سيبقى داهمًا ما لم نتخلص من هذا الرجل..»

قلت في بساطة:

- «أو ينتحر.. أعتقد أنه يعيش حالة جامحة من العذاب.. هذه هي عقدة المذءوب الشهيرة.. إنّه مدهوش من كل هذا الشر في داخله، ولا يستطيع مقاومته.. في لحظة بعينها يقرر تدمير وعاء الشر هذا..»

- «هل كان نفس الشيء سيحدث لو بقي في الولايات المتحدة؟»

- «يصعب قول هذا.. لم نسمع عن حوادث مماثلة معه أو مع أمّه.. أعتقد أن محاولته الفرار جعلت هذا الشيء يثور ويعلن عن نفسه ..»

كنا الآن عند البناية التي أسكن فيها، فتوقف كي أهبط وقال لي:

- «عامّة لا أعتقد أنني قادر على مساعدتك في المرحلة القادمة.. تصرف على مسئوليتك الخاصّة..»

قلت وأنا أغلق الباب:

- «من قال إنني سأتصرف أصلًا؟.. ربما حاولت أن أبتعد عن كل شيء.. لا أدري.. لكن توقع مكالمة مني..»

وفارقته..

بالطبع لم أكن أنوي أن أظل بعيدًا.. هذا الشيء هاجم داري مرة ولا يمنعه شيء من أن يفعلها ثانية.. هذه المرّة سأكون في الفراش نائمًا غالبًا.. ولسوف يجد الوقت الكافي ليمرح..

عندها سوف يغسلون الجدران ليتخلصوا مما تبقى من رأسي..

- 1 -

رد (راسم أبو سيف) على مكالمتي بعد عدة محاولات..

- «هالو؟»

- «أنا رفعت يا مستر (راسم).. هل أنت بخير؟.. سمعت أن (ليلى) السكرتيرة تركت، المتحف..»

- «هذا لا شيء.. أنت تعرف أن تفاصيل كثيرة تشغلني فلا وقت لديَّ للقلق على كل شخص رحل.. فقط هي لم تتقاض مستحقاتها الأخيرة..»

- «لابد أن غيابها أربك الأمور..»

- «صحيح.. لكنك تعرف كيف نعمل في الولايات المتحدة.. لا أحد لا يمكن الاستغناء عنه..»

بعد قليل قلت له بلهجة عارضة:

- «كنت راغبًا في أن تسمح لي بالسهر في المتحف عدة ليال..»

- «هذا طلب غريب..»

- «أريد أن أقضي الليل وحدي أمام الشاشات.. أراهن على أنه من الممكن أن نجد شيئًا مطلب غريب هو، لكنه ممكن التحقيق. أليس كذلك؟.. عرفت أن الحراس الليلين رحلوا لهذا يمكن أن تعتبرني واحدًا..»

- «هناك خطر داهم عليك.. تذكر (عاصم)..»

- «أعرف.. لكني كذلك أرغب في أن أجرب..»

بعد تفكير طال، سمح لي بأن أقضي الليلة كما أريد.. فقط عليَّ أن أمر على مكتبه قبل ساعات غلق المتحف... سوف يعطيني المفاتيح بالطبع...

هكذا تم الاتفاق..

✶ ✶ ✶

مرحبا بكم يا سادة في متحف (راسم للدراسات الإنسانية)..

أخيرًا صرت وحدي في المتحف بعد ما رحل الجميع...

أول ما قمت به هو أنني اتجهت للمخزن فحملت السلم المعدني وهو خفيف لحسن الحظ واتجهت نحو كل كاميرا مسلطة على قاعة العرض.. ببنسة صغيرة قطعت السلك الدخيل الذي يتصل بكل واحدة منها..

عدت لغرفة المراقبة ماشيًا وسط الآثار التي ترمقني في جشع.. مومياء المايا.. الأسد الأشوري السجادة البريطانية.. كلها في ضوء الصالة الخافتة تبدو كأنها تنتظر الوثب عليَّ لتمزقني..

هناك تلك المجموعة من الصناديق الخشبية التي وردت منذ أسبوع ولم يفرغها أحد.. برغم أنها تبدو مثيرة للقلق فإن وجودها يريحني بشكل خاص...

أخيرًا أنا في غرفة المراقبة أمام الشاشات التي صارت صادقة فجأة..

أخرجت الشطائر التي أعددتها وبدأت ألتهم العشاء، ثم صببت لنفسي بعض الشاي من ترموس صغير.. شاي مركز أسود لابد منه لو أردت ألا يقتلني الملل فأنام..

ألوك الطعام ببطء...

أنا هنا وحدي في المتحف كله.. إغراء ما بعده إغراء للمسخ كي يهاجمني.. لو تخلى عن هذه الفرصة فلن يهاجمني أبدًا لو تركني فهو مسخ كسول رخو لا يوثق فيه..

أنا هنا يا بني فتعال.. أرجوك ألا تضيع وقتي...

لن أطيق ليلة أخرى هنا..

مددت يدي إلى المذياع لأسمع أي شيء.. ثم توقفت لا أريد أن أنشغل أو أفقد تركيزي.. يسهل أن أتابع هذه الأغنية أو تلك النشرة لأجد أنّ هذا الشيء يقف خلفي..

رفعت عيني للشاشة التي تراقب البوابة..

نعم..

لا شك في هذا.. مقبض الباب ينفتح..

الباب الحديدي العملاق يتحرك..

ضغطت على زر جهاز التسجيل.. إن مسجل الفيديو اختراع حديث نسبيًا ونتائجه مبهرة..

في الإضاءة الخافتة وبالأبيض والأسود ومع تموجات الشاشة أرى (راسم) يدخل..

ينظر نحو الكاميرا فأجفلت.. كأنه ينظر لي في عيني مباشرة..

لكنه لا يعرف أن الأسلاك انتزعت وأنني أراه.. أنا متأكد من أنّه لا يعرف هذا..

يمشي خارجًا من مجال الكاميرا فأهرع إلى الكاميرا الأخرى إنّه في الممر حيث تبدأ المعروضات.. السجادة البريطانية... مومياء المايا...

يخرج من المجال فأهرع إلى شاشة أخرى..

أين هو؟

هل لم أنتزع هذا السلك؟.. هل هذه الصورة حقيقيّة أم زائفة؟.. هو ليس هنا فعلًا.. اختفى بين مجال اثنتين من الكاميرات ولا أعرف أين هو.. يذكرني هذا بالمفصل كما يصفه الاستراتيجيون.. عندما تنتهي مسئولية جيش وتبدأ مسئولية جيش آخر، وهي نقطة ضعف دائمة عندما حدثت الثغرة في حرب عام 1973 كان سببها أن (شارون) وجد المفصل بين جيشنا الثاني وجيشنا الثالث، وذلك بفضل معونة طائرات التجسس الأمريكية طبعًا..

هل أخرج لرؤية ما يحدث رأي العين دون ألاعيب إلكترونية؟

هذا خطر... من الأفضل أن أستمر حيث أنا..

أين أنت؟

هل هذا الذي يبلل ثيابي هو عرقي حقًّا؟

- 2 -

فجأة حانت مني نظرة إلى الشاشة الرابعة، فرأيته..

متى عبر إلى هناك، ومتى؟

أما ما صار إليه فهو مشهد لا يصدّق..

للمرة الأولى أدرك ضخامة وبشاعة ما نحن بصدده، وأدرك لماذا تحولت شقتي إلى منطقة سقوط قنبلة نوويّة عندما دخلها..

إنّه يقف في الظلام فلا أتبين ملامحه بوضوح، لكنه ضخم جدًّا يوشك على أن يضرب السقف برأسه.. رأسه؟.. لا أميز شك الرأسه فهو يتغير طيلة الوقت كأنه دخان.. اللحظات يمكن أن أقول إنّه يشبه رأس دب.. لا.. بل ذئب.. رأس ذئب.. بل رأس طائر طويل المنقار.. لا.. هو وعل.. بل رأس بشري..

إنّه يقف ساكنًا ولا يفعل أي شيء.. فقط هو يقف حيث كان الطوطم القديم..

وذراعاه الطويلتان..

بهاتين الذراعين هشم عامود ذلك اللص الفقري، وانتزع قلب (عاصم)، وهشم كل شيء في شقتي..

هو ينتظر الآن على بعد خطوات...

كابوس مقيم يعيد لك تلك الذكريات المبهمة عن وحوش لها جسم إنسان ورأس حيوان.. المينوتور.. أنوبيس.. المذءوبين سُبُك.. باستت..

هل رأى الإنسان القديم مخلوقات كهذه؟.. أم هي محاولته للتعبير عن الخوف البري الأولي في صورة مجسدة؟

حان الوقت..

أنا الآن أعرف جيدًا مكانه..

تحركت نحو الباب بقدمين من عجين، وخرجت إلى صالة العرض المظلمة..

أين هو؟.. لن أفعل هذا كله لأجده ينقض عليَّ من الخلف؟

لكنه كان يقف هناك... في موضع الطوطم الخالي...

لنأخذ الحذر.. برغم ضخامته أعتقد أنه ينقض كالبرق.. ربما أجد رأسي على الأرض قبل أن أفهم..

كان واقفًا في الظلام يخور كثور، وبالفعل كان رأسه أقرب الآن إلى ثور من أي وقت مضى.. رمز ووالد قبيلة (أوجيبوا)... هناك في جزيرة السلحفاة كان يتحرر أحيانًا في أعياد خاصة ويقف أمام الهنود الحمر ليذكرهم بأنهم ينتمون له.. ربما كان يخرج من الطوطم الخشبي أو من ساحر القبيلة.. لن نعرف أبدًا.. فقط نعرف في هذه اللحظة أنه خرج من...

قلت بصوت عالٍ مرتجف:

- «(راسم).. لقد انتهى الأمر... لقد رأيت التحول وقمت بتصويره وتسجيله.. لن تستطيع أن تزعم العكس.. عليك أن تقاوم وأن تتحرر من هذه اللعنة.. أنت مريض كمرضى الفصام.. مريض كمدمني المخدرات.. تحتاج إلى عون خارجي...»

لم يرد.. فاقتربت أكثر وواصلت الكلام:

- «لو أنك حاولت التحرر من هذا الشيطان، لعدت لصورتك الأولى.. وعندها سوف تجد من يعالجك.. أنا مستعد للذهاب معك إلى الولايات المتحدة لنقابل كبار (الأوجيبوا) ونطلب منهم النصح.. صدقني.. (راسم).. أنا صديق وعليك أن...»

هنا وثب عليّ!!

✶ ✶ ✶

لا أستطيع أن أحكي ما حدث بدقة..

فجأة كان واقفًا حيث هو وفي اللحظة التالية كان يطير في الهواء متجهًا نحوي وهو يخور.. المسافة بيننا ذابت في عشر ثانية وأنا الذي كنت أحسبني أقف على مسافة مأمونة..

سقطت على الأرض على وجهي، بينما دوى صوت المقدم (خيري) يصيح:

- «أطلقوا النار!»

وانطلقت الطلقات من رجال الشرطة الذين خرجوا من مكمنهم على هذا الشيء العملاق المرعب.... لقد توارى الرجال طيلة الوقت في ظلام المتحف بانتظار الأمر بإطلاق النار، وكانت هناك بعض الصناديق الفارغة التي أتاحت لهم التواري خلفها..

المهم أنه ابتعد عني... لم أرفع رأسي خوفًا من طلقة طائشة لكني سمعت الخوار والزئير والثغاء..

رائحة البارود تسد أنفي..

سمعت رجل شرطة يصرخ، ففهمت أن ذلك الشيء ظفر به..

رفعت رأسي في حذر لأجد أنّ هذا الشيء يمشي في الضوء الخافت والطلقات تتناثر حوله، وهو لا يعبأ بها على الإطلاق فقط يزداد غضبًا.. وكان يمسك برجل شرطة بيد واحدة على ارتفاع متر من الأرض، بينما هو يمزق بأسنانه رجلًا آخر..

سوف يقتلنا جميعًا.. لا شك في هذا..

صاح المقدم (خيري) وهو يعيد حشو مسدّسه:

- «(جابر)... هيا!»

نظر له المجند في دهشة.. لو فعلها الآن لقتل هؤلاء الذين يمسك بهم المسخ، لكن المقدم كرر الأمر في عصبية:

- «أطلق!!»

ثم صرخ وهو ينبطح على الأرض:

- «انبطحوا!»

ثبت المدعو (جابر) مدفع الآر بي جي RPG على كتفه، وركع على ركبته اليسرى وأحكم التصويب..

ضغط الزناد فانطلق الصاروخ المخصص لتدمير الدبابات نحو هدفه، وسرعان ما دوى الانفجار المروع.. هذه الأسلحة لا تصلح للإطلاق في صالة متحف ومن حسن الحظ أن السقف لم ينهر فوق رؤوسنا..

تناثر اللهب والشرر والدخان والأشلاء في كل مكان.. وحدثت فجوة في الجدار بينما لم نعد نرى هذا الشيء....

وعندما نهضنا جميعًا وقد أصبنا بصمم وقتي، كان موضع الوحش قد تحول إلى بقعة سوداء تتصاعد منها النيران وكانت سحابة دخان كثيفة تملأ المكان..

كنت أنا صاحب فكرة هذا المدفع، لأنني عرفت أن الطلقات لن تحدث أي فارق.. لابد أن الجنود الزرق أطلقوا مئات الطلقات على هذا الشيء وهو يهاجمهم في (نورث داكوتا)..

كان المكان قد تحول إلى ساحة قتال حقيقيّة.. نحن نعد خسائرنا ونبحث عن بقايا هذا الشيء.. كانت هناك أشلاء غير بشريّة لكننا لا نعرف من أي جزء من المسخ طارت...

قال المقدم وهو يشعل لفافة تبغ:

- «طلقة بازوكا من مسافة قريبة كهذه.. لابد أنه تبخر كانت فكرتك موفقة برغم أنني أعتبرتها جنونًا..»

قلت له وأنا أنفض ثيابي:

- «الأهم أنكم رأيتم ما حدث وسجلناه..»

- «لم أر التفاصيل.. أنت رأيت كل شيء على الشاشات، لكننا كنا مختبئين فلم نبرز إلا عندما رأينا هذا المسخ وأنت تكلمه..»

الطوطم الحيّ..

لقد انتهى...

لا شك في هذا...

✶ ✶ ✶

فقط عندما رأى الرجال هذا الشخص يخرج من بين الدخان وهو يرفع يديه، وعندما صاح صائح منهم:

- «توقف مكانك!»

هنا فقط شعرت بأن الأمر لم ينته..

كان الرجال متوترين لذا صوبوا أسلحتهم نحو هذا الخارج من الظلام والدخان، وكان (خيري) ينهي مكالمته عبر جهاز اللاسلكي مع رؤسائه عندما رأى الرجل فتصلب وهتف في الرجال:

- «لا تطلقوا الرصاص!»

كان (راسم) يقف أمامنا رافعًا ذراعيه شاحب الوجه يرتجف لكنه (راسم).. لا شك في هذا..

أطلق (خيري) سبة لم أعتدها منه، وهتف:

- «إذن من الذي؟...»

أمّا أنا فكنت في حالة ذهول.. هذا منطقي.. كنت أراقب (راسم) على الشاشة ثم اختفى في بقعة ما بين شاشتين.. من قال إنني رأيته يتحول؟.. لقد أقنعت نفسي بهذا..

نظر لنا طويلًا ولم يتكلم..

ثم فجأة سقط على الأرض فاقدًا الوعي...

في هذه اللحظة كان الرجال يسلطون الكشافات على موقع المذبحة التي دارت منذ قليل، وكان أول ما وجدوه هو فتحة في الأرضية.. نعم.. فتحة خفية في الأرضية خلف الموضع الذي كان ذلك الطوطم الخشبي يقف فيه...

أمّا الشيء الثاني الذي وجدوه فهو رأس...

رأس بقيت غالبًا من ذلك المسخ بعد الانفجار، لكنّها لم تكن رأسًا حيوانية.. لقد عادت لطبيعتها كما يحدث مع المذءوبين بعد ما تستقر الرصاصة الفضية في قلوبهم..

وضعوها في حذر واشمئزاز على الواجهة التي يعرض فيها الأسد الأشوري.. ثم صوبوا الكشافات عليها...

برغم الظلال وبرغم التشوه وبرغم طبقة السواد التي اكتست بها، فقد عرفتها..

كان هذا رأس (فيكتوريا أبو سيف)...

خاتمة

انتهت قصة الطوطم.

أنت تعرف ولعي بالنهايات المفتوحة والأسئلة التي لا إجابة عنها، لكني أعتقد أنني لو نفذت هذه السياسة لمزقتني إربًا من حسن الحظ أنني عرفت كل شيء من (راسم) بعد هذا..

الطوطم صار إنسانًا بالفعل، لكنه لم يكن (راسم).. كان (فكتوريا) زوجته..

ما حكته لي الزوجة كان صحيحًا، لكنّها لم تكمل القصة.. وباقي القصة يقول إن الطوطم الحيّ يجب أن يكون امرأة من ذرية زعيم القبيلة، فإن لم توجد فأقرب امرأة للرجل الذي جاء من ذرية الزعيم..

لهذا كانت (أماليا) هي الطوطم في حياتها، فلمّا ماتت لم يعد ممكنًا أن تنتقل الطوطميّة لابنها بل لزوجته أو ابنته.. لا ابنة له، لذا انتقلت للزوجة، وهو حل عجيب لأن المرأة لا تحمل قطرة دم هنديّة في عروقها..

لابد أن الزوجة مرّت بطقوس سحرية معينة لا تذكر عنها أي شيء، لكن هذه الطقوس نقلت الطوطميّة لها... لقد صارت تحوي في داخلها الدب والكركي والثور والبطة والوعل..

لم تعرف الزوجة في مصر ما جرى لها.. فقط كانت تعرف أنها تتغير وأن قوى غير مفهومة تسيطر عليها.. لهذا أفرطت في الشراب وبدأت تنهار... وإن احتفظت بالشك نحو زوجها..

طلبت الطلاق.. لكن الطلاق يعقد الأمور لأنّه لا يمكن للعنة أن تفارقها إلا لو تزوج (راسم) امرأة أخرى، عندها تموت (فكتوريا).. لو أنجبت له (فكتوريا) أنثى تصير هي الطوطم الجديد...

هل كان (راسم) يعرف؟.. بالطبع.. لكنه كان عاجزًا عن عمل شيء، دعك من أنّه كان يتصرّف أحيانًا بلا إرادة ولا وعي. يفعل أشياء لا يدري. لماذا ولا متى فعلها.. بالطبع لم يكن راغبًا لحظة في هذا الدور الذي يلعبه، لكنه كان مسيرا مثل زوجته.

(راسم) ركَّب تلك الدوائر الخادعة، كما أعد لها ممرًا سريًّا لتدخل المتحف متى شاءت.. وكانت الفتحة خلف ذلك الطوطم. لقد وفر لها كل شيء.. لم يجسر على مسح آثار الدقيق الذي وضعه رجال الشرطة، لذا توقع أن أحدًا لن يجد ما يدل على الحقيقة في تلك الآثار.. حتى حقيقة أن الدقيق كان يشير بوضوح إلى الممر السري.. هذا شيء لم ننتبه له..

قدرات الزوجة كانت تفوق الحدود أحيانًا.. مثلًا الطريقة التي اقتحمت بها شقتي من الشرفة.. هذا مشهد جدير بأن تراه...

وماذا عن (راسم) وسط هذا كله؟

إنه في السجن الآن... لقد تسبب إخفاؤه للحقائق في موت أبرياء كثيرين آخرهم زوجة أمريكية لم تستحق الموت بصاروخ مضاد للدبابات بالتأكيد.. لهذا مزية مهمّة هي أنه لن يتزوج ثانية..

أعتقد أن لعنة (أوجيبوا) ستتوقف عند هذا الحد، بعد ما تجاوز انتقامهم من الرجل الأبيض الحدود ليفتك بالرجل الأسمر وقمحي البشرة..

✶ ✶ ✶

هذه هي قصتي كاملة..

الآن أنت تعرف ما أعرفه عن هذه القضية..

حان الوقت كي نتكلم عن شخصيات روائية تبعث فيها الحياة، وعن عالم تتداخل فيه الحقيقة مع الخيال.. وعن...

ولكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

المقـدمـة

تاجـر الجلـود

- 1 -

- 2 -

العـــائـد

- 1 -

- 2 -

الحـــارس

- 1 -

- 2 -

اللـــصّ

- 1 -

- 2 -

الطبيـــب

- 1 -

- 2 -

الحـبيـــان

- 1 -

- 2 -

الضـــابط

- 1 -

- 2 -

الســـكرتيرة

- 1 -

- 2 -

الطبيـــب

- 1 -

- 2 -

الـزعيـــم

- 1 -

- 2 -

الطبيـــب

- 1 -

- 2 -

المســـاعـد

- 1 -

- 2 -

الـزوجـــة

- 1 -

- 2 -

الســـكرتيـرة

- 1 -

- 2 -

الضـــابـط

- 1 -

- 2 -

العـــائـد

- 1 -

- 2 -

خـــاتمة

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والإثارة



د. أحمد خالد توفيق

أسطورة الطُّوطَم

يجب أن تساعدنا يا دكتور رفعت ..
ثمة شيء يتحرك فى المتحف بعد أن يحل الظلام ، وهذا الشيء ينتزع الأطراف والأعناق ويثقب العيون ويثنى الأجساد إلى نصفين .. هذا الشيء لا تسجله عدسات الكاميرا ولم يره أحد وظل حيًا أو عاقلاً .
يجب أن تسدى لنا النصح يا دكتور رفعت .. أنت تفهم هذه الأمور ، وإن لم تفهمها فأنت تعرفها ، وإن لم تعرفها فأنت سمعت عنها .. على الأقل يمكنك أن تلعب دور (الرنجة الحمراء) ؛ فيطاردك هذا الشيء فى أرجاء الأرض ويتركنا لحالنا !

العدد القادم

أسطورة شبه مخيفة

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

مطابع

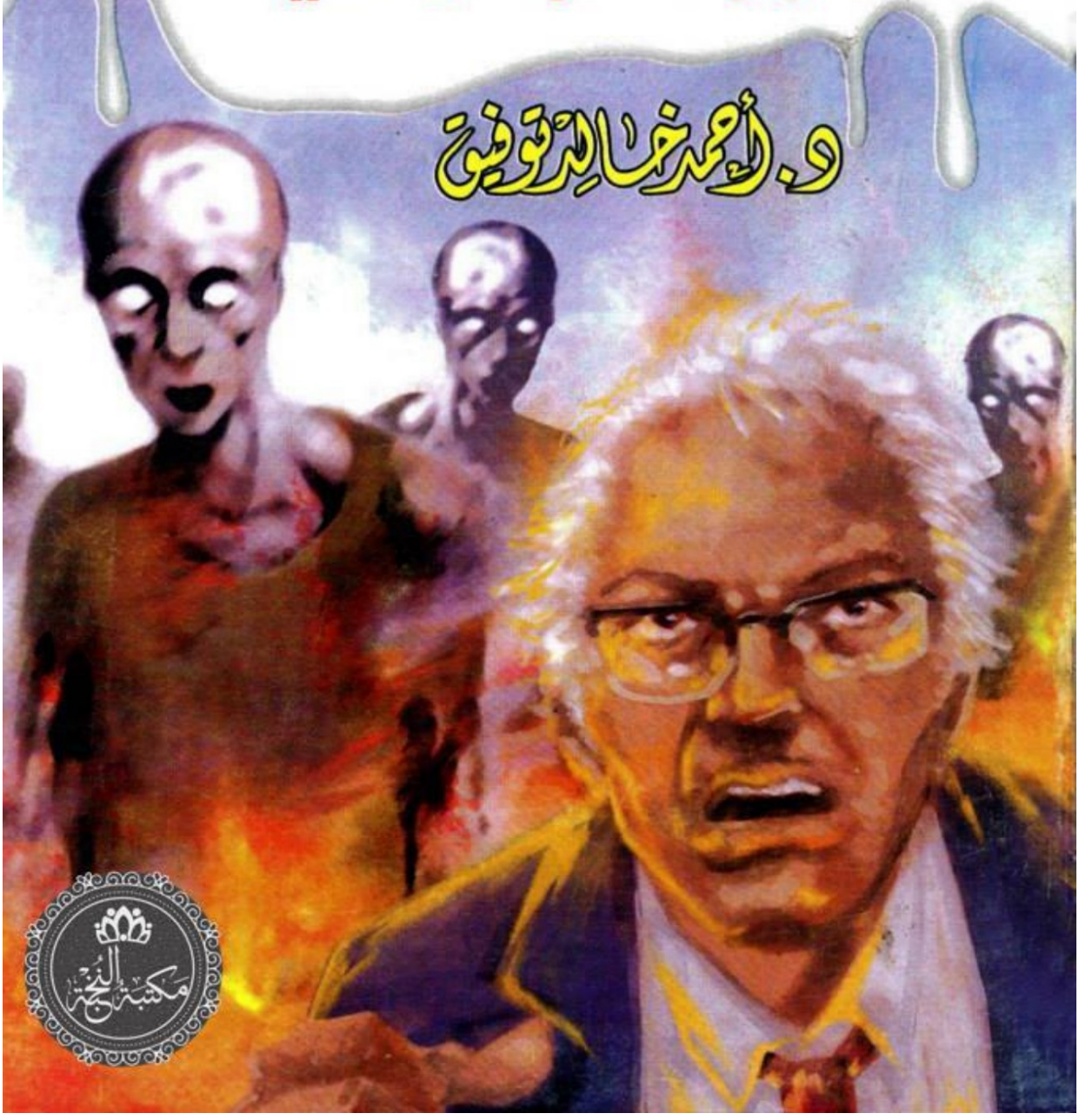


الش
وما ي
فى سائر الدول العربية والعالم

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة 73

أسطورة شبه مخيفة



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة النخبة

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



73

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة شبه مخيفة

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايـــات تحبس الأنفـــاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصـرى مائة فى المـائة
لا تشوبه شبه الترجمة أو الاقتباس
أو النقـل عن أية قصص أوربية .

●

إشراف
الأستاذ / حمـدى مصـطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر سواء
النشر الورقى أو الإلكترونى ، وكل
اقتبـاس أو تقليـد أو إعـادة طبـع
أو نشـر ورقـى أو إلكـترونى . دون
الحصـول علـى تصريـح كتـابى مـن
الناشر يعـرض المرتكـب للمسـاءلة
القـانونيـة .

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ـ المطابع 8 ، 10 شارع المنطقة الصناعية بالعباسية ـ منافذ البيع 10 ، 16 شارع كامل صدقى الفجالة ـ 4 شارع الإسحاقى : بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة ـ القاهرة ت : 6823792 ـ 5908455 ـ 2586197 ، فاكس : 202/2596650 ج.م.ع ـ
الإسكندرية 4 شارع بدوى / محرم بك ـ ت : 03/4970840 ـ 03/4970850

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط
الغمـــوض والرعـــب والإثارة

73

•

أسطورة شبه مخيفة

بقلم: د. أحمد خالد توفيق

الغـلاف بريشـة: أ. أيمـن القـاضي

المؤسسة
العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

المقدمة

لمصاصي الدماء عادة سيئة يبدو أنهم لا ينوون التخلص منها أبدًا، وهي عادة الكذب..

أنا أمقت مصاصي الدماء الكذوبين، لكنهم جميعًا تقريبًا كذلك.. لقد قابلت عشرات منهم وبصعوبة شديدة قابلت اثنين صادقين أو ثلاثة، ليس لدرجة أن توافق عليهم كخُطّاب لأختك أو ابنتك طبعًا.

العادة السيئة الثانية لديهم هي الوسواس القهري، وأنا أشعر العصبية كلما تعاملت مع المصابين بالوسواس القهري.. في والاشيا والكاربات ينصحونك بحمل بعض الحبوب أو مسبحة انقطع خيطها في جيبك، لتلقيها على الأرض عندما يهاجمك مصاص دماء.. في تسع من عشر حالات ينشغل في جمع الحبوب المتناثرة مما يسمح لك بالفرار.. هذا يثير الأعصاب كما ترى..

يجب أن تنتظر كثيرًا جدًّا حتى تقابل مصاص الدماء الأمين غير الموسوس..

أنت تعرف كذلك عادة مصاصي الدماء.. هم لا يهاجمونك لو دخلوا بيتك مدعوين.. يجب أن تفتح الباب وتدعوهم بعبارات واضحة..

من أجل أن تسمح لهم بالدخول يكذبون كثيرًا جدًّا..

هذا الرجل على بابي الآن يقرع في تهذيب.. يقول لي إنّه يبيع مكانس كهربائية، وإن عليّ أن أجرب..

كل هذا جميل.. لكن لماذا يبيع مكانس كهربية في الثانية بعد منتصف الليل؟.. لماذا يتكلم بهذا الصوت الأجش الغريب؟ نظرت من العدسة المثبتة في الباب فرأيته.. يبدو شخصًا عاديًا لكنه ينسى تلك المرآة العملاقة المثبتة على الجدار خلفه جوار باب (عزت)... أنا قمت بتثبيتها منذ عشر سنوات...

في ضوء الممر الخافت أرى أنه ليست له صورة فيها.. هذا واضح...

العادة الثالثة لمصاصي الدماء هي كراهيتهم الشديدة للمرآة.. يقولون إنها ترمز للغرور البشري، لكن السبب الحقيقي أنها تفضحهم، وتكشف حقيقة وجودهم الطيفي غير المادي..

هذا القادم هو (يوديسكو)... لا شك في هذا.. أعرف هذا الصوت المبحوح.. طبعًا كل مصاصي الدماء (الأصليين) يجيدون اللغات كلها.. هذا طبيعي بحكم طول أعمارهم وخبراتهم المتعددة. هذا الأخ (يوديسكو) شارك في الحروب الصليبية يومًا وقابل عربًا كثيرين..

لقد اخترق فجوة ما من جانب النجوم في مكان ما في مصر أو رومانيا، وجاء إلى بيتي.. لكنه غبي كعهدي به.. كل هذا يثير الريبة ويغريني بعدم فتح الباب أو دعوته..

دعونا منه.. سوف يواصل الطرقات، ثم يطرق باب (عزت). كلهم يفعل ذلك.. لو لم يظفر بالانتقام لحاول الظفر بوجبة من الدم قبل طلوع النهار..

لنترك (عزت) فهو اعتاد هذه الأمور على كل حال، ويمكنه أن يعني بنفسه.. لو لم يقرع بابه مصاص دماء أو شبح أو مسخ كل ليلة لشعر بالوحدة..

تعالوا الآن نترك الأخ (يوديسكو) اللعين ينتظر أن أدعوه..

لنجلس في غرفة المكتب ونحكي قصة أخرى..

قصتنا اليوم ليست مخيفة، بل هي مسلية..

قد تبدو مخيفة نوعًا بالنسبة لواسعي الخيال وهم شبه نادرين، ولهذا أعتبرها أسطورة شبه مخيفة.. منطقي أليس كذلك؟

حدثت هذه القصة في زيارة من زياراتي لإنجلترا. السنة؟.. لا أذكر بالضبط، لكني كنت متقدمًا في السن بالتأكيد لأن (ماجي) نفسها لم تكن صغيرة جدًّا.

(جوناثان دارتمور).. اسم جميل كما ترون ويوحي بشيء ما.. هذا هو موضوع قصتنا هذه..

فقط تجاهلوا هذه الدقات، وتظاهروا بأنه لا وجود لها.. لكن لا يمزحن أحدكم أو يتظرف ويفتح الباب فجأة ويدعو بائع المكانس المتحمس للدخول.. سوف تحدث كارثة حقيقيّة..

أنا أثق بكم.....

هذه البلدة تقع قرب (موناماوث شاير) أو (سير فنوي) كما يُطلق عليها أهلها وهي نموذج لتلك القرى الأسكتلندية المملة حيث لا يحدث أي شيء على الإطلاق.. أهل البلدة متحفظون صامتون، لكن الشراب يُطلق عقال ألسنتهم، ولكن يجب أن تجد دومًا الوقت المناسب واللحظة الملائمة.

كان (جيم كونلي) يفكر في هذا وهو يخرج من الحانة في تلك الساعة من مساء الأحد. منذ جاء من الولايات المتحدة إلى (موناماوث شاير) ضمن عمله في ذلك الكتاب اللعين عن القلاع الأسكتلندية، رأى الكثير مما أثار خياله لكنه كذلك رأى الكثير مما خنق روحه. وقد توصل إلى نظرية سهلة تقول: تاريخ هؤلاء القوم مثير وحاضرهم هو الملل بعينه.

أمريكي في قرية أسكتلندية هذه ظاهرة مثيرة فعلًا. هو رجل لطيف فعلًا مرح، وهم كذلك، لكنهم يشكون في الغرباء دومًا ولا يتكلمون كثيرًا.

فقط مع (هيلين) تختلف الأمور.. إنها فتاة حسناء بالمعنى الحرفي الكلمة. لقد عرفها في النزل الذي أقام به لدى مسز (بارتريدج). هي ابنتها الشابة الممتلئة بالعافية، وكان (جيم) معتل الصحة طيلة حياته لذا كانت الصحة تثير انبهاره ربما أكثر من الجمال.

اعتاد أن يخرج مع (هيلين) وذهب معها للمرقص.. ثم الكنيسة.. لا.. ليس بغرض الزواج طبعًا ولكن لحضور القداس.. ثم صارا متلازمين تقريبًا.. (هيلين) والرجل الأمريكي.. لم يعترض أحد..

لم يحبّها قط.. لا ينوي أن يحبّها.. فقط هو يزجي الوقت مع وجه صبوح.

مساء السبت خرجا من الحانة، فقال لها إنّه راغب في أن يذهبا لدار السينما. دار السينما في هذه البلدة الصغيرة دار ضيقة صغيرة بدورها، وهي تقدم ثلاثة عروض مساء السبت. لهذا تكون مزدحمة فعلًا.. كل البلدة تأتي لرؤية الأفلام، فالتلفزيون لم يستطع بعد أن يقهر سحر السينما.

قالت (هيلين):

- «إنهم يعرضون فيلم (الفك المفترس) هذه الليلة..»

كانت هذه الفترة التي شهدت حمى فيلم (ستيفن سبيلبرج) المرعب عن سمكة القرش التي تهاجم بلدة ساحلية هادئة، وكان هو قد رأى الفيلم في الولايات مرّتين ولم يرق له لهذا الحد.. بدا له مجرد فيلم تسجيلي عن صيد سمكة القرش البيضاء العظيمة. فقط موسيقاه رائعة. ثم قدر أن الفيلم مليء بالخضات.. سوف تقترب منه الفتاة أكثر وتطلب حمايته. هم هنا لا يعرفون سينما السيارات Drive ins التي كانت لا تعرض إلا أفلام المسوخ، والغرض الوحيد لهذا هو أن تخاف الفتيات فيلتصقن بالأولاد أكثر طلبًا للحماية. لا شك أن (الفك المفترس) سوف يلعب هذا الدور.

قال لها وهو يتجه لشباك التذاكر وسط الزحام:

- «برغم أنني رأيته مرّتين فسوف أراه للمرة الثالثة من أجلك..»

ضحكت كاشفة عن أجمل وأبيض صف أسنان في نصف الكرة الأرضية الشمالي.. و(جيم) كان يقدر الأسنان الجميلة لأن أسنانه نخرة مسوسة متآكلة.

الفتاة تقف وسط الزحام تلوح لهذه وتحيي ذاك.. الكل يعرف الكل... هو الغريب الوحيد هنا...

بائعة التذاكر العجوز شائبة الشعر نظرت له من فوق إطار العوينات العلوي واختارت مقعدين في نهاية الصالة ورسمت علامة X عليهما..

قال (جيم):

- «معذرة.. لكني أريد أن أجلس في مقعد أمامي لأسباب بصرية..»

لم تتكلم المرأة كأنها خرساء، لكنّها أشارت بالقلم إلى اللوحة التي ازدحمت عليها علامات X بما معناه أنه لا يوجد مكان آخر..

- «أرجو أن تجربي..»

تنظر له في كراهية كأنه من الفحش أن يكون المرء أمريكيًا أية وقاحة هذه؟..

ثم هزت رأسها وقالت:

- «لو أردتما الجلوس متفرقين فهذا شأنك..»

هنا أشار إلى الصف الأول.. هناك أربعة مقاعد لا توجد عليها علامة ما..

- «ماذا عن هذه المقاعد؟»

- «قريبة من الشاشة جدًّا..»

قال في ثبات:

- «كما قلت أنت: هذا شأني..»

قالت في نفاد صبر:

- «هذه المقاعد محجوزة.. هل تنوي أخذ المقعدين الآخرين أم لا؟»

- «من حجزها؟»

- «قلت: هي محجوزة.. والآن؟»

هزّ رأسه في استسلام ودفع ثمن التذكرتين، ثم عاد لصغيرته الواقفة تثرثر مع رجل ضخم يبدو كأنه عامل...

قال لها:

- «لم أجد تذاكر إلا في صف متأخر..»

- «لا مشكلة.. أي مكان يصلح..»

- «هذا لأن نظرك حاد..»

وكان (جيم) يقدر حادي النظر لأن إبصاره ضعيف منذ كان في المدرسة الابتدائية، لكنه كذلك يمقت أن يضع العوينات لأنهّا تشعره بأن فأرًا يعض قصبة أنفه طيلة الوقت..

✶ ✶ ✶

هكذا قضى ساعتين وأكثر مع القرش الأبيض العظيم الذي يحاول التهام الرجال الثلاثة، بينما تتعالى موسيقا (جون ويليامز) الرائعة.. دا دم دا دم دا دم..

تشابكت أناملهما مرارًا وأدرك في رضا أنها خائفة فعلًا. ثم وقعت عيناه على الصف الأول في ضوء الشاشة. أيًا من كان ذلك الذي حجز المقاعد فهو لم يأت.. السينما مزدحمة فعلًا وحارة وصوت التهام الفيشار يصم الآذان، لكن هذه المقاعد الأربعة خالية كأنها لا تنتمي لعالمنا هذا..

هكذا لم يعد يعرف ما يدور على الشاشة.. ظل ينظر لتلك المقاعد في اهتمام.. ثم انتهى الفيلم فأضيئت الأنوار.. وضعت (هيلين) البول أوفر على كتفيها، لأنّه إن كانت السينما حارة فالخارج بارد. الطريقة المثلى لكي تصاب بالتهاب رئوي وتموت.

خرجا وسط الزحام من الباب الزجاجي المجاور لشباك التذاكر، وكاد يتكلم عن الفيلم، عندما رأى رجلًا غريب المنظر لا يبدو من أهل البلدة يقف أمام شبّاك التذاكر ويتبادل حوارًا غاضبًا مع الموظفة العجوز:

- «لكن متى حجزوا هذه المقاعد الأربعة؟»

قالت المرأة في برود:

- «هناك اختراع اسمه الهاتف لو لاحظت هذا..»

قرَّب عينيه الواهنتين من الزجاج، ونظر فرأى إصبع الرجل على ذات المقاعد في الصف الأول.. هذا مستحيل! التفت مسرعًا إلى (هيلين) وصاح:

- «نفس المقاعد!.. مستحيل أن يكون هناك من حجزها بهذه السرعة، ولو فعل فلن يحجز المقاعد ذاتها، ولن يحجز ذات العدد!»

نظرت له بعينين ناعستين مرهقتين من عناء المشاهدة مع لمسة هناء لا شك فيها، وقالت:

- «عم تتحدّث؟..»

- «المقاعد التي ظلت خالية في العرض الأول.. ما زالت خالية..»

- «وما شأننا بهذا؟.. دعنا نتكلم عن الفيلم..»

- «ألا ترين شيئًا غريبًا في هذا؟»

- «نعم.. من الوارد أن يحجز المرء ثلاث حفلات متتالية.. لعله رجل ثري يريد أن يضمن مكانه مهما تأخر في القدوم..»

قال وهو يحك ذقنه:

- «الأثرياء لا يتصرفون بهذه الطريقة..»

تأبطت ذراعه وقالت وهي تجره جرًّا مبتعدين:

- «دعنا نرحل..»

الحقيقة أنها كانت سعيدة ناعسة فاقدة الهمة كبطة سعيدة، وللمرة الأولى شعر باشمئزاز شديد منها.. سعيدة لزجة كبطة.. نعم.. بطة..

مشيا معًا إلى الخارج وسط زحام المغادرين والداخلين والليل البارد، وفجأة قال لها وهو يحرر يده:

- «سأستوقف لك سيارة أجرة..»

- «لماذا؟.. كنت أحسبك ستوصلني للنزل..»

- «سوف ألحق بك حالًا.. هناك أشياء يجب أن أقوم بها..»

صفر لسيارة أجرة واستوقفها، ثم جرها من يدها ليلقي بها في المقعد الخلفي وأغلق الباب.. تنظر له في دهشة وخيبة أمل عاجزة عن فهم هذا الذي شغل باله، سألحق بك حالًا.. قولي لوالدتك إنني عائد بعد قليل فدعيها لا تغلق الباب بالجنزير.. باي...

ثم عاد إلى شبّاك التذاكر حيث الموظفة العجوز ترمقه بكراهية وغل وحقد.. هزّ رأسه محييًا، وانحنى ليكلمها عبر الفجوة وهو يتحسس ذقنه:

- «مساء الخير يا مدام.. طبعًا من تحصيل القول أن أقول إنني أمريكي.. هه؟.. نحن قوم مجانين ننفق المال بلا حساب من أجل أوهام..»

نظرت له في صمت وشك، لكن عينيها وافقتاه على كل حرف..

- «لهذا أشعر بأنك قد توافقين على قطع تذكرة لي في واحد من هذه المقاعد الأربعة بالصف الأول.. أنا فعلًا لم أستمتع بالفيلم في الحفل الأول..»

وعبر الفجوة دفع لها برزمة من الأوراق المالية لا بأس بها لكنّها بحركة آلية وبلا لحظة تردد دفعت المال في الاتجاه العكسي ليخرج له..

- «هذه المقاعد محجوزة..»

- «في حفلين متواليين؟.. هذا يبدو غريبًا..»

- «لا غريب في هذه المهنة.. كل إنسان يتصرّف حسب مزاجه.. فقط لن أعطيك مقعدًا ثم يصل الشخص الأصلي لأتلقى اللوم..»

ظل ينظر لها راجيًا، لكنّها لم تعد النظر له.. وبدا واضحًا أن المحادثة انتهت..

قال بلهجة اليائس:

- «إذن أريد تذكرة أقرب ما يكون للشاشة..»

دون كلمة أخرى ناولته التذكرة، وسرعان ما وجد نفسه يتقدم في قاعة العرض ليجلس في الصف الثالث. هذه رابع مرة يرى فيها فيلمًا لم يحبه كثيرًا والسبب فضوله الذي لا يرتوي.. منذ طفولته قالوا له إن فضوله سيقتله يومًا ما.. فضول قط.. فضول يدفعه لأسوأ المواقف وأخطرها وأسخفها.. الموقف الحالي من الطراز الأخير. لو رأى السمكة ثانية وسمع عبارة (نحتاج لقارب أكبر) لأفرغ معدته.

لكنه جلس.. انتظر حتى بدأ الفيلم.. يعرف أن المشاهد الأولى تحدث في الظلام على الشاطئ.. هكذا بدأ يزحف في خفة ليغادر مقعده، ثم تسلل في هدوء إلى الصف الأول ليجلس على مقعد من تلك المقاعد الأربعة..

لا يوجد شيء غريب مريح أو خطير بصددها.. مجرد مقاعد..

الحمد لله أن قاعدة (عدم مغادرة القاعة قبل انتهاء العرض) غير موجودة هنا، وإلا لجن.. سوف يجلس بضع دقائق ثم يرحل..

أشرق ضوء الصبح على الشاشة ووجد حارس الشاطئ جثة الفتاة و... هنا سمع (جيم) من يتكلم من خلفه.. امرأة أسكتلندية من الطراز الهستيري شبة المجنون تقول في ذعر:

- «إنّه هو..!.. هو يا (إيان)!.. لا شك في هذا!»

- «مجرد خطأ يا عزيزتي..»

- «بل هو!... الأب ذاته..»

ثم دوى صراخها عاليًا رفيقًا يجمد الدم في العروق صراخ عالٍ جدًّا لا يتوقف جعل الناس جميعًا ينهضون ويتساءلون.. وأضاء أحدهم الأنوار، بينما أصوات الفيلم مستمرة..

هنا أدرك (جيم) أن السينما كلها تنظر له في رعب..

ومن مكان ما ظهر المدير العجوز النحيل صارم الوجه ومعه البلاسير، اتجه نحوه ووقف أمامه على مسافة وتساءل:

- «هل هذا مقعدك يا مستر؟»

قال بارتباك:

- «لا....»

- «إذن أرجو أن تعود لمقعدك أو تغادر قاعة العرض..»

نهض (جيم) واتجه خارجًا من القاعة بينما نظرات الكراهية أو الرعب تلاحقه.. ماذا هنالك؟.. كل هذه الأهميّة على شخص بدل مقعده؟

سمع المدير يقول بصوت عالٍ:

- «ليس من خطر يا سادة.. إنّه مشاهد أمريكي بدل مقعده لا تقلقوا.. أرجو أن تعاودوا متابعة الفيلم!»

قالت المرأة ذات الصوت المميز:

(ملحوظة: هنا صفحة ممزقة من الكتاب الأصلي، لذا أعتذر للقارئ إذا وجد وثبة غير مريحة في الأحداث)

.. واتجهت (هيلين) إلى النافذة لتغلقها وقالت بطريقة عارضة:

- «لهذا يحرصون على عدم استعمال هذه المقاعد للأبد.. هناك اتفاق عام في البلدة أن تترك هذه المقاعد من أجل آل (مكميلان).. لكن أحدًا لا يتكلم عن الواقعة أبدًا، والأطفال يشبون وهم يعرفون أن عليك ألا تجلس هناك..»

أطفأ (جيم) لفافة التبغ بأن لامس سطح القهوة فدوى صوت (تش!) ثم دفن الباقي في المطفأة.. تلك العادة التي كانت تضايق زوجته كثيرًا وربما ساعدت بشكل ما في الطلاق..

قال لها:

- «ولماذا لم يجر صاحب السينما أية تجديدات؟»

- «لابد أنه يخاف ذلك.. لا يريد استفزازهم، وقد وجد أن الطريقة تعمل وأنه لا خطر هنالك.. لذا هو مصمم على أن يظل الوضع كما هو بلا تغيير..»

عندما غادرت (هيلين) الغرفة راح يرمق السقف مفكرًا..

القصة كلها تمت لعالم الأساطير الريفية التي يرددها البسطاء. في العام 1957 دخلت أسرة ماكميلان السينما لمشاهدة فيلم (موبي ديك). قصة (هيرمان ملفيل) الشائقة في فيلم من بطولة (جريجوري بيك). أقول إن الأسرة دخلت السينما لترى الفيلم ولم تخرج قط..

إن وقائع قصة الحريق مروعة، لكن الكل يرددها في ثبات. هذه القصص التي لا تتغير أبدًا تكون قد حدثت فعلًا على الأرجح. هذه أربعة مقاعد.. في الوسط يجلس (جون مكميلان) جوار ابنه ذي السنوات السبع، وجوار الأب من الجهة الأخرى تجلس الطفلة ذات السنوات التسع. ثم الأم.. الأب مولع بأن يجلس جوار ابنه ليحكي له كل شيء..

في الصف الأول يصعب أن تفلت من اللحظة التي بدأت فيها الشاشة المصنوعة من قماش أبيض سريع الاشتعال في الاحتراق.. تطاير الشرر واللهب نحو الأسرة الجالسة.. لماذا احترقوا هم بالذات بسهولة؟.. لا أحد يعرف التفسير بدقة، وهناك من يرجح أن المقاعد الأربعة بالذات كانت ملوثة بطبقة من مزيل الطلاء المتطاير سهل الاشتعال.. ربما هو بنزين ربما... لا أحد يعرف السبب فعلًا..

رأى زبائن السينما النار تمسك بالأسرة الجالسة، ثم تحاول التسلق لهم.. نهض الجميع وراحوا يصرخون ويجرون يمينًا ويسارًا وخارج السينما وقف الناس يستجمعون أنفاسهم والنسوة يبكين.. جاءت سيارة الإطفاء بعد قليل واقتحم رجالها القاعة التي صارت خالية، ليجدوا أربع جثث متفحمة في الممشى أمام الشاشة.. يبدو أن أفراد الأسرة نهضوا وراحوا يحاولون الفرار أو إطفاء أنفسهم ثم غلبتهم النار فسقطوا.. من رحمة الله أن يكونوا ماتوا مختنقين أو بالصدمة العصبية لا احتراقًا..

هذا حادث مؤسف قاس وقد ظل حديث البلدة لفترة لا بأس بها قال التحقيق إن ماسًّا كهربيًّا أدى لاحتراق الشاشة، وقد حدث كل شيء بسرعة بالغة، لكن أحدًا لم يستطع اتهام صاحب السينما بالتقصير..

ثم قام صاحب السينما بإعادة افتتاحها. لم تتلف أية مقاعد في القاعة لذا أحتفظ بها كما هي وإن أعاد الطلاء وقام بتركيب شاشة جديدة طبعًا..

كل هذا جميل، فالحياة يجب أن تستمر.. يجب أن ننسى صراخ الطفلين وعواء الأم وأنين الأب.. يجب أن ننسى رائحة الدخان واللحم المحترق..

يجب أن ننسى كل هذا، لكن الماضى له عادة سيئة هي أنه يعود ليذكرك بما كان.

عام 1958 عندما جلست (ماري ساندرز) المراهقة الشابة في مقعدها تشاهد فيلم (قارب النجاة) تحفة (هتشكوك) مع صديقتها شعرت بأن حرارة المقعد تتزايد تدريجيًا.. اعتقدت أنّ هذا وهم، ثم فطنت إلى أن الدخان يتصاعد من بنطالها فعلًا.. صرخت وهبت واقفة..

أما صديقتها فتؤكد أنها شعرت للحظة في ظلام السينما بأن يدًا باردة تمسك بمعصمها. نظرت لجانبها فلم ترَ أحدًا لكن اليد كانت قوية صارمة وأرغمتها على البقاء مكانها لفترة قبل أن تحررها لتلحق بصاحبتها..

الذين رأوا تلك الليلة الرهيبة عام 1957 تذكروا على الفور صرخات الأسرة والنار.. الحق أن المشهد لم يختلف كثيرًا..

أمّا الأذكياء منهم فلاحظوا أن الفتاتين احتلتا مقعدين من أربعة المقاعد التي احتلتها الأسرة.

بعد عامين تحدث واقعة مشابهة.. وبعد عام واقعة أخرى.. في هذه المرّة اشتعلت النار فعلًا في ظهر (ريتشارد مكورميك) المحاسب الذي احترق بالكامل تقريبًا، ونقل للمستشفى ليلفظ أنفاسه هناك..

هكذا عرف الجميع الحقيقة: هذه المقاعد غير مخصصة للجلوس.. هذه المقاعد مخصصة للأسرة المحترقة.. من يجلس هناك يجازف بأن يحترق هو نفسه..

هذه المقاعد محجوزة للأبد...

منذ ذلك التاريخ عرف مدير السينما أن الحياة يمكن أن تمضي بانتظام. يُمكنك أن تعقد تحالفًا مع الأشباح بشرط ألا تخرقه أبدًا.. في الوقت نفسه لا أحد يتكلم عن القصة.. فقط يثب الأطفال وهم يعرفون أن عليهم ألا يجلسوا في هذه المقاعد..

مدير السينما ما زال حيًّا وفي السبعين الآن، لكنه لقّن الدرس لأولاده، ولو ظلت السينما باقية حتى تقوم الساعة فلن يجلس أحد هنا.. إن المقاعد محجوزة لأسرة ماكميلان..

طبعًا كان هذا الحال حتى ظهر ذلك الأمريكي الفضولي السخيف..

✶ ✶ ✶

في الظلام مشى (جيم).. الظلام والبرد..

كان يعرف أن فضوله يقوده للمصائب دومًا، فلو أنه عاش في زمن الأساطير لصار (برومثيوس) أو (إيكاروس).. لو مسخ حيوانًا لما صار إلا قطًا..

لكنه مستعد أن يضحي بكل شيء من أجل لحظة معرفة..

دار السينما جاثمة في الظلام لأنهّا الثالثة بعد منتصف الليل.

ضم المعطف على صدره ورفع الياقة ليتقى الريح الباردة، ثم اقترب من البناية الصامتة..

لا شك في هذا.. يسمع الصوت خافتًا من بعيد لكنه موجود الموسيقا المميزة لقدوم القرش في فيلم (الفك المفترس).. دا دا دا دم.. دا دا دا دم...

سواء كان مدير السينما هو الذي قام بتشغيل الفيلم، أم أن قوى خفية قامت بذلك. المهم أن الفيلم يعرض الآن على قاعة خالية.. ليست خالية تمامًا..

أخذ شهيقًا عميقًا ودار حول البناية.. يعرف أنه رأى تلك النافذة الصغيرة بالطابق الأرضي، وكانت سهلة الكسر.. أخرج الأداة التي حملها ودسها بين مصراعي النافذة الصغيرة وضغط وهو ينظر خلفه في حذر. لا أحد.. المطر ينهمر ولن يجازف مجنون بالمشي في الشارع في هذا الوقت.

سواه..

دس جسده في الفتحة، ثم أخرج الكشاف.. صوت الفيلم عالٍ وواضح الآن..

كان قد كون نظرية لا بأس بها.. الأسرة ماتت أثناء عرض فيلم (موبي ديك).. هناك من احترق عندما عرض (قارب النجاة) باختصار.. يبدو أن القصة تتكرر كلما عرض فيلم فيه محيط وأمواج وغرق.. فما أفضل ليلة ممكنة للظهور سوى الليلة التي يعرض فيها فيلم (الفك المفترس)؟

لو كان صاحب السينما هو الذي شغل هذا الفيلم، فهو يعرف الحقيقة.. إنّه يسلي الأشباح طيلة الليل... ولو كانت الأشباح هي التي شغلت الفيلم فهي تحبه فعلًا..

هذه هي الصالة الخالية.. تقريبًا...

يقف في نهايتها وينظر..

هناك قرب الشاشة.. هناك على المقاعد الأربعة التي يعرفها يراهم جالسين.. هنا طفلان وبالغان... أسرة ماكميلان كاملة العدد تشاهد الفيلم..

على الشاشة تثور الأمواج ويهتز القارب.. بينما سمكة القرش تثب برأسها من الماء.. نحتاج إلى قارب أكبر..

يمشي في بطء عبر الممر نحو المقاعد الأماميّة..

لابد أن صوت قدميه كان عاليًا.. لابد أنهم سمعوه برغم الضوضاء...

عندها استداروا نحوه.. وبرغم الإضاءة شبه المعدومة فإنّه رآهم.. عندها أدرك أنه ارتكب خطأ عمره....

لكنه تأخر.. تأخر كثيرًا فعلًا...

تمـــــت

- 1 -

عندما أذهب إلى إنجلترا في مهمّة علمية، يكون أول شيء أفعله هو أن أتصل بـ (ماجي).. أخبرها أنني هنا على أرضها، وإنني ما زلت على العهد، وإنني انتظر...

عندها تأتي (ماجي)...

من موضع ما، تنفض براعم الأزهار التي التفت حولها ساقيها منذ الأزل، وتنفض طيور السنونو التي تحلّق حولها في شيء من دلال، ثم تزيل النجوم والشهب التي تمسكت بخصلات شعرها.. ربما تتحرك من قاع المحيط حيث أحاطت بها الشعاب المرجانية بانتظار لحظة اللقيا... ربما تفتح عينيها فتحلق ذرات الضوء الغامضة التي يرونها في المستنقعات ليلًا... ومن شعرها تفوح رائحة زهر البرتقال..

ربما تمشى فيتخلل الفيروز والعنبر أصابع قدميها، بينما الحيتان تلفظ المزيد من عنبرها على الشط لتتعطر به.. ربما تتمطى فتتهاوى أرواح الأشرار التي تبحث عن فريسة تفتك بها، وتنغلق المقابر التي كانت موشكة على أن تقيء محتوياتها.. ربما تزفر فيسقط الظلام صريعًا عند قدميها..

من هناك.. من مرتفعات (جرامبيان) تنهض سيدة الأحلام.. سيدة الليل.. سيدة الديجور... قادمة في تؤدة نحو اللقاء..

قادمة نحو ذلك الحمار المحظوظ الذي قطع كل هذه البحار والوديان من أجلها..

هذا الحمار - بلا فخر - هو أنا..

✶ ✶ ✶

(ماجي) هنا...

الوجه النبيل النحيل الذي يبدو كأنه ألهم دستة من فناني عصر النهضة ودستة من أخوة (ما قبل رافائيل)...

لابد أن (مايكل أنجلو) رآه وحاول أن ينقله إلى الحجر.. ساعات وساعات يحاول ثم ألقى بالإزميل وراح يبكي... لابد أن (موتسارت) قرر أن يجعله مسموعًا.. أول وجه مسموع في التاريخ.. راحت أنامله الرشيقة تجري على مفاتيح البيانو السوداء في تلك الليلة في (فيينا)، ولابد

أنه شرب الكثير جدًّا من الخمر، وفي النهاية مع طلوع الصباح تهاوى مرهقًا فوق المفاتيح وبكى.. ارتطم رأسه بالمفاتيح فدوى صوت رهيب...

تررررررران!

لابد أن (بيتهوفن) جرب حظه.. لكن روعة السيمفونية التي كتبها أصابته بالصمم.. لم تتحمل أذنه سماع هذه الروعة...

لابد أن (فان جوخ) جرب أن ينقل هذا الوجه لقماش الرسم.. جرب عدة أيام، وفي النهاية أخرج المسدس وألصق الفوهة الباردة بجمجته وضغط الزناد...

سيدة الليل تمشي في تؤدة.. يُمكنك بسهولة أن تعرف السبل والوديان التي قطعتها لأنك ترى كيف استعادت النباتات عافيتها وكيف ذابت الثلوج....

إنها تبتسم...

لأن الوغد مجدود الحظ قد جاء من شمال أفريقيا من أجلها..

هذا الوغد هو أنا..

✶ ✶ ✶

(ماجي) هنا...

القامة الفارعة النحيلة وأصابع اليدين الطويلتين الشفافتين حيث يُمكنك أن ترى كل وريد وكل عصب..

صحيح أنّ بعض التجاعيد غزت الوجه والتفت حول الثغر لكن هذا كل شيء.. بينما ذات الفترة الزمنية حولتني إلى مومياء ثبت لها أحدهم زنبركًا لتتحرك وتتكلم..

هكذا التقينا في (لندن) أولًا ثم استضافتني في قصر أبيها الذي شهد أروع ذكرياتي.. كنت قد انتويت أن أطيل إجازتي هنا.. ربما أقضى شهرًا أو أكثر.. فقط المجانين يتركون الفردوس بسرعة..

قالت لي بلهجتها الراقية التي تذكرني بشيء ما لا أعرفه:

- «أنت تغيرت كثيرًا.. في كلّ مرّة تتغير.. ما زالت الروح كما أعرفها، لكن الوعاء الخارجي في أسوأ حال.. هل أنت متأكد من أنك لا تنام في خلاط أسمنت؟»

في كلّ مرّة تقولها لي لذا قلت:

- «وأنت لم تتغيري بتاتًا.. ما زال الوعاء الخارجي أجمل من الروح، والروح أجمل من الوعاء الخارجي.. هل أنت متأكدة من أنك لا تنامين في بطن فراشة؟»

نظرت لي طويلًا بتلك العينين الزرقاوين وهمست بينما خصلات شعرها تتطاير مع أنسام الليل:

- «للأبد؟»

- «ماذا؟»

- «هل ستظل تحبني للأبد؟»

قلت في لهفة:

- «وحتّى تحترق النجوم.. وحتّى.....»

هنا - كالعادة - دوى صوت نفير السيارة.. سائقها الذي كان ينتظرنا قد أعد كل شيء وهو يعلننا أن الوقت قد حان للعشاء...

تأبطت ذراعها وفتحت لها باب السيارة كأننى المغامر (والتر رايلي) أو فارس وسيم من القرون الوسطى، ثم درت حول السيارة كأنني (عماد حمدي) في أفلام الخمسينات، واندسست في المقعد جوارها..

- «إلى أين نحن ذاهبان؟»

- «سوف نمارس بعض الاجتماعيات..»

بدا عليّ الرعب.. أنا أثق بها لدرجة إنني لا أسأل كثيرًا.. لو قالت لي: سوف نذهب لنسكب عليك البنزين ثم نشعل فيك النار، أو: سوف نفتح قفص الأسود في حديقة الحيوان وندخلك ثم نغلق الباب، لوافقت على الفور.. لابد أنّ هذه مصلحتي..

لكن الاجتماعيات؟

أدركت مدى هلعي فقالت ضاحكة:

- «لا تخف.. ليس لهذا الحد.. هناك مجموعة محدودة من الأصدقاء سوف تقابلهم وتمضي معهم ثلاث ساعات بعدها تعود وتنام..»

ثم راحت تعد على أناملها الطويلة:

- «(الستري ديلان).. رسامة عانس.. لا تنس أنني أنا نفسي عانس شمطاء..»

- «يُمكنك أن تغيري هذه الصفة في ربع ثانية لو أردت..»

- «ومن قال إن هذا يضايقني؟.. هناك كذلك (مادلين كارلستون).. وهي أدبية متزوجة من (أنتوني كارلستون) وهو عاطل بالوراثة، لكن زوجته تملك جبلًا من المال وقصرًا جميلًا.. هناك (جوناثان دارتمور)، وهو كاتب قصصي.. هناك (مايكل شلسنجر) وهو موسيقار مشهور.. على الأقل في شبه الجزيرة.. هناك د. (نورمان هيرتفورد) وهو جراح أعصاب..»

- «كلهم فنانون؟»

- «باستثنائي ود. (نورمان).. نعم..»

شعرت بخيبة أمل وضيق.. أعرف هذا الجو العصابي جيدًا.. جو الفنانين الغربيين الذين يعيشون حياة من الملل والتحلل الأخلاقي ويدمنون الخمر والمخدرات ثم ينتحرون بلا سبب واضح.. يجلسون لشرب الكوكتيل ثم ينفجرون في الضحك فجأة وتدمع عيونهم، ثم ينفجرون في بكاء حار..

جو مقزز يبعث على الجنون..

الأسوأ أنّ هذه الطبقة تعيش في أبراج عاجية، نائية عن المجتمع ويتعامل أفرادها بتعال واضح.. نحن من الصفوة.. من الإنتلجنسيا.. لنا الحق أن ننجرف ونفجر، ولنا الحق أن ننحل لأن مقاييس الأخلاق البرجوازية لا ينطبق علينا.. الأخلاق لرجل الشارع فقط..

نعم.. أنا أعرف هذه النوعية وأفهمها وأكرهها بجنون..

على كل حال لو انتظرنا بعض الوقت لانتحروا جميعًا، وإنه لشيء مغر.. يعني لو تأخرنا عن الموعد نصف ساعة لأطلقوا الرصاص على رءوسهم بينما تفضل النساء تناول السم هكذا نجد خمس جثث تنتظرنا ونستريح، طبعًا قبل أن يصل المفتش (مكالستر) من سكوتلاند يارد ليشك فيّ أنا..

قلت لها:

- «هل من أمل أن ينتحروا قبل أن نصل هناك؟»

فهمت على الفور ما أريد قوله، فضحكت كثيرًا وقالت:

- «لا تخف.. هم ليسوا بهذا السوء.. لو كانوا كما تظن لما عرضتك لهذه التجربة القاسية..»

لكني كنت أعرف أنها حسنة النية أحيانًا

- 2 -

السهرة كانت كما توقعتها وألعن.. بالفعل كانوا مجموعة عصابية من العباقرة الذين يتأرجح مزاجهم بين المرح المجنون الاكتئاب بلا سبب.. مزاجهم ليس مزاحي. ما يروق لهم لا يروق لي.. ما يحزنهم لا يحزنني.. بالفعل لو طلبت مني ماجي أن أضع رأسي بين فكي تمساح لكانت أكثر لطفًا...

(مايكل شلسنجر) الموسيقي ليس على ما يرام.. الإيشارب حريري حول عنقه والميوعة التي يتكلم بها مع رفع الحاجبين وزم الشفتين في (قرف).. ليس فيه شيء من رجولة الرجال ولا أنوثة النساء.. ثم إنّه قد عزف فعلًا.. جلس على البيانو عزف مقطوعة غريبة جدًّا.. لم ترق لي على الإطلاق لكنهم بهروا بها.. في ذلك الزمن كان كل شيء غريب يعتبرونه سايكيدليك (psychedelic) وعبقريًا..

الرسامة كانت خشنة مسترجلة تدخن كمدخنة مصنع ياباني لا تكف عن الاستشهاد بالكتاب الفرنسيين.. ذكرتني ملامحها ملامح الفنان المصري (محمد عوض)، فيما عدا أن (محمد عوض) كان بلا شارب طبعًا... على فكرة كانت هذه السهرة في دارها..

(مادلين كارلستون) الأديبة كانت على شيء من الجمال لكنّها الأكثر جنونًا.. وفي لحظة من اللحظات طوحت بحذائها لتقف حافية في وسط القاعة، وصرخت: صمتًا!!.. ثم راحت تهز شعرها كأنها تسمع موسيقا خفية من مكان ما ظلت في هذا الوضع عشر دقائق كاملة..

قلت لنفسي إنّه إذا كان كل هذا الجنون مهمًا لصناعة الفن فليذهب الفن للجحيم.. هؤلاء القوم على كل حال يعانون حال متقدمة جدًّا من الشعور بالعبقرية.. يصعب أن ينزلوا من عليائهم.. بالنسبة لهم أنا شخص عادى ممل عاطل من المواهب، ولا شك أنهم سيسألون ماجي فيما بعد عما راق لها في هذا النصب التذكاري العجوز الأصلع.. أوه لا لا لا..

د. (نورمان) كان يبدو موحيًا بالاحترام.. كهل في الخمسين أشيب الشعر وسيم جدًا.. لو كنت تذكر شكل (ركس هاريسون) فقد أرحتني من الوصف.. له صوت عميق مؤثر ونظرات ثاقبة، لكنه صموت جدًّا متحفظ بشدة.. لو كان قد خطر ببالك أننا سنصير صديقين لأننا طبيبان فأنت مخطئ.. أعتقد بالفعل أن جراحي الأعصاب يكونون أكثر برودًا وثباتًا من عامّة الناس كما نقرأ.. عرفت كثيرين منهم في الولايات المتحدة، فكانو يعيشون بعيدًا عن الناس ومعظم حياتهم في غرف الجراحة التي تم تبريدها، حيث قد تستغرق الجراحة خمس عشرة ساعة، وكانت تسليتهم الأساسية عمل قصور من أوراق اللعب.. هذا تمرين لثبات الأعصاب يمكن أن يغير شخصيتك فعلًا...

الشخص الوحيد الذي بدا لي لا بأس به نوعًا كان ذلك القصصي (جوناثان دارتمور).. كان في الخمسين له وجه هادئ مريح وعينان ذكيتان.. أصلع الرأس لذا عوض هذا بإطالة الشعر الباقي ليغطى كتفيه، لكنه فيما عدا ذلك بدا رصينًا..

كان واقفًا يتابع العزف الرديء جدًا على البيانو وكأس في يده تسبح فيه زيتونة.. لا علاقة لي بهذا (الهباب) لكن معنى ذلك أنه يحمل كأس (مارتيني) كما تعلّمت..

دنوت منه وسألته بصوت هادئ:

- «أنت قصصي. يؤسفني أنني لم أقرأ لك من قبل فأنا آت من ثقافة مختلفة.. ما نوع القصص التي تكتبها؟»

هزّ رأسه وابتسم وقال:

- «لا توجد أنواع من القصص.. هناك قصة جيدة وقصة رديئة..»

إنّه هذا الرد الجاهز (الحمضان) لدى الروائيين.. يقولونه في كل مناسبة.. تمالكت أعصابي وعدت أسأله:

- «أعني: هل تكتب قصصًا بوليسية مثلًا؟»

- «ربما لو تمسكت بالتصنيف لقلت إنني أكتب قصص رعب..»

بدا لي هذا مضحكًا..

أي شيء يمكن أن يكتبه؟.. وكيف يستطيع أن يرعبني بعد كل ما رأيت في حياتي؟.. لو أنصف هذا الرجل لجلس عند قدمي يدون ذكرياتي.. أنا أضمن له أن يملأ عدة مجلدات..

جاءت (ماجي) وقد بدت لي بكامل أناقتها وفتنتها.. الشيء الوحيد الحقيقي في هذا المكان.. قالت وهي تستند إلى البيانو:

- «أنتما متعارفان الآن؟.. دعني أؤكد لك يا (جوناثان) أنك تقابل كنزًا يمشي على قدمين.. الرجل الذي قابل كل أشباح وشياطين الأرض.. الأغرب أنه لا يحبّ هذا الدور على الإطلاق وليس فخورًا به، ويتمنى لو كان مجرد شخص عادي..»

نظر لي باهتمام يزن إن كانت تمزح أم تتكلم حقًّا.. ثم قال:

- «هذا.. مثير للشغف..»

بالنسبة لهؤلاء القوم يعتبر تعبير (رجل عادي) نوعًا من السباب البذيء.. هم أعلى وأسمى من الرجل العادي طبعًا..

قالت في حماس:

- «لو أنك جلست معه عدة مرات لسمعت عجبًا.. لكن عليك أن تصبر لأن اللآلئ لا تطفو على سطح الماء وتدخل جيبك.. لابد من معاناة.. لابد من غطس.. لابد من خطر الغرق عندها تحصل عليها..»

قلت وقد سرتني هذه المجاملة:

- «الأهم أن تفتح القواقع فمها أولًا.. بعض القواقع لا تفعل..»

لم يبد مهتمًا جدًّا بفيض المجاملات بيني و(ماجي)، وقدرت أنه يعرف شيئًا عن علاقتنا الروحية الحميمة.. عيناه قالتا إنّه فضولي لمعرفة السبب الذي يجعل فاتنة كهذه تعجب بشيء عجيب مثلي.. لقد اعتدت هذا، واعتدت أن أقنع نفسي بأن أفضل صفة في.. الصفة التي تجعلني من أروع الرجال على وجه الأرض هي أن (ماجي) تحبني!.. بهذه الصفة أنا أستحق حبها فعلًا هذا نوع من العبارات الملتفة التي تشبه (شهير بأنه شهير) لكنه منطق لا بأس به لو فكرت فيه..

في هذا الوقت كانت تلك الأديبة (مادلين كارلستون) قد جنت من جديد.. راحت تصيح وتقول كلامًا غريبًا لم أفهم معظمه، وقد حاول زوجها أن يهدئ من روعها..

رأيته يهمس في أذنها، لكنّها - كدأب السكارى - لم تهتم بالهمس، وصاحت بصوت عالٍ:

- «نعم.. نعم.. من أجلها تفعل هذا كله.. لكن بمالي أنا.. بمالي.. جميل أن تدفع المرأة نفقات منافستها!!»

- «(مادلين).. بالله عليك.. كفي عن الشرب..»

- «حقًّا؟.. كل ما في الأمر أن الشرب يحرر لساني.. لكني بكامل قواي العقليّة.. صدقني..»

طبعًا أرى هذا المشهد في السينما كثيرًا وأعرف أنه ينتهي بصفعة تهدئ من روعها، لكن هؤلاء ليسوا أناسًا عاديين.. لهذا اكتفى الزوج بأن شكر الموجودين وجذب زوجته جذبًا من ذراعها خارجين...

لما ابتعدا وسمعنا صوت محرك سيارتهما، دنت مني (ماجي) وبلهجة الشاعر بالذنب همست:

- «لا عليك.. إنها تشعر بـ.....»

قلت مقاطعًا:

- «نعم.. نعم.. تشعر بالغيرة، وبأن زوجها يعيش معها لأنهّا ثرية لا أكثر لكنه يحبّ امرأة أخرى.. أنا لست حمارًا يا عزيزتي.. لا أهتم ذرة بمشاكل هؤلاء القوم، لكن أكدى لي فقط أنك لست المرأة الأخرى التي يحبّها..»

- «لست هي طبعًا.. فكر في ذلك قديمًا ثم عدل عنه.. حاليًا أنا أقبح من أن أروق له..»

- «الحمد لله..»

هنا حرر الموسيقار رقبته من ذلك المنديل الحريري وتأوه وكف عن العزف، وأغمض عينيه قائلًا:

- «مسكينة.. إنها تغار.. أعرف شعورها وأفهمه.. مسكينة!.. أوه.. أوه..»

وراح يئن وهو يغطى وجهه بكلتا يديه..

هنا دنوت من أذن (ماجي) وهمست:

- «أتوسل إليك.. لم أعد أطيق هذا الجو.. أريد أن أشم بعض الهواء النقي.. لو لم ترحلي معي فلسوف أرحل وحدي..»

- «ظننتك ستحب هذا الجو هؤلاء القوم أذكى مما يبدو عليهم..»

- «وأنا أغبى مما يبدو عليّ لذا سأرحل..»

هكذا لم تجد بدًّا من أن تشكر صاحبة الدار السيدة (محمد عوض).. وتحيي الموجودين ثم تلحق بي حيث كان سائق سيارتها ينتظرنا

- 3 -

فيما بعد عرفت التالي:

كانت حياة (أنتوني كارلستون) تزداد تعقيدًا بالفعل..

هو لم يعمل في حياته ولا يظن أنه سيعمل.. اعتاد حياة الطراوة والرخاوة واعتاد أن يكون ثريًا.. مع الوقت تكون عنده ذوق خاص، فهو لا يسيغ الطعام الرخيص ولا يسيغ السيارات غير الفاخرة... لابد من الكافيار والسيمون فيميه والفواجراه على العشاء.. لابد من عطور ثمينة وثياب فاخرة غالية الثمن..

على قدر علمه هو لم يكن فقيرًا قط.. منذ صباه عرف أن أمامه سبلًا محدودة للحصول على المال: الميراث.. السرقة.. الزواج من امرأة ثرية.. لا تضع العمل ضمن القائمة من فضلك كل حال لا يوجد عمل في الكون يمكن أن يسدّد فواتيره..

هكذا ورث مبلغًا ممتازًا من المال بعد وفاة عمّه، لكن طريقته في الحياة لا تسمح لأي مبلغ ولو كان مال قارون أن يبقى إلا بضعة أعوام.

في النهاية أخبره المحاسب أن رصيده في المصرف يقترب من الصفر. هنا اضطر لأن يحاسب نفسه من جديد.. لا يوجد أي مانع من أن يصير لصًا، لكنه لم يتعلم ذلك، وهو يعرف أنها ليست لعبة للهواة.. الرجل الذي يقتحم مصرفًا وهو يضع على رأسه جوربًا نسائيًا ويهدد الموجودين ثم يملأ حقيبة بالمال، ليس شخصًا عاديًا.. لابد أن لديه صفات لا يملك هو أيًا منها..

كان قد قرأ الكثير جدًّا من الروايات البوليسية.. هذه هي ثقافته الوحيدة.

تأمل وجهه في المرآة..

لاحظ في رضا أنه أنيق جدًّا.. وسيم جدًّا.. له سمت ممثلي السينما.. وجهه يوحي بالأمانة والحب... ثم تسقط خصلة من الشعر الأسود على جبينه فيصير فاتن نساء Womanizer..

أنت Womanizer.. طريقتك في الرقص.. في الإمساك بيد الفتاة في الانحناء لتقبيلها.. في ضحكتك.. في كل شيء.. هذا رصيدك وسلاحك وعليك أن تستغله..

يجب أن يفتن امرأة ثرية.. ربما تكون ساحرة عجوزًا شمطاء، لكن الجيجولو مهنة كأية مهنة أخرى.. لابد من التعب والمعاناة، ولو كان مصريًا لما وجد أفضل من عبارة (ريا) الشهيرة: «محدش بياكلها بالساهل..»

راح يحضر كل الحفلات ويتواجد في كل المسارح والمحافل بحثًا عن ضالته..

هنا ظهرت (ماجي).. كان يعرف أنها عانس ثرية جدًّا، لكنه اعترف لنفسه بأنها فاتنة وأن أي رجل يتمنى الفوز بها حتى لو لم تكن ثرية..

بدأ يحوم حولها ويظهر لطفه وفتنته لكنّها كانت طبيعية جدًّا تلقائية جدًّا.. وعلى استعداد تام لأن تنكمش متى شعرت بأنه تجاوز الحدود.. لم تكن تريد شيئًا وكانت سعيدة راضية بحياتها.. هو يعرف هذا الطراز من النساء ويعرف أن قلوبهن صناديق مغلقة، لكن يستحيل العثور على مفاتيحها.. هذه المفاتيح تكون غالبًا في مكان ما مع وغد محظوظ ما...

هكذا تخلى عن فكرة (ماجي).. وقد سرّه هذا لأنّه فعلًا احترمها وشعر بأن استغلالها عمل غير أخلاقي حتى لو سمحت بذلك..

كانت لـ (ماجي) صديقة فيها مسحة من الجمال..

سأل عنها فقيل له إن اسمها:

- «(مادلين جيرهارد).. أديبة وكاتبة مسرحيّة.. كانت زوجة لـ (أرشيبالد جيرهارد) وقد ترك لها ثروة فاحشة.. ثم توفي بالسرطان، وهي منذ ذلك اليوم تعيش وحدها مع شخوص مسرحياتها وصراعاتها النفسية المعقدة.. إنها مجنونة قليلًا ولعل السبب هو احتياجها للحنان..»

كان هذا عندما اهتزت يدها فسكبت محتوى الكأس على السجادة، وانفجرت صاحبة البيت العجوز في الاحتجاج. تذكر هو على الفور أنه قرأ هذا المشهد بالحرف في قصة أخرى، وعلى الفور أيضًا نفذ ما حدث بالقصة.. أفرغ كأسه على السجادة هو الآخر ثم قال لصاحبة البيت:

- «أرجو أن ترسلي سجادتك الرخيصة للتنظيف على حسابي..»

وألقى بطاقته على الأريكة، ثم صحب الأديبة المنبهرة متلاحقة الأنفاس للخارج..

بطل القصة كسب للأبد حب الوريثة بهذه الحركة، ولم يختلف الوضع هنا.. هذه من مزايا القراءة القليلة جدًّا على كل حال..

تعدت لقاءاته بالأديبة الثرية، واستعمل كل أسلحته حتى وافقت أخيرًا على الزواج..

وفي النهاية... قد حقق ما يريد بالضبط.. إن كل هذه الثروة تحت تصرفه.. كل هذا المال.. هذا القصر.. هذه الإقطاعية.. إن زوجها السابق لم يكن يمزح أو يضيع وقته..

يعرف الغربيون تعبير Trophy wife أو الزوجة الغنيمة.. الرجل الثري المسن القبيح يتزوج شابة فاتنة كمظهر للوجاهة الاجتماعية.. شيء مثل السيارة الفاخرة أو البذلة الأنيقة.. الواقع أن الوضع.. هنا كان معكوسًا.. لقد اشترته الأديبة بمالها ليكسبها وجاهة اجتماعية حتى صار Trophy husband فعلًا، لكنه لم يكن يريد غير هذا على كل حال..

الآن حان وقت المرح..

بدأ يعبث هنا وهناك، وكانت (باتريشيا) راقصة الباليه الحسناء ذات الأصل الروسي هي الهدف المختار.. كانت راقصة باليه.. أي إنها راقية وتمت للعالم الذي لا يطيق الابتعاد عنه..

في الخارج (باتريشيا) الحسناء الرقيقة، وفي البيت زوجته الأدبية الكئيبة العصابية، التي لا تكف عن التدخين وشرب الخمر عقلها مفعم بالأشباح.. وأحيانًا تكلّم شخصيات قصصها بلا توقف لكنّها كذلك تحبه جدًّا.. تشعر نحوه بحاسة امتلاك رهيبة...

اعتادت النساء أن يهيم الرجال بهن وألا يطقن أكثرهم هذا شعور نسائي معتاد.. لكن الرجل يشعر بذعر حقيقي عندما يقع في حبائل امرأة مجنونة قليلًا تهيم به.. إنها تصير خطرًا حقيقيًا يلاحقه في كل مكان.. هناك فيلم أمريكي عرض هذه الفكرة ببراعة هو (اعزف ميستي من أجلي)، وهو الذي قدمته السينما المصرية بشكل أسوأ طبعًا في فيلم (المجنونة)..

كان عليه أن يكون لطيفًا مع زوجته.. يجاملها.. يكذب عليها..

لكنها تعرف كل شيء.. لم يكن حذرًا بما يكفي..

لم يدرك كم أن الأمور صارت خطيرة إلا عندما ذهب إلى المصرف ليجد أنها سحبت مالها من الحساب المشترك الذي كان يسحب منه بلا توقف..

معنى هذا أن عليه أن يلعب معها لعبة الصبي المراهق الذي يبذل جهدًا عنيفًا ليقنع أمّه بإعطائه مصروفًا.. ثم لو أعطته يطالب بالزيادة..

- «لماذا فعلت ذلك يا (مادلين)؟»

قالت في تنمر:

- «لأنني لن أنفق مالي على حبيبتك.. لم آت هذا العالم من أجل الترفيه عنكما لو كنت قد لاحظت هذا..»

رفع يديه في غضب مجنون ولوح بهما قائلًا:

- «أنت قد فقدت عقلك تمامًا. هذا الخلط بين عوالم مسرحياتك و.....»

ثم توقف وقد أحسّ أن الدور لا يناسبه.. دور مفضوح تمامًا.. كلاهما يعرف أنّ هذا الكلام غير صحيح فلا داعي للسخف..

لما توقف قالت:

- «سوف ترى.. لن تنفق مليمًا إلا بعلمي ولسوف أعرف كم وأين ذهب وعلى من.. إن (مادلين) الشريرة المنحطة سوف تكشف عن وجهها القبيح..»

بعد هذا جاء ذلك المشهد.. الفضيحة المجانية في الحفل الذي أقامته صديقتهم والذي كانت (ماجي) فيه.. وتكرر هذا كثيرًا..

عندها عرف أن الخيارات أمامه صارت محدودة جدًّا..

- 4 -

لم يكن الطلاق واردًا بالطبع..

ليس أمامه حل سوى قتلها، وكما قلت من قبل كان يملك روح لص أو سفاح.. لقد اعتاد الثراء طيلة حياته لهذا بدا له ما تقوله هذه المرأة ظلمًا حقيقيًا.. لا حق لها على الإطلاق في حرمانه من مالها لا حق لها في أن تمنعه من تبديد ثروتها على امرأة أخرى..

إنها قاسية.. قاسية معدومة الإنسانية، ولهذا يجب أن تموت.. لقد مات (هتلر) لأنّه قاس معدوم الإنسانية فلماذا لا تذوق الكأس ذاتها؟

المشكلة هي أن أول سؤال سيدور بذهن المفتش (مكديمروت) أو - أيًا كان اسمه - مفتش سكوتلانديارد الأريب ذي المعطف الخاكي هو: (من المستفيد؟). لا أحد سواه.. سيدي.. لقد وجدنا من الأدلّة ما يسمح لنا بأن نتهم بقتل السيدة (كارلستون)..

لا يمكن أن يحدث ذلك هو لن يطيق السجن لساعة واحدة..

كان يعرف من القصص البوليسية - طعام البريطانيين - أنّ هناك الموت الذي يبدو حادثًا.. والموت الذي يبدو انتحارًا.. والموت الذي يبدو شيخوخة.. والموت الذي يبدو قتلًا..

طبعًا الموت الذي يبدو شيخوخة هو للمزاح أقرب.. إنها في منتصف العمر وصحتها ممتازة.. الموت الذي يبدو قتلًا ممتاز، لكنه يعني أن تستأجر قاتلًا محترفًا وتقنعه بأن يترك آثارًا توحي بالسرقة مع العنف.. هذا القاتل نقطة ضعفك لأن هؤلاء الحمقى يقعون في قبضة الشرطة دائمًا ويتكلمون.. لو لم يقعوا في قبضة الشرطة فهم يحاولون ابتزازك... إذن هو الموت الذي يبدو حادثًا.. مشكلة أخرى لأنّه ليس عبقريًا ولا يستطيع تدبير حوادث محكمة.. الموت الذي يبدو انتحارًا ممتاز ويمكن أن ينطلي بسهولة على الشرطة مع شخصيّة مريضة نفسيًا كهذه، لكن المشكلة هي أن تقع في خطأ ما.. خطأ وينتهي بك الأمر إلى السجن..

قلب الاحتمالات كلها، وفي النهاية قرر أن كل الطرق تتساوى لسبب واحد.. لن يجد أحد الجثة. القاعدة اللاتينية تقول: (هابياس كوربوس Habius corpus) أي (أظهروا الجثة).. لا توجد جثة إذن لا قضية.. بعد فترة سوف يحصل على حكم من المحكمة يسمح له بالميراث وينتهي الأمر..

إذن عليه أن يتخلص من الجثة بطريقة بارعة.. وفي الوقت نفسه يترك انطباعًا عامًا أن السيدة انتحرت.. ربما ألقت بنفسها من فوق المرتفع أو في النهر حيث يسهل ألا يجد أحد جثتها..

✶ ✶ ✶

في البداية رتب أموره سرًا.. احتاج لشهر كي يفرغ الكمية كلها دون أن يلاحظ أحد، ثم تشاجر مع الخدم جميعًا..

كانت هناك فواتير والكثير منها ومن السهل على من يبحث عن خطأ في كومة فواتير أن يجده.. دعك من أنهم لم يكونا مثالًا للأمانة والنقاء..

تعالي صوته وهو يتهمهم بأنهم لصوص.. ثلاثة منهم كانوا في إجازة، وقد بقي ثلاثة فتشاجر معهم.. وأعلن أنه يريد طردهم..

بالطبع كان الخدم يعرفون مركز القوة الحقيقي هنا، لذا نظروا له في استخفاف ونظروا نحو السيدة التي تملك الكلمة النهائية..

قال لها مهددًا:

- «لو كنت تنوين أن تسفهي اتهاماتي فإنني سألحق بهم..»

كانت تشعر بصداع فظيع، لذا وضعت يدها على جبهتها وأغمضت عينها قليلًا، ثم قالت:

- «توني.. هل يمكن إرجاء هذا الموضوع؟.. أنا لا أريد أن أفصل أحدًا..»

- «وأنا أصر على ذلك..»

كان الخدم يقفون في غرفة الطعام الواسعة الفاخرة وقد بدا عليهم الاستمتاع بهذه المحادثة، فلو كانوا مصريين لمارسوا العادة الشعبيّة في وضع (طوبة على طوبة)..

نظر لهم (أنتوني) في كراهية وقال:

- «إذن أنا أصر على أن يأخذوا إجازة إلى أن نتفق بشأنهم..»

- «لك هذا..»

قالتها دون أن تفتح عينيها أو تبعد يدها عن جبهتها..

هنا وجد فرصته فسألها بلهجة واضحة:

- «أنت لست على ما يرام.. هل عاودك الاكتئاب؟.. هل تشعرين بأنك لست على ما يرام؟»

قالت بصوت متعب:

- «أنا دائمًا لست على ما يرام..»

كان يسألها وهو يعرف أنّ هذه الكلمات ستقال بالحرف للمفتش مكديمروت أو - أيًا كان اسمه - السيدة كانت مكتئبة وكانت أميل للصمت عندما تركناها..

أوشك أن يسألها:

- «هل أنت راغبة في الانتحار يا عزيزتي؟.. هل حالتك تجعلك تختفين عن العالم بلا تفسير وتختفي جثتك كذلك؟.. هيا.. قولي لهؤلاء الأوغاد ذلك بوضوح..»

هكذا احتاج الأمر إلى ثلاث ساعات حتى صار القصر خاليًا تمامًا.. فيما بعد سوف يشهدون أنه تربص بهم وتصيد لهم الأخطاء كي يصير المكان خاليًا.. سوف يقولون هذا ولسوف يمتص المفتش مكديمروت أو - أيًا كان اسمه - السيجار بنهم ويقول وهو ينفث سحابة كثيفة:

- «إذن أراد الخلاص منكم.. هم م م.. هم م.. هذا مهم.. مهم..»

لكنه لن يجد شيئًا.. لن يجد جثة..

(أنتوني) شخصيّة هستيرية ولن يجد عسرًا في التمثيل.. سوف يقنع الشرطة بسهولة تامة لأن الممثلين هستيريون بطبعهم أو لأن الهستيرين ممثلون بطبعهم.. سوف يبكي ويبدو مذهولًا.

انتظر في صبر حتى خلا القصر من الخدم.. حتى ساد الظلام..

دخن ألف لفافة تبغ.. ومشى في الردهة ألف مرة.. تأمل وجهه في المرأة ألف مرة.. لم يتذوق خمرًا لأنّه يعرف أنها ستودي بعقله ولسوف يرتكب خطأ شنيعًا..

ليس هذا وقته.

يسمع صوت ضرباتها على مفاتيح الآلة الكاتبة في غرفة مكتبها.. يسمع صوت قداحتها وهي تشعل لفافة تبغ أخرى..

نصف ساعة.. ساعة.. ساعة..

أخيرًا حمل التمثال الثقيل الموجود في مدخل الغرفة في جيب الروب.. تمثال ثقيل جدًّا لكنه لا يتجاوز عشرين سنتيمترًا في الطول: هذا هو البديل البريطاني لـ (يد الهون) في مصر..

دخل ليقف خلفها وهي مستمرة في الكتابة..

يجب أن يطالع ما تكتبه.. القصص البوليسية علّمته أنهم يكتبون اسم القاتل في اللحظات الأخيرة لهم.. القاتل يزيل كل آثار الجريمة لكنه لا يفطن إلى أن الضحيّة نسجت اسمه بالتريكو على البول أوفر الذي كانت تحيكه..

يطل برأسه فيجد أنها تكتب مسرحيّة سخيفة...

شعرها الأشقر الثائر من الخلف يبدو مشتعلًا بتأثير ضوء الأباجورة القادم من الأمام، ودخان التبغ يتصاعد عبر خصلاته.. يا للخسارة.. امرأة لا بأس بها لكنّها تواجدت في المكان الخطأ في الزمن الخطأ مع الشخص الخطأ..

تلفتت وقد شعرت بأنه يقف خلفها..

- «توني.. هل من شيء؟»

وكانت هذه آخر عبارة قالتها..

لشد ما تختلف الحياة في ربع ثانية عما كانت قبلها.. لقد بدأ (توني) حياة جديدة تمامًا تختلف عن الأعوام الخمسة والثلاثين السابقة.. عن كل ما عاشه وعرفه.. لم يعد مجرد فتي عابث لعوب..

الآن هو قاتل يرمق ضحيته الراقدة على الأرض ويفكر في طريقة للخلاص من جثتها..

لم يعد من الممكن أن تعود الحياة كما كانت، ولن يعود ما بعد هذه اللحظة كما كان قبلها..

لكن عليه أن يهدأ.. يهدأ...

لقد رتب كل شيء من قبل...

كان على (مارك دارو) أن يقتل زوجته..

عرف هذا منذ قررت أن تراقب كل مليم ينفقه من مالها، وأن تراقب مكالماته، وأن تفتش أوراقه..

قال لنفسه في غيظ:

- «المرأة الثرية تحاول السيطرة على كل تفاصيل عالمي تحسب أنها ما دامت أنفقت عليَّ بعض الدولارات فقد صرت ملكًا لها.. لكنّها ستدفع الثمن..»

وكانت تقول له:

- «يجب أن تتذكر.. أنا اشتريتك بمالي كما اشتريت جهاز التلفزيون هذا.. لن أسمح أن يخرج جهاز التلفزيون ليشاهده الجيران ليلًا ولا أشاهده أنا..»

تذكر (مارك) هذه الكلمات وهو يرمق جثة زوجته الممددة على البساط بعد ما هشم رأسها بذلك التمثال..

راح يلهث محاولًا التقاط أنفاسه، وخطر له أن الفارق بين حياة العابث العادي وحياة القاتل واه جدًّا.. مجرد شعرة تعبرها فتصير في المعسكر الآخر.. لكن هذه الحدود لا يمكن عبورها بالعكس..

لكنه لم يكن يشعر بذعر ولا ندم.. أثار هذا دهشته.. كان راضيًا لا أكثر ولا أقل..

كان قد تخلص من الخدم، وتأكد من أن البيت الكبير لا يحوي سواه والزوجة.. الزوجة التي كانت زوجته.. الآن صارت شيئًا..

شيئا على البساط يعني التخلص منه مليوني دولار تقريبًا ويعني عدم التخلص منه الكرسي الكهربي.. يجب أن يتخلص منها..

هكذا نزع سترته..

كان قد فكر مرارًا في أن يكتب بخط يشبه خطها رسالة انتحار على ورقة، لكنه قدر أنّ هذه خطوة ساذجة نوعًا.. خبراء الخطوط يميزون أي شيء.. ولو أرغمها على كتابة خطاب انتحار قبل أن يقتلها ليست فيه كلمة ما أو علامة يفهمها رجال الشرطة..

لا.. لن يفعل ذلك..

بدأ يجر جثتها على البساط.. من حسن الحظ أنه لا يوجد دم.. إزالة الدماء مشكلة وعقبة كأداء، ولا ينجح أبدًا..

بدأ يجرها على الدرج.. ثقيلة كالكابوس.. ملتصقة بالأرض ترتطم بكل درجة كصخرة..

العرق يغمر جبهته ويبلل صدر قميصه.. لكن ليس الوقت وقت الإرهاق..

✶ ✶ ✶

منذ شهر كان (مارك) يمارس هذا النشاط بلا توقف..

يشتري زجاجتين من الحمض المركز ويضعهما في حقيبة السيارة، ثم يعود للقصر.. يدخل المرآب بسيارته عارفًا أن السائق لن يضايقه.. ثم يفرغ الزجاجتين تلك الحفرة التي بطنها بالخرسانة مع مادة أخرى مدعمة.. حفرة ارتفاعها متران ونصف واتساعها متر، قام بعملها بمفرده بعد استشارة أحد المهندسين.. لقد ارتحل مع زوجته لقضاء العطلة، ثم تعلل ببعض الأعمال وتركها حيث هي وعاد إلى البيت الخالي ليصنع هذه الحفرة في المرآب ويدعمها..

لقد كانت عملًا فنيًا شديد الإتقان، خاصة بذلك الغطاء الذي يضعه فوقها، والذي يبدو من سطحه الخارجي كأنه جزء من معالم الأرضية..

كان يعرف أنه لن يستطيع شراء كمية من الحمض تملأ هذه الحفرة مرة واحدة، لأنّه بهذا يترك دليلًا في ذاكرة من رآه يشتري.. لكنه استطاع الاتصال بأحد أمناء المختبرات ودفع له مبلغًا لا بأس به، وبدأ هذا الرجل يحصل له على زجاجتين في كلّ مرّة.. يعود بهما للدار ويسكبهما في الحفرة..

مع الوقت بدأت الحفرة تمتلئ، وفي كلّ مرّة كان يغطيها بإحكام حتى لا يجدها أحد..

كان قد فكر في أن يدفنها في المرآب وينتهي الأمر، لكن المشكلة أن الروائح تعلن عن نفسها في هذا المكان.. لابد أن يشم أحد شيئًا.. أمّا عن إلقاء الجثة في الغابة فلعب أطفال.. الجثث في الغابة وفي النهر تظهر دومًا في الوقت غير المناسب..

هذه الحفرة تتيح لك تحويل الجثة إلى محلول شفاف نظيف بلا رائحة سوى رائحة الكبريت.. لا عظام ولا شعر ولا بقع دم..

كانت شركا مخيفًا.. وقد رأى ذات مرة فأرًا يركض مذعورًا إذ سمع صوت قدميه.. تمسك بحافة الحفرة وحاول بمخالبه ألا يسقط، لكنه انزلق لأسفل.. وعلى الفور سمع صرخة مريعة رفيعة، وتصاعد دخان يحرق العينين من السائل الكريه.. دنا من الحفرة وهو يرتجف فرأى أن الفأر لم يعد هناك... هناك فقاعة واحدة بدلًا من الكائن الحي..

هذا شرك مرعب وعليه أن يأخذ الحذر..

يعرف أساليب العدالة الشعرية هذه.. كلها تدور حول (من حفر حفرة لأخيه وقع فيها).. لابد أن تنزلق قدمه ليسقط في الحفرة..

الآن لديه بئر مليئة بالحمض ولديه جثة.. فماذا يفعل؟

أحسنت... أنت ذكي فعلًا..

لقد جر جثة الزوجة إلى المرآب وهو يشعر بأنه مراقب.. لكنه كان يعرف جيدًا أنّ هذه هستيريا لابد أن تحدث.. لا يمكن أن تقتل إنسانًا ولا تشعر بأنك مراقب وأن سرك انكشف وأنّ هذه نهايتك..

وضع جثتها على الأرض الخرسانية وأشعل الكشاف ووضعه على الأرض ليرى ما يفعله..

كشف الغطاء الذي وضعه على الحفرة..

ظهر له فم الموت المفتوح تفوح منه رائحة ثاني أكسيد الكبريت كأنها صوت أنفاسه..

نظر لزوجته نظرة أخيرة وابتسم.. رحلة سعيدة يا (ماري).. لن تتألمي لأنك ميتة فعلًا، ولو أنني قمت بحرقك في فرن لما بدا هذا غريبًا بالنسبة للمجتمع، فلماذا يندهشون من التخلص من الجثة بالحمض؟

دفعها في حذر.. هذا هو الوقت المناسب لتنزلق قدمه ويموت معها.. لا شك في هذا..

أخيرًا.. دفعة أخيرة وتسقط، وعليه أن يبتعد لأن الحمض سيتناثر ويحرقه...

سقطت الجثة في الحمض..

هنا حدث أشنع شيء في حياته..

لقد صرخت!

صرخت صرخة مروعة اهتزت لها جدران المرآب وحاولت يدها عبثًا التمسك بحافة البئر، ثم سرعان ما غابت في السائل بركة الجحيم.. وتناثر الحمض في كل صوب....

هل قاومت كثيرًا؟.. لا يعرف لأنّه سقط على الحافة وفقد وعيه من الرعب لثوان..

عندما فتح عينيه كان سطح الحمض مغطى بالفقاقيع الغضبى تعلو وتغيب، وكانت سحابة كثيفة من ثاني أكسيد الكبريت الخائق تغمر كل شيء...

اضطر لأن يسد أنفه بالمنديل، لكن الرائحة كانت تحرق العينين..

لم تمت!!

لقد فقدت الوعي لا أكثر، وأفاقت في اللحظة الأخيرة بعد فوات الأوان.. لهذا لم تنزف من رأسها.. أم هي تظاهرت بفقدان الوعي وراحت تنتظر لتفهم ما يريد عمله؟.. عندها تكون تصرفت

بحماقة فعلًا..

حاول أن ينهض لكن فخذه كان يرتجف بلا توقف كفخذ ضفدعة (جالفاني) التي سرى فيه التيار الكهربي.. لا يقدر على التماسك من هول الضغط العصبي..

تذويب الجثث شيء وتذويب الأحياء شيء آخر..

سوف يذكر هذا المشهد طويلًا جدًّا.. ربما لن ينساه أبدًا..

على كل حال يجب أن يتماسك وأن يحسن تغطية البئر، فالوقت ليس وقت الوهن. فيما بعد سوف يسد هذه البئر.. سيلقى فيها الجير الحي أو أية مادة قلوية لتهدأ للأبد..

لكنه الآن بحاجة إلى الفرار من هنا..

✶ ✶ ✶

قال له الخادم:

- «سيدي.. لا أعرف السبب لكن هناك قطرات حمض ثقبت سجادة قاعة المعيشة الثمينة..»

رفع رأسه عن الجريدة في اهتمام..

كانت أيام قد مرّت، والخدم قد عادًا، والشرطة أجرت تحقيقاتها.. بالطبع كان هو المتهم الأول، ويمكن القول إنهم فتشوا كل شيء.. قلبوا القصر رأسًا على عقب وفتشوا المرآب مرارًا.. لكن لا أثر للزوجة المختفية..

قال الخدم إنها كانت في حالة نفسية سيئة، وقال هو إنّه دفعها للانتحار على الأرجح.. هو آسف ويعتذر عن هذا، لكنّها الحقيقة.. سوف تجدونها في مكان ما بقاع البحيرة.. فقط كفوا عن الشك فيّ..

هكذا تركه رجال الشرطة بعد ما يئسوا من العثور على الجثة.. وعادت الحياة تنتظم.. بقي أن يحصل على حكم قضائي يسمح له بالتصرف في أملاكها. بعدها يتزوج (ليليان) وتبدأ الحياة الحقيقية..

لكن الخادم يكلمه عن قطرات من حمض..

نهض إلى حيث قال الخادم إنّه وجد القطرات.. بالفعل كانت هناك ثقوب منتظمة متباعدة على البساط.. ثقوب لا شك أنها ناجمة عن حرق كيميائي..

من أين جاءت؟.. لا يعتقد أنه بلل نفسه بالحمض في تلك الليلة، ولو فعل لاحترق ولشعر بذلك.. ثم إنّه لم يحمل أية زجاجة في قاعة المعيشة..

لا تفسير لهذا سوى أنها رسالة.. هناك من يقول له إنّه يعرف السر.. لكن من هو؟.. هل يلجأ للابتزاز؟.. ليكن لكن ليفعل ذلك بسرعة...

بعد يومين قالت له الطاهية إن قطرات من الحمض تساقطت على مدخل قاعة الطعام، وقد ذوبت نعل حذائها.. وتساءلت في حيرة:

- «من فعل هذا؟»

قال لها في عصبية:

- «كنت أتصور أنك الأقدر على إعطائي تفسيرًا.. هذا البيت مسئولية الخدم والمدبرات والطهاة.. ليس على أن أعنى بكل ركن فيه..»

لكنه بعد هذا وجد ثقوبًا من حرق كيميائي على أريكة غرفة المعيشة، كما وجدها على فراشه..

الحق أنه بدأ يتوتر فعلًا...

عندما نام في تلك الليلة كان مستعدًا على أن يقسم أنه يشم رائحة الكبريت المهيجة لأغشية الأنف، لكنه قدر أنّ هذا تفاعل هستيري..

نهض عند الثالثة صباحًا وقد شعر بشيء غريب..

فتح الأباجورة جوار فراشه وأنصت.. لا يوجد شيء يتحرك..

ثم خطر له أنه يرى نوعًا غريبًا من الظل تحت باب الغرفة دقق النظر أكثر وفرك عينيه.. لا.. ليس هذا ظلًا.. إنّه سائل ينساب تحت فتحة الباب.. سائل ينساب ببطء ويكون بركة صغيرة هناك. ما معنى هذا؟

نهض مسرعًا وجثا على ركبتيه وتشمم السائل.. ثم مد إصبعه يختبره.. هنا صرخ.. جلد إصبعه يحترق.. إنّه حمض!.. حمض كبريتيك مركز!

هرع إلى حوض الحمام وغسل الحرق، ثم تذكر أنّ هناك بعض بيكربونات الصوديوم في الصيدلية فصنع محلولا صغيرًا غسل به إصبعه...

لقد كان السائل يتجه نحوه عمدًا وبإصرار مريب.. كان السائل يريده هو! ولو لم يصح فلربما استكمل المهمة... كيف؟.. هل كان سيتسلق الفراش؟.. لم يعد يندهش لشيءٍ..

عاد إلى غرفة النوم الواسعة، وللمرة الأولى شعر بأنه ضئيل جدًّا وأنها واسعة عليه جدًّا.. وحيد جدًّا.. واهن جدًّا.. هش جدًّا يقدر أي شيء على أن يؤذيه..

هناك رأى المزيد من القطرات على السجادة.. بالطبع تحولت لثقوب اسودت حوافها..

عرف ما سوف يحدث على الأرجح..

لقد قرأ الكثير من القصص حتى لم تعد هناك نهايات قادرة على أن تدهشه أو تفزعه..

شبح زوجته يطارده.. الشبح الذي ذاب في الحمض ويطلب الراحة.. الشبح الذي يبغي الانتقام..

سوف تطارده القطرات في كل مكان..

سوف تحرقه وهو نائم وعند استيقاظه..

سوف تحيل حياته جحيمًا..

والغرض في النهاية هو أن يجن، ويتجه للمرآب ليثب في البئر المليئة بالحمض وينهي آلامه. هذه هي العدالة الشعرية.. النهاية الملائمة جدًّا لخيال كاتبة...

لكنه لن يفعل ذلك..

وقف على باب جناح النوم وصاح بصوت عالٍ ملوحًا بذراعيه، حتى بدا كأنه وطواط آدمي في الروب الذي يضعه على منامته:

- «لن تستطيعي أن تقنعيني بذلك... أنت تضيعين وقتك يا (ماري)!!»

تمـــــت

- 5 -

قضيت أيامًا رائعة كالعادة مع (ماجي).. معها يصير كل شيء جديدًا ويخيل لي أحيانًا أن صورتي في المرآة تروق لي.. كنت أعتقد أن الروح كالسائل تتخذ شكل الوعاء الموضوعة فيه.. يبدو أنني موشك كذلك على الاعتقاد أن الروح تغير شكل الوعاء ليتخذ مظهرها!.. الروح السعيدة الراضية تضفي جمالًا على الملامح لا شك في هذا..

إن ماجي تمنحني ذلك الشعور الذي يصعب أن تشعر به مع شخص آخر إلا من يحبك فعلًا: الشعور بأنك راض عن نفسك فخور بك.. تفكر في نفسك بشكل إيجابي.. إنها تؤكد لك الشكوك التي كنت تخشى أن تفصح عنها.. ذلك الهاجس الذي يشعرك بأنك رائع.. كنت تخشى أن تعلن عنه حتى لا تتهم بالجنون، ثم تجد من يوافقك على هذه الهواجس..

هذه من الأيام النادرة في حياتي التي لا أصاب فيها بالذبحة الصدرية إلا ثلاث مرات يوميًا.. آلام القرحة صارت تحدث ست مرات فقط.. ضغط دمي انخفض فصار عاليًا جدًّا بعد ما كان فلكيًّا يوشك على تحطيم جهاز قياس الضغط..

اعتدت في كل هذه اللحظات المبهجة في حياتي أن تحدث كارثة ما.. هذا أمر حتمي.. وعرفت أنني غالبًا على باب قصة من تلك القصص التي أعرفها وأشم رائحتها من بعيد..

كنا نخرج أحيانًا للنزهة في المرتفعات أو الصيد في بركة صغيرة قريبة أو في بحيرة (لوخ نس) نفسها.. في كل لحظة عندها حكاية جديدة أو قصة مبهرة أو ذكرى تقشعر لها..

طبعًا يذكر القارئ المخضرم قصتي مع وحش (لوخ نس) وذلك الصياد المجنون الذي حاول أن يظفر به.. يا لها من ذكريات!

لو كنت تذكر الجغرافيا، فنحن في (إنفرنسشاير Inverness) ومعنى الاسم بالضبط (فم بحيرة نس).. أي أنها تتلقى فم البحيرة. على فكرة بعضهم يتحدث الأسكتلندية وهي لغة لا علاقة لها بالإنجليزية إطلاقًا.. حتى الأسماء تختلف.. عندما تقرر ماجي أن تتكلم بهذه اللغة العجيبة لا أفهم حرفًا...

مرتفعات جرامبيان Grampian من أهم معالم المنطقة.. أمّا البحيرة أو نهر نس فهي جزء من عيب جيولوجي اسمه (أخدود جلين).. هناك قلعة قديمة تصلح لتصوير فيلم من أفلام القرون الوسطى، وهناك كنيسة عتيقة جدًّا هي الكنيسة العليا القديمة.

هذا بلد يحمل مغامرة في كل ركن، وفي كل قلعة فيه...

جو موح للخيال فعلًا.. يسهل أن تتخيل أية طفولة يقضيها الأطفال هنا...

كل هذا كان جميلًا حتى تلقّيت هذه الزيارة من (أنتوني كارلستون)..

✶ ✶ ✶

كما تعرف، كنت أقيم في قصر (ماجي).. القصر الذي تركه لها أبوها، وهو كبير جدًّا إلى درجة أنه يمكن القول إننا كنا نقيم في ذات المدينة وليس ذات البيت...

كنت جالسًا في غرفتي أكتب بعض الخطابات عندما جاء رئيس الخدم الأمين الوقور جدًّا يدق الباب.. يتكلم بطريقته الإنجليزية الراقية بطريقة غريبة كأنه أهين.. قال لي إن المستر (كارلستون) يرغب في لقائي..

(كارلستون)؟.. من هذا؟

آه.. ذلك الزوج الوسيم الذي قابلته في حفل العشاء.. زوج الأديبة العصابية إياها الذي بدا لي صبورًا يضغط على أعصابه طيلة الوقت.. ماذا يريد مني؟..

- «هل يفهم حقيقة أن صاحبة القصر هي الآنسة (ماكيلوب) وليس أنا؟»

رفع حاجبيه لأعلى مما أعطاني الانطباع بأنه يقهقه.. رفع الحاجبين عند هذا الرجل هو نوع من القهقهة.. وقال:

- «إنّه يعرف هذه الحقيقة يا سيدي، لو سمحت لي بأن أقول هذا..»

دسست يدي في جيبي الروب، ورحت أفكر..

- «هل أخبرت المس (ماكيلوب)؟»

- «أخبرتها يا سيدي، ولو كان لي أن أقول ذلك، فإن السيد يرغب في مقابلة سيدي على انفراد، وقد سمحت له الآنسة (ماكيلوب) بهذه الرغبة الصغيرة.. سوف تبقى في غرفتها..»

هذا غريب.. الرجل لا يريد مقابلة (ماجي)..

هل توجد أية مواضيع مشتركة بيننا أو هل يمكن أن توجد؟.. مستحيل..

ماذا يريده مني؟.. بالتأكيد لا يتعلق الأمر بسؤالي عن بعض أقراص (المترنيدازول) لعلاج الإسهال..

تأهبت للخروج من الغرفة ودسست قدمي في خفي، لولا أن نظر لي (جيرهارد) نظرة طويلة، ثم نظر للأرض وقال في خجل مصطنع:

- «لو كان لي أن ألفت نظر سيدي إلى أن منظره.. احم..»

تبًّا لك!.. لقد كنت مهذبًا فلم أذهب للقائه بالمنامة، وارتديت الروب.. الآن سيكون على أن أبدل ثيابي لأن هذا لا يليق بي ولا بالأخ (كارلستون).. هذا الجو البريطاني يثير أعصابي فعلًا، خاصة عبارة (سيكون علينا تبديل ثيابنا للعشاء).. وفي إحدى روايات سومرست موم يبلغ احتقار الرجل لخصمه ذروته لأنّه يتناول العشاء حافي القدمين وهو يطالع رواية بوليسية!

- «إذن أتركني حتى أبدل ثيابي..»

بعد دقائق كنت في قاعة الجلوس حيث كان هذا الرجل (كارلستون) واقفًا يتأمل لوحة جدارية عملاقة تمثل جيشًا ما يمزق جيشًا آخر بالرماح.. شعر بقدومي فاستدار، وهز رأسه في وقار:

- «د. إسماعيل..»

كان قد تغير كثيرًا عما رأيته من قبل.. إنّه مرهق.. وجهه ناحل ضامر، وهالات سوداء تحت عينيه.. لكنه يحتفظ بأناقته..

كعادة هؤلاء القوم كان قد صب لنفسه كأسًا من بار صغير وجده في ركن القاعة.. لهذا كان يكلمني وهو يحمل الكأس ويده اليسرى في جيبه..

ثم سقطت خصلة شعر على جبينه فأخرج اليد اليسرى ليرفع تلك الخصلة..

هنا رأيت أنها محترقة.. محترقة تمامًا...

- 6 -

قال لي وهو يشعل سيجارًا فاخر الشكل يذكرك فعلًا بإصبع (الكفتة):

- «منذ عرفت (ماجي) وهي تتكلم عنك.. تقول إنك بارع حقًّا.. وقد خطر لي إنك قد تقبل بيع خبراتك هذه..»

قلت وأنا أجلس على أريكة مريحة هناك:

- «سيدي.. بارع في أي شيء بالضبط؟.. بارع في أمراض الدم؟.. بارع في الحب؟.. بارع في السعال؟.. أرجو أن توضح..»

- «أنت تعرف ما أريد.. أنت بارع في مواضيع ما وراء الطبيعة.. وما أطلبه هو خبراتك هذه.. أنا أواجه مشكلة حقيقيّة.. لكن دعنا نتكلم بوضوح.. لا أحد يسمعنا ولا أحد يعرف ما قيل بيننا، فلو تسرب حرف مما أقول خارج هذه الغرفة أو حاولت اتخاذ أي إجراء ضدي فأنا سأقاضيك وأبرهن لك على أن لدي محامين ممتازين فعلًا..»

كل هذا يثير الفضول.. يثيره بقوّة.. بدأت أهتم وأنا أعرف يقينًا أنني مقبل على المصيدة المعتادة.. قدماي تنزلقان بلا شك..

سألته وأنا أتظاهر بالاسترخاء:

- «ماذا تريد قوله بالضبط؟»

قال في ثبات وهو ينظر في عيني:

- «بالنسبة للجميع أنا ذلك الزوج البائس الذي اختفت زوجته.. أنا ذلك الزوج الشرير الذي أرهق زوجته باستهتاره لدرجة أنها انتحرت على الأرجح.. لكن لا توجد عقوبة على المستهترين كما تعلم..»

طبعًا لم أكن أعرف شيئًا من هذا.. لا شك أن (ماجي) تعرفه، لكن الرجل مجرد وجه عابر مر بي وقد نسيته فعلًا لم تكن لتخبرني بأي شيء عنه..

عاد يقول وهو يدور الكأس بين راحتي يديه:

- «سأقدم لك اعترافًا صغيرًا.. أنا قتلت زوجتي!»

وثبت واقفًا..

لم يكن يمزح.. أنا بلغت من العمر درجة تسمح لي بتبين الحقيقة على الفور، وهنا استرجعت كل ما قالته ماجي عن الرجل.. عن الزوجة الثرية.. قصة تقليدية جدًّا..

يبدو أن ملامح وجهي كانت مرعبة، لأنّه قال وهو يضحك ضحكة مكتومة مرهقة:

- «بالله عليك اجلس.. أنا أعرف أنك لن تستطيع عمل شيء، ولا شهود على إنني قلت هذا.. لو أبلغت الشرطة للاحقتك بالقضايا وطلب رد اعتبار، ولسوف تمضي بقية حياتك في السجن أو مفلسًا، لهذا أرجو أن تدعني أكمل كلامي..»

جلست متوترًا كما لك أن تتصور، لكن الرجل كان هادئًا وأعتقد أنه أجرى لنفسه عدة بروفات على هذا الدور قبل أن يأتي ليقابلني.. كان دقيقًا محكمًا أكثر من اللازم..

قلت له بصوت مرتعش قليلًا:

- «إن كان كذلك فأنا أهنئك.. والآن ما دوري في هذا؟.. من قال إنني أمارس عمل قس الاعتراف في أوقات فراغي؟»

- «لأنك لم تسمع باقي القصة.. سوف أحكي لك..»

✶ ✶ ✶

هكذا حكى لي كيف تخلص من زوجته كيف أعد بئرًا من الحمض في قبو القصر، وكيف تخلص من الخدم وجر جثتها ليسقطها في تلك البئر...

لقد ذابت تمامًا، وحرص بعد فترة على أن يردم هذه البئر تمامًا، بينما فتش رجال الشرطة كل شيء.. نزحوا البركة القريبة قرعوا كل جدار ليتأكدوا من أنّه ليس مزدوجًا.. سكبوا ماء على الأرضيات.. استعملوا الكلاب..

لم يجدوا الجثة طبعًا.. وهو كان يقف يراقب ما يدور ويقول في تهذيب:

- «أنتم تقومون بعملكم.. أفهم هذا.. أفهم أن من واجبكم أن تشكوا فيَّ وأن تحيلوا حياتي جحيمًا.. صدقوني أنا أفهم هذا.. فقط أرجو ألا تتسلوا أكثر مما يقتضيه الأمر..»

وانتهى البحث طبعًا.. وصار القصر له..

هنا مد يده في جيب بذلته وأخرج كتابًا صقيلًا سميك الغلاف مما يُطلق عليه Hardcover ولوح به أمام عيني وقال:

- «هذا الكتاب صدر منذ أسبوع.. مجموعة قصص لكاتب تعرفه اسمه (جوناثان دارتمور).. إنّه شهير نوعًا في بلادنا وأعتقد أنه جيد فعلًا.. هذه القصص جمعها من مجلات متفرقة عديدة يكتب فيها..»

تناولت الكتاب فوجدت على غلافه صورة لفتاة ترتدي ثيابًا خفيفة وتمشي في غابة موحشة وتصرخ.. عنوان المجموعة يقول (ليلة أن عاد الموتى).. عنوان تقليدي جدًّا..

كانت صفحات الكتاب نحو خمسمائة.. واضح فعلًا أنها قصص رعب..

(جوناثان دارتمور).. متى عرفت هذا الاسم؟.. آه.. الأديب أصلع الرأس طويل ما تبقى من شعر الذي قابلته في ذلك الحفل كاتب الرعب إياه..

قال (أنتوني) وهو يصلح من شأن سترته التي تبعثرت وهو يخرج الكتاب:

- «هناك قصة اسمها (قطرات) تصف جريمة قتلى لزوجتي بالتفصيل!»

نظرت له في دهشة وقلت:

- «قلت إنني الوحيد الذي اعترفت له بهذه الجريمة..»

- «هو كذلك.. لم يرني أحد وأنا أرتكب جريمتي.. لا شهود وبرغم هذا هو يصف المشهد بدقة مروعة.. كل شيء.. طريقة ملء البئر.. قصة الفأر الذي سقط.. ثم تلك الصحوة الأخيرة!»

- «صحوة أخيرة؟»

قال وهو يتحاشى نظراتي:

- «أخشى أنها لم تكن ميتة كما حسبت!»

- «أنت وغد!!»

قال في برود:

- «ربما.. لكن هذا لا يعطيني تفسيرًا أفضل.. (دارتمور) لا يعرف أي شيء عن الجريمة.. لا يعرف أنّ هناك جريمة، وبرغم هذا يضعها في هذا الكتاب الذي صدر هذا الأسبوع.. هل هو يبعث لي برسالة؟.. هل يريد ابتزازي؟.. ربما.. لكن كيف عرف؟»

ثم أضاف وهو يحك شعره:

- «هناك قصة قرأتها عن قاتل أجير حريص على السرية، طارده مبتز يعرف أسماء ضحاياه وكيف قتلهم.. في النهاية أقنعه هذا المبتز أن عنده آلة زمن، وأنه يستطيع شراءها لو أراد.. بآلة الزمن هذه راقب القاتل ورأى خلسة كل جريمة قام بها..»

- «وهل كانت آلة زمن فعلًا؟»

- «كانت عملية نصب كبرى.. بعد ما اشترى القاتل آلة الزمن هذه بكل ماله، عرف أن المبتز النصاب حصل على كل هذه المعلومات عن طريق زوجة القاتل.. إنّه محظوظ لأنّه عرف.. أما أنا فلا أعرف فعلًا... هل تعتقد أن آلة الزمن واردة؟»

نعم ممكنة، وقد قابلت رجلًا من المستقبل عاد بها لزمننا وعرف كل شيء، ثم راح يلعب دور العراف، لكن ذكر هذه القصة الآن يزيد الأمور تعقيدًا..

أضاف (أنتوني كارلستون) وهو يشعل السيجار الغليظ مرّة أخرى:

- «مفف.. هل تفهم؟.. إنّه يحكي كل شيء بدقة من رأى وسمع، ثم هو يعرف موضوع هذا الحمض الذي يلاحقني..»

ورفع يده المحترقة أمامي عندها سألته في عدم فهم:

- «حمض يلاحقك؟.. لا أفهم!!»

- 1 -

هكذا قضيت الليل أطالع مجموعة القصص هذه وأنا مندس في الفراش المريح على ضوء الأباجورة جوار الفراش..

اتصلت بي (ماجي) عند منتصف الليل تسأل عن سبب اختفائي نعم.. في هذا القصر نحن نتصل ببعض لأن المشي نحو جناحها يحتاج إلى عشر دقائق على الأقل.. قلت لها إننى أطالع بعض القصص المخيفة كتبها ذلك الأخ (جوناثان دارتمور)..

قالت ضاحكة.

- «يبدو أنهم أحبوك فعلًا.. (جوناثان) صديقي أنا وبرغم هذا أنت أول من تلقى نسخة من مجموعته الجديدة.. (أنتوني) زميل قديم لكنه جاء يطلب الكلام معك على انفراد.. لكن لو سمحت لي بالنصيحة، فلا تثق بهذا الرجل.. إنّه وغد ظريف لا أكثر..»

- «لا أنوي الوقوع في غرامه على كل حال..»

- «هذا يسرني.. على فكرة زوجته مختفية منذ فترة لا بأس بها.. هل تذكر تلك المرأة العصابية السكيرة؟.. يُقال إنها انتحرت على الأرجح.. لكنني لا أستبعد أن يكون قتلها.. كل شيء ممكن مع (أنتوني)..»

هل أخبرها؟.. لا داعي.. ليس لأنني أخاف تهديد الرجل لكن لأنني لا أعرف شيئًا على الإطلاق.. لا أعرف ما يجب أن أصدقه.. لنفس السبب لم أبلغ الشرطة..

قلت لماجي عبر الهاتف:

- «هل (جوناثان) هذا مهم لديكم؟..»

- «لم أقرأ له كثيرًا.. هو كاتب رعب حظي بقدر من الشهرة خلال عام أو عامين.. هناك من يحبونه جدًّا لكني لست مهتمة بهذا النوع من الأدب، على الأقل حاليًا.. وأنت؟.. هل راق لك ما قرأته؟»

- «بعض القصص جيد وبعضها رديء جدًّا..»

ساد الصمت بعض الوقت.. ليس للبحث عن كلمات، ولكن لأنّه أبلغ من الكلمات أحيانًا.. ثم تمنيت لها ليلة طيبة.. ووضعت السماعة..

من جديد رحت أقلب الصفحات..

بطبيعة الحال كانت أول قصة طالعتها هي (قطرات).. وبالفعل كان التطابق شبه تام مع ما عرفته من (أنتوني).. فقط تدور الأحداث في الولايات المتحدة، وصار اسم البطل هو (مارك دارو) والزوجة (ماري) والعملة هي الدولار..

موضوع الحمض الذي يطارد (أنتوني) كأن له حياة خاصة، ويحرقه كلما أتيحت له الفرصة.. هذه النقطة حكاها لي (أنتوني) وكان رأيي ورأيه أنها هلاوس.. هذا موضوع محير فعلًا..

بحثت عن مفكرتي الصغيرة التي أضعها في الدرج، وبدأت أدون أفكاري كالعادة:

- الاحتمال الأول: (أنتوني) كان ثرثارًا وتكلم مع شخص سواي.. هذا وارد جدًّا.. لقد رأيت كيف يشرب هؤلاء الغربيون الخمر وكيف يتحرر لسانهم تمامًا من أية قيود إنهم يتكلمون كثيرًا جدًّا ومن الوارد أن يكون هناك من عرف القصة كلها من فم الرجل، وقرر أن يفيد منها..

- الاحتمال الثاني: (جوناثان) كتب القصة وهي أوحت بالجريمة لـ (أنتوني).. ربما لم يكن (أنتوني) دقيقًا في التواريخ، وربما كتبت القصة فعلًا قبل ارتكاب الجريمة، ولعل القاتل قرأها ونسي ذلك لكنّها ظلت في عقله الباطن.. هناك أمثلة كثيرة عن جرائم تمت بالضبط بالطريقة التي حدثت في القصص، وقد حدثت في مصر في السبعينات جريمة خطف قام فيها مراهقان بخطف فتاة لا لغرض سوى أن يكمما فمها بالشريط اللاصق كما رأيا في فيلم أمريكي!

- الاحتمال الثالث: القصة كتبت بعد الجريمة فعلًا، والسبب هو أن المؤلف يتمتع بقوى خارقة للعادة.. قوى ذهنية طبعًا تقع في منطقة التخاطر والاستبصار وال Psychokinesis.. لقد استطاع أن يرى الجريمة برغم أنه لم يكن هناك وهكذا قرر أن يستلهمها.. إنّه كاتب لص لكن بطريقة غير مألوفة...

- الاحتمال الرابع: وهو شبيهة بالاحتمال الثالث.. (جوناثان) قادم من المستقبل، أو قادر على أن يصير خفيًّا، أو قادر على الإسقاط النجمي Astral projection بحيث تتحرر روحه وتدخل أي مكان وترى كل شيء ثم تعود لجسده..

لا أرفض الاحتمالين الأخيرين، فأنا رأيت الكثير من قبل لكني لا أضعهما في أعلى القائمة..

هل توجد احتمالات أخرى؟

نعم.. الاحتمال الخامس هو أنّ هذا الزوج يعبث بي.. نوع من التسلية الشريرة لا أكثر.. لكن من الذي سيدفعه حد التسلية إلى حرق يده بهذا الشكل؟

هكذا رحت أقلب الصفحات وأنا شارد الذهن..

هنا لاحظت شيئًا في الهامش بخط صغير جدًّا.. إن القصة نشرت قبل ذلك في مجلة اسمها (هورور فاكتوري) أو (مصنع الرعب) في مارس 1981.. أي أنها لم تكتب للكتاب خصيصًا بل

قبل صدوره بزمن طويل.. إذن القصة نشرت في المجلة قبل الجريمة وفي الكتاب بعدها.. هذا يلغي معظم الاحتمالات باستثناء الثاني والخامس واحتمال أن الكاتب يرى المستقبل...

لغته الإنجليزية جيدة.. سهلة بالنسبة لأجنبي مثلي، وفي الوقت نفسه محكمة وعصرية.. كما أنه يجيد خلق التشويق هناك قصص سيئة فعلًا.. يبدو أنه كتبها دون معونة آلة الزمن تلك..

يجب أن أقابل هذا الرجل للمزيد من الثرثرة.. طبعًا يجب أن تكون (ماجي) معي وإلا فلن أظفر منه بشيء.. لن يتذكرني أصلًا..

هناك قصة اسمها مغر وطولها مناسب جدًّا.. ليست (الحرب والسلام) وليست قصة قصيرة جدًّا مما يندرج تحت مصطلح Microfiction.. هذا بالضبط هو الطول المناسب كي يغلبني النوم.. فلنقرأها ثم هو النوم..

اسم القصة هو.....

لم يستطع (ويليام موريسون) قط أن يحبّ فريق العمل في هذا الفيلم..

كان يعرف أنهم أعطوه ميزانية محدودة جدًّا، وأن المدير غاضب وأن (سيلفرمان) العجوز فقد حماسه للمشروع تمامًا..

لكن (موريسون) كان بالفعل بحاجة إلى هذا العمل.. لم يكن لديه مجال للاختيار. إن رصيده في المصرف يقترب من الصفر، وهذا هو السيناريو الوحيد الذي عرض عليه منذ عام..

اسم السيناريو هو (زوجي ميت حي).. كتبه اثنان من ألعن عينة كتاب سيناريو على الإطلاق. فيلم سخيف امتلأ بالخضات الرخيصة، والحبكة مأخوذة من دستة على الأقل من الأفلام الهوليوودية الشهيرة، أولها بالطبع (ليلة الموتى الأحياء)..

لكنه قبل أن يصور هذا الفيلم.

بالطبع كان الفيلم يدور في نيويورك.. لكن (سيلفرمان) العجوز رأى أنّ هذا يكلّف مالًا.. قال له وهو يبصق على الأرض كعادته:

- «دعك من هذا السخف.. سوف تصوّر الفيلم في مزرعتي..»

- «لكن هذا يجعل مسار القصة مختلفًا تمامًا.. بدلًا من رعب المدن نحن في رعب الريف..»

قال العجوز في سخرية:

- «اسمع.. لو أراد المشاهد أن يخاف فلسوف يفعل ذلك في نيويورك أو في مزرعتي.. لو أردت أن تريه (البعبع) فلا فارق في اختيار المكان..»

ثم حك رأسه مفكرًا وقال:

- «لابد من نصيحة (روجر كورمان).. أنت تعرف أنه كان يصور أفلامه بلا ميزانية على الإطلاق.. كان ينصح المخرج بأن يظهر أي جزء من جسد البطلة كلما مرّت خمس صفحات من السيناريو.. لا يجب أن يكون هذا في الحبكة.. اختلق أعذارًا.. اختلق مواقف.. دع البطلة تجري في الغابة فتمزق أغصان الشجر قميصها.. تصرف يا فتى.. تذكر أنّ هذه فرصتك الأخيرة..»

لنفس الأسباب الاقتصادية تعاقد العجوز مع مجموعة من التماثيل الحجرية التي تعتبر أنفسها ممثلين.. ممثل متخشب بلاخبرة يُلقي العبارات كأنه في مسرح المدرسة، وفتاة لا تعرف معنى كلمة التمثيل لكن جمالها صارخ، وهذا هو الشيء الوحيد الذي تملكه..

سيناريو متعفن.. ممثلون في غاية السوء.. لم يبق إلا ماكيير أحمق ومخرج أبله كي تكتمل المأساة..

بدأ التصوير في المزرعة بلا حماسة...

عندما ينتهي التصوير يظلون صامتين حتى اليوم التالي، كأنهم لا يصدقون كل هذه الرداءة التي صنعوها.. الكل مكتئب.. فقط تعتقد الفتاة أنها ستصير نجمة بعد هذا الفيلم.. طبعًا يعرف (موريسون) أنّ هذا فيلمها الأخير، ولسوف تشيخ لكنّها ستحدث أحفادها عن أنها كانت نجمة سينما..

أما الماكيير فكان فتى أحمق يدعى (بيتر).. فتى له شعر طويل أسود يتدلى على كتفيه وقميص مشجر وهناك قرط يتدلى من أذنه مع الكثير من الوشم.. باختصار لا يُمكنك أن تثق بأن ترسله لشراء علبة تبغ، لكنه في هذه اللحظات كان أهم شخص في الفيلم. لم يكن قد اختبر بعد، وكان يضع الماكياج الروتيني اليومي للشخصيات بلا مشاكل حتى جاءت اللحظة الكبرى..

قال له (موريسون) وهو يضع بعض الخطوط على الورق:

- «بعد أسبوع سنقوم بتصوير مشهد عودة الزوج من المستنقع.. لقد تخلصت منه الزوجة هناك.. في الظلام نفاجأ به يخرج منتفخًا مسودًا وقد تآكل جسده والتهمت الأسماك شفتيه وأنفه.. سوف يخرج من الماء والأعشاب المائية تغطيه، ولسوف يمشي بخطوات مترنحة نحو البيت.. تفتح له الزوجة الباب وتحاول في ذعر مقاومته لكنّها تفاجأ بأنها انتزعت ذراعه.. تلقيها جانبًا وتصرخ.. بعد هذا تفاجأ بأن كل من غرقوا في المستنقع يهاجمون البيت.. يدقون على الجدران.. تحاول الهرب من النافذة لكن كلبًا ميتًا متحللًا يطاردها... تجري هاربة فتغرق في المستنقع بدورها.. بعد أيام يصل رجال الشرطة.. يفتش أحدهم المستنقع بحثًا عن الزوجين المختفيين، فتخرج يد من الوحل لتمسك بذراعه. نكتشف أن الزوجة نفسها تحللت.. جمجمتها بارزة وهناك عين متدلية على خدها.. إلخ..»

عملية معقدة جدًّا.. كان يعرف أن الفتى وجه جديد مستجد على المهنة، وهذا أول فيلم له، ومهاراته موضع شك حقيقي لكن ماذا يفعل؟

- «هل يُمكنك أن تجرى لي بروفة ماكياج؟»

هكذا غاب الفتى يومين، ثم بدأ يجرى تجاربه على بطلي الفيلم.. ألصق الكثير من اللاتكس وأجرى الكثير من التغييرات في اللون، والتقط الكثير جدًّا من الصور.

وفي النهاية خرج إلى المخرج يعرض عليه أفضل نتيجة توصل لها..

فرك (موريسون) عينيه غير مصدق..

عندما تتوقع التراب فأنت لا تتحمل أن ترى الوحل.. لقد كان يعرف أن النتيجة ستكون سيئة.. ستكون مريعة، لكنه لم يتصوّر قط أن تبلغ هذه الدرجة.. لقد كان هذا أسوأ ماكياج رآه في حياته.. كان نوعًا من أقنعة الأطفال البلهاء التي يضعونها في ليلة (الهالوين). مجرد صبية يمزحون.. لا أكثر..

انفجر في الماكيير:

- «أنت مجرد هاو لا تفقه شيئًا في الماكياج! لقد رأيت أطفالًا يضعون ماكياجًا أفضل من هذا ليخيفوا زميلاتهم في الصف.. أنت الفشل يمشي على قدمين.. لابد أن يعرف (سيلفرمان) أن بقاءك معناه الفشل الذريع لهذا الفيلم..»

وانطلق إلى مقطورته الواقفة وسط المرج وأغلق الباب عليه..

لقد انتهى الأمر.. لن يشاهد هذا الفيلم سوى مجنون أو اثنين، ولسوف يحصل (سيلفرمان) العجوز على عشرة دولارات كربح صاف.. أمّا هو فقد انتهى أمره عليه أن يتقن التعامل مع آلات تصوير المستندات، لأن هذا سيكون عمله باقي حياته..

قضى يومًا بلا عمل سوى التحديق في السقف، وفي مساء اليوم التالي جاء الماكيير الشاب إلى المقطورة..

كان يخفي وجهه في الأرض.. ظل صامتًا بعض الوقت، ثم قال:

- «سيدي.. أرجوك ألا تبعدني عن هذا الفيلم.. إنها فرصتي الأولى وقد لا تأتي ثانية أبدًا..»

رفع نحوه (موريسون) عينين حمراوين وهمس:

- «ألم تفهم؟.. أنا وأنت قد انتهينا.. غنينا أغنية البجعة الخاص بنا وانتهى كل شيء..»

قال الماكيير في تصميم:

- «لكني لم أنته بعد.. وأنا أؤكد لك أنني قادر على أن أعطيك ماكياجًا ممتازًا.. فقط لي شرط واحد..»

- «شرط؟»

- «أن تؤجل كل هذه اللقطات التي تحتاج إلى ماكياج معقد إلى قرب انتهاء التصوير.. إن الماكياج سوف يكون معقدًا ولسوف أرغم أبطالي على وضعه أكثر الوقت.. لهذا أريد أن تؤجل الأمر حتى النهاية..»

- «حقًّا لا أعرف جدوى هذا..»

- «فقط جرب الشرط الثاني لي ألا ترى الماكياج إلا لحظة التصوير.. أريد أن يكون مفاجأة صادمة لطاقم العمل والممثلين الآخرين.. هذا ليس طلبًا صعبًا.. ممثلو الطريقة Method actors وتلاميذ ستوديو الممثل يفعلون هذا كثيرًا، خاصة وأدوارهم لا تحتاج إلى بروفات أو تسميع سطور..»

لم يكن أمامه من حل آخر.. على كل حال كان يعرف الحقيقة جيدًا.. من يصنع مثل هذا الماكياج الأبله لا أمل منه، ولن يفيده أن يعطي فرصة ثالثة أو عاشرة..

لكن ما الذي تخسره؟

✶ ✶ ✶

أخيرًا اقترب اليوم..

قرب المساء اتجه إلى موقع التصوير في المزرعة وسأل الماكيير عن بطليه.. هل هما مستعدان؟. إنّه لم يرهما اليوم..

قال الفتى وهو يضحك في ثقة:

- «كل شيء جاهز.. لقد أعددت الماكياج..»

هكذا بدأت الكاميرا تعمل.. هذه اللقطة تتضمن هجوم الزوج على البيت..

وللمرة الأولى هذا اليوم رأى (موريسون) بطل الفيلم في الماكياج الجديد.. ما هذا؟.. إنّه شيء شنيع مريع مغطى بأعشاب البحر.. لقد جاء من خلف البيت وهو يترنح كأنه ميت فعلًا.. اتجه للباب يقرعه..

فتحت الممثلة الباب، ولابد أن الرعب أصابها فعلًا.. لابد أنها ترى الماكياج للمرة الأولى.. صرخت وحاولت المقاومة.. لكن الزوج أمسك بذراعها.. قاومت بعنف فسقط ذراع الممثل على الأرض..

ما هذه الروعة..؟.. إن المصور ومدير الإضاءة يراقبان المشهد وهما يشهقان انفعالًا.. حتى الفتى المسئول عن لوحة (الكلاكيت) أصابه الذهول.. ما هذه المعجزة؟

هنا انفتحت أبواب الجحيم عندما أحاط بالبيت خمسة من تلك الكائنات الغارقة وراحوا يدقون على الجدران..

تجرى الممثلة هاربة بينما المصور يلاحقها بالكاميرا هنا يظهر ذلك الكلب المتحلل من مكان ما.. ما هذا الشيء الشنيع؟.. هل هو كلب حقيقي تم عمل ماكياج له أم هو كلب ميكانيكي يتحرك بأسلوب (أنيماترونيكس)؟.. مستحيل لأن ميزانية الفيلم لا تسمح...

الممثلة تركض خائفة مبتعدة عن البيت...

عندما انتهى التصوير صفق الجميع غير مصدقين.. وصاح فني الصوت:

- «هذا لا يصدّق!.. لقد أصابني الرعب أنا نفسي..»

وقال فني آخر:

- «كدت أشم رائحة العفن من هذه المسوخ.. إن هذه عبقرية..»

بينما هتفت فتاة التتابع وعيناها مغرورقتان بالدمع:

- «لقد تفوق على (ديك سميث)... هناك أفلام يدخلها الناس ليروا المؤثرات الخاصّة فقط.. هذا الفيلم سوف يحقق أرباحًا عظيمة، ولن يصدّق أحد ما يسمعه حتى يدخل السينما فعلًا..»

ثم مالت على الفتى (بيتر) وسألته في حرارة:

- «هل لديك صديقة.. تذكر أنني في الصف أنتظر متى غيرت رأيك..»

هكذا كان الجو العام، ولم يصدّق المخرج عينيه.. حسب يحلم.. بالتأكيد يحلم.

هنا قال له الماكيير الشاب بلهجة متعجلة:

- «يجب أن نصور أكبر قدر من المشاهد في هذه الأيام.. هل تقدر على تصوير مشهد خروج الزوج ويد الزوجة من المستنقع هذه الليلة؟»

طبعًا لقطات المستنقع تصوّر معًا مهما كان ترتيبها في الفيلم لكن (موريسون) كان مرهقًا.. تثاءب وقال للفتى المتحمس:

- «مستحيل.. لابد من إعداد كل شيء وانتقاء بقعة مناسبة..»

ثم نظر حوله وتساءل:

- «أين الممثلون؟.. أين جيمس وباربرا؟... وطاقم الغرقي العائدين الممتاز هذا..»

قال الفتى في لهفة:

- «تواروا عن العيان.. إنهم في الجرن الآن حيث سيقضون الليلة.. أنت وعدت بأن تقبل شروطي، وأنا أصر على أن ينعزلوا عن الباقين هذه الأيام.. أريدهم أن يعيشوا الماكياج ويتخللهم..»

- «على الأقل قل لي كيف دبرت حيلة الذراع المقطوعة هذه.. لا يبدو لي أنه كان يخفى ذراعه داخل سترته.. ثيابه كانت ممزقة تكشف عن كل شيء..»

- «كل هذه الأسرار تعرفها مع لقطة المارتيني.. صدقني..»

لقطة المارتيني عند السينمائيين هي آخر لقطة في الفيلم على كل حال انصرف الكل سعداء راضين.. ما عدا واحدًا..

✶ ✶ ✶

أنت رأيت كل هذا يا (موريسون)..

ألم يبد لك حقيقيًا؟.. أنت تعرف الفارق بين الإيهام والحقيقة هل شعرت بالإيهام في هذا كله؟

أنت تمشي وسط المستنقعات.. لا تدس هنا يا أحمق..هذه ليست جذوع أشجار.. إنها أيدي موتى.. إنها تخرج من الوحل.. تحاول الإمساك بك.. الكلب الشيطاني المشوه يركض فوق الأوحال لكنه لا يغرق.. حاول أنت أن تفر لكن الأرض زلقة.. زلقة..

اصرخ!.. ما لصوتك محتبس في حنجرتك؟.. ألم تفهم؟.. لأنّه كابوس يا أحمق.. لا أحد يجد صوته للصراخ في الكوابيس..

انهض.. العرق يغمرك.. الدوار يوشك على أن يفتت رأسك.. تتناثر العظام لتصنع مدارًا أبديًا حول مخك العاري.. هناك شيء خطأ... شيء ما خطأ..

تنهض من النوم في مقطورتك.. شيء ما خطأ..

تعرف ذلك..

تجرع جرعة هائلة من زجاجة الماء الموضوعة جوار الفراش الصغير، فيغرق الماء صدرك، ثم تنهض.. أنت بحاجة إلى أن تجد (بيتر).. بحاجة إلى أن تفهم..

العرض كان مبهرًا ممتعًا ومن الواضح أن الفيلم قد نجح قبل أن يعرض.. أقسى النقاد قلبًا سوف يكتب قائلًا: «الفيلم ردي ء والتمثيل بدائي، لكن لابد من مشاهدته من أجل مؤثراته الخاصّة التي لا تصدق..»

لكن لابد أن تفهم.. أنت لست بائع صحف ولا خبازًا.. أنت في المهنة ويجب أن تفهم.. أنت ربان هذه السفينة وعليك أن تعرف موضع كل مسمار في القاع..

هكذا ينهض.. يمشي في الخلاء وسط المزرعة الصامتة المظلمة.. يتجه إلى الجرن.. هناك ضوء خافت من تلك النافذة.. يبدو أن (بيتر) سهران مع الممثلين، ومن المثير أنه لا يشعر بالرعب منهم.. الماكياج متقن لدرجة أنه يخيف صانعه نفسه..

اتجه إلى المدخل وفتح الباب الخشبي الذي يصدر صريرًا.. (بيتر)..

- «(بيتر)!»

ليس هنا.. فقط هناك مصباح يضاء بالكيروسين.. هناك كتاب عملاق مصفر الصفحات مفتوح هناك شمعة سوداء شمعة سوداء؟.. هناك دمية قماشية على المنضدة..

لحظة.. هذا الذي أراه على الأرض.. أليست نجمة خماسية؟.. وهذه؟.. أليست قطرات دم؟...

لا أعرف من كان هنا لكنه يمارس السحر الأسود.. لا شك في هذا الكتاب يتحدث عن سحر الفودوو.. العقيدة الودونية بالذات..

لماذا يدرس بيتر هذا الكلام الرهيب؟

هنا رأيى كومة القش التي تم تكريمها عمدًا في الركن لتخفي أشياء.. اقترب منها وأخرج الكشاف الصغير الذي يحمله في جيبة وصوبه..

لم يكن هذا ماكياجًا.. عرفت هذا منذ اللحظة الأولى!.. لهذا يستطيع أن يصنع كل شيء.. لهذا يمكنه أن يمزق ما يريد من أنسجة، ويحدث أية تشوهات.. عندما يقتضي الأمر أن تسقط عين البطلة على خدها سيكون هذا سهلًا لأنّه كذلك فعلًا!... أسهل الطرق لعمل ماكياج شخص محترق هو أن تحرق شخصًا بالفعل.. يُمكنك عمل ماكياج جثة متحللة بأن تقتل شخصًا وتدعه يتحلل..

ومن هؤلاء التعساء الذين لعبوا دور الجثث العائدة من المستنقع؟

بيتر مجنون.. بيتر سفاح لكن السؤال المهم هو: كيف استطاع تحريك جثث قتلاه؟.. لأنّه يمارس الفودو وهي العقيدة التي يطبقها من يصنعون الزومبي.. لقد عرف شيئًا مهمًا وأصر على أن يطبقه...

هنا سمع صوت عواء من خلفه فأجفل..

استدار بسرعة ليرى بيتر.. كان جاثيًا على ركبتيه يغطي وجهه ويعوي كالذئاب.. كان يبكي ولكن لماذا؟.. كيف جاء ومتى؟

- «لن أستطيع أن أعيدهم!.. أنا شيطان.. أنا مجرم!.. لقد وعدني بأن يعلمني كيف أعيدهم!.. كنت سأعيدهم بمجرد انتهاء التصوير لكنه خدعني!.. خدعني!»

- «من وعدك بأي شيء؟»

لكن الفتى كان يعوي بلا انقطاع.. لا يجيب عن أي سؤال..

- «من وعدك؟.. كيف قتلتهم؟»

- «أنا قتلتهم!... استدرجتهم هنا واحدًا تلو الآخر بزعم إجراء بروفات وقتلتهم.. ثم بدأت الطقوس.. بدأت الطقوس!»

هنا كانت أعصاب (موريسون) قد تخلت عنه تمامًا..

لا يعرف كيف أمسك بالمصباح وفتح الصمام وراح يسكب الكيروسين على الفتى، ثم ركض نحو المشهد الشنيع وراء القش فسكب ما تبقى من كيروسين، وألقى بالمصباح المشتعل..

هذه البشاعة لن يطهرها سوى النار.. يجب أن يحترق كل شيء.. كل شيء..

تمسكت النار بالفتى الراكع الباكي لكن المخيف أنه لم يتحرك لم يبد أي ألم.. الصراخ المريع جاء من هؤلاء الراقدين في ركن الجرن..

أية أصوات مريعة غير آدمية أصمت أذني (موريسون) وهو يترنح قاصدًا الباب..!

فقط في هذه اللحظة تذكر أنه كان أخرق.. تذكر أنه لم يرش الكيروسين بطريقة منهجية بحيث يسمح لنفسه بخط رجعة.. لقد سد الطريق على نفسه نحو الباب..

وعندما اشتعلت النار في سترته وعندما سقطت رافعة خشبية فوقه، كان آخر شيء خطر له هو أنه محظوظ.. لم يعد من الممكن أن يعيش ثانية واحدة بعد ما عرف السر الرهيب..

جرن محترق ورماد وعظام متفحمة.. هذه أنظف نهاية ممكنة لهذا الكابوس...

تمـــــت

- 2 -

ولا بأس بها كقصة.. فكرت في هذا وأنا أغلق الأباجورة صحيح أن الرجل سادي نوعًا ويستمتع بوصف البشاعة، لكنّها ليست سيئة.. موت المخرج لا مبرر له في رأيي.. كان يمكن إنهاء القصة نهاية نظيفة باحتراق الماكيير فقط..

هناك الـ... هناك الـ... ماذا كنت أقول؟.. الأفكار تتطاير علامة على أن التكوين الشبكي في مخي قد بدأ يتثاءب بدوره.. الأنوية الأماميّة في المهاد التحتي تعمل... إنِّه النوم.. إنِّه النووم..

ثم...

لحظة من فضلك.. هناك جثث محترقة تنهض لتؤدي دورها في فيلم سينمائي.. القصر كبير جدًّا وأنا وحدي في هذا الجناح كله.. أقرب كائن حي على بعد عشر دقائق من المشي داخل هذه الممرات.. ممرات تعجّ بأشباح أجداد (ماجي).. السير فلان (ماكيلوب) والدوق (علان ماكيلوب).. كلهم الآن ينهضون ليبدءوا جولتهم الليلية.. وأنا هنا.. في الظلام.. وحدي...

من الصعب أن تثير رعبي بعد كل ما رأيته، لكن في الوقت ذاته هذه القصة أثارت عدم راحة في نفسي فعلًا.. الرعب لا يصنع أي تأثير إلا إذا كانت الظروف من حولك تسمح بذلك، كما أنّ قصائد الحب تبدو كلامًا فارغًا لمن لا يحب..

هل أتصل به (ماجي) وأتكلم معها هاتفيًا حتى الصباح؟.. من الصعب أن أذهب لأوقظ رئيس الخدم وأنام في فراشه طلبًا للأمان لن يبتلع بروده الإنجليزي السمج هذا التبسط.. لا حل سوى أن أبقى حيث أنا وأتمنى أن أنام بسرعة...

كم الساعة الآن؟.. رحماك أيها النهار.. كف عن التلكؤ ولعب الكرة في الأزقة والوقوف على الناصية ومعاكسة الفتيات.. تعال بسرعة من فضلك..

✶ ✶ ✶

جلست على مائدة الإفطار العامرة - كأنها بوفيه مفتوح - أنقل لطبقي ما يمكن أكله، أعرف أن (ماجي) حرصت على أن تكون المائدة عامرة لأننى ضيفها.. فيما عدا هذا هي تمقت الأكل فعلًا وتعتبره عملية تعذيب.. أمّا لغز بقائها حية وهي لا تأكل أي شيء، فعلم ذلك عند الله وحده، ولعلها تمارس شيئًا شبيهًا بالتمثيل الغذائي لدى النباتات.. تعتمد على الشمس وثاني أكسيد الكربون لتصير هي (ماجي)..

كنت في أسوأ حال كما لك أن تتصور.. مرهق متعكر المزاج، فلربما لم تعرفني وأنا جالس إلى المائدة وحسبتني مصيبة أو خبرًا سيئًا..

هذه هي الجريدة المحلّيّة.. لها اسم أسكتلندي غالي - نسبة للغال - صعب النطق، لكنّها بالإنجليزية والحمد لله.. كسرت قمة البيضة ودسست فيها الملعقة، وأنا أطالع عناوين الصحيفة..

جاءت (ماجي) مشرقة كالعادة فألقت على تحية الصباح:

- «طائري الصغير يبدو كمن نام ليلته في خلاط أسمنت..»

- «أنت قلت من قبل إن هذا أسلوب حياتي.. فقط كان الخلاط أسرع من اللازم أمس.. هناك جثث تخرج من المستنقع لتمثل فيلمًا وأشياء من هذا القبيل..»

هزت كتفيها في شبه ضحكة وهي تتخذ مقعدها إلى جواري وصبت لنفسها كوبًا عملاقًا من عصير الأناناس، وقالت:

- «لابد أنّ هناك قصة مثيرة تتعلق بهذا الموضوع، لكن افرغ من إفطارك أولًا..»

تابعت العناوين بسرعة، ثم سألتها بشكل عابر:

- «هل هناك دار سينما اسمها (تنزل تاون) هنا؟»

- «نعم.. ماذا هنالك؟»

قلت وأنا أضع البيضة جانبًا:

- «مشاهد احترق وهو يشاهد فيلمًا فيها أمس.. لم يكن هناك أي سبب للاحتراق كما قال الشهود.. فقط اشتعلت فيه النار وهو يشاهد الفيلم..»

تقلص وجهها في تقزز وعدم فهم، فقلت:

- «احتراق ذاتي autocombustion إن كنت أحسنت فهم الخبر.. هناك قصص كثيرة عن ذلك في الكتب الفورتية Fortean.. أشخاص يتكلمون أو يجرون أو يرقصون ثم فجأة يشكون من السخونة.. وسرعان ما يتحوّلون إلى رماد.. في حالات كثيرة تظل الثياب سليمة لسبب مجهول..»

- «هذا كلام فارغ.. هل رأيت حادثًا مشابهًا؟»

- «لم يكن احتراقًا ذاتيًا، ولكن كانت لعنة من يدعي (شاكال).. هذه قصة طويلة.. لكننا هنا نقرأ عن اشتعال ذاتي بالمعني الحرفي للكلمة..»

قالت وهي تضع الكوب جانبًا:

- «هذا هراء.. أسوأ الأخبار وأقلها دقة علمية هي التي تقرؤها في الصفحة الأولى من الجرائد..»

ثم تذكرت شيئًا فأضافت مقطبة جبينها:

- «كانت هناك قصة قرأتها لـ (جوناثان دارتمور).. نفس الأديب غريب الأطوار الذي كنت تقرأ قصصه أمس.. قصة طريفة عن دار سينما فيها أربعة مقاعد لا يتم حجزها أبدًا.. من يجازف ويجلس في هذه المقاعد يحترق... لا أذكر التفاصيل لكن المجموعة القصصية عندي..»

توقفت عن التهام الطعام.. رفعت رأسي في اهتمام وسألتها:

- «يجب أن أقرأها.. هل هي متاحة؟.. أعني هل الوصول لها سهل؟»

- «بالتأكيد..»

وهكذا غابت عن مائدة الإفطار لفترة قصيرة جدًّا.. نحو ساعتين أو أقل قليلًا، ثم عادت من غرفة المكتب الخاصّة بها ومعها كتاب مغلف بغلاف سميك، ويحمل عنوان (حكايات لا تناسب البالغين).. واضح أنه تنويع ساخر علي عبارة (حكايات لا تناسب الأطفال)..

- «ألن تخرج اليوم؟»

- «نعم.. سوف أطالع بعض هذه القصص اليوم..»

✶ ✶ ✶

صافحني مدير السينما الشاب المتشكك ورفع نحوي عينين متسائلتين، فجلست على المقعد أمام مكتبه وفردت الصحيفة لأريه الخبر الرهيب..

نظر لي بعينين متسائلتين من جديد.. لسان حاله يقول: تشرفنا.. هل من شيء جديد؟

قلت في وقار:

- «أنا أؤلف كتابًا سيصدر بالعربية في بلدي عن الأساطير الحضرية عبر العالم، وقد بدا لي أن دار السينما هذه تحمل قصة ممتازة.. فقط أؤكد لك أن الكتاب سيصدر بالعربية ولن يقرأه أحد من قارئي الإنجليزية، ثم إنني سأوقع لك تعهدًا بعدم ذكر اسم دار السينما برغم إنِّه في أحوال معينة قد تكون هذه دعاية ممتازة..»

قال في لا مبالاة:

- «لا أبالي أن تنشر اسم الدار أو لا تنشره.. فقط أريد معرفة ما ترمي له..»

- «أريد معرفة إن كانت هناك أساطير تحيط بهذه الحادثة أشياء يحكيها العاملون المسنون أو شيء من هذا القبيل..»

ابتسم كمن كان يعرف أنني سأسأل هذا السؤال وقال:

- «هناك خرافة قديمة.. يبدو أن المسنين يعرفونها لكني لم أعش هذه الحادثة للأسف.. يقولون إن أسرة كاملة ماتت هنا في الماضي، وإن أشباحها تحجز المقاعد الأولى في الصف الأمامي كل ليلة.. طبعًا هذا سخف، لكنه أقوى من القانون.. لهذا يتجاهل عامل الشباك هذه المقاعد عند الحجز.. هذا عرف قوي كما أنّ الفنادق لا تكون فيها غرفة رقمها 13.. هذا أقوى منك.. لكن هذا المشاهد البائس لم يحبّ مقعده كثيرًا وقام بتبديله في الظلام..»

هنا تذكرت شيئًا فسألته:

- «أي فيلم كانت دار السينما تعرضه ليلة أول من أمس عندما احترق ذلك المشاهد؟»

قال باسمًا:

- «فيلم رعب اسمه (أوركا).. هل تعرفه؟»

- «لا.. الاسم يبدو مألوفًا..»

- «أنت تعرف هذا الجو.. بحر هائج وسفن غارقة وحيتان غاضبة.. باختصار هو صيغة أخرى رديئة من فيلم (الفك المفترس)!»

- 3 -

قلت لـ (ماجي) وأنا أتصفح مجموعة القصص القصيرة تلك:

- «الآن أنت تعرفين ما أعرفه، ومن الجلي أنّ هذا كله سيبقى سرًا..»

قالت في ضيق وهي متربعة كقط صغير في مقعدها المفضّل:

- «قلت لك إنّه لا يُمكنك الثقة في (أنتوني) هذا.. لو قال لك إنّه بريء فهو قاتل.. لو قال إنّه قاتل فإنني أرجح أنه يكذب وأنه لم يمس زوجته بسوء.. الخلاصة أنه كاذب في جميع الظروف.. هذا الطراز الهستيري المغرور المليء بالخيلاء، والذي يبدو ظريفًا في المجتمعات لكنه خاو تمامًا.. كل كلامه كذب.. كل وعوده كذب.. والمصيبة أنّ هذا الطراز يعجب الفتيات جدًّا..»

- «هذا لغز.. ولماذا يروق لهن؟.. هل فهن ينخدعن بكلامه ولطفه؟»

- «بعضهن ينخدعن.. لكن الأغلب أن الفتاة تهوى العبث مع مخلوق خطر كهذا.. نفس المتعة التي تشعر بها عندما تلعب مع ثعبان سام، عالمة أنها قادرة على أن تتحاشى لدغاته..»

ضحكت كثيرًا ونظرت لها وهي جالسة بنحولها المعهود، حافية القدمين متربعة وقد وضعت على حجرها حرامًا ملونًا بتلك الألوان الزاهية المميزة للسبعينات وأوائل الثمانينات. قطة في منتصف العمر مغتاظة بطريقة ظريفة فعلًا..

قلت لها:

- «تعرفين عنه كل شيء.. هل ضايقك؟»

- «فكر في أن يبدو فاتنًا، لكن لعبته كانت واضحة.. العانس الثرية مناسبة له وقد انتهي رصيده في المصرف.. لهذا عاملته كما يستحق..»

ثم حكت شعرها الأشقر الطويل وقالت:

- «(أنتوني) قد يكون كاذبًا.. لا يُمكنك أن تعرف الحقيقة أبدًا.. لكن قصة السينما هذه لا تروق لي..»

قلت وأنا أنظر في ساعتي:

- «لهذا قررت أن أدخل السينما هذه الليلة.. هذه السينما تختلف عن المذكورة في القصة، فهي تقدم عرضًا يوميًا، ومن المثير أن عرض اليوم هو (أوركا)..»

- «هل تمزح؟.. نحن تجاوزنا منتصف الليل..»

- «هذا هو الوقت المناسب بالضبط.. القصة انتهت بالبطل وقد دخل السينما بعد مواعيد الحفلات.. فماذا حدث بعدها؟.. (جوناثان) هذا مولع بالنهايات المفتوحة كما يبدو.. أنا سأغلقها..»

قالت في لهفة سرتني:

- «سوف آتي معك إذن..»

عرض مرفوض طبعًا.. النساء يزدن الأمر تعقيدًا لأننا نحمل همهن، وهن يشكلن نقطة هشة فينا يمكن الهجوم عليها بسهولة.. الرجل المنفرد هو الأفضل والأقدر على التفكير السليم.. قاعدة عرفها الجميع بدءًا بقيادات الجيش الأمريكي وانتهاء بي..

- «آسف.. ولا داعي للإلحاح.. هذا قراري الأخير..»

وهكذا يمكن أن أختصر الأحداث.. لقد ذهبت إلى السينما في ساعة مبكرة جدًّا من صباح اليوم التالي.. أوصلتني (ماجي) بالسيارة الصغيرة وتركتني مع وعد بأن تعود بعد ساعة لنفس المكان.. السينما قريبة لكنّها تحتاج إلى سيارة للوصول لها في هذا الوقت..

أنا لست شجاعًا.. لست أحمق.. لكني فضولي لأقصى درجة، وقد قدرت أن نظرة واحدة تكفي كي أستريح بقية حياتي..

✶ ✶ ✶

بالفعل سمعت صوتًا خافتًا من داخل البناية..

هناك فيلم يدور بالداخل، وهذه السينما لا تقدم حفل منتصف الليل.. صاحب السينما يعرف شيئًا بالتأكيد..

هناك تلك النافذة السفلية التي وجدها بطل القصة.. سوف أزيحها وأدخل.. ثم ماذا؟.. ماذا فعل بعد ذلك؟

«*أخرج الأداة التي حملها ودسها بين مصراعى النافذة الصغيرة وضغط وهم ينظر خلفه في حذر..*»

نعم.. معي أداة صالحة..

«*دسّ جسده في الفتحة، ثم أخرج الكشاف..*»

معي كشاف كذلك.. هذا جميل..

«هذه هي الصالة الخالية.. تقريبًا...

يقف في نهايتها وينظر..»

بالفعل مشاهد الفيلم تدور على الشاشة.. هل هناك عامل عرض في المقصورة؟.. هذا يزيد الأمور تعقيدًا..

بالفعل هم هناك.. في الضوء القادم من الشاشة أرى (السلويت) الخاص بهم.. أربعة ظلال.. أربعة أشخاص يبدون كالبشر يراقبون الشاشة حيث حوت ضخم يلتهم فتاة.. لا أعرف بالضبط فأنا لا أنظر للشاشة.. من المجنون الذي ينظر للشاشة في ظروف كهذه؟

الآن أعرف أن (جوناثان) سمع الأسطورة.. هذا ليس صعبًا كل كاتب رعب يهوى جمع القصص المخيفة في المنطقة التي يكون فيها، وينسج قصته على أساسها.. هذا مؤكد..

أمّا الأهم فهو أن الأسطورة حقيقيّة.. حقيقيّة تمامًا..

هناك احتمال لا بأس به أن يكون هؤلاء أشخاصًا طبيعيين ربما هو حفل خاص أقامه أحد الأثرياء لأسرته.. ربما هو صاحب السينما نفسه..

لابد أن أرى المقصورة.. لم يشعر أحد بي..

هكذا تسلقت الدرج المعدني الذي يقود لمقصورة العرض حيث كانت الآلة لا تكف عن الهدير مع الحرارة الشيطانية التي كانت آلات العرض تبعثها في ذلك الزمن..

أطالت بعنقي للداخل كقط أصلع..

لا يوجد أحد.. آلة العرض تعمل وحدها بلا (مكنجي).. لكن من يبدل البكرات؟.. من يطفئها بعد انتهاء العرض؟.. هنا رأيت ذلك السلك على الأرض يتدلى خارجًا من فجوة في الجدار..

إذن مدير السينما يضع البكرة ويعدها للعرض، ثم يرحل غالبًا يعود لداره المجاورة للسينما.. ثم من هناك يشغل آلة العرض لتعمل وحدها، لأنّه لا يريد أن يكون هنا عندما يبدأ العرض.. لا يريد أن يرى.. طريقة بدائية لكنّها تتناسب مع إمكانيات ذلك الزمن على كل حال. بعد ثلث ساعة - أو ما يقدر أنه طول البكرة - يغلق الدائرة وهو في بيته فيعم الظلام وترحل الأشباح.. طبعًا لا تهتم الأشباح بالتتابع ولا الحبكة.. هي تريد بعض المشاهد على الشاشة فقط.. هذه البكرة هي القربان الذي يقدمه لها كي تترك الدار في حالها..

نظرت من شباك العرض إلى الصالة.. يمكن بسهولة أن أرى هؤلاء المشاهدين غريب الأطوار.. يمكن أن.....

ماذا ضربت بقدمي؟.. يا لي من أحمق!

لقد فصلت السلك الذي يجري على الأرض.. توقفت آلة العرض وأظلمت الشاشة.. يجب أن أعيد التشغيل يجب..

رحت أفتش عن القابس الذي انتزعته من موضعه.. عن الـ...

لم أدر أن هؤلاء المشاهدين غادروا مقاعدهم غاضبين.. لم أدر أن أحدهم صعد نحو المقصورة.. لم أدر أنه يقف على الباب..

كنت جاثيًا على ركبتي أفتش عن السلك على الأرض عندما رأيت في مجال إبصاري هاتين القدمين..

هاتين القدمين المتفحمتين...

- 4 -

ولكن دعونا من هذه التفاصيل المملة، ولننتقل لحادث مثير بالفعل.. إن محاصرتك في مقصورة عرض سينمائي من قبل جثة متفحمة تهوي مشاهدة أفلام البحر أمر ممل مر به معظمنا.. التجربة المرعبة فعلًا هي ما مر به (أنتوني كارلستون)..

فيما بعد عرفت أنّ هذا ما حدث.. سوف تعرف بعد قليل كيف عرفت هذا..

كان الليل قد جاء فاتجه إلى مرآة الحمام وتناول قرصين من المهدئ الذي يحفظه في الصيدلية هناك، وتأمل وجهه.. إنِّه ما زال وسيمًا برغم الضغوط العصبية التي كان يلاقيها..

لقد خلا القصر تمامًا.. لقد طرد الخدم وقرر أن يبدأ من جديد تمامًا..

بالفعل قام بردم البئر التي ذوب فيها (مادلين) وقام بتبديل السجاجيد التي وجد فيها ثقوب الحمض..

فترة عصيبة مرّت به منذ كانت قطرات الحمض في كل مكان، وفي تلك الليلة منذ أسبوعين ملأ المغطس بالماء استعدادًا لأخذ حمام دافئ..

تجرد من ثيابه واستعد ليغطس في الماء، عندما لاحظ بحاسته المرهفة أن الصابون السائل لم يحدث الرغوة الجزلة المتوقعة.. لقد تحول إلى مادة تشبه الطبشور ترقد في القاع.. لماذا لا يبدو الماء شفاف رقراقًا؟.. هكذا بدأ يفهم الحقيقة لكنه تأخر عن ذراعه اليسرى.. الذراع التي امتدت لا شعوريًا إلى الماء، وهنا صرخ كان هناك من يحرقه حيًّا.. بالفعل كان هناك من يحرقه حيًّا.. المغطس مليء بالحمض!!

لقد نجا بمعجزة ما من عملية إعدام بشعة...

هكذا أفرغ المغطس وسكب محلول البيكربونات على ذراعه، لا لسبب إلا لأن بطل قصة (جوناثان دارتمور) فعل ذلك.. فهو لم يكن يفهم حرفًا في الكيمياء..

الآن وبعد العودة من المستشفى صار على يقين تام من أن روح (مادلين) تطارده.. شبحها.. لعنتها.. أي شيء..

ثم تذكر كتاب (جوناثان).. هنا خطر له إن هذه كلها مؤامرة مدبرة من الكاتب: محاولة لدفعه للجنون أو التهور أو الخضوع اللابتزاز.. كيف يستطيع الكاتب أن يغير مياه الاستحمام إلى حمض وهو في بيته؟.. لا يعرف، لكنه قدر أن في الأمر لعبة كيميائية ما.. ربما هي مادة في الصابون الذي استعمله..

وكيف عرف (جوناثان) كل هذه التفاصيل؟

هناك تفسير... حتمًا هناك تفسير.. لكن لا يتحدثن أحد عن الزوجة التي عادت لتنتقم.. المشكلة أنه اعترف بكل شيء لذلك الطبيب الأحمق الذي قالت ماجي إنِّه عبقري، لكن ذلك الطبيب الأحمق لم يملك ما يقدمه سوى الذهول.. سوى الدهشة...

هكذا رفع سماعة الهاتف.. وطلب (جوناثان)...

جاء صوت الكاتب المميز المتوجس قليلًا.. فقال له:

- «اسمع يا بني.. هذه الألعاب لن تنطلي على..»

- «من المتحدث؟»

- «أنت تعرف من المتحدث.. ذلك الأحمق الذي تحاول ابتزازه.. أنت عرفت شيئًا ما وتحاول الاستفادة منه.. هل دست كاميرات مراقبة في القصر أم هم الخدم؟»

- «عم تتكلم؟»

- «إن لكل منا نقطة ضعف مريعة، وثق أنني سأنبش في حياتك لأجد هذا الشيء، فإن لم أجد لاستأجرت قاتلًا أجيرا ينسف رأسك.. لا تعبث معي.. صدقني.. أنت اخترت الشخص الخطأ..»

ثم وضع السماعة راضيًا عن نفسه.. لابد من الحزم.. إن المؤلف سيصاب بالذعر من لهجة هذه المكالمة القاطعة...

صحيح أنه لا يفهم شيئًا ولم يجب عن أية علامة استفهام، لكنه واثق أن الأشباح ستتوقف.. لا بأس بألا نفهم الشيء ما دام خطره قد انتهى...

الآن خلا له القصر وتوقفت الحوادث المرعبة..

كان أول شيء قام به هو أن تزوج (باتريشيا) الراقصة الحسناء ذات الأصل الروسي.. تم كل شيء بسرعة جهنمية، وقد انتقلت لتعيش معه في القصر توطئة لأن تبدأ رحلة شهر العسل بعد غد..

إنها مخلوقة فاتنة أنيقة، وتمت لعالمه فعلًا.. عالم الثراء والسيارات الفارهة وأندية الليل والطعام باهظ الثمن.. تحفة يضيفها لهذا العالم ويفخر بها كما يفخر الأثرياء بمجموعة من لوحات (رينوار) أو (مانيه)...

لم يدع أحدًا للزفاف.. لم يقم أي حفل.. لقد تم كل شيء في ليلة واحدة، فهو لايثق بهؤلاء الأصدقاء المزيفين من أمثال (جوناثان) و(ماجي) وسواهما...

الآن هو في الفراش بمنامة حريريّة أنيقة.. الغرفة الواسعة المريحة بستائرها الثمينة، وأغنية شاعرية تنبعث من جهاز (الهاي الفاي)...

(باتريشيا) في الحمام الملحق بالغرفة.. سوف تأتي حالًا..

أطفأ النور وراح يتأمل السقف ويدندن مع اللحن الرشيق..

«وجدت حبي في بورتوفينو

لأنني ما زلت أؤمن بالأحلام..

مع سحر الصباح العذب

حملك البحر لي..

بعينين نصف مغمضتين

في بورتوفينو

أستعيد صورتك..»

جاءت باتريشيا.. بقامتها الرشيقة الفارعة مدثرة بالظلال، قادمة من أرض لم يرها إنسان من قبل.. تأتي عكس الإضاءة الخافتة شفافة هفافة..

ترقد في الفراش جواره.. تقترب.. تحيط عنقه بذراعها إنها تدندن مثله بصوت مكتوم:

«وجدت حبي في بورتوفينو

لأنني ما زلت أؤمن بالأحلام..»

أغمض عينيه.. من أجل لحظات كهذه قتل.. إن (باتريشيا) هي العلاج الوحيد كي ينسي منظر زوجته وهي تصرخ عندما ابتلعتها البئر..

غارقًا في نشوة الأغنية سمع (باتريشيا) تصيح:

- «لا تنم يا حبيبي... أنا قادمة!»

لكن الصوت لم يأت من (باترشيا) النائمة على صدره، بل من (باتريشيا) أخرى هناك في الحمام!.. إنها ما زالت في الحمام إذن!.. لكن.. من هذه إذن؟

هنا أدرك أنها مبتلة جدًّا،، ثم فهم بصعوبة أنها تذوب.. فعلًا تذوب.. وأن السائل حارق جدًّا!!.. لقد تشكل الحمض في صورة (باتريشيا) واندس جواره في الفراش.. عانقه.. إنِّه الكمين محكم!... المرأة التي كانت على صدره قد تحولت إلى بركة من الحمض.. وها هو ذا يغرق في السائل الحارق ويرى الأبخرة تتصاعد لتملأ فضاء الغرفة...

صرخ صرخة أخيرة قبل أن يذوب وجهه نهائيًا....

«بعينين نصف مغمضتين

في بورتوفينو

أستعيد صورتك..»

- 5 -

كنت على الأرض وقد توقف عقلي عن العمل تمامًا، وعلى الأرجح كان قلبي في ذات الطريق، ورفعت رأسي لأعلى لأرى ذلك الشيء المريع..

لقد كانت الأسطورة حقيقيّة تمامًا.. هؤلاء لم يكونوا بشرًا ولا أثرياء يريدون حفلًا خاصًا..

لقد وضعت نفسي في ورطة لأن المخرج الوحيد من هنا هو الباب، والباب يسده هذا الشيء هذا الشيء المريع.. هذا الشيء المحترق المتفحم...

ماذا يفعلون بمن يقع في أيديهم؟.. الأشباح على قدر علمي تكتفي بإثارة الرعب لكن هل هذا شبح؟.. إنِّه شيء عسير على التصنيف.... أعتقد أن له وجودًا ماديًا لا بأس به وهو قادر على قتلى لو أراد..

آلة العرض.. إنها على منصة دوارة.. ربما لو استطعت أن..

القابس.. أعدت تثبيته فعاد هذا هو السلك الذي انتزعته صوت الهدير يدوي..

مددت يدي حيث كنت على الأرض ولففت المنصة المتحركة بسرعة نحوه لتصوب العدسة على وجهه مباشرة.. إضاءة مركزة غاية في السطوع أعمته على الفور.. وعلى جسده سقطت لقطات الفيلم كأنه شاشة عرض.. إنِّه بحاجة لأن يرى..

تراجع إلى الخلف قليلًا.. أفسح لي ثغرة عند الباب فاندفعت جواره لكني لم أبتعد..

كان يقف هناك وهو يفتح مخالبه.. يفتح كفة المحترقة عازمًا على الإمساك بي..

هنا سمعت من يصيح:

- «ابتعد يا رفعت!»

وهوت ماجي برافعة سيارتها (الكوريك) على رأس هذا الشيء وهي تضغط على أسنانها فتهاوى أرضًا.. رفعت الكوريك وهوت مرّة أخرى..

ثم صاحت بي كأنها هي الرجل وأنا الأنثى المذعورة:

- «غادر دار السينما حالًا..!»

أصابني الغيظ.. لست عاجزًا لهذا الحد.. لن تدافع عني امرأة نحيلة شفافة..

هناك كان الباقون قادمين نحونا من أسفل.. نفس المنظر المروع المشوه.. نفس المشية المترنحة التي تذكرك بالزومبي في أفلام (روميرو).. كانوا ثلاثة أعتقد أن اثنين منهم كانا طفلين أو يرمزان لطفلين..

قلت لها وأنا أخرج قداحتي:

- «لحظة...»

وهرعت إلى مقصورة العرض فانتزعت البكرة العملاقة الموضوعة على الأرض.. بكرة لن تعرض طبعًا وهي محفوظة في علبة أسطوانية تناسب حجمها.. فتحت العلبة فبدأت تحاول الفرار من سجنها كأنها ثعبان حبيس...

أشعلت طرف الفيلم بالقداحة فتعالت النار الصفراء الشريرة اللزجة المميزة لاحتراق السليلويد، ثم قذفت البكرة على هذه المخلوقات...

تحرر الفيلم وهو يحترق، وبدأ يذوب.. لكنه واصل التدحرج نحو المسوخ، وعلى الفور التصق بهم ليقعوا في ورطة حقيقيّة فيلم ذائب يشتعل.. ليس هناك إلا من اشتبكت قدماه أو نراعاه به..

إن الأفلام المحترقة وسيلة موت شنيعة جدًّا يعرفها المصورون وعمال العرض، ولا تختلف كثيرًا عن النابالم، وقد قضى (إديسون) ردحًا كبيرًا من حياته يحاول الوصول لفيلم لا يحترق بهذه السهولة والوحشية الفاجرة، لكنه لم يجد..

لا أعرف إن كان لهذه المسوخ جسد مادي يحترق.. لكني أعرف جيدًا أنها تمقت النار... النار التي حرمتها الراحة الأبدية..

هنا فقط صار من الممكن أن نفر.. إن المخرج في أعلى الدرج لحسن الحظ..

دوى صوت صفارة إنذار.. واضح أنه جهاز إنذار ضدّ الحرائق..

هكذا هرعنا ننزل إلى الطابق السفلى، ووثبنا خارجين من النافذة المفتوحة، وكانت سيارة ماجي قريبة فركبنا فيها..

هنا فقط استطعت أن أشهق بعمق وأن أدرك أن قلبى لا يدق ثلاث ضربات متماثلة.. كل ضربة لها نغمة وحكاية مختلفة..

- «أعتقد أنني موشك على الإصابة بنوبة قلبيّة..»

قالت وهي تدور بالسيارة للخلف لتعطي نفسها مساحة للانطلاق:

- «هذا ليس جديدًا.. أعرف أنك تصاب بعشر نوبات قلبيّة يوميًا..»

- «هذه.. قوية.. فعلًا... لقد بذلت جهدًا لم أبذله منذ عشرين عامًا..»

ثم تحسست صدري.. وهمست وأنا أشعر بصعوبة تنفس لا شك فيها:

- «أعتقد أنّ علينا الذهاب..... للمستشفى..»

لم تتكلم.. فقط زادت سرعة السيارة للحد الأقصى، وراحت تنهب الطرقات نهبًا.. المعصرة العملاقة الشهيرة تنطبق على صدري.. آي!

قالت وهي تندفع بسرعة عبر الشوارع الخالية

- «لم تأت المطافئ.. هل لاحظت هذا؟..»

كنا سنسمعها بالطبع بوضوح في هذه الطرقات الخالية المظلمة.

- «وما.. معنى هذا؟»

- «لا أدري.. هل أنت على ما يرام؟»

لم أرد.. لأني فعلًا كنت على الحدود الفاصلة بين عالمنا والعالم الآخر.. كنت أقف على حافة الحدود... ثم أتراجع لأقف في عالمنا.. العرق البارد.. أنا أمقت العرق البارد فهو يشعرني بأنني لست على ما يرام. الأسوأ هو أنني أقترب من الحدود فتخرج أيد محترقة ذات مخالب تمسك بي وتحاول جري.. أتراجع. وأقاوم..

إنهم هناك.. وهم يطالبون بي.. رائحة الشياط.. اللحم المحترق..

ثم شعرت بالقناع يوضع على وجهي ومن ينصحني بأن أتنفس بعمق، وشعرت بمحلول ما يذوب في دمي.. صوت المرقاب (توت توت توت).. أقطاب على صدري...

- «هل تسمعني؟.. هل أنت مصاب بالسكري أو أية أمراض مزمنة؟»

- «كل شيء ما عدا السكري.. لا تقلق.. سوف أعيش..»

كنت أستعيد وعيي، ووسط الضباب أرى وجه (ماجي) ترمقني.. لم تكن قلقة أو باكية.. كانت جادة صارمة جدًّا لا وقت للقلق.. إنها عملية جدًّا تعرف متى تبكي ومتى يكون البكاء مضيعة للوقت.. كانت تكلّم الأطباء بحزم كأنها تصدر لهم الأوامر.. تشرح حالتي الصحية وتفسر كل شيء.. تصلح من وضع رأس والوسادة تحته.. تجفف قطرات عرقي..

قلت لها أخيرًا:

- «أنا بخير.. فعلًا..»

قالت وهي تمسك بيدي المغضنة وتلصقها بشفتيها:

- «هل تقول هذا لتريحني فقط؟»

- «بالعكس.. هذا لا شيء. مجرد مطاردة في دار سينما خالية مع جثث محترقة، والوثب في سيارة.. يا للملل!.. هذه تفاهات بالنسبة لما قمت به في حياتي..»

نظرت لي طويلًا وهمست وهي تعتصر يدي:

- «للأبد؟»

- «ماذا؟»

- «هل ستظل تحبني للأبد؟»

قلت في لهفة:

- «وحتّى تحترق النجوم.. وحتّى....»

هنا هتف طبيب أسكتلندي ملتح:

- «كفي عن إرهاقه.. إن ما يريده هو الصمت!!»

منذ البداية كانت عنيدة ولم تشأ أن تتركني أدخل السينما وحدي.. لقد راقبت الطريقة التي دخلت السينما بها، ثم تسللت بعدي ببضع دقائق وهي تحمل رافعة السيارة كسلاح مرتجل، لتجد أنني في المقصورة أحاول الفرار من هذا المسخ.. لم تسأل كثيرًا ولم تصب بالهستيريا..

لا أنكر أنها أفادتني كثيرًا.. حتى لو لم تبعد عنى ذلك المسخ، فما كنت لأقدر على بلوغ المستشفي وحدي.. كان المارة سيجدون جثة صلعاء نحيلة مصابة بنوبة قلبيّة على الإفريز في الصباح.. أمّا ما حدث في داخل السينما فعلمه عند الله وحده.. أعتقد أن المسوخ ستحدث حريقًا لا بأس به وهي تحاول التملص من الفيلم المحترق..

عندما عدنا إلى القصر في الصباح، كنا نعرف أنّ علينا قراءة قصص (جوناثان دارتمور) بعمق أكبر..

ازداد هذا اليقين عندما عرفنا عبر الهاتف أن (أنتوني كارلستون) احترق في فراشه.. احترق بالحمض...

جواره على الفراش وجدت زوجته الجديدة روسية الأصل حرقًا مروعًا اخترق الحشايا حتى بلغ الأرضية ذاتها..

هذا الخرق كان يشبه جسد إنسان...

الثامن من مايو...

(جين) لم تحب قط هذه الرحلة..

منذ البداية كانت تشعر بتلك الكهرباء السلبية في داخلها.. هذا القنوط والإحباط الذي ينتابك في بداية يوم فتعرف أنه الأسوأ..

لكن زوجها كان متحمسًا.. لقد قام بهذه الرحلة من قبل في شبابه، وهو كان مصابًا بداء الأزواج السقيم.. ما دام الشيء راق له فلابد أن تجربة زوجته ثم لابد أن يجربه أولاده.. لا تكتمل سعادته إلا بهذا..

الطريق إلى ألاباما بالسيارة.. رحلة طويلة جدًّا عبر الصحراء تحتاج إلى عشر ساعات من القيادة. لم تحب هذا قط وبدت لها الصحراء موحشة قاسية تكشر عن أنيابها متأهبة للافتراس..

كان هو متحمسًا وهي كانت تحبه فعلًا.. لا داعي لإفساد كل شيء..

صوت (نات كنج كول) يخرج من المذياع.. هذا شيء آخر لا تطيقه هو ولع زوجها بالأغاني القديمة.. ثم إنّه يقود ببطء شديد..

- «كل من انقلبت سياراتهم كانوا يحسبون أنهم بارعون..»

هذا ما كان يقوله وكانت تفضل الصمت..

ترقب الأضواء تركض على جانب الطريق، أو أضواء شاحنة قادمة في الاتجاه المعاكس.. أضواء ساطعة تنسكب على الزجاج الأمامي وتحرق العينين، كأنها نهاية الكون..

قالت وجفناها أثقل من طن:

- «هل.. هل تنوي أن تقود طيلة الليل؟»

قال في حماس وهو يشعل لفافة تبغ:

- «أعتبرها تجربة في التحمل.. ثم هذا يتيح لنا أن نلحق بالنهار من بدايته في ذلك الفندق.. لا تقلقي علي ونامي أحفظ هذا الطريق.. نامي.. نامي..»

قالت في قلق:

«هل تحفظ هذا الطريق منذ عشرين عامًا؟»

- «هذه هي الحقيقة.. على كل حال معنا خارطة..»

أرجعت رأسها للخلف وأراحته على مسند المقعد.. ثم أرجعت المقعد ذاته للخلف.. هكذا غاصت في نعاس عميق تصحو منه فزعة كل عشر دقائق.. تنظر حولها وتطرف بجفنيها وتتساءل: أين أنا؟.. ثم تعاود النوم..

هي الآن طفلة صغيرة تلعب في الفناء الخلفي للدار.. هناك قطة تحاول اصطياد هذه البطة.. لكن البطة تستدير وتوجه نقرات عنيفة جدًّا.. أصدرت القطة مواءً مروعًا وركضت بينما البطة لا تكف عن ملاحقتها.. هذه أمها واقفة.. كبيرة جميلة تعلق الغسيل على الحبال في الشمس..

هي الآن مراهقة تتدرب على تشجيع الفريق في المدرسة الثانوية.. إن المدير سوف....

إي ي ي ي ي ي!

هنا فتحت عينها لتجد أن السيارة تخرج عن الطريق، وزوجها يحاول السيطرة على عجلة القيادة لكن السيارة لا وزن لها..

إنه النهار.. الضوء يغمر كل شيء.. لهذا حلمت بالشمس إذن.. لكنّها آخر شمس تراها ما لم..

أخيرًا همدت السيارة.. وقفت كالتنين الجريح الذي يتصاعد منه الدخان إلى جانب الطريق.. أنفها يسيل منه الدم.. ما السبب؟.. لابد أن أنفها اصطدم بالتابلوه لحظة اضطراب عجلة القيادة..

زوجها يلهث بلا انقطاع ثم يسألها:

- «أنت بخير؟»

تحسست أنفها وقررت أنه لم يتحطم:

- «لا بأس.. ماذا حدث؟»

- «انفجر الإطار وكنت قد زدت السرعة قليلًا بسبب الملل.. لقد كدنا نلقى حتفنا..»

ثم فتح الباب واتجه إلى حقيبة السيارة ليخرج الإطار الاحتياطي، ورافعة السيارة.. ألقاه على الأرض ثم هتف في رعب:

- «مثقوب!.. نسيت أن أغيره!»

عظيم.. ما كنت أخشاه قد حدث.. سيارة معطلة في الصحراء.. طريق لا تمر فيه أية سيارات منذ الخليقة.. لا يوجد جهاز هاتف واحد[1]..

سوف يجد الناس عظامنا اللامعة الصقيلة يومًا ما..

قالت له في غيظ وهي تضع المنديل على أنفها:

- «هل يجب أن تمشي على إطار؟.. يمكنك المشي على (الجنط)..»

- «سوف يلتوي ويتلف بعد مائتي متر ونتوقف ثانية.. هذه المرّة للأبد..»

- «والحل؟»

حك رأسه قليلًا ثم اتجه للتابلوه وفتح الخارطة.. راح يحسب الاتجاهات وسرعة السيارة، وقدر بالتقريب موضعهما عليها في النهاية قال:

- «هناك بلدة اسمها (أربورفيل) قريبة من هنا.. الغريب أنها ليست على الطريق الرئيس بل هي متوغلة للداخل قليلًا لو كان فهمي لمقاييس الرسم صحيحًا فهي على بعد نصف كيلومتر.. يمكننا أن نمشي لها، ولكن ليكن ذلك بسرعة قبل أن تصير الشمس عمودية..»

لم يكن أمامها خيار، هكذا حملت حقيبة صغيرة فيها الأشياء القليلة الثمينة وتركت الباقي في السيارة وسرعان ما لحقت بزوجها..

كان يتقدمها بمسافة لا بأس بها، وضايقها أنه لم يعرض أخذ الحقيبة منها..

هكذا مشيا على الطريق الأسفلتي بحثًا عن تلك المدينة الغريبة..

كانت قد رأت الكثير من أفلام الطرق السريعة هذه.. سوف يجدون قرية فيها شريف مجنون وأهلها يعبدون الشيطان أو يأكلون لحم البشر.. ربما هم على حالهم من ما قبل التاريخ.. ربما هم كائنات فضائيّة.. المهم أنهم مرعبون...

آخر شيء تتوقعه أن تجد قرية أهلها طيون يخافون الله، ولديهم ميكانيكي بشوش يعود بهم بسيارته ليصلح إطار السيارة..

هناك مصيبة قادمة.. لا شك في هذا...

✶ ✶ ✶

- «هذه هي!»

قالها زوجها بعد دهر..

على عكس ما توقعت كانت هناك بلدة جميلة فعلًا.. حولها حزام من الأشجار المعتني بها، وهناك لافتة تقول (أربورفيل بسكانها الألف الذين يخشون الرب مرحبًا بكم)..

كما كانت هناك لافتة أجمل تقول (مطعم)...

تذكرت أن معدتها تهضم نفسها وأنّ هذا وقت الإفطار بلا زيادة أو نقصان.. لقد كف أنفها عن النزف لكن معدتها بدأت تصرخ..

نزل زوجها إلى المنحدر الصغير الذي يقود لمدخل القرية بين صفين من أشجار البلوط.. لا شك في أنها أشجار زرعت عمدًا هنا؛ لأن المناخ لا يسمح بنموها..

هذا هو الشارع الرئيس ببيوته الخشبية المتناسقة على الجانبين.. هناك محطة بنزين وكافتيريا صغيرة.. جوار المحطة ورشة ميكانيكي..

لكن كم الساعة الآن؟.. التاسعة صباحًا.. كل شيء مغلق هؤلاء القوم لا يمتازون بالنشاط.. اتجه إلى ورشة الميكانيكا ودق الباب.. في كياسة.. في إصرار.. ثم في حماسة.. ثم في جنون..

لا أحد..

اتجهت إلى الكافتيريا.. كانت مفتوحة.. بالداخل مناضد وكاونتر وآلة حسابات.. لكن لا يوجد أحد.. نادت بأعلى صوتها مرارًا:

- «هيييييه!»

لكن لم يرد أحد بعد نصف ساعة كانا قد قرعا كل باب وناديا في كل مكان..

فعلًا لا يوجد أحد في هذه البلدة، وبرغم هذا هي ليست مهجورة.. كل شيء طازج.. الكعك في الكافتيريا تحت الناقوس الزجاجي طازج.. الأماكن نظيفة ولا يوجد نسيج عنكبوت أو غبار.

لقد ترك الجميع البلدة اليوم.. لسبب ما..

لكن لابد من عمل شيء..

قال زوجها وهو يضع يديه في خصره:

- «ربما أقتحم الورشة وأبحث عن إطار، لكن الأمر ليس بهذه السهولة.. لابد من خبرة حرفية..»

- «إذن نبحث عن هاتف.. سنطلب النجدة..»

كان هناك هاتف عمومي بالعملات خارج الكافتريا. جوار شجرة باسقة جميلة المنظر.. اتجه الزوج إلى هناك ورفع السماعة.. ظل ينصت ثم دسّ قطعة العملة وبدأ يطلب رقمًا..

استدارت هي ترمق الشارع الخالي..

هناك نافذة يتحرك مصراعها هناك.. فلتمش نحوها لترى إن كان خلفها أحد..

مشت ببطء وتؤدة.. نظرت عبر النافذة فلم ترَ أحدًا بالداخل..

استدارت نحو زوجها كي تقول شيئًا هو.....

هنا وجدت مشهدًا لا يصدّق.. كان على الأرض يتلوى ألمًا.. والسماعة تتدلي من الهاتف، لكن أغرب ما في الأمر أن غصن الشجرة كان منحنيًا كثعبان كبير يحاول الظفر به.. ركضت لترى المنظر أفضل فأدركت في جذع أن الغصن له طرف مدبب وهذا الطرف المدبب يقطر دمًا..

- «هل رأيت ما حدث؟»

قالها زوجها وهو يمسك بعنقه.. ثم رفع يده فرأت ثقبًا صغيرًا أحمر ينزف..

قالت في ذهول:

- «أنا مجنونة.. أنا مريضة نفسيًا.. لكن لا تقل لي من فضلك إن هذا الغصن هاجمك وحاول أن يمتص الدم من أوردة عنقك!»

- «هذا هو ما حدث بالضبط..»

- «أنت إذن تهذي مثلي.. لقد جننا بسبب الظمأ والشمس.»

- «لكننا لم نمض أكثر من نصف ساعة في العراء.»

ساعدته على النهوض وهي ترمق الشجرة.. بدا مظهرها بريئًا جدًّا ومسالمًا وهي تقف كأية شجرة أخرى.. نحن جننا هذا مؤكد..

- «هل الهاتف يعمل؟»

- «لا.. ماذا تتوقعين؟»

مشيا نحو الكافتيريا.. ثمّة شعور معين جعلهما يعرفان أن بوسعهما أخذ ما يريدان.. هذا يشبه أحلام أن يخلو العالم من البشر ويصير كل شيء ملكًا لك..

أخرجت بعض الكعك، ثم اتجهت لثلاجة المشروبات فأخرجت الكثير من زجاجات العصير.. وكانت تعرف كيف تعد القهوة بتلك الأداة الغريبة الخاصّة بالكافتيريات.. لذا بدأت تعد بعضها..

خلفها كان التقويم الذي يعلقه الساقي وراء ظهره.. هناك دائرة حمراء حول يوم 8 مايو.. ما معنى هذا؟.. هل هو عيد قومي؟.. هل يشبه الأعياد القديمة للهالوين عندما كان سكان الشمال يتركون بيوتهم لأرواح الموتى ويقضون الليلة في العراء؟

بحث زوجها عن منديل وضعه على الجرح، ثم قال:

- «كل هذا غريب مريب..»

- «الأشجار التي تهاجم البشر ليست نباتًا معتادًا في الولايات..»

قال وهو يرشف القهوة:

- «ربما هي هلوسة جماعية كما تصورت.. المشكلة الوحيدة هي أن الهلاوس لا تترك ثقوبًا في العنق..»

فكرت كثيرًا، ثم قالت:

- «هل رأيت كنيسة هنا؟»

- «لم أر.. لكن هناك واحدة بالتأكيد...»

- «هناك خطر يحيق بالبلدة.. وهذا الخطر موعده اليوم أراهن على أن هؤلاء القوم تركوا المدينة واحتشدوا في الكنيسة حتى يمرّ اليوم.. كذا القصة دومًا..»

هكذا قررا أن يبحثا عن الكنيسة.. طبعًا سيكون القوم مجتمعين في قبوها خائفين، يحاولون تمضية هذه الساعات المخيفة..

مشيا وسط شوارع المدينة الخالية..

أشجار على جانبي الطريق.. منازل يبدو أنها خالية أو أن من فيها يتظاهر بالموت..

هناك مدرسة صغيرة.. الباب مفتوح.. هكذا دخلًا يبحثان عن شيء أو دليل.. ردهات فارغة.. فصول لا أحد فيها.. شعور غريب فعلًا..

قالت له:

- «من المؤكد أنه لا يوجد أحد..»

ثم نظرت إلى اللوحات المعلقة في الردهة.. لوحات تمثل أعمال التلاميذ الفنية كعادة المدارس.. هناك شيء غريب..

كل اللوحات فيها أشجار.. كل اللوحات فيها أشجار تمتص دم الناس. رسوم ساذجة كرسوم رجل الكهف لكنّها واضحة.. وهناك لوحة تحمل في عنوان كبير التاريخ (8 مايو) ثم عبارة (يوم الأشجار)...

استدارت لزوجها، وقالت بلهجة انتصار:

- «الثامن من مايو.. اليوم!.. هذا عيد عندهم كما توقعت فعلًا.. لكن اسمه (يوم الأشجار).. هل هو نوع من حملات الحفاظ على البيئة أو التشجير؟»

- «هل هذا يدفع الناس للاختفاء؟»

ثم ضرب رأسه كمن تذكر شيئًا، وهتف:

- «(أربورفيل).. نحن ننسى اللاتينية.. معناها (مدينة الأشجار).. (أربور) معناها شجرة.. يبدو أن الأشجار تلعب دورًا مهما جدًّا هنا..»

غادرا المدرسة متوترين.. راحا ينظران إلى الأشجار المتراصة على جانبي الطريق. قررت أن تجرب اتجهت إلى شجرة منها واستندت عليها.. انتظرت قليلًا... بعد لحظة سمعت زوجها يصرخ:

- «ابتعدي!»

ركضت لتلحق به واستدارت لترى غصون الشجرة وقد دبت فيها الحياة هي ممصات تحاول الوصول لها بلا توقف.. مشهد لا يمكن وصفه أو التعبير عنه..

وقفت جواره تلهث.. وهمست من بين أنفاسها المتلاحقة:

- «يوم الأشجار.. هذا هو اليوم الذي تمتص فيه الأشجار دماء الناس.. ولهذا يغادرون البلدة في ذلك اليوم من كل عام.. ونحن اخترنا هذا اليوم لندخل البلدة..»

لم يرد.. فقط أمسك بيدها بحزم، واتجه نحو المخرج.. الشارع الذي دخلا منه والذي يمرّ جوار محطة الوقود..

هنا تصلب وتصلبت..

لقد سد الطريق.. لم يعد هناك شارع.. هناك نطاق كثيف من الأشجار يسد الطريق.. ونظر لها ونظرت له.. الأمر واضح.. هذه الأشجار لا تمتص الدم فقط، بل هي تتحرك.. تنزع نفسها من جذورها وتحاصر وتلاحق...

قال لها:

- «نحن نهذي.. لا شك في هذا.. اسمعي. سوف ندور من حولها..»

- «لكن كيف؟»

- «لا تتكلمي كثيرًا وتعالي معي..»

وانطلق يركض وهي تلحق به، واخترق محطة البنزين.. كان هناك مخرج خلفي ضيق لابد أنه يقود إلى خارج البلدة..

لا تعرف متى ولا كيف سقط زوجها على الأرض.. لقد تلقى ضربة قوية على رأسه.. وعندما بحثت عن صاحب الضربة وجدته رجلًا ضخم الجثة يلبس مثل الميكانيكي، ويحمل مفتاحًا آليًا في يده..

نظر لها الرجل وهو يلهث، وقال:

- «يوم الأشجار.. معناه أنه لابد من تقديم البعض للأشجار كي تتركنا نحن.. كنا نبحث عن أحمق لكنكما جئتما بكامل إرادتكما!»

صرخت واستدارت للخلف، لكنّها رأت خمسة من أهالي البلدة يحيطون بها، وهم يضحكون في توحش.. وقال أحدهم في لهجة مهذبة غريبة جدًّا:

- «سامحينا.. منذ حلت اللعنة بالبلدة ونحن مضطرون لهذا؛ كي نظل أحياء.. قولى إنك لن تحقدي علينا!»

إنهم يمزحون.. لابد أنهم يمزحون!

ظلت تردد هذا بينما هم يجرونها جرًّا إلى نطاق الأشجار الأشجار التي بدأت تصدر صوتًا كالفحيح...

تمـــــت

- 1 -

قالت لي (ماجي):

- «يمكن اختصار هذا الجهد بأن نزور (جوناثان) ونسأله»

قلت لها:

- «ليس قبل أن أفهم طريقة تفكيره..»

كنا جالسين على الأرض وسط مجموعة لا بأس بها من قصص الرجل.. خمس مجموعات قصصية سميكة. إنّه غزير الإنتاج للأسف يذكرني بكاتبكم المعاصر (ستيفن كنج). لكني على كل حال تعلّمت كيف أختصر الوقت فألقي نظرة عابرة على كل قصة لأعرف عما تتحدّث بالضبط..

كنت أدون فكرة كل قصة والكتاب الخاص بها ورقم الصفحة في مفكرة صغيرة..

قالت (ماجي) وهي تطوح الكتاب الذي تمسك به:

- «اكتفيت.. اسمع يا (رفعت).. نحن لن نصنع قصة رعب مكتملة من صدفة.. هذا الرجل كان يعرف شيئًا عن قصة (أنتوني) وقتله لزوجته، وكان يعرف أسطورة دار السينما تلك..»

- «يعرف تفاصيل لم يخبر بها (أنتوني) أحدًا؟.. حتى صراخ زوجته في اللحظة الأخيرة؟.. يعرفها قبل أن تحدث؟.. إن التواريخ لا تكذب..»

قالت باسمة بتلك الطريقة التي تجعل عينيها تنغلقان تقريبًا:

- «لقد تعلّمت أن الناس يفتقرون للدقة.. لا تنس إني فيزيائية لهذا لا أغفر الإجابات البعيدة عن الحقيقة.. معظم الناس يقسمون لك إنهم لم يخبروا أحدًا، ثم يتضح أنهم أخبروا اثنين فقط.. السر الذي يتجاوز اثنين يصير خبرًا علنيًا يمكن أن يذاع في المذياع. أمّا عن أسطورة السينما فأنا ألاحظ أن صاحب السينما أخبرك بها مباشرة بلا لف أو دوران.. لابد أنه أخبر بها كل من سأله..»

قلت لها في حيرة:

- «ربما معك حق.. لكني مصر على زيارة الرجل..»

هذا أنا.. رفعت الأحمق الذي يصر على أن يعرف.. على أن يروي فضوله حتى لو كان ثمن هذا أن ينشغل عن ماجي الحسناء...

- «للأبد؟»

- «ماذا؟»

- «هل ستظل تحبني للأبد؟»

قلت في صدق:

- «وحتّى تحترق النجوم.. وحتّى....»

هنا سدت فمي بكفها، وقالت:

- «كف عن الثرثرة ولنكمل قراءة هذه الكتب اللعينة..»

✶ ✶ ✶

بعد يوم واحد جاء الجراح إياه.. هل تذكر (نورمان هيرتفورد) جراح الأعصاب البارد الذي قابلته في ذلك الحفل؟. كان يريد لقائي و(ماجي)...

قالت لي لما سمعت بالخبر:

- «أنت صرت مهمًا جدًّا ولا أعرف السبب.. إما أنه يمرّ بتجربة خارقة للطبيعة أو يعاني سرطان الدم، أو هو معجب بصلعتك..»

- «لو كنت تلمحين إلى أنني أصلع فإنني أحتج بشدة..»

وسيم جدًّا وقور جدًّا بارد جدًّا ذلك الرجل.. حيث وقف هناك في قاعة المعيشة يتفحّص اللوحات الجدارية. لاحظت أنه فارع القامة فعلًا فكأنه (يوليوس قيصر) حقًّا بهذه الوقفة المهيبة المسيطرة.. هكذا يجب أن يبدو الكهول.. كانت صورة تمثل (ماكبث) مع الساحرات الثلاث في مشهد ما من المسرحية الشهيرة.. تحسس الدهان حول العينين وغمغم في رضا، ثم شعر بوجودنا..

صافحنا بطريقته الراقية، ثم جلس..

قال موجهًا الكلام لي بالذات:

- «أعرف يا بروفسور (إسماعيل) إن لك اهتمامًا بالغًا بعالم ما وراء الطبيعة.. يجب أن أعترف لك أنني أجد هذا كله هراءً وكلامًا فارغًا.. أعتذر عن تجاوزي طبعًا.. لكن..»

قلت لأريحه:

- «نعم.. نعم.. أحيانًا يبدو لي الأمر كذلك.. صدقني..»

بدأ يحكى لنا مع الاحتفاظ بطابع (كل - هذا - هراء) المميز الكلامه..

(ماري مكدونالد) مريضة من مرضاه ومصورة هاوية كانت مصابة بانضغاط في عصب الرسغ منذ شهرين، وقد عالجها لكنّها لم تنقطع عن زيارته من حين لآخر..

- «سيدة باسلة وأنا أثق بكلامها جدًّا..»

هذه السيدة الباسلة تعيش قرب المستنقعات عند أخدود (جلين)، هي وابنتها الطفلة بعد طلاقها من زوجها. اعتادت أن تجوب المنطقة على دراجتها يوميًا..

في هذا اليوم طلبت الابنة أن تعلمها أمها التصوير الفوتوغرافي، فأخذت معها الكاميرا..

ثم حدث شيء غريب.. إنها تؤكد بما لا يدع مجالًا للشك أن ابنتها توغلت ذلك اليوم في المستنقع.. هذا لا شيء ولا يثير القلق، لأن السيدة وابنتها تحفظان كل شبر في هذه المستنقعات.. يمكن لهما أن تمشيا مغمضتي العينين..

لكنّها سمعت صراخًا مروعًا.. كاد شعر رأسها يشيب.. هذا صوت ابنتها بلا شك..

ركضت مذعورة عبر المستنقعات.. لحسن الحظ لم يكن الظلام قد حل، لكن الضباب يجعل الحركة عسيرة فعلًا...

الفتاة تصرخ بلا انقطاع.. ماذا حدث؟

أخيرًا رأت ابنتها سالمة، لكنّها ليست في مأمن..

هناك من المستنقع شيء مريع يزحف محاولًا بلوغ الفتاة.. شيء يبدو كبشري.. ربما بشرى لكنه منتفخ مسود مغطى بالطحالب.. يمد يديه المخلبيتين نحو الفتاة التي وقفت تستند إلى شجرة وتعوي.. تحاول أن تحشر جسمها الصغير داخل جذع الشجرة...

كان يحاول الخروج.. لكن المستنقع كان زلقًا..

هنا رأت (ماري) مخلوقًا آخر يبرز من البحيرة.. يحاول الوصول إلى ذات الهدف.. هذا المخلوق يبدو كامرأة متحللة..

تصلب شعرها ذعرًا وقد بدأت تفهم: هؤلاء هم غرقي المستنقع!.. إنهم يعودون!

صرخت في ابنتها:

- «لا تتحركي!»

والتقطت جذع شجرة غليظًا ووثبت لتقف جوار الطفلة المذعورة، ثم هوت بأعنف قوتها على رأس ذلك الشيء المخيف اللزج الذي يحاول الخروج... بالتأكيد تهشّم.. هي ليست قوية لكن عندما يتعلق الأمر بابنتها فلسوف تحطم عشرة رءوس..

ثمّة شيء جديد يحاول الخروج. إنها ثلاثة مسوخ.. وابنتها تصرخ...

ضربتها على خدها فيما يشبه الصفعة.. ثم طلبت منها أغرب طلب في العالم يمكن تصوره:

- «صوبي الكاميرا والتقطي صور كل هذا..!.. هيا!!»

✶ ✶ ✶

كليك.. كليك.. كليك..

بدا كأن الفتاة تفرغ خوفها وعصبيتها عن طريق الضغط على الغالق بلا توقف.. كأنها وجدت الحل الوحيد حتى لا تجن..

أمّا هي فقد راحت تهوى على الرءوس.. بلا هوادة... تحطم.. تحطم..

ثم شعرت بيد قوية تطبق على كاحلها.. يد تجرها إلى الوحل جرًّا سقطت تحت الماء وانقطع صراخ ابنتها.. تحرر كاحلها لكنّها استطاعت أن تتحسس حزامها.. هناك توجد سكين الجيش السويسري التي تعتز بها.. أخرجتها وفتحتها وهي توشك على الاختناق.. إن ما يدخل أنفها ليس هواء.. ليس ماء.. إنِّه وحل!!

أولجت السكين حتى المقبض في ذلك الشيء ثم أخرجتها وغرستها وأخرجتها وغرستها.. كيف يموت هذا الشيء وهو ميت أصلًا؟.. ربما كان جل ما تفعله هو إفقاده تلاحمه التشريحي..

بدا أنه ضعف قليلًا فتحاملت على نفسها.. سبحت حتى خرجت من الأوحال وقد صارت تشبههم فعلًا، حتى إن ابنتها أطلقت صرخة هائلة عندما رأتها.. مسحت الوحل عن عينيها لترى أفضل، واحتضنتها غير مبالية بالوحل، وصاحت:

- «أنا أمك يا بلهاء.. أمك..»

ثم جرتها من ذراعها بقسوة تحاول الفرار من هذا المكان الشنيع..

لابد أنها ركضت كما لم تفعل طيلة حياتها.. كانت تعبُّ الهواء في جشع.. أمّا الطفلة فصارت مؤهلة لأن تدخل فورًا أي قسم لعلاج الصدمات في أي مركز نفسي..

الدراجة.. يجب ألا تضعف..

وأخيرًا كانت تشق الطريق نحو دارها وهي ترتجف وتبكي..

أخذت حمامًا ثم كان أول شيء فعلته هو أن اتصلت بستوديو التصوير طالبة أن يرسلوا لها من يأخذ الفيلم ليحمضه.

يجب أن ترى ما هناك.. يجب أن تتأكد من أنها لم تخرف..

ومد د. (نورمان) يده في جيب سترته التويد الأنيقة وأخرج مظروفًا ناوله لي..

كان مليئًا بالصور.. وفي حركة أنيقة أخرجت ثلاث أو أربع صور ناولتها لماجي، ثم تأملت الصور الباقية...

يبدو لي الأمر كأنها لقطات من فيلم رعب.. ربما (مخلوق البحيرة) أو شيء من هذا القبيل.. فعلًا هناك مسوخ أقرب إلى جثث متعفنة منتفخة تطل بجذوعها من الوحل.. هناك بقع وحل على العدسة.. فوضى عامّة...

من الممكن جدًّا أن يتم تلفيق هذه الصور.. لا مشكلة..

قال د. (نورمان) في وقار:

- «أعرف ما تفكران فيه.. فقط هناك شيء واحد أعرفه.. هذه السيدة وقور لا تبغي الشهرة، وعندما طلبت رأيي كانت تطلب الكتمان كذلك..»

وأردف بعد لحظة تفكير:

- «برغم كل منطقي العلمي، لا أستطيع سوى القول إن هذه الصور حقيقيّة.. هذه القصة حقيقيّة كذلك يجب أن نبدأ من حقيقة علمية ثابتة وصلبة هي أنّ هذا حدث فعلًا!»

- 2 -

سألته ماجي وهي تتفحص الصور بدقة:

- «هل تكررت هذه الهجمة مع شخص آخر؟»

- «على قدر علمي: لا.. ربما لأنّه لا يجرؤ أحد على التوغل في المستنقع سوى من عرفه كظهر يده.. من نشأ منذ طفولته جواره.. فيما عدا هذا أنت تخاطر بأن تضيع للأبد..»

هنا سألته أنا في حذر:

- «لا أعتقد أنّ هذا سبب الزيارة الوحيد.. هناك نقطة أخرى تحيرك.. أليس كذلك؟»

نظر لي في حذر مماثل، وقال:

- «بلى..»

- «أنت قرأت هذا المشهد في قصة رعب قصيرة.. أليس كذالك؟»

- «بلى..»

- «وكاتب القصة هو صديقكم (جوناثان دارتمور)... أليس كذلك؟»

ابتسم في حرارة.. واسترخي في جلسته وقال:

- «أنت تعرف كثيرًا جدًّا. فعلًا.. لقد تذكرت القصة على الفور في القصة رجل ميت يعود من المستنقع مع الغرقى الآخرين هناك مخرج كان يعتبر هذا ماكياجًا عبقريًا ثم تبين أنه حقيقي تمامًا.. قصة سخيفة في رأيي لكن عندما تحدث في الواقع.....»

- «وأنت تتوقع أن تجد عندي تفسيرًا علميًا؟»

- «أنا فكرت في عدة تفسيرات الاحتمال الأول أن السيدة قرأت القصة وقررت أن تطبقها في الواقع..»

- «وهذا احتمال بعيد لأنهّا سيدة رزينة تعرفها أنت جيدًا..»

- «الاحتمال الثاني أن الأسطورة حقيقيّة وقديمة، وكل ما قام به (جوناثان) هو أن صاغها على الورق.. كأنك تكتب قصة عن مصاصي الدماء، وبعد هذا يقابل أحدهم مصاص دماء فيشعر أن لك دورًا في الأمر..»

- «والاحتمال الثالث؟»

ضاقت عيناه أكثر، وقال وهو يضغط على حروف كلماته:

- «الاحتمال الثالث هو أن ما يكتبه (جوناثان دارتمور) يتحقق!»

✶ ✶ ✶

لم أنم ليلتها..

قضيت الوقت مع (ماجي) نفرز تلك القصص القصيرة.. كان هناك سيل من الأفكار لا ينتهي حتى بدأت أعتقد أن الرجل مجنون.. على كل حال أمكننا أن نحصر الثيمات كما يلي:

1 - أحدنا هو المذءوب. فمن هو؟

2 - البيت المسكون: هذا نمط معروف من القصص.. البيت المسكون هو ببساطة مسكون.

3 - الجثث العائدة من المقابر / من المستنقع / من المحرقة / من المطبخ بعد طهيها.

4 - رجل يتخلص من إفرازاته فيجد لها حياة خاصة.. يع!... أو كما تقول ماجي Phooey.

5 - الأشجار / البيوت / السجاجيد التي تدب فيها الحياة.

6 - هل أمك هي أمك حقًّا؟

7 - القاتل الذي تعود ضحيته لتنتقم.

8 - البلدة أو المكان الخالي لسبب مجهول (هذه تتكرر كثيرًا جدًّا).

9 - السينما المسكونة آلة سحب الفيزا المسكونة / الثلاجة المسكونة التي تسحب الناس داخلها.

10 - استحضار روح خطأ.. غالبًا روح سفاح أو مجنون.

11 - ابني هو الشيطان..

12 - الجزار يبيع لحم بشر ونحن لا نعرف..

13 - دعك طبعًا من موضوع مقاعد الطائرة الحية التي تلتهم مؤخرات الركاب، فهذا مضحك أكثر منه مرعبًا

14 - الانكماش والهرب من القط الأليف.

15 - الدفن حيًّا. هذه ثيمة أهلكها إدجار آلان بو لكنّها ما زالت مخيفة.

16- الكيان المرعب المدفون منذ ملايين السنين حتى يوقظه أحد. طبعًا لو كان تحت الماء فنحن نقترب جدًّا من كتولو وعوالم لافكرافت الرهيبة.

17 - شيطان وملاك في عالمنا يبحثان عن بعضهما ويبدوان كالبشر.

18 - طبعًا ثيمة نهاية العالم وعودة المسيح مهمّة جدًّا في الأدب الغربي ويطلقون عليها مصطلح Eschploitation.

19 - آسف.. إن النعاس يغلبني..

رفعت رأسي فوجدت أن (ماجي) نامت فعلًا.. يمامة صغيرة متكومة على نفسها على الأرض جوار الأريكة.. مسكينة.. لكن من المؤكد أنني لن أحملها مثل أبطال الأفلام لأضعها في فراشها، فهي ثقيلة كالخرتيت.. أو هي كذلك بالنسبة لحالة قلبي. هكذا رحت أهزها بعنف حتى فتحت عينيها مذعورة، فطلبت منها أن تدخل لتنام.. أنا أيضًا سأذهب للنوم..

همست بعينين مغمضتين وهي تمشي نحو الباب:

- «للأبد؟»

- «ماذا؟»

- «هل ستظل تحتاج لي للأبد؟»

قلت هامسًا:

- «وحتّى تحترق النجوم.. وحتّى.....»

هنا صرخت لأن قدمها الحافية اصطدمت بجزء بارز من الأريكة، وهكذا أفاقت نوعًا..

تمنت لي ليلة سعيدة ثم ابتعدت مترنحة..

حملت معي أحد الكتيبات وانتقيت قصة أقرؤها بالتفصيل قبل النوم، بدلًا من طريقة التصفح السريع هذه..

تأملات غلاف الكتاب في فراشي..

مجموعة قصصية اسمها (ليمبو).. (ليمبو Limbo) هي منطقة فاصلة بين الجنّة والنار في العقيدة الكاثوليكية.. أو في قول آخر هي مكان تنتظر فيه الأرواح التي لم تنل الخلاص..

اخترت قصة طولها مناسب.. اسمها.. اسمها...

(جورج وارين) رجل الأعمال الشهير الناجح يعرف جيدًا ما يشتريه ولماذا..

كثيرون يطلقون عليه اسم (جورج الذي لا قلب له)، لكنه لا يبالي بهذه الأمور، بل يفخر بها إلى حدٍ ما.. إنّه أمريكي، وهو يعرف أن قلب سر النجاح الأمريكي هو أن (تقتل جرحاك).. بعبارة أخرى لا تتبن مشاريع خاسرة..

لا تترك عمالًا أو موظفين فاشلين بدعوى الشفقة.. ابتاع (جورج) هذه البناية القديمة في أحد أحياء (دالاس) بناية مهجورة خربة لا تصلح لشيءٍ سوى هدمها، لكنه كان يعرف أنه سيبني في موضعها برجًا رائعًا.. قطعة الأرض تبدو له ذات إمكانيات واعدة وموقعها ممتاز..

اتفق مع شركة الهدم وعرف أن الإزالة ستتم غدًا..

عندما جاء المساء مر بسيارته الفاخرة أمام البناية وراح ينظر لها شاعرًا بالقوة والسيطرة.. هذا العملاق الحجري لن يكون هنا مساء غد بتعليمات منه.. إنّه رجل مذهل فعلًا..

لسبب لا يدريه ترجل من السيارة طلب من سائقه الخاص أن ينتظر، ثم مشى نحو البناية المظلمة. وقف أمامها بعض الوقت ثم اجتاز المدخل..

لم يكن هناك ضوء لذا أخرج كشافه الصغير الذي يحمله معه، وسلط الضوء على الجدران.. كانت هناك شتائم بذيئة جدًّا ورسوم أكثر بذاءة.. لا غرابة في ذلك فقد كان هذا مأوى للمتسولين لفترة طويلة.. لابد أن زنوجًا كثيرين باتوا هنا..

كان هناك رواق طويل يقود لسلم متداع..

هناك شقق صغيرة على الجانبين.. شقق بائسة مكونة من غرفة وحمام في الأغلب، ومن الواضح أن الأسر التي أقامت هنا لم تمتز بالنظام أو النظافة..

مشى لآخر الممر المظلم.. هناك درجات سلم..

هبط في حذر وهو يسلط الكشاف يمينًا ويسارًا.. هنا انزلقت قدمه..

سقطة شنيعة فعلًا، وهو لم يكن مرنًا رشيق الحركة. لكنه ذكي ولأنه ذكي قرر أن ساقه لن تتحطم.. لا يمكن أن يحدث هذا له..

بالفعل كان له ما أراد ككل شيء في حياته.. فقط وجد نفسه على الأرض المتسخة والفئران تركض مبتعدة..

لم تكن الأرض مستريحة أو مستقرة من تحته.. هناك شيء غير طبيعي.. إنها تتحرك..

نهض وتفحص الأرضية فأدرك أنّ هناك لوح خشب سميكًا مثبتًا بالمسامير للأرض. لو لم يسقط لما رآه وعلى الأرجح لم يره أحد من قبل لأن المكان مليء بالقمامة.. لابد أن كل من أقام هنا لم يخطر له تفحص الأرضية...

كان يحمل مطواة.. هذه عادة لم يتخلص منها قط.. ربما لأنهّا تذكره بطفولته في الشارع..

لكن المطواة مفيدة لانتزاع المسامير، وقد فعل هذا.. أخيرًا انزاح اللوح، ووجد تحت ناظره هوة مظلمة سحيقة.. رائحة عطنة لكنّها محببة مثيرة..

سلط الكشاف أكثر فرأى أنّ هناك درجات سلم تقود لأسفل..

لا يعرف هل هو مجنون أم لا.. من الخطأ فعلًا أن ينزل وحده ودون أن يخبر أحدًا.. من قال إن هذا المكان لا يعجّ بالثعابين؟.. لكن الرجل كان جريئًا فعلًا ولا قلب له..

بدأ ينزل الدرجات وهو يسلط الكشاف في كل اتجاه..

هناك ممر متعرج يقود إلى...

يقود إلى باب موصد مبطن بالجلد السميك الممزق.. فعلًا يبدو المنظر غير مألوف.. هذا ليس قبوًا.. ما هذا فعلًا؟

فتح الباب ثم دخل وأخذ شهيقًا عميقًا...

سلط الكشاف على المكان.. قاعة واسعة بالغة الاتساع.. هناك مناضد في كل مكان.. هناك مقاعد مرتبة حول المناضد.. هناك زجاجات خمر فارغة.. هناك أوراق لعب..

يوجد مسرح صغير مظلم.. هناك بيانو صغير عتيق.. ستائر ممزقة بفعل البلى.. خيوط عناكب في كل مكان.. غبار..

كل هذا غريب...

إذن هذه البناية كان فيها ملهى.. ملهى سري.. من الواضح إذن أنه كان يقدم الخمور، وكان هذا في حقبة تحريم الخمور في الثلاثينات.. طبعًا المافيا كانت تسيطر على هذه التجارة تمامًا وتحقق منها أرباحًا طائلة...

إذن يمكن تقدير عمر هذا المكان بخمسين عامًا..

خمسون عامًا والمكان مغلق لم يدخله أحد.. خمسون عامًا والحياة تدور بالخارج لكن أحدًا لا يلاحظ...

راح يمشي في المكان منبهرًا.. شعور غريب فعلًا..

على الفور بدأ ذهن التاجر يعمل.. هناك طبعًا مخزن خمور وهذه الخمور عمرها خمسون عامًا أي إنها ستجلب مبلغًا محترمًا من المال. يجب أن ينقل هذا كله قبل هدم المكان هناك بار في الركن وهناك زجاجة خمر مغلقة مغطاة بالغبار وخيوط العناكب.. مسحها جيدًا وفتحها وشمها.. ثم جرع منها جرعة سخية... ممتاز.. سيصير ثريًا أكثر..

راح يمشي بين الموائد.. ضوء الكشاف يتراقص هنا وهناك..

لكن لماذا لم يخلوا المكان؟.. لماذا لم يبيعوا كل شيء بعد انتهاء (البيزنس)؟

كانت هناك حقيبة على مائدة.. مد يده فيها وأخرج بطاقة شخصيّة لامرأة:

هيلين أوزموند تكساس

وجه قديم جدير بأحد أفلام الثلاثينات الصامتة أو نصف الناطقة فعلًا.. الملامح الباهتة والعينان المتطلعتان للسماء والفم المرسوم بعناية..

هناك كأس يبدو أنها كانت نصف مليئة على المنضدة.. كساها الغبار والعنكبوت لكنك ترى حافة السائل.. هناك ورق لعب.. يبدو أنّ هذا المكان كان يسمح بالقمار أيضًا..

فأر ركض مبتعدًا فأجفل..

هذا المكان كان يعجّ بالحركة في ليلة ما من الثلاثينات فماذا حدث؟

هل هي (كبسة) من الشرطة؟.. هذا وارد جدًّا لكن لماذا لم يصادر رجال الشرطة أثاث المكان؟

كل شيء يوحي بأن مغادرة المكان تمت على عجل.. على الأرجح قام آخر الفارين بوضع هذا اللوح والمسامير بالخارج..

لماذا يترك الناس ملهى صاخبًا فجأة؟

هل لأنّهم علموا أن الشرطة قادمة ففروا جميعًا؟.. ممكن.. لكن الشرطة لم تأت قطعًا.. فلماذا لم يعودوا؟

صعد إلى خشبة المسرح..

كان الخشب باليًا تمامًا ومتآكلًا.. لكنه استطاع أن يرى تلك الفجوة في المنتصف.. فجوة عميقة مظلمة.. هل حدث انهيار؟.. الراقصات كن يضربن الخشب بقوّة بكعوبهن وفجأة تداعت وصنعت فجوة هائلة.. ربما ابتلعت بعضهن؟

لكن الفجوة كانت مفتوحة لأعلى.. الخشب انفجر من أسفل الأعلى.. هل كانت هناك قنبلة وانفجرت؟.. لو حدث هذا لكان الدمار أشمل...

صوب ضوء الكشاف على الثغرة ودقق البصر...

لم يكن ما رآه مريحًا... هناك شيء يتحرك بالداخل...

شيء أسود مبهم لكنه يتحرك.. هل فئران؟... لا... ليس بهذا الحجم...

يجب أن يبتعد.. يعود للسيارة الآن.. لم يعد بوسعه عمل شيء، وبالطبع أغبى شيء يمكن القيام به هو النزول لفتحة بها شيء يتحرك...

نزل من على المنصة..

إن رأسه ليس على ما يرام.. ثمّة بقعة سوداء في مركز الرؤية.. موشك على الغثيان...

إن ساقيه تنثنيان تحته.. يشعر بأنهما تذوبان...

هو موشك على فقدان الوعي.. والسبب؟

تلك النار في بطنه تخبره بأن شيئًا ليس على ما يرام ربما هي الخمر مغشوشة أو مسمومة..

سقط على ركبتيه ونظر للخلف وصوب الكشاف فرأى.. رأى ذلك الشيء الأسود ينزلق ليخرج من الفجوة على المسرح ببطء ينزلق كبقعة شحم كبيرة فوق الخشبة... يتجه نحوه.. إنّه في حجم الكلب العملاق، لكنه من ناحية المظهر أقرب لأخطبوط... هناك شيء آخر يلحق به... ثمّة شيء ثالث..

يمكنه الآن أن يعرف ما حدث منذ خمسين عامًا، عندما قرر صاحب الملهى أن يخدر الزبائن.. دسّ لهم سمًّا أو مخدرًا في الخمور التي شربوها، وعندما سقط كثيرون منهم فاقدي الوعي بدأت تلك المسوخ المنسية تخرج لتلتهم من تقابله...

صاحب الملهى فعل ذلك عمدًا لأنّه صار خادمًا لتلك المسوخ، أو لأنّه يخافها، أو لأنّه منها.. المهم أن مجزرة قد حدثت.. من لم يذوقوا الخمر أو احتفظوا بوعيهم فروا هاربين وأغلقوا المكان خلفهم ولم ينبسوا بحرف عنه بعد ذلك...

بعد خمسين عامًا جاء من يوقظ هذه المسوخ بضوء الكشاف وصوت خطوات الأقدام ورائحة الخمر...

بعد خمسين عامًا تذكرت مذاق البشر وقررت أن تستعيده...

إنّه يريد الفرار.. لكن قدميه لم تعودا من عظام وعضلات ولكن من جيلاتين.. يداه ليستا على ما يرام كذلك...

إنّه يسقط ويرى أول هذه الأشياء يقترب منه... يجثم فوقه..

فقط تمنى أن ينتهي الأمر بسرعة، وأن يقوموا بتفجير البناية بالكامل عندما يزيلونها صباح الغد..

تمـــــت

- 3 -

قال لي (مايكل شلسنجر) ذلك الموسيقار المفتقر للرجولة وهو يمسد على خصلات شعره في نعومة:

- «أنت لا تعرف البلدة جيدًا يا بروفسور (إسماعيل).. كيف تنطقون هذا الحرف (عين)؟.. حناجرنا لا تقدر على نطقه لكني لا أتصور أن تقدر أية حنجرة بشريّة على ذلك.. إنّه مؤلم مؤلم..»

وراح ينفخ في تأثر معبرًا عن ألمه.. ثم أردف:

- «أنت لا تعرفها جيدًا لهذا لا تعرف مسرح جمعية الشباب الجيلي.. ماجي حبيبة قلبي تعرفه.. ماجي الرقيقة الرائعة..»

قلت له في غيظ وأنا موشك على خنقه:

- «هلا بلغت الهدف من فضلك؟.. لا تشتتني بألف ملحوظة وملحوظة..»

قال وهو يجفف العرق عن جبينه بمنديل حريري:

- «كذا معشر الفنانين يا عزيزي.. وأنت لست منهم.. إنهم حساسون بشدة.. حساسون بفظاعة.. حساسون بجنون.. إن مزاجهم يتوتر بسهولة.. مثلًا أنت تكلمني بغلظة، لذا تبدل ومزاجي ولم أعد راغبًا في أن أحكي لك أي شيء..»

وتهيأ للرحيل، فنظرت لماجي مستغيثًا.. فهرعت هي نحوه وأمسكت بيده، وقالت له كأنها تكلّم طفلًا عنيدًا:

- «(مايك).. حبيبي.. قل كل شيء من أجل ماجي العجوز السخيفة..»

- «من أجل ماجي فقط وليس من أجل هذا السيد الأصلع الفظ..»

القصة كما حكاها لنا وقد جاء يزورنا صباح اليوم في القصر إنّه يذهب كل ثلاثاء لعزف بعض المقطوعات والبروفات في نادي الشباب هذا، وهو ناد صغير يؤمه الشباب، وتعد الموسيقا من أهم نشاطاته.. (مايكل) يفعل هذا على سبيل التطوع والتنازل مسرح عتيق لا يليق به حيث هناك الكثير من العناكب والغبار، لكن الفرقة لا بأس بها.. هواة لكنهم يحاولون الإجادة. هم يطالبونه بعزف التراث المتعفن مثل (موتسارت) و(شوبان) هذه المقطوعات التي عفا عليها الزمان.. بينما هو Avant garde أي سابق لعصره..

عصر ذلك اليوم في عزف (ليست) على البيانو إنّه يمقت (ليست) لكنه مضطر لذلك.. هنا سقط جسم عملاق من سقف الكواليس وتهشم على خشبة المسرح المتداعية بدورها.. كرااااش!!

أصابه الهلع وراح يصرخ بلا توقف، حتى هدءوا روعه.. لقد كان حادثًا مؤسفًا.. إنّه كشاف عملاق من كشافات المسرح قد انقطعت السلاسل والحبال التي تحمله، ولو اتجه لليمين مترين لفقد الفن أهم عبقري عرفه في القرن العشرين.

بعد ما هدأ انفجر في نوبة غضب هستيري على هؤلاء العجزة.. لقد فسد مزاجه تمامًا ولم يعد مستعدًا للعزف اليوم..

مس (جلاديس) العجوز عازفة الكمان ومديرة الفرقة اعتذرت له كثيرًا جدًّا، لكنه قال لها في أسى إنّه لا يملك زرًا يضغط عليه فيصفو مزاجه..

قال هذا وهو يأخذ معطفه ويلبس قفازيه، ثم أوشك على الرحيل، لكنه وجد أن الكشاف أحدث فجوة كبيرة في خشبة المسرح..

دنا لينظر إلى ما حدث من دمار.. وهنا.....

قاطعته على الفور، وأنا أرتجف:

- «رأيت شيئًا مرعبًا داخل الفتحة!»

نظر لي في شك، ثم قال:

- «نعم... كيف عرفت؟»

- «أشياء سوداء تتحرك.. حجمها كالكلب الكبير لكنّها تشبه الأخطبوط.. زلقة لزجة مقززة!»

اتسعت عيناه أكثر، وهتف:

- «أنت كنت هناك!.. ربما سمعت القصة؟»

قلت في ثقة:

- «لا عليك.. ليست قصتي هي المهمة بل قصتك أنت ماذا حدث بعد هذا؟»..

- «نصحتهم بأن يحضروا من يفهم في هذه الأشياء.. هناك حيوانات قذرة تعيش تحت المسرح ولابد من إبادتها.. كلما تصورت أنني كنت أقف فوق هذه الأشياء وأنا أعزف، شعرت بقشعريرة.. على كل حال لقد قاموا بإصلاح الأرضية لكن لم يجرؤ أحد على النزول أو معرفة كنه هذه الأشياء..»

سألته ماجي:

- «ولماذا جئت لنا؟.. هل نحن مختصان بالكائنات اللزجة التي تعيش تحت المسارح؟»

تقلص وجهه في اشمئزاز كما يفعل كل ثلاث دقائق، وقال:

- «ماجي يا حبيبة قلبي.. لا توجد مخلوقات كهذه على وجه الأرض.. ربما هناك تلك الـ... الـ... نسيت اسمها.. توجد في تلك القارة.. أوه نسيت اسم القارة.. لكنّها بشعة جدًّا.. أتحدث عن تلك المسوخ هذه الكائنات.. كانت كائنات لا نعرفها.. إنها شيء خارق للطبيعة وقد خطر لي إن ضيفك الفظ الخشن هذا قد يملك إجابات..»

ثم اقشعر جسده فارتجف.. لابد أنه تذكر منظرها قلت له، وأنا أضع ساقًا على ساق:

- «إنها جثث حية.. يبدو أن موسيقا (ليست) تعيدها للحياة أقترح أن تكف عن عزف (ليست) وتجرب (فاجنر)..»

قال وهو ينهض متوترًا ويبحث عن معطفه:

- «أوه.. أوه.. سأتذكر هذا.. شكرًا لك على كل حال..»

فلمّا غادر المكان وعرفنا يقينًا أنه انصرف، نظرت لي ماجي في عدم فهم ومطت شفتها السفلى:

- «ما رأيك؟»

- «رأيي أنّ هذا أكثر من قابلت من رجال في حياتي إثارة للاشمئزاز..»

- «هذا ليس جديدًا.. أتكلم عن تلك المسوخ التي تكلّم عنها والتي تعبث تحت أرضيّة المسرح.. هذه ثيمة رعب غريبة..»

قلت في انتصار:

- «لكنّها في مجموعة (ليمبو).. اسمها (بعد خمسين عامًا).. بالصدفة قرأتها مساء أمس..»

ثم نهضت متحمسًا لا أعرف لأي شيء بالضبط، لكني متحمس بعنف:

- «لقد انتهى أي شك لديَّ.. (جوناثان دارتمور) له علاقة قوية بكل هذا.. سوف أزوره وأستجوبه.. ولا داعي لقول إنك يجب أن تكوني معي.. أعتقد أنه نسي من أنا بعد هذا الوقت..»

- 4 -

ماذا تعرفين عن (جوناثان دارتمور) يا ماجي؟

ليس الكثير يا (رفعت).. هو كاتب رعب بدأ يظهر منذ عام أو عامين.. يعيش وحده ويقول إنّه مطلق.. حقق شهرة لا بأس بها وأعمدة مراجعة الكتب في الصحف البريطانية متحيزة له.. يحاولون أن يجعلوا منه (لافكرافت) بريطانيا.. لكني لا أعتقد أنّ هناك من يستطيع أن يكون (لافكرافت).. (دارتمور) جيد لكنه لا يملك جذوة العبقرية..

أعتقد أنّ هناك محاولة أو محاولتين لتقديم قصصه للسينما السينما الأمريكية طبعًا لأن البريطانية لا تقدر على هذه التكاليف..

اكتشفنا أنه يقيم في أنفرنسشاير، وهكذا قمنا بزيارته وسرعان ما استطعت أن أضمه للمجموعة.. على قدر علمي هو رجل ظريف لطيف المعشر.. هادئ رزين لا يتميز بجنون باقي أصدقائي، وهو أقرب للرقي..

يميل للوحدة ويسهل أن تعرف أنك تزعجه عندما تزوره في أوقات غير مناسبة.. هذا دأب الكتاب جميعًا على كل حال، فهم يفضلون أن يختاروا اللحظة التي يخرجون فيها للمجتمع ولا يحبذون أن يأتي المجتمع لهم..

هذا ما أعرفه عنه.. هل تريد شيئًا آخر؟

✶ ✶ ✶

يعيش (دارتمور) في بيت ريفي جميل له حديقة غناء، تصادف أن الشمس كانت تغمرها في هذا الوقت مما زاد النبات خضرة والأزهار حمرة.. يطل هذا البيت من أعلى على مشهد رائع الجمال يكشف بحيرة (نس).. لوخ نس بجمالها وغموضها...

لو كنت فكرت أن كاتب قصص الرعب يعيش في قبو وينام في تابوت فأنت مخطئ على الأرجح.. هذا ما زادني يقينًا من رأيي السابق.. الرعب حالة نفسية يستحضرها المرء في أي مكان.. فإذا دونها على الورق صار (لافكرافت) أو (ستوكر)، وإن أخرجها قولًا وفعلًا صار امرأة هستيرية، وإن كتمها في صدره صار مجنونًا...

يستطيع (دارتمور) وهو جالس في تلك الغرفة الأنيقة المطلة على الحديقة أن يستحضر جبه الخاص وقبوه الخاص عطن الرائحة..

فقط كانت هناك علامة (صحية) واحدة هي تلك القطة التي راحت تتشمم ساق (ماجي).. أنت تعرف أن الأطفال والحيوانات يلحقون بها ويبشون لها فورًا، بينما يتشنج الأطفال عندما يروننني ويموتون.. انحنت (ماجي) والتقطت القطة الجميلة وراحت تداعبها:

- «يا لك من فتاة بدينة حسناء!.. ماذا يطعمونك هنا؟.. كوليسترول؟»

واقتربت من مدخل البيت، لكن القطة أصدرت فحيحًا غاضبًا وخدشت يد (ماجي) فاضطرت أن تطلق سراحها..

قلت في رضا:

- «هذه أول علامة على أن المكان ملعون.. كدت أشك في نفسي!»

بعد قليل وجدنا أننا نجلس في غرفة مكتب مريحة تغمرها الشمس من نافذة تشغل جدارًا بأكمله وتطل على الحديقة. هناك مكتبة واسعة وهناك مكتب عتيق الطراز وآلة كاتبة وكومة من الأوراق.. بينما جلسن (جوناثان) أمامنا يرمقنا في تساؤل..

كما قلت من قبل، كان الرجل في الخمسين له وجه هادي مريح يوحي بالثقة والرضا عن النفس.. عيناه تشعان ذكاء.. له رأس أصلع ولهذا يتهدل ما بقي من شعر على جانبيه طويلًا ناعمًا يغطي كتفيه على طريقة (شكسبير).. وكانت رقبته تطل من ياقة بول أوفر زيتي اللون...

هناك جو عام من السلام يحيط به، فليس من تلك الشخصيات العصابية الفنية التي تنتحر كل ربع ساعة.. لكنه بدا متضايقًا لأننا قاطعناه...

قلت له في كياسة:

- «إن شرح سبب مجيئنا يطول.. لكن لدى انطباعًا معينًا هو أن قصصك كلها تحمل جزءًا من الواقع..»

هزّ رأسه محاولًا أن يتابع، فقلت:

- «صديقكم (أنتوني كارلستون) مات محترقًا في فراشه كل شيء يوحي بأن حمضًا أحرقه حيث هو، والشرطة ما زالت لا تفهم، وتتهم زوجته الجديدة.. الحقيقة أنك وصفت قصة مشابهة تمامًا في قصة (قطرات)..»

هنا تدخلت (ماجي):

- «يحكي لنا د. (هيرتفورد) عن مريضة من مريضاته واجهت جثثًا متحللة تخرج من المستنقع.. ألا ترى أنك وصفت شيئًا مماثلًا في قصة اسمها (ماكياج)؟.. وماذا عن (أربعة مقاعد)؟

أنا و(رفعت) واجهنا دار سينما بها أربعة مقاعد محجوزة للأبد وعرضًا خاصًا للأشباح بعد انتهاء حفلات العرض..»

اتسعت ابتسامته أكثر، فقلت أنا:

- «مسرح الشباب الجيلي وجد كائنات رخوة مبهمة تحت خشبته.. هل تتذكر قصة (بعد خمسين عامًا)؟»

قال بشكل عابر:

- «بصراحة قد نسيتها..»

قلت في بساطة:

- «هناك كائنات رخوة مبهمة تحت خشبة المسرح..»

- «آه.. هذا مثير..»

قالت (ماجي) لتخفف الجو العدائي الذي بدأ يتضح بسرعة:

- «بصراحة يا (جوناثان) إما أن تكون عبقريًا وإما أنك تعرف هذه الأساطير من قبل وكتبت عنها..»

أضفت أنا، وأنا أنظر في عينيه:

- «أو أنت تتنبأ.. لكن لا يوجد احتمال شاف بالكامل بين هذه الاحتمالات..»

هذه المرّة بدأ وجهه يتبدل فعلًا.. تلاشت البسمة الهادئة وحل موضعها تعبير ينم عن الألم والمعاناة.. نهض واتجه للنافذة ووقف يرمق الحديقة في صمت، وقد وضع يديه في جيبيه.. تبادلت و(ماجي) نظرة غير فاهمة..

بعد فترة حسبتها دهرًا قال:

- «أعتقد أنه لابد من أن تفهماني أفضل.. أنا إنسان معذب.. الكتابة هي الطريق الوحيد حتى لا أفقد صوابي.. إنني أفرغ الصديد على الورق كي لا يأكلني من الداخل..»

✶ ✶ ✶

قال (جوناثان دارتمور):

بعد حادث السيارة الذي أصابني قال الأطباء إن خللًا معينًا حدث في دماغي.. خللًا لا يعرفون كيف يسموّنه لكنه واضح في تخطيط المخ الكهربي..

لم أدرك الحقيقة إلا متأخرًا.. لقد صرت قادرًا على رؤية البؤس في العالم.. رؤية الشر في العالم.. رؤية الخطر..

بدأ كل شيء بعد أسبوع من مغادرتي المستشفى.. كنت نائمًا في غرفتي، ثم صحوت من النوم.. وجدت الغرفة تعجّ بكائنات لم أرها من قبل، مسوخ.. شياطين.. أشياء لا يمكن تسميتها.. لم أعرف من قبل كم أن العالم مزدحم من حولي بهذا الشكل.. رحت أصرخ وأركض.. في كل خطوة كنت أصطدم بمسخ أو كابوس..

في النهاية فقدت الوعي..

كنت متزوجًا في ذلك الحين وقد تحاملت زوجتي على نفسها عامًا ثم طلبت الطلاق بسبب حالتي النفسية. كانوا يعتبرونني مجنونًا لكني كنت أدرك أن الحادث جعل بصري أكثر حدة.. صرت أرى ما لا يراه سواي..

يمكنني أن أقف في النافذة لي لأرى القبور التي يحاول شيء ما أن يزحزح غطاءها.. أسمع عواء المذءوبين في الوديان. ألقي بنظرة ثاقبة فأرى القتلة في الأزقة يتربصون بالأبرياء.. أرى المغول يذبحون ضحاياهم في بغداد.. أسمع صرخات المسيحيين الذين تلتهمهم الأسود في روما.. أرى تيد بوندي يهشم رأس فتاة بقضيب مطاطي.. أرى إد جين يلتهم امرأة أخرى.. أسمع خطوات مصاص دماء يزحف نحو غرفة فتاة غافلة.. أشم رائحة الدم المسفوك.. أشم اللحم المحروق.. كل هذا أراه وأسمعه وأشمه.. في الخارج.. في حديقتي.. في غرفة نومي..

لقد صرت قادرًا على رؤية كل الشر في العالم والإحساس به..

لهذا قررت أن أجلس وأكتب..

أكتب عما أراه حتى لا أجن..

منذ تلك اللحظة كتبت عشرات القصص، وفي كلّ مرّة كنت أشعر بأنني أفضل.. استطعت أن أتحكم في هذه المشاهد المخيفة فلا أراها إلا عندما أريد.. لقد نجحت الكتابة في أن تنقذ عقلي، ومن الغريب أنّ هذا الصديد المرعب راق للناس فابتاعوه وصرت كاتب رعب شهيرًا..

حقا أعرف ما فعله (كارلستون) مع زوجته، وأعرف كيف طارده ذلك الحمض.. رأيت كل هذا رأي العيان.. قبل أن يحدث..

أعرف قصة السينما وأشباحها..

أعرف كل شيء عن المسرح الذي تعبث كائنات منسية مخيفة تحت خشبته بانتظار لحظة الخروج..

أعرف المستنقع الذي يخرج من غرقوا فيه ليهاجموا الأحياء..

كتبت عن هذا كله لأنني رأيته رأي العين.. لم يكن لي فضل أكثر من صحفي في جريدة يصف حادث سيارة رآه.. لكن الناس لم تكن تعرف أنّ هناك حوادث سيارات، وقد لقبوني بالعبقري لأنّهم اعتبروني ابتكرت هذا اللون من الأخبار..

من حين لآخر أجرب أن أعتمد على نفسي.. أن أكتب قصصًا مرعبة لم أرها ولم تنقلها بصيرتي المخيفة.. من الغريب أنّ هذه القصص تخرج ركيكة سخيفة ولا تروق لأحد..

الآن أنتما تعرفان سرّي.. لم أكتمه عن الناس كي أتظاهر بالعبقرية، ولكن كتمته حتى لا يُقال إنني مجنون.. لقد فقدت زوجتي بسبب هذه الموهبة، ولا أريد أن أفقد حريتي كذلك..

✶ ✶ ✶

نظر لساعته، ثم قال معتذرًا:

- «سوف أطلب منكما الانصراف؛ لأنني بانتظار زيارة من د. (هيرتفورد).. لا تنسيا أنه صديق لي كذلك..»

واتجه لآلته الكاتبة وبدأ يكتب بسرعة جنونية غير مبال بوجودنا...

عندما غادرنا داره كنا صامتين..

فقط وقفنا لحظة أمام سيارة ماجي نفكر فيما قال.. ومن بعيد رأينا سيارة تقترب.. واضح أنها سيارة الجراح البريطاني الكبير.. لماذا جاء؟.. هل لديه شكوك هو الآخر؟.. بل هو يملك شكوكًا لكن كنت أحسبه لا يبالي باستقصائها..

قالت لي (ماجي):

- «ما رأيك؟»

قلت وأنا أفتح باب سيارتها وأنظر نحو الرجل الذي وقف خلف زجاج نافذته هناك من بين أغصان الشجر والنباتات يرمقنا في ثبات:

- «لا أعتقد أنه صادق...!»

- «والسبب؟»

- «لا أدري.. لكني أشعر بذلك..»

إنهما يتقدمان في الظلام قاصدين المقبرة..

الفتاة نحيلة حساسة مذعورة، والرجل متقدم في العمر قضي حياته في هذه الأمور..

هي (سامانتا) وهو (جورج ملفيل).. الوريثة الحسناء المذعورة والرجل الوقور الخبير في الأشباح.. يحمل في يده الوتد والبلطة وتحمل هي كيسًا فيه ثوم..

سوف يغرسان الوتد في قلب مصاص الدماء، ثم يحشوان فمه بالثوم ويقطعان الرأس..

مغامرة رهيبة، ومن الصعب أن تتحمل الفتاة ما سوف تراه لكن الرجل لا يثق بأحد آخر لأنّه يحبّها.. دعك من أن صحته سيئة فعلًا ولن يستطيع أن ينجز المهمة وحده..

منذ عرفت (سامانتا) أن ذلك الوحش يرقد في مقبرة أسرتها، وهي تعرف أن عليها أن تتخلص منه.. كانت هناك جثة ثم جثة أخرى وجدها الناس قرب المقابر.. وقد كثرت الشائعات، لكن أحدًا لا يؤمن بوجود مصاصي الدماء لذا راح رجال الشرطة يبحثون عن سفاح مخبول..

كانت قلقة.. تشعر أنّ هذه الحوادث تلوث أسرتها بشكل ما وإن لم تعرف كيف، وقد أفضت بمخاوفها لصديقها العزيز (منفيل)... أعطته بعض الأوراق الخاص بالأسرة كي يدرسها ويعطيها رأيًا..

اتصل بها بعد يومين وقال لها:

- «أنت تعرفين طبعًا أنّ هناك مصاص دماء في مقابر أسرتك..»

- «مصاصو الدماء خرافة تجلب المال لصناع الأفلام..»

- «هم كذلك يمتصون دماء العابرين قرب مقبرة أسرتك يجب أن تقبلي هذه الحقيقة..»

عندما زارها كان يحمل الأوراق التي درسها بعناية..

اللورد (كليرستون) رجل ثري.. له عادات غريبة وطباع شاذة خوفت الناس منه.. هناك من زعم أنه يعبد الشيطان، وهناك من قال إنّه محروم كنسيًا منذ زمن.. مؤخرًا توفي اللورد ودفن في مقابر الأسرة باعتباره قريبًا لها..

منذ متى دفن؟.. منذ شهرين..

منذ متى وجدوا أول جثة؟.. منذ شهرين أو أقل.. ربما شهرين إلا ثلاثة أيام على الأرجح..

لماذا كانت الجثث بيضاء كالثلج وبلا نقطة دم واحدة؟

ما سر نظرة الرعب المريعة على الوجوه؟

هكذا طلب منها أن تخرج معه إلى المقبرة.. كان الوقت ظهرًا لكن الأمطار بدأت تنهمر بلا هوادة، وقد فكرت الفتاة في العودة لكنه جعلها تضع معطفه على رأسها وتقدم معها نحو المقبرة.. نحو قبر اللورد بالذات..

أشار إلى الشاهد وإلى النباتات التي تغطي القبر، وقال لها:

- «هل تلاحظين اختلاف نمو العشب هنا؟.. هل تلاحظين اختلاف التربة؟.. ما الذي ينقصنا كي ندرك أن القبر يفتح ليلًا؟.. بالتأكيد لم يظل على حالته منذ الدفن..»

لقد انهمر المطر بغزارة ليلة أمس..

هل ترين هذه الآثار التي يوشك المطر الجديد على أن يمحوها؟.. هذا الحذاء الذي يخرج من القبر متجهًا إلى مخرج المقبرة..

يجب أن تصدقي أن اللورد (كليرستون) مصاص دماء.. لقد مارس في حياته الطقوس التي تمنحه هذا الخلود المحرم، وعلينا أن نقتله الليلة..

✶ ✶ ✶

لهذا يتجهان في الظلام نحو القبر..

بعد قليل سوف ينهض مصاص الدماء وسوف يكون الموقف مرعبًا، لذا يجب أن يفعلا كل شيء بسرعة..

سألته وهي ترتجف:

- «لماذا لا ننتظر حتى الصباح؟»

- «لأن مصاص الدماء يكون في أوهي حالاته قرب الاستيقاظ.. هذه قاعدة قديمة..»

ووضع الكشاف الكهربي في موضع يسمح بإضاءة مسرح العمليات..

كان القبر مغلقًا بإحكام.. أولج نصل البلطة تحت طبقة الوحل وراح يجاهد حتى استطاع أن يزيله.. هذا هو الغطاء..

قالت له في حيرة:

- «لا أفهم.. كيف يخرج كل ليلة والقبر مغلق بهذا الإحكام؟»

- «لمصاصي الدماء قوى غير عادية... هذا شيء معروف..»

ثم أزاح الغطاء لاهثًا..

ظهر اللورد في رقدته الأبدية.. بذلته الأنيقة السوداء ويداه على صدره كموميا‌وات الفراعنة.. لا دماء على شفتيه على كل حال وقد سرها هذا...

- «استجمعي أعصابك..»

ثم أولج الوتد بقوّة في صدر اللورد فشهقت الفتاة وأبعدت عينيها..

- «ناوليني البلطة..»

وقطع الرأس ثم فتح الفم ودس فيه الثوم...

ثم راح (ملفيل) يلهث وهو ينهض:

- «لقد نال الراحة الأبدية.. أنا موقن من هذا..»

وطلب منها أن تساعده في إعادة الغطاء وبدأ يعيد الوحل إلى مكانه.. لن يتهمه أحد بقطع رأس جثة، لكنه لا يريد شوشرة على كل حال...

أخيرًا وقف وقد آلمه ظهره.. كان بحاجة إلى النوم فعلًا.. ولكن...

هفه هفه هفه...

لماذا تلهت الفتاة بلا انقطاع؟

هفه هفه هفه...

سألها في الظلام:

- «هل أنت موشكة على الإصابة بانهيار عصبي؟»

لكنّها تلهث ولا ترد...

في الضوء الخافت تستدير نحوه..

ما سر هاتين العينين الحمراوين؟.. لماذا لم تعد لها حدقتان؟.. كأن كرتي عينيها تحولتا إلى ثمرتي طماطم.. لماذا تبرز أنيابها من فمها؟

قالت بصوت كالفحيح:

- «أشكرك على هذه الفرصة!... كنت أريد أن أكون وحدي معك في المقابر ليلًا.. لقد أتيحت لي الفرصة..!»

نظر لها في غباء، فأردفت:

- «ألم تفهم بعد يا أحمق أنّ هذه القصة ملفقة؟.. كل الأوراق التي تحكي عن اللورد مصيدة للحمقى!.. آثار الأقدام... آثار العبث في القبر.. كل هذا لاستدراجك هنا.. الضحيتان سقطتا بأنيابي أنا!!»

- «أنت مصاص دماء؟.. منذ متى؟»

- «منذ شهرين!!!.. لقد أصابتني تلك اللعنة لكنّها لم تقتلني!»

ثم أصدرت فحيحًا حقيقيًا.. فحيحًا جديرًا بأفعى...

كان رد فعله سريعًا...

رفع البلطة عاليًا..

هوى على عنقها وهي تنظر له في توحش.....

ترى هل يقتلها أم تقتله؟.. لنترك الإجابة عن هذه الأسئلة للأقدار!

تمـــــت

- 5 -

يمكننا أن نرى بحيرة (لوخ نس) من بعيد في الظلام...

لشد ما بدت رائعة في النهار، ولشد ما بدت مرعبة في الليل..

لقد رحلت سيارة (جوناثان دارتمور) منذ دقائق فهو مدعو لذلك الحفل لدى الرسامة العصابية إياها الستري ديلان.. رأيناها تبتعد وسط أضوائها كالشبح، هناك حيث وقفنا بين الأشجار... (ماجي) كانت تعرف هذا الموعد طبعًا قد اعتذرت عنه..

همست (ماجي) وهي ترتجف:

- «هل نتحرك؟»

- «أعتقد ذلك..»

- «هل هذه المغامرة ضروريّة؟»

- «أعتقد ذلك..»

- «ما زلت تشك في قصته؟»

- «أعتقد ذلك..»

ثم أضفت وأنا أمسك بيدها خارجين من بين نطاق الأشجار:

- «قصته عن الرجل الشفاف الذي صار يرى كل الشر في العالم فلسفية جميلة.. تصلح لقصة من قصص (جوته) لكنّها لا تروق لي. أنا أعرف يقينًا أن في أوراق هذا الرجل ما يزيل بعض الغموض حول شخصيته.. ثم لماذا خاف القط لهذه الدرجة من الاقتراب؟.. أنا تعلّمت أن حاسة الحيوانات لا تخطئ أبدًا.. هي ليست في غبائنا وضيق أفقنا..»

وأخرجت السكين الضخمة التي جلبتها معي كي أفتح بها النافذة.. من حسن الحظ أنّ هذه البيوت الأسكتلندية هشة جدًّا سهلة الاقتحام.. قالت (ماجي):

- «تذكر أننا لو سقطنا في فخ ما أو قابلنا أحد، فلن نستطيع أن نقنعه بقصتك هذه.. بالنسبة للشرطة نحن لصان.. لا توجد مسميات أكثر لطفًا..»

- «أعرف هذا.. لو قبضوا علينا سأؤكد أنني أرغمتك بتهديد السلاح على مرافقتي..»

- «وأنا سأنكر كلامك..»

كنا نمشي في الظلام.. هي جواري.. سمعتها تقول لي في شيء من دلال:

- «لا أحب هذه الطريقة.. أنت تتصرف كجنتلمان دومًا..»

- «آسف..»

غريب أنها تعتبر مشيي جوارها وقاحة.. إنها غريبة الأطوار سمعتها تقول في الظلام:

- «(رفعت).. ابعد يدك عن عنقي.. إنها باردة جدًّا..»

يدي؟.. باردة؟

نظرت لها فوجدت ذلك الغصن يلتف حول عنقها في نعومة كان الطرف المدبب يفتش في جشع عن الوريد الثرى هناك..

هناك قصة نسيناها!.. تبًّا!.. هناك قصة نسيناها.. (يوم الأشجار)!

قلت لها همسًا:

- «لا تتحركي..»

هنا صرخت وقد انغرس ذلك الشيء المدبب في لحم العنق، وكان هذا هو الوقت المناسب كي أنقض على الغصن فأعمل فيه السكين.. أنتزعه بيد وأبتره بيد أخرى... كان لينًا وقد انقطع على الفور.. فقط تدلى طرفه من عنقها والدم يئز منه فانتزعت ما بقي منه..

هتفت وهي تمسك بعنقها:

- «ماذا يحدث؟»..

- «قصة لعينة أخرى.. إن..»

وهنا رأيت كل غصون الشجرة تتلوى كثعابين رأس ميدوسا.. كلها تتجه نحونا.. جذبت (ماجي) بعيدًا عن نطاق الأشجار، وقلت لها:

- «يجب أن نبتعد عن أية شجرة.. إنها حية!!»

- «هل تمزح؟»

- «وتمتص الدم كذلك.. الكارثة أنها تتحرك في القصة.. تنزع جذورها من التربة وتنتقل.. لا أعرف إن كان هذا سيحدث هنا لكن يجب ألا نفاجأ..»

ورحنا نركض نحو البيت...

نظرت للنباتات المحيطة بالنافذة في رعب، وخيل لي أنها تصدر فحيحًا غاضبًا.. جلست على الأرض أرمقها في توتر ستكون الهجمة خاطفة مريعة.. يمكن التملص من غصن أو اثنين لكن ماذا عن عشرة أغصان؟

كانت ماجي تجلس جواري على الأرض وهي تتحسس عنقها لحسن الحظ لا توجد قطرة دم واحدة.. جميل هذا..

لكن...؟

ليس جميلًا لهذا الحد.. لقد كانت تنزف منذ عشرين ثانية...

هفه هفه هفه...

لماذا تلهثين؟.. ما بك؟

هفه هفه هفه...

- «ماجي.. هل أنت بخير؟»

استدارت لي لأرى وجهها بوضوح..

كانت عيناها حمراوين بلون الدم.. لا توجد كرتا عين بل هما ثمرتا طماطم،، تضغط على نابيها البارزين خارج شفتها العليا تضغط بقوّة حتى سال الدم من شفتها السفلى..

هفه هفه هفه...

كدت أنهض راكضًا لكنّها أمسكت بمعصمي بقبضة حديدية وألقت بي على الأرض.. كفت في قبضتها كطفل فعلًا.. وهي تتسلق صدرى لتجثم فوقه.. خفيفة الوزن لكنّها سريعة الحركة..

السكين معي.. لكن.. مستحيل.. فلأمت إذن...

- «(ماجي).. استعيدي وعيك!»

هفه هفه هفه...

شفتاها قرب عنقي بالضبط...

- «ماجي.. أنت تحبينني.. أعرف هذا.. أنت لن تمتصي دماء (رفعت)..»

هفه هفه هفه...

- «ماجي.. أنا أحبك للأبد.. حتى تحترق النجوم وحتى أرجوك.. إن للحب قوة كاسحة.. الحب يهزم السحر والشياطين والمسوخ.. قاومي هذا الشر!»

هفه هفه هفه...

- «إن خلاياك لم تصر شريرة كلها.. ما زلت ماجي الرقيقة التي تمشي على العشب دون أن تثني عودًا واحدًا.. ماجي.. لن تكون نهايتي بيدك..»

ثمّة شيء.. شيء إيجابي..

لقد همدت قليلًا... ثم نهضت عن صدري.. ورأيت أن الدم يسيل من الثقب في عنقها.. غريب أمر الدم.. سائل مخيف لكنه يعني الحياة والأمل..

جلست تحدق في الفراغ غير فاهمة.. تلك النظرة الغبية الخاوية التي تصاحب الانهيار العصبي، ثم نظرت لي.. عندها عرفت أنها عادت كما كانت....

(ماجي).. (ماجي)...

كانت دامعة العينين ترتجف، وهمست:

- «ماذا حدث؟»

قلت وأنا أنهض وأمد يدي أساعدها على النهوض:

- «لا شيء.. هجوم الأشجار جعلك تفقدين الوعي لثوان..»

ثم رحت بسرعة أحاول فتح النافذة بنصل السكين.. لم أنس أن أنظر خلفي من حين لآخر؛ لأن الخطر كان من جميع الجهات هذه المرّة.. (مينا) التي بدأت تتحول وهي تجلس في الظلام في قلب دائرة الطبشور مع (فان هلسنج).. هكذا صار الخطر ينتظره داخل الدائرة وخارجها.. من الوارد أن تعود ماجي كما كانت في أية لحظة....

انفتحت النافذة فوثبنا للداخل حيث غرفة المكتب التي التقينا فيها بـ (جوناثان)...

جلست (ماجي) على الأريكة لأن وعيها لم يكن قد عاد بعد كانت مخلخلة فعلًا.. بينما رحت على ضوء الكشاف أقلب الأوراق على المكتب وأتصفح الملفات..

ما هذه الكتابة؟... هذه الشخبطة غير المفهومة.. هل تعرفين هذه اللغة يا ماجي؟.. هل تمت بصلة للغاتكم الجيلية العجيبة؟

هزت رأسها أن لا..

الأمر جلي إذن.. هذا الرجل يمارس السحر أو على اتصال به..

أما القصة الموجودة في ملف جوار الآلة الكاتبة فما اسمها؟.. (فليمت مصاص الدماء).. قرأتها بسرعة على ضوء الكشاف وأنا واقف.. هذه هي القصة التي بدأ كتابتها عندما أنهى مقابلته معنا..

ألقيت بالأوراق وصحت في (ماجي):

- «فهمت كل شيء.. لقد كتب هذه القصة لنا خصيصًا.. هذا الرجل لم يكتب ليصف الهول في العالم كما قال.. إنّه يصنعه!.. إن ما يكتبه في قصصه المرعبة يتحقق حرفيًا!»

- 6 -

لم أنتظر لأعرف أكثر..

اتجهت للمدفأة في الركن، فجلبت زجاجة من سائل الإشعال، وسكبته على كل شيء وجدته على المكتب.. على الأوراق.. على الملفات.. على الآلة الكاتبة. تساءلت (ماجي) لماذا أفعل ذلك، فقلت لها:

- «سأحرق كل شيء.. لا أعرف نفع هذا لكنه على الأقل يتلف سياق أفكاره..»

كليك!

سطع الضوء مبهرًا فاعمى عيوننا وشهقت.. وثبت من موضعي فسقط بعض الورق على الأرض، على حين ظلت ماجي تنظر إلى القادمين في ثبات.. برود إنجليزي تعرف كيف تستحضره متى شاءت..

على الباب وقف د. (نورمان هيرتفورد) بمنظره الوسيم الوقور.. (ركس هاريسون) فعلًا بلا زيادة أو نقصان.. جواره يقف (جوناثان دارتمور) يبتسم بدوره..

قال د. (هيرتفورد):

- «هل حقًّا حسبتما أننا بهذه السذاجة؟»

قلت في حيرة:

- «أنتما؟.. هل أنت متأكد من أنك تستخدم ضمير المتكلمين (نحن) وليس ضمير الشخص الثالث (هو)؟»

ابتسم طويلًا.. ثم.. لا أعرف إن كانت ملامحه تغيرت أم لا فجأة صار التشابه قويًا جدًّا وعرفت أنني أغبى إنسان عرفته في حياتي.

الصوت البرى القوى والنظرة النفاذة.. لا يلبس ذات الثياب لكن بذلة السهرة السوداء الأنيقة جعلت التشابه أقوى... ثم أنهى كل شيء عندما قال بإنجليزية ثقيلة لا علاقة لها بإنجليزيته الراقية السابقة

- «الحق إنني بكما أسعد، ولكما قلبي يطرب.. في دارنا أنتما ضيفان عزيزان.. فلترحلا متى أردتما لكن أتركا لنا بعض ما تحملان من سرور..»

د. (لوسيفر)!

قلت وأنا أتراجع للخلف ممسكًا بيد (ماجي):

- «إذن لهذا جئت لماجي وحكيت قصة الغرقى الذين يغادرون المستنقع.. كنت أنت صاحب الاقتراح أن ما يكتبه (جوناثان) يتحقق.. كنت تعطى تلميحًا من تلميحاتك الشهيرة..»

- «بالطبع.. عبثًا أحاول أن أنقل الحقيقة لعقولكم البالية، لكن الحقيقة كالمحيط لا يمكن أن تملأ به الدنان.. أبغي المعذرة فقد نسيت أن أقدم لكما ابني!»

كانت المفاجأة غير عادية..

(جوناثان) ابن (لوسيفر) شخصيًا!

- «بهذا الاسم الأرضي لا ندعوه هناك.. ندعوه (خيرياسوس المدون).. سجين (ليمبو).. لقد منح هبة صغيرة هي أنه يخلق المصائب بما يكتبه.. إن ما يخطه يفعم الكون بالشرور ودعني أؤكد لك أيها الفاني أنه خصب خياله، متجددة كلماته، لكنه واه ضعيف التكوين لا يقوى على أن يحيا بين مسوخ جانب النجوم وغطاريفه العظام.. أمرًا أمرته أن يرتحل إلى عالم الفانين.. في جانب النجوم ليس مكانه وإنما بينكم.. لو كانت فتاتك البلهاء تعرف أبعد من أنفها لأدركت أن كلينا لم يوجد في محيط معارفها إلا منذ عام أو عامين.. صار لنا ماض ووجود واسم.. عامدًا اخترت هذا الموضع لأنني أنتظرك.. ولأنني أعرف يقينًا أنك آتٍ وأنك ستدس أنفك اللزج في هذه القصة..»

ثم أردف في توحش:

- «وقد فعلت!»

قلت له وأنا موشك على الصراخ:

- «دعني أرتب أفكاري.. أنت جئت لهذا العالم بابنك لأنّه يجيد كتابة القصص التي تتحقّق.. ولأنه أرق من أن يوجد في جانب النجوم.. أي إنك جئت به هنا كي يصنع مستقبله. وهو هنا بالذات على سبيل المشاكسة لي.. هل أسأت الفهم؟»

- «ساذجة كلماتك لكنّها إلى الحقيقة أقرب..»

ثم رفع يده بحركة مسرحيّة إلى السقف، وصاح بصوت ارتجت له الغرفة:

- «هنا والآن ننهي صراعنا الطويل يا د. إسماعيل..!»

كنت قد اتخذت قراري.. أخرجت قداحتي وقربتها من الورق المبتل.. في ربع ثانية انتشر الوباء الأصفر ليغطي كل شيء وارتفعت ألسنة اللهب إلى السقف وتمسكت بالستار فهوى..

كنت أجر (ماجي) جرًّا مسرعين نحو النافذة المفتوحة..

الحديقة المظلمة والأشجار التي تتلوى محاولة الفوز بنا ومن خلفنا سمعت (لوسيفر) يصرخ:

- «لقد أحرق أوراقك يا (خيرياسوس)...!... عليك به.. عليك بهما!!»

لا أعرف كيف وجدنا نفسينا في سيارة ماجي.. كانت تقود بجنون لم أعهده من قبل، وقد نظرنا للخلف فرأينا ألسنة اللهب تتطاير من النافذة نحو قمم الأشجار.. أغصان تحترق.. أقسم أنها كانت تصرخ صرخات شنيعة كأنها البشر..

- «هل يمكن أن يكونا قد احترقا؟»

- «هما من الشياطين.. لابد أنّ هذه النيران نوع من النسائم المحببة..»

السيارة تنطلق في الشوارع الخالية المظلمة.. نفس ما حدث وأنا مصاب بتلك النوبة القلبيّة.. لكن إلى أين نذهب؟.. إلى أين؟

قالت (ماجي) لي وهي تدير المقود بسرعة:

- «نحن على مقربة من نادي الشباب الجيلي.. سوف ندخل!»

- «لكن..»

على الفور أوقفت السيارة ثم وثبت منها وجرتني من يدي جرا.. وركلت البوابة لتفتحها..

كانت تجري وسط الحديقة الصغيرة المنمقة.. ثم مدت يدها تحرك المقبض بعنف فاستجاب على الفور.. يبدو أنه لا يوجد لصوص في هذا العالم.. كل الأماكن مفتوحة...

- «هل تعرفين هذا المكان؟»

- «كنت أغني الكورال فيه في مراهقتي..»

إنها قاعة مسرح تصعد الدرجات التي تقود إلى الخشبة وتأمرني بأن أصعد معها.. تجثو على ركبتها وتطلب مني أن أساعدها على ضوء الكشاف الخافت الذي تحمله هي..

إنها تنتزع الغطاء الذي وصفه الموسيقار المخنث (شلسنجر).. الغطاء الذي ثبتوه على عجل فوق الفجوة التي صنعها الكشاف الساقط.. بأظفارها ثم باستعمال السكين الذي أخذته مني نجحت في انتزاعه لتظهر الفجوة واسعة رهيبة سوداء...

- «هلمّ ساعدني!»

- «لا أستطيع.. إن قلبي يغني أغنية البجعة..»

جذبت بساطًا صغيرًا من ركن المسرح فوضعته فوق الفتحة ثم جذبتني من يدها إلى الركن وهي تلهث بلا توقف..

فهمت.. هذا إذن نوع من شراك الفيلة.. أرض تبدو مسالمة لكن تحتها حفرة عميقة...

وقفنا في الظلام نلهث بلا انقطاع.. شعرت بها تجذب مقعدًا وتشير لي كي أجلس لكني رفضت..

في الظلام همست لي وهي تلهث مذعورة راجفة، وأنفاسها الرقيقة تمس أذني:

- «للأبد؟»

- «ماذا؟»

- «هل ستظل تحبني للأبد؟»

قلت في لهفة:

- «وحتّى تحترق النجوم.. وحتّى....»

هنا سمعنا صوت خطوات..

من نهاية القاعة يأتي (جوناثان) أو من كان (جوناثان).. الآن قد كشف عن وجهه الحقيقي.

(خيرياسوس المدون) سجين (ليمبو).. كنت قد اعتدت هذه المسوخ من رحلتي لجانب النجوم، لكني لم أتوقع قط أن يكون بهذه البشاعة.. وقد شهقت (ماجي) لأنهّا بالطبع لم ترَ شيئًا كهذا من قبل.. هذا شيطان.. لا يمكن أن تجد تسمية ألطف..

تقدم نحونا فارتمت (ماجي) بين ذراعي وهي ترتجف..

يصعد الدرجات... ينظر حوله في شك..

ماذا لو كنا مخطئين؟

إن أنفه ليس في وجهه ولكنّه يخرج من ممص طويل ينساب من بين شدقيه.. لهذا يتشمم الجو بلا توقف.. وعيناه تلتهبان في ضوء الكشاف... ربما تشعان نورًا لكني لست واثقًا..

- «لوسيفر العظيم.. أبي.. أمرني أن أفنيكا.. وفناؤكما هو ما سأفعله..»

ثم تقدم نحونا ببطء.. ببطء...

هلمّ أيها الوسيم.. أرجوك لا تدر حول البساط.. إن هذا صعب على كل حال لأن البساط هو الطريقة الوحيدة للوصول لنا..

«لكنه واه ضعيف التكوين لا يقدر على أن يحيا بين غطاريف جانب النجوم..»

هكذا قال لوسيفر، فهل يعني هذا أنّ هناك أملًا؟

لديه عادة بذيئة بعض الشيء لن أذكرها لأن هناك آنسات هنا هناك عادة أخرى لن أذكرها لأن هناك من يقل عمرهم عن ستة عشر عامًا...

هكذا وقف يفكر... ثم اتخذ قراره..

مشي نحونا...

مشي فوق البساط...

لكنه لم يسقط..!.. لقد ظل في ذات المستوى.. لقد كنا حمقى حين حسبنا أن خدعة مصيدة الأفيال هذه يمكن أن تنطلي على شيطان..

لكن (ماجي) كانت سريعة التفكير.. التقطت المقعد وطوحته بأعنف ما لديها من قوة في وجه هذا المسخ المتشكك.. يبدو أن المفاجأة أفقدته صوابه... أفقدته اتزانه وقدرته على الطفو هذا المشهد الخالد في أفلام توم وجيري...

لقد هوى في مركز الفجوة والبساط من حوله...

وفي اللحظة التالية سمعناه يصدر أنينًا مكتومًا... صوبت الكشاف نحوه فرأيت كائنات سوداء في حجم الكلب الكبير لكنّها أقرب إلى العنكبوت في مظهرها.. كائنات لزجة مقززة تحيط به وتمتصه.. كان كالغريق الذي تشبثت به قناديل البحر.. لم يصرخ ولم يصدر أي صوت.. فقط كان يخرج ثم يغوص.. يخرج ثم يغوص وفي النهاية توارى داخل الفجوة تمامًا...

أعتقد أن (خيرياسوس المدون).. سجين (ليمبو) قد انتهى والأجمل أنه انتهى على يد المسوخ التي صنعها خياله..

قالت لي في ذعر:

- «وماذا عن د. (نورمان)؟»

- «اسمه د. لوسيفر.. وأعتقد أنه لن يلحق بنا هنا.. سوف ينتقم ولكن بطريقة معقدة.. هو ليس من الطراز الفظ الذي يلتهم أعداءه فورًا..»

وفي حذر نزلنا من على خشبة المسرح فارين من هذا المكان الرهيب..

هل أدت وفاة (خيرياسوس) إلى موت مخلوقاته المتناثرة في كل مكان؟.. هذا شيء لا نجرؤ على معرفته، فلن أجرب أن أفتح هذه الفجوة أو أستفز الأشجار أو أدخل تلك السينما لأجلس في مقعد أمامي...

هل مات حقًّا؟.. ربما.. لكن من الوارد جدًّا أن يكون قد عاد إلى جانب النجوم..

من المؤكد أن القصص المرعبة التي تتحقّق قد توقفت وحرمت بريطانيا من مشروع (لافكرافت) الخاص بها..

هاتي يدك أيتها الرقيقة وتعالي نغادر هذا الكابوس...

خاتمة

- أنا (خيرياسوس المدون) قد انتهيت من هذه القصة، والفانيان يغادران خشبة المسرح بعد ما حسبا أنهما قضيا على.. إنهما متحابان تتشابك يداهما في عناق كأنهما قهرا الموت وقهرا آدميتهما.. ولعمري ما أغرب من يحسب الحب أهم من الخلود.

هل راقت لك القصة يا أبي العظيم؟

- أي بني.. إنها جميلة.. قد بددت شيئًا من شعوري بالسأم في ليالي الشتاء الطويلة. إن الفاني المدعو (رفعت) يحسب أنه يعيش حياته وخياراته.. ولا يعرف أنه مجرد شخصيّة في قصة طويلة من قصصك... وأنك تحركه كما تشاء..

يروق لي والحق يُقال غرور هؤلاء الفانين وغباؤهم..

لو عرف أنه مجرد نقطة سوداء في محبرتك المفعمة بالأفكار، وأنك أوجدت له المسرح والأحداث وحبيبته البلهاء وكل هؤلاء الفانين.. حياته كلها منذ ولد مجلد تقرؤه على مسامعنا في ليالي الشتاء فنضحك..

الحق إنك لعظيم الموهبة أي بني..

(خيرياسوس) سجين (ليمبو) قد نال رضا سيده.. يومًا ما قد نحررك من (ليمبو) لتظفر بمرتبة أخرى، لكن آمرك بأن تكتب المزيد.. إنني بقصصك أسعد ولها قلبي يطرب، والمسوخ الآخرون هم من أجلي منتشون..

صبوا لنا بعض الدم المختمر، ولتسمعونا صرخات المعذبين في أقبية (هيدز)... ولترقص الجثث المتحللة في انتشاء.. إن لوسيفر والحق يُقال راض...

- فلتنتظر أي أبي حتى تسمع القصة التالية، والتي لا يمكن أن يكتبها سوى ولدك (خيرياسوس المدون)..

حكاية هي عن أغنية الموت.. أنت تحب أغاني الموت أي أبي العظيم.. (خيرياسوس) سيحكي لك عن أغنية موت، ليست كأية أغنية..

لكن هذه قصة أخرى..

خيرياسوس

ليمبـو

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

المقـدمـة

أربعة مقاعد

الجـزء الأول: مجموعة لطيفة

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

قطـرات

- 5 -

- 6 -

الجـزء الثاني: كاتب يعرف أكثر

- 1 -

ماكيـاج

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

يـوم الأشجار

الجـزء الثالث: ليـصبـو

- 1 -

- 2 -

بعد خمسين عامًا

- 3 -

- 4 -

فليمت مصاص الدماء

- 5 -

- 6 -

خـاتمـة

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والإثارة



د. أحمد خالد توفيق

أسطورة شبه مخيفة

(ماجى) و(رفعت) ومرتفعات إسكتلندا ، وخليط غريب من الأحداث .. جثث تغادر المستنقع .. حمض يتحرك .. سينما تحرق المشاهدين .. كاتب قصصى مجنون ، وأديبة مخبولة ، وطبيب نفسى بارد ، وموسيقار عصابى .. قاعة ملهى مهجورة لسبب قوى جدًا .. كلب متحلل يجرى .. أشجار تمتص دمك ..

إما أننا جُننَّا وإما أن هناك خيطًا ما يربط هذا كله .. إنها أسطورة شبه مخيفة ؛ لذا ثمة شبه أمل أن تروق لك ...

العدد القادم

أسطورة أغنية الموت

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

مطابع



الثمن فى مصر
وما يعادله بالدول العربية
فى سائر الدول الأخرى

Notes

[1←] لا توجد هواتف محمولة في زمن القصة طبعًا.. ولو وجدت لتلفت كما هي العادة!

مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

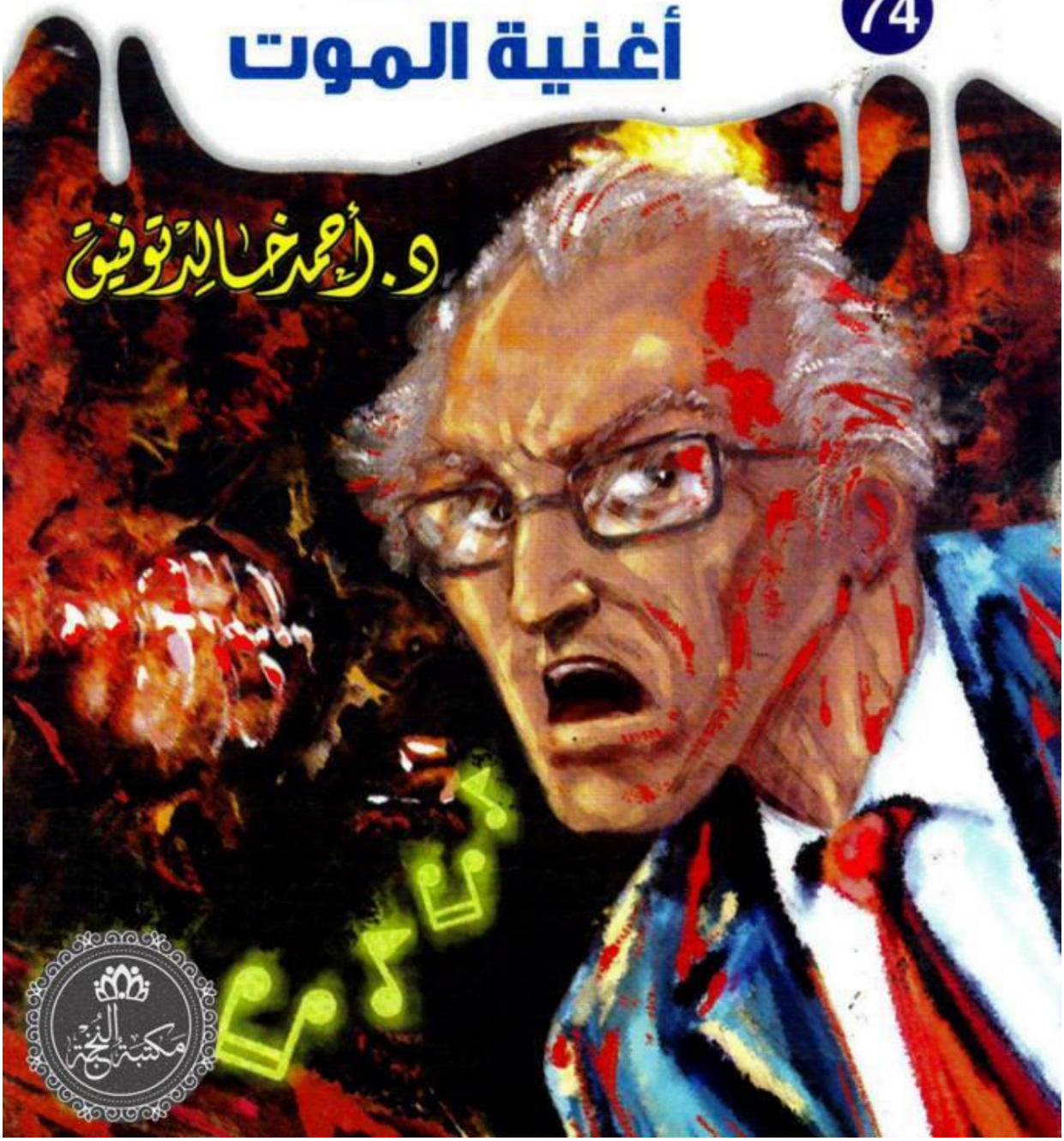


ما وراء الطبيعة

74

أسطورة أغنية الموت

د. أحمد خالد توفيق



مكتبة النجمة

مكتبة
Telegram Network
2021

- ﴿المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



74

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة أغنية الموت

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط
الغمـــوض والرعـــب والإثارة

74

أسطورة أغنية الموت

بقلم: د. أحمد خالد توفيق

الغـلاف بريشـة: أ. أيمـن القـاضي

المؤسسة
العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

المقدمة

لقد تلف جهاز التلفزيون.

لم ألمسه.. فقط فكرت في فتحه..

يطلقون على هذا (تأثير بولي)، وهو يصف أولئك الأشخاص الذين ليس بينهم وبين الأجهزة الكهربية أو الأجهزة عمومًا عَمار. لا يعني هذا أنهم يعبثون بل يعني أن مجرد وجودهم كاف لتتلف الأجهزة.. لابد أن لك عمًّا أو خالة من هذا الطراز، ويبدو أنني أنتمي لهم بشكل ما..

يقولون إنهم يبعثون موجات غامضة تتلف الـ... ولكن دعنا من هذا الكلام الذي يتعذّر إثباته.. كل شيء في العالم يمكن تفسيره بهذه الموجات الغامضة.. إنها الموضة هذه الأيام..

لقد تلف جهاز التلفزيون.. للأسف...

المذياع أيضًا يمارس عادات غريبة، فلا تخرج منه سوى ضوضاء إلكترونية مبهمة.. قد تقول إنها نوع من EVP أو (ظواهر الصوت الإلكترونية) التي قيل إنها أصوات الأرواح في العالم الآخر..

لا أدري حقًّا..

إذن لم يبق أمامي سوى اللجوء لأقدم تسلية عرفها الإنسان منذ اختراع القراءة: القراءة.. كتاب دسم ممتع في الفراش على ضوء الأباجورة الدافئ.. كوب من الشيكولاتة الساخنة كذلك كأنها نخاع مذاب يتسرب إلى عظامي...

إن الحياة جميلة.. متع بسيطة كهذه تجعلها جميلة، وإن كان الحد الأدنى لمطالب الإنسان هو المسكن الذي يقيه العواصف، والمأكل، والأمان...

كتاب.. كتاب.. ساعدني في الاختيار..

كلا.. ليس مطرقة الساحرات من فضلك فقد قرأته ألف مرة.. ليس أيًا من كتب (لافكرافت) لأن الرجل يثير رعبي حتى هذه اللحظة. توفيق الحكيم ممتع وجميل لكني أحفظ كل حرف كتبه.. وماذا عن العقاد؟.. صعب جدًّا لعقل بدأ ينعس ويتثاءب...

هناك كتاب عن الجماعات الدينية السرية في أوروبا في القرون الوسطى.. بقلم (جيسون مكالستر). لا يبدو عنوانًا مثيرًا لك لكنه يذكرني بقصة... قصة رهيبة نوعًا..

أنت تذكر تلك القصة ولا شك.. (مكالستر) هو ذاته مؤلف الكتاب وهو الذي....

ماذا؟.. هل فقدتم الذاكرة؟.. مستحيل أن تكونوا قد نسيتم تلك القصة.. إذن أنا أكلم نفسي منذ البداية..

ولكن.. تصوروا أنني لم أحكها بعد!.. كيف فاتني هذا؟

إذن سوف نؤجل مشروع القراءة في الفراش، لنستبدل به مشروعًا آخر: السرد في الفراش.. سوف أجلس تحت الأغطية وأحكي لكم تلك القصة، وأعتقد أنها ستروق لكم..

(مكالستر)... أغنية الموت...

يا لها من ذكريات!!

لسـوف أسُـود..

أنـا أسُـود..

لقـد سُـدتُ..

أنـا الـذي لا مملكة لـي.

(العبارات المكتوبة على عجلة الأقدار)

تمهيد

الأمطار تنهمر لتغمر طرقات المدينة..

هذا جو مناسب جدًّا لهذه الرحلة الرهيبة.

والسيارة السوداء تنهب شوارع (برلين)، ومسَّاحاتها لا تكف عن المحاولة المستميتة الميئوس منها لإبقاء الرؤية واضحة..

الرجل ذو النظارة السميكة الذي يبدو كأحد ضباط الجستابو Gestapo يجلس في المقعد الخلفي، يرمق ظهر السائق الذي يبدو كآلة لا تتكلم ولا تتناقش..

الرجل يبدو كضباط الجستابو لكنه ليس منهم.. بالواقع هو يموت ذعرًا منهم..

تحسس معدته وشعر بالحمض يرتفع ببطء..

أصلح من وضع العوينات وتنفس بعمق.. يا له من طقس لعين.. إنّه يجعلك عصبيًا.. لا يمكن أن يتم شيء مبهج وسط السيول والرعود والبروق.. لكنّها فرصتك الذهبية فلا تتركها..

يجب أن تهدأ.. إن اللحظات التالية قد تمثل مستقبلك كله..

✶ ✶ ✶

تدخل السيارة شارعًا جانبيًا من الشوارع المرصوفة بحجر الإسكافي Cobblestone على النمط الذي سيسود بلدان شرق أوروبا بعد الحرب. قليل من الناس من يعرف أهميّة هذا الشارع ولا ما ينتظر في رقم (6) منه. تقف السيارة المرسيدس أمام الباب فيهبط السائق متحجر الوجه ليفتح الباب لضيفه المهم.

يترجل الضيف الذي تقتله الحموضة ويجتاز الأمتار القليلة نحو المدخل تحت الأمطار الغزيرة، وفي النهاية ينفتح الباب..

ذلك الضابط الشاب الوسيم يتقدم ليأخذ منه المعطف، بينما ضابط آخر يتقدم نحوه ليقتاده عبر ممر أحيط على الجانبين بلوحات عالمية شديدة الجمال، ويبدو أنها أصيلة..

في نهاية الممر باب مغلق يتدلى عليه العلم النازي من أعلى. العلامة الاستعمارية القوية بلونيها المميزين.. صليب (سفاستيكا) الذي كان كل إنسان يعتقد أنه سيكون علم الكرة الأرضية خلال أعوام.. الرايخ....

ينفتح الباب ليجد أمامه غرفة مكتب حسنة التنسيق مريحة. ركن به مدفأة مشتعلة، ومكتب فاخر ومنضدة للاجتماعات عليها بار مشروبات كامل، والستائر مسدلة تعطي جوًا عامًا من الدفء الحميم.. مكان جميل يصعب أن تصدق أنه ما هو عليه هنا ثلاثة رجال.. هذه ملامح أرستقراطية لا تخطئها العين.. نبلاء الألزاس الذين صاروا من قادة الجستابو...

كبيرهم هو الواقف في المنتصف ممسكًا بكأس من الويسكي والمونوكل على عينه، والقامة المفرودة التي تدلّ على سيد آمر.. إنّه بدين نوعًا بدأ يفقد الشعر في مقدمة رأسه.. لغد فخيم يستريح عليه رأسه في هيبة...

ابتسامة شاعت على الوجوه.. هنا أدرك أنه يسمع (فاجنر).. ثمة جراموفون في ركن المكتب عليه أسطوانة لفاجنر.. (تنانهاوزر)....

قال له كبيرهم باسمًا:

- «لو سمحت لي.. لا أعرف رأيك في (فاجنر)..»

قال الضيف العصبي وهو يتحسس معدته:

- «لا يمكن أن يكون المرء ألمانيًا من دون أن يحبّ (فاجنر)..»

- «أتحدث عن المنافسة المهنية... (موتسارت) لم يحبّ (بيتهوفن) قط.. وكلاهما عبقري، فمن الجائز ألا تحب فاجنر..»

الواقع أنه لم يحبّ (فاجنر) قط، وكان يجده مفتعلًا مملًا لكن في ألمانيا النازية عليك أن تأخذ الحذر في إعلان ما تحب وما لا تحب. لقد بالغ كثيرًا في الخوف وفي التخفي ليصير مثل الجميع، حتى لم يعد يعرف ما يحبه وما يكرهه حقًّا.. إنّه يحبّ ما يحبه الحزب النازي ويكره ما يكرهه.. حتى صار يسأل نفسه إذا نظر لفتاة حسناء: هل كانت الفتاة ستروق لهتلر؟.. لو كانت الإجابة بنعم وقع في حبها، وإلا كرهها بجنون..

قدموا له كأسًا فأمسكه بيد عصبية بينما جلس الجنرال عظيم الشأن ووضع ساقًا على ساق، وقال في استرخاء:

- «سمعت ما كتبته من موسيقا بدلًا من ذلك المدعو (مندلسون).. أهنئك..»

- «شكرًا يا جنرال..»

- «هناك من رفضوا أن يكتبوا بدلًا منه، لكنهم بهذا يفضحون عداءهم للفوهرر وللرايخ..»

- «أنا ابن الرايخ المخلص يا جنرال..»

ناول أحد الضباط الجنرال مجموعة من الأوراق تفحصها وهو يرشف الويسكي، ثم نظر للضيف بعينية الزرقاوين الثاقبتين وقال:

- «إن الرايخ مهتم بهذا الاكتشاف الأخير.. لكن السؤال الذي يطارد الجميع هو: لماذا لم تتأثر أنت بهذه الموسيقا؟»

كان على استعداد لهذا السؤال لأنّه تلقاه مائة مرة من قبل، فقال:

- «يبدو أن طباخ السم لا يذوقه.. أو أن لديَّ مناعة معينة..»

ابتسم الجنرال وقال:

- «نحن درسنا الموضوع في حذر.. ويمكن القول إنّه صحيح تمامًا، وإنه كذلك خطر جدًّا.. هذا لعب بالنار على أعلى مستوى لقد فقدنا خمسة من رجالنا.. وقد أوصى الفوهرر شخصيًا بأن نوقف المشروع.. سوف ندمر كل هذه الأوراق ونمنعك رسميًا من التعامل معه..»

هزّ الضيف رأسه.. كان يتوقع هذا برغم أنه كان يأمل في أن تتبنى الحكومة هذا الموضوع.. كان هذا يجعله أهم شخص في ألمانيا بعد هتلر.. لكن.. لربما كان هذا أفضل.. وبالفعل شعر بالحمض يهبط في المريء إلى المعدة ليستريح هناك، بعد ما أحرق نصف الأغشية التي تعلوه..

قال الجنرال:

- «ما هو تفسيرك لهذه القصة العجيبة؟»

- «هؤلاء القوم كانوا يعرفون أشياء كثيرة..»

- «أنت قمت بإعداد العديد من هذه المقطوعات.. تقول إن الجوليارد Goliards هم من كتب هذا الكلام؟.. ثم وجدها باحث ما في دير بافاري قديم عام 1803»

- «دير بندكتبويرين Benediktbeuern يا جنرال...»

- «ألمانيا كلها وقعت في غرام (كارمينا بورانا Carmina Burana).. إنها رائعة لكن فيها كذلك شيئًا شيطانيًا.. هل تعتقد أن هؤلاء القوم كانوا يعبدون الشيطان؟»

- «لا أدري يا جنرال.. لكنهم كانوا مارقين من المسيحية بلا شك..»

أشعل الجنرال سيجارًا غليظًا جديرًا بمنظره فعلًا، فانبرى الضابط الوسيم يشعله له.. نظر لطرف السيجار في رضا واستمتاع ثم قال:

- «في البداية كنا متحفظين.. نغمة الشهوانيّة عالية جدًّا في بعض هذه المقطوعات، لكن اللحن الذي وضعته أنت يحرك دماء الحماس لا الشهوة في العروق.. هذه الضربات هي خطوات الرايخ

نفسها..»

الحقيقة أن الضيف العصبي كان قد لحَّن الجزء الوحيد الممكن من هذه المخطوطات. الجزء الباقي جمد دمه في العروق لأنّه خليط فريد من الشهوة والجنس والهرطقة والسخرية من الدين..

لكن الجزء الذي جاء بسببه الآن هو بداية المشكلة.. هو اللحظة التي عرف عندها أن الأمر أكبر منه بكثير.. بعد أشهر قليلة سوف يحرر العلماء الأمريكيون الطاقة من الوحش الناعس في نواة الذرة، ولسوف يصيبهم الذعر من الهول الذي أطلقوا سراحه.. نفس شعوره منذ أعوام..

عندها قرر أن يلجأ لمن هو أكثر منه علمًا أو قدرة.. لجأ إلى الجيستابو..

وقد اقتضى الأمر الكثير من البحث، حتى أدركوا أنه من الخير أن يتم دفن هذا السر الخطير للأبد. فلنكتف بالجزء الذي عرفه العالم من السر.. إن (كارمينا بورانا) هي المقطوعة الوحيدة التي اشتهرت في ألمانيا النازية، وبرغم هذا سوف تظل خالدة حتى اليوم.. كأن روعتها جعلتها شمسًا لا يمكن تغطيتها أو دفنها... النغمات الساحرة حطمت كل أسوار الرقابة..

عام 1937 كتب الضيف لناشر موسيقاه يقول:

- «بهذه المقطوعة الجديدة، يُمكنك أن تتخلص من كل ما كتبته من موسيقا قبل اليوم هذه هي البداية الحقيقية لموسيقاي..»

وهو ما حدث فعلًا..

لقد كانت نبوءة لا تنسى..

✶ ✶ ✶

كان اسمه (كارل أورف Karl Orff)..

كل عشاق الموسيقا يعرفونه ويعرفون كذلك أنه تعاون مع النازيين. الحقيقة أنّ هذا منطقي.. النازيون كانوا هم حكومة بلاده وقتها، ولم يكن أحد ليطالبه بأن يتحول إلى شهيد.. لا تتوقع أن يملك موهبة موسيقار عظيم مع شجاعة فارس كذلك...

الحقيقة أن الرجل كان هشًا، وكان أقل من فارس بكثير جدًّا..

كان له صديق يدعى (كورت هوبر).. ولم يكن يعرف أن صديقه هذا معادٍ لهتلر، ومؤسس لحركة مقاومة اسمها (الوردة البيضاء). لم يكن أورف يعرف هذا كله عندما ذهب لدار صديقه في ذلك اليوم من عام 1943..

وجد مأساة إغريقية.. زوجة تبكي وتولول، وقد انتشر شعرها على وجهها وامتزج بالعرق والمخاط والدموع...

- «لقد قبضوا على (كورت)..!»

- «والسبب؟»

- «إنّه يرأس جماعة سرية تحاول القضاء على هتلر!»

عندها استدار نحو الباب بلا كلام، فركضت خلفه وارتمت على ركبتيها متمسكة بتلابيبه:

- «أرجوك!.. أنت قادر على إنقاذه.. إن الفوهرر يحبك أنت رجل مهم في ألمانيا اليوم..!»

المشهد يتحول من مأساة إغريقية إلى لوحة من لوحات الباروك..

كان لسان حاله يقول (يا روح ما بعدك روح). لو انكشف أمر صداقته لـ (هوبر) فالويل له.. في هذا الوقت كانت أسلاك البيانو باهظة الثمن، لأنهّا كانت تستخدم لشنق معارضي هتلر على أعمدة النور في الشوارع.. يمكن دائمًا الاستغناء عن مؤلف موسيقى عبقري، فالفوهرر يؤمن أن ألمانيا (ولادة)..

- «أنت مجنونة!»

وركلها بطرف حذائه ليبعدها، وسرعان ما كان يركض في الطرقات وهو يضم ياقة معطفه على أسفل وجهه.. لقد انتهى (هوبر) بالتأكيد.. لا توجد قوة على الأرض يمكنها إنقاذه..

بهذه البساطة تخلى عن صديق.. لكن هل أنت قادر على لومه حقًّا؟.. الأبطال لا يوجدون في كل مكان وكل زمن.. لهذا هم نادرون ولهذا تكتب عنهم الملاحم..

على أن ضميره ظل يعذبه طيلة حياته لأنّه تخلى عن هذا الصديق الذي أعدم فعلًا..

✶ ✶ ✶

كان كارل أورف أول من عرف السر الذي دفن منذ القرون الوسطى[1]..

هذا جبل جليد، يطفو فوق الماء جزء صغير جدًّا منه اسمه (كارمينا بورانا).. جزء خلاب جميل يعشقه الجميع، لكنهم يعترفون كذلك بأنه غامض رهيب...

لكن الجزء الغائص تحت الماء لم يدمّر بالكامل.. النازيون حسبوا أنهم فعلوا، لكن هذا لم يحدث، ولربما كان هناك من تعمد ألا يدمره.. وكانت هناك سفن عديدة موشكة على الاصطدام به..

الجزء الأول:

الرحلة 345

- 1 -

لا أخاف الطيران بشكل خاص...

القضية هنا هي أنني أعرف أن كل شيء سينتهي على الأرجح بسرعة البرق.. عندما تقرر الطائرة أن تسقط، فلن نقضي وقتًا طويلًا في معرفة هذه الحقيقة العظيمة.. قد تنفجر في الجو أو تنشطر شطرين وتهوي.. على الأرجح لن نرى لحظات متوترة مفعمة بالإثارة كالتي نراها في أفلام الكوارث الهوليوودية، حيث تركض المضيفة بين المقاعد شاحبة الوجه تردد:

- «لا تقلقوا.. كل شيء على ما يرام.. الكابتن ممتاز ويعرف كيف.....»

قبل أن يحدث مطب هوائي فتسقط صارخة على وجهها قبل أن تكمل..

كذلك لا أخشى كثيرًا هؤلاء الملثمين المدججين بالسلاح الذين يفجرون رأس ضحية كل ربع ساعة، ويرغمون الطائرة على الهبوط في قبرص.. لا شيء في شخصي يغري بتفجير الرأس لاحظ أننا كنا في عصر خطف الطائرات وما قبل أجهزة الكشف عن المعادن، حيث كان يُمكنك ركوب الطائرة بدبابة كاملة تخفيها في حقائبك.. لكن هذا لم يكن يقلقني..

لو حدث شيء فلسوف يحدث بسرعة.. يعني لن يستغرق وقتًا أو رعبًا أكثر مما تسببه نوبة قلبيّة..

لا أخاف الطيران وقد ركبت الطائرة عشرات المرّات، لكني أحتفظ لنفسي بالحق في نوع خاص من الرعب النفسي هو الكلوستروفوبيا Claustrophobia.. الخوف من الأماكن المغلقة. أنت في أنبوب معدني محكم الغلق.. لا أرض تحتك.. لا يُمكنك الخروج.. هل تجد وضعًا آخر أقرب إلى القبر؟.. عليك تحمل الرحلة فوق السحاب لعدة ساعات والسقف منخفض يوشك على ضرب رأسك.. هكذا أشعر بتوتر وبأن أنفاسي عسيرة تدخل وتخرج مع كثير من الكفاح...

هذه مشكلتي الخاصّة، ولهذا ندر أن أقوم برحلات طويلة.. ولا أفهم هؤلاء الذين يذهبون للولايات المتحدة عشر مرات في اليوم الواحد ليتحملوا ما يربو على عشر ساعات في هذا السجن.. ولهذا أيضًا أبتلع بعض أقراص المنوم والمهدئ قبل الرحلة لأنام كجثة هامدة فلا أصحو إلا عندما تأتي لحظات الهبوط الدرامية المتوترة..

إذن قل لي بربك لماذا قصدت الولايات المتحدة في ذلك اليوم؟

✶ ✶ ✶

كان مؤتمرًا مهمًا في أمراض الدم، وقد طلبوني بالاسم مع كافة التسهيلات.. أنت تعرفني كطارد أشباح وتعرف القليل جدًّا عن عملي العلمي، لكن دعني أؤكد لك إنّه لا بأس بي. بعض الأبحاث مهمّة جدًّا، دعك من علاقات قوية مع أساتذة الغرب مما يجعلهم يتذكروننني في كلّ مرّة.. لولا هذا لما استطعت السفر إلا إلى أول شارعنا كما تعلم.. النتيجة هي أنني رأيت العالم فعلًا وهذا أهم شيء حققته في حياتي....

أنت تعرف أنني أمقت الولايات المتحدة.. كل شيء ضخم.. كل شيء جديد..كل شيء باهظ الثمن.. لا يوجد تاريخ تقريبًا.. معظم الأمريكيين لطفاء ودودون لكنهم يتحركون ككل بشكل مزعج يؤذي الشعوب الأخرى..

كنت جالسًا في الطائرة وأنا أربط الحزام حول خصري مرددًا دعاء السفر، منتظرًا لحظة انفجار الطائرة عند الإقلاع كالعادة، عندما رأيت الرجل الجالس جواري..

كان ينظر لي في ثبات وقد شاعت ابتسامة ودود على وجهه..

اللعنة!.. إنسان ودود سوف يرافقني طيلة الرحلة!.. أسوأ كوابيسى يتحقق.. لن يخرس لحظة واحدة.. فقط فلنأمل أن يلعب حاجز اللغة الدور المطلوب كي....

- «جيسون مكالستر...»

صحيح.. صحيح.. لو لم تكن هذه ملامح أسكتلندية فأنا فليبيني.. المشكلة أن سرعة بديهتي خذلتني.. مددت يدي مصافحًا، وكان عليّ أن أتظاهر بأنني لا أعرف الإنجليزية..

- «رفعت إسماعيل.. طبيب مصري..»

نظر لي ثم قال:

- «المرّة الأولى بالطائرة؟»

هنا فطنت إلى أنني أبدو متوترًا.. طبعًا السبب هو رهاب الأماكن المغلقة.. لكن ليس الطيران طبعًا، لكني رددت بما يوحي بأن الأمر قد يكون كذلك وقد لا يكون كذلك..

- «أنا إسكتلندي..»

- «جميل..»

وأخذت شهيقًا عميقًا وأرجعت رأسي للوراء..

المضيفة تقف في الممر وقد لفت سترة النجاة حول صدرها، وقد كانت العادة في ذلك الوقت أن ترينا المضيفة بنفسها بدلًا من عرض فيلم.

سوف يرتفع هذا القبر الطائر وسيكون عليّ أن أتحمل بضع ساعات دون أن أختنق. المهم أن يتركني هذا الرجل الودود في حالي.. أموت خوفًا من هؤلاء الودودين.. إنهم مرعبون دائمًا..

أدرك بعد قليل أنني لن أتكلم وأنني أسوأ جار مقعد ممكن، هكذا مد يده في حقيبة يده وأخرج كتابًا صغيرًا ذا غلاف سميك Hard cover وراح يقرأ..

الطائرة تركض على الممر جريها المجنون الذي لا يمكن إيقافه..

أغمض عيني وأنتظر الشعور بألم الأذنين.. ها هو ذا.. آي!.. نحن نرتفع..

أخيرًا تستقر الأمور فأفك الحزام..

لقد غرق جاري في الكتاب الذي يطالعه، وأنا من الطراز الذي لا يرى شخصًا يطالع كتابًا من دون أن يعرف اسمه.. هكذا رحت أختلس النظر بطرف عيني.. براق... قراءته ليست سهلة..

(مكالستر)

بخط كبير جدًّا هذا ليس عنوانًا.. إنها العادة الغربية الشهيرة في كتابة اسم المؤلف أكبر من عنوان الكتاب ذاته.. (جيمس مكالستر)... الجماعات الدينية السرية في أوروبا في القرون الوسطى.. هذا هو العنوان وهو لا يدعو للحماس..

لكن أين سمعت هذا الاسم (مكالستر) من قبل؟.. سمعته منذ وقت قريب جدًّا.. يبدو كذلك إنني أعرف صاحبه جيدًا...

ذاكرتي لم تعد على ما يرام هذه الأيام.. ربما بكثرة الهموم لكني سأتذكر.. فقط لأتوقف عن البحث وسوف تحط ذبابة الذكرى الخضراء على ساعدي من تلقاء نفسها...

طلبت من المضيفة الشمطاء التي تمقت نفسها والكون والبشر والقطط الصغيرة والأزهار.. طلبت منها كوب ماء فنظرت لي في احتقار، ثم جلبته لي، فدسست قرصًا منومًا في فمي وابتلعته..

رحت أجول بنظري بين الركاب.. هذه السيدة فائقة الحسن مصرية بالتأكيد.. جمالها لا يوصف ولا يمكن تصديقه، ولعلها كانت أقل سحرًا منذ عشر سنوات.. لو كنت أنا أصغر عشرين عامًا لا.. لا... لما فعلت شيئًا أكثر مما أفعله الآن.. أنظر لها ثم أتنهد وأغمض عيني منتظرًا رحلة النعاس..

سوف أصحو في الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي أو في القبر..

سأعرف هذا بعد عدة ساعات..

✶ ✶ ✶

- 2 -

سمبر كريسيس..

أوت دكريسيس

فيتا ديتستابيليس..

✶ ✶ ✶

كانت (فاتن الشرقاوي) تعيش أكثر الأيام إثارة في حياتها..

في الأربعين من العمر.. جميلة جدًّا كما تبلغ التفاحة ذروة روعتها قبل أن تذبل.. ذات منصب علمي مرموق، والرجال يعتبرونها حلمًا يمشي على قدمين، فهي شديدة الذكاء واللباقة لكنّها استطاعت أن تشعر الرجال أنها أعلى منهم وأبعد..

الأجمل أنهم كفوا فعلًا عن مضايقتها.. لم تعد ترى ذلك الرجل الأبله أو ذاك الذي يلاحقها برعايته ولطفه آملًا أن تغير رأيها. لقد قرر الرجال أنها أكبر منهم جدًّا وأنه:

هي الشمس مسكنها في السماء

فعز الفؤاد عزاء جميلًا

فلن تستطيع إليها الصعود

ولن تستطيع إليك النزولا

وقد أرضاهم أن أحدهم لن يفوز بها.. هذه مساواة في الظلم وهي نوع خاص جدًّا من العدل كما تعلم..

قررت أن المرأة تتزوج كي تظفر بطفل أو يرعاها رجل ماديًا أو لأنهّا تهاب الوحدة.. كل هذه الأسباب لا تمثل لها أية أهميّة.. على كل حال كانت قد فقدت فهم هذا الشعور المسمى بالحبّ وقد قدرت أن أمامها خمس سنوات قبل أن تفقد الفرصة في الإنجاب.. ولو أنجبت في تلك الفترة فالخطر داهم.. خطر عليها وعلى الجنين الذي قد يصل العالم مشوهًا ليهديها كارثة ليست بحاجة لها. أمّا عن المال فدخلها يكفيها ويفيض..

كانت تعيش وحدها، لأنهّا شعرت أنّ هذا ما ينبغي عليها كامرأة واثقة من نفسها لا تخشى شيئًا.. لكن الحاجة إلى رفيق أو ربما هو الخوف جعلاها تقتني كلبًا مرعبًا من طراز (الراعي الألماني). كان خير رفيق لها في وحدتها في اللحظات التي لا يقضى فيها حاجته داخل الشقة.. عندها تكون كارثة فعلًا..

كانت مدرسًا للتاريخ في كلية الآداب، ولها حضور لا بأس به في المنتديات والندوات.. تعرف كيف تنزل نظارتها على قصبة أنفها وتنظر للناس من فوق الإطار العلوي لتبدو مؤثرة.. تعرف كيف تبدو منهمكة.. وكانت تعرف كيف تبدو أنيقة ساحرة لهذا اختارت لنفسها التايور كزي دائم. ولها صداقات عديدة مع حشد من الأدباء والنقاد والأكاديميين، كما أنها تقوم بإعداد برنامج.. إذاعي مهم بالبرنامج الثاني.. وفي ذلك الزمن كان البرنامج الثاني شيئًا مهيبًا شديد الرقي.. كانت فكرة هذا البرنامج هي تتبع الأصل التاريخي للمقطوعات العالمية الشهيرة..

الخلاصة أنها نظرت لنفسها في المرآة وقالت: ما تحصلين عليه يا فاتن من إعجاب وتقدير يغنيانك عن أي رجل مهما كان.. أنت كائن مكتمل فلا تفسدي هذا...

رأت الخادمة العجوز تنظف الغرفة خلفها فكفت عن النظر للمرآة..

سألتها الخادمة:

- «هل تريدين شيئًا آخر يا دكتورة؟»

قبل أن ترد دق جرس الباب فاتجهت الخادمة لتفتحه، ثم عادت بعد ثوان لتقول:

- «طرد باسمك يا دكتورة.. لابد من توقيعك..»

اتجهت للباب وتناولت الطرد من ساعي البريد..

لم تنظر للرجل لكنّها تقبلت في رضا ارتباكه من كل هذا السحر الذي برز له من الباب.. لقد اعتادت هذه الأمور..

من أرسل لي هذا الطرد؟

لم تتبين اسمًا واضحًا على الغلاف، فوقعت للرجل وأخذت الطرد للداخل..

مزقت الغلاف بسكين فوجدت بالداخل شريط كاسيت.. شريط كاسيت تم لفه بعناية بالبلاستيك، ومعه رسالة تقول:

- «يسرني أن تسمعي هذا النشيد فإذا راق لك أرجو أن تذيعيه في برنامجك.. د. عمران المحلاوي..»

(عمران المحلاوي)؟.. لم تسمع هذا الاسم من قبل والأهم أنه غريب نوعًا.. له وقع غير واقعي على الأذن.. لكن من الواضح أن صاحبه مهتم بالموسيقا الكلاسية..

فتحت جهاز الكاسيت ودست الشريط وانتظرت لحظة...

✶ ✶ ✶

هل هذا حقيقي؟

هل هي تسمعه فعلًا؟

هذه الأصوات القادمة من لا مكان.. من حنجرة الكون ذاتها، ومنذ زمن سحيق.. ربما هي أصداء الانفجار الأعظم الذي شهد مولد الكون..

هل هي شهقة ديناصور صغير خرج من البيضة للمرة الأولى؟.. أم نشوة رجل كهف هوى البرق ليحرق جذع شجرة أمام عينيه، فرأى معجزة النار؟.. هل هي أغنية كاهنات (سيلكت) وهن يشرفن على حرق البخور والمر في غرفة التحنيط؟.. أم هي رقصة سالومي بأثوابها السبعة أمام عيني (هيرود انتيباس) الذي قطع رأس (يوحنا المعمدان) من أجلها؟.. أتراها أنشودة من أجل (عشتار)؟.. أم هي تراتيل غامضة لكهنة دير في الجبل في القرون الوسطى؟

الإنشاد باللاتينية.. لا شك في هذا.. لاتينية قديمة جدًّا.. ماذا يقولون؟

حكت رأسها محاولة تذكر أين سمعت هذا من قبل؟

شيء قريب نوعًا من (كارمينا بورانا) لكنّها أجمل بكثير..

صوت الجوقة الأوبرالي يتصاعد حتى يبلغ الثقوب السود والمجرات ثم يهبط.. يهبط.. يهبط حتى أعماق المحيط ليتوغل في حطام التيتانيك ويوقظ أخطبوطًا غافيًا في شعبة مرجانية ما.. إنّه يتوغل أكثر من هذا.. إنّه يتوغل في قلب الأرض ذاتها ليهز طبقات الماجما...

أغلقت الكاسيت لأن كل هذا الجمال قد هزّها من الداخل..

لقد دار رأسها..

للجهاز العصبي البشري قدرة على التحمل يحترق بعدها، وقد قرأت أن الكم الزائد من أية حاسة يحدث ألمًا لا شك فيه، لهذا يمكن لصوت صاخب أو ضوء ساطع أن يحدث ألمًا مروعًا..

هذه الروعة ألمت روحها وأدمتها..

وعندما دخلت فراشها كانت ترتجف فعلًا...

نحن لا ندقق كثيرًا فيما يحدث حولنا، ولو كانت أكثر دقة لسألت نفسها: أين الكلب؟.. لماذا توارى تحت مائدة غرفة الطعام ودفن أذنيه بين قائمتيه كأنه لا يريد أن يسمع أكثر؟.. لقد توقف

النشيد منذ زمن فلماذا يصر على البقاء حيث هو؟

أشياء كهذه لا يلاحظها الناس بسهولة..

✶ ✶ ✶

استمع د. (سامي الحفناوي) أستاذ الكونسرفتوار إلى الكاسيت مرّتين، ثم قال لها:

- «رائع لا شك في هذا.. لكن معرفة أصوله شبه مستحيلة..»

وضعت قدح القهوة على المنضدة وقالت:

- «لكنه باللاتينية والتركيب العام قريب نوعًا من كارمينا بورانا..»

- «أورف لم يكتب هذا... أنا متأكد..»

ثم حك رأسه وفكر قليلًا:

- «لا شك في أن له أصولًا وسط أوروبية.. ربما ألمانيا بالذات لكن من المستحيل التأكد من هذا.. أعتقد كذلك أن عليك استشارة من يجيد اللاتينية..»

قالت باسمة:

- «لكن من الذين يغنون؟؟ هذا الشريط لم يسجل في القرون الوسطى..»

- «هي فرقة أوروبية كما هو واضح.. أعتقد أن الإجابة عن سؤالك تكمن في إجابة واحدة: عمران المحلاوي.. من هو؟.. لماذا أنت بالذات؟»

- «السؤال الثاني أسهل.. لأن لدي برنامجًا إذاعيًا..»

- «ولماذا يريد أن يذيع هذه الأنشودة؟»

- «إنها الرسالة المقدسة للجمال: فليرني الكون.. فليرني الناس.. يقولون إن الماس النادر يذوي ضوؤه عندما يوضع في صندوق مغلق ولا تراه العيون..»

- «رأيك لن يروق للمحافظين.. معنى هذا أن على النساء أن يمشين عاريات في الشوارع وإلا ذبل جمالهن..»

قالت ضاحكة:

- «لا أتكلم عن النساء بالله عليك.. أتكلم عن أروع نشيد سمعته في حياتي ولابد للجميع أن يسمعه..»

ثم وضعت الشريط في علبته ووضعته أمامه على المكتب:

- «هل يمكن أن نذيعه في البرنامج؟»

- «المشكلة أنه ليس لديك أي شيء يُقال عن هذه الأنشودة على الإطلاق.. لا تعرفين اسمها ولا مؤلفها ولا ماذا تقول ولا من يغنون.. أية قيمة تقدمينها للمستمعين؟»

- «المقطوعة ذاتها..»

دسّ الشريط في جيبه وقال:

- «هل لديك نسخة أخرى منه؟»

- «لا.. لكني أثق بك.. أنت منظم.. لا شيء يضيع معك سوى الذكريات..»

ابتسم في مرارة ونهض...

✶ ✶ ✶

كان يمكن لكل شيء أن يمضي بانتظام لولا الهاجس..

لماذا عندما مر بتلك البناية العتيقة في وسط القاهرة، تذكر صديقه (عبد الظاهر)؟..

هو لم يره منذ أعوام، لكنه شعر بحاجة ماسة لأن يقابله اليوم..

أوقف سيارته أمام البناية وترجل..

منظره غريب فعلًا بقامته القصيرة ورأسه الصلعاء والشعر الذي ينسكب من جانبي الرأس على كتفي سترته زاهية الألوان كان موشكًا على تعليق لافتة تقول: فنان عبقري.. ابتعدوا..

مكتب (عبد الظاهر) في الطابق الخامس.. دخل المصعد العتيق مصعد من الطراز الذي تغلق بوابة حديدية عليك من خارجه. أغلق الباب.. هنا رأى امرأة تهرع مذعورة لتلحق به..

منكوشة الشعر جاحظة العينين.. كأنها خرجت لفورها من حريق.. إن النساء لم يعدن جميلات كما كن فيما سبق.. يسهل لهذه السيدة أن تصير بطلة فيلم رعب..

أوقف المصعد وفتح لها الباب وكاد يضغط الزر، لولا أن ظهر رجل يركض مسرعًا وسرعان ما اندس في المصعد معهم ثم ظهر رجل ثالث..

سأل د. سامي السيدة في تهذيب:

- «أي طابق؟»

قالت بسرعة وبطريقة غريبة:

- «أي شيء.. أي شيء..»

ما معنى هذا؟.. من حق الناس أن يجنوا لكن ليس على حسابي.. وأنت أيها السيد؟

قال السيد المذكور:

- «الطابق الثالث.. لا.. ليكن السادس!»

هذا يوم المجانين إذن.. لا أحد يعرف إلى أين يذهب ولا لماذا..

أما الرجل الثالث فكان محددًا.. يريد الطابق السادس..

ضغط الأزرار. وببطء تحرك الوحش العملاق النائم يحرك مفاصله الصدئة.. يرتفع.. يرتفع..

لماذا يريد (عبد الظاهر)؟.. فعلًا لا يعرف.. لكنه نازع خفي جعله في أمس الحاجة لأن يقابله اليوم..

الوحش يرتفع.. يرتفع..

ثم يتوقف.. ما هذا؟.. ليس هذا طابقًا.....

هل تعطل أم....؟

ثم أدرك الثلاثة بعد لحظة الغباء المتوقعة أنهم يهبطون بسرعة.. بسرعة لا تصدق..

لقد انقطعت سيور المصعد وهو الآن يهوي من ارتفاع أربعة طوابق كاملة!!

✶ ✶ ✶

- 3 -

نونك أوبدورات

إتونك كيورات

لودو منتيس آسييم

✶ ✶ ✶

فرغت (فاتن الشرقاوي) من إملاء بياناتها هاتفيًا لموظفة شركة الطيران..

سوف يكون موعد الطائرة مساء غد..

أشعلت لفافة تبغ وراحت تنفث الدخان في أناقة وهي ترمق صورتها في المرآة. كانت قد اعتادت أن تلقي نظرة على صورتها في كل عمل تقوم به للتأكّد من أنها مطابقة للشروط الجمالية. لدرجة أنها كانت تتمنى فعلًا لو التقط أحد صورة لها وهي نائمة لتعرف كيف تبدو..

لماذا الولايات المتحدة الآن؟

لا تعرف.. هناك تلك الرغبة العارمة كي ترى (أورلاندو).. لديها صديقات هناك، وهي لم ترهن منذ أربعة أعوام.. لقد زارت الولايات عدة مرات من قبل، لكنّها مندهشة من هذا الحنين المفاجئ..

كادت تنسى شيئًا اتجهت لساعة الهاتف وطلبت أرملة د. (سامي)..

- «(نبال)... أنا مسافرة غدًا إلى الولايات.. بعض الأعمال.. هل تريدين شيئًا؟»

جاءها الصوت المبحوح للأرملة الشابة التي تصغر زوجها بعشرين عامًا:

- «أنا بحاجة لك يا (فاتي).. هل هذا أفضل وقت ممكن؟»

قالت في شيء من الحرج:

- «إن هو إلا أسبوع.. أعرف أنك قادرة على العناية بنفسك في هذا الوقت..»

الحوادث تقع في كل يوم.. لكن ندرة الحادث وغرابته تجعلانه مؤلمًا أكثر من سواه. لو أنّ د. (سامي) مات في حادث سيارة لكان الأمر أسهل نسبيًا.. أمّا أن يموت في حادث سقوط مصعد فهذا يطرح أسئلة قاسية: لماذا هو بالذات؟.. لم لم يؤجل ركوب المصعد بعض الوقت؟.. ليته صعد في الدرج أو ألغى الزيارة أصلًا...

كان صديقه (عبد الظاهر) ينتظر ركوب المصعد في الطابق الأرضي عندما دوى الانفجار وتهاوى كل شيء وتصاعد الغبار ليخنق الجميع... وقف بعيدًا يسعل ويبصق.. وعندما جاء رجال الإسعاف وعندما رأى هو الجثة المهشمة الراقدة على المحفة عرف على الفور أنّ هذا صديقه أستاذ الموسيقا..

قاس جدًّا أن تعرف..

المعرفة التي تأتي بعد فوات الأوان.. وبشكل ما، ما زال عبد الظاهر يشعر بأنه سبب موت صديقه..

مع الفقيد توفي رجل وامرأة أحدهما من سكان البناية..

كان هذا قاسيًا بالفعل، خاصة أنها كانت معه قبل ذلك بيومين..

هناك نقطة لا تجسر (فاتن) على السؤال عنها وهي السؤال عن شريط الكاسيت. كما قلنا هي لم تحتفظ بنسخة منه. معني هذا أنها فقدت شيئًا بالغ الأهميّة، وبالطبع لن تتصل بالزوجة الأرملة لتسألها:

- «وفاة زوجك محزنة فعلًا.. لكن - بالمناسبة - ألم يترك شريط كاسيت لي قبل وفاته؟»

طبعا مستحيل...

هكذا اعتبرت أنّ هذا الشريط الرائع قد ضاع للأبد.. ليكن الأمل الوحيد هو أن يتصل بها (عمران المحلاوي) هذا، ثانية ويمنحها لمحة أخرى من الحقيقة..

هكذا نسيت كل شيء وراحت تعد حقائبها.. حصلت على إجازة من كل ارتباط لها وحمدت الله على أنها ليست متزوجة وإلا لكان عليها أن تجد حلًا لأولادها وزوجها طيلة فترة السفر..

إنها مرهقة على كل حال، ووتيرة الحياة لا تتغير.. لا شك أن زيارة الولايات القصيرة هذه يمكن أن تنعش حياتها من جديد..

كانت موشكة على وضع مجموعة من المجلات في الحقيبة، عندما رأت على غلاف إحدى المجلات كهلًا أصلع قبيحًا ينظر للكاميرا في شك، مع تعليق يقول:

- «د. رفعت إسماعيل يقول: توقف برنامج بعد منتصف الليل خطأ إداري..»

كانت قد سمعت بسبب الفضول حلقة من هذا البرنامج، وهو قائم على تلقي تجارب المستمعين الخوارقية على الهواء.. بدا لها رفعت هذا ساخرًا أكثر من اللازم وله صوت مزعج، كما أنّ البرنامج بدا لها سخيفًا يقوم على تكريس الخرافة في نفوسنا لا محاربتها..

لعله خبر جميل أن يتوقف هذا الهراء..

جاءت الخادمة العجوز تساعدها فأصدرت لها تعليماتها أثناء السفر.. التعليمات تتلخص في: العناية بالكلب.. العناية بالكلب.. العناية بالكلب..

قالت الخادمة:

- «إنّه مريض..»

- «من قال هذا الكلام الفارغ؟»

- «أنت تعرفين أنه مريض يا دكتوره.. لا يأكل.. لا يلعب.. لا يعمل مثل الكلاب..»

قالت (فاتن) في نفاد صبر:

- «هذا لا يدل على شيء.. ليس مبررًا لتركه يموت جوعًا.. اعتني به ولو شعرت أنه مريض فعلًا فلتطلبي الدكتور (شفيق).. لا أريد أن أعود لأجده قد مات هو الآخر..»

مثل (سامي).. المعنى واضح لكن من القسوة قول شيء كهذا..

هزت الخادمة رأسها موافقة وأسلمت أمرها لله، فهي بالفعل تخشى هذا الكلب وتمقته.. لماذا يربي الناس شياطين ضخمة ويطعمونها ويحضرون لها الطبيب عندما تمرض؟

على كل حال هي تدرك جيدًا أن مخدومتها فاتنة.. تعيش وحدها.. هي فعلًا بحاجة لشيطان كهذا كي يحميها..

وهكذا في مساء اليوم التالي كانت (فاتن) في المطار، في طريقها لرحلة لا لزوم لها إلى الولايات المتحدة....

✶ ✶ ✶

- 4 -

إيجستاتيم

بوتستاتيم..

ديزولفيت أوت جلاسيم..

✶ ✶ ✶

لم تكن الجولة في (خان الخليلي) سهلة بسبب كل هذا الزحام، لكن (مادلين) كانت فارعة القامة قوية البنيان، واستطاعت أن تفسح لنفسها حيزًا يسمح باختراق الزحام..

(موريس) كان يركض من خلفها وهو يلهث.. مستحيل أن تشتري كل شيء وأن تبتاع تذكارات للجميع بهذه السرعة قبل الموعد..

كانت بحاجة إلى أهرام.. أكثر من مسبحة.. جلابيب.. تمثال صغير لأبي الهول. كل هذا في فترة وجيزة لا تتجاوز ساعتين..

كانا قد جاءا إلى مصر في شهر العسل.. التجربة الرومانسية الجميلة لشابين مفعمين بحب الحياة، والعجيب أنهما كانا غريبين منذ شهر.. في المجتمع الغربي الذي يعيش فيه الحبيبان عدة أعوام معًا قبل أن يقررا الزواج، يغدو من الغريب أن يتعارف شابان لفترة أقل من شهر قبل أن يتزوجا.. لكنهما التقيا وعرفا أن مصيرهما واحد فلا داعي لإضاعة الوقت.. هكذا تزوجا وهكذا جاءا لمصر..

كانا يتوقعان أن يجدا النيل ترسو به واحدة من مراكب الشمس، بينما يقف كهنة آمون صلع الرءوس يحرقون البخور ويلقون الكفرة للتماسيح.. على الأقل هناك أزقة ملتوية ومساجد وسحرة ثعابين وحواة وفتيات ساحرات بالخمار يقلن: «سعيدة يا أفندي». لكن مصر كانت محبطة بالنسبة لهما.. زحام.. سيارات.. مدينة حديثة مزدحمة، فهي ليست كما تخيلا.. لكنّها ليست باريس كذلك.. هو نوع من الرقص على السلم أحبطهما كثيرًا.. تختلف كثيرًا عما تصوراه وتختلف عن ألف ليلة وليلة بل إنها تختلف عن قصص أجاثا كريستي..

قال لها في اليوم الأول:

- «لو كنت حاكم مصر لمنعت استخدام السيارات ولقصرت التنقل على الجمال..»

قالت باسمة:

- «ولأمرت الرجال بارتداء الطربوش والنساء بوضع الخمار.. لكن العالم يتغير وعلينا أن نقبل هذا..»

لكنه أسلوب التنميط الشهير.. سوف يندهشان لو نزلا من الطائرة في أستراليا ولم يريا كانجارو يتواثب، بينما يحاول أحد رجال القبائل اصطياده بالبوميرانج..

بعد أيام بدءا يحبان مصر.. خاصة بعد الرحلة النيلية بين الأقصر وأسوان حيث لم يتغير شيء تقريبًا منذ عهد الفراعنة.. وعندما عادا للقاهرة شعرا بأنهما يريدا البقاء هنا أطول..

كان (موريس) طيارًا شابًا وهي كانت مدرسة.. يدهشك مدى التباين الجسدي بينهما، فالرجل ضئيل الحجم رقيق كالفراشة بينما هي عضلية قوية البنيان والشخصية.. لكنهما متحابان فعلًا حتى هذه اللحظة...

يمكن القول إن كل شيء بدأ عندما دخل الفندق ليأخذ مفتاح غرفته، عندما استوقفه الموظف الأسمر المهذب ليقول له شيئًا بالإنجليزية.. التفت إلى زوجته لتفهم ما يُقال.. من العسير في مصر أن تقابل من يتكلم الفرنسية أو يفهمها بينما الجميع يتكلم الإنجليزية تقريبًا..

قالت الزوجة وهي تمسك بمظروف صغير:

- «هذا الشيء لنا..»

- «وما هو؟»

- «سوف نعرف...»

- «ومن أحضره لنا؟»

- «يقول إنّه سيد أسمر مهذب.. معلومات غير كافية.. لا أحد يعرف أننا هنا..»

هزت رأسها شاكرة الرجل وعادت تقرأ الاسم على المظروف فعلًا لا يوجد خطأ ما..

في الغرفة ألقت بحقيبتها على الفراش، ومدت يدها تنزع المغلف.. كما توقعت كان يحتوي شريط كاسيت.. بحثت حولها فلم تجد جهاز كاسيت.. هل هي رسالة؟..

قال لها وهو ينزع ثيابه:

- «لا عليك.. في المساء سنطلب من موظف الاستقبال أن يجد لنا جهازًا..»

وهو ما كان..

اصطحبهما الموظف المهذب إلى غرفة جانبية صغيرة ووضع جوارهما جهاز كاسيت صغير الحجم، وهز رأسه محييًا ثم انصرف..

دست (مادلين) الشريط في الجهاز وضغطت زر التشغيل و....

✶ ✶ ✶

هذه الضوضاء الكونية الغريبة..

قادمة من سراديب المستحيل والما لا نهاية..

إنها أصوات جوقة ملائكة لا أقل من هذا.. وهذا النشيد؟.. لابد أنه النشيد القومي للكون كله. لو توحد الكون فصار جمهورية لصار هذا نشيده القومي. في هذا النشيد تسمع صوت الانفجار الأول.. وتسمع زئير التيرانوسوروس.. تسمع دندنة (ليست) على مفاتيح البيانو.. بونابرت يصدر الأوامر لجنرالاته.. كليوباترا تغني.. ماتا هاري ترقص.. إيزيس تغنى لحورس الصغير.. تسمع الفرسان المسلمين يكبرون إذ توقفوا في الصحراء وقت الغروب للصلاة، وهم متجهون لفتح الأندلس.. تراتيل هنديّة تنشدها عذراء تستحم في نهر الجانج.. السيوف تتضارب في حرب طرواده و(هكتور) يصرخ في (أخيل)..

إنها الكون وقد تحول إلى أصوات ونغمات..

إنها الحقيقة وقد صارت مسموعة..

لم يتحمل أكثر فأغلق الجهاز..

ارتمت بين ذراعيه وهي تنشج بلا توقف..

الحقيقة أنه ارتمى بين ذراعيها بحكم صغر حجمه..

كانا يبكيان ويرتجفان...

همست من بين دموعها:

- «قريبة نوعًا من كارمينا بورانا..»

قال وهو يشهق:

- «لكنّها أروع بمراحل.. هذا الجمال غير أرضي.. (كارمينا بورانا) تعبر عنها لو كانت الدائرة الصفراء تعبر عن الشمس..»

✶ ✶ ✶

في الصباح اتجه إلى شركة الطيران ليبتاع تذكرتين للولايات المتحدة..

كان عليه أن يقوم بعدد من الإجراءات المعقدة، وطلب التأشيرة.. لكنه أتم هذا بسرعة البرق لأنّه كان يعرف موعد الرحلة ورقمها ويعرف أن عليه اللحاق بها..

قالت له (مادلين) مفكرة:

- «هل تعرف لماذا نريد السفر للولايات المتحدة؟»

- «لا..»

- «لأننا مجنونان يا صغيري.. مجنونان.. حتى اللحظة كانت خطتنا هي قضاء شهر عسل شرقي في مصر.. ماذا دهانا؟..»

- «لا أعرف.. لكننا نريد ذلك بقوّة..»

- «هل تعرف أين نقيم ولا أين نذهب هناك؟»

- «سوف نجد شركة سياحة ترتب لنا كل شيء..»

كان هذا هو الجنون بعينه.. ولكن من قال إن الجنون ليس جميلًا؟.. ومتى يجن المرء إن لم يجن وهو شاب؟...

ولكن كان الوقت الباقي ضيقًا، لأن عليهما اختصار الجدول الزمني بسرعة.. يجب شراء كل ما يريدان من تذكارات من القاهرة بسرعة البرق..

لهذا هما يركضان بين أزقة خان الخليلي المزدحمة الضيقة لا يباليان بمن يكلمهما عارضًا الشراء من عنده أو خدماته..

لابد من الانتهاء سريعًا..

✶ ✶ ✶

- 5 -

سور سالوتيس..

إفيرتوتيس

ميهي نون كونترااريا..

✶ ✶ ✶

تحسس (محمود) صدره من جديد..

هذا النتوء يدل على أن اللفافة في موضعها، وأن الشريط اللاصق موجود ومثبت. تبدو له طريقة ساذجة، لكن (كامل) أكد له أن معظم حالات التهريب التي يتم ضبطها تتم بناء على مكالمة هاتفية من مجهول، أو من مخبر مندس وسط المجموعة..

- «هؤلاء القوم يرون مئات الوجوه يومًا.. ليس لديهم الوقت للتنقيب حول كل واحد.. هم ينظرون لوجهك أولًا ليروا إن كنت مرتبكًا تعرق بلا توقف وترتجف.. باختصار توشك على تعليق لافتة تقول: أنا مهرب يا شباب.. الطريقة الثانية هي أن يكونوا بانتظارك فعلًا. عندئذٍ ينظر لك في حزم ثم يطلب منك أن تنتحى جانبًا للتفتيش..»

- «وعندها؟»

- «وعندها.. هذا هو حظك السيئ يا عزيزي..»

كانت المقامرة برغم كل شيء جديرة بالتجربة..

يجب أن أضيف هنا من عندي أن إجراءات ركوب الطائرات لم تكن معقدة في ذلك العصر.. لم يكن هناك جهاز كشف عن المعادن، ولا نزع أحذية.. هكذا يمكن لشيءٍ كهذا أن يمرّ بسهولة..

(محمود السمدوني).. الشاب الذي جرب كل شيء وفشل في كل شيء.

عندما كان في سن الدراسة جرب أن يكون طالبًا وتوصل إلى أنه متخلف عقليًا أو غبي.. لا يستطيع أبدًا استيعاب ما يستوعبة الطلبة..

في هوجة جمع العنب في فرنسا ذهب مع الشباب الآخرين، وجرب حظه هناك.. نام في الشوارع كثيرًا جدًّا وتسول من أجل كأس نبيذ، وعرف فتيات يمكن أن تشم رائحتهن من على بعد أميال، وطارده رجال الشرطة الذين لا يستطيع التفاهم معهم بحرف واحد.. وفي النهاية عاد من فرنسا دون أن يكسب شيئًا سوى قميص مشجر يفتحه حتى أسفل بطنه، وعلبة سجائر جولواز، وشعر رأس طويل.. وقد تعلم طريقة غريبة للتدخين تبهر الفتيات هي أنه عندما ينتهي من لفافة التبغ يقلبها بلسانه لتنطفئ داخل فمه بلعابه.. هذه هي الخبرة الثقافية التي اكتسبها من باريس، والتي جاء ينقلها لأبناء وطنه ليجتازوا الفجوة الحضارية بين الشعبين.. كما أنه صار يفرق جيدًا بين أنواع النبيذ، وكان يحزن جدًّا عندما يسمع أبناء وطنه لا يفرقون بين النبيذ والويسكي والبراندي.. يعتبرون هذا كله (هباب)... تبًّا للجهل!

سافر إلى اليونان وعمل على السفن لبعض الوقت، لكنّها كانت تجربة فاشلة، وفي النهاية سرق مالًا وتلقى علقة في إحدى حانات البحارة.. وإن خرج من التجربة بأن صار يشرب الأوزو..

إنه اليوم في سن الخامسة والعشرين عاد لمصر وتزوج.. فقط لينسى ذلك بعد أسبوع.. ولمدّة ثلاثة أشهر لم تره زوجته قط ولم تأخذ مليمًا منه..

ثم جاءه أخو زوجته (ماهر) ليقول له:

- «اسمع.. أنت بارع في العلاقات الاجتماعية و(مدردح) أنا بحاجة لمواهبك التجارية.. أعرف أنك لست سيئًا كما تقنعني (سناء).. زوج أختي هو مسئوليتي مثل أختي بالضبط..»

وهكذا صار مسئولًا عن التعاقد مع تجار الأحذية في عدة مدن.. زوج أخته كان يملك ورشة أحذية... وقد بدأ العمل ينتعش وعرف طعم المال في جيوبه..

حتى جاء ذلك اليوم الذي أعطاه فيه أحد التجار ثلاثمائة جنيه - وهو مبلغ فادح في ذلك الزمن - كعربون يوصله لأخي زوجته..

كان جادًا ومصممًا على أن يكون أمينًا، لكن شخصيّة مثل شخصيته لا تستطيع أن تكون أي شيء إلا ربع ساعة.. وهكذا سرعان ما وجد نفسه ثملًا في بار رخيص وهو يبعثر المال على النساء، ولم يسمع عنه أحد شيئًا لمدّة أسبوع..

كان يمسح فمه بظهر يده في كلّ مرّة ويقول:

- «أنا طيب القلب.. أنا ابن حلال.. ولكن حظي عاثر..»

لكن الناس كانوا قد سئموه فعلًا، فلم يبال أحد بسؤاله عن دور سوء الحظ في سرقة أموال التجارة وهجر زوجته...

لم يكن يكف عن الرثاء للنفس.. لقد تغيرت النفوس والناس لم يعودوا أنقياء كما كانوا فيما مضى.. يبدو أنه كان هناك في الماضي أناس طيبو القلب يمنحونك المال بلا عمل تنجزه، ولا

يبالون إن سرقت منهم عدة مئات من الجنيهات.. بل كانوا يتمنون لك الخير ويباركونك..

لقد انقرض هؤلاء الناس للأسف.. لم يعد هناك أشخاص محترمون أولاد ناس..

كان يقضي أيامه بين البارات الرخيصة في وسط البلد، وكان ينجز عشرات المهمات الصغيرة القذرة، وأحيانًا كان يقامر بمبالغ صغيرة لكنه كان يشعر أن فرصته لم تأت بعد..

جاءه (كامل) في الحانة الصغيرة التي اعتاد أن يجلس فيها ودعاه إلى كأس..

(كامل) كان في الخمسين، أشيب الشعر لكن له وجهًا وسيمًا حليقًا تبدو عليه ملامح الثراء والنعمة.. ماذا يعمل؟.. لم يسأل..

قال وهو يصب له كأسًا أخرى:

- «أنت ذكي وبارع و(مدردح).. من الغريب ألا تظفر برزق يومك إلا بصعوبة..»

قال (محمود) وهو يفرغ السائل الكريه في بطنه:

- «النفوس تغيرت.. الناس صارت حاقدة تكره بعضها..»

قال له (كامل) بعد ليلة طالت:

- «المهمة بسيطة.. لفافة صغيرة تلصقها بجسدك وتوصلها إلى بلجيكا.. أنت كنت في فرنسا وليس البلد غريبًا عليك.. من يعرف فرنسا يعرف كيف يتصرّف في بلجيكا»

سأله في حذر وهو يفتح عينيه بصعوبة:

- «مخدرات؟... لن أفعل..»

قال (كامل) ضاحكًا بطريقة من يسمع مجنونًا يتكلم:

- «هل سمعت عن مجنون يهرب المخدرات من مصر لأوروبا؟.. ثم إن هذه أشياء خطيرة لا تسند لغير المحترفين مثلك.. فلوس ناس.. لا. لا تخف.. ليست مخدرات..»

كان قد رأى كثيرًا من أفلام الجاسوسية، لذا عاد يسأل:

- «وثائق.. هك.. خطط عسكرية؟»

- «لا أحد يهرب هذه الأشياء في لفافة.. هناك ما يدعي بالميكروفيلم يا حبيبي.. ومن جديد هذه أمور لا تسند للهواة، وأنت - عدم المؤاخذة - هاو ويمكن أن تفسد أي مشروع جدي»

- «إذن ماذا يوجد في هذه الـ... هك.. الـ.. هك... اللفافة؟»

- «هذه هي المشكلة.. لن تعرف.. لكني أؤكد لك أنها ليست مخدرات ولا وثائق.. هذا يجعلك أكثر اطمئنانًا..»

قدم له العرض ووعده بالمبلغ.. الأهم أن (محمود) شعر بالحنين لأيام المغامرة.. كان أفاقًا.. لا يصلح إلا أنّ يكون أفاقًا مخادعًا بلا هدف ولا عنوان..

هكذا قبل.. وسرعان ما كان يستخرج لنفسه جواز سفر، ويستكمل الإجراءات.. لم يفكر لحظة في زوجته هنا فهو لم يرها منذ عام.. أخوها بالطبع يبحث عنه لكنه هذه المرّة لن يجده أبدًا..

قبل موعد السفر بأسبوع جاءه (كامل) ملهوفًا لاهثًا وقال له:

- «لقد تغيرت العملية.. لن تسافر إلى بلجيكا..»

- «إذن؟»

- «سوف تسافر إلى الولايات المتحدة.. سوف أرتب لك كل شيء..»

شعر بذعر.. هو يعرف أوروبا إلى حدٍ ما، لكن الولايات المتحدة بدت له شاسعة جدًّا.. كلما تذكرها تخيل طريقًا سريعًا واسعًا تجري فيه سيارات فارهة، بينما يحيط به رعاة بقر شرسون ينوون ضربه حتى الموت...

- «وإجراءات التسليم.. و...»

- «سوف أخبرك.. الرجل سوف يقابلك في مطار (جي إف كي)... وسوف يصحبك إلى المسكن الذي استأجره من أجلك..»

بدا له كل هذا غريبًا، وخصوصًا أن (كامل) لا يستطيع تدبير عميل في قارة أخرى بهذه السرعة.. فقط المافيا تقدر على ذلك. لكن المغامرة هي المغامرة وهو لا يصلح لمهنة أخرى غير مهنة المغامر الأفاق كما قلنا.. على الأرجح لن يعود من الولايات.. سوف يظل هناك للأبد، فهو قد اعتاد الفرار من الشرطة الأجنبية على كل حال.. سوف يصير تاجر مخدرات أو قوادًا.. هذه هي الأعمال التي تناسب مواهبه، فهو لن يجرب أن يصير جراح أعصاب طبعًا..

هكذا وجد نفسه يدخل الحمام في ذلك المقهى، فينزع ثيابه ويلصق ذلك الشريط ليثبت به اللفافة إلى أسفل إبطه.. إنها في حجم الكتاب الصغير السميك على كل حال.. قاموس الجيب. خطر له أن يفتحها ثم وجد أنّ هذا يكلفه مبلغًا لا بأس به لأنّه لن يتقاضى ماله لو أتم التسليم. هل تسقط؟.. لا.. إنها مثبتة بإحكام.. دعك من أن الوضع الطبيعي للذراع يجعله يضغط عليها طيلة الوقت..

وهكذا خرج من الحمام.. أفرغ باقي كوب الشاي في فمه، ثم ألقى بورقة مالية على المنضدة، وحمل الحقيبة الثقيلة وهب ليستقل سيارة أجرة إلى المطار..

لقد دنا موعد الطائرة جدًّا...

✶ ✶ ✶

- 6 -

إت إفكتوس

إت دفكتوس

سمبر إن أنجاريا

✶ ✶ ✶

في لقائهما الأخير في ذلك الفندق بالقاهرة، قال (كلاوس) وهو يشعل لفافة تبغ:

- «لقد تغير كل شيء..»

في ذلك الوقت لم تكن (عصبة الجيش الأحمر) قد قامت بعمليات خطف طائرات.. كان نشاطها في كل مكان وكل زقاق في ألمانيا الغربية، حتى أنّ هذه الحقبة أطلق عليها اسم (الخريف الألماني).. هذا النشاط ينحصر غالبًا في تفجيرات عنيفة جدًّا أو اغتيالات للرموز الحكومية المهمة أو قيادات الشرطة.. لكن لا طائرات..

إن أعضاء المنظمة لم يطلقوا على أنفسهم قط الاسم الذي اختارته لهم وسائل الإعلام (بادر ماينوف Baader - Meinhof) بل كانوا يطلقون على أنفسهم اسم (عصبة الجيش الأحمر)، تيمنًا بالجيش الأحمر الياباني.. وهو شبيه بما حدث عندنا في مصر، فتنظيم (التكفير والهجرة) لم يُطلق على نفسه هذا الاسم قط..

إن (بادر ماينوف) تنظيم ألماني يساري شيوعي ولد عام 1970 بعد ثورة الشباب التي هزت العالم إياها، وقد أنشأه أربعة أعضاء منهم (بادر) والفتاة (ماينوف)..

تنظيم عنيف جدًّا.. شديد الشراسة، وقد افترضوا منذ البداية أن النازيين ما زالوا أحياء وهم من يحركون ألمانيا اليوم، وقرروا بدء حركة مقاومة مسلحة ضدّ الحكومة الألمانية..

كانت لهؤلاء الإرهابيين صفة دولية، وكانوا يتواجدون في كل مكان تقريبًا، ويقومون بعمليات لبعض.. إن القضية الفلسطينية قضية شريفة طبعًا، وقد استقطبت منظمات مثل الجيش الأحمر الياباني وIRA (الجيش الجمهوري الإيرلندي) واستقطبت المناضل (كارلوس) وأحيانًا أعضاء (بادر ماينوف) مثلًا.. غريب أليس كذلك؟.. تذكر أن أول عملية استشهادية كنا نسمع عنها في ذلك العصر قام بها اليابانيون في مطار اللد الإسرائيلي عندما فجروا أنفسهم في ركاب شركة العال..

كان اليساريون في العالم كله يتحركون كمنظمة واحدة، وعدوهم كان أمريكا وإسرائيل، وهدفهم كان فيتنام وفلسطين..

لكننا الآن بعيدون عن القضية الفلسطينية.. نحن نتحدث عن الإرهاب بمعناه القبيح العاري.. و(بادر ماينوف) فعلًا من أسوأ المنظمات الإرهابية التي يصعب فهم مبرراتها على الإطلاق لابد أن تكون مثقفًا أكثر من اللازم، وقرأت (هربرت ماركوزه) إلى درجة الخبال حتى تفهم منطقهم..

كانت فكرة (كلاوس) هي أنه لابد من نقل الإرهاب إلى الطائرات.. لابد من خطف طائرة وتفجيرها، وكان اختيارهم لشركة ألمانية..

تم التخطيط على أساس أن يركب الطائرة أربعة من الجماعة.. سيكونون مسلحين بالمسدسات الصغيرة.. للمرة الألف أؤكد أنّ هذا عصر خطف الطائرات حيث كان بوسعك ركوب الطائرة ومعك صاروخ عابر للقارات ذو رأس نووي..

كان (مولر) موظفًا ألمانيًا مهذبًا.. لم يكن أحد يتصوّر أنه من كوادر الجماعة المهمين..

التقوا جميعًا في مصر، لأن الخُطة تقضي بأن يركبوا طائرة ألمانية تنطلق من مطار القاهرة إلى (بون)..

قال (كلاوس):

- «سوف نطلب الإفراج عن سجنائنا الذين قبض عليهم البوليس الألماني عميل الرأسمالية وصنيعة الولايات المتحدة.. لو لم يلب هؤلاء الخنازير مطالبنا سنفجر رأس راكب كل نصف ساعة.. لو نفذوا مطالبنا سنطلب وقودًا يكفي لنقلنا إلى الأرجنتين، وهناك سوف نخلي الطائرة ونفجرها في المطار إن عملًا كهذا سيهز وسائل الإعلام، ولسوف يعرف الكل أننا جادون..»

لم يكن (مولر) يعرف الباقين معه، لكنه سيعرفهم في ساعة الصفر.. هذا مؤكد.. هذه من مقتضيات سرية العمل في المنظمة..

هكذا أمضى أيامه في القاهرة يتظاهر بأنه مجرد سائح ألماني.. زار الآثار وسهر في ليل القاهرة وصادق فتاتين ألمانيتين قابلهما في الهرم..

(كلاوس) هو من جلب له المسدسات والقنبلة اليدوية.. لن يحتاج لأكثر من هذا مؤقتًا.. الآخرون أيضًا ستكون معهم أسلحة..

اقترب موعد العملية كثيرًا.. كان يقضي الساعات مع (كلاوس) في غرفته بالفندق يرسمان كل شيء ويتفقان على التفاصيل..

كان (كلاوس) حذرًا، وبرغم أنه كان واثقًا من أحدًا لا يشك فيهما ولا في أي شيء، وأن السلطات المصرية لا تعرف شيئًا عنهما، فإنّه كان يتعمد في كل لقاء فتح جهاز الراديو أو الكاسيت

عاليًا جدًّا.. لو كان هناك من يتنصت ففرصته معدومة في فهم شيء.. بالإضافة لهذا كان يتعمد تشغيل دوش الحمام أثناء المناقشات، وبهذا كان يضمن المزيد من السرية..

(كلاوس) كان يهوي الموسيقا الكلاسية كأي ألماني في الواقع، وكان ذا ولع خاص ببيتهوفن.. لا لم يحبّ فاجنر قط لأنّه كان يعتبره جزءًا من الثقافة النازية..

في ذلك اليوم دسّ (كلاوس) شريط كاسيت في الجهاز.. هنا تعالى غناء جوقة تنشد باللاتينية.. تعلو حتى تبلغ الفضاء ثم تهبط لقاع المحيط... حماسية مجنونة لكنك لا تفهم حرفًا..

قال (مولر) في انبهار:

- «جميلة.. هل هذا (كارل أورف)؟»

في غباء نظر كلاوس إلى الجهاز وقال:

- «لا أذكر بتاتًا إن عندي هذا الشريط.. وليست لديَّ أية تسجيلات لكارل أورف.. عميل النازية الخائن هذا..»

- «لكنّها قريبة جدًّا من (كارمينا بورانا)..»

- «بل هي أجمل بكثير.. لكن أقول لك بصراحة: لا أعرف من أين جاءت هذه ولا من وضعها بين مجموعتي..»

ولساعة ظلا صامتين يصغيان لهذه الألحان العبقرية التي تنقلك لعالم غير محدد وملغز..

في الصباح اتصل به (كلاوس) في غرفته وقال كلمة واحدة:

- «سوف تسافر إلى الولايات المتحدة!...»

- «هل جننت؟.. كل ترتيباتنا تقضي بأن...»

- «صه!» - قالها (كلاوس) في عصبية - «لا تنس نفسك وتثرثر عندما تنفعل.. لا تتصور أنك الوحيد الذي يتكلم الألمانية على ظهر الأرض...»

ثم أردف في هدوء:

- «سوف يتم كل شيء كما اتفقنا لكن على ظهر الطائرة المتجهة إلى مطار (جي إف كيه)... الرحلة تنطلق بعد غد.. رقمها هو 345»

- «لكن أريد فهم الحكمة من...؟»

- «كل شيء سيتم كما اتفقنا.. والألمان سيكونون هناك للتفاوض معكم.. لم يتغير شيء سوى الوجهة النهائية..»

- «لكن لماذا؟»

- «هذه حسابات لا يجب أن تشغل عقلك بها.. أنت تتلقى الأوامر وتنفذ فقط..»

وضع السماعة شاعرًا بالغيظ..

كان أوان التراجع قد فات، لكنه شعر بأن تغيير وجهة العملية قرار انفعالي وليد اللحظة ولم يدرس جيدًا.. لم يدرس على الإطلاق..

لماذا؟.. ولماذا تم تغيير كل شيء بعد تلك الليلة؟

ماذا حدث فيها؟

لم يحدث أي شيء غريب سوى سماع ذلك الشريط..

هل تلقى (كلاوس) تعليمات معينة بعد العودة لمقره؟.. هل يرون أن الولايات المتحدة سوف تضفي صبغة إعلامية أكثر صخبًا على العملية، بينما يمكن أن يتكتم البوليس الألماني الكثير من الأمور كما فعل في عملية أولمبياد ميونيخ عام 1972؟

هل السبب هو أن الولايات المتحدة أقرب للأرجنتين من ألمانيا الغربية؟

فعلًا لا يعرف السبب.. كل شيء مجنون وغريب.. وهو لا يستطيع أن يعتذر ويرحل.. لا أحد يفارق (بادر ماينوف) حيًّا... هؤلاء لا يمزحون..

الحل الوحيد هو أن ينفذ.. والخطر هو الخطر على كل حال.. لا فارق إن قتلك رصاص أمريكي أم ألماني.. على الأقل أنت تعرف طريقة البوليس الألماني في التفاوض مع المسلحين: يطلق وابلًا من الرصاص يقتل الجميع كما حدث في عملية (ميونيخ). ربما كان البوليس الأمريكي أقل نازية..

أشعل لفافة تبغ وقرر أن يذهب للمكتبات الكبرى في وسط القاهرة ليبحث عن كتب ألمانية.. كتب ألمانية تتكلم عن الولايات المتحدة..

✶ ✶ ✶

- 7 -

هاك إن هوراه

سيني موراه..

كوردي بالسام تانجيتي..

✶ ✶ ✶

لمسة على ذراعي ففتحت عيني..

كانت المضيفة الشمطاء تنظر لي بكراهية وهي تمسك بشوكة الشيطان الثلاثية تنوي أن تغرسها في مؤخرتي قبل أن تلقي بي في السعير. ثم أفقت أكثر ففهمت أنها تخيرني بصدد الوجبة التي أريد أكلها..

اخترت وجبة من السمك.. فنظرت لي في غل كأنها تتمنى أن أختنق بما آكله، ثم ألقت بالصينية على حجري كي أدبر نفسي وانصرفت لمقعد آخر..

تثاءبت ونظرت خارج نافذة الطائرة فرأيت أن الظلام يغمر كل شيء..

كان الأخ الودود الإسكتلندي جواري يلتهم طعامه كمن لم ير زادًا في حياته قط، وقد وضع أمامه كأسًا يجرع ما فيها في نهم واحمرت عيناه ووجهه وتلاحقت أنفاسه..

قال دون أن ينظر لي:

- «تنام بعمق.. هذه مزية لا يملكها كثيرون..»

لو يعرف هذا المجنون!...

قلت باسمًا:

- «العقاقير المنوّمة تعمل معي جيدًا.. هذه مزية أخرى هناك بؤساء لا ينامون ولا تعمل معهم العقاقير المنوّمة.. هذا هو الطريق الملكي للانهيار العصبي..»

ثم رحت أجوب ببصري بين الجالسين من حولنا..

كلهم يأكل.. لحظات من المرح السريع سرعان ما تزول.. مزية الأكل كذلك هو أنك تستطيع تفقد الوجوه في وقاحة بينما أصحابها لا يدركون ذلك..

هذه السيدة الفاتنة التي لم أر أجمل منها ولا أروع.. يبدو وجهها مألوفًا لي.. هي كذلك تنظر لي كأنها تعرفني.. لو كنت رومانسيًا لقلت إننا أحببنا بعضنا في زمن آخر وعالم آخر.. ولو كنت واقعيًا لقلت إنني أشبه زوجها السابق الفار من حكم بالنفقة..

وهذا الوغد؟... هذا أفاق لا شك في ذلك.. هذا الفتى طويل شعر الرأس ذو العينين الواسعتين الزائغتين الباحثتين عن أحمق آخر يخدعه. يبدو أنه أنهى خداع كل المصريين وينوي الذهاب لخداع الأمريكان..

هنا زوجان لطيفان هذه ملامح فرنسية بالتأكيد.. عينا الرجل صغيرتان جدًّا حتى لتتساءل كيف يرى بهما.. عيون الفرنسيين... وإن كانت المرأة أضخم من زوجها بمراحل لكنهما متفاهمان.. هذا واضح...

هذا عن الجانب الأيسر أمّا عن الجانب الأيمن فلا أراه طبعًا لأن المقعد أمامي..

نظرت لساعتي فوجدت أنني نمت ساعتين تقريبًا.. جميل جدًّا.. سآكل ثم أطمع في الظفر بثلاث ساعات أخرى.. معنى هذا أن تبقى خمس ساعات من العذاب...

ما زال العقل البشري متأخرًا.. سأظل أؤمن بهذا إلى أن يخترعوا الإنتقال الآني بحيث أدخل الكابينة في مصر فأصير في الولايات المتحدة خلال جزء من الثانية.. كم من عمري ضاع على طريق القاهرة الصحراوي أو الزراعي؟.. وكم ضاع على قضبان السكك الحديدية؟.. وكم ضاع على ظهر السفن والطائرات؟. من المدهش أن (ابن بطوطة) و(ماركو بولو) وسواهما لم يجنُّوا مللًا.. تصوّر رحلة على ظهر الجمال إلى الصين!...

نظرت لجاري الذي يأكل في آخر زاده فلاحظت أنه قد طوى صفحة الكتاب ليعود له بعد التهام الطعام. اسم المؤلف هو (مكالستر)... هذا غريب..

الآن تذكرت أنه قال إن اسمه (مكالستر).. (جيسون مكالستر)..

سألته وقد تنحنحت أولًا:

- «معذرة لفضولي.. لكنك قلت إن اسمك..»

وأشرت إلى غلاف الكتاب، فهز رأسه على الفور وضحك:

- «نعم.. نعم.. هذا كتابي..»

غريب هذا قد يبلغ بك الإعجاب بالنفس مبلغًا، لكنك لن تجلس في الطائرة تطالع بهذا النهم كتابًا أنت مؤلفه، ما لم يكن قد خرج من المطبعة حالًا وهو يفتش عن الأخطاء المطبعية..

- «أنت مؤلف إذن..»

- «أدرس الحضارات القديمة.. مهتم بشكل خاص بالأديرة القديمة في قلب أوروبا في القرون الوسطى..»

اهتمام غريب كما ترى.. لكن الله قد شاء أن يسخر إنسانًا لكل نقطة من نقاط المعرفة.. هناك من يهتمون جدًّا بسبل زراعة الأرز، وهناك من يهتمون بالأغاني الفينيقية، ومن يهتمون بطرق النسج عند الرومان.. أرتجف وأندهش كلما تصورت أنّ هناك من يدرسون إدارة الأعمال وتكوين الشركات. هكذا تتكون المعرفة.. والأجمل أن كل واحد من هؤلاء يعتقد أنه يدرس موضوعًا مثيرًا ممتعا. لا أتصور حتى هذه اللحظة أنّ هناك من لا يهتم بأمراض الدم ويجدها مملة..

قال لي وهو يلتهم السلطة بالشوكة:

- «هل تعرف الجوليارد؟.. إنني مهتم بهم بشكل خاص..»

نعم.. كما قلت لابد من شخص ما يدرس الجوليارد.. هذا مهم.. لكن من هم؟

نظرت له في غباء والخص يخرج من جانبي فمي، فلابد أنني بدوت له كبقرة بلهاء.. قال:

- «هم مجموعة من الطلبة الدينيين كتبوا أشعارًا ساخرة ثورية باللاتينية.. كان هذا في القرن الثالث عشر تقريبًا.. كان ما حركهم هو رفضهم للكنيسة الكاثوليكية بعد فشل الحملات الصليبية في تحقيق شيء.. هل سمعت مقطوعة (كارمينا بورانا)؟»

ثم رفع قبضته وراح يدندن ملاحقًا الضربات الموسيقية المميزة للمقطوعة.. أعرفها أعرفها.. إنها رائعة..

أردف وهو يملأ فمه بالسلطة من جديد:

- «معظم الأشعار التي تنشد في هذه المقطوعة هي من نظم الجوليارد.. ودعني أؤكد لك أن ما نسمعه منها هو الجزء المهذب الرقيق... هناك كوارث في باقي المقاطع. لابد أن (كارل أورف) أصيب بالذهول عندما فهم ما تقوله هذه الأشعار لقد كان هؤلاء القوم على وشك الاتصال مباشرة بالشياطين.. اسمع....»

ثم بدأ يدندن بلحن قريب جدًّا من (كارمينا بورانا) هذه وإن كان أجمل.. وراح يهز قبضته ملاحقًا اللحن.. الحق أنه بدأ يتحمس لدرجة أن صوته ارتفع جدًّا وبدأت أشك في أنه مخبول..

- «ماذا تدندن؟»

- «هذا هو الجزء الذي لم يذعه (أورف) من الأشعار.. لقد قام بتلحينه ثم قام بتدمير ما حصل عليه.. لكن دعني أكمل اللحن..»

وراح يواصل الغناء..

بالطبع هذا الكلام باللاتينية وبذيء جدًّا.. هذان مصطلحان يعادلان بعضهما كأنك أضفت حمض الهيدروكلوريك إلى الصودا الكاوية فنتج ملح الطعام المسالم.. لو كان يردد أقذر كلمات في اللغة اللاتينية فلن يفهم أحد حرفًا.. فليأخذ راحته إذن..

لكن الأمور لم تكن بهذه البساطة..

فوجئت بالسيدة المصرية الحسناء رائعة الجمال تقف عند رأسنا..

كانت تنظر لنا بانبهار وزاوية فمها ترتجف.. ثم سألت (مكالستر) بالإنجليزية:

- «معذرة يا سيدي.. أنا أعرف هذا اللحن.. من أين جئت به؟»

نظر لها في حيرة وفتح فمه ليتكلم.. هنا رأيتها تنظر لي في حيرة وتغمغم بالعربية:

- «وأعرفك أنت كذلك لكن لا أذكر من أين!... ما هذا اليوم الأسود؟»

هنا فوجئت بالزوجة الفرنسية الضخمة إياها واقفة جوارنا، وهي تسأل بإنجليزية رديئة جدًّا:

- «كيف عرفت هذه الأغنية؟»

ومن المقعد الذي أمامي برز رأس أشقر ذو ملامح صلبة قاسية.. كان ينظر لنا في ثبات، ثم سأل بإنجليزية يبدو واضحًا أنها ذات خلفيّة ألمانية:

- «أنا سمعت هذا اللحن.. هل هو من تأليفك؟»

نظرت في دهشة لـ (جيسون) الذي بدا كأنه فتح بوابة الجحيم.. كان منذ لحظة يدندن لنفسه بصوت مسموع وفجأة صار محاطًا بجيش من الفضوليين..

ومن مكان ما هتفت المضيفة الشمطاء:

- «هلا عدتم لمقاعدكم من فضلكم؟.. هناك منخفض جوي قادم.. هل توجد مشكلة ما؟»

تفرق الواقفون دون تعليق وعادوا لمقاعدهم.. وعدت أنظر لـ (جيسون) متسائلًا:

- «هل هذا اللحن شهير لهذه الدرجة؟»

قال في حيرة كأنه يكلم نفسه:

- «على قدر علمي ليس هناك إنسان على ظهر الأرض يعرف هذا اللحن في اللحظة الحالية سواي..!.. إن الأمر غريب.. غريب فعلًا..»

وهنا بدأت الطائرة تهتز..

وأصدرت المضيفة تعليماتها بربط الأحزمة.....

إنه المنخفض الجوي... وهو يناسب حالة الاضطراب التي شعر بها جاري..

الجزء الثاني:

الكارثة قادمة

- 1 -

كود بير سورتيم

ستيرنيت فورتيم

ميكوم أومنيس بلانجيتيه

✶ ✶ ✶

لم تكن المهمة سهلة لأن (أورف) دمر كل أوراقه تقريبًا فلم يترك إلا القليل..

(جيسون مكالستر) حاول الاتصال به مرارًا، لكنه فشل في لقائه.. هكذا قرر أن يزور (بندكتبويرن) بنفسه للتحري عن تلك القصة..

سافر إلى بافاريا حيث تلك القرية الصغيرة التي عاشت عصورًا طويلة صاخبة. ولم يكن عدد سكانها في ذلك الزمن أكثر من 3000 نسمة.. يُمكنك الوصول لها بالقطار من ميونيخ خلال ساعة..

القرية كلها ديكور أقيم حول أهم معالمها: الدير العتيق الذي تحمل كل ذرة منه تاريخًا ثريًا صاخبًا.. الدير الذي بني عام 739 مكرسًا للقديس (بندكت)..

لقد هدم الدير مرة على يد المجريين، ثم أعيد بناؤه عام 1031 وتعرض لعدة حرائق عنيفة في تاريخه. لكنه ظل مركزًا دينيًا مهمًا وضم مكتبة كبرى، وقد أعدم السويديون رئيس الدير ذات مرة لأنّه رفض أن يعترف بمواضع الأشياء الثمينة الموجودة في الدير..

وفي العام 1803 تم فرض العلمانية على بافاريا وتسريح الرهبان به، فعمل معظمهم أساتذة جامعة.. هكذا تسربت المكتبة الأسطورية الخاصّة بالدير إلى العالم الخارجي هناك 250 كتابًا لم يسمع بها العالم ظهرت فجأة، وهي مجرد لمحة من أربعين ألف كتاب..

كتاب من هذه الكتب هو الذي وقع في يد (كارل أورف) ووجد به تلك الأشعار اللاتينية العجيبة. ولسوف يُصاب بالذهول عندما يجد كذلك طريقة فريدة لتدوين الموسيقا من دون نوتة موسيقية، واسمها neume... هذا هو ما سوف يساعده على استنتاج كيف تغنى هذه الأبيات هذه أشعار كتبها دارسون متمردون من القرن الثاني والثالث عشر.. الحق أنّ هذه الأبيات صنعت شهرته،

لكنه دمر الكثير مما وجده لسبب ليس واضحًا... الحقيقة أنه وجد 254 أغنية فلم يستعمل سوى القليل منها...

لم يكن من الممكن أن يذهب (جيسون) إلى القرية ويسأل.. لا أحد يتصرّف بهذه السذاجة..

لذا أقام في النزل.. وخالط السياح الكثيرين المتواجدين هنالك.. شرب في الحانة وتظاهر بالثمل.. ثرثر مع فتاة الغرف البدينة البلهاء..

لقد ترك في كل صوب من يعرف سبب مجيئه.. إنّه الثرى الأسكتلندي الذي يمكن أن يدفع أي مبلغ مقابل معلومات عن الجوليارد..

وهكذا جلس في غرفته ينتظر...

جاءته المساعدة لكن بطريقة غير مباشرة.. لم يأته ذلك الرجل الغامض الذي يدخن كثيرًا، ليطلب منه أن يقابله في الساحة الخلفيّة ومعه المال.. لقد جاءه متسكع ثمل يقترح عليه أن يقصد بائع الكتب العجوز (هيرمان) ويعرض عليه أن يرى بعض تلك الكتب..

- «قل له.. هيك.. إنك من طرفي!!»

هكذا تم الأمر بشكل مثير للسخرية..

كان ذلك الشارع الضيق المرصوف بالأحجار والمنحدر بشكل لا يصدّق، ينعس بين أشجار البلوط.. هناك عجوز جالس على مقعد يطعم الحمام وهناك امرأة مسنة تكنس الأرض..

متجر الكتب عليه بحروف قوطية اسم (هيرمان)..

صاحب المتجر عجوز بافاري متشكك من الطراز الذي يصلح لاستخدامه في إعلانات البيرة.. شارب كث وكرش متضخم ومونوكل على عين واحدة..

قال له:

- «لن تجد شيئًا ذا بال.. مئات الدارسين جاءوا هنا وابتاعوا كل شيء كُتب على ورق..»

- «هل تسمح أن أبحث بنفسي؟»

نظر العجوز إلى المخزن خلفه والذي امتلأ بالكتب القديمة وهز يده هناك الكثير من الغبار والعناكب... لو شئت أن تغطس هناك فتلك مشكلتك..

بالطبع لم تكن هذه مخطوطات أصلية.. المخطوطات الأصلية فقدت للأبد أو هي في المتحف، لكن هذه هي الكتب التي قام بتأليفها من وجدوا هذه المخطوطات.. أي أنها (شروح) لكنّها كذلك تضم عددًا لا بأس به من الصور المهمة..

(كارل أورف) وجد مخطوطات أصلية لكنه دمرها.. كان سعيد الحظ، لكنه قرر أن يغلق صنبور الحظ الحسن بعد ما شرب جرعته من الماء..

هكذا راح (جيسون) يمضي الساعة تلو الساعة في المكتبة العملاقة يتفحّص الكتب ويشرب القهوة.. كانت إجادته للألمانية واللاتينية كاملة لهذا لم يكن يلاقي مشاكل من أي نوع..

لكنه بالفعل كان عاجزًا عن معرفة ما هو مهم وما ليس كذلك، لذا أنفق الكثير في شراء كتب لا يعرف إن كانت ذات نفع أم لا..

لقد تفحص كل شيء في المكتبة، وأمضى فيها أسبوعًا هكذا قرر أنه على الأرجح يضيع وقته..

ثم وجد الصندوق في اليوم السابع..

الصندوق القديم الأثري القابع في الركن تحت عشرات الكتب بالطبع صارت لـ (جيسون) صفة صاحب المكان بعد هذه الفترة وكل هذا الإنفاق، لدرجة أن صاحب المكتبة كان يذهب اللحانة ويتركه ينتقي ما يشاء.. لهذا اتجه للصندوق وفتحه عالمًا أنه أحمق إذا حسب أنه سيجد ما لم يجده ألف باحث من قبل، كلهم فتح هذا الصندوق بالتأكيد..

بالفعل كانت هناك كتب حديثة نوعًا لا قيمة لها.. قصص غرامية سخيفة وروايات مغامرات..

لكن.. هذا الرسم على الغطاء بطريقة الحفر على الخشب مع النقوش.. هذا الرسم مألوف تمامًا.. إنها عجلة القدر.. تحيط بها العبارات الأربع المألوفة:

لسوف أسُود..

أنا أسُود..

لقد سُدتُ..

أنا الذي لا مملكة لي.

Regnabo, Regno, Regnavi, Sum sine regno

في اللحن تدور عجلة القدر فتحيل سعادة الناس تعاسة، وتحيل نشوتهم مرارة والعكس.. (كارمينا بورانا) تغلق هذه الدائرة..

لم يجرؤ على الأمل لكنه مد يده في جيبه وأخرج السلك الذي ينظف به الغليون.. أولجه في أحد ثقوب الدائرة، ثم حاول أن يحركها.. إنها تتحرك!...

العجلة تدور... تدور.. لقد صار المؤشر أمام عبارة (أنا الذي لا مملكة لي)..

هنا سمع صوت (تيك)... لقد حدث شيء ما.. قاع الصندوق مزدوج وقد انفتح!

✶ ✶ ✶

- 2 -

فيريس دولشيس إن تمبور

فلونتي ستات ساب أربور

جوليانا كوم سورور

دولشيس آمور!

✶ ✶ ✶

(محمود السمدوني) نائم فلا توقظوه..

يحلم بزوجته التي تركها في مصر.. يحلم بـ (سيلين) أول فتاة فرنسية عرفها.. كانت تكلمه ساعات بالفرنسية وهو لا يفهم لكنه يهوى ما تقول.. كان قد تعلم أن لغة الإشارة تؤدي 80% من التفاهم العالمي.. لا يحتاج لتعلم اللغة سوى الأغبياء.. (سيلين).. أحبها ثم أخذ منها مالًا وفر.. أخو زوجته سوف ينسفه نسفًا لو وجده.. سوف يهبط في نيويورك ليجده ينتظره هناك ممسكًا بمطواة ويغمدها في قلبه..

هنا شعر بالشيء ثانية..

في المرّة الأولى قال لنفسه إنِّه إرهاق.. ربما الشريط اللاصق ينزلق ببطء.. لكن في هذه المرّة الصوت حقيقي..

شيء يتحرك في تلك العلبة المغلفة تحت إبطه.. شيء له خرفشة.. ذلك الصوت الكريه الذي تقشعر له أعصابك متى سمعت الأسفنج الرغوي المغلف للأجهزة الكهربية يحتك ببعضه..

شيء خشن.. حي.. يتحرك فوق ورق مقوى...

اقشعر للفكرة، وقد تذكر تلك الحرباء التي وجدها في شرفة داره وقد سقطت من غصن شجرة قريب.. فتك بها قبل أن يعرف ما هي، وكان يعتبر أي شيء غريب (تعبان) بكسر التاء.. صحيح أن لها أربعة أرجل وأنها أقرب للسحلية لكنه لم يكن مهتما بالدقة البيولوجية..

تخيل أن الشيء الذي في العلبة يشبه تلك الحرباء..

ومن المجنون الذي يضع شيئًا حيًّا يتحرك في صندوق؟.. وما أهميته لدرجة التهريب؟..

شيء واحد هو على يقين منه.. هذا الشعور بشع وكريه.. شيء حي له خرفشة يتحرك تحت إبطك على بعد ملليمترات من صدرك..

ماذا يفعل؟.. بالطبع لا شيء.. لا يمكن فتح العلبة هنا..

فقط ليأمل أن تكون العلبة محكمة الغلق.. وليأمل ألا يكون لهذا الشيء عضو قادر على اختراق جدار العلبة ليلدغ صدره هناك بين الضلوع..

- «تبًّا لك يا كامل..... لو رأيتك الآن!»

قالها وتثاءب كفرس النهر ثم واصل النوم..

✶ ✶ ✶

كانت الأضواء مطفأة في أغلب أرجاء الطائرة، باستثناء هذا الراكب أو ذاك المصمم على القراءة.. مفاصلي متصلبة فعلًا..

بحثت عن حذائي الذي كنت قد نزعته، ثم نهضت بصعوبة مارًّا فوق ساق جاري الذي ينام في عمق.. أريد الحمام.. ليس الغرض مما قد يخطر ببالك، ولكن كي أحرك مفاصلي قليلًا..

مشيت وسط صفوف النائمين حتى بلغت الحمام.. تبًّا... هناك من يدخل دائمًا في اللحظة التي تقرر أنت الدخول فيها. دومًا أنت الأخير..

وقفت على الباب لحظة، حتى سمعت صوت المياه..

انفتح الباب وظهر وجه مألوف.. ذلك الرجل قاسي الملامح الذي كان يتكلم بلهجة ألمانية. نظر لي بلا مبالاة ثم مشى عائدًا لمقعده..

كل هذا جميل فعلًا، لكن مقعد الرجل أمامي في الطائرة وقد نهض للحمام ثلاث مرات في ساعة واحدة ليس من الطراز الذي يُصاب بالإسهال على ما أعتقد.. إنّه أذكى وأقسى من ذلك، فماذا يفعله؟...

آه.. يدخن.. الدخان يملأ المكان من الداخل.. في هذا الزمن كان التدخين مسموحًا به في درجات معينة، كما أنّ التدخين كان ممكنًا في الحمام قبل أن تظهر أجهزة استشعار الدخان اللعينة..

فرغت من الحمام فخرجت، هنا وجدت رجلًا ينتظر على الباب ليدخل.. ألماني آخر كما هو واضح.. ألماني جدًّا لو كان لنا أن نصدق وجوه الضباط النازيين في أفلام الحرب.. فك مربع

مشقوق وشعر أشقر منتصب وعينان زرقاوان باردتان...

إنّه يلبس سترة جلدية سوداء ويتأهب للدخول..

ماذا حدث للألمان؟.. هل كان هتلر سيحتفظ بإيمانه بالشعب الآري، لو عرف أنهم جميعًا مصابون بالإسهال أو مدمنو تدخين؟

عدت لمقعدي بصعوبة في الظلام، وجلست جوار الأخ (جيسون مكالستر).. يجب أن أنام لكن كيف؟.. لقد استنفدت كل النوم الممكن لي عندما ركبت الطائرة، فلم يبق سوى أن أظل ساهرًا..

اتخذت قراري.. هناك مقعد فارغ على يسار الرجل، وهذا يعني أن بوسعي الانتقال له لأكون ناحية الممر.. أريد حرية حركة..

انتقلت هناك في الوقت المناسب لأن أجمل طفلة رأيتها في حياتي كانت تمشي بلا هدى في الممر المظلم.. قدرت أنها ضلت الطريق لمقعدها وأنها مذعورة..

مددت يدي في رفق لألمس كتفها..

المشكلة أن منظري مرعب، وأنني آخر وجه يمكن أن يريح أعصاب طفل خائف لا يجد أمّه سوف تصرخ وتصاب بتشنجات انقباضية ثم تموت.. لا شك في هذا...

لكني على كل حال لمست ذراعها وقلت في رفق بالإنجليزية:

- «هل تبحثين عن ماما يا صغيرة؟»

لكنّها لم تنظر لي.. لم تصب بذعر ولم تبد أية علامة على أنها سمعتني.. فقط واصلت طريقها بين المقاعد وهي متصلبة.. هنا خطر لي أنها لا تبدو مذعورة.. إنها تمشي كإنسان آلي (روبوت) ومن الممكن جدًّا أن تكون ممن يمشون أثناء النوم.. هذا في حد ذاته يبعث الرعب في نفسك كنت طيلة حياتي أهاب الماشين أثناء النوم.. إنهم ينتمون لعالم آخر، ولعل هذا سبب خوفنا من أساطير الزومبي... الزومبي - أسوأ من هذا - يمشون موتى!!

هذه الطائرة غريبة فعلًا.. هناك تجمع لا بأس به من غرباء الأطوار..

متى تنتهي هذه الرحلة؟

✶ ✶ ✶

- 3 -

كي تي كاريت هوك تمبور

في فيليور

اكسي فلوسكنت أربوريس

لاسكيف كانونت فولوكريس

دولشيس آمور!

✶ ✶ ✶

من جديد قصدت الحمام ماشيًا بين أقدام النائمين في الظلام.. وقفت على الباب.. هنا رأيت المضيفة الأمريكية الشمطاء إياها واقفة في تلك المقصورة في نهاية الطائرة، التي يضعون فيها عربة المشروبات ولوازم أخرى، وهي تقع خلف ستار جوار باب الحمام..

كانت واقفة نعم.. لكنّها تسند رأسها للجدار وتضع يدها على صدغها كأنها تعاني ألمًا مريعًا.. تهز رأسها يمينًا ويسارًا كان رأسها موشك على الانفجار..

دنوت منها وفي أدب سألتها إن كانت بخير.. سوف ترد بفظاظة تجعلني أندم.. أعرف هذا يقينًا لكن لا يوجد حل آخر..

قالت وهي تغمض عينيها بعنف كأنها تحاول أن تعصر كرتي عينيها لتخرجا:

- «هذا اللحن.. اللحن الذي كان جارك يردده لك والذي جعل عددًا من الركاب يحتشد... إنني أعرفه.. أعرفه بقوّة، وهو لا يفارق ذهني الآن..»

غريب هذا اللحن.. يبدو أنه في الأصل يبدو أكثر تأثيرًا ويترك علامة لا تمحى في النفس هذا هو التفسير الوحيد لأنّه لم يسترع انتباهي قط. وماذا فيه؟.. هل به موجة خاصة تستدعي الكلاب ويسمعها هؤلاء؟

كان اسمها (بليندا) قرأت الاسم على (البادج) الذي تضعه على صدرها هي شقراء منكوشة الشعر كريهة جدًّا تمثل القبح الغربي الحقيقي.. قلت لها:

- «مس بليندا هل تذكر لحن يدفع إلى هذه الحركات المجنونة؟»

- «لا أدري.. إنِّه يحرك شيئًا في النفس..»

ثم أردفت كأنها تحلم:

- «كنت في شقتي في نيويورك منذ عشرة أيام.. جاء صديقي (جيك) ذات ليلة ومعه هذا الشريط.. سمعناه فشعرنا بشعور لا يوصف.. لقد قضينا الليل نصغي له أكثر من مرة.. في الصباح عرفت أنني سأكون مضيفة في الرحلات بين باريس والقاهرة... طلبت أن أعمل على هذه الطائرة بالذات.. القاهرة نيويورك..»

- «هذا مزاج شخصي.. لا مشكلة هنالك..»

قالت وهي تشرب كوبًا من الماء:

- «أنت لا تفهم.. لا أعرف السبب الذي دفعني لذلك.. لم يكن مفترضًا أن أكون على هذه الطائرة قط...»

- «وماذا عن (جيك) هذا؟»

- «مات..»

قالتها في بساطة كأنها تشتمه لوقاحته مثلًا.. أصابني الذهول.. صديقها مات منذ عشرة أيام أو أقل لكنّها حزينة لأن اللحن بحيرها!

- «أنا آسف لسماع هذا..»

- «لا عليك.. لسبب ما قرر أن يجري جراحة استئصال اللوزتين.. فجأة صار متحمسًا وراح يؤكد إنِّه يعاني التهاب لوزتين مزمنًا وقد حان الوقت للخلاص منهما.. قلت له إنِّه مجنون.. هذا القرار لا يتخذ فجأة.. لم يشك قط ولم أر أحدًا يجرى جراحة اللوزتين وهو في هذه السن.. لكنه كان مصرًّا.. في المستشفى مات على الفور بمجرد حقنه بالمخدر.. يقولون إنها حساسية لا يمكن التنبؤ بها..»

- «هذا مؤسف.. كأنه كان على موعد عاجل مع قدره..»

هتفت في حماس:

- «نعم.. أنت لخصت الموقف.. موعد عاجل مع قدره ولم يكن بوسعه أن يتأخر أو يؤجل.. على كل حال تغلبت على الصدمة وقررت أن أعود للعمل.. هذه هي رحلتي الأولى..»

- «وبالطبع ذكرك اللحن الذي كان صاحبي يدندنه بكل شيء..»

- «فعلًا...»

هذه أطول محادثة تبادلتها مع مضيفة طائرة في حياتي وحيدان واقفان في نهاية الطائرة نتبادل الأسرار همسًا.. هذا غريب فعلًا... المضيفات دومًا رسميات متخشبات.. ضحكة مشرقة لكنّها ليست لك..

يبدو أنها فطنت لذلك بدورها فاعتدلت وقالت بلهجة رسمية باردة:

- «هل من خدمة أقدمها لك؟»

بالطريقة المصرية المعروفة (إحنا حنتصاحب والا إيه؟).. هكذا احمرت أذناي.. لا بأس.. كنت أتوقع هذا لكنه تم متأخرًا نوعًا.. هززت رأسي لها ودخلت إلى الحمام..

في الداخل رحت أرمق أذني في المرآة.. حمراوين فعلًا.. ما زلت حساسًا بعد كل هذه الأعوام من تلقي الإهانات... هذا شيء مزعج...

لو فكرنا في الحافز الغامض الذي دفعها للعمل على هذه الطائرة... ألا يبدو هذا نوعًا من النذير؟؟ ماذا عن الحافز الخفي الذي شعر به الأخ (جيك) ودفعه ليجرى جراحة لا حاجة له بها؟

هل هناك أشياء غريبة هنا أم أنا صرت عجوزًا متشككًا؟

1 - أشخاص كلهم سمعوا ذلك اللحن الشبيه بكارمينا بورانا.

2 - مضيفة قررت فجأة أن تعمل على هذه الطائرة، وهي تعاني مشاكل مع ذلك اللحن.

3 - ألمان مصابون بالإسهال أو مرض سلس البول.

4 - طفلة مصاب بجوال النوم.

هذا كل شيء وهو كذلك قد لا يعني أي شيء..

على كل حال سوف نصل سريعًا ويمكن لي نسيان هذه اللحظات..

إن جلوسك مفتوح العينين وحدك في الظلام يجعلك عصبيًّا لا شك في هذا..

✶ ✶ ✶

عدت لمقعدي بصعوبة، لأقابل رجلًا ثالثًا يتجه للحمام.. هذا رجل من الطراز الفارع قوي العضلات النازي إياه.. لو لم يكن ألمانيًا آخر فأنا مجنون.. شارب كث وشعر طويل يغطى كتفيه سوف أكتب يومًا ورقة بحثية مهمّة تخلد اسمي في تاريخ الطب، عن الأسباب التي تجعل الألمان يصابون بالإسهال أكثر من سواهم..

جلست في المقعد.. هنا رأيت ذلك الرجل الذي كان يجلس أمامي ينهض.. مشى في الممر متجهًا لمقدمة الطائرة وفي طريقه نهض زميله الذي دخل الحمام من قبل.. وهكذا اتجها معًا للمقدمة، ووقفا لحظة.. ثم قرع الباب مرّتين..

في ذلك الزمن لم يكن هناك دكتافون أو جرس، ولم تكن هناك كاميرا أو عين سحرية يعرف بها الطيارون من يقف على الباب....

انفتح الباب ورأيتهما يدخلان..

ما هذا؟.. ليس من حق أحد أن يدخل قمرة القيادة ما لم....

✶ ✶ ✶

- 4 -

كي تي كاريت هوك تمبور

في فيليور

أكسي فلوسكنت أربوريس

لاسكيف كانونت فولوكريس

دولشيس آمور!

✶ ✶ ✶

هذه كانت اللحظة التي ينتظرونها كما يبدو..

من مؤخرة الطائرة ظهر ذلك الرجل كث الشارب الذي دخل الحمام منذ دقيقة.. كان يقتاد أمامه مضيفتين، واحدة منهما هي الشمطاء والأخرى رأيتها في بداية الرحلة فقط..

كان يحمل سلاحًا.. مسدسًا على وجه التحديد، وكان يصوبه إليهما..

كان معظم الركاب نائمين، لكن الرجل صاح بطريقة كفيلة بإيقاظ الجميع:

- «أعيدي الأضواء!»

وفتح الجميع عيونهم مذعورين..

هنا عاد الضوء من مكان ما فأعمى عيوننا.. ورأيت رجلًا لم أره من قبل يقف في الممر ملوحًا بمسدس صائحًا بتلك اللهجة الألمانية العنيفة:

- «فليعلم الجميع أنّ هذه الطائرة مخطوفة!...»

تصاعد الصراخ والشهقات.. أراهن على أن 80% من الجالسين حسب أنه يحلم وأنّ هذا كابوس...

- «لو التزمتم بتعليماتنا فلن يضار أحد.. لا نريد أبطالًا هنا.. أية محاولة للتمرد أو المقاومة ستقابل بطلقة في الرأس تذكروا أن إطلاق الرصاص مخاطرة شديدة على ضغط الطائرة، ونحن

لن نتورع عن الإطلاق على النوافذ.. يجب أن أقول كذلك إننا جميعًا نحمل قنابل!»

هكذا فهمت سبب دخولهم الحمام بكثرة.. يركبون قطع المسدسات المفككة.. أو يعدون فتائل المتفجرات أو أي شيء من هذا القبيل..

أنا عبقري فعلًا.. لم يمرّ على بدء الاختطاف أكثر من عشر ثوان، وهأنذا قد خمنت الأمر.. لا توجد في العالم في هذه اللحظة سوى منظمة ألمانية واحدة يمكن أن تفعل ذلك.. منظمة (بادر ماينوف).. وهي على قدر علمي لم تخطف طائرات بعد لكن لابد من بداية..

أنباء سيئة لأن هذه المنظمة معروفة بالتوحش والقسوة.. ومطالبهم غريبة جدًّا، مثل القضاء على الرأسمالية وانتصار الشيوعية معنى هذا أنني سأفقد حياتي لو لم تنتصر الشيوعية بسرعة..

كان الجو متوترًا.. وقد قدرت إذن أنهم أربعة.. واحد هو الذي كان يجلس خلفي هناك ذلك الوسيم البارد الذي يبدو كضابط نازي هناك ذلك الذي يهدد المضيفتين، وهناك ذلك الذي وثب من مقعد في المقدمة..

طبعًا هناك اثنان يهددان الطيارين الآن..

منعا للخلط سأفترض أن أسماءهم هي:

مولر: الرجل الأشقر الذي كان يجلس أمامي..

هانز: الرجل الذي يبدو كضابط نازي..

بيتر: الرجل كث الشارب ذو الشعر الطويل (وهو ما عرفت فيما صحيح)..

ماير: الرجل الذي برز الآن من مقدمة الطائرة..

بعد قالت المضيفة المذعورة لنا:

- «نفذوا ما يقول وسنكون جميعًا بخير..»

ثم انفجرت في بكاء هستيري.. وهو ما يدل على أننا بخير فعلًا..

راكب جالس نهض قليلًا وقال في رعب:

- «أريد الذهاب للحمـ...»

قالها الذي يهدد المضيفتين والذي سنسميه (بيتر).

- «لكني سوف...»

- «لا..»

لقد تحركت أمعاء الجميع وستكون تجربة قاسية فعلًا لو قرر هؤلاء ألا ندخل الحمام بقية الرحلة..

الزوجة الفرنسية الشابة تبكي على صدر زوجها، والكاتب السكوتلندي ما زال نائمًا.. لن يوقظه سوي سقوط الطائرة وسرطان البحر الذي سيطبق كلاباته على مؤخرته إذن..

قمت بهزه بعنف فصحا مذعورًا وأطلق سبة..

قلت له مشيرًا إلى مسرح العمليات:

- «هناك من يخطفون الطائرة.. من الصعب أن تنام وسط هذه الأحداث..»

أطلق سبة أخرى وراح ينظر حوله متسع العينين مبهور الأنفاس..

✶ ✶ ✶

- 5 -

كي تي كاريت هوك تمبور

في فيليور

سي تينيريم كوام كوبيو

ني نيموري ساب فوليو

أوسكيولارير كوم جوديو

دولشيس آمور!

✶ ✶ ✶

خمسة أعوام كاملة احتاج لها (جيسون مكالستر) كي يحلل الأوراق التي وجدها في قاع الصندوق.. وفي كل يوم كان يعرف أنه وقع على كشف حياته.. أهم شيء عرفه منذ تخرج في الكلية، لكنه كذلك أدرك أنه سر مخيف من تلك الأسرار التي يجدر بنا تركها كما هي.. شيء من الأشياء التي كان (لافكرافت) يُطلق عليها مصطلح (الذي لا اسم له)..

كان على يقين من شيء واحد: هذه الأوراق وقعت في يد (أورف). هي أو نسخة منها.. هو يعرف أن (أورف) دمر أكثر ما وجده، فهل زعم ذلك وأخفاه في صندوق وجد طريقه إلى هنا بعد الحرب؟.. أم أنّ هذه نسخة أخرى فعلًا؟

ما يعرفه هو أنّ هناك مقاطع كاملة مما استعمله (كارل أورف)، وبعض مقاطع (عجلة الحظ) موجودة فعلًا.. لكن أغلب ما وجده كان جديدًا.. وكان يحمل ذات الطابع المشئوم المقبض..

هناك خلطة غريبة في هذه الأشعار.. الكثير من العواطف الرقيقة والكثير من الهرطقة والكثير من الإباحية والمجون والكثير من التحدي..

المؤكد كذلك أنّ هذه الأشعار ليست ألمانية فقط. إنها تحمل علامة من كل بلد في أوروبا تقريبًا (وكل بلد في أوروبا كان يستعمل اللاتينية في ذلك الوقت، كما أنّ الفصحى لغة تجمع البلدان العربيّة مهما اختلفت اللهجات).. ومن المؤكد أن أكثر من واحد كتبها هناك اسمان مؤكدان هما (فالتر شاتيون) و(بيتر بلويز).. وهناك شاعر غامض اصطلح الدارسون على تسميته (كبير

الشعراء) Archpoet ولا أحد يعرف عنه الكثير، لكنه يشبه (أبو نواس) عندنا في مجونه وولعه الشديد بالخمر، لدرجة أنه يتمنى ألا يموت إلا في حانة.. لا أحد يعرف بالضبط سبب تسمية (الجوليارد) بهذا الاسم، لكنه قريب جدًّا من لفظة لاتينية تعني (الشخص المرح)..

✶ ✶ ✶

كانت الأشعار مقسمة لأربعة أجزاء واضحة:

- بريمو فير (الربيع).

- إن تابيرنا (في الحانة)

- كوّر دامورز (محكمة الحب)

- بلانزيفلور إهيلينا (بلانشفلور وهيلين).

هناك أبيات كثيرة لم يستطع ترجمتها ولم يعرف إلام ترمز.. لذا أخذها كما هي.. إن اللغة اللاتينية كانت حية في ذلك العصر، وقد تغيرت كثيرًا وتسرب لها الكثير من الألمانية..

وجد كذلك طريقة غناء هذه الأبيات التي تدعي neume وقد استعان بصديق مولع بموسيقا القرون الوسطى، كي يتوصلا إلى اللحن التقريبي لهذه الكلمات كما كانت تغني وقتها..

إنه رائع.. مذهل...

كان اسم صديقه (أندرو)، وهو عاشق للموسيقا بشكل لا يوصف.. شيء بدين يعرق بكثافة، ويدخن بكثافة أكثر، وله شعر طويل ينسدل على كتفيه..

في ذلك اليوم قال لأندرو:

- «هذه الألحان يجب أن يسمعها العالم..»

قال له وهو ينفث الدخان بكثافة:

- «لست ميالًا لذلك... إن بقاء هذه الأشعار سرًا وإخفاءهم لها، له بالتأكيد سبب مهم..»

- «هل تعني ما فيها من كلام ماجن؟.. لا مشكلة هنالك.. كان هناك من يسبك باللغة السواحيلية.. لن تفهم شتائمه ولن تهتم على الإطلاق..»..

- «اللحن نفسه آسر ومخيف.. إنّه جمال باهر يشعر المرء بالرعب عندما يطلع الناس عليه.. أحيانًا يكون من الحكمة ألا تنظر لبهاء الشمس أبدًا..»

ثم فكر (أندرو) قليلًا وحك لحيته وقال:

- «ألم يخطر لك أنّ هذه الأشعار على اتصال بالشياطين فعلًا؟»

- «أنت تقول هذا الهراء؟»

- «ليس هراء تمامًا.. لماذا ماتت أسماك الزينة في بيتي فجأة عندما عزفت الألحان أمامها؟.. ولماذا تقوس القط وانتفش شعره وراح يُطلق زئيرًا مرعبًا؟...»

- «أنت تعرف خيرًا مني أن آذان الحيوانات قد تلتقط نغمات مؤلمة لا نسمعها نحن..»

- «لقد فكرت في الأمر بصورة أخرى.. هذه الألحان استدعت شيئًا لا نراه نحن، لكن هذه الحيوانات رأته..»

نظر (جيسون) إلى طرف السيجار المشتعل في يد صاحبه البدين، وراح يتذكر..

لماذا منعت الكنيسة هؤلاء الجوليارد من المشاركة في الإنشاد عام 1227؟.. لماذا ثار عليهم قنصل (تريفز) ومنع ذكر اسمهم؟.. لماذا منعوا من دخول الكنائس في (كولونا)؟... لماذا عوملوا دومًا معاملة الهراطقة؟

لكنه استبعد الفكرة.. لو كان لدى أحد شك فيهم لحرقوا بلا مناقشة.. ما كان أسهل الحرق في تلك العصور..

على كل حال لقد بدأت هذه المخطوطات تضايقه..

مرة أو مرّتين وضعها في خزانة مغلقة، ثم صحا من النوم ليجدها على المنضدة أو المكتب..

قام (أندرو) بتسجيل الألحان على شرائط، ثم قرر أن يمسحها ليبدأ من جديد.. لكن عملية مسح الشرائط على الكاسيت باءت بالفشل.. مهما فعلت يظل الشريط كما هو..

هذه أشياء غريبة وتثير الغيظ، لكنّها لا تفسر بموضوع الشياطين هذا..

طلب من أندرو أن يقابله ليتخذا قرارًا نهائيًا بصدد هذه الأشعار والتسجيلات، لكن (أندرو) اعتذر لأنّه سيقوم برحلة بحرية باليخت الخاص به صباح غد..

- «هذا وقت سخيف للنزهة البحرية..»

ابتسم أندرو وتحسس صدره البدين:

- «إنّه هذا النداء لهواء البحر.. عندما يأتيني فأنا ألبي بلا مناقشة.. أشعر بأنني أختنق.. سوف نلتقي بعد يومين ونناقش هذا كله..»

بالطبع لم يلتقيا قط، ولن يلتقيا إلا يوم الحساب، لأن اليخت الصغير لم يعد..

ارتطم بالصخور وانقلب.. وبعد أسبوع جرفت الأمواج الحطام ومعه جثة أندرو... هذه من الأمور التي تثير جنونك، لو تأخر كثيرًا.. لو عدل عن رحلته هذه.. لو اقتنع بكلامي....

لكنك أحيانًا تشعر بأن الموت له نداء لا يمكن التخلف عنه، والذين يقرءون قصص الحوادث بعناية يقابلون دومًا هذا الفتى الذي أصر على ركوب الطائرة التي ستسقط أو السفينة التي ستغرق، برغم عشرات الحوادث الصغيرة التي كان يمكن أن تجعله يعدل عن ذلك.. عندها يمصمصون شفاههم قائلين: «يا سلام.. عُمْر!»..

مات (أندرو) تاركًا (جيسون) يواجه السر وحده..

كان ما فعله (جيسون) هو أن كتب كتابه المنتظر معتمدًا على 10% مما عرفه فعلًا، وقرر أن الباقى خطر فعلًا ويحسن الابتعاد عنه حاليًا.. لكنه اتخذ احتياطًا علميًا بسيطًا قبل هذا..

لقد اتخذ القرار عندما لم تعد هناك حاجة له.. لقد اختفت المخطوطات وشرائط الكاسيت من خزانته!

الفكرة المرعبة التي خطرت له، هي أنّ هذه المخطوطات عرفت أنها عادت للحياة، وهي مصممة على أن تعيش.. أن توجد!!

لكنه كان رجل علم ولم يكن مهتمًا بهذه السخافات.. لقد فقد مخطوطات مهمّة فعلًا وليست لديه طريقة لمعرفة كيف فقدها.. لا توجد سرقة.. هو يعرف أن التفسير أعقد من ذلك وأن إبلاغ الشرطة لن يحقق شيئًا، دعك من أنّه فعلًا سرق هذه الآثار من الحكومة الألمانية فلا داعي لدخول الشرطة في القصة...

كان يذكر اللحن والأغنية الأساسية التي استنبط نغماتها مع صديقه.. وكان يتذكر مقاطع كاملة من الأشعار.. لكنه نسى الكثير كذلك..

قرر السفر في رحلة سياحية إلى مصر، وقد ساعدته هذه الرحلة كثيرًا في نسيان الأحداث العاصفة الأخيرة.. إن مصر بلد مفعم بالأسرار، لكن هناك كثيرين يبحثون فيها لو تذكرت عدد الكتب التي صدرت عن الهرم أو سحر المصريين.. لو كتبت عن مصر فأنت قطرة في بحر، بينما أنت الوحيد المتميز الذي يعرف كل شيء عن الجوليارد..

هناك في مصر جاءته بالبريد الطبعة الجديدة من كتابه، وقد راح يطالعه في نهم كأنه يراه لأول مرة.. وهنا خطر له خاطر غريب وغير مفهوم..

لماذا لا يسوقه في الولايات المتحدة؟... إنّه لم يجرب التسويق في الولايات المتحدة من قبل، ويقال إنها سوق نهمة متعطشة للكتب.. هكذا تبادل بعض المراسلات مع ناشرين هناك، وكانت الموافقة..

برغم هذا شعر بأنه لابد من الذهاب هناك بنفسه ليرى كل شيء، ويتفقد الجو...

✶ ✶ ✶

- 6 -

مويم إست بروبوسيتام

إن تابيرنا موري

أوت سنت فينا

بروكسيما مورينتس أوري

✶ ✶ ✶

من قمرة القيادة دوّت صرخة عالية...

توقعت سماع طلقة لكن هذا لم يحدث لحسن الحظ لو انطلقت رصاصة فلسوف يحدث ما لا تحمد عقباه للطائرة أو هذا ما أعتقده.. إن تحطيم نافذة سوف يؤدي بلا شك إلى تفريغ الضغط كله في ثوان...

قال (جيسون) في رعب:

- «ماذا يحدث هنا؟»

نظرت له في غيظ بما معناه (صح النوم).. وكان قد استعاد لكنته الأسكتلندية تمامًا فصار كلامه مستحيل الفهم فعلًا...

تصاعدت صرخات كثيرة، وهي ظاهرة مسلية سوف تتكرر كثيرًا.. كل صرخة تتلوها عشرات من صرخات الركاب.. ظللت جالسًا أنظر ليدي في قلق وسمعت عددًا لا بأس منه من العرب يتلو آيات القرآن.. لا تنس أن الطائرة قامت من القاهرة وعليها مصريون كثيرون..

بعد ثانيتين ظهر ذلك الأخ الذي يبدو كضابط نازي، والذي سنسميه (هانز).. لماذا (هانز)؟... لأنّه يبدو (هانز) فعلًا ولأن هذا و(فريتز) أول اسمين ألمانيين يخطران بذهني..

ظهر على باب قمرة القيادة وكان يشهر مسدسًا فاخر الشكل صاح وهو يوجه كلامه للجميع:

- «طبيب!.. نريد طبيبًا!»

هذه هي المشكلة.. سوف أجد نفسي متورطًا معهم.. قريبًا منهم أكثر من اللازم وهذا ما لا أريده.. عندما ينفجر غضبهم سيقتلون أول شخص وهو الطبيب.. عندما تسوء الأمر أنفجر معهم.. لحظة اقتحام الطائرة سوف أتلقى الرصاصة الأولى من القوات الخاصّة، وسوف تكرمني نقابة الأطباء بأن تعلق صورتي في دورة المياه.. لذا فضلت الصمت على أمل أن يتبين وجود طبيب آخر..

- «طبيب.. هل تسمعون؟»..

نظرت لمن حولي.. يمكن أن أؤكد أنهم جميعًا أطباء.. هذه أول طائرة تعجّ بالأطباء في التاريخ.. لكنهم جميعًا يفكرون مثلي الجبناء!!.. الكذابون!

في تردد رفعت يدي اليمنى فصاح الرجل في خشونة:

- «ماذا تنتظر؟... هه؟.. تحرك!»

نهضت في تثاقل متجهًا لمقدمة الطائرة.. أعرف ما سوف يحدث.. سوف يريني جثة الطيار التي نسفوا رأسها، ثم يأمرني بأن أعيده للحياة فإن لم أفعل فجر رأسي بدوري.. عندما يغضب أو يقلق سوف يقتلني ليريح أعصابه.. هذه أمور مفهومة..

قال لي وأنا أقترب منه:

- «جواز سفرك!!»

ناولته جواز السفر الأخضر في تردد.. هذا فضول لا أحبه.. لكن خمنت طريقة تفكيره هو من (بادر ماينوف).. إذن هو سيقتل أي أمريكي هنا.. ليست لديهم أسباب لقتل مصري مثلي..

دخلت القمرة فكان الوضع أسوأ مما توقعت..

دائمًا ما يكون هناك في هذه المواقف شخصان عصبيان: الأول من الرهائن.. وهو يتهور ويحاول لعب دور البطل، ويكون هناك شخص عصبي آخر من القراصنة.. هذا يفقد أعصابه ويعتدي على الأول.. ودائمًا ما يكون هناك شخص أكثر تعقلًا يلومه: لا تتهور يا (جون).. إنّه مسلح.. لا تقتله يا (هانز).. إنّه غير مسلح..

النتيجة هي أنني دخلت لأجد مضيفة لم أرها من قبل تصرخ وهي رائعة على الأرض، بينما هي تريح على فخذيها رأسًا مهشمًا لمن يبدو أنه طيار.. لقد تلقى ضربة قوية جدًّا بمقبض المسدس على رأسه.. ضربة أقوى من اللازم.. وكان هناك شخص آخر يلبس كالطيارين وقد استند إلى الجدار وراح ينزف بغزارة من أنفه...

فحصت الشاب الذي يرقد على الأرض فأدركت أنه ميت... لا يوجد نبض...

أمّا هذا الذي يستند إلى الجدار فمن الواضح أنه تلقى ما هو أكثر من ضربة في أنفه..

نسيت أن أقول إن هناك طيارًا ثالثًا شابًا مذعورًا يثبت سماعات إلى رأسه، ويمسك بالميكروفون ويبدو أنه قلق جدًّا.. إنهم جميعًا أمريكيون...

قلت للأخ (مولر) الذي كان يجلس خلفي في الطائرة، والذي قدرت أنه قابل للكلام معه:

- «هذا الفتى ميت..»

هتف (هانز) في عصبية وهو يركل الأرض بقدمه:

- «افعل شيئًا.. أنت طبيب!!»

- «قلت لك إنِّه ميت»

كنت أشتهي أن أقول له تعليقًا جديرًا بي مثل (أنا طبيب ولست من سحرة الفودوو) أو (نسوا أن يعلموني إصلاح الرءوس المهشمة في الكلية)، لكن لا أحد يجد الشجاعة أو الذهن الصافي ليقول كلامًا كهذا بينما مسدسان مصوبان لرأسه طبعًا.. دع هذه القدرات للأخ (جيمس بوند) كنت أمقت دومًا تلك القصص التي لا يكف البطل فيها عن الكلام بثقة وسخرية بينما رصاص المافيا ينطلق نحوه..

دعك من أن هؤلاء القوم لا يمزحون.. إن رجال (بادر ماينوف) عصبيو المزاج شرسون فعلًا..

- «وهذا؟»

ركعت جوار الرجل الأكبر سنًا الذي ينزف من أنفه وتحسست نبضه وحدقته، ثم قلت:

- «يبدو لي أنه يمرّ بطور (ما بعد الارتجاج)، لكنه سيعيش على ما أعتقد..»

هنا سألني (مولر) في هدوء نسبي:

- «هل سيكون قادرًا على قيادة الطائرة؟»

فهمت!

هذان المخبولان قتلا الطيار المساعد وكادا يقتلان الطيار نفسه.. ومن الواضح أن الثالث ليس طيارًا بل هو مطرب روك أو سباك أو منظف مداخن.. يبدو أن كل ما يجيده هو الاتصال.. وقد سمعت بعض ما يقول ففهمت أنه ينقل صورة كاملة عن الوضع للأرض... لقد أمروه بذلك..

كل هذا جميل جدًّا..

✶ ✶ ✶

- 7 -

تونك كانتابونت ليتيوس

أنجيلورام كوري

دوس سيت بروبيتيوس

ويك بوتاتوري

✶ ✶ ✶

فيما عدا ما تم إتلافه، يعرف الدارسون أن (الكارمينا بورانا) موجودة في ميونيخ اليوم..

كان الجوليارد مصدر صداع للسلطات الكنسية.. فقد كانوا عابثين شديدي المجون، وكانت لديهم ألعابهم السخيفة مثل لعبة الرنجة.. عندما يجر كل منهم سمكة رنجة بخيط ويركض وسط موكب من زملائه محاولًا أن يدوس أسماك رفاقه ويحمي سمكته، وكان هناك موكب الجحش الذي يلبسونه ثيابًا سخيفة مزخرفة ويحييه كل من يمرّ به..

هكذا أشتكت الكنيسة من أن هؤلاء الجوليارد يرقصون لابسين كالنساء، ويأكلون البودنج الأسود في المحراب ذاته، ويلعبون النرد، ويضايقون المارَّة.. لكن ما كانوا يفعلونه ليلًا كان أسوأ..

لم يبق شيء من هؤلاء الفتية سوى أشعارهم.. وهذه الأشعار كانت خطرة كما يبدو..

لقد قام أحدهم بجمع المخطوطات المبعثرة في مجلد يدعي (كودكس بورانوس)، وهذا أدى إلى بعض الخلط في النص وترتيب الصفحات.. على الغلاف ترى رسمًا لعجلة الحظ بأبياتها التي تكلمنا عنها..

ترى هل ولد النص في (بندكتبويرن) فعلًا حيث وجد؟

هذا غير مؤكد.. فقط هناك يقين أنه كتب في بلد يتكلم الألمانية البافارية.. ولربما جنوب إيطاليا كذلك.. ويقال إن النص بلغ دير (بندكتبويرن) عام 1350 عن طريق أسرة تدعى (فيتلزباخر)..

طبعًا هناك أجزاء كثيرة ناقصة لا يعرف أحد ما احتوته بالضبط..

وكان أول لقاء لكارل أورف مع المجموعة هو قراءته لكتاب (جون أدنجتون سايموند) عنها.. الكتاب صدر عام 1884 واسمه (خمر ونساء وغناء). وهكذا بدأ البحث المدقق في هذا الموضوع بمعونة شاب اسمه (مايكل هوفمان).. ويقول البعض إنِّه اعتمد بالكامل على الشروح الموسيقية المصاحبة للأشعار بينما يرى البعض أنه ألف الألحان من الصفر..

عرفنا ما حدث بالضبط.. لقد قدمت (كارمينا بورانا) - أو ما سمح (أورف) بتقديمه - على أوبرا فرانكفورت عام 1937. وطبعا كان نجاحها ساحقًا مدويًّا.. ما زال صدى التصفيق مستمرًا حتى اليوم، ولا يجادل فيه أحد.. حتى مع تهمة النازية التي لاحقت المؤلف، فقد كانت روعة المقطوعة أقوى من أن تقتلها الاتهامات..

لكن ما الذي عرفه (أورف) وأخفاه طيلة حياته، وما الذي عرضه على النازيين فرفضوا لخطورة الفكرة؟

(جيسون) اقترب جدًّا من السر.. لكن الأوراق ضاعت ومن الواضح أنه لن يستمر أكثر..

حتى لو لم تكن الأوراق قد ضاعت، فعليه أن يفر من اختطاف طائرة يهدد جميع من فيها..

✶ ✶ ✶

- «هل أنت بخير؟.. متأكد من ذلك؟»

هزّ الطيار رأسه وضغط على أنفه بالمنديل.. كان يتأرجح كأنه ثمل، وقد قدرت أنه ليس على ما يرام بتاتًا.. من الصعب تخيل أن ينفذ تعليمات برج المراقبة وينزل العجلات، ويتخير ممرًا.. ستكون هذه معجزة.. المعجزة الأخرى هي أن نجد شخصًا يحل محله..

هذه المرّة لم أستطع كتمان رأيي أكثر فقلت في غيظ:

- «ألا تجدونها فكرة عجيبة أن تحاولوا قتل الطيارين ونحن في الجو؟»

قال (مولر) الذي قدرت أنه أهدأ وأكثر تعقلًا:

- «من المفترض أن يفهما هذا منذ البداية.. لا أحد يلعب أدوار الأبطال معنا.. هما المتسببان في هذا الوضع..»

كان الطيار على مقعده الآن يحاول استعادة ما فاته.. يتفقد العدادات والمؤشرات، لكني قدرت أنه تقريبًا لا يرى أي شيء.. كل شيء مزدوج...

أما عن زميله الشاب فقد أخرجت منديلي وفردته على وجهه المهشم، ثم جررته بمعونة المضيفة المولولة إلى ركن القمرة..

- «هل نخرجه من هنا؟»

قال (مولر) في لهجة أمرة:

- «لا.. سيعم الذعر بين الركاب لو رأوا جثثًا..»

ثم نظر إلى ضابط الاتصالات الشاب المذعور وعاد يسأله:

- «هل أبلغتهم؟»

- «نعم.. كل شيء.. يريدون الكلام معك..»

مد (مولر) يده وتناول الميكروفون ووضع فردة من السماعة على أذنه وأصغى قليلًا ثم قال:

- «اسمع.. لا وقت عندي لهذا الهراء.. نحن من عصبة الجيش الأحمر.. ما نطلبه هو طرف مخول بالمفاوضة من الحكومة الألمانية الفيدرالية يكون بانتظارنا في المطار إن لدينا قائمة مطالب سوف تعرفونها عندما تهبط الطائرة.. الركاب؟.. كلهم بخير لكن لا أضمن سلامتهم بعد ذلك، في حالة المماطلة أو محاولة التلاعب بنا.. نحن مسلحون ومعنا قنابل تكفي لتفجير الطائرة..»

ثم أغلق الجهاز ونظر لنا نظرة نارية..

قال لي وهو يضع يديه في جيبه:

- «والآن يا دكتور يُمكنك الخروج لكن لتبق قريبًا من هنا قد نحتاج لك ثانية..»

- «بالتأكيد..»

وخرجت من القمرة بينما كل الطائرة تنظر لي في فضول..

اتجهت لمقعد قريب من القمرة وجلست.. هنا سمعت ذلك الأخ (بيتر) كث الشارب طويل الشعر، يصيح وهو يلوح بمسدّسه:

- «الأمريكان على اليمين!.. الأمريكان على اليمين!.. باقي الجنسيات على اليسار!»

نهض أمريكي مترددًا فاستوقفه وطلب جواز سفره.. ألقي علية نظرة ثم سمح له بالمرور..

هذا ما توقعته فعلًا.. يفصلون الأمريكان تمهيدًا ليكونوا أول الضحايا.. باعتبارهم رمز الرأسمالية الشيطانية التي تحرك العالم..

وهكذا نهض عدد لا بأس به من القوم بينهم نساء وأطفال يبكون واتخذوا مقاعدهم كما طلب الرجل، وبالطبع فحص جوازات سفرهم جميعًا... خطر لي أنه أحمق.. فلا أحد سيزعم أنه أمريكي، بل سيزعم البعض أنه غير أمريكي.. الأجدر أن يتفقد جوازات سفر الجالسين على اليسار..

على كل حال نحن لا نعرف خطتهم يقينًا.. ربما يعدمون غير الأمريكيين ويبقون الأمريكيين للتفاوض؟... محيرة ومخيفة فعلًا هذه المواقف، كما كان يحدث في لجان الإعدام بالهوية في لبنان أيام الحرب الأهلية - وكان هذا زمنها - عندما كانت الميليشيات تستوقف الحافلات.. يتم فحص بطاقات الهوية.. ويتم إنزال من يريدون حيث يقتلونه على قارعة الطريق. السؤال هنا هو: هل سيقتلون المسلمين أم المسيحيين؟.. أنت لا تعرف.. حتى اللحظة الأخيرة لا تعرف إن كنت أنت الشخص الخطأ في المكان الخطأ في الزمن الخطأ أم لا.. فقط عندما تتحرك الحافلة مبتعدة عن المذبحة تعرف شيئًا واحدًا: هم لم يكونوا يريدون دينك أنت!

فعلًا شيء مرعب....

الطفلة التي رأيتها من قبل تمشي بين المقاعد بتلك الطريقة الغامضة، وشعرها الأسود يغطى نصف وجهها.. فيما بعد عرفت أن الشعر الأسود الطويل الذي يغطي نصف الوجه والثوب الأبيض أيقونتان مهمتان في الرعب الياباني.. فعلًا معهم حق.. هؤلاء اليابانيون عباقرة..

بالفعل أثار منظرها الارتباك.. وهتف أحد القراصنة، وهو الذي اصطلحت على تسميته (ماير) وهو يرفع فوهة مسدّسه:

- «من والد هذه الطفلة؟.. مرها بالابتعاد!»

لكن أحدًا لم يرد..

مد يده يلمس كتفها بغلظة فلم تنظر له وواصلت المشي.. عاد يكرر الصياح في انفلات أعصاب:

- «من والد هذه الصغيرة؟»

لم يرد أحد.. إما أنه لا أبا لها وإما أن أباها يخشى طلقة في الرأس.. هكذا مد (ماير) يده وأطبق على ذراعها بغلظة، فصحت فيه:

- «دعها!.. إنها غالبًا تمشي أثناء النوم أو شيء من هذا القبيل.. هل تعتقد أنّ هذه الطفلة تشكل خطرًا حقيقيًا مرعبًا على أربعة رجال مسلحين؟»

نظر لي في غباء فقلت:

- «إذن دعها معي..»

طبعًا عندما يكون حجم الضحيّة وسنها صغيرين يصير من السخف أن تصر على عدوانيتك.. حتى القراصنة لن يؤذوا طفلة بهذا الحجم، وحتّى القراصنة يخجلون من أنفسهم..

جذبت الطفلة بشيء من العنف وأجلستها جواري..

غريبة.. هذا واضح.. جميلة جدًّا كذلك.. لكنّها لا تنظر لي على الإطلاق برغم أن عينها مفتوحة.. العين الوحيدة التي لا يداريها الشعر..

مددت يدي وأزحت الشعر عن العين الأخرى وليتني ما فعلت!

✶ ✶ ✶

- 8 -

سمبر كريسيس..

أوت دكريسيس

فيتا ديتستابيليس..

✶ ✶ ✶

من جديد هذا الصوت يتعالى..

من جديد الشيء يتحرك..

تحسس (محمود السمدوني) ما تحت إبطه حيث ثبت الشريط اللاصق.. ماذا يمكن أن يوجد في هذه العلبة؟.. يمكنه أن يجن فعلًا..

الخرفشة.. الحكة.. الخرفشة.. الحفيف.. كلها مشاعر تثير الغيظ، وهو برغم قسوة حياته كان حساسًا شديد العصبية..

رأى هؤلاء (الخواجات) يهددون الناس ويخطفون الطائرة.. فهم هذا بصعوبة لأنّهم تكلموا بالإنجليزية، وهو لا يفهم إلا القليل منها.. فرنسيته ويونانيته أفضل..

كان هذا مزعجًا.. سوف يؤخر عملية التسليم والحصول على المال.. كان يعرف يقينًا أنه سينجو.. لو مات الجميع لنجا هو، لأنه رأى الأسوأ ومرّ بكل موقف عسير يُمكنك تخيّله.. لكن المشكلة هي التأخير..

انتقل الأمريكيون للجانب الأيمن، فظل حيث هو.. وقد راهن على أن جارته أمريكية لكنّها تتظاهر بالغباء..

كانت هذه مشكلته الوحيدة حتى عاد الشيء يتحرك..

راح ينثني على نفسه ويتلوى محاولًا أن يسكته.. السيدة الزنجية المسنة المحترمة جدًّا الجالسة بجواره راحت ترمقه في شك وتقزز.. لابد أنها اعتقدته منحرفًا بشكل ما..

في النهاية لم يعد يتحمل أكثر..

في العلبة شيء حي، وهذا الشيء يحاول التملص وعلى الأرجح سينجح.. عندها؟

عندها سيجرى شيء حرشفي له أقدام مخلبية على لحمه.. لن يستطيع الفرار من ثم سوف يزحف على ظهره وينزلق في سراويله..

فكرة مرعبة جدًّا.. إنّه يقشعر بالفعل..

ولماذا تذكر اللعين أنه حي؟. هل هو جائع؟.. هذا يزيد تعقيد الأمور..

راح يعتصر ذاكرته، فتذكر أنّ بعض مربيّ الحيوانات يحاولون تهريب قط عزيز أو كلب محبوب معهم في الطائرة لكن الاحتمال مستبعد لأن حجم العلبة لا يتسع لهذا، دعك من أن من يهرب قطًا لا يدفع كل هذا المال...

هناك كذلك قصة أخرى عن الذين يهربون حيوانًا ثمينًا نادرًا.. ربما الأمر كذلك؟.. هناك قوانين لحماية الأنواع وهناك حجر صحي و... و... ربما كان (كامل) يحاول تهريب عينة ثمينة من مصر للولايات المتحدة، لكن أية حيوانات نادرة في مصر؟.. ثعبان (الطريشة)؟.. لا يوجد شيء آخر على قدر علمه..

فأر محمل ببراغيث الطاعون؟... لم يكن مثقفًا لكنه سمع هذه القصة في مصر.. وسمع أن فئران السفن كانت تنقل الطاعون لقارات كاملة في الماضي. وسط حرب الإشاعات كانت هناك إشاعة قوية عن قيام إسرائيل بتهريب فئران تحمل براغيث الطاعون عبر حدودنا الشرقية.. هل هذا هو الجواب هنا؟ ربما هناك من يريد بدء حرب بيولوجية في أمريكا؟

لو كان كذلك فهي كارثة، لأن البراغيث لن تبقى في العلبة طويلًا.. لا البراغيث ولا الفأر..

راح يهرش في عدة مواضع من جسده وهو يردد:

- «الله يخرب بيتك يا كامل..!»

نظرت له السيدة الوقور في تعال، ثم أخرجت إنجيلًا من حقيبتها وراحت تقرأ وهي تردد كلامًا غير مفهوم..

في البداية خطف طائرة.. ثم جار مقعد منحرف.. والآن يبدو أنه أجرب كذلك.. فليرحمنا الرب.. فليرحمنا الرب..

في النهاية لم يتحمل محمود أكثر، فنهض وغادر مقعده..

هنا رأى نفسه أمام فوهة المسدس والعينين القاسيتين لمن أسميه (بيتر).. الفتى طويل الشعر ذا الشارب الكث.. نموذج الفتى الوسيم الأنيق في ذلك العصر، بشعره الناعم الأسود المنسدل على الكتفين، والشارب الطويل المتدلى على جانبي الفم، والبنطال (الشارلستون) المتسع من أسفل، والسترة الجلدية اللامعة...

- «عد لمقعدك..»

قالها بالإنجليزية، فصاح (محمود) الذي لم يفهم الكلام وفهم الإشارة:

- «سأموت يا خواجة.. أنا محصور..»

قالها بالعربية فجاء الرد بالإنجليزية:

- «الزم مقعدك..»

وأتبع هذا بأن لوى ذراعه بحركة محترفة، ثم هوي بمؤخرة المسدس على رأسه فسقط على مقعده وهو يعوي ألمًا..

- «الله يخرب بيتك يا كامل..!»

ثم رفع عينه ليرى القرصان ينتظر رد فعله، وقد صوب المسدس إلى رأسه، فقال بالعربية وهو يتحسس موضع الضربة:

- «انتهى.. لقد بللت نفسي.. أنتم المسئولون عن ذلك!»

تجاهله القرصان، ونظر للسيدة الوقور وقال في حدة:

- «جواز سفرك..»

مدت يدها وناولته الجواز.. فقرأ الصفحة الأولى ثم أشار إلى الصف الأيمن لتجلس فيه، فأغلقت إنجيلها ونهضت بذات الكبرياء.. يسهل على كل من رأى فيلمًا أمريكيًّا أن يعرف أنها زنجية أمريكية.. لن تخدع أحدًا.. لكنّها على كل حال شعرت بسرور لخلاصها من محمود هذا فقد أثار ريبتها بحركاته الكثيرة وهرشه الذي لا يتوقف..

ما إن زال الألم عن رأس محمود حتى عاد الشيء يتحرك..

هنا قرر أنه غالبًا سيحاول فك الشريط اللاصق وهو جالس لن يتحمل أكثر..

✶ ✶ ✶

- 9 -

سمبر كريسيس..

أوت دكريسيس

فيتا ديتستابيليس..

✶ ✶ ✶

أطلقت شهقة لبشاعة ما رأيت، وأدرت وجهي للنافذة..

هنا سمعت صوتًا أنثويًا رخيمًا يقول لي بالعربية:

- «هل هو عيب خلقي؟»

رفعت عيني لأجد تلك السيدة الفاتنة التي لم أر أجمل منها في حياتي. كان وجهها مألوفًا كما قلت لك.. لكني أجلت التعارف لما، وقلت وأنا أسدل الشعر على عين الفتاة:

- «غالبًا هو حادث تجويف العين فارغ تمامًا فلا توجد سوى هذه الفجوة الدامية..»

ثم ابتلعت كلامي.. كنا ننسى أنفسنا ونحن طلبة طب فنتكلم بالعربية أمام المريض.. وكنا نقول كلامًا مثل (حالة معقدة فعلًا).. (أسوأ انسداد معوي رأيته في حياتي)... إلخ.. ثم نتذكر فنخجل من أننا تعاملنا مع المريض كشيء..

الطفلة قد تفهم العربيّة.. ولربما كانت غير صماء، فليس من اللائق أن أتكلم عنها بحرية..

لكني بالفعل رأيت مشهدًا بشعًا.. ولا عجب أن أمها جعلت الشعر ينسدل بهذه الطريقة. لكن ألم يفكر أبواها في وضع عين زجاجية قط؟

جلست السيدة الفاتنة جواري ووضعت الطفلة على حجرها، ثم مدت يدها مصافحة بطريقة عملية تدلّ على امرأة واثقة من نفسها، وقالت:

- «فاتن الشرقاوي.. مدرس جامعي ومعدة بالبرنامج الثاني..»

- «رفعت إسماعيل.. أستاذ جامعي وكان لي برنامج في المذياع تم وقفه..»

هنا اتسعت عيناها كأنها تتذكر:

- «ذلك البرنامج الذي..... أوقفوه؟»

- «أنا قلت ذلك..»

لم تعلق وأدركت على الفور أنها تراه سخيفًا، لكني تذكرتها على الفور.. إنها شهيرة جدًّا في الأوساط الثقافية القاهرية، وتكتب في كل شيء تقريبًا في عدة مجلات.. لو سمحت لي بهذا التعبير العامي لقلت إنها (فلحوسة).. لا يمكن أن تقول لها (صباح الخير) من دون أن تلقى خطبة عصماء تطالب فيها بأن نكون أنفسنا ولا نمشي على خطوات الغرب.. لماذا لا نقول ما هو جدير بتراثنا مثل (عمت صباحًا)؟.. فإذا ذكرتها بأن هذه تحية الجاهلية الأولى، بدأت تتكلم عن الانغلاق العقلي الذي يحصر التدين في كلمات وهكذا.. لن تخرس أبدًا.. كل كلمة هي موضوع ندوة ثقافية محتملة.

على كل حال كانت جميلة جدًّا.. وهذا يغفر لها الكثير لدى النقاد، بينما يذبحون بأقلامهم أي رجل مثلها أو أكثر موهبة منها.. نساء كثيرات يعتقدن أن ما بلغنه من مكانة يعود لعقلهن الراجح، والحقيقة أنّ هذا يعود لسبب فسيولوجي بسيط جدًّا: جمالهن. كان رواد الفكر في مصر يجتمعون عند (مي زيادة) ويتناقشون معها كأنها ند لهم، وكانت تمازحهم وتتبسط معهم وعندما تتكلم يصمتون ويصغون، فهل كان السبب الوحيد عقلها وموهبتها.. كان السبب هو جمالها الصارخ، ويبدو أنهم جميعًا وقعوا في حبها، حتى طه حسين نفسه وقع في حب صوتها.. لكن ما من امرأة تعترف بهذا.. السبب الوحيد هو ذكائي وكفاءتي..

أخرجتني من هذه الخواطر بسؤال ثان:

- «لماذا استدعوك لقمرة القيادة؟»

- «حاول طيار لعب دور البطل.. هكذا سقط ميتًا والآخر في حال خطرة..»

اتسعت عيناها رعبًا وهتفت:

- «إذن من يقود الطائرة الآن؟»

- «نصف طيار لو أردت الدقة.. لو مات أو فقد الوعي لانتهى أمرنا..»

قطبت جبينها وفكرت:

- «لكن.. هذا خطير..»

- «أحب استنتاجاتك الدقيقة..»

نظرت في ساعتها وقالت:

- «بقيت ساعتان.. يمكن أن تمرا على خير..»

- «المشكلة وأعقد جزء هي الهبوط.. هذا هو التحدي الحقيقي..»

- «من هؤلاء؟»

شرحت لها تصوري عن المجموعة.. كانت تعرف (بادر ماينوف) طبعًا فهم أبناء ذلك العصر والصحف لا تخلو من خبر عنهم. سألتني عن سبب ذهابي للولايات فحكيت لها وسألتها عن السبب فحكت لي أنه لا يوجد سبب.. قالتها وهي تمسح على شعر الطفلة الجالسة على حجرها.. طفلة مسالمة سلبية تمامًا كأنها دمية.. دمية بعين واحدة..

برغم كل شيء شعرت بسرور وراحة.. المنظر الطبيعي للأطفال هو أن يجلسوا على حجر امرأة.. الأطفال مقتنيات أنثويّة جدًّا ويمكنك الاطمئنان عليهم مع الأنثى.. أمّا مع الرجال فأنت قلق دائمًا تشعر بأنهم سيموتون أو يضيعون أو يجرحون أنفسهم..

سألتها في فضول:

- «عندما غنى جاري الأسكتلندي تلك المقطوعة.. قلت إنك سمعتها.. ما هذا الفضول؟»

تنهدت وراحت تحكي لي قصتها بالتفصيل.. قصة اللحن وشريط الكاسيت ود. سامي والبرنامج.. إلخ... أنت سمعت كل هذا لذا دعني أسمع أنا ولا تصغ معي..

سألتها:

- «وهل تذكرين ذلك اللحن؟»

راحت تحاول التفكير.. لها طريقة ساحرة عندما تفكر لابد أنها تخلب لب الجميع سواي.. تنظر لأعلى وتضم شفتيها على شكل حرف O أحمر دقيق.. ثم بدأت تصدر نغمة مكسورة..

هنا صدرت النغمة محكمة ومتقنة فعلًا..

لم تكن منها..

كانت صادرة من الطفلة التي حجرها، والتي راحت تدندن اللحن بصوت جميل رخيم.. كأنها دمية تتكلم!!

✶ ✶ ✶

- 10 -

نونك أوبدورات

إ تونك كيورات

لودو منتيس آسييم

✶ ✶ ✶

بعد قليل فوجئت بعدد من الركاب يترك مقعده ويلتف من حولنا..

رفعت رأسي في ذهول لأعد خمسة.. ستة.. سبعة ركاب يقفون حولنا ويصغون في اهتمام.. وصاح ذلك القرصان (بيتر) وهو يلوح بمسدّسه:

- «هل جننتم؟.. ليعد كل لمقعده!»

وهرع ليفرق الواقفين.. لكني لاحظت أنه ليس جادًا في التهديد، بل هو أيضًا يريد أن يصغي.. بالفعل وقف وسط الواقفين وأطرق برأسه وراح يصغي..

للحظة ساد جو من الحميمية.. الجميع سواء حتى القراصنة والرهائن.. كلهم مر بتجربة ما مع هذا اللحن..

الطفلة على حجر (فاتن) مستمرة في الدندنة.. ما زالت متصلبة شبه نائمة.. لكن صوتها قوى عالٍ جدًّا..

ومن مكان ما جاء (جيسون) يترنح.. ووقف يصغي بدوره وقد عرف اللحن سريعًا. وبدأ يلاحقه بصوته الغليظ المتقطع...

صاح القرصان الثاني الذي أطلقت عليه اسم (ماير) في جنون:

- «هذا آخر إنذار لكم..!.. ليعد كل لمقعده!»

لكنه قوبل بلا مبالاة تامة كأنه يكلم نفسه.. وللحظة تصلب هو الآخر..

هنا صحت بأعلى صوتي بالإنجليزية:

- «إن الأمر غريب.. هل جميعكم سمع هذه الأغنية؟»

هنا تعالت الأصوات أن نعم.. كل واحد يحكي قصته الخاصّة مع هذا اللحن. أنا أعرف قصة (فاتن).. ومن الواضح أنني أعرف قصة (جيسون).. لكن الغريب أن تكون ذات القصة مرّت بالخاطفين كذلك.. ومن هذه الطفلة؟

كان الأمر قد انتهى على كل حال، فصاح (بيتر) من جديد:

- «أكرر.. ليعد الكل لمقعده..»

لكنه كان مهزوزًا بالطبع.. كل واحد كان يفكر في هذه المصادفة العجيبة، لكني أنوي عمل قاعدة منطقية جديدة تقضي بأن سبع مصادفات تعني أن الأمر ليس مصادفة..

كان (ماير) من الطراز الغبي المندفع، لذا كان أول من لجأ إلى الفعل، فأمسك براكب عربي الملامح وألقاه على الأرض وقبل أن نفهم كان يوسعه ركلًا وهو يردد:

- «قلت لك أن تعود!.. هه؟.. قلت لك أن تعود لمقعدك!»

نهضت لأساعد الرجل المصاب على النهوض وقلت لـ (ماير) بصوت مبحوح لا يخلو من الخوف:

- «كف عن هذه الألعاب السخيفة.. لو كنت أنت الأقوى فعلًا فلن تتسلي بضرب أشخاص لا حول لهم ولا قوة.. أنت تعرف وزميلك يعرف أنّ هناك شيئًا غامضًا يحدث هنا.. شيئًا أقوى منا جميعًا..»

أمسك بتلابيبي وأعتقد أنه كان موشكًا على ضربي، لولا أن صاح (بيتر):

- «دعه.. إنّه محق..»

ثم دسّ مسدّسه في حزامه وابتعد بينما تفرق الواقفون..

كنت راكعًا جوار الرجل الذي تلقى عدة ضربات.. كان من الواضح أنه مصري رجل وقور له شارب كث وعوينات منظر الموظف التقليدي في الستينات. قمة المجتمع وقتها..

ساعدته على الجلوس على أحد المقاعد، وقلت له:

- «أرجو أن تتسامح مع وقاحتهم. ليس من الواجب على خاطفي الطائرات أن يكونوا مهذبين وملائكة..»

تحسس ضلوعه التي لابد أن بعضها تهشّم، وقال:

- «عندما سمعت ذلك اللحن لم أعد أعرف ما أفعله.. لقد سمعته في القاهرة وخلب لبي.. عندما سمعت من يترنم به في الطائرة طار صوابي ولا أعرف متى نهضت برغم الخطر.. آي»

بحثت في جيوبي حتى أخرجت بعض أقراص مضاد الالتهابات وناولته قرصًا وقلت مطمئنًا له بلطفي المعهود:

- «أعتقد أنه كسر ضلعين أو أكثر.. لا مشكلة هنالك سوى الألم ما لم يخترق الضلع المهشم رئتك لتنزف وربما تموت..»

- «شكرًا..»

قالها وابتلع القرص بلا ماء، ثم أردف وهو يلهث:

- «هذا الشريط عاد به ابني من الكلية.. وجده فوق سيارته وقرر أن يسمعه.. لكني سمعته أولًا لأنني خشيت أن تكون من تلك الأغاني التي.. آي.. أنت تعرف الأغاني على غرار (الطشت قال لي) وهذا الهراء.. سمعت الشريط وانبهرت به، وفي اليوم التالي قررت أن أسافر إلى الولايات المتحدة لأبحث عن بعض المراجع في رسالة الماجستير التي أعدها.. أنا مهندس..»

كررت كلامه ببطء شديد:

- «تتكلم كأن هذه نتيجة منطقية.. أنت سمعت الشريط ثم قررت أن تذهب للولايات المتحدة.. ما هي العلاقة؟.. هل شرائط الكاسيت تغري بزيارة الولايات المتحدة؟»

- «لا علاقة لكن هذا ما حدث فعلًا.. آي!.. فجأة شعرت بأنني يجب أن ألحق بهذه الطائرة..»

عدت أفكر من جديد ثم سألته

- «هذه الرحلة بالذات؟؟؟ ربما كانت أية رحلة تصلح..»

- «لا.. كنت أعرف رقم الرحلة وموعدها والشركة لا أعرف السبب..»

وأراح رأسه للخلف وراح يتنفس بالكثير من العسر.. نهضت من جواره ومشيت في ممر الطائرة..

إن للطبيب مزية مهمّة هي أنهم يتركونه يتحرك.. كانت الحرب الأهلية مستعرة في لبنان وقتها والشوارع خطرة على الجميع، لكن الأطباء كانوا يمشون بالمعطف والسماعة، وكانت الميليشيات المتحاربة تتركهم يمرون، بل وتمنحهم حمايتها..

لهذا السبب لم أتلق طلقة في رأسي ولم يضربني أحد عليه.

اتجهت إلى (جيسون) الذي جلس يحاول أن يركز في ذلك الكتاب الذي كان يحمله.. جلست جواره وسألته:

- «أنت خير من يعرف ما يحدث هنا معظم ركاب هذه الطائرة سمعوا هذا اللحن بشكل ما، وهكذا شعروا برغبة قوية في ركوب هذه الطائرة بالذات لم يحدث هذا معي. بل أنا الشخص

الوحيد الذي ركب هذه الطائرة بكامل إرادته الحرة.. أنت لا تعرفني لهذا لن أشرح لك السبب، لكن معارفي يقولون إنني نحس نوعًا..»

قال في عناد:

- «لا أحد يعرف هذا اللحن سواي..»

- «أنت تدرك الآن أنّ هذا غير صحيح.. معظم راكبي الطائرة سمعوه ولم ينسوه بسهولة حتى القراصنة أنفسهم سمعوه من قبل هذا اللحن كان أقرب إلى مزمار الراعي الذي يجمع الغنم.. والأغنام قد ركبت الطائرة والأغنام قد ركبت الطائرة.. هل تعرف ما أفكر ليه؟.... نحن في طائرة بلا طيار تقريبًا يسيطر عليها أربعة سفاحين.. احتمالات هلاكنا عالية جدًّا.. نفس ما حدث لضحايا المصعد الذين وجدوا أنفسهم مسوقين لركوبة قبل أن يسقط.. نفس ما حدث لصديق المضيفة الذي قرر فجأة أن يجرى جراحة لا داعي لها ليموت فيها..»

هنا ضاقت عينا (جيسون) وهمس:

- «أندرو.. رحلة بحرية على يخت.. بلا مبرر..»

لم أكن أعرف (أندرو) هذا ولم يكن هو بالطبع يعرف قصة صديق المضيفة.. توازن الجهل المحبب.. لابد أنّ هناك قصة مثيرة تتعلق به لكن ليس الوقت وقتها.. هكذا واصلت كلامي:

- «هل فهمت؟... معنى هذا أنّ هذه الطائرة لن تصل لمطار (جي أف كي) أبدًا.. لقد ركب كل هؤلاء الطائرة لأنهّا ستسقط!!»

الجزء الثالث:

المنـدوب

- 1 -

إيجستاتيم.

بوتستاتيم.

ديزولفيت أوت جلاسيم..

✶ ✶ ✶

قال (جيسون) وهو يرتجف:

- «الجوليارد كانوا سحرة أو على الأقل كان بعضهم كذلك أو على الأقل أيضًا كان بعضهم يحضر اجتماعات السحرة..»

كان الاعتقاد الشائع في القرون الوسطى هو أن السحرة الأوروبيين يلتقون فوق جبال (هيرتس) التي تقع شمال ألمانيا..

يُقال إن السحرة كانوا يستعدون لهذه الاجتماعات الرهيبة التي لم يرها أحد وتكلم. عندما يسدل الظلام عباءته على المرتفعات يظهر السحرة قادمين من كل مكان..

الاعتقاد الشائع كذلك هو أن الشيطان نفسه كان يحضر هذه اللقاءات.. لو رأيت غرابًا أو قطًا أسود أو كلبًا أسود يبدو كالذئب الشرس، فهو الشيطان على الأرجح..

إن خيال الفنانين وخيال رجال الكنيسة قد تكفل باستكمال الصورة..

مثلًا كان كل ساحر يجلس وإلى جواره شيطان.. يبدأ الحفل بالمأدبة الكبيرة، وهي - بالطبع - جثث المجرمين الذين شنقوا وقلوب الرضع.. ثم الخمور.. الكثير منها.. وطبعًا لابد من شرب اللبن الأزرق.. لا يمكن أن تتم هذه الطقوس من دون لبن أزرق وهو علامة سحرية مهمّة جدًّا في الكتب التي تدرس هذه الأمور..

يتزايد المرح ويعم الصخب..

لكن هناك حقيقة واحدة: بعض الجوليارد كانوا يأتون لهذه الاجتماعات ويجلسون وسط هذه الطقوس، ولا نعرف كيف كانوا يسمحون لهم بذلك.. ربما لأن أشعارهم المفعمة بالهرطقة منحتهم جواز مرور وحصانة..

المشاعل في كل صوب، وهناك جماجم تطل الشموع من عيونها..

هنا يبدأ إيقاع مدوخ ساحر على الطبول، فينهض الكل ليرقص.. طبعًا كانت هناك ساحرات وكان هناك انفلات أخلاقي كامل..

وفي هذا الجو المريض يتبادل السحرة الخبرات.. أي أنه كان يشبه أي مؤتمر علمي من مؤتمرات اليوم، لكنه يختلف من حيث درجة الرقي..

في هذا الجو عرف الجوليارد كيف ينظمون الشعر، لتكون الكلمات ذات تأثير سحري شيطاني.. هل كان كبير الشعراء بين هؤلاء؟.. الحقيقة أن الأشعار عمل مختلط تشعب بين أكثر من مؤلف، حتى ذاب تمامًا.. لا يُمكنك وأنت تذوق عصير البرتقال أن تتكلم عن أن السكر هنا والبرتقال هنا والماء هنا.. لكن الجزء الذي أخاف الجميع تميز بموهبته العالية، وحسيته الصارخة، واستهتاره بكل شيء..

هذه أشعار لا يكتبها سوى من باع نفسه للشيطان...

✶ ✶ ✶

بين الأشعار التي وجدها (جيسون) واستعاد لحنها عن طريق المخطوطات، أغنية تقول باللاتينية العتيقة في مقطعها الأول السهل نسبيًا:

«عندما تسمع هذه الأغنية، فاهرع لتلحق بالركب..

الركب الذي يعبر نهر ستيكس الآن..

الموت الزاحف الذي يغرق العقول في لجته..

إنّه النوم.. النوم الذي لا صحوة منه..

وا حسرتاه!.. لسوف تقضي بظمئك الباخوسي

بعد اليوم لن تطأ قدماك الحانة..

لكن الرفاق سيقرعون الكئوس في ذكراك..»

معظم كلمات الأغنية كان غامضًا واستعصى عليه، لكنه استعادها كما هي، واستعاد لحنها.. إنّه ذلك اللحن الذي دندنه لي..

اللحن الذي سمعة ركاب الطائرة أو معظمهم..

الآن يتذكر (جيسون) هذه الكلمات وهذا اللحن.. لقد تعامل مع الأمر بخفة طاغية، ولم ينظر إلى الغول الذي يقف خلف كتفيه يضحك مكشرًا عن أنيابه..

لم يستعمل هذه المخطوطات على كل حال، ولم ينشر هذا اللحن. ضاع مع باقي المخطوطات التي اختفت في ظروف غامضة.. لكن اللحن لم ينس أنه عاد للحياة وقرر أن يظل كذلك قرر أن يتحرر وتكون له حياته الخاصّة...

بشكل ما أرسل طرف ما - ليس بشرًا على الأرجح - مجموعة من الشرائط إلى عدد من الناس.. هكذا تأكد من أنهم سمعوا اللحن...

- «لماذا اختار مصر؟»

- «لم يختر مصر.. هناك رسائل بلغت أشخاصًا في الولايات المتحدة وإسكتلندا.. الفكرة هنا أن الطائرة المختارة تقلع من مطار القاهرة.. وصلت الرسالة للركاب.. وللأسف وصلت كذلك لمن سمعوها مع الركاب، من ثم ذهبوا لمصير آخر.. هذا هو تفسيري الوحيد..»

- «ولماذا هذه الطائرة بالذات؟»

- «لا أعرف الإجابة، لكن ذات السؤال كان سيطرح مع أية طائرة أخرى.»

الرسالة واضحة.. إنها تدعو الناس للموت.. الناس الذين لا يفهمون حرفًا مما يُقال، ولا يستطيعون فهم الرسالة، لكنّها قد وصلت وبدأت التأثير.. عليك أن تلحق بالقطار الفلاني عليك أن تركب هذه الطائرة.. تجرى هذه الجراحة..

الرسالة واضحة ووصلت لعدد من الناس: اركبوا هذه الطائرة بالذات.. الرحلة رقم 345.. لا تتأخروا يا شباب..

الآن الطائرة مهددة بأكثر من خطر.. ولا يهمنا ما سيحدث ولا احتمالات النجاة، فنحن نعرف يقينًا أنها ستسقط..

«بعد اليوم لن تطأ قدماك الحانة..

لكن الرفاق سيقرعون الكئوس في ذكراك..»

صحيح أنني لا أرتاد الحانات، وبالتالي لن أشعر بخسارة جمة لمنعي من ذلك، لكن لدى سببين للخوف: أولًا لا أريد أن تكون نهايتي بطيئة مخيفة أليمة.. إن احتراق الطائرة ببطء ونحن فيها احتمال لا بأس به.. ثانيًا: ما ذنب هؤلاء الأبرياء الذين أعتقد أن عددهم تجاوز المائتين؟

لابد من طريقة لمنع هذا.. لابد...

قلت لـ (جيسون) في عناد:

- «هذه الأغنية لا تقود الناس لمكان سيلقون نهايتهم فيه بل هي تقودهم إلى مكان يقتلون فيه!»

نظر لي في غباء وقال:

- «ما الفارق؟»

- «فارق كبير.. لا أحد يعلم الغيب ولا أحد يعلم أين ومتى يموت كل منا.. لكن بوسعه أن يقودك إلى كمين ويدبر قتلك.. لا يمكنني أن أدعوك إلى ركوب مصعد وأتنبأ بأنه سيقع.. لكن بوسعي أن أجعلك تركب المصعد ثم أقطع الحبال التي ترفعه..»

- «وهذا يعني؟»

- «يعني أنّ هناك مندوبًا شيطانيًا مسئولًا عن تدمير هذه الطائرة.. وهذا المندوب بيننا!.. إنّه واحد منا، مهمته التأكد من أن أحدًا لن ينجو!.. يمكنى بسهولة أن أراهن على أنه ركب المصعد مع من سقط.. شارك في الجراحة لمن مات أثناء الجراحة.. قاد اليخت لمن لم يعد من رحلته البحرية.. وهو الآن هنا..»

- «ومن هو؟»

- «هذا هو السؤال الذي يساوي حياتنا!»

✶ ✶ ✶

- 2 -

سور سالوتيس..

إ فيرتوتيس

ميهي نون كونترااريا..

✶ ✶ ✶

نهضت عائدًا إلى حيث كنت أجلس قرب قمرة القيادة، وحيث تركت تلك الكاتبة رائعة الجمال (فاتن) والطفلة على حجرها.. كانت هناك فعلًا تتبادل حديثًا مع الرجل على الجانب الآخر من الممر: المهندس المصري الذي كاد يهلك. كانت تثرثر وقد نسيت الظروف المحيطة بها وبدأت تتصرف كأن هذه ندوة أخرى، فباغتتها بالسؤال:

- «أين الطفلة؟»

نظرت لي في حيرة وتلفتت حولها:

- «أليست معك؟»

- «إذن ما كنت لأسألك.. هذا واضح..»

تنهدت ورحت أنظر من حولي..

واحد من هؤلاء الجالسين ليس كما يبدو.. أعرف هذا يقينًا لا يوجد منطق آخر.. لكن من هو؟..

قد يبدو السؤال سخيفًا نوعًا، بينما هناك أربعة رجال مسلحين يسيطرون على الطائرة الآن.. لكن قلبي يحدثني أنهم مثلنا تمامًا، وأنّهم وجدوا أنفسهم مرغمين على خطف هذه الطائرة بالذات.. غالبًا كانت خطتهم تتركز على طائرة أخرى.. مهمتهم أن ينفذوا مطالبهم لا أن يموتوا.. إذن من مصلحتهم أن يظلوا أحياء مثلنا بالضبط، ولن يضحوا بأي راكب الآن فهم بحاجة لنا للتفاوض إلى أن تنتصر (الكومنتيرن)[2]..

من هو؟... هل الطفلة هي من أريد؟.. احتمال وارد جدًّا ومغر جدًّا مع ظهورها غير المفهوم واختفائها غير المبرر... لكن..

صاح الفتى طويل الشعر ذو الشارب الكث (بيتر):

- «أنت أيها الطبيب.. اجلس حيث أنت..»

نظرت له في حيرة، ثم جلست جوار (فاتن).. وفي اللحظة ذاتها ظهرت المضيفة الشمطاء ومعها مضيفتان أخريان وهي تدفع عربة عليها مشروبات.. وكان ذلك الفتى العصبي (ماير) يراقبهن كالصقر.. في كلّ مرّة أكتشف وجوهًا جديدة من الطاقم.. واضح أن عدد أفراد الطاقم لن يقل عن سبعة..

صاح (بيتر) في الركاب وهو يتناول زجاجة ماء من على العربة:

- «اطلبوا ما تريدون من مشروبات.. حاولوا أن تهدءوا لأن العصبية لها ثمن غال جدًّا.. إن يومكم ما زال طويلًا وشاقًا..»

شعرت برغم كل شيء نوعًا من التصنع الصبياني في تصرفاته.. هذا الفتى سعيد بما يقوم به، وهو يشعر أنه بطل أحد الأفلام التي يراها.. يقول لنفسه: لكم أنا وسيم وخطير.. لو أنّ حبيبتي رأتني!!

هكذا بالفعل حاول الجميع الحصول على لحظات انتعاش. بالنسبة لي كان خبر الحصول على بعض القهوة عظيمًا جدًّا طلبت (فاتن) بعض القهوة بدورها.. ثم سألتني:

- «هل تعتقد أننا سننجو؟»

- «بالتأكيد!»

قلتها وأنا أعرف أنه ما من شيء أبعد عن الحقيقة من هذا.. كلنا في خطر داهم حتى الخاطفين أنفسهم.. دعك من طبيعتي المتشائمة الدائمة حيث لا أعتقد أن أحدًا ينجو في أي مكان، سواء كان هناك خاطفون أم لا، وسواء كنا في طائرة أم لا..

بدأت الطائرة تهتز.. ورأيت الرجل الذي يهددنا موشكًا على السقوط، أمّا المضيفة فقد تعثرت وكادت تنقلب على وجهها ماذا يحدث؟.. مطب هوائي.. لقد مررنا بالكثير منها، وأرجو أن يكون الطيار الذي تلقى علقة لا بأس بها قادرًا على مواجهتها..

اهتزاز.. اهتزاز آخر..

فعلًا ما زالت الطائرة شيئًا مخيفًا.. يمكن للمرء أن يواجه كل المشاكل بشرط أن تكون قدماه على الأرض.. لابد من أرض تقع عليها وتلتقط أنفاسك ثم تنهض. ثانية.. لكن هنا لا أرض لك.. ذات خيارات الريشة التي تقذفها الريح.. لكن الريشة لن تتهشم لو سقطت.. لا وزن لك ولا أهميّة وسط قوى الطبيعة العاتية التي قضت على الديناصورات وحفرت المحيطات وجعدت سطح الأرض لتتكون الجبال وأبادت الجيوش... لا شيء يفصلك عن النهاية سوى خيط واه اسمه براعة الطيار..

هنا سمعت تلك المضيفة الشمطاء التي تدعي (بليندا) تصرخ:

- «دكتور..!.. هلا جئت هنا؟»

يا لها من رحلة!

والأسوأ أنك كطبيب سيكون عليك أن توجد في كل مكان.. سوف تطلب مني استئصال الزائدة الدوديّة لهذه الطفلة أو ذاك الرجل طبعًا.. نظرت للقرصان القريب مني فلم يعلق.. هكذا نهضت..

كانت المضيفة تقف على باب الحمام وهي تحاول فتحه والتفتت لي عندما بلغتها لتقول:

- «هناك راكب دخل الحمام منذ دقائق.. لقد سمحوا له بالدخول أخيرًا بعد ما طلب ذلك ثلاث مرات، لكنه تأخر بالداخل كثيرًا.. الآن اسمعه يعوي كأن هناك من يمزقه..»

أصخت السمع.. بالفعل هناك صوت عواء من داخل الحمام.. لابد أنه تحول إلى مذءوب وكان يريد الانفراد بنفسه.. هذا حقه الطبيعي...

قلت لها أن تفتح، وكان أحد القراصنة - المدعو (ماير) - قد لحق بنا، فرفع المسدس وصوبه إلى الباب بحركة احترافية تدلّ على أنه يجيد التعامل بالسلاح الناري فعلًا..

انفتح الباب.. وكان أول ما أثار رعبي هو أن كل الجدران.. ملطخة بالدم..

المكان ضيق طبعًا.. لكن ذلك الفتى الذي شعرت بأنه أفاق ملقى على الأرض..

إنه ما زال حيًّا ولا أعرف كيف..

لكني قدرت أنه لن يعيش أكثر من خمس دقائق بعد هذا...

✶ ✶ ✶

- 3 -

إت إفكتوس

إت دفكتوس

سمبر إن أنجاريا

✶ ✶ ✶

جررناه خارج الحمام الضيق، وسط صراخ الركاب في الخلفيّة الذين شعروا بأن هناك كارثة.. والقرصان الذي كان يهددنا انفلتت أعصابه تمامًا.. تعلّمت هذا منذ زمن أنه حتى القتلة المحترفين يفقدون رباطة جأشهم عندما يرون ما اعتاد الأطباء أن يروه..

ركعت جواره وسألته في لهفة:

- «ما الذي فعل بك هذا؟»

سمع العامية المصرية، فمد يده يعتصر سترتي كأنه لا يريد أن أتخلى عنه..

نظر لي بعينين متسعتين رعبًا:

- «كامل!»

- «كامل فعل هذا بك؟»

- «كامل.. الله يخرب بيته.. هو الذي طلب مني تهريب هذه العلبة..»

- «ماذا كان فيها؟.. هل تسمعني؟.. من هو كامل؟»

لم يكن هناك داع للإلحاح، لأن الرجل كان ثرثارًا.. لقد حكى لي الكثير جدًّا عن نفسه وعن حياته والمهمة التي كلف بها. كل هذا قاله في خمس دقائق وهو يرتجف..

اعتدت أن يتكلم المحتضرين ببخل شديد وأن يعطوا رموزًا، لكنه حكى لي كل شيء فعلًا فيما عدا شيئًا واحدًا: ما الذي فعل بك هذا؟

كلما سألته راح يبكي ويردد:

- «كامل الله يخرب بيتك.. النفوس قد تغيرت والناس لم تعد كما كانت..»

- «ما الذي كان في العلبة؟»

- «النفوس قد تغيرت...»

هنا نفد صبر (ماير) هذا فشدني من كتفي بغلظة وهتف:

- «ماذا يقول؟.. ما الذي فعل به هذا؟»

نظرت في عينه بثبات وقلت بالإنجليزية طبعًا:

- «إنّه يحتضر.. يقول كلامًا غير مترابط.. هل تعتقد أنني لم أسأله عشر مرات؟»

أطلق سبة ألمانية - على الأرجح - وخطا فوق جسد الفتى ليدخل الحمام الملطخ بالدم يفتشه بعناية..

كان (محمود) - كما عرفت اسمه - عاري الجذع.. لقد نزع قميصه داخل الحمام، وحاول أن ينزع الشرائط التي تثبت تلك العلبة لصدره.. أمّا ما حدث بعد ذلك، فلا أفهمه.. هناك تمزق هائل في الجهة اليمنى.. الضلوع مهشمة والرئة ظاهرة كأن أسدًا قضم صدره في هذا الموضع..

شيء ما مخيف وشرس غادر اللفافة.. لكن أين هو؟.. هل توجد مخابئ في الحمام؟

قال محمود وهو يبلل شفتيه بلسانه:

- «النفوس قد تغيرت.. لم يعد هناك أولاد ناس.. هل هل عندكم ماء؟»

الجرح بليغ فعلًا ولا أعرف من أين أبدأ.. لا يوجد شريان أضغط عليه أو نسيج أضمه.. كما لا توجد محاليل أحقنها لتحسين حالة الصدمة هذه.. إذن هو الماء فعلًا...

نظرت للمضيفة وقلت: (ووتر)، فنظرت لي بدورها بمعني أنّ هذا قد يعجل بموته، فصحت بعصبية:

- «هل ترين أنّ بعض الماء سيؤذيه حقًّا أكثر مما هو فيه؟.. إنني إذن أهنئك على تفاؤلك.. لم يعد هناك جدوى من تعذيب هذا البائس..»

ناولتني زجاجة ماء فسكبت قطرات على شفتي الفتى..

الأفاق تعس الحظ الذي دمر نفسه ودمر كل من قابله كما فهمت من قصته.. نهاية مؤسية فعلًا لكنّها عادلة نوعًا..

«عندما تسمع هذه الأغنية، فاهرع لتلحق بالركب..

الركب الذي يعبر نهر ستيكس الآن..

الموت الزاحف الذي يغرق العقول في لجته..»

بالفعل قبل أن يكمل الجرعة كان قد مات..

نهضت مترنحًا.. وطلبت من (مايز) أن يساعدني كي نواري الجثة في نهاية الطائرة..

لقد فهمت قصة (محمود) هذا وعرفت ما حدث تقريبًا لكن هناك ملاحظة مهمّة.. يبدو لي أنه الشخص الوحيد الذي لم يسمع اللحن.. إذن (كامل) هذا هو الذي سمعه.. (كامل) كلفه بأن يأخذ معه اللفافة وحدد له هذه الطائرة بالذات...

هل يعني هذا شيئًا؟.. من هو (كامل)؟..

لا أعرف من هو لكني أعتقد أن محتوى اللفافة كان....

كان المندوب نفسه**!!** وهو الآن حر في الطائرة فلا يعلم إلا الله أين هو...

سألني (مايز) وهو يدسّ المسدس في نطاقه:

- «من الذي.. بل ما الذي صنع به هذا؟»

- «مات قبل أن يقول.. ثق أنني أشد فضولًا منك..»

تركني واندفع ركضًا إلى قمرة القيادة ليخبر (مولر) بهذه التطورات.. مولر كما هو واضح هو قائد المجموعة ولابد أن يعرف كل شيء....

مشيت عائدًا إلى حيث كانت (فاتن) تنظر لي في فضول، فجلست جوارها وتنهدت.. هذه المرّة قررت أن أمرح قليلًا فنزعت حذائي.. أنا أستحق هذه المتعة..

- «نحن في خطر.. أليس كذلك؟»

قالتها دون أن تنظر لي، فقلت:

- «بلى.. سنموت على الأرجح.. كل شيء يدل على ذلك.. كنت أكذب عليك..»

لم تندهش أو تقل شيئًا.. فقط تنهدت ونظرت لسقف الطائرة وقالت:

- «شعور قاس أن أموت الآن.. كنت أشعر أن حياتي تصعد منحني عاليًا مقربة من الذروة.. الذروة التي لا أعرف ما هي لكن عمل حياتي الأهم والذي سيذكرني الناس به لم يتم بعد.. لا أعرف ما هو.. ربما هو ديوان شعر أو كتاب.. لكن أوانه لم يحن بعد.. لست مستعدة للموت الآن..»

قلت لها:

- «أعرف شعورك.. كل شيء في الرواية يقترب من الذروة وفجأة اكتشفت أن باقي الصفحات ممزقة.. لقد انتهت الرواية عند هذا الحد..»

قالت دون أن تنظر لي:

- «هناك أشياء أنا نادمة عليها.. مثلًا كان يجب أن أتزوج ويصير لي بيت.. هل أنت متزوج؟»

- «لا.. وأرجو ألا يكون هذا عرضًا للزواج..»

نظرت لي طويلًا ثم اهتزت بالضحك:

- «لقد تقدم لي رجال أجمل من (أبوللو) وأغنى من (قارون) وأقوى من (هرقل).. هل تتصور أن أقبل بمن هو مثلك بعد هذا كله؟. على فكرة.. أنا سمعت حلقة من برنامجك.. إنه سخيف وتافه ويدعم الخرافة... لم أرد قول هذا لكن بما أنّ هذه لحظة الحقيقة....»

- «فهمت.. واسمحي لي باعتراف مماثل: بالنسبة لي أنت متصنّعة جوفاء تقولين كلامًا كبيرًا لا معنى له.. وتتظاهرين بأن الرجال معجبون بموهبتك فقط، بينما هم لا يرون سوى جمالك.. ولو قابلوا بائعة طماطم أكثر فتنة منك لنسوا كل شيء عنك.. هذه قلة ذوق مني لكنّها لحظة الحقيقة كما تقولين..»

نظرت لي في تنمر.. حتى اليوم لم ألق الأنثى التي تلعب بروح رياضية وتقبل أن تطبق ذات القواعد عليها، لكنّها لحسن الحظ وجدت أنها أكثر تعبًا واكتئابًا من أن تفعل أي شيء.. هكذا صمتت..

سألتني بنفس الطريقة المحايدة:

- «هل الطيار على ما يرام؟»

- «الطائرة لم تسقط بعد.. هذه أنباء طيبة..».

هنا فوجئت بمن يدنو مني ليضع يده على كتفي.. ذلك الزوج الفرنسي الذي تبلغ زوجته ضعف حجمه.. جلس على طرف المقعد المجاور حتى لا يظل واقفًا..

مد يده مصافحًا وقال بإنجليزية كسيحة:

- «موريس جوشار.. طيار..»

- «رفعت إسماعيل.. طبيب..»

نظر حوله ثم سألني:

- «هل الطيار بخير؟»

- «ليس تمامًا.. لهذا استدعوني.. نحن نطير بنصف طيار..»

- «هذه الطائرة هي بوينج من طراز DC-10-30 من إنتاج دوجلاس كالعادة.. هذا هو الطراز الأكثر شيوعًا، وهي تمتاز بثلاثة أطقم من سرعات الهبوط.. إنها في الجو منذ عام 1972.. أعرف كيف أقودها.. لن تكون مشكلة بالنسبة لي..»

نظرت له مفكرًا.. على الأرجح هو يعرف ما يتكلم عنه.. لا يبدو مجنونًا.. لكن لابد من تأجيل هذه الخطوة.. لا أريد المجازفة به الآن.. إن هؤلاء الخاطفين مجانين ولا يمكن التنبؤ بأفعالهم..

- «لنبق هذا سرًا إلى أن أعرف ما حدث للطيار..»

ثم دار بيننا حديث سريع فعرفت منه قصته مع الشريط وهي قصة صارت مكررة وحدثت للجميع تقريبًا... فقط لا نعرف من يرسل هذه الشرائط.. لكن الحقيقة تتضح كل دقيقة، وهي أنّ هذه الأغنية لا يمكن مقاومتها..

دسست قدمي في حذائي من جديد بصعوبة بالغة، لأن قدمي تورمتا، ونهضت ماشيًا نحو قمرة القيادة.. استوقفني (بيتر) هذا سائلًا عما أريد فقلت له:

- «أريد أن أعرف هل مات الطيار أم لا..»

دق باب القمرة، فانفتح الباب وظهر وجه ذلك الفتى قاسي الملامح.. أعتقد أنني أطلقت عليه اسم (هانز)... نظر لي ثم سمح بالدخول.. وقال لصاحبه بالألمانية:

- «إنهم ينتظروننا في مطار (جي أف كي).. يعرفون كل شيء الآن..»

طبعا أنا لا أتكلم الألمانية لكني أعرف بضع كلمات لم يستخدم خارج نطاقها.. جملة فيها (فارت) و(جي أف كي) و(فايس) و(أليس) و(يتست) ليست لها معان كثيرة أخرى..

رائحة القمرة لا تطاق.. مزيج من القيء والدم.. وفهمت أن الطيار أفرغ معدته عدة مرات هذه علامة سيئة ومقلقة.. كانت هناك جثتان في الركن.. جثة الطيار الآخر وجثة المضيفة متى قتلوها وكيف؟.. هل حاولت مقاومتهم؟.. على كل حال واضح أنهم لم يستعملوا السلاح الناري خوفًا من تغيرات الضغط..

كان الطيار جالسًا في مقعد القيادة وعلى المقعد الآخر جلس (مولر).. وكان الطيار قد ربط رأسه ليس كضمادة ولكن على سبيل (التعصيب) فلابد أن الصداع سيفجر رأسه..

دنوت منه ووضعت يدي لأقيس نبضه.. بطيء جدًّا.. علامة سيئة أخرى..

- «هل أنت بخير؟»

- «لا..»

قالها ببساطة ونوع من الفخر، ومد يدًا ترتجف يعالج شيئًا ما في لوحة القيادة، بينما كان الطيار الآخر الشاب المذعور يتكلم في الميكروفون بتلك الطريقة السريعة مستحيلة الفهم التي يسمونها Technish..

الأمور سيئة فعلًا لن ينجح هذا الفتى سوى في تحويل الطائرة إلى فتات مشتعل.. أعتقد أن الوقت قد حان لأقترح عليهم أن يتركوا الفرنسي يستكمل القيادة..

سألني مولر وهو يلتهم شطيرة يبدو أن المضيفات جئنه بها:

- «ماذا حدث لذلك الفتى العربي في الحمام يا دكتور؟»

- «مزقه شيء كالدببة..»

- «وما هي احتمالات أن يقابل دبًا في حمام طائرة؟»

تنهدت وقلت:

- «قل لي أي شيء طبيعي أو معتاد في هذه الرحلة.. لقد كان سيئ الحظ، لكننا أسوأ حظًا منه.. أسوأ حظًا لأن الشيء الذي فعل هذا موجود معنا في الطائرة..»

وهنا سقط الطيار فاقدًا وعيه على الأرض...

✶ ✶ ✶

- 4 -

هاك إن هوراه

سيني موراه..

كوردي بالسام تانجيتي..

✶ ✶ ✶

فرغ المهندس (عبد الرازق) من شرب كوب الشاي، ثم أعاد تفحص الشريط الذي وصله بالبريد مع الشريط مذكرة تقول إنّه خاص بالدكتور (سامي الحفناوي) الذي فقده عالم الموسيقا في حادث المصعد اللعين ذلك..

لم يكن هذا شريط كاسيت، بل كان مسجلًا على بكرة، وقد حاول الاتصال بالدكتورة (فاتن) ليأخذ رأيها، فعرف أنها في إجازة قصيرة بالولايات المتحدة..

كان المعد الشاب (فادي) جالسًا في ذات الغرفة ينتهي من إفطاره..

سأله وهو يرفع الشريط في يده:

- «هل عندك فكرة عن هذا الموضوع؟»

- «لابد من سماعه أولًا..»

ونهض المهندس ليثبت البكرة في موضعها على الجهاز، ثم قام بتشغيله.. هنا تصلب..

(فادي) كذلك تصلب.. وفتح فمه دون أن يدري فتساقط الطعام من ركنيه.. لقد كان هذا أروع شيء سمعه منذ أعوام.. اللحن يرفعه ويطويه إلى شطآن نائية لم يرها من قبل.. شطآن تغريك بأن تغرق بسفنك هناك وتموت...

- «هذا.. هذا لحن غير بشري..»

- «لا يوصف بكلمات..»

- «هل تفهم ما يقولون؟»

- «يتكلمون بلغة غريبة.. غالبًا هي اللاتينية..»

- «من كتب هذا؟.. من هذا العبقري؟»

طلب منه (فادي) أن يغلق الجهاز، فقد امتلأت روحه بالنشوة كالزجاجة حتى أوشكت على أن تفيض وتسيل وتغرق كل شيء...

كانت عيناه دامعتين، وقال وهو يرتجف:

- «سوف أقوم أنا بتقديم هذا الشريط..»

- «لكننا لا نملك أية معلومات عن ظروف تأليفه.. التاريخ اسم المؤلف.. اسم المقطوعة..»

- «سوف نقدم المعزوفة.. ونقول إننا سنكتفي بروعتها لن نقدم أية معلومات لأن الموسيقا هي المعلومة نفسها... هناك طرق للعب بالألفاظ لا تنتهي..»

ساد الصمت، ثم نظر المهندس لساعته..

البرنامج سيذاع غدًا.. أمّا الآن فهو لسبب ما يرغب في السفر إلى الإسكندرية بعد انتهاء ساعات العمل.. هل يوجد سبب معين؟.. لا يعرف.. لكنه يريد أن يكون هناك وأن يرى البحر لربما ينتهز الفرصة فيمر على ابن أخيه المتزوج حديثًا..

لا يمكن حجز تذكرة قطار الآن.. إذن لا حل سوى (البيجو).. نعم.. (البيجو)..

✶ ✶ ✶

فرغ الأستاذ (عدنان) من السعال.. ثم راح يتأمل فرقة كورال قصر الثقافة الواقفة أمامه..

وجوه كالحة فقيرة فعلًا.. لا ذرة جمال في النساء البدينات اللاتي أرهقتهن الحياة، ولا ذرة إلهام في الرجال الذين يبدون كموظفين في إدارة حكومية متداعية. لكنه استطاع أن يستخرج خير ما فيها من ذهب.. وعندما تسمع صوت غنائهم يخيّل لك أنهم الكورال الملكي أو إحدى فرق فيينا..

كانوا على وشك البدء في غناء طقطوقة سيد درويش تلك، لكنه قال وهو يتنحنح:

- «لندع هذا جانبًا الآن.. هناك نشيد أريد أن تتدربوا عليه..»

سأله أحدهم.. أكثرهم ذكاء:

- «لسيد درويش أيضًا؟»

- «بل هو نشيد غربي.. باللاتينية!»

تبادلوا النظرات وضحك بعضهم ضحكات بلهاء، فضرب بالعصا على حامل النوتة وقال:

- «ليس هذا مستحيلًا.. لقد قمت بعمل عدة نسخ من النص وبحروف عربية كبيرة واضحة.. ستقرءون منها وأنتم تنشدون الفرقة كذلك تلقت النوتة الموسيقية وسوف يبدأ التدريب عليها..»

قال فتى آخر:

- «هل تتوقع يا سيدي أن نحفظ هذا ونجري عليه بروفات والحفل بعد أسبوع؟»

- «أتوقع طبعًا وإلا لما طلبت ذلك..»

- «نحن غير مدربين على غناء الأعمال الغربية..»

- «هذه مشكلتي أنا.. ما عليك إلا التنفيذ..»

تبادلوا النظرات.. كانوا يعرفون أنه قادر على عمل المستحيل، لكن ليس إلى هذا الحد.. وما هي هذه الأغنية؟.. وما أهميتها؟.. المحافظ سوف يكون موجودًا في الحفل، وهو بالطبع يفضل سماع سيد درويش...

لكن الأستاذ (عدنان) قال في إصرار:

- «سوف نعود لسيد درويش.. لكن هذا النشيد أولًا.. لقد قلت إننا سنجيده وهذا ما سوف يحدث..»

ثم ضرب على حامل النوتة من جديد وهتف:

- «سكووووووت!»

✶ ✶ ✶

الشريط كان ضمن الشرائط الجديدة التي جاءت اليوم.. أحضرها (ماهر) كعادته يوم الاثنين، ومعظمها أغان لفرق جديدة مثل (المصريين) و(الأصدقاء) و(أبا) و(بوني أم).. لكن هذا الشريط؟... لا توجد علامة للشركة المنتجة ولا أية بيانات.. فقط علبة سوداء أنيقة لامعة وكتابة بحروف لاتينية مستحيلة القراءة لأنهّا مزخرفة أكثر من اللازم..

(ماهر) ليس هنا.. سيتصل به فيما بعد ليفهم سر هذا الشريط..

لكن ليسمعه أولًا...

كان البدراوي حذرًا.. ذات مرة وقع في مقلب محرج، عندما وصله شريط مجهول كهذا فشغله، وكانت السماعات مفتوحة على آخرها لينبعث من المحل المحترم صوت تأوهات مشينة للمطربة الأمريكية (دونا سمر) التي اشتهرت بهذا النوع من الغناء.. أغلق الجهاز لكن بعد ما احتشد ذباب الشارع كله أمام المحل وانطلقت التعليقات الساخرة..

لهذا كان حذرًا ففصل السماعات العملاقة، وخفض الصوت ثم دسّ الشريط في الجهاز وأصغى قليلًا...

يا للهول!... ما هذا؟

إن شعر ساعديه ينتصب وقشعريرة هائلة تسري في جسده من الرأس حتى أصابع القدمين.. كان البدراوي قد سمع كل شيء ولم يعد سريع التأثر.. بل إن الغناء لم يعد يؤثر فيه على الإطلاق، كما أنّ الكبابجي لا يشتهي اللحم المشوي بتاتًا..

لكن.. هذا اللحن!!.. إنّه لا يصدّق.. لا يوصف.. من أين تأتي هذه الأصوات التي تنشد؟.. من كتب هذا اللحن الغريب؟

ولم يدر كيف أعاد توصيل السماعات العملاقة بالكاسيت ورفع الصوت..

ومن المحل الذي يحمل اسم (كاسيت البدراوي) دوى النشيد الرهيب يرج الشارع رجًّا.. وفي هذه المرّة احتشد الناس لا ليسخروا أو يتلامزوا ولكن ليسمعوا...

ولم يصدّق أحدهم أذنيه....

✶ ✶ ✶

- 5 -

كود بير سورتيم

ستيرنيت فورتيم

ميكوم أومنيس بلانجيتيه

✶ ✶ ✶

قال الفرنسي (جوشار) وهو يمسك بعصا القيادة:

- «أعتقد أنني قادر على السيطرة عليها..»

ثم راح يمرر أنامله على العدادات والمؤشرات.. عملية معقدة جدًّا.. لهذا أدعو الله أن يكون عبقريًا...

كان الطيار الآن قد صار ممددًا على الأرض جوار جثة الطيار الثاني والمضيفة، لكنه كان حيًّا على الأقل.. كان يتنفس وإن دخل في غيبوبة لا بأس بها.. لم يكن بوسعي سوى أن أبلل منديلًا بالماء البارد أمسح به وجهه...

كان (مولر) يراقب الفرنسي في توجس وارتياب، لكنه بالطبع مطالب بأن يثق به.. من دونه نحن هالكون لا محالة وقد تحولت المهمة إلى عملية انتحارية لا شك فيها..

كان (مولر) أكثر تفاهمًا وقابلية لفهم الدعابة، لذا قلت له همسًا:

- «أرجو أن تكفوا عن ولعكم بقتل الطيارين أو ضربهم لا يوجد شيء يضمن أنّ هناك طيارًا آخر على متن هذه الطائرة.»

خيب أملي ولم يفهم الدعابة، وقال في جديّة:

- «احتمال صعب فعلًا يجب الحفاظ على سلامة هذا الفرنسي..»

قال (جوشار) وهو يغلق زرًّا ما في سقف القمرة ومتناول يده:

- «نحن نقترب.. أرجو أن تبلغهم بإحداثياتنا..»

هنا ارتجت الطائرة كلها بفعل مطب هوائي عنيف...

إنّه سائق سيئ لا يتفادى المطبات كما يجب.. هذا واضح..

هنا نظر لي (هانز) بوجهه القاسي المنذر بالذبح، وقال وهو يرفع مسدّسه:

- «هل تريد شيئًا هنا؟.. عد لمقعدك..»

- «سوف أفعل.. حسبت أنني قد أكون ذا عون لكم..»

- «لا يوجد ما تفعله.. منذ بداية الرحلة وأنت لا تستطيع عمل أي شيء سوى إبداء الرعب لا تفسيرات.. لا علاج.. أنت مثلنا أو أكثر جهلًا...»

طبعًا هي إهانة، لكن لا تطالب بالمعجزات طبيبًا ليس معه جهاز ضغط ولا سماعة ولا محقن ولا تاريخ حالة، ولا جهاز محلول ولا أدوية.. ولا تطالب بالمعجزات طبيبًا باطنيًا يرى أمامه رجلًا تمزق صدره تمامًا حتى ظهرت الرئة..

هززت رأسي واستدرت خارجًا فسمعت (هانز) يقول لصاحبه بالإنجليزية كي أسمع:

- «لو بدأت المفاوضات وحاولوا خداعنا، فلسوف يكون هذا ضحيتي الأولى!»

قال (مولر) ضاحكًا:

- «لا تقتل الطبيب.. قد تحتاج له فيما بعد.. دعك من أنّه مصري.. أي إنّه في صفوف الضحايا مثلنا وليس في صفوف الجلادين..»

مشيت بين المقاعد وأنا أختلس النظر للأمريكيين الجالسين متوترين.. لا يوجد شك في جنسيّة أول ضحية..

هنا شعرت بيد قوية تعتصر ساعدي.. نظرت لصاحب اليد فوجدته هو لا هي.. الزوجة الفرنسية تنظر لي بعينين دامعتين وتقول:

- «كيف حاله؟.. لا تدعهم يؤذونه.. إنهم سفاحون..»

ابتسمت لها مطمئنًا وقلت:

- «هو بخير وسيظل كذلك لأنّه أملهم الوحيد في الهبوط على الأرض.. لن يكرروا الخطأ مرّتين..»

وحررت يدي برفق وواصلت المشي، فوجدت (جيسون مكالستر) جالسًا في ذات المكان يحاول أن يقرأ.. طبعًا هذا مستحيل.. إن ما يقرؤه في الكتاب هو هواجسه وكوابيسه الخاصّة..

جلست جواره فنظر لي متسائلًا.. ثم قال:

- «هل عرفته؟»

- «من؟»

- «المندوب..»

- «لا.. لكن هناك علامات كثيرة تقول إنِّه كان حبيس العلبة التي مزقت صدر الفتى..»

- «أي فتى؟»

واضح أنه لا يسمع الأخبار على الإطلاق، لذا حكيت له كل شيء.. كانت عيناه تتسعان.. وفي النهاية همس شيئًا باللاتينية فسألته عن معناه.. قال:

- «الموت الزاحف الذي يغرق العقول في لجته..

«إنِّه النوم.. النوم الذي لا صحوة منه..

«إن نظريتك صحيحة وتثبت نفسها في كل لحظة..»

قلت في ضيق:

- «ليس تمامًا.. مثلًا لماذا لم يتلق (كارل أورف) هذه الدعوة للموت؟»

ابتسم في مرارة وقال:

- «من الواضح أنّ هذه اللعنة تحمي من ينشرونها.. تبقيهم أحياء إلى أن ينتهوا من تجميع اللحن ويعلموه لآخرين.. ولربما كان السبب هو نوع من المناعة اكتسبها طباخ السم..»

وفجأة نظر جواري وغمغم:

- «رباه!.. متى جاءت؟»

نظرت باتجاه عينيه فوجدت تلك الطفلة الجميلة المخيفة، التي يغطي الشعر نصف وجهها وتنظر لنا في ثبات بالعين الأخرى الناعسة..

- «لا عليك.. أعتقد أنها جزء من اللعنة.. ثمّة احتمال ممتاز أن تكون هي المندوب الذي يتأكد من نهايتنا..»

وجذبتها من يدها في شيء من العنف فأجلستها بيننا، ونظرت في عينيها وسألتها:

- «من أنت؟»

لكنّها لم ترد كالعادة.. ظلت ترمقني في ثبات... لكني أعرف أنها ليست خرساء بعد ما غنت الأغنية بتلك البراعة.. الأطفال الذين يغنون باللاتينية القديمة مخيفون دائمًا، وأنت تعرف القاعدة

القديمة التي تقضي بقتل كل طفل يتكلم اللاتينية.. بل قتل كل شخص يتكلم اللاتينية بطلاقة ما لم يكن قسًّا كاثوليكيًا..!

- «ما اسمك؟.. كومون تابل تي؟.. فاز إست إيري نامي؟.. كومي تي كيامي؟»

وهززتها بعنف أكثر.. وكررت السؤال بالإنجليزية والعربيّة والفرنسية والألمانية وهنا انفرجت شفتاها وبصوت لم أصدق أنني أسمعه همست:

- «شارون!»

ثم عادت للصمت.. هنا هتف (جيسون) كمن اكتشف شيئًا مهمًا:

- «لكن.. هذا الاسم.. إنّه...»

فجأة رأيتها تنظر إلى مؤخرة الطائرة وشاعت على وجهها ابتسامة قاسية..

نظرت للخلف.. هنا رأيت شيئًا مخيفًا..

✶ ✶ ✶

- 6 -

فيريس دولشيس إن تمبور

فلونتي ستات ساب أربور

جوليانا كوم سورور

دولشيس آمور!

✶ ✶ ✶

رأيت الشيء يبدأ من خلفيّة الطائرة...

رأيته يتمدد..

يزحف..

بسرعة يُمكنك أن تتابعها.. لكنه كذلك سريع حقًّا...

هناك في خلفيّة الطائرة رأيت المضيفة الشمطاء تسقط على الأرض كلوح من الخشب.. ثم سقط راكبان على جانبي الممر.. يسقطون كأنهم ينامون...

انتقل المشهد مقعدًا للأمام وسقطت تلك الراكبة وطفلتها.. ثم سقط الجالسون على اليمين..

هتف (جيسون) في رعب:

- «غاز سام!»

- «أو منوم!.. يبدون لي نائمين لا موتى!»

لا أعرف إن كان غازًا أم لا.. لكنه ينتقل من مؤخرة الطائرة إلى مقدمتها، ولهذا يجلس الناس فلا يلاحظون ما يدور خلفهم إلى أن يسقطوا هم، ويأتي دور من أمامهم..

نظري ليس بهذه القوة، لكني أرى شيئًا كسائل لزج غريب يبلل جدران الطائرة.. تتساقط منه قطرات على الجانبين هذا البلل ينتشر من الخلف للأمام كأن الطائرة إصبع طبشور غمسته في زجاجة حبر. ينتشر...

ينتشر المزيد من الركاب يسقطون... والبلل يتحرك للأمام..

صاح (جيسون) وهو ينهض:

- «الموت الزاحف الذي يغرق العقول في لجته

«إنِّه النوم.. النوم الذي لا صحوة منه..

«الأغنية ليست مجازًا إذن هذا الذي يزحف علينا هو (النوم الذي لاصحوة منه).. هؤلاء ماتوا!».

وقلت وأنا أنهض بدوري:

- «لا أظن أنهم ماتوا.. لكن لا فارق لأن النوم سيزحف حتى قمرة القيادة.. هكذا تهوي الطائرة كعصفور أصابته جلطة دماغية..»

ورأيت المدعو (بيتر) يسقط على الأرض ويده على المسدس.. التفت (ماير) للخلف ليفهم ما يدور.. نادى صاحبه:

- «بيتر!... ماذا حد.....؟»

ثم سقط بدوره.. لقد تخلصنا من قرصانين لكن أكون كاذبًا لو قلت إنني سعيد بهذا.. هكذا نهضنا وجذبت الطفلة من يدها فلم تستجب.. قلت لـ (جيسون):

- «احملها واتبعني!»

- «ولماذا لا تحملها أنت؟»

- «لا وقت للجدال.. إن قلبي يدق بفعل القصور الذاتي لا أكثر.. لن يتحمل عشرين كيلوجرامًا إضافيًا.. هيا!»

- «فلنتركها هنا! أنت تعرف أنها ليست طفلة..»

- «لهذا السبب بالذات أعتقد أنه من المفيد أن تكون معنا..»

هكذا حمل الطفلة وركضنا نحو قمرة القيادة، ودققنا الباب كالمجانين..

نظرت للخلف فوجدت أن الهول يقترب فلا تفصلنا عنه إلا خمسة صفوف من المقاعد.. ورأيت الأديبة (فاتن) قد مال رأسها للخلف وأغمضت عينيها حيث جلست..

افتحوا!.. افتحوا يا حمقى!...

لو نمنا نحن فلسوف نصحو في العالم الآخر..

فتح (هانز) الباب شاهرًا مسدّسه ورفع حاجبيه متسائلًا فصحت فيه:

- «أدخلنا بسرعة وأغلق الباب. لا وقت للشرح!»

نظر للخلف وراءنا فرأى المشهد الغريب أو ما استطاع أن يلمحه منه.. ارتبك لدرجة أنه سمح لنا بالدخول، فأغلقت الباب خلفي بقوّة.. هل هو محكم؟... هل يمكن لشيءٍ أن يتسرب من تحته؟؟.. لا...

- «ما الذي يحدث بالخارج؟.. من هذه الطفلة؟»

قالها وصوب المسدس إلى رأسي.. طبعًا أول ما فكر فيه هو أن أحدهم فجر قنبلة بها مادة مخدرة.. الطريقة المثلى لمكافحة إرهابيين مسلحين..

أشرت إلى الطفلة وقلت:

- «أقدم لكم (شارون).. الأغنية تقول: الركب الذي يعبر نهر ستيكس الآن.. ونهر ستيكس Styx هو النهر الذي يعبره من يموتون إلى العالم الآخر، يقودهم المعداوي (شارون)... إذن هذه الطفلة هي من سيعبر بنا إلى العالم الآخر..!!»

هتف (جيسون):

- «بالضبط.. هذا هو ما أردت قوله قبل أن يبدأ زحف ذلك الشيء..»

وقف (مولر) أمامنا وبملامحه القاسية التي لا تمزح تساءل:

- «عم تتكلمون؟.. ما هذه القصة الغريبة؟»

هكذا حكيت له كل شيء في نصف دقيقة.. وهذه المرّة بدا لي أنه فقد حذره واحترافيته فتكلم.. لم يقل كل شيء طبعًا لكنه ذكر شيئًا عن (كلاوس) والمهمة التي تم تغيير وجهتها في آخر لحظة.. الأغنية.. وكان رأينا جميعًا متفقًا على شيء واحد: العلبة التي كان ذلك الفتى يحملها والتي مزقته.. كانت هذه العلبة تحوي الشيء.. الشيء الذي يزحف عبر الطائرة ويتقدم نحو الباب..

ربما كانت الفتاة هي المندوب، لكن هذا الشيء يساعدها.. أو ربما هي نذير بقدومه..

هنا انهالت الضربات على الباب من الخارج..

صحت في (مولر) أمرًا:

- «لا تفتحوا!.. ما دام هذا الشيء يطرق الباب فهو عاجز عن فتحه.. عاجز عن الدخول.. لو لم نلحق بكم هنا لفتحتم الباب ودخل..»

أخرج مسدّسه وصوبه نحو الباب وفرد ذراعه، فعدت أصيح:

- «لا!.. لا تحدث ثقوبًا..!.. تعامل معه كغاز قادر على التسرب لو وجد فجوة!»

- «غاز يقرع الأبواب؟»

- «إنّه قادم من ذلك العالم الذي توجد فيه دببة في حمامات الطائرة.. لا تنس هذا..»

بوم!.. بوم!..

القرعات تتواصل....

سألني (مولر) وهو يعيد المسدس إلى نطاقه:

- «ماذا نفعل؟»

- «لا أرى حلًا سوى أن نبقى هنا وأن نحاول الهبوط في سلام.. في نيويورك يمكنكما شرح الأمور لقوات المطار.. يمكنكما التفاوض أو الاستسلام.. أي شيء.. المهم أن نبقى أحياء..»

- «أنت شديد الحرص على حياتك..»

قالها ساخرًا فقلت بشيء من الضيق:

- «هي ليست تهمة مشينة، لكن أؤكد لك على سبيل الدقة أنني لا أبالي بحياتي أو مماتي ولن يخسر أحد شيئًا بفقدي.. حتى أنا.. لكني أعرف يقينًا أن هؤلاء المسافرين أحياء وأنّهم سيموتون في حالة واحدة فقط هي سقوط الطائرة.. ولمزيد من الصراحة أقول إنني لا أبالي بحياتكم معشر الخاطفين لحظة، ولربما اعتبرت وفاتكم مشهدًا مسليًا.. لكن من مصلحة الجميع أن تصل هذه الطائرة لوجهتها..»

كنت أتكلم وأنا أنظر لوجهه.. هنا رأيت عينيه تتسعان رعبًا ثم وثب ليزيحني جانبًا ويمسك بالطفلة فيلقي بها جانبًا..

كانت موشكة على إزاحة المزلاج لتفتح الباب..... برغم قصر قامتها كانت قادرة على ذلك، وللمرة الألف في حياتي أتذكر المشهد المخيف من رواية (دراكيولا) لفان هلسنج وهو يجلس وسط دائرة الطبشور مع مينا، بينما مصاصات الدماء يدرن حوله باحثات عن ثغرة.. هنا يلاحظ أن مينا ليست على ما يرام.. إنها تتغير... من قال إنك في أمان خلف هذا الجدار إذا كنت تتوارى هناك مع شيطان؟

بوم!.. بوم!..

القرعات تتواصل....

الطفلة خطرة.. أعرف هذا.. لكني أراهن على أن وجودها معنا قد يحمينا..

- «راقبا أنتما هذه الشيطانة!»

قالها لي و(جيسون) آمرًا، وكان ما فعلته قاسيًا لكنه بسيط ومنطقي.. نزعت ربطة عنقي وقيدت معصمي الطفلة خلف ظهرها.. لو كانت مجرد طفلة فأنا وحش، لكن لو كانت شيطانًا فأنا عبقري..

راقب (مولر) ما أفعله ولم يعلق، ثم التفت إلى طيارنا الفرنسي الهاوي، وسأله:

- «كم بقي من وقت؟»

- «نصف ساعة.. أعتقد هذا...»

والتفت الطيار الشاب المذعور المسئول عن الاتصالات وقال:

- «نصف ساعة فعلًا.. إنهم يسمحون لنا بالهبوط..»

قال (مولر):

- «حاول أن تسرع أكثر..»

ثم صوب مسدّسه نحو رأس الطفلة.. وقال بعد لحظة تفكير:

- «ما رأيك في أن أفجر رأسها الآن؟»

✶ ✶ ✶

- 7 -

كي تي كاريت هوك تمبور

في فيليور

اكسي فلوسكنت أربوريس

لاسكيف كانونت فولوكريس

دولشيس آمور!

✶ ✶ ✶

الطائرة البوينج تحلّق في السماء نحو الولايات المتحدة..

انطلقت من القاهرة في الظلام. وها نحن أولاء نصل في الظلام أيضًا..

طائر يحلق نحو نهايته مدفوعًا بكلمات أغنية غريبة من القرون الوسطى..

لقد صارت طائرة موتى.. لا يوجد شخص واع سوى قمرة القيادة.. وهؤلاء لا يفصلهم عن الغيبوبة سوى باب واه جدًّا، وعندها تكون النهاية..

هناك على الأرض لابد أنّ هناك الكثير من الصخب.. لابد أنّ هناك سيارات إطفاء ورجال من مكتب التحرى الفيدرالي FBI ورجال من السفارة الألمانية وخبراء تفاوض وكشافات ملونة و... و... جو سينمائي ممتاز، وقد أثارت عبارة (عصبة الجيش الأحمر) خيال الجميع.. أي خبر عن (بادر ماينوف) هو خبر صحفي من الدرجة الأولى.. من المؤكد مع (بادر ماينوف) أن الطائرة ستنفجر وأن عددًا لا بأس به من الرهائن ورجال الشرطة سيموتون.. لكنهم لا يعرفون أن الخطر ليس كما يتصورون.. إن رجال (بادر ماينوف) غلابة مثلنا لا يعرفون ما يفعلون ولا كيف تنتهي الأمور..

كان (ماير) يصوب المسدس إلى رأس الطفلة المكبلة ويقول كأنه يفكر:

- «ليس من عادة المناضلين قتل الأطفال، لكن كل شيء يقول إنها ليست طفلة.. لو فجرنا رأسها فلربما توقف كل شيء..»

قلت له في إصرار:

- «ولربما تفجر كل شيء.. ولربما كانت الفتاة بريئة مجرد طفلة لا أكثر.. لا تفعل..»

هنا هتف (هانز) في عصبية:

- «وماذا عن الرفاق؟.. ماذا عن (بيتر) و(هوفمان)؟»

هكذا عرفت أن الاسم الحقيقي لـ (ماير) هو (هوفمان).. لكني صدقت بصدد (بيتر).. قلت له:

- «هم بخير.. صدقني.. أنا واثق من ذلك طالما بقيت هذه الطائرة في الجو..»

لكنه كان يغلي لقد بدأ التوتر يعميه، والقلق يتخذ صورة وحشية بعيدة عن أي منطق.. عرفت أنه سيرتكب عملًا أحمق..

العمل الأحمق هو أنه فتح الباب وسط اعتراضنا.. وخرج..

هكذا وجدنا أننا نقف في القمرة والباب مفتوح.. نظرت لـ (جيسون) في عدم فهم وتساءلت:

- «ما رأيك؟»

- «مثل رأيك...»

بحذر شديد زحفنا إلى الخارج.. لم يكن هناك شيء..

الركاب على المقاعد حيث هم، وقد فقدوا الوعي أو ناموا.. دنوت من أحدهم وتحسست نبضه.. إنّه حي فعلًا.. لا شك في هذا..

هناك بالطبع من سقط في الممر لأنّه لم يحتفظ بتوازنه، لكنهم كانوا يتنفسون جميعًا..

لكن أين ذهب ذلك الشيء الذي كان يدق الباب؟..

هناك في ركن الممر كان (هانز) يتحسس عنق صديقه (هوفمان) الغائب عن الوعي.. نعم.. هذا منطقي.. الرجلان حادا المزاج صديقان..

واصلت البحث بين المقاعد. هذا السائل الذي يبلل معظم الجدران... واضح تمامًا أنه الشيء الذي كان يزحف نحونا لكن ما هو؟.....

فرغ (هانز) من فحص صديقيه، وفجأة انطلق يركض نحو قمرة القيادة.. ماذا يريد؟.. لا أعرف.. لكن (جيسون) قال لي همسًا:

- «اسمع.. هذه هي الفرصة المثالية.. كنت أحلم بأن أوجد في عالم فقد الجميع فيه الوعي لأفعل ما أريد.. هذا حلم صبياني قديم..»

قلت همسًا:

- «كنت أتوق لأن يتحقق هذا الحلم لأسرق كل ما في متجر بائع الحلوى على الناصية.. لكن لماذا تقول ذلك؟»

- «إن الذئبين نائمان.. هذه فرصة ذهبية.. راقب الطريق ريثما أفرغ من تجريدهما من السلاح.. على الأقل سوف نواجه اثنين بدلًا من أربعة..»

وهكذا زحف (جيسون) على ركبتيه حتى بلغ (بيتر) النائم فراح يفتش في جيوبه.. لم يكن الأمر سهلًا لأن الرجل مدجج كترسانة.. مسدسات.. خنجر.. قنابل يدوية.. لكنه لا يحمل حزامًا ناسفًا.. جمع كل شيء وملأ جيوبه وقذف مسدسًا لأتلقفه وأدسة في جيبي، ثم زحف على ركبتيه حتى بلغ (هوفمان) الذي لم يعد (ماير) وبدأ يفرغ ما بجيوبه..

في هذه اللحظة ظهر (هانز) من جديد..

رأيته وأنا أركع على ركبتي خلف مقعد.. كان المسدس في يده، وهو يتقدم صوب (جيسون) المنهمك في التفتيش رأيت النظرة النارية في عينيه.. رأيت الشر..

ذات نظرة معلم الحساب عندما دخل الصف ليرى (حامد الشوبكي) يلعب الورق مع صديقه.. زحف في صمت كالقط وفي عينيه ذات النظرة.. ذات النظرة.. حتى صار خلفهما.. ثم...

لم يعد هناك وقت للتردد.. لو فشلت لن أجد وقتًا للندم..

وثبت من خلفه إذ مر أمامي، وبأعنف ما استطعت هويت بمؤخرة المسدس على مؤخرة رأسه الألماني الصلب.. استدار نحوي في دهشة وكذا فعل (جيسون) الذي سمع صوت الضربة.. انقض (هانز) عليّ كالذئب المسعور فعلًا..

تكورت حول نفسي متوقعًا أن يفرغ الطلقة فيَّ، لكن جاء دور (جيسون) ليهوي بالمسدس الآخر على مؤخرة رأس الرجل في ذات المكان الذي ضربته أنا..

هكذا تهاوى الرجل كبالون مثقوب..

إذن لماذا تكفي ضربة واحدة في السينما ليفقدوا الوعي؟ كل شيء سهل في السينما، لهذا قرر (هتشكوك) أن يرينا ما يحدث في الواقع فعلًا.. مشهد البطل والبطلة في فيلم (خلف الستار الحديدي) وهما يخنقان عميل المخابرات السوفييتية استغرق المشهد وقتًا طويلًا رهيبًا وكلفهما الكثير من الجهد لا أحد يختنق بالسهولة التي تراها في السينما..

تنفست الصعداء ورحت ألهث بينما راح (جيسون) ينزع من الرجل أسلحته..

قلت له:

- «هؤلاء خطرون لو أفاقوا حتى من دون سلاح.. سنفك بعض ربطات عنق الركاب.. يجب تقييدهم بحرص شديد..»

استغرقت العملية ست دقائق تقريبًا، وفقد خمسة رجال ربطات أعناقهم... وفي النهاية صار القراصنة الثلاثة كطيور السمان المربوطة توطئة للذبح...

قمنا بجرهم لمؤخرة الطائرة بصعوبة بالغة جدًّا.. لا يعرف (مولر) أنه الوحيد القادر على الفعل الآن بين رجاله..

وهنا وقعت عيناي على سيدة غافية في مقعدها قرب الصف الأخير.. سيدة أجنبيّة كما هو واضح.. تضع عصابة على عينها ويبدو أنها كانت غافية جدًّا قبل أن يصير النوم هو القاعدة..

لكن هذا الفم والأنف مميزان جدًّا مددت يدي أزيح العصابة.. ثم إنني رحت أعبث في حقيبة يدها حتى وجدت جواز السفر ومعه وجدت علبة من الأقراص المنوّمة...

هولندية الجنسيّة.. هذه صورتها.. هناك صورة أخرى كذلك.. ابنتها...

- «جيسون!»

ناديت الرجل فجاء يتساءل عما هنالك.. فتحت له جواز السفر:

- «(شارون فان هوتن).. أين رأيت هذه الطفلة من قبل؟»

صاح في دهشة:

- «إذن هي!.. لها أم ولها جنسيّة!... ولماذا لم تبد الطفلة أية علامة على أنّ هذه أمها؟.. ولماذا لم تستجب الأم لكل البحث عن ابنتها؟»

مددت يدي بعلبة الأقراص المنوّمة وقلت:

- «الأم كانت نائمة جدًّا.. دعك من أنها بالتأكيد شربت مشروبًا روحيًا مما يقدم على الطائرة.. نتيجة التفاعل قوية جدًّا وقد تكون سامة.. هناك كثيرون ماتوا بسبب هذا المزيج القاتل..»

- «وعين الفتاة؟»

- «الفتاة تعرضت غالبًا لحادث مروع منذ فترة أفقدها عينها وجعلها في عالم خاص بها.. هذا نوع من داء التوحد autism لا شك فيه.. كل ما ظنناه وما قلناه عن (شارون) التي تقودنا عبر نهر (ستيكس) لا أساس له من الصحة.. واضح أنها سمعت الأغنية هي. وأمها من ثم قررنا أن الوقت مناسب جدًّا للذهاب للولايات المتحدة.. ما فعلته أنا هو أنني قيدت فتاة مسكينة لأنني حسبتها شيطانًا..»

- «يا للهول!... فلنحررها حالًا.. ثم... ثم...»

ثم همس في شيء من التردد:

- «عندي فكرة معقولة عن طريقة الخروج من هذا الموقف لكن قد أكون أحمق..»

- «لن يعرف أحد أنك أحمق لأننا سنكون غبارًا تذروه الريح..»

فجأة اهتزت الطائرة بقوّة..

أدركنا أنها تهبط.. فقاقيع الهواء في أذني قالت ذلك بوضوح..

ومن قمرة القيادة دوّت أعلى ضحكة مجنونة سمعتها في حياتي...

✶ ✶ ✶

- 8 -

كي تي كاريت هوك تمبور

في فيليور

سي تينيريم كوام كوبيو

ني نيموري ساب فوليو

أوسكيولارير كوم جوديو

دولشيس آمور!

✶ ✶ ✶

عندما اقتحمنا غرفة القيادة، كنا قد استعرضنا في ذهنينا معظم الاحتمالات الممكنة، لكن ما رأيناه لم يجل بذهنينا قط..

هناك كانت الطفلة المقيدة راكعة على الأرض تصرخ وتعوي كالذئاب.. هذا كاف لتحطيم الأعصاب فعلًا، لكن الأغرب هو مولر الذي يقف متمسكًا بالمقعد من الخلف، وهو يصوب المسدس إلى رأس الطيار الفرنسي الهاوي..

كان يصرخ في جنون:

-- «قلت لك إنني سأفجر رأسك!... تعقل!»

طبعًا لن يجرؤ على هذا.. أم هل يجرؤ؟

أما ما نراه فهو أن الطيار يحرك عصا التحكم في جنون وأن الطائرة تنحدر بسرعة لا تصدق.. يُمكنك أن تدرك هذا بجسدك دون أن تنظر إلى أية عدادات..

وما نراه كذلك هو أن الطيار الفرنسي ضئيل الجسد يضحك في جنون.. ضحكًا يوشك على تفجير رأسه..

كانت عيناه حمراوين بلون الدم.. لا أشك في أنهما تسطعان في الظلام..

بينما يصرخ الطيار الشاب المذعور:

- «كابتن!... نحن نهبط!.. أرجوك أن تتوقف!»

القصة واضحة لا تحتاج إلى مزيد من الشرح..

المندوب هو الطيار الفرنسي الهاوي!... هل كان كذلك منذ البداية وقد خدع الجميع، أم أن الشيء الذي نوم الطائرة قد تسرب للقمرة برغم كل شيء، وتسلل إلى دماغه؟

لا أعرف.. لن أعرف.. لكن الاحتمال الأخير يبدو لي أقرب للصواب..

وهكذا فالمندوب المكلف بإرسالنا للعالم الآخر هو قائد الطائرة الآن!!

لف (مولر) ذراعه حول عنق الطيار وحاول انتزاعه من المقعد، لكنه كان راسخًا لا يتزحزح ولم يبد على وجهه أي انزعاج فقط واصل الضحك والتمسك بالعصا.. هنا نهض الشاب يحاول معه فلم ينجحا..

سمة مهمّة عرفتها في هؤلاء الشياطين هي أنهم يستطيعون زيادة ثقلهم ليصير أطنانًا.. كأنهم مسمرون في الأرض..

صاح (جيسون) في (مولر) واللعاب يتطاير من فمه:

- «أطلق الرصاص على رأسه..»

- «لكن...»

- «لا وقت للتردد!.. أطلق الرصاص!!»

وبعد ذلك؟.. هل الأخ (جيسون) يجيد القيادة؟

لكن (مولر) أخرج مسدّسه من جديد وأحكم التصويب بعيدًا عن الزجاج طبعًا بحيث تستقر الرصاصة في جدار القمرة، ثم أطلق رصاصة.. رصاصتين...

ثم أنه صرخ كمن لدغته أفعى وألقى بالمسدس وتراجع..

قليل من الناس من يتحمل هذا المشهد.. أن يرى شخصًا نسفت رأسه تقريبًا لكنه ما زال حيًّا ويضحك...

لم يتراجع بما يكفي؛ لأن الطيار الفرنسي الهاوي مد يده وأطبقها على حنجرته وهو يضحك تلك الضحكة الشيطانية أطبقها فترة قصيرة جدًّا ثم طوح به ليستقر هناك عند باب القمرة.. وأدركت من مكاني أن أمره انتهى...

منظمة (بادر ماينوف) قد فقدت قائد العملية.. هذا واضح..

لقد عاد الطيار الفرنسي الهاوي - الذي لم يعد كذلك - يقود الطائرة إلى النهاية...

ركعت على ركبتي ورحت أتلو الشهادتين وأنا أفك قيود الطفلة الصارخة احتضنتها مهدئًا طالبًا الصفح.. وسرني أنها أحاطت عنقي بذراعيها..

رأيت جيسون يخرج ورقة وقلمًا من جيبه، ثم يدون كلمات وهو واقف في القمرة مستندًا للجدار.. هل جن أخيرًا؟... لكنه أمسك بالورقة وبدأ يُلقي كلامًا باللاتينية.. لاتينية غريبة جدًّا لم أفهم حرفًا منها.. يمكنني دومًا أن أجد مقطعا مميزًا أو لفظة تشبه مثيلتها في الإنجليزية، لكن هذه المرّة لا شيء..

إنّه يغني.. يغني..

ماذا يقول بالضبط؟.. لماذا يرفع صوته بهذه الطريقة؟

هنا رأيت الطيار الفرنسي يتصلب.. رأسه ينحني على لوحة القيادة والدم يسيل منه... ثم.. ثم..

ثم سقط على الأرض بلا حراك..

لقد صار مجرد جثة بريئة فجر أحدهم رأسها..

صحت في (جيسون):

- «ماذا فعلت؟»

كان ينظر للجثة الساقطة على الأرض وقال:

- «فيما بعد.. فيما بعد.. الطائرة تهوي بلا توقف.. ماذا تفعل؟»

نهض الطيار الشاب المذعور وجلس على المقعد وشد عصا القيادة.. وراح يراقب العدادات.. ثم قال:

- «لقد حافظت على ارتفاعنا.. لكن لا أستطيع عمل ما هو أكثر.. يمكن أن ندور وندور إلى أن ينفد الوقود فنهوي..»

هنا سمعنا من يقول:

- «سوف أحاول.. فقط.. ساعدوني..»

إنّه الطيار الأول. الطيار الخبير المصاب بارتجاج في المخ.. كان يحاول النهوض فيسقط ثانية.. هكذا سارعنا لنضعه على مقعد القيادة... جلس وتحسس رأسه.. قميصه ملوث بالقيء والدم لكنه يحاول التماسك.. وبيد مرتجفة أمسيك بالعصا...

وعرفت أنه سينتزع آخر قطرات في بئر وعيه كي يبقى متيقظًا في الدقائق التالية..

قال لنا وهو يرتجف:

- «سأحاول.. سأحاول.. لكن أخرجوا كومة الجثث هذه واخرجوا أنتم أيضًا.. أربطوا أحزمتكم فالهبوط لن يكون ناعمًا..»

تعاونت و(جيسون) على جر جثث الطيار الثاني والمضيفة و(مولر) من القمرة.. ثم اصطحبت الطفلة معي للخارج وتمنيت أن يقدر على استكمال مهمته العسيرة هذه..

أحزمة مقاعد؟.. لو ربطنا أحزمتنا فمن يربط أحزمة المائتي راكب في الطائرة؟.. أعتقد أنّ علينا أن نأمل في حظ حسن للجميع...

جلست والطفلة على حجري تلصق رأسها بصدري، فدفنت أنفي في شعرها العطر، وسألت (جيسون):

- «ماذا فعلت؟»

- «هي محاولة خرقاء لا أكثر.. كان هناك مقطع غنائي ضمن الأشعار يقوم على تلاوة الأبيات السابقة بالعكس...»

- «هناك في فنون (الأدباتية) في مصر طريقة مشابهة..»

- «كانت الأبيات المقلوبة تقول:

عندما تسمع هذه الأغنية، فاهرع لتلحق بالركب..

الركب الذي يعبر نهر ستيكس الآن..

الموت الزاحف الذي يغرق العقول في لجته..

إنّه النوم.. النوم الذي لا صحوة منه..

وا حسرتاه!.. لسوف تقضي بظمئك الباخوسي..»

هكذا قام (جيسون) بكتابة هذه الأبيات وقرأها معكوسة كما كانت في الجزء الضائع من الأغنية.. كان الاحتمال المجنون في ذهنه هو أنّ هذه الطريقة سوف تعكس عمل اللعنة يبدو أنّ هذا تم فعلًا.. هذا أسلوب نُسمّيه في الطب بالـ (الإمبريقي empiric).. أن تجرب دون أساس علمي يدعم ما تريد عمله.. لكنه نجح..

- «هل تعني أن اللعنة زالت؟»

- «بتاتًا.. هذا غير كاف.. فقط غادر هذا الشيء الشيطاني جثة الفرنسي التي كان يستعملها كوعاء.. هكذا سقطت الجثة بلا حراك.. لا تسألني عن مكانه الآن.. على الأرجح هو في الطائرة يبحث عن طريقة أخرى لإسقاطها..»

هنا نظرت له في رعب وقد خطرت لي فكرة:

- «هل تعتقد أنّ هذا الشيء الشيطاني غادر جسد الفرنسي ليدخل جسد الطيار الأصلي؟.. ولهذا أفاق في هذه اللحظة بالذات؟»

لم يرد واتسعت عيناه رعبًا...

احتمال لا بأس به أبدًا...

✶ ✶ ✶

- 9 -

مويم إست بروبوسيتام

إن تابيرنا موري

أوت سنت فينا

بروكسيما مورينتس أوري

✶ ✶ ✶

لم نصدق أننا لمسنا الأرض إلا عندما لمسناها فعلًا.. وإلا عندما راحت العجلات تركض في سباقها المجنون عبر الممر..

كان طيارًا عظيمًا.. الطيار الذي يهبط بهذه النعومة بينما هو مصاب بارتجاج مخي، لهو نسر حقيقي، والأهم أنه (طاهر ومعقم)... لم يمسه شيء.. لم يتول القيادة ليقتلنا أخيرًا...

توقفت الطائرة..

لم تكن هناك مضيفة ترحب بنا أو طيار يشكرنا ويخبرنا بالتوقيت وحرارة الجو..

فقط صمت بليغ... صمت ينذر بكارثة...

ورأينا عشرات السيارات تلحق بالطائرة وتحيط بها من كل الجهات.. هناك سلم متحرك طبعًا الطيار الشاب المذعور أخبرهم بكل شيء....

نظرت حولي فأدركت أن ركاب الطائرة المنكوبة يعودون لوعيهم ببطء.. هذه أول مرة يفشل فيها المندوب على قدر علمي.. على الأرجح لم يعد خطة بديلة ولم يكن الوقت كافيًا...

مرت لحظات ثقيلة طويلة..

ثم سمعت باب الطائرة يفتح..

نهضت مسرعًا واتجهت إلى الباب.. هذا هو السلم المتحرك يسبح في الأضواء.. سوف أهبط.. أريد أن أشعر بالأرض تحت قدمي من جديد..

هنا صاح (جيسون) من خلفي:

- «انتظر يا دكتور.. لا بد من واحد منهم يصعد للطائرة أولًا.. من الممكن أن يمطروك بالطلقات على اعتبار أنك من القراصنة..»

لكني اتجهت للباب ووقفت أعلاه وفتحت ذراعي في نشوة..

الخلاص...!

بدأت أنزل خطوة بخطوة وسط الأضواء التي تغمر السلم..

أغمضت عيني كي أرى أفضل وواصلت النزول، بينما أسمع أصواتًا بالإنجليزية تصرخ:

- «توقف!..»

- «لا تتحرك!»

- «ارفع يديك لأعلى.. نريد أن نراهما..»

لكني واصلت النزول.. هنا سمعت (جيسون) يصرخ بأعلى صوته:

- «لا تطلقوا الرصاص!... إنّه لا يعرف ما يفعله..»

ومن مكان ما تصايح أكثر من واحد ألا يطلقوا الرصاص لكنني على كل حال كنت قد بلغت الأرض، فالتف حولي عشرة من ضباط المطار... وقد أحسنوا استقبالي بالطريقة الأمريكية كأنهم يمثلون فيلمًا سينمائيًا.. يُمكنك أن تتخيل..

وجدوا أسلحة معي.. هكذا صار موقفي أسوأ بكثير..

في النهاية وجدت نفسي مقيدًا بالأصفاد في سيارة تبتعد بسرعة البرق عن الطائرة، ونظرت للخلف فرأيت الرجال يصعدون إلى الوحش الساخن الجاثم على أرض المطار يلتقط أنفاسه سوف يكتشفون أشياء غريبة جدًّا، ولسوف تطول التحقيقات لعدة أيام...

لكن..

ما معنى هذه الحماقة التي قمت بها؟

لو كان الرجال أكثر توترًا أو انفلات أعصاب، لحولوني إلى مصفاة..

لماذا لم أبال بالتحذيرات ولا الخطر، ولماذا تصرفت بهذا الغباء؟

ثم فهمت...

أنا نفسي قد سمعت الأغنية مرارًا لذا صرت أنا واحدًا آخر ممن يشعرون برغبة ملحة لعمل شيء ما هناك من يركب اليخوت ومن يجرى جراحة لا لزوم لها ومن يستقل المصعد دون سبب..

وهناك من يتجاهل إنذار عشرات البنادق المصوبة نحوه..

✶ ✶ ✶

- 10 -

تونك كانتابونت ليتيوس

أنجيلورام كوري

دوس سيت بروبيتيوس

ويك بوتاتوري

✶ ✶ ✶

في الأيام التالية التقينا كثيرًا جدًّا نحن معشر الركاب.. والتف حولي محققون كثيرون جدًّا في غرف خافتة الإضاءة يسجلون كل كلمة...

عرفت قصة (فاتن) وقصة رجال (بادر ماينوف) وقصة الزوجين الفرنسيين لقد نجا الطيار من الإرتجاج، والكل يعرف أنه بطل حقيقي تماسك حتى أوصلنا لبر السلامة وجدوه فاقد الوعي مرتميًا على عجلة القيادة..

الأم الهولندية قالت لي وهي تدخن في عصبية:

- «منذ أصيبت (شارون) بتلك الشظية المعدنية في عينها، رفضت أن تركب عينًا زجاجية.. وصارت أقرب إلى النبات.. الاتصال بيننا شبه مستحيل.. إنها في عالمها الخاص الذي لا يمكن الوصول له.. أمّا أنا فقد خلقت عالمي الخاص من أقراص المهدئات والشراب، وأعتقد أنني كنت في شبه غيبوبة عندما ركبنا الطائرة.. لم أدر متى تركتني ومضت تجول كالطيف بين المقاعد..»

قلت لها:

- «كنت طبعًا في سياحة بالقاهرة، ثم وصلك ذلك الشريط الذي حرّك مشاعرك فقررت السفر للولايات المتحدة فجأة..»

- «كيف عرفت؟»

- «لأننى عبقري..»

قلتها في بساطة وابتسمت في خبث لنظرة الدهشة في عينيها..

أمّا عن الزوجة الفرنسية التي فقد زوجها رأسه بالمعني الحرفي للكلمة، فقد كانت حالتها سيئة لا تسمح بالسؤال.. عرفت أنها قابلته للمرة الأولى منذ أسابيع، فهل كان يعبث بها من أجل هذا الدور لا أكثر؟.. أم هو رجل بريء حوله ذلك الشيء الشيطاني إلى وعاء يقود به الطائرة؟

لا أعرف....

بالنسبة للشرطة الأمريكية كان تفسير ما حدث عجيبًا.. لكن القصة كانت إلى حدٍ ما قابلة للتركيب.. (مولر) كاد يقتل قائد الطائرة الأصلي، ثم قتل الطيار الفرنسي الهاوي، لكن هذا لم يمت قبل أن يأخذه معه للجحيم.. كل شيء وكل جثة على الطائرة تم اتهام القراصنة الأربعة بها، وإن ظل السؤال قائمًا: كيف مزقوا صدر ذلك الفتى المصري (محمود)؟

لقد فقد معظم الركاب وعيهم بسبب الهبوط السريع للطائرة وسرعة تغير الضغط... هذا هو التفسير الوحيد لدى خبراء المكتب الفيدرالي..

والآن يا سادة قد حان موعد نشرة الأخبار المسائية.. لقد أصغيتم لي طويلًا وحان وقت معرفة ما يدور في العالم:

الأديبة المصرية (فاتن الشرقاوي) التي تزور الولايات المتحدة حاليًا قد عرفت بالقصة، وصدقت هذا الهراء الذي يقوله المخبول (رفعت إسماعيل)، واتصلت بالإذاعة في مصر سائلة عن أخبار البرنامج.. عرفت قصة الشريط الذي أرسله مجهول للإذاعة.. عرفت أن مهندس الصوت فقد حياته في حادث انقلاب سيارة وهو ذاهب للإسكندرية. اتصلت بالمعد الشاب (فادي) وأمرته ألا يذيع الشريط بأي ثمن.. فليدمره الآن حالًا..

- «لكنه تحفة فنية.. لو أنك سمعته..»

- «لا تناقش.. أنا سمعته وأعرف معنى ما أقول.. دمر الشريط حالًا..»

صمت طويلًا.. لم يكن مقتنعًا لكنه مرغم على ذلك..

وضعت السماعة ونظرت لي وتنهدت..

قالت وهي ترتجف:

- «لو أذيع هذا الشريط.. كانت ستحدث كارثة..»

ثم أضافت وهي تخرج منديلًا لتمسح عينها:

- «عرفت كذلك أن كلبي قد مات!!»

الآن ننتقل إلى القاهرة حيث وقعت عدة حوادث غريبة فعلًا.. مثلا قصة مدرس الكورال الذي علم نشيدًا لاتينيًا لأفراد فرقته في قصر الثقافة، وقد مات كثيرون من أفراد هذه الفرقة.. هناك

وفيات بين أشخاص سمعوا شريطًا يذاع في محل شرائط بصوت عالٍ، وصاحب المحل لا يعرف من أرسل له هذا الشريط..

الحقيقة إن أبيات الجوليارد كانت تحاول التسرب جاهدة.. كانت حية مصممة على الحياة مستقلة.. لقد قررت ألا تغيب ثانية في هذا الجب الذي دفنها فيه (كارل أورف)..

انتهت النشرة ونعود لقصتنا...

✶ ✶ ✶

قلت لـ (مولر) ونحن نحتسي القهوة في ذلك المطعم الصغير في نيويورك:

- «لكن اللعنة حية وحرة.. وهناك بالتأكيد من يذكر اللحن جيدًا.. هناك من أرسل الشرائط للناس وهو ما زال حرًا.. هناك ذلك الشيء الذي هاجمنا في الطائرة..»

قال باسمًا:

- «أنت تعرف من كان يرسل الشرائط الناس.. تعرف من هو (كامل) الذي أعطى ذلك الفتى العلبة لتهريبها.. أنت فقط تحشي الاعتراف لنفسك بهذا.. لقد لعب الجوليارد لعبة قاسية سادية تليق بهم، ولا تختلف كثيرًا عن الحمار الذي يلبس ثيابًا مزركشة... يجب أن نجد (كامل) هذا ونقضي عليه.. أعتقد أن عليَّ العودة إلى بافاريا للبحث عن المزيد من المخطوطات..»

ثم مال عليَّ وهمس:

- «أنت رجل واسع التجربة، وتتوقع وتفهم أنني أبقيت نسخة من تلك المخطوطات في خزانة سرية.. كنت آمل ألا أفتحها أبدًا، لكن الضرورات تبيح المحظورات.. وأنا أعتقد أنّ هناك طريقة ما لتدمير هذه اللعنة.. طريقة كالتي ابتكرتها في الطائرة، ولابد أن أورف أستعملها عندما كان يعمل مع النازيين»

فكر قليلًا ثم أردف:

- «سوف أحاول الاتصال به.. سوف أهدده وأضغط عليه لأعرف ما يعرفه بالضبط..»

أنت تعرف أن (أورف) توفي عام 1982 لهذا كان حيًّا وقت وقوع هذه الأحداث..

ثم أن (جيسون) أخرج ورقة نقدية ودفع الحساب لنا ونهض..

مد يده يصافحني وقال:

- «أعتقد أننا لن نلتقي ثانية.. أتمنى لك حظًا حسنًا.. وكن حذرًا في أية نزوة مجنونة تقدم عليها.. قد لا تكون جنونًا.. قد تكون مجرد نداء!»

وغادر المكان ورحت أرقبه يبتعد في الشارع المزدحم من خلف زجاج المطعم.. بالفعل كانت هذه هي المرّة الأخيرة...

لا أعرف السبب لكنه بدا لي كأنما يمشي على إيقاع (كارمينا بورانا) وهكذا رحت أردد في سرّي بشفتين شبه مغلقتين ما بدا لي كأنها موسيقا تصويرية لمشيته:

سمبر كريسيس..

أوت دكريسيس

فيتا ديتستابيليس

نونك أوبدورات

إ تونك كيورات

لودو منتيس آسييم..

ايجستاتيم

بوتستايم..

ديزولفيت أت جلاسيم..

✶ ✶ ✶

عندما عدت من الولايات المتحدة، كان (هن تشو كان) بانتظاري، وكانت لنا قصة مع الطفيل... الطفيل الذي لم يكن خصمًا سهلًا بأي حال..

لكن هذه قصة أخرى....

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم *الإيداع*: ٦ ٦٠ ١

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

المقـدمة

تمهيد

الجـزء الأول: الرحلة 345

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

- 6 -

- 7 -

الجـزء الثاني: الكـارثـة قـادمـة

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

- 6 -

- 7 -

- 8 -

- 9 -

- 10 -

الجـزء الثالث: المنـــدوب

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

- 6 -

- 7 -

- 8 -

- 9 -

مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والإثارة



د. أحمد خالد توفيق

أسطورة أغنية الموت

سمبر كريسيس ..
أوت دكريسيس
فينا ديتستابيليس ..
نونك أوبدورات
إتونك كيورات
لودو منتيس آسييم ..
إيجستاتيم
بوتستايم ..
ديزولفيت أت جلاسيم ..

العدد القادم

أسطورة الطفيل

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

مطابع

الثمن فى
وما يعادله
فى سائر الد

Notes

[1←] ما ذكر عن كارل أورف صحيح طبعًا، وقد كان علاقة قوية بالنازيين، لكن موضوع السر الذي عرفه خيال قصصي..

[2←]
الشيوعية الدولية.

مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

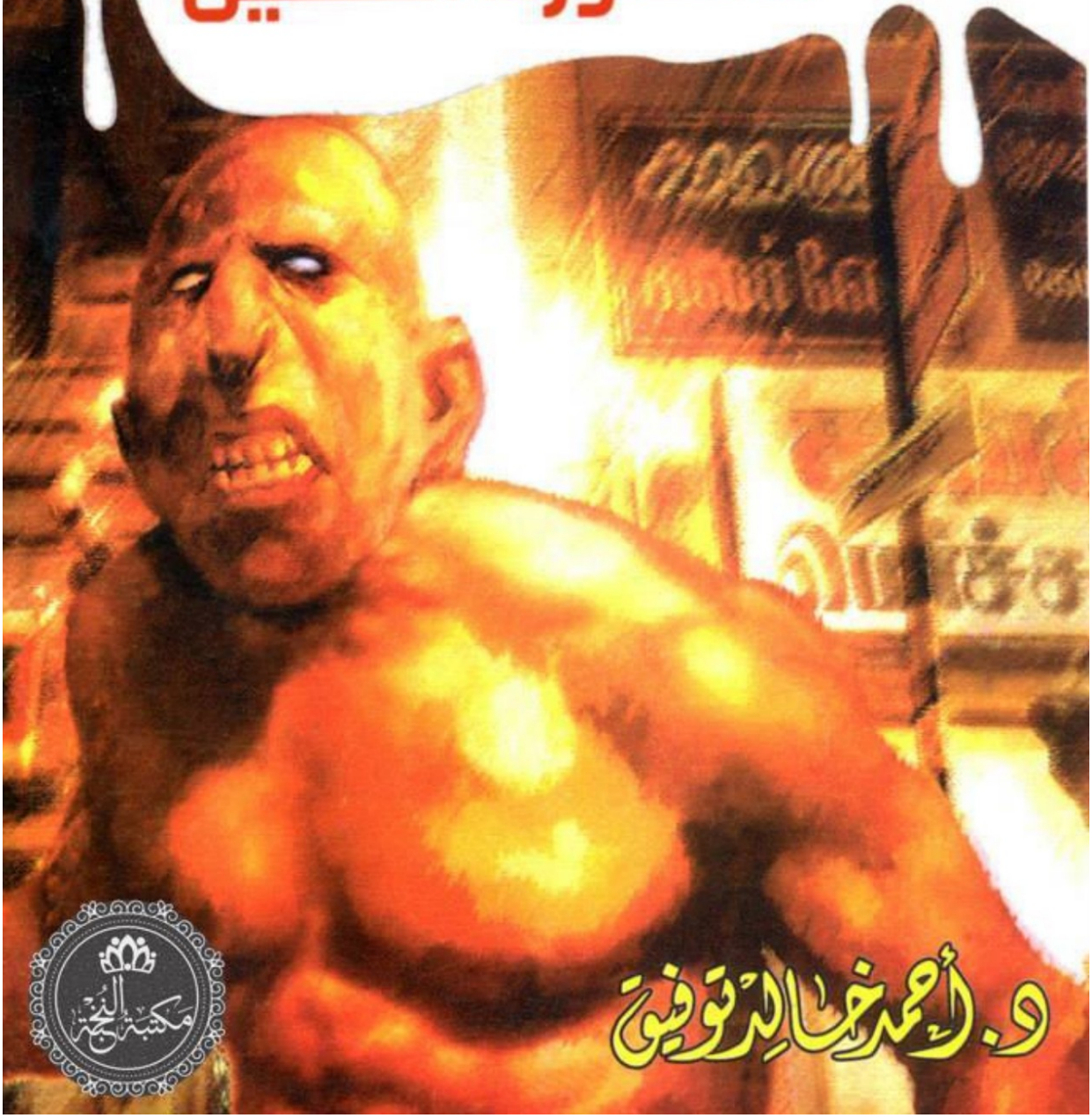
فى كل رواية متعة دائمة



ما وراء الطبيعة

75

أسطورة الطُّفَيْل



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة النجمة

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



75

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

أسطورة الطُّفَيْل

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايـــات تحبـس الأنفـــاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصـرى مائة فى المـائة
لا تشوبه شبه الترجمة أو الاقتباس
أو النقل عن أية قصص أوربية .

إشراف
الأستاذ / حمـدى مصـطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر سواء النشر الورقى أو الإلكترونى ، وكل اقتبـاس أو تقليـد أو إعـادة طبـع أو نشـر ورقـى أو إلكتـرونى دون الحصـول على تصـريح كتـابى من النـاشر يعـرض المـرتكب للمسـاءلة القـانونيـة .

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ــ المطابع 8 ، 10 شارع المنطقة الصناعية بالعباسية ــ منافذ البيع 10 ، 16 شارع كامل صدقى الفجالة ــ 4 شارع الإسحاقى : بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة ــ القاهرة ت : 26823792 ــ 25908455 ــ 22586197 ، فاكس : 202/2596650 ج.م.ع ــ
الإسكندرية 4 شارع بدوى / محرم بك ــ ت : 03/4970840 ــ 03/4970850

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط
الغمـــوض والرعـــب والإثارة

75

•

أُسطورة الطُّفَيْـل

بقلم: د. أحمد خـالد توفيق

الغـــلاف بريشـــة: أ. أيمـن القـاضي

المؤسسة
العربيـــة الحديثـــة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

المقدمة

الفتاحة في مكان ما هنا..

من الممكن أن يقترح أحد الأذكياء أن أستغني عنها، وهذا يدل على أنه رجل عبقري.. رجل قدر على فتح علبة من السلامون بأسنانه. أنا لست من هذا الطراز لذا يجب أن أقوم بهذه المغامرة البهلوانية، وأقف على كرسي المطبخ الذي وضع على كرسي آخر، ثم أمد ذراعي لنهايتها بحثًا في ذلك الرف أو ذاك..

كنا نتحدث عن الرعب..

الرعب قد يكون من أشياء لا تخطر ببال.. ماذا عن عجوز وحيد مريض تهشّم عنق فخذه يرقد على أرض المطبخ، في بناية سكانها مصابون بالصمم - جربت هذا مرارًا - بينما أم (شخص ما) التي تأتي للعناية بشئون البيت لن تظهر قبل يومين..؟

بالتأكيد سيموت جوعًا سيموت عطشًا.. ميتة مرعبة ومن الصعب أن تتخيلها لمن رأى كل ما رأيت..

إذن لا داعي لهذه الحماقة.. لكنك تعرف قصص الرعب هذه (متلازمة الضحيّة الغبية Stupid victim syndrome) حيث تتصرف الضحيّة بغباء لا يصدّق، وهذا يدفع القارئ / المشاهد لأن يشد شعره.. دعك من أنني جائع فعلًا..

هذه هي الفتاحة. عظيييييييم!

يمكن القول بلا مبالغة إنني نجوت هذه المرّة، أمّا التساؤل المنطقى عما حمل الفتاحة إلى ذلك المكان فلا محل له من الإعراب.. لقد قبلت منذ زمن حقيقة أن شقتي تعجّ بهم.. بهم من هم؟.. يبدو أنك لم تكن تصغي لقصصي جيدًا..

علبة السلامون منتفخة أكثر من اللازم. تبدو كأنها على وشك الانفجار. السمك لا يبدو بحالة جيدة ولا يبدو نضرًا.. نوع آخر من الرعب لأن البوتيوليزم Botulism أو داء (السجقية) الناجم عن أكل المعلبات الفاسدة قاتل دائمًا، ويحتاج لعلاج سريع.. تخيل ذلك العجوز الذي يرقد على الأرض مشلولًا بفعل السم ويحاول الوصول للهاتف قبل أن تشل عضلاته التنفسية.

هناك الكثير من المرح في الحياة... أقول هذا وأنا أهرس السمك بالشوكة في طبق وأضيف الكثير من الزيت والليمون وأقطع بصلة...

لابد من تسخين الخبز المجمد في الفرن.. وبالطبع لابد أن ينفجر الفرن في وجهي عندما أشعل الثقاب لأن غبيًّا ما فتح المفتاح والفرن منطفئ، وهكذا تحول الفرن إلى قنبلة موقوتة تنتظر شرارة.. تخيل العجوز المحترق الوحيد يزحف كالسحلية على أرض المطبخ باحثًا عن الهاتف..

أقول هذا وأنا أضع في الفرن المشتعل رغيفًا من الخبز...

عم كنا نتكلم؟

عن الرعب.. نعم.. ليس هذا الرعب الوديع الذي نألفه جميعًا، ولكنكم هنا للكلام عن الرعب غير المعتاد.. لابد من وباء غامض أو قبور تنفتح أو شياطين أو أنياب تنغرس في الأعناق أو...

أو طفيل..

(هن - تشو - كان).. الطفيل... أشرف.. لم أحك هذه القصة بعد. كلما حسبت أنني أنهيت كل شي برزت قصة مهمّة إلى السطح..

سوف أحكي القصة طبعًا.. يمكنكم سماعها وأنا ألتهم السلامون في نهم. بيني وبينكم لا يبدو مذاقه طبيعيًا جدًّا..

على كل حال يمكنكم طلب الإسعاف لو بدأت أعراض التسمم تظهر عليّ.. لا مشكلة سوى أنني لن أجد الوقت الكافي لأنهي هذه القصة.. هل تسمحين وتتفضلين بأن تعدي لي كوبًا من الشاي؟.. لا أمقت شيئًا مثل انتظار غليان الماء لمدّة ثلاث سنوات وأنا في أمس الحاجة لكوب الشاي.. شكرًا.. فتاة رقيقة وجميلة أيضًا لو فكرنا في الأمر..

سوف أحكي قصة اليوم بطريقة (المسرحية - الرواية) التي ابتكرها توفيق الحكيم في رائعته (بنك القلق)، وقد اختار لها اسم (مسرواية). نحن إذن على موعد مع مسرواية..

هل تسمعون؟..

جميل.. جميل.. لن أكرر ما قلت لذا أرجو أن تصغوا لي..

تمهيد

بدأ كل شيء في تلك الليلة المظلمة المدلهمة فوق التبت..

الرهبان البوذيون من أتباع الناقلة الكبرى (ماهايانا) كانوا يمشون فوق الثلوج مرددين تراتيلهم، عندما صاح أحدهم وهو ينظر إلى السماء:

- «ما هذا؟»

كان ذلك النيزك يشق الفضاء متجهًا إلى موضعهم بالذات..

أصابهم الهلع فتفرقوا، بينما حدث الارتجاج بقوّة واهتزت الأرض وتناثر الثلج..

وعندما وقفوا كانوا يشعرون بأن شيئًا قد تغير في أعماقهم كانوا يشعرون بالوهن والضعف وجوع شديد.. وهكذا عاد الرهبان إلى الدير القابع في الثلوج، وهناك كان زملاؤهم يتلون فقرات من البهاجافادجيتا..

كان هناك جو عام موجس يحيط بهم منذ دخلوا والثلج يكسو ثيابهم..

في اللحظة التالية حدثت كارثة.. لقد راحوا يلمسون كل راهب وجدوه وكل شيء حي.. وكان من يلمسونه يسقط أرضًا وقد خارت قواه أو ميتًا..

لقد كان ذلك الشيء يمتص سر الحياة من الموجودين بالداخل..

يمتص طاقتهم..

يمتص حيويتهم..

وفي كل لحظة كان يكبر في الحجم ويتمدد..

لقد سيطر على الدير بالكامل لكنه بحاجة إلى مليون روح ومليون عقل ومليون طاقة حيوية يمتصها.. كلما كبر لن يقدر شيء على قهره..

هكذا خرج يمشي في الثلوج.. لا نجاة لثور أو ذئب أو أرنب ثلوج.. كل شيء يندمج في ذاته العملاقة المخيفة..

هناك في الفضاء كانت هذه طريقته في الحياة وقد جاء ينقل لنا هذه الطريقة..

هل يمكننا القضاء عليه قبل فوات الأوان؟.. هل من مفر من هذا المصير الأسود؟

هذا ما سنعرفه في الصفحات التالية

✶ ✶ ✶

هاها!!

رائع!!

لو أنكم رأيتم وجوهكم وأنتم تسمعون هذا الجزء!!

النظرة في عيونكم تقول بوضوح: هل هذا كل شيء؟.. سمعنا هذه القصة ألف مرة من قبل..

كنت أداعبكم لا أكثر..

بالطبع ما كنت لأحكي لك قصة بهذا السخف، يُمكنك أن تكمل أحداثها كلها قبل أن تقرأ نصف صفحة.. لابد أنني قرأت نفس القصة في مجلة سوبرمان 4567 مرة.. دعك من المشهد النهائي الضخم حيث تحاصر مدرعات وطائرات الجيش الأمريكي - المصري في حالتنا هذه - الشيء الثائر الذي لا يكف عن التمدد والمقدم (نادر حازم) ذو الاسم الملفق يُطلق الرصاص بلا توقف. جحيم كامل من الطلقات والنيران، ثم ينفجر الشيء وينتهي.. ربما يزرع نفسه في بعض العقول وبهذا تضمن أن يكون للقصة أجزاء أخرى!

برغم كل شيء أرى في عيون صغار السن حماسة.. يبدو أنّ هذا الكلام الفارغ بدأ يروق لهم، وهم فعلًا يرغبون في معرفة ما سيحدث..

للأسف يا أحبابي ليست هذه قصتنا اليوم.. فقط هي دعابة ثقيلة من دعاباتي لا أكثر..

تعالوا الآن ننسى هذا الكلام الفارغ ولنبدأ القصة الحقيقية التي أدعو الله ألا تجدوها أسخف من هذه بعد انتهائها!!

الجزء الأول:

شيء قادم

«ابحث في بلدك الثاني.. الإجابة في بلدك الثاني.. ليس البلد الذي أخرجتك فيه أمك للحياة باكيًا عاريًا. ابحث بين قومك الآخرين.. ليسوا هؤلاء الذين نشأت معهم ولهوت معهم في الثلوج. ابحث في وجوه أخرى ليست كالوجوه التي ألفتها. ابحث في قلوب أخرى تجهل عنها كل شيء..»

- 1 -

حياة معقدة تلك التي اختارها (هن - تشو - كان) لنفسه هناك حيث عاش قرب سقف العالم..

نعم.. التبت في الهيملايا هو سقف العالم فعلًا..

إنّه يعمل مع الصينيين كمترجم ومفاوض، وفي هذه اللحظات يتحول إلى شيوعي من الدرجة الأولى ويتكلم بلغة (الحزب) و(البروليتاريا) و(الكومنترن) ويحمل كتيب تعليمات (ماو تسي تونج) الأحمر الصغير في جيبه.. ثم ينفرد بنفسه فيتحول إلى مواطن من التبت يحاول مساعدة أهله قدر الإمكان..

كما قلنا هو ليس بوذيًا بل يعتنق عقيدة منقرضة هي النافاراي.. العقيدة التي كونت كل ثقافته وكل خلية من جسده، لكنه يعرف أن قومه انقرضوا فلم يبق سوى أن يتشبث بأثر واه خافت هو البوذية، برغم أنه لا يؤمن بها...

التبت.. بلد الأسرار.. أرض الغموض والطلاسم...

كان يبتعد عن لهاسا قدر الإمكان لأنّها العاصمة، وقد تعلم أن العواصم خطرة دائمًا.. يفضل المدن الصغرى مثل (ساكيا) و(ناجتشو)...

كان يدرك تمامًا أنه آمن.. لا أحد يذكر النافاراي، ولو قيل إنّه من النافاراي فلن يصدّق أحد حرفًا.. فقط عليه أن يحيي هذه العقيدة.. يجب أن يرثها أحد بعده. لا يجب أن تموت معه.

من الأديرة القليلة جدًّا التي لم يهدمها الصينيون كان دير (نييِنجما).. قرب ناجتشو..

✶ ✶ ✶

عيناه مرهقتان من قلة النوم، شاحب الوجه، متوتر قليلًا وهو الهادئ بطبعه مهما حدث..

هذه الملامح أعرفها معالم رجل حائر لا يعرف إلى أين المسار.. هل الباب الأيمن أم الأيسر؟

يدخل (هن - تشو - كان) الدير.. يُلقي نظرة على الأبراج الحجرية المميزة والأجراس المعلقة التي لا تكف عن الرنين، لأن المؤمنين يهزونها طيلة اليوم، ثم ينظر إلى الفلاحين الواقفين بانتظار خروج الرهبان.. معظمهم مرضى يطلبون الشفاء.. المجذومون بأنوفهم المجدوعة وأصابعهم

المبتورة جاءوا.. النساء اللاتي لم ينجبن.. الرجال الذين أصابهم الفالج.. كلهم يطلب فرصة للقاء الكاهن، ومن الواضح من شكل المجذومين أنهم فشلوا في هذا المطلب على مدى عقود!

معنى مذهب (نييينجما) أصلًا هو (القدماء).. وهو المذهب الأصلي الذي أسسه (بادما سامبافا).. بشكل ما يعتبر هو العقيدة الأرثوذكسية (الصحيحة) بالنسبة لبوذيي التبت..

لكم من قرون مرّت!... في زمن آخر كان هؤلاء خصومك اليوم هم التراث الوحيد الباقي من ذكرياتك وأنت تجاهد للاحتفاظ به..

تعبر ممر الشموع نحو القاعة الحجرية التي يجلس فيها الكاهن الأكبر أمام مجلداته العملاقة. يتربع على الأرض.. مسنًا مثلها.. كأنه شجرة سرو عجوز غرست الجذور فيها يرشف الشاي بالزبد..

تنحني أمامه وتقترب على ركبتيك.. أنت من القلائل الذين يمكنهم الدنو لهذه الدرجة من الكاهن الأكبر..

يقول لك بصوته الواهن:

- «أنت كالريح الغربية.. لا تأتي إلا فيما ندر أيتها (الزهرة الزرقاء).. وكالريح الغربية أنت تجلب الكثير من الرؤى..»

تقول له:

- «سامحني أيها الأب.. إنما هم الصينيون.. لست حرًا في التنقل كما كنت..»

- «كلنا يعرف هذا لكن علينا أن نلزم الصمت.. ليس كل ما يعرف يُقال.. الغابة العجوز تكتم أسرارها كي تورق أشجارها وتتشابك أغصانها..»

ثم يرشف جرعة أخرى من الشاي.. وينظر لكتابه من وراء حاجبيه الكثّين الشبيهين بغابة تتدلى غصونها على ضفة نهر، ويقول:

- «بحثت طويلًا في المسألة التي سألتني جوابًا عنها..»

ترهف السمع في قلق منتظرًا إجابة.. لو كانت هناك إجابة فهو يعرفها.. لا شك في حكمة هذا الرجل..

يقول:

- «ابحث في بلدك الثاني.. الإجابة في بلدك الثاني.. ليس البلد الذي أخرجتك فيه أمك للحياة باكيًا عاريًا. ابحث بين قومك الآخرين.. ليسوا هؤلاء الذين نشأت معهم ولهوت معهم في الثلوج. أبحث في وجوه أخرى ليست كالوجوه التي ألفتها. ابحث في قلوب أخرى تجهل عنها كل شيء..»

تقول أنت في شيء من المراوغة:

- «ليس لي بلد ثان.. أنا ابن التبت..»

- «إذن سل نفسك السؤال مرّتين.. لو كان لي بلد ثان فأين هو؟.. لو كان لي قوم آخرون فمن هم؟»

ثم رفع نحوك إصبعًا طال ظفره فبدا كالمخلب المرتجف وقال:

- «إن في قلبك بابًا مغلقًا لم يفتحه أحد.. وهذا الباب يوشك على أن يذهب معك.. عليك أن تقتاد بشريًا تعلمه موضع الباب وكيف يفتحه..»

ثم أغمض عينه وبدأ يصدر ترنيمة طويلة من ترانيمهم....

وعرف (هن - تشو - كان) أنه لن يحصل على معلومات أخرى.. لقد انتهت المحادثة.

هكذا تراجع للخلف على ركبتيه دون أن يستدير توقيرًا للكاهن العظيم..

عندما بلغ الباب خرج ووقف على قدميه، بينما التف حوله الفلاحون الفقراء يضعون أيديهم كزهرة اللوتس توقيرًا له.

ومنهم من راح يمسد على كتفيه أو يمسح على شعره باعتباره نال البركة.. لقد قابل الكاهن الأكبر.. هذا شرف عظيم..

كان (هن - تشو - كان) شارد الذهن..

بلد ثان.. أناس آخرون.. الكاهن لا يعرف أي شيء عن تفاصيل حياته الأخرى، لكن (هن - تشو - كان) يعرف أن له بالفعل بلدًا آخر هو مصر التي بلغها يوم فر من عالمه هاربًا من خصومه. أصدقاء آخرون مثل (رفعت) الذي استضافة في بيته..

هناك يكمن الجواب عن سؤاله المحير..

إنّه لا يعتنق البوذية، لكنه يعرف أن هؤلاء القوم حكماء. ربما هي حكمة فطرية في البشر لا تنضوي تحت لواء عقيدة معينة، فقط هو تعلم أن يتعامل مع كلماتهم بجديّة..

من الواضح أن عليه الذهاب لمصر..

- 2 -

(في شقّة رفعت)

رفعت:

أنا فعلًا سعيد بلقائك برغم أنني من الطراز الذي لا يرحب أبدًا برؤية صديق.. صدقني.. حتى لو كنت أبدو مكتئبًا ومتضايقًا فهذا لا يعني شيئًا.. أنا من الطراز الذي لا تبدو السعادة على وجهه..

هن - تشو - كان:

هذا يسرني يا (ريفات).. أنا مثقل بالمشاكل أنا مثقل بالمشاكل حقًّا ويسرني أن أرى وجه صديق.. لم أر مصر منذ فترة لا بأس بها..

رفعت:

ورأيك؟

هن - تشو - كان:

تزداد ازدحامًا والناس يزدادون عصبية. في التبت يُمكنك أن تمشي مسافات طويلة إلى أن تلقى إنسانًا ودعني أؤكد لك أنّ هذا يجعل النفوس رحبة هادئة..

رفعت:

في زيارتك القادمة أعدك أن نقتل مليون مواطن كي تجد الأمور مناسبة لك.. هل جئت للعمل؟

هن - تشو - كان:

للعمل نعم. لكن ليس في شئون البيزنس.. نوع آخر من العمل. كنت مع الملحق الثقافي الصيني صباح اليوم، وقد طلبت منه قائمة من الأشياء..

رفعت:

لا تبدو راغبًا في شرح المزيد.. لهذا لن أسأل..

هن - تشو - كان:

لم أقل هذا.. على الأرجح سأشرح لك كل شيء.. أنت تعرف عني قدر ما أعرفه عن نفسي.. بالواقع أنت أعلم الناس بأمري على وجه الأرض في اللحظة الحالية. وأنت الوحيد الذي يصدّق..

رفعت:

أؤكد لك أنني لا أريد أن أثقل عليك.. هلمّ انس الأمر برمته أرجوك.. قدم لي هذه الخدمة ولا تحك لأن ضميري سيؤنبني فعلًا..

هن - تشو - كان:

لكن.....

رفعت:

والآن هل ستقيم في داري؟.. أنا أرحب بهذا بشرط أن تتنازل عن التمارين الليلية التي تزعج جيراني وتجعلهم يطلبون الشرطة.. لا شك أنك لم تتخل عنها لحظة.. أرى من تكوين جسدك المتحفز كالنمر أنك لم تفقد شيئًا من لياقتك. أنت تتدرب بانتظام..

هن - تشو - كان:

لياقتي الجسدية جزء من ديني يا (ريفاات).. جزء من فهمي للطبيعة والتحامي بها..

رفعت:

نعم.. نعم.. لو كانت في عقيدتكم جنة ونار فأنا حطب جهنم إذن.. لا يمكن لهذا الجسد المرهق المستهلك أن يدخل جنتكم ولكن لم تقل لي هل ستقيم عندي أم لا..

هن - تشو - كان:

أنا أقيم في فندق يا (ريفاات).. تعرف أنني اعتدت هذا منذ عدت للتبت.. لن أثقل عليك.. وقت التدريب أذهب لمكان مقفر لا عيون فيه، وأمارس التدريب، وأقرأ الشوكارا..

رفعت:

جميل.. جميل.. ثق أني أشعر بحسرة لأنك لم تقم في بيتي.. إنني حزين جدًّا وإن كان وجهي من الطراز الذي لا يعكس الحزن جيدًا.. هل ترى أن نخرج لتناول العشاء في مكان ما؟

هن - تشو - كان:

أرحب بهذا يا (ريفاات).

✶ ✶ ✶

(صخب الطعم)

رفعت:

ألاحظ أنك لا تأكل تقريبًا.. لم تمس الدجاج واكتفيت بشرب كوب من الماء..

هن - تشو - كان:

السبب أن الظلام يفعم قلبي عندما يفعم الظلام قلبي يضغط على أحشائي فلا أقدر على ابتلاع لقمة..

رفعت:

يا ساتر.. إلى هذا الحد؟.. هذا يؤهلك للتفوق في مادة البلاغة الأدبية، والرسوب في مادة التشريح هل يمكن أن تعطى تلميحًا عن السبب.. بلا تفاصيل..

هن - تشو- كان:

السبب هو أن العمر يتقدم، وأنا وحيد.. لم أنقل خبراتي لأحد ولم أعلم (نافاراي) جديدًا.. أنا النافاراي الأخير ومن بعدي لا شيء.. كأنهم لم يوجدوا قط...

رفعت:

إحم.. هل ما فهمته من كلامك هو حاجتك إلى الزواج أخيرًا؟.. هل جئت مصر تبحث عن عروس؟.. وكم من الفتيات المصريات ستقبل أن تتزوج كاهن نافاراي متقاعدًا في رأيك؟

هن - تشو - كان:

لا.. لا تنظروا لهن يا أناندا..لا تكلموهن يا أناندا.. لم أنس كلمات جوتاما.. النافاراي أو من نذر نفسه ليكون نافاراي لا يتزوج.. أنا أبحث عن ابن روحي.. عن تلميذ...

رفعت:

جميل جدًّا.. يمكن أن تجد هذا الشخص في التبت.. إنّه سيحمل ثقافتك وخلفيتك الاجتماعية..

هن - تشو - كان:

ليس الأمر بهذه السهولة.. على كل حال ليست هذه هي المشكلة الكبرى.. المشكلة الكبرى هي أن الأخ (ميانج) يزورني كثيرًا في المنام.. الأخ (ميانج) الذي علمني كل شيء في حياتي السابقة..

رفعت:

حياتك السابقة كلام غير دقيق.. فأنت لست تناسخًا وفي رأيي أنه لا وجود للتناسخ أصلًا.. لنقل: في الماضي...

هن - تشو - كان:

حسن.. يزورني بإلحاح يطالبني بأن أبحث في كتاب شوكارا.. يلقنني أماكن حروف معينة.. إن الشوكارا مكتوبة بلغة تبتية قديمة جدًّا تختلف عن اللغة المركزية المستعملة في (لهاسا)، وأنا أفهم الشفرة التي يحاول نقلها لي وإن كنت لم أدرك معناها.. لكنه في كلّ مرّة ينهي رسالته طالبًا مني أن أسأل الكاهن (شوتار - ما).

رفعت:

ولماذا لا يقول ما يريد بوضوح؟

هن - تشو - كان:

كل الأطياف تتصرف بهذا الشكل.. أعتقد أن على كلامهم رقابة شديدة تمنعهم من التصريح.. بل التلميح. هذا شيء كعالم الأحلام حيث يعطيك الحلم رموزًا غامضة تشير للحقيقة بوضوح لو استطعت فهمها..

رفعت:

وأنت سألت هذا الكاهن.. ما كان اسمه؟

هن - تشو - كان:

(شوتار - ما).. إنّه كاهن دير (نييِنجما).. قرب ناجتشو.. قال لي إن الجواب عن سؤالي يكمن في حياتي الثانية وعالمي الثاني... طبعًا هو لا يعرف حرفًا عن الموضوع.. لقد تأمل فحلم بالإجابة. لا أكثر..

رفعت:

أي أنه لا يعرف الجواب.. فقط يعرف من يعرف الجواب.. هذا يعقد الأمور أكثر.. وما هو الضرر من تجاهل هذه الرسالة الغامضة؟

هن - تشو - كان:

يقول الأخ (ميانج) إن الإجابة قد تعني مستقبل عالمنا كله!

- 3 -

كنت جالسًا مع (هن - تشو - كان) في ذلك المطعم الفاخر الصغير في وسط القاهرة. إنّه أقرب لمكان ضيق يعرف زبائنه جيدًا. خافت الإضاءة مع موسيقا هادئة، ومجموعة من الزبائن الغربيين غالبًا.. هناك جو حميم أحبه في هذا المكان، لكنه باهظ الأسعار فعلًا فلا أقدر أن أجعل هذه عادة..

ما زال (هن - تشو - كان) هو الكاهن الأخير.. لا يشيخ أبدًا وهو مشدود كوتر القوس منتصب القامة، يوحي بشيء من التوتر والعصبية برغم أنني أعرف أنه آخر شخص يمكن أن تنطبق عليه صفة العصبية.. إنّه هادئ كاللبن الرائب يتأمل كل شيء ويحاول أن يغوص في الكائنات والموجودات. عندما تحط ذبابة على ساعدك فهي ذبابة.. بالنسبة له هي أخته في الوجود، وهو يحاول فهم كيف تتحد جزيئاتها لصنع هذه المعجزة...

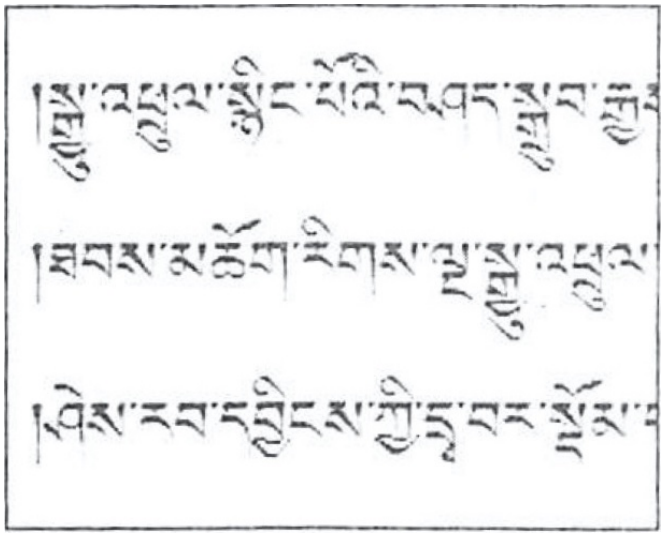
كما قلت من قبل، هو متأنق جدًّا في ثيابه يذكرك أكثر شيء برجل أعمال ناجح من (هونج كونج)، فلا يمكن أن يتصوّر أحد منظره عندما رأيته أول مرة في قريتي. بالأحرى لن يتصور أحد منظره في عالمه بالثياب القديمة والضفيرة على كتفه. إن له ذيل حصان قصيرًا الآن لأن الموضة صارت تسمح بهذا نوعًا، لكنه ما زال عصريًا جدًّا.. وبالطبع يضع النظارة السوداء على عينيه فيبدو باردًا مسيطرًا، بينما أنا أعرف أن عينيه قلقتان سريعتا الحركة كعيني الحرباء أعرف كذلك أنه يثبت كتاب الشوكارا المغلف بكيس من المشمع إلى جسده بشريط لاصق. لا يثق بخزائن الأرض كي يتركه فيها وهو كذلك لا يثق بمن ينسخه له..

كنا جالسين.. هو لا يأكل، ويتكلم حاكيًا عن معضلته تلك التي لم أتبين أبعادها بعد. لا توجد معضلة على قدر علمي تجعلك تشد الرحال من التبت إلى هنا خصيصًا.

سألته وأنا أمسح فمي بالمنشفة:

- «ليكن.. نحن في خطر داهم كالعادة. هل توصلت لشيءٍ من هذه الحروف؟»

مد يده يبحث في جيب سترته ثم أخرج ورقة مطوية، فتحها فوجدت عليها كتابة بلغة التبت جميلة جدًّا.. قطعة زخرفية رائعة تصلح لسجادة ممتازة. لكني أعرف هذه الكتابات الآسيوية.. تذكر تلك الصحفية الأمريكية التي رأت حروف صينية جميلة في قائمة مطعم، فصورتها وطبعتها على قميص لها، ثم اكتشفت عندما سافرت للصين أن النص يقول: رخيصة لكنّها شهية!!



ووجدت أنه أضاف علامات بالقلم الأحمر ليحدد حروفا بعينها..

لم أفهم شيئًا فقال لي:

- «هذه من قواعد الأجرومية في لغة التبت القديمة.. بعض الحروف كانت تنطق في آخر الكلمات ثم اختفت.. لنقل إن..» - ثم رأى نظرة الغباء في عيني فقرر أن يختصر - «المهم دعك من هذا.. ما يحاول الأخ ميانج نقله لي هو رسالة بسيطة تتلخص في الحروف اللاتينية ITFL أو الأوساط المماثلة لها في أية لغة..»

حككت صلعتي مفكرًا وعبثت بالملعقة في طبقي:

- «هذا اختصار شهير في اللغة الإنجليزية معناي (على خط النار In The Firing Line)..»

نظر لي واتسعت عيناه ونظر للورقة ثم هتف في انتصار:

- «أنت عبقري يا (ريفاات).. هذا هو الحل فعلًا..»

ثم بدت عليه خيبة الأمل من جديد:

- «ولكن لا معنى لهذا..»

قلت باسمًا:

- «ومن قال إن الأخ (ميانج) سيكلمك بالإنجليزية؟.. لم لا يكون لهذه الحروف معنى في لغة التبت؟»

- «لا معنى لها... أؤكد لك هذا الجواب يكمن في لغة أخرى..»

أخرجت قلمي وورقة صغيرة وخططت الحروف عليها ورحت أفكر، ثم قلت له:

- «الجواب عن سؤالك يكمن في حياتك الثانية وعالمك الثاني. نحن إذن نتحدث عن مصر ألم تفكر في تحويل هذه الحروف لما يقابلها بالعربية؟»

- «نعم.. لم أفكر في هذا..»

كتبت بالقلم (إت ف ل)... إتفل!.. أعتقد أن الأمر يتعلق بالبصاق، لكني لا أتخيّل ذلك الكاهن (الهايف) الذي يظهر طيفه في المنام بعد قرون ليطلب من أتباعه أن يبصقوا.. أعتقد أن نظرية (على خط النار) أقرب للعقل..

ولكن.. ماذا لو كانت الألف هي (ياء)؟.. لا يوجد تشكيل في الإنجليزية، ويعتمد الأمر على شكل الحرف.. ماذا لو كانت الكلمة هي (ت ف ل)؟.. هكذا صار البصق مضارعًا بد من فعل الأمر.. هذا يجعل الأمور أوضح..

ثم خطر لي من جديد أن حرفي (الطاء) و(التاء) واحد في الإنجليزية ولعلهما كذلك في لغة التبت.. تكون الكلمة إذن هي (ي ط ف ل)..

كنت أحب ألعاب الجناس التصحيفي أو الـ Anagram هذه طيلة حياتي..

هنا بدا الأمر واضحًا أكثر..

طفيل.. الكلمة هي (طفيل)...

صحيح أنه لا يوجد تشكيل الكلمة، ومن الصعب أن أعتبرها كذلك وقد كتبت بهذه البساطة، لكن لا يوجد حل آخر.. شفرة الأخ ميانج بحثت عن مخرج لها فاختارت العربيّة، ومن الواضح أنها اختارتني كذلك...

قلت لـ (هن - تشو - كان) وأنا أكتب الكلمة بحروف كبيرة:

- «أعتقد أنه يتكلم عن طفيل.. يبدو هذا غريبًا لكنه أعطاك المفتاح.. لا يمكن فهم رسالته الغامضة إلا في بلدك الثاني.. أنت في مصر وأنا أقول لك إن هذا هو الاحتمال الوحيد.. لا يمكن أن تكون الكلمة (لطيف) أو (فتيل) أو (فليت)..»

- «ما معنى (طفيل) يا ريفات؟»

يتكلم كالأطفال فعلًا، وهذا جزء من جاذبيته الخاصّة يستطيع قتل ثلاثين رجلًا مسلحًا لكنه يظل طفلًا محتاجًا للحماية والتعليم. هكذا رحت أشرح له:

- «هو كائن يعيش ويتغذى على كائن آخر، ولا يساعده على الحياة... أو هو الشخص الذي يستغل كرم الآخرين ولا يقدم لهم شيئًا بالمقابل. في العربيّة الطفيلي هو الشخص الذي يدعو نفسه

لكل مأدبة، ومن الغريب أنّ هذا أصل الكلمة الإغريقية أيضًا.. بارازيتوس parasitos هو ضيف العشاء المحترف الذي لا يقدم شيئًا سوى تسلية الأغنياء.. هل يدق هذا جرسًا في ذاكرتك؟»

- «لا...»

ثم حك رأسه في قلق:

- «الأخ ميانج ينذرني من طفيل.. بعد كل هذه الأعوام يأتي ليقول هذا.. لابد أن الأمر شديد الخطر..»

- «وربما كنت أنت لا تتدثر بالغطاء جيدًا في نومك.. هذا تفسير مريح للجميع..»

كان حائرًا فعلًا وشعرت بشفقة لا شك فيها تجاهه.. ضائع في خواطره الخاصّة.. لابد أن إجلاله لهذا الميانج كان عظيمًا..

سألته وأنا أشير طالبًا الحساب، داعيا الله ألا تصيبني سكتة قلبيّة من الرقم:

- «ماذا تنوي عمله؟.. ما هي بداية الخيط؟... هل جئت مصر تبحث عن طفيل؟.. يبدو أنه سيكون عليك زيارة أقرب عيادة طبية للتحاليل.. سوف تجد الكثير من البلهارسيا والأسكاريس..»

لم يفهم الدعابة طبعًا وقال وهو يتأمل طبقه الذي لم يمس:

- «سأنتظر.. سوف أواصل بحثي.. لو كان هناك من يجيد اللغة التبتية القديمة على ظهر الكوكب فهو أنا.. لكني ما زلت أحتاج للصينيين في فهم التفاصيل. لهذا أتردد على الملحق الثقافي.. أتوقع بعض المراسلات المهمة..»

هنا شهقت وقد رأيت الحساب..

بيني وبينك أعتقد أن الطفيليين عباقرة.. يجب أن تكون مثلهم كي تعيش في عالم متضخم باهظ الثمن كهذا..

- 4 -

(مركز إليجانس مركز تجاري كبير في وسط البلد - بدأ المكان يزدحم بالزبائن مع اقتراب الليل)

نادين:

السابعة والنصف.. كالعادة تتأخرين يا (مي).. لو كانت هناك حقيقة مؤكدة بصددك فهي أن مواعيدك فاسدة تمامًا..

مي:

نحن في القاهرة يا حبيبتي.. لا يمكن أن تكوني في أي مكان في الوقت الذي تريدين، دعك من أننا مصريتان ولسنا ألمانيتين.. أراهن أنك تأخرت ساعة على (هناء) لدى تسلم الوردية..

نادين:

اسأليها.. والآن يجب أن أنصرف..

مي:

هل من مشاكل أو أشياء مختفية كالعادة؟

نادين:

لا.. يبدو أن المصابين بالكلبتومانيا صاروا أقل من المعتاد..

مي:

كلبتو ماذا؟...

نادين:

كلبتومانيا.. جنون السرقة.. السيدة الثرية التي لا تقاوم أن تدس زجاجة شامبو أو قميصًا داخليًا في حقيبتها وهي في المتجر إنهن غالبًا سبب خراب بيوتنا نحن البائعات البائسات..

مي:

مشكلتك أنك مثقفة أكثر مما تحتاج له مهنة كهذه.. إن خريجة كلية علوم مثلك لا يجب أن تكون هنا.

نادين:

ليست كل خريجات كلية العلوم مطلقات عليهن إعاشة أنفسهن وطفلهن وأهلهن المسنين.. والآن سلام..

مي:

سلام..

✶ ✶ ✶

(درج منعزل معدني يستخدمه العاملون كثيرًا لتجنب الزحام داخل المحل)

مروان:

نادين!

نادين:

مروان؟.. ماذا جاء بك هنا؟

مروان:

كنت أنتظر انتهاء نوبتجيتك، وأعرف أنك تستعملين هذا الدرج..

نادين:

طريقة غريبة.. ليست بطريقة جنتلمان، لكن من قال إنك كذلك؟.. أعتقد أن قصتنا انتهت وقد مر على طلاقنا عام أرجو أن تتركني.. الرجل لا يحاصر مطلقته في درج منعزل ليكلمها عن العودة له..

مروان:

قولي لي طريقة واحدة أتكلم بها، وأنت ترفضين الرد على الهاتف، وتوشكين على استدعاء الأمن لي لو كلمتك في ساعات العمل.. الأسبوع الماضي أوشك المارَّة على الفتك بي عندما كلمتك في الشارع. أنت تدفعين الرجل لأكثر التصرفات جنونًا وخبالًا..

نادين:

جنونًا وخبالًا.. كأنك كنت ملاكًا قبل انفصالنا.. أنت تعرف أن الدجاجة والأرنب لن يتأقلما أبدًا ولا يمكن أن تفترض أنهما سيعتادان بعضهما مهما حاولت.. أحدنا كان دجاجة والآخر أرنبًا.. من

سوء الحظ فعلًا أننا أنجبنا طفلًا.. حسبت أن الأرنب لا ينجب من دجاجة أبدًا..

مروان:

ربما لو أعطيناهما فرصة أخرى..

نادين:

أنت جربت الفرصة الأخرى مرّتين، وفي كلّ مرّة كانت طبيعتك العدوانية الغيور غير الواثقة بالنفس تبرز للسطح.. صدقني لقد تصرفنا بحكمة للمرة الأولى... والآن أفسح الطريق من فضلك..

مروان:

ليست لي حياة من بعدك.. أنت تتلذذين بهذا.. تتلذذين بالمهندس الناضج الذي يتوسل لك كي تعودي له.. أنا غير ناضج وغير واثق من نفسي؟.. وعليَّ أن أقبل هذه الإهانات..

نادين:

يجب أن تقبل الحقائق لو كنت ناضجًا كما تقول..

مروان:

لا أقبلها.. تقولين إنني غير ناضج وغير عدواني.. جميل.. جئت كي أثبت لك أنك عبقرية.. (يلوح بالمدية) اشتريتها أمس...

نادين:

لابد أنك مجنون.

مروان:

أنت تكررين نفسك بلا توقف.. ظننت أنك ستقولين شيئًا جديدًا... أنا بالفعل مجنون ولو لم تذهبي معي حالًا لنكتب عقد زواج جديدًا فلسوف ينتهي كل شيء هنا. نهاية محزنة جدًّا.. شابة حسناء ممزقة الحنجرة ترقد في المشرحة، ومهندس شاب واعد ينتظر الإعدام، وطفل يتيم في الثالثة من عمره.. شاعري.. أليس كذلك؟

نادين:

قلت لك أن تبتعد عني.. سأصرخ!

مروان:

هذا مؤكد!.. لكن كم من الوقت سوف يستغرقونه في الوصول إلى هنا؟.. سيكون عندي الوقت الكافي كي أجهد ذراعي طعنًا.. جربي أن تصرخي فهذا سيبدأ إشعال الفتيل وعندها...

نادين:

مروان.. دع هذا الخنجر وتكلم بعقلانية..

مروان:

أراهن أنك لا تعرفين الفارق بين الخنجر والمطواة والسكين أنت ساذجة جدًّا تحاولين لعب دور الفتاة القوية الواثقة.. لكن.. هيهات..

نادين:

لا أحاول لعب أي شيء.. أريد أن أعيش بسلام.. فقط ابتعد..

(يظهر ذلك الشاب النحيل الذي يحمل طابع الآسيويين قادمًا من أعلى الدرج المعدني):

ساعدني يا أستاذ...

مروان:

لا أعتقد أنه يفهم حرفًا.. من الواضح أنه ياباني أو صيني اسمع يا سيد.. مستر.. جو أويي.. أنا بطل مصارعة قديم ومجنون كالكلب المسعور.. آيام كريزي هل تفهم هذا؟.. مايند يور بيزنس.. هل تفهم الإنجليزية يا أحمق؟.. مالك تنظر لي كتمثال؟. هه؟.. ما هذا؟

- 5 -

عندما تغرب الشمس وتلطخ دماؤها ثوب المساء الأزرق..

عندئذٍ يبدأ فجر النافاراي..

✶ ✶ ✶

التقاليد هي عماد التحضر..

ولم يكن (هن - تشو - كان) ينوي التخلي عن التقاليد ولا البروتوكول الذي تعلمه، برغم أن الأمر كان مُضحكًا بالنسبة له.. لقد واجه تهديدات من ذباب وبعوض أخطر من هذا التهديد بمراحل.. إن فرصة شخص وحيد لا يعرف السارايانا ولا يحمل سلاحًا ناريًا معدومة تمامًا إذا واجه الكاهن الأخير.؟

ليكن.. التقاليد هي التقاليد:

- «تشا سارايانا!»

قالها وهو يباعد ما بين ساقيه ليتخذ قاعدة ارتكاز واسعة برغم ضيق المكان.

- «جوانغ سارايانا!»

قالها وهو يفتح ذراعيه مباعدًا بين أصابعه، حتى تحول إلى نمر آدمي يوشك على الوثب..

- «كيوه سارايانا!»

يقولها وهو يرجع رأسه للخلف لأقصى حد..

من كانوا معنا منذ البداية يعرفون معنى هذا الاستعراض الغريب.. إنها الصرخات الثلاث التي يحتمها قانون (النافاراي) قبل الالتحام. لقد انتهى الدفاع السلبي (رانجانا) ليتحول إلى (السارايانا). سأبدأ السارايانا.. احترس من السارايانا.. إليك بالسارايانا..

برغم كل شيء وبرغم الالتزام بالتقاليد فهو غير عادل، لأن الطرف الآخر لا يفهم شيئًا بل يظل يراقب الموقف كالأبله حتى يبدأ كل شيء..

في اللحظة التالية ينطلق الفتى كالسهم الذي انطلق من قوسه لا يُمكنك أبدًا فهم ما يجري بل لابد أن تصوره وتراه بالسرعة البطيئة بطريقة كادر كادر.. إن التركيز أولًا على المدية التي طارت من ذراع الرجل في لحظة، ثم يهوى سيف اليد على موضع من مواضيع (الكارفا) التي تؤدي لفقدان الوعي..

لكن الرجل يتماسك.. إنّه قوي حقًّا يوجه قبضته نحو الكاهن الأخير فلا يضرب سوى الهواء، لأنّه يتعامل مع أستاذ في تفادي الضربات.. الضربة التالية يصعب وصفها لكنّها تمت بكعب القدم اليسرى..

في النهاية تكوم المهندس فاقد الوعي على الدرج، وكما تقضى التقاليد وقف الكاهن الأخير وقفة شبه عسكرية وصاح:

- «سوان هاتشاه سارايانا!»

أي (أنذرتك أنني سأستعمل السارايانا).. في 99% من الحالات لا يكون هناك خصم آخر يسمع هذا الاعتذار.. دائمًا ما يكون مذهولًا أو مشلولًا أو فاقد الوعي أو مقتولًا..

صرخت (نادين) وهي ترتجف:

- «هل.. هل مات؟»

قال وهو يمد يده لها:

- «لا.. هو فقد الوعي لا أكثر.. أنا أضرب (سيئ)..»

تراجعت للخلف أكثر، وصاحت:

- «من أنت؟.. لا يمكن أن تكون بشرًا.. لم أر من قبل من يقاتل بهذه الطريقة وبهذه السرعة..»

اضطر أن يكذب فقال وهو يمد لها يده ثانية:

- «كل الصينيين تقريبًا مثلي.. نحن نجيد الكونج فو كأنه في دمنا منذ ولدنا..»

هكذا راحا يهبطان في الدرج مسرعين وهي لا تكف عن النهنهة حتى صارا في الشارع الذي ملأته أضواء المساء.

أمكنها للمرة الأولى أن تدقق في منقذها: هو آسيوي فعلًا لكنه شديد الوسامة، له وجه مريح.. متأنق جدًّا وله ابتسامة فيها شيء من الخجل..

قال لها:

- «أنت بخير؟»

- «بخير..»

هزّ رأسه واستدار ليبتعد كأنه لم يفعل شيئًا على الإطلاق الرجل الذي يعيد للمرأة منديلها الذي سقط منها يتصرّف كأنه فارس من القرون الوسطى ويلاحقها بلا توقف، ويتوقع أن تهيم بحبه.. لكن هذا.. لقد أنقذ حياتها ولا يبدو أنه يلاحظ هذا..

هتفت تناديه في ذعر:

- «انتظر!!.. ترحل!»

استدار ورفع حاجبيه متسائلًا... فقالت وهي تجفف دموعها:

- «أنا مرتبكة وفاقدة توازني بالكامل.. هلا جلسنا في مكان ما؟»

✶ ✶ ✶

عندما مر النادل جوارهما تعثر في قدم امرأة، وطارت الصحفة التي يحملها والتي كانت تحمل مجموعة من الكئوس والأكواب، وكما توقعت الفتاة، وجدت الصحفة في يد منقذها الأسيوي بعد ربع ثانية.. لقد التقطها قبل أن تسقط ومن دون أن تسيل قطرة واحدة.. لم ترَ هذا المشهد سوى مرة واحدة في السيرك، وتبين أن اللاعب ألصق الكئوس بالصينية وما فيها من سائل مزيف..

قالت له في دهشة:

- «هل ترى؟.. انعكاساتك سريعة جدًّا.. قرأت ذات مرة قصة خيال علمي لـ (ه. ج. ويلز) ابتكر فيها البطل دواء يمنحه سرعة الانعكاسات هذه.. هل أنت متأكد من أنك لست ذلك الرجل؟»

كان يعاني رغبة جامحة في الفرار.. لا تروهن يا أناندا.. لا تحدثوهن يا أناندا.. وإذا تحدّثت إليك واحدة منهن فلا تكترث لما تقول يا أناندا...

لكنه اعتبر جلسته هذه جزءًا من إنقاذ الفتاة.. عملية الإنقاذ لم تكتمل بعد. الحقيقة أنه برغم خبراته الكثيرة لم يتعامل مع فتيات كثيرات في حياته، لهذا كان أقرب للارتباك لا يعرف ما يقول.. فقط شعر بجزء من روحه يذوب في هذا الينبوع الرقراق المُسكر.. إنها جميلة فعلًا برغم أنها لا تتماشى مع مقاييسه عن الجمال (التي لم يعلنها لنفسه قط) ومنها النحول الشديد واللون الأبيض كالثلج..

قال لها وهو يعبث بالملعقة:

- «أنت تبالغين.. قلت لك إن كل الصينيين بارعون في الكونج فو.. والكونج فو يمنح جسدك قدرات تبدو للعامة غير عادية.. اللفظة نفسها تعني بلغة الماندارين (الإنجاز البشري). والآن ماذا

تنوين عمله مع مطلقك هنا؟»

قالت في غير اكتراث:

- «لا أعرف إن كان بالفعل قد انتوى تنفيذ تهديده للنهاية، لكني سأبلغ الشرطة.. فقط دعنا من هذا وقل لي سبب إجادتك للعربية بهذا الشكل..»

يا للكذب!.. لابد من كذبة تدعم كذبة تدعم كذبة.. رجل الأعمال الصيني القادم من هونج كونج لدراسة السوق المصري توطئة لتصدير أقلام.. كلام فارغ لكنه كاف..

- «وهل جئت إلى متجرنا من أجل البيزنس كذلك؟»

هذا هو السؤال الذي لا يملك إجابة عنه..

النداء... النداء المبهم..

في السابعة مساء كان في فراشه بالفندق متيقظًا.. فجأة شعر بأنه يريد مغادرة الفندق.. يريد المشي في شوارع القاهرة مع ميلاد الظلام.. يريد دخول هذا المتجر بالذات.. في الطابق الثالث رأى ذلك الرجل يجتاز الباب خلسة وهو يتأكد من أن أحدًا لم يره، ثم بعد ربع ساعة رآها تجتاز نفس الباب فخمن ما سيحدث تقريبًا.. طبعًا سيناريو الزوج المنتقم لم يكن في ذهنه وقتها..

لكن ليس هذا هو السبب. النداء الغامض لم يكن لإنقاذ المرأة فهو لا يملك حاسة الاستبصار ولا أي نوع من الحواس الفائقة تلك.. ما جاء به هنا هو نداء من الأخ ميانج بالذات..

نداء من أجل الأمر الذي جاء به من التبت.. أمّا إنقاذه للفتاة فلا شك أنه صدفة..

إنه النداء.....

لكن ما هو؟

- 6 -

رفعت:

عم تفتش في الصحيفة يا (هن - تشو)؟

هن - تشو - كان:

لا أدري. لو وجدت ما أريد لعرفته على الفور.. إن لغتكم المكتوبة صعبة جدًّا بالنسبة لي.. أشعر كأنني أتأمل نقوشًا.. إنها تشبه.. تشبه..

رفعت (بخبث):

تشبه لغة (التبت)!.. أليس كذلك؟.. هل تريد أن أقرأ لك شيئًا؟

هن - تشو - كان:

هل من خبر عن ذلك الرجل الذي ضربته.. المتجر في وسط المدينة الذي....؟

رفعت:

أفهم.. أفهم.. أشياء كهذه لا تنشر في الصحف فأنت لم تقتله.. الصحف لا تنشر خبرًا عن كل من يتلقى (علقة) في مصر.. ناولني الجريدة. هل ما زلت ترى تلك المرأة؟ نسيت اسمها..

هن - تشو - كان:

نادين.. اسمها نادين.. هي تتصل بي من حين لآخر..

رفعت:

أعرف.. السبب أنها تتصل بي أنا في كلّ مرّة.. وفي كلّ مرّة آسف يا سيدتي.. هو لا يقيم هنا لكني سأبلغه..

هن - تشو - كان:

آسف.. ليس لديَّ رقم هاتف في القاهرة سوى الفندق أعتقد أن رقم هاتفك أكثر فعالية..

رفعت:

بيني وبينك.. هل تتوقع أي خطر عليها؟.. لقد انتهت فصول القصة، وما أحسب اهتمامك بها إلا ذريعة للاتصال بها. في الأفلام العربيّة القديمة مقطع حوار متكرر، هو أن يقول صاحب البطل للبطل في خبث أبله: «آه ه!.. يبدو أنك وقعت يا بطل!» يخيّل لي أنّ هذا ما أريد قوله يخيّل لي كذلك أن جوتاما والأخ (أناندا) لن يرضيا عنك كثيرًا..

هن - تشو - كان:

كف عن السخف يا (ريفاات) أنت تعرف أن النساء لا مكان لهن في حياتي..

رفعت:

لكن لك مكانًا في حياتهن.. هذه الأخت لا تتصل لأنهّا خائفة من طليقها وأنت تعرف هذا على كل حال دعنا من هذا السخف.. فلندع الخلق للخالق كما يقول العرب، أو عش ودع غيرك يعش كما يقول الغربيون.. هذه هي صفحة الحوادث.. لا يوجد شيء... الذبح المعتاد والحرق والسطو المسلح. هذا يوم هادئ جميل.. لكن.....

هن - تشو - كان:

ماذا هنالك؟

رفعت:

هناك جثة وجدوها في موضع قريب جدًّا من ذلك المتجر التحقيقات جارية.. متأكدون من أنها نوبة قلبيّة عادية جدًّا الرجل في العقد الثالث من العمر. متأكد من أنك لم تقتل ذلك الزوج الكليم؟

هن - تشو - كان:

طبعًا.. أنا أتحكم في أعصابي وضرباتي جيدًا.. لقد انتقيت موضعي (كارفا) ممتازين.. أنا أضرب (سيئ)..

رفعت:

أعرف هذا.. أعرفه برغم إصرارك على عدم نصب المفعول به.. لكن أؤكد لك أنه لو كان اسم المتوفي (مروان) فأنت في ورطة حقيقيّة.. لحظة.. إن بياناته هنا فقد كانت أوراقه معه اسمه (عباس الفقي).. محاسب.. يبدو أنك نجوت هذه المرّة.. لكن هل هذا هو الخبر الذي كنت تبحث عنه؟

هن - تشو - كان:

لا أدري.. إن النداء يلح على رأسي.. شيء ما في هذا المتجر.. في كل ليلة أشعر برغبة جهنمية في الذهاب هناك كأن الأخ (ميانج) نفسه يأخذني من يدي ليلقى بي هناك.. لو كان شيء سيحدث فلسوف يحدث في تلك البقعة.. لو كان عليّ أن أخاف شيئًا فهو في ذلك المكان..

(ريفاات).. هل يُمكنك أن تحصل على معلومات أكثر عن ذلك المتوفي؟.. هل من رأي للأطباء؟.. هل من تشريح؟

رفعت:

هذا ليس رجلًا ناقص الأهلية، وفي 90% من الحالات لا يقبل أهله بالتشريح ما دام السبب واضحًا..

هن - تشو - كان:

حاول أن تعرف..

رفعت:

سأحاول لكن ألا تعتقد أن في الأمر كثيرًا من المبالغة؟.. أعتقد أن حنينك الشديد لبيئتك الأولى قد حرّك هذه الرؤى، لو خرجت للعالم لوجدت الشمس مشرقة والناس يعيشون حياتهم المعتادة.. لا توجد علامات على خطر قريب أو بعيد. إن كتب التبت هذه سوف تنسف عقلك.. هناك عرافة أوكرانية مجنونة اسمها مدام بلافاتسكي Blavatsky ذهبت للتبت وتعلمت الكثير من الرهبان، ثم عادت لتكتب كتابًا اسمه (ديزان) تصورت أن كل أسرار الكون فيه.. صدقني.. الحياة صارت أكثر وضوحًا اليوم..

هن - تشو - كان:

حذار يا (ريفاات).. إن صداقتك تدفعني دفعًا لقبول إهانتك لمعتقداتي، لكن أؤكد لك أن كلامك يؤلم..

رفعت:

معك حق... على المرء أن يحترم عقيدة كل إنسان. لكني أردت مساعدتك وأنت تفهم هذا... في رأيي أن حالتك مزيج من الحنين لبيئتك القديمة والحنين للأنثى.. لا تقل لا فأنت شاب قوي يأكل ويتريض ويتنفس هواء نقيًا وقد خلق له الله هرمونات نشطة.. الحل هو أن تتزوج..

هن - تشو - كان:

أنت لا تفهمني بتاتًا...

رفعت:

وكذا أنت...

هن - تشو - كان:

سأتأمل قليلًا.. كان الكاهن الأعظم يقول لنا: عندما تحتشد في صدرك الكلمات القاسية، فقد حان وقت أن تتحول إلى زهرة لوتس صموت.. فقط الشجرة أحكم من أن تلفظ كلمات قاسية.

رفعت:

حسن.. تأمل كاللوتس أو كالكرنب يا سيدي.. ها هي ذي الأريكة.. انزع حذاءك وتربع.. ولسوف أجرى بعض المكالمات الهاتفية. الحكاية هي أنه لا نفوذ لي في القاهرة لكن صديق عمري (عادل) قد صار من ضباط الداخلية شديدي الأهميّة.. هكذا أعرف أي شيء أريد معرفته في القاهرة عن طريق الاتصال بالإسكندرية.. هل تسمعني؟

هن - تشو - كان:

.....

رفعت:

جميل.. بدأ السيرك مبكرًا اليوم...

- 7 -

أنت تعرف ما يحدث للخفراء الليليين في قصصي فلن أطيل الوصف..

أنت تعرف ما يحدث للخفراء الليليين المطمئنين إلى مسار الحياة..

أنت تعرف ما يحدث للخفراء الليليين الذين يلتهمون الأرز بالكوسة ويحلمون بكوب شاي ثقيل..

عندما انتهت ساعات العمل في المتجر المدعو (إليجانس)، كان (إبراهيم) الخفير الليلي قد أعد كل شيء للسهرة مع صاحبه (مصطفى)...

لقد رحلت البائعات، وتم توريد محتويات الخزينة - وهي تجعله متوترًا بالفعل - حيث أخذها الصراف إلى مكتب المدير الذي يغلق بباب حديدي ثقيل، وفي الصباح تودع في المصرف. لا يمكن الاستيلاء على هذه على الأقل إلا بوساطة فريق من اللصوص المتحمسين الذين يشبهون لصوص الأفلام الأمريكية.. يحمد الله على أن الجريمة في مصر ما زالت ساذجة عفوية بلا تخطيط تقريبًا...

تم إغلاق أقسام المتجر كلها، ودخل دورات المياه يتأكد من عدم وجود مختبئين باعتبار هذه حيلة قديمة جدًّا.. هذه هي طريقة السرقة التي يفهمها ويتوقعها..

هكذا أمكنه أن يغلق معظم الأنوار، ثم جلس هناك جوار المخزن وافترش الأرض في ضوء نيون خافت. إن الجو يسمح بالرقاد على الأرض وإن كان بعض البرد يتسلل لعروقه فجرًا..

جاء (مصطفى) فأشعلا الموقد الصغير، ثم فتح المنديل الذي يحوي حلة الطبيخ الصغيرة وحلة الأرز.. أرسلتها له زوجته عند المغرب. هناك لحم وهذا يجعل الحياة أجمل. من أجل هذه اللحظة يتحمل كل تلك الساعات المملة. هناك ملعقتان والكمية زائدة لأن زوجته تعرف أن مصطفى أعزب ولا أحد يرسل له طعامًا..

هناك بوري صغير يدخنان عليه المعسل وهناك مذياع مضبوط على محطة أم كلثوم. هكذا يمرّ - الليل على كل حال.. وفي الصباح يكون عليه التأكد وصاحبه من إخفاء معالم العشاء والتدخين.. لابد أن المدير يعتقد أنهما يقضيان الليل واقفين متوترين مستعدين لإطلاق النار.. لا وقت للتدخين أو الأكل أو النوم..

الآن.. أنت تعرف ما يحدث للخفراء الليليين الذين يشعر واحد منهم بأنه يريد دخول الحمام..

قال مصطفى وهو يضع كوب الشاي الذي لم يبق فيه سوى بعض (التفل):

- «أريد دخول الحمام..»

يفعل هذا في نفس اللحظة تقريبًا من كل سهرة.. يبدو أنه من المصابين بحالة حادة من الانعكاس المعدي القولوني الذي يرغم صاحبه على دخول الحمام بمجرد أن يأكل لقيمات من الطعام.. العامة تعتقد أن الطعام يدفع بعضه...

ونهض إلى دورة المياه الموجودة في ذات الطابق.. إن معه المفتاح طبعًا.. هكذا أدار المقبض ودخل..

على حين جلس إبراهيم على الأرض يرشف الشاي في استمتاع وهو يصاحب صوت عبد الحليم حافظ في المذياع بصوت خفيض نشاز..

- «قول يا..... أملي..... قول مخبي عليا.. إيييييييييه؟»

من المستحيل أن يقلد النغمة بشكل صحيح، ويبدو أن الأذن الموسيقية والثقافة شيئان متلازمان..

ثم راح يدق على الأرض بكلوة يده ملاحقًا النغمة.. صارت نظراته ناعسة بلا معنى على الإطلاق.. نظرات بقرة شبعانة.. لو كان مصطفي مصابًا بزيادة الانعكاس المعدي القولوني، فهو مصاب بظاهرة التهبيط.. كأن الدم كله هناك في معدته فلم يعد شيء يبلغ مخه..

يريد أن ينام.. لابد من كوب شاي آخر.. كي....

ماذا يفعله مصطفى في الحمام كل هذا الوقت؟

لقد أمضى هناك نصف ساعة بلا مبالغة...

هكذا نهض في الضوء الخافت ودق الباب عدة مرات:

- «مصطفى.. هل توفاك الله؟»

ثم عاد يدندن في صوت نشاز كالنهيق:

- «قول يا..... أملي..... قول مخبي عليا.. إيييييييييه؟»

لا صوت من الداخل.. إن هذا الحمام يصلح لشخص واحد فقط لذا يغلق من الداخل. هكذا واصل دق الباب بعنف أكثر.. لا شيء..

- «مصطفى.. هل نمت أيها الأحمق؟»

الآن صار الأمر خطرًا.. مصطفى شاب والشباب لا يموتون بنوبة قلبيّة مفاجئة في الحمام، لكن الأعمار بيد الله من يدري؟

هكذا ضرب الباب بكتفه.. ثم ضربه بقوّة أكثر.. إن من نشأ نشأة ريفية مثله يعتبر هذه الأمور من صميم كرامته ورجولته لا يقبل الفشل أو أن يطلب عون رجل آخر.. في شبابه كان وأقرانه يتبارون على كسر حزم قصب السكر بضربة واحدة.. الشدة.. أهم شيء..

هكذا نزع الجلباب ليقف بالصديري والكلسون، واستجمع قواه أكثر وضرب الباب بأعنف ما استطاع، فكاد يسقط داخل المرحاض...

لقد انفتح الباب وقد تهشّم جزء منه.. كان يتمسك بالمزلاج وعندما استعاد توازنه كان يوشك على تحطيم المرحاض وهو يتماسك كي لا يسقط عليه. وكان الظلام شبة دامس وإن ساعده الضوء القادم من الخارج من مصباح النيون.

على الأرض كان مصطفى راقدًا بلا حراك..

مصطفى مفتوح العينين شاخص النظرات.. لا يجب أن تتحسس عنقه كي تدرك أنه ميت..

والسبب؟

يعرف يقينًا أنه رأى شيئًا ينساب بين قضبان النافذة المفتوحة النافذة التي لا زجاج لها.. لم يجد الوقت الكافي ليعرف ما هو، وإن خيل له للحظة كأنه يرى أربعة ثعابين تتحرك معًا..

جثا على ركبته في المكان الضيق وتفحص الجثة..

هناك شيء غريب..

خدا مصطفى غائران وجبهته غائرة.. جلده مجعد كأنه فقد وزنًا في وقت قصير باختصار يبدو كأنه ثمرة طماطم اعتصرها أحدهم.

ما معنى هذا؟

لكن (إبراهيم) لم يكن يرى هذا المشهد للمرة الأولى: الفتاة الصغيرة ذات سبع السنوات التي وجدوها في الزقاق الخلفي للمتجر منذ ثلاثة أيام.. كان هناك ميزاب يحفظ محتوياته طيلة اليوم، وكانت الجثة هناك تحته.. وجدها جامع القمامة وحسبها خرقة ملقاة مبتلة. عندما اقترب أدرك أنها طفلة..

كانت جثة فارغة.. لا يعرف كيف يصف المشهد لكنه رآها وحملها بين ذراعيه.. كانت مجوفة فعلًا.. قشرة.. كأن عنكبوتًا عملاق امتص ما فيها من عصارة وحياة..

الآن تحول مصطفى إلى شيء مماثل.. ماذا يدور هنا؟..

فقط كان يعرف يقينًا أن الأمسية انتهت عند هذا الحد، وأنه لن يدخن حجر المعسل أبدًا. سوف يمتلئ المكان بالشرطة خلال ساعة...

- 8 -

(على الهاتف)

عادل:

رفعت.. أيتها المومياء..!.. ألا تنوي أن تموت أبدًا؟

رفعت:

وددت لو فعلت هذا لأسعدك لكن الأمر ليس بيدي. لا أريد أن أعطلك.. هل من أخبار عن.....؟

عادل:

دعك من هذا الهراء هيه؟.. ألا تنوي زيارتي في الإسكندرية؟.. ثق أنك ستجد سيارة بوكس تحت بيتك تحملك حملًا لي.. سوف أعتقلك اعتقالًا...

رفعت:

أ.. (عادل).. أنت تعرف أنني لا أرتاح لعوالم الشرطة هذه أنت من الأسباب النادرة التي تجعلني أتعامل مع أية مديرية أمن. هل وجدت أية أخبار عن تلك الوفاة التي حدثت قرب متجر...؟

عادل:

متجر (إليجانس)؟... في وسط البلد غير بعيد عن شارع 26 يوليو.. أية جريمة تعني؟..

رفعت:

هل هناك الكثير؟.. لا توجد سوى جريمة واحدة..

عادل:

يبدو أنك غائب عن الوعي هذا عهدي بك.. هناك أربع جثث في ذات المربع، حتى أن زملائي في القاهرة أطلقوا على المنطقة (مربع الموت).. كثفوا الدوريات وهناك رجال شرطة سرية أكثر من عدد المواطنين..

رفعت:

هذا غريب.. لم أسمع سوى عن حادثة واحدة..

عادل:

بل هناك أربعة موتى.. آخرهم خفير ليلي في ذات المتجر..

رفعت:

كلهم مات بنوبة قلبيّة؟

عادل:

بيني وبينك هذا ما يُقال للصحافة.. لكن الجثث تحمل طابعًا غريبًا وقد فشل الطبيب الشرعي في فهم شيء.. كل شيء يشير إلى أن الفاعل واحد..

رفعت:

فاعل؟

عادل:

النوبات القلبيّة لا تعتصر الجثة وتخليها من أية عصارة أو حيوية. كل الجثث بدت كأنها حبة ليمون تم اعتصارها بكف مصارع.. شيء قد امتص داخل الجثث ولا أعرف كيف أشرح أنا لم أر شيئًا.. الكلام كلام ضباط القاهرة.. يقولون إن الأمر بدا كأنه عنكبوت فرغ من امتصاص ذبابة..

رفعت:

وكل هذا سر حتى اللحظة؟

عادل:

طبعًا مهمّة الشرطة هي الحفاظ على الاستقرار.. هذا يتضمن الكتمان أحيانًا.. إن الذعر قد يؤدي لأفعال غير مدروسة ولكن لماذا تهتم بأمور كهذه؟

رفعت:

أنت تعرف أن أي شيء عجيب يتدحرج ليسقط في حجري في النهاية.. أنت تعرف أفلام توم وجيرى عندما تسقط صخرة من الفضاء. يعرف القط على الفور أنها ستهوي فوق رأسه هو بالذات، ويقف بانتظارها وهو يدخن..

عادل:

هاهاها ها..!.. ظريف كالعادة يا رفعت!.. لو أنني في القاهرة لالتهمتك التهامًا.. ثق أنني سأنفذ وعيدي بأن أرسل لك البوكس.. ستكون دعابة ظريفة.. هاهاها ها!

رفعت:

ها ها ها.. فعلًا.. هل تسمح لي بوضع السماعة لأصاب بالرعب قليلًا؟.. على فكرة.. ألف شكر..

✶ ✶ ✶

هن - تشو - كان:

هل من أخبار يا ريفات؟

رفعت:

هل من أخبار عندك أنت؟

هن - تشو - كان:

الأخ ميانج يزورني بكثافة غير عادية.. يردد الحروف.. ويردد (اليوم.. اليوم).. هل يدل هذا على شيء؟

رفعت:

أعتقد أنه يدل على أنه يعني اليوم..

هن - تشو - كان:

وماذا يحدث اليوم؟... ثم ما الأخبار عندك أنت؟

رفعت:

كل شيء مطمئن ورائع.. فقط هناك أناس يموتون وتخلو عروقهم وأنسجتهم من أية دماء أو عصارة.. هناك نمط جغرافي معين يجعلهم يموتون في منطقة ذلك المتجر اللعين..

هن - تشو - كان:

هل تعني.. أنّ هناك من يمتص دماء الأحياء مثل (الشيانج شي)..؟ أنت تعرف أن الروح الشريرة فينا تدعى (باي).. لو أن الإنسان مات ميتة شنيعة، أو لم يدفن بالسرعة الكافية، أو استطاعت الحيوانات أن تعبث بقبره، فإن الباي تسيطر على الجسد ويتحول إلى (شيانج شي).. لو مر قط على رأس الميت فإنّه يتحول إلى (شيانج شي)..

رفعت:

صدقني أعرف هذه الأسطورة، لكن لا أصدق أن شيانج شي اختار مصر لقضاء إجازته..

هن - تشو - كان:

وماذا تفكر فيه؟

رفعت:

أفكر في عنكبوت آدمي عملاق.. سيكون هذا جديدًا فعلًا... أفكر في كائن لا يملك القدرة على تصنيع الحياة لنفسه فيمتصها مصًا من أجساد هؤلاء.. مثله مثل حامول البرسيم أو سمكة اللامبري أو حتى دودة الأنكلستوما. أفكر في....

هن - تشو - كان:

تفكر فيما أفكر فيه طبعًا..

رفعت:

أفكر في طفيل..... (هن - تشو - كان).. يبدو أننا نقترب جدًّا من اللغز الذي جاء بك هنا!

- 9 -

جولتنا حول المتجر لم تكن مثمرة جدًّا..

إنه ضخم نسبيًا بالنسبة لعهد ما قبل الانفتاح هذا.. عندما كنا نبتاع الجبن من البقال، ولم يكن أحد يعرف معني (سوبر ماركت) إلا من عاش في الخارج فترة. ولم تكن هناك مولات أو مراكز تسوق، بل هي محلات كبيرة على طراز (هانو) و(صيدناوي)، والفتاة التي تريد التحذلق كانت تذهب لشارع الشواربي لتبتاع سروالًا من (الديولين) الأخضر وبلوزة مشجرة قبيحة المنظر وحذاء ارتفاع كعبه متران.. رباه!.. من الغريب أن الناس كانت تملك هذه الجرأة.. كان من الطبيعي أن ترى شابًا يلبس سروالًا أحمر بلون الطماطم، ضيقًا جدًّا حول الردفين، متسعًا كالفستان حول القدمين...

كنت أقول إننا درنا حول المتجر فكان يحتل ناصيتين، ويحيط به من اليسار والخلف زقاقان غارقان في الماء بسبب المجاري ومياه المزراب..

دخلنا المتجر في السابعة مساء، وكان بالفعل على غرار المحلات الكبرى الخاصّة بالقطاع العام وقتها. هناك طابق للسجاجيد والستائر والأجهزة الكهربية.. طابق للمفروشات والأقمشة والثياب الرجولية.. طابق الثياب الأنثوية.. طابق الألعاب الأطفال وكل ما نسوا وضعه في الطوابق السفلي..

- «كيس!!»

كانت هذه هي الصيحة شبه القتالية التي تقولها بصوت أنفي عميق آمر كل بائعة تنتهي من كتابة أمر الدفع للعميل، فيهرع ذلك الفتى الشاحب يأخذ ما ابتاعه العميل إلى قسم التسليم.

في كل طابق هناك باب خلفي صغير يقود لذلك الدرج المعدني الخاص بالعاملين. وفي كل طابق هناك خزانة يقف أمامها عدد من العملاء الذين.....

- «كيس!!»

.... يريدون الدفع.. ثمّة جو حكومي واضح كأننا في السجل المدني. هذا عصر ما قبل الخصخصة طبعًا، لكن المتجر ليس حكوميًا.. هو فقط يقلد المتاجر الحكومية لأنّه لا يعرف سواها.

في الطابق الثالث كانت (نادين) تقف خلف الكاونتر وتعرض بعض الثياب الأنثوية الحميمة على عميلة متشككة. عرفت أنها هي عندما أشار لها (هن - تشو - كان) بطرف خفي كي يخبرني بأمرها. طبعًا كانت طبيعة عملها تجعل اقتراب الرجال من خامس أو سادس المستحيلات.. من المشين أن يهتم رجل بهذا الجزء من المتجر بالذات.. لا أنكر أنها كانت جميلة سمراء جميلة ممتلئة

قليلًا، كبيرة اليدين، وكنت أحسب هذه مبررات كافية لنفور (هن - تشو - كان).. إنِّه قادم من زمن كانت أيدي وأرجل الفتيات الصغيرات فيه توضع في علب حديدية كي لا تكبر، ونحول الفتاة مقدس عندهم.

لكنها رأت (هن - تشو - كان) فأشرق وجهها، ولوحت بذراعها..

فلتقطع ذراعي أنا إن لم تكن علاقتهما أكثر دفئًا مما يحكيه لي. هذه الشابة يشرق وجهها بالحبّ فعلًا. الوغد الآسيوي لا يحكي لي كل شيء ويعتبرني حمارًا غافلًا.. دعك من أنها تتصرف كأنها اعتادت رؤيته.. ليست هذه أول مرة..

- «كيس!!»

فلمّا تخلصت من عميلتها لحقت بنا ضاحكة. نظرت لي في عدم فهم.. فأنا لست أباه على الأرجح، قال لها بحرج بطريقته شبه العسكرية:

- «هذا ريفاات.. طبيب وصديق عزيز..»

صافحتها في كياسة ثم طلبت منها ألا تترك العمل من أجلنا. فقالت في مرح:

- «اليوم أعمل من السابعة حتى الحادية عشرة مساء.. مواعيد عمل عجيبة فعلًا، لكنّها أفضل من العمل من العاشرة صباحًا حتى السابعة مساء.. هذا يحدث ثلاثة أيام أسبوعيًا..»

في طريقتها رقي لا شك فيه.. جامعية وابنة ناس طيبين كما هو واضح... قلت لها في تردد:

- «لا أعرف كيف.. فهمت أن لديك طفلًا.. و...»

- «في العادة تعنى به أمي أثناء العمل، لكن اليوم قد قررت أن أصحبه معي..»

هنا سمعت صوت الضحكة.. ورأيت الشيطان الصغير الجميل يركض بين الواجهات الزجاجيّة.. لو كان يشبه أباه فأبوه جميل الصورة فعلًا بالطبع إذا تغاضينا عن فكرة أنني لا أحب الأطفال الذين تجعلهم أمهاتهم كالفتيات، وتغطي عيونهن (قصة) من الشعر الأسود، لكني لا أتبين ملامح الأم في وجهه. اسمه (أشرف) فيما علمت.. في الثالثة من عمره وهي سن يحبّها الجميع، لكني عامّة لا أطيق الأطفال في أية سن حاليًا. الطفل اللطيف هو الذي لم يولد. ويبدو أن.....

- «كيس!!»

.. هناك اتفاق غير مكتوب أن يترك الصبي وشأنه. طبعًا لا توجد نقابة هنا تطالب بحضانة لأبناء البائعات.

- «كيس!!»

اتجه (هن - تشو - كان) نحو الطفل، واتخذ وضع الاحتباء وفتح ذراعيه وقال شيئًا ما.. من ثم هرع الطفل إليه وبدأ يصارعه بالقبضتين ثم وجه له لكمة.. رباه!.. سوف يتظاهر بأن الصبي ألقاه أرضًا وهزمه!.. سوف أمنح مالي كله للرجل الذي لا يداعب الأطفال هذه المداعبة السخيفة.

لكن الطفل له رأي مختلف طبعًا.. لقد راح يكركع بالضحك حتى سال الدمع من عينيه..

اتجهت نحو (هن - تشو - كان) الذي ركع على ركبتيه ليبدأ جولة أخرى، وقلت:

- «جميل أن تلاطف الأطفال، لكن ألا ترى أنّ علينا الرحيل؟.. نحن نبحث عن طفيل يحذرنا منه الأخ (ميانج).. لا تنس هذا..»

وجه لكمة ملاطفة للطفل، لكن هذا أدار رأسه لليمين بسرعة فتفاداها.. قال (هن - تشو - كان):

- «هل ترى؟.. علّمته بعضًا من فن التفادي!!»

يبدو لي أن الأمور مرسومة أكثر من اللازم وأنا صرت عجوزًا مخرفًا شديد السذاجة.. هيا بنا يا بني ودعك من هذا السخف...

هز رأسه فأبعد خصلات شعره الأسود التي غطت عينه ونهض بسرعة، وابتسم للطفل ثم أمّه.

قلت له:

- «بالمناسبة.. هناك من مات داخل دورة مياه في هذا المتجر.. هل لديها معلومات عن الموضوع؟»

- «لا تعرف إلا ما ذكرته أنت لي.. عندما جاءت في الصباح كانت الشرطة قد أنهت كل شيء..»

- «أقترح أن نرى دورة المياه تلك.. لعلك واجد فيها شيئًا..»

- «ريفاات.. أنت تتحدّث كأننى وسيط روحي.. أنا لا أملك أية قدرات خارقة للحواس..»

- «لكن الأخ (ميانج) يملك.. ربما يخرج رأسه من المرحاض ويقول لك شيئًا مهمًا.. أعتقد أنه يجب أن يخجل من هو نفسه من هذا الغموض الذي يضعنا فيه.. عليه أن يكون محددًا لقد أوشكت مدرسة الرمز على الاندثار في العالم كله..»

- «قلت لك إنّه ممنوع من التصريح.. هي رموز يتمكّن من تمريرها لعالمنا عبر ثغرات الشفافية التي يمنحها الحلم لي..»

كانت دورة المياه المعنية في الطابق الثاني.. وهكذا انتظرته في الخارج على حين دخل متظاهرًا بأنه يقضى حاجته، وانتظرت في صبر..

ثمّة حركة غير عادية.. هناك جو عام من التوتر.. عمال يروحون ويجيئون، وبائعات يركضن.. هناك رائحة الأدرينالين تتسرب لأنفي بوضوح فلو كنت وحشًا لانقضضت ومزقت الجميع..

- «هذا مغلق كذلك؟»..

- «ونافذة العرض..؟.. رباه.. من الذي؟»

- «الهاتف.. ماذا عن....؟»

ومن مكان ما ظهر المدير.. رجل أشيب له كرش عملاق وسلطة كاسحة ويلف كمي قميصه بكمين صناعيين أسودين لمنعهما من الاتساخ، لا يمكن ألا يكون المدير... كان يحمل دفترا ويبدو متوترًا ومرّ بنا فسمعته يقول:

- «هذه مزحة سخيفة جدًّا.. هل من هاتف يعمل؟»

كان ذلك العامل يمرّ بجواري فاستوقفته وسألته عما يحدث هناك.. نظر حوله كأنه يتأكد من أن المدير لا يسمع، ثم قال:

- «الأبواب انغلقت علينا يا أستاذ.. هناك مجنون حبسنا هنا بلا سبب..!!»

الجزء الثاني:

أسـرى

كنت قد استوعبت الأمر وقدرت أنه شيء من الأشياء التي لا يمكن تفسيرها، والتي اعتدتها في حياتي على كل حال.. أبواب تنغلق تلقائيًا؟.. هذا هو المعتاد وهذا هو إيقاع حياتي أحتاج لوقت أطول من اللازم كي أرى بابًا طبيعيًا مهذبًا..

- 1 -

(داخل المتجر الكبير)

المدير:

هذه مزحة سخيفة.. أين هؤلاء العمال؟

موظف:

لا أجدهم.. والهاتف لا يستجيب..[1]

المدير:

ماذا تعني؟.. هناك من حبسنا هنا وقطع أسلاك الهاتف؟

موظف:

يبدو أنّ هذا ما حدث يا سيدي هذا هو (مختار) الذي يجلس قرب الباب..

مختار:

لا أعرف كيف حدث هذا يا سيدي.. كان هناك طفح المجاري لذا ابتعدنا عن الباب الرئيس منذ بداية الأمسية.. وفجأة منذ خمس دقائق تحرك الباب الزجاجي لينغلق ثم هوى الستار الحديدي من أعلى الستار الذي يغلق من الخارج وبجهد رجلين.

المدير:

قل كلامًا منطقيًا يا أفندي!.. لا تحدثني عن الأبواب التي تنغلق تلقائيًا...

مختار:

هذا ما حدث يا سيدي والله على ما أقول شهيد.. حدث أمام عيوننا.. سل (بيومي) و(سنتريسي)..

المدير:

هناك بابان آخران.. باب العاملين وباب البضاعة..

موظف:

نفس الشيء يا سيدي.. لقد انغلقت الأبواب الثلاثة..

المدير:

تقول أيضًا أن الواجهات الزجاجيّة التي تعرض فيها المعروضات والمانيكانات قد انغلقت؟.. الستار الحديدي نزل على كل واجهة منها..... من الخارج؟

موظف:

نعم يا سيدي..

المدير:

ارفعوها!... يستطيع العمال تهشيم الزجاج ورفع الستائر الحديدية من الداخل.. ليستعملوا أظفارهم لو اقتضى الأمر..

موظف:

سنجرب ذلك يا سيدي...

المدير:

هل من نافذة مفتوحة في مكان ما؟.. ربما استطاع أحدهم التسلق والخروج منها..

موظف:

كل النوافذ مدعمة بالقضبان يا سيدي.. أنت تعرف هذا أفضل مني.. ربما نلقي منها أشياء لكن معظمها يطل على الزقاقين..

المدير:

لابد أن يسترعي انتباه المارَّة أن المحل مغلق وبرغم هذا اللافتات مضاءة وكذا نوافذ الطوابق العليا..

موظف:

للأسف يا سيدي.. الكهربائي يريد أن يخبرك بشيء..

الكهربائي:

لقد قمت بفحص لوحة التوزيع يا سيدي.. بالتأكيد المتجر مظلم تمامًا من الخارج.. من ير المشهد في الشارع سيعتقد أننا أغلقنا المكان مبكرًا.. لن يسأل عنا أحد مؤقتًا.. على الأقل حتى يبلغ أقاربنا الشرطة..

موظف:

لن يبحثوا هنا.. مهما تأخرنا فلن يخمن أحد أننا سجناء في المتجر.. كل واحد سوف يجرب الاتصال ويفشل، من ثم يقرر أن الجميع عادوا لبيوتهم ويبدأ البحث في مكان آخر.. بل أخشى أن يتكرر هذا غدًا.. سوف يفترض الجميع أنّ هناك أسبابًا جعلت المتجر يغلق يومين.. هذا ليس مكانًا حكوميًا...

الكهربائي:

إنها لوحة التوزيع يا سيدي..

المدير:

وهل هذه معضلة؟.. لم لا تقوم بإصلاح اللوحة؟.. هلمّ أعد التيار.. سوف نقوم بفتح النور وغلقه مرارًا وهذا سيجلب انتباه المارَّة لنا...

الكهربائي:

المشكلة هي أنّ هناك تخريبا دقيقًا جدًّا.. هناك أسلاك مدفونة في الجدار تأكلت.. لا يمكن أن أعيد الكهرباء بهذه السهولة، وأحتاج لأشياء من الخارج..

المدير:

لماذا أدفع رواتبكم؟.. هذه من ألغاز الكون.. من الواضح أن أحدًا لا يفعل شيئًا سواي في هذا المتجر.. أريدك أن تختفي لبضع دقائق.. بعدها تعود لي لتخبرني أنك أعدت أسلاك الهاتف وأعدت الكهرباء للواجهة.. بالطبع تعرف أنك مطرود لو لم تفعل..

الكهربائي (بصوت خفيض):

مطرود مطرود.. فقط أخبرني كيف أخرج من هنا ما دمت مطرودًا..

بائعة (في هستيريا):

أستاذ رفاعي.. لا يمكن أن نبقى هنا.. إن بابا سيجن.. سوف يقطع رقبتي لو لم أعد في موعدي.. يجب أن نخرج.

المدير الذي تبين أنه رفاعي:

جميل.. جميل.. يُمكنك الرحيل حالًا.. أنا لا أمنعك..

(يتركها في حالة هلع ويتجه لمكان آخر)

البائعة:

من المجنون الذي فعل ذلك؟.. ولماذا؟

موظف:

الأمر يفوق أفعال مجنون.. كيف استطاع شخص واحد أن يغلق المداخل ويقطع الهاتف والكهرباء بهذه السرعة، ونحن جميعًا موجودون؟

الكهربائي:

لم يفعلها شخص وإنما عفريت.. هناك بسم الله الرحمن الرحيم في هذا المتجر، ويبدو والله أعلم أننا سنموت**!**

- 2 -

كنت أراقب هذا السيرك مفضلًا الصمت..

أول من يتساءل أو ينفعل سوف يتلقى قدرًا لا بأس به من السباب. هناك حالة انفلات أعصاب عامّة يسهل تخيلها والأدهى أن العملاء سوف يبدءون في الهستيريا أيضًا وهذا لن يحسن الأمور..

كنت قد استوعبت الأمر وقدرت أنه شيء من الأشياء التي لا يمكن تفسيرها، والتي اعتدتها في حياتي على كل حال أبواب تنغلق تلقائيًا؟.. هذا هو المعتاد وهذا هو إيقاع حياتي أحتاج لوقت أطول من اللازم كي أرى بابًا طبيعيًا مهذبًا..

لكن السؤال الذي ألح عليَّ هو: لماذا الآن؟.. لماذا هنا؟

خرج (هن - تشو - كان) من الحمام المظلم وهو يجفف يده، ثم قال لي ببراءة:

- «لا شيء!»

قلت في غيظ:

- «استنتاجاتك ممتازة.. لقد جاءت نهاية العالم وأنت في الحمام..»

- «ماذا تعني؟»

ولاحظ على الفور جو التوتر العام الذي أحاط بالمكان.. كان الناس ينزلون من الطابق الرابع كان هناك حريقًا، لكن مع الكثير من التدافع والفوضى.. معظم العاملين تركوا أماكنهم ومن مكان ما انقضت (نادين) على يد ابنها لتحتفظ به في قبضتها..

شرحت له الموقف في ثوان..

نظر لي ونظرت له.. نحن نفهم بعضنا جيدًا.. الأمر يتعلق طبعًا بما جئنا من أجله.. لا شك في هذا..

قال لي همسًا وهو ينتحي جوار جدار:

- «هل تعتقد أن للـ.. للطفيل دورًا في هذا؟»

- «أعتقد.. الأخ ميانج قال لك إنّه اليوم..»

- «ولماذا هنا بالذات؟.. ولماذا الآن؟»

- «هذا هو سؤال حلقة الليلة.. الجائزة هي أن تبقى حيًّا حتى الصباح..»

- «وماذا سيحدث بالضبط؟»

- «لا أدري...»

تقدمني نحو الفتاة (نادين) التي احتضنت ابنها، وملّس على شعر الصبي، ثم قال لها وهو يشير للطابق السفلي:

- «لربما كان من الأفضل أن ننزل..»

سألته في هستيريا وهي ترتجف:

- «ماذا يحدث هنا؟.. هل هو سطو مسلح؟.. هل هناك من يريد سرقتنا؟»

يا لسحر الأنثى التي تتوقع أن الرجل يعرف كل شيء!.. هز رأسه أن لا.. ونظر لي نظرة ذات معنى. بالفعل أتمنى مثله لو كان الأمر كذلك.. لو وجد خطرًا في صورة عصابة من القتلة المسلحين لكان هذا رائعًا، فالأمر لا يحمل له سوى بعض التدريب لا أكثر.. كل خطر لا يستطيع ركله هو الخطر الحقيقي بالنسبة له.. الفيروسات والإشعاع واللعنات وشيء غامض اسمه (الطفيل)..

جذبت نادين الصبي من يده الصغيرة المكتنزة، واتجهت معه نحو الدرج الذي تزاحم عليه الناس.. كان عليهما أن ينتظرا حتى لا يسحق الصغير تحت الأقدام..

أخيرًا بدأنا ننزل..

الطابق الثاني كان شبه خال.. وقد لاحظت في رعب أن النوافذ العريضة المطلة على الشارع مغلقة بالستار المعدني ماذا يحدث هنا..؟.. لقد تم ترتيب كل شيء ليبدو المكان مغلقًا.. لماذا؟

أما الطابق الأول / الأرضي فكان عبارة عن فوضى عارمة.. هناك زحام من الناس والعاملين.. قدرت أن العدد يقترب من الثلاثين.. ليس كبيرًا جدًّا. هناك إشعاع سايكو فيزيائي قوي في الجو يسبب الهلع والتوتر..

- «أنت تدفعني!»

- «أنت الذي تتحرك أكثر من اللازم.. دعك من أنّ هناك نساء هنا..»

- «ماذا تعني يا وقح؟»

- «افهم ما تفهمه..»

- «احترم نفسك أيها الحيوان!!»

وترتفع القبضات كالعادة، وهي من اللحظات النادرة التي يكف فيها أبناء البحر المتوسط عن الجعجعة بالكلام فقط.. لكن أحدهم يمنع التشابك.. إنّه الأدرينالين أو الإشعاع السايكو فيزيائي الذي وصفه الخواجة برجسون.. اجعل واحدًا في الجماعة يضحك ولسوف يضحك الجميع.. اجعل واحدًا يبدي الذعر أو التوتر ولسوف يذعر الجميع.. اجعل واحدًا يتحمس ولسوف يتحمس الجميع. هذا ما يحدث عندما يهاجم الجنود موقعًا في الحرب....

عند الباب المغلق يقف عاملان يواصلان تحطيم الزجاج بأسطوانة إطفاء، ثم يحاول أحدهما أن يرفع الباب الحديدي المغلق من الخارج لا جدوى.. يقفان في مياه المجاري القذرة التي تسربت من الخارج ويحاولان.. صوت الارتطام يصم آذاننا ويتكرر بلا توقف. من الجنون أن تفعل هذا في مكان مغلق..

المشكلة أنّ هناك بابًا جديدًا مزودًا بالقضبان.. بابًا متينًا فعلًا وهناك فجوة اتساعها ربع متر تفصله عن الستار الحديدي بالخارج. بالتالي من الصعب تحطيم الحاجزين، دعك من ضرب الستار الخارجي ليسمعنا الناس بالخارج. تذكر أننا في وسط المدينة وأن الشارع صاخب جدًّا..

صاح أحد المتزاحمين:

- «سوف يسمع الناس بالخارج صوت الدق.. لا شك في هذا...»

- «ليس في شارع كهذا..»

- «سوف يتوغل الليل وسوف يسمعون صوت الدقات.. هذا مؤكد...»

هكذا كان هناك زحام.. وكانت هناك غازات بطن لا بأس بها لأن أمعاء الكل تقلصت.. وكانت هناك دموع وهستيريا..

لكن السؤال الذي ظل يلح عليّ هو: لماذا الآن؟.. لماذا هنا؟

✶ ✶ ✶

من مكان ما برز الأستاذ (رفاعي) المدير، الذي لا أعرف إن كان مديرًا إداريًا فقط أم هو مالك المكان.. له كرش ممتاز يوحي بالثقة. من السهل أن تخضع لشخصية من يملك كرشًا كهذا..

شقّ الزحام وهو يأمر الناس بأن يهدءوا.. لا داعي للقلق سوف نخرج حالًا.. فقط أفسحوا الطريق.. ما دام مديرًا فسوف ينتهي هذا كله.. مسألة منطقية. ومن خلفه كان ذلك الموظف النحيل المنافق المذعور يركض.. كيف عرفت أنه منافق؟.. لأنه يبدو منافقًا..

يقول رفاعي في قرف دون أن ينظر للموظف:

- «أين ذهب (عوني) و(محمود)؟.. كل واحد قد غاص تحت الأرض..»

يقول الموظف وهو يلحق بالمدير:

- «يحاولان مع الباب الثاني يا سيدي.. باب العاملين..»

- «المفترض أنه أسهل.. لماذا تأخرا؟»

- «سأرى ما هنالك..»

وانطلق يركض باحثًا عنهما، على حين نظر المدير للناس وصاح في امرأة تقف مستندة إلى ثلاجة كهربية:

- «لو سمحت يا مدام.. سوف تتلف بهذه الطريقة..»

هنا صاح زوجها وقد احتقنت عروق رقبته:

- «وأين تريد لها أن تقف؟.. نحن مسجونون هنا وأنت تمنعنا من الاتكاء!.. إذن أخرجنا يا أخي..»

فضل المدير الصمت وقد رأى أنه سيضيع صوته في عشرات المشاجرات الفرعية.. ومضى بين الناس ينظر هنا وهناك ويصدر التعليمات للبائعين..

بعد دقيقة ظهر الموظف المنافق، وقد ازداد وجهه نحولًا وذعرًا وهمس بشيء في أذن المدير..

امتقع وجه الرجل ثم احمر قليلًا... عرفت أنه سيسأل عن طبيب.. هذا مؤكد...

- «هل من طبيب هنا؟»

أنا أعرف أنهما ماتا طبعًا.. أعنى العاملين اللذين تأخرا.. لقد صرت خبيرًا بهذه الأمور، لكني أريد فعلًا فهم ما يحدث... لهذا رفعت يدي كتلميذ نجيب.. أنا طبيب.. هيا بنا..

- «أريد أن...»

يا لك من ممل!... تريد أن أفحص الجثتين.. كل هذا مفهوم يا صديقي صدقني.. لقد مررت بهذا الموقف ألف مرة.... لماذا يعيد الناس شرح أمور مفهومة وبديهية؟

- «أعرف.. أعرف... هيا بنا لنعرف سبب الوفاة!»

- 3 -

المدير:

فعلا لا أفهم كيف خمنت أنهما ماتا؟

رفعت:

شرح هذا يطول للأسف، لكن التعبير على وجه موظفك كان واضحًا.. هذا تعبير نذير الموت لو شئنا الدقة...

المدير:

ومن هذا الآسيوي؟.. هل هو صديقك؟

رفعت:

نعم.. وأرجو أن تتحفظ فيما تقول لأنّه يجيد العربيّة... هلمّ سلط الكشاف من فضلك..

المدير:

أعوذ بالله!.. ما هذا؟!! قم يا (عوني).. قم يا (محمود).. أنا الذي كدت أخصم منهما.

رفعت:

أرجو أن تتراجع قليلًا.. لحظة.. من الواضح أنهما ماتا لا داعي للمحاولات البطولية.. لقد فرغا من الحياة تمامًا وهو مشهد لم أره في حياتي.. رأيت ألعن حالات الجفاف والكوليرا المتقدمة، لكن الأمر لا يبدو كهذا.. لو شئنا الدقة.. هذا جسد تهاوى من الداخل.. لم يعد فيه نسيج فوق آخر.. لا توجد قطرة من سائل حيوي؛ دمًا كان أو لمفًا أو عصارة معوية.. لا تقترب!.. يجب التأكد من أنّه ليس هناك مرض يسبب هذا..

الموظف المنافق:

وهل هناك مرض يسبب هذا؟

رفعت:

لا.. لكن لابد من مرة أولى دائمًا.. على قدر علمي فأنتما رأيتما هذا المشهد من قبل..

المدير:

ولكن كيف عرفـــ.....؟

رفعت:

أجب من فضلك!

المدير:

نعم.. الخفير الذي يدعى مصطفى.. وجدناه خارج دورة المياه بالطابق الثالث.. كان في صورة كهذه ولم يعرف رجال الشرطة السبب قط.. لكن.. لماذا تكرر الأمر؟

رفعت:

لا أحد يملك إجابات الآن ومن الواضح أننا لن نحرك هذين من هنا.. سوف تصل الشرطة ولو في الصباح ويجب أن تراهما كما هما.. هل لي في ملاءتين نغطيهما بهما؟

المدير:

هات له ما يريد يا (ثروت)...

رفعت:

أكره أن أبدو مزعجًا بكثرة طلباتي، لكن فهمت من كلامك أنّ هناك من يجرب فتح الباب الثالث..

المدير:

نعم.. أعتقد أن الكهربائي (عبد الوهاب) يجرب مع إبراهيم الخفير..

رفعت:

قدنا لهما حالًا...

المدير:

هل تعتقد؟

رفعت:

لا أعتقد أي شيء.. فقط لا أريد تكرار الظروف الملائمة للموت.. هيا بنا..

(عند الباب الثالث)

المدير:

المكان ضيق هنا.. تعاليا يا (عبد الوهاب) ويا (محمد).. سوف نتخلى عن هذه المحاولة..

عبد الوهاب:

لماذا يا سيدي؟.. أعتقد أننا لو واصلنا الطرق فسوف...

(هن - تشو - كان):

احترسا!!

رفعت:

تشبث جيدًا..... لا تتركه..!

المدير:

أعوذ بالله.. ماذا يدور هنا؟.. سلط المصباح جيدًا يا (عبد الوهاب)!!

عبد الوهاب:

ما هذا؟.. ثعبان يفر؟.. لم أر ثعبانًا هنا!

إبراهيم:

كيف تمكنت من القبض عليه قبل أن يخرج من الفتحة؟.. أنت سريع جدًّا.. من المؤسف أنه فر برغم ذلك، لكنك اقتنصت قطعة من ذيله.. بيني وبينك لم أشعر أنه ثعبان واحد.. كأنه عدة ثعابين انقضت وفرت..

رفعت:

دعني أتفحص هذا الشيء.. إنّه ممص.. ممص كممصات الأخطبوط.. وما زال ينبض هذا هو الشيء الذي هاجم الآخرين..

إبراهيم:

هل هوجم الآخران؟.. متى؟.. وكيف؟

رفعت:

دعنا من الشرح الآن.. فلنرحل من هنا...

إبراهيم:

أنا رأيت نفس الثعبان يا أستاذ.. رأيته ليلة وفاة المرحوم (مصطفى).. أقسم بالله.. قلت هذا لك يا أستاذ (رفاعي) واتهمتني بأنني كنت أدخن شيئًا ممنوعًا.. هل صدقتني الآن؟

رفعت:

يا أخي فلنرحل من هنا، ثم تجد فرصتك لتمثيل دور الفتاة المظلومة في أفلام (فاتن حمامة).. هيا بنا.. خذ معك هذا الممص يا (هن - تشو - كان) فقد نراه بشكل أوضح في الخارج...

- 4 -

بحثت مع (هن - تشو - كان) عن مكان منعزل نجلس فيه، لهذا قررنا الصعود للطابق الثاني.. صاحت (نادين) في قلق وهي تمد يدها لنا:

- «(هن - تشو)!.. إلى أين؟»

هزّ رأسه بحركة شبه عسكرية وهتف:

- «لا تقلقي.. سأناقش بعض الأمور مع ريفاات..»

كنت أنا أمصمص شفتي في سري... من الجميل أنها لم تدللـه بـ (هنتشوهي) أو (هن هن)... ثمّة شيء مهين في هذا الاهتمام به وفي تعامله الساذج معها. إنّه كاهن متفرد لا علاقة له بهذه الأمور.. إنّه أكبر منها.. لكني أعرف أن الأنثى إذا صممت على الظفر برجل فلسوف تظفر به.. لا مفر ولا مهرب.. ولكن ماذا عندما تعرف كل شيء عنه؟ ليس مسلمًا ولا مسيحيًا ولا يهوديًا.. بل إنّه ليس بوذيًا.. إنّه كاهن نافاراي يا أختاه وهو الوحيد الذي يعتنق هذه العقيدة منذ قرون.. وهو آت من التبت.. إنّه شيء متفرد غريب لا مكان له في عالمك بتاتًا.. إنّه زهرة زرقاء لا يمكن زرعها في حديقتك..

هنا انطفأ النور في الطابق الثاني فصحت:

- «هل انقطعت الكهرباء هنا؟»

جاء صوت المدير العالي من أسفل:

- «لا.. حسبت أنه من الأفضل أن نوفر الكهرباء ما دمنا جميعًا في الطابق الأول..»

يا للغباء!... نحن مهددون بالموت وهو يفكر في التوفير للورثة. عندما أعادوا الكهرباء (جزئيًا) للطوابق الثلاثة، صعدنا في الدرج إلى حيث الطابق الخالي تمامًا، فجلست على طرف منضدة وجلس (هن - تشو - كان) أمامي في وضع الاحتباء يتأمل ذلك الممص الطري البشع.

كان طوله يقترب من طول القلم.. وله نفس السمك تقريبًا.. لكن ممصات صغيرة فرعية كانت متراصة على محوره بشكل يذكرك بالأخطبوط فعلًا.

قلت لـ (هن - تشو - كان):

- «للمرة الأولى أرى هذا الشيء، لكن الغرض منه واضح.. لو رآه عالم أحياء في أي مكان لقال إنّه جزء من كائن يتطفل على الآخرين.. طفيل هذا جزء منه بلا شك..».

قال (هن - تشو - كان):

- «وهذا الشيء يمارس عمله هنا.. لا نحتاج لذكاء كي نعرف أنه هو الذي هاجم الآخرين.. لكن كيف يبدو الشيء الكبير؟.. لا أعتقد أنه يشبه الأخطبوط..»

ارتجفت وأنا أتخيّل ما يمكن أن يكون هذا الشيء عليه.. أول صورة وثبت لذهني هي إنسان ضخم لكن ليس له رأس.. رأسه عبارة عن كتلة من هذه الممصات، وهو خيال ليس أصيلًا جدًّا الآن (لافكرافت) تخيل كائنه المرعب الشهير (كتولو Cthulu) في هذه الصورة.. صورة كابوسية رهيبة لو أردت رأيي..

من الممكن أن يكون أقرب للزواحف أو الأخطبوط فعلًا...

لكن صورة الإنسان الذي له رأس أخطبوط كانت تلح عليّ..

قلت لـ (هن - تشو - كان) وأنا أحاول ألا أنظر لهذا الشيء ثانية:

- «نحن الآن نعرف.. الطفيل الذي تتحدّث عنه موجود هنا موجود في هذا المتجر بالذات.. ومن الواضح أنه يملك قوى غير ماديّة وإلا فلا تفسير لانغلاق الأبواب علينا وانطفاء النور. هناك أشياء لا نفهمها.. لماذا الآن بالذات؟»

قال (هن - تشو - كان) في ثقة:

- «إنّه نداء.. نداء كالذي كان يدفعني لدخول هذا المتجر.. الأخ ميانج يدعوني للمواجهة..»

وراح صدره يعلو ويهبط كأنما يسمع نداء الأجداد.. ليكن إن كان هذا يريحه..

قلت:

- «ربما كان الأمر كذلك.. لكن السؤال التالي هو: لماذا هذا المتجر بالذات؟.. ثمّة احتمال أن يكون قائمًا فوق إحدى فتحات جانب النجوم التي تجلب المسوخ والشياطين لعالمنا هذا جزء من حياتي لا تعرفه أنت.. لا أجد دليلًا على هذا، ولا أعرف لماذا لم يعلن جانب النجوم عن نفسه من قبل هنا، لكن هذا هو التفسير الوحيد حاليًا..»

قال (هن - تشو - كان) وهو يضرب قبضته بكفه:

- «السؤال الثالث: وماذا يريد منا؟»

قلت في شرود:

- «الساعات التالية ستجيب عن هذا الجزء.. لو اعتمدنا على ما رأيناه حتى اللحظة فهو يريد قتلنا فقط.. ليس شيئًا خطيرًا..»

- «ولماذا يريد قتلنا؟»

نظرت له وشعرت بالمزيد من التوتر.. لو كان هذا الشيء جديرًا بلقب الطفيل، فهو يكبر في الحجم ويزداد قوة مع كل ضحية جديدة.. إنّه يستمد طاقتها وحيويتها...

معنى هذا أنه لو انتهى من أمرنا فلسوف يكون كارثة حقيقيّة...

السؤال الأخير وجهته أنا:

- «هل تعرف ما سنفعله؟.. هل لديك سياسة ما؟»

قال وهو ينهض:

- «الشيء الوحيد الذي أقترح عمله أنا هو حرق هذا الممص.. ربما كان حيًّا.. بل ربما كان قابلًا لأن يؤذي أو يعيد تكوين كائن جديد..»

هذا الفتى عبقري برغم أنه لم ير فيلم رعب في حياته..

سوف نحرقه، لكن لنفعل ذلك في مكان خال وبعلم العاملين هنا... نحتاج إلى بعض الكيروسين كذلك..

✶ ✶ ✶

بدا الممص بريئًا جدًّا وهو يحترق.. توقعت كما في أفلام الرعب أن ينتفض أو يخرج منه شيء مريع يقتلنا.. لكنه تصرف كقطعة لحم مسالمة..

كنا هناك في دورة مياه بالطابق الثالث، وقد قام (إبراهيم) الخفير بإغراقه بالكيروسين ثم ألقى عليه عود ثقاب. لابد أنه شعر بالحنين لأنّه تذكر حرق الثعابين في الحقل في قريتهم..

وقفنا في الظلام نرقب اللهب المتراقص.. وفي ذهن كل منا خواطره السوداء عما يدور. التفت المدير إلى الكهربائي وسأله بصوت عصبي منهك:

- «هل استطعت إصلاح شيء؟.. الكهرباء... كابلات الهاتف.. أي شيء؟»

قال الكهربائي بنوع من الفخر:

- «لا يا سيدي.. مواضع التلف داخل الجدران.. التآكل في الخراطيم المدفونة ذاتها.. لا يمكن عمل ذلك الآن..»

ابتلع المدير غضبه.. لو انفجر مع كل شيء مستفز لأصيب بالفالج الآن.. عليه أن يكون باردًا ويهدأ..

كنا واقفين هناك وقد أصبنا بنوع من القصور الذاتي.. نقف فنظل كذلك للأبد.. نتحرك فنظل كذلك للأبد.. يبدو أن نيوتن عبقري فعلًا..

هنا ظهرت (نادين) تركض قادمة من الطابق السفلي..

الذعر مع جهد الصعود جعلاها تحتاج إلى خمس دقائق كي تتمالك أنفاسها، وفي النهاية قالت وهي موشكة على البكاء:

- «(هن - تشو).. زوجي السابق.. مروان!.. إنّه هنا!»

- 5 -

(هن - تشو - كان):

هل تعنين ذلك الرجل؟.. الرجل السيئ؟

نادين:

نعم.. نعم.. إنّه هنا..

المدير:

هلا شرحت لي ما يدور هنا؟.. أي رجل؟

رفعت:

هذا موضوع آخر.. تعالي يا مدام لنتكلم في مكان آخر..

(يبتعد بها)

(هن - تشو - كان):

أين هو؟

نادين:

كان في الطابق السفلي وسط الزحام وقد كنت أبحث عن أشرف فرأيته يقف هناك خلف ثلاجة كبيرة.. درت حولها فرأيت أباه يجلس على ركبتيه أمامه ويكلمه. أطلقت صيحة رعب برغمي فسمعني.. نهض مسرعًا وتوارى على حين لحق بي أشرف.. طبعًا لم أستطع فهم أي شيء منه سوى (بابا)... سألته عما قاله مروان فلم يزد على: سألني عنك!

رفعت:

وأين أشرف الآن؟

نادين:

في الطابق السفلي مع زميلة لي.. أنا متأكدة من أنّه في أمان..

رفعت:

وأين مروان هذا؟

نادين:

لا أعرف.. لم أحاول البحث أكثر..

رفعت:

تعالى إذن ننزل ونبحث عنه.. إن الأمور معقدة بما يكفي فلا نحتاج إلى غبي يريد الانتقام كذلك.. حسبت أن الشرطة قبضت عليه أو شيئًا من هذا القبيل... لابد أنهم اكتفوا بتحرير محضر (عدم تعرض) له وأطلقوا سراحه، كأن من يهدد بالسكين حريص على ألا يخرق تعهداته القانونية.. لم أفهم هذا المنطق يومًا.. ليس بعد الكفر ذنب، وليس بعد التهديد بسكين جريمة..

نادين:

هذا صحيح للأسف.. تعال ننزل..

(هن - تشو - كان):

لو وجدناه.. سوف أضربه..

رفعت:

بالطبع.. هذا أقل ما يجب.. لا إنذار بالسارايانا ولا هذا الكلام الفارغ.. الرجل بطة ميتة فعلًا لا يفصله عن الموت سوى لقائك..

(الطابق السفلي المزدحم)

رفعت:

فلننتشر ونبحث عنه، فهو لن يقف ينتظرنا كالبلهاء.. أقترح أن تكوني أنت مع (هن - تشو - كان) فأنا لا أريد مفاجآت أمّا أنا فسأعتمد على الحدس لأنني لم أره من قبل. رهاني هو أن الأزواج السابقين الذين اسمهم (مروان) يبدون كذلك..

(هن - تشو - كان):

لن يهاجمها وسط هذا الزحام..

رفعت:

يا سلام!.. لقد برهن على أنه مجنون من قبل.. هو يريد أن يخرج براكين غضبه بأي شكل وليكن ما يكون بعدها، حتى لو سحقوه بالأحذية.. إذن الانقضاض عليها وغرس السكين في عنقها

لن يستغرق سوى ربع ثانية.. عندما يدرك الناس ما حدث فعلًا تكون هي قد قالت: وداعًا.. اعتنوا بابني.. ثم تموت..

(بعد دقائق)

(هن - تشو - كان):

هل وجدت شيئًا؟

رفعت:

لا.. لم أجد شخصًا واحدًا يمكن أن يكون زوجًا سابقًا اسمه (مروان)، دعك من أن يكون قلبه جريحًا.. وواضح أنك لم تجد..

(هن - تشو - كان):

سوف أفتش الطوابق العليا..

رفعت:

هناك عشرات المخابئ هنا.. أعتقد أننا لن نجده.. لربما كان الأحكم أن تظل قرب الفتاة.. على كل حال لن يتعبنا هذا الفتى كثيرًا لأنّه سيكون الضحيّة التالية..

(هن - تشو - كان):

من قال لك هذا؟

رفعت:

هذه هي قواعد قصص الرعب وأفلامه.. لقد ولد خاسرًا وهو قابل للاستغناء عنه وشرير.. سوف يتوارى في مكان خطر فينفرد به هذا الطفيل وتكون عدالة شعرية لا بأس بها... للأسف لا يحدث في الحياة ما يحدث في قصص الرعب بالضبط، لكني أرى هذا السيناريو واردًا..

(هن - تشو - كان):

من جديد تقول كلامًا غريبًا يا ريفاات..

رفعت:

ما دمنا بصدد الكلام الغريب.. لقد فكرنا في أن يكون هذا الطفيل شبيهًا بأخطبوط عملاق أو رجل له رأس ذات مصاصات.. هذه احتمالات مرعبة.. لكن هناك احتمالات أكثر بشاعة..

(هن - تشو - كان):

وما هو؟

رفعت:

أن يكون واحدًا منا.. أن يبدو مثلي ومثلك، ويخفي حقيقته المرعبة تحت ثيابه.. ألم تفكر في هذا؟

- 6 -

أن يكون ذلك الشيء المخيف واحدًا منا ويبدو مثلنا بالضبط. احتمال مرعب لكنه وارد..

أنا بحاجة إلى الانفراد بنفسي لتقييم الموقف.. أريد لحظة هدوء واحدة أمسك فيها بورقة وقلم وأكتب المعطيات، وهو ما أقوم به بنجاح في فراشي في كلّ مرّة، لكن المشكلة هنا أنني لا أصير وحدي أبدًا.. هناك دائمًا شيء يحدث.. الحق في الانفراد حق بشري مهم جدًّا لكن لا يظفر به سوى نزلاء السجن الانفرادي أو الموتى في قبورهم على ما يبدو.

لاهثًا صعدت إلى الطابق الرابع وكان الظلام يعم المكان باستثناء مصابيح قليلة مضاءة. تنعكس الأضواء الخافتة على دراجات الأطفال والدمى الموضوعة على الأرفف، فتلتمع عيونها الزجاجيّة المخيفة.. الموت والحياة معًا في وجه واحد يضحك بقسوة.. لهذا أخاف الدمى منذ صغري..

جلست على الدرج ورحت أفكر في عمق...

فجأة خيل لي أنّ هناك شيئًا يتحرك في ركن المكان.. عند ذلك الدرج الذي يستعمله العاملون، وهو كذلك المكان الذي يحتفظون فيه بأسطوانات الإطفاء وخرطوم الحريق..

أجفلت للحظة ثم فطنت إلى أنه كائن بشري أطل بجسده ثم عاد إلى الداخل..

- «من هناك؟»

ناديت بصوت أثار رعبي أنا نفسي فلم يرد أحد..

نهضت لأتبين من يتحرك، لكن التوتر مع الهبوط من فرط النهوض السريع جعلا قلبي يتواثب كأنه جناحا طائر طنان.. ماذا يحدث؟

الدوار.. الدوار.. تمسكت بالترابزين كي لا أسقط من حالق، ثم ألقيت بجسدي على الأرض. إنني موشك على فقدان الوعي أو الإصابة بنوبة قلبيّة.. هناك سائل كريه الرائحة سقطت فيه..

فجأة اتسعت البقعة السوداء أمام عيني..

قلبي ضعيف جدًّا وتلك هي المشكلة.. كان (هنتر) الطبيب البريطاني العظيم يقول إن قلبه ضعيف، وحياته تحت رحمة أي أحمق يستفزه.. من الغريب أنه مات فعلًا في مناقشة طبية حامية. أنا حياتي تحت رحمة أي أحمق يثير هلعي فجأة أو يرغمني على بذل جهد زائد..

البقعة تتسع...

إنني أغووووووووووووص...

أشعر به.. يُمكنك أن تشعر به معي..

إنه يتحسسني في نهم.. له ملمس كريه رطب بعض الشيء.. كأن أحدهم وضع ضفدعًا مبتلًا هناك..

أشعر به على ساقي.. يتلمس بطني.. أشم رائحته الكريهة..

تلك الرائحة**!!!** أعرفها.....

لا جدوى من الفرار يا (رفعت).. أنت فاقد الوعي تقريبًا.. لن يسمع أحد صراخك لو صرخت، لكن هل أنت قادر على الصراخ فعلًا؟

كنت أحمق حينما انفردت بنفسك.. أحمق عندما ابتعدت عن (هن - تشو - كان)، وإن كنت أرغب في أن أرى كيف كان سيتصرف..

لا أستطيع فتح عيني.. من حقي معرفة ذلك الشيء الذي قتلني.. كيف يبدو؟.. لكني بالفعل لا أقدر.. وأدرك أنه يتحسس وجهي الآن..

إذن أنت الطفيل...؟... مع كل الأشياء والأهوال التي رأيتها في حياتي لم يخطر ببالي أن يقتلني كائن يحمل هذا الاسم، والأسوأ أنني لا أعرف كيف يبدو..

✶ ✶ ✶

عندما فتحت عيني كان هناك اثنان يحملانني في غير رفق واحد يمسك بقدمي وواحد يمسك بذراعي.. كأنني زكيبة قمامة ينويان التخلص منها.. حتى إنني رحت أتساءل في قلق عن لحظة يقولان: هيلا هوب**!**.. ثم يلقيان بي..

وسمعت من يقول:

- «أنت بخير.. لقد فقدت وعيك.. قدر ولطف..»

كنت أرى كل شيء مقلوبًا وكشافات النيون تتحرك في السقف كأنها أطباق طائرة في عالم غريب، ثم سمعت (هن - تشو - كان) يقول وهو يمسك بيدي:

- «ريفاات.. ماذا حدث؟»

يبدو أنني الآن كنت راقدًا على فراش بالطابق الثاني.. فراش جديد مغلف بالمشمع وتفوح منه رائحة الخشب الطازج، هناك بطاقة تحدد السعر ملصقة قرب رأسي.. كأن هذا سعري أنا وكأن

هناك من يرش وجهي بالماء..

قلت وأنا أحاول النهوض:

- «هل رأيته يا (هن - تشو - كان)؟.. الشيء كان يهاجمني..»

- «كنت فاقد الوعي أعلى الدرج.. وجدك أشرف ابن نادين.. أصابه الرعب وجرى ينادي أمّه.. سألته عن سبب ذعره فقال كلمة واحدة هي (عمو)..»

- «إذن لم يكن شيء يهاجمني؟»

- «بالتأكيد لا..»

لكني كنت أعرف يقينًا أن ما شعرت به حدث حرفيًا.. لماذا لم أمت.؟.. ثمّة احتمال لا بأس به أن يكون الشيء قد أصيب بالرعب لدى ظهور الطفل فانصرف.. نظرية ضعيفة لأنّه بوسعه بالتأكيد أن يظفر بنا معًا. الاحتمال الآخر هو أنه تحسسنى فقدر أنني أموت.. لا توجد دورة دموية تقريبًا والنبض واهن والوعي غائب.. هكذا وجد أنه لن يحقق شيئًا لو امتص طاقتي.. لن تضيف له شيئًا أو لعلها تضعفه.. باختصار: لقد تفحص الموت جسدي ثم انصرف مشمئزًا!

جلست مترنحًا ونظرت إلى منقذي فرأيت وجهين لم أرهما من قبل.. إنهما من العاملين في المتجر بالتأكيد..

- «هل تقدر على النهوض؟»

- «أعتقد ذلك.. شكرًا لكما..»

انصرفا فاستدرت إلى (هن - تشو - تشو - كان) وقد تذكرت شيئًا:

- «لماذا صعد الصبي وحده إلى الطابق الرابع شبه المظلم؟.. نصف الموجودين البالغين هنا لا يملكون هذه الشجاعة..»

✶ ✶ ✶

قال (هن - تشو - كان) وهو يساعدني على النهوض:

- «هذا طبيعي.. كان يبحث عن أمّه..»

- «وأين أمّه؟»

- «لا أعرف.. لقد صعدت إلى الطابق الثالث معه.. ثم اختفت فجأة..»

قلت في غيظ:

- «يا لك من أحمق.. قلت لك ألا تتركها تغيب عن نظرك..»

- «قالت إنها ترغب في دخول الحمام: الحمام في الطابق الثالث نظيف حسب كلامها..»

- «إذن أرجو أن تتركني وشأني واذهب للبحث عنها لا تنس أنّ هناك مخبولًا يلاحقها..»

تركني (هن - تشو - كان) واندفع بخطواته الرشيقة السريعة إلى الطابق الثالث. هنا رأيت ذلك الطفل أشرف يقف على مسافة مني وهو مذعور.. طفل في الثالثة لا يجد أمّه من أبسط حقوقه أن يجن رعبًا...

تعال يا بني وأمسك بيدي.. لا تتركها.. سوف نبحث عن أمك معًا..

لكنني أنسى أن شكلي يخيف الأطفال.. هكذا راح ينظر لي في ثبات وشفته السفلى ترتجف بتلك الطريقة الكهربية الإستاتيكية المنذرة بهطول المطر.. ثم انفجر في البكاء..

مددت يدي نحوه.. هنا أطلق ساقيه للريح هاربًا..

هنا ألف خزانة ثياب وألف فراش وألف صالون في هذا الطابق.. من المستحيل أن ألاحقه وسط هذه الفوضى.. دعك من أن الإضاءة ليست على ما يرام.. جميل جدًّا.. سوف نجد الأم لنكتشف أننا فقدنا الطفل.. هكذا الحياة لو أردت أن تلخصها..

مشيت مترنحًا وسط الظلال وصممت على أن أترك الأمور كما هي. من الصعب أن ألاحظ كل إنسان في هذا المتجر.. أنا دنوت من الموت كثيرًا وعدت. هذا كاف..

دعك من أنني وحيد الآن في هذا الطابق، ولا أشتهي أن أكرر هذه التجربة ثانية..

هكذا اتجهت إلى الدرج عازمًا على الصعود إلى الطابق الثالث أعتقد إن لم تخني الذاكرة أن المدير المدعو (رفاعي) هناك مع من كانوا يحرقون ذلك الممص.. أعتقد أنهم لم يرحلوا.. ربما يكون (هن - تشو - كان) هناك ونادين كذلك إن لم يكونا نزلا دون أن أراهما..

رحت أصعد في الدرج بقدمين كالعجين متمسكًا بالترابزين وأنا أنظر لأعلى.. كان هذا المكان يعجّ بالحياة منذ ساعات وكانت هنا (نادين) وعشرات البائعات..

الآن هو مكان مظلم تقريبًا خال من البشر..

أين رفاعي ومن معه؟..

اتجهت إلى المكان الذي قمنا فيه بحرق الممص.. الحمام النظيف الذي لابد أن نادين تستعمله الآن أو استعملته..

لم أستغرق وقتًا طويلًا حتى أفهم كنه هذا الشيء الذي يسد مدخل الحمام. هذه الكومة من الثياب..

لم يعد هناك كرش ضخم.. ولم تعد هناك ثقة زائدة بالنفس..

إنّه المدير يرقد هناك وهو يحملق في السقف. انحنيت لأتفحص جثته لكن هذا كان تضييع وقت.. جثة فارغة امتص منها كل شيء كما حدث مع آخرين.. الخدان غائران والعينان غائصتان كألعن حالة جفاف رأيتها في حياتي. الجلد جاف تمامًا مجعد والبطن مقعرة..

فتحت ياقة قميصه، وشمرت سرواله وكميه بحثًا عن شيء.. بالفعل هناك آثار غريبة كأنها جروح مستديرة.. كأنها ممصات تم غرسها هناك إلى أن تتم عملية الامتصاص، وأنا أعرف كيف تتصرف هذه الممصات وكيف تؤدي عملها..

كان معه إبراهيم الخفير والكهربائي فأين هما؟

نهضت من مكاني ورحت أفتش وراء مناضد البيع هنا كميات هائلة من الثياب الأنثوية، لكن لا جثث..

لحظة..

هناك كومة على الأرض وأعتقد أنها.. لا. ليست جثة.. هي كومة ثياب فعلًا..

جثوت على ركبتي وفحصتها بعناية.

جلباب.. كلسون داخلي مما يلبسه الفلاحون.. صديري.. هذه ثياب الخفير إبراهيم..

لكن لماذا نزعها وألقاها هنا؟... لو كان الشيء قد ظفر به فأنا لم أسمع أنه يجرد الضحايا من الثياب.. وأين الجثة؟.. وأين بندقيته؟

هنا سمعت صوت خطوات.....

- 7 -

رفعت:

(هن - تشو - كان)!.. كنت أتمنى أن تكون أثقل حركة. إن حركاتك الخفيفة هذه لا تناسب أعصابي

(هن - تشو- كان):

آسف يا ريفاات.. لقد وجدت نادين...

رفعت:

الحمد لله.. خبر طيب في هذا اليوم العجيب..

نادين:

لقد كنت أموت ذعرًا.. أنت رأيت الجثة.. لقد مات الأستاذ رفاعي ومنظر جثته.... لا أستطيع الوصف.. هل رأيته؟.. هه؟.. هل رأيته؟.. من الذي جرؤ على عمل هذا؟

رفعت:

أنت تخلطين بين حالة الجثة البشعة وبين كونه المدير.. حسب كلامك من حق القاتل تشويه الجثة إذا لم تكن المدير..

نادين:

لا أقصد ذلك.. بل أقصد.. لا أعرف كيف أعبّر.. رباه!

رفعت:

أفهم.. كان المدير يبدو خالدًا.. أقوى من الموت ذاته، وكأنه سوف يدفننا جميعًا. يبدو الأمر غريبًا لك. المهم.. هل وجدت أحدًا بقربه، وللمزيد من الدقة... هل خيل لك أنك رأيت شيئًا زاحفًا يبتعد؟

نادين:

لا.. لا شيء من هذا القبيل.. كنت على وشك دخول الحمام هنا وجدت جثته. كدت أتعثر فيها..

رفعت:

هل من أثر لذلك الخفير الذي نسيت اسمه.. (إبراهيم)..؟.. ألم تقابليه؟

نادين:

بلى.. قابلته منذ دقائق.. كان يهبط في الدرج مسرعًا.. لم يلتفت لنا.. حتى أنه لم يترك لي فرصة لأخبره بموت المدير.. قدرت أنه رأى الجثة ومذعور..

(هن - تشو- كان):

وكان يلبس ثيابًا غريبة.. لم يكن يلبس زيكم الوطني هذا.. الجلباب.. كان يلبس ثيابًا غربية.. وفي يده البندقية..

رفعت:

لم يتخل عن البندقية طبعًا فهي عهدة.. وبالطبع كان هناك شيء غريب فيه.. هل لاحظت هذا يا نادين؟.. النساء يلاحظن هذه الأشياء بينما الرجال حمقى كالعادة.. هل لاحظت شيئًا غريبًا؟

نادين:

لاحظت ماذا؟.. لا أدري.. بدا لي أكثر بدانة.. ربما أضخم مما أعرفه.. أعتقد أن لخداع البصر دورًا هنا..

(هن - تشو- كان):

ماذا تريد قوله يا ريفاات؟.. أنت تلمح إلى أنه آخر واحد كان مع المدير هه؟..

رفعت:

الآن لماذا غير ثيابه؟.. ومن أين جاء بهذه الثياب الجديدة؟

(هن - تشو- كان):

من جديد تحاول قول إن حجمه ازداد.. صارت الثياب ضيقة.. إن فكرة أن الطفيل يبدو مثلنا لا تفارق خيالك.. أجد الأمر غريبًا أن يكون الرجل قد امتص الحياة من المدير فتضخم وصارت ثيابه ضيقة.. سرق ثيابًا أخرى أوسع وانطلق يبحث عن ضحية أخرى..

رفعت:

لا تنكر أنه ليس منطقا سيئًا.. قلنا إن الطفيل يزداد حجمًا مع كل قتل.المنطق يقول هذا..

(هن - تشو- كان):

لا تنس أنه حضر حالة قتل، وكان من الممكن أن يموت هو الآخر...

رفعت:

ما نعرفه عن القصة هو كلامه.. ما قصه علينا.. من أدراك أنه لم يقتل زميله ثم قام بتأليف القصة التي حكاها؟

(هن - تشو- كان):

هل تعتقد أنه أصيب بعدوى ما؟

رفعت:

ربما وبهذا نكون في استطراد لفيلم (غزو خاطفي الأجساد)... عقدة البارانويا حيث لا يُمكنك أن تثق بأخيك أو أمك.. ولربما هو كذلك منذ البداية.. أعتقد أنّ علينا أن نعرف أين هو بالضبط.. وقد أكون واهمًا..

نادين:

لا أفهم ما تتكلمون عنه.. فعلًا لا أفهم.. لكن السؤال المهم بالنسبة لي هو أين أشرف؟.. فليذهب إبراهيم إلى حيث ألقت..

رفعت:

هذا صحيح.. لقد فر أشرف مني.. لا تطالبيني باللحاق بطفل صغير بحالتي هذه.. أعتقد أنّ علينا البحث في الطابق الثاني هناك ثلاثة من المختفين إذن.. الطفل.. والده.. إبراهيم..

(هن - تشو- كان):

هل ترى أن ننقسم إلى مجموعات؟

رفعت:

لا. بل إلى مجموعتين فقط.. تذكر ألا تفارق نادين لحظة.. لا تنس كذلك أنني لا أعرف شكل الزوج السابق مروان ولو اصطدمت به لما عرفت ذلك..

نادين:

لم لا نطلب من المتجمعين في الطابق السفلى البحث معنا؟

رفعت:

المشكلة هي أنني لا أعرف بمن أثق أخشى أن أكون مخطئًا.. سوف نعتمد على أنفسنا.. وجودهم بالطابق السفلي معًا يطمئنني أن أحدًا لن يجد نفسه وحيدًا أو ينفرد بالآخر..

نادين:

وجثة المدير؟

رفعت:

المكان بدأ يعجّ بالجثث.. فلنترك كل شيء كما هو.. فقط سوف نغطيه بملاءة كالعادة..

(هن - تشو- كان):

الآن أنت تعرفين ما أعرفه عن القصة...

نادين:

كل هذا عسير على التصديق.. إنها هلاوس ولا شك في ذلك..

(هن - تشو- كان):

هذه الهلاوس تقتل.. أعتقد أنها خطرة حتى لو كانت مجرد هلاوس كما تقولين.

نادين:

وأنت.. من أنت؟

(هن - تشو- كان):

سؤال غريب طبعًا.. قلت لك إنني رجل أعمال صيني يجيد الكونج فو واللغة العربيّة... ريفاات صديق قديم لا أكثر.. وهو من يعتقد بوجود طفيل مخيف في هذا المتجر..

نادين:

أعرف هذا كله ولا أصدق حرفًا.. حاسة المرأة لا تكذب.. إنها مرهفة كالنصال وحاستي تقول لي إن قصتك ليست ما تقول ربما هي غير ذلك.. ربما هي أكبر من ذلك.. أحيانًا أشعر أنك من عالم آخر..

(هن - تشو- كان):

بالفعل أنا من عالم آخر.. أنا صيني..

نادين:

ليس هذا ما أعنية.. أنت تعرف ما.....

(هن - تشو- كان):

دعينا من هذا الكلام الذي لا نهاية له، ولنواصل البحث.. لا يبدو أن ريفاات أحرز أي نجاح.. على كل حال هو لا يجد شيئًا أبدًا عندما يبحث عنه... إنّه ليس أحمق لكنه بالتأكيد يتصرّف مثلهم...

نادين:

لست قلقة.. أشرف يتوارى كثيرًا في مخابئ المتجر عندما يكون معي، ويظهر قبل أن أقلق.. يعتبرها نوعًا من لعبة المساكة..

(هن - تشو- كان):

ليس عندما يكون هناك كائن مرعب يهاجم الناس.. أنا قلق في الواقع.. إن هذا المتجر أربعة طوابق لكنني أشعر بأننا نفتش كهفًا واسعًا.. هناك أركان كثيرة.. مخارج طوارئ.. دورات مياه والكثير من الظلال. كل بقعة ظل هي بالنسبة لي كهف يتوارى فيه شيء..

نادين:

لحظة.. هل رأيت هذا؟

(هن - تشو - كان):

ماذا هنالك؟

نادين:

لقد وجده مروان!.. وجده!..

(هن - تشو- كان):

عم تتحدثين؟

نادين:

إن غرفة المحاسب مفتوحة.. هل تراها؟.. لقد أطل مروان من بابها للحظة وكان أشرف معه.. كان يحمله على كتفه، وعندما التقت عينانا ضحك في تشف وتوارى بالداخل.. إنّه ينوي أن يهددني به!

(هن - تشو- كان):

لن يفعل هذا.. إنّه ابنه...

نادين:

وهو كذلك مجنون.. المجانين يمزقون سواعدهم بالموسى، ولربما آذوا أطفالهم..

(هن - تشو- كان):

سوف ألحق به.. أكره التلاميذ الذين يحتاجون لسماع الدرس عدة مرات..

نادين:

لا!..لا تفعل.. قد يكون أسرع منك.. قد يؤذي ابني..

(هن - تشو- كان):

ليس هناك كائن حي أسرع مني على ما أعتقد... انتظري هنا وسوف أنهى الأمر...

- 8 -

عندما تغرب الشمس وتلطخ دماؤها ثوب المساء الأزرق..

عندئذ يبدأ فجر النافاراي..

✶ ✶ ✶

التقاليد هي عماد التحضر.. لقد دنا (هن - تشو - كان) من الباب الموارب في حذر، ونظر حوله..

كان يزحف كالفهد المتأهب للوثب، وأدرك أنه لن يكون هناك وقت لطقوس السارايانا لأنهّا ستعطي الخصم وقتًا كي يؤذي الصبي، لذا وقف بجانب الباب وأداها همسًا ولنفسه.. هكذا سوف يكون ظهوره الأول هو الهجوم هذا نوع من الغش تبرره الظروف كما ترى..

اتخذ وضعا قتاليا ممتازًا من أوضاع السارايانا، وهو وضع يتيح له أن يثب ثم يقف على قاعدة عريضة تحفظ توازنه...

هنا فوجئ بالشيء الصغير يندفع من الغرفة صارخًا باكيًا فيمر به ولا يلتفت.. ثم يواصل الركض إلى حيث كانت نادين واقفة لا تفهم ما يحدث، فارتمى في حضنها باكيًا وهو يردد:

- «بابا!!»

جميل جدًّا.. لقد صار الزوج المطعون في حبّه وحيدًا.. ليكن مسلحًا أو غير مسلح.. لقد انتهى أمره إذن... كان سيتعب الكاهن الأخير قليلًا.. لكنه الآن لن يتعبه على الإطلاق. سوف يعامل معاملة الذبابة، فيما عدا أن الذبابة لا تحدث كل هذا الضرر..

وهكذا وثب (هن - تشو - كان) إلى داخل الحجرة واتخذ وضع التوازن إياه، ثم توقف..

كان المشهد الذي رآه كافيًا جدًّا كي يتوقف..

بلل شفته السفلى بلسانه.. يا للحر!.. الحرارة تتصاعد إلى رأسه. هكذا نزع سترته ليصير بالقميص والبنطال وانتزع ربطة العنق الكريهة، وتحسن بطنه ليتأكد من أن كتاب الشوكارا ما زال هناك، ثم خرج من الغرفة..

هناك كان الصبي الباكي يحكي لأمه:

- «لقد وثب عليه شيء مخيف! كان يصرخ.. سقط على الأرض وهو يصرخ..»

نظرت (نادين) إلى (هن - تشو - كان) نظرة متسائلة فرأت التعبير على وجهه.. الرسالة واضحة ومفهومة..

سقط على وقف جوارها فهمست له وهي تعبث بشعر الصبي في عصبية:

- «هل هو؟»

- «نعم.. مثلهم جميعًا.. ملقى جوار المكتب ومنظر الجثة لا يسعد الناظرين..»

- «بهذه السرعة؟»

- «لو أنّ الصبي استطاع أن يشرح لنا من أين جاء الخطر لفهمنا أكثر هناك نافذة بالغرفة لكنّها مغلقة ويبدو أنها لم تفتح منذ دهور..»

هنا بدأت الدموع تحتشد في عينيها ثم تصب في أنفها.. بدأت تهتز وتبكي بينما (هن - تشو - كان ينظر لها في دهشة. يبدو أنها قررت أن تمارس انفعالات الأرملة فجأة.. أحيانًا تبدو رقة النساء بلاهة بالنسبة للرجال.. هذا الذي مات بالداخل عدوها وكاد يفتك بها من قبل. لكنّها لم تكن تبكي زوجها بالذات كانت تبكى قسوة الحياة ذاتها وحقيقة أننا نموت.. كنت تبكي حزمة كاملة من الذكريات.. تبكي نادين الأخرى القديمة التي لن تعود للأبد..

عندما هدأت قليلًا وتمخطت كثيرًا بدأت تثوب لرشدها وتتذكر أن من مات طليقها وليس زوجها. لهذا اتسعت عيناها رعبًا وقالت:

- «إن شيئًا لم يخرج من الغرفة.. هل فهمت؟.. الخطر ما زال بالداخل..»

- «لا يوجد شيء بالداخل..»

ثم تذكر شيئًا، فأضاف:

- «ما لم يكن الطفيل قد تسرب إلى داخل الجثة. من الوارد أن يتوارى عن العيون عبر فتحات الجسد..»

ثم انحنى على الصغير وركع على ركبة واحدة وقال له بلهجة إغراء:

- «أشرف.. هل تعرف ذلك الشيء الذي هاجم أباك.. من أين جاء؟»

ازداد الصبي رجفة والتصق بأمه أكثر.. نظرة عينه كانت توحي بغباء مطلق مع هلع هستيري لا يمكن السيطرة عليه وكان كل ما قاله:

- «أبي.. الشيء!!.. الشيء!!»

✶ ✶ ✶

كان هذا هو الوقت الذي وصلت فيه لأجد هذا الحفل.. كان المكان شبه مظلم، لكن مكتب المحاسب كان مفتوحًا.. وفي الخارج وقف (هن - تشو - كان) متوترًا متحمسًا، ونادين باكية تحتضن ابنها وتلثمه.. أشار لي (هن - تشو - كان) إشارة ذات معنى إلى الباب فهرعت هناك لأجد جثة رجل له ملامح زوج سابق مطعون في حبّه اسمه (مروان)..

لن أكف عن أن أكون عبقريًا.. قلت بالحرف من قبل: «لقد ولد خاسرًا وهو قابل للاستغناء عنه وشرير.. سوف يتوارى في مكان خطر فينفرد به هذا الطفيل وتكون عدالة شعرية لا بأس بها...»

كانت الجثة ملقاة جوار المكتب.. الأرض مبللة بسائل ما كريه الرائحة أعتقد أنه من إفرازات الجسد ضمن ما تم امتصاصه..

بالفعل كان الرجل ينتوي عمل مأساة، لأنني تحسست جيبه فوجدت شيئين.. زجاجة من حمض الكبريتيك المركز أو ماء النار.. خمنت هذا من شكل السائل ورائحة السدادة، وخنجرًا حادًا يذكرك بالخناجر التي تراها في السينما..

كان قد خلا من الحياة تمامًا.. خلا من عصارته الحيوية لكن أين ذهب العدو؟.. يقول (هن - تشو - كان) إن أحدًا أو شيئًا لم يغادر الغرفة، وأنا لا أصدقه.. لا أثق بشهادة العيان التي يدلي بها شخص غير مستقر عاطفيًا.. هنا لا توجد نوافذ تسمح بخروج الطفيل، دعك من أنني لا أبتلع فكرة أن يكون توارى في جسد ضحيته.. فكرة سخيفة..

دسست ما وجدته في جيبي عالمًا أنني على الأرجح سأستفيد من هذين السلاحين أكثر مما سيفيد منهما رجال الشرطة.

الحقيقة أنني بدأت أرجح أننا لن نرى رجال الشرطة. سوف يظهرون ولكن بعد انتهاء فصول المسرحية..

قمت بتغطية وجه الجثة المرعب بسترة (هن - تشو - كان) التي كانت هناك.

المشكلة هي أننا فعلًا لا نعرف شكل عدونا ولا خصائصه شيء يهجم بهذه السهولة ويتوارى بسهولة.. يعطي انطباع أنه ثعبان ويعطي انطباع أنه أخطبوط، كما يوجد احتمال لا بأس به أنه (إبراهيم)...

رباه!.. ما هذا الظلام؟.. أريد بصيصًا من الحقيقة.. أريد أن أفهم..

ثم سمعت الضوضاء من الخارج..

خرجت مسرعًا لأرى (إبراهيم) الخفير هو نفسه.. كان يقف هناك في الممر قرب الخزانة، وهو يصوب بندقيته الحكومية نحو.. نحو (هن - تشو. كان) والفتاة والصبي طبعًا..

بالفعل كان إبراهيم يلبس ثيابًا عصرية ولا أعرف هل هو الخيال أم لا لكنه بدا لي ضخمًا.. أضخم مما عرفته من قبل..

كانت يده ترتجف ومعها ترتجف الفوهة، وهو يصيح بلهجته الريفية:

- «لا تتحرك!.. سوف أطلق الرصاص في المليان!»

قال (هن - تشو - كان) وهو ينظر للبندقية ويبتسم بثقة:

- «ابتعد أنت يا ريفاات.. أؤكد لك أنه سيطلقها.. أعرف لحظات فقدان الأعصاب جيدًا..»

بسرعة قبل أن يتهور الخفير:

- «ماذا هنالك؟»

قال الخفير وهو لا يرفع عينيه عن (هن - تشو - كان):

- «هذا الرجل الصيني يريد أن يحبسني.. يتهمني بقتل الأستاذ رفاعي، لكني أنا أتهمه بفتح غرفة المحاسب للسطو على ما فيها.. أتهمه كذلك بقتل الأستاذ رفاعي.. ماذا تفعلون هنا بينما الجميع في الطابق السفلي؟»

قلت له وأنا أخشى أن يجن فجأة:

- «دع هذه البندقية.. أنت ترى أننا غير مسلحين. كف عن الجنون ولا تزد الأمور سوءًا..».

- «لا..»

- «يُمكنك أن تقتلنا، لكني أريد أولًا فهم لماذا بدلت ثيابك؟»

أغرب سؤال ممكن بالنسبة له، لذا نظر لي في غباء ثم قال:

- «هذا ليس من.. لقد اتسخ الجلباب وما تحته بهذه المياه النجسة.. إنها في كل مكان.. إنها في كل مكان.. استعرت هذه الثياب من قسم الملبوسات..»

كنت أنا قد كونت وجهة نظر لا بأس بها: الرجل بريء تمامًا وهذا كله سوء فهم. لكن لا يمكن أن نجازف بالفعل سيكون من الأفضل أن نحبسه في مكان ما..

رأيت شفتي (هن - تشو - كان) تتحركان فعرفت أنه يتلو تحذيرات السارايانا، وبالفعل كان ينقل قدميه ببطء مع الخطوات الثلاث.. باختصار كان يؤدي الحركات وينذر الرجل لكن بشكل خافت رمزي بحيث لا يسمع الإنذار.. فعرفت أن السهم غادر الوتر..

بعد ثانية كانت البندقية في يد الكاهن الأخير والخفير على الأرض، وقد استقر دبشك البندقية على عنقه مهددًا بتهشيمه.. بينما قدم (هن - تشو - كان) اليسرى على صدره..

- «سوان هاتشاه سارايانا!!»

قالها في فخر. لا داعي للنصب يا فتى، فالرجل لم يسمعك ولو سمعك لما فهم.. لو كان الرجل يعرف معنى السارايانا ومعنى مواجهة كاهن نافاراي لتخلى عن البندقية طوعًا..

- «كفى يا (هن - تشو - كان).. هل فقد الوعي؟»

- «نعم.. سوف يستغرق وقتًا حتى يفيق..»

قلت وأنا أبحث في قسم التغليف عن شريط بلاستيكي مناسب:

- «سوف نقيده ونحبسه في غرفة المحاسب.. هذا هو التصرف الوحيد السليم. لو كان بريئًا فنحن لم نؤذه، ولو كان هو الطفيل فنحن قد قيدناه...»

كان هناك كذلك مشمع لاصق عريض، مما أعطانا خيارات ممتازة وهكذا التففنا نحن الثلاثة حول الخفير فاقد الوعي، كأننا أطفال يغلفون هدية عيد ميلاد.. وعندما انتهينا كان من المستحيل عليه التحرر... لو كان بشريًا.. ثم كممت فمه لسبب بسيط هو أنني لا أريده أن يتوسل لأحد رفاقه عبر الباب كي يخرجه.. ربما لم يكن هو فعلًا....

كان القفل موضوعًا على غرفة المحاسب لكنه مفتوح.. هكذا قمنا بجر الجسد الثقيل إلى داخل الغرفة، ثم أصررت أنا على إخراج جثة الزوج مروان لنضعها في الممر.. لو كان هناك شيء يخرج من الجثث، فلا أريد أن نكون المسئولين عن رجل مقيد يواجه هذا الشيء وحده في غرفة مغلقة..

هكذا قمنا بغلق القفل بالضغط ومعنى هذا أنه لا خروج للخفير إلا بمفتاح.. لكنه لن يموت جوعًا بهذه السرعة طبعًا...

جلسنا على الأرض مرهقين فلم نعد نبالي بثيابنا..

نظرت لساعتي الثانية بعد منتصف الليل.. سبع ساعات منذ دخلنا هذا المتجر المشئوم..

قال (هن - تشو - كان):

- «اعتقادي أن إيقاع الأحداث سيتسارع.. الانهيار الجليدي سيتسارع ويغطي أكواخ القرى. السبب هو أن الشيء يجب أن يتم قبل الشروق وقبل أن يخرجونا من هنا...»

- «أي شيء؟»

- «لا أعرف.. ربما هو هلاكنا وربما هو تحرر هذا الشيء لا نعرف حتى اللحظة..»

قالت نادين وهي ترتجف وتحتضن طفلها بعصبية:

- «لابد أن أهلي قد جنوا رعبًا.. في المعتاد أكون في داري عند منتصف الليل عندما يكون عملي ليلًا.. لقد اختفيت أنا والطفل تمامًا بالنسبة لهم..»

ثم التفتت نحو الصغير:

- «هل أنت جائع؟.. لحظة..»

هنا لاحظت للمرة الأولى أنها تحمل حقيبة صغيرة تتدلى من كتفها عبثت فيها وناولته (باكو) من البسكويت لكن الصبي لم يبد مفتوح الشهية جدًّا..

قال (هن - تشو - كان):

- «علينا أن نجد مخرجًا..»

قالها وهو ينظر لأعلى مفكرًا... ثم هتف:

- «ريفاات لابد أنّ هناك طريقة لبلوغ السطح. من الممكن أن يكون هذا هو الحل..»

- 9 -

رفعت:

هل تعتقد أن العمال لم يحاولوا ذلك؟

(هن - تشو - كان):

هناك احتمال لا بأس به أنهم لم يفكروا في ذلك..

نادين:

هناك سلم في الطابق الرابع يشبه سلالم المطافئ وهو يقود للسطح.. لا أعرف إن كان هناك باب مغلق أم لا، لكن الأمر يستحق المحاولة..

(هن - تشو - كان):

تتكلمين عني وريفاات.. أمّا عنك والطفل فقد حان وقت النزول للانضمام للجميع تحت.. أعتقد أن الزحام مزعج لكنه أكثر أمنًا..

نادين:

لكني أعرف مكان السلم..

رفعت:

يا لها من معلومة قيمة!.. كأن العثور على سلم يحتاج لمعونة فعلًا سوف تزيحين عنا عبئًا لا بأس به لو انضممت للجموع..

نادين:

ليكن.. لكن كونا حذرين.. هيا يا أشرف..

(الطابق الرابع)

رفعت:

أعتقد أن السلم سيكون في الركن.. جوار مخرج الطوارئ أو داخله..

(هن - تشو - كان):

لا يوجد معنا كشاف.. انتظر.

رفعت:

فانوس الأطفال الكهربي هذا.. فكرة ممتازة مع أنك هشمت الزجاج بركلتك.. على كل حال لقد ولّى عصر الحفاظ على المعروضات.. خذ راحتك.. المهم أن نجد حجرين جافين.. ها هما وهذا هو السلم المعدني يقود لفتحة في السقف.. لكنّها مغلقة فعلًا..

(هن - تشو - كان):

صوب الكشاف عليه وسوف أتصرف..

رفعت:

لا يستجيب.. هناك قفل يغلقه بإحكام. اضرب بقوّة..

(هن - تشو - كان):

يحتاج إلى ضربة أقوى.. انتظر..

رفعت:

يا للروعة..!.. لقد انقلبت بحركة بهلوانية، بحيث صارت قدماك أمام الفتحة ثم قمت بتثبيت جذعك وركلت الغطاء.. مع قوة هذين الساقين كان لابد أن يتهشم..

(هن - تشو - كان):

هل أنت آت يا ريفاات؟

رفعت:

أصعد في هذا الدرج؟.. لو كان الأمر كذلك يا بني لما احتجت لك أصلًا ولأنهيت المشكلة في دقائق.. سوف أنتظرك طبعًا... قلبي لا يتحمل صعود هذه الدرجات.. هيا خذ الفانوس واصعد أنت..

(هن - تشو - كان):

ليكن.. لكن خذ الحذر...

رفعت:

أعتقد أنك الوحيد المهدد هنا.. رائع!.. انقلبت بسهولة بهلوانية ليصير رأسك لأعلى من جديد. والآن تحشر جسدك عبر الفتحة.. حظًا سعيدًا.

(صوت ضوضاء)

(صوت صراخ مكتوم)

(هن - تشو - كان):

ريفاات.. ساعدني!

رفعت:

ماذا يدور عندك؟.. أنت مختف بالكامل.. (هن - تشو - كان).. تكلم.. أنا لا أرى سوى السماء السوداء من هذه الفتحة..

(الصراخ مستمر)

(صوت ارتطام ومقاومة)

(هن - تشو - كان):

تشا ساريانا.. كيو سارايانا.. جوانغ سارايانا..!!

رفعت:

لا وقت للطقوس أيها المخبول.. لكن.. هذا يعني أنّ هناك خصمًا.. خصمًا قابلًا لقتاله..

(صوت ضوضاء)

رفعت:

(هن - تشو - كاااان)!.. لماذا لا ترد؟ لاااااه!!!

الجـزء الثالث:

أسطورة الطفيل

هناك خطر آت.. خطر داهم يحاول السيطرة على الكون هذا الخطر سوف يخترق إحدى الثغرات التي تربط عالمنا بعالم الشياطين.. عندها ينهار عالمنا لندخل في الحقبة المغلفة. عليك أن تعرف كل شيء عن الـ (نامو أميتابها) لأنك قد تكون الرجل المختار..

- 1 -

عندما تغرب الشمس وتلطخ دماؤها ثوب المساء الأزرق..

عندئذ يبدأ فجر النافاراي..

✶ ✶ ✶

التقاليد هي عماد التحضر في ذلك العصر البعيد، وبالتحديد في قرية (تو جيجي) بالتبت، حيث تم اللقاء الأول بين الكاهن الأخير و(جيدون شوكي نيما).. إنّه - فيما يقولون - التناسخ العاشر للاما (بانشن رينبوش) العظيم.. برغم أن النافاراي لا يؤمنون بالتناسخ، فقد كانوا يحترمون عقائد الآخرين..

لقد حكيت لكم جزءًا من هذا اللقاء من قبل، واليوم أذكّركم به..

إنه أهم الأحداث في حياة (هن - تشو - كان) وإن كان لا يعنينا بالطبع على الإطلاق...

وقد دخل (هن - تشو - كان) الدير على ركبتيه حتى صار أمام اللاما فمرغ جبينه في الثرى.. عندما رفع رأسه وجد أن (شوكي نيما) يجلس القرفصاء لكنه على ارتفاع متر عن الأرض.. شيء كهذا يطير صواب الفلاحين، لكن (هن - تشو - كان) قام بنفسه بأشياء مماثلة مرارًا، ويعرف أنه لا معجزات هنا إلا معجزة التركيز الذي يصل إلى درجة ذوبان الذرات في الذرات.. (النافاراي) يصنعون مثل هذا وأكثر..

قال اللاما العظيم:

- «أنت (نافاراي)... عرفت هذا من ثيابك..»

يقول الكاهن الأخير وهو يطرق برأسه:

- «يطلقون عليّ الزهرة الزرقاء أيها اللاما العظيم..»

- «وأنت لا تؤمن بنا. لا تؤمن بي..»

- «تعلّمت أن أحترم معتقدات الآخرين أيها اللاما العظيم..»

ارتفع اللاما إلى أعلى أكثر وأغمض عينيه كأنه يحلم وبدأ يتكلم بصوت خفيض:

- «إن (التانترا) قد زحفت على معتقدات البوذية ولوثتها.. المهايانا المقدسة صارت تتخذ طابعًا شهوانيًا يقدس قوى الأنوثة والخصوبة في الكون: البراكريتي Prakriti.. الربة الهنديّة كالي. ومن هنا ولدت فكرة الأمهات المقدسات (مدتري).. واضطروا لاختراع الكثير من الآلهة لتمثل قوى الشهوانيّة هذه..»[2]

باختصار: لم تعد الأمور كما كانت في الماضي السعيد.. الكلمة التي يقولها الجميع بدءًا بسائق سيارة الأجرة وانتهاء بذلك اللاما البوذي العجوز..

قال اللاما بينما (هن - تشو - كان) يصغى باهتمام:

- «كل شيء يحدث في الحياة يميل لأن يتكرر إلى الأبد.. لهذا نجد أن ما يدهشنا اليوم هو تكرار لعشرات المرّات السابقة. وهذا الميل للتكرار لا ينجم عن طاقة تهوى التكرار وإنما ينجم عن عدم وجود قوى تعرقله. في كتاب (ساميوتا نيكايا) يُطلق جوتاما على هذه الظاهرة اسم (بالي كابا).. العالم بدأ بالـ (بيكوهو) وهو الخلق الأول.. ومن الميلاد حتى الموت تدور الدورة لكن البداية غير واضحة وهذا يعني أنه لا وجود لها، لأنّه في البوذية يتساوى تعبيرا (غير واضح) و(غير موجود).»

كان (هن - تشو - كان) يعرف هذه الأمور برغم أنها صعبة التصور.. إنها من صميم صميم البوذية..

أردف اللاما وهو يعلو بعض الشيء:

- «يقول بوذا لأناندا: لو لم يولد أناندا فهل نرى له شيخوخة أو موتًا؟.. يقول أناندا: لا يمكن يا سيد.. هذا يعني أن عدم الوضوح يعني عدم الوجود كذلك، وهكذا تجد أن لنا أربع حقبات.. الحقبة التي تغلف وهي تمثل انهيار العالم.. الحقبة المغلفة وهي الانهيار.. الحقبة النامية هي بدء الحياة من جديد.. الحقبة المكتملة هي ذروة نمو الحياة. يجب أن تفهم معني (نامو أميتابها) أي (تكوين اللاشيء)..»

كان (هن - تشو - كان) قد اعتاد هذا الكلام الغريب وعرف أنه يقود إلى مفهوم (الأرهان) Arhan.. المفهوم الأهم في البوذية وهو الإنسان المكتمل..

حسب كلام اللاما، فالكون دورات من الانهيار ثم البدء من جديد، وفي كل دورة يتطور الإنسان أكثر ليقترب من (الأرهان)..

قال اللاما (جيدون شوكي نيما):

- «نفس (البالي كابا) تتكرر مع التانترا.. التانترا تحاول السيطرة على الكون لتعجل بحقبة التغليف.. في كلّ مرّة تحاول قوى الشر أن تصل للسيطرة والاستيلاء على (الدارما).. قوة الكون كله، وذلك عن طريق عالم الشياطين. عالم الشياطين مواز لعالمنا ومنه يعبر لنا الأشرار وتحاول

قوى البراكريتي أن تصل لعالمنا دورة تتكرر كل 1570 سنة، وفي كلّ مرّة يفشلون لأنّهم لو نجحوا لعم الخراب. خذ الحذر أيها النافاراي خذ الحذر وأنذر قومك..»

ثم بدأ يهبط إلى الأرض.. وفتح عينيه..

كان (هن - تشو - كان) يعرف التقاليد لا يمكنه الاستفسار عن أي شيء لأن هذه غيبوبة اللاما نفسه لا يعرف ما قاله..

كانت النبوءة خطرة، لأن الدارما هي قوة الكون ذاتها ومن العسير تصوّر أن تسلب من التبت..

لكن (هن - تشو - كان) قدر أنّ هذا الكلام هذيان على الأرجح..

لم يصرح بهذا بل خفض رأسه وتراجع إلى الخلف دون أن يعطي اللاما ظهره..

- 2 -

الأخ ميانج:

تعال أيتها الزهرة الزرقاء.. تعال فأنت تتجمد بردًا وقد تراكم الثلج على غابات حاجبيك وضفيرتك. تعال إلى حيث النار والشاي بالزبد.

(هن - تشو - كان):

تحية أيها الأخ العظيم (ميانج).. النافاراي لا يبرد لأنّه يوقد نيرانه الداخلية.

الأخ ميانج:

هل ذهبت إلى (تو جيجي) أيتها الزهرة الزرقاء؟

(هن - تشو - كان):

بالطبع.. (في سخرية) وسمعت الكثير من كلام الماهايانا..

الأخ ميانج:

أنت قابلت تناسخ اللاما وتسخر؟

(هن - تشو - كان):

نحن لا نؤمن بالتناسخ أيها الأخ العظيم..

الأخ ميانج:

إنما أرسلتك كي تسمع منهم وتفقد كبرياء النفس.. أسوأ أنواع الكبرياء أن تعتقد أنك وحدك تملك الحقيقة وأن من عداك لا يملك منها شيئًا طلبت منك أن تقدم له الاحترام وأن تمرغ رأسك في الغبار أمامه..

(هن - تشو - كان):

وقد فعلت أيها الأخ (ميانج).. لكن لم أتجاوز هذا.. معني أن أصدق نبوءته أن أصير منهم.. معنى أنني نافاراي هو أنني أراهم على خطأ.

الأخ ميانج:

سوف تعود له وتطلب الصفح.. سوف تمرغ رأسك في الثرى من جديد..

(هن - تشو - كان):

سأفعل يا أخ ميانج..

الأخ ميانج:

لا ترحل الآن بل بعد العاصفة. والآن احك لي ما قال لك..

✶ ✶ ✶

(هن - تشو - كان):

هذا كل شيء..

الأخ ميانج:

رسالته بالغة الأهميّة.. هناك خطر آت.. خطر داهم يحاول السيطرة على الكون هذا الخطر سوف يخترق إحدى الثغرات التي تربط عالمنا بعالم الشياطين.. عندها ينهار عالمنا لندخل في الحقبة المغلفة. عليك أن تعرف كل شيء عن الـ (نامو أميتابها) لأنك قد تكون الرجل المختار..

(هن - تشو - كان):

ولماذا أنا؟

الأخ ميانج:

لأنك أفضل رجل لدينا.. أنت أكثرنا اكتمالًا وأدنانا إلى (الأرهان)..

(هن - تشو - كان):

قال إن الدورة تتكرر.. هذا هو الـ (البالي كابا)..

الأخ ميانج:

نعم.. كل 1570 عامًا.. ومعنى كلامه معك أننا ندنو من إحدى الفترات.. سوف أحبسك في الدير ويكون عليك أن تعرف كل شيء عن الـ (نامو أميتابها) أو (تكوين اللاشيء).. إنّه في كتاب الشوكارا.. يجب أن تعيه وأن تفهمه..

(هن - تشو - كان):

سأحاول يا أخ ميانج.

الأخ ميانج:

لا أريد منك أن تحاول.. أريد أن تفعل...

- 3 -

من الواضح تمامًا أنني سأصعد..

المشكلة هي أن جهد الصعود مع الانفعال وكل هذا الأدرينالين سيجعلان قلبي في حالة خطرة.. يكفي أن يقول لي أحدهم (بخ) لأسقط ميتًا..

هناك خطر داهم فوق.. لا شك في هذا..

والأهم أنه قادر على هزيمة الكاهن الأخير.. معنى هذا أنه لا فرصة لي على الإطلاق.

هل أطلب عونًا؟.. لا وقت لذلك.. من الوارد أن أعود لأجد أن (هن - تشو - كان) قد تحول لذبابة فارغة كالباقين.. فقط لأضع قرص نيتروجلسرين تحت لساني.. لو كان معي (غالق بيتا) الذي يحمي قلبي من تأثير الأدرينالين القاتل، لكان هذا رائعًا.. لكننا لسنا في كافتيريا لو لاحظت هذا.. لابد من الاكتفاء بالموجود...

توكلت على الله ووضعت ساقًا كالعجين على أول درجة..

الدرجة الثانية...

هنا فوجئت بشيء يتدلى من أعلى عبر الفتحة..

وقبل أن أفهم ما يحدث كان جسد (هن - تشو - كان) يسقط فوقي.. لم أستطع تفاديه فسقطت من تحته.. ولحسن الحظ أنه خفيف الوزن وأنني لم أرتفع جدًّا..

هناك سقطت على الأرض ورفعت رأسي إلى الفتحة بسرعة فرأيت الضوء الخافت القادم من الفانوس.. ورأيت تلك الأشياء تتحرك أمام خلفيّة من ظلام الليل.. ثعابين؟.. ممصات؟...

إن السطح يعجّ بها إذن.. لئن كنا نحن أغبياء لم نفكر في الصعود، فقد توقع الشيء أننا أذكى.. وانتظرنا في صبر....

هل ينزل لي؟..

حبست أنفاسي وكان هذا سهلًا لأن خاصرة (هن - تشو - كان) تجثم على صدري وتمنعني من التنفس فعلًا.. رأيت ذلك الشيء يتحرك ثم يبتعد..

هنا هززت (هن - تشو - كان) متوقعًا الأسوأ.. إنّه صامت تمامًا مرتخ كدمية من قماش..

بذلت جهدًا عسيرًا لأخرج من تحته ثم تحسست شريان عنقه إنّه حي.. لا شك في هذا.. يتنفس كذلك..

لكن عينيه مغمضتان غائبتان.. إنّه في غيبوبة..

جررته بكثير من الجهد بعيدًا عن تلك البقعة الرهيبة.

هناك فتحة مخيفة في السقف، لكن لا أحسب أن إغلاقها مهم.. هذا الشيء برهن على قدرته على الدخول والخروج متى أراد وفي أي مكان..

تحسست ساعديه وساقيه فوجدت علامات الممصات.. لقد بدأ الشيء العملية ولم يكملها.. لعل (هن - تشو - كان) كان خصمًا عسيرًا. لعله تملص في اللحظة الأخيرة والدليل أنه هوى عندي.. الشيء لم يلقه بالتأكيد...

نهضت وأسرعت أبحث عن أشخاص يساعدونني.. لن أتمكن من نقله لمكان آمن وحدي.

✶ ✶ ✶

من ناحية الهستيريا فعلت نادين ما بوسعها حتى توقعت أن تصرخ (يا سبعي يا جملي) وهي تمزق شعرها.. لقد أرقدوا (هن - تشو - كان) على الفراش الذي كنت أرقد عليه منذ ساعة في الطابق الثاني، وبذلت جهدًا جهيدا كي أقنعهم بعدم صب سوائل في حلقه..

جلست جواره وتحسست نبضه..

على قدر علمي هذا أول واحد ينجو من الهجمة.. أنا لا أعتبر ناجيًا إنما اشمأز الكائن مني واعتبرني ميتًا.. لكن كيف يعود لوعيه؟.. أعرف يقينًا أنه مهم جدًّا لإنقاذنا.. القصة كلها تقوم على كتفيه وعلى الإشارات التي تلقاها من الأخ (ميانج).. دعك من قدراته المذهلة. الآن نحن مجردون فعلًا واقفون في العراء..

للمرة الثانية يرقد هذا الفتى فاقد الرشد وأنا أقلق عليه.. كانت المرّة الأولى عندما التقينا أول مرة ورحل هو لعالم الهلاوس العجيب (زانادو)... هذه المرّة قد تكون الأخيرة..

قالت لي نادين وهي تجفف دمعها:

- «ماذا قد دهاه؟»

- «هاجمه الشيء الذي هاجمني.. لكن مع أمثالي لا يحدث الناس كل هذه الهستيريا.. والآن خير ما تفعلينه هو أن تبقي في الطابق السفلي مع أشرف.. بالمناسبة أين هو؟»

تلفتت حولها في غباء ثم قالت:

- «لا شيء هو مولع بالاختفاء.. هذا لا يثير قلقي.. إنّه يحبّ لعب المساكة. لقد هرعت هنا عندما سمعت ولم ألحظ إن كان خلفي أم لا..»

- «ليس في جهنم بالله عليك.. نحن في الجحيم ذاته.. كلما حسبتك تراقبينه بعناية اتضح أنك لا تعرفين أين هو.. أنت تعتقدين أن عالمنا روضة أطفال تلهو فيها الغزلان والأرانب الصغيرة..»

أصدر (هن - تشو - كان) أنينًا فمدت يدها تربت على ساعده..

رحت أنظر في المكان حيث تناثرت قطع الأثاث والمفروشات مكان يجب أن يثير بهجة وخيال أية عروس تجهز بيتها، لكنه الآن صار يثير خيالات من نوع آخر..

هنا هتف أحد الرجال الذين ساعدوني في نقل (هن - تشو - كان):

- «هناك!.. الصبي سليم..»

كان الوغد الصغير يهبط بتؤدة على الدرج وهو يمسك الترابزين، محاذرًا أن تتعثر قدماه الصغيرتان.. طريقة الأطفال في وضع القدمين معًا على كل درجة. في يده قطعة من البسكويت يقضمها دون نهم.. من أين جاء؟.. ماذا كان يفعل في الطابق الثالث أو الرابع؟

قلت له آمرًا:

- «أشرف.. لا تترك أمك ثانية..»

وهتفت نادين في جزع كأنها قررت أن تخاف فجأة:

- «أشرف حبيبي.. لا تثر فزع ماما ثانية.. الطابقان فوقنا خاليان تمامًا وفيهما أشياء مخيفة..»

نعم.. هناك جثث.. الكثير منها.. بل إن جثة أبيه واحدة منها.. لكنه يملك غريزة استكشاف ممتازة..

هذا غريب فعلًا...

- «أريدك أن تراقبي (هن - تشو - تشو - كان) والطفل.. مهمّة سهلة ومحببة للنفس فلا تقصري فيها. أرجوك..»

قالت في تنمر، كأنها فارس يستفز الكماة وهو يدور حول الأسوار باحثًا عن مبارزة:

- «ماذا تعني بـ (مهمّة محببة للنفس)؟»

- «أعني أنها مهمّة محببة للنفس..»

بعد هذا كله تريد أن تغضب لو لمحت إلى أنها تميل للكاهن الأخير.. شيء يثير الجنون فعلًا.. هذه التصرفات الأنثوية تثير جنوني فعلًا..

✶ ✶ ✶

هرعت إلى غرفة المحاسب..

أنا أعرف يقينًا أنني أغلقت الباب، لكنه كان مفتوحًا.. القفل يتدلى في بلاهة جوار الباب ولا توجد علامة على العنف.. جثة الزوج المغطاة هناك جوار الباب حيث تركتها وهذا يدل على أن الحياة ما زالت باسمة..

دخلت المكتب في حذر وألقيت نظرة..

ربما توقعت أن يكون هناك شخص بالداخل أو طفيل له رأس أخطبوط من عوالم لافكرافت.. لا شيء من هذا.. ليت الأمر.. كان كذلك..

ما وجدته كان أكثر رعبًا...

لا أحد في الغرفة...

الخفير الذي كان مقيدًا فاقد الوعي مكممًا جوار الأريكة، لم يعد هنا. لقد هرب.. هل فعل ذلك بنفسه أم أنّ هناك من فتح الغرفة وحرره؟.. هل الخفير حي؟.. هل هرب أم أنّ هناك من وجده مقيدًا فنفذ كوابيسي..؟

شعرت بشيء يتهشم تحت قدمي.. هذا فتات..

من السهل أن ترى الإطار المزخرف المميز لقطع البسكويت هناك من أسقط بسكويتًا هنا وقد بدأ يبتل بفعل هذا السائل الكريه..

بسكويت... لم أر كثيرين يحملونه في الأسبوع الماضي..

(أشرف)..!

أشرف كان هنا.. فهل دخل الغرفة والخفير فيها أم بعد ذلك؟.. بالطبع ليس هو من حرره..

وشعرت بقشعريرة..

ما معنى لفظة (طفيل) حقًّا؟

نحن نتعامل مع حروف جاءت بطريق غامض عبر الأبعاد والآباد.. إنها كهمسات نسمعها عبر صفير الريح.. أربعة حروف قلنا إنها بالعربية ولا نعرف معناها بالضبط..

لفظة (طفيل) لها معنى آخر في المعاجم..

الطفيل قد يكون هو الذي نعرفه، وقد يعني كذلك الطفل الصغير جدًّا!!

- 4 -

نادين:

ما زال لا يفيق.. ليتنا نستطيع أن نطلب الإسعاف..

رفعت:

ليتنا نستطيع عمل كل شيء.. إن الفجر قد جاء.. إما أن ينتهي هذا الكابوس أو يبدأ.. (هن - تشو - كان) كان يتوقع أن يبدأ لأن كل شيء سوف ينتهي الليلة..

نادين:

كل شيء؟.. لا أعرف ما هو الـ (كل شيء) هذا..

رفعت:

لا تتحرك يا أشرف.. (بحدة) قلت لك ألا تتحرك أيها الوغد الصغير!

أشرف:

ماما..!.. إنّه يصرخ في!... نياااااااااااااااه

نادين:

شيء غريب فعلًا.. أنت عصبي خائف فما ذنب هذا الصغير؟

رفعت:

ذنبه أنه.. لا شيء.. أعتذر بشدة.. فقط أرجو أن تنزلي معه للطابق السفلي.. لا أريد أن تكونا وحيدين...

نادين:

لن أترك صديقك هذا أبدًا حتى يفيق.. لقد أنقذ حياتي مرة وكاد ينقذها مرّتين..

رفعت:

نسيت فعلًا.. المشكلة هي أنني عاجز عن الحركة.. لا أستطيع تركككما مع (هن - تشو - كان) ولا أستطيع ترك أشرف معك..

نادين:

ألن تكف عن هذا؟.. تقول كلامًا غير مترابط.. هل تحسبني سأؤذي صديقك؟

رفعت:

أشرف.. هل دخلت تلك الحجرة التي أغلقناها؟.. التي حبسنا فيها الرجل؟

أشرف:

لا.. لا.. بابا هناك وهو مريض جدًّا..

رفعت (يكلم نفسه):

بالطبع.. لو فعلت ذلك لأنكرت.. الحقيقة أنه لموقف محير فعلًا... لكن كلما فكرت في الموضوع بدا لي منطقيًا أكثر. كنت أنت مع أبيك ثم برزت لنا ووجدنا أباك ميتًا.. ظهرت كذلك بعد موت المدير.. تأتي من الطابق المظلم الذي أخاف أنا نفسي من المشي فيه، غير مهتم كأنك تنتمي لهذا الرعب.. بل أنت هذا الرعب.. شخص واحد كان يتنقل في كل مكان طيلة الأمسية ويختفي.. والسؤال هو: هل أنت كذلك منذ البداية أم أصابتك العدوى بشكل ما؟.. وكيف لي أن أعرف؟.. وكيف أخبر الآخرين إنني أشك في طفل في الثالثة من عمره؟.. كنت أؤمن دومًا أن الأطفال كائنات شيطانية لكن ليس لهذا الحد.. ترى هل تحتفظ بملامحك الطفولية هذه أم تفتح فاك لتبرز تلك الممصات المرعبة منه؟... أم أنك تتحور بالكامل؟

نادين:

إن صاحبك يحرك شفتيه وحدقتاه تتحركان.. إنِّه يحلم..

رفعت:

إن ضمير هذا الفتى مثقل.. رأسه يحوي عدة ثقافات وعدة عصور ومئات الأسرار.. لا شك في أنه يحلم بالكوابيس..

نادين:

لم لا ننقله للطابق السفلي؟

رفعت:

سوف يحتشدون حوله ويخنقونه، ثم إن ظهوره سوف يحدث حالة هلع لا شك فيها لأنّهم سيحسبونه مات.. بالمناسبة ماذا يقولون تحت؟

نادين:

يبحثون عن المدير.. كلهم غضب وهناك رجل أخرج مسدسًا وأطلق طلقتين على الستار الحديدي.. للأسف كانت هذه آخر طلقات معه وإلا لأحدث ضجة لا بأس بها.. غير أن أحد العقلاء أقنعهم بأن المشكلة ستحل لأن الصباح قد جاء. سوف تصل المطافئ وتحرر الجميع.. لا أحد يعرف سبب هذا الحصار ويعتقدون أنه إهمال تفاقم بشكل ما..

رفعت:

وددت لو اعتقدت هذا بدوري.. لكن المشكلة أن أحدًا لن يقتحم المتجر المغلق لأنّهم لن يعتقدوا أن أحدًا بداخله..

نادين:

يصرخون كثيرًا ويضربون الستار المعدني لكن يبدو كأن أحدًا لا يسمعنا بالخارج..

رفعت:

وهذا غريب.. يخيّل لي أنّ هناك نطاقًا من الصمت والفراغ حول المتجر كله.. ليس العزل ماديًّا فقط بل هو معنوي كذلك عزل حواس لو كان هناك شيء كهذا..

نادين:

هناك كذلك طفح مجار يتزايد.. إنّه آت من الباب الخلفي المخصص للعاملين، لكنه لم يسبب مشكلة ما.. فقط الرائحة كريهة بشدة...

رفعت:

هل يكون هذا الشيء قد سد المجاري كذلك؟..

نادين:

على كل حال هي مشكلة تتكرر من وقت لآخر.. يقولون إنّه لابد من استبدال المواسير كلية.. الأستاذ رفاعي يرحمه الله لم يرد أن ينفق كل هذا المال..

رفعت:

سوف.. أشرف!.. ابق هنا!..

نادين:

قلت لك ألا تصرخ فيه..

رفعت:

لنقل إننى أصرخ فيه بسبب القلق لا أكثر.. لا أريد أن يبتعد في ليلة سوداء كهذه أشرف!.. أشرف!... قلت لك أن تمسكي به جيدًا..

نادين:

أنت أثرت رعبه.. ليس هذا ذنبي.. أعتقد أنه ينزل إلى الطابق السفلي..

رفعت:

لا تتركي (هن - تشو - كان) لحظة.. أنا سألحق به..

- 5 -

الحقيقة أنّ هذه لعبة قاسية وغير عادلة.

لو تبين أنّ هذا الطفل هو الطفيل فأنا لا أعرف ما يجب عمله.. لا يمكن أن أقتله وأقول إنّه يحمل لعنة ما. الأب الذي فعل ذلك - وكان محقًا - في فيلم (النذير) قتله رجال الشرطة قبل أن ينفذ مهمته.. برغم أن الطفل كان هو الشيطان نفسه.

ماذا يمكن عمله؟.. وماذا لو كنت مخطئًا؟

كنت أتوقع أن يساعدني (هن - تشو - كان) في الاختيار، لكني الآن طفل.. طفل مسن لا يرشده الكبار ولا يعرف ما يجب عمله.

أحبسه؟.. سوف يعتبرونني مجنونًا وسوف يملأ هو الدنيا صراخًا..

كنت أفكر في هذا وأنا أهرع إلى الطابق السفلى..

كان هناك سيرك كامل.. معظم الموجودين ناموا على الأرض وقد فرشوا السجاجيد والستائر الجديدة.. بعضها كان ما زال في كيس بلاستيكي.. جوار الجدران تكومت أسر كاملة معظمها غاف. مشهد يذكرني بمترو أنفاق لندن أيام الحرب العالمية الثانية عندما كانت قنابل النازي تمطر لندن.

بعض الناس كان منهمكًا في الصلاة وبعضهم كان يجلس محدقًا في السقف بلا تعبير على وجهه.

لاحظت كذلك تسريب المجاري الذي تحدّثت عنه نادين.. هناك أكثر من بالوعة في الأرض لتسهيل التنظيف.. وكان الماء يرتجع من بعضها لكنه ليس غزيرًا لدرجة أن يبلغ كل مكان، وإلا لما استطاع أحد النوم على الأرض... فقط هناك رائحة كريهة خافتة.. سيكون الوضع مما لا يطاق بعد ثلاث ساعات لكن ليس الآن..

طبعًا لم يذق واحد من هؤلاء الزاد منذ ساعات.. المتجر يبيع أشياء كثيرة، لكنهم بالتأكيد يتمنون لو حبسوا في مطعم.. الأجمل لو لم يكونوا نزلوا من بيوتهم أصلًا..

لقد ساد الصمت واستسلم الجميع للقضاء. لم يعد أحد غاضبًا يتهم الإدارة بالإهمال.. أين الإدارة ذاتها؟.. الإدارة ماتت جوار دورة المياه بالطابق الثالث..

ونظرت لساعتي بعد ساعة تملأ الشمس العالم لكننا لن نراها إلا من النوافذ ذات القضبان.. ربما يمكننا وقتها أن نلفت نظر المارَّة..

جوار الباب الرئيس المغلق تمدد الكهربائي (عبد الوهاب) وذلك الموظف الذي عرفت أن اسمه (مختار).. يبدو أنهما ضربا الباب، حتى أرهقا فناما حيث هما..

بالمناسبة: متى ترك (عبد الوهاب) المدير؟.. كان معه أثناء حرق الممص، فهل تركه قبل أم بعد الوفاة؟

من الوارد أن تكون نظرية الطفل هذه خاطئة، ونعود لنظرية الرجل الذي يخفي الطفيل بداخله..

وأين الطفل نفسه؟

✶ ✶ ✶

لأسباب فسيولوجية اتجهت إلى الحمام في ركن المكان عرفت مكانه من اللافتة مع الرسم المميز الذي لا تتبين أنه رجل إلا بعد ما تلصق أنفك به..

الإضاءة جيدة هنا كان الكهربائي قرر أن يضيع الكهرباء كلها في مكان واحد. هناك رجل وامرأة ناما بالضبط جوار الباب وهو مكان شاعري فعلًا للنوم..

يجب أن أخطو فوق ساقي المرأة الممدودتين كي أدخل..

ولكن.. لحظة..

لا تبدو لي هذه امرأة نائمة.. لو شئنا الدقة لقلنا إنها تبدو كقشرة امرأة نائمة..

والرجل؟.. ماذا عن الرجل..؟.. لقد تم امتصاصه.. والمرأة كذلك إنهما ميتان.. يبدو أنهما اختاره النوم هنا في ركن المكان فهاجمهما الشيء.. لم يلحظ أحد ما حدث، مثلما يحدث في السينما.. تقتل رجلًا ثم تبقيه جالسًا والقبعة على وجهه فيحسبه الجميع نائمًا..

إذن الطابق الأول ليس آمنًا.. لم يعد كذلك..

هذا الشيء يتسلى بالهجوم على الأطراف.. كل من ابتعد أكثر من اللازم هوجم على الأرجح.. أعتقد أن كثيرين مروا على ساقي المرأة الميتة وهم يدخلون الحمام، لكن أحدًا لم يلحظ أو لعل الحياء منعهم من التفرس في ملامحها..

إن الأطباء يحملقون في الناس أكثر من سواهم.. هذه حقيقة..

بالطبع لم أحدث ضوضاء لأنني تخيلت عاصفة الذعر التي ستجتاح المكان لو عرفوا أنّ هناك من مات بينهم..

دخلت الحمام ففعلت ما جئت له، ووجدت أن مشكلة المجاري موجودة بقوّة.. إن المياه تغمر أرض الحمام والمبولة لم تعد تتخلص ما فيها..

ما هذه الصدفة الكريهة؟.. ولماذا الآن؟

غادرت المكان ورحت أفتش بين النائمين عن شخص لن ينهض.. بحثت في ركن المكان. بالفعل وجدت رجلًا مسنًّا جوار باب الطوارئ الخلفي يرقد بين خراطيم الإطفاء وأسطوانات إطفاء الحريق. كان قد مات بدوره..

دنوت منه أكثر ورحت أتفحص حدقة عينه.

هنا شعرت بحركة غريبة وراء الباب..

أشرف!

كان الصغير يقف هناك ينظر لي في رعب. الشعر يغطى أعلى عينيه بتلك الطريقة التي أكرهها، مع ميله للصمت وسهولة البكاء.. لو لم يكن هذا هو الطفيل فهو طفل سخيف فعلًا..

قلت له بصوت مبحوح:

- «أين أنت؟.. أمك قلقة بصددك..»

وفطنت إلى أن صوتي يرتجف.. بالفعل كنت مذعورًا منه..

لم يرد وظل يرمقني في ثبات.. كيف لي أن أعرف؟.. هل أنت الذي هاجمت هؤلاء البؤساء؟.. ماذا تنوي عمله بعد ذلك؟

يمكنني أن أقيده وأراقبه، لكنه سيملأ الدنيا صراخًا وسوف ينهض كل هؤلاء الأخوة للفتك بالعجوز المجنون الذي هو أنا..

الأخطر أن يكشف لي عن جانبه القبيح الآن.. نحن بعيدان عن العيون ومعظم الناس نائمون ماذا لو خرجت منه الممصات وانتهى أمري؟

خطر لي أن أحدًا لا يرانا.. لو هشمت رأسه الآن فلن يعرف أحد..

لكنه بالطبع كلام في كلام.. لا أستطيع عمل هذا حتى لو قدم لي شهادة تثبت أنه الشيطان ذاته. أنا الذي أجد صعوبة حقيقيّة في تهشيم صرصور بحذائي.. فقط أتخيّل...

قلت له بصوت آمر خشن:

- «هلمّ اصعد وابق مع أمك..»

يمكن أن يقتلها لكن هذا لم يحدث حتى الآن.. ربما لا يحدث..

ظل ينظر لي في بلاهة، فضغطت على أسناني لأبدو متوحِّشا وقلت بصوت عالٍ:

- «اصعد وإلا هشمت رأسك الآن!»

ارتجفت شفته السفلى منذرة بالبكاء، ثم تركني واندفع نحو السلم.. فليفعل ما يريد هناك لكن ليبتعد عن صديقي الغائب عن الوعي..

بمجرد أن ابتعد دخلت من باب الطوارئ أنظر حولي..

هناك سلم حديدي يشبه السلالم الخلفيّة التي تكون خارج البنايات.. كل المطاردات في الأفلام الغربية تتضمن سلما كهذا..

ما هذا الشيء المتدلي من أعلى؟

هناك ضوء خافت يتسرب من نافذة على منور ما.. في هذا الضوء المغسول الجديد - ضوء يوم جديد لم يتلوث بعد مد رأيت تفاصيل الشيء الذي يتدلى..

إنه الموظف المنافق.. قدمه محشورة بين درجتين وجسده يتدلى كالجرس على وجهه تعبير رعب وخواء لا يمكن وصفهما..

واحد آخر حذف من قائمة الاشتباه بعد فوات الأوان..

لا أعرف ما جاء به هنا لكنه على الأرجح قام بمحاولة استكشافية ما، والنتيجة أنه مات.. لربما كان الطفل هو الذي قتله.. من الجميل أن يقتلوا الطفل فلن أستطيع حذفه من القائمة إلا بهذه الطريقة..

طفيل.. ط.. ف.. ي.. ل..

ربما (فتيل) أو (لطيف) أو (فليت).. وربما هي لغة غير العربيّة تمامًا....

لماذا لم تكن أكثر وضوحًا في تحذيراتك أيها الأخ ميانج؟

- 6 -

رفعت:

أنت (بيومي).. أليس كذلك؟

بيومي:

هل تعرفني؟.. كيف؟

رفعت:

الأستاذ رفاعي المدير تكلّم عنك.. هل أنت نائم؟

بيومي:

بالطبع لا يا أستاذ.. من الواضح أنني أرد عليك!

رفعت:

معك حق.. أنا شديد الغباء فعلًا.. اسمع.. ماذا يحدث مع المجاري؟

بيومي:

هناك ترنشات تصرف للمجاري.. لكن يبدو أنّ هناك انسدادًا.. لا أعرف السبب لكنه حدث من قبل..

رفعت:

ولم تأتوا بمن يجري التسليك؟

بيومي:

كان الانسداد يزول تلقائيًا في كلّ مرّة.. الأستاذ رفاعي لا يريد أن يكلّف نفسه..

رفعت:

هل تعتقد أنه يمكننا العثور على طريقة للخروج لو نزلنا تحت أقصد أننا قد نتمكن من الخروج إلى الشارع..

بيومي:

لا أعرف يا أستاذ.. لم نجرب هذا، لكن الصباح قد جاء وعلى الأرجح سوف يخرجوننا وكفى الله المؤمنين شر القتال دعك من أنّ هذا الطفح يدل على أنّ هناك مشكلة..

رفعت:

بيني وبينك.. لا أعتقد أن أحدًا سيخرجنا.. المتجر مغلق ولا أحد يسمع صوتنا كما هو واضح لاحظ أن هنا أطفالًا قد استبد بهم الجوع والظمأ.. عشر ساعات ليست هينة على الأطفال..

بيومي:

إذن أنت تقترح أن نجرب النزول بدلًا من الصعود؟.. لابد من أن أطلب رأي الأستاذ رفاعي..

رفعت:

إذن أنت لم تلق عبد الوهاب الكهربائي ولا الخفير إبراهيم.. الأستاذ رفاعي قد مات**!**

بيومي:

هل جننت؟

رفعت:

وهناك موظف معلق في درج الطوارئ.. إبراهيم مختف.. يمكنك التأكد بنفسك لو صعدت لغرفة المحاسب.. أقول لك إننا في مأزق خطير..

بيومي:

كيف.. كيف ماتوا؟

رفعت:

هذه قصة طويلة ولن تصدقها.. دعك من أنني غير متأكد من الطريقة أنا نفسي..

بيومي:

إذن أنت تريد النزول؟

رفعت:

نعم.. لكن لابد لي من شخص معي.. شخص من المتجر ويعرفه جيدًا.. نحن بحاجة إلى شخص آخر.. هل سنتريسي هنا؟

بيومي:

تعرفه هو كذلك؟.. إنّه ذلك النائم جوار البوتاجاز هناك.. لقد مزّق الورق المقوى ليتغطى به..

رفعت:

هل يُمكنك إيقاظه؟..

بيومي:

سأفعل..

✶ ✶ ✶

بيومي:

أسهل طريقة هي النزول بمصعد البضاعة.. إنّه يقود إلى طابق تحت الأرض.. الواقع أنها الطريقة الوحيدة..

رفعت:

وهل نمشي من هناك لنبلغ الترنشات؟.. أنا أبحث عن نفق تحت الأرض يصلح كي نمشي فيه.. أعتقد أننا سنكون في الشارع بعد قليل.. هناك ترنش آخر في الزقاق الخلفي.. ربما استطعنا الخروج منه..

سنتريسي:

لكن لا توجد أرض نمشي عليها. أنت تتحدّث عن الغوص في المجاري يا أستاذ!.. إن مستوى القذارة عالٍ جدًّا..

رفعت:

ربما استطعنا الخوض فيها حتى لو بلغت خصورنا.. ما زلت آمل أن نجد حلًّا.. فقط نريد كشافًا.. هذا الكشاف النيون القابل لإعادة الشحن.. سنأخذه معنا..

سنتريسي:

مع مفتاح المصعد.. يمكننا تشغيله..

رفعت:

هل الكهرباء تصله؟.. قد يكون ميتًا كمعظم الأشياء هنا..

سنتريسي:

لا.. المصباح الأحمر مضاء.. إنّه يعمل.. تعال يا بيومي سوف نجرب..

رفعت:

توكلنا على الله..

- 7 -

تعرف مصاعد البضاعة العتيقة هذه..

المصعد يشبه القفص بالفعل لكنه واسع.. هو قفص قذر صدئ يحدث فضيحة صوتية عندما يتحرك، كأنه ديناصور ينهض من سباته في قاع مستنقع.

فتحوا الستار الحديدي الذي يشبه الأكورديون، ودخلنا ورفع بيومي المصباح النيون ليوسع دائرة الضوء..

نسيت أن أقول لك إن بيومي نحيل أسمر له شارب كث كأنه يضع مكنسة تحت أنفه، وسنتريسي بدين له كرش عملاق وهو من الطراز الذي يعرق ويلهث طيلة الوقت، لكنه قوي البنيان طراز مخبري البوكس الذين تعرفهم..

بدأ الشيء يتحرك ببطء... إنّه ينزل طابقًا واحدًا كأنه ينزل القلب الكرة الأرضية. تذكرت مصعدًا يشبهه نوعًا في ذلك المنجم في (ديلوير) عندما بدأ البشر يتحوّلون لحشرات. فقط كانت الكينونة معي هناك وكنت أعرف أنها ستحميني.. لم تكن معي روحيًا بل ماديًا كذلك في صورة فتاة الغرف الباردة التي نسيت اسمها..

أنا الآن وحدي..

لكني قدرت أنّ هناك حظًا حسنًا ينتظر.. سوف ننزل ونجد طريقة للخروج. لن نخسر برغم الاشمئزاز الشديد والرائحة الكريهة، وكنت أعرف يقينًا أنني سأخرج في الزقاق لأصرخ طالبًا النجدة..

كنا ننزل.. وننزل..

أخيرًا صرنا نرى شيئًا يشبه رصيف الميناء فقط ليس هذا بحرًا إنما هي مجار قذرة.. مجار ارتفع مستواها حتى بللت الضفتين..

برغم هذا ما زال مستواها منخفضًا نوعًا فمن أين ترتفع حتى تتسرب في الطابق الأول؟

سألت بيومي فمط شفته في عدم فهم.. لكن على كل حال سيكون بوسعنا أن نمشي على هذا الرصيف الزلق في حذر شديد.. سوف يقودنا إلى الخارج. لا شك في هذا..

توقف المصعد فمد سنتريسي يده إلى الباب الأوكورديون وفتحه ببطء..

- «هل سمعت هذا؟»

- «سمعت ماذا؟»

- «هذا الفحيح..»

- «لا.. هل تسمع فحيحًا؟»

- «نعم..»

قال سنتريسي في حذر وهو يرفع الكشاف أكثر:

- «لربما كان هناك حنش عملاق هنا؟»

- «حنش؟»

ثم تذكرت أن الحنش هو الاسم العلمي للثعبان عند غالبية الناس.. ثعبان أو أفعى.. حنش.. أصلة أو ثعبان.. حنش سام أو غير سام.. حنش..

شيء ما بدأ يتحرك في أعماقي.. ثمّة نوع من التوتر.. إنِّه النذير..

قلت لبيومي همسًا وأنا لا أعرف السبب:

- «وارب الباب.. لا تبقه مفتوحًا..»

- «ولماذا؟»

- «فقط وارب الباب...»

وشعرت بدقات قلبي تتسارع..

طفيل...

الكلمة الغامضة التي حيرتني.. حيرتنا..

ربما هي الطفيل كما نفهمه..

ربما تعني الطفل الصغير..

لكن هناك تعريفًا ثالثًا حسب المعاجم العربيّة..

الطين الراكد....

- 8 -

(هن - تشو - كان):

هل أنت هنا أيها الأخ العظيم (ميانج)؟

الأخ ميانج:

شد ما يسرني أن أراك من جديد أيتها الزهرة الزرقاء. أنت تدنو من التعالي جدًّا لذا صار اتصالنا أهون.. عندما يقترب المادي من عالم المعاني يسمع ويفهم الكثير.

(هن - تشو - كان):

هل أنا أموت أيها الأخ ميانج؟

الأخ ميانج:

الأمر يتوقف عليك يا (هن - تشو - كان).. أنت تتعلق بالحافة، فإما أن تثب إلى الدير أو تسقط في الوادي السحيق أنا بانتظارك..

(هن - تشو - كان):

أنا رأيت وعرفت.. فهمت الخطر الذي حدّثتني عنه يومًا.. عندما عدت من (تو جيجي) وقابلت (جيدون شوكي نيما).. اليوم أتذكر اللقاء وأستعيد ما قيل فيه. إنّه ذات الخطر وقد كرر الدورة مرارًا هذا هو الـ (البالي كابا).. كم 1570 عامًا مرّت منذ ذلك الحين..

الأخ ميانج:

وفي كلّ مرّة نجح أحدهم في التصدي له في بقعة من بقاع الأرض.. إن الثغرات كثيرة وأنت تقف فوق ثغرة منها واليوم هو الموعد...

(هن - تشو - كان):

لكنك قلت إنني (أرهان).. وهذا يعني أنني الوحيد المؤهل لمواجهة الخطر..

الأخ ميانج:

أنت الأفضل هنا والآن.. أقرب الأحياء إلى الأرهان..

(هن - تشو - كان):

لكنني شبه ميت أيها الأخ ميانج.. أكره أن أترك هؤلاء البؤساء لمصيرهم لكن روحي أدنى إلى عالمك منها لعالمي لقد امتصوا إكسير الحياة مني..

الأخ ميانج:

لقد هلكنا وفررت أنت عبر الزمن قبل أن تدرس الـ (نامو أميتابها) أو (تكوين اللاشيء).

(هن - تشو - كان):

وماذا أفعل؟

الأخ ميانج:

يجب أن تعرف..

(هن - تشو- كان):

لم تعد لي عينان.. لم يعد لديَّ عقل.. كتاب الشوكارا ليس معي في عالمك هذا..

الأخ ميانج:

سوف أعلمك.. سوف أنقل لك ما أعرفه وعليك أن تستوعبه.. إن الموضوع شديد التعقيد لكنه ليس مستعصيًا على الأرهان ولتعلم أن التضحية الكبرى تنتظرك.. هكذا تواجه البراكريتي.. هكذا تنقذ الدارما....

(هن - تشو - كان):

سأحاول أيها الأخ العظيم.. سأحاول..

الأخ ميانج:

لا أريد أن تحاول.. أريد أن تفعل..

- 9 -

راح (هن - تشو - كان) يركل.. العرق البارد يحتشد كقطرات اللؤلؤ على جبينه..

شفتاه تكرران بلا توقف كلمة لم تفهمها:

- «نامو أميتابها..»

يريد منهم أن يناموا؟.. من هم؟.. ناموا على كتابها؟.. كتاب من؟

إنه يهذي بلا شك.. راحت تمرر أناملها بين خصلات شعره المبتلة السوداء الفاحمة.. إنِّه طفل كبير.. لا شك في هذا ولربما كانت تميل له لهذا السبب.. فيه طفولة لا شك فيها.

إنِّه يركل ويتقلب ويعض أصابعه.. يتقوس بطريقة مرعبة، فلو كانت ذات خبرة طبية لحسبته مصابًا بالكزاز (التيتانوس).

نظرت للخلف فرأت (أشرف) يقف هناك لا يعرف ما يفعل أو يقول.

قالت له وهي تمسك بساعدي الكاهن الأخير:

- «أشرف.. أين ذهب عمو (رفعت)؟.. أريد أن آخذ رأيه.. هل يُمكنك أن تناديه؟»

قال بطريقة الأطفال السخيفة التي تشي بالنميمة:

- «هو شخط في.. وقال لي أن أظل بجوارك وإلا ضربني!»

- «لن يفعل.. فقط هاته حالًا فأنا لا أعرف ما يدور هنا»

كان الكاهن الأخير قد بدأ يعض لسانه فعلًا... رغوة ملوثة بالدم تخرج من بين شدقيه وتتجمع على الوسادة. كانت قد رأت حالات صرع من قبل لأن أخاها كان مصابًا به، وقد بدت لها هذه حالة صرع لا شك فيها..

إنِّه يتعذب.. لكن لماذا؟

✶ ✶ ✶

(نامو أميتابها)..

(نامو أميتابها)

(نامو أميتابها)

(نامو أميتابها)

أنت تبتعد عن الحقيقة أيتها الزهرة الزرقاء.. تمسك واقترب..

تكوين اللاشيء..

عندما يكون الشيء واضحًا فهو موجود...

يقول بوذا لأناندا: لو لم يولد أناندا فهل نرى له شيخوخة أو موتًا؟.. يقول أناندا: لا يمكن يا سيد.. هذا يعني أن عدم الوضوح يعني عدم الوجود كذلك.

الحقبة التي تغلف وهي تمثل انهيار العالم..

الحقبة المغلفة وهي الانهيار..

الحقبة النامية هي بدء الحياة من جديد..

الحقبة المكتملة هي ذروة نمو الحياة.

- 10 -

طفيل... الطين الراكد..

هل هذا ممكن؟

كان الشعر الباقي على جانبي رأسي ينتصب رعبًا..

- «بسم الله الرحمن الرحيم!.. ما هذا!!»

قالها بيومي أو سنتريسي.. وهو يرى المشهد..

كان الطين حيًّا.. كان يبرز من المجاري وكأن له يدين تحاولان الإمساك بأي شيء ثم يرتفع هذا الشيء المريع فتبرز له ممصات...

ثم يغوص في الماء محدثًا طرطشة واسعة، ومكانه يظهر كائن جديد...

لم يكن الطفيل يشبه البشر.. لم يكن الطفيل هو أشرف.. المجاري كلها هي الطفيل.. المجاري هي الكائن الحيّ الذي يهددنا..

إنه الشيء الذي حبسنا هنا وقطع عنا الاتصال وأسدل الستائر..

الآن فقط أتذكر أن كل وفاة كانت جوار دورة مياه أو بقعة ماء كريهة الرائحة على الأرض..

من المجاري خرجت تلك الكائنات الغامضة لتهاجم كل شيء.. وقد اختارت هذا المتجر كبداية.. الوجبة الأولى التي تمنحها القوة والطاقة.. ومن هنا تنطلق..

ولماذا؟

لماذا هذا المتجر بالذات؟

لا أعرف الإجابة يقينًا لكن تخمينها سهل..

هذا المتجر يقع بالضبط فوق ثغرة من ثغرات جانب النجوم...

✶ ✶ ✶

الآن تخرج هذه الأشياء الرهيبة من الماء القذر الموحل..

تبدو لوهلة كأنها عمالقة مغطاة بالطين، لكن شكلها يتغير في كل لحظة.. تستطيل وتقصر.. ولها صوت كالفحيح بالضبط...

يدنو أحدها من المصعد فأصيح في بيومي:

- «اصعد!.. بالله عليك اصعد حالًا!»

يضغط على الزر لكن شيئًا لا يحدث.

هذه الكائنات تستطيع تعطيل المصعد وتستطيع قطع التيار الكهربي والهاتف..

اضغط..

يضغط وهو يبكي كامرأة ملتاعة.. لا شيء.. سنتريسي كذلك تكوم في ركن المصعد وهو يصرخ..

وعبر قضبان الباب ألصق الشيء نفسه ثم استطال الممص نحو سنتريسي الجالس في الركن.. إن لهذه الكائنات وجودًا ماديًا على الأقل لهذا لا يستطيع الشيء التسرب بالكامل - كسائل - عبر القضبان..

مددت يدي في جيبي وأخرجت الخنجر الذي كان مع مروان، وهويت به على الممص.. بقوّة.. شعرت بأنني أمزق لحمًا.. لا شك في هذا.. ولد من الوحل لكنه لحم....

تراجع الممص للخلف، وهنا هتف سنتريسي في جنون:

- «ما هذا؟.. هاته!»

وانتزع الخنجر من قبضتي. ثم راح يطعن في كل اتجاه في جنون من لا يرى ولا يسمع ولا يعقل..

- «توقف يا أحمق سوف....»

وسرعان ما وجدت النصل في كتفي وشيئًا ساخنًا يبلل المنطقة هذا المخبول فقد القدرة على التعقل تمامًا.. لو كنت أقل حظًا لاخترق النصل قلبي..

- «اهدأ بالله عليك!»

راح يصرخ وهو يضرب بالخنجر:

- «عفاريت.. إنها في كل صوب!»

هنا حدث شيئان...

تسلل ممص لينتزع الخنجر منه بسرعة البرق وبشكل لم أستطع فهم خطواته..

الشيء الثاني هو أن ممصًا تسلل إلى كم بذلتي الأيسر ليزحف لزجًا باردًا رطبًا إلى ما قرب إبطي....

صرخت في تقزز...

وهنا رأيت ذلك الوجه المقيت يدنو مني فلا يفصله عنى إلا القضبان..

من الممكن أن تعتبره وجهًا بشريًا مغطى بالوحل.. في موضع الفم هناك فجوة تخرج منها الفقاقيع.. لا توجد عينان.. لا أنف.. رائحة كريهة لا تصدق..

تراجعت للخلف لكن الممص قربني من القضبان أكثر..

هنا شعرت بالشيء في جيبي..

مددت يدي الحرة إلى زجاجة الحمض.. هذه المرّة اضطررت إلى نزع السدادة بأسناني مع خطر أن يتطاير الرذاذ إلى عيني.. تصاعد البخار الحارق..

صوبت جيدًا ودفعت بزخة من السائل الخطر في وجه مهاجمي..

أصدر فحيحًا وتصاعد دخان كثيف يحرق العينين، ثم شعرت به يسقط بعيدًا..

أعدت غلق الزجاجة في حذر.. فعال لكنه لن يكفي للنجاة إن هذه المجاري اللعينة لا تكف عن الولادة.. الكائنات تخرج منها كأنها يرقات يخرج منها البعوض..

لماذا يتأرجح الضوء؟

نظرت إلى بيومي فوجدته على الأرض والمصباح جواره، بينما ثلاثة ممصات تمتص الحياة منه.. من عنقه ومن ذراعه ومن قدمه..

فتحت الزجاجة وألقيت زخات على الممصات الثلاثة فتصاعد الدخان وتراجعت هذه عبر القضبان... لن يطول الأمر فنحن لحم شهي محبوس في قفص.. يبدو الأمر كأننا فئران في مصيدة يحاول قط هلامي الوصول لها. عندما رأيت فيلم (الفك المفترس) بعد هذا لم أستطع مشاهدة منظر الصياد الحبيس في قفص بينما القرش الأبيض العظيم يدور حوله مصممًا على الوصول له..

لن تنقذنا سوى معجزة...

هنا سمعت صوت الارتطام على سقف المصعد.. ارتطام هزّ أحشاءنا..

صرخ سنتريسي في هلع بصوت كأنثى تلد:

- «لقد جاءوا من فوق!»

لكني حبست أنفاسي للحظة.. هنا سمعت صوتًا مألوفًا يقول:

- «تشا سارايانا..»

- 11 -

عندما تغرب الشمس وتلطخ دماؤها ثوب المساء الأزرق..

عندئذ يبدأ فجر النافاراي..

✶ ✶ ✶

الوثبة التالية جعلت (هن - تشو - كان) يقف على حافة الرصيف بالفعل..

وصاح وهو يفتح ذراعيه مباعدًا بين أصابعه، حتى تحول إلى نمر آدمي يوشك على الوثب..

- «جوانغ سارايانا!»

ثم..

- «كيوه سارايانا!»

قالها وهو يرجع رأسه للخلف لأقصى حد..

سأبدأ السارايانا.. احترس من السارايانا.. إليك بالسارايانا..

لقد نجا؟.. متى وكيف؟..

وكيف ينوي أن يواجه كائنات هلامية كهذه؟...

لاحظت في الضوء النيون شيئين في يديه.. الشيء الأول هو مخرطة ملوخية.. نعم. يبدو هذا مُضحكًا لكنّها الحقيقة.. لقد أحضر معه مخرطة ملوخية يلمع نصلها في الظلام من قسم الأدوات المنزليّة.. الشيء الآخر كان حزمة مغلفة بالمشمع.. واضح أنه كتاب الشوكارا ذاته.

هنا بدأ الصراع..

هنا بدأ الهول..

الكاهن الأخير يخوض معركة حياته..

كان يستعمل المخرطة باعتبارها نوعًا من النشاكو Nunchaku المرتجل البدائي.. يطوح بها يمينًا ويسارًا ثم يدسها تحت إبطه ويخرجها ليبتر هذا العنق أو ذاك.. أو ذاك الممص أو هذا.. ثم يعيدها هناك..

كان يثب بين الكائنات..

للمرة الأولى أرى فن التفادي الحقيقي (الرانجانا).. هكذا كان يفعل في ممر النيران في التبت منذ قرون.. بالتأكيد هكذا كان يفعل.. ينحني تحت ذلك الممص ثم يثب فوق هذا الذراع ويهوى بسلاحه البتار على العنق، ثم يستعيد وقفته ويطوى السلاح تحت إبطه..

أحيانًا يبرز ممص مندفعًا نحو صدره فيخرج الكتاب ليتقي به الضربة، ثم يركله..

أعتقد أن الكتاب يؤدي دور الدرع الواقي هنا..

كانت تلك المخلوقات تتوالد من الوحل بلا توقف.. ومن السقف بدأ بعضها يتشكل ليسقط فوقه، لكنه بالفعل قادر على تفادي مستعمرة نحل غاضب فلا يتلقى لدغة واحدة..

كان يدور في الهواء ثم يهبط على ساق واحدة..

يضرب الممصات ثم يتفاداها بالكتاب.. ثم ينقلب ويحش بالنصل بضعة ممصات..

لقد هزمته هذه الكائنات عندما انفردت به على السطح، لكن من الجلي أنه تأهب لها جيدًا.. إنّه يعرف ما يقوم به..

قال لي وهو يدير المخرطة حول خصره:

- «ريفالت.. جرب أن تشغل المصعد الآن..»

- «لن أتركك هنا وحدك..»

- «بل أنت تزيد متاعبي.. هه!... هيا!... سوف يتحسن موقفي لو عرفت أنك.....»

وأولج النصل في عنق شيء يحاول أن يمسك بخصره.. وأردف:

- «سالم!»

قال سنتريسي وهو يرتجف كورقة:

- «هذا الفتى!.. إنّه منهم!.. إنّه عفريت!»

- «فقط شغل المصعد واشرح لي نظرياتك فيما بعد..»

ضغط على الزر من جديد.. من الغريب أن الديناصور النائم بدأ يصعد ببطء.. يبدو أن الكائنات مشغولة فلم تعد تفكر في تعطيله.. وطار (هن - تشو - كان) ليتمسك بالباب الحديدي ويركل بعض

الكائنات التي حاولت التسلق لنا، ثم عاد يثب على الأرض..

تذكر أن يصيح:

- «ألق لي بالمصباح!»

تناولت المصباح وقذفته من فجوة القضبان فكان هناك في اللحظة المناسبة ليلتقطه، ثم يضعه مستندًا على الجدار.. يريد أن يرى أين تذهب ضرباته بالضبط...

مشهد كأنه في كابوس.. الضوء الأبيض و(هن - تشو - كان) وحده نحيلًا نبيلًا، وتلك الأشياء تخرج من الوحل بلا توقف في قاعة عريضة أقرب لنفق مظلم....

فلتنتصر أيها الكاهن الأخير..

لا تمت من فضلك.....

أعرف أنّ هذه هي الميتة التي تفضلها أنت، لكنّها لا تناسبني أبدًا..

✶ ✶ ✶

لما صار (هن - تشو - كان) وحده وارتفع المصعد أخيرًا بدأ يشعر بنوع من الحرية..

ازدادت ضرباته سرعة وفتكًا.. لابد أنه جندل عشرين من تلك الكائنات..

لكنه كان يعرف الحقيقة.. سوف تتوالد هذه الأشياء للأبد.. الأمهات المقدسات (مدتري).. تأتي من الطين.. من الوحل.. لن تنتهي أبدًا إلا بالتضحية الكبرى..

هو عرف الـ (نامو أميتابها)..

تكوين اللاشيء..

لن يقهر هذه الكائنات إلا أن تسد الفتحة التي تعبر منها إلى عالمنا.. الفتحة الشيطانية التي سيطلق عليها ريفات اسم (جانب النجوم)...

تكوين اللا شيء..

من دون الشوكارا يولد اللا شيء..

وهكذا تفادى عددًا من الهجمات حتى صار يقف على حافة المستنقع أو المجرور...

بأعلى صوته صاح:

- «نامو أميتابها!! عدن للعدم أيتها الأمهات غير المقدسات (مدتري)..!»

أو ثم رفع ذراعيه وجرد الكتاب من الغلاف الواقي البلاستيكي..

وبلا تردد ألقى بالكتاب ذي الورق المصفر في الماء القذر...

- 12 -

رجل:

زلزال؟

امرأة:

ماذا يحدث هنا؟

رفعت:

المتجر كله يهتز بقوّة مريعة لكنّها ليست تلك الحركة الدرامية المميزة للزلزال.. هناك نوع من التفريغ الهوائي لا شك فيه..

نادين:

ماذا يحدث هنا؟.. أين (هن - تشو - كان) يا دكتور؟

رفعت:

سوف تعرفين فيما بعد.. إنّه ينقذنا ببساطة شديدة!

نادين:

لقد غادر الفراش فجأة.. كان نائمًا يحلم بالكوابيس.. فجأة وثب من الفراش وصرخ: ريفاات.. ثم اختفى من أمامي..

رفعت:

إنه تحت. وكما قلت لك هو ينقذنا.. هل ترين؟.. لقد استيقظ الناس وهم يرتجفون حيث تمددوا على الأغطية جوار الجدران.. لا أحد يفهم ما يدور هنا وأكذب عليك لو قلت إنني أفهم.. فقط أعرف أنه يواجه معركة حياته..

نادين:

فلنلحق به..

رفعت:

أنت لا تفهمين.. لنقل إنّه صراع محترفين.. لا مكان للهواة فيه.. لو نزلنا لزدنا متاعبه فقط..

نادين:

هل هو يعرف تفسير ما حدث؟

رفعت:

الآن أعتقد أنه يعرف.. كانت الغيبوبة ضروريّة كي يفهم إن الأخ ميانج....

نادين:

من هو الأخ ميانج؟

رفعت:

أنا لم أقل الأخ ميانج.. أنت تتخيلين أشياء غريبة.. المتجر يهتز ثانية بقوّة.. هل تلاحظين أن مياه المجاري التي تلوث كل شيء بدأت في التراجع؟

نادين:

وما معنى هذا؟

رجل:

البوابة الرئيسة تنفتح!.. هل ترون النور؟

امرأة:

هذا صحيح.. الحمد لله!.. من فعل هذا؟

رفعت:

الآن فقط أعتقد أن (هن - تشو - كان) قد انتصر..

رجل:

نافذة العرض قد انفتحت.. الشمس تدخل. أرى المارَّة!! أرى السيارات!!

يظهر (هن - تشو - كان)

رفعت:

(هن - تشو - كان)!.. يبدو أنك حققت المستحيل وأتمنى أن أعرف كيف..

(هن - تشو - كان):

أنا أضرب (سيئ).. لقد اضطررت للتضحية بكتاب الشوكارا يا ريفاات.. كان هذا ضروريًا.. لكن هذا يعني أنني بيدي قضيت على حكمة النافاراي وتراثهم يوم أموت أنا سوف ينتهي كل شيء...

رفعت:

لا أفهم شيئًا.. لا أعرف مصدر هذا الخطر الذي واجهناه ولا لماذا هاجم مصر وهذا المتجر بالذات.. لا أفهم ما قمت به أنت وإن كنت أشكرك عليه..

(هن - تشو - كان):

أنا أعرف الكثير الآن.. لقد وجدت الأجوبة.. يمكنني أن أحكي لك.. أين نادين؟

رفعت:

هناك.. إنها قادمة في لهفة... هل ستخبرها بالحقيقة؟

(هن - تشو - كان):

لا أدري..

رفعت:

هل ستتزوج؟

(هن - تشو - كان):

تدمير الشوكارا لا يعني أنني لم أعد نافاراي.. ما زلت نافاراي.. فقط غابت أسرار عظيمة في تلك الثغرة ولن أعرفها ثانية.. لن يعرفها أحد ثانية..

رفعت:

وهل أنت نادم على ما فعلت؟

(هن - تشو - كان):

بالطبع لا.. كل هؤلاء الأطفال في أحضان أمهاتهم ما كانوا ليكونوا هنا.. كان العالم سيتبدل تمامًا من دون الدارما.. هناك قصة حكيتها أنت لي عن سفينة تغرق عليها قط وكتاب لشكسبير ولوحة.. لو كان عليك إنقاذ شيء واحد فما هو؟.. قلت لك إنني سأنقذ الكتاب.. يبدو إنني كنت مخطئًا.. إنني من الطراز الذي كان سينقذ القط... إن الحياة مقدسة يا ريفاات..

نادين:

ماذا فعلت يا (هن - تشو - كان)؟.. ما كل هذا الوحل عليك؟.. هذه الرائحة..؟

(هن - تشو - كان):

سأحكي لك كل شيء... وربما لا أفعل... إن الناس يخرجون.. فلنخرج معهم أريد أن أرى الشمس والنور وأملا رئتي بالهواء لحظة.. لقد نسيت شيئًا..

رفعت:

ما هو؟

(هن - تشو - كان) (يستدير نحو المتجر ويصيح):

سوان هاشتاه سارايانا!!!

✶ ✶ ✶

لقد أنذرهم أنه سيستعمل السارايانا لكنهم كانوا أغبياء كانوا يريدون الفتك فقط وها هم أولاء قد دفعوا الثمن...

خرجنا للشمس غير مصدقين..

بالطبع ليس هناك من يعرف ما حدث بالضبط باستثناء قلة محدودة، ولسوف يجد رجال الشرطة مجموعة من الجثث المفرغة ولغزًا غير مفهوم.. ربما يجدون الخفير حيًّا أو ميتًا لا أعرف بالضبط..

أمّا عن (هن - تشو - كان) فأنا أعرف أنه سيحكي لنادين كل شيء، ولن تصدق حرفًا.. سيكون عليها أن تبتلع كل هذه الحقائق بصعوبة بالغة.. ولسوف يكون عليه أن يختار طريقه سيعيش معها للأبد أم يتركها ويعود للتبت للأبد...

ما أعرفه هو أن أسطورة الطفيل انتهت..

وما أعرفه هو أن معرض الرعب كان في انتظاري.....

لكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

المقـدمة

تمهيد

الجـزء الأول: شيء قادم

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

- 6 -

- 7 -

- 8 -

- 9 -

الجـزء الثـاني: أســـرى

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

- 6 -

- 7 -

- 8 -

- 9 -

الجـــزء الثالث: أسـطورة الطفيـل

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

- 6 -

- 7 -

- 8 -

- 9 -
- 10 -
- 11 -
- 12 -

مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس

من فرط الغموض والإثارة



د. أحمد خالد توفيق

أسطورة الطُّفَيْل

الطفيل : كائن يعيش ويتغذى على كائن آخر ، ولا يساعده على الحياة ..

أو هو الشخص الذى يستغل كرم الآخرين ولا يقدّم لهم شيئًا بالمقابل .

فى العربية ، الطفيلى هو : الشخص الذى يدعو نفسه لكل مَأدُبَة ، وفى الإغريقية بارازيتوس parasitos ، وهو : ضيف العشاء المحترف الذى لا يقدّم شيئًا سوى تسلية الأغنياء ..

قالوا قديمًا : « إن القبور تعجُّ بالشجعان الذين افتقروا إلى الحظ الحسن » ، ونضيف هنا «أنها تعجُّ بمن يصدّقون تعريفات القواميس ! »

العدد القادم

أسطورة معرض الرعب

الثمن فى ...

وما يعادله بالدولار ...

فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة

للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

مطابع ...

Notes

[1←]
نحن في السبعينيات فلا يوجد هاتف محمول.

[2←]
كلام دقيق.. خرافات طبعًا لكنّها دقيقة وليست وليدة خيال المؤلف.

مشروع القرن الثقافى

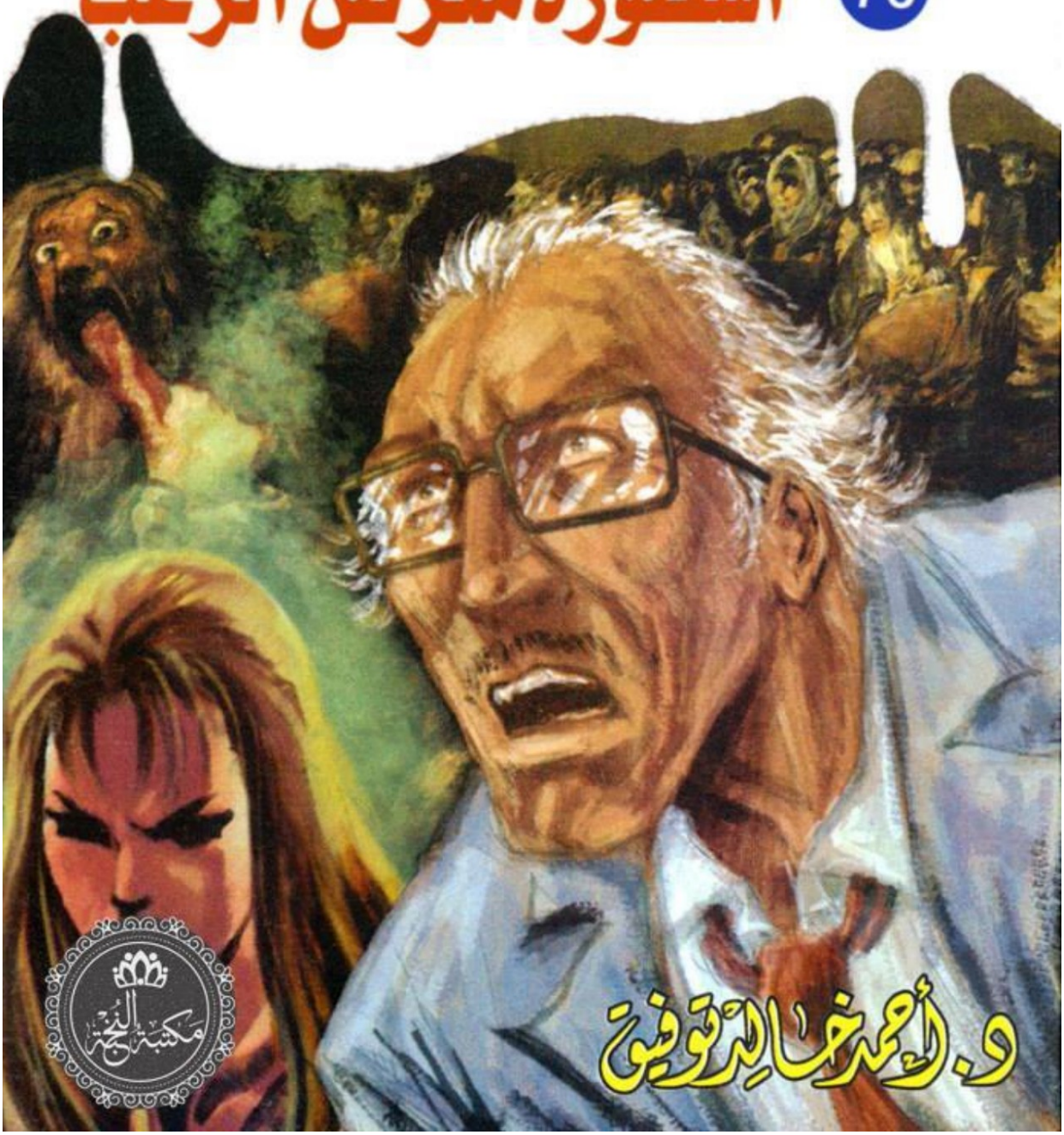
روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

ما وراء الطبيعة

76

أسطورة معرض الرعب



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة النخبة

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



76

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

أسطورة معرض الرعب

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايـــات تحبـس الأنفـــاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصـرى مائة فى المـائة
لا تشوبه شبه الترجمة أو الاقتباس
أو النقل عن أية قصص أوربية .

إشراف
الأستاذ / حمـدى مصـطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر سواء النشر الورقى أو الإلكترونى ، وكل اقتبـاس أو تقليـد أو إعـادة طبـع أو نشـر ورقـى أو إلكتـرونى دون الحصـول على تصـريح كتـابى من النـاشر يعـرض المـرتكب للمسـاءلة القـانونيـة .

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ــ المطابع 8 ، 10 شارع المنطقة الصناعية بالعباسية ــ منافذ البيع 10 ، 16 شارع كامل صدقى الفجالة ــ 4 شارع الإسحاقى : بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة ــ القاهرة ت : 26823792 ــ 25908455 ــ 22586197 ، فاكس : 202/2596650 ج.م.ع ــ
الإسكندرية 4 شارع بدوى / محرم بك ــ ت : 03/4970840 ــ 03/4970850

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط
الغمـــوض والرعـــب والإثارة

76

أســـطورة معرض الرعب

بقلم : د. أحمد خالد توفيق

الغـلاف بريشـة : أ. أيمـن القـاضي

المؤسسة
العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

المقـدمة

هنـاك بالتأكيد شيء مخيف في المعارض والمتاحف..

لا أعرف السبب، لكنك تشعر بجزء ضئيل من هذا الرعب في متحف الشمع.. أقول (ضئيل).. نحن على الأقل نعرف التفسير في هذه المرّة، وهو أن لمسة الحياة الممتزجة بلمسة الموت في هذه التماثيل تثير القشعريرة. العيون الزجاجيّة الخالية من الحياة والضحكة التي لا تعرب عن سرور، والتقطيبة التي لا تنم عن غضب.. كل هذا مخيف..

لمسة الزمن مخيفة كذلك.. الشعور بأن هذه آثار قوم عاشوا وملئوا الدنيا، ثم صاروا ترابًا هذه لمسة رهيبة، ولا شك أنك شعرت بها لو وجدت نفسك في قاعة خالية من المتحف المصري وسط آثار الفراعنة.. لا سياح لا صخب.. لا رجال أمن يمنعونك من لمس الزجاج.. فجأة أنت والزمن وجهًا لوجه.. أما عن قاعة المومياوات فموضوع قائم بذاته..

دعك طبعًا من متحف علم الأمراض الموجود في كليات الطب، فالتفسير هنا واضح.. أن تقف أمام إناء زجاجي فيه يد مبتورة مصابة بسرطان العظام، أو عين منزوعة، أو مخ لوث النزف أنسجته.. التفسير هنا لا يحتاج إلى طبيب نفسي..

نعم.. هناك شيء مخيف في المعارض والمتاحف بلا شك..

ولهذا من ثيمات الرعب التي تؤثر فيّ كثيرًا، ثيمة أن تصحو المعروضات ليلًا أو تتحرك اللوحات.. هذا كابوس قديم...

لكن من الصعب أن تجد تفسيرًا لهذه الرهبة التي تشعر بها أمام لوحات. مجرد لوحات قديمة رسمها ديلاكروا أو روبنز لكنّها تثير في أطرافك قشعريرة غريبة. في قصة (ليلة الجنرالات) لـ (هانس هيلموت كيرشت)، وقف الجنرال النازي أمام لوحة لفان جوخ.. هنا بدأ يرتجف كورقة.. ثم أصابته نوبة صرعية كاملة. السبب أن رسالة الصرع التي تركها (فان جوخ) في اللوحة انتقلت كاملة سليمة عبر الأعوام إلى الجنرال...

لم يؤثر فيّ (فان جوخ) كثيرًا على كل حال، لكن بعض لوحات (الجريكو El Greco) تجعلني أرتجف رعبًا وأبعد عيني.. هذا الجو القاتم المنذر بالخطر يحرك في نفسي شيئًا ما.. أعتقد أنه من القلائل الذين أجادوا بالضبط رسم الكابوس...

فيما بعد زرت متحفًا غريبًا أطلقت عليه (المتحف الأسود) وكان يحوي آثارًا من قصص رعب قديمة.. وللأسف لم أستكمل زيارته..

لكن المعرض الذي نتكلم عنه اليوم حالة خاصة جدًّا وفريدة..

الفكرة هنا أنه يعكس حالة نفسية سيئة لدى من رسم اللوحات، والسؤال هو: هل هذه الطاقة النفسية قادرة على أن تبقى عبر الأعوام لتنتقل لواحد آخر؟.... لقد رأينا الصرع ينتقل مع (فان جوخ) فماذا عن أشياء أخرى؟

يبدو أن وقت البدء قد حان...

فقط نتذكر من جديد أنني (رفعت إسماعيل) العجوز وأنّ هذه سلسلة (ما وراء الطبيعة)، وأنني معكم منذ 76 كتيبًا لم أكف عن الكلام قط...

هيا بنا إذن...

تمهيد

مصر وإنجلترا هما بلداي - كما يعرف القارئ - وبنفس ترتيب الأهميّة..

لأسباب يعرفها القارئ المخضرم، تمثل إنجلترا أهميّة خاصة في حياتي وذكرياتي.. وما زلت أشعر براحة نفسية عندما أسمع اللكنات البريطانية خاصة الراقي منها، وأرى أنها بلد ساحر، وأن أناسها ظرفاء مهذبون.. حتى فتياتها - في رأيي الخاص - أجمل من أية فتيات في العالم. طبعًا هذا رأي عجيب لا يروق لأحد تقريبًا سواي، فمعظم الناس يعتبرون البريطانيين شعبًا سمجًا ثقيل الظل ضيق الأفق..

فيما عدا إنجلترا زرت الكثير جدًّا من بلدان العالم.. وقد اتخذت منذ زمن مبكر مبدأ (الجزء الذي يلخص الكل). زر رومانيا مثلًا، فلا حاجة بك إلى زيارة المجر وبولندا والتشيك ويوغوسلافيا ونصف الجمهوريات السوفيتية السابقة.. زر إندونيسيا فلا تحتاج لزيارة تايلاند والفيليبين وكوريا وسنغافورة.. زر السعودية أو الإمارات لتكون قد أخذت فكرة عن الجزيرة العربيّة كلها. زر سوريا لتأخذ ملخصًا معقولًا عن لبنان والأردن وربما العراق وتركيا كذلك.. زر بلدًا في قلب أفريقيا لتلخص القارة كلها.. زر إيطاليا لتستغني عن إسبانيا والبرتغال واليونان وكل دول البحر المتوسط غير العربيّة. طبعًا هذا كلام لا يرضي أي مدرس جغرافيا، وهناك اختلافات جمة وكل بلد يمتاز بشيء فريد، لكن هذا هو الحل الوحيد لمن يرغب في رؤية العالم وليس مليونيرًا. كذلك تبقى بلدان متفردة لا تشبه أي بلد آخر: اليابان.. الصين.. الهند.. أستراليا.. الولايات المتحدة...

هكذا يمكن القول إنني لم أشعر قط بحاجة إلى رؤية إسبانيا لابد أنها تشبه اليونان كثيرًا باستثناء أن الناس لا يتكلمون اليونانية ويصارعون الثيران ويتبارزون حتى الموت من أجل الجميلة (فيرونيكا) طبعًا ...

غير أن الفرصة جاءت بشكل لم أتوقعه.. وفي ظروف لم تخطر لي ببال..

كيف؟.... تعال أقص عليك كل شيء ولكن أعد لنا بعض الشاي من فضلك.. إن رأسي يوشك على الانفجار..

✶ ✶ ✶

وصلني هذا الخطاب منذ أيام.. ليس على عنوان الكلية، ولكن على العنوان الذي لا يعرفه سوى اثنين في العالم: وسادتي. طبعًا فتحت الخطاب والدم يتجمد في عروقي.. منذ زمن سحيق لم أتلق

خطابات منها.. كنت أحسب أنّ هذا الفصل من حياتي قد انتهى:

عزيزي رفعت:

أعتقد أن عليك أن تحزم متاعك وتبحث عن شركة سياحة تأخذك إلى إسبانيا. لماذا إسبانيا؟.. أسمعك تتساءل في حيرة، لكنك تعرفني وتعرف أنني اعتدت ألا أقدم تفسيرات من أي نوع.. التفسير يأتي عندما يأتي.. سوف تعرف عندما تصير هناك.

طبعًا بوسعك ألا تقبل.. بوسعك أن تحرق هذا الخطاب كالعادة كأنه لم يكن، لكنك تعرف غضبي.. أنت تعرف أشخاصًا وكائنات لا يمكن المزاح معهم أو ادعاء النسيان. نحن لا نقبل الأعذار وأنت جربت هذا من قبل، لذا أرى أن الحل الوحيد أن تعتبر نفسك مرغمًا..

عندما تذهب إلى إسبانيا سوف تتذكر تعليماتي، وهي كالعادة عامّة جدًّا:

- لا ترفض الدعوة لزيارتها في دارها الأولى.. فقد يكون هذا هو الجواب كاملًا.
- ارفض زيارتها في دارها الثانية... فأنت لن تعود.
- الأشقياء ليسوا كاذبين دائمًا.. قد يقولون الصدق أحيانًا.
- الوشم دليل...
- عندما تكلمهن تذكر أنه خلفك.
- المحتضرون صادقون دائمًا.
- تحرر من قميصك كلما سنحت الفرصة.

بإخلاص:

أنت تعرف من.....

✶ ✶ ✶

عزيزتي:

لن أنسى التعليمات.. سأدونها في ذاكرتي لا على الورق طبعًا.. لا أعرف معنى هذا الكلام.. ربما تريدين مني أن أشترك في مباراة كمال أجسام خاصة بالمحتضرين، أو أغنى مع فرقة من

التي يرسم أفرادها وشمًا على الجسد كله.. لا أدري بالضبط.. لا أسماء.. طريقة كتابة الخطاب هي هي..

الإكسير الذي أعطيتني إياه يؤلم فعلًا.. الدم لا يتجلط بسهولة، لكنّها الطريقة الوحيدة كي أجد ما يكفي منه لكتابة رسالة..

أنت تعرفين أن صداقتك تهمني وهي مفيدة دائمًا، فأنت تحمينني في مواقف عديدة، لكن لماذا تضعينني أصلًا في مواضع أحتاج فيها إلى الحماية؟.... أعني أنّ هذا غير عادل.. كأنك تقذفين بي في وسط المحيط ثم تجعلينني أطفو فأشكرك.. كان بوسعك ألا تقذفي بي أصلًا..

لن أستعمل أسماء، وإن كنت أطلق عليك في سري اسم (الكينونة).. هذا ليس اسمًا بل صفة فيما أعتقد (لا أعني الدقة اللغويّة طبعًا)..

هل من تفاصيل أكثر؟.. إن معرفة نوع المهمة يحدد نوع الأشياء التي سآخذها معي.

سوف أنهى كتابة هذه الرسالة على الورق المدبوغ ثم أحرقه كما اتفقنا..

بإخلاص:

رفعت إسماعيل

✶ ✶ ✶

عزيزي رفعت:

لا تجلب معك شيئًا سوى ما يحتاج له أي سائح.. خذ معك دواء الضغط طبعًا لأن الحبر الذي كتبت به يدلني على أنه في حال سيئة..

عندما تستقر في مدريد ستتحرك العجلة تلقائيًا وسوف تعرف كل شيء. بالطبع سأكون هناك بشكل أو آخر.. ربما أكون رجلًا أو امرأة. طفلًا أو شيخًا.. ربما أكون قطًا أو يعسوبًا.. سوف أكون هناك وأراقب كل شيء..

أنت تعرف أنني قادرة على أشياء كثيرة، لكن عندما أطلب منك شيئًا فلأنني لا أقدر على عمله وحدي.. ليس بسبب العجز ولكن الآن عالمنا مكبل بالقوانين أكثر بمراحل من عالمكم المائع. عندما لا أفعل شيئًا بعينه فلأن من هو أعلى مني يمنعني من ذلك..

لتكن الخطابات طريقة اتصالنا، ولتكف عن استعمال لفظة (الكينونة).. إن الناس لا تعرف كنهها لكنّها مخيفة موحية بما يكفي..

لا تجلب الشكوك... لا تجلب الشكوك.. لا تثر غضبي، وأنت تعرف كيف أغضب.

بإخلاص:

أنت تعرف من.....

الجزء الأول:

جـويا

الصور محفوظة ويعرفها كل هواة الفنون.. صور مخيفة وكئيبة جدًا.. يراها بعض الأطباء تعبيرًا دقيقًا عن الحالة النفسية لمريض التهاب المخ الذي أفقده المرض سمعه.. ربما كانت هذه كذلك أعراض تسمم الرصاص الذي أصابه من الألوان التي يستعملها. إن هذه الصور المخيفة هي في الواقع منظر طبيعي لما يحدث داخل جمجمته، بينما يراها بعض المؤرخين رمزًا لإسبانيا تلتهم أبناءها.. اجتماع الساحرات.. الكلب الغامض.. الشيطانة أزيموديا تحلق في السماء وتحمل رجلًا مذعورًا مستسلمًا لمصيره.. الرجلان اللذان يتقاتلان بالنبابيت.. من الصعب تخيل مدى كراهية الكون والمقت اللذين سيطرا على الرجل وهو يرسم هذه المواضيع العجيبة..

-1-

«عندما ينام العقل تولد الوحوش».

فرانشسكو جويا

✶ ✶ ✶

في هذا الوقت من عام 1792 كان سيدي (جويا) قد بلغ أعلى منحنى حياته.. هذه هي اللحظة التي يبدأ فيها الانحدار لأسفل..

المؤرخون يقولون إنّه أصيب بالكوليرا، وأنا أعتقد أنهم حمقى.. الكوليرا لا تصيب بالصمم.. ربما كان هذا التهابًا سحائيًا أو مخيًّا.. بعض الأطباء وجدوا أن الأصباغ التي يستعملها تحوي كمية كبيرة من الرصاص، وهذا يضع التسمم بالرصاص - والصمم من أعراضه - ضمن قائمة الأمراض المشتبه فيها..

من المعروف أن الصمم مع التقدم في العمر من أهم عوامل الإصابة بجنون الشك البارانويا.. وبالفعل يُمكنك أن ترى هذه النظرة المتشككة الغاضبة المذعورة نوعًا في صور بتهوفن، وتراها كذلك في صور سيدي التي رسمها لنفسه في تلك الفترة...

ماذا؟.. تقول إن كلامي لا يمكن أن يصدر عن خادمة؟.. هذه العبارات المنتقاة ذات الخلفيّة الطبية لا تتسق مع شخصيتي؟.. أقول لك إنني تجاوزت هذه المرحلة وصرت أعرف أكثر بكثير من حدود الماديّة..

كان في حالة نفسية سيئة، فجلست جواره على ركبتي وقلت له:

- «الرسام لا يفقد الكثير لو فقد أذنيه يا سيدي.. كما أنّ الموسيقار لا يفقد الكثير لو فقد عينيه.. مع الصمم أنت في قوقعة خاصة.. ترسم وترسم دون أن يضايقك أحد، ولو انفجر الكون من حولك فلن تسمع..»

نظر لي تلك النظرة الحائرة الزجاجيّة.. لا يسمع حرفًا مما أقول ويحاول جاهدًا متابعة شفتي..

ثم قال بصوته الذي فقد التحكم فيه:

- «المشكلة يا (دونّا) هي أن الحواس خليط مبهم.. الرسام يرى الأصوات ويسمع الألوان ويشم المحسوسات.. كل هذا يذوب في مختبر سيميائي شرير من القرون الغابرة.. كل هذا يذوب في النهاية ويصير لوحات..»

بالفعل أجاب عن كلامي كأنه سمعه..

وعرفت أنه يتألم.. بالتأكيد يتألم.. لكنه سوف يعتاد هذا...

سألته بلغة الإشارة عما إذا كان يرغب في شيء فقال:

- «أريد كتبًا عن الثورة الفرنسية.. أريد معرفة كل شيء عنها..»

مطلب عجيب لكني نفذته حرفيًا..

ابتعت له بعض الكتب عن الثورة الفرنسية وتركته يطالعها..

ليلة بعد ليلة كان يجلس وحده جوار المدفأة يقرأ كل شيء عن اليعاقبة وميرابو وروبسبير وهدم الباستيل..

وفي منتصف الليل كان يذهب لمرسمه ويبدأ في الرسم..

كانت هذه هي اللوحات التي عرفت فيما بعد باسم (كابريتشو).. وقد وصف هذه اللوحات - وعددها ثمانون - بعبارة واحدة: «عندما ينام العقل تولد الوحوش». واللوحات تعكس الكثير من الكوميديا السوداء وتصف الجنون المسيطر على المجتمع الإسباني، وقد علق على كل لوحة بعبارة قصيرة تصفها.

✶ ✶ ✶

كنت أحبه كثيرًا وكان يثق بي..

لقد ظلت هذه العاطفة صامتة أعوامًا لا حصر لها، والأغرب أن الطرفين كانا يعرفان بها، لكن أحدهما لم يحاول التحرك خطوة أخرى للأمام..

في العام 1808 قام الفرنسيون بغزو إسبانيا.. وتولى أخو (بونابرت) حكم البلاد..

لم يجرؤ أحد على إساءة معاملة سيدي.. كان الفرنسيون يحترمون الفنون، وقد عاملوه بالضبط كما يليق به: الفنان الكبير.. لكنه كان مصابًا باكتئاب شديد...

قال لي ذات مرة:

- «الحرب جحيم.. إن الفظائع التي أقرأ عنها لا تفارق خيالي»

أشد ما كان يضايقه هو أن سفاحي الحرب هم الفرنسيون الذين كان معجبًا بهم بشدة.. كان الأمر يشبه أن تخونه حبيبة منحها ثقته وكل شيء. وككل مرة عرفته فيها متوترًا أو حزينًا، دخل إلى مرسمه وراح يعتصر الأنابيب ويخلط المعجون على القماش.. ثم بضرباته الخشنة القوية المميزة يرسم سلسلة لوحات اسمها (فظائع الحرب)..

هذه الصور ما زالت تثير القشعريرة لدى كل من رآها.. لقد رسم السواد الكامن في النفس البشريّة.. رسم الخوف.. رسم الرعب والقسوة.. كل هذا في 82 لوحة بالأبيض والأسود وبطريقة (التهشير)، أبقاها سرية كأنها نوع من الخواطر السوداء..

ظلت هذه اللوحات مجهولة حتى بعد وفاته بخمسة وثلاثين عامًا، وأكون شاكرة لو كففت عن إبداء الدهشة من أنني أصف أحداثًا حدثت في المستقبل..

الحقيقة أنني كنت أتسلل لمرسمه عندما أدرك يقينًا أنه نائم وأراقب هذه المجموعة من اللوحات تنمو.. كانت تثير هلعي وكنت أتصور نفسي ضحية من ضحايا هذه الحرب حيث لا قيمة لحياة إنسان ولا خصوصيته ولا شرفه، لكن في الوقت ذاته كان هذا الشعور المرعب لذيذًا.. يبدو أنه نفس الشعور الذي يحسه هواة الرعب عندما يشاهدون في عصركم هذا أفلامًا مخيفة..

✶ ✶ ✶

كان سيدي جويا في الستين من العمر الآن..

إنه العام 1819..

بالنسبة للناس كان شبه مجنون وكان غريب الأطوار، لكني كنت جزءًا منه، لهذا لم يتبدل أسلوبه معي.. ولم أجد في معاملته لي شيئًا غريبًا..

لكنه لم يعرف أن فصلًا جديدًا من حياته يوشك على البدء..

لقد قال لي:

- «سئمت هذا البيت يا دونّا.. أريد أن ننتقل إلى بيت آخر..»

قلت له:

- «تعرف أنني سأتبعك إلى أي مكان يا سيدي..»

لم يسمع طبعًا ما قلت لكنه خمنه.. وقف ينظر من النافذة وقد عقد يديه خلف ظهره كأنه جنرال يراقب جيشه يخسر في ميدان القتال، ثم استدار لي وأخرج لفافة ورق من جيبه وقال:

- «ابتعت بيتًا ريفيًّا خارج مدريد..»

- «أين؟»

واصل الكلام كأنه سمع إجابتي..

- «على ضفاف نهر مانزاناريس.. هل تعرفين اسمه؟.. اسمه (كوينتا دل سوردو)!!»

نظرت له في رعب..

هل أختار المنزل لأنّه يحمل هذا الاسم أم هي صدفة غريبة؟.. الأمر محير..

رأى نظرتي فقال وهو يعيد اللفافة لجيبه:

- «اسم مناسب جدًّا كما ترين.. أرجو أن تشرفي على عمليات نقل الأثاث وكل شيء..»

كنت أعرف أنني أريد أن أكون جواره، حتى لو سكن في مستنقع أو في أحراش أفريقيا.. لا أعرف مشاريعه لكنني معه في كل شيء وحتّى يموت أحدنا..

هكذا بدأنا في عملية الانتقال.. وجاء البيت عشرات من الرجال وصهلت عشرات الخيول.. لوحات كثيرة جدًّا وضعت في صناديق وأنزلت من الطابق العلوي.. حوامل رسم.. أصباغ..

لقد بدأ فصل جديد من حياتنا في (كوينتا دل سوردو)..

ومعناها بالإسبانية (منزل الرجل الأصم)!!

✶ ✶ ✶

لم يكن الاسم يقصد جويا، بل هو الاسم القديم لمالكه الذي كان أصم.. اسم غريب فعلًا ومصادفة أغرب..

شهد هذا البيت الأيام الأخيرة لحياة سيدي..

لم يكن اجتماعيًا في الأيام الأخيرة، لكنه تحول بالفعل إلى وطواط... صار يمضي عشر ساعات في غرفة الطعام وغرفة مكتبه، ولم يكن يسمح لأحد بالدخول.. عندما كنت أجلب له الطعام كنت أجذب الحبل الذي يحرك ستارًا عنده في الغرفة، باعتبار هذا نوعًا من الجرس الصامت. كان يأخذ الطعام من على الباب، فأرى أن يده ملطخة بالأصباغ مع رائحة زيت بذرة الكتان تفوح منه، مما

جعلني أدرك أنه يرسم.. يرسم ماذا وما هو مشروعه الأخير؟ لكنه كان يغلق الأبواب عليه وعندما ينصرف يتأكد من أن الباب موصد بالمفتاح.. هذه على قدر علمي أول لوحات له لا أحضر مخاضها وولادتها..

لم يكن يستعمل موديلات.. هذا يريحني.. كنت أكره لوحة (الماجا Maja) العارية الشهيرة وأغار منها بصراحة.. وأثار غيظي أنه رسم تلك المرأة (بيبيتا تودو) مرّتين.. مرة بثيابها ليعرض اللوحة على زوجها، ومرة عارية لنفسه.. ثم رفض أن يفصح عن شخصيتها للجميع، حتى أن البعض حسبها (دوقة ألبا)..

نعم.. أنا سعيدة لأنّه لا يستعمل موديلات..

كنت أسمع صوته يئن أو يصرخ... وارتجف الدم في عروقي لأنني عرفت أنه يكلم الأشخاص في اللوحات.. كان يعيش في عالم آخر ويكلم أفراده.. وعلى الأرجح هو يسمع جيدًا في ذلك العالم..

لم يكن يرسم في مكان معين بل في كل مكان.. وأحيانًا كان ينزل إلى القبو.. ومع الوقت انكمشت مساحة حريتي كثيرًا وصارت أكثر غرف البيت ممنوعة عليّ سواء للتنظيف أو الاستعمال العادي.. النتيجة أن القذارة بدأت تعم المكان..

ترى ماذا دهاك يا سيدي؟

أخشى أن أقولها، لكني مذعورة فعلًا.. مذعورة من أن تنزلق إلى عالم الجنون..

أم أنك انزلقت فعلًا؟

-2-

وهكذا قضيت أيامًا في ذلك الفندق في مدريد. اسمه (جرين لوب دي فيجا) - وأرجو أن أكون قد نطقت الاسم جيدًا - وهو يقع في مركز (مدريد) بالضبط...

رحت أتصرف كسائح بسبب الفراغ.. شعور غريب بأنك تنتظر التعليمات، كأنك بطل إحدى قصص الجاسوسية تنتظر أن يتصل بك العميل (هـ).. لا شيء يحدث.. لا أحد يتصل لا رسائل تحت الوسادة..

جولات في المدينة.. غداء في مطاعم.. ابتعت خارطة ودليلًا سياحيًا وكتيبًا لتعليم الإسبانية.. ليست صعبة جدًّا.. أعتقد أن بوسع كل من يجيد الفرنسية أن يجيدها، لكن من قال لك إنني أجيد الفرنسية؟

المشكلة هي أنني أعرف (الكينونة).. لا تفاهم معها ولا مزاح وهي قادرة على أن تحيل حياتي جحيمًا. قد لا أكون مباليًا بالموت، لكنّها بالتأكيد تملك أنواعًا من العقاب أقسى من الموت..

لأسباب لا تخفى على أحد قمت بإخفاء كل ذكرياتي مع (الكينونة).. آسف.. هذه ذكريات غير مناسبة للجميع ولم أنو يومًا أن أحكيها، ليس لأنّها مشينة لا سمح الله ولكن لأنّها عسيرة الشرح ومفزعة فعلًا...

لا تفاهم مع الكينونة لذا عليّ أن ألعب دور السائح وأصبر...

✶ ✶ ✶

فندق (جرين لوب دي فيجا) يقع في منطقة استراتيجية من العاصمة مدريد.. أمامه بالضبط يقع متحف (برادو Prado) أهم متحف في إسبانيا.. لعبة موفقة للحظ كما ترى ولم أتعمدها قط..

هناك كذلك متحف (تيسن) ومتحف فنون (راينا سوفيا) و(بازيو دل برادو).. كلها بقرب الفندق.. لو مشيت قليلًا لوجدت نفسك في حديقة رتيرو.. مكان مناسب كي تتنزه فيه مع حبيبتك، أمّا لو لم تكن لك حبيبة فلتنم في غرفة الفندق حتى الواحدة ظهرًا كما أفعل أنا.. ولسوف تكتشف أن للفراغ العاطفي مزايا مهمّة.. لن ترغم على قضاء يومك مع فتاة ثرثارة لا تكف عن الكلام عن نفسها..

يُمكنك أن ترى التحف الفنية لرسامي الماضي في متحف (برادو).. أمّا (راينا سوفيا) فترى فيه أعمال بيكاسو..

طبعًا أنا مولع بالماضي، ولا أفهم الكثير من هذه الخطوط المعقدة التي يرسمها بيكاسو.. لهذا وقع اختياري على متحف (برادو)...

تعال معي.. تخلص من ترددك واتبعني..

سوف ألعب لمرّة واحدة دور المرشد الثقافي، ولن أكتفي بأن أحكي قصصًا تثير رعبك.. هذه المرّة ألعب دور تلك الكتب التي تحمل عنوانًا مثل (تعال معي إلى ... ...).. اليوم تعال معي إلى متحف (برادو)..

النشرات تقول إن المتحف هو أكبر متحف فني في العالم.. هناك 8600 لوحة لا يعرض سوى ربعها بسبب ضيق المكان..

يعود تاريخ هذا المتحف لعام 1819 عندما أنشأه فرناندو السابع..

تعرض هذا المتحف لأخطار مهولة وكاد يدمّر مرارًا أثناء الحرب الأهلية الإسبانية، لدرجة أنهم نقلوه بالكامل إلى سويسرا ثم استعادوه بعد الحرب العالمية الثانية..

ويتم عرض اللوحات في بنايتين: فيلانوفا وكازون دل بوين رتيرو..

قطعت تذكرة ثم رحت أجوب المكان..

عرفت على الفور لوحات (فيلاسكويز).. له أسلوب مميّز واضح لا يمكن أن تخطئه العين. لوحات رائعة الجمال لكني أؤمن مثل (أوسكار وايلد) أن الطبيعة ليست طبيعية!.. بمعنى آخر أنا المجنون الوحيد الذي يرى أنّ هذه اللوحات تبدو أجمل في المجلات... هنا ترى الخشونة وضربات الفرشاة وتلمع أجزاء من الصبغات مما يبدد متعتي.. إن المجلات تظهر اللوحة لا كما هي بل كما ينبغي أن تكون.. رأي عجيب لكني لم أتخل عنه قط في حياتي، ولا أنسى خيبة أملي عندما رأيت الموناليزا في متحف اللوفر أول مرة.. خطر لي أنها أجمل بكثير في الملصقات..

ثم توقفت أمام لوحات جويا Goya... فرانشيسكو جويا.. مفخرة الفن الإسباني..

عرفت على الفور هذه الخطوط المميزة والإفراط في اللون البني..

هذه هي السيدة ذات المروحة.. وهذه هي الماجا التي تبدو عارية في صورة وكاسية في صورة أخرى.. لوحة الإعدام الشهيرة.. الحق إن الرجل كان فنانًا بحق..

لم أفطن إلى أنني صرت وحدي في قاعة ممتدة يصعب فعلًا أن تكون خالية في وقت كهذا...

كانت هناك مقاعد على مسافات متباعدة بحيث تتيح لمن يشاهد لوحة أن يجلس لينعم النظر.. وقد اخترت مقعدًا أجلس عليه..

ورفعت رأسي أنظر إلى اللوحة التي أمامي..

كانت لوحة شهيرة جدًّا.. أذكرها لكن لا أذكر تفاصيلها..

كان هناك غول عملاق يمسك بإنسان صغير الحجم ويدس نصفه العلوي في فمه هناك دماء تسيل والموضوع كله قاتم دموي أكثر مما تتحمله لوحة.. دققت النظر أكثر فقرأت عنوان اللوحة الذي كتب بالإسبانية والإنجليزية (عطارد يلتهم ابنه)...

نعم.. نعم.. أذكر أسطورة كهذه.. عطارد اضطر لالتهام ابنه لأن هناك نبوءة تخيفه، عن أن أبناءه سوف يتخلصون منه.. لم يفر من هذه المأدبة الرهيبة سوى (زيوس)..

لوحة رائعة لكن الموضوع غريب ومنفر بالتأكيد.. ليس من المواضيع التي تروق لشخص بكامل قواه العقليّة والنفسية التنفيذ أيضًا كان عنيفًا خشنًا قاتمًا..

نهضت ومشيت بضع خطوات..

هنا توقفت أمام لوحة أخرى لجويا.. لوحة ذات قطع غير مألوف يذكرك بكادر السينما سكوب..

كان هناك حشد من النساء العجائز.. صف طويل من نساء شمطاوات أشبه بالساحرات الشريرات.. بل هن كذلك فعلًا إنهن مجتمعات ونظراتهن جميعًا تتركز على شخص يجلس في مقدمة الكادر وظهره لنا.. إنّه أقرب إلى سلويت، لكنك قادر على رؤية ملامحه.. رأس جدي أسود...

الشيطان!...

كل أساطير القرون الوسطى تحكى أن الشيطان كان يحضر اجتماعات الساحرات على شكل غراب أو جدي أسود.. الجدي له سمعة سيئة في هذا الصدد، وأنت تعرف أن الشيطان يرسم دومًا على شكل تيس عندما جاءت المسيحية وجدت أن الأوروبيين يعبدون الكثير من الآلهة الوثنية.. لم تلغ المسيحية هؤلاء الآلهة ولكن حولتهم إلى شياطين، وهكذا نجد أن (بان) إله المراعي عند الإغريق واليونان تم تخفيض رتبته إلى شيطان.. ولما كان (بان) يرسم كجدي فقد صار هذا شكل الشيطان المتفق عليه.. وفي عصور محاكم التفتيش كان امتلاك المرأة لجدي أسود سببًا كافيًا لحرقها بلا محاكمة..

لوحة مخيفة أخرى من الأخ (جويا)..

هناك لوحة أخرى تظهر عجوزًا يجلس إلى مائدة مع عجوز آخر.. عجوز لدرجة أنه تحول إلى جمجمة تقريبًا، والمخيف أنهما سعيدان..

ما هذا المزاج السوداوي الشنيع؟

بحثت عن لافتة تفسر كل شيء، فلم أجد سوى عبارات إسبانية.. من السهل محاولة ترجمة الإسبانية اعتمادًا على خلفيتك اللاتينية والفرنسية، لكني لم أر كلمة واحدة تنير الطريق..

هذا الرجل اهتم بالرعب بطريقة غير معتادة.. لم أكن أعرف سوى رسام واحد هو (فيوزللي) الذي رسم اللوحة الشهيرة للجاثوم.. لكن فيما عدا ذلك لم أر هذه اللمسة المرعبة التي تثير القشعريرة...

الحق إنني... إنني....

أشعر بأنني أختنق.. الجرثومة المرعبة التي وضعها العبقري في اللوحات منذ عشرات الأعوام قد انتعشت في دمي.. خرجت براعمها وتكاثرت...

الحق إنني لم أشعر قط بشعور كهذا، وأنا وحدي تمامًا في قاعة خاوية صامتة وإضاءة خافتة، على بعد سنتيمترات من اللوحات.. ذات اللوحات التي وقف جويا أمامها منذ مائتي عام يرسم مخاوفه.. كانت يومها لينة ولها رائحة..

ساقاي تتخليان عني..

هكذا جلست ورأسي يدور وأدركت أنني بحاجة لهواء نقي..

هنا سمعت صوتها يقول بعربية مهشمة:

- «اللوحات السوداء.. رائعة.. أليس كذلك؟»

-3-

(دونّا) رقيقة..

(دونّا) جميلة..

(دونّا) لها عينان سوداوان رائعتا الجمال، وفيهما صفة الحور التي هام بها العرب.. سواد العين أكثر من البياض بكثير، فإذا أضفنا لهذا غابة أهداب كثيفة لشعرت فيها بطابع عربي ساحر..

(دونّا) تعرف الكثير..

(دونّا) تمشط شعرها طيلة الوقت بمشط صغير أنيق..

(دونّا) حانية تهتم..

(دونّا) أشبه بجواد عربي أصيل شامخ الرأس تتطاير معرفته مع النسيم..

(دونّا) أشبه بكل الفل والريحان الذي عرفته الأندلس وقد تم تقطيره في صورة كائن حي..

لو كنت أصغر من هذا بثلاثين عامًا لوقعت في حبها بالتأكيد..

✶ ✶ ✶

في حديقة رتيرو.. يُمكنك أن تمشي وتشم الهواء النقي، بينما (دونّا) تمسك بساعدي حتى لا أقع.. منظرنا جميل جدًّا كأب يتنزه مع ابنته رائعة الحسن، وقد قابلت الكثير مما كنت أقرؤه عن طباع الإسبانيين.. كل رجل يراها يصفر.. أعرف أنهم يقرصون كذلك، لكن هذا لم يحدث هنا لحسن الحظ.. التصفير يعتبر مجاملة رقيقة يسر لها الأب كثيرًا، بينما لو كانت ابنتي فعلًا لتشاجرت وذهبت إلى القسم.. ترى ما معنى (القسم) في الإسبانية؟

هناك من يركبون قوارب صغيرة في البحيرة، ويجدفون بينما جلس عدد كبير يحتسون القهوة ويطالعون الصحف...

كانت تلبس تايورًا أبيض محتشمًا وحذاء ذا رقبة، وشعرها الأسود الطويل يصل إلى أعلى خصرها.. باختصار لم يكن فيها سوى لونين هما الأبيض والأسود..

قالت لي بعربيتها المضعضعة:

- «لا أتكلم العربيّة إلا فيما ندر لذا أنا سعيدة أنك تفهم كلامي..»

قلت كاذبًا:

- «عربيتك ممتازة...»

كنت شارد الذهن أفكر فيمن تكون حقًّا.. لو كانت هي (الكينونة) فلن أعرف ذلك إلا متأخرًا.. هناك خمس علامات تميز (الكينونة) - واسمح لي ألا أذكرها - لكني لا أتبين أية علامة في هذه الفتاة.. بالطبع لن أبدأ بسؤالها عما إذا كانت هي (الكينونة) أم لا.. هذا لا يمت للياقة بصلة دعك من آن حدسي يقول إنّه لا غبار عليها.. هذه مجرد فتاة إسبانية جميلة تجيد العربيّة...

كيف خمنت *أنني عربي*؟

انحنت لتلتقط زهرة صغيرة ملقاة على الأرض وقالت:

- «أنا من (المور Moor).. أي أن أصولي عربية منذ كان العرب هنا، وكان شبه جزيرة إيبريا يدعى (الأندلس).. أنت تعرف القصة أفضل مني..»

وراحت بأناملها الدقيقة تحاول أن ترجع البتلات إلى ما كانت عليه ثم قالت:

- «يبدو أن اللوحات السوداء قد هزتك...»

قلت لها وأنا أتعثر:

- «لا أعرف ما هي.. لكني فهمت نوبة الصرع التي أصيب بها الجنرال النازي عندما رأى لوحات (فان جوخ) في رواية (ليلة الجنرالات). أعتقد أن الأمر شبيه بمفهوم التردد الفيزيائي.. نفس تردد روحي التقى مع تردد روحه فحدث الرنين..»

(دونّا) تعرف الكثير عن اللوحات السوداء...

شابان يصفران ويهتف أحدهما بالإسبانية بشيء غالبًا يغازلها بصوت عالٍ..

قالت لي وهي تبتسم قليلًا لأن ما سمعته راق لها:

- «في أواخر حياته كان (جويا) مصابًا بالصمم مع حالة كراهية عامّة للبشر واشمئزاز من الحروب وطباع الإنسان. ابتاع بيتًا جوار مدريد يدعى (كوينتا دل سوردو) هناك ما بين العامين 1819 إلى 1823 بدأ يرسم مجموعة غريبة من اللوحات.. بعضها على القماش وبعضها على الجدران مباشرة كان يستعمل تقنية معينة للرسم على الجدار اسمها (أل سيكو).. ما وجدوه يشكل 14 لوحة مرعبة أو غريبة.. اصطلح النقاد على تسميتها (الرسوم السوداء) لأنهّا تعكس سوداوية قاسية غريبة.. وفيما بعد تم نقل هذه اللوحات إلى متحف برادو باستعمال تقنية معقدة سمحت بنقل الرسم الجداري إلى لوحات قماشية – فالمنزل لم يعد له وجود... أو هذا ما يعرفه الناس»

«كان المنزل يتكون من عدة أجزاء، لكن به طابقين.. وكانت هناك قاعتان واسعتان. هناك بدأ يرسم لوحاته الرهيبة.. وكان يتخذ من الإضاءة الطبيعية القادمة من النوافذ جزءًا من مكونات اللوحة. بمعنى أنّ بعض اللوحات لا تشاهد جيدًا إلا في ظروف الإضاءة التي كانت تعرض فيها. كانت هناك نافذتان في الطابق السفلي ونافذة واحدة في الطابق العلوي، لهذا كانت الرسوم السفلية أقل عددًا.

«وهكذا..»

سألتها:

- «هل مات هناك؟.. في ذات البيت؟»

(دونّا) تبعد الشعر الأسود الفاحم عن عينها كثيرًا.. ثم تخرج المشط الصغير ذهبي اللون وتمشط شعرها بعناية..

(دونّا) تقول:

- «لا.. عام 1824 ترك جويا البيت.. واتجه إلى (بوردو) بفرنسا فهو لم يعد يطيق إسبانيا. ظل هناك - باستثناء زيارة قصيرة لإسبانيا - حتى العام 1828 حيث توفي وقد جاوز الثمانين من العمر. لكن رفاته في مدريد على كل حال. بيع البيت بما فيه ليمر عليه ملاك كثيرون، حتى وصل إلى يد البارون (إرلانجر). فأمر بنقل هذه اللوحات إلى متحف (برادو) عام 1874.. طريقة معقدة جدًّا تنقل الرسم الجداري إلى القماش»

قلت في ده دهشة:

- «إذن.. البيت الذي رسم فيه اللوحات لم يعد قائمًا..»

- «هذا ما يُقال.. لكن الخبراء رسموا له نموذجًا مجسمًا وهم يعرفون كيف كان يبدو بالضبط..»

ثم نظرت لي وابتسمت كأنها أم تشجع ابنها على ركوب الزحافة:

- «هل تشعر الآن بأنك قادر على رؤية اللوحات السوداء من جديد؟»

قلت لها:

- «سأحاول»

-4-

زرت كل ركن في مدريد بمساعدة (دونّا) الحسناء.

قد يسأل البعض: لماذا تضيع حسناء مثلها الوقت مع كهل مثلي؟.. ولماذا تتطوع لتكون دليلًا له؟.... الله وحده يعلم الإجابة، وإن كانت أكثر الإجابات منطقية في رأيي هي أنها (الكينونة) ذاتها.. برغم هذا لم أتحمس لذلك.. (الكينونة) تعطي شعورًا معينًا من عدم الارتياح عندما تكون موجودة، دعك من أن الأمر لا يمكن أن يكون بهذا الوضوح.. مستحيل أن تكون هي الفتاة الوحيدة التي أعرفها في مدريد..

لقد أحببت مدريد فعلًا، وأرى أن من لم يزرها قد خسر الكثير.. ليست نظرية (بلد يلخص باقي البلدان) ناجحة دائمًا.. لكني كذلك كنت في غاية القلق لأنني لم أعرف بعد ما سيحدث ولا لماذا أنا هنا. لقد أوشكت إجازتي على الانتهاء فلم أحقق سوى تبديد مبلغ لا بأس به..

(دونّا) كانت طالبة فنون. هذا يفسر كل شيء واهتمامها بجويا وفلاسكويز والجريكو.. ثلاثي العبقرية الإسباني.. هذا بالطبع لو لم نتكلم عن المعاصرين مثل بيكاسو ودالي.

قالت كذلك إنها خارجة من علاقة فاشلة.. قلت لها إن بدرو بالتأكيد لم يكن جديرًا بها.. إنّه شاب رقيع والطريقة التي يطيل بها شعره ليخفى أذنيه، والمنديل المزركش الذي يحيط به عنقه كلها علامات على أنه لا يعتمد عليه..

سألتني باسمة:

- «من هو بدرو؟»

- «لابد من واحد.. أليس كذلك؟»

- «اسمه (مانويل).. وهو شاب مثقف ممتلئ بالرجولة ومهندس ناجح.. لكنه شعر بالملل مني..»

- «لكنه أحمق.. بالتأكيد أحمق..»

لا أحد يفقد (دونّا) بكامل إرادته.. هي التي تتخلى عن الناس فيصابون بالعته والبله المغولي ويموتون كمدًا... لابد أنها اتفقت مع شركة نظافة للتخلص من جثث العشاق الميتين أمام بابها، أو لعلها تستعمل جثثهم في تسميد الحدائق...

أين تعيش؟

تقول وهي تمشط شعرها:

- «حاليًا أنا أقيم مع صديقة لي.. إيزابيلا... في شقتها بمدريد.. لكن بيتي الأصلي في الريف خارج مدريد.. على ضفة نهر مانزاناريس..»

- «وهل تعرفين شجرة أسرتك؟.. من أين جاءت أصولك العربيّة؟»

- «جدّتي كانت تعرف هذه التفاصيل لكني لا أعرف شيئًا.. فقط كان أهلي والجيران يقولون إن أسرتي من المور.. والمور على كل حال لفظة واسعة تعني غالبًا (قاتم اللون) أو (اللون البني).. لسبب واضح أطلق هذا الاسم على من يحملون جذورًا عربية..»

(دونّا) تعرف أشياء كثيرة عن المور..

(دونّا) لا تعرف الكثير عن جذورها..

على كل حال يُمكنك أن تجد أن كل حجر هنا يفوح بالثقافة العربيّة، مع حشد من الكلمات التي لا تختلف في النطق عنها في العربيّة..

✶ ✶ ✶

(دونّا) تعرف الكثير عن (جويا)..

كنا في التلفريك الشهير في مدريد، الذي يصل ما بين غرب المدينة (روزاليس) إلى ذلك المطعم الشهير في حديقة (كازا دي كامبو).. أكره المرتفعات والتلفريك لكني لم أظهر هذا..

قالت لي:

- «هناك مجموعات للفنان (جويا) ذات طابع واحد.. منها الرسوم السوداء كما قلت لك، ومنها مجموعة أهوال الحرب ومجموعة المجانين.. مجموعة المجانين بالذات مخيفة جدًّا تعكس العالم المرعب المقبض للمجانين في المصحات. سوف ترى مجموعات من المرضي شاخصي النظرات أو يشوحون بأيديهم أو يتصارعون أو يؤدبون بعضهم..»

كنا الآن في (بورتا دل سول)..

(بورتا) معناها بوابة... لقد كانت هي بوابة المدينة في العصور السابقة...

قالت لي معلومة غريبة جدًّا، هي أنّ هذا هو مركز إسبانيا نفسها.. هناك يقع مبنى البرلمان وكل المسافات تقاس من هذه النقطة.. أي أنها النقطة صفر!..

لو مشيت دقيقتين لا أكثر لوجدت نفسك في (بلازا مايور). المكان الذي كانت تقام به المهرجانات ومصارعات الثيران اليوم هو حشد من الكافتيريات والمطاعم ومئات السياح.

جلسنا هناك في (بلازا مايور) أشرب القهوة أمّا هي فطلبت لنفسها مشروبًا روحيًا ما. رحت أراقبها خلسة وهي ترشف من كأسها.. مسرورة جدًّا هانئة كقطة.. هي من البشر الذين يجب أن تراهم لو شعرت باكتئاب..

فرغت من كأسها فنظرت لي ثم قالت:

- «هل تعرف أن بيتي على مرمى حجر من هنا؟»

- «تعنين شقّة صديقتك.. إيزابيلا إن لم تخنني الذاكرة..»

- «إيزابيلا ليست في مدريد هذه الأيام..»

- «خبر مهم وجميل.. لكن ما دخلي به؟»

قالت ببساطة:

- «حسبت أنك تحب أن ترى شقتي وغرفتي..»

فكرت في طلبها مليًّا.. هناك سبب لهذا الطلب لكن ليس من بينها الإغواء.. لأسباب واضحة أنا لا أشكل فتى أحلام أي فتاة، وبالتأكيد أدق تشبيه سمعته في حياتي ويصفني كان أنني (أجمل من أية زجاجة زيت تموين في العالم).. دعك من أنها في عمر ابنتي لو كانت عندي واحدة.. إذن هناك سبب قوي..

سألتها في حذر:

- «ظننت أننا على ما يرام هنا..»

قالت في عدم اكتراث:

- «ربما.. لو كان هذا يروق لك أكثر فليكن..»

هنا سمعت في ذاكرتي صوت الكينونة يقول لي:

- «لا ترفض الدعوة لزيارتها في دارها الأولى.. فقد يكون هذا هو الجواب كاملًا..

هذه هي تعليماتها فهل تنطبق هنا؟

كنت أحسب (ها) تعود على إسبانيا.. يبدو أنها تعود على أنثى..

رشفت ما بقي من قهوة في القدح، ثم قلت لها في حزم وأنا أخرج بعض العملة من جيبي:

- «ليكن.. كنت دائمًا شغوفًا بأن أرى بيتك وكيف تعيشين سيكون هذا مسليًا..»
- «دائمًا؟.. نحن لم نلتق إلا منذ يوم ونصف..»
- «دائمًا في اللغة العربيّة معناها (منذ يوم ونصف) تعرفين أنني دقيق..»

-5-

بالفعل بيتها على مرمى حجر من (بلازا مايور)..

كانت بناية لها ذلك الطابع العتيق المزخرف الذي لا تراه إلا في أوروبا. شارع من الشوارع المرصوفة بالحجارة التي تذهب بعقلي من فرط جمالها. سيارات (سيات) صغيرة على الجانبين. متسولة عجوز تتظاهر ببيع الصحف، وتبدو بأنفها الكبير وقامتها المحنية خارجة من إحدى قصص سيرفانتس.. جدران أبلاها القدم وزحفت عليها الرطوبة، لكنّها جميلة.. شارع ضيق به أشجار على الجانبين.. البناية من الطراز الذي له بوابة حديدية تفتح بالمفتاح، لكن هناك مديرة نزل تجلس في غرفتها وتراقب كل شيء يحدث في المدخل من نافذة زجاجية صغيرة، ومن حين لآخر تحمل رشاشة وتخرج لتسقى بعض الأزهار على إطار نافذة هناك. هناك مصعد عتيق يصلح للسقوط بركابه جدًّا.. تلك المصاعد التي تملأ بنايات وسط البلد القديمة عندنا..

باختصار هناك مزيج فريد من القدم والجمال هنا.. لم يترك القدم لمسة القبح الكريهة إياها، وفي الوقت نفسه لم يستطع المصعد أن يجعل المكان حديثًا..

المصعد يعمل لحسن الحظ وإلا لصعدت هذه الدرجات لأسقط في القبر.. مديرة النزل لا تسأل ولا تتدخل فيما لا يعنيها، وإن رمتنا بنظرة كارهة للعالم فبادلناها نفس النظرة..

شقة (دونّا) في الطابق الخامس...

تدس المفتاح في الباب وتدعوني للدخول..

شقة جميلة جدًّا وبسيطة إلى حد فاتن. لا يوجد أثاث تقريبًا وإنما ورق حائط مزركش بتلك الطريقة المميزة لذلك العصر، حيث كان العالم كله أقرب إلى قميص مشجر..

هناك ملصق عملاق للثائرة (أنجيلا ديفيز).. لا يوجد جيفارا وهذا غريب.. هناك بار صغير ومجلس من الوسائد الموضوعة على الأرض يذكرك نوعًا بالقعدة العربيّة عندنا هناك سماعتا ستريو عملاقتان بحجم الطفل الصغير المصاب بالاستسقاء وهناك فونوغراف ومجموعات من أغلفة الأسطوانات عليها ترى صور البيتلز....

قلت لها وأنا أتأمل المكان:

- «شقتك جميلة وشبابية جدًّا.. أنت ابنة هذا العصر كما هو واضح..»

ابتسمت وطوحت حذائيها واتجهت لمرآة صغيرة فأعادت تمشيط شعرها، ثم قالت وهي تتجه إلى البار:

- «متأخرة عشر سنوات لو لاحظت لقد تجمدت في الستينات..»

وصبت لي بعض عصير البرتقال وناولتني الكوب العملاق، ثم وثبت لتتربع على إحدى الوسائد على الأرض وعقدت قدميها تحتها وقالت:

- «وبعد؟»

رشفت رشفة من البرتقال، ثم ضحكت في حرج:

- «لا يوجد بعد..»

- «هل وقعت في الحب من قبل؟.. لابد أنها فتاة ساحرة العينين سمراء فارعة القامة.. اسمها.. اسمها (فاطمة) أو (عزيزة).. لابد أنها تطل من المشربية وتضحك لك من وراء خمارها..»

ضحكت لهذه الصورة النمطية.. وقلت:

- «منذ ربع قرن أنا واقع في حب فتاة بريطانية نحيلة كعود الخلة. في منتصف العمر.. أستاذ في علم الفيزياء بالجامعة،.. وتقيم في قصر أسكتلندي قديم، وتتكلم كالإنجليز المهذبين، بتلك الطريقة التي توحي بأن فمها محشو بالبلى وتخشى أن يقع»

اتسعت عيناها في دهشة.. آخر شيء توقعته فعلًا.. قالت ضاحكة:

- «هذا آخر شيء توقعته.. يفسد كل سحر الصورة في ذهني..»

- «نعم.. الجمال والسيوف والباعة النصابون في البازارات.. كل هذا لا وجود له..»

- «ولماذا لم تتزوجا؟»

- «لأننا قررنا أن نبقي الصورة جميلة كما هي.. ألا نقترب من بعض لدرجة أن نفسد كل شيء.. لهذا ظلت هي في خلفيّة حياتي ووجداني كقيمة مقدسة.. وأعتقد أنني أمثل لها الشيء ذاته..»

قالت في اشمئزاز:

- «لا أثق بالبريطانيات.. أنت في مصر تلعب دور العاشق الرومانسي المخلص، بينما هي تعيش حياتها كما يروق لها في وطنها ومن حين لآخر ترسل لك خطابًا تقول فيها إنها مشتاقة..»

أثار هذا غيظي.. ماذا تريد هذه الفتاة مني؟.. هي لا تحبني ولن تحبني.. فلماذا تهاجم (ماجي) التي لا تعرفها أصلًا؟.. ولماذا...

- «لا أريد أن أكون فظًا.. لكن ألفت نظرك إلى أنك تقتحمين مناطق شخصيّة جدًّا في حياتي.. هذا ليس من شأنك..»

ركلت وسادة بطرف قدمها وقالت:

- «معك حق.. لقد تخطيت حدودي..»

ثم نهضت وقامت بانتقاء أسطوانة ووضعتها على الفونوغراف فتصاعد صوت (جون لينون) الساحر يقول:

- «*تخيل لو لم تكن هناك أوطان.. ربما حسبت أنني حالم لكنني لست الحالم الوحيد.. أتمنى لو أنك انضممت لنا يومًا ما.. فيصير العالم واحدًا..*»

(دونّا) تحب أغاني البيتلز..

(دونّا) تحب أنجيلا ديفيز..

أم هي صديقتها؟

قالت لي وهي تثب من جلستها الأرضية (وهو عمل شاق فعلًا):

- «سوف أبدل ثيابي.. أرجو أن تعتبر الدار دارك..»

طبعًا لن أعتبر الدار داري لسبب بسيط هو أنها ليست دارك أنت أيضًا. كانوا يقولون لنا إن وعد (بارليف) هو وعد ممن لا يملك لمن لا يستحق.. لماذا أتذكر هذه المقولة الآن؟..

هكذا جلست وحدي على الأرض أتأمل الشقة محاولًا تخمين ما أضافته هي وما هو لصديقتها منذ البداية.. من الوارد أن يكون كل شيء من ذوق صديقتها..

جواري على منضدة صغيرة أقرب إلى قفص مصنوع من السلك، كانت هناك كاميرا بولاروید من الطراز الذي كان محببًا جدًا في ذلك الوقت، ومجموعة من المجلات الإسبانية.. يمكن أن أمارس هواية مشاهدة الصور لأشعر بما يشعر به الطفل ذو الأربع السنوات الذي لم يتعلم القراءة بعد...

رحت أفتش عن مجلة مليئة بالصور المسلية..

هنا وجدت ذلك الدفتر تحت كومة المجلات.. فتحته في شيء من الملل، فوجدت أنه ألبوم صور هناك الكثير من الصور معظمها لدونّا.. إنها تقف مع صديقة لها في الشمس تضحكان بعض الصور بكاميرا البولاروید التي كانت كما قلت لك ناجحة جدًّا في ذلك الوقت. هنا تقف مع شاب مثقف ممتلئ بالرجولة ومهندس ناجح.. شيء يحدثني بأنه هو مانويل.. من الواضح أنها سعيدة جدًّا..

فجأة تصلبت...

هناك مجموعة من الصور.. غير واضحة وبالأبيض والأسود نعم.. لكن معرفة محتواها ليس صعبًا...

وهنا شعرت بالعلامة التي لا تدحض: انتصاب الشعر على ساعدي، فليس في رأسي شعر يكفي لينتصب..

ما معنى هذا؟

-6-

سيدي العظيم (جويا)..

أول اسم مهم في تاريخ إسبانيا الفني منذ عصر (فيلاسكويز).. إسبانيا المريضة التي زحف عليها الصدأ وأتلف مفاصلها الغباء والفساد..

تشارلز الرابع يقضي وقته بين تعذيب الفلاحين، وبين اللّهو في البلاط وصيد الأرانب واحتساء الخمور.. وجويا الفنان المليء بالحيوية غليظ العنق والشفتين يحمل موهبته.. سلاحه الوحيد. لكنه يحمل كذلك الذكاء والنظرة الثاقبة والثقافة. شجاع مقتحم على درجة من الفظاظة على غير ديدن الفنانين. بدأ من أسفل السلم الاجتماعي الإسباني حتى صار رسام الملوك..

نعم.. لقد عرف الكثير..

مغامرات لا حصر لها بعضها مجنون تمامًا، منها اقتحام أحد الأديرة ليختطف فتاة كان يحبّها، ولجأت إلى الدير.. وذات مرة أخرجوه من مصرف ماء وخنجر مغروس في ظهره. هذا النوع من المغامرات كان معتادًا في حياته..

عاش بين الأثرياء والأمراء، لكن ظل يحمل داخله ذلك الجزء الذي يعجّ بالمتسولين واللصوص والحواة والدجالين والعالم السفلي الخطر، وكان يستحضره ليرسمه متى أراد..

الأعمال الأولى لسيدي العظيم لا تدلّ على موهبة صارخة..

السبب هو أن أغلب ما كلف به كان مواضيع دينيّة، وهو لم يكن شخصًا متدينًا، لذا كان عاجزًا عن رسم المواضيع الدينية على حريته السبب الثاني هو أن موهبته نضجت ببطء شديد واستغرقت وقتًا طويلًا..

تزوج في سن التاسعة والعشرين.. سيدة بيت حقيقيّة..

وهكذا ظلت في البيت في حالة مزمنة من الحمل.. إن عدد الأطفال الذين أنجبهم يتحدى الوصف.. عشرين طفلًا مات منهم عدد لا بأس به بينما واصل هو حياة الصعلكة بين الغجر والبوهيميين في ساراجوسا.

وعندما ظفر بالعمل كرسام في البلاط الملكي، فإنّه لم يضيع وقته في تقليد لوحات روبنز كما فعل كل الفنانين، بل راح يستوحي الروح الإسبانية ويقدمها في لوحاته.. وكانت ضربات فرشاته سريعة عنيفة تعكس عصبيته الشديدة ونفاد صبره.. لكنه برغم هذا لم يكن قد رسم بعد عملًا يسمو لمرتبة الخلود أو يذكرنا باسمه.. مجرد رسام جيد جدًّا..

إنّه الآن في الثانية والأربعين.. لم يعد أحد يشك في موهبته العنيفة الكاسحة، لكن بالطبع كانت طبيعته الحادة النارية كفيلة بأن تجلب له أعداء بعدد شعر رأسه.

لقد تشاجر مع كل شخص في العالم تقريبًا.. وكانت صحته سيئة بسبب تبديدها بلا حساب في شبابه الأول. لذا كانت حياته فترات من العمل بلا هوادة، ثم المرض والجلوس في البيت..

في هذه الحالة الصحية والمعنوية السيئة، نفذ أول مجموعة من التهشير (كابريشوس).. كمية هائلة من السخرية من المجتمع الإسباني ونسائه وأثريائه..

لقد حققت هذه المجموعة نجاحًا ساحقًا وابتاعها كثيرون من أصدقائه، وهم لا يعرفون أنهم المقصودون بهذه اللوحات!.. أي إنّه يمكن القول دون خطأ كبير إن بعض الناس ابتاعوا صورهم وهم لا يعرفون!

لم يلحظ التشابه سوى طرف واحد.. طرف خطر...

الكنيسة!

لقد لاحظت نوعًا من السخرية منها في الرسوم، وفي ذلك الوقت كانت غضبة الكنيسة تعني محكمة التفتيش.. ومحكمة التفتيش تعني...

لقد بلغت هذه المحاكم درجة ممتازة من الخبرة بعد ما تدربت أعوامًا طويلة على المسلمين واليهود، لهذا كان الوقوع في يدها يعني تمزيقك إربًا.

هنا تدخل الملك الذي كان يحبّ سيدي.. قال للكنيسة إن هذه اللوحات بناء على تعليماته هو، وهكذا انتهت المشكلة بلا تبعات..

على سبيل الاعتراف بالجميل قام سيدي بتزيين كنيسة (سان أنتونيو) القريبة من مدريد.. وقد أخذ راحته تمامًا في رسم الجدران.. رسم فتيات جميلات وراقصات وأطفالًا عراة..

لم يهتم الملك كثيرًا بهذا ومنح سيدي لقب (رسام البلاط الأول). أمّا الملكة فأهدته لوحة لفلاسكويز.. الحقيقة أنها كانت اللوحة الوحيدة التي امتلكها في حياته..

جاء الفرنسيون إلى إسبانيا، ومعهم مذابحهم وأهوال الحرب..

وتغير يقينه بأشياء كثيرة.. لهذا أبدى الولاء للملك الجديد، لكنه احتفظ لنفسه بخواطره ورسم الكثير منها..

عندما غادر إسبانيا إلى بوردو، كان قد بلغ من الكبر عتيّا..

كان أصم تمامًا، لكنه لم يتوقف عن الرسم على أي شيء يقع في يده.. كان يردد:

- «أساتذتي في الرسم هم رمبرانت وفيلاسكويز والطبيعة!»

الأول علمه استخدام عينيه والثاني علمه استخدام يديه الثالثة علّمته كل شيء آخر..

- «الأساتذة يتكلمون عن الخطوط ولا يتكلمون عن الكتل أبدًا، لكن أين ترى الخطوط؟... لا توجد في الطبيعة خطوط وإنما الضوء والظلال..»

كان مولعًا بعدم الاعتدال.. لو كانت المرأة التي يرسمها قبيحة فإنّه يجعلها كابوسًا. ولو كانت جميلة فإنّه يجعلها أسطورة.. الحياة.. الحياة هي كل شيء..

- «فليذهب الجمال إلى الجحيم!!»

نعم.. فهو لم يحاول قط أن يجمل موديلاته أو يضيف لهم ما ليس فيهم..

عندما رسم أسرة الملك لم يكن يحبّ أفرادها لذا رسمهم مريعين، وكما وصف اللوحة أحد المعاصرين:

«يبدون كأسرة بقال فاز باليانصيب!»

بينما حبّه للأطفال بدا واضحًا إذ رسم أطفال الأسرة كالملائكة..

إنّه أكثر رسام وضع في لوحاته سخريته وقسوته وكراهيته للبشر...

باختصار.. تلك الكائنات المريعة المجنونة في لوحاته لم تمثل بالضبط من كان يرسمهم..

كانت تمثل (جويا) نفسه...

-7-

سمعت صوت الباب يفتح فأجفلت..

سمعت صوت خطوات ثم ظهرت فتاة صغيرة الحجم رقيقة جدًّا لها ذلك الشعر الغلماني القصير على طريقة (لا جارسون) التي يترجمها العقاد بالـ (غلامة)، كان يناسبها جدًّا فقد بدت كشيء صغير شقي...

لكن عينيها الخضراوين الواسعتين كانت تنظران لي في دهشة ربما في شيء من التنمر كذلك...

في يدها حقيبة صغيرة يبدو أنها مليئة بالثياب. لا أحتج لذكاء كبير كي أعرف أنّ هذه (إيزابلا).. كانت خارج مدريد وعادت فجأة.. هذه الأشياء تحدث.....

قالت لي في لهجة حيرى:

- «دونّا؟»

- «هنا.. هي آتية حالًا..»

- «كيني سون استيد؟»

- «صديق..»

بالطبع لم تفهم ما قلته بالإنجليزية بينما فهمت أنا ما قالته بالإسبانية. نظرت لي محاولة فهم ما أنا حقًّا بالطبع يستعمل الغربيون لفظة (صديق) بمعنى أكثر حرارة مما نستعمله نحن، ومعني وجودي هنا أنني حبيب (دونّا) الجديد هنا نأتي البعض الأسئلة التي دارت بذهنها: ماذا أصاب دونّا كي تحب شيئًا مريعًا مثلي؟.. هل جنت بهذه السرعة؟

كانت ترمقني من فوق لتحت وأنا أسمع هذه الأفكار تدوي في رأسها بالمعنى الحرفي للكلمة، حتى كدت أرجوها أن تخفض صوت أفكارها قليلًا فلا لزوم للصراخ.. يا آنستي صديقتك حرة فيمن تحب أو لا تحب.. وكل حبة فول لها كيال..

شعرت بالدوار للحظة واهتزت صورتها في عيني، ثم استجمعت وعيي وأخذت شهيقًا عميقًا...

قالت من بين شفتيها كأنها تبصق:

- «جوارا!»

تركتني ودخلت إلى ما أعتقد أنه غرفة النوم الخاصّة بدونّا وسمعت محاورة بالإسبانية بدأت بالعبارة التالية:

- «دونّا. كي آس استي أومبر إن ميا ابارتامنتو؟»

طبعًا يسهل معرفة معنى (أومبر) و(أبارتامنتو) و(ميا) فلديهم شبيه لهم في الإنجليزية، والنتيجة بعد ملء الثغرات هي: «من هذا الرجل الذي في شقتي؟» أو «ماذا يفعله هذا الرجل في شقتي؟» باقي المحادثة صعب.. تتكلمان بسرعة لكنّها مشادة بالطبع.. أسمع كثيرًا لفظة (إمبرا).. لابد أنّ هناك الكثير من: «بأي حق؟» و«أنا حرة فيمن أصطحبه..» «لا يا حبيبتي.. لا تنسى أنّ هذه ليست شقتك» ... ثم «من أين تأتين بهؤلاء المرعبين؟.. لقد انحدر ذوقك جدًّا...» و «هذا الحيوان لن يظل هنا»..

كنت أفكر بسرعة..

يجب أن تكون هذه الصور معي، لأنني أعتقد أن دونّا ستنكر أنها موجودة بعد هذا.. سوف أحتفظ بها وسوف أخبرها فيما بعد أني شعرت بإعجاب لدرجة أنني نسيتها في جيبي..

هكذا لم أتردد...

على خلفيّة المشاجرة الإسبانية التي تدور بصددي (جميل جدًّا أن تكون موضوع مشاجرة بين حسناوين اسبانيتين) مددت يدي في ألبوم الصور، وانتزعت الصور من أركانها.. كنا في الوقت الذي تحشر فيه الصور في الألبومات بين أركان ورق أربعة... هذا جعل الأمر سهلًا فعلًا..

دسست الصور في جيبي، ثم نهضت مسرعًا واتجهت إلى الباب..

أغلقته في هدوء حتى لا يدوي صوت لسان القفل. لو ظهرت دونّا وألحت عليّ كي أعود فسوف أفعل، لكني أملك من الوعي اللغوي والسمعي ما يسمح لي بأن أعرف أنني أهنت وأنني ضيف غير مرغوب فيه أبدًا..

هكذا أغلقت الباب ومشيت إلى المصعد...

يمكنني دائمًا أن أمشي الفندق.. فنحن في قلب المدينة بالضبط. لا أعرف أسعار سيارات الأجرة لكني لن أحتاج لها على كل حال.. ربع ساعة من المشي لا أكثر..

هبط المصعد فغادرته واتجهت إلى باب البناية، لألقى تلك المرأة الفضولية الشبيهة بالغراب ترمقني في شك.. شك لمدّة وأربع وعشرين ساعة سبعة أيام في الأسبوع؟.. هذه المرأة عبقرية فعلًا.. أحب هؤلاء المستمرين..

- «بونا سيرا..»

وخرجت إلى الشارع البارد المظلم نوعًا.. كان المطر قد بدأ يتساقط بخفة، لكن ليس إلى حد يضايقني في المشي..

مشيت وأنا أشعر بانتعاش غريب.. الجو البارد يساعدني على المشي مسافات طويلة دون أن يضيق صدري وتحتبس أنفاسي..

هنا سمعت من ينادي اسمي بلكنة أجنبيّة..

استدرت على الفور وقد أدركت أن (دونّا) لحقت بي بالطبع هي خفيفة يمكنها أن تسبقني لو أرادت..

- «رفعت.. ماذا حدث؟»

كانت قد بدلت ثيابها بالفعل، لكنّها في كلّ مرّة لا تبتعد عن الأبيض أبدًا.. لابد أنّ هناك من غازلها يومًا ووصفها بالملاك فكرهت أن تتخلى عن هذا..

قلت لها باسمًا:

- «ما حدث هو أنني بدأت أفهم الإسبانية على ما يبدو»

قالت في جديّة:

- «كف عن المزاح.. لم يحدث شيء على الإطلاق لكنك رحلت كطفل غاضب.. لا أدري لماذا تتعامل بهذه الطريقة..»

- «لو لم أتعامل بهذه الطريقة لكنت صنمًا أو غطاء بالوعة.. هذه أقل درجة تميز الكائن الحيّ.. قلت لك إنّه لا داعي للذهاب لشقتك..»

- «لكنك ستعود معي؟»

- «أفضل العودة للفندق.. لقد انتهت الأمسية..»

ظللنا صامتين نمشي عبر الطرقات التي بللها المطر فصارت زلقة نوعًا.. كشافات سيارات تلتمع من وقت لآخر، وهناك رجل في مكان ما يغني أغنية جميلة لا أفهم منها حرفًا..

بعد لحظات من الصمت قالت:

- «لماذا؟»

- «لماذا أي شيء؟»

- «لماذا أخذت تلك الصور؟»

نظرت لها في حيرة وحاولت أن أكذب لكنّها قالت لي على الفور:

- «لم تعد الألبوم لمكانه.. خرجت من الغرفة فوجدته فتحته وبحثت فيه بسرعة فوجدت الأماكن التي تم انتزاع صورها.. لا تقل إن غيرك فعل هذا لأنني كنت أقلب صفحاته عصر اليوم وكان كل شيء في مكانه»

بهذه السرعة؟.. وما أسرع ما تحول موقفي إلى لص، بعد ما كنت أنوي تحويله إلى مقترض..

مددت يدي في جيبي وأخرجت مجموعة الصور التي سرقتها منها، ودسستها في جيب معطفها الأبيض، فلم تعلق ولم تنظر لها بل ظلت تنظر في عيني.. قالت من جديد:

- «لماذا؟»

- «الفضول قتل القط.. كان هذا أقوى منى..»

ثم استدرت لها ونظرت في عينيها الحوراوين اللتين تغلب سوادهما على بياضهما وقررت أن آخذ دفة الأسئلة هذه المرّة.. لديها الكثير لتجيب عنه:

- «دونّا.. ما معنى هذه الصور؟.. لا أعرف أي شيء سوى أنك تعرفين الكثير جدًّا.. تعرفين أشياء لا تريدين التصريح بها..»

ثم تذكرت شيئًا فأضفت:

- «قلت إن بيتك الأصلي على ضفاف نهر مانزاناريس.. الآن فقط أتذكر أين سمعت هذا التعبير من قبل.. معنى هذا أن بيتك قريب جدًّا من (كوينتا دل سوردو).. منزل جويا الذي رسم فيه تلك الكوابيس!»

الجزء الثاني:

معرض الرعب

كان الكشاف يتحرك بين المشاهد المريعة...

وشعرت بقشعريرة..

أنا في معرض لم يره سوى قليلين.. معرض مخيف يضم الأسوأ من لوحات جويا.. الذي لم يجسر على عرضه على الناس....

كل اللوحات السوداء لم يكن مكتوبًا لها أن تعرض.. لكن هناك لوحات أكثر سوادًا من غيرها..

-1-

المطر ينهمر على قارعة الطريق، لكن داخل المقهى دافئ مريح فقط ينزلق الماء على الزجاج من الخارج فتتشوه الموجودات وتبدو قادمة من عالم الكوابيس كشافات السيارات من بعيد محاطة بهالة تعمي العيون مع صلبان عملاقة، لأن الماء يلعب مع الزجاج لعبة (مرشح الصليب) السينمائية الشهيرة..

(بلازا مايور).. في ساعة متأخرة من الليل لكنه ما زال مزدحمًا ورحبًا.. على الأرجح سوف ينتظر كل هؤلاء انتهاء الأمطار، فهي تضايقهم. ليسوا من عشاق المطر مثلي حيث يمكن أن أركض في الشارع فاتحًا فمي مخرجًا لساني لأتذوق الماء السماوي الطهور..

(دونّا) تمشط شعرها بالمشط الذهبي الصغير، ثم تمسك بمجموعة الصور وتقلبها..

قالت في شرود:

- «جويا.. قصة حب أضنتني كثيرًا وطويلًا لقد كرهته قدر ما أحببته لأنّه شغل حياتي جدًّا وسيطر على كل أفكاري. لوحاته لم تعد لوحات بل هي صور لأشخاص من معارفي.. أشخاص أكلمهم وأمزح معهم وأتشاجر كل يوم.. لهذا بحثت عنه كثيرًا... فتشت عن كل خط رسمه وعرفت قصة كل لوحة له»

ثم تأملت الصورة الأولى وقالت:

- «يجب أن تفهم قبل أن تتكلم.. لقد جمعت معلومات كثيرة وأجريت بحثًا مضنيًا..»

نظرت لها في شرود بدوري..

لماذا اخترتني أنا من دون الناس؟

هل كان لقاؤنا صدفة حقًّا؟.. يبدو لي أنني قطعة من لغز Puzzle كان مرسومًا لها أن تستقر بالضبط في الموضع الذي رسم لها..

هل أنت الكينونة؟.. وهل لو سألتك ستعترفين؟

✶ ✶ ✶

كانت الصورة الأولى بكاميرا بولارويد..

أنت تعرف صور البولارويد.. رديئة جدًّا وإضاءتها سيئة مع تشويه الموجودات لكنّها تؤدي الغرض. هناك حشد جالس حشد من النساء يبدو أنهن عجائز يجلسن في مكان مفتوح..

(هل هذا صوت رعد بالخارج؟)

يبدو أنهن جالسات في غابة أو واد ما..

الصورة الثانية والثالثة لبعض وجوههن.. إنهن عجوزات جدًّا من طراز (أنف كبيرة - دمامل) إياه الشكل الذي اصطلحوا على أنه شكل الساحرات أو القهرمانات.. حواجب كثة توشك على تغطية العينين.. عباءات سوداء.. يغنين شيئًا ما.. إحداهن تضحك كاشفة عن فم فيه سن واحدة..

الصورة الرابعة لشيءٍ مبهم.. كتلة من السواد...

الصورة الخامسة تريك شيئًا أعجب.. هناك ما يبدو كأنها امرأة..

لكنها تطير.. إنها تتخذ وضع القرفصاء ومستواها أعلى من الأرض.. لا تنظر للكاميرا وهناك دثار يخفي نصف وجهها..

الصورة التالية هي تنظر للكاميرا فعلًا لكنك ترى عينيها فقط..

(المطر يزداد كثافة ويضرب الزجاج)

الصورة السابعة تظهر شخصًا ضخمًا.. شخصًا ليست له ملامح آدمية.. لولا رداءة الإضاءة لقلت إنّه يبدو كالغيلان كما تتخيلها... المكان في هذه الصورة ومعظم الصور الأخرى يبدو كأنه من داخل كهف..

هذه هي الصور التي سرقتها.. لابد أنّ هناك صورة أخرى في الألبوم لكن الوقت لم يتسع لفحصها..

للمرة الأولى ألاحظ كتابة على ظهر الصور.. كتابة سريعة متعجلة بقلم جاف..

F-17-D

E-166-E

مع دوائر سريعة وأسهم..

قلت لها وأنا أتأمل الصور:

- «هذه صور تمثل ذات اللوحات السوداء لجويا.. نفس المواضيع تقريبًا..»

نظرت لي وجمعت الصور من جديد ودستها في جيبها ولم تقل شيئًا، فأضفت:

- «فقط هناك فارق واضح هذه ليست لقطات فوتوغرافية للصور.. هذه لقطات للواقع!»

هزت رأسها من جديد وأمسكت بقدح القهوة بيديها معًا ونظرت لي بعينيها اللتين لا يظهر فيهما بياض تقريبًا...

(لابد أنه الرعد فعلًا)

كانت تنتظر استنتاجاتي المتوالية الموفقة غالبًا.. فأضفت:

- «رأيت صورًا كهذه من قبل.. هناك فرقة تمثيلية أعادت بالضبط تمثيل لوحات سلفادور دالي عندما التقط أحد المصورين هذه المشاهد بدا كأنه قام بتصوير لوحات دالي ذاتها، لكن بالطبع يمكن معرفة الحقيقة من الظلال والتجسيم الواضح في الصور.. قد يكون هذا هو الحل هنا..»

لم تعلق فأضفت:

- «لكن.. ثمّة شيء ما في هذه الصور لا يوحي بأنه تمثيل.. ثمّة شيء حقيقي أكثر من اللازم.. هل تعرفين (لافكرافت Lovecraft)؟»

ضاقت عيناها بمعنى أنها لا تعرفه.. صعب أن يعرف لافكرافت من ليس أمريكيًّا أو بريطانيًّا أو من قرائي.. فقلت:

- «كاتب رعب أمريكي شهير هو.. له قصة اسمها (موديل باكمان).. تحكي عن فنان شهير اعتاد أن يرسم مشاهد رعب كابوسية، ثم أدرك بطل القصة أن الرجل لم يكن يرسم من خياله.. كان يرسم موديلات حقيقيّة!»

ثم شعرت برجفة تسري في عروقي وأنا أضيف:

- «ما تقوله هذه الصور ببساطة هو إن (جويا) لم يرسم اللوحات السوداء من خياله.. لقد رأى فعلًا هذه الأشياء التي رسمها!!.

هنا أضاء البرق الشارع بضوئه الكهربي المخيف...

-2-

لابد أنّ هذه الأحداث وقعت في ذات الليلة، عندما كنت في شقّة دونّا أتأمل الصور..

هذه أشياء تعرفها فيما بعد وتحاول أن تجمع أجزاء الصورة..

لابد أنه جلس في تلك الكافتيريا القريبة من الشانزليزيه ينتظر طويلًا. لابد أنه دخن عدة لفافات من السجائر الجولواز قوية الرائحة.. لابد أنه فتح حقيبته الساسمونايت وراح يراجع أوراقه..

كان له ذلك الوجه الذي اصطلح على أنه غير مريح. لا يوحي بالثقة بالتأكيد..

إنّه أصلع لكن شعره المتبقي طويل جدًّا يتدلى على كتفيه على طريقة شكسبير.. وله عوينات رقيقة بلا إطار زجاجي. حول عنقه منديل مزركش... شعره أبيض تمامًا برغم أن ملامحه تنم على أن سنه لا تتجاوز الخمسين، وهذا يدعم نظريتي القديمة: الرجال الذين يبيض شعرهم بسبب الوراثة لا الشيخوخة سمجون ولا يوحون بالثقة..

باختصار كل شيء يمت له يبدو متعلقًا بعالم الفنون بشكل ما.. اسمه (ميشيل لاترين) كما خمنتم بالضبط هو ناقد فني وخبير لوحات..

بعد دقيقة انفتح باب الكافتيريا ودخل (سيمون)..

سيمون) ضخم الجثة أقرب إلى الموظفين في إدارة حكومية ما، وككل الفرنسيين له هاتان العينان الصغيرتان المتقاربتان الغبيتان.. عينان يصعب أن تصدق أنه يرى بهما..

اتجه ليجلس أمامه.. جاءت الساقية الحسناء فطلب قهوة..

لابد إنّه جفف قطرات المطر على جبينه... ونظر لميشيل متسائلًا..

لابد أن ميشيل قال وهو يعبث في أوراقه:

- «لا يبدو استقبالك حارًا.. لا تنس أننا لم نلتق منذ عامين منذ موضوع لوحة فريدا كاهلو..»

قال (سيمون) وهو ينظر حوله:

- «أنا لا أتقاضى أجرى لأكون ودودًا لطيفًا.. والآن أرني ما عندك..»

نظر ميشيل حوله وتساءل:

- «هنا؟؟»

- «لا مشكلة.. أنت ستريني أوراقًا أو صورًا.. ليس المكان مزدحمًا ولا توجد كاميرات، ولن تخرج مومياء فرعونية من حقيبتك.. لو أردت رأيي لقلت إن هذا أكثر الأماكن أمنًا في باريس كلها..»

أشعل (ميشيل) لفافة أخرى وقال:

- «ليكن.. أنت تعرف هذه الصور؟»

ومد يده بمظروف به صور فوتوغرافية..

فتح (سيمون) المظروف وراح يتأمل الصور.. صورة تلو أخرى. ومع كل صورة يتجعد جبينه أكثر.. فأكثر.. حتى لما بلغ آخر صورة لم يعد هذا جبينه بل أوكورديون عتيق..

- «ما هذا؟»

قال ميشيل:

- «كما ترى.. أنت تعرف أسلوب الرسم هذا..»

- «لا أظن..»

في شيء من السخرية قال ميشيل:

- «هلمّ. أعرف أنك لست مجرد بلطجي يضرب الناس.. إن عندك ثقافة فنية لا شك فيها.. على الأقل بحكم المهنة..»

قال (سيمون) وهو يأخذ لفافة تبغ لا شعوريًا من علبة (ميشيل):

- «هل معك نار؟.... أ.. ربما لو فكرنا مليًّا لقلنا إنّه أسلوب أسباني..»

- «بل هو أسباني فعلًا.. والأهم أنه أسلوب جويا!»

قالها وهو يشعل له لفافة التبغ بقداحته، ثم ركله ركلة خفيفة بطرف حذائه كي يصمت لأن الساقية أحضرت القهوة...

لابد أنه لما انصرفت نفث (سيمون) سحابة دخان كثيفة وقال:

- «عم تتحدّث؟.. أنا أعرف كل لوحات جويا.. هذه لا تمت لها بصلة.. دعك من أنها لوحات مخيفة فعلًا.. لو كانت تخص جويا لكانت تنتمي للوحات السوداء، وأنت تعرف أن اللوحات السوداء 14 لوحة فقط كلها في متحف برادو..»

ضحك (ميشيل) فصار شكله أكثر سماجة، وقال:

- «آها.. هكذا ترى أنك ما زلت تملك الخلفيّة الفنية أمّا أنا فخبير فني وأعرف ما أتكلم عنه وقد فحصت هذه الصور مرارًا وتحت المجهر، وأؤكد لك أنها لوحات جويا فعلًا..»

لابد أن سيمون قال وهو يرشف القهوة:

- «لحظة.. السؤال المهم هنا: من أين حصلت على هذه الصور؟»

- «إن لي عملائي في كل مكان. هذه الصور وجدها أحد رجالي في إسبانيا.. اشتراها من فلاح وجدها..»..

- «إذن من المستحيل أن نعرف من التقط هذه الصور؟»

- «هذا جزء مهم من خيط البحث.. نبحث عمن التقط الصور وهذا يقودنا إلى من وجدها وكيف.. هناك احتمالان...»

قال سيمون:

- «الاحتمال الأول هو أنّ هذه لوحات أصلية كانت مخفية وظهرت.. لوحات رسمها جويا وتساوي الملايين..»

أكمل ميشيل الاحتمال الثاني:

- «الاحتمال الثاني أنّ هناك فنانًا معاصرًا يجيد تقليد جويا بالضبط.. وهذا الرجل كنز في حد ذاته لأنّه من نبحث عنه.. المزورون سلعة نادرة نقدرها جيدًا..»

لابد أن سيمون بدأ يتحمس ومد يده ليأخذ لفافة تبغ أخرى، لكن يد ميشيل قبضت على معصمه:

- «لا.. لا أنوي شراء علبة جديدة اليوم.. تماسك قليلًا..»

ثم بدأ يضع الخطط:

- «سوف تمولون رحلتي وإقامتي في إسبانيا بحثًا عن طرف الخيط.. يجب أن أعرف من التقط هذه الصور ومن أين جاء باللوحات.. يجب أن أراها وألمسها، فإن كانت بفرشاة جويا فقد وجدنا منجمًا من الذهب.. طبعًا لن يبيعها أحد، لذا سأطلب فريقًا منكم يأتي كي (يقنع) مالك اللوحات ببيعها وتتم عملية تهريبها من البلاد.. أنا أعرف أنكم خبراء في الإقناع وقد رأيت أساليبكم مع لوحات رمبرانت إياها.. أمّا إن كانت اللوحات بريشة من يرسم مثل جويا بالضبط فلسوف يسهل عليّ بالمال أن أضم هذا الفنان لنا..»

لابد أنه أغلق حقيبته ونهض وتناول معطفه من على المشجب:

- «أنتظر منك مكالمة خلال يومين تخبرني إن كنتم مهتمين..»

- «وإن لم نكن؟»

- «نحن في باريس يا صاحبي.. باريس تعجّ بالمهتمين... يمكن أن أجد ممولًا تحت أي حجر أرفعه.. لكني فعلًا أحب العمل معكم..»

-3-

والآن يا رفعت أنت لي..

يمكنك أن تعتقد العكس أو تحسب أن إرادتك حرة..

أمس راقبت ذبابة سقطت في خيوط عنكبوت.. كانت في البداية تتصرف بخيلاء وثقة. كانت تعتقد أنها حرة، وأن بوسعها التملص بشيء من الجهد الصادق..

ذبابة قوية مثلها لن تعوقها خيوط من حرير لا يمكن كتابة سمكها على الورق..

لكنها بدأت تقلق.. بدأت تتوتر عندما عرفت أن كل حركة جديدة تقيدها أكثر..

لابد أن ربع ساعة قد مر وهي تزداد تورطًا، وفي النهاية عرفت أن عليها أن تصاب بالذعر..

بدأت ترفرف بجناحيها بقوّة وتطن بصوت مسموع وعال، حاسبة أنّ هذه الهستيريا سوف تحقق ما عجزت عنه..

لا جدوى..

لا جدوى..

لكن كان لطنينها نتيجة واحدة أكيدة، هي أن الذبذبات وصلت إلى العنكبوت.. لقد جاء من مكان ما، ووقف على طرف النسيج يختبره بقدم.. تأكد من أنّه متين، ثم اتجه نحو الذبابة.. كأنه كابوس يمشي على ثمان أقدام.. لهذا يُصاب الناس بالأراكنوفوبيا.. هذا المخلوق جدير بأن يستأثر لنفسه بنوع كامل من الفوبيا..

بحركات رشيقة مدروسة راح يدور حولها ليحكم الكفن الحريري. دورة. دورتان.. ثلاث دورات..

الخيط يخرج ويلتف أكثر والذبابة لم تعد مرئية تقريبًا... وفي النهاية دنا منها ليحقنها بالسم وسرعان ما همدت وبدأت عملية الامتصاص.

غدًا تهب الريح وتهدم جزءًا من النسيج.. لو فتحت هذا الكفن لوجدت هيكل ذبابة بعد ما امتص منها عصارة الحياة.. هيكلًا يتهشم لو نفخت فيه..

الذبابة المغرورة التي حسبت أنها تملك إرادتها..

لكن الغرور كان مفيدًا للعنكبوت.. لابد أن تجن الذبابة وتحسب نفسها حرة..

أنت لي يا رفعت..

لم تعد قادرًا على الفرار أو التملص وكل يوم يغرسك أكثر في هذا المستنقع.. وأنت مغرور.. هذا يفيدني بلا شك..

لكنك لست أحمق. سوف تنتبه يومًا أسرع من الذبابة وتحاول أن تفر بهستيريا..

لكني سأكون هناك عند أطراف النسيج أتأكد من أنّه سليم ثم أزحف نحوك.. سأحقن قلبك العجوز بالسم..

أعرف أنك لست وحيدًا..

هناك ملاك حارس يراقبك.. أنا لا أعرف من هو ولا كيف يبدو لكنه موجود.. شعرت به كما أشعر بأشياء كثيرة أخرى..

لكنه لن يتمكّن من نجدتك..

أنت لي يا رفعت..

سوف أذيب بإنزيماتي كل عصارة حيوية وكل نسيج في جسدك.. كل خبرة.. كل ذكرى.. كل هذا سيتحول إلى سائل رائق صاف، أمتصه أنا في النهاية..

لن يبقى منك سوى قشرة مخيفة في كفن من حرير..

فقط عليك أن تستمر معي.. أن تطيعني.. أن تهتم بما أهتم به..

سوف تأتى اللحظة يا رفعت..

أعترف أنك مسل وأنك على قدر من الذكاء والعلم، لكن هذا يجعلني أكثر حماسة في مهاجمتك.. إن ما تملكه من مزايا سيكون لي في النهاية..

أنت لي يا رفعت..

فلا تقاوم كثيرًا.. كلما قاومت أصدرت صوت طنين يجعلني أتوجه لك.. أعرف مكانك..

أنت لي يا رفعت..

يا لك من مسكين...

-4-

كان السؤال المنطقي الذي وجهته لدونّا هو:

- «من التقط هذه الصور الغريبة؟»

ظلت صامتة مترددة.. كأنها تفتش عن كذبة مناسبة.. أخرجت المشط الذهبي الصغير ومشطت شعرها في عصبية فقلت لها على الفور:

- «لا داعي للكذب.. أنت أو صديقتك التقطتها.. الكاميرا البولارويد كانت هناك في شقتك..»

قالت في خبث:

- «ليست الكاميرا الوحيدة في إسبانيا على كل حال..»

- «لكنك دونّا الوحيدة في إسبانيا.. واهتماماتك تشي بك..»

ابتلعت ريقها وأعادت المشط لحقيبتها وقالت:

- «لنقل إنني أعرف أشياء.. مثلًا هناك لوحات سوداء لجويا لم يرها أحد من قبل..»

- «وأين هي؟»

- «مخبأة بعناية، لكني أعرف مكانها.. وقد التقطت لها بعض الصور..»

- «وأين الصور؟»

- «سُرقت مني.. لا أعرف كيف ولا متى.. كنت في المتحف ونسيت حقيبتي بعض الوقت.. لما عدت وجدتها مفتوحة ولم يسرق منها شيء.. لكن الصور اختفت. أعتقد أنّ هناك من يعلم أنني أعلم..»

- «طبعًا تتهمين مانويل أو إيزابيلا بأن أحدهما تكلّم أكثر من اللازم..»

- «ربما... لكن ليس لديَّ ما يكفي لتوجيه اتهام..»

✶ ✶ ✶

سوف تأتى اللحظة يا رفعت..

أعترف أنك مسل وأنك على قدر من الذكاء والعلم، لكن هذا يجعلني أكثر حماسة في مهاجمتك.. إن ما تملكه من مزايا سيكون لي في النهاية..

أنت لي يا رفعت..

✶ ✶ ✶

رحت أفكر بعض الوقت ثم سألتها:

- «هل يمكن القول إن هناك بقايا من منزل جويا المسمى (كوينتا دل سوردو)؟.. هل هناك أطلال؟»

- «ليس بالضبط.. لا يمكن أن أشرح من دون أن أكشف كل أوراقي..»

ثم أخرجت المشط وأعادت تصفيف شعرها كعادتها كلما توترت، وقالت:

- «(رفعت)... لا أريد أن أفقد صداقتك لكني كذلك لا أريد أن أكشف عما لا أريد كشفه.. أتمنى أن تعود عقارب الساعة بضع دقائق قبل أن تجد هذا الألبوم اللعين..»

هذا غريب ويريحني كثيرًا..

هي لا تريد توريطي في القصة بأي شكل، ولا تريد أن أعرف شيئًا.. إما أنّ هذه مناورة بارعة وإما أنها صادقة، وبالتالي لا علاقة لها بموضوع (الكينونة) الذي جاء بي إلى هنا..

قلت باسمًا:

- «ومن قال إنني مهتم على الإطلاق؟.. لتكن اللوحات السوداء أربع عشرة أو ألفًا.. ليكن وراءها سر غامض أو هي مجردة من الألغاز كعلبة صلصة.. لا يعنيني الأمر.. صدقيني..»

أعادت المشط لحقيبتها وابتسمت بدورها..

كانت الأمطار قد توقفت بالخارج لكن الظلام كان دامسًا.. كعادة الدول المتقدمة تسرب المطر إلى مكان ما فلم تعد هناك سوى طرقات زلقة لامعة تفوح منها رائحة البلل. قالت لي في شيء من الحرج:

- «يبدو أن أحدنا سيوصل الآخر.. هذه المرّة أنت ستوصلني لداري لأنني لا أحب أن أعود وحدي في وقت كهذا..»

كان عليّ أن أفعل ذلك، برغم أنني ما زلت أضل طريقي في هذه المدينة.. سوف أحاول التذكر والسؤال، لو وجدت شخصًا يمكن أن أسأله..

✶ ✶ ✶

كان يمكن أن يمضي كل شيء بسلاسة، لولا ما حدث بعد ذلك..

اتصلت بي قرب المساء بعد يومين، وقالت إنها تنتظرني أمام الفندق.. أنت تعرف أن الفندق يقع بالضبط أمام متحف (برادو)، أي أنها متواجدة هناك معظم اليوم..

ارتديت ثيابي بسرعة، ووضعت سترة على كتفي ثم استقالت المصعد إلى اللوبي.

خرجت من الفندق وكان الجو باردًا بتلك الطريقة المنعشة التي أحبها. هناك رأيتها واقفة لابسة معطفًا أبيض آخر كالعادة مع حذاء ذي رقبة بنفس اللون، ولكنّها لم تكن وحدها.. كانت منحنية على نافذة سيارة سوداء من طراز (سيات كوردوبا) تكلّم السائق..

ماذا حدث؟.. إنها تتكلم بحماسة وعصبية.. بل هي مشادة بالفعل.. هي تتشاجر مع شخص داخل السيارة..

منحنية تتكلم.. أدنو أكثر من السيارة وأقف على بعد أقدام لا أعرف إن كنت أتدخل أم لا.. قد يكون أمرًا شخصيًا.. قد يكون مانويل يحاول استعادتها.. لا أدري..

كنت قريبًا جدًّا لكني أقف خلف مجال رؤية الجميع.. رأيت أن الرجل الذي يكلمها أصلع الرأس ويطيل ما بقي من شعره الأشيب تمامًا - على الكتفين، ويضع نظارة سوداء...

(دونّا) تعترض.. (دونّا) ترفض..

فجأة انفتح باب السيارة الخلفي، ومنه برزت ذراع مشعرة غليظة.. ككلابات الكابوريا أطبقت اليد على معصمها الرقيق، وفطنت إلى أنه يجرها داخل السيارة.. هذه عملية خطف تتم أمامي!

نظرت حولي فلم أر أحدًا قربنا في الميدان اللعين الذي هو في كل الأوقات أكثر مناطق مدريد ازدحامًا.. هذه هي القاعدة.. ازدحام الشوارع يتناسب عكسيًا مع حاجتك للناس.. فجأة مات الجميع.. ومن هم موجودون بعيدون جدًّا..

كان تصرفي أسرع من تفكيري. إذ سرعان ما أخرجت القداحة من جيبي وبلمسة واحدة زدت تدفق الغاز منها.. لما صار اللهب عاليًا جئت من الخلف، وهرعت أضع الشعلة تحت الساعد المشعر.. لابد أن الألم كان مريعًا لأنّه أطلق صرخة كرجل يذبح.. ثم انسحب الذراع إلى الداخل فجررت الفتاة من يدها مبتعدين...

بسرعة كنا نعود إلى الفندق بينما عوى محرك السيارة، وهي تنطلق من حالة التوقف إلى السرعة الرابعة فجأة.. وسرعان ما توارت في نهاية الشارع...

في لوبي الفندق كان بعض الموظفين مندهشًا من هذه الضوضاء. وقد راحوا يتبادلون النظرات وبعضهم وقف معنا في فضول.. الآن لا نريد زحامًا لهذا جاء الزحام...

قلت لها لاهثًا:

- «لم التقط رقم السيارة لكنّها (سيات كوردوبا) سوداء.. سوف أبلغ الشرطة أو ليتك تفعلين هذا لتريحيني من البحث عمن يتكلم الإنجليزية..»

من الغريب أنها لم تبد مذعورة لهذا الحد.. كانت أكثر ثباتًا مني، وقالت في هدوء:

- «لا تفعل.. هذه مشكلتي وسوف أسويها..»

صحت في عصبية:

- «من هؤلاء؟.. كنت تتكلمين معهم في محادثة طويلة..»

- «لا عليك.. شكرًا لتدخلك لكن ثق أن شيئًا لم يكن ليحدث..»

- «ما رأيته هو عملية خطف.. هل هذا غير مرعب بقدر كاف؟»

أخرجت مشطها الذهبي الصغير لتمشط خصلات شعرها المتناثرة، ثم قالت:

- «قلت لك ألا تقلق.. هل رأيته؟»

- «من كنت تكلمينه كان أصلع أشيب يتدلى شعره على كتفيه.. يبدو كزعماء العصابات.. ليس بأفضل رجل أمنحه ثقتي..»

نظرت في عيني وقالت:

- «لنتفق على شيء... هذا الرجل شرير ولسوف يحاول الاتصال بك.. يجب أن تتجنبه كأنه الشيطان..»

-5-

قالت لي (دونّا) وهي ترشف شيئًا باردًا في كأس..

- «أنت تفهم أنني أعرف مكان اللوحات السوداء التي رسمها جويا ولا يعرفها العالم.. هناك من يعرف أنني أعرف، ولهذا أتعرّض لخطر مزمن... ليست هذه أول مرة ولن تكون الأخيرة..»

- «تقصدين أنهم يريدون شراء ما تعرفين؟»

- «بعضهم.. وبعضهم يريد الحصول على المعلومات دون شراء..»

- «أي أنّ هذا الرجل يعمل مع تجار لوحات أو مهربين أو شيء من هذا القبيل..»

- «هو كذلك.. أنت تفهم السيناريو الذي رأيته.. كانت محاولة إقناع تجاوزت الحدود..»

- «لو نجحت لكانوا الآن يغرسون عصي البامبو تحت أظفارك أو يكتبون اسم (جويا) بالسكين الساخنة على ظهرك..»

ضحكت كثيرًا فاشتبكت أهدابها السوداء حولي، وقالت:

- «أنت ترى الكثير من الأفلام.. ليس الأمر بهذه الخطورة.. مافيا اللوحات شيء والجثث الغارقة في الدم شيء آخر.. من النادر أن يبلغ عملهم هذا العنف، وهم لا يحبون الدماء لأنها تفسد عملهم وتجذب الشرطة.. هذا عمل فنانين يا عزيزي، والفنانون يكرهون الدماء...»

- «كل الناس قد تتحول إلى وحوش إذا تعلق الأمر بالملايين... هذا ما تعلمته من الحياة..»

ساد الصمت ثم قالت لي:

- «أنا بحاجة للعودة إلى مسقط رأسي للاطمئنان على بعض الأمور.. سوف أتركك هنا وحدك.. كما قلت لك سوف يحاول هذا الرجل الاتصال بك... إنهم رأوك وعلى الأرجح يعرفون أنك تعرفني.. على الأرجح يعرفون مكانك كذلك.. عندما أرحل لن يجدوا سواك.. وسوف يظهر هذا الرجل ذو اللهجة الفرنسية.. يجب أن تراوغه أو تفر منه..»

ابتلعت ريقي بصوت مسموع..

ما دخلي أنا بهذه اللعبة؟.. ولماذا يجب أن أواجه هؤلاء القوم؟

مدت سبابتها لتلمس أرنبة أنفي مداعبة وقالت:

- «توتر.. توتر.. أنت صديقي أليس كذلك؟...»

- «بلى..»

- «إذن أنت مدين لي بمجاملة بسيطة.. لا أريد شيئًا آخر سوى هذا.. تملص منهم..»

✶ ✶ ✶

موعد رحيلها كان الثامنة مساء..

وبرغم أننا لا نمضي ما أكثر من خمس ساعات يوميًا أو أقل، فإنني شعرت بأنني صرت وحيدًا في إسبانيا كلها.. إن موعد انتهاء إجازتي قريب على كل حال، لكني آمل أن تعود (دونّا) قبل أن أرحل.. تعود قبل أن أرحل، وفي الوقت ذاته أرجع لمصر قبل أن يظهر هواة اللوحات المتحمسون هؤلاء..

قضيت اليوم كله في زيارة معالم مدريد وصممت ألا أرجع لغرفتي بالفندق قبل منتصف الليل.. سوف يقلل هذا من فرصة مقابلة هؤلاء..

عند منتصف الليل فتحت باب غرفتي، ودخلت.. أضأت النور الكهربي.. ومنذ اللحظة الأولى عرفت أنّ هناك من تسلل للغرفة.. الرائحة وتلك الهالة الذاتية التي تشع من الناس..

إما أنهم جاءوا منذ ساعة مبكرة أو هم فكروا في الشيء ذاته مثلي.. كنت أختار أسوأ المواعيد طرًا لأذهب للمصرف متوقعًا أن الناس كلها في عملها.. هنا أجد أن كل الناس فكروا في الشيء ذاته..

- «تعال يا دكتور..»

بالإنجليزية ذات المذاق الفرنسي الواضح..

كان ذلك الرجل الذي رأيته في السيارة يجلس على أحد مقاعد الأنتريه الصغير، وقد وضع ساقًا على ساق، بينما كان رجل ضخم نوعًا غليظ الملامح يقف جوار باب الحمام.. لم يكونا مسلحين، بل بدا الأمر كأنهما صديقان قديمان لي...

تراجعت خطوة نحو الباب، فقال لي الرجل الأول:

- «لا أنصحك بالرحيل.. إن ما سأقوله لن يستغرق وقتًا وهو ذو طابع ودي..»

وأشار لي كي أجلس.. لم أجد ما أفعله سوى أن جلست متوترًا على حافة الفراش..

أخرج الرجل علبة سجائر (جولواز) وأشعل لفافة قوية الرائحة وقال:

- «معذرة.. لم أستطع أن أدخن قبل هذا من أجل الرائحة أنت تفهمني طبعًا.. أنا (ميشيل لاترين) خبير لوحات.. فرنسي طبعًا كما لابد أنك لاحظت.. سؤالي هو: أين الآنسة الحسناء التي كنت ترافقها والتي تسببت في سوء التفاهم البسيط مع صديقي؟»

نظرت إلى صديقه فوجدت أنه يتحسس معصمه وقد بدت عليه علامات الألم... آه.. هذا هو الأخ الثور محدود الذكاء الذي يحمل ثأرًا.. نمط معروف جدًّا عنده كل الأسباب كي يحطم رأسي، وسوف ينعم بهذا لولا أن صديقه يكبح جماحه مؤقتًا..

- «السؤال الثاني هو: ما الذي تعرفه عن لوحات معينة؟»

تصاعد الدخان قويًا يملأ هواء الغرفة..

قلت وأنا جالس متظاهرًا بالثقة:

- «لا أعرف.. قالت إنها ذاهبة للريف لبضعة أيام لا أعرف كذلك عن أية لوحات تتحدّث؟»

- «لقد راقبناها جيدًا ونحن نعرف يقينًا أنها معك معظم اليوم.. بالأحرى لا تقابل أحدًا آخر في الوقت الحالي.. هذا يجعلك مرشحًا بقوّة لتعرف..»

قلت في برود:

- «لكني لا أعرف.. أرجو أن تكون قد تلقّيت إجابتك وترحل...»

وتوقعت أن تنفجر البراكين وتأهبت لأن أصرخ مستغيثًا..

لكنه نهض بلا كلمة أخرى، ومعه تأهب للرحيل الرجل الذي احترق ساعده.. واتجها للباب.. توقعت أن تكون هذه حيلة صبيانية أخيرة كما يحدث في السينما، كأن يستدير لي فجأة ويضع مدية تحت حنجرتي ليبدو مرعبًا.. لكنه كان أعقل من هذا..

فقط وقف في فرجة الباب المفتوح ونظر لي بعينيه الضيقتين الكريهتين من وراء زجاج عويناته، وأخرج قطعة ورق من جيبة وسجل عليها رقمًا ما:

- «هذا هو رقمي في مدريد لو أردت أن تغير رأيك.. صدقني أنت لا تدرك ما تتعامل معه.. أنت تتصرف ببراءة تامة، لكنني أنصحك أن تزيح أية أسرار عن كاهلك وتعود لوطنك فورًا.. هذا هو الضمان الوحيد لسلامتك..»..

-6-

عبر سماعة الهاتف جاء صوتها:

- «أنا في مشكلة حقيقيّة.. أنا بحاجة لك..»

كنت في غرفتي أتربع على الفراش، وقد فتحت الشرفة لأطرد رائحة الدخان الكريهة لابد أنهم يصنعون سجائر الجولواز هذه من الجوارب القديمة العطنة. كل هذا وأنا مدخن فبم يشعر الذين لا يدخنون عندما يشمونها؟

قلت لدونّا بصوت هادئ:

- «لقد تلقّيت الزيارة التي تنبأت بها..»

- «لا تقل تفاصيل.. لا تقل تفاصيل.. لا أضمن ألا يكونوا قد دسوا جهاز تنصت في غرفتك.. أنا بحاجة لك»

شعرت برهبة.. كادت القصة تنتهي لكنّها الآن تحاول إقحامي فيها بقوّة. ولو رفضت فلن أستطيع النظر في المرآة باقي حياتي. قلت لها:

- «ماذا تريدين؟»

- «لا تفاصيل.. لكن أريدك معي.. هنا..»

- «في ذلك البيـ...»

عادت تقاطعني بحزم:

- «قلت لك لا تشرح شيئًا.. المسافة أقل من ساعة خارج مدريد.. أرسلت لك سيارة سوف تكون عندك خلال ساعة من الآن.. فضية اللون.. السائق اسمه (بدرو)... انتظره خارج الفندق بعد ساعة لو كنت موافقًا..»

وقبل أن أجد فرصة للتعليق وضعت السماعة...

جلست في الظلام أفكر في هذا الذي يحدث. الساعة الثانية بعد منتصف الليل وهأنذا أجد نفسي مطالبًا بمغامرة لا يعلم إلا الله ما هي. دعك من أني لا أعرف كم من الوقت تستغرق، وهل أحتاج إلى ثياب أم لا..

لحظة من فضلك...

«ارفض زيارتها في دارها الثانية... فأنت لن تعود..»

«الأشقياء ليسوا كاذبين دائمًا.. قد يقولون الصدق أحيانًا..»

من قال هذا؟.. هذه تحذيرات الكينونة.. كالعادة تحذيرات غامضة جدًّا، لكنك في لحظة بعينها تفهم المقصود منها لو كان المقصود بـ (هي) دونّا فإن عليّ ألا ألبي دعوتها هذه.. فأنا لن أعود. ومن الممكن كذلك أن يكون هذا الوغد صادق.. لقد قال «صدقني أنت لا تدرك ما تتعامل معه..»

فهل كان يتكلم عن خطورة عصابته...

أم كان يتكلم عن (دونّا)؟؟؟؟

حيرة عارمة فعلًا، والأدهى أن عليّ أن أتخذ قراري خلال ساعة.. لا بل خمس وأربعين دقيقة لأن الوقت يمضي بسرعة.. هذا غير عادل.. أهم قرارات في حياتك تتخذها وأنت صغير السن غير مؤهل لاتخاذها (دراسة - زواج) أو تتخذها دون أن تعطي الوقت الكافي..

لا أعرف كيف ولا متى أخذت بعض الثياب فحشرتها في حقيبة صغيرة تحمل على الكتف.. وحشرت معها فرشاة أسنان وجوربين ومشطًا..

وسرعان ما كنت أقف خارج الفندق في الظلام أنتظر.. على الأرجح رآني الجميع الآن وآمل أن تكون قد استعدت لهذا..

✶ ✶ ✶

جاءت السيارة في الوقت المحدد..

من النافذة برز رأس ذلك الشاب الوسيم طويل الشعر كالفتيات، وسألني بالإنجليزية:

- «أنت د. رفعت طبعًا.. أنا بدرو..»

فتحت الباب الخلفي وركبت وقلبي يرتجف، عندها انطلق في الظلام بالسيارة بسرعة جهنمية، حتى تذكرت على الفور موثق العقود (هاركر) وهو يرتطم بجدران العربة بينما تندفع في رحلتها المجنونة نحو قلعة الكونت دراكيولا في الجبال..

فجأة دخلت السيارة شارعًا جانبيًا ودارت حول نفسها.. ثم أطفأ السائق الكشافات وراح ينتظر في الظلام بعض الوقت. فهمت أنه يريد التأكد من أننا غير ملاحقين بعد انتظار طال خرج من مكمنه وعاد من نفس الطريق.. كان يتجه للخروج من مدريد...

كابوسية جدًّا تلك الرحلة التي قطعتها السيارة بسرعة جنونية في طرقات مظلمة...

أنظر للخارج فأرى حزام النجوم والظلام الدامس.. هل تصرفت بحماقة؟.. الفتى لا يتكلم على الإطلاق.. ليس ثرثارًا..

أعتقد أننا نتّجه نحو الشمال...

أخيرًا أرى ذلك الصف من البيوت الريفية في الظلام كأنها عمالقة نائمة.. هذا النهر الذي أراه بوضوح الآن.. لا أحتاج الخارطة كي أعرف أنه مانزاناريس.. هناك سلسلة جبال تجثم في الأفق ولا أعرف ما هي تعرف تأثير الجبال في الظلام والقشعريرة التي تثيرها في نفسك.. لو جاء الفجر بألوانه الأكثر مهابة لتوقف قلبي ذعرًا..

تتوقف السيارة أمام بيت من هذه البيوت الريفية الأنيقة وأرى دونّا تقف هناك وقد لفت كتفيها بشال اتقاء البرد فبدت اسبانية جدًّا جدًّا..

(دونّا) تدنو..

(دونّا) تبتسم في الظلام..

(دونّا) تكلّم السائق..

- «جراسياس بدرو..»

شاكرة قالتها للسائق الذي لم يرد كالعادة. بمجرد أن نزلت أنا من السيارة كانت قد اختفت بسائقها.. بالفعل يتصرّف كأنه يمثل دور سائق دراكيولا.. لو عوت الذئاب وقالت دونّا لي: «أطفال الليل.. ما أعذب موسيقاها!»، لما شعرت بدهشة..

ما أن رحل السائق حتى نظرت لي وضحكت:

- «مرحبًا بك في (مانزاناريس إل ريال).. لقد رسم جويا هذه المنطقة مئات المرّات.. إن نهر مانزاناريس صغير ولا أهميّة له جغرافيًا، لكنه مهم جدًّا في تاريخ اسبانيا.. ومهم جدًّا لدى المور.. هل تعرف أن (المور) - أجدادي - أحفاد المسلمين هم من بنوا مدريد؟.... كانت مجرد قلعة في القرن التاسع..»

ثم تنحت عن الباب وقالت:

- «لكن لا وقت لهذا الدرس التاريخي الآن.. تعال..»

(دونّا) تقف وتراقب ملامح وجهي..

(دونّا) عطرة الرائحة..

من الغريب أن البيت من الداخل كان يحمل نفس معالم شقتها في مدريد.. نفس التصميم وكل شيء مما جعلني أعرف مصدر ما رأيته هناك.. لم يكن هذا ذوق إيزابيلا لأن (دونّا) كانت هي

الشخصية الأقوى..

- «هل أنت جائع؟»

ومدت يدها تبحث عن المشط الصغير وبدأت تمشط شعرها الأسود، ثم ألقت بالشال جانبًا فرأيت أنها تلبس قميصًا أبيض مزركشًا بالدانتيل، وتنورة طويلة سوداء... من جديد بدت لي إسبانية جدًّا حتى توقعت أن تعزف فرقة من الغجر على الجيتار، وتنتفض هي بتلك الحركات العصبية المميزة لراقصات الفلامنك.

قلت لها إنني غير جائع. لقد أمضيت اليوم أدور على المطاعم والمقاهي حتى لا يقبض عليّ هذا الفرنسي..

لم تلح وجلست على مقعد وثير وقالت:

- «أنا في مأزق.. لهذا طلبتك.. أعرف يقينًا أن أحدًا لم يتبعك إلى هنا، لأنني أعرف (بدرو).. ما سوف تراه صباح الغد سوف يبقى سرًا بيننا..»

الكينونة.. هل أنت الكينونة؟.. مستحيل.. لقد صار أمرك مريبًا جدًّا بحيث لا يمكن أن تكوني هي.. عندما أقرأ قصة بوليسية وأجد رجلًا مفلسًا شرسًا يملك مسدسًا وسكينًا ملوثة بالدماء وبصماته في كل مكان، وهو الذي لا يعرف أحد أين كان وقت حدوث الجريمة.. عندما أقرأ هذا فإنني أعرف يقينًا أنه ليس القاتل..

«أنت لي يا رفعت..

لم تعد قادرًا على الفرار أو التملص وكل يوم يغرسك أكثر في هذا المستنقع.. وأنت مغرور.. هذا يفيدني بلا شك..

لكنك لست أحمق. سوف تنتبه يومًا.. أسرع من الذبابة وتحاول أن تفر بهستيريا..

لكني سأكون هناك عند أطراف النسيج أتأكد أنه سليم من ثم أزحف نحوك.. سأحقن قلبك العجوز بالسم..»

✶ ✶ ✶

قالت لي وهي تنهض:

- «أقترح أن تظفر ببعض النوم الآن. سنتحرك بمجرد أن تشرق الشمس..»

- «هل أسرتك هنا؟.. هذا هو بيت الأسرة.. أليس كذلك؟»

- «نحن وحيدان في هذا البيت.. ولا أتوقع منك أن تسأل عن شيء.. ثمّة أشياء يحسن ألا يبحث المرء عنها أكثر من اللازم..»

(دونّا) تتكتم الكثير..

(دونّا) غامضة لا تخرج كل أوراق كمها..

(دونّا) تعرف كيف تبقيني أتساءل..

(دونّا) تتنهد وتقول:

- «أسرتي في مكان قريب.. ولربما حالفك الحظ وقابلت أفرادها اليوم..»

-7-

أنزل (ميشيل) نظارته المقربة والتي كان يتفحّص بها صف المنازل الريفية، واستدار إلى رفيقه الصموت وقال:

- «الظلام دامس، لكنني عرفت يقينًا أنه معها. كانت واقفة عند مدخل الدار..»

لقد كان عبقريًا عندما لم يبتعد عن الفندق. قدر أن رفعت سيجري مكالمة وهذه المكالمة ستجعل الفتاة تأتي له أو ترسل من يأتي به.. وقد كان.. حاول سائقها الإفلات من الرقابة لكنه أحمق.. هذه أساليب بدائية جدًّا...

كانا يقفان وسط الصخور الوعرة التي تميز منطقة (لا بدريزا) المشهد الطبيعي الساحر المحيط بـ (مانزاناريس إل ريال) صخور ومنحدرات يولع السياح بتسلقها وتصويرها. هنا تصرفت الجيولوجيا كأنها فنان سريالي عبقري مجنون وصنعت أشكالًا لا تصدق أنها موجودة ما لم ترها..

هناك ألف طريق للتسلق.. بعضها سهل يمكن أن يجربه عجوز مصاب بتضخم القلب، وبعضها صعب يحتاج إلى متسلق محترف..

من بعيد ترى سلسلة جبال (جواداراما) التي تمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي حتى مدريد. ثمانون كيلومترًا من الجبال....

لم يرد الرفيق الصموت لأنّه كان يتبول بين الصخور..

قال (ميشيل) وهو يشعل لفافة تبغ قوية الرائحة:

- «سوف ننتظر حتى الفجر.. أعتقد أنهما سيتحركان لحظتها وسوف يقودانا إلى المكان الذي تخبئ فيه اللوحات..»

ثم تشمم الهواء وقال في استمتاع:

- «هل تتخيل أن (كوينتا دل سوردو) كان هنا؟»

للمرة الأولى تكلّم الضخم الصموت، فقال وهو يجذب زمام سرواله ليغلقه:

- «لا أعرف ما هو؟»

- «بيت جويا يا أحمق.. المكان الذي رسم على جدرانه اللوحات السوداء... أنت لا تشارك في مسيرة التقدم البشري والثقافة إلا بالتبول.. لا تفعل أي شيء إيجابي سوى إفراغ مثانتك..»

- «إنها البيرة.. شربت الكثير..»

ثم أن الضخم أطبق قبضته على المسدس في غل:

- «عندما ترغب في الانتهاء منهما قل لي، لأنني مشتاق إلى أن أحرق هذا العجوز الذي حرق ساعدي..»

- «احرقه كله لو أردت.. هو لا يمثل لي أية أهميّة سوى أنه قادنا للفتاة..»

واتجه إلى صخرة ناتئة، فأخرج من جيبه منديلًا فرشه عليها ثم تربع.. وأشعل لفافة تبغ أخرى وقال في ضيق:

- «لم آت معي بكمية كافية من السجائر.. سوف أجد نفسي في ورطة هل معك سجائر؟»

- «اسبانية..»

بصق (ميشيل) في اشمئزاز ثم وضع ساقًا على ساق، وراح يرمق السماء...

كان يتذوق الفن جيدًا.. الشر لا يتعارض مع الفن في رأيه.. لهذا شعر بقشعريرة عندما تخيل أن جويا كان هنا منذ مئات الأعوام.. بالتأكيد كان يرمق ذات السماء.. ربما جلس على هذه الصخرة بالذات هو وحبيبته التي كانت مدبرة بيته (دونّا)...

تلك الأعوام التي فقد فيها الإيمان بفرنسا.. بإسبانيا.. ربما بالبشرية ذاتها.. كان في قوقعة تعزله عن كل شيء.. لا شيء كالصمم يجعلك بعيدًا عن كل شيء.. (هيلين كيلر) الكاتبة الأمريكية الصماء العمياء البكماء كتبت تقول إن الصمم هو أسوأ أنواع فقدان الحواس. عندما ينقطع التيار الكهربي فإن الشيء الذي يعيد لنا الهدوء هو سماع صوت مألوف في الظلام. لم تكن تعلق ذات الأهميّة على حاسة البصر.. إذن لابد أن جويا تعذب كثيرًا...

هنا سمع ذلك الصوت الذي قطع تدفق أفكاره..

غريب حقًّا.. صوت شبيه بلحم يتمزق.. كأن ذئبًا غرس أنيابه الحادة في لحم حمل وهو يمزقه.. إن المنطقة تعجّ بالطيور الجارحة.. بل إنها أكبر تجمع نسور في أوروبا.. لكن هذا ليس صوت طائر جارح..

ماذا يحدث؟

استدار ليسأل صديقه الضخم، هنا رأى مشهدًا لن يفارق كوابيسه لو ظل حيًّا..

صديقه على الأرض يلعب دور الحمل فعلًا.. لم يجد وقتًا كافيًا ليستعمل مسدّسه المحشو. لكن من هو الذئب؟.. هل كان العنق البشري يحوي كل هذه الأوردة طول الوقت؟.. هل في الرأس كل هذه الدماء؟

لا وقت للتبين.. لا وقت للسؤال..

المشهد واضح ولن يعود صديقه للحياة أبدًا.. لقد ذهب للناحية الأخرى من النهر قبل أن يعرف أنه ذهب.. لا شك أنه لم يجد وقتًا يكفي ليتألم.. من المؤكد أنه لن يشرب البيرة أو يتبول ثانية....

هكذا ألقى لفافة التبغ ووثب فوق الصخور..

أضاء الكشاف الواهن الذي كان يحمله...

ظلام دامس بالتأكيد سوف يتعثر ويهشم عنقه، لكن هذا أفضل بالتأكيد مما ينتظره..

لقد توقع شيئًا كهذا.. ثمّة علامات معينة جعلته يشك في الأمر... لكنه لم يصدّق حتى هذه اللحظة..

ظلام دامس هذه صخرة عالية ثم منحدر ربما كانت عيناه قد تكيفتا على الظلام نوعًا، فهو يرى كتلًا رماديّة...

وإلى أين يهرب؟.. هل يقصد أحد هذه البيوت؟.. بعيدة جدًّا..

لكن ليس بوسعه إلا أن يحاول هكذا راح يركض وشعره الطويل يتطاير من خلفه..

ثم قرر أن يصرخ.. لا سبيل لإخراج طاقة التوتر هذه سوى الصراخ.. لم يعد يخشى انكشاف الأمر.. لا أحد يظل كتومًا وهو يموت سوى الأبطال الذين يسجلهم التاريخ كشهداء.. وهو؟.. هو ليس بطلًا.. هو مجرد لص لوحات..

صرخ مرة ومرّتين...

وفجأة انثنت ساقه من تحته وهوى في فرجة بين صخرتين..

أدرك من الألم أنها تهشمت بالتأكيد..

فقط فليدع الله أن يكون هذا المكان مخبأً طبيعيًا وألا تكون لديهن القدرة على شمّ رائحته..

الأهم ألا تنتهي سجائره قبل أن تأتي النجدة أو الموت.. أيهما أقرب...

-8-

عندما بدأت الشمس تتثاوب معلنة عن نفسها في خجل، قالت لي (دونّا) وهي تحمل على كتفها حقيبة صغيرة:

- «هيا بنا..»

سألتها في غباء:

- «إلى أين؟.. ماذا سنقوم به؟»

ضحكت في عصبية وقالت:

- «نحن في منطقة (لا بدريزا).. هل تعرف معنى هذا؟.. معناه أن السياح يدفعون مبالغ طائلة كي يأتوا هنا ويقوموا بما سنقوم به الآن.. أنت رجل محظوظ..»

ثم غادرت المنزل، وملأت صدرها بالهواء النقي..

- «رباه!... يا له من يوم مجيد!»

مشينا بعض الوقت وسط مشهد طبيعي رائع الجمال.. خضرة.. أشجار.. سناجب.. طيور لا أعرف اسمها لكنّها فاتنة.. النهر يجري من بعيد.. بلد جميل جدًّا... ذكروني أن أقرأ أكثر عن تاريخ العرب في الأندلس لأعرف كيف ترك العرب هذا الجمال كله يفلت من بين أيديهم..

(دونّا) تتقدمني في رشاقة وقد أمسكت بعصا صغيرة تستخدمها لتشق طريقها أو تتوكأ عليها أو تشير بها..

قالت لي بصوت عالٍ لأنهّا لا تعرف هل أنا قريب أم بعيد:

- «هذه التي تراها من بعيد سلسلة جبال (جواداراما).. نحن في منطقة غنية جدًّا جيولوجيًا.. سوف ترى تكوينات صخرية تتقطع لها أنفاسك..»

ثم توقفت لتشير إلى بيت لم يبق منه سوى أطلال واستدارت لي قائلة:

- «أقدم لك (كوينتا دل سوردو) بكل فخر..»

حاولت تذكر الاسم.. سمعته من قبل لكن أين؟

قالت في ضيق صدر:

- «منزل الرجل الأصم.. المنزل الذي عاش فيه جويا ورسم اللوحات السوداء.. لم يعد موجودًا..»

رحت أرمق المكان الذي أشارت إليه في انبهار مع شيء من الرهبة.. هنا كانت حياة كاملة في يوم من الأيام. هنا كان إلهام عظيم..

قلت لها:

- «أنت اعتدت القدوم هنا في طفولتك طبعًا. لابد أنك وقفت هنا مئات المرّات وتخيلت..»

ابتسمت وقالت وهي تركل الأرض بقدمها:

- «يُمكنك أن تتصور كم مرة جئت هنا.. لكني أريد أن تظل صامتًا بعض الوقت.. سوف تعرف أشياء مهمّة..»

واتجهت إلى منحدر صخري جانبي.. فانزلقت فيه حتى غاصت إلى مستوى الخصر، ثم رأيتها تزيح بعض الشجيرات القصيرة التي تزاحمت هناك..

بدأت أفهم ما تقوم به عندما رأيت الفتحة.. فتحة كهف أو ممر في الصخور.. لا أعرف بالضبط..

استدارت ونظرت لي ثم دخلت من دون كلمة.

هكذا لم أجد بدا من أن أنزل في المنحدر الجانبي معها.. ورأيت ضوء كشاف في يدها يغمر النفق أمامها.. كان ظهرها إليّ مظلمًا كأنه جلمود وكانت تتقدم ببطء.. أحيانًا تستعمل يديها لتستند إلى الجدار فتدس الكشاف بين أسنانها..

قلت لها وأنا ألهث انفعالًا:

- «هذه الشجيرات للتمويه طبعًا ؟.. أنت وضعتها؟»

- «ش ش ش!».

مشيت وراءها في حذر بين الصخور... سوف أثق فيها وفي أنها تعرف أنه لا توجد ثعابين هنا لكن جزءًا في مؤخرة رأسي راح يردد بصوت الصدى كما يحدث في السينما:

- *ارفض زيارتها في دارها الثانية... فأنت لن تعود.*

- *ارفض زيارتها في دارها الثانية... فأنت لن تعود.*

- *ارفض زيارتها في دارها الثانية... فأنت لن تعود.*

دعوت الله ألا يكون التحذير منطبقًا على هذه الحالة بالذات..

كانت هناك ممرات جانبية كثيرة. وفجأة وجدت نفسي في قاعة تبلغ أبعادها نحو أربعة في خمسة أمتار. كانت مضاءة بشكل معقول وإن لم أتبين مصدر هذه الإضاءة..

وفجأة شهقت في رعب...

✶ ✶ ✶

هناك كانت اللوحات...

عددها لا يقل عن عشر بالتأكيد، وقد تناثرت على الجدران.. بعضها عملاق بحجم ملاءة الفراش، وبعضها بحجم جريدة مطوية مرّتين..

رأيت في الإضاءة الضعيفة المتواثبة تلك الوجوه الصارخة المذعورة التي رسمها العبقري الاسباني بألوانه الكتيبة المميزة. كان هناك رجل يصرخ بينما رجلان قويا البنية يمسكان بساقيه وذراعيه ويقومان بتؤدة بشيه على نار موقدة.. هناك وحش أقرب إلى المذءوب يزحف على أربع ويلتهم جثة فتاة.. مجموعة من الساحرات يرقبن النار ويضحكن بينما ما يتم شيه هو قلوب.. قلوب صغيرة الحجم... قلوب أطفال..

وهذه؟.. فتاة مقيدة إلى عمود خشبي وتحاول الكلام.. لكن هذا مستحيل لأنّه من الواضح أن لسانها مقطوع..

لابد أن محاكم التفتيش نفذت هذا السيناريو بالحرف يومًا ما..

هناك فتاة تبدو خليطًا من فتاة ونسر ذي جناحين تلتهم أحشاء رجل على الأرض.. رجل ما زال حيًّا لكنه عاجز عن الحركة...

كنت أتنقل بين لوحة وأخرى وأقف متصلبًا.. الخيال مريض الرؤية مجنونة.. لكن اليد التي رسمت هذا يد عبقري بلا شك..

لست خبيرًا فنيًّا، لكني عرفت على الفور أنها لوحات أصلية.. طابع القدم وخشونة الألوان ومنظر القماش.. لا شك في أنها أصلية..

وهذه الفتاة تعرف مكان هذه اللوحات التي يقترب ثمنها - بالتأكيد - من مليار.. لكنّها تفضل الصمت وأن يظل هذا سرها الخاص..

(دونّا) غامضة..

(دونّا) ساحرة..

(دونّا) تخيفني...

بالمناسبة.. أين ذهب ضوء الكشاف؟

استدرت في دهشة، لكن دونّا لم تكن هناك.

كنت وحدي في تلك القاعة...

الجزء الثالث:

الصقوبات

من الواضح أنك لا تعرف شيئًا على الإطلاق.. الفتاة قالت عنك لصديقة لها إنك خبير في عوالم الخوارق وما وراء الطبيعة.. لكنك تتصرف كطفل ساذج.. طفل يمسك بالإناء الملتهب على الموقد دون أن يعرف ما قد يحدث ليده.. لقد أنذرتك.. وقتها لم تكن عندي أدلة بل هو مجرد حدس.. الآن أعرف أن ما أقول حقيقي..

-1-

شعرت بشيء من الرعب كطفل تخلت عنه أمّه في متجر كبير، فمشيت إلى المخرج التالي..

كان هناك ممر جانبي فمشيت فيه.. لم يكن الظلام دامسًا... يمكنني أن أعرف طريقي.. في النهاية بدا لي أنني أرى مساحة متسعة.. هل بلغت الخارج؟

لا.. ليس الخارج بالتأكيد لأننا في الصباح، بينما لا أثر لنور الشمس هنا..

لما دققت أكثر تبين لي أنني أرى مساحة خالية.. أقرب إلى مساحة بين الأشجار، والسماء فوقنا لكن الظلام يغمر كل شيء.. لا ترى إلا النجوم تتألق في عباءة السماء...

فجأة صرت في قلب الليل ولا أعرف كيف..

هناك عدد من الأشخاص الجالسين..

دنوت أكثر فأدركت أنني أرى حشدًا من النساء المسنّات جالسات.. يبدو أنهن فلاحات.. القبح سمة عامّة وأنوف عملاقة من ذوات الدمامل..

كن يثرثرن، ثم رفعت إحداهن وجهها فرأتني وساد الصمت..

قالت إحداهن:

- «غريب..»

وقالت أخرى:

- «يبدو أنه لا يعلم»

الغريب أنهن كن يتكلمن الإسبانية لكني كنت أفهمها وربما أتكلمها.. هل اكتسبت اللغة بهذه السرعة؟

ثم بدأت أدرك أنهن يحطن بقدر يغلي على النار.. قدر عملاق أسود يتصاعد منه بخار كريه الرائحة..

أما الذي تحمله تلك المرأة فوطواط صغير ميت.. إنها تمسك به وتردد بعض العبارات ثم تلقيه في القدر..

- «ككل... ككل..»

هنا تتصاعد الضحكات الرفيعة الملتوية.. وتبرز الأسنان الباقية في الأفواه..

- «أيتها الأخت أبيجيل.. ما زال المزيج بحاجة إلى أوراق الغار ودهن الموتى..»

وتتعالى الضحكات بينما يرفرف غراب أسود قادمًا من مكان ما ويستقر على غصن شجرة..

كان كل شيء يتحرك بلا منطقية وبطء الكوابيس.. مثلًا هن لم يظهرن رد فعل مناسبًا لوجودي، كما أنني كنت مذعورًا، لكني لم أهرب ولم تطاوعني قدماي على أي شيء سوى الاقتراب أكثر..

لا منطقية الكابوس طبعًا.. ظلام في السابعة صباحًا؟؟؟

✶ ✶ ✶

كان المزيج كريه الرائحة ينشر البخار في كل مكان. وشعرت بأن عليّ ألا أتنفس..

بينما تلك النساء يحملن دورقًا عملاقًا يسيل شيء أحمر على جوانبه ثم يتناقلنه ضاحكات.. كل واحدة تكرع منه قليلًا ثم تناوله لصاحبتها، بينما يسيل خيط من السائل الأحمر من ركن فمها..

ثم ظهرت إحداهن وفي يدها دمية من شمع.. دمية بحجم كفك وقد ألبسنها ثيابًا تذكرك بثياب السادة في العصر الفلامنكي..

من موضع ما أخرجت كل واحدة دبوسًا عملاقًا بطول إصبعك وراحت تتناول الدمية فتغرس الدبوس في موضع منها وهي تضحك...

ثم تناولها لصديقتها.. ثم صديقتها...

- «ككل.. ككل.. ككل!!»

وبعد ما تلقت الدمية البائسة عشرين طعنة في البطن والصدر والعنق والعينين، بلغت المرأة الجالسة بقربي فأخرجت الدبوس وغرسته في أسفل بطن الدمية، ثم ناولتها لي..

نظرت لهن في دهشة.. الدمية في يدي توشك على التحول إلى مصفاة..

قالت من كن يطلقن عليها الأخت (أبيجيل):

- «هلم أيها الغريب... هات زودتك!»

لم أفهم.. لكن على الأقل فهمت أنها تتوقع مني أن أغرس الدبوس.. طبعًا لن أفعل هذا....

كنت الآن قد عرفت الموقف بوضوح..

سواء كانت هذه هلوسة أم واقعًا، فهذا هو المشهد الذي رآه جويا عندما رسم لوحته السوداء تلك.. لوحة الساحرات... القداس الأسود...

كيف وصل هنا؟

لا شك أن منزله (كوينتا دل سوردو) كان مزودًا بنفق سرّي يتيح له الوصول هنا متى أراد.. لحظات العزلة والانفراد تلك.. كان في الواقع تحت الأرض في موضع ما من صخور (لا بدريزا) يرسم أو يستوحي..

لقد كان يأتي هنا ويرسم.. وفيما بعد جاءت دونّا واستطاعت أن تلتقط صورًا حقيقيّة لهذا الحشد المخيف.. هذه هي الصورة التي وجدتها - أو أرادت أن أجدها - في ألبوم صورها..

(جويا) كان هنا..

(دونّا) كانت هنا..

الآن أنا هنا..

تتعالى الصرخات الرفيعة الشبيه بعواء الغربان:

- «هلمّ أيها الغريب!»

- «هات زودتك!!»

وأنا لا أعرف ما أفعل أو أقول أتراجع بعض خطوات والدمية في يدي..

الآن أرى الكادر بالضبط كما رسمه جويا.. نفس الوجوه.. نفس التعبيرات.. نفس الإضاءة.. فيما عدا فارقًا واحدًا..

في اللوحة الأصلية كانت هناك عند أقصى اليمين فتاة حسناء جالسة لا تشارك في المراسم.. فتاة لها شعر أسود فاحم.. هل هي (دونّا)؟.... الآن أشعر أن الشبه قوي جدًّا... ربما لم تكن دونّا فقط أول من صور هذا الحشد بالكاميرا ربما كانت ضمن أفراده يومًا ما!

تراجعت أكثر بينما الصيحات تتعالى:

- «ككل... ككل..»

- «زودتك أيها الغريب!»

هنا سمعت ذلك الصوت الغليظ من خلفي يقول بالإسبانية التي صرت أفهمها:

- «زودتك أيها الغريب أو أنت ملعون.. إن الحساء ما زال بحاجة لعينين آدميتين!»

الصوت كان غليظًا وغريبًا أقرب إلى خوار الماشية.. ربما ثغاء الماعز لو صار غليظًا.. لا أعرف كيف أصفه لك بالضبط دعك من تلك الرائحة اللعينة التي تفوقت على رائحة الحساء..

كانت اللوحة الأصلية تتركز حول شخص يجلس وظهره لنا... شخص يبدو كتلة من السواد لكنه مركز اللوحة فعلًا...

شخص له رأس جدي...

لقد نسيت وجوده ونسيت أنه مركز الحفل...

الشيطان..

«كل أساطير القرون الوسطى تحكي أن الشيطان كان يحضر اجتماعات الساحرات على شكل غراب أو جدي أسود.. الجدي له سمعة سيئة في هذا الصدد، وأنت تعرف أن الشيطان يرسم دومًا على شكل تيس..»

لو كانت اللوحة دقيقة فأنا أقف الآن والشيطان وراء ظهري، وقد نسيت أنه موجود...

- «عندما تكلمهن تذكر أنه خلفك..»

من نصائح الكينونة الغامضة.. الآن أفهم معناها...

كانت الأنفاس تلسع عنقي من الخلف وأنا أفكر في الطريقة المثلى للفرار..

عندما بدأت العجائز يزحفن نحوي.. كن يمشين على أربع وهن يضحكن بطريقتهن الماجنة رفيعة الصوت..

- «هي هي هي!»

- «ككل.. ككل!»

- «هات زودتك أيها الغريب.. أو عليك اللعنة!»

حاولت قراءة المعوذتين لكن ذاكرتي واهنة جدًّا.. لا أستطيع تذكر الكلمات.. لساني ثقيل كما في الكوابيس...

الحقيقة أنني كنت أنزلق لعالم اللاشعور بسرعة فائقة، وخطر لي أن هذا مخيف لأنني صرت ملكًا لهن أو لهم.. يفعلون بي ما يشاءون، ثم قررت أنّ هذا أفضل وأكثر رحمة...

ظلام..

ظلام..

ظلام..

✶ ✶ ✶

غدًا تهب الريح وتهدم جزءًا من النسيج.. لو فتحت هذا الكفن لوجدت هيكل ذبابة بعد ما امتصت منها عصارة الحياة هيكلًا يتهشم لو نفخت فيه..

الذبابة المغرورة التي حسبت أنها تملك إرادتها..

لكن الغرور كان مفيدًا للعنكبوت.. لابد أن تجن الذبابة وتحسب نفسها حرة..

أنت لي يا رفعت..

-2-

- «هلمّ أيها الغريب!»

- «هات زودتك!!»

✶ ✶ ✶

من جديد أرى السماء...

سماء الصباح العادية التي أعرفها وآلفها وأحبها..

لقد كان كابوسًا شنيعًا لكني خرجت منه كما هو واضح..

أنا في فجوة صخرية ضحلة.. يمكنني أن أتسلق قليلًا لأعود للسطح.. لا مشكلة..

ولكن هذه الرائحة؟؟؟

أنا أعرفها وأشمها بوضوح من حولي...

نظرت إلى الأرض فوجدت تلك الأعقاب.. التقطت واحدًا منها من بين الأعشاب فقرأت بوضوح كلمة (جولواز)... المخيف أن بعضها ملوث بالدم.. الرجل طويل الشعر الأصلع كان هنا.. حسبنا أننا ضللناه لكنه موجود هنا وربما قريب كذلك.. خمسة أعقاب..

هنا سمعت الأنين يأتي من أعلى..

تسلقت الصخرة.. أربع خطوات صرت بعدها في مستوى أعلى..

ما هذا الشيء العملاق الذي حلق مبتعدًا؟

عندما رأيت الرجل فهمت...

لقد كان محطم العظام في هذه الحفرة، ويبدو أن العقبان والنسور عرفت مكانه.. يبدو أنها هاجمته مرة أو مرّتين فطردها، لكنه في النهاية لم يعد قادرًا أكثر...

إن المنطقة تعجّ بالطيور الجارحة.. بل إنها أكبر تجمع نسور في أوروبا..

لقد قضى الوقت ينتظر مصيره.. يسند ظهره إلى صخرة ليبقي رأسه مرفوعًا ويدخن سجائر الجولواز كريهة الرائحة..

ومن الواضح أنه أنهى ما لديه، لأنّه كان يضغط بين أسنانه على عقب سيجارة منطفئ.. فلمّا رآني بعينه الوحيدة السليمة صاح بالإنجليزية:

- «هيه يا صاحبي.. هل معك سجائر؟»

للأسف لا.. ولا يوجد كشك سجائر قريب وسط هذه الصخور إن طلبات المحتضرين مقدسة...

قال وقد فهم أنه لا سجائر معي:

- «لا أعرف من الأكثر حظًا.. صديقي الذي مزقت عنقه أم أنا الذي مزقته النسور حيًّا.. أعتقد أن الوغد محظوظ..»

جلست على الأرض بقربه وتحسست نبضه.. صدمة عصبية بلا شك.. أريد هاتفًا.. أريد هاتفًا حالًا.. ربما لو حاولت المشي نحو تلك البيوت.. وفي هذه اللحظات حكى لي قصته كلها باختصار شديد وبصوت كالفحيح...

ولكن.. أين دونّا؟؟؟

سمع أفكاري قال بصوت كالفحيح:

- «تبحث عن فتاتك ذات الأصل (المور)؟.. لتنقذك؟.. هه؟»

ثم انفجر يضحك بطريقة درامية جعلته يسعل ثم يتقلص وجهه ألمًا...

- «ساذج.. كح كح.. ساذج.. أوه!.. أبله.. كح كح»

ثم قال بعد ما هدأ قليلًا:

- «من الواضح أنك لا تعرف شيئًا على الإطلاق.. الفتاة قالت عنك لصديقة لها إنك خبير في عوالم الخوارق وما وراء الطبيعة لكنك تتصرف كطفل ساذج.. طفل يمسك بالإناء الملتهب على الموقد دون أن يعرف ما قد يحدث ليده.. لقد أنذرتك.. وقتها لم تكن عندي أدلة بل هو مجرد حدس.. الآن أعرف أن ما أقول حقيقي.. الفتاة من (المور).. بالواقع هي من (المورو).. هل تعرف معنى (مورو)؟... معناها كيان ميت أو خارق للطبيعة يبدو كفتاة.. وتقول الأساطير إنها تمشط شعرها الأسود الطويل بمشط من ذهب طيلة الوقت!! ألا يذكرك هذا بشيء؟»

نظرت إلى الضحكة الكريهة على شفتيه ولم أعلق.. فعاد يقول:

- «في البرتغال يعتقدون أن المورو شقراء أمّا الأسبان فيعتقدون أن شعرها أسود.. كح كح... لكن الاسم يرتبط بالمور كذلك.. فالأسبان في عصور محاكم التفتيش اعتبروا كل من لم يتعمد

شيطانيًا كافرًا.. هذا ينطبق على الشياطين غير الموتى، وينطبق على أتباع الديانات الأخرى.. لهذا أطلقوا اسم (مورا) على هذه الشيطانة..»

ثم عاد يسعل.. وبدأت رجفة غير مبررة تسري في ساعده.. أوقفها بيده الأخرى ثم قال:

- «مورا إنكانتادا Moura Encantada.. أي المورا المسحورة.. تجدها في الأماكن المقفرة، وتعيش في قلاع تحت الأرض.. تبني حصون الجبال والصخور العملاقة المسماة dolmens.. وهي تبدل شكلها بسهولة تامة وتبتعد عن مسطحات الماء.. وتخطف الأمراء المسيحيين بلا توقف.. طبعًا عن طريق إغوائهم.. إنها في النهاية صقوبة.. هل تعرف معنى صقوبة؟»

- «الصقوبة Succubus هي النسخة الأنثوية من الجاثوم incubus.. تزعم الأساطير أنها فتاة جميلة مسئولة عن موت الرجال وهم نيام..»

- «أنت لست أحمق جاهلًا لهذا الحد.. كح كح.. لكن هذا العلم السطحي لم يمنعك من السقوط في براثن صقوبة..»

قلت وأنا أنهض لأنفض الغبار عن ثيابي:

- «كلام فارغ.. دعك من أنني لست أميرًا مسيحيًا لو كنت قد لاحظت هذا..»

قال وهو يتنفس بصعوبة:

- «لا يجب أن تكون الأسطورة حرفية.. كنت مثلك أشعر أنها فتاة خطرة وكفى حتى رأيت كيف..... مات صاحبي.. يبدو أننا اخترنا الشخص الخطأ كي نعبث معه..»

قلت في حماسة:

- «سوف أركض حتى أبلغ المنازل وأطلب نجدة.. لقد انتهت مغامرتي عند هذا الحد..»

عاد يهتز بتلك الطريقة الساخرة المتألمة وقال:

- «قلت لك إنك..... غبي تمامًا.. القصة لم تنته.. لقد بدأت!!»

عندها مال رأسه إلى جانب وسقط عقب السيجارة من بين شفتيه، وكف عن السعال، وعندها لم يعد يتهمني بالغباء ويسخر مني..

عندها عرفت أنه على الأرجح قد مات..

-3-

محاولًا ألا أفكر كثيرًا في الجثتين الممزقتين اللتين تركتهما خلفي، بدأت أرقى الصخور لأصعد...

هنا أدركت في جزع أنني أدخل عالمًا آخر.. منظر السماء لا يقول بتاتًا إننا في الثامنة صباحًا.. بالواقع لا يمت لأية ساعة في اليوم..

سماء رماديّة عجيبة... اللون الحقيقي للضباب...للكارثة...

إنني ما زلت بين الجبال لكن كل شيء قد اختلف..

(دونّا) أيتها اللعينة.. متى تخلصينني من هذا؟.. واضح أنني في دوامة كابوسية من الهلاوس..

كنت أرى بوضوح في الأفق مجموعة من الفرسان.. لا يمكن أن يكون هؤلاء من عصرنا هذا، بل فيهم ما يوحي بعصر نابليون بونابرت..

إنهم يبتعدون عني بخيولهم لحسن الحظ.. يتجهون لعمق الكادر لو شئت الدقة..

فجأة ظهر مجموعة من الجنود يحملون بنادق عتيقة.. إنهم يصوبون بنادقهم نحو الفرسان ويطلقون الرصاص.. لحسن الحظ أن اتجاه الفرسان واتجاه الرصاص بعيدان عني..

راح صوت الطلقات يتردد بعنف في الجبل الطلقة وصداها..

أين أنا بالضبط؟

هل جاء جويا هنا أو جاءت دونّا؟

فجأة شعرت بأنني ارتفع.

لا مزاح هنا.. إنني أحلق في الفضاء وبسرعة جنونية..

أطلقت صرخة رعب وحاولت التمسك بشيء..

لكنني أدركت أنّ هناك من يلف دثارا حولي ويطير بي.. نفس الطريقة التي يحلق بها سوبرمان مع حبيبته فوق الثلج قاصدًا قلعته في القطب..

استدرت لأعرف من يحملني..

كانت امرأة.. امرأة تغطي نصف وجهها ولا تنظر لي على الإطلاق، وخمنت من ملامحها أنها جميلة على الأرجح.. جميلة جميلة.. لتكن مارلين مونرو نفسها، لكن لا يوجد رجل يشعر بالراحة عندما تحمله امرأة تطير..

ونظرت إلى أسفل لأرى أننا نحوم حول ذلك الجبل، بينما المعركة تدور أسفلنا.. لا أحد من الجنود ينظر لأعلى.. لا أحد يُطلق علينا..

هنا تذكرت...

اللوحة التي يسمونها أزيموديا والتي تظهر عفريتة تحمل رجلًا مذعورًا، وتحلق نحو جبل.. لوحة غريبة جدًّا شبه سريالية عفريتة وجبل ورجل مذعور وجنود يطلقون الرصاص على فرسان.. والأغرب أن أيًا من عناصر اللوحة لا يبدي أية علامة على أنه يلاحظ العناصر الأخرى.. كأن كلا منها في بعد آخر لا يقدر على رؤية الآخرين..

كان لي لقاء مع الأخ (أزيموديوس) زوج (ليليث) ذات مرة... إنّه شيطان ذو أصول عبرية.. هل تذكرون (ليليث)؟..

(أزيموديا) هي الصيغة الأنثى من (أزيموديوس).. ذكرت في الديانة اليهودية ومن الواضح أنها هي الكائن الذي يحلق..

لكن ماذا تريد مني؟

لماذا تحلّق بي؟

لا أحد يعرف..

بالطبع لن يمكنني أن أقتلها وإلا هويت من عل.. بفرض أنها قابلة للقتل أصلًا..

فقط يمكنني أن أتخيّل من الذعر على وجه الرجل في اللوحة أن ما ينتظره ليس محببًا.. شيطانة عبرية تحملك فماذا تتوقع أن تفعل بك؟

سؤال وجيه...

كان التنفس عسيرًا وشاقًا لأن الهواء كان خفيفًا يتدافع بسرعة في وجهي..

أريد التنفس.. أرجوكم...

يا أخت (أزيموديا)... يمكننا أن نتوقف للحظة ونتكلم..

(جويا) كان هنا.. ربما وقف عند هذه الصخرة ورأى المشهد الرهيب الغامض.. هذا المشهد لم يكن وليد خياله بل نقله بأمانة تامة...

(دونّا) جاءت هنا والتقطت بعض الصور...

(دونّا) عرفت الكثير..

(دونّا) رأت تجارب مرعبة..

(دونّا) جزء من التجارب المرعبة..

(دونّا) جاءت بي هنا وتعرف كيف أعود..

فجأة عرفت المصير الذي ينتظرني، لأن الأخت التي تحملني ارتفعت بي كثيرًا جدًّا.. لا تفعلي من فضلك.. أنا مريض بضيق الشرايين التاجية ولا أتحمل نقص الأكسجين.. سوف تقتلينني..

أنا لا أستطيع التنفس...

فجأة هي تهبط بسرعة.. بسرعة..

حتى أن الدم كله احتشد في رأسي.. لا تفعلي من فضلك فأنا مصاب بتصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم، ومن السهل أن تنفجر شرايين مخي...

إنها تدور.. وتدور.. تعلو وتهبط..

لقد نجحت بالفعل.. نجحت في جعل وعيي يتسرب...

إن الظلام يزداد كثافة.. من وضع هاتين البقعتين السوداوين السمجتين في مركز الرؤية عندي؟ البقعة العمياء التي وصفها الخواجة (ماريوت) لم تكن بهذا الحجم قط..

إنني..... ... ...

-4-

من جديد وجدت نفسي في قاعة أخرى..

هذه المرّة كانت هناك مائدة.. وكان هناك من يأكل عليها...

أنا لم أمت إذن.

هناك رجل عجوز يلتهم الطعام مع امرأته أو صديقه - لا أعرف بالضبط - أو هذا ما أراه في هذه الإضاءة الخافتة.. الرائحة كريهة جدًّا ومن الغريب أنهما يملكان شهية طيبة..

الحقيقة أن حالتهما ليست واحدة.. أحدهما أقرب لعجوز باسم، لكن ضحكته من ذلك الطراز الأصفر الموحى بالفزع.. الآخر أقرب لجمجمة حية..

تذكرت على الفور..

هذه اللوحة بالذات رسمها جويا على جدار غرفة الطعام موضوع غريب جدًّا لكي يرسم هناك، فالأكل ليس في حد ذاته مبررًا لوضع صورة قاتمة بشعة كهذه..

كان الرجلان المرسومان على اللوحة يقتربان من حجم الإنسان العادي.. وعندما كانت الشموع تتوهج في قاعة الطعام كان الرأسان يبدوان كأنهما يشاركان جويا الطعام..

- «تعال أيها الغريب..»

جاء الصوت من أحد الرأسين

- «شاركنا طعامنا..»

ومد الرجل الأول يدًا ترتعش شبيهة بالمخالب، تحمل طبقًا به مادة مزرية قذرة..

تراجعت للخلف خطوة، وإن تصلبت عيناي على الطبق..

فهمت...

لهذا لم ير أي ناقد عيني الآكل الثاني الشبيه بالجمجمة.. لهذا أيضًا يبدو مثل الجمجمة... إن ما في الطبق يفسر كل شيء.. فكرة غريبة جدًّا أن يأكل المرء عينيه لكن هذا ما حدث.. ومن الواضح أن جويا قد رأى المشهد وصدمه بقوّة، لكنه لم يظهر محتوى الطبق..

- «تعال أيها الغريب..»

- «إن لك عينين واسعتين شهيتين!»

ويبدو أن الدعابة كانت قوية جدًّا لأنهما انفجرا يضحكان.. وكان ضحكهما شيطانيًا ذكرني بضحكات الساحرات...

تراجعت للخلف أكثر..

كنت أرتجف من التقزز..

لكن ما أراه حقيقي.. لا يمت للكوابيس بصلة.. أنا بالفعل في واحد من تلك الأقبية اللعينة المحيطة بدار جويا القديمة حيث كل شيء ممكن...

- «شاركنا الطعام أيها الغريب..»

- «أو هات شيئًا منك لطعامنا..»

هنا كنت قد اكتفيت..

اتجهت نحو المخرج الذي جئت منه، لكنه كان مغلقًا...

نهض الرجلان وهما يرتجفان.. وكان كلاهما يحمل ملعقته كأنه خنجر ويتجه نحوي..

- «هلمّ أيها الغريب.. إن لك عينين لذيذتين!»

بالطبع لن يهزمني هذان..

لقد قهرني كل كائن تصارعت معه في تاريخ حياتي، لكن أن يهزمني هذان الهيكلان العظميان الأمر لا أقبله ولن يحدث على كل حال..

أنت تعرف طريقة المسوخ في أفلام الزومبي.. حركة بطيئة راجفة تثير الشفقة، لكنهم يظفرون بك في النهاية ولا تعرف كيف.. تتعثر أو تجد الطريق مسدودًا...

لهذا تأهبت للأسوأ...

كانت هناك كسرولة صغيرة أمسكت بها كأنها هراوة وتأهبت الآن أهشم رأسيهما لو تقدما أكثر.. هما مواطنان أسبانيان لكن أحدًا لن يهتم لفقدهما..

كنت أتراجع للخلف عندما....

آي...

ذراعان تلتفان حول ساقي..

إنهم ثلاثة إذن!.. لماذا لم يقم جويا هذا الكسول برسم كل من في هذا المكان؟

وسقطت على الأرض على ظهري..

حاولت النهوض، لكن يدا معروقة نحيلة تمسكت بالمعصم الذي يمسك بالكسرولة.. يدان.. إذن هناك أربعة منهم!

لا.. خمسة.. لأن هناك عجوزًا آخر ألقى نفسه على جسدي..

وهنا عرفت كيف يستطيع هؤلاء الأشباح أن يقهروا رجلًا برغم أنهم هياكل عظمية.. الكثرة تغلب الشجاعة فعلًا..

وشعرت بيد معروقة كريهة الرائحة ذات مخالب تمتد لتنزع عويناتي..

ورأيت الملعقة تتجه لعيني:

- «هلم أيها الغريب... شاركنا العشاء..!»

- «سوف تحب هذا بحق..»

- «عيناك شهيتان...»

بحثت في جيبي عن السلاح لكن الذعر منعني من أن أجده..

رحت أدير وجهي في عصبية وجنون مع إغلاق عيني بقوّة.. هنا حدث ما كنت أخشاه وبدأ قلبي يتخلى عني.. سوف أفقد وعيي ولسوف تكون كارثة.. لا. لن أفقد وعيي هنا..

يجب أن أقاوم...

المزيد من الضحكات الكريهة اللزجة....

-5-

كنت نائمًا على ظهري..

هل هذا مخدع أرضي تحيط به ستائر هفهافة وتوقد من حوله الشموع..؟

هل هناك رائحة بخور؟

كانت هي تميل على صدري مستندة على ساعدها، كأنني تحولت إلى وسادة أو شرفة بيت.. ما زالت بالثياب التي خرجت بها صباحًا.. رشيقة لكنّها بالنسبة للياقتي ثقيلة كفرس النهر..

شعرها الأسود الطويل يحيط بي كأنها غصون صفصاف تتدلى على ضفاف نهر.. أنا النهر.. عطرة الرائحة تجعلني أتمنى لو مت هنا والآن..

تقول لي وهي تتأمل وجهي بعينيها السوداوين:

- «الآن أنت تفهم يا رفعت.. أنت تعرف..»

قلت وأنا أتنفس بصعوبة:

- «صقوبة.. مورا إنكانتادا..»

تنهض جالسة لحسن حظي، وتخرج المشط الذهبي الصغير وتقول وهي تصفف شعرها:

- «لا تهم الأسماء.. سمني أي شيء... فقط تبقى معي للأبد..»

- «أي أبد؟»

- «حتى الموت.. موتك طبعًا.. وعندها أكون قد امتصصت حياتك..»

جميل.. لا وعود بالخلود وكل هذا الهراء الذي يذكرني بأجواء فاوست.. صقوبة عملية جدًّا.. لكن أين تريد أن أعيش؟

- «أين؟.. هنا؟»

- «نعم هنا أو في مدريد.. لو كنت تعرف القصة كاملة لعرفت أنني والأخريات نسكن في الصخور العملاقة في شبه جزيرة إيبريا.. هنا والبرتغال بلغة اليوم..»

قلت لها بلسان جاف:

- «عرفت هذا وأكثر من ذلك الفرنسي الذي مزقته النسور.. ماذا فعلت بصديقه؟»

قالت في شيء من دلال:

- «يمكنني أن أكون شرسة إذا أردت.. لكني أكون لطيفة جدًّا مع من يطيعون أوامري..»

كان السؤال المنطقي الأهم هو:

- «لماذا أنا بالذات؟..»

قالت بصوت كالفحيح جمد الدم في عروقي:

- «لأنهّا تحميك..»

- «هي؟.. من هي؟»

- «أنت تعرف من أقصد.. لا اسم لها.. لا أعرف ما تطلقه عليها لكننا نتحدث عن الشيء ذاته.. وأعتقد أنها أنذرتك مني.. لأنها تحميك صرت أنت هدفًا مختارًا لي.. إن الأمر في النهاية معركة حامية بيننا...»

بدا لي الأمر كدائرة مفرغة تدور للأبد. واحدة من أحاجي علم المنطق التي لا حل لها.. الكينونة تحميني من خطر ما.. هذا الخطر يطاردني لأن الكينونة تحميني!.. العبارات الثعبانية التي تلتهم نفسها..

قلت لها:

- «هل هذه العوالم المخيفة من صنعك؟»

- «لا.. لكني أملك مفتاحها وأعرف كيف أصل لها.. وقد عرفت كيف أقتاد جويا ليراها..»

- «أنت كنت مع جويا؟»

- «كنت مع كثيرين.. بالنسبة لجويا كنت مجرد خادمة تحبه بصدق، لكني أوحيت له بالكثير.. وعندما ابتاع (كوينتا دل سوردو) لم يدر أنه يطيعني.. عندما نهمس طيلة الليل في أذن النائم بشيء؛ يصحو وقد قرر أنها فكرته وأن عليه تنفيذها.. كان أصم لكن من قال إن همسنا لا يخترق جدران العقل مباشرة؟.. وعندما سكن البيت بدأ يدرك أنّ هناك أقبية وبدأ يكتشف أنّ هذه الأقبية تقوده لعوالم لم يتصوّر وجودها.. هكذا راح يرسم كالمجنون..»

- «وماذا كنت تريدين منه؟»

- «أن يكون لي حتى الموت وأن أمتص وجوده كعنكبوت.. منحته الخلود كفنان في المقابل.. ما كان ليرسم اللوحات السوداء من دوني..»

عدت أقول في غيظ:

- «ولماذا هو بالذات؟»

- «لأنّه فنان عبقري... أنا أبحث كجامع التحف النادرة.. ينتقي هذا الأثر.. يتخلص من هذا.. يحتفظ بذاك... قد أختارك بلا سبب.. وقد يكون هناك سبب قوي.. ربما لأنك أروع رجل في العالم وربما لأنك الوحيد الذي لا يملك أية مزية..»

نهضت من الفراش وبحثت عن عويناتي.. لحسن الحظ وجدتها على وسادة صغيرة هناك.. لم يهشمها هؤلاء الشيوخ الجياع..

قالت وهي تضرب الفراش بقبضتها:

- «قل إنك ستكون لي يا رفعت، ولسوف أنهي هذا الكابوس.. سنعود معًا إلى مدريد..»

لم أرد.. وقفت على قدمين لينتين وحاولت أن أتوازن..

هناك مخرج في مكان ما.. أعرف هذا يقينًا...

البدء من دون دونّا.. سيكون هذا قاسيًا صعبًا... لن أعرف كيف أعود إلى العالم الحقيقي، لكني لن أترك نفسي أعيش مع صقوبة... ربما كان الموت أفضل هنا والآن..

صاحت في عصبية وقد بدأت تكشف عن طبعها المتوحش الذي رأيت لمحات منه من قبل:

- «لن تتحمل يا أحمق إن جويا لم يرسم ربع مشاهد الفزع التي رآها هنا.. هناك الكثير...»

لم أرد وواصلت المشي المترنح نحو المخرج.. لن تمزقني أعرف هذا يقينًا لأنهّا تريد أن أقبل بكامل إرادتي.. لن تشعر بأنها انتصرت من دون ذلك...

أزحت الستائر فوجدت أنني في مكان مفتوح آخر...

فقط سمعتها تسبني بالإسبانية هذه المرّة...

-6-

كانوا يحلقون في الهواء.. نحوي...

أربعة رجال أم نساء؟.. يمكن أن تراهم بوضوح لكنك لا تعرف جنسهم بالضبط، فالنساء والرجال في لوحات جويا شديدو القبح غالبًا..

أحد الرجال يغزل باهتمام وتركيز شديدين. الآخر يحمل مقصًا.. الثالث يبدو أنه يقيس خيطًا..

الأقدار الثلاثة.. الأقدار الثلاثة، كما تخيلها الغربيون...

فقط هناك شخص رابع يمسك بعدسة ويدقق في شيء ما.. لا أحد يعرف دور هذا الرابع ولا ماذا يفعل. كالعادة يحطم جويا أي تفسير سهل للوحة ليجعلها نوعًا من الهلوسة غير المنطقية.. هذا الرابع أفسد تمامًا فكرة أن تمثل هذه اللوحة الأقدار الثلاثة.

أتروبوس... الأقدار..

هذا هو اسم اللوحة الرهيبة ذات الجو المتوجس الغامض والتي رسمها جويا في الطابق الثاني من البيت..

لو افترضنا أنّ هذه صور نساء (وكمعظم اللوحات السوداء يصعب أن تعرف إن كانت تظهر ذكرًا أم أنثى) فإن التي تمسك بالمقص هي أتروبوس التي تقطع خيط الحياة.. كلوثو ولانشيسيس اللتان تغزلان.. الرابع قد يكون رجلًا واقعًا في قبضة الأخوات الثلاث..

إنهم يدنون مني.

أنا في العراء ولا أعرف الخطر الذي قد يسببونه لي، لكن منظرهم ليس مريحًا..

يجب أن أتوارى...

رحت أثبت فوق الصخور وأتعثر.

قدمي تنزلق وتلتوي.. يبدو أنه من السهل أن ألقى نهاية كنهاية مهرب اللوحات الفرنسي.. ساق مكسورة وحفرة وانتظار قدوم النسور...

إنهم يلقون خيطًا طويلًا في اتجاهي هناك كذلك من يقيس شيئًا في الخيط..

الخطوة التالية معروفة وهي قطع الخيط عندها سوف يسقط (رفعت إسماعيل) ميتًا في هذا المكان الغريب القادم من الكوابيس..

يدورون من حولي فأرتمي على الأرض على وجهي، ويملأ الغبار والعشب فمي فأبصق..

أشعر بهم على ارتفاع أمتار فوق رأسي...

أنهض.....

✶ ✶ ✶

لن يبقى منك سوى قشرة مخيفة في كفن من حرير..

فقط عليك أن تستمر معي.. أن تطيعني.. أن تهتم بما أهتم به..

أنت لي يا رفعت..

فلا تقاوم كثيرًا.. كلما قاومت أصدرت صوت طنين يجعلني أتوجه لك.. أعرف مكانك..

أنت لي يا رفعت..

يا لك من مسكين...

✶ ✶ ✶

أخيرًا وجدت ذلك المنحدر بين الصخور فانزلقت فيه..

يسمح لي بأن أظل واقفًا لكنه كذلك يدفعني دفعًا إلى الركض كي لا أسقط..

ومن فوق رأسي طار ذلك التكوين الرباعي الغريب محلقًا كأنها طائرة هليوكوبتر تحوم حول هارب في الجبال...

لا يستطيع الهبوط لي في ذلك الشق الضيق..

إن منطقة (لا بدريزا) مليئة بالمخابئ وهذا يتيح لي فترة من الهرب، لكنه كذلك يجعلني سجينًا في متاهة... لا أعرف متى ولا كيف أفر.. والمشكلة أنّ هذه الأماكن لا تخضع لدقة جغرافية أو إحداثيات.. تتحدى أي منطق أو حاسة اتجاه...

هناك عالم كامل حي تحت الأرض..

هذه المرّة رأيت أمامي ما يشبه الكهف الواسع العميق..

لا أعتقد أنّ هذا التكوين الجيولوجي العجيب منطقي سقف الكهف عالٍ جدًّا جدًّا، بينما أنا لم أهبط سوى مترين.. إضاءة غريبة تأتي من لا مكان كعادة هذه الأماكن.. لا يُمكنك معرفة مصدر الضوء أبدًا ولا معرفة نوعيته.. الحق أنك تشعر بأن الصخور نفسها مضاءة..

رحت أبحث عن الكابوس التالي..

هناك مشاهد مريعة لم يرسمها جويا، فلعلى واجد واحدًا منها هنا..

مشيت في حذر بين الصخور والحجارة البارزة من الأرض.. أرفع رأسي لأنظر إلى الهوابط في سقف الكهف، وقطرات الماء تتساقط ببطء.. ببطء...

فجأة سمعت الأنين...

هناك في ركن الكهف معلقًا على الجدار كأنه لوحة مجسمة..

كان ذلك الرجل الذي يوحي كل شيء فيه بأنه شاب مثقف ممتلئ بالرجولة ومهندس ناجح..

مانويل!

-7-

لا أحد يفقد (دونّا) بكامل إرادته.. هي التي تتخلى عن الناس فيصابون بالعته والبله المغولي ويموتون كمدًا... لابد أنها اتفقت مع شركة نظافة للتخلص من جثث العشاق الميتين أمام بابها، أو لعلها تستعمل جثثهم في تسميد الحدائق...

✶ ✶ ✶

مانويل معلق هناك..

مربوطا بالسلاسل والجنازير في وضع أقرب إلى وضع المصلوب.. في حالة إعياء لا توصف..

ينزف دمًا من أكثر من موضع فلا يُمكنك أن تتبين مصدر الدم. لابد من حمام جيد بالماء والصابون قبل أن تشخص..

ثيابه ممزقة فلم يبق سوى ما يذكرك بالضمادات حول جسده..

دنوت منه أكثر ورفعت رأسي.. كان رأسي عند مستوى ساقيه تقريبًا.. وقلت بالإنجليزية:

- «هل تتكلم الإنجليزية؟»

رفع رأسه بصعوبة وفتح عينًا واحدة وهمس:

- «قـ.. قليلًا...»

- «أنت مانويل.. أليس كذلك؟»

- «بـ.. بلى..»

كنت أتكلم وأنا أبحث حولي عن شيء أحطم به هذه السلاسل وجدت أداة على الأرض تذكرني بالعتلة فرفعتها لأستخدمها، ثم أجفلت وألقيتها أرضًا عندما تبينت أنها عظمة فخذ.. عظمة فخذ طازجة آدمية طبعًا..

قلت له وأنا أفتش حولي:

- «إذن أنت لم تتخل عنها..»

- «لا أحد.. يتخلى عن دونّا.. هي التي تتخلى عنك...»

سوف أريحك من هذه العبارات المتقطعة غير المفهومة وألخص لك ما فهمته..

في المتحف وأمام لوحات جويا التقى المهندس الإسباني الوسيم (مانويل) مع حسناء المور (دونّا).. ولد الحب بينهما وعاشا معًا عامًا من الحلم.. لكنه مع الوقت لاحظ أنها تحاول فعلًا احتكار وجوده.. تريد أن يكون لها بالكامل يقابلها عشر مرات كل يوم.. يتصل بها مئة مرة.. ممنوع أن يشرد ذهنه. ممنوع أن تراه يكلم أية أنثى ولو كانت في السبعين أو الخامسة.. ممنوع أن يذهب لأي مكان دون أن يخبرها. وعندئذ يفاجأ بأنها لحقت به هناك!

مع الوقت شعر بخوف.. إن حياته لم تعد حياته بل هي حياة دونّا مضروبة في اثنين..

كانت تتضخم.. كانت تكبر.. كانت تتغلغل في كل شيء بدأ في هدوء ونعومة عملية الفرار من حياتها.. صار يتصل بها أقل ويخرج معها أقل، لكنّها كانت متنمرة وكانت تكشف في كل يوم عن جانب مخيف منها لم يعرفه من قبل..

في النهاية قدمت له الاختيار: ستكون لي للأبد.. وسوف أمنحك السعادة والخلود..

طبعًا أصابه الذعر وظل في بيته عدة أيام لا يرد على مكالماتها. ما خطر له هو أن الفتاة مخبولة تمامًا.. ليست هذه أول مرة يجد فيها مخًا متعفنًا داخل رأس رائع الجمال..

ثم عادة تمشيط الشعر كل دقيقتين هذه كما تحكي الأساطير عن (المورا)..

قلت له وأنا أحاول انتزاع السلاسل دون توفيق:

- «هي لا تتصرف كالمورا لسبب بسيط.. إنها مورا فعلًا..»

ونظرت حولي في الكهف..

هذا الصوت..

لست من العصبيين الذين يمكن للحكايات المخيفة أن تجعلهم يسمعون شتّى الأشياء.. أعتقد أنه لم يعد يوجد شيء يخيفني في هذا العالم بعد كل ما رأيت، لكني متأكد من أنني سمعت صوت حركة..

يواصل مانويل الكلام:

- «طلبت مني أن ألحق بها هنا في بيتها الريفي.. لما.. جئت.. قدمت لي شرابًا لا أعرف ما هو.. عندما أفقت كنت هنا أخضع لتعذيب منظم.. إنها تعرف كل أساليب محاكم التفتيش..»

قلت في سرّي: هذا طبيعي.. لقد رأتهم ولربما عذبوها يومًا ما..

- «وهل لديك فكرة عما تريده منك؟»

- «سوف تتخلص مني طبعًا.. إنها لا ترحم..»

الصوت يتعالى بالتأكيد...

يئست أخيرًا فتركت هذه الجنازير العتيقة التي تذكرك بأيام محاكم التفتيش ووقفت ألهث.. ثم سألته:

- «من هي إيزابيلا صديقتها؟.... ألم ترَ ما يريب؟.. أن تعيش مع صقوبة من المورا.. لابد أن تشعر بشيء غريب..»

قال وهو مغمض العينين:

- «لا أعرف من تعنيه.. إيزابيلا ماتت منذ عام.. تمزقت في حادث سيارة مروع!»

هنا ازداد الصوت ارتفاعًا وراح الكهف كله يهتز..

وتعالى ذلك الزئير المخيف من لا مكان.. الأمور تسوء.. لا أعرف ما هو قادم لكنه رهيب ولا أريد أن أراه..

نظرت له بعينين متسعتين من الذعر فقال وهو مغمض العينين:

- «إنّه قادم.. رأيته يفتك بالكثيرين.. أمّا وقد جئت أنت فلابد أن الدور دوري أنا!»

-8-

كان هناك جدار صخري صغير، يسمح لك بأن تتوارى خلفه وتلقي نظرة..

هكذا هرعت أتواري، وأخرجت نصف رأسي لأفهم...

(جويا) كان هنا بالتأكيد.. لابد أنه رأى هذا المشهد رأي العيان، ولا أعرف كيف ظل حيًّا، لكنه بالتأكيد رسمه بسرعة بالفحم على الورق قبل أن يعود لبيته ويرسمه بالزيت في مكان مهيب من الدار..

نسيت لوحة (عطارد يلتهم أبنه)...

الآن أرى عطارد..

العملاق المخيف كريه الرائحة الذي يزحف برأس محنية لأن سقف الكهف ليس بهذا الارتفاع.. يزأر ويزوم ويخور ويرغي ويزبد..

هو قادم من مكان ما.. يمشي في تؤدة..

يتقدم نحو الرجل المقيد الذي بالتأكيد فقد الوعي من الصدمة العصبية...

يمد يده لتطبق بالكامل على جسده ثم ينتزعه من الجدار بسهولة مطلقة. أسهل طريقة لتهشيم السلاسل هي أن تكون عملاقًا...

هل أستعمل السلاح؟.. لا جدوى. هذا الشيء أقرب إلى منطاد.. يحتاج لصاروخ بازوكا كي يدمره.. لن أكسب سوي إثارة غضبه..

لم يقاوم الرجل المقيد، بينما بدأ العملاق المخيف ينفذ حرفيًا ذلك المشهد من لوحة (عطارد يلتهم ابنه)...

بالطبع كررها كثيرًا جدًّا من قبل..

أنا رأيت الكثير جدًّا من الموت، لكن لا أذكر أنني رأيت مشهد التهام إنسان حي هذا كثيرًا.. لهذا شعرت بأنني أختنق.

عضضت على كمي حتى لا أصرخ..

المشهد يعيد لذهني مخاوف قديمة جدًّا ربما تعود لأيام الطفولة.. أوليسيوس الذي أطلق على نفسه (لا أحد) مع الغول.. السندباد.. فاي فاي فو فام.. أشم دماء رجل إنجليزي...

اسمي لا أحد أيها الغول.. اسمي لا أحد..

تذكر هذا.. أرجوك...

أغرب الخواطر يتدافع لذهنك في مواقف كهذه، والخاطر السخيف الذي ألح عليّ هو ما سيفعله هذا الغول بالسلاسل.. لابد أنها مقززة.. كنت أكره الحمام الذي تحشوه أمي لأنني أقابل الخيوط التي خاطت بها الأحشاء وكانت تقلب شهيتي تمامًا.. لم أذق الحمام منذ توفيت والدتي.. أي أنني لم أذقه منذ ثلاثين؟.. أربعين؟.. خمسين عامًا؟

خذ الحذر من السلاسل أيها الغول فلربما أثارت اشمئزازك.. لربما انحشرت بين أسنانك..

الآن كان يفرغ من وجبته وهو يزأر.. لقد صار وجهه رقعة سريالية من اللون الأحمر...

إن (دونّا) تريني مصيري لو أصررت على الرفض، لكن لا أعتقد أن دوري قادم الآن..

هل أغادر الكهف؟.... لا.. ليس الآن..

ربما يغير الغول خطّته لو راني..

هكذا ظللت في مكمني أنتظر وأنا أدعو الله ألا تفوح مني رائحة الأدرينالين التي تشمها الوحوش بحساسية بالغة...

كان ينتهي من الوجبة فلم يعد سوى صوت تهشيم العظام...

ثم زأر مرة أخيرة.. واتجه ببطء نحو داخل الكهف.. أي أنه توغل أكثر...

يمكنني أن أهرب من المخرج.. حتى لو شعر بي فبوسعي دومًا أن أفر من كائن يزن ثلاثة أطنان.. هو بالتأكيد بطيء الحركة، وبالتأكيد يمكن الفرار منه وإلا لما قيدوا (مانويل) بالسلاسل..

ابتلعت ريقي وخرجت من مكمني..

حاولت ألا أنظر إلى الجدار الذي ما زالت بقايا السلاسل تتدلى منه.. هناك مذبحة دارت تحته هناك بركة دم...

لا أعرف يا مانويل إن كنت محظوظًا أم بائسًا... ربما كانت هذه النهاية هي أسرع طريقة تختصر آلامك، خاصة وأنت قد عذبت طويلًا بأساليب محاكم التفتيش اللعينة..

لا أعرف يا مانويل...

-9-

كنت في الخلاء من جديد..

لا يمكن القول إنني هربت.. فقد تعلّمت أنها موجودة دومًا وأنها تراقب كل شيء..

لابد أنني مشيت نحو ربع ساعة، ولابد أنني ضللت الطريق.. لا أذكر هذه المعالم.. لا أرى أيًا من البيوت الريفية التي رأيتها في تلك الليلة..

فقط أرى النهر بوضوح تام. نهر مانزاناريس بالغ الأهميّة تاريخيًا عديم الأهميّة جغرافيًّا يمكنني أن أدنو منه وأغسل وجهي...

أتوق لهذا العمل الطبيعي المنعش بعد ما مررت به منذ الصباح..

خلفي أرى مجموعات فريدة من التكوينات الصخرية..

لم أكن أعرف الفوارق بين هذه التكوينات وبعضها.. بدت لي قريبة جدًّا من الهينج الحجرية Stonehenge الغامضة التي تملأ شمال إنجلترا..

هنا تشبه التكوينات مائدة حجرية عملاقة لها ثلاث أرجل ثلاث صخور عمودية مع صخرة أفقية تستند على هذا.. هذا التكوين يسموّنه dolmen ولا أعرف كيف أترجمه بالعربية..



يُقال إن عمر هذه نحو 4000 سنة قبل الميلاد. وكانت تستخدم كمدافن لفترة طويلة من تاريخ أوروبا..

هناك نوع من الصخور العملاقة يطلقون عليه (الأحجار العظيمة Megalith) استخدمها الناس قديمًا في عمل تكوينات صخرية مميزة..

معظم هذه الصخور تم استغلاله في عمل قبور فوق مستوى الأرض.. وهذا التكوين منتشر في الدول الأوروبية في حوض البحر المتوسط...

هنا تصلبت وقد سمعت صوتًا يتردد في ذهني:

✶ ✶ ✶

«المورا المسحورة.. تجدها في الأماكن المقفرة، وتعيش في قلاع تحت الأرض.. تبني حصون الجبال والصخور العملاقة المسماة dolmens.. وهي تبدل شكلها بسهولة تامة..»

✶ ✶ ✶

- «أسرتي في مكان قريب.. ولربما حالفك الحظ وقابلت أفرادها اليوم..»

✶ ✶ ✶

لكن كيف؟...

يمكنني بلا مبالغة أن أعد ثلاثين من هذه التكوينات المعقدة.. يمكن أن تكون في أي واحد منها.. ثم هل من الحكمة أن أدخل؟.. لو كنت محقًا فلابد أن أسرتها بالكامل بالداخل.. تذكر أن (الكينونة) لن تسدي لي أي عون، وإلا لفعلت ذلك بنفسها أنا وحدي تمامًا باستثناء بعض التعليمات الغامضة..

فيما بعد عرفت أن كل الأساطير البرتغالية والإسبانية فيها مورا، ودائمًا ما تسكن المورا في هذه التكوينات الصخرية...

رحت أمشي لاهثًا وسط هذا المشهد الجيولوجي المبهر.. لو كنت دارسًا للجيولوجيا لتوقف قلبي انبهارًا أو طلبت أن يدفنوني هنا..

هل من دليل؟

كأنني كنت أتمنى أن أجد آثار أقدامها أو مشطها الذهبي المميز.. ليست الحياة بهذه السهولة..

لابد من دليل في كلام الكينونة.. كلماتها دقيقة جدًّا ومحسوبة بعناية.. ماذا قالت أيضًا؟.. طلبت مني طلبًا عجيبًا أن أنزع قميصي كلما وجدت فرصة.. وتكلمت عن الوشم.. ما معنى هذا؟.. بالتأكيد هي لا تريد أن ترى عضلاتي الهزيلة وقفصي الصدري الذي يشكل كنزًا يحلم به كل طالب طب..

هناك سبب ما لهذا الطلب..

كنت ألبس بول أوفر وقميصًا.. لو نزعت القميص فمعنى هذا التهاب رئوي لا شك فيه.. الجو بارد فعلًا...

على كل حال رفعت البول أوفر والقميص ببطء لأكشف عن بطني..

هنا كاد يغشى عليّ..

لقد كان موشومًا كله.. متى وكيف؟

العروق الزرقاء المخضرة تجرى هنا وهناك.. رسم معقد جدًّا يذكرني بفيلم (الرجل المرسوم) الذي كان من أفلام الرعب الشهيرة في الستينات.

كيف لم ألحظ ذلك؟.... السبب هو أنني لم أستحم منذ يومين أو ثلاثة، كما أنني أستبدل ثيابي وظهري للمرآة ومن دون عويناتي، فلم أر هذا التغيير.. دعك من أن الطقس بارد لا يغري بأن يكشف المرء عن جسده لأي سبب..

كان الوشم موجودًا منذ فترة لا أذكرها..

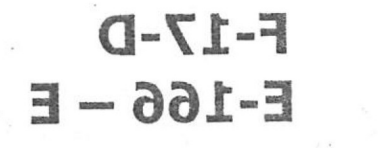
متى ومن وضعه؟.. هذا عمل سحري لا شك فيه..

المشكلة الأخطر هي: هل يزول؟.. لن أقضي حياتي كأنني فقرة في السيرك..

نظرت حولي لأتأكد أنه ما من أحد يراني، ثم نزعت البول أوفر والقميص والفانلة الداخلية ثم دنوت من الماء وأنا أرتجف من البرد، وانحنيت عليه كما فعل الأخ (نركيسوس) يومًا ما فأضناه العشق لصورته وانتحر هناك.. لقد حسب الصورة المنعكسة وجه عروس بحر حسناء قاسية لا مبالية...

أمّا أنا فقد خيل لي أنّ هناك أخطبوطا أو وحشًا بحريًا ينظر لي من تحت الماء...

الماء رائق جميل.. من زاوية معينة وعندما تبتعد الأسماك الوافرة، يمكنني أن أرى الرسوم بوضوح كأنها منعكسة في مرآة استطعت أن أرى أنّ هناك شبكة من النقوش تتناثر هنا وهناك.. هناك رموز مبهمة في عدة مواضع. على كتفي رأيت رموزًا كهذه محاطة بنجوم:



لحظة.. إنها انعكاسات لذا هي مقلوبة.. يمكن بشيء من الخيال أن أفترض أنها تقول:

F-17-D

E-166-E

أين رأيت رموزًا كهذه؟.. طبعًا.. أنت تتذكر.. على ظهر الصور التي سرقتها من منزل (دونّا)...

(دونّا) قامت بعمل رموز لمدينة ملاهي الرعب هذه لتحدد أين التقطت كل صورة إذن يمكنني أن أحدد مكان عطارد وابنه.. ومكان اجتماع الساحرات.. الخ..

من رسم لي الوشم نقل هذه الخارطة ليساعدني...

إذن... هناك على صدري نحو ثلاثين دائرة متداخلة، لكن هناك دائرة في المركز مزيّنة بزخرفة خاصة.. الدائرة تحمل حرف M... لا مشكلة في أن يكون مقلوبًا لأنّه متماثل...

يمكن أن أقول دون خطأ كبير إن المورا M موجودة في هذه النقطة.. مركز التكوينات الحجرية المخيفة...

لأول مرة تمنيت لو كان باستطاعتي سلخ جلد صدري وبطني لأتمكن من قراءة الاتجاهات بوضوح.. أنا كالرجل الذي يحمل لافتة كبيرة على قفاه فلا يقدر على قراءة ما بها... لن أستطيع التحرك حسب الخارطة بدقة، لكني على الأقل أعرف أن عليّ أن أتجه لمركز التكوينات الحجرية لو أردت أن أذهب لها...

هل أذهب لها؟..

وماذا أفعل عندئذٍ..

-10-

الآن وأنا وحدي بين هذه الأطلال توصلت إلى بعض الحقائق..

عندما جاءت إيزابيلا إلى شقتها ووجدتني، تشاجرت قليلًا ثم دخلت لتتشاجر مع صديقتها.. في الواقع كان حوارًا بالإسبانية وربما لم أسمع (دونّا) تتكلم قط...ربما خيل لي هذا..

عندما نزلت إلى الشارع مع دونّا دار حوار عام، لكننا لم نذكر (إيزابيلا) بحرف.. كلامي لم يوضح أنها رأتني وطردتني، بل لعل (دونّا) حسبتني غادرت الدار لأنني سرقت الصور لا أكثر...

النتيجة: هي لم تعرف أنني قابلت إيزابيلا..

قال مانويل قبل موته إن إيزابلا ماتت في حادث مروع منذ عام!

لم تكن هناك إيزابيلا إذن.. (دونّا) كانت تعيش وحدها في الشقة وكانت تكذب...

لكنني رأيت إيزابيلا فعلًا.. فما معنى هذا؟

هنا أتذكر كذلك أنني كدت أغيب عن الوعي بينما أنا أكلم إيزابيلا..

«شعرت بالدوار للحظة واهتزت صورتها في عيني، ثم استجمعت وعيي وأخذت شهيقًا عميقًا»

يبدو أنني فقدت الوعي فعلًا... مثلما يحدث لمرضى الصرع عندما لا يدركون أنهم فقدوا الوعي إلا عندما يكتشفون أن عقارب الساعة تحركت نصف ساعة كاملة وهم واقفون أمام المرآة..

هذه هي المناسبة الوحيدة التي يمكن أن تكون قد رسمت لي فيها هذا الوشم على جذعي.. بسرعة؟.. وهل هذه الكائنات تعمل حسب قوانين الفيزياء ومنطقنا العادي؟..

الاستنتاج الوجيد الممكن هو أن إيزابيلا - على الأقل التي رأيتها أنا - هي الكينونة..

هذا سهل وواضح ومن الغريب أنه لم يخطر لي حتى هذه اللحظة. لقد ظهرت في القصة في لحظة مناسبة وساعدتني دون أن أعرف هذا...

✶ ✶ ✶

الآن أنا عند العلامة بالضبط..

أنا عند مركز تلك التشكيلات الحجرية. الموضع الذي كان عليه رمز M.

يمكنك كما قلت أن تتخيل شكل هذا اله dolmen.. مائدة حجرية عملاقة تقف على ثلاثة أرجل غليظة. ارتفاعها ستة أمتار..

هناك باب هو الذي كانوا يستخدمونه في الماضي للدفن يمكنني أن أرى كذلك عظام حيوانات متحجرة هنا وهناك. لهذا اعتقد الأثريون أن مآدب معينة كانت تصاحب عمليات الدفن...

هل من الممكن أن.....؟

ربما..... ... .

✶ ✶ ✶

خطوت إلى الداخل في الظلام..

انتظرت حتى اعتادت عيناي الظلام نوعًا..

تلك الرائحة...

أرى الجدران الرمادية وأدرك أن المكان متسع.. أعتقد أنه أكبر من أبعاده كما تراها في الخارج. لا مشكلة.. ليس هذا هراء.. لقد رأيت الأعاجيب اليوم ولن أندهش من هذه الهلوسة الهندسية...

هل هناك ثعابين بالمناسبة؟

على الأرض وجدت زجاجة مياه معدنية فارغة وزجاجة جعة.. كانت هناك أخشاب متفحمة كأن أحدهم أشعل نارًا منذ زمن.. هناك كذلك كيس به بقايا خبز متعفن... وأربع لفافات تبغ.

ابتسمت..

كان هناك شباب هنا منذ زمن.. ربما كانا عاشقين قررا أن يختليا بعيدًا عن العالم. ليس المكان مخيفًا إذن كما أعتقد... لقد تلاشي على الفور جو القبر المخيف ليصير مجرد مكان نزهة خلوية..

نظرت إلى ركن المكان فأدركت أنّ هناك بابا محفورًا في الحجر، غالبًا يقود لتكوين حجري آخر.. هذا شيء لم يبد واضحًا من الخارج.. على قدر علمي كان هذا التكوين منعزلًا ولم يكن هناك شيء ملاصقًا له..

دنوت من الباب وتلمسته بيدي..

هناك كتابة فعلًا... برناردو ولوتشيا.. قلب وتاريخ.. هذان شابان أرادا أن يخلدا حبهما للأبد..

لكن المشكلة هي كيف أجتاز هذا الباب وأنا لا أملك كشافًا.. من الواضح أن الظلام دامس تمامًا بالداخل..

نظرت للأرض فوجدت علامة ممتازة كنت أبحث عنها..

الكشاف..

الكشاف الذي كانت دونّا تحمله عندما اقتادتني إلى الكهوف أول مرة..

من الممكن أن يكون قد سقط منها، لكن المصادفات لا تتم بهذه السهولة. هي أرادت أن أجده وأدخل.. هذا يعني أنه كمين...

لكن لا.. الأمور كذلك ليست بهذا الوضوح وهذه السذاجة...

بل هي دعوة.. تدعوني للدخول.. فهي تعرف أنني لست أحمق...

مجرد رسالة تقول لي فيها: أنا هنا.. لا تبحث أكثر...

-11-

عندما دخلت الموضع التالي رحت أصوب الكشاف على الجدران.. كانت هناك نتوءات كثيرة بارزة تلقي ظلالًا غامضة.. تتحرك...

مشهد يجلب التوتر فعلًا.. الظلال أنشط وقود للخيال ربما باستثناء عقار الهلوسة LSD..

يُمكنك أن تشعر كأن هناك شخصًا في كل ركن..

هناك بالفعل عظام على الأرض.. عظام آدمية عتيقة جدًّا لا يعني هذا على الأرجح أنّ هناك من ماتوا هنا، بل يعني أن المكان كان مقبرة..

مشيت في حذر بحثًا عن أحد.. شيء ما.. هذه مخاطرة لأن قلبي ضعيف فعلًا، ولو ظهرت واحدة تقول لي (بخ) من وراء أي نتوء صخري فسوف أسقط ميتًا.. أي إن عدوي الحقيقي هو الخوف وليس ما يسبب الخوف..

هل النيتروجلسرين معي؟.. للأسف لا..

فجأة صوبت ضوء الكشاف الأعلى بحثًا عن وطاويط.. لو لم تكن هنا وطاويط فلا وجود لها في العالم، ولكانت مجرد أكذوبة بيولوجية..

لكني لم أجد وطاويط..

وجدت صقوبات..

✶ ✶ ✶

كانت هناك متراصة على السقف تتمسك به بممصات لا أراها.. بعضهن مقلوبات يتدلى شعرهن في الهواء وينظرن لي باسمات..

بعضهن يمشطن شعورهن بأمشاط صغيرة من ذهب...

هناك من تزحف على الجدار مقلوبة كالبورص نازلة نحوي.. وهناك من تتلوى نائمة.. فقط هي تضطجع على السقف لا على الأرض... يبدو أن اللون الأبيض سمة عامّة في ثيابهن..

لوحة رائعة لجويا لو كان قد رسمها، لكن من الواضح أنه لم يكن أحمق لهذا الحد.. بالتأكيد لم يدخل هنا..

«أسرتي في مكان قريب.. ولربما حالفك الحظ وقابلت أفرادها اليوم..»

«أسرتي في مكان قريب.. ولربما حالفك الحظ وقابلت أفرادها اليوم..»

يبدو أن الحظ حالفني فعلًا هناك العشرات منها..

بالتأكيد كنت أتمنى أن تكون هذه وطاويط..

هكذا لم أعد أنظر في اتجاه آخر إلا إلى السقف.. هذا مأزق مخيف.. من الوارد في أية لحظة أن يسقطن فوقي كأنه انهيار صخري.. سوف أسقط أرضًا مع أول واحدة تهوي عليّ ثم يزداد الجبل ارتفاعًا وينتهي أمري.. لن يجدن وقتًا لعمل أي شيء لأنني سأكون قد مت فعلًا..

أنا رأيت جثة الرجل التي تمزق عنقها وأعرف ما هن قادرات على عمله برغم مظهرهن الفاتن..

هناك أحمق جرؤ على اقتحام الـ dolmen.. جرؤ على دخول عقر دارهن ولن يعيش ليحكي ما رآه..

بدأت أتراجع للخلف قاصدًا المكان الذي جئت منه... هذا هو الحل الوحيد..

ثم سمعت صوت الارتطام وعرفت أن الوقت قد فات..

لقد هوت اثنتان خلفي لتسدا الطريق، وكانتا تضحكان.. تتكلمان بالإسبانية.. تشبهان دونّا نوعًا لكنهما ليستا هي..

وأمامي هوت من السقف واحدة أخرى..

لهن طريقة غريبة في السقوط تذكرك بقنديل ماء يلتف حول نفسه وهو يهبط للقاع.. ثم فجأة تجدها أمامك واقفة وبكامل لياقتها...

الآن صرت وسط أربع منهن..

رأيت هذا المشهد مرارًا في أفلام هامر عندما تستيقظ مصاصات الدماء ويفتحن التوابيت ويحطن بالضحية البائسة...

لا أعرف كيف خطرت لي هذه الفكرة.. لكني انتزعت البول أوفر الذي ألبسه وألقيته جانبًا، ثم فتحت القميص لأكشف عن الوشم على صدري وبطني..

صوبت ضوء الكشاف ليرين أفضل...

هنا وجدت أن حماستهن قد تضاءلت..

تراجعن للخلف وعيونهن لا تفارق هذا الوشم...

نعم هو الوشم.. لا أعتقد أن منظر ضلوعي هو ما أثار رعبهن لهذا الحد.....

إذن هناك رمز فعال.. رمز يخيفهن....

ليس كل الوشم خارطة تبين هذا التكوين الصخري المعقد..

رفعت عقيرتي وصحت مناديًا:

- «دونّاااااااااا!»

لا رد..

عدت أصيح:

- «دونّاااااااااا!»

جميل أن الاسم ينتهي بحرف ألف.. هذا يعطيك فرصة لا بأس بها لإخراج الانفعال..

استدرت فجأة لأجد أن دونّا تقف هناك خلفي وهي تبتسم ابتسامتها العذبة.. تقريبًا لم يعد هناك لون أبيض في عينيها بسبب الأهداب السوداء الكثيفة مع القرنية الكبيرة..

قالت لي وهي تعقد ذراعيها على صدرها:

- «يبدو أنك عرفت طريقي وجئت.. والآن ما قرارك؟»

قلت وأنا أنظر للأرض:

- «سأكون معك للأبد.. لن أتركك..»

- «جميل..»

- «فقط لنخرج من هنا.. لنعد إلى مدريد.. أرجوك..»

كنت أشعر بالضبط بما يشعر به من يبيع روحه للشيطان في القصص..

استدارت ونظرت للصقوبات المحيطات بنا وقالت بضع كلمات بلغة لم أتبينها.. بالتأكيد ليست الإسبانية.. هكذا بدأت الفتيات المخيفات غير الميتات يتراجعن.. بعضهن تسلقن الجدار لأعلى بسهولة تامة.. مزيج مخيف من الأنثى والفأر والبرص والوطواط.. لكن منظر الأنثى هو الغالب طبعًا..

ثم اتجهت دونّا للمخرج فعرفت أن على أن ألحق بها...

كانت تمشي في ثبات وتؤدة فوق الصخور ولم تنظر خلفها على الإطلاق...

عندما خرجنا إلى القاعة الأولى التي دخلت منها أول مرة، حيث كان الفتى وحبيبته يتناولان وجبتهما يومًا ما.. قلت لها بصوت هادئ:

- «دونّا..»

- «نعم؟»

واستدارت نحوي في ذات اللحظة التي ضغطت فيها على زناد المسدس..

وانطلقت الرصاصة لتلهب رأسها بالضبط في جبهتها...

-12-

المسدس الذي وجدته مع جثة ذلك الرجل.. الرجل الذي مزقت المورا عنقه..

كان لصًا أو رجل عصابات.. وقد بدا لي المسدس ثقيلًا ذا تاريخ أسود، لكني دسسته في جيبي وقررت أن أستخدمه متى سنحت الفرصة.. طبعًا ما كنت لأستعمله مع عطارد العملاق..

لقد فجرت رأس دونّا ولست نادمًا على ذلك.. هي ليست كائنًا بشريًّا لأشعر بالحزن.. ليست كائنًا حيًّا أصلًا...

كانت يدي ترتجف وقلبي يتواثب، ورائحة البارود تفعم المكان، بينما صوت الطلقة يتردد كعواء النسور في أذني صدى.. صدى.. صفير.. صفير...

لكنّها كانت واقفة!.. وكانت تنظر لي وتبتسم...!

قالت في هدوء وكأنها تلوم طفلًا شقيًّا:

- «كلما خطر لي أنك تحسب نفسك خبيرًا في عوالم ما وراء الطبيعة شعرت برغبة قاتلة في الضحك... أنا مورا لا يمكن قتلي.. ألم تفهم هذا؟.... كنت هنا قبل عصر جويا وسوف أبقى طويلًا... كنت أحسب لديك خططًا أفضل من المسدسات..»

ثم ألقت نظرة على قميصي المفتوح وبطني وصدري وقالت:

- «لا شك أنك لم تفهم كذلك أنني من رسم لك هذا الوشم!»

هنا ارتجفت..

بالفعل.. معها حق.. هناك فترة ظللت فيها فاقد الوعي تحت رحمتها تمامًا عندما كنت في المخدع. لو كان الوشم موجودًا قبلها لرأته وانتزعته بالسكين (وهي قادرة على ذلك)..

هي التي وضعت الوشم بينما أنا فاقد الوعي فلماذا؟

كأنما سمعت صوت خواطري قالت:

- «أردت أن أقودك إلى هنا بكامل إرادتك الحرة..»

- «لكن الصقوبات أصبن بذعر عندما رأين الوشم.. إنّه معاد لهن..»

- «لأنهن عرفن من الوشم أنك لي.. ما من واحدة تجسر على الاقتراب من شيء يخصني.. إنني أوقع الرعب في قلوبهن..»

- «وإيزابيلا التي ماتت؟»

- «من قال هذا؟.. مانويل؟.. إنّه يهذي.. عندما تظل معلقًا لجدار بضعة أسابيع لن تقول عبارة واحدة مترابطة المعنى.. إن إيزابيلا شريكتي في المسكن في مدريد وبصحة جيدة ولا تعرف عني الكثير.. أمّا عن تلك التي تحميك... ... ...»

ثم فكرت قليلًا وأردفت:

- «أنت حسبتها هي من رسم لك هذا الوشم.. خطأ... أنا أنتصر عليها في كل لحظة نصرًا جديدًا.. إنني أقهرها قهرًا وهي تعرف هذا.. يُمكنك أن تفهم الآن لماذا اخترتك أنت دون البشر أنت الذي تشمله برعايتها ونصائحها، لكنك مجرد طفل في يدي..»

كنا الآن قد خرجنا ورحنا نمشي بين التكوينات الحجرية...

ابتعدنا أكثر وكانت الشمس الحارقة تغمر كل شيء.. شمس قادرة على أن تشوي دجاجة بلا مبالغة...

شممت رائحة كريهة إلى حدٍ ما.. وعندما دنوت أكثر رأيت نسرين يحلقان مبتعدين...

هناك حفرة.. دنوت منها وألقيت نظرة..

كانت جثة ذلك الفرنسي الأصلع طويل الشعر.. لقد مزقت النسور أكثر وجهه وثيابه لكن ظل بوسعي أن أرى ملامحه...

ليس هو!..

يشبهه لكن ليس هذا هو من كان يحتضر وكنت أكلمه الإصابات مختلفة تمامًا الساق مهشمة لكنّها ليست الساق ذاتها... دعك من أنني لم أترك جثته هنا.. هذه الحفرة أراها لأول مرة..

من الذي قدم لي أهم معلومات في هذه القصة؟.. من أخبرني بقصة الصقوبة والمورا؟.. ذلك الفرنسي ميشيل...

كان مصابًا لكنه كان في موضع آخر وكان مصابًا بطريقة أخرى.. وعلى الأرجح لو ذهبت إلى حيث تركت جثته فلن أجدها..

لقد مات الفرنسي فعلًا هنا..

أمّا من قابلته وصارحني بكل هذا فقد كان شخصًا آخر.. شخصا قادرًا على تغيير الشكل Shapeshifter.. الكينونة!!

قالت لي دونّا بلهجة آمرة:

- «إنّه الفرنسي.. ماذا تريد هنا؟.. لقد انتهى كل شيء..»

لم أرد.. اتجهت نحو النهر الذي يترقرق على بعد خطوات.. وانتزعت قميصي وعويناتي ثم خضت في الماء.. شعرت بأنفاسي تتقطع لكن الشمس الحارقة التي غمرت المكان جعلتني قادرًا على أن أتحمل..

صاحت آمرة:

- «ماذا تفعل؟.. ليس لدينا وقت كاف..»

قلت وأنا أخوض في الماء أكثر:

- «أريد أن أبترد قليلًا روحي نفسها قد احترقت بلا مبالغة..»

أنا لا أجيد السباحة.. لو لم أجد أرضًا تحت قدمي ينتهي كل شيء، ولهذا صرخت في ذعر:

- «دونّا.. أنا أغرق..»

وقفت على حافة النهر تراقبني وأنا أغطس تحت الماء وأبصق ثم أرفع رأسي..

- «دونّا!»

قالت في غيظ:

- «غبي.. غبي.. أنا لا أستطيع السباحة..»

- «إذن ساعديني.. هاتي يدك...»

دنت من الماء كقط متوجس متشائم، وأعطتني يدها في حذر وهي تضغط بقدمها على الصخور كي تكتسب عزمًا يتيح لها جذبي..

لكني لففت يدها بسرعة، وسرعان ما كنت أجذبها بأقوى ما عندي لتسقط على بعد مترين من الشاطئ.. وسط الماء.. وقبل أن تصرخ أو تفهم ما يحدث كنت أثب فوقها لأغمرها تحت الماء غمرًا.. كانت واهنة جدًّا.. لم أتوقع أن تكون بهذا الضعف في الماء...

«مورا إنكانتادا Moura Encantada.. أي المورا المسحورة.. تجدها في الأماكن المقفرة، وتعيش في قلاع تحت الأرض تبني حصون الجبال والصخور العملاقة المسماة dolmens وهي تبدل شكلها بسهولة تامة وتبتعد عن مسطحات الماء..»

«تبدل شكلها بسهولة تامة وتبتعد عن مسطحات الماء..»

«وتبتعد عن مسطحات الماء..»

«مسطحات الماء..»

«الماء..»

«الماء...»

كنت أرتقب مقاومة أكبر.. أن تغرقني معها وأنا لا أجيد السباحة.. لكنّها بدت لي كطفلة في السابعة حتى أنني شعرت بشفقة عليها وأنا أبقي رأسها تحت الماء، وللحظة خطر لي أنني قد أكون مخطئًا...

لكنها أراحتني من هذا عندما بدأ وجهها يعود لصورته الأولى.. الصورة التي تتوارى خلف ملامح الحسناء ذات الجمال العربي. أراحني هذا كثيرًا لأنني أدركت أنني لا أغرق فتاة واهنة ولكن أغرق شيطانًا..

(دونّا) تقاوم..

(دونّا) تشهق..

(دونّا) تخرج الماء من منخريها..

(دونّا) تموت..

وفي النهاية همدت حركتها همدت تمامًا لكنني ظللت مبقيًا رأسها تحت الماء أطول فترة ممكنة. هل أنا أحلم أم أن الوشم يزول ببطء عن صدري؟.....

خضت الماء والوحل نحو الشط.. وتسلقت بصعوبة حيث وقفت أرتجف وأبحث عن عويناتي.. سوف ألبس القميص على جسدي المبتل فلا وقت الانتظار أن أجف.. دع الشمس تتول الأمر..

لما نظرت للماء من جديد رأيت أنه لا وجود لها.. لقد تحولت إلى رغاو خضراء كثيفة تسبح ببطء مع التيار..

التقطت أنفاسي..

وفجأة اهتزت المنطقة كلها ودوى انفجار مرعب..

كأنه انفجار في محجر في الجبل..

وتصاعدت سحابة دخان كثيفة من بعيد.. من بين تكوينات الصخور الحجرية..

لا أحتاج لذكاء كبير كي أعرف ما حدث ومن فعله...

لقد انفجر الـ dolmen.. هوت صخوره العملاقة على من فيه من صقوبات...

من فعل هذا هو (الكينونة) طبعًا..

كانت تنتظر لحظة القضاء على (دونّا) لتفعل ذلك.....

خاتمة

عزيزي رفعت:

أعتقد أنك فهمت الآن نصائحي كلها، وقد كان بوسعي أن أنصحك بموضوع الإعدام بالماء لكن هذا غير مسموح به لنا.. ليس مسموحًا أن نعطي الفانين علمًا أكثر من اللازم. عليهم أن يعرفوا الكثير بأنفسهم، وأنت تعرف عقاب برومثيوس الذي سرق النار وأهداها للبشر في الأساطير الإغريقية.. لقد قدم لهم حلًا سهلًا لذا عوقب بأن يعلق بين جبلين للأبد ويلتهم الرخ كبده كل يوم..

ما إن تم الإعدام حتى صار بوسعي أن أفجر القبر الحجري على من فيه أو ما فيه. طبعًا هن لا يمتن بهذه البساطة، لكنهن سيبقين محبوسات لعدة أجيال.

سرني أنك تلقّيت التلميحات بهذه السهولة وانتفعت بها.

بإخلاص:

أنت تعرف من..... ...

✶ ✶ ✶

عزيزتي:

تعليماتك كانت عظيمة النفع لي. وإن كان أهم ما قدمته لي (دونّا) هو تلك الخارطة الموشومة التي قادتني لها. يخيّل لي أحيانًا أنها أرادت أن أقضي عليها.. لقد اشتهت أن تنهي حياتها.. يبدو أن الحياة للأبد كصقوبة أمر قاس حقًّا.. كان بوسعها ألا تدعوني إلى الضاحية أصلًا.

كانت فكرة ذكية منك أن تتنكري كميشيل المحتضر.. في لحظة معينة من القصة حسبتك إيزابيلا صديقة دونّا التي طردتني من شقتها ليلًا، ثم تبين أنني كنت مخطئًا.

بإخلاص:

رفعت إسماعيل

✶ ✶ ✶

عزيزي رفعت:

أنت لا تفهم القواعد أو تفهمها وتنساها.. كان يجب أن ترى اللوحات السوداء الحية وأن تعرف ما أنت مقبل عليه. هذا جزء ضروري من اللعبة ومتعتها.. كان عليك أن تخضع لها وأنت تعرف جيدًا من هي وما أنت مقبل عليه..

كما قلت لك إن عالمنا مليء بالقواعد ومعقد جدًّا، مما يجعل حياتكم غاية في البساطة.

إيزابيلا صديقة دونّا ماتت منذ عام في حادث مروع.. أنت تعرف أن دونّا هي التي فعلت هذا غالبًا كي تظفر بالشقة وحدها، أو لأن إيزابيلا عرفت أكثر مما يجب. من الصعب أن تعيش مع مورا في شقّة واحدة ولا تلاحظ شيئًا مريبًا. أمّا عن ظهور إيزابيلا التي ماتت لك وكلامها معك، فأمر يطول شرحه لكنه - كما تحب أن تقول أنت - قصة أخرى.

بإخلاص:

أنت تعرف من..... ...

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

المقـــدمة

تمهيد

الجـــزء الأول: جـــويا

-1-

-2-

-3-

-4-

-5-

-6-

-7-

الجـــزء الثاني: معـرض الرعب

-1-

-2-

-3-

-4-

-5-

-6-

-7-

-8-

الجـــزء الثالث: الصـــقوبات

-1-

-2-

-3-

-4-

-5-

-6-

-7-

-8-

-9-

-10-

-11-

-12-

خـــاتمة

مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والإثارة



د. أحمد خالد توفيق

أسطورة معرض الرعب

نعم .. هناك شىء مخيف فى المعارض والمتاحف بلا شك .. من الصعب أن تجد تفسيرا لهذه الرهبة التى تشعر بها أمام لوحات .. مجرد لوحات قديمة رسمها ديلاكروا أو روبنز ، لكنها تثير فى أطرافك قشعريرة غريبة. فى قصة (ليلة الجنرالات) لـ (هانس هيلموت كيرشت) ، وقف الجنرال النازى أمام لوحة لفان جوخ .. هنا بدأ يرتجف كورقة .. ثم أصابته نوبة صرعية كاملة. السبب أن رسالة الصرع التى تركها (فان جوخ) فى اللوحة انتقلت كاملة سليمة عبر الأعوام إلى الجنرال ... المعرض الذى نتكلم عنه اليوم حالة خاصة جدًا وفريدة .. الفكرة هنا أنه يعكس حالة نفسية سيئة لدى من رسم اللوحات ، والسؤال هو: هل هذه الطاقة النفسية قادرة على أن تبقى عبر الأعوام لتنتقل لواحد آخر ؟ .. لقد رأينا الصرع ينتقل مع (فان جوخ) فماذا عن أشياء أخرى؟

العدد القادم

أسطورة الفتاة الزرقاء

الثمن فى مص
وما يعادلـه بالدولا
فى سائر الدول العـ

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

مطابع

مشروع القرن الثقافى

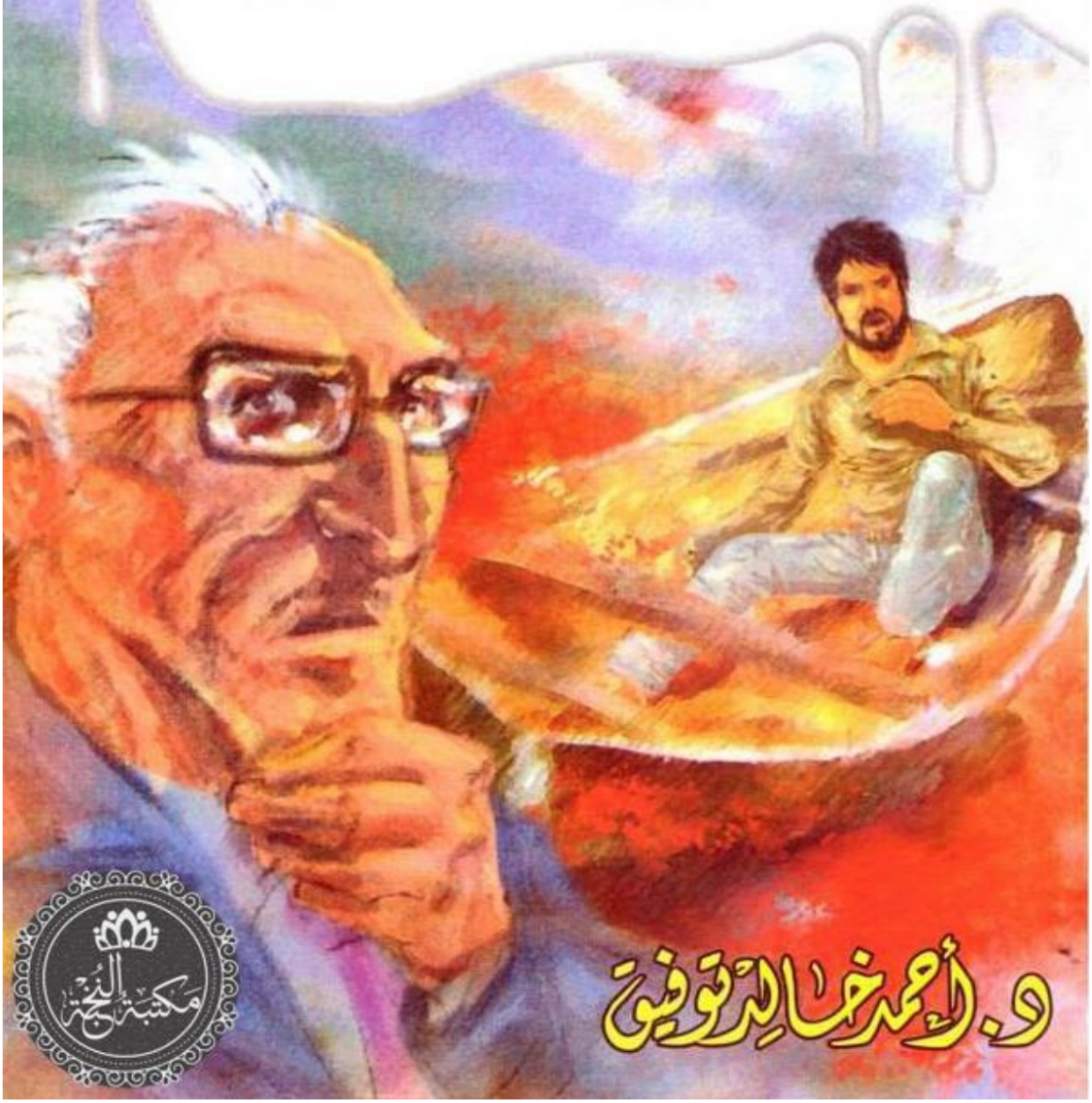
روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

ما وراء الطبيعة

77

أسطورة الفتاة الزرقاء



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة النخبة

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



77

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة الفتاة الزرقاء

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايـــات تحبـس الأنفـــاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصـرى مائة فى المـائة
لا تشوبه شبه الترجمة أو الاقتباس
أو النقل عن أية قصص أوربية .

إشراف
الأستاذ / حمـدى مصـطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر سواء النشر الورقى أو الإلكترونى ، وكل اقتبـاس أو تقليـد أو إعـادة طبـع أو نشـر ورقـى أو إلكتـرونى دون الحصـول على تصـريح كتـابى من النـاشر يعـرض المـرتكب للمسـاءلة القـانونيـة .

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ــ المطابع 8 ، 10 شارع المنطقة الصناعية بالعباسية ــ منافذ البيع 10 ، 16 شارع كامل صدقى الفجالة ــ 4 شارع الإسحاقى : بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة ــ القاهرة ت : 26823792 ــ 25908455 ــ 22586197 ، فاكس : 202/2596650 ج.م.ع ــ
الإسكندرية 4 شارع بدوى / محرم بك ــ ت : 03/4970840 ــ 03/4970850

روايات مصرية للجيب

ملوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط
الغمـــوض والرعـــب والإثارة

77

•

أســـطورة الفتاة الزرقـاء

بقلم: د. أحمد خالد توفيق

الغـلاف بريشـة: أ. أيمـن القـاضي

المؤسسة
العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

المقـدمة

أنـا أمقت وضع الخطوط الكثيرة في الكتب..

عندما تقترض مني كتابًا فلتتذكر هذا جيدًا.. لا شيء مثل هذا التصرف يخرجني عن طوري، خاصة عندما لا تكون خطوطي أنا.. هكذا أجد الخطوط تحت أسخف العبارات وأكثرها غباء.. مثلًا عندما أجد ألف خط تحت عبارة مثل (نحن لا نعرف المستقبل لأنّه لم يأت بعد) أو (المعدن الحقيقي للصديق لا يظهر إلا في الشدائد)، فإنني آخذ فكرة عن تفكير الأحمق الذي وضع هذه الخطوط. عندما أضع أنا خطًا فلتتأكد أنه تحت عبارة مذهلة خارقة للعادة.

يزداد غيظي عندما أكون على يقين من أنني لم أقرض هذا الكتاب لأحد.. إنّه في مكتبتي على ذلك الرف منذ عشرين عامًا. الغبار هو الغبار ونسيج العنكبوت الواهن هو هو.. إن أم (شخص ما) التي تنظف شقتي لا تعني بهذا الركن أبدًا.

أنا كذلك أعرف يقينًا أنني لم أقرأ هذا الكتاب منذ زمن، ولو قرأته لما وضعت خطوطًا على هذه المقاطع السخيفة..

إذن من فعل هذا؟

تعودت ألا أسأل عما يسبب أي شيء في شقتي، فهي مزدحمة منذ زمن.. لكني لم أعتد كذلك أن تقوم الأشباح برسم الخطوط في كتبي هذا غريب..

لم تعد الأشباح مهذبة راقية كما كانت..

في بيت القس بورلي Borley Rectory في بريطانيا - أكثر أماكن العالم ازدحامًا بالأشباح - كانت الأشباح مهذبة ومنظمة.. كانت أشباحًا بريطانية فعلًا، أمّا هذا ففعل أشباح (بلطجية) بلا شك.. والأسوأ أن ذوقها في منتهى السخف.. لماذا يضع شخص عاقل خطًا تحت عبارة مثل (الدقائق لو احتشدت لصارت ساعات).. أو (الثقافة تمدد عمر الناس)؟

ما علينا..

كنت أفتش في هذا الكتاب بحثًا عن بعض المعلومات المتعلقة بـ...

لا داعي.. هي ليست هنا على كل حال.

اليوم نحكى قصة جديدة.. أعتقد أنها قصة جيدة.. ولا أعتقد أنك ستجد من وضع الخطوط تحت سطورها في مكتبتك...

القصة تتحدّث عن فتاة زرقاء..

يبدو أن الأمور صارت واضحة ويمكنك أن تكمل أنت...

لقد صار الأمر سهلًا.. مطاردات ليلية ومقبرة فرعونية ومومياء غامضة... أنت فهمت كل شيء.. لكن النهاية تختلف عن تلك التي رسمتها في ذهنك..

دعنا نبدأ ولنر...

الجـزء الأول

وفيه حديث شائق عن الطرق الغريبة لصنع المراهم، ومشاكل الدروس الخصوصية، وتكاثر الضفادع، والمكرونة كريهة المذاق، والبيوت الريفية الغامضة التي يرتادها رجال بمعاطف في شهر مايو.

- 1 -

منذ سن السادسة، وهي السن التي توفي فيها أبوه، تعلم سامح أن لفظة تسلية غير موجودة في برنامج حياته.. ليس هناك من يملك المزاج الرائق لذلك أو يملك السعة النفسية.. لا أحد يأخذه إلى الملاهي أو السينما أو النادي مثلًا...

إن أمّه سيدة فاضلة جدًّا.. سيدة صارمة.. وهي تؤمن أن واجبها نحو طفلها يتضمن الصحة والغذاء والكساء والتعليم فقط.. وقد قامت بهذه المهام بكفاءة تامة، ومن المؤكد أنها ستظهر ذات يوم ضمن صور الأم المثالية التي تنشر في المجلات، لكنهم لن يعهدوا لها بتقديم برامج أطفال...

لا يتوقعن أحد منها أن تأخذ الكرة وتطوحها وتطلب من سامح أن يتصدى لها.. ولا يتوقعن أحد أن تأخذه في نزهة على الدراجة..

هكذا تعلم الصبي المفعم بالطاقة أن يخلق تسليته لنفسه..

وحده ذهب للسينما، ووحده ذهب للحدائق، ووحده طارد القطط في الأزقة، ووحده ابتاع دود القز ورباه واحتفظ بالشرانق حتى فقست ديدانها ثم باع الدود...

لقد خلق لنفسه عالمًا ثريًا بحق...

✷ ✷ ✷

السابعة مساء وقد انتهى درس العلوم..

لهذا الوقت من العام مراسمه الخاصّة.. رائحته الخاصّة..

الصيف يقترب، وقد صار النهار قصيرًا.. تم تغيير الساعة حسب التوقيت الصيفي.. أمّا رائحة الجو نفسها فكارثة. رائحة حبوب اللقاح والحصاد والخصوبة.. رائحة أزهار البرتقال في أيكة ما..

في الوقت ذاته يقترب ديناصور مرعب كان نائمًا منذ عام تحت المحيط اسم هذا الديناصور: الامتحانات..

بهذا يجد المراهق المسكين نفسه بين مطرقة جمال الطبيعة والهرمونات الثائرة، وبين سندان الامتحان المخيف ذي الشارب الكث والبدلة الصيفية طويلة الكمين ولسبب ما يرتبط هذا الجو جدًّا بأغنية شادية الجميلة (الشمس بانت من بعيد.. جايه ومعاها يوم جديد)..

شم النسيم.. دود القز.. رائحة البصل والفسيخ.. البيض الملون عيد القيامة المجيد.. اكتشاف أنّ هناك أنفاقًا مظلمة في المنهج لم تدخلها قط، وهو ذات الوقت الذي تكتشف فيه أن ابنة الجيران رائعة الجمال.. كيف لم تلحظ هذا طيلة الشتاء؟ هل كانت عيناك متجمدتين؟؟

اكتشاف آخر مهم: إن ركوب الدراجة في الحقول المجاورة عمل رائع..

هكذا وقد انتهى الدرس توعدهم المدرس الغليظ وهو يلوح بعصا انتزعها من مكتب قديم، وأنذرهم أن الحصة القادمة سوف تبدأ بامتحان يتضمن كل شيء في المنهج:

- «الامتحان على الأبواب.. إن هي إلا أسابيع ويبدأ كل شيء، فلابد أنكم فرغتم من الاستذكار ولا تفعلون إلا تجويد ما تعرفون..»

طبعًا يقع كلامه كالسم على آذان الصبية..

بعضهم موشك على البدء وبعضهم لا يعرف أي شيء عن المنهج.. بالتأكيد لن يقضوا الأيام الباقية على الامتحان في الاستجمام...

لكن الصبية هم الصبية، ومهما كانت همومك وآلامك فإن في الوقت متسعًا للنسيان والمرح..

هكذا ابتعدوا عن دار المدرس وعن عينه لو خرج إلى الشرفة..

هناك تمتد الحقول مترامية رحبة تعجّ بالحياة، فالمعلم يعيش على أطراف المدينة..

وبين الصبية ثلاثة يأتون بالدراجات، هم سامح واثنان آخران كان (عماد) هو الذي اقترح السباق.. وهو صبي يبدو كأنه رجل بالغ.. شاربه مكتمل تمامًا وله سالفان عملاقان..

- «هذه المرّة لن يكون سباقًا عاديًا... سوف ندور حول هذه الأرض كلها.. ثم نلتقي هنا.. (ياسر) سوف يكون الحكم.. سوف يحدد أول من يصل..»

قال سامح في غرور:

- «لابد أنك لا تتعظ أبدًا..»

- «فعلًا.. أحب أن يغلبني الناس..»

لكن هناك مشكلة هي أن جزءًا كبيرًا من الطريق تم تجريفه وهناك هاوية تهبط إلى منحدر عميق.. لا تنس أنّ هذه البقعة من الأرض مرتفعة..

- «لابد من حذر بالغ.. لو انقلبت الدراجة لكانت كارثة..»

الآن تلاشي الامتحان وتلاشى تهديد المعلم.. تلاشى الأهل وتلاشي القلق..

لم يعد في الكون شيء له أهميّة سوى هذا السباق..

من مكان ما رسم أحدهم خطًا بالطبشور.. هذا هو خط البدء وخط النهاية كذلك.. تقف الدراجات الثلاث في صف واحد، بينما يقف (ياسر) رافعًا يديه..

- «الآآآآآآن!... استعداااااد!»

ثم بطريقة درامية:

- «هيا!»

وعلى الفور اندفعت الدراجات الثلاث بسرعة البرق عبر الطريق الوعر..

- 2 -

كان (ماهر) يخاف الماء فعلًا..

بعض الفتيات يتظاهرن بهذا لأنّه يجعلهن فاتنات، لكن بالنسبة للكيميائي ذي الثلاثين عامًا لم يكن يرغب في أن يبدو فاتنًا.. كان يرغب فقط أن يظل حيًّا..

جلس في مقدمة القارب وتظاهر بأنه غير مهتم، وإن لم يستطع فهم كيف يبقى هذا الشيء طافيًا وبأية معجزة.. إنّه يتأرجح.. وفي كل لحظة يدرك أنها النهاية.. سوف ينقلب الآن..

سأل الفتى الريفي النحيل مفتول العضلات الذي يمسك بالمجداف:

- «كم العمق تحتنا؟»

كان الفتى قد جعل ذيل جلبابه بين أسنانه ليسهل العملية على نفسه، فصار جالسًا بسرواله الداخلي، وقد برزت عروق عنقه كالخراطيم، لكنه قال بصوت مكتوم:

- «سبعة أمتار!»

سبعة أمتا.....

هذا يعني طابقين.. كأنك تقف في شرفة تطل من الطابق الثاني.. كثير جدًّا من الماء.. شيء مرعب فعلًا...

لكن الفتى يتعامل كأنه على اليابسة.. لا مشكلة عنده على الإطلاق، دعك من قدرته على التجديف بهذه البراعة.. وبالطبع هو لا يحترم ذعر ماهر بتاتًا.. يعتبره رجل المدينة الرقيع الثري..

ابتلع ماهر ريقه وحاول أن ينسى الحقيقة..

كان هذا الفرع من النيل يقع بالضبط في موضع شبيه بمنحدر بين جبلين.. فوق كل جبل غابة كاملة متشابكة الأشجار لو قرر المصورون عمل نسختهم من (الأرض التي غفل عنها الزمن) فلن يجدوا مكانًا آخر للتصوير..

عندما اتجه إلى القارب أول مرة وجد نفسه يركض بين الأشجار هابطًا برغمه في منحدر وعر.. لا يرى أي أثر للماء... لا يعرف إلى أين هو ذاهب، وفجأة وجد الماء أمامه والقارب واقفًا..

موضع ضيق جدًّا.. كلما نظرت ترى الأشجار المتشابكة على بعد عشرين مترًا.. فقط كلما اقتربت تتباعد الأشجار كاشفة عن سرها المكين: ممر جديد...

جلس ووضع أدواته جواره.. اهتزّ القارب بعنف، وبعد دقيقة وصل الأستاذ صبري الذي يعمل معه في جهاز البيئة.. لم يكن رشيقًا ولا خفيف الحركة، فمال القارب بزاوية 90 درجة..

راح الفتى النوتي يصرخ:

- «انقل رجلك هناك!.. انقل رجلك هناك!»

لكن هذه الأجساد القادمة من المدينة غبية دائمًا.. وقد كان (ماهر) في حالة من العصبية جعلته يوشك على أن يقتل (صبري) ويلقى به في الماء بسبب غبائه...

حمار!.. قالها لنفسه وبصق في الماء.. حمار!

راح ماهر يجفف عرقه. لم يكن جبانًا قط، بل هو من أشجع من عرفهم طيلة حياته، لكنه كان يحتفظ تجاه الماء بفوبيا شديدة.. وعلى قدر ما يعرف فالفوبيا لا تدل على الجبن..

راح القارب يسري ببطء وسط البحيرة..

هناك مجموعة من غصون الأشجار تتدلى في الماء أنها شجرة شعر البنت التي كان يسمع عنها، وهناك سرب صغير من البط يسبح في فخر وشموخ...

أخرج الكاميرا في حذر..

تبًّا.. كل حركة مهما كانت صغيرة تهز القارب هزًّا...

بدأ يلتقط بعض الصور..

ثم إنّه سأل النوتي:

- «أين هذه المياه؟»

- «هناك يا بك.. خلف هذا المنحنى..»

- «إذن الوضع لا يسوء..»

- «لا يا بك.. لكنه لا يتحسن كذلك والنساء خائفات لا يغسلن ثيابهن هنا أبدًا..»

فتح (ماهر) الخارطة التي رسمها بنفسه.. فعلًا هم يقتربون من النقطة..

لا صوت سوى صوت المجداف وصوت المياه..

وفجأة صار المشهد كابوسيًّا..

لقد توغل القارب في منطقة ما، وبدا كأنه يسبح وسط بحيرة من الصلصة أو الدم الماء أحمر تمامًا.. لا توجد نسبة زرقة بسيطة فيه..

صفر الأستاذ صبري غير مصدق، بينما أخرج ماهر الكاميرا بيد مرتجفة وراح يلتقط الصور بلا توقف.

مد صبري يده وغمرها في الماء، فصاح ماهر:

- «أحمق!... قد تكون مادة سامة أو كاوية!»

قال صبري وهو يفرك أصابعه:

- «إذن إنذارك تأخر كثيرًا جدًّا.. لكن لا تقلق.. هذه مياه لونها أحمر لا أكثر..»

- «هل تتجلط على أناملك؟»

- «لا.. ليس هذا دمًا لو كان قد خطر لك..»

لكن تلك الرائحة (الزفرة) قليلًا.. رائحة الحديد وصبغيات الدم.. عندما زار السلخانة في طفولته كانت هذه هي رائحة المكان كله..

بدأ يخرج الدلاء الصغيرة.. ويناولها لصبري الذي راح ينزل كل دلو ليملأه بنحو لتر من الماء الأحمر، بينما راح يقطع قطعًا من الشريط اللاصق ويكتب عليها (وسط البركة).. (أطراف البركة).. إلخ..

وثبت قطعة ورق على كل دلو..

ثم سأل النوتي:

- «تقول إن هذا حدث منذ ثلاثة أيام.. وماذا عن الأسماك؟»

لم يرد الفتى وأشار إلى ثلاثة أسماك من نوعية سمك القط (القراميط) طافية هناك في وسط البحيرة.. لما دقق ماهر أدرك أن العدد كبير فعلًا.. تذكر فيلمًا قديمًا للعبقري كاكويانس اسمه (يوم طفت الأسماك ميتة).. كان الكلام عن تسرب نووي من قنبلة..

سأل النوتي على سبيل التسلية:

- «طبعًا تتكلم القرية كلها عن الجان الذين سكنوا البحيرة..»

قال الفتى وهو مستمر في التجديف:

- «لا يا بك. إن بلدنا مليئة بالمتعلمين.. يعتقد أهل البلدة أنّ هناك تلوثًا في البيئة..!»

نظر له ماهر مغتاظًا وعجز عن التعليق...

- 3 -

كان المنحدر خطرًا بالفعل..

وفي رعب أدرك سامح أن الدراجتين الأخريين سبقتاه...

راح يحرك ساقيه كالمجنون على البدالين، وشعر بأن قواه تتخلى عنه.. يبدو الأمر عسيرًا فعلًا.. هذا الوهن..

يبدو أن لك قدرات لا تستطيع أن تتجاوزها..

مد يده يتأكد من أن الكتب الدراسية التي ثبتها خلفه في السلة في مكان أمين، ثم زاد من السرعة أكثر ودار حول أطراف المنحنى..

هنا حدث ما كان يخشاه منذ البداية..

لم تعد هناك أرض تحت العجلة الأماميّة، ووجد نفسه يطير في المنحدر..

يتدحرج بلا توقف، وإن لم يتخل عن الدراجة.. وقدر وهو مستمر في الهبوط بسرعة أن إصابته ستكون بليغة فعلًا... وإن لم يكن فلسوف تحل بالدراجة كارثة..

يرتطم بالأرض.. يتواثب..

يرتطم بالأرض..

ينقلب..

في النهاية رأى العالم من وضع مقلوب..

وأدرك أن السقطة انتهت وأنه في بطن المنحدر..

فك أطرافه من الدراجة ونهض.. ستكون معجزة لو ظلت أطرافه سليمة.. ذراع.. ذراع أخرى.. هناك الكثير من الدم على الركبتين، لكنه دم من جلد مقشور.. ليس خطرًا..

تحسس أنفه فأدرك أنه ينزف..

أخرج المنديل وضغط ليوقف النزف... الرعاف.. كان اسمه كذا في كتاب العلوم، وكانوا يضغطون على الأنف ويرجعون الرأس للخلف.. ربما قطعة ثلج.. لكن أين هو؟

الآن جاء أهم ما في الموضوع: الدراجة..

المعجزات... إنها سليمة!...

الإطارات سليمة.. لم يلتو (الجادون).. هذا مذهل فعلًا..

في النهاية استطاع أن يقف وقد شعر بأن كل عظمة في جسده تصرخ بلحنها الخاص.. لو كسر لكانت كارثة.. كان عليه أن يفسر لأمه، والمشكلة أن الامتحانات على الأبواب وهذا يعقد الأمور أكثر..

بدأ يمشي وقد أسند الدراجة له.. مع تحسن الوضع استطاع أن يحصر الإصابات فيها. لم تمر السقطة على خير كما حسب للوهلة الأولى، لكن كل هذا يمكن تصحيحه بخمسة جنيهات يجب أن يمرّ على العجلاتي قبل أن يعود للبيت إذن...

كانت منطقة غريبة فعلًا..

إنّه في أسفل المنحدر في مكان غير مطروق.. إن الطريق موجود أعلاه.. وبرغم هذا هناك بيت وحيد كأنه من تلك البيوت التي توجد في الوديان.. فقط لم يكن المنحدر عميقًا لهذا الحد بالطبع. لابد أنه تدحرج خمسة وعشرين مترًا لا أكثر بشكل مائل وليس عموديًا..

المشكلة الآن هي التسلق لأعلى من جديد.. لابد من وجود طريق صاعد سهل..

نظر للسماء فأدرك أن لونها صار رماديا.. المرحلة الأخيرة قبل زرقة الليل.. سوف يهبط الظلام خلال ساعة وعليه أن يخرج من هنا سريعًا..

هنا استوقف نظره شيء..

✷ ✷ ✷

كان البيت واضحًا تمامًا لعينيه الآن.. لكنه كان متواريًا بين أعشاب عالية جعلته خفيًّا تقريبًا..

هكذا استطاع أن يرى ذلك الرجل فارع الطول الذي يلبس معطفًا أسود طويلًا، لا يمكن أن يسمح به الجو الربيعي..

من أين جاء؟.. لا توجد سيارات واقفة هنا..

كان الرجل يتقدم في تؤدة نحو الباب.. نظر حوله نظرة عابرة شأن من يعرف أنه لن يقابل أحدًا. ثم إنّه قرع الباب عدة مرات بيد حديدية..

من الداخل دوى صوت غمغمة.. فقال بصوت عالٍ وبلكنة شبه أجنبيّة:

- «(معات) هنا.. المجد للقادمين من أيونو!»

هنا جاء الصوت من الداخل بنفس اللكنة:

- «قبلناك أخًا!»

وانفتح الباب.. وسرعان ما غاب الرجل بالداخل..

لم يفهم سامح بالطبع أي حرف مما يحدث.. فقط فهم الشيء الوحيد الممكن: اخرس ولا تدعهم يعرفون أنك هنا..

ظل متواريًا حيث هو، ولسبب ما راحت قدمه اليسرى ترتجف بلا توقف..

من هؤلاء؟ هل يصورون فيلمًا سينمائيًا هنا؟.. الناس لا يتكلمون بهذه الطريقة.. الجو كله غير حقيقي..

نهض نصف نهوض وقد أزمع على أن يركب دراجته ويفر، لكنه فوجئ بأن رجلًا آخر بمعطف يدنو من البوابة ويدق الباب... ويتكرر السيناريو...

- «(آهي) هنا.. المجد للقادمين من أيونو!»

جاء الصوت من الداخل بلكنة شبه أجنبيّة:

- «قبلناك أخًا!»

وانفتح الباب.. وغاب بالداخل..

إذن هو أقرب إلى اجتماع سرّي.. هذه كلمة السر من دون شك..

الآن يمكنه أن يعود.. يمكنه أن يفر بسرعة قبل أن يهبط الظلام.. هذا بالطبع لو كان شخصًا طبيعيًا يملك بعض المنطق ويقدر على التعقل..

لكن منذ متى كان الصبية في سن سامح يملكون أية قدرة على التعقل..؟ ضع أمام الواحد منهم إصبع ديناميت وإصبع ألوان شمع.. ما الذي سيختاره؟.. أنت تعرف الإجابة...

- 4 -

هكذا أخفى (سامح) الدراجة بين الأعشاب وراح يزحف كأنه يمثل فيلمًا يدور في أحراش فيتنام...

اقترب أكثر من البيت...

نظر خلفه لأنّه يعرف ما سيحدث.. سوف ينهمك في الزحف فلا يفطن إلى أنّ هناك من يزحف خلفه خطوة بخطوة.. وفي اللحظة الأخيرة ينقض عليه..

لكن ليس الخطر داهمًا. هو في النهاية صبي مزعج.. لن ينال سوى صفعتين وركلة على الأرجح لو ضبطه أحد. لو فعلوا ما هو أكثر لدل هذا على أنهم قوم خطرون بحق..

✷ ✷ ✷

هناك دائمًا ذلك الرجل الغامض الرجل الذي يقف على قارعة الطريق ويناديك.. يقول لك إن معه ساعة جديدة تليق بك. سوف تصدق كالأبله وتذهب معه... سوف يخطفك.. سوف يكمم فمك.. وعندما تفيق تجد أنك معلق من قدميك من السقف..

تحتك يوجد إناء به ماء يغلي.. البخار يتصاعد.. يخنقك..

الدهن يسيل من جسدك ويتساقط في الإناء وهكذا تمر ساعات عليك وأنت تذوب ببطء..

هكذا كانت أمّه تلخص دائمًا السيناريو الذي سيحدث لدى أول تعامل مع الغرباء، وكان لهذه المناورة هدف محدد هو الحصول على المراهم!... الدهن الذي سيسيل من جسده سوف يصير مراهم!

كان يقول لأمه في شيء من السخرية: ألا توجد طريقة أسهل لصنع المراهم؟.. وماذا لو فعلوا هذا مع حيوان؟.. ما لم يكن يقدر على قوله هو أن كل عمل في الدنيا يخضع لحساب جدوى حساب تكاليف.. لماذا يقتل أحدهم الصبية للحصول على مراهم هي بالتأكيد أرخص من هذا الجهد كله؟

عندها يكون رأى أمّه أنه ولد قليل الأدب وغبي كذلك.. سوف يخطفونك وسوف ترى..

هل هذا سخيف؟.. ربما.. لكن لو كبرت يا سامح لعرفت أن إسرائيل تبتز ألمانيا حتى اليوم بادعاء مماثل، حول إذابة أجساد اليهود في المعتقلات لصنع الصابون RIF والكثيرون يصدقون

هذا..

الآن أنت تقترب جدًّا من معرفة الحقيقة...

✷ ✷ ✷

كان يدور حول البيت.. ينظر لبعيد كي يتأكد من أن أحدًا لا يراه ثم يواصل الدوران..

البيت بيت عتيق من طابقين.. يبدو أن خدمات السباكة فيه سيئة جدًّا. كل النوافذ بالطابق الأرضي مغلقة بإحكام ومدعمة بقضبان حديدية..

لكن هناك دائمًا ثغرة ما، والثغرة التي كان يبحث عنها موجودة في الجهة الأخرى من البيت.. هناك دورة مياه صغيرة كما هو واضح، وهناك نافذة ضيقة مهشمة.. واضح أنها لا تغلق..

نظر سامح حوله.. لا مفاجآت كئيبة..

كانت هناك قطعة حجر غير ثقيلة لكنّها تسمح له بأن يقف فوقها. جرها بكثير من الجهد إلى ما تحت النافذة، ثم صعد عليها.. مد ذراعيه يحاول ألا يقع.. إن جسده يؤلمه فعلًا.. لن يتحمل سقطة أخرى..

أطبق قبضتيه على إطار النافذة وتسلق بصعوبة..

الفتحة ضيقة، لذا تخيل أنه فأر.. هذا يعطي جسدك مرونة غير عادية.. سرعان ما استطاع أن ينزلق إلى الداخل..

بالطبع لم يكن بارعًا لذا كاد يسقط برأسه في دورة المياه، واستطاع أن يستعيد توازنه بصعوبة. لحسن الحظ لم تكن دورة المياه مستعملة على الإطلاق.. المرحاض جاف ملوث بالغبار وبلا نقطة ماء. المكان كله جاف مترب تمامًا..

هيا يا بني.. لقد رأيت ما يكفيك...

العودة ستكون صعبة فعلًا لأن الخروج من هذه النافذة أعقد من الدخول..

لكنه كان شبه منوم.. قدماه تتحركان بإرادة خاصة بهما، وقد قررت القدمان أن تمشيا في الردهة خارج دورة المياه..

فر فأر من فوق قدميه.. فأجفل..

هناك ردهة شبه مظلمة فعلًا.. لكن الضوء الخافت المزرق يدخلها، من أبواب جانبية مواربة..

مشى بضع خطوات هناك وفي النهاية وجد بابًا مواربًا إلى يمينه فدخله..

كل شيء بدا مألوفًا برغم الإضاءة الخافتة الواهنة.. نفس المنظر راه مرارًا في المتحف المصري... توابيت.. توابيت فرعونية في صناديق خشبية مكومة في إهمال. أسلوب المخازن المعروف.. هناك ما لا يقل عن سبعة توابيت هنا..

بيت في مكان منعزل.. قبو.. توابيت... ماذا ينقصنا؟

القصة واضحة تمامًا... وإن كانوا أغبياء بالتأكيد.. يتصرفون بشعور زائف بالثقة، لذا نسوا هذه النافذة التي دخل منها، وعلى كل حال يفترض المرء دومًا أن خصمه كبير الحجم وليس في حجم الفأر مثل سامح..

كانت هناك علامة تتكرر على كل التوابيت الخشبية.. تشبه شكل قطع ناقص بداخله نقوش فرعونية.. هذا مشهد مألوف.. لو كان أكبر قليلًا لعرف أنها (خرطوشة) من التي يدونون.. عليها أسماء الملوك.. كانت العلامة مرسومة بالطلاء الأسود وبيد معاصرة.. مجرد تعريف بمحتوى التابوت..

شعر بأنه يريد الاحتفاظ بشيء من هذا كله. مد يده إلى الخشب الهش الشبيه بالخشب الحبيبي وراح يجاهد لينزع قطعة كاملة.. هناك أجزاء بين العروق وبعضها يسهل انتزاعها.. قطعة نقش عليها هذا الرمز بوضوح.. ها هو ذا!.. ضعه في جيبك بسرعة..

ولكن هل هناك شيء في هذه التوابيت؟

للمرة الأولى يفكر في هذا الاحتمال المرعب. جثث محنطة شاخصة البصر ترقد هنا.. على بعد سنتيمترات منه وفي هذه الإضاءة الخافتة وهو وحده تمامًا..

بالطبع هذه الجثث غضبى لأن هناك من أقلق منامها.. أقلقه لأول مرة منذ آلاف السنين.. تصوّر مثلًا أن غطاء تابوت انفتح وبرز رأس محنط متحلل ليقول شيئًا!..

ثم.. لعنة الفراعنة...!

لقد قرأ عنها في إحدى المجلات، فهل هي حقيقيّة؟

✷ ✷ ✷

الضوء في نهاية الردهة.. الباب العملاق المخيف..

كل شيء يدل على أنّ هذه هي الغرفة..

غرفة ماذا؟.. إن من جاءوا من الخارج يجتمعون هنا.. وعلى الأرجح هم لم يصعدوا للطابق الثاني.. إنهم في غرفة ما هنا.. وعلى الأرجح هي هذه....

غرفة مغلقة تمامًا والردهة مظلمة لكن الضوء يخرج من تحت الباب ومن جوانبه.. ذلك التأثير المخيف الذي يعرفه هواة أفلام الرعب.

كل شيء في الكون يقول له أن يفر..

الآن....

لكن كما قلت لك كان الانبهار يسيطر عليه، مع فضول كاسح يفوق أي خوف في العالم كانت قدماه تتحركان برغمه وبإرادتهما الكاملة..

لا يعرف كيف وجد نفسه يزحف ليقف إلى جوار الباب ويأخذ شهيقًا عميقًا...

أنا صبي.. طفل صبي.. سوف يصفعونني ويلقون بي في الخارج.. لا شيء أكثر من هذا.. اهدأ قليلًا.. كف عن الرجفة وإلا سمعوا صوت ركبتيك..

من الداخل يأتي صوت مبهم..

لا.. ليس مبهمًا.. بل هو يتكلم بلغة غريبة.. لا شك في هذا..

ثم دوى صوت بالعربية ذات المذاق الأجنبي يقول:

- «حفات.. ماعت... أمرتكم ألا تستخدموا هذه اللغة!.. استعملوا لغة هؤلاء القوم!»

ومن موضع ما جاء صوت يقول:

- «الحقيقة تقترب.. المجد للقادمين من أيونو!»

ثم الأول يسأل:

- «هل اكتمل عدد الأخوة؟.. الكل بالداخل؟»

- «نعم.. ونحن ننتظره...»

- «إذن فلنطلق الكلاب!!»

كلاب؟؟؟؟

- 5 -

من جديد أعاد ماهر ضبط عدسة المجهر، ثم وجه المرأة المستديرة الصغيرة نحو النور لتعكس له صورة أفضل. قرب عينة من العدسة وراح يحاول فهم شيء من هذه الصورة..

كان يجلس هناك على مقعد متداع، وأمامه منضدة متداعية في تلك الأرض المحروثة.. تذكر على الفور المراقبين الصحيين الذين يحللون البول والبراز في الحقل.. منظره لا يختلف كثيرًا...

رشف رشفة من كوب الشاي.. شاي الريف القوي الذي ينعش الحواس كما لا ينعشها شيء.. وقال لصبري:

- «هذا ليس دمًا.. لا خلايا من أي نوع ولا يتجلط.. إنِّه لون أحمر يحتاج إلى تحليل كيميائي مدقق..»

ثم أضاف في احتياط:

- «تذكر أنني كيميائي.. لست طبيب تحاليل..»

قال صبري وهو يرشف رشفة قوية من الشاي:

- «لا توجد مصانع هنا.. هل تعتقد أن أحدهم تخلص من حمولة كيميائية ما؟»

- «سوف نعرف.. على كل.. هذه الحمولة تقتل الأسماك..»

كان الجالسون من حولهم هم د. مينا طبيب الوحدة الصحية، والحاج (عبد المستجير) وهو شخص ما.. بالتأكيد هو شخص ليس العمدة لكنه أحد قيادات القرية من ذوي الأهميّة.. شاربه الغليظ وعباءته وعصاه يؤكدون أنه مهم جدًّا.. وكان هناك الفتى النوتي النحيل.. بالنسبة لأهالي القرية فإن (ماهر) و(صبري) يمثلان الحكومة.. يتعاملون معهما بنوع من الشك والاحترام والحرص والمقت.. منذ أيام أحمس لا تجلب الحكومة سوى المتاعب..

قال الحاج (عبد المستجير):

- «لكن هذه المياه تشبه الدم فعلًا.. والعياذ بالله..»

قال ماهر وهو يعد شريحة أخرى:

- «ما أكثر الأشياء الشبيهة بالدم. هل أكلت قطعة من البنجر من قبل؟.. يُمكنك أن تقسم بعدها عندما تجد أن مياه المرحاض حمراء تمامًا أنّ هناك نزفًا في أحشائك... لو التهمت بعض السبانخ

لبدا البراز كأنه دم مهضوم..»

هنا قال د. مينا:

- «لابد من تفسير كيميائي واضح لهذه الظاهرة وظاهرة الضفادع!»

هنا توقف ماهر عما يقوم به ورفع حاجبيه في دهشة:

- «عم تتكلم؟»

- «الضفادع..»

- «ليست لديَّ أدنى فكرة عن الموضوع!»

قال الحاج (عبد المستجير) وهو يسند ذقنه على مقبض العصا:

- «أبلغنا وزارة الزراعة بالأمر.. حسبنا أنكما جئتما لهذا السبب..»

- «هل هذه القرية تربي الضفادع وقد بدأ إنتاجها يقل؟..»

ضحك الحاج في مرارة ورشف رشفة من الشاي وقال:

- «بل هي تتزايد..»

- «تتزايد؟»

- «لو جئتما معنا إلى الساقية لرأيتما..»

✷ ✷ ✷

المشهد كان لا يصدّق فعلًا..

عندما تراه من بعيد يخيّل لك أنّ هذا (زلط) مكوم بكميات هائلة.. نفس ما تراه أمام أية بناية يتم تشييدها. ثم تدنو أكثر فتدرك أن الساقية والمجرى المائي جوارها مسكونة بأشياء صغيرة تتحرك.. تدنو أكثر فتراها تتقافز...

ضفادع.. ضفادع.. مئات منها.. بل آلاف...

كان الربيع على الأبواب لذا كانت الذكور تصدر نقيقها المميز، وكانت تجثم فوق بعضها البعض فلا تترك موضعًا يسمح بالحركة أو التنفس.. هناك جبال صغيرة منها بلا مبالغة..

كلما حسبت أنّ هذه البقعة عبارة عن أرض صالحة للمشي، اكتشفت أنها أكوام من الضفادع الأرض التي تتحرك بشعة دائمًا...

أمّا عن الصبية فحدث بلا تحفظ.. لقد كان هذا يومهم..

كان هناك حشد من الصبية يلعبون بالضفادع لعبًا.. يقذفونها لبعضهم ويملئون بها ثيابهم.. ويجرون وراء بعضهم بها، وكان واضحًا أن الكبار لا يعترضون على هذه التصرفات بل ويشجعونها..

وكانت هناك مجموعات من النسوة يملأن بالضفادع (الغلقان) ثم يحملنها، بينما رجل مثل مقاولي الأنفار يصدر تعليماته وهو يلوح بعصا:

- «همتك يا بت منك لها!»

كن يركضن نحو حفرة عميقة على بعد مئة متر، فيفرغن (الغلقان) فيها ويعدن... بينما كان فلاحان يردمان هذه الحفرة..

بدت الميتة بشعة في نظر ماهر، لكن ما الحل؟.. كيف يمكن الخلاص من هذه البرمائيات؟... إنّه خطر بيولوجي داهم لا شك فيه..

صيحة غراب...

التفت للخلف فرأى أن غرابين اكتشفا كنز اللحم هذا.. لا بأس.. فيأت آخرون فلن ينجحوا إلا في تخفيف الكارثة نوعًا..

قال الحاج (عبد المستجير):

- «لا تتوقف النسوة عن ردم الضفادع.. لكنّها لا تكف عن الظهور.. أعداد جديدة في كل لحظة ولا نعرف من أين جاءت..»

لو كنا في بلد يأكل الضفادع لصار هذا مصدر ثراء لأكثر من مطعم..

- «إنها صالحة للتسميد على كل حال..»

- «لكن لماذا؟.. ماذا أصاب هذه القرية؟..»

هنا فقط أدرك ماهر أن الأمر أكبر منه.. لابد من الاتصال بوزارة الزراعة فورًا.. لابد من تدخل الدولة وطبعًا استدعاء فريق من الخبراء.. لا يمكن أصلًا إبادة هذه الضفادع إلا بمادة سامة..

إنه ليس قليل الخبرة. لقد رأى الكثير وسافر للخارج مرارًا.. لكنه لم ير شيئًا كهذا من قبل..

حتى وهو واقف كانت الكائنات التعسة تتزاحم حول حذائه وتتواثب من حوله.. كانت تزحف عليه.. لو كانت الضفادع تتسلق لصعدت إلى سراويله..

ركل ثلاثة ضفادع تزاحمت حول حذائه وهو يفكر بعمق..

قال طبيب الوحدة:

- «ليس هذا هو المكان الوحيد.. هناك أكثر من موضع في البلدة يشهد الظاهرة ذاتها.. والأغرب أنّ هذه الضفادع تعيش في المياه الحمراء التي فتكت بالأسماك..»

هذه نقطة غريبة أخرى.. لو كان هناك تسمم كيميائي لقتل كل كائن حي..

فيما بعد رأى فيلم (الفك المفترس).. خصوصًا اللقطة الشهيرة (نحتاج إلى قارب أكبر). كان هذا هو موقفه بالضبط في هذه اللحظة، وهو يقف زائغ العينين ينظر حوله في بلاهة ويبلل شفتيه بلسانه مرددًا:

- «نحتاج إلى آخرين.. نحتاج إلى آخرين...!»

- 6 -

الآن لم يعد هناك مجال للفضول أو الاستزادة من المعلومات..

انطلق (سامح) كالسهم عبر الممر المظلم.. تبًّا.. هل كان بهذا الطول أول مرة؟

على اليمين... دورة المياه كانت على اليمين..

أخطأ مرّتين، إلى أن وجد الباب الذي عبر منه أول مرة.. «*الدهن يسيل من جسدك ويتساقط في الإناء..*»

صعد فوق المرحاض وراح يقدر الطريقة التي يجب أن يعبر بها هذه النافذة الضيقة.. لا يريد أن ينحشر صدره في لحظة كهذه..

في النهاية دسّ جسده في الفتحة وتدلى إلى الخارج.. ثم انقلب ليسقط خارج النافذة على الأرض...

إنه في العراء على الأقل.. لقد غادر بيت الدببة المتوحشة.. الليل قد حل فعلًا لكن الرؤية واضحة..

نهض واندفع يركض مبتعدًا.. دراجته وسط الأعشاب على الجانب الآخر عند مدخل البيت الرئيس.. قلبه يتواثب كالطبل، لكنه صبي وحالة قلبه ممتازة.. لو كان أكبر سنًا لهلك من الانفعال..

هنا سمع الصوت الذي يخشاه.

هاوهاوهاو!

هناك كلاب فعلًا وقد أطلق سراحها!

أين هي؟.. لماذا لا يراها؟ هل هي مربوطة يقودها مدرب شيطاني أم هي حرة طليقة...

انطلق يركض نحو الجهة الأخرى من البناية، وعندما بلغ الأعشاب راح يركض بحثًا عن الدراجة..

هاوهاوهاو!

«*تحتك يوجد إناء به ماء يغلي.. البخار يتصاعد.. يخنقك..*»

«*وهكذا تمر ساعات عليك وأنت تذوب ببطء..*»

وجد الدراجة أخيرًا فأوقفها ووضع قدميه على البدالين كأنه يتعلم ركوب الدراجة لأول مرة..

هاوهاوهاو!

الصوت يتعالى أكثر.. إن الكلاب قريبة جدًّا..

لا تنظر للخلف.. انطلق... بالله عليك انطلق..

هكذا انطلق بسرعة البرق.. وسمع من يتكلم من خلفه وسمع صوت الكلاب، لكنه كان قد تحول إلى نوعٍ من الشهب لا توجد قوة أرضيّة قادرة على الإمساك به..

ابتعد عن البيت جدًّا..

هنا وجد أنّ هناك طريقًا صاعدًا.. سوف يعود به إلى عالم الأحياء بالتأكيد..

كان الصعود مرهقًا بالدراجة لكنه راح يحث عضلات ساقيه على الاستجابة.. وبعد دقائق أدرك أن الأرض ممهدة وأنه صار بالفعل في مستوى أعلى مما كان فيه.. يمكنه أن يرى المعالم المألوفة للعالم الذي كان فيه... هذا الشارع الذي يوجد فيه بيت المعلم.. هنا بدأ السباق..

انطلق نحو علامات الطبشور التي رسموها منذ ساعة.. بل ساعتين..

هنا لا يدري من أين ظهرت الدراجتان الأخريان..

وسمع (عماد) يُطلق سبة:

- «أين كنت أيها الـ...؟ ... لقد بحثنا عنك.. لم نجرؤ على العودة من دونك..»

هتف لاهثًا:

- «الآخرون؟»

- «عادوا لبيوتهم طبعًا..»

تساءل صاحبه الآخر:

- «ماذا حدث لك؟.. كل هذه الكدمات.. وشاحب مثل...»

هتف سامح بلهجة آمرة لا تقبل المناقشة:

- «فلنعد بأسرع ما يمكن.. انطلقوا كالبرق.. ربما أشرح لكم كل شيء فيما بعد...»

وعلى الفور انطلقت الدراجات الثلاث تحت جنح الظلام لا تهتدي إلا بنور خافت من مصابيح الطريق..

لم يفهم الصديقان المشكلة، لكن ذعر سامح كان رسالة بليغة جدًّا تنهاك عن الأسئلة.. هناك كارثة وكفى... وقدر الصبيان أن الأمر يتعلق بتحطيم زجاج أو الارتطام بسيدة مسنة.. شيء من هذا القبيل.. هذا سبب مناسب جدًّا للإسراع..

ولهذا السبب لم يوجها أسئلة أخرى عندما بلغ سامح بداية الشارع الذي يقود لبيته..

لوح لهما بيده فلوحا له مودعين..

سيكون على كل منهم أن يفسر لأهله سبب كل هذا التأخير..

✷ ✷ ✷

كان سامح عندما عاد لداره يتصرّف بالضبط كالزوج الذي أمضى ليلة صاخبة مع رفاقه ثم عاد للبيت متسللًا.. لولا الغرابة لنزع الحذاء ليدخل حافي القدمين..

لقد فتح باب الشقة وكان صوت أخته تتكلم مع أمّه في المطبخ.. لم يلحق بهما بل هرع إلى حجرته الصغيرة وبدل ثيابه بسرعة ثم هرع إلى الحمام وقدر أنّ هذا يمنحه بعض دقائق أخرى حتى يعود لوجهه لونه الطبيعي..

السبانخ.. للمرة الأخيرة هذا العام فقد رحل الشتاء..

رائحتها الزكية تفعم الشقة، وصوت الأطباق توضع على المنضدة....

كان ما زال في الحمام.. نظر لنفسه في المرآة.. طالعه وجه المراهق الذي بدأ الزغب ينمو على شفته العليا وامتلأ جبينه بالحبوب.. كان مذعورًا كأن الشيطان يطارده..

هلم يا بني..

عليك أن تتماسك وتصمت..

ربما كان ما رأيته مهمًا، لكنك ارتكبت جملة من الأخطاء... لديك ما يكفي من مشاكل فلا حاجة لأن تقحم أحدًا في القصة...

- 7 -

صبت الأم السبانخ في طبقه، فعقد أنامله تحت ذقنه يراقب البخار..

هناك طبق من الأرز وقطعة لحم صغيرة تناسب دخل الأسرة، ولا تتوافر يوميًا طبعًا.. هناك بخار كثير جدًّا..

لابد أنّ هذه البقرة مخطوفة وهناك من يريد صنع المرهم من دهنها.. كانت التجربة قد هزت أعصابه فعلًا، وأدهشه أن قدرته على التمثيل ليست لا نهائية كما كان يحسب.. كان يحسب نفسه أبرع من هذا لكنه مجرد طفل بريء آخر..

لا يستطيع أن يأكل أو يتظاهر بذلك..

كانت (ريهام) أخته تواصل سرد القصة لأمه، وهي تقلب الخضر مع الأرز في طبقها:

- «قلت لها إنها كذابة.. قالت لي لا أسمح لك بهذا.. فقلت لها إن ما يسمح لها بالكذب الصريح يسمح لي بأن أتهمها بالكذب.. تزعم أنها لم تقابل خطيبها بينما أنا رأيت كل شيء و...»

ثم توقفت ونظرت له:

- «ألا تأكل؟»

هزّ رأسه في حرج ورفع الملعقة التي تحتوي جرامًا أو أقل من الخضر ودسها بين شفتيه..

كانت (ريهام) طالبة في كلية الآثار، وبالتالي هي تكبره بعدد من السنوات.. حاليًا صارت هي رفيقة درب أمها وربما زوجها كذلك.. علاقة معروفة جدًّا بين الأم وابنتها عندما تتحولان إلى صديقتين متفاهمتين تمامًا. عندما تمشيان معًا. يخيّل لك أنهما شيء واحد.. فقط واحدة تمثل شكل الأخرى بعد عشرين عامًا ريهام تعرف كل الأسرار وميزانية البيت، وتقوم بكل الأعمال المستحيلة مثل الشجار مع شبكة الكهرباء، والشجار مع إدارة المعاشات وحجز الدروس الخصوصية لأخيها..

كانت جميلة فعلًا.. على الأقل كان يراها كذلك، يمكن أن يتخذها أي فنان نموذجًا للحوريات.. وكانت قادرة على حمايته والذود عنه..

من جديد قالت الأم:

- «سامح.. ألا تأكل؟»

قالت ريهام وهي تتأمل أخاها الشارد:

- «دعيه.. دعيه يا أماه.. إنِّه يشعر بالخجل لتأخره كل هذا الوقت.. لسبب ما ينسى أننا في نهاية العام، وأنه لا يملك كل الوقت في العالم..»

لم يرد وحاول بضمير مخلص أن يأكل شيئًا..

لما انتهى الغداء، قام بعمل يندر أن يقوم به؛ هو أنه اتجه للشرفة وراح يرمق الشارع هذه النزعة التأملية الرومانسية تعني كارثة عندما يمارسها صبي صاخب مثله.

هنا فقط أدركت الأم أن الأمر ليس طبيعيًا..

قالت لريهام إنها قلقة.. وريهام كذلك شعرت بعدم راحة..

- «لا تتدخلي أنت من فضلك..»

قالتها لأمها.. فهي تعرف أن أمها ستدخل الشرفة لتزجره وتتهمه بكل شيء ممكن، ثم تقسم أنه يدخن أو هو متعلق بفتاة مائعة ممن يسمعن أغاني (هاني شاكر).. إلخ.. سوف تزيد الأمر سوءًا..

دخلت ريهام ووقفت جوار أخيها يرمقان الظلام.. وبدأت تستنطقه ببطء..

هكذا حكى لها مغامرة الليلة المؤسفة..

✷ ✷ ✷

راحت تتأمل الخرطوشة المرسومة على قطعة الخشب في اهتمام..

لا تعرف كيف تقرأ... لكن بالتأكيد تعرف من يستطيع ذلك...

قالت له وهي تلف قطعة الخشب في كيس من النايلون حتى لا يتلف النقش:

- «لو لم يكن هناك جزء من التأليف في قصتك هذه فهي قصة مرعبة..»

قال في إرهاق والهالات السوداء تتسع تحت عينيه:

- «بالتأكيد لا أرغب في التأليف الآن..»

ثم سألها في قلق:

- «ما رأيك؟.. هم لصوص آثار. أليس كذلك؟»

قالت في شرود:

- «لصوص آثار يتكلمون بهذه الطريقة ويقولون (المجد للقادمين من أيونو)؟.. هذا غريب نوعًا.. ثم ماذا يفعله الصوص الآثار في ضواحي القاهرة؟»

ثم راحت تلتهم أطراف خصلات شعرها كعادتها كلما فكرت وقالت:

- «سأجد تفسيرًا.. أمّا أنت فقد انتهى دورك في القصة.. لا تنس أن الامتحانات على الأبواب وأنك أضعت وقتًا ثمينًا..»

قال في صدق:

- «أرجو ألا يضيع أكثر..»

جلست تفكر بعض الوقت... فعلًا هي ميالة إلى أن تغلق الباب على القصة.. لا مزيد من الأسئلة بعد هذا.. لكنّها بحاجة فعلًا إلى أن تسمع رأي أحدهم عن هذه الخرطوشة. لماذا تشعر بهذا الشعور الغريب كلما لمستها؟..

ونظرت للوراء من فوق كتفها. هنا رأت أن (سامح) يمسك بسماعة الهاتف ويثرثر.. وقد فتح محتويات حقيبته المدرسية فبعثرها على المنضدة..

استبد بها الغضب فقالت له:

- «ما زلت تضيع الوقت بعد كل ما ضاع؟»

قال وهو يسد السماعة:

- «كتاب العلوم ليس معي... ربما كان مع ياسر...»

- «إذن.. انته بسرعة..»

وانصرفت وهي شاردة الذهن.. اقترب امتحاني أنا أيضًا لكني أنصح (سامح) بلا توقف.. لا يلاحظ أحد أنني أضيع الكثير جدًّا من الوقت..

الحقيقة التي لا تكف عن مداراتها هي أنها تحب.. تحب جدًّا.. تحترق.. وعندما يحبّ المرء جدًّا أو يحترق، فإن الاستذكار يصير وهمًا.. دعك بالطبع من هذا الجو اللعين الهرموني الذي تخشاه.. لقد انطلقت أسراب الحيتان ونزلت الفقمة إلى المياه الدافئة، وأعلن الكون صرختة: إنني أحيا! تكاثروا...!

لكن عليها أن تقاوم وأن تدفن نفسها في الكتب.. هذا قاس فعلًا..

موضوع حبها كذلك غريب.. إنّه يكبرها في السن عدة سنوات. إنّه يعرج بسبب حادث أصاب ساقه اليسرى.. إنّه مسيحي وهي مسلمة.. إنّه متزوج.. عوائق بسيطة جدًّا بالنسبة لها كما ترى. لا ينقصها إلا أن يكون مصنوعة من حجر بحيث يستحيل أن تتزوج منه أبدًا...

كان أستاذًا في الكلية، ويشغل عدة مناصب في الوزارة.. إنّه من أهم الأسماء التي تُذكر كلما جاءت سيرة الآثار.. وهي طالبة..

لهذا قد وجدت حجة ممتازة لزيارة مكتبه غدًا..

- 8 -

- «أدخل..»

قالها د. (رمزي حبيب) عندما سمع الدقة على الباب..

كان يدون بعض الملاحظات بصدد محاضرته التالية، وقد فتح عدة مراجع مما أحال المكان إلى فوضى.. ولابد أنه أوقع قدح القهوة على مرجع ما لأن المناديل الورقية كانت في كل مكان حياته مع العكاز كذلك جعلت كل شيء أعقد..

إنها تلك الجلطة اللعينة التي قضت على عضلات الساق، وهو بطبعه رجل نشيط يحبّ أن يعمل ألف شيء في وقت واحد..

فيما عدا هذا كان يتمتع بظرف وحيوية لا مثيل لهما. دعك من أن مشيته بالعكاز كانت تضفي عليه عظمة غريبة.. لا أعرف السبب لكن هناك نوعًا أرستقراطيًا من العرج، كما أنّ هناك نوعًا فاتنًا من الحول لدى الفتيات..

كانت ريهام قد قررت أنّ هذا هو الرجل المناسب لها، وكان هذا قرارًا سريًّا لا يعرفه سواها.. أمّا عن تبعات هذا القرار فلا وجود لها عدم تكافؤ من ناحية السن والدرجة العلمية والحالة الاجتماعية والدين.. أي أنها لو كانت غارقة في حب إلفيس بريسلي لما اختلف الوضع عن هذا!

على كل حال كان وجوده يضيف دفئًا لحياتها.. إنها تنتمي له بشكل ما.. هنا مركز اهتمامها وأحلامها. ثم إنّه يمنحها مادة لا تنتهي للعذاب في البيت.. زوجته التي لم ترها هي (المرأة الأخرى).. وهي تقنع نفسها طيلة الوقت أنه لن يجد مثلها أبدًا.. إلخ..

من قال إن سن التاسعة عشرة بعيدة عن المراهقة؟

لما رآها بش وجهه وقال:

- «طالبتي المجدة.. ليس من المعتاد أن نراك في هذا الوقت من العام. أخشى كذلك أن أقول إنني مشغول جدًّا..»

دخلت أكثر حتى وقفت أمامه ومدت يدها في جيبها لتخرج قطعة الخشب:

- «لنقل إنها استشارة في المنهج..»

أمسك بقطعة الخشب وقربها من أنفه.. وقال:

- «أشعر كأنني مثمن قضائي.. من أين جئت بها؟»

ثم تصلب وأعاد النظر للكتابة.. وهذه المرّة تبدل وجهه..

- «من أين جئت بها؟»

- «أفضل عدم ذكر ذلك يا سيدي..»

شعر بالرجفة تعود لذراعه والرجفة التي تعاوده كلما جاء ذكر تلك القصة.. لا ينكر أن فيها جوًا مقبضًا خاصًا..

- «هل هناك الكثير منها؟.. الموضوع مهم جدًّا..»

قالت في غموض:

- «ما أعرفه هو أنّ هذا الشعار على عدة صناديق في مكان ما..»

اعتدل في جلسته ووضع قطعة الخشب على المكتب وقال:

- «أنا بحاجة لبعض الوقت كي أتأكد من أنّ هذا ما أعتقده.. لنبق على اتصال يا ريهام.. عودي لي بعد غد.. سأعطيك إجابة كاملة..»

هزت رأسها باسمة وانصرفت..

كان عقلها وقلبها عامرين بالأحلام، فقد تزودت بزاد هائل من صوته ولفتاته ونظرات عينيه.. سوف تحلم كثيرًا الليلة.. لكنه كان في مشكلة.. كان عقله عامرًا بعلامات الاستفهام..

لو صدق حدسه فهذا أهم كشف أثري يقع عليه طيلة حياته..

هناك من يجب أن يعرف بهذه القصة..

✷ ✷ ✷

هكذا يُمكنك أن تفهم لماذا اتصل بي د. (رمزي حبيب) في الثامنة مساء..

سألته عن صحته وعن ماري زوجته فلم يبد مهتمًا بالرد فقط دعاني إلى بيته بعد ساعة.. قال إن لديه أشياء مهمّة يجب أن يخبرني بها..

كنت منهمكًا في إعداد طعام الغداء.. لا تسأل عن سبب إعدادي الغداء في الثامنة مساء فقد تجاوزنا زمن هذه الأسئلة.. كنت أعد بعض المكرونة كالعادة. ولا تسأل عن رائحة الطعام الكريهة

التي تملأ المكان، فهذا أفضل ما يمكنني أن أقوم به وعلى من يرغب في انتقادي أن يتطوع هو بالطهي لي..

قلت له:

- «أنا جائع فعلًا.. والقدوم لبيتك يعني تدمير كل خططي لأن الطعام الذي سأطبخه يعني غداء اليوم وغداء الغد..»

قال في نفاد صبر:

- «سوف أطعمك أنا.. لدينا بقايا طعام من الغداء على ما أذكر..»

قلت له في صبر:

- «اسمع.. بصراحة لا أجد لقدومي أهميّة.. المشكلة إما تتعلق بالآثار، وهذا يعني أنه لا قيمة لي.. وإما تتعلق بظاهرة ميتافيزيقية.. وهذا يعني أنه لا أهميّة لك. ما الموضوع الذي يمكن أن يجمعنا معًا؟»

قال قبل أن يضع السماعة:

- «قضية آثار ميتافيزيقية يا أحمق.. أنا بانتظارك!»

✷ ✷ ✷

جاءت مدام ماري فحيتني ثم وضعت على المائدة صينية كبيرة بها قطع لحم مطهوّة بالصلصة والثوم يُمكنك أن تشبع لشم رائحتها، ثم عادت بعد دقائق بحشد من الأطباق.. لو كان هذا هو المتبقي من غدائهما فعلًا فهما من الديناصورات..

- «كل.. كل.. سوف أؤجل الكلام إلى أن تفرغ..»

قررت أن آكل بعنف.. بشراسة.. لو كان هناك من يراقبني ويعتبرني غير متحضر فتلك مشكلته. ظل يراقبني بعض الوقت وقد بدأ الأمر يروق له.. غريب أن ترى رجلًا نحيلًا يأكل بشهية كل هذه الكميات.. في النهاية قال:

- «أرجو ألا يثقل مخك أو تصاب بحالة من الغباء بعد كل هذا...»

- «اسمها (ظاهرة التهبيط dumping).. لكن لا تخش شيئًا.. أنا متنبه.. ما موضوع تلك المومياء الوقحة التي تمشي في المتحف ليلًا؟»

قال باسمًا:

- «اطمئن.. لا توجد مومياوات وقحة هذه المرّة.. لقد اعتدنا هذه الأمور ولم تعد تحرك فيَّ ساكنًا.. الموضوع يتعلق بمقبرة منسية.. مقبرة لا نعرف عنها شيئًا ولم يعد أحد يتكلم عنها، وفجأة أرى أثرًا لابد أنه جاء منها..»

- «وما الغريب في هذا؟.. من تخص هذه المقبرة؟»

قال وهو يتحاشى نظراتي:

- «هذه هي المشكلة.. لا أحد يعرف فعلًا ما الموجود في هذه المقبرة!»

- 9 -

هذه المرّة هو درس رياضيات..

كان سامح يركب دراجته عائدًا من بيت المدرس.. كانت الدروس الخصوصية تلتهم جزءًا لا بأس به من ميزانية البيت، دعك من أنها لم تكن قد انتشرت وتوغلت في ذلك الوقت، حتى أن الطلبة في المدارس كانوا يخفون الأمر عن بعضهم ويعتبرونه مخجلًا نوعًا.. لكن (سامح) برهن عن عجز تام عن التحصيل معتمدًا على المدرسة وحدها.. إنّه لا يدرس إلا في أوقات فراغه من كل ما يشغله. إنّه الصبي التقليدي (اللعبي) الذي يحتاج لمعلم يطبق أصابعه الغليظة على خناقه..

كانت الدراجة تمنح (سامح) القدرة على التواجد في كل مكان في كل وقت.. وبالفعل لم يعد قادرًا على الاستغناء عنها..

كان يقود الدراجة في عرض الطريق وهو يتمايل ذات اليمين واليسار أو يقف منتصبًا كعادة الصبية، فلو كان يقود سيارته الفيراري لما كان فخورًا بهذا القدر..

هنا سمع صوت هدير سيارة قادمة من الخلف، وأدرك من ارتفاع الصوت أنها مسرعة..

هكذا انتحى جانبًا ليسمح لها بالمرور..

كالبرق اندفعت السيارة جواره، والغبار الذي تطاير منها كاد يعميه.. كانت لصيقة جدًّا لدرجة أنه وثب على الرصيف بدراجته وأطلق سبة:

- «يا لك من حمار!»

هنا أطلقت السيارة ذلك العواء الطويل لعجلات تقاوم الفرملة، ثم دارت مائة وثمانين درجة واندفعت نحوه..

- «إذن نحن نتكلم بلغة مختلفة!»

واندفع بالدراجة والسيارة من خلفه..

لقد فهم على الفور أنّ هذه السيارة تريد الفتك به أو إسقاطه عن الدراجة ليسهل الإمساك به.. يعلم الله وحده السبب..

تذكر فيلمًا رآه في التلفزيون لدبابة تطارد سيارة.. كان ما قام به راكب السيارة هو أن اقتحم الغابة واندفع بين أشجارها، عالمًا أن الدبابة لا تجرؤ على اقتحام الغابة لأن الأشجار تعوق مدفعها..

هكذا بحث عن غابته الخاصّة.. زقاق ضيق مظلم برغم أننا في الصباح..

اندفع بالدراجة داخله وسمع السيارة تعوي من خلفه.. لكنّها لن تستطيع الدخول طبعًا...

«*تحتك يوجد إناء به ماء يغلي.. البخار يتصاعد.. يخنقك..*»

«*وهكذا تمر ساعات عليك وأنت تذوب ببطء..*»

ابتسم مهنئًا نفسه على ذكائه.. واندفع عبر الزقاق الضيق..

لا يعرف كيف ولا متى وجدوا النهاية الأخرى للزقاق.. كانوا أذكى مما توقع..

هناك في الظلام رأى نحو خمسة رجال شرسي المنظر يقفون ويسدون الطريق..

هل هي مصيدة من الأصل؟.. هل كانوا يعرفون منذ البداية أنه سيجرب موضوع الزقاق هذا؟

دار بالدراجة بسرعة ليعود من حيث جاء، لكنه رأى عددًا آخر من الرجال يسدون الطريق...

- «الدهن يسيل من جسدك ويتساقط في الإناء..»

ما هذا السخف؟..

كان يحمل الكتب على مسند الدراجة، لذا ترجل وتناول الحقيبة واندفع نحو الرجال، وقبل أن يفهم أحد ما يحدث هوى على وجهه بالكتب الثقيلة، ثم مر بين قدميه.. بالضبط بين قدميه..

هناك شيء غير عادل في هذا كله.. من القسوة أن يتعاملوا بهذه الطريقة مع صبي..

لكن على هؤلاء القوم أن يعرفوا شيئًا: هم لن يربحوا مباراة جري معه أبدًا. ليتمسكوا بالمصارعة أو الملاكمة.. لكن الجري؟.. مستحيل..

هؤلاء القوم لن يستطيعوا القبض على فأر يفر من الزقاق، وهو سيكون فأرًا..

هكذا اندفع خارجًا من الزقاق، وكانت السيارة هناك ولا أحد فيها. لقد ترجلوا جميعًا.. الأرقام!.. لا وقت لتدوين الأرقام لأنه يسمع أقدامًا ثقيلة من خلفه..

القاهرة!.. مزدحمة في كل الأوقات ما عدا اللحظات التي يطاردك فيها عشرة رجال عندها تصير خالية كأنها بلدة مهجورة في أستراليا..

راح يجرى كالبرق لا شك أنه تفوق على أي كائن سريع في الكون..

قدر أن الوقت مناسب للنظر للخلف، وقد فعل فلم ير أحدًا.. لكنه استمر في الركض لأنّه توقع أن هؤلاء القوم يظهرون من تحت الأرض...

أخيرًا رأى عربة شرطة هناك عند تقاطع الطريق.. إن المعجزات تحدث أحيانًا إذن..

تقريبًا ألقى بنفسه أمام العجلات، وراح يحكي لضابط شاب وسيم كيف هوجم من قبل عشرة رجال. لا يبدو أنهم يريدون لعب الكرة..

قال له الضابط الذي بدا مستمتعًا بالموقف:

- «اركب ودعنا نر هذا الزقاق..»

وانطلقت السيارة تلك المسافة القصيرة نحو المدخل، بينما جلس سامح في المقعد الخلفي متوترًا..

قال الضابط:

- «سوف تقول إنهم اختفوا طبعًا.. أليس كذلك؟»

- «بلى.. هذا ما حدث فعلًا..»

ودخل الزقاق مع رجل شرطة فاستعاد دراجته وكتبه المتناثرة.. بالطبع لم يكن هناك أثر لهؤلاء القوم.. رسم البلاهة على وجهه وعاد..

قال له الضابط في سخرية:

- «أعتقد أننا سنعيدك لدارك.. ضع الدراجة على الشبكة وتعال معنا..»

لم يكن قد رأى الكثير من أفلام الرعب، لذا لم يخطر له أن عربة الشرطة تكون دائمًا ضمن الخطر الذي يطارده. كان من الجيل الذي يؤمن أن الشرطة في خدمة الشعب لذا لم يشك لحظة.. وبالفعل أخذته عربة الشرطة إلى داره فترجل شاعرًا بالفخر والأهميّة، وساعده شرطي على إنزال الدراجة..

لكنه عندما ابتعدت السيارة بدأ يدرك حجم المشكلة..

أولًا: من المؤكد أن هؤلاء الرجال الذين هاجموه ينتمون للمجموعة التي كانت تدخل البيت في تلك الليلة.

ثانيًا: هم ليسوا مسرورين منه.

ثالثًا: لقد وجدوه.. كيف؟... إنّه لم يجد كتابه المفقود بعد ومعنى هذا أنهم وجدوه اسمه وعنوانه ومدرسته في الصفحة الأولى..

رابعًا: هم يعرفون بيته... وواضح من طريقتهم أنهم لا يتورعون عن شيء..

خامسًا: معنى هذا أنه لن يرى الأمان لحظة واحدة منذ الآن.. سوف يذهب لدروس أخرى ويتعرض لهجوم مماثل.. حتى شراء زجاجة خل صار مخاطرة...

شعر بشعر ذراعيه ينتصب..

يجب أن تعرف ريهام التفاصيل.. هي وحدها تقدر على اتخاذ قرار صحيح....

- 10 -

يارا كانت رائعة الجمال..

بالتأكيد لم تعد ريهام تتمتع وحدها بلقب أجمل فتاة في الكلية.. منذ جاءت يارا بهتت ريهام وصارت عادية جدًّا.. إن فقدان عرش ملكة الجمال ليس هينًا لكنّها تقبلته، والسبب أن يارا كانت لطيفة فعلًا..

كانت يارا طالبة جديدة من ذلك الطراز الذي لا يراه أحد تقريبًا.. ظهرت منذ أسبوع وقالت إنها كانت مريضة أو منتدبة أو محولة.. تلك التعقيدات التي لا يفهمها أحد ويفهمها الموظفون في شئون الطلبة جيدًا.

لو لم تكن الامتحانات على الأبواب لالتف حولها الذباب الذكري في كل مكان، لكنهم كانوا في حال سيئة فعلًا.. السكرة راحت وجاءت الفكرة ولم يعد ثمّة وقت للعب أدوار العشاق.. فقط الأولاد السخفاء جدًّا هم الذين ظلوا يلاحقونها.. وفي هذا الصدد لم تكن من الطراز الذي يعطي الذباب أية فرصة.

كانت ريهام جالسة على ذلك السور المتهدم قرب الكافتيريا تطالع كراس المحاضرات، عندما ظهرت يارا وقدمت لها نفسها..

لكن (ريهام) كانت بالفعل تعرف كل التفاصيل..

- «عرفت أنك الطالبة الأكثر تفوقًا هناك.. وقيل لي إنني يمكنني أن أحصل على بعض الملخصات التي فاتتني.. تلك الكراسات ذات الخط الجميل الدقيق.. أنت أعددتها.. أليس كذلك؟».

- «بلى.. لكن صدقيني عمل الملخصات يختلف عن استيعابها.. لقد قمت بالتلخيص وبقي أن أعرف ما هذا الذي لخصته..»

ثم راحت تبحث في حقيبتها:

- «أنت جئت في وقت متأخر جدًّا.. بصراحة لا أحسبك تقدرين...»

- «سأحاول.. هذا ما سأفعله..»

هكذا جلست الفتاتان جلسة طويلة ونمت صداقة لا بأس بها بينهما..

كانت يارا جميلة كما قلنا، لكن سر سحرها الحقيقي يكمن في تلك النظرة الثابتة التي تسددها لك بعينيها السوداوين اللتين لا تطرفان.. نظرة تخترق كل شيء وتستلب روحك ذاتها..

كانت ذكية كذلك ومن الواضح أنها تستوعب بسرعة جدًّا...

طالت الجلسة وجف ريق ريهام من الحر والكلام...

نهضت إلى الكافتيريا وابتاعت زجاجتي مياه غازية، وعادت إلى يارا الجالسة على السور المهدم، هنا دهشت لما رأته..

✷ ✷ ✷

كانت تري يارا من الخلف. يارا كانت منقضة على حقيبة ريهام تفتشها..

كان في تصرفها الكثير من اللهفة وربما الفحش كذلك.. لا أحد يفتش حقيبة الآخر بهذه الوقاحة.. واضح تمامًا أنها تحاول أن ترى كل شيء في أسرع وقت ممكن...

وعلى وجهها الذي كان رائع الجمال، مسح شيطان وجهه وربما قدميه..

واللحظة توقفت ريهام عاجزة عن قول شيء أو عمل شيء.. لا يوجد ما يُقال.

هل هو الفضول؟... لا.. الفضول يتم بدرجة أقل وبنوع من التردد.. لا أحد يفتش بهذه الثقة والإصرار ما لم يكن مخبرًا يؤدي عملًا كلف به.

أطبقت يديها على عنقي زجاجتي المياه الغازية.. وبعصبية صاحت:

- «يارا!.. ماذا تفعلين؟»

وثبت الفتاة في الهواء ثم استعادت روعها فأغلقت الحقيبة وقالت بلهفة:

- «حسبت.. حسبت أن معك ملخصات أخرى..»

- «في الحقيبة؟..»

استعادت يارا أنفاسها، وقالت وهي تستعيد جمال وجهها ببطء:

- «حسن سأكون صريحة معك.. هل سمعت عن الكلبتومانيا؟.. داء السرقة؟.. أنا مولعة بسرقة أي شيء أجده تحت يدي ولا أقدر على مقاومة هذا، لكنك جئت قبل أن أنجح إنّه نمط السيدة الثرية التي يقبضون عليها في متجر شهير وقد ملأت حقيبتها بالمعروضات.. هي ليست لصة. هي مريضة بحاجة لعلاج نفسي..»

قالت ريهام وهي تجمع حاجياتها في شمم:

- «سوف أريحك من التفسيرات النفسية.. لقد انتهت مهمتي التربوية.. أرجو أن تجدى شخصًا غيري..»

- «لكن.. لماذا لا تصدقين؟»

قالت ريهام وهي تبتعد حاملة حقيبتها وزجاجة المياه الغازية التي ابتاعتها:

- «لو كنت عاكفة على السرقة لبدا الأمر مفهومًا نوعًا.. لكنك كنت تفتشين أيتها الحسناء.. تفتشين!»

✷ ✷ ✷

كانت قصة غريبة، لكنّها اعتادت على كل حال تصرفات البنات الغريبة مع بعضهن..

هناك فتاة كانت تحقد على جمالها وتفوقها، قامت بزيارتها في دارها وأمضت عشر دقائق ثم انصرفت.. لم تكن تريد سوى أن ترى كيف تعيش ريهام..

هناك فتاة أعلنت أن أخاها تقدم لخطبة ريهام، ثم صدمه الفسق والانحلال في بيتها من ثم فر بجلده ودينه.. طبعًا القصة كلها ملفقة.. لكن الغريب فعلًا هو أنه لا توجد أية عداوة بينها وتلك الفتاة ولم تتبادلا أكثر من عشر كلمات منذ التقيتا..

نعم.. الفتيات غريبات الأطوار، لهذا لا تستغرب ما حدث كثيرًا.. ربما هو نوع من الافتتان بفتاة متفوقة.. كيف تبدو حقائب المتفوقات من الداخل؟

كانت تفكر في هذا كله وهي عائدة إلى البيت..

تصعد السلم منهكة تجر قدميها...

كان سامح هناك.. وكان متوترًا جدًّا..

عندما بدلت ثيابها هرع يأخذها معه إلى الشرفة، التي صارت شرفة الأسرار.. وحكى لها قصة مرعبة..

- 11 -

مر منتصف الليل..

في غرفتها راحت ريهام تدرس..

الحقيقة أن الكتاب المفتوح يعمل كشاشة ممتازة تعرض عليها ذكريات اليوم..

كانت ترى يارا تفتش أشياءها.. وترى (سامح) يفر على دراجته بينما مجموعة من السادة الشرسين يلاحقونه بسيارتهم..

الحق أنه كان يومًا صاخبًا..

الخلاصة أنها كانت ترى أول ثلاث كلمات من كل سطر، ثم تبدأ ذكرى جديدة..

ولما كان عقلها يريد أن يسبح بعيدًا، فقد قررت أن تسجل ما تقرؤه بجهاز الكاسيت.. طريقة أخرى ترغمها على أن تركز وتفهم ما تقرأ..

لكن هذا الصوت يجعل التسجيل صعبًا..

صوت رتيب لكنه غير معتاد..

هكذا دنت من النافذة وكان الشيش مواربًا لذا أمكنها أن تختلس النظر منه لأسفل، وقد قدرت أنها نسمة هواء عابرة تحرك أسلاك الهاتف..

هنا رأت الحبل..

كان حبلًا غليظًا يتدلى من أعلى.. نظرت لأعلى لترى ما هنالك فأدركت أنّ هناك من ثبت هذا الحبل إلى السطح... لماذا؟ يبدو لها الأمر كأن أحدًا رمى بالحبل إلى أعلى على طريقة باتمان ليتدلى نحو الشارع وتأكد من أنّه ثابت.. لكن لماذا؟

إن هذه هي الجهة القبلية من البناية.. بعيدة عن المدخل وبعيدة عن العيان.. لا تطل إلا على أرض قفر واسعة لا يريد مالكها أن يبنيها لحسن حظهم...

نظرت لأسفل..

بعد تدقيق أدركت أنها ترى رجلين يتسلقان الحبل..

نعم.. لا شك في هذا..

ثقيلين غامضين مصممين.. وهما على بعد طابقين تحت..

لم تنتظر لتعرف ما يريدان.. لن تنتظر حتى تجدهما داخل الغرفة ثم تسأل..

هرعت إلى المطبخ فأحضرت السكين العملاقة، ثم عادت للغرفة.. كادت تتعثر فتبقر السكين بطنها.. وثبت إلى النافذة ففتحت المصراع..

السكين حادة جدًّا والحبل قاس مشدود كأنه من حديد.. لكنه يستجيب للقطع. هكذا هوت عليه ببضع ضربات..

وسرعان ما سمعت صوت الصراخ والارتطام..

لن تموتا.. لا تقلقا.. إن السقوط من على ارتفاع طابق لا يعني إلا أربعة أمتار.. سقطة مؤلمة جدًّا لكنّها غير قاتلة..

هرعت إلى الهاتف وبدأت تدير القرص عندما ظهرت أمها وسامح على الباب وقد بدا عليهما مزيج من النعاس والذعر..

- «ماذا هنالك؟»

قالت وهي تنتظر عودة الحرارة:

- «لصوص على الأرجح.. يتصرفون كلصوص.. لكن طريقتهم غريبة..»

قالت الأم:

- «يسرقون ماذا؟.. ليس لدينا ما يسرق..»

نظر سامح من النافذة، ثم هتف في دهشة:

- «هناك من يساعدهم على ركوب سيارة.. لكن.. هذه السيارة.. إنها السيارة التي لاحقتني!»

فكرت ريهام قليلًا ثم وضعت السماعة..

- «ألن تطلبي الشرطة؟»..

قالت في وجوم:

- «لن أستطيع إقناعهم بأن هذه ليست سرقة عادية سوف نقضي باقي الليل في القسم ويعرضون علينا مئات من صور أصحاب السوابق، بينما القصة ليست كذلك على الإطلاق وفي النهاية يطلقون سراحنا مع وعد بالتحري والبحث.. لن يتغير شيء..»

لقد دخلت القصة في فصل من أفلام (الرجل الذي يعرف أكثر مما يجب).. هذا واضح..

لكن لماذا؟.. عرفوا ماذا؟..

هرعت إلى الحقيبة الكبيرة التي يضعونها فوق خزانة الثياب:

- «سوف نعد الحقيبة يا أمي..»

- «لكن.. لماذا؟.. لماذا نرحل؟.. ولم لا نفعل ذلك صباحًا؟»

فرشاة الأسنان.. لابد من فرشاة أسنان.. قالت وهي تضع في الحقيبة منامة سامح وقميص نوم لها:

- «شرح هذا يطول.. هاتي كل ما يلزم لقضاء أسبوع عند عمتي.. لقد صار البقاء هنا خطيرًا..»

ثم تذكرت فقالت لأخيها:

- «قل لزوج عمتي أن يجلب السيارة.. لن نجد سيارة أجرة الآن..»

قالت الأم وهي تعتصر صدر قميصها كناية عن نفاد الصبر:

- «هلا شرحت لي ما يدور هنا؟»

في صدق قالت ريهام:

- «بيني وبينك.. أتمنى أن أعرف.. أتمنى!»

الجـزء الثاني

وفيه حديث محبب عن القمل والمحامين الأمريكيين الذين يهوون الحفر، ومتلازمة (فروليخ)، والعبث في قمامة البيوت وبالطبع لابد من حديث عن خواء الصحف اليومية و(أيونو) والفوائد الأخرى للعكاز.

- 1 -

د. مينا طبيب الوحدة الصحية لاحظ هذا مبكرًا جدًّا..

ولما كان رجلًا منظمًا فقد قام بعمل إحصائية..

هكذا جاء الصباح وقد جاء (ماهر) ليجلس معه في غرفة الكشف.. وقد وضع أمامه جريدة مفتوحة بها بعض شطائر الفول والطعمية.. جاء العامل الغليظ (محمد طايل) فطلب منه أن يعد لهما شايًا ثقيلًا ويبدأ بإدخال الحالات..

وأمام ماهر وضع ملفًا به الإحصائيات التي أجراها..

عندما عاد (طايل) بالشاي سأله ماهر:

- «هل ما زالت الضفادع تتكاثر؟»

- «الكثير جدًّا منها يا دكتور... إنها في الدُور اليوم.. في كل بيت تجد بعضها..»

- «وكيف تتخلصون منها؟»

- «نجمعها في أجولة وندفنها في الأرض.. لن نأكلها طبعًا!»

وراقت له الدعابة فراح يضحك بلا توقف.. سعل وبصق وبصق وسعل ثم غادر الغرفة.. وتعالى صوته وهو يشتم الفلاحين بالخارج حتى ينظموا أنفسهم في طابور..

أول من أمس اتصل ماهر بالوزارة وقال كلامًا عجيبًا عن المياه التي تحمر والضفادع التي تتكاثر.. تلقى الكثير من السخرية، ووعدوه بتحليل العينات المرفقة. كان يصبو إلى الرحيل لكن الأوامر كانت صريحة بأن يبقى حيث هو وينتظر التعليمات..

في الحقيقة كان قد سئم الريف وبلغت روحه الحلقوم، ثم إنّه كان يمقت الأبراص والذباب.. وكان المسكن الذي خصصوه له يعجّ بها..

كيف يتحمل بعض الناس الحياة هنا للأبد؟.. لا يمكن لك أن تتحمل الريف ما لم تكن قد نشأت فيه.. هكذا قرر..

دخل الفلاح الأول إلى الغرفة وأطلق سبة في (محمد طايل)، لابد أنها تتضمن شتيمة من يعمل عندهم، لكن أحدًا لم يسمعها بوضوح.. كان ضخمًا كالثيران يلبس جلبابًا ملوثًا بالوحل الجاف، وشعر صدره الأشيب يطل من فتحة الصديري كأنه ضبع عجوز..

نزع قلنسوته وأشار لرأسه.. هنا قبل أن يتكلم قال د. مينا:

- «عم (عوضين)... القمل طبعًا..»

بدا الانبهار والإكبار على الرجل، بينما د. مينا يكتب له طريقة العلاج في ورقة.. النصائح مهمّة جدًّا.. خذ الحذر حتى لا يُصاب الأولاد وأمهم..

- «أصيبوا فعلًا يا دكتور..»

- «إذن ليأخذ الجميع العلاج..»

وغادر الفلاح الغرفة إلى الصيدلية..

هنا دخلت الغرفة امرأة عجوز.. وقبل أن يتكلم أحد نزعت غطاء رأسها ليظهر شعرها الأشيب المجدول في ضفائر وانحنت حتى صار رأسها تقريبًا في شطائر الفول الموجودة أمام ماهر..

هكذا انتهى الإفطار.. لن يمس هذه الشطائر أبدًا...

وقبل أن تتكلم المرأة قال د. مينا:

- «القمل يا حاجة.. أليس كذلك؟»

- «الكثير منه.. لم أعد أنام من الحكاك.. أريد أن أمزق فروة رأسي..»

كتب لها العلاج مع النصائح.. ثم التفت لماهر متسائلًا:

- «لم لا تفطر؟.. هلمّ.. غير ريقك!»

لكن (ماهر) لم يعد بحاجة إلى الإفطار بقية حياته.. دعك من أنّه بدأ يمزق فروة رأسه وهو يشعر أنّ هناك مليون قملة تجري هناك..

بعد نصف ساعة كان د. مينا قد رأى عشر حالات دون أن ينهض.. لكن تبقى حقيقة أن ثماني حالات منها تعاني من القمل..

التفت إلى ماهر متسائلًا:

- «هل فهمت؟.. ألا ترى أنّ هذا غريب؟.. أمس كنت في المدرسة الابتدائية هنا ووجدت أن ثلاثة من كل خمسة تلاميذ يشكون من القمل...»

قال ماهر في تحفظ:

- «الأمر يتوقف على المعدلات السابقة.. لربما كان هذا المعدل أقل من المعتاد..»

بدت على وجه مينا الدهشة مع الاشمئزاز وقال:

- «أقل؟.. إن مستويات العيش تتقدم بلا شك، ومعها النظافة.. لا ننكر هذا.. تعرف أنه صار من العسير أن تري شخصًا حافيًا.. كما أنّ العدوى ببعض الديدان اختفت تمامًا. فيما مضى كنا نرى الكثير من البق.. اليوم من المستحيل تقريبًا أن ترى بقة واحدة.. أعتقد أن معدل القمل الحالي لا يتجاوز واحدًا من كل خمسة.. قبل هذا طبعًا...»

- «ماذا تريد قوله؟»

اتسعت عينا د. مينا من وراء عويناته المحدبة التي تجعل عينيه عملاقتين أصلًا، فبدا كأنه كائن فضائي مرعب وقال:

- «أعني أن القمل يجب أن يوضع ضمن الاختلالات البيولوجية التي ألمت بهذه القرية..»

✷ ✷ ✷

كان شخير (صبري) يتعالى وهو ما زاد الأمر سوءًا.. أسوأ شيء في العالم أن تُجبر على النوم مع شخص نقي الضمير يعاني من لحمية أنفية كبيرة.. لحسن الحظ أنّ هناك فراشين.. جلس ماهر في الفراش الصغير ينظر إلى سقف الغرفة.. الحقيقة أنه صار يتوجس من كل شيء ويشعر أن شتّى الحشرات تعبث في جسده إن الأنتيموفوبيا (خوف الحشرات) شائع لدى الجميع على كل حال..

كان قد تناول العشاء الذي أرسله الحاج (عبد المستجير). لو كانت لهذه القرية مزية فهي أن طعامها جيد. ولما كان العشاء دسمًا فقد قدر أنه سيموت لو نام فورًا.. جلس وراح يطالع الأوراق التي دونها في ضوء المصباح الخافت الكئيب..

كان قد ذهب للحمام منذ دقائق، وكان ينظر لأعلى خشية أن يهوى برص من السقف فوقه. لم يلحظ أنه يوشك على أن يدوس مستعمرة كاملة من الضفادع.. نعم.. الضفادع تسللت إلى الحمام وملأت الأرضية.. نادى العامل وطلب منه أن ينظف هذه الفوضى، فاضطر الرجل إلى تعبئة الضفادع المتواثبة في دلو وخرج بها..

إنّه يذكر كارثة بيولوجية كهذه في مكان ما.. ربما في ألاسكا أو الاتحاد السوفييتي.. ما كان سببها؟.. غالبًا هو إعصار غيَّر مكان تجمع الضفادع..

لكن هذه ليست القصة هنا.. ولا يمكن أن تكون..

هناك لغز في هذه القرية..

لغز مخيف..

ترى من الذي يملك الإجابة؟

إن هؤلاء الحمقى في القاهرة لا يشعرون بالخطر. يجلسون في مكاتبهم الفاخرة ويقرءون التقارير ويضحكون، بينما الحجم الحقيقي للمشكلة هنا. لابد من لجنة من أساتذة كلية الزراعة والعلوم وربما الطب تأتي هنا وتمضي عدة أيام..

لديه صديق صحفي سيطير فرحًا لو اتصل به وأبلغه بهذه الأنباء، لكنه كان يعرف أن من يتكلم كثيرًا يلقى شتّى أنواع المتاعب. المفترض أن أي خبر يبلغ الصحافة سيكون هو مصدره..

ما هي الخطوة الصحيحة؟

- 2 -

عند الفجر يُمكنك أن تلمح العربة (الكارو) التي يجرها حمار منهك صبور..

لابد أن تسمع السباب البذيء من فم (عطية) صاحب الحمار، وهو سباب موجه للعالم كله، لكنه يعرف أن الحمار لن يفهم ولن يرد..

لابد أن ترى كلبه الأجرب الذي يركض دائمًا ملاحقًا العربة وقد أخرج لسانه ليعطي الانطباع لكل من يراه أنه مسعور لكن الكلب والحمار وصاحب الحمار كلهم يتبارون في إظهار مدى الفقر وشظف العيش...

مهنة عطية مبهمة، فهو من الأشخاص الذين جاءوا من الريف على أساس كلام قاله ابن عم أو ابن خالة عن أن القاهرة تعجّ بالفرص. ترك قريته وجاء لكن الفرص لم تكن تنتظره على المحطة، لذا هو خليط عجيب من بائع خضر وجامع قمامة وبائع صحف وأحيانًا يعمل كسيارة أجرة ينقل التلاميذ الفقراء إلى مدارسهم.. إنّه يعمل أي شيء يجلب مالًا، والأهم أنه توصل لحقيقة راسخة هي أن كمية رزقه ثابتة، لو حصل عليها من عمل واحد أو عشرة أعمال.. كان يحسب أن عملًا واحدًا يدر جنيهًا وعشرة أعمال تدر عشرة جنيهات.. هذا تفكير ساذج..

إلى أن قابل (سليم)..

سليم هو بواب صعيدي لبناية في المنطقة..

قال له سليم وهو يتقاسم معه لفافة تبغ:

- «هم مجموعة من الخواجات.. لا يعرفون الكثير عن البلدة.. سوف تشتري لهم ما يلزمهم من طعام يوميًا.. وفي كل يوم تأتي في السابعة صباحًا لتتخلص من قمامتهم.. لا توجد مشاكل وهم يدفعون جيدًا..»

تساءل عطية بخبث فطري:

- «ولماذا لا تعمل أنت هذا العمل؟»

- «لأنّه لابد من عربة يا فالح.. يحتاجون لكميات كبيرة..»

هكذا بدأ عمل (عطية)..

لم يكن أحد يعرف الكثير عن تلك البناية، فهي عتيقة جدًّا ومنسية.. طراز البيوت التي تظل كما هي لأن هناك خلافات ميراث لا تنتهي عليها.. لكنّها في مكان قفر فعلًا ولا يوجد جيران..

في كل يوم يدق الباب الخشبي ويصيح:

- «عطية!»

من ثم ينهق الحمار مرّتين... ينفتح الباب وتظهر امرأة صارمة الوجه يبدو أنها أجنبيّة. تطلب منه طلبات السوق كلها وتعطيه مبلغًا من المال، وكانت الطلبات دائمًا خضرًا وخبزًا لكنّها لا تحوي اللحم أبدًا.. ربما كانوا يتصرفون في موضوع اللحوم أو هم لا يأكلونها..

عندما يحضر المال يذكر مبلغًا (مضاعفًا طبعًا) لكن المرأة لا تعلق، وتدفع له مع زيادة تمثل أجره..

في الصباح الباكر يذهب ليدق ذات الباب.. بعد دقيقة ينفتح الباب وتخرج له ذات المرأة عددًا من الأكياس السوداء المغلقة فيضعها على العربة، وفي كل يوم توصيه:

- «تخلص منها بعيدًا.. لا تفتحها.. فلا أحب الفوضى..»

فيهز رأسه موافقًا..

يحمل حمولته الثقيلة فعلًا نحو مقلب قمامة على بعد مائتي متر، فيلقي بالحمولة كلها.. بعد أيام سوف يتسلى بعض الصبية فيشعلون النار في القمامة.. هذه هي طريقة الحماية البيئية هنا..

هكذا دارت الأيام وهو راض بطريقة الرزق هذه.. إنّه مبلغ مضمون..

لكنه راح يتساءل برغم كل شيء عن كنه هذا البيت. كميات الطعام والقمامة هذه تدلّ على أنّ هناك عددًا لا بأس به من القوم.

على قدر علمه هذا البيت غير مقسم لشقق بل هو مخصص لأسرة واحدة. فما هي الأسرة التي يتكون أفرادها من هذا العدد؟..

فشل في فهم أي شيء من البواب الصعيدي (سليم).. سليم القادم من المنيا قال له إنّه يعرف هؤلاء القوم.. يبدو أن بعضهم كانوا في ملوي وبعضهم زار قريته..

الطريقة التي تم بها التعارف في القاهرة.

هكذا حدث ما يحدث في أية قصة من قصص ألف ليلة، وهو أن صاحب الحمار لم يعد يطيق صبرًا كي يفهم من هؤلاء القوم ولا لماذا لا يخرجون..

بالطبع لم يخطر له أن يتسلل للدار.. هذا يحتاج إلى تهور غير عادي.. كل من تعامل بالقمامة يعرف أنك قادر على استخلاص فكرة كاملة عن سكان الدار من قمامتهم.

هكذا جاء اليوم الذي حمل فيه أكياس القمامة بعيدًا..

هناك جوار مقلب القمامة جلس القرفصاء ونظر حوله.. لم يكن هناك أحد. أخرج مطواة من جيب الجلباب وبدأ يشق الكيس الأسود..

تناثرت القمامة القذرة المعتادة.. بالفعل يمكنه أن يحدد كل شيء ومتى اشتراه لهم. عبوات الصابون الفارغة.. قشر البازلاء.. لا توجد صحف.. زجاجات زيت وخل..

هذا كيس عادي جدًّا مما يمكن أن يخرج من أي بيت..

مد يده يعبث في كيس آخر.. قشر فاكهة.. لا شيء سوى هذا...

لكن.. هناك ذلك الانتفاخ داخل الكيس.. كأنه كيس مغلق بإحكام داخل كيس أكبر..

وو نظر حوله من جديد.. لا يوجد أحد سوى كلبه يعبث هنا وهناك..

ألقمه حجرًا ليبتعد وأطلق سبة بذيئة أخرى.. ثم راح يفرغ الكيس.. بالفعل هناك كيس سميك بالداخل.. كيس تم إغلاقه بعناية أكبر. شقه بالسكين وأفرغ ما فيه..

كان هناك الكثير من الشعر الآدمي.. هذا ليس مستغربًا لأنك سوف تندهش من الأشياء التي يلقيها الناس في قمامتهم. هذا أحمق حلق شعره وتخلص من الشعر في كيس والمفروض أن يلقيه في المرحاض تجنبًا للسحر...

هناك أنابيب زجاجية مهشمة.. الكثير من الزجاج.. حاول ألا يمس شيئًا..

لا يوجد شيء آخر..

لم يلحظ أن الكلب قد عاد، ولا أنه دسّ أنفه في بقايا الكيس التي ألقى بها بعيدًا..

فقط سمع الأنين الذي يمزق القلوب.. صوت حيوان يتألم.

رفع عينه في عدم فهم.. فرأى مشهدًا لا يوصف..

لقد تحول وجه الكلب إلى شيء مخيف.. ثمرة التين الشوكي قبل تقشيرها، مع أجزاء من الجلد تتساقط بلا توقف.. الكارثة أنّ هذا يمتد من الأنف للعنق.. كأنه سرطان يزحف..

كان الكلب البائس يحاول بقائمتيه الأماميتين أن ينزع هذا الألم عن وجهه.. كان يعوي ويحاول أن يستعيد ما كان عليه منذ نصف دقيقة..

لم ير عطية شيئًا كهذا من قبل.. ولكنّه أدرك أنه لو لمس الزجاج لكان الآن يفعل ما يفعله الكلب ويبدو مثله..

نهض جاريًا نحو الحمار، فنهض الكلب يلحق به وهو يعرج.. تناول حجرًا وقذفه به.. لكن الكلب لم يستطع الاستمرار لأن قائمتيه تخليتا عنه فسقط على الأرض...

ألهب عطية ظهر الحمار وانطلق مبتعدًا...

لا يعرف معنى ما رآه ولا تفسيره.. فقط يعرف أنه لن يمارس تلك المأمورية ثانية، ولن يمرّ على تلك البناية.. هؤلاء القوم يدارون سرًا خطيرًا وهو لا يريد سوى أن (ياكل عيش)..

- 3 -

الآن نحن في العام 1907..

وثبة هائلة في الزمان لكنّها ليست في المكان.، لأننا في الحقيقة نرتاد وادي الملوك المصري..

هذه التفاصيل حكاها لي د. رمزي حبيب في داره، لهذا أتنحى قليلًا وأتركك تتابع الأحداث بلا تعليق..

كانت الشمس حارقة.. كل شيء جاف قاس، وبالتأكيد ليس أفضل مكان لأنثى أمريكية رقيقة. لكن (تيودور دافيز) كان مصرًّا على أن يصطحب زوجته معه..

لم يكن (تيودور دافيز) خبير آثار، بل هو في الأصل محام أمريكي قرر أن يجرب حظه في مصر، وكان نافد الصبر يفتقر للروح العلمية تمامًا.. إنّه ذلك الطراز العبقري من البشر الذي يهوي على الصخرة بـ 99 ضربة ثم يمل ويرحل، تاركًا من يأتي بعده ليهوي بالضربة رقم مائة ويجد الكنز..

في تلك الفترة كانت مصر مفتوحة للمغامرين.. كل من يزعم أنه عالم آثار يحق له أن يحفر فيها. المهم أن يكون أجنبيًا وأن يكون معه حشد من العمال والخرائط...

أقول: كانت الشمس حارقة، وكان العرق يغمر الأعناق ويبلل الصدور والظهور..

الرجال يعملون بلا توقف بينما (دافيز) يقف ببدلته وقبعته البيضاء، وهو يلوح بالعصا في (ألاطة) مصدرًا تعليماته ذات اليمين وذات اليسار.. والحقيقة أن العمل الحقيقي كان يقوم به البريطاني إدوارد إيرتون الذي يعمل تحت إمرة ديفيز.

لقد وجد علامات تدله على أنّ هناك مقبرة..

بالفعل كان على عتبة مقبرة مهمّة جدًّا، هي ما سيطلق عليه رجال الآثار اسم KV55 ومعناها (المقبرة رقم 55 في وادي الملوك)..

صبرا.. لنر ما هنالك..

درجات سلم تقود لأسفل. وتنتهي عند باب غير محكم الغلق..

نظر له الرجال متسائلين، فأصدر أوامره بأن يقوموا بفتح هذا الباب..

ووقف بينما الضربات تنهال على الباب.. ثم طلب شمعة واقترب من الباب الحجري أكثر، ورفع العدسة يتفحّص نقشًا هناك..

- «خاتم ابن آوى..»

ونظر في دهشة لمن حوله.

كان (دافيز) من المؤمنين بأن وادي الملوك قد أفضى بكل أسراره.. كل شيء قد سرق وما بقي قد وجده الأثريون.. لا داعي للمزيد من البحث...

لكن خاتم ابن آوى يعني أنّ هذا قبر استنقذه الكهنة من اللصوص ثم أعادوا غلقه بإحكام.. السبب هو أن ابن آوى ينام فوق فرائسه لذا استخدموه رمزًا..

أخيرًا انفتح الباب وهبت الرائحة الخانقة الكريهة المميزة للقبور المغلقة..

يضع الشمعة في المدخل ليرى إن كانت ستنطفئ.. معنى أن تبقى متوهجة أنّ هناك نسبة من الهواء الصالح للتنفس.. متوهجة..

ثم إنّه بدأ الدخول..

هناك الكثير من قطع الخشب المهشم على الجانبين الخشب ما زال موجودًا في المتحف المصري حتى اليوم..

كان تكوين المكان يشبه تكوين المقابر الفرعونية المعتادة..

وفي داخل المقبرة كانت هناك أوعية كانوبية.. الأوعية التي كانوا يحفظون فيها أحشاء المتوفى..

تساءلت الزوجة وهي ترمق الوعاء على ضوء الشمعة:

- «ما هذه؟»

قال في شرود:

- «أوعية كانوبية.. لكنّها غريبة.. المعتاد أن ينقش عليها وجه الربة (سيلكت).. الغريب أنّ هذا وجه لا أعرفه...»

كان هذا القبر مراوغًا مصرًّا على طرح أسئلة بلا جواب...

لقد وجد دافيز التابوت مهشمًا على الأرض..

حبس أنفاسه من الإثارة وكذا شهقت زوجته.. إن المشهد على ضوء الشموع يحتاج إلى أعصاب قوية من دون شك..

كانت هناك قلائد كثيرة..

راح يتفحصها ويده ترتجف..

بعضها كان يحمل نقوش اسم (أمينوفيس الثالث).. وبعضها كان يحمل اسم الملكة (تي)..

من صاحب هذه المومياء؟

✷ ✷ ✷

لو كانت دروس التاريخ قد اختلطت في ذهنك، فنحن نتكلم عن الأسرة الثامنة عشرة..

أمينوفيس هو الملك العظيم الذي أحب امرأة فاتنة من عامّة الشعب وتزوجها.. هذا مثال آخر لمن غلب الحب في قلوبهم مقتضيات الضرورة والعرف..

يمكنك إذا دخلت المتحف المصري أن ترى منذ اللحظة الأولى التمثالين العملاقين لأمينوفيس الثالث جوار الملكة تي.. ويمكنك بسهولة أن تدرك أنها امرأة فاتنة لعوب..

نتيجة هذه الزيجة كانت أمنوفيس الرابع.. الشاب الحالم الذي لم يكف عن إلقاء أسئلة ميتافيزيقية لا نهاية لها.. كان يقضي الوقت في نظم الشعر، وعندما صار شابًا أحدث ثورة دينيّة كاسحة في مصر كلها عندما أسقط إله الآلهة آمون وثلة الآلهة المحيطة به.. تحدث عن إله واحد هو قرص الشمس (آتون) وأطلق على نفسه اسم (أخيناتن)..

هذه هي الفترة التي تم نقل العاصمة فيها إلى تل العمارنة، إلى مدينة (أفق آتون)، ويُطلق العلماء على الفترة كلها اسم (العمارنة)..

كانت زوجة (أخيناتن) هي الحسناء الرشيقة طويلة العنق (نفرتيتي).. وكان ابنه هو الصبي (توت عنخ آتون) الذي عاد ليصير (توت عنخ آمون) عندما عادت سيطرة آمون على البلاد..

وما لا يعرفه (ديفيز) هو أن قبر (توت عنخ آمون) يقع على بعد خطوات من مكانه هذا، ولسوف يُكتشف بعد خمسة عشر عامًا..

✷ ✷ ✷

على ضوء الشموع تفحص (ديفيز) المومياء..

لقد تعرضت لعملية تشويه متعمدة قوية جدًّا.. حتى أقنعة المومياء كانت محطمة..

كانت اليدان متقاطعتين على الصدر في ذلك الوضع الفرعوني الشهير.. وبدا كأن صاحب المومياء يحلم..

قالت الزوجة في انبهار:

- «الأمر واضح... هذه مومياء الملكة (تي).. كما دفنها ابنها (أخيناتن) هنا..»

ابتسم في الظلام وجفف قطرات العرق على جبينه:

- «بالعكس.. كل شيء يقول إنها مومياء ذكر..»

من التقاليد الملكية أن الذكر يدفن ويداه متقاطعتان على صدره، بينما الأنثى تدفن وأحد ذراعيها جوارها والآخر على صدرها..

لكن لم تكن الأمور بهذه السهولة..

إن معرفة صاحب المومياء وجنسه قد حيرت العلماء عقودًا طويلة...

- 4 -

قال د. رمزي حبيب وهو يريح ذقنه على العكاز:

- «فعلًا يبدو الأمر كأنها قصة أو فيلم سينمائي.. سوف تجد عسرًا في التصديق، لكن دعني أؤكد لك أنّ هذا كله حقيقي تمامًا..»

ثم اتجه إلى أرفف مكتبته فانتقى كتابًا هائل الحجم لمحت على كعبة عبارة (الأتونيون).. وقال وهو يقلب الصفحات:

- «كان تشوه الحوض شديدًا حتى إنهم طلبوا أستاذ تشريح أمريكيًا كي يقرر جنس المومياء.. وكان رأي الأستاذ أنها مومياء أنثى.. بالتالي استنتج الجميع أنها مومياء الملكة (تي) أم (أخيناتن) نفسها..

«لكن تم نقل المومياء إلى كلية طب القاهرة. هناك كان رئيس قسم التشريح (إليوت سميث) الذي بدأ بتشريح المومياء وكان رأيه القاطع بعد التشريح أن هؤلاء مخابيل. هذه مومياء ذكر بلا أدنى شك..

«العظام صغيرة السن كذلك، بينما الملكة تي ماتت وهي مسنة.. إذن هذه العظام لا تخصها. وكان رأيه الأميل للرجحان هو أنّ هذه العظام عظام أخيناتن نفسه.. لكن تبقى مشكلة أن سن العظام أصغر من سن أخيناتن نفسه عندما مات.. لقد تولى الحكم وهو مراهق ودام ملكه 17 عامًا.. إذن هو كان في الثلاثينيات..»

(في العام 2009 أعلن د. زاهي حواس أنه متأكد - عن طريق الحمض النووي - من أنّ هذه عظام أخيناتن، لكننا لم نكن نعرف شيئًا من هذا في ذلك الوقت.. دعك من أنّ هذا لم يجب عن مشكلة التناقض الواضح هذه)

لابد أن طبيبًا شابًا متحمسًا قال لإليوت:

- «حتى لو كانت العظام تخص (أخيناتن) فهذا مستحيل إنها أصغر بكثير من السن التي مات فيها..»

ابتسم إليوت ووقف أمام صورة كبيرة على الجدار لتمثال أخيناتن..

إن وجه أخيناتن وجه شاعر بكل تأكيد بتلك النظرة الحالمة والأنف الكبير وعظام الوجنتين البارزة.. تمتاز فترة العمارنة بواقعية شديدة في النحت، فلم يعد هم المثال والرسام أن يظهرا الفرعون جميلًا.. المهم أن يبدو حقيقيًا وأن تكون ملامحه صادقة..

ملامح أخيناتن قالت إنِّه شاعر، ولم تقل إنِّه جميل..

أما عن جسده فمشكلة أخرى..

لا يجب أن تكون طبيب غدد صماء كي تعرف أن صاحب هذه التماثيل يعاني مشكلة شديدة.. إنِّه جسد مكتنز من أسفل فقط ملفوف ناعم أقرب لجسد أنثى، مع بطن متدلية تظهر في أكثر من صورة.. وقد قرر الأطباء أنه مصاب بداء اسمه (متلازمة فروليخ).. Frolich's syndrome.. وهو خلل في الغدة النخامية يؤدى لقائمة طويلة من الأعراض..

هذا المرض يجعل العظام تبدو أصغر.. وهي نقطة أخرى في صالح أن تكون المومياء مومياء أخيناتن..

هنا يظهر طبيب آخر محتجًّا:

- «إنهم حمقى!.. المريض بداء (فروليخ) لا ينجب، بينما (أخيناتن) أنجب عدة فتيات..»

قلت وأنا أضع ساقًا على ساق:

- «هذا مذهل فعلًا.. كل علماء التشريح هؤلاء عاجزون عن معرفة هل هي مومياء ذكر أم أنثى.. (أم آية) بائعة الأرانب تفعل ذلك بسرعة البرق..»

ابتسم د. (رمزي) وقال:

- «هذا هو ما حدث.. لا تنس أن حالة المومياء سيئة لدرجة تجعلها أقرب إلى هيكل عظمي. على كل حال انقسم الأطباء إلى فريقين.. فريق قال إنها مومياء ذكر صغير السن، وبالتالي هو أخو (أخيناتن) الأصغر واسمه (سمنخارع).. معنى اسمه بالمناسبة هو (قوية هي روح رع).. والذي تزايد نفوذه بشكل مرعب في نهاية عهد أخيه..»

- «هذا مع من يتبنون نظرية الذكر..»

- «من يتبنون نظرية الأنثى يقولون إنِّه بما أن علامات (أخيناتن) و(تي) موجودة، فإن المقبرة تخص (كيا).. زوجة (أخيناتن) الثانية التي تلت (نفرتيتي)!»

ثم قال بلهجة درامية وهو يغلق الكتاب:

- «هذا هو لغز المقبرة رقم 55 ..»

✷ ✷ ✷

قلت له وأنا أرشف الشاي الذي أعددته السيدة ماري لي:

- «كل هذا جميل ومثير فعلًا.. لكن ما زلت لا أفهم دوري في هذا.. لا أفهم ما هو الميتافيزيقي في القصة..»

مد يده إلى الدرج وأخرج قطعة خشب عتيقة رسمت عليها خرطوشة وقال:

- «هناك من وجد هذه القطعة اليوم.. الاسم المكتوب عليها هو (سمنخارع).. لم نر من قبل الاسم مكتوبًا بهذه الطريقة ويعني هذا أنّ هناك من وجد شيئًا.. لو كانت هذه القطعة قد أخذت من المقبرة 55 فهي تشير بقوّة لصاحب المقبرة الحقيقي.. إن سمنخارع لغز وصداع حقيقي لكل مهتم بالمصريات.. لا توجد حقائق ثابتة عنه وما نعرفه شحيح جدًّا.. هناك اختلاف في طريقة كتابة الاسم توحي لبعض الأثريين أنه فتاة..»

قلت له في ملل:

- «إذن هي مقبرة سمنخارع أخي أخيناتن أو أخته.. ربما يكون هذا كشفًا مذهلًا لكم لكنه لن يحرمني القدرة على النوم.. ثق أنني سأنام ملء جفوني وسأنعم بحياتي.. بالنسبة لي لم يتغير شيء..»

ابتسم وأسند ذقنه على العكاز وقال:

- «لماذا يطفو هذا الموضوع على السطح الآن؟.. في نفس الشهر الذي اختفت فيه المومياء الغامضة؟»

- 5 -

كنت في المستشفى، عندما وجدت صحف الصباح على المكتب.. أحدهم تخلص منها بهذه الطريقة. أنا أؤمن أن الصحف تحوي الكثير من الهراء وأندهش جدًّا من الذين يدققون في كل حرف فيها كأنها كتب سماويّة تضم قطوف الحكمة.. في رأيي أن أفضل صحيفة يجب أن تقرأ خلال عشر دقائق..

لكني على سبيل كسر الملل رحت أطالع الموضوعات بسرعة.. هراء.. سخف.. هراء.. كلام فارغ... كذب.. تدليس.. سخف.. إلخ..

هنا وجدت هذا الخبر:

لجنة من أساتذة كلية الزراعة والعلوم لفحص ظاهرة تلوث مياه النيل في قرية (أطفيس).. اللون الأحمر والتزايد الغريب للضفادع يدلان بلا شك على خلل بيئي.

ثم خبر آخر:

الطب البيطري: الحمى القلاعية ليست المسئولة عن وفاة المواشي في مديرية (.....). أكدت وزارة الزراعة خلو القرية من الحمى القلاعية وداء الفم - الحوافر. كان الفلاحون في قرية (أطفيس) قد لاحظوا تزايد نسبة الوفيات بين الماشية والماعز والخراف.

من الغريب أن من نشر الخبرين في صفحة واحدة لم يربط بينهما قط. دليل واضح على أنه لا أحد يقرأ حرفًا.. إنما هي عملية تسويد صفحات بكم معين من الكلمات..

كل هذا غريب..

لو طلبوا رأيي لقلت إن هذا غريب، لكن بالطبع لا أحد يطلب رأيي على الإطلاق.. وعلى كل حال ما كنت لأضيف شيئًا سوى أنّ هذا غريب.. ليس بالاكتشاف المذهل كما ترى..

أين هي أطفيس هذه؟..

اسمها موح فعلًا..

أمسكت بجهاز الهاتف وبدأت عملية الاتصال بصديق لي في وزارة الزراعة. عندما تتقدم في العمر تكتشف في دهشة أن لك أصدقاء مهمين في كل مكان. هؤلاء المراهقون السذج قد كبروا وصاروا خطرين.. وكما تقول الدعابة القديمة، فأنت تفرح لأن أصدقاء صباك في مناصب مهمّة، لكنك تشعر بمرارة في فمك بسبب خوفك على مستقبل الوطن!

أخيرًا جاءني صوته.. (عامر السروجي) الذي صار من أساطين الوزارة.. علاقتنا سطحية ولله الحمد لكنّها لم تنقطع.. هكذا سألته عن هذه القصة الغريبة وعما يعرفه..

- «لست أنا خير من يجيبك.. هناك كيميائي كان هناك وهو أول من سجل الظاهرة.. اسمه (ماهر عواد).. أعتقد أنه سيفيدك كثيرًا..»

وهكذا وجدت رقم هاتف آخر أمامي فطلبته..

جاء الصوت القلق قليلًا.. شخص عاقل متزن لكنه يعاني ضغطًا نفسيًا هائلًا..

قدمت له نفسي وقلت إن (عامر السروجي) يوصيه بي بشدة.. فظل يردد بلا توقف:

- «أنا تحت أمرك.. لا داعي للتوصية..»

- «هذه الأشياء الغريبة التي تحدث في قرية اسمها اسمها...»

- «أطفيس.. مديرية (.....).. أنا عائد من هناك..»

كدت أسأله عن المزيد، لكنه قاطعني في عصبية:

- «اسمع يا دكتور.. لا أستطيع الكلام على الهاتف.. دعك من أن التفاصيل كثيرة. إذا كان وقتك يسمح بالمرور على مكتبي فأنا أرحب بك وإلا فأرجو أن تعفيني من الكلام..»

عندما وضعت السماعة، رحت أفكر في الأمر..

هل يستحق الأمر الاهتمام؟.. وهل يستحق رحلة شاقة إلى مكتب هذا الرجل؟.. حدسي يقول إن عليّ أن أفعل ذلك.. هناك لغز مهم، ومن الواضح أن أحدًا لا يلاحظ أي شيء.. العميان الذين يتحسسون فيلًا فيعتقد أحدهم أن الفيل أسطوانة طويلة ويحسب أحدهم أن الفيل يشبه المروحة، ويحسب آخر أن الفيل عمود من العاج المدبب.. لابد من مبصر كي يستوعب كنه الفيل..

وكنت أشعر أنني قريب جدًّا من رؤية فيل كامل وراء هذا كله..

✷ ✷ ✷

قليل من الأشخاص من يشبهون صوتهم بهذه الدرجة الغريبة. اعتدت أن الصوت لا يشبه صاحبه إلا نادرًا.. كان (ماهر) من الأشخاص الذين.. الذين يشبهون صوتهم.. هذا كل ما أستطيع قوله عن ملامحه..

كان حليق الرأس. أصلع تمامًا في عصر لم تكن فيه موضة (سكين هيد) معروفة.. وكان مصابًا بوسواس النظافة لذا كان يطهر يده بسائل ما من وقت لأخر...

حكى لي عن مياه النيل التي صارت حمراء وعن الضفادع.. كما حكى لي عن الذباب الذي ملأ كل موضع في القرية..

قلت له في حذر:

- «والقمل طبعًا؟»

نظر لي في دهشة.. ثم هزّ رأسه موافقًا.. لم ينشر شيء عن القمل في الصحف.. وهو لم يذكره..

ما لم أقله طبعًا هو أنني خمنت لماذا حلق شعر رأسه وأصيب بالهستيريا.. لا شك أنه استيقظ ذات يوم ليجد تلك الحشرات البشعة تمرح في شعر رأسه.. ولا شك أن الشعيرات امتلأت بالصئبان طبعًا.. بالنسبة لرجل نظيف يستحم بانتظام كانت هذه نهاية العالم..

- «وموت الحيوانات.. لقد حدث كل شيء بسرعة.. أليس كذلك؟»

- «بلى.. بلى..»

إذ في يوم سمعوا صراخًا وعويلًا فخرجوا ليجدوا فلاحة تمزق شعرها وتنثر التراب على شعرها.. جوارها تلفظ جاموسة ضخمة فاخرة الشكل أنفاسها، بينما الرغاوي تخرج بكثافة من فمها كأنها كانت تمضغ الصابون.. ثم تعالت الصرخات في أرجاء القرية مع تكرار المشهد في أكثر من بيت، بينما راح الفلاحون يركضون بالمدي محاولين إنقاذ هذا اللحم للاستفادة بأي قدر منه. كان الموت أسرع في أغلب الحالات.. إن موت المواشي لكارثة الكوارث بالنسبة للفلاحين، ولا يمكن مقارنته إلا بموت فرد من الأسرة؛ فالبقرة أو الجاموسة تساوي قيمتها الماديّة بالإضافة لقيمة لا تقدر بالمال من الشعور بالأمان والخير والفخر والاطمئنان للغد.. إلخ..

في طفولتي كانت الكولا اختراعًا مذهلًا لا يحلم به أي ساكن في القرية، وكانوا يعتقدون أنها تشفي أي مرض.. لذا عندما كانت الجاموسة تمرض كانوا يملئون لها دلوًا بزجاجات الكولا.. بالطبع لم يكونوا يسمحون لأطفال الأسرة بتذوق قطرة واحدة...

كان منظر المواشي المكتملة الحسناء وهي تتشحط على الأرض، بينما يتكاثر حولها الذباب وتتواثب الضفادع مشهدًا لا يمكن نسيانه.. كأنه كابوس..

قلت له:

- «أنت تعرف ما سيحدث بعد ذلك..»

نظر لي واتسعت عيناه.. فلمّا رأى أنني أفهم قال على الفور:

- «نعم.. سوف تملأ القروح أجساد الناس...»

- «أنت تفهمني...»

كنا نعزف النغمة ذاتها...

النيل الدموي.. الضفادع.. القمل.. الذباب.. نفوق الحيوانات..

نحن نتحدث عن أوبئة مصر العشرة التي وردت في التوراة!

- 6 -

قال د. رمزي وهو غير راغب في سماع ما سأقول:

- «ريهام لم تظهر..»

كان هذا مقلقًا بالفعل ريهام لم تظهر، وهذا يعني أن الظهور من عاداتها التي لا تتخلى عنها.. لكن من هي ريهام؟.. ولماذا اعتادت الظهور؟

- «هذا مخيف.. لكن من هي ريهام؟»

شرح لي في النهاية أن (ريهام) هي الفتاة التي أحضرت له قطعة الخشب تلك، وقد وعدته أن تمر عليه لتخبره بما هو أكثر لكنّها لم تفعل..

رأى إحدى زميلاتها تمر أمام مكتبه فناداها ليسألها عن (ريهام).. كانت الفتاة دجاجة بلهاء من الطراز الذي لا يمكن أن تحصل منه على معلومة ما... قالت أشياء مثل:

- «هي لم تأت اليوم.. غالبًا السبب هو أنها لم تأت.. لكن لو جاءت لعرفنا ولتأكدنا من أنها أتت.. على كل حال هي لا تأتي هذه الأيام.. إنها نهاية العام والقليل من الطلبة يأتي لكن (ريهام) لم تأت وهذا غريب لأنّه من المعتاد أن تأتي وهذا غريب بدوره لأن الطلبة لا يأتـ...»

- «كفى!!»

قالها في عصبية، ثم سألها عن رقم هاتف أو أية طريقة للاتصال فسيطر عليها خرس الأسماك.. لا تعرف أي شيء..

قلت له في لا مبالاة:

- «وما في ذلك؟.. عدم دقة في المواعيد.. مرحبًا بك في مصر..»

فكر قليلًا وتجعد جبينه كناية عما ينتابه من أفكار سوداء:

- «لا.. ليست (ريهام).. إنها دقيقة في المواعيد، ولو شاء طالب أن يتجاهلني فلن يكون هذا في نهاية العام.. إنهم أذكى من ذلك..»

المشكلة هي أنها اختفت في لحظة ذروة.. كأنه مسلسل بوليسي شائق أوقف عرضه قبل أن نعرف اسم القاتل.. اختفت وهي تملك الإجابة التي لم ينم الليل بحثًا عنها..

كانت ستخبره بالمكان الذي وجدت فيه اسم (سمنخارع) هذا وكان البحث سيبدأ من هنا..

كنت أنا مستمتعًا بالموقف شأن من لا ناقة له ولا بعير في القصة كلها، لكنني أردت أن ألفت نظره إلى ما توصلت إليه..

قلت له وأنا أسترخي في مقعدي:

- «دعك من الفتيات اللاتي لا يأتين حين يجب أن يأتين واسمع هذه القصة...»

✷ ✷ ✷

ظل يصغي في شرود وقد تزايدت التجاعيد على جبينه، وامتشق العكاز كأنه سيف حتى شعرت بأنه سيبقر به أحشائي في أية لحظة..

في النهاية قال لي:

- «أوبئة مصر العشرة.. هذه قصة عبرانية تمامًا.. نحن نتحدث عن سفر الخروج في التوراة..»

قلت:

- «لا تنس أن جزءًا منها ذكر في القرآن الكريم.. ليس بالتفصيل لكن هناك ذكرًا للطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم..»

نظر خارج النافذة وغمغم:

- «طلب اليهود العبيد أن يسمح لهم الفرعون بمغادرة مصر، فلمّا رفض أنزل الله هذه العقوبات بالبلاد.. وفي كلّ مرّة كان موسى عليه السلام يطلب أن يسمح له ولليهود بالخروج، لكنه كان يقابل بالرفض أو القبول ثم الرفض..»

ثم تنهد وقال:

- «لا تقل لي إن هذه الأحداث تتكرر من جديد في قرية مصرية اليوم..»

قلت بنفس لهجته:

- «ولا تقل لي إنها صدفة، فالصدف ليست بهذا السخاء على قدر علمي..»

ثم نهضت ووضعت يدي في خاصرتي لأبدو مؤثرًا وخطيرًا، وقلت كأنني (بوارو) في ختام إحدى قصص أجاثا كريستي:

- «الأمر يحمل رائحة واحدة.. ذات الرائحة التي تفوح من مومياء سمنخارع ومقبرتك رقم 55.. يخيّل لي أن بوسعنا ربط الخيطين معًا..»

- «جميل جدًّا.. قل لي الرابط بينهما..»

قلت في حماس:

- «الرابط بينهما.. هذا واضح تمامًا.. إنهما.. إنهما...»

ثم لم أجد ما أقول.. وشعرت بأني أبله، فقال هو ليريحني:

- «الجو الفرعوني.. الشكوك التي تنتاب البعض حول كون أخيناتن هو سيدنا موسى أو هو فرعون موسى.. طبعًا هذا كلام فارغ.. لو جربت أي منطق لوجدته لا يستقيم. فقط هناك تشابه سطحي بين القصتين..»

ثم نظر لساعته وأعلن أن وقت الرحيل قد جاء.. كنا في مكتبه وقد عرض أن يوصلني لداري فقبلت. لم يدعني على الغداء لأنّه فيما يبدو أدرك أنني سأقوده للخراب لو أكلت عنده يوميًا..

ركبت جواره في السيارة، وكان قد زودها بإضافات خاصة بالمعوقين.. ليست حالة بهذا السوء لكن ساقه واهنة بلا شك..

انطلق في الشارع الطويل الذي يقودك خارج الكلية.. وأبطأ قليلًا عند إحدى البوابات..

هنا سمعت من يفتح الباب خلفي وصوت فتاة يصيح في لهفة:

- «د. رمزي!... انتظرتك طويلًا..»

استدار للخلف وهتف إذ رأى الحسناء التي ألقت بنفسها في المقعد الخلفي:

- «يا للمفاجأة!.. أقدم لك يا رفعت.....»

قلت مقاطعًا دون أن أنظر للخلف:

- «ريهام طبعًا.. أنا لست بهذا الغباء..»

- «وكيف عرفت؟»

- «لأنني عبقري.. عندما يكون الفيلم من بطولة الفنانة فلانة، ولا تظهر طوال الفيلم سوى أنثى واحدة، فلا يجب أن تكون عبقريًا كي تخمن أنها الفنانة فلانة..»

لم تفهم ريهام أسلوبي الملتف كما هو واضح.. رمزي يفهمني على كل حال، وقد ضحك ضحكته الخافتة المكتومة، ثم كلم الفتاة عبر مرآة الرؤية الخلفيّة:

- «سأكون شاكرًا لو فسرت لي طريقة الظهور الدرامية هذه..»

أعتقد أنها نظرت لي في شك.. لم أر نظرتها لكنه رآها فقال:

- «خذي راحتك.. د. رفعت هو أنا أو أكثر.. دعك من أنني أعتمد عليه كثيرًا في حل المشكلة التي أهديتها لي..»

قالت وهي تشهق:

- «أعتقد أنهم يراقبونني.. لم يكن من الممكن أن أظهر في الكلية بهذا الوضوح.. أؤكد لك أنهم لا يمزحون!»

- 7 -

في الطريق حكت لنا (ريهام) كل شيء.. كل شيء منذ ركب أخوها الدراجة في ذلك اليوم، وحتّى قطعت الحبل المتدلي من السطح. ومع سردها استطعت أن أجمع شتات القصة معًا...

قالت وهي ترتجف:

- «كل شيء يقول إنهم يريدوننا.. والسبب.. على الأرجح لأن (سامح) رأى أكثر من اللازم.. أو هم يعتقدون أنه يعرف كل شيء عنهم..»

سألتها محاولًا أن أجعل صوتي هادئًا قدر الإمكان، كأنني أخاطب جوادًا جامحًا:

- «وأين تقيمين الآن؟»

- «فررنا في الليل إلى بيت عمتي.. لا أعتقد أنهم قادرون على أن يجدونا هناك.. لكن حياتنا قد تلفت بالكامل.. لا آمن أن يذهب سامح لدروسه. أخشى أن آتي إلى الكلية.. إن هذه الفتاة (يارا) لا تبدو بريئة جدًّا.. هذا الاهتمام المفاجئ بحقيبتي مريب..»

دار د. رمزي في ذات الاتجاه للمرة الألف.. لابد أن عجلات سيارته توشك على أن تذوب من فرط ما قطعته من كيلومترات في هذه الساعة..

سألها:

- «لم لا تبلغين الشرطة؟»

توليت أنا الإجابة هذه المرّة:

- «لأن هذه القصة الغريبة عن جماعة سرية وفتاة تفتش دفاترها وسيارة تحاول دهم أخيها، تبدو معقدة جدًّا.. على الأرجح سيقومون بتحرير محضر ويملئون بعض الأوراق، لكن لن يصدقها أحد.. إن الشرطة لها درجة تحمل معينة، بعدها تعتبرك مجنونًا.. أليس كذلك يا ريهام؟»

ونظرت في المرآة فرأيتها تهز رأسها بسرعة بمعنى أنها موافقة..

قال د. رمزي وهو يدور من جديد بالسيارة:

- «وما الحل؟.. هذا الوضع لن يدوم للأبد لو كنت تفهمين قصدي؟»

- «لا أعرف.. لا أعرف..»..

كانت تهز رأسها معلنة عن عاصفة الهستيريا القادمة سوف يسيل المخاط من أنفها، ثم تبدأ طوفان الدموع قلت على الفور:

- «أولًا نريد أن نرى ذلك البيت الذي رآه أخوك الصغير..»

✷ ✷ ✷

سألت د. رمزي:

- «هل تعتقد أنهم ما زالوا بالبيت؟»

- «مستحيل طبعًا..»

كنا جالسين في السيارة الليل على الأبواب، ومن بعيد يجثم ذلك المبنى الذي عرفه (سامح) في ذلك اليوم.. كان يتسربل بالظلال كأنه يقول لنا: أنا مكان مخيف.. لا تساورنكم الظنون أو تتجاسروا على التمادي..

في المقعد الخلفي كان ذلك الصبي المزعج (سامح)، وكانت (ريهام).. عرفت على الفور أنه مزعج فأنا شديد الحساسية تجاه الصبية.. أشعر نحوهم بما يشعر به جسمان عليهما شحنة استاتيكية واحدة.. التنافر الأكيد الذي لا شك فيه..

كان رمزي قد بذل جهدًا عظيمًا حتى تمكّن من أن يجد طريقًا يهبط ذلك المنحدر.. وأخيرًا تقف السيارة وسط مساحة خالية وعرة من الأرض..

كان يفكر بعمق.. ثم سأل الصبي:

- «ما الجملة التي كان الطارق يقولها في كلّ مرّة؟»

حاول سامح التذكر.. حك رأسه في تركيز:

- «لا أذكر بالضبط.. ربما.. المجد للقادمين من كونو..»

قال د. رمزي في إصرار:

- «أعتقد أن الاسم كان (أيونو).. هه؟»

- «نعم.. نعم.. المجد للقادمين من أيونو»

قال رمزي مفسرًا:

- «أي هليوبوليس.. الاسم المصري القديم للمدينة كان إيونو.. هليوبوليس معناها مدينة الشمس. حاليًا هي (عين شمس)..»

تساءلت:

- «هل تعني أن هؤلاء الأخوة جاءوا جميعًا من عين شمس؟»

- «لا أعرف أي شيء.. لا أعرف من هم، لكن مجرى الأحداث يقول إنهم قادمون من هناك..»

لم أعرف من قبل أن القادمين من عين شمس يكونون خطرين لهذا الحد..

الآن جاءت ساعة الحقيقة.. هل ندخل البيت؟.. وماذا نجنيه من ذلك لو فعلنا؟

أنا أؤمن بأهمية الدخول.. لو كان هؤلاء القوم موجودين فلسوف نعرف شكلهم وربما جنسيتهم (ثمّة شيء يوحي لي بأنهم أجانب)، ولو لم يكونوا موجودين فهم بالقطع قد تركوا شيئًا ما يدل عليهم..

أخبرت رمزي بخواطري فرأى أنها منطقية جدًّا..

ثم إنّه جلس وأراح كفيه على المقود وطفق ينتظر..

قلت له في غباء:

- «ماذا تتوقع؟»

- «أنتظر أن تذهب وتعود لنا يا أخي.. إنها فكرتك..»

تصاعد الدم إلى رأسي.. وقلت له في غيظ:

- «أنت خبير المصريات الوحيد هنا. لو وجدنا جدارًا عملاق امتلأ بنقوش بالغة الأهميّة، أو لو وجدنا تمثالًا يدل على كل شيء، أو لو فتح سمنخارع الباب لنا شخصيًا، فمن تظنه سوف يفهم ذلك؟.. إنّه أنت..»

فكر في كلامي، ثم تنهد والتفت إلى ريهام وأخيها وقال وهو يفتح الباب:

- «يبدو هذا الكلام منطقيًا.. سوف أجرب حظي مع رفعت أنتما في أمان هنا.. لا تغادرا السيارة لأي سبب..»

هتفت الفتاة في جزع:

- «أرجوك.. أرجوك يا د. رمزي أن تعني بنفسك عد سالمًا!»

كانت الرسالة واضحة... عد سالمًا وليذهب هذا الكهل الأصلع النحيل إلى الجحيم... فليمت ألف رفعت كي تبقى أنت سليمًا بلا خدش.. حاضر يا آنسة ريهام.. سأحاول أن أنفذ طلباتك..

- 8 -

تعال معي يا رمزي.. أعرف أن الأمر عسير بهذا العكاز لكني لست ذا لياقة عالية كما تعرف..

احترس!

هذه جثة كلب متعفنة ملقاة على بعد أمتار من البيت.. جثة متحللة لا تسر الناظرين، ولا أعرف السبب.. إن الكلاب تموت وتتحلل لكن هناك شيئًا لا يروق لي في هذه الجثة..

حاول ألا تطيل النظر وتعال ننفذ خطتنا..

فندق الباب..

طاخ طاخ!

نعم.. أنا مثلك أرجو ألا يرد أحد.. لو رد أحد لزعمنا أننا نبحث عن دار (سيد الشماشرجي).. لماذا هذا الاسم؟.. لأنّه المعلم الذي يعطي دروسًا لسامح ويقع بيته أعلى هذا المنحدر..

طاخ طاخ!

لا صوت لكلاب تنبح.. على الأقل لم يطلقوها كما كانوا ينذرون..

ولكن.. ماذا تفعل؟.. تدفع الباب الخشبي الثقيل؟.. لا تفعل ذلك.. إنِّه غير مغلق.. أرجوك ألا تحاول الدخول..

تبًّا لك ولاندفاعك..!.. إنك تدخل فعلًا هذا سلوك غير مناسب حتى مع هؤلاء الأوغاد..

- «اسمع.. واضح أنه لا يوجد أحد.. فلنعد!»

لكنك لا ترد يا رمزي بل تدخل إلى المدخل الرطب وتتشمم الهواء. إن الإضاءة خافتة جدًّا هنا.. هناك ممر طويل والكثير من الغرف على الجانبين. هذه بناية غير مخصصة للناس بل واضح أنها كانت مخصصة لأسرة واحدة..

تضرب الأرض بعكازك وتنظر يمينًا ويسارًا ثم تصيح:

- «يا أهل الله!»

كمبرر أخير لهذا التسلل.. ثم تواصل المشي وأنت تمط عنقك يمينًا ويسارًا.. توارب كل باب قليلًا لتلقي نظرة.. هناك الكثير من الصناديق المكومة الفارغة.. هناك قطع أثاث ملقاة كيفما اتفق.

إن الأمر واضح..

لقد رحلوا لأنّهم لم يريدوا المخاطرة.. لا يعرفون قدر ما عرفه الصبي، لكنهم عرفوا جيدًا أنه كان هنا وسمع بعض محادثتهم هيا نرجع ونتصل برجال الشرطة.. هم فقط يقدرون على معرفة اسم من كان هنا ويقدرون على متابعته..

أنت تواصل المشي ثم تفتح بابًا كبيرًا..

في الضوء الخافت يمكننا أن نرى قاعة واسعة.. هناك مائدة طويلة تتناثر حولها المقاعد.. لا شك في أن الاجتماع كان يدور هنا بين القادمين من أيونو وذلك الذي كان يتكلم..

الآن نرى أول دليل على شيء غريب..

هناك على الجدار قطعة من نحت جداري.. النحت الذي يظهر أخيناتن وبناته يعبدون الشمس هذا النحت موجود بالمتحف المصري ويبدو أنّ هذه نسخة تالفة منه.. ربما لم يكن أصليًا وإلا لما تركوه..

تشير لي يا رمزي إلى النحت كأنه من الممكن ألا أراه..

هناك كذلك زجاجة وقود كبيرة وكومة من أوراق محترقة.. هذا سلوك القوات التي تغادر قواعدها لدى قدوم الأعداء لا يمكن أن تنقذ شيئًا من كومة الرماد هذه.. لقد حرقوا الكثير من وثائقهم..

ثم إنك تغادر القاعة وتواصل المشي في ممر آخر...

أما أنا ففضلت أن أقترب أكثر من النحت.. لست خبيرًا لكن أعتقد أنّ هذا النحت أصلي.. له ذات الروعة والهيبة المميزتين لتراث الفراعنة.. حتى وهي مهدمة تبدو هذه الآثار أكثر هيبة.. لقد رأيت تمثالي ممنون في الأقصر بشكلهما المشوه الرهيب وبدا لي أنهما بهذه الصورة أجمل...

منذ متى رحل هؤلاء وأين هم الآن؟.. الأمور تزداد تعقيدًا...

هنا شعرت بتلك اليد تعتصر عنقي من الخلف تراجعت للخلف..

✷ ✷ ✷

وتملصت بصعوبة واستدرت...

كان هذا هو أبشع وجه رأيته تقريبًا...

بدا لي مغطى بالكامل بالحراشف حتى ليذكرك بثمرة التين الشوكي قبل تقشيرها.. العينان حمراوان ومن الواضح أنه يعاني التهابات عديدة في الأغشية المخاطية...

كان يزأر بلغة لم أعرفها.. عندما أتذكرها الآن أدرك أنها لا تحمل طابع أية لغة أعرفها، حتى اللاتينية نفسها...

يلبس معطفًا طويلًا وقفازين، ومن الواضح أنه قوي فعلًا أو هو على الأقل مجنون.. الجنون منحه قوة غير مفهومة..

ومن جديد انقض عليَّ.. لكني لم أستطع المقاومة كثيرًا كان همي الأكبر هو أن أبقي أنفاسه بعيدة عنه فمن أدراني أنه ليس معديًا؟؟؟

كان يهاجم ليقتل.. أدركت هذا على الفور.. لا يهاجم ليوقفني عند حدي أو ليسلمني للشرطة..

أين أنت يا رمزي؟

ماذا تفعله طيلة هذا الوقت وماذا فعلوا بك؟

سمعت صوت الارتطام وخفت قبضة هذا الوغد على عنقي ثم سمعت ارتطامًا آخر. وعندما نهض عني أدركت أن ما خمنته صحيح.. هذا عكاز (رمزي) قد هوى على رأس المسخ مرّتين..

لم يقهره هذا لكنه تركني على الأقل..

نهضت لأجد رمزي يقف في ضوء قاعة الاجتماعات الخافت وهو يتراجع بظهره للخلف، ويرفع العكاز كأنه رمح.. سلاح قاتل فعلًا، لكن المهاجم لا يعبأ به البتة.. إنّه ينهض مترنحًا ويمشي نحوه بذات الإصرار الذي يمشي به الزومبي في أفلام الرعب..

يقول رمزي:

- «تراجع.. أنا لا أريد أن أؤذيك!»

لا أعرف كيف سيفعل.. ثم فهمت..

لقد كان يحمل زجاجة الوقود الذي أدركت من رائحته أنه كيروسين.. وعرفت من الرائحة أنه قذف بالسائل في وجه مهاجمي.. لكن المهاجم كان لا يعبأ بهذا الكلام.. كان يواصل التقدم..

وفي يد (رمزي) رأيت تلك القداحة المشتعلة يتراقص لهبها..

- «تراجع.. أنا أنذرك للمرة الأخيرة..»

لا تفعل يا رمزي.. أرجوك!... ربما لو اجتمعنا معًا لاستطعنا أن....

هنا انقض المهاجم على رمزي كانت وثبة طويلة كوثبات الفهود.. بالطبع لم يستطع د. رمزي أن يبعد القداحة عن الجسم المهاجم، وفي لحظة رأيت شعلة من النار تضيء القاعة كلها...

بالتأكيد ليس مجرد كيروسين.. على الأرجح هو خليط من الكيروسين والبنزين، لأن هذا الأول لا يشتعل بهذه السرعة والجموح...

كان رمزي يرتجف وهو ينظر لألسنة اللهب المتطايرة.. هو لم يتوقع أن تبلغ الأمور هذا الحد ارتمت شعلة النار الحية على المنضدة فتمسكت النيران بها هي الأخرى..

صاح رمزي بي:

- «افعل شيئًا.. اطلب المطافئ.. الإسعاف...!»

لكن المنضدة تهاوت بالجسد الذي كان فوقها.. وملأ الدخان القاعة.. رأيت أن الجسد قد همدت حركته تمامًا فعرفت أنه ما من شيء يمكن عمله..

قلت لرمزي وأنا أجذبه من يده وأسعل بلا انقطاع:

- «سوف تزداد الأمور تعقيدًا.. يجب أن نفر من هنا..».

لم يكن هناك شيء تتمسك به النار بعد ذلك.. سوف تلتهم النيران الغاضبة الجسد والمنضدة ثم تهمد نهائيًا.. لن تحترق البناية..

هكذا رحنا نهرول في الممر متجهين للمدخل..

سألت رمزي وأنا ألهث:

- «هل يوجد أحد بالداخل؟»

- «لا.. ولا أعرف من أين جاء هذا..»

كان الدخان يملأ الممر كله..

فتحنا الباب وخرجنا.. هناك حيث العالم الخارجي الذي غلفه الظلام تقريبًا وقفنا نلهث ونلتقط أنفاسنا.. الهواء.. ما أثمن الهواء!..

أنت ترتجف يا رمزي.. يخيّل لي أنك توشك على الإصابة بنوبة قلبيّة.. فقط أعرف أن قلبك سليم..

تردد بلا توقف:

- «لقد احترق!.. أنا أحرقته!.. لم أتوقع للحظة أن المجنون....»

أقول لك:

- «أنت قلتها بنفسك.. أنت لم ترد هذا وهو كان في حال غير طبيعية.. إما أنه في ذروة الهلوسة الناجمة عن المرض Delerium أو هو تحت تأثير عقار ما.. لم يكن طبيعيًا على الإطلاق.. دعك من أننا لا نملك القوة اللازمة لقهره.. لقد فعلت أنت الشيء الوحيد الممكن..»

ثم أنظر حولي وأجذب يدك..

- «تعال نعد للسيارة.. يجب أن نغادر هذا المكان حالًا ليتنا ما دخلنا.. ليتنا ما دخلنا!»

هنا تنظر أنت لجثة الكلب التي رأيناها لحظة الدخول وتهتف:

- «هل ترى هذا الجلد؟.. له نفس المنظر!.. لو كان هذا مرضًا فقد أصيب الكلب بنفس العدوى!»

حقًّا معك حق.. لكن لا وقت للتفكير.. ولا وقت لأخذ الجثة معنا لتشريحها. يجب أن نهرع للسيارة ونبتعد.. لو جاء زملاء القتيل لفتكوا بنا، ولو جاءت الشرطة لاعتقلتنا.. نحن بطتان ميتتان في كل الظروف...

كانت حملة مثيرة للشفقة.. نحن في الظلام. نهرع نحو السيارة.. عجوز يسعل موشكًا على دخول العناية المركزة، وكهل يتوكأ على عكاز ولا يكف عن البكاء.. ليس أروع مشهد ولا أفضل أبطال لأفلام الأكشن كما ترى..

لما دنونا من السيارة ووجدناها خالية وأبوابها مفتوحة خطر لي أننا كنا حمقى..

البيت كان مُراقبًا برغم كل شيء...

- 9 -

بعد عدة دورات حول البيت أدركت أنه لا أثر للفتاة ولا أخيها حتى إنني خاطرت بالعودة وتفتيش الغرف من جديد وسط كل هذا الدخان..

كان قد خطر لي أنها قامت بأحد التصرفات الغبية الشهيرة التي يقومون بها في أمور كهذه، كأن تقرر منفردة أن تستكشف أو تبحث عنا.. خطر لي كذلك أن الصبي شعر بحاجة للتبول ولم تستطع هي المخاطرة بتركه يذهب وحده.. كل الصبية يحتاجون للتبول في أسخف وقت ومكان ممكنين.

للأسف لا يبدو أنّ هناك أملًا في ذلك.. تمنيت أن يكون الصبي سخيفًا فلم يحدث. درت حول البناية عدة مرات، ولاحظت أن المنطقة المحيطة بها وعرة فعلًا.. لكن لا أثر للفتاة..

هكذا عدت لدكتور رمزي وطلبت منه أن ننطلق.. لن نجدهما بهذه الطريقة، خاصة أننا أضعنا هنا نصف ساعة إضافية..

انطلقت السيارة بينما هتف رمزي في جنون:

- «هل انشقت الأرض وابتلعتهما؟»

قلت لاهثًا:

- «القصة واضحة. هناك من رأى السيارة تتوقف أمام البيت ونحن ندخل.. لحق أحد هؤلاء المشوهين بنا، بينما هاجم آخرون السيارة وخطفوهما..»

راح يفكر للحظات، ثم أطلق أنينًا من بين شفتيه:

- «الأم التي تنتظر والتي لا نعرف أين هي..»

قلت وأنا أنظر إلى الخلف:

- «هناك جوانب كثيرة رائعة للموضوع، ولسوف نستعرضها فيما بعد.. أمّا الآن فلا شك أننا يجب أن نبتعد.. هذه القصة حقيقيّة وليست خيال فتاة.. وما أعرفه شيء آخر أكيد..»

وأغلقت زجاج النافذة وأضفت:

- «لقد تجاوز الأمر عالم الهواة.. لابد أن نطلب الشرطة..»

✷ ✷ ✷

رحب بنا الرائد (محمد خيري) وجلس يصغي للقصة الغريبة، وكان عمليًا كدأبه فراح يوقع بعض الأوراق وهو يصغي..

لم نكن قد التقينا منذ قصة الطوطم إياها، وقد نال ترقية بعدها.. وكنت أثق بهذا الرجل كثيرًا بعد ما أدركت أنه ذكي فعلًا كمعظم هؤلاء الذين لا يتكلمون ولكن يصغون. هو يحبّ عمله كذلك، ولنفس السبب لم أتصل بصديق عمري (عادل)..

ظل المقدم يصغي والسيجارة تتدلى من فمه، ثم حك رأسه وفك ربطة عنقه وسألني:

- «ليكن يا دكتور.. عم تريد أن تبلغ بالضبط؟.. عن أوبئة تحدث في قرية أم عن جماعة سرية أم عن اختفاء طالبة؟»

قلت في ارتباك:

- «كل هذا لو أمكن.. لكن الشيء الذي يمكن الإمساك به هو اختفاء الفتاة وأخيها..»

ظل ينظر لي في ثبات كعادته ثم قال في سخرية:

- «كالعادة كل قضاياك غريبة محيرة.. لو لم أر ذلك الطوطم يفتك برجالنا لما صدقت حرفًا، وهذا هو السبب الذي يدعوني للاهتمام بما تقول..»

ثم شمر عن كم قميصه وأخرج رزمة أوراق وقال:

- «أريد معلومات كاملة.. سوف يجد رجالنا عنوان عمة الفتاة ويجدون صديقتها تلك...»

قال د. رمزي في عصبية:

- «يجب كذلك أن تعرفوا من صاحب البناية ومن كان يقطنها بالضبط.. أعتقد أنه لابد من تفتيشها..»

ثم أضاف مرتبكًا:

- «تلك الجثة المحترقة.. إنها مصابة بمرض ما.. لابد من تشريحها..»

قال الرائد باسمًا وهو يكتب بسرعة:

- «الكثير من العمل.. الكثير جدًّا..»

قلت له في حذر:

- «لا أريد أن أشغلك.. لكننا بحاجة إلى جلسة عصف أفكار...»

نظر لي في عدم فهم:

- «عصف أفكار؟»

- «نعم.. ماهر ذلك الكيميائي الذي أوفدته الوزارة.. نريده أن يكون معنا.. سوف نطرح الاحتمالات والأفكار في جلسة واحدة...»

قال في استخفاف وهو ينقر على المكتب بأنامله:

- «كل هذا من أجل اختفاء طالبة لمدّة ساعتين.. ألا ترى أنك تبالغ قليلًا؟»

قلت بلهجة لا مزاح فيها:

- «لربما تبين أنني أتعامل مع الأمور بخفة زائدة.. تذكر قائمة الأوبئة التي أصابت مصر.. إنها تتضمن الظلام وموت أول مولود لكل أسرة.. لو كان للأمرين علاقة ببعضهما فأنا لا أبالغ على الإطلاق!»

الجزء الثالث

وفيه حديث مسل عن محصلي الكهرباء والطحالب وعزبة النخل، وما دمنا قد تطرقنا لهذا الموضوع فلا بأس بالكلام عن إدمان (الداطورة) والتين الشوكي ومنظار الغواصة..

- 1 -

كانت المجلة تحوي تحقيقًا صحفيًا مطولًا عن عبدة الشمس الذين جاءوا من أرجاء العالم من أجل أعياد الشمس، واجتمعوا في الهرم الأكبر.. كان عددهم نحو ثلاثين، وقد حملوا الكثير من الأعلام وشعارات إله الشمس.. كان معهم أثناء احتفالاتهم ضابطا أمن عاليا الرتبة للتأكّد من أن احتفالاتهم تتم بسلام[1].. كانت هناك صور كثيرة وبدا غريبًا لي أن أرى طقوس الاحتفال بالإله آتون في القرن العشرين.. كل هؤلاء القوم يرفعون أيديهم نحو شعاع الشمس المتسربة إلى الهرم الأكبر، ويأتون بطقوس تشبه التي نراها على الجدران.. طبعًا لن أشرح كل التعقيدات الخاصّة بأوقات دخول الشمس إلى الهرم أو إلى غرفة دفن الفرعون - لا أذكر بالضبط - لأنني لم أفهمها قط..

المهم في الأمر أن ضابط الشرطة قدم هويته لرئيسة الجماعة (الكاهنة الكبرى) فتفحصته ثم قالت:

- «قبلناك أخًا..»

أين سمعت هذه العبارة من قبل؟

إذن هناك عبدة شمس مازالوا يمارسون الطقوس كما مارسها العمارنة، وهم موجودون في مصر الآن أو كانوا موجودين.. إن هذا مغر جدًّا..

هكذا حملت المجلة معي إلى الاجتماع الذي عقده لنا الرائد (محمد خيري) في مكتب د. (رمزي) بكليته..

كان الليل قد حل، لذا كان المكان خاليًا من البشر تقريبًا...

كان الجالسون هم أنا ود. (رمزي) والرائد و(ماهر) نفسه.. وقد ابتاع ماهر بعض الشطائر لنا في الطريق، بينما أعد (رمزي) الشاي بنفسه..

لقد بدأت صداقة خافتة تنعقد بيننا برغم أن معظمنا لم ير الآخرين من قبل.. يمكن القول إنني المضاعف المشترك الأكبر بين هؤلاء والوحيد الذي يعرف الجميع..

بدأت الكلام ملوحًا بالمجلة:

- «إن وفدًا من عبدة الشمس موجود في مصر الآن.. ألا يبدو هذا غريبًا؟»

قال الرائد وهو يتناول المجلة ويقلب صفحاتها:

- «غريب فعلًا.. سوف أتحرى عنهم للتأكّد من أنهم ما زالوا موجودين..»

قال رمزي:

- «عامّة نحن نفكر في الشيء نفسه.. جماعة سرية من عبدة الشمس تحاول إحياء طقوس سرية.. غالبًا تحاول كذلك إحياء مومياء سمنخارع. نحن لا نعرف ما يعرفون، ومن الواضح أنهم وجدوا أشياء مهمّة في المقبرة رقم 55.. هم يتحركون على أساس هذا الذي وجدوه. يمكن لنا أن نفترض أن لهذا علاقة بالأوبئة التي حلت بتلك القرية المصرية المعذبة. استقرت الجماعة في بيت منعزل على أطراف القاهرة، لكن ما حدث هو أن صبيًا مزعجًا نجح في التسلل للداخل.. هكذا كان على أفراد الجماعة الخلاص منه ومن أسرته، كان من حظهم الحسن أنه ترك كراسًا به عنوانه ومدرسته. لا شك أن معهم مصريًا يجلب لهم المعلومات كذلك.. هنا يكتشفون شيئًا مريبًا: أخت الصبي تدرس الآثار.. هذا يدفعهم لدس فتاة اسمها (يارا) تتجسس عليها. في النهاية تقرر الجماعة أن تغير مقرها لكنهم يتركون من يراقب المقر القديم.. نصل أنا ورفعت والفتاة في سيارة.. هكذا يرسلون من يهاجمنا، ويخطفون الفتاة وأخاها.. على الأرجح هم لن يؤذوا الفتاة وأخاها حتى يعرفوا ما يعرفان.. إن دراسة الفتاة للآثار تجعلهم مرتابين في أنها على اتصال بجهات أعلى.. يمكن القول بلا خطأ كبير إنهم سيجدونني.. إن العثور عليّ سهل، لكن الفتاة لا تعرف شيئًا عن رفعت..»

حمدًا لله!.. قلتها لنفسي في سري.. أمّا رمزي فانتهى من الكلام فرشف رشفة من الشاي.. الحق أنه تغير كثيرًا.. فقد الكثير من مرحه المعتاد وصار أقرب للتوتر والإرهاق...

قال الرائد باسمًا:

- «أنت لخصت الأمور جيدًا جدًّا، وأعتقد أنّ هذا هو المنطلق الذي نتحرك منه.. لكني أريد أن أسأل الأستاذ ماهر عن رأيه فيما رآه في تلك القرية.. قلت ما اسمها؟»

- «أطفيس..»

- «سأحاول تذكر هذا الاسم الغريب.. والسؤال الذي أريد أن.....»

هنا دق الباب وانفتح دون أن ينتظر القادم ردنا..

رأينا عاملًا من عمال الكلية يحمل عصا وقد توتر وبدت عليه الدهشة، فلمّا رأى د. رمزي هدأ قليلًا وهتف:

- «الدكتور هنا؟.. رأيت الضوء فحسبت هناك لصوصًا أنا آسف..»

- «لا مشكلة يا عبد الخالق.. لم أخبر أحدًا بأنني آت ليلًا..»

قال العامل وهو يمسك بمقبض الباب ليعيد غلقه:

- «كان هناك من سأل عنك عصرًا.. رجل فارع الطول يلبس معطفًا.. بدا لي هذا غريبًا.. يتكلم كأنه أجنبي. لما لم يجدك طلب مني عنوانك..»

قال رمزي في سعادة:

- «وأعطيته له؟»

- «طبعًا يا دكتور.. نحن نحب أن نسدي إليك أية خدمة!»

ثم خرج وأغلق الباب، بينما تبادل رمزي والرائد النظرات.. حدث ما هو متوقّع.. إن مصر مليئة بمن يتطوعون للخير لكن هذا يعني أن الفتاة كانت حية وتتكلم عصر اليوم.. لقد ذكرت اسم ومقر عمل د. رمزي.. وسرعان ما جاء رجل متحمس يبحث عنه..

عاد الرائد يتكلم وقد تضايق نوعًا لهذه المقاطعة:

- «ما نعرفه هو أن تلك الأوبئة كانت عقاب الله لفرعون مصر على إساءة معاملة اليهود.. السؤال هو: كيف يمكن أن تتكرر هذه الأوبئة إذن؟.. هل هذا الذي يحدث في أطفيس ذو معنى ديني، أم هناك من يستعرض قدراته على عمل مؤثرات خاصة؟»

هنا دق جرس الهاتف في إلحاح..

رفع د. (رمزي) السماعة متضايقًا وراح يصغي... كل كلمة كانت تضيف تجعيدة على جبينه حتى تحوّل هذا الجبين إلى ورقة فرغ من مضغها كلب مسعور.. وكان لونه يشحب حتى صار بلون هذه الورقة..

- «ماذا؟.. لا.. لا تفتحي الباب.. لا تفتحيه بأي ثمن!... أنا قادم!»

ثم وضع السماعة فلم يحسن التصويب مرّتين، وهب واقفًا:

- «ماري زوجتي وحدها في الشقة.. تقول إن هناك من يدق بابها بإلحاح.. يوشك على أن يقتلع الباب من مكانه وكلما سألت عن الطارق لم يرد!.. يجب أن أذهب إليها حالًا!».

- 2 -

أوقفه الرائد (محمد) بيده:

- «لا داعي.. سوف تضيع الكثير من الوقت.. ما هو عنوانك؟»

ثم تناول الهاتف فطلب رقمًا.. وبعد قليل جاءه من يتساءل عن المتكلم. كان هذا زميلًا له فطلب منه أن يرسل من يتحقق من الأمور في بيت د. رمزي، وذكر له العنوان..

- «أريد سرعة بالغة.. لو كان تصوري للأمور دقيقًا فمن الوارد أن يتم اقتحام البيت على السيدة.. هيا.. خذ رقم الهاتف لتطلبني وتخبرني بما تم..»

ثم وضع السماعة وناول الهاتف الدكتور رمزي وقال:

- «هل لديكما أقارب؟.. اتصل بزوجتك وقل لها أن تتأهب للانتقال عندهم بعض الوقت.. سيارة الشرطة سوف تنقلها..»

تناول رمزي الهاتف واتصل بزوجته، وقد بدا عليه الإعجاب بهذا الحل العملي..

ظللنا صامتين ننتظر ما سيحدث..

لقد تصرفوا بسرعة فائقة فعلًا... لكن الشرطة تصرفت بسرعة كذلك..

دق جرس الهاتف فوثبنا جميعًا لنرد.. ولكن الرائد التقط السماعة قبل الجميع ووضعها على أذنه.. أصغر قليلًا ثم قال:

- «من؟.. محصل كهرباء؟.. ومنذ متى يمرّ محصل الكهرباء على البيوت ليلًا، ومنذ متى يوسع الأبواب ضربًا ولا يرد على من يسأل بالداخل؟.. تقول إنّه غبي؟.. ربما.. لكنه أغبى مما يجب.. لا تترك هذا الحمار يذهب قبل أن تتأكد من شخصيته..»

ثم وضع السماعة وتنهد فتنهدنا جميعًا...

قال د. رمزي وقد استرخي تمامًا:

- «من الواضح أن حياتي ستكون كلها تكرارًا لهذا السيناريو..»

- «لن تبقى الأوضاع بهذا الغموض للأبد..»

ومن جديد نظر الرائد إلى ماهر يستعيده إجابة السؤال..

✷ ✷ ✷

قال (ماهر) وهو يتحسس رأسه الأصلع الذي أزال بالموسى كل شعرة فيه:

- «طبعًا لدينا التفسير الديني لما حدث، فالله قادر على كل شيء، ويكفيه أن يقول: (كن فيكون).. لكن هناك تفسيرات لا دينيّة حاولت أن تجد منطقًا لهذه الظواهر، وهذه التفسيرات سوف تفيدنا الآن لأنهّا ترينا كيف يمكن إعادة تقليد هذه الكوارث أولًا - وليصحح د. رمزي أخطائي التاريخية - وقعت هذه الأحداث نحو عام 1260 قبل الميلاد..»

قال د. رمزي:

- «بعد عشرة قرون على بناء الأهرام.. فعلًا..»

- «بدأت هذه الأوبئة بتحويل النيل إلى دم.. ومن الواضح أنّ هذا حدث في مصر كلها.. قال بعض العلماء أن ماء النيل احمرَّ بسبب أتربة بركانية.. الواقع أنّ هذا هو الوقت الذي ثار فيه بركان سانتوريني في اليونان وقد وجدوا غباره في النيل.. يمكن كذلك أن يحدث هذا بفعل الطحلب الأحمر، وهو طحلب سام جدًّا للأسماك كذلك..»

قلت وأنا أدون ما قال:

- «إذن أنت تتهم الطحالب.. من يضع الطحالب في الماء يمكنه أن يجعل لونها أحمر ويعطى نفس الإيحاء الأسطوري.. هذا شيء تستطيع المختبرات أن تبرهن عليه بسهولة.. ولكن ما زالت أمامك ألغاز كثيرة...»

جفف عرقه وقال:

- «هناك شواهد بيئية على أن موت الأسماك يؤدي لتكاثر بيض الضفادع لأن الأسماك لا تلتهمه، وفي حالات كثيرة غادرت الضفادع الماء ومشت على اليابسة...»

ثم وضع علامة على قائمة يحملها وقال:

- «القمل يمكن نشره بالطريقة العادية كما يحدث مع أي حرب بيولوجية، وكذلك الذباب.. أمّا عن موت الماشية فإن مرض الحوافر والفم احتمال وارد جدًّا.. إنِّه ينتقل بالهواء ولدى موت البهيمة تجد رغوة بيضاء كثيفة تخرج من الفم والحوافر تتساقط... هناك مرض آخر مرشح بقوّة هو داء اللسان الأزرق، وتنقله بعوضة صغيرة جدًّا لا ترى، وهي تحب المياه الراكدة بشدة.. هذه البعوضة بالمناسبة تلدغ الإنسان ولدغتها مؤلمة جدًّا.. صحيح أنها لا تنقل المرض لكنّها تؤدي لالتهابات عنيفة في الجلد..»

صحت في انبهار:

- «وهذا يفسر الوباء التالي.. القروح..»

- «أنت على حق.. لكننا نتوقف هنا أمام الوباء التالي: البرق والبرد.. لقد شهدت المنطقة عواصف بردية من قبل، وكانت هناك عاصفة عنيفة في الأردن عام 1967.. لكن لا يمكن لأي شخص أن يسبب واحدة.. ثم تلا هذا هجوم الجراد على أرض مصر.. هذه آفة أخرى لا أعتقد أنهم قادرون على إحداثها إلا بإمكانات حرب بيولوجية متقدمة.. وبعد ما هلك الزرع وجف الضرع، جاء الجراد ليقضي على كل شيء.. وهذا قد يفسر الظلام الذي دام ثلاثة أيام.. ويقول الماديون إن الظلام نجم عن أتربة بركانية كثيفة من بركان سانتوريني بنفس منطق احمرار مياه النيل.. حسب التوراة لم يستطع الناس مغادرة منازلهم ولا رؤية بعضهم داخل المنازل، كانت هذه بالطبع ضربة قوية جدًّا لعبادة إله الشمس رع. يمكننا أن نتخيل ما حدث في مصر وقتها، بعد كل هذه الكوارث.. مليونان ونصف شخص يتخبطون عاجزين عن عمل شيء.. حتى القليل الذي لديهم دفنوه تحت الرمال، ثم خرجوا ليكتشفوا أنه تلف تمامًا. لقد نما الفطر على الحبوب التي خزنوها ونتيجة هذا قاتلة.. قال من درسوا هذه الظواهر إنِّه من عادات المصريين في ظل المجاعة أن يقدموا للابن البكر حصتين من الطعام، ونفس الشيء بالنسبة للحيوانات، فالابن الأكبر إذن ابتلع كميات كبيرة من الطعام الملوث مما تسبب بموته..»

قال د. رمزي:

- «أعتقد أنّ هذه التفسيرات لا تخلو من تحذلق.. ما حدث أيام سيدنا موسى حدث بالقدرة الإلهية، لكن لا أعتقد بتاتًا أنّ هناك بشريًا يمكنه تكرار هذه المشاهد..»

قلت أنا موافقًا:

- «بالفعل.. يمكن أن ينجح الأمر حتى تملأ القروح الجلود بعد هذا لن يستطيع أحد التحرك. كما إنني أشك أن تتضمن الأوبئة الظلام ما دام هؤلاء القوم من عبدة الشمس..»

ساد صمت طويل.. ثم قال الرائد (محمد)

- «السؤال الآن هو: إلى أي حد تعتقدون أن ما يحدث - بطابعه العبراني القوي - يشير إلى أنامل إسرائيلية تتحرك هنا وهناك؟»

- 3 -

من المغري للإسرائيليين أن تهاجم الأوبئة العشرة مصر، وأن يتلقى المصريون عقابًا لا كأي عقاب.. إنّه تدمير كامل للحياة في مصر، لكني بصراحة لم أكن ميالًا إلى أن المخابرات الإسرائيلية لها أي دور في القصة.. القصة معقدة أكثر من اللازم وسيناريو الجماعة الدينية المخبولة أقرب إلى المنطق والتصديق..

ثم أتمنى أن أعرف كيف ينفذون خطوة الظلام أو خطوة موت الولد الأول..

المشكلة أننا نفترض قوى خارقة لدى المخابرات الإسرائيلية عندما نتوقع أنهم وراء كل شيء يحدث.. وأنا أستشعر في هذا نوعًا من الإهانة... الموساد جهاز محكم يتمتع أفراده بالكفاءة، لكنهم ليسوا سحرة...

عندما تفرقنا، ذهب د رمزي إلى حيث كانت زوجته ماري عند أقاربها.. لن يعود لداره إلى أن تتضح الأمور، وقد قرر رجال الشرطة أن تكون هناك حراسة شخصيّة لهما. من الوارد أن يتم اختطافه من مقر عمله..

أنا والحمد لله لا يعرفني أحد لذا عدت لداري سعيدًا لأمارس متعة الشخص غير المهم..

بحثت في المكتبة عن كتابين.. الأول هو التوراة وبالذات سفر الخروج، والثاني هو كتاب عن فترة العمارنة وتربعت في الفراش ممسكًا بقلم لأضع خطوطًا..

هل الفتاة وأخوها سليمان؟... أرجو ذلك..

هؤلاء القوم قساة بلا شك.. أقصد عبدة الشمس هؤلاء، وقد تعلّمت أن من تسيطر عليه فكرة دينيّة مجنونة يكون أقسى الناس طرًا.. دعك من أنني أشعر بأنهم مرضى بداء معين أي أن التعامل معهم خطر في كل الظروف...

بعد ساعة من القراءة نهضت لأتصل بالرائد (خيري)...

جاء صوته المتضايق يسال عما هنالك كأنه يقول (ألم يعد مطلوبًا مني سوى قضيتكم هذه؟). فقلت له في كياسة:

- «أعتقد أن عليكم البحث عن تجمعات أجانب أو أشخاص غريب الأطوار في منطقة (عين شمس) و(عزبة النخل).. وربما (المطرية)..»

قال في برود:

- «سيكون هذا رائعًا.. لكن هل لي أن أعرف السبب؟»

- «أيونو.. أي هليوبوليس.. المتكلم كان يرحب بالقادمين المفهوم من كلامه أن كل هؤلاء القادمين جاءوا من أيونو.. لو أراد هؤلاء القوم الالتزام بالقصة حرفيًا فعليهم أن يقطنوا هناك..»

- «لن يكون هذا سهلًا..»

- «لا أحد سواكم يمكنه مسح هذه المناطق.. دعك من أن تواجد أجانب في هذه الأماكن ملحوظ جدًّا..»

كاد يضع السماعة لولا أن تذكرت شيئًا فقلت في حماس:

- «لحظة... هناك علامة ستجدها على بيوتهم إن لم أكن أحمق.. سوف تجد على الباب لطخة من الدم!»

- «دم؟»

- «دم حملان حسب التوراة قد كان اليهود يضعون هذه العلامة على بيوتهم كي لا يهاجمهم ملك الموت وهو ذاهب ليقتل أول طفل في كل أسرة مصرية.. أعتقد أنهم سينفذون هذا حرفيًا..»

قال لي في نفاد صبر:

- «هناك خلط بين عبادة الشمس واليهودية هنا.. هذا (عك) لا شك فيه..»

قلت ببساطة:

- «قل لهم هذا ولا تقله لي.. إنهم يهتدون بأخيناتن ويعبدون الشمس.. لكنهم كذلك يعتبرونه هو سيدنا موسى، وهذا هو منطقهم في إعادة أوبئة مصر.. لهذا تجد ما يقومون به خليطًا من الاثنين... لا تنس أن فرويد نفسه وقع في هذا الخلط تقريبًا..»

- «لا أعرفه ولا أريد أن أعرفه.. سأرى إن كان ما تقول صحيحًا..»

ووضع السماعة..

عدت للفراش وقررت أن أبحث عن تفاصيل أكثر، لكني لن أتصل به ثانية قبل الصباح لأنّه نافد الصبر تمامًا..

✷ ✷ ✷

تررررررررررررن!

دق جرس الهاتف ليزلزل أعصابي.. نهضت مسرعًا لأرد على هذا الحيوان الذي يتصل في الحادية عشرة صباحًا بدلًا من أن ينتظر النهار... أنت تعرف أن نهاري يبدأ بعد الثالثة عصرًا..

رفعت السماعة مغتاظًا موشكًا على الانفجار، فجاء صوت (محمد خيري) يقول:

- «صباح الخير يا دكتور.. انتظرت حتى تستيقظ!»

- «لم تنتظر بما يكفي.. هل هناك كارثة؟»

قال في فخر:

- «كان كلامك دقيقًا.. قبضنا على اثنين.. في كلّ مرّة كانت علامة الدم على الباب مؤكدة..»

- «والأهم.. هل تكلّم أحدهما؟»

- «لا... أرى أن تأتي بنفسك لترى..»

ثم وضع السماعة قبل أن أعرف: آتي لأين؟

✷ ✷ ✷

لم يكن وجهة مشوهًا كالذي هاجمني، لكنه غريب الملامح بالفعل.. لا ننكر أنه وسيم أو كان وسيمًا، لكن نظراته حادة جدًّا وتتعقبك حيثما ذهبت، حتى تذكرت قصة مرعبة قديمة عن ساحر أفريقي أسير تنجح عيناه في تنويم كل من يدخل الزنزانة عليه.. حتى عندما وضعوا عباءة على وجهه كان ينجح في تنويم من يريد ويستولي على سلاحه..

جلد وجهه خشن جدًّا، لكنه لم يبلغ مرحلة التين الشوكي التي رأيتها من قبل..

شفتاه جافتان مشققتان.. وشاحبتان جدًّا.. فيما عدا هذا لونه أسمر بسبب تعرضه المزمن للشمس..

هذه ملامح مصاص دماء.. لكنه ليس كذلك بالتأكيد...

ثيابه عبارة عن بول أوفر سميك أسود اللون له رقبة عالية توشك على تغطية أسفل ذقنه، وفوق البول أوفر سويتر جلدي أسود.. ثياب تناسب راكب دراجات بخارية في ألاسكا، لكنّها لا تناسب جو مصر الذي صار أقرب إلى الصيف...

كان يجلس هناك في مكتب (محمد خيري) وقد ربطوا معصميه بالأصفاد أمامه.. وهناك رجل شرطة يقف جواره متوترًا.. وجود هذا الرجل يسبب التوتر فعلًا..

جلست أمامه ونظرت له للحظة ثم نظرت للسجادة لأتحاشى عينيه وسألته:

- «ما اسمك؟»

لم يرد...

عدت أكرر سؤالي بالإنجليزية فلم يرد..

هنا قال (محمد خيري) مفسرًا وهو يشعل لفافة تبغ:

- «لا يتكلم... فإذا فعل فبلغة لا نعرفها..»

نهضت لأكون جواره ثم همست في أذنه ببعض الكلمات.. ثم عدت لمقعدي.. بدا عليه التوتر وهز رأسه ثم وضع الجريدة على المكتب..

عدت أنظر في عيني الرجل الذي قبضوا عليه وسألته بالإنجليزية:

- «هل أنت مصاب بمرض عضال؟»

هنا بدأ يتكلم.. يتكلم بلهجة ثقيلة.. على قدر علمي هذه لغة لا يتكلمها أحد على ظهر الأرض اليوم. لن أندهش لو اتضح أنها الديموطيقية.. لابد من أن يجلس معه د. رمزي بعض الوقت..

نهضت وانحنيت لأتفحص عينيه.. هاتان الحدقتان...

قلت للرائد وأنا أجلس:

- «في رأيي أنه تحت تأثير مخدر ما.. هذا الفم الجاف وهاتان الحدقتان المتسعتان تشيان بالأتروبين.. بعبارة أخرى نحن نتكلم عن (الداطورة).. هذا الفتى تحت تأثير مخدر ما.. وهذا يجعله غريب الأطوار سهل القياد.. ربما كان بعض (البيلوكاربين) قادرًا على جعله يفيق..»

مد الرائد يده لسماعة الهاتف وهو يتكلم:

- «المستشفى.. سأرسله للمستشفى لعمل غسيل معدة وتحريز عينات من....»

في هذه اللحظة انتفض الرجل.. ولا أعرف كيف ولا متى لف الأصفاد على عنق الشرطي الذي يحرسه، ثم طوح به جانبًا..

- 4 -

كأنك ترى الشيطان ذاته...

لا شك في أنه هشم عنق فرد الحراسة..

ثم إنّه وثب لينزع المسدس من حزام الرجل، ووثب على المقعد..

متى يجد الوقت لهذا كله؟.. لقد دار في الهواء ثم هبط على ساق واحدة ووجه ركلة لشرطي آخر فوجئ بما يحدث....

إنّه يتصرّف بذات الجنون والحماس والهياج... نفس سلوك الرجل الذي هاجمنا في البيت..

لا أدري إن كان مشى على الجدار فعلًا أم إن سرعة تصرفاته أوحت لي بهذا.. ما حدث هو أنه طار ليوجه لي ركلة عنيفة في كتفي - لحسن الحظ - وإلا لهشم حنجرتي أو ضلوعي لو اختلف المكان قليلًا...

كان يصدر صوتًا مريعًا كأنه ذئب مسعور..

وهنا دوى صوت طلقتين.....

لقد أصابه الرصاص وهو يوشك على الانقضاض على (محمد خيري)..

يخيل لي أن صوت الرصاص أعلى من المعتاد.. رائحة البارود أشد من المعتاد الموت أعنف من المعتاد..

كأنه ذئب مسعور أطلق عليه الرصاص فعلًا.. طار للخلف ثم سقط أرضًا على الفور وتشحط للحظات ثم همد..

كان الرائد يمسك بمسدّسه الذي يتصاعد منه الدخان، وينظر للمشهد في ذهول..

قال لي وأنا أحاول النهوض:

- «كنت محقًا عندما طلبت مني أن أبقي المسدس جاهزًا واضح إن فرد الحراسة قد فك الأصفاد التي في يده لكنه كان ينتظر اللحظة المناسبة.. لم يخطر هذا لنا.. كنا نجلس مع وحش غير مكبل ولا نعرف..»

قلت وأنا ألهث وأتحسس كتفي:

- «عيناه.. أعتقد بالفعل أنه قادر على التنويم المغناطيسي قرأت قصة كهذه في الماضي، ومن الواضح أنه نجح في تنويم الحارس قبل أن يدخل معه، وجعله يفك الأصفاد له وإن تظاهر بالعكس لاحظ أن تنويم بسطاء العقول أسهل بكثير، لهذا لم ينجح معك...»

- «هل أنت بخير؟»

- «الألم ليس من الأمور التي تستحق الذكر في حياتي سأعيش..»

كانت الفكرة مرعبة فعلًا. كان الرجل سيفرغ المسدس فينا جميعًا ثم يفر... أعتقد أنه قام بهذا العرض البهلواني لأنّه خشي ألا يكون المسدس محشوًا..

كانت الغرفة قد امتلأت برجال الشرطة الذين جاءوا من كل مكان شاهرين أسلحتهم وقد سمعوا صوت الطلقات.. وكان الدخان يملأ الهواء... هناك جثتان كذلك مما جعل المشهد مرعبًا...

قلت للرائد وأنا أنهض مترنحًا:

- «نصيحة.. حافظوا على الآخر جيدًا.. هؤلاء القوم لا يبالون بحياتهم كثيرًا..»

ثم اتجهت للمكتب فتناولت ورقة وبدأت أدون عليها ما أريد أن يقوموا به أو أتوقعه:

1 - تحليل دم هذين الرجلين ومعرفة أي نوع من المخدرات فيه؟

2 - تشريح جثة المحترق في البناية.. هل هو مصاب بوباء ما؟

3 - من الذي استأجر البناية؟ لابد من وجه أنهى الإجراءات فمن هو؟

4 - هل هناك آثار للطحالب أو الغبار البركاني في تحليل مياه قرية أطفيس؟

5 - ما الداء الذي أصاب الماشية هناك؟

6 - من الذي أدخل الكارثة البيئية إلى أطفيس؟

7 - قائمة بأسماء عبدة الشمس الذين وفدوا إلى مصر في تلك الخطوة السياحية اللطيفة.. وكم منهم غادر فعلًا؟

8 - من هي تلك الفتاة التي كانت تحوم حول ريهام؟

تأمل القائمة.. لاحظت أن يده ترتجف فهو لم يعتد القتل بدوره...

رسم ابتسامة مفتعلة على شفتيه وقال:

- «جميل أن ترسم لنا خطة العمل... على كل حال هذا يدلني على أن تفكيرك منطقي وممنهج. لكن هذا العمل يحتاج إلى شهر.. أنت تريد أن نترك كل أعمالنا ونتفرغ لك..»

قلت في ضيق:

- «لو أردت استعادة الفتاة وأخيها حيين، ولو أردت أن توقف أوبئة تلك القرية فعليك أن تسرع..»

قال مفكرًا:

- «وهل الفتاة وأخوها حيَّان؟.. لديَّ ألف سبب للشك..»

- «ماذا يدعوك للاعتقاد بهذا؟»

- «أنت رأيت هذا الحيوان.. لا أعتقد أن من ضمن مواهبه معاملة الأسرى برفق..»

نهضت مغادرًا هذا المسرع الصاخب، وقلت:

- «ما أعرفه عن الفتاة هو أنها ذكية.. سوف تقنع هؤلاء بأنها تعرف أكثر.... سوف تقنعهم بأن يبقوها حية إلى أن يعرفوا ما تعرفه.. لو كانوا يريدون قتلها منذ البداية لعدنا للسيارة لنجد جثتين..»

هزّ رأسه في عدم اقتناع ثم رفع سماعة الهاتف..

- 5 -

لم يعد (خميس أبو لبن) قادرًا على الحركة..

إن القرية تعجّ بالغرباء.. رجال شرطة.. خبراء من وزارة الزراعة.. أساتذة في كلية العلوم.. كل هؤلاء في كل مكان وتحت كل حجر..

كان (خميس أبو لبن) فلاحًا من الطراز الذي لم يزرع شيئًا في حياته.. كان أقرب إلى أفَّاق جرب حظه في القاهرة مرارًا وفي كلّ مرّة يفشل ويعود مفعمًا بالحقد.. وكان الفلاحون يطلقون عليه (عواطلي)، وكانوا يعرفون أنه ظريف لمدّة عشر دقائق لكنك لا تتحمله بعد هذا ولا تأمنه على دخول دارك أبدًا..

إنه في السابعة والعشرين على قدر من وسامة الملامح، وله عينان خضراوان بتلك الدرجة التي تستمد لونها من الحقول، لكنه لم يكن يحمل شيئًا من الخضرة في داخله. لو رآه طبيب نفسي لقال إنّه شخصيّة سايكوباثية بالمعنى الحرفي للكلمة وهو لا يحمل أي ضمير من أي نوع ولا يبالي بشيء، سوى حاسة الحرص على حياته كأنه ذئب أو ثعلب...

كان يخفي تلك الأنابيب في غرفته، داخل حقيبة يعرف أن أمّه لن تعبث فيها..

لكنه بدأ يشعر بقلق حقيقي.

الرجل الذي عرفه في القاهرة دفع له مبلغًا يدير الرءوس، وقال له:

- «سوف تنفذ التعليمات حرفيًا ولك مثل هذا المبلغ فيما بعد...»

قال في حذر:

- «وما محتوى هذه الأنابيب والعلب؟»

- «لا تسأل.. أنت تتقاضى مالك مقابل ألا تسأل..»

- «وماذا لو ضبطوني؟»

ضحك الرجل كثيرًا ثم قال بعد ما فرغ من السعال:

- «أنت في قرية.. تصوّر رجلًا يفرغ أنبوبًا في مجري الماء هل يمكن ضبطه؟.. من سيراه؟.. عندما تفتح هذا الصندوق وينطلق منه البعوض فمن سيحاكمك على ذلك؟..»..

دس خميس المال في جيبه، ثم نفث الدخان بقوّة وقال:

- «اسمع.. أنا لست أبله.. هل هذا المال إسرائيلي؟»

ضحك الرجل كثيرًا وقال:

- «بالطبع لا.. أقسم لك بقبر أمي أنه ليس إسرائيليًا..»

وكان (خميس) يعرف أن كل من يقسمون بقبور أمهاتهم كاذبون وأمهاتهم حيات، لكنه قرر أن يجرب حظه.. فقط لم يكن راغبًا في أن يقف على المصطبة والحبل حول عنقه بينما الجلاد يسأله عما يريد قبل أن يموت.. كان من ذات الخامة التي يأتي منها الجواسيس لو كان معه مال يكفي ليذهب لروما أو اليونان ويجول في المقاهي هناك، إلى أن يجده (أبو أيوب) ويعرض عليه العمل في منظمة السلام.. هذه الخامة نادرة لكنّها موجودة بالتأكيد..

✷ ✷ ✷

عندما عاد إلى القرية هذه المرّة كان يحمل الكثير من المال، لكنه كان أذكى من أن يظهر أية علامة على الثراء.. أمّه العجوز استقبلته بالدعوات.. كالعادة منذ 27 عامًا تتوقع أن يعقل ويهتدي.. إنّه نموذج ممتاز للبذرة الطيبة التي أفسدها أصدقاء السوء..

قضى يومين في الفراش كأنه مريض.. كان عاجزًا عن اتخاذ الخطوة الأولى برغم بساطتها.. وفي اليوم الثالث خرج ليلًا واتجه إلى الماء.. وجلس على الشط يتأمل الماء المترقرق في ضوء القمر، ثم أخرج العلبة الأولى فأفرغ ما فيها في الماء...

الحق أنه فعل أشياء كثيرة جدًّا.. أفرغ أنابيب تحوي البعوض في عدة حظائر ماشية.. بعثر علبتين على رءوس المارين تحت داره ماشين في جنازة، وبعثر الكثير على رءوس التلاميذ الخارجين من المدرسة لابد أنّ هذه العلب كانت تحوي حشرات صغيرة جدًّا..

قمل!.. عرف هذا عندما انتشر الداء في بيته وعندما وجدت أمّه عشرات من تلك الحشرات القذرة في شعره، حتى اضطر الآن يحلق رأسه بالكامل...

لقد بدأت الأرض ترتج فعلًا.. لا يستطيع أن يصدّق هذا كله في القرية الآمنة.. لكنه قد بدأ ولا يمكنه التراجع..

شعور هو مزيج من الرعب والفخر انتابه وهو ينظر إلى الماء الذي صار أحمر تمامًا.. الضفادع في كل مكان والمواشي تتساقط...كل هذا بسببه.. لو افتضح أمره فلن يُحاكم.. سيمزقه الفلاحون بأسنانهم حيث هو..

بالفعل بدأ يضمر وشحب وجهه وغاصت عيناه في وجهه صار كالشبح لكن سبب هذا لم يكن الضمير ولكنّه الخوف من أن ينكشف أمره..

أراد أن ينتهي من هذا كله ويعود للمدينة، فهو لا يطيق هذه القرية اللعينة.. لكن التعليمات صريحة.. لن يتقاضى المال ما لم يفرغ آخر أنبوب لديه..

هذا الأنبوب بالذات كان مريب الشكل.. فهو مغلق بإحكام، وموضوع في علبة مبطنة بالقطيفة، وهذه العلبة داخل علبة أخرى أكبر..

كان في غرفته في تلك الليلة وقد تربع على الأرض يتفحّص هذا الأنبوب..

ما الموجود فيه؟.. سائل رائق أصفر اللون...

أراد أن يتشمم الموجود..

راح يحاول أن يفتح الأنبوب بلا جدوى.. هكذا اضطر إلى أن يضغط بأسنانه كي يفتح السدادة العصية.. بالفعل لانت قليلًا...

فتح الأنبوب وتشممه.. لا رائحة.. ترى أية كارثة سوف يسببها هذا الشيء؟

أعاد غلق الأنبوب وأخفاه في الحقيبة، وقرر أن يجرب حظه هذه الليلة بالذات...

ثم رقد على الفراش الذي أعده على الأرض وراح يتأمل عروق السقف الخشبية حيث تمرح الأبراص ...

غريب هذا.. الطقس حار نعم. لكنه لم يكن بهذه الحرارة.. يشعر بأنه في فرن..

بالواقع هو يشعر كذلك بغثيان شديد ويوشك على أن يفرغ معدته.. العرق يسيل بلا توقف. ماذا حدث؟

نهض فوجد أن الغرفة تميل بزاوية 90 درجة.. يشبه الأمر ركوب سفينة غير متوازنة.. اتجه للباب فأدرك أن ساقيه لينتان كالمكرونة..

فتح الباب وصرخ:

- «يا أمّه!.. يا أمّه!»

فقط عندما جاءت العجوز الطيبة ورأت وجهه وصرخت وهي تضرب صدرها، كان وجهها مرآة يرى فيها ملامحه.. عندها فقط أدرك أنّ هناك كارثة

- 6 -

عند المساء اتصل بي الرائد (خيري) ليقول لي:

- «أعتقد أننا وجدناه..»

قلت في حماسة:

- «هذا رائع.. كنت أعرف أنه سيقع في الشرك.. لكن عمن تتحدّث؟»

قال بنفاد صبر:

- «ذلك الذي بدأ الكارثة البيولوجية في القرية.. اسمه (خميس أبو لبن)..»

- «إذن هو سيقودكم لكل شيء..»

- «ليس بالضبط.. إن حالته سيئة جدًّا ولا يقدر على الكلام.. بل هو في الواقع يحتضر الآن.. يبدو أنه مصاب بمرض (التين الشوكي) الذي تكلمت أنت عنه لا يقدرون على النظر له بسبب بشاعة منظره.. وجدته أمّه في هذه الحالة، وغرفته تعجّ بأنابيب الاختبار التي تصلح لتوجيه التهمة له..»

هذا مؤسف.. كلما وجدنا خيطًا وجذبناه اكتشفنا أن طرفه الآخر لا يتصل بشي..

على كل حال هذا يثبت أننا نفكر بشكل صحيح...

قال الرائد بعد صمت:

- «يسافر للقاهرة كثيرًا.. لابد أن تجنيده تم هناك إذا جاز الى هذا التعبير. يجب أن أخبرك كذلك أن حاجياته كانت تحوي أنبوب اختبار.. لا نعرف ما فيه بالضبط لكنهم يتحدثون عن فيروس أو عامل بيولوجي خطر غالبًا هو الذي أدى لمرضه.. لقد قام رجال وزارة الصحة بتطهير البيت والتحفظ على الأنبوب..»

هكذا تتضح الأمور.. لا يقدر أحد على تنفيذ باقي سلسلة الأوبئة، لذا قرر الفاعل أن ينهي سلسلته الخاصّة بوباء شامل حقيقي..

إن مصر بلد كبير، ولا يمكن أن تحدث أذى كبيرًا إلا بتهديد نووي أو تهديد بيولوجي.. إن أنبوب اختبار يحدث الكثير من الضرر..

ما هو محتوى الأنبوب؟.. يخيّل لي أنه عامل جديد غير معروف.. الجدري لا ينتقل بهذه السرعة ولا يجعل الناس يبدون بهذا الشكل.. على قدر علمي لا يوجد وباء مماثل. لقد وجد هذا الوباء في مختبر ما في مكان ما..

لكن من قال إن هذا هو الأنبوب الوحيد؟.. ومن قال إن القصة انتهت عند هذا الحد؟

سألته:

- «هل انتهت مشكلتك مع ذلك الفتى الذي قتلته؟»

قال وهو يتنهد:

- «لست فخورًا جدًّا بما قمت به، لكنه كان دفاعًا عن النفس بلا شك... لقد مات ويده تطبق على المسدس.. لا يمكن أن ينصحني أحد بالتعقل بعد هذا..»

كنت شارد الذهن لدرجة أنني لم أدر أنني وضعت سماعة الهاتف دون أن أودعه..

✷ ✷ ✷

ثبتت القناع على أنفي وأحكمت ربط العباءة..

اسمحوا لي بالدخول بين ثلاثة رجال شرطة.. هناك كان (خميس أبو لبن) راقدًا على الفراش في غرفة خافتة الإضاءة، وكانت هناك ممرضة تلبس مثلي تفرغ محقنًا في ذراعه المربوط برباط من الشاش إلى الفراش.. طبعًا لم يكن هناك داع لهذا لأنّه كان في اسوأ حال...

كأنهم بدلوا وجهه بثمرة تين شوكي.. عيناه حمراوان تمامًا.. لكنه نسخة أخرى من ذلك المهاجم الذي باغتنا ونحن نفتش البناية..

يشبه من بعيد حالات الجدري المتقدمة، لكنه ليس مصابًا بالجدري بالطبع.. لم يعد يوجد جدري على الأرض أصلًا ولا يوجد جدري بهذا العنف..

ارتجفت لفكرة أنّ هناك من يحلم بتحويل سكان مصر إلى نسخة من هذا المسخ..

على الأرجح كان هو أول الحالمين، لكن طباخ السم ذاقه بطريق الخطأ.. لا أتعاطف معه لحظة..

ظللت أراقبه بعض الوقت وتفحصت ذراعيه وساقيه ثم غادرت الحجرة، لأنزع القفازين والثياب الواقية في وعاء يحوي مادة (الجلوتارالدهايد) المطهرة...

كان الرائد (خيري) ينتظرني قرب الباب، وهو يدخن لفافة تبغ غير مبال بممرضة غاضبة تريد منعه من التدخين ولا تجرؤ..

قال وهو ينفث سحابة كثيفة:

- «هل من شيء جديد؟»

- «ليس الجدري على كل حال.. ليس أي مرض فيروسي نعرفه..»

ثم سألته وأنا أجفف عرقي:

- «ماذا تنوون عمله؟»

- «الكثير.. نحن لا نتوقف أبدًا.. الطريقة التي غادر بها هؤلاء القوم البناية.. هناك صناديق وأثاث.. يعني هذا شاحنات أو سيارات نصف نقل.. نقوم باستجواب كل سائقي هذه السيارات في المنطقة. نسأل الجيران عمن كان يجلب لهم الطعام.. نتابع كل أفراد الجماعة التي تعبد الشمس الذين جاءوا لمصر.. نبحث عن مالك البناية الأصلي لنعرف من استأجرها منه.. لاحظ أنهم لا يستطيعون الوصول إلى كل مكان بهذه السهولة ما لم يكن معهم مصري أو اثنان.. صدقني نحن مشغولون جدًّا..»

- «إنني أحسدكم.. أنا بلغت آخر مجرى أفكاري..»

ثم تذكرت شيئًا فسألته:

- «هل هناك بصيص من أمل في موضوع سيارات النقل هذا؟»

هزّ رأسه باسمًا وقال:

- «حتى هذه اللحظة لا. لكننا اعتدنا ذلك..»

كنت شارد الذهن لدرجة أنني لم أدر أنني انصرفت دون أن أودعه..

- 7 -

توقفت سيارة د. رمزي قرب البناية في المنحدر..

كانت شمس الظهيرة تتوسط السماء... حارقة تعلن بدء ملكوت الصيف..

ترجلت ونظرت إلى المكان حولي.. لا يوجد أحد.. على قدر ما أعتقد لا يوجد أحد..

هناك مشكلة كبرى هي أننا لن نوقف السيارة أبعد من هذا.. لو ابتعدنا لما استطاع د. رمزي أن يمشي هذا كله، ولو اقتربنا جدًّا فسوف يرانا أحد..

من جديد رحت أدور حول البناية وأنا أتفحص الأرض....

ثم عدت إلى د. رمزي وطلبت منه أن يترجل معي...

لم أتصل بالرائد (خيري) لأنني لست واثقًا من شيء هناك احتمال عالٍ جدًّا أن أكون أحمق، وأنا لا أريد أن أسبب السخرية أريد أن أرى كل شيء بنفسي أولًا..

قال لي د. رمزي وهو يغلق السيارة ويتناول العكاز، ليمشي مشيته الأرستقراطية الغريبة كأنه (باشا) يتفقد أملاكه:

- «أرى أنها حماقة..»

- «لم أنكر ذلك لحظة.. لكني أريد أن أعرف..»

ثم ركلت الغبار بقدمي وقلت:

- «لم يظهر سائق سيارة نقل واحد يعترف بأنه أجرى عملية نقل هنا.. عملية نقل هنا كانت لتكون شاقة جدًّا.. كان الكثيرون سيلاحظون.. دعك من أننا جئنا هذا البيت مبكرًا فلم نجد أثر إطار سيارة واحدة خارج البيت.. وحتّى هذه اللحظة لا أرى إطارا واحدًا برغم أن آثار إطارات سيارتنا ما زالت موجودة بعد المغامرة الأخيرة. هل ينقل هؤلاء حاجياتهم بالهليوكوبتر؟..»

- «ماذا تريد قوله؟»

- «قلت لك.. ما زلت أشك في هذه البناية.. أشعر أنهم ما زالوا هنا.. ولو كانوا قد رحلوا كلية فلماذا تركوا من يراقب المكان لهم؟.. واضح أنهم يتركون من أصيب بالمرض كي يتولى هذا الأمر عنهم. وكيف استطاعوا نقل الفتاة وأخيها بهذه السرعة؟..»

- «لقد فتش رجال الشرطة البيت جيدًا بعد مغامرتنا.. هل تعتقد أنهم لم يبحثوا تحت السجاجيد وتحت الأسرة؟»

كنت قد بلغت الباب الموارب.. دفعته في حذر وقلت:

- «هذا ما أراهن عليه..»

✷ ✷ ✷

يظهر اسم سمنخارع في المخطوطات بدءًا بالعام الرابع عشر من حكم (أخيناتن)، ومن الغريب أنه ذات الوقت الذي يتوارى فيه اسم (نفرتيتي)..

الاسم يكتب أحيانًا في صيغة ذكرية وأحيانًا في صيغة أنثويّة..

لا يعرف علم الآثار الكثير عن هذا الاسم.. أكبر الظن أنه حكم مع وبعد (أخيناتن) ولمدّة ثلاث سنوات.. والغالب على الظن أنه أخو (أخيناتن) نفسه.. لكن هناك من يرون أنه ابن أخيناتن من (كيا) إحدى زوجاته.. وهناك من يرون أنه ابن أمنوفيس الثالث من كيا..

هل ظل على عبادة (آتون) أم أدار ظهره لها. وعاد لعبادة آمون؟.. لا يوجد أحد على يقين من هذا..

نعرف كذلك أنه - لو كان فتاة - فهو على الأرجح كان متزوجًا من (ميريت آتون) ابنة أخيناتن ونفرتيتي.. واحدة من البنات الست.. ولربما كان متزوجًا كذلك من (عنخسنامون) الابنة الأخرى لأخيناتن..

تنامى نفوذه في البلاط بشكل مرعب. وهناك نقش غريب يظهر فيه أخيناتن ونفرتيتي وابنتهما (ميريت).. تم تغيير اسم نفرتيتي ليصير (سمنخارع) وتم تغيير اسم (ميريت) ليصير (عنخسنباتن).. هل يعني هذا أن نفرتيتي وسمنخارع هما الشخص ذاته؟

هل هو لا ينتمي للأسرة أصلًا وبالتالي هو ابن أحد ملوك الحيثيين؟.. سوبيلوليوماس بالذات..

الحقيقة الوحيدة هنا هو أن سمنخارع لا يظهر أبدًا مع نفرتيتي في صورة واحدة.

الجسد في المقبرة 55 يوحي بأنه جسد امرأة.. طريقة الدفن توحي بهذا... فلو كان هذا جسد سمنخارع فما السبب؟..

هل هو على سبيل التنكيل به؟.. أم أن جنسه كان غير مستقر يقف بالضبط بين الذكر والأنثى؟

لماذا أخذوا أشياء كثيرة من قبره ووضعوها في قبر توت عنخ آمون؟ يصعب على المرء أن يصدّق أنّ بعض صور توت عنخ آمون التي نعرفها هي في الحقيقة صور سمنخارع.. لقد تم تغيير اسم صاحب الصور والسبب؟.. الكراهية على الأرجح..

إن المقبرة 55 لغز محير، وسوف تبقى كذلك على ما يبدو..

✷ ✷ ✷

كانت البناية من الداخل كما تركناها، وإن سادتها فوضى عارمة ناجمة عن عشرات رجال الشرطة الذين دخلوا هنا. في داخل البناية كان ذلك الدرج الذي يقود للطابق الثاني الطابق الذي لم نره قط..

درج صغير ضيق يتجه لأعلى..

وضعت قدمي على الدرجات وبدأت أصعد لاهثًا..

قال د. رمزي في غيظ:

- «تفكير منطقي.. لم يخطر لرجال الشرطة أن يصعدوا للطابق الثاني.. أنت عبقري!»

لكني لم أبال به.. واصلت الصعود حتى الطابق الثاني ثم واصلت الصعود لأعلى.. لقد تحول الدرج إلى ما يشبه سلالم المطافئ وصار مستحيلًا على د. رمزي أن يأتي هنا..

كان هناك باب خشبي صغير يقود للسطح فأزحته.. وهكذا وجدت نفسي أقف في ضوء الشمس الساطع أعب الهواء بقوّة وجوع.. إنّه سطح كأي سطح آخر بما عليه من براميل ضخمة وقطع قرميد وأكياس أسمنت تحجر ما فيها.. هناك مقاعد تالفة وحبال غسيل. لا يوجد هوائي تلفزيون..

أرمق المنطقة كلها من أعلى للمرة الأولى..

رحت أبحث بدقة.. حتى وجدت تلك النافذة الزجاجيّة في الأرضية.. النافذة التي أبحث عنها منذ البداية...

ركعت على ركبتي وفتحتها بصعوبة..

وجدت ما توقعته فعلًا..

- 8 -

كانت النافذة تقود لنفق طويل ينتهي بمرآة.. مرآة عملاقة مائلة..

بالطبع لا أستطيع النزول في هذا النفق.. هذا يحتاج إلى من هو أصغر مني بثلاثين عامًا وأقل حجمًا لكن من الواضح أننا في الطريق الصحيح..

قمت بتحديد اتجاه النافذة الأرضية، ثم خرجت من السطح لأهبط على ذلك السلم العجيب..

لكن.....

أين رمزي؟؟؟

لم يعد هنا!

تبًّا... رحت أناديه مرارًا بلا جدوى.. لم أجد إلا عكازه على الأرض فأخذته وقد أزمعت أن أحطم رأس أول من أقابله...

رمزي ليس في مكان ما هنا ولا يقضي حاجته...

إن هؤلاء القوم. يلعبون معنا لعبة المساكة. الظفر بآخر من يقف في الصف... طريقة سخيفة جدًّا لكنّها فعالة....

الآن هل أجد وقتًا يسمح لي بالفرار إلى السيارة؟

أريد أن أتصل بالرائد (خيري) بأية طريقة....

✷ ✷ ✷

درجة سلم..

درجة أخرى..

لا تتوقف يا قلبي...

الفكرة هنا أن هؤلاء القوم عبدة شمس.. وفي الوقت ذاته يتوارون في مكان مظلم بعيدًا عن الأنظار.. بالطبع جندوا من يجلب لهم المؤن بطريقة خفية.. لكنهم لم يفارقوا البيت كما توقع

الجميع... إنهم هنا.....

درجة..

درجة أخرى...

تمسك بالترابزين حتى لا تقع...

هم بحاجة للشمس حيث تواروا.. للعبادة أو لأسباب صحية. وهم يظفرون بالكثير منها بدليل لونهم الذي لوحته الشمس لو كانوا يعيشون في الظلام لبدوا شاحبين..

ما قاموا به هو استخدام ألواح زجاج تميل بزاوية 45 درجة... لوح يعكس الشمس إلى لوح آخر على طريقة منظار الغواصة (البيريسكوب).. وهذه الألواح في النهاية تقود إلى وكرهم الذي يضاء في النهار بضوء طبيعي...

درجة أخرى..

هذا الوكر غالبًا يقع تحت البناية.. كل ما فعلوه هو أن أخذوا حاجياتهم وصناديقهم وأسراهم ونزلوا تحت.. وليفتش من يفتش.....

طبعا هم تخلصوا من الكلاب التي تحدث عنها الصبي.. الكلاب ستعقد الأمور أكثر..

درجة أخرى..

لا يوجد أحد..

سوف أنجح...

ربما لم يخطر ببالهم أنّ هناك من يوجد على السطح لحظة أسر د. رمزي..

احتمال واهن.. لابد أن الأحمق ملأ الدنيا صراخًا على غرار: احترس يا رفعت!.. ونظر لأعلى مرارًا..

يجب أن أفترض أنهم يعرفون مكاني...

يجب أن أتوقع الكمين الذي أعدوه لي...

أين باب الخروج؟.. أين باب الخروج؟

✷ ✷ ✷

فجأة من الظلام ظهر لي أحدهم..

كان مسعورًا كالآخرين واندفع نحوي وهو يلهث كأنه ذئب ظمآن..

هويت على رأسه بالعكاز فتكوم أرضًا ثم نهض من جديد.. سوف يحتاج إلى ضربة ثانية إذن...

هنا.. للسن أحكام والقلب الواهن أحكام...

لقد راح قلبي ينبض بسرعة جهنمية.. ضربات لا جدوى منها ولا توصل دمًا لمخي...

وفي اللحظة التالية ساد الظلام العالم وتهاويت على الأرض...

لقد نفدت البطارية في لحظة ذروة جميلة.. كنت خليقًا بأن.....

لا شيء.....

سمنخارع..

أيها اللغز..

ابتعد عني...

المقبرة 55 هي جحر من جحور الشيطان... ربما تقود لجانب النجوم؟.. لا أظن..

سمنخارع...

أنت تثير اشمئزازي... لا أعرف إن كنت ذكرًا أم أنثى...

لا أعرف إن كنت موجودًا أم لا...

ابتعد عني ودعني أنعم بالظلام....

- 9 -

كان هناك من يمسح وجهي..

بدأت أفتح عيني ببطء لأرى ضوء النهار يغمر كل شيء..

لكني لم أكن حيًا ولم أكن في الخارج...

رأيت وجه (رمزي) ثم وجه (ريهام) ووجه أخيها كانوا يلتفون حولي كأنهم ذئاب حول فريسة..

- «إنّه يفيق..»

عندما فتحت عيني أدركت أن توقعاتي صحيحة.. كنا في قبو حقًّا لكن المرايا تحيط به من عدة جهات، وقد تم توزيعها بشكل دقيق بحيث غمرت المكان بالنور...

كنت حيًّا وقد حملوني إلى هنا عندما فقدت رشدي..

جلست ورحت أسعل..

كانت ريهام في حالة ممتازة برغم ثيابها الرثة.. وكذلك كان أخوها.. أمّا رمزي فكان في حال سيئة نوعًا ويبدو أنهم ضربوه كثيرًا... لقد ضمدت الفتاة جروحه بقطع من ثيابها..

استندت إلى الجدار ورحت ألهث:

- «أين هم؟»

قال د. رمزي وهو يئن:

- «هناك شيء جلل سوف يحدث.. لا نعرف ما هو.. ربما يتأهبون للرحيل.. يعدون كل شيء..»

- «هل لي أن أفهم.. من هم؟»

قالت ريهام وهي تجفف العرق عن جبيني:

- «معهم مصريون على الأرجح، لكنهم لا يعلمون الكثير.. يارا مثلًا مصرية تعمل معهم وتطلعهم على ما خفي عنهم من المجتمع المصري.. أمّا الأجانب فكلهم نسخة من الشخص ذاته... كلهم واقع تحت تأثير مخدر ما، لكن لهم زعيمًا أو مرشدًا وهو بالمناسبة الوحيد الذي يتكلم بوضوح، كما أنه يجيد العربيّة والإنجليزية ومنه فهمنا ما يدور بشكل ما.. هذا الزعيم يمت بالقربى

لإيرتون.. البريطاني الذي اكتشف المقبرة رقم 55 مع ديفيز. كانت هناك بردية مهمّة تشرح كل شيء.. تشرح أنّ هذا قبر (سمنخارع) وكيف أنه سيعود للحياة ليعيد عقيدة عبادة الشمس يومًا ما. فقط يجب أن تعم الأوبئة العشرة القديمة جزءًا من البلاد، وأن يأتي من يعيدونه للحياة من أيونو... لقد سرق إيرتون هذه البردية وعكف في وطنه على ترجمتها وبعد وفاته انتقلت لابنه فأحفاده. يمكن فهم ما حدث بعد هذا.. تكونت الجماعة ثم جاء أفرادها لمصر فرادى..»

كان القبو الذي نحن فيه يشبه زنزانة سجن لكنّها مفتوحة ومضاءة جيدًا..

رأيت (ريهام) تنظر إلى الباب..

كان هناك رجل يلبس عباءة سوداء طويلة ويبدو متقدمًا في العمر.. وقف على الباب ونظر لنا نظرة عابرة كأنه يطمئن على أننا لم نفارق مكاننا، ثم انصرف...

قالت لي مفسرة:

- «هذا هو المرشد أو الزعيم.. اسمه ينتهي بـ (إيرتون)..»

ثم أضافت:

- «ربما هم ينوون الرحيل.. يشعرون بأن المكان لم يعد آمنًا وأن حيلة القبو هذه انكشفت للشرطة أو على وشك.. المهم أنهم يتأهبون لشيءٍ مهم.. يستعدون له منذ يومين..»

- «جميل جدًّا.. وأنتم؟»

ثم استدركت فقلت:

- «ونحن؟»

قال رمزي:

- «نحن نسبب لهم الحيرة.. لا يعرفون ما يفعلون بنا.. في النهاية يبدو أنهم سيتركوننا ويرحلون.. سوف يستقرون في إحدى الضواحي.. غالبًا لديهم مكان في المطرية..»

- «بهذه البساطة؟»

- «طبعًا سوف يحرقون البناية كلها قبل الرحيل ونحن سجناء فيها طبعًا...»

قالت الفتاة:

- «أعتقد أنهم سوف ينشرون الوباء أولًا ثم يحاولون إعادة سمنخارع للحياة..»

قلت وأنا أنهض وأنظر حولي:

- «لا يبدو لي أننا سجناء هنا.. لا أرى أصفادًا ولا قضبان..»

قالت:

- «لكنهم في كل مكان.. صدقني.. لن تستطيع الخروج..»

هنا سمعنا صوت خطوات...

وفجأة دخل واحد.. ثم آخر.. ثم آخر من هؤلاء القوم كلهم مطرق وصامت...

وكانوا يتكلمون بتلك اللغة الغريبة...

ثم شق (إيرتون) صف الذين وقفوا حولنا ليقف في مركز الصدارة...

عندما نظرت حولي وجدت أننا محاصرون بعشرة منهم في هذا المكان الضيق. بالطبع هو نوع من التقدمات البشريّة.. توقع أي شيء من الوثنيين.. هل توجد تقدمات بشريّة أنسب منا؟

يبدو أن الحين قد حان..

- 10 -

ثم إن الصف انشق من جديد وظهرت أجمل فتاة يمكن لك أن تتخيلها.. حوريّة حقيقيّة باهرة الجمال، من الطراز الذي يشعرك بأنك قبيح جدًّا وأرضيّ جدًّا....

يارا.. لا أحتاج لتفكير كثير... هذه هي...

على كتفيها عباءة ساحرة مليئة بالنقوش وعلى رأسها تاج أنيق.. تبدو كملكة فرعونية فعلًا...

كانت تتكلم.. لكن ليس بالعربية..

تتكلم بلا توقف، هنا راح الواقفون يصدرون همهمة متواصلة..

ثم جثت على ركبتيها فجثا الجميع....

ورأيتها تتقدم نحونا فاحتضنت (ريهام) أخاها في توتر.. وبدا الصبي متوترًا مستعدًا كي يوجه ليارا ركلة في ساقها لو تمادت...

لكني رأيتها تنزع العباءة والتاج..

وبحركات وقور تضعهما على.. على (ريهام)...!

ساد صمت رهيب ثم من جديد جثا الرجال على ركبهم وخفضوا الرءوس....

تكلّم إيرتون أخيرًا فقال بالإنجليزية وبصوت رهيب:

- «لقد تم التجسد... تحية لك يا سمنخارع!»

وقالت (يارا) دون أن ترفع عينيها:

- «عقدنا اجتماعنا في ذلك اليوم عالمين أن العلامة ستأتينا والعلامة كانت أخاك الذي تسلل إلى اجتماعنا. كانت هذه هي العلامة.. بحثنا عنك ووجدناك....»

إذن هذا سر ذلك البحث المحموم..

لهذا بحثوا عنها ودسوا من تتجسس عليها!

لهذا لم يقتلوها هي أو أخاها.. برغم أنّ هذا كان منطقيًا جدًّا....

ربما ريهام لم تُخطف عندما تركناها في السيارة.. ربما خرجت ملبية النداء!

وربما سمنخارع..... لم يكن ذكرًا... ربما كان أنثى..... كان الكلام كله عن (كيا) منذ البداية..

لكن منذ متى تعرف ريهام أنها هي؟

الآن كانت تقف بالعباءة والتاج..

تغيرت كثيرًا جدًّا.. بالفعل تغيرت كثيرًا..

صارت أقرب إلى ملكة بوقفتها الشامخة الرهيبة، مع نظرة شيطانية لا شك فيها في عينيها.. لا يُمكنك أن تنظر لهاتين العينين أكثر من ثانية..

هل هي منومة أم إن نوعًا من المس الشيطاني أصابها؟

نظرت للدكتور رمزي ونظر لي..

أعرف شعور الدجاجة التي تنتظر الذبح الآن...

قال لها إيرتون وهو يمد يده في جيبه:

- «لقد عدت يا مجد الشمس... الآن اسمحي لنا بأن ننهي وجودنا...»

قالت بصوت عميق مرجف كلمات بتلك اللغة التي صارت تجيدها فجأة..

هنا رأيت مشهدًا مروعًا.. لقد مد كل واحد من هؤلاء القوم يده في ثيابه فأخرج أنبوب اختبار صغيرًا رقيقًا.. أطبق عليه قبضته..

كانت ريهام تنظر لهم نظرة ثابتة فيها شيء من الانتصار والقسوة..

كرااااش!

تصاعد صوت تهشّم نحو عشر من أنابيب الاختبار لتغرق وتدمي أيدي أصحابها.. وسمعت صوت الأنين..

بعد ثانيتين سقط الجميع على الأرض..

وأدركت بلا جهد أن أيديهم تتخذ ذلك الشكل المروع الذي رأيته مرارًا.. قشرة التين الشوكي.. لقد بدأ الوباء....

كانت خطوة الوباء هي آخر خطوة..

وكان دور هؤلاء القوم لا يختلف عن دور ذكر النحلة أو ذكر السرعوف.. لقد جاءوا بها وانتهى دورهم..

الأرض مليئة بالذين يتلوون ويئنون...

يعلم الله ما هو هذا الوباء.. إنّه فيروس تم تركيبه في مختبر ما، وهو شديد الفتك... سوف يقضي خبراء الفيروسات أيامًا ممتعة قادمة...

تتقدم منا ريهام في ثبات وتنظر لنا، وهي تضع يدها على كتف أخيها الذي وقف ينظر لنا متصلبًا..

عرفت أنّ علينا أن نظل ثابتين.. لا حركات حمقاء..

تنظر لي ثم لرمزي.. ثم تقول له بالعربية وبصوت ثابت:

- «أنا أحببتك يومًا.. أحببتك كثيرًا.. لهذا أتركك حيًّا... انصرفا ولا تعودا....»

لم نكن بحاجة لكلمات أخرى.. جررت د. رمزي من يده.. كان يمشي بصعوبة بالغة من دون عكاز، لكنني جررته جرًّا.. وخرجنا من هذا السرداب الرهيب..

كانت هناك درجات من حجارة تتجه لأعلى فرحنا نصعدها بعسر بالغ...

في النهاية كانت هناك فتحة في السقف.. غادرناها لنجد أننا نخرج من تحت الأرض على بعد خمسين مترًا من البيت..

كان هذا هو وقت العصر ولكن المكان بالخارج لم يكن هادئًا..

كانت هناك سيارات شرطة تنتظر، مع صوت اللاسلكي والسرينة المنذرين بكارثة، وكان هناك رجال شرطة يخرجون من البيت وقد بدت عليهم الحيرة.. تبينت وجه الرائد محمد خيري فصحت أناديه..

جاءني مسرعًا وتأكد من أن د. رمزي ليس بالسوء الذي يوحي به مظهره، لكنه أمر أحد رجاله بأن يجلب الإسعاف.. ثم قال:

- «اختفيتما فجأة.. أفلت د. رمزي من رجالي الذي يراقبونه لسلامته.. خطر ببالي هذا البيت، وعندما جئنا كانت السيارة واقفة وخالية.. لكن لا أحد بالداخل.. رجالي فتشوا جيدًا..»

أشرت إلى الفتحة التي خرجنا منها وقلت لاهثًا:

- «من هنا.. الدخول والخروج من هنا.. أقترح أن تنتظر رجال وزارة الصحة لأن المكان ملوث بالكامل.. أعتقد أنك ستجد المومياء في صندوق بالداخل..»

- «والفتاة وأخوها؟»

قلت بلهجة ذات معنى:

- «لن تجد أحدًا حيًّا بالداخل.. صدقني...»

✷ ✷ ✷

لقد اختفت ريهام وأخوها...

لا أملك أجوبة عن المكان الذي ذهبت إليه ولا كيف اختفت..

لا أعرف متى بدأت تدرك أنها هي المختارة لتكون كيا أو سمنخارع..

ما أعرفه هو أن هؤلاء القوم جاءوا لها وبحثوا عنها، ولم تصطدم هي بهم. عندما ضل سامح طريقه ورأى الاجتماع كانوا في الحقيقة ينتظرونه!.. يعرفون أن من سيظهر في هذا الوقت هو قريب للفتاة التي ستكون كيا أو سمنخارع والبحث المحموم عنه وعن أخته لم يكن بغرض القتل.. كان بغرض أن يأخذوه عندهم...

لقد انتهت قصة الفتاة الزرقاء..

ماذا؟ لا توجد فتاة زرقاء؟.. هذا صحيح فيما يبدو. لقد شخت حقًّا كما ترى على كل حال لن أكون أول ولا آخر من حكى قصة اسمها الفتاة الزرقاء، وليس فيها فتاة زرقاء!

✷ ✷ ✷

في القصة القادمة ترى مواجهتي الكبرى والأخيرة مع حامل الضياء..

يفضل بعض القراء أن يطلقوا عليه اسم (دكتور لوسيفر)، لكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

المقـــدمة

الجـــزء الأول

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

- 6 -

- 7 -

- 8 -

- 9 -

- 10 -

- 11 -

الجـــزء الثاني

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

- 6 -

- 7 -

- 8 -

- 9 -

الجـــزء الثالث

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

- 6 -

- 7 -

- 8 -
- 9 -
- 10 -

مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والإثارة



د. أحمد خالد توفيق

أسطورة الفتاة الزرقاء

عندما يتحركون فى الظلام ويلتقون فى أماكن مقفرة ، وعندما يتخاطبون بكلمات السر ، وعندما تدرك أنهم يخفون سرًا مفزعا .. عندئذ لا تتدخل فى شئونهم .. ابتعد وأبق رأسك منخفضا ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك ..

حتى إمساكك بهذا الكتيب مخاطرة .. انه يحوى معلومات عنهم أكثر مما ينبغى ومما يسيغون .. معنى هذا أنك مهتم بشأنهم ، وأنك لا تبالى بخطرهم .. فليكن إذن ..

العدد القادم

أسطورة حامل الضياء

مطابع

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

الثمن فى
وما يعادله
فى سائر الدول العربيه والعالم

Notes

[1←] تم هذا فعلًا..

مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

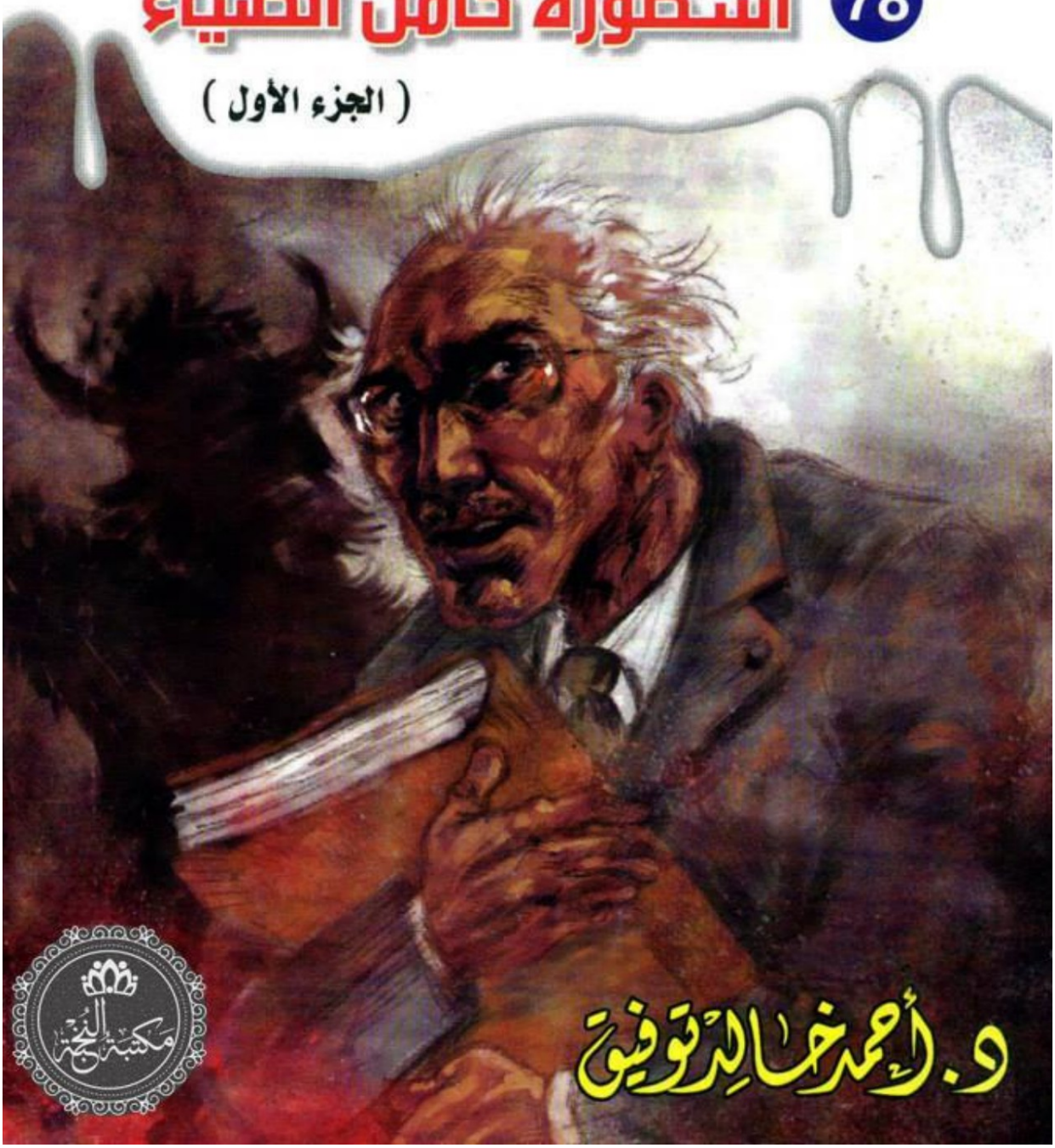


ما وراء الطبيعة

78

أسطورة حامل الضياء

(الجزء الأول)



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة النجمة

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



78

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة حامل الضياء

(الجزء الأول)

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايـــات تحبـس الأنفـــاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصـرى مائة فى المـائة
لا تشوبه شبه الترجمة أو الاقتباس
أو النقل عن أية قصص أوربية .

إشراف
الأستاذ / حمدى مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر سواء النشر الورقى أو الإلكترونى ، وكل اقتبـاس أو تقليـد أو إعـادة طبـع أو نشـر ورقـى أو إلكتـرونى دون الحصـول على تصـريح كتـابى من النـاشر يعـرض المـرتكب للمسـاءلة القـانونيـة .

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ــ المطابع 8 ، 10 شارع المنطقة الصناعية بالعباسية ــ منافذ البيع 10 ، 16 شارع كامل صدقى الفجالة ــ 4 شارع الإسحاقى : بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة ــ القاهرة ت : 26823792 ــ 25908455 ــ 22586197 ، فاكس : 202/2596650 ج.م.ع ــ
الإسكندرية 4 شارع بدوى / محرم بك ــ ت : 03/4970840 ــ 03/4970850

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط
الغمـــوض والرعـــب والإثارة

78

أســـــطورة حامل الضياء

(الجـزء الأول)

بقلم : د . أحمد خـالد توفيق

الغـــلاف بريشـــة : أ . أيمـن القـاضي

المؤسسة
العربيـــة الحديثـــة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

المقـدمة

تأخر صدور هذا الكتيب كثيرًا جدًّا، والسبب هو أحداث عاصفة وقعت في مصر، وأحداث عاصفة وقعت للمؤلف، الذي يبدو أنه أخذ بعض طباعي ومنها حالتي الصحية، وهكذا يبدو أننا نتسابق: من يموت قبل الآخر؟ إنّه أكثر شبابًا وأسرع مني على كل حال..

الطريف هنا أن المؤلف وجد أن شبكة الإنترنت تعجّ بأسطورة حامل الضياء. هناك كتب كثيرة جدًّا تحمل اسم (أسطورة حامل الضياء) ولم يكتبها المؤلف، وهذا فتح جديد في عالم التكنولوجيا. كانت قرصنة القصة تتم بعد نشرها بشهرين.. ثم صارت القرصنة تتم في نفس يوم النشر.. الجديد هنا تلك القرصنة على قصتك قبل أن تكتب حرفًا فيها أو تعرف ما ستكتبه! فكر المؤلف أن يقوم هو بالقرصنة على واحدة من تلك القصص التي تملأ النت، لكنه لم يستطع تحميل أي منها للأسف..

لو سارت الأمور على ما يرام فلسوف تقرأ هذا الكتيب لأول مرة في صيف 2012... هناك من جاءوا متأخرين.. لهؤلاء أقول إنهم جاءوا متأخرين جدًّا جدًّا، وإنني لأنصحهم بالبحث عن الكتيبات السابقة لأن هناك تراثًا ضخمًا من الذكريات والخبرات والآراء بنيناه معًا على مدار تسعة عشر عامًا عندما أتكلم عن د. لوسيفر أو عن ميدوسا أو تماثيل عزت الغريبة أو بروستاتا كولبي أو د. كاميليا، فمن الصعب على من جاء متأخرًا أن يفهم حرفًا..

رأيت اليوم رجلين وامرأة يتبادلون المزاح في كافتيريا.. مزاحًا خاصًا بهم تمامًا، لذا رحت أتأملهم فبدوا لي سمجين جدًّا يضحكون لأشياء لا تدعو للضحك، بينما بالتأكيد كانت أسبابهم وجيهة تمامًا. هكذا شأن من يأتي متأخرًا فتبدو الأمور له سخيفة غير مفهومة..

اليوم نتكلم عن حامل الضياء..

هذا اسم غير معتاد لدكتور لوسيفر.. لكنه من الأسماء المعترف بها له.

سوف أغلق نوافذ البيت والشرفة وأجلس في الصالة.. سوف أعد لنفسي شيكولاتة ساخنة كالعادة.. سوف أجلب القط لينام عند قدمي.. إن القط النائم علامة لا شك فيها على أنني آمن، ما لم أكن منحوسًا وأظفر بقط أصم أو قط أبله أو قط مصاب بمرض النوم أو نقص الغدة الدرقية..

نتكلم عن حامل الضياء و..

برغم كل هذه السنين أتوقع انتقام دستة من المسوخ والأشباح التي لم أتخلص منها بالكامل. هناك في سقر ألف مسخ يتمنى أن يخرب بيتي..

أنتظر الموت.. وأدعو الله أن يكون أسرع من خطوات هذا القادم على السلم.. هذا الذي يقصد عتبة داري. هذا الذي يدق على الباب.. هذا الذي يقتحم شقتي.. هذا الذي يزحف إليَّ.. هذا الذي يقصد بقعة النور الوحيدة في هذه الساعة.. هذا الذي.....

اللعنة!.. إنني أثير فزع نفسي..

سأشرب الشيكولاتة ولنبدأ..

ذلك الصوت غير المريح.. هذا الصوت لا ينتمي للبشر ولا ينتمي للحيوان.. لكن الحقيقة أنه يأتي من القط النائم عند قدمي.. إنّه بارد كقطعة ثلج..

ثمة احتمال لا بأس به أن أكون منحوسًا فعلًا.. لم أظفر بقط أصم أو قط أبله أو قط مصاب بمرض النوم..

ظفرت بقط ممسوس..

- «ريفعاااااااااااااااااات!»..

هذا هو الصوت القادم منه.. لا شك في ذلك..

القطط التي تناديك باسمك غير مريحة طبعًا.. والأسوأ منها ذلك الشيء الذي ترى ظله في المطبخ. هذه حياتي على كل حال وعليَّ أن أقبلها..

ماذا كنا نحكيه؟.. لم نحك بعد.. كنا نبدأ قصة حامل الضياء..

تدور القصة حول شيء كهذا.....

لوسيفر: الملاك الذي طُرد من السماء لأنه حاول التمرد. الشيطان. كوكب فينوس عندما يظهر كنجم الصباح. ثقاب يشتعل بالاحتكاك. من اللاتينية: نجم النهار - حامل الضياء.

(قاموس التراث الأمريكي) (قواميس أوكسفورد)

والآن ناولني بعض أقراص المهدئ من فضلك..

أنت تطالبني بأن أشرب جرعة من البراندي ليجعل أعصابي تتماسك. أنت تعرف أنني لا أذوق الخمر ولن أذوقها.. هناك طريقة ممتازة للتوقف عن هذه الرجفة هي ألا أشرب قدح القهوة الثالث.. لكني بحاجة له فعلًا..

أنت تعرف أن معظم الأشياء اللذيذة حرام دينيًا أو ممنوعة قانونًا أو تسبب السمنة أو ترفع الضغط.. ليست القهوة استثناء كما ترى..

أعرف أنه لابد من الشموع.. لكن ألا تريد أن تشعل مصباح الكيروسين هذا أو موقد البريموس؟ أريد المزيد من الضوء بدلًا من لعبة الأشباح هذه..

ولكن.. لا داعي.. إن الطقس حار بما يكفي..

لنكتف بالشموع.. فقط ناولني المهدئ كما قلت لك..

ومعه القهوة طبعًا...

✷ ✷ ✷

ممتازة هذه القهوة...

يومًا ما سوف أجلس مع رفاقي وأحكي لهم أني شربت القهوة التي أعدها لي (ألستر كراولي) شخصيًا... طبعًا لن يصدّق أحد هذا. سيقولون إنني كنت ثملًا أو شيئًا أسوأ من هذا..

على كل حال هو تصرف أخرق.. فهذا الرجل هو الذي علَّم تعاطي المورفين والمسكالين للأديبة كاترين هيبورن والأديب ألدوس هكسلي.. لقد تعاطى كل شيء يمكن تعاطيه تقريبًا.. ليس بالرجل الذي تشرب القهوة من يده مطمئنًا...

بالإضافة لهذا لم يترك أي امرأة قابلها في حياته في حالها.. كان يعتبر كل امرأة يقابلها كاهنة جاءت من السماء لتساعد في ترقيته لرتبة أعلى.. هناك الكثير مما لا يمكن أن أحكيه هنا على كل حال.. سواء كنت فتى أم فتاة.. حياة كراولي يجب أن تظل بعيدة عنا..

الحقيقة أنني لم أعد أعرف الحقيقة من الوهم.. ولا الحق من الباطل.. كل شيء مختلط في ذهني هذا اللقاء معه يفوق قدراتي على التخيل وإنني لأشعر بأنني قطعة أثاث بلا حيلة..

أتأمل هذه المكتبة العتيقة.. المجلدات الضخمة المجلدة بغلاف مهترئ.. هناك كعب كتاب واضح أرى عليه عبارة (الهرميتات).. هذا من الكتب المهمة جدًّا لدى كروالي، وقيل إنّه يحتفظ به تحت وسادته.. إذن أنا في المكان الصحيح. ثمّة جمجمة.. نجمة خماسية..

هذه مكتبة تناسب ما تخيلته عن ألستر كراولي Aleister Crowley.. الذي أطلقت عليه الصحافة البريطانية لقب (أشر إنسان على وجه الأرض) أو (الوحش) Beast عندما يتكلمون عن (الوحش) في الأدب الغربي ولا يقولون من؛ فهم يتحدثون عن كراولي.

الرجل نفسه ينظر لي في هذا الضوء المتراقص..

عينان حادتان قاتلتان تطعنان.. رأس أصلع.. وجه يذكرك بوجه موسوليني إلى حدٍ ما، فلا عجب أن الرجلين لم يطيقا بعضهما، وقام موسوليني بنفي هذا المهاجر الأمريكي غريب الأطوار الذي هرب إلى إيطاليا.

هذا رجل قضى معظم حياته في المقابر أو بين اللفافات القديمة البالية أو وسط نجوم خماسية أو صلبان مقلوبة.. رجل قضى حياته مع السحر أو الـ Magick.. لا يوجد خطأ في هجاء الكلمة، فهو كان مصرًّا على كتابتها بهذه الطريقة ليميزها عن السحر magic الذي يمارس على المسارح. رجل لا يرحم ولا يمزح.. وبالنسبة له أنا لست أثقل من بعوضة..

حتى على المستوى الدنيوي لا تنس أنه عميل سرّي للمخابرات البريطانية.. ساحر وجاسوس معًا.. وهذا الخليط ألهم سومرست موم بقصته الشهيرة (الساحر)..

هذا يثير ذعري..

لكنه مهتم بأن يحكي لي كل شيء..

إنه يقلب صفحات الكتاب الضخم بيد ذات أظفار طويلة سوداء، ومن حين لآخر يرفع عينًا حادة ثاقبة نحو وجهي... ثم يقول:

- «هذا هو كتاب القانون الذي كتبته أنا.. هل قرأته؟»

قلت باسمًا:

- «ليس بالضبط. صعب جدًّا بالنسبة لعقل بسيط مثل عقلي.. قانون ثلما Thelma كذلك محير فعلًا فعلًا.. وأنا أعرف كتاب القانون هو الذي استولد مذهب الثليما..»

بصوت دوى في الحجرة فارتجت، قال:

- «افعل ما تريد.. هذا هو القانون..!»

إنّه يلخص لي هذا الكتاب العملاق بجملة واحدة.. لكن حتى لو استطاع ذلك فكيف يفسر لي باقي كتبه؟.. إن الرجل غزير الإنتاج فعلًا.. ونشط كذلك..

لا أعرف في التاريخ الحديث رجلين خدما الشيطان مثل كراولي ولافي الأمريكي الذي شيد كنيسة الشيطان. لابد أنهما في جهنم الآن بلا شك، لكن هذه التجربة تجعلني أتعامل مع كراولي كأنه ما زال حيًّا...

ربما كنت أنا الميت؟

بالفعل لا أعرف.. هناك خلط كبير ودوامة من الاحتمالات.

ظهر القط الأسود من مكان ما.

لا يمكن ألا يكون عند كراولي قط أسود عيناه فيروزتان مشعتان.. قط أسود له وهج فوسفوري استاتيكي غامض، يبدو بوضوح عندما يظلم المكان..

هذا القط يتمسح في ساقي.. أمد يدي وأحك فراءه يتضاعف الوهج الاستاتيكي المخيف مع صوت القرير... وررررررررررررر... أحب القطط لكن ليس هذا.. ليس هذا.. نظرت لكراولي لأتكلم لكن في اللحظة التالية كان القط على فخذي تلك الطريقة المسترخية التي توحي بأن السهرة لم تبدأ بعد. سوف يبقى هنا ويلعق مخالبه وينام، وعلى المتضرر اللجوء للقضاء..

قال كراولي:

- «قصتك مع لوسيفر طويلة وتمسني أنا نفسي شخصيًا، لذا يمكن القول إنني الأقدر على سردها. وسوف أحكيها لك، وسوف أضعك فيها.. لكني أنذرك من النهاية.. لا أحد يجرؤ على أن يخبرك بالنهاية..»

سأموت؟.. وما المشكلة؟.. كلنا سنموت.. المهم فقط ألا يتضمن هذا أن أحترق حيًّا وأنا مقيَّد، أو أذبح ذبحًا... بالتأكيد لن تروق لي هذه الطريقة للموت، لكن عندي مفاجأة سارة لأي واحد يتمادى معي.. قلبي ضعيف جدًّا، وسوف أموت باضطراب القلب قبل أن أتألم. كما كان سير هنتر الطبيب البريطاني العظيم يقول: حياتي تحت رحمة أي أحمق يحاول استفزازي. وبالفعل مات بنوبة قلبيّة أثناء مناقشة علمية حامية..

دع لوسيفر يربطني إلى عمود خشبي.. يسكب عليّ الكيروسين.. ينحني ليشعل عود ثقاب وهو يرتجف طربًا.. يستدير ليشعل الكيروسين نفسه، وهنا سوف يكتشف أنني ميت بالفعل هاها!.. يا للمرح!.. سوف يجن غيظًا.. مقلب ممتاز فعلًا..

قال كراولي وهو يمسك بأوراق التاروت:

- «هل تعرف هذه؟»

- «كثيرًا.. وكان أول تعامل لي معها من خلال د. لوسيفر..»

- «كان يستعمل طريقتي في القراءة. هناك عدة مدارس طريقتي هي الأدق والأنجح..»

ثم راح يرص الأوراق بطريقة معينة على المنضدة.. وقال دون أن ينظر لي:

- «قصتك تعود لزمن بعيد.. بعيد..»

كان كراولي يتكلم عندما وجدت نفسي فجأة في ذلك العصر..

بشكل ما أدركت أنني أعيش هذه الحياة وأشارك فيها، بل إنني جزء منها..

هل كانت هذه حياتي يومًا ما؟.. لا. أنا لا أؤمن بتناسخ الأرواح، لكني أعرف يقينًا أنّ هذه الذكرى موجودة في جيناتي.. متوارثة في اللا وعي الخاص بي.. إذن هي ذكرى مر بها أحد أجدادي. هذا جزء من تاريخ أجدادي لا أعرفه..

يمكن القول بلا خطأ كبير إن ألستر كراولي قد جعلني أعود لأرى وأسمع وأعرف ما رآه وسمعه وعرفه جدي..

لكني برغم هذا لا أعرف أي شيء على الإطلاق. لم أر هذا الفيلم من قبل..

✷ ✷ ✷

أنا هناك في الإسكندرية.. اسمي (سيد إسماعيل)..

هذا زمن مهم جدًّا في حياة مصر.. صاخب بالأحداث والتغيرات السياسية.. العام 1920.. أي أننا في جو يعبق بسيد درويش وسعد زغلول.. لكن الزواحف التي نتحدث عنها اليوم كانت بعيدة عن أي ضوء وكانت تمارس حياتها القذرة تحت الأرض..

أرى نفسي أمشي في حي اللبان بين المنشية وميناء البصل، وأعرف ملامحي بشيء من الصعوبة.. بدأت الأمور تتضح وعرفت أنني قادم من الشرقية التي استقر فيها جد جدي.. أقيم هنا في الإسكندرية ولي ابنان..

واحد من هذين - عبد الحفيظ - سوف يعود للشرقية ويعود للفلاحة، وينجب رفعت إسماعيل..

كنت أعمل في كراكون اللبان.. قسم الشرطة الذي لم يعد في مكانه منذ زمن. وهناك ذلك البيت العتيق الذي كان بيت ريا وسكينة في ذلك الوقت.. في زمننا هذا يوجد منزل قام على أطلال البيت هو رقم 5 شارع محمد يوسف فخر.

كنت رجل شرطة ريفيًّا لا أملك الكثير من المواهب لكني بالتأكيد شريف..

في ذلك اليوم كنت أقف مع رفاقي أمام الكراكون وقد أشعلت سيجارة لففتها لنفسي، عندما رأينا تلك الحُرمة قادمة من بعيد وهي تلطم الخدين وتهيل التراب على رأسها..

- «نظلة!... هاتوا ابنتي!»

وراحت تلطم الخدين حتى ليحسب من كان بعيدًا أنها تُصفِّق، فقمنا بتهدئتها..

اقتدتها لمكتب الحكمدار، وهو كأي حكمدار تتصوره أنت.. طربوش.. عظيم جدًّا.. له شارب مفتول يقف عليه صقران. ويتكلم مثل باشوات الأفلام القديمة..

كان هو الذي يتعامل مع المصريين، فلن يفهمهم الكونستابل الإنجليزي جون فيليبس على كل حال..

عرفنا فيما بعد القصة..

ابنتها نظلة كانت تنشر الغسيل في البيت، ثم جاءتها زيارة من سيدة فغادرت الدار معها.. بعد هذا اختفى كل أثر لها.. لاحظ أن الفتاة كانت تلبس الكثير من الذهب كعادة الطبقات الشعبيّة في التفاخر... وبالطبع لم تكن هذه هي القصة الأولى..

الحق أن الإسكندرية كلها بدأت ترتجف هلعًا لدى سماع هذه الجرائم، وبدأت أرقام الضحايا تتزايد.. كلما مرّت بضعة أيام سمعنا عن فتاة أو امرأة اختفت..

قال الحكمدار في حيرة:

- «أين الجثث؟.. كل الجثث تظهر كالعادة في لحظة ما.. لكن من يرتكبون هذه الجرائم يبدون كأنهم يذوبون النساء..»

كان الناس يتهامسون...

وكتب بيرم التونسي عن الظاهرة يطلب من الأهل ألا يسمحوا بخروج بناتهم:

«وأنت يا أبو البنت حوش.. بنتك في بيتك يا بقر»

كانت الأمور تدلهم وبدا أننا فاشلون جدًّا..

كان جدي خارجًا من تجربة جاك السفاح في إنجلترا وأذكر تفاصيلها تمامًا، لكن لم أتصور طبعًا أن سير ويليام جال جاء للقاهرة ليمارس عمله.. وبالتأكيد لا أعتبر أنّ هناك طقوسًا ماسونية..

وجاء اليوم الذي استدعاني فيه الحكمدار وقال:

- «سيد هناك اسمان يترددان في التحقيقات. معظم الضحايا كن على علاقة بامرأتين تدعيان ريا وسكينة..»

قلت وأنا أشد قامتي في احترام:

- «ما عملهما يا سعادة الحكمدار؟»

قال في بساطة وشيء من السخرية:

- «إنهما أختان.. وهما تملكان كرخانة في حي اللبان..»

الكرخانة هي الاسم القديم لبيوت المتعة الحرام. وواصل الحكمدار الكلام:

- «سوف تتنكر في صورة زبون.. وترتاد تلك الأماكن وتحاول معرفة ماذا يدور بصدد هاتين الأختين.. لا أعتقد أن توجد أختان سفاحتان لكن الأمر وارد..»

أديت التحية وأنا أفكر.. سيكون الأمر صعبًا..

✷ ✷ ✷

كانت المنطقة شعبيّة جدًّا، وكان من السهل أن أندمج في هذا الوسط.. لا. لم أدخل الكرخانات والحمد لله ولم أشرب الخمر. دعك من أن الأمراض السرية كالهواء هنا..

فقط كنت أرتاد الحانات وأتظاهر بأنني أشرب الخمر، والحقيقة أنني كنت أشرب من زجاجة أعددتها لنفسي مليئة بالشاي.. واستطعت من هذا الموضع أن أعرف الكثير..

أحيانًا كان بعض الجنود الأستراليين يترددون على هذا المكان لأنّه رخيص يناسب قروشهم المعدودة، لكني لم أفهم سبب ظهور ذلك الرجل الأجنبي فارع القامة الذي يلبس السواد.. والذي يتكلم بعربية سيئة جدًّا.. كل شيء فيه كان أسود.. عندما تنظر إليه لفترة تشعر بأن اللون الأسود يطغى على كل شيء..

كان موجودًا دومًا.. هذا مكان لا يناسبه على ما أعتقد..

اسمه (لوسيفر).. يقول إنِّه من أصل مجري وإنه يحبّ مذاق الفتاة المصرية الشعبيّة.

عرفت أن لهذا الرجل علاقة بالقصة عندما لاحظت أن صداقة معينة تنعقد بينه ورجلين.. عبد العال وحسب الله..

كان يقنع الرجلين بأشياء ويدفع لهما مالًا، لكني لم أفهم ما يدور بينهم..

كان حسب الله هو زوج ريا، أمّا عبد العال فكان زوج سكينة..

بالنسبة للمرأتين، فأنا أرى أنهما كانتا أقرب إلى الحيوانات فعلًا.. إنهما قذرتان تمامًا، غارقتان في الخمر والرذيلة.. تصوّر أنهما كانتا تأكلان الطيور الميتة وتشربان الخمر كأنه عصير القصب..

لكن لم تكن لدي دلائل واضحة على أنهما تقتلان أو أنهما مسئولتان عن جرائم الاختفاء.. إن القذارة ليست جريمة يعاقب عليها القانون على كل حال..

كنت جالسًا في المقهى في ذلك اليوم أراقب الشارع الذي هو خليط من العيال الحفاة والكلاب الضالة والطين والوحل والفقر والغبار والقذارة..

شعرت بمن يجلس بجواري..

رفعت عيني فإذا هو ذلك الأجنبي الغريب.. كان يرمقني في ثبات..

قلت له في ارتباك:

- «سعيدة يا أفندي..»

كان يمسك بقنينة خمر صغيرة في يده فرشف منها ثم ناولها لي اعتذرت وقلت إنني لا أشرب الخمر مبكرًا.. قال وهو ينظر لي بذات الثبات:

- «لم أرك تشرب الخمر قط... أنت تبدو كذلك..»

- «ربما..»

- «ولم تطلب أي واحدة من نساء ريا وسكينة في خلوة؟»

شعرت بالغيظ فقلت:

- «أنا حر..»

بصرف النظر عن الحلال والحرام، فقد كان كل شيء قذرًا لدرجة لا تطاق.. رائحة هؤلاء النساء تجعلك تعتزل الكون كله وتصير ناسكًا..

قال:

- «حر أنت فعلًا.. لكن ألا يذكرك وجهي بشيء ما؟.. حاول..»

نظرت له طويلًا.. ثمّة رؤيا غريبة كأنها من جهنم التمعت في خيالي للحظة ثم توارت.. كأنه لحن أغنية أوشكت على تذكره ثم أفلت منك.. لا.. لا أذكر أنني قابلتك يا سيدي، خاصة أنك أجنبي.. ليست لديَّ جذور غربية..

قال في إصرار:

- «رقصة سالومي.. المعظم ثلاث مرات.. هه؟»

- «لا أفهم حرفًا مما تقول..»

الحقيقة أنني بدأت أشك في هذا الرجل.. لو كان على علاقة قوية بعبد العال وحسب الله، وكان هناك شك حول ريا وسكينة إذن فعليَّ أن أشك فيه..

النقطة الثانية هي أنه مريب فعلًا.. لو مر أمام رجل شرطة في أي بلد من بلاد الأرض لارتاب فيه وسأله عن اسمه، وبعد هذا سوف يقضى رجل الشرطة أسبوعين في رعب مقيم بسبب كمية الشر التي تنبعث من كلام هذا الرجل.. تنبعث من عينيه.... من وجوده..

✷ ✷ ✷

تطورت الأحداث بسرعة..

هناك رجل وجد جثة آدمية مدفونة في بيته.. والبيت كان يستأجره رجل يدعى السمني. هذا البيت كان منزل خديجة أم حسب الله بشارع على بك الكبير الشحات. وهذا البيت كانت تقيم فيه ريا..

عرفنا أن لريا عدة بيوت في شارع سيدي إسكندر ورقم 5 ش ماكوريس و38 ش على بك الكبير و8 حارة النجاة و6 حارة النجاة.

بعد ما راقبت المنطقة عدة أيام عرفت الجدول الزمني لهاتين الأختين...

تأكدت أنها ليست موجودة لا هي ولا أختها سكينة في المنطقة من ثم تسللت إلى البيت الموجود في شارع ماكوريس.. معي عامل يحمل فأسًا..

كان الوقت عصرًا وقد بدأت الإضاءة تضعف عندما توجهت إلى الصندرة...

بسهولة ميزت أقوى رائحة بخور يمكن شمها.. لكنّها رائحة البخور عندما تفشل في القضاء على العفونة... رائحة شيطانية لا توصف...

قال لي العامل:

- «هناك شيء ميت في هذه الغرفة..»

قلت له في ضيق:

- «احفر ولا تضيع الوقت عندما اطلب رأيك سأسألك..»

كان هناك مصباح كيروسين أضأته فألقى ضوءًا كئيبًا خافتًا على المكان.. ليس من الحكمة أن آتي هنا وحدي.. هؤلاء القوم يقدرون على هزيمتي وحدي لو جاءوا ورأوا ما أقوم به، لكني على

كل حال صرت أحفظ مواعيدهم وأعرف أنهم في كرخانة بحارة النجاة.. لن يعودوا قبل العاشرة مساء..

انهالت ضربات العامل على الأرض..

رحت أراقب المشهد وأنا أدرك أن الرائحة خبيثة فعلًا لفظة رائحة شيطانية خلقت لهذه الرائحة، ولو كانت هذه مجرد قذارة فأنا مجنون..

إنها تتزايد..

وفجأة توقف العامل ورأيته يستند للجدار ويفرغ معدته.. الرائحة كانت قوية لدرجة أنه لا يستطيع فتح عينيه.. قلت له أن يسد أنفه بالمنديل وكذا فعلت أنا..

ثم ألقيت نظرة على ما رآه..

هنا أدركت السبب...

هذه كتلة من اللحم والدم والشعر الأنثوي تحت الملاط كتلة مختلطة من النساء اللاتي جاءت بهن الشقيقتان هنا قامتا بخنقهن ثم تعاون الرجال على حفر الأرض ودفن الجثث ثم تغطيتها بالملاط.. ثم بيع ما يحملن من ذهب..

تخيل خيال وأعصاب القاتل الذي يدفن ضحاياه تحت أرض بيته.. هذه طباع ضباع وليست طباع بشر..

فيما بعد ستكشف التحقيقات أنهن كن يبعن الذهب بمبالغ بخسة فعلًا، وبعد تقسيم المبلغ عليهن لا يبقى إلا ما يسمح بشراء بعض كئوس الخمر ووجبة عشاء.. حياة كاملة تضيع من أجل هذا الثمن...

هنا سمعت صرخة..

نظرت خلفي فوجدت أن العامل غير موجود.. أين ذهب؟.. كان يستند إلى الجدار ويفرغ معدته فماذا دهاه وأين ذهب؟

أمر مريب..

على الأرجح هو فر من الصندرة.. لا ألومه على هذا فالمكان مخيف..

الآن صارت التهمة ثابتة وعليَّ أن أهرع لأخبر الحكمدار بما وجدت..

انحنيت لأتفحص الحفرة الشنيعة التي كشف عنها الحفر..

وفجأة ظهرت تلك اليد من تحت الأرض.. من وسط الأشلاء التي كشف عنها الحفر... وانقضت على ساعدي.. سقطت أرضًا...

وجدت ذلك الغريب الأجنبي يخرج من الحفرة ليرتمي فوقي وهو يضحك ضحكة شيطانية:

- «الشك هو ما رأيت في عينيك أيها الفاني.. والشك هو ما جلبك هنا..»

صحت محاولًا النهوض:

- «ابتعد عني.. أيها القاتل!»

قال كأنه ينصح طفلًا:

- «لست قاتلا أبدًا لكني محرض.. إنني أبحث في كل مكان عن إمكانيات الشر وأزينها للبشر..»

- «ابتعد أيها الشيطان..»

قال بنفس اللهجة:

- «ليتني كنت كما تدعوني.. لكن لوسيفر تابع لم يترق.. والتابع عوقب لأنّه فقد أثرًا مهمًّا.. وأنت تعرف موضع الأثر وسوف تعيده لي..»

- «أنت مجنون..»

- «وأنت ستتعذب طويلًا صدقني.. دفنًا سأدفنك تحت هذا الملاط مع من متن وتحللن. لكنك سوف تشتهي الموت ولن تذوقه.. صراخًا سوف تصرخ.. توسلًا سوف تتوسل.. لكنك في ذات ليلة مدلهمة سوف تنادي لوسيفر وتخبره بكل شي ء كل شيء..»..

كنت قد استطعت بلوغ سلاحي الميري واستطعت أن أقبض على الزناد.. رفعته في بطء نحو الوحش الذي يجثم فوقي..

لكنه كان يملك حاسة الضباع..

لقد شعر بالسلاح فثنى معصمي ببراعة، وضحك ضحكة شيطانية:

- «دمية أطفال لا تخيفني أي بني.. لكن أنصحك بأن تتخلى عنها..»

لكني كنت مصرًّا.. ضغطت على الزناد بصعوبة.. أنت تعرف صعوبة هذا عندما يثني أحدهم معصمك.. أثني يدي بقوّة أمام ضغط يده.. الفوهة تتحرك.. ترتفع.. لا أعرف يقينًا أين هي بالضبط..

ثم.... بوم!!

ولم يكن هو الذي سقط من فوقي..

أنا تهاويت من تحته..

ظلام.....

✷ ✷ ✷

قال كراولي في الظلام:

- «أريد أن يسود الشيطان، وأن تعوي أشباح الرغبة في الأزقة المظلمة، لكني كذلك لا أرغب أن يظفر بك حامل الضياء.. لا أرغب في أن يظفر بالكتاب..»

نظرت له وشعرت بالغرفة تترجرج كأنها صفحة ماء مد أحدهم يده فيها..

وتذكرت كيف بدأ هذا كله

✷ ✷ ✷

كنت هناك أمشي في ضباب لندن الأخضر قليلًا..

إنه العام 1888..

أنا من أصول شرقية بالتأكيد.. يبدو أن أبي كان من بلد عربي ما.. ويبدو أنه جاء إلى أوروبا حيث عرف (لندره) وانبهر بحسانها.. ومن الواضح أنه تزوج واحدة منهن، ثم بعد فترة عاد لقريته في ذلك البلد العربي.. كان له أكثر من ابن في أكثر من بلد.. أنا واحد منهم..

اسمي (كامل).. ملامحي كما قلت لك شرقية جدًّا، وكثيرون يعتقدون أنني هندي. الحقيقة أنه من الصعب أن تقابل هنديًّا له هذا الشعر الخشن...

أعمل في متجر لبيع التبغ في وست إند.. مهذب مجامل لهذا يحبني البريطانيون جدًّا..

هناك مشكلة صغيرة تواجهني هذه الأيام، هي أنني كنت عائدًا في ساعة مظلمة إلى داري عندما تعثرت في زقاق مظلم في منطقة (وايتشابل)..

هناك حانة قريبة جدًّا اسمها حانة (الأجراس الأربعة)..

أنت تعرف هذا الجو التعس حيث الضباب والبلدة كلها تضاء بمصابيح الغاز.. هناك بقاع عديدة من الظلام لا ترى فيها يدك نفسها..

عندما سقطت على الأرض عرفت أنني سقطت فوق متسكع.. هذا جسد بشري.. لكن عندما نهضت عرفت أن ما يبلل يدي ليس القيئ ولا البول.. إنّه دم.....

عندما استطعت أن أرى أفضل، أدركت أن ما أنا أمامه هو جثة.. جثة امرأة ممزقة بشراسة ومن الواضح من ثيابها أنها فقيرة وأنها بائعة هوى..

على الجدار خلفها كانت كلمات بالدم..

الكلام يقول:

- «فقط اليهود لا يلامون على لا شيء..»

فيما بعد سوف تثير الصيغة الغريبة الركيكة التي كتبت بها العبارة دهشة الشرطة.. إما أن يكون كاتبها حمارًا وإما أنه شخص يتهم اليهود، لكن لغته لا تساعده.. على كل حال هذا استفزاز للمشاعر بلا شك.. وهو ما سيدعو رجال الشرطة إلى إخفاء هذه السطور..

لماذا كتب لفظة اليهود بهذه الطريقة Juwes؟

أصابني هلع لا يوصف.. من حسن الحظ أن قلب جدي كان أفضل من قلبي. لهذا استطعت أن أقاوم وأن أزحف مترنحًا إلى حيث الشارع مضاء أكثر..

كان هناك رجل شرطة فصحت بصوت مختنق:

- «قتل!.. قتل!»

بالطبع كان منظري مريبًا جدًّا ويداي غارقتان بالدم.. وقد راح الشرطي ينظر لي في شك..

ثم إنّه قام بالعمل المعتاد في هذه الظروف. رفع الصفارة إلى شفتيه وأطلق استغاثة..

وسرعان ما وجدت نفسي وسط رجال الشرطة..

بالطبع قضيت ليلة سوداء وسمعت عشرات الأسئلة وحكيت قصتي مئات المرّات...

ما ساعدني هو أنّ هذه ليست الضحيّة الأولى.. لقد شهدت نفس المنطقة حوادث قتل أخرى..

✷ ✷ ✷

كانت لندن كلها تتكلم عن جاك السفاح..

هناك في الضباب الأخضر والأزقة المظلمة يجول هذا الرجل الغامض بحثًا عن ضحية.. ضحاياه حتى اليوم بلغ عددهن خمس نساء (فيما بعد سيبلغ الرقم إحدى عشرة)..

وهناك ليلة سوداء قتلت فيها فتاتان....

ذات ليلة جاء المفتش (مكدافيد) إلى متجر التبغ ليبتاع بعضه استند إلى الكاونتر وقال لي وهو لا يكف عن اعتصار شاربه:

- «اللغز مستمر.. هذا الوغد يخنق الفتيات قبل القتل. لهذا لا تجد قطرة دم واحدة.. ثم يمزق جثثهن بدقة تشريحية ممتازة.. أؤكد لك أنه دقيق جدًّا..»

قلت له وأنا ألف التبغ:

- «هذا يعني أنه جزار.. القاتل جزار..»

- «ثمّة احتمال لا بأس به أن يكون جراحًا..»

كدت أسأله عن البصمات ثم تذكرت أنها لم تخترع بعد.. هذا اختراع كان على شرطة لندن أن تمارس عملها من غيره..

عاد يقول كأنه يكلم نفسه:

- «لماذا اختار السفاح خمس فتيات يعرفن بعضهن ويرتدن ذات الحانة؟ لماذا حملت فتاتان من الضحايا اسم (ماري كيلي)؟»

كان يتكلم عندما رأيت ذلك الرجل فارع القامة يدخل القاعة..

كان يلبس عباءة سوداء مع حرملة سوداء وقبعة سوداء وقفازين بنفس اللون، وكان له وجه صارم وسيم وعينان قويتان.. ثمّة شيء في مظهره يوحي بأنه من شرق أوروبا..

نظرت له في فضول فقال بصوت أكثر سوادًا من صوته:

- «أبغي تبغًا من وارد المستعمرات..»

اتجهت للرف وأنا لا أبعد عيني عنه وكذلك فعل المفتش.. ثم إن المفتش نفث دخان الغليون وتساءل:

- «السيد ليس بريطانيًّا إن كان لي أن أسأل..»

قال الرجل الغامض:

- «اسمي (فرانتز لوسفر).. من المجر.. إلى بلدكم الجميل جئت، وفي قلبي ألف سؤال..»

لوسفر؟.. اسم غريب يذكرني بلفظة لوسيفر.. لكن ما أغرب أسماء هؤلاء القوم على كل حال..

عاد المفتش يتكلم بينما الغريب يصغي باهتمام..

- «إن لفظة Juwes التي كتبها القاتل قد تشير إلى شعار الماسونية: (جوبيلا جوبيلو جوبيليم).. هذا قسم يؤديه العضو يؤكد فيه أنه لم يقتل السيد حيرام أبيف.. شيء من هذا القبيل.. طريقة القتل نفسها ماسونية طقسية جدًّا.. الذبح وإخراج الأحشاء ووضعها على الكتف اليسرى وتشويه الوجه.. كل هذا يشير بأصابع الاتهام إلى....»

ثم فطن إلى أنه تكلّم أكثر مما يجب..

فطنت أنا كذلك إلى أن المفتش المخضرم ثمل... لقد انزلق لسانه لأنّه ثمل وما من شيء يُطلق اللسان من عقاله مثل الخمر..

استعاد توازنه فطلب التبغ الذي اشتراه ثم غادر المكان دون أن يحيينا...

ظللت واقفًا مع الغريب..

لاحظت أنه ينظر لي في ثبات...

ابتسامة غامضة شاعت على شفتيه وقال بصوت كأنه نمر يزأر:

- «التقينا من قبل.. هل تذكر؟»

ابتسمت في مودة بمعنى أنّ هذا لم يحدث قط...

دفع ثمن التبغ وهو لا يرفع عينيه عن وجهي ثم غادر المكان..

لست من النوع العصبي لكن يدي راحت ترتجف بقوّة بعد هذا اللقاء.. ثمّة شيء شيطاني غير مريح في هذا الرجل فعلًا....

أنت تعرف معنى هذا اللقاء الآن، لكن بالنسبة لتاجر التبغ كامل كانت تجربة مرجفة فعلًا...

✷ ✷ ✷

جوبيلا جوبيلو جوبيليم

✷ ✷ ✷

في تلك الليلة كنت عائدًا قرب الحانة في ضباب لندن، وكنت قد ابتعت زجاجة من عصير التفاح ورغيفًا...

كنت مطمئنًا بالطبع فأنا لست امرأة.. هذه من اللحظات التي تعرف فيها نفع أن تكون رجلًا.. يمكنني أن أعبّر هذا الزقاق المظلم وأن أمر تحت هذا المصباح المطفأ.. وأن أركل علبة القمامة هذه وأن أتعثر في هذا السكير وأن..

وأن أرى هذه العربة ذات الحصان تسد الشارع..

كان الحصان أسود والعربة سوداء وساعد الضباب المتصاعد من الأرض على أن تبدو كأنها جاءت من الجحيم نفسه.. كأن الخيول تنفث النار...

على بعد أمتار رأيت مشهدًا شنيعًا..

رأيت رجلًا متأنقًا ذا قبعة عالية وعباءة، يركع على ركبتيه جواره حقيبة سوداء مفتوحة وهو عاكف على تشريح جثة.. جثة امرأة ممزقة ترمق الظلام بلا حركة..

هذا هو جاك السفاح نفسه....

هل أصرخ؟؟ هل أبتعد؟

ثمة احتمال لا بأس به أن يكون حاملًا لسلاح ناري.. أفضل الحلول أن أتجمد حيث أنا...

وفي الضوء الشاحب القادم من مصباح بعيد رأيت وجهه يبدو مألوفًا.. هذا وجه أراه في الصحف كثيرًا.. لكن من؟

هنا خطرت لي فكرة ممتازة...

دنوت بخفة من وراء الرجل ورفعت الزجاجة.. لا يوجد وقت للتردد.. إنّه عاكف على تمزيق شيء في أحشاء المرأة ولا يشعر بي... سأخلص لندن من جاك السفاح...

هويت بالزجاجة بأعنف ما استطعت على مؤخرة رأسه لكنّها لم تتحطم...

بالأحرى لم تصل هناك قط..

شعرت بيد كأنها منجل حديدي تطبق على ساعدي... شخص ما جاء من خلفي..

رفعت عيني فوجدت أنني أحدق في وجه ذلك الغريب الأسود الذي زارني في محل التبغ.... (فرانتز لوسفر).. هذه المرّة بدا لي كأنه الشيطان ذاته..

أجفل الرجل العاكف على تمزيق الضحيّة لكن الغريب أسكته بإشارة من يده ومد يده يلتقط شيئًا من أدواته.. وقبل أن أفهم ما يحدث شعرت بهذا الشيء ينغرس في مؤخرة عنقي...

المشهد التالي هو أنني كنت ممددًا بلا حراك على أرض الشارع.. أحاول رفع يدي فلا أقدر.. أحاول تحريك ساقي فلا أقدر. أحاول الكلام فلا أقدر..

قال لوسفر وهو يركل جسدي بطرف حذائه البراق:

- «نعم.. أنت تذكرت الوجه أيها الفاني.. السير (ويليام جال) طبيب الملكة شخصيًا هو جاك السفاح.. ماسوني هو يمارس قتلًا طقسيًا وأنا أهديه وأختار ضحاياه... أمّا حالة الشلل التي أصابتك فلأنني غرست إبرة جراحية في موضع حساس من مؤخرة عنقك.. لقد أصبتك بشلل رباعي لكنك قادر على التنفس...»

ثم أشعل سيجارة أضاء وجهه الوسيم القاسي وقال:

- «إربًا سوف يقوم السير جال بتمزيقك... لهذا آمل أن تدلني على الكتاب.. الكتاب الذي تعرف خلاياك سرّه وتجهل أنت..»

قلت شيئًا لم يسمعه لكنه استنتجه فقال:

- «ثمّة فن توارثته الأجيال هو النكرومانسي.. سوف أستنطق أحشاءك ولسوف تعترف لي بكل شيء.. الفانون حمقى.. يحسبون أنهم لا يعرفون إلا الأسرار التي يعرفونها!»

ثم نظر إلى الطبيب المذعور آمرًا:

- «تمزيقًا تمزقه أيها النطاسي البارع، وليكن ذلك ببطء السلحفاة...»

لكن الطبيب لم يصغ.. لقد دوى صوت صفارة يهز هواء المنطقة. رجل شرطة قد رأى المشهد.. ولم أشعر إلا بالطبيب يهرع مبتعدًا وسمعت صهيل الجواد وعجلات العربة، بينما لوسفر يأمره في غضب:

- «عد يا من طار صوابك شعاعًا!»

سمعت الصهيل وسمعت الحوافر.. وسمعت صوت السوط يهوي على ظهر الجواد بلا رحمة..

- «توقف يا أحمق!»

لكن الجواد اندفع في جنون... رفعت رأسي فوجدت أن العربة كلها تندفع نحوي بسرعة البرق وقد فقد قائدها السيطرة على حصانها..

عرفت هذا وعرفت أنني عاجز عن الفرار...

وفي اللحظة التالية هوت سنابك الجواد عليّ.. وأعتقد أنها مزقت لوسفر كذلك...

✷ ✷ ✷

جوبيلا جوبيلو جوبيليم

✷ ✷ ✷

كانت فترة من الهدوء لا بأس بها، تلك التي مرّت بي بلا أشباح ولا مسوخ..

لكني كنت أدرك الحقيقة.. النهاية صارت قريبة جدًّا جدًّا.. أنت تعرف أنّ هذا لا يضايقني ولا يخيفني كثيرًا، لكني كنت أخشى الانتقال إلى مكان جديد طيلة حياتي.. وقد بدا لي هذا النوع من الانتقال أكثر مما تتحمله أعصابي..

كنت أمارس حياتي بالشكل المعتاد، ما بين القراءة والجلوس في الشرفة ومشاهدة التلفزيون واستعادة الذكريات.. أم (شخص ما) تأتي لتنظف الشقة، وتحكي لي عن قريتي.. إنها من هناك كما تعلم.. أحيانًا يأتي أحد أقاربي ليراني. أحيانًا يزورني عزت أو أتلقى مكالمة من ماجي..

المحصلة العامة هي إنني أضعف وحركتي أقل..

هذا شيء مؤسف.. لقد جاء رفعت إسماعيل وعاش وملأ الدنيا صخبًا وهو الآن يتهيأ للرحيل. الكل فعل هذا من قبلي حتى من هو أعظم مني بملايين السنوات الضوئية، لكن برغم كل شيء هذه حياتي أنا وهذا جسدي أنا. عندما كنا نتلقى اللقاح في المدرسة الابتدائية كنا نبكي بلا توقف.. جعلتنا المعلمة نرى كيف أن زملاءنا لم يبكوا ولم يتألموا.. لقد تلقوا الإبرة بشجاعة في مؤخراتهم. لم يرق لي هذا المنطق وقلت لها إن هذه مؤخرتي أنا.. الإبرة ستخترق مؤخرتي أنا وهذا ما يهم. بالطبع تلقّيت علقة لا بأس بها لكني ما زلت أجد منطقي معقولًا..

بدأت الخطابات من الكينونة تتزايد مؤخرًا وأثار هذا قلقي.. تلك الخطابات التي أجدها تحت الوسادة ليلًا. لا أعرف لماذا تتصل بي. كلامها غير واضح... أعتقد أنها تنذرني من شيء ما.

ثم بدأت الأحلام تتوتر..

لم أعد أرى حلمًا واحدًا منتظمًا..

الأحلام عبارة عن قصص رعب. كنت أرى وجه د. لوسيفر مرارًا يدخل ويخرج من دوامة عميقة.. كما رأيته أول مرة في ذلك الحفل في نيويورك عندما كان يقرأ أوراق التاروت.. تذكرت وجهه في هالماجيو.. تذكرت وجهه عندما كان ابنه خيرياسوس يكتب قصص الرعب... تذكرته في جانب النجوم...

كان هناك في الكابوس دومًا... وكان يكرر:

- «أيها الفاني!... أيها الفاني!»

كأنه يغيظني.. يعرف أن رحيلي اقترب وأنه باق.. لكن من قال إن هذا يضايقني؟. بالعكس أنا مشفق عليه نوعًا.. من لا يستطيع الموت كائن تعس.. ولو كان هو الشيطان فعلًا فهو ملعون للأبد..

لكني كنت أتساءل عن السبب.. لماذا يظهر هذه الأيام؟

تكرر الأمر مرارًا..

وفي كل ليلة أصحو في فراشي فأراقب الصالة العائمة في ضوء خافت منهك.. لقد عشت حياة حافلة لكني خلفت ورائي طريقًا مزدحمًا بالخصوم ومن يتمنون القضاء عليَّ..

لكن لوسيفر قد أتيحت له فرصة القضاء عليّ مرارًا. في كلّ مرّة كان يقربني من فمه وأشم رائحة أنفاسه ثم يبعدني ويضحك في شراسة. أعتقد بالفعل أنه يشعر أن موتي سيفقده أي تسلية في الحياة. مثلما يقبض القط توم على الفار جيري ويوشك على التهامه، ثم يُطلق سراحه في آخر لحظة لأن الحياة ستكون مملة فعلًا لو التهمه..

لكن لماذا أنا بالذات؟

لماذا يجد كل هذه التسلية معي؟

أعترف أنني مُسلٍّ.. مُسلٍّ كفأر أبيض صغير أو حفنة من الفول السوداني الساخن، لكن هذا لا يبرر أن يختارني أنا بالذات ضمن الكائنات الأرضية.. يختارني أنا بالذات ليلهو معي..

✷ ✷ ✷

في تلك الليلة اتصل بي صوت أعرفه..

أنت تعرف أصوات النصابين اليهود المصابين بالبروستاتا خاصة من يقيمون في نيويورك منهم.. وبالذات من نشئوا في برونكس. سام كولبي الوغد هنا..

كنت أحب هذا الرجل.. قلت لك مليون مرة إنني لا أمقت اليهود ولا أطيق الصهاينة. سام أقرب لطفل أبله ساذج بملامحه الدقيقة الطفولية المنبهرة دومًا.. مدمر ويسبب المشاكل حيثما ذهب، لكنه يعرف شيئًا أو شيئين عن السحر.. لا أنكر هذا..

سام كولبي كان في القاهرة.. زيارة مفاجئة كما ترى. كان قد جاء لحضور سبت السحرة العظيم great Sabbath.. إنها مناسبة عالمية يعرفها السحرة ويحضرونها. يتعلق الأمر بديانة تحوت القديمة المدعوة الهرميتات، وعلى كل حال هم يجتمعون في المنيا.. هناك معابد لتحوت، وهناك أكثر من تمثال لقرود البابون أو طائر البلشون.. وهناك القرية الشهيرة (تونة الجبل) التي حكيت لك عنها من قبل..

حسن.. لا دخل لي بهذه القصة هذه المرّة.. لقد جربت الذهاب هناك مرة أو مرّتين. فقط أردت أن أخبرك بالسبب الذي جاء بالنصاب اليهودي هنا.

لما انتهى من المراسم اتصل بي، ورحبت به صادقًا.. لقد أقام عندي ذات مرة.. هل تذكر؟

لكنه كان يقيم في فندق رخيص من فنادق وسط البلد.. يبدو أنه قريب جدًّا من شارع رمسيس. واتفقنا على اللقاء..

تم اللقاء في مطعم في شارع كلوت بك. مطعم يقدم وجبات شعبيّة دسمة، ومن الغريب أنه راق له جدًّا.. بالطبع ذهب للحمام ست مرات بسبب البروستاتا كما تعلمون، والسبب أن حمام المطعم لم يكن آية في النظافة وإلا لذهب عشر مرات... فيما عدا هذا كان يتمتع بشهية الأسماك الصغيرة كما عودني يأكل أضعاف وزنه عدة مرات..

قال لي وهو يمزق الدجاجة المحمرة تمزيقًا:

- «ما أخبار غزواتك في عالم الماورائيات؟»

قلت باسمًا:

- «ليست ممتازة. لم أقتل مصاصي دماء أو مذءوبين من فترة.. يبدو أنني شخت حقًّا..»

قال وهو يجفف العرق على وجهه بيده الدقيقة:

- «أنا سعيد أنك بخير... لقد وصلني خطاب مؤخرًا من صديقك.. كان يسأل عنك..»

صديقي؟

قلت:

- «هاري شيلدون؟.. لم أعرف أن.....»

- «لم أقل هاري شيلدون.. أنا اتكلم عن د. لوسيفر!»

توقف الطعام في حلقي فبحثت عن كوب ماء أبتلعه به.. وقلت:

- «من جعله صديقي؟.. أنت من قدمه لي..»

- «وقد أحبك أكثر مني.. يقول إنّه يرتقب لقاءك.. أو بلغته (إنني للقاء الرجل لمشوق).. أمّا ما حدث في تلك الليلة فغريب.. لقد حلمت بك. كنت تركض في مدينة خالية وتدق الأبواب الموصدة. لا أحد يفتح لك.. في الوقت نفسه ينتشر ضباب كثيف ثقيل.. أنت مذعور.. ثم فجأة يظهر عبر المنعطف رجل فارع الطول يلبس الأسود.. أعرف أنه لوسيفر نفسه إنّه يريد شيئًا منك لكني لا أعرف كنهه..»

- «وبعد هذا؟»

- «ينفتح أحد الأبواب.. أرى رجلًا أصلع الرأس مخيفًا يلبس عباءة سوداء. يقول لك: تعال.. تعال إن كنت ترغب في الحياة. تسأله من هو فيقول لك بابتسامة كريهة: يطلقون عليَّ ألستر كراولي. في اللحظة التالية يجذبك من معصمك وينغلق الباب!»

مزقت لقمة كبيرة ودسستها في طبق البامية محاولًا أن أبتلع هذا الكلام..

- «إذن سوف يطاردني لوسيفر فأحتمي بكراولي.. كراولي الوحش الشيطان.. أشر رجل على ظهر الأرض..»

- «هذا ما رأيته.. اذهب فحاسب عقلي الباطن ولا تحاسبني.. أنا..»..

مضغت البامية في تعاسة وقلت:

- «السبب واضح.. أنت أكلت أكلة مصرية قاتلة مثل الملوخية أو الفتة بالثوم، ثم نمت على ظهرك.. في الكابوس أدخلت كل الخيوط معًا.. وبالطبع ظهر كراولي لأنّه كان مهتمًا بالهرميتات وكتاب تحوت.. لقد جاء مرارًا لمصر كي يجد الكتاب..»

قال في تلذذ:

- «مصر.. هذا البلد المفعم بالأسرار.. لو كان بلدنا أو كان عندنا مثله لصنعنا أروع الأفلام السينمائية وأروع قصص المغامرات وقصص الرعب.. لكنكم للأسف لا تعرفون قيمة بلد كهذا و... معذرة....»

ثم مسح يده وهرع يركض نحو الحمام..

جلست وحدي أفكر.. صخب المطعم من حولي لكني لا أعي أي شيء على الإطلاق. صدفة غريبة فعلًا... لوسيفر يظهر لي ويظهر له... إذن هو....

لما عاد كولبي ووضع المنشفة على صدره وواصل الالتهام، قلت له:

- «كولبي.. هناك شيء قادم.. ثمّة شيء مخيف سيحدث عما قريب.. هناك علامات كثيرة تشير لهذا والدكتور لوسيفر يدبر لي شيئًا ما.. أنا أعتقد أن بوسعك أن تساعدني..»

ثم بدأت أعد على أناملي:

- «ماذا يريد لوسيفر مني؟.. لماذا ألقاه طيلة حياتي؟.. لماذا لا يقتلني؟.. لماذا يلاحقني هذه الأيام بالذات؟»

فكر قليلًا.. حك أنفه ثم تذكر أنه يفعل هذا بالسكين حتى كاد ينزعه من مكانه...

ثم قال:

- «اسمع. هناك طريقة واحدة تجيب عن أسئلة كثيرة.. أنا رأيت في المنام أن كراولي أنقذك أو كان يحمل خلاصك.. أنا قادر على أن أكفل اتصالًا لك مع كراولي..»

- «آها.. نغمة جلسات تحضير الأرواح هذه..»

قال في جديّة:

- «ليس استحضار أرواح بالضبط.. بل استحضار شياطين.. كراولي يملك الكثير من خواص الشياطين وبوسعي أن أجعله يتجسد في دارك..»

- «وهل يملك الإجابة؟»..

- «الكابوس يقول إنّه يملكها.. دعك من أنّه لو كان بشري واحد يعرف الإجابة فهو ألستر كراولي..»

رحت أفكر..

هذه مخاطرة بالتأكيد.. لكن لابد أن أعرف..

هذا الشعور الشيطاني بأن القصة بلغت نهايتها يثير جنوني. إن لوسيفر يدعوني للمواجهة.. ما فرصتي لو واجهت لوسيفر؟ أنا كنت في جانب النجوم، وأعرف كيف ترتجف الغيلان أمامه، وكيف يجفل سادة جانب النجوم وكل صاحب صيرورة هناك من مرآه..؟

لا فرصة أمامي على الإطلاق.. لكن الرجل يريد أن يواجهني.. أريد أن أعرف..

هكذا وافقت كولبي.. واتفقنا على أن تتم التجربة المرعبة في داري..

واتخذنا بعض الاحتياطات المهمة.

✷ ✷ ✷

في التاسعة مساء بدأ كل شيء..

غرفة مكتبي مظلمة تمامًا فيما عدا شمعة واحدة تشتعل في دلو موضوع على المكتب. اللهب المتراقص يعبث بالأضواء والظلال في أرجاء الغرفة..

جلس كولبي أمامي.. متوتر هو بحق. راجف الأطراف..

أعتقد أنه يفهم جيدًا معنى التعامل مع كراولي..

هنا جاء الجزء القذر من القصة.. لقد أخرج من حقيبته شيئًا.. دققت النظر فأدركت أنه خنجر طويل يشبه خناجر (الأثامي) التي يتعامل معها سحرة الويكا.. لابد أنك تذكر هذه الخناجر من قصة الظلال الحية إياها..

✷ ✷ ✷

- «ما نوعية هذه المدية؟»

قالت ولفافة التبغ في فمها ومن دون أن تنظر لي:

- «أثامي athame»

أثامي!.. هكذا صارت الأمور مفهومة..

عدت أسألها:

- «أثامي؟.. هل لهذا معنى ما؟»

قالت دون أن تنظر لي:

- «هي مدية طقسية تستخدم في عدة أغراض.. الساحرات يستعملنها لتوجيه الطاقة نحو هدف ما.. يستعملنها لرسم الدوائر السحرية.. يستعملنها لطقوس الزواج وافتتاح مراسم السحر.. يستعملنها كي تدلهن على الجنوب..»

✷ ✷ ✷

طلب مني كولبي أن أمد يدي فمددتها.. طبعًا كنت أعرف الجزء التالي.. أي!.. غرس نصل المدية في كفي.. لابد من أخذ قطرات دم مني.. بعثرها على الأرض ثم ناولني منديلًا ورقيًّا.. أرجو أن يكون دمي قابلًا للغسل من على أرضيّة غرفتي الخشبية..

لكن الأمور لم تنته بعد.. لقد نهض ورسم النجمة الخماسية اللعينة بالطبشور على أرض الغرفة. كدت أقول له إن زوجتي سوف تنسفه نسفًا لو رأت المشهد ثم تذكرت أن زوجتي لا وجود لها. ثم إنّه عمد إلى الحقيبة من جديد فأخرج جمجمة لا توحي بالثقة، وفي محجريها (الحجاج) توجد شمعتان قصيرتان.. أشعلهما..

دعني أؤكد لك أن التأثير كان شيطانيًا فعلًا..

قلت له همسًا وأنا أتوتر في جلستي:

- «كولبي.. هل تعرف ما تفعله حقًّا؟»

- «ش ش ش! انتهى وقت المزاح»

هذا هو الموقف العتيد.. فجأة لم يعد ذلك الكائن الوديع القابل للسيطرة عليه.. صحيح أنه ذهب للحمام 146 مرة، لكن شيئًا فيه قد تغير.. كراولي لم يأت بعد لكنه أتى بقوّة!

بدأ كولبي يتلو الكلمات الغامضة.. ربما هي لاتينية.. ربما هي آرامية أو سريانية.. لا أعرف حقًّا..

كنت أجلس متوترًا أراقبه في الضوء الخافت..

أشعر بنعاس عميق أعتقد أنه ناجم عن الضوء الخافت والملل معًا....

لكني ظللت أراقبه..

هنا بدأ ذلك التأثير البصري الخافت عندما تراقب بقعة في طلاء الجدار، وفجأة تدرك أنها ليست بقعة بل هي بورص يقف متجمدًا. عندما تراقب صخرة في الظلام ترى حدودها ثم تدرك أن شيئًا ما يوجد فوق هذه الصخرة.. في طفولتي ظللت أراقب في رعب ما بدا لي كأنه فيل متجمد في ضوء القمر الخافت وينظر لي متحفزًا، ثم بدأت أدرك أنها كومة من الدريس والأهم أنني صرت عاجزًا تمامًا عن رؤيتها كفيل مرّة أخرى...

أعتقد أن أقرب وصف لهذا هو الباريدوليا Pareidolia..

الآن بدأت ببطء أدرك أنّ هذه ليست غرفة مكتبي..

هذه غرفة أكثر اتساعًا هناك حشد من الكتب لا حصر له على الجدران الأربعة... هناك رماح معلقة وأقنعة أفريقية هناك صنم يشبه أصنام جزيرة عيد الفصح لكن حجمه يناسب الوضع في غرفة طبعًا.. ربما هو في حجم ثلاجة متوسطة..

وعندما دققت أكثر أدركت أنّ هناك منضدة.. هناك دخان سيجار..

أرى كل شيء بصعوبة في ضوء الشموع التي يبدو أنها الشيء الوحيد الذي بقي لي..

هناك رجل ضخم الجثة أصلع الرأس يجلس إلى المنضدة ويرمق السيجار المشتعل رجل يلبس بذلة من التويد لها صديري وهناك ساعة بسلسلة تتدلى من الجيب..

سيد إنجليزي كما هو واضح.. عتيق الطراز جدًّا..

إن عينيه ثاقبتان.. بل هما قاتلتان قادرتان على اختراق كل شيء..

بحثت بعيني في الظلام عن كولبي.. لا أثر له.. لقد ذاب..

وهنا بدأت أفهم أنّ هذا الجالس أمامي هو ألستر كراولي هو الشيطان ألستر كراولي الذي استدعاه كولبي كما يفعلون مع الشياطين..

كان أمامه دورق كبير وتلك الأداة التي يطلقون عليها السماور.. وأقداح قهوة..

تري كيف مذاق القهوة التي يعدها كراولي؟

رفع عينيه نحوي ببطء وبصوت عميق ثابت بدأ يتكلم.....

كان السؤال هو: ماذا سوف يفعلون مع أتاهولابا؟

أتاهولابا..

من يجسر على أن يؤذى هذا الرجل؟

✷ ✷ ✷

أقدم لك نفسي أنا (إجناسيوس).. أحد المبشرين المصاحبين لهذه الحملة الإسبانية.. في هذه العصور كان التبشير ناجمًا عن رغبة استعمارية متخفية.. أنت تعرف أسطوانة (عبء الرجل الأبيض) هذه.. هذه الكائنات في أفريقيا والعالم الجديد كائنات حقيرة منحطة لا تستحق الحياة.. لذا نتنازل نحن البيض ونحتل أرضها ونسلب كنوزها ونعلمها الحضارة والدين..

ربما كان الأمر كذلك، لكن أؤكد لك أنني كنت أريد نشر كلمة الرب فعلًا.. هؤلاء القوم وثنيون يعبدون حشدًا من الآلهة وشعرت أن واجبي يقضي بأن أعلمهم الدين الصحيح..

كنت قد اكتسبت بعض الخبرات.. لا أحد يتبع دينك لأنك تضربه بالمدفع أو تقطع رأسه. إنهم يتبعون دينك عندما يكتشفون أنك رحيم وأنك تعالج مرضاهم وتجلب لهم الطعام ولديك حشد من الاختراعات الحديثة..

الملح مثلًا.. لا تتصور مدى أهميّة الملح لدى هؤلاء البدائيين إنِّه قد غير نظرتهم للطعام وللعالم بالكامل، دعك من اختفاء التقلصات العضلية المؤلمة التي يشعرون بها بسبب العرق والحر..

عندما تقدم الملح للرجل البدائي فهو يتبعك.. عندما تعلمه النسج فهو يهتم بك.. عندما تعالج ابنه فهو يحبك.. تكلمه عن الرب فهو يطلب أن يصير مثلك..

هذه هي القواعد... القواعد التي لم يفهمها بيزارو والأغبياء الآخرون..

اسمي إجناسيوس...

ولدت في الشرق الأوسط لكني لا أعرف أبي ولا إخوتي حقًّا.. في طفولتي اختطفت وصرت عبدًا لدى تاجر إسباني لكنه أعتقني على الفور.. وبعد هذا تربيت في إسبانيا فلم أعرف لي بلدًا سواها، وقد تزوجت في شبابي في سن مبكرة جدًّا وأنجبت، ثم تركتها وتركت أطفالي.. ولا أعرف كيف ولا متى وجدت نفسي مع جيش بيزارو...

لقد نسيت كل شيء عن عالمي القديم فلم أعد أعرف سوى هذا العالم..

بيرو..

✷ ✷ ✷

في بيرو كانت حضارة الإنكاس..

حضارة عريقة، قريبة جدًّا من حضارة المايا في المكسيك..

إمبراطورية الإنكاس أهم وأكبر إمبراطورية في أمريكا الجنوبيّة قبل غزو الإسبان.. كان ذروة مجدهم في القرن الخامس عشر.

أثناء حملات الإسبان في أمريكا الجنوبيّة عرفوا أنّ هناك بلدًا غنيًّا بالذهب يقع على نهر اسمه (بيرو). كل مدن أمريكا الجنوبيّة - حسب كلام الإسبان - مصنوعة من ذهب.. كلما تكلموا عن بلدة قالوا إنها من الذهب وشوارعها ومبانيها ذهبية وأطلقوا عليها (إلدورادو) كالعادة..

هكذا سال لعاب بيزارو وقرر أن يقوم بهذه المهمة.. وبدأ تنظيم الحملة.... الحملة التي تضمنت أشخاصًا مثلي...

في عام الرب البركة 1532 أقلعت سفن بيزارو الغازي الإسباني ومعه جيشه من السفاحين نحو أمريكا الجنوبيّة. لقد منحته الملكة إيزابيلا إذنًا مكتوبًا بأن يغزو أرض الذهب التي صار اسمها (بيرو)...

كنت أنا في واحدة من تلك السفن..

أعرف أن مهمتي صعبة..

أعرف أن الإنسان قاس حقًّا وإنني سأرى فظائع كثيرة، وسوف يحاول الآخرون إقناعي أنّ هذا يتم من أجل الرب..

حقا لا أفهم طرق الإقناع هذه.. ربما بسبب غبائي الشديد..

أن تقطع أيدي الأطفال أو تحرق قرى كاملة أو تنتهك النساء أمام أزواجهنّ، هذا قبل أن تقطع رقاب الأزواج طبعًا..

من أجل الرب؟...

من الغريب كذلك أنهم يلومونني لأنني غير متحمس.. على ظهر السفينة عرفت ذلك الرجل غريب الأطوار.. يطلقون عليه اسم (فيسول) ويقولون إنّه من أصل برتغالي..

أسود الشعر والعينين والثياب والنظرات.. له صوت غريب عميق يذكرك بصوت النمر..

عرفت أنّ هذا الرجل هرطيق..

تبادلنا الآراء أكثر من مرة وعرفت أنه لا يؤمن بشيء على الأقل يؤمن بمجد الشيطان وسيطرته على الأرض، ولو تبادل هذا الكلام مع واحد سواي لأفشيت سرّه، لكني كنت أميل للسلام.. لذا رحت أتحاشاه..

الأغرب أنه كان يلاحقني باستمرار..

هل يريد ضمي لعقيدته الغامضة؟.. لا أعرف.. لكن ليعتبر نفسه محظوظًا لأنني لم أفش سرّه لكبير القساوسة في الحملة.. فقط أرجوه أن يبتعد عني..

رأيته في أحلامي أكثر من مرة..

كان هناك في سقر.. يمشي وسط النيران كأنه يجول وسط أزهار في بستان. وكان يردد:

- «تعال أيها الفاني.. تعال..»

لم أفهم ما يعنيه هذا الحلم..

لكنك في النهاية لا تستطيع أن ترتاح تمامًا لشخص تحلم به يمشي في سقر... أنت تفضل أن تنأى عنه..

✷ ✷ ✷

في موقعة بونا تم الالتحام بين قواتنا والبيروفيين...

إن الحضارة الحديثة لا يمكن مقارنتها أبدًا بالإنسان البدائي لقد تكومت جثث قتلاهم بينما لم نفقد نحن سوى ثلاثة رجال.

ابن عم بيزارو، العظيم (كورتيز)، استطاع أن يقتل مئتي ألف شخص خلال ثلاثة أيام في المكسيك.. يخيّل لك في لحظة أنك تصطاد السمك من برميل.

هكذا استطاع بيزارو أن يتوغل في الأرض، وسرعان ما أنشأ أول مستعمرة إسبانية هي (سان ميجيل دي بويرا).

الحقيقة أنّ هذه الحملة تعكس بدقة مزية التكنولوجيا.. الكثرة تغلب الشجاعة، والتكنولوجيا تغلب الاثنتين.. الإسبان كانت حملتهم تتكون من 300 رجل، بينما عدد البيروفيين كان ثمانين ألفًا.. بالطبع هذه أرقام تدلك على أن النصر محتم.. للإسبان.. البنادق والمدافع أشياء لا قبل للوطنيين بها..

تمت المواجهة مع الإمبراطور أتاهولابا في موقعة كاخاماركا... أتاهولابا إمبراطور عظيم الشأن عادل يحبه قومه فعلًا..

كانت النتيجة أن أتاهولابا سقط في الأسر..

هذه حرب على كل حال.

لكن المدعو فيسول ذهب إلى بيزارو في خيمته..

كنت هناك وهو يكلم الرجل الممسك بكأس نبيذ عملاقة ويرمق النار شاردًا:

- «أي بيزارو العظيم.. أيها الفاتح الذي يُطلق عليه الوطنيون الإله الأبيض.. إنني بنصرك أسعد ولك قلبي يطرب...»

رفع بيزارو عينيه يرمق الرجل.. الحق إن طريقته كانت جذابة وكان له حضور خاص. كما أنّ صوته كان عظيم التأثير على الأرجح يلعب الصوت العميق دورًا أساسيًا في قوة الشخصية..

قال بيزارو:

- «تعال يا فيسول وقل ما تريد..»

قال فيسول وعيناه تلمعان كأنهما شعلتان أوقدتا على قمة قامته الفارعة:

- «أتاهولابا يجب أن يحاكم وموتًا يموت..»

قلت أنا في سخرية وقد أضحكني هذا التناقض المنطقي:

- «يحاكم ويعدم؟؟؟... إذن لماذا يحاكم أصلًا؟»

لكن بيزارو كان على استعداد لسماع أكثر الأفكار دموية قال في وهن:

- «الرجل قد وفى بوعده وجلب لنا كل الذهب الذي طلبناه افتداء لنفسه..»

- «هو متآمر.. تآمر ضدّ إسبانيا وتآمر ضدّ بيزارو العظيم.. وإعدامه سيعطي درسًا ممتازًا للآخرين..»

لم أفطن من قبل لهذه الحقيقة وجود فيسول كان يشعل النفوس دومًا.. إنّه (يوسوس) بالمعنى الحرفي للكلمة، ووسوسته تسبب المذابح..

لقد حضرت أكثر من مجزرة حقيقيّة وكان هو مسئولًا في كل منها..

قلت معترضًا:

- «سيدي بيزارو الوطنيون لن يتركوا ملكهم يعدم سوف يثورون ويحدث التحام عنيف، وسوف يموت منهم أضعاف من ماتوا..»

قال بيزارو وهو يجرع ما بقي في كأسه:

- «سوف نحاكم الرجل..»

عدت أكرر:

- «ليس الرجل خاضعًا لنا.. إنّه يعتبر مواطنًا أجنبيًا ويجب أن يعامل كما يعامل الأسرى..»..

عاد بيزارو يكرر في قسوة:

- «سوف نحاكمه ونعدمه.. هذه كلمتي..»

بالطبع تم تنفيذ هذا حرفيًا..

وجاء اليوم الذي أعدم فيه أتاهولابا العظيم.. أعدموه بتحطيم فقرات العنق بالجاروت..

كان رد الفعل سيئًا كما توقعت.. بل إنّه لم يرق لملك إسبانيا نفسه الذي اعتبر أنهم أعدموا ملكًا أجنبيًا أسيرًا...

✷ ✷ ✷

ثار الوطنيون وحدثت مناوشات عدة..

وأنا أرى أن معهم حقًّا طبعًا.. الرجل قد دفع فدية ضخمة من أجل حريته فلماذا يعدم؟..

كانت هناك قرى كاملة تدق الطبول وتشعل المشاعل، بينما يقف الشباب بقبعات الأزتك المخيفة إياها يرقصون واللهب يلتمع على أجسادهم المبللة بالعرق..

الكهنة يتكلمون بالتأكيد عن الآلهة البيض الذين قتلوا ابن الشمس...

تظهر الرماح وتلمع في الضوء..

الانتقام.. الانتقام...

كنت أجد معهم حقًّا، لكني كذلك وجدت أنه لابد من قمع هذه الثورات بسرعة.. يمكن دائمًا أن تمارس نوعًا من الحزم غير الدموي..

لكن الأسبان تصرفوا بشراسة حقيقيّة.. راحوا يهاجمون القرى فيربطون الأكواخ بالجنازير بمن فيها ويشعلون فيها النيران.. إن سجلّات فظائع الحروب ضخمة وتتسع لأشياء كثيرة، لهذا يُمكنك أن تتخيل ما حدث.. كيف كانوا يربطون الفتى إلى أربعة خيول تتحرك في اتجاهات مختلفة لتمزيق أوصاله.. كيف غلوا أحواض الزيت المغلي ومن وضعوه فيها.. إلخ..

كنت أحترق جنونًا وعجزًا..

كل هذا يلصق باسم الرب...

لابد أن هؤلاء القوم قارنوا بين آلهتهم الميالة للسلام التي لا تفعل شيئًا على الإطلاق، وما ندعوهم نحن إليه بالنار والدم..

إن ما يقوم به مبشر مثلي في عامين يهدمه جندي ثمل في ثانية واحدة...

ومن تظن أنه كان يقود هذه المذابح ويحركها؟

فيسول طبعًا..

كنت أراه يقف هناك وسط اللهب، ممسكًا بسيف يقطر منه الدم. وفي يده قرعة امتلأت بالخمر.. وهو لا يكف عن الضحك... هاجموا أي أبطال إسبانيا اسفكوا الدم.. مزقوا.. أحرقوا.. اغتصبوا..!

كان يصدر الأمر ويراقب الجنود وهم يذبحون ويقتلون ومن الغريب أن سهام القوم المسمومة تمر بجواره فلا تصيبه أبدًا.. كأنه الشيطان!

الشيطان؟؟؟

✷ ✷ ✷

لماذا يحمل الرجل هذا الاسم الغريب: فيسول؟

لو استعملنا بعض الخيال لوجدنا أنه قريب جدًّا من اسم (لوسيفر) معكوسًا... فقط تم حذف الراء للتورية..

أنا أعرف اسم لوسيفر بالطبع وأعرف معناه.. حامل الضياء.. أمير البهاء..

يبدو هذا غريبًا نوعًا لكنه يتسق مع القصة كلها..

هل أذهب لبيزارو لأخبره أن الشيطان ضمن رجال الحملة وهو يقنعنا بعمل أعمال دموية؟.. يمكنني تخيل وجهه وأنا أقول هذا.. بالطبع لا أجسر بتاتًا..

لكني في النهاية حزمت أمري..

كان القمر قد اكتمل وهو يكسو المنطقة بضوئه البارد المخيف هناك مشاعل معلقة على أسوار خشبية تحيط بالمعسكر. المعسكر الذي صار اسمه (سان ميجيل دي بويرا). هناك حراس من رجالنا يقفون على مسافات متباعدة وأنا أمشي في الظلام قاصدًا خيمة القائد بيزارو..

أنا إجناسيوس التقي الذي سيعيد لهذه الحملة رأسها..

فجأة لم أعد أدرك ما حدث..

لقد تلقّيت ضربة مروعة على مؤخرة رأسي أو هذا ما خطر لي.. بالطبع لا يوجد وقت كاف لعمل دراسة مدققة..

ساد ظلام دامس

✷ ✷ ✷

عندما فتحت عيني ببطء كان الفجر دانيًا...

هواء الفجر منعش بارد لكني بالفعل عاجز عن تحريك أطرافي..

أدركت أنني مقيد إلى شجرة.. بطريقة محكمة فعلًا...

في الضوء الخافت رأيت ذلك الشخص واقفًا وظهره لي أرى السلويت الخاص به وهو يواجه الغابة. أدركت على الفور من قامته الفارعة وثيابه السوداء أنه هو لوسيفر..

كان يدخن أعشابًا من تلك التي يدخنها الوطنيون، ويلفونها في ورقة شجر جافة طويلة.. لذا كنت أشعر أنه تنين عملاق يتصاعد الدخان من بين شدقيه.. وأدركت أنني هالك..

استدار لي وقال وهو يبتسم:

- «إجناسيوس التقي في ضيافتي.. إنني لأسعد..»

قلت وأنا أحاول التملص:

- «أمّا هذا فقد تجاوزت كل حد فيه.. خلافي معك ليس مسوغًا لتقييدي هكذا..»..

قال بصوته القوي المؤثر:

- «أريد أن تعتصر ذاكرتك.. أريد أن تجد فيها موضع كتاب المعظم ثلاث مرات تحوت.. ثمّة أحداث وقعت منذ زمن سحيق في الجليل.. فلسطين.. تذكر..»..

قلت بصوت عالٍ:

- «أنت جننت.. أنا لم أر فلسطين قط..»

- «أجدادك فعلوا.. وأجدادك لم يفنوا إنهم هنا.. في خلايا عقلك أيها الفاني.. ولعمري أنت على استعادتهم لقادر..»

شعرت بلدغات كثيرة على ساقي.. لدغات مؤلمة جدًّا لكني لم أعرف مصدرها.. الظلام ووضعي المقيد.. لكنه خمن من صوت الأنين الذي أصدرته ما يدور، فقال:

- «هذه لدغات النمل المحارب.. النمل المحارب يبني بجسده عشًّا لنفسه ويتوارى في جذوع الشجر.. الشغالات بالداخل أمّا الجنود المحاربون فيوجدون في الخارج.. بعد قليل يشعر المحاربون بدنو لحم غريب.. ومن أجل اللحم الغريب يغادرون العش..»

ثم نظر للسماء في افتتان وقال:

- «أشد ما سيكون ألمك.. تلكم ميتة لا كأي ميتة أخرى.. ذلك ألم لا كأي ألم آخر.. اصرخ كما شئت فلن يسمعك أحد لأن بيزارو بعيد..»

- «كيف أقول ما لا أعرفه؟»

- «سوف تعرفه وا صاحبي.. سوف تعرفه..»

كانت اللدغات تتزايد وبدأت أشعر أن الألم لا يطاق فعلًا.. ساقاي.. بعد قليل سوف يأتي دور فخذي.. بالتأكيد هناك قطع لحم تنزعها الفكوك الصغيرة لهذه الحشرات..

رفعت عقيرتي بالصياح لكن أحدًا لا يسمع..

صرخت أكثر...

فجأة رأيت شبحين ينقضان من الأشجار عندما سقط الضوء الواهن الأزرق عليهما عرفت أنهما من البيروفيين وكانا يحملان سيفين طويلين منحنيين...

هوى السيف الأول على عنق لوسيفر فأطلق عواء كالذئاب لم أعرف إن كان قد مات أم لا، لأن السيف الآخر هوى على عنقي في ذات اللحظة.. هم لم يبالوا بكوني مقيدًا، وإنني لهذا ممتن.. فقد أراحوني من ميتة بطيئة قاسية تمتد أيامًا أو ساعات...

إنهم راغبون في الانتقام من الآلهة البيض حيثما كانوا وحتّى لو كانوا مربوطين إلى شجرة نمل محارب..

كانت زاوية الرؤية غريبة الآن فأدركت أن رأسي ليس في موضعه..

كان كراولي مجنونًا بالتأكيد.. وهذا الجنون أدى به إلى حالة من اعتقاد النبوة في نفسه..

من ضمن خيالاته أنه تصوّر أن كيانًا اسمه (عيواس) هو الذي جاء له ليمليه كتاب ثيليما الذي يحوي فلسفته.

كان في القاهرة عام 1904.. وكان يحاول الاتصال بتحوت رمز السحر المصري القديم.. وهنا يزعم أنه وجد في القاهرة قناعًا لفرعون اسمه (عنخ إف خونسو).. هذا القناع كان يعرض في المتحف تحت رقم 666 أي رقم الوحش.. وقد أطلق هو على هذا القناع اسم (قناع الرؤى) الذي أوصله للاعتدال القمري.. هذا الاسم سيكون هو اسم المجلة التي يصدرها فيما بعد: (إكوينوكس)..

لم يستطع كراولي قط أن يصف عيواس بدقة أكبر.. لم يقل هل هو بشري أم شيطاني.

باختصار هي قصة معقدة جدًّا جدًّا.. لكن المرء لا يشعر بأي راحة لدى التعامل معها، خاصة لو تذكرت أنك جالس في الظلام مع كيان غريب يفترض أنه كراولي نفسه..

قال كراولي وهو يشعل سيجارًا غليظًا:

- «في الثليما.. علمنا عيواس أن مفتاح الاستنارة هو اتحاد الأضداد كما في الحب..»

هززت رأسي لأظهر أنني مهتم جدًّا بما يقول، لكني في الحقيقة كنت مشتاقًا إلى إنهاء هذه الجلسة.. المشكلة هي أنني لا أعرف طريقة الخروج منها. لقد اختفى كولبي بل اختفت حياتي ذاتها..

لم يعد هناك سوى حاضر طويل أجلس فيه هنا أصغي إلى هذا الوحش في الظلام.

لشد ما تفرقت السلالة عبر البلدان... مثلًا لم أتخيّل قط أن لي جدًّا رأى جرائم ريا وسكينة، ولا أن لي جدًّا كان في بيرو مع رجال بيزارو.. لكن لم يكن أحدهم عقيمًا.. كل واحد فيهم كانت له ذرية..

هنا شعرت بقشعريرة...

أنا الآن في الحاضر.. في مصر.. في هذا الوقت كان أخوتي جميعًا - أبناء عبد الحفيظ إسماعيل - قد ماتوا..

أنا آخر واحد أعرفه من الذرية، ومن الواضح أنني آخرهم فعلًا لأنني لم أتزوج ولم أنجب..

معنى هذا أنني فرصة لوسيفر الأخيرة للحصول على ما يريد!!

فرصته الوحيدة عبر الأبدية... ولو لفظت أنفاسي الأخيرة الآن فقد ضاع مستقبله لو كان لي أن أقول هذا!!

قال كراولي وهو يداعب القط الفوسفوري المخيف:

- «نعم.. أنت عرفت..»

وأنت سمعت أفكاري!

وهذا له معنى آخر هو أن لوسيفر أدرك أن لعبة القط والفار تدنو من نهايتها.. يريد استرداد الكتاب بسرعة..

صب لي كراولي المزيد من القهوة وقال:

- «اشرب.. اشرب فأنت بحاجة لما ينعشك.. إن معاناتك ما زالت طويلة بحق!»

ثم قال مغمض العينين:

- «بعد هذا جاء الطاعون..»

✷ ✷ ✷

بدأ كل شيء هناك في تلك القرية الصغيرة.

قرية الفرما مهمّة جدًّا تاريخيًّا.. قيل إن أخا الإسكندر الأكبر هو الذي شيدها. لست متأكدًا من هذه المعلومة، لكنك سوف تجدها أو تجد بقاياها شرق مدينة بورسعيد. لقد دمرها الصليبيون على كل حال فلم تعد منها سوى خرائب...

هذه القرية تمثل المدخل التقليدي لمصر من الشرق، وتمثل كذلك سبيل الخروج..

من هذه القرية كان هناك ضيف غريب يلبس أسماك ويمشي حافي القدمين، وقد غطى وجهه واستند إلى عصا طويلة خشنة.. هذا الضيف كان يتجه نحو فلسطين..

لا أحد يتكلم مع هذا الضيف..

لا توجد قافلة يمشي معها..

لا أحد يجسر على النظر في وجهه..

يمشي وحده في القفار والبراري والفلوات ببطء.. يخترق الظلام والعواصف بلا كلل.. تعوي الذئاب وتركض نحوه ثم.. تتصلب وتصدر عواء مثيرًا للشفقة وتتراجع.

هذه الحيوانات العجماء فهمت على الفور أنّ هذه ليست أرضها ولا ملعبها..

✷ ✷ ✷

كانت هناك قرى كاملة في ذلك العصر - القرن السادس - ترى ذلك المسافر الغامض يقطع البراري من بعيد، فكان الفلاحون يرتجفون ويغلقون الأبواب عليهم.. يجذبون أطفالهم الذين يلعبون في الطرقات..

لكن الزائر له خطوات.. وتلك الخطوات كانت تبعثر الدم والدموع في كل مكان، وكان الصبح يشرق لترى المرضى ممددين في الطرقات..

الحرارة مرتفعة.. قيء دموي.. تورم واضح في خن الفخذ سرعان ما ينفجر ليقذف الصديد.. في البدء خرجت الفئران زاحفة.. مذعورة.. امتلأت الطرقات بها حتى كأننا في جزء من قصة دراكيولا الأصلية..

ثم قاءت الفئران دمًا وماتت في الطرقات وغادرتها البراغيث..

العلاقة التي فطن لها العبقري ابن سينا قبل أن يلاحظها أي عالم آخر.. البراغيث بحثت عن عائل آخر فاختارت البشر..

هكذا راح البشر يتساقطون..

كلما مر الغريب المسربل بقرية ارتمت الجثث في الطرقات.. تصاعد الدخان لعنان السماء اشتعلت المحارق.. مرّت عربات الموت في الطرقات تجمع الموتى كأنها عربات قمامة..

الغريب الذي قيل إنّه جاء من الفرما يمشي في ذلك الطريق..

والمضحك أنني كنت أمشي خلفه على مسيرة يومين..

كل الناس تفر من مسار الطاعون، لكني أنا العالم الذي تفرغ للبحث والاطلاع سيريانوس، كنت أمشي في نفس مسار الطاعون..

لم أستطع أن أظفر بسرعته لكني كنت أعرف اتجاهه..

✷ ✷ ✷

تسألني من أنا أقول لك إنني أدعى سيريانوس...

بحثت عن العلم في كل مكان، وتفرغت له لكني متزوج برغم كل شيء. توفيت زوجتي وتركت أولادي في مصر..

في الأيام المنصرمة عرفت أن الله اختارني لمهمة لا أعرفها بالضبط لكنّها بالغة الخطر..

كنت أغفو فأرى في الحلم رجلًا مسربلًا بأسمال.. يتكئ على عصا.. كل شيء فيه أسود.. أفكاره.. نظراته.. صوته كنت أعرف أنه خطر وأنه ينتمي للشيطان..

هذا الرجل كان يمشي في حقل مخضر مورق يانع.. فأرى الأرض قد استحالت جماجم مكومة.. وأرى الرماد يتكدس وأرى النيران تتصاعد من أكثر من موضع...

كان يستدير لينظر لي.. ثم يواصل المشي..

كان هناك من ينزف على الأرض في المنام، فهرعت أسقيه جرعة ماء وسألته من هذا..

قال لي:

- «يطلقون عليه لوسيفر... حامل الضياء..»

هنا عرفت..

إنه الشيطان.. أو ربما هو شيطان...

صحوت من النوم فعزمت على أن أقتفي أثر الوباء.. الوباء الذي يزحف من الفرما قاصدًا الشرق..

كنت أتوقف في القرى..

القرى التي امتلأت شوارعها بالموتى.. القرى التي فاحت فيها رائحة العفن وتصاعد الدخان إلى عنان السماء..

كانوا يوقفونني ويأمرونني بالعودة.. ابتعد ما دمت تقدر أيها الغريب.. لا يوجد هنا طعام لأن المزارعين ماتوا.. لا يوجد شراب لأن عاصري النبيذ ماتوا.. لا مأوى لأن البيوت امتلأت بالجثث..

لكني كنت أعرف أنني أتجه لهدف أختاره لي الله وعلى الأرجح لن أصاب بالوباء..

بعد أعوام سيعرف الجنود المسلمون الطاعون عند (عمواس) الفلسطينية. سوف يموت قائدهم (أبو عبيدة بن الجراح) ومعه (يزيد بن أبي سفيان) و(معاذ بن جبل) ومعهم 25 ألف جندي من المسلمين.. (عمر بن الخطاب) سوف يتجه ليتفقد أحوال الجيش، لكنه لن يعرف هل يواصل أم يعود هنا سيذكر له عبد الرحمن بن عوف الحديث النبوي الشهير: "إذا سمعتم بالوباء في بلد فلا تقدموا عليه، وإذا وقع وأنتم فيه فلا تخرجوا فرارًا". يكون هذا هو القول الفصل، فيقرر الرجوع.

هذا هو العقل السديد.. لكني في هذه اللحظة أتحرك من أجل مهمّة واحدة محددة سوف تقضي عليَّ بكل تأكيد.. إنني أتبع الوباء..

من أجل هذه المهمة أحمل في جعبة ظهري سيفًا طويلًا مدببًا عملاقًا..

سوف أعترض طريق هذا اللوسيفر وأفنيه.. لا شك في هذا..

وعندها يتوقف الوباء..

✷ ✷ ✷

كنت أمشي عبر أرض فلسطين..

بالتحديد في منطقة الجليل عكا بين رأس الناقورة وجبل الكرمل وتلال الجليل ومستنقعات النعامين..

لسبب ما لا أفهمه أشعر بأن هذه المنطقة مقدسة وتمسني بشكل شخصي.. ثمّة لغز هنا يقف له شعر رأسي.. لكن ما هو؟

على كل حال هذه الأرض مهد الأديان والرسالات.. لابد أنني شعرت بهذا بشكل ما..

هناك في هذا الجرن الفارغ أجلس على القش.. أخرج رغيفًا وألتهمه.. هناك على بعد أمتار مريضا طاعون يلفظان أنفاسهما الأخيرة..

لست ذا خبرة طبية لكني على الأقل أعرف أن عليَّ الابتعاد عنهما.. سوف نحتاج إلى وقت حتى يعرف العلم أن البراغيث تنقل المرض...

فرغت من الأكل وكان الشفق يلوّن السماء..

تمددت على الأرض ورحت أفكر..

من الواضح أن رحلتي في البحث ستطول..

- «جرعة ماء أيها الشيخ.. جرعة ماء!»

نهضت حاملًا قربتي المصنوعة من جلد الماعز، وجثوت جوار الشاب المحتضر وسكبت قطرات على شفتيه..

رائحة أنفاسه!... هذه هي رائحة الموت ذاته..

كانت عيناه حمراوين شديدتي الاحتقان، وأدركت أنه في حالة تسمم دم شديدة..

- «هل أنت من مصر؟»

كذا سألني من بين شفتين متشققتين فقلت: أن نعم.

- «لا تذهب للشرق أكثر.. إن المسافر المسربل في الظلام هناك.. فجأة سوف تقابله..»

- «هل رأيته؟»

- «دخل قريتنا عند الغروب منذ أيام.. قال لنا إنِّه ذاهب إلى بيزنطة..»

هو في بيزنطة إذن!...

كما تعرف هناك جزء مني يفكر ويتصرّف كسيريانوس.. لكن هناك جزءًا آخر ينتمي لرفعت إسماعيل. لهذا عرفت ما تعنيه هذه الكلمات..

بالطبع هو يتحدث عن وباء طاعون جستنيان Justinian عام 541 م.. ثاني أكبر وباء طاعون في التاريخ.. وكل عالم أوبئة يعرفه جيدًا.. الوباء الأول كان وباء أشدود الشهير.. إن الطاعون يظهر كوسيلة محببة للانتقام السماوي في النصوص اليهودية، فمثلًا يزعمون أن الفلسطينيين عام 1320 ق م في أشدود سلبوا التابوت المقدس، فعاقبهم الرب بأورام في مواضع سرية من أجسادهم.. الوصف يوحي بشدة بالطاعون الدملي.

هذا هو المستقر الأخير لرحلة المسافر الليلي إذن..

هناك في بيزنطة سوف أجده..

عندما نظرت للفتى كي أسأله المزيد وجدت أن عينيه شاخصتان وأنه لا يرى ولا يسمع.. بالأحرى لم يعد هنا..

أغمضت عينيه وأرحت رأسه.. لا أقدر على دفنه لذا سوف أغطيه بالقش..

في الصباح أواصل رحلتي المخيفة..

✷ ✷ ✷

لكن أي أهوال رأيت في رحلتي..

كل يوم كان يحمل مشاهد أقسى وأشنع.. الأطفال الذين ماتوا في أحضان آبائهم.. جثث اللحادين الذين ماتوا وهم يدفنون جثث من سبقوهم..

من الغريب أنّ هذا كله كان يمكن منعه ببعض النظافة وبعض التتراسيكلين..

البشريّة قد قطعت شوطًا هائلًا بفضل العلماء..

ودخلت بيزنطة.. المدينة التي كانت عظيمة وشامخة.. ما زالت المباني رهيبة. الشوارع متسعة ومنظمة.. الدولة قوية فعلًا، لكن الذعر في كل مكان والشوارع مليئة بالموتى.

هو هذا طاعون جستنيان الشهير.. نسبة إلى الحاكم الروماني جستنيان نفسه. في كل يوم يموت عشرة آلاف رجل.. وقد انتزع الناس أسقف معظم المباني ليملئوها بالجثث..

الجثث التي طفحت حتى السطح..

مما زاد لعنة الوباء أن إشاعة قوية انتشرت بين الناس؛ تقول إن سبيل الشفاء هو أن تنقل عدواك لشخص سليم. النتيجة هي أن المرضى راحوا يقتحمون بيوت الأصحاء ليعانقوهم أو يقبلوهم بالقوة.. لم يشف أحد طبعًا لكن الوباء تضاعف بشكل مريع..

لقد كُتب على هذا الوباء أن يبقى في بيزنطة خمسين عامًا لكن البؤساء لا يعرفون هذا.. يتوقعون أن يرحل حالًا..

قيل فيما بعد إن الوباء جاء من الصين، لكني أنا وأنت نعرف أنه جاء مع المسافر الليلي وبدأ في الفرما..

لقد رحت أتتبع الألم والموت.. عارفًا أنّ هذه خطوات أقدام الوباء.. كان هنا.. مشى هنا.. توغل هنا..

وفي هذا الوقت شاعت أنباء إصابة الحاكم جستنيان نفسه بالطاعون..

مررت جوار القصر أقتفي أثر الوباء..

في النهاية وجدت أحياء كاملة ما زال أهلها ينعمون بصحة جيدة لقد أصابهم الهلع وتواروا في الأزقة، أغلقوا السبل أمامهم بمتاريس ثقيلة... لكن أي متاريس يمكنها صد الوباء؟؟

لم يفتحوا لي ولم يزيحوا المتاريس..

صحت بأعلى صوتي:

- «ألن تدخلوني أيها الناس الطيبون؟»

ظهر رجل ضخم الجثة يحمل بلطة.. اقترب مني في بطء وحذر وخشية.. لوح بالبلطة كأنه ينذرني من التقدم أكثر.. ثم ألقى عبر المتاريس بلفافة فُتحت عند قدمي..

جثوت لأفتحها فوجدت بها بعض الخبز وثمرة طماطم وقربة جلدية في حجم قبضة يدك، مليئة بالنبيذ..

لا يريدون أن أموت جوعًا لكنهم كذلك لا يريدون أن أدخل...

جلست هناك على الأرض عند مدخل حي من هذه الأحياء ورحت أنتظر.. سوف يأتي الوباء وسوف تلتقي عينانا.. سوف أعرفه من دون شك..

✷ ✷ ✷

رأيته قادمًا من بعيد..

كان مجرد شبح يمشي في الزقاق.. وكان مسربلًا بأسمال.

لا صوت سوى صوت خطواته الثقيلة على حجارة الطريق..

عرفت أنه هو عندما شعرت بكل هذا السواد يحيط به.. وعندما عرفت أنه الذي أراه في أحلامي.. وعندما أدركت أنه ينظر لي..

توقف على بعد خطوات.. ثم قال بصوت ببري قوى النبرات:

- «أنت هنا...»

لم أفهم.. فعاد يكرر:

- «أنت هنا بعد عقود طالت.. بعد قرون امتدت... وإنني بلقائك أسعد ولك قلبي يطرب.. فلترقص الجثث المتحللة في انتشاء.. إن لوسيفر والحق يُقال راض..»

هو لوسيفر إذن..

لكني لا أفهم.. يتكلم كأننا التقينا فعلًا من قبل... ما الذي يعنيه؟

لكني على كل حال كنت أعرف أنه هو الوباء.. هو الموت الزاحف عبر الصحاري..

مددت يدي في جرابي وأخرجت السيف.. لوحت به في الظلام ثم انقضضت عليه، وقد قررت أن أقطع رأسه..

لا أعرف كيف وجدت يدًا مخلبية تطبق على ساعدي حتى لتوشك على تهشيمه.. وسقطت على الأرض وأنا أتلوى ألمًا سمعت صوت عظمة الساعد يتهشم وهو ينتزع السيف، بينما هو يقول:

- «لو كنت تحسب أيها الفاني أنك قادر على قتل لوسيفر بهذا السيف، فأنت فانٍ وأحمق معًا، وإنني لأوشك على أن أجد دمعة شفقة عليك في مقلتي الجافة كرمال الصحراء..»

كان الألم شنيعًا..

أدركت أنني موشك على فقد الوعي.. والأسوأ أنني أدركت أن منظر جلدي يتغير.. إنني أنزف تحت الجلد..

لقد نقل لي الطاعون. نقله لي في ثوان.. لكنه لن يتركه يقتلني طبعًا..

كنت على ركبتي.. وكنت عند قدميه أحاول النهوض..

قال بصوته الببري:

- «لن تموت أيها الفاني.. أنت تملك سرًا. وأنا سأعرف كيف أمزق خلايا دماغك كي أنتزعه.. لكني آمرك أن تسجد للوسيفر.. تسجد لحامل الضياء وسيد البهاء..»

طبعا لن أفعل ذلك..

لكنه يضغط على كتفي ليرغمني على السجود وأنا أقاوم..

الدم يسيل من أنفي وفمي.. لقد أتلف الوباء قدرة دمي على التخثر..

تحاملت على نفسي وحاولت النهوض.. رأيت وجهه القاسي صارم الملامح. لم يكن قبيحًا لكن لم أر الشر يحتشد في وجه كهذا من قبل..

نهضت بقوّة فارتميت عليه..

هنا اخترق السيف كبدي.. وسمعته يزمجر غضبًا..

قلت لنفسي وأنا أغيب عن الوعي: لا بأس.. هذه أفضل نهاية ممكنة للقصة.. إن هذا المسخ لن يرحمني أبدًا..

كراولي يستمر في السرد..

في تلك اللحظات في ظلام غرفة مكتبي التي صارت غرفة مكتب بمعجزة ما، عشت ألف حياة وواجهت لوسيفر اللعين عشرات المرّات..

لم أكن أعرف أنني كنت هؤلاء جميعًا، ولا أن الصراع محتدم منذ كل تلك القرون..

حياتي كلها لم تكن سوى فصل واحد من فصول المسرحية الطويلة ذات مئات الفصول، وفي كلّ مرّة كنت أموت.. ليس أنا كما قلت لك فأنا لا أؤمن بتناسخ الأرواح، لكن كان جدي يموت قبل أن يفشي السر...

أعتقد أن لوسيفر كان يتصرّف بنوع من الكرامة الجريحة. لقد فقد شيئًا مهمًّا يتجسد فيه شرفه، بسبب فانٍ أحمق مثلي.. يمكن - مع فارق التشبيه - أن تتذكر الضابط الذي فقد مسدّسه في فيلم (المشبوه) ولم يستطع أن ينسى هذه الإهانة قط وتحولت حياته كلها إلى ملاحقة للص الذي سرق المسدس...

ناولني المزيد من القهوة يا كراولي.. يدي ترتجف.. أعرف هذا.. لكني لن أقلب محتوى القدح على نفسي..

هلم.. احك لي..

✷ ✷ ✷

رائعة هي سالومي عندما ترقص..

عندما تدوي الدفوف ويشعل العبيد المشاعل، وتقف هي في وسط البلاط تنقل قدميها العاريتين الدقيقتين مع الإيقاع..

العيون الجاحظة تتوهج بفعل الشهوة وبفعل النار.. لكن هيرودوس قد حرص على أن ينزل غطاء على معظم عيون الرجال الواقفين هنا. لا يحبّ أن يشاطره أحد ما يراه..

سالومي ترقص.. تهز شعرها الناعم الأسود وتتقدم لوسط القاعة، ثم تتراجع.. يسقط الشعر على نصف وجهها الجميل تفتح شفتيها ببطء فتشعر أنّ هذا ليس فمًا لكنه ثمرتا شليك متلاصقتان لو ضغطت عليهما أكثر لسال العصير. من الصعب أن تعيش حياتك بشفتين كهاتين. شفتين لا تستطيع الضغط عليهما بأسنانك خشية الانفجار..

ذقنها الصغيرة المدببة كأنها الطرف المستدق لثمرة خوخ ناضجًا مكسوة بزغب رقيق. تضع أناملها تحت ذقنها وتحرك أصابع اليد الأخرى بطريقة تذكرك براقصة هنديّة حسناء.. لغة كاملة تعلمتها من الجواري القادمات من بلاد السند، حيث لليد لغة كاملة ذات أبجدية..

سالومي تدور ثم تركع على ركبتيها..

كنت أنا واقفًا هناك وسط الواقفين، وأنا أرتجف.. لا لحسن سالومي بل لهول المنظر..

كنت أرى الصينية العملاقة الموضوعة في منتصف القاعة.. الصينية الذهبية التي ترقص حولها سالومي، وأعرف جيدًا هذا الشيء الموضوع فوقها....

الدماء تتساقط من أطراف الصينية.. لماذا تبدو الرءوس المقطوعة كلها كأنها ناعسة تحلم؟.. لماذا تخلو وجوهها من أي تعبير؟

✷ ✷ ✷

كنت في الشرق.. كنت أعيش في زمن الملك هيرود أنتيباس أعيش في الجليل.. هيرود يمثل الإمبراطورية الرومانية هنا هذه مرحلة زمنية حساسة لأنهّا تحيط بميلاد السيد المسيح..

كان متزوجًا من فاسيليس ابنة الملك أريتاس، ثم تزوج زوجة أخيه هيروديا‌س... سوف نتكلم عن هذا بعد قليل..

هل ترون منظري؟.. مواطن فلسطيني مسن يمشي في السوق وهو يحمل جرة بها لبن، وعلى كتفي سلّة مليئة بالتمر.. جدي كان أفضل صحة مني لكنه ما زال مسنًّا ضعيفًا..

يقابلني الناس في السوق فيحيونني:

- «عم صباحًا أيها الناسك سمعان..»

فأهز رأسي محييًا وأواصل رحلتي..

إنهم يحبونني ويثقون بي ويعتبرون أنني أعرف الكثير من الأسرار.. هذا صحيح هذا صحيح فعلًا لقد درست كثيرًا وقرأت مخطوطات عديدة وأعرف أشياء كثيرة جدًّا..

أنا أعيش هناك عند حدود الصحراء. تلك الخيمة من جلد الجمال هي بيتي طيلة العام، وفيها كل ما يلزمني من مأكل ومشرب.. أنت رأيت أنني أحمل التمر واللبن. هذا كل ما أريده من الكون. لقد نضبت رغبتي في المال وفي النساء وفي النفوذ.. لا أبغى شيئًا من العالم سوى أن أعرف أكثر..

لي ابنان لكنهما لا يزورانني ولا أعرف عنهما شيئًا.. هما رجلان مكتملا الرجولة الآن يجوبان الأرض بحثًا عن الرزق...

هكذا في كل يوم أدخل خيمتي..

ألتهم بعض تمرات وأشرب بعض اللبن ثم أفتح المخطوطات..

قد يتسلل الشغبر (ابن آوى) للخيمة ويتشمم الأشياء فأظل ثابتًا أنظر له.. أشم رائحة أنفاسه المقيتة تلوث المكان. ينظر لي بعينيه الحزينتين فأنظر له بالمثل أجلب له قطعة لحم أعطانيها أحدهم في السوق..

بعد قليل يطل بخطمه الرقيق في الخيمة غزال هياب. أضع في كفي بضع لقيمات فيدس فمه فيها ويأكل بنهم.

بعد هذا أعيد وضع العباءة على كتفي وأقرأ المخطوطات حتى يضعف ضوء الغسق وتضعف عيناي فأنام...

✷ ✷ ✷

هكذا تمضي حياتي..

عشتها مع كلمات كراولي يومًا بعد يوم..

ثم جاء اليوم الذي خرجت فيه من خيمتي فوجدت حوافر الخيول تقف هناك، وكانت جثة الشغبر على بعد أمتار. هم من الذين لا يطيقون أن يروا حيوانًا دون أن يقتلوه بلا سبب..

- «هل أنت الناسك سمعان؟»

كانوا من الجنود الرومان المدججين بالدروع.. الرماح في أيديهم والدروع تجعلهم أكبر من الواقع.. هززت رأسي أن نعم.. أنا لا أخشى شيئًا.. ماذا يمكن أن يريدوه مني؟.. لن يسرقني أحد.. لو قتلوني أراحوني... ولو نفوني فلا فارق بين موضع وآخر.. لو سجنوني لمنحوني سقفًا وطعامًا..

كانوا يتكلمون اللاتينية طبعًا.. وأنا أفهمها جيدًا...

- «هيرودوس يريدك..»

قلت في أدب:

- «هل لي أن أعرف السبب؟»

عندما يطلب منك الجنود الرومان مقابلة الإمبراطور فأنا أقدم لك نصيحة: لا تسأل عن السبب.. إن الركض وراء الخيول الراكضة ومعصماك مقيدان بحبل لأمر شاق فعلًا.. كانوا يتوقفون من وقت لآخر ليعطوا فرصة لالتقاط الأنفاس، وعندما رأوا أنني موشك على الموت وضعوني على حصان..

في بلاط هيرودوس كان الرجل مضطجعًا على كوعه، وهو يأكل الفاكهة.. لم يكن جائعًا لكنه مضطر لأن يبدو كإمبراطور روماني.. لابد من كرش ولابد من دجاج محمر وعنب وبطيخ.. لابد من زوجته الحسناء قوية الشخصية جالسة جواره.. لابد من عبد من بونت يحمل مروحة من ريش النعام. لابد من نمر مقيد بالسلاسل عند قدميه..

كان طلبه مشروعًا.. كان يريد من يُعلّم ابنة زوجته اللغة الآرامية..

لم أر من قبل مدرسًا خصوصيًا يجلبونه بهذه الطريقة، لكني على كل حال لم أجد ما يشين في هذا الطلب... طلب العلم مشروع ومقدس دومًا..

السبب الأهم الذي جعلني أوافق هو أنني أعرف خطورة الدور الذي ينتظرني هنا..

لم أكن أعرف ما هو الدور، لكني كنت أعرف أن الوقت قد حان..

الحقيقة أنني كنت أنام.. وكنت أرى الرؤية الواضحة..

هناك نار مشتعلة.. وهناك وادٍ وحفرة يصرخ فيها الخطاة وهم يحترقون.. إنهم يعانون الظمأ لكنهم لا يشربون سوى ماء كالمهل يشوى وجوههم...

وفي هذا الجو الناري كنت أراه...

لم أكن أعرف ملامحه جيدًا لكني كنت أشعر بالهالة المحيطة به... وعرفت يقينًا أنني لو قابلته لعرفته.. ثمّة شيء فيه يوحي بالسواد.. لم أتبين لون شعره ولا عينيه ولا وجهه لكني قدرت أن السواد يتركز فيه.. فيما بعد سوف يتحدث العلماء عن الثقوب السود عالية الجاذبية التي تمتص الضوء.. لقد كان هذا الرجل ثقبًا أسود يمشي على قدمين..

كان يحمل كتابًا سميكًا.. كتابًا يبدو لي كأنه من رقائق البردي... ومن الواضح أنه كان يخاف عليه جدًّا...

من الغريب أنه كان ينظر لي عبر جدار النوم - على رأي الخواجة لافكرافت - فتلتقي عينانا.. أي أنه كان يتصرّف كشخص تراقبه خلسة فيستدير لك، وتلتقي العينان..

سوف نلتقي..

عرفت هذا بسهولة..

كانوا يطلقون عليه في الحمل لقب (حامل الضياء) لوسيفر.. هذا الاسم الذي يشير لكوكب الزهرة. نفس الاسم الذي أطلقه المسيح على إبليس لأنّه يتيه خيلاء بنفسه.

سألت نفسي: هل هو الشيطان؟.. على الأرجح لا.. لكنه قريب جدًّا منه..

✷ ✷ ✷

سالومي تواصل الرقص..

تتناول مشعلًا من أحد العبيد وترفعه.. ترقص والمشعل في يدها حول هيرودوس. هي تعرف كيف أن النار والشهوة يمتزجان بسهولة.. فيما بعد سيقول فرويد إن النار رمز جنسي قوي، لكني بالطبع لا أعرف حرفًا من هذا في ذلك العصر..

سالومي تلوح بالمشعل والدخان يحيط بها..

ما ترتديه سالومي ليس ثوبًا بالضبط.. إنّه مكون من سبع قطع من القماش تتحايل هي كي تبقيها على جسدها طيلة الوقت هذه عملية صعبة جدًّا لكنّها تقوم بها ببراعة...

الثوب ذو القطع السبع. المرأة القوية القادرة التي تعبث بالرجال عبثًا..

وهيرودوس جالس يخنفر وهو يلتهم تفاحة ثم يجرع كأس نبيذ..

زوجته هيروديا تراقب الرقص رافعة حاجبًا واحدًا.. وجهها القاسي الجميل ما زال قادرًا على أن يفتن الرجال برغم أنها أم هذا الظبي الجميل الذي يرقص..

تعرف أن زوجها يعشق ابنتها سالومي ويسيل لعابه عليها، وهي شريرة.. شريرة لدرجة أنّ هذا الإعجاب لا يخيفها.. بل ترى أنه سلاح قوي في يدها..

ترفع كأسها ملوحة به وتضحك..

وأنا.. أقف وسط الزحام مدثرًا بعباءتي...

لقد سرقت الكتاب الثمين. أمّا عن المكان الذي أخفيته فيه فمعقد نوعًا..

لقد ذهبت إلى ذلك المعبد القديم، وتوغلت فيه بضعة أمتار.. قمت بعمل ثغرة في الجدار، دسست فيها الكتاب بعد ما غلفته بالكتان ووضعته في صندوق خشبي صغير، ثم أغلقت الفجوة وسددتها بالملاط ونثرت عليها من الألوان ما جعلها كأنها من صخور الكهف..

رسمت علامة صغيرة أقرب إلى هذه النجمة * فوق موضع الحفر، وقدرت أنني لن أبحث عن الكتاب ثانية، لكن لو حدث هذا فلسوف أجد المكان بسهولة..

أنا هالك.. سوف أموت قريبًا..

عندما أموت لن يجد أحد الكتاب إلى الأبد..

أعرف أن الكتاب مرعب خطير..

المعظم ثلاث مرات لدى المصريين القدماء قيل إنِّه كتب هذا الكتاب يومًا ما. إنِّه تحوت إله السحر عند الفراعنة الذي يرسمونه على شكل طائر البلشون أو قرد له رأس كلب يحمل البدر على رأسه، وإليه ينسب اختراع الكتابة. كما قيل إنِّه ابن رع الأكبر. قيل إنه كتب كتاب الأسرار الذي يداريه في مكان خفي وحل شفرة هذا الكتاب يمنح سيطرة مطلقة على الطبيعة. أنا أعرف أنّ هذا هو الكتاب بعينه..

هذا الكتاب (عهدة). وعهدة مهمّة لدى حامل الضياء الذي يطاردني في أحلامي...

كيف عرفت هذا؟... لأنني متعلم أولًا.. ولأنه هو هيروديا أم سالومي ثانية!

✷ ✷ ✷

كانت سالومي رائعة الحسن فعلًا...

كان معني اسمها هو (السلام) بالعبرية..

فتاة مثلها قادرة على تغيير خرائط الكون وتغيير مصير أمم كاملة. وقد حمدت الله عندما تعاملت معها، على أنني شيخ محطم لم يعد في عروقه دم حار يكفي ليشعر بالحبّ. التعامل مع هذا الجمال الحارق الساحق أمر عسير على من كان له قلب ينبض.. بعبارة أخرى أن النظر في الشمس يؤذي من كانت له عينان لكنه لا يؤذي الكفيف، وأنا كنت كفيفًا..

علمتها الآرامية وكانت سريعة التعلم فعلًا..

سألتني ذات يوم:

- «هل تعرف يوحنا المعمدان؟»

سؤال غريب.. قلت لها في حذر:

- «إنسان طيب.. إنسان طاهر..»

كنت أعرف حساسية الرومان نحو الديانة المسيحية... كانت هذه الأعوام الأولى: أعوام الشك وعدم الارتياح. بعدها جاءت أعوام الكراهية والاضطهاد والإبادة.. ثم جاءت أعوام التوافق..

سألتني وهي تعبث في شعرها:

- «هل تعرف لماذا يكره أمي؟»

- «لا أعرف..»

لكني كنت أعرف طبعًا السبب هو أن هيرودوس تزوج زوجة أخيه.. لم يقبل يوحنا الصارم هذه الزيجة واعتبرها غير شرعية.. لم يكن ممن يكتمون رأيهم بحال.. لهذا ألقى به هيرود في السجن..

كنت أشك في أمر الأم هيروديا..

لسبب ما كنت أشعر عندما أتعامل معها بالسواد.. هناك بحور من اللون الأسود تحيط بها.. شعرها أسود.. ثيابها سوداء.. عيناها سوداوان.. أفكارها سوداء.. كلماتها سوداء..

خطر لي عدة مرات أنّ هذه المرأة بلا قلب على الإطلاق.. كانت قادرة على ذبح طفل دون أن تطرف عينها..

زوجها كان مجرد إمبراطور روماني بدين أبله قليلًا.. رجل شهواني بسيط ولو أتيح له ما يكفي من الخمر والنساء والدجاج المحمر فلن يؤذى قطة.. أمّا هي فبدا أنها تشعر بظمأ شديد للسلطة والدم..

هنا خطر لي خاطر مرعب..

هل لهذه المرأة علاقة بهذا الشيء الذي أراه في كوابيسي؟

كنت أعرف أن الإجابة نعم.. كل خلية في جسدي تقول نعم..

وقررت التحقق..

كان من السهل أن أتسلل إلى مخدعها وهي في حديقة القصر رحت أفتش هنا وهناك..

في النهاية وجدت ما أريد تحت حشية الفراش.. هذه الرقائق المصنوعة من البردي. لا أعرف هذه اللغة لكني أعرف أنه الكتاب الذي كنت أراه في أحلامي...

فررت من الغرفة قبل أن يراني أحد.. لكني عنما أخلدت للنوم في تلك الليلة ظللت أرى ذلك الشيء الأسود.. ورأيت قرد بابون شديد الشراسة.. كان يكرر:

- «لا تلمس كتاب الأسرار.. لا تلمس كتاب الأسرار...»

تحوت.. تحوت..

في الصباح بحثت في المخطوطات التي عندي فعرفت من هو تحوت.. وما هو كتاب الأسرار هذا.. إن زوجة هيرودس أخطر مما ظننت..

✷ ✷ ✷

سالومي ترقص وتطوح بالأثواب السبعة في الهواء. الحقيقة أنها صارت أربعة أثواب الآن يبدو أنّ هذا أول عرض ستربتيز في التاريخ..

الموضوع أنّ هذا هو عيد ميلاد هيرود أنتيباس..

لم تكن هناك شموع ولا حفل مفاجآت ولا (هابي بيرث داي تو يو)..

الأمر كان أبسط من هذا لأن هؤلاء الأباطرة الرومان قليلو المطالب فعلًا. لقد اقترحت زوجته أن ترقص ابنتها الحسناء عارية له ولضيوفه.. وقد وافق في حماس..

لم أكن مهتمًا بالمشاهدة لكني لم أستطع الفرار..

هكذا وقفت وسط رجال الحاشية أراقب تلميذتي الحسناء صغيرة السن وهي ترقص.. ترقص فتخلب لب الموجودين جميعًا..

ضربات الدف.. أوتار الهارب.. النفير.. مطربة تغني بصوت شجي..

تقلب شعرها ذات اليمين وذات اليسار.. تنهض.. تطوح الأثواب السبعة.. تركض كأنها مذعورة ثم تركع متوسلة ثم تتقلب على الأرض ثم تنهض من جديد..

الحقيقة.. إحم... أعترف أنها كانت. إحم.. كانت رائعة..

فجأة هب هيرود واقفًا وصاح:

- «سمع هس س س!»

أو ما يشبه هذا المعنى في اللاتينية..

ثم قال لها وهو يرتجف شهوة:

- «أي شيء تطلبينه الآن سوف أنفذه.. هيا..»

فكرت قليلًا.. بللت إصبعها بين شفتيها كانت تلهث من مجهود الرقص وصدرها يعلو ويهبط.. ثم قالت كأنها تفكر، وكأنها لم تتخذ هذا القرار منذ أيام:

- «أريد.. أريد رأس يوحنا المعمدان على طبق!»

هنا فهمت كل شيء..

أمها.. أمها الشيطان الرجيم. هي التي قامت بترتيب هذا السيناريو. تعرف أن زوجها وهو مفيق وعاقل لن ينفذ هذا الطلب أبدًا.. لذا اتفقت مع ابنتها على هذه الرقصة..

كان هيرود مترددًا.. لا يريد أن يعطي هذا الأمر..

ثم بعد تفكير صاح:

- «ليكن!!»

أصدر أمره للسياف.. فانطلق نحو أقبية السجن تحت القصر..

قطع الرقاب سريع جدًّا هنا كما يبدو..

بعد أربع دقائق بالضبط عاد السياف بصينية كبيرة عليها رأس يوحنا المعمدان..

وضعوا الصينية في وسط المكان ومن جديد عادت الموسيقا تعزف وعادت سالومي ترقص هذا المشهد الخالد في الفن والأدب..

كنت أنا أبتعد في ذات اللحظة... الكل مشغول بالرقصة فلا يراني أحد..

هرعت إلى مخدع الزوجة هيروديا، فسرقت ذلك الكتاب اللعين..

أخفيته بين طيات ثيابي.. ثم أخفيته في الكهف كما قلت لك، وهي خطة رسمتها من قبل..

عندما عدت كانت رقصة سالومي مستمرة.. لكن لم يعد هناك سوى ثوب واحد... وكان الجالسون قد غابوا في حالة من الانتشاء تهدد حياتهم ذاتها. هي نفسها كانت تترنح من الإرهاق..

يبدو أنها رقصت طيلة غيابي ولم تتوقف...

وكان الرأس المقطوع قد كف عن النزف واسودَّ الدم المحيط به...

✷ ✷ ✷

عندما عدت إلى الغرفة التي خصصها لي هيرود كنـ....

صبرًا.. هذه الرائحة مميزة.. أنا أعرفها...

هذا العطر المخدر الذي يتشرب لروحك ذاتها يوشك على أن يسممها كيميائيًا..

هيروديا كانت هنا بلا شك.. أشعر بذلك الكيان الأسود في كل مكان.. لقد خمنت أنني سارق الكتاب وبحثت عنه في غرفتي..

لكن معنى هذا أن حياتي في خطر.. بل تجاوزت مرحلة الخطر..

هرعت لباب الحجرة الذي يقود لسرداب متعرج يفضي للخارج. فوجئت بعبد أسود يمسك بنمر مربوط بالسلاسل. نمر مقيد لكنه متحفز غاضب يسد على الطريق...

ورأيت هيروديا واقفة تنظر لي..

الواقع أنها لم تبد أقرب للشيطان من هذه اللحظة..

كانت نظراتها النارية تخترقني وتسحقني.. تشق طريقها عبر أنسجتي..

كان لها صوت أسود.. صوت غريب ببري تتمنى لو سمعت المزيد منه، غير أني لم أسمعه من قبل. عرفت أنه هكذا يتكلم الشيطان..

قالت في ثبات وصدى صوتها يتردد في السرداب:

- «الآن... أين مخطوطة المعظم ثلاث مرات؟»

لم أرد.. وعرفت أنه لا جدوى من الزعم أنني لا أعرف.. وأنني لم آخذها.. إلى آخر هذا الهراء.. لن تصدق حرفًا...

قالت:

- «هلمّ.. لا تطل عذابك.. لو قلت لي فلسوف يمزقك النمر هنا والآن.. لو لم تقل فلسوف تموت موتًا عبر أشهر ممتدات..»

لم أرد...

قالت:

- «ليس عبر أشهر ممتدات، بل عبر الأبدية ذاتها.. انتقامي سوف يمتد عدة قرون.. ربما إلى يوم الدين.. ستكون حربًا بيني وبين ذكراك وأحفادك وأحفاد أحفادك.. هلم.. تكلم»

كنت أعرف أن عذابها شديد وأنها بالفعل قادرة على انتزاع الكلمات مني..

قلت شيئًا لا أعرفه أنا نفسي، وقبل أن تقول شيئًا آخر ركضت والتحمت بالنمر. الكائن العملاق المكسو بالفراء الذي تفوح منه رائحة حيوانية خانقة، والذي توترت عضلاته رغبة في تمزيقي، ولم يفهم ولم يتوقع تصرفًا أحمق كهذا...

حاول العبد أن يبعد النمر عني لكن الوحش كان يعرف أفضل.. جثم فوقي وغرس أنيابه في أوردة العنق وهو يزأر..

سمعت هيروديا تصيح في ذهول:

- «أبعد النمر عنه.. أوقفه!.. أوقفه أو أقطع رأسك!»

لكن النمر كان قد وجد الوريد.. وشممت رائحة الدم.. وساد ظلام متزايد، الحياة تفلت مني مع الدم. ومن حسن الحظ أنني لا أرى..

لكني كنت سعيدًا.. فقد فررت بسري.....

كتاب الأسرار في أمان.. أو ضاع للأبد...

✷ ✷ ✷

قال كراولي وهو يرمقني في ثبات عبر إضاءة الغرفة الخافتة:

- «هكذا بدأ ذلك السباق المجنون الذي دام عدة قرون..»

لقد أفادني في نقطة مهمّة هي أنني عرفت لماذا يلاحقني لوسيفر.. في الحقيقة هو لا يلاحقني بل يلاحق نسل سمعان الناسك عبر الأجيال والمسافات.. يعتقد أن أحدهم يعرف موضع الكتاب..

كانت الشمعة تتراقص.. وعلى صلعته اللامعة بالعرق ارتسم انعكاس لها. ثم رفع يده المزدانة بالخواتم.. بعض الخواتم على شكل نجمة خماسية، وقال:

- «أنت تعرف من هو لوسيفر.. حامل الضياء.. كوكب الزهرة.. ثم ظهر الاسم في التوراة على سبيل التقريع لملك بابل الذي كان شديد الغرور والخيلاء.. الخيلاء التي تقود صاحبها للسقوط.. إبليس وصف نفسه بأنه سيد الصباح المنير.. وكان بهذا يجمع بين الخطيئة والغرور والتبجح..»

بللت شفتي بلساني وقلت:

- «هل تريد قول إن لوسيفر هو الشيطان؟»

- «ليس الشيطان بل هو أكبر أبنائه وأقربهم له..»

ثم مد يده في جيبه فأخرج قارورة صغيرة.. صب منها قطرات من سائل أحمر قان في طبق صغير، ثم وضعه على الأرض..

أصدر القط الأسود على حجري عواء قصيرًا ثم وثب ليلتهم ما في الطبق.. لا أعرف ما هو في الضوء الخافت لكنه قد يكون أي شيء. لو كان يلتهم طحالي نفسه فلن أعرف...

قال كراولي وهو يداعب ظهر القط:

- «جد جد جدك أخفى كتاب تحوت.. كان هذا خطأ قاتلًا لأن الكتاب مفخرة لوسيفر وقرة عينه.. وهو لم يغفر لك ولا أجدادك أنهم استلبوه هذا الكتاب عظيم الأهميّة، وهذا جعله مهانًا وسط قومه.. واهتزت مرتبته في جانب النجوم... هل تعرف جانب النجوم؟»

قلت راجفًا:

- «بالطبع.. كنت هناك!»

اتسعت عيناه.. إما هو منبهر أو لا يصدّق. عندما تقابل كراولي نفسه وتقول إنك كنت في جانب النجوم وتتوقع أن يصدق فأنت ساذج فعلًا.. هذا رجل اعتاد أن الناس كاذبون نصابون زناة فاسقون.. لا يراهم في أي ضوء آخر..

واصل كراولي الكلام باعتباري مخبولًا أو كذابًا:

- «الآن أنت تعرف أين وضع جدك الكتاب.. بوسعك أن تسترجعه..»

- «بهذه البساطة؟»..

بالطبع لا أذكر موضع هذا المعبد ولا شكله.. أذكر الجليل.. اذكر اسم سيجان.. شاكات... أذكر ثلاث خطوات داخل المعبد وجدار على اليسار..

حتى لو كان جعلني أعيش التجربة من جديد فهذا لا يعني أن بوسعي أن أجد معبدًا مهدمًا في الجليل منذ عصر هيرود أنتيباس.. وهنا يأتي سؤال مهم يجعلني أرتجف رعبًا:

- «أنت كنت تبحث عن هذا الكتاب.. أليس كذلك؟»

قال ضاحكًا بطريقة جعلت أسنانه كالأنياب:

- «بلى.. قطعًا.. كتاب تحوت بالغ الأهميّة لنا.. كنا نستعين بالهرميتات. وهي محاولة قاصرة للوصول إلى بلاغة كتاب تحوت. كنا نحتفل بتحوت في اليوم التاسع عشر من شهر توت، فيما يعرف بـ (سبت السحرة العظيم great Sabbath).. لقد مت وأنا أبحث عن كتاب تحوت هذا..»

هذا يثير التوجس... إذن هو قادر على أن يجد الكتاب.. ينتزع أسراره مني. أنا لا أعرف مكانه لكنه سيعذبني إلى أن يتأكد من أنني لا أستطيع الحصول عليه..

قال كراولي:

- «أعرف ما تفكر فيه.. تنسى أنني لست حيًّا أمامك.. أنا مجرد طيف شبحي. لقد انتهت أيامي الأرضية ولم أعد أهتم بالبحث عن كتاب تحوت.. وكذلك أنا لا أرغب في أن يجده واحد من بعدي حتى لو كان لوسيفر نفسه.. لهذا احتفظ بأسرارك لنفسك..»

سألته في قلق:

- «ماذا بعد هذا؟»

✷ ✷ ✷

فيما بعد حكى لي سام كولبي مغامرته في فلسطين:

كما اتفقنا، كان على كولبي أن يذهب وحده للبحث عن الكتاب...

أنا لا أستطيع الذهاب هناك لأن المنطقة تحت سيطرة الاحتلال الإسرائيلي اللعين، لكنه مواطن أمريكي ويهودي وقادر على دخول البلاد..

كان الكتاب هناك منذ دفنته - أو دفنه جدي الناسك سمعان - أثناء رقص سالومي.. دفنه في عهد هيرود.. مع فجر المسيحية الأول.

كنت أذكر أشياء.. بعض أشياء لم أقلها.. مثلًا هو في الجليل.. كانت هناك مدينة عربية في قلب الجليل اسمها (سخنين).. في الماضي كان اسمها (سيجان) أو (بلد الوكلاء التجاريين).. قرية رومانية قديمة صارت حفائر اليوم. إنها منطقة أثرية مهمّة...

✷ ✷ ✷

عندما غادر كولبي الفندق الصغير أعطاه موظف الفندق العربي مطوية تشرح بعض التفاصيل عن سخنين..

كان يعرف أنها قريبة جدًّا من عكا، وأنها مرتفعة عن سطح البحر.. لعل هذا يفسر تلاحق أنفاسه والإرهاق الذي يشعر به.. التعداد خمسة وعشرون ألف مواطن معظمهم عرب.. عمر المدينة خمسة وثلاثون قرنًا!

هناك موقع أثري يضم خربة شقات وخربة المرجم.. لم يبق فيهما سوى مدافن منسية ونواويس..

قال له موظف الفندق:

- «هناك مساجد قديمة رائعة في هذه البلدة.. مسجد العمري ومسجد الرويس وأبي بكر الصديق.. كما أنّ لدينا كنيسة مار جرجس للأرثودوكس.. وكنيسة مار يوسف للكاثوليك..»

هذه أرض الرسالات فعلًا.. في كل خطوة تقابل أثرًا دينيًّا مهمًّا أو ذكر موضع جاء في التوراة أو القرآن.. لكنه لم يكن مسرورًا لأن إسرائيل استولت على كل هذا، برغم أنه يهودي.. هكذا قال لي ولعله يكذب..

قال كولبي وهو يتأكد من أن الكاميرا معه:

- «سوف أزور أولًا خربة شقات..»

السبب طبعًا هو أنني ذكرت له هذا الاسم..

لا أذكر تفاصيل أخرى..

فقط أذكر الجليل.. أذكر خربة شقات.. أذكر ثلاث خطوات داخل المعبد وجدار على اليسار.. جدار عليه نقوش بالية باهتة، لكن هناك علامة * صغيرة.. على الأرجح لن تكون موجودة اليوم بعد كل هذا الزمن.. لكنه يأمل في الحدس والحظّ الحسن..

هكذا مشى في الطريق ينعم بجمال الطبيعة...

الجليل أجمل جزء في فلسطين فعلًا، بكل ما فيه من أنهار وغابات وأشجار.. هذا فصل صيف، لكن في الشتاء تضيف الثلوج سحرًا آخر للمكان..

كانت سيارات الدوريات الإسرائيلية تحوم من بعيد هناك لمسات كثيرة تذكره بأنه ليس في بلد عربي بل هو في إسرائيل لكن ملامحه الغربية كانت تجعل الأمور سهلة عليه هنا.. لا أحد يرتاب فيه.. ثم إن ملامحه الطفولية الدقيقة كانت تقتل أي شك إنّه أقرب لدمية كبيرة مكتنزة.

✷ ✷ ✷

بصعوبة وفي ضوء الشمس الحارقة توغل كولبي وسط الخرائب..

سرّه أنه لا يوجد فضوليون ولا رجال شرطة يطلبون هويتك. هذه منطقة أثرية لكنّها لا تعامل مثل المناطق الأثرية في مصر مثلًا، وتقريبًا لا يزورها أحد..

مشى وسط الأحجار وبقايا المباني يتعثر وينهض..

كنت قد وصفت له المعبد الذي أعتقد أن جدي استخدمه. إنّه على اليمين وقد تهاوت معظم أجزاؤه، لكنه ظل محتفظًا ببعض الجدران وبعض التماثيل التي صار من العسير معرفة من كانت تمثل..

مشى وسط الصخور..

أخيرًا بلغ مدخل المعبد.. لابد أن المشهد في الماضي كان غاية في الفخامة والهيبة، لكنه اليوم مثير للشفقة فعلًا.. صعد درجة ثم درجتين..

مشى داخل المعبد الذي لا سقف له. ربما يبدو المشهد مثل الكرنك في مصر نوعًا لكن مع فارق الحجم الهائل طبعًا.. كانت البروستاتا الآن تعلن عن نفسها من جديد برغم أنه حرص على ألا يشرب أي سوائل منذ الصباح.. لابد من أن....

أخيرًا لم يتحمل أكثر فهرع يفتح أزرار سرواله وأفرغ مثانته جوار جدار...

عندما انتهى راح يتفقد الجدار على اليسار.. مد يده في الحقيبة وأخرج مطرقة صغيرة..

لو رآه رجل شرطة فلسوف تكون مشكلة حقيقيّة.. لابد أن تهمة إتلاف الآثار كارثية..

ثلاث خطوات.. ثلاث خطوات..

يسمع صوت الموسيقا التي كانت ترقص عليها سالومي يسمع ضحكات هيروديا.. يسمع صوت الصرخة القصيرة بينما السيف يهوي على عنق يوحنا المعمدان...

يتأمل الجدار...

منذ صباه يرتجف كلما رأى جدارًا قديمًا وخطر له هؤلاء الذين وقفوا أمامه منذ تشييده.. الذي بنى الجدار.. هل كان يعرف أنّ هناك من سيقف أمامه بعد ثلاثين قرنًا يتأمله؟

هنا تصلبت عيناه على حفر صغير.. صغير بحجم كف طفل رضيع، وهذا الحفر يرسم صورة نجمة كهذه * أو ما يطلقون عليه Asterisk.. لا يمكن أن تكون صدفة أبدًا...

نظر حوله في حذر.. تخيل أن الجيش الإسرائيلي كله يقف وراءه الآن..

أخرج المطرقة الصغيرة وبدأ يدق على الجدار.. يدق..

أدرك بسهولة أنّ هذا الملاط أضعف من باقي الجدار. يدا سمعان الناسك لم تكونا بارعتين جدًّا..

المزيد من الضربات.. بالفعل يتهاوى جزء.. جزء آخر..

ينظر حوله في توجس..

هل يتخيل أم إن الشمس قد توارت وراء غمامة كثيفة؟.. بالفعل صار المعبد معتمًا بشكل غريب.. كان ساحرًا وأعصابه قوية نوعًا لذا تماسك.. لو كان واحدًا آخر لفر هلعًا...

الهواء يبرد.. يبرد...

الآن يرى فجوة.. والفجوة يستقر فيها شيء خشبي..

مد يده لينزع الخشب لكنه كان قد تحول إلى بسكويت هش يذوب فعلًا تحت لمساته.. لا جدوى من إخراجه إلا بتوسيع الفتحة، وهذا يعني إتلاف الجدار أكثر. هنا وجد أن الخشب يحوي لفافة.. كتان.. كل ما وصفه رفعت دقيق فعلًا..

مد أنامله وانتزع اللفافة.. وأدرك من التمزقات فيها أنها تحيط بأوراق بردي..

إذن هذا هو كتاب تحوت.. هذا هو كتاب الأسرار. من الغريب أنه لم يتفحم عندما أمسك به. إن لهذا الكتاب سمعة سيئة وهيبة حقيقيّة تحيط به..

هنا شعر بألم عنيف ألقى به على الأرض وسط الأحجار كان الكتاب في يده فعلًا.. لكن الدم كان يتدفق بحرارة من ثقب في ظهر اليد.. عندما دقق النظر أدرك أنهما ثقبان..

عندما دقق النظر أكثر رأى أنّ هناك ما يطل عليه من الفتحة...

الصمت من جديد..

الظلام فيما عدا الشموع التي يترقرق وهجها..

القط عاد ليجلس على حجري ويقر، بينما الجمجمة اللعينة تحملق عبر الغرفة.. هناك صوت لهاث في مكان ما، وهناك من يسعل لا أعرف أين..

كراولي جالس يشعل السيجار من جديد.. يسعل.. ثم يواصل الكلام:

- «الثليما.. المبدأ الذي لقنني إياه ذلك الكائن الغريب (عيواس) في القاهرة.. هذه الفلسفة نشأت من كتاب تحوت.. إنها تحوي الكثير من أفكار اليوجا والقبالة..»

أنت وتلك الثليما اللعينة..!.. كدت أقولها له.. عندما أجلس في الظلام مع كراولي اللعين الشرير فأنا أتوقع أي شيء سوى التكرار الممل. ليس سيد الشماشرجي الذي يحكي لي نفس الدعابة خمسين مرة ونحن جالسان على مقهى (الأمراء).. عندما تتعامل مع الوحش فمن الواجب أن تستفيد بشيء ما نوع من التجديد..

قلت له في كياسة مقاطعًا:

- «كيف عثر عليَّ لوسيفر؟.. أعني في صورتي الحالية؟»

قال كراولي:

- «هذه قصة بسيطة نوعًا..»

✷ ✷ ✷

كنت الآن أرى ذلك الحفل في نيويورك..

اجتماع السحرة في اليوم التاسع عشر من شهر توت، فيما يعرف بـ (سبت السحرة العظيم great Sabbath)..

كان لوسيفر هناك..

هذه المرّة كان يلبس ثيابًا سوداء أنيقة، وقد حلى صدره بعدة قلادات وحلى أصابعه بعدة خواتم.. وكان يظهر في كل محافل السحرة.. ظهر مع رجال الويكا وظهر في كنيسة الشيطان مع أنطون لافي.. ظهر في محافل تحضير الأرواح، وجلس مع المعالجين النفسيين..

كان يزعم أنه من المجر، وكان شخصيّة قوية متألقة..

هل تعرف الفلاش الساطع الذي يضيء في وجهك للحظة، ثم تبتعد أنت لكنه يظل متوهجًا كأنها بقعة احترقت في الشبكية؟.. كان هذا هو تأثير لوسيفر..

ثم الصوت... لا تنس الصوت!

هذا الصوت الببري المؤثر الذي يذكرك بنمر شبعان يسترخي تحت شجرة في سيلان.. لابد أن تسمع منه المزيد..

أمّا عن طريقته المعقدة نوعًا في اختيار الكلمات فكانت ساحرة بدورها، وهكذا صار له جمهور لا بأس به.. بدا لهم يعرف أكثر مما يقول، والحقيقة أنّ هذا كان صحيحًا.. صحيحًا إلى حد مروع..

بالنسبة لاسمه الغريب، فهو لم يكن غريبًا في وسط السحرة... حيث ستجد د. موت. ود. حانوتي ونوسفيراتو ومستر لا أحد.. الخ...

كان هذا هو الوقت الذي ذهبت أنا فيه إلى نيويورك وقابلت سام كولبي..

لوسيفر كان هناك في ذلك الحفل.. هل تذكر؟

طلب الانفراد بكولبي.. فدخل عليه هذا الأخير في وجل ونحن نعرف أن كولبي أحمق وساذج ومنبهر طيلة الوقت ليس ساحرًا بارعًا لكنه يعرف الكثير من السحرة، وهكذا صار خبيرًا.. كأنه طباخ رديء قضى حياته وسط الطباخين، وهكذا عرف أشياء كثيرة عن الطبخ..

تساءل كولبي عن سبب استدعائه من الرجل الظاهرة..

كانت عينا لوسيفر الحادتان مسلطتين على عيني كولبي وقال بصوته المميز:

- «أي كولبي.. قد نما إلى علمي أن صديقًا مصريًا لك هنا في نيويورك، وإنني لراغب أشد الرغبة في أن تقدمه لي..»

تساءل كولبي في جزع:

- «هل من سبب يا سيدي؟.. إنِّه خبير بعوالم الماورائيات كمشاهد فقط.. لا يمارس السحر ولا يعرفه..»

بثبات قال لوسيفر:

- «أريد أن أقابله.. أريد أن يرى طريقتي في قراءة التاروت..»

هذا كان أمرًا لا يقدر كولبي على رفضه..

هكذا انحنى في احترام وغادر المكان..

كانت هذه هي بداية علاقتي بدكتور لوسيفر وعرض التاروت الذي قدمه لي.. ومنذ ذلك الحين صارت بيننا علاقة دائمة بلغت ذروتها عندما وجدت نفسي في جانب النجوم..

هنا نلاحظ شيئًا مهمًا..

لوسيفر يستمتع باللعب معي لا يريد القضاء عليَّ فورًا بل هو يشعر أن الحياة من دوني مملة قاسية، لهذا يطبق عليّ حتى يوشك على ابتلاعي ثم يتركني في كلّ مرّة..

كانت هناك قصة لم أحكها قام فيها بإنقاذ حياتي، بينما كنت في قبضة الشيطان أبراكساس[1].. لكن الوقت يضيق..

يعرف أن الحظ لن يواتيه للأبد..

يعرف أن أجلى قد دنا..

ولو مت لانتهت فرصته في معرفة السر.. أعتقد أنه يريد إنهاء القصة حالًا.

نظر كولبي إلى يده التي ينز منها الدم من ثقبين..

لا توجد أشياء كثيرة يمكن أن تحدث هذا الجرح..

عندما نظر للفتحة رأى رأس الأفعى ينظر له من فوق. الجسد ذاته يطل من الفتحة ثم ينحدر ببطء ليهبط له.. هذه الأفاعي تجيد الزحف حقًّا.. تستغل النتوءات في الجدار لتهبط برشاقة كأنها ماء ينساب..

وأدرك في رعب أن طولها لا يقل عن متر..

هل هي أفعى عادية؟.. ماذا تفعله أفعى عادية داخل جدار؟..

الاحتمال الأقرب أنها أفعي حارسة.. هذا يبدو مفهومًا ومنطقيًا..

كان الكتاب معه الآن في لفائف الكتان المغبر كريه الرائحة وضعه في الحقيبة الصغيرة وهو لا يبعد عينه عن الأفعى..

كانت تزحف نحو قدمه...

تراجع للخلف ببطء... احترس وإلا تعثرت كما يحدث لكل المتراجعين للخلف دون أن...

ينظروا!

بالفعل هذه أفعى حارسة.. الدليل هو أن ثلاث أفاع تسد طريق التراجع أمامه الآن.. أفاع مقرنة مخيفة لها طابع شرقي جدًّا.. لابد أنها من طراز أفاعي كليوباترا وسالومي وسواها ربما كانت في قصة شمشون بشكل ما..

لم يكن يعرف طبعًا أنها حية الطريشة.. من أخطر أنواع الأفاعي في العالم..

لكنه كان يحاول جاهدًا تذكر.. هل هذا النوع من الأفاعي يثب في الهواء؟.. مصيبة لو كانت تثب لأن هذا يجعل الأمر بالغ التعقيد...

كأن الأفعى قررت أن تجيب عن السؤال، التفت حول نفسها ثم وثبت في الهواء وعلى ارتفاع عالٍ جدًّا قاصدة وجهه.. كأنها زنبرك... حمى وجهه بالحقيبة وتراجع بينما ارتطمت بها، ثم سقطت على بعد متر منه.. سوف تستغرق عشر ثوان لتفيق ثم تهجم من جديد...

إن كولبي ساحر ويعرف بعض الكلمات القادرة على أن تبعد الأفاعي:

- «حفاو أي باباو... حفاو أي باباو..»

كما كان قدماء المصريين يقولون، لكن أفعى أخرى وثبت نحوه مما جعله يدرك أنّ هذه الأفاعي لا تجيد حرفًا من اللغة الديموطيقية...

تبًّا لك من أفاع غبية جاهلة..

أريد دخول الحمام.. رباه أريد دخول الحمام.. رباه.. البروستاتا سوف تقتلني..

كان يتراجع.. وقد أيقن أنه على الأرجح سيتعثر.. لو تعثر لانقضت عليه ثلاث أفاع أخرى..

الدم يسيل بلا توقف من يده.. لا شك أنّ هذا السم يحوي مادة تمنع التجلط...

- «حفاو أي باباو... حفاو أي باباو..»

حدث ما توقعه بالفعل وهوى على الأرض جوار حجر بارز، لعل جنديًا رومانيًا وضعه هنا منذ عشرين قرنًا ليجلس عليه أو ليربط صندله..

وأدرك أن أمره انتهى...

لكنه رأى النصل يطير في الهواء..

رأى عنق أفعى يطير.. ثم عنقًا آخر فثالثًا....

عندما استطاع أن يستوعب، رأى شابًا أسمر من الواضح أنه فلسطيني، وهو يحمل شيئًا شبيهًا بالسيف يهوي به على أعناق الأفاعي... لماذا يحمل شاب فلسطيني طبيعي سيفًا؟

أخيرًا لم تبق أفاع زاحفة..

كان الشاب جالسًا على الأرض يشعل شيئًا... يشعل مجموعة من الأوراق والأغصان حتى تصاعد الدخان مع اللهب، وأدرك كولبي أن الشاب يضع نصل السيف في جذوة النار..

كان قد بدأ يرتجف والعرق يحتشد على جبينه مع رغبة في القيء..

ومن سرواله سالت بركة من البول.. هي البروستاتا كما تعلمون...

الرؤية تهتز...

قال الشاب بالإنجليزية وهو يرفع ذبابة السيف التي صارت حمراء كالفحم المتوقد:

- «الآن تحملني.. لا حل لأفعى الطريشة سوى أن نكوي موضع اللدغة.. إن سمها يقتل خلال نصف ساعة.. سيكون هذا مؤلمًا..»

ضغط كولبي على شفتيه.. وسمع صوت فش ش ش ش ش!

ثم من جديد قال الفتى:

- «اصبر..»

فش ش ش ش ش!

هذا ألم عبقري.. ألم جدير ببروميثيوس عندما كان النسر يمزق كبده.. تبًّاااااا!..

ثم مزّق الفتى طرفي قميصه كما يفعلون في السينما وصنع ضمادة تمنع صعود الدم للقلب..

كان كولبي يشهق بلا توقف فقال الشاب:

- «تماسك.. اسمي غسان.. أنا عربي..»

- «عرفت هذا طبعًا...»

- «وأنت دخلت في تسمم..»

لا يعرف كولبي متى وجد نفسه بين ذراعي الفتى القويتين وهو يركض به خارجًا من المعبد.. خارجًا من خربة شقات كلها.

كان يغيب عن الوعي تمامًا..

كان يغوص في الغيبوبة ببطء...

كان يهتز وهو يقبض بعنف على الحقيبة..

✷ ✷ ✷

شعر بمستشفى.. شعر بأنه على محفة.. سمع من يتكلم بالعربية والعبرية.. رأى كشافات الممرات تركض من فوقه.. هناك قسطرة تدخل مجرى البول. أتعبهم كثيرًا بسبب البروستاتا لكنّها

دخلت.. وهكذا تخلص للأبد من تلك الرغبة القاتلة الملحة في التبول..

شعر بإبرة تنغرس في ذراعه...

لكنه لم يتخل عن الحقيبة قط وهو فوق المحفة....

كانت هناك مدينة عربية في قلب الجليل اسمها (سخنين).. في الماضي كان اسمها (سيجان) أو (بلد الوكلاء التجاريين).. قرية رومانية قديمة صارت حفائر اليوم. إنها منطقة أثرية مهمة..

وعندما استطاع أن يتكلم سأل عن غسان..

لم يعرف أحد عن أي شيء يتكلم.. لم يفهم أحد من هو غسان..

فقط عرفوا أنه نجا بمعجزة من لدغة حية مقرنة شنيعة هاجمته في الخرائب..

أمّا هو فلم يندهش كثيرًا. الأفاعي كانت تحمى الكتاب.. وغسان ظهر كي ينقذه من الأفاعي ويسمح له أن يرحل بالكتاب.. من أين جاءت الأفاعي ومن أين جاء غسان ذو السيف؟

كلاهما جاء من وراء الحاجز السرمدي....

أي حاجز؟

لقد نسي ما كان يريد قوله...

ساد الصمت.

لم يكن هناك من صوت سوى تردد الأنفاس في الظلام.. سوى دقات قلبي.. سوى محرك الساعة..

لم يكن هناك ما يُقال بعد هذا، فقد جاب بي كراولي رحلة قاسية عبر الأزمان والآباد، وكنت منهكًا فعلًا..

يبدو أنني عشت عدة عصور خلال هذه الدقائق..

كما قلت كان الظلام دامسًا والصمت خانقًا..

هنا بدأ من جديد ذلك التأثير البصري الخافت.. عندما تراقب بقعة في طلاء الجدار، وفجأة تدرك أنها ليست بقعة بل هي برص يقف متجمدًا. عندما تراقب صخرة في الظلام ترى حدودها ثم تدرك أن شيئًا ما يوجد فوق هذه الصخرة..

الآن بدأت ببطء أدرك أنّ هذه هي غرفة مكتبي..

بعد قليل بدأت أتبين حدود المكان.. رأيت الجمجمة والشموع.. رأيت مكتبي وكتبي.. رأيت المقعد الذي فقد ثلاثة مسامير والذي يصلح لتحطيم ظهر من لم يعتد عليه.. رأيت السجادة التي

لوثتها بقعة شاي عملاقة..

رأيت على أرض الغرفة تلك النجمة الخماسية اللعينة بالطبشور وحولها قطرات دم. لقد تلاشى عالم كراولي وكتبه وكل الأقنعة القبيحة التي علقها على الجدران..

تلاشى وجوده الثقيل المقزز...

لكن كولبي لم يكن معي في الغرفة....

لقد انتهت الرؤيا أو التجربة لا أعرف بالضبط..

✷ ✷ ✷

عندما غادرت الغرفة على قدمين من عجين، وعندما وقفت في الصالة الفارغة المضاءة بضوء خافت، وعندما رأيت كولبي على الأرض..

أدركت وقتها أن التجربة كانت قاسية عليه..

يبدو أنه كان على وشك مغادرة البيت لأنّه فتحه وأزاح الرتاج لكنه لم يستطع الصمود أكثر وتخلت عنه قدماه. كما قلت فإن كولبي لا يكف عن لعب دور الأحمق إلا لو فقد الوعي.. ساعدته على الرقاد في الفراش.. كنت متعبًا مثله وأكثر لكني قادر على العناية به..

بدأت يدي تنزف من جديد.. ولوث الدم ثيابه..

عندما فتح عينيه أخيرًا قال وهو يرتجف:

- «هل عرفت؟»

سقيته بعض العصير وقلت:

- «تقريبًا.. لكن من الصعب أن أعود لذات الموضع ثانية..»

قال وهو يحاول النهوض:

- «الحمام.. البروستاتا كما تعلم..»

يا لك من طفل!.. من الصعب أن أحملك للحمام ومن الأصعب - لو أردت رأيي - أن أحضر لك الحمام. لكن.. لحظة.. من السهل فعلًا أن أحضر لك الحمام لأن عندي مبولة فراش من التي يستخدمونها في المستشفيات.. لا تنس أنني طبيب..

لما أفرغ مثانته عاد يتنفس بانتظام.. وقال لي:

- «كيف كانت التجربة؟»

- «عجيبة جدًّا.. رهيبة جدًّا.. مفيدة جدًّا..»

ثم حكيت له القصة كلها بينما هو متسع العينين يصغي.. فلمّا انتهيت ضحك كثيرًا وقال:

- «دائمًا هناك كتاب مفقود وأنت تعثر عليه.. نيكرونوميكون.. كتاب إينوخ.. كتاب الأسرار.. كتاب ديسان..»

قلت في عصبية:

- «لا علاقة لي بكتاب ديسان هذا..»

- «هذا غريب.. على كل حال لاحظ أن كراولي كان يبحث عن معظم هذه الكتب. كان لديه كتاب إينوخ، لكنه مات وهو يبحث عن كتاب الأسرار ونيكرونوميكون..»

جففت العرق على جبينه وقلت:

- «على كل حال.. لوسيفر كان يملك هذا الكتاب وقد ضاع منه.. ضاع منه بسبب جدي.. منذ ذلك الزمن السحيق تتم المطاردة عبر الأجيال.. لكن أنا لا ذرية لي، وأنا آخر فرع أسرتي.. معنى هذا أنني أمثل الفرصة الأخيرة لدى لوسيفر.. ومن المؤكد أنه سيفنيني لحظة استرداد الكتاب..»

عاد كولبي يسألني وعيناه تلمعان:

- «هل حقًّا لا تذكر أي تفاصيل؟»

سأجازف وأخبره بما أعرفه.. لا أعتبر الكتاب ملكي ولو سرقه هو فلا مشكلة عندي.. لذا قلت:

- «معلومات متضاربة.. ذكريات باهتة... مؤكد أنه مخفي في معبد قديم في الجليل.. بلد الوكلاء.. شاكات.. فعلًا لا أعرف..»

- «هذا قد يكون سر قوتك.. أنت لا تعرف.. وهذا قد يبقيك حيًّا..»

لما جلسنا بعد هذا - وقد لبس إحدى مناماتي لأنّه سيقضي الليلة عندي - نراجع بعض دوائر المعارف في مكتبتي، بدأت أرى الاحتمالات بشكل أوضح..

بلد الوكلاء اسمها (سيجان).. حاليًا اسمها (سخنين)، وهي تقع تحت سلطة الاحتلال الإسرائيلي برغم أن معظم سكانها عرب.. فيها خرائب مهمّة جدًّا اسمها شقات..

راح كولبي يُدون ما قلته وقد بدا عليه الاهتمام.. قرب المصباح من وجهه وراح يحاول تذكر المكتوب.. ويردده مرارًا..

قال لي:

- «سوف أبدأ غدًا في ترتيب أموري للسفر.. سأقصد بلدًا أوروبيًّا ومن هناك أقصد إسرائيل.. أنت لن تستطيع الذهاب طبعًا..»

قلت في حيرة:

- «لا أدري لماذا يجب أن يذهب أحد.. لماذا لا نترك الكتاب حيث هو؟»

حك رأسه في توتر وقال:

- «لأن هناك من سيبحث عنه.. وسوف يجده.. بينما أرى أن عليك أن تحتفظ بهذا الكتاب حتى آخر لحظة في حياتك.. هذا هو ضمان بقائك حيًّا إلى أن تموت ميتة طبيعية..»

- «من الذي سيبحث عنه غير لوسيفر؟»

نظر لي في خطورة والتمعت نظرة فزع في عينه:

- «كراولي مثلًا.. ألم تفطن إلى أنه تحرر في عصرنا هذا؟»

✷ ✷ ✷

كان الأمر بسيطًا جدًّا..

لقد فقد كولبي وعيه عندما انتهت التجربة فسقط في الصالة..

كان كيان كراولي الشيطاني معي.. ثم لم يعد موجودًا.. أنا وجدت الباب مفتوحًا في الصالة وخطر لي أن كولبي كان يرغب في الخروج..

بالواقع لم يكن هذا صحيحًا..

لقد فشل كولبي كالعادة في إنهاء التجربة. قام باستدعاء الوحش الذي صار شيطانًا.. ثم لم يستطع أن يصرفه..

النتيجة أن ألستر كراولي تصرف كالذئب الحبيس.. فتح الباب وانسل للخارج.. إن الوحش الآن حر طليق يجول في القاهرة.. هذه هي الهدية التي قدمتها لأهل بلدي ولوطني!

- «لا تقل لي إنّه عاد للحياة!»

- «بالطبع لا.. قلت لك إنّه صار أقرب للشياطين.. عندما دخل بيتك كان شيطانًا وعندما غادره كان شيطانًا..»

أمسكت بكولبي من ياقة المنامة ورحت أهزه في غل كاشفًا عن أنياب، وهو راح يهتز بلا أي جهد للمقاومة كأنه دمية فعلًا:

- «إذن أنت جلبت الوحش للعالم.. ثم تركته!.. كأن مصيبة واحدة تكفيني فجلبت لي مصيبتين..»

تذكرت ما يفعله الرفاعية أحيانًا. أنت تعرف أنهم متخصصون في طرد الأفاعي؛ لذا يزور الواحد منهم الزبون، وهو يحمل أفعى في كمه الغرض أن يبرزها للزبون زاعمًا أنها تلك الأفعى التي تسللت لداره ويأخذ الحلوان.. أحيانًا يكون أحدهم أحمق فتفلت منه الحية.. هكذا يرزق الزبون بحيتين بدلًا من واحدة!

يبدو أن لكولبي قريبًا من الرفاعية هؤلاء..

لقد هرب ألستر كراولي.. أشر إنسان في الكون.. الوحش...

ومن الواضح أنه يبحث عن نفس الكتاب.. لكنه لا يعرف أين هو حقًّا.. يعرف بالتقريب... أنا وكولبي أكثر من اقترب من الحقيقة..

قال كولبي:

- «لهذا ترى أن عليَّ أن أذهب إلى الجليل فورًا حياتك في خطر..»

✷ ✷ ✷

حكيت لك عن مغامرة كولبي في الجليل، وكيف استطاع أن ينزع الكتاب من بين أنياب الأفاعي إن صح التعبير (وهو صحيح)..

تلقى جرعات من الترياق المضاد لسم الأفعى، وكاد يموت.. فيما بعد قال له الأطباء في المستشفى أن كي الجرح أفاده حقًّا... ما كان ليصمد حتى يبلغ المستشفى...

كان على يقين من ذلك.. الفتى غسان يعرف ما يقول وما يفعل حتمًا..

وأخيرًا تعافى واستعد للسفر أو الفرار لو شئت الدقة..

كان الكتاب معه في لفائف البردي تلك.. وكان قلقًا بحق من أن تكتشف الحكومة الإسرائيلية أن الكتاب معه.. هذا معناه سرقة آثار... أمّا الخطر الثاني فهو أن يجده أحد الباحثين عن الكتاب.. كراولي أو لوسيفر شخصيًا..

وعندما ركب الطائرة المتجهة إلى بلجيكا شعر بالراحة..

قال لي إنِّه فكر فيما بعد أن يسرق الكتاب..

لكن لماذا يورط نفسه في هذا؟.. كل شياطين العالم فيما يبدو تريد هذه المخطوطة، وهي تخص رفعت إسماعيل الأحمق.. إذن لماذا يفكر أحمق آخر في أن يتولى هو هذه المسئولية؟ لماذا يحمل هذا العبء؟

هكذا عاد إلى مصر..

وجاء الوقت الذي وجدت فيه الكتاب بين يدي في شقتي..

أوراق البردي غريبة المنظر والغلاف الكتاني الممزق المهترئ والشعور الرهيب بأن هذا أثر منذ مئات السنين...

شعور مخيف بالفعل..

أعرف أكثر من واحد من المهتمين بالآثار سوف يريد بعنف أن يرى هذه البرديات.. من الصعب أن تصدق أنّ هذا هو كتاب تحوت الشهير الذي جاءت منه الهرميتات.. من أجل هذا الكتاب يحتفل سحرة العالم بيوم السبت العظيم..

كان كولبي يجلس أمامي وقد فتح أزرار معطفه، وقميص سترته غارق بالماء بعد دخول الحمام.. لقد قام برحلة شاقة من أجل هذا الكشف وكاد يفقد حياته..

بالمناسبة هو قد فقد الإصبع الأوسط من يده اليمنى الغنغرينا فعلت ذلك.. إن سم الأفعى كان ذا تأثير وعائي قوي، وهكذا فوجئ أطباء المستشفى أن الإصبع صار أسود بلا نبض.. واضطروا لبتره.. هذه المفاجآت السارة تحدث عادة مع لدغات العناكب السامة لكن الأفاعي ليست أكثر رحمة..

قلت لكولبي وأنا أضع الكتاب في كيس من البلاستيك:

- «سوف أضعه في خزانة المصرف و...»

هنا انفجر في الضحك... انفجر حتى لم أفهم ماذا دهاه؟

قال لي وهو دامع العينين من فرط الضحك:

- «يبدو أنك لا تفهم حقًّا حجم وقوة من تعمل ضدهم..»

- «حسبت أنني أعرف.. كنت في جانب النجوم ولوسيفر ليس عصيًا على الهزيمة..»

- «هو ينهزم عندما يريد ذلك.. وثق أنه لا يريد ذلك هذه المرّة.. سوف يبحث عنك بطريقة لا تخطئ أبدًا... لاحظ أنك تعرف مكان الكتاب فعلًا اليوم.. بل هو في يدك.. أي أن الخطر تضاعف بشكل فلكي..»

حكى لي بعض أساليب لوسيفر فشعرت بالدم يتجمد في عروقي.. يبدو أنني لا أعرف أي شيء عن لوسيفر بعد كل هذه الحياة...

سألته:

- «ولماذا يحدث هذا الآن؟ لوسيفر لم يظهر ولم يعط أي علامة..»

- «احتشاده في كوابيسك وكوابيسي هذه الأيام بالذات.. هذا مريب..»

✷ ✷ ✷

«أمّا ما حدث في تلك الليلة فغريب.. لقد حلمت بك. كنت تركض في مدينة خالية وتدق الأبواب الموصدة. لا أحد يفتح لك في الوقت نفسه ينتشر ضباب كثيف ثقيل.. أنت مذعور.. ثم فجأة يظهر عبر المنعطف رجل فارع الطول يلبس الأسود أعرف أنه لوسيفر نفسه.. إنّه يريد شيئًا منك لكني لا أعرف كنهه..»

«ينفتح أحد الأبواب.. أرى رجلًا أصلع الرأس مخيفًا يلبس عباءة سوداء. يقول لك: تعال.. تعال إن كنت ترغب في الحياة. تسأله من هو فيقول لك بابتسامة كريهة: يطلقون عليّ ألستر كراولي. في اللحظة التالية يجذبك من معصمك وينغلق الباب!»

✷ ✷ ✷

- «إذن ماذا تقترح؟»

كنت أتكلم وأنا أحمل الكتاب وأتجه إلى المطبخ..

الموقد الأبيض إياه الذي أنتجته المصانع الحربية سوف تجده في كل بيت شُيّد في الستينيات.. كان ينتظر هناك أمينًا واثقًا... أشعلت اللهب وانتظرت لحظة ثم وضعت الكيس الذي يحوي الكتاب عليها..

صرخ كولبي وهو يمد يده:

- «هل جننت؟»

أبعدته بساعدي.. لا تنس أنه دقيق ضعيف، وقلت:

- «لا يوجد حل آخر.. على لوسيفر أن يتعلم أن كتابه قد فُقد للأبد.. وعلى كولبي أن يفهم الأمر ذاته..»

- «أنت مخبول!!»

هنا كان الكيس قد احترق وذاب.. غطت طبقة من البلاستيك الذائب الموقد، وعندما دققت النظر فوجئت بالبرديات سليمة لم تمس... النار تتوهج لكن كأنها تحرق قطعة من الفولاذ.. هذه برديات يا جماعة!.. كأنها القش! لكنّها لا تحترق برغم هذا..

- «ما معنى هذا؟»

- «معناه أن الكتاب غير قابل للتدمير... ومعناه أننا سعيدا الحظ.. كان يمكن أن تتحرر كل شياطين الجحيم لتثب في وجهنا لقد تصرفت كمن يجد لغمًا في الصحراء فيضعه على الموقد ليجرب!»

حقًّا.. لي نصف دستة من الأصدقاء جربوا وضع لغم على الموقد وكلفهم هذا أطرافًا أو عيونًا..

سألت كولبي وأنا أتأمل الكتاب:

- «هل يمكن أن تأخذه؟»

- «بالطبع لا.. لن أشتري حذاءك الضيق العفن بأي ثمن!! هذه مشكلتك ومعاناتك..»

ثم إن كولبي حمل الكتاب في رفق ووضعه على رخامة المطبخ، وقال:

- «يجب أن نخفيه.. لكن في مكان لا نعرفه..»

- «أنت تجعل الأمور سهلة فعلًا..»

هنا خطرت لي فكرة ممتازة.. درامية لكنّها ممتازة..

سألت كولبي ونحن نتّجه للباب:

- «أنت تعرف تلك التعويذة القديمة التي تمحو الذاكرة. أليس كذلك؟»

قال في ارتباك:

- «بلى.. لكني لا أفهم..»..

- «فقط تعال معي..»

كان موضع الشارب الذي أزلته يشعرني كأنني عار تمامًا.. هناك برد حارق كأنك دهنت المكان بالنعناع.. لذا وضعت يدي عليه في شيء من الحرج.

✷ ✷ ✷

عند مدخل الشارع طلبت من كولبي أن ينتظرني.

نظر حوله في حيرة.. كان شارعا هادئًا تحف به الأشجار من الناحيتين، وصوت الطيور يحدث طنينًا مستمرًا.. عدد من الأجانب أكثر من المعتاد هناك سيارات وأكثر من بواب نوبي يراقبنا في شك.. هناك أكثر من سوبر ماركت ذو اسم أجنبي يبيع أشياء لا تدري كنهها أو يبيع كيلو الطماطم بعشرين جنيهًا، وهناك مشترون يشهقون لأن الخضر رخيصة.. باختصار نحن في المعادي أو جاردن سيتي أو الزمالك... أو... لن أحدد..

قلت له:

- «لا تحاول أن تعرف أين أنا..»

ثم رحت أمشي بسرعة بين السيارات حتى بلغت ذلك المدخل..

كان بواب نوبي مسن يجلس هناك كالعادة وهو يشرب الشاي ويرمقني في شك.. لحيته طويلة بيضاء تمتزج ببياض جلبابه فيبدو فاخرًا.. على قدر علمي هو البواب الوحيد في مصر الذي لا يعبث في أصابع قدمه وهو يشرب الشاي..

حييته وأخبرته أنني ذاهب لأقابل سمير بيه في الطابق العاشر.. قال في ثقة:

- «سمير بيه في الطابق العاشر..»

معلومات قيمة فعلًا.. أحب هؤلاء القوم المفيدين جدًّا..

سرعان ما كنت أستقل المصعد إلى الطابق العاشر سمير بيه غير موجود طبعًا فأنا أعرف أنه طلق مها قريبتي منذ عامين.. مها تعيش هنا مع ابنتها فايزة.. وهي بالطبع تتوقع هجومًا من عصابات المافيا أو أي مار يريد ذبحها.. لسبب ما تعتقد أن الحكمة من خلق البشر هي ذبحها..

هكذا ظللت أدق الباب ساعة.. هناك باب حديدي غليظ خلفه باب خشبي.. وقد استغرقت أربع ساعات حتى فتحت الباب ثم استعدت للصراخ والموت.. ثم عرفتني فهتفت:

- «رفعت!.. أيها العجوز!»

ككل المصريين لا تلاحظ الشارب أبدًا.. هذه عادة مصرية عتيدة.

وهكذا سمحت لي بالدخول، بينما ابنتها ترقبني بكراهية ومقت كأنما أنا من سيقتل أمها حالًا...

كانت تردد بلا توقف:

- «معذرة.. لا أستطيع أن أبقيك أكثر من هذا.. أنت تعرف كلام الناس...»

- «أعرف.. أعرف..»

- «لا.. أنت لا تعرف كلام الناس.. عندما تسمح مطلقة لرجل بدخول بيتها في ساعة كهذه، فهم يفترضون أنها....»

- «كفى!»

لم أكن أريد سوى خدمة واحدة بعدها سأفر من هنا..

ناولتها الكتاب الملفوف في الكتان وقلت:

- «اخترتك لأنك لست في بالي ولأنني أتذكرك بصعوبة.. هل هذا مفهوم؟»

- «لا..»

- «ليكن.. كل ما أريده هو أن تحتفظي بهذا الكتاب لي في مكان أمين..»

نظرت له بشك.. كتب قليلة جدًّا هي التي تصلنا مغلفة بالكتان المتآكل العطن. قالت:

- «هل هذا كتاب.. من... من تلك الكتب التي....»

قلت لها بلهجة عادية، وأنا أنهض وأزرر سترتي:

- «هذا كتاب شيطاني كتبه تحوت.. وكل سحرة العالم يبحثون عنه.. هل من أسئلة أخرى؟»

انفجرت في الضحك كما توقعت وهتفت:

- «أنت مولع بالمزاح كعهدي بك.. سوف أضع هذا الكتاب في فرن الموقد القديم....»

قاطعتها في عصبية:

- «لا أريد أن تخبريني بمكانه.. أريد عشوائية تامة.. اتفقنا؟ لكن لا تضعيه في الموقد القديم لأني خمنت هذا المكان..»

ثم اتجهت للباب الخشبي أعالجه فالباب الحديدي..

قالت وهي تضم ابنتها لصدرها مع الكتاب:

- «آسفة لأنني لم أدعك للبقاء وشرب شيء بارد.. أنت تعرف كلام الناس.. مطلقة شابة مثلي تعيش وحدها.. هذا يثير شكوكهم.. لابد أنها الفساد نفسه..»

تعلمت هذه الأساليب من فرويد.. تكرار هذه المعلومات الفاضلة بلا مناسبة معناه على الأرجح أنها تتحرق شوقًا لتكون الفساد نفسه.. لكن لا وقت لهذه التفاصيل.

قلت لها وأنا أضغط على زر المصعد:

- «لا تخبري أحدًا أنني جئت.. ربما كان الأفضل لو نسيت ذلك..»

قالت في حرج:

- «ليكن.. أرجو أن تغفر لي.. سوف يشكون في سلوكي لو..»

لحسن الحظ جاء المصعد فأنقذني..

هذه السيدة تتوق بشدة لأن يشك الناس في سلوكها..

لحقت بكولبي في الشارع وكان قد وجد امرأة أمريكية وقفت تثرثر معه..

هززت رأسي محييًا لها ثم هرعنا إلى سيارتي.. أدرت المحرك وانطلقنا عبر الشوارع شبه الخالية..

سألني عما حدث وماذا فعلت فقلت له:

- «تقريبًا لا أعرف.. هذه نقطة تفوق مهمّة لي.. كلما ازددت جهلا كان هذا أفضل..»

قال:

- «لاحظ أن آثارك موجودة.. أنا مثلًا.. الناس الذين قابلتهم في هذا المشوار..»

- «لكنّها آثار مبتورة لا يمكن استكمالها..»

عندما بلغنا محطة القطار أوقفت السيارة في موقف الانتظار.

دفعت مبلغًا لا بأس به لأنهّا ستبقى هناك فترة طويلة. ثم طلبت من كولبي أن ينزل معي...

دخلنا كافتيريا قريبة فانطلقت مع كولبي إلى الحمام، وكان المكان خاليًا.. قلت له بسرعة:

- «هيا.. ألق تعويذة النسيان عليَّ..»

- «لكن..»

- «هذه التعويذة سوف تجعلني أنسى القصة كلها وأنسى من أنا، أمّا أنت فلن تعرف مكاني ولا مصيري لأنني سأركب قطارًا لا تعرفه أنت... ليست معي أي أوراق تخبرهم بحقيقتي..»

قال في حيرة ووجهه الطفولي يرتجف:

- «تريد أن ألقي بك في القطار فاقد الذاكرة وبلا مأوى ولا صديق؟»

- «لن يحدث لي شيء.. هذا شعب ودود.. صدقني الفكرة هي أنني لا أريد أن تعرف أي شيء عني.. لو حدث اختراق لعقلك فسوف يعرف المخترق كثيرًا جدًّا.. لكن الآن..»

وأشرت له:

- «هل تعرف أين الكتاب؟»

- «لا..»

- «هل تعرف مع من تركته؟»

- «لا..»

- «هل تعرف أين سأكون غدًا؟»

- «لا..»

ثم أضفت وأنا أعد ما معي من مال:

- «سوف أثق بك.. عندما تتحسن الأمور أو تشعر بأن فترة كافية قد مرّت.. سوف ترد لي ذاكرتي.. هه؟»

- «هذا لو ظللت حيًّا..»

وقفت أمامه مستسلمًا وقلت له وأنا أنظر في عينيه:

- «هلمّ.. امح ذاكرتي.. لا أريد أن أذكر حرفًا عني..»

قال في استسلام:

- «ليكن..»

وبدأ يتلو كلمات لم أتبينها وأنا أنتظر في توجس..

سوف أرى تأثير هذه الكلمات..

تأثير هذه الكـ..

تأثير هذه الـ....

هه؟

- «لا..»

✷ ✷ ✷

أنا في القطار.

أصغي لصوت تشيكا بوم - تشيكا بوم.. وأرقب ذلك الجزء الشبيه بالأوكورديون الذي يربط عربتين... أهتز...

أنظر من النافذة.. أراقب المزروعات، أعمدة النور تتسابق أيها يبلغ وجهته أسرع.. للأسف لا يستطيع عمود نور أن يلحق بما سبقه..

هناك حقول.. هناك مواش واقفة.. فلاحة تحمل كومة عملاقة من البرسيم.. هناك أطفال يتشاجرون وفلاح عجوز شبه عار يجلس خلف الشادوف..

أراقب الناس في القطار..

من هؤلاء؟.. السؤال الأخطر هو من أنا؟

أنا لا أملك أي فكرة عن شخصي ولا مكاني.. من أين جئت؟.. إلى أنا أين ذاهب؟

بحثت في جيبي عن أوراق فلم أجد.. لا أملك حتى أبسط انطباع عن ملامح وجهي.. نظرت أمامي فرأيت شيخًا أصلع قبيح الوجه ينظر لي بفضول عبر الزجاج الذي يفصلني عن المقعدين الأولين..

هذه ليست مرآة بل هي انعكاس وجهي في زجاج شفاف تجلس أمامه سيدة بثوب أسود..

هذا أنا.. رفعت يدي ونظرت لانعكاسها ثم نظرت لها هي نفسها.. لجلدها.. جلد مبقع مجعد.. لست شابًا كما هو واضح لكن من أنا بالضبط؟

هكذا ظللت في القطار.

عندما وصل القطار إلى محطته النهائية نهض الناس مغادرين..

ساد الصخب لفترة والهرج والمرج... لكني ظللت جالسًا جوار النافذة كما أنا.. لا أملك خططًا ولا مكانًا أقصده.

أحد عمال نظافة القطار رآني حيث أنا وجاء يسألني وهو يستند إلى المكنسة عن وجهتي:

- «هذه هي الإسكندرية يا والدي.. ماذا تنتظر؟»

رأى تلك النظرة الخاوية في عيني.. لم يعرف ما هنالك لكنه خمن على الأقل إنني بحاجة للعون..

بعد قليل التف حولي كثيرون، ثم ظهر رجل شرطة من مكان ما..

راح أحدهم يبحث في جيبي عن أوراق.. وسمعت عبارة:

- «فاقد الذاكرة.. هذا واضح..»

مد أحد رجال الشرطة يده في جيب سترتي الداخلي وهو يردد كأنه يهدئ حصانًا:

- «انتظر يا والدي.. لا تقلق.. اهدأ..»

حتى توقعت أن يقول (يس س س) ويربّت على خطمي..

ثم أخرج مظروفًا صغيرًا فتحه.. راح يحاول القراءة مرارًا ثم استطاع أخيرًا أن يقول بصوت عالٍ:

- «عباس الغريب - مصحة د. إدريس - العنوان (.....) الإسكندرية..»

كان تخطيطي دقيقًا ولا بأس به أبدًا..

لقد قمت - قبل فقدان ذاكرتي - بحجز أسبوعين في تلك المصحة باسم (عباس الغريب).. كانوا ينتظرون مريضًا فاقد الذاكرة بهذا الاسم وكانوا ينتظرون أن يجلبه أقاربه..

د. إدريس لا يعرفني ولا يعرف حرفًا عني.. هذا مهم.. لكنه يعرف أن اسم عباس الغريب مستعار كما هو واضح..

ما حدث بعد هذا هو أن رجال الشرطة هم الذين جاءوا للمصحة يسألون عن سبب وجود عنوانها معي. بالطبع كان الباقي سهلًا لأن المصحة خاصة وأجر إقامتي مدفوع سلفًا عندما ينتهي المبلغ المطلوب سيلقون بي في الشارع...

كانت المشكلة الوحيدة أمام رجال الشرطة هي معرفة من حجز لي في المصحة، ومن وضعني في القطار وتركني..

لكن معرفة هذا كانت مستحيلة..

وهكذا وجدت نفسي بين أسوار تلك المصحة الجميلة..

لا أعرف من أنا ولا ما أفعله هنا. فقط يقولون إنني مصاب بفقدان الذاكرة ويحاولون علاجي، وقد قدَّر د. سليم إدريس مدير المصحة إنني تعرضت لصدمة عصبية قاسية..

قالت له الطبيبة الحسناء:

- «صدمة عاطفيّة؟»

نظر لشكلي في شك ثم قال:

- «في هذه السن وبهذه الملامح؟.. مستحيل!».

أما أنا فقد بدأت حياة هادئة بالفعل. الجلوس بالروب في الحديقة ومراقبة الطيور التي تلتقط رزقها بين الأعشاب، أو مراقبة المرضى النفسيين يلعبون كرة الطاولة..

لا أعرف من أنا ولا كيف جئت هنا.. لكني لست قلقًا..

أشعر بسلام نفسي غريب..

فقط كنت أشعر بقلق من أن تتكشف الأمور، وأجد أنني لص هارب أو السفاح الذي تبحث عنه ست دول أوروبية.. رباه! لا أعتقد أنّ هذا وارد مع هذا السلام النفسي الغريب...

انعقدت صداقة حميمة بيني وممرضة في الثلاثين من عمرها، أنيقة راقية.. كانت تأتي لتراقبني وأنا أمسك بلوح كتابة.. كنت أحاول أن أرسم بعض العصافير التي تتواثب أمامي، وقد راقبت أدائي وخطوطي بعض الوقت، ثم قالت في انبهار:

- «أنت رسام ممتاز..»

حقًّا.. أنا رسام جيد ولم أعرف هذا عن نفسي..

لو لم أعرف من أنا فلسوف أصير رسامًا.. أعتقد أن بوسعي أن أفترض أن مهنتي الحقيقية هي الرسم.. الفنان عباس الغريب. ربما أنا أستاذ بكلية فنون جميلة.. ربما أنا رسام في وزارة الثقافة.. أو....

أمّا عن هذه الممرضة اللطيفة فلربما تقبل الزواج مني برغم فارق السن المخيف. إنها تحبني كما أنا..

لكن.. ترى هل أنا متزوج في عالم الواقع؟

✷ ✷ ✷

حدث شيء غريب اليوم..

كنت جالسًا في الحديقة أرسم كالعادة، ثم من بعيد ظهر د. إدريس يمشي مع رجل متقدم في العمر وسيم وقور.. من الطراز الذي يتحول شعره لسلوك فضة ويزداد سحرًا كلما تقدم في العمر. هل تعرف ذلك الطراز الذي يضع بابيون بدلًا من ربطة العنق؟؟ كأنه أستاذ في هارفارد..

كانا يتكلمان معًا..

فجأة لاحظت أنه ينظر لي في اهتمام.. توقف..

صاح من مكانه:

- «رفعت؟»

لم آت بأي حركة، فالنداء لا يخصني..

قال د. إدريس:

- «هو رجل فقد الذاكرة وألقاه أهله في قطار.. اسمه عباس..»

لكن الرجل واصل النداء:

- «أنت رفعت.. أليس كذلك؟»

لكن لا مبالاتي وثقة د. إدريس وعدم وجود شارب لي جعلوه غير واثق من موقفه.. كاد يدنو مني لكن إدريس قال له:

- «لا تتعب نفسك.. لن يتذكرك يا د. سامي.. من الواضح أنه لا يعرفك أصلًا..»

اسمه د. سامي؟.. واضح أنه طبيب نفساني سكندري لا شك في هذا. رأيته يهز رأسه في حيرة ويقول: جائز..

ابتعد الاثنان فعدت أواصل الرسم في رضا..

إنّه الليل..

وفي موضع من الصحراء تفككت طبقات الرمال وبدأت فجوة في الأرض تولد.. هرعت السحالي خائفة، ودوى صوت رعد، وتوهج برق في السماء لا تدري كيف جاء في صحراء كهذه..

كان هناك دخان.. وكان هناك لهب..

ولما بدأ الدخان ينقشع ولما انطفأت النار، كان د. لوسيفر يقف هناك....

ما زال الرجل هو.. بقامته الفارعة.. بثيابه السوداء التي لا يمكن أن تتجعد أو تتسخ أبدًا... بالنظرة السوداء في عينيه، والتجاعيد البسيطة التي تجعل وجهه كأنه قناع دمية.. بخواتمه التي تحيط بكل أصابعه.. بالقلادات الثقيلة على صدره...

كان يمشي بلا خوف أو وجل، برغم أنّ هناك أكثر من لافتة تنذر (ألغام)..

وقف للحظات وتشمم الهواء ثم هتف بلغة غريبة:

- «الآن يسترد لوسيفر كنزه العتيق.. الآن تنتهي دورة الأزمنة، ويستعيد حامل الضياء كبرياءه... فلتسمعيني أغانيك يا بنات الليل..»

ومن كل صوب هرعت الذئاب تحيط بالمكان.. وراحت تطلق عواءها الموحش الغريب..

شرير آخر هو دراكيولا كان يحبّ هذه الأنغام جدًّا... وكان يقول: «أبناء الليل.. ما أجمل موسيقاهم!»

تدوي صرخات المعذبين في أقبية العذاب في هيدز.. وترتجف الجثث المتحللة كأنها تنتشي..

لوسيفر هذه الليلة - والحق يُقال - راض...

✷ ✷ ✷

فيما بعد عرفت أن الهول كان شديدًا..

فجأة طار باب شقتي جانبًا.. ودخل لوسيفر إلى الشقة ينادي بلغة إنجليزية مشوهة:

- «هلمّ أيها الفاني... بيننا كلام يطول..»

قال عزت جاري: إنّه سمع صوت الانفجار. غادر شقته مسرعًا وهرع إلى شقتي.. أثار ذهوله أنه لم يكن هناك باب كأن لغمًا انفجر هناك...

دخل إلى الصالة وهو ينادي في لهفة:

- «رفعات!»

يعرف أنني أحمق لكن ليس إلى هذا الحد...

دخل إلى غرفة النوم.. لم يجدني فيها لكنه رأى ذلك الرجل المسربل باللون الأسود والذي يقف في وسط الغرفة وقد بدا عليه غضب جحيمي.. هذا الرجل مألوف... وأدرك أن عملية تفتيش عنيفة تمت في الحجرة، فلم يكن هناك درج في موضعه.. وكانت معظم أبواب خزانة الثياب منزوعة.. وكانت الشرفة ذاتها مفتوحة..

أدرك من اللحظة الأولى أنّ هذا الرجل غير طبيعي، ومن الخير أن يبتعد المرء عنه.. اطلب الشرطة يا عزت.. اطلب الشرطة..

- «أين هو؟»..

قالها الغريب، ومد يده.. يده التي شعر عزت أنها استطالت أكثر من تقديره.. الرجل يقف في وسط الغرفة فكيف بلغته اليد؟

شعر بها على جبينه.. باردة قاسية...

- «واه أنت كطفل رضيع.. لكنك لا تعرف..»

وشعرت بأن إصبعًا قد دخل هناك ينخر في عقله هذا لم يحدث طبعًا لكنه إحساس معنوي. آسف للتشبيه لكنه قال لي إنّه تذكر ما يفعله الطفل عندما يدسّ إصبعًا في أنفه ويبحث....

هناك إصبع مجازي يبحث.. ينقب...

- «أين هو؟»

فهم على الفور أن الغريب يبحث عني أنا... لكنه لم يكن يملك إجابات.. لا يعرف ما يقول ولا كيف يفكر..

هو لم يرن منذ أسبوعين، وبالفعل لا يعرف إن كنت في القاهرة أم لا.. في مصر أم لا.. في العالم أم لا..

أبعد الغريب يده ونظر بتلك النظرة النارية لعزت...

شمّ عزت رائحة الكبريت القوية تفعم كل شيء.. هناك شيء غريب يدور هنا.. شيء شيطاني...

لقد اعتاد مفاجآت رفعت القذرة، لكن هذه المرّة يبدو الأمر جادًا ومخيفًا فعلًا..

بعد لحظة أدرك أن الغريب يتجه للشرفة..

قال عزت شيئًا عن أن الشرفة لا تفضي لغرفة أخرى وأن....

ثم أدرك أن الغريب الأسود ليس موجودًا هنا على الإطلاق...

لقد دخل الرجل الشرفة ثم توارى..

توارى في الليل المظلم بالخارج...

شيء مماثل حصل في المستشفى التي أعمل فيها..

رجل أسود الثياب والعينين والشعر والأفكار تسلل إلى مكتبي ودمر كل شيء... ولما حاول العمال القبض عليه نفضهم عنه كأنهم ذباب، فطار اثنان ليهشما رأسيهما على الجدار...

لم يموتا لحسن الحظ ...

وغادر الرجل المستشفى، وبعد خطوات فقدوا أي أثر له..

من هو ومن أين جاء؟

لا يعرفون..

✷ ✷ ✷

وفي قريتي ظهر د. لوسيفر بشكل خاطف وأثار الكثير من الرعب..

لكن لم يستطع أحد أن يخبره بشيء..

هذا غريب!

لابد أن يلقى شخصًا يعرف أين أنا. أو يذكر أنني قلت: إنني ذاهب للمكان الفلاني..

حتى لو كنت قد سافرت خارج مصر، فسجلات المطار لا تذكر اسمي مطلقًا.. وقد كان لوسيفر قادرًا على مسح الملفات كلها في ثوان...

لكنه كان يعرف أن كولبي في مصر..

السحرة كلهم يعرفون أن كولبي في مصر من أجل يوم الساباث العظيم. ومن المؤكد أنه لم يعد للولايات بعد...

كان كولبي نائمًا في شرفة الفندق بالطابق الأول ينعم بالقيلولة الهادئة.. ولم يكن هناك أحد من حوله حيث جلس على حافة حمام السباحة...

نظارة سوداء على عينيه وكاسكيت على وجهه..

لا يعرف كيف ولا متى وجد نفسه معلقًا في الهواء ويد تطبق على حنجرته..

عندما فتح عينه وجد أنه يحدّق في آخر وجه يتمنى لقاءه.. د. لوسيفر شخصيًا..

أصدر صوتًا كأنه بطة تذبح..

قال لوسيفر بصوته الببري المحبب:

- «حسن حسن... إن لم يكن هذا كولبي اليهودي النصاب.. إنني بلقائك أسعد ولك قلبي يطرب.. أمّا أولادي فمن أجلي هم سعداء..»

سأموت أيها الأبله.. أطلق سراحي ي ي ي ي..

كان ما صدر منه هو فحيح طويل.. أدرك في جزع أن قدميه تبعدان نحو نصف متر عن الأرض.. إنها النهاية..

قال لوسيفر مواصلًا الكلام:

- «الفاني الآخر مختف وسام كولبي هنا في القاهرة في أعياد تحوت.. ليس للوسيفر أن يفكر في احتمالات أخرى. أنتما تعملان معًا.. أنتما تبحثان عن شيء واحد... أنت تعرف موضع إسماعيل أي كولبي..»

كان كولبي موشكًا على الموت فألقاه لوسيفر على الأرض ليسترد أنفاسه.. ثم اتجه إلى قنينة شراب على المنضدة فصب لنفسه كأسًا.. رفعه لأنفه وتشممه حينًا ثم ابتلعه مرة واحدة.... مسح فمه بأناقة وقال:

- «موتًا تموت... تلميذًا لي وعبدًا كنت، لكن حاجتي إلى إسماعيل أقوى من أي شفقة...»

كان كولبي على الأرض يحاول النهوض..

لكن ركلة من الحذاء الأسود البراق الأنيق كومته أرضًا من جديد..

رفع رأسه ليتكلم.. هنا كانت الأنامل الحساسة الطويلة ذات الأظفار السوداء على جبينه.. كأنه أم تتحسس جبين طفلها ثم قال:

- «الحق ما تقول.. أنت لا تعرف.. أنت قابلته وثرثرت معه لكنك لا تعرف أين هو هناك في دماغك ذكرى عن قطار.. عن عن....»

ثم ظهر الحقد على وجهه وبرز ناباه كأنهما أنياب مصاص دماء:

- «ذكرى عن كراولي...»

وفكر حينًا... ثم قال:

- «كراولي هنا.. أليس كذلك؟.... وهو يبحث عن كتاب المعظم ثلاث مرات..»

قال كولبي:

- «إن....»

لكن لوسيفر حمل كولبي من ياقة الروب وأطاره في قلب حمام السباحة... انتثر الماء في كل صوب... ومن الغريب أن أحدًا لم يأت.. كأن مشهد رجل فارع القامة يلبس الأسود يلقي في حمام السباحة رجلًا ضئيل الحجم مذعورًا.. هذا المشهد لا يثير دهشة العاملين هنا.. وقال ببرود:

- «لا تجب فقد وصلت الإجابة..»

ثم وقف يراقب محاولات كولبي للخروج..

دنا كولبي من الحافة. هنا أدرك أنها ابتعدت... راح يسبح نحو الحافة الأخرى فوجد أنها ابتعدت.. كان من الذكاء بحيث لم يحاول أكثر.. طريقة عذاب تنتالوس هذه معروفة جيدًا.. لو جرب الخروج طيلة الليل للعب لوسيفر ذات اللعبة طيلة الليل..

ضحك لوسيفر طويلًا حتى إنّه أرجع رأسه للخلف كما يفعلون في الأفلام وقال:

- «هاها.. ضئيل.. ضئيل... بحق ابني العظيم، إن هذا ليمنحني لذة هائلة..»

ثم أشار بإصبعه لكولبي منذرًا:

- «سأعود لك.. أنت تعرف أنني سأعود..»

وعندما رفع كولبي عينيه من جديد كان لوسيفر غير موجود..

عندها فقط استطاع أن يصرخ طالبًا الغوث..

✷ ✷ ✷

يجب أن أنذر رفعت.. يجب أن أنذره..

لكن كيف؟..

الطريقة الوحيدة التي نجا بها رفعت هي أنني لا أعرف مكانه..

لكن هناك دستة من الاحتمالات في ذهني.. هناك حيل كثيرة يستطيع بها لوسيفر أن يجد رفعت ويجد الكتاب...

المشكلة الأخرى هي كراولي اللعين الذي يجول في عالمنا..

الليلة سوف أحاول من جديد أن أعيده لعالم الشياطين لا يمكن أن تتحمل الأرض وجود لوسيفر ووجود كراولي معًا..

ولكن كيف؟

في القصة القادمة نستكمل
أسـطورة حـامـل الضـياء
(الجزء الثاني)
لاحـظ أن الكتيـب سيحمل
الرقم (78) جـ2

الفهرس

المقـــدمـة

الفصل الأول: في حي اللبان

الفصل الثاني: جوبيلا جوبيلو جوبيليم

الفصل الثالث: مـع بيـزارو

الفصل الرابع: في أحضان الطاعون

الفصل الخامس: رقصة الأثواب السبعة

الفصل السادس: رفعت إسماعيل

الهـــــول

Notes

[1←] هذه القصة تم إعدادها في صورة خليط من الستريبس والسرد العادي (الذي أطلقت عليه اسم روايتكس) ورسمها الفنان باسم صلاح، لكنّها لم تطبع قط..

مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة



ما وراء الطبيعة

79

أسطورة حامل الضياء

(الجزء الثانى)



مكتبة النجمة

د. أحمد خالد توفيق

Created by 2JPEG | www.2jpeg.com

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



79

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة حامل الضياء

(الجزء الثاني)

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايـــات تحبـس الأنفـــاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصـرى مائة فى المـائة
لا تشوبه شبه الترجمة أو الاقتباس
أو النقل عن أية قصص أوربية .

إشراف
الأستاذ / حمدى مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر سواء النشر الورقى أو الإلكترونى ، وكل اقتبـاس أو تقليـد أو إعـادة طبـع أو نشـر ورقـى أو إلكتـرونى دون الحصـول على تصـريح كتـابى من النـاشر يعـرض المـرتكب للمسـاءلة القـانونيـة .

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ــ المطابع 8 ، 10 شارع المنطقة الصناعية بالعباسية ــ منافذ البيع 10 ، 16 شارع كامل صدقى الفجالة ــ 4 شارع الإسحاقى : بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة ــ القاهرة ت : 26823792 ــ 25908455 ــ 22586197 ، فاكس : 202/2596650 ج.م.ع ــ
الإسكندرية 4 شارع بدوى / محرم بك ــ ت : 03/4970840 ــ 03/4970850

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط
الغمـــوض والرعـــب والإثارة

79

•

أســـــطورة حامل الضياء

(الجـزء الثاني)

بقلم : د . أحمد خـالد توفيق

الغـــلاف بريشـــة : أ . أيمـن القـاضي

المؤسسة
العربيـــة الحديثـــة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

المقـدمة

كان الكتيب السابق كئيبًا بالتأكيد، فهو يحكي الحلقة الأخيرة في الصراع الدامي بيني وبين د. لوسيفر الذي لم يعد لطيفًا ولا ودودًا، وبالتأكيد لم يعد بي يسعد أو لي قلبه يطرب...

لقد مل الرجل هذا الصراع الطويل.. هذه هي اللحظة التي ينهي فيها القط عبثه الطويل مع الفأر ويقرر أن ينهي القصة هنا والآن..

إن لوسيفر يريد كتاب الأسرار. هذا جميل وقد نقبله، لكن محاولات كولبي الأحمق قد جاءت لعالمنا بمصيبة أخرى هي ألستر كراولي الذي اعتبره معاصروه الشيطان ذاته..

هكذا تجد أنّ هناك وحشين يبحثان عني..

الطريقة التي وجدتها هي أن أفقد الذاكرة تمامًا وأتوارى في موضع بعيد.. لا أحد يعرف أين أنا.. لا أحد يعرف من أنا.. وأنا لا أعرف أين الكتاب..

لا تتحدّث من فضلك عن قوة الإرادة وصلابة الأبطال مع لوسيفر.. إنّه قادر على إذابة إرادتك تمامًا... وبالتأكيد يستطيع معرفة ما يريد مني..

هذه طريقة ممتازة للاختفاء كما ترى، أمّا لماذا أصر على أن يكون الكتاب معي فلأنه ثمن حياتي، ومن دونه ليس لحياتي ثمن من أي نوع... في اللحظة التي يحصل فيها لوسيفر على الكتاب سوف يحولني إلى بخار، أو يعلق رأسي في قاعة الجلوس في بيته الجحيمي..

الكتاب مخيف كما هو واضح.. كان مخفيًّا في مكان ما بفلسطين، تحرسه الأفاعي ويبدو أنّ هناك ملاك خير ساعد كولبي على الظفر به..

الآن أنت تعرف ما أعرفه.. وتعرف أين يوجد كل واحد من أبطال هذه القصة..

لا أرى داعيًا للانتظار أكثر، فلنتحرك....

لوسيفر: الملاك الذي طُرد من السماء لأنه حاول التمرد. الشيطان. كوكب فينوس عندما يظهر كنجم الصباح. ثقاب يشتعل بالاحتكاك. من اللاتينية: نجم النهار - حامل الضياء.

(قاموس التراث الأمريكي) (قواميس أوكسفورد)

سيدة فاضلة

-1-

قريبتي مها تعيش وحدها مع ابنتها فايزة في تلك البناية كما قلت لك. في المعادي أو جاردن سيتي أو الزمالك... أو... لن أحدد.

مطلقة هي منذ عامين.. وهي تعرف أنّ هذا قد يجعلها مطمعًا للجميع..

أنت تعرف مها بالتأكيد.. لابد أنك رأيتها معي ذات مرة.. أو لابد أن تلاحظ الذعر في عينيها المتسعتين مع حركة البلع المستمرة في عنقها.. لكن هذا لا يجعلها ضفدعة بل يجعلها أقرب لدودة البلاناريا.. هاتان العينان تجعلان من المستحيل عليك - ولو كنت رافائيل نفسه - أن تعرف إن كانت هذه السيدة جميلة أم قبيحة.. رشيقة أم بدينة.. إنها مذعورة وذعرها يجعل قلبك يفلت عدة ضربات..

هاتان العينان تنظران للعالم في رعب، وحياتها كلها نوع من الوسواس القهري.. كل شيء محصن كما قلت، لكن كلامها الذي لا يتوقف عن الشرف وكلام الناس وحاجتها لأن تعيش بعيدًا عن الأقاويل.. إلخ.. كل هذا يدل على أنها تعاني حرمانًا عاطفيًا شديدًا..

مثلًا يطلب منها البواب إيجار البيت فتقول:

- «أنا لا أعرف.. أنا لا أخرج أبدًا..»

تأتيها فاتورة الهاتف فتؤكد:

- «لا أحد يكلمني بالهاتف ولا أطلب أحدًا..»

وهي تحرص حرصًا بالغًا على مراقبة التلفزيون أثناء مشاهدة ابنتها له. هناك لقطات من الخير لها أن تمر في صمت، بينما التركيز عليها يبرزها...

مثلًا يمشي كمال الشناوي مع شادية في حديقة متشابكي الأيدي، فتصرخ:

- «لماذا تمشي معه وهما غير متزوجين؟»

تقول ابنتها وهي تلف شعرها حول الرولو:

- «إنهما متحابان يا ماما..»

فتقذف أداة تقوير الكوسة في عصبية وتصيح:

- «متحابان؟... وهل هذا مبرر لتمسك بيده؟.. فتيات رقيعات!!»

ثم تقرر أن تغلق التلفزيون لأنّهم لم يعودوا يقدمون أشياء محترمة...

مها موظفة في جهة ما من تلك الجهات التي يستحيل أن تتذكر اسمها، ولو ذهبت هناك فلن تحقق أي مصلحة من أي نوع.. مهنة لا لزوم لها على الإطلاق لكنّها تمنحها جنيهات تضمها لما يدره المصرف وتنفق على البيت..

أمّا ابنتها فكارثة حقيقيّة.. مراهقة على شيء من الجمال، وهي مصرة على أن تبرز هذا الجمال وأن يراه الجميع.. ابنتها تعشق سماع الأغاني ومشاهدة الأفلام. فاشلة دراسيًّا تمامًا ولا تجيد أعمال المطبخ ولا تنظف فراشها..

هكذا تحولت فايزة - الابنة - إلى كارثة حقيقيّة.. ربما تقرر مها في يوم ما أن تهشّم رأسها بيد الهاون الموضوع على النيش في الصالة، لكن حتى ذلك الحين لابد أن تصبر، وأن تتذكر أن ابنتها هي سلواها الوحيدة في العالم حاليًا. إن لها أقارب بالطبع ولها إخوة لكن شخصيتها العصابية جعلتها تتشاجر مع الجميع، دعك أنهم جميعًا كانوا ضدّ الطلاق.. أرادوا أن تخضع لزوجها وتلثم قدميه وتتوسل له كي يخونها. لكنّها رفضت.. هكذا قال لها أخواها إنهما لن يأتيا لدارها أبدًا..

لا شك أن فايزة تكرهها كذلك.. مها متأكدة من ذلك.. لا يمكن أن تتوقع أن السجين يحبّ السجان في سجن طرة وإلا فأنت أحمق.

عندما تتلقى الفتاة مكالمة هاتفية فإنها تهرع لغرفتها وتغلق الباب، لكنّها تستطيع أن ترى ظل والدتها بالخارج تحاول أن تلتقط أي كلمة.. تعرف مها أن المتصل غالبًا شاب رقيع يطيل شعره يمكنها أن تراه وأن ترى قميصه المشجر والسلسلة اللعينة على صدره المشعر..

لابد أنه يقول لابنتها:

- «حبنا يا فايزة أقوى من شيء.. يجب أن تهربي معي..»

ستقول له:

- «لا أستطيع ترك أمي..»

فيقول لها:

- «أمك عاشت حياتها وليس من واجبها أن تعيش حياتنا أيضًا..»

سوف يعبث الوغد ويوسوس في أذنها، ولسوف تجمع الفتاة حاجياتها وتفر ذات ليلة.. لهذا هي تصغي في كلّ مرّة وتحاول معرفة الوقت الذي ستفر فيه ابنتها..

لنفس السبب هي لا تنام تقريبًا.. عندما تنام ليلًا كفرس النهر سوف تتسلل ابنتها فارة، أو يتسلل للشقة مجموعة من السفاحين يحملون السيوف لذبحها..

أحيانًا تفكر في الزواج.. لكن لا أحد يتقدم لها. ولو تقدم لها أحد فلسوف يكون وغدًا عابثًا مثل زوجها السابق..

لا.. لن تكرر هذا السيناريو..

كانت تؤمن أنها قادرة على السيطرة على كل شيء، ما دام ذلك الوغد - التلفزيون - مغلقًا.. جهاز إفساد البنات اللعين الذي يوسوس في أذهانهن أربعة وعشرين ساعة.. في الماضي كانت هناك قيم وكانت الأفلام محترمة.. بصراحة هي لا تذكر متى رأت أي فيلم محترم سوى فيلم (الهروب الكبير) لأن كل ممثليه رجال بلا امرأة واحدة، لكنّها متأكدة من أن الأفلام كانت محترمة.

هكذا كانت مها تعيش حياة منتظمة غير سعيدة، حتى ظهرت أنا..

هي لا تعرف سبب هذه الزيارة، لكنّها بالتأكيد تذكرت أنني متقدم في العمر وأنني غير متزوج.. وأنني طبيب فلابد أنني أكسب الملايين ولا أبددها..

ربما فكرت في الزواج مني.. ربما.. لا أستطيع أن أؤكد أو أنفي..

ما كان يهمني في القصة هو ذلك الكتاب..

قلت لها إنني لا أفكر فيها وأتذكرها بصعوبة.. هذا يجعلها من أنسب الأشخاص للاحتفاظ بالكتاب اللعين الذي يأبى أن يحترق..

كانت هي قد سمعت عني كثيرًا وتعرف من أوساط الأسرة أنني.. البعض قال لها إنني عبقري والبعض قال إنني مخبول ومشعوذ...

على كل حال بدا واضحًا أن الكتاب يدخل هذه الدائرة اللعينة التي أعيش فيها، وقد قبلت أن تأخذه.. وفكرت في وضعه في الموقد القديم هناك تلك المواقد العتيقة التي كانت تعمل بالسولار وتتصل بكرة زجاجية تخرج منها ماسورة تغذى النار.. كان عندها واحد وبدا لها مناسبًا، لكني كما رأى القارئ، طلبت منها أن تضعه في مكان لا أعرفه ولا أقدر على تخمينه..

طبعًا هو الموقد القديم..

ليس لديها خيال ولا تستطيع التفكير في شيء أفضل..

راحت تقلب الصفحات محاولة فهم أي شيء من تلك الرموز الشيطانية لكن الأمر كان مستحيلًا.. يبدو أن رفعت هذا عبقري فعلًا إذ يفهم هذا..

فكرت طويلًا ثم تذكرت..

في الشرفة هناك قفص عصافير كبير تربي فيه مجموعة من تلك الطيور الملونة. لديها كذلك سلحفاة وقط كما تعلم.. في قفص العصافير هناك لوح خشب على الأرضية. هكذا لفت الكتاب المغلف بالكتان في كيس من البلاستيك ثم فتحت القفص بحذر فراحت الطيور تصرخ وتطير مصطدمة بالسلك ونقرها ببغاء ملون بقسوة في أناملها. رفعت اللوح الخشبي المغطى بفضلات الطيور ودست الكيس تحته ثم أعادت كل شيء كما كان..

لو جاءت هنا كتيبة تفتيش فلن تفكر في القفص أو في أن تبعد الطيور.

أغلقت القفص أخيرًا وراحت تداوي إصبعها..

يجب أن تنفذ تعليمات رفعت. فمن يدري؟ الرجال يحبون المرأة المطيعة.. لكنّها كانت ذكية لأنهّا لم تسمح له بالدخول. لا تريد أن تصير لها سمعة مريبة.

جاءت فايزة من مكان ما.. كالحة بلهاء لا تعرف سوى شعرها وسوى العشاق على الهاتف..

سألتها فايزة وهي تهرش ظهرها:

- «ماذا تفعلين؟»

قالت في صرامة:

- «أمانة.. هذه أمور تفوق تفكيرك».

- «إذن فلنأكل.. أنا جائعة».

تبًّا لها!.. الجوع. الشهية الزائدة.. وكل هذا يتحول لهرمونات.. والهرمونات تجعل السيطرة عليها أصعب.. ليتها ترغمها على الجوع كنساك الصحراء لتضعف...

والآن سوف تعد الطعام وتراقب في ذهول فايزة وهي تقذف لجوفها بثلاث بيضات وربع كيلو من الجبن الأبيض وربما عدة ملاعق من الفول. سوف تعد لنفسها شطيرة من العسل بالمربى بعد الأكل، وسوف تصحو عند منتصف الليل جائعة فتعد لنفسها شطيرة من اللانشون. وهكذا تتحول لوحش قادم من عوالم الأوديسة تستحيل السيطرة عليه..

إن الغد لأسود...

✷ ✷ ✷

ما حدث في منتصف الليل يستحق بعض التعليق..

كانت مها تشعر بظمأ.. ربما بسبب العشاء الدسم الذي تناولته، لذا نهضت للثلاجة لتشرب..

هنا خيل لها أنها تسمع صوتًا غريبًا.. هذا الصوت آت من الشرفة بالذات.. أضاعت النور ونظرت عبر خصاص النافذة بحذر.. لم ترَ شيئًا، لكنّها كانت تعرف تلك المواقف.. دائمًا تكون هناك عصابة كاملة من السفاحين وتذبحها في كلّ مرّة..

في حذر بدأت تفتح الشيش ثم أخرجت رأسها.. ثم بدأت تخرج هي نفسها، الليل المظلم البارد وضوء خافت في البنايات البعيدة.. الصوت مستمر.. إنّه آت من قفص العصافير..

نظرت داخل القفص فهالها المشهد...

هناك طائر ملون يقف منتفشًا فاردًا جناحيه كأنه عقاب، وفي كل صوب كان الريش يتناثر مع الدم والأشلاء.. الحقيقة أنّ هذا الطائر الوغد مزّق كل الطيور الأخرى بمنقاره الذي يقطر دمًا...

هذا مشهد شنيع لا يوصف وقد هزّها كثيرًا..

حالة جنون أصابت الطيور.. لكن هذا لم يحدث من قبل فما السبب..

راحت ترتجف وعادت للداخل.. في الصباح سوف تتخلص من هذه البقايا ومن الطائر نفسه. المهم أن يتم هذا في النور...

عادت إلى الغرفة وكادت تغلق الشيش...

هنا رأت شيئًا جعلها تملأ الدنيا صراخًا وعويلًا..

لماذا يصرخ الناس بهذه الشراسة عندما يرون ثعبانًا يحاول الدخول من الشرفة؟.. شيء لا يمكن فهمه..

راحت تصرخ وتصرخ ولا شك أن الشارع كله كان سيأتي لكن ابنتها ظهرت بمنامتها الوردية قادمة من غرفتها.. وبنظرة واحدة رأت الثعبان على باب الشرفة يحاول الدخول، بينما أمها في حالة تامة من الغباء..

تصرفت الفتاة بسرعة.. أغلقت الباب بقوّة فانحشر الثعبان بين الضلفتين وارتجف رأسه قليلًا ثم لفظ أنفاسه.. راحت تلهث ثم هرعت للحمام فأحضرت ماسك الغسيل الخشبي.. التقطت به الثعبان الميت فطوحت به من الشرفة... ثمّة مسكين سوف يجده على سقف سيارته غدًا لكن الوقت ليس وقت اللياقة...

لماذا يُصاب الناس بالذعر عندما يجدون ثعبانًا ميتًا على سقف سيارتهم؟

كانت الأم مستمرة في زيادة قلوية دمها، لكن الفتاة جرتها للداخل وراحت تردد في أذنها:

- «لا إله إلا الله.. اهدئي..»

ثم قالت وهي تجلب لها كوب ماء بارد:

- «هذا ثعبان.. لا نعرف سبب قدومه هنا لكن كل إنسان رأى تجربة كهذه في حياته.. لقد مات وانتهت القصة..»

أنت تعرف خوف الناس من الثعابين هذا الخوف يوشك على جعلها كائنات فوق الطبيعة.. لو زحف ثعبان على ساقك فأنت تفضل بترها.. إنها تخترق كل شيء وتدخل كل مكان ولا تموت أبدًا..

أغلقت المرأتان النور وعادتا للداخل وفضلتا أن تبقيا معًا طيلة الليل في غرفة واحدة..

كانت نظرية الفتاة فايزة بسيطة جدًّا.. قالتها لأمها وهي تلتهم شطيرة من الحلوى الطحينية:

- «الأمر سهل.. الثعبان هو الذي التهم الطيور.. تسلل للقفص فلم ينج سوى طائر واحد توحش..»

فكرت الأم بدورها:

- «ربما شعرت الطيور بالثعبان فجنت..»

هكذا اتفقتا على أن الحياة منطقية وكل شيء مبرر.. وهذا ما يطلقون عليه اسم (التفكير التواق Wishful thinking) وأخلدتا للنوم وقد احتضنت كل واحدة الأخرى.. لا شيء مثل الثعابين لتقوية الروابط الأسرية وتقريب فجوات الأجيال..

✷ ✷ ✷

بيني وبينك.. لم تكن الأيام التالية أفضل..

لقد نظفت مها القفص من بقايا العصافير، وكان الطائر الباقي شرسًا بحق.. لا شك أنه كان منتزعًا عينها لو أعطته الفرصة. في النهاية قبضت عليه وهو ينقرها بلا توقف وأطلقته في الهواء.. سوف يتصرّف ما دام بهذه الشراسة.. عندما يتعامل المرء كقاطع طريق فعليك أن تمنحه طريقًا يقطعه..

قررت أن تبقي القفص كما هو لأن فيه تلك الأوراق الخاصّة برفعت. كل هذا الهراء، فهي لا تعرف مكانًا أفضل تضعه فيه..

الآن دعني أخبرك بعدة نصائح عندما تحتفظ بكتاب شيطاني كهذا.. النصائح من كتاب آخر على كل حال. فقط عدني أن تتذكرها جيدًا:

النصيحة رقم 1: ابحث جيدًا تحت فراشك عن ثعابين..

هذه نصيحة مهمّة ينساها الجميع برغم بساطتها كل ما عليك هو أن تحمل كشافًا وتجثو على ركبتيك وتلقي نظرة تحت الفراش. المشكلة هي أن مها بدينة ولها كرش ممتاز، مما يجعل الركوع والنظر تحت الفراش جديرًا بأن يزهق أنفاسها لهذا كانت تتجاهل هذا الجزء وتتركه لابنتها.

على أنها في صباح مشرق كانت تتناول قرصًا من الدواء فانزلق من يدها ليسقط تحت الفراش. هكذا تناولت الكشاف الصغير وركعت على ركبتيها تحت الفراش وهي تصدر أصواتًا جديرة بشخص يموت غرقًا.. هوف.. هاه.. هوف..

احمر وجهها واحتقنت أوردتها.. راحت تبحث عن القرص. كان ما رأته لا يصدّق.. هذا الرأس الصغير بالعينين اللامعتين تنظران لها واللسان القصير المشقوق يتواثب خارجًا وداخلًا. عندما دققت أكثر رأت رأسًا آخر..

هذه المرّة لم يكن هناك كلام عن السمعة وكلام الناس. راحت تطلق الصراخ وتجري. ابنتها كانت في المدرسة لذا راحت تصرخ منادية البواب...

الخلاصة أن اليوم كان فوضى كله، وجاء بعض الرفاعية وفتشوا البيت بعناية ثم قبضوا على ثلاثة ثعابين وأقسموا أن البيت نظيف.. قالوها بالكبرياء التي يتكلم بها كاهن كاثوليكي فرغ من ممارسة طقوس طرد الأرواح الشريرة..

ماذا حدث لهذا البيت؟

ما سر هذا الإغراء الشديد الذي يجذب الثعابين؟..

لم تعرف قط. وقد أدركت أن الحياة ستكون مستحيلة هنا.. يجب أن تجد بيتًا آخر، لكن الكلام سهل.. نحن في مصر حتى البيوت المسكونة يقتحمها الناس ويطردون الأشباح. لو كانت الأشباح قابلة للأكل لذبحوها وطبخوها....

إذن عليها أن تتحمل كلام هؤلاء الرفاعية وتصدقه، وعليها أن تحيط فراشها بالشيح البابوني بالضبط كما يفعل ضحايا مصاصي الدماء عندما يحيطون أسرتهم بالثوم..

ترى هل ترى ثعابين أخرى؟.. نرجو ألا يحدث هذا..

النصيحة رقم 2: لا تخرج من غرفتك ليلًا..

هذه نصيحة مهمّة جدًّا ولم تكن مها تعرفها..

في منتصف ليلة من الليالي خرجت للصالة وكانت تعرف أن النور الخافت هو الشيء الوحيد الذي يقودها للحمام. مشت في الصالة ولاحظت بشكل عابر أن النور مختلف بعض الشيء..

هناك أنتريه قديم في الصالة. أنتريه له طابع الأفلام القديمة لذا كانت تحبه جدًّا. عندما دققت النظر رأت أنّ هناك شكلًا يجلس هناك وينتظر..

شكلًا.. لأنهّا لا تعرف كنهه بالضبط.. سوى أنه كائن قادر على أن يجلس وأن يضع يده تحت ذقنه.

ارتجفت ووثبت للخلف، هنا أدار الجالس في الضوء الخافت وجهه نحوها.. أدركت على الفور أنّ هذا أبوها. لا مشكلة لولا أن أباها قد مات منذ عشرة أعوام، وكانت ملامحه مختلفة..

بالضبط هي الملامح التي ارتسمت عليه في قناع الموت عندما دخلت الغرفة وألقت نظرة عليه..

إلا أن الملامح تتبدل...

لا توجد عين في الواقع.. هناك تجويف عميق أسود وهناك أسنان ساقطة.. إنّه متحلل.. هذه صورة أبيها بعد ما تحلل...

لولا أنها تدرك يقينًا أنها مستيقظة لحسبت هذا جزءًا من كابوس..

هنا نظر لها في ثبات وقال بصوت تعرف أنه صوته:

- «تأخرت يا مها.. نحن في الانتظار!»

من هم الذين في الانتظار؟...

هناك من وراء الستار المؤدي للحمام خرجت جثة متحللة لكن ما زالت بعض الملامح واضحة.. يمكن بسهولة أن تدرك أنها جثة عمها... فقط هي جثة تتحرك وتضحك.. ربما لا تضحك كل الجماجم تعطي هذا الانطباع على كل حال..

لم تنتظر أكثر وفرت لغرفة نومها وأغلقت الباب..

خلف الباب سقطت أرضًا وفقدت الوعي وعندما استيقظت عرفت - لشدة ذعرها - أنها أفرغت مثانتها..

هكذا تعلّمت الدرس بالطريقة القاسية.. عليها أن تبقى في غرفتها...

النصيحة رقم 3: لماذا تنامون فرادى؟

في الليلة التالية سمعت الصرخة مدوية عالية.. هرعت تجتاز الصالة عالمة أن من يصرخ هو فايزة.. فتحت باب الغرفة الصغيرة، وكانت غرفة مراهقة تقليدية جدًّا الكثير من الدباديب وصور المطربين على الجدران.. بالذات منير وذلك الفتى الذي بدأ يصعد بسرعة عمرو دياب.. هناك الكتكوت الشقي تويتي.. وهناك.....

أين فايزة بالضبط؟

الصرخة جاءت من هذه الغرفة. لكن أين الفتاة؟

هنا جاء صوت الفتاة يصرخ في الفراغ:

- «ماما..!.. أنا هنا؟»

- «هنا أين؟»

جاء صوت الفتاة الباكي:

- «أراك وأمد يدي لك لكني لا ألمسك..»

- «وأنا لا أراك!»

ما معنى هذا؟.. نحن نعرف الإجابة وهي أن الفتاة محشورة في بعد آخر مواز لعالمنا بالضبط.. لا تستطيع الخروج منه لنا لكنّها ترانا وتكلمنا. لكن مها لم تقرأ قصة رعب أو خيال علمي في حياتها لهذا تجد هذا الكلام غريبًا يدل على مجنون..

- «فايزة!.... أنا أمد يدي لك..»

- «وأنا كذلك.. والله العظيم!»

- «ولماذا كنت تصرخين؟»

- «لأنني أرى الفراش ولا أستطيع لمسه.. أقف أمام المرآة فلا أرى صورتي..»

- «أنت مجنونة..»

كلا يا سيدتي.. هي ليست مجنونة. هي فقط في بعد آخر..

بعد لحظات من الصراخ فوجئت مها بأن يد ابنتها تلمسها ثم بدا أن النصف العلوي للمراهقة يظهر وفي اللحظة التالية كانت الفتاة تتعلق بها كالقرد وتبكي..

سقطت المرأتان على الأرض باكيتين..

ما أقسى أن يواجه المرء هذا كله من دون رجل.. يا لقسوة الحياة!... الرجال مفيدون في هذه الأمور فهم يموتون أو يُجرحون ويعطون المرأة فرصة للفرار.. أمّا هنا فهذا يخلو من العدل..

على كل حال قررت مها أنها ستبيت مع فايزة في نفس الغرفة بدءًا بهذه الليلة.. ليس الوقت مناسبًا لتعليم الفتاة استقلال الشخصية...

النصيحة رقم 4: الثلاجة مكان خطر دائمًا...

أنت تعرف أن فايزة نهمة للطعام جائعة دومًا كديدان القز. ما حدث في الليلة التالية هو أنها راحت تتضور من فرط الجوع في الواحدة بعد منتصف الليل..

قالت أمها لنفسها:

- «هي الهرمونات.. كل هذه الهرمونات تحرق الطعام حرقًا..»

نهضت الفتاة حافية القدمين إلى المطبخ.. فتحت الثلاجة وهي تعرف أن برطمان المربى هناك وهناك رغيف خبز على الموقد. سوف تعد لنفسها شطيرة سريعة لتتمكن من النوم.

هنا دوى صراخها من جديد.. لقد صار هذا مملًا.

أضف لهذا أنه يدلك على سوء توصيل الصوت في هذه البنايات الجديدة، ويدلك على التبلد الذي يغلف كل واحد فينا عن جيرانه.. لو حدث هذا في قرية لكانت القرية كلها تحمل الفئوس والنبابيت وتحيط بمصدر الصرخة..

من الداخل هرعت مها.. هرعت لتجد ابنتها تتعلق بباب الثلاجة صارخة. كانت تحاول التماسك حتى لا يجذبها شيء ما للداخل. عندما أضاءت مها النور رأت أنّ هناك يدين تشدان الفتاة للداخل بالفعل يدين تخرجان من داخل الثلاجة. إن من يشد ابنتها موجود بالداخل!... لكنّها لا تراه ولا تفهم كنهه..

ركضت وأمسكت بابنتها من الخلف وجذبتها بقوّة وهي تردد:

- «ما هذا الذي يجذبك؟.. قولي!»

والفتاة غارقة في صراخ هستيري...

كان من الواضح أنّ هناك تجويفًا في الداخل. تجويفًا أعمق من الجدار ذاته.. الثلاجة تقود لعالم آخر سحيق لو دخلته الفتاة لما عادت. هذه المرّة تماسكت مها حتى وجدت السكين التي وضعتها جوار الحوض. تماسكت واتجهت نحو تلك اليد المبهمة الخارجة من الثلاجة وغرستها وبدأت تقطع..

تراخت اليد وتراجعت للداخل، فهوت مها على اليد الأخرى تقطعها.. انتفضت اليد بدورها وتراجعت. وفي اللحظة التالية كانت مها تجر ابنتها من شعرها جرا بعيدًا عن صندوق الموت هذا. ألقتها أرضًا ثم ركلت الباب بقدمها لتغلقه.. وراحت تلهث...

لا يوجد منطق.

فعلا لا يوجد منطق...

لو كانت هناك يدان حقًّا فلن يشكل المغناطيس الذي يغلق الباب أي مشكلة.. دفعة صغيرة من الداخل وتنفتح ثانية. لكنّها تشعر كأنما أغلقت بابًا بين بعدين...

كانتا تلهثان وترتجفان.. وخطر لمها إن مواجهة هذا كله من دون رجل جريمة.. راحت تبكي وقد تذكرت كيف يبدو الرجال أقوياء، مبتلين بالعرق ورائحة التبغ تفوح منهم، ويعرفون ما يجب

عمله فإن لم يعرفوا ماتوا... هكذا تفر المرأة سالمة..

النصيحة رقم 5: عندما ترى هذا كله فماذا تنتظر؟

كانتا جالستين إلى مائدة الإفطار..

فايزة ما زالت تبكي وقد دخلت في نوع من الخبال أو الجنون الذهولي، بينما مها تشتم زوجها السابق بلا توقف..

قالت فايزة وهي تتمخط:

- «لن أنتظر أكثر.. سأذهب لأقيم عند خالي..»

- «العلاقات مقطوعة يا غبية..»

- «خالتي سترحب بي.. لو أردت المجيء معي فيها وإلا فأنا ذاهبة في كل الأحوال.. هذا البيت مسكون وقد انتهى الأمر.. لن أبيت هنا ليلة أخرى».

قالت مها في عصبية:

- «تذهبين وتتركين أمك؟»

- «هل يجب أن أموت معك لتكوني سعيدة؟.. الرحيل ينقذنا معًا.. أنت تفضلين كبرياءك الخاصّة على سلامتنا».

هذا صحيح لكن مها لن تعترف به أبدًا.. عندما تذهب لأختها وترجوها أن تسمح لها بالبقاء، فلسوف يكون عليها أن تحكي عن الثعابين تحت الفراش والثلاجة التي تبتلع من يحاولون عمل شطيرة مربى.. سوف تصير أضحوكة..

غطت فايزة وجهها وراحت تتخلل خصلات شعرها وهي تقول:

- «ماذا حل بنا؟.. ماذا استجد؟»

وفجأة تصلبت وتصلبت مها..

تبادلتا النظرات..

ماذا استجد؟. بالطبع كتاب عتيق مغلف بالكتان أخفته مها في قفص الطيور في الشرفة..

قالت مها:

- «لا أعرف كيف أطلب هذا الأحمق الشبيه بالقلم الرصاص لقد ترك لي هذه المصيبة وفر..»

- «هل تعتقدين أن الكتاب هو المسئول؟»

- «لا أعرف.. لكن كل شيء بدأ في أول ليلة له في داري»

قالت فايزة وهي تقضم المزيد من الفطائر:

- «أعتقد أنه لابد من الاتصال بدكتور رفعت..»

- «لا أحد يعرف كيف يتصل به.. ثم إنني لن أنتظر أيامًا أخرى حتى أجده..»

وأزاحت مقعدها واتجهت للشرفة..

ركضت الفتاة خلفها منذرة:

- «لحظة.. قد يكون هذا الكتاب أثرًا ثمينًا أو...»

- «لا أهتم».

وفي الشرفة مدت مها يدها في القفص الذي ما زال يحمل بعض بقع الدم والريش.. أزاحت القاع ثم أخرجت الكيس البلاستيكي.. الكيس الذي يحوي ذلك الكتاب الجحيمي..

- «ماما.. لو أنصت لي...»

- «سأفعل ثم أنصت..»

وفي اللحظة التالية كان الكتاب يطير من الطابق العاشر نحو الأرض....

ثم استدارت لابنتها في تحد وقالت:

- «هلمّ.. قولي ما تريدين فأنا منصتة!!»

لقاء يعد بالكثير

-1-

مرحبا بكم في المتحف المصري.

هل أنتم مصريون؟.. غريب هذا.. لا نرى المصريين إلا نادرًا هنا؛ لأن (الشيخ البعيد سرّه باتع).. من النادر أن يزور المصريون متحفهم الرائع، بينما تجد هنا أو هناك سائحًا من اليابان أو وفدًا أستراليًّا أو أيسلنديًّا.. أي أنهم قطعوا نصف الكرة الأرضية لرؤية ما لا نجد نحن وقتًا لرؤيته..

تفضلوا بالدخول.. هل تحتاجون إلى خارطة؟ لا؟.. تفضلون الاستكشاف إذن. على كل حال سوف ترون هذين التمثالين العملاقين لأمنحتب الثالث وزوجته الفاتنة تي في كل زوايا المتحف، وهكذا لن تضلوا الطريق أبدًا أمنحتب الثالث هو والد أمنحتب الرابع الذي لم يعد كذلك.. تحول إلى أخيناتن في ظروف معقدة لن أضيع وقتكم بسردها.. أمّا تي الفاتنة فهي من عامّة الشعب، لكن جمالها وفتنتها الأنثوية اللعوب جعلت أمنحتب الثالث يهيم بها حبًّا.. هذه قصة طويلة أخرى..

في الطابق الثاني تجدون تحف توت عنخ آمون..

ألا تريدون مرشدًا؟.. نعم؟.. إذن حظًا سعيدًا الحمامات هناك ومتجر التذكارات هنا.. يمكنكم شراء صور وبطاقات تذكركم بهذه اللحظات الأسطورية..

الآن تعال معي إلى الطابق الثاني..

تعال من هنا.. لا تخف..

يُمكنك أن تدخل هذه القاعة. رجل الأمن الريفي البسيط يرمقك في شك.. لكن هذا أقصى شيء يفعله على كل حال. صناديق العرض الزجاجيّة على الجانبين.

هناك فتاة نحيلة رقيقة تجلس ممسكة بدفتر رسم كبير.. تمسك بقلم من الرصاص تخط به بسرعة على الورق.. يبدو أنها تنسخ شيئًا داخل صندوق العرض..

يُمكنك أن تتأمل ملامحها بسرعة.. الوجه النحيل الطويل الذي له لون أبيض لا تراه إلا في آنية المرمر. والأنف الأرستقراطي النبيل.. والشعر الأسود المنحدر على الكتفين. فتاة رائعة الجمال هي، لكنّها لا تناسب كل الأذواق.

انتبه!.. لقد شعرت بعيننا!.. تعال نتظاهر بأننا لم نكن ننظر في هذا الاتجاه..

غريب فعلًا تأثير النظرات هذا.. كيف نشعر بشخص يرمقنا من الخلف دون أن نراه؟

انزل بعينك لحذائها.. حذاء أنيق ويناسبها جدًّا. كان لي صديق خبر السياح كثيرًا، فكان يقول لي: تعرف الأجنبي من حذائه الغريب الذي لا يناسبه غالبًا...

معنى هذا أنها مصرية حسناء..

إنها منهمكة في نسخ ما في الصندوق بسرعة بارعة فعلًا.

يبدو أنها للحظة نسيت أين هي واستندت بكوعها على الزجاج. بدأت ترسم.. هنا ظهر رجل الأمن من مكان ما وطلب منها بالإشارة ألا تفعل ذلك.. ألا تستند على الزجاج...

واصلت الرسم من جديد.. ويبدو أنها نسيت نفسها ثانية..

عاد رجل الأمن ينهاها عن ذلك بشيء من العصبية. عصبية تدلّ على أنه يستطيع أن يكون جلفًا إذا أراد...

في اللحظة التالية تدخل ذلك الرجل ذو البذلة السوداء والبيريه..

يبدو أنه كان جالسًا على بعد أمتار ورأى الموقف. نهض متجهًا إلى رجل الأمن وقال له كلمتين وهو ينظر في عينه لا أعرف ما حدث فعلًا لكن رجل الأمن ابتعد في نوع من الخزي ووقف جوار الباب..

استدار لها وطلب منها أن تعاود ما كانت تقوم به.. أي تسند كراس الرسم إلى الزجاج..

يجب أن أقول إنّه طلب منها ذلك بإنجليزية راقية، وجلس بقربها يتأمل ما تقوم به بنظرة الخبير بالفنون..

تأملته الفتاة بسرعة قبل أن تعاود الرسم: كان أجنبيًا بلا جدال.. رجل في نهاية العقد الخامس من العمر.. له نظرات حادة مزعجة، وهو ضخم البنيان جدًّا.. في الوقت نفسه لا شك أنه يشع سحرًا خفيًّا غامضًا. لو كنت لا تعرف معنى (الأومف) - كما يسمونها في هوليوود - فعليك أن ترى هذا الرجل.. الأومف هي الخاصية التي تجعلك ترى بطل الفيلم فتدرك أنه البطل.. الأومف هي التي تجعل الناس في القاعة يتوقفون عن الكلام عندما يدخل صاحبها القاعة..

أدركت من البيريه على رأسه أنه غالبًا أصلع الرأس..

ماذا يبحث عنه؟

كان جالسًا أمام واجهة عرض أخرى وهو يدون أشياء بقلمه في مفكرة صغيرة.. ما هذه القطعة التي يدرسها؟.. يبدو أنها قلادة من الأسرة الخامسة أو شيء من هذا القبيل

✷ ✷ ✷

عيواس.. عيواس!

أين أنت أيها الغريب المسربل في الظلام؟

هل عرفتني؟.. هل تذكرتني من جديد؟

كنت هنا منذ مئة عام تقريبًا، وكنت أجلس في ذات الموضع عندما جئت أنت لتضع يدك على كتفي.

يومها لقنتني مبادئ الثليما..

كل شيء تغير في هذا المتحف اللعين. كنا في العام 1904.. كان المتحف في صورة بدائية مختلفة. كان تصميم المهندس الفرنسي العبقري مارسيل دورونو الذي قام به عام 1900 بديعًا، إلا أنه كان يجب أن يعطي المكان طابعًا مصريًّا قديمًا وليس غربيًا كلاسيًا..

كنت أعرف طريقي في المكان بسهولة..

كنت في هذه القاعة.. وجدت القطعة التي تحمل رقم 666..

رقم الوحش كانت تمثل قناعًا لفرعون اسمه (عنخ إف خونسو).. يقولون إنّه لا يوجد ملك فرعوني بهذا الاسم لكني أعرف ما أقول..

وجدت هذا القناع وجلست هنا بالذات أرسمه..

اليوم لا أجد القناع ولا أجد تلك القطعة.. لقد اختفى (عنخ إف خونسو).. وبالتالي لن أجد عيواس ثانية أبدًا..

عيواس.. عيواس..

أنا بحاجة لك...

أعرف أين كتاب الأسرار..

أعرف كيف أجده.. لكن ماذا أصنع به وأنا طيف بلا كيان مادي؟

لابد من استعادة ماديتي أولًا من ثم أذهب للبحث عن الكتاب. أو على الأقل أبحث عن البشري الذي يعرف موضع الكتاب...

طبيب هو. اسمه إسماعيل.. رفعت إسماعيل..

لا أعرف إن كان قد وجد الكتاب أم لا، لكنه يرتبط به بقوّة كان بوسعي أن أنتزع السر منه، وهو يذكر ما يكفي لجعلي قريبًا جدًّا، لكن ماذا أفعل بالكتاب وأنا لا وجود لي؟..

عيواس..

عد لي يا عيواس..

أنا بحاجة لك...

-2-

هكذا راح الرجل يرسم تلك القطعة، وكانت الفتاة تفعل ذات الشيء تقريبًا بالقطعة التي تجلس عندها..

الآن صارت القاعة خالية تمامًا.. لا سياح.. لا صوت سوى احتكاك القلم بالورق وتنفس الرجل الثقيل.

بعد قليل قال لها بتلك الإنجليزية الراقية:

- «يبدو أن اهتماماتنا واحدة وإن تباين العمران والبلدان وربما تباينت المهنتان.. هل أكون متطفلًا لو قدمت نفسي؟.. اسمي (جيمس ألجروود).. بريطاني... خبير آثار ورئيس تحرير مجلة (إكوينوكس)..»

- «أكوينوكس؟؟؟»

- «الاعتدال القمري... هذه ترجمة الاسم..»

ومد يده لها فنظرت لها كأنها ترى ثعبانًا. ثم مدت أناملها في رفق وصافحته:

- «سوسن أبو زيد.. معيدة في كلية الفنون التطبيقية..»..

- «وهذا جزء من بحث علمي معين تقومين به؟»

- «رسالة الماجستير الخاصّة بي.. نعم..»

ثم رفعت الورقة التي في يدها فرأى رسمًا متقنًا للقطعة الأثرية تحت الزجاج. ليس الغرض التقاط صورة طبعًا وإلا فإن أي كاميرا تفعل ذلك أفضل.. لكن الغرض فهم هذا التركيب المتقن.. تحليل عقل الصانع الفرعوني الذي أمسك بهذه القطعة منذ أربعة آلاف عام..

دار الحديث بينهما وتشعب.. هي تأتي هنا كل يوم لتمضي عدة ساعات تستنسخ هذه القطع. هو يأتي كل أسبوع مرة.. إنّه مقيم في فندق قرب ميدان التحرير، وهذا يسهل مجيئه للمتحف..

قالت لنفسها إنّه رقيق وجذاب.. صحيح أنه ليس وسيمًا على الإطلاق، ونظراته حادة وقحة، لكن في شخصيته جاذبية هائلة..

بعد ساعة أخرى قال لها وهو يجمع أوراقه:

- «سوف أرحل الآن.. لقد أرهقت عيناي فعلًا. سوف أسمح لنفسي بأن أدعوك إلى قدح من القهوة في أي كافتيريا قريبة..»

في النهاية افترقا عند باب الكافتيريا مع وعد باللقاء غدًا..

وعندما مضت سوسن في الشارع وحدها تبحث عن طريقة توصلها للهرم حيث تقيم، فإنها راحت تفكر في أمر هذا السائح البريطاني المهتم بالحضارة الفرعونية. هو أكبر منها بعشرين عامًا على أقل تقدير وليس وسيمًا على الإطلاق.. كما أنها لم تكن مصابة بعقدة الخواجة لتعجب به لمجرد أنه بريطاني لكنّها شعرت بأنه لمس روحها فأحرق جزءًا منها..

وأدركت أنها ستنتظر في شغف لقاء الغد...

✷ ✷ ✷

فيما بعد عرفت التفاصيل الآتية من الكينونة. هي التي حكت الى ما غاب عني من أحداث لم أشهدها.

هنا أريد أن أذكر نقطتين: أولًا أنا لا أنوي أن أحكي أي تفاصيل أخرى عن الكينونة اليوم ولا في أي يوم آخر. هذا سر من الأسرار التي من الخير لها أن تموت مع المرء.. بل يجب أن تموت مع المرء... ثانيًا: الكينونة لا دور لها في هذه القصة بالمناسبة. هي فقط تمارس عملها المحبب في تحذيري من حين لآخر، عندما تشعر أنني أقترب من النهاية أكثر من اللازم.

في الواحدة بعد منتصف الليل يمكن أن تعتبر المتحف خاليًا تمامًا إلا من كاميرات المراقبة.. وبما أن صاحبنا ليس ماديًا فليس بوسع أي كاميرا أن تصوّر وجوده..

لو أنك دققت النظر في ذلك الركن حيث الواجهة الزجاجيّة إياها، لرأيت شكلًا يتجسد.. شكل أقرب لرجل ببذلة سوداء يسند يده على ذقنه ويفكر بعمق..

مع الوقت تظهر الملامح أكثر.. إنّه أصلع الرأس.. وبعبارة أدق هو (جيمس ألجروود) شخصيًا. الرجل الذي كان مع الفتاة منذ ساعات.. نحن نعرف أنه كراولي طبعًا..

أين ذهب قناع (عنخ إف خونسو)؟.. لقد فتش عنه بعناية وراجع دليل معروضات المتحف فلم يجد له أثرًا.. أشياء غريبة تحدث في مئة عام كما هو واضح..

كان يعرف أنه سيبحث عن القناع وسوف يذهب إلى تونة الجبل يقفو أثر حتحور المعظم ثلاث مرات.. يمكن أن نقول إن حياته فشلت فشلًا عظيمًا لأنّه لم يستطع أن يجد كتاب الأسرار. وجد بعض الهرميتات ووجد الثليما.. كل هذا فتات لا يغني عن الوجبة الشهية التي صنعها المعظم ثلاث مرات..

لم تكن تقبل دعوة شخص قابلته لأول مرة منذ ساعة، لكن في شخصيّة هذا الرجل شيئًا كاسحًا يجعل الرفض مستحيلًا...

هكذا هزت رأسها في مرح..

بعد دقائق كانا يتجهان لباب الخروج. كلاهما يحمل كراس رسم تحت إبطه.. كهل وشابة.. غراب وسيم وعصفور...

✷ ✷ ✷

هز رأسه شاكرًا الساقية، ثم وضع لها بعض المبيض في قدحها وذوب السكر ثم قال لها:

- «يصعب على من يهتم بالآثار أن يفكر يومًا في ترك مصر.. وأنت؟.. ألا ترغبين في رؤية بريطانيا؟»

قالت ضاحكة:

- «أتمنى.. لكني لم أر سوى القاهرة وقرية أبي في الدقهلية..»

- «الحياة قصيرة جدًّا.. هناك أماكن يجب أن تريها قبل فوات الأوان..»

ثم راح يحكي لها عن بريطانيا..

هنا يجب أن نتوقف عند بعض النقاط المهمة:

1 - لماذا يجلس الرجل بعيدًا عن المرآة الكبيرة في القاعة؟.. لو أنك حاولت أن تغير جلستك لبدا لك كأن الفتاة تكلّم نفسها.. طبعًا هذا كلام يذكرنا بقصص مصاصي الدماء.. أعتقد أننا نخرف..

2 - شرب القهوة وهي ساخنة جدًّا توشك على حرق القدح نفسه.

3 - أخرج سيجارًا وأشعله.. بالتأكيد أحرق أنامله. هي رأت ذلك لكنه لم يهتم..

4 - هناك ذلك القط الذي تسلل للكافتيريا وتمسح في ساق كل واحد من الجالسين، لكنه لما دنا من ذلك الرجل أصابه الهلع وفر لا يلوي على شيء..

هذه أسئلة مهمّة، لكن علينا ألا نضيع حياتنا في هذا الكلام الفارغ وإلا فلن نجد وقتًا لأي شيء آخر.. يجب ألا نصير عصبيين أو عصابيين...

اليوم جاءت الفرصة من جديد.. لقد منحه أحمق ما حياة فوق حياته، أو هو نوع من الوقت الإضافي ليعبث فيه كما يشاء.. سوف يستعيد ماديته.. سوف يجد الكتاب ويحكم العالم..

فقط عليه أن يكون حذرًا من المنافسة..

يعرف أن حامل الضياء يريد الكتاب.. بل هو يؤمن أنه يخصه وملكه منذ كانت سالومي ترقص حول رأس يوحنا المعمدان.. وقبل ذلك بدهور..

سوف يحاول أن يجده قبل أن يستعيده حامل الضياء وإلا فهي نهاية الحياة كما نعرفها. نهاية كراولي نفسه على الأرجح..

لكن أين أنت يا عيواس؟

أين أنت يا عيواس؟

أغمض عينه وراح يكرر هذه العبارة..

ومن مكان ما في القاعة تحرك الظل..

شم الرائحة المميزة التي لم يشمها منذ مئة عام تقريبًا سمع الخطوات...

وإنه هنا..

رفع وجهه في حذر وهمس:

- «افعل ما تريد.. هذا هو القانون..!»

جاء الصوت الطويل المكتوم كأنه آت من الأبدية، وبدأت رقائق الثلج تتكاثر على الواجهات الزجاجيّة.. الظل يتحرك أكثر إنّه عيواس...

تصدعت إحدى الواجهات الزجاجيّة من فرط البرد.. تكاثر الثلج على وجه تمثال فرعوني ليس محفوظًا في واجهة...

أنت هنا يا عيواس.. لقد وجدتني برغم كل شيء..

جاء الصوت الأجوف الرهيب القادم من كهوف ما قبل التاريخ ومن أنفاق تحت الأرض ومن بلاعيم الديناصورات المنقرضة كلها.. قال له:

- «قناع (عنخ إف خونسو) ليس هنا.. الواجهة 666 لم تعد كذلك..»

قال (كراولي):

- «من أخذ القناع؟»

- «هناك من سرقه من المتحف منذ عقود.. تعرفه أنت باسم (حامل الضياء) أو (لوسيفر).. إنّه إن أخذه يحرمك من التجسد ومن استعادة الثليما أو كتاب الأسرار..»

هذا منطقي إذن.. لقد اختفى القناع منذ فترة.. فترة طويلة منذ عام 1904 حتى اليوم تسمح بسرقة شيء كهذا، وهو في النهاية أثر تافه.. دعك من أن المتحف المصري يسرق بلا توقف يوميًا فما المشكلة في قطعة صغيرة تختفي؟ لكن معنى هذا أن لوسيفر لم يكن يمزح.. كان يعرف ما يريد وينفذه بدقة...

كان عيواس موجودًا بقوّة لكن من المستحيل أن تراه.. ترى ظله الذي يملأ القاعة وتشعر بوجوده فترفع رأسك لتراه هنا لا تجد أي شيء...

- «أنا أريد استعادة ماديتي.. لن أحصل على شيء من دون ماديتي..»

قال عيواس:

- «سوف تستعيدها لكن الأمر ليس هينًا... ثمّة طريقة على شيء من العسر...»

- «وأنا أقبل كل شيء..»

- «إذن سوف تعرف..»

وفي اللحظات التالية علمه عيواس كيف يستعيد كيانه المادي والحق يُقال كانت طريقة صعبة وبشعة.. حتى كراولي وجدها بشعة..

يجب أن أتذكر

-1-

- «الآن يسترد لوسيفر كنزه العتيق.. الآن تنتهي دورة الأزمنة، ويستعيد حامل الضياء كبرياءه فلتسمعيني أغانيك يا بنات الليل..»

✷ ✷ ✷

أيام هادئة في الشمس..

هذا أنا في مصحة د. إدريس، وقد صار اسمي الفنان عباس الغريب. لا أبغى شيئًا من أحد ولا أتوقع أن يطلب مني أحد شيئًا.. لا أعرف من أنا حقًّا.. لا أذكر حرفًا.. صدق أو لا تصدق أن تلك كانت أيامًا رائعة. الميلاد من جديد.. التحرر من صحيفة سوابقك الجنائية والعاطفيّة والفكرية.. هل تزوجت ابنة عمك لأنّهم أرغموك على ذلك، ولا تعرف إن كنت تحبها حقًّا أم لا؟.. مرحبًا بك في النادي.. اليوم هي فرصتك كي تفكر من جديد..

هل تحب مهنتك أم تكرهها؟.. لا يهم لأنك لا تذكرها أصلًا..

ما هي آراؤك السياسية أو العلمية أو الدينية؟.. لا تذكر أنت صفحة بيضاء يمكن أن تشكل عليها أي شيء.. من حسن حظ فاقدي الذاكرة ألا يقعوا في يد شخص سيئ النية، فهو يقدر أن يجعلك أي شيء.. يمكن اليوم أن يقنعني أحدهم بأنني جاسوس إسرائيلي متخف أو جنرال نازي يخشى أن يجده اليهود سوف أقتنع وأتصرف على هذا الأساس..

وجد الأطباء أنني مصاب بدزينة من الأمراض المزمنة، وهذا يستدعي علاجًا مستمرًا لدى طبيب الأمراض الباطنية.. أنا مندهش لأن كائنًا حيًّا يعاني كل هذا العدد من الأمراض.. ما هي مهنتي بالضبط؟.. نموذج لكليات الطب؟

أجلس في الشمس وأرسم..

تأتي الممرضة الرقيقة (وداد) لتراقبني أثناء الرسم. بالتأكيد لم تعد علاقتنا علاقة ممرضة بمريض بل هي أكبر من هذا.. هي كذلك ليست علاقة حبيبين. هي أقرب لعلاقة فتاة بأبيها المسن المريض...

تراقب الخطوط التي تولد على الورق..

هناك ذلك الرجل ذو البذلة السوداء والنظرات السوداء.. فارع القامة على صدره قلادة ضخمة. عامّة هو أقرب للهيبة والوسامة لكنه مخيف أنت تعرف ذلك التأثير المخيف لكرستوفر لي في أفلام دراكيولا.. وبرغم هذا فإن كرستوفر لي وسيم وأنيق جدًّا..

تسألني من هذا فأمط شفتي السفلى.. طبعًا لا أعرف..

على كل حال هناك لعنتان أو ثلاث تلاحق أي رسام في مصر: اللعنة الأولى هي لعنة (من هذا الذي ترسمه؟).. مستحيل أن يسمح لك برسم وجه ليس له صاحب. اللعنة الثانية هي: (ارسمني!).. اللعنة الثالثة هي أن ينظر لك الشخص مفكرًا ثم يقول في حكمة: (الرسم هواية!).. كأنه وصل إلى سر الكون..

هناك لوحة غريبة تظهر الثعابين تحيط بكتاب قديم أوراقه مجعدة..

- «وما هذا الكتاب؟»

- «لا أعرف..»

يبدو أنني أستخرج أشياء من العقل الباطن لا أعرفها.. الطبيب يوصيني بالمزيد لأن هذا يكشف خبايا عقلي المظلمة كما قال..

قالت هي في حكمة:

- «الرسم هواية على فكرة..»

كنت أشعر بشعور غريب.. هناك قطاع كامل من ذاكرتي أراه كأنه من خلف زجاج مصنفر.. أراه بوضوح وأتبينه لكني لا أستطيع الوصول له. من وضع حاجز الزجاج المصنفر هذا؟

هنا جاء أحد العمال وقال لي إن الدكتور إدريس يريد رؤيتي..

هكذا وضعت أدوات الرسم جانبًا وطلبت إذن وداد.. ثم مشيت خلف الرجل. مخترقًا صفوف المرضى الجالسين في الشمس والذين يلعبون كرة المضرب.. مصحة راقية جدًّا والأهم أنها تحوي حالات مسالمة خفيفة. ليست طراز المصحات التي يلبس فيها الممرضون أقفاصًا حديدية على رءوسهم ويحملون خراطيم الماء والزنازين مبطنة...

هناك كان د. إدريس في مكتبه..

وجدت معه ذلك الرجل الأنيق الذي عرفت أن اسمه د. سامي. كانا ينظران لي في اهتمام.. جلست فقال لي د. إدريس:

- «د. سامي مصر على أنه يعرفك.. فقط زال شاربك ونحلت قليلًا لكنه يؤكد أن علاقته بك لا تسمح بالخطأ..»

قال د. سامي في وقار:

- «رفعت.. أنت رفعت.. أنت تعرف أن المرء تحيط به هالة معينة تجعلنا نعرف أنه هو.. حتى لو احترق وجهك فلسوف أظل أعرف أنه أنت..»

قلت في حذر:

- «لا أعرف إن كنت تعرفني أم لا يا دكتور.. ربما كنت على حق.. أنا يمكن أن أكون أي شخص في العالم. لو قلت إنني أدولف هتلر فأنا مستعد للسماع، لكن صدقني لست قادرًا على النفي أو التأكيد..»

قال د. إدريس:

- «ربما نحاول عمل مقارنة بصمات.. لكنه إجراء معقد بصراحة.. أن نجد بصمات المدعو رفعت إسماعيل ونقارنها ببصماتك..»

وضع سامي ساقًا على ساق وملس على شعره الأشيب وقال:

- «هاتف منزلك لا يرد.. معظم رفاقك في القاهرة يقولون إنك مسافر لكنهم لا يعرفون إلى أين.. حياة العزلة اللعينة التي تمارسها كأحد هواة الأكسجين وأعداء ثاني أكسيد الكربون تجعل العثور عليك مستحيلًا.. لو أنك مت أو سافرت لسيبيريا فلن يعرف أحد. هناك شخص غامض يبحث عنك في كل مكان، وثمّة دلائل توحي بأنك هربت منه..»

بعد تفكير طال تساءل د. سامي:

- «من الذي حجز له في المصحة؟»

قال د. إدريس باسمًا:

- «هذا أول ما فكرنا فيه.. الحجز باسم محمود الشامي هو من دفع الإقامة بحوالة بريدية. طبعًا لا نقوم بالتأكد.. عندما تدفع يُمكنك أن تذكر أي اسم، بينما لو سحبت ما فعليك أن تثبت أنك هو أنت..»

نظر لي د. سامي بعينيه الهادئتين وقال:

- «رفعت.. سوف أناديك رفعت.. لا أستطيع أن أثبت أن كلامي صحيح برغم أنه صحيح. لهذا سأتركك هنا حيث العناية الطبية ممتازة أنت تحتاج لهذا على كل حال إلى أن تسترد ذاكرتك تمامًا.. فقط سوف أمر عليك كل يومين لأطمئن، ولو احتجت لأي شيء فلتقل لـ د. إدريس أن يتصل بي.. مفهوم؟»

- «هذا كرم منك يا سيدي..»

دوَّن بضع كلمات على وريقة صغيرة ثم ناولها لي وقال:

- «هنا تجد بياناتي وبياناتك... سوف تعرف اسمك ومهنتك وعنوانك... كما أعتقد أنا..»

غادرت الغرفة حائرًا.. هل هذا الكلام صادق أم خطأ؟

اسمي حسب الورقة هو رفعت إسماعيل.. غير متزوج أستاذ أمراض الدم في كلية طب (.....).. مولع بحل ألغاز ما وراء الطبيعة والباتافيزيكس أنا لا أعرف معنى باتافيزيكس أصلًا.. حياتي صاخبة وغريبة.. بلدي الأصلي هو الشرقية قرية تدعى (كفر بدر)...

لا أعرف.. لكن.. أنا أستاذ طب؟.. هذه تبدو دعابة. لا أحمل أدنى اهتمام بالطب وأعتقد أنني سأفقد وعيي لو رأيت بقعة دم. لكن ماذا حدث لي فعلًا؟.. هل هو حادث أم صدمة عاطفيّة؟.. هل اكتشفت أن زوجتي تخونني أم طُردت من عملي أم أفلست؟ لي أصبع مبتور في قدمي.. فما قصته؟.. لقد حدث هذا منذ زمن بعيد على كل حال..

وما معنى هذه الرسوم الغريبة التي أخطها على الورق؟

يجب أن أتذكر..

-2-

على إنني لم أتخلص بعد من بقايا شخصيّة رفعت..

هذا ما عرفته فيما بعد..

بدأ الأمر عندما دخلت إلى فراشي لي.. كانت الإضاءة هادئة تريح الأعصاب، وجوار فراشي كتاب ضاحك أحبه كثيرًا..

عندما رفعت الوسادة وجدت تلك الرسالة المغلقة.

شكل المظروف الغريب.. طريقة الغلق مع خاتم من الشمع. الكتابة بالحروف القوطية على المغلف. كل هذا كان غريبًا جدًّا ويعيد لك أجواء محاكم التفتيش وعصر النهضة وصكوك الغفران... إلخ.. كأنني سأرتمي أرضًا صارخًا:

- «ريفوكو!!»

مددت يدي وفضضت المغلف. طبعًا لم يجل بذهني أن أتساءل عن نوعية هذا الورق أو هذا الجلد.. ولو عرفت لصرخت وتخلصت من الخطاب فورًا..

هناك معجبة خفية تتحدّث عن نفسها باعتبارها (أنت تعرف من)..

تقول إنها قلقة عليَّ وتريد أن أخبرها أن كل شيء بخير لأنهّا تدرك أن نهايتي دانية وإن الأيام القادمة عصيبة مخيفة...

بالطبع لم أكن أعرف أنّ هذه هي الكينونة.. لا تستعمل هذا الاسم في الخطابات أبدًا.. الغريب كذلك أن خطابها يوحي بأنها لا تعرف أين أنا.. كيف هذا؟.. كيف يتلقى المرء خطابًا من شخص لا يعرف أين هو؟

لم أكن أعرف أو لم أكن أذكر أن خطابات الكينونة تصلني حيثما كنت، وخطاباتي لها تصلها حيثما كانت.. لا دخل للعناوين هنا...

كانت تعطيني بعض النصائح التي لا أفهم معناها:

1 - دع الثعبان والعقرب يقتتلا وابتعد.

2 - من الخير أن تبقى الفضة في قاع البئر

3 - لا تثق في الأطفال أكثر من اللازم.

4 - احتضن بيت الأفاعي فعساه أن يمنحك الأمان.

5 - عندما تقابل المسخ والدم يسيل من نابيه، فعليك أن تمنحه ثقتك!

ما هذا الكلام الفارغ؟... عندما أقابل المسخ فعليَّ أن أثق به وبرغم هذا لا يجب أن أثق بالأطفال.. هل هذا شخص يمزح؟ وما جدوى هذا الورق السميك الشبيه بالجلد المدبوغ.. أليس هذا تبديدًا للموارد؟

من تسلل إلى فراشي ودس الخطاب؟

بالطبع هو هذا الشاب المريض بالبارانويا الذي توجد غرفته على بعد غرفتين. هو مخبول تمامًا ويعتقد أنه ملاك جاء من السماء لتحرير الأرض من الشيطان. ليس عدوانيًا على كل حال لكنه حذر.. وهو يعكف على الكتابة طيلة اليوم..

إذن يمكن بسهولة تخيل أنه استطاع التسلل لغرف النزلاء المحيطين به.. يدسّ هذه الخطابات تحت الوسادات، وهي توحي بأن كاتبها يملك خبرة علوية ويعرف كل شيء..

ثم يوقع باسم (أنت تعرف من)..

يجب أن أقدم هذه الخطابات للأطباء غدًا فمن الواضح أن حالة الفتى تسوء.. لن يطول الوقت قبل أن ينقض عليَّ أثناء النوم.. ليأكل حنجرتي..

لكنني إذ طويت الخطاب ووضعته تحت الوسادة شممت رائحة شياط غريبة.

نهضت مذعورًا ففوجئت بكتلة مشتعلة يتصاعد منها دخان أسود.. الخطاب قد أشعل النار في الفراش. هذا الخطاب كان للقراءة فقط على طريقة خطابات المخابرات...

الدخان يفعم الحجرة..

هرعت للباب وفتحته وصرخت.. بعد لحظات جاء ممرضان وهما يحملان أنبوب إطفاء. واستغرق الأمر بضع دقائق حتى عاد السلام ومعه سحابة من الدخان الأبيض تملأ الطابق كله..

لكن كانت المشكلة بعد ذلك بسيطة:

- «لماذا أشعلت النار في فراشك؟»

لا إجابة.. أقسمت لهم أني لم أفعل وأن الورق اشتعل ذاتيًا لكن مرحبًا بك في المصحة العقليّة حيث الجميع أبرياء.. الجميع لم يفعلوا أي شيء خطأ...

كل النزلاء يزعمون أنهم تلقوا خطابًا مجهولًا من كينونة لا يعرفونها.. وهذا الخطاب اشتعل فجأة.. كلهم يقول هذا. يبدو أنه لا يوجد مجانين يشعلون النار في أسرتهم أبدًا.. كلها تشتعل من تلقاء نفسها..

هذا شي ومعروف..

أمّا أنا فكنت أفكر في معنى هذا. هذا الخطاب يحمل سرًّا مرعبًا، والأهم أنّ هناك من يعرف عني أكثر مما أعرف عن نفسي..

وعرفت أنني إذا تلقّيت خطابًا كهذا بعد ذلك، فعليَّ أن أتخلص منه في الحمام أو المرحاض... لابد من ماء..

-3-

هل كان لي أن أعرف أن سام كولبي النصاب اليهودي لملم جراحه وجسده المهشم، ثم جلس في غرفته بالفندق يفكر..؟

جاء رجال الأمن يفتشون ويبحثون طبعًا لم يكن على استعداد بالاهتمام.. أنتم تبحثون عن لوسيفر يا سادة.. د. فرانتس لوسيفر شخصيًا فلا تضيعوا وقتكم في هذا الهراء.. ليس بوسعكم عمل شيء..

طلب كوبًا من العصير ثم جلس.. صوته مبحوح طبعًا فقد كاد يختنق..

كان يعرف أن عليه عدة أشياء يجب القيام بها.. يجب أن يعيد لرفعت الأحمق ذاكرته، وهذا سهل بسيط، لكنه خطر جدًّا.. لربما كان من الأكثر أمنًا أن يظل رفعت ناسيًا من هو في هذه الفترة على الأقل..

كان هذا خطرًا لأن كينونة رفعت ووجوده أمانتان معلقتان في عنق كولبي. لو حدث له شيء فلسوف يضيعان للأبد.. هذا يذكرك بخشية الفراعنة من أن يضيع اسم صاحب المومياء أو يُمحى، وبالتالي تظل الروح هائمة للأبد ولا تعود للجسد...

لكن من الخير أن يظل رفعت ناسيًا.. والأفضل أن يظل كولبي جاهلًا بمكان رفعت..

الشيء الآخر الذي يجب القيام به هو إعادة كراولي لعالم الشياطين..

هذه كانت شديدة الصعوبة والعسر.. من السهل دومًا أن تخرج معجون الأسنان من الأنبوب، لكن من المستحيل أن تعيده وقد جاء كراولي لعالمنا بسهولة لكن عودته عسيرة.

كان موشكًا على الجنون..

هناك حل بسيط هو أن ينسى هذا كله ويعود إلى الولايات، لكنه يعرف ما هو أفضل. لقد انتهى وجوده في الكواليس وصار على خشبة المسرح.. سوف يجده لوسيفر حيثما كان..

في اللقاء الرهيب بالفندق قال له:

- «موتًا تموت... تلميذًا لي وعبدًا كنت، لكن حاجتي إلى إسماعيل أقوى من أي شفقة..»

ثم قال:

- «بحق ابني العظيم، إن هذا ليمنحني لذة هائلة.. سأعود لك.. أنت تعرف أنني سأعود..»

هكذا لم يعد الأمر يتحمل تفسيرات أكثر..

هذه هي معركة كولبي أو حربه الأخيرة ضدّ أستاذه السابق.. سوف يفرغ لوسيفر من رفعت ثم يفتك به. رفعت لا يعرف ما يعرفه كولبي، أمّا هو فقد رأى مصير كثيرين تورطوا في هذه الأمور، ولم يكن منظرهم محببًا.. رأى من علقوا من أوردة وشرايين أعناقهم.. ورأى من عُلِّق من قدميه بينما الفئران المسعورة تتسلى بالتهام وجهه.. رأى من يلتهم قطع لحم جسده المشوية بالقوة..

إن لوسيفر - والحق يُقال - ليس ودودًا أو ظريفًا..

هكذا اتجه كولبي لحقيبته وأخرج بعض الكتب السميكة.. كتب سحر عتيقة تتحدّث عن صرف الشياطين..

لا شك أن كراولي قد قام بتأمين وجوده.. لن يكون الأمر سهلًا، لكنه سيحاول لكن من قال إن عودة كراولي أفضل؟..

إن لديك لوسيفر.. وهو هائج يبحث عن شيء يخصه.. لا أحد يقدر على منعه.. ربما أنت بحاجة إلى كراولي فعلًا بكل ما يعرفه وكل الشر المتوطن فيه..

ترى ما هو الحل الصائب؟

✷ ✷ ✷

كان كولبي يبدو مُضحكًا لمن رآه بوجهه الطفولي الدقيق وحالة (الدهولة) العامة هذه، وهو يمشي في ذلك الحيّ الشعبي المزدحم..

كانوا يرمقونه في دهشة. ما لم يكن المصري يعمل بالسياحة فإنّه يعتبر السائح كائنًا فضائيًا مسليًا لابد من مراقبته طيلة الوقت..

لكن كولبي علق الحقيبة على كتفه، وواصل المشي وهو يلهث.. يحتاج إلى دخول الحمام بأي شكل فهي البروستاتا كما تعلمون. أخيرًا وصل إلى مدخل البيت المكون من طابقين.. كان المدخل بابًا خشبيًا متجهمًا عتيقًا.. هناك كان السمسار ينتظره..

عملية العثور على شقّة مفروشة خلال يوم أمر شاق أمر شاق.. لكنه راح يبعثر الدولارات..

كان السمسار يريد معرفة السبب الذي يدعو خواجة مثل هذا إلى البحث عن بيت رخيص من غرفة واحدة في حي شعبي؟.. الجواب جاهز وهو أن كولبي رسام.. يريد أن ينفعل بالتراث المصري ويرسمه..

لابد أن السمسار سمع الكثير من هذا الهراء.. لكنه على كل حال اختار لكولبي هذا البيت الصغير عند (سوكة).. لا يوجد أحد في الطابقين لأن البيت آيل للسقوط عدم المؤاخذة، لكن هناك شقّة ضيقة في المدخل.

مبروك يا خواجة.. صارت الشقة لكولبي لمدّة شهرين وبمبلغ زهيد جدًّا.

الحقيقة كما لابد أنك فهمت، هي أن اليهودي كان يبحث عن مكان خال يستطيع فيه أن يتبول أولًا ثم يمارس طقوسه.. لا يستطيع أن يفعل هذا في الفندق.. دعك من حاجته إلى خلوة...

وعندما صار وحده أسرع ليفتح حقيبته..

أخرج منها بعض الكتب وملاءة سوداء وزجاجة بها سائل مبهم..

كان الليل يقترب.. عليه أن يتحرك بسرعة..

في البدء فرش الملاءة على الأرض ثم سكب فوقها الرماد.... وبدأ يتلو عبارات لاتينية من كتابه. ليته ينجح فيما يريد.. لقد جاء بكراولي هذه البلاد.. عليه أن يعيده من حيث جاء.

كتاب غريب

-1-

اعتاد هشام ابن البواب أن يذهب إلى تلك الخرابة الممتدة خلف البناية. هناك كان يجد متعًا لا حصر لها تبدأ بمطاردة القطط ولعب كرة القدم، وتنتهي بقذف الغربان بالحجارة..

كانت هذه الخرابة تشكل رئة يتنفس بها كل أبناء البوابين في المنطقة، وسط هذا الحيّ الأنيق المغرور الذي يمتاز بالتفرقة الطبقية.

كان هشام في العاشرة من عمره، وهو شيطان صغير شديد الظرف والحيوية، دعك من أنّه كان بارعًا في المدرسة فعلًا.. كان ذكيًا وكان يؤمن أن العلم هو الطريق الذي سيوصله إلى سطح المجتمع الطبقي.. لا أمل لمن هو مثله كي يصير شيئًا ذا بال إلا بالعلم.. يصير طبيبًا أو مهندسًا أو قاضيًا أو ضابطًا. هذا هو المفتاح الوحيد....

بالإضافة لهذا كان يحبّ القراءة.. على قدر علمي لم يترك أي حروف مطبوعة تمر أمام عينيه دون أن يحاول قراءتها..

هكذا كان هشام ينهي واجبات المدرسة ثم يفر فرارًا إلى الخرابة. أبوه كان يبحث عنه كي يقوم بهذا المشوار أو ذلك، أو ينظف سيارة هذا الساكن أم هذا.. لكن هشام كان يفر من هذه الأعمال ويشعر أنها مهينة. الأسوأ أن يبحث الساكن عن نقود في جيبه ويناولها لها في تعالى من يملك كل شيء على من لا يملك شيئًا..

هذه الأمور كانت تقتل الصبي قتلًا، أمّا أبوه فكان عمليًا جدًّا يرى أنّ هذه شكليات.. ما يهمه هو إطعام هذه الأفواه.. لا وقت لترف الأفلام العربيّة هذا..

المهم أن هشام نزل إلى الخرابة وراح يلهو بعلبة من الصفيح..

هناك أسفل تلك البناية الشاهقة راح يتسلى بقذف العلبة متخيلًا المنتخب البرازيلي كله يحاول انتزاعها منه..

فجأة رأى شيئًا غريبًا.

هناك ثعبانان ينسلان هاربين ويختفيان وسط حزمة من الأعشاب..

بالنسبة لأي صبي وأي إنسان آخر كان هذا سيملأ قلب الصبي فَرَقًا، لكن هشام كان شيطانًا صغيرًا.. مد يده إلى جيبه وأخرج علبة الثقاب التي يستعملها في إشعال الحرائق الصغيرة (أحيانًا

كان يشعل سيجارة لكن ليبق هذا سرًا بيننا).. أشعل عودًا ثم قرب منه ورقة وجدها هناك.. اشتعلت الورقة.. فقذفها فوق حزمة الأعشاب الجافة..

لو كان معه بعض الكيروسين!.. لكن للأسف!

هنا رأى ثعبانًا يفر من بين الأعشاب ويبدو أن النار قد لسعته بقوّة كان يبغي الفرار لكن صخرة محكمة التصويب هوت لتهشم رأسه..

يبدو أن الآخر احترق حيث هو...

منذ متى تأتي الثعابين هنا؟.. لقد كان هذان أول ثعبانين يراهما في حياته..

اقترب هشام من جدار البناية الخلفي.. كان رطبًا أتلف تسرب دورات المياه معظم الملاط فيه وتهاوت بعض قطع القرميد. هنا رأى على الأرض ذلك الكيس البلاستيك المتسخ.. يبدو أن أحد السكان ألقاه من شرفة داره..

تناول الكيس وتفحصه.. بداخله ما يبدو كأنه كتاب غليظ...

سوف يأخذه معه للدار ويحاول قراءة ما فيه.. ربما كان شيئًا مسليًا. ذات مرة وجد مجلدًا كاملًا من مجلة سمير في كيس كهذا، وقد منحه هذا المجلد أيامًا من المتعة..

سوف يترك الثعابين اليوم ويأخذ هذا المجلد إلى البيت

✷ ✷ ✷

ليس بيتًا بالضبط كما تعرف بل هي حجرة تحت السلم..

هنا تعيش الأسرة وتنام وتطهو طعامها.. لو لم تكن تلك الخرابة خلف نطاق البنايات لجن الجميع.

وثب هشام إلى الغرفة المليئة بالبراغيث، وأضاء المصباح إن أمّه في السوق وأباه يجلب مأمورية لأحد السكان التنابلة.. أخوه في المدرسة اليوم.. هو وحده تمامًا..

المجلد مغلف بالكتان.. هذا غريب..

عندما استطاع في النهاية إخراج الأوراق منه، أدرك أنه قديم ورطب جدًّا.. وأنه من أوراق البردي التي يعرفها من المدرسة هذا شيء ثمين.. ليس كتابًا عاديًا..

هناك رموز كثيرة نعم.

وهناك كتابة كذلك... كتابة بلغة غير مفهومة...

لكنه يستطيع فهمها..

لا يعرف السبب ولا لماذا يقدر على فهمها.. لكنّها مفهومة..

وبدأ الشعر ينتصب على مؤخرة عنقه.. ريقه جاف وقلبه يتسارع..

هذه رسالة مرسلة له منذ آلاف السنين.. وهو يتلقاها وحده هنا والآن. برقية تأخرت بعض الشيء...

هذا المكتوب خطر جدًّا.. إنّه يقودك إلى بوابات مظلمة.. تجتازها.. عندها لا تعود أنت هو أنت..

هناك شيء يتبدل فيك من دون شك.. أنت تقترب من أسرار عظمى.. تعرف أشياء لم تعرفها من قبل ولن تعرفها من بعد..

الصبي ذو الأعوام العشرة يتغير بقسوة..

إنه ينمو عقليًا بلا توقف..

إنّه يزداد حكمة وفهمًا للأمور..

إنّه يعرف الكثير بلا شك..

نصف ساعة من القراءة جعلته يسبق من حوله عدة قرون..

كلما قرأ صفحة صارت الصفحات التالية أسهل وأقرب للفهم..

مما عرفه بلا جهد أنّ بعض الناس قادرون على قراءة الصفحات والبعض لا.. هذه لغة تعلمها في زمن ما وهو في بطن أمّه، أو ربما وهو في وجود آخر، بينما باقي الناس لم يتعلموها..

يبدو أنه طالع الكتاب كله في ساعتين.. لا أعرف كيف لكن هذا ما حدث على الأرجح..

أخيرًا استطاع أن يثوب لنفسه..

كان راقدًا على ظهره غارقًا في العرق البارد.. صدر جلبابه المبتل يخبره أنه قد أفرغ معدته.. نظرة لسرواله تخبرك أنه بال على نفسه كذلك...

يبدو أن الرعب كان كأسًا.. ليس الرعب بالضبط.. التجربة ذاتها..

يجب أن ينهض ويبدل مظهره بسرعة، وعليه كذلك أن يخفي هذا الكتاب.. لا يجب أن يراه أبوه أو أمّه

-2-

في الصحراء في ذلك الوقت بالضبط..

يقف حامل الضياء.. لوسيفر.. وقد باعد ما بين ساقيه ليبدو كهرم يقف راسخًا هناك. الريح تزأر وحبات الرمل تتطاير لتلسع العيون والأذرع.. لابد من ثقوب يئز منها الدم لو كنت هناك.. البرق يضرب في عنان السماء.. لكنه برق بلا رعد.. شيء غريب مخيف..

كان يعرف الآن يقينًا أن رفعت وجد الكتاب.. لقد رأى الصورة كاملة في ذكريات كولبي، بل كان كولبي هو الذي استرد الكتاب من فلسطين.

لقد تأخر أكثر من اللازم.. كان عليه أن يبدأ قبل أن يخفوا الكتاب من جديد.. لقد توارى الكتاب وتوارى رفعت.. لابد من البحث عن الثاني فلسوف يقودك للأول...

في الواقع لم يتخيل أنني في ذلك الوقت لم أكن أعرف أين الكتاب بدوري...

- «فليأت جيشي من الذئاب..»

هنا يتصاعد العواء من بعيد..

بعد لحظات يمتلئ الأفق بذئاب شرسة شهباء منتصبة الشعور متوترة تلعق أنيابها.. العيون تضيء بلون النار.. والعواء الموجس الكئيب يزداد عمقًا..

تحيط الذئاب بلوسيفر..

هذه الذئاب لم تأت من عالمنا كما هو واضح.. هي ذئاب مستوردة جاءت من جانب النجوم رأسًا...

يصعد فوق صخرة لترتفع قامته أكثر ويهتف:

- «ابحثن لي عن ذلك الفاني.. فتشن الصحاري والوديان لا تتركن كهفًا ولا فلاة ولا هاوية إلا وبحثتن فيها.. أعرف أنه قد يكون مات. لهذا أوصيكن أن تنبشن القبور بحثًا عنه.. اقرأن أفكار الناس فأنتن ككل الذئاب تقرأن الأفكار جيدًا.. سوف تعرفن كل شيء عنه..»

ثم قاطع ذراعيه وصاح:

- «لا يمسنه ذئب!.. لا يمسنه ذئب!.. أريده حيًّا!»

فهمت الذئاب النداء فانطلقت لا تلوي على شيء وهي تعوي بلا انقطاع..

وفي الواحات الصحراوية.. وفي القرى عرف الناس أن شيئًا جللًا يحدث.. لقد تعالى العواء حول القرى فاحتضنت الأمهات أطفالهن وارتجفن، وأغلق الناس البيوت خائفين..

وعلى الطريق الصحراوي الساحلي كانت السيارات المندفعة تفاجأ بقطعان من الذئاب تطاردها.. وكان من يمضي الليل في سيارته يصحو فجأة ليجد عيني ذئب تتأملانه من خلال الزجاج... ذئب لا يبدو أنه يريده بالذات.. كما يفعل المخبر الذي يبحث عن رجل معين ولا يضيع وقته مع آخرين..

سرعان ما يدير الذئب خطمه ويعوي ثم يقرب مبتعدًا.. التقريب هو طريقة من طرق ركض الثعالب لو كنت قد نسيت أشعار (امرؤ القيس)..

✷ ✷ ✷

هناك في الخرائب والمناطق العشوائية حول القاهرة تعالى عواء الذئاب.. من حين لآخر يظهر ذئب ضخم ينظر حوله في ارتياب ثم يبتعد.. ويواصل البحث...

لم يدرك سكان القاهرة حجم الخطر ولا ما يدور حولهم لحسن الحظ..

كانوا نائمين.. أو يتهيأون للنوم، لكن لو كانت بناية أحدهم تطل على مساحة خاوية أو خرابة، لرأى ذئبين أو ثلاثة يركضان هناك وقد انتفشت الأعناق...

يبدو أن التفتيش المنظم سوف يمتد إلى الإسكندرية وباقي المدن..

كان ذلك المتسول راقدًا في خرابة قريبة، وكان قد تدثر بعباءة ممزقة والتهم قطعة من رغيف يحمله. هنا شعر بشيء غريب.

في الظلام الدامس وفي ضوء النجوم الواهي الخافت رأى ما بدا له ككلب كبير. كانت حياة التسول والتشرد قد علّمته ألا يعبأ بالكلاب.. الكلاب تعرف من لا يستحق اهتمامها.. على الأرجح سوف يأتي الكلب الأجرب الجائع لينام جواره..

لكنه كان يرى الشكل الضخم المخيف، ويدرك أنه شيء أقرب إلى كلب عملاق أو ذئب.. لا يستطيع التحديد بسبب الظلام..

هنا رأى الوجه في ضوء النجوم..

كانت العينان مثل جمرتين تنظران له في ثبات على بعد مترين..

كان موشكًا على قذف هذا الشيء بحجر، لكن العينين كانتا قويتين جدًّا. كانتا تخترقان أعصابه وجهازه العصبي كله.. نفس الشعور الذي وصفته لك من قبل: طفل يمد إصبعه منقبًا في أنفه.. هنا

إصبع غير مرئي ينقب في مخه..

وسمع النداء يتكرر داخل عقله:

- «رفعت. هل رأيت رفعت؟»

ومع الصوت صورة تتكرر لرجل أصلع نحيل الوجه.. لم يره من قبل.. بالتأكيد لم يره من قبل.

في اللحظة التالية استدار الذئب مبتعدًا وهو يعوي....

رآه يقف في الظلام ناظرًا إلى صف من البنايات البعيدة ويتشمم الهواء.. يبدو أنه يبحث من جديد.. كأنه يستمع إلى ما يدور في تلك البيوت....

- «ابنتك لا تستذكر دروسها.. تمضي الوقت في العواطف على الهاتف..»

- «أنت لا تعطيني مالًا كافيًا للبيت..»

- «الكهرباء الاستاتيكية يمكن حسابها بالطريقة التاليـ..»

- «خالتي مريضة ويجب أن أزورها..»

- «قلت لك إنني لا أحب العنف..»

- «الميراث ليس من حقها.. المحامي يعرف هذا..»

- «إن.....»

وابتعد الذئب ببطء وثقة، بينما راح المتسول يرتجف.. اعتاد ألا يخاف على حياته أبدًا لأن أحدًا لا يريدها، لكنه شعر الليلة بذعر غير مسبوق.

ونظر للسماء فرأى ألسنة البرق الصامتة..

قال لنفسه إن الليلة غير عادية.. هناك - أعوذ بالله - شيء لا يمكن وصفه هنا..

✷ ✷ ✷

بعد نصف ساعة لم يبق المتسول في مكانه..

يُمكنك أن تراه وهو ينهض.. يتواثب عبر الخرابة كأنه غراب تحطمت ساقه.. لو أنك رأيته لامتلأت فرقًا ورعبًا خاصة مع النظرة الثابتة الميتة في عينيه..

هذا رجل سيطرت عليه فكرة واحدة..

عندما خرج من الخرابة قابله متسول آخر بدين قذر الرائحة.. تبادل الاثنان نظرة ذات معنى ثم ابتعدا.. كل واحد في اتجاه.

- «حسنة قليلة!!»

هكذا راح يردد كأنه يترنم، وهو يخترق شارعًا مزدحمًا بالناس..

يرمقونه في اشمئزاز أو خوف.. لكنه يصطدم بهم بقوّة.. ويشق طريقه وهو يفحص الوجوه كلها.. يدخل محلًا واثنين وثلاثة، ويتحمل الطرد... يدخل مقهى فيأتي النادل ليصرفه في غلظة.. يدسّ في يده عملات كي يرحل. لكن المتسول لا يعبأ به يتفحّص الوجوه في فضول وجشع..

لو أردت تشبيهًا دقيقًا لقلت إنّه مثل المكنسة الكهربائية التي لا تترك شيئًا..

لو أنك ابتعدت عن القاهرة وارتفعت في السماء لأدركت أنّ هناك ظاهرة مرعبة..

المتسولون في كل مكان.. يقومون بعملية تسول ممنهجة، بينما في الوقت ذاته تعجّ المناطق المهجورة بالذئاب. معظم الطرق تقطعها الذئاب..

الحقيقة التي لم يفطن لها أحد هو أن القاهرة في تلك الليلة صارت مدينة محتلة..

✷ ✷ ✷

صبوا لنا بعض الدم المختمر، ولتسمعونا صرخات المعذبين في أقبية (هيدز)... ولترقص الجثث المتحللة في انتشاء.. إن لوسيفر والحق يُقال راض...

✷ ✷ ✷

في الليلة التالية سقطت الإسكندرية ودمنهور تحت قبضة هذا الاحتلال غير المرئي غير المفهوم...

لقد كان مشهدًا أسطوريًا أن ترى الذئاب الشهباء المخيفة تركض جوار شط البحر والموج يضربها ويبلل فراءها.. من حسن الطالع ألا تقابلها وأنت تمشي على الشط ليلًا...

كان لوسيفر قد بدأ يزداد عصبية..

يمشي على الشاطئ وسط زبد البحر والهواء يطير شعره..

يرفع يديه كأنه يريد تحدي البحر الغاضب..

كراولي هنا.. رفعت هنا.. لكنه عاجز عن العثور عليهما...

الحقيقة أن لوسيفر ارتكب خطأ جسيمًا، عندما جند كل قواه للبحث عني.. لو بحث عن الكتاب نفسه لقابل بالتأكيد صبيًا مراهقًا وجد كتابًا غريبًا في خرابة.. كان هذا سينهي المشكلة..

- «ماذا تفعل هنا يا أستاذ؟»

كان هذا جنديًا من حرس السواحل يقوم بجولة تفقدية.. رأي رجلًا فارع الطول يلبس السواد وملامحه غير مصرية، وهذا الرجل كان يزأر كالذئاب في غضب... مشهد غريب جدًّا..

ابتعد عنه أيها الرجل الطيب.. لو كنت مكانك لتركته..

إنه ليس في حال تسمح بالتسامح أرجوك.. إنّه.....

لقد طار المسكين بعيدًا بعيدًا.. أمسك به لوسيفر من عنقه وقذف به في قلب البحر بقوّة لا توصف.. لو لم يتحطم عنقه - وهذا صعب جدًّا - فلسوف يغرق لا محالة..

لا تمزح مع د. لوسيفر عندما يكون مغضبًا...

خبرة لا تنسى

-1-

كنت جالسًا في حديقة المصحة، أرسم وأتبادل الكلام مع مريض آخر...

هنا سمعت ضوضاء عند الباب. كان هناك رجلا أمن في حوار غاضب مع واحد، وهذا الأخير يردد بلا توقف:

- «حسنة قليلة تمنع بلاوي كتيرة..»

ثم جاء رجل أمن ثالث لينهي المناقشة..

هنا حدث شيء غريب إذ أفلت المتسول الواقف عند البوابة من الحصار الثلاثي، واندفع إلى الداخل.. إلى الحديقة.. كان رجلًا في الأربعين من العمر يلبس قميصًا ممزقًا على اللحم ويستند إلى عصا غليظة، وقد هرع إلى حديقة المصحة ورأيته ينظر حوله بلا توقف.. كان جائعًا للرؤية...

كانت ذبابة لحوح تدور من حولي فاستدرت لأطردها...

جرى ثلاثة الرجال وراءه فناورهم قليلًا، وفي النهاية سقط بين أيديهم، وهو لم يكن قويًا على كل حال.. تلقى صفعة أو صفعتين على قذاله فهرعت نزيلة تشتم الحراس الذين يتسلون بالقسوة على بائس كهذا..

عندما أخرجوه من الباب، قال جاري وهو مدير عام على المعاش اسمه (زكريا):

- «المتسولون صاروا لحوحين بشكل لا يطاق..»

لا أعرف.. بدا لي هذا الرجل متسولًا فعلًا لكن ليس الموضوع موضوع إلحاح.. بدا لي.. بدا لي كأنه يريد أن يُلقي نظرة على الداخل.. نوع من سرقة النظر قبل أن يُمنع..

على كل حال لم تلتق عينانا قط لأنني كنت مشغولًا بالذبابة..

يمكن القول إنّه لم يرني أصلًا...

✷ ✷ ✷

في الوقت ذاته لو ذهبنا إلى المتحف المصري:

سوف تجد في ذات القاعة الخواجة البريطاني (جيمس ألجروود)، وهو يقوم برسم قطعة أثرية أخرى، بينما جواره تجلس تلك الفتاة الرقيقة سوسن.. كلاهما غارق في عالم قدماء المصريين الثرى الساحر، وإن كانا يتبادلان بعض الكلمات من حين لآخر.. يبدو أن تقارب الاهتمامات له عامل جذب مهم..

كانت نظراتها له ساحرة.. من حين لآخر ترفع عينها وتضحك في دلال، ثم تعود للرسم..

كان هو خبيرًا بالنساء.. لم تعد تخفى عليه أسرارهن أبدًا ويعرف معني كل إيماءة يقمن بها. هذه فتاة معجبة هذه فتاة تستريح له..

لكنه كذلك كان يعرف قواعد صيد السمك.. لا تتعجل شد الصنارة لا تختبر حظك.. اصبر.. تمهل.. أي محاولة للإسراع سوف تجعل السمكة تفلت، وقد كانت سوسن سمكة.. رائعة فعلًا.

بعد ساعتين من العمل قال لها:

- «يجب أن نتوقف قبل أن أصاب بالحول.. تعالي نشرب شيئًا في مكان ما..»

خرجا من المتحف وكان هناك عدد من السياح يلتقطون الصور عند الباب. نفس الوفد الألماني الذي كان موجودًا منذ يومين...

عندما جلسا في تلك الكافتيريا المعتادة، راح يكلمها عن الفن المصري القديم. كان يعرف الكثير فعلًا وشعرت بأنها جاهلة..

قال لها:

- «أعرف تفكير الشرقيات وأعرف أنّ هذا الكلام غير مقبول، لكني فعلًا أرغب في أن تزوري شقتي!»

اتسعت عيناها ونظرت له ولم تقل شيئًا..

قال بسرعة قبل أن تشتمه:

- «قبل أن تقول شيئًا، أريد أن تري مجموعة الرسوم التي لديَّ.. كما أريد أن ترى التماثيل التي قمت بمحاكاتها.. هذا شيء لا يمكن تفويته. أعرف أنك لن توافقي لذا أطلب منك أن تجلبي معك أي صديق أو صديقة تريدين..»

فكرت بعض الحين ثم قالت:

- «من الممكن أن أفكر في الأمر لو كنت سأحضر معي من أريد..»

- «أي شخص تريدين.. لن تطول الزيارة أكثر من ساعة لكنّها ستكون خبرة لا تنسى فعلًا..»

راحت تفكر. واتخذت قرارها..

-2-

في اليوم التالي وقفت سوسن على مدخل المتحف المصري.. ثوب أبيض أنيق يجعلها أقرب لملاك شفاف مع حقيبة بنفس اللون، وقد عقصت شعرها على جانبي الرأس كأن هناك ثمرتين صغيرتين تتدليان على جانبي شجرة. فبدت كجرو صغير لعوب..

كانت تنتظر قدوم الخواجة العلامة جيمس ألجروود ليصحبها لشقته.. بالطبع مع صديقتها نادية.. لم يكن الأمر كله فضولًا فنيًّا بل كانت ترغب كذلك في أن ترى حياته عن كثب.. هذا الرجل مفعم بالأسرار وهي تريد أن ترى أكبر قدر ممكن مما تخفيه البئر..

كانت واقفة وقد علقت الحقيبة وراحت تتأمل نبتة صغيرة نامية في الحديقة..

هنا شعرت بمن يلمس كتفها..

استدارت للخلف فوجدت سيدة في الخمسين.. سائحة كما هو واضح تحمل رزمة من الصور الفوتوغرافية وتتكلم بإنجليزية سيئة جدًّا:

- «معذرة.. أنا ألمانية..»

سؤال آخر لن تعرف إجابته طبعًا.. أين يوجد مكتب تحويل العملة؟.. إلخ...

لكن السيدة قالت على الفور:

- «أنا رأيتك أمس.. كنت مع ذلك السيد الذي يلبس الأسود كنا هنا والتقطنا حشدًا من الصور..»

هزت سوسن رأسها في ضيق.. تريد عبارة إنجليزية تحمل معنى (هاتي من الآخر) فلم تجد.. قالت السيدة:

- «معذرة.. قلت إننا التقطنا بعض الصور.. كنت أنت في الخلفيّة.. أذكرك بوضوح وأنت تهبطين على الدرج مع السيد والآن أرجو أن تلقي نظرة على الصور..»

تناولت سوسن الصور التي تم طبعها.. كانت ترى السياح الألمان يتكلمون ويقفون محيين الكاميرا، وترى نفسها في الخلفيّة تتبادل الكلام لكن مع من؟.. لا يوجد أحد.. مجال نظرها يدل على أن من تكلمه في الكادر وليس خارجه كما يحدث كثيرًا..

ما معنى هذا؟

قالت السائحة وعيناها تتسعان رعبًا:

- «السيد ذو البذلة السوداء لم يظهر في أي صورة!.. هل ترين؟.. كانت هناك عشر مرات يمكن أن يظهر فيها..»

هزت سوسن كتفها في عدم فهم.. ألعاب الضوء وألعاب الكاميرات لا حصر لها.. كيف تجد التفسير؟

قالت السائحة وهي تبتعد:

- «سوف أبتعد لكن أرجوك أن تتذكري هذا.. ولا صورة!.. أليس هذا غريبًا!... داس ايست شايسه!»

عم تتحدّث؟.. شايسه؟

في اللحظة التالية ظهر السيد ذو الثياب السوداء أو (جيمس ألجروود)، ومن مكان آخر ظهرت نادية.. التقى الاثنان حول سوسن، التي أشرق وجهها وراحت تقدم كلًا منهما للآخر أنت قابلت ألجروود، لذا لن أصفه لك.. أمّا عن نادية فهي تختلف عن سوسن في كل شيء.. سمراء جسد ضخم كبيرة اليدين والقدمين.. لها صوت صاخب عالٍ، لكنّها ظريفة وتشعرك بالألفة فورًا..

قال جيمس وهو ينظر في ساعته:

- «الحادية عشرة.. سوف نعود هنا بعد ساعة.. لن يطول الأمر أكثر..»

ابتسمت الفتاتان، واتجهوا إلى الميدان ليستوقفوا سيارة أجرة...

✷ ✷ ✷

عند ذلك العنوان في جاردن سيتي توقفت السيارة.. كان جيمس يتكلم عربية مفهومة على الأقل، فلا يحتاج لمن يترجم له..

ترجل الثلاثة.. وبعد دقيقة كانوا يصعدون في الدرج.

في الطابق الرابع توقف الرجل وفتح بابا خشبيًا، فرأيتا شقّة من ثلاث حجرات كما يبدو.. لا يبدو أنها كاملة الأثاث.. يبدو أنه أخذها مفروشة واكتفى بغرفة واحدة مؤثثة جيدًا. كانت رائحة الشقة غير مريحة كما أنها كانت رطبة جدًّا.. الأثاث عتيق يدل على أنه مؤجر مع الشقة فعلًا.

جلسوا في قاعة جلوس كبيرة، وجاء لهما بعلبتي عصير... كان متمهلا جدًّا..

بدا التململ على سوسن، وسألته:

- «هل يمكن أن نرى تلك الرسوم والتماثيل التي تكلمت عنها؟.. لن نظل هنا للأبد..»

قال بطريقته العربيّة الطريفة.. طريقة (سالام يا هابيبي) التي تروق للمصريين:

- «بالطبع.. لكن لابد من واجب الضيافة أولًا..»

لكن نادية بدت مستمتعة بالجو، وبدا واضحًا أن الرجل نفسه راق لها.. كانت تضحك بصوت عالٍ رنان وتتأمل كل شيء في فضول..

راحت سوسن ترشف العصير وهي تنظر للجدران العارية والغرفة الخالية من الأثاث.. هذا بيت لا يناسب السكني لا تجرؤ أن تطلب رؤية غرفة النوم لكنّها تتمنى أن تراها فعلًا.. المفترض أن تحوي كل شيء ممكن من لوازم الحياة..

ثمّة خطأ ما..

ماذا كانت تريد قوله؟

ثمة خطأ ما..

لماذا يبدو تفكيرها كطبق من العسل الثخين؟.. ثقيل جدًّا والملعقة لا تتحرك فيه تقريبًا.. لزج. بطيء... ماذا هنالك... كل شيء ينسى ويذوب...

هناك.. هناك.. ماذا تريد قوله؟

هذا العصير.. هذا العصير ليس على ما يرام..

القصة الأبدية.. هناك مخدر ذائب فيه..

هل كان كل هذا العناء من أجل خطفها؟...

سوسن دخلت عرين الذئب كما فعلت سوسن الأخرى في قصة الأطفال التي قرأتها في المدرسة قديمًا...

إنها.. تنسى ما تريد قوله..

هذا الظلام.. الظلام....

.....

✷ ✷ ✷

تفتح عينيها ببطء.. تستغرق دقائق عديدة حتى تتذكر كل شيء..

كان أول ما لاحظته هو أنها في ذات موضعها على نفس الأريكة. هل غابت عن الوعي ثم ثاب لها في لحظات؟.. هناك حالات إغماء عارضة كهذه..

ثم سمعت صوت القضم والابتلاع والامتصاص...

نظرت إلى اليمين فرأت مشهدًا غريبًا بعض الشيء.. إن جيمس ألجروود جاث على ركبتيه وكفيه، وهو منحن على كومة من الثياب الدامية.. كلب يلتهم وجبة الغداء.. هذا ما خطر لها من المشهد..

عندما دققت أكثر أدركت أنها تحملق فيما تبقى من نادية صديقتها. إنها راقدة كأي فريسة تحترم نفسها قدموها للأسد في حديقة الحيوان..

من هو جيمس ألجروود؟.. ماذا يفعله؟..

هل هو الشيطان؟

راحت تتنفس بسرعة وهي تجاهد حتى لا تفقد الوعي. لكن معدتها كانت أقوى وسرعان ما أفرغتها على السجادة.. نهضت وهي تترنح.

كان الشراب يحوي مخدرًا.. لقد تم تخديرها وربما تخدير صاحبتها.. والغرض.. الغرض لم يكن السرقة بل الالتهام.. حرفيًا الالتهام.. جيمس ألجروود آكل لحوم بشر أو مصاص دماء. لا تعرف حقًّا..

- «السيد ذو البذلة السوداء لم يظهر في أي صورة!.. هل ترين؟.. كانت هناك عشر مرات يمكن أن يظهر فيها..»

قالت السائحة الألمانية هذا وليتها أصغت..

ليتها أصغت..

لا تثقي يا سيدتي أبدًا فيمن لا يظهرون في المرايا وفي الصور الفوتوغرافية. عندما يتقدم لك عريس منهم فاطرديه بغلظة..

كانت تتجه للباب ماشية بظهرها.. عندما وجدت أنه يمسك بمعصمها. متى جاء؟.. لا تعرف.. إنّه سريع جدًّا أو هو غير مادي..

عندما نظرت له رأت وجهه ملطّخًا بالدم...وجه أسد كان يتناول وجبته حالًا.. تلك الرائحة..

قال لها بصوت مبحوح:

- «لا تقلقي بصدد الجثة.. أنا سأخفي الجثة..»

هتفت وهي ترتجف:

- «اتركني.. أنت لست.. لست..»

ثم فطنت إلى أنها تتكلم العربيّة فعادت تكرر نفس الكلام بالإنجليزية. قال لها:

- «منذ البداية لم أنو أن أفتك بك.. أنا كائن طيفي شبحي لا يتمتع بقوى ماديّة. فقط يمكن أن أمس يدك أو أغلق بابًا.. كي أكتسب ماديتي من جديد أنا بحاجة للدم البشري واللحم البشري لهذا طلبت منك أن تزوريني.. طلبت أن تجلبي صديقة لك.. أنت فعلت هذا وسوف تفعلينه إلى أن أصير ماديًا والوعد الذي أقدمه لك هو ألا تكوني أنت آخر وجبة لي. لن أفتك بك..»

كانت تبكي وشعرت أنها عاجزة عن الوقوف.. لا يمكنها فهم أو استيعاب ما يُقال كأنه باللغة الفنلندية:

- «دعني.. لماذا أفعل ذلك؟»

- «لأنني سألاحقك في كل مكان.. أعرف مسكنك وغرفة نومك وأعرف أفراد أسرتك. إن لم تأتيني بما أريد فلسوف أخرج لأظفر به. عندما ترين جثة أمك الممزقة هنا فلا تقولي إنني متوحش.. لقد حاولت..»

نظرت إلى حيث كانت جثة صاحبتها وهمست:

- «أنت.. أنت قد التهمتها..»

قال وهو يترك معصمها:

- «لا يهم ما يحدث لها بعد الموت.. فقط أنا أفعل هذا من أجل غرض أسمى وأهم. صدقيني لن تحبي ما سيحدث لو جاء حامل الضياء إلى العالم مكتمل القدرات...»

- «لا أفهم..»

- «لن تفهمي.. والآن ارحلي.. وتذكري أنني أنتظر الضحيّة التالية بعد يومين في نفس المكان عند المتحف المصري..»

وفتح لها الباب فخرجت تترنح كأنها ثملة.. لا تذكر أين الدرج ولا أين الشارع، ولا اسم الحيّ الذي هي فيه.. احتاجت لنصف ساعة حتى تجد نفسها في شارع القصر العيني..

التهاب رئوي وشنق.. إلخ

-1-

في المساء بدأ د. لوسيفر في تجربة الديدان..

كانت تزحف في كل مكان وتلتهم كل شيء. ولاحظ الناس أن الأطعمة تتعفن بسرعة، كما لاحظ المرضى أن جروحهم تنتن.. كانت الديدان الدقيقة في كل مكان تقريبًا..

البالوعات في وسط المدينة امتلأت بالديدان..

في منزلها لاحظت مها أن الطعام الذي حفظته في علبة بالثلاجة منذ يوم واحد قد تغطى بالطحلب والديدان. تقلص وجهها اشمئزازًا وتخلصت منه في القمامة. قررت أن تجلب رجل صيانة الثلاجات غدًا لأنهّا تلفت غالبًا.. هي تكره إحضار أي عمال للبيت لأن هذا يفسد سمعتها..

الحقيقة أن الأمور هدأت تمامًا بعد تخلصها من الكتاب اللعين، ولهذا قررت أن تنتقم من رفعت إذا رأته.. لم تجد ثعابين لحسن الحظ برغم أنها قضت فترة لعينة من الرعب..

لكن هذه الديدان.. إن أمرها غريب فعلًا.. لابد أن تعرف السبب..

سمعت صوت الذئاب من بعيد..

ذئاب هنا؟.. في هذا الحيّ؟

الأمر مخيف وغريب.. لذا أغلقت الشباك جيدًا وذهبت لفراشها الذي صار مشتركًا مع ابنتها منذ فترة.

كانت قلقة متوترة، لذا قررت ألا تخرجا غدًا.. لن تذهب الفتاة للمدرسة.. سوف تبقيان في البيت وليكونن هذا أكثر أمنًا..

✷ ✷ ✷

وفي ساعة مبكرة من الصباح بدأت الأمطار تهطل. ازدادت كثافة فتحولت إلى سيول حقيقيّة..

ملأ الوحل الطرقات.. أنت تعرف أن القاهرة يمكن أن تغرق لو سكب عليها أحدهم كوبي ماء.. هذه عاصمة غير مؤهلة للبلل بتاتًا..

كان الناس غافين لا يعرفون بموضوع المطر..

فقط ربما تقلب أحدهم ورفع رأسه ليسمع صوت الـ (ششششت) خارج النافذة..

لكن (هشام) الصغير صحا من نومه في تلك الغرفة الصغيرة تحت السلم. كان الكتاب متواريًا في (مسقط) البناية تحت مجموعة من العلب القديمة المصنوعة من ورق مقوى، وكان مغلفًا بالبلاستيك لكن هذا غير كاف. كان هذا هو المكان الوحيد الذي خطر له لأنّه ما من أحد من السكان يدخل هذا المكان..

القاعدة الأولى: الكتاب قوي جدًّا..

القاعدة الثانية: لو تأذى الكتاب فلن يكون أحد في أمان.

هكذا أسرع يخطو فوق أقدام النائمين.. فتح الباب بحذر ليغادر الغرفة الصغيرة القذرة، ثم فتح باب المسقط الخشبي المتداعي وخطا للخارج.

المطر يتساقط مع ذلك التأثير الذي يشعرك بأن الأجسام مضيئة.. وكان البرد قارسًا قاسيًا.. كان يرتجف بقوّة كورقة وهو يرفع الأوراق المقواة التي تحولت إلى عجين بسبب المطر.

تناول الكيس البلاستيكي..

عاد للغرفة.. كان مبتلًا كإسفنج البحر أو الشعاب المرجانية.. في الظلام راح يزحف، ثم بحث تحت المنضدة الوحيدة في الغرفة الضيقة.. هناك كان الطست الذي تغسل فيه أمّه. وضع الكيس الذي يحتوي الكتاب فيه، ثم وضع فوقه أكداسًا من الخرق القديمة..

عاد للنوم وهو يرتجف كورقة ويلهث..

كان يدرك يقينًا أنه سيمرض.. لا شك في هذا...

الشخص الآخر الذي تعرض للمطر بقسوة كان أنا..

عندما بدأت الأمطار تهطل شعرت برومانسية قوية وامتزاج بالكون.. وأنت تعرف أنني ككل الشيوخ مصاب بظاهرة (الاستيقاظ قبل الأوان).. أبدأ النوم بسهولة نسبية لكن هذا لا يدوم. هكذا وجدت نفسي الوحيد المتيقظ في مصحة مليئة بالتيوس النائمة..

كنت ألبس المنامة، فوضعت فوقها الروب واتجهت إلى الباب الذي يطل على الحديقة.. فتحته ووقفت تحت الأمطار التي تغسل كل شيء.. فتحت فمي لأشرب بعضها.. من لم يشرب قطرات من المطر هو شخص لم يعش بعد..

العوينات صارت كزجاج سيارة أثناء عاصفة.. وابتلت صلعتي جدًّا.. هذا كاف.. سوف أعود..

طبعًا لأكتشف أن كالون (اللانش) الذي يغلق الباب قد انغلق من الداخل ولا يمكن فتحه من الخارج.. لقد طردت إذن!

جريت وسط الأمطار والخف ينزلق من قدمي، بينما الروب تحول إلى شبكة صياد في عرض البحر..

تبًّا!... مشكلة الطبيعة هي أنها تتظاهر بالرومانسية.. هستيرية أكثر من اللازم. كان يكفيها بضع قطرات مطر لتعلن أنها تمطر لكنّها تبالغ فعلًا. غريب أنّ هناك من يمشون تحت هذا الجو ويعتبرون أنفسهم رومانسيين مرهفي الحس..

هكذا رحت أطلق السباب وأتعثر وأنزلق في الوحل..

حتى بلغت غرفة الأمن ورحت أقرع الباب لمدّة 45 ساعة تقريبًا إلى أن استيقظ أحدهم.. يأتون لياموا طيلة الليل ثم يطالبون براتب، ويتضايقون جدًّا لو تأخر يومًا..

عندما عدت لغرفتي أخيرًا كنت أرتجف كورقة..

وعرفت أنني لا أحتاج لشيءٍ آخر كي أصاب بالتهاب رئوي هو نهايتي على الأرجح..

-2-

- «أريد أن يسود الشيطان، وأن تعوي أشباح الرغبة في الأزقة المظلمة، لكني كذلك لا أرغب أن يظفر بك حامل الضياء لا أرغب في أن يظفر بالكتاب..»

✷ ✷ ✷

لابد أنّ هذا كان وقت الظهر عندما قام رجال الشرطة بفتح الشقة عنوة..

بالفعل كانت الرائحة لا تطاق، وقد قدَّروا أنّ هذا حدث منذ ثلاثة أيام.. ربما..

(سوكة) صاحب البيت هو أول من شك، ولما كان الساكن لم يظهر طيلة هذا الوقت فقد راح يدق الباب بلا توقف. ولأن الساكن أجنبي فقد قرر ألا يتهور وأن يطلب رجال الشرطة..

جاء رجال الشرطة وحاولوا كثيرًا لكن أحدًا لم يرد..

الآن صار الجميع على يقين من المشهد الذي سيرونه عندما يدخلون، وبالفعل بدءوا يطردون الأطفال المتجمهرين ويبعدون النسوة الفضوليات.. إن مدخل الشقة في الطابق الأول كما تعرف.. أي أنه تقريبًا في الشارع..

هشم رجلا شرطة الباب..

وبينما صارت الرائحة شيطانية فعلًا، كان أحدهم قد هرع يبحث في الشقة الضيقة..

هناك في الحمام كانت الجثة المشنوقة تتدلى من ملاءة سوداء معقودة على شكل حبل. وكانت معلقة من خطاف يبدو أن سكان البيت قديمًا كانوا يعلقون عليه الخراف.. لابد أنهم كانوا يأكلون خروفًا كل يوم! الرجل يلبس كامل ثيابه كأنه يستعد للقاء الموت بشكل مهيب..

راح صاحب البيت يلطم خديه.. راح يشتم الساكن ويدعو عليه:

- «كنت أعرف يقينًا أن وراءه كارثة.. هذه أشكال لا تأتي بخير أبدًا..»

لكنه لم يكن متضايقًا جدًّا فالرجل دفع إيجار شهرين، والبناية آيلة للسقوط وسوف تزال.. لهذا لن يعوق حادث الانتحار قدوم مستأجرين آخرين..

بينما راح رجال المختبر الجنائي يلتقطون صورًا للجثة المشنوقة.. يبدو أنه تسلق على حقيبته ثم ركلها بقدمه فصار معلقًا بالحبل فقط.. والسؤال الذي يثير غيظ صاحب البيت هو: لماذا لم يفعل ذلك في أي مكان بعيدًا عني؟ إنِّه كالشخص الذي يثب من الطابق العاشر ليسقط فوق رأسك أنت بالذات....

ملامح الوجه الطفولية التي تذكرك بدمية وحالة الدهولة العامة.. كل هذا جعل كل واحد يعتقد أنه رأى هذا الرجل في مكان ما بشكل ما.. صحيح أن الجثة كانت منتفخة متحللة لكن كان بوسعك أن تعرف ملامح المشنوق.

بحث رجال الشرطة حتى وجدوا مع الرجل جواز سفر يحمل اسم (سام كولبي).. أمريكي الجنسيّة.

كانت هناك رسالة في مغلف كذلك.. وكانت هناك مشكلة في فتحها مما قد يتلف البصمات، لكن أحد رجال المختبر الجنائي رفع البصمات من عليها ثم دسّ يده في قفاز وفتحها..

كانت مكتوبة بالإنجليزية.. قال الرجل في عدم فهم:

- «هذه رسالة.. يقول فيها:

عزيزي رفعت:

عندما تقرأ هذه السطور، سأكون غالبًا في طريقي للوطن لأدفن هناك، ولسوف تسبب وفاتي صدمة لك.. صدمة ثكل لو كنت تحبني، وصدمة خوف على مصيرك أنت لو كنت تكرهني..

عجزت تمامًا عن إيجاد طريقة للخلاص من كراولي.. بالفعل هذا أقوى مني.. جربت يومين دون جدوى، واعتقادي الخاص إنِّه بدأ يسترد ماديته. لا أدري كيف. ربما هو وجد مصدرًا متجددًا للدماء.. أعرف أنني السبب وأني جئت لكم بمصيبة حقيقيّة تزيد الحياة تعقيدًا فسامحني.

المشكلة الأخرى هي أنني لا أستطيع مواجهة لوسيفر. إنِّه حانق وغاضب.. وقوي جدًّا. أنت لا تعرف مدى قوته لأنّه كان يداعبك لا أكثر طيلة هذه السنين. لا أتحمل اللحظة الأكيدة التي سيسترد فيها كتابه ويأتي ليبيدني ويبيدك.. سوف يكون عذابه شديدًا لأنّه يتمتع بسادية غير معقولة، وقسوته جزء من كبريائه وفخره. في جانب النجوم يجب أن يعرفوا عنه أشد درجة من القسوة.. القسوة التي لا تملكها الضباع ولا الأسود.

سوف أفر منه إلى حيث لا يجدني.. لن يقدر على استرداد روحي أو إيذائي؛ لأنني هربت بالفعل، وآمل أن يرحمني الله.. كان عليَّ أن أختار بين الانتحار أو تحمل أعلى درجات العذاب..

الآن سوف أعلق هذه المشنقة.. وسوف أتدلى من الملاءة جثة هامدة. إنِّه سوف يأتي من أجلك.. كلاهما آت من أجلك سواء لوسيفر أو كراولي.. لذا أنصحك أن تفعل مثلي فلا يوجد حل آخر.. ابحث عن ملاءة تتدلى منها.. هذا هو الحل الوحيد صدقني..

وداعًا....

كولبي»

لم يفهم رجال الشرطة حرفًا لكن الرسالة قالت بوضوح إن الوفاة انتحار.. لا شك في هذا.. فقط عليهم أن يفهموا من هو رفعت هذا..

قال أحد رجال الشرطة مازحًا:

- «إن كراولي ولوسيفر هنا.. لقد اقتربت نهايتنا..»

في الواقع لم يفهم كم أنّ هذه المزحة واقعية..

هكذا رحل كولبي..

أعوام طويلة مشتركة انتهت للأبد...

أعترف أنه نصاب لكنني أحببته كثيرًا وعرفت منه الكثير كما أنه أفادني أكثر من مرة.. على الأقل لن يشكو من البروستاتا ثانية.. هذا شيء مهم..

✷ ✷ ✷

كان عليَّ أن أنتظر طويلًا حتى أعرف..

حتى أجد المذكرة في يدي..

لكنني في تلك اللحظات كنت لا أعرف شيئًا على الإطلاق كأنني كلب صغير رضيع لم تفتح عيناه ولا أذناه بعد.. لم أكن أعرف كولبي ولا من هو.

لم أكن أعرف الورطة التي أنا فيها.

ولم أكن أعرف أن لوسيفر قد قرر أن ينهي اللعبة..

حتى أمثال لوسيفر يشعرون بالملل بعد قرون من الانتظار. لست الوحيد سريع الملل هنا

أنا أتحسن يا عيواس

-1-

أنا أتحسن يا عيواس..

بالفعل أنا أسترد ماديتي وأزداد قوة..

هل تعي ذلك؟.. هل تراه؟...

إن الدم البشري قوي حقًّا. ليست هذه تجربتي الأولى في شربه.. تعرف أنني جربته في حياتي مرارًا. خبرات كثيرة تراكمت لديَّ ثم استلبها الموت مني. أنا الوحيد الذي كان يلفظ أنفاسه فلم يطلب رجل دين وإنما طلب من يقرأ عليه مقاطع من قانون ثليما..

إن الفرصة متاحة لي لمواصلة حياتي.. أنت تعرف أنني أحب القاهرة والمتحف المصري على بعد خطوات من تونة الجبل ومعبد تحوت..

والهرميتات!!!

أنا أتحسن يا عيواس..

سوف أبحث عن كتاب الأسرار ولسوف أجده.. أعرف هذا يقينًا..

✷ ✷ ✷

في المرّة الثانية لم يقدم جيمس ألجروود - أو أليستر كراولي - العصير لسوسن...

كانت هناك في شقته تنتظر كالعادة أن ترى التماثيل التي صنعها. كانت ترتدي ثوبًا بلون السماء، وتربط حزامًا أزرق حول خصرها وقد تدلى قرطان سماويان من أذنيها. كانت فاتنة كالعادة، وجوارها كان شاب يعتقد أنه سيفوز بها في النهاية.. اسمه هو..

لقد نسى جيمس اسمه..

يا لقوته!.. يا للدم الذي يجري في أوردة عنقه وفي بشرته..!.. هذا الفتى سيكون وجبة ممتازة فسحقًا للفتيات البدينات..

الشاب همس في أذن الفتاة بينما ألجروود يصب له بعض الشراب:

- «هل تعرفين؟.. هذا الأجنبي يشبه بشدة ساحرًا شريرًا يعرفونه في بريطانيا.. اسمه (ألستر كراولي)..»

كان الشاب مخرجًا سينمائيًا شابًا وقد قضى فترة طويلة في بريطانيا... لذا كانت رموز الثقافة البريطانية هذه مألوفة لديه.. رجل الشارع العادي على كل حال كان سيقول إن الرجل الأجنبي قريب جدًّا من موسوليني..

ابتسمت الفتاة وقالت في دلال:

- «يا مامي!... ساحر؟.. وماذا تعرف عنه؟»

- «لا أعرف سوى هذا..»

ثم جاء جيمس بالكأس فتناوله الفتى، ورشف رشفة خفيفة وقال موجهًا كلامه للرجل:

- «سوسن قالت لي إن لديك أعمالًا فنية جديرة بالاهتمام..»

قال البريطاني في تواضع:

- «هذه حماسة شبابية واضحة.. لست بارعًا لهذا الحد..»

كان الفتى نافد الصبر. إن لم يكن الرجل بارعًا لهذا الحد فلماذا يضيع وقته ويأتي به هنا؟.. رشف رشفة خفيفة أخرى ثم تحسس رأسه وغمغم:

- «هذا مشروب قوي جدًّا.. أشعر بدوار..»

قال البريطاني:

- «فودكا.. قلت إنك تعرفها.. أعترف أنها قوية جدًّا..»

- «جدًّا..»

ثم بدأ رأسه يتدلى على كتفه.. غربت عيناه وتعالى صوت شخيره..

قال ألجروود وهو يتناول الكأس من يده قبل أن يتهشم:

- «لقد نام... والآن يا سوسن.. أقترح أن تنصرفي أو تغمضي عينيك وأذنيك..»

قالت في عصبية:

- «سوف أرحل..»

- «موعدنا غدًا في المتحف المصري.. أريد ضحية أخرى..»

هتفت محتجة وهي موشكة على الانفجار النهائي:

- «لن تجرني معك في هذا.. لا أتحمل أكثر..»

- «أنت معي فعلًا.. بالنسبة للقضاء لا يختلف قتيل عن عشرة قتلى..»

- «هناك لحظة للتوقف..»

- «هي لم تأت بعد..»

وسمعته يتلمظ ثم سمعت صوت شدقيه، فابتعدت نحو الباب محاولة ألا تسمع أو ترى.. كانت تفكر في الضحيّة القادمة التي ستخدعها.. لشد ما تغيرت حياتها خلال ثلاثة أيام.. فجأة هي تمارس نفس نشاط ريا وسكينة وتسلم أصدقاءها للقتل.. نسخة أنثويّة من يهوذا الإسخريوطي من دون ثلاثين قطعة من الفضة..

هنا سمعت صوت الصياح..

نظرت للخلف فوجدت الشاب قد أمسك بجيمس من عنقه وألقى به أرضًا، ثم انهال عليه لكمًا بذات اليمين وذات الشمال..

كان يردد بلا توقف:

- «أنا خمنت من نظراتك وشكلك المريب إن الشراب يحوي شيئًا ما.. لقد تظاهرت بالشرب يا أحمق..!!»

ووجه لكمة أخرى...

- «الآن يجب أن أفهم.. هل هذا تنظيم عصابي ما؟»

كانت تنظر في ذهول.. الحقيقة أن جيمس برغم بنيانه المتين وعضلاته المكتملة، كان ضعيفًا فعلًا.. بالفعل هو أقرب لكيان شبحي غير مادي.. ربما يفتح بابًا أو يغلب فتاة لكنه في النهاية لا يقدر على صراع مع شاب غاضب..

كان وجه جيمس محتقنًا بينما الفتى يضرب رأسه في البلاط مرة تلو المرّة..

سوف يموت..

ولكن كيف يموت إذا لم يكن موجودًا؟؟

هي غير خائفة عليه، لكنّها بالتأكيد قلقة بصدد المخرج الشاب صديقها.. عندما ينتهي سوف ينهض ويطلب منها تفسيرًا..

هكذا بحثت حولها فرأت ذلك المقعد الثقيل جوار المائدة.. حملته بكثير من العسر ووقفت خلف الشاب المنهمك ثم هوت بكل قوتها على رأسه..

✷ ✷ ✷

لمدة ساعة تقريبًا ظل الثلاثة راقدين على الأرض الباردة..

هي فقدت وعيها وتفككت أعصابها..

جيمس يحاول استعادة توازنه..

الفتى تفجر الدم من رأسه وفقد وعيه لكنه حي على الأرجح..

نهض جيمس أولًا.. لم يضيع الوقت في الأسئلة ولا الفهم. زحف على أربع نحو الشاب فاقد الوعي، ومن جديد بدأت تسمع الجلبة وصوت الشدقين... لم تنظر.. ظلت تحملق في السقف محاولة أن تنسى ما تسمعه وما مرّت به..

قال لها جيمس وهو يمتص شيئًا ما من عروق الفتى:

- «أنت تدافعين عني..»

قالت دون أن تنظر له:

- «أدافع عن نفسي أولًا.. أمّا أنت فأدعو الله أن يرسلك إلى الجحيم..»

- «كنت هناك..»

وواصل الامتصاص والقضم... تبًّا هذا الصوت يحطم الأعصاب فعلًا.. أنت تشعر به مصغرًا عندما يجلس جوارك في السينما رجل يلتهم الفيشار بلا توقف. حسن.. أنت لم تسمع شيئًا بعد!

في النهاية استطاع أن ينهض.. شعرت بقدميه جوار خصرها فرفعت عينيها.. كان وجهه ملوثًا كالمرة السابقة، لكنّها أدركت أنه ازداد قوة.. قال لها:

- «والآن ارحلي.. موعدنا في الغد..»

- «والجثة؟..»

- «سوف أتخلص منها..»

-2-

إنني بقصصك أسعد ولها قلبي يطرب، والمسوخ الآخرون هم من أجلي منتشون.

✷ ✷ ✷

عندما اقترب المساء جلس لوسيفر على سفح الهرم الأكبر يرمق الصحراء المظلمة الممتدة أمامه..

لقد ألقى نظرة على كولبي.. بعبارة أخرى أرسل المتسولين يبحثون عنه، وعلى الفور انتقلت الصور البصرية إلى عقله. رأى كولبي جثة مشنوقة يحيط بها رجال الشرطة، ورأى المذكرة التي كتبها كولبي لرفعت.. لا يوجد فيها أي شيء يدل على مكان الأخير وهذا متوقّع..

لقد مات كولبي.. هرب.. وكان بالفعل قد أعد له عقابًا مروعًا.. لقد كان في صف رفعت الفاني أكثر مما كان في صفه، برغم أنه مفيد وبلا خطر.. لقد حق عليه العقاب، لكن ليس بهذه الميتة الهينة.. هناك الزيجول الذي يلتهم طبقات الجلد ثم العضلات ويترك الأعصاب ملتهبة حارقة حتى آخر لحظة... هناك الريموزا الذي يتم إدخاله في فم الضحيّة.. تتزايد حرارته مع الوقت حتى يتحول إلى نار محمية تشتعل في أحشاء الضحيّة.. هذا موت بطيء يستغرق عدة ساعات.. هناك ديدان الناكاخ التي تقتحم الرأس من الأنف، وتشق طريقها في جمجمة الضحيّة حتى المخ مدمرة كل شيء تقابله.

وهناك الكثير من المرح.. لكن بشرط: يجب أن تكون الضحيّة حية..

رحل كولبي بما يعرفه.. ومن الواضح أنه لم يكن يعرف الكثير..

لقد توارى رفعت منفردًا أو بشكل لا يعرفه من يعرفونه..

سوف يكتب ابنه خيرياسوس المدون فيما بعد أن بشريًا أحمق خدع حامل الضياء إنهم ينتزعون منه المجد، والكارثة الحقيقية هي أن يموت رفعت قبل أن يجده لوسيفر.. من المؤكد أن رفعت وجد الكتاب ويعرف أين هو.. هكذا سيكون عليه أن يواجه الشيطان ليخبره أن كتاب تحوت ضاع للأبد.....

لابد من البحث أكثر..

إن الذئاب والمتسولين والديدان لم يحققوا شيئًا، وإذن فالوقت وقت أساليب أقوى..

✷ ✷ ✷

هكذا ارتفعت درجة حرارتي..

رحت أسعل بلا توقف، وفكرت في الالتهاب الرئوي، لكن شيئًا لا أعرفه في عقلي قال لي إن هذا مستحيل.. هناك فترة حضانة قبل الالتهاب. من أخبرني بهذا؟.. لا أعرف لكني فعلًا بدأت أعتقد أنّ هناك جانبًا طبيًا في شخصيتي..

رحت أرتجف وأهلوس..

وسط الهلوسة رأيت نفسي أحمل لفافة وأركض، ومن خلفي يركض كلب أسود عملاق لا يمكن أن يكون كلبًا حقيقيًا.. هذا كلب آل باسكرفيل كما في قصة دويل. كنت في صحراء ممتدة ولا أحد حولي ولا ملجأ بينما هناك من يردد:

- «إنني بك أسعد ولك قلبي يطرب..»

كنت أتعثر وأسقط.. ومن اللفافة التي أحملها راحت أوراق ملوثة بالدم تتناثر...

صحوت ملوثًا بالعرق.. شاعرًا أن قدمي مغروستان في الرمال.

جاء الطبيب الباطني ليفحصني.. وأعلن أنها حالة إنفلونزا بسيطة.. طلب مني أن أستريح ولا أغادر الفراش وأعطاني بعض المسكنات..

الحقيقة أنني كنت في حاجة إلى منبهات. لا أريد أن أنام ثانية ويأتي ذلك الكلب الأسود يلاحقني من جديد...

لم أعرف أنه في ذلك الوقت تقريبًا ارتفعت حرارة الصبي هشام ابن البواب جدًّا.

راح يرتجف ويهلوس.. ولم تعرف أمّه ما تفعله. طبعًا أذابت بعض الأسبيرين في كوب ماء وراحت تسقيه.. وهو عمل أحمق كنا نلجأ له كثيرًا في الماضي قبل أن ندرك خطر الأسبيرين على الأطفال. لكن حرارة الصبي بدأت تهبط..

راح يسعل بقوّة فسقته منقوع الزنجبيل مع الحلبة مع العسل هذا خليط شنيع يرغم المريض على الشفاء حتى لا يتذوقه ثانية.. لابد أنه يقتل الفيروسات كذلك لأن الفيروس كائن حي يشمئز بدوره.

نام الصبي وراح يهلوس..

غريب جدًّا أن أحلامه راحت تدور حول صحراء يركض فيها بينما كلب أسود عملاق يطارده...

✷ ✷ ✷

من جديد اتصل أهل نادية بسوسن..

سمعت صوت الأم الباكية على الهاتف تردد:

- «لم تظهر بعد.. هذا مستحيل..»

قالت سوسن محاولة أن تجعل صوتها مقنعًا:

- «صدقيني.. لم تأت لموعدنا في المتحف المصري.. لقد اختفت قبل ذلك.. أنا واثقة من أنها ستعود..»

- «جربنا المستشفيات والمشرحة وأقسام الشرطة.. ماذا نفعل ثانية؟.. آخر ما قالته لي هو أنها على موعد معك..»

- «أنا نفسي قلقة جدًّا... صدقيني..»

- «أرجو أن تتذكري جيدًا.. ربما لكما صديقة مشتركة ذهبت لها..»

ووضعت الأم السماعة.. سوف تتصل بالتأكيد بعد ساعة أخرى. لقد صار الأمر يحطم الأعصاب. وفي الوقت نفسه اتصل أحد أصدقاء المخرج الشاب حلمي يسألها عنه.. إنّه يعرف رقم هاتفها إذن، ويعرف أن المخرج يحبّها...

المخرج اختفى تمامًا ولا يعرف أحد أين هو.. قال له إنّه سيقابل سوسن عند المتحف المصري ثم تلاشت أخباره..

راحت تكرر الأسطوانة المشروخة..

إنها في مأزق.. هناك من يشك فيها في كلّ مرّة، ولن يطول الأمر حتى يدرك رجال الشرطة أنّ هناك فتاة واحدة تعتبر عاملًا مشتركًا في كل حوادث الاختفاء. لن يعدم الأمر كذلك أن يظهر من رآها مع المخرج أو مع نادية وهذا يثبت أنها تكذب..

يا له من مأزق..

النقطة الأخرى الأخطر ليست في إخفاء ما قامت به.. الأخطر هو أن تجد ضحية جديدة..

هل تبلغ الشرطة؟.. بالطبع لا.. لقد تورطت بما يكفي ولن يصدقها أحد. ثم أنها تدرك الآن أنها تتعامل مع لعبة بلا قواعد ماديّة معروفة.. هذا الذي يحاصرها سوف يجدها حيثما كانت.. سوف يجد أسرتها....

تصورت أخاها على الأرض ممزقًا بينما ذلك المسخ يلتهمه اقشعرت.. لن تستطيع التراجع..
سوف تجد ضحية جديدة اليوم..

الضباب

-1-

قالت نرمين وهي تلثم سوسن على خدها:

- «أوحشتني يا أبلة سوسن..»

كانت واقفة على باب المدرسة بالثياب الزرقاء المميزة، وقد علقت حقيبتها على ظهرها وراحت تعبث في ضفيرتيها..

نرمين قريبة سوسن من بعيد، وهي في الثالثة عشرة من عمرها. في هذه السن تكف البنات عن الانبهار بالأب ويملن للأم أو الأنثى الناضجة عامّة، وقد كانت نرمين تعتبر سوسن قدوتها لما تريد أن تكونه يومًا..

نظرت سوسن حولها ثم وضعت يدها على كتف نرمين:

- «أنا بحاجة لك.. لا أعرف شخصًا آخر يمكن أن يساعدني..»

- «أي شيء تريدين..»

- «سوف نذهب في مشوار قصير إلى المتحف المصري وربما لجاردن سيتي..»

- «لكني لم أخبر أحدًا.. أسرتي ستقلق عليّ..»

- «ليس وأنت معي.. على كل حال يُمكنك الرفض لو أردت..»

فكرت نرمين قليلًا.. هي لا تنوي التخلي عن سوسن رمز الأنوثة بالنسبة لها.. كل ما تقوله سوسن أو تفعله يسعدها. لا بأس بهذه الرحلة القصيرة، خاصة أنها مع سوسن. لن تكون مع شخص غريب..

فكرت حينًا ثم امتصت طرف ضفيرتها وقالت:

- «هيا بنا..»

كانت سوسن تفكر: لقد تورطت جدًّا.. جدًّا.. أنا في أسفل المنحنى.. أنا في القاع الآن.. لكني مضطرة لذلك.. جيمس سوف يجدني ويفتك بأسرتي. فكرت مرارًا في أن تقتل نفسها لكنّها لم

تجرؤ.. ثم إن هذا سيجلب العار على أسرتها.. سوف يعتقد الناس أنها انتحرت لسبب أخلاقي، ولن يصدّق أحد أنها انتحرت كي تفر من غول يطلب الجثث البشريّة..

ليت الأمر ينتهي اليوم..

لقد انتهى من جثتين.. أعتقد أن استعادة ماديته صارت مؤكدة..

سوف يُطلق سراحي أو يقتلني.. لا مشكلة عندي.. المهم أن ينتهي هذا كله..

✷ ✷ ✷

عند الظهيرة وقف لوسيفر يُلقي نظرة على الصحراء الممتدة أمامه..

الآن حان الوقت...

وبدأ يتنفس بعمق.. يزفر بأقوى ما استطاع..

لو أنك رأيت المشهد فلن تفهم ما يحدث.. لا يوجد شيء غريب، لكنك لو تسلقت لأعلى أو ركبت طائرة لبدأت تدرك أنّ هناك نوعًا خفيفا جدًّا من الضباب الأخضر يتزايد.. ينبعث من حول حامل الضياء الواقف...

ضباب أخضر رقيق جدًّا لا تلاحظه إلا بمشقة بالغة...

بدأ الضباب يتحرك.. ينتشر... يتغلغل.. يزحف على كل مكان..

لم تدون الأرصاد أي شيء، كما أنّ المسافرين على الطرق لم يلحظوه لأنّه كما قلت لك غير كثيف... ربما له رائحة عطرية بسيطة جدًّا لا يلاحظها إلا من أوتوا أنوف كلاب.. فما عدا هذا بدا كل شيء هادئًا..

هذه الطريقة تعرفها الشياطين منذ زمن.

هذا الضباب يزحف في كل مكان.. يتسلل...

والأخطر أنه يعرف.. يتلصص...

عندما تستنشق أنت هذا الضباب فإن عقلك يبوح بأسراره سريعًا.. ولم يكن لوسيفر يريد أسرار البشر التافهة.. كان يريد إجابة عن سؤال واحد فشل المتسولون وفشلت الذئاب وفشلت الديدان في أن تجيب عنه:

أين ذهب رفعت إسماعيل؟.. أين الكتاب؟

الضباب ينتشر..

يستنشق الناس الواقفون عند محطات الحافلات.. في السوق يشمونه.. في الزحام.. في أفنية المدارس.. وبدأ يزحف ببطء نحو الإسكندرية ونحو بلدان أخرى عديدة..

عندما يأتي المساء ستكون كل الخارطة تحت سيطرة هذا الضباب..

وسوف يعرف..

✷ ✷ ✷

لكن هناك أشخاصًا لم يشموا الضباب أصلًا..

عندما ملأ الضباب حديقة المصحة، كنت أنا في غرفتي أعاني الحمى وأهلوس.. وكانت الغرفة مغلقة...

وعندما بلغ الضباب تلك الضاحية الهادئة.. كان هشام الصغير يعاني الحمى وقد أغلقت عليه الغرفة، وكان يحاول جاهدًا أن تصمد معدته أمام منقوع الجنزبيل الذي ملأها..

كان هذا حظًا عجيبًا، فلو لمس الضباب أحدنا لانتهى البحث في لحظة..

لكن هناك آخرين قدموا للضباب إجابات ممتازة.

-2-

لم يتلق لوسيفر إجابات..

للمرة الأولى بدأ يقلق.. لربما هلك رفعت فعلًا وسره معه؟.. ربما هو تحت الأرض الآن؟.. لكن الذئاب لم تجد شيئًا.. لقد نبشت معظم القبور الحديثة.. بالذات في قرى الشرقية لأن رفعت سيدفن هناك..

هل رفعت في جانب النجوم؟.. كان لوسيفر سيعرف على الفور..

✷ ✷ ✷

مها وابنتها كذلك كانتا قد أغلقتا البيت عليهما.. وبالطبع كانت النوافذ موصدة منعًا لتسلل البرد والثعابين...

كانت مها خائفة من الديدان والذئاب والمتسولين في كل مكان لذا منعت الفتاة من الذهاب للمدرسة وأمضت المرأتان اليوم في البيت.. أجرت الفتاة مكالمات هاتفية كثيرة تجسست الأم عليها جميعًا.. الوضع الأمثل بالنسبة لها هو أن تسجن الفتاة مقيدة بالسلاسل في غرفتها للأبد وتطعمها حتى تموت.. لا يوجد حل آخر للسيطرة على فتاة مراهقة..

- «أنا مطلقة.. مطلقة.. هل فهمت؟.. ينتظرون خطأ واحدًا لي كي يتخرصوا..»

هكذا ملأ الضباب الشرفة وراح يتسلل حول الجدران ويتلمس النوافذ، لكنه عجز عن الدخول..

لكن لا تقلقوا..

لن تظل المرأتان هنا للأبد.. حتمًا سوف تخرج واحدة منهما وعندها سوف تستنشق الضباب.. وفي اللحظة التالية سوف يعرف لوسيفر أن رفعت كان هنا..

✷ ✷ ✷

لكن كراولي شعر بذلك..

كان في تلك الشقة يتهيأ للذهاب إلى المتحف المصري للقاء سوسن وضحيتها التالية.. سوف يعود بهما للشقة ويواصل الاغتذاء..

الحقيقة أنه استعاد قسطًا كبيرًا من كيانه المادي، حتى أنه بدأ يفكر في أنه بحاجة إلى امرأة.. يبدو أن سوسن ستكون صالحة له. هو في حياته لم يترك امرأة وشأنها ويبدو أنه سيعود إلى اشتهاء النساء من جديد..

تأمل نفسه في المرآة فرأى صورته ضبابية شفافة.. يحتاج إلى لمسة أخرى تعيد له رونقه الكامل، وعندها سوف يظهر في الصور الفوتوغرافية ويصير له ظل واضح..

ألستر كراولي.. أكثر الرجال شرًا.. الوحش.. شبيه الشيطان.. أخطر ساحر في التاريخ.. مؤسس مذهب الثليما وصاحب كتاب القانون.. هو ذا..

كان كراولي قد تخلص من بقايا الجثتين السابقتين بطقوس سحرية معينة، وهكذا ظفرت بهما شياطين العالم السفلي.. مشهد رهيب هو عندما ينشق البلاط في الشقة وتبرز تلك الكائنات الرغوية المخيفة وتبحث عن لحم.. ثم تلتف على بقايا الجثة وتسحبها إلى تحت، ثم يلتئم البلاط من جديد..

لو رأت سوسن هذا المشهد لماتت أو فقدت وعيها رعبًا..

الآن يجب أن يضع خطة العثور على الكتاب. عندما يجد الكتاب لن يستطيع لوسيفر أن يؤذيه لأن الكتاب له سلطة مطلقة تحمي من يحمله.. لو عرف كولبي الأحمق هذا لأبقى الكتاب معه وما كان أحد ليؤذيه.. لكنه لا يعرف..

من الطبائع البشريّة أنك تخفي الذهب تحت صخرة ولا تبقيه معك.. لا أحد يتوقع أن إبقاء الذهب معك يحميك ويحمى الذهب لهذا يجب أن يتوقع أن الكتاب ليس مع كولبي ولا مع ذلك المصري النحيل الأصلع الذي جلس يستجوبه.. وبرغم هذا هما يعرفان مكانه بالتأكيد..

ترى أين كولبي؟..

لم يكن قد عرف حتى هذه اللحظة أن كولبي مات..

فتح الباب وخرج من الشقة.. هنا شمّ الرائحة العطرية الخفيفة..

ما مصدرها؟..

نظر إلى الهواء الذي يحمل لمسة خضراء لا تميزها سوي عين حساسة جدًّا.. هذا ضباب.. ما مصدره؟

ثم بدأ يتوتر وقد تذكر هذه الطريقة.. إنها واردة في كتب السحر العتيقة وقيل إن بلفاجور يمارسها.. الضباب الذي يتسلل إلى كل مكان ويملأ كل شيء ويعرف ما يدور في الأذهان، ثم يعود ليخبر لوسيفر بالحقيقة كلها...

ما كان يتصوّر أن رغبة لوسيفر في الكتاب يمكن أن تبلغ هذا الحد.. هذا عمل ضخم خطير.. ولوسيفر بالفعل ليس خصمًا هينًا..

ساعدني يا عيواس..

- «افعل ما تريد.. هذا هو القانون..!»

امنع هذا الشيطان من العثور عليَّ.. لا تدع هذا الضباب يدخلني..

عيواس.....

بالفعل بدأت هالة تتكون حول كراولي تحميه من لمسة الضباب.

والآن هو في سلام، لكنه يعرف أن الضباب هناك في الخارج.

لوسيفر الآن يعرف ما تعرفه الفتاة وسوف يخمن كل شيء بسهولة. الفتاة على علاقة برجل بريطاني يلتهم الموتى ويطلب منها أن تحضر له المزيد.. رجل بريطاني يحبّ المتحف المصري. لا يوجد شك في الأمر... سوف يجده حتمًا..

لا يمكن أن يعود للقاء الفتاة... لن يبقى في هذا البيت بعد ذلك لأن لوسيفر سيأتي قريبًا جدًّا.. ربما خلال دقائق..

المشكلة أنه ضعيف.. ما زال لم يكسب ماديته المفقودة بعد...

هكذا وبلا تردد عاد للشقة ليأخذ شيئًا ثم هبط في الدرج..

اتجه إلى شقّة في الطابق الثالث.. شقّة يعيش فيها شاب أعزب رآه عدة مرات من قبل. دق الجرس في إلحاح..

انفتح الباب وظهر الشاب وهو يجفف وجهه بمنشفة ويلبس الفانلة الداخلية وسروال منامة، فلمّا رأى كراولي قال ضاحكًا:

- «خيرًا يا خواجة؟.. هلا تناولت طعام الغداء معـ..؟»

قبل أن يكمل الجملة اقتحم كراولي الشقة، وهوى على رأس الشاب بمطرقة كان يحملها، فسقط الأخير والدم يسيل من رأسه.. لا نعرف هل مات أم لا.. ولا نجد فارقًا كبيرًا..

أغلق كراولي الباب وزحف ليجثم على الفتى ويواصل عملية استعادة حالته الماديّة.. صوت اللعق والقضم هذا...

فرغ من عمله وازداد قوة، فاستدعى شياطين العالم السفلي..

راح يجفف وجهه بمنشفة الشاب، بينما البلاط ينفتح تخرج تلك الممسات الرغوية.. صوت تجشؤ ثقيل.. ثمّة شيء يغلي تحت الأرض ويفور ويمور....

وببطء بدأت أشلاء الفتى تهبط لأسفل وتختفي..

ابتسم كراولي من سخرية الموقف. هذا الشاب كان على وشك التهام الغداء والنوم، ولم يتصوّر لحظة أنه سيتحول إلى جثة تصطرع عليها شياطين العالم السفلي خلال ربع ساعة..

شمّ رائحة حساء الخضر واللحم من المطبخ. لا بأس بأن يتناول هذه الوجبة كذلك فلن يأكلها أحد.. وهو صار بحاجة للطعام بانتظام مثل البشر.. لقد صارت له معدة وجهاز هضمي كامل..

بعد هذا سوف يفر إلى مكان لا يعرفه أحد.. يجب أن يتم هذا قبل أن يصل لوسيفر اللعين..

الدائرة تضيق

-1-

عند حديقة المتحف المصري وقفت سوسن كثيرًا جدًّا تنتظر.

لم يأت جيمس.. تمنت هذا كثيرًا لكنّها كذلك كانت ترجو أن تجد تفسيرًا.. ما دام لم يأت فهل لها أن تأمل في الحرية؟.. ربما هي تحررت فعلًا؟

نظرت لها نرمين متسائلة، فقالت سوسن في رفق:

- «هل تثقين بي؟»

- «تعرفين هذا يا أبلة سوسن..»

- «إذن تعالي معي.. سوف نأخذ سيارة أجرة..»

- «لكني تأخرت فعـ...»

- «سوف أشرح لأمك كل شيء.. لا تثريب عليك.. هلمّ..»

لحقت بها الفتاة المراهقة وهي لا تفهم معنى هذا..

ألقت سوسن جسدها في سيارة الأجرة واحتضنت قريبتها وذكرت العنوان للسائق غريبة هذه الرائحة العطرية الخفيفة التي تشمها..

لا تعرف أنها شمت الضباب... شمته بقوّة.. وهو الآن في رئتها.. يتسرب لخلاياها يستجوبها خلية خلية كأنه ساحر نكرومانسر يجيد عمله.. يعرف كل شيء.. يرى ما رأته.. يسمع ما سمعته...

وفي مكان ما من الصحراء فتح لوسيفر عينه المغمضة... لقد وجد شيئًا....

عوت الذئاب في الفلاة وقد أحست بالإشارة...

- «صبوا لنا بعض الدم المختمر، ولتسمعونا صرخات المعذبين في أقبية (هيدز)... ولترقص الجثث المتحللة في انتشاء.. إن لوسيفر والحق يُقال راض..»

✷ ✷ ✷

تلك الفتاة..

تلك الفتاة..

الفتاة الناحلة التي تبدو كصور الملائكة في رسوم الرافائيليين..

هذه الفتاة على علاقة بسائح بريطاني يبدو كأنه يقيم في المتحف المصري.. هذا السائح اسمه (جيمس ألجروود)..

سائح يلبس ثيابًا سوداء ويفضل أن يضع بيريه على رأسه معظم الوقت لأنّه أصلع..

ألا تعرفين هذه الملامح يا بلهاء؟

السائح قال لها شيئًا عن أنه غير مكتمل وطلب منها أن تأتيه ببشر.. وهنا يتكشف سلوكه عن انعدام تام للياقة وآداب المائدة. إنّه يلتهم البشر من دون شوكة ولا سكين.. إنّه يأكل بفمه.. إنّه يطلب المزيد..

لا فكاك من هذا السائح كما هو واضح..

ثمّة دليل آخر كان يجب أن يتنبه له..

هناك سائحة ألمانية تسرب لها الضباب... التقطت بعض صور في المتحف المصري.. لاحظت أن سوسن هذه لا تقف مع أحد، برغم أنها متأكدة من أنها كانت تقف مع رجل بريطاني ضخم قوي النظرات..

هذا الرجل لا يظهر في الصور...

لكن لماذا لم يصل له لوسيفر؟

الإجابة سهلة.. من الصعب على نصابين أن يخدعا بعضهما.. ومن الصعب على لصين أن يسرقا بعضهما.. كراولي يعرف بعض الحيل، وهو بالتأكيد قادر على أن يهزم الضباب فلا يخترقه.. الثليما كتاب قوي، لكن ليس بقوّة كتاب الأسرار طبعًا..

سوف يبدأ البحث من أول خيط.. وهذا الخيط هو تلك الفتاة..

✷ ✷ ✷

لماذا تلاحظ النساء كل شيء لكنهن لا يلاحظن قطرات الدم على الدرج في الطابق الثالث؟

دقت سوسن باب شقّة جيمس في الطابق الرابع كثيرًا.. لا أحد يرد..

هنا لاحظت أن الباب موارب وليس مغلقًا.. لقد نسيه كراولي وهو يغادر المكان..

مدت يدها وفتحت الباب.. ظلام..

دخلت بينما الفتاة المذعورة نرمين لا تفهم. منزل من هذا؟.. ما علاقة أبلة سوسن به؟ دخلت سوسن الشقة بحذر ثم راحت تنادي:

- «جيييمس!... جيييمس!»

لو لم يكن هنا ينتظر فهي حرة.. حرة فعلًا...

قالت نرمين في ذعر:

- «هناك رائحة معينة لا أحبها..»

بالفعل.. لا تنسى يا فتاة أن جثتين قد مزقتا هنا.. ولم يكن هذا ببعيد..

أنا حرة.. حرة.. سوف أغلق هذا الباب اللعين للأبد، ولن يفتحه أحد ثانية.. سوف أهرب.. سوف أتحاشى الأسئلة وأعرف كيف أتملص من الاتهامات.. لن يكون هناك قتلى بعد ذلك.. أنت قد نجوت يا نرمين...

فجأة وجدت نفسها ترتطم بالجدار وصرخت نرمين بشدة...

-2-

الصوت الببري القوي والنظرة النفاذة.. بذلة السهرة السوداء الأنيقة وقلادات عديدة على صدره.. كل شيء فيه أسود سواء عيناه أو شعره أم ثيابه أم نظراته أم أفكاره.. أسود... وبرغم هذا هناك جاذبية خاصة فيه لا تدري مصدرها..

يتكلم بإنجليزية ثقيلة فعلًا لكنّها مفهومة واضحة مزلزلة. كان قد ثبتها بذراع واحدة إلى الجدار تمامًا ووجدت أنها لا تقدر على التنفس تقريبًا..

ثم أنه نظر إلى الفتاة المراهقة نظرة نارية وهمس:

- «انصرفي ولا تنظري وراءك أبدًا!»

- «ولكن..»

- «لا أكرر أوامري مرّتين..»

لم يكن يمزح أو (يبلف).. شيء في داخلها أخبرها أنه لا يمزح ولا يمكن أن يمزح هذا رجل يعني ما يقول..

لا تعرف كيف ولا متى ألقت بحقيبتها على الأرض، واندفعت تركض في الشارع وهي تنشج.. قدماها أسرع وأمضى من تفكيرها...

تتخلى عن أبلة سوسن؟.. لكنّها أقنعت نفسها أنها تجلب النجدة لها. لن تفيدها لو ماتت معها..

هكذا خرجت إلى النور وراحت تجري..

في الوقت نفسه نظر لوسيفر إلى سوسن بعينية الناريتين.. كان يضع يده على عنقها في حزم، وهذه اللمسة البسيطة كانت تبقيها مسمرة للجدار:

- «أين جيمس ألجروود؟»

قالت وهي تختنق تقريبًا:

- «لا أعرف.. لم يأت لموعدنا في المتحف المصري ولم أجده هنا.. من أنت؟»

- «أين جيمس ألجروود؟»

كان يتكلم في هدوء أقرب إلى الرقة واللطف..

كان يعرف أنها صادقة.. هي لا تعرف فعلًا أي شيء عنه بل هي لا تعرف أنه كراولي ولا تعرف كراولي أصلًا. هذه ضحية بائسة وجدت في المكان والزمان الخطأ برغم هذا راح يتلصص على أفكارها. تسلل إلى عقلها وراح ينقب في جشع عن أي معلومة...

لماذا يستجوبها إذن؟..

لأنه يخاف أن يكون كراولي قد زرع في عقلها ذكريات خاطئة.. هناك أشياء من الأفضل أن تنتزع شفهيًّا من الشخص نفسه وليس بالتنقيب في عقله..

لا شك أن كراولي رأي الضباب وشمه.. ولا شك أنه احتمي بعيواس.....

- «أين جيمس ألجروود؟»

لم تكن تعرف...

من المؤكد أنها لا تعرف..

كان ينقب في عقلها بلا هوادة...

يقتحم هذا النسيج ويمزق هذا الحاجز من الخلايا العصبية يثقب هذا الركن.. يبدو أنه كان فظًا أكثر من اللازم..

رأى الدم يسيل من طاقتي أنفها ثم من أذنيها... ثم تصلبت عيناها وبدأ الدم يحتشد تحت غشاء الملتحمة. خفف قبضته قليلًا لكنه أدرك أنه بالغ في التنقيب في مخها.. لقد مزقه تمامًا كأن قنبلة انفجرت فيه..

هكذا فتح يده فتهاوت على الأرض كثوب فارغ سقط من على الحبل....

دجاجة بلهاء تم إقحامها في قصة لا علاقة لها بها.. كراولي قاس فعلًا، لكن لوسيفر أقسى بالتأكيد..

المضحك أنها بدأت قصتها بميل شبة عاطفي نحو كراولي.. نهاية غريبة لقصص الحب الرومانسية، وفي هذا درس أخلاقي لا بأس به: لا تقعي يا صديقتي في حب الرجال صلع الرءوس الذين يحبون رسم تماثيل المتحف المصري.. بالذات من لا يظهرون في الصور الفوتوغرافية منهم.

هذا درس اخلاقي ممتاز لكنّها لن تستوعبه للأسف..

وضحك من سخرية الموقف وهو يغادر الشقة المشئومة...

أين الفتاة المراهقة؟.. على الأرجح هي بلغت الصين في ركضها، ولسوف تعود.. لكنهم لن يفهموا أي شيء.. جثة تفجر مخها.. بلا تفسير..

✷ ✷ ✷

في هذا الوقت تقريبًا أرادت زوجة البواب - أم هشام - أن تعد بعض العجين..

بحثت عن الطست الموجود في الغرفة..

كان هشام ما زال تحت تأثير الحمى، لكن الزنجبيل بالعسل بدأ يصنع المعجزات معه..

وجدت الطست وفوقه ملاءة وخرق تغطيه، فلمّا فتحته وجدت كيسًا بلاستيكيًّا.. عندما تتحسسه تدرك بسهولة أنه يحوي كتابًا لكن أي كتاب هو؟

راحت تعبث في الكيس لتخرج بعض أوراق البردي.. عليها رموز غير مفهومة تمامًا. هذا الكيس ليس سوى كيس قمامة لا قيمة لهذا الشيء..

خرجت من الغرفة ومن البناية، واتجهت إلى الخرابة فتحت ذراعها وطرحت بهذا الكيس إلى أبعد مكان ممكن تقريبًا لم يبتعد كثيرًا عن المكان الذي وجده فيه هشام أول مرة لكنّها لا تعرف ذلك..

ثم عادت إلى الغرفة وبدأت تضع الدقيق في الطست وتصب الماء عليه..

البحث

-1-

عيواس.. أنا بحاجة لعونك..

يجب أن تساعدني...

وفي هذه اللحظة دخل المهندس المصري الشاب حاملًا الخرائط.. تعثر في السجادة فكاد يقع، لكن كراولي مد يده القوية ليقيله..

قال المهندس بالإنجليزية وهو يحملق للأمام بنظرات ثابتة:

- «كل شيء هنا يا مستر ألجروود..»

- «هذا جميل..»

كان التنويم المغناطيسي فعالًا... والأجمل أن الضباب لن يجد شيئًا مهمًا أو لافتًا للاهتمام في عقل من نام مغناطيسيًا..

أنت خمنت طبعًا أننا في إدارة المساحة حيث كل خرائط القطر المصري، وخمنت أن كراولي هنا وأنه استطاع أن يخضع هذا المهندس الشاب لإرادته بالكامل.

- «اجلس..»

تقدم المهندس بخطوات مترددة قليلًا وجلس.. لقد تأكد من أن أحدًا لن يقتحم المكان. مد كراولي يده وأخرج بندولًا من جيب سترته السوداء.. ثم فرد خارطة القطر المصري على المنضدة ووضع البندول فوقها.. أخذ نفسًا عميقًا ثم راح ينتظر.. يمرر البندول فوق كل أجزاء القطر بانتظار النتيجة.. فجأة بدأ البندول يهتز فوق شمال مصر..

- «أريد خارطة أكثر تفصيلًا..»

وضع المهندس خارطة أدق تظهر شمال البلاد.. ومن جديد عاد كراولي يحوم بالبندول فوق الخارطة.. وفجأة بدأ البندول يتأرجح في إصرار...

عيواس.. ساعدني.. اجعل هذا البندول دقيقًا...

- «أريد خارطة للقاهرة الكبرى..»

وبدأ التنقيب فوق خارطة القاهرة الكبرى والضواحي لا شك أن الاهتزازات واضحة جدًّا فوق حي (....).. الكتاب في المنطقة المدعوة بـ (.....).. لا شك في هذا...

- «هل عندك خارطة لحي (.....)؟»

بحث المهندس حتى وجد خارطة معقولة للحي الراقي ووضعها أمام كراولي..

من جديد ظل البندول ساكنًا فوق الخارطة حتى بلغ نقطة معينة وبدأ يتأرجح بقوّة.. كانت البيانات بالعربية، لذا طلب كراولي من المهندس أن يترجمها..

أخيرًا دوَّن البيانات في ورقة..

الكتاب موجود في هذه النقطة بالذات.. خلف تلك البناية.. لا شك في هذا..

لا شك أن لوسيفر يبحث بطرقه الخاصّة، لكنه عصبي ولا يريد أن يعود للأساليب العتيقة مثل البندول. لكن كراولي كان شديد الإيمان بالبندول وعصا الماء Dowsing لذا قدر أنه سيصل للهدف بسهولة وسرعة..

سيجد الكتاب فإذا وجده لن يقدر لوسيفر على عمل شيء..

فكر قبل أن ينصرف في أن يحطم عنق المهندس، ثم فطن إلى أنه لا داعي لذلك المهندس نائم مغناطيسيًّا ومسالم وقد أطاع الأوامر.. ولن يتذكر أي شيء عندما يفيق، فلماذا تقتله؟.. لقد صار الشر عادة لديك فعلًا.. لكن يجب أن يكون شرًا براجماتيًا يجلب منفعة ما.. لو لم يفعل فإنّه شر عشوائي كشر الضباع، وهو يجعلك أكثر حيوانية..

هكذا قرر أن يترك المهندس هذه المرّة..

✷ ✷ ✷

أما عن لوسيفر فكان يواصل تلقى الأخبار..

هذه المرّة جاء النبأ من الإسكندرية..

واحد آخر استنشق الضباب فلم تعد لديه أسرار...

هناك طبيب نفساني اسمه (سامي) قابل في إحدى المصحات رجلًا يقسم سامي أنه هو رفعت إسماعيل..

هه!.. هذا غريب!..

المشكلة أنّ هذا الرفعت فاقد الذاكرة ولا يعرف هو نفسه إن كان كذلك أم لا..

هل يكون هذا هو الجواب؟ الفاني فقد ذاكرته وهكذا ذاب تمامًا فلم يعد أحد قادرًا على العثور عليه... لا.. ثمّة رائحة زنخة هنا وهو يشمها.. لا شك أن كولبي اللعين له دور في هذا... لقد مسح ذاكرة رفعت تمامًا فلم يعد يدرك أي شيء.. لا يعرف من هو ولا ماذا يملك.. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة للاختباء في الزحام..

الآن لم تعد الأمور بذات التعقيد، نظرة واحدة على وجه ذلك النزيل وسوف يعرف إن كان هو رفعت فعلًا أم لا..

هل الكتاب اللعين في الإسكندرية؟

ثمة احتمال بسيط أن يكون رفعت قد تخلص منه.. ربما في البحر أو تحت الأرض لأن حرقه مستحيل... لكن هذا احتمال ضعيف لأن رفعت ذكي.. ذكي ويعرف أن الكتاب سوف يفتدي حياته.. لذا لابد أنه احتفظ به.. أين؟.. هل في تلك المصحة؟

لكن رفعت فاقد الذاكرة. فهل ضاع الكتاب؟.. هل صار له مالك جديد؟...

الأمر محير فعلًا. حتى لوسيفر العجوز نفسه قد يجد نفسه حائرًا عاجزًا عن اتخاذ قرار صحيح..

يجب أن يرى بنفسه..

-2-

كنت أنا في غرفتي أستعيد صحتي من تلك الإنفلونزا اللعينة، وأحاول قراءة كتاب أعطانيه أحد النزلاء.. هذا الكتاب يتحدث عن أمور مثيرة وغريبة اسمه (أرواح وأشباح) لأنيس منصور. الحقيقة أنني فقدت ذاكرتي فعلًا لكن ظلت هناك أرضيّة أساسية متماسكة من المعلومات. فمثلًا لم أنس من هو أنيس منصور.. أعرف أهم كتاب ومفكري العالم وأعرف أسماء اللوحات الفنية والمقطوعات الموسيقية.. أتكلم الإنجليزية وأفهمها وبعض الفرنسية.. فقط لا أذكر من أنا ولا ماذا أعمل..

كان أنيس منصور يتحدث عن أشياء غريبة، مثل أن تصحو المومياوات أو تجول الأشباح في البيوت الفارغة.. كلام مخيف ولا أصدقه على كل حال.. لا أعرف من أين يأتون بهذه الحكايات؟

فجأة شعرت بتيار هواء قوي..

انفتح الباب إذن...

رأيت ذلك الرجل فارع القامة. الرجل الذي أرسمه في رسومي بإلحاح لا يتوقف.. الرجل الذي يلبس السواد وقلادات ثقيلة وله شعر أسود فاحم وعينان سامتان..

هتف بالإنجليزية وبصوت كأنه ببر يحلم تحت شجرة في الملايو:

- «إن لم يكن هذا رفعت إسماعيل صديقي العتيد.. إنني بك أسعد ولك قلبي يطرب والحق يُقال..»

يستعمل نفس الاسم الذي قاله د. سامي..

نهضت من الفراش ووقفت جواره لأتكلم لكني وجدت يدًا قوية تضغط على معصمي وتجذبني.. قال لي وهو يحملق في عيني:

- «سوف تتكلم.. هذا ما ستفعله..»

فجأة شعرت بأن إصبعًا يتوغل في عقلي.. نوعًا من التنقيب يتم هناك..

هزني بقوّة فرأيت ضوءًا أزرق غامضًا وقدرت أنني سأفقد الوعي أو أموت، لكنه ثبتني إلى الجدار كما يعلقون اللوحات فوجدتني عاليًا جدًّا.. وفجأة.....

أنا رفعت إسماعيل..

الآن أتذكر كل شيء..

كراولي وكولبي..

الفرار.. تخبئة الكتاب.. المطاردة عبر الأجيال..

أيامي في هذه المصحة..

د. سامي.. د. محمد شاهين.. ماجي.. كاميليا.. عزت.. كفر بدر..

أنا هو أنا.. لم تمت ذاتيتي بعد..

كولبي قد وضع أثقالًا من الغبار فوق ذاكرتي، ويبدو أن لوسيفر أزالها بنفخة واحدة من فمه...

لكنني الآن في أسوأ وضع ممكن وأنا هنا في قبضته.. يبدو أنها النهاية فعلًا...

أسوأ وضع ممكن تخيلته في حياتي هو أن أجد نفسي معلقًا ووحدي مع لوسيفر.. والأهم أنه لا يبدو راغبًا في المزاح. طريقة السيد الظريف المهذب هذه قد زالت تمامًا..

- «لقد عادت ذاكرتك أيها الفاني.. في ذاكرتك وفي دهاليز عقلك أبحث عن إجابة، لكن صبرًا.. لا أريد لك أن تنفجر الآن.. لا أريد لمخك أن يسيل من أنفك وأذنيك... أنت واهن كعهدي بك..»

كان ينقب هناك..

كنت أشعر به.. كل دهاليز عقلي التي لم أكن أعرف أنها موجودة، شعرت به يجول فيها.. شعرت بأبواب تتحطم سمعت خزائن تفتح لم يعد من سر لديَّ لم يعرفه.. كان يتصرّف كلص ملول يريد الانتهاء سريعًا لذا راح يهشم كل شيء يفرغ منه..

قال لي في النهاية وبعد عذاب طال:

- «الحق أنك لا تعرف موضع الكتاب بعد.. لكني لا آمن أن يكون كولبي السقيم قد حصَّن ذكرياتك بشيء.. فتكلم..»

قلت وأنا ألهث:

- «يُمكنك قتلي لكني فعلًا لا أعرف أين الكتاب.. هناك لحظة انقطعت فيها ذكرياتي..»

قال في هدوء وبلهجته الشرق أوروبية الكثيفة:

- «أرى أنك صادق.. خيط ذكرياتك ينقطع عند.. عند.....»

✷ ✷ ✷

خرجت مها قريبتي من الحمام وهي تجفف شعرها الذي غسلته وقالت بصوت خشن عالٍ لابنتها:

- «أعدى المائدة يا فايزة.. طلبت منك هذا ثلاث مرات يا (زفتة).. أنت.....»

وفجأة توقفت كمن داس على سلك كهربائي من أسلاك الفولت العالي..

فجأة هناك اجتماع من الأشخاص الظرفاء في دارها..

صرخت في ذعر:

- «رفعت..... كيف دخلت؟.. ومن هذا الرجل الغريب؟»

لحظة الحقيقة

-1-

كنت أقف جوار د. لوسيفر.. ألبس المنامة طبعًا وقدماي في الخف، بينما لوسيفر بقامته الفارعة المهيبة يضع يده على كتفي ويضحك تلك الضحكة الشيطانية..

طيران؟.. بالطبع لا.. لسنا في السيرك القومي هنا. كل ما أعرفه هو أننا صرنا هنا فجأة..

هذا نموذج للانتقال الآني يصلح للتدريس إذن.. كنا في المصحة بالإسكندرية وفجأة صرنا في بيت مها..

أما عن مها فقد وجدت فرصتها في الصراخ:

- «رفعت!... أنت هنا في بيتي بثياب النوم ومعك رجل آخر!.. انصرفا!.. أنا مطلقة وسوف تدمر سمعتي!.. يا لك من حيوان!»

قلت لها وأنا أحاول اقتناص السخرية في الموقف:

- «أقدم لك د. فرانتس لوسيفر.. من المجر.. لا يفهم إلا الإنجليزية والمجرية..»

نزعت خفها ولوحت به مهددة وهي تشير للباب:

- «أنت وهو.. إلى الخارج.. لا أعرف كيف دخلت لكنك ستخرج حالًا وإلا مزقت هذا على رأسيكما.. وهذا الكتاب اللعين الذي..»

التقط لوسيفر الكلمة مع أنها قيلت بالعربية، وقال بصوته العميق المخيف:

- «الكتاب.. هذه نقطة ممتازة..»

قلت لها صارخًا:

- «مها.. الكتاب.. هاتي الكتاب حالًا.. إن حياتنا تتوقف عليه..»

في هذه اللحظة ظهرت فايزة قادمة من المطبخ وهي تحمل صحفة عليها طعام العشاء، فلمّا رأت هذا الموكب صرخت وأسقطت كل ما كانت تحمله..

قال لوسيفر باسمًا:

- «والعذراء الحسناء هنا.. الحق أن الشمل قد اكتمل وإنني لمشوق..»

فجأة رأيت فايزة معلقة من قدميها بحبل.. حبل ليفي لا يتعلق بشيء يلتف حول قدميها... وكان وجهها يوشك على لمس الأرض فعلًا... ثم من مكان ما ظهرت الفئران.. فئران عديدة شعثاء شرسة المنظر، وقد راحت تصدر أصواتها الشنيعة وتحاول الوصول للوجه.. الوجه الذي ظل على ارتفاع أربعين سنتيمترًا عن الأرض.. لو جاء فأر يجيد الوثب أكثر أو تسلق فأران على كتف بعضهما لمزقا وجهها بالطبع سوف يأتي فأر يجيد تسلق هذه الضفيرة..

كان المشهد أقوى مما تتحمله أعصاب مها خاصة أنّ هناك فئرانًا في القصة.. لو كان ما يحاول تمزيق ابنتها أسودًا لاستطاعت أن تفكر بهدوء.. ثم أنها لم ترَ من قبل حبلًا يتدلى في الهواء بلا شيء يعلقه..

ما زال يتسلى.. سوف يستعمل بعد هذا أساليبه المألوفة مثل الزيجول الذي يلتهم طبقات الجلد ويترك الأعصاب ملتهبة حارقة حتى آخر لحظة... الريموزا الذي يتم إدخاله في فم الضحيّة.. وديدان الناكاخ التي تقتحم الرأس من الأنف، وتشق طريقها في جمجمة الضحيّة حتى المخ مدمرة كل شيء تقابله.

قلت له متوسلًا:

- «لوسيفر.. نعرف أنك قادر على التفتيش في العقول لا حاجة بك للتعذيب.. لماذا تعذبهما إذن؟.. يكفيك أن تعرف ما تعرفان عبر دخول عقليهما.. ثم أنني أنا عدوك الوحيد هنا.. تعامل معي أنا..»

وضع يديه في خاصرته ووقف مطرقًا في منتصف الصالة مهموم وقال:

- «لأنك لم تتعلم أيها الفاني أنّ بعض العقول تزيف أفكارها وتخدع القارئين.. خير النتائج ما اعتمد على الاعتراف من شفتين ترتجفان وعينين تدمعان، وفي الآن ذاته أفتش في العقل عما يؤيد الكلمات.. إن عقل المرأة يقول لي الحقيقة لكن أريد سماعها منها.. قل لها ذلك..»

كانت الفتاة قد فقدت الوعي لحسن الحظ، لكن الفئران بالطبع احتفظت بحماسها القديم..

نظرت لمها وقلت في لهفة:

- «مها. أين الكتاب؟.. يجب أن تحضريه حالًا..»

قالت وهي ترتجف:

- «أنت وكتابك!... لقد امتلأ البيت بالعفاريت والثعابين وكنت أخفيه في قفص الطيور بالشرفة.. خفت وتخلصت منه ألقيت به في الخرابة..»

نظرت إلى لوسيفر وقلت:

- «عفاريت؟.. إذن كان بوسعك أن تجد الكتاب عن طريق هذه العفاريت..»

- «تلكم شياطين خاصة بالكتاب، وتحت إمرتي لا تعمل..»

ثم أنه مشى حتى الشرفة ففتح الشيش.. ألقى نظرة على قفص الطيور الذي تلوث بالدم والريش ثم نظر إلى الخرابة التي بدأت تتسربل في الظلام.... من الصعب أن يجد الكتاب ينتظر تحت الشرفة طبعًا..

بالطبع أنا أعقل من أن أحاول مهاجمته من الخلف.. رأيت مها تمسك بيد الهاون التي كانت على النيش في ركن القاعة، وعرفت من نظرتها ما تنتويه.. أوقفتها بإشارة من يدي. ليس الوقت وقت ألعاب الأطفال هذه.. نحن نتعامل مع لوسيفر شخصيًا..

ولو كانت يد الهاون تحل مشاكلي فأنا إنسان سعيد فعلًا..

المشكلة هي أنني لا أعرف ما ينوى عمله..

أنا إنسان منته لا شك في هذا، لكنه سيؤجل قتلى إلى أن يجد الكتاب.. يخشى أن أكون قد لعبت لعبة ما.. أعتقد أنني آخر من سيموت في هذا الفيلم المخيف..

المشكلة هي أن السيدة وابنتها ليستا أكثر من ذبابتين الآن.. وأعتقد أنه سيتلذذ بأن يدمرهما في سادية.. لماذا يفعل ذلك؟.. ولماذا لا يفعله؟

كانت الفتاة المعلقة فاقدة الوعي وأمها الصارخة المولولة والفئران.. كل هذا يخبرني أن اللحظات التالية عسيرة.. لكن أنا مندهش لأنني رأيت شخصًا معلقًا من قدميه وما زال فاقد الوعي، فمن المعتاد أنّ هذا الوضع يعيد سريان الدم للمخ فيصحو المرء فورًا....

هنا شعرت بقلق.. ربما لا يوجد دم متدفق لمخ الفتاة أصلًا، وهذا معناه موت دماغي أو أسوأ.. إن لوسيفر لا يملك ذرة شفقة...

جاء الحل سريعًا إذ رأيته يلتفت نحوي ويضحك في وحشية وقال:

- «الكتاب في هذا القفر أيها الفاني.. والخنزير كراولي يتقدم نحوه الآن بالذات!!»

-2-

قبل هذا بعشر دقائق تقريبًا، كان المشهد قاسيًا في غرفة البواب..

لقد صحا هشام من نومه ومن الحمى.. فوجئت به أمّه ينهض مسرعًا كالملسوع، وعندما مدت يدها له أزاحها بقوّة.. ركض نحو الطست لكنه لم يجده..

كان الطست يستند إلى الجدار في محاولة لتجفيفه بعد غسله.. لقد انتهت من العجين كما تعلم..

صاح الصبي في ذعر وبصوت لم يخرج منه من قبل:

- «أين اللفافة؟.. أين الكتاب؟»

قالت في دهشة:

- «تخلصت منه في الخرابة.. هل هو مهم لك؟..»

في اللحظة التالية التقط شيئًا ثم فر من الغرفة تحت الدرج. لم ترَ أمّه قط هذه النظرة القاسية الباردة الحديدية المسنة في عين الصبي ذو العشرة الأعوام.. صارت له ملامح رجل رأى العالم وجابه من المحيط إلى المحيط وعاش كل العصور.. وجه يحمل كل تعاسة وقسوة المعرفة..

- «انتظر لحظة!.. أنت مريض!»

لكنه كان يركض كالذئاب قاصدًا الخرابة. حافي القدمين منكوش الشعر يلبس ثياب النوم.. وراح يشق طريقه في الظلام الوليد وسط التراب وبقايا القرميد وأكياس القمامة وبقع المجاري الطافحة..

هناك تقف الضاحية الأنيقة المترفة، وهو يركض في المنطقة التي لا يراها أحد.. المنطقة الواقعة عند مؤخرة هذه الضاحية العظيمة..

الكتاب.. كتاب الأسرار.. كتاب المعظم ثلاث مرات قد ضاع منه بعد ما وجده.. كيف هذا؟ وكيف يسمح لنفسه بأن يمرض ويضيع الكتاب؟

✷ ✷ ✷

هذه هي بالضبط اللحظة التي رأيت فيها فايزة تسقط على الأرض بعد ما اختفت اليد الغامضة التي تعلق الحبل.. وسمعتها تسعل وتئن... إنها حية..

وتفرقت الفئران مذعورة فأطلقت مها صرخات لا بأس بها..

وفي اللحظة التالية لم أعد هناك...

وجدت نفسي في تلك الخرابة أو القفر كما يقول لوسيفر.. وكان هو يمسك بساعدي...

الظلام في كل مكان.. والفئران تركض مذعورة، واستطعت أن أرى شخصًا يتحرك من بعيد.. شخصًا يمشي في تؤدة كأنه يفتش عن شيء ما..

وأدركت من هذه المسافة أنه يمسك في يده بندولًا.. ينقب عن شيء ما حسب الاهتزازات...

قال لوسيفر من بين أسنانه ويده تقبض على ساعدي في عصبية:

- «كراولي.. الوحش.. كراولي.. يحاول استكمال الثليما.. لو حصل على الكتاب فلن أستطيع أن أؤذيه..»

ثم هتف باللاتينية بشيء ما. بعدها صاح:

- «يا بنات الليل.. إليّ!»

لم أعرف متى ولا كيف ظهرت هذه الذئاب الشهباء التي انتصب الشعر حول أعناقها.. كانت تأتي من كل صوب في الظلام وهي تصدر ذلك الزئير الخفيض المرعب...

مر بعضها جوارنا فأجفلت لكنني عرفت أنني واقف خلف المدفع وليس أمامه.. على الأقل هذه المرّة..

صاح لوسيفر بصوت ارتجت له المنطقة المقفرة:

- «كراولي استعاد ماديته.. لكنه واحسرتاه سيفقدها هنا والآن.. (هيك إي يوبيك)!!!»

كان من الذين يضحكون فيطوحون برأسهم للخلف وفكهم للأمام.. كنت أرى هذا المشهد في الأفلام وأقول إنها ضحكة مستحيلة.. مسرحيّة جدًّا.. لكنه يفعل ذلك..

- «هلم يا بنات الليل..»

وانقض أول الذئاب على كراولي - أو ما قال لوسيفر أنه كراولي - فصرخ وانتزعه بصعوبة من على كتفه، لكن الآخر وثب فوقه.. كراولي لم يكن ضعيفًا وقد استطاع أن يطيح بثلاثة ذئاب، وسحق واحدًا منها تحت قدمه.. هشم عنقه..

لكن الكثرة تغلب الشجاعة. في الظلام رأيت الذئاب تطير لتلتحم بالجسد.. أقسم أنني رأيت سبعة منها تنقض على الرجل...

وفي النهاية أطلق صرخة من يعرف أنها آخر صرخة وتهاوي أرضًا..

قال لوسيفر في سادية:

- «فان مثل الفانين، لكنه تعلم بعض السحر فحسب أنه بلغ الخلود.. موتًا يموت.. في الجحيم.. هذا هو مثواه..»

ومشى ببطء وسط الأنقاض والقاذورات... لم يعد مهتمًا بأن يمسك بي فأنا لن أذهب لأي مكان.. ورأيت الذئاب تتراجع وذيولها بين أفخاذها كأنها أنهت مهمتها وتطلب الإذن بالانصراف..

ثم سمعت صوت السباب....

ومن الظلام برز الصبي هشام.. كان يمسك في يده بسكين ضخمة، وانقض على لوسيفر وهو يسبه بأقذع السباب..

✷ ✷ ✷

نظرت في دهشة وذهول إلى المشهد..

إن الصبي في حالة توحش غير طبيعية.. لقد راح يطعن في لوسيفر كأنه يريد أن يمزق ستارًا من القماش يعبر منه لعالم آخر.. ربما مئة طعنة أو أكثر...

كان يردد بالعربية:

- «الكتاب لي أنا يا أولاد الـ (....).. لن تأخذوه»

بالطبع كان كأنه يطعن الماء.. كل هذه الطعنات بلا داع على الإطلاق، لكن لوسيفر تصلب.. بدا مهتمًا بشدة ثم انحنى يمسك بالصبي من ساعده ويعلقه في الهواء.. وما زال الصبي يوجه الطعنات للهواء..

يبدو أن لوسيفر فهم القصة كلها في هذه اللحظات...

كنت أنا أحاول الابتعاد في هدوء.. لا أدري إلى أين..

وفجأة وجدت بقعة الماء الطافح تلك.. وعندما دققت النظر أكثر استطعت أن أرى الكتاب في الكيس البلاستيكي شبه مغمور حيث رمته زوجة البواب.. لقد كان كراولي على وشك الوصول لهدفه..

بسرعة انحنيت والتقطت الكتاب في كيسه المبلل وضممته إلى صدري..

كان المشهد شبه سينمائي..

لقد اتجه لوسيفر نحوي وعيناه تخبرانك بحقيقته: شيطان.. ليس الشيطان بل هو شيطان.. وكان يعلق الصبي من ذراعه.. وعن يمينه ويساره مشت الذئاب نحوي، والزبد يسيل من بين أنيابها في وضع تحفز مخيف..

- «هات الكتاب أيها الفاني، فلربما أتركك حيًّا..»

لكني كنت أعرف أفضل..

الآن أتذكر كلمات الكينونة:

لا تثق في الأطفال أكثر من اللازم.

احتضن بيت الأفاعي فعساه أن يمنحك الأمان.

الكلمة الأولى صارت مفهومة.. الكلمة الثانية تخبرني بشيء ماذا قصده لوسيفر عندما قال دون قصد: « ألستر كراولي.. يحاول استكمال الثليما.. لو حصل على الكتاب فلن أستطيع أن أؤذيه..»

هذا يعني أن الكتاب اللعين المفعم بالأفاعي يحمي من يحمله..

كان خطأ عمري أنني حاولت أن أخفيه بعيدًا عني، وهذا تصرف منطقي لدى كل من يملك كنزًا، بينما كان عليَّ أن أبقيه معي للأبد...

الآن لوسيفر يحاول أن يخدعني.. يحاول أن ينزع الكتاب لكن لو كان يقدر لفعل هذا منذ خمس دقائق ولكنت أنا ميتًا..

قال لي وهو يتقدم:

- «تعرف أنني قادر على انتزاعه منك أيها الفاني..»

- «معلوماتي أنك لا تقدر... ذئابك لن تهاجم..»

- «بوسعي أن أجعل واحدًا من الفانين يقتلك ويجلبه لي..»

- «لن تفعل لأن شياطين الكتاب لا تطيعك، وهي تحمي حامله.. أمّا من تكلفه بجلب الكتاب فقد يأخذه لنفسه..»

كان موقفًا حساسًا معقدًا فعلًا...

وبدأت أعرف أنني ربحت عندما رأيت الحيرة في عينيه..

أنزل الصبي هشام على الأرض فوقف هذا يرمقه في تحد قال لوسيفر:

- «أنت قرأت الكتاب كله وتبدلت.. إن الكتاب هناك في أعماقك.. بوسعي أن أنتزعه منك..»

قال الصبي بلهجة شريرة باترة وبالإنجليزية الممتازة جدًّا:

- «لن تستطيع لأن الكتاب الذي أحمله في عقلي هو ضمان سلامتي.. أنت لا تستطيع اختراق أفكاري وبلوغه، ولسوف يكون عليك أن تطلب مني..»

صبي في العاشرة ويتكلم هذه الإنجليزية؟.. ويقول هذا التهديد؟.. هذا يوحي بالمس بشدة..

قال لوسيفر في غيظ:

- «أنت كتاب حي لكنك تلقّيت الرسالة وحدك.. كأنها كانت مرسلة لك منذ آلاف السنين، وهذا يعني أن حياتك ثمينة.. هذا غريب لكني سأعود بك إلى جانب النجوم لأخبرهم أنك أنت الكتاب والكتاب هو أنت.. سوف تأتي معي لجانب النجوم وتكون ابنًا آخر لي. سوف تحب هذا لأنك قد تبدلت يا صبي.. أمّا عنك أيها الفاني فاحتفظ بالكتاب.. سوف يعود لي سريعًا جدًّا جدًّا..»

لم أفهم..

قال وعيناه تحمران في شهوة لا شك فيها:

- «عندما اخترقت أعماقك وعقلك رأيت ذلك الداء العضال يزحف هناك.. مسكين أنت.. ستموت قريبًا جدًّا وأنت تتعذب بقسوة.. ما كنت لأقتلك الآن وأضيع لذة مراقبتك وأنت تتوجع وعندما تموت سيكون الكتاب بلا صاحب ولسوف أسترده فورًا..»

وراح يضحك... يضحك بتلك الطريقة المقيتة....

ورأيته ينحني فيضم الصبي لصدره... الصبي الذي سيرحل لجانب النجوم للأبد....

هل هي نبوءة أم لوسيفر قد رأى بالفعل شيئًا ما؟؟

ربما هو يكذب؟

لن أعرف أبدًا إلا..

إلا عندما أعرف...

هناك كنت واقفًا بالمنامة والخف وسط هذا الزمهرير.. هناك في الظلام، أحتضن إلى صدري الكتاب الذي قررت ألا أتخلى عنه يومًا واحدًا في حياتي... ما تبقى منها على الأقل. سوف أثبته بشريط لاصق إلى صدري.. أقف بينما البرق يشق السماء ثم يدوي الرعد.

وعندما رفعت عيني لم أرَ لوسيفر ولا الصبي ولا قطيع الذئاب...

رحل الكل إلى جانب النجوم وبقيت أنا وحدي....

وهطلت الأمطار.....

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

المقـــدمة

سيدة فاضلة

-1-

لقاء يعد بالكثير

-1-

-2-

يجب أن أتذكر

-1-

-2-

-3-

كتاب غريب

-1-

-2-

خيرة لا تنسى

-1-

-2-

التهاب رئوي وشنق.. إلخ

-1-

-2-

أنا أتحسن يا عيواس

-1-

-2-

الضباب

-1-

-2-

الدائرة تضيق

-1-

-2-

البحـــث

-1-

-2-

لحظة الحقيقة

-1-

-2-

مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

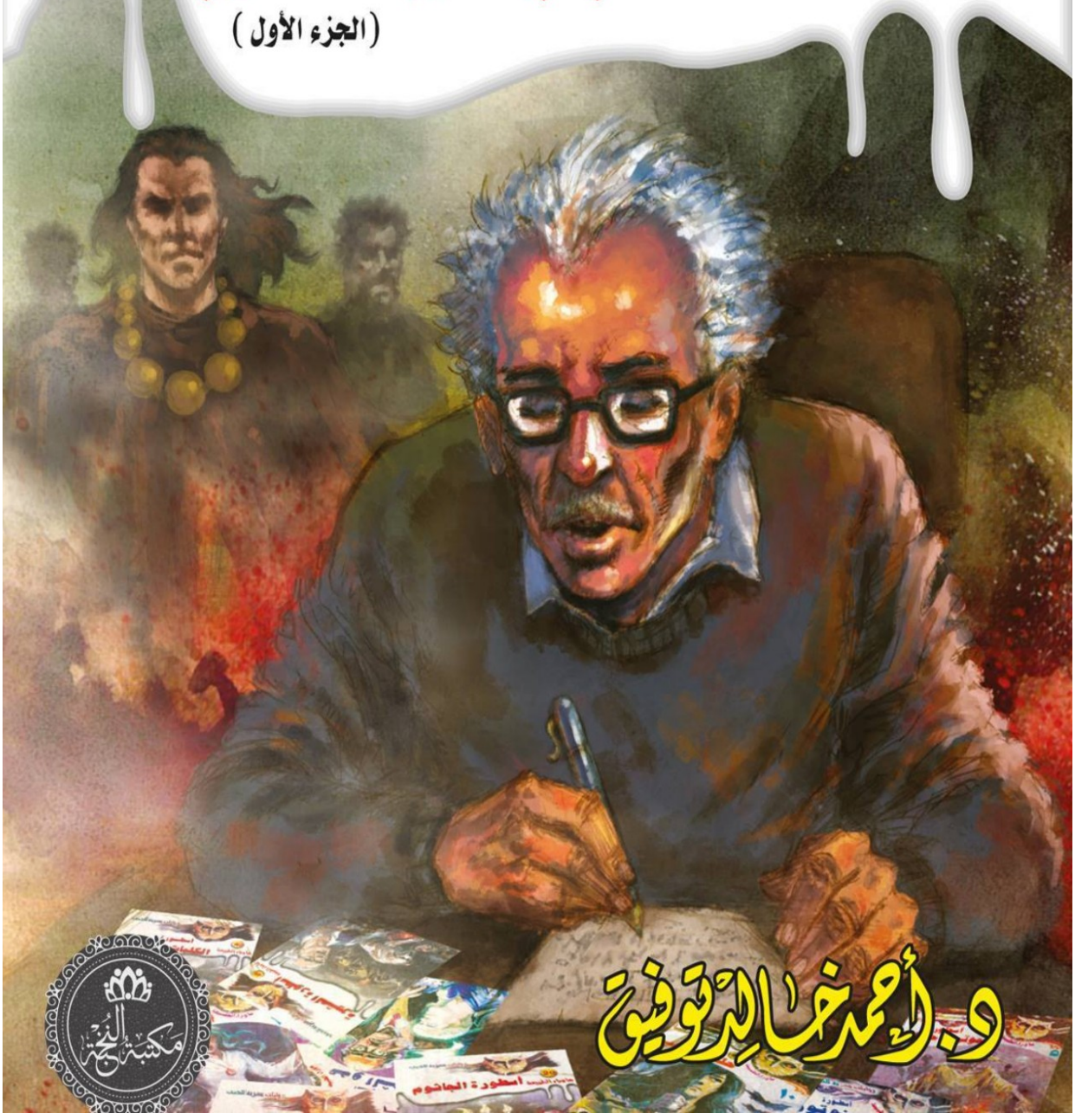


ما وراء الطبيعة

80 (1)

أسطورة الأساطير

(الجزء الأول)



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة النخبة

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



80 (1)

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة الأساطير

الجزء الأول

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايـــات تحبـس الأنفـــاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصـرى مائة فى المـائة
لا تشوبه شبه الترجمة أو الاقتباس
أو النقل عن أية قصص أوربية .

●

إشراف
الأستاذ / حمدى مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر سواء النشر الورقى أو الإلكترونى ، وكل اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر ورقى أو إلكترونى دون الحصول على تصريح كتابى من الناشر يعرض المرتكب للمساءلة القانونية .

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ـ المطابع 8 ، 10 شارع المنطقة الصناعية بالعباسية ـ منافذ البيع 10 ، 16 شارع كامل صدقى الفجالة ـ 4 شارع الإسحاقى : بمنشية البكرى هاتف المطابع : 24677371 ـ 24677183 ـ فاكس : 24677188 .. هاتف الفجالة : 25908455 ـ 25885346 ـ فاكس / 25890401 هاتف روكسى مصر الجديدة 26823792 ـ22586197 فاكس/ 22596650
الإسكندرية 4 شارع بدوى / محرم بك ـ هاتف / 03/4970840 ـ 03/4970850

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط
الغمـــوض والرعـــب والإثارة

80

•

أسطورة الأساطير

(الجـزء الأول)

بقلم : د. أحمد خـالد توفيق

الغـــلاف بريشـــة : أ. أيمـن القـاضي

المؤسسة
العربيـــة الحديثـــة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

المقدمة

أنا مرهق فعلًا..

ظللت أتكلم عشرين عامًا بلا توقف.. حكيت أشياء كثيرة جدًّا. هناك بالتأكيد قصص لم أحكها أو نسيت أنني مررت بها.. هذا شيء طبيعي لمن عاش حياة كحياتي لقد تعبت وأشعر أن جفني ثقيلان جدًّا، وأن كتفي يزنان عدة أطنان..

يقول لي المؤلف:

- «سوف تواصل الكلام..»

فأقول وأنا أحك رأسي:

- «لا تستطيع إرغامي على شيء.. أنا أقوى منك في كل شيء، وقد برهنت عشرين عامًا على أنني أقوى وأكثر حقيقة منك.. إن الناس يكفون عن الكلام عندما أدخل قاعة مزدحمة.. الفتيات الشابات الحسناوات يطلبن الزواج مني.. هناك أكثر من لوحة فنية تمثلني، رسمها أصدقائي.. وهناك عدة تماثيل صغيرة.. أمّا أنت فمجرد مؤلف، لا يعبأ بك أحد..»

يقول المؤلف وقد بدا أن كرامته جرحت:

- «سوف تتكلم..»

- «حاول أن ترغمني..»

هنا يتحول صوته إلى ما يشبه التوسل أو التسول ويقول:

- «لا تكف عن الكلام.. لا أقدر على الحياة من دونك.. لقد اعتدت أن أكتبك..»

قلت له متثاقلًا:

- «لا أعرف إن كنت أنت قد اعتدت كتابتي أم أنا الذي اعتدت أن تفعل هذا بي.. لا يهم.. أنا تعبت.. أريد أن أناااااااااااااام..»

أنا الدكتور رفعت إسماعيل، أستاذ أمراض الدم المتقاعد وخبير الأشباح وعوالم ما وراء الطبيعة، ما زال كثيرون لا يعرفون ما يعتقدونه بصددي، نصاب أم عالم أم شخص مسل لا أكثر.. لا أعرف..

لكني عشت حياة حافلة ورأيت الكثير..

يبدو لي أنه ما من مومياء أو شبح أو مكان لعين في الأرض كلها لا يعرفني، ومن جديد أكرر أن رجل الثلوج الرهيب لو دق بابي لرحبت به مهللًا. عندما تبتعد عن المستنقع تكتشف أن مغامراتك فيه لم تكن سيئة جدًّا..

أنا د. رفعت إسماعيل سأحكي لكم اليوم قصة أخيرة.....

إنها أسطورتي الخاصّة..

تمهيد

ماجي يا ملاكي..

سامحيني على ما سأسببه لك من ألم. سامحيني على حشد الذكريات الذي سأتركه لك، وعلى الدموع التي ستسيل من عينيك الساحرتين في ليالي الشتاء.

أحب أن أموت في صمت دون صخب. أحب أن أموت كصرصور لا يعبأ أحد به. لكنك هنا، ولم يعد عمل شيء آخر ممكنًا..

في الثالثة صباحًا سمعت كعبي حذائيك.. أعرف هذه المشية ثم سمعت اللكنة البريطانية الراقية الممتازة وأنت تتكلمين مع ممرضة..

عرفت أنه أنت لأنّه لا توجد ماجي أخرى، وشعرت بخجل شديد. أكره أن تريني في هذه الصورة هناك أوغاد في كل مكان ويبدو أن أحدهم كره ألا يبرق لك في إنفرنسشاير. أعرف أنك جئت من المطار توًّا.. يمكنني أن أرى قامتك النحيلة الرشيقة، وذلك البول أوفر على ساعدك.. الوجه النحيل النبيل الجميل البليل.. تعبير (وجه طويل) يستعمل بمعنى (وجه حزين)، وهذا تعبير دقيق فعلًا.. التنورة الكاروهات السكوتش التي أعشقها..

ماجي هنا..

في الظلام تشعر بالشفتين الدافئتين على كفك المجعدة المعروقة، وصوت من ترانيم الملائكة يقول:

- «يا صغيري العزيز.. ماذا فعلوا بك؟..»

في 90% من لقاءاتي مع ماجي أسمع هذه الجملة. المرأة الوحيدة التي لا أخفي ضعفي أمامها.. بل لربما أظهره أكثر لأنعم بحنان الأمومة الدافق هذا.. لو كانت امرأة أخرى لفردت عضلاتي ورسمت ابتسامة مستهترة على وجهي كأنني فتوة السيرك.. سرطان؟.. وماذا يهم؟

قلت بذلك الصوت المبحوح المذبوح الذي صار صوتي منذ سنة:

- «تمنيت كثيرًا ألا تري هذا المشهد..»

كنت محاطًا بالأجهزة والخراطيم كأنني في فيلم خيال علمي. الإمبراطور الأخطبوط أو ذلك المخ المحفوظ في قارورة زجاجية ويحكم الفضاء.. رأتني هي مرارًا في العناية المركزة، لكن لا بد من أن نعترف بأن الموقف أسوأ من المعتاد هذه المرّة..

لا بأس.. لن أزعم أبدًا أنني فقدت صحتي فجأة. لا أذكر نفسي إلا مريضًا.. حتى في طفولتي كنت أصاب بنزلات شعبيّة في كل لحظة..

لقد صار الوهن والمرض جزءًا رئيسًا من حياتي. لهذا لا أعرف كيف يعيش غير المرضى، ولا معنى أن تصعد الدرج دون أن تتقطع أنفاسك ويؤلمك صدرك وتسود الدنيا أمامك. لم آكل أي وجبة دون نار في معدتي. لم أشم أي شيء دون أزمة ربوية...

لم أملك الصحة قط لهذا لا أشعر بفقدها..

ماجي!... هل هي حقًّا تقترب من عمري؟.. لم أشعر قط بذلك وإنما ظلت هي هي كما كانت منذ.. منذ كم عامًا؟.. هي لا تشيخ أبدًا كأنها الأنهار أو القمر.. بينما أبدو أنا كالرنجة المجففة إذا غمرت في حمض الكبريتيك لمدّة أسبوع، ثم انتزعوها من فم كلب مسعور..

صباح اليوم سمعتها تتكلم في الردهة الخارجية، وهي لا تعرف أن أذني حساستان لا تفقدان كلمة... كانت تتكلم مع د. منصور أستاذ جراحات الأنف والأذن والحنجرة. كانت تتساءل إن كان السفر لبريطانيا يمكن أن يفيدني.. مستشفيات جامعة (داندي)..

كان يرد عليها بصوت يحاول أن يجعله خفيضًا.. يقول:

- «هناك ثانويات في كل مكان.. لهذا لم نستأصل الحنجرة. لم يعد أمامنا سوى العلاج الإشعاعي والكيماوي. هذا هو العلاج هنا وفي كل مكان في العالم..»

ساد صمت ثم سمعتها تقول:

- «كم من الوقت؟..»

- «كم ماذا؟..»

- «أنت تفهم..»

ساد الصمت من جديد ثم قال:

- «لا أحد يعرف.. لكننا قريبون جدًّا..»

كنت أرمق السقف مفكرًا..

قال لي د. لوسيفر إنّه يرى في داخلي المرض العضال الذي سوف يودي بي، وقد راق له هذا كثيرًا. قال إنّه سيرى سيناريو عذابي من جانب النجوم ويستمتع به جدًّا.. لابد أنه جلب كيسًا كبيرًا من اللب وعلبة فيشار ضخمة وعدة عبوات من الكولا.. لا شك أن الشياطين جميعًا تحتشد حول أجهزة التلفزيون.. المقاهي كلها كاملة العدد في جانب النجوم..

لن يمسني لوسيفر.. الكتاب مربوط بشريط لاصق إلى بطني، وقد رفضت بإباء أن أنزع هذا الكتاب بأي طريقة إلا وقت الاستحمام. برغم هذا أعرف أن بوسعي التخلي عنه.. لوسيفر يفضل أن ينتظر لينعم بعذابي على أن ينهي ألمي بطريقة سهلة..

يبدو أن كولبي محظوظ.. ألم يقل لي:

- «الآن سوف أعلق هذه المشنقة.. وسوف أتدلى من الملاءة جثة هامدة. إنّه سوف يأتي من أجلك.. كلاهما آت من أجلك سواء لوسيفر أو كراولي.. لذا أنصحك أن تفعل مثلي فلا يوجد حل آخر.. ابحث عن ملاءة تتدلى منها.. هذا هو الحل الوحيد صدقني..»

سمعت الخطوات الرشيقة..

رأيت الملاك القادم من الشمال يدخل إلى الحجرة..

جلست على مقعد جوار الفراش. أدركت بسهولة أنّ هذا البلل تحت عينيها ليس بسبب الأمطار..

تقاطعت أناملنا وهمست في لطف:

- «للأبد؟..»

تساءلت في الظلام:

- «ماذا؟..»

- «ستكون ملكي للأبد؟..»

ساد صمت طويل، ثم قلت عن غير اقتناع:

- «وحتّى تحترق النجوم كلها وحتّى... ... ...»

هنا سمعت من يتنحنح.. وإلى الغرفة دخل عزت وكاميليا..

كان هناك جو من المرح الصناعي المفتعل. أعرف هذا الجو جيدًا.. تقول أنت إن عزت يبدو أكثر سمنة وتضحك في افتعال، فيقول وهو يضحك في افتعال أكثر أنه يأكل كالحلاليف. فتقول د. كاميليا بافتعال أكثر وأكثر: يا عم ياعم.. لماذا لا تدعونا لنأكل معك؟ إذن أنت بخيل.. فيتظاهر بأنه لا يسمع الكلام ويقول إحم.. تذكرت أن عندي موعدًا!... إلخ!

طيبا القلب لطيفان.. لكن أهم المتع التي تنتظرني يوم الرحيل هي أنني سأتخلص من هذا السخف..

لتذكر الأرض أنني لم أتحمل الملل والتكرار والشعارات المحفوظة طيلة حياتي. أرجو الله ألا يتحقق كابوسي القديم أن يجلبوا رجلًا سخيفًا مملًا ليدفنوه فوقي في القبر. سوف أصاب بالجنون فعلًا.

لم تكن هناك صعوبات لغوية مع ماجي كلاهما يتكلم الإنجليزية نوعًا ويفهمها، كما أنّ ماجي تجيد فن إبطاء كلامها كلما قابلت من هو ليس بريطانيًّا.. ثم إنها تعرف الكثير من العربيّة.. لا تنس الأيام التي عاشت فيها في قريتي مع أختي..

✷ ✷ ✷

كنت أعرف بالضبط سبب آلام العظام هذه..

سبب لحظات التوهان وفقدان الوعي..

إنها الثانويات.. أنا طبيب وأعرف القصة جيدًا.. الورم الخبيث في حنجرتي يرسل أزهاره وهداياه القاتلة في كل صوب. إنه مثل دين جديد يحاول أن ينتشر.. لديه أتباع مخلصون في كل جزء من جسدي بعد قليل سيصير جسدي كله مؤمنًا وأنتهي أنا...

في تلك اللحظات كنت أعيش تجارب كاملة وأخوض مغامرات مدهشة.. سوف أبهرك لو أنك سمعت بعضها لكني للأسف كنت أصحو ناسيًا كل شيء..

مشكلتي الأخرى التي تعلمتها من حياتي هي أن الغرفة غير خالية.. إنها مزدحمة كأنها حافلة في وسط القاهرة ساعة الذروة.. لكننا لا نرى. في قصة شهيرة للافكرافت مُنح البطل القدرة على رؤية هذه الكائنات عن طريق جهاز خاص، حتى أنه جُنّ..

يهتز رأسي..

هييه إنّه يفقد الوعي!

يميل..

إنّه يغيب.. هل يفعلها في هذه المرّة؟.. فلننتظر ولنحبس الأنفاس..

أرفع رأسي بسرعة مذعورًا..

للأسف.. لقد صحا ثانية.. محاولة جيدة. دعونا نعد اللقطة ببطء..

ويتصاعد الهتاف من مدرجات الشياطين.. كل الشياطين التي مررت بها في حياتي يشاهدون الإعادة ويتناقشون حول المشهد. حول أخطاء اللاعبين الآخرين.. لو أحسنوا اللعب لكنت جثة هامدة الآن..

فقط تدخل الممرضة لتحقني بشيء ما ثم تخرج..

أنام من جديد..

أفتح عيني لأرى ماجي تفعل شيئًا ما جوار الفراش.. تنسق علب الدواء. تنسق أزهارًا.. ثم يحل الظلام فأطلب منها متوسلًا أن تعود للفندق، فتطلب مني في حرارة أن أظل بخير حتى الصباح..

أكره نفسي يا ماجي..

لا أريد أن أعذبك أو أؤلمك بأي شيء. تمنيت أن تصلك البرقية النظيفة الباردة وأنت في إنفرنسشاير في القصر جوار المدفأة.. كنت ستتنهدين في حزن ثم تنسين الأمر برمته. لكنك هنا في الحرب ذاتها.. ليتني أعرف من الحمار الذي طلب من سيدة الدياجير أن تأتي..

أنت الآن تعرف القصة.. تعرف أنني كنت أحكي جل ذكرياتي وأنا مصاب بسرطان الحنجرة. وقد توغل هذا الداء الوبيل جدًّا.. التدخين له ثمن فادح على الأرجح. ربما لهذا لاحظ بعضكم أن صوتي صار مبحوحًا مع الوقت، وأن انتباهي يتشتت كثيرًا.. أخطائي صارت بالجملة.. هناك قصص تغير فيها اسم البطل عدة مرات.

هذه النبتة التي أطل عليها من النافذة.. أوراق نصف خضراء نصف صفراء.. تذكرك بورقة التوت التي تستر بها فينوس نفسها في لوحة بوتيتشيلي الشهيرة.. ما اسمها؟. اسم النبتة لا اللوحة.. لكن لو سألت أحدًا لاتهموني بالجنون..

في الفراش لا تسلية لي إلا القراءة والكتابة..

جلب لي عزت بعض الأوراق والأقلام. هكذا رفعت الوسادة ورحت أحاول أن أدون هذه التجربة. ما الجدوى؟.. لن أستعمل هذه الخبرات فيما بعد. لكن ما جدوى حياتنا ذاتها إن لم ننقل خبراتنا لجيل تال؟..

سوف أبحر وسط ذكرياتي.. سأحاول أن أتذكر ما فاتني ما لم أحكه لك.. ما كنت قد نسيت أنني عشته..

سوف تكون هناك هلوسة كثيرة، لكن تذكر أن دمي مفعم بالمورفين والبيتادين.. اقبل كلماتي كما هي ولا تلمني يا صاحبي..

فريكيكو لا تلمني.. على رأي سيد الرواية نجيب محفوظ في (ميرامار)..

اسمي رفعت إسماعيل..

ر.. ف.. ع.. ت.. إ.. س.. م.. ا.. ع.. ي.. ل..

- 1 -

الغابة عميقة مظلمة عذبة..

لكن لديَّ مواعيد يجب أن أفي بها..

وأميالًا يجب أن أقطعها..

قبل أن أنام...

روبرت فروست

✷ ✷ ✷

أعتذر بشدة أولًا لأنني لا أنتوي سرد أي تفاصيل عن الكينونة.. كما قلت لك هناك أسرار من الخير أن تموت مع المرء. لن أحكي لك كيف عرفتها ولا من هي.. أعرف أنك راغب بشدة في معرفة الأمر لكني لا أستطيع. يكفينا استنتاج أنها كيان واسع المعرفة.. خطر جدًّا.. على الأرجح يمكن أن أقابلها في صورة بشرية متنكرة. نتبادل الرسائل التي أكتبها بدمي وأحرقها.. رسائلها أجدها تحت وسادتي وهي تستعمل ورقًا مريبًا أعتقد أنه من جلد بشري مدبوغ. لم تقل هي هذا لكن بوسعي أن أخمن..

بسهولة أعرف شكل خطاباتها. شكل المظروف الغريب طريقة الغلق مع خاتم من الشمع. الكتابة بالحروف القوطية على المغلف. جو محاكم التفتيش وصكوك الغفران..

اليوم وجدت تحت وسادة فراش المستشفى الخطاب التالي:

عزيزي رفعت:

هذا هو خطابي الأخير لك سواء رددت أو لم ترد أنت على وشك ممارسة عادة الفناء والتلاشي ككل قومك. ولعمري هذه عادة سيئة لا أعرفها وقد فشلت في أن أخلص البشر منها. لسبب ما يحبون أن يموتوا وتتوقف أنفاسهم ويخضر لونهم وتمتلئ بطونهم بالديدان.. لن أفهمهم أبدًا..

على كل حال تذكر أنّ هذه ليست سوى مرحلة، وأن الحياة مستمرة.. أنت ذاهب للقاء خالقك حيث يتم الحساب النهائي والحقيقي لحياتك. سوف تعرف إن كنت موفقًا أم لا. لا أجد ما أقوله

سوى أن أطلب منك ألا تحزن.. يؤسفني الفراق، لكن تذكر أنني فارقت آلاف البشر ممن كانوا مثلك من قبل لا يمكن أن أقول إن لك وضعًا خاصًا أو متميزًا..

هذا هو خطابي الأخير.. ربما أحاول أن أخفف آلام النهاية عنك إذا فشل المورفين، لكن أعتقد أن الأخير كاف.

شكرًا لك.. كانت معرفتك ممتعة..

بإخلاص:

أنت تعرف من.... ...

✷ ✷ ✷

كان خطابًا رقيقًا مفعمًا بالأمل كما ترون.. أجمل خطاب يمكن أن ترسله لشخص مريض..

هذه الكينونة لن تكف عن إشعاري بالخجل من لطفها ورقتها.

لا أستطيع حرق الخطاب هنا، لذا دسسته بين صفحات الكتاب العملاق الذي أربطه لبطني، ورقدت أنظر للسقف.. كم مرة في حياتي نظرت للسقف لأرى كائنًا مخيفًا يتشبث به؟؟؟ هذه المرّة لا أرى سوى كشاف النيون الأنيق البارد المحايد. كشاف سمج لا مبال من فرط ما رأى من موت ومرض..

وأحاول أن أتذكر....

تلك الرسالة التي وصلتني يومًا ما منذ أعوام:

عزيزي رفعت:

أنت تعرف أنني أنذرك من الخطر في أوقات بعينها، وهذا لأنني أرى ما خلف الأستار كأن الأستار لا وجود لها. في عالمك يوجد مخلوق مريب..

كانت هناك في القرون الوسطى أمة من الوحوش تحيا في جزيرة في المحيط، ثم بادت فلم يبق منها إلا عشرة مخلوقات أو أكثر قليلًا هذه الكائنات تبدو كقطط أو أفاع أو كلاب أو وطاويط.. لا يهم...

هذه المسوخ تدعى (مولوخات). ولديها قدرة مذهلة على تغيير الشكل..

ما لا تعرفه ولا يعرفه البشر هو أنّ هناك مخلوقًا منها في مصر الآن... هذا المخلوق يغتذي بالدم واللحم البشري، ولكنّه يبدو للناس شيئًا طبيعيًا برئ المظهر. لا أحد يقدر على القبض عليه أو

الكشف عن حقيقته. اليوم أعرف أنه قريب منك جدًّا.. إنه في دائرة عالمك..

ربما كان هذا بطريق الصدفة، وربما أرسله خصمك العتيد لوسيفر. المهم أن عليك أن تجده وتحاول تدميره بأي شكل.. لا أقدر على أن أفصح أكثر لكني أقدم لك هذه النصائح:

- أنفك قد يخبرك بالحقيقة

- النار قد تحل المشكلة

- سوف تجد المعلومات اللازمة قرب شجرة عتيقة

- ليس هذا أفضل وقت لطلب يد فتاة

- الصباح المبكر أفضل وقت

تذكر هذا فلربما نجحت في أن تبقى حيًّا....

بإخلاص:

أنت تعرف من.... ...

✷ ✷ ✷

يجب أن أكرر هنا إن هذا خطاب قديم.. ربما يعود لعشر سنوات سابقة..

كنت في ذلك الوقت أمشي وآكل وأتشاجر وأصعد الدرج لابد إذن أنّ هذه من القصص التي لم أحكها لك بعد..

شعرت بقلق بالغ.. الكينونة تعرف ما تقول، ومعظم نبوءاتها لها طابع مصيري قدري يذكرك بنهاية العالم.. دائمًا لا تعطى تعليمات واضحة، لكنّها تعطي كلمات عامّة.. بعضها مفيد وبعضها يضلل أكثر مما يفيد..

هناك خطر داهم إذن..

أنا أعرف الكائنات التي تغير شكلها هذه Shapeshifter. هناك تراث هائل منها في قصص الرعب والأساطير. ألف ليلة وليلة تعجّ بها.. تذكر السندباد مع الساحر الشرير الذي بدا أولًا كشيخ مسن واهن.. الأمير الضفدع في الأساطير الغربية.. بحارة أوديسيوس.. النداهة في إحدى أشكال القصة تتخذ شكل صديق لك وتدعوك للخروج معها. الفكرة مرعبة دائمًا...

لا تنس أن المذءوب في النهاية هو شكل من أشكال تغير الشكل. لفظة لايكانثروب (مذءوب) في حد ذاتها هي اسم رجل مسخه زيوس إلى ذئب..

لكن من أين أبدأ...

لا أعرف..

اتجهت إلى جهاز التلفزيون وفتحته.. تلك كانت الأعوام الأولى التي نرى فيها التلفزيون بالألوان.. جلست شارد الذهن أتابع برنامجًا ثقافيًا. مذيعة شقراء تتحدّث مع ضيف ممل يغوص في مقعده، ويردد بلا توقف:

- «الديالكتيك.. لابد من المزيد من الديالكتيك..»

كنت أفكر بلا توقف. هل هناك أشخاص وافدون إلى حياتي مؤخرًا؟.. هل من وجوه جديدة.. كانت تلك فترة من الفترات الهادئة في حياتي فعلًا. لا شيء يحدث ولا مخاوف..

لكن.. هذه المذيعة.. اسمها (صفاء حجازي). هاتان العينان الخضراوان اللتان تشعان نارًا.. ياقة بيضاء وثوب أسود أنيقة جدًّا.. رشيقة الحركات والإيماءات..

وماذا عن صوت المحرك الخافت هذا؟.. هناك شيء في سماعات التلفزيون بلا شك.. لكن لا.. أنا متيقن من أن الصوت يأتي من المذيعة ذاتها..

لكنها مذيعة معروفة وشهيرة.. أراها منذ ولدت على ما أعتقد.. لا تشيخ أبدًا كأنها زومبي، ولعل هذا دليل آخر. لكن مغيري الأشكال يفعلون ذلك أحيانًا.. أعني أنهم يحلون محل شخصيات نعرفها. فكرة مرعبة أخرى.. قد يعود أخوك من الشارع وقد صار آخر.. كما قلت إن هناك صيغًا لقصة النداهة قريبة من هذا...

هل يمكن أن يكون مولوخ - على شكل قط - قد حل محل هذه المذيعة؟

مستحيل. هل تعرف السبب؟.. لأن هذا مستحيل.. لا توجد مصادفات بهذه القوة..

تبًّا.. سوف أصاب بالبارانويا حتمًا..

هنا أجفلت لأن جرس الباب دق..

✷ ✷ ✷

القادم كان رجلًا غليظًا بدينًا يخنفر بلا توقف.. لابد أن السلم أتعبه فعلًا. كان يلبس ثيابًا رثة متسخة قليلًا.. قال لي وهو يلتقط أنفاسه:

- «دكتور رفعت؟..»

قلت في حذر:

- «أنا هو للأسف..»

نظر حوله وأخرج منديلًا مسح به عرقه الغزير، وقال:

- «اسمي صبحي.. محاسب في بنك (...).. هناك مشكلة لابد أن أحكيها لك.. عرفت أن عندك خبرة ممتازة في أسرار ما وراء الطبيعة. هل تسمح لي بالدخول؟..»

وقفت أتأمله بعض الوقت.. أعتقد أنه شخص مسالم، لكن هناك تلك الرائحة.. رائحة كريهة فعلًا تتصاعد منه. أعرف قومًا يعانون البخر بشدة وأنفاسهم لا تطاق، لكن رائحة هذا الرجل عامّة.. تنبعث من مسام جلده ومن خلاياه...

- «أنقك قد يخبرك بالحقيقة..»

الكينونة قالت هذا.. فهل نحن في هذه اللحظة؟..

المتحولون أو مغيرو الشكل جاءوا من فروع عدة.. ربما كان أحد فروعهم ينتمي للخنازير البرية. من يدري؟

لو أردنا أن نشبه الكائن القادم لقلنا إنّه خنزير.. خنزير بري آدمي عملاق..

قلت له وأنا أوارب الباب:

- «لا أتلقى زيارات من غير موعد..»

كان قد اندفع نحو الباب محاولًا أن يبقيه مفتوحًا.. لحسن الحظ أنه لا يعرف حيلة (بوارو) الشهيرة في وضع قدمه في فرجة الباب ليمنعه من الغلق..

أغلقت الباب بحزم بينما راح يدق بقبضته ويردد:

- «ماذا هنالك؟؟ قلت لك إن عندي مشكلة! أنا في خطر..»

- «لا أتلقى زيارات من دون موعد.. كلامي واضح..»

ماذا لو كان هو؟.. ما الذي يثبت أنه من مغيري الشكل؟.. ولو كان كذلك فماذا أفعل؟ هل أجلب سكين المطبخ وأولجها في صدره؟.. هل أطلب الشرطة؟.. أقول لهم: «أنا أشك فيه يا سيدي.. يبدو لي كأنه خنزير متحول» ولو سمحت له بالدخول فلربما كان هذا خطأ عمري....

وقفت ألهث خلف الباب.. لم أكف عن اللهاث إلا عندما توقف لهاثه وعرفت أنه رحل..

-2-

شجرة عتيقة؟.. أين أجد شجرة عتيقة؟

في ساعة مبكرة من النهار، رحت أدور حول البناية التي أسكن فيها عدة مرات.. هناك مجموعة من أشجار السنديان في شارعنا، وعلى قدر علمي هي أشجار عتيقة معمرة..

ترى أين يوجد السر الذي يمكن أن يدلني على الحقيقة؟..

«أنفك سيدلك على الحقيقة..». من قال لها إن أنفي سليم؟.. لكنّها الحقيقة.. ما زلت أشم جيدًا لشدة الغرابة..

رحت أتشمم الهواء وأنا أمشي في ذلك الممشى الضيق..

رائحة كريهة.. لا شك في هذا..

كلب مذعور أشعث نظر لي ثم هرع يفر.. هل هو مصدر الرائحة؟.. هل يعني هذا أنه مولوخ آخر؟.. ما الذي يمنع أن يتخذ المولوخ شكل كلب أو قط؟ لماذا أفترض أنه كائن بشري؟

ثم اصطدمت قدمي بذلك الشيء..

بدا لي أولًا كأنه متسول ينام على الأرض، ثم رأيت حالة التجرد من الوجود التي يمرّ بها.. حالة تحلل الخلايا.. حالة اللا حياة... الفارق الواهن الذي يجعلك ترتجف وتجفل لو اطلعت عليه لوليت منه فرارًا ولملئت منه رعبًا كما يقول التعبير القرآني الدقيق...

دققت النظر أكثر فعرفت أنه رجل.. رجل بدين غليظ.. رجل كان يطلب مقابلتي منذ فترة وجيزة. هذا لم يكن (مولوخ) إذن وإنما هو ضحية..

دققت النظر في الجثة فرأيت أن لحم الوجه ممزّق.. وأدركت أنّ هناك من أفرغها من الدم.. هذه أشياء لا تفوتني وأدركها بسهولة تامة. بعد عمر من مقابلة مصاصي الدماء لا يخطئ المرء هذه الأمور..

الجثة على بعد خطوات من جذور الشجرة العتيقة..

بالفعل كانت الشجرة والرائحة الكريهة هما من قاداني إلى هنا كما قالت الكينونة..

هذا البائس كان يخشى شيئًا وأراد أن أساعده لكني خذلته يمكن القول بلا خطأ كبير إنّه نزل من بيتي فهوجم، ثم تركت جثته هنا طيلة الليل.. لا أحب أن أتصور أن الكلب الذي قابلني ظفر

بقضمة.. هذه أشياء بشعة..

شعرت بيد باردة على كتفي فأجفلت..

استدرت للخلف فوجدت فتاة فارعة الطول تلبس ثوبًا أسود طويلًا..

كانت جميلة.. هذا ما استطعت أن أدركه مع أول نظرة..

قالت لي بصوت مبحوح من الرعب:

- «ماذا هنالك؟...»

قلت وأنا أتراجع للخلف:

- «ميت.. هناك من هاجمه هنا..»

راحت ترتجف كورقة.. ترتجف لدرجة أثارت شفقتي، ثم اقترحت أن أتصل بالشرطة.. سأفعل هذا طبعًا.. أحيانًا يتمتع الناس بغباء مذهل..

كان المارَّة قد بدءوا يحتشدون.. ضوضاء..

أحد البوابين قال إنّه طلب رجال الشرطة.. حالة عامّة من الفخر تغمر الناس كأنهم هم من قتلوه.. وكانت هذه هي الفرصة المناسبة.

حان الوقت لأذوب وسط الزحام وأختفي. ليس لديَّ ما يفيد رجال الشرطة ولا يوجد ما يُقال، ولن أكتم شهادة أو أعطل العدالة. إذن لا داعي لإضاعة اليوم في التحقيقات.. ما لم أجد نفسي متهمًا بالقتل آخر الأمر.. أعرف هذه المواقف..

انسحبت وسط الزحام فلم يلحظ أحد رحيلي، ووجدت أن يد الفتاة الباردة الراجفة في يدي فسرقتها لتكون معي..

كنا نبتعد..

وهناك عند ناصية الشارع كانت تلك الكافتيريا قد بدأت العمل، فدعوتها إلى الدخول.. لا تقلقي.. أنت بحاجة إلى قهوة مركزة.. هل أفطرت؟.. نعم؟.. أنا لا أتناول الإفطار أبدًا لا أمارس أي عادة مفيدة أو صحية. هذا شيء التزمت به نحو نفسي..

هكذا جلسنا في ذلك المكان الهادئ الدافئ الناعس.. لم يأت زبائن بعد، وقد بدا أن النادل يشعر بضيق منا لأنّه يريد أن نتركه يلتهم الطعمية ورغيف الخبز الأسود الذي كان ينوي البدء بالإفطار به.

قلت له في رفق:

- «سوف تجلب لنا القهوة ثم أعدك أنني لن أطلب منك أي شيء للأبد..»

بدا عليه الرضا وانصرف..

قلت الفتاة:

- «اسمي رفعت إسماعيل.. وأنا لا أتحرش بك أو أحاول أن تقعي في حبي. كل ما هنالك أنني أكره أن أتركك ترحلين وأنت تحملين ذكرى جثة ممزقة..»

لماذا لم تبك قط؟.. لماذا لم تصرخ؟

لماذا لا ترمش جفونها بالمناسبة؟

قالت وهي تبحث عن شيء في حقيبتها:

- «اسمي (أسيل).. كنت ذاهبة لعملي عندما رأيتك تتأمل شيئًا خلف تلك الشجرة عندما دنوت رأيت ذلك المحاسب وكانت الصدمة قوية..»

ثم راحت ترتجف أكثر.. حتى عندما جاء النادل بالقهوة ورشفت أول رشفة..

كنت أفكر في عمق.. المحاسب؟.. هل جاء الحل بهذه السرعة؟.. هذا حسن حظ لا أتوقعه.. وماذا عن رائحتها؟.. لها رائحة عطرة غريبة تذكرك بالبلل..

أرى ساعدها العاري حيث انحسر الكم.. هل هذه حراشف أم بقعة من داء الصدفية اللعين؟

قلت لها باسمًا:

- «بلا أي انفعال زائد.. من قال لك إن هذا محاسب؟.. وددت لو فهمت...»

نظرت لي ثم اتسعت عيناها.. أقسم أنني سمعت صوت فحيح.. ثم قالت:

- «إنّه زميل لي في المصرف اسمه صبحي..»

هذه إجابة معقولة.. لكن هل هي صادقة؟.. هل كان المحاسب يحتمي بشقتي وخبرتي من خطر معين شعر به؟.. هل كان يخشى السير في الشارع؟.. هل كان هناك مولوخ يبدو كالبشر يلاحقه؟

هذه الفتاة تذكرني بالأفاعي.. لا شك في هذا..

هل من إجابة؟؟..

لما انتهت من شرب القهوة وهدأت قليلًا غادرنا الكافتيريا نقدت النادل الذي امتلأ شدقاه بالطعمية نقوده فلم يكلّف نفسه بالعد..

في الخارج ودعتها.. وطلبت رقم هاتفها..

- «لماذا؟..»

- «لأطمئن..»

قالت في خبث وهي تبتعد:

- «أنت قلت إنك لا تتحرش ولا تحاول الإيقاع بي..»

- «هذا صحيح..»

- «برهن!..»

وسرعان ما انسلت مبتعدة..

و هل هذه هي؟.. أعتقد هذا. هذا أقرب الاحتمالات الممكنة ربما هي أو الكلب المذعور الذي رأيته.. لكن ماذا أفعل بعد هذا؟ أحرقها لأتأكد؟ لو ماتت فهي بريئة ولو ماتت فهي مولوخ؟.. يذكرني هذا باختبار الساحرات الأحمق في القرون الوسطى ارم المرأة في الماء.. لو ماتت فهي بريئة.. لو طفت فهي ساحرة وعليك أن تحرقها!!

✷ ✷ ✷

لكنكم تعرفون رفعت إسماعيل العجوز..

إنّه يبحث عن المتاعب دائمًا..

لهذا - في اليوم التالي - ذهبت إلى المصرف الذي ذكر لي المحاسب اسمه.. من الصدفة أن لي صديق دراسة يعمل هناك بعد شرب الشاي والقهوة والشاي والقهوة ثم الشاي والقهوة، وقبل أن أموت بقرحة معدية سألته عن صبحي يرحمه الله..

قال وقد تقلص وجهه ألمًا وحزنًا (ربما بسبب انتفاخ القولون):

- «هذا البائس.. وجدوه ممزقًا في شارع بالدقي.. لا يعرف أحد من فعلها ولمه.. لقد كان يعاني حالة نفسية معينة، وكان يعتقد أنّ هناك من يطارده ليقتله.. حالة نفسية لا شك فيها..»

فكرت قليلًا ثم سألته عن...

- «(أسيل).. هل عندكم فتاة اسمها أسيل...»

حك رأسه ليتذكر.. ثم هتف في مرح:

- «تلك الأفعى الآدمية!... بالطبع!..»

قلت في حيرة:

- «أفعى آدمية فعلًا.. هذا أقرب تشبيه..»

- «هل تنوي التقدم لها؟.. إنها جميلة لكنّها غير قابلة للمعاشرة..»

- «أفكر فيها لأحد أقاربي.. أ.. هل يمكن أن أراها؟..»

مد يده المكتنزة ليمسك بيدي واقتادني خارج مكتبة الصغير إلى ردهة مليئة بالموظفين الجالسين خلف شاشات الكمبيوتر. هناك كانت جالسة تجرى بعض الحسابات.. مررت جوارها فناداها الرجل محييًا. التفت لنا وهزت رأسها محيية في برود ثم عادت لما تقوم به..

لم تعرفني!.. أسيل هذه لا تعرفني.. ربما هناك أسيل أخرى تعرفني وتذكرني.. السبب واضح وهو أن من قابلتها في شارعنا ذلك اليوم لم تكن هي.. كانت أخرى..

هناك احتمال آخر لا بأس به.. هي لا تذكر من أنا.. من قال إن وجهي يعلق بالذاكرة؟.. إنّه غطاء جمجمة لا أكثر كما قلت من قبل.. لقد قضت معي ربع ساعة بعد ما رأت زميلها في المصرف ممزقًا.. لابد أن وجهي قد محي بالكامل من ذاكرتها وسط هذه الضوضاء البصرية..

هل رأت الجثة فعلًا؟.. هذا وارد. ولربما فضلت ألا تتكلم ولا تحكى لأحد كما فعلت أنا..

لكن كيف أتأكد؟

✷ ✷ ✷

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي نزلت إلى الشارع..

أردت أن أبحث عند تلك الشجرة التي وجدت الجثة عندها الكلب الأجرب راح يحرك ذيله وهو يرمقني في رعب.. ترى هل هو أنت؟..

لا أعتقد.. لكن ماذا يؤكد أنك لست كذلك؟..

سألته بصوت عالٍ:

- «هل أنت مولوخ آخر؟..»

لم يرد هذا الأحمق وابتعد مذعورًا..

ما هذا؟.. أذكر أن الشجرة كانت هنا بالذات.. جوار هذا الكشك المغلق هناك خطأ.. لا بد أنني صرت أبله أو ذاكرتي قد محيت..

رحت أبحث عن الشجرة التي رأيت الجثة جوارها.. الرائحة أين هي؟

ثم سمعت أنينًا..

هرعت نحو شجرة قريبة.. شجرة غليظة كسا الطحلب جذعها، وامتدت جذورها الغليظة في الرصيف.. عندها رأيت مشهدًا عجيبًا بعض الشيء..

لقد كانت الفتاة أسيل هناك.. راقدة على الأرض ممزقة الثياب تئن بلا توقف، وكانت في حالة لا تسمح بالصراخ. من يهاجمها؟.. لا تسخر مني.. كانت الشجرة تفعل ذلك.. لقد تحول جذع الشجرة إلى شيء أشبه بفم عملاق مفتوح ينهش الفتاة، ومنها خرجت ممصات عدة تتمسك بعروقها محاولة سحب الدم.. الشجرة كائن حي.. الشجرة تنبض بالحياة..

الآن أفهم..

غبي أنا كما كنت دومًا..

هذه الشجرة لم تكن هنا أمس.. كانت في مكان آخر. أشجار ماكبث التي تزحف في الغابة نحو القلعة.. هي ليست شجرة أصلًا.. هذا هو مولوخ يغير شكله.. من قال إن المولوخات لا تقدر على أن تبدو كنباتات؟ لم يجل هذا بذهني..

الكينونة كانت صادقة جدًّا.. لكنّها أغرقتني في لعبة الشك المتواصل شككت في الجميع تقريبًا ووجهت إصبعي في كل اتجاه..

المحاسب رأى لمحة جعلته يشك.. الفتاة سقطت في الفخ وهي ذاهبة لعملها..

وثبت نحو الإفريز، وتمسكت بساقيها ورحت أجرها.. كان هذا عسيرًا مع حالتي الصحية.. وسرعان ما طرت في الهواء ممسكًا بحذاءيها.. وسقطت جوار جدار السور المجاور...

هناك بواب صعيدي سمع الأنين في هذا الوقت المبكر وهرع ليرى أشنع منظر يمكن أن يراه.. هكذا أمسك بساقيها معي وجرها بعيدًا وهو يبسمل ويحوقل..

لا أعرف كيف استطعنا أن نحررها لكننا فعلنا..

وهتف البواب بلهجته الجنوبيّة الجميلة:

- «أعوذ بالله... من أين جاءت هذه الشجرة؟..»

قلت وأنا ألهث عاجزًا عن العثور على هواء:

- «اسمع.. هذه ليست شجرة.. ولن نكون آمنين ما لم نحرقها هنا والآن..»

كنت جالسًا هناك على الإفريز أرمق ذلك الشيء يفور ويمور ويعلو ويهبط أرجو ألا يتحرر المولوخ ويلاحقنا... أرجو ألا يسترد شكله الأصلي قبل أن نواجهه كشجرة..

✷ ✷ ✷

همست ماجي وهي تسمع أنيني في الظلام:

- «حاول أن تنام.. لا أفهم معظم ما تقول لكنه كابوس..»

قلت بشفتين جافتين:

- «ليس كابوسًا بل هي ذكرى.. ذكرى قاسية.. هلا ناولتني رشفة من الماء؟..»

- 1 -

ويوم أغيب.

وراء المغيب.

يقولون كان عنيدًا..

وكان يقول القصيدا..

وراح يحاول شيئًا جديدا..

ومات وخلّف هذا الوجودا..

كما كان قبلًا.. غبيًّا بليدا!!

(دكتور غازي القصيبي)

✷ ✷ ✷

رائحة الديتول هذه.. رائحة المستشفيات هي رائحة المرض ذاته.. لكني كطبيب تعلّمت أن أعشقها..

في الليل تصحو الثانويات في العظام، ويتحول ظهر مريض السرطان إلى أداة تعذيب من القرون الوسطى.. وفي الليل تحقنني الممرضة ببعض ذلك السائل.. سوف يسمحون لي بأقراص المورفين فيما بعد، لكن هذا يتطلب إجراءات معقدة..

في ظلام الحجرة كان واقفًا..

رأيته في الضوء الخافت القادم من الخارج، وخطر لي أن أصرخ طالبًا الممرضة، لكني خشيت أن تكون هذه هلاوس بسبب المخدرات التي يعطونها لي.. تداخل الحقيقة مع الواقع مروع وكابوسي.. لو جاءت وقالت إنِّه لا يوجد شيء لساءت حالتي النفسية جدًّا..

لا أعرف شكله لكنه بدا لي كصبي.. مراهق في الخامسة عشرة من عمره.. ربما..

تلك الوقفة الثابتة.. لا أعرف عينيه بسبب تأثير السلويت لكني أعرف أنه ينظر لي. كل المسوخ تعرف كيف تستخدم الإضاءة كأفضل مدير تصوير في العالم. لا يوجد شبح أحمق أو مبتدئ في

فنون الإضاءة..

قلت في صوت خافت مبحوح:

- «من أنت؟..»

بعد صمت قال بصوت يناسب منظره:

- «أنت تعرف.....»

هذه محادثة مناسبة جدًّا لكي يكون هو الموت.. لو قرأتها في عمل أدبي لقلت إن بطل العمل يموت الآن، لكن الموت لا يبدو كهذا..

عدت أكرر بذلك الصوت الشبيه بصوت صرصور:

- «من أنت؟.. أنت تفترض فيَّ ذكاء لا أملكه....»

منذ صباي يضايقني ذلك الوغد الذي يستوقفك.. يشد يدك ويعتصرها في قسوة وهو يحملق في وجهك مردِدًا (حقًّا لا تتذكرني؟) فأصرخ ألمًا وأتلوى محاولًا انتزاع يدي لكنه يضغط أكثر وتتسع عيناه ويجز على أسنانه.. هلمّ... نشط ذاكرتك!.. تذكر!.. فتقسم بالله أنك لا تذكر.. لكنه مصر على أن تتعلم الدرس بنفسك. في النهاية يخبرك أنه (محمود أبو سلامة) الذي قابلته في حفل زفاف (أحمد الفقي).. أنت لا تعرف أي اسم ولا تتذكر أي شيء، لكنه مصر على أن يعتصر يدك حتى تتهشم..

قل من أنت أيها الطيف فأنا لا أتذكر..

في اللحظة التالية أدركت أنني وحدي في الغرفة..

لا إجابة.. سوف أموت دون أن أعرف من كان هذا..

✷ ✷ ✷

لابد أن الوقت كان مساءً.. العواصف عاتية.. الأمواج تتعالى كأنها جبال أو مردة أصابهم الجنون، وبرغم هذا حاول القارب الصغير أن يتوغل في الماء..

صاحب القارب إدموندو أبراهان كان في حالة جنون حقيقيّة، وقد أصر على أن يظفر ببعض الأسماك فالأطفال جياع.. هناك أفواه مفتوحة في البيت كأفواه الطيور..

مساعده إرنستو فابياو راح يحاول إقناعه بالعكس، لكن الرجل بدا متحمسًا.. كأن جنية بحر نادته لموعد محتوم مع الانتحار.. من ينزل للبحر في طقس كهذا لن يعود. لا يحتاج الأمر لذكاء

كثير.

ولكن كل محاولات النزول للبحر تفشل. الموج يتقيأ القارب على الفور، ليجدا أنهما ملقيان على الشط مهشمًا الأوصال.. يحملان القارب من جديد..

بدا الأمر كأن هذا عملاق حكيم يحاول منع أطفال عابثين من مضايقته.. ابتعدا.. أنا لا أريد الإيذاء.. سوف أغضب.. غضبي قاس متوحش..

لكنهما كانا مصرين.. في النهاية ردا على الشط في الظلام وسط الزبد يلهثان. على الأطفال أن يبيتوا جياعًا إذا لم يريدوا أن يبيتوا يتامى..

وهنا نهض فابياو ونظر لبعيد ثم صاح في معلمه:

- «انظر هناك!..»

نظر إدموندو لما يشير له الفتى وهو مستعد لأن يلعنه لعنًا لو كان هذا شيئًا تافهًا، لكن الكلام احتبس في حلقه.. لا يمكن الكلام وأنت ترى هذا الوحش الجاثم على الشط...

هذا هو العام 1872.. وهذا هو ساحل البرتغال قرب جبل طارق..

في الصباح جاء رجال كثيرون وأفراد من الشرطة ووقفوا في رهبة ينظرون إلى السفينة الجاثمة التي قذفها الموج إلى الشط سفينة عملاقة مرعبة بدت كأنها ديناصور نائم..

كان الاسم المكتوب على الخشب المهشم المبتل هو (ماري سلستي).. اسم سيخلد طويلًا في عالم ما وراء الطبيعة والظواهر الفورتية.. هذه سفينة أمريكية.

تسلق الرجال إلى السطح بالحبال، وراحوا يمشون في حذر فوق الخشب المبتل والطحالب.. من وقت لآخر تتهشم قطعة خشبية ويوشك أحدهم على السقوط..

كان الأمر واضحًا.. لا يوجد أحد على سطح السفينة.. السفينة خالية تمامًا. هناك مشهد شبيه بهذا للسفينة التي اجتاحها الطاعون في رواية دراكيولا، لكن على الأقل كانت هناك جثث على تلك السفينة وكان هناك قبطان ربط نفسه لعجلة القيادة..

لم يكن شيء من هذا هنا..

المؤن سليمة تمامًا.. لم تمس تقريبًا. البضاعة سليمة والأشياء الثمينة كلها في موضعها.. هذا ينفي فكرة هجوم قراصنة على السفينة.. أما أسوأ ما في الأمر فهو أن هناك أطباقًا على الموائد بها طعام مسكوب لكنه لم يفسد.. ما حدث لهذه السفينة حدث فجأة ولم يمهل الطاقم حتى يأكلوا وجبتهم الأخيرة.

عندما أقلعت السفينة من نيويورك كان على ظهرها عشرة أشخاص، ولا أثر لهم الآن. دفتر مذكرات السفينة موجود لكن لم يكتب فيه شيء منذ فترة طويلة.. البوصلة مهشمة..

اتهموا القبطان الأمريكي بسوء التصرف، لكن الجميع كانوا يعرفون أنه قبطان بارع يحسن الملاحة.. الخطأ البشري غير وارد هنا..

هل أغرق القبطان السفينة لينال مبلغ التأمين؟.. للأسف لا.. مبلغ التأمين كان ملاليم لا تستحق هذه المغامرة..

هجوم القراصنة فكرة مرفوضة كما قلنا..

التصق لقب النحس بهذه السفينة بعد هذا.. كل من تعامل معها مات في ظروف مؤسفة، في النهاية لم تجد مشتريًا وتركوها حتى تسوست وتلاشت..

بعد أعوام درس العلماء مسار السفينة فعرفوا أنها كانت تمر عبر منطقة تقع بين برمودا وبورتوريكو وولاية فلوريدا الأمريكية مثلث متساوي الأضلاع..

هذا جعلهم يعتقدون أنهم وجدوا التفسير الصحيح لاختفاء الطاقم..

نحن نتكلم عن مثلث برمودا إذن!

✷ ✷ ✷

أنت تعرف مثلث برمودا حتمًا..

آلاف الكتب التي تحكي عن الأساطير الفورتية حكت عنه وهناك من ربطه بالجان والمسيخ الدجال.. إلخ..

هناك من يزعمون أنه لغز الألغاز، وهناك من أجروا إحصائيات دقيقة خرجوا منها بأنه قصة وهمية وحوادث الاختفاء فيه ليست أكثر من أي موضع آخر من المحيط من هؤلاء المشككين لورانس كوش، الباحث في جامعة أريزونا.

في العام 1945 حدثت الحادثة الأشهر عندما اختفى سرب طائرات أمريكية يعبر مثلث برمودا. خمس طائرات اختفت ثم اختفت طائرة ذهبت للبحث عنهم.. وانفجرت طائرة أخرى ذهبت للبحث عن كل هذه الطائرات..

هكذا دخل مثلث برمودا إلى الثقافة الشعبيّة ولم يخرج. أنت رأيت فيلم (لقاءات حميمة من النوع الثالث) حيث تخيل ستيفن سبيلبرج أن هؤلاء الطيارين كانوا مخطوفين على متن سفينة فضاء.. وقد عادوا في نهاية الفيلم في عملية إعلان عن حسن النوايا..

وفي العام 1964 كتب فنسنت جاديس المقال الأشهر عن مثلث الشيطان.. وصار كل واحد في العالم يعرف هذا المثلث، وانهالت نظريات التفسير بدءًا بالجان، مرورًا بالكائنات الفضائية، مرورًا

بقراصنة البوكانير كما في قصة (الجزيرة) لبيتر بنشلي.. لقد شكل المثلث اللعين كنزًا لكتاب الخيال العلمي والسينما ولولاه لأفلس الجميع وخرب بيتهم..

فيما بعد ظهرت الحاجة إلى كشف هذا السر بشكل واضح وحاسم.

كنت أنا من المهتمين جدًّا بقصة السفينة (ماري سلستي)، فهي خليط عجيب من النحس والاختفاء الغامض.. لها نفس مذاق غرق التيتانيك، لكن تمت دراسة غرق التيتانيك جيدًا ونحن نعرف اليوم أنه لا توجد أسرار.. بينما ما زال لغز هذه السفينة محيّرًا فعلًا...

بالطبع تعرفون ما حدث لقد اتصلت بي مجلة أسكتلندية مهتمة بالظواهر الخارقة تطلب أن أشارك في بحث مدقق عن تلك الظاهرة.. ظاهرة مثلث برمودا. أنا طبيب عربي ولّى خبرة عريقة بهذه الأمور.. لديهم في الفريق عدة جنسيات ومعتقدات دينيّة وثقافية. هذه الأمور؟.. صدقني أنا لا أعرف ما هذه الأمور!!.. بالطبع حتى هذا الجزء كنت متأهبًا للفرار والاعتذار. لن أذهب لآخر العالم لأفتش في أساطير بحارة ثملين على الأرجح..

لكن.... ... ...

هناك فريق ممتاز من عدة جامعات، وكان هناك جزء مهم من الدراسة يقوم على استعمال السونار لدراسة الأعماق في تلك المنطقة..

تعرفون طبعًا من الأستاذ الأسكتلندي المهتم بالسونار ودراسات الأعماق.. ماجي ماكيلوب.. من سواها؟

وهكذا وجدت نفسي أقبل العرض بحماس غريب...

- 2 -

وأمامك أيها البحار.. أمامك محيط السلام..

ادخل بقاربك.. ادخل وارفع راية الذهاب نحو السلام..

(طاغور)

✷ ✷ ✷

الألم يعتصرني..

أوشك على فقدان الوعي.. لا حل لهذه المعاناة سوى فقدان الوعي، لكني من الأغبياء الذين لا يغيبون عن الوعي عندما يقسو الألم يظلون متنبهين. قالوا لنا في كلية الطب إن المحترق يموت على الأرجح بصدمة عصبية قبل أن يشعر بالنار تحرق لحمه، لكني أختلف.. سوف أشعر بكل شعرة وهي تتفحم كل عضلة وهي تتقلص..

ألم شديد.. شدييييد..

تصفيق حاد من شياطين جانب النجوم. لوسيفر يردد في سرور: إنني لهذا المشهد أسعد وله قلبي يطرب.. إن لوسيفر هذه الليلة - والحق يُقال – سعيد..

تصفيق حاد.. صفير..

لا تمت يا رفعت.. لا تمت بهذه السرعة.. نريد أن نتلذذ أكثر.

سقطت على المنضدة الصغيرة التي وضعتها في ركن الغرفة. سال الحبر ليغرق (أسطورة طفل آخر) التي كنت أكتبها..

وفي النهاية تشبثت بالملاءة.. تنفست بقوّة إلى أن استعدت تنفسي.. لن يشمت فيَّ هؤلاء الملاعين.. ليس الليلة...

وتحسست الكتاب المثبت إلى خصري. قد أفقد الوعي ويجردونني من الثياب وينزعون هذا الكتاب.. سوف أصير تحت رحمة لوسيفر التي لا وجود لها أصلًا، لكن لماذا القلق؟.. هو يعرف أن الكتاب له في النهاية...

وبينما أنا غارق في سكرات الألم تذكرت ما حدث في ذلك العام...

✷ ✷ ✷

عندما التقينا في فلوريدا لم أصدق..

لقد اعتدت أن أرى ماجي في ظروف خاصة هنا على أرضي أو في أرض أبيها، لكننا تقابلنا هذه المرّة في الولايات المتحدة لا أحمل أي حب لهذا البلد كما تعلم. لكن ماجي كانت هناك لتخفف المعاناة.

المشروع كان عملاقًا بالفعل... تشرف عليه البحرية الأمريكية بالتعاون مع هيئات علمية عدة، وهذا يعني أن دوري كان أقرب لـ (الفاسوخة) لو سمحت لي بهذا التعبير. لست خبير غطس وليست لي خلفيّة عسكرية ولا أفقه في الطيران، ولست عالم فيزياء. باختصار لا دور لي سوى أن أكون قرب ماجي في فلوريدا على حساب المجلة الأسكتلندية والجيش الأمريكي..

هيئة المشروع تدعى BTE وهي الحروف الأولى من عبارة (استكشاف مثلث برمودا). مدير المشروع جنرال أمريكي ممن تراهم في السينما، اسمه (ويليام وايلر).

كانت خطة المشروع تقوم على خروج عدة سفن عملاقة تمخر في مثلث برمودا، وتقوم بإرسال موجات سونار للأعماق والتقاطها ثانية. كان هناك فريق آخر يدرس فرضية ثلج الميثان الذي يكسو قاع المحيط في تلك البقعة والذي قيل إنّه يسبب اضطرابات تغرق السفن.. انفجارات هذا الغاز تغير كثافة الماء فلا تصير السفن قادرة على الطفو فيه وتغوص.. قد يفسر هذا غرق السفن، لكن كيف يفسر خلوها من الطاقم؟.. كيف يفسر سقوط الطائرات؟

استغرقت الدراسات ثلاثة أسابيع، ولا أعرف بالضبط دور ماجي في هذا لكنه كان بالغ الأهميّة.. الفتاة الرقيقة ماجي يمكن أن تكون مهمّة ومرعبة..

كل شيء كان سريًّا.. معظم أعضاء الفريق لا يعرفون ما يقوم به الآخرون..

كانت ماجي تبدو قلقة مهمومة.. تمضي معظم يومها في العمل ودراسة تقارير السونار كما ترسلها السفن التي تجوب المثلث، ولم تكن قد انضمت للفريق الذي يبحر في المحيط كانت تمارس عملها في القاعدة في فلوريدا..

بعد أيام خرجت معها بعض الوقت في نزهة قصيرة..

مشينا وسط الغابات متشابكي الكفين كأننا عاشقان قديمان ووجدت شجرة صفصاف وارفة، وحول جذعها تتواثب سناجب صغيرة مرحة.. دعوتها للجلوس هناك..

جلست واضعة ذقنها على ركبتيها وابتسمت لي.

- «للأبد؟..»

تساءلت:

- «ماذا؟..»

- «ستكون ملكي للأبد؟..»

- «وحتّى تحترق النجوم كلها وحتّى.... ... ...»

لكنّها لم تكن تصغي.. كانت تفكر في شرود..

قطعت جملتي وقلت لها:

- «يبدو أنك قلقة..»..

صمتت قليلًا ثم قالت في حذر:

- «ما وجده السونار مريب فعلًا.. أنا واثقة من أنني أهذي.. لكن النتائج لا شك فيها.. كثيرون رأوا الصور معي، وقد التزمنا بالسرية وعدم تسريب أي شيء للصحافة خاصة تلك المجلة الأسكتلندية. سوف ينالون ما دفعوه من مال لكن ليس الآن..»

- «وما هو المريب حقًّا هذا؟..»

- «وجدنا هرمين!... هرمين من زجاج! وهما على عمق كيلومترين...»

تصلبت مفكرًا.. هذا سخف بالتأكيد، لن ندخل في عالم هذيان إدجار رايس بوروز.. لن ندخل عالم أطلنطيد المفقودة وكل هراء الخيال العلمي السابق...

في ذلك الوقت لم أكن قد سمعت عن د. (ماير فيرلاج).. عالم أمريكي خبير في أعماق المحيطات، ظهر وأعلن أنه وجد هرمين من الكريستال في قاع المحيط. البعض صدقه والبعض قال إن القصة كلها هذيان.. إن فيرلاج شخص غامض يشك كثيرون في وجوده أصلًا، خاصة أن اسم فيرلاج بالألمانية معناه (ناشر)..

كان عقد كامل من الزمن ينتظر اكتشاف الأخ فيرلاج، لكن ماجي وجدت مع فريق عملها نفس الشيء المحير في ذلك الوقت..

- «هذا سخف يا عزيزتي...» ا

- «ربما هو سخف لكنه حقيقي.. قل هذا لصور السونار التي عادت بها السفن. هذان الهرمان هما مركز المثلث بالضبط...»

- «هذا ممتع.. وما حجم الهرم؟..»

- «ثلاثة أمثال هرم خوفو لديكم..»

قلت في غيظ وأنا أقذف بعض الفول السوداني للسناجب:

- «هل تدركين ما تقولين؟.. هناك أمة تعيش في القاع وأفرادها هم الذين يخطفون السفن. لابد أنهم قوم مزودون بخياشيم وزعانف.. أليس كذلك؟..»

فكرت قليلًا ثم أخرجت علبة سجائر وأشعلت لفافة تبغ. كانت هذه هي الفترة القصيرة من عمر ماجي التي كانت تدخن فيها، ربما لأن التدخين كان وقتها من لوازم الأناقة الأنثوية. قالت:

- «النظرية التي يعتنقها معظم الفريق هي أنّ هذه أمة بادت وغمرها المحيط.. هذا هو أقرب سيناريو محتمل. من يدري؟.. ربما كان هذا هو مكان قارة أطلنطيد الغارقة فعلًا....»

- «أفلاطون قال إن أطلنطيد عند أعمدة هرقل... أي عند جبل طارق....»

- «ربما كان أحمق..»

كان مزاجي قد تعكر نهائيًا.. لا أشعر بأي شيء رومانسي بعد هذا الكلام الغريب.. الكلام الذي يشكل تحديًا لمنطقي.. أنا رأيت أغرب الأشياء في حياتي، لكن عندي نفورًا طبيعيًا من كتب الأسرار هذه.. من بنى الهرم؟.. أين أطلنطيد؟.. الأطباق الطائرة... إلخ.

هل نحن على باب اكتشاف يغير وجه البشريّة للأبد؟

- 3 -

كنت أفرغ معدتي بلا توقف في الحمام..

هذا هو تأثير عقار فينكريستين الذي يعطونه لي. يشبه الأمر أن يمشي قطار على جسدك عدة مرات، والمشكلة أنّ هذا يحيل المعدة لبركان..

في ذلك اليوم منذ أعوام، كنت أفرغ معدتي بذات الشكل على حاجز السفينة (جيرونيمو - 3) التي تتجه إلى بورتوريكو راسمة قوسًا طويلًا يتعمد المرور في قلب مثلث برمودا اللعين.. لست ممن يصابون بدوار البحر عادة، لكني في ذلك اليوم فهمت معنى الكلمة..

لم أتصور أن معدتي تحوي هذا كله.. لابد أنني أفرغ قطعة البسكويت التي أكلتها في فسحة ذلك اليوم من الصف الثالث الابتدائي.. وجاءت ماجي تقف جواري تراقبني ثم سألتني:

- «هل أنت بخير؟..»

قلت متحشرجًا:

- «لم يسألني أحد قط أثناء القيئ عما إذا كنت بخير أم لا.. أنا أكره الأسئلة الغبية..»

- «أعني: هل تعتقد أنك تحتضر؟..»

قالت بلهجة عملية، وهي تربت على كتفي:

- «اليوم يبدأ أكثر الأجزاء إثارة.. البحرية الأمريكية سوف ترسل كرة أعماق.. هل تعرف كرة الأعماق كالتي كان د. (بيب) يستعملها؟.. سوف تهبط هذه الكرة لمسافة هائلة.. تصور وتحاول أن ترسل لنا شيئًا..»..

ابتلعت ريقي وقلت:

- «أووووع.. سيدلونها لمدّة كيلومترين؟..»

- «بل لكيلومتر واحد.. لا نملك القدرة التقنية على إرسال كرة أعماق لعمق كيلومترين..»

عند العاشرة صباحًا وقفنا نراقب الكرة تهبط بينما الونش يئن من ثقلها.. الكرة تتدلي بحبل غليظ طبعًا يلتف حوله كابل يشبه الحبل السري هو الذي ينقل ما تلتقطه الكاميرا في مقدمة الكرة من حسن الحظ أنه لن يكون بداخلها بشر.. د. بيب كان في كرته.. وهي شجاعة لا توصف، لكننا اليوم نشبه من يرسل طائرة بغير طيار..

قال لنا القبطان إن بوسعنا الذهاب إلى غرفة المراقبة لمشاهدة ما تلتقطه الكاميرا..

على قدمين من مطاط مشيت مع ماجي لنهبط عدة درجات، فنجد أننا في غرفة خانقة يفعمها لون أزرق كئيب هنالك حشد من الشاشات وخمسة علماء أو مصورين..

على الشاشة رأينا المياه تزداد سوادًا.. الكرة تبتعد عن نور الشمس وتدخل عالمًا لم نره من قبل..

أسماك تسبح نحو العدسة.. فتتوهج في ضوء الكشاف المضاء داخل الكرة، ثم تبتعد. مخلوقات غريبة جدًّا. لا تتوقع أن ترى هنا سمكة بلطي أو بوري.. كلما توغلنا لأسفل صار المشهد أكثر شناعة والأسماك كأنها جاءت من أعماق كتب الباليو إكولوجي....

ساد الصمت.. أشعلت ماجي لفافة تبغ وراحت تراقب الصورة المهزوزة على الشاشة..

قالت لي وهي تضغط على بعض الأزرار:

- «سوف نشغل السونار ليمسح القاع....»

ثم راحت تراقب الشاشة التي بدت عليها أشباح مبهمة تذكرك بصور بطن الحامل.. لا أفهم شيئًا البتة، لكنّها تتبادل حوارًا تقنيًا مع عالم أمريكي يجلس جوارها..

فجأة تجمدت..

استدارت لنا وقالت بصوت مبحوح:

- «هناك كائنات تتحرك!..»

✷ ✷ ✷

قلت لماجي وأنا أرمق الشاشة:

- «ما الغريب في هذا؟.. هناك أسماك كما تعلمين..»

- «هناك أشياء تبدو كبشر.. بشر فارعي القامة يخرجون من القاع!...»

- «هل عدنا لخرافة أطلنطيس إذن؟..»

- «لا أعرف.. أنا أصف ما أراه..»

يخرجون من القاع؟؟؟؟

وفجأة صرخ القبطان كالفتيات صرخة رفيعة طويلة، فاستدرنا كانت هذه واحدة من شاشات الفيديو التي تصوّر ما تراه الكاميرا في الكرة..

رأينا جميعًا في ضوء الغرفة الخافت أشنع وجه يمكن أن تراه.. وجها يذكرك بالأسد.. بالجمجمة.. بالثور الهائج.. بالغيلان...

هذا الشيء يحملق في عدسة الكاميرا للحظة ثم يتحرك بجسد حرشفي مخيف لأعلى...

تبادلنا النظرات.. ما هذا الذي رأيناه؟

فجأة تلقى القبطان اتصالًا من الهاتف الصغير في الغرفة مد يده يلتقط السماعة، أصغي بعض الوقت ثم نظر لنا في قلق وقال:

- «مجال كهرومغناطيسي غريب البوصلة تلفت.. معظم الأجهزة لا تعمل بكفاءة.. ماذا يدور هنا؟..»

قلت له في عصبية:

- «ارفع الكرة.. الآن.....»

بدا أنه اتخذ نفس القرار، فاتجه لمكبر الصوت وأصدر القرار لمشغلي الونش...

سمعنا الصرير وبدأت السفينة تهتز.. ونظرنا للشاشة فرأينا الكاميرا ترتفع فوق مستوى الماء.. ترى نظرة بانورامية للبحر من أعلى ثم دارت الكاميرا مع دوران الكرة فرأينا مشهدًا عجيبًا..

- «يا إلهي الرحيم!..»

أولًا كان الدخان يتصاعد بكثافة من سطح المحيط.. غاز غريب لن أندهش لو تبين أنه غاز الميثان.. ثم دارت الكاميرا أكثر...

صرخ القبطان في الهاتف:

- «شغل المحركات فورًا.. أقصى سرعة.. أطلقوا نداء استغاثة (ماي داي)..»

لكن بدا أنه ما من أحد يصغي له. كان المشهد مفزعًا..

* * *

على سطح السفينة كان البحارة يصرخون ويركضون... ما الذي يطاردهم؟.. لا أعرف.. حتى اللحظة لا أستطع وصفه ألعن مجموعة من الشياطين والكائنات التي تشبه المذؤوبين، وكائنات

أقرب لمصاصي الدماء وخفافيش آدمية....

كان البحارة يتساقطون كالذباب....

كانوا يتمزقون...

ورأيت كائنًا من تلك الكائنات يرتفع للسماء بجناحين كجناحي وطواط...

سمعت الضحكة السوداء في أذني.. صوت كالببر يغريك بأن تسمع أكثر.. صحت وقد بدأت أفهم:

- «الهرم!.. هذه فتحة لجانب النجوم..!.. الهرم فتحة تخرج منها كائنات جانب النجوم لعالمنا... عندما تمر سفينة فوق مركز المثلث في لحظة بعينها تهاجمها هذه الكائنات بعضها يحلق فلا غرابة في أنها تسقط الطائرات أو تعطل محركاتها!.. ما نراه أمامنا هو إعادة تمثيل لما حدث للسفينة (ماري سلستي)»

قالت ماجي في عدم فهم:

- «لا أعرف ما جانب النجوم هذا..»

- «هي فكرة راسخة في التراث الروماني والمجري لكنّها حقيقيّة.. أنا ذهبت هناك من قبل.. لا وقت للشرح.. إنهم قادمون لنا!..»

هتف القبطان والعرق يغمر وجهه:

- «ورجالي...»

- «لقد ماتوا بالفعل.. صدقني.. أنا أعرف ما أقول علينا الآن أن ننقذ أنفسنا. يجب غلق هذه الغرفة بإحكام..»

قالت ماجي وقد بدأت تتوتر:

- «وهل يصمد أي باب أمام هؤلاء؟..»

- «أعتقد أنه سيصمد.. فلنلزم الصمت ولنأمل ألا يشموا رائحتنا..»

أغلقنا الأبواب الثقيلة بإحكام، ثم قبعنا نصغي لصوت الصراخ والتمزيق والاستغاثة.. للأسف كان كادر الكاميرا مظلمًا الآن ويبدو أن المسوخ قطعت الحبل السري... وارتجف القبطان وهمس وهو يعض على شفته السفلى:

- «رجالي.. كان يجب أن أموت معهم..»

قلت في غلظة:

- «صه.. لن تفيدهم بشيء بهذه المواقف المسرحية.. لا شيء يضايقني مثل الحماقة. سيموتون هم أو نموت جميعًا عليك أن تختار. ربما تنتهي المذبحة وترحل تلك الكائنات....»

فجأة سمعنا صوت محرك طائرة عمودية في الخارج. بدأت أنفاسنا تهدأ قليلًا، وتوقعنا النجاة.. هنا.. بووووم!... سمعنا صوت انفجار مدو اهتزت له السفينة.. ثم خمد الصوت..

قلت همسًا:

- «سقطت على الأرجح.. رقم جديد يضاف لضحايا مثلث برمودا..»

يمكن تخيل ما حدث لطاقم الطائرة.. أسوأ شيء أن تعتقد أنك منيع محصن فوق الأجواء ثم يقتحم شيطان قمرة القيادة..

لابد أن الكابوس استمر ساعات لا حصر لها.

كنا هناك في الظلام نسمع صوت العواء والزئير والخوار والصراخ والتمزيق والأنين.. كنا هناك في الظلام نرتجف.. كنا هناك في الظلام نحاول التماسك.. أعتقد أن طاقم السفينة هلك كله. شياطين جانب النجوم لا تبقي شهودًا.. لكن ربما لم تستطيع الوصول لنا في هذه الغرفة.. ربما لم تدر بوجودنا..

من هلكوا كان حظهم أفضل بالتأكيد من حظ من تم جرهم إلى جانب النجوم ليعيشوا هناك للأبد.

ساد الصمت من جديد في النهاية..

وعندما جاء الصباح التالي لم يجسر أحدنا على الخروج ليعرف.. لكننا سمعنا محرك طائرة عمودية أخرى، وبدأ جهاز اللاسلكي يصحو.... لقد جاءت طائرة أخرى تبحث عنا.. وهذه المرّة لم يحدث انفجار مروع ولم تسقط..

✷ ✷ ✷

أمضينا أيامًا عدة نحكي القصة في فلوريدا.. لم يستطع أحد فهم أي شيء. ما يعرفونه هو أن طاقم السفينة اختفى كله في ظروف غامضة وأن طائرة هليوكوبتر جاءت لنجدتنا تحطمت..

احك لهؤلاء القوم العصبيين نافدي الصبر عن جانب النجوم ولتر كم هم ظرفاء يصدقون كلامك لأنك أنت... بالطبع لا أحد يصدّق حرفًا مما أقول..

في النهاية قرر الجنرال (وايلر) اعتبار العملية فاشلة، يتم تأجيلها إلى وقت آخر. جل ما استطاع فهمه هو أن مخلوقات بحرية متوحشة هاجمت السفينة.. وبدا له أنّ هذا جدير بحملة أخرى من علماء الأحياء المائية.

كنت أعرف أنهم لن يجسروا على عمل حاسم.. مثل قصف المنطقة بقنبلة ذرية، لأن المنطقة مأهولة وتقع على خطوط ملاحية هامة.. سوف تبقى الفجوة مفتوحة وسوف تتدفق منها المسوخ إلى يوم الدين، وهكذا تدفع بعض السفن ثمنًا غاليًا بينما تنجو أخرى بمعجزة..

المجلة الأسكتلندية ظفرت بتقرير ملفق وغامض.. تقرير يثير خيال القراء لكن من دون حقائق كالتي رأيناها، ولهذا لم يعرف أحد قصة الهرمين إلا بعد أعوام مع (ماير فيرلاج) لو كان له وجود فعلًا.

أما نحن فقد أجبرونا على تقديم وعد بأن تظل القصة سرية.. يحبّ الأمريكان لفظة Classified بخاتمها الرسمي الصارم كما تعلم..

لن نحكي أي شيء مما رأيناه.. وقد التزمت بهذا الوعد لفترة طويلة جدًّا، لكني اليوم أشعر بحاجتي للتخفف من وعدي، خاصة وموعدي مع الرحيل يقترب، وكل الناس تعرف تقرير (فيرلاج) الآن..

هذا هو تفسيري الخاص للغز مثلث برمودا ربما هو التفسير الوحيد وربما هو خليط من عدة عوامل مثل الموجات الكهرومغناطيسية وغاز الميثان. بعض العلماء يعتقد أنه لا يوجد لغز آخر لأن الدراسات الإحصائية تؤكد عدم وجود اختلاف بين معدل غرق السفن في المثلث وخارجه.. حسن.. موافق بشرط أن يفسروا لنا حادث السفينة (ماري سلستي).

فجوات جانب النجوم مخيفة دومًا، لكنّها في كل مكان وعلينا أن نقبل وجودها ونتفاداها قدر الإمكان. فقط تأكد من أنه لا توجد فجوة في بئر السلم في داركم أو مدفن أسرتك.. تأكد من أن الفجوة ليست في خزانة ثيابك...

- 1 -

في حديقة المستشفى جلست.. مقعد خشبي ومنضدة صغيرة هناك. لا أشعر بأي ألم.. اقترحت على الممرضة أن أجلس في الشرفة، لكني كنت أشتهي الشعور بالعشب تحت قدمي. الشعور الندي المحبب.. رائحة الأرض.. رائحة الأزهار مع دنو المساء..

جو حزين مرهف يوشك على أن يبكي..

هناك قط وقف يرمقني في شك، ثم تثاءب وابتعد..

رائحة الجو هذه.. رائحة الجو العذبة هذه.. تعتصر قلبي اعتصارًا. يحز في نفسي أنني سأترك هذا كله عن قريب، لكن أعتقد أنه لن يكون عندي وقت لإدراك ما فقدته. هل أعرف بعد الموت من أنا كما تساءل إيليا أبو ماضي يومًا؟..

هناك على مقعد قريب في الحديقة جلس د. سامي يفعم صدره بالهواء..

الطبيب النفسي السكندري الراقي، الذي مررت بأغرب القصص في الفيلا التي يعيش فيها.. منذ أعوام اجتمعنا عنده في ليلة عاصفة وراح كل منا يحكي قصته مع الرعب، وأي نوع من الرعب يثير فزعه أكثر من سواه.. وفي مرّة أخرى كان هناك حفل غريب الشكل.. حفل بدا كأنه تكرار للتاريخ الفرعوني.. في مرة كان زميلي عضوًا في ناد للغيلان وأنقذته بصعوبة بعد أن كاد يصير غولًا..

أي تاريخ طويل! تفاصيل عديدة لدرجة أنني لا أتذكر الكثير..

وضع د. سامي ساقًا على ساق ونظر في ساعته.. بالتأكيد يتعّجل العودة للإسكندرية. كدت أبكي.. ابق معي بعض الوقت أرجوك.. أنا بحاجة لصديق...

كانت هناك أغنية قديمة يطلب فيها المطرب من طائر أبي الحن أن يظل معه وقتًا أطول، ثم يتذكر أن من مصلحة الطائر أن يطير مبتعدًا..

قال لي وهو يرفع جوربه:

- «هل أنت خائف يا رفعت؟..»

سؤال غريب.. قلت له في صدق إنني لست خائفًا. لست خائفًا من تجربة الموت لكنني أخشى الحساب.. أخشى اللحظات الرهيبة القادمة..

ثم أضفت مستدركًا:

- «طبعًا لا أريد أن أتلوى ألمًا لحظة الاحتضار.. أريد نهاية نظيفة كلحظة انقطاع الكهرباء..»

كان يعرف وأنا أعرف أنّ هذا احتمال واه جدًّا.. الألم قادم لا يؤخر موعدًا.. إنّه موجود لكنه لم يتوحش بعد...

ساد صمت ثقيل.. رائحة الليل المعذبة العذبة هذه..

قال بعد قليل:

- «هل أنت نادم على عدم تكوين أسرة؟..»

- «بصراحة لا.. لم أشعر قط بحاجة إلى أن تكون لدي أسرة.. لا أعتقد أن جيناتي ثمينة لدرجة أنه لابد من بقائها على الأرض، ولو كانت ثمينة فلابد أن إخوتي قد قاموا بدورهم وحافظوا عليها. ثم إنني لم أشعر قط بأنني وحدي. كان هناك دائمًا من يساعدني..»

ثم أضفت باسمًا:

- «هل تعرف قصة بلدينا الذي وثب بالمظلة وقيل له أن يشد الخيط على ارتفاع 300 متر..؟.. نسي أن يشد الخيط، ثم تذكر ذلك على ارتفاع 10 أمتار.. هنا قال لنفسه: لا مشكلة عشرة أمتار ستكون هينة ويمكن وثبها!.. حياتي كلها تكرار لهذه القصة. تأخرت في الزواج قليلًا ثم وجدت أنه لا بأس من استكمال الأعوام الباقية بلا زوجة..»

ضحك طويلًا هذه مزية مهمّة في د. سامي.. وقاره وأرستقراطيته جعلاه لم يسمع معظم النكات. كل النكات جديدة بالنسبة له حتى (واحد جه يقعد على قهوة قعد على شاي)...

قال لي بعد ما هدأ قليلًا:

- «لا تخف.. سوف تقهر هذه الأزمة..»

قلت في فتور:

- «أنت لا تجيد الكذب يا صاحبي.. لست حزينًا.. كل شيء ينتهي.. فقط نهايتي اتخذت هذه الصورة.. لكن أرجو أن تسدي لي خدمة مهمّة. أريد أن أجد د. رمزي حبيب.. اتصل به وقل له إنني هنا..»

وعدني بأن يبحث عن رمزي.. المشكلة هي أن هاتفه لا يرد ولربما كان خارج مصر..

ثم نظر لساعته وطلب مني الإذن كي يعود إلى الإسكندرية فوافقت آسفًا.. طر يا طائر أبي الحن.. طر بعيدًا عني...

وجلست وحدي في ضوء الغروب الخافت أرقب القطة التي ترقبني. ولا أعرف متى جاءت الممرضة لتقودني لغرفتي...

✷ ✷ ✷

بينما الممرضة تقتادني للغرفة، رأيت نهاية الممر تسبح في ذلك الضوء الخافت السقيم..

رأيته يمشي هناك مبتعدًا.. من؟.. ليس د. سامي طبعًا إنّه ذلك الطيف الذي رأيته جواز فراشي منذ أيام.. نفس الطيف المراهق.

قلت لها في توتر وأنا أعتصر ذراعها بشراسة ضايقتها:

- «هل ترين هذا؟..»

قالت في ضيق وقد توصلت لقرار بسيط هو أنني وقح أو ذئب:

- «هذا ماذا؟..»

- «الفتى الذي يمشي في الممر..»

تحول صوتها إلى كتلة من الثلج تنهال على رأسي:

- «لا يوجد فتى يمشي في الممر لو كان الأمر يهمك!..»

هكذا يمكن القول إنني دخلت مرحلة اختلال الحواس.. إذن فليمت قيصر.. قالها قيصر قبل أن يهوي أرضًا بطعنات المتمردين.. وخاصّة طعنة بروتوس..

كنت أخشى الخرف.. أخشاه كثيرًا.

ها هو ذا قد جاء....

وفي الفراش رحت أحاول الكتابة بعض الوقت.. كنت في تلك الآونة أسجل أحداث أسطورة العلامات الدامية. قصة كتاب نيكرونوميكون، عندما خطر لي خاطر مروع.. هل عشت حقًّا هذا كله أم أن حياتي كلها هلوسة؟... لربما كان هذا كله هذيانًا وقع في الفترة الأخيرة تحت تأثير السرطان وتأثير العقارات المخدرة التي أعيشها؟..

كم من مرة عشت حياة كاملة في الحلم، ثم صحوت لأدرك أنني لم أنم سوى ربع ساعة؟ لربما اخترع عقلي الباطن ماضيًا كاملًا لي؟

لكن هذا مستحيل.. معي عزت وماجي ود. سامي وقد زارني كثير من أهل قريتي وأختي.. ما أنا فيه حقيقي.. لا شك في هذا..

بدأت أسترجع خيوط حياتي القديمة..

قصة الدمية.. دمية الفتيش.. هناك أكثر من دمية في حياتي كنموذج للسحر بالمحاكاة.. لكن هناك قصة دمية لم أحكها بعد..

كنت مع عزت في أحد المعارض بالإسكندرية.. أنت تعرف اهتمام عزت بالفنون التشكيلية.. النحت بالذات. صحيح أنه نحات فاشل (وصديق رائع) بالفعل، ورأيي أن تماثيله قبيحة، لكنه علمني الاهتمام بهذا الفن.. وأعتقد أنني صرت أملك عين ناقد فني محترف..

كنت أمشي مع عزت بقامته النحيلة ومحياه القاتم بين المعروضات. يبدو أن كل فنان في مصر قضى عدة ساعات ليصنع خرشوفة مشوهة أو نمر بلا ذراعين ولا قدمين ولا رأس ولا ذيل.. كنت أشعر بملل رهيب..

فجأة تصلب عزت وهو يرمق تمثالًا غريبًا..

الواقع أنه جميل.. لو دققت النظر أكثر لأدركت أنه نحت بارع فعلًا. صورة كاريكاتورية جميلة للمطربة الجنوب أفريقية التي كانت فائقة الشهرة وقتها (ميريام ماكيبا).. ماما أفريقيا..

درت حول التمثال وبدأت أشهق.. أعترف أنّ هذا عمل متقن..

هناك لدى الغربيين ما يدعى (متلازمة ستندال).. أي الشخص الذي تتسارع أنفاسه ويوشك على فقد وعيه عندما يرى عملًا فنيًا متقنًا.. للمرة الأولى أفهم هذا المصطلح وأنا أرى عزت..

دنا من البطاقة الموضوعة جوار التمثال وتفحصها وتلا الاسم بصوت عالٍ:

- «بيتر كراكوس.. ماكيبا..»

الاسم أجنبي كما هو واضح.. رنينه غريب فعلًا... لا أعرف جنسيته، وإن أمكن أن يكون يونانيًا..

تركني عزت وهرع إلى صاحبة القاعة يسألها عن بعض البيانات، ثم راح يدون العنوان في بطاقة صغيرة. بيتر كراكوس.. شارع (...).. محرم بك...

قال لي بلهجة متوسلة:

- «رفعت.. لا بد أن أقابل هذا الرجل. لابد أن أراه.. لو أردت العودة اليوم القاهرة فأنا أعفيك من مرافقتي..»

قلت له في ملل:

- «لا مشكلة. سوف أوصلك هناك ثم نعود معًا بسيارتي لن أقود السيارة وحدي كل هذه المسافة ليلًا....»

هكذا تم ترتيب الأمور ووجدت أن عزت أجرى اتصالًا بالنحات وبعد دقائق كننا ننطلق بالسيارة للقائه.. لم يقل حرفًا عن هذا الاسم العجيب.. هو في غيبوبة إذن...

عندما فتح لنا الرجل باب شقته عرفت أنّ هناك شيئًا غير مريح بصدده..

- 2 -

كراكوس في الستين من عمره.. ملامحه ضخمة غليظة أصلع الرأس تحيط بفمه لحية دائرية من طراز (دوجلاس). نظرات ثاقبة عابثة قليلًا. هل تعرف صور أنطون لافي مؤسس كنيسة الشيطان في أمريكا؟.. يُمكنك إذن أن تعرف كيف يبدو كراكوس...

شعرت بتقلص في معدتي والحمض يتزايد..

قال لنا وهو يفسح الباب:

- «زيارتكما تسعدني.. قلمًا يلقى المرء من يهتم بالفن لهذه الدرجة..»

لم أستطع قط تبين لهجته.. غامضة.. لا يشوبها شيء من ناحية كونها عربية، لكن بالتأكيد - ليس هناك عرب كثيرون اسمهم كراكوس..

سألته مباشرة ونحن ندخل:

- «أنت لست مصريًا يا سيدي.. من أين أنت؟..»

كنت أعرف على الأقل أنه ليس د. لوسيفر.. د. لوسيفر أتعبني في حياتي كثيرًا حتى صرت أشعر بوجوده بسهولة. ليس هو...

قال باسمًا:

- «الجنسيّة لا تهم.. كلنا بشر نعيش تحت شمس واحدة ولنا مصير واحد..»

هكذا عرفت أنه لن يرد.. سوف يعابثني أولًا... كنت أتصبب عرقًا بعد صعود هذا الدرج المرعب (طابقان) لهذا قدم لي بعض المناديل الورقية لأجفف وجهي، وكان يبتسم بخبث..

عزت لم يكن يتابع هذا الحديث.. كان يشهق وهو ينظر إلى التماثيل التي تناثرت في المرسم. تحف فنية حقيقيّة. الحقيقة أنه كان على وشك دخول نوبة ستندال أخرى..

الشقة لم تكن فاخرة جدًّا، لكن لها ذلك الطابع المحبب للنفس الذي يميز أتيليهات الفنانين. في كل ركن قطعة لم تكتمل أو لها قصة.. على الجدار أوراق معلقة مثبتة بدبابيس ضغط عليها إسكتشات عدة بقلم من الفحم. هناك أحجار في كل ركن.. هناك تماثيل خشبية.. هناك معدات تحت وأزاميل هناك علب طلاء فارغة امتلأت حتى الحافة بأعقاب السجائر.. هناك جو يعبق بالدخان. هناك جهاز تسجيل عملاق يردد أغاني أم كلثوم..

لا أعرف من هو كراكوس هذا لكنه يستمتع بالحياة كفنان حقيقي..

مشى الرجل معنا وهو يراقب تعبيري وجهينا في استمتاع ورضا، ثم إنّه بدأ يعد لنا الشاي على موقد بريموس صغير شاي الفنانين هذا حيث يتم وضع مسحوق الشاي بكف اليد أرجو أن يقلل كمية الصراصير فهي تتعب معدتي..

رجل غير متزوج.. هذا واضح هذا واضح.. لا أحد يملك هذا العالم ويتزوج. لكن منظره وغد.. هناك نساء ماجنات كثيرات حبيسات خلف هاتين العينين. لا بد أن له امرأة مختلفة كل يوم.

الجو قريب جدًّا من مرسم عزت مع اختلاف المستوى الفني طبعًا.

أمّا عن التماثيل فكانت تتناثر في كل ركن..

كانت هناك تماثيل فتيات مستحمات يشعرن بالخجل ويغطين أجسادهن في خفر. لا أفهم في أنواع الصخور لكن أعرف هذه الخامة السوداء.. يبدو أن تمثال خفرع في المتحف المصري من نفس الخامة..

هناك تمثال رجل يسقط على الأرض ويصرخ.. هناك كلب يتلوى..

أتذكر مشاهد كهذه من بقايا مدينة بومبي..

لكن هذه كلها أعمال تقليدية.. بارعة جدًّا لكنّها تقليدية، لكن السحر كل السحر كان في تلك التماثيل الكاريكاتورية لأشخاص تشعر أنك تعرفهم.. كان هذا فنًا جديدًا وقتها بالنسبة لي.. وجه شخص تشوهه وتبرز عيوبه بشدة ثم تصنع تمثالًا مجسمًا لهذا الوجه هناك تمثال أو اثنان بهذا الطابع في متحف محمد محمود خليل..

هذا رجل بارع فعلًا..

كانت هناك كاميرا مثبتة إلى حامل، وكشاف ضوء ومظلة..

قال وقد رأى اتجاه نظري:

- «أتعامل مع عدة مجلات.. هذه طريقة جديدة كالرسم الكاريكاتوري.. تمثال مجسم للوجه..»

أمّا عند باب الغرفة فكان هناك كلب ممشوق يقف في وضع متنبه.. يذكرك جدًّا بتمثالي ابن آوى على باب مقبرة توت عنخ آمون..

قال كراكوس:

- «أنت تعرف ارتباط ابن آوى بالتحنيط عند الفراعنة الإله أنوبيس ليس سوى رجل له رأس ابن آوى..»

قلت في ملل لأن هذه معلومات أعرفها:

- «المصريون القدماء لاحظوا أن ابن آوى يرتاد المقابر دومًا بحثًا عن رزقه.. لهذا اعتقدوا أن له دخلًا بالتحنيط.. هذا مفهوم..»

قال لي كراكوس وهو يناولني كوب شاي صغيرًا ساخنًا:

- «لقد تشرفت هاتفيًّا بمعرفة صاحبك.. لكن لم أعرف من أنت بعد..»

قدمت له نفسي فأخرج قلمًا صغيرًا ودون الاسم في مفكرة..

في الغرفة المجاورة وجدت مشهدًا غريبًا بعض الشيء.. عددًا من الجماجم على منضدة.. سبع جماجم على وجه التحديد كل جمجمة في محجريها شمعتان قصيرتان. يمكن أن تشعل الشموع ليصير التأثير مفزعًا.. هناك فيلم رعب قديم مخيف اسمه (جماجم جوناثان دريك السبع). كان الساحر يحبس أرواحًا في الجماجم ويستردها عندما يشعل الشموع وكان الغرض هو عرض في الملاهي يعتمد على أصوات مختلفة. ألا ترى أن التشابه قوي جدًّا؟

للأمانة كانت هناك عظام ملقاة هنا وهناك.. مما يجعل مشهد الجماجم مبررًا نوعًا.. كراكوس نفسه قال لي:

- «فن النحت يرتبط بعلم التشريح جدًّا. فيما مضى كان الفنان يدرس التشريح في روما قبل أن يبدأ النحت..»

هذا مفهوم.. لكن سبع جماجم؟.. ولماذا الشموع؟.. الأمر يبدو أقرب للسحر الأسود بالنسبة لي.. لكن سأظل صامتًا..

ازداد الشك عندما رأيت مجموعة من الدمى القماشية متقنة الصنع معلقة فوق مشجب.. لو لم تكن هذه دمي (فتيش) فماذا تكون؟

كان عزت قد أنهى جولته المنبهرة.. أحب هذا فيه كثيرًا.. هناك درجة من الغرور وضيق الأفق لدى كل فنان تجعله عاجزًا عن رؤية تميز الآخرين.. تجعله مغلقًا لا يرى سوى نفسه ويظلم الموهوبين الذين هم مثله أو أفضل.. لكن عزت يختلف يمكنه أن يصرخ لو رأى عملًا فنيًّا متقنًا.. وكان دومًا يردد مقطع شعر صلاح جاهين:

- «أنا أحب أقول الشعر في الحلوين.. والحلو أقول له يا حلو ف عيونه..»

أعلن عزت أنّ هذه الجرعة من الانبهار تكفيه. فقط يتمنى أن يسمح له كراكوس بالعودة من وقت لآخر..

قال كراكوس في لطف:

- «بالتأكيد.. بيتي مفتوح لك في أي وقت. اسمح لي بأن أقدم هدية صغيرة..»

ودخل غرفة داخلية ثم عاد حاملًا صندوقًا صغيرًا مغلقًا بورق أصفر..

تناول عزت الهدية في رضا.. وشكر الفنان وانصرفنا...

- 3 -

الغابة عميقة مظلمة عذبة..

لكن لديَّ مواعيد يجب أن أفي بها..

وأميالًا يجب أن أقطعها..

قبل أن أنام...

روبرت فروست

✷ ✷ ✷

في القاهرة احتجت لوقت طويل جدًّا حتى يفيق عزت من انبهاره.

في الطريق للبيت تصرفنا كالعزاب الحقيقيين، وابتعنا بعض الجبن والزيتون والخبز. في شقّة عزت أعد لنا الشاي بالصراصير ورحنا نلتهم عشاءنا بسرعة.. أنا مرهق فعلًا من القيادة. سوف أتناول عشائي وأنام ولتكونن من الليالي النادرة التي أنام فيها ليلًا!

لما فرغ عزت من هذا فتح الهدية التي جلبها معه.. كانت عبارة عن كف.. نحت لكف من حجر البازلت الأسود - لو كنت على حق - شديد الإتقان. أعتقد أنها تصلح كمطفأة سجائر كذلك..

في الواقع لست متحمسًا جدًّا للنحت القريب جدًّا من الواقع.. كل الفنون القريبة من الواقع تحدث غصة في حلقي، لأنني لا أشعر بوجود الفنان في هذا كله..

قال عزت وهو يتفحّص الكف:

- «مذهلة.. هذا الرجل كارثة..»

قلت مفكرًا:

- «هو كارثة فعلًا لكن ليس كما تقول أنت.. كراكوس من أي بلد جاء هذا؟.. دمى فتيش؟.. جماجم؟.. هذا ساحر أسود ومن لا يرى هذا أعمى أو أحمق..»

أضاف في افتتان:

- «إنّه فنان.. هذا كل شيء..»

- «وأنت غبي.. هذا كل شيء..»

بهذه الكلمات الرقيقة انتهت الأمسية.. وعدت لشقتي..

✷ ✷ ✷

عدد من رجال كفر بدر جاءوا يزورونني في المستشفى ومعهم أختي..

التلفيعات والشوارب وعلب السجائر المربعة البيضاء ونظرة الخطورة والجديّة..

من جديد ذلك الجو المتوتر المفتعل والضحكات التي تدرك على الفور أنها ليست من القلب. فقط مال زوج أختي على يسألني إن كنت بحاجة إلى مال. بالطبع يدركون جيدًا أنني زاهد. لا أملك سوى راتب الجامعة ولا أملك عيادة، وبالطبع لم أعتن لحظة بأن أملك أرضًا..

من يعرفونني جيدًا يدركون أنني لست ثريًا..

لكن من يهتم؟

عندما لا تكون لديك أسرة، وعندما لا تنجب، فأي مبلغ يكفيك.. بل يفيض.. لهذا اعتدت أن أعتبر نفسي ثريًا كلما أردت وجدت.. هل هناك وضع أفضل من هذا؟ بينما الناس من خوف الفقر في فقر..

قلت له شاكرًا إن كل شيء على ما يرام..

نفقات العلاج ليست باهظة.. عندما تضيق سبل العلاج فهو لا يكلّف تقريبًا. من يكلّف علاجهم الكثير هم الذين ما زال لديهم أمل ما..

الدموع في عين أختي، لكنّها تتماسك..

كفر بدر.. المنصورة.. أقرب مكانين لقلبي حيث الجذور..

لكنني صرت غريبًا بالنسبة لكفر بدر دائمًا. قضيت وقتًا طويلًا في المدينة بحيث لم أعد أفهم مشاكل الفلاحين والجمعية الزراعية وسماد الأرض وبنك التسليف وأوبئة الماشية، وصرت بالنسبة لأقاربي أغرب وأغرب.. دعك من أنهم عاجزون فعلًا عن فهم الرجل الذي لم يتزوج.. لا بد أنه منحل أو مجنون..

عندما رحلوا جلست على الفراش بعض الوقت، ثم تحاملت على نفسي إلى الحمام..

سوف تأتي ماجي بعد قليل.. يجب أن أحلق ذقني الشائبة هذه تجعلني أبدو مرهقًا شائخًا جدًّا..

بينما كنت أحلق ذقني أمام المرأة كنت أتساءل عن سبب اختفاء عزت..

✷ ✷ ✷

في تلك المرّة اختفى عزت مدة أسبوعين بعد زيارة ذلك النحات السكندري..

كم من مرة قرعت الجرس أو انتظرته فلم يظهر..

كنت أعرف أنه يمضى الخميس كل أسبوع في الإسكندرية، وأعرف أنه بالتأكيد يزور هذا الكراكوس لكن أين هو؟.. لماذا لا يظهر يوم السبت؟

مر الوقت وبدأت أشعر بقلق حقيقي..

لم يعد مفر من فتح الشقة والبحث عن شيء.. ربما ترك عزت رسالة لي. أنت تعرف أن كل واحد منا قد ترك نسخة من مفتاح شقته لدى الآخر.. احتاج عزت لهذا المفتاح ذات مرة لينقذ حياتي عندما راحت سني تصغر...

هذا هو الوقت كي أدخل أنا..

في حذر فتحت باب الشقة ودخلت.. أضأت النور الكهربي. رائحة خانقة فعلًا لأنّه لم تتم تهوية الشقة منذ فترة. لا أعتقد أنني سأجد جثة عزت شاخصة البصر ملقاة هنا أو هناك لا أشم رائحة تعفن، ثم إن عزت ليس من الطراز الذي يموت بسهولة وصمت.. سوف يملأ الدنيا صراخًا..

لا يوجد أحد.. لا يوجد أثر..

وقفت ثابتًا أنظر للكف الحجرية التي جاء بها من عند كراكوس هذا..

دنوت منها أكثر وتأملتها.. ثم شعرت بشعر رأسي ينتصب أعني ما تبقى منه..

✷ ✷ ✷

فتح كراكوس الباب ليجدني أمامه. لم يبد مرحبًا وبدت نظرة شيطانية غير مريحة على وجهه:

- «مرحبًا يا دكتور.. يؤسفني أنك قطعت كل هذه المسافة فأنا مشغول ولا أقدر على استقبالك..»

قلت في براءة:

- «اسمح لي على الأقل بالتقاط الأنفاس.. لا تتوقع أن أعود للقاهرة حالًا..»

أفسح لي الباب في ضجر، وسألني:

- «أين صديقك؟..»

- «كنت أنوي أن أوجه ذات السؤال..»

فارع القامة قوي البدن فعلًا.. يمشي راسخًا أمامي وهو يكذب.. أعرف أنه يكذب.. نساء كثيرات في عينيه خلف القرنية..

قال بصوت هادئ:

- «لم أره منذ زمن.. حسبت هديتي لم ترق له...»

قلت وأنا أمشي بين التماثيل المتقنة التي تأثرت هنا وهناك:

- «هل تعرف أسطورة ميدوسا؟.. المرأة التي لعنها زيوس فتحول شعرها إلى ثعابين، وصارت لها نظرة تحول من تنظر له إلى حجر؟..»

قال ضاحكًا:

- «من لا يعرف هذه الأسطورة؟.. تمنيت لو عندي هذه الموهبة إذن لما بذلت أي جهد في صنع التماثيل.. كنت سأنزل إلى الشارع فأنظر للناس وأجمع ما يتحوّلون له..»

- «من أنت حقًّا؟..»

توقف واستدار نحوي.. نظرة نارية التمعت في عينه. ليست نظرة من أهين بل نظرة من افتضح أمره.. قال لي في ثبات:

- «اسمي كراكوس..»

وجدت مطرقة عملاقة مستندة إلى جدار فأمسكت بها.. وقلت وأنا أتحسس ثقلها على يدي:

- «اليوم وقع شيء جعلني أهشم هديتك لعزت.. جلبت مطرقة عملاقة وهشمتها. السبب هو أنني ارتبت في الدقة التشريحية غير العادية. أنت تعرف أنه اتهموا النحات الفرنسي أوجست رودان بأنه يستعمل موديلات حية يغطيها بالنحاس الذائب. ما فعلته أنا هو أن هشمت الكف، فوجدت ما تعرفه أنت.. هذه كف بشريّة مقطوعة تغطت بطبقة حجرية....»

ثم أضفت وأنا أرفع المطرقة:

- «ليس الأمر قاصرًا على نحات نصاب يستعمل بقايا جثث هذا سهل.. لكني أعتقد أنّ هناك نوعًا من اقتناص الأرواح.. نوعًا من السحر الأسود. تلك التماثيل الكاريكاتورية توحي بوجوه شياطين.. أليس كذلك؟.. أنت تنحت وجوه شياطين لم ألق نحاتين كثيرين يستعينون بتماثيل فتيش وجماجم فيها شموع..»

وقبل أن يفهم ما فعلته هويت بالمطرقة على تمثال مستحمة عارية تداري عورتها بأوراق اللوتس.. تهشّم الحجر واستطعت أن أرى لحمًا بشريًا. لحمًا اسودَّ وتحلل منذ زمن... كأنه جسم مومياء..

نظرات نارية سلطها عليَّ وبدأ يبتسم في وحشية، فقلت:

- «كل هذا المعرض يعتمد على جثث خطفتها أنت وكسوتها ربما لم تخطفها ولكن قتلتها.. لا أعرف كيف نجد عزت هنا لكني أعرف يقينًا أنه تمثال يقف في هذا الأتيليه..»

مشى كراكوس في ثبات نحو المشجب الذي علق عليه الدمى..

قال وهو يتناول شيئًا من جيبه:

- «هذا غباء يا صاحبي.. لا أحد يزور الآخر في بيته ليقول له هذا الهراء...»

كان يغرس الإبرة في دمية قماشية معلقة على المشجب.. هل تشبهني هذه الدمية فعلًا؟.. لا أريد أن أبقي هذه الفكرة في رأسي.. مستحيل.. ليس لديه شيء من جسدي.. لا أظفاري ولا شعري.. فماذا بوسعه أن يفعل؟

كان يغرس الإبرة.. بالضبط في الموضع الذي كانت فيه حنجرة الدمية.. ضحك..

قال وقد فهم ما يدور برأسي:

- «أحيانًا يكفي منديل ورقي استعملته الضحيّة.. واضح أنك لا تعرف الكثير.. لقد تركت مناديل ورقية كثيرة في زيارتك الأولى.. والآن.... ....»

هنا دق الباب عدة مرات وبغلظة، فقلت له بلهجة انتصار:

- «أصدقائي من رجال الشرطة قد جاءوا.. سوف يرحبون جدًّا بتفتيش هذه الشقة. لو لم أتفق معهم فلربما قررت أن تضمني إلى مجموعتك..»

ثم أسرعت نحو الباب وفتحته.. دخل ضابطان ومعهما عدد من رجال الشرطة...

انتشروا في الشقة.. وهنا أدركت الحقيقة المروعة كراكوس ليس هنا. لا أعرف كيف اختفى لكنه فعل ذلك..

عندما رأوا التمثال المهشم عرفوا أنني لم أكن أهذي. كانوا قد رأوا تمثال الكف قبل هذا طبعًا، وتأكد صديقي العتيد رجل الأمن عادل من أنني لن أكون وحدي...

أمّا عزت فلا أثر له في الشقة....

عندما عدت للقاهرة أخيرًا وجدت أن أنوار شقّة عزت مضاءة.. دققت الباب مرارًا ففتح لي مذعورًا.. كان قد بدأ بدوره يتساءل عن سبب اختفائي...

سألته أين كان.. يا له من أحمق..

قال إنّه.. إحم.. إنّه كان يزور قصة حب قديمة. لقد أمضى أسبوعين في الزقازيق.. لا أعرف خلفيات هذه القصة على كل حال، لكني ظلمت كراكوس برغم كل شيء. إنّه سفاح لكنه لم يمس صديقي..

✷ ✷ ✷

من أين جاء كراكوس؟

من هو؟

لا أحد يعرف.. لكنه قتل كثيرين أو نبش قبورهم ليستعمل جثثهم كقوالب لتماثيله. في التسعينيات من القرن العشرين سمعنا عن مثال مصري استعمل أجزاء من جثث حقيقيّة في تماثيله، ثم فاحت الرائحة وافتضح.. طبعًا لم أندهش.. كل الحياة حدثت من قبل لكنهم ينسون..

اليوم وجدته في المستشفى. أتكلم عن كراكوس وليس المثال المصري طبعًا. يقف في الظلال جوار فراشي بالضبط وفي يده تلك الدمية التي تمثلني. المناديل الورقية قد تؤدي الغرض كما قال..

كان يحمل دبوسًا.. نظر لي في توحش وهو يمسك به في نوع من الغل. ثم قربه من الحنجرة..

هذا ما فعله معي منذ أعوام. لاحظ أن الحنجرة هي قاتلتي فهل هي مصادفة؟ يبدو أن سحر الوغد يتأخر أعوامًا عدة..

قلت له بصوت مبحوح:

- «كراكوس. انتهت القصة.. لا تغرس هذا الدبوس..»

لكنه فعل هذه المرّة.. كان الألم جهنميًا وارتميت على الفراش أعوي إنّه يغرس الدبوس من جديد.. الحقد في صورة إنسان..

فقط لمست يدي الجرس فظهرت الممرضة أخيرًا.

قلت لها:

- «كراكوس..»

لكنها ملأت محقنًا بالبتيدين وأفرغته في قناتي الوريدية. وبعد ثانية لم أعد في عالمنا هذا.. لقد ذاب كراكوس.... ....

- 1 -

أنا الآن جالس في الاستراحة بالمستشفى. هي خاصة بالأطباء، لكنهم يسمحون لي بالجلوس.. فأنا منهم لو كنت قد نسيت..

كنت منهمكًا في تدوين ذكرياتي عن (أسطورة الجاثوم) عندما رفعت رأسي لشاشة التلفزيون، فوجدت مشهدًا من فيلم عربي.. هناك صياد في قارب والقارب في نهر...

بدأ سطح مياه ذكرياتي يترقرق.. وتذكرت قصة أخرى..

✷ ✷ ✷

قريتي.. قريتي..

برغم أنني رأيت أغلب بلاد العالم، فما زال ذلك الحنين يحركني كلما عدت لها، لأتذكر طفولتي ورائحة الأرض ورائحة الليل.. حتى رائحة روث البهائم الجاف تثير شجني.. وحتّى صوت الغربان.. كل شيء هنا هو جزء من خلاياي لو فحصتها تحت المجهر لرأيت - هناك - في نواة الخلية كتابًا صغيرًا ودار ضيافة وحقول ذرة وحظيرة ماشية..

كما قلت لك: أشعر بأنني غريب عنهم.. مشاكلهم بعيدة عني.. أحلامهم ليست أحلامي، وبرغم هذا أنا منتم بقوّة.. ربما للأرض.. ربما للطين.. ربما لمياه الترعة الرمادية.. أنا ليمونة زرعت هنا ثم اقتلعها أحدهم واحتفظ بها في ثلاجة باردة بالقاهرة..

سوف أدفن هنا.. لن أدفن في القاهرة. بل إنني دفنت هنا من قبل فعلًا... هل تذكر؟

لم أكن مسنًا وقتها. كنت في ميعة الصبا كما يقولون.. مفعمًا بالصحة والعافية. آكل كالثيران وأدخن كمقلب قمامة وأضحك كالمجانين..

كانت هذه أيام بعثتي الشهيرة في بريطانيا - البعثة التي غيرت حياتي كلها كما تعرف - وكنت في إجازة عدت فيها إلى الوطن بعض الوقت..

عندما أعود للوطن، أقصد قريتي على الفور.

عندما جاء المساء التقيت مع صديقي الصبا (جمال) و(محمد).. أحدهما مهندس والآخر محام.. لقد كانت مراهقة طويلة حافلة، وإن كنت أمضى أغلب وقتي في المنصورة لكن لقاءاتنا كانت

صاخبة دائمًا. عشاء دسم.. مراهنات على التهام أكبر عدد من أعواد القصب أو ثمار اليوسفي.. لعب الكرة.. لم تكن لياقتي عالية قط، وكانت أنفاسي تتقطع بعد خمس دقائق لكني كنت أجلس على كومة من الدريس وأراقبهما..

جمال قوي البنية، أسمر.. محمد هزيل، ذو روح دعابة عالية.. يعرفان معظم أسراري وأعرف معظم أسرارهما..

قال لي جمال إنّه يدعوني للعزبة..

كان الظلام دامسًا فشعرت بقشعريرة تسري عبر عمودي الفقري. مشينا وسط الزراعات المظلمة لا نسمع سوى صوت كلب ينبح من بعيد.. أقدامنا تنغرس في الطين طيور الليل الغامضة تصدر صوتها المميز..

هنا تهبط منحدرًا صعبًا.. خذ الحذر لأن الترعة - البحر كما يصفونه - هي نهاية هذا المنحدر، وأنت لا ترى أي شيء فعلًا كأنك تنحدر إلى عالم أسود مطلق..

تمسك بيد جمال محاولًا ألا تتعثر، بينما محمد يضيء الكشاف الخافت في يده إنهما يتصرفان بسلاسة لأنهما ابنا القرية ويحفظان موطئ القدمين..

أخيرًا تجد القارب المتأرجح الذي ينتظرك. تضع جسدك فيه بحذر.. أي حماقة هذه التي تقوم بها؟! أي غباء؟! لو أنك سقطت في الماء هنا فلا دية لك ولن يجدك أحد.. بالطبع إلى أن يجدوا جثتك الطافية المنتفخة..

كما قلت لك.. أعتقد أن كل عمل أخرق في التاريخ كان سببه الخوف من الاتهام بالجبن.

القارب يتأرجح بينما يتبادل الشابان المزاح، وينزلق القارب في خفة فوق الماء كأنه قطرة زيت بينما جمال يمسك بالمجدافين..

طش.. طش..

كأننا نسبح في بركة من حبر أسود..

أنظر للسماء فأراها مدهونة بنفس الحبر.. لكنّها مليئة بالثقوب.. ثقوب يعتقد الناس أنها نجوم.. تذكرت نكتة (شيرلوك هولمز) عندما نام في الخيمة مع واطسن ونظر للسماء.. سأل (واطسن): «ما الذي تقوله لك هذه النجوم؟». ذكر واطسن استنتاجات كثيرة، فقال هولمز: «معنى هذا أنّ هناك من سرق الخيمة من فوقنا!!»

القارب ينسل وسط الترعة.. واضح أن صفحة الماء ممتدة إلى أقصى الجانبين، والأشجار المطلة مدثرة في الظلام كأنها أشباح تراقبنا.. وورد النيل ينزاح لنعبر من خلاله..

جمال يلهث... يلهث...

الوقت يمضي... يمضي ببطء..

نظرت إلى بعيد.. الظلام دامس حقًّا.. لكن ما هذا الشيء الذي يقف في وسط الترعة على بعد عشرين مترًا؟

- 2 -

كلما دققت النظر أكثر، بدا لي الأمر مريبًا.. كأنني أرى النصف العلوي لإمرأة تقف منتصبة وسط الماء.. الظلام دامس والأضواء الواهنة خادعة جدًّا، لكني أعتقد أنّ هذا هو المشهد فعلًا..

ثم أدركت أنني أسمع غناءً خافتًا...

نظرت في الظلام إلى جمال وهمست:

- «هل ترى هذا الشيء؟ شجيرة في وسط الترعة؟!»

صمت قليلًا.. ثم قال بلهجة ذات معنى:

- «تجاهلها.. لن يحدث شيء...»

ونظرت لمحمد فوجدت شفتيه تهتزان.. كان يقرأ بعض قصار السور القرآنية..

ماذا يحدث؟.. هذا الغموض مخيف...

بدأنا نقترب من الضفة الأخرى، فوثب محمد إلى الأرض المظلمة ومد يده يساعدني على الصعود.. جهد فظيع كي أتسلق..

أخيرًا مشينا وسط المزروعات السوداء، إلى حيث كانت نار مشتعلة في (قوالح) الذرة.. وهناك جلس (عبد المعطى) الفلاح الذي يستأجر أرضًا في العزبة، وكان قد أعد لنا النار وبدأ في شي بعض الذرة مع الشاي بالنعناع.. باختصار كل ما يجعل الحياة رائعة.. بينما جلس جوارنا يراقبنا في رضا ويدخن الجوزة..

بعد رشفات من الشاي بدأت أشعر بانتعاش، وبأنني لست خائفًا لهذا الحد من رحلة العودة..

سألت محمدًا عن هذا الذي رأيناه في رحلتنا إلى هنا، فالتفت إلى (عبد المعطي) وطلب منه أن يحكى، كانت الوجوه تتوهج في اللهب فتشعرك بالرعب.

نفث عبد المعطي سحابة كثيفة من المعسل، ثم قال بصوت مبحوح:

- «لابد أنكم رأيتم المزييرة.. اللّهم احفظنا».

حاولت أن أنطق الاسم بصعوبة:

- «مزييرة؟!»

- «نعم.. مزييرة.. هي الجنية التي تسكن هذه الترعة إنها تسبح في الليل باحثة عن أي شاب يصطاد أو يمرّ بقربها تناديه وتغني له.. لو لحق بها فلسوف تجذبه تحت الماء ليغرق وفي الصباح يجدون جثته. أمّا لو نجح في أن يقتلها....»

قال جمال ضاحكًا:

- «لو نجحت في قتلها فلسوف تجد معها طاقية الإخفاء هكذا تقول الأسطورة. بما أن أحدًا لم يجد طاقية الإخفاء بعد فإن بوسعك فهم أن أحدًا لم يقتلها!»

بدت لي القصة شبيهة جدًّا بقصة النداهة... النداهة تنادي تحت البيوت ليلحق الشباب بها، أو تتقمص شكل أحد رفاقك وتقنعك بالخروج معها ليلًا تكتشف بعد قليل أنّ هذا ليس رفيقك!!

لكنها بالفعل فكرة تثير القشعريرة، دعك من أن ما رأيته كان فعلًا أقرب لأنثى.. لكنّها أنثى ضخمة لابد أن قامتها تقارب أربعة أمتار..

✷ ✷ ✷

كل الثقافات البشريّة فيها نمط عروس البحر التي تنادي الناس ليلًا.. أنت تعرف عرائس بحر (أوليس) وكيف كن ينادين البحارة، حتى اضطر أوليس ورفاقه لأن يربطوا أنفسهم إلى الصواري حتى لا يلحقوا بالنداء ويلقوا حتفهم.. قصص ألف ليلة وليلة تعجّ بعرائس البحر. كما تعلم.

يبدو أن عرائس البحر كن موجودات في كل مكان في القصص الإغريقية. هن منتشرات كقطط الشوارع عندنا، وكن في رتبة أقل نوعًا من الآلهة.. أو هن نتيجة زواج إله مع أنثى بشريّة.. كن يغنين أغاني حزينة بعد ما خطف بلوتو برسفونه إلى مملكته.. وكانت أغانيهن لا تقاوم.. تدفعك لأن تسقط في الشرك وأنت سعيد.. هذا فن أنثوي جدًّا..

أحيانًا ينام البحارة فتتسلق العرائس إلى السفينة وتلتهمهم.. سوف تجد الكثير من قصص عرائس البحر في كتب المؤرخين العرب. سوف تجد قصصًا حكاها القزويني والمسعودي وأغلبها يتعلق بزواج بشر من عرائس بحر.

في ألمانيا تجد أسطورة لورالاي وهي أسطورة قوية وراسخة جدًّا.. (لورالاي) لا تغني لكنّها تفرد شعرها كالشباك لتسقط فيها السفن..

هل تذكر (الحطمة)، القصة التي سمعتها في قصص وراء الباب المغلق؟.. أعتقد أنها قريبة جدًّا من المزييرة..

كعادة العلماء في هدم كل ما هو ساحر، يقولون إن القصة كلها تتعلق بالفقمة هذه تظهر في الظلام والأمواج.. البحارة أنهكهم الصراع وأنهكهم الحرمان من الأنثى مع طول الرحلة، لذا

يعتقدون أنهم يرون فتاة بارعة الحسن نصفها العلوي امرأة والنصف السفلي سمكة..

كلها قصص تتراوح بين المسلية والمخيفة.. لكن لا تنكر أن جو (المزييرة) مفزع فعلًا..

✷ ✷ ✷

المزيد من أكواب الشاي الصغيرة بالنعناع.. الكثير من أكواز الذرة..

إنها الواحدة بعد منتصف الليل.. خليط لذيذ من النعاس والقشعريرة.. الشعور ببرد خفيف.. رائحة المعسل من ناحية (عبد المعطي)..

في النهاية قلت - وأنا أحاول بعث الروح في قدمي التي صارت عش نمل:

- «أعتقد أن وقت العودة قد حان»

هكذا عدنا نقطع المساحة المظلمة، لا تعرف حقًّا ما تدوس عليه ولا أين أنت.

المنحدر الرهيب المتجه للماء.. هذا الكشاف اللعين الخافت لا ينير أي شيء.

أخيرا ينتظرنا القارب وهو يتأرجح بلا توقف.. أمسك جمال بالمجداف وبدأ يضرب الماء الأسود.. لا أرى شيئًا تقريبًا، ولهذا أنظر للنجوم في السماء..

- 3 -

ساد الصمت.. بينما القارب يشق الماء المكسو بورد النيل.. لهاث جمال وأنفاس محمد الثقيلة. أحب هؤلاء المهندسين العضليين الذين يقدرون على العودة بك لشط النجاة..

صوت الماء.. صوت المجدافين.. صوت الأنفاس..

لا أعرف ما حدث ولا كيف..

هناك شيء جعل القارب يرتج بقوّة، ثم يدور حول نفسه ليمارس مع جسدي أعنف قوانين الطرد المركزي التي هي في الحقيقة قصور ذاتي. وكان وضعي حرجًا فعلًا على الحافة بالضبط.. فعلت ما يفعله أي شخص لا يجيد التحكم في جسده..

وجدت أنني أنحدر..

وفي لحظة وجدت نفسي وسط المياه المظلمة.. لا أراها لكن أشعر ببردها وثقلها.. عقلي يخبرني بشيء واحد فقط:

- «أنت سقطت!»

أهوى لأسفل وسط ما شعرت كأنه أعشاب مائية أو جذور عامّة ثم ضربت قدمي الطمى في القاع... ركلت القاع فارتفعت من جديد نحو السطح.. هذا هو سيناريو الغرق المعتاد إلى أن تمتلئ رئتي بالماء. أنا لا أسبح بل أطفو كجثة غارقة، لكن هذه المياه لا تسمح بالطفو.. تختلف تمامًا عن مياه البحر..

قلت لنفسي إنها النهاية وأنا أهوي للقاع ثانية..

ثم ارتفعت.. ظلام.. لا أثر للقارب..

فتحت فمي لأصرخ.. لكن الماء الآسن ملأ فمي..

ما لم أعرفه وقتها هو أنهم لم يلحظوا سقوطي للمرة الأولى كانت هناك دوامة، لهذا انهمك جمال في السيطرة على المجداف.. بينما حاول محمد التماسك.. لم يلحظ أحدهما صوت (طششششش) العالي وكان الظلام الدامس يمنع رؤية أي شيء..

كنت أموت أعتقد أن نقص الأكسجين بدأ يعبث بدماغي.. بدأت أغيب عن الوعي ودعوت الله أن تكون النهاية سريعة..

هنا شعرت بتلك اليد الصلبة تمسك بقميصي..

قوة غير عادية تجرني..

وهنا فقدت الوعي.. ظلام..

✷ ✷ ✷

كنت ملقى هناك على أرض صلبة.. مبتلًا ككلب صغير في يوم مطر..

أسعل فينبعث الماء من كل فتحات وجهي، فلولا معلوماتي التشريحية لقلت إنِّه يخرج من عيني..

الظلام من حولي.. ضوء النجوم الشبيه بثقوب في جدار الكون..

نهضت بصعوبة وتقيأت الكثير من ماء الترعة بمذاق الطمى..

ثم جلست.. أين أنا؟! هذا لسان من الأرض يبرز وسط الترعة.. لا شك في هذا..

عيناي تعتادان الظلام نوعًا.. هنا أرى أمامي في الظلام هذا الشكل..

امرأة عملاقة يبرز نصفها العلوي فقط من الماء أدرك بسهولة أن عينيها مشعتان.. لون أخضر فوسفوري مخيف، وأرى شعرها المنتفش الذي يوحي بأنها أنثى.. لكني لا أرى ملامحها..

أردت أن أتكلم لكن الكلام احتبس في حلقي...

وأدركت في هلع أنها تغني.. لا شك في هذا.. ترنيمة مبهمة خافتة لا تتبين أي حرف منها لكنّها مسموعة..

المزييرة!

هل هي من جذبني للماء؟.. هل هذه هي النهاية؟ لماذا لم تتركني للموت إذن؟.. هل تتصرف مثل التمساح الذي يجذب ضحاياه ليدفنها في الطين حتى تتعفن ويقدر على مضغها؟

أدركت أنّ هذا الشيء المرعب يحمل شيئًا في يده..

طوحه فسقط جواري..

عندما دققت النظر رأيتها تستدير.. تبتعد.. ومع ابتعادها إلى قلب الماء كانت تغطس أكثر فأكثر حتى توارت نهائيًا..

وسمعت من بعيد صوت محمد يهتف:

- «رفعاااااااااات!..»

صرخت بما بقي في حلقي من صوت:

- «محماااااااد!.. جماااااااال!»

مزيد من الصراخ ثم سمعت صوت الضربات.. المجداف ضوء خافت يتوهج في مقدمة القارب.. لقد عثرا على..

وسرعان ما رأيت جمال واقفًا يمسك بالمجداف بينما محمد يصوب الكشاف نحوي، وهتف جمال:

- «تبًّا لك!... حسبنا أننا لن نجدك ثانية..»

- «من جاء بك لهذه الجزيرة؟! لم نمر من هنا.. هل تجيد السباحة لهذا الحد؟!»

لم أرد إلى أن وجدت نفسي في القارب المتأرجح كنت أرتجف بالكامل..

كانت الأسئلة تنهال علي، فقلت في شرود:

- «المزييرة أنقذتني!»

- «هل تمزح؟!»

- «لا أعرف تفسيرًا آخر لما مررت به».

ومددت يدي أتفحص الشيء الذي ألقته جواري.. كان شيئًا صوفيًا مبللًا.. وصوبوا عليه الكشاف ليروه بشكل أفضل هتف محمد في عدم تصديق:

- «هذه طاقية الإخفاء! لقد تركتها لك..»

في غيظ قال (جمال):

- «حتى بمنطق الخرافة نفسه، فهذا مستحيل.. هو لم يقتلها».

الشيء كان تلفيعة طويلة مما يلبسه الفلاحون، وقد عقدت على شكل أنشوطة... لم يكن طاقية الإخفاء، للأسف..

✷ ✷ ✷

كانت هذه الساعات الأولى من الصباح لكننا لم نعد لبيوتنا..

كنت هناك في بيت (جمال) جوار النار التي أشعلها لأصطلي بها. أشعل لفافة تبغ وجلس جواري.. ثم قال وهو يتأمل التلفيعة بين يديه:

- «هناك أسطورة أخرى حكاها لي عبد المعطي منذ زمن هناك فلاح قتل زوجته خنقًا ثم تخلص من جثتها في هذه الترعة.. حدث هذا منذ عقود عديدة. قال البعض إنهم يرونها من حين لآخر تسري فوق الماء. طبعًا لا أحتاج لقول إنّه خنقها بالتلفيعة والآن هل يقودنا هذا التفسير؟»

قال محمد مفكرًا:

- «لا أؤمن بالأشباح.. هل تعرف ما أفكر فيه؟.. لربما كان هناك نوع من الكائنات الغامضة يعيش تحت هذه الترعة ربما يجد لنفسه موطنًا في الأوحال، ويبقى هناك في وقت الجفاف. لربما كان هذا هو الكائن الذي قابلناه مرّتين هذه الليلة ولربما وجد هذه التلفيعة بالصدفة..»

قلت أنا وأنا أجرع الشاي الثقيل الساخن الذي أعده (جمال) لي:

- «النظريتان جديرتان بالتأمل.. لكن هناك نظرية لم تذكراها وأميل لها..»

- «ما هي؟..»

شفطت شفطة من الشاي وقلت:

- «إن (المزييرة) هي ما قابلناه فعلًا... لكنّها ليست كائنًا قاتلًا كما يحلو للأساطير أن تتصور».

وساد صمت ثقيل..

بدأ ضوء الفجر يتسلل للغرفة، عندها قررت ومحمد العودة لدارينا...

- 1 -

يؤمل دنيا لتبقى له..

فوافى المنية قبل الأمل

حثيثًا يروي أصول الفسيل..

فعاش الفسيل ومات الرجل

(سيبويه)

✷ ✷ ✷

أين الكاهن الأخير؟ أين (هن تشو كان)؟

أفتقده كثيرًا في هذه اللحظات.. لقد كان خير صديق لي منذ قابلته مذعورًا كقط في ذلك المخزن في قريتي لا يعرف أي شيء. ثم عرفت أنه يعرف الكثير جدًّا...

أتمنى لو رأيته وأدعو له بالخير...

في فيلم (أشياء للحياة) بطولة (ميشيل بيكولي)، مات البطل في حادث سيارة.. أظهره المخرج يسبح في المحيط.. سفينة تقترب منه. على السفينة يرى وجوه أمّه وزوجته وحبيبته وصديقه.. كلهم يضحكون ويلوحون له فيلوح لهم في مرح.. يدنو منهم أكثر، لكن السفينة لا تتوقف ولا تلتقطه.. تبتعد وهم ما زالوا يلوحون له. هنا يدرك الحقيقة المرعبة: حياتهم مستمرة من دونه. يتبدل وجهه إلى الذعر والحزن.. ثم تخور قواه فينزلق لأسفل ببطء...

اليوم.. هناك سفينة عليها (ماجي) و(عزت) و(كاميليا) و(هن تشو كان) وكل أسرتي في كفر بدر.. هذه السفينة تبتعد وهم يلوحون لي.. لكنهم لن يلتقطوني..

وفي القاع تنتظرني أسرة أخرى صغيرة لطيفة من (لوسيفر) و(ليليث) و(بهموت) و(أبراكساس) و.. و.... ..

تناولت المصحف الصغير جوار الفراش ورحت أقرأ...

بعد ساعة بدأ جفناي يثقلان..

لا أدري متى دخلت (ماجي) الغرفة.. تمضي معظم وقتها هنا وهذه إشارة واضحة: أنت ستموت.. لن أتركك حتى تقضي نحبك.. لو كانت مطمئنة لعادت لأسكتلندا..

تنسق الأزهار التي جلبتها بجوار فراشي، برغم أنني أخبرتها مرارًا أنني أمقت الأزهار..

تجلس جوار الفراش وتبتسم.. ثم تبدأ في الغناء بصوت رقيق خافت..

صوتها يحملني لأعلى.. لأعلى..

هناك مكان ما. في زمن ما.. ليس فيه ألم ولا حنين..

كنت أحلم ثم بدأت الرؤيا تتعكر بفعل كابوس..

كنت أرى د. رتشارد كامنجز...

✷ ✷ ✷

أيها الموت.. إن خادمك على الباب.

لقد قطع بحار الغيب وجلب نداءك إلى بيتي.

إن الليلة مظلمة وقلبي يرتجف من الخوف..

غير أنني سوف آخذ المصباح، أفتح بوابتي وأنحني له مرحبًا.

إنه رسولك هذا الذي يقف عند بابي. سوف يعود إليك منجزًا المهمة، تاركًا وراءه ظلامًا دامسًا..

وفي بيتي المنعزل سأكون أنا القربان الأخير الذي أهديه لك.

(طاغور)

✷ ✷ ✷

أنتم تذكرون لا شك تلك التجربة المخيفة التي كان د. (كامنجز) ينوي تنفيذها..

محاولة إعادة إحياء مومياء الكونت (دراكيولا) كما يزعم هو، والتي جاء بها من ترانسلفانيا..

كان يؤمن أنّ هناك من يكرر المحاولة كل مئة عام.. من ثم يظهر الكونت وتنتشر عقيدة مصاصي الدماء، إلى أن يموت بيد شخص لم يتلوث..

الحقيقة أنني كنت مستجدًا في تلك الأوقات، ولم أكن ذا خبرة تقريبًا..

ثم جاء موعد التجربة فنمت. أيقظتني ابنته (كاترين) لتخبرني أن البيت خال.. أبوها وأمها وضيفهم د. (لوفارسكي) اليهودي ليسوا بالبيت. لقد صار على كاهلي أن أقوم بالطقوس المخيفة.

جربت وفشلت.. أو هذا ما بدا لي.. الفكرة هي أن (كاترين) راحت تضحك في توحش، ثم غمست إصبعها في دلو الدم ولعقته.. بدا لي أنها تحولت لمصاص دماء فعلًا، فهرعت أفر من المكان وكان أقرب النظريات لي هي أن روح (مصاص الدماء) تقمصتها وقتلت باقي الأسرة.. ربما هي مزحة ثقيلة من (كامنجز)... ربما قتلها أبوها عندما تحولت! لا أدري حقًّا..

فيما بعد، اختفى د. (رتشارد كامنجز) من حياتي تمامًا.. لم يرد على خطاباتي، وعرفت أنه هاجر إلى أستراليا مع أسرته.. هذا ما قيل لي، ولو كان صحيحًا فهو ما زال حيًّا..

ظلت أسئلة كثيرة تحوم حول هذا الموقف.. ماذا حدث بالضبط وما مصيره؟

- 2 -

راح المغني ينشد مستخرجًا ذلك الصوت الأجش الغريب من أعماق حنجرته.. لا بل من أعماق روحه. كنت أمقت (الروك آند رول) بشدة وأجده سخيفًا، لكني كنت مضطرًا للحضور لأن (هاري شيلدون) أصر على هذا..

هل تذكر (هاري شيلدون)؟ صديقي الأمريكي الوسيم قوي البنية والمندفع كالطوربيد لم تكن زوجته معنا لأن المرء لا يصحب زوجته لتلك الأماكن..

كنا في (ميامي)، وكان هناك صخب شديد وزحام من النوع الذي يجعلك عاجزًا عن التنفس..! الكل يرقص.. الكل يتمايل الكل في حالة جنونية تذكرك بحفلات (الزار) عندنا.. هذا علاج نفسي على أعلى مستوى كما هو واضح.. معظم الناس يستعملون الإسبانية، وهذا شيء شائع في (ميامي)..

رائحة العرق.. رائحة التبغ..

مطرب (الروك) يقف فاتحًا ذراعيه ثم يثب فوق الناس كأنه يثب من طائرة.. هذا هو أسلوب (الملاحة في الزحام) المعروف.. تتلقفه الأيدي وتطوح به في الهواء عدة مرات ثم تقذفه للمسرح..

ثم رأيت مطربة (الروك) الحسناء..

امرأة بارعة الحسن تلبس ثيابًا جلدية ضيقة، وقد ملأت ذراعيها بالوشم وهي تمسك بالميكروفون وتصرخ بجنون.. الحق أنها أشعلت المكان وسط الدخان ووهج الليزر..

قال لي (هاري) وسط الصخب:

- «كاااتين كفز.. بريييييية.. أباب»

كانت أذني تدق من تلقاء نفسها، لذا دنوت منه أكثر لأسمع بشكل أفضل:

- «كاترين كامنجز.. بريطانية.. يعشقها الشباب»

هززت رأسي موافقًا ثم تابعت الحفل ولكن.. لحظة.. (كاترين كامنجز)؟.. هل يفسر هذا الشعور الذي داهمني بأن وجهها مألوف برغم كل الأصباغ التي وضعتها؟.. الفتاة البريطانية المحتشمة الهادئة تغيرت جدًّا.. برغم هذا لا تختلف كثيرًا.. لن أنسى هذا الوجه. كانت في سن الثامنة عشرة وقتها أعتقد أنها اليوم على أعتاب الخامسة والثلاثين..

ولكن.. هل هي حقًّا؟!

كيف صار هذا؟! ومتى؟!

حاولت أن أدنو أكثر وسط هذا الصخب.. أشق زحام الشباب المجنون الذي يدخن الماريجوانا. كانت هي على المسرح راكعة على ركبتيها وتغنى كأنها تصلي، وهو وضع شهير لدى مطربي الروك..

هنا رأيت عينيها الرماديتين الزرقاوين تنظران لي عبر هذه المسافة وتتسعان..

لقد تذكرتني....

معنى هذا أنها هي فعلًا..

كنت أتمنى أن أتكلم لكنّها لن تسمعني. ولا فرصة للاقتراب أكثر. قال لي (هاري) - وقد لاحظ توتري - إن بوسعي أن أقابلها في غرفتها بعد العرض.. شيء كالذي يفعلونه في الأفلام العربيّة في الكباريهات..

هكذا في ساعة متأخرة من الليل، انتهى الحفل وحطمت الجيتار الذي تحمله كالعادة ثم هرعت إلى الداخل. هرعت مع (هاري) إلى خلفيّة المنصة.. هاري يجيد استعمال الرشوة في الحصول على ما يريد..

على باب غرفتها قلت لهاري متوسلًا:

- «أريد الانفراد بها.. لو كنت ترغب في العودة حالًا فلتفعل، وأنا سأعود بسيارة أجرة»

نظر لي في خبث.. لم يعتد أن يرى رجلًا متحمسًا لهذا الحد لابد أنه قال لنفسه إن هناك هرمونات ما زالت حية لدى رفعت إسماعيل.. لو كان لدى الأمريكيين تعبير مثل (هع هع.. ماشي يا سيدي) لقاله..

أشعل لفافة تبغ ودس يديه في جيبي سترته ثم انصرف...

قرعت الباب مرارًا فسمعت ذلك الصوت المبحوح يقول:

- «من؟»

من أنا؟.. ماذا أقول؟

- «أنا الدكتور إسماعيل.. رفعت إسماعيل.. أعتقد أنني كنت صديق أبيك منذ.. منذ سبع عشرة سنة تقريبًا»

نظرت لي كاترين في رعب عندما فتحت الباب وهتفت:

- «أنت من دون الناس؟..»

- «وأنت من دون الناس؟..»

ثم أنها أفسحت لي فرجة الباب كي أدخل..

كان هناك جو عام من الحرج. هذا متوقّع.. آخر مرة التقينا فيها كان هناك تابوت يرقد فيه (كونت دراكيولا)، وكانت تلعق الدم وتنبعث منها رائحة الكبريت.. لا أعتقد أنّ هناك زوجين مطلقين شعرا بهذا الحرج لدى لقائهما بعد أعوام..

قلت لها وأنا أتأمل الغرفة:

- «كاترين كامنجز.. دهر قد مضى على لقائنا وعلى تلك الأمسية.. التقينا بأغرب الصدف الممكنة..»

(غرفة في الكواليس بلا مرآة واحدة؟.. كيف تستعد للمسرح إذن؟!)

كانت تضع طبقة سميكة من الماكياج جديرة بمطربة روك. لم يكن هذا زمن التثقيب Piercing لهذا اندهشت جدًّا لما رأيت خرزة في حاجبها وخرزة في شفتها السفلى. بدا لي هذا شيطانيًا.. كما أنها كانت غارقة في العرق بعد الحفل مما أذاب هذا كله..

(تضع جالونًا كاملًا من العطر.. كل شيء معطر بلا تحفظ)

أشعلت لفافة تبغ ونفثت في وجهي سحابة كثيفة وقالت:

- «أعتقد أنني مدينة بتفسير لك».

- «فعلا... لقد كان فراقنا بطريقة عجيبة فعلًا.. كدت أموت رعبًا..»

انفجرت تضحك ثم قالت:

- «كانت دعابة عملية.. دعابة قاسية.. أبي ولوفارسكي قررا أن يداعباك ولم يتوقعا أنك بهذا الجبن..»

- «أعترف أنك كنت مفزعة فعلًا.. وماذا عن لعق الدم؟..»

حكت لي عن أستاذ الجامعة الأمريكي الذي علم تلاميذه شيئين: دقة الملاحظة، وعدم الاشمئزاز من أي شيء في العلم. ثم خلط مزيجًا من الكيروسين والزيت والعسل وتذوقه بإصبعه ومرر أنبوب الاختبار على التلاميذ ليجرب كل واحد أن يلعق. اشمأز أكثرهم وبعضهم فعل. هنا قال لهم: لو كنتم قد تعلمتم الدرس جيدًا لكنتم أدق ملاحظة.. الإصبع الذي غمسته في المزيج ليس هو الإصبع الذي لعقته!!

- «أنا كذلك لم ألعق الإصبع الذي غمسته في الدم.. يسهل خداعك في ظلام القبو وجو التوتر العام».

- «ورائحة الكبريت؟»

- «هناك شموع وأعواد ثقاب.. إلخ..»

نظرت لها مليًّا..

إنها تكذب.. حتمًا تكذب.. لكن ما الحقيقة؟

- 3 -

لماذا لم أبتعد؟.. لماذا لم أفر؟

لنفس السبب الذي جعلني أظل في القبو تلك الليلة وأجرى التجربة وحدي.. لابد أن أعرف وإلا فتك بي الفضول..

قالت لي وهي ترتدي سترة جلدية برغم أن الطقس دافئ كعادة هذه البلاد:

- «هل معك سيارة؟»

- «لا».

- «هذا حسن.. سنركب سيارتي».

لماذا لا توجد مرايا جانبية في السيارة؟. هذا غريب فعلًا

(تضع جالونًا كاملًا من العطر.. كل شيء معطر بلا تحفظ)

كان هناك باب خلفي يقود لزقاق خال.. وهناك كانت سيارة رياضية رشيقة - لا أعرف الموديل - تنتظر. هذه طريقتها للفرار طبعًا لأنها لن تخرج من الباب الأمامي.

ألقت نفسها في مقعد القيادة ثم طلبت مني أن أركب..

انطلقت السيارة في شوارع (ميامي).. الظلام والأضواء..

هذا هو شارع (أوشين درايف) وهو من أجمل شوارع المدينة حيث أروع مجموعة من الفنادق في (فلوريدا) كلها. برغم هذا الإبهار أمقت الولايات المتحدة فعلًا.. ربما بسبب هذا الإبهار كبيرة جدًّا.. حديثة جدًّا.. سريعة جدًّا.. غالية جدًّا..

سألتها وهي تنهب الطريق:

- «فتاة بريطانية خجول تعيش في ضاحية بريطانية، واليوم مطربة (روك) أمريكية يعشقها الشباب.. رحلة طويلة جدًّا!!»

قالت وهي مستمرة في القيادة:

- «أنت لا تعرف بالطاقات البركانية التي قد تكون لديك.. لقد رحلنا إلى أستراليا وحاولنا التأقلم فلم نستطع، ثم قرر أبي أن يأتي للولايات اندمجت أنا مع بعض فرق (الروك) ثم اكتشفت أنّ هذا

ما أريد عمله طيلة حياتي..»

كنت أرمق الطريق.. وأختلس نظرات للمرأة التي تريك خلفيّة السيارة.. لا أقدر على توجيهها نحوها لكن بالفعل أتمنى أن أرى ما سينعكس فيها..

عدت أسألها:

- «هل تزوجت؟»

- «لا.. وأنت؟»

- «بالطبع لا.. وماذا عن أبيك؟»

قالت ضاحكة:

- «سوف نزوره.. لا تقلق!!..»

فيما بعد عرفت أنها تعبر منطقة الشط الجنوبي، أو ما يُطلق عليه الأمريكان كالعادة بـ (SoBe). أقدم مناطق ميامي لكنّها حديثة البناء حسنة التنسيق، والسبب أنها دمرت تقريبًا بالكامل عام 1926 بسبب إعصار مريع ثم بنيت من جديد..

أخيرًا اندفعت عبر شوارع جانبية..

في النهاية وجدت بيتًا صغيرًا ليس حديث الطراز جدًّا حديقة جميلة لكن من الواضح أن أحدًا لا يعني بها هناك شجرة عتيقة عجوز، وهناك مصباح واهن معلق جوار الباب وهناك ممر بين الأشجار يقود لهذا الباب.. باب قديم من خشب البلوط من الطراز الذي يضعون جواره مقبضًا للدق على شكل قبضة يد. تعرف هذا الطراز طبعًا.

فتحت الباب ثم دعتني للدخول.. وصاحت منادية:

- «داد.. هناك مفاجأة لك!»

داد؟ بهذه البساطة؟.. الويل!

لم أتصور لحظة أن د. (رتشارد كامنجز) سيظهر في حياتي من جديد بهذه السرعة والسهولة. لكني عرفت أنها محقة كان هناك درج يقود لطابق علوي من البيت. ورأيت ذلك الكهل الوقور الذي يلبس روبًا قصيرًا حريريًا تحته ربطة عنق، يهبط في الدرج..

لم يتقدم في العمر عن آخر لقاء، برغم أنني أبدو كمن شاخ خمسين عامًا..

هتف غير مصدق:

- «رفعت!! أيها الشيء القديم! أنت ما زلت حيًّا؟!»

هذا الرجل يحمل لي ذكريات عديدة.. بالنسبة لي هو أول ضربة هوت على سد ذكريات ما وراء الطبيعة، وبعدها صرت أنا أنا.. لا أعرف إن كنت أشكره على هذا؟

هؤلاء القوم يعيشون في بركة من العطور الفاغمة.. لا أعرف السبب..

راح يثرثر..

حكي لي عن طقوس مصاص الدماء التي كنا نرتب لها.. قال إنّه أدرك أن الطقوس فاشلة فطلب من (كاترين) أن تداعبني دعابة أخيرة وتتظاهر بأنها تحولت لمصاص دماء. قال إنني برهنت عن خنع شديد وفررت كالفئران.. قال إنّه لم يتوقع قط أنني بهذا الجبن. بعد هذا سافرت الأسرة كلها إلى (ملبورن) وقام بالتدريس عدة أعوام..

- «سئمت أستراليا. بلد جميل آمن لدرجة الملل.. لم أتحمل أكثر وأخذت أسرتي وانتقلنا إلى الولايات....»

كل هذا جميل.. لكن لم أستطع وضع كلماته في موضعها.. كان متحمسًا للتجربة ووضع كل رهان حياته عليها وأعد لها كل شيء، وفي اللحظة الأخيرة قرر أنها سخيفة وقرر أن يدبر لي مقلبًا. هذا يبدو لي غريبًا.. الحياة - وأنت توافقني حتمًا - لا تسير هكذا.. الناس لا يتصرفون هكذا..

تقضي حياتك محاولًا تحقيق فكرة ما، وفي اللحظة الأخيرة تقرر أنها فكرة فاشلة فتتناسى الأمر وتقرر عمل دعابة في شخص آخر... مستحيل..

دعياني للعشاء فاعتذرت وإن وعدت بأن ألبي الدعوة غدًا..

- 4 -

قضيت النهار كله مع (هاري) في (إيفرجليدس) أو ما يطلقون عليه (نهر العشب)، وهو حديقة وطنية وحديقة للحيوانات النادرة.

سمع قصتي كلها، فكان رأيه أن أتناسى هذه الأسرة تمامًا..

لكني كنت مقيدًا بأصفاد قوية من الفضول.. لم يكن بوسعي الرفض.. كل تجاربي مع (كامنجز) تضعني في هذا الموقف..

قلت له:

- «سوف أذهب للعشاء».

- «هل آتي معك؟»

قلت في تصميم:

- «لا أعتقد.. لم يدعك أحد.. هذه نقطة.. ولن يكونوا على راحتهم وهذه نقطة أخرى».

حصل مني على العنوان بدقة، وهذا لو لم أعد إلى داره في موعد محترم..

وعندما جاء المساء قصدت الدار التي حفظت مكانها.. يشبه الأمر ليلة مماثلة مررت بها منذ أعوام طويلة، لكنّها كانت في إنجلترا وليس الولايات..

رحبت بي كاترين.. كانت هذه المرّة تلبس ثوبًا أنثويًا عاديًا بدلًا من الثياب الجلدية الشيطانية تلك.. أمّا أبوها فكان يلبس بدلة سوداء أنيقة، وفوجئت أن زوجته ما زالت حية.. رحبت بي بحرارة ثم اقتادوني إلى المائدة..

لاحظت هذه المرّة أنه لا توجد أية أيقونات دينيّة.. كانت هذه الأسرة تضع صورًا للمسيح والعشاء الأخير وتعلق نصف دستة من الصلبان. ماذا حدث كي يكفوا عن ذلك؟ هل فقدوا إيمانهم فجأة؟!

لماذا لا توجد مرايا في هذه الدار؟

جلست إلى المائدة، وجلست كاترين جواري.. ذهبت السيدة للمطبخ ثم عادت حاملة عدة صحاف من الطعام تفوح منها رائحة طيبة..

جلسوا جميعًا حولي وراحوا يغرونني بأن آكل بشهية..

كل هذا جميل.. لكن لماذا لا تأكلون، تقريبًا؟.. يكتفون بجرعات بسيطة من النبيذ ولا يمسون الطعام، بينما أنا طبعًا أكلت بشهية ولم أمس النبيذ.

رحت أتأمل الانعكاسات على الكئوس.. على أدوات الطعام الفضية..

في لحظة.. لم أعد أتحمل أكثر..

ألقيت بالشوكة والسكين على المنضدة وقلت في حسم:

- «د. ريتشارد.. أعتقد أنه لا داعي لمزيد من العبث صورتكم لا تنعكس في أي شيء.. أنتم مصاصو دماء! لقد تحولتم جميعًا في تلك الليلة».

ساد الصمت.. ثم ابتسم وتبادل نظرة مع زوجته..

قال لي - وقد رأى الرعب في عيني:

- «هل هناك ما يحميك؟ كيف تصارح أسرة من مصاصي الدماء بهذا وأنت في بيتها؟!»

لم يكن هناك ما يحميني فعلًا.. تصرفت بحماقة، لكني قلت مراوغًا:

- «بالطبع هناك طريقة للحماية.. إنها تحت هذه البدلة لو هاجمني أحدكم فلسوف تكون العاقبة وخيمة..»

- «لا داعي.. لن يهاجمك أحد.. ولتعلم أنني لا أصدق حرفًا مما تقول.. عيناك تشيان بالخوف والكذب».

ثم رفع كأسه وراح يرمق السائل الأحمر ويتكلم:

- «في لقائنا القديم قلت لك إنني أشك في أن ما قيل عن (مصاصي الدماء) حقيقة هناك من تحدثوا عن مصاصي الدماء عند الفراعنة.. سوف تجد مصاصي الدماء بقوّة في الأدبيات البابلية والأشورية.. لاميا.. لاماستو.. ليليث.. الأخوات إمبوسي أو مور موليسيا (الذئاب المخيفة).. كلهن الشيء ذاته. في كل الثقافات السامية سوف تجد ذلك النموذج.. إنها موجودة في الأساطير البابلية.. الآشورية... العربيّة.. العبرية.. حتى العرب لديهم الهامة.. التي يُقال إنها كائن يخرج من المقابر ليلًا ليمتص دماء الناس... في اليونانية تجد كلامًا عن (لاميا) الرهيبة التي كانت ملكة ليبيا.. عند الأشوريين كانت هناك الشيطانة (لاماستو) التي تقتل الأطفال الصغار ربما وهم في أرحام أمهاتهم، وهي صورة أخرى من (ليليث).. الأمر مريب فعلًا!»

كنت أعرف معظم هذا الكلام لكني ظللت لا أفهم ما يريد قوله..

أردف:

- «لفظة Vampire ذات أصل سلافي.. (فام) معناها (دم) و(بير) معناها (وحش)... إن أهم أساطير مص الدم موجودة عند السلافيين.. تذكر أن (دراكيولا) روماني.. لكن لفظة Vampire دخلت إنجلترا وفرنسا عندما اشتهرت قصتان مخيفتان عن (بلوجويوفيتز) و(أرنولد باول)... الأول ألماني مات في الثانية والستين لكنهم يقولون إنّه عاد مرّتين ليطلب طعامًا من ابنه. رفض الابن فوجدوه ميتًا في اليوم التالي.. وعاد (بلوجويوفيتز) مرّة أخرى ليفتك ببعض الجيران. الثاني فلاح وجندي متقاعد مات من ثم بدأ الجيران يموتون وقد خلت عروقهم من الدماء.. باحث فرنسي محترم هو (أوجستنين كالميه) كتب عن (مصاصي الدماء) عام 1746 وأقر أنهم موجودون.. هكذا صارت كلمة (مصاص دماء) على كل لسان.. عام 1816 قدم (جون بوليدوري) قصة (مصاص الدماء) التي كرست فكرة مصاص الدماء الأرستقراطي في الأذهان. وقد استوحى الشخصية من الشاعر البريطاني لورد (بيرون). حتى في العصر الحديث هناك كتاب ظهر عام 1928 اسمه (مصاص الدماء: أصله وفصله). للكاتب البريطاني مونتاج سامرز».

قلت في عصبية وقد نفد صبري:

- «ما لزوم هذه المحاضرة الطويلة؟!»

- «أردت أن أوضح لك أن الأمر جزء من الطبيعة، ومن العسير أن تقاومها.. محاولة إحياء المومياء التي قمت بها لم تحيي المومياء، لكنّها جعلت روح (دراكيولا) تحل بنا جميعًا.. كلنا تبدلنا في تلك الليلة، والحقيقة أن تحولنا بدأ قبل الثانية عشرة بكثير.. كل منا في فراشه كان يحلم.. العرق يغمره.. يحلم أحلامًا شنيعة دموية.. يتقلب.. يئن.. يزأر.. ولهذا لم نلحق بك في القبو، ولو أنك فتحت غرفة واحد منا لشممت رائحة الكبريت تؤذي عينيك، ولرأيت كلًّا منا في غيبوبة لكنه مفتوح العينين أحمرهما، يغرق الزبد شفتيه.. من حسن حظك أنك لم تفعل. (كاترين) كانت تعلم ما يحدث لكنّها قررت أن تتماسك وتتم التجربة.. لكن الوقت تحرك وفي النهاية صارت مصاص دماء كاملًا مثلنا، لكنك لم تتبدل»

قلت في صوت كالهمس:

- «إذن كنت أنا محقًا»

- «بالفعل كنت كذلك. وهذا مؤسف..»

- 5 -

قبل أن أتكلم، وجدت هؤلاء يقفون من حولنا..

كانوا نحو عشرة..

عرفت منهم د. (لوفارسكي).. عرفت د. (وينسلو) وهو من أصدقاء (كامنجز).. عرفت كثيرين، والأهم أنني عرفت (ما) هم..

في الضوء الساقط من أعلى كانت الظلال تغمرهم.. لكني شممت رائحة الكبريت الخانقة، ورأيت الهالات السوداء تحت العيون والشحوب الواضح. أنا لست طفلًا.. رأيت مصاصي دماء بعدد شعر رأسي (وهذا يدل على أن العدد ليس كبيرًا) لكني أعرفهم على الفور..

أي وجوه هذه! بعضهم كان رأسه يميل على كتفه كالمشنوقين، وتلك المرأة التي غطى الشعر وجهها على طريقة الشياطين اليابانية (يوري Yarei)، هناك طفل مخيف فعلًا..

أنا بطة ميتة كما يقول الأمريكان..

مررت بمواقف مخيفة فعلًا، لكني - على قدر ما أذكر - لم أوجد قط في بيت مغلق مع كتيبة من مصاصي الدماء..

قال د. كامنجز:

- «هذه هي أسرتنا الصغيرة.. أنت تعرف د. (لوفارسكي) الذي شاركنا التجربة.. تذكر (وينسلو) (ومايكل)...»

ثم أشار إلى كاترين:

- «كاترين العزيزة تخرج كل ليلة لتغني مع حفلات الروك وتعود لنا برجل أحمق ثمل لا يدرك الورطة التي وقع فيها، ويكون هو حفلنا الليلي.. كاترين تعيش حياة صاخبة وتنعم بوقتها..»

قلت من بين أسناني شيئًا فقال لي:

- «ماذا تقول؟»

- «أنا لست ثملًا»

- «لكنك أحمق.. هذا يكفينا!»

- «إنها النصيحة القديمة.. لا تترك فتاة مصاصة دماء تأخذك إلى دارها ليلًا.. هكذا كانت أمي تنصحني».

- «إن الكبار يعرفون مصلحتنا دائمًا..»

بدأت أفك ربطة عنقي كي أسهل لهم عملية الامتصاص، فأنا لا أحب إطالة لحظات الأخيرة كما تعلم هذه ليست سيمفونية يجب الاستماع لها في استرخاء، وليست قطعة (كباب) لا بد أن تمررها على لسانك مرارًا لتطيل تذوق طعمها.. لكن (كامنجز) رفع يده ليوقفني:

- «أنت لا تفهم.. نحن لسنا سعداء..»

نظرت له في حيرة، فقال:

- «تلك اللعنة التي أصابتنا جميعًا، جعلتنا نفقد أبسط حقوق الإنسان: الحق في أن يموت.. الحق في أن يمشي في الشمس وينعم بالربيع.. حياة الأطياف هذه لا تناسبنا، والمشكلة هي أننا مرغمون على أن نصنع كائنات أخرى مثلنا.. أي أن بقاءنا أحياء يؤذينا ويؤذي الآخرين. لهذا أردت أن تأتي الليلة، ولهذا لن نفتك بك ولن نضمك لنا..».

ثم وقف كأنه على خشبة مسرح وسط الأضواء وقال:

- «يجب أن ترى كيف ننام..»

مشيت وسطهم كأنني أمشي نحو طبلية المشنقة. هناك ممر جانبي رطب مظلم ثم درجات تقود لقبو.. هناك دائمًا قبو..

ظلام دامس لكن أحدهم أضاء مصباحًا كهربيًا واهنًا بعث جوًا من الوحشة في كل صوب.

رأيت التوابيت.. الصناديق الخشبية الكئيبة متراصة بجوار الجدار. كلها مفتوح وقد بدا بوضوح أنها مبطنة بالحرير ومريحة جدًّا.

هؤلاء مصاصو دماء تقليديون جدًّا.. يتصرفون كمصاصي دم فعلًا.. كنت أتوقع بعض التجديد..

كان هناك ذلك التابوت المغلق الذي يخرج من تحت غطائه الكثير من القش.. هو الوحيد المغلق هنا ومنظره مألوف..

قال د. (كامنجز) وقد رأى اتجاه نظراتي:

- «بالفعل.. صديقك معنا هنا.. أنت تذكر (المومياء) التي سرقناها من ترانسلفانيا.. ذهبت معي إلى كل مكان ذهبت له..»

ثم جلس على تابوت مفتوح، والتف كل الموجودين حولنا قال:

- «كما قلت لك: حياتنا كئيبة ونحن غير فخورين بها على الإطلاق، لذا فكرنا في أن يخلصنا شخص لم يتلوث.. أنت الأقدر على ذلك.. لا أحد سوف يصدقنا أو يقبل القيام بهذا الدور».

نظرت له مذهولًا:

- «هل تريد مني أن أقتلكم؟!»

- «وتخلص البشريّة من شرورنا.. وتخلص أرواحنا».

- «وهل تعتقد أننا في القرون الوسطى لأفعل ذلك؟!»

قالت كاترين التي ظلت صامتة حتى هذه اللحظة:

- «هذا سهل.. لا أحد يعرف أنك هنا.. لا أحد يربط بينك وبيننا. سوف يجد الجيران مجموعة من الجثث ولن يعرف أحد تفسير هذا اللغز..»

تقدم د. (وينسلو).. رأيت في يده ذلك الوتد الكريه المدبب، ومعه مطرقة ضخمة.. وقال لي:

- «سوف يكون الأمر سهلًا.. سنموت أثناء نومنا.. كل ما عليك هو أن تغرس الوتد في صدر كل واحد منا وتدقه بالمطرقة.. يُمكنك أن تنجز المهمة خلال عشر دقائق».

- «والثوم وقطع الرأس؟؟!»

قال كامنجز ضاحكًا:

- «لا تصدق هذا الهراء في السينما.. قطع رأس مصاص الدماء وحشو فمه بالثوم.. هذا كلام فارغ.. الوتد كاف جدًّا».

كنت أترنح شاعرًا بالحيرة..

وجلست على تابوت خشبي بدوري شاعرًا بالحيرة..

لابد أنني جلست طويلًا جدًّا.. ثم بدأ ضوء خافت يتسرب من خارج القبو النهار يقترب.. رأيت الموجودين يتحركون في صمت كأنهم أطياف. ثم يتجه كل واحد منهم لتابوت ليرقد فيه.. ثم يعقد يديه على صدره.. (وينسلو).. (كاترين).. ثم دنا مني (كامنجز) وهمس:

- «حان موعد السبات لنا.. فكر جيدًا.. أنت تنقذ عشرات الأرواح.. ربما مئات»

ولم أدر كيف تسلق إلى داخل أحد التوابيت وتمدد...

وفي اللحظة التالية وجدت نفسي وحدي مع أكثر من عشرة مصاصي دماء نائمين!

✷ ✷ ✷

ظللت لساعة عاجزًا عن اتخاذ قرار.. جالسًا في الضوء الشاحب.

من المستحيل أن أقتل شخصًا.. خصوصًا لو كان هذا بغرس وتد في صدره، لكن من قال إن هؤلاء أشخاص؟!

يمكنني بسهولة أن أغادر المكان ولا أعود أبدًا، لكني سأذكر للأبد أنني المسئول عن أي جريمة أخرى وأي شخص يموت..

ربما كان بوسعي إنهاء الأمر.. أنا سأقتل ووحوشًا وبإرادتها الكاملة..

لا أعرف متى ولا كيف وجدت الشجاعة.. ولا متى اتخذت القرار..

دنوت من أول تابوت وأخذت نفسًا عميقًا.. قمت بتثبيت الوتد بيد ترتجف، ثم رفعت يدي بالمطرقة.. وحاولت ألا أنظر إلى الوجه.

هنا سمعت ذلك الصوت..

نظرت للخلف فرأيت التابوت المغلق الذي يتدلى منه القش يتفتح..

يد متآكلة تتحسس الحافة..

صوت زئير يتعالى من الداخل..

هنا أدركت الحقيقة: يبدو أنهم نجحوا!.. التجربة التي كانت منذ نحو ربع قرن قد نجحت..

ولماذا يصحو؟! هذا ببساطة يدل على أنني ملوث..

لست الشخص النقي الذي حسبه د. (كامنجز)..

غطاء التابوت يرتفع..

ضربات قلبي تتسارع وذلك الألم يولد في صدري مع شعور واجف كأنني أهوي في بئر مصعد.. لو فقدت الوعي هنا لكانت النهاية..

استندت إلى الجدار حتى بلغت الدرج وتحاملت على نفسي إلى أن صعدت.. وجدت بشكل ما الردهة.. وجدت باب البيت.. فررت منه..

ثم سقطت ميتًا.. أعني سقطت فاقد الرشد، في الحقيقة..

✷ ✷ ✷

عندما استطعت أن أمشي فررت من المكان..

فررت من الولايات المتحدة كلها، ولم أستطع نسيان تلك اللحظات.. نسيان أنني لم أستطع تنفيذ مخططي، لأنني ملوث.. نسيان أنّ هناك أسرة مصاصي دماء تعبث بحرية في ميامي.

مرت على هذه اللحظة أشهر..

ثم تلقّيت خطابًا من الولايات بخط مألوف يقول:

«ميامي في...

«للمرة الثانية استطعت خداعك يا رفعت. للمرة الثانية أضحك من أعماقي كلما تذكرت رعبك بعد تلك التمثيلية القاسية، للمرة الثانية تثبت أن قلبك ضعيف جدًّا وأنك لا تفقه شيئًا في عوالم ما وراء الطبيعة، وأنك سهل الانخداع..

«لا تنكر أن المقلب الذي أعدته لك (كاترين) كان محكمًا فعلًا، وأن صديقنا النائم في التابوت أدى دوره ببراعة. آمل أن نلتقي من جديد يومًا ما، وعندها أعدك أن أتصرف بشرف وأكف عن هذه الألعاب!

د. ريتشارد كامنجز..»

مزقت الخطاب في عصبية.. هذا الرجل مصر على أن يجعلني أحمق. في كلّ مرّة أهرب كالبلهاء ثم يضحك هو الضحكة الأخيرة.. لقد نال مني فعلًا. ليتني أستطيع تدبير مقلب مماثل..

على أنني بدأت أهدأ مع الوقت وأفكّر بهدوء...

من جديد، هذه دعابة بالغة التعقيد. هل أعد كل هذه التوابيت ليمازحني؟ وهل جلب كل هؤلاء الضيوف ليضحك؟! وماذا عن المرايا والفضيات التي لا تعكس صورًا؟ لا أظن..

تري.. هل كان كل شيء حقيقيًا وفشل ببساطة لأنني ملوث؟!

أمر جدير بالاهتمام..

سأعيش وأموت ويظل د. (كامنجز) لغزًا عاصيًا على الحل.. للأسف لم يعد هناك وقت كاف لمعرفة الحقيقة..

- 1 -

جاءت د. كاميليا تزورني ومعها هدية تخفف من آلامي..

هذا كتاب يقارن بين الفلاسفة الغربيين في عصر العقل..

هدية ممتازة فعلًا. لم أندهش من ذوقها الغريب في الاختيار، لكن اندهشت جدًّا من قدرتي على الخداع بعد هذا العمر الطويل لم تفهم بعد أنني لا أطيق الفلسفة.. لكني لم أجرؤ على التصريح بهذا قط إلا عندما صغر سني، وصرت مراهقًا غرًا.. تذكرون هذه القصة؟ لقد ظللت أخدعها لمدّة طويلة جدًّا ولم ينكشف أمري قط. لا أدري لماذا كنت أتذكر (يوسف وهبي) في ذلك الفيلم الذي يقنع فيه زوجته الشمطاء (ماري منيب) أنه مخلص كالملائكة، بينما هو أكبر وغد على البسيطة..

برغم هذا لست نادمًا على معرفتها.. كانت صديقًا مخلصًا متفتحًا.. (صديقًا) فأنتم تعرفون رأيي في أنوثتها مجرد صديق رائع..

عمر كامل ضاع وهي تعتقد أن بوسعنا أن نقضي ما بقي من عمر معًا..

وبالطبع لم يكن هذا واردًا.. وحتّى هذه اللحظة هي لا تدرك أنني راحل فعلًا، وأنّ هذه آخر أيام لي..

قالت لي - وهي شاردة:

- «كنت لطيفًا جدًّا عندما كنت طفلًا أسخن لك الرضعة وأبدل الكافولة»

قلت بصوت مبحوح:

- «هل هذا مديح أم ذم؟ هل يعني هذا أنني لست لطيفًا؟!»

قالت بيت الشعر الجميل:

- «هذا مجاج النحل تمدحه.. وإن شئت ذمًا فقل قيئ الزنابير».

ثم اتجهت إلى الدورق المجاور للفراش فصبت لنفسها كوب ماء، وشربته.. لم تعبأ بكون هذا كوبي أنا.. قلت لها ممازحًا:

- «على فكرة.. السرطان ينتقل بالجراثيم.. أنت في خطر داهم!!»

نظرت لي مليًّا ثم قالت بلهجة لم أسمعها من قبل:

- «ليتني أصاب بالسرطان بدلًا منك..»

وقبل أن أفهم ما يدور، طبعت قبلة على جبيني وغادرت الغرفة بسرعة.. أدركت أنها تمسح شيئًا سال من عينيها....

لماذا تعقدون الأمور يا شباب؟.. لماذا تجعلون الرحلة صعبة؟

القصة أبسط من هذا بكثير..

طر يا طائر أبي الحن.. طر بعيدًا عني..

✷ ✷ ✷

لكن السفينة لا تتوقف ولا تلتقطه.. تبتعد وهم ما زالوا يلوحون له. هنا يدرك الحقيقة المرعبة: حياتهم مستمرة من دونه. يتبدل وجهه إلى الذعر والحزن.. ثم تخور قواه فينزلق لأسفل ببطء.

✷ ✷ ✷

كنت أرتجف من التأثر.. تذكرت موقفًا مماثلًا وقبلة مماثلة على جبيني..

كان ذلك في (ويلز) بإنجلترا..

كلامي اليوم عن باب.. هذا الباب الذي أتحدث عنه لم يكن في مصر.. لم يكن في مكان تعرفه.. الباب الذي أتحدث عنه لم يكن بابا خشبيًا أو حديديًّا، بل كان أقرب إلى جدار سميك يهدم ولا يفتح.. لكن الناس هناك كانوا يسموّنه بابًا..

كان هذا في كهف قرب قرية في (ويلز)..

كان الناس يمرون جوار الكهف، ويتحدثون عن (خريولسن) الحبيس هناك.. عن الساحرة التي أنجبته والتي أعدمتها محاكم التفتيش هناك.. وكيف دفنوها فيما يعرف بزنزانة (خريولسن)..

كانت أشنع خبرة في حياتي تنتظرني هناك.. ربما كانت كل قصص حياتي في كفة وهذه القصة بالذات في كفة..

لا أحب أن أحكيها..

لكن الحين قد حان!!

عندما احترقت الساحرة أنذرت الناس بأن ولدها (خريولسن) سيعود بعد أعوام حين يفتح الزنزانة رجل أجنبي.. وما لم ينسه أحد هو أن المصائب لم تفارق القرية لحظة طيلة عمرها المديد..

وبعد أعوام جاء مغامر إلى الكهف.. كان هذا بريطانيًّا يدعى د. (هنري لستر).. فتنته الأسطورة، وصمم على أن يجد رجلًا أجنبيًا يفتح تلكم الزنزانة..

كانت فكرته أن يناول الضيف المطرقة، ثم يطلب منه أن يفتح الجدار بنفسه؛ لأنّه ضيفهم..

طبعًا ما كان الضيف الأحمق ليعلم أنه أول دم أجنبي يدخل الكهف منذ سبعة أجيال.. حقًّا لم أتصور أنني كنت هذا الضيف.. إن معلوماتي تقول: إن من يتكلم أكثر يدفع الثمن..

لكن هل يوجد ثمن أغلى مما أنوي دفعه اليوم؟

قلت من قبل: إنّه في آخر لحظة في حياتي وعندما أوقن بالموت سأتكلم.. ليس قبل ذلك..

بدأت القصة عندما.....

ما هذا؟! هناك من يصرخ في الردهة...

نهضت من الفراش وفككت جهاز المحلول المعلق هناك، ثم دسست قدمي في الخف وفتحت الباب..

كانت الممرضة السهرانة تغطي وجهها وتبكي، بينما راحت ممرضة أخرى تخفف عنها، وكان هناك رجلا أمن.. أحدهما بدأ كأنه عاد من جولة سريعة..

استندت إلى الباب وسألت:

- «هل هناك شيء؟..»

قال رجل الأمن بصيغة رسمية باردة وهو يتأبط ذراعي:

- «عد للفراش يا جدو.. الممرضة تقول كلامًا غريبًا فلا تهتم..»

قالت الممرضة التي صار وجهها متوحشًا كالنمر.. وانتثر شعرها وسقط الكاب من على رأسها:

- «مصطفي.. قلت لك: إنني متأكدة.. كان هناك صبي مراهق يمشي على أربع.. يمشي على أربع كالكلاب، واتجه نحو غرفة مريض سرطـ....»

ثم ابتلعت لسانها لما تذكرت أنه أنا بالذات..

هل تعتقد هذه الحمقاء أنني وأنا الطبيب لا أعرف دائي وأتصور أنها نزلة برد لا أكثر؟!

صبي مراهق؟! وأين ذهب؟

قالت وهي ترتجف:

- «لما صرخت ركض مسرعًا وتوارى في ركن الردهة المظلم البعيد.. كان المشهد لا يصدّق.. هذا شيطان بالتأكيد..»

قالت زميلتها وهي تربت على كتفها:

- «لا عليك يا أختي.. أنت تعرفين أن المكان يعجّ بأرواح الموتى..»

- «أرواح الموتى تبدو كقطط سود ولا تبدو كهذا..»

كنت أنا قد عدت للغرفة..

أغلقت الباب وجلست على طرف الفراش.. شبح صبي مراهق.. هذا الشبح يخصني فعلًا.. هذا ملكي.. أنا أعرف أشباحي بسهولة.

ولكن.. كنت أكلمكم عن شيء آخر منذ دقائق.. ما هو؟.. نسيت..

لا عليكم.. تصبحون على خير..

«أنا أعلم أنه سيأتي يوم أضيع فيه هذه الأرض عن ناظري..

إن الحياة تغادرني في صمت، بعد أن تسدل على عيني الستار الأخير..

ومع هذا فإن النجوم ستلمع ساهرة في الليل، وسيسفر الفجر كما أسفر أمس، وستمتلئ الساعات كما تمتلئ أمواج البحر حاملة اللذات والآلام..»

طاغور

✷ ✷ ✷

جاء أحد عمال المستشفى لي في غرفتي جالبا خطابًا مغلقًا..

كنت منهمكًا في تدوين أحداث (أسطورة الرجال الذين لم يعودوا كذلك).. هكذا وضعت القلم وأمسكت بالخطاب..

جميل.. يبدو أنني صرت من معالم هذا المكان لدرجة أنه عنواني الجديد. أمقت الخطابات طيلة حياتي لأنّها تحمل مصيبة لكن تلقي خطاب في هذا المكان أمر يستحق أن ألقي نظرة..

بيد مرتجفة فتحت الخطاب فوجدته مكتوبا بإنجليزية أنيقة لكن لا أعرف هذا الخط..

«د. إسماعيل:

«عرفت ببالغ الأسى أنك تواجه مضاعفات هذا المرض الوبيل، وقيل لي إنّه انتشر في كل جسدك، وأنك تتلقى جرعات هائلة من المسكنات دون جدوى. بالتأكيد هذا خبر مؤسف. لكن أزعم أن عندي العلاج لك، وهو علاج غير تقليدي كما لك أن تتخيل.. سوف يزول الداء عن كل خلاياك وتعود كما كنت منذ أعوام وأفضل. أنا أضمن لك هذه النتيجة.

«لكن لكل شيء ثمنًا...»

ابتسمت وقلت لنفسي:

- «حسن.. هذه هي لحظة بيع روحي للشيطان.. كان لابد أن تأتي، لكن كيف إذا كانت الشياطين تنتظر موتي وتتسلى بقزقزة اللب والترمس؟.. لن تفسد هذه المتعة على نفسها..»

استطرد الخطاب:

«كلا.. لن تبيع روحك للشيطان. لقد مر أوان عرض كهذا.. أنا أعلم أن لديك كتابًا معينًا تحتفظ به ولا يمكن انتزاعه منك، وبمجرد موتك سوف يفوز بالكتاب شخص معين لا ينتمي لعالمنا. أعرف هذا. لكني أرغب في الحصول على هذا الكتاب هنا والآن..

«العرض كما هو واضح: الكتاب مقابل نجاتك من السرطان. أعرف أنك تحمل روح بطل، وهذا البطل يغريك بأن ترفض. لكني أؤكد لك أنك لن تعيش سوى حياة واحدة، ولا أحد يترك الحياة حيًّا. انتهز الفرصة..

«سوف أزورك في المستشفى غدًا، وأتوقع أن تعطيني الكتاب وتنال الخلاص.

«موعدنا هو الغد..»

رحت أتأمل الخطاب في شرود.. لا يوجد توقيع..

ولا شعوريًا تحسست موضع الكتاب حول خصري. إنّه هنالك..

الخلاص من السرطان ومن الألم. هل هذا وعد حقيقي؟ ولو كان حقيقيًا فهل أقدم على هذه المبادلة الخطرة... هذا كتاب خطير شرير. ومن الوارد أن يقع في أيد غير أمينة..

دعك من أنّ هذا الكتاب هو بوليصة تأميني الوحيدة ضد لوسيفر.. لو لم يعد معي فلسوف ينسفني نسفًا.. لن يقتلني بل سوف يمرح كثيرًا..

- «هناك الزيجول الذي يلتهم طبقات الجلد ثم العضلات ويترك الأعصاب ملتهبة حارقة حتى آخر لحظة.. الريموزا الذي يتم إدخاله في فم الضحيّة.. تتزايد حرارته مع الوقت حتى يتحول إلى نار محمية تشتعل في أحشاء الضحيّة.. هذا موت بطيء يستغرق عدة ساعات.. هناك ديدان الناكاخ

التي تقتحم الرأس من الأنف، وتشق طريقها في جمجمة الضحيّة حتى المخ مدمرة كل شيء تقابله..»

إنّه قريب مني يتشمم كذئب مستعد للهجوم في أي لحظة لو تركت العصا..

لا أحسب أنّ هناك من يقدر على حمايتي منه سوى الله تعالى.. لكن لا يوجد كائن أرضى يستطيع.. إلا بالطبع الكائن الأرضي الذي يقدر على القضاء على هذا السرطان. لو فعل فهو يستحق الكتاب.. لكن كيف أعرف ما لم أعطه الكتاب أولًا؟

من صاحب الخطاب؟

يصعب عليَّ أن أسترجع من خيط ذكرياتي كل هؤلاء الذين يمكن أن يرغبوا في كتاب كهذا.. عشرات الوجوه والقصص والأشخاص.. لا يمكن تذكر أحد، لكن على الأقل يمكن استبعاد من يتكلمون العربيّة.. وهو بالطبع واسع العلم، ويتصل بالكائنات الشيطانية، وهو ليس لوسيفر..

سوف يأتي غدًا...

لن أشغل ذهني أكثر.. عندما ألقاه سوف أتخذ قراري فورًا..

سوف أنام وغدًا أعرف الحقيقة...

في القصة القادمة نستكمل أسطورة الأساطير –

(الجـــزء الثـــاني)

لاحظ أن الكتيب سيحمل الرقم 80 (2)

الفهرس

المقـدمة

تمهيـد

(ر) رسالة من الكينونة

- 1 -

-2-

(ف) في المثلث

- 1 -

- 2 -

- 3 -

(ع) عـزت والنحات

- 1 -

- 2 -

- 3 -

(ت) ترنيمة المزبرة

- 1 -

- 2 -

- 3 -

(أ) أسـرتنا

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

(س) سـر الزنزانة

- 1 -

مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

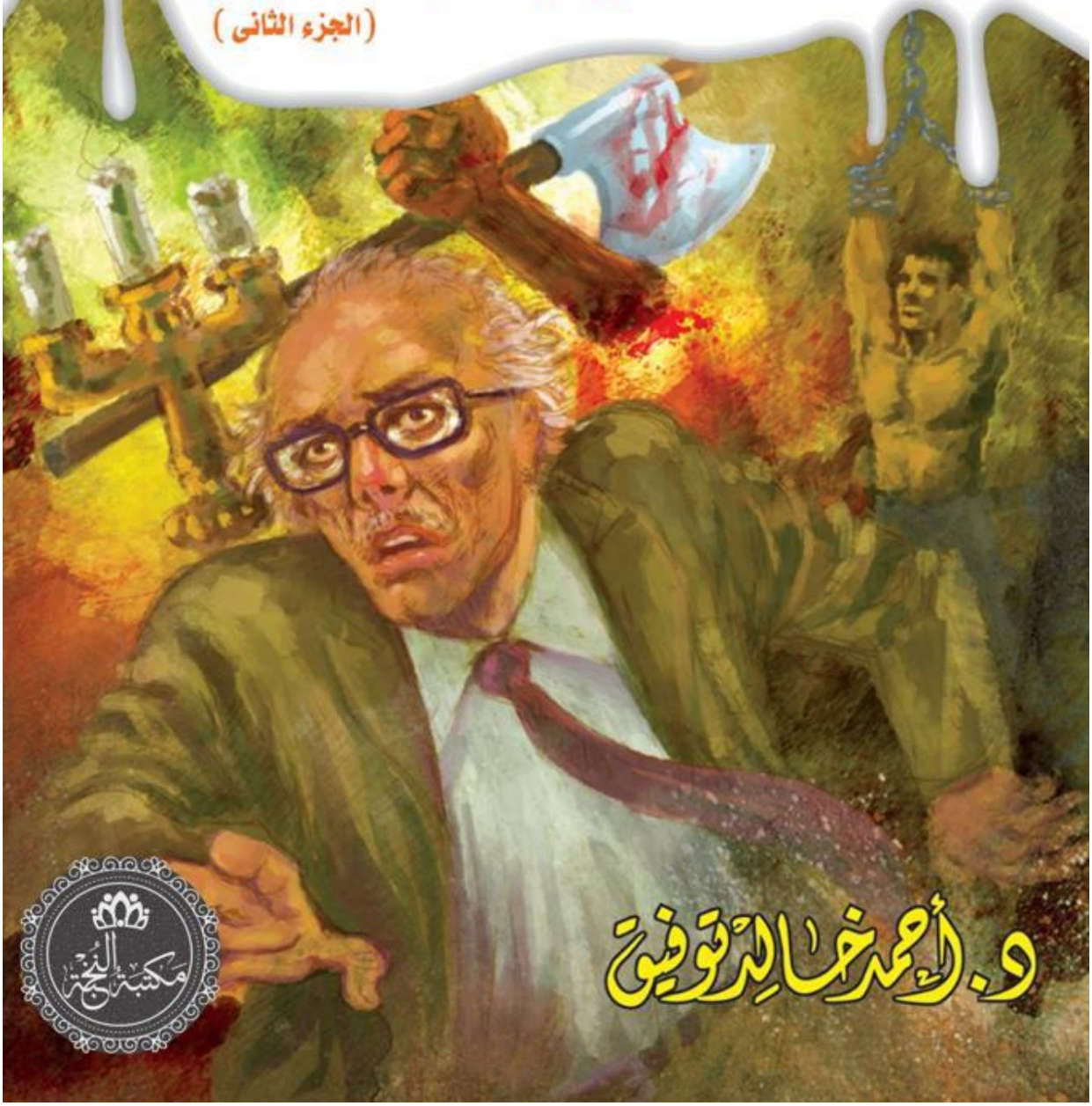


ما وراء الطبيعة

80 (2)

أسطورة الأساطير

(الجزء الثانى)



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة النخبة

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



80 (2)

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة الأساطير

الجزء الثاني

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايـــات تحبـس الأنفـــاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصـرى مائة فى المـائة
لا تشوبه شبه الترجمة أو الاقتباس
أو النقل عن أية قصص أوربية .

●

إشراف
الأستاذ / حمدى مصطفى

●

جميع الحقوق محفوظة للناشر سواء النشر الورقى أو الإلكترونى ، وكل اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر ورقى أو إلكترونى دون الحصول على تصريح كتابى من الناشر يعرض المرتكب للمساءلة القانونية .

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ـ المطابع 8 ، 10 شارع المنطقة الصناعية بالعباسية ـ منافذ البيع 10 ، 16 شارع كامل صدقى الفجالة ـ 4 شارع الإسحاقى : بمنشية البكرى هاتف المطابع : 24677371 ـ 24677183 ـ فاكس : 24677188 .. هاتف الفجالة : 25908455 ـ 25885346 ـ فاكس / 25890401 هاتف روكسى مصر الجديدة 26823792 ـ22586197 فاكس/ 22596650
الإسكندرية 4 شارع بدوى / محرم بك ـ هاتف / 03/4970840 ـ 03/4970850

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط
الغمـــوض والرعـــب والإثارة

80

•

أسطورة الأساطير

(الجـزء الثاني)

بقلم : د . أحمد خـالد توفيق

الغـــلاف بريشـــة : أ . أيمـن القـاضي

المؤسسة
العربيـــة الحديثـــة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

- 1 -

سؤال مصيري:

هل هو سعار في الضياء؟ أم سعار في الفجر؟ أم هو سعار في العتم؟

الإجابة تقرر مصير الكثير من الأشياء..

✷ ✷ ✷

أنت تعرف أنني اجتزت الباب الغامض..

تعرف أنني عبرت النهر الذي تتشابك فوقه أغصان نبات ما، وتسبح فوق مائة ألف جزيرة من ورد النيل. هذا نهر كأي نهر آخر لو كان لون ماء الأنهار أحمر..

انعكاس الوجه في صفحة الماء يذوب.. يتحول لألف صورة تتلوى وتبكي ألمًا، وكأنها أرواح الخطاة تسبح في بركة من الحمم..

تعرف أن المعداوي الذي يشبه (شارون) في الأساطير الإغريقية لم ينطق بحرف. نهر ستيكس.. خطر لي هذا، لكنه بالطبع غير وارد.. خرافات إغريقية كانوا يعتبرونها دينًا فلا محل لها من عالم الواقع.

الزورق يتوقف عند الضفة الأخرى ويهتز..

رائحة العشب المبلل.. رائحة الأرض المحروثة.. رائحة أنفاس البرمائيات وصوت العلاجيم.. رائحة الدم...

أخطو في الماء الأحمر الذي يبلغ ركبتي. أنظر للخلف فلا أرى الزورق ولا المعداوي. أخطو فتتساقط كرات اللهب من أخطو فترتجف الثعابين في جحورها.. أخطو فيثب قلبي مرّتين..

السماء أنا لا أحلم..

أعرف أنني لا أحلم..

كل هذا حقيقي تمامًا مثل وجودي وملمس الماء الأحمر ورائحته..

لقد مت.. لا شك في هذا. كان الانتقال سهلًا إذن، ولم أتألم.... تقريبًا. الموت بطريقة (الآن تراه - الآن لا تراه). أنا اجتزت البوابة ويمكنني أن أقول لك إنها محاولة سهلة.

لكن شيئًا في الأعماق.. شيئًا تحت جلد رأسي وبين خلايا مخي، كان يصارحني بالحقيقة: أنت لم تمت.. ليس هذا هو العالم الآخر. ليست هذه هي الأرض التي تكلّم عنها الفلاسفة والشعراء وآمن بها الأنبياء. أنت تعرف أنّ هذا ليس العالم الآخر. أنت ما زلت حيًّا يا صاحبي.

إذن أين أنا؟... الإجابة واضحة: لا أدري..

مشيت ومشيت شاعرًا أن ما تحت قدمي ليس أرضًا بل هو إلى القطن الأبيض أقرب. طراوة تراودك عن نفسك.. طراوة كآلاف أذرع مخملية لعذارى من عوالم الحلم. طراوة تغريك بأن ترقد على الأرض وتموت... لكن كيف تموت إن كان هذا هو الموت ذاته؟

أن تذوب لتجد نفسك في إحدى قصائد ت. س. إليوت أو ميلتون.. هذا هو الموقف بالضبط.. هكذا يكون ملمس القصائد تحت القدمين..

هكذا يكون ملمس القصائد تحت القدمين..

ثم سمعت العواء من بعيد..

أنا أعرف عواء المذءوبين وسمعته عشرات المرّات، لكن هذا ليس عواء مذءوب.. إنّه عواء ذئب حقيقي وربما كلب.

استدرت للخلف لأرى فلمحت ذلك الشيء قادمًا نحوي.. يثب فوق الحفر.. خيط رغوي من اللعاب يتطاير من فيه ويطير خلفه. شعر عنقه منتفش وكل شيء يشي بشراسة لا شك فيها وسمعت صوت الببر المغري يقول:

- «استسلم له!.. استسلم حتى لا تطول معاناتك أيها الفاني..»

لوسيفر ينصحني بأن أستسلم، وهذا معناه أن أفعل أي شيء سوى ذلك. عندما أدقق النظر أكثر أدرك أنّ هذا الذي يطاردني هو كلب أحمر اللون.. كلب له لون الدم المؤكسج لو كنت تذكر دروس الأحياء. حجمه يقترب نوعًا من حجم عجل صغير.

الكلب الأحمر.. لقد عرفته من قبل في حياتي وحسبت أنني قهرته، لكنه هنا.. وهو مصر على الظفر بي.

سقطت على الأرض...

جوار أناملي وجدت علبة ثقاب.. هناك جركن من البلاستيك تفوح منه رائحة البنزين. من وضع هذا هنا؟.. وهل من رسالة أوضح وأبلغ؟

تعلقت بجذع الشجرة، وعندما اقترب هذا الشيء المخيف أفرغت السائل عليه. الموت له رائحة البنزين. كاد أن يقضم ساقي لولا أنني تسلقت بسرعة أكثر. من أين أتيت بهذه الرشاقة؟.. يبدو بالفعل أنني تخففت من أعباء الجسد.. اللحظة التي وصفها كل من....

وصفها؟.. لا.. تخيلها الجميع. لم يعد أحد من هناك ليحكي ما رآه.

لكني كنت أعرف أنني حي..

هناك من مكان قصي لا وجود له، دوى الصوت الهادر:

- «أنت ما زلت حيًّا.. لم تأت ساعتك بعد..»

ورأيت ألسنة النار تتمسك بالكلب يعوي ويتلوى جاريًا.. كلب أحمر يحتضر.. مشهد جدير بالكوابيس، لكن من قال إن هذا ليس كابوسًا؟

أراه يركض.. يتواثب، وهو لا ينبح بالطريقة الرفيعة المثيرة للشفقة التي تسمعه من الكلاب المحترقة، لكنه يزأر فترتج الأشجار... يزأر فتهوي الشهب. يزأر فتفنى الأعشاب..

لم تأت ساعتك بعد.. لكنّها اقتربت كثيرًا بالتأكيد..

أرمق غصن الشجرة الغليظ يتحرك.. هذا ثعبان عملاق مغطى بالحراشف، وقد استيقظ الآن معلنًا عن مجيئه، وعن أن اللحظة قد جاءت. لكنه لا يبالي بي ويزحف مبتعدًا...

أنت في أرض الأحلام أيها الفاني.. العالم الذي يتجاوز قوانين الفيزياء والطبيعة. العالم الذي ظل بقربك منذ ولدت. بل هو في ذات الغرفة التي تعيش فيها.. إنّه في فراشك.. لكنه على موجة أخرى فلا ترى من فيه ولا يراك من فيه.. فقط مخلوقات نادرة تقدر على الانتقال بين العالمين. بعض الجان.. بعض الساحرات.. التاليسات.. بنات آوى. أنت لا تعرف التاليسات ومن حسن حظك أنك لا تعرفها. أمّا بنات آوى فبعض البشر يعرف الحقيقة.. أنت تجلس وحيدًا في الصحراء المظلمة، وفي لحظة ترى ابن آوى مقعيًا على الرمال ينظر لك.. بعد لحظة تجده قد اختفى ولا تعرف كيف ولا أين. قليلون يعرفون أنه اجتاز الفجوة وانتقل لعالم آخر..

أنزل من على الشجرة وأبحث حولي في حذر...

يجب أن أجد طريقًا.. طريقًا يقود لماذا؟ لا أعرف... لا أبحث عن أحد ولا أعرف لي وجهة في أرض كهذه.. الشرق الغرب الشمال الجنوب.. كلها تتساوي.. لا خطر أفر منه أو ملجأ أفر له... أنا ذرة غبار تتقاذفها العواصف، مع فارق بسيط هو أن ذرة الغبار تدرك أنها تنتمي للأرض.

عندما مشيت بضع خطوات وجدت بلطة..

بلطة قصيرة يبدو أن حطابًا محترفًا كان يستعملها.. لا أعرف ما هي لكن من الجلي أنها تصلح سلاحًا ممتازًا... هذا عالم غامض غريب فيه بلطات.. إذن عندما تجد واحدة فلابد أن تأخذها. لا

يوجد مزاح هنا...

سوف أمشي بلا وجهة ما.. ربما أجد ثغرة تقودني لعالم الأحياء الذي أعرفه..

✷ ✷ ✷

كاتي ديد... كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد.. كاتي ديد..

✷ ✷ ✷

كنت هناك راقدًا في المستشفى عندما جاءت ماجي، ويبدو أنها كانت جالسة في الردهة تطالع كتابًا ما.. كانت مرهقة محمرة العينين، وحالها - إذا سمحت لي بالتعبير العامي الصادم - (زي الطين)، لكنّها تبتسم ابتسامة مشرقة نضرة رسمتها رسمًا.. قالت لي:

- «هل نمت جيدًا؟»

لا أذكر أنني نمت جيدًا وهذا معناه - على الأرجح - أنني نمت جيدًا فعلًا. أفضل النوم هو الذي لا تذكر بعده كيف نمت هززت رأسي أن نعم واعتدلت في الفراش.

فتحت الستائر ليتسلل الضوء الخافت الواهن المميز للعصر إلى الغرفة، ونظرت من حولي.. دورق الماء.. علبة الدواء العوينات... أزهار في دورق صغير.. الجريدة.. جديرة بفنان تأثيري خاصة في هذ الضوء الشاحب، وهي جديرة بأن يكون اسمها (الاحتضار).

«ونظارتاه.. أيسلو الزجاج عيونًا أشف من المغرب؟»

بيت شعر لنزار قباني بعد موت أبيه مشهد العوينات الموضوعة على الكومود يقول أشياء كثيرة.

لوحة كنت أفكر في عمق هناك أشياء مهمّة جدًّا تتعلق بالأمسية السابقة، لكني لا أذكر حرفًا.. كلام كثير عن خطاب وصفقة و... لكن ما هي التفاصيل؟

قالت لي وهي تجلس إلى طرف الفراش:

- «هناك ضيف غربي ينتظرك في الخارج...»

- «غربي؟»

قالت باسمة:

- «ليس غربيًا بالضبط.. له طابع شرق أوروبا بوضوح..»

لوسيفر!

هل جاء كي يتشفى في، أو يعرض صفقته الأخيرة؟ ليس هذا ما اعتقدت أنه مسار الأمور. هو يعرف أنني سأموت وسوف يكون الكتاب له في ذات اللحظة..

قلت لها في توجس:

- «يلبس ثيابًا سودًا تمامًا واسمه دكتور.....»

قالت تكمل كلامي:

- «ميلفسكو.. د. ميخائيل ميلفسكو.. هذا ما قاله..»

أذكر هذا الاسم.. ما زالت ذاكرتي تعمل جيدًا أغلب الوقت. صحيح أنها تتلف كثيرًا وتمحي كثيرًا لكني أعرف الرجل وأعرف التجربة..

ساحر روماني وعدني بالشباب منذ أعوام، ولم أدر أنه زرع جعرانًا فرعونيًا تحت جلدي. النتيجة هي أنني ظللت أصغر وأتراجع في العمر... صرت أكثر شبابًا ثم أكثر نزقا ثم أكثر طفولة وسخفًا، حتى جاءت مرحلة تغيير الكافولة التي قام بها أستاذ في الفلسفة هي كاميليا..

عرفته بفضل سام كولبي. وسام كولبي قد رحل للأبد إلى عالم آخر بلا آلام بروستاتا.. من يدري؟.. لربما كان ينتظرني هناك...

اليوم بعد أعوام يعود د. ميلفسكو.. ليس من الصعب أن أستنتج من كتب لي خطاب أمس.

- «أين هو؟»

- «ينتظرك في الاستراحة. لو شئت أن آتي به هنا..»

لكني لم أحب أن يدخل محراب الموت الخاص بي.. لا أريد للمحراب أن يتدنس...

هكذا وضعت الروب على كتفي، وتوكأت على ماجي وخرجنا للممشى.

رأيت الجسد الضخم الجالس على مقعد وتذكرته على الفور. لم يكن ضخمًا في الحقيقة لكن وجهه كبير جدًّا.. أي أنك تكمل الصورة في ذهنك فتفترض أن صاحب هذا الوجه لابد أنه في حجم كينج كونج.. لكنك تكتشف أنه ليس عملاقًا بشكل خاص لو كان جسده أصغر من هذا لاستحق لقب القميء..

هو نفسه... نفس الوجه الذي قابلته في نيويورك في ذلك... اليوم..

أحاطت كفه الغليظة المكتنزة بكفى وقال بطريقته الإنجليزية الرومانية المميزة:

- «يا للسماء.. أنت فقدت الكثير من الوزن..»

قلت باسمًا وأنا أتهيأ للجلوس:

- «أفعل كل شيء بذمة وأمانة.. عندما أصاب بالسرطان فأنا أصاب به جدًّا.. ليس كهؤلاء الأشخاص المتوردين المرحين الذين يزعمون أنهم مصابون بالسرطان.. أرى هذا شيئًا رقيعًا!»

لم يفهم طريقتي في المزاح.. فقط أبدى تعاطفًا واضحًا..

وعندما جلست أمامه نظرت لماجي طالبًا أن تسمح لنا بالانفراد، فهزت رأسها وابتعدت وقد بدا عليها الشك.. ثمّة لعب عفن هنا كما لابد أنها تقول لنفسها...

ساد صمت ثقيل.. كنت أجاهد كي أجد أنفاسي وسط رياح عطره الخانق. لابد أنهم يصنعون العطور الرومانية من الجثث المتحللة.. جثث الكلاب طبعًا.. ثم قلت له:

- «لا تقل إنك جئت خصيصًا لمصر من أجلي. كل هذه المسافة...»

قال وعيناه لا تفارقان وجهي:

- «بالفعل.. الأنباء في عوالم السحرة تنتقل بسرعة.. كلهم يقولون: إنك موشك على الموت.. اسمك قد ذكر في كل بلورة سحرية وكل أوراق تاروت وجلسة استحضار أرواح في العالم مؤخرًا..»

- «هل أنا مهم لهذا الحد؟»

قال ببساطة:

- «لا قيمة لك على الإطلاق.. أنت جناح بعوضة لا أكثر لكن ذلك الكتاب الذي تربطه إلى جسدك هو ما يريده الجميع..»

وضعت ساقًا على ساق ورحت أرمق الخف المتدلي متأرجحًا وقلت:

- «سوف أموت. وعندها يفوز به من يريد.. لا أعرف سر هذا التعقيد..»

قال د. ميلفسكو:

- «لن يكون الأمر سهلًا... قوى الظلام تنتظر كي تحصل على الكتاب.. لن تسمح لأي بشري فان بأن يحصل عليه.. أمثالي سيصيرون غبارًا تذروه الريح لو حاولوا... لا يوجد حل لي سوى أن تعطيني الكتاب بكامل إرادتك... هذا سيجعلني منيعًا ولن يستطيع سادة جانب النجوم أن يظفروا به.. لوسيفر لن يمس شعرة من رأسي..»

- «ورأسي أنا؟»..

ضحك واهتز كرشة العملاق قليلًا وسعل ثم قال:

- «لن يمس أحد شعرة من رأسك.. أنت ورقة انتهت.. عندما أكون في سهول رومانيا أمارس صيد الأرانب فأنا لا أبدد رصاص بندقيتي لاصطياد أرنب يحتضر بالفعل...»

- «أنت تتجاهل نزعة مهمّة في الحياة: السادية.. هناك من يحبّ أن يركل هذا الأرنب ويمزقه وهو ما زال حيًّا..»

- «لا أعتقد.. إن السرطان يحمل لك آلامًا هائلة، ومن يملك بعض السادية سيفضل أن يتركك له.. إنّه ينهي أمرك بشكل أفضل..»

محادثة مبهجة باسمة جدًّا كما ترى..

قال د. ميلفسكو وهو يُطلق المزيد من العطر الروماني اللعين:

- «الكتاب.. وسوف تنجو....»

- «أنجو؟»

- «نعم.. لديَّ القدرة على نزع السرطان من جسدك.. سوف تقهره.. أنت تعرف أنني أستطيع..»

يستطيع.. هذا صحيح.....

قلت ساخرًا على سبيل المشاكسة لا أكثر:

- «آخر مرة جربت معي جعرانًا فرعونيًا تحت الجلد..»

- «ونجح.. أعتقد أنه كان ناجحًا أكثر من اللازم في الواقع لكنك الآن تفهم ما أنا قادر عليه...»

- «وهل لي أن أعرف لمحة عن الطريقة؟»

اهتزّ لغده العملاق في ضحكة مكتومة وقال:

- «يمكنني أن أخبرك بالأمر. فلا أحد سواي يمكنه أن يجرب هذه الطريقة..».

وفي اللحظات التالية شرح لي طريقة المعالجة التي ينتويها.. بدا لي الأمر ممكنًا فعلًا. ثمّة نوع من المنطق في طريقته. لم لا؟... ماذا يهمني من ذلك الكتاب اللعين؟.. هو ليس كرامتي ولا شرفي ولا ديني ولا مبادئي. كتاب يخص الشياطين ترغب فيه الشياطين.. فلتأخذه!

ماذا يهمني؟.. ولماذا أتعذب وأتلوى ألمًا من أجل شيء لا يهمني؟

وهكذا وافقت..

وهكذا حددنا مساء اليوم لنبدأ العلاج في غرفتي..

✷ ✷ ✷

تمضـي الحيــاة وكلنـا في دربهـا .. ونغيب عنهـــا.. والخـطـى لا تندثـرْ
من قبلنـا يمشي الألـى جاءوا بنـا .. مـــن بعـــدنـا يفنـى ملاييـــن البشرْ
فاسمع صرير الريح تبكي حولنا .. واسمع صدى الأشباح تعوي في سقرْ

- 1 -

أنت في زانادو أيها المحارب حيث تفنى الحقائق وتحيا الأحلام..

✷ ✷ ✷

- «يا (ماري الدموية).. أنا قتلت أطفالك!»

✷ ✷ ✷

كل بلدة في العالم لها أشباحها الخاصّة بها.. هناك أكثر من بناية مسكونة في الإسكندرية، وهناك قصص قوية عن قصر البارون في مصر الجديدة. أنا زرت قصر البارون وأعترف أنني لم أر شيئًا غريبًا، لكنه بالتأكيد يحوي طاقة نفسية هائلة.. طاقة يُمكنك أن تشعر بها، وهي الطاقة التي رأى بعض العلماء أنها شحنات إستاتيكية ناجمة عن المياه الجوفية تحت المكان..

في إنجلترا أتيحت لي فرصة ممتازة كي أزور أكثر الأماكن ازدحامًا بالأشباح في العالم. كان هذا هو بيت بورلي Borley Rectory.. وقد تم تشييده عام 1862..

كنت أقيم في أحد فنادق لندن في السبعينيات منهمكًا في أشياء كثيرة، عندما تلقّيت خطابًا ممن يدعى (تريفور هول)...

قال في الخطاب:

«عرفنا بوجودك في لندن، وإنه ليسرنا أن تنضم لنا في البحث عن سر بيت بورلي. لو كنت قد سمعت الاسم فأنت تعرف أنّ هناك علامات استفهام عظيمة تدور حوله. أمّا من نحن، فنحن نمثل جمعية البحوث الروحانية SPR. هناك من يعتبرون هذا المكان يعجّ بالأشباح، وهناك من يعتبرون القصة كلها كذبة عظيمة. نحن بحاجة إلى شهود وإلى خبير مثلك يكون معنا في هذا التحقيق. كل النتائج سوف تنشر في المجلة التي نصدرها ثم ننقلها للصحافة. في حالة موافقتك نرجو الرد على هذا الخطاب. وسوف تصل سيارة لنقلك إلى البيت المذكور.. سوف نمضي يومًا واحدًا هناك وبعدها نقدم تقريرنا. سنكون معًا فلا مجال للكلام عن قضاء الليل وحيدًا مع شمعة وكل هذا الهراء..»

قرأت الرسالة عدة مرات، وكنت في ذلك الوقت شابًا راغبًا في تجربة كل شيء... لذا كتبت موافقتي. لم تكن هناك شبكة إنترنت لذا كان من الصعب جدًّا أن تعرف ما هي SPR هذه ولا نشاطها.

على كل حال كل ما لا يقتلني يقويني، وأنا لا أعتقد أن تجربة كهذه ستكون قاتلة.. أنا أؤمن على كل حال أنّ هذه التجارب تثري وجدانك.. سواء كانت كاذبة أم صحيحة فهي تنقل لك خبرات جمعية مهمّة.

وفي المساء، وبعد ما اعتذرت عن باقي مواعيد اليوم وقفت على باب الفندق في ذلك الشارع الضيق الذي يشبه معظم شوارع لندن الكلاسية. معي حقيبة صغيرة فيها لوازمي لليلة واحدة.

وصلت السيارة.. وفي الظلام لم أتبين وجه من فيها جيدًا لكني ميزت وجه رجل له ملامح وقور هادئة وقال:

- «د. إسماعيل كما لي أن أفترض؟»

الطريقة البريطانية الشهيرة، كما حدث عندما قابل ستانلي ليفنجستون في مجاهل أفريقيا فقال له العبارة الباردة ذاتها.. هززت رأسي أن نعم.

قال وهو يفتح لي الباب:

- «أنا جيسون.. من الجمعية..»

بعد ربع ساعة من القيادة توقفت السيارة جوار متنزه عام مظلم، ولحق بنا فيها ثلاثة رجال مغمورين بالظلام.. عرفت أن الأول يدعي هاري برايس. وهو رجل أشيب يضع نظارة سميكة ويرمقني في شك. حياني وأدركت أنه يزنني بعينيه. هل أصلح؟.. أم أنا سأزيد الطين بلة؟ الرجل الثاني يدعى إريك دنجوول قال إنّه سكرتير الجمعية.

فيما بعد عرفت أن برايس باحث روحاني اهتم كثيرًا ببيت بورلي وقضى عدة ليال فيه، ثم كتب عدة مقالات عن الظواهر الغامضة هناك. يرى كثيرون أن ما حكاه ملفق وأنه لم ير شيئًا غريبًا أمّا دنجوول فقد أجري تحقيقًا مطولًا حول ما حكاه برايس!

على كل حال انطلقت السيارة، وفي الطريق راح هاري برايس يحكي لي قصة ذلك المكان:

- «بيت بورلي هو مركز الكثير من الحكايات المرعبة.. يقولون إنّه أكثر الأماكن ازدحامًا بالأشباح في العالم. يُقال إنّه قد بُني فوق دير قديم اسمه (دير بندكت) بُني بدوره عام 1362.. وأنّ هناك امرأة مدفونة في الجدران..»

ثم ناولني لفافة تبغ، ونفث سحابة كثيفة من الدخان خارج النافذة وقال:

- «تكررت قصص رؤية الأشباح في هذا البيت.. هناك أصوات خطوات سمعها الكثيرون عام 1863.. بعد هذا رأى كثيرون شبح امرأة على بعد من البيت كأنها تجول حوله. بعد هذا تكثر القصص المحيرة.. عربة يقودها سائق بلا رأس تدور حول البيت.. إلخ... في ذلك الوقت كان صاحب البيت يدعي (هنري داوسون)..»

لم أر شيئًا غريبًا في هذا.. لقد قضيت حياتي وسط الأشباح فلم يعد شيء يثير دهشتي.. قد يكون هذا البيت مسكونًا فله احترامي، وقد لا يكون مسكونًا فله حبي.. لكن لا يمكن أن يلفت نظري سوى وجود شيء غير معتاد.. هل تعرف ما هو غير المعتاد؟ الكثرة.. كثرة الأشباح التي يحكون عنها.. المكان المسكون المحترم يحوي شبحين أو ثلاثة، لكنهم يتحدثون عن أتوبيس من أتوبيسات القاهرة..

الحقيقة أنني لم أتحمل قط فكرة أن يوجد مكان مسكون لهذه الدرجة ولا أراه... يومًا ما سأحكي للرفاق في ليالي الشتاء:

- «أنا زرت بيت بورلي و.. إلخ.. إلخ...»

وسوف يرمقونني بإعجاب...

- «مات هنري مالك البيت..»

واصل هاري برايس الكلام:

- «المالك الجديد للمنزل وجدت زوجته لفافة أوراق في خزانة.. اللفافة فيها جمجمة فتاة شابة. بالإضافة لذلك هناك أصوات أجراس وخطوات.. دائمًا الخطوات.. دائمًا الأضواء هناك دقات من خلف المرايا.. كأن هناك روحًا حبيسة.. طبعًا لا داعي لذكر أن المالك الجديد قد رحل وجاء بعده مالك آخر.. وهذا المالك قد لاحظ تطاير أحجار من النوافذ، وكتابة على الجدران.. الزوجة المالكة الجديدة حُبست في غرفة لفترة طويلة وراحت قوى خفية ترميها في كل اتجاه في الغرفة. هذه الحوادث نشرت كلها في جريدة دايلي ميرور وسال لها لعاب كثيرين...»

كان يتكلم ومن بعيد رأيت البيت العتيق جاثمًا في الظلام....

عرفته على الفور بالطريقة التي تعرف بها أنت شرير الفيلم عندما تراه في فيلم تجهل لغته...

قال برايس بلهجة درامية:

- «هذا هو بيت بورلي... مرحبًا بك..»

- 2 -

عندما اقتربنا وجدت أن الظلام قد خدعني..

كان بيتًا ريفيًّا جميلًا، يذكرك بلص أمسكه رجال الشرطة فوجدته أنت وديعًا رقيقًا لا يتمشى مظهره مع هذه الاتهامات...

فتح أحدهم الباب بمفتاح معه مما أثار دهشتي. قال وهو يفسح لي الطريق لأدخل:

- «استأجرنا البيت لمدّة عام كامل... هناك أكثر من ثمانين متطوعًا سوف يجرب المبيت هنا.. تجربتنا هذه ليست سوى واحد على عشرين من التجارب التي ننوي عملها..»

لم تكن هناك كهرباء بالداخل.. هذا متوقّع طبعًا بعد هذ الأعوام.. الأشباح لا تدفع الفواتير... لابد من الشموع كما يحدث في أي بيت مسكون يحترم نفسه. الكثير من السجاجيد المغبرة.. الكثير من العنكبوت.. كل الأبواب تحدث صريرًا مما يذكرك بالعبارة القديمة: كل قصص البيوت المسكونة يمكن أن تنتهي لو وجدت علبة زيت جيدة!

أشعل برايس شمعدانًا وأشعل إريك دنجوول شمعدانًا آخر..

انتشرت دائرة الضوء وهزمت الظلال... ضوء متراقص يثير الهلع في النفوس. كم من مرة قرأت هذا الموقف؟ في قصة (الغرفة الحمراء) لـ هـ. ج. ويلز كاد البطل يجن بسبب الشموع.. لعبة الشموع المنطفئة القاسية جدًّا...

هناك ألف قصة في الأدب الغربي عن رجل يمضي ليلته وحيدًا في بيت مسكون هذه قصص مخيفة لكن بشرط أن تقرأها وأنت وحيد ليلًا.. عندما تقرؤها في ضوء الشمس تبدو سخيفة جدًّا. إنها كالشموع لا تأثير لها إلا في الظلام...

قام زميلنا الثالث بتوزيع بعض المقاعد، ثم دعانا للجلوس ووضع الشمعدان في منتصف المنضدة. قال لي برايس:

- «ننتظر هنا.. نحن في مدخل البيت.. أي صوت أو حركة ستكون كافية..»

دائمًا تأتي الأصوات من الطابق العلوي.. تسمع شيئًا يتحرك فتهرع هناك.. يتهشم الدرج الخشبي المتهالك تحت قدمك فتسقط.. إلخ... هذه تقاليد قصص الأشباح..

أخرج دنجوول رزمة من أوراق اللعب، وقام بتفنيطها ببراعة المقامرين، ثم قال:

- «على سبيل تزجية الوقت.. هل ترون أن نلعب البوكر؟»

رآني أفكر بعمق فقال مرغّبًا:

- «سوف نسهر حتى الصباح.. صدقني لابد من طريقة لإضاعة الوقت..»

قلت في ارتباك:

- «لا أعرف كيف ألعب البوكر. هناك لعبة مصرية اسمها (الشايب) ولعبة اخرى اسمها (الكومي).. لا أعرف سواهما ويمكن أن أعلمهما لكم..»

لم تبد عليهم الحماسة.. هؤلاء القوم لا يحبون تعلم الجديد مع أنني أراهن على أن شخصًا سيقع في غرام الكومي فورًا.. هكذا تركتهم يلعبون وأنا أسمع مصطلحات اللعب الغريبة (كاريه آس).. (كنت فلوش)... إلخ.

كانت هناك حقيبة جلبها دنجوول.. فتحتها فوجدت بعض الشطائر وترموس به شاي.. هكذا انقضضت ألتهم شطيرة محاولًا أن أترك لهم ما يأكلون..

كنا في دائرة الضوء المتراقص.. من حولنا يشحب كل شيء ويسود ظلام دامس.. لو أن أسدًا جاء من على بعد خمسة أمتار فلن نراه... هذا مقلق..

لا أحب كذلك فكرة أننا جالسون في المركز بالضبط لا يوجد جدار يحمي ظهورنا... نحن في وضع هش جدًّا....

فجأة انتفضت...

هناك صوت خطوات بالفعل.. والخطوات في ركن القاعة التي نحن فيها. ليست بعيدة..

قلت لهم بطريقة درامية ولا تخلو من الهستيريا المطلوبة:

- «هل تسمعون؟ صوت خطوات..»

نهض برايس وأوقد كشافًا صغيرًا ثم مضى يبحث عن مصدر هذا الصوت... بالفعل من المؤكد أنّ هناك خطوات، لكن المشكلة هي أنك لا ترى صاحبها أبدًا. كما ترى خطوات الرجل الخفي على تراب الأرض في الأفلام.

ثم بدأت الدقات.. دقات منتظمة تدفعك إلى الارتباك.. دقات تأتي من لا مكان. كانت هناك أخوات أمريكيات ثلاث في القرن الماضي يجرين جلسات تحضير أرواح، وكانت الدقات هي لغة الكلام. طبعًا تبين بعد هذا أنهن مصابات بالروماتزم المفصلي.. وكن يحدثن الدقات بأصابعهن المدفونة في الحذاء. لكن هذا الصوت الغريب لا يوحي بطقطقة مفاصل.

أخرج برايس جهاز تسجيل وضغط على المفتاح.. ثم قال لي:

- «أنت شاهدي يا دكتور.. أليس كذلك؟... فيما بعد سيقول قائل إن التسجيلات مزيفة. وقتها سأطلب شهادتك..»

قلت باسمًا:

- «بالطبع سأشهد معك لأنني لا أكتم الشهادة أبدًا. سأشهد أنني سمعت دقات وخطوات، لكني لم أر أشباحًا.. ربما كان مصدر هذه الضوضاء شيئًا آخر..»

الرجل الثالث الذي عرفت أن اسمه (مكدوجال) نهض حاملًا جهازًا غريبًا.. يشبه عصا الهوكي نوعًا. بالتأكيد هي من تلك الأجهزة التي تقيس النشاط الروحي.. تقيس الكهرباء الاستاتيكية أو تبحث عن رائحة الاكتوبلازم.. أي شيء..

راح يجوب أركان القاعة وهو يهمهم.. ثم عاد لنا. ومن جديد عاد الرجال يلعبون الورق.

رفعت رأسي إلى الطابق العلوي.. هناك ترابزين سلم يمتد في ردهة طويلة. الترابزين الذي تراه في أفلام رعاة البقر والذي يسقط من فوقه الشرير برصاصة البطل. إن الظلام دامس هناك.. لا يوجد ما يبدده نوعًا سوى اللهب الخافت القادم من حيث جلسنا..

يمكنني أن أرى من يتحرك هناك.. لو شئنا الدقة لقلنا إنها امرأة. امرأة بلا رأس طبعًا... تمشي في تؤدة كأنها تراقبنا من أعلى..

قلت لبرايس في كياسة:

- «أ.. مستر برايس.. هلا نظرت لأعلى؟»

رفع رأسه.. لم تعد المرأة هناك.. لقد اختفت. لا غرابة في هذا فهي أشباح بريطانية من التي تملأ قصص هنري جيمس. تراها بركن العين ولا تحتل مركز الكادر أبدًا... وعندما تنظر لها مباشرة لا تراها...

قلت في ارتباك ما معناه إنني متأكد، فبدا متفهمًا تمامًا هذه أشياء تحدث.. كلنا ذلك الرجل..

نهض مكدوجال من جديد وهو يحمل العصا، وقال إنّه سيفحص الطابق الثاني... وحمل في يده الحرة كشافًا.. ثم اتجه إلى الدرج وراح يصعد بحذر. كلنا يعرف أنّ هذه السلالم تنهار تحت قدميك كأنها من بسكويت. توارى الضوء الذي يحمله بينما ظللنا نحن الثلاثة جالسين....

بعد دقائق قال إريك دنجوول إنّه يريد أن يتفقد الغرف الخلفيّة في هذا البيت. بيت بورلي متسع وبه ألف غرفة كما هو واضح. هكذا نهض بدوره معتمدًا على كشاف صغير في يده هل سمعت صوت ضحكة يأتي من أحد الأركان المظلمة؟ لا أدري فعلًا...

مرت لحظات ثقيلة..

فجأة..

آه ه ه ه ه!

من الطابق العلوي.. مذعورة. كريهة.. طويلة.. أليمة..

صرخ برايس في رعب:

- «مكدوجال!»

ونهض مسرعًا وهو يحمل شمعدانًا... فصرخت فيه أن يأخذ الحذر. لو تعثر فلسوف يهشم ساقه أو على الأقل سوف يسقط الشمعدان ليحرق البيت كله..

من الواضح أنّ هناك كارثة قد أصابت مكدوجال.. لا أحد يصرخ بهذه الطريقة لو كان قد رأى شبحًا..

أمّا أنا فظللت حيث أنا.. من الخطأ أن ينهض اثنان معًا.. يجب أن تكون هناك نقطة ارتكاز بدلًا من أن نتشتت في كل صوب.. يسهل الانفراد بأي واحد منا وقتها، وأنا لم أنس بعد قصة البيت الذي كانت شيراز تنتظرنا فيه..

مرّت دقائق... وأنا أرقب الظلام في وهج الشمعدان الباقي..

للنار أثر مدوخ يدفعك للنعاس فعلًا. أنت تغيب وسط اللهب كأنك ذبابة.. لكني تماسكت برغم إرهاق اليوم. عندما رفعت عيني بدا لي كأن شيئًا لم أره من قبل يوجد في الظلام. مع الوقت بدأت أدرك إن هذا شخص فارع القامة يقف في ثبات في دائرة الظل وينظر لي..

قلت في ثبات نوعًا:

- «من أنت؟»

لم يرد.. فعدت أسأل:

- «ماذا تريد؟»

لم يرد

- «هل أنت مالك البيت السابق؟»

فجأة سمعت صرخة تدوي.. نظرت إلى صاحب الصرخة رأيت دنجوول يحمل الكشاف ويشير لشيءٍ من خلفي. استدرت لأرى ذلك الشيء الذي يهوي ببلطة عليَّ!..

لقد انشغلت في النظر إلى ذلك الرجل في الظلال، فلم أدرك أنّ هناك من ينوي قطع رأسي بالبلطة من الخلف..

أجفلت ووثبت للخلف بينما هوى ذلك الشيء بالبلطة على المنضدة التي أجلس عليها. وصرخ دنجوول من جديد:

- «اهرب ولا تنظر للوراء!»

واندفع يلتحم بذلك الشيء الذي هاجمني بالبلطة... رأيت حربًا عنيفة بين الاثنين، والحقيقة أن شجاعتي تخلت عني فعلًا... لم أعد قادرًا على لعب دور الرجل الشهم.. قبل أن أفكر كانت ساقاي تركضان نحو الباب. ضوء يتراقص من خلفي نظرت فوجدت أن الضربة أسقطت الشمعدان وقد تمسكت النار بالأرضية..

هرعت أفتح الباب وأركض..

كانت هناك سيارة تمر عن بعد فجريت نحوها أستوقفها وكان السائق شابًا بريطانيًّا طويل الشعر يشبه نجوم البيتلز طلبت منه في لهفة أن يقودني إلى أقرب هاتف عمومي. ونظرت من نافذة السيارة إلى البيت المشتعل وهتفت:

- «البؤساء!.. سيموتون حالًا!»

لم يعلق كأنه لم يفهم وانطلق بالسيارة، وأخيرًا بعد خمس دقائق وجدت نفسي أمام كابينة هاتف حمراء من هواتف لندن. دخلت وطلبت رقم المطافئ المدون على الجدار. قلت لهم:

- «بيت بورلي يحترق.. ثلاثة أشخاص هناك!»

- «ماذا؟»

- «بيت بورلي.. لا داعي للأسئلة السخيفة.. أنتم تعرفون المكان..»

ثم وضعت السماعة وعدت إلى الفندق مرتبكًا مفكك الأوصال..

✷ ✷ ✷

في الصباح كانت الإجابات جاهزة بانتظاري كيف يحترق بيت بورلي يا سيدي وهو احترق فعلًا عام 1939 واختفى من على ظهر الأرض عام 1944؟

هؤلاء القوم يمزحون..

لكن شيئًا كهذا لا يمكن أن يختلط على الناس.. عندما تأكدت من المعلومة، وجدت أن مالك البيت الأخير كان يفتح بعض الصناديق، وتسبب في أن يسقط مصباح مشتعل ليحرق كل شيء.. كان هذا عام 1939.. لم تبق من البيت سوى أطلال متهدمة...

لهذا كان سائق السيارة لا يبدي أي فهم لما أقول...

وماذا عن الرجال الذين كانوا معي؟ بحثت في الهاتف عن رقم جمعية البحوث الروحانية SPR.. في النهاية ردّت عليَّ سكرتيرة ملول تتكلم بلهجة الكوكني.

سألتها عن مستر هاري برايس وإريك دنجوول. هل لي أن أكلمهما؟.. قالت في ملل:

- «سيكون هذا صعبًا يا سيدي.. مستر برايس مات عام 1948 وكذلك مستر دنجوول!»!

.....!

بالفعل كان بيت بورلي يعجّ بالأشباح. لو أردت أن ألخص القصة لقلت إنني أمضيت الليل في شبح بيت احترق بالفعل، مع أشباح رجال اكتسبوا صفة ماديّة مؤقتة، لدرجة أنهم يدخنون ويفتحون الأبواب ويلعبون الورق.. هذا هو كل شيء....

لم تكن خبرتي ببيت بورلي بالتفاهة التي توقعتها في البداية...

- 1 -

سمبر كريسيس..

أوت دكريسيس

فيتا ديتستابيليس..

نونك أوبدورات

إتونك كيورات

لودو منتيس آسييم..

✷ ✷ ✷

عند المساء جلست في غرفتي بالمستشفى.. هناك (أنتريه) صغير في ركن المكان بقرب الفراش، وقد جلست إليه أحاول بذراع ترتجف أن أرفع كوبًا من عصير البرتقال إلى ثغري.. ثم تذكرت أنني سأمر بشبه جراحة بعد قليل، فعدلت عن الشرب... المعدة الخالية أكثر أمنًا..

قالت لي ماجي:

- «هل ستجرب هذا حقًّا؟»

قلت وأنا أبتسم بشكل مفتعل:

- «لن أخسر شيئًا...»

- «قضيت حياتك كلها تسخر من هؤلاء المعالجين النصابين...»

- «المشكلة هي أن الرجل برهن عن براعته ذات مرة.. لا يوجد ما يمنع أن ينجح مرّة أخرى..»

سألتني وهي ترمقني في شفقة:

- «هل أنت خائف من الموت فعلًا؟»

قلت في صدق:

- «نعم.. لست متأهبًا لمواجهة ما ينتظرني هناك.. هل تذكرين مونولوج هاملت الشهير عن الخنجر المسلول الذي يمكن أن ينهي كل شيء. لكننا نخاف أن نحلم؟ ثم أنّ هناك عاملًا أخطر وأكثر أهميّة وهو الألم.. أخشى أن تكون نهايتي مصحوبة بكثير من الألم...»

- «لن تتألم..»

- «بل سأتألم.. قالها لي لوسيفر في شغف وقال إنّه سيتلذذ بكل لحظة أتعذب فيها. هذا الشيء يعرف ما يقول..»

ولاحظت في سخرية صامتة أنها لم تنف عني الموت.. فقط نفت عني الموت الأليم، لقد تقدمنا كثيرًا إذن..

بعد نصف ساعة دق الباب..

فتحته ماجي فدخل المعالج الروماني ضخم الرأس.. د. ميخائيل ميلفسكو يدخل وهو يحمل حقيبة صغيرة، ومن خلفه فتاة شقراء نحيلة يبدو أنها غربية. كانت ترتدي بلوزة بيضاء جعلني لسبب ما أشعر كأنها ممرضة..

حيانا الرجل ثم قال وهو يشير لها:

- «مساعدتي إيلين... سوف تقوم بتمريضك..»

كان معي الحق إذن.. إيلين ممرضة ولكن ما دورها؟

قال لي الدكتور الروماني:

- «أريد أن ترقد على الفراش... وسوف أحقنك بدواء منوم..»

كنت أعرف أن الباب موصد ولن تدخل أي ممرضة. لن يرانا أحد.. بالتأكيد لن يقبل المستشفى أن يتم علاج مستقل عن علاجه.. وعلى يد طبيب لا يعرف أحد عنه شيء. ربما ليس طبيبًا أصلًا بل هو معالج روحاني أقرب للنصابين..

قلت له وأنا أنام على الفراش:

- «سأقول لك حقيقة مهمّة... الآنسة ماكيلوب لن تفارق الغرفة.. سوف تراقبك مهما فعلت..»

هزّ رأسه في وقار ونظر لماجي وهز رأسه:

- «تشرفنا.. توقعت هذا بالطبع..»

أضفت باسمًا وأنا أنزع الروب:

- «الكتاب في مكان ما.. لن تأخذه إلا بإرادتي وإلا فلن تجده أبدًا. لا تحاول أن تقتلني إذن... لا تحاول أن تسرقه أثناء غيبوبتي كذلك...»

قال بنفس الهدوء:

- «هذه شروط عادلة.. توقعت مثلها وأكثر.. والآن اسمح لي بأن أجرى الانتقال.. سوف تغيب عن العالم لكنك ستعود لتدرك أنك قد شفيت.. عندها أريد تنفيذ الجزء الخاص بي.. لن تلعب بي بدورك لأني أستطيع أن أشفيك وأستطيع أن أعيد لك الداء...»

كانت ماجي ترتجف هلعًا.. ابتسمت لها مهدئًا مطمئنًا، ثم كشفت عن ساعدي.. جاءت الأخت إيلين وأخرجت محقنًا صغيرًا ودسته في أوردتي الغليظة.. شعرت بشيء بارد ينساب هناك..

لا جدوى... لم أنم...

قال الطبيب الروماني:

- «سوف نزيد الجرعة.. أنت تتعاطى جرعات عالية من المورفين، لهذا صار تخديرك صعبًا..»

زادت الجرعة.. بالفعل رأيت وجه ماجي يترقرق كأنه على صفحة ماء.. ومن موضع ما ظهر أبي يلومني على شيء ما، ثم جاء عادل صديق شبابي يحمل لي قصيدة جميلة قرأها... هل هذه الأجسام الصلبة الخشنة تحت قدمي في البحر هي سرطانات تلتهمها؟ أبكي لكن زوجة خالي مصممة على أن أمشي في البحر. السيجارة الأولى كانت لذيذة.. وكان سرطان الحنجرة شيئًا نقرأ عنه في المجلات... و...

لقد تم الانتقال فعلًا..

✷ ✷ ✷

إيجستاتيم

بوتستايم..

ديزولفيت أت جلاسيم

✷ ✷ ✷

كنت هناك..

أمشي بالبلطة التي وجدتها بين أشجار الغاب الكثيفة، وأدرك بوضوح أنّ بعض هذه الأشجار حي يتنفس... يتصاعد صوت الشهيق والزفير، والبخار يتكاثف على زجاج عويناتي.. الغابة تتنهد.. الغابة تراقبني.. الغابة تعرف..

حقًّا لا أعرف أين أنا.. لكنني موجود فيه بقوّة..

غصن شجرة يتلوى محاولًا أن يمسسني، وأنا أعرف أنها شجرة تمتص الدماء. من علمني هذا؟ لا أعرف. فقط أهوي على الغصن بالبلطة فيصرخ كمن يذبح.. يتهشم ويسقط على العشب ينز دمًا..

هذه النبتة.. كنا نسميها ذيل القط في طفولتنا، ويبدو أنّ هذا مصطلح دقيق جدًّا لأنهّا تتلوى في غنج كأنها ذيول قطط حقيقيّة.

أعبّر الممر بين الأشجار عالمًا أنني أقترب من نهاية الدغل..

كانت تلك القلعة الشامخة قلعة عتيقة الطراز تهدمت جدرانها وتساقطت الحجارة منها. من الواضح أنها صارت مأوى للثعابين والبوم والوطاويط لابد أنها كانت شيئًا رائعًا يومًا ما.

أراه... أرى ذلك الشيء الهلامي المخيف يلتف حولها.. يغلي.. يفور في جشع.. كنا في الوحدات الريفية نسكب ماء الأكسجين على الجروح المتقيحة، فكان الصديد الممزوج بالدم يفور.. يتصاعد منه البخار ويخرج ليسيل أنهارًا على الأرض..

هذا الشيء الهلامي ينتمي لعالم الجروح المتقيحة..

أقف عن بعد أرمق هذا الشيء المقزز، وأحاول أن أتجنب القطرات الثائرة التي تتطاير.. بشكل ما عرفت أنها قاتلة..

كنت أعرف منذ البداية هذا الذي أراه..

أدرك معنى هذه الممسات الملتفة.. وصوت الرغوة الذي يغلي في جشع.. ووش ش ش!..

هذا هو السرطان..

لا شك في هذا..

القلعة هي أنا.. لا شك في ذلك أيضًا...

عليَّ أن أقطع هذه الممسات.. عليَّ أن أحرر القلعة من هذا الوحش البشع..

سوف أهوى بالبلطة على هذه الألسنة، ولكن كيف أمزقها جميعًا..؟ إنها تتكاثر كرؤوس الهيدرا.. وأنا لست هرقل...

هذا الشيء أقوى مني..

السرطان.. لابد من أن أقضي عليه.. سوف يساعدني ميلفسكو. سوف يمنحني سلاحًا أقهره به.. سوف أنتزع هذه الممسات الجاثمة على القلعة...

هناك ممس يلتف حول ساقي ويحاول أن يجذبني.. خذ ساقي كما أخذت حنجرتي.. لا فارق عندي...

سقطت على الأرض.. خيل لي أنني أرى يدًا.. يدًا آدمية مبتورة.. في الواقع هي أقرب ليد تمثال.... لكن الأنسجة طرية تنبض بحياة زالت. هل هذه الممسات فتكت بشخص قبلي في هذا العالم الموازي؟ من أين يتصاعد الدخان؟

أنا متورط.. لا أقدر على الفرار....

✷ ✷ ✷

- «(معات) هنا.. المجد للقادمين من أيونو!»

✷ ✷ ✷

ماجي.. لا تخافي..

أنا أسف.. أسبب لك إزعاجًا ورعبًا طيلة الحياة منذ التقينا أول مرة...

عندما فتحت عيني كنت راقدًا على الفراش، وكنت أرى العالم ضبابيًا بحق.. لكن عندما رفعت رأسي رأيت أنه ما من أحد يعني بي. كنت أنت على الأريكة فاقدة الوعي غائبة كجثة، وقد انهمك ميخائيل ميلفسكو والممرضة في تبليل وجهك بالماء وصفعك.. إلخ..

لم يعد أحد يبالي بي..

نهضت في صعوبة وقلت بصوت واهن:

- «هل هي بخير؟»

المشكلة لو أنها لم تكن بخير، فلن أقدر على عمل شيء لا أستطيع أن أحرك ساقي. ضعيف جدًّا كقط وليد...

قال ميلفسكو وهو يواصل الصفع برفق على الخدين:

- «لا تخف هي فقط لم تتحمل أن تتابع العملية.. كانت أرق مما يجب..»

في النهاية سمعتها تتنحنح.. تفتح عينيها.. لكنّها لم تغير وضعها الراقد على الأريكة..

بدأ الضباب ينقشع عن ذهني، وبدأت عقدة في لساني تنحل.. السؤال الأول هو: ماذا فعلوا بها؟ السؤال الثاني هو: ماذا فعلوا بي لدرجة أن تفقد وعيها؟..

هناك ملاءة على صدري، والملاءة ملوثة بدم أحمر قان لكن لا أشعر ألمًا ولا أحسّ جرحًا... أنا بخير فعلًا.. يمكن أن أقول: إن هذا ليس دمي.

عاد لي ميلفسكو ونزع الملاءة وكورها في كيس من البلاستيك، بينما راحت الممرضة تزيل بقعًا من دم وهمي على وجهي وعنق. قلت له على طريقة الأطباء:

- «هل نجحت الجراحة؟»

- «بالطبع...»

قالت ماجي وهي راقدة على الأريكة:

- «أنا رأيت الأمر يا رفعت.. لقد استطاع أن ينتزع السرطان.. رأيت كتلة اللحم المفزعة في يده وهو ينزعها من رقبتك.. هذا الرجل ليس نصابًا. كان المشهد مروعًا.. فجأة دار رأسي ولا أعرف ما حدث بعدها..»

هذا عجيب.. ثمّة شاهد موثوق به هنا، والأغرب أنها لم تتحمل المشهد.. غالبًا ما تكون المشاهد البشعة حقيقيّة...

الأنسجة.. الممسات.. القلعة..

ثمة رؤيا مخيفة تتراءى من موضع ما. لا أعرف متى ولا أين. هل هو كابوس قديم؟... هل خبرة عشتها في زمن سحيق وأنا آخر؟

كنت أرى السرطان يتوغل في قلعة.. وكنت أدرك أن القلعة هي أنا بالذات..

لكني أشعر براحة جسدية.. هذا أكيد... هل زال السرطان فعلًا؟

قال ميلفسكو عاقدًا ذراعيه على صدره:

- «الآن قد بررت بالجزء الخاص بي.. انتظر الجزء الخاص بك.. أين الكتاب؟»

قلت مشتت الذهن:

- «وكيف أعرف أنك بررت بالجزء الخاص بك فعلًا؟»

- «أنت تشعر براحة وبأن الألم زال. لا تنكرن هذا....»

الواقع أنّ هذا صحيح... هل الإيحاء؟

- «الكتاب من فضلك... الكتاب الذي سبب لك كل معاناة حياتك وجعل لوسيفر يلاحقك عبر القرون..»

هذا الرجل يعرف الكثير فعلًا...

بالطبع لم يكن الكتاب ملتصقًا بجسدي.. الأحمق فقط هو الذي يخضع لجراحة بينما كتاب خطير كهذا ملتصق بجسده... الأحمق هو من يخضع للتخدير بينما أهم كتاب في عالم الشياطين والسحر معه..

ماجي؟.. بالطبع لا.. لم أكن لأقحمك يا ملاكي في لعبة قذرة قاسية مثل هذه.. هذه ألعاب خطرة.. ألعاب لا يلعبها سوى الخاسرين مثلي. لن أعطيك الكتاب لتتحرك كل شياطين سقر خلفك..

قلت له في وهن:

- «الحمام.. الحمام الملحق بالغرفة..»

- «أين؟»

ابتسمت في خبث وقلت:

- «ابحث وسوف تجده...»

نظر لي في حقد... لم يحبّ الدعابات في هذا الوقت بالذات وليس لديه مزاج رائق، لكنه نهض ونظر لي نظرة أخيرة قاسية ثم دلف إلى الحمام..

قالت لي ماجي في رعب:

- «هل ستعطيه إياه فعلًا؟»

- «بالطبع..»

- «هكذا لن تصير لحياتك قيمة عند الراغبين في الكتاب وهم كثر...»

- «سأموت في جميع الظروف.. سأموت بالسرطان لا محالة، بينما ربما أجد فرصة للفرار من سادة جانب النجوم لو شفيت من المرض الوبيل.. سوف أفر وأنا سليم الجسد.. سوف أقاتل وأنا بكامل قواي هناك أمل..»

الصرخة!

أخ!

هذه صرخة شخص ينتزعون أحشاءه وهو حي.....

ماذا يحدث هناك في الحمام؟

- 1 -

ترى هل تألموا؟ إن لم يكونوا قد تألموا فلماذا صرخوا؟

✷ ✷ ✷

كيف كان لها أن تعرف؟

عندما رأت يوهانا عينيه الصافيتين الزرقاوين وضحكته الرقيقة، عرفت أنها وقعت في الحب. إن (هياليمار) قد ظهر في حياتها بشكل غير مسبوق ومذهل..

يوهانا ممرضة سويدية رائعة الجمال تعيش في إحدى ضواحي ستوكهولم. بلاد متقدمة ثرية جدًّا لكنّها باردة كالثلج.. باردة بشكل مجازي وشكل حرفي فعلًا. الجليد يحيط بالبيوت ويحيط بأعصابك وقلبك.. هنا لا يوجد شيء اسمه حب لا يوجد شيء اسمه دفء. يمكن للفتاة بسهولة أن تجد علاقة حيوانية عابرة، وتشارك غريبًا مسكنه أو مسكنها لأيام، لكنهما يعرفان أن كل شيء سينتهي سريعًا.. هكذا تتلخص كل عواطف الدنيا في شهوة عابرة تزول سريعًا..

هكذا كانت يوهانا.. وهكذا كانت حياة يوهانا..

كان هذا أحد أيام يناير. لابد أنه يناير فعلًا.

ابتاعت العشاء لنفسها، ثم عادت بالقطار إلى بيتها الجميل الصغير في الضواحي..

وأولجت المفتاح في باب الشقة بأصابع متجمدة ودخلت وضعت الطعام في الميكروويف.. بدلت ثيابها.. هنا بدأت تتوتر..

أغلقت نور الصالة قبل مغادرة المنزل، فلماذا هو مضاء؟.. هل بلغ بها السهو هذا الحد؟ أم أنّ هناك من أضاء النور فعلًا؟

أمسكت بسكين المطبخ في وضع التهديد، وبدأت تزحف كالثعبان خارجة من مكمنها. هناك وقفت وظهرها للثلاجة وراحت تلهث.. التوتر يقتلها.. دقات قلبها مسموعة لكل من هو أصم..

يوهانا الحسناء في لحظات صعبة..

كل هذا ليس حقيقيًا.. سوف تكتشف بعد قليل أنّ هذا وهم أو كابوس.

لكن هذا كله حقيقي.. إنها ملقاة على الأرض وقد قام أحدهم بلي ذراعها خلف ظهرها، وهناك من يضع نصل سكين على عنقها.. وقد طار السكين الذي كان في يدها...

كان يهمس بما يشبه فحيح الأفعى:

- «هيا.. ستكونين فتاة عاقلة.. لن تصرخي...»

قالت شيئًا على غرار (مممممم).. لكن يدًا حازمة قبضت على شعرها وضربت رأسها في الأرض.. هل (مممم) صرخة؟

كانت تبكي من الذعر.. هذا لا يحدث لها هذا لا يحدث لها حقًّا..

يمكنها أن تدرك أنّ هناك رجلين.. رجلين شرسين تفوح منهما رائحة التبغ والعرق. كان هناك بيت سهل الاقتحام وتصادف أنّ هذا بيتها هي..

لا فرصة أمامها.. إنها كقطة صغيرة في يديهما..

قال الأول وهو يلهث انفعالًا:

- «إنجولف... أبقها حيث هي.. أريد البحث عن طعام في هذا المطبخ..»

- «هيدفيج... هل هذا وقت الأكل؟»

- «الطعام أولًا... ما من جائع يقدر على عمل شيء..»

كانت ترتجف وتبكي... ومن الغريب أن الخاطر الذي يضايقها الآن هو حذاءاهما القذران في مطبخها، والتهام الطعام الذي أعدته لنفسها في الميكروويف.. غريب ما يمارسه المخ البشري من ألعاب. هي موشكة على الموت مع ما هو أسوأ غالبًا، وبرغم هذا عقلها يفكر في الطعام...

لاحظت كذلك في محنتها أن اسميهما غريبان غير معتادين.. الأسماء السويدية غريبة كلها على مسامعنا لكن يجب أن تكون أذنك سويدية كي تميز الأسماء الأغرب. بالنسبة للغربيين لا مشكلة في أن يحمل مصري اسم (حرفوش) لكنه غريب جدًّا بالنسبة للمصري..

سمعت صوت ذلك الرجل يدخل المطبخ، بينما كان المدعو إنجولف يمرر أنامله على شعرها.. يقول بصوت مبحوح:

- «شعرك جميل.. ناعم.. نظيف...»

لو تحركت لمزق النصل عنقها...

فجأة شعرت بأن النصل يبتعد عن عنقها، ولم تفهم ما يحدث إلا عندما سمعت صوت التلفزيون يتهشم. رفعت رأسها في ذعر لتجد أن من هاجمها قد طار ليسقط فوق المنضدة التي عليها

التلفزيون، وسقط أرضًا.. من الغريب أنه لم يبد قويًا كما ادعى.. لقد تهاوى أرضًا كرقاقة ابتلّت بالحساء..

من المطبخ اندفع رجل فظ ضخم الجثة.. استنتجت أنه هيدفيج.. كان يحمل عصا حديدية ويصيح في وحشية، وهوى بالعصا على رجل قوي البنية وسيم يبدو كأبطال القصص المصورة، لكن هذا الأخير تلقف العصا بقوّة ثم مد ساقه ليتعثر هيدفيج، وعلى الفور حمله من كتفيه كأنه كيس غسيل متسخ وطوح به في الجدار.. طاخ!!

هذه المرّة لم تعد هناك تساؤلات كثيرة.. من يرتطم رأسه بالجدار بهذه الطريقة مائت لا محالة.

أخيرًا استطاعت أن ترى منقذها... هذا هو لقاؤها الأول مع (هياليمار). الشاب الذي يبدو كأنه جاء من عالم الأساطير...

هتفت من بين دموعها ورجفتها:

- «من أنت.. من أنتم؟»

قال في رفق:

- «أنا أدعى (هياليمار)... لا شك أنك تعرفين الآن معسكر الأخيار ومعسكر الأشرار.. تعرفين من في صفك ومن ضدك.. لا تخشي شيئًا واعتبري نفسك محظوظة...»

ثم هرع إلى باب الشقة ففتحه.. اندفع الهواء البارد للداخل..

قال لها:

- «اطلبي الشرطة... لقد تسلل هذان وهاجماك.. كنت أنا مارًّا وسمعت صراخك فاقتحمت المكان وفتكت بهما هذا ما حدث فعلًا...»

لا لم يحدث هذا فعلًا.. أرادت أن تقول له ذلك. لم يكن الباب مفتوحًا. فكيف دخلت أنت وكيف دخل هذان؟

كادت تسأله أكثر لكنه مد يده بالهاتف لها، وقال في إلحاح:

- «افعلي ذلك الآن.. أعتقد أن واحدًا منهما على الأقل قد مات..»

كانت في حالة من الضبابية وقد تفككت أفكارها في كل صوب لا تقدر على جمع هذا كله. لكنّها بطريقة ميكانيكية اتصلت بالشرطة..

ما بعد هذا كان شبيهًا بهذيان طويل.. استجواب.. صور تحقيق.. وكان رأي رجال الشرطة أن هذين الوغدين وجدا بيتًا مفتوحًا فاقتحماه... ووجدا امرأة وحيدة فهاجماها.

- «لولا هذا الفتى الشهم لانتهى أمرك..»

تاك.. تاك (شكرًا) أيها الوسيم..

لكنها كانت تدرك يقينًا أن منزلها كان مغلقًا وأنها لم تفتح أي باب أو نافذة.. كيف دخل الجميع؟

كان هذا لقاءها الأول مع المحارب ذي الخوذة..

- 2 -

الآن يذوب الثلج ويسري الدفء في العروق..

الآن صار لكل شيء مذاق مختلف، والحياة أجمل، والأطفال أروع، والغد واعد بكل شيء..

لقد احتل هياليمار كل شيء في حياتها.. الفارس القادم من أساطير الفايكنج القديمة.. بالفعل هياليمار معناها بالسويدية (الفارس ذو الخوذة)..

ألا يبدو غريبًا أن مهاجمها كان اسمه إنجولف ومعناها (ذئب الآلهة)؟.. لقد استطاع الفارس ذو الخوذة أن يذبح ذئب الآلهة كما هو واضح.. وبالطبع انتقل ليعيش في دارها. نحن نتكلم عن السويد هنا طبعًا.. حيث ينظرون للأخلاقيات بشكل مختلف.

سألتني يوهانا إذ جلسنا في تلك الكافتيريا المطلة على الشارع:

- «أنت لا تصدق ما أقول؟»

قلت في هدوء بعد ما أخذت رشفة من القهوة:

- «ليس قبل أن أراه...»

ليس من السهل أن تصدق كل هذا الكلام الفارغ عن الأرض الغارقة.. أنا لم أصدق حرفًا، لكن ما تفسير كل هذا الذي حكته لي وهي ترتجف؟

أولًا هو لم يكن يأكل تقريبًا. هذا شيء مقبول ولربما كان شاعريًا كذلك.. من الجميل أن تلقى الفتاة رجلًا لا يملأ بطنه بالطعام ويتجشأ.. هذا رجل نادر يجب ألا تتركه الفتاة..

- «طريقة ظهوره الدرامية.. ألا تجدها غريبة فعلًا؟»

غريبة بحق.. لكن من أدراني أنه ليس لصًا اختلف مع رفيقيه؟.. إذا تسلل رجلان للبيت فلماذا لا يتسلل رجل ثالث؟.. لماذا لا تتسلل كتيبة من الجيش الصيني؟

وعندما كان يطبخ الطعام معها في مطبخها، وسقطت السكين العملاقة من الرف عموديًا على قدمه لتخترقها وتمزق أنسجتها. هل تذكر ما فعل؟

- «راح يمرر كفه على الجرح البليغ يمرر ويهمس بشيء ما.. وهنا فوجئت أن الجرح قد اختفى تمامًا. سألته عن هذا الذي حدث فقال إنها حيلة قديمة تعلمها. على قدر علمي لا توجد أي حيلة تغلق الجروح!»

كل هذا جميل..

ولكن ماذا عن لعب الورق معها حيث يبدو كأنه يرى كل أوراقها..؟ يقول: إن ذاكرته حديدية.

لم تذهب معه للبحر قط. لكن لو فعلت لذهلت من براعته في السباحة. يسبح كالحيتان أو أفضل..

طيلة الوقت يلمح إلى سر رهيب يخفيه عنها.. ما هو بالضبط؟

معظم حياتها معه كانت تشعر أنه سوبرمان بشكل أو بآخر تذكرت كلارك كنت والصحفية المشاكسة لورا لين.. وكيف كانت تشك في أنه وسوبرمان نفس الشخص.. كل شيء كان يشعرها أن لديه قوى غريبة...

هذا ليس مجرد بشري متميز.. هذا كائن آخر...

✷ ✷ ✷

في في فو فام!

✷ ✷ ✷

ثم جاءت الطامة الكبرى عندما كان يأخذ حمامًا..

تأخر كثيرًا بالداخل، فظلت تنتظر ثم أنها نادته في رفق.. لم يرد.

رفعت صوتها أكثر فلم يرد..

هكذا أزاحت الباب الزجاجي المنزلق..

كان نائمًا أو ميتًا.. راقدًا في مغطس الحمام، ووجهه بالكامل وأنفه تحت مستوى الماء لا توجد فقاعات تتصاعد من منخريه..

كاد قلبها يتوقف.. لقد مات سمعت كثيرًا عن الحوادث المماثلة.

صرخت ومدت يدها تحيط بعنقه، هنا انتفض.. نهض فاتحًا عينيه وجلس في المغطس....

وثبت للخلف مترًا بينما هو ينهض من المغطس فاتحًا كفه بما معناه (اسمعيني - أولًا - ليس - الأمر - كما - تظنين).. الماء يسيل من جسده كأنه وحش بحري أفاق فجأة...

صرخت في هستيريا:

- «أنت لست كائنًا بشريًا!... من أنت؟.. ما أنت؟».

- «أنا هياليمار الذي تحبينه...»

- «بل أنت الشيطان!»

وقف أمامها.. لف خصره بالمنشفة ثم أطرق للأرض بينما الماء يقطر منه، وقال:

- «لست الشيطان. تأكدي من هذا.. وإن كنت أعترف أنني أتمنى لو كنت بذكائه وحيطته.. لقد تصرفت بحماقة..»

- «إذن؟»

أخذ شهيقًا عميقًا ثم قال:

- «هل سمعت عن الأطلنطس؟»:

✷ ✷ ✷

واحسرتاه على حبيب.. قد سلاني للأبد

لما حرقت أنا البخور.. عليه لم يحزن أحد

✷ ✷ ✷

في ذلك الوقت كنت في هلسنكي، في بعثة قصيرة من بعثات ما بعد الدكتوراه بوحدة أمراض الدم بكلية الطبHelsingfors universitet، وقد كسبت أصدقاء كثيرين هنا، فهم قوم ظرفاء برغم انطباع البرود الذي تشعر به لأول مرة معهم. لكن سمعتي كطارد أشباح هاو تسربت إلى الناس هنا.. طلبوا مني ضاحكين تقديم محاضرة قصيرة عن خبراتي في عالم ما وراء الطبيعة. لم تكن محاضرة بالضبط بل هي أقرب إلى دعابة طريفة، وقد ألقيتها في قاعة الاستماع بالمستشفى وأعتقد أنها كانت مسلية وتلقيت ألف (تاك).. لكن دعني أقل لك إنهم لم يصدقوا حرفًا...

يوهانا كانت هناك وسط الجلوس، وكانت تجيد الإنجليزية لذا سمعت كل حكاياتي عن الزومبي ومصاصي الدماء والفجوات بين عالمين و... و...

هكذا حزمت أمرها..

بعد انتهاء المحاضرة اقتربت مني وقدمت لي نفسها وطلبت أن نجلس في كافتيريا قريبة..

ولديها مشكلة... لديها أسئلة.. لديها حيرة لا تنتهي..

هياليمار.. من هو؟ هكذا سردت عليَّ القصة التي سمعتها أنت.. قالت لي:

- «كان هذا أحد أيام يناير. لابد أنه يناير فعلًا.. بلا بلا بلا.. رجل قوي البنية وسيم يبدو كأبطال القصص المصورة إلخ إلخ..... وقال لي: هل سمعت عن الأطلنطس؟»

هناك في المقهى كنت أحتسي القهوة وأنظر لعينيها الواسعتين وأفكّر..

بدت لي القصة عجيبة جدًّا.. عسير أن تصدقها إن موضوع الأطلنطس محبب لديَّ كتاب الخيال العلمي، لكنك لا تلقى كل يوم من يزعم أنه جاء من أطلنطس..

الاحتمالات:

1 - الفتاة حمقاء.

2 - الفتاة كذوب.

3 - الرجل كذوب وهذه دعابة قاسية.

4 - كل هذا حقيقي وأنا لا أفقه شيئًا.

لو كانت الأطلنطس خدعة كبرى فإن ذنبنا يقع على رأس (أفلاطون) الذي وصف تلك القارة عام 350 قبل الميلاد، قال إن يونانيًا عظيمًا اسمه (سولون) زار مصر، وعرف من الكهنة هناك قصة هذه القارة لقد وصف لنا كم كانت الأطلنطس ثرية متقدمة قوية عسكريًا، وكيف سيطرت يومًا على أوروبا كلها. وقال: إن الشعب الوحيد الذي هزمها كان اليونان.. ثم بعد الهزيمة - ولأن المصائب لا تأتي فرادى - حدث زلزال أو شيء ما وغاصت أطلنطس في المحيط.. وقد استشهد الرجل بكلام الكهنة المصريين الذين عاشوا قبله بمائتي عام. الحق أن (أفلاطون) وصف أطلنطس بالتفصيل الممل قال: إنها مليئة بقنوات الماء وفيها نظام ري متكامل يسمح لأهلها بجني محصولين في العام هناك نقطة ضعف في هذه القصة لأن الفراعنة كانوا ثرثارين يحكون عن كل شيء. فلماذا لم نجد سيرة أطلنطس فيما بقي من نقوشهم وآثارهم؟

هناك من قالوا: إنّه لم يحدث زلزال ولكنّه استخدام قوتها بشكل خطأ.. وهناك من قالوا: إن السبب هو التحلل الأخلاقي.. بهذا يكون ما حل بها شبيهًا بما حل بـ (سدوم) و(عمورية). لا أعرف كيف يؤدي التحلل الأخلاقي لفناء قارة لكن هذا ما قالوه. على كل حال يقول (مارسلوس) إن الناجين من أطلنطس فروا إلى غرب أوروبا..

نسي العالم الأسطورة حتى العام 1882 حينما ظهر كتاب (أطلنطس.. العالم الموغل في القدم)، كتبه أمريكي عضو سابق في الكونجرس اسمه (إجناتيوس دونلي).. وقد ملأ الكتاب بالهراء على غرار أن أطلنطس كانت مكان جنة عدن!.. وإن أهلها أول من ابتكر الحروف الأبجدية. بل زعم أن ملوك أطلنطس هم الذين اتخذتهم الشعوب القديمة آلهة. وما زال بعض الناس يعتقدون أن الإنسانية بلغت الكمال في ذلك العهد ثم انحدرت إلى ما نحن فيه.

نصابة أخرى اسمها (هيلينا بلافاتسكي) أعلنت أن أهل أطلنطس جاءوا من قارة أخرى هي (ليموريا).. وزعمت أنها عرفت هذه المعلومات من كتاب مخفي في التبت اسمه (كتاب ديزان).

مؤخرًا أعلن خبير روحاني اسمه (إدجار كليس) أنه دخل السجلات الأكاشية وزار أطلنطس.. وقال: إنها انهارت بسبب انفجار ذري، وحدد موقعها قرب جزر البهاما.

أغلب الظن أن أطلنطس كانت في المحيط الأطلنطي فعلًا. قال أفلاطون: إنها كانت موجودة في المحيط الأطلنطي غربي أعمدة هرقل.. بلغتنا الحالية نقول إنّه كان يتكلم عن مضيق جبل طارق.. أنت تعرف أن الإغريق كانوا يعتقدون أن قبضة هرقل صنعت ثقوبًا في الجبال في هذه النقطة بالذات..

على الجانب الآخر، هناك من يلاحظون كيف أن الهنود الحمر يشبهون الهنود في آسيا.. من ثم يعتقدون أنها هجرة تمت عبر البر.. وأن أطلنطس كانت هي الجسر الذي تم بوساطته هذا العبور.. وهذا يعني أنها كانت في المحيط الهادي!

آخرون يعتقدون أن (أعمدة هرقل) التي وصفها (أفلاطون) لم تكن إلا مضيق البوسفور أو مضيق سردينيا.. هذا يجعل مكان أطلنطس في تركيا أو سردينيا.. هناك رجل متحمس تملا آراؤه الإنترنت متأكد من أن أطلنطس كانت في (بوليفيا)!

باختصار:

هل هي موجودة فعلًا؟

إن كانت موجودة فأين هي؟

لماذا فنت؟

- 3 -

في في فو فام!

✷ ✷ ✷

قلت للحسناء يوهانا:

- «حتى لو وجدت أطلنطس فعلًا، فمن قال إن أهلها بيننا أو أحياء؟ قيل إن سكان القارة فروا إلى غرب أوروبا، لكن لا يمكن البرهنة على هذا...»

قالت وقد اتسعت عيناها الساحرتان:

- «لا تصدق إذن؟»

- «لو صدقت الفتاة كل رجل يقول لها إنِّه من أطلنطس فلن يبقي عندها وقت كاف لأي شيء آخر!...»

- «وتلك الظواهر الغريبة؟.. أنا لست حمقاء...»

- «هناك أشخاص يمتازون عن سواهم.. رأيت من يأكل نصف ثور، أو يجر شاحنة بأسنانه أو يأكل الزجاج... لا شك أن حبيبك هذا مختلف لكن من قال إنِّه من أطلنطس؟»

ظلت تنظر لي في عناد، فقلت لها:

- «اسمعي.. لابد أن أقابله...»

- «وهل تعتقد أنه سيتكلم معك بهذه البساطة؟.. المفترض أصلًا أنني لم أقل لك حرفًا...»

هذا صحيح.. لن أقابله لأسأله: مساء الخير يا سيد؟.. فتاتك قالت إنك من أطلنطس فهل هذا صحيح؟ وأتوقع أن يضحك ويقول: فعلًا. جميل أن أعرف أنك عرفت قصتي إلخ..

لكني قدرت أنه من أصعب الأمور في العالم أن تحكم على رجل إن كان جاء من أطلنطس أم لا من دون أن تقابله..

✷ ✷ ✷

كان دامع العينين وهو يجلس جوار المدفأة يتأمل اللهب ابتلع ريقه وضغط أكثر على كوب الشراب الدافئ بين أنامله وقال:

- «هناك أشياء لا يمكن أن تلمى بها أو تفهميها.. لن أحدثك عن حضارة أطلنطس ولا تقدمها، تلك اللمحة التي وصلتكم بشكل ما عبر كتابات الأقدمين.. هذا شيء يصعب فهمه. لاحظي أننا نتكلم عن تسعة قرون قبل الميلاد تقريبًا.. لكن التقدم العلمي كان يحمل معه عيوبه الكامنة.. لقد استطاع ذلك المجتمع أن يدمّر نفسه. بدأت الزلازل والصدوع وأدركنا أن القارة ستزول عما قريب. هنا خطر لعلماء القارة أن يستخدموا علمهم المتقدم في فتح عالم مواز لهذا العالم.. عالم فر له الجميع، قال بعض المؤرخين إن قوم أطلنطس نزحوا إلى غرب أوروبا، والحقيقة هي أن مدخلنا الرئيس يقع في شمال أوروبا حيث ما تدعونه (أسكندنافيا)، ولهذا نتكلم لغتكم.. بل إن أسماءنا قريبة منكم جدًّا. وهكذا عندما فنت أطلنطس للأبد وغابت تحت أعماق المحيط، كنا نحن قد صرنا في أطلنطس أخرى في عالم لا ترونه أنتم.. يشبه الأمر الزجاج المطلي من جهة واحدة. أنتم ترونه سطح مرآة أمّا نحن فنراه زجاجًا شفافًا هكذا نتابع حياتكم بالكامل وأنتم لا تشعرون بنا ونجيد لغتكم.. عدة أجيال عاشت وترعرعت وماتت بهذا الشكل.. لقد فنت أطلنطس لكن أهل أطلنطس لم يفنوا....»

نظرت له عاجزة عن معرفة ما تصدقه وما تنكره.. الأسهل أن تنكر كل شيء... وهل يتوقع منها أن تهز رأسًا موافقة؟

قالت له في حذر:

- «أمثالك ممن يقولون هذا نائمون الآن في المصحات العقليّة حول العالم..»

هزّ رأسه وابتسم كمن اعتاد هذه الشكوك..

بعد قليل أردف:

- «اللصان اللذان اقتحما شقتك هاربان من أطلنطس.. وجدا فجوة جاهزة سهلة فاجتازاها، وتصادف أن كانت الفجوة في شقتك. وكان عليَّ أن أعبّر خلفهما وأظفر بهما قبل أن يفتكا بك إن لنا قدرات جسدية هائلة اكتسبناها مع الوقت.. أنت رأيت بعضها.. كما رأيت أن الشقة كانت مغلقة بإحكام، فكيف دخلنا إن لم يكن عن طريق الفجوة؟، والفجوة تخرج من لجين مرآة على فكرة..»

في خبث تساءلت:

- «لم تقاتلوا سوى بالمدى والعصي. يصعب عليَّ أن أتخيّل أمة بلغت التقدم الذي تصفه وتحارب بهذه البساطة. توقعت شيئًا كمسدسات الليزر أو بنادق أشعة كونيّة..»

- «لا يمكن عبور الفجوة بأسلحة متقدمة..»

نظرت له في عينه وقالت:

- «ولماذا لم تعبر الفجوة عائدًا؟»

رفع خصلات شعره المبتلة عن عينه وقال:

- «لأنهّا انغلقت من خلفي ولا أستطيع فتحها لأعود.. أليس هذا واضحًا؟.. أمّا السبب الثاني فهو أنني وقعت في الحب...»

✷ ✷ ✷

«هكذا ينتهي العالم.. ليس بالانفجارات بل بالأنين..»

ت. س. إليوت

✷ ✷ ✷

حكى لها الكثير عن أطلنطس الجديدة.. صار بوسعها أن تري كل دقائق ذلك العالم. ترى الميادين الواسعة التي تتوسطها تماثيل عملاقة.. ترى الجسور العلوية المحيطة بالتماثيل، وترى النار العملاقة المشتعلة ليل نهار في ساحة المدينة الرئيسة. ترى قنوات الماء في الشوارع، وترى موكب زوارق الكهنة التي تعبر النهر عند الغروب. ينثرون على الناس أزهار الزيثرا التي تشبه الفراشة..

إن أطلنطس قارة تقارب الصين من ناحية المساحة، وبالتالي ليست كبيرة جدًّا كقارة.. هذا العالم الخلاب يوجد معنا في نفس المكان والزمان، لكن له بعدًا آخر.. يصعب تخيل هذا، لكن تذكر أن إذاعة لندن وإذاعة صوت العرب موجودتان في نفس الحيز الأثيري.. فقط لكل منهما تردد مختلف..

حكى لها عن الأهازيج الليلية وعن موكب الحاكم، وعن سباق العشاق بين أشجار الماتادو... كل من يمسك بفتاة هي له زوجة، بشرط أن تقدم له زهرة زيثرا...

حكى لها عن الأمراض التي قهروها والتقدم الذي بلغوه..

ولكن الحنين ما زال يراود هؤلاء القوم لقارتهم التي ضاعت، وما زالوا يهبطون إلى قاع المحيط ليشاهدوا الأطلال الحبيبة..

- «هناك أناس في هذا العالم جاءوا من أطلنطس الجديدة لا يُمكنك أن تعرفيهم لأنّهم اندمجوا فيمن حولهم، لكن لو دققت النظر لوجدت أنهم أقوى ممن عداهم.. أذكى ممن عداهم أجمل ممن عداهم عندها سوف ينتابك الشك..»

قال لها وهو يتأمل وجهها الصبوح:

- «أحيانًا أحسبك جئت من هناك ونسيت ذلك.. لقد فقدت الذاكرة.. لكنك تنتمين لعالمي..»

وكانت الدعوة.. سوف يجد الفجوة من جديد وسوف يفتحها ويعبر. وقتها يريد منها أن ترحل معه.. سوف يتم هذا قريبًا جدًّا.. يجب أن تتخذ قرارها بسرعة..

في يوم بارد غائم دعتني إلى شقتها..

لم يكن هياليمار هناك لأنّه كان يتسوق. قالت لي إنّه عائد بعد ساعة...

اتفقنا على أني صديق مصري، ولا أعرف شيئًا عن الموضوع سوف أسأله بعض الأسئلة وأحاول أن أتصور الحقيقة.. للأسف هو لا يتكلم الإنجليزية وأنا لا أتكلم السويدية لكنّها ستحاول أن تنقل كلامنا لبعض..

هو بيت جميل صغير في الضواحي، يحوي الكثير من الجمال لكنه كذلك يحوي الكثير من الوحشة والرهبة. لا أحب كثيرًا أن أمضي ليلتي في مكان كهذا..

قالت لي وهي تنزع معطفها:

- «سأعد لك شرابًا.. يُمكنك أن تجلس وتستريح..»

- «أريد بعض الشاي.. الكثير من الشاي..»

ورحت أفرك أناملي المتجمدة.. ثم سألتها عن مكان الحمام فأشارت إلى ركن من الشقة..

دخلت وأغلقت الباب الزجاجي المصنفر على نفسي، ورحت أتأمل المغطس.. هنا كان نائمًا ثم سقط رأسه تحت الماء فلم يمت. هناك صيدلية صغيرة ذات مرآة.. الطراز الذي تغلقه لتجد مسخًا يقف خلفك في أفلام الرعب المعتادة. فتحت الصيدلية ورحت أعبث.. هنا حشد ممتاز من العقاقير النفسية.. مزيلات اكتئاب. كلوربرومازين.. مشتقات البنزوديازين..

هذه صيدلية جديرة بمصحة نفسية.. الفتاة مخبولة حتمًا إنها تتلقى علاجًا عنيفًا..

أغلقت الصيدلية حائرًا.. عندما خرجت من الحمام تلصصت قليلًا على المنزل.. هناك نافذة صغيرة تطل على حديقة خلفيّة يغطيها الثلج. هناك باب غير مغلق يؤدي إلى قبو... هناك باب

خلفي يمكن فتحه بسهولة.... من قال إن هذا البيت محصن؟ أي شخص يمكنه الدخول في رأيي..

عدت لغرفة الجلوس الدافئة لشرب الشاي الساخن، وتظاهرت بأنني لم أفتش مسكن الفتاة جيدًا..

أسئلة عديدة في ذهني.. الفتاة تعاني أمراضًا نفسية. هذا واضح.. صحيح أنها متماسكة ويمكن أن تخدعك، لكن من يتعاطى هذه الأدوية سواها؟ لاحظ أنها ممرضة وقادرة على الحصول على هذه العقاقير..

من الممكن كذلك أن يكون الفتى هو من يتعاطى هذه الأدوية ما دام يقيم في الدار معها...

الاحتمال الأول: الفتاة مخبولة والرجل لا وجود له، أو هو موجود لكنّها لفقت قصة أطلنطس هذه.. ربما لأنهّا منبهرة به..

الاحتمال الثاني: الرجل كاذب أو مخبول.. لاحظ أن التسلل للبيت ممكن.. أنا نفسي أستطيع التسلل في أي وقت للداخل برغم افتقاري للياقة. إذن هي تهذي بصدد كون البيت محصنًا وهؤلاء نبتوا من الداخل. ربما هو أنقذها من اللصين فعلًا أو كانت كل هذه لعبة مدبرة..

إن رأسي يوشك على الانفجار..

لكن الاحتمال الأول قد ألغي أو ألغي نصفه.. الفتى جاء بالفعل في هذه اللحظة عائدًا من جولته.. دخل البيت ليجدني.. إذن هو موجود. مبللًا والثلج يغطى كتفي سترته وقلنسوته وكيس المشتروات في يده، ينزع قفازيه لاهثًا وهو ينظر لي في دهشة. وسيم فعلًا قوي البنية، لكنه وسيم على الطريقة السويدية.. أي أنه أشقر شاحب بارد كالثلج كتماثيل المتاجر.

- «جود نات. فم ايي دييو؟»

- «جود نات..»

هنا كانت الفتاة قد ظهرت فاحتضنته ودفنت رأسها في صدره وتبادلا بعض الكلام باللغة السويدية. بدا لي منظرهما أسطوريًا كأنهما محارب فايكنج وحبيبته على ظهر سفينة. برغم هذا لم أعد أتحمل أكثر.. لا أطيق من يفترض فيّ الغباء..

قلت لها:

- «أرجو أن تنقل له كلماتي.. أنا لا أصدق حرفًا مما حكاه لك. المنزل مليء بالمنافذ التي يمكن اختراقها... هذا الفتى يعبث بك أو أنت تكذبين بصدد خرافة أطلنطس...»

نظرت لي في حيرة ولم تترجم.. لكن الفتى التقط كلمة مريبة في كلامي.. فعاد يردد:

- «أطلنطس؟ أطلنطس؟»

ثم نظر لها ودارت محادثة غاضبة. أمسك بكتفيها وراح يهزهما بقوّة.. المعنى واضح كما أعتقد: من هذا الحيوان الأصلع وكيف حكيت له ما دار بيننا؟.. ثم عاد ينظر لي في مقت..

قالت الفتاة باكية:

- «يقول إن الرجلين قاتلان من أطلنطس....»

هناك ثغرات عندي.. مثلًا كيف يداوي جرح قدمه الذي أحدثته السكين؟... لو كانت قصة الفتاة صحيحة، فهو خبير في خداع البصر أو أنا لا أملك أي تفسير.. قلت من جديد:

- «وأدوية الاكتئاب والشيزوفرنيا في الصيدلية الكلوربرومازين والديازبين... هل هي لك أم له؟»

- «هي له.. إنّه مضطرب نفسيًا منذ جاء لعالمنا..»

من جديد التقط اللفظتين الغريبتين فنظر لي ولها واتسعت عيناه.. واضح أنها أخبرتني بكل شيء لقد صار وجهه نموذجًا للمقت والصدمة والاشمئزاز...

راح يردد وهو يتراجع للخلف:

- «أنترين إيي كلار.. أنترين إيي كلار...»

لم أفهم.. في اللحظة التالية اندفع إلى الحمام بسرعة البرق وأغلق الباب خلفه. قالت لي الفتاة:

- «قال إن المدخل صار مفتوحًا.. أي مدخل؟؟؟..»

هنا سمعنا صوتًا (فلام!) يشبه صوت انفجار فرن البوتاجاز المعبق بالغاز عندما تقرب منه عود ثقاب.. ثم صوت (وووووش!) عاليًا جدًّا..

هرعنا إلى الحمام.. سبقتني هي وفتحت الباب.. ثم إنها استدارت لي في كره وانهالت على صدري ضربًا بقبضتيها وهي تردد في توحش ووسط الكثير من البصق والسباب:

- «أنا أكرهك!... ليتني لم أر وجهك قط!»

أزحتها بصعوبة ودخلت الحمام.. لم يكن هناك شيء ولا أحد، سوى أن المرآة كانت محطمة.. لم يكن خلفها جدار صامت بل بدا كأنها تقود لنفق أو شيء مماثل.. أنترين إيي كلار.. لقد انفتح المدخل.. فهل قرر أنها لا تستحق أن ترحل معه؟

في الحوض وجدت شيئًا.. زهرة عجيبة تشبه الفراشة..

لقد تركها لها كذكرى أخيرة.. ترى ما كان اسم هذه الزهرة؟.. بصراحة قد نسيت...

- 1 -

لوس دوس سولادوس إخبسيوس استين إن لاس روناس..

✷ ✷ ✷

عندما هرعنا إلى الحمام في المستشفى، مادت الأرض تحت قدمي الواهنة أصلًا... هاتان قدمان لم تعودا صالحتين للركض للحمامات..

لقد كان الدم يلوث كل شيء.. يتناثر على الجدران.. يملأ المغطس.. وعلى الأرض تكوم جسد المعالج الروماني ذي الوجه الضخم..

لا أعتقد أنّ هناك نمرًا في الحمام، لكن هذا أقرب تفسير لما حدث..

لقد تم تمزيقه فعلًا وبقسوة شديدة..

تذكرت موقفًا مشابهًا منذ أعوام في طائرة تتجه للهلاك مدفوعة بسحر أغنية الموت...

لكن الروماني كان حيًّا... صرخت الممرضة وصرخت ماجي، بينما جثوت أنا جواره أحاول فهم ما حدث..

كان يشير إلى اتجاه ما... نحو حوض الغسيل..

لو أردت الدقة لقلت إنّه يشير إلى مرآة الحمام...

قلت له وأنا أبحث عن مكان يصلح لأضغط عليه لوقف النزف:

- «ماذا حدث لك يا أحمق؟»

قال بصوت مبحوح بسبب حنجرة تمزقت:

- «الفتى.. المراهق.. الفتى في الـ.... المرآة..»

هذه عادة المحتضرين.. الغموض... يُلمِّحون ولا يصرّحون. ربما لأنّهم مشغولون برؤى صاخبة لا تسمح لهم بالكلام بالتفصيل. هنا كان الصراخ قد جلب الممرضات، وصرخن بدورهن، ثم جاء عمال ورجال أمن ليصرخوا.. الكل يصرخ.. لسبب ما يصرخ الناس عندما يرون جثة ممزقة إلى أشلاء..

برزت محفة من مكان ما، لكني كنت أنظر لعين الروماني العين الثابتة الشاخصة وحركة الصدر الميكانيكية التي تشي بأن مركز اللهاث صار هو المسيطر على التنفس..

إنه يموت أو مات... هذه لحظة اللاعودة...

كنت أرتجف انفعالًا..

وجذبتني ماجي جذبًا إلى الفراش، ورفعت قدمي وشدت منهما الخف... فأرحت رأسي للخلف وأنا أحاول أن أعيد لقلبي ضرباته السليمة..

لو لم أهدأ فلسوف ألحق بالرجل. لن يشعر بالوحدة في رحلته....

سوف أعفيك من التفاصيل المملة بصدد قدوم الشرطة والتحقيق.. الملاءة المغطاة بالدم على المحفة والكل يتجنب النظر. ومحاولة الفهم... لا أحد يعرف ما حدث فعلًا ولا يمكن توجيه التهمة لنا أننا قد مزقنا الرجل بأنيابنا.

بالفعل كانت هذه الجراح ناجمة عن أسنان.. أسنان من؟

مرت اللحظات ثقيلة... وفي النهاية جاءت مشرفة التمريض تخبرنا أنها ستنقلني من الغرفة. الغرفة التي تمزق فيها معالج روماني ليست أفضل حجرة لمريض سرطان.. أنت تدرك هذا.. هذه أمور تتعلق باللياقة والفهم المشترك.

طلبت من ماجي أن تنتظر..

نهضت مترنحًا إلى الحمام الذي تحول منذ ساعة إلى غرفة في قسم الأزبكية.. فوضى وأعقاب سجائر ومسحوق بصمات ودخان تبغ في الجو...

سألتني عما أريد فقلت لها في دهشة:

- «منذ متى تم تحريم التبول؟»

كانت الدماء تلطخ كل شيء.. ليس المشهد محببًا.. آثار مذبحة. يمكن أن أتذكر صوت الرجل ونظرته العميقة الفاحصة كما كانت منذ ساعتين..

هناك صيدلية صغيرة جوار المرأة فتحتها في حذر ومددت يدي إلى القاع حيث الرف السفلي، تحت مجموعة من المطهرات، وأخرجت لفافة الكتاب..

لقد حان الوقت كي تعود للالتصاق بجسدي..

لقد كنت صادقًا عندما أردت أن أمنحه له، لكن شيئًا حدث شيئًا مروعًا لا يمكن فهمه...

هناك شيء خرج من المرأة وانقض عليه. هذا على الأقل ما يمكن استنتاجه من كلمات الاحتضار الأخيرة... ما هو هذا الشيء؟

صبي مراهق؟

من هو؟

هل هو من جانب النجوم؟... هل هو شيطان؟.. الشيء الذي يخرج من المرآة لا يمكن أن يكون شيئًا آخر...

غادرت الحمام وأنا أتحسس الكتاب الذي أعدت تثبيته إلى جسدي.. قالت لي ماجي:

- «هل ترى أن ننتقل الآن؟»

بالتأكيد همست وهي تتأبط ذراعي:

- «للأبد؟»

- «ماذا؟»

- «هل ستكون لي للأبد؟»

كدت أقول لها (حتى تحترق النجوم) ثم وجدتها كذبة لا داعي لها.. سوف أكون لها إلى أن أموت.. بالمناسبة.. ألم أشف؟... أم أن وفاة الروماني أدت لعودة السرطان؟

✷ ✷ ✷

صبوا لنا بعض الدم المختمر، ولتسمعونا صرخات المعذبين في أقبية (هيدز)... ولترقص الجثث المتحللة في انتشاء.. إن لوسيفر والحق يُقال راض...

✷ ✷ ✷

- «أوه إنّه الصداع.. الصداع اللعين.. بحق (أبراكساس).. خطر لي أن المرء سعيد الطالع إذ يكون في الغرفة المجاورة له بروفسور في الطب»

✷ ✷ ✷

انتهى د. منصور أستاذ جراحات الأنف والأذن والحنجرة من فحصي. تفقد الأشعات والفحوص.. له وجه مذعور يشعرك بأنك ضائع لا محالة، لكني أعرف أنه بارع حقًّا... سأضيع لكن بشكل علمي راق متحضر..

قال لي وهو يهز رأسه:

- «الورم موجود يا دكتور رفعت.. وكذلك الثانويات لماذا اعتقدت أنك تتحسن؟»

لم أكن قد أخبرته قط بموضوع المعالج الروماني.. أعني أنه يعرف قصة ضيف روماني مات بطريقة غامضة في حمام غرفتي لكنه لا يعرف تفاصيل أخرى.. لذا أظهرت الدهشة وقلت:

- «لكني أشعر أنني أفضل..»

- «للحالة النفسية دور في ذلك.. هناك أيام سوف تشعر بأنك أفضل.. لا شك في هذا..»

يريد القول إن حالتي سيئة جدًّا، لكن لا بأس ببعض التفاؤل..

كانت علامات استفهام عديدة تحوم حولي.. خاصة بعد حادث المعالج الروماني، وتهامست الممرضات أنني ممسوس أو أن لي علاقة بالشياطين. فليعتقدن ما يردن.. الحقيقة أن كلامهن لا يخلو من بعض الحقيقة. واحد على علاقة بلوسيفر وأبراكساس ونوسفيراتو.. من قال إنّه ليس على علاقة بالشياطين؟

قامت الممرضة بتركيب المحلول في ساعدي، فرقدت على الفراش أنظر للسقف.. الكشاف النيون الأنيق.. لقد خدعني الروماني إذن كانت هذه ألعاب حواة مما دأب المعالجون الروحانيون على ممارستها. منذ أعوام جاء لمصر معالج فلبيني استأصل المرارة بدون جراحة لعشرات المصريين.. وكان يعطي المريض مرارته في قطعة قطن. لما عاد لبلاده بعد ذلك عاودت آلام المرارة كل مرضاه، واكتشفوا جميعًا أن المرارة موجودة. كان هذا في عصر ما قبل الأشعة التلفزيونية طبعًا لذا كان البحث عن المرارة صعبًا، ولهذا تأخر الاكتشاف طويلًا إلى أن فر النصاب.

خدعني الروماني..

لم تكن هناك أوراق في كمه، ومعنى هذا أنني كنت سأقدم له الكتاب مجانًا.. كنت سأمنحه قوة هائلة وقدرة على الشر لا حد لها ومن الجلي أنه تلقى عقابًا قاسيًا على هذه اللعبة التي مارسها، مهما بلغت خصوبة خيالك فأنت لا تتخيل أبدًا أن يخرج شيء من المرآة ليمزقك...

من الذي قتله إذن؟... معنى هذا أن القاتل أنقذ الكتاب من الضياع..

هل لي ملاك حارس؟....

كان المحلول يسري في عروقي، وأعتقد أن الممرضة حقنتني كذلك ببعض الميدازولام.. صرت أحب هذه اللحظات فعلًا عندما يذهب الألم العقلي والجسدي.. هناك وحشان يلتهمان أعصابي: السرطان الشرس.. ووحش الأفكار والقلق... أريد بعض الراحة. الموت سوف يريحني من الوحشين على ما أعتقد لكني مذعور برغم ذلك..

هل الموت شبيه بهذا؟ النعاس... الجفنان الثقيلان.. الـ....

بالفعل..

لهذا لم أستطع أن أقضي على الممسات التي تحاول الظفر بي..

هويت على أكثرها بالبلطة وقطعت العديد منها، كأنني هركيول وهو يحارب الهيدرا... لكن ذلك الشيء المرعب الفائر كان يلتف حول القلعة وينفث السم والدماء والصديد.. هذا هو السرطان.. لا شك في هذا..

ووش ش ش! القلعة هي أنا وقد عجزت عن الفرار..

الأرض تميد تحت قدمي. هذا عالم موازٍ، فهل الموت فيه يعني أنني ميت؟، وهل يمكن الموت فيه أصلًا؟

ولو كان هذا عالمًا موازيًا، فأين الأحلام المنسية وقصص الحب المنهزمة والذكريات الضائعة؟

أين وجوه من غابوا عنا؟ وأين قدراتي التي فقدتها؟ أين ضحكاتي ودموعي فيما سبق؟

كان هذا الشيء يوشك على التهامي..

الأرض تميد بي أكثر.. هل من قاع في هذا العالم؟ هل تمس قدماي شيئًا أم هي الهاوية اللانهائية؟ اللانهاية مفزعة أبدًا بالنسبة لعقولنا الواهنة. كيف يمتد الكون إلى ما لا نهاية؟ كيف تمتد بنا الحياة في العالم الآخر إلى ما لا نهاية؟ كل هذا مرعب.. أملي الوحيد أن أتوقف عن السقوط أو أموت..

ثم شعرت بذلك الشيء يتدلى إلى جواري.. حبل أتعلق به أو....

تمسكت به.. تمسكت بقوّة.. ورفعت رأسي بحثًا عن يمد لي يد العون هذه فلم أتبينه لأن الظلام كان يغمر هذا الجزء من مجال الرؤية...

- «تشبث أو مت...»

ولكن من أنت؟

- «تشبث أو مت...»

أنا أشتهي الموت، لكن هل هو موت حقًّا أم سقوط يستمر للأبد؟

- «تشبث أو مت...»

أتشبث.. أتشبث وأرتفع.... أحلق...

فوق الممسات الشرسة النهمة أحلق..

فوق الأرض التي تذوب أحلق...

يمكنني أن أفهم هذا الذي أتمسك به.. أقرب إلى حرام صوفي أو (تلفيعة) من التي كنا نضعها حول أعناقنا في القرية..

في النهاية وجدت نفسي راقدًا وسط ذيول القطط المتأرجحة.. القلعة قد التهمها الكائن بالكامل تقريبًا لكنه لم يعد يهتم بي..

من الذي ينقذني في هذا العالم؟

رفعت رأسي فوجدت السماء تسيل بسائل أزرق غريب يبللني ويبلل خلاياي... سائل لزج بارد مقيت.. كأنها لوحة زيتية تسيل..

كان يقف هناك في مكان من هذا المشهد.. أرى شبحه وأسمع صوته...

ليس لوسيفر.. أنا أعرف قامة الأخير وصوته.. أعرف حضوره الأسود القاتم...

من أنت؟

كان هذا هو اللقاء... اللقاء الأخطر والأهم والأخير في حياتي....

- 1 -

اخرج يا من تأتي في الظلام وتدخل خلسة. هل أتيت لتقبل هذا الطفل؟؟ لن أسمح لك. هل أتيت لتأخذه؟ لن أسمح لك بأخذه مني..

✷ ✷ ✷

ومن جديد تحملني موجات الذكريات إلى شط آخر..

أنا ريشة تحملها الأنواء من موضع لموضع، ولا إرادة لي هكذا أطير حول (عادل مينا) عدة دوائر ثم أبتعد ثم أقترب من جديد...

لابد أنّ هذا كان في أوائل الثمانينيات. كنت في مكتبي بالكلية أراجع رسالة ماجستير ما، وكان رأفت صديقي جالسًا يمتص كوبًا من الشاي.. عندما انفتح الباب وظهر ذلك الرجل..

كان عادل أقرب للوسامة والأرستقراطية.. لكني أدركت من الشعر الساقط على وجهه ورجفة زاوية فمه، ومن عينيه المتسعتين.. أدركت أنه تحت وطأة تهديد مرعب... هذا رجل يطارده الموت أو هو يتخيل هذا..

- «د. رفعت إسماعيل؟»

- «بالطبع.. ولكن اهدأ قليلًا بالله عليك..»

جلس على أول مقعد وراح يجفف عرقه وقال:

- «أنا عادل مينا.. مهندس.....»

- «تشرفنا.. لكن هذا ليس سببًا كافيًا للقلق... لي صديق مهندس مثلك لكنه ليس قلقًا لهذا الحد. أعرف مهندسين كثيرين غير قلقين..»

تنهد في عمق وقال:

- «قيل لي إنك قادر على حل مشكلتي؟»

استندت بذقني إلى قبضتي وتساءلت:

- «هل أنت مصاب بفقر دم متقدم؟ هل تنزف من أنفك بلا سبب؟»

- «لا.. أريد الجانب الثاني منك.. جانب ما وراء الطبيعة.. الميتافيزيقي..»

هذا غريب.. هناك حالات من أمراض الدم تجعل المريض يبدو مذعورًا فعلًا.

أجلسته وطلبت منه أن يتكلم.. أشعل لفافة تبغ وانتظر حتى بدأت رجفة يده تزول، ثم قال:

- «أنا محكوم عليَّ بالموت.. لا شك في هذا..»

✷ ✷ ✷

قال عادل:

منذ أعوام كان مكتبي الهندسي ناجحًا فعلًا.. كان لدي هامش من الربح يتيح لي رؤية العالم، وبالفعل خصصت مبلغًا سنويًا لأرى بلدين أو ثلاثة لم أرهما من قبل..

لم أكن قد رأيت البرازيل، ولهذا ذهبت لها في ذلك الصيف.. منذ عام..

البرازيل بلد غريب فيه تنوع عرقي مذهل، وعندما ترمق الفتيات فأنت تشعر للحظات أنهن زنجيات وللحظات أنهن هنديات وللحظات أنهن برتغاليات شقراوات.. كل شيء غريب هناك بالفعل هذا بلد يحوي كل ألوان الببغاء المبهرجة..

كنت في رحلة سياحية أتعرف معالم البلاد الساحرة، وكنت في الخامسة والثلاثين من عمري.. لم ألمس امرأة قط ولم تكن لديَّ علاقات عاطفيّة.

هنا اكتشفت باولا.. بركان الأنوثة الحارق رائع الجمال..

لا أحد يصمد أمام باولا الجميلة المفعمة بالحيوية، خاصة أنها تعتقد أن جميع الرجال وسيمون أقوياء جديرون بالحبّ. لم تكن تجد غضاضة في الحب الجسدي أو القبلات الحارة، وكانت سمراء لها طابع شبه أفريقي.. بالفعل عرفت أنها من جالية تدعى (لوكيمي) وهم قادمون من أفريقيا أصلًا..

مع باولا رأيت البرازيل كما لم يرها أحد من قبل... لا أعتقد أن مصريًّا رأى كل هذا الذي رأيته في البرازيل.. لقد تحوّل هذا البلد الساحر إلى فتاة سمراء تحبني، وظل قلبي يخفق كلما سمعت حرفًا من حروف اسم البرازيل مثلما يقول قيس بن الملوح:

أُحِبُّ مِنَ الأَسماءِ مَا وافَقَ اسمهَا أو أشبَهَهُ أو كانَ مِنهُ مُدانِيَا

هنا تدخلت - أنا رفعت إسماعيل - في الكلام وقد تغلبت عليَّ غدة السخرية التي لا أجد منها فرارًا:

- «إذن أنت تحب لفظة (البراز).. معظم حروف (البرازيل) فيها..»

ثم اعتذرت بشدة.. لقد كان هذا أقوى مني. واصل عادل السرد بعد ما شفي من امتقاع وجهه:

- «عشت قصة حب ممتازة.. وطلبت منها أن تعود معي إلى مصر...»

لم يكن أهل الفتاة في مثل جمالها ولطفها، وقد اعتبروا أن زواجها من جنسيّة أخرى إهانة لهم.. هم عنصريون جدًّا يشعرون بأنهم طبقة متميزة..

مع الوقت حاصروها.. صارت عصفورًا حبيسًا في شباكهم. الفتاة في البرازيل تملك قسطًا مرعبًا من الحرية، ولعمري تلك من المشاكل التي كنت أتوقعها في مصر.. كيف أضع هذه الفتاة في أصفاد المجتمع الشرقي، وكيف أجعلها تلبس شيئًا؟ المرأة هنا فخور بأنوثتها ترى أنها يجب أن تعرضها طيلة الوقت.. تخرج وترقص في أي وقت وكل وقت....

أقول هذا بغرض توضيح أن حياة الفتاة صارت جحيمًا لما حوصرت...

كانت لها أم تبدو كساحرة عجوز، وأب هو شيخ مسن عصبي ضيق الخلق.. تراه جالسًا في حديقة البيت ممسكًا بخرطوم الماء يسقى به النباتات، وهو يلبس الشورت والفانلة الداخلية، فتقشعر لفكرة أنّ هذا حموك.. الأسرة غير مشجعة على الإطلاق ولا أعرف سبب هذا الغرور العنصري لديهم أعتقد أنني سأضيف شرفًا لهذه الأسرة بلا شك..

في النهاية أدركت أن قصة الحب هذه مستحيلة..

أرسلت لها خطابًا بالبرتغالية التي بدأت أتقنها.. قلت لها إن قصة الحب هذه بلا جدوى. أرجو أن تنساني وأن تتمكّن من أن تحيا حياة عادية...

بعد يومين من إرسال الخطاب فوجئت بالصبي (راموس) الذي كان يلعب دور مرسال الغرام بيننا، يركض للفندق الذي أقيم فيه.. يطلب لقائي..

عندما نزلت لألقاه كان دامع العينين شاحب الوجه يتدلى خيط مخاط طويل من أنفه..

قال لي وهو يولول إن الآنسة باولا قد ماتت..

كيف ماتت؟..

وجدوها في الحمام وقد قطعت شرايين معصمها...

- 2 -

والآن انبطحي.. لا تنسى يا سيدتي أن تنبطحي..!

✷ ✷ ✷

قال عادل:

عندما ذهبت إلى الجنازة رأيت الأسرة كلها واقفة هناك مطرقة.. الكل يلبس الأسود.. الجثة الحبيبة ممددة على منضدة وقد أغمضت عينيها للأبد... ورأيت معصمها مربوطًا..

كانت هذه حديقة الأسرة وقد دنا وقت الغروب، وتضوع الهواء برائحة حزينة من أكمام الزهر. وقد وقف صف من الرجال يهومون بنغمة حزينة خفيضة.. الحق أن الجو لم يكن مسيحيًّا.. لم يكن مسيحيًّا على الإطلاق، بل هناك طابع وثني واضح..

لربما رقصوا حول الجثة.. لربما أحرقوها بعد انتهاء هذه الطقوس..

دنوت من الجثة لألثم جبينها وأنا لا أتمالك نفسي من البكاء، لكن يدًا مخلبية أوقفتني رفعت وجهي لأرى الأم منكوشة الشعر جاحظة العينين ترمقني كأنني أفعى سامة..

وراحت تردد وهي تشير لخارج الحديقة:

- «ديشا-لا!!.... ارحل!.. ديشا-لا!!...»

تراجعت ببطء متظاهرًا بأنني لم أفهم أنها تطردني.. كانت تتكلم بعصبية وبسرعة بحيث لم تعد لغتي البرتغالية الضعيفة تسمح لي بالفهم.. فقط على باب الحديقة قالت وهي ترسم في الهواء علامة معقدة لا أفهمها:

- «سوف تموت ميتة بشعة في أولوبا.. عام من الآن!!»

- «ستلحق بباولا!»

فررت من الساحرة العجوز وأنا أرتجف.. بالفعل هي ساحرة عجوز.. لم يخالجني أي شك في أن تهديدها صادق. لا أعني أن ما قالته سيتم، لكن أعني أن كرهها حقيقي وخطر..

بالنسبة لها أنا من حرمها من ابنتها الرائعة..

لا داعي لأن أقول إنني أنهيت كل ارتباط لي في البرازيل وفررت بجلدي. عدت لمصر وحاولت أن أبدأ حياتي من جديد..

شعور غريب مضن أن تعرف أنّ هناك من يمقتك بجنون في الجانب الآخر من العالم..

✷ ✷ ✷

قلت للمهندس المذعور وأنا أدون بعض بيانات قصته:

- «بالطبع أنت جئت الآن لأن موعد انتقامها قد حان.. قالت (بعد سنة) منذ سنة.. إذن فقد حان الحين..»

هزّ رأسه في رعب، ثم أضاف:

- «على فكرة.. لقد كانت باولا تحتفظ بقميص لي... قالت إنّه يذكرها بي..»

حككت صلعتي مفكرًا ثم قلت:

- «هذه فكرة سيئة.. أنت تعرف سحر الاقتران.. لدى المرأة كل ما يلزم كي تصنع لك دمية فتيش أو أي طقس آخر يؤذيك..»

أضاف راجفًا وهو يحاول اقتناص لفافة تبغ أخرى باللهب:

- «الأسوأ أن لديَّ عملًا يقتضي السفر إلى المكسيك عما قريب... لا أعرف هل أذهب أم لا...»

تدخل صديقي د. رأفت في حماسة وقد سمع القصة كلها:

- «كل هذا سخف لكن لا أنصحك بالذهاب إلى المكسيك أنت بهذا تعود للبرازيل..»

قلت في غيظ:

- «المكسيك ليست في أمريكا الجنوبيّة.. كف عن الخلط الجغرافي يا رأفت...»

ثم قلت للمهندس:

- «سوف أتصل بك قريبًا.. لا تقلق.. اللعنات في كل مكان لكن قليلًا جدًّا منها ينجح.. معظم السحرة نصابون يتظاهرون بأنهم كذلك..»

✷ ✷ ✷

بعد يومين اتصلت بالمهندس عادل على الرقم الذي تركه لدي.. لما جاء صوته الملهوف قلت له:

- «أعتقد أن عليك أن تلغي رحلة المكسيك هذه...»

- «كنت أفكر في هذا لكن ما السبب؟»

ابتلعت ريقي وقلت:

- «بحثت في دائرة المعارف.. أولوبا محافظة صغيرة في جواتيمالا.. قريبة من المكسيك جدًّا.. هكذا تصير نبوءة المرأة منطقية ومفهومة. الموت ينتظرك في أولوبا.. من قال لها إنك ستكون هناك بعد عام؟.. بيني وبينك.. أعتقد أنه من الحكمة ألا تذهب..»

- «يا للهول!»

وشكرني مرارًا.. لو كان هذا التفسير صائبًا فأنا قد قدمت له خدمة العمر فعلًا. وضع السماعة ونمت راضيًا عن نفسي..

إلا أنه اتصل بي بعد يومين.. وفي موعد نومي كالعادة قال لي وهو يرتجف:

- «تصوّر أن الرعب أنساني تلك الرقيقة التي بخعت نفسها من أجلي... إن الإنسان مخلوق أناني فعلًا..»

قلت متظاهرًا بالحكمة:

- «بل هو عملي جدًّا.. لكنك لم تتصل بي لهذا الغرض كما أظن..»

قال لي:

- «هناك بالفعل أشياء غريبة.. هناك من يحوم حول مكتبي.. هناك من يراقب بيتي أمس كادت سيارة تدهمني.. إن أعصابي قد انتهت فعلًا...»

- «لحظة.. من الجائز أنّ هذه هستيريا بسبب الرعب..»

- «هستيريا لكنّها تقودني للجنون فعلًا.. لم أعد قادرًا على ممارسة حياتي وأنا أتوقع الذبح في أي لحظة..»

قلت له:

- «حاول أن تبتعد بعض الوقت.. لكن ليس لجواتيمالا لو سمحت..»

وضع السماعة.. وأعرف أنه لم ينم لحظة بعد هذا...

✷ ✷ ✷

لأنّه من النار تأتي النار، وإلى الدخان يصير الدخان، وفي الرماد يفني الرماد. تعال إليَّ يا دم دمائي وابن أبنائي.

✷ ✷ ✷

عندما عدت إلى مكتبي في الكلية بعد يومين، كنت مبعثر المظهر شاحب الوجه. وجدت د. رأفت منهمكًا في البحث في مرجع، فلمّا رآني هش وبش وطلب لي قدح قهوة، ثم قال:

- «ما هي أخبار ذلك الشاب الذي كان عندك منذ أيام؟»

تنهدت ونزعت سترة بذلتي وعلقتها على المشجب وقلت:

- «ماذا تتوقع؟ مات طبعًا.. احترق حيًّا..»

نظر لي في ذهول وتقلص فمه غير مصدق ما أقول.. وارتفع حاجباه في عدم تصديق، فقلت:

- «كانت النبوءة صادقة للأسف.. لقد شعر بالخطر في كل لحظة، وقرر أن يقضي اليوم الصعب الذي يكمل العام في قسم الشرطة. هناك في حماية الشرطة يمكن أن تمر اللحظات القاسية. لو كان هناك قاتل يبغي قتله فلن يستطيع أن يظفر به. افتعل مشاجرة وذهب لقسم الشرطة حيث تشاجر مع الضابط وشتمه، وهكذا برغم مهنته المحترمة لم يجد الضابط مفرًا من إبقائه في الحجز.. بدا له ذلك المهندس مصرًّا على السجن وعدوانيًّا جدًّا...»

قال رأفت في دهشة:

- «إذن كيف مات؟»

- «حدث ماس كهربي في الحجز.. اشتعل مصباح وامتد الشرر لبطانية صوفية ودكة خشبية.. حاول الكثيرون الهرب لكن النار تمسكت بعادل من دون سواه واحترق وهو يصرخ لأنّه كان يلتف بتلك البطانية.. حاولوا إنقاذه فلم يستطيعوا. آخر ما قاله قبل الاحتضار هو اسمي ورقم هاتفي، ولو لم يفعل لما فهمت سبب اختفائه إلى أن أقرأه في الصحف...»

تساءل رأفت:

- «والتفسير؟»

ارتشفت بعض القهوة وتلمظت.. لقد كان مذاقها جيدًا قويًا وقلت:

- «لقد صدقت النبوءة فعلًا.. الساحرة العجوز انتقمت لابنتها.. وما لم يخطر لنا هو أن أسرة الفتاة من جالية لوكومي المقيمة في البرازيل.. أي أنهم يستعملون الكثير من مصطلحات لغة (يوربا) المستخدمة في نيجيريا والكونغو...»

- «ومعنى هذا؟»

- «استعنت بصديق سيراليوني يقيم في القاهرة لأفهم.. أولوبا لفظة يوربية معناها (البوليس) أو (قسم الشرطة).. الأم أنذرته من أنّه سيموت ميتة بشعة في قسم شرطة! وهذا بالذات هو المكان الذي لجأ إليه طلبًا للاحتماء!».

- 1 -

- لِمَ انطفأ المصباح؟

- لقد أحطته بمعطفي، ليكون بمنجى من الريح،

ولهذا فقد انطفأ المصباح.

- لِمَ ذوت الزهرة؟

- لقد شددتها إلى قلبي، في شغف قلق

ولهذا فقد ذوت الزهرة.

- لِمَ نضب النهر؟

لقد وضعت سدًّا في مجراه لأفيد منه وحدي،

ولهذا فقد نضب النهر.

طاغور

✷ ✷ ✷

هناك جيتار عند قدمي..

جيتار في هذا العالم؟ لو عزفت عليه لماجت العواصف وزارت الدببة في الكهوف. هذا الجيتار يخفي الأبدية في أوتاره.. لا شك في هذا...

فئران في كل موضع.. فئران تحيط بي. فئران تثب فوق قدمي.. منتفشة مغطاة بالحراشف.. كريهة الرائحة.. أهوى عليها بالجيتار..

على قدر علمي أنا أول شخص في التاريخ يقتل الفئران بالجيتار..

وهناك وسط الأرض التي تذوب تحت قدمي رفعت رأسي....

رأيت ذلك الشخص معلقًا وسط الغيوم الصواعق والبروق.. لا أرى وجهه لكني أعرف أنه هناك.. مكبلًا كأنه بروميثيوس المعلق بين جبلين يتلقى العقاب على سرقة النار..

ليس لوسيفر.. أنا أعرف قامة الأخير وصوته.. أعرف حضوره الأسود القاتم...

من أنت؟

- «أبي!»

الكلمة تدوي كالصدى، وتتردد عبر السهوب.. يبصقها الثلج وأمواه المحيط...

- «أبي!»

أنا لست أبا أحد.. لماذا تناديني بهذا الاسم؟

- «أبي!»

أنت سمير... أنت الصبي الذي ظفرت به خلال أشهر ابن إليانور الساحرة أو بعبارة أخرى رونيل السوداء.. لقد كان لي ابن لعدة أيام ثم تلاشى...

بلاد القوط الشرقيين...

الرحلة في بحر البلطيق الرهيب الذي يقع بين (ألمانيا) و(فنلندا) و(الدنمارك) و(السويد) و(أستونيا) و(بولندا) بحر العواصف الذي لا يرفق بالسفن أبدًا.. تربطه قناة (القيصر فلهلم) ببحر الشمال الأسطوري..

بحر ثائر متوحش لا يمكن التنبؤ به مثل.. مثل (رونيل) السوداء..

الجزيرة. الجزيرة الى يتطير البحارة من ذكر اسمها...

هناك كنت مقيدًا.. وهناك كان سمير مقيدًا.. وهناك قيدت رونيل السوداء نفسها بالأصفاد وأحرقوها... لكن التعويذة كانت خطأ...

كانت تريد تحرير الساحر الشيطاني جيلبرت..

جيلبرت المكبل منذ قرون ينتظر لحظة الخلاص...

السحرة وعبدة الشيطان الذين اتخذوا شكل الفئران.. كانوا هم الذين يحيطون بي هناك وهنا...

سمير.. أين سمير؟

- «لن تجد إجابة.. ربما رحل مع هؤلاء القوم الفئران وربما هو سجين مع (جيلبرت).. لن تعرف أبدًا..»

- «أبي!»

- «سمير!.. هذا أنت!»

من الذي كان يظهر في المستشفى؟.. من الذي رأته الممرضة وتلاشى؟ من الذي مزّق المعالج الروماني...

- «سمير.. أنت حي!»

- «ليس بالضبط يا أبي.. إنني سجين في هذا العالم.. منذ فشلت محاولة تحرير جيلبرت صرت أنا وهو هنا.. مكبلين.. ظلي يسقط في عالم البشر ويمكنني أن أفعل أشياء كثيرة، لكني لن أغادر هنا أبدًا... سوف أبقى معلقًا إلى يوم الدينونة..»

- «من قتل المعالج؟ هل كان هذا أنت؟ أنت من خرج من المرآة؟»

- «لم يكن أنا.. كان ظلي الساقط في عالمكم...»

- «ولماذا فعل الظل ما فعله الظل؟»

- «لأن الكتاب ثمين.. وما كان لك أن تسمح بأن يستولي عليه النصاب.. هذا الكتاب قادر على تحريرنا.. هذا الكتاب له عشرات الأذرع إنِّه مخيف.. وأنت عقدت صفقة مع نصاب كذوب. ما كان بوسعي أن آخذ الكتاب لكن بوسعي أن أمزق النصاب تمزيقًا...»

- «ولماذا الآن؟ ظللت غائبًا هذه الأعوام ثم قررت الاتصال..»

- «لأنك بين عالمين يا أبي.. لك قدم على الأرض وقدم على حافة الأبدية... أنت قادر على العبور إلى عالمي.. قادر على سماعي... وعما قريب ترحل إلى عالم آخر.. لن أتبعك وقتها..»

- «وكيف تتحرر؟»

- «عليك أن تجد السبيل يا أبي.. سوف تجد السبيل يا أبي لقد أخفي كاتيوم السبيل وجعل من العسير أن تجدني أو تجد جيلبرت، لأنّه يريد الانتقام. إنما ترك لك أتباع جيلبرت الرموز التي تقودك للحل. لو استطعت حل الرموز فلسوف تصل إلى محبسنا...»

- «ووقتها؟»

- «وقتها تقوم بالتضحية الكبرى...»

وبدأ الظل يرتفع في الأفق وسط الأضواء والسحب والغيوم، ومن الأرض تعالى دخان أخضر غريب مخيف.. وسمعت صوته يصرخ:

- «حررني يا أبي... أن أهبط على ثرى الأرض أو ألحق بك في عالم الفناء.. هذا أهون وأحب إليَّ من هذا السجن الأبدي.. حررني يا أبي..»

✷ ✷ ✷

- «داسيوس ريانوس هلكعال جيلبرت!!»

✷ ✷ ✷

كنت على الثرى وسط الدخان الأخضر...

كنت أسمع صوت الفتى يناديني:

- «حررني يا أبي..»

نداء الدم هو ما يحركني، أمّا عن الحب الأبوي فأنا لم أعرفه بما يكفي قط.. كانت تجربة ملعونة، لكن هذا الفتى برغم كل شيء يحوي جزءًا من جيناتي... كان يمكن أن يكون لي بالكامل لو تزوجت بطريقة عادية، لكنه يحمل كذلك جينات رونيل السوداء.. ربما كل جيناتها، وهذا يجعله مرعبًا..

هل يعبث بي؟

كنت على الثرى وسط الدخان الأخضر..

هناك وجدت تلك الدمية.. دمية فتيش قماشية.. لا يمكن أن أخطئ في تمييز هذه الأشياء. دمية فتيش بدائية مخيطة بشكل فظ أخرق، ويخرج منها قش وشعر.. لا بد أنها محشوة بأظفار..

هناك أشياء متناثرة في هذا العالم، لا يبدو لي أنها تركت بمحض الصدفة. ثمّة رسالة لكني لا أعي ما هي...

من أجله يجب أن أعرف....

- 1 -

ما زلت لا أعرف:

هل هو سعار في الضياء؟ أم سعار في الفجر؟ أم هو سعار في العتم؟

الإجابة تقرر كل شيء..

✷ ✷ ✷

يا لوعيي المضطرب..!!!

المورفين والميدازولام يفتكان بعقلي فعلًا، ومن جديد أشعر بأن كل ما عشته وعرفته كان هلوسة ربما أنا أحتضر بالسرطان منذ البداية، وكل هذا الذي عشته كان حلمًا طويلًا معقدًا...

لكني آخذ شهيقًا عميقًا وأحاول العودة لوعيي... أنا موجود ذكرياتي هي ذكرياتي وليس هوسي...

أنا ما أعرفه عن نفسي بالضبط...

اليوم زارني عادل صديق الصبا.. لا بد أنه مساعد وزير الداخلية أو وزير الداخلية نفسه الآن. شائب الشعر مجعد الوجه ترهقه المسئوليات. من جديد يكرر عرضه بأن يسعى في سفري للعلاج بالخارج، لكني أقسمت له أن العلاج واحد.. لا يوجد ما يمكن عمله، وأطباء المستشفى هنا أكفاء فعلًا.

ما زال عادل هو عادل.. تؤرقه الرغبة في عمل شيء ما.. أي حركة في أي اتجاه..

تبادلنا الحكايات عن الماضي. وحكى لي عن هويدا وأولادها الذين تزوجوا منذ أعوام....

عندما نهض ليرحل، انحنى وعانقني بقوّة وقال:

- «في الزيارة القادمة ستكون حيًّا... ستكون أفضل.. هه؟»

- «حاضر.. ثق بي.. سأكون ذا شعر ناعم غزير كذلك ولربما صارت عيناي زرقاوين..»

- «سيكون هذا رائعًا..»

ثم انصرف. وجلست بعض الوقت أنظر في الاتجاه الذي ذهب فيه.. السفينة تبتعد وعليها كل رفاقي وأنا في البحر وحدي خذوني معكم.. يا حمقى...

قصة أخرى تداعب ذاكرتي الآن....

✷ ✷ ✷

مجموعة النداء الثاني:

أشيوست ديمترا - أرسادوك

(في وجه القمر)

إينياس (تعمل وحدها دون معين)

لا تحاول ترديد هذه العبارات بصوت يعلو على صوت وجدانك إلا بنية الاستعمال.. فيما عدا هذا تتم القراءة سرًا وبالعينين فقط...

✷ ✷ ✷

حضرت هذه التجربة عندما كنت في لندن منذ أعوام...

لا بد أنني كنت مع مجموعة من المختصين بعوالم الخوارق والظواهر الفورتية. المشكلة هي أنهم يضعونني دومًا في هذه المجتمعات ويدعونني إلى إبداء الرأي.. الفكرة هي أن إبداء الرأي صعب جدًّا في هذه الأمور، لكن لي مزية واحدة مهمّة هي أنني صرت خبيرًا بالنصب.. أشمه وأشعر به بسهولة باختصار صار من العسير خداعي...

بهذا كنت ألعب الدور الذي لعبه بعد أعوام جيمس راندي، ولعبه هوديني في بداية القرن العشرين.. دور الـ Debunker أو كاشف الخداع..

كان هناك بروفسور - لا أدري في أي شيء بالضبط - اسمه (ردیارد ریدنج).. وهو رجل بدين متحذلق أصلع الرأس وله سوالف منفشة، لهذا يذكرك جدًّا بقردة البابون..

وكان هناك خبير تنويم مغناطيسي اسمه (جون ويتلاند) رجل نحيل عصبي لكن له عينان ثاقبتان قويتان، تميزان مهنته.. كل منوم مغناطيسي عرفته في حياتي كانت عيناه كالمثقابين سواء كان صادقًا أم نصابًا....

كان ويتلاند منومًا ذائع الشهرة، وقد حقق نجاحًا عظيمًا في أوروبا وقام بجولات إلى العالم الجديد. لما سمع الجميع عنه وعن قدراته الخارقة دعاه العلماء إلى أن يريهم فنونه عن قريب..

قال لي البروفسور ريدنج وهو يغمز بعينه:

- «سوف ترى.. لن يجرؤ على الحضور. جمهور هؤلاء ليسوا من العلماء المدققين، بل من الجمهور العادي الأبله قليلًا الذي يؤم المسارح...»

هززت رأسي.

لم أعد واثقًا من شيء في العالم، لذا أفضل أن أنتظر وأرى..

جلست على مقعد وثير أدخن السيجار الذي قدموه لي. موضوع السيجار مهم جدًّا في الأندية البريطانية المتحذلقة...

فجأة سمعت شهقات عندما دخل ويتلاند المكان ومعه امرأة جميلة شاحبة الوجه. مناسبة جدًّا كي تكون زوجته، وتذكرت مقولة أن الزوجين يبهتان شكلًا على بعضهما..

حيانا ويتلاند وقدم لنا السيدة.. ويلما زوجته التي تساعده في العروض. تذكرت زوجة هوديني على الفور.. لا بد أنها مخادعة مدربة على هذه الألاعيب..

التف العلماء حول ويتلاند. شرب كأسًا من الكوكتيل ودخن سيجارًا.. ثم طلب أن نخفض الإضاءة.. هو بحاجة لهذا بشدة..

انخفضت الإضاءة أكثر فأكثر.. صارت درامية جدًّا وظلت بقعة نور على عيني المرأة الواسعتين المخيفتين، وبقعة نور أخرى على عيني المنوم..

الحقيقة أن الأمر بدا لي كأنه صراع بين وحشين.. وحشين لهما شكل العيون. فقط هناك عينان ترغبان في التهام عينين أخريين.. تحول كل من الرجل وزوجته إلى بقعة في الظلام...

قال لها بصوت عالٍ:

- «راقبي عيني يا ويلما.. لا تنظري إلى أي شيء آخر لا تفكري في شيء آخر..»

رأيت المرأة جاحظة العينين، ثم بدأ جفناها يثقلان.. إنها تدخل سباتًا واضحًا....

هذا العلم المعقد أو شبه العلم الذي ابتكره الألماني فرانتس.. لفظة (مسمرة Mesmerism) دخلت كل اللغات الغربية بمعنى (الغائب عن الوعي شبه المنوم مغناطيسيًا).. فكرة المغناطيسية الحيوانية.. هذا موضوع يطول شرحه..

لكن ما الجديد الذي يقدمه هذا الرجل؟ الكل يفعل ما يفعله.. من النادر أن تقابل اليوم من لا ينوم الناس مغناطيسيًا.. أنا الأحمق الوحيد الذي لا يفعل..

قال لها بصوت هادئ مخيف:

- «ويلما.. هل تسمعينني؟»

- «نعم..»

قالتها بصوت جدير بامرأة نائمة مغناطيسيًا..

- «هل أنت مستعدة؟..»

- «نعم..»

- «عندما أفرقع بأناملي ستموتين... تموتين تمامًا إلى أن تسمعي كلمة (استيقاظ)...»

ارتجفت رعبًا.. هذا هو الجديد إذن هذا هو الجديد إذن... لكن هذا اللعب السخيف على الحدود الفاصلة بين عالمين أمر مرعب فعلًا.. سوف تحترق أناملكم..

كان قد فرقع بأنامله.. فعلًا.. كليك...

هنا سقطت المرأة من على المقعد..

- 2 -

عسى أن يقبض أفعوان على أفعوان..

✷ ✷ ✷

عادت الإضاءة لقوتها الأولى، بينما تعاونوا على وضع السيدة على سرير كشف.. والتفوا حولها. ناولني أحدهم جهاز قياس ضغط ومسماعًا باعتباري الطبيب الحقيقي الوحيد هنا، بينما قام آخر بتوصيل أقطاب جهاز تخطيط القلب...

لم أكن أعرف ما أبحث عنه حقًّا، لكني لففت جهاز الضغط و... فس فس فس....

لا شيء.. أصوات كوروتكوف المألوفة المحببة غير موجودة هنا..

هنا فتحت عين السيدة وسلطت ضوء كشاف صغير عليها الحدقتان واسعتان لا تستجيبان...

وضعت المسماع على موضع القلب بالضبط.. لا شيء..

نظرت لهم في ذهول ونظرت للمنوم الذي وقف يبتسم في ثقة، ثم مددت يدي أفرد شريط تخطيط القلب.. خط واحد مستقيم هذا قلب بلا كهرباء....

قلت وأنا أجفف عرقي:

- «لا أدري.. هذه السيدة ميتة!»

قال ويتلاند وهو يضع قبضتيه في خصره:

- «بالطبع.. هل كنت تشك في هذا؟»

سألني البروفسور ريدنج:

- «ما احتمالات وجود خدعة يا دكتور رفعت؟»

نظرت له وابتلعت ريقي:

- «لا توجد حيلة تخفي ضربات القلب.. تمنع التنفس تشل حدقة العين.. حتى لو افترضنا أن جهاز التخطيط وجهاز الضغط مزيفان..»

- «إذن هي ميتة؟»

عاد ويتلاند يقول في غيظ حقيقي:

- «يا سادة قلت هذا مرارًا....»

سأله أحد الواقفين:

- «هلا أعدتها للحياة؟.. أخشى أن يفتك بها نقص أكسجين الدماغ أو شيء كهذا....»

- «ليس قبل أن تسجلوا هذا المشهد.. أنتم شهودي لدى المجلات العلمية..»

قالوا في لهفة:

- «نحن شهود.. نحن شهود..»

في ثقة قرب يده من وجه السيدة وطرقع بإبهامه والإصبع الوسط كليك.. وهتف:

- «استيقاظ!»

شهقت السيدة بقوّة كأنها حوت يغرق.. ثم فتحت عينيها المخيفتين.. ورأيت في ذهول أن تخطيط القلب بدأ يتشكل.. قمت بقياس ضغط الدم فوجدته 70/110.. إنها كائن حي..

نهض ويتلاند في ثقة وطلب كأسًا آخر للسيدة...

✷ ✷ ✷

وقفت مع البروفسور ريدنج في الشرفة.. كان مفعمًا بالحيرة وكنت مفعمًا بالأسئلة. قلت له إنني شاهد على كل شيء لكن لا تفسير لدى.. يمكن القول إن السيدة لم تمت لكن أجهزة جسدها توقفت عن العمل تمامًا...

لحق بنا ويتلاند نجم الساعة.. قال لنا: إن ما حدث ليس جديدًا..

حكى لي عن تجربة علمية مسبقة حدثت عام 1835. سمع مهراجا (لاهور) عن فقير هندي اسمه (هاريداس) ظل حيًّا عدة أعوام بعد دفنه.. وقد كرر الرجل التجربة أمام المهراجا، ووجد الأطباء الذين فحصوه قبل التجربة أن الرجل قطع عضلات لسانه ليسمح له بأن ينثني للخلف ليسد مجرى الأنف، وفي اليومين اللذين سبقًا موعد الدفن لم يأكل شيئًا إلا اللبن والزبادي (يوجورت)، ثم في آخر يوم راح ينظف مجراه الهضمي بطريقة اليوجا كأن يبتلع شريط قماش طوله 27 مترًا ثم يخرجه من فمه ثانية. ثم سد فتحات أذنيه وأنفه بالشمع، حتى لا تدخلها الحشرات. وجلس في

وضع القرفصاء. هنا لم يعد نبضه محسوسًا. لفوه في البياضات ووضعوه في صندوق.. وضع عليه المهراجا خاتمه. ودفن الصندوق وزرعوا فوقه الشعير. ثم تم بناء سور وأحاط به الحراس.

بعد 14 يومًا تم هدم الجدار وفتح الصندوق فوجدوا هاريداس في الوضع ذاته. وخلال ساعة أفاق وصار بصحة طيبة. حاكم البنجاب (رونجيت سنج) قدم هو الآخر عرضًا ظهر في مجلة طبية رصينة في ظروف لا تسمح بالخداع.. لقد تم حبس الفقير داخل صندوق في حفرة. لم تكن هناك دقات قلب برغم أن جسده كان دافئًا. ثم أخرجوه فبدأ يدخل في تشنجات وعاد له التنفس.

كان كل هذا يبدو غريبًا بالنسبة لي.. رأيت الكثير لكني لم أر هذا من قبل...

قلت له في شرود:

- «هذا يذكرني بالجعران Scarab.. لقد استرعي انتباه قدماء المصريين لأنّهم كانوا يعتقدون أنه يموت ثم يبعث من جديد..»

نظر لي في إعجاب وهز رأسه:

- «جعران.. فعلًا.. هذا أدق وصف ممكن.....»

لقد نال تصديق العلماء وثقتهم، لكني لم أستطع أن أستريح لا بد من تفسير ما....

على كل حال لقد أوشكت أيامي في إنجلترا على الانتهاء هذه المرّة.. بقي لي أسبوعان. سيكون عليه أن يجد شخصًا غيري يفضح أمره!

- 3 -

حادث مروع وقع لصاحبنا..

كنت أعرف أنّ هذا اللعب بالنار سوف يؤدي إلى كارثة.. لا أحد يعبث على الحدود بين الحياة والموت وينجو...

لقد قدم لعبته أو تجربته هذه عدة مرات.. وفي ظروف علمية محكمة..

يقول ريدنج إن الرجل نوم زوجته مغناطيسيًّا ثم همس لها بشيء ما بعدها دخلت في طور الموت المعتاد وتم إجراء التجارب عليها.

قال لها: استيقاظ..

وفرقع بأنامله فلم تصح كرر الطلب عدة مرات فلم تصح..

فجأة انفجر يصرخ ويلطم خديه:

- «أنقذوني!... إنها لا تفيق!... ويلما قد ماتت فعلًا!!!..»

حاولوا أن يعيدوها للحياة، واتصلوا بالإسعاف.. لا جدوى.. ساعة كاملة مرّت في محاولات خرقاء للتنفس الصناعي وصدمات القلب.. لكن لا جدوى..

انتزعوه من جوارها وهو يصرخ.. لم يكف عن اعتبار أنه هو من قتلها.. راح يلثم أناملها ويحاول أن يلثم قدميها.. وفي النهاية أجلسوه بعيدًا..

لقد انهار تمامًا.... ولا ألومه على ذلك..

✷ ✷ ✷

بعد يومين اتصل بي بروفسور ريدنج وقال: إنّه يريدني أن ألحق به في مستشفى (رويال فري) في هامبستيد هناك شيء يجب أن أعرفه..

ثم أضاف بلهجة ذات معنى:

- «ويتلاند قد مات مساء أمس..»

ما هذا؟... لم أتوقع أنه يحبّ زوجته بجنون لهذه الدرجة.. لم أعتقد أنه نموذج للإخلاص. الأزواج الذين يموتون بعد وفاة زوجاتهم بيومين هم أشخاص نادرون... لكن لماذا المستشفى إذن؟.. الموتى لا يعالجون في المستشفى على قدر علمي...

ذهبت إلى المستشفى المذكور. قابلت ريدنج هناك..

قال لي وهو يتقدمني إلى غرفة جانبية:

- «الفتاة في حالة انهيار عصبي تام.. لكنّها تحكى قصة غريبة. أعتقد أنها جنت...»

- «فتاة؟»

- «نعم.. سكرتيرة ويتلاند.. اسمها دوروثي..»

دخلنا الغرفة لأجد فتاة رائعة الجمال.. أجمل وجه رأيته في بريطانيا منذ فترة، لكنّها كانت في حالة عصبية سيئة. قلت لنفسي إنِّه غرام السكرتيرة المعتاد بمديرها.. لم تتحمل أن يموت بهذه السرعة.... هذا رجل محظوظ مع أنه مات....

لكن ريدنج جلس جوارها على طرف الفراش وعاد يسألها:

- «دوروثي.. لا أريد أن أذكرك بما حدث.. لكن لا بد أن يسمع هذا السيد قصتك..»

قالت وهي ترتجف والدمع يسيل كصنبور من مقلتيها:

- «المقبرة.. أخذني جون ويتلاند لنزور المقبرة في الليل... كان يضحك وقال لي: إن ويلما قد ماتت بحق هذه المرّة... لم تعد مثل الجعران... وراح يكرر: الجعران.. ها ها.. الجعران.. هاها...»

ثم غطت وجهها في الملاءة وانفجرت في بكاء هستيري:

- «انشقت الأرض.. فجوة حدثت وسط التراب الذي يغطي القبر.. كانت هناك يد.. يد أطبقت على كاحل جون.. صرخ وحاول التراجع، لكن اليد كانت قوية كالكماشة.. وأعتقد أنها جرته معها تحت التراب.. سمعته يصرخ ويحاول المقاومة.. كان الظلام دامسًا فرحت أجري بحثًا عن نجدة.. تعثرت مرارًا.. ثم فقدت رشدي.. عندما عدت للوعي عرفت أنهم وجدوا جثة ويتلاند جوار القبر.. لقد اصطدمت رأسه بشاهد القبر.. و.. مات.....»

هنا دخلت الممرضة وطلبت منا أن نكتفي.. الفتاة مرهقة ونحن أوغاد...

خرجت ورأسي يدور وقلت لريدنج:

- «هل فهمت؟»

- «لا..»

- «ألم تدرك أنه كان علاقة حب مع سكرتيرته؟»

- «هذا واضح.. ولكن؟»

- «وضع خطة ممتازة للخلاص من زوجته ويلما بحيث لا يتم توجيه أي اتهام له. أجرى هذه التجربة مرارًا وكان يأمرها أن تصحو كلما قال (استيقاظ)... في هذه المرّة قال لها: إنها ستعود للحياة لو لفظ كلمة (جعران). أنا أوحيت له بهذه الكلمة عندما كلمته عن قدماء المصريين.. ويبدو أنها تركت أثرًا عميقًا في نفسه. لم يقل لزوجته أثناء العرض لفظة (جعران) بل استعمل اللفظة القديمة (استيقاظ). لم تفق طبعًا واعتبرت ميتة.. لقد قتلها بدم بارد ووقف متظاهرًا بالتأثر أثناء دفنها وبكى كثيرًا جدًّا.. تعلّمت أن هؤلاء القتلة يبكون من التوتر فيحسبهم الناس يبكون بسبب الثكل. بعد يومين جاء ليلًا مع السكرتيرة ليحتفل بالخلاص من زوجته.. وعلى سبيل المرح راح يردد لفظة (جعران) ساخرًا من زوجته وهو واقف على قبرها ما حدث هو أنها سمعت اللفظة التي تجعلها تعود للحياة!»

اتسعت عينا البروفسور في رعب وقال:

- «هل تمزح؟.. هل تدرك معنى ما تقول؟.. هذا هذيان..»

- «هل تجد تفسيرًا أفضل؟.. على كل حال سيكون الأمر هينًا.. لو نبشتم القبر ووجدتم أن الجثة نزعت الغطاء عنها فأنا على حق لقد انتقمت الزوجة من الزوج القاتل ثم عادت للموت..»

- «ولماذا عادت للموت؟»

- «ربما كانت تجربة الدفن أقوى منها....»

والعبرة الأخلاقية المستفادة من هذه القصة، هي ألا تلفظ كلمة (جعران) جوار أي قبر.. خصوصًا إذا كان قبر زوجتك التي قتلتها...

- 1 -

أي هدية تقدمها إلى الموت يوم يقدم ليقرع بابك؟ آه، سأضع أمام زائري كأس حياتي المترعة ولن أدعه يعود فارغ اليدين.. كل قطوف كرومي العذبة، من أيام خريفي وليالي صيفي.. كل حصاد حياتي الدءوب وجناها، سأضعه أمامه، حين ينتهي أجل أيامي، يوم يقدم الموت ليقرع بابي..»

طاغور

✷ ✷ ✷

أعتقد أن وعيي ينسحب فعلًا..

من وقت لآخر أفيق لأجد نفسي في الفراش.. أنظر للساعة لأكتشف أن أربع ساعات قد مرّت. متى؟.. ماذا فعلت فيها؟ لا أذكر.. لا بد أنني أجلس مفتوح العينين في غيبوبة Coma Vigil فيخيل لمن يراني أنني متيقظ..

هذه علامة مهمّة.. الثانويات تزحف على مخي.. ستكون الغيبوبة قريبة..

جلست في الفراش ورحت أكتب بسرعة البرق ما أستطيع تذكره في أي اتجاه وأي مكان.

جاء عزت حاملًا بعض حلوى جوز الهند - يطلقون عليها (الحمام) - وأصر على أن ألتهم بعضها فأنا أفقد وزنًا بلا توقف. لو كانت المشكلة تحل بقطعتين من الحلوى لكانت الحياة رائعة..

ملأت فمي بالحلوى.. فقال لي:

- «يجب أن تتحسن من أجل ماجي.. إنها لا تنام. تشرب القهوة كأنها الماء.. أمس سقطت مغشيًّا عليها من الإرهاق وهي جالسة في الاستراحة...»

توترت ونهضت..

وهذا هو ما أمقته.. لا أطيق أن يعاني شخص من أجلي. في كل مغامراتي ومحنتي كنت أفضل أن أكون وحدي حتى لا أرهق شخصًا آخر بمشاكلي.. أرهقه وأتحمل مسئوليته... هذا عسير فعلًا..

لكن كيف أتحسن؟.. لقد حاولت.. يعلم الله أنني حاولت..

سألت عزت:

- «أين هي الآن؟»

- «في الفندق.. قد أرغمناها على العودة...»

تمددت في الفراش.. أغمضت عيني ورحت أفكر في عمق....

لا أدري متى ولا كيف تم الانتقال.....

فجأة عدت لذلك العالم. هل هو عالمي الحقيقي؟.. ربما كان كذلك... ربما هو الموضع الذي جئت منه. ربما وجودي في عالمنا هذا مجرد ظل كما قال سمير؟

عزت يسألني:

- «ألست نادمًا يا رفعت على أنك لم ترزق بابن؟.. لماذا لم تأت للعالم بواحد؟»

نظرت له ولم أرد...

الحقيقة أنني فعلت ذلك فعلًا. لكنّها أبوة معطلة من طراز غريب..

✷ ✷ ✷

وداعًا يا صديقي المخلص

لقد عرفنا بعضنا منذ كنا في سني التاسعة والعاشرة..

معًا تسلقنا الجبال والأشجار..

تعلّمنا الحب وتعلمنا حروف الهجاء..

خدشنا قلبينا.. وخدشنا ركبتينا..

وداعًا صديقي.. عسير أن يموت المرء

بينما الطيور تغرد في السماء

لأن الربيع يفعم الجو الآن..

الفتيات الجميلات في كل مكان..

فكر فيَّ وسأكون هناك.

أغنية لتيري جاكس

✷ ✷ ✷

كنت أواصل المشي مبتعدًا عن مكان اللقاء..

الأرض لا أراها.. هناك طبقة كثيفة من غاز أخضر بنفسجي تغطي قدمي، وهو شعور مقلق لأنني لا أعرف ما الذي أدوس عليه فعلًا...

صف من بنات آوى تسد عليَّ الطريق وهي تصدر عواءً طويلًا.. صدق المصريون القدماء عندما اعتبروه إله التحنيط ورمزوا له بأنوبيس. بالفعل هو كئيب مقبض يرتبط بالمقابر..

أحاول أن أدور حول ذلك الموضع.. ثمّة ربوة أتسلقها ببطء..

ثم أفطن إلى أنها تذوب تحت قدمي.. ليست ربوة بل هي ملايين الديدان الطويلة المتلاحمة التي حسبتها جسمًا صلبًا إنها حية...

إنها بشعة متعطشة للدماء، ومن فم كل دودة تخرج دودة، ومن فم الدودة تخرج دودة أخرى بشكل تليسكوبي مريع.. أنت لا تعرف التاليسات أيها الفاني ومن حسن حظك أنك لا تعرفها لكن من الواضح أنها هذه.. أنت تعرفها الآن. التاليسات.. يُمكنك أن تعرف الهول عندما تراه...

تدحرجت على الأرض بينما الربوة تتفكك وتحاول أن تحيط بي... هذه ميتة شنيعة أن تجد نفسك مغلقًا بملايين الديدان مصاصة الدماء وسط الضباب الأخضر... لن تقف على قدميك ثانية أبدًا...

لكن معنى كلام من كان يخاطبني أنّ هذه الكائنات موجودة في عالم البشر.. لكن أين؟

عندما تدحرجت قبضت يدي على شمعدان.. شمعدان عتيق الطراز لا أعرف كيف وجد هنا.... هل هو سلاح ما؟.. كيف يكون الشمعدان سلاحًا؟

و.. ثم بدأت فكرة تتردد في ذهني....

نظرت إلى الأفق وحاولت أن أستوعب الاتجاهات...

متى بدأ كل شيء..؟

أين الشجرة؟.. أين القلعة؟... أين أنا الآن؟

ثم خطر لي أن أمشي بضع خطوات في اتجاه قدرته لنفسي... لقد زال الضباب عند قدمي، ويمكن أن أدرك أنني أمشي على عشب أحمر لين ينزف شيئًا كالدم عندما تهرسه...

عيناي تفتشان في عمق...

وسمعت الصوت يتردد:

- «أنت في الطريق الصحيح.. سوف تراه الآن....»

هنا وجدت ما أبحث عنه..

الجعران المدفون وسط العشب.. جعران فرعوني من حجر أخضر لا أعرف ما هو بالضبط لأنني لا أملك خبرات جيولوجية كافية... هل هو بازلت أم يشب أم..؟... لا بد أنه من الشازيمايت.. ما هو الشازيمايت؟.. لا أعرف.. لقد ابتكرت الاسم بنفسي..

التقطته ووضعته في كفي...

شجرة.. جعران شازيمايت... جيتار.. بلطة..

شمعدان... شملة أو تلفيعة.. دمية.

يد مبتورة...

هذا غريب لكنّها الحقيقة..

كل رمز من هذه الرموز جاء من قصة من القصص التي تتردد في ذهني مؤخرًا، كأنها وسواس هناك من يذكرني بهذه القصص بلا انقطاع...

الشجرة كانت في قصة مغيري الأشكال..

الجعران المصنوع من الشازيمايت في قصة الزوجة المنوّمة مغناطيسيًّا..

الجيتار من قصة أسرة كامنجز...

البلطة من زنزانة خريولسن..

الشمعدان من سهرتي في بيت بورلي..

التلفيعة في قصة المزييرة..

الدمية هي دمية السحر الذي لحق بالمهندس في البرازيل..

اليد المبتورة كانت في مرسم كراكوس...

إن هذه الأشياء مبعثرة حول شكل هندسي معين... لو كانت حساباتي صحيحة فلسوف أقابل المرآة بعد قليل..

مشيت مسافة لا بأس بها.. أنظر من حولي وأتفحص الأرض..

في النهاية وجدت المرآة على الأرض.. مرآة مهشمة لكنّها كافية لتثبت صحة نظرياتي.. المرآة التي جاء منها الفتى الذي زعم أنه من أطلنطس...

إن الرموز التي تركها لي جيلبرت دقيقة فعلًا..

الأهم أن الأشياء مبعثرة بالضبط على حدود مثلث شاسع متساوي الأضلاع.. تذكر مثلث برمودا..

لو كانت ظنوني دقيقة للنهاية، فالشيء الذي يريدون أن أجده موجود في مركز المثلث...

ولكن ما هو؟

✷ ✷ ✷

كنت في الفراش أرتجف وأئن.. العرق يبلل الوسادة...

لا أعرف ما هو هلوسة وما هو حقيقي...

هناك قصة أخرى تتداعى إلى ذاكرتي...

لماذا أتذكرها الآن؟

- 1 -

- «هناك الزيجول الذي يلتهم طبقات الجلد ثم العضلات ويترك الأعصاب ملتهبة حارقة حتى آخر لحظة... هناك الريموزا الذي يتم إدخاله في فم الضحيّة.. تتزايد حرارته مع الوقت حتى يتحول إلى نار محمية تشتعل في أحشاء الضحيّة.. هذا موت بطيء يستغرق عدة ساعات هناك ديدان الناكاخ التي تقتحم الرأس من الأنف، وتشق طريقها في جمجمة الضحيّة حتى المخ مدمرة كل شيء تقابله..»

✷ ✷ ✷

قال ماكلويد وهو يطفئ النور:

- «الآن سوف أربطكما معًا بجنزير من الفضة... وهذا الجنزير ينقل الطاقة الحيوية من واحد لآخر...»

قال (آرثر):

- «هل أغمض عيني؟»

- «لا بأس.. إن الظلام يجعل الأفكار أكثر حدة.. في الظلام تصل للحقيقة بسرعة..»

وهكذا أغمض الرجلان عينهما برغم أن الضوء كان خافتًا فعلًا...

✷ ✷ ✷

كان ماكلويد من الشخصيات العجيبة التي عرفتها في حياتي. لدي متحف ممتاز في ذاكرتي أحتفظ فيه بأغرب الشخصيات وأغرب الأطوار.. لا شك أن الرجل له مكان بارز في ذلك المتحف. لو كان العمر قد امتد بي وأتيحت لي الفرصة لأوقفت كل هؤلاء في معرض، بدءًا بعزت جاري وانتهاء بماكلويد.. لو حصلت على جنيه عن كل جولة في هذا المتحف لصرت مليونيرًا منذ زمن...

من هؤلاء الذين عرفتهم في لندن في تلك الفترة الحافلة من حياتي، كان البروفسور (جون ماكلويد)... ككل الآخرين هو بروفسور في شيء لا تعرف ما هو بالضبط... دائمًا تكون هناك

رحلة لرومانيا أو بلغاريا.. يبدو أن شهادات الدكتوراه تباع هناك على قارعة الطريق.

ثم يعود الرجل ويعذبنا بغرابة أطواره... ويرينا أغرب الأشياء طرًا..

هكذا أنت تعرف نمط ماكلويد...

أمّا عن شكله فهو في الستين من عمره بدين مستدير ككرة.. وفخور بنفسه جدًّا...

في أمسية شبيهة بأمسية التنويم المغناطيسي تلك، استدعوني الحضور تجربة مثيرة يقدمها هذا الماكلويد..

قال لنا: إنّه كان تلميذ المشعوذة الشهيرة هيلين بلافاتسكي وقد ذهب معها إلى التبت ورأى معها كتاب ديسان المخيف..

أنت تعرف أنّ هناك كتابًا دائمًا...

قال: إنّه تعلم هذه الطريقة من أحد رهبان التبت..

- «كان البطل أيبار واهن الجسد ضعيفًا برغم أن له قلبًا من ذهب.. بينما الأعداء يهاجمون قريته ويحرقونها، هكذا ذهب لأحد الرهبان كي يبدل وعيه مع وعي أسد الثلوج. هكذا صار أسد الثلوج يملك عقل وعواطف أيبار، لكنه بالطبع قوى شرس فتاك... وقد خرج على الأعداء فمزقهم وأنقذ قومه.. هذه هي الأسطورة.....»

ثم أضاف وهو يقف أمامنا مستعرضًا كرشه العملاق:

- «تعلّمت هذه الطريقة وأعرف كيف أطبقها...»

سأله البروفسور ريدنج في شك:

- «وماذا حدث لأيبار الذي صار يحمل عقل أسد الجبال؟»

ابتسم ماكلويد من الدعابة وقال في كياسة:

- «لم تحك لنا الأسطورة كل التفاصيل...»

- «وأنت تزعم أنها ليست أسطورة...»

- «بالضبط..»

التففنا حوله وظهرت كاميرات تصوير عديدة.. لم يكن هناك تصوير فيديو في ذلك الوقت، لكن أحدهم قام بتشغيل كاميرا سينمائية من سعة 8 ملم..

قدم لنا البروفسور المتطوعين:

- «آرثر باكستر... مهندس... 35 سنة.. عزب...»

كان آرثر مهندسًا في الخامسة والثلاثين وعزبًا كما لا بد أنك لاحظت... له شعر ثائر منكوش يذكرك بعلماء الذرة في أوائل القرن الماضي..

- «مورجان داوسون محام في الخمسين من عمره.. متزوج...»

كان مورجان محاميًا في الخمسين متزوجًا كما لا بد أنك لاحظت.. أصلع الرأس له ذقن مزدوجة مضحكة.. وهو من الطراز الذي يتعرق بلا توقف... يمكنني القول إن ضغط دمه مرتفع.. لا أعرف كيف عرفت هذا لكنه انطباع معين....

هنا تدخلت في المحادثة:

- «لحظة.. لماذا يرغب هذان السيدان في تجربة كهذه؟»

قال ماكلويد:

- «سوف أسمح لنفسي بالإجابة عن هذا السؤال إنهما يعانيان مللًا شديدًا ويرغبان في تجربة شيء جديد تصوّر نشوة وإثارة أن تجرب بضعة أيام في ثياب وحياة شخص آخر؟»

قلت وأنا أتمالك نفسي كي لا أنفجر من فرط العصبية والغيظ بسبب عدم التصديق:

- «لكن هذا يجلب مشاكل قانونية لا حصر لها هل سيتولى داوسون حل قضايا العملاء وهو يحمل وعي مهندس؟... وماذا عن حياة آرثر مع امرأة ليست زوجته لمجرد أنه يحمل وجه داوسون؟ القصة معقدة جدًّا...»

قال ماكلويد وقد بدا أنه تأهب لكل الأسئلة:

- «كل هذه أمور توقعناها ورتبنا لها... هناك عدة محامين يراقبون كل شيء، أمّا عن الزوجة فهي في إجازة خارج لندن.. التجربة سوف تدوم أسبوعًا وبعدها يعود كل شيء كما كان..»

تعالت همهمات الموافقة...

عدت أسأل وقد شعرت أنني صرت أكثر شخص مكروه في هذه التجربة:

- «هل سيتم الانتقال حالًا؟»

- «بل خلال يومين...»

قال ريدنج:

- «الآن يمكننا البدء.. أرجو أن تراقبوا كل شيء هذه تجربة يجب أن نراقبها بعناية ولا نفشلها، لكن لا نسمح لنفسنا بأن نخدع..»

وهكذا بدأت التجربة..

- 2 -

جلس الرجلان متلاصقي الرأسين، بينما راح ماكلويد يلف جنزيرًا من فضة حول جسديهما.. ثم رسم دائرة من طبشور حول مجلسهما هذا وراح ينثر قطرات من سائل من قارورة معه..

بعد هذا أخرج مدية صغيرة وأحدث جرحًا صغيرًا في كف كل منهما.. تماسك الرجلان ولم يصرخا... قرب الكفين ليتلامسا ويمتزج الدمان..

قلت لنفسي: إن هذه الطقوس تماثل طقوس أي ساحر هندي نصاب، عندما يعلن الأخوة بين محاربين.. كنت أتوقع شيئًا أكثر ثورية.. ربما سريرا فحص وخوذة على دماغ كل واحد من الرجلين على طريقة أفلام الخيال العلمي...

الآن هل يرقص حولهما بالرمح وهو يترنم؟

لم يفعل لحسن الحظ.. لقد راح يردد مقاطع رصينة من كتاب (ثليما) لكراولي...

بعد قليل فك الجنزير.. ووقف لاهثًا ثم قال لنا:

- «بعد ثلاثة أيام يا سادة نلتقي هنا.. سوف تدركون بوضوح أن آرثر صار يتكلم كمحام في الخمسين، وأن داوسون صار مهندسًا في الخامسة والثلاثين.. سوف تدركون أن كل واحد صار يحمل ذكريات الآخر...»

كانت الإثارة شديدة وتفرق الجميع وهم يتكلمون ويناقشون ما رأوه..

طبعًا الاحتمال الأكبر هو أننا رأينا عملية نصب ممتازة... بل كل شيء يقول إنها نصب، فكيف رتب أوراقه ليقنعنا بعد ثلاثة أيام؟

سوف نرى.. سوف ترى.

قال لي بروفسور ريدنج:

- «صدقني.. في مهنتي هذه تعلّمت أن النصابين بارعون واسعو الحيلة جدًّا، ويستحقون كل مليم أخذوه.. إنهم أذكى عينة من البشر على الإطلاق وما يحصلون عليه هو مكافأة على عبقريتهم!.. سوف يتصرّف هذا الماكلويد ولسوف تزداد ارتباكًا!»

سوف نرى.. سوف نرى..

✷ ✷ ✷

تشا سارايانا..

كيو سارايانا..

جوانغ سارايانا..

✷ ✷ ✷

الجو يعبق بالدخان والإثارة والثرثرة.. لا أميز لفظة إنجليزية واحدة لأن الكل يتكلم في صوت واحد. هناك صحفيون في مجلات غير محترمة جاءوا بحثًا عن خبر مسل لقارئ تافه...

دنت الساعة فحبسنا أنفاسنا..

وفي لكن ماكلويد جاء وحده.. وحده ممتقع الوجه جاحظ العينين جفف عرقه وقال لنا:

- «داوسون مات فجأة... أول من أمس!»

المحامي الخمسيني مات؟.. كيف؟

- «لم يستطع الطبيب تحديد سبب الوفاة.. كان في حالة صحية ممتازة يمزح مع زوجته ويقرأ الصحف، ثم فجأة سقط رأسه ومات...»

تعالت الشهقات ودوي أكثر من صوت يقول:

- «لا بد أنها تجربتك اللعينة...»

فقط ريدنج تميز ببعض المنطق والهدوء فسأل ماكلويد في كياسة:

- «داوسون مات.. إذن أين آرثر؟ أين المهندس؟»

- «لا أعرف.. إنِّه مختف تمامًا..»

سادت الفوضى.. ونظرت لريدنج في خبث وقلت همسًا:

- «هذا هو التصرف البارع الذي تنبأت به.. تملص من نجاح التجربة بأناقة..»

قال ريدنج وهو يحك ذقنه:

- «لا أدري يبدو صادقًا...»

فجأة خطرت لي فكرة مرعبة....

قلت لماكلويد وأنا أجذبه من سترته حتى كاد يصفعني من هذا التبسط:

- «اسمع... يجب أن نجد آرثر.. أنت قادر على أن تجده.. اطلب الشرطة واسأل في المشارح والمستشفيات..»

ثم صحت في دكتور ريدنج:

- «هات ثلاثة رجال وتعال معي.. أرجو ألا يكون الأوان قد فات..»

- «لماذا تريد رجالًا؟»

- «ليس رجالًا فقط.. بل نريد أدوات حفر كذلك!»

تحركت الأمور بسرعة البرق..

عند المساء عرفنا أن آرثر توفي في حادث سير منذ يومين.. لقد دفنه أقاربه في مقبرة على أطراف لندن. هرعنا إلى هناك وسألنا عن المقبرة..

أخيرًا نقف أمام قبر حديث مغطى بالأزهار، وهناك شاهد قبر رخامي يقول (آرثر باكستر).. وعلى ضوء الكشافات رحنا نزيل التراب عن هذا القبر..

هتف ريدنج وهو يسعل مما ابتلعه من تراب:

- «ماذا تريد إثباته؟»

قلت وأنا مستمر في الحفر وقد أوشكت على الإصابة بنوبة قلبيّة:

- «رجلان تم تبديل وعيهما.. واحد مات بدون سبب واضح.. ماذا تستنتج؟.. معنى هذا أن الآخر هو الذي مات.... ماذا حدث لوعي الأول؟.. صار في جسد الجثة الممزقة في القبر!.. معنى هذا أن أحدهما أفاق ليجد نفسه مدفونًا في قبر تحت الأرض!»

كنا مستمرين في الحفر وقد تقطعت أنفاسنا..

أخيرًا ظهرت الجثة.. جثة الشاب آرثر.. كانت جثة هامدة تمامًا، لكننا أدركنا في رعب أن نظرة هلع واضحة على الوجه وأن اليدين متشنجتان كأنما كان يحاول جاهدًا أن يزيح غطاء التابوت...

كنا نرتجف.. كل شيء يؤكد أنّ هذه النظرية صحيحة..

قال ريدنج وهو يركع على الأرض جوار الجثة:

- «حتى لو كان وعي داوسون في هذا الرأس. فهو لم يكن قادرًا على أن يحرك جسد جثة هشمتها سيارة والسؤال الأفظع هو: هل تعتقد أن وعى داوسون ما زال في هذا الرأس؟ يسمعنا ولا يعرف كيف يخاطبنا أو كيف يخرج مما هو فيه؟»

نظرت له في رعب ونظرت لوجه الميت..

لا أعرف شيئًا.. لا أعرف شيئًا على الإطلاق...

هذا الجزء لم يكتبه د. رفعت بخط يده، ويقال إنّه تم جمعه عن طريقة لوحة الويجا فيما بعد:

هناك في مركز المثلث أقف..

هناك في مركز مثلث الرموز الذي تركوه لي في هذا العالم أقف..

جسدي هناك في المستشفى.. وقد وضعوا قناع الأكسجين على وجهي...

المرقاب يدوي باحتفال قصير لكل ضربة من ضربات قلبي إنّه ما زال حيًّا.. هناك أمل يا شباب..

شياطين جانب النجوم تجلس أمام التلفزيون تشرب المثلجات وتأكل الفيشار، وتهلل مع كل شهقة لم تصدر عني. لا بد أن لوسيفر مسترخ في مقعد وثير يشرب الدم في جمجمة وهو يربّت على كتف ابنه في استمتاع... رفعت يتعذب.. أليس هذا مُضحكًا؟

لكن في الوقت نفسه أنا هنا في ذلك العالم، وبصحة ممتازة.

برغم هذا لم أمت.. ليس هذا هو العالم الآخر.. أنا في عالم مواز غريب الأطوار أواجه لغزًا أخيرًا..

الفئران المشعثة كريهة الرائحة كثيرة هنا... لو أطلقت لخيالي العنان فهؤلاء أتباع جيلبرت كما قلنا. اليوم هم يبتغون أن يساعدوني..

إن تحرر جيلبرت هو كذلك تحرر ابني..

لكنه اختيار مروع.. مروع بحق... أن أطلق هذا الوحش في عالم البشر..

تذكرته عملاقًا مخيفًا لا تتبين وجهه لكنه مقيد في كهف في تلك الجزيرة، وقد كبلت يداه إلى عارضة خشبية كبيرة على كتفيه.. الكثير من الجنازير والقيود والأقفال مشهد من الأساطير الإغريقية..

ترى كيف يبدو كاتيوم أستاذه؟

هناك في مركز المثلث أقف..

أبحث بعيني عن الحل..

تصلبت عيناي على رقعة من الأرض، وعلى الرقعة أزهار جافة وهناك لوحة من الرخام كتب عليها شيء ما...

عندما دققت النظر أدركت أنه قبر..

بل هو ثلاثة قبور متجاورة.. كل قبر عليه أزهار وعليه رقعة رخام هذه هي القصة الأخيرة التي استرجعتها.. كان فيها قبر يشبه هذا..

دنوت أكثر لأتبين المكتوب...

إنّه شاهد قبر عليه حروف عربية.. لكن لا أفهم معناها..

الشاهد الأول: سعار في الضياء

سعار في الضياء؟ لا بد أنّ هذا شيء شاعري.

الشاهد الثاني: سعار في العتم...

الشاهد الثالث كتب عليه: سعار في الفجر..

لا بد أنّ هذا موقف شكسبيري آخر من مواقف الاختيار الشهيرة.. دائمًا ثلاثة خيارات.. أحد الاختيارات صحيح والباقي معناه الهلاك حتمًا.. لماذا أختار نوعًا معينًا من السعار؟

أحد هذه القبور يقود للحل..

أقف هناك والدخان يتصاعد من التربة.. والسماء تسيل من جديد لتصير سائلًا أحمر مقززًا... هناك شمس زرقاء مخيفة غريبة تتوسط الأفق وعلى الشمس رسمت البقع وجه جمجمة..

✷ ✷ ✷

لست عدَّاء ولا ملاكمًا.. لست موسيقارًا أسكب ألحان حبي في أنغام يسمعها الناس ويتساءلون: من هي تلك المحظوظة؟.. لن ترى صورتي في كل الصحف مقرونة بالمديح لتقولي لصاحباتك: هو ذا رجلي.. ومع ذلك تحبينني؟؟

غريبة أنت.. وذوقك أغرب.. لن أفهمك أبدًا.. لكني سعيد وفخور.. وهذا هو كل ما أستطيع قوله الآن...

✷ ✷ ✷

بعد تفكير بدأت أتبين خيط الحقيقة..

الأمر يشبه أسلوب الـ anagram.. أو إعادة خلط الكلمة لتصنع حروف كلمة أخرى.. سعار في العتم... نفس حروف اسم رفعت إسماعيل...

الساحر جيلبرت يقودني للإجابة، وهو بهذا يحاول خداع كاتيوم المخيف.. لا يعرف كاتيوم أن تلميذه المخيف السجين قد ترك لي طريقة إنقاذه كاملة عن طريق الرموز..

سعار في العتم...

رفعت إسماعيل...

هذه وهي الإجابة..

ركعت جوار القبر.. وتحسست الشاهد الرخامي.. إنّه ينفتح..

هناك حفرة تسمح بنزول إنسان.. أعتقد أنني سأكون ذلك الإنسان.. لا شك لدي في هذا....

أسمع الصوت يدوي بلا توقف في ذهني.. يدق كالجرس أو كالطبل.. يدق.. يدق..

- «هذا هو الخيار الأخير... تقدم.. سوف يتحرر ابنك سوف يعود لعالم البشر أو يفنى كالفانين ويصير ترابًا.. كلاهما ضرب من الحرية...»

إضاءة زرقاء غامضة..

أخشى دومًا تلك الإضاءة التي لا يوجد لها مصدر.. تعطيني انطباعًا شيطانيًا مفزعًا..

ما أراه يبدو كمحراب.. محراب تحت الأرض.. هناك ممر طويل وسط صفين من الأعمدة... في نهاية الممر هناك شيء مبهم لا أدري ما هو لكنه ضخم جدًّا...

هناك شموع.. آلاف الشموع لا تدري من أشعلها ومتى ومن أين استمدت الأكسجين، ولماذا تصدر ضوءًا أزرق؟

أنا في عالم يتحدى المقاييس التي نعرفها..

- «تقدم إلى المحراب وضع ما معك.. الأمانة التي أثقلتك عبر الأجيال....»

الأمانة؟

تحسست خصري.. إنني أحمل الكتاب!

هذا الكتاب مثلي قادر على التواجد في عالمين.. نسخة منه في عالمنا على فراش المستشفى، ونسخة منه في عالم مواز غريب!

إذن هي المقايضة.. الكتاب مقابل حرية ابنك..

لو وضعت الكتاب على المحراب فلسوف ينهار الكهف المحيط بجلبرت في تلك الجزيرة في بحر البلطيق.. سوف يتحرر من سجنه ومن أصفاده..

يقولون: إن التاريخ سيتغير..

يقولون: إنها نهاية العالم كما نعرفه..

يقولون: إنها بداية عصر من الشر لم يسبق له مثيل..

وفجأة في ظلام المحراب رأيت ذلك الشبح الأسود فارع الطول... شيء يقف في الظل وكل ما فيه أسود.. ثيابه سوداء.. أفكاره سوداء.. صوته أسود...

بصوت يشبه البر يغريك أن تسمع أكثر، وبلكنة شرق أوروبية، سمعته يتكلم:

- «إنني بلقائك أسعد ولك قلبي يطرب برغم أنها آخر مرة أيها الفاني!»

صحت في هلع:

- «لوسيفر!»

لم يهتم باللياقة أو المجاملة.. قال في إصرار:

- «لا تفعل.. لا تفعل أيها الفاني.. سوف يأخذ منك الكتاب ويسحق ولدك... إنِّه يكذب....»

يا سلام!.. وهل أثق بك أنت؟ هذا مستحيل... كلكم ذئاب جائعة لا تريد سوى الكتاب اللعين...

قال لوسيفر في إصرار:

- «أؤكد لك أنها النهاية.. بي أنت لا تثق... هذا شيء أفهمه.. لكن لماذا به تثق؟؟... من يثق بساحر شرير من بلاد القوط الشرقية سجين منذ قرون؟»

معك حق.. لا أحد....

✷ ✷ ✷

سمبر كريسيس.

أوت دكريسيس

فيتا ديتستابيليس..

نونك أوبدورات

إتونك كيورات

لودو منتيس آسييم..

✷ ✷ ✷

ماجي تهمس في أذني

- «نم يا صغيري.. نم.. لا أريدك أن تتألم أكثر من هذا.. اتل الشهادتين. أنت أخبرتني أن المسلمين يفعلون ذلك.. هلمّ.. هلمّ.. اتل الشهادتين واضغط على أصابعي جيدًا. أعرف أنك تتألم والألم قد تفوق على المورفين.. تفوق على البتيدين... نم.. لن أكون فتاة شريرة أنانية. يُمكنك أن تتركني إذا كان هذا سيريحك...»

اضغط على أناملي جيدًا.. هذا يريحك.. أليس كذلك؟

مررت يدها على بطني وخطر لها أنها لا تشعر بالكتاب الذي لا أفارقه أبدًا، لكن من يهتم؟ فليذهب الكتاب إلى الجحيم...

✷ ✷ ✷

أناملها تريحني..

وأنا أحاول أن أجد مخرجًا من هذه الورطة...

فجأة اهتزّ المكان وبدأت الصخور تنهمر من أعلى.. هل هو زلزال؟ هل هو ديناصور يطأ المقبرة؟

ثم رأيت هذا الشيء العملاق المخيف ينتصب أمامي.. كان أقرب لكائن بشري ضخم. ضخم ترتفع قامته أربعة أمتار.. لا أرى ملامحه بوضوح لكني أدرك أن شعره ثائر منتفش ولحيته استطالت إلى الأرض.. بخار الكبريت يتصاعد من منخريه رائحة أنفاسه مقيتة خانقة..

كان له ذلك الصوت الثلاثي أو الرباعي الذي تتكلم به الشياطين في أفلام الرعب.. لكن هذا كله كان حقيقيًا...

عرفت الإجابة على الفور.. أنت كاتيوم..

كاتيوم الساحر المفزع الخارق الذي سجن جيلبرت في ذلك الكهف.. سجنه لأنّه أهانه.. لقد وجدنا وعرف ما يجري هنا..

- «كاتيوم..»

قال بالألمانية العتيقة، والتي صرت أفهمها فجأة:

- «الكتاب!»

لا أحد يقدر على انتزاع الكتاب مني دون إرادتي.. هذه قاعدة لا تفشل.. هذا يعطيني قوة لا بأس بها..

حاولت أن أقف في ثبات وقلت:

- «كاتيوم.. الأسطورة تقول إنك رجل عادل سيكون الكتاب في أمان معك، بينما لو أخذه لوسيفر أو جيلبرت أو أي وغد آخر فهي الكارثة ونهاية الجنس البشري ليبق الكتاب معك وليبق جلبرت في محبسه..»

ثم ابتلعت ريقي وقلت:

- «شرطي هو أن يتحرر ابني.. هنا والآن.. أرسله إلى حيث يستحق.. إلى الأرض ليصير بشريًّا كباقي البشر، أو اقتله ليتوفاه الله.. فقط حرره من هذا الجحيم. ودعني أؤكد لك أنك لن تمس الكتاب قبل أن أعرف أنك حررته...»

ساد الصمت، فهو لم يعتد هذا التحدي..

بعد قليل قال بصوت عميق:

- «هذا مطلب عادل لكنك لا تعرف ثمن أن تتخلى عن هذا الكتاب لي. سوف ينغلق عليك هذا القبر وتكون نهايتك إنّه الموت. فهل تقبل؟»

- «أقبل...»

رفع رأسه للسماء وصاح بعدة كلمات.. كلمات قوطية طبعًا لا أفهمها..

بدأت عواصف ونيران خضراء تتفجر في كل مكان.. الكهف يميد تحت أقدامنا... وطاويط حمراء تحلّق.. الأرض مد من الفئران المشعثة تجري كأنها أمواج بحر..

وسمعت صوت سمير الذي صرت أعرفه جيدًا:

- «أبي.. أنا تحررت!!... أبي!... أنا تحررت!... هلمّ تعال لي.. عد معي!»

سمعت هذا الصوت فابتسمت.. لقد فات الأوان....

لم أعد أرى سوى يد عملاقة مخلبية تمتد لي كأنها تطلب ثمنًا ما.. يد بحجم الكهف كله..

انتزعت الكتاب من على خصري ووضعته في اليد....

- «موتًا تموت!... موتًا تموت!»

- «موتًا تموت!... موتًا تموت!»

- «موتًا تموت!... موتًا تموت!»

- «موتًا تموت!... موتًا تموت!»

- «موتًا تموت!... موتًا تموت!»

✷ ✷ ✷

في وقت رحيلي هذا، ادعوا لي يا رفاقي! إن السماء تشع بالفجر ودربي جميل يرقد أمامي.

لا تسألوا ما الذي هو لديَّ لآخذه إلى هناك. إنني أبدأ رحلتي بيدين خاويتين وقلب يرتجي.

لسوف أرتدي حلة عرسي، إن ردائي ليس هو بالأحمر الذي يرتديه المسافر، ورغم أنّ هنالك أخطارًا في الطريق فلا خوف في رأسي.

إن نجمة المساء سوف تبزغ عندما تتم رحلتي، وألحان المغيب سوف تنطلق من بوابة ملكي.

طاغور

✷ ✷ ✷

أتلو الشهادتين..

وماجي تهمس في أذني:

- «للأبد؟»

- «ماذا؟»

- «هل ستزور أحلامي للأبد؟»

- «وحتّى تحترق النجوم.. وحتّى تأتي لي هناك.. آنذاك عديني أن تكوني لي... سوف نظل معًا للأبد لا يفرقنا شيء... هيا.. لا تضعفي... عديني.. عدي.....»

في الساعة الثالثة صباح يوم الثلاثاء 8 أغسطس توقف قلب الدكتور رفعت إسماعيل عن الخفقان. لقد رحل الشيخ الذي اعتبره البعض نصابًا واعتبره البعض مخبولًا واعتبره البعض خبيرًا في الماورائيات. وجدنا بعض المذكرات المتناثرة التي كتبها في أيامه الأخيرة ويبدو أنّ بعض هذه قصص لم يحكها قط. سوف نحاول أن نقدم لك بعضها من حين لآخر في أعداد خاصة.

الفهرس

(م) محـادثـة

- 1 -

(أ) البيــت

- 1 -

- 2 -

(ع) علاج غامض

- 1 -

(ي) يوهانا في حيرة

- 1 -

- 2 -

- 3 -

(ل) لقـــاء

- 1 -

(ي) يــوم خـاص

- 1 -

- 2 -

(م) مـن أجـله

- 1 -

(و) ويلما قد ماتت

- 1 -

- 2 -

- 3 -

(ت) ترنيـمـة

- 1 -

(!!)

- 1 -

- 2 -